بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

دار ابن حزم

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قرآن كريم،

« ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه » حديث صحيح

المجلد الأول

كتاب العلم، والاعتصام بالكتاب والسنة، والإيمان، والإسلام والقدر، والطهارة، والصلاة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإيمان والإسلام، وجعلنا بفضله وإحسانه من أمة خير الأنام، والصلاة والسلام الأتمّان على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الميامين، ورضي الله تعالى عن صحابته الأكرمين، ومن اهتدى بهداهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب أسميته **«بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول»** وهو كتاب جامع ملخص يشتمل على سلسلة تجمع الحديث النبوي الشريف الصحيح مع شرح موجز له عقب كل حديث من غير إملال ولا إخلال وضعته بالأصالة تذكرة لي، ثم إفادة للقاصرين والمتكاسلين الذين ليس لهم من الوقت ما يساعدهم على قراءة المطولات، ولا لهم أهلية تمكنهم من التعرف على صحيح الحديث من ضعيفه، انتقيتها من الأمهات والأصول المشهورة المعتمدة التي جمعت أصول الحديث النبوي والسنة المطهرة، ولم يعزب عنها منه شيء إلا ما كان من المكررات وتعدد الطرق والأسانيد أو كان من الغرائب المهجورة الغير محتج بها والمعمول بمقتضاها لضعفها وسقوطها. واقتصرت على لب ما فيها من صحاح وحسان مرتبة على الكتب والأبواب، وفيها كل أقسام الحديث النبوي المقبول من متواتر لفظي ومعنوي، وآحاد: مشهوره وعزيزه وغريبه، صحيحه وحسنه بأقسامهما، ولم أودع فيه حديثاً اتفق المحدثون

على ضعفه. وفي الكتاب بفضل الله وتوفيقه جمهرة واسعة زائدة على الصحيحين تعد بالألوف، إذ البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى وإن جمعا في كتابيهما العظيمين ألوفاً من الصحاح، فإنهما لم يقصدا الاستيعاب كما هو معلوم، فقد فاتهما أكثر مما ذكرا، ولذا توجد أحاديث كثيرة صحيحة على شرط الصحيح أو على شرطهما أو شرط أحدهما خارج صحيحيهما في الصحاح الأخرى والجوامع والسنن والمسانيد... التي ألفت قبلهما وبعدهما...

والأمهات التي جعلتها مصدراً للكتاب هي الآتية:

الموطأ، البخاري، مسلم، سنن أبي داود، النسائي، الترمذي، ابن ماجه، الدارمي، البيهقي، مسانيد: الطيالسي، أحمد، الحميدي، أبي يعلى، البزار، مصنف ابن أبي شيبة، مصنف عبدالرزاق، صحيح ابن خزيمة، صحيح ابن حبان، مستدرك الحاكم، معاجم الطبراني الثلاثة وغيرها مما سيرى القارىء العزو إليها...

مقدمة تمهيدية

قبل الشروع في الموضوع نذكر أموراً تمهيدية لها تعلق بالكتاب، وتتمثل في المحاور الآتية:

أولاً ـ مفهوم الوحي الإلَهي:

إن الوحي الإلٰهي الذي أنزله الله عزّ وجلّ على نبيه ﷺ بأنواعه المعروفة وأمره بتبليغه إلى أمته ينقسم إلى قسمين:

الأول: القرآن الكريم، وهو كلام الله المقدس المتعبد بتلاوته المعجز بأقصر سورة منه، المحفوظ في الصدور المقروء والمسموع والمكتوب في المصاحف وهو قطعي الثبوت، فقد وصل إلينا متواتراً مجزوماً مقطوعاً به بسوره وآياته، وكلماته، وحروفه، فمن أنكره أو أنكر شيئاً منه، أو أنكر حكماً، أو خبراً جاء فيه لم يكن من المسلمين..

وقد تلقاه الصحابة مشافهة عن النبي ﷺ وحفظوه وكتبوه ثم دوّنوه...

القسم الثاني: السنة، ولها إطلاقات، فتطلق في اللغة على مجرد الطريقة سواء أكانت محمودة أو مذمومة.

وتطلق عند الأصوليين والمحدثين على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وزاد بعضهم صفاته وشمائله.

وتطلق عند الفقهاء على ما زاد على الفرائض مع تفاصيل لهم في ذلك. وتطلق على ما يقابل «البدعة» بمعناها الأعم مخالفة للقرآن أو للسنة أو للإجماع.

وقد تلقى الصحابة رضي الله تعالى عنهم من النبي ﷺ هذا القسم كالأول وحدّثوا به وبلغوه لمن بعدهم امتثالاً لقوله ﷺ: «**ليبلغ منكم الشاهد الغائب**»، وعملاً بقوله ﷺ: «**نَضّر اللّهُ امرءاً سَمع مقالتي فوعَاها فأدّاها كما سمِعَهَا**» الحديث، وقوله: «**تَسْمَعُون ويُسْمَعُ منكم ويُسْمَعُ ممّن يَسْمَعُ منكم**».. وسيأتي تخريجها. وهذا القسم فيه ما هو قطعي الثبوت أيضاً كثير مما نقل من أقواله وأفعاله ﷺ وماجاء من المتواتر بقسميه اللفظي والمعنوي، ومنه ما هو ظني الثبوت كأخبار الآحاد من مشهور وعزيز وغريب.. والكل معمول به إن توفرت شروط صحته المقررة عند العلماء..

ثانياً ـ السنة لم تدون أوائل الإسلام:

قد علم أن القرآن الكريم كان يكتب أيام النبوة.

ثم جمع أيام الصديق رضي الله تعالى عنه في مصاحف غير مرتب، ولما كانت أيام خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه جمعه منظماً مرتباً على ما هو عليه الآن...

أما الحديث النبوي لم يدون أيام النبوة ولا بعدها بقليل، بل قد صحّ النهي من النبي ﷺ عن كتابة غير القرآن في بادىء الأمر حيث قال: «**لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه**» رواه مسلم وغيره..

لكن الأمر تغير بعد ذلك، فقد صحّ الإذن في كتابة غير القرآن..

ففي صحيح البخاري وغيره، أن النبي ﷺ قال: **«اكتبوا لأبي شاة»** يعني خطبته عند فتح مكة.

وفي صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: **ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب.** وفي الموضوع غير ما ذكرنا سيأتي في كتاب العلم.

ثالثاً ـ بداية التدوين للحديث:

بقي الأمر على ما كان عليه أيام النبوة من تحمل الصحابة ما سمعوه من رسول الله ﷺ من الحديث النبوي وما شاهدوه من أفعاله وتقريراته لكن أحداً منهم لم يكتب شيئاً من ذلك إلا كتاب الصدقة عند أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وما كان في صحيفة الإمام علي عليه السلام، وما كتبه عبدالله بن عمرو. ثم لما فتحت الأقطار وانتشر الصحابة في الأقاليم والأمصار وتفرقوا للجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله واتسعت المملكة الإسلامية وأصبح الحديث النبوي مفرقاً في الأقاليم حسب ما بثه الصحابة في الداخلين في الإسلام خيف عليه الضياع بموت أهله وفي ذلك ضياع لأكثرية الشريعة.. فقيض الله عزّ وجلّ من يحرك في الأمة فكرة تدوينه وجمعه إتماماً لحفظ الذكر الموعود بحفظه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾.

فإن حفظ السنة حفظ للقرآن لما يأتي إن شاء الله تعالى.

رابعاً ـ أول من فكر في جمع الحديث وتدوينه وأول من كتب في ذلك:

فعلى رأس المائة الأولى للهجرة أيام خلافة الخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه ألهمه الله تعالى فكتب إلى أبي بكر بن

محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري وكان عامله على المدينة المنورة: **انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء**. رواه البخاري في كتاب العلم من صحيحه. فنفذ أبو بكر ما أمره به الخليفة فجمع ما كان لديه وما كان عند من يعرفهم من علماء المدينة وغيرهم.

وكما أمر أبا بكر بذلك أمر ابن شهاب الزهري الذي كان أحد أكابر حملة العلم والحديث في ذلك العصر. فقد أخرج ابن عبدالبر في كتاب العلم [٧٦/١] عن ابن شهاب قال: **أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً**. وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى أهل الآفاق: **انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه**. وفي رواية عند الخطيب في «تقييد العلم» أنه كتب بذلك إلى أهل المدينة. وأخرج ابن عبدالبر [٧٦/١] من طريق محمد بن الحسن عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال: **أول من دوّن العلم ابن شهاب**..

فكانت هذه أول لبنة وضعت لتدوين الحديث النبوي الشريف، نعم! كان عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣/٩٢ وإبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥، ووهب بن منبه المتوفى ١١٠ قد كتبوا في مغازي رسول الله ﷺ في ذلك العصر..

ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية من أهل المائة الثانية فشاع بينهم التدوين. فكان منهم بمكة المكرمة ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠، وابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١، وبالمدينة المنورة ابن أبي عروبة المتوفى ١٥٦، والربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠، والإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩، وبالبصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٧، وبالكوفة سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١، وبالشام أبو عمرو الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧، وبخراسان عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١، وباليمن معمر المتوفى سنة ١٥٤، وبمصر فقيهها الإمام الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وأثابهم.

وكان هؤلاء في عصر واحد ولا يدرى أيهم الأسبق في ذلك. وكانت طريقتهم جمع حديث رسول الله ﷺ مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاواهم بدون تنظيم كامل..

ثم جاء القرن الثالث مع ما قبله بقليل، فكان ذلك العصر أزهى عصور السُّنَّة وأسعدها بأئمة الحديث ومؤلفاتهم العظيمة فتابعوا المسيرة في التدوين وتفننوا في الوضع والتخطيط فكتبوا المسانيد والصحاح والسنن والمعاجم والتواريخ والأجزاء والفوائد...

فكان من الأولين: أبو داود الطيالسي المتوفى سنة ٢٠٤ ويقال: إنه أول من ألَّف المسند، وعبدالله الحميدي المتوفى سنة ٢١٩، وأسد السنة المتوفى سنة ٢١٢، ومُسَدَّد بن مُسرْهَد المتوفى سنة ٢٢٨، وأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ومسنده أكبر المسانيد وأعظمها، وعبد بن حُمَيْد الكشي المتوفى سنة ٢٤٩، وبَقِي بن مخْلَد المتوفى سنة ٢٧٦ ومسنده أوسع المسانيد وأوعبها لم يؤلف مثله، فهو أكبر من مسند الإمام أحمد، وعثمان الدارمي المتوفى سنة ٢٨٠، والبزار المتوفى سنة ٢٩٢، والروياني المتوفى سنة ٣٠٧، وأبي يعلى المتوفى سنة ٣٠٧، وهم كثرة جداً.

وكان من أهل «الصحاح» الإمام البخاري المتوفى سنة ٢٥٦، ومسلم المتوفى سنة ٢٦١، وابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١، وابن حبان المتوفى سنة ٣٥٤، والحاكم أبو عبدالله المتوفى سنة ٤٠٥ وفي آخرين، ومنها «المستخرجات» على الصحيحين لأبي عوانة المتوفى سنة ٣١٦، والإسماعيلي المتوفى سنة ٣٧١، وأبي نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ وفي آخرين.

وكان من أهل «السنن»: السُّنَنُ الأربعُ لأبي داود المتوفى سنة ٢٧٥، والترمذي المتوفى سنة ٢٧٥، والنسائي المتوفى سنة ٣٠٣، وابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥، ثم سنن الدارمي المتوفى سنة ٢٥٥ وهي أقدمها فهذه أشهر الأصول وأكثرها تداولاً.

وبهؤلاء الأئمة تم تدوين الحديث النبوي الشريف ولم يشذ عنهم إلا

القليل، ثم جاءت طبقة رابعة وخامسة فاستدركوا على هؤلاء وزادوا عليهم طرقاً وبعض ما فاتهم من أحاديث فكان منهم الحاكم أبو عبدالله صاحب «المستدرك»، والبيهقي صاحب «السنن الكبرى» وغيرها المتوفى سنة ٤٥٨، وابن عبدالبر صاحب «التمهيد» وغيره المتوفى سنة ٤٦٣، والخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ وآخرين.

وهكذا تابع أئمة الحديث تدوين السنة وعلومها حتى أصبحت المكتبة الإسلامية تزخر بآلاف المجلدات في الحديث النبوي الشريف.

غير أن من جمع ودوَّن الحديث من المتقدمين كان قصدهم هو جمع الحديث النبوي وحفظه من الضياع فكانوا في الغالب لا ينتقون ما يكتبون فجاءت كتبهم مزيجاً من الصحيح والضعيف.

خامساً ـ من ألف في الصحيح على حدة:

كان الإمام سيدي محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله تعالى عنه أول من أفرد الحديث الصحيح على حدة فجمع كتابه العظيم «الجامع الصحيح»، فأورد فيه ألوفاً من الصحاح التي صحت عنده على طريقة أهل الحديث المتقنين ثم تلاه تلميذه الإمام مسلم بن الحجاج، وسار على دربه مع تساهل، فكان هذان الكتابان أصح الصحيح بعد كتاب الله الكريم وأجمعت الأمة على تلقي ما فيهما... إلا ما انتقد عليهما وتلاهما إمام الأئمة محمد بن خزيمة وتلميذه ابن حبان البستي ثم تلميذ هذا: الحاكم أبو عبدالله في «مستدركه» على الصحيحين على تساهل من هؤلاء الثلاثة، وألف ابن الجارود «المنتقى» من الأحكام وجاء المقدسي فألف «المختارة مما ليس في الصحيحين» على تساهل منه أيضاً... فهذه أشهر المؤلفات المفردة في الصحيح. وأما السنن وإن كانت من الأصول المشهورة المعتمدة فإنها ليست خاصة بالصحيح بل فيها الصحيح والحسن والضعيف بأقسامه وأنظفها سنن النسائي والدارمي.

سادساً ـ المختصرات في الحديث النبوي:

ولما تقدمت الأجيال وضعفت الهمم عن قراءة أمهات السنة وأصولها

بأسانيدها ومتونها ومكرراتها، وأصاب الناس الملَلُ، وسرى فيهم الجهلُ بهذا العلم الشريف: قام رجال مخلصون ناصحون بتقريب كتب السنة لعامة الناس بتلخيصها وتهذيبها. جزاهم الله تعالى وأجزل ثوابهم.

بيد أنهم رغم ما أسدوه للمسلمين عامة، ولأهل العلم القاصرين خاصة، من خير كبير ونفع عميم فإنه قد فاتهم ما هو الأهم وهو الاختصار والاقتصار على ما صح وثبت.

ومن أجمع وأوعب ما جمع من هذه الملخصات الكتب الآتية:

أولاً: «جمع الجوامع» للحافظ السيوطي المتوفى سنة ٩١١ الذي جمع فيه ما قرأه ووقف عليه من الأحاديث وهي لا تبلغ خمسين ألف حديث خلاف ما يشاع أن فيه ثمانين ألف حديث، رغم أنه لخص فيه كل الأصول المشهورة وغيرها مما ذكره في مقدمة الكتاب ثم اختصر منه «الجامع الصغير» وهو نحو عشرة آلاف حديث، ثم اختصر منه ثانية زيادته وهو نحو أربعة آلاف حديث.

وهذه الكتب الثلاثة تعتبر من المصادر الحديثية الغزيرة غير أنها مليئة بالموضوع والواهي والمنكر فضلاً عن مطلق الضعيف وفيها الصحيح والحسن بكثرة.

ثانياً: «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» للمتقي الهندي المتوفى بمكة المكرمة سنة ٩٧٥ رتب فيه «الجامع الكبير» للسيوطي على الكتب والأبواب بدل الحروف ثم رتب الكتب على حروف المعجم ثم اختصره بكتاب سماه «منتخب كنز العمال» ذكر فيه ثلاثين ألف حديث وهو أنظف من أصله.

ثالثاً: «جامع الأصول» لأبي السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦ الذي جمع فيه الكتب الستة الموطأ والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي، وعقب المتون بشرح غريبها وهو مرتب على الكتب والأبواب، ثم رتب الكتب على الحروف وهو من المهمات وقد احتوى على نيف وعشرين وخمسمائة وتسعة آلاف حديث وفيه كثير من الضعيف.

رابعاً: «مشكاة المصابيح» لولي الله محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي المتوفى بعد سنة ٧٣٧ وأصله للإمام البغوي الآتي الذي ألف «مصابيح السنة» لخصه من الصحيحين والسنن وقسمه إلى صحاح وحسان بدون عزو ولا بيان لرتبة الحديث بل عمم، فكان ذلك مثاراً لانتقاد العلماء وجاء التبريزي فخرج أحاديث الكتاب وعزاها لأصولها وزاد على الأصل فصلاً ثالثاً استدرك فيه على البغوي أكثر من ألف وخمسمائة حديث وبين بعض أوهامه. رحم الله الجميع. والكتاب نافع قيم على ما فيه من ضعيف أيضاً.

خامساً: «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» لنور الدين الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧ جمع فيه الأحاديث الزائدة على الكتب الستة الموجودة في مسانيد أحمد بن حنبل وأبي يعلى والبزار والمعاجم الثلاثة للطبراني، بالاقتصار على المتون مع ذكر رواتها من الصحابة، وتكلم عليها جرحاً وتعديلاً وصحة وضعفاً. فجاء كتاباً حافلاً في عشر مجلدات يشتمل على ١٨٧٧٥ ألف حديث. وهو مهم جداً لا يستغني عنه طالب حديث، وفيه كثير من الصحاح والحسان.

سادساً: وهو من أجمعها وأخصرها وأنظفها في الجملة «شرح السنة» للإمام محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة ٥١٦، جمعه من الأمهات المشهورة بأسانيده وعقَّب كل حديث... بما يناسبه من الشرح والتحليل وذكر مذاهب العلماء. وهو وإن ذكر في خطبة الكتاب أنه صانه عما أعرض عنه العلماء من المقلوب والموضوع والمجهول واتفقوا على تركه، فقد ذكر أحاديث ضعيفة لا تقوم بمثلها الحجة كالكتب السابقة كلها. وهو مع ذلك قد فاته الشيء الكثير من الصحاح والحسان. والكمال لله وحده.

وهناك جوامع أخرى أعرضنا عن ذكرها اختصاراً فجزى الله تعالى علماءنا وأثابهم على خدمتهم لهذا الدين الشريف، وجمعنا وإياهم مع نبينا ﷺ في جملة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

سابعاً ـ موقع السنة من التشريع:

والسنة النبوية بأقسامها هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فرتبتها

تأتي بعد القرآن لأنها وحي من الله تعالى لا غنى لنا معشر المسلمين عنها لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. ولقوله ﷺ الآتي في العلم: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**» والذي أوتيه مع القرآن هو سنته المطهرة، وهي تتنوع في الدلالة على ثلاثة أنواع:

أولاً: ما كان منها مؤيداً للقرآن وموافقاً له جملةً وتفصيلاً وهو كثير.

ثانياً: ما كان منها مبيناً للقرآن الكريم كتخصيص عام مثلاً وتقييد مطلق وبيان مبهم وتفصيل مجمل وغير ذلك، وهذا النوع هو أكثر السنة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ إلخ، فالنبي ﷺ هو المبين للقرآن بأقواله وأفعاله...

ثالثاً: ما كان زائداً على القرآن من أحكام وأخلاق وأخبار.. وهي أشياء جاءت في السنة مستقلة لم يذكر شيء منها في القرآن. وذلك كثير أيضاً وكل هذه الأنواع مقبولٌ معمول به، ووحيٌ من الله عزّ وجلّ.

ثامناً ـ وجوب العمل بالسنة النبوية وإن طاعة رسول الله كطاعة الله عزّ وجلّ:

أجمع المسلمون على وجوب طاعة رسول الله ﷺ واتباعه والاقتداء به في هديه وسنته وأن طاعته طاعة لله...

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، في آيات كثيرة مشهورة.

وقد جعل تعالى علامة محبته عزّ وجلّ اتباع رسوله ﷺ فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وأوعد تعالى بالعذاب والفتنة من خالف أمره عليه الصلاة والسلام فقال عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بل نفى تعالى الإيمان عمن لم يرض بحكمه ﷺ ولم يسلم له الأمر فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وفي السنة المشرفة أحاديث كثيرة جاءت بالأمر باتباعه ﷺ والتمسك بسنته، سيأتي لها فصل خاص في كتاب الاعتصام.

من أشهرها قوله ﷺ: «**عليكم بسُنَّتي**» الحديث رواه أهل السنن وغيرهم، وقوله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**» وهو في الصحيح.

ولذلك كان من لوازم المسلمين إذا تنازعوا في شيء ما من أمور الشرع رجعوا في ذلك إلى القرآن والسنة كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، والرد إلى الله: إلى كتابه وإلى الرسول: إلى سنته.

وقد أجمع الصحابة والتابعون وكل الأئمة ورجال السلف أنه لا قول لأحد مع سنة النبي ﷺ مهما كان قدره وبلغ علمه.

ومن أراد الوقوف على نصوص العلماء والأئمة في ذلك والتنفير من خلافه، فعليه بالرجوع إلى «كتاب العلم» لابن عبدالبر، و«أعلام الموقعين» لابن القيم، و«إيقاظ الهمم» للعلامة صالح الفلاني، وأوائل «الميزان» للعارف الشعراني، وكتاب «الصوارم والأسنة» في الذب عن السنة للعلامة ابن أبي مدين الشنكيطي، و«القول المفيد» للشوكاني.

تاسعاً ـ مختارات من فضائل الاشتغال بالحديث النبوي الشريف ونشره والدعوة إليه:

وهذه مختارات تتعلق بفضائل الاشتغال بالحديث النبوي والدعوة إليه والعمل به ذكرناها ترغيباً للطالبين، وحضاً للدارسين على الاستمرار في طلب الحديث والعكوف على قراءة كتبه والعمل بما صح منه، ليحظوا

بالكون مع الحبيب المصطفى ﷺ والحشر معه في زمرة آله وأصحابه ومحبيه والمتقين من خيار أمته، ويتضح ما ذكرناه في الآتي:

أولاً: إكرام أهل الحديث بالنضارة والبهجة في الدنيا والآخرة لدعاء النبي ﷺ لهم بذلك حيث قال: «**نضَّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه**» الحديث. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم بسند صحيح ويأتي في العلم. قال البغوي والخطابي وابن الأثير: معناه الدعاء له بالنضارة والبهجة والنعمة والحسن: أي زيَّن الله وجهه وبهَّجه..

ثانياً: أنهم أولى الناس وأحقهم برسول الله ﷺ يوم القيامة بكثرة صلاتهم عليه ﷺ في سماعهم وإسماعهم وقراءتهم وكتاباتهم وفي جميع شؤونهم. وقد قال ﷺ: «**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة**» رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما، ويأتي في الدعوات. قال ابن حبان في صحيحه [١٩٣/٣] تحت هذا الحديث: في هذا الخبر دليل على أن أولى الناس برسول الله ﷺ في القيامة يكون أصحاب الحديث إذ ليس من هذه الأمة قوم أكثر صلاةً عليه ﷺ منهم.

وقال الحافظ أبو نعيم: وهذه منقبة شريفة يختص بها رواة الآثار ونقلتها لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله ﷺ أكثر مما يعرف لهذه العصابة نسخاً وذكراً. ذكره الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» [٣٥]، وقال الحافظ السخاوي في «القول البديع» [٢٥٠]: فاعلم أنه كما تصلي عليه بلسانك فكذلك خط الصلاة عليه ببنانك مهما كتبت اسمه الشريف في كتاب، فإن لك به أعظم الثواب، وهذه فضيلة يفوز بها أتباع الآثار، ورواة الأخبار، وحملة السنة؛ فيا لها من منة إلخ.

ثالثاً: ذكر العلماء كابن المبارك، والإمام أحمد، وابن المديني، والبخاري، والترمذي وغيرهم في الحديث المتواتر. «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**» قالوا: المراد بالطائفة هنا أهل الحديث النبوي.

رابعاً: ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه في الباب الثالث عشر وثلاثمائة من «الفتوحات المكية» [٦٥/٣] الطبعة الأميرية ما نصه: وللورثة حظ من الرسالة، ولذا قيل في معاذ وغيره رسولُ رسولِ الله ﷺ: وما فاز بهذه الرتبة ويحشر يوم القيامة مع الرسل إلا المحدثون الذين يروون الأحاديث بالأسانيد المتصلة بالرسول ﷺ في كل أمة، فلهم حظ في الرسالة، وهم نقلة الوحي، وهم ورثة الأنبياء في التبليغ، والفقهاء إذا لم يكن لهم نصيب في رواية الحديث فليست لهم هذه الدرجة ولا يحشرون مع الرسل، بل يحشرون في عامة الناس، ولا يطلق اسم العلماء إلا على أهل الحديث وهم الأئمة على الحقيقة، وكذلك الزهاد والعباد وأهل الآخرة، ومن لم يكن من أهل الحديث منهم كان حكمه حكم الفقهاء، لا يتميزون في الورثة ولا يحشرون مع الرسل، بل يحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير، كما أن الفقهاء أهل الاجتهاد يتميزون بعلمهم عن العامة. انتهى كلام ابن العربي.

خامساً: ما رؤي لأهل الحديث من كثرة المرائي والبشارات، فمن ذلك ما جاء في ترجمة الحافظ أبي زرعة الرازي: أن أبا العباس المرادي قال: رأيت أبا زرعة في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت ربي فقال لي: يا أبا زرعة! إني أُوتَى بالطفل فآمر به إلى الجنة فكيف بمن حفظ السنن على عبادي؟! تبوأ من الجنة حيث شئت.

وعن حفص بن عبدالله قال: رأيت أبا زرعة في النوم بعد موته يصلي في سماء الدنيا بالملائكة قلت: بما نلت هذا؟ قال: كتبت بيدي ألف ألف حديث أقول فيها عن النبي ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً».

وقال الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: سمعت حوثرة بن محمد المنقري البصري يقول: رأيت يزيد بن هارون الواسطي في المنام بعد موته بأربع ليال، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تقبل الله مني الحسنات

وتجاوز عن السيئات، ووهب لي التبعات، قلت: وما كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكون من الكريم إلا الكرم، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة. قلت: بما نلت الذي نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقول الحق، وصدقي في الحديث، وطول قيامي في الصلاة، وصبري على الفقر، قلت: ومنكر ونكير حق؟ قال: إي والله الذي لا إلّه إلا هو لقد أقعداني وسألاني فقالا لي: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب فقلت: مثلي يُسأل! أنا يزيد بن هارون الواسطي وكنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس، قال أحدهما: صدق، هو يزيد بن هارون، نم نومة العروس فلا روعة عليك بعد اليوم.

وفي «تذكرة الحفاظ» للذهبي أن الحافظ أحمد بن موسى الجرجاني رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكثرة كتبي الحديث والصلاة على النبي ﷺ...

وفي ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي قال أحمد بن محمد بن عبدالغني: رأيت الكمال عبدالرحيم في النوم فقلت: أين أنت؟ فقال: في جنة عدن، فقلت: أيما أفضل الحافظ عبدالغني أو الشيخ أبو عمر؟ فقال: ما أدري! أما الحافظ فكل ليلة جمعة ينصب له كرسي تحت العرش يقرأ عليه الحديث وينشر عليه الدُّرُّ، وهذا نصيبي منه، وأشار إلى كمه...

وفي «فهرست» أبي عبدالله القصار قال محمد بن عبدالعظيم المنذري لرائيه في المنام: دخلنا الجنة وقبّلنا يد رسول الله ﷺ وقال: **«أبشروا! كُلُّ من كتب بيده قال رسول الله ﷺ فهو معه في الجنة»**، ذكره الإمام محمد بن جعفر الكتاني في «نظم المتناثر» والمرائي بذلك كثيرة، ذكرت جملة منها في «المبشرات المنامية» وفقنا الله لترتيبها وطبعها.

ولنختم هذه البشارات بما قاله الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» حول الترغيب في الاشتغال بالحديث النبوي والاكتفاء به عن غيره من الآراء.

فقال [ص ٨٧]: لو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم، وطلب سنن رسول رب العالمين ﷺ، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه.

قال: لأن الحديث يشتمل على معرفة أصول التوحيد وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين، والأخبار عن صفات الجنة والنار وما أعد الله تعالى فيهما للمتقين والفجار، وما خلق الله في الأرضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات، وذكر الملائكة المقربين، ونعت العارفين والمسبحين. وفي الحديث فضل الأنبياء وأخبار الزهاد والأولياء وأقاصيص المتقدمين من الأمم، وشرح مغازي رسول الله ﷺ وسراياه، وجمل أحكامه وقضاياه وخطبه وعظاته، وأعلامه ومعجزاته، وعدة أزواجه وأولاده وأصهاره وأصحابه، وذكر فضائلهم ومآثرهم وشرح أخبارهم ومناقبهم، ومبلغ أعمارهم وبيان أنسابهم، وفيه تفسير القرآن العظيم وما فيه من النبأ والذكر الحكيم، وأقاويل الصحابة والأحكام المحفوظة عنهم، وتسمية من ذهب إلى قول كل واحد منهم من الأئمة والفقهاء المجتهدين، إلخ.

وأخرج غير واحد منهم ابن عبدالبر في «العلم» عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه قال:

دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ آثَارُ ... نِعْمَ الْمَطِيَّةُ لِلْفَتَى الأَخْبَارُ
لا تَعْدُ عَنْ عِلْمِ الحَدِيثِ وأَهْلِهِ ... فَالرَّأْيُ لَيْلٌ والحَدِيثُ نَهَارُ
وَلَرُبَّمَا جَهِلَ الفَتَى طُرُقَ الهُدَى ... والشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَهَا أَنْوَارُ

وقال الحافظ ابن طاهر السِّلَفي رحمه الله تعالى:

دِينُ النَّبِيِّ وَشَرْعُهُ أَخْبَارُهُ ... وَأَجَلُّ عِلْمٍ يُقْتَفَى آثَارُهُ
مَنْ كَانَ مُشْتَغِلاً بِهَا وبِنَشْرِهَا ... بَيْنَ البَرِيَّةِ لا عَفَتْ آثَارُهُ

وقال آخر:

العِلْمُ مِيرَاثُ النَّبِي كَذَا أَتَى ... فِي النَّصِّ والعُلَمَاءُ هُمْ وُرَّاثُهُ
مَا خَلَّفَ المُخْتَارُ غَيْرَ حَدِيثِه ... فِينَا فَذَاكَ مَتَاعُهُ وَأَثَاثُهُ

ولنكتف بما أوردناه وإن كان المقام يقتضي أكثر من هذا.

وهذا أوان الشروع في المقصود مستعيناً بالله تعالى لا إلّه إلا هو عليه توكلت، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

كتاب العلم

ما جاء في فضل العلم والحث على طلبه وفضل أهله والتوصية بهم

١ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مَثَل ما بَعثَنِي اللَّهُ به مِن الهُدَى والعِلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت مِنها طائفةٌ طَيِّبَةٌ، قبِلت الماءَ فأنبتت الكَلأَ والعُشب الكثيرَ، وكان منها أجادبُ، أمسَكَتِ الماءَ فنَفع الله بها الناس، فشربوا منها وسَقَوْا ورعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنما هي قِيعانٌ، لا تُمسِك ماءً، ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مثلُ من فقُه في دين الله عزّ وجلّ ونَفَعَه ما بعثني الله به، فَعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يَرفع بذلك رأساً، ولم يَقبَل هُدى الله الذي أُرْسِلْتُ به**».

[رواه أحمد (٤/٣٩٩)، والبخاري في العلم (١/١٨٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/٤٦، ٤٧)].

ش: قوله: «**غَيث**»: هو المطر. «**الكَلأ**» بفتحتين: هو النبات الرطب واليابس. «**والعُشب**» بضم العين وسكون الشين: النبات الرطب. «**أجادِب**»: جمع جدب بفتحتين، الأرض الصلبة. «**قيعان**» بكسر القاف: جمع قاع هي الأرض المستوية التي لا تُنبت شيئاً. «**فَقُه**» بضم القاف: إذا صار فقيهاً.. وهذا مَثَل عجيب ضربه النبي ﷺ لما جاء به من العلم والدين ومواقف

الناس إزاء ذلك. فقد قسمهم إلى أصناف ثلاثة: **الأول**: وهو أشرفهم: العالم العامل المُعَلِّم. **الثاني**: وهو يلي الأول، ويشاركه في الفضل والنفع وهو الجامع للعلم مع التعليم، لكنه مقصر في العمل. **الثالث**: وهو خسّ الأصناف الذي لا يقبل علماً، ولا تعليماً، ولا عملاً، فهو كالقاع من الأرض التي لا خير فيها إطلاقاً...

٢ز ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خيراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ..**».

[رواه أحمد رقم (٣٧٩١)، والترمذي في العلم، والدارمي رقم (٢٣١)، وحسنه الترمذي وصححه ومثله عن معاوية مطولاً، رواه البخاري في العلم (١/١٧٣، ١٧٤) وفي مواضع، ومسلم في الزكاة وفي الإمارة وسيأتي في الإيمان إن شاء الله تعالى].

ش: «**يفقهه**»: أي يُعَرفه ويُبَصره، والفقه الفهم، وفَقِه الرجل بكسر القاف إذا علم، وبضمه إذا صار فقيهاً، وتفقه إذا تعاطى ذلك، والمراد به هنا التفقه في أمور الديانة الإسلامية كلها، لا الفقه الاصطلاحي المعبر عنه بالعلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية.. والحديث نص في أن المتفقه في الدين قد أراد الله به خيراً. قال الحافظ في «الفتح» [١/١٧٤]: وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم.

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**خِيَارُكُم في الجَاهِلِيَّةِ خيارُكُم في الإسلامِ إذا فَقُهُوا..**».

[رواه الطيالسي رقم (٧١)، والدارمي (٢٣٩)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٧/١٩٨، ٢٢٥، ٢٢٨)، وفي المناقب (٧/٣٣٩، ٣٤٠)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٣٤ ـ ١٦/٧٨)، وفي البر والصلة (١٦/١٨٥)].

ش: «**خياركم**»: المراد بهم من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق كالكرم، والحلم، والعفة، والأمانة، متوقياً للظلم، والفجور، والسفاهة. «**فَقُهُوا**» بضم القاف أي صاروا فقهاء.

والحديث يدل على أن الناس وإن كانت أصولهم خيرة في الجاهلية، فإنهم يتفاوتون في الفضيلة في الإسلام حسب تفقههم في الدين وعدمه، وأن التفقه يزيد الشريف والنسيب رفعة وكمالاً، وفيه إشارة إلى أن الإسلام لا يتم لصاحبه إلا بالتفقه في الدين...

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إلى الجنَّةِ»**..

[رواه أحمد (٧٤٢١)، والدارمي (٣٥١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢١/١٧)، وأبو داود (٧٥/١٠) مع «عون المعبود»، والترمذي (٣٦٩/٣) مع «تحفة الأحوذي» كلاهما في العلم، ويأتي مطولاً في الرقائق إن شاء الله تعالى.. وهذه الفقرة تأتي قريباً في حديث لأبي الدرداء].

ش: **«يبتغي»**: أي يطلب ويلتمس، والحديث يدل على أن طلب العلم النافع لدين المسلم من موجبات الجنة. جعلنا الله تعالى من طُلَّابه إلى أن نلقاه.

٥ز ـ وعن زِرّ بن حُبَيْش رحمه الله تعالى قال: غَدوتُ إلى صفوانَ بن عَسَّال المُرَادِي أسألُه عن المسح على الخفين، فقال: ما جَاءَ بكَ؟ قلتُ: ابتغاءَ العِلم، قال: ألا أُبَشِّرُكَ؟ ورفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ رِضاً بِما يَطْلُبُ..»**.

[رواه أحمد (٢٣٩، ٢٤٠)، والطيالسي (٧٣)، والترمذي في الطهارة وفي الزهد وفي الدعوات (٢٦٩/٤)، والحاكم (١٠٠/١، ١٠١) وسنده حسن وهو صحيح لشاهده الآتي عن أبي الدرداء، وكذا حسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي وابن عبدالبر].

ش: **«زِرّ»** بكسر الزاي. و **«حُبَيْش»** بضم الحاء مصغراً، تابعي مخضرم. وقوله: **«رفع الحديث»** معناه نسبه إلى رسول الله ﷺ وهو لفظ معروف عند أهل الحديث يؤذن برفع الحديث إلى رسول الله ﷺ. وفي الحديث فضيلة هامة لطالب العلم حيث إن الملائكة تضع أجنحتها له، إكراماً واحتراماً، فكفاه بذلك شرفاً وفضلاً.

٦ز ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ ذِكْرَ اللَّهِ وما وَالاهُ، وعالِماً أو مُتَعَلِّماً..»**.

[رواه الترمذي (٣/٢٦٢)، وابن ماجه (٤١١٢) كلاهما في الزهد. وسنده حسن..].

ش: «الدنيا»: هي كل ما يشغل عن الله ويبعد العبد منه. واللعنة هي الإبعاد مطلقاً وتطلق على الطرد من رحمة الله. **«وما والاه»**: أي قاربه وجانسه من جميع التعاليم الدينية. وفي الحديث شرف العالم والمتعلم..

٧ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رجُلٍ أتاه اللَّهُ مالاً فسلَّطَهُ عَلى هَلَكتِهِ في حَقٍّ، وَرَجُلٍ أتاهُ اللَّهُ حكمةً فهو يقْضِي بها ويُعَلِّمُها»**.

[رواه أحمد (١/١٤٤)، والبخاري في العلم (١/١٨٦، ١٨٧) وفي الاعتصام، ومسلم في فضائل القرآن (٦/٩٧) ونحوه عن ابن عمر رواه الشيخان، وعن أبي هريرة رواه البخاري في فضائل القرآن، ويأتي].

ش: «لا حسد»: المراد به هنا الغبطة وليس تمني زوال النعمة عن صاحبها فإن هذا محرم بالإجماع. **«حكمة»**: الحكمة هنا علم القرآن والسنة النبوية. وفي القرآن الكريم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«إذَا مَاتَ الإنسانُ انْقطعَ عَمَلُه، إلا مِن ثَلاثَةٍ: صَدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتفَعُ بِهِ، أوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يدعُو لهُ..»**.

[رواه أحمد (٢/٣٧٢)، ومسلم في الوصايا (١١/٨٥)، وأبو داود رقم (٢٨٨٠)، والترمذي في الأحكام (٢/٢٩٨) وغيرهم. ونحوه عن أبي قتادة رواه ابن ماجه (٢٤١)، وابن حبان رقم (٨٤، ٨٥) بسند صحيح]..

ش: «انقطع عمله»: المراد بالعمل: الذي يثاب أو يعاقب عليه. وفيه فضيلة لهذه الأصناف. وأشرفهم وأفضلهم ذو العلم، لأن نفعه ديني روحي

لا سيما إذا دان علمه محفوظاً في كتاب وقد قدر له الانتشار والانتفاع به. والصدقة الجارية هي كالوقف والحبس ونحو ذلك مما يجري أجره على صاحبه دائماً..

٩ز ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه قال: مَرْحَباً بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كان رسولُ الله ﷺ يُوصِينَا بِكُم..

[رواه الطيالسي (٧٤)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٦٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٤٧، ٢٤٩)، والحاكم (١/٨٨) وصححه ووافقه الذهبي].

وله شاهد قوي عن أبي الدرداء كان إذا رأى طلبة العلم قال: مرحباً بطلبة العلم، إن رسول الله ﷺ أوصى بكم..

[رواه الدارمي (٣٥٤) ورجاله ثقات].

وفي الحديث استحباب إكرام طلبة العلم الديني، واحترامهم، والترحيب بهم. وفي ذلك فضل لهم أي فضل.

الرحلة في العلم

١٠ ـ عن عقبة ابن الحارث رضي الله تعالى عنه، أنه تَزوَّجَ ابْنَةً لأبي إهَاب بن عَزِيزٍ فأَتَتْهُ امرأةٌ فقالت: إني قد أرضَعْتُكُما، فقال لها عُقبةُ: ما أعلمُ أنكِ أرضعتِنِي ولا أخبرتِني، فَرَكِبَ إلى رسولِ الله ﷺ بالمدينة، فسأله، فقال رسول الله ﷺ: **«كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ»**، ففارقها عقبةُ، ونكَحَت زوجاً غيرَه.

[رواه البخاري في العلم (١/١٩٤، ١٩٥)، وفي النكاح، وفي الشهادات، وفي البيوع، وأبو داود في القضايا، والنسائي في النكاح، والترمذي في الرضاع (٢/٢٠٠) وغيرهم]..

ش: **«كيف وقد قيل»**: يعني كيف تبقى تحت عصمتك زوجةً لك وقد سمعت ما قيل بأنها أختك من الرضاعة، وحكم هذا يأتي في الشهادات... إن شاء الله تعالى. والحديث يدل على مشروعية الرحلة

لطلب العلم والسؤال عما يلزم المسلم في أمور دينه.

١١ز ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: بلغني عن رجل حديثٌ سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبدالله بن أُنَيْس فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، قال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته فقلت حديثاً بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمَعَه...

[رواه أحمد (٤٩٥/٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٩٧٠)، والحاكم (٤٣٧/٢، ٤٣٨، وذكره البخاري في العلم معلقاً، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (١٨٤/١) وذكر له طريقاً آخر وقال: إسناد صالح، وذكر عدة وقائع فيها رحلات جماعة من الصحابة والتابعين لطلب العلم. ولا خلاف في مشروعية ذلك. وكانت من سنة المحدثين في القديم ولهم في ذلك أخبار ومؤلفات وكلام عليها]...

فضل مجالس العلم

١٢ ـ عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه قال: بَيْنَما رسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجدِ والناسُ معه إذْ أقبلَ ثلاثةُ نَفَرٍ فأقبلَ اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ فوقفا على رسولِ الله ﷺ، فأما أحدُهما فرأى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفَهم، وأما الثالث فأدْبَرَ ذاهباً، فلما فَرَغَ رسولُ الله ﷺ قال: **«ألا أُخبِرُكم عن النَّفَرِ الثلاثةِ، أما أحدُهم فآوى إلى الله عزّ وجلّ فآواه اللَّهُ، وأما الآخر فاسْتَحْيَى، فاستحيى اللَّهُ منه، وأما الآخَرُ فأعْرَضَ، فأعرضَ اللَّهُ عنه»**..

[رواه البخاري في العلم (١٦٥/١، ١٦٦)، ومسلم والترمذي رقم (٢٥٣٨) كلاهما في الاستئذان، ورواه البخاري في المساجد، ومالك في باب جامع من الموطأ].

ش: «نَفَرٌ» بالتحريك، يقال للرجال من ثلاثة إلى عشرة. **«فُرْجَة»** بضم الفاء وفتح الجيم هي الخلل بين الشيئين. **«الحَلْقة»** هي بفتح الحاء وسكون

اللام، كل شيء مستدير خالي الوسط «فأوى» معناه لجأ إليه. «فآواه الله» أي جازاه بنظير فعله بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه. وفي الحديث الإرشاد إلى استعمال الأدب في مجالس العلم والذكر. وفيه مشروعية جلوس العلماء للإرشاد والتعليم وفيه فضل ملازمة حلقهم. وفيه ذم الإعراض عن المجالس العلمية وحلق الإيمان، وأن فاعل ذلك يعرض نفسه لإمساك رحمة الله تعالى عنه...

فضل العلماء وأنهم ورثة الأنبياء

١٣ز ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَلَك طريقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلماً، سَهَّل اللَّهُ له طريقاً إلى الجنةِ، وإن الملائكةَ لَتَضَعُ أجنِحَتَها لِطَالب العلم رِضاً بما يَصنَع، وإن العالم ليَسْتَغْفِرُ له من في السمواتِ ومن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالم على العابدِ كفضل القمرِ على سائر الكواكب، وإن العلماءَ ورثةُ الأنبياء، إن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحَظٍّ وافِرٍ**».

[رواه أحمد (٥/١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢)، والترمذي (٢٤٩٦) كلاهما في العلم، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٠) من طرق هو بها حسن ولأجزائه شواهد. وذكر البخاري بعضه معلقاً في العلم ضمن ترجمة. والحديث حسنه حمزة الكناني وابن القيم وصححه الحاكم. وقال الحافظ في الفتح (١/١٦٩): له شواهد يتقوى بها]..

ش: هذا حديث عظيم الشأن فيه فضائل لأهل العلم وحملته وحسبهم أن كل الخلائق تستغفر لهم، فكفاهم بذلك شرفاً وفضلاً، وأن أهل العلم بالكتاب والسنة هم ورثة النبي ﷺ دون من سواهم. ولله در القائل:

العِلْمُ مِيرَاثُ النبيِّ كَذا أتَى ... فِي النَّصِّ والعلماءُ هم وُرَّاثُهُ
مَا خَلَّفَ المُخْتَارُ غَيْرَ حَدِيثِهِ ... فِينَا فَذَاكَ مَتَاعُهُ وَأَثَاثُهُ

١٤ز ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ

رجلان أحدُهما عابدٌ والآخر عالمٌ. فقال رسول الله ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»**، ثم قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ وملائكته وأهلَ السمواتِ والأرضين حتَّى النَّملةَ في جحرِها وحتى الحوتَ ليُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخَيْرَ..»**.

[رواه الترمذي في العلم رقم (٢٤٩٩) بتهذيبي وقال: غريب صحيح. ورواه الدارمي (٣٤٧) عن الحسن مرسلاً قال: سئل رسول الله ﷺ عن رجلين كانا في بني إسرائيل أحدهما كان عالماً يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصومُ النهار ويقومُ الليل، أيُّهُمَا أفضلُ؟ قال رسول الله ﷺ: **«فضلُ هذا العالم الذي يُصلِّي المكتوبةَ، ثم يَجلِسُ فيعلمُ الناسَ الخيرَ، على العابد الذي يصَومُ النهار ويقومُ الليل، كفضلي على أدناكم رجلاً»**.. وسنده صحيح. وذكر الترمذي في العلم عن الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه: **«عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السموات»**].

ما جاء في شرف أهل الحديث والفقه في الدين

١٥ز ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِع مِنا شيئاً فبلَّغه كما سَمِعه، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى من سَامِعٍ..»**.

[رواه أحمد رقم (٤١٥٧)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٧٢) بتهذيبي، وابن ماجه رقم (٢٣٢)، وابن حبان (٧٤، ٧٥، ٧٦) بالموارد، وحسنه الترمذي وصححه. وآخرُهُ عند البخاري في العلم والحج..].

ش: «مُبَلَّغ» بفتح اللام المشددة. **«أوعى»**: أي أحفظ بل وأفقه كالحديث التالي.

١٦ز ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نَضَّرَ الله امْرأً سمع منا حديثاً فحَفِظَه حتى يُبَلِّغَه غيرَه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلَى مَن هو أفقهُ منه، ورُبَّ حامل فِقهٍ ليس بفَقِيهٍ»**.

[رواه أحمد (١٨٣/٥)، والدارمي (٢٣٥)، وأبو داود رقم (٣٦٦٠)، والترمذي رقم (٢٤٧١)، وابن حبان (٧٢) وسنده صحيح، وفي الباب عن جماعة حتى عد في المتواتر].

ش: «نضَّر الله»: هو كما قال البغوي والخطابي وابن الأثير وغيرهم: الدعاء له بالنضارة والبهجة والنعمة والحسن، أي زيَّن الله وجهه وبهجه، وفيه منقبة عظيمة لحفظة الحديث النبوي الشريف ومبلغيه، وفيه وفي الذي قبله الإشارة إلى التفقه فيه، والغوص على استخراج كنوزه، واستنباط فقهه وفوائده، وإن حامل الحديث قد يكون حافظاً له قليل الفقه أو فاقده، ويكون غيره ممن يبلغه حديثه أفقه وأحفظ منه...

وقد استنبط العلماء من الحديثين أن حامل الحديث يؤخذ عنه وإن كان جاهلاً بمعناه وهو مأجورٌ بتبليغه محسوب في زمرة العلماء. وأخذ علماء الحديث من حديثي الباب أيضاً المحافظة على الألفاظ النبوية عند أدائها، وعدم التصرف فيها وروايتها بالمعنى، وفي ذلك نزاع بينهم.

باب ما جاء في تبليغ العلم والحث عليه

١٧ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ يومَ النَّحرِ فذكر الحديث، ثم قال: **«اللَّهم اشْهَدْ، فلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائِبَ، فربَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى مِن سامِعٍ»** الحديث.

[رواه البخاري في العلم (١٦٧/١)، وفي الحج (٣٢٣/٥) وفي مواضع، ومسلم في الديات، والنسائي في الحج وفي العلم، ويأتي مطولاً في الحج إن شاء الله تعالى].

ش: «فليبلغ»: فيه وجوب تبليغ العلم ونشره وإفشائه. ولذا قال ربيعة رحمه الله تعالى: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه. ذكره البخاري في العلم من صحيحه.

١٨ز ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَسْمَعُونَ، ويُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُم»**.

[رواه أحمد (٢٩٤٧)، وأبو داود في العلم رقم (٣٦٥٩)، وابن حبان رقم (٧٧)،

والحاكم (٥٩/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم والذهبي. وَوَهِمَ من عزاه للدعوات من صحيح مسلم]..

ش: «تسمعون» إلخ، هذا خبر ومعناه الأمر أي لتسمعوا مني الحديث وتبلغوه عني وليُسْمَع من بعدي منكم. وهلم جراً. وهو حض على التبليغ، وأداء الأمانة العلمية وسيأتي حديث: **«بلِّغوا عني ولو آيَة»** في التحديث عن بني إسرائيل...

١٩ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتاً، ولا مُتَعَنِّتاً، ولَكِن بَعَثَنِي مُعَلِّماً مُيَسِّراً»**.

[رواه مسلم في النكاح (٨١/١٠)].

ش: «مُعَنِّتاً» بضم الميم وفتح العين المهملة مع كسر النون المشددة: اسم فاعل من العنت وهي المشقة، ومعناه لست شَقَّاءَ على الناس، ولا مدخلاً عليهم الضرر ولا طالباً لهم ذلك، وإنما بعثت فيهم لأعلمهم دين الله، وأرشدهم إلى طريق اليسر والسماحة وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمعلم والداعية أن يكون متخلقاً بالسهولة ولين الجانب والحكمة والسياسة، وأن يدعو الناس إلى الله تعالى بالتي هي أحسن..

٢٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وِعَاءَيْن. فأما أحدهما فبَثَثْتُهُ فيكم، وأما الآخَرُ فلو بثثتُه قُطِعَ هذا البُلْعُومُ..».

[رواه البخاري في العلم (٢٢٧/١) وفي الفتن].

ش: «وعاءين»: تثنية وعاء وهو الظرف كالإناء والكيس، وأراد بالوعاءين ما يملأهما لو كتب محفوظاته عن النبي ﷺ. **«بثثته»**: أي نشرته وأذعته. **«البُلْعُوم»**: فسره البخاري بالحلقوم، وكنى بذلك عن القتل. وفيه الحث على تبليغ العلم ولو مع تحمل المشاق. والوعاء الذي ترك نشره قيل: أخبار أمراء السوء، وقيل: أسرار تتعلق بالله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

٢١ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: لَوْ وَضَعْتُم الصَّمْصَامَةَ على هذِه، وأشار إلى قفاهُ، ثم ظننتُ أني أُنفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزُوا عَلَيَّ لأنْفَذْتُها..

[ذكره البخاري معلقاً في العلم (١/١٧٠)، ورواه الدارمي رقم (٥٥١) مسنداً متصلاً بسند صحيح].

ش: «الصَّمصَامَة» بصادين مفتوحتين، هو السيف الصارم الذي لا ينثني. «أنفذ» بضم الهمزة وكسر الفاء، معناه أمضى وفيه كالذي قبله تحمل الأذى على التبليغ، والدعوة إلى الله تعالى ولو أدى ذلك إلى القتل والموت.

٢٢ز ـ وعن عياض بن حِمَارٍ المُجَاشِعِي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في خطبةٍ خطبها: «**إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أمَرَنِي أن أعَلِّمَكُم ما جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هذا**»، وأنه قال: «**إنَّ كُلَّ ما نَحَلْتُهُ عِبادِي فهُوَ لَهُم حلالٌ**».

[رواه أحمد (٤/٢٦٦، ١٦٢) من طريقين وهو بهما صحيح، وهو قطعة من حديث سيأتي].

ش: «نحلته»: أي أعطيته، والنحلة العطية. والحديث يدل على مشروعية تعليم من لا يعلم وأن ذلك مأمور به من قبل الله عزّ وجلّ. وفيه أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما خصصه الدليل..

ما جاء في التخوُّل بالتبليغ وعقد مجالس علمية خاصة بالنساء

٢٣ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «كان النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظةِ في الأيام، كراهةَ السآمةِ علينا».

[رواه أحمد (١/٣٧٧، ٣٧٨، ٤٢٥)، والبخاري في العلم (١/١٧١، ١٧٢)، ومسلم في صفات المنافقين (١٧/١٦٣، ١٦٤)، والترمذي في الأدب رقم (٢٦٦٦)].

ش: «كان يتخولنا»: أي يتعهدنا في أوقات القبول. **«السآمة»**: أي المَلَل. ويؤخذ من الحديث تعهد الناس بالوعظ والتذكير الآونة بعد الآونة حسبما تطلبه نفوسهم خوفاً من ظهور الملل منهم، فينبغي للواعظ والداعية أن يذكر الناس ما داموا مقبلين عليه فإذا لمس منهم فتوراً فليمسك عند ذلك.

٢٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «حَدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مرةً فإن أبيتَ فمرتين، فإن أكثرتَ فثلاثَ مراتٍ، ولا تُمِلَّ الناسَ هذا القرآنَ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القومَ وهم في حديثٍ من حَدِيثِهم فَتَقُصُّ عليهم، فتقطعُ عليهم حديثَهم فَتُمِلَّهُم، ولكن أنْصِتْ، فإذا أمَرُوك فحدِّثهم وهم يَشتهُونه، وانظر السَّجْعَ من الدعاء فاجْتَنِبْه، فإني عَهِدتُ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون إلا ذلك الاجْتِنَاب».

[رواه البخاري في الدعوات باب ما يكره من السجع في الدعاء (١٣/٣٨٨)].

ش: «أبيت»: أي امتنعت. **«فلا ألفينك»** بضم الهمزة، أي لا أجدنك. وفي الحديث إرشاد الدعاة إلى تحين أوقات الناس لدعوتهم واختيار يوم في الأسبوع فإن أكثر فثلاثة أيام لئلا يمل الناس العلم ويعرضوا عنه ويمجوه، ولا ينبغي له أن يحدث من لا يقبله ويحرص عليه لأن في ذلك تضييعاً للعلم وعرض على من لا يستحقه.

٢٥ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال النساء للنبي ﷺ: غَلَبَنا عليك الرجالُ، فاجعل لنا يوماً مِن نفسِكَ، فوعَدَهُنَّ يوماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فوعَظَهُنَّ وأمَرَهُنَّ، فكان فيما قال لهُنَّ: **«ما مِنكُنَّ امرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً من وَلَدِها إلا كان حِجاباً مِن النارِ»**، فقالت امرأة: واثْنَتَيْنِ؟ فقال: **«وَاثْنَتَيْنِ»**.

[رواه البخاري في العلم (١/٢٠٦)، وفي الجنائز، وفي الاعتصام، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨١)].

ش: يؤخذ من الحديث إرشاد النساء وتذكيرهن على حدة، منفردات عن الرجال الأجانب، وأن للعالم المرشد أن يجعل لهن وقتاً خاصاً بهن، ويشترط أن يكون المرشد متزوجاً كهلاً، أو شيخاً، متحصناً بتقوى الله، وأن

يكون النساء متحجبات، لا يظهر منهن ما يفتن مرشدهن، وهذا إذا فقدت الأنثى المرشدة، أما إذا وجدت فلا يجتمعن على الرجل سداً للذريعة، ومنعاً للفتنة. لاستحالة أو ندرة أن يكون هذا المرشد على قدم الرسول ﷺ في الكمال البشري والأمن من الفتنة.

ما جاء في الدلالة على الخير وفضل ذلك وإرسال البعوث لتعليم الديانة الإسلامية

٢٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دَعَا إلى هُدىً كان لهُ من الأَجْرِ مثلُ أُجُور من يتبعه لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَن دعَا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَن يتبعه لا ينْقُصُ ذلك من آثامِهِم شيئاً**».

[رواه أحمد (٣٩٧/٢)، ومسلم في العلم (٢٢٧/١٦)، وأبو داود في السنة رقم (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٨٨)، وابن ماجه (٢٠٦)].

٢٧ ـ وعن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسنةً فلهُ أجرُها، وأجْرُ مَن عَمِل بها بعدَه مِن غيرِ أنْ ينقص مِن أُجُورهم شيءٌ، ومَن سَنَّ سُنَّة سَيِّئةً كان عليه وِزْرُها ووزرُ مَن عَمِل بها مِن بَعْده، من غير أن يُنقصَ مِن أوْزَارِهِم شَيْءٌ**».

[رواه أحمد (٣٦١/٤، ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٤/٧)، وفي العلم (٢٢٦/١٦) مطولاً، والترمذي في العلم رقم (٢٤٨٩)، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣)].

ش: قال النووي رحمه الله في «شرح مسلم» كتاب العلم (٢٢٦/١٦): هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة، وتحريم سن الأمور السيئة، وإن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، وإن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه،

أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأ، أم كان مسبوقاً إليه، وسواء كان ذلك تَعَلَّم عِلْم، أو عبادة، أو أدب، أو غير ذلك.. وقال في كتاب الزكاة على حديث جرير: وفي هذا الحديث تخصيص قوله ﷺ: «**كُلُّ مُحدثةٍ بدْعَةٌ، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**». وأن المراد بها المحدثات الباطلة، والبدع المذمومة إلخ، يعني المخالفة لنصوص الشرع، والتي لا يشهد لها دليل. وقال البيهقي رحمه الله تعالى في «مناقب الشافعي» رضي الله تعالى عنه قال: المحدثات من الأمور ضربان: **أحدهما**: ما أحدث مما يخالف كتاباً، أو سنة، أو أثراً، أو إجماعاً. فهذه البدعة الضلالة. **والثانية**: ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من العلماء. وهذه محدثة غير مذمومة وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه في قيام شهر رمضان: نعمت البدعة..

وقال النووي أيضاً في كتاب الجمعة من «شرح مسلم» (١٥٤/٦) على حديث جابر: «**وكُلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ..**» ما نصه: هذا عام مخصوص، والمراد غالب البدع. ثم ذكر تقسيم البدعة إلى خمسة أقسام... فقال: فإذا عرفت ما ذكرته علم أن الحديث من العام المخصوص وكذا ما أشبهه من الأحاديث.

وقد قسم العلماء رحمهم الله تعالى البدعة إلى الأحكام الخمسة: محرمة وواجبة ومستحبة ومكروهة ومباحة، وقد فصلها العز ابن عبدالسلام في «قواعده» (٢٠٤/٢)، والنووي في تهذيب «الأسماء واللغات» (٢٢/٢)، والحافظ في الصيام (١٥٦/٥، ١٥٧)، وفي الاعتصام (١٠/١٧) من «فتح الباري» وقال: هذا والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة. وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة وإلا فهي من قسم المباح. وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة إلخ.

وكذا قال القرافي وابن ناجي في «شرح رسالة ابن أبي زيد». وانظر لهذا الموضوع «شرح الترمذي» لابن العربي عند كلامه على حديث العرباض: وعظنا رسول الله إلخ.. و«شرح الأربعين» لابن رجب، و«جامع الأصول» (٣١٠/١)، و«النهاية في غريب الحديث» (٦٦/١)، والأبي على مسلم

(٣٣/٣، ١٥٣، وج ١٠٩/٧)، و«تفسير القرطبي» (١٥/٨٧). و«الفتوحات لابن العربي» (٢٥٤/٢)...

٢٨ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رجُلاً واحداً خَيرٌ لك من أن يَكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ**».

[رواه البخاري في الفضائل (٧٢/٨)، وفي غزوة خيبر (١٧/٩، ١٨) مطولاً، ومسلم في الفضائل (١٧٨/١٥)، وأبو داود في العلم رقم (٣٦٦١)].

ش: «**لأن يهدي**» إلخ كان هذا منه ﷺ خطاباً للإمام سيدنا علي رضي الله تعالى عنه في غزوة خيبر وسيأتي في الغزوات إن شاء الله تعالى. «**حُمْر النَّعَم**»: هي نوع من الإبل كانت العرب تفخر بها وتتباهى باقتنائها. والهداية هنا معناها الدلالة والدعوة على غرار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أما الهداية بمعنى التوفيق وخلق القدرة على الطاعة فهي خاصة بالله عزّ وجلّ، لاحظَّ فيها لمخلوقٍ أياً كان.

٢٩ ـ وعن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستحمله فقال: إنه قد أُبْدِع بي، فقال رسول الله ﷺ: «**إئتِ فُلاناً**»، فأتاه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجرِ فَاعِلِه**، أو قال: **عَامِلِهِ**».

[رواه مسلم في الجهاد وأبو داود في الأدب رقم (٥١٣٩)، والترمذي في العلم (٢٤٨٥) وحسنه وصححه].

ش: «**يَسْتَحْمِلُهُ**»: أي يطلب منه أن يحمله على بعير، أو فرس، أو نحوها. «**أُبْدِعَ بِي**»: أي أُهْمِلتُ ولم يحملني أحد. وفي الحديث فضل الدعاة إلى الله تعالى والدلالة على الخير أي خير كان وبأي نوع كانت الدلالة.

٣٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهلَ اليمن قدِمُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابْعَثْ معنا رجُلاً يُعَلِّمُنَا السُّنَّةَ والإسْلامَ، فأخذ بيد

أبي عُبَيْدة بن الجَرَّاح فأَرْسَلَهُ معهم فقال: «هَذَا أَمِينُ هذِهِ الأُمَّةِ».

[رواه أحمد (٣/١٣٣)، ومسلم (١٥/١٩٢)، والحاكم (٣/٢٦٧) واللفظ لمسلم].

ش: وفي الحديث مشروعية إرسال البعوث والدعاة لتعليم الناس دين الله تعالى وشرعه، وقد جاءت بذلك أحاديث، وآثار كحديث القراء السبعين وهو في الصحيحين ويأتي، وحديث مصعب بن عمير الذي كان أول مبعوث وداعية بعثه النبي ﷺ من مكة إلى المدينة قبل الهجرة يدعو الناس إلى الله ويعلمهم القرآن والسنة. وفي «مستدرك» الحاكم (٣/٢٧٠)، عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ استخلف معاذ بن جبل على أهل مكة حين خرج إلى حنين، وأمره أن يعلم الناس القرآن، وأن يفقههم في الدين. وفيه (٣/٢٢٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة أن ناساً أتوا النبي ﷺ بعد أُحد فقالوا: إن بأرضنا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يقرءوننا القرآن، ويفقهوننا في الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة نفر إلخ. وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى حي من قيس أعلمهم شرائع الإسلام. رواه البزار والطبراني. وفي خطبة لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه.. (ألا إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء، سوى ذلك فليرفعه إليّ) إلخ. رواه أحمد في المسند (١/٤١) بسند حسن. وفي الموضوع آثار كثيرة. وبهذا يعرف أن أهم شيء يجب أن يهتم به أولو الأمر أمور الديانة، وتوجيه الأمة وإرشادها، أما الدنيا فكل الناس يعرفونها. وقد قال نبينا ﷺ: **«أنتم أعلم بدنياكم»**. رواه مسلم (١٥/١١٦، ١١٧).

ما جاء في وعيد كاتمي العلم والمقصرين في تبليغه

٣١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن الناسَ يقولُون: أكْثَرَ أبُو هريرة ولولا آيتانِ في كتاب الله ما حدَّثْتُ حديثاً، ثم يتلو: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ... إلى قوله: ٱلرَّحِيمُ﴾. إنَّ إخواننا من المهاجرين كانَ يَشغَلُهم الصَّفْقُ في الأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يَشْغَلُهم العَملُ في أموالِهم، وإن أبا هريرة كان يَلزَمُ رسول الله ﷺ لِشِبَعِ بَطْنِهِ، ويَحْضُر ما لا يَحْضُرُون، ويَحفَظُ ما لا يَحْفَظُونَ.

[رواه أحمد رقم (٧٢٧٣، ٧٢٧٤، ٧٦٩١)، والبخاري في العلم (١/٢٢٤)، وفي البيوع وفي المزارعة، ومسلم في الفضائل (١٦/٥٢، ٥٤)، وفي رواية للبخاري قلت: يا رسول الله! إني أسمع منك حديثاً أنساه، قال: «ابْسُط رِدَاءَكَ»، فبسطته فغَرَفَ بيديه ثم قال: «ضُمَّه»، فضممته فما نَسيتُ شيئاً بعدُ].

ش: «الصفق» بسكون الفاء، هو الضرب على اليد، وكانت عادة الجاهلية جارية بذلك عند عقدهم للبيوعات. وفي الحديث ما كان عليه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه من حفظه للحديث، واعتنائه به، والرغبة فيه، والتحديث به. ولذا قال فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في عصره. وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنه يترحم عليه في جنازته ويقول: كان يحفظ على المسلمين حديث النبي ﷺ. وفيه وجوب التبليغ ووعيد الكاتمين وذم البخل بالعلم.

٣٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن سُئِلَ عَن عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَومَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ».

[رواه أحمد رقم (٨٠٣٥/٧٥٦١)، والطيالسي (٨٩)، وأبو داود رقم (٣٦٥٨)، والترمذي رقم (٢٤٦٥) كلاهما في العلم، وابن ماجه رقم (٢٦٦، ٢٦١)، والحاكم (١٠١/١)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وللحديث شواهد أصحها ثلاثة عن ابن عباس، وابن مسعود، وعبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهم أفردتها في جزء خاص].

ش: والحديث يدل على الوعيد العظيم لمن سئل عن علم فكتمه، وإن الله تعالى سيجعل له لجاماً من نار في فمه جزاءً وفاقاً. وهذا بلا شك لا يكون إلا في العلم الواجب الذي يلزم العالِمَ تَعْلِيمُه، ويتعيَّنُ فرضُه عليه، وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالإنسان إلى معرفتها.

من آداب الداعية

٣٣ ـ قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.. فقال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ فاحْذَرُوهُمْ**».

[رواه البخاري في مواضع، ومسلم في العلم (١٦/٢١٦، ٢١٧) وغيرهما ويأتي في التفسير].

ش: «**ما تشابه**»: أي ما احتمل وجوهاً من المعاني متشابهة لا يتضح الأمر فيها إلا بالنظر الدقيق من الراسخين في العلم ويقابل هذا المحكم وهو الواضح الدلالة الذي لا لَبْسَ فيه ولا إشكال. فأهل الزيغ والانحراف يتركون المحكم من النصوص، ويتعلقون بالمتشابه طلب الفتنة للناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس، وطلب تحريفه بالتأويلات الفاسدة ليستدلوا بذلك على ما يريدونه.

فينبغي للداعية أن يكون بعيداً عن هذا الصنف من الناس وأن لا يلقى على مسامع الحاضرين والمستمعين إلا ما هو واضح جلي لا غموض فيه ولا حرج ولا إشكال.

وليكن على حذر من حوار المبتدعة وجدال الضالين عملاً بهذا التوجيه النبوي الخالد. وصلى الله وسلم على نبينا وآله وصحبه.

٣٤ ـ وقال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُون، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ ورسولُه ﷺ».

[رواه البخاري في العلم (١/٢٣٥، ٢٣٦)].

٣٥ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «ما أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْماً حَدِيثاً لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم إلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً».

[رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١/٧٦)].

ش: في هذين الأثرين إرشاد للدعاة إلى الله تعالى بأن لا يحدثوا الناس إلا بما يفهمونه ويعقلونه وأن لا يلقوا عليهم ما لا تصل إليه عقولهم

لئلا يُوقعهم في الفتنة والحيرة، وذلك كالكلام في بعض آيات وأحاديث صفات الله عزّ وجلّ التي يقتضي ظاهرها الجارحة والتشبيه... أو ما كان متشابهاً من القرآن والسنة، ونحو ذلك مما لا يعرفه إلا العلماء.

ما جاء في ذم السؤال لغير حاجة والإكثار منه

٣٦ ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**أعْظَمُ المُسْلِمِينَ فِي المُسْلِمِينَ جُرْماً، مَنْ سأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ حُرِّمَ فحُرِّمَ مِنْ أجْلِ مَسْأَلَتِه**».

[رواه أحمد (١/١٥٧، ١٥٨)، والبخاري في الاعتصام (١٧/٢٦، ٢٧)، ومسلم في الفضائل (٥/١١٠) وغيرهم].

ش: «**جُرْماً**»: بضم الجيم أي ذنباً وإثماً. وهذا الحديث محمول على من سأل لغير ضرورة بأن سأل تكلفاً أو تعنتاً فيما لا حاجة به إليه. أما السؤال للحاجة فمطلوب بل قد يكون لازماً، وقد سأل الصحابة رضي الله تعالى عنهم رسول الله ﷺ كثيراً. وقد ذكر الله تعالى في القرآن بعض أسئلتهم مع الإجابة عنها كما جاء ذلك أيضاً في كثير من الأحاديث.

٣٧ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أشْيَاءَ كَرِهَها، فلما أكْثَرُوا عليه المسألةَ غَضِبَ، وقال: «**سَلُونِي**»، فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ الله، مَن أبي؟ قال: «**أبوك حُذَافَةُ**»، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «**أبوك سالمٌ مَولى شَيْبَةَ**»، فلما رأى عُمَرُ ما بِوَجْهِ رسول الله ﷺ مِنَ الغضَبِ قال: إنَّا نَتُوبُ إلى الله عزَّ وجلَّ.

[رواه البخاري في الاعتصام (١٧/٢٨، ٢٩) وغيره، ومسلم في الفضائل (١٥/١١٥، ١١٦) وفي الباب غير ذلك].

ش: في الحديث ذم الإكثار من السؤال، وخاصة فيما ليس فيه كبير فائدة، كما فيه إشارة إلى الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى إحراج العالم

وإغاظته. ولذلك لما فطن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لغضب رسول الله ﷺ برك على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً كما في رواية. فسكت رسول الله ﷺ. فإنهم لما أكثروا عليه في السؤال كره ذلك حتى ظهر عليه أثر الغضب، فقال سيدنا عمر ما قال أدباً مع مقام النبوة وإكراماً لرسول الله ﷺ وشفقةً على المسلمين من هلاكهم لتسببهم في غضب النبي ﷺ مع أنه كان قد قال لهم: «**من أحب أن يسألني عن شيء، فليسألني عنه، فوالله لا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا**». رواه مسلم وغيره.. لكنهم ألحوا وبالغوا في المسائل. والحديث سيأتي في التفسير.

ما جاء في ذم الجدال في الدين والاختلاف فيه

٣٨ ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كانوا عليهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**»، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ الآية.

[رواه أحمد (٥/٢٥٢، ٢٥٦)، والترمذي في التفسير رقم (٣٠٣٩)، وابن ماجه (٤٨)، والحاكم (٢/٤٤٧) وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: «**الجدل**» بفتح الجيم والدال: شدة الخصومة. ويؤخذ من الحديث ضلال المجادلين في الدين، وبعدهم عن هداية الله عزّ وجلّ. وقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك كحديث: «**إن أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ الْخَصِم**» رواه الشيخان. وحديث: «**المِراء في القرآن كفر**». رواه أبو داود وغيره. وستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى.

فالحديث يدل على أن القوم إذا خرجوا عن نهج الله وزاغوا عن طريقه القويم بعد أن كانوا مهتدين، اشتغلوا بالجدال والملاججة وأغواهم إبليس واستولى عليهم، وزيَّن لهم طريقهم المعوج.

٣٩ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه قال: هَجَّرْتُ إلى

رسولِ الله ﷺ يوْماً فَسمعَ أصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا في آيةٍ، فخرج علينا رسولُ الله ﷺ يُعْرَفُ في وَجْهِهِ الغَضَبُ، فقال: «**إنَّما هلك من كان قَبْلَكُم باخْتِلافِهِمْ فِي هٰذا الكِتَابِ**».

[رواه أحمد رقم (٦٨٠١)، ومسلم في أوائل العلم من صحيحه، ويأتي نحوه في القدر].

ش: «**هَجَّرت**»: أي جئت مبكراً. «**اختلفا في آية**»: وكان ذلك في شأن القدر، كما جاء في رواية مبينة من طريق آخر عن عبدالله المذكور قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال: «**بهذا أمرتم؟أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم**» رواه أحمد (١/١٩٥، ١٩٦)، وابن ماجه رقم (٨٥) بسند صحيح.

وعيد الكذب على رسول الله ﷺ

٤٠ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ تَكْذِبُوا عَلَـيَّ، فإنَّهُ مَنْ كَذَبَ علَـيَّ يَلِجِ النَّارَ**».

[رواه الطيالسي (٩٣)، وأحمد رقم (٦٢٩، ٦٣٠، ١٠٠١، ١٢٩١)، والبخاري في العلم (١/٢٠٩)، ومسلم في المقدمة (١/٦٦)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٧٤) بتهذيبي].

ش: «**يلج**»: أي يدخل. فالكذب عليه ﷺ من موجبات النار عياذاً بالله من ذلك.

٤١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَذَبَ علَـيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

[رواه الطيالسي (٩٧)، وأحمد (٣/١١٦) وفي مواضع (١٧٢، ٢٠٣)، والبخاري ومسلم والترمذي في المصادر قبله].

ش: «**فليتبوأ**»: أي لينزل منزله من النار. والمبوأ: المنزل، يقال: تبوأ الرجل المكان إذا اتخذه سكناً ومنزلاً. والحديث كالذي قبله يدل على

تحريم الكذب على رسول الله ﷺ. ولا خلاف في ذلك، بل هو من أكبر الكبائر إن كان عن تعمد حتى جعل بعضهم ذلك كفراً. أما إن صدر عن خطأ فلا حرج. وقد تواتر هذا الحديث عن النبي ﷺ حتى إن الحافظ ذكر في الفتح (٢١٣/١) أنه صح من رواية ثلاثين نفساً من الصحابة.

٤٢ ـ وعن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حدَّثَ عَنِّي حَدِيثاً وَهُوَ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِيْنِ**».

[رواه مسلم في المقدمة (٦٢/١)، والترمذي في العلم (٢٤٧٦)، وابن ماجه رقم (٤١) كذلك].

ش: «**يُرَى**» بضم الياء بمعنى يظن. والحديث يدل على أن من حدَّث بحديث يظنه كذباً فهو شريك الكذاب الأول في الإثم. فليحذر الوعاظ والدعاة إلى الله والخطباء التحدث بالأباطيل، والموضوعات، وليتثبتوا. «**الكاذبين**»: جاءت الرواية بها على التثنية والجمع، وكلاهما صحيح.

وجوب التثبت في التحديث

٤٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**».

[رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٧٢/١، ٧٣، ٧٤)، وجاء موقوفاً عن ابن عمر وأبي سعيد].

ش: «**كفى**»: أي حسبه من الكذب أن يخبر الناس بكل ما يسمعه من صدق وكذب..

ففي الحديث الزجر عن التحديث بكل ما هبَّ ودبَّ من غير تروٍّ ولا تثبت، ولا تمييز بين الخطأ والصواب، والصحيح والباطل، وسواء كان ذلك في التحديث عن النبي ﷺ أم في مطلق الكلام فإن من لم يتثبت لا بد وأن يقع في الكذب والخطأ.

باب ما جاء في معرفة أهل الحديث بصحيحه من سقيمه

٤٤ز ـ عن أبي حميد، أو: أبي أسيد رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمِعْتُم الحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُه قُلوبُكُم وتَلِينُ له أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَوْن أنه منكم قريبٌ، فأنا أَولاكُمْ بِه، وإذا سَمِعْتُم الحدِيثَ تُنكِرُه قلوبُكم وتَنْفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وترون أنه منكم بَعيدٌ، فأنا أبعدُكم مِنه**».

[رواه أحمد (٥/٤٢٥)، وابن حبان رقم (٩٢) بسند صحيح. وقال في «مجمع الزوائد» (١/١٥٠) رجاله رجال الصحيح].

ش: «**تعرفه**»: أي تنشرح له صدوركم وتقبله، وتشهد بحسنه. «**وترون**»: أي أنه قريب إلى أفهامكم وأحكام دينكم. والحديث يدل على أن في أهل الحديث من يعطيه الله تعالى التمييز بين الحديث الصحيح وغيره. وهذا لا يكون إلا فيمن استنار قلبه بنور الإيمان والتقوى، وكان مع ذلك طويل الممارسة للحديث النبوي الشريف، فإنه قد ينقدح في قلبه من حقائق ذلك ما لا يوجد له أي دليل اصطلاحي يعتمد عليه. وهو يدل على أن للحديث الصحيح علامات يعرف بها كما هي للموضوع والضعيف... فقد يكون سند الحديث صحيحاً نظيفاً لكن معناه منكر، أو تكون في ألفاظه ركاكة وأساليب تتنافى مع الألفاظ النبوية.

آداب التحديث والإملاء

٤٥ ـ عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: جلس أبو هريرة إلى جَنْب حُجْرَةِ عائشة رضي الله تعالى عنهما وهي تُصلِّي فجعل يقول: إسْمَعِي يَا رَبَّةَ الحُجْرَةِ مرتين، فلما قَضَتْ صلاتَها قالت: ألاَ تعْجبُ إلى هذا وحدِيثِهِ؟ إن كانَ رسولُ الله ﷺ لَيُحدِّثُ الحديث لو شاء العادُّ أنْ يُحصِيه أحْصَاهُ.

[رواه مسلم في الزهد (١٨/١٢٩)، وأبو داود في العلم رقم (٣٦٥٤، ٣٦٥٥)].

ش: الحديث يدل على أنه ينبغي للمحدث والعالم أن يلقي حديثه وعلمه بتؤدة، وأن لا يسرده سرداً وبسرعة وهذرمة، فإن ذلك يفوت على السامعين فائدتهم المنشودة.

٤٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا تَكَلَّم بِكَلِمَةٍ أَعادَها ثلاثاً حتَّى تُفْهَمَ عنه، وإذا أَتَى على قومٍ فسلّم عليهم سَلَّم عليهم ثَلاثاً.

[رواه البخاري في العلم (١/١٩٨، ١٩٩)، وفي الاستئذان والترمذي في الأدب رقم (٢٥٣٧) بتهذيبي. وهذا من آداب الإلقاء والتحديث، ولا يعد التكرار لهذا المعنى، وفي موطن التعليم مذموماً].

٤٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت لا تسمع شيئاً لا تفهمه إلا راجعت فيه حتى تفهمه.

[رواه البخاري في العلم (١/٢٠٧)، وفي التفسير، وفي الرقاق، وبأتي مطولاً إن شاء الله تعالى. وفيه: أنه لا بأس بمراجعة العالم والداعية فيما يلتبس على الطالب والسامع، وأن ذلك لا حرج فيه].

تحمل الصبي الحديث والعلم في صغره

٤٨ ـ عن محمود بن الربيع رضي الله تعالى عنه قال: عَقَلْتُ مِن رسولِ الله ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا في وَجْهِي من دَلْوٍ مِنْ بِئْرٍ كانت في دارِنا، وأنا ابنُ خمسِ سِنين.

[رواه البخاري في العلم مختصراً (١/١٨١، ١٨٢)، ورواه في الصلاة والرقاق مطولاً، ورواه مسلم في المساجد].

ش: «مجَّة» بفتح الميم والجيم المشددة هي الدفعة من الماء ترميها من فيك. وفعل ذلك معه ﷺ إما مداعبة، أو تبريكاً عليه بها كما كان شأنه مع أولاد الصحابة رضي الله تعالى عنهم. وفيه إحضار الأطفال مجالس العلم وتحملهم ما سمعوا في صغرهم لينتفعوا به ويؤدوه في كبرهم وفيه

الاحتجاج بما أدوه إذا كانوا يفهمون الخطاب عند السماع. وقد احتج بهذا الحديث علماء الحديث على تحمل الأطفال وصحته.

٤٩ ـ وعن سمرة بن جندب قال: لقدْ كنتُ على عهدِ رسول الله ﷺ غُلاماً، فكنتُ أحْفَظُ عَنه فَما يَمْنَعُنِي من القول إلا أنَّ هَهُنا رجالاً هُمْ أسنُّ مِنِّي، وقد صليتُ خلفَ رسولِ الله ﷺ على امرأةٍ ماتت في نِفَاسِها، فقام عليها رسولُ الله ﷺ في الصلاة وَسَطَها.

[رواه البخاري (٣/٤٤٤، ٤٤٥)، ومسلم وباقي الجماعة كلهم في الجنائز، ويأتي. ورواه البخاري في الحيض (١/٤٤٥، ٤٤٦)].

ش: وفيه كالذي قبله صحة تحمل الصغير العلم وخاصة الحديث النبوي كما فيه أدب من آداب الطالب... وأنه ينبغي له أن لا يتكلم أو يحدث بمحضر من هو أكبر منه سناً.

ما جاء في كتابة الحديث منعاً وجوازاً

٥٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تَكْتُبُوا عَنِّي غَيرَ القُرْآنِ»**. وفي رواية: **«لا تَكْتُبُوا عَنِّي، ومَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيرَ القُرآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي ولا حَرَجَ، ومَن كَذَبَ عليَّ مُتعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ»**.

[رواه أحمد (٣/١٢، ٢١، ٣٩، ٥٦)، والدارمي (٤٥٦)، ومسلم في الزهد (١٨/٢٩)].

٥١ز ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: استأذنا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا.

[رواه الترمذي في العلم رقم (٢٤٧٩) بتهذيبي، والدارمي (٤٥٧) وسند هذا صحيح].

ش: وهذا الحديث والذي قبله يدلان على النهي عن كتابة غير القرآن وأن من كتب سواه وجب عليه محوه. وقد كان هذا في أول الأمر ثم أذن

النبي ﷺ في الكتابة لما في ذلك من المصلحة الأكيدة، والخير العميم، كما يدل لذلك الآتي عقبه.

٥٢ز ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كُنْتُ أكتُبُ كُلَّ شيءٍ سَمِعْتُه من رسولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وقالوا: تَكتُبُ كُلَّ شيءٍ ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّم في الغَضَب والرِّضا، قال: فأمْسَكْتُ عَنِ الكِتابِ حتى ذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ فأومأَ بأُصْبُعِهِ إلىَّ فِيه وقال: «**اكْتُبْ، فوالَّذي نفسي بيدِه ما يَخرُجُ منه إلا حَقٌّ**».

[رواه أحمد (١٦٢/٢، ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٥)، وأبو داود في العلم رقم (٣٦٤٦)، والحاكم (١٠٥/١، ١٠٦) وسنده صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: وفي هذا الحديث الإذن الصريح في جواز كتابة غير القرآن كالحديث النبوي.. فيكون النهي عن ذلك منسوخاً. وقد اختلف علماء السلف في ذلك، فكان يكره الكتابة للحديث النبوي قتادة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والشعبي، وابن سيرين. وأجازها آخرون ثم استقر الإجماع بعد ذلك على استحبابه، بل على وجوبه. لأن ذلك من وسائل حفظ الدين وهو واجب، وكل ما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب. ويؤخذ من الحديث أيضاً أن النبي ﷺ كان لا يقول إلا الحق، وأنه كان معصوماً من النطق بالباطل وما لا فائدة فيه في جانب الدين.

٥٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ خطب فذكر قصة في الحديث فقال أبو شاه: أكْتُبُوا لِي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اكْتُبُوا لأَبِي شَاهٍ**». وفي الحديث قصة.

[رواه البخاري في الحج، وفي اللقطة، وفي الحدود، وفي العلم (٢١٦/١، ٢١٧)، وأبو داود رقم (٣٦٤٩)، والترمذي (٢٤٨١) كلاهما في العلم أيضاً، واقتصر ابن الأثير في «جامع الأصول» في عزوه على الترمذي].

٥٤ ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: ما مِنْ أصحابِ النبي ﷺ أحدٌ أكثرَ حَديثاً عَنْهُ مِنِّي، إلاَّ مَا كَانَ مِنْ ابْنِ عَمْرٍو، فإنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ ولا أَكْتُبُ.

[رواه عبدالرزاق رقم (٢٠٤٨٩)، والبخاري (٢١٧/١)، والترمذي (٢٤٨٢) ثلاثتهم في العلم].

ش: الحديث والذي قبله يدلان على الإذن في كتابة الحديث. قال الحافظ في «الفتح»: لما قصرت الهمم وخشي الأئمة ضياع العلم دوّنوه، وأول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة، بأمر عمر بن عبدالعزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، ولله الحمد. وفي كتاب العلم من «صحيح البخاري»: وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ. وذكره مالك رحمه الله تعالى في «الموطأ». وأخرج عبدالرزاق بسند صحيح عن ابن شهاب وصالح بن كيسان كتابتهما الحديث، انظر رقم (٢٠٤٨٧)؛ [مصنف عبدالرزاق].

باب ما جاء في رفع العلم

٥٥ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ الله لا يَقْبِضُ العلمَ انْتِزاعاً يَنْتَزِعُه مِن العبادِ، ولكن يَقْبِضُ العلم بِقَبْضِ العُلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتَّخذ الناسُ رُؤَساءَ جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيرِ عِلمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**.

[رواه عبدالرزاق رقم (٢٠٤٧١) فما بعده، وأحمد رقم (٦٥١١، ٦٧٨٧)، والطيالسي رقم (١٠٢)، والحميدي رقم (٥٨١)، والدارمي (٢٤٥)، والبخاري في العلم (٢٠٥/١)، وفي الاعتصام (٤٢/١٧، ٤٧)، ومسلم (٢٢٣/١٦، ٢٢٤، ٢٢٥)، والترمذي رقم (٢٤٦٧) كلاهما في العلم. وللحديث طرق كثيرة جداً كما ذكره الحافظ في الاعتصام].

ش: والحديث يدل على أن قبض العلم ليس معناه أنه يمحى من صدور أهله، وإنما المراد أن يموت أهله وحفظته فيتخذ الناس رؤوساً جهلة بالعلم الحق فيفتوهم بآرائهم وبما لا علم لهم من الباطل فيضلوا في أنفسهم ويضلوا من يقتدي بهم ويتبعهم في فتاواهم الجائرة.

ولذا قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله. وقال: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء، ما اختلف الليل والنهار. وقيل لسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم. يعني: ماتوا.

وقال ابن عيينة ـ رحمه الله تعالى: وأي عقوبة أشد على أهل الجهل أن يذهب أهل العلم.

وفي الموضوع آثار واسعة تجدها في «العلم» لابن عبدالبر. وفي «شرح السنة» للبغوي. وفي «مفتاح دار السعادة» لابن القيم وغيرها، وقوله: «يبق» جاءت بضم الياء وفتحها من الرباعي والثلاثي.

٥٦ز ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فشَخَصَ بِبَصَرِهِ إلى السماءِ ثم قال: «هَذا أوانُ يُخْتَلَسُ العلمُ من الناس، حَتَّى لا يَقْدِرُون مِنه عَلَى شيءٍ»، فقال زِيَادُ بنُ لَبِيد الأنصاري: كيف يُخْتَلَسُ مِنَّا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لَنَقرَأَنَّه ولَنُقْرِئَنَّهُ أبناءَنا ونساءَنا، فقال رسول الله ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زيادُ، إن كنتُ لأَعُدُّكَ مِن فُقهاءِ أهلِ المدينةِ، هذهِ التوراةُ والإنجيلُ عند اليهودِ والنصارى، فماذا يُغْنِي عَنْهُم؟». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه فقلت: ألا تسمعُ ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء، فقال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لأُحَدِّثَنَّك بأولِ علم يُرفعُ، أولُ عِلم يُرْفَعَ من الناسِ الخشوعُ يوشك أن تدخل المسجد الجامعَ فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً.

[رواه الدارمي رقم (٢٩٤)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٦٨)، والحاكم (٩٩/١) وسنده حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، والحديث صحيح لغيره، فإن له شاهدين عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (٢٦/٦)، وابن حبان رقم (١١٥)، والحاكم (٩٨/١، ٩٩) وسنده صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وعن زياد بن لبيد رواه أحمد (١٦٠/٤، ٢١٨، ٢١٩)، والطيالسي رقم (١٠٣)، وابن ماجه رقم (٤٠٤٨)، والحاكم (١٠٠/١) ورجاله ثقات عندهم مع انقطاع فيه. ولا يضر ذلك هنا].

ش: «فشخص» بفتح الشين والخاء، ومعناه: نظر إليها من غير أن يرد عنها بصره. «أوان»: أي وقت. «يُختلسُ»: الاختلاس أخذ الشيء بسرعة. «ثكلتك»:

أي فقدتك أمك. «**يوشك**» الإيشاك والوشك: الإسراع وهو من أفعال المقاربة.

والحديث يدل على أن العلم سيرفع من الناس ولو مع وجود القرآن في المصاحف، وفي صدور حفظته، وأن وجوده مع عدم العلم به لا يغني شيئاً، كما حصل لليهود والنصارى.

وفيه إشارة إلى أنه قد يطلق العلم على العمل، فإن الخشوع من الأعمال التي يثمرها العلم والإيمان. وقد أخبر أبو الدرداء ـ وقد جاء نحوه مرفوعاً ـ بأنه أول علم يرفع من الناس وهذا الإطلاق كان سائداً في رجال السلف، فكانوا لا يطلقون الفقيه والعالم إلا على من يخشى الله عزّ وجلّ. هذا وقد جاءت أحاديث صحيحة في «الصحيحين» وغيرهما بأن رفع العلم من أشراط الساعة. كما جاء أيضاً في حديث لحذيفة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «**يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوبِ، حَتَّى لا يُدْرَى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا... نُسُكٌ، ولا صدقةٌ، ولَيُسْرَى على كتاب الله في ليلةٍ، فلا يَبْقَى فِي الأرض منه آيةٌ**» الحديث [رواه ابن ماجه رقم (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/٤٧٣) وسنده صحيح]. وهذا بلا شك سيكون بعد موت سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، وسيأتي ذلك في أشراط الساعة إن شاء الله تعالى.

ذم الإفتاء بلا علم
وردُّ العلم في السؤال إلى الله تعالى

٥٧ز ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كان إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أفتاهُ، ومَن أشارَ على أَخِيهِ بأمْرٍ يَعْلَمُ أنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فقد خَانَه**».

[رواه الدارمي رقم (١٦١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٥٩)، وأبو داود رقم (٣٦٥٧)، وابن ماجه رقم (٥٣) في المقدمة، والحاكم (١/١٢٦) وسنده حسن. وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: فيه ذم الإفتاء والقول بغير علم وأن ما يترتب على فتوى الجاهل بالنسبة للمستفتي فالإثم كله على المفتي. وفيه إشارة إلى وجوب التثبت في

الفتوى والاستقصاء في البحث عن الحق وبذل الوسع في استخراج ما هو الصواب الموافق للدليل وقواعد العلم. وفيه وجوب النصيحة للمسلمين والابتعاد عن غشهم وخيانتهم.

٥٨ ـ وعن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال **«قامَ مُوسى النبيُّ ﷺ خطيباً في بَنِي إسرائيل، فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فقال: أنا أعلَمُ، فعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى اللَّهُ إليه: إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك»**.

[رواه البخاري في العلم (١/٢٢٨، ٢٢٩) وفي الأنبياء، وفي التفسير، ومسلم (١٥/١٣٧، ١٣٨) في الفضائل فضل الخضر، والترمذي في التفسير (٢٩٤١) وسيأتي في الأنبياء وفي التفسير].

ش: **«فعتب عليه»**: أي لامه حيث قال: أنا أعلم. **«إنَّ عَبْداً»** وفي رواية: **«بل عبدنا خضر»**. يعني هو أعلم منك فعنده ما ليس عندك.

وفي الحديث ذم من لا يرد العلم إلى الله عزّ وجلّ وأنه يجب على من يُسأل عن شيء لا علم له به أن يقول: لا أدري، أو: الله أعلم. ومباحث الحديث وفوائده تأتي في الأنبياء. وقد ذكرت ذلك مفصلاً في «العبر» وهو مطبوع.

ما جاء في تعلم غير لغة العرب للحاجة

٥٩ز ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلَّمَ لهُ كَلِماتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، وقال: **«إنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلى كِتابِي»**. قال: فما مَرَّ بي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُه لَهُ، قال: فلما تَعَلَّمْتُهُ كان إذا كَتَبَ إلَى يَهُود كَتَبْتُ إليْهِم، وإذا كَتَبُوا إليهِ قرأتُ له كِتابَهُم.

[رواه أبو داود في العلم رقم (٣٦٤٥)، والترمذي في الأدب رقم (٢٥٣٠) وحسنه وصححه، وذكره البخاري في العلم والأحكام معلقاً].

ش: والحديث يدل على جواز تعلم اللغات الأجنبية للحاجة

والمصلحة كالترجمة مثلاً والدعوة إلى الله عزّ وجلّ، لا لِتُتَّخَذَ لغة رسمية للتخاطب، وتجعل لغة الدوائر والدواوين، والسلطات، والمحاكم، بل ذلك يعد صبغة أجنبية، وجاهلية قذرة، ذلك أن اللغات أعظم شعائر الأديان، ونحن بصفتنا مسلمين لنا لغتنا العظيمة العريقة، لغة القرآن الكريم، ولغة أشرف الرسل صلوات الله وسلامه عليه. اختارها الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمة التي جعلها أكرم الأمم، فالواجب على المسلمين أن يهتموا بها، ويحافظوا على تعلمها والتخاطب بها، لأنها لغة دينهم الذي لا يعرفونه إلا من جهتها، فتعلمها وتعليمها من واجبات الدين الإسلامي الأساسية. إذ هي لغتهُ الرسمية، فلا يجوز للمسلمين أن يستبدلوا بها غيرها من لغة أي أمة من الأمم بل ذلك يعتبر ضلالاً وجهالة وسفاهة وذوباناً للشخصية الإسلامية في الشخصيات الأجنبية.

ما جاء في تعلم الأنساب

٦٠ز ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُم مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُم، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ في الأهلِ، مَثْرَاةٌ في المالِ، مَنْساةٌ في الأثرِ»**.

[رواه أحمد (٣٧٤/٢)، والترمذي في البر والصلة رقم (١٨٢٣)، والحاكم في العلم (٨٩/١)، وفي البر (١٦١/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وله شاهد صحيح رواه الطيالسي (٢٧٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٣)، والحاكم (١٦١/٤) عن ابن عباس، وصححه الحاكم والذهبي. وفي الباب شواهد أخر].

ش: «مثراة» بفتح الميم وسكون الثاء من الثرى وهو الكثرة. **«مَنْساةٌ»** على وزن سابقتها من النسيء وهو الزيادة. ومعناه: أن صلة الرحم تثمر محبة في الأقارب، وينشأ عنها البركة في المال والعمر وزيادتهما. والحديث يدل على مشروعية تعلم الأنساب.

قال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: لعمري لم ينصف من زعم أن علم النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضر. وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: من

علم النسب ما هو فرض عين، ومنه ما فرض كفاية، ومنه ما هو مستحب، فمن ذلك يعلم أن محمداً رسول الله ﷺ هو ابن عبدالله الهاشمي، فمن ادعى أنه غير هاشمي كفر. وأن يعلم أن الخليفة من قريش، وأن يعرف من يلقاه بنسب في رحم محرمة، ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه، أو يجب بره من صلة، أو نفقة، أو معاونة، وأن يعرف أمهات المؤمنين، وأن نكاحهن حرام، وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب، ويعرف الأنصار ليحسن إليهم، لثبوت الوصية بذلك، ولأن حبهم إيمان، وبغضهم نفاق. اهـ. وفاته آل البيت النبوي والذرية الطاهرة، فإن حبهم واجب لثبوت الوصية بهم أيضاً، ومنهم الإمام علي رضي الله تعالى عن جميعهم.

ما جاء في تعلم النجوم

٦١ز ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَن اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»**.

[رواه أحمد (٢٢٧/١)، وأبو داود في الطب رقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦) وسنده صحيح، وقد صححه النووي في رياضه، والذهبي في المهذب وفي الكبائر. وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: تعلموا من هذه النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم أمسكوا. رواه ابن عبدالبر في العلم (٣٨/٢) من طريق ابن أبي شيبة].

ش: الحديث يدل على ذم اقتباس العلوم من النجوم، وأن ذلك يعتبر شعبة من السحر. وهذا بلا شك مثل ما يدعيه المنجمون من علم الحوادث المرتقبة كإخبارهم مثلاً بتغير الأسعار، وموت فلان، أو ولاية فلان، أو حدوث حرب، وما كان في معنى ذلك ويزعمون أنهم يعرفون ذلك بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها ويدعون أن لها تأثيراً في السفليات... وكل ذلك ضلال، وتكهن، وتهجم على ما لا علم لهم به. نعم تعلم مدار البروج والمنازل، وسير الشمس والقمر فيها، ومعرفة النجوم

الظاهرة التي نعرف بها الحساب، ونهتدي بها للقبلة ونحو ذلك هو مطلوب بل واجب على جماعة المسلمين. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ إلخ، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الخ في آيات أخر.

ما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل

٦٣ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بلِّغُوا عنِّي ولَوْ آيةً، وحدِّثُوا عن بَنِي إسرائيلَ ولا حَرَجَ، ومن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فليَتَبوَّأْ مَقْعَدهُ مِنَ النَّارِ»**.

[رواه أحمد (١٥٩/٢، ٢٠٢، ٢١٤)، والدارمي رقم (٥٤٨)، والبخاري في العلم، وفي الأنبياء، والترمذي في العلم رقم (٢٤٨٣)].

ش: «لا حرج»: أي لا ضيق في ذلك ولا إثم. والحديث يدل على جواز الأخذ عن بني إسرائيل، والتحديث عما في كتبهم الغير مزورة، والاستشهاد بالإسرائيليات وهذا محمول على ما لم يتبين لنا كذبه، ومخالفته لنص كتاب، أو سنة، وقد كان عند بني إسرائيل الأعاجب العظام، وعندهم من العبر والعظات ما ترق وتلين له الصخور الرواسي. وفي قوله ﷺ: **«بلِّغوا عني ولو آية»** وجوب تبليغ القرآن والسنن والدين للناس، ولو كان ذلك قليلاً في الآونة بعد الآونة.

٦٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان أهلُ الكتاب يَقْرأُونَ التوراةَ بالعِبْرانِيَّةِ ويُفَسِّرُونَها بالعربيَّةِ لأهلِ الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتابِ، ولا تُكَذِّبُوهُم، وقُولُوا آمَنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا»** الآية.

[رواه البخاري في سورة البقرة وفي الاعتصام، باب قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تسألوا أهل الكتاب»**].

ش: «العبرانية»: هي لغة نبي الله وكليمه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، ولغة قومه بني إسرائيل. وفي الحديث دليل على أن أحاديث بني إسرائيل لا تقبل أو ترد على الإطلاق بل نرد منها ما خالف ديننا، أو ما كان فيه تشويه لشرائع الله عزّ وجلّ، وما عدا ذلك يبقى تحت الإباحة، وما شككنا فيه فوَّضنا أمره إلى الله عزّ وجلّ، وآمنا بكل ما أنزل على أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

وعيد من تعلم العلم لغير الله عزّ وجلّ

٦٤ز ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ عِلماً مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله عزّ وجلّ، لا يَتَعَلَّمُه إلا لِيُصِيبَ به عَرَضاً مِن الدُّنيا لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ»** يعني ريحها.

[رواه أحمد ٣٣٨/٢)، وأبو داود رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وابن حبان رقم (٨٩)، والحاكم (٨٥/١) وغيرهم وسنده صحيح. وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وكذا صححه النووي في «التبيان»، وفي أوائل «شرح المهذب». وقال العراقي في «المغني»: سنده جيد، ولمعناه شواهد عن جماعة ذكرتهما في «تهذيب الجامع» من أصحها حديث جابر رواه ابن ماجه (٢٥٤)، والحاكم (٨٦/١) وصححه، وكذا صححه العراقي].

ش: «يبتغى»: أي يطلب. «عَرَضاً» بفتحتين هو متاع الدنيا. «عرف» بفتح العين وسكون الراء، وهو ريحها. وفي الحديث الشريف وعيد شديد لمن يطلب العلوم الدينية للدنيا كالجاه، والرياسة، والمفاخرة، والحصول على الشهادات، أياً كانت: من الشهادة الابتدائية إلى الدكتوراة وما إليها من الألقاب المستوردة إلينا من بلاد الكفار، والتي حملت كل الطلبة على عدم الإخلاص لله عزّ وجلّ في طلبهم العلم حتى إنه لم يعد أحد يتعلم العلوم الإسلامية لوجه الله تعالى إلا أقل القليل.

٦٥ز ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ به العُلماءَ، أوْ لِيُمَارِيَ به السُّفهاءَ، أوْ يَصْرِفَ به وجوهَ الناسِ إليه، أدخلَهُ اللَّهُ النَّارَ»**.

[رواه الترمذي في العلم رقم (٢٤٦٩) وهو حسن لشواهده].

ش: «**ليجاري**»: أي يجري معهم في الجدال والمناظرة، **ليظهر علمه** إلى الناس رياء وسمعة. «**ليماري**»: أي يجادل، والمماراة والتماري: المجادلة. وفي الحديث ذم من هذه صفته من طلبة العلم، **لأن قصده** سيء، وليس فيه إخلاص لله تعالى، بل همه هو العلو والتكبر والتفاخر. وكل ذلك من أمور الدنيا، والأخلاق السافلة الساقطة.

الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع

٦٦ ـ وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، ومِن قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، ومِن نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ دَعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**».

[رواه مسلم في الدعوات مطولاً (٤١/١٧)، وفي الباب عن أنس رواه أحمد (١٩٢/٣، ٢٢٥)، وابن حبان (٢٤٤٠) وغيرهما من طرق صحيحة. وعن ابن عمر وعند أحمد والترمذي والحاكم (٥٣٤/١) بسند صحيح. وعن أبي هريرة عند أبي داود وابن ماجه (٣٨٣٧)، والحاكم (٥٣٤/١) وسنده صحيح].

ش: والعلم الذي لا ينفع المستعاذ منه يشمل ما لم يأذن الله تعالى في تعلمه كبعض العلوم السحرية والفلسفية، وبعض علم النجوم، كما يشمل العلوم الدينية التي لا يصحبها عمل صالح، كما هو الحال في أكثر من يطلب العلم، وخاصة في عصرنا، فإن هدفهم هو الوصول إلى الوظائف والحصول على المرتبات الشهرية، التي يتقاضونها مقابل عملهم. أما التعلم بقصد العمل ونفع الناس... فذلك مما لا يخطر على بالهم. ومن كان بهذه الحالة فهو جاهل، وإن قرأ علوم الأولين والآخرين.

٦٧ز ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ عِلْمٍ لا يُنْتَفعُ به، كمَثَلِ كنْزٍ لا يُنْفَقُ مِنْهُ في سَبِيلِ اللَّهِ**».

[رواه أحمد (٤٩٩/٢)، والدارمي (٥٦٢)، وزهير بن حرب في العلم (١٦٢) من

طريقين هو بهما حسن. وله شاهد عن ابن عمر رواه ابن عبدالبر في «العلم»، وآخر عن سلمان رواه زهير بن حرب في «العلم» رقم (١٢) موقوفاً].

ش: هذا من العلوم الغير نافعة، وهو أن يكون للإنسان علوم ومعارف إسلامية، ولكنه يبخل بنشرها وتبليغها فمثل هذا كمثل مال مكنوز لا ينتفع به أحد لا صاحبه ولا غيره. وهذا بلا ريب شر محض. نسأل الله السلامة.

سؤال العلماء يوم القيامة عما عملوا في علمهم

٦٨ز ـ عن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيامَةِ حتّى يُسأَلُ عن أربع: عن عُمُرِه فيما أفْنَاهُ، وعن عِلْمِهِ ماذا عَمِلَ فيهِ، وعَن مَالِهِ مِنْ أين اكْتَسَبَهُ وفيما أنْفَقَهُ، وعن جِسْمِهِ فِيما أبْلاهُ**».

[رواه الدارمي (٥٤٣) في باب اتباع السنة، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٧) وحسنه وصححه. وللحديث شواهد عن معاذ عند البزار والخطيب في «الاقتضاء» وفي «التاريخ» (١١/٤٤١، ٤٤٢) بسند صحيح، وعن ابن مسعود عند الترمذي وغيره، وسيأتي في الزهد إن شاء الله تعالى].

ش: وفي الحديث تهديد بالغ، وزجر شديد للإنسان أياً كان، وخاصةً صاحب العلم، لأن قيام الحجة عليه أعظم، فلا يتقدم أحد إلى الأمام يوم القيامة حتى يسأل ويحاسب على هذه الأشياء بالذات. نسأل الله البر الرحيم أن يتجاوز عنا بمنّه وفضله وإحسانه.

علماء السوء وشرارهم

٦٩ ـ عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَومَ القِيامةِ فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بها كما يَدُورُ الحِمارُ بالرَّحَى، فيَجْتَمِعُ إليه أهلُ النار**

فيقولون: **يا فلان ما لَكَ؟ ألم تَكُنْ تأْمُرُ بالمعروفِ وتنهى عنِ المنكرِ؟** فيقولُ: **بلى، قد كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنْهَى عن المنكرِ وآتِيهِ**».

[رواه أحمد (٥/٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩)، والبخاري في صفة النار، ومسلم في الزهد (١٧/١١٧، ١١٨)].

ش: «فتندلق»: أي تخرج. **«أقتاب»**: أي أمعاء بطنه ومصارينه. وهو جمع قتب بكسر القاف. وفي الحديث: وعيد عظيم، وزجر بالغ لمن يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ثم ينسى نفسه فيخالفهم إلى ما ينهىٰ عنه: فيأتي المنكر، ويترك المعروف كما هو الشأن في أكثر من ينتمي إلى العلم اليوم. نعوذ بالله من أن يكون علمنا وبالاً علينا. وإذا كان هذا جزاء من يقول الحق ولا يعمل به، فكيف يكون الحال يا تُرى فيمن يعكس فيأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف ككثير من شياطين العلماء، الذين غرَّتهم الحياة وفتنوا باتباع أهوائهم، إن أمرهم والله لشديد وعظيم.

٧٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ رجلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قَالَ: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتَّى اسْتُشْهِدتُ، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ قاتَلْتَ ليُقالَ جَريءٌ، فقد قيل: ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلْقِيَ في النارِ. ورجلٌ تَعلَّم العلمَ وعلَّمَه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرَّفَه نِعَمَه فعَرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العلمَ وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العلمَ لِيُقالَ عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليقالَ هو قارىءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار. ورجلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه وأعْطَاهُ من أصنافِ المالِ كلِّهِ، فأُتِيَ به فعَرَّفه نِعمه فعَرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ يَجِب أن يُنفق فيها إلا أنْفَقْتُ فيها لكَ، قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلتَ لِيُقالَ هو جَوَادٌ، فقد قيل: ثُمَّ أُمر به فسُحِبَ على وجهِه ثم أُلْقِيَ في النَّار»**.

[رواه أحمد (٢/٣٢١، ٣٢٢)، ومسلم (١٣/٥٠، ٥١)، والنسائي كلاهما في الجهاد].

ش: «**يُقْضَى... عَلَيْهِ**»: هو يدل على أن هؤلاء الثلاثة هم أول من يقضى عليهم ويحاسبوا، لكنه جاء في الصحيحين: «**أولُ ما يُقْضَى بَين الناس في الدِّماءِ**». وصح في السنن: «**أولُ ما يُحَاسَبُ به العبدُ الصلاة**»، فيجمع بينها بأنها من أول ما يقضى فيها أو يكون ذلك باعتبار حقوق الله، وحقوق العباد. فأول ما يقضىٰ من حقوق العباد في الدماء، وأول ما يقضىٰ من حقوق الله عزّ وجلّ الصلاة والإخلاص وما إلى ذلك. «**اسْتُشْهِدَ**»: أي قتل شهيداً في ميدان المعركة. «**فعرَّفه**»: أي بين له ما أعطاه من نِعم القوة والعافية والإمدادات. «**جَريءٌ**»: أي شجاع مقدام لا جبن فيه. «**فَسُحِبَ**»: أي جرَّ على وجهه. «**تعلم العلم**»: يعني به علم الديانة. «**ليقال عالمٌ... قارىءٌ**»: أي تعلمت وقرأت رياءً وسمعة ومباهاة وتفاخراً. «**من سبيل**»: أي لم أترك طريقاً من طرق الخير التي يلزم فيها الإنفاق إلا كنت من المشاركين فيه. «**جوَّادٌ**»: أي سخي كريم.

وهذا الحديث من أشد ما جاء في الرياء وعدم إخلاص العمل لله عزّ وجلّ وكفى به زاجراً للمرائين الذين يريدون بأعمالهم وأقوالهم الوجاهة والمكانة عند الناس. نسأل الله عزّ وجلّ أن يرزقنا الإخلاص في جميع تصرفاتنا وأن يجنبنا الرياء والسمعة.

٧١ز ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنافِقٍ عَلِيمُ اللِّسَانِ**».

[رواه أحمد (١/٢٢، ٤٤) وسنده صحيح، وله شاهد عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه، رواه ابن حبان رقم (٩١) وسنده صحيح أيضاً].

ش: وإنما خاف ﷺ على أمته من هذا الصنف؛ لأنهم يضللون الرأي العام، ويفسدون المجتمع الإسلامي بما أوتوا من فصاحة وبيان، وعلم باللسان العربي وأساليبه، فيصورون للجماهير الباطل حقاً، والحق باطلاً، فيصرفونهم بذلك عن الجادة وطريق الله القويم، ويعتقد الناس فيهم العلم والمعرفة... وهم عارون عن الاستقامة ومراقبة الله عزّ وجلّ، بل هم منافقون مراءون مداهنون، أو ملحدون كافرون. وما أكثر هذا النوع في وقتنا في سائر الأقطار.

٧٢ز ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**».

[رواه أحمد (١٧٥/٢) من طريقين، هو بهما حسن، والحديث صحيح لغيره فإن له شواهد منها عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١٥١/٤، ١٥٤، ١٥٥)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: أحد أسانيده ثقات].

ش: «**قراؤها**» المراد بالقراء هنا: حفظة القرآن والعلماء به، كذلك كانوا يطلقونه في الصدر الأول ثم أطلق ذلك في بعض العصور على العباد والزهاد. أما اليوم فلا يطلق ذلك إلا على حفظة القرآن، ولو كانوا عاميين عارين عن العلم. والنفاق هنا قد يكون هنا نفاقاً عملياً كتظاهرهم بقراءتهم وعلمهم إرادة وجه الله والآخرة، وبواطنهم تضمر خلاف ذلك، من إرادة ثناء الناس، والجاه، وعرض الدنيا، وهذا هو المعبر عنه بالرياء وهو من الشرك الخفي. وقد يكونون متصفين بصفات أخرى بحيث لا يتصف بها إلا المنافقون كالكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والفجور في الخصام إلى غير ذلك.

٧٣ز ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ، تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِن نَارٍ، قال: فقلت: مَنْ هَؤُلاءِ يا جَبْرِيلُ؟ قال: هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ مِن أُمَّتِكَ، يأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ، وينْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ**».

[رواه أحمد (١٢٠/٣، ٢٣١، ٢٣٩)، وابن حبان رقم (٣٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم والعمل» رقم (١١١) من طرق هو بها حسن صحيح].

ش: «**تقرض**»: أي تقطع. «**بمقاريض**»: جمع مقراض: وهي آلة حديدية معروفة، يقطع بها الثياب ونحوها. وفي هذا وعيد شديد، وتهديد أكيد للخطباء الثرثارين، الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويأمرون الناس وينسون أنفسهم، وهم يقرأون الكتاب، ويعلمون الحلال والحرام. وجوزوا بقطع شفاههم جزاء من جنس أعمالهم. وهو يدل على أن دعوة العالم والداعية الناس إلى دين الله مع التقصير في العمل من كبار المعاصي التي توجب العذاب يوم القيامة. وأن العلم وحده مجرداً لا يكفي في النجاة

من العقاب. أعاذنا الله تعالى مما يوجب مقته وغضبه.

المجددون من هذه الأمة

٧٤ز ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مَائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»**.

[رواه أبو داود في الملاحم رقم (٤٢٩١)، والحاكم في الفتن (٤/٥٢٢)، وصححه الحاكم والعراقي، والسيوطي، والسخاوي، وغيرهم رحمهم الله تعالى، وسنده صحيح كما قالوا].

ش: «يبعث»: أي يرسل وينشىء لهذه الأمة الإسلامية. **«على رأس»**: أي عند كل **«مائة سنة»**: وهو القرن عند الجمهور. **«من يجدد»**: أي من يحيي لها أمر دينها أصلاً وفرعاً. وهذا التجديد يكون بالدعوة إلى الله وإلى دينه وخدمة ذلك بالقول والكتابة والتأليف ونشر ذلك بين الناس. وليس المراد بالتجديد الإتيان بشيء جديد في الدين ليس له أصل فيه كما يفعل المجددون الحاليون الغالون الذين ولوا وجهتهم للكفار. ودعوا إلى نبذ تعاليم الدين الإسلامي والتنكر لشرع الله، والسير وراء أوربا وأمريكا ومن لف لفهم فهذا مُروقٌ من الإسلام، وليس تجديداً له.

والمجددون يكونون بلا شك من العلماء بالله وبأحكامه ودينه... ولا يختصون بجانب من الجوانب، بل قد يكونون في التفسير، وفي الحديث، وفي الفقه الإسلامي، وفي اللغة العربية وعلومها، وفي أصول الفقه، وفي الأخلاق والسلوك وما إلى ذلك.

ولذلك فقد يكون المجددون جماعة في كل عصر وجهة. وقد وهم ههنا أقوام في التجديد والمجددين ومن رجع إلى تاريخ علماء الإسلام وكتب التراجم وجد الجم الغفير ممن يطلق عليهم مجددون في كل العصور. والله تعالى أعلم وأحكم.

وبهذا تمَّ كتاب العلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وذريته وأزواجه وصحابته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة:
من التمسك بالقرآن الكريم

٧٥ز ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: «**إنَّ الشَّيطانَ قَدْ يَئِس أنْ يُعْبَدَ بأرْضِكُم**». ثم قال: «**إنِّي قَدْ تَركتُ فِيكم مَا إن اعْتصمْتُم به فلَن تَضِلُّوا أبداً، كتابَ اللَّهِ وسُنَّةَ نَبيِّهِ ﷺ**».

[رواه الحاكم (٩٣/١) بسند صحيح، وذكره مالك رحمه الله تعالى في القدر رقم (١٧٢٧) من «الموطأ» بلاغاً، وجاء نحوه عن أبي هريرة رواه الحاكم أيضاً (٩٣/١) بلفظ: «**إني قد تركت فيكم شيئين لن تَضِلُّوا بعدهما: كتاب الله وسُنَّتي، ولن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض**»].

ش: «**يئس**»: أي قطع أمله ورجاءه من عبادة غير الله في الحجاز. «**فلن تضلوا**»: هذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾... فالتمسك بهما أمان من الزيغ والانحراف. والخير كله في الاهتداء بهديهما، والسير على نهجهما. وما خسر المسلمون وذلوا وتأخروا في كل الميادين إلا بالإعراض عن هدي القرآن والسنة ولو رجعوا إليهما وحكموهما في حياتهم لكانوا سادة العالم ولكن....

٧٦ ـ وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: قام رسولُ الله ﷺ يَوماً فِينا خَطِيباً بِماءٍ يُدْعى خُمّاً بين مكة والمدينةِ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ووعَظ وذكَّر، ثم قال: «**ألا أيُّها النَّاسُ، فإنَّما أنا بَشَرٌ يُوشِك أن يأتِيَنِي**

رسولُ رَبِّي فأُجيب، وإنِّي تاركٌ فيكم ثَقَلَين. أوَّلُهما: كتابُ الله، فيه الهُدى والنُور، فخذُوا بكتابِ الله واسْتَمْسِكُوا به»، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُم اللَّهَ في أهلِ بيتي، أُذَكِّرُكُم اللَّهَ في أهلِ بتي، أُذَكِّرُكم اللَّهَ في أهل بيتي».

[رواه أحمد (٣٦٦/٤، ٣٦٧)، ومسلم في المناقب ١٨٠/١٧٩/١٥/ من مناقب الإمام علي، ورواه الترمذي في المناقب رقم (٣٧٨٨) من حديث زيد وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إن تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا بَعْدِي: أحدُهُما أعظمُ من الآخَرِ، وهو كتابُ الله حبلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السماءِ إلى الأرض، وعِتْرَتي أهلُ بَيتي لن يفْتَرقَا حَتى يرِدَا عليَّ الحوض فانظُروا كيفَ تَخْلُفُونِي فيهما». وسنده صحيح عن زيد، ورواه الحاكم (١٤٨/٣) وصححه].

ش: «خُمّ» بضم الخاء وتشديد الميم: اسم ماء يقال له: غدير خم. «ثقلين»: تثنية ثقل بفتحتين سماهما بذلك لثقل الاهتمام والقيام بهما على النفوس، ولما يصيب المتمسك بهما من المشقة. «فيه الهدى»: زاد مسلم: «من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضلّ». «حَبْلٌ»: أي نور ساطع، والعرب تشبه النور الممتد بالحبل والخيط. «وعترتي» بكسر العين: هم أهل بيته وأقاربه ورهطه، والمراد بهم هنا علماء آل بيته العاملون، وفيه إشارة إلى أنه لا يزال في ذريته الطاهرة من أُمِر المسلمون بالتمسك بهم وبهديهم مع القرآن الكريم وأنهم لا يفترقون عن القرآن حتى يلقوه عند الحوض معه، وأن التمسك بهما أمان من الضلال والخروج عن الحق، لأن الكتاب والسنة في جانبهم. وحديث زيد سيأتي الكلام على بقية ما فيه في الفضائل إن شاء الله تعالى.

٧٧ ـ وعن طلحة بن مُصَرِّف رحمه الله تعالى قال: قلتُ لعبدِالله بن أبي أوْفَى... أوْصَى رسولُ الله ﷺ قال: لا، قلتُ: وكيفَ كتَبَ الوَصِيَّةَ وكيف أمَرَ الناسَ؟ قال: أوْصَى بِكِتابِ اللَّهِ.

[رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه (٢٦٩٦) كلهم في الوصايا، ورواه البخاري أيضاً في المغازي وفي فضائل القرآن ويأتي في الوصايا].

ش: **«أوصى بكتاب الله»**: يعني أنه لم يوص بشيء من المال كعادة الناس، وإنما كانت بالقرآن والتمسك بما فيه. على أن حياته الزاهرة كانت كلها وصايا بذلك، وما بعث ﷺ إلا للدعوة لما تضمنه كتاب الله المقدس.

٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله يَرضَى لكُم ثلاثاً، ويسخَطُ لكُم ثلاثاً، يَرضَى لكُم أن تَعْبُدوا الله ولا تُشْرِكُوا به شيئاً، وأن تَعْتَصِموا بحبلِ الله جميعاً ولا تَفرَّقُوا، وأنْ تُناصِحُوا مَن ولاَّهُ الله أمرَكُم، ويَسْخَطُ لكُم، قيل وقال وإضَاعَةَ المالِ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ»**.

[رواه أحمد (٣٦٧/٢)، ومسلم في الأقضية (١٠/١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٠٢/١)].

ش: **«يرضى»**: الرضا والسخط صفتان لله عزّ وجلّ يجب الإيمان بهما وتفويض حقيقتهما إلى الله تعالى هذا مذهب السلف. وقال آخرون من الخلف: المراد بذلك أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه. أو إرادته الثواب والعقاب. **«أن تعبدوه»**: العبادة هي غاية الخضوع والتذلل. والمراد هنا توحيده والعمل على موافقة تعاليم دينه. **«وأن تناصحوا»**: هو من النصح الذي هو الإرشاد إلى ما فيه خير وصلاح. **«وإضاعة»**: ذلك يكون بتبذيره وإنفاقه في غير مشارعه المطلوبة. **«وكثرة السؤال»**: وذلك فيما لا فائدة فيه ولا حاجة. **«قيل وقال»**: والمراد بذلك الإكثار من حكاية الأخبار بدون أي فائدة وفي ذلك خطر كبير على دين المسلم.. والحجة من الحديث الاعتصام بكتاب الله والنهي عن التفرق لأن الاختلاف يمزق شمل الأمة ويضعفها ويشتتها ويؤدي إلى استيلاء العدو عليهم كما وقع...

صراط الله المستقيم

٧٩ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: خَطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً، ثم قال: **«هذا سَبِيلُ اللَّهِ»**، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَن يَمِينِهِ

وعَن شِمَالِهِ، وقال: «**هذِهِ سُبُلٌ، على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعُو إليهِ**»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

[رواه أحمد (٤٣٥/١/٤٦٥)، والدارمي في المقدمة رقم (٢٠٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٣/٦)، وابن حبان (١٧٤١، ١٧٤٢)، والحاكم (٣١٨/٢) بسند حسن أو صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. . وله شاهد عن جابر رواه أحمد وابن ماجه (١١)].

ش: إن رسولنا الكريم ﷺ يبيِّن لنا المنهاج الواضح الذي يجب علينا سلوكه والسير عليه، ويحذِّرنا من طرق الشيطان الكثيرة المتنوعة، التي يدعو إليها أنصاره وجنوده وعملاؤه وللزيادة في الإيضاح، يضرب لنا مثلاً لكل من طريق الله وطرق إبليس، ويعرفنا بأن كل طريق من طرق الشيطان له دعاته واقفون عليه يدعون إليه.

٨٠ ـ وعن النَّوَّاس بنِ سَمْعَانَ رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُستقِيماً، وعلى جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعلى بَابِ الصِّراطِ دَاعٍ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ أُدْخُلُوا الصِّراطَ جَمِيعاً ولا تَعْوُجوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِن فَوْقِ الصِّراطِ، فإذا أرادَ أحدُكم أنْ يَفْتَحَ شَيئاً مِنْ تِلكَ الأبوابَ قالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فإنَّك إنْ تَفْتَحْه تَلِجْه، والصِّرَاطُ الإسْلامُ، والسُّورَانِ حُدُودُ الله تعالى، والأبوابُ المُفَتَّحَةُ مَحارِمُ الله تعالى، وذلك الداعِي على رأسِ الصِّراطِ كِتابُ الله عزّ وجلّ، والدَّاعِي فَوقَ الصِّراط واعِظُ الله في قلبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**».

[رواه أحمد (١٨٢/٤، ١٨٣) من طريقين، والترمذي في الأمثال (٢٦٧٠)، والحاكم (٧٣/١) وسنده صحيح في طريق لأحمد، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: «**ضَرَب الله**»: أي بين، والمثل بفتح الميم والثاء تصوير شيء خفي بأمر جلي، والغائب بالشاهد ليعرف ويفهم. «**ويحك**»: هي كلمة ترحم وتوجع، تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها ثم استعملت لمجرد الزجر كما هنا. «**تلجه**»: أي تدخله. «**واعظ الله**»: وهو ما يسمى بلَمَّة الملك وتقابلها لَمَّة الشيطان. وهما مصدر الخير والشر، والصراع بينهما

دائم، فأيهما انتصر كانت النتيجة له في الانقياد. والحديث دليل على أن طريق الله المستقيم واضح جلي لا لبس فيه ولا غموض كما هو مبين ومبسوط في هذا المثل.

مثل ما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى والدين

٨١ ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّما مَثَلي ومثَلُ ما بعَثَنِي اللَّهُ به كمَثَلِ رجلٍ أتَى قَوماً، فقال: يا قوم إنِّي رأيتُ الجيشَ بعينَيَّ وإنِّي أنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فالنجاءَ النجاءَ، فأطاعهُ طائِفَةٌ مِن قومِه فأدْلَجُوا، فانْطَلَقُوا على مَهَلِهم فَنَجَوْا، وكَذَّبَتْ طائفةٌ منهم، فأصْبَحُوا مكانَهم فصَبَّحَهم الجيشُ فأهلكهم واجْتَاحَهم، فذلك مَثَلُ مَن أطاعني فاتَّبَعَ ما جئتُ به، ومَن عصاني وكذَّب ما جِئتُ به مِن الحق.**

[رواه البخاري في الرقاق وفي الاعتصام (١٦/١٧)، ومسلم في الفضائل (٤٨/١٥، ٤٩)].

ش: «مثلي»: المثل: الصفة العجيبة الشأن يوردها البليغ على سبيل التشبيه لإرادة التقريب... ولضرب الأمثال دور هام في باب الدعوة والإرشاد، وتقويم العقيدة وتهذيب الأخلاق والسلوك ولذلك أكثر الله تعالى من ضربها في القرآن الكريم، وأفاض في إيرادها وتكرارها. وفي السنة المطهرة أيضاً الشيء الكثير. **«النذير»**: أي المُبَلِّغ المخوف. **«العُريان»**: من التعري، قال العلماء: أصله أن الرجل كان إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم. **«فالنجاء»**: أي اطلبوا الخلاص. **«فأدلجوا»**: أي ساروا أول الليل. **«فصبحهم»**: أي فاجأهم العدو صباحاً وغزاهم. **«فاجتاحهم»**: أي استأصلهم وهو من الجائحة التي تفجأ الثمرة فتهلكها.

٨٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مثلي كَمَثَلِ رجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً فلَمَّا أضاءَتْ مَا حَوْلَها جَعَلَ الفَرَاشُ وهذه الدوابُّ التي يقَعْنَ في النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وجَعل يَحْجُزُهُنَّ ويَغْلِبْنَه فيَقْتَحِمْنَ،**

فذلك مَثَلِي ومثلُكم أنا آخُذُ بِحُجَزِكُم عنِ النارِ، هَلُمَّ عن النَّار، هلُمَّ عن النار، فتَغلِبُوني وتَقَحَّمُونَ فِيها».

[رواه البخاري في الأنبياء وفي الرقاق (١٤/٩٩، ١٠٠)، ومسلم في الفضائل (١٥/٤٩)، والترمذي في الأمثال].

ش: «استوقد»: أي أوقد وأضرم. «الفراش» بفتح الفاء: هي تلك الدويبة الطيارة التي تلقى بنفسها في لهب النار. ويطلق على غوغاء الجراد المنتشر. «بحجزهن»: أي يمنعهن من الوقوع فيها. «فتقحمون»: الاقتحام في الشيء إلقاء النفس فيه بإيثار وإقدام على الأمور الشاقة من غير تثبت. «بحجزكم» بضم الحاء وفتح الجيم ثم زاي مكسورة جمع حجزة وهي معقد الإزار والسروال. «هلمَّ»: أي تعالوا عن النار إلى طريق السلامة منها. ومعنى المثل واضح من الحديث الشريف.

٨٣ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: «جاءتْ ملائكةٌ إلى النبي ﷺ وهو نائِمٌ فقالُوا: إنَّ لِصَاحِبِكُم هَذا مَثَلاً، فاضرِبُوا له مَثَلاً. قال بعضُهم: إنه نائِمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العينَ نائِمةٌ والقلبُ يقظانُ، فقالوا: مَثلُه كمثلِ رجل بَنَى داراً، وجَعَل فيها مأدُبَةً، وبعَثَ داعياً فمن أجابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وأكَل معه مِن المأدُبَةِ، ومَن لم يُجِب الداعيَ لم يدخلِ الدار ولم يأكلْ من المأدُبَةِ، فقالوا: أوِّلُوها له يَفْقَهْهَا، قال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلبُ يقظانُ، فقالوا: الدارُ الجنةُ، والداعي محمَّدٌ، فمن أطاعَ محمداً فقد أطاعَ الله، ومن عَصَى مُحمداً فقد عصى الله، ومحمدٌ فرق بين الناس».

[رواه البخاري في الاعتصام (١٧/١٢، ١٣)، ورواه الترمذي في الأمثال بنحوه وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (١/٤٠٠)، والترمذي في الأمثال من طريقين مطولاً وكلاهما صحيح، ويأتي في دلائل النبوة إن شاء الله تعالى].

ش: «مأدبة» بضم الدال هي الطعام يضعه الرجل يدعو الناس إلى تناوله. «أولوها»: أي فسروها له يفهمها. وفي الحديث فوائد يدركها القارىء بأدنى إمعان.

من التمسك بالسنة المحمدية وذم البدع والمحدثات

٨٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُون الجنةَ إلاَّ مَن أَبَى»**، قيل: ومَن يَأْبَى؟ قال: **«مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الجنةَ، ومَنْ عَصَانِي فقد أَبَى»**.

[رواه أحمد (٣٦١/٢)، والبخاري في الاعتصام (١١/١١٠، ١٢) ونحوه عند الحاكم (٥٥/١) في الإيمان، وصححه على شرطهما].

ش: **«أَبَى»**: أي امتنع. **«من أطاعني»**: جعل طاعته ﷺ من أسباب دخول الجنة وعدمها من أسباب النار لأنه لا واسطة بينهما.

٨٥ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُم، فإنَّما هَلَك الذِين مِن قَبْلِكم بِكثرةِ سُؤالِهم واخْتِلافِهم على أنبِيَائِهم، فإذا نَهيتُكم عن شيء، فاجتنبوه، وإذا أَمَرْتكم بأمْرٍ فأْتوا مِنه ما استَطَعْتُم»**.

[رواه أحمد (٢٤٧/٢، ٢٥٨)، والبخاري في الاعتصام (١٩/١٧، ٢١)، ومسلم في الحج (١٠٠/٩، ١٠١)، والترمذي في العلم، والنسائي في الحج بألفاظ].

ش: **«ذروني»**: أي اتركوني. **«ما تركتكم»**: أي مدة تركي لكم بلا إحداث حكم. **«فإنما هلك»**: فيه دليل على أن كثرة السؤال مع المخالفة وترك الإتباع من أسباب الهلاك وجلب العذاب. **«فأتوا»**: هو يدل على أن الأمر منوط بالاستطاعة خلاف النهي فإنه لا رخصة فيه إلا مع الإكراه فقط، وهو مقدم على الأمر، وفيه بيان لتلك القاعدة العظيمة: **«المَيْسُور لا يَسْقُطُ بِالمَعْسُور»**، وفي الحديث إشارة إلى وجوب الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلاً فكأنه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي، واجعلوا اشغالكم بها عوضاً عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع بعد. فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ثم يجتهد في تفهم ذلك والوقوف على المراد منه.

٨٦ ـ وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا إني أُوتِيتُ القرآن، ومِثْلَه مَعَهُ، ألاَ يُوشِكُ رجلٌ شبعانُ**

على أريكته يقول: **عليكُم بهذا القرآنِ، فما وَجَدتم فيه مِن حلالٍ فأحِلُّوه، وما وَجدتم فيه مِن حرامٍ فَحَرِّمُوه، وإن مَا حَرَّم رسولُ الله ﷺ كما حَرَّمَ اللَّهُ**».

[رواه أحمد (٤/١٣٠، ١٣١)، والدارمي رقم (٥٥٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٤)، والترمذي في العلم (٢٤٧٨) وسنده صحيح، وكذا رواه ابن ماجه (١٢)، والحاكم (١/١٠٩) وصححه ووافقه الذهبي].

ش: «**أريكته**» بفتح الهمزة وكسر الراء المهملة، هي السرير، أو غيره من مظانها الترف، وفي الحديث دليل على أن السنة المحمدية هي أصل مستقل بنفسه في التشريع الإسلامي وأنها لا تَقِلُّ درجةً عن القرآن في الاحتجاج بها، لأن الكل من عند الله. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾. وفيه تنبأ عظيم منه عليه الصلاة والسلام بما ظهر في هذه العصور من الطعن في السنة المحمدية، ورفض الاحتجاج بها، والاكتفاء بالقرآن. ولأصحاب هذه الفكرة كتب ومقالات... وقد رد عليهم جماعة من أهل العلم والدين.

٨٧ ـ وعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُم مُتَّكِئاً على أريكَتِهِ يَأتِيهِ الأمْرُ مِن أمْرِي مِمَّا أمَرْتُ بِهِ أو نَهَيتُ عَنه فيقولُ: لا أدْرِي ما وَجَدْنَاهُ في كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ**».

[رواه الشافعي في «الرسالة» رقم (٢٩٥)، وأحمد (٦/٨)، والحميدي رقم (٥٥١)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٥)، والترمذي في العلم رقم (٢٤٧٧) بتهذيبي، وابن ماجه (١٣)، والحاكم (١/١٠٨، ١٠٩)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي وسنده صحيح].

ش: «**لا ألفين**»: أي لا أجدن.. الحديث كسابقه في الإشارة إلى ما ظهر من المبتدعة أو بعبارة ملاحدة مرتدين يردون السنة المطهرة ولا يقبلون إلا القرآن ـ زعموا وذلك لأن السنة هي المبينة للقرآن الكريم فبدونها لا نعرف كثيراً من أحكام القرآن المجملة... فمن ردها فقد ردَّ القرآن لأنه الذي أمرنا باتباعها والأخذ بها. وقول الواحد من هؤلاء: «**لا أدري**» يدل على جهلهم بالدين...

٨٨ ـ وعن رافع بن خَدِيج رضي الله تعالى عنه قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ وهم يُؤَبِّرُونَ النَّخل، فقال: **«ما تَصْنَعُونَ؟»**، قالوا: كُنَّا نَصْنَعُه، قال: **«لعلَّكُم لَوْ لَمْ تَفْعلُوا كانَ خَيراً»**، فتَرَكُوه فنَقَصَتْ، قال: فذكروا ذلك له فقال: **«إنَّما أنَا بَشَرٌ إذا أمَرْتُكم بِشيءٍ مِنْ أمْرِ دِينكُم فخذُوا بِهِ، وإذا أمَرْتُكُم بِشيءٍ مِن رَأْيِي فإنَّما أنَا بَشَرٌ»**.

[رواه مسلم في الفضائل (١١٧/١٥)، وفي الباب عن عائشة وأنس رضي الله تعالى عنهما عند مسلم أيضاً (١١٧/١٥، ١١٨) وفيهما: **«أنْتُمْ أعْلمُ بِأمْرِ دُنْياكُم»**. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١٦٢/١، ١٦٣) بسند صحيح بلفظ: **«إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلَكُم، وإنَّ الظَّنَّ يُخطِيءُ ويُصيبُ، ولكن ما قلتُ لكم قال الله: فلن أكْذِب على اللَّهِ»** وهو في الفضائل من صحيح مسلم (١١٦/١٥، ١١٧) مطولاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عند البزار بسند حسن كما في مجمع الزوائد (١٧٨/١) ولفظه: **«إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكم فما حَدَّثْتُكم عَنِ اللَّهِ فهو حَقٌّ، وما قلتُ فيه مِن قِبَلِ نَفْسِي فإنَّما أنا بَشَرٌ أصِيبَ وأُخطِيءُ»**].

ش: **«يؤبرون»**: أي يُلَقِّحُون، ومعناه إدخال شيء من طلع نخل الذكر في طلع الأنثى منه لتعلق وتثمر بإذن الله تعالى. والتلقيح شيء طبيعي إلاَهِيٌّ في هذا الخلق ولذلك خلق الله من كل شيء زوجين ذكراً وأنثى. **«فنقصت»**: يعني غلة النخل من التمر.. وفي هذه الأحاديث إشارة إلى أن كل ما قاله رسولنا الكريم ﷺ من أمر الدين هو حق لا يدخله خطأ أبداً، ويجب علينا اتباعه فيه. أما ما قاله برأيه مما يتعلق بأمور الحياة وشؤون المعاش ونظام الدنيا فلا يلزمنا الاقتداء به فيه. وقوله ﷺ: **«أنْتُم أعْلَمُ بِأمْرِ دُنْيَاكُم»** فيه دليل واضح على أن كل ما نراه من أمور حياتنا نافعاً لنا فهو مرخص لنا فيه إذا لم يخالف شرعاً. وذلك كالتجارب الفلاحية، والصناعية، والطبية، وخواص الأشياء وغيرها من أمور الكون التي اطلع عليها الإنسان واستخرجها، وجعل يستخدمها ويستغلها في حياته، فإن ذلك لا يقال فيه: لا نقبله لأنه ليس من الدين، أو لم يشرعه لنا الله ولا رسوله ﷺ، لأن مثل هذا لا دخل للدين فيه إلا من ناحية تعلق الحكم به.

٨٩ ـ وعن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أنه حدَّث أنَّ رجُلاً من الأنصار خاصَمَ الزُّبَيْرَ عِند رسول الله ﷺ في شِرَاجِ الحَرَّةِ التِي يَسْقُون بها النخلَ فقال الأنصاري: سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ فأبَى عَلَيْهِ، فاخْتَصَمُوا عِند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أرْسِل الماءَ إلى جَارِكَ»**. فغضِب الأنصاري فقال: أنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِك، فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: **«يا زبير، اسْقِ ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ»**. فقال الزبير: والله إنِّي لأحْسِبُ نزلت هذه الآية في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

[رواه أحمد (٤/٤، ٥)، والبخاري في المزارعة (٥/٤٣١، ٤٣٧)، وفي العلم وفي التفسير (٩/٣٢٣)، ومسلم في وجوب اتباعه ﷺ من الفضائل (١٥/١٠٧، ١٠٨)، والترمذي في الأحكام رقم (١٢٣٣)، وفي التفسير (٢٨٢٥)، وأبو داود (٣٦٣٧)، والنسائي في القضاء، وابن ماجه في المقدمة (١٥) وغيرها].

ش: **«شراج»**: الشراج بكسر الشين وتخفيف الراء، جمع شرجة بفتح الشين والراء وهي مسيل الماء. و**«الحَرَّة»** بفتح الحاء: أرض ذات حجارة سود. **«سرح»**: أي أطلق الماء بعد احتباسه. **«أن كان ابن عمتك»** هو بفتح أن تعليلية أي حكمت له بذلك لكونه ابن عمتك. **«فتلوَّن»**: أي تغير وجهه ﷺ وظهر فيه آثار الغضب لانتهاك الأنصاري حرمة النبوة، وقُبْح ما قال بين يديه ﷺ. **«الجدر»** بفتح الجيم وكسرها وبالدال الساكنة هو ما رفع حول المزرعة كالجدار. وقيل: هو أصول الشجرة وذكروا في صفة هذا السقي أن يرتفع الماء في الأرض كلها حتى يبتل كعب الإنسان فلصاحب الأرض الأولى التي تلي الماء أن يحبس الماء في الأرض إلى هذا الحد ثم يرسله إلى جاره الذي وراءه. وكان الزبير صاحب الأرض الأولى فأمره النبي ﷺ أن يسقي شيئاً يسيراً دون حقه، فلما قال الجار ما قال، أمره أن يأخذ حقه مستوفياً.

وفي الحديث وجوب اتباعه ﷺ في كل ما حكم به والإذعان له، ومن لم يرض بحكمه ويسلم لقضائه وفعله فليس بمؤمن كما يؤخذ من الآية الكريمة التي نزلت بسبب الحادثة.

وقد نقل النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم» عن العلماء رحمهم الله تعالى أنه لو صدر اليوم مثل هذا أمام المحكمة النبوية لكان كفراً، وجرت على قائله أحكام المرتدين ولوجب قتله... وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان يتألف الناس ويدفع بالتي هي أحسن، ويصبر على أذى المنافقين ومن في قلبه مرض..

٩٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ أحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما لَيسَ مِنه فهُوَ رَدٌّ»**. وفي رواية: **«مَنْ عمل عملاً لَيسَ عَلَيهِ أمْرُنا فهُوَ ردٌّ»**.

[رواه أحمد (٦/٢٤٠، ٢٧٠، ٢٥٦، ١٤٦، ١٨٠)، والبخاري في العلم (٦/٢٣٠) وعلقه في البيوع وفي الاعتصام، ورواه مسلم في الأقضية (١٢/١٦)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، والرواية الثانية لأحمد ومسلم].

ملحوظة: قد وقع هنا غلط للإمامين عبدالحق الإشبيلي، والزركشي رحمهما الله تعالى فنفيا أن يكون البخاري روى هذا الحديث. كما أنه لم يصب من انتقد السيوطي رحمه الله تعالى في إيراده في الجامع الصغير معزواً للشيخين وها هو فيهما.

ش: **«من أحدث»**: أي أتى بشيء مخالف لقواعد الشريعة. **«في أمرنا هذا»**: أي أمر ديننا لتخرج أمور حياتنا لأننا أعلم بدنيانا. **«ما ليس منه»**: أي ما لا يوجد فيه صريحاً، أو يشهد له أصل من أصوله. **«فهو رد»**: أي مردود لا يقبله الله. وفي الحديث رد البدع والمنكرات التي لا صلة لها بالدين، ولا لها أصل ترد إليه.

٩١ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما بعدُ، فإنَّ خَيرَ الحدِيثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمد ﷺ وشرَّ الأمورِ مُحدَثَاتُها وكُلَّ بِدعةٍ ضلالةٌ. وكُلُّ ضلالةٍ في النارِ»**.

[رواه مسلم في الجمعة (٦/١٥٣، ١٥٦)، والنسائي في العيدين (٣/١٥٣)، وفي السهو وابن ماجه (٤٥) وغيرهم والسياق لمسلم غير: **«وكل ضلالة في النار»** فإنها للنسائي].

التدجيل وهو التغطية لأن الدجال يغطي الحق ويستره بتمويهاته. وفي الحديث إرشاد إلى الحذر من الدجاجلة الثرثارين الذين يأتون الناس ببدع من القول الذي لم يسمعوه من ذي قبل. والحديث وإن كان عاماً في كل العصور وأن ما فيه لا يخلو منه وقت، فإنه يتجلى بأجلى مظهر في أهل جيلنا المنحرفين الضالين الكذابين، وما أكثرهم ولقد أضلوا مجتمعات وشعوباً بأكملها فإياك أيها المسلم أن تنخدع بمعسول كلامهم وفصاحة ألسنتهم... وبيان مقالهم.

٩٤ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الذين مِن قَبْلِكُم شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِراعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهُمْ**». قُلنا: يا رسولَ الله اليَهودُ والنصَارَى؟ قال: «**فَمَنْ؟**».

[رواه الطيالسي (١٠٧)، والبخاري في الاعتصام (٦٣/١٧، ٦٤) ومسلم في العلم (٢١٩/١٦، ٢٢٠) وفي الباب عن أبي هريرة رواه البخاري في الاعتصام (٦٣/١٧)، وابن ماجه في الفتن. وعن ابن عباس رواه الحاكم بسند صحيح. وفي أخرى: «**وحتَّى لو أنَّ أحَدَهُم جامَعَ امرأتَهُ فِي الطريقِ لَفَعَلْتُمُوهُ**». وعن عبدالله بن عمرو رواه الشافعي بسند صحيح. وعن عوف بن مالك وابن مسعود رواهما الطبراني. وعن حذيفة رواه الحاكم. وعن سهل بن سعد رواه أحمد (٣٤٠/٥)].

ش: «**سُنَنَ**» بفتح السين وضمها: النهج والطريقة. «**شِبراً بشبر**» في رواية عوف وابن عباس زيادة: «**وإن باعاً فباع**». قال عياض: هذا تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى الشرع عنه وذمه. «**جُحر ضَب**» الجُحر بضم الجيم وسكون الحاء، والضب بفتح الضاد: حيوان معروف يشبه الوزغ في الخلقة. «**فَمَنْ**»: هو استفهام إنكاري أي فمن هم غير أولئك. وفي الحديث نبأ من أنباء النبوة فلقد حصل ما أخبر به ﷺ حذت الأمة حذو اليهود والنصارى واقتفت آثارهم في كل شيء، في العقائد، والأخلاق، والعوائد، ونظام الحكم، وفي جميع الميادين حتى في الأشياء التافهة والساقطة، وذابت شخصيتها في شخصية الكفار.

٩٥ ـ وعن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ لمَّا خَرَجَ إلى حُنَيْنٍ مَرَّ بشجرةٍ للمشركين يُقالُ لها ذاتُ أنْوَاطٍ، يُعلِّقُون عليها أسْلِحَتَهُم ويَعكُفُون حولها. قالوا: يا رسول الله اجْعَل لنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهُم ذاتُ أنْوَاطٍ، فقال النبي ﷺ: **«سُبْحَانَ الله»**، وفي رواية: **«اللَّهُ أكْبَر، هذا كما قال قومُ موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبُنَّ سُنَّة من كان قبلكم سنة سنة»**.

[رواه الطيالسي (١٠٨)، وعبدالرزاق (٢٠٧٦٣)، وأحمد (٢١٨/٥)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٨)، وسنده عند أحمد والترمذي صحيح على شرط البخاري ومسلم. ولذا حسنه الترمذي وصححه].

ش: «حنين» بضم ففتح واد بين مكة والطائف وراء عرفات كانت به الوقعة المعروفة بين النبي ﷺ وبين هوازن. **«ذات أنواط»**: جمع نوط بفتح وسكون سميت به الشجرة لأن المشركين كانوا ينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها بها يقال: ناط الشيء علقه.. **«لتركبن»** بفتح التاء وضم الباء أي تتبعن. **«سنة»**: هي في اللغة الطريقة حسنة كانت أم سيئة. والمراد بها هنا طريقة الأقدمين الضالين الذين حرفوا دين الله، وابتدعوا فيه ما لم يأذن به الله عزّ وجلّ.

وفي الحديث ذم التشبه بالمشركين وأعداء الدين واتباعهم في أهوائهم وشؤونهم ولو كان ذلك في الأمور العادية. ولا شك أن مخالفتهم من أهم مقاصد البعثة المحمدية كما بيَّنه العلماء والأئمة رضي الله تعالى عنهم. فلا تغتر بمن يتساهل في ذلك من بعض رجال العلم المعاصرين، فإن ذلك يعد من زلاتهم التي لا يُتَّبَعُونَ فيها.

٩٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أبْغَضُ الناسِ إلى اللَّهِ تعالى ثَلاثةٌ: مُلْحِدٌ في الحَرَم، ومُبْتَغٍ في الإسلامِ سُنَّةَ الجاهليةِ، ومُطَّلِبُ دَمِ امْرِىءٍ بِغيرِ حَقٍّ ليُهرِيقَ دَمَهُ»**.

[رواه البخاري في الديات (٢٣٠/١٥، ٢٣١].

ش: «أبغض»: أي أشد أهل المعاصي بغضاً إلى الله هؤلاء الثلاثة.

«**ملحد**»: هو في الأصل المائل عن القصد والعادل عنه ويُستعمل في عرف الشرع للخارج عن الدين فإذا وصف به من ارتكب معصية كان في ذلك إشارة إلى عظمها كما هنا. فإن المعصية في الحرم المكي تعد إلحاداً. «**ومبتغ**»: أي طالب. «**سنة الجاهلية**»: أي إحياء طريقتهم ونشرها بين المسلمين. «**ومطلب**» بضم الميم وتشديد الطاء من الطلب. «**دم امرىء**»: أي إراقة دم مسلم أو معاهد بدون حق. «**ليُهَرِيق**» بضم الياء وفتح الهاء، أي يزهق روحه بصب دمه.

وأنت أيها المسلم بأدنى نظرة إلى هذا الحديث تعلم عظم جرم اتباع الكفار، ونشر عوائدهم ومظاهرهم وأزيائهم... بين المسلمين بأي طريقة كان هذا النشر بالدعاية في الصحف والمجلات والكتب، أو بواسطة الإذاعة في الراديو والتلفزيون، أو بالخطب، أو المحاضرات والدروس، أو بالتشبه في المظاهر والعوائد.. أو غير ذلك كما هو وضع المتمسلمين اليوم المستغربين المتفرنجين الذين أشربت قلوبهم حب التشبه بالكفار، وغرَّتهم حضارة أوربا القذرة البغيضة، فولوا وجهتهم إليها، وتنكروا للإسلام وحضارته وتاريخه... واقرأ أيها المسلم «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» للإمام أبي العباس ابن تيمية و«التحديات المعاصرة» لأبي الأعلى المودودي و«الغارة على العالم الإسلامي»، و«الغزو الفكري»، و«خطر التبرج والاختلاط»، و«حجاب المرأة المسلمة» لناصر الدين الألباني وغير ذلك، فسوف تجد في هذه الكتب ما يسفر لك عن وجه الحق، ويكشف لك عن كثير من شبهات المتفرنجين.

لزوم الجماعة وذم التفرق

٩٧ ـ عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم أو خَالَفَهُم، حتى يأتي أمْرُ اللَّهِ وهم ظَاهِرُون عَلى النَّاسِ**».

[رواه أحمد (٤/٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠١)، والبخاري في الاعتصام (١٧/٥٧)، وفي

العلم (١/١٧٣، ١٧٤)، ومسلم في المغازي (١٣/٦٦، ٦٧)، وابن ماجه رقم (٩) واللفظ لمسلم].

والحديث متواتر ورد عن جم غفير من الصحابة، عن سعد بن أبي وقاص عند مسلم في المغازي (١٣/٦٨)، وجابر بن سمرة عند أحمد (٥/٩٤، ٩٨)، والطيالسي (٢٩٨)، ومسلم (١٣/٦٦)، ومعاذ بن جبل عند أحمد (٤/١٠١)، والطيالسي (٢٦٩٩)، وعقبة بن عامر عند مسلم (١٣/٦٨)، وثوبان عند مسلم، والترمذي في الفتن رقم (٢٠٥٩)، وابن ماجه رقم (١٠)، وجابر بن عبدالله عند مسلم في الإيمان (٢/١٩٢)، والمغيرة بن شعبة عند البخاري في الاعتصام (١٧/٥٦)، ومسلم في المغازي (١٣/٦٦)، وعمر عند الطيالسي (٢٦٩٦)، والدارمي (٢٤٣٨)، وأبي هريرة عند ابن ماجه (٧)، وزيد بن أرقم عند أحمد (٤/٣٦٩)، والطيالسي (٢٦٩٧)، وعمران بن الحصين عند أحمد (٤/٤٢٩)، وغير هؤلاء رضي الله تعالى عنهم. وللحديث ألفاظ وروايات، جاء في بعضها: «**وهم يقاتلون**»، وفي أخرى: «**وهم بالشام**»، وفي أخرى: «**بِبَيْتِ المَقْدِسِ**»، وفي أخرى: «**حتى يأتي أمر الله وينزل عيسى ابن مريم**»، وفي أخرى: «**لا يزال أهلُ المغرب ظاهرين على الحق حتى تَقومَ الساعة**» وهي في المغازي من صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص.

ش: «**لا تزال طائفة**»: الطائفة: الجماعة من الناس، وهي تشمل القليل والكثير، والذكر والأنثى، والعالم والجاهل، والعربي والعجمي، والبدوي والحضري، والشريف والوضيع، والغني والفقير، والإنسي والجني.

والحديث نص في أن هذه الجماعة موجودة في هذه الأمة في كل عصر وجيل وفي كل وقت ومكان، حتى يأتي أمر الله بانصراف هذا الدين. واختلف في المراد من هذه الطائفة فقال الإمام أحمد بن حنبل، وابن المديني، والبخاري، وابن المبارك، والترمذي، ويزيد بن هارون، رحمهم الله تعالى أنهم أهل الحديث. وزاد الإمام أحمد: إن لم تكن أصحاب الحديث فلا أدري من هم. وقال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: يحتمل أن تكون فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله

تعالى من مجاهد، وفقيه، ومحدث، وزاهد، وآمر بالمعروف وغير ذلك، ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، إلخ. وما قاله النووي هو الظاهر، فإن كل من قام بمهمة من مهمات الدين قولاً وعملاً، وحالاً، مع التمسك بالحق فهو من هذه الطائفة.

«أمر الله»: الأمر الأول، المراد به الشريعة فهم لا يزالون ملتزمين بها، داعين إليها، لا يتخلون عنها كلما ذهب فريق خلفهم آخرون. أما أمر الله الثاني فالمراد به نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وموته كما جاء مصرحاً به في حديث عمران حيث سيذهب الدين بعد مماته ولا يبقى إلا شرار الخلق الذين ستقوم عليهم الساعة. **«وهم ظاهرون»**: المراد بالظهور ظهورهم بالحجة والتمسك بالحق والدين والعمل به، لا بالقهر والسلطة والحكم فإن الواقع يخالفه. فها هو العالم اليوم كله يقوده ويحكمه الكفار والعلمانيون... وليس لأهل الدين والحق في ذلك نصيب إلا نتفاً لا تكاد تذكر. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

٩٨ ـ وعن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل يأتي: **«وَأَنَا آمُرُكُم بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السمع، والطاعةِ، والجهادِ، والهجرةِ، والجماعة؛ فإنَّه مَنْ فارَقَ الجماعةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقِه إلا أن يُرَاجِعَ»**.

[رواه أحمد (٢٠٢/٤)، والترمذي في الأمثال رقم (٢٦٧٤)، وابن حبان (١٥٥٠)، والحاكم (١١٧/١، ١١٨)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: «من فارق»: أي خرج عن طريق أهلها. **«قيد»**: أي قدر. **«فقد خلع»**: أي نزع. **«ربقة الإسلام»**: أي عروته التي يتمسك بها. وقد جاء الأمر بلزوم الجماعة في عدة أحاديث منها الآتي.

٩٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: خَطب عُمرُ بالجابِيَةِ فقال: يَا أيُّها النَّاسُ إني قمتُ فيكم كمقام رسول الله ﷺ فِينا فقال: **«أُوصِيكُم بأَصْحَابِي... عَليكُم بالجماعةِ، وإيَّاكُم والفُرقةَ، فإنَّ الشيطانَ معَ**

الواحدِ وهُو مِنَ الاثنين أبعدُ، مَنْ أرادَ بُحْبُوحَة الجنةِ فَلْيَلْزَمِ الجَماعَة».

[رواه أحمد رقم (١٧٧/١١٤)، والشافعي في الرسالة رقم (٤٧٣)، والترمذي في الفتن رقم (١٩٩٥) وحسنه وصححه، والحاكم (١١٤/١)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٤/٤) وغيرهم].

ش: «بحبوحة» بضم الباءين: هي وسط المكان والدار، وفي رواية: **«بَحْبَحة»** بالفتح ومعناها التمكن من المقام والحلول. والحديث يدل على أن التمسك بالجماعة ولزومها عصمة من الشيطان، وإن الشذوذ في الرأي والسلوك يعرض صاحبه للانحراف عن الجادة، وأن لزومها يوجب لصاحبها الجنة.

والمراد بالجماعة أهل الحق والتمسك به من العلماء والأمراء وغيرهم كما قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى في «جامعه» من الفتن: وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه، والعلم، والحديث. وانظر: «الفتح» (٨٠/١٨، و ١٧٤/١، و ٥٦/١٧، ٥٧)، و«شرح مسلم» للنووي (٦٦/١٣، ٦٧، ٦٨، و ١٩٣/٢).

١٠٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلى ضَلالَةٍ أبداً، وَيَدُ اللَّهِ عَلى الجَمَاعَةِ».**

[رواه الترمذي في الفتن (١٩٩٦)، والحاكم (١١٦/١) بسند صحيح، ورواه الطبراني بسند صحيح كما في مجمع الزوائد (٢١٨/٥)، والجملة الأولى واردة من طرق كثيرة حتى عدت متواترة ولشطره الثاني شاهد عن ابن عباس رواه الترمذي (١٩٩٧) بسند صحيح].

ش: «يد الله على الجماعة»: هو عبارة عن حفظها وتأييدها. واستدل العلماء وعلى الأخص علماء الأصول بهذا الحديث على صحة إجماع علماء الأمة ومجتهديها وحجية ذلك، لأن النبي ﷺ نفى عن أمته اجتماعها في دينها على ضلالة، والعلماء المجتهدون منهم هم الذين يمثلون الأمة ويقودونها، فإجماعهم على حكم يدل على صوابه وصحته. ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في «رسالته» رقم (٤٧٢): ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ﷺ ولا على خطإ إن شاء الله تعالى.

١٠١ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تَخْتَلِفُوا فإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»**.

[رواه أحمد (٣٩٣/١، ٤٠١، ٤١٢، ٤١٩)، والبخاري في الخصومات (٤٦٧/٥)، وفي أحاديث الأنبياء وفي فضائل القرآن (٤٧٩/١٠، ٤٨٠)].

ش: «لا تختلفوا»: يجب أن يعلم أن الاختلاف المذموم البغيض هو ما كان أمره راجعاً إلى أمرين: أولاً: ما كان متعلقاً بالعقائد. يدل عليه حديث معاوية الآتي: «يعني الأهواء»، وعلى هذا حمله الأئمة والعلماء رحمهم الله تعالى. وأما ثانياً: فما كان دليله صحيحاً صريحاً لا معارض له فمثل هذا لا يجوز الاختلاف فيه ولا معارضته بالهوى. أما الاختلاف في الفروع والجزئيات العملية الاجتهادية التي تحتمل أكثر من قول ولا دليل يرجح أحد الاحتمالين... فالأمر في ذلك واسع. وكذا الخلاف الاجتهادي الصرف الذي لا نصَّ فيه بخصوصه كأكثر الفروع العارية عن الدليل فإنه لا حرج فيها ما دامت لا تخالف نصاً من القرآن أو السنة.

١٠٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تَفَرَّقَتْ اليهودُ على إحْدى وسبعين فِرْقَةً، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثلَ ذلك، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثلاث وسبعين فرقةً»**.

[رواه أحمد (٣٣٢/٢)، وأبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، وابن حبان (١٨٣٤)، والحاكم (٦/١، ٢٨)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

١٠٣ ـ وعن معاوية أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ أهْلَ الكتاب افْتَرَقُوا فِي دِينِهم على ثِنتين وسبعين ملةً، وأنَّ هذه الأُمَّةَ ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة، يعني الأهواءَ، كلُّها في النار إلا واحدةً وهي الجماعةَ، وأنه سَيَخْرُجُ في أمتي أقوام تَتَجَارَى بهم تِلك الأهواءُ كما يَتَجَارَى الكَلَب بِصاحِبه، لا يَبْقَى منه عِرق ولا مَفْصِلٌ إلا دخلَه**.

[رواه أحمد (١٠٢/٤)، والطيالسي (٢٧٥٤)، وأبو داود في السنة (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥٢١)، والحاكم (١١٨/١) وسنده صحيح، وصححه جماعة.

وفي الباب عن أنس رواه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٤٥)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٣) وسندهما صحيح وله طرق كثيرة. وعن عوف بن مالك رواه ابن ماجه (٣٩٩٢)، والطبراني والبزار ورجاله رجال الصحيح عند الأخيرين كما في مجمع الزوائد (١/١٧٩)، وعن عبدالله بن عمرو رواه الترمذي (٢٤٥٢)، والحاكم (١/١٢٨) من طريق ابن أنعم وفيه كلام معروف. ولا عبرة بمن طعن في الحديث مع كثرة طرقه ومخارجه وصحته].

ش: **«افترقوا في دينهم»** هذه الرواية مبينة للأولى وكذا قوله: «ملة». وهذا هو التفرق المقيت الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه في سائر الكتب والشرائع. **«تتجارى»**: أي يتواقعون في الأهواء الفاسدة، ويتداعون فيها تشبيهاً بجري الفرس كذا في النهاية. «الكلب» بفتح الكاف واللام هو داء يعتري الكلاب لا يتركها حتى يقتلها وكذا من عضه كلب منها، وفي الحديثين وما في معناهما نبأ خطير في شأن هذه الأمة، وأنها ستقتفي أثر اليهود والنصارى في التفرق والاختلافات، والتشيع، والتحزب، وأن الفرقة الناجية هي الجماعة التي هي على قدم الرسول ﷺ وما كان عليه الصحابة والسلف، وباقيها على كثرتها هي في النار. ومن رجع إلى كتب الفرق والملل والنحل عرف هذه الفرق وعقائدها وعجرها وبجرها. ولله في خلقه شؤون وحكم. وكون تلك الفرق في النار لا يعني أنهم جميعهم كفار مخلدون فيها.

١٠٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «ما أَعْرِفُ شيئاً مِمَّا كان عَلى عَهْدِ رسولِ الله ﷺ. قيل: الصلاةُ، قال: أَلَيْسَ صَنَعْتُم مَا صَنعْتُم فِيها؟».

[رواه البخاري في الصلاة (٢/١٥٢، ١٥٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٦٨)، وكذا ابن عبدالبر في العلم (٢/٩٩، ١٠٠) عن الزهري قال: دخلت على أنس وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال فذكره].

ش: **«أليس صنعتم»**: يعني من الإخلال ببعض أركانها، أو بتأخيرها عن وقتها المختار ونحو ذلك. وهكذا نرى تضرب الصحابة وحنينهم للأيام التي عاشوا عليها مع رسول الله ﷺ وبكاءهم على تقلب الأوضاع وضعف الدين.

١٠٥ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: «اقْضُوا كَمَا كُنْتُمْ تَقْضُونَ، فإنِّي أكْرَهُ الخِلافَ حتى تَكونَ الناسُ جماعةً، أو أَمُوتَ كما ماتَ أصْحَابِي». وكان ابنُ سِيرِين رحمه الله تعالى يَرَى عامَّةَ ما يَرْوُونَ عن علي رضي الله تعالى عنه كَذِباً.

[رواه البخاري في المناقب من صحيحه (٧٥/٨)].

ش: «فإنِّي أكرهُ الخِلافَ»: أي الذي يؤدي إلى الفتنة. «عامة ما يروون»: يقصد بذلك ما يقوله الشيعة والروافض في حق أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فالروافض أكذب الناس وأغرقهم في نقل الخرافات. أما غير هؤلاء فقد روى ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا حدثنا ثقة عن علي لم نتجاوزها.

الصحابة والكتاب والسنة:

عمر بن الخطاب:

١٠٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سمع عُمَر الغَدَ حِينَ بايعَ المسلمُون أبَا بَكْرٍ واسْتَوَى على مِنْبَرِ رَسُولِ الله ﷺ تَشَهَّدَ قَبْلَ أبِي بَكْرٍ فقال: أمَّا بعدُ فاختار الله لِرسولِه ﷺ الذي عِنده على الذي عِندَكم، وهذا الكتابُ الذي هَدَى اللَّهُ به رَسُولكم ﷺ فَخُذُوا به تَهْتَدُوا، وإنما هَدَى اللَّهُ بِه رسولَه ﷺ.

[رواه البخاري في الاستخلاف من الأحكام وفي أوائل الاعتصام (٤/١٧)].

١٠٧ ـ وعن جُوَيْرِيَّة بنِ قُدَامَةَ رحمه الله تعالى قال: حَجَجْتُ فأتَيْتُ المدينةَ العامَ الذِي أصيب فيه عُمر قال: فَخَطَبَ، فذكر الحديث، وفيه فقلنا: أوْصِنَا قال: «عَلَيكُم بِكِتَابِ اللَّهِ فإنكُم لَنْ تَضِلُّوا ما اتَّبَعْتُمُوهُ»..

[رواه أحمد في المسند (٥١/١) بسند صحيح].

١٠٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قَبَّلَ عُمَر رضي الله تعالى عنه الحَجَرَ ثم قال: «أَمَا واللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ حَجَرٌ، ولولا أَنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُك».

[رواه البخاري ومسلم (١٥/٩، ١٦، ١٧) كلاهما في الحج].

وفي رواية لمسلم: «والله إني لأقبّلك وإني أعلم أنك حجر، وإنك لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ. وفي رواية أخرى له: قَبَّلَ الحَجَرَ والْتَزَمَهُ وقال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ بك حَفِيّاً..» وسيأتي في الحج.

ش: «التزمه»: أي اعتنقه. «حفياً»: أي معتنياً بك. ومعاني هذه الآثار واضحة.

الإمام علي:

١٠٩ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: «لو كان الدينُ بالرأي لكانَ أسفلُ الخُفِّ أَوْلَى بالمسح مِنْ أعلاهُ، وقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَمْسَحُ أعلى الخُفِّ». وفي رواية: «على ظَاهِرِ الخُفِّ».

[رواه الدارمي (٧٢١)، وأبو داود (١٦٢، ١٦٣، ١٦٤)، والبيهقي (٢٩٢/١) بأسانيد صحيحة، وحسنه الحافظ في «بلوغ المرام»، وفي الاعتصام من «الفتح» (٥١/١٧) وصححه في التلخيص].

١١٠ ـ وعن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: اجتمع علي وعثمان رضي الله تعالى عنهما بِعُسْفَانَ فكان عثمان ينهى عن المُتْعَة، أو العمرة. فقال علي: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تَنْهَى عنه. فقال عثمان: دعني منك، فقال: إني لا أستطيع أن أدعك، فلما أن رأى عَلِيٌّ ذلك أَهَلَّ بهما جميعاً.

[رواه مسلم في الحج (٢٠١/٨، ٢٠٢)].

ش: «عُسفان»: هو موضع بين مكة والمدينة وهو من مكة على بعد ٨٠ كيلو، وفقه الحديث يأتي في الحج إن شاء الله تعالى.

ابن عبـاس:

١١١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «تَمَتَّعَ النبيُّ ﷺ فقال عروةُ بن الزبير: نهَى أبو بكر وعُمر عن المُتْعَة. فقال ابن عباس: أرَاهُم سَيَهْلِكُونَ، أقول: قال النبي ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر».

[رواه أحمد (٣٣٧/١، ٢٥٢) من طريقين. وأحدهما سنده صحيح، ورواه الدارمي (٤٣٧) بسند صحيح أيضاً بلفظ: «ألَا تخافون أن تُعذَّبوا أو يُخْسَفَ بكم؟ أن تقولوا قال رسول الله ﷺ، وقال فلان». ورواه ابن عبدالبر في العلم (١٩٦/٢) من طريق أحمد وقاسم بن أصبغ بلفظ: «واللَّهِ ما أراكم مُنْتَهِينَ حتى يُعذِّبَكم اللَّهُ نحدِّثكم عن النبي ﷺ وتُحَدِّثُون عن أبي بَكر وعُمَر»].

سعد بن أبي وقاص:

١١٢ ـ عن محمد بن عبدالله بن الحارث بن نوفل أنه سمع سَعْدَ بنَ أبي وقَّاص والضَّحَّاكَ بنَ قَيس رضي الله تعالى عنهما عامَ حَجَّ معاويةُ وهما يَذْكُرَان التَّمَتُّعُ بالعمرةِ إلى الحجِّ فقال الضحاك: لا يَصْنَع ذلك إلا من جَهِل أمْر الله فقال سعد: بِئْسَمَا قُلْتَ يا ابْن أخِي، فقال الضحاك: فإنَّ عُمرَ بن الخطاب قد نهَى عن ذلك. فقال له سعد قد صَنَعَها رسولُ الله ﷺ وصَنَعْنَاهَا مَعَهُ.

[رواه أحمد رقم (١٥٠٣)، والترمذي في الحج (٧٣١) وغيرهما وسنده صحيح ولذا صححه الترمذي].

ابـن عمـر:

١١٣ ـ عن أنس بن سِيرِينَ رحمه الله تعالى قال: كنتُ مع ابن عمر بعَرَفاتٍ فلما كان حينَ راحَ رحتُ معه حتى أتَى الإمامَ فصلى معه الأولى والعصر ثم وقفَ وأنا وأصحابٌ لي حتى أفَاض الإمامُ فأفَضْنا معه حتى انتهى إلى المِضْيَقِ دون المَأْزَمَيْنِ فأناخ وأنَخْنا ونحنُ نَحسِبُ أنه يُريد أن يُصلي فقال غُلامُه الذي يُمْسِك راحِلتَه: إنه ليس يريد الصلاة، ولكن ذكَر

أن النبي ﷺ لما انْتَهَى إلى هذا المكان قضى حاجته فهو يحب أن يَقضِي حاجَتَه.

[رواه أحمد قال في مجمع الزوائد (١/١٧٤، ١٧٥) رجاله رجال الصحيح].

١١٤ ـ وعن سالم بن عبدالله عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: سافَرْتُ مع النبي ﷺ ومع عُمَر فكانَا لا يَزِيدَانِ على ركعتين، وكنا ضُلاَّلاً فهدانا اللَّهُ به فبِهِ نَقْتَدِي.

[رواه أحمد (٢/٩٥) بسند صحيح].

١١٥ ـ وعن مُوَرِّق رحمه الله تعالى قال: سألت ابن عمر عن الصلاة في السفر فقال: ركعتين ركعتين من خالف السنة كفر.

[رواه ابن عبدالبر في «العلم» من طريق الأثرم (٢/١٩٥)، وابن حزم في «المحلى»، بسند صحيح].

١١٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل: إنَّا نَجِدُ صلاةَ الحَضَرِ وصلاةَ الخوفِ في القرآن ولا نَجِدُ صلاةَ السفرِ في القرآن، فقال له: «ابنَ أخِي إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ بَعَثَ إلينا محمداً ﷺ ولا نَعْلَمُ شيئاً، فإنَّمَا نَفْعَلُ كما رأيْنَا مُحَمَّداً ﷺ يَفْعَلُ».

[رواه أحمد (٢/٩٤)، والنسائي (٣/٩٦)، وابن ماجه (١٠٦٥) بسند صحيح].

وفي رواية أحمد وغيره: أتانا محمد ﷺ ونحن ضلاَّل، فعلمنا فكان فيما علمنا أن الله عزّ وجلّ أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر.

١١٧ ـ وعنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ أحْرَمَ بالحج وطاف بالبيتِ وسَعَى بين الصفا والمروةِ. فسنةُ الله وسنةُ رسوله ﷺ أحَقُّ أن تُتَّبَعَ من سنة فُلان.

[رواه مسلم في الحج (٨/٢١٨، ٢١٧)، ويأتي مطولاً إن شاء الله تعالى في الحج].

١١٨ ـ وعن سالم قال: كان عبدالله بن عمر يُفْتِي بالذي أنزل الله عزّ وجلّ من الرخصة في التمتع، وسنَّ رسول الله ﷺ، فيقول ناس لابن عمر:

كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك؟ فيقول لهم عبدالله بن عمر: ويلكم ألا تتقون الله!. أفرسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر؟.

[رواه أحمد رقم (٥٧٠٠) وفيه ضعف وفي الباب ما يؤيده].

١١٩ ـ وعن ابن عمر أنه سئل عن استلام الحجر فقال: رأيت رسول الله ﷺ يَسْتَلِمُهُ ويُقَبِّلُه فقال رجلٌ: أرأيتَ إن زُحِمْتُ. وفي رواية: إنْ غُلِبْتُ؟ فقال ابن عمر: «اجعل أرأيت باليمن». وفي رواية: «اجعل أرأيت مع هذا الكوكب رأيتُ رسولَ الله ﷺ يستلمه ويقبّله».

[رواه أحمد (١٥٢/٢)، والطيالسي (٢١٦/١)، والبخاري (٢٢١/٤)، والنسائي (١٨٤/٥) كلهم في الحج].

أبو هريرة:

١٢٠ ـ عن أبي سلمة رحمه الله تعالى أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه قال لرجل: «يا ابن أخي إذا حدَّثتك عن رسول الله ﷺ حديثاً فلا تضرب له الأمثال».

[رواه الترمذي رقم (٦٩)، وابن ماجه (٤٨٥)، والطحاوي في معاني الآثار (٦٣/١) وغيرهم من طرق وسنده صحيح].

ش: **«فلا تضرب له الأمثال»**: أي اعمل به، ولا تذكر له شبيهاً، ولا قياساً.

عبادة بن الصامت:

١٢١ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذهبِ إلا مِثْلاً بِمِثْلٍ، لا زيادةَ بينهما ولا نَظِرَةَ»**. فقال له معاوية: يا أبا الوليد لا أرى الربا في هذا إلا بما كان من نَظِرَةٍ. فقال عبادة: أُحَدِّثُك عن رسول الله ﷺ، وتحدثني عن رأيك، لا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لك عَلَيَّ فيها امْرَاةٌ، فلما قَفَلَ لحِقَ بالمدينة.

[رواه الدارمي ومسلم (١٢/١١، ١٣)، وابن ماجه (١٨) واللفظ له].

وفي رواية لمسلم: لَنُحدِّثَنَّ بما سمعنا من رسول الله ﷺ وإن كره معاوية، أو قال: وإن رغم، ما أُبالي أن لا أصحبه في جنده ليلة سوداء.

أبو الدرداء:

١٢٢ ـ عن أم الدرداء رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مُغضَبٌ فقالت: من أغضبك؟ قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً.

[رواه أحمد (١٩٥) بسند صحيح].

وفي الموضوع آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين والسلف والأئمة رضي الله تعالى عنهم لا يسعها إلا مجلد ضخم.

وإنك أيها المسلم لتشاهد في هذه الأحاديث والآثار مواقف الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع السنة ومخالفيها، وإنهم كانوا لا يبتغون بها بديلاً، ولا يقدمون عليها أي رأي مهما عظم قائله، ولو كان من أكابرهم فضلاً عن غيرهم من الأفراد وعامتهم، بل كانوا يستعظمون معارضة السنة النبوية بغيرها، وينكرون ضرب الأمثال والنظائر لها، ويزجرون من فعل ذلك ويهددونه بالعذاب والخسف، ويغلظون له القول، إنك لتعاين حالتهم في ذلك حتى مع آبائهم وأقاربهم، وأحب الناس إليهم، وبذلك كانوا أتقى لله عزّ وجلّ منا وأطهر وأبر.

الاقتصاد في الأعمال، وذم التشدد والغلو في ذلك

١٢٣ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاءَ ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بُيوتِ أزواج النبي ﷺ يَسألونَ عن عِبادَتِه فلما أُخْبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها قالوا: أيْنَ نحنُ مِن رسولِ الله ﷺ وقد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أمَّا أنا فأُصلِّي الليل أبَداً. وقال الآخَر: وأنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِر. وقال آخر: وأنا أعْتَزِلُ النساء ولا أتزوَّجُ أبداً. فجاء رسولُ الله ﷺ

إليهم فقال: **«أنتُم الذين قلتُم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكُم لِلَّهِ وأتقاكُم له. ولَكِنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأتزوَّجَ النِّساءَ، فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي»**.

[رواه البخاري (١١، ٤، ٥)، ومسلم (١٧٥/٩، ١٧٦)، والنسائي (٤٩/٦، ٥٠) ثلاثتهم في النكاح].

ش: **«رهط»**: هو من ثلاثة إلى عشرة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. **«تقالوها»** بضم اللام المشددة أي رأوها قليلة. **«أين نحن»**: يعنون أين حالتنا في التقصير في جانب الله، وجهلنا بمصيرنا مع تراكم ذنوبنا وتوالي غفلاتنا من مقام رسول الله ﷺ العظيم الذي غفر له ما تقدم وما تأخر. **«لأخشاكم»**: أي أشدكم له خشية، وأعظمكم له تقوى. **«فمن رغب»**: الرغبة عن الشيء الإعراض عنه، والمراد بالسنة هي الطريقة أي من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني. وهذا محمول على من تركها إعراضاً عنها، غير معتقد لها على ما هي عليه.

وفي الحديث إرشاد إلى أن خير الأمور أوسطها، وإن إعطاء النفس حظها من بعض الشهوات لا ينافي الكمال. فقد كان نبينا ﷺ بلغ نهاية الكمال البشري ومع ذلك كان يأكل ويتفكه ويتمتع بالنساء ويرقد.

١٢٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صنع رسولُ الله ﷺ شيئاً تَرَخَّصَ فِيهِ فَتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلغَه ذلك، فخَطَبَ، فحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه ثم قال: **«ما بالُ أقوامٍ يَتَنَزَّهُون عنِ الشيءِ أصنعُه؟ فواللَّهِ إني لأَعْلَمُهم بالله وأشَدُّهم له خشيةً»**.

[رواه البخاري في الأدب (٢٧/١٣، ٢٨)، وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل (١٠٦/١٥، ١٠٧)].

ش: **«فتنزه»**: أي تباعدوا عنه. **«ما بال أقوام»**: أي ما شأنهم؟ وهذا من آدابه العظيمة، فإنه كان لا يواجه أحداً بما يكره. وفي الحديث والذي قبله وما بعده دليل على أنه ﷺ كان قد بلغ منزلة في العلم بالله والخشية له وتقواه لربه لم يحم حولها أحد. كما أنه يدل على أن سلوك طريق الرخصة

أحياناً لا يضع من قدر الرجل، ولا يحط من منزلته.

١٢٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: بعث رسول الله ﷺ إلى عثمانَ بن مَظْعُون: **«أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي»؟** فقال: لا واللّه يا رسول الله، ولكِن سُنَّتَك أطلُبُ، فقال النبي ﷺ: **«فإني أنام وأصلي، وأصومُ وأفطرُ، وأَنكِحُ النساء، فاتَّقِ اللَّهَ يا عثمانُ فإنَّ لأَهْلِك عليك حقّاً، وإنَّ لِضيفِك عليكَ حقّاً، وإن لنَفْسِكَ عليك حقّاً، فصُم وأَفطِر، وصَلِّ ونَمْ»**

[رواه أبو داود في أبواب التطوع من الصلاة رقم (١٣٦٩) بسند حسن صحيح وعنعنة ابن إسحاق لا تضر هنا فإن له شاهداً عن سعد بن أبي وقاص، رواه الدارمي (٢١٧٥) بنحوه وفيه ابن إسحاق أيضاً لكنه صرح بالتحديث، ولمعنى الحديث أحاديث في الصحيح تقدم بعضها وتأتي أخرى].

١٢٦ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟»**، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: **«فلا تَفْعَل صُمْ وأَفطِر، ونَمْ وقُم، فإنَّ لِجسدِك عليكَ حقاً، وإنَّ لِعَيْنِكَ عليك حقّاً، وإن لزوْجِكَ عليك حقّاً، وإن لزَوْرِك عليك حقّاً، وإنَّ بِحَسْبِك أن تصومَ من كل شهر ثلاثةَ أيّام، فإن لك بكلِّ حسنةٍ عَشْرَ أمْثالِها، فإذا ذلك صيامُ الدَّهْرِ، فشَدَّدت فشُدِّدَ عَلَيَّ»**. قلتُ: يا رسول الله إني أجد قوة، قال: **«صُم صيام نبي الله داود عليه السلام لا تَزِد عليه»**. قلت: وما كان صيام داود؟ قال: **«نصف الدهر»**. وفي رواية: **«كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً»**، وفي أخرى: **«وهذا أعدل الصيام»**، وفي رواية قال لي: **«اقرأ القرآن في كل شهر»**. قلت: إني أُطِيقُ أفضل منْ ذلك. قال: **«فاقرأه في عشرين»**، قال: فقلت: يا نبي الله إني أُطيق أفضل من ذلك، قال: **«فاقرأه في عَشْرٍ»**، قلت: يا نبي الله إني أُطيق أفضل من ذلك، قال: **«فاقرأه في سَبْعٍ لا تَزِد على ذلك»**. وفي رواية: **«فاقرأه في كل ثلاث»**. وفي رواية: **«إنَّ أحَبَّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وأحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، وكان ينامُ نِصفَ اللَّيل، ويقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسه، وكان يصومُ يوماً، ويفطِر يوماً»**.

[رواه أحمد (١٥٨/٢، ١٦٥، ١٩٩)، والبخاري في التهجد، وفي الصيام، وفي الأنبياء، وفي فضائل القرآن، وفي النكاح، وفي الأدب، وفي الاستئذان، ومسلم في الصيام، وأبو داود (٢٤٢٥، ٢٤٤٨)، والترمذي (٦٨٢)، والنسائي (١٦٨/٤) وغيرهم من طرق وألفاظ ويأتي مفرقاً إن شاء الله تعالى].

ش: «**لزورك**»: أي الذين يزورونك من الأقارب والأحباب والأصدقاء فلِكُلٍّ حقٌّ عليك. «**بِحَسْبِكَ**» الباء زائدة للتأكيد، أي كافيك من ذلك صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وفي هذا الحديث الشريف آداب جميلة وعظيمة تتعلق بالعبادة والنسك، وخاصة في الصوم والتلاوة وقيام الليل، وأنه يجب على المسلم أن لا يغلو في ذلك، ولا يبالغ، بل يكون وسطاً بين الإفراط والتفريط. ويؤخذ منه أن أشرف أنواع العبادات: الصوم، والتلاوة، وقيام الليل. وفيه بيان أفضل الطرق التي ينتهجها المسلم في ذلك وأعدلها.

١٢٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ حصير يَحْتَجِرُهُ في الليل فيُصَلِّي فيه، ويَبْسُطُه في النهار فيَجْلِسُ عليه، فجعل الناس يثُوبُون إليه يُصلُّون بصلاته حتى كَثُروا، فأقبل عليهم فقال: «**يا أيُها الناسُ! خُذُوا من الأعمالِ ما تُطِيقُون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإن أحبَّ الأعمالِ إلى الله ما دامَ وإن قَلَّ**». وكان آلُ محمد ﷺ إذا عمِلوا عَمَلاً أثْبَتُوه.

[رواه البخاري في الصيام وفي الرقاق (٧٨/١٤)، وفي اللباس وفي مواضع، ومسلم (٧٠/٦، ٧١)، وأبو داود (١٣٦٨)، والنسائي وغيرهم كلهم في الصلاة].

ش: «**يحتجزه**» بالزاي: أي جعله كالحاجز بينه وبين الناس، وفي رواية: يُحَجْرُه بضم الياء وتشديد الجيم المكسورة من التحجير أي يتخذه حجرة يصلي داخلها. «**يثوبون**»: أي يرجعون إليه، ويجتمعون عنده. «**خذوا**» في رواية: «**اكلفوا**» بفتح اللام. وفي رواية: «**عليكم بما تطيقون**»، وفي أخرى: «**كان إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون**». وفي هذا جاء حديث أنس مرفوعاً: «**إن هذا الدين مَتِينٌ فأَوْغِلُوا فيه بِرِفْقٍ**» رواه أحمد، أي

سيروا فيه من غير تكلف لئلا تعجزوا عن السير في العمل. «لا يمَل» بفتح الميم، والملال: استثقال الشيء والنفور عنه بعد حبه. وهو محال على الله تعالى. ومعناه هنا: لا يقطع عنكم الأجر والثواب حتى تسأموا وتقطعوا العمل فهو من باب المشاكلة، وهو شائع في لغة العرب، وموضوعه علوم البلاغة. قال ابن الجوزي: مداوم الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتاً ما كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع.

١٢٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«سَدِّدُوا وقَارِبُوا، واغْدُوا وَرُوحُوا، وشيئاً مِن الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ، القَصْدَ تَبْلُغُوا، واعْلَمُوا أنَّه لَن يُدْخِلَ أحَدَكم عملُه الجنةَ»**، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله ﷺ؟ قال: **«ولا أنا إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ تعالى بمَغْفِرَةٍ ورَحْمَةٍ»**.

[رواه البخاري في الرقاق (١٤/٧٤، ٧٧) وغيره، ومسلم في صفات المنافقين، والنسائي في الإيمان، ونحوه عن عائشة عند الشيخين، وعن جابر في مسلم].

ش: «سددوا»: أي إلزموا السداد بفتح السين وهو الصواب والتوسط. **«وقاربوا»**: أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاطلبوا المقاربة من ذلك بلا غلو ولا تقصير. وفي سنن ابن ماجه من حديث أنس بسند صحيح. **«عليكم بالقصد، عليكم بالقصد»**: والقصد هو الوسط. **«واغدوا»**: أي استعينوا على مداومة العمل والعبادة في أوقات الفراغ والنشاط كطرفي النهار صباحاً ومساءً، وأواخر الليل وهي الدلجة كما هو شأن المسافر الذي يتحين هذه الأوقات لسيره. وقوله: **«لن يدخل»** إلخ، سيأتي معناه في الرقاق.

١٢٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ هَذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيءٍ مِن الدُّلْجَةِ»**.

[رواه البخاري (١/١٠١، ١٠٢)، والنسائي (٨/١٠٧) كلاهما في الإيمان].

ش: «يسر»: أي ذو يسر وسهولة بالنسبة للشرائع قبله. **«ولن يشاد»**: مفاعلة من الشدة، أي لن يقاوم أحد هذا الدين، ويتعمق فيه بكثرة الأعمال

الدينية، ويترك الرفق إلا غلبه وانقطع وعجز وربما أبغض العمل الذي كان يتعبد به.

١٣٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسولُ الله ﷺ المسجدَ فإذا حَبْلٌ مَمْدودٌ بين السَّارِيَتَيْن. فقال: «**ما هَذا؟**»، قالوا: هذا حَبْلُ لِزَيْنَب، فإذا فَتَرَتْ تَعلَّقتْ به. فقال: «**لاَ، حُلُّوه، لِيُصَلِّ أحدُكم نَشَاطَه، فإذا فَتَر فليقْعُد**».

[رواه أحمد (١٠١/٣)، والبخاري (٢٢٨/٣)، ومسلم (٧٢/٦)، وأبو داود (٣١٢)، والنسائي. البخاري في التهجد، والباقي في قيام الليل].

ش: «**فترت**»: أي كسلت. والفتور ضد النشاط. «**نشاطه**»: أي يصل مدة نشاطه. وفيه الإرشاد إلى عدم التضييق على النفس، وحملها على ما يشق عليها، وأنه ينبغي للمسلم أن يأتي بالعبادة مع نشاطه وانشراح صدره ورغبته فيها، فإذا وقع فتور فليتحر وقتاً آخر مناسباً.

١٣١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعِنْدِي امرأةٌ مِن بَنِي أَسَدٍ فقال: «**مَن هَذِه؟**»، قلت: فلانة لا تنامُ الليل. فقال: «**مَهْ، عَليكُم مِن الأعمالِ ما تُطِيقُون، فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وكان أحبَّ الدين إليه مَا دام عليه صاحبُه**».

[رواه أحمد (٥١/٦)، والبخاري في الإيمان (١٠٩/١، ١١٠)، وفي التهجد (٢٧٩/٣)، ومسلم في قيام الليل (٣٦/٦) والنسائي كذلك].

ش: «**مه**»: أي اكفف. «**عليكم**»: أي الزموا. وفي الحديث التحذير من تحمل النفس ما لا تطيقه من العبادة، لأن ذلك يؤدي إلى السآمة وهجران العمل وبغضه، وهو يدل على أن إحياء الليل كله بالعبادة ليس من السنة وأنه مذموم.

١٣٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإنْ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وقَارَبَ فَارْجُوهُ، وإنْ أُشِيرَ إليهِ بالأصَابِعِ فلا تَعُدُّوهُ**».

[رواه الترمذي في صفة القيامة رقم (٢٢٧٤)، وابن حبان رقم (٢٥١٧) وحسنه الترمذي وصححه. وله شاهد عن عبدالله بن عمرو رواه أحمد (١٥٨/٢، ١٦٥، ١٨٨، ٢١٠)، وعن رجل من الصحابة رواه أحمد (٤٠٩/٥)].

ش: «شرة» بكسر الشين وفتح الراء المشددة هي النشاط والحرص على الشيء والرغبة فيه. **«فترة»**: الفترة هي الضعف والكسل عن العمل.

ومعنى الحديث: إن كل شيء له نشاطه ثم تعقبه فترة، وضعف، وكسل، فمن سلك الطريق الوسط، وتباعد عن الإفراط والتفريط فارجوه أن يكون من الفائزين، أما إذا بالغ وغلا في التنسك والتعبد، حتى أشار الناس إليه ووصفوه بالصلاح مثلاً، فلا تعتدوا به ولا تحسبوه من الصالحين، لاحتمال أن لا يكون في عمله إخلاص. وهذا ما تدل عليه رواية عبدالله بن عمرو والرجل فإن فيها: **«إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سُنَّتِي فقد اهتَدَى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هَلَكَ»**. فإن من فتر عن نشاطه ورجع إلى السنة فتوسط كان من المهتدين، وإلا كان من الهالكين.

١٣٣ ـ وعن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا، فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعاماً قال له: كُلْ. فقال: إني صائم، فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقومُ فقال: نَمْ، فنام، فلما كان من آخِرِ الليلِ قال سلمانُ: قم الآن، فَصَلَّيَا، فقال له سلمانُ: إن لِرَبِّكَ عليك حَقاً، وإن لِنَفْسِك عليك حقّاً، ولأَهْلِكَ عليك حَقاً، فأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«صَدَقَ سَلْمانُ»**.

[رواه البخاري في الصوم (١١٢/٥، ١١٤)، وفي الأدب (١٥١/١٣)، والترمذي في الزهد (٢٢٣٣) وزاد: ولضيفك عليك حقّاً].

ش: «مُتَبَذِّلَة»: أي تاركة للتزين، ولابسة ملابس البذلة الممتهنة.

والحديث يدل على سلوك الطريق الوسط في العبادة بدون تعمق، ولا ترك للحقوق الأخرى. فللّه حق وللنفس حق، وللزوجة حق، وللضيف حق، وللزائر حق، وهكذا، فيجب على المسلم أن يُراعي الحقوق، ويقوم بها ولا يضيعها. وفي الحديث فضل سلمان وفقهه. وفيه ما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الحرص على العبادة والخير. وفيه التآخي في الله، ومطاوعة الأصحاب، والتناصح في الله، والفطر من صوم التطوع للزائر، وفيه غير ذلك.

١٣٤ ـ وعن حَنْظَلَة بنِ الرَّبِيع الأُسَيِّدِي كاتِب رسول الله ﷺ رضي الله تعالى عنه قال: لَقِيَنِي أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال: كيف أنتَ؟ فقلت: نافَقَ حنظلةُ. فقال: سبحان الله، ما تقول؟ فقلت: نكون عند النبي ﷺ يُذَكِّرُنَا بالنَّار والجنة كأنَّا رأْيُ عيْنٍ، فإذا خرجنا مِن عندِه عافَسْنَا الأَزْوَاجَ والأَولادَ والضَّيْعَاتِ، ونَسِينا كثيراً، قال: واللَّهِ إنِّي لأَجِدُ مِثلَ هذا، فانطلق إلى رسول الله ﷺ وذكر له ذلك. فقال: **«والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لو تَدُومُون عَلَى ما تَكُونُونَ عِنْدِي، وفِي الذِّكْرِ: لصافَحَتْكُم الملائكةُ على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكُم، ولكِن يا حَنظلةُ ساعةً، وساعةً»**، ثلاث مرات.

[رواه أحمد (١٧٨/٤، ٣٤٦)، والطيالسي (٨٣)، ومسلم في التوبة (١٧، ٦٧، ٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٢، ٢٢٧٣)، ورواه الطيالسي (٧٥)، والحميدي (١١٥٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٣) عن أبي هريرة بسند صحيح، ورواه أحمد وغيره عن أنس بسند حسن].

ش: **«كأنا رأي عين»**: أي كأنَّ ما يُذَكِّرُنا به بمَرْأى منا نشاهده. **«عافسنا»**: أي عالجنا ولاعبنا النساء. **«والضيعات»**: ضيعة الرجل ما يكون منه معاشه من حراثة، وتجارة، وصناعة، وحرفة. **«ساعة وساعة»**: أي اجعلوا ساعة لله ولعبادته ومناجاته، وساعة لكم ولحظوظكم وشهواتكم المباحة.

وفي الحديث إشارة إلى أن الإنسان مهما عظم مقامه، وسمت مكانته في الكمالات البشرية، لا يخرج عن أوصاف بشريته، ولا ينفك عن طبيعته.

ويؤخذ من الحديث أن المداومة على العمل والعبادة الروحية من تفكر وتلاوة وذكر قد تكسب لصاحبها الخوارق، والاتصال بالملأ الأعلى، وبما لا نراه مما هو خارج عن عالم الشهادة... كالملائكة مثلاً ونحوهم. وهو يرد على الماديين والملحدين والغافلين، وفيه دليل على أن الإنسان قد يصل إلى منزلة يصح معها أن تصافحه الملائكة وتسلم عليه. وهذا قد حصل لكثير من صلحاء هذه الأمة وأوليائها. كما يؤخذ من الحديث القصد في العبادة، والابتعاد عن التشدد والغلو، وأن الحالة الأخرى لا يطالب بها عموم المسلمين، بل هي خاصة بأقوام أخلصهم الله لنفسه كالأنبياء ومن قاربهم من أكابر المقربين، لأن أكثر الناس لا يطيقون ذلك. فحسب المسلم المقتصد أن تكون له سويعات يخلو فيها مع الله ويعبده ويناجيه، وأخرى لنفسه وحقوقه ومآربه، وأخرى لعباد الله وخلقه... والحمد لله.

١٣٥ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألاَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»** قالها ثلاثاً.

[رواه أحمد (٣٨٦/١)، ومسلم في العلم (٢٢٠/١٦)، وأبو داود (٤٦٠٨)].

ش: «المتنطعون»: أي المتعمقون في الشيء، المتغالون فيه، المتجاوزون الحد.

والحديث يعم مذمة التغالي والتَّشدد في كل شيء، وأن كل من تعمق في أمر وبالغ وغلا فيه أصبح هالكاً.

١٣٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «... **وإيَّاكُمْ والغُلُوَّ في الدينِ، فإنَّمَا أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغُلُوُّ فِي الدِّينِ»**.

[رواه أحمد (٣٤٧/١، ٢١٥)، والنسائي (٢١٨/٥)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والحاكم (٤٥٦/١) كلهم في الحج وسنده صحيح على شرط مسلم عند النسائي].

ش: «الغلو»: هو مجاوزة الحد في كل شيء، وغلا تشدد وجاوز الحد.

ومعنى الحديث: احذروا تجاوز الحد المشروع في الدين، وتجنبوا حالتي الإفراط والتفريط فإنه بمثل هذه الخصلة هلك الأقدمون. والحديث يأتي بتمامه في الحج إن شاء الله تعالى.

وبه تمَّ كتاب الاعتصام والاقتصاد والعمل. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون.

كتاب الإيمان والإسلام

من فضائلهما

١٣٧ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أن لا إلَه إلا اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ مُحمَّداً عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه، ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنةَ حقٌّ، والنارَ حَقٌّ، أدخلَهُ الله الجنةَ على ما كان مِن العمل**».

[رواه أحمد (٣١٣/٥، ٣١٤)، والبخاري في أحاديث الأنبياء، ومسلم في الإيمان (٢٢٦/١، ٢٢٧)].

وفي رواية: «**أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء**».

ش: وفي الحديث رد على النصارى في ادعائهم التثليث، وعلى اليهود في طعنهم في نبوة سيدنا عيسى عليه السلام، ورميهم مريم والدته بالزنا، وعلى الفرق المنكرة رسالة سيدنا محمد ﷺ. كما فيه رد على المعتزلة والخوارج القائلين بخلود العصاة في النار. وفيه إثبات المعاد والجنة والنار. وهو حديث عظيم، قد احتوى مهمات العقائد.

١٣٨ ـ وعنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله حَرَّمَ اللَّهُ عليه النَّارَ**».

[رواه أحمد (٣١٨/٥)، ومسلم والترمذي (٢٤٥٤) كلاهما في الإيمان].

ش: «**حَرَّم الله عليه النار**»: هذا إذا لم يكن هناك ما يوجب دخولها، أو مات تائباً فلا بد من التقييد بذلك جمعاً بينه وبين أحاديث أخرى.

١٣٩ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**يَخرُج من النار من كانَ في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان**»، قال أبو سعيد: فمن شاء فليقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

[رواه الترمذي في أبواب صفة جهنم وحسنه وصححه وأصله في حديث الشفاعة عند الشيخين ويأتي إن شاء الله في الرقاق].

ش: «**مثقال ذرة**»: أي وزنها. والذرة أصغر شيء من الأجرام. وإخراج العصاة الموحدين من النار متفق عليه بين أهل السنة. والأحاديث بذلك مستفيضة تأتي مفصلة مبسوطة في موضعها إن شاء الله تعالى.

١٤٠ ـ وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: رضيتُ باللَّهِ رَبّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد ﷺ رَسُولاً، وَجَبَتْ له الجنة**».

[رواه أبو داود في الصلاة رقم (١٥٢٩) بسند صحيح، ورواه الحاكم بلفظه (٥١٨/١) وصححه ووافقه الذهبي. وأصله في الجهاد من صحيح مسلم (٢٨/١٣)، والنسائي (١٧/٦، ١٨) مطولاً].

ش: «**رضيت**»: الرضا بالشيء: القناعة والاكتفاء به. وفيه فضل هذا الذكر والإعراب به عما في الضمير، وأنه من موجبات الجنة.

١٤١ ـ وعن العباس بن عبدالمطلب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ذاق طَعْمَ الإيمانِ مَن رضِيَ بالله ربّاً، وبالإسلام دِيناً، وبمحمَّد رسولاً**».

[رواه الطيالسي (٢٧)، وأحمد (٢٠٨/١)، ومسلم (٢/٢)، والترمذي (٢٤٤٠) كلاهما في الإيمان].

ش: «**ذاق**»: أي وجد واختبر. «**طعم.. إلخ**» بفتح الطاء أي حلاوة الإيمان.

١٤٢ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أسلم العبد فحَسُنَ إسلامُه كتب الله له كلَّ حسنةٍ كان أزلفها، ومُحِيَتْ عنه كلُّ سيئةٍ كان أزْلَفَهَا، وكان بعد ذَلِك القصاصُ، كُلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها، إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ، والسَّيئةُ بِمِثْلِها، إلا أن يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنها»**.

[رواه النسائي في الإيمان (٨/٩٣) بسند صحيح. وعلقه البخاري في الإيمان (١/١٠٦)].

ش: «أزلفها»: أي قربها أو أسلفها. **«القِصاص»**: أي المماثلة. وفيه فضل الإسلام وأنه يكفر كل ما سلف من الذنوب، ويثبت لصاحبه كل ما قدم من خير وحسنة.

وجاء نحو هذا الحديث عن أبي هريرة رواه البخاري (١/١٠٨)، ومسلم (٢/١٤١) كلاهما في الإيمان.

١٤٣ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن كان آخرُ كلامه: لا إلَه إلاَّ الله دخَل الجنة»**.

[رواه أحمد (٥/٢٤٧)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٦)، والحاكم (١/٣٥١) بسند صحيح، وذكره البخاري في الجنائز ضمن ترجمة].

ش: «دخل الجنة»: أي مع الأولين إذا مات تائباً، أو رجحت حسناته على سيّئاته، أو بعد سابق عدل الله فيه إن مات مصرّاً على المعاصي، وكانت سيئاته أكثر من حسناته.

١٤٤ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«أتاني جبريلُ عليه السَّلام فبشَّرني أن من ماتَ من أُمَّتِك لا يُشرِك بالله شيئاً دخل الجنة**. قلت: وإن زَنَى وإن سَرَق؟ قال: **وإن زَنَى وإن سَرَق**، قلت: وإن زَنَى وإن سَرَق؟ قال: **وإن زَنَى وإن سَرَقَ**، قلت: وإن زَنَى وإن سرق؟ قال: **وإن زَنَى وإن سرق**، ثم قال في الرابعة: **على رُغْمِ أنفِ أبي ذر»**.

[رواه أحمد (٥/١٥٢، ١٥٩)، والبخاري في الجنائز (٣/٣٥٣، ٣٥٤)، وفي اللباس، وفي الاستئذان، وفي الرقاق، وفي التوحيد. ومسلم في الزكاة، والترمذي رقم (٢٤٦٠) بتهذيبي في الإيمان].

ش: «وإن زنى» معناه: أنه سيدخل الجنة قطعاً ولو بعد حين، وإن سبقت له ذنوب ولو كانت كبائر كالزنا مثلاً والسرقة وشرب الخمر... لأنه لا يخلد أحد في النار مات على التوحيد كما سبق، ويأتي.

١٤٥ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثِنْتَانِ مُوجِبَتَانِ»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله ما المُوجبتانِ؟ قال: «**مَنْ ماتَ يُشرِكُ بالله شيئاً دخَلَ النارَ، ومَن ماتَ لا يُشرِكُ بالله شيئاً دخلَ الجنة**».

[رواه أحمد (٣٩١/٣، ٣٩٢)، ومسلم في الإيمان (٩٢/٢، ٩٣)، واتفق البخاري ومسلم على حديث ابن مسعود في ذلك أيضاً].

ش: «موجبتان»: أي إحداهما توجب لصاحبها النار وهي الشرك بالله. والأخرى توجب الجنة، وهي كلمة التوحيد.

١٤٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلت لرسول الله: مَن أسْعَدُ الناسِ بشفاعتِك يومَ القيامة؟ قال: «**لقد ظننتُ أن لا يَسْألَنِي عن هذا أولٌ مِنكَ لما رأيتُ من حِرْصِكَ على الحديث، أسْعَد الناسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ، من قال لا إلَه إلاَّ الله خالِصاً من قَلبِهِ**».

[رواه البخاري في العلم (٢٠٤/١)، وفي الرقاق ٢٣٨/١٤)].

ش: «من أسعد»: أي من أولى الناس وأحقهم بشفاعتك، إلخ. «أسعد الناس»: أي أكثرهم سعادة بها من مات موحداً مخلصاً. وفي الحديث فضل الأخلاص في التوحيد. وفيه ثبوت شفاعة نبينا ﷺ. وفيه فضل أبي هريرة لحرصه على طلب الحديث.

١٤٧ ـ وعن صهيب بن سنان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عَجَباً لأمرِ المؤمنِ إن أمْرَه كُلَّه له خيرٌ، وليسَ ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابتْه سَرّاء شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابتْه ضرّاء صبر فكان خيراً له**».

[رواه أحمد (٤٣٢/٤، ٤٣٣، و ١٥/٦، ١٦) من طرق، ومسلم في الزهد

(١٢٥/١٨)، وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص رقم (٢١١)، وعن أنس رواه عبدالله في زوائد مسند أبيه (٢٤/٥) وغيره بسند صحيح].

ش: «ضراء»: كمصيبة في النفس، أو الأهل، أو المال. «سراء»: أي كرغد العيش، وصحة الجسم، والأمن والاستقرار، والسلامة من الآفات، والطوارىء السيئة.

فهو في كل أحواله على خير. وهذا شيء يتعجب منه في هذه الحياة فإنه قد يقضي الله عليه بالشر ظاهراً وهو خير له.. وهذا بخلاف الكافر والمنافق، فإن حياتهما كلها شر، وإن كان ظاهرها خيراً.

١٤٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسِي بِيَدِه لا يَسمع بي أحدٌ مِن هذه الأُمةِ يَهُودي ولا نَصْرَاني، ثم يَمُوتُ ولم يُؤمِن بالذي أُرْسِلْتُ به إلاَّ كانَ مِن أصْحَابِ النَّارِ»**.

[رواه مسلم في الإيمان (١٨٦/٢) وجاء نحوه عن أبي موسى عند أحمد (٣٩٦/٤)، والطيالسي (٤٣) بسند صحيح].

ش: **«من هذه الأمة»**: أي أمة الدعوة فيدخل فيها كل أهل الملل والأمم والشعوب والأجناس.

والحديث يدل على عموم دعوته ﷺ وأنه لا يبقى أثر لأي دين من الأديان مع دعوته ﷺ ودينه، وهو إجماع لا ينازع فيه مسلم.

خاتمة

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً، فكل هذه الأصناف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلاً، لكنهم

يردونها على الخلاف المعروف في الورود. والصحيح أن المراد به المرور على الصراط، وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه. وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً، وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريد سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل، إلخ. فهذه خلاصة ما عند أهل السنة في شأن أهل القبلة. وقالت الخوارج والمعتزلة: بخلود أهل الكبائر في النار، وهو مذهب متطرف، باطل.

حقيقة الإيمان والإسلام وقواعد الدين

١٤٩ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وقال له رجل: ألا تغزو؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الإسلامَ بُنِي على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلَه إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، وإقامِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزكاة، وحَجِّ البيت، وصومِ رمضانَ**».

[رواه أحمد (٢/٢٦، ٩٣، ١٤٣)، والحميدي (٧٠٣)، والبخاري (١/٥٥)، ومسلم (١/١٧٦، ١٧٧)، والترمذي (٢٦٠٩)، والنسائي (٨/٩٥) وكلهم في الإيمان].

ش: «**بني على خمس**»: أشار ابن عمر رضي الله تعالى عنهما بما قال إلى أن الجهاد ليس من دعائم الدين وأُسسه التي لا يتم إسلام المرء إلا بها، بل هو من جملة شعبه وخصاله فقط وإن كان قد يتعين وجوبه أحياناً. والحديث يدل على أن قواعد الدين ودعائمه التي ينبني عليها هي هذه الخمس: الشهادتان، أي الإقرار والاعتراف بوحدانية الألوهية ورسالة نبينا محمد ﷺ، ثم تحقيق ذلك بأداء الصلوات الخمس، فإيتاء زكاة الأموال لمن كان له مال، فحج بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فصوم رمضان. هذه هي أُسس الإسلام التي لا يكون المرء مسلماً إلا بالتحقق بها.

١٥٠ ـ وعن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة

مَعبَدٌ الجُهَنِي فانطلقتُ أنا وحُمَيْد بن عبدالرحمن الحِمْيَرِي، حاجَّين أو معتمرين. فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فَوُفِّقَ لنا عبدالله بن عمر داخلاً المسجد فاكْتَنَفْتُه أنا وصاحبي أحدُنا عن يمينه والآخر عن يساره فظننتُ أنَّ صاحبي سَيَكِل الكلام إليَّ، فقلت: يا أبا عبدالرحمن إنه ظهرَ قِبلنا أناس يقرأون القرآن ويتَقَفَّرُون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قَدَرَ، وأن الأمر أُنُفٌ. فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طَلَعَ علينا رجلٌ شديد بَيَاض الثِّياب، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرَى عليه أثَرُ السفر، ولا يعرفُه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال: **«الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله، وتقيمَ الصَّلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً»**، قال: صدقتَ، فعجِبْنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **«أن تُؤمن بالله وملائكته وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر، وتُؤمِن بالقَدَر خَيرِه وشَرِّه»**. قال: صدقتَ، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **«أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكُن تراه فإنه يراكَ»**، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **«ما المسؤولُ عنها بأعلمُ مِن السائِل»**. قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: **«أن تَلِد الأَمَةُ ربَّتَها، وأن تَرى الحفاةَ العُراةَ العالةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولُون في البنيان»**. قال: ثم انطلق فلبثتُ مليّاً ثم قال: يا عمرَ: **«أتدري من السائلُ؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يُعلمكم دينكم»**.

[رواه أحمد (١/٥٢، ٥٣)، و (٢/١٠٧)، والطيالسي رقم (١٩)، ومسلم (١/١٥٠، ١٦٠)، والترمذي (٢٤٢٩)، والنسائي (٨/٨٨، ٨٩) ثلاثتهم في الإيمان، وأبو داود في السنة (٤٦٩٥)].

ش: **«فاكتنفته»**: أي أحطت به أنا وصاحبي. **«ويتقفرون»** بتقديم القاف

ثم فاء مفتوحة مشددة أي يبحثون عن العلم ويقتفونه. «**الأمر أنف**»: أي يزعمون أن الله تعالى لم يقدر الأمور في أزله ولم يكتبها في جملة ما كتب في اللوح المحفوظ، ولم يسبق بها علمه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. «**على فخذيه**»: أي وضع جبريل عليه السلام كفَّيه على فخذي النبي ﷺ كما في رواية لأبي هريرة عند النسائي بسند صحيح. «**الإسلام.. إلخ**»: هو الانقياد والإذعان، وأصله الدخول في السلم. «**الإيمان.. إلخ**»: هو في الأصل التصديق مطلقاً. «**خيره**»: خير القدر هو الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ وشره هو الكفر والمعاصي والفجور... «**كأنك تراه**»: أي تحقق بمشاهدة الله تعالى عند عبادتك وإلا فلا أقل من أن تتحقق بالمراقبة لله بأن تستحضر أن الله عزّ وجلّ معك، وأنه مطلع على خفاياك، لا يغيب شيء عليه من أحوالك. «**أن تلد الأمة.. إلخ**» معناه: سيكثر العقوق فيصبح الولد يستخدم أمه كأنها أمته وهو ربها، أو يكثر السبي فينتشر كسب الإماء حتى يصير ولد الأمة سيداً وربا لوالدته. «**العالة**»: أي الفقراء. «**يتطاولون**»: أي يتفاخرون في إطالة البنيان. «**ملياً**»: أي زماناً وكان ذلك ثلاثة أيام كما في رواية.

وهذا الحديث عظيم الشأن فيه فوائد وأحكام وآداب. وهو جامع لكل أصول الدين وكلياته، وقواعده، وفروعه، وآدابه وأخلاقه. وقد شرحه الناس وأطالوا الكلام فيه.

١٥١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه نحوه وفيه: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً**» مكان «**أن تشهد**». وفيه: «**فإذا كان الحفاةُ العُراة رؤوس الناس**». وزاد: «في خمس لا يعلمها إلا الله تعالى وتلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية»، وفي رواية: بعد العراة: «**الصُّمُّ البُكْمُ ملوكَ الأرض**».

[رواه أحمد (٤٢٦/٢)، والبخاري (١٢٣/١، ١٣٣)، ومسلم (١٦١/١، ١٦٥)، والنسائي (٩٠/٨، ٩١) كلهم في الإيمان. ورواه البخاري أيضاً في سورة لقمان من التفسير، وأبو داود في السنة (٤٦٩٨)].

ش: «**رؤوس الناس**»: أي ساداتهم وزعماؤهم وولاتهم من أمراء،

ووزراء، وقضاة، وسفراء، وغيرهم. فتولي السقطاء، وأطراف الناس لهذه المناصب من بوادر الساعة وعلامات حلولها. «الصم البكم»: قد يراد ظاهره فيتولى منصب الخلافة من لا يسمع ولا يتكلم. وقد يراد به الجهال والسفهاء، ومن لا قيمة لهم ولا خلاق. والآية الكريمة يأتي الكلام عليها في موضعها من التفسير.

فائدة هامة

اختلف السلف وغيرهم في الإسلام والإيمان هل هما شيء واحد أم هما متغايران؟ فذهب البخاري وغيره كابن حزم وجماعة من أهل الحديث إلى أنهما شيء واحد. وذهب آخرون وهم الأكثر من أهل السنة إلى أنهما غير متلازمين والذي رجحه المحققون أن الإسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية وهو الذي يرادف الإيمان وينفع عند الله تعالى وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وعليه أيضاً حديث عبدالقيس الآتي: «**أتدرون ما الإيمان؟**» إلخ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، أي صلاتكم. فأطلق الإيمان على الصلاة وهي عمل. ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية، وهو مجرد الانقياد فيطلق المسلم على من أظهر الإسلام وإن لم يعلم باطنه كما في حديث جبريل وأبي هريرة حيث فرَّق بين الإيمان والإسلام. وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، فمن عرف هذه النبذة الموجزة هانَ عليه ما يظهر له من تعارض بين النصوص في هذا الباب. والله تعالى أعلم.

١٥٢ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: بينا نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، إذ دخل رجلٌ على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيُكم محمد؟ قلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء، فقال: ابن عبدالمطلب؟ فقال النبي ﷺ: «**قد أجبتك**»، فقال:

إني سائِلُك فمُشدِّدٌ عليك في المسألة فلا تَجِدْ عَلَيَّ في نفسِك، قال: **«سَلْ عما بَدَا لكَ»**، فقال: أسألك بربِّك وربِّ مَن قَبْلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: **«اللَّهم نعم»**، قال: أَنْشُدَك بالله تعالى آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: **«اللَّهم نعم»**، قال: أنشدك بالله تعالى آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: **«اللَّهم نعم»**، قال: أنشدك بالله تعالى آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال: **«اللَّهم نعم»**. قال الرجل: آمنتُ بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

[رواه أحمد (١٤٣/٣، ١٦٨، ١٩٣)، والدارمي (٦٥٦)، والبخاري في العلم (١٥٨/١، ١٦٢)، ومسلم في الإيمان (١٦٩/١، ١٧١)، والترمذي في الزكاة(٥٥١)، وأبو داود في الصلاة (٤٨٦)، والنسائي في الصيام (٩٧/٤، ١٠٠)، وابن ماجه (١٤٠٢)].

وفي رواية مسلم: جاء رجل فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك، قال: **«صدق»**، قال: فمن خلق السماء؟ قال: **«الله»**، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: **«الله»**، قل: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: **«الله»**، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب الجبال، آلله أرسلك؟ قال: **«نعم»**، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: **«صدق»**، قال: فبالذي أرسلك آلله تعالى أمرك بهذا؟ قال: **«نعم»**، ثم ذكر الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج كذلك، قال: والنبي ﷺ يقول في كل سؤال: **«صدق»**، فيقول: فبالذي أرسلك آلله آمرك بهذا؟ فيقول: **«نعم»**، ثم ولى، وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: **«لئن صدق ليدخلن الجنة»**.

ش: «ثم عقله»: أي ربطه بالعقال. **«الأبيض»**: أي المشرب بحمرة كما جاء في صفته وهو الأمغر الوارد في رواية النسائي. **«فمشدد عليك»**: هذا الخطاب لم يكن لائقاً بمقام النبوة لكن ضماماً كان من سكان البادية

الذين لا أدب لهم. «**فلا تجد عليّ**»: أي فلا تغضب عليّ إذا أسأت معك، أو بالغت في السؤال. «**أنشدك**»: أي أسألك بالله رافعاً صوتي بطلب ذلك. «**لئن صدق**»: أي لئن كان صادقاً في محافظته على ما ذكر من الواجبات ليدخلن الجنة، لأنه قد أتى بما فرض الله عليه، ولكن لا بد أن يضيف إلى ذلك ترك المحرمات.

ويؤخذ من هذا الحديث العمل بخبر الواحد العدل في كل أبواب الديانة، حتى في العقائد، وفي ذلك أحاديث كثيرة، فقد ثبت بطريق التواتر والاستفاضة أن النبي ﷺ كان يبعث أصحابه أفراداً وجماعات يدعون الناس إلى الله تعالى ويعلمونهم دينه وأحكامه، وهكذا الخلفاء بعده. ولذلك قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله تعالى في أوائل «التمهيد» (٨/١)، وكلهم أي أهل العلم والفقه والأثر يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعله شرعاً وديناً في معتقده على ذلك جماعة أهل السنة ولهم في الأحكام ما ذكرنا.

وإنما نبهت القارىء على هذا لأنه يوجد من أهل الفرق من يفرق في الاحتجاج بخبر الواحد بين العقائد والأحكام. ثم ظهر اليوم من الفرق الضالة من يرد أخبار الآحاد جملةً ولهم في ذلك سلف قديم من أهل البدع والتطرف.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة].

١٥٣ ـ وعن طلحة بن عبيدالله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، نَسْمَعُ دَوِيّ صوته ولا نَفْقَهُ ما يقول: حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يَسألُ عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**خَمْسُ صلواتٍ في اليوم والليلة**»، فقال: هل عليّ غيرهن؟ قال: «**لا، إلا أن تَطَوَّعَ**»، فقال رسول الله ﷺ: «**وصيام رمضان**»، فقال: هل عليّ غيره؟ قال: «**لا، إلا أن تطوَّعَ**». وذكر له الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**»، فأدبر وهو يقول: لا أزيد على

هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صَدَقَ**»، أو: «**دخل الجنة إن صدق**»، وفي رواية: «**أفلح وأبيه**».

[رواه أحمد (١٦٢/١)، والبخاري ١١٤/١)، ومسلم (١٦٦/١، ١٦٨)، والنسائي (١٠٤/٨) في الإيمان، وأبو داود في الصلاة (٣٩١)، وكذا مالك في الموطأ رقم (٤٢٥)، وابن الجارود (٥٧)].

ش: «**من أهل نجد**»: النجد كل ما علا وارتفع من الأرض. ويطلق على القطر المعروف كما يطلق على ناحية العراق ونحوها. «**ثائر الرأس**»: أي شعره متفرق غير ممشوط. «دوي» بفتح الدال وكسر الواو: صوت مرتفع متكرر لا يفهم. «**أفلح وأبيه**»: هذه الرواية في مسلم وأبي داود، والفلاح: السعادة والظفر بالمطلوب. وقوله: «**وأبيه**» ظاهره أنه قسم بالأب لكن العرب جرت عادتها أن تدخلها في كلامها غير قاصدة بها الحلف، والنهي عن مثل ذلك، إنما ورد فيمن قصد الحلف لما في ذلك من إعْظَام المَحْلوفِ به ومضاهاته بالله عزّ وجلّ، أو يحمل ذلك على ما قبل النهي. والحديث يدل على أن ما زاد على هذه الفرائض ليس بواجب. وبه وبأمثاله استدلوا على عدم وجوب عدة صلوات، كالوتر مثلاً، وتحية المسجد، وصلاة العيد، وصلاة الاستسقاء، وغير ذلك. وكذلك يقال في الصوم، والزكاة، والحج، وهذا هو الحق الذي ندين الله تعالى به.

١٥٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسألتْهُ امرأةٌ عن نبيذِ الْجَرّ، فقال: إن وفد عبدالقيس أتوا النبي ﷺ فقال: «**مَن الوَفْدُ، أو: مَن القوم؟**»، قالوا: ربيعة، قال: «**مَرحَباً بِالقَوْمِ، أو: بالوَفْدِ غيرَ خَزَايَا ولا نَدَامَى**»، قالوا: إنا نأتيك من شُقَّةٍ بَعِيدةٍ، وإن بَيْنَنا وبينَكَ هَذَا الحَيَّ من كُفَّار مُضَر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، فمرنا بأمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِر بِه مَن وراءَنا، وندخلُ بِهِ الجنة. فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع. أمرهم بالإيمان بالله تعالى وحدَه، وقال: «**هل تدرون ما الإيمان بالله تعالى؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادةُ أن لا إلَه إلا الله وأن**

محمداً رسولُ الله، **وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وأن تُؤَدُّوا خُمُساً من المَغْنَم»**، ونهاهم عن الدُّبَّاء، والحَنْتَم، والمُزَفَّت، والنَّقِير. قال شعبة: وربما قالَ: **«المُقَيَّر»**. وقال: **«احْفَظُوهُنَّ وأخبِرُوا بعض مَن وراءكم»**، وقال للأشجِّ، أشج عبدِالقَيْسِ: **«إنَّ فيكَ خَصْلَتَين يُحبُّهما الله تعالى: الحِلْم والأناة»**.

[رواه أحمد رقم (٢٠٢٠) من طرق وألفاظ، والطيالسي (١٢٢)، والبخاري (١/١٣٧، ١٤١)، ومسلم (١/١٧٩، ١٨٩)، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي (٨/١٠٥) كلهم في الإيمان، ورواه أيضاً البخاري في العلم (١/١٩٣، ١٩٤)، وفي الخمس (٧/١٦) وفي مواضع، وأبو داود في الأشربة (٣٦٩٠، ٣٦٩٢) وفي السنة].

ش: «مرحباً»: أي صادفتم رحباً، بضم الراء وسكون الحاء، ولقيتم سعة والمرحب موضع الترحيب، وقد يزيدون أهلاً أي وجدتم أهلاً. وقد تكرر ذلك من النبي ﷺ وهو من الآداب الاجتماعية الجميلة. **«خزايا»**: جمع خَزْيان وهو الذي أصابه خزي. **«ندامى»**: جمع نَدْمان بمعنى نادمين. ومعناه: مرحباً بالقوم الذين أسلموا من غير حرب ولا سبي يخزيهم ويفضحهم ويسبب لهم الندامة. **«شقة»** بضم الشين والقاف المشددة المفتوحة: أي ناحية ومسافة شاسعة. **«فصل»**: أي فاصل قاطع. **«الدباء»** بضم الدال بعده باء مشددة هي القرع. **«والحنتم»** بفتح الحاء بعده نون ساكنة: هي الجرة المتخذة من الطين والخزف. **«والمزفت»** بضم الميم بعده زاي مفتوحة ثم فاء مشددة مفتوحة كذلك: وهو ما طلي بالزفت من الأوعية والجرار. **«والنقير»** بفتح النون وكسر القاف، أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء. **«والمقير»** بضم الميم ثم قاف مفتوحة بعده ياء مشددة مفتوحة هو ما طلى بالقار، وهو نبات يحرق. وإنما نهى ﷺ عن هذه الأوعية لأنهم كانوا ينبذون فيها فكان يسرع الإسكار إلى ما فيها، ثم جاء الإذن في ذلك بعد، وقال لهم: **«فانبِذُوا ما بَدَا لكُم غَيرَ أن لا تَشرَبُوا مُسْكِراً»**. **«الحلم»** بكسر الحاء هو الصفح عن سفه الجاهلين، والإعراض عنهم، أو أعم من ذلك. **«والأناة»**: تطلق على الوقار، وعلى التمهل والانتظار. وفيه منقبة للأشج وكان مُؤَدَّباً مُهذَّباً، حيث إنه لما نزل الوفد

بالمدينة تأخر عن أصحابه حتى حسن هيئته، ولبس أجمل ثيابه استعداداً للقاء رسول الله ﷺ.

١٥٥ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُؤمِن عبدٌ حتى يُؤمنَ بأربعٍ: يَشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأنّي محمدٌ رسولُ الله بعثني بالحقّ، ويُؤمنَ بالموتِ، ويؤمنَ بالبعثِ بعد الموتِ، ويؤمنَ بالقَدَرِ»**.

[رواه أحمد (١/٩٧، ١٣٣)، والطيالسي رقم (٢٠)، والترمذي في القدر رقم (١٩٧٧)، وابن ماجه في المقدمة (٨١)، والحاكم (١/٣٢، ٣٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قال].

ش: **«بأربع»**: هذا العدد لا مفهوم له، فلا ينافي وجوب الإيمان بغيرها من المعتقدات الضرورية المتقدمة في حديث جبريل. **«بالبعث»**: وهو الخروج من القبور للحساب، والفصل بين العباد، ومجازاة كلٍّ بما يستحق من نعيم أو عذاب. والقدر يأتي الكلام عليه.

١٥٦ ـ وعن الشَّريد بن سُوَيْد الثَّقَفِي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن أمّي أوصَت أن أُعْتِقَ عنها رقبَةً مؤمنةً، وعندي جارية سوداءُ نُوبيةٌ، أفأُعْتِقُها؟ قال: **«ادْعُهَا»**. فدعوتها، فجاءت فقال: **«مَن رَبُّكِ؟»**، قالت: الله، قال: **«فمَنْ أنَا؟»**، قالت: رسول الله، قال: **«اعْتِقْها، فإنَّها مُؤْمِنَةٌ»**.

[رواه أبو داود في الإيمان والنذور رقم (٣٢٨٣)، والنسائي في الوصايا (٦/٣١١) وسنده حسن].

ش: **«أوصَت»**: الوصية العهد بالشيء، والأمر به. **«نوبية»**: منسوبة للنوب وهم جيل من السودان. **«فإنها مؤمنة»**: جعلها مؤمنة بمجرد هذا الإيمان الإجمالي وكذلك كان شأنه مع كل من كان يدخل في الإسلام، لا فرق بين رجالهم ونسائهم، ولا حضريهم وبدويهم، فكان يقبل منهم دخولهم في الإسلام بأي شيء دلَّ على إسلامهم إذا نطقوا به. ثم بعد ذلك كانوا يتعلمون قواعد الدين وشرائعه فيتمكن الإيمان من قلوبهم، ويتبرأون من كل ما كانوا يعبدونه ويعتقدونه من خرافات ووثنيات.

١٥٧ ـ وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن لي جارية كانت تَرْعَى غَنماً فجئتُها وقد فَقَدتْ شاةً فسألتُها عنها فقالت: أكَلها الذِّئبُ، فأسِفْتُ عليها وكنت من بني آدم فلَطَمْتُ وجهَها، وعلـيَّ رقبة أفأُعْتِقُها؟ فقال لها النبي ﷺ: «أيْن الله تعالى؟»، قالت: في السماءِ، قال: «فمَنْ أنا؟»، قالت: أنتَ رسول الله، فقال: «اعْتِقْها فإنَّها مُؤْمِنةٌ».

[رواه أحمد (٤٤٧/٥، ٤٤٨)، والطيالسي رقم (٣٢)، ومالك رقم (١٥٥٠)، ومسلم في الصلاة (٢٠/٥، ٢٥) مطولاً، وروى بعضه في الطب (٢٢٣/١٤، ٢٢٤)، وأبو داود في الصلاة (٩٣٠)، وفي الأيمان والنذور (٣٢٨٢)، والنسائي في الصلاة (١٣/٣، ١٤)].

ش: «فقدت»: أي ضيعت. «فأسفت»: أي غضبت. «فلطمت» في مسلم: «صككتها صكاً» ومعناهما: ضربت وجهها ببياض يدي. «أين الله»: أي أين تعتقد وجود الله. «السماء»: أجابت بذلك لأن الناس كلهم مفطورون على أن جهة السماء محل الجلال والعظمة.

والحديث يدل على جواز إطلاق الظرفية (بالأين وفي) على الله تعالى وكونه في السماء وهذا مذهب كثير من السلف. وإليه ذهب الحنابلة وقد ألف كل من الذهبي وابن القيم كتاباً في العلو لله تعالى وأنه في السماء مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وأتيا بأدلة كثيرة كتاباً وسنة جاء فيها أنه في السماء، غير أن ذلك معارض بآيات وأحاديث جاء فيها أنه حاضر معنا وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا. وأنه الله في السمٰوات وفي الأرض.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، وأنه كلَّم موسى من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة... إلى غير ذلك مما يدل على حضوره وهويته معنا. فالواجب أن نؤمن بالجميع ونفوض حقائقها إلى الله تعالى. ونقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولا يَحُلُّ في شيء وتعالى الله عما يقوله المتغالون والمعطلون.

١٥٨ ـ وعن بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا نبي الله

ما أتيتُك حتى حلفْتُ أكثرَ من عدَدِ هؤلاءِ لأَصَابِعِ يديه: أن لا آتيَك، ولا آتي دينَك، وإنِّي كنتُ امْرِءاً لا أعقِلُ شيئاً إلا ما علَّمني اللَّهُ ورسولُه، وإني أسألك بوجه الله عزّ وجلّ بمَا بعثك ربُّك إلينا، قال: «**بالإسلام**». قال: قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: «**أن تقول أسلمْتُ وجْهِي إلى الله عزّ وجلّ وتَخَلَّيتُ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، كُلُّ مُسلم على مسلم مُحَرَّمٌ، أخَوَانِ نَصِيرَانِ، لا يَقبلُ اللَّهُ عزّ وجلّ مِن مُشرِكٍ بعدَما أسْلَم عَمَلاً، أو يُفَارِقَ المشركين إلى المسلمين**».

[رواه النسائي في الزكاة (٤/٥، ٦٢)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٦)، وابن حبان (٢٨) وسنده حسن].

ش: «**سألتك بوجه الله**»: في هذه الكلمة مذهبان، فالسلف يحملونها على ظاهرها مع التفويض والخلف يؤولونها بذات الله. والسؤال بالله منهي عنه، فيحمل هذا على ما قبل النهي أو على أن السائل لم يكن عالماً بالنهي. «**وتخليت**»: أي تنحيت عما كنت فيه من الشرك والوثنية. «**كل مسلم.. إلخ**» أي دمه وماله وعرضه. «**أخوان.. إلخ**» أي أن المسلمين إخوان في الله ينصر بعضهم بعضاً. «**لا يقبل من مشرك**» معناه: أن المشرك إذا أسلم وكان في دار الكفر حيث يخاف على عقيدته ودينه وجب عليه مفارقة المشركين والهجرة من بلادهم إلى بلاد إسلامي. وهذا كان في أوائل الإسلام، وقد يوجد في بعض العصور، وقد تكون البلاد الكفرية والبلاد التي يدعي أهلها الإسلام سواء؛ حيث تكون الأنظمة والانحلال، والميوعة، والإباحية متساويين فيها كعالمنا الحاضر.

١٥٩ ـ وعن عبدالله بن معاوية الغاضري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مَن فَعَلَهُن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ: مَن عَبَدَ الله وحده وأنه لا إلَه إلا الله، وأعطى زكاة ماله طَيِّبَةً بها نَفْسُه، رافِدَةً عليه كُلَّ عام، ولم يُعط الهَرِمَة، ولا الدَّرِنة، ولا المَريضة، ولا الشَّرَط اللَّئيمَة، ولكن مِن وسط أموالكم، فإن الله عزّ وجلّ لم يسألكم خيرَه، ولا يأمُرُكم بِشَرِّه**».

[رواه أبو داود في الزكاة بعد رقم (١٥٨٢)، والطبراني في الصغير (٢٠١/١)،

والبيهقي في «الكبرى» (٤/٩٥، ٩٦) بسند صحيح عند الأخيرين، وزاد: أو زكى نفسه». فقال الرجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلمَ أنْ الله عزَّ وجلَّ معه حيثُ كان»].

ش: «طَعِم»: أي وجد في قلبه حلاوة الإيمان. «من عبد الله»: أي وحده وأطاعه والعبادة غاية التذلل. «طيبة»: أي مع محبة وانشراح صدر. «رافدة»: الرفد: المعونة. ومعناه: أن تكون نفسه منشرحة لأداء الزكاة، معينة لصاحبها على أدائها كل عام. «الدرنة» بكسر الراء أي الرذيلة أو الجرباء. «الشرط» بفتح الراء: صغار المال وشراره.

١٦٠ ـ وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك؟ قال: «قُلْ: آمَنتُ بالله تعالى ثُمَّ اسْتَقِمْ».

[رواه أحمد (٣/٤١٣، و ٤/٣٨٥) من طرق، ومسلم في الإيمان (٢/٨، ٩)، والترمذي في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، وابن حبان (٢٥٤٣) وزاد غير مسلم قلت: يا رسول الله ما أخوَف ما تخاف عليّ، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا» وحسنه الترمذي وصححه»].

ش: «قل آمنت بالله»: هذا من جوامع كلمه ﷺ. ومعناه: اعتقد وحدانية الله والزم طاعته حتى تلقاه. وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إلخ. وقوله: «قل لي» إلخ، في رواية للترمذي وأحمد: حدثني بأمر أعتصم به. فقال: «قل: ربي الله» إلخ. والحديث جامع لكل أنواع القربات والعبادات.

١٦١ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلَّى صلاتنا واستقبل قِبْلَتَنا، وأكلَ ذَبِيحَتَنا، فهُوَ المسلمُ».

[رواه النسائي في الإيمان (٨/٩٣) بسند صحيح، وهو طرف من حديث رواه البخاري في استقبال القبلة (٢/٤٢)، وأبو داود (٢٦٤)، والترمذي في الإيمان مطولاً].

ش: «من صلى صلاتنا.. إلخ»: إنما خص هذه الثلاثة لأن أهل الكتاب وإن كانوا يشاركوننا في أصلها فإنها باطلة غير معتد بها. وقبلتهم

خلاف قبلتنا، وبعضهم يذبح لغير الله، وفيهم من لا يأكل ذبيحتنا كاليهود. وقد يفهم من الحديث بهذه الرواية أنه وارد في أهل الكتاب فقط. ولذلك لم يذكر فيه التوحيد لأن أكثرهم موحدون، ولكنه جاء في رواية عند البخاري وغيره: **«من شهد أن لا إلّه إلا الله»** إلخ، فيكون عاماً في سائر الأمم والشعوب وبذلك تكون هذه الأمور المذكورة شعاراً لإسلام صاحبها.

المبايعة على الإيمان وشرائع الدين

١٦٢ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: **«بَايِعُونِي على أنْ لا تُشرِكوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتُلوا أولادَكم، ولا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَه بين أيْدِيكُم وأرجُلِكم، ولا تَعْصُوا في معروفٍ، فمن وفَّى منكم فأجْرُه على الله، ومَن أصابَ مِن ذلك شيئاً فعُوقِب في الدُّنيا، فهو كفارةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً ثم سَتَره اللَّهُ فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقَبَهُ»** فبايعناه على ذلك.

[رواه أحمد (٣١٤/٥)، والحميدي (٣٨٧)، والبخاري في الإيمان ٧٠/١، ٧٤)، وفي المغازي، وفي الحدود، وفي الديات، وفي الأحكام، وفي التفسير، ومسلم والترمذي في الحدود، والنسائي في البيعة (١٢٧/٧، ١٢٨)، وابن ماجه في الجهاد وفي الحدود بألفاظ].

ش: «النقباء»: جمع نقيب، وهو عريف القوم والمقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم. **«عصابة»**: أي جماعة، وفي رواية: **«في رهط»**. ومعناهما واحد. **«ببهتان»**: البهتان: الكذب الذي يبهت سامعه، ويتركه دهشاً متحيراً. **«تفترونه»**: أي تختلقونه. **«بين أيديكم.. إلخ»**: خص الأيدي والأرجل بذلك لأن معظم الأفعال تقع بهما، أو كنى بذلك عن نسبة المرأة الولد الذي تأتي به من الزنا، أو تلتقطه إلى زوجها. لأن أصل هذه المبايعة كانت في بيعة النساء، ثم لما استعملت في بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد فيه أولاً. **«فمن وفى»**: أي حفظ ذلك وثبت على

العهد. «**فهو كفارة له**»: هو يدل على أن الحدود كفارات لما يصدر عن الإنسان من الذنوب، وظاهره وإن لم يتب، وهو قول الجمهور وفي ذلك أحاديث أخرى عن الإمام علي عند الترمذي، وأبي تميمة عند أحمد، وخزيمة بن ثابت عنده أيضاً، وعن ابن عمر عند الطبراني، وكلها ثابتة. «**فبايعناه**»: البيعة هي المعاهدة على ما يتفق عليه الناس. وهي هنا المعاقدة على الإسلام وشرائعه وإعطاء العهد بذلك.

١٦٣ ـ وعنه، قال: **بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العُسْرِ واليُسْرِ، والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وعلى أثَرَةٍ علينا، وعلى أن لا نُنازعَ الأمْرَ أهلَه، وعلى أن نقولَ بالحقِّ أينَما كنَّا، لا نخافُ في الله لومةَ لائِمٍ.** وفي رواية: «**إلاَّ أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً، عِندَكم من الله فيه بُرهانٌ**».

[رواه مالك في الجهاد، والبخاري في الفتن (١٦/١١٢، ١١٣)، وفي الأحكام، ومسلم في المغازي، والنسائي في البيعة (٧/١٢٤، ١٢٥)].

ش: «**على السمع.. إلخ**»: يعني لمن ولاه الله الأمر من الخلفاء والولاة. «**في العسر.. إلخ**» بضم ثم سكون فيهما أي في حالتي الضراء والسراء. «**والمنشط.. إلخ**» بفتح الميم فيهما على وزن جعفر أي وقتي النشاط، والتثاقل والكسل. «**وعلى أثرة.. إلخ**» بفتح الهمزة والثاء معناه على أن نؤثر ونقدم الغير علينا في الفيء، والإمارات، والولايات، إذا حصل في ذلك نزاع. «**وعلى أن لا ننازع**»: أي لا نشق عصا الطاعة على من ولاه الله علينا، ولا ننازعه في ولايته وإن أخذ أموالنا، وضرب رقابنا، كما جاء في أحاديث أخرى ستأتي في الإمارة مبسوطة. «**لومة**» معناه: نصارح الناس بالحق من غير أن نخشى في ذلك عذل عاذل، وعتب معاتب. «**كفراً بواحاً**» بفتح الباء، أي ظاهراً مكشوفاً لا يحتمل التأويل.

١٦٤ ـ وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة. فقال: «**ألا تُبَايعون رسول الله ﷺ؟**» وكنَّا حديثَ عهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فقلنا: قد بايَعْناك يا رسولَ الله، ثم قال: «**ألاَ تُبايعون رسول الله ﷺ؟**»، فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا

رسول الله، فعَلامَ نُبَايِعُك؟ قال: «**أن تعبُدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، وتصلُّوا الصلواتِ الخمسَ، وتَسمعوا وتُطيعوا**، وأسَرَّ كَلِمةً خفيفةً، **ولا تَسألُوا النَّاسَ شيئاً**»، فلقد رأيتُ بعض أولئك النَّفَرِ يَسْقُط سَوْطُ أحدِهم فما يَسألُ أحداً يُناوله إياه.

[رواه أحمد (٢٧/٦) من طرق، ومسلم (١٣٢/٧)، وأبو داود رقم (١٦٤٢) كلاهما في الزكاة].

ش: «**ألا تبايعون**»: قد تكررت منه ﷺ عدَّة مبايعات مع أصحابه في مواقف وأماكن لأشخاص جماعةً وأفراداً، وكلها كانت تدور حول السمع والطاعة، والهجرة، والجهاد، والصبر والثبات وعدم الفرار، وعلى الإسلام وشرائعه، وعلى ترك المحرمات. «**علام**»: أي على ماذا نعاهدك؟ «**النفر**» بفتح النون والفاء: الجماعة، ويطلق على الثلاثة إلى العشرة. «**فما يسأل**»: فيه دليل على أن عدم سؤال الناس من أمور الديانة التي لها أهميتها في الإسلام، وأن المسلم ينبغي أن يكون عالي الهمة، بعيداً عما يشين دينه، اللهم إلا إذا اضطر، فالضرورات تبيح المحظورات.

١٦٥ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا إذا بايَعْنَا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: «**فِيما اسْتَطَعْتُم**».

[رواه مالك في البيعة (١٩٠٧)، والبخاري في الأحكام (٣١٧/١٦، ٣١٨)، ومسلم وأبو داود في الإمارة (١٢٤٠)، والنسائي في البيعة (١٣٦/٧)، والترمذي في السير].

ش: «**فيما استطعتم**»: أي فيما هو داخل تحت إمكانكم، فلا يكلفكم الله بما لا تطيقون.

١٦٦ ـ وعن أُمَيْمَة بنت رُقَيْقَة رضي الله تعالى عنهما قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نِسْوةٍ من الأنصارِ فقلنا: نُبَايِعُكَ على أن لا نُشركَ بالله شيئاً، ولا نسرِقُ، ولا نزنيَ، ولا نَقتلَ أولادَنا، ولا نَأتِي ببُهتانٍ، نفتريه بين أيدينا وأرجُلنا، ولا نعصيك في معروفٍ. فقال: «**فيما استطعْتُنَّ وأطَقْتُنَّ**»، فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا منَّا بأنفسنا. هلمَّ نبايعك. قال سفيان: تعني صافحن، فقال: «**إنِّي لا أُصافحُ النِّساء، إنما قَوْلِي لمائةِ امرأةٍ كقَوْلِي لامرأةٍ واحدةٍ**».

[رواه أحمد (٦/٣٥٧)، ومالك في الجامع (١٩٠٨) ومن طريقه الترمذي في السير، والنسائي في البيعة (٧/ ١٣٤، ١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٤) بأسانيد صحيحة].

ش: هذه المبايعة هي المذكورة في القرآن الكريم في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية.

ش: **«إني لا أصافح.. إلخ»**: أي لا أضع يدي في أيديهن ولا أمسهن، لأن ذلك محرم في الإسلام ويعتبر زنا، ولذلك جاء في مسّ يد الأجنبية زواجر وقوارع عنه ﷺ.

١٦٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **ما مسَّ رسول الله ﷺ يدَ امرأةٍ قط إلا أن يأخذ عليها، فإذا أخذ عليها فأعطته قال: «إذْهَبِي فَقد بايَعْتُكِ»**.

[رواه البخاري في تفسير الممتحنة (١٠/٢٦١)، وفي النكاح، وفي مواضع، ومسلم في الإمارة، وأبو داود في الخراج رقم (٢٩٤١)، وابن ماجه في الجهاد رقم (٢٨٧٥)].

ش: **«اذهبي»**: يعني قد بايعتك بلساني، ولا حاجة إلى مصافحتك، لأن المصافحة في ذلك من شأن الرجال. وفي الحديث رد على من زعم أن رسول الله ﷺ صافح النساء في المبايعة، وأما الحديث الوارد في صحيح البخاري في أخذ الوليدة بيده ففيه احتمالات، ولا حجة فيه لمن أجاز مصافحة النساء الأجنبيات من بعض المعاصرين المتساهلين.

١٦٨ ـ وعن جرير رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يبايع فقلت: يا رسول الله ابسط يدك حتى أُبايعك واشترط عليّ فأنت أعلم، قال: **«أُبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصَّلاة، وتُؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتُفارق المشركين»**.

[رواه أحمد (٤/٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥)، والنسائي (٧/١٣٢) من طرق صحيحة].

ش: **«وتناصح.. إلخ»**: جاء عنه في الصحيح: **«والنصح لكل مسلم»**. **«وتفارق المشركين»**: يعني تهاجر بلاد الكفر والشرك إلى بلاد

إسلامية تُقام فيها شعائر الدين. وفيه المبايعة على شرائع الدين.

١٦٩ ـ وعن الأسود بن خلف رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي ﷺ يبايع الناس يوم الفتح قال: جلس عند قرن مسقلة فبايع الناس على الإسلام والشهادة، قال: قلت: وما الشهادة؟ قال: أخبرني محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله، وشهادة أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

[رواه أحمد (٤١٥/٣) بسند صحيح].

ش: وفي الحديث المبايعة على الشهادتين والتصديق بالله عزّ وجلّ.

دعوة الناس إلى توحيد الله وشرائع الدين وقتالهم على ذلك وحرمة دم المسلم وماله وعرضه

١٧٠ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: **«إنك تأتي قوماً أهلَ كتاب، فادْعُهم إلى شهادةِ أن لا إلّه إلا الله، وأنّي رسولُ الله، فإنْ هُم أطاعُوا لِذَلِك فأعْلِمْهُم أنَّ الله تعالى افْتَرض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يوم وليلةٍ، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعْلِمْهم أنَّ الله تعالى افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذُ من أغنيائهم فَتُرَدُّ إلى فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لذلك فإيَّاكَ وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجابٌ»**.

[رواه أحمد (٢٣٣/١)، والبخاري في الزكاة، والمغازي، والتوحيد، ومسلم في الإيمان ١٩٥/١، ٢٠٠)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٥٥٦)، والنسائي (٣/٥)، وابن ماجه (١٧٨٣) كلهم في الزكاة. وفي رواية للشيخين: **«فليكن أوّلَ مَا تَدْعُوهم إليه عِبَادَةُ الله، فإذَا عَرَفُوا الله..»** الخ].

ش: **«بعث معاذاً»**: كان ذلك آخر حياته ﷺ ولم يره معاذ بعد هذا البعث. **«فادعهم»**: فيه دعوة أهل الكتاب إلى توحيد الله عزّ وجلّ لأنهم لا يوحدونه توحيداً خالصاً فإذا وحدوا الله وجب عليهم الإذعان لشرائع الدين

وفرائضه كالصلوات الخمس وأخواتها. «**وكرائم**»: جمع كريمة، وهي النفيسة من المواشي ففيه وجوب أخذ الوسط في الزكاة. «**واتق دعوة**»: اجتنب ظلم الناس لتكون محفوظاً من دعواتهم عليك، فإنها مستجابة لا يحجبها شيء.

١٧١ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال لعلي يوم خيبر: «**أنفُذْ على رِسْلِك حتى تَنزلَ بساحَتِهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

[رواه أحمد (٥/٣٣٣)، والبخاري في الجهاد (٦/٤٥٢)، وفي المغازي (٨/١٧، ١٨)، وفي الفضائل (٨/٧٢)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٧٨، ١٧٩)، وسيأتي مطولاً في المغازي إن شاء الله تعالى].

ش: في الحديث دعوة الكفار إلى توحيد الله تعالى وإلى حقوقه وفرائضه قبل قتالهم. ولا خلاف في ذلك بين علماء الإسلام.

١٧٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاس حَتَّى يَشْهَدُوا أن لا إلَه إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، ويُقيمُوا الصَّلاة، ويُؤتوا الزَّكاة، فإذا فَعلوا ذلك عَصَموا مِنِّي دِمَاءَهم، وأموالَهم، إلا بحقّ الإسلامِ وحسابُهم على الله**».

[رواه البخاري (١/٨٢)، ومسلم (١/٢١١، ٢١٢) كلاهما في الإيمان].

ش: الحديث وارد عن جمّ غفير من الصحابة فهو لذلك متواتر. «**عصموا**»: أي منعوا وحفظوا. فمن أقرَّ بالشهادتين والتزم بشرائع الدين المذكورة كان محقون الدم، محفوظاً له ماله، وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾، وفي أخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾. «**إلا بحق الإسلام**»: فيقتل لذلك، ويؤخذ ماله... كمن امتنع من أداء الصلاة مثلاً، أو من أداء الزكاة، أو ارتكب حداً أو جناية مما يوجب القتل فإن هؤلاء لا تحقن دماؤهم ولا أموالهم، لأنهم لم يقوموا بحق لا إلّه إلا الله.

والحديث يدل على وجوب قتال كل الطوائف الكفرية، وإرغامهم على الدخول في الإسلام إلا الكتابيين ففيهم تفصيل يأتي في الجهاد. وهذا لم يختلف فيه المسلمون منذ عصر النبوة، ومن قال خلاف هذا من بعض الكتاب المعاصرين فهو مخطىء خطأً فاحشاً.

١٧٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلَه إلا الله وأن محمد رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، واستقبلوا قِبلتنا، وأكلوا ذَبِيحَتَنا، وصَلُّوا صلاتَنا، حَرُمَت علينا دماؤُهم وأموالُهم إلا بحقِّها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**».

[رواه البخاري (٤٣/٢)، والترمذي والنسائي، وتقدم نحوه مختصراً (١٦١)].

ش: «**لهم ما للمسلمين**»: أي لهم من الحقوق ما ثبت للمسلمين، وعليهم من التكاليف الشرعية ما وجب على المسلمين.

١٧٤ ـ وعن طارق بن أَشْيَمَ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إلَه إلا الله، وكَفَر بما يُعْبَدُ من دون الله حَرُمَ مالُه ودمُه وحسابُه على الله**». وفي رواية: «**مَن وحَّد الله**».

[رواه أحمد (٤٧٢/٣)، ومسلم في الإيمان (٢١٢/١)، والرواية الأخيرة لأحمد والأولى لمسلم].

ش: «**وكفر بما يعبد.. إلخ**»: في هذا دليل للقول الصحيح أنه لا بد لمن دخل في الإسلام أن يتبرأ مما كان يعبده قبلُ من دون الله تعالى.

١٧٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دمُه، ومالُه، وعرضُه**».

[رواه مسلم وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٣) وسيأتي في الأدب مطولاً كما ستأتي أحاديث لابن عمر وأبي بكرة وعمرو بن أبي الأحوص في الحج، فإن فيها: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام..**» إلخ].

ش: «**كل المسلم.. إلخ**»: فيه كسابقه أن إراقة دم المسلم، وأخذ

ماله، والنيل من عرضه بغير حق كل ذلك حرام أشد التحريم. وهذا شيء معلوم من الدين ضرورة.

١٧٦ ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جُهَيْنة فصبَّحنا القومَ فهزمناهم، ولَحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم فلما غَشِيناه قال: لا إلَه إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري، وطعنتُه برُمْحي حتى قتلتُه. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: «يا أُسامة أقتلته بعدما قال: لا إلَه إلا الله»؟ قال: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. وفي رواية: «**وكيف تصنعُ بلا إلَه إلا الله إذا جاءت يومَ القيامة**». وفي رواية: «**أفلا شَقَقْتَ عن قلبه حتى تَعلمَ من أجل ذلك قالها أم لا. مَن لك بلا آلَه إلا الله يوم القيامة**»؟.

[رواه أحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٧)، والبخاري في المغازي (٩/٥٨، ٥٩)، وفي الديات، ومسلم في الإيمان (٢/٩٩، ١٠١)، وأبو داود رقم (٢٦٤٣)، والسياق لمسلم والرواية الأخيرة لأحمد وأبي داود].

ش: «**الحرقة**» بضم الحاء وفتح الراء والقاف، هم بطن من جهينة. «**فصبحنا**»: أي هجموا عليهم صباحاً قبل أن يشعروا بهم. «**غشيناه**» بفتح أوله وكسر ثانيه: أي لحقنا به حتى تغطى بنا. «**فطعنته**»: أي ضربته. «**متعوذاً**»: أي قالها خوفاً من السلاح وليحرز دمه وماله. «**أقتلته بعد أن قال.. إلخ**»: فيه تحريم قتل من نطق بالشهادة وأن من قالها عصم دمه وماله. وإنما لم يقتص النبي ﷺ من أسامة لأنه قتل الرجل متأولاً مجتهداً والمتأول المخطىء لا يُلام.

١٧٧ ـ وعن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمتُ لله أفأقتُلُه يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله**». قال: فقلت: يا رسول الله، إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله، قال رسول الله ﷺ:

«لا تقتله، فإن قتلتَه فإنه بمنزلتِك قبلَ أن تَقتلَه، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمتَه التي قال».

[رواه أحمد (٣/٦، ٥، ٦)، والبخاري في المغازي، وفي الديات (١٥/٢٠٦، ٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (٢/٩٨، ٩٩)، وأبو داود في الجهاد رقم (٢٦٤٤)، والنسائي وغيرهم].

ش: **«ثم لاذ»**: أي التجأ إلى شجرة. **«أسلمتُ لله»**: أي دخلت في الإسلام. **«فإنه بمنزلتك.. إلخ»**: يعني أنه يصبح محقون الدم والمال مثلك قبل قتله، وأنت مثله في حلال دمك بالاقتصاص، وليس معناه أنه كافر كما قيل، لأن مجرد المعصية لا تخرج صاحبها من الدين إذا لم يستحلها.

١٧٨ ـ وعن عبدالله بن عدي الأنصاري رضي الله تعالى عنه، أن النبي ﷺ بينما هو جالس بن ظَهْرَانَيْ الناس إذ جاءه رجلٌ يستأذِنُه أن يُسَارَّه فأذِنَ له فسارَّه في قتل رجل من المنافقين فجهَر رسول الله ﷺ بكلامه، وقال: **«أليس يشهد أن لا إلّه إلا الله؟»**، قال الأنصاري: بلى يا رسول الله، ولا شهادة له، قال رسول الله ﷺ: **«أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟»**، قال: بلى يا رسول الله، قال: **«أليس يصلي؟»**، قال: بلى يا رسول الله، ولا صلاة له، فقال رسول الله ﷺ: **«أولئك الذين نهاني الله عنهم»**.

[رواه أحمد (٥/٤٣٢، ٤٣٣)، وابن حبان رقم (١٢) كلاهما من طريق عطاء بن يزيد الليثي عن عبيدالله بن عدي بن الخيار عن عبدالله بن عدي الأنصاري، وسنده عندهما صحيح. ورواه مالك في الموطأ في جامع الصلاة رقم (٤١٤) عن عبيدالله بن الخيار وسنده صحيح أيضاً واختلف في صحبة عبيدالله ولا يضر ذلك].

ش: **«فساره»**: أي كلمه سراً. **«يستأذنه»**: يعني يطلب منه الإذن في قتل رجل. قال ابن عبدالبر والباجي: إنه مالك بن الدخشم. وهذا لم يكن منافقاً، وإنما لمزوه بذلك لتودده للمنافقين، وهو معدود في البدريين. ولعله كان له عذر في ذلك. والحديث يفيد أن أمور الناس محمولة على الظواهر، وعليها تجري الأحكام ولا نؤمر بالبحث عن البواطن والخفايا، وهذا مما لا يعلم فيه خلاف بين العلماء.

١٧٩ ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فجاء رجل فسارَّه فقال: «**اقتلوه**». ثم قال: «**أيشهد أن لا إلَه إلا الله؟**»، قال: نعم، ولكنه يقولها تعوُّذاً. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقتلوه، فإنما أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلَه إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

[رواه النسائي (٧/٧٤) بسند صحيح ونحوه عن أوس بن حذيفة الثقفي، رواه النسائي أيضاً (٧/٧٤، ٧٥) من طرق صحيحه، وابن ماجه في الفتن (**٣٩٢٩**) بسند صحيح].

ش: هو كسابقه في تحريم قتل من نطق بالشهادتين وإن كان مشكوكاً في إخلاصه وظهر منه بعض أوصاف المنافقين.

من شعب الإيمان

١٨٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بِضْعٌ وسبعون، أو: بِضع وستون شُعْبَة فأفضلُها قولُ لا إلَه إلا الله، وأدناهَا إماطَةُ الأذَى عَنِ الطريقِ، والحياءُ شُعْبةٌ من الإيمانِ**».

[رواه البخاري (١/٥٧، ٥٨)، ومسلم (٢/٣، ٦)، والترمذي والنسائي (٨/٩٦، ٩٧) كلهم في الإيمان، وأبو داود في السنة رقم (٤٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة (٥٧)].

ش: «**بضع وسبعون**»: هذه رواية الجماعة غير البخاري، وقوله: «**بضع وستون**» رواها مسلم وابن ماجه على الشك. ورواها البخاري على الجزم. ورجحها المحققون. والبضع بكسر الباء: ما بين الثلاثة إلى التسع. «**شعبة**» بضم الشين وسكون العين: أي قطعة، وخصلة، وجزء. وهذه الشعب هي التي جمعها البيهقي وغيره. وهي مفرقة في الكتاب والسنة. وانظرها مفصلة باختصار عند الحافظ في كتاب الإيمان من الفتح. «**إماطة**»: أي إزالة الأذى من نحو شوك، أو زجاج، أو نجاسة، وما إلى ذلك مما يؤذي المارة في طريقهم.

والحديث يدل على أن للإيمان خصالاً وأجزاءً فوق الستين أو السبعين

وأن فيها أعلى وأدنى، فأعلاها كلمة التوحيد، وأدناها إزالة ما يؤذي الناس في طرقهم.

١٨١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَن كانَ اللَّهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّه إلاَّ للَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنه، كما يَكْرَهُ أن يُلْقَى فِي النَّارِ»**.

[رواه أحمد (١٠٣/٣، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٨٨)، والطيالسي رقم (٣٠)، والبخاري (٦٦/١، ٦٨، ٦٩)، ومسلم (١٣/٢)، والنسائي (٨٦/٨، ٧٧، ٨٨)، والترمذي، كلهم في الإيمان].

ش: «لا يحبه إلا لله»: لأن ذلك مقتضى الأخوة الإسلامية. وزاد النسائي (٨٦/٨) بسند صحيح: **«وأن يحب في الله، ويبغض في الله»**. وما في هذا الحديث ميزان يعرف به المسلم مقدار إيمانه وحلاوته. فمن فقده من نفسه فليجاهدها، وليحملها على التخلق بذلك لكي يدرك هذه المنزلة العزيزة التي تدل على كمال إيمان صاحبها.

١٨٢ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ والدِه، ووَلَدِه، والناسِ أجمعين»**. وفي رواية: **«أحبَّ إليهِ مِن مَالِه، وأهْلِه»**.

[رواه أحمد (١٧٧/٣، ٢٧٥، ٢٧٨)، والبخاري (٦٥/١)، ومسلم (١٥/٢)، والنسائي (١٠٠/٨) كلهم في الإيمان، وابن ماجه في المقدمة رقم (٦٧) ونحوه عن أبي هريرة عند البخاري].

ش: «لا يؤمن»: يعني الإيمان الكامل. **«أحب إليه»**: المراد بالحب هنا الإيماني وهو اتباع المحبوب، لا الحب الطبيعي. ومن ثم لم يحكم بإيمان أبي طالب مع حبه للنبي ﷺ. **«من ماله وأهله»**: هذه رواية لمسلم والنسائي. ولفظ الأصل أشمل وأعم. لأنه يدخل فيه الأم، والإخوة، والأخوات، والخالات، والأعمام، والعمات، والأخوال... والمال كل ما يتموله الإنسان. وأحبه إلى الناس يختلف باختلاف الأزمان، والأقاليم، والشعوب.

١٨٣ ـ وعن عبدالله بن هشام رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال له عمر: يا رسول الله لأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلاَّ مِنْ نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: **«لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليكَ مِن نفسِك»**. فقال له عُمر: فإنه الآن يا رسولَ الله، لأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ مِن نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: **«الآنَ يَا عُمَرُ»**.

[رواه البخاري في الشركة، وفي الدعوات، وفي المناقب (٥٤/٨)، وفي الأيمان والنذور (٣٢٩/١٤، ٣٣٠) وهو من أفراد البخاري].

ش: **«لا والذي نفسي بيده»**: يعني لا تكون كاملاً في إيمانك حتى تؤثر محبتي على نفسك. **«الآن يا عمر»**: يعني الآن عرفت الحقيقة فنطقت بما يجب أن تكون عليه. والحديث يدل على أن المرء لايكون صادقاً مخلصاً في إيمانه حتى يكون حبه ﷺ آكداً عنده من حب كلّ محبوب كائناً من كان، وعلامات محبته كثيرة. منها: محبة القرآن والسنة المحمدية والدعوة إليهما وتعلمهما وتعليمهما، وتحمل المشاق في سبيلهما بالمال والنفس والأهل، وفيه فضل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وكم له من مناقب ومزايا.

١٨٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ـ مِن الخَيرِ ـ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**.

[رواه أحمد (١٧٦/٣، ٢٧٢، ٢٧٨)، والبخاري (٦٣/١)، ومسلم (١٦/٢، ١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٣) بتهذيبي، والنسائي (١٠١/٨)، ثلاثتهم في الإيمان، وابن ماجه رقم (٦٦)].

ش: **«لأخيه»**: يعم الذكر والأنثى. **«من الخير»**: هذه رواية النسائي وهي زيادة مهمة مفسرة، لأنها تدل صراحة على أن المؤمن لا يحب الشر لأخيه، ومنه المعاصي. فالله لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر. وقد أتى بعض شياطين علماء تطوان شططاً حول هذا الحديث حيث قال في جم غفير من الناس وهو يعظهم: إن المؤمن الذي يحب السباحة في

شواطىء البحر يجب عليه أن يحب ذلك لأخته المسلمة.. فاحكم على هذا الشيطان يا أخي بما شئت.

وفي الحديث إيماء إلى أن المسلم مع أخيه كذات واحدة.

١٨٥ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وأَبْغَضَ لِلَّهِ، وأَعْطَى لِلَّهِ، ومَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»**.

[رواه أبو داود في السنة (٤٦٨١) من طريق القاسم بن عبدالرحمن الشامي، ورجاله ثقات. وفي القاسم كلام لا يضر هنا فالحديث صحيح لشواهده عن معاوية الجهني. رواه أحمد (٤٤٠/٣)، والترمذي في صفة القيامة وسنده حسن. وعن ابن مسعود رواه الطيالسي رقم (٢٥)، والحاكم، وعن البراء رواه أحمد (٢٨٦/٤)، وعن عمرو بن الجموح رواه أحمد (٤٣٠/٣)، وعن أبي ذر رواه أبو داود (٤٥٩٩) فالحديث صحيح وهو في البخاري معلقاً. وانظر ما قال عليه الحافظ في الفتح].

ش: **«من أحب لله»**: أي لأجله لا لعارض نفساني، وكذا يقال في البغض وباقي الجمل. ويأتي الكلام على التحابب في الله.. في الأدب.. إن شاء الله تعالى.

١٨٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المسلمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ ويَدِهِ. والمُؤمِنُ مَنْ أَمَّنَه الناسُ على دِمَائِهِم وأموالِهم»**.

[رواه أحمد (٣٧٩/٢)، والترمذي رقم (٢٤٤٤)، والنسائي (٩٣/٨)، وكلاهما في الإيمان والحاكم كذلك (١٠/١)، وحسنه الترمذي وصححه، والحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبي].

ش: **«المسلم»**: أي الكامل وكذا يقال في المؤمن. **«من سلم المسلمون»**: بحيث لا يصابون من طرفه لا بلسانه ولا يده. وهذا خلق عزيز في المسلمين، لا يتخلق به إلا الأكابر. **«من أمنه»** بفتح الميم المشددة: أي جعلوه واعتبروه أميناً، ووثقوا به واطمأنوا إليه فهم في أمن وأمان منه فلا يتعرض لدمائهم ولا يتناول أموالهم بطرق الخيانة والغش والتدليس... والباطل.

١٨٧ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المُسلمُ مَن سَلِم المُسلمون مِن لسانِه ويَدِه، والمُهاجِرُ مَن هَجَر ما نَهَى اللَّهُ عَنْه»**.

[رواه أحمد (١٦٣/٢، ١٩٢، ١٩٥)، والحميدي (٢٧١/٢)، والبخاري (٥٩/١، ٦٠)، ومسلم (١٠/٢)، والنسائي (٩٣/٨) ثلاثتهم في الإيمان، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨١)، ورواه أيضاً البخاري في الرقاق].

ش: «والمُهاجر»: أصل الهجرة المفارقة. وفي الإسلام مفارقة بلاد الكفار وغيرها مما لا يأمن فيها المؤمن على دينه، ونفسه، وماله، إلى بلد إسلامي يتمكن فيه من إقامة دينه... غير أن الهجرة الحقيقية هي هجران المعاصي، ومفارقة ما نهى الله تعالى عنه من المناكر والذنوب، وهجران المعاصي يقتضي من صاحبها هجران قرناء السوء والفسقة وأهل المجون، ومباعدة محلات الفساد ومواقعه. فمن اتصف بما ذكر فهو المهاجر الذي يستحق ما أعدَّ الله تعالى للمهاجرين في سبيل الله.

ولذلك جاء في رواية أخرى لفضالة بن عبيد: **«والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»**. رواه أحمد (٢١/٦)، وابن حبان (٢٥) بسند صحيح، ويأتي في الأدب إن شاء الله مطولاً.

١٨٨ ـ وعن عبدالله أيضاً أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: أيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قال: **«تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وتَقرأُ السَّلامَ على مَن عَرَفْتَ، ومَنْ لَم تَعْرِفْ»**.

[رواه البخاري ومسلم والنسائي في المصدر السابق].

ش: «أيّ الإسلام» معناه: أي خصال الإسلام أفضل، وهو يقتضي أن إطعام الطعام ومواساة المحتاجين... وإفشاء السلام بدون تخصيص؛ هما من أفضل شعب الإيمان، وخير خصال الإسلام.

١٨٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا. ألاَ أدُلُّكُم عَلَى شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُم، أَفْشُوا السلامَ بَينكُم»**.

[رواه أحمد (٣٩١/٢، ٤٤٢، ٤٩٥، ٥١٢)، ومسلم في الإيمان، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٤٩٧)، وابن ماجه (٣٦٩٢) ثلاثتهم في الأدب، ورواه الأخير أيضاً في المقدمة (٦٨)].

ش: **«حتى تحابوا»**: أي حتى تتبادلوا الحب بينكم. **«أفشوا السلام»**: أي أظهروه ولا تخفوه وتخصوا به المعارف. وهو يدل على أن الإيمان شرط في دخول الجنة وأن التحابب من خصال الإيمان الكامل وأن إفشاء السلام من أسباب التآلف والتحابب ولذلك لا يجوز أن نبدأ الكفار به لأنه لا صلة بيننا وبينهم.

١٩٠ ـ وعن عبدالله بن عُمَرَ رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأنصارِ وَهُوَ يعِظُ أخَاهُ في الحَيَاءِ. فَقالَ رسولُ الله ﷺ: **«دَعْهُ فإنَّ الحَياءَ مِنَ الإيمَانِ»**.

[رواه أحمد (٩/٢، ٥٦، ١٤٧)، والبخاري (٨١/١)، ومسلم (٦/٢)، والترمذي (٢٤٢٩)، والنسائي (١٠٦/٨) كلهم في الإيمان، ورواه البخاري أيضاً في الأدب، والحميدي (٦٢٥)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٥)].

ش: **«يعظ.. إلخ»**: أي ينصحه ويعاتبه. **«في الحياء»**: الحياء: هو تغير وانقباض وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه وقد يؤدي بصاحبه إلى عدم مطالبته باستيفاء حقه من الغير كهذا الصحابي، وقد جعله النبي ﷺ من الإيمان، لأنه يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي.

١٩١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحَيَاءُ مِن الإيمَانِ، والإيمَانُ في الجَنَّةِ. والبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، والجَفَاءُ في النَّارِ»**.

[رواه أحمد (٥٠١/٢)، والترمذي في الأدب (١٨٥٠)، وابن حبان (١٩٢٩)، والحاكم (٥٢/١، ٥٣)، وحسنه الترمذي، وصححه وكذا الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: **«والإيمان في الجنة»**: يعني صاحبه. **«والبذاء»** هو بفتح الباء أي

الفحش والسفاهة. «**والجَفاء**»: سوء العشرة ومقاطعة الأصحاب. وفي الحديث مدح الحياء وذم الجفاء.

١٩٢ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياءُ والعِيُّ شُعْبَتانِ مِنَ الإيمانِ، والبَذَاءُ والبَيَانُ شُعْبتان من النِّفاقِ**».

[رواه أحمد (٢٦٩/٥)، والترمذي (١٨٦٨)، والحاكم (٥٢/١)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: «**العِيُّ**» بكسر العين يطلق على الجهل والعجز في الكلام، والمراد هنا ـ والله أعلم ـ قلة الكلام وعدم الاسترسال في التفصح والبيان بدليل ذكر البيان في مقابلة العي وجعله من صفات النفاق وخصاله، لأن الغالب على أصحابه الرياء والسمعة وذلك نوع من النفاق، فقلة الكلام بقدر الحاجة من خصال الإيمان وشعبه. «**والبذاء**»: السفاهة والكلام الساقط.

١٩٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**آيَةُ الإيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**».

[رواه أحمد (١٣٠/٣، ١٣٤، ٢٤٩)، والبخاري (٦٩/١)، ومسلم (٦٣/٢) كلاهما في الإيمان، ورواه أيضاً البخاري في مناقب الأنصار (١١٤/٨)، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة رواهما مسلم (٦٤/٢)، والنسائي (١٠١/٨)، وعن البراء رواه البخاري في المناقب (١١٤/٨)، ومسلم في الإيمان (٦٣/٢) بلفظ: «**لا يُحِبُّهم إلا مُؤْمِنٌ، ولا يُبْغِضُهم إلا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُم أَحَبَّهُ اللَّهُ، ومَنْ أَبْغَضَهُم أَبْغَضَهُ اللَّهُ**»].

ش: «**آية**»: أي علامة. «**الأنصار**»: هم الأوس والخزرج الذين آمنوا برسول الله ﷺ ونصروه وآووه إلى ديارهم بالمدينة وقدموا أموالهم وأرواحهم في سبيل نصرته، فمن أحبهم لذلك كان ذلك علامة على صدقه في إيمانه. ومن أبغضهم كان منافقاً بلا شك لأن ذلك يمس بجانب النبي ﷺ وللأنصار مناقب وفضائل. وكتب السنة تزخر بذلك.

١٩٤ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: «والَّذِي فلَقَ الحَبَّةَ، وبَرَأَ

النَّسَمَةَ، إنَّهُ لَعهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إلَيَّ أنْ لا يُحِبَّنِي إلاَّ مُؤمِنٌ، ولا يُبْغِضُني إلاَّ مُنَافِقٌ».

[رواه مسلم (٦٤/٢)، والنسائي (١٠١/٨، ١٩٢) كلاهما في الإيمان].

ش: «**فلق الحبة**»: أي شقها بالنبات. «**وبرأ النسمة**»: أي خلق النفس. وفي الحديث فضل الإمام علي كرّم الله وجهه وأن حبه إيمان، وبغضه نفاق.

١٩٥ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البَذَاذَةُ مِن الإيمَانِ، البَذَاذَةُ مِنَ الإيمانِ، البَذَاذَةُ مِنَ الإيمانِ**».

[رواه الحميدي (**٣٥٧**)، وأبو داود في الترجل (١٤٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٨)، والطحاوي في «المشكل» (٤٧٨/١، و ١٥١/٤)، والحاكم في الإيمان (٨/١) من طرق بعضها صحيحة. وحسنه العراقي وصححه الديلمي والحاكم والذهبي وأقر ذلك الحافظ في «الفتح»].

ش: «**البذاذة**» بفتح الباء ثم ذالين وهي رثاثة الهيئة، والمراد بذلك التواضع في اللباس وترك التبجح.. فهو من الإيمان وشعب الدين.

١٩٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**مَنْ أنتِ؟**»، قالت: أنا جَثَّامَةُ المُزَنِية. قال: «**بَلْ أنتِ حَسَّانَة المُزَنِية كَيفَ أنتُم؟ كيفَ حالُكُم؟ كيف كُنتُم بَعْدَنا؟**»، قالت: بخير، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؛ قال: «**إنَّهَا كانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَة، وإن حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإيمَانِ**».

[رواه الحاكم في الإيمان (١٦/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١٠٢/٢)، والبيهقي في الشعب (٥١٧/٦) من طرق هو بها صحيح].

ش: «**حسن العهد**»: أي العهد الحسن وهو الوفاء به، ورعاية الحرمة. فذا من خصال الإيمان وأخلاق الدين.

١٩٧ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفَاحِشِ، ولا البَذِيِّ**».

[رواه أحمد (٤٠٥/١)، والترمذي (١٨١٩)، وابن حبان (٤٨)، والحاكم (١٢/١) بسند صحيح. وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. واستدركه الهيثمي في المجمع (٩٧/١) برواية البزار فوهم، فإنه ليس على شرطه وفي الباب عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَكُونُ المؤمنُ لَعَّاناً**». رواه الترمذي (١٨٦٠)، وابن حبان (١٩١٦)، والحاكم (٤٧/١)، وفي صحيح مسلم: «**لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أن يَكُونَ لعَّاناً**»].

ش: «**الطعَّان**»: أي ليس من صفات المؤمن كثرة الطعن في الناس، ولعنهم وشتمهم، ولا هو بالذي يتكلم بالكلام الفاحش الساقط. بل المؤمن كريم النفس نزيه اللسان.

كمال الإيمان وزيادته ونقصانه وتجديده

١٩٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً**».

[رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١٠٤٤) في النكاح، والدارمي (٢٧٩٥)، وابن حبان (١٩٢٦)، والحاكم (٣/١)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم والذهبي].

وللحديث شواهد عن عائشة في الترمذي وعن عبادة عند أحمد وغيره. وعن عمرو بن عبسة عند أحمد أيضاً. وعن جابر عند ابن أبي شيبة في الإيمان وغير ذلك.

ش: «**أحسنهم خلقاً**» هو بضم الخاء واللام، وهو الاتصاف بالأخلاق الكريمة كالحلم والعفو وتحمل الأذى، والتواضع، ومعاشرة الناس بالجميل. وفيه دليل على أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وبعضهم أكمل من بعض.

١٩٩ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ

أعْطَى رَهْطاً وسَعْدٌ جالسٌ فَتَرَكَ رسولُ الله ﷺ رَجُلاً هو أعْجَبُهم إليَّ فقلت: يا رسولَ الله ما لكَ عن فلان؟ فوالله إني لأراه مُؤمناً، فقال: «**أوَ مُسْلِماً؟**»، فسكتُّ قليلاً، ثم غَلبَنِي ما أعلمُ مِنه، فعدتُ لمقالَتي فقلتُ: مالَك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مُؤمِناً، فقال: «**أوَ مُسْلِماً؟**»، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا سعد! إنِّي لأُعْطِي الرَّجُل وغيرُهُ أحَبُّ إليَّ منه خَشْيَةَ أن يَكُبَّه اللَّهُ في النَّارِ**».

[رواه البخاري (٨٦/١)، ومسلم (١٨٠/٢، ١٨١) كلاهما في الإيمان، وأبو داود في السنة (٤٦٨٣)، ورواه أيضاً البخاري في الزكاة... والنسائي وغيرهم].

ش: الحديث يدل على أن الإيمان والإسلام متغايران، وبه استدل من رأى ذلك كالبخاري، وانظر تحقيق ذلك فيما سبق عند حديث جبريل عليه السلام، كما في الحديث تفاضل أهل الإيمان، وأنهم ليسوا في درجة واحدة.

٢٠٠ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَا أنَا نَائِمٌ رأيتُ الناسَ يُعْرَضُون عليَّ، وعليهم قُمُصٌ، منها ما يَبْلغ الثَّديَّ، ومنها ما دُون ذلك، وعُرِضَ عليَّ عُمرُ بن الخطاب، وعليه قَمِيصٌ يَجُرُّهُ**»، قالوا: فما أوَّلتَ ذلك يا رسولَ الله؟ قال: «**الدِّين**».

[رواه البخاري في الإيمان (٨٠/١)، وفي التعبير، وفي الفضائل (٥١/٨، ٥٢)، ومسلم في الفضائل (١٥٩/١٥)، والترمذي في الرؤيا (٢١٠٩) وغيرهم].

ش: «**فما أولت**»: أي بماذا فسرت ذلك وعبرته. «**الدين**»: يعني أن تلك القمص تشير إلى ديانة لابسيها وإيمانهم فمن كان قميصه قصيراً كان إيمانه ضعيفاً، ومن كان لباسه طويلاً كان ذلك علامة على قوة دينه وكماله كسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه.

والحديث من أصول التعبير للرؤيا ويأتي ذلك في محله.

٢٠١ ـ وعن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِالله رضي الله تعالى عنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ونَحْنُ فِتْيَةٌ حَزَاوِرَةٌ، فتَعَلَّمْنا الإيمَانَ قبلَ أن نَتَعلَّمَ القُرآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنا القرآنَ فازْدَدْنا بهِ إيماناً».

[رواه ابن ماجه في المقدمة (٦١) بسند صحيح].

ش: «**حزاورة**»: هو جمع حَزْوَر، وهو الذي قارب البلوغ. «**فازددنا به إيماناً**»: فيه دليل على أن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال وما إليها من التفكر في الكائنات وآيات الله وآلائه... وهذا هو مذهب السلف وأهل السنة والجماعة، ولذلك قال البخاري في صحيحه: وهو قول وعمل، ويزيد وينقص ثم أورد عدة آيات في ذلك كقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾، ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، إلى آخر ما ذكر.

وقد أوضح ذلك وبيَّنه أحسن بيان الحافظ في «الفتح» ونقل عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص... وهكذا ذكر كل من ألف في توحيد السلف، ومن جرى على طريقتهم، وكلامهم في ذلك كثير جداً.

٢٠٢ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإيمَانَ لَيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أحَدِكُم كما يَخْلقُ الثَّوبُ، فَسَلُوا اللَّهَ تعالى أن يُجَدِّدَ الإيمَانَ فِي قُلُوبِكُم**».

[رواه الطبراني في الكبير قال في مجمع الزوائد (٥٢/١) وإسناده حسن].

ش: «**ليخلق**» بفتح اللام وضمها: أي ليبلى، ففيه دليل على أن الإيمان يبلى في قلوب أصحابه بمعنى يضعف وذلك بالمعاصي وترك الواجبات، وتوالي الغفلات والاشتغال بالفضولات، وما لا يعني. فذلك كله مما يضعف الإيمان... وتجديده وتقويته يكون بكثرة الأعمال الصالحة ولا سيما الأعمال الروحية كتلاوة القرآن بالتدبر وذكر الله عزّ وجلّ مع الحضور وأفضله ـ لا إلّه إلا الله ـ. وقد ورد في حديث لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جَدِّدُوا إيمَانَكُم**»، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدِّد إيماننا؟ قال: «**أكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إلَه إلاَّ الله**». رواه أحمد (٣٥٩/٢)، والحاكم في التوبة (٢٥٦/٤)، وصححه واعترضه الذهبي وأبو نعيم

في «الحلية» (٣٥٧/٢)، ومداره على صدقة بن موسى الدقاق مختلف فيه، ولذلك قال في الحديث الهيثمي مرة: إسناده جيد (٥٢/١)، ومرة: ورجال أحمد ثقات (٨٢/١٠) وعلى كل فهو شاهد لتجديد الإيمان.

تغرب الإيمان والإسلام وفضل الإيمان بالغيب

٢٠٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرباءِ»**.

[رواه أحمد (٣٨٩/٢)، ومسلم في الإيمان (١٧٥/٢، ١٧٦)، وابن ماجه (٣٩٨٦)].

ش: **«بدأ الإسلام غريباً»** معناه: أنه بدأ أولاً في آحاد الناس وأفرادهم، ثم انتشر وتقوى وتكامل، ثم بعد سيتغرب ويصبح متمثلاً في الأفراد كما كان في الأول. **«فطوبى»**: لأولئك الغرباء المتمسكين به وقت تغربه، وأيام قلة أهله. وطوبى هي الجنة أو شجرة فيها يسير الراكب تحت ظلها مائة عام. وهؤلاء الغرباء جاء تفسيرهم في بعض الروايات أنهم **«الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة»** رواه الترمذي وفي المسند: **«الذين يصلحون إذا فسد الناس»**. وعند أحمد أيضاً والدارمي: **«النزَّاع من القبائل»**. وأصله في الترمذي.

وجاء من حديث عبدالله بن عمرو: **«أناسٌ صالِحون في أناسٍ سوءٍ كَثيرٍ، مَنْ يَعْصِيهم أكثرُ مِمَّن يُطِيعُهم»**. رواه أحمد (١٧٧/٢، ٢٢٢)، وتأتي أحاديث في الحج في الموضوع.

٢٠٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يَأتي على الناسِ زَمَانٌ الصابرُ فِيهِم على دِينِهِ، كالقَابِضِ على الْجَمْرِ»**.

[رواه الترمذي في الفتن (٢٠٨٨)، وهو حسن أو صحيح لشاهدين له عن أبي هريرة، رواه أحمد (٣٩٠/٢، ٣٩١) بسند حسن في الشواهد. وعن أبي ثعلبة الخشني رواه الترمذي (٢٨٦٠)، وحسنه وصححه ابن حبان (١٨٥٠)].

ش: **«زمان»**: أي كثير الشر، قليل الخير، عظيم الفتن، يتنكر فيه

الناس لتعاليمه، وتنقلب فيه الأوضاع، ويسود العالم السقطاء، ويحكمهم الأنذال والملاحدة والمنحرفون فيكون في ذلك الوقت الصابر فيهم على تمسكه بدينه كأنه قابض بيده على جمرة من نار وذلك لما يعانيه من الشدائد في سبيل دينه، وما يشاهده من المناكير والفضائح، وما يلمزه به الناس من الأوصاف النابية.

وهذا العصر الذي تنبَّأ به نبينا ﷺ هو عصرنا هذا الذي نعيش فيه نسأل الله تعالى اللطف والحفظ، آمين.

٢٠٥ ـ وعن المرداس بن مالك الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يَذهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فالأَوَّلُ، ويَبْقَى حُفَالَةٌ كحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أو التَّمْرِ لا يُبَالِيهُم اللَّهُ بَالَةً»**.

[رواه أحمد (١٩٣/٤)، والبخاري في المغازي وفي الرقاق (٢٧/١٤، ٢٨].

ش: **«يذهب الصالحون»**: يعني يموت الأتقياء الطيبون في كل جيل ويضمحلون ولا يبقى في الناس إلا حفالة وهي الرديء من كل شيء مثل حثالة الشعير أو التمر وهو الرديء منهما ففي كل جيل من الناس يكون فيهم الأفاضل والأبرار الذين يخشون الله فينقرضون شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا الأشرار والساقطون ويتغرب الصالحون والمؤمنون المتقون. وقوله: **«لا يباليهم الله»**: أي لا يعبأ بهم ولا يرفع لهم شأناً ولا يقيم لهم وزناً يعني تلك الحثالة.

٢٠٦ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لَيُنقَضَنَّ عُرَى الإسلام عُرْوَةً عُرْوَةً، فكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيها، وأَوَّلُهُنَّ نَقْضاً الْحُكْمُ، وآخِرُهُنَّ الصَّلاةُ»**.

[رواه أحمد (٢٥١/٥)، وابن حبان ١١١/١٥)، والحاكم (٩٢/٤) وسنده صحيح، وقد وقع للحاكم في سنده وهم كما يعلم من مراجعته والحديث في مجمع الزوائد (٢٨١/٧) برواية أحمد والطبراني. وقال: رجالهما رجال الصحيح].

وللحديث شاهد عن فيروز الديلمي عند أحمد (٢٣٢/٤)، وسنده صحيح أيضاً.

ش: «**لَيُنْقَضَنَّ**»: في رواية: «**لتنتقضن**»، ومعناها تنحل من نقضت الحبل نقضاً حللته وفسخته. «**عُرى.. إلخ**»: جمع عروة وهي في أصل اللغة ما يعلق به من طرف الدلو والكوز ونحوهما فاستعير لما يتمسك به من أمور الدين وشعبه وخصاله. «**عُرْوَة**»: يعني تنتقض متتابعة الأولى فالأولى، وشيئاً بعد شيء، فكلّما انحلت خصلة من خصال الإيمان وقضي عليها. «**تشبث**»: أي تمسك الناس بالتي بعدها. «**فأولهن.. إلخ**»: يعني أول ما يذهب ويقضى عليه من أمور الدين العظام الحكم بما أنزل الله عزّ وجلّ والقضاء بشريعة الإسلام. ويجعل بديله الحكم بآراء البشر والقوانين الوضعية المقيتة. «**وآخرهن.. إلخ**»: أي آخر ما ينقض ويذهب من أمور الدين الصلاة وهذا هو وضع الناس اليوم المنتسبين للإسلام فلم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه. تداركنا الله بلطفه، وحفظ علينا ديننا آمين.

٢٠٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبّاً نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**».

[رواه مسلم في كتاب الجنة من صحيحه (١٨/١٧٠)، وابن حبان (١٦/٢١٥) في صحيحه].

ش: «**يود**»: أي يتمنى. وفي الحديث منقبة عظيمة لمن آمن بالنبي ﷺ غيبياً وأحبه، وتمنى أن لو قدرت له رؤية النبي ﷺ ولو بدفع أهله وماله في مقابلة ذلك وهي بشارة عزيزة للمتصفين بما ذكر.

٢٠٨ ـ وعن أبي هريرة أيضاً، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «**السلام عليكُم دارَ قومٍ مُؤمنين، وإنَّا إن شَاءَ اللَّهُ بكُم لاَحِقُون، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَينَا إخْوَانَنا**»، قَالوا: أَوَلَسْنَا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أَنْتُم أَصْحَابِي، وإخْوَانُنا الذِين لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**» الحديث ويأتي في الطهارة.

[رواه أحمد (٢/٢٠٠، ٤٠٨)، ومسلم (٣/١٣٧)، والنسائي (١/٣٩)، وكذا مالك في الموطأ (١/٦٢، ٦٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٦)، وله شاهد عن أنس رواه أحمد (٣/١٥٥) بسند حسن. ولفظه: «**وددت أني لَقِيتُ إخْوَانِي؟**»، قالوا: أَلَسْنَا إخوانك؟ قال:

«بَلْ أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنُوا بي ولَمْ يَرَوْني»..].

ش: في الحديث كسابقه بشارة لكل من آمن بالنبي ﷺ وبما جاء به غيبياً وأنهم إخوان له ﷺ تمنى رؤيتهم. وما ذلك إلا لإخلاصهم في إيمانهم ومحبتهم جعلنا الله تعالى منهم.

٢٠٩ ـ وعن أبي جُمْعَة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله هل أحَدٌ خيْرٌ مِنَّا؟ أسْلَمْنا معَكَ، وجاهَدْنَا مَعكَ، قال: «**نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بعْدِكُمْ، يُؤْمِنُون بِي ولَمْ يَرَوْنِي**».

[رواه الإمام أحمد (١٠٦/٤) بسند صحيح، وهو في مجمع الزوائد (٦٦/١٠)].

ش: «**قوم**»: يعني مؤمنين صالحين مخلصين صادقين. «**يؤمنون.. إلخ**»: وبذلك كانوا خيراً من أصحابه الذين آمنوا به مع مشاهدته.. وهذه الخيرية نسبية وإلا فالصحابة لا يفضلهم أحد ممن جاء بعدهم على القول الصحيح خلافاً لبعض الأئمة.

٢١٠ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ رآني وآمَنَ بِي، وَطُوبَى سَبْعَ مَرَّاتٍ لِمَنْ لَمْ يَرَنِي وآمَنَ بِي**».

[رواه أحمد (٢٤٨/٥، ٢٥٧، ٢٦٤)، والطيالسي (٤٢)، وابن حبان (٢١٦/١٦) وغيرهم، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧/١٠) لأحمد والطبراني بأسانيد قال: ورجالها رجال الصحيح غير أيمن بن مالك الأشعري وهو ثقة. والحديث صحيح لشواهده. عن أنس رواه أحمد (١٥٥/٣) وغيره، وعن ابن عمر رواه الطيالسي (٤١)، وعن أبي سعيد الخدري رواه أحمد (٧١/٣)، وابن حبان (٢١٣/١٦)، وعن أبي عبدالرحمن الجهني رواه أحمد أيضاً (١٥٢/٤) وسنده حسن كحديث أنس، فالحديث لذلك حسن صحيح].

ش: الحديث استدل به من يرى أفضلية من جاء بعد الصحابة ممن آمن بالغيب على غيرهم وهو ظاهر هذه الأحاديث لكن ذلك كما قلنا إن الأفضلية والخيرية نسبية ومؤولة للأدلة الأخرى القاطعة التي تعارضها، علماً

بأنها تحمل بشارات رائعة للمؤمنين بالغيب ثبتنا الله على ديننا، آمين.

٢١١ ـ وعن جبير بن نفير رحمه الله تعالى قال: جلسنا إلى المقدادِ بن الأسودِ رضي الله تعالى عنه يوماً فمر به رجلٌ فقال: طوبى لِهاتين العينين اللتين رآتا رسولَ الله ﷺ والله لوِدِدْنا أنا رأينا ما رأيتَ، وشهِدْنا ما شهِدت، فاسْتُغْضِب، فجعلتُ أعْجَب، ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يَحْمِلُ الرجلَ على أن يَتَمنَّى مَحْضراً غَيَّبَهُ اللَّهُ عنه؛ لا يَدْرِي لو شَهِده كيف كان يكون فيه. والله لقد حَضَر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كَبَّهُم اللَّهُ على مناخِرهم في جهنم، لم يُجِيبُوه ولم يُصَدِّقُوه. أو لا تَحْمَدُون الله إذْ أخْرَجَكم تَعْرِفُونَ رَبَّكُم مُصَدِّقِينَ لِما جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُم ﷺ، كُفِيتُم البلاءَ بِغيْرِكم، واللَّهِ لقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ عَلى أشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عليها نَبِيٌّ من الأنبياءِ، وفَتْرَةٍ وجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أن دِيناً أفضلُ مِن عبادةِ الأوثان، فجاء بِفُرْقَانٍ، فَرَقَ به بين الحقِّ والباطلِ، وفَرَّقَ بين الوَالِد ووَلدِه، حتى إن كان الرجلُ لَيَرى وَلَدَه أو وَالِدَه أو أخَاه كافِراً وقد فَتَحَ الله قُفْل قلبه لِلإيمان يَعْلَم أنه إن هَلَكَ دخَل النَّار، فلا تَقَرَّ عَيْنُه وهو يَعلَمُ أن حَبِيبَه فِي النَّارِ[1]، وأنها التي قال الله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ الآية.

[رواه أحمد ٣/٦ قال ابن كثير وإسناده صحيح ولم يخرجوه].

الوسوسة ودواؤها

٢١٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه: إنَّا لَنَجِدُ فِي أنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أحَدُنَا أنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوه؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإيمَانِ**».

[رواه أحمد (٢/٤٥٦)، والطيالسي (٤٩)، ومسلم في الإيمان (٢/٥٣)، وأبو داود في السنة رقم (٥١١١)].

ش: «**ما يتعاظم**»: أي يجد أحدنا التكلم به عظيماً، لاستحالته في

(١) ومعنى هذا الأثر واضح فلا يحتاج إلى تعليق وفيه عبر وبشارة لنا والحمد لله.

حق الله عزّ وجلّ. «**صريح الإيمان**»: في رواية لابن مسعود عند مسلم (١٥٣/٢) «**تلك محض الإيمان**». ومعناه: استعظام ذلك وشدة الخوف منه، ومن النطق به، فضلاً عن اعتقاده، وهذا إنما يكون لمن استكمل إيمانه استكمالاً محققاً، فإنه لا يحمله على دفع ذلك إلا محض الإيمان وخالصه. ولولاه لقبل ما ألقي في نفسه، وليس معناه أن ما يوجد في القلب هو نفس الإيمان. لأن ذلك يتولد من فعل الشيطان، وهو يؤدي إلى الكفر عياذاً بالله تعالى.

٢١٣ ـ وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتِي الشَّيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَنْ خَلَق كذا وكذا؟ حَتَّى يقولُ له: مَن خلَق ربَّك؟ فإذا بَلَغَ ذلك فليَسْعِذْ باللَّهِ ولْيَنْتَهِ**». وفي رواية: «**فَمَنْ وَجَدَ مِن ذلك شيئاً فليقُل: آمَنْتُ باللَّهِ ورُسُلِهِ**».

[رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٧/٧)، ومسلم في الإيمان (١٥٤/٢)، والرواية الثانية لمسلم (١٥٣/٢)، وأبي داود في السنة رقم (٤٧٢١)].

ش: «**فيقول: من خلق**»: هذه الوسوسة كثيراً ما تعتري الناس، والكثير منهم يشتكون منها حتى بعض أهل العلم فضلاً عن العامة الفطريين فضلاً عن الأطفال.

٢١٤ ـ وعنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ بينهم حَتَّى يقول قَائِلُهم: هذا اللَّهُ خلقَ الخلقَ، فمَنْ خلق اللَّهَ عزّ وجلّ؟ فإذا قالُوا ذلِك: فقولُوا: اللَّهُ أحدٌ اللَّهُ الصَّمدُ لم يَلِد ولم يُولدْ ولَم يَكُن لَهُ كُفُوَاً أحَدٌ**».

[رواه أبو داود في السنة (٤٧٢٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٣٢) بسند حسن. ورواه أحمد (٣٨٧/٢) من طريق آخر بنحوه مختصراً وسنده حسن ورواه من طريق آخر أيضاً مختصراً كذلك (٥٣٩/٢) وسنده صحيح].

ش: «**يُوشِك**»: أي يقرب. «**يتساءلون**»: أي يسأل بعضهم بعضاً. وهذا التساؤل في هذا الأمر الخطير لا يخلو منه عصر ما دام في الناس متشككون، وضعفاء الإيمان، وملاحدة...

ولا علاج لهذا الداء العضال إلا ما جاء في هذا العلاج النبوي الشريف، فمن وجد من ذلك شيئاً، أو جادله أحد فيه فليتفل عن يساره ثلاثاً ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، آمنت بالله ورسله، الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد. ثم ينتهي ولا ينساق في مجادلة الشيطان في باطنه، أو مع نائبه في الظاهر عياذاً بالله من ذلك، فإن ذلك قد يؤدي به إلى الكفر ونفي الإلّه.

٢١٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يَا رسولَ الله، إنَّ أَحَدَنا يَجِدُ في نَفْسِهِ ـ يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ ـ لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبَّ إليهِ مِن أنْ يَتَكَلَّمَ، فقال: **«اللَّهُ أَكْبَر، اللَّهُ أَكْبر، اللَّهُ أَكْبَر، الحمدُ لِلَّهِ الذي رَدَّ كَيْدهُ إلى الوَسْوَسَةِ»**.

[رواه أحمد (١/٣٤٠)، وأبو داود في السنة رقم (٥١١٢) بسند صحيح].

ش: «يعرض بالشيء»: يعني أن هذا الرجل السائل عرض للنبي ﷺ بالشيء القبيح الذي يجده في نفسه، ولم يصرح به. **«حممة»** بضم الحاء ثم ميمين مفتوحتين وهي الفحمة. **«كيده»**: الكيد هو المكر والاحتيال. **«الوسوسة»**: هي حديث النفس وهي هنا الأفكار التي يلقيها الشيطان في القلوب حول الرب تعالى ليشكك الناس فيه ويضلهم.. وإنما كبر النبي ﷺ لذلك وحمد الله عليه لأن الوساوس وحديث النفس لا يؤاخذ الله الناس عليها ما داموا لم يهموا ولم يعزموا ويصمموا. فقد جاء في الحديث المتفق عليه: **«إن الله تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُها، مَا لَمْ تَتَكَلَّم بِهِ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ»**. وفي رواية البخاري: **«مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُها»**.

وبهذا تمَّ كتاب الإيمان ومتعلقاته، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ويليه كتاب القدر، وصلى الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه وحزبه.

كتاب القدر

من ذم الخوض في القدر

٢١٦ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: هَجَّرْتُ إلى رسولِ الله ﷺ يوماً، فسَمِع أصواتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفا في آيَةٍ، فخرجَ علينا رسولُ الله ﷺ يُعْرَفُ في وَجْهِهِ الغَضَبُ، فقال: **«إنَّمَا هَلَكَ مَن كانَ قَبلكم باخْتِلافِهم في هذا الكتابِ»**.

[رواه أحمد (١٩٢/٢)، ومسلم في أول كتاب العلم من صحيحه].

ش: «هجرت»: أي جئت مبكراً. **«اختلفا في آية»**: وكان ذلك في القدر كما جاء في رواية مبينة من طريق آخر عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقؤ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: **«بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم، تضربون القرآن بعضه ببعضه، بهذا هلكت الأمم قبلكم»**. رواه أحمد (١٩٥/١، ١٩٦)، وابن ماجه في المقدمة رقم (٨٥) بسند صحيح. وفي الحديث ذم الخوض في القدر، والخصام فيه. وأن ذلك يوجب الهلاك عياذاً بالله. لأن النزاع في ذلك يفضي إلى رد الأدلة، وعدم قبولها وقد يكون الحق حليف الخصم، فيؤدي ذلك إلى تكذيب القرآن، يضاف إلى ذلك ما ينشأ عن الجدال من الأحقاد، والأضغان، والهجران، وما تجر إليه من الفتن.

٢١٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جَاء مُشْرِكو قريشٍ

إلى رسولِ الله ﷺ يُخَاصِمُون في القَدَر، فنزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

[رواه مسلم (١٦/٢٠٤، ٢٠٥)، والترمذي كلاهما في القدر. ورواه الترمذي في التفسير. وابن ماجه في المقدمة (٨٣)، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: «يخاصمون»: أي ينازعون رسول الله ﷺ ويجادلونه. **«في القَدر»** هو بفتح الدال عبارة عن كل ما كتبه الله تعالى وسبق به علمه، وتعلقت به قدرته ومشيئته من خير وشر، وعلم الله أنه سيقع في أوقات معلومة، وعلى أوصاف مخصوصة. ومنكرو هذا المعنى هم القدرية الوارد فيهم ما ورد من الذم والوعيد. والحديث مع كونه يدل على ذم الخوض في القدر هو يدل على أن الله تعالى قدر كل شيء، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة وسيأتي ما يدل لذلك من الأحاديث.

هذا والجدير بالذكر هو أن القدر سر من أسرار الله تعالى لا يجوز فيه البحث بالتدقيق والتعقل في شؤونه، فإنك كلما ازددت بحثاً فيه ازددت حيرة وإشكالاً. ولذلك جاء في حديث لابن مسعود عن النبي ﷺ: **«إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا»**. رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٠٨)، وفيه ضعف، وحسنه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» والحافظ في «الفتح». وله شاهد عن عطاء مرسلاً بسند صحيح رواه عبدالرزاق في «الأمالي» فيتقوى به.

ذم القدرية ووعيدهم ومجانبتهم

٢١٨ ـ عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما جاءه رجل فقال: إنَّ فُلاناً يَقْرأ عليكَ السلامَ فقال: إنَّهُ بَلَغَنِي أنَّهُ قَدْ أحْدَثَ، فإن كان أحْدثَ فلا تُقْرِئْه مِنِّي السلامَ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«في هَذِهِ الأُمَّةِ، أو فِي أُمَّتِي خَسْفٌ، أوْ مَسْخٌ، أوْ قَذْفٌ، في أهْلِ القَدَرِ»**.

[رواه أحمد (٢/٩٠)، والترمذي في القدر ١٩٨٦، بتهذيبي وابن ماجه في الفتن

(٤٠٦١) بسند صحيح. وحسنه الترمذي وصححه. ورواه أحمد أيضاً (٢/٢٠)، ومن طريقه أبو داود في السنة (٤٦١٣)، وفي آخره: «**سَيَكُونُ في أمتي أقوامٌ يُكَذِّبُونَ بالقَدَر**». وسنده صحيح، ورواه الحاكم من طريقين (١/٨٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. ورواه أيضاً أحمد (٢/١٣٦، ١٣٧) بنحوه وفيه: «**وهو في الزَّنْدِيقِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ**» وسنده صحيح].

ش: «**خسف**»: هو غيبوبة المكان في الأرض. وقد حصل هذا مرات... وخاصة في العصور المتأخرة. وذلك لكثرة من وجد من الزنادقة، وانتشار المذاهب الهدامة، وشيوع البدع الضالة. وقد جاء في صحيح مسلم في أشراط الساعة... «**وثلاث خسوفات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب**». وقد تكرر ذكره في الأحاديث وقد يطلق الخسف على ذهاب نور الوجوه، وانقلابها مظلمة، وهذا أيضاً حاصل بكثرة، نتيجة الفجور والانحراف. «**مسخ**»: هو في الأصل يطلق على معان. ومنه تحويل صورة إلى أخرى أقبح. والمراد به هنا إما تغيير البواطن، وتحويلها من عقائد صحيحة سليمة، إلى عقائد باطلة منحرفة. وإما تغيير مظاهرهم من مظاهر إسلامية، إلى مظاهر إفرنجية كافرة. والحديث أوسع من كل ذلك. «**قذف**»: هو في الأصل: الرمي. وهو هنا يحتمل الرمي بالحجارة عذاباً من الله كما حصل لقوم لوط. ويحتمل أن يراد به القذف بالقنابل، والصواريخ بواسطة الدبابات، والطائرات القاذفات، والأسطولات، والزوارق الحربية وغيرها، وهو من أفظع أنواع العذاب الذي أرسله الله تعالى على أبناء هذا الجيل عياذاً بالله تعالى، والحديث يدل على أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يرى مقاطعة المبتدعة في الدين بدعاً تخالف صريح القرآن والسنة، ولذلك أدلة كثيرة تأتي في محلها إن شاء الله تعالى.

٢١٩ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهم، وإنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ**».

[رواه أبو داود في السنة (٤٦٩١) بسند صحيح مع انقطاع فيه. ورواه الحاكم

(٨٥/١) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. ورواه أحمد (٨٦/٢)، والبخاري في «التاريخ» (٣٤١/٢) من طريق آخر وفي سنده ضعف. وله شاهد عن حذيفة رواه أبو داود في السنة (٤٦٩٢) بسند ضعيف وآخر عن عمر رواه ابن حبان رقم (١٨٢٥) بالموارد وسنده ضعيف أيضاً. فالحديث حسن أو صحيح. وقد حسنه العلائي، وصححه الحاكم، وابن القطان، والذهبي، وآخرون].

ش: «القدرية»: هم طائفة من أهل البدع كانوا ينفون القدر، ولا يقولون بأسبقية الأشياء في الأزل وكتابتها في اللوح المحفوظ. وكانت لهم آراء وعقائد متطرفة، تجدها في كتب الملل والنحل.. «مجوس»: وصفهم بالمجوسية لأنهم نسبوا الخير إلى الله، والشر إلى الشيطان والنفس كالمجوس في قولهم: إن الخير من النور، والشر من الظلمة. وكلا العقيدتين شرك. والعقيدة السليمة الصحيحة هي: أن الكل من الله تعالى فلا خالق في هذا الوجود معه، ولا مؤثر سواه.

وجوب الإيمان بالقدر
وأن كل شيء بقدر الله عزّ وجلّ

٢٢٠ ـ عن عبدالواحد بن سليم رحمه الله تعالى قال: قدمت مكة المكرمة فلقيت عطاء بن أبي رباح، فقلت: يا أبا محمد إن أهل البصرة يقولون في القدر، قال: يا بني أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقرأ الزخرف، قال: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾، قال: أتدري ما أم الكتاب؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماء وقبل أن يخلق الأرض فيه إن فرعون من أهل النار، وفيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾. قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني فقال: يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر كله، خيره، وشره. فإن مت على غير هذا دخلت

النار. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللَّهُ القَلَم، فقال: اكْتُبْ، قَالَ: مَا اكْتُبُ؟ قال: أُكْتُبْ القَدَر مَا كَانَ وما هُوَ كَائِنٌ إلى الأبد»**.

[رواه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود في السنة رقم (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (١٩٨٦). وحسنه وصححه، ورواه الحاكم (٤٩٨/٢) من حديث ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي].

ش: والحديث يدل على وجوب الإيمان بالقدر كله إيماناً وكفراً، وطاعة ومعصية، وكل ما يقع في هذه الكائنات، وأن كل ذلك مكتوب في أم الكتاب، وأن كل من لم يعتقد ذلك كان من أهل النار. وظاهره أن القلم هو أول ما خلق الله تعالى وفي ذلك نزاع.

٢٢١ ـ وعن ابن الديلمي رحمه الله تعالى قال: أتيت أُبيّ بن كعب فقلت له: قد وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني لعل الله أن يذهبه من قلبي. فقال: **«لَوْ أَنَّ اللَّهَ تعالى عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأهل أرضِه عذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهُم، ولو رَحِمَهُم كَانَتْ رَحْمَتُه خيراً لهم مِن أعْمَالِهم، ولو أنفقتَ مِثلَ أُحُدٍ ذهباً في سبيل الله ما قَبِلَه الله مِنك حتّى تُؤمِن بالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أن ما أصَابَك لم يَكن لِيُخطِئَك، وأن ما أخْطَأكَ لم يكن ليُصِيبَكَ، ولو مُتَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النار»**. قال: ثم أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك. ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك.

[رواه أحمد (١٨٢/٥، ١٨٣)، وأبو داود في السنة رقم (٤٦٩٩)، وابن حبان (١٨١٧) بالموارد].

ش: **«عذبهم وهو غير ظالم.. إلخ»**: وذلك لأن الجميع ملكه له التصرف الكامل فيه كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل. **«كانت رحمته»**: لأن رحمته ليست بسبب ما من الأعمال، بل هي محض فضل منه والأعمال الصالحة نفسها من رحمته، بل دخول الجنة كذلك برحمته. **«ما أصابك»**: يعني ما قدر الله لك أو عليك من نعمة وبلاء، وطاعة ومعصية لم يكن ليخطئك ويجاوزك بل لا بد وأن يقع. **«وأن ما أخطأك»**: يعني من الخير والشر ولم ينزل بك لم يكن ليشملك ويصيبك أبداً، لأنه لم يقدر عليك.

وهذا حديث عظيم في باب القدر، فمن تحقق بما فيه استراح من عناء هذه الحياة، ومتاعب الخواطر النفسانية والشيطانية.

٢٢٢ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتَب **اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سنَةٍ**، قال: **وعَرْشُهُ على المَاءِ**».

[رواه أحمد (١٦٩/٢)، ومسلم (٢٠٣/١٦)، والترمذي كلاهما (١٩٨٧) في القدر].

ش: «كتب الله»: هذا نص في أن الله تعالى قدر كل شيء وكتب كل شؤون الخلائق، إنسيهم وجنيهم ووحشيهم، وطيرهم، وهوامهم.. **«وعرشه.. إلخ»**: استدل بهذا من قال: أن خلق العرش سابق على القلم. وهذا قول الجمهور كما حكاه ابن كثير في «البداية والنهاية». والحافظ في «الفتح». ويؤيده حديث عمران بن حصين في فضل أهل اليمن. وقولهم للنبي ﷺ جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: **«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء...»** رواه البخاري وغيره ويأتي في بدء الخلق.

فالحديث دال على أن الله عزّ وجلّ لم يكن معه غيره ثم خلق الماء، ثم العرش، وجعله على الماء ثم خلق القلم إلخ، فهذا هو الظاهر. وذهب آخرون إلى أن القلم خلق أولاً.

٢٢٣ ـ وعن طاوس رحمه الله تعالى قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «**كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجزُ والكَيْسُ**، أو: **الكَيس والعجز**».

[رواه أحمد (١١٠/٢)، ومالك (٢٤٦/٤)، ومسلم في القدر (٢٠٤/١٦)].

ش: «العجز»: هو عدم القدرة على الشيء. أو ترك ما يجب فعله، وتأخيره عن وقته. **«والكيس»** بسكون الياء هو النشاط. ومعناه: أن كلاً من العاجز والكيس قد قدر عجزهما وكيسهما وسبق بذلك الكتاب. والحديث يدل على أن الإيمان بالقدر كان معروفاً عند السلف.

٢٢٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**المُؤمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إلى الله مِن المؤمنِ الضعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ، احرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واستعِنْ بالله ولا تَعْجِزْ، وإن أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُل لو أنِّي فعلتُ لَكَانَ كَذا وَكَذا، ولَكِن قَدَرُ الله وما شاءَ فَعَل، فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عمل الشَّيْطَانِ**».

[رواه أحمد (٣٦٦/٢، ٣٧٠)، ومسلم في القدر (٢١٥/١٦)، وابن ماجه رقم (٧٩، ٤١٦٨)].

ش: «**المؤمن القوي**»: أي في إيمانه، وعقيدته، وأعماله الصالحة، وطاعة مولاه، والصبر على مشاق الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وليس معناه القوي في شؤون دنياه كما يفسره من لا علم له بالشريعة. «**وفي كل خير**»: أي القوي والضعيف لاشتراكهما معاً في الإيمان وهو خير أي خير. «**احرص**»: الحرص على الشيء الرغبة فيه. «**واستعن**»: أي اطلب العون على أمورك منه عزّ وجلّ.

ويؤخذ من الحديث رد كل الحوادث والطوارىء إلى الأقدار، وأن المسلم يتعين عليه إذا ما فاته شيء أن يقول ما ذكره الحديث وهو: قَدَّرَ الله وما شَاءَ فعل. وألا ينساق مع وحي الشيطان، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا. فإن ذلك قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

٢٢٥ ـ وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الغُلامَ الذِي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً، ولو عَاشَ لأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْياناً وكُفْراً**».

[رواه مسلم (٢١١/١٦)، وأبو داود (٤٧٠٥) كلاهما في القدر. والترمذي في التفسير (٢٩٤٧)].

ش: «**الخضر**»: سيأتي الكلام عليه وعلى قصته مبسوطة في التفسير إن شاء الله تعالى. «**طبع**»: الطبع هو الختم والمراد به هنا أسبقية كتابته كذلك في الأزل. «**لأرهق**»: أي لأغشاهما وجملهما على الطغيان والكفران.

٢٢٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كنتُ خلف

النبي ﷺ يوماً فقال: «**يَا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله، واعْلَمْ أنّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعتْ عَلَى أن يَنْفَعُوكَ بِشيءٍ، لم يَنفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قد كَتبهُ اللَّهُ لَكَ، وإن اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ، لم يَضرُّوكَ إلا بشيءٍ، قد كَتَبه اللَّهُ عليك، رُفِعَت الأقلامُ، وجُفَّت الصُّحَفُ**».

[رواه أحمد (١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، والترمذي في أبواب صفة جهنم (٢٣٣٤) بتهذيبي وحسنه وصححه].

ش: «احفظ الله»: أي راع حدوده، وحفظها يكون بالوقوف عند الأوامر بالامتثال، والنواهي بالاجتناب، فمن فعل ذلك حفظه الله في دينه ودنياه جزاء وفاقاً. **«تجاهك»**: أي أمامك كما في رواية. ومعناه: تجده معك حيثما كنت، فيكون لك ناصراً، وحافظاً، ومؤيداً. **«إذا سألت.. إلخ»**: في هذا حمل المسلم على التعلق بالله تعالى التعلق المطلق، في جميع شؤونه، وذلك هو التوحيد الكامل، والتوكل التام الشامل، وهذا المستوى عزيز، لا يتحقق به إلا الأكابر ممن روّضوا أنفسهم، ودرّبوها السنين الطوال. أما الضعفاء فلهم رخصة في سؤال غير الله مما هو في مقدورهم وتحت طاقتهم. نعم قد يحمل هذا السؤال على ما هو خاص بالله عزّ وجلّ، كسؤال الإيمان مثلاً والتوفيق، ودخول الجنة، وما إلى ذلك مما لا يسأل إلا من الله، ولا يقدر عليه إلا هو سبحانه. **«رفعت الأقلام»**: هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها جملة وتفصيلاً.

٢٢٧ ـ وعن أبي عزة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا قَضَى اللَّهُ لِعَبْدٍ أنْ يَمُوتَ بأرضٍ، جَعَلَ إليه حَاجَةً**، أو قال: **بِهَا حَاجَة**».

[رواه أحمد ٤/٤٢٩)، والترمذي في القدر (١٩٧٩) وابن حبان (١٨١٥) بالموارد، والحاكم (١/١٤٢) وحسنه الترمذي وصححه. وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي ونحوه عن مطر بن عُكَامِسَ رواه الترمذي في القدر (١٩٧٨)، والحاكم (١/١٤٢)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: «إذا قضى»: فيه دليل على أن كل شيء يتعلق بالإنسان حتى موضع موته هو بقضاء الله تعالى قد كتب وسبق به علمه وأنه لا بد وأن تقبض روحه في المحل الذي قدر عليه فيه ولو كان في أقصى وأبعد بقعة من الأرض، فقد يجعل الله إليه حاجة فيذهب لقضائها فتقبض روحه هناك.

القدر والدعاء

٢٢٨ ـ عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَرُدُّ القضاءَ إلاَّ الدُّعَاءُ، ولا يَزِيدُ في العُمُرِ إلا البِرُّ»**.

[رواه الترمذي في القدر رقم (١٩٦٩) وحسنه وذلك لشاهد له عن ثوبان. رواه أحمد (٢٧٧/٥، ٢٨٠، ٢٨٢)، وابن ماجه (٤٠٢٢/٩٠)، والطحاوي في «المشكل» (١٦٩/٤)، والحاكم (٤٩٣/١)، وصححه ووافقه الذهبي وكذا حسنه البوصيري].

ش: في الحديث مشروعية الدعاء، وأنه يرد القضاء. وفي هذا كلام طويل الذيل. وخلاصته: أن الدعاء من جملة القدر والقضاء فيرد القضاء بالقضاء. وقوله: **«ولا يزيد في العمر إلا البر»**، معناه: إما البركة فيه بسبب أفعال البر. وإما زيادته المعلقة بالبر في الأزل بحيث لولا ذلك البر لكان العمر قصيراً. والله أعلم.

الهدى والضلال بقدر الله

٢٢٩ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيهِم مِن نُورِه فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذٰلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلى عِلْمِ اللَّهِ»**.

[رواه أحمد (١٧٦/٢، ١٩٧)، والطيالسي رقم (٥٧)، والترمذي آخر الإيمان (٢٤٥٨)، وابن حبان (١٨١٢) بالموارد، والحاكم (٣٠/١) من طرق. وسنده صحيح وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما وأقره الذهبي].

ش: والحديث يفيد أن إيمان المؤمنين من آثار نور الله عزّ وجلّ، وأنه تعالى مصدر الأنوار فكل ما يوجد من أنوار حسية، أو معنوية فمن نوره. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو يدل على أن الهداية والضلال كلاهما بقدر الله وقضائه، وأن الأمر على ما سبق من ذلك النور والظلمة، وما كتبه القلم على وفق علم الله عزّ وجلّ.

العمل مع القدر

٢٣٠ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «**أَتَدْرُونَ ما هَذَانِ الكِتَابَانِ؟**»، قلنا: لا يا رسول الله إلا أن تُخْبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «**هَذا كِتَابٌ مِن رَبِّ العالمين، فيه أسماءُ أهلِ الجَنَّةِ، وأسماءُ آبائِهم، وقبَائِلِهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرِهم، فلا يُزَادُ فِيهِم ولا يُنْقَصُ مِنهم أبداً**»، وقال للذي في شماله: «**هذا كتابٌ من رب العالمين، فيه أسماءُ أهلِ النارِ، وأسماءُ آبائِهم، وقبائِلِهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرِهم، فلا يُزادُ فِيهِم ولا يُنْقَصُ مِنهم أبداً**». قال أصحابه: ففيمَ العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: «**سَدِّدُوا وقَارِبُوا، فإنّ صَاحِبَ الجنَّةِ يُخْتَمَ له بعملِ أهلِ الجنةِ وإن عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، وإنّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ له بِعَمَلِ أهلِ النَّارِ وإن عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ**». ثم قال رسول الله ﷺ بيده فنَبَذَهُمَا ثم قال: «**فَرَغَ رَبُّكُم مِن العِبَادِ، فَرِيقٌ في الجنةِ، وفريقٌ في السعِيرِ**».

[رواه أحمد (١٦٧/٢)، والترمذي في القدر (١٩٧٣) من طريقين، وحسنه وصححه والنسائي في «الكبرى» (٤٥٢/٦، ٤٥٣)].

ش: «**وفي يده كتابان**»: هذا مما يجب الإيمان به، والتسليم للشارع ما أراد به، فإن مثل هذا خارج عن مستوى العقول البشرية. فهو من جملة الآيات الإلٰهية، والمعجزات النبوية. وقد غلط أقوام لم يهتدوا إلى فهم الحديث فأنكروه وحكموا على المتن بالوضع كما فعل الذهبي وقبله ابن حبان رحمهما الله تعالى. والحقيقة الفاصلة هي: إما أن نؤمن به ونكل أمره إلى الله وإلى رسوله ﷺ. وإما أن نحمله على ما قاله ابن العربي الحاتمي

رحمه الله تعالى وأنه من نوع ذاكرة الإنسان التي هي جزء من رأسه، وفيها من المعلومات والمحفوظات ما لو كتب لجاء في عدة مجلدات. ويؤيد هذا ما ظهر الآن من الأشرطة الحاملة لموسوعات من المعارف والعلوم وإما أن نحمله على ما قال العارف الدباغ قُدِّسَ سره في «الإبريز»: من أن النبي ﷺ كان إذا توجه ببصيرته إلى شيء انطبعت في ذلك الشيء صور معلوماته، إلخ. والله أعلم بمراد رسوله ﷺ.

والحديث يدل على أنه قد فرغ من كل أمر. فكل من أهل الجنة والنار معلومون لله تعالى، مكتوبون في الكتاب الأول، وأن كلاً من الفريقين لا يبدل ما قدر عليه، وإن عمل ما عمل من خير أو شر فلا بد أن يختم عليه بما سبق به عليه الكتاب.

٢٣١ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كنا في جنازة ببقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، وبيده مخصرة، فجعل ينكت بها الأرض ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: **«اعْمَلُوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق لَه، أمَّا مَنْ كان من أهلِ السعادة فسيُيَسَّر إلى عَمَلِ السَّعادة، وأمَّا مَنْ كانَ مِن أهلِ الشقاءِ فسَيُيَسَّر إلى عَمَلِ الشَّقاء»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧، وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

[رواه أحمد رقم (٦٢١، ١٦٧، ١٦٨، ١١١٠)، والبخاري في القدر، وفي التوحيد (٣٠٥/١٧)، ومسلم في القدر (١٦، ١٩٥، ١٩٦)، وأبو داود رقم (٤٦٩٤)، والترمذي (١٩٦٨) كلاهما في القدر أيضاً، ورواه هذا في التفسير].

ش: **«مخصرة»** بكسر الميم: كالسوط والعصا. **«ينكت»**: أي يضرب. **«أفلا نتكل»**: أي نعتمد على القدر وما كتب علينا وندع العمل. **«اعملوا»**: يعني لا بد من العمل فإنه الذي يصدق ما كتب في الأزل. فالسعيد يهيأ للإيمان والعمل الصالح ويُيَسِّرُهُ الله لما خلق لأجله. والشقي بعكس ذلك.

٢٣٣ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاء سُراقة بنُ مالك بنِ جُعْشُم رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله بيِّن لنا دِينَنَا كأنَّا خُلِقْنَا

الآنَ، فَفِيمَ العملُ الآن أفيما جفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ به المقادِيرُ؟ أم فيما يُسْتَقْبَلُ؟ قال: «**بَلْ فِيمَا جَفَّتْ به الأقلامُ وجَرَتْ بِهِ المَقادِير**». قال: ففيمَ العملُ؟ قال: «**اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وكلُّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ**».

[رواه أحمد (٣/٢٩٢، ٢٩٣)، ومسلم في القدر (١٦/١٩٧، ١٩٨)، وابن حبان (١٨٠٩) بالموارد].

ش: «**اعملوا**»: هو في الدلالة كسابقه فالعمل على ما جرت به المقادير فأهل الجنة يعملون بعملها وأهل النار كذلك، فالعبرة بالسابقة ثم الختام عليها. وفي الباب أحاديث عن أنس في الصحيحين، وعن عمران بن الحصين كذلك وعن ابن عمر عند أحمد والترمذي بسند صحيح.

الأعمال بالخواتم

٢٣٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ الزمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ ثُم يُخْتَمُ له بِعَمَلِ أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَعملُ الزَّمَن الطويلَ بعملِ أهلِ النارِ ثم يُخْتَمُ له عَمَلُه بِعملِ أهلِ الجنةِ**».

[رواه مسلم في القدر (١٦/١٩٩) ونحوه عن سهل بن سعد عنده أيضاً (١٦/١٩٩، ٢٠٠)].

ش: «**ثم يختم له بعمل أهل النار**»: هذا يقع نادراً، فإن الله تعالى ما كان ليضل ويختم بالشقاء على من قطع شوطاً كبيراً من حياته في طاعة الله وعبادته بإخلاص وصدق. وإنما يقع ذلك لمن كان منافقاً ولم يكن صادقاً في إيمانه، أو عمل ما يستحق به ذلك مع سابق القدر. «**ثم يختم... بعمل أهل الجنة**»: هذا يقع كثيراً وذلك لأسبقية رحمة الله غضبه. فإن أكثر الناس يقطعون أشواطاً من حياتهم في اتباع أهوائهم وشهواتهم مع التفريط في حقوق الله وفرائضه، وقد يكون فيهم كافرون وملحدون فيوفقهم الله للإيمان به وطاعته فيموتون على ذلك، ثبتنا الله على ديننا حتى نلقاه.

٢٣٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أرَادَ الله بعبدٍ خيراً استَعْمَلَهُ»**، فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **«يُوَفِّقُه لعملٍ صالحٍ قبلَ الموتِ»**.

[رواه أحمد (١٠٦/٣، ١٢٠، ٢٣٠)، والترمذي في القدر (١٩٧٤)، وابن حبان (١٨٢١) بالموارد، وحسنه الترمذي وصححه. وهو عنده صحيح على شرطهما وفي الباب عن عمرو بن الحمق عند أحمد (٢٢٤/٥) بسند صحيح، وعن أبي عنبة عنده أيضاً (٢٠٠/٤)].

ش: **«استعمله»**: في رواية لأبي عنبة **«عسله»** وفيه دليل واضح على أن من وفق لعمل صالح آخر حياته حتى مات عليه كان ذلك علامة على حسن حاله وسعادته، وأن الله تعالى أراد به خيراً. فأحرى إذا كانت حياته كلها موفقاً فيها مع الصدق والإخلاص.

القدر عند الخلق في الرحم

٢٣٥ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادقُ المصدوق: **إن خَلْقَ أحدِكُم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربعين يوماً نطفةً ثمَّ يكونُ عَلقَةً مِثلَ ذلك، ثم يكونُ مُضْغَةً مثلَ ذلك، ثم يَبْعَثُ اللَّهُ إليه مَلَكاً بأربعِ كلِماتٍ: رِزْقِهِ، وأجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشَقِيٌ أو سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيهِ الروحُ فوالَّذِي لا إلَه غيرُه، إنَّ أحَدكم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى ما يكونُ بَينه وبينهَا إلا ذراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهل النَّار فيدخلُها، وإن أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذِراعٌ فيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعمل أهل الجنَّةِ فيدْخُلُها»**.

[رواه أحمد (٤١٤/١، ٤٣٠)، والبخاري في بدء الخلق (١١٤/٧)، وفي أحاديث الأنبياء (١٧٨/٧)، وفي القدر (٢٧٧/١٤، ٢٨٨)، وفي التوحيد، ومسلم (١٨٩/١٦)، والترمذي (١٩٦٩) كلاهما في القدر، وأبو داود في السنة رقم (٤٧٠٨)، وابن ماجه في المقدمة].

ش: **«علقة»**: هي دم جامد مثل علقة الماء. **«مضغة»** بضم الميم وهي القطعة اليسيرة من اللحم بقدر ما يمضغ. وفي هذا الحديث بيان لأطوار

خلق الإنسان في الرحم. وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ الآية [المؤمنون]، وفي القرآن غير ذلك. وظاهر الحديث أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد أربعة أشهر، وهذا في الغالب. فإن الأطباء يذكرون أنه قد يتحرك الجنين لتسعين يوماً، وذلك ثلاثة أشهر، والله يفعل ما يشاء كما أنه يدل على أن كتابة الملك لشؤون الجنين تكون بعد مضي أربعة أشهر. وحديث حذيفة الغفاري الآتي يدل على أن ذلك يكون في أول الأربعين الثانية. والله أعلم بالواقع ثم يجب أن نعلم أن كتابة الملك لهذه الأشياء في الرحم هي غير الكتابة السابقة في الأزل كما تقدم. بل هذه الكتابة تعد تأكيداً، وإعلاماً لمن شاء الله أن يعلمه من خلقه كملائكته مثلاً. وباقي أطراف الحديث تقدم معناه رقم (٢٣٣).

٢٣٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وَكَّلَ الله بالرَّحِم مَلَكاً فيقولُ: أيْ ربِّ نُطفةً، أي رب عَلقَةً، أي ربِّ مُضْغَةً، فإذا أرادَ الله أن يقضِي خلقَها قال: أذَكَرٌ أم أنثى؟ أشَقِيٌّ أم سَعِيدٌ؟ فما الرِّزْق؟ فما الأجَل؟ فيكْتُب ذلِك في بطنِ أُمِّهِ»**.

[رواه البخاري (١٤/٢٩٢) ومسلم (١٦/١٩٥) كلاهما في القدر. ورواه البخاري في الحيض وفي كتاب الأنبياء].

ش: «وكل الله بالرحم»: هو وما في الباب يدل على أن للرحم ملكاً خاصاً مكلفاً به، يدبر ما يقع فيه بإذن الله عزّ وجلّ. وهل لكل رحم ملك أم هو ملك واحد؟ لم يأت في ذلك نص، والظاهر التعدد، وأن لكل رحم ملكاً خاصاً به.

٢٣٧ ـ وعن عامر بن واثلة رحمه الله تعالى أنه سمع عبدالله بن مسعود يقول: **«الشَّقِيُّ مَن شَقِيَ في بَطْنِ أُمِّهِ، والسَّعِيدُ مَن وُعِظَ بِغَيْرِهِ»**. فأتى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حُذَيفة بن أسيد الغِفاري فحدَّثه بذلك من قول ابن مسعود. فقال له: وكيف يَشْقى رجلٌ بغير عَمَلٍ؟

فقال له الرجل: أتعْجَبُ من ذلك؟ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إذا مَرَّ بالنُّطْفَةِ ثِنْتانِ وأرْبَعُونَ ليلةٍ، بَعَثَ الله إليها مَلكاً فصَوَّرَها وخَلَقَ سَمْعَها وبَصَرَها وجِلْدَها ولَحْمَها وعِظَامَها، ثم قال: يا رَب! أذكرٌ أم أُنْثَى؟ فيَقْضِي رَبُّكَ ما شَاءَ، ويَكْتُبُ المَلَك، ثم يقولُ: يا رب! أجلُه، فيَقْضِي ربُّك مَا شاءَ، ويَكْتُب الملَك، ثم يقولُ: يا رب! رِزْقُه، فيقْضِي ربُّك ما شاء، ويكتُبُ الملَكُ، ثم يَخْرُج الملك بالصَّحِيفَةِ في يَدِهِ فلا يَزِيدُ على مَا أُمِرَ ولا يَنْقُصُ»**.

وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ بِأُذُنَيَّ هَاتَيْنِ يقول: **«إنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ في الرَّحِمِ أربعينَ ليلةً ثُمَّ يَتَسَوَّرُ عليها المَلَكُ فيقولُ: يا رب! ما رِزْقُه؟ ما أجَلُه؟ ما خُلُقه؟ ثم يَجْعَلُه اللَّهُ شَقِيّاً، أو سَعِيداً»**.

[رواه مسلم بالروايتين في القدر (١٦/١٩٣، ١٩٤)].

ش: «الشقي» معناه: أن كل واحد قد عرف حاله من شقاوة وسعادة، وهو لا يزال في بطن أمه. **«كيف يشقى»**: كأنه ظن أن الشقاء لا يكون إلا مع العمل الموجب لذلك، ولم يكن يعلم أن الأمر على ما سبق به الكتاب الأول والثاني. **«النطفة»**: هي مَنِي الرجل مع مَنِي المرأة. **«ثنتان وأربعون»**: هذه الرواية تخالف ما سبق عن ابن مسعود وغيره، وجمع بين ذلك بأن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وتطوراتها، ففي كل طور منها ينادي: يا رب، هي كذا، هي كذا، فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى، فإذا صارت علقة وذلك عقب الأربعين الأولى يصير للملك علم بأنه جنين، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. ثم يكون له تصرف آخر وهو تصويره، وخلق سمعه وبصره، وجلده وعظمه، وكونه ذكراً أم أنثى، وذلك يكون بعد الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة. ثم يكون للملك فيه تصرف آخر، وهو وقت نفخ الروح وذلك حين تتم له أربعة أشهر في الغالب. وأما قوله: **«بعث الله إليها ملكاً فصورها»** إلخ، فقال العلماء: ليس هو على ظاهره، ولا يصح حمله على ظاهره بل المراد أنه يكتب ذلك ثم يفعله في وقت آخر. لأن التصوير عقب الأربعين الأولى

غير موجود في العادة أصلاً. وإنما يقع في الأربعين الثالثة. هذا ملخص ما ذكره العلماء في الموضوع باختصار، والله تعالى أعلم. **«ثم يخرج الملك بالصحيفة»**: هذا يدل على أن الكتابة من الملك لتلك المقادير تكون في صحيفة خاصة. يحتفظ بها الملك ويضعها حيث أراد الله عزّ وجلّ، وأنه من تلك الصحيفة يتعرف الملائكة على شؤون هذا المكتوب له. وقد جاء عند أبي داود أن الصحيفة معلقة بالعرش.

٢٣٨ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ، وكَتَبَ حَيَاتَهَا، ومَوْتَها، وَرِزْقَهَا، وَمَصَائِبَها»**.

[رواه أحمد (١/٤٤٠)، والترمذي في القدر رقم (١٩٧٥) بتهذيبي، وهو وإن كان فيه رجل مبهم فإن له شاهداً عن أبي هريرة رواه أحمد (٢/٣٢٧) وسنده صحيح].

ش: والحديث يدل على أن كل نفس مخلوقة لله عزّ وجلّ. وأنه قدر وكتب عليها كل ما هي لاقية في حياتها حتى المصائب والأمراض.. وفي القرآن الكريم: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

محاجة آدم وموسى

٢٣٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَحَاجَّ آدم وموسى عليهما السلام فقال لهُ موسى: أنتَ الذِي أخرجتَ الناسَ مِنَ الجنَّةِ بذَنْبِكَ وأشْقَيْتَهُم. فقال آدم لموسى: أنتَ الذِي اصْطَفَاكَ الله برسالاته وبكلامِه، أتَلُومُنِي على أمرٍ كَتَبه الله علـيَّ قبل أنْ يَخْلُقَنِي؟ أوْ قدَّره علـيَّ قبلَ أن يَخْلُقَنِي؟** قال رسول الله ﷺ: **فَحَاجَّ آدمُ موسى»**.

وفي رواية: **«احتجّ آدم وموسى عند ربهما، فحاجّ آدم موسى. قال موسى: أنْتَ آدم الذي خَلقك الله بيدِه، ونَفخَ فيكَ مِن رُوحِه، وأسجدَ لكَ ملائكتَه، وأسْكَنَك في جنَّتِه، ثم أهْبَطْتَ النَّاسَ بخطيئتِك إلى الأرضِ. قال آدم: أنتَ موسى الذي اصْطَفَاك الله برسالته وبكلامِه، وأعطاكَ الألواحَ فيها**

تِبْيَانُ كلِّ شيءٍ، وقربك نَجِيّاً، فِي كَمْ وَجدتَ الله كَتب التَّوراة قبل أن أخْلَقَ؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فَهَلْ وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم. قال: أَتَلُومُنِي على أن عملتُ عملاً كَتَبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يَخلُقَنِي بأربعين سنةً. قال رسول الله ﷺ: فَحَاجَّ آدم موسى عليهما السلام».

[رواه البخاري (٣٠٨/١٤)، ومسلم (٢٠٠/١٦، ٢٠٢)، وأبو داود (٤٧٠١)، والترمذي (١٩٦٦) كلهم في القدر، ورواه البخاري أيضاً في أحاديث الأنبياء وفي التفسير وفي التوحيد].

ش: **«تحاج»**: المحاجة: المجادلة، وهذه المحاجة قال القاضي عياض: يحتمل أنه على ظاهره وأنهما اجتمعا بأشخاصهما. وقد ثبت في حديث الإسراء أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في السموات، وفي بيت المقدس، وصلى بهم. فلا يبعد أن الله تعالى أحياهما كما جاء في الشهداء. قال: ويحتمل أن ذلك جرى في حياة موسى سأل الله تعالى أن يريه آدم فحاجه. وجزم ابن عبدالبر والقابسي بأن ذلك كان بعد وفاة موسى فالتقيا في البرزخ أول ما مات موسى فالتقت أرواحهما في السماء. وقيل غير ذلك. والتحقيق في هذا والصواب: التسليم والإيمان به لأنه من عالم الغيب، ولم نؤت من ذلك إلا قليلاً. **«أخرجت الناس»**: في رواية عند مالك وغيره: **«أنت الذي أغويت»**. ومعناه: كنت السبب في غواية من غوى منهم. **«وأشقيتهم»**: أي تسببت في شقائهم بنزولهم لهذه الأرض، وحياتهم فيها، بدل بقائهم في الجنة. **«اصطفاك»**: أي اختارك. **«أتلومني»**: اللوم هو العذل والعتاب. **«خلقك الله بيده»**: هذا من أحاديث الصفات، ومذهب السلف في أمثاله الإيمان به مع التفويض ونفي التشبيه. **«وأسكنك في جنته»**: مذهب أهل الحق والسنة والجماعة، أن هذه الجنة التي كان فيها أبونا آدم عليه السلام هي الجنة المعهودة، خلافاً لمن قال: إنها بستان بالهند أو نحو ذلك. **«أفتلومني... قبل أن يخلقني بأربعين.. إلخ»**: معناه: أنه كتبه عليه في صحف التوراة وألواحها قبل أن يخلقه بأربعين سنة. قال النووي: ولا يجوز أن يراد به حقيقة القدر، فإن علم الله

قلنا إنهم في الجنة بالإجماع. أما أولاد المشركين ففيهم مذاهب وأقوال: أصحها وهو الذي قاله المحققون أنهم من أهل الجنة. ففي حديث سمرة عند البخاري حينما رأى رسول الله ﷺ خليل الرحمن ﷺ في الجنة وحوله الأطفال، قال الصحابة: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: **«وأولاد المشركين»**. وقوله: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»**: ليس فيه تصريح بأنهم من أهل النار. ومعناه كما قال النووي: الله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا، ولم يبلغوا، إذ التكليف لا يكون إلا بالبلوغ.

* * *

خاتمة

خلاصة ما ذكر في هذه الأبواب من القدر هو أن له مراتب وأنواعاً:

أولاً: أسبقية علم الله تعالى وإرادته في الأزل بكل ما سيقع من الكائنات وشؤونها.

ثانياً: كتابة ذلك في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام.

ثالثاً: انتساخ ذلك في الكتب المنزلة على رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

رابعاً: كتابة ذلك أيضاً بالنسبة لبني آدم يوم أن استخرج عزّ وجلّ الذرية من ظهر أبيهم آدم عليه السلام بعد خلقه. وقال: «هؤلاء لهذه ولا أُبالي، وهؤلاء لهذه ولا أبالي». يعني أهل الجنة وأهل النار. وهذا يأتي في التفسير إن شاء الله تعالى.

خامساً: كتابة شؤون العباد في أرحام الأمهات، من شقاوة وسعادة، ورزق وأجل.

سادساً: تقدير خاص سنوياً في ليلة القدر.. فكل هذا وارد في القرآن والسنة.. والإيمان بكل ذلك مع التسليم فيه لله واجب، وأن كل ما وقع أو

سيقع من خير أو شر، كفراً كان أم إيماناً، طاعة أم معصية، هدى أو ضلالة، محبوباً أم مكروهاً، حسناً أم قبيحاً قد قدره الله عز وجل وسبق به علمه وإرادته، وأنه ليس للعبد فيه شيء إلا الفعل والكسب الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، والله خالق العباد، وخالق أفعالهم، وإرادتهم، واختياراتهم، وفاعليتهم، وما وراء ذلك فهو من أسرار الله تعالى لم نؤمر بالبحث عنه، ولا التعقل والخوض فيه، فالخلق خلقه والملك ملكه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. هذا مذهب أهل السنة والجماعة وسوى ذلك مذاهب للقدرية، والجبرية.

وبهذا تم كتاب القدر، وكان ذلك تحريراً بين الظهرين من يوم الجمعة خامس وعشرين من ذي القعدة عام ١٤١٤هـ، فالحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عدد ما تقدم من الأحاديث في هذه الكتب: العلم، الاعتصام، الإيمان، والإسلام، القدر

هو مائتان وثلاثة وأربعون حديثاً، أخرج البخاري ومسلم أو أحدهما منها مائة وأربعة وأربعين والباقي وهو تسعة وتسعون من الزوائد الصحيحة عليهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب الطهارة

أبواب المياه

ماء زمزم

٢٤٤ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه في صفة حج رسول الله ﷺ قال: ثُمَّ أفاضَ رسولُ الله ﷺ فدَعَا بِسَجْلٍ مِن مَاءِ زَمْزَمَ فشَرِبَ مِنْهُ وتَوَضَّأ، الحديث.

[رواه عبدالله في زوائد مسند أبيه (٧٦/١) بسند صحيح. وأصله في صحيح مسلم من حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ].

ش: «**ثم أفاض**»: أي طاف طواف الإفاضة يوم النحر. «**بسجل**» بفتح السين وسكون الجيم: وهو الدلو الملآن ماء. والحديث يدل على جواز الطهارة بماء زمزم. قال ابن قدامة في «المغني» (١٦/١): **ولا يكره الوضوء والغسل بماء زمزم لأنه ماء طهور**. وقال النووي في شرح «المهذب» (١٣٧/١): وأما ماء زمزم

فمذهب الجمهور كمذهبنا أنه لا يكره الوضوء والغسل به.

نعم جزم الطبري بتحريم إزالة النجاسة به ـ وذلك لشرفه ـ وإن حصل التطهر به كما نقله الحطاب في شرح «مختصر خليل» (٤٧/١)، ولا دليل لهذا التحريم إلا الرأي والاجتهاد.

ماء البحر

٢٤٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركَبُ البحر، ومعنا قليلٌ من الماءِ، فإن توَضّأنا به عطِشنا، أفنَتوضَّأُ مِن ماءِ البحرِ؟ قال رسول الله ﷺ: **«هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيتَتُهُ»**.

[رواه أحمد (٣٦١/٢، ٢٣٧)، والدارمي رقم (٧٣٥)، وأبو داود ٨٣)، والترمذي (٧٢/١)، والنسائي (٤٤/١، ١٤٢)، وابن ماجه (٣٨٦)، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم، وصححه البخاري والترمذي وابن منده وابن المنذر وابن عبدالبر والبغوي وغيرهم].

ش: **«الطهور»** بفتح الطاء: الماء الذي يتطهر به، أما بالضم فالتطهر الذي هو الفعل هذا قول الجمهور. والحديث يدل على أن ماء البحر طهور في نفسه مطهر غيره ولا خلاف في ذلك إلا ما ورد عن بعضهم، وهو شذوذ. وقوله: **«الحل ميتته»**: يدل على إباحة جميع ما في البحر من حيوان ولو كان خنزيراً أو كلباً وما هو محرم براً. وسيأتي ذلك في الأطعمة إن شاء الله تعالى.

ماء الآبار

٢٤٦ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضّأ مِن بِئرِ بُضَاعَةَ؟ وهي بِئرٌ يُلْقَى فيها الحِيَّضُ، ولحومُ الكلاب، والنَّتِنُ. فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الماءَ طَهُورٌ لا يُنجِسُه شيءٌ»**.

[رواه أحمد (٣/٣١، ٨٦)، والطيالسي (١١٠)، وأبو داود (٦٦/٦٧)، والترمذي (١/٦٥، ٦٦) رقم (٥٧)، والنسائي (١/١٤١، ١٤٢) وهو حديث صحيح، صححه أحمد وابن معين وابن حزم وغيرهم، وحسنه الترمذي وقال: جود أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو حديث أبي سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة.. وللحديث شواهد صحيحة عن ابن عباس عند أحمد، وعن عائشة عند البزار وأبي يعلى، وعن ميمونة عند «كبير» الطبراني].

ش: «**بضاعة**» بضم الباء: هي إحدى آبار المدينة أيام النبوة، ولم يبق لها الآن أثر، كباقي أخواتها. وحديثها له أثر خالد في باب الطهارة. «**الحيض**» بكسر الحاء وفتح الياء: جمع حيضة بكسر الحاء أيضاً: وهي الخرقة التي تعدها المرأة لدم حيضها. «**والنتن**» بفتح النون وكسر التاء وسكونها: الشيء الكريه الرائحة، كالعذرة ونحوها من الأقذار. والحديث دال على أن الأصل في الماء الطهورية، وأنه لا ينجسه شيء طرأ عليه ولو كان نجساً إذا كان الماء كثيراً ولم يتنجس وتتغير أحد أوصافه من طعم، أو لون، أو ريح للإجماع على ذلك كما نقله غير واحد.

ماء الفلاة ترده السباع والدواب

٢٤٧ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسولَ الله ﷺ وهو يُسْأَلُ عن الماءِ يكون من الفَلاةِ مِن الأرضِ، وما يَنُوبُه مِن السِّباعِ والدوابِّ، قال: «**إذا كانَ الماءُ قُلَّتَينِ، لم يَحْمِل الخَبَثَ**».

[رواه الدارمي (٨٣٧، ٨٣٨)، وأبو داود (٦٣، ٦٤، ٦٥)، والترمذي (١/٦٩، ٧٠)، والنسائي (١/١٤٢)، وابن ماجه (٥١٧، ٥١٨)، وابن الجارود (٤٤، ٤٥) وغيرهم. وسنده صحيح بل هو في طريق لأبي داود على شرط البخاري ومسلم. ولذلك صححه الحافظ وقبله ابن منده وابن معين والحاكم وابن المنذر والبوصيري وغيرهم].

ش: «**القلة**» بضم القاف: مثل الجرة الكبيرة تسع قربة من الماء. «**الخبث**» بفتحتين: هو النجس. «**ينوبه**»: أي يرده ويطرقه.

وظاهر الحديث أن الماء إذا بلغ هذا المقدار لا يتنجس مطلقاً. وهذا على الصحيح ما لم يتغير فإذا تغيرت أحد أوصافه تنجس سواء كان قلتين، أو أكثر، أو أقل، كما حكى على ذلك الإجماع ابن المنذر والنووي رحمهما الله تعالى. وفي الحديث دليل على أن أسآر السباع والدواب نجسة إذ لولا أن شرب السباع.. منه ينجسه لما كان لسؤالهم عنه ولا لجوابه إياهم بتقدير القلتين معنىً قاله ابن الأثير. وقال المجد في «منتقى الأخبار»: حديث ابن عمر في القلتين يدل على نجاستها يعني السباع، وإلاَّ يكون التحديد بالقلتين في جواب السؤال عن ورودها عبثاً.

الماء الدائم الذي لا يجري

٢٤٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَغْتَسِلْ أحدُكم في الماءِ الدائِمِ وهو جُنُبٌ»**. قالوا: كيف يَفعلُ يا أبا هريرة؟ قال: يَتَنَاوَلُه تَنَاوُلاً. وفي رواية: **«لا يَبُولَنَّ أحدُكم في الماءِ الدائمِ الذي لا يَجْرِي ثم يَغتَسِل فِيهِ»**.

[رواه البخاري (٣٥٩/١)، ومسلم (١٨٧/٣، ١٨٨، ١٨٩)، والأربعة واللفظ الأول لمسلم والنسائي].

ش: **«الماء الدائم»**: هو الراكد الوارد في رواية أخرى.

والحديث بروايته الأولى يدل على المنع من الاغتسال في الماء الراكد من الجنابة، وإنما يغترف منه ويغتسل خارجه. أما الرواية الثانية فتدل على المنع من الاغتسال فيه إذا بال فيه. وسيأتي بقية البحث فيه في أبواب الغسل.

النهي عن التطهر بالماء المستعمل

٢٤٩ ـ عن حميد الحميري رحمه الله تعالى قال: لقيت رجلاً صحب النبي ﷺ أربع سنين كما صحبه أبو هريرة قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تَغْتَسِلَ المرأةُ بِفَضْلِ الرجُلِ، أو يَغتَسِلَ الرجلُ بِفضلِ المرأةِ، ولْيَغْتَرِفا جميعاً.

[رواه أبو داود رقم (١٨)، والنسائي (١٠٨/١) بسند صحيح. وقد صححه الحافظ في «الفتح» وفي «التلخيص»].

ش: وهو يدل على المنع من استعمال الماء الفاضل عن الرجل والمرأة. والحق أن ذلك لا حرج فيه، وأن هذا النهي محمول على التنزيه، يدل عليه الحديث التالي.

صحة التطهر بالماء المستعمل

٢٥٠ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: اغتسل بعض أزواج النبي ﷺ في جفنة فجاء رسول الله ﷺ ليتوضَّأ منها، أو يغتسل، فقالت: إني كُنت جُنُباً، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الماءَ لا يُجْنِبُ**».

[رواه ابن أبي شيبة (٣٣/١)، والدارمي ٧٤٠، ٧٤١)، وأبو داود (٦٨)، والترمذي (٦٥/١)، وحسنه وصححه ورواه أيضاً ابن ماجه (٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢)، وابن الجارود (٤٨، ٤٩) وأصله في صحيح مسلم].

ش: «**جفنة**» بفتح الجيم وسكون الفاء: هي كالقصعة. «**جنب**» بضم الجيم والنون وهو من خرج منه مني أو أولج وإن لم ينزل. «**لا يجنب**» معناه: أن الماء لا يتنجس ولا تصيبه جنابة إذا غمس فيه الجنب يده. والحديث واضح الدلالة في جواز استعمال الماء الفاضل عن المرأة ولو جنباً. وادعاء الخصوصية به ﷺ يحتاج إلى دليل، ولا سبيل إلى وجوده.

٢٥١ ـ وعن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة فأُتِيَ بوَضوء فتوضَّأ ونحنُ بالبَطْحَاءِ فجعل الناسُ يأخذون مِن فَضْلِ وَضُوئِه فيَتَمسَّحُونَ بِهِ. وفي رواية: فرأيت النَّاسَ يَبْتَدِرُون ذلك الوَضوءَ مَن أصابَ منه شيئاً يَمْسَحُ به ومَنْ لم يُصِب أخذَ مِن بَلَلِ يَدِ صاحِبِه.

[رواه البخاري في الوضوء، وفي الأذان، وفي الصلاة، وفي اللباس، وفي الأنبياء، ومسلم في سترة المصلي، وأبو داود رقم (٦٨٨)، والنسائي في الوضوء (٧٤/١) وسيأتي مرة أخرى إن شاء الله تعالى].

ش: «بوضوء» بفتح الواو: الآنية المعدة للوضوء، أو ما فيها من الماء. ويؤخذ من الحديث طهارة الماء المستعمل، وفي ذلك أحاديث أخرى كثيرة عن جابر في الصحيحين، وعن أبي موسى في البخاري. وفيه مشروعية التبرك بآثار الصالحين. وفي ذلك أحاديث كثيرة ستأتي في مظانها.

الماء الذي خالطه طاهر ولم يغيره

٢٥٢ ـ عن أم هانىء رضي الله تعالى عنها أَنَّ النبيَّ ﷺ اغْتَسَلَ وَمَيْمُونَةُ مِن إناءٍ واحدٍ في قَصْعَةٍ، فِيهَا أثَرُ الْعَجِينِ.

[رواه النسائي (١/١٠٨)، وابن ماجه (٣٧٨)، وابن حبان (٢٢٧)، والبيهقي (١/٧)، وابن حزم في «المحلى» (١/٢٠٠) بسند صحيح، وله طرق أخرى عند بعض من ذكرنا].

ش: قال ابن قدامة في «المغني» (١/١٣): لا نعلم خلافاً بين أهل العلم في جواز الوضوء بما خالطه طاهر لم يغيره.

خاتمة

الماء الطهور المطلق الذي تصح به الطهارة بالإجماع هو كل ماء نزل من السماء، أو خرج من الحجارة، أو نبع من الأرض، أو جرى به نهر أو كان بحراً، أو ذاب من ثلج أو برد فهذا هو الماء المطلق الطاهر المطهر بدون خلاف. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان/٤٨]، وقال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال/١١]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [البقرة/٧٤]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم/٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [الزمر/٢١].

أما الماء المضاف كماء الرياحين، والباقلاء، والنبيذ، والورد، والعجين، . . . وما تغير بنجاسة فكل ذلك لا تصح به الطهارة، ولا تزال به النجاسة.

أبواب: الطاهر والنجس وما يتبع ذلك

٢٥٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه لقيه النبي ﷺ في طريق من طرق المدينة وهو جُنُبٌ فانْسَلَّ فذهب فاغتسل، فتَفَقَّدَه النبيُّ ﷺ، فلما جاءَهُ قال: «**أين كُنتَ يا أبا هريرةَ؟**»، قال: يا رسولَ الله لقيتَني وأنا جُنُبٌ فكرِهتُ أن أُجالِسَك حتى أغتسِلَ، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحانَ الله، إنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ**».

[رواه أحمد (٤٧١/٢)، والبخاري (٤٠٥/١، ٤٠٦، ٤٠٧)، ومسلم (٦٥/٤، ٦٦)، والأربعة، وابن الجارود رقم (٩٦)، والطحاوي في «معاني الآثار» (١٣/١) ونحوه عن حذيفة وفيه:

٢٥٤ ـ «**إن الْمُسْلِمَ لا يَنْجُسُ**».

[رواه مسلم في كتاب الحيض من صحيحه (٦٧/٤)].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما موقوفاً: «المسلم لا يَنْجُسُ حياً ولا ميتاً».

[ذكره البخاري في الجنائز من صحيحه (٣٦٩/٣)، ورواه الحاكم مرفوعاً (٣٨٥/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: ما في الحديثين مع أثر ابن عباس أصل عظيم في طهارة المسلم أما الحي فبالإجماع وأما الميت فعلى المشهور وهو الصحيح، وكذا الكافر الحي كما هو مذهب الجمهور.

٢٥٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنّ النبي ﷺ لما حَلَق رأسه في حَجَّته يومَ النحر أعطى شَعْرَهُ أبا طَلْحَة وقال لهُ: «**اقْسِمْهُ بينَ النَّاسِ**».

[رواه البخاري ومسلم كلاهما في الحج وسيأتي إن شاء الله تعالى].

٢٥٦ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قَلَّم أظفَارَه فأعطاها رجلاً.

[رواه أحمد (٤٢/٤) بسند صحيح].

٢٥٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: رأيتُ النبي ﷺ حاملَ الحُسَيْن بن عَلِي على عاتِقِه ولُعَابُه يَسيلُ عليه.

[رواه ابن ماجه (٦٥٨) بسند صحيح].

٢٥٨ ـ وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه في حديث صلح الحُدَيْبِيَة: ما تَنَخَّم رسولُ الله ﷺ نُخَامَة إلا وقعتْ في كَفِّ رجُلٍ فَدَلك بها وجهه وجِلْدَه. الحديث.

[رواه أحمد (٣٢٣/٤، ٣٢٦)، والبخاري في مواضع].

٢٥٩ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسولُ الله ﷺ فنام عندنا فعَرِق وجاءت أمّي بِقَارُورَةٍ، فجعَلتْ تَسلُتُ العَرَقِ، فاستيقظ النبيُّ ﷺ فقال: «**يا أُم سُلَيم ما هذا الذي تَصْنَعِينَ؟**»، قالت: عَرَقُ نَجعلُه لِطِيبنا، وهو أطيبُ الطِّيبِ.

[رواه مسلم (٨٦/١٥، ٨٧)].

ش: فهذه الأحاديث الخمسة تدل على أن كل ما فيها من الشعر والأظافر واللعاب والنخامة والعرق من الإنسان طاهر، وهو قول كافة العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض الشافعية في الشعر والأظافر، والأحاديث ترد عليهم.

٢٦٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنتُ أشْرَبُ وأنا حَائِضٌ ثم أُنَاوِلُه النبيَّ ﷺ فيَضَعُ فاهُ على مَوضِع في فيشربُ، وأتَعرَّقُ العَرَقَ وأنا حائض، ثم أُنَاوِلُه النبي ﷺ فيضعُ فاه على موضع فِي.

[رواه مسلم (٢١٠/٣، ٢١١)].

٢٦٤ ـ وعن أنس أيضاً، أن النبي ﷺ كان يصلي في مرابض الغنم.

[رواه أحمد (١٣١/٣)، والبخاري في الوضوء (٣٥٥/١)، ومسلم في المساجد، والترمذي رقم (٢١١) بتهذيبي].

٢٦٥ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه في حديثه عن غزوة تبوك: إن الرجل كان يَنْحَرُ بعيرَهُ فيَعْصِر فَرْثَه، ويجعلُ ما بَقِي على كبِدِه. . الحديث.

[رواه الحاكم (١٥٩/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: «مرابض»: جمع مربض بفتح الميم وكسر الباء، هي مأواها ومقرها.

والحديثان يدلان على طهارة الأبعار والأبوال من المواشي، وقد قدمنا ذلك فيما سبق. أما لحومها، وشحومها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها فهي طاهرة بالإجماع في حال حياتها وبعد موتها إذا ذكيت.

٢٦٦ ـ وعن كبشة بنت كعب بن مالك أن أبا قتادة رضي الله تعالى عنه دخل عليها فسكبت له وَضُوءاً، فجاءت هرَّة تشرب، فأصغى لها الإناء حتى شربت، قالت: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا ابنةَ أخي؟ فقالت: نعم، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّها لَيْسَت بِنَجَسٍ، إنَّما هي من الطَّوَّافِين عليكم، أو الطَّوَّافات»**.

[رواه الأئمة الثلاثة، وأبو داود (٧٤٢)، والنسائي (٤٨/١، ١٤٥)، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: «فسكبت»: أي صببت. **«أصغى»**: أي أمال. **«الطوافون»**: الخدم الذين يطوفون على أهل البيت وفي الدار.

والحديث يدل على طهارة سؤر الهرة. قال الترمذي في الجامع: وهو قول أكثر العلماء. . . مثل الشافعي، وأحمد، وإسحاق، لم يروا بأساً بسؤر الهرة. . إلخ.

٢٦٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**إذا وقَع الذُّبَابُ في شَرَابِ** أحدِكم. وفي رواية: **إناءِ أحدِكُم فَلْيَغْمِسْه كُلَّه ثم لِيَطْرَحْه، فإنَّ في أحَدِ جَنَاحَيه داءً، وفي الآخَرِ شِفاءً**». وفي رواية: «**وإنَّه يتَّقي بجناحِه الذي فِيهِ الدَّاءُ**».

[رواه أحمد (٢٤٦/٢، ٢٦٣، ٣٤٠)، والبخاري في بدء الخلق (١٦٨/٧)، وفي الطب، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٤)، وابن ماجه في الطب (٣٥٠٥)، والرواية الأخيرة لأبي داود].

ش: «**يتقي**»: أي يتحفظ. وفيه دليل على طهارة الذباب. وألحقوا به كل ما لا دم له سائل كالفراش، والخنافس، والعلق، والسرطان، والديدان المتولدة من الطاهرات. وطهارة ما ذكرنا هو قول الجمهور.

قال ابن المنذر في «الإشراف»: قال عوام أهل العلم: لا يفسد الماء بموت الذباب والخنفساء ونحوها. قال: ولا أعلم فيه خلافاً إلا أحد قولي الشافعي نقله النووي في «شرح المهذب» (١٨٠/١، ١٨١)، وابن قدامة في «المغني» (٣٣/١)، قال النووي: والصواب الطهارة وهو قول الجمهور، بل نسب جماعة الشافعي إلى خرق الإجماع.

وقال الخطابي على هذا الحديث: فيه من الفقه أن أجسام الحيوان طاهر إلا ما دلت عليه السنة من الكلب وما ألحق به، إلخ.

واستثنوا ما يتولد من النجاسات كدود المراحيض وصراصره ونحو ذلك فإن ذلك نجس حياً وميتاً.

٢٦٨ ـ وعن ابن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن الجَراد فقال: غَزَوْنا معَ رسول الله ﷺ سَبْعَ غَزَواتٍ نأكُلُ الجَرَادَ.

[رواه البخاري (٤٠/١٢، ٤١)، ومسلم (١٠٣/١٣، ١٠٤) كلاهما في الذبائح وسيأتي في الأطعمة].

٢٦٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتَانِ ودَمَانِ. فأما الميتتانِ: فالجَرَاد والحُوت. وأمَّا الدَّمان: فالكَبِدُ والطِّحالُ**».

[رواه أحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه (٣٣١٤)، والدارقطني (٤/٢٧١، ٢٧٢)، والبيهقي (١/٢٥٤) من طرق هو بها حسن. وجاء عنه موقوفاً رواه البيهقي (١/٢٥٤) وصححه وقال: إنه في معنى المسند وكذا صححه النووي في «شرح المهذب» (٢/٥٦٦)].

ش: الحديثان يدلان على طهارة وحلية ما ذكر فيهما. والكبد والطحال عبارة عن دم معقود كل منهما يؤدي مهمته من كل حيوان حي وهما مستثنيان من الدم المحرم والنجس. والجراد والحوت هما الآخران كذلك مستثنيان من الميتة المحرمة القذرة. بيد أن الكبد والطحال لا بد أن يكونا من مأكول اللحم المذكى. فالكل طاهر بدون خلاف.

٢٧٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا دُبِغَ الإهابُ فقد طَهُر»**.

[رواه مسلم (٤/٥٣)، وأبو داود (٤١٢٣)، ورواه النسائي في الفرع (٧/١٥٣)، والترمذي في اللباس (١٥٨٦)، وابن ماجه (٣٦٠٩) وغيرهم بلفظ: **«أيما إهابٍ دُبِغَ فقد طَهُرَ»**].

٢٧١ ـ وعن ميمونة أُمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها، أن النبي ﷺ مَرَّ بِشاةٍ لِمَيْمُونَةَ مَيْتَةٍ فقالَ: **«ألا أخَذُوا إهَابها فدَبغُوه فانْتَفَعُوا بِه»**، فقالوا: يا رسول الله إنَّها ميتة. فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّما حَرُمَ أكْلُها»**. وفي رواية: **«يُطَهِّرُهَا الماءُ والقَرَظُ»**.

[رواه البخاري في الذبائح وغيره، ومسلم في الطهارة (٤/٥١، ٥٢)، وأهل السنن بألفاظ. وعد متواتراً].

ش: **«القرظ»** بفتحتين: هو ورق السلم يدبغ به.

وفي الحديثين دليل على أن الدباغ يطهر الإهاب ولو كان من ميتة لورود النص فيه ولعموم قوله: **«أيما إهاب»** إلخ، فإذا دبغ وأزيلت رطوبته ورائحته بنحو حناء أو شب، أو زيت أو رمان، ونحو ذلك أصبح طاهراً يستعمل في كل شيء، وهذا مذهب الجمهور. قال ولي الله الدهلوي في «الحجة البالغة» (١/٣٩٤): استعمال جلود الحيوانات المدبوغة أمر شائع مسلم

عند طوائف الناس، والسر فيه أن الدباغ يزيل النتن والرائحة الكريهة.

أما حديث: «**لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب**» رواه أحمد (٣١١/٤) هو مع كونه فيه كلام؛ ينص على الإهاب، والإهاب في اللغة يطلق على الجلد الذي لم يدبغ.

٢٧٢ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنُصِيب مِن آنية المشركين وأسْقِيَتِهم فنَسْتَمْتِعُ بِها فلا يُعَابُ علينا.

[رواه أحمد (٣٤٣/٣، ٣٧٩، ٣٨٩)، ومن طريقه أبو داود (٣٨٣٨)، والبيهقي (٣٢/١) من طرق هو بها صحيح].

٢٧٣ ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ توضأ هو وأصحابه من مزادتي مشركة.

[رواه أحمد (٤٣٤/٤، ٤٣٥)، والبخاري ومسلم في حديث طويل يأتي في موضعه].

٢٧٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن يهودياً دعا رسول الله ﷺ إلى خُبْزِ شعيرٍ، وإهَالةٍ سَنِخَة فأجابه.

[رواه أحمد (٣١٠/٣، ٣١١، ٢٧٠) بسند صحيح وأصله في البخاري وغيره].

ش: «**مزادة**» بفتح الميم: هي القربة، والراوية التي يحمل فيها الماء. «**إهالة**»: الودك ونحوه كالشحم. «**سنخة**» بفتح السين وكسر النون المتغيرة.

والأحاديث الثلاثة تدل على طهارة أسآر الكفار ورطوباتهم ويستوي في ذلك كل الطوائف. وإلى طهارتهم ذهب كل العلماء والأئمة إلا الظاهرية فقالوا بنجاسة الكافر على الإطلاق مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ورد ذلك الجمهور بأن المراد بالنجس هنا قذر الاعتقاد والشرك، والصارف للآية وظاهر النهي: الأحاديث الواردة في الباب وغيرها وما أجاب به الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى في «المحلى» عن معاشرة الزوجة الكتابية والتحرز عنها هو ظاهر التعسف.

النجـس

هو بفتح الجيم وسكونها: القذارة خلاف الطهارة والنظافة.

قال ولي الله في «الحجة البالغة»: النجاسة كل شيء يستقذره أهل الطبائع السليمة، ويتحفظون منه، ويغسلون الثياب إذا أصابها كالعذرة، والبول، والدم، الخ (٣٩١/١).

٢٧٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً بالَ في المسجد، فأسرع إليه الناس، فقال النبي ﷺ: **«أهرِيقُوا عليهِ سَجْلاً من ماءٍ»**.

[رواه أحمد (٢٨٢/٢، ٢٣٩)، والبخاري في الوضوء، وأبو داود (٣٨٠)، والنسائي والترمذي (١٣٠) بتهذيبي وغيرهم، واللفظ للأخير وهو في الصحيحين عن أنس بألفاظ].

ش: «سجلاً» بفتح السين: الدلو والذنوب.

لا خلاف في نجاسة بول الإنسان قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح المهذب» (٥٥٥/٢)، وهو أي نجاسة البول مجمع عليه ولا فرق بين الكبير والصغير بإجماع من يعتد بإجماعه لكن بول الصبي يكفي فيه النضح ويأتي لهذا مزيد.

٢٧٦ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: خرج النبي ﷺ لحاجته وفيه... وألقى الروثة، وقال: **«إنها رِكْسٌ»**.

[رواه أحمد رقم (٣٦٨٥)، وابن أبي شيبة (١٥٥/١)، والبخاري (٢٦٧/١) وغيرهم ويأتي في الاستنجاء].

ش: «ركس»: أي نجس. وهو يدل على نجاسة الروث من البهائم ورجيع كل ذي حافر كالحمار والبغل. أما رجيع الآدمي فلا خلاف في نجاسته أيضاً. وقد تقدم في حديث بئر بضاعة: وهي بئر يلقى فيها الحيض والنتن، يعني العذرة ونحوها فنجاستها وقع عليها الإجماع كالبول.

٢٧٧ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كنت رجلاً مذاء،

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**إذا رأيتَ المَذْيَ فاغْسِلْ ذكرك، وتوضَّأ وُضوءَك لِلصَّلاةِ**».

[رواه أبو داود (٢٠٦)، والنسائي (٩٣/١)، والطحاوي في المعاني (٤٦/١) بسند صحيح. وأصله في الصحيحين ويأتي مع غيره].

ش: «مذاء»: أي كثير المذي، وهو الماء الرقيق اللزج الذي يخرج عند الإنعاظ أو ملاعبة النساء... وهو نجس مثل البول ولا فارق كالودي أيضاً وهو ماء أبيض يخرج في الغالب إثر قضاء الحاجة. قال النووي رحمه الله تعالى: أجمعت الأمة على نجاسة المذي والودي.. إلخ.

٢٧٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ أراد أن يتوضأ من سقاء فقيل له: إنه ميتة. فقال: «**دِباغُه يذهب بخُبثه، أو نجسه أو رِجسه**».

[رواه أحمد (٢٣٧/١، ٣١٤)، وابن خزيمة (٦٠/١)، والحاكم ١٦١/١)، والبيهقي (١٧/١)، وصححه الحاكم والبيهقي والذهبي].

٢٧٩ ـ وعن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه قال: قدم النبي ﷺ وهم يجبون أسنمة الإبل، ويقطعون أليات الغنم. فقال ﷺ: «**ما قُطِعَ مِنَ البَهِيمَةِ وهي حَيَّةٌ فهي مَيْتَةٌ**».

[رواه أحمد (٢١٨/٥)، وأبو داود (٢٨٥٨)، والترمذي (١٣٤٨) بتهذيبي، والحاكم (٢٣٩/٤) بسند صحيح].

ش: «سقاء»: هي القربة والراوية. **«يجبون»**: أي يقطعون. **«أسنمة»**: جمع سنام بفتح السين وهو ما ارتفع من ظهر الجمل. **«أليات»**: جمع الليت، وهي صفحة العنق. كان العرب إذا اشتهوا اللحم قطعوا ما يريدونه من ظهر الجمل أو صفحة عنقه ـ وهو حي ـ فأعلمهم النبي ﷺ بأن ذلك يعتبر ميتة.

وكلا الحديثين يدلان على أن الميتة نجسة ومحرمة وذلك متفق عليه.

٢٨٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أمر أبا

طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنه يوم خَيْبَر: «**إنَّ اللَّه ورسولَه ينهيانكم عَن لُحومِ الحُمُر الأهلِيَةِ فإنَّها رِجْسٌ أو نجسٌ**».

[رواه البخاري في الذبائح (٧٦/١٢)، ومسلم في الصيد (٩٤/١٣) وغيرهما، وفي الباب عن جماعة].

ش: فيه نجاسة الحمر الإنسية التي تعيش معنا وتألفنا تبعاً للحومها المحرمة ومثلها كل حيوان محرم كالسباع مثلاً وقد تقدم حديث القلتين الذي جاء فيه السؤال عن الماء الذي تنوبه السباع والدواب... وجاء الجواب: «**إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث أو لم ينجس**»، رواه أحمد وأهل السنن. قال المجد في «المنتقى»: هو يدل على نجاستها وإلا يكون التحديد بالقلتين من جواب السؤال عن ورودها عبثاً.

٢٨١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُهُورُ إناءِ أحدِكُم إذا ولَغ فيه الكلبُ أن يَغْسِلَه سبعَ مَرَّاتٍ، أولاهُنَّ بالتُّراب**». وفي رواية: «**فَلْيُرِقْهُ ثُمَّ لِيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ**».

[رواه مسلم (١٨٢/٣، ١٨٣) بكل من الروايتين. وأصله عند الجماعة بألفاظ].

ش: «**وَلَغَ**»: الولوغ: الشرب بطرف اللسان. وقوله: «**طهور إناء أحدكم..**» إلخ، يدل على نجاسة الآنية بالولوغ، وكذا قوله: «**فليرقه**» فإنه دال على قذارة ما في الآنية من طعام أو شراب إلخ، وبنجاسة الكلب. قال الجمهور: أما غسل الآنية بالتراب مع التسبيع فأمر ذلك يرجع إلى ما يوجد فيها من الميكروبات التي تتساقط من لسان الكلب، والتي لا تذهب إلا بذلك وهذا شيء قد علمه الشارع ولم يعرفه أحد حتى ظهر العلم الحديث فكشف عن هذا السر الإلهي كما يعرف من علم الطب الحديث.

٢٨٢ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها أن فأرة وقعتْ في سَمْنٍ جامِدٍ فماتَتْ فسُئِلَ النبي ﷺ فقال: «**خُذُوهَا وما حَوْلَها، فألْقُوها وكُلُوهُ**».

[رواه أحمد (٣٢٩/٦، ٣٣٥)، والبخاري في مواضع منها الوضوء (٣٥٦/١، ٣٥٧)، وأهل السنن، وابن الجارود رقم (٨٧٢) وغيرهم].

ش: قوله: «**خذوها..**» إلخ، يدل على قذارتها ونجاستها وبالتالي تحريم أكلها، فاعجب لمن يرى طهارتها وحلية أكل بعض أنواعها.. مع أن فيها سموماً وخيمة، مع قذارة وخبث.

٢٨٣ ـ وعن أسماء رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ سُئِلَ عن دَمِ الحيض يُصِيبُ الثوبَ فقال: «**لِتَحُتَّهُ ثم لِتَقْرُصْه بماءٍ ثم لِتُصَلِّ فيهِ**».

[رواه الجماعة ويأتي في الحيض كاملاً].

٢٨٤ ـ وعن أم قيس رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال في دم الحيض: «**اغْسِلِيهِ بِماءٍ وسِدْرٍ وحُكِّيهِ بِضِلَعٍ**».

[رواه أحمد (٣٥٦/٦)، وأبو داود والنسائي وابن ماجه بسند صحيح وسيأتي أيضاً].

ش: «**تحته**»: أي تحكه. «**ثم لتقرصه**»: أي تدلكه بأطراف الأصابع مع الماء. «**بضلع**» بكسر الضاد وفتح اللام: هو العود.

والحديثان يدلان على نجاسة دم الحيض. قال النووي: لا أعلم في نجاسته خلافاً عن أحد من المسلمين. أما مطلق الدم فستأتي الإشارة إليه قريباً.

خاتمة

ههنا أمور يحسن الوقوف عليها والإلمام بها وهي كالآتي:

أولاً ـ الخمر: ذهب الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة إلى نجاستها مستدلين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾، إلخ، أي قذر وخبيث، وقالوا: إن السياق يقتضي الكلام على الخمر، أما ما ذكر معها فخرجت طهارتها بالإجماع. ولذا قال ولي الله الدهلوي في الحجة (٣٩٢/١): وألحق الشارع بها يعني الروثة ـ الخمر ـ لأنه حرمها وأكد تحريمها فاقتضت الحكمة أن يجعلها بمنزلة البول والعذرة ليتمثل قبحها عندهم.. إلخ.

وذهب ابن حزم وبعض السلف إلى طهارتها وانظر «المحلى» لذلك.

ثانياً ـ الدم المسفوح: أي المهراق السائل حكى النووي في «شرح المهذب» (٥٦٤/٢)، والقرطبي في «التفسير» وغيرهما الإجماع على نجاسته واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾، بعد قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي وللجصاص. ويعجبني هنا ما علقه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على «الروضة الندية» متعقباً على الشوكاني والقنوجي القائلين بطهارة الدم حيث قال: هذا خطأ من المؤلف والشارح فإن نجاسة دم الحيض ليست لأنه دم الحيض بل لمطلق الدم والمتتبع للأحاديث يجد أنه كان مفهوماً أن الدم نجس، ولو لم يأت لفظ صريح بذلك. وقد كانوا يعرفون ما هو قذر نجس بالفطرة الطاهرة.

ثالثاً ـ الخنزير: قال النووي في «شرح المهذب» (٥٧٤/٢)، نقل ابن المنذر في كتاب «الإجماع» إجماع العلماء على نجاسة الخنزير وهو أولى ما يحتج به لو ثبت الإجماع، لكن مذهب مالك طهارة الخنزير ما دام حياً.. وكل من كان سليم الطبع لا يشك في قذارته، وخبث ما تحلب منه.

رابعاً ـ اختلفوا في الدم غير المسفوح كدم العروق واللحوم، فالجمهور على أنه طاهر معفو عنه وحلال تابع للحوم.

خامساً ـ القيح: والصديد نجس إلا ما فيه حرج فمعفو عنه في أصح قولي العلماء.

سادساً ـ رطوبات ما يركب عليه ولا يؤكل كالحمير والبغال معفو عنها بالاتفاق. لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يركبونها ولم ينقل عنهم أنهم كانوا يغسلون ما يصيبهم من عرقها ولعابها علماً بأن الركاب لا ينفكون عن ذلك.

سابعاً ـ ألحق: جماعة من العلماء بالمعفوات ما يتطاير من رشاش أبوال البهائم ولا يجب غسل ذلك للمشقة.

ثامناً ـ دم الاستحاضة نجس كالحيض غير أنه رخص للمستحاضة أن تصلي به للضرورة ومثله دم النفاس بلا خلاف وهو الدم الذي يخرج عند

الولادة وبعدها وسيأتي ذلك في كتاب الحيض إن شاء الله تعالى.

إزالة النجاسة بالنضح وشبهه

٢٨٥ ـ عن أم قيس رضي الله تعالى عنها أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه في حجْرِهِ فبال على ثَوبِه، فدعا بماء فنَضحَه ولم يَغْسِلْه.

[رواه أحمد (٦/٣٥٥، ٣٥٦)، والبخاري (١/٢٣٩)، ومسلم (٣/١٩٣)، والأربعة].

٢٨٦ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال في بول الغلام الرضيع: «**يُنْضَحُ بولُ الغلامِ، ويُغسَلُ بولُ الجارية**».

[رواه أبو داود (٣٧٧، ٣٧٨)، والترمذي رقم (٥٤٥)، وابن ماجه (٥٢٥) وغيرهم وسنده صحيح، وفي الباب عن جماعة].

ش: قد قدمنا بأن بول الإنسان نجس بالإجماع وأنه يجب غسله بالماء وهنا جاءت التفرقة في بول الرضعاء بين الغلام والجارية فينضح ما أصيب من الثياب من بول الذكر ويغسل ما أصيب من بول الأنثى وهذا ما لم يطعما، فإذا طعما غسلا جميعاً.

وقد حاد عن الصواب هنا فريقان: أحدهما: أفرط فقال: ينضح بول كل ذكر كما يقول ابن حزم في «المحلى» (١/١٠٠)، والفريق الثاني: فرط كالمالكية فقالوا يغسل من الذكر والأنثى والصواب ما دلت عليه السنة.

٢٨٧ ـ وعن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنه قال: كنت ألقى من المذي شدة وعناء فكنت أكثر الغسل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ وسألته عنه فقال: «**إنَّما يُجْزِيك مِن ذلك الوضوءُ**»، قلت: يا رسول الله كيف بما يُصيبُ ثَوبِي منه؟ قال: «**يَكْفِيكَ أن تأخُذَ كَفّاً مِن ماء فَتَنْضَحَ بِهِ ثوبَك حيثُ ترى أنه أصابَ مِنْهُ**».

[رواه أحمد (٣/٤٨٥)، وابن أبي شيبة (١/٩١)، وأبو داود (٢١٠)، والترمذي رقم (١٠١)، والدارمي (٧٢٩) وغيرهم وسنده صحيح].

ش: قد سبق لنا أن قلنا بأن المذي نجس يجب منه ما يجب من البول، وهنا جاءت الرخصة في نضح الثوب الذي أصيب به والاكتفاء برش محله، وفي هذه التفرقة يقول ابن حزم في «المحلى» (١٠٦/١): والمذي تطهيره بالماء، يغسل مخرجه من الذكر، وينضح بالماء ما مس منه الثوب.

٢٨٨ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ صلى فخلع نعليه، فخلع الناس نعالهم فلما انصرف قال: «**لِمَ خَلَعْتُم نِعَالَكُم؟**»، فقالوا: يا رسولَ الله رأيناك خلعتَ فخلعنا، قال: «**إنَّ جِبْرِيل أتانِي فأخبرَنِي أنَّ بِهِما خَبَثاً ـ نجاسة ـ فإذا جَاء أحدُكُم المسجدَ فليَقْلِبْ نعلَيْه فلْيَنْظُر فِيهِما، فإنْ رَأى بِهِما خَبَثاً فَلْيَمْسَحْهُ بالأرضِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ فِيهِما**».

[رواه أحمد (٢٠/٣)، وأبو داود رقم (٦٥٠)، وابن حبان رقم (٣٦٠) بالموارد وسنده صحيح. وفي الباب عن عائشة عند أبي داود (٣٨٧) وسنده صحيح أيضاً].

ش: الحديث يدل على أن النجاسة التي تصيب أسفل الحذاء يكفي فيها الحك والمسح بالأرض حتى يذهب أثرها، كما في الحديث مشروعية الصلاة في النعال ويأتي البحث فيه في الصلاة. وفيه أن من تذكر النجاسة داخل الصلاة يزيلها ويستمر في صلاته ولا تبطل بذلك خلافاً للمالكية.

٢٨٩ ـ وعن امرأة من بني عبدالأشهل قالت: قلت: يا رسولَ الله إنَّ لنا طريقاً إلى المسجد منتنة فكيف نفعل إذا مطرنا؟ قال: «**أَلَيْسَ بَعْدَها طريقٌ هي أطيَبُ منها؟**»، قالت: قلت: بلى. قال: «**فهَذِهِ بهَذِهِ**».

[رواه أبو داود رقم (٣٨٤)، وابن ماجه رقم (٥٣٣) بسند صحيح].

٢٩٠ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن امرأةً قالت لها: إنِّي امْرَأةٌ أُطِيلُ ذَيْلِي، وأمْشِي في المَكَانِ القَذِرِ، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**يُطَهِّرُهُ ما بَعْدَهُ**».

[رواه أحمد (٢٩٠/٦) وأهل السنن.. وهو حسن بما قبله].

ش: «**ذيلي**»: الذيل: هو طرف الثوب الأسفل.

المرأة المسلمة من واجبها أن تغطي رجليها وأن يكون ذيلها طويلاً فإذا انجر بالأرض وأصيب بنحو نجاسة طهر بجره على ما بَعْدُ من الأرض الطاهرة كما هو نص الحديثين. قال الترمذي: وهو قول غير واحد من أهل العلم إلخ. وقال الزرقاني في «شرح الموطأ»: يطهر بالأرض اليابسة، لأن الذيل للمرأة كالخف والنعل للرجل.

هذا ما أمكن ذكره من النجاسات التي لا تتوقف على غسل، أما غير ما ذكر من البول المطلق، والعذرة، والدم، وغيرها من القذارة لا بد لها من الغسل، نعم سيأتي في قضاء الحاجة أنه يكتفى بالحجارة في الاستنجاء.

الآنية

٢٩١ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن قَدَحَ النبي ﷺ انْكَسَرَ فاتَّخَذَ مكانَ الشَّعْبِ سِلْسِلَةً مِن فِضَّةٍ.

[رواه البخاري في الخمس ويأتي في الزينة].

ش: يجوز استعمال جميع أنواع الأواني سواء كانت من خشب كهذا الذي انكسر فإنه كان من خشب كما قال البيهقي وغيره، أم كان من الحجارة كما جاء عن أنس أيضاً أن النبي ﷺ أتى بِمِخْضَبٍ من حجارة إلخ، رواه البخاري (٣١٣/١، ٣١٤)، والمخضب بكسر الميم وفتح الضاد: الإناء المعد لغسل الثياب، أم كان من صفر كما قال عبدالله بن زيد: أتَى رسولُ الله ﷺ فأخرجنا له ماءً في تَوْرٍ من صُفْرٍ فتوضأ.. إلخ، رواه البخاري في الوضوء (٣١٤/١)، **التور**: الطست. أم كان من نحاس. فعن عائشة في حديثها عن مرض موته ﷺ أنه أمرهم أن يهريقوا عليه من سبع قِرَب فأُجْلِسَ في مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ من نُحَاسٍ. رواه البخاري في الوفاة النبوية (٢٠٦/٩، ٢٠٧)، وابن خزيمة (٦٤/١)، ومن طريقه البيهقي (٣١/١)، وحديث أنس المصدر به يدل على جواز شد الآنية ونحوها بسلسلة من فضة وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ويأتي في اللباس والزينة.

٢٩٢ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: نهانا رسول الله ﷺ فقال: «**لا تَشْرَبُوا في آنِيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تَأْكُلُوا في صِحَافِهِمَا، فإنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ولَكُم في الآخِرَةِ**».

[رواه أحمد (٥/٤٠٠)، والجماعة، والدارمي (٢١٣٦)، ويأتي في الأشربة كالتالي].

٢٩٣ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يَشْرَبُ في إناء الفضة إنَّما يُجَرْجِرُ في بطنِه نارَ جَهَنَّمَ**».

[رواه البخاري في الأشربة، ومسلم في اللباس].

ش: الحديثان يدلان على منع استعمال أواني الذهب والفضة في الأكل والشرب وقاس الجمهور عليهما سائر الاستعمالات كالوضوء وغيره كما نقله الحافظ عن القرطبي، فقالوا بتحريم ذلك مطلقاً. والعلة في ذلك جاءت منصوصاً عليها في قوله: «**فإنها لهم**» أي للكفار في الدنيا، ولنا في الآخرة.. نعم يباح للمرأة التزين والتحلي بهما خواتم وأساور وأقراطاً.. إذا لم يكن هناك تبذير، أو عارض يمنع من ذلك.

٢٩٤ ـ وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله إنا بأرض قوم أهلِ كِتَاب أفَنَأْكُلُ في آنِيتِهم؟ قال: «**لا تأكُلُوا فيها إلاَّ أن لا تَجِدُوا غيرَها فَاغْسِلُوها وَكُلُوا فِيهَا**».

[رواه البخاري في الذبائح (٥٤٧٨)، ومسلم في الصيد (١٣/٧٩، ٨٠) وغيرهما].

٢٩٥ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنا نصيب مع النبي ﷺ في مغانمنا من المشركين الأسقية والأوعية، فنَقْسِمُها وكلها ميْتة.

[رواه أحمد (٣/٣٢٧، ٣٤٣، ٣٨٩)، وأبو داود (٣٨٣٨) من طرق صحيحة].

ش: في الحديثين دليل على جواز استعمال أواني الكفار مشركين وثنيين كانوا أم كتابيين، نعم الأولى تركها والاستغناء عنها، فإن احتيج إليها وجب غسلها إذ لعلها يكون فيها أثر من قذارتهم، وما هو محرم علينا فقد جاء في رواية لأبي ثعلبة: **أنهم يأكلون لحم الخنزير، ويشربون الخمر**، رواه

أبو داود بسند صحيح. وفي ذلك إشارة إلى أن كلاً من لحم الخنزير والخمر نجس قذر.

٢٩٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث... **«وأوكئوا قِرَبكم، واذكروا اسْمَ الله، وخَمِّروا آنيتكم واذْكُرُوا الله»**.

[رواه الجماعة مطولاً ويأتي إن شاء الله تعالى في موضعه من الأشربة].

ش: **«وأوكئوا»**: أي شدوها بالوكاء. **«والقرب»**: جمع قربة بكسر القاف فيهما، **«وخمروا»**: أي غطوا. ففيه الأمر بشد أفواه القرب وتغطية الأواني مع ذكر الله على ذلك ليكون ذلك مانعاً لها من الهوام والدويبات والشياطين...

أبواب التخلي وقضاء الحاجة وما يتبع ذلك

الإبعاد

٢٩٧ ـ عن المغيرة بن شعبة قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فأتى النبي ﷺ حاجته وأبْعَدَ في المَذْهَبِ.

[رواه أبو داود رقم (١)، والنسائي (٢١/١)، والترمذي (٣٢/١) بسند صحيح ويأتي أيضاً في الوضوء مع باقي من خرَّجه وصححه].

ش: «أبْعَد»: أي ذهب بعيداً. «في المذهب»: أي موضع الذهاب. وهو يدل على مشروعية الابتعاد عن الناس عند إرادة التخلي وهو من الآداب الجميلة التي لا توجد إلا في الإسلام.

الاستتار عند التخلي

٢٩٨ ـ عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: أرْدَفَنِي رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم خلفَه فأسَرَّ إليَّ حَدِيثا لا أُحَدِّثُ به أحداً من النَّاسِ، وكان أحَبَّ ما اسْتَتَر به رسولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ هدفٌ أو حَائِشُ نخل.

[رواه مسلم في الحيض (٣٥/٤)].

٢٩٩ ـ وعن عبدالرحمن بن حَسَنَة رضي الله تعالى عنه قال: انطلقتُ

أنا وعَمْرو بن العاص إلى النبي ﷺ فخرجَ ومَعَهُ دَرْقَةٌ ثم استتر بها ثم بال، فقلنا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«أَلَمْ تَعْلَمُوا ما لقِيَ صَاحِبُ بني إسرائيل، كانوا إذا أَصَابَهُم البولُ قَطَعُوا ما أَصَابَهُ البولُ منهُم فنَهَاهُم فعُذِّب في قَبْرِهِ»**.

[رواه أبو داود رقم (١٢)، والنسائي (٢٨/١)، وابن ماجه (٣٤٦)، وابن حبان (١٣٩)، والحاكم (١٨٤/١) وغيرهم، وسنده صحيح].

٣٠٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: **أن النبي ﷺ كان إذا أرادَ حاجته لا يَرفَع ثوبَه حتى يَدْنُوَ من الأرضِ**.

[رواه أبو داود رقم (١٤) بسند صحيح، والرجل المبهم هو القاسم بن محمد].

ش: **«هدف»**: بفتحتين كل شيء مرتفع. **«حائش»**: جاء في رواية: **«حائط نخل»**، **«والحائش»**: النخل الملتف. **«درقة»** بفتحات: هي الحَجَفة والترس.

وفي هذه الأحاديث مشروعية التستر عند قضاء الحاجة ولو بشيء ما وأن مريد ذلك لا يرفع ثوبه ويكشف عن عورته حتى يقرب من الأرض، وفي حديث عبدالرحمن بن حسنة وعيد شديد لمن لا يتنزه من البول أو كان ينهى عن المعروف.

مواضع يجب اتقاؤها عند قضاء الحاجة

الملاعن الثلاث

٣٠١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتَّقُوا اللاَّعِنَينِ»**. قيل: وما اللاَّعِنانِ يا رسولَ الله؟ قال: **«الَّذِي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أو ظِلِّهم»**.

[رواه أحمد (٣٧٢/٢)، ومسلم (١٦١/٣)، وأبو داود (٢٣٥) وغيرهم].

٣٠٢ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا المَلاعِنَ الثَّلاثَ: البَرازَ في المَوارِد، وقارِعةِ الطريقِ، والظِّلِّ**».

[رواه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، والحاكم (١/١٦٢)، والبيهقي (١/٩٧)، وصححه الحاكم والذهبي وجوده النووي في «شرح المهذب» (٢/٩٤)، وهو وإن كان منقطعاً فإنه حسن صحيح لشاهدين له].

ش: «**اللاعنين**»: في رواية: «**اللعانين**»، سماهما لاعنين مجازاً لأن من شأن الناس أن يلعنوا من تغوط في طريقهم أو ظلهم فهما باعثان للناس على اللعنة. «**البراز**» بفتح الباء: موضع قضاء الحاجة. وهو في الأصل الفضاء الواسع. «**قارعة الطريق**»: أي وسطها. «**الموارد**»: جمع مورد وهي المجاري والطرق إلى الماء.

وفي الحديثين تحريم التخلي في طرق الناس المسلوكة، والظلال التي يستظلون عندها، وموارد الماء، لما في ذلك من أذية عباد الله في مرافق حياتهم.

الماء الراكد

٣٠٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُبَال فِي الماءِ الرَّاكِدِ».

[رواه مسلم (٣/١٨٧) وتقدم حديث أبي هريرة في المياه].

ش: «**الراكد**»: هو الذي لا يجري، وفي الحديث تحريم البول في الماء غير الجاري لما في ذلك من تلويثه وإفساده على الغير ومثل البول التغوط بالأولى بدون خلاف. وقد شذ بعض الظاهرية فجمد على ظاهر الحديث فخص ذلك بالبول وهو خطأ سافر فاحش.

المغتسل

٣٠٤ ـ عن حُمَيْد الحِمْيَرِي قال: لقيتُ رجلاً صَحِب النبيَّ ﷺ كما

صَحِبَه أبُو هريرة قال: **نَهَى رسولُ الله ﷺ أن يَمْتَشِطَ أحدنا كلَ يومٍ، أو يبولَ في مُغْتَسَلِه.**

[رواه أبو داود (٢٨)، والنسائي (١٠٨/١) بسند صحيح، وانظر ما سبق رقم حديث (١٤٩)].

ش: «يمتشط»: أي يسرح ويرجل شعره ففيه النهي عن الإكثار من الترفه لما في ذلك من التشبه بالنساء والاشتغال بالنفس وما لا يعني، كما فيه المنع من البول في موضع الاستحمام والاغتسال. وقد جاء في حديث لعبدالله بن مغفل عنه ﷺ: **«نهى أن يبولَ الرجل في مُسْتَحَمِّه»**، وقال: **«إنَّ عامَّة الوَسْوَاسِ منه»**.

[رواه أهل السنن وغيرهم، وهو مختلف فيه].

قال الترمذي في «الجامع»: وقد كره قوم من أهل العلم البول في المغتسل... ورخص فيه قوم من أهل العلم.. وقال ابن المبارك: قد وُسِّعَ في البول في المغتسل إذا جرى فيه الماء. وقال علي بن محمد الطَّنَافِسِي: إنما هذه في الحُفَيْرَة فأمَّا اليوم فلا، فمُغْتَسَلاتُهُم الجِصُّ، والصَّارُوج، والقِيرُ، فإذا بال فأرسل عليه الماء لا بأس به. ذكره ابن ماجه في «سننه». وانظر «معالم السنن» للخطابي.

الجُحر

٣٠٥ ـ عن عبدالله بن سَرْجس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ «نهى أن يُبَالَ في الجُحر». قيل لقتادة: ما يكره من البول في الجحر؟ قال: كان يقال إنها مساكن الجِنِّ.

[رواه أحمد (٨٢/٥)، وأبو داود (٢٩)، والنسائي (٣٢/١)، والحاكم (١٨٦/١)، والبيهقي (٩٩/١) وسنده صحيح].

ش: «الجحر» بضم الجيم وسكون الحاء: كل ما تحفره الهوام والدويبات مَسْكناً لها، والنهي عن البول فيه متفق عليه بين العلماء كما قال

النووي. والحكمة في ذلك: إما لأنه مسكن الجن كما نقل قتادة أو لما في ذلك من إذاية ما فيه من حيوان بلا موجب وكلاهما سبب للمنع.

جواز البول في الآنية

٣٠٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كنت مسندة النبي ﷺ إلى صَدْرِي، أو قالت: حِجْرِي، فدعا بَطَسْتٍ لِيَبُولَ فيه ثم بال. فمات ﷺ.**

[رواه البخاري في المغازي، وفي الخُمُس، وفي الوفاة النبوية. ومسلم في الوصايا (٨٩/١١)، والترمذي في الشمائل (٣٦٨)، والنسائي (٣١/١، ٣٢) في الطهارة ويأتي في السيرة].

ش: فيه جواز اتخاذ الآنية للبول فيها. وقد جاء في ذلك حديث لأُمَيْمَةَ بنتِ رُقَيْقَةَ أن النبي ﷺ كان له قَدَحٌ من عِيدَانٍ تحتَ سَرِيره يبول فيه بالليل. رواه أبو داود (٢٤)، والنسائي (٣١/١)، كلاهما في الطهارة، وحسنه النووي والحافظ.

البول من جلوس

٣٠٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **مَنْ حَدَّثَكُم أن النبي ﷺ كان يبولُ قائِماً فلا تُصَدِّقُوه، ما كان يَبُول إلاَّ قاعداً.**

[رواه ابن أبي شيبة (١٢٣/١)، وأحمد (١٣٦/٦)، والطيالسي (١٣٧)، والترمذي (٢٣/١)، والنسائي (٢٧/١)، وابن ماجه (٣٠٧)، والحاكم (١٨١/١) وسنده صحيح عند بعضهم].

ش: نَفَتْ السيدة ذلك لأنها لم تره بال قائماً فأخبرت بذلك عن حالته الدائمة.

البول من قيام

٣٠٨ ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: **أَتَى رسولُ الله ﷺ على سُبَاطة بني فلان فبال قائماً فتَنَحَّيتُ فدعا بماء فتوضأ ومَسَح على خُفَّيه.**

وفي رواية عن أبي وائل قال: كان أبو موسى يُشَدِّد في البول ويبول في قارورة، ويقول: إن بني إسرائيل كان إذا أصاب جلدَ أحدِهم بولٌ قرضه بالمقاريض فقال حذيفة: **لوددتُ أنَّ صاحِبكم لا يُشَدِّد هذا التشديد فلقد رأيتُني أنا ورسولُ الله ﷺ نَتَماشَى، فأتَى سُبَاطة قوم خلف حائطٍ فقام كما يقومُ أحدُكم فبال فانتَبَذْتُ منه، فأشار إليَّ فجئتُ فقمتُ عند عقِبَيه حتى فرَغَ.**

[رواه الطيالسي (١٩٠)، وابن أبي شيبة (١/١٢٣)، والبخاري ١/٣٤٠)، ومسلم (٣/١٦٥)، وأبو داود (٢٣)، والترمذي (١١) بتهذيبي كلهم في الطهارة. ورواه البخاري أيضاً في المظالم. وكذا رواه ابن ماجه (٢٠٥)، والدارمي (٦٧٤)، وابن الجارود (٣٦) ونحوه عن المغيرة عند ابن خزيمة (٦٣) بسند صحيح].

ش: «**سباطه**» بضم السين: الزبالة، والغالب أنها تكون رخوة. ولا شك أن ذلك كان للحاجة. قال ابن المنذر: والبول جالساً أحب إلينا، وقائماً مباح، وكل ذلك ثابت عن رسول الله ﷺ. وقال الدهلوي في «الحجة»: إنما كره البول قائماً لأنه يصيبه الرشاش، ولأنه ينافي الوقار، ومحاسن العبادات، وهو مظنة انكشاف العورة، وكان أيضاً من دأب الجاهلية. وفعله ﷺ لبيان جوازه للحاجة.

النهي عن استقبال القبلة أو استدبارها عند التخلي

٣٠٩ ـ عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتَيتُم الغائطَ فلا تَستَقبِلُوا القِبلةَ بغائطٍ ولا بَولٍ ولا تَستَدبِرُوها، ولكِن شَرِّقُوا أو غَرِّبُوا**». قال أبو أيوب: فقدمنا الشام فوجدنا مراحيض قد بُنِيَتْ مستقبلَ القبلة، فنَنْحَرِفُ عنها ونستغفرُ اللَّهَ تعالى.

[رواه أحمد (٥/٤١٤، ٤١٥، ٤٢١)، وابن أبي شيبة (١/١٥٠)، والحميدي (٣٧٨)، والبخاري (١/٢٥٥، ٢٥٧)، ومسلم (٣/١٥٢، ١٥٣)، وأبو داود (٩)، والنسائي (١/٢٢، ٢٥)، والترمذي (٦) بتهذيبي].

ش: «شرّقوا.. إلخ»: هذا خاص بأهل المدينة ومن على سمتهم لأن القبلة عندهم لجهة الجنوب، والحديث يدل على منع استقبال أو استدبار الكعبة عند قضاء الحاجة وأخذ بظاهره مطلقاً جمع من الأئمة والفقهاء، واختاره ابن القيم في الهدي النبوي، وابن حزم في «المحلى» ورجحوه على الآتي.

الرخصة في ذلك

٣١٠ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول: **إن أناساً يقولون: إذا قعدت على حاجتك فلا تَسْتَقْبِلِ القبلةَ، ولا بيتَ المقدِسِ. فقال: لقد رقيتُ يوماً على ظهر بيت لنا فرأيت رسول الله ﷺ على لَبِنَتَيْنِ مُسْتَقْبِلَ بيتِ المقدسِ لحاجتِهِ.**

[رواه أحمد (٤٦٠٦، ٤٦١٧)، وابن أبي شيبة (١/١٥١)، والبخاري (١/٢٥٧، ٢٦١)، ومسلم (٣/١٥٣، ١٥٤)، وأبو داود (١٢)، والنسائي والترمذي (٩) بتهذيبي].

٣١١ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: **نهى رسول الله ﷺ أن نَسْتَقْبِلَ القبلةَ ببولٍ فرأيته قبل أن يُقْبَضَ بعام يستقبلها.**

[رواه أبو داود (١٣)، والترمذي (١/٢٠، ٢١)، وابن ماجه (٣٢٥)، وابن خزيمة (٥٨) وغيرهم بسند صحيح، وقد صححه البخاري والنووي والحافظ وغيرهم].

٣١٢ ـ وعن ابن عمر **أنه أناخ راحلته مستقبلة القبلة ثم جلس يبول فقيل له: يا أبا عبدالرحمن! أليس قد نهي عن هذا؟ قال: بلى، إنما نهي عن ذلك في الفضاء، فإذا كان بينك وبين القبلة شيء يَستُرُك فلا بأس.**

[رواه أبو داود (١١)، وابن الجارود (٣٢)، والحاكم (١/١٥٤)، والبيهقي (١/١٩٢) وغيرهم، وسنده حسن وصححه جماعة].

ش: **«ارتقيت»**: أي علوت. **«لبنتين»**: تثنية لبنة ما يستعمل من الطين للبناء كالآجر ونحوه.

وهذه الأحاديث الثلاثة تدل على الرخصة في استقبال القبلة واستدبارها

عند التخلي إذا كان هناك ساتر في بنيان أو نحو ذلك، فيكون النهي عن ذلك خاصاً بالفضاء كما قال ابن عمر وبهذا قال مالك والشافعي والجمهور.

ما يقال عند التخلي

٣١٣ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «**اللَّهم إنِّي أعوذُ بكَ من الخُبُثِ والخَبَائِثِ**».

[رواه ابن أبي شيبة (١/٥)، والبخاري (١/٢٥٣، ٢٥٤)، ومسلم (٣/٧٠)، وأبو داود (٤/٥)، والنسائي (١/٢٢)، والترمذي (٤)، وابن ماجه (٢٩٨)، والدارمي (٦٧٥)، وابن الجارود (٢٨)، زاد بعضهم «الرجس النَّجس الشيطان الرجيم»، وهي زيادة حسنة].

ش: «**الخبث**» بضمتين وتسكين الباء: جمع خبيث وهم ذكران الشياطين. «**والخبائث**»: جمع خبيثة، وهم إناث الشياطين. وفيه مشروعية طلب التحصن بالله عزّ وجلّ من الشياطين عند إرادة التخلي لأن الحشوش مواقع الشياطين كما جاء في حديث زيد بن أرقم: «**إن هذه الحشوش مُحْتَضَرَةٌ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل**» إلخ. وجاء في رواية للإمام علي رضي الله تعالى عنه «زيادة التسمية» عند الترمذي وغيره وله شاهد عند المعمري في «اليوم والليلة» بسند صحيح كذا في «الفتح».

ما يقال بعد الخروج منه

٣١٤ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنه قالت: كان النبي ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «**غُفْرَانَك**».

[رواه ابن أبي شيبة (١/٢)، والدارمي (٦٨٦)، وأبو داود (٣٠)، والترمذي (٥)، وابن ماجه (٣٠٠)، وابن الجارود (٤٢)، والحاكم (١/١٥٨) من طرق صحيحة].

ش: والحديث يدل على مشروعية هذا الدعاء عقب الخروج من الخلاء وهذا أصح ما جاء.

كراهية ذكر الله عند قضاء الحاجة

٣١٥ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سلَّم على النبي ﷺ وهو يبول فلم يرد عليه.

[رواه مسلم (٦٤/٤، ٦٥)، وأبو داود (١٦)، والنسائي (٣٤/١)، والترمذي (٩٨)، وابن ماجه (٣٥٣)، وابن خزيمة (٧٣) وغيرهم].

ش: الحديث يدل على التنزه عن ذكر الله عند التخلي لما في ذكر الله وقتئذ من سوء الأدب وعدم الاحترام للحضرة الإلٰهية. وقد قالوا: من أساء الأدب طرد إلى الباب.

استعمال اليد اليسرى للخلاء والأذى

٣١٦ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتى أحدُكم الخلاءَ فلا يَمَسَّ ذكَره بِيَمِينه، ولا يَتَمَسَّخ بِيَمِينِه»**.

[رواه أحمد (٣٨٣/٤)، والدارمي (١٧٩)، والبخاري (٢٦٤/١، ٢٦٥)، ومسلم (١٥٩/٣، ١٦٠)، وأبو داود (٣١)، والنسائي (٣٩/١)، والترمذي (١٣) وغيرهم].

٣١٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كانت يَدُ رسول الله ﷺ اليُمْنَى نطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه، وما كان من أذى.**

[رواه أبو داود (٣٣، ٣٤)، والبيهقي (١١٣/١) بسند صحيح، وصححه النووي في شرح المهذب (١١٧/٢)، والعراقي في طرح التثريب (٧١/٢)، وله شاهد عن حفصة عند أبي داود وغيره].

ش: والحديثان يدلان على مشروعية استعمال اليد اليسرى للأذى كالاستنجاء والاستجمار والمخاط ونحو ذلك واليد اليمنى للأخذ والعطاء والأكل والشرب ونحوها.

التشديد في عدم التحفظ من البول

٣١٨ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مرَّ النبي ﷺ بقبرين يُعَذَّبَانِ فقال: «**إنَّهما ليعذَّبَان وما يُعَذَّبَان في كبير، أما أحَدُهما فكان لا يَسْتَتِرُ من البولِ، وأمَّا الآخرُ فكان يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ**»، ثم أخذ جَرِيدة رَطْبَةً فشَقَّهَا نِصفين ثم غَرَزَ في كُلِّ قبرٍ واحِدةً، فقالوا: يا رسول الله لِمَ صنعتَ هذا؟ فقال: «**لعلَّهُ يُخَفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا**».

[رواه أحمد رقم (١٩٨٠، ١٩٨١)، وابن أبي شيبة (١٢٢/١)، والبخاري في الطهارة، وفي الجنائز، وفي الأدب، ومسلم في الإيمان، وفي الطهارة، وأبو داود (٢٠، ٢١)، والنسائي (٢٩/١) في الطهارة، وابن ماجه (٣٤٧)، وابن خزيمة (٥٥، ٥٦)].

ش: «لا يستتر»: في رواية لمسلم وغيره: «**لا يستنزه**»، وعند ابن أبي شيبة: «**يستبرىء**».

والحديث يدل على الوعيد الشديد لمن لا يتحفظ من البول، وأن ذلك من موجبات عذاب القبر. وقد صحّ: «**أكْثرُ عذابِ القبرِ مِن البَوْلِ**»، رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما. فيجب على المسلم أن يستبرىء منه ويَسْتَشقِيَ مجراه ويَتَوقّى منه ما أمكنه.

الاستجمار بالأحجار وتراً
والنهي عن استعمال الرجيع والعظم والحممة

٣١٩ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اسْتَجْمَرَ أحدُكم فلْيُوتِرْ**».

[رواه مسلم (١٢٧/٣)].

٣٢٠ ـ وعن خزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الاستطابة، فقال: «**بثلاثةِ أحجارٍ، ليسَ فيها رِجيعٌ**».

[رواه الدارمي (٦٧٧)، وأبو داود (٤٠)، وابن ماجه (٣١٥)، والطحاوي في المعاني (١٢١/١) وسنده صحيح عند ابن ماجه ولمعناه شواهد].

٣٢١ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: **أتى النبي ﷺ الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار قال: فوجدت حجرين والتمست الثالث فلم أجده فأخذت روثة، وأتيت بها النبي ﷺ فأخذ الحجرين وألقى الروثة وقال: «هذا رِكْسٌ»**.

[رواه أحمد (٣٦٨٥)، وابن أبي شيبة (١/١٥٥)، والبخاري (١/١٦٧)، والنسائي (١/٣٦، ٣٧)، والترمذي (١٥)، والبيهقي (١/١٠٣، ١٠٨) وغيرهم].

٣٢٢ ـ وعن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: **قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة. فقال: أجل، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن يستنجي برجيع أو عظم.**

[رواه أحمد (٥/٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩)، وابن أبي شيبة (١/١٥٢، ١٥٥)، ومسلم (٣/١٥٢)، وأبو داود (٧)، والنسائي (١/٣٦)، والترمذي (١٤) وفي الباب عن جماعة].

ش: **«استجمر»**: الاستجمار هو التمسح بالجمار أي الحجارة. **«الاستطابة»**: هي الاستنجاء سميت بذلك لأنها تطيب الجسد من النجاسة. **«رجيع»**: هو العذرة والروث. **«ركس»**: أي قذر نجس. **«الخراءة»** بكسر الخاء هي التخلي والقعود لقضاء الحاجة.

وفي هذه الأحاديث مشروعية الاستجمار وإزالة النجس بالحجارة وأن ذلك يكفي عن الماء. قال الترمذي في «الجامع»: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ورأوا أن الاستنجاء بالحجارة يجزىء وإن لم يَسْتَنْجِ بالماء إذا أنقى أثر الغائط والبول. وفيها أيضاً مشروعية الإيتار وذلك بثلاثة أحجار، وأن تكون طاهرة فلا تصح بما فيه قذر، أو كان في نفسه نجساً كالعذرة مثلاً، أو كان محترماً كالعظم كما يأتي. وفي حديث سلمان النهي عن الاستنجاء باليمين لأن ذلك لا يليق به كما تقدم.

٣٢٣ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«أتاني دَاعِي الجِنِّ فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن»**. قال: فانطلق بِنَا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: **«لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ الله**

عليه، يَقعُ في أيدِيكم أوْفرَ ما يكونَ لَحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لِدوابكم»، فقال رسول الله ﷺ: **«فلا تَسْتَنْجُوا بِهما، فإنَّهُما طَعَامُ إخْوَانِكُم»**.

[رواه الطيالسي (١٤٣)، ومسلم (١٦٩/٣، ١٧٠)].

ش: «أوفر»: أي أكثر وأعظم. وفيه النهي عن الاستجمار بالعظم والروثة، لأنهما طعام الجن ودوابهم وفيه إشارة إلى أن من آمن من الجن كان أخاً لنا.

٣٢٤ ـ وعنه، قال: قدم وفد الجن على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنه أمتك أن يستنجوا بِعَظْم، أو روثة، أو حُمَمَة، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لنا فيها رزقاً، قال: فنهى النبي ﷺ عن ذلك.

[رواه أبو داود (٣٩)، والترمذي (٣١/١) بسند صحيح وأصله في مسلم مطولاً].

ش: «حممة» بضم الحاء وفتحتين هي الفحمة. وفي الحديث زيادة النهي عن الاستجمار بالفحم وأنه أيضاً من طعام الجن.

الاستنجاء بالماء

٣٢٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان النبي ﷺ يدخُل الخَلاء فأحْمِلُ أنا وغلامٌ نَحْوِي إدَاوَةً مِن ماء وعَنْزَة فيَسْتَنْجِي بالماءِ.**

[رواه أحمد (١٢١/٣، ٢٠٣)، والطيالسي (١٤٦)، والبخاري (٢٦/١، ٢٦٣)، ومسلم ١٦٣/٣)، وأبو داود (٤٣)، والنسائي (٣٨/١، ٣٩)].

ش: «عنزة» بفتحات: هي عصا طويلة في أسفلها زج، ويقال رمح صغير. وفيه مشروعية الاستنجاء بالماء وهو أطيب وأطهر. ولم يكن من عادة العرب الاستنجاء بالماء، وإنما كانوا يكتفون بالحجارة، فجاء الإسلام بالأمرين، وأثنى على المتطهرين بالماء كما يأتي قريباً.

٣٢٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لنسوة: **مُرْنَ أزواجكن أن يستطيبوا بالماء، فإنِّي أستحييهم منه، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله.**

[رواه ابن أبي شيبة (١٥٢/١)، والنسائي (٣٩/١)، والترمذي (٣١/١) بسند صحيح. وحسنه الترمذي وصححه. ورواه ابن ماجه (٣٥٤) بنحوه وسنده صحيح أيضاً].

ش: «يستطيبوا»: أي يستنجوا وينظفوا ويطيبوا مواضع النجاسة باستعمال الماء.

وفي الحديث تجنب المرأة ما يُستحيىٰ منه مع الرجال. وفيه تبليغ النساء العلم للرجال بواسطة أزواجهم.

الثناء على المتطهرين بالماء

٣٢٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، قال: «كانوا يستنجُون بالماءِ، فنزلت هذه الآية فيهم»**.

[رواه أبو داود (٤٤) في الطهارة، والترمذي في التفسير. وابن ماجه (٣٥٧) والحديث صحيح لشواهده. عن أبي أيوب، وجابر، وأنس عند ابن ماجه (٣٥٥)، والحاكم (١٥٥/١)، والبيهقي (١٠٥/١)، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه الزيلعي في نصب الراية (٢١٩/١)، وعن ابن عباس رواه الحاكم (١٨٧/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وحسنه الهيثمي في المجمع (٢١٢/١) بعد عزوه للطبراني، وعن عويم بن ساعدة رواه أحمد (٤٢٢/٣)، والحاكم (١٥٥/١) وصححه ووافقه الذهبي وعن محمد بن عبدالله بن سلام رواه ابن أبي شيبة (١٥٣/١)، وسنده حسن، ومن مرسل الإمام محمد الباقر عليه السلام رواه ابن أبي شيبة (١٥٤/١) بسند صحيح].

ولفظ الأولين أيوب ومن معه:

لما نزلت الآية قال لهم النبي ﷺ: **«إن الله قد أثنَى عليكم في الطُّهُور، فما طُهُوركم؟»**، قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغسلُ من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: **«فهو ذاك فعَلَيْكُمُوهُ»**. وقد علمت أن الحاكم صححه وأقره الذهبي وحسنه الزيلعي.

ش: وفي حديث الباب مشروعية الاستنجاء بالماء، وهو أفضل من

الاقتصار على الحجارة أو غيرها بالإجماع. ولذلك اختار العلماء الجمع بين الحجارة والماء.

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم» (١٦٣/٣): فالذي عليه الجماهير من السلف والخلف، وأجمع عليه أهل الفتوى من أئمة الأمصار، أن الأفضل أن يجمع بين الماء والحجر إلخ. ونحوه عنده في «شرح المهذب» (١٠٩/٢).

وفي الحديث فضل المحافظة على الطهارة من الأحداث والأقذار، وأن فاعلي ذلك محبوبون إلى الله عزّ وجلّ.

هذا وقد اختلف العلماء في الاكتفاء بغير الأحجار من المطهرات، فذهب جمهور الأئمة إلى أن كل مطهر غير محترم، ولا مؤذي يصح الاستنجاء به.

قال الخرقي رحمه الله تعالى في مختصره في الفقه الحنبلي: والخَشَبُ والخِرَقُ وكُلُّ ما أنْقَى فهو كالأحجار. وقال البغوي رحمه الله في «شرح السنة» (٣٦٣/١): ونَهْيُ النبيِّ ﷺ عن الاستجمار بالروث والرمة دليلٌ على أن الاستنجاء لا يختص بالحجر، بل يجوز بكل ما يقوم مقام الحجر في الإنقاء، وهو كل ما كان جامداً طاهراً، قالِعاً، غَيْرَ مُحْتَرَمٍ، مِثلُ المَدَرِ، والخَشَبِ، والخَزَفَ إلخ.

وبهذا قال المالكية: قال خليل رحمه الله تعالى: وجاز بِيَابِسٍ طاهِرٍ مُنْقٍ غَيْرِ مُؤْذٍ.

دلك اليد بالأرض بعد الاستنجاء

٣٢٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتى الخلاء أتيته بماء في تور، أو ركوة، فاستنجى، ثم مسح يده على الأرض ثم أتيه بإناء آخر فتوضأ.

[رواه أبو داود (٤٥)، والنسائي (٤١/١)، والدارمي (٦٨٤)، وابن ماجه (٣٥٨)،

وابن حبان (١٣٨) وغيرهم، وهو حسن صحيح، ويأتي في الغسل حديث ميمونة].

ش: «تور» بفتح التاء: إناء من صفر أو حجارة. «ركوة»: إناء صغير من جلد.

والحديث يدل على مشروعية مسح اليد اليسرى بالأرض ودلكها بعد الاستنجاء وذلك ليذهب منها ما علق بها من أذى. وبالأحرى يقوم مقام ذلك الآن الصابون الحالي.

* * *

أبواب الوضوء

مشروعيته

٣٢٩ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دخلتْ فاطمةُ عليها السَّلام على رسول الله ﷺ وهي تَبْكِي فقال: «يا بُنَيَّةُ ما يُبْكِيكِ؟»، قالت: يا أبَتِ ما لِي لا أبكِي وهؤلاء المَلأُ مِن قريشٍ في الحِجْرِ يَتَعَاقَدُونِ. قال: فقال: «يا بنيَّة ائتِنِي بِوَضُوءٍ»، فتوضأ ﷺ ثم خرج إلى المسجد. . الحديث ويأتي مطولاً في السيرة.

[رواه أحمد (٣٦٨/١)، والحاكم (١٦٣/١) وصححه ووافقه الذهبي. قال الحاكم: وأهل السنة من أحوج الناس لمعارضة ما قيل: إن الوضوء لم يكن قبل نزول المائدة].

ش: «بوضوء» بفتح الواو: الماء الذي يتوضأ به وبالضم الفعل وهو مأخوذ من الوضاءة وهي الحسن والنضارة، وسمي بذلك لأنه يوضىء صاحبه ويحسنه وينضره.

والحديث يدل على أن الوضوء شرع بمكة المكرمة أوائل الإسلام. وقد جاء في حديث زيد بن خارجة عنه ﷺ أن جبريل عليه السلام أتاه في أول ما أوحى إليه فعلّمه الوضوء، الحديث. رواه أحمد (١٦١/٤) ويأتي.

قال ابن عبدالبر: اتفق أهل السنة على أن غسل الجنابة إنما فرض

على النبي ﷺ وهو بمكة كما فرضت الصلاة، وأنه لم يصل قط إلا بوضوء قال: وهذا مما لا يجهله عالم.

من فضائل الوضوء

٣٣٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألاَ أدُلُّكم على ما يَمْحُو اللَّهُ به الْخَطايا، ويرفعُ به الدَّرجاتِ؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«إسباغُ الوضوء على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلكُمُ الرباطُ، فذلكم الرباطُ، فذلكم الرباطُ»**.

[رواه أحمد (٢/٢٧٧، ٣٠٣)، ومالك (٣٨٥)، ومسلم (٣/١٤١)، والنسائي (١/٧٦)، والترمذي (٤٥)، وابن ماجه (٤٢٧)، وابن خزيمة وغيرهم].

ش: «يمحو»: أي يزيل. **«الخطايا»**: جمع خطيئة وهي المعصية. **«إسباغ»**: أي إتمامه. **«المكاره»**: جمع مكره بفتح الراء هو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه وذلك يكون بشدة البرد وألم الجسم. **«الخطا»**: جمع خطوة بضم الخاء فيهما هو بعد ما بين القدمين في المشي.

وفي الحديث فضل الوضوء وخاصة عند المشاق، وأنه يقوم مقام الرباط في سبيل الله، والرباط معلوم فضله كما فيه فضل التردد إلى المسجد لصلاة الجماعة، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ويأتي فضل ذلك في الصلاة.

٣٣١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا تَوَضَّأَ العبدُ المُسْلِمُ أو المؤمنُ فغسَل وجهَه خرج مِن وجهه كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَر إليها بعينِه مع الماء، أو مع آخِرِ قَطْرِ الماء، فإذا غسَل يدَيه خرج مِن يَديه كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَداهُ مع الماءِ، أو مع آخِرِ قطرِ الماء، فإذا غسل رِجليه خرجت كل خطيئةٍ مشَتْها رِجلاهُ مع الماءِ، أو مع آخرِ قطر الماءِ حتى يَخْرُجَ نَقِيّاً مِن الذُّنوبِ»**.

[رواه أحمد (٢/٣٠٣)، والدارمي (٧٢٤)، ومسلم (٣/١٣٢)، والترمذي (١/٩، ١٠)].

ش: «بطشتها»: أي اكتسبتها.

وفي الحديث فضل ظاهر للوضوء وأنه من أسباب غفران الذنوب وظاهره يقتضي العموم من الكبائر والصغائر لكن العلماء قيدوه بالصغائر لأدلة أخرى. غير أن فضل الله واسع ورحمته قريب من المحسنين.

٣٣٢ ـ وعن عبدالله الصنابحي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضَّأ العبدُ المؤمنُ فمَضْمَض خرجت الخَطايا مِن فِيهِ، فإذا اسْتَنْثَرَ خرجَت الخَطايا من أنفِه، فإذا غَسَل وجهَه خرجت الخَطايا من وجهِه حتى تَخْرُجَ مِن تحتِ أظفارِ يَدَيه، فإذا مسَح برأسِه خرجَت الخطايا مِن رأسِه حتى تخرجَ من أُذُنَيْهِ، فإذا غسلَ رِجليه خرجت الخَطايا من رِجليه حتَّى تَخرجَ من تحتِ أظفارِ رِجليه، ثم كان مشْيُه إلى المسجِدِ وصلاتُه نافِلَةً لَهُ**».

[رواه مالك (٥٩)، والنسائي (٦٣/١، ٦٤)، وابن ماجه (٢٨٢)، والحاكم (١٢٩/١، ١٣٠)، وصححه على شرطهما. والحديث سنده صحيح. والصنابحي هذا صحابي وليس بأبي عبدالله التابعي].

ش: وهذا كسابقه في الفضل لكن هذا أعم وأشمل لأنه إذا كانت الصلاة مع المشي إليها بعد الوضوء نافلة زائدة بعد، لم يبق هناك للمتوضىء ذنب يغفر، وهذا ما حمل بعض العلماء على القول بغفران كل ذنب حتى الكبائر بالوضوء.

٣٣٣ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِن أحَدٍ يَتوضَّأ فيَبْلُغُ أو فَيُسْبِغُ الوُضوءَ ثم يقول: أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ الله وحدَه لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عَبدُه ورسولُه، إلا فُتِحَتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةِ، يدخُلُ من أيِّهَا شَاءَ**».

[رواه مسلم (١١٨/٣، ١١٩)، وأبو داود (١٦٩)، والنسائي (٧٨/١)، والترمذي (٥٨/١) وزاد: «**اللهم اجْعَلْني من التَّوابين، واجْعَلني مِنَ المُتطهِّرين**». وهي زيادة حسنة كما بيّنت ذلك في «تهذيب الجامع»].

ش: وفي الحديث فضل عظيم لمن أسبغ الوضوء وشهد بعده لله

بالوحدانية ولرسوله بالعبودية والرسالة وأن ذلك من موجبات فتح أبواب الجنان. غير أن ذلك مقيد بما إذا لم يكن هناك ما يوجب العقاب من الفواحش والموبقات.

٣٣٤ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن توضَّأ فقال: سُبْحَانكَ اللَّهُم وبحمْدِك أشهدُ أن لا إلَه إلا أنتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ، كُتِبَ في رِقٍّ ثم طُبِع بطابعٍ، ثم رُفِعَ تحتَ العرشِ فلم يُكْسَرَ إلى يومِ القيامةِ»**.

[رواه النسائي في «اليوم والليلة» رقم (٨١، ٨٢، ٨٣) من ثلاثة طرق، وصحح وقفه ورواه الحاكم (٥٦٤/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. ورواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢١، ٢٢) وعزاه المنذري له ولأوسط الطبراني وقال في رواية الأخير: رواته رواة الصحيح. فالحديث صحيح مرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي].

ش: والحديث يدل على فضل هذا الذكر والتوحيد والاستغفار ومشروعية ذلك عقب الوضوء، وأنه يدخر لصاحبه تحت العرش مكتوباً في رق مختوم عليه، لا يفتح حتى يوافيه صاحبه فضلاً من الله عزّ وجلّ، وجاء في رواية أخرى: أن هذا يقال له كفارة المجلس. ويأتي في الذكر والدعاء.

شرطية الطهارة للصلاة

٣٣٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يَقْبَلُ اللَّهُ صلاةَ أحَدِكُم إذَا أحْدَثَ حَتَّى يَتَوضَّأ»**.

[رواه أحمد (٣١٨/٢)، والبخاري (٢٤٥/١)، ومسلم (١٠٤/٣)، وأبو داود (٦٠)، والترمذي (٦٦)].

٣٣٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ، ولا صَدَقَةٌ مِن غُلُولٍ»**.

[رواه مسلم (١٠٢/٣)، والنسائي والترمذي (١)، وابن ماجه (٢٧٢)، وكذا ابن أبي شيبة (٤/١)، والطيالسي (١٥٥)].

ش: «أحدث»: أي خرج منه حدث من ريح، أو بول، أو مذي، أو ودي، أو مني، أو رجيع. **«غلول»**: هي السرقة من الغنيمة قبل القسمة.

والحديثان يدلان على اشراط الوضوء للصلاة وأنها بدونه غير صحيحة ولا معتد بها، ولا مقبولة عند الله عزّ وجلّ. وهو إجماع لا يخالف فيه مسلم إلا عند الضرورة من مرض أو فقدان الماء، فينتقل إلى بديله وهو التيمم.

لا يجب الوضوء إلا عند إرادة الصلاة

٣٣٧ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ خرج من الخلاءِ فأتي بطعام فذكروا له الوضوء. فقال: **«أريدُ أنْ أُصَلِّي فَأَتَوَضَّأ؟!»**. وفي رواية: **«مَا أَرَدْتُ الصلاةَ فَأَتَوَضَّأ»**.

[رواه مسلم بروايتيه (٤/٦٩، ٧٠)، وفي رواية لأبي داود في الأطعمة (٣٧٦٠)، والترمذي في الشمائل (١٨٦)....: **«إنَّما أُمِرْتُ بالوُضوءِ إذا قمتُ إلى الصَّلاةِ»**].

ش: ومعنى الحديث: الوضوء يكون واجباً ومأموراً به لمن أراد الصلاة، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين، نعم الوضوء مرغب فيه، ولو لم تحضر صلاة للحديث التالي.

المحافظة على الوضوء

٣٣٨ ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خَيْرَ أعمالِكُم الصلاةُ، ولَن يُحافِظَ على الوُضوءِ إلا مؤمنٌ»**.

[رواه الدارمي (٦٦٢)، وابن حبان (١٦٤)، والطبراني في الصغير (١/١١) بسند صحيح، ورواه ابن ماجه (٢٧٧)، والحاكم (١/١٣٠) بسند منقطع].

ش: **«استقيموا»**: أي أطيعوا الله واثبتوا على دينه. **«ولن تحصوا»**: أي لن تطيقوا القيام بكل شرائع الدين. **«ولن يحافظ»**: أي لن يواظب ويداوم

عليه في كل الأحيان إلا المؤمن الكامل. ففيه الترغيب في المداومة على الطهارة ولو لم تكن هناك صلاة حاضرة.

مشروعية الوضوء لكل صلاة من غير إيجاب

٣٣٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان النبي ﷺ يَتَوَضَّأُ عِندَ كُلِّ صلاةٍ قيل: فأنْتُمْ ما كُنْتُم تَصْنَعُونَ؟ قال: كُنَّا نُصلِّي الصَّلواتِ كُلَّهَا بِوُضوءٍ واحدٍ مَا لَمْ نُحْدِثْ.**

[رواه الطيالسي (١٨٦)، والدارمي (٧٢٦)، والبخاري (٣٢٨/١)، والنسائي (٧٣/١)، والترمذي (٥١) بتهذيبي، وابن ماجه (٥٠٩) وغيرهم].

ش: اتفق الأئمة على أنه لا يجب الوضوء لكل صلاة وأن ذلك مستحب فقط لمن لا يحدث، وكان النبي ﷺ يأتي بالأفضل فيجدده عند كل صلاة.

قال الترمذي في «الجامع»: وقد كان بعض أهل العلم يرى الوضوء لكل صلاة استحباباً لا على الوجوب.

الرخصة في أداء العديد من الصلوات بوضوء واحد

٣٤٠ ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يتوضَّأ لكل صلاة، فلما كان عامَ الفتح صلَّى الصلواتِ كُلَّهَا بوُضُوءٍ واحدٍ، ومسحَ على خُفَّيْهِ، فقال عمر: إنَّكَ فعلْتَ شيئاً لم تَكُن فَعَلْتَهُ. قال: **«عَمْداً فعلْتُهُ»**.

[رواه أحمد (٣٥٠/٥، ٣٥٨)، والطيالسي (١٨٧)، وابن أبي شيبة (٢٩/١)، ومسلم (١٧٧/٣)، وأبو داود (١٧٢)، والنسائي والترمذي (٥٣) وغيرهم].

ش: فيه دليل على أن الوضوء لكل صلاة ليس بواجب، وأنه لا يلزم إلا إذا انتقض فيكون هذا الحديث والذي قبله مما يخصص قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، وأنه لا يجب إلا مع الحدث.

* * *

صفة الوضوء

غسل اليدين ابتداءً

٣٤١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا استَيقَظَ أحدُكُم مِن منامِه فلا يَغْمِسْ يدَه في الإناءِ حتى يَغسِلَها ثلاثاً، فإنَّه لا يَدْرِي أينَ باتَتْ يدُه»**.

[رواه ابن أبي شيبة (٩٨/١)، والبخاري (٢٧٣/١، ٢٧٤)، ومسلم (١٢٧/٢)، وأبو داود (١٠٣، ١٠٤)، والترمذي (٣٤/١، ٣٥)، والنسائي (١٢/١)، وابن الجارود (٩)].

ش: **«يغمس»**: أي يدخل كما في رواية.

وفي الحديث مشروعية غسل اليدين عند ابتداء الوضوء. وقال الجمهور باستحبابه وحملوا النهي هنا على الكراهة. وذهب البعض كالظاهرية إلى وجوبه ثلاثاً على من قام من النوم. وقالوا: إن النهي عن الغمس قبل غسلهما للتحريم، والله أعلم وسيأتي مزيد لهذا في صفة وضوء النبي ﷺ.

التسمية عند الوضوء

٣٤٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا صَلاةَ لِمَن لا وُضُوءَ لَهُ، ولا وُضُوء لِمَن لم يَذكُر اسْمَ اللَّهِ عليهِ»**.

[رواه أحمد (٤١٨/٢)، وأبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٩)، والطحاوي في المعاني (٢٢/١)، والحاكم (٤٦/١)، والبيهقي (٤٣/١)، والبغوي في شرح السنة (٤٠٩/١)، وصححه الحاكم مع انقطاعه لكن الحديث حسن صحيح لشواهده عن سعيد بن زيد عند

أحمد (٥/٣٨١ و ٦/٣٨٢)، والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وعن أبي سعيد الخدري عند الدرمي (٦٩٧)، وأحمد وابن ماجه وغيرهم، وعن سهل بن سعد عند ابن ماجه (٤٠٠)، والحاكم وعن عائشة عند ابن أبي شيبة (٣/١) وغيرها].

وفي الباب عن علي وأنس وأبي سبرة وغير ذلك وكلها لا تخلو من كلام لكنها تتعاضد، ولذلك حسنه الحافظ والبوصيري والهيثمي، وكذا ابن القيم والعراقي وقواه المنذري وعده السيوطي في المتواتر، وفي ذلك تساهل لا يخفى. وقال ابن سيد الناس: لا يخلو هذا الباب من حسن صريح، وصحيح غير صريح. وقال الشوكاني: بل مجرد حديث أبي هريرة ينتهض لأنه حسن، فكيف إذا عضد بهذه الأحاديث الواردة في معناه.

ش: وإذا ثبت الحديث فظاهره يدل على وجوب التسمية في الوضوء بل شرطيتها، وبه قال الحسن البصري، وإسحاق بن راهويه، وداود الظاهري، وأحمد بن حنبل في رواية عنه. وذهب الجمهور إلى استحبابها.

* * *

ما جاء في السواك

السواك عند الوضوء

٣٤٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَوْلاَ أن أشُقَّ على أُمَّتِي لأمرتُهم بالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضوءٍ»**.

[رواه أحمد (٢/٤٦)، وابن خزيمة رقم (١٤٠)، والحاكم (١/١٤٦) بسند صحيح وهو عند مالك في الموطأ موقوفاً ورواه ابن حبان (١٤٢) عن عائشة.. **لأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة**].

ش: والحديث يدل على تأكد استعمال السواك عند كل وضوء ولا خلاف بين العلماء في استحبابه. والسنة أن يكون بعود الأراك، أو عود النخل.

السواك عند الصلاة

٣٤٤ ـ عن زيد بن خالد الجُهَنِي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لولا أن أشُقَّ على أُمَّتِي لأمرتُهم بالسِّواك عندَ كلِّ صلاةٍ ولأخَّرتُ صلاةَ العِشاءِ إلى ثُلُثِ اللَّيلِ»**. فكان زيد بن خالد يشهد الصلوات وسواكه على أُذُنِه موضعَ القلمِ من أُذُنِ الكاتِب، لا يقومُ إلى الصلاة إلا اسْتَنَّ ثم يرده إلى موضعه.

[رواه أحمد (١١٤/٤، ١١٦)، وابن أبي شيبة (١٦٨/١)، وأبو داود (٤٧)، والترمذي (٢١) وحسنه وصححه، وسنده صحيح].

والجملة الأولى في البخاري من كتاب الجمعة ومسلم (١٤٣/٣)، وأبي داود والنسائي والترمذي (٢٠) في الطهارة عن أبي هريرة.

ش: وهو دليل على مشروعية التسوك عند كل صلاة ولا خلاف في ذلك أيضاً، وإن كان أكثر الناس لا يهتمون به ولا سيما عندنا بالمغرب.

السواك عند القيام من النوم

٣٤٥ ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوص فَاهُ بالسِّواك**.

[رواه أحمد (٣٩٧/٥، ٣٨٢، ٤٠٧)، والدارمي (٦٩١)، والبخاري في الوضوء (٣٦٩/١)، وفي التهجد، وفي الجمعة، ومسلم (١٤٤/٣)، وأبو داود (٥٥)، والنسائي (١٣/١) في الطهارة].

ش: **«يشوص»**: أي يحك ويستاك.

٣٤٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان رسول الله ﷺ يوضعُ له وَضُوءُه وسواكُه، فإذا قامَ من اللَّيل تَخَلَّى ثم استاكَ، وفي رواية: كان لا يرقُدُ من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا استاكَ قبل أن يتوضأ**.

[رواه أحمد (١٢١/٦، ١٦٠)، وأبو داود (٥٦/٦، ٥٧) من طريقين أحدهما حسن، والحديث أصله في مسلم ويأتي في التهجد].

ش: «تخلى»: أي قضى حاجته من بول أو غيره. «ثم استاك»: أي استعمل السواك بأن دلك أسنانه ولهواته ﷺ.

وفي الحديث والذي قبله مشروعية السواك عند القيام من أي نوم من ليل أو نهار. وذلك لما يحصل من تغير الفم بالبخار الذي يتصعد مع النفس من المعدة.

السواك عند الدخول للمنزل

٣٤٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سُئِلتْ: **بأيِّ شيءٍ كان يَبْدَأُ رسولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ بَيْتَه قالت: بِالسِّوَاكِ.**

[رواه أحمد (١٨٨/٦)، ومسلم (١٤٣/٣)، وأبو داود (٥١)، والنسائي (١٧/١) كلهم في الطهارة].

ش: وهو يدل على شدة اهتمام النبي ﷺ بهذه السنة الجميلة لما في ذلك من المحافظة على طهارة الفم ومراعاته لأنه طريق القرآن وذكر الله عزّ وجلّ.

المبالغة في التسوك

٣٤٨ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: **أتيت رسول الله ﷺ وهو يَسْتَنُّ بسواكٍ بيده ويقول: «أُغْ أُغْ» والسواك في فيهِ كأنه يَتَهَوَّعُ.** وفي رواية: **وطرفُ السِّواكِ على لسانِهِ.**

[رواه البخاري (٣٦٩/١)، ومسلم (١٤٤/٣)، وأبو داود (٤٩)، والنسائي (٤١/١)، وابن خزيمة (١٤١)].

ش: «يستن»: أي يستعمل سنة السواك. «يتهوع»: التهوع: التقيؤ، والمراد به هنا إقلاع التخامة، وإخراجها من أصل الحلق ليبصقها. وفي الحديث المبالغة في التسوك، وإخراج ما في الحلق من تخامة ونحوها تطهيراً لطريق القرآن.

الأدب في استعمال السواك

٣٤٩ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أَرَانِي فِي المنام أَتَسَوَّكُ بِسواكٍ فجاءَنِي رجلانِ أحدُهما أكبرُ مِن الآخَرِ فناولتُ الأَصْغَر منهما، فَقِيلَ لِي: كَبِّر كَبِّر، فدفعتُه إلى الأَكْبَرِ مِنهما**».

[رواه البخاري في الوضوء (١/٣٧٠) وغيره، ومسلم في الرؤيا وفي الزهد].

ش: فيه جواز التسوك بسواك الغير كما فيه الأدب مع الأكابر، وأنهم يقدمون على الأصاغر في كل شيء.

الحض على السواك

٣٥٠ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد أكْثَرْتُ عليكُم فِي السِّواكِ**».

[رواه أحمد (٣/١٤٣، ٢٤٩)، والدارمي (٦٨٧، ٦٨٨)، والبخاري في الجمعة (٣/٣٦)، والنسائي في الطهارة (١/١٥)].

ش: «**أكثرت**»: أي بالغت كثيراً في حضكم على استعمال السواك. وهو يدل على اعتناء الشارع بهذه السنة وأنه ﷺ كان يرغبهم فيها ويحثهم عليها بكثرة حتى شعر بذلك ﷺ فجبر خواطرهم بقوله: «**لقد أكثرت..**» إلخ.

السواك مطهر للفم ومرضي للرب تعالى

٣٥١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضاةٌ لِلرَّبِّ**».

[رواه أحمد (٦/٤٧، ٦٢، ١٢٤، ١٤٦، ٢٣٨)، والدارمي (٦٩٠)، والنسائي (١/١٥)، وابن خزيمة (١٣٥)، وابن حبان (١٤٣) من طرق صحيحة، وذكره البخاري في الصيام معلقاً بصيغة الجزم وله شواهد كثيرة].

ش: «مطهرة... مرضاة» هما بفتح الميم: مصدران بمعنى اسم الفاعل أي هو مطهر للفم مرضي للرب تعالى. وحسبك بهذا فضلاً للسواك. وفقنا الله للمداومة عليه.

المضمضة والاستنشاق والاستنثار

٣٥٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا تَوَضَّأ أحدُكم فلْيجْعَل في أنْفِهِ ماءً ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ، ومَنْ اسْتَجْمَرَ فليوتر..»**.

وفي رواية: **«إذا استيقظَ أحدُكم مِن منامِه فليسْتَنْثِر ثلاث مرات، فإنَّ الشَّيطانَ يَبِيتُ على خَيَاشِمِهِ»**.

[رواه أحمد (٢/٢٤٢، ٢٧٨، ٣٠٨، ٣٥٢)، والبخاري (١/٢٧٣)، ومسلم (٣/١٢٥)، وأبو داود (١٤٠)، والنسائي (١/٥٧)، والرواية الثانية رواها البخاري في بدء الخلق، ومسلم (٣/١٢٧)، والنسائي (١/٥٨) في الطهارة وغيرهم].

٣٥٣ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه **أنه دعا بوضوء فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى فعل ذلك ثلاثاً، ثم قال: هذا طهور نبي الله ﷺ**.

[رواه أحمد وأبو داود (١١١، ١١٢)، والنسائي (١/٥٨) بسند صحيح].

ش: **«لينتثر»**: الانتثار والاستنثار هو نثر ما في الأنف وجذبه بالنفس. **«خياشمه»**: جمع خيشوم: وهو أقصى الأنف حيث تجتمع قذارة المخاط. **«بوضوء»** بفتح الواو: أي ماء. **«فمضمض»**: أي أدخل الماء في فمه وخضخضه وأداره فيه تنظيفاً له.

والحديثان يدلان على مشروعية المضمضة والاستنشاق مع الاستنثار. ولا خلاف في كونهما من صفة الوضوء. وإنما الخلاف في حكمهما فذهب الجمهور إلى سُنِّيَّتِهِمَا واستحبابهما. وذهب آخرون إلى وجوبهما محتجين بما جاء من الأمر بذلك كما في حديث أبي هريرة هذا وما جاء في سنن أبي داود رقم (١٤٤) من حديث لقيط بن صبرة مرفوعاً: **«إذا تَوَضَّأتَ فَمَضْمِضْ»** وسنده صحيح.

مشروعية الجمع بين المضمضة والاستنشاق من كف واحدة

٣٥٤ ـ عن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: **رأيتُ رسول الله ﷺ مضمض واستنشق من كَفٍّ واحِدٍ فَعَلَ ذلك ثلاثاً.**

[رواه البخاري (٣٠٩/١)، ومسلم (١٢٢/٣)، والترمذي (٤١/١) ويأتي مطولاً في صفة وضوء نبي الله ﷺ].

٣٥٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما **أنه توضأ فغسل وجهه وأخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنشق**... الحديث. ثم قال: **هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ.**

[رواه البخاري (٢٥١/١)، وأبو داود، والنسائي ويأتي مطولاً قريباً].

ش: في الحديثين الوصل بين المضمضة والاستنشاق والجمع بينهما من كف واحدة. قال ابن القيم في «الهدي»: وكان ﷺ يصل بين المضمضة والاستنشاق يأخذ نصف الغرفة لفمه، ونصفها لأنفه... فقول خليل في «المختصر»: وفِعْلُهُمَا بِسِتٍّ أفْضَلُ. وهو عكس ما في السنة الصحيحة.

تخليل اللحية والأصابع

٣٥٦ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه: **أن رسول الله ﷺ كان يخلل لحيته.**

[رواه الدارمي (٧١٠)، وابن أبي شيبة (١٣/١)، والترمذي (٤٤/١)، وابن ماجه (٤٣٠)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال البخاري: هو أصح شيء في هذا الباب].

وللحديث شواهد كثيرة فيها الصحيح والحسن والضعيف حتى ذكروه في المتواتر.

ش: والحديث يدل على مشروعية تخليل اللحية في الوضوء وقد قال بوجوب ذلك جمع من الأئمة وهو الظاهر من حديث أنس أن رسول الله ﷺ

كان إذا توضأ أخذ كَفّاً مِن ماءٍ فأدْخَلَه تَحْتَ حَنَكِه فخَلَّلَ بهِ لِحْيَتَهُ. وقال: «هكذا أمَرَنِي رَبِّي عزّ وجلّ». رواه أبو داود (١٤٥)، وحسنه النووي وصححه في شرح المهذب (١/٤١٩).

٣٥٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توَضَّأت فخلل أصَابعَ يدَيكَ ورِجْليكَ».

[رواه الترمذي (١/٥٠)، وابن ماجه (٤٤٧)، والحاكم (١/١٨٢) وسنده حسن. ورواية ابن أبي الزناد هنا عن المدنيين وهي صحيحة، وصالح مولى التوأمة روى عنه موسى بن عقبة قبل اختلاطه].

٣٥٨ ـ وعن لقيط بن صبرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسْبِغَ الوُضُوءَ، وخَلِّلْ بينَ الأصَابِعِ، وبالِغْ فِي الاسْتِنْشاقِ إلا أنْ تكونَ صائِماً».

[رواه الدارمي (٧١١)، والطيالسي (١٧١)، وابن أبي شيبة (١/١١)، وأبو داود (١٤٢، ١٤٣، ١٤٤)، والترمذي (١/٤٩)، والنسائي (١/٥٧)، وابن ماجه (٤٤٧، ٤٤٨) وغيرهم وسنده صحيح، وهذا الحديث جاء مطولاً ومختصراً ويدخل في كثير من الأبواب].

٣٥٩ ـ وعن المُسْتَوْرِدِ بن شداد رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبي ﷺ إذا توضأ يَدلُك أصابعَ رِجلَيهِ بِخِنْصِرِهِ.

[رواه أحمد (٤/٢٢٩)، وأبو داود (١٤٨)، والترمذي (١/٥٠)، وابن ماجه (٤٤٦) وسنده حسن وهو صحيح لطرقه].

ش: وفي هذه الأحاديث مشروعية تخليل أصابع اليدين والرجلين في الوضوء، وظاهر الأحاديث وجوب ذلك لأن إيصال الماء إلى ما بين الأصابع لا يكون إلا بتخليلها وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، لأن الماء ينبو عما بين الأصابع لمن لا يتعهدها كما لا يخفى.

البداءة باليمين في الوضوء

٣٦٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لَبِسْتُمْ وإذا توضأتم فابْدَأوا بِمَيَامِنِكُم».

[رواه أحمد (٢/٣٥٤)، وأبو داود في اللباس (٤١٤١)، وابن ماجه (٤٠٢)، وابن حبان (١٤٧)، والبيهقي (١/٨٦) بسند صحيح].

ش: والحديث يدل بظاهره على وجوب البداءة باليمين في الوضوء. وبه قال قوم، وذهب الجمهور إلى الاستحباب.

وجوب إسباغ الوضوء
وفضل إطالة الغرة والتحجيل

٣٦١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَيلٌ للأعقابِ مِن النَّارِ»**.

[رواه الدارمي (٧١٣)، والبخاري (١/٢٧٨)، ومسلم (١٣١/٣) وغيرهم].

٣٦٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: تخلَّف عنَّا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناه فأدْرَكَنا وقد **أرْهَقَتْنا الصلاةُ** ـ صلاةُ العَصْرِ ـ ونَحْنُ نَتَوضَّأ فجعلْنا نَمسَحُ على أرجُلِنا، فنادَانا بأعلى صَوْتِه: **«وَيلٌ لِلأعْقَابِ مِن النَّارِ»**.

[رواه أحمد (٢/٢١١، ٢٢٦)، والبخاري في العلم، وفي الوضوء، ومسلم في الطهارة (٣/١٣٠، ١٣١)، وأبو داود والنسائي وغيرهم].

٣٦٣ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً توضأ فترك موضع ظُفرٍ على قَدَمِهِ فأبْصَرَهُ النبيُّ ﷺ فقال: **«ارْجِعْ فأحْسِنْ وُضُوءَكَ»**، فرجع ثم صلى.

[رواه أحمد (١/٢١، ٢٣)، ومسلم (٣/١٣١، ١٣٢)].

ش: **«أرهقتنا»**: أي غشيتنا، يريد أن وقت الصلاة أدركهم. **«ويل»**: الويل هو الهلاك والعذاب أو واد في جهنم. **«للأعقاب»**: جمع عقب، وهو آخر القدم. وفي رواية **«للعراقيب»** وهي في مسلم. وفي الصحيحين عن عائشة، وفي رواية: **«وبطون الأقدام..»** وهي عند أحمد عن عبدالله بن الحارث.

وهذه الأحاديث تدل على وجوب إسباغ الوضوء، واستيعاب غسل أعضاء الوضوء، وأن أي جزء من ذلك يبقى بدون غسل كان الوضوء به باطلاً والصلاة غير صحيحة فإن قول عمر: فرجع ثم صلى مع حديث بعض أصحاب النبي ﷺ عند أحمد وأبي داود (٧٥) بسند صحيح. فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة كل ذلك يدل على بطلانها بدون إتمام الوضوء... وفي هذه الأحاديث رد على من يقول بعدم وجوب غسل الرجلين وأنه يكفي فيهما المسح مباشرة كما ذهب إليه الشيعة وهو مذهب فاسد باطل.

٣٦٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد، ثم اليسرى حتى أشرع في العضد، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت النبي ﷺ يتوضأ. وقال: قال النبي ﷺ: **«أنتُم الغُرُّ المُحَجَّلُون يومَ القِيامَةِ مِن إسْبَاغِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُم فَلْيُطِلْ غُرَّتَه وتَحْجِيلَه»**.

[رواه البخاري (٢٤٦/١، ٢٤٧)، ومسلم (١٣٤/٣، ١٣٥)].

وفي رواية عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه، فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم ههنا، لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء سمعت خليلي ﷺ يقول: **«تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِن المؤمنِ حَيثُ يبلُغُ الوضوءُ»**. رواه مسلم (١٤٠/٣)، والنسائي (٧٩/١).

ش: «فأسبغ»: أي أتم وأكمل. **«العضد»** بفتح العين وضم الضاد: وهو ما بين المرفق إلى الكتف. **«الغر المحجلون»**: أصل الغرة والتحجيل بياض في وجه الفرس وقوائمه فاستعير للمسلم وجعل أثر وضونه في وجهه ويديه ورجليه بالنور يوم القيامة له كالبياض الذي يكون للفرس. **«الحلية»** بكسر الحاء: ما يتزين به من الذهب والفضة...

والحديث فيه فضل الزيادة في غسل أعضاء الوضوء على مواضع

الغسل الواجب بحيث يزيد في اليدين فوق المرفقين إلى الإبطين وفي الرجلين إلى الساقين فما فوق. وأن فاعل ذلك سيحلى بأساور ونحوها من حلي الجنة، جعلنا الله تعالى منهم.

صفة وضوء النبي ﷺ بالتفصيل

٣٦٥ ـ عن حمران مولى عثمان، أن عثمان رضي الله تعالى عنه دعا بماء فأفرَغَ على كفَّيْه ثلاثَ مراتٍ فغسلهما ثم أدْخَلَ يَمِينَه في الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهَه ثلاثاً، ويدَيْه إلى المرفقين ثلاث مرات ثم مسح برأسِه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «**مَنْ توضَّأ نحوَ وُضوئي هذا ثم صَلَّى ركعتين، لا يُحَدِّثُ فِيهِما نفْسَه، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبِه**». وفي رواية: فمضمض واستنثر ثلاثاً، وفيه ثم أدخل يده فأخذ ماء فمسح رأسه وأذنيه فغسل بطونهما وظهورهما مرة واحدة.

[رواه البخاري في الوضوء، وفي الرقاق، ومسلم (١٠٥/٣، ١١٠)، وأبو داود (١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠)، والنسائي (٥٦/١) والرواية الثانية لأبي داود].

ش: لقد استوعب هذا الحديث صفة الوضوء الكامل، وأن السنة التثليث في سائر الغسلات، أما الرأس والأذنان فمرة واحدة، وأن الأذنين يمسحان مع الرأس ظهراً وبطناً. وفيه فضل الصلاة إثر إسباغ الوضوء، وأن ذلك من موجبات تكفير الذنوب، إذا توفرت الشروط المذكورة في الحديث.

٣٦٦ ـ وعن عبد خير رحمه الله تعالى قال: أتانا علي رضي الله تعالى عنه فدعا بطهور فقلنا: ما يصنع بالطهور وقد صلى؟ ما يريد إلا ليُعَلِّمَنا، فأُتِيَ بإناء فيه ماء وطَسْت فأفرَغَ من الإناء على يمينه فغسل يديه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنثر ثلاثاً، فمضمض ونَثَر من الكف الذي يأخذ فيه، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وغسل يده اليمنى ثلاثاً، وغسل يده الشمال ثلاثاً، ثم

جعل يده في الإناء فمسح برأسه مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً. ورجله الشمال ثلاثاً، ثم قال. **من سرَّه أن يعلم وُضوءَ رسول الله ﷺ فهو هذا.**

[رواه أبو داود (١١١، ١١٢، ١١٣)، والنسائي (٥٨/١، ٥٩)، ورويناه مع الترمذي من طريق أبي حية وغيره. وهو صحيح بطرقه، ولذلك حسنه الترمذي وصححه].

ش: هو في الحكم كسابقه في استيعاب وضوء رسول الله ﷺ لكنه لم يذكر مسح الأذنين، هذا علماً بأن التثليث في الغسلات سنة وأن الواجب مرة واحدة بالإجماع.

٣٦٧ ـ وعن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ، فدعا بإناء **فأكْفَأ** منه على يديه فغسلهما ثلاثاً، ثم أدخل يده فاسْتَخْرَجَها فغسل وجهه، فذكر نحو سابقه ثم قال: فمَسح برأسِه فأقبل بهما وأدبَر، بَدَأ بِمُقَدَّمِ رأسِه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهُما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه.

وفي رواية: ومسح رأسه بماء غيرِ فَضْلِ يَدَيْه، وغسل رجليه حتى أنقاهما.

[رواه البخاري ومسلم (١٢١/٣، ١٢٥)، وأبو داود (١١٨، ١١٩، ١٢٠)، والنسائي (٦١/١)، والترمذي (٢٨، ٣١)، والرواية الثانية لمسلم والترمذي].

ش: «**فأكفأ**»: أي أمال وصب على يديه. وفيه ما أجمل في الأحاديث الأخرى من صفة مسح الرأس. وفيه تجديد الماء للرأس. وقوله: «**حتى أنقاهما**» هذا مقيد بالغسلات الثلاث.

٣٦٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه توضأ فغسل وجهه، وأخذ غُرْفَةً من ماء فتَمَضْمَضَ بها واسْتَنْشَقَ، ثم أخذ غرفة من ماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يدَه اليُمنى ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليُسْرى، ثم مسح برأسه، ثم أخذ غرفة من ماء فرشَّ على رِجلِه اليُمنى حتى غسلها، ثم

أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله - يعني اليسرى - ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ.

وفي رواية: ثم مسح برأسه وأُذُنَيْهِ باطِنِهما بالسَّبَّاحَتَيْن، وظاهِرِهما بإبْهَامَيْه.

[رواه البخاري في الوضوء (٢٥١/١)، وأبو داود (١٣٣، ١٣٧، ١٣٨)، والنسائي (٦٣/١)، والرواية الثانية للنسائي وسندها صحيح].

ش: فيه مع استيعاب صفة الوضوء النبوي مشروعية الاقتصار على الإيتار لكل عضو كما فيه الجمع بين المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة. وانظر ما سبق (٣٥٥، ٣٥٦).

مسح الرأس والصدغين والأذنين مرة واحدة وأنهما من الرأس

٣٦٩ - عن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذٍ رضي الله تعالى عنها قالت: **رأيت رسول الله ﷺ يتَوَضَّأ قالت: فمسحَ رأسَه، ومسحَ ما أقبل منه وما أدبر وصُدْغَيْهِ وأُذُنَيْهِ مرة واحدة.**

[رواه أبو داود (١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١)، والترمذي (٢٩، ٣٠) مطولاً ومختصراً، وابن ماجه (٤٣٨)، وكذا الدارمي (٦٩٦)، وابن أبي شيبة (٩/١، ١٦)، وحسنه الترمذي وصححه. وفي رواية لأبي داود: فأدخل أصبعيه في جُحْرَيْ أذنيه، وسنده حسن].

ش: **«جحري»**: بضم الجيم وسكون الحاء تثنية جحر؛ وهي ثقبة الأذن. **«صدغيه»**: تثنية صدغ وهو ما بين العين والأذن، ويطلق على الشعر المتدلى على هذا الموضع.

وفي الحديث مشروعية مسح الصدغين مع الأذنين.

٣٧٠ - وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: توضأ النبي ﷺ

فغسل وجهه ثلاثاً، ويديه ثلاثاً، ومسح برأسه وقال: **«الأُذنان من الرَّأس»**.

[رواه أبو داود (١٣٤)، والترمذي (٤٧/١)، وابن ماجه (٤٤٤) بسند حسن. وقواه ابن دقيق العيد، وجوَّده النووي في «شرح المهذب» (٤١٤/١) ولقوله: **«الأذنان من الرأس»** شواهد كثيرة، فيها الصحيح، والحسن، والضعيف].

وظاهر الحديث يدل على أن الأذنين يمسحان مع الرأس بلا تجديد الماء لهما. وبذلك جاءت الأحاديث.

الوضوء مرة ومرتين وثلاثاً

٣٧١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: **أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة.**

[رواه البخاري (٢٦٩/١)، وأبو داود (١٣٨)، والنسائي (٥٤/١) وتقدم مطولاً مفصلاً].

٣٧٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: **أن النبي ﷺ توضأ مرتين مرتين.**

[رواه أبو داود (١٣٦)، والترمذي (٣٩) وحسنه وصححه، وابن حبان (١٥٧)، والحاكم (١٠٥/١) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي. ورواه البخاري (٢٦٩/١) عن عبدالله بن زيد].

٣٧٣ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه: **أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً.**

[رواه أهل السنن كما تقدم مطولاً. قال الترمذي: حديث علي أحسن شيء في هذا الباب وأصح].

ش: وفي هذه الأحاديث مشروعية ما ذكر فيها من الصفات ولا خلاف في جواز كل ذلك. قال الترمذي في «الجامع»: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم أن الوضوء يجزىء مرة، ومرتين أفضل، وأفضله ثلاث، وليس بعده شيء.

مقدار الماء الذي يتوضأ به واتخاذه في آنية

٣٧٤ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان النبي ﷺ يغتسل بالصَّاعِ إلى خمسة أمداد، ويتوضأ بالمدِّ.**

[رواه البخاري في الوضوء (٣١٦/١، ٣١٧)، ومسلم في الحيض (٧/٤، ٨)، وأبو داود (٩٥)، والنسائي في الطهارة].

٣٧٥ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: **جاءنا النبي ﷺ فأخرجنا له ماء في تَوْرٍ من صُفْر فتوضَّأ.**

[رواه البخاري مطولاً (٣١٤/١)، وأبو داود مختصراً (١٠٠) بسند صحيح، ورواه أيضاً ابن ماجه وغيره].

ش: «بالصاع»: هو أربعة أمداد نبوية، والمد النبوي: ملء الكفين المتوسطتين غير مبسوطتين، ولا مقبوضتين. وهو يدل على مشروعية الاقتصاد في استعمال ماء الوضوء، والاقتصار على أقل ما يجزىء. واتفق العلماء على كراهية الإسراف في ماء الوضوء وأن ذلك يعتبر بدعة.

والحديث الثاني تقدم في الآنية.

منع الزيادة على الغسلات الثلاث

٣٧٦ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف الطهور؟ فدعا بماءٍ في إناء فغسل كفَّيه ثلاثاً، فذكر الحديث وفي آخره: **«هكذا الوضوء! فمَن زادَ على هذا أو نقص، فقد أساءَ وظَلم، أو ظلم وأساء»**.

[رواه أحمد (١٨٠/٢)، وأبو داود (١٣٥)، والنسائي (٧٥/١)، وابن ماجه (٤٢٢) بسند حسن].

ش: وهو يدل على أن الزيادة على الثلاث ظلم وإساءة، وذلك يقتضي التحريم. غير أن قوله: **«أو نقص»** كلمة شاذة للإجماع على جواز الاقتصار على الغسلة الواحدة.

المسح على العمامة والخفين والجوربين

٣٧٧ ـ عن المغيرة بن شعبة: **أن النبي ﷺ توضَّأ فمسح بناصيته وعلى العمامة وعلى الخفَّين.**

[رواه مسلم (٣/١٧٣، ١٧٤)، وأبو داود (١٥٠)، والترمذي (٨٨) وغيرهم].

٣٧٨ ـ وعن بلال رضي الله تعالى عنه: **أن النبي ﷺ مسحَ على الخفَّين والخمار.**

[رواه مسلم (٣/١٧٤)، والنسائي (١/٦٤، ٦٥)، والترمذي (٩٠)، وابن ماجه (٥٦١) وغيرهم].

ش: «بناصيته»: الناصية هي شعر مقدم الرأس. **«العمامة»**: وهي كل ما يلف على الرأس. **«والخمار»**: وهو كل ما يغطي الرأس من عصابة وغيرها ومنه خمار المرأة.

والحديثان يدلان على مشروعية المسح على الناصية مع العمامة وعلى العمامة وحدها بدون أي ضرورة. قال ابن القيم في الهدي: وكان ﷺ يمسح على رأسه تارةً، وعلى العمامة تارةً، وعلى الناصية والعمامة تارةً.. إلخ.

٣٧٩ ـ وعن المغيرة بن شعبة قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ فقال: **«يا مُغِيرة خُذِ الإداوَة»**، فأخذتها فانطلق رسول الله ﷺ حتى تَوَارَى عنِّي فقضى حاجَتَه وعليه جُبَّةٌ شامِيةٌ، فذهب ليُخْرِج يدَه من كُمِّها فضاقت فأخرج يده من أسْفَلِها، فصَبَبْتُ عليه فتوضَّأ وضوءه للصلاة، قال: فأهويتُ لأنْزِعَ خفَّيه، فقال: **«دَعْهُما، فإنِّي أدخَلْتُهما طاهِرَتَين»**، فمسح عليهما.

[رواه البخاري في الوضوء (١/٢٩٧، ٣٢١)، وفي الصلاة، وفي الجهاد، وفي اللباس، ومسلم (٣/١٦٨، ١٧٤)، وأهل السنن].

٣٨٠ ـ وعن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه أنه بالَ ثم توضأ ومسح على خفيه. وفي رواية: فما يمنعني أن أمسح وقد رأيت

رسول الله ﷺ يمسح، قالوا: إنما ذلك قبل نزول المائدة، قال: ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة.

[رواه البخاري في الصلاة في الخفاف، ومسلم ١٦٤/٣، ١٦٥)، وأبو داود (١٥٤)، والنسائي (٦٩/١)، والترمذي (٩٦/١)، والرواية الثانية لأبي داود].

٣٨١ ـ وعن المغيرة بن شعبة قال: **توضَّأ رسول الله ﷺ ومسحَ على الجَوْرَبَين والنَّعْلَين**.

[رواه ابن أبي شيبة (١٨٨/١)، وأبو داود (١٥٩)، والترمذي (١٠٠/١)، وابن ماجه (٥٥٩)، وابن حبان (١٨٦) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه ابن حزم وابن دقيق العيد وآخرون].

ش: «توارى»: أي اختفى وتستر. **«جبة شامية»**: هي جبة كان العرب والروم يعتادون لباسها. **«خفيه»**: تثنية خف وهو غشاء للرجل يغطي الكعب يتخذ من جلد مخروز ومبطن بصوف أو قطن كان القدامى يلبسونه أيام البرد ومثله الجورب وهو يكون من صوف أو كتان أو نحو ذلك.

وفي هذه الأحاديث مشروعية المسح على الخفين وهو إجماع من أهل السنة، وقد تواترت الأحاديث بذلك عن النبي ﷺ حتى أن بعض الحفاظ جمع رواة ذلك فجاوزوا الثمانين منهم العشرة كما قال الحافظ في «الفتح». وقال ابن دقيق العيد في «شرح العمدة»: وقد اشتهر جواز المسح على الخفين عند علماء الشريعة حتى عدَّ شعاراً لأهل السنة، وعدَّ إنكاره شعاراً لأهل البدع ـ يعني الشيعة ـ. وفي قوله ﷺ للمغيرة: **«دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين»** دليل على أنه لا يجوز المسح عليهما إلا لمن لبسهما وهو على طهارة، وهو قول كل الأئمة إلا ابن حزم.

لا يجب المسح إلا على أعلى الخفّ

٣٨٢ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: **لو كان الدين بالرأي لكان**

أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفَّيه.

[رواه الدارمي (٧٢١)، وأبو داود (١٦٢، ١٦٣، ١٦٤)، والبيهقي (٢٩٢/١) من طرق صحيحة، وصححه الحافظ في «التلخيص»، وحسنه في «بلوغ المرام»، وفي «الفتح»].

ش: الحديث يدل على أن المشروع في مسح الخفين ظاهرهما فقط، أما ما جاء في رواية للمغيرة... فمسح أعلا الخفين وأسفلهما فهو حديث ضعيف لا يصلح للحجة.

التوقيت في المسح

٣٨٣ ـ عن شريح بن هانىء قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت: عليكَ بابن أبي طالب فسَلْهُ، فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ، فسألناه فقال: **جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم.**

[رواه مسلم (١٧٥/٣)، وابن ماجه (٥٥٢)، والبيهقي (١٧٥/١)].

٣٨٤ ـ وعن خزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن المسحِ على الخفَّين فقال: «**للمُسافِرِ ثلاثٌ، وللْمُقِيم يومٌ**».

[رواه الطيالسي (١٩٧)، وابن أبي شيبة (١٧٧/١)، وأبو داود (١٥٧)، والترمذي (٩٧/١)، وابن ماجه (٥٥٣، ٥٥٤)، وابن حبان (١٨١، ١٨٢)، وابن الجارود (٨٦)، وحسنه الترمذي وصححه].

٣٨٥ ـ وعن صفوان بن عسال رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنا سَفراً أن لا ننْزِع خِفافَنا ثلاثةَ أيامٍ ولياليَهن إلاَّ مِن جنابةٍ ولكِنْ مِن غَائِطٍ، وبَوْلٍ، ونَوْمٍ.**

[رواه ابن أبي شيبة (١٧٧/١، ١٧٨)، والترمذي (٩٧/١)، والنسائي (٧١/١)، وابن ماجه (٤٧٨)، وابن خزيمة (١٩٦)، وابن حبان (١٧٩)، والطحاوي (٨٢/١)، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: وهذه الأحاديث تدل على التوقيت في المسح، وقد تواتر ذلك عن النبي ﷺ كأصل المسح. وبهذا التوقيت قال الجمهور وخالف المالكية، فقال خليل في المختصر: ونُدِبَ نَزْعُهُمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.

دعاء يقال داخل الوضوء

٣٨٦ ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يتوضأ فسمعته يقول: «**اللَّهم اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، ووسِّعْ لِي في دَارِي، وبَارِكْ لِي في رِزْقِي**»، قال: قلت: يا رسول الله سمعتك تدعو بكذا وكذا، قال: «**وَهَلْ تَرَكْنَ مِن شَيْءٍ؟**».

[رواه أحمد (٤/٣٩٩)، والنسائي (٨٠)، وابن السني (٢٨) كلاهما في اليوم والليلة وسنده صحيح. وصححه النووي في الأذكار. ورده الحافظ بأن فيه انقطاعاً، غير أن له شاهداً عن أبي هريرة رواه الترمذي بسند حسن وانقطاعه لا يضر هنا. فالحديث صالح للعمل به لا سيما وهو خاص بالفضائل].

وقد جمع هذا الدعاء كل خير للعبد، فغفران الذنوب أمنية كل مسلم، وسعة الدار والمنزل من سعادة الإنسان في هذه الحياة كما جاء في الحديث الصحيح. والبركة في الرزق هي نماؤه وزيادته وقيامه بالكفاية وفي ذلك خير كبير، وتقدم حديث عمر في التشهد بعد الوضوء في فضائل الوضوء.

* * *

الأحداث ونواقض الوضوء

الريح

٣٨٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقْبَلُ صلاةُ مَن أحْدَثَ حَتَّى يَتَوضَّأ**». فقال رجل من حضرموت: ما الحدَث يا أبا هريرة؟ قال: «فُسَاءٌ أوْ ضُرَاطٌ».

[رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وتقدم مختصراً برقم (٣٣٦)].

ش: «من أحدث»: أي خرج منه حدث وهو الذي فسره أبو هريرة وهو يدل على أن خروج الريح من الإنسان يبطل الوضوء ويزيل أثره، ولا خلاف في ذلك. ثم هذه النواقض قسمان: أحداث بذاتها كالريح والبول والغائط والمذي والمني بالإجماع، أو أسباب كالنوم مثلاً والإغماء واللمس لمن يقول به.

٣٨٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا كانَ أحدُكم في المسجدِ فوجَدَ ريحاً بين أليَتَيْهِ، فلا يَخرُجْ حتى يَسمَعَ صَوْتاً، أو يَجِدَ رِيحاً»**. وفي رواية: «إذا وجد أحدكم في بَطنِه شيئاً **فأشكَلَ عليهِ أخرَجَ مِنه شيءٌ أم لا فلا يَخْرُجَنَّ من المسجدِ حتى يسمعَ صوتاً أو يجِدَ ريحاً»**.

[رواه أحمد (٤١٤/٢)، والدارمي (٧٢٧)، ومسلم (٥١/٤)، والترمذي (٦٥) وغيرهم].

٣٨٩ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: شُكِيَ إلى النبي ﷺ الرجلُ يُخَيَّلُ إليه أنه يَجِدُ الشيء في الصلاةِ، قال: **«لا ينصَرِف حتَّى يَسمَع صوتاً أو يَجِدَ رِيحاً»**.

[رواه البخاري (٢٤٧/١، ٢٤٨، ٢٩٤)، ومسلم (٤٩/٤، ٥١)، وأبو داود (١٧٦)، والنسائي (٨٢/١، ٨٣) كلهم في الطهارة، ورواه البخاري في البيوع أيضاً].

ش: «أليتيه»: تثنية ألية: وهي العجزة، ومعنى هذا أن الإنسان قد يجد حول دبره شبه ريح فيخيل إليه أنه خرج منه شيء، فأرشدنا النبي ﷺ إلى ترك التخيلات والشكوك وأنه لا أثر لذلك في نقض الوضوء حتى يتحقق خروج حدث ولا اعتبار بالشك هنا. وقوله: **«حتى يسمع صوتاً..»** إلخ، قال العلماء: ظاهره ليس مراداً وإنما المقصود هو تحقق وجود الحَدَث.

وفي الحديثين قاعدة عظيمة من قواعد الدين بنى عليها علماؤنا كثيراً من الجزئيات. وهي استصحاب الأصل. واستصحاب الطهارة لمن تيقنها سابقاً، ثم طرأ عليه شك فيها، فلا أثر لهذا الشك إطلاقاً، وخالف هذه القاعدة المالكية هنا.

المـذي

٣٩٠ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: كنت رجلاً مَذَّاءً فاسْتَحْيَيْتُ أن أسأل رسول الله ﷺ لمكانِ ابنتِهِ، فأمرتُ المِقدادَ بن الأَسْوَدِ فسأله فقال: «**يَغْسِلُ ذكرَه وَيتوضَّأُ**». وفي رواية: كنت رجلاً مذاءً، فجعلت أغتسل حتى تَشَقَّقَ ظَهْرِي، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ أو ذُكِرَ لهُ، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَفْعَلْ، إذا رأيتَ المَذْيَ فاغْسِل ذكرَك، وتوضأ وُضوءَك للصَّلاة، فإذا فَضَخْتَ الماءَ فاغْتَسِلْ**». وفي رواية: «**لِيَغْسِل ذكرَه وأُنثَيَيْهِ**».

[رواه أحمد (١/٨٠، ١٢٤)، والبخاري (١/٣٩٤، ٣٩٥)، ومسلم (٣/٢١٢)، وأبو داود (٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩)، والنسائي وغيرهم، والرواية الأولى للشيخين، والثانية والثالثة لأبي داود وسندهما صحيح].

ش: «**مذاء**» بفتح الماء وتشديد الذال: أي كثير المذي. «**فضخت**»: أي دفقت المني.

والحديث يدل على أن خروج المذي من موجبات الوضوء ولا يوجب الغسل وقد حكى النووي الإجماع على ذلك. كما أنه يدل على وجوب غسل الذكر والأنثيين معاً من خروجه كما في الرواية الأخيرة.

٣٩١ ـ وعن عبدالله بن سعد الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عما يُوجِبُ الغَسْل، وعن الماءِ يكون بعد الماء، فقال: «**ذَاكَ المَذْيُ، وكُلُّ فَحْلٍ يُمْذِي فَلْتَغْسِلْ مِن ذلك فَرْجَك وأُنْثَيَيْكَ، وتَوَضَّأْ وُضوءَكَ لِلصَّلاةِ**».

[رواه أبو داود (٢١١)، وابن الجارود (٧) بسند حسن].

وتقدم حديث سهل بن حنيف في الموضوع برقم (٢٨٧).

ش: «**الماء**»: يريد المذي يكون بعد البول. «**وكل فحل**»: الفحل الذكر من كل حيوان. «**يمذي**» بضم الياء وفتحها.

والحديث كسابقه يدل على وجوب غسل الذكر والأنثيين مع الوضوء لخروج المذي.

مس الفرج

٣٩٢ ـ عن طلق بن علي رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ كأنه بَدَوِيّ فقال: يا نبي الله، ما تَرى في مَسّ الرَّجُلِ ذَكَرَه بَعدَما يَتَوضَّأُ؟ فقال: «**هَلْ هُوَ إلا مُضْغَةٌ منه أو بَضْعَةٌ مِنهُ**».

[رواه أحمد (٢٣/٤)، والطيالسي (٢٠٤)، وأبو داود (١٨٢، ١٨٣)، والنسائي والترمذي (٧٣)، وابن ماجه (٤٨٣)، وابن الجارود (٢٠، ٢١) وغيرهم بسند صحيح].

ش: «**مضغة ـ بضعة**»: المضغة بضم الميم، والبضعة بفتح الباء: هي القطعة من اللحم.

والحديث يدل على عدم انتقاض الوضوء بمس الذكر وقال الجمهور: إن الحديث منسوخ بالتالي.

٣٩٣ ـ وعن بُسْرة بنت صفوانَ رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ مَسَّ ذكرَه فلا يُصَلِّي حَتَّى يَتوضَّأ**».

[رواه مالك (٨٨)، وأحمد (٤٠٦/٦، ٤٠٧)، والدارمي (٧٣٠، ٧٣١)، وأبو داود (١٨١)، والنسائي (١٧٧/١)، والترمذي (٧٢)، وابن ماجه (٤٧٩)، وابن خزيمة (٣٣)، وابن حبان (٢١١)، والحاكم (١٣٦/١، ١٣٧) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه كما صححه أحمد وابن معين والدارقطني والحاكم والبيهقي والحازمي بل عدَّ في المتواتر].

ش: الحديث يدل على بطلان الوضوء بمس الفرج. وهو مذهب الجمهور ولا فرق بين الرجل والمرأة في ذلك لحديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُمَا رَجُلٍ مَسَّ فَرْجَه فلْيتوضَّأ، وأيُمَا امرأةٍ مَسَّتْ فَرْجَها فلتتوَضأ**» رواه أحمد (٢٢٣/٢)، وابن الجارود (١٩)، والبيهقي (١٣٢/١، ١٣٣) من طريق بقية لكنه صرح بالتحديث. ولذلك صححه البخاري وغيره.

ويبطل الوضوء بالمس باليد مطلقاً سواء كان ببطن الكف أو بجنبه. . . ففي رواية لبسرة: **«إذا أفضَى أحدُكم بِيدِهِ إلى فَرْجِهِ فليتوضأ»** رواه النسائي (١٧٧/١) بسند صحيح. واليد مطلقة لم تقيد ببطن أو بجنب.

٣٩٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا أفضَى أحدُكم بِيَدِهِ إلى ذَكَرِهِ لَيسَ بينهما شَيءٌ فلْيَتَوضَّأْ وُضُوءَهُ لِلصَّلاةِ»**.

[رواه الشافعي في الأم (١٩/١)، والبيهقي (١٣٣/١، ١٣٤) من طرق هو بها صحيح، وفي رواية لابن حبان (٢١٠): «إذا أفضى أحدكم بيده إلى فرجه وليس بينهما ستر ولا حجاب فليتوضأ»].

ش: قد أفادنا هذا الحديث فائدة هامة، وهي رفع الحرج عمّن مس ذكره فوق حائل من ثوب ونحوه فإن المس حينئذ لا يؤثر في الوضوء ولا يبطله.

٣٩٥ ـ وعن نافع رحمه الله تعالى قال: كنت مع ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في سفر فرأيته بعد أن طلعت الشمس توضأ ثم صلى فقلت له: إن هذه لصلاة ما كنت تصليها؟ فقال: إني بعد أن توضأت لصلاة الصبح مَسَسْتُ فَرجِي ثم نَسِيتُ أن أتوضأ فتوضأتُ وعدتُ لصلاتِي.

[أخرجه مالك (٩٢) بسند صحيح].

٣٩٦ ـ وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: كنت أُمْسِكُ المصحف على سعد بن أبي وقاص فاحتَكَكْتُ فقال سعد: لعلَّك مسسْتَ ذَكَرَكَ؟ قلت: نعم، قال: قُمْ فتوضأ، فتوضأتُ ثم رجعتُ.

[رواه مالك أيضاً (٨٩) بسند صحيح].

ش: كلا الأثرين يدلان على نقض الوضوء بمس الفرج، وأن مثل هذا كان معروفاً ومعلوماً بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم. وفي أثر سعد دليل على أن المحدث لا يحل له مس المصحف.

النوم

٣٩٧ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْعَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ فَمَنْ نامَ فَلْيَتَوَضَّأْ**».

[رواه أحمد (١١١/١)، وأبو داود (٢٠٣)، وابن ماجه (٤٧٧) وهو حديث حسن، فإن له شاهداً عن معاوية عند أحمد (٩٦/٤، ٩٧)، والطبراني وزاد فيه: «**فإذا نامت العينان استطلق الوِكاءُ**». والحديث حسنه النووي والمنذري وابن الصلاح، وانظر «شرح المهذب» (١٣/٢)، و«المحلى» لابن حزم (٢٣٢/١)].

ش: الحديث يدل على وجوب الوضوء على من نام لأنه مظنة خروج الريح. ولذلك علله بقوله: «**العين وكاء السَّه**». فالسَّاه هي الدبر. والوكاء: الحبل الذي يربط به الكيس ونحوه. فإذا نام الإنسان انحلَّت مفاصله وأعضاؤه فلربما خرج منه ريح ونحوه، من حيث لا يشعر.

٣٩٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء الآخرة حتى تَخْفِقَ رؤوسُهم، ثم يُصلُّون ولا يتوضَّؤون**.

[رواه أحمد (٢٧٧/٣)، ومسلم (٧٢/٤)، وأبو داود (٢٠٠)، والترمذي (٦٨) وحسنه وصححه. وفي رواية لمسلم: «أُقِيمَت الصلاة والنبي ﷺ يُنَاجِي رجُلاً فلم يَزَلْ يُنَاجِيه حتَّى نامَ أصحابُه، ثم جاء فصلَّى بهم»].

٣٩٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان ينام جالساً ثم يصلِّي ولا يتوضَّأ.

[رواه مالك (٣٩) بسند صحيح].

ش: «**تخفق**» هو بفتح المثناة وكسر الفاء: أي تميل من النعاس. والحديث يدل على أن النوم في مثل هذه الحالة لا يوجب الوضوء. وذلك في حالة القعود مع خفقان الرأس، وقد اختلف الأئمة في ذلك، فمنهم من أطلق، ومنهم من قيد نظراً لما ذكر في الباب.

القيء

٤٠٠ ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قاءَ وكان صائماً فتوضأ. قال مَعْدَانُ: ولقِيتُ ثوبانَ مولى رسول الله ﷺ في مسجد دمشق فذكرتُ له ذلك فسألته فقال: صدقَ وأنا صَبَبْتُ له وَضُوءَهُ.

[رواه أحمد (٤٤٣/٦)، والترمذي رقم ٧٥) وسنده صحيح. قال الترمذي: وقد جود حسين المعلم هذا الحديث. وحديث حسين أصح شيء في هذا الباب].

ش: وهو بهذا اللفظ يدل على أن خروج القيء من مبطلات الوضوء وموجباته وبه قال جماعة من السلف. وهو مذهب أحمد، بل قال الخطابي: به قال أكثر الفقهاء.

أكل لحوم الإبل

٤٠١ ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أَنَتَوَضَّأُ مِن لحومِ الإبِلِ؟ قال: «**نعم، فَتَوَضَّأْ مِن لحومِ الإبِلِ**».

[رواه مسلم (٤٨/٤) ونحوه عن البراء عند أبي داود، والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة].

٤٠٢ ـ وعن سمرة أنه سأل رسول الله ﷺ: إنا أهلُ باديةٍ وماشِيةٍ فهَل نتوضأ من لحومِ الإبِل وألْبَانِها؟ قال: «**نعم**».

[رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٥٠/١) وله شاهدان عند ابن ماجه (٤٩٦، ٤٩٧) فهو بهما حسن صحيح].

ش: الحديثان يدلان على وجوب الوضوء على من أكل لحم الإبل. قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: وذهب إليه أحمد، وابن راهويه، وابن المنذر، وابن خزيمة، واختاره البيهقي، وحكي عن أصحاب الحديث مطلقاً. قال: وهذا المذهب أقوى دليلاً، وإن كان الجمهور على

خلافه. وقال في «شرح المهذب» (٦١/٢): هو القوي أو الصحيح من حيث الدليل، وهو الذي أعتقد رجحانه.

ويلحق باللحوم شرب ألبانها وهو ظاهر الحديث الثاني وهو صالح للحجة كما عرفت.

الوضوء مما مست النار

٤٠٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه وجده عبدُالله بنُ قارِظٍ يَتوضأُ على المسجد فقال: إنما أتوضأ من أثْوَارِ أقِطٍ أكلتُها لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«تَوضَّئُوا مِما مَسَّت النَّار»**.

[رواه مسلم (٤٣/٤)، وأبو داود (١٩٤)، والنسائي والترمذي (٦٩)، وابن ماجه (٤٨٥)، والطحاوي في المعاني (٦٣/١) بألفاظ].

ش: «أثوار»: هو جمع ثور وهو قطعة من الأقط وهو لبن مجفف مستحجر.

وهذا الحديث وأمثاله مما نسخ ولم يبق به عمل كما يدل على ذلك ما يأتي عقبه.

ترك الوضوء مما مست النار

٤٠٤ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: **أن النبي ﷺ أكل كتِفَ شاةٍ وصلَّى ولم يتوضَّأ**.

[رواه البخاري (٣٢٣/١) في الوضوء، وفي الأطعمة، ومسلم (٤٤/٤)، وأبو داود (١٨٧)، والنسائي وغيرهم].

٤٠٥ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: **كان آخرَ الأمرين من رسول الله ﷺ تركُ الوضوءِ مِمَّا غَيَّرَت النارُ**.

[رواه مالك (٥٤)، وأبو داود (١٩١، ١٩٢)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٩٠/١)، وابن حبان (٢١٨)، والطحاوي في المعاني (٤٢/١، ٦٥) وغيرهم بألفاظ، وسنده صحيح].

ش: في الباب أحاديث كثيرة وكلها تدل على عدم وجوب الوضوء من أكل ما مسته وغيرته النار. وحديث جابر أصرح ما جاء في ذلك فإنه أخبر عن آخر الأمرين في ذلك من رسول الله ﷺ.

لمس المرأة

٤٠٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها: **أن رسول الله ﷺ قَبَّلَ امْرَأَةً من نِسائِه ثم خرج إلى الصلاة ولم يَتَوَضَّأ. قال عُرْوَة: فقلتُ لها: ومَن هي إلا أنتِ فضحِكَتْ.**

[رواه أبو داود (١٧٨، ١٧٩، ١٨٠)، والترمذي (٧٤)، والنسائي (٨٦/١، ٨٧)، وابن ماجه (٥٠٢) وغيرهم بسند صحيح وله طرق، وقد صححه ابن جرير، وابن عبدالبر، وعبدالحق الإشبيلي، وابن التركماني، وأطال الكلام عليه أحمد شاكر في «تعاليق المحلى»، وصححه، وكذا صححه شيخنا أحمد الصديق وناصر الدين الألباني. وهو يدل على أن لمس المرأة لا يوجب الوضوء، وبه قال جمع من الأئمة، وذهب الجمهور إلى إيجابه بذلك مع شروط لا دليل عليها].

٤٠٧ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول: **قُبْلَةُ الرجل امرأتَهُ وَجَسُّهَا بِيدِه من المُلامِسة فمَن قَبَّل امرأتَه أو جَسَّها بِيَدِه فعلَيْهِ الوضوءُ.**

[رواه مالك (٩٣) بسند صحيح].

هذا مذهبه رضي الله تعالى عنه وبه قال مالك لكنه قيد ذلك بوجود الشهوة أو قصدها.

الوضوء لكل صلاة من دم الاستحاضة

٤٠٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حُبَيْش إلى النبي ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله إنِّي امرأةٌ أُسْتَحَاضُ فلا أَطْهُرَ أفأَدَعُ الصَّلاةَ؟ قال: «**لا، إنما ذلِكِ عِرْقٌ وليس بالحَيضَةِ، اجتنبي الصلاة أيامَ مَحِيضِكِ، ثم اغْتَسِلِي وتَوَضَّئِي لِكُلِّ صَلاةٍ**».

[رواه أحمد (١٩٤/٦)، والبخاري (٤٢٥/١)، ومسلم (١٦/٤، ١٧)، وأبو داود (٢٨٢، ٢٩٨)، والترمذي (١١٠)، وباقي الجماعة بألفاظ، ويأتي في الاستحاضة مبسوطاً].

ش: في الحديث وجوب الوضوء لكل صلاة على المستحاضة التي استرسل معها الدم ولم ينقطع. وهو أصل في السلس فمن ابتلى بسلس البول مثلاً أو المذي أو نحو ذلك فواجبه أن يتوضأ لكل صلاة.

* * *

أحكام الجنابة والغسل

التقاء الختانين

٤٠٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأربعِ ثم جَهَدَها فقد وجَبَ الغَسلُ وإن لم يُنزِل»**.

[رواه أحمد (٢٣٤/٢، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤٧١، ٥٢٠)، والبخاري (٤١٠/١)، ومسلم (٣٩/٤)، وأبو داود (٢١٦)، والنسائي (٩٢/١)، وابن ماجه (٦١٠) وغيرهم].

٤١٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **إذا جَاوَزَ الخِتَانُ الخِتَانَ وجبَ الغسلُ فعلتُه أنا ورسولُ الله ﷺ فاغتَسلْنا**.

[رواه ابن أبي شيبة (٨٥/١)، والترمذي (٩٦)، وابن ماجه (٦٠٨)، والطحاوي في المعاني (٥٥/١) وغيرهم مطولاً ومختصراً، وكذا رواه مالك (١٠١، ١٠٢) وسنده صحيح].

ش: **«شعبها»**: أي جلس بين يديها ورجليها وهو كناية عن العملية الجنسية. **«جهدها»**: معناه: باشرها بالعمل وأتعبها. **«وإن لم ينزل»**: أي ولو لم يخرج مني ولم تحصل اللذة الكبرى. **«الختان»**: هو موضع القطع من الجانبين الذكر والأنثى، والمراد بذلك غَيْبُوبةُ الحشفة لأنه بذلك يكون قد التقى الختانان وجاوز أحدُهُما الآخر.

والحديثان يدلان على وجوب الغسل بمجرد الإيلاج، وإن لم يحصل إنزال ولا إمناء، وذكر النووي أنه انعقد على ذلك الإجماع. وما جاء: **«إنَّما الماءُ مِنَ الماءِ»** وغيره فمنسوخٌ بالاتفاق.

خروج المني

٤١١ ـ عن علي عليه السلام أن النبي ﷺ قال له: **«إذا رأيتَ المَذي فاغسِلْ ذَكَرَكَ، وتوضَّأ وُضُوءَك للصَّلاة، فإذا فَضَخْتَ الماءَ فاغْتَسِلْ»**.

[رواه أبو داود بسند صحيح وقد تقدم برقم (٣٩٨)].

ش: **«فضخت»**: أي خرج منك المني بتدفُّقٍ وتَصَبُّبٍ.

والحديث يدل على وجوب الغسل من خروج المني. وهذا لا خلاف فيه بين علماء الإسلام سواء خرج يقظة أم مناماً.

الاحتلام مع خروج المني

٤١٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أم سُلَيم رضي الله تعالى عنها سألتْ رسول الله ﷺ عن المرأة تَرَى في منامِها ما يَرى الرجلُ هل عليها من غسل؟ فقال: **«نَعَمْ، إذا رأتْ الماءَ»**. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فقلت لها: تَرِبَتْ يَدَاكِ، فقال رسول الله ﷺ: **«دَعِيهَا يا عائشةُ، وهل يكونُ الشَّبَهُ إلا مِن قِبَلِ ذلك؟ إذا عَلا ماؤُهَا ماءَ الرجل أشْبَهَ الولدُ أخوالَهُ، وإذا علا ماءُ الرجل ماءَها أشبَهَ الولدُ أعمامَه»**.

[رواه مسلم (٣/٢٢٤، ٢٢٥)، وأبو داود (٢٣٧)، والنسائي، وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة.. إلخ].

٤١٣ ـ وعن عائشة أيضاً: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً. قال: **«يَغْتَسِلُ»**. وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يَجِدُ بللاً، قال: **«لا غُسْلَ عليهِ»**. قالت أم سلمة: والمرأةُ ترى ذلك أعليها غسلٌ؟ قال: **«نعم، النساءُ شقائقُ الرِّجال»**.

[رواه الدارمي (٧٧١)، وأبو داود (٢٣٦)، والترمذي (٩٩)، وابن ماجه (٦١٢)، وابن الجارود (٨٩، ٩٠) وغيرهم وهو حسن صحيح له شواهد ومعناه في الصحيح].

ش: **«إذا علا ماؤها»**: في رواية لأم سليم عند مسلم أيضاً: «أن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه». **«شقائق»**: أي نظراء في الطبائع والأحكام.

وفي الحديثين فوائد، منها: أن الشبه في خلق الإنسان يكون حسب سبق مني وشهوة أحد الجنسين. ومنها: صفة مني الرجل والمرأة. ومنها: احتلام المرأة كالرجل وأنها ترى كما يرى الرجل. ومنها: وجوب الغسل من الاحتلام إذا وجد الماء وذلك برؤية أثره في اللباس، أو الجسم. ومنها: مشروعية سؤال المرأة الرجل الصالح عن شؤون الدين ولو كان فيما يستحيا منه عادةً عند الناس، وأن ذلك لا يعد وقاحة. ومنها: أن النساء كالرجال في الأحكام إلا ما اختص به كل واحد من الجنسين بما أفرده الله به.

كيفية الغسل وصفته

٤١٤ ـ عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ تَرَكَ موضعَ شَعرَةٍ من جنابةٍ لم يَغْسِلْها فُعِل بِهِ كذا وكذا من النَّارِ»**. قال علي: فمَن ثَمَّ عاديتُ رأسي، فمن ثم عاديتُ رأسي، فمن ثم عاديتُ رأسي، ثلاثاً، وكان يَجُزُّ شَعَرَهُ.

[رواه أحمد (٧٢٧)، والطيالسي والدارمي (٧٥٧)، وابن أبي شيبة (١/١٠٠)، وأبو داود (٢٤٩)، وابن ماجه (٥٩٩)، والبيهقي (١/١٧٥) وسنده صحيح، ولذا صححه الحافظ في «التلخيص»، وعطاء بن السائب روى عنه حماد بن سلمة قبل الاختلاط، والله أعلم].

ش: الحديث يدل على وجوب إيصال الماء إلى البشرة، وتفقد مواضع الشعر في الغسل وأن ترك أي بقعة من الجسم بلا ماء ولو صغيرة يبطل معها الغسل.

٤١٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان رسول الله ﷺ إذا اغتسلَ من الجنابة بَدَأ فيغسلُ يديه، ثم يُفْرِغُ بيمينه على شماله، فيغسل**

فرجه ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يأخذ الماء فيُدْخِلُ أصابعَه في أصولِ الشَّعَرِ، حتى إذا رأى أنه قد اسْتَبْرأَ حَفنَ على رأسه ثلاثَ حَفَناتٍ، ثم أفاض على سائر جسدِه، ثم غسلَ رجليه. وفي رواية: بدأ فغسل يديه قبل أن يُدخلهما في الإناء. وفي أخرى: كان إذا اغتسل من الجنابة دعا بشيءٍ نحو الحِلاَب، فأخذ بكفِّه فبدأ بشِقِّ رأسِه الأيمنِ، ثم الأيسرِ، ثم أخذ بكفيه فقال بهما على رأسه.

[رواه الشافعي في الأم (١/٤٠، ٤١)، وأحمد (٦/٩٦، ٢٥١)، والدارمي (٧٥٤)، والبخاري (١/٣٧٤)، ومسلم (٣/٢٢٨)، وأبو داود (٢٤٢)، والنسائي (١/١٦٨)، والترمذي (٩٢) بألفاظ].

٤١٦ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: أَدْنَيتُ لرسول الله ﷺ غسله من الجنابة، فغسل كفيه مرتين أو ثلاثاً، ثم أدخل يدَه في الإناء ثم أفرغ به على فرجه وغسَلَه بشِماله، ثم ضرب بشماله الأرض فدَلَكها دلْكاً شديداً، ثم توضأ وُضوءه للصلاة، ثم أفرغ على رأسه ثلاث حفنات مِلْءَ كفه، ثم غسل سائر جسده، ثم تَنَحَّى عن مقامه ذلك فغسل رجليه، ثم أتيته بالمنديل فردَّه. وفي رواية: ثم مسح يده بالأرض، ثم مضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه، ثم أفاض على جسده.. الحديث.

[رواه الدارمي (٧٥٣)، وعبدالرزاق (٩٩٨)، والبخاري (١/٣٨٣)، ومسلم (٣/٢٣٠، ٢٣١)، وأبو داود (٢٤٥)، والنسائي (١/١١٣، ١٦٨)، والترمذي (٩١) واللفظ لمسلم. والرواية الثانية للبخاري].

ش: وفي الحديثين بيان لصفة غسل النبي ﷺ مفصلاً وأنه كان يغسل يديه أولاً ثلاثاً قبل إدخالهما في الإناء ثم يغسل فرجه بشماله ويرش عليه بيمينه، ثم يدلك يده اليسرى بالأرض بعد الاستنجاء، ثم يتوضأ كوضوئه للصلاة ويؤخر رجليه، ثم يأخذ بيده الماء فيدخل أصابعه في أصول شعر رأسه حتى يبلله ثم يأخذ الماء بكفه فيغسل شق رأسه الأيمن، ثم الأيسر كذلك، ثم يأخذ بكفيه معاً فيفرغهما على رأسه، ثم يفيض الماء على سائر جسده ثم يتنحى فيغسل رجليه ﷺ ففيهما استيعاب غسله ﷺ كاملاً.

هل تنقض المرأة ضفائرها عند غسلها من الجنابة والحيض

٤١٧ ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله إني امرأة أشُدُّ ضَفْر رأسي أفأنقُضُه لغسل الجنابة؟ قال: «**لا، إنما يكفيكِ أن تَحْثِي على رأسِكِ ثلاثَ حَثَياتٍ، ثم تُفِيضِينَ عليكِ الماءَ فَتَطهُرِينَ**». وفي رواية: أفأنقضه للحيضة والجنابة؟ قال: «**لا**»، إلخ.

[رواه أحمد (٦/٣١٥)، ومسلم (٤/١٠، ١١)، وأبو داود (٢٥١، ٢٥٢)، والترمذي (٩٣)، والنسائي (١/١٠٨، ١٠٩) والسياق لمسلم بالروايتين].

٤١٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه بلغها أن عبدالله بن عَمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن يَنقُضْن رؤوسَهن فقالت: **يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتَسَلْن أن ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يَحْلِقْنَ رؤوسَهن؟ لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناءٍ واحد، ولا أزيد على أن أُفرِغَ على رأسي ثلاث إفْرَاغَاتٍ**.

[رواه مسلم (٤/١٢)].

ش: «**ضفر**» بفتح الضاد وسكون الفاء: أي أحكم فتل شعر رأسي. «**أفأنقضه**»: أي أفسخه وأحله.

والحديثان يدلان على الرخصة للنساء في عدم فسخهن شعورهن إذا كان ضفائر، وأنه يكفي في ذلك غسله بثلاث غرفات من ماء، وهذا بلا شك إذا وصل الماء لأصل البشرة.

قال النووي في «شرح مسلم»: فمذهبنا ومذهب الجمهور أن ضفائر المغتسلة إذا وصل الماء إلى جميع شعرها ظاهره وباطنه من غير نقض لم يجب نقضها، وإن لم يصل إلا بنقضها وجب نقضها. وأمر عبدالله بن عمرو النساء بالنقض محمول على الاستحباب. ولذا جاء في حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها في حجة الوداع ـ وكانت قد طهرت من حيضها ليلة

عرفة ـ: «**انقُضِي رأسَكِ وامتَشِطِي**». رواه البخاري وغيره ويأتي في الحج إن شاء الله.

طواف الرجل على نسائه والاكتفاء بغسل واحد

٤١٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد.

[رواه أحمد (٣/٢٢٥)، والدارمي ٧٥٩، ٧٦٠)، والبخاري في الغسل وفي النكاح، وأبو داود (٢١٨)، والترمذي (١٢٣)، والنسائي (١/١١٨)].

ش: «**يطوف**»: أي يدور عليهن جميعاً فيجامعهن دفعة واحدة ويكتفي بغسل واحد.

مشروعية الوضوء أو الغسل لمن أراد العودة

٤٢٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتَى أحَدُكُم أهلَه ثم بدا لَهُ أن يُعاوِدَ فلْيتوضَّأ بينَهما وُضوءاً**».

[رواه أحمد (٣/٣١)، ومسلم (٣/٢١٧)، وأبو داود (٢٢٠)، والترمذي (١٢٤)، والنسائي (١/١١٧)، وابن ماجه (٥٨٧)، والحاكم (١/١٥٢) وزاد: «فإنه أنشط للعود»].

ش: وفي الحديث مشروعية تخلّل الوضوء بين الجماعين. والجمهور على استحبابه وقال البعض بوجوبه عملاً بظاهر الأمر.

٤٢١ ـ وعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ طاف ذات يوم على نسائه يَغتسلُ عند هذه وعند هذه قال: فقلت له: يا رسول الله ألا تجعلُه غسلاً واحداً؟ قال: «**هذا أزْكَى وأطيبُ وأطهرُ**».

[رواه أبو داود (٢١٩)، والنسائي في عشرة النساء من السنن الكبرى (٥/٣٢٩)، وابن ماجه (٥٩٠)، والبيهقي (٧/١٩٢) وسنده حسن].

ش: وهذا أيضاً محمول على الاستحباب ولذا علله بقوله: «**هذا أزكى..**» إلخ.

لا يشرع الوضوء بعد الغسل

٤٢٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها: **أن رسول الله ﷺ** كان **لا يتوضأ بعد الغسل**.

[رواه أحمد (٦/٦٨/١٩٣/٣٥٣)، والطيالسي **(٣٣٩)**، وأبو داود **(٣٥٠)**، والترمذي **(٩٥)**، والنسائي (١/١٧١)، وابن ماجه **(٥٧٩)**، والحاكم **(١/١٥٣)** وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: والحديث يدل على جواز الاكتفاء بالوضوء الأول قبل الغسل، وعدم إعادته. وهذا إذا لم ينتقض وضوؤه خلال الغسل كخروج مذي مثلاً، أو ريح.

مقدار الماء والإناء للغسل

٤٢٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد من قَدَح يقال له الفَرَقُ**. وفي رواية عن أبي سلمة قال: **دخلت على عائشة أنا وأخوها من الرضاعة فسألناها عن غسل رسول الله ﷺ من الجنابة فَدَعَتْ بإناء قدرَ الصاع فاغتسلت، وبيننا وبينها سِترٌ فأفرغتْ على رأسِها ثلاثاً**، قالت: **وكان أزواج النبي ﷺ يأخُذْنَ من رُؤُوسِهن حتى تكونَ كالوفرة**.

[رواه البخاري (١/٣٧٧، ٣٧٩)، ومسلم (٤/٢، ٥)، والنسائي (١/١٠٥)].

٤٢٤ ـ وعن محمد الباقر عليه السلام أنه كان عند جابر هو وأبوه رضي الله تعالى عنهم وعنده قوم فسألوه عن الغسل فقال: يكفيك صاع. فقال رجل: ما يكفيني. فقال جابر: كان يكفي من هو أوفى منك شعراً، وخيراً منك، ثم أمَّنا في ثوب.

[رواه البخاري (١/٣٨٠)، والنسائي (١/١٠٦)].

ش: **«الفرق»** بفتح الفاء والراء فسر في الحديث بأنه ثلاثة آصع وجاء

في صحيح مسلم عنها في رواية: كانت تغتسل هي والنبي ﷺ من إناء واحد يسع ثلاثة أمداد، أو قريباً من ذلك. وما في الباب يدل على الاقتصار في الاغتسال على أقل ما يجزىء من الماء وعدم الإسراف فيه. وهذا ما كان قد فهمه الصحابة من فعل النبي ﷺ. أما ما قيل من أن ما جاء في التحديد بالصاع ونحوه هو من الخصائص النبوية هو قول عري عن الدليل، فإنه يوجد في الناس من يكفيهم الصاع في الغسل.

أما أخذ أمهات المؤمنين من شعور رؤوسهن فذلك فعل منهن بعد أيام النبوة فلا حجة فيه لمن يجيز ذلك للنساء، ولا سيما نساء عصرنا اللاتي يتشبهن بالكافرات.

الاستتار عند الغسل والتنشيف بعده

٤٢٥ ـ عن يعلى بن أمية رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَرَازِ فصعِد المِنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إن اللَّهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ والسِّتْرَ، فإذا اغتسل أحدُكم فليسْتَتِرْ**».

[رواه أحمد (٤/٢٢٤)، وأبو داود (٤٠١٢، ٤٠١٣) في الحمام، والنسائي في الطهارة (١/١٦٤) بسند حسن].

ش: «**البراز**» بفتح الباء الموحدة: الفضاء. «**ستِّير**» بكسر السين: أي من شأنه الستر على عباده وصونهم.

وفي الحديث وجوب التستر عن الأعين عند الغسل بأن يكون داخل بيت مثلاً أو يكون بمئزر يستر عورته. نعم إذا أمن عن الأنظار فلا يجب بدليل ما جاء في الصحيح في قصتي موسى وأيوب عليهما السلام وأنهما كانا يغتسلان عريانين في الخلاء. نعم الأولى هو التستر بكل حال لحديث: «**فاللَّهُ أحَقُّ أن يُسْتَحيَى مِنْهُ**».

٤٢٦ ـ وعن ميمونة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: **وضعت للنبي ﷺ ماءً وسَتَرْتُه فاغتسل**.

[رواه مسلم (٤/٢٩)].

٤٢٧ ـ وعن أبي السَّمْح رضي الله تعالى عنه قال: كنت أخدم النبي ﷺ فكان إذا أراد أن يغتسل قال: **«وَلِّني»** فأُوَلِّيه قفايَ فأستُرُه به.

[رواه النسائي (١/١٠٤، ١٠٥) وسنده صحيح].

ش: «وسترته»: وضعت له ستراً ليقيه من أبصار من عسى أن يدخل البيت.

وفي الحديثين مشروعية التستر بأي شيء، ولو بالأشخاص كما فعل أبو السمح وبالثوب كما جاء في حديث لأم هانىء في فتح مكة ويأتي في الضحى مطولاً.

٤٢٨ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها: **أن النبي ﷺ أُتِيَ بِمِنديلٍ فلم يَمَسَّه وجعل يقول بالماء هكذا يعني يَنفُضُه.**

[رواه مسلم (٣/٢٣٢)].

ش: في الحديث ترك التنشيف بعد الغسل، واختلف العلماء فيه قيل: يستحب تركه، وقيل: إنه مباح يستوي فيه الفعل والترك. قال النووي: وهو الأظهر المختار.

الرخصة في تأخير الغسل

٤٢٩ ـ عن غضيف بن الحارث رضي الله تعالى عنه قال: قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها: أرأيتِ رسول الله ﷺ كان يغتسل من الجنابة في أول الليل أو في آخره؟ قالت: ربما اغتسل في أول الليل، وربما اغتسل في آخره. قلت: الله أكبر، الحمد لله الذي جعل في الأمر سَعَةً.

[رواه أبو داود (٢٢٦)، والنسائي (١/١٠٤، ١٦٤) بسند صحيح. وأصله في صحيح مسلم ويأتي إن شاء الله في قيام الليل].

ش: وهو يدل على إباحة تأخير الغسل وأنه لا حرج في النوم مع التلبس بالجنابة إذا تقدمه وضوء أو تيمم كما يأتي قريباً.

مشروعية الوضوء للجنب
إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام

٤٣٠ ـ عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه **أن النبي ﷺ رَخَّصَ للجُنُبِ إذا أرادَ أن يأكُلَ أو يَشربَ أو يَنام أن يَتوضَّأَ وُضوءه للصَّلاة.**

[رواه أحمد (٤/٣٢٠)، وأبو داود (٢٢٥)، والترمذي آخر الصلاة (٥٤٦) وحسنه وصححه].

٤٣١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان النبي ﷺ إذا كان جنباً فأراد أن يأكل أو ينام توضأ وضوءه للصلاة.**

[رواه مسلم (٣/٢١٥)، والنسائي (١/١١٥)، وفي رواية للشيخين: غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة].

٤٣٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر قال: يا رسول الله أيَرْقُدُ أحدُنا وهو جُنبٌ؟ قال: **«نَعم، إذا تَوَضَّأ»**. وفي رواية: **«تَوضأ واغسِلْ ذكرَكَ»**. وفي أخرى: **«لِيَتَوضَّأ ثم لِيَنَمْ حتَّى يَغتسلَ إذا شاءَ»**.

[رواه البخاري (١/٤٠٨، ٤٠٩)، ومسلم (٣/٢١٦)، وأبو داود (٢٢١)، والترمذي (١٠٥)، والنسائي (١/١١٥)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الوضوء للجنب إذا كان يريد الأكل، أو الشرب، أو النوم وهو مستحب عند الجمهور ولا حرج في تركه أحياناً. ويؤيده قوله: «إذا شاء» مع حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ ينام وهو جنب لا يمس ماء. رواه أبو داود والترمذي. وهو حديث صحيح خلافاً لمن ضعفه. وله أن يتيمّم وينام كما جاء في حديث لعائشة رضي الله تعالى عنها أنه ﷺ كان إذا أجنب فأراد أن ينام توضَّأ أو تيمّم. رواه البيهقي (١/٢٠٠) بإسناد حسن.

تنزه الجنب عن قراءة القرآن

٤٣٣ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ يقرئنا القرآنَ على كُلِّ حالٍ ما لم يَكُن جُنباً.**

[رواه أحمد رقم (٦٢٧، ٦٣٩، ٨٤٠، ١٠١١، ١١٢٣)، والطيالسي (٢١٨)، وأبو داود (٢٢٩)، والترمذي (١٢٩)، والنسائي (١١٨/١)، وابن ماجه (٥٩٤)، وابن حبان (١٩٢)، والحاكم (٥٢/١، ١٠٧/٤)، والطحاوي في معاني الآثار (٨٧/١) وحسنه الترمذي وصححه كما صححه جماعة وله طريق آخر رواه أحمد رقم (٨٧٢) ضمن حديث وسنده حسن بل جزم الشيخ أحمد شاكر بصحته، وجاء في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «**أنْ لا يَمَسَّ القرآنَ إلا طاهِرٌ**» رواه مالك وغيره مرسلاً وموصولاً. وقال ابن عبدالبر: أشبه المتواتر لتلقي الناس له بالقبول].

ش: والحديث يدل على منع الجنب من قراءة القرآن احتراماً لكلام الله عزّ وجلّ وبذلك قال الأئمة الأربعة وغيرهم، وخالفهم ابن حزم ومن رأى رأيه فأباحوا للجنب القراءة.

مجالسة الجنب ومحادثته وتصرفاته

٤٣٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ لقيَه في بعض طريق المدينة وهو جُنُبٌ فانْخَنَسْتُ مِنه، فذهبَ فاغتسل ثم جاء. فقال: «**أين كنتَ يا أبا هريرة؟**»، قال: كنتُ جُنُباً فكرهت أن أُجالِسَك وأنا على غير طهارة. قال: «**سبحان الله! إنَّ المؤمِن لا يَنْجُسُ**».

[رواه الشيخان والأربعة وقد تقدم برقم (٢٥٣)].

ش: «**فانخنست**»: أي اختفيت وتنحيت عنه.

والحديث يدل على أن الجنب طاهر وليس بنجس وأن له أن يخرج ويجالس الناس ويماشيهم ويتحدث معهم. وفيه أدب أبي هريرة مع رسول الله ﷺ، وأخذ بعض العلماء منه استحباب الطهارة لملاقاة أهل الفضل والخير.

الجنب يريد الصلاة فيتذكر أنه جنب وهو بالمسجد

٤٣٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُقِيمَت الصلاةُ وعُدِّلَت الصفوفُ قِيَاماً فخرج إلينا رسولُ الله ﷺ فلما قام في مُصلاَّه ذَكَر أنه جنب فقال لنا: «**مكانَكم**». ثم رجع فاغتسل، ثم خرج إلينا ورأسُه يَقطُر، فكبَّر وصلَّى، فصلَّينا معه.

[رواه البخاري في الغسل (٣٩٩/١)، وفي الأذان، ومسلم في المساجد (١٠١/٥، ١٠٢)، وأبو داود (٢٣٥)، والنسائي (٢٤/٢) في الإمامة].

ش: الحديث يدل على أن الجنب إذا دخل المسجد ناسياً فلا يجب عليه أن يتيمم للخروج كما قال بعض الأئمة بل عليه أن يخرج فيغتسل كما صدر من نبينا ﷺ. وفي هذا الحديث التصريح بأنه تذكر قبل الدخول في الصلاة، خلاف الحديث التالي.

الجنب يتذكر أنه جنب بعدما يكبر للصلاة

٤٣٦ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دَخَلَ فِي صَلاةِ الفَجْرِ فأوْمأ بِيَدِه: «**أنْ مَكَانَكُم**». ثم جاء ورأسُه يقطُر فصلَّى بهم. وفي رواية: فكبَّر... فلما قضى الصلاة قال: «**إنَّما أنا بشرٌ، وإني كُنتُ جُنُباً**».

[رواه أبو داود (٢٣٣، ٢٣٤) من طريقين وكلاهما صحيح، ورواه ابن حبان (٣٧٢) وسنده صحيح أيضاً، ومن طريق أبي داود رواه البيهقي (٣٩٧/٢)، ورواه مالك في الموطأ (١٠٨) عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالى مرسلاً: أن رسول الله ﷺ كبَّر في صلاة من الصلوات ثم أشار إليهم بيده: «**أن امكثوا**». فذهب ثم رجع وعلى جِلْدِه أثرُ الماءِ. وهو مرسل صحيح].

ش: الحديث لا يعارض سابقه كما قيل بل هما واقعتان كبر في إحداهما، ولم يكبر في الأخرى قاله القرطبي. وبه جزم ابن حبان، وقال

النووي: إنه الأظهر. وقال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١/١٧٦) من قال: إنه كبر زاد زيادة حافظ يجب قبولها. إلخ.

* * *

أنواع الاغتسالات

غسل الحائض والنفساء

٤٣٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض فقال: «**تأخذ إحداكن ماءها وسِدْرَتها فتطَهَّر فتُحسِنُ الطهور، ثم تَصُبُّ على رأسِها فتدلُكه دلْكاً شديداً حتى تَبلُغَ شؤونَ رأسِها، ثم تَصُبُّ عليه الماء، ثم تأخذ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتَطَهَّرُ بها**». فقالت أسماء: فكيف تطهر بها؟ قال: «**سبحان الله! تطهَّري بها**». قالت عائشة: كأنها تُخْفِي ذلك تتبَّعين بها أثَرَ الدم. وسألته عن غسل الجنابة؟ فقال: «**تأخُذ ماءَ فتطهَّرُ فتُحسنُ الطُّهور أو تَبلُغُ الطُّهور، ثم تَصُبُّ على رأسِها فتَدلُكُه حتى يبلُغَ شؤون رأسِها، ثم تُفِيض عليها الماء**». فقالت عائشة: نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ الأنصارِ، لم يكن يَمنعُهنَّ الحياءُ أن يَتَفَقَّهن في الدين.

[رواه أحمد (٦/١٤٧)، والدارمي (٧٧٩)، والبخاري في الحيض، وفي الاعتصام، ومسلم في الحيض (٤/١٥، ١٦)، وأبو داود (٣١٤، ٣١٥، ٣١٦)، والنسائي (١/١١٢) واللفظ لمسلم وستأتي أحاديث هذا في الحيض].

ش: «**فرصة**» بكسر الفاء وسكون الراء ثم صاد مهملة مفتوحة هي القطعة. «**ممسكة**»: أي مطيبة بالمسك. «**شؤون**»: أي أصول شعر رأسها. ومعناه: أن تأخذ الحائض قطعة من قطن أو صوف أو نحو ذلك وتطيبها بالمسك، ثم تتبع بها أثر الدم من الفرج ليذهب ريحه ونتنه.

والحديث يدل على وجوب الغسل من الحيض ومثله النفاس. ولا خلاف في ذلك، وأنه كغسل الجنابة. غير أن الحائض تزيد استعمال المسك

ونحوه من العطورات الطيبة. وفي الحديث فضل نساء الأنصار وحرصهن على تعلم دينهن حتى فيما يستحيا منه عادةً. وأسماء المذكورة هي بنت يزيد بن السكن كما قال الحافظ الخطيب، أو بنت شَكَل كما جاء مبيناً في صحيح مسلم.

غسل الكافر عند إسلامه

٤٣٨ ـ عن قيس بن عاصم قال: أتيت النبي ﷺ أريد الإسلام فأمرني أن أغتسل بماء وسدر.

[رواه أبو داود (٣٥٥)، والترمذي آخر الصلاة، والنسائي (٩١/١)، وابن الجارود (١٤)، وابن حبان (٢٣٤) وسنده صحيح، وحسنه وصححه جماعة وله شاهد عن أبي هريرة: أن ثمامة بن أثال أسلم فقال رسول الله ﷺ: **«اذهَبُوا بهِ إلى حَائِطِ بني فلانٍ فَمُرُوه أن يَغتسلَ»** الحديث، رواه ابن الجارود (١٥) وغيره بسند صحيح. وأصله في الصحيحين].

ش: والحديث يدل على وجوب غسل الكافر إذا أسلم، ليطهر جسمه من الأقذار الحسية والحكمية كما سيطهر باطنه من الأدران الوثنية والشركية.

غسل من دفن كافراً

٤٣٩ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: إن أبا طالب مات، فقال: **«اذهب فوارِهِ»**. قال: إنه مات مشركاً، قال: **«اذهب فَوَارِهِ»**. فلما واريته رجعت إليه، فقال لي: **«اغْتَسِلْ»**.

[رواه أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٦٥/٤) بسند صحيح].

ش: **«فواره»**: أي ادفنه. وظاهره يدل على وجوب غسل من دفن كافراً.

غسل يوم الجمعة

٤٤٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**غُسْل يوم الجمعة واجبٌ على كل مُحْتَلِم**».

[رواه البخاري (٣/١٥)، ومسلم (٦/١٣٢)، وأبو داود (٣٤١، ١٤٣)، والنسائي (٣/٧٥) وغيرهم].

ش: «**محتلم**»: أي بالغ، وظاهره يدل على وجوب غسل يوم الجمعة. وفي الباب أحاديث كثيرة ستأتي في الجمعة، والجمهور على أنه سنة لحديث: «**من توضأ يومَ الجُمُعة فبِها ونِعْمَتْ، ومَن اغتسلَ فالغُسْلُ أفضل**». رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسند حسن ويأتي.

غسل من غسل ميتاً

٤٤١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ غَسَّل ميّتاً فليَغْتَسِلْ، ومن حَمَلَهُ فلْيتوضَّأْ**».

[رواه أحمد (٢/٢٨٠، ٤٣٣، ٤٥٤)، وأبو داود الطيالسي (٧٦٣)، وأبو داود (٣١٦١)، والترمذي (٨٨٢) بتهذيبي، وابن ماجه (١٤٦٣)، وصححه ابن حبان والدارقطني وابن حزم. وحسنه الترمذي والحافظ في «التلخيص» وقال الذهبي: هو أقوى من عدة أحاديث احتج بها الفقهاء ولم يعلوها بالوقف بل قدموا رواية الرفع].

ش: والحديث يدل على مشروعية الاغتسال من غسل الميت وهو مستحب عند أكثر الأئمة وقال الظاهرية بالوجوب. غير أن حديث: «**ليس عليكم في غسل ميتكم غسلٌ إذا غسلتموه، فإن ميْتكم ليس بنجس، فحسبكم أن تغسلوا أيديكم**» رواه الحاكم (١/٣٨٦)، والبيهقي (٣/٣٩٨)، وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ: هو صارف لهذا الأمر عن الوجوب، ويأتي مزيد لهذا في الجنائز.

غسل الميت

٤٤٢ ـ عن أم عطية الأنصارية رضي الله تعالى عنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين تُوُفِّيتْ ابنتُه فقال: «**اغسِلْنَها ثلاثاً، أو خَمْساً، أو أكثرَ من ذلك، إن رأيتُنَّ ذلك بماءٍ وسِدْرٍ، واجعلْنَ في الآخرة كافوراً، فإذا فرغْتُنَّ فآذِنَّني**»، فلما فرغْنا أذَنّاه فأعطانا حقْوَه، فقال: «**أشعرنها إياهُ**»، يعني إزاره. وفي رواية: «**وابدأنَ بميامِنِها ومواضِعِ الوضوء منها**». وفي أخرى: فَضَفَرْنا شَعرَها ثلاثةَ قُرون، وألْقَيْناها خلفَها.

[رواه الشيخان وأهل الست كلهم في الجنائز ويأتي فيها إن شاء الله تعالى].

ش: هذا الحديث أصل في غسل الميت، وهو واجب بلا خلاف على جماعة المسلمين وهو من فروض الكفاية وهو يخالف الأغسال كلها في عدده. وسيأتي البحث فيه في الجنائز.

ملحوظة: بقي غسل الإحرام وما معه، وبسطه في كتاب الحج إن شاء الله تعالى.

باب في الحمام

٤٤٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلا يُدْخِلْ حَلِيلَتَه الحمام، ومَنْ كانَ يُؤمنُ بالله واليومِ الآخَرِ فلا يَدْخُلُ الحمامَ إلا بِمِئْزَرٍ**».

[رواه أحمد (٣٣٩/٣)، والترمذي في الاستئذان (٢٦١٠)، والنسائي (١٦٣/١)، والحاكم (٢٨٨/٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

٤٤٤ ـ وعن أبي المليح قال: دخل نِسْوةٌ من أهلِ الشام على عائشة رضي الله تعالى عنها فقالت: ممّنْ أنتُنَّ؟ قُلنَ: من أهل الشام. قالت: لعلَّكُنَّ من الكُورَة التي تَدخُل نِساؤُها الحمام؟ قُلنَ: نعم. قالت: أمَا إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ امرأةٍ تَخلَع ثيابَها في غيرِ بَيْتِها إلا**

هَتكَتْ ما بينها وبين الله تعالى». وفي رواية: **«إلا هَتَكَتْ السِّتر بينها وبين الله تعالى»**.

[رواه أحمد (١٧٣/٦)، والطيالسي (٢٣٦)، وأبو داود في الحمام (٤١٠)، والترمذي في الاستئذان (٢٦١٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٠)، وكذا الدارمي ٢٦٥٤)، والحاكم (٢٨٨/٤)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي وسنده صحيح عند أحمد والترمذي].

٤٤٥ ـ وعن أم الدرداء رضي الله تعالى عنها قالت: خرجْتُ من الحمام فلقِيَنِي رسولُ الله ﷺ فقال: **«مِن أينَ يا أمَّ الدَّرداء؟»**، قالت: من الحمام، فقال: **«والَّذِي نَفْسِي بيدِه ما مِن امرأةٍ تَضعُ ثيابَها في غيرِ بيتِ أحدٍ من أُمهاتِها إلا هي هاتِكَةٌ كُلَّ سِترٍ بينها وبين الرحمٰن»**.

[رواه أحمد (٣٦١/٦، ٣٦٢) من طرق، والطبراني في الكبير. قال الهيثمي في المجمع: بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح].

ش: «الحليلة»: الزوجة. **«مئزر»** بكسر الميم: هو الإزار الذي يؤتزر به. **«الكورة»**: هو اسم يطلق على ناحية من الأرض كالحجاز مثلاً واليمن ومصر والشام.

وهذه الأحاديث تدل على منع النساء من دخول الحمام. وهو مذهب كافة العلماء إلا إذا كانت هناك ضرورة كمرض مثلاً أو تداوي لبرد وحيض ونفاس. ويستأنس لهذا بحديث: **«إنها ستفتح عليكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتاً، يقال لها الحمامات، فلا يَدخُلنَّها الرجالُ إلا بالإزار، وامْنَعُوها النساء، إلا مَريضةً أو نُفَساء»**. رواه أبو داود في الحمام، وسنده ضعيف. وفيها إباحة دخوله للرجال مع التستر، لأن التكشف عن العورات منكر فظيع لا يجوز فعله ولا مشاهدته، وفي حديث السنن: **«احفظ عورتك»** إلخ. وفي صحيح مسلم: **«ولا تمشوا عراة»** وسيأتيان في اللباس والزينة إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب الحيض والاستحاضة

ابتداء الحيض في النساء

٤٤٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها لمّا كانت بِسَرِفٍ حاضتْ، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال لها: **«مَا لَكِ لَعلَّكِ نُفِسْتِ؟»**، قلت: نعم، قال: **«هذا شيءٌ كتبَهُ اللَّهُ على بناتِ آدَمَ»** الحديث يأتي في الحج.

[رواه البخاري في الطهارة (٤١٦/١)، وفي الحج وغيره، ورواه مسلم في الحج أيضاً والأربعة ويأتي في الحج مطولاً إن شاء الله].

ش: **«حاضت»**: أصل الحيض في اللغة: السيلان، وفي عرف الشرع: جريان دم المرأة من فرجها في وقت مخصوص على وجه مخصوص. ويعبر عنه بالعادة الشهرية، وبالدورة الشهرية. **«نفست»**: أي حضت.

وظاهر الحديث يدل على أن الحيض مكتوب ومقدر على كل النساء. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن ابتداءه كان من حواء بعد هبوطها من الجنة، ذكره الحاكم عنه بسند صحيح كما في «الفتح» (٤١٦/١)، وقيل: أول من ظهر فيهن الحيض نساء بني إسرائيل، رواه عبدالرزاق عن ابن مسعود بسند صحيح، وذكره البخاري في صحيحه ضمن ترجمة.

صفة دم الحيض

٤٤٧ ـ عن فاطمة بنت أبي حُبَيْش أنها كانت تُسْتَحَاضُ فقال لها النبيُّ ﷺ: **«إذا كان دمُ الحَيضَةِ فإنه دمٌ أسودُ يُعْرَفُ، فإذا كان ذلكَ فامْسِكِي عن الصَّلاةِ، فإذا كان الآخَر فتوضَّئِي وصلِّي فإنما هو عِرْقٌ»**.

[رواه أبو داود (٢٨٦، ٣٠٤)، والنسائي (١٥١/١، ١٠٢)، ومن طريقه ابن حزم في

«المحلى» (٢٥١/١، ٢٥٢)، والحاكم (١٧٣/١، ١٧٤) وسنده حسن صحيح، ولذا صححه جماعة وله شاهد عن عائشة عند النسائي (١٠٢/١)].

ش: «يعرف» ضبط بضم الياء وفتح الراء أي يعرفه النساء وورد بضم الياء وكسر الراء أي له رائحة كريهة منتنة.

والحديث يدل على أن دم الحيض أسود معروف بذلك أو برائحته وهذا غير مطرد في سائر النساء فإن فيه ما هو أحمر، وما لا رائحة فيه.

تحريم مواقعة الحائض

٤٤٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ منهم لم يُؤاكِلُوها ولم يُجَامِعُوها في البُيُوتِ، فسألَ أصحابُ النبي ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيءٍ إلا النِّكَاح».

[رواه أحمد (١٣٢/٣)، ومسلم (٢١١/٣، ٢١٢)، وأبو داود (٢٥٨) وغيرهم].

ش: أجمع العلماء على تحريم وطء الحائض حتى تَطْهُر لهذا الحديث ولقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ الآية.

٤٤٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: «من أتَى حائِضاً، أو امرأةً في دُبُرِها، أو كَاهِناً، فصَدَّقَه بما يَقُولُ، فقد كَفَر بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ».

[رواه الدارمي (١١٤١)، وأبو داود (٤٩٠٤)، والترمذي (٢٣٠)، وابن ماجه (٦٣٩)، وابن الجارود (١٠٧) بسند صحيح، وقد صححه جماعة فلا اعتبار بمن ضعفه].

٤٥٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء عُمرُ بنُ الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله هَلَكْتُ؟ قال: «وما الذي أهلَكَك؟»، قال: حَوَّلْتُ رِحَلِي الليلةَ فلم يَرُدَّ شيئاً فأوحِي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، يقول: «أقْبِلْ وأدْبِرْ، واتَّقِ الدُّبُرَ والحَيضَةَ».

[رواه أحمد (٢٩٧/١)، والترمذي في التفسير (٤ ٧٥، ٧٦)، والنسائي في العشرة من الكبرى (٨٩٧٧)، وسنده حسن].

ش: في الحديث الأول وعيد شديد، وتهديد أكيد لمرتكب الخصال الثلاث، أعاذنا الله تعالى وحفظنا منها. كما في الثاني الأمر بمجانبة إتيان الزوجة من دبرها أو في حالة حيضتيها.

ففي الحديثين زجر بالغ عن كل ذلك عصمنا الله مما يوجب سخطه وغضبه.

كفارة من يأتي امرأته وهي حائض

٤٥١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا وقعَ الرجُلُ بأهْلِهِ وهي حائِضٌ فلْيتصدَّق بنِصْفِ دينارٍ»**.

[رواه أبو داود (٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦)، والترمذي (٢٣١)، والنسائي (١٢٥/١، ٢٥٤)، وابن ماجه (٦٥٠)، وابن الجارود (١٠٨، ١٠٩)، والحاكم (١٧١/١، ١٧٢) وسنده صحيح. وكذا صححه الحاكم، والذهبي، وابن القطان، وابن دقيق العيد، وابن القيم، وابن الملقن، والحافظ وغيرهم].

ش: وفيه مشروعية التصدق بنصف دينار كفارة لمن واقع زوجته حالة حيضها. وقيمة ذلك اليوم نحو من مائتي درهم مغربي.

إباحة مضاجعة الحائض ومباشرتها

٤٥٢ ـ عن زَيْنب بنتِ أبي سَلَمَة أن أم سلمة رضي الله تعالى عنهما قالت: حِضْتُ وأنا مع رسول الله ﷺ في الخَمِيلَةِ، فانْسَلَلْتُ فخرجتُ منها فأخذتُ ثياب حَيْضَتِي فلبستُها، فقال لي رسول الله ﷺ: **«أنُفِسْتِ؟»**، قلت: نعم، فدعاني فأدخلني معه في الخميلة، قالت: وحدثتني أن النبي ﷺ كان يُقَبِّلُها وهو صائم، وكنت أغتسل أنا والنبي ﷺ في إناءٍ واحدٍ من الجنابةِ.

[رواه البخاري في الحيض (٤٣٨/١)، وفي الصوم. ومسلم في الحيض باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد (٢٠٦/٣) وغيرهما].

٤٥٣ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أغتسلُ أنا والنبي ﷺ من إناء واحد كلانا جُنُبٌ، وكان يأمُرُني فأتَزِرُ فيُبَاشِرُنِي وأنا حائضٌ، وكان يُخرِجُ رأسَه إليَّ وهو معتكفٌ فأغسِلُه وأنا حائضٌ.

[رواه البخاري (٤١٩/١)، ومسلم (٢٠٨/٣، ٢٠٩) واللفظ للبخاري].

٤٥٤ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُبَاشِرُ نِساءَه فوقَ الإزارِ وهُنَّ حِيَّضٌ.

[رواه البخاري (٤٢٠/١)، ومسلم (٢٠٣/٣)].

ش: **«الخميلة»**: هو ثوب من صوف له خَمْلٌ. **«نفست»** هو بضم النون وكسر الفاء يقال في الحائض والنفساء كما قال الأصمعي. وفي هذه الأحاديث إباحة مضاجعة الحائض في لحاف واحد ومباشرتها فوق الإزار. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء. وإنما اختلفوا في مباشرتها بما تحت الإزار، فذهب بعض الأئمة إلى التحريم، وذهب آخرون إلى الإباحة وهو مذهب أحمد وداود وابن راهويه ورجحه جماعة. وقال النووي في «شرح مسلم» (٢٠٥/٣): هو أقوى دليلاً، وهذا بلا شك في غير القبل والدبر المحرمين لما تقدم: **«اصنعوا كل شيء إلا النكاح»**، و **«اتق الحيضة والدبر»**.

طهارة جسد الحائض وسؤرها

٤٥٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«نَاوِلِينِي الخُمْرَةَ مِنَ المَسْجِدِ»**، فقلت: إني حَائِضٌ. فقال: **«إنَّ حَيضَتَكِ ليستْ في يدِكِ»**.

[رواه مسلم (٢٠٩/٣، ٢١٠)].

ش: **«إن حيضتك ليست في يدك»** معناه: أن النجاسة التي يصان عنها

المسجد وهي دم الحيض ليست موجودة بيدك. وبذلك يكون جسد الحائض كله طاهراً باستثناء محل الحيض. إذاً لا مانع من إدخال يدها إلى المسجد فتخرج منه ما تحتاجه.

٤٥٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أيضاً قالت: **كنت أشرب وأنا حائِض فأناوله النبي ﷺ فيَضعُ فاهُ على مَوضع فِي، وأتَعَرَّقُ العَرْقَ فيتَنَاوَلُه فيضعُ فاهُ في موضع فِي.**

[رواه مسلم (٣/٢١٠، ٢١١)، وأبو داود (٢٥٩)، والنسائي وغيرهم].

ش: **«العرق»** بفتح العين وسكون الراء: العظم الذي عليه بقية اللحم، وتَعَرَّقْتُهُ: أكلتُ ما بقي عليه من اللحم.

والحديث يدل على طهارة سؤر الحائض ولا خلاف في ذلك، وانظر ما تقدم رقم (٢٦٠).

جواز الصلاة والقراءة قريباً من الحائض أو ملاصقاً لها

٤٥٧ ـ عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: **كان رسولُ الله ﷺ يُصلي في مِرْطٍ بعضُه عليَّ وبعضُه عليه وأنا حائِضٌ.**

[رواه البخاري آخر الحيض (١/٤٤٦)، ومسلم في الصلاة (٤/٢٣٠) ومثله عنده عن عائشة].

٤٥٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: **أن النبي ﷺ كان يَتَّكِئُ في حِجْرِي وأنا حائِضٌ ثم يقرأ القرآن.**

[رواه البخاري (١/٤١٧)، ومسلم (٣/٢١١) كلاهما في الحيض].

ش: **«مرط»** بكسر الميم: هو الكساء.

وفي الحديثين دليل على جواز الصلاة بجنب الحائض وبقرب النجاسة وجواز قراءة القرآن مع الاضطجاع والاتكاء على الحائض.

وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة

٤٥٩ ـ عن مُعَاذَة رحمها الله تعالى قالت: سَألتُ عائشة رضي الله تعالى عنها فقلت: **ما بالُ الحائِض تَقْضِي الصوم ولا تقْضِي الصَّلاة؟ فقالت: أحَرُورِيَّةٌ أنتِ؟ قلتُ: لستُ بحرورية، ولكني أسألُ، قالت: كان يُصيبنا ذلك، فَنُؤمَرُ بقضاء الصوم، ولا نُؤمَرُ بقضاء الصلاة.**

[رواه البخاري (١/٤٣٧، ٤٣٨)، ومسلم (٤/٢٦، ٢٧، ٢٨) واللفظ له].

ش: **«ما بال»**: أي ما شأنها. **«أحرورية»**: الحروري منسوب إلى حروراء وهو موضع قريب من الكوفة كان يسكنه الخوارج. ومن مذهبهم رد ما زاد على القرآن من الحديث فيوجبون على الحائض قضاء الصلاة كالصوم، وسنة النبي ﷺ ترد عليهم مع إجماع الأمة.

المستحاضة وأحكامها

٤٦٠ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قالت فاطمةُ بنت أبي حُبَيْشٍ لرسول الله ﷺ: إني لا أَطْهُرُ أفأدَعُ الصلاة؟ قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«إنما ذلِكِ عِرْقٌ، وليسَ بالحَيضَة، فإذا أقبلتْ الحَيضَةُ فاتركِي الصَّلاة، فإذا ذَهَبَ قدرها فاغسِلِي عنكِ الدَّم وصلِّي»**.

[رواه البخاري (١/٤٢٥)، ومسلم (٤/١٦، ١٧)].

وفي رواية للبخاري: **«ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها، ثم اغتسلي وصلي»**.

٤٦١ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن امرأة كانت تُهْرَاقُ الدِّماءَ على عهد رسول الله ﷺ فاسْتَفْتَتْ لها أمُّ سلمة رسولَ الله ﷺ فقال: **«لتنظُرْ عَدَدَ اللَّيالي والأيَّام التِي كانت تَحِيضُهُنَّ من الشَّهر قبل أن يُصِيبَها الذي أصَابَها، فَلْتترك الصلاة قدرَ ذلكَ، فإذا خَلفَتْ ذلك، فلْتَغْتَسِل، ثم لِتَسْتَفْرِ بثوبٍ ثم لِتُصَلِّ**.

[رواه أبو داود (٢٧٤)، والنسائي (١/١٤٩) وسنده صحيح].

٤٦٢ ـ وعن حَمْنة ابنة جَحْش قالت: كنت أُستَحاضُ حيضةً كثيرة شديدة، فأتيت النبي ﷺ أستفتيه فقلت: يا رسول الله، إني أُستحاض حيضة كثيرة شديدة فما تأمرني فيها؟ فقد منعتني الصيام والصلاة، قال: «**أنعَتُ لكِ الكُرْسُفَ، فإنه يذهب الدَّمَ**»، قالت: هو أكثرُ من ذلك، قال: «**فتَلَجَّمي**»، قالت: هو أكثر من ذلك، قال: «**فاتَّخِذي ثَوباً**»، قالت: هو أكثر من ذلك، إنما أثُجُّ ثَجّاً، فقال النبي ﷺ: «**سَآمُرُكِ بأمرَين: أيُّهُما صَنَعْتِ أجزأ عنكِ، فإن قَوِيتِ عليهما فأنتِ أعلمُ**، فقال: **إنما هي رَكْضَةٌ من الشَّيطان، فتَحَيَّضي ستَّةَ أيام، أو سبعةَ أيام في عِلم الله، ثم اغْتَسِلي فإذا رأيتِ أنكِ قد طَهُرْتِ واسْتَنْقَأْتِ، فصلِّي أربعةً وعشرين ليلة، أو ثلاثاً وعشرين ليلة وأيامَها، وصومي وصلي، فإن ذلِك يُجزِئُكِ، وكذلك فافعلي كما تَحيضُ النساءَ، وكما يَطْهُرْنَ لِميقات حَيضِهن وطُهرهن، فإن قويتِ على أن تُؤَخِّري الظهر وتُعَجِّلي العصر ثم تغتسلين حين تطهُرين، وتصلين الظهر والعصر جميعاً ثم تؤخِّرين المغرب وتُعَجِّلين العشاء ثم تغتسلين وتَجْمَعِين بين الصلاتين فافعلي، وتغتسلين مع الصبح وتصلين وكذلك فافعلي، وصومي إن قويت على ذلك**». فقال رسول الله ﷺ: «**وهو أعجبُ الأمرين إليَّ**».

[رواه أحمد (٦/٤٣٩)، وأبو داود (٢٨٧)، والترمذي (١١٢)، وابن ماجه (٦٢٧)، والحاكم (١/١٧٢، ١٧٣) وحسنه الترمذي وصححه].

ش: «**الكرسف**»: هو القطن. «**أثُجُّ ثجاً**»: تعني يسيل بكثرة. «**فتلجمي**»: أي شدي على محل الدم لجاماً وهو استثفري. «**تحيضي**»: أي اقعدي أيام حيضتك ودعي الصلاة والصيام.

هذه الأحاديث الثلاثة استوعبت أحكام كل أحوال المستحاضة فإن الحائض إذا استرسل معها الدم وجاوز أيام عدتها يقال لها مستحاضة وهي لا تعدو أحوالاً ثلاثة فهي إما أن تكون لها معرفة بدم حيضها فتميزه عن دم العلة والاستحاضة فهذه تعمل على حديث عائشة في قصة فاطمة ابنة أبي حبيش لقوله ﷺ لها: «**فإذا أقبلت الحيضة فاتركي الصلاة..**» إلخ. ولقوله

في الرواية الأخرى المتقدمة رقم (٤٤٩): «**إن دم الحيض أسود يعرف..**» إلخ، وإما أن تكون لها عادة وأيام معروفة فتعمل على عادتها وعليها يحمل حديث أم سلمة لقوله ﷺ: «**لتنظر عدة الليالي والأيام التي كانت تحيضهن..**» إلخ. والحالة الثالثة أن لا تكون لها أيام، ولا لها معرفة بدم حيضها فهذه ترجع إلى عادة النساء ويقال لهذه المختلطة، ويشهد لهذه حديث حمنة.

ملحوظة: دم الاستحاضة سببه ضرب الجن، وهو المعبر عنه في الحديث: «**ركضة شيطان**». ويخرج من عرق داخل الرحم يقال له: العاذل. ولا يخلو زمان ولا مكان من النساء المستحاضات. وقد كان أيام النبوة كثير النسوة المستحاضات كفاطمة ابنة أبي حبيش، وحمنة ابنة جحش، وأم حبيبة بنت جحش رضوان الله عليهن وقد أوصلهن بعضهم إلى سبع أو عشر، والله تعالى أعلم.

الكدرة والصفرة وعلامة الطهر

٤٦٣ ـ عن أم عطية رضي الله تعالى عنها قالت: كنا لا نعد الكدرة والصفرة بعد الطهر شيئاً.

[رواه البخاري (٤٤٢/١)، وأبو داود (٣٠٧، ٣٠٨)، والنسائي (١٥٣/١) واللفظ لأبي داود].

ش: الحديث يدل على أن ما يراه النساء من الصفرة والوسخ والكدرة الخارجة منهن بعد أن يطهرن ليس بحيض. وما جاء عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها حيث كان النساء يبعثن إليها بالكرسف فيه الصفرة من دم الحيضة يسألنها عن الصلاة فتقول لهن: لا تعجلن حتى ترين القصة البيضاء، رواه مالك في الموطأ (١٢٦)، وذكره البخاري ضمن ترجمة (٤٣٦/١)، فهذا كان قبل أن يطهرن فما خرج منهن وقته يكون حيضاً أما ما ظهر بعد الجفاف وخروج الماء الأبيض فلا يعتبر دم حيض.

النفساء والنفاس

٤٦٤ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ **وَقَّتَ لِلنُّفَسَاءِ أربعينَ يوماً، إلا أن تَرى الطُّهر قبلَ ذلك.**

[رواه ابن ماجه (٦٤٩) بسند صحيح].

٤٦٥ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً، وكنا نَطْلِي وجُوهَنا بالوَرْس من الكَلَفِ.

[رواه أبو داود (٣١١)، والترمذي (١٢٢)، وابن ماجه (٦٤٨)، والحاكم (١/١٧٥) وصححه ووافقه الذهبي].

ش: النفاس هو الولادة والدم الذي يعقبه ويقال لمن خرج منها ذلك نفساء. وحكمها أنها كالحائض فإذا طهرت ولو من يومها وجب عليها الصوم والصلاة... فإن استرسل معها الدم تمكث أربعين يوماً فإن لم تطهر كانت مستحاضة.

قال الترمذي في «الجامع»: أجمع أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً إلا أن ترى الطهر قبل ذلك فتغتسل وتصلي إلخ.

وقال ابن قدامة في «المغني» (١/٢٠٥): هذا قول أكثر أهل العلم.

* * *

كتاب التيمم

التيمم من خصائص هذه الأمة

٤٦٦ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: **«أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلي»**، فذكرها وفيه: **«وجُعِلَتْ لِي الأرضُ**

مَسْجِداً وطَهُوراً فأيُمَا رجُلٍ مِن أُمَّتِي أدْرَكَتْهُ الصَّلاة فليصَلِّ» الحديث.

[رواه البخاري في أول التيمم (٤٥١/١، ٤٥٥)، وفي مواضع، ومسلم في أول المساجد (٣/٥، ٤)، وسيأتي بتمامه في الأنبياء إن شاء الله تعالى].

ش: قوله: «أعطيت خمساً» هذا العدد لا مفهوم له، فلقد أعطي من الخصائص المئين كما ذكرها علماؤنا محصية مجموعة في كتب خاصة، والذي يهمنا هنا هو أن طهارة الأرض تيمماً بها وصلاة عليها من خصائص نبينا ﷺ وخصائص أمته.

سبب نزول حكم التيمم

٤٦٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبَيْدَاءِ أو بِذات الجَيْشِ، انقطع عِقْدٌ لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسِه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر فقالوا: ألا تَرى إلى ما صَنعتْ عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسَه على فَخِذِي قد نام، فقال: حَبسْتِ رسولَ الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت: فعاتَبَنِي أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول: وجعل يطْعَن بِيدِه في خاصِرتي فلا يَمنَعُني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا. فقال أُسَيْدُ بن الحُضَيْر ـ وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العِقْد تحته.

[رواه البخاري (٤٤٨/١)، ومسلم (٥٧/٤، ٥٨) كلاهما في التيمم والسياق لمسلم].

ش: كان هذا الحادث في غزوة بني المصطلق وهي المريسع.

وفي الحديث بركة عائشة رضي الله تعالى عنها وفضلها حيث نزلت آية التيمم، وحكمه بسبب فقدان عقدها. وفي الحديث مشروعية التيمم لفقدان

الماء وقد نطق بذلك القرآن الكريم: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الآية، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين.

تيمم الجريح والمريض

٤٦٨ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أصاب رجلاً جُرْحٌ في عهدِ رسول الله ﷺ ثم احْتَلَم فأُمِرَ بالاغتسال فاغتسل فمات، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «**قَتَلُوه قَتَلَهُم اللَّهُ، ألم يَكن شِفَاء العِيِّ السؤال**».

[رواه أبو داود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢)، وابن حبان (٢٠١)، والحاكم (١/١٦٥) وهو حديث حسن لشاهد له عن جابر عند أبي داود (٣٣٦)].

ش: «**قتلوه**»: يعني قتلوه خطأ بفتواهم. «**العي**» بكسر العين: قصور الفهم، أو قلة الكلام.

وفي الحديث مشروعية التيمم لمن به جراحة وخشي على نفسه الموت أو تأخر البرء ونحو ذلك، وقد صرح القرآن بالتيمم من المرض، والجرح مرض.

التيمم من البرد

٤٦٩ ـ عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشْفَقْتُ إن اغتسلتُ أن أهْلِك فتيمَّمتُ ثم صليتُ بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**يا عمرو صلَّيتَ بأصحَابِك وأنتَ جُنُبٌ؟**»، فأخبرتُه بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

[رواه أبو داود (٣٣٤)، والحاكم (١/١٧٧) بسند صحيح، وعلقه البخاري وقال عنه الحافظ: إسناده قوي. ورواه أبو داود (٣٣٥)، وابن حبان (٢٠٢)، والحاكم (١/١٧٧) من طريق آخر.. وفيه فغسل مغابنه وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم.. إلخ، وسنده صحيح].

ش: الحديث يدل على مشروعية التيمم لمن خاف من البرد إذا استعمل الماء لتقرير النبي ﷺ عمرو بن العاص على ما فعل وقال. أما رواية غسل مغابنه ووضوئه فقال البيهقي والنووي: يجمع بينهما بأنه توضأ ثم تيمم. قال النووي: إن هذا الجمع متعين.

حكم من تيمم وصلى ثم وجد الماء

٤٧٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاةُ وليس معهما ماءٌ، فتيمَّما صعيداً طيِّباً فصلَّيا، ثم وجدا الماءَ في الوقت، فأعاد أحدُهما الصلاةَ والوضوءَ ولم يُعِد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال للذي لم يعد: «**أصبتَ السُّنَّة، وأجزأتْك صلاتُك**». وقال للذي توضأ وأعاد: «**لك الأجْرُ مرَّتين**».

[رواه الدارمي (٧٥٠)، وأبو داود (٣٣٨)، والنسائي (١/١٧٤)، والحاكم (١/١٧٨، ١٧٩) وسنده حسن وهو صحيح لطريق آخر له].

ش: في الحديث دليل على أن من صلى بالتيمم ثم وجد الماء في الوقت لا تجب عليه الإعادة لقوله ﷺ لمن لم يعد: «**أصبت السنة**» يعني أن الحق في جانبه، أما الآخر الذي اجتهد فأعاد صلاته فهو وإن كان له الأجر مرتين فهو مخطىء في اجتهاده مخالف للسنة.

الصلاة بلا وضوء ولا تيمم

٤٧١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فوجدها فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله آية التيمم.

[رواه البخاري (١/٤٥٦، ٤٥٧)، ومسلم (٤/٥٩) وله: فأرسل رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء.. إلخ].

ش: هذا الحديث بهذه الرواية استدل به من قال بوجوب الصلاة لمن

فقد الماء والصعيد، فإن النبي ﷺ لم ينكر على أولئك الأصحاب الذين صلوا كذلك ولم يعيدوا ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وبهذا قال الشافعي وأحمد وأكثر أصحاب مالك وجمهور المحدّثين. وقال مالك وأبو حنيفة في المشهور عنهما: لا يصلي من هذه حالة.

الصعيد وضوء المسلم كافيه

٤٧٢ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورُ المُسلم**». وفي رواية: «**وَضُوءُ المسلم، وإن لم يَجِد الماءَ عشرَ سنينٍ، فإذا وجَدَ الماء فلْيُمِسَّه بَشَرَتَه فإن ذلك خيرٌ**».

[رواه أبو داود (٣٣٢، ٣٣٣)، والترمذي (١٠٩) واللفظ له، والنسائي (١٢٩/١)، وابن حبان (١٩٦، ١٩٧)، والحاكم (١٧٦/١، ١٧٧) وحسنه الترمذي وصححه].

ش: «**الصعيد**»: هو وجه الأرض تراباً كان أم غيره. قال الزجاج: لا أعلم خلافاً بين أهل اللغة في ذلك. وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعي والظاهرية. قال ابن حزم في «المحلى»: الصعيد وجه الأرض في اللغة التي نزل بها القرآن. وقوله: «**وضوء**» إلخ: هو يدل على أنه يقوم مقام الماء في كل شيء حتى في الجنابة.

والحديث جاء في الجنابة كما في سنن أبي داود وغيره، وأن أبا ذر كانت تصيبه الجنابة ويتيمم ويصلي فلما شكى ذلك للنبي ﷺ قال له ذلك.

وفي الحديث وجوب الغسل عند وجود الماء لمن كان به جنابة فأحرى الوضوء لقوله: «**فإذا وجدَ الماءَ فليُمِسَّه بشرتَه**».

٤٧٣ ـ وعن عِمْرَان بن الحُصَيْنِ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصلِّ في القوم فقال: «**يا فلانٌ ما منعكَ أن تُصَلِّي مع القوم؟**»، فقال: يا رسول الله أصابتْنِي جنابةٌ ولا ماء، فقال: «**عليكَ بالصَّعِيدِ، فإنَّه يَكْفِيكَ**».

[رواه البخاري (٤٦٧/١، ٤٦٨) في التيمم، ومسلم في المساجد].

ش: قوله: «فإنه يكفيك»: هو نص في أن التيمم كافٍ للجنابة وغيرها، ولا خلاف في ذلك. ويؤخذ منه أنه لا يجب تجديد التيمم لكل صلاة وبذلك قال جماعة من الأئمة لأنه إذا كان كافياً كان بمثابة الطهارة بالماء ولا فارق.

صفة التيمم

٤٧٤ ـ عن عبدالرحمن بن أبزى رحمه الله تعالى أن رجلاً أتى عُمرَ رضي الله تعالى عنه فقال: إني أجْنَبْتُ ولم أجد ماءً، فقال: لا تُصَلِّ، فقال عَمَّارٌ: أمَا تَذكُرُ يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأصابتنا جنابة فلم نجد الماء؟ فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمَعَّكْتُ في التراب وصليتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما يكفيكَ أن تَضرِبَ بِيَدَيْكَ الأرضَ ثم تنفخُ ثم تمسحُ بهما وجهك وكفَّيك**». فقال عمر: اتَّقِ الله يا عمار، فقال: إن شئت لم أحدِّث به. فقال عمر: نُوَلِّيكَ ما توليتَ.

[رواه البخاري (٤٥٩/١، ٤٦٠)، ومسلم (٦٢/٤)، وأبو داود والنسائي وغيرهم].

ش: «**تمعكت**»: أي تمرغت في التراب. «**نوليك**»: أي نكلك إلى ما قلت.

والحديث يدل على أن الواجب في التيمم هو ضربة واحدة يُمَسح بها الوجه والكفان. وبهذا قال أهل الحديث وأحمد والظاهرية والجمهور. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أبد الآبدين.

خاتمة

جملة ما في كتاب الطهارة بجميع أبوابها من الأحاديث مائتان وثلاث وثلاثون. أخرج البخاري ومسلم أو أحدهما منها مائة وعشرة أحاديث، والباقي وهي مائة وثلاث وعشرون من الزوائد الصحيحة عليهما.

كتاب الصلاة

من فضائلها

٤٧٥ ـ عن معدان بن أبي طلحة اليَعْمُري قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته، فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**عَلَيكَ بكَثْرةِ السجود لله، فإنَّك لا تَسجُد لله سجْدَةً إلا رفعكَ الله بها دَرجةً، وحَطَّ عنكَ بها خطيئة**». قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألته فقال لي مثل ما قال لي ثوبان.

[رواه أحمد (٥/٢٧٦)، ومسلم (٤/٢٠٥)، والترمذي رقم (٣٨٨)، والنسائي (٢/١٨١) وغيرهم].

٤٧٦ ـ وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «**سَلْ**»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك، قلت: هو ذاك، قال: «**فأعِنِّي على نَفْسِكَ بكثرةِ السُّجودِ**».

[رواه مسلم (٤/٢٠٥، ٢٠٦)، وأبو داود (١٣٢٠)، والنسائي (٢/١٨٠)].

ش: في الحديثين فضلٌ عظيم لكثرة السجود وذلك يتطلب الإكثار من الصلاة فيكون فضلها عظيماً وأنها من موجبات رفع الدرجات، وحط الخطيئات، ومرافقة النبي ﷺ في الجنة. ويا لها من بشارات.

فضل الصلوات الخمس

٤٧٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«أرَأيتُم لو أنَّ نَهراً بباب أحَدِكُم يغتَسِلُ فيهِ كلَّ يوم خمساً، ما تقولُ ذلك يبقى من دَرَنِهِ؟»**، قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً، قال: **«فذلِكَ مثلُ الصَّلواتِ الخَمس يَمحو الله بها الخَطايا»**.

[رواه أحمد (٢/٣٧٩)، والبخاري (٢/١٥١)، ومسلم (٥/١٧٠)، والنسائي، وكذا الترمذي في الأمثال].

ش: «درنه» بفتح الدال والراء: هو في الأصل الوسخ الحسي، والمراد به هنا قذر الذنوب والمعاصي. وفيه أن الصلوات الخمس لا تبقي على صاحبها ذنباً كما لا يبقى وسخ في جسم من يغتسل كل يوم في نهر خمس مرات.

٤٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الصَّلواتُ الخَمْس، والجُمْعَةُ إلى الجُمْعَة كفَّارات لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ الكَبائِر»**.

[رواه أحمد (٢/٤٠٠، ٤١٤، ٤٨٤)، ومسلم في الطهارة (٣/١١٧، ١١٨)، والطيالسي (٢٥٣)، والترمذي رقم (٢١٤)].

ش: «تغش»: في رواية: **«يغش»**، بالياء، ومعنى هذا أن الصلوات الخمس والجُمَع تكفر كل ما بينها من ذنوب المسلم ما لم يأت كبيرة فيستفاد من الحديث أن المعاصي التي تكفر بالصلاة، هي الصغائر. وهذا قول عامة أهل العلم.

فرضية الصلوات الخمس

٤٧٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء بطوله، وفيه قال النبي ﷺ: **«ففَرَض الله على أُمَّتي خَمْسينَ صلاةً، فرَجعتُ بذلِكَ حتى**

مَرَرْتُ على موسى فقال: ما فَرَض الله لَكَ على أُمَّتِك؟ قلت: فَرَض خمسين صلاةً، قال موسى: فَارجِعْ إلى ربِّك فإنَّ أُمَّتك لا تُطِيقُ ذلك، فَراجعته فوضع شطْرها». فذكر الحديث وفيه: **«فراجعته فقال: هُنَّ خَمسٌ، وهُنَّ خَمْسُون لا يبدل القول لدي»** الحديث.

[رواه البخاري في أول الصلاة (٤/٢، ٨)، وفي المناقب (٢٠٠/٨، ٢١٦)، وفي بدء الخلق، وفي التوحيد.. ومسلم في الإيمان (٢٠٩/٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٥)].

ش: **«هن خمس»** معناه: هي باعتبار الفعل عددها خمس وفي الثواب خمسون.

والحديث يدل على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس من أنواع الصلاة ويؤيده ما تقدم في الإيمان: هل عليَّ غيرها؟ قال: **«لا، إلا أن تطوع»**.

٤٨٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: فرض الله الصلاة حيث فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرَّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر.

[رواه البخاري في أول الصلاة (٩/٢)، وفي الهجرة وفيه: ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً].

ش: والحديث يدل على أن الصلاة يوم فرضت فرضها الله ركعتين، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيد في صلاة الحضر، وبقيت صلاة السفر على أصلها الأول. واستدل بالحديث على وجوب تقصير الصلاة في السفر. وبه قال الحنفية والظاهرية وهو قول للمالكية.

وعيد من ترك الصلاة

٤٨١ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَيْنَ العَبدِ وبينَ الكُفْر تَرْكُ الصَّلاةِ»**. وفي رواية: **«بينَنا وبينهُم تَرْكُ الصَّلاةِ، فمَنْ تَرَكَها فقد كَفَرَ»**.

[رواه أحمد (٣٥٥/٥)، ومسلم (٧٠/٢، ٧١)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي في

الإيمان رقم (٢٤٣٧)، والنسائي (١/١٨٧)، وابن ماجه (١٠٧٨) في الصلاة.. بألفاظ متقاربة].

٤٨٢ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنا وبينهم الصَّلاة، فمَنْ تَرَكَها فَقَدْ كَفَرَ»**.

[رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٣٨)، والنسائي (١/١٨٧)، وابن ماجه (١٠٧٩)، والحاكم (١/٦، ٧)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم].

ش: قوله: **«بين العبد..»** إلخ، معناه: الذي يمنع من كفر العبد كونه لم يترك الصلاة، فإذا تركها لم يبق بينه وبين الكفر حائل، ففعل الصلاة هو الحاجز بين العبد وبين الكفر. وتركها هو الوصلة بين الكفر والإيمان. وقوله: **«العهد..»** إلخ، معناه: الأمان الحاجز بيننا وبين المنافقين والكفار هي الصلاة، فمن تركها فلا ذمة له، ولا عهد ولا أمان.

واستدل بظاهر الحديثين من قال بكفر تارك الصلاة مطلقاً ولو تكاسلاً مع اعتقاد وجوبها، وهم: ابن المبارك، وابن راهويه، وأحمد. وورد عن علي وعمر وابن مسعود وغيرهم من الصحابة حتى قال عبدالله بن شقيق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر إلا الصلاة. رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٣٩) بسند صحيح، ورواه الحاكم (١/٧) عن أبي هريرة وصححه على شرطهما. وقال محمد بن نصر المروزي: هو قول جمهور أهل العلم من المحدثين. وقد حكاه الحافظ المنذري في «الترغيب» عن إبراهيم النخعي وأيوب السختياني وأبي داود الطيالسي وابن أبي شيبة في آخرين. وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي إلى أنه لا يكفر، بل هو فاسق فإن تاب، وإلا قتلناه غير أن أبا حنيفة قال: يعزر ويحبس حتى يصلي ولا يقتل.

والحق أن تارك الصلاة كافر كفراً عملياً، وليس بالكفر الذي يخرج عن الملة، فهو كفر دون كفر. ولذلك أمثلة جاءت في السنة كأنواع الشرك أيضاً. وهذا كله إذا أقر بوجوبها واعترف بجميع كليات الإيمان وتركها تكاسلاً كأكثر عوام المسلمين.

ويشهد لهذا القول حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خمس صلوات افترضهن الله تعالى من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن، وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**» رواه أحمد (٥/٣١٧، ٣٢٢)، وأبو داود (٤٢٥) وغيرهما وسنده صحيح، وانظر تخريجه في حواشي «صحيح ابن حبان» (٥/٢١).

أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة

٤٨٣ ـ عن تميم الداري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**أولُ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُه، فإنْ أكمَلَها كُتبتْ له كاملةً، فإن لم يكنْ أكمَلَها، يقول الله سبحانه لملائكته: انظُروا، هَلْ تَجِدُون لِعَبْدِي مِن تطوُّع؟ فأكْمِلُوا بها ما ضيّع من فَريضةٍ، ثم تؤخذُ الأعمالُ على حَسب ذلك**».

[رواه أحمد (٤/١٠٣)، وابن ماجه رقم (١٤٢٦) وسنده صحيح، وفي الباب عن أبي هريرة رواه الترمذي رقم (٣٧٠)، والنسائي (١/١٨١، ١٨٩)، وابن ماجه رقم (١١٧٣، ١٤٢٥) وسنده صحيح أيضاً].

ش: قوله: «**أول ما يحاسب..**» إلخ: هذا بالنسبة لحقوق الله وذلك لأهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام، فهي جديرة بالمحاسبة عليها بداية.

وفي الحديث دليل على أن التطوع من أنواع الصلاة يجبر به ما انتقص من صلاة العبد، وهكذا سائر الفرائض.

أمر الصبيان بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين

٤٨٤ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا صبْيانَكُم بالصَّلاةِ لِسَبْعِ سِنينِ، واضْرِبُوهُم عليها لِعَشْرِ سِنِينِ، وفَرِّقُوا بَينَهُم في المَضَاجِعِ**».

[رواه أحمد (٢/١٨٠، ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥)، والحاكم (١/١٩٧)، والدارقطني (١/٢٣٠) وهو حديث صحيح له شاهدٌ عن سبرة بن مَعبَدٍ عند أحمد (٣/٤٠٤)، والترمذي (٣٦٤)، والحاكم (١/٢٥٨)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وفي الباب عن أبي هريرة وأنس وأبي رافع وغيرهم].

ش: في الحديث الإرشاد إلى تدريب الأطفال على الصلاة إذا وصلوا إلى سن التمييز ليتمرنوا عليها ويألفوها، وينشأوا على عبادة الله والتوجه إليه... على أنه لا مفهوم للصلاة فكل شعائر الدين وآدابه وأخلاقه كذلك.

كما فيه الأمر بتأديبهم عليها إذا تمَّ لهم عشر سنين. وفي هذا السن يجب على آبائهم التفريق بينهم في مضاجع نومهم بحيث يفرد كل على حدة سواء في ذلك الذكور والإناث، وهذا من محاسن الإسلام وآدابه القيمة.

* * *

مواقيت الصلاة

ما جاء في المواقيت الجامعة

٤٨٥ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه **أن رسول الله ﷺ أتاه سائلٌ فسأله عن مواقيت الصلاة؟ فلم يرد عليه شيئاً قال: وأمر بلالاً فأقام الفجر حيث انشق الفجر، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً، ثم أمره فأقام الظهر حين زالت الشمس، والقائل يقول: قد انتصف النهار، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة، ثم أمره فأقام المغرب حين وقعت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أخر الفجر من الغد حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد طلعت الشمس أو كادت، ثم أخر الظهر حتى كان قريباً من وقت العصر بالأمس، ثم أخر العصر حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد احمرت الشمس، ثم أخر المغرب حتى كان عند سقوط الشفق.** وفي رواية: **قبل أن يغيب الشفق في**

اليوم الثاني، ثم أخر العشاء حتى كان ثلث الليل الأول ثم أصبح فدعا السائل، فقال: «الوقت بين هذين».

[رواه أحمد (٤/٤١٦)، ومسلم (٥/١١٥، ١١٦)، وأبو داود (٣٩٥)، والنسائي (١/٢٠٩)].

٤٨٦ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما **أن النبي ﷺ جاءه جبريل عليه السلام فقال له: قُمْ فصلِّه، فصلى الظهر حين زالت الشمس، ثم جاءه العصر فقال: قُمْ فصَلِّه، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله، ثم جاءه المغرب فقال: قُمْ فصَلِّهِ، فصلى المغرب حين وجبت الشمس، ثم جاءه العشاء فقال: قُمْ فصَلِّهِ، فصلى العشاء حين غاب الشفق، ثم جاءه الفجر فقال: قُم فصلِّه، فصلى الفجر حين برق الفجر، أو قال: سطع الفجر، ثم جاء من الغد للظهر فقال: قم فصله، فصلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثله، ثم جاءه العصر فقال: قم فصله، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، ثم جاءه المغارب وقتاً واحداً لم يزل عنه، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل، أو قال: ثلث الليل، فصلى العشاء، ثم جاءه حين أسفر جداً، فقال: قم فصله، فصلى الفجر. ثم قال: «مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ وقْتٌ».**

[رواه أحمد (٣/٣٣٠، ٣٣١)، والنسائي (١/٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٩)، والترمذي رقم (١٣٢) بسند صحيح، وقال البخاري: هو أصح شيء في المواقيت، ذكره الترمذي].

ش: كان بيان أوقات الصلوات الخمس من جبريل عليه السلام ظهر صبيحة ليلة الإسراء جاء فصلى بالنبي ﷺ يومين بيَّن له فيها وقتين لكل صلاة جاء ذلك من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه في البخاري (٢/١٤٣)، ومسلم (٥/١٠٧)، وأبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه الترمذي (١٣٣)، والنسائي (١/٢٠٠) وغيرهما بسند صحيح. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رواه أحمد (١/٣٥٤، ٣٣٣)، وأبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٣١) وغيرهم، وسنده حسن وهو صحيح لتابع وشاهد. وعن جابر وهو حديث الباب المذكور أعلاه في أحاديث أخرى حتى عدَّه السيوطي في المتواتر، ثم بين ذلك النبي ﷺ لأصحابه بتفصيل بقوله وفعله أتم بيان وأكمله جاء ذلك عنه ﷺ من

طرق متواترة عن ابن عمر، وبريدة، وأبي برزة، وأبي سعيد الخدري، وابن مسعود، وأبي ذر، وعبدالله بن عمرو، ورافع بن خديج، وسلمة بن الأكوع، وأبي أيوب، وابن عباس، وأبي هريرة، ومعاذ بن جبل، وجابر بن سمرة، وأنس، وعائشة، وأم سلمة في آخرين رضي الله تعالى عنهم. وأصبح توقيت الصلاة من الفرائض اللازمة بحيث لا يجوز للمسلم أن يخرج أي صلاة عن وقتها المحدد لها. ومن ضيع ولو صلاة منها كان قد ارتكب جرماً عظيماً حتى اعتبر ذلك الإمام أحمد ردة وخروجاً عن الإسلام.

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى في كتاب الدماء من «المحلى» (٣٤٢/١٠): مسألة: لا ذنب عند الله عزّ وجلّ بعد الشرك أعظم من شيئين: أحدهما تعمد ترك صلاة فرض حتى يخرج وقتها، والثاني قتل مؤمن أو مؤمنة عمداً بغير حق إلخ. والتوقيت كما جاء في السنة المتواترة جاء في القرآن الكريم أيضاً قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ[1] عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾، أي مكتوباً محدداً بأوقات معلومة.

وأشار تعالى إلى الأوقات الخمس بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، فطرفا النهار: الصبح والعصر. وزلف من الليل: المغرب والعشاء. وهو قول ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن جرير. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾. فدلوك الشمس: زوالها، وهو إشارة إلى الظهر والعصر. وغسق الليل: ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء. وقرآن الفجر: أي صلاة الفجر. وهذا قول كل المفسرين. ومنها قوله عزّ وجلّ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، فالمراد بالتسبيح الصلاة لأنه من جملتها، فحين تمسون صلاة المغرب والعشاء، وحين تصبحون صلاة الصبح، وعشياً: صلاة العصر. قال نافع لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم. وقرأ الآيتين وقال: جمعتا الصلوات الخمس ومواقيتها.

---

(١) كانت هنا معناها الدوام والاستمرار فإن لها خمس معاني.

وجملة الأحاديث الواردة في مواقيت الصلاة تدل على أن لكل صلاة وقتين، فالظهر يدخل وقتها إذا زالت الشمس ومالت عن وسط السماء وظهر فيء كل شاخص وظله بقدر شراك النعل وهو سيرها الذي يكون على القدم. ويمتد وقتها إلى أن يصير ظل كل شاخص مثله. وإثره يدخل وقت العصر ويمتد إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه. ويبقى بعد ذلك وقت الجواز مع الكراهة إلى أن تغيب الشمس وعندها يدخل وقت المغرب ويمتد إلى غيبوبة الشفق وهو الحمرة التي تبقى بعد الغروب وعندئذ يدخل وقت العشاء ويمتد اختياراً إلى ثلث الليل أو نصفه ويبقى وقت الجواز إلى طلوع الفجر حيث يدخل وقت الصبح، ويمتد إلى طلوع قرص الشمس.. وكله وقت للأداء.

فوائد: الأولى: دلت الأحاديث أن لكل صلاة أولاً وآخراً وهو مذهب الجماهير غير المغرب، فاختلفت فيها الأحاديث، والأصح أن لها وقتين وأنها تمتد إلى غيبوبة الشفق جاء ذلك صريحاً في أحاديث بريدة، وعبدالله بن عمرو، وأبي موسى الأشعري. وكلها في صحيح مسلم (٥/١١٢، ١١٤، ١١٦).

الثانية: على هذه الأحاديث يبني علماء التوقيت حصطهم وهي أصل للآلة المعروفة اليوم، لضبط الوقت.

الثالثة: هذه الأوقات مبنية على سير الشمس، وذلك خاص بالأقطار والمناطق التي تظهر فيها الشمس طول السنة. أما المناطق الأخرى عند القطبين الجنوبي والشمالي فنظامهما مختل كما هو معلوم. وبذلك يعرف أن الله عزّ وجلّ قد علم أن دين الإسلام لا يكون إلا في وسط الكرة الأرضية وما قاربه.

الرابعة: تعلم علم سير الشمس من فروض الكفاية إذ بذلك يعرف التوقيت وما يجري مجراه، ولذلك كان علم الفلك من العلوم المفيدة جداً.

تعجيل الصلوات

٤٨٧ ـ عن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال: كان

رسول الله ﷺ **يصلي الهجيرة التي تدعونها الأولى حين تدحض الشمس، ويصلي العصر ثم يرجع أحدنا إلى رحله في أقصى المدينة والشمس حية، ونسيت ما قال في المغرب، وكان يستحب أن يؤخر من العشاء التي تدعونها العتمة، وكان يكره النوم قبلها، والحديث بعدها، وكان ينفتل من صلاة الغداة حين يعرف الرجل جليسه، ويقرأ بالستين إلى المائة.**

[رواه البخاري (٢/١٦١)، ومسلم (٥/١٤٥) وغيرهما].

ش: «الهجيرة»: صلاة الظهر، سميت بذلك لأنها تصلى في وقت الهاجرة وعند انتصاف النهار. **«تدحض»**: أي تزول. **«حية»**: أي لا زالت قوتها وحرارتها قائمة موجودة.

٤٨٨ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن صلاة النبي ﷺ فقال: **كان يصلي الظهر بالهاجرة والعصر، والشمس حية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء إذا كثر الناس عجل، وإذا قلوا أخر، والصبح بغلس.**

[رواه البخاري (٢/١٨٧)، ومسلم (٥/١٤٤)].

ش: «وجبت»: يعني غابت الشمس. **«بغلس»** بفتح الغين واللام: وهو اختلاط ظلام الليل ببياض الصبح. أكثر أهل العلم من الصحابة والتابعين فمن بعدهم على أن تعجيل الصلوات في أول الوقت أفضل إلا العشاء والظهر في الحر خاصة كما يأتي إن شاء الله تعالى.

ما جاء في تعجيل صلاة الفجر والإسفار بها

٤٨٩ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: **إن كان رسول الله ﷺ ليصلي الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس.**

[رواه البخاري (٢/١٩٥)، ومسلم (٥/١٤٣) وغيرهما].

ش: «متلفعات»: في رواية: متلففات بفاءين ومعناهما واحد.

«**بمروطهن**»: هو جمع مرط بكسر الميم وسكون الراء: هو كساء واسع خشن من صوف أو نحوه.

والحديث ظاهر في أنه ﷺ كان يصلي الصبح مغلساً بها. وبه قال أحمد والشافعي ومالك وغيرهم، ويؤيد هذا المذهب الحديث التالي.

٤٩٠ ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: **تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قيل: كم كان قدر ذلك؟ قال: قدر خمسين آية.**

[رواه البخاري (١٩٤/٢) في المواقيت، ورواه في الصيام كمسلم (٢٠٧/٧)].

ش: وهو يدل على التبكير بصلاة الصبح عقب طلوع الفجر. وفي حديث أبي برزة: وكان يقرأ في صلاة الفجر من المائة إلى الستين، وكان ينصرف حين يعرف بعضنا وجه بعض. رواه. وقد تقدم مطولاً.

وذهب أبو حنيفة والثوري إلى الإسفار بالصبح واستدلوا بالحديث الآتي.

٤٩١ ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَسْفِرُوا بالفَجْرِ، فإنَّهُ أعْظَمُ للأجْرِ**».

[رواه أحمد (٤٦٥/٣، و ١٤٢/٤، ١٤٣)، والطيالسي (٣٠١)، والحميدي (٤٠٩)، وأبو داود (٤٢٤)، والنسائي (٢١٨/١)، وابن ماجه (٦٧٢) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه وحمله غيرهم على تيقن طلوع الفجر، أو على الليالي القصيرة، أو المقمرة].

وقد جاء في سنن أبي داود (٣٩٤)، وابن حبان (٢٧٩) عن أبي مسعود الأنصاري: أن رسول الله ﷺ غلس بالصبح، ثم أسفر مرة، ثم لم يعد إلى الإسفار حتى قبضه الله. وسنده حسن.

ما جاء في تعجيل صلاة الظهر وتأخيرها في شدة الحر

٤٩٢ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ بالظهائر سجدنا على ثيابنا اتقاءَ الحر.**

[رواه البخاري (١٦٢/٢)، ومسلم (١٢١/٥) ولفظه: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في شدة الحر، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه. وهذا لا يكون إلا في أول وقتها، ولذا جاء في صحيح مسلم (١٢٠/٥) عن جابر بن سمرة: كان النبي ﷺ يصلي الظهر إذا دَحَضَت الشمسُ، أي زالت، كما تقدم في حديثي أبي موسى وجابر].

٤٩٣ ـ وعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه قال: **شكونا إلى رسول الله ﷺ حَرَّ الرَّمْضاءِ في جِبَاهِنا وأكُفِّنا فلم يَشْكِنَا.**

[رواه مسلم (١٢١/٥)].

ش: «الرمضاء»: أي الرمل الذي اشتدت حرارته. **«فلم يشكنا»** بضم الياء: أي لم يزل شكوانا.

وظاهر أحاديث التوقيت تدل على اختيار تقديم صلاة الظهر وتعجيلها في أول وقتها، وقد روت عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشد تعجيلاً للظهر من رسول الله ﷺ ولا من أبي بكر وعمر. رواه أحمد (١٣٥/٦)، والترمذي (١٣٨) بتهذيبي وغيرهما، وحسنه الترمذي وهو كذلك لشاهد له عن أم سلمة يأتي.

٤٩٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا اشتَدَّ الحَر فأبْرِدُوا بالصَّلاةِ فإنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِن فَيحِ جَهَنَّمَ».**

وقال: **«اشْتَكَت النَّارُ إلى ربِّها فقالَتْ: ربِّ أكَلَ بَعْضِي بَعْضاً، فأذِنَ لها بنَفَسَين: نَفَسٍ في الشِّتاء، ونَفَسٍ في الصَّيف، فأشدُّ ما تَجِدُون من الحرِّ فمِن حرِّها، وأشدُّ ما تَجِدُون من البَرْدِ فمِن زَمْهَرِيرِها».**

[رواه البخاري (١٥٨/٢)، ومسلم (١١٩/٥)، وأهل السنن وغيرهم، وفي الباب عن جماعة].

ش: «فأبردوا»: الإبراد بصلاة الظهر مطلوب أيام الحر، وذلك بأن تؤخر حتى ينكسر وهَجُ الحر وتتفيأ الظلال. **«من فيح جهنم»**: أي سطوع حرها وانتشارها. وقوله: **«اشتكت النار..»** إلخ: هو على ظاهره ولا داعي

إلى تأويله. فالله هو الذي أنطقها كما ينطق الجلود يوم القيامة، وكما أنطق الجمادات اليوم. وهو يدل على وجود النار وأنها مخلوقة وهذا مذهب أهل السنة وخالفت المعتزلة في ذلك.

٤٩٥ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر فقال النبي ﷺ: **«أبْرِدْ»**، ثم أراد أن يؤذن فقال له: **«أبرِد»** حتى رأينا فيء التُّلول، الحديث.

[رواه البخاري (٢/١٥٧، ١٥٨)، ومسلم (٥/١١٨، ١١٩)].

ش: «فيء التلول»: الفيء: هو الظل ولا يكون إلا بعد الزوال. والتلول: بفتح التاء جمع تل وهو كل ما اجتمع على الأرض من تراب أو رمل.

والحديث يدل كسابقه على تأخير الظهر أيام الحر حتى تبرد الشمس شيئاً ما.

٤٩٦ ـ وعن الأسود أن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: **كان قَدرُ صلاةِ رسول الله ﷺ في الصيف ثلاثة أقْدَامٍ إلى خَمْسَةِ أقْدَامٍ، وفي الشتاء خمسةُ أقدامٍ إلى سَبْعَةِ أقدامٍ.**

[رواه أبو داود (٤٠٠)، والنسائي (١/٢٠١) بسند صحيح].

ش: ظل الزوال يختلف باختلاف الأقاليم وطولها وعرضها، وطول النهار وقصره حسب فصول السنة. وقد تتبع علماء الفلك والتوقيت من المسلمين ذلك وحققوه بتدقيق، حسب الشهور الفلكية الناشئة عن سير الشمس.

وهذا الحديث الشريف يشير إلى أن ظل الزوال الأصلي في المدينة المنورة يكون في أول الصيف ثلاثة أقدام، وعنده كان يصلي الظهر. أما في شدة الحر حيث يكون ظل الزوال نصف القدم فكان يبرد بالصلاة إلى أن يصير الظل إلى خمسة أقدام بينما كان يصلي الظهر في ابتداء الشتاء في أول الوقت وهو خمسة أقدام وعند اشتداد الشتاء حيث يقصر النهار جداً يكون الزوال سبعة أقدام. والله أعلم.

تعجيل صلاة العصر

٤٩٧ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حيَّة، فيذهب الذاهب إلى العوالي، فيأتيهم والشمس مرتفعة، وبعض العوالي من المدينة على أربعة أميال أو نحوه.**

[رواه مالك والبخاري (١٦٨/٢)، ومسلم (١٢١/٥)، وأبو داود (٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦)، والنسائي وغيرهم].

٤٩٨ ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: **كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العصر فننحر جزوراً، فتقسم عشر قسم، فنأكل لحماً نضيجاً قبل أن تغرب الشمس.**

[رواه البخاري في مواضع: في الشركة، وفي الجهاد، وفي الذبائح، ومسلم في المساجد (١٢٥/٥)].

ش: قوله: **«حية»**: أي لا تزال بيضاء لم تتغير إلى الاصفرار. قوله: **«العوالي»**: وفي رواية: كنا نصلي العصر ثم يذهب الذاهب إلى قباء فيأتيهم والشمس مرتفعة. وبين المسجد النبوي ومسجد قباء ساعة على القدم وذلك نحو خمس كيلو. وقوله: **«جزور»**: هو الجمل.

والحديثان فيهما تصريح بالمبالغة في التبكير بصلاة العصر وأنه ﷺ كان يبادر بها أول الوقت غير أن حديث رافع محمول على أيام الصيف لأن أيام الشتاء ليس فيها للعصر وقت يتسع لمثل ما ذكر رافع رضي الله تعالى عنه.

وعيد من يؤخر العصر إلى الاصفرار أو يضيعها بخروج وقتها

٤٩٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تِلْكَ صلاةُ المُنافقِين، تِلْكَ صلاةُ المُنافقِينَ، تِلْكَ صلاةُ المُنافقِين،**

يجلسُ أحدُهم حتى إذا اصْفَرَّت الشمسُ وكانتْ بينَ قَرْنَيِ الشَّيطان، أو على قَرْنِ شَيطانٍ قامَ فنَقَر أربعاً، لا يذكر الله فيهنَّ إلا قليلاً».

[رواه أحمد (٣/١٠٣، ١٤٩، ١٨٥)، ومسلم (٥/١٢٣)، وأبو داود (٤١٣)، والترمذي (١٤٣) وغيرهم].

ش: قوله: «**قرني الشيطان**»: قيل: هو على ظاهره وأنه يُحاذيها بقرنيه عند غروبها، وقوله: «**فنقرها أربعاً**..» إلخ: فيه التصريح بذم من يصلي بإسراع من غير أن يتم أركان الصلاة، ولا يأتي بأذكارها المشروعة. وفيه التنفير من التشبه بالمنافقين وذم تأخير صلاة العصر إلى الاصفرار.

٥٠٠ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ تَرَكَ صلاةَ العَصْرِ فقدْ حَبِطَ عَمَلُه**».

[رواه البخاري (٢/١٧١)، وأحمد (٥/٣٥٠، ٣٦٠)].

ش: في الحديث وعيد شديد لمن يترك صلاة العصر متعمداً حتى يخرج وقتها فإن في ذلك خطراً أي خطر. وقد اختلفوا في حبط هذا العمل اختلافاً كثيراً واختار الحافظ في «الفتح» أن ذلك خرج مخرج الزجر الشديد قال: وظاهره غير مراد. وفي ذلك نظر كبير.

٥٠١ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الذِي تفوتُه صلاةُ العصرِ كأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه**».

[رواه أحمد (٢/٦٤، ١٢٤، ١٤٥)، والبخاري (٢/١٦٩)، ومسلم ٥/١٢٥)].

ش: قوله: «**وتر أهله**»: ورد بنصب اللامين ورفعهما فعلى النصب وهو الصحيح المشهور على أنه مفعول، ومعناه: سلب أهله وماله وبقي بلا أهل ولا مال. وأما على الرفع فعلى ما لم يُسَمَّ فاعله ومعناه: انتزع منه أهله وماله. وفي ذلك وعيد شديد، وزجر أكيد، فليحذر المؤمن من تفويت صلاة العصر عن عمد حتى تغرب الشمس فيصبح كأنه فاقد أهله وماله.

تعجيل صلاة المغرب

٥٠٢ ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ يصلي المغرب إذا غربت الشمسُ وتوارتْ بالحِجَابِ.**

[رواه أحمد (٥١/٤)، والبخاري (١٨٢/٢)، ومسلم (١٣٦/٥)، وأبو داود (٤١٧)، والترمذي (١٤٥) بتهذيبي].

٥٠٣ ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: **كنا نصلي المغرب مع النبي ﷺ فينْصَرِفُ أحدُنا وإنه ليُبْصِرُ مَوَاقِعَ نَبْلِهِ.**

[رواه البخاري (١٨٠/٢)، ومسلم (١٣٦/٥)].

ش: قوله: «**توارت**»: أي غابت. وقوله: «**مواقع نبله**»: أي موضع وقوع النبل.

والحديثان يدلان على أنه ﷺ كان يبكر بصلاة المغرب في أول وقتها، لأن إبصار موقع النبل بعد رميه لا يكون إلا عقب الغروب بمدة يسيرة. وهذا لا ينافي استمرار وقتها حتى غروب الشفق كما قدمنا، غير أن التعجيل مجمع على استحبابه وفضله.

فضل تأخير صلاة العشاء إلى نصف الليل وكراهة النوم قبلها والحديث بعدها

٥٠٤ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أعْتَم رسول الله ﷺ ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل حتى نام أهل المسجد ثم خرج فصلى فقال: «**إنَّهُ لَوَقْتُها لَوْلا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتِي**».

[رواه مسلم (١٣٨/٥)].

٥٠٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلا أنْ أشُقَّ على أُمَّتي لأَمَرْتَهُم أنْ يُؤخِّرُوا العِشاء إلى ثُلُثِ الليلِ أو نِصْفِهِ**».

[رواه أحمد (٢/٢٤٥)، وأبو داود (٤٦)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (١/٢١٤) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: في الحديثين استحباب تأخير صلاة العشاء لا سيما لمن ينتظرون الجماعة. قال الترمذي في «الجامع»: وهو الذي اختاره أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين رأوا تأخير العشاء الآخرة.

٥٠٦ ـ وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه: **أن النبي ﷺ كان يستحب أن يؤخر العشاء التي تدعونها العتمة، وكان يكره النوم قبلها، والحديث بعدها.**

[رواه الستة، وانظر ما سبق رقم (٤٨٩)].

ش: كراهية النوم قبلها خوفاً من غلبة النوم وفوات وقتها. أما الحديث بعدها فأكثر أهل العلم على كراهيته إذا لم يكن فيه مصلحة كالتحدث مع الأهل والضيف والمذاكرة في العلم ونحو ذلك، ولذلك جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنا معهما. رواه الترمذي (١٤٩) بتهذيبي، وسنده صحيح.

فضل صلاتي الصبح والعصر

٥٠٧ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»**.

[رواه البخاري (٢/١٩٢)، ومسلم (٥/١٣٥)].

٥٠٨ ـ وعن عمارة بن رؤيبة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَنْ يَلِجَ النَّارَ أحدٌ صلَّى قبل طُلوعِ الشَّمسِ وقبل غُرُوبها»** يعني الفجر والعصر.

[رواه مسلم (٥/١٣٥)].

ش: قوله: «**البردين**»: يعني صلاة الفجر والعصر لكونهما في طرفي النهار. «**والأبردان**»: الغداة والعشي.

وفي الحديثين فضل المحافظة على صلاتي العصر والصبح، وأن المحافظ عليهما من أهل الجنة ولن يلج ويدخل النار بفضل الله ورحمته إن شاء الله تعالى.

٥٠٩ ـ وعن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فإن استطعتُمْ أن لا تُغلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طُلوعِ الشمسِ وقبل غُرُوبِها فافْعلُوا**»، ثم قال: «﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾».

[رواه البخاري (١٩٢/٢)، ومسلم (١٣٤/٥) مطولاً بذكر رؤية الله تعالى يوم القيامة].

ش: فيه الحض على المحافظة على هاتين الصلاتين لما لهما من الأهمية ولكونهما تأتيان وقت الراحة والغفلة، فيثقل القيام بهما، ولذلك جاء ذلك الفضل العظيم في الاهتمام بهما.

٥١٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَتعاقَبُونَ فيكُم ملائِكَةٌ بالليلِ، وملائِكةٌ بالنَّهارِ ويَجْتَمِعُونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثم يَعْرُجُ الذِينَ باتُوا فيكُم، فيسألهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ كيف تركْتُم عِبادي؟ فيقولون: تَرَكْنَاهُم وهم يُصلُّون، وأتيناهُم وهم يصلُّون**».

[رواه أحمد (٤٨٦/٢)، والبخاري في المواقيت (١٧٣/٢)، وفي مواضع كبدء الخلق والتوحيد، ورواه مسلم (١٣٣/٥، ١٣٤) في المواقيت].

ش: قوله: «**يتعاقبون**»: أي تأتي طائفة عقب طائفة، ثم تعود الأولى عقب الثانية. وهؤلاء الملائكة الذين يتعاقبون فينا هم غير الحفظة الكاتبين فإن هؤلاء لا يفارقوننا بحال.

وفي الحديث فضل الصلاة مطلقاً وخاصةً العصر والصبح لأن السؤال والجواب عليهما وقع، فهي أشرف العبادات. وفيه إشارة إلى أننا ينبغي لنا

أن نتذكر في هاتين الوقتين تعاقب رسل ربنا فينا وأن نفرح بقدومهم واجتماعهم معنا وسؤال ربنا عنا.

ما جاء في الصلاة الوسطى وأنها العصر

٥١١ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق: «**حَبَسُونَا عَنْ صلاةِ الوُسْطَى صلاةِ العصرِ، مَلأَ اللَّهُ بُيوتَهم وقبورَهم ناراً**».

[رواه أحمد (٣٩٢/١)، والبخاري في تفسير سورة البقرة (٥٤٣٣)، ومسلم (١٢٧/٥، ١٢٨) ونحوه عن ابن مسعود عنده (١٢٨/٥)، وعن عمر وأبي سعيد وسيأتيان].

٥١٢ ـ وعن أبي يونس مولى عائشة أنه قال: أمَرَتْني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغتَ هذه الآية فآذِنّي: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فلما بلغتها آذنتها فأملَتْ عليَّ: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر**﴾. ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾. قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ.

[رواه مسلم (١٢٩/٥، ١٣٠)، وأهل السنن وغيرهم].

ش: قوله: «**حبسونا**»: في رواية: «**شغلونا**». قوله: «**بيوتهم**»: في رواية: أجوافهم، وهو دعاء منه ﷺ على الكفار بالنار.

والحديث الأول صريح في أن الصلاة الوسطى هي العصر، وهو الحق الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة. وحديث عائشة ظاهر في أن ذلك كان قرآناً غير أنه نسخ كما جاء في صحيح مسلم (١٣١/٥)، عن البراء بن عازب قال: نزلت هذه الآية: ﴿**حافظوا على الصلوات وصلاة العصر**﴾، فقرأناها ما شاء الله، ثم نسخها الله فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فقال رجل ـ كان جالساً عند شقيق له ـ: هي إذن صلاة العصر. فقال البراء: قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله وهو ظاهر أن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى وعطفها على صلاة العصر في حديث عائشة مؤول بزيادة الواو بدليل ما جاء في الأحاديث الأخرى.

من أدرك ركعة من صلاة في وقتها فقد أدرك الوقت

٥١٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أدْرَكَ ركعةً من الصُبْحِ قبلَ أن تطلُعَ الشمسُ فقَدْ أدْرَكَ الصُبْحَ، ومَنْ أدْرَكَ ركْعَةً مِن العَصْرِ قبْلَ أن تغرُب الشمسُ فقَدْ أدْرَكَ العَصْرَ**».

[رواه أحمد (٤٦٢/٢)، وفي مواضع، والبخاري (١٩٦/٢)، ومسلم (١٠٤/٥)].

ش: قوله: «**فقد أدرك**»: معناه: أدرك الوقت وحكم الصلاة وليس معناه أنه يكتفي بركعة بدليل ما جاء في رواية عند البخاري (١٧٧/٢): «**إذا أدرك أحدكم سجدة** ـ يعني ركعة ـ **من صلاة العصر قبل أن تغرب الشمس فليتمَّ صلاته، وإذا أدرك سجدة من صلاة الصبح قبل أن تطلع الشمس فليتم صلاته**»، فيكون في ذلك مؤدياً لا قاضياً، علماً بأن هذا حالة العذر. وفيه دليل على أن المعذور إذا ارتفع عذره وبقي من الوقت مقدار ما يصلي ركعة لزمته تلك الصلاة. وذلك كالحائض تطهر، والصبي يحتلم، والمجنون يفيق، والكافر يسلم.

أفضل الأعمال الصلاة لوقتها ووجوب المحافظة على الوقت وإن صليت انفراداً

٥١٤ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سئل أي العمل أفضل؟ قال: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**الصَّلاةُ على مَوَاقِيتِها**». قلت: وماذا يا رسول الله؟ قال: «**وبِرُّ الوَالِدَيْنِ**»، قلت: وماذا يا رسول الله؟ قال: «**الجِهادُ في سبيلِ الله**».

[رواه الطيالسي (٢٥٦)، والبخاري (١٤٨/٢، ١٥٠)، ومسلم (٧٣/٢) في الإيمان، والترمذي (١٥٣) بتهذيبي].

ش: في الحديث تفاضل الأعمال، وتقديم الصلاة يؤذن بأنها أفضل الأعمال إطلاقاً إذا أُدِّيَت في وقتها. ثم بعدها يأتي التفاضل وقد اختلفوا في المفاضلة بين الجهاد وبر الوالدين، والحق أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأوقات.

٥١٥ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كَيفَ بِكَ أو كيف أنتَ إذا بَقِيتَ في قوم يُؤَخِّرونَ الصَّلاةِ عن وَقْتِها؟ فصلِّ الصَّلاة لِوَقْتِها، ثم إن أُقيمت الصلاة فصلِّ مَعَهم، فإنها زِيادةُ خيرٍ**».

وفي رواية: قال لي رسول الله ﷺ: «**كَيفَ أنتَ إذا كانَ عليكَ أمراء، يُمِيتُون الصَّلاة أو يُؤَخِّرونَ الصَّلاةَ عَنْ وقتِها؟**»، قلت: فما تأمرني؟ قال: «**صَلِّ الصَّلاةَ لِوَقْتِها فإن أدْرَكْتَها معهم فصلِّ فإنَّها لكَ نافلةٌ**». وفي أخرى: «**فإن أدْرَكَتْك ـ يعني الصَّلاة ـ مَعَهُم فصلِّ ولا تَقُلْ إني قد صلَّيتُ فلا أُصلِّي**».

[أخرج جميعها مسلم (٥/١٤٧، ١٤٨)].

ش: وفي الحديث الحض على المحافظة على الصلاة في أول وقتها المختار ولو صليت انفراداً إذا كان الناس أو الإمام الراتب يؤخرونها عن وقتها المختار، فمن صلاها وحده ثم وجد الناس يصلونها ولو في آخر الوقت أعادها معهم وتكون له نافلة.

وفي الحديث علم من علامات النبوة حيث أخبر ﷺ بوجود أمراء يميتون الصلاة ويؤخرونها عن وقتها فكان ذلك كما أخبر ﷺ وكان بداية ذلك أيام بني أمية.

قضاء الفوائت ووجوب الترتيب فيها وقضائها كما فاتت

٥١٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ نَسِيَ صلاةً فلْيُصَلِّها، إذا ذَكَرَها، لا كفَّارَةَ لها إلاَّ ذلِكَ**». وفي رواية: «**إذا رَقَدَ**

أحَدُكُم عن الصَّلاة أو غَفَلَ عنها فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٰ﴾»، وفي رواية: **«مَنْ نَسِيَ صلاةً أوْ نامَ عنها فكفَّارَتُها أن يُصلِّيها إذا ذَكَرَها»**.

[رواه أحمد (٣/١٠٠، ٢٨٢)، والبخاري (٢/٢١١)، ومسلم (٥/١٩٣) والأخيرتان لمسلم].

ش: قوله: **«لا كفارة لها..»** إلخ، معناه: لا يجزئه إلا الصلاة مثلها، ولا يلزمه مع ذلك شيء آخر. وقوله: **«لذكري»**: فيه معنيان: **أحدهما**: وهو قول الجمهور أي متى ذكرت أن عليك صلاة فأقمها سواء كنت في وقتها أو خارجه. **والثاني**: أقم الصلاة لتذكرني فيها.

والحديث يدل على وجوب قضاء صلاة الناسي والنائم ولا خلاف في ذلك بين العلماء وإنما وقع النزاع في قضاء العامد فذهب الجمهور إلى وجوب القضاء، وذهب آخرون ومنهم الظاهرية وجماعة من أهل الحديث إلى عدم القضاء، وهو الأقوى دليلاً.

٥١٧ ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه في نومهم عن الصلاة، أن النبي ﷺ قال: **«إنَّهُ لَيس في النَّوم تفريطٌ، إنَّما التَّفريطُ في اليَقَظَةِ، فإذا نَسِيَ أحَدُكُم صلاةً أو نامَ عنها فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها»**.

[رواه النسائي (١/٢٣٧)، والترمذي (١٥٧)، وأبو داود (٤٣٧) وهو في مسلم مطولاً].

ش: والحديث يدل على أن النائم غير مفرط فيما نام عنه من صلاة ونحوها وأنه لا يكون مكلفاً حال نومه، وإنما يلزمه ما يلزمه من إيجاب الضمان وقضاء ما عليه من باب خطاب الوضع. وقوله: **«إنما التفريط في اليقظة»**: وكذا من كان في حكم ذلك، كمن ضاق عليه الوقت فنام وهو يعلم أنه لا يستيقظ في الوقت كما هي عادة الكثيرين، فإن هؤلاء مفرطون آثمون يوشك أن لا تقبل صلاتهم وإن قضوها.

٥١٨ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: جاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى النبي ﷺ يوم الخندق، فجعل يسب كفار

قريش ويقول: يا رسول الله والله ما صليت صلاة العصر حتى كادت أن تغيب، قال النبي ﷺ: **«وأنا والله ما صَلَّيتها بعدُ»**. قال: فنزلنا إلى بطحان فتوضأ رسول الله ﷺ وتوضأنا فصلى رسول الله ﷺ العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

[رواه البخاري (٢٠٨/٢) في المواقيت، ورواه في الأذان، وفي صلاة الخوف، وفي المغازي، ورواه مسلم (١٣١/٥، ١٣٢)].

٥١٩ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: **حُبِسْنا يومَ الخندق عن الصلوات حتى كان بعد المغرب هَوِيّاً، وذلك قبل أن يَنزل في القتال مَا نَزَل، فلما كُفِينَا القتالَ، وذلك قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أمر النبي ﷺ بلالاً فأقام الظهر فصلاها كما يصليها في وقتها، ثم أقام العصر فصلاها كما يصليها في وقتها، ثم أقام المغرب فصلاها كما يصليها في وقتها.**

[رواه أحمد (٢٥/٣)، وابن خزيمة (٩٩٦)، وابن حبان (٢٨٥)، والطحاوي في معاني الآثار (٣٢١/١) وسنده صحيح، وله شاهد عن ابن مسعود رواه أحمد والترمذي (١٥٩)، والنسائي (٢٣٩/١، ٢٤٠) وغيرهم وسنده صحيح مع انقطاع فيه].

ش: قوله: **«بطحان»** بضم الباء وفتحها مع سكون الطاء: هو واد بالمدينة المنورة.

والحديثان يدلان على مشروعية الترتيب في قضاء الفوائت، وما ذكره بعض الفقهاء من التفصيل في ذلك لا دليل عليه. ثم ليعلم أن إخراج الصلاة عن وقتها من النبي ﷺ وأصحابه في غزوة الخندق كان قبل فرضية صلاة الخوف فلا دليل في ذلك لمن يخرج الصلاة عن وقتها للحاجة كالعمل ونحوه ثم يقضيها بعد.

٥٢٠ ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه في قصة نومهم عن صلاة الفجر، قال: **ثم أذن بلال بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة، فصنع كما كان يصنع كل يوم.**

[رواه مسلم (١٨٦/٥) مطولاً، ورواه البخاري مختصراً].

ش: قوله: «**في قصة نومهم**»: كان ذلك في غزوة خيبر، وجاء في رواية: أنها وقعت لهم في غزوة تبوك، وجاء غير ذلك.

والقصة رواها أبو قتادة، وأبو هريرة، وعمران بن الحصين وكلها في الصحيح وستأتي في المغازي.

والحديث يدل على مشروعية الأذان للفائتة وقضاء سنة الفجر قبل صلاة الصبح، وأن الفائتة تقضى كصفة أدائها من الجهر والإسرار.

أبواب الأذان

كانت مشروعيته في السنة الثانية للهجرة. ومعناه في اللغة الإعلام. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، إلخ. وفي الشرع: الإعلام بدخول وقت الصلاة، ودعوة المسلمين إليها وإلى الفوز والفلاح.

فضل الأذان

٥٢١ ـ عن عبدالرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال له: **إني أراك تُحِبُّ الغنمَ والباديةَ، فإذا كنتَ في غنمِك أو باديتِكَ فأذَّنتَ بالصلاةِ فارفع صوتَك بالنِّداء، فإنه لا يَسمعُ مَدَى صوتِ المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ، إلا شَهِد له يومَ القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ.**

[رواه أحمد (٣/٣٥، ٤٣)، والبخاري (٢/٢٢٨، ٢٢٩)].

ش: قوله: «**مدى صوت**»: أي غاية صوت المؤذن. وقوله: «**ولا شيء**»: يعني من شجر ونبات وحجر ومدر ورطب ويابس كما جاء مبيناً في أبي داود والنسائي وهذا فضل عظيم يحرز عليه المؤذن لوجه الله عزّ وجلّ، وذلك لما فيه من الاعتراف لله بالوحدانية وتعظيمه والدعوة إليه وإلى عبادته.

٥٢٢ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت

رسولَ الله ﷺ يقول: **«يَعْجَبُ رَبُّك عزَّ وجلَّ من راعِي غَنَم في شَظِيَة بجبلٍ يُؤذن للصَّلاة ويصلِّي، فيقول الله عزَّ وجلَّ: انظُروا إلى عَبْدِي هذا يُؤذِّن ويُقيمُ الصَّلاة، يخافُ منِّي، فقد غَفَرْتُ لِعَبْدي وأدْخَلْتُهُ الجنَّة»**.

[رواه أحمد ١٥٧/٤، ١٤٥)، وأبو داود (١٢٠٣)، والنسائي (١٧/٢) بسند صحيح].

ش: قوله: **«يعجب ربك»**: العجب انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه الشيء، أو استنكاره أو استظرافه، وهذا محال في حق الله، فهو بالنسبة إليه صفة له تليق بجلاله وعظمته. ويؤوله بعضهم بمعنى يعظم ذلك عنده ويكبر لديه، أو معناه: يرضى بذلك ويثيب عليه صاحبه. وقوله: **«شظية»** بفتح الشين وكسر الظاء ثم ياء تحتانية مشددة: هي قطعة مرتفعة في رأس جبل.

وفي الحديث فضل الأذان وخاصة في البادية ورؤوس الجبال مع الغنم. وفيه مشروعية الأذان للمنفرد وصحة الصلاة منه بلا جماعة. وفيه أن ذلك من موجبات الجنة والمغفرة.

٥٢٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ أدْبَرَ الشيطان له ضُراطٌ، حتى لا يَسمَعَ التأذينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقْبَلَ حتى إذا ثُوِّبَ بالصَّلاةِ أدْبَرَ، حتى إذا قُضِيَ التثويبُ أقْبَلَ، حتى يَخْطُرَ بينَ المَرْءِ ونَفْسِهِ، يقول: اذْكُر كذا، اذْكُر كذا، لما لم يكُن يذكر، حتى يظلَّ الرجلُ لا يدري كم صلَّى»**.

[رواه أحمد (٣١٢/٢، ٤٦٠، ٥٢٢)، والبخاري (٢٢٥/٢، ٢٢٧)، ومسلم (٩٠/٤، ٩٢) وغيرهم].

ش: قوله: **«ضراط»**: أي ريح مع صوت. وفي رواية لمسلم: **«وله حصاص»**. وهو الضراط أو شدة العدو. وقوله: **«إذا ثوب»**: أي أقيمت الصلاة. وقوله: **«يخطر»** بكسر الطاء على المشهور: أي يوسوس، وبالضم معناه دنوه منه، ومروره بينه وبين قلبه. وقوله: **«حتى يظل»**: أي يصير.

وفي الحديث فضل الأذان وأنه يغيظ الشيطان ويطرده لما فيه من ألفاظ

التوحيد وذكر الله عزّ وجلّ. وفيه تسلط الشيطان على الإنسان ولو داخل الصلاة والتلبس بالعبادة، وتمكنه من وسوسته وإغوائه حتى يشغله عن الخشوع في الصلاة، فينصرف منها وهو لا يعلم ماذا صلى.. وهذا هو هدف الشيطان.

الأذان من أعظم شعائر الدين وواجباته

٥٢٤ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو حتى يصبحَ وينظرَ، فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم، وإن لم يَسمعْ أذاناً أغارَ عليهم، وفي رواية: كان رسول الله ﷺ يُغِيرُ إذا طلع الفجر، وكان يَسْتَمِعُ الأذانَ فإن سمعَ أذاناً أمْسَكَ، وإلا أغارَ فسمع رجلاً يقولُ: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: **«على الفِطْرَةِ»**، ثم قال: **«أشْهَدُ أن لا إلَه إلاَّ الله»**، فقال رسول الله ﷺ: **«خَرَجْت مِن النَّارِ»**، فنظر فإذا هو راعي معز.

[رواه البخاري (٢/٢٣٠) باللفظ الأول، ومسلم (٤/٨٤) بالثاني].

ش: قوله: **«أغار»** الإغارة هنا: الهجوم على العدو في دياره والإيقاع به. وقوله: **«على الفطرة»**: أي على الإسلام.

والحديث يدل على أن الأذان من أعظم شعائر الدين ومظاهره وأنه يحقن دم صاحبه ومن كان معه، وأن عدم وجوده يوجب قتال أهل ذلك الموضع.

قال الخطابي رحمه الله تعالى: إن الأذان شعار الإسلام وأنه لا يجوز تركه، ولو أن أهل بلد اجتمعوا على تركه كان للسلطان قتالهم عليه. ولهذا أوجبه العلماء على كل بلدة ومصر وجعلوه من فروض الكفاية وأوجبه آخرون على كل جماعة. وهناك أقوال في المسألة ما ذكرناه خلاصتها.

٥٢٥ ـ وعن مالك بن الحُوَيْرِث رضي الله تعالى عنه قال: أتينا

رسولَ الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ، فذكر الحديث وفيه: «**فإذا حَضرَت الصَّلاةُ فلْيؤذِّن لَكُم أحَدُكُم**» الخ وسيأتي.

[رواه البخاري (٣١٢/٢)، ومسلم (١٧٤/٥) كلاهما في الإمامة في الصلاة].

وفي رواية: «**إذا سافرتما فأذِّنا وأقِيما ولْيؤُمَّكما أكْبَرُكُما**» رواه الترمذي (١٨٣) وغيره.

ش: الحديث استدل به من قال بوجوب الأذان على الجماعة، لهذا الأمر النبوي، وقد جاء في حديث لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من ثلاثة في قرية فلا يؤذن ولا تقام فيهم الصلوات، إلا استحوذ عليهم الشيطان**» الحديث، رواه أحمد (٤٤٥/٦، ٤٤٦) من طريقين وهو بهما حسن. ورواه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨١٧)، والحاكم (٢٤٦/١، ٢١١) ولم يذكروا فيه الأذان، وصححه الحاكم والذهبي فهذا وعيد شديد لتاركي الأذان وإقامة الصلاة. وأن كل جماعة ولو قلت أهملت ذلك استولى عليهم إبليس وأصبحوا طوع يده عياذاً بالله من ذلك.

بداية الأذان وسببه وصفته وتوابع ذلك

٥٢٦ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فَيَتَحَيَّنُون الصلواتِ، وليس ينادِي بها أحدٌ، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: اتخذوا قَرْناً مثل قَرْنِ اليهود، قال: فقال عمر: أَوَ لا تَبْعَثُون رجلاً ينادي بالصلاة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**يا بِلال قُمْ فَنَادِ بالصَّلاةِ**».

[رواه أحمد (١٤٨/٢)، والبخاري (٢٢٠/٢، ٢٢٢)، ومسلم (٧٥/٤، ٧٦)، والترمذي (١٧٠) وغيرهم].

٥٢٧ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: **لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمَلُ ليُضْرَبَ به للناس لجمع الصلاة، طاف بي**

وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يدِه، فقلت: يا عبدالله أتَبِيع الناقوس؟ قال: وما تَصنعُ به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلُّكَ على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إلَه إلا الله، أشهد أن لا إلَه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إلَه إلا الله. قال: ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا قمت إلى الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إلَه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، قد قامَتْ الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إلَه إلا الله.

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال: «**إنَّها لَرُؤيا حَقّ إن شاءَ الله، فقُمْ مع بِلال فألقِ عليهِ ما رأيتَ فلْيؤذِّن بِهِ، فإنَّه أنْدَى صوتاً مِنْكَ**»، فقمت مع بلال فجعلت أُلْقِيه عليه ويؤذن به، قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجرُّ رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما أُرِيَ، فقال رسول الله ﷺ: «**فَلِلَّه الحمدُ**».

[رواه أحمد (٤/٤٢، ٤٣)، وأبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٦٩)، والدارمي (١١٩٠)، وابن ماجه (٧٠٦)، وابن خزيمة (٣٦٣)، وابن حبان (٢٨٧)، وابن الجارود (١٥٨)، والبيهقي (١/٣٩٠) وسنده صحيح، والسياق لأبي داود، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: في الحديثين بيان سبب الأذان، وأن الصحابة كانوا في أوائل الهجرة يقدرون أحيان الصلاة فيأتونها، ولم يكن لها نداء، ثم عقدوا اجتماعاً مع النبي ﷺ للتداول في الأمر، فأشار بعضهم بالناقوس، والبعض الآخر بالبوق، وفريق ثالث بالنار، وأشار آخرون بالراية فتفرقوا ولم يتفقوا على شيء مما ذكر، لأنها من شعائر الكفار والوثنيين والمجوس. وقد جاءت الشريعة بمخالفتهم، فكان من رحمة الله تعالى بعباده، ونعمته عليهم أن أُرِيَ عبدالله بن زيد تلك الرؤيا العظيمة كما أري مثلها الفاروق رضي الله تعالى عنه فكان ذلك أول الأذان، رؤىً صالحة وتقرير نبوي،وماجاءمن أن

الأذان أوحاه الله إلى النبي ﷺ ليلة الإسراء كل ذلك باطل لا يصح شيء منه وانظر «نصب الراية».

وفي حديث عبدالله بن زيد صفة الأذان والإقامة، وأن الأذان مربع التكبير وليس فيه ترجيع الشهادتين لكن ذلك ثابت في حديث أبي محذورة الآتي كما أن الإقامة مفردة إلا قد قامت الصلاة فإنها شَفع كما يأتي في حديث أنس. وفي الحديث أيضاً اختيار المؤذن الجهوري الصوت. وفيه إشارة إلى إباحة استعمال مكبر الصوت الكهربائي الحالي.

٥٢٨ ـ وعن أبي محذورة رضي الله تعالى عنه قال: أَلْقَى عليَّ رسولُ الله ﷺ التأذين هو بنفسه فقال: **«قُلْ: الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، أشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أن محمَّداً رسولُ الله، ثم تعود فتقول: أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ الله، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الفَلاحِ، حيَّ على الفَلاحِ، الله أكْبَرُ، الله أكْبرُ، لا إلَه إلاَّ الله»**.

[رواه أحمد (٤٠٩/٣)، ومسلم (٨٠/٤، ٨١)، وأبو داود (٥٠٠)، والترمذي (١٧١)، والنسائي (٤/٢، ٥، ٦)، وابن ماجه (٧٠٨) وغيرهم].

٥٢٩ ـ وعنه، أن رسول الله ﷺ علَّمه الأذان تِسْعَ عَشْرَة كلمةً، والإقامةَ سبعَ عشرة كلمةً.

«الأذان: الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، أشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أن محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ الله، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الفَلاحِ، حيَّ على الفَلاحِ، الله أكْبَرُ، الله أكْبرُ، لا إلَه إلاَّ الله.

والإقامة: الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، أشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، أشهدُ أن

محمَّداً رسولُ الله، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الصَّلاةِ، حيَّ على الفَلاحِ، حيَّ على الفَلاحِ، قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ، قد قامت الصلاة، الله أكْبَرُ، الله أكْبَرُ، لا إلَه إلاَّ الله».

[رواه الطيالسي (٣٣٢)، وأبو داود (٥٠٢)، والترمذي (١٧٢)، والنسائي (٢/٥)، وابن ماجه (٧٠٩)، والدارمي (١١٩٩، ١٢٠٠)، وابن حبان (٢٨٨) وغيرهم، وسنده حسن صحيح].

٥٣٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **أُمِرَ بلالٌ أن يَشْفَع الأذان ويُوْتِرَ الإقامة، إلا الإقامة.**

[رواه البخاري (٢/٢٢٣، ٢٢٤)، ومسلم (٤/٧٧) وغيرهما].

ش: قوله: «حي على الصلاة..» إلخ: أي تعالوا وهلموا لأداء الصلاة وللفوز والسعادة. ودل حديث أبي محذورة من طريقيه أن الأذان مربع التكبير أوله، مع ترجيع الشهادتين، بحيث تذكر الشهادتان أولاً مع خفض الصوت، ثم يجهر بها مرة ثانية، وفي الطريق الثانية تفصيل لذلك، بعد قوله: تسع عشرة كلمة. وبهذا قال جمهور العلماء لما في ذلك من الزيادة.

ودل حديث أنس على مشروعية إيتار الإقامة، إلا قد قامت الصلاة، فإنها تشفع. وبهذا قال الجمهور. وذهب مالك رحمه الله تعالى إلى إفراد جميعها إلا التكبير. ودل حديث أبي محذورة الثاني على شفع الإقامة كلها مع تربيع التكبير. وهو مذهب جماعة من الأئمة منهم أبو حنيفة رحمه الله تعالى، واختار العمل بهذا كثير من أهل الحديث لما فيه أيضاً من الزيادة، وهذا من الخلاف المباح.

٥٣١ ـ وعن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه أنه رأى بلالاً يؤذن فجعلت أتتبع فاه ههنا وههنا بالأذان.

[رواه البخاري (٢/٢٥٥)، ومسلم (٤/٢١٩) وزاد: يقول يميناً وشمالاً، يقول: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح. ورواه أحمد والترمذي (١٧٦) وصححه، وزاد: وأصبعاه في أذنيه].

ش: الحديث يدل على سنية استدارة المؤذن برأسه عند الحيعلتين يميناً وشمالاً. والأصح من قولي العلماء: أنه يلوي رأسه وعنقه لجهة اليمين فيقول: حي على الصلاة مرتين، ثم عن يساره: حي على الفلاح مرتين، كذلك والقول الثاني يقول: حي على الصلاة مرة عن اليمين، ومرة عن الشمال، وهكذا حي على الفلاح. ورواية أحمد والترمذي تدل على سنية وضع الأصبعين السبابتين في الأذنين. قال الترمذي: وعليه العمل عند أهل العلم يستحبون أن يدخل المؤذن أصبعيه في أذنيه في الأذان.

التثويب في أذان الفجر

٥٣٢ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **من السنة إذا قال المؤذن في أذان الفجر: حي على الفلاح، قال: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم.**

[رواه ابن خزيمة رقم (٣٨٦)، والطحاوي في معاني الآثار (١/١٣٧)، والدارقطني (١/٢٤٣)، والبيهقي في السنن (١/٤٢٣) بسند صحيح. وقد جاء عن جماعة من الصحابة يفوقون الثمانية منهم أبو محذورة عند النسائي في الكبرى (١/٥٠٣) وهو مقيد بالأذان الأول، وسنده صحيح].

ش: في الحديث مشروعية التثويب في أذان الصبح، ولم يختلف فيه أنه كان في عهد رسول الله ﷺ وبأمره. قال الترمذي في «الجامع»: قول المؤذن في صلاة الفجر: الصلاة خير من النوم هو قول صحيح. ويقال له التثويب وهو الذي اختاره أهل العلم ورأوه. وقال ابن عبدالبر في «الاستذكار» (٢/١١١، ١١٢): والتثويب محفوظ معروف في أذان بلال وأبي محذورة في صلاة الصبح للنبي ﷺ.

الأذان يكون في أول الوقت

٥٣٣ ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: **كان بلال يؤذن**

إذا زالت الشمس لا يخرم، ثم لا يقيم حتى يخرج النبي ﷺ، فإذا خرج أقام حين يراه.

[رواه أحمد (٩١/٥) بسند صحيح، ورواه ابن ماجه (٧١٣) بلفظ: كان بلال لا يؤخر الأذان عن الوقت، وربما أخر الإقامة شيئاً، وفي سنده شريك القاضي].

ش: قوله: «**لا يخرم**»: أي لا يترك. وفي الحديث مشروعية الأذان في أول الوقت، لأنه شرع للإعلام بدخوله، فلا بد أن يكون عقب دخوله.

تقديم أذان الفجر الأول قبل دخول الوقت

٥٣٤ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ بِلالاً يُؤذِنُ بليلٍ فكُلُوا واشرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا تَأْذِينَ أُمِّ مكتوم**».

وكان ابن أم مكتوم رجلاً أعمى لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت.

[رواه أحمد (٩/٢، ٥٧)، وفي مواضع، والبخاري في الأذان، وفي الصيام، ومسلم في الصيام، والترمذي ١٨١)، والنسائي وغيرهم].

ش: قوله: «**أصبحت**»: أي دخلت في الصباح.

وفي الحديث مشروعية أذانين لصلاة الصبح مع تقديم أولهما قبل الوقت بمدة. وشرع الأول ليرجع القائم المتهجد، ولينتبه النائم كما جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

مشروعية الأذان في السفر كالحضر

٥٣٥ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما في حديث حجة النبي ﷺ، صلى النبي ﷺ الظهر والعصر بعرفة بأذان وإقامتين قال: ثم أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين.

[رواه مسلم وغيره وسيأتي في الحج مطولاً إن شاء الله تعالى].

أبواب المساجد وما يتبع ذلك

أول مسجد وضع في الأرض، وأن الأرض كلها مسجد

٥٤٥ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: «**المسجدُ الحَرامُ**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجدُ الأقْصَى**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعُونَ سَنةً، وأينَما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ فصلِّ فهو مسجدٌ**».

[رواه أحمد (٥/١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٧)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٣)، ومسلم في أول المساجد (٥/٢) والسياق لمسلم].

٥٤٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبْلِي...**»، فذكر منها: «**وجُعِلَتْ لِي الأرضُ مسجداً وطَهُوراً وأيُّما رجلٍ مِن أُمَّتي أدركتْهُ الصَّلاة فليصلِّ**» الحديث.

[رواه البخاري ومسلم وتقدم في التيمم رقم (٤٦٨)، ويأتي في الأنبياء كاملاً إن شاء الله تعالى].

ش: الحديث الأول يدل على أن المسجد الحرام هو أول مسجد وضع في الأرض إطلاقاً. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ

لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ الآية، ثم بعده المسجد الأقصى ببيت المقدس وكان بينهما من الزمان أربعون سنة. وكان المؤسس الأول لهما خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وفيه وفي حديث جابر خصوصية لهذه الأمة حيث جعل الله لها كل الأرض مسجداً رحمة بها، وهذا بخلاف الأمم قبلنا فلم يكن لهم ذلك.

المساجد أحب البقاع إلى الله

٥٤٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أحبُّ البلادِ إلى الله مساجدُها، وأبغضُ البلادِ إلى الله أسواقُها»**.

[رواه مسلم (١٧١/٥)].

ش: في الحديث فضل المساجد، وأنها أحب البقاع إلى الله عزّ وجلّ وذلك لما يقع فيها من الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله عزّ وجلّ بجميع أنواعه، وما يوجد فيها من كثرة الملائكة والرحمة والبركة، بينما شر البقاع الأسواق لأنها محل الخصام والكذب والغش والخيانة وأنواع الحيل ووجود الشياطين وأعوانهم.

فضل بناء المساجد

٥٤٨ ـ عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه على هيأته، قال عثمان: سمعت النبي ﷺ يقول: **«مَنْ بَنَى لله مسجداً بَنَى الله له كهيئَتِه في الجنَّةِ»**.

[رواه أحمد (٧٠/١)، والبخاري (٩١/٢، ٩٢)، ومسلم (١٤/٥)، وفي رواية لهما: **«من بنى مسجداً لله يبتغي به وجه الله، بنى الله له بيتاً في الجنة»**].

ش: الحديث وارد عن عمر رواه أحمد (٢٠/١، ٥٣) وفيه: **«من بنى مسجداً لله يذكر الله فيه»**. وعن علي رواه ابن ماجه (٧٣٧)، وأحمد (٦١/١)، وعن ابن عباس رواه أحمد (٢٤١/١)، وعن جابر رواه ابن ماجه (٧٣٨)

ش: **«بيعة»** بكسر الباء: كنيسة ومعبد للنصارى.

وفي الحديث جواز قلب الكنيسة مسجداً يعبد فيه الله وحده ولا نعرف في ذلك خلافاً معتبراً. واختلف العلماء في الصلاة في الكنيسة والأصح أنها جائزة إذا لم يكن هناك تماثيل وكانت طاهرة. وفي الحديث مشروعية التبرك بآثار الصالحين.

بناء المساجد في الدور وتنظيفها وتطييبها

٥٥٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدُورِ وأن تُنَظف وتُطَيَّب.**

[رواه أحمد (٦/٢٧٩)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي في أواخر الصلاة (٥٣٢) بتهذيبي، وابن خزيمة (١٢٩٤)، وابن حبان (٤/٥١٣)، وابن ماجه (٧٥٨، ٧٥٩) من طرق متصلة صحيحة. ولا يضر إرسال من أرسله].

ش: قوله: **«الدور»**: قيل: الأحياء، وقيل: البيوت. وقد جاء في قصة عتبان بن مالك الذي طلب من النبي ﷺ أن يصلي في بيته قال له: وددت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فأتخذه مصلى، فقال رسول الله ﷺ: **«سأفعل إن شاء الله»** إلخ، ثم أتاه فصلى له في موضع، إلخ. رواه البخاري ومسلم، وفي الصحيح أيضاً عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها في حديث لها طويل: ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفِنَاءِ دارِه فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، إلخ.

فيحتمل الحديث اتخاذ المساجد في البيوت الخاصة، ويحتمل اتخاذها في أحياء الجماعات. وقد جاء أيضاً في رواية لأبي داود (٤٥٦)، عن سمرة كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالمساجد أن نصنعها في ديارنا ونصلح صنعتها ونطهرها. وفي الحديث مشروعية تعدد المساجد حسب الحاجة إليها. وفيه الأمر بتنظيفها وإخراج الأزبال والقمامة منها وتطييبها بأنواع العطورات وتجميرها لأنها سكن الملائكة، وهم يرضون الروائح الطيبة.

الصلاة داخل الكعبة

٥٥٦ ـ عن ابن عمر أن النبي ﷺ قدِمَ مكة فدعا عثمانَ بن طلحة ففَتَح الباب فدخل النبي ﷺ وبلالٌ، وأسامةُ بنُ زَيْد، وعثمانُ بن طَلحة، ثم أغلق الباب، فلَبِث فيه ساعةً ثم خرجوا، قال ابن عمر: فبدَرْتُ فسألت بلالاً فقال: صَلَّى فيه، فقلت: في أيِّ؟ قال: بين الأُسْطُوانَتَيْن.

[رواه البخاري في المساجد (١٠٦/٢)، وفي الحج، ومسلم وغيرهما في الحج].

ش: قوله: «**الأسطوانتين**»: يعني العمودين اليمانيين كما في رواية النسائي، وصلاة النبي ﷺ داخل الكعبة جاءت أيضاً عن بلالٍ كما في الصحيحين والسنن عنه قال: صلى في جوف الكعبة.

والحديث يدل على جواز الصلاة داخل الكعبة ويستقبل أي جهة شاء. قال الترمذي: والعمل عليه عند أكثر أهل العلم لا يرون بالصلاة في الكعبة بأساً. وقال الشافعي: لا بأس أن يصلي المكتوبة، إلخ.

فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي

٥٥٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاةٌ في مسجِدِي هذا خَيرٌ من ألْفِ صلاةٍ فيما سَوَاهُ إلاَّ المَسجِد الحَرامَ**».

[رواه أحمد (٢٣٩/٢، ٤٦٦، ٤٩٩)، وفي مواضع، والبخاري في التطوع (٣٠٨/٣، ٣٠٩)، ومسلم في الحج (١٦٣/٩)، وأهل السنن].

ش: في الحديث فضل مسجدي مكة والمدينة وأن الصلاة تتضاعف فيهما على غيرهما من سائر المساجد، فمسجد رسول الله ﷺ يفضل غيره بألف صلاة إلا المسجد الحرام فإنه بمائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد ويفضل المسجد النبوي بمائة صلاة، ففي حديث ابن الزبير: «**وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة**» رواه أحمد (٥/٤)، وابن حبان (٥٩٩/٤) بسند صحيح.

فضل الصلاة في الروضة النبوية

٥٥٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما بَيْنَ بَيْتي ومِنْبَري رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجنَّة، ومِنْبَري على حَوْضِي**».

[رواه أحمد (٤٠١/٢، ٤١٢)، والبخاري في التطوع (٣١٢/٣)، وفي الحج، وفي الرقاق، وفي الاعتصام، ومسلم في الحج (١٦٢/٩) وغيرهم].

ش: المراد ببيته هنا حجرة عائشة التي دفن فيها ﷺ فالروضة هنا المساحة التي جاءت بين بيته وبين موضع منبره الشريف فمن صلى فيها أداه ذلك إلى الجنة، أو هي نفسها قطعة من الجنة، فمن جلس أو صلّى فيها كان كأنه في الجنة، والله أعلم.

فضل المساجد الثلاثة وشدّ الرحال إليها

٥٥٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثةِ مساجدَ: المسجِدِ الحرامِ، ومسجدِ الرسول ﷺ، ومسجدِ الأقصى**».

[رواه أحمد (٢٧٨/٢)، والبخاري في التطوع (٣٠٦/٣، ٣٠٧)، وفي الحج، ومسلم في الحج (١٦٧/٩، ١٦٨)].

ش: في هذا الحديث فضيلة هذه المساجد الثلاثة وأنها تشد الرحال لزيارتها والصلاة فيها لما اختصت به عن غيرها من القداسة. أما غيرها فهي متساوية في الفضل فلا تشرع الرحلة للصلاة في مسجد ما غير هذه الثلاثة. واستدل بعضهم بظاهر الحديث على منع شد الرحال لزيارة الأنبياء والصالحين وهو غلط كما قال النووي وغيره. قال الخطابي: وأما قصد غير المساجد لزيارة صالح، أو قريب، أو صاحب، أو طلب علم، أو تجارة، فلا يدخل في النهي نقله الحافظ في الفتح قال: ويؤيده ما روى أحمد (٦٤/٣) من طريق شهر بن حوشب قال: سمعت أبا سعيد وذكرت عنده الصلاة في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للمصلي أن يشد**

رحاله **إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي»**. قال الحافظ: **وشَهْرٌ** حسن الحديث وإن كان فيه بعض الضعف.

فضل بيت المقدس

٥٦٠ ـ عن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس؟ قال: **«أرض المَحْشَرِ والمنشَر، ائتُوهُ فصلُّوا فيه، فإنَّ صلاةً فيه كألف صلاةٍ في غيره»**، قلت: أرأيتَ إن لم أستطع أن أتحمل إليه؟ قال: **«فتُهْدِي له زيتاً يُسْرَجُ فيه فمَنْ فعلَ ذلك فهو كمنْ أتاهُ»**.

[رواه أبو داود (٤٥٧)، وابن ماجه (١٤٠٧) واللفظ له، وسنده صحيح].

غير أن قوله: «فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره» يعارضه حديث أبي الدرداء رفعه **«الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»** رواه البزار والطبراني. قال الحافظ: قال البزار: إسناده حسن، فيحتاج إلى الجمع بينهما أو الترجيح.

٥٦١ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ: **«إنَّ سُليمانَ بن داود صلَّى الله عليهما وعلى نبيِّنا وآلهم وسلم لمَّا بَنَى بيتَ المقدس، سأل الله عزَّ وجلَّ خِلالاً ثلاثةً؟ سألَ الله عزّ وجلّ حُكْماً يُصَادِفُ حكمَه فأوتِيَه، وسأل الله عزّ وجلّ مُلْكاً لا يَنبغِي لأحدٍ من بعدِه، فأُوتِيَه، وسأل الله عزّ وجلّ حين فرغَ من بِناءِ المسجدِ أن لا يأتِيَهُ أحدٌ لا يَنْهَزُه إلا الصَّلاةُ فيه، أن يُخرِجَه مِن خطيئته كيومِ ولدتْهُ أمُّه، فنحنُ نرجُو أن يكونَ الله عزّ وجلّ قد أعطاهُ إيَّاه»**.

[رواه أحمد (١٧٦/٢)، والنسائي (٢٨/٢) في المساجد، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٠٨) وسنده صحيح عند النسائي].

ش: قوله: **«لا ينهزه»**: أي لا يحركه. وقوله: **«لما بنى..»** الخ: سليمان كان قد جدد بناءه وليس هو المؤسس له.

وفي الحديث فضل الصلاة في بيت المقدس فمن أتاه فصلى فيه خرج من ذنوبه كأنه الآن ولد، وهو يقتضي غفران جميع الذنوب، وهو خير كبير. وفي الحديث الأول أن إهداء الزيت ونحوه إليه يقوم مقام الصلاة فيه.

زيارة مسجد قباء والصلاة فيه

٥٦٢ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **كان النبي ﷺ يأتي مسجد قُبَاء كلَّ سبتٍ ماشياً وراكباً، وكان عبدالله يفعله.**

[رواه أحمد (٢/٣٠، ٦٥، ٧٢، ٨٠)، والبخاري في التطوع (٣/٣١١)، ومسلم في الحج (٩/١٦٩، ١٧٠)].

٥٦٣ ـ وعن سهل بن حُنَيف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خرجَ حتى يأتيَ هذا المسجدَ** ـ مسجد قباء ـ **فصلَّى فيه، كانَ له عدلُ عُمْرَةٍ**».

[رواه أحمد (٣/٤٨٧)، والنسائي (٢/٣٠)، وابن ماجه (١٤١٢)، والحاكم (٣/١٢)، وصححه ووافقه الذهبي].

وله شاهد عن أُسَيْد بن ظُهَير عن النبي ﷺ قال: «**الصلاة في مسجد قباء كعمرة**» رواه الترمذي في المساجد (٢٩١) بتهذيبي، وابن ماجه (٤١١)، والحاكم (١/٤٨٧)، وصححه أيضاً. وشاهد ثان عن ابن عمر رواه ابن حبان (٤/٥٠٧)، وابن أبي شيبة، وثالث عن أبي سعيد الخدري عند ابن سعد (١/٢٤٤)، فالحديث صحيح.

ش: قوله: «**قباء**»: هي قرية بني عمرو بن عوف تبعد عن المسجد النبوي بخمسة كيلو وبها نزل النبي ﷺ أولاً عند هجرته إلى المدينة وأسس مسجده التاريخي الذي أسس على التقوى.

وفي الحديثين مشروعية زيارته والصلاة فيه وأن الصلاة فيه تعدل عمرة، وناهيك بفضل العمرة وثوابها، وذلك يدل على فضل هذا المسجد، وقد جاء عن سعد بن وقاص أنه قال: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من

أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل. قال الحافظ في «الفتح»: رواه عمر بن شبة في أخبار المدينة بسند صحيح. قال الحافظ: وفيه أن النهي عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة ليس على التحريم لكون النبي ﷺ كان يأتي مسجد قباء راكباً، إلخ.

ما هو المسجد الذي أُسّس على التقوى

٥٦٤ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: امترى رجل من بني خُدْرة ورجل من بني عَمْرو بن عوف في المسجد الذي أُسّس على التقوى. فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ في ذلك، فقال: «هُوَ هذا» يعني مسجده، وفي ذلك خير كثير.

[رواه أحمد (٨/٣، ٨٩، ٩١)، ومسلم آخر الحج (١٦٨/٩، ١٦٩)، والترمذي في المساجد رقم (٢٩٠)، وفي التفسير (٢٨٩٩)، والنسائي في المساجد (٣٠/٢)، وابن حبان (٥٠٦/٤)، وحسنه الترمذي وصححه، ورواه أحمد (٣٣١/٥)، وابن حبان (٤٨٢/٤، ٤٨٣) عن سهل بن سعد بسند صحيح].

ش: الحديث يدل على أن مسجد رسول الله ﷺ هو المسجد الذي أسس على التقوى، وظاهره يعارض قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، فإن الآية جاءت تتحدث عن مسجد قباء. قال ابن كثير رحمه الله تعالى في «التفسير»: ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

ومعنى قوله: «أسس على التقوى»: أي بني من أول يوم على عبادة الله والإخلاص له لا شريك له.

كراهية النخامة والبزاق في المسجد ولجهة القبلة

٥٦٥ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرِضَتْ عليَّ أعمالُ أُمَّتي حَسَنُها وسَيِّئُها، فوَجدْتُ في محاسِنِ أعمالِها الأذى يُماطُ عنِ الطَّرِيقِ، ووجدْتُ في مساوِىءِ أعمالِها النُّخَاعَة تكُونُ فِي المسجدِ لا تُدْفَنُ».

[رواه أحمد (١٧٨/٥)، ومسلم في المساجد (٤٢/٥)].

٥٦٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البُزَاقُ في المسجدِ خطيئةٌ، وكفَّارَتُها دَفْنُهَا».

[رواه أحمد (٢٣٢/٣، ٢٧٤، ٢٧٧)، والبخاري (٥٧/٢)، ومسلم (٤١/٥) كلاهما في المساجد].

ش: «النخاعة»: ويقال: النخامة: هي ما يخرجه الإنسان من خيشومه عند التنخع.

والحديثان يدلان على أن إلقاء البصاق والنخاعة في المسجد خطيئة وسيئة، غير أن ظاهر الأحاديث في الموضوع أنها تكون سيئة وتكتب خطيئة، إذا لم تدفن فإذا دفنت كان ذلك كفارة لها. بل ذلك يتعين على كل من رآها كما جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ أبصر نخامة في قبلة المسجد فحكَّها بحصاة ورؤي منه كراهية لذلك وشدته عليه.

تنزه المسجد عن الروائح الكريهة

٥٦٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أكلَ مِنْ هذِه الشجرةِ فلا يَقْرَبَنَّ مسجدَنا، ولا يُؤذِينا بِرِيحِ الثُّومِ».

[رواه مسلم في المساجد (٤٩/٥)، وفي الباب عن أنس وابن عمر في الصحيحين].

٥٦٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل البصَل والكُرَّاثِ، فغلبتْنا الحاجةُ فأكلْنا منها فقال: «مَن أكل الشَجرة المُنْتِنَة فلا يَقْرَبَنَّ مَسجدَنا، فإنَّ المَلائِكَةَ تَتَأَذَّى مِما يتأذَّى مِنه الإنسُ».

[رواه مسلم (٤٩/٥) ويأتي هذا الموضوع في الأطعمة].

ش: في الحديثين وجوب تنزيه المسجد عما يؤذي الملائكة والمصلين من الروائح الكريهة. وإذا كان آكلُ الثوم والبصل والكراث يمنع من حضور المسجد ـ وأكلها حلال ـ فكيف بمن يدخله وروائح الدخان والحشيش وما تحت الآباط وعفونات الأحذية من رجله تملأ المسجد. فلا جرم أن هؤلاء أحق بالتأخر عن المساجد، فإن المساجد بيوت الله طيبة طاهرة. ويلاحظ أن الممنوع من أكل هذه البقولات من حضور المسجد إذا أكلها نيئة، أما إذا طبخت فلا يبقى لرائحتها أثر، ولذلك جاء في صحيح مسلم عن عمر: **«فمن أكلهما فليمتهما طبخاً»** (٥/٥٣، ٥٤).

تنزه المسجد عن البيع والشراء وتناشد الأشعار الضوال

٥٦٩ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ **نهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وعن البيع والشراء فيه، وأن يَتَحَلَّقَ الناسُ يومَ الجمعة قبل الصلاة.**

[رواه أحمد (٢/١٧٩)، وأبو داود (١٠٧٩)، والترمذي (٢٨٩)، والنسائي (٢/٣٧)، وابن ماجه (٧٦٦) وغيرهم، وسنده حسن صحيح، وزاد أحمد: «وأن تنشد فيه الضالة»، واقتصر ابن ماجه على النهي عن إنشاد الضالة].

٥٧٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن سَمِعَ رجُلاً يَنشُدُ ضالةً في المسجدِ فليقُلْ: لا رَدَّ الله عليكَ، فإنَّ المسجدَ لم تبنَ لهذا»**.

[رواه أحمد (٢/٤٢٠)، ومسلم (٥/٥٤، ٥٥) في المساجد، وأبو داود (٤٧٣) وغيرهم].

وفي رواية للترمذي في البيوع: **«إذا رأيتُم من يَبِيعُ أو يبْتاعُ في المسجدِ، فقولوا: لا أرْبَحَ اللَّهُ تجارَتَك، وإذا رأيتم من ينشُدُ فيه ضالة فقولوا: لا ردَّ الله عليك»**، ورواه الحاكم (٢/٥٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

ش: «الضالة»: هي الشيء الضائع من الحيوان وغيره وهي اللقطة.

وفي الحديثين بألفاظهما النهي عن أمور ثلاثة يجب أن ينزه عنها المسجد:

أولاً: تناشد الأشعار والمراد بها ما كانت خارجة عن أدب الإسلام من الرفث والخنا والكذب واللغو، أما ما كان في جد وهجو للكفار ومدح لله ولرسوله ﷺ وللإسلام.. فلا بأس بها. وقد قيلت بين يدي رسول الله ﷺ وفي مسجده الشريف من حسان بن ثابت، وابن رواحة.. كما في الصحيح وتأتي.

ثانياً: البيع والشراء، وقد حرم ذلك قوم وكرهه آخرون. وقد أمرنا أن ندعو على من فعل ذلك بالخسارة في تجارته.

ثالثاً: ونشد الضالة وهي كسابقها فمن سمعناه ينشدها بمسجد رددنا عليه قائلين: لا ردَّها الله عليك. وكل ذلك يومىء إلى ذم ذلك الفعل، لأنه يتنافى مع حكمة تأسيس المساجد، لأنها بنيت للصلاة والتلاوة وذكر الله عزّ وجلّ وعقد حلق العلم.

رفع الأصوات في المساجد

٥٧١ ـ عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: كنت قائماً في المسجد فحَصَبَنِي رجلٌ فنظرتُ فإذا عُمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئتُه بهما، فقال: من أنتما؟ أو من أيْن أنتُما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوْجَعْتُكُما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

[رواه البخاري في المساجد (٢/١٠٧)].

٥٧٢ ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه تقاضى ابن أبي حَدْرَد دَيْناً له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته... الحديث ويأتي.

[رواه البخاري (٢/١٠٧، ١٠٨)].

ش: اختلف العلماء في رفع الصوت في المسجد فمنعه مالك مطلقاً وفرق غيره بين أن يكون لمصلحة دينية كعلم مثلاً وتلاوة وذكر.. وبين ما لا فائدة فيه. وحديث كعب يدل على الجواز لأن النبي ﷺ لم ينكر عليهما رفع أصواتهما. أما أثر عمر فيحمل على الأدب وتنزيه المسجد عن ذلك لا سيما مثل المسجد النبوي الشريف.

من آداب دخول المسجد

٥٧٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان النبي ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ ما استطاعَ في شَأنِه كُلِّه، في طَهُورِه، وتَرَجُّلِه، وتنَعُّلِه.**

[رواه البخاري (٦٩/٢)، ومسلم في الطهارة (١٦٠/٣، ١٦١)، وأهل السنن وقد تقدم].

ش: استدل العلماء بهذا الحديث على تقديم الرجل اليمنى عند دخول المسجد، كما ذكره النووي في «شرح مسلم» و«شرح المهذب» فيما يستحب فيه التيمن. ويؤيد هذا حديث أنس رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: من السنة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى، وإذا خرجت أن تبدأ برجلك اليسرى، رواه الحاكم. وقال البخاري (٢٩/٢): وكان ابن عمر يبدأ برجله اليمنى فإذا خرج بدأ برجله اليسرى.

ما يقال عند دخول المسجد

٥٧٤ ـ عن أبي حُمَيْد، أو أبي أُسَيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دَخَلَ أحدُكم المسجدَ فليقُل: اللَّهُمَّ افتَحْ لِي أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج فليقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ من فَضْلِكَ».**

[رواه أحمد (٤٩٧/٣، و٤٢٥/٥)، ومسلم (٢٢٤/٥)، وأبو داود (٤٦٥) وغيرهم].

٥٧٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دَخَلَ أحدُكم المسجدَ فَلْيُسَلِّم على النبي ﷺ وليقُل: اللَّهُمَّ افتَح لي**

أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج فليسَلِّم على النبي ﷺ وليقُل: اللَّهُمَّ إعْصِمْنِي مِنَ الشَّيطانِ الرجِيم».

[رواه ابن ماجه (٧٧٣) بسند صحيح، ورواه الحاكم بمعناه (٢٠٧/١٥) وصححه].

٥٧٦ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: **«أعوذُ باللهِ العظيمِ وبوَجْهِه الكريمِ وسُلطانِه القديمِ من الشيطانِ الرجيمِ»**.

[رواه أبو داود (٤٦٦) بسند صحيح، وفي الباب عن فاطمة عليها السلام، رواه أحمد (٢٨٢/٦، ٢٨٣)، والترمذي (٢٨٢)، وابن ماجه (٧٧١) وفيه عندهم زيادة الصلاة على النبي ﷺ].

ش: في هذه الأحاديث أدب عظيم من آداب دخول المسجد وهو أن يقول المسلم ما جاء فيها من الأذكار. وجملة ذلك أن يقول: **بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم** هذا عند الدخول، فإذا خرج قال بعد: **اغفر لي ذنوبي: وافتح لي أبواب فضلك واعصمني من الشيطان الرجيم**. وهو ذكر عظيم لا يهمله ويزهد فيه إلا خاسر مغبون.

فضل كنس المسجد وتنظيفه

٥٧٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أسود، أو امرأة سوداء، كان يقم المسجد فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات، قال: **«أفَلا كنتُم آذَنْتُموني بهِ؟ دُلُّوني على قَبْرِه»**، أو قال: **«قَبْرِها»**، فأتى قبره ـ أو قبرها ـ فصلى عليها.

[رواه أحمد (٣٥٣/٢)، والبخاري (٩٩/٢، ١٠٠، ١٠١) في المساجد، وفي الجنائز، ورواه مسلم (٢٥/٧، ٢٦) في الجنائز وغيرهم].

ش: قوله: **«يقم»**: يعني كان يخرج القمامة وهي الكناسة.

وفي الحديث مشروعية كنس المسجد وإخراج الأزبال والعيدان والخرق والقذى وغير ذلك منه، وفيه فضل فاعل ذلك والقائم عليه لأنه من خدمة بيت الله والمساعدين لرواده بتنظيفه. ولذلك اهتم النبي ﷺ بمن كان ينظف مسجده الشريف وسأل عنه حينما فقده ثم أكرمه بالصلاة عليه وهو في قبره. وانظر ما سبق رقم (٥٥٧).

إباحة النوم والاستلقاء في المسجد

٥٧٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما **أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي ﷺ.**

[رواه البخاري (٨١/٢) في المساجد، والترمذي (٢٨٨)، والنسائي (٣٩/٢) وغيرهم].

٥٧٩ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أنه **رأى النبي ﷺ مستلقياً في المسجد، واضعاً إحدى رِجليه على الأخرى.**

[رواه البخاري في المساجد (١٠٩/٢) وفي مواضع، ومسلم في اللباس].

ش: في الحديثين جواز النوم في المسجد لمن لا سكن له كما كان حال أهل الصفة أيام النبوة، وجواز الاتكاء والاضطجاع وأنواع الاستراحة وما جاء من النهي عن الاستلقاء ورفع إحدى الرجلين على الأخرى محمول على ما إذا خيف من كشف العورة، كما قال غير واحد.

الصلاة في مرابض الغنم دون مراح الإبل

٥٨٠ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: **كان النبي ﷺ يصلي قبل أن يُبْنىَ المسجدِ في مَرَابِضِ الغنمِ.**

[رواه البخاري في الوضوء، وفي المساجد (٧١/٢، ٧٣)، ومسلم فيه أيضاً (٨/٥)، والترمذي (٣١١) وغيرهم].

٥٨١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صَلُّوا في مَرابضِ الغنَمِ، ولا تصلُّوا في أعطانِ الإبِلِ»**.

[رواه أحمد (٥٠٩/٢)، والترمذي (٣١٠)، وابن ماجه (٧٦٨)، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: قوله: «مرابض»: جمع مربض وهي مأوى الغنم. وقوله: **«معاطن»**: هو جمع معطن وهو مناخ الإبل ومبركها.

والحديثان يدلان على جواز الصلاة في مأوى الغنم دون مبارك الإبل. وإنما نهي عن الصلاة في أعطان الإبل لما يصدر منها من النفار والهيجان فربما شغلت قلب المصلي، وليس ذلك لنجاسة أبوالها وأبعارها، بل هي طاهرة كباقي الأنعام كما قدمنا.

الصلاة في المقبرة

٥٨٢ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمامَ»**.

[رواه أحمد (٩٦/٣)، وأبو داود (٤٩٢)، والدارمي (١٣٩٧)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٧٤٥)، وابن حبان (٣٣٨، ٣٣٩) بالموارد، والحاكم (٢٥١/١) وسنده صحيح، وقد صححه الحاكم، والذهبي، وابن حزم، وابن دقيق العيد، وما أعل به من الإرسال ليس بشيء].

ش: الحديث يدل على أن الأرض كلها طاهرة وصالحة للصلاة عليها إلا مواضع القبور والاستحمام. قال محيي السنة البغوي: رويت الكراهية فيهما عن جماعة من السلف وإليه ذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور لظاهر الحديث، وإن كانت التربة طاهرة والمكان نظيفاً. وقالوا: قد قال النبي ﷺ: **«اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبوراً»** رواه الشيخان. قال: فدل على أن محل القبر ليس بمحل للصلاة. قال الحافظ في الفتح: وقد نقل ابن المنذر عن أكثر أهل العلم أنهم استدلوا

بهذا الحديث على أن المقبرة ليست بموضع الصلاة. قال البغوي: ومنهم من ذهب إلى أن الصلاة فيها جائزة إذا صلى في موضع نظيف منه. وروي أن عمر رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال: القبر القبر، ذكره البخاري في صحيحه، ولم يأمره بالإعادة. وحكى عن الحسن أنه صلى في المقابر، وعن مالك: لا بأس بالصلاة في المقابر. قال: وتأويل الحديث هو أن الغالب من أمر الحمام قذارة المكان، ومن أمر المقابر اختلاط تربتها بصديد الموتى ولحومها، فالنهي لنجاسة المكان، فإن كان المكان طاهراً فلا بأس. قال: واحتج من جوز الصلاة في هذه المواضع إذا كان المكان طاهراً بما روي عن جابر أن النبي ﷺ قال: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**، ويقال: حديث جابر إنما سيق لإظهار فضيلة هذه الأمة حيث رخص لهم في الطهور بالأرض والصلاة في المواضع التي لم تبن للصلاة من بقاعها إلخ. والفضائل لا يدخلها نسخ كما قال ابن عبدالبر في «التمهيد».

وعلى كل فظاهر حديث الباب حيث قرنت المقبرة بالحمام أن العلة هي النجاسة فإذا انتفت فلا مانع من الصلاة فيها، والله تعالى أعلم.

جواز الأكل والشرب في المسجد

٥٨٣ ـ عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ قال: **كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الخبز واللحم ثم نصلي ولا نتوضأ.**

[رواه أحمد وابنه في الزوائد (٤/١٩٠)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٠٠)، وابن حبان (٤/٥٣٩، ٥٤٠) بسند صحيح].

ش: الحديث يدل على إباحة الأكل في المسجد وبالأولى الشرب، والأحاديث بذلك كثيرة غير أن ذلك مشروط بالمحافظة على النظافة والتنزه عن التلوث.

إباحة اللعب في المسجد بنحو مباح

٥٨٤ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **لقد رأيت رسول الله ﷺ يوماً في باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد ورسول الله ﷺ يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم.**

[رواه البخاري في المساجد (٢/٩٥، ٩٦)، وفي مواضع، ويأتي في العيدين، ورواه مسلم (٦/١٨٥، ١٨٦) فيهما].

ش: الحديث ظاهر في جواز اللعب في المسجد بما لا يخالف أدب الإسلام ولا فيه محرم أو مكروه، واستدل به الصوفية ومنهم الغزالي في «الإحياء» والسهروردي في «العوارف» على جواز رقص الصوفية وبالأخص في المسجد. لأن الحبشة كانوا يقفزون ويشيرون بحرابهم، وهم ينشدون: «محمد رجل صالح»، يكررونها كما جاء في رواية عند الإمام أحمد.

دخول الكافر للمسجد للمصلحة

٥٨٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: **«أطْلِقُوا ثُمامة»**، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

[رواه البخاري في المساجد (٢/١٠٢، ١٠٦)، وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (١٢/٨٧، ٨٩) مطولاً].

ش: الحديث يدل على إدخال الكافر للمسجد ودخوله إياه وحبسه فيه، واختلف الأئمة في ذلك فأجازه بعضهم للمصلحة ومنعه آخرون، والحق مع الأولين. وليس من المصلحة أن يدخله السواح من الكفار للاطلاع على ما فيه وعلى آثاره وتصوير ما يريدون تصويره كما هو حالنا.

خاتمة

هناك أشياء كثيرة تتعلق بالمساجد سيأتي بعضها أثناء أحكام الصلاة ومما يتعلق بها جواز القضاء والحكم فيها وقسمة الأموال، وتمريض المرضى ونصب الأخبية لاعتكاف النساء وللضيف وغير ذلك مما جاءت به السنة النبوية الصحيحة.

استقبال القبلة وما جاء فيها

٥٨٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صلَّى صلاتَنَا واسْتَقْبلَ قِبلَتَنا وأكلَ ذَبِيحَتَنا فذلِكُم المُسْلمُ الذي له ذِمَّةُ الله وذمةُ رسوله فلا تَخْفِرُوا الله في ذِمَّتِه**».

[رواه البخاري في القبلة (٤٢/٢)، وأهل السنن الثلاثة، وتقدم برقم (١٦١، ١٧٣)].

ش: قوله: «**واستقبل قبلتنا**»: لأنها شعار دين الإسلام وشرط من شروط صلاة المسلمين.

٥٨٧ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ إلى ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فصلى مع النبي ﷺ رجلٌ ثم خرج بعدما صلى، فمَرَّ على قوم من الأنصار في صلاةِ العصر يصلون نحو بيت المقدس فقال: هو يَشهدُ أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجَّه نحو الكعبة، فتَحَرَّف القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة.**

[رواه البخاري في الصلاة، وفي التفسير، وفي مواضع، ومسلم في المساجد (٩/٥، ١٠)، والترمذي في التفسير، وفي الصلاة (٣٤٠)، والنسائي (٤٧/٢)، وابن ماجه (١٠١٠) وغيرهم].

٥٨٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **بينما الناس بقُباء في صلاة الصبح جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.**

[رواه مالك في الموطأ رقم (٤٦٠)، والبخاري (٥٢/٢) في الصلاة، وفي التفسير، وفي خبر الواحد، ومسلم في المساجد (١٠/٥)، والنسائي في القبلة (٤٨/٢) وغيرهم].

ش: لما كان النبي ﷺ بمكة المكرمة كان يصلي بين الركنين اليمانيين فيجمع بين استقبال الكعبة وبين بيت المقدس، فلما هاجر تعذر له استقبال الكعبة فكان يتمنى التوجه إليها وينظر الحين بعد الحين إلى جهة السماء لعل جبريل يأتيه بالتحول إلى استقبال بيت الله الحرام، ومكث على ذلك مدة ما ذكر في حديث البراء فكان هذا أول نسخ وقع في الإسلام وأصبحت قبلة المسلمين هي الكعبة المشرفة.

واتفق العلماء على أن هذا التغيير حصل في صلاة الظهر. وقد ذكر ابن سعد في «الطبقات»: أن النبي ﷺ زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب فسمي مسجد القبلتين. قال ابن سعد: قال الواقدي: هذا أثبت عندنا. وأجمع العلماء على وجوب استقبال الكعبة في صلاة الفريضة وأن ذلك شرط لصحتها مع الذكر والقدرة.

ومن فوائد الحديثين: أن العمل بالمنسوخ لا يضر مع الجهل بالناسخ. وأن الإنسان لا يكلف بما لا علم له به. وأن خبر الآحاد حجة معمول به وأن العمل القليل في الصلاة من المشي والاستدارة للحاجة لا يبطلها. وفيهما غير ذلك.

٥٨٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ قِبلةٌ»**.

[رواه الترمذي رقم (٣٠٧) بتهذيبي، وابن ماجه (١٠١١)، وحسنه الترمذي وصححه. ورواه الدارقطني (٢٧٠/١، ٢٧١)، والحاكم (٢٠٥/١، ٢٠٦)، والبيهقي (٩/٢) عن ابن عمر بنحوه، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: البيت قبلة لأهل المسجد بالتعيين، والمسجد الحرام قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لجميع الآفاق من المشارق والمغارب فكلما قَرُبَت القبلة ضاقت ومهما بَعُدَت اتسعت.

ومعنى الحديث أن من كان بالمدينة ومن على سمتها من أهل الشمال إذا وضعوا المشرق عن شمالهم والمغرب عن يمينهم فالقبلة بين ذلك إذا اتجهوا لجهتها، أما غيرهم فكل بحسبه. فأهل المغرب قبلتهم بين الجنوب والشمال، وأهل المشرق كذلك. وللقبلة علامات تعرف بها مذكورة في كتب الفلك والتوقيت فلتراجع. وأظهرها وأوضحها بالنسبة لأهل المغرب برج الجوزاء فإنها تطلع فوق الكعبة. ومنها الشعر يان تطلع إحداهما عن يمين الكعبة والأخرى عن يسارها. ومنها الثريا فإنها تطلع شمال الكعبة فوق الشام. هذا بالنسبة للمغرب، أما غيرهم فلكل جهة لها علاماتها.

والمقصود هو التوجه لجهة الكعبة، قال الله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، أي: جهته.

الرخصة في الصلاة
على المركوب لغير القبلة في غير الفريضة

٥٩٠ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **كان رسولُ الله ﷺ يُسَبِّحُ على الراحِلَةِ قِبَلَ أيِّ وَجْهٍ تَوَجَّهَ ويُوتِرُ عليها، غيرَ أنه لا يُصَلِّي عليها المكتوبةَ.**

[رواه أحمد (١٣٢/٢)، والبخاري في الوتر (١٤٢/٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١٠/٥)، وأبو داود (٦٩٢، ١٢٢٤)، والترمذي (٣١٣)، والنسائي (٤٨/٢) وغيرهم].

ش: في الحديث مشروعية صلاة النافلة فوق المركوب لغير القبلة، يومىء برأسه إيماء فيجعل السجود أخفض من الركوع كما جاء مبيناً عند البخاري من حديث ابن عمر ومن حديث جابر عند الترمذي وحسنه وصححه.

* * *

أبواب ستر العورة والثياب التي يصلى فيها

ما هي عورة الرجل

٥٩١ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا أنكَحَ أحدُكُم عبدَه أو أجيرَه فلا يَنظُرنَّ إلى شيءٍ من عَورتِه فإنَّ ما أسفَلَ مِن سُرَّتِه إلى ركبتِه من عورتِه»**.

[رواه أحمد (١٨٧/٢)، وأبو داود (٤٩٦، ٤١١٤)، والبيهقي (٢٢٨/٢، ٢٢٩) وسنده حسن].

وسياقه لأحمد ولفظ أبي داود: **«فلا يَنظُر إلى ما دُونَ السُّرَّة وفَوقَ الرُّكْبَةِ»**.

٥٩٢ ـ وعن جَزْهَد الأسلمي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ مَرَّ به وقد كَشَفَ فَخِذَه، فقال: **«غَطِّ فَخِذَكَ فإنَّها عَورةٌ»**.

[رواه أحمد (٤٧٩/٣، ٤٧٨)، وأبو داود في الحمام (٤٠١٤)، والترمذي في الأدب (٢٧٩٨)، والطحاوي في معاني الآثار (٤٧٥/١)، وعلقه البخاري في باب الصلاة بغير رداء وسنده صحيح رجاله ثقات، وما قيل فيه من الاضطراب مدفوع على أن له شواهد عن الإمام علي عند أبي داود وابن ماجه وغيرهما، وعن محمد بن عبدالله بن جحش عند أحمد، والحاكم، وعن ابن عباس عند الترمذي والحاكم وغيرهما وبعضها سنده صحيح].

ش: والحديثان يدلان عن أن ما بين السرة والركبة بما في ذلك الفخذ عورة. وهذا مذهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد رحمهم الله تعالى. وشذ بعض الظاهرية ومن قلدهم بأن عورة الرجل السوأتان فقط. وهي سَفَاهَةٌ تَتَنَافَى مع الآداب الإسلامية علماً بأن تغطية العورة مطلقاً فرض واجب في الصلاة وغيرها بالإجماع، والأدلة على ذلك كثيرة ربما يأتي باقيها في اللباس والزينة.

عورة المرأة

٥٩٣ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«المرأةُ عَوْرَةٌ، فإذا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفها الشيطانُ، وأقْرَبُ ما تكونُ من رَبِّها إذا هِي في قَعْرِ بَيْتِهَا»**.

[رواه الترمذي في النكاح (١٠٥٥)، وابن خزيمة رقم (١٦٨٥، ١٦٨٦)، وابن حبان (٣٢٩) بالموارد، وحسنه الترمذي وصححه].

٥٩٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ أسماءَ بنتَ أبي بكر رضي الله تعالى عنهما دخلتْ على رسول الله ﷺ وعليها ثِيابٌ رِقاقٌ، فأعْرَضَ عنها رسولُ الله ﷺ وقال: **«يا أسْمَاءُ إنَّ المرأةَ إذا بلغَتْ المَحِيضَ لم يَصلُحْ أن يُرَى منها إلا هَذا وهَذا»** وأشار إلى وجهِه وكفَّيْهِ.

[رواه أبو داود في اللباس (٤١٠٤)، والبيهقي (٢٢٦/٢) في الصلاة].

وهو وإن كان فيه انقطاع فإن له شاهدين: عن أسماء بنت عُمَيْس رواه البيهقي (٦٨/٧)، بسند حسن في الشواهد؛ وعن قتادة مرسلاً رواه أبو داود في المراسيل.

وقال البيهقي: مع هذا المرسل قول من مضى من الصحابة في بيان ما أباح الله تعالى من الزينة الظاهرة، فصار القول بذلك قوياً. فالحديث قد يحسن لذلك.

٥٩٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: **«لا يَقْبَلُ الله صلاةَ حائِضٍ إلا بخِمارٍ»**.

[رواه أحمد (١٥٠/٦، ٢١٨)، وأبو داود (٦٤١)، والترمذي (٣٣٧)، وابن ماجه (٦٥٥)، والحاكم (٢٥١/١) وصححه على شرط مسلم. وله طرق].

ش: قوله: **«قعر بيتها»**: أي داخله. قوله: **«حائض»**: أي امرأة بلغت وقت الحيض.

الحديث الأول يدل على أن المرادة من حيث هي عورة بجميع

جسدها، والعورة هي التي يستحيى من بروزها والنظر إليها، فالمرأة كالسوأتين. والحديث الثاني وما معه يدل كذلك على أنها عورة باستثناء الوجه والكفين. والثالث يدل على أنها إذا صلت وشيء من شعرها... يظهر كانت صلاتها غير مقبولة. وقد اتفق الأئمة والعلماء على أن المرأة يجب أن تستر جميع جسمها في الصلاة إلا الوجه والكفين، ثم اختلفوا إذا صلت وشيء من جسدها مكشوف فأبطل صلاتها بعضهم وأجازها البعض الآخر. والصحيح أنها باطلة لأن ستر العورة شرط للصلاة والمرأة كلها عورة إلا ما استثناه الشارع، وهذا يجري في الحرة والأمة معاً خلافاً لمن فرق بينهما، ولابن حزم كلام مهم في الموضوع ذكره في «المحلى» (٣/٢١٨، ٢١٩)، ينبغي الوقوف عليه لنفاسته.

صحة الصلاة بجميع الثياب والألبسة

٥٩٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصَّلاةِ في ثوبٍ واحدٍ، فقال رسول الله ﷺ: **«أَوَ لِكُلِّكُم ثَوْبَانِ؟»**.

[رواه البخاري (٢/١٥، ١٦)، ومسلم (٤/٢٣٠) كلاهما في الصلاة وستر العورة].

٥٩٧ ـ وعن عُمَر بن أبي سَلَمَة رضي الله تعالى عنهما قال: **رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي في ثوبٍ واحدٍ مُشْتَمِلاً بهِ في بيتِ أمِّ سلمةَ واضعاً طَرَفَيه على عَاتِقَيهِ**.

[رواه البخاري (٢/١٤)، ومسلم (٤/٢٣٢، ٢٣٣) وغيرهما].

٥٩٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فجئت ليلة لبعض أمري فوجدته يصلي وعليَّ ثوبٌ واحدٌ فاشتملتُ به وصليتُ إلى جانبه، فلما انصرف قال: **«ما السُّرَى يا جابر؟»**، فأخبرتُه بحاجتي، فلما فرغت قال: **«ما هذا الاشتِمالُ الذي رأيت؟»**، قلت: كان ثوب، قال: **«فإنْ كان واسِعاً فالتَحِفْ بهِ، وإنْ كان ضيّقاً فاتَّزِرْ بهِ»**.

[رواه البخاري (٢/١٧، ١٨)، ومسلم].

٥٩٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يُصَلِّيَنَّ أحدُكم في الثوبِ الواحدِ ليسَ على عاتِقِه منه شيءٌ**».

[رواه البخاري (١٧/٢)، ومسلم (٢٣١/٤)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الصلاة في الثوب الواحد، فإن كان واسعاً التحف به على عادة ملابس العرب وغطى سائر جسده ولا يترك عاتقه وكتفيه عارية، فإن كان ضيقاً اتّزر به لأن الواجب هو ستر العورة والباقي من الزينة والجمال. وجمهور الأئمة على أنه لا يجب ستر أعالي الجسم في الصلاة بالنسبة للرجال، فلو صلى المرء في سروال واسع ساتر صحت صلاته لحديث جابر المذكور وغيره.

٦٠٠ ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إنَّا نَكُونُ في الصَّيْدِ أفيُصَلِّي أحدُنا في القميصِ الواحِدِ؟ قال: «**نعم، ولْيَزُرَّه، ولو لم يَجِدْ إلا أن يَخُلَّهُ بِشَوْكَةٍ**».

[رواه أبو داود (٦٣٢)، والنسائي (٥٥/٣)، وابن خزيمة (رقم ٧٧٧)، وابن حبان، والحاكم (٢٥٠/١) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه النووي].

ش: الحديث يدل على جواز الصلاة في القميص، أعني الطويل الساتر الواسع كما هي قمص العرب، فإذا كان له جيب واسع تظهر منه عورته زرَّه بشيء ولو بشوكة كما في الحديث، وهي مبالغة في زر فتحة جيب القميص التي على الصدر.

الصلاة في ثياب النساء

٦٠١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان رسول الله ﷺ لا يُصَلِّي في شُعُرِنَا ولا في لُحُفِنَا**.

[رواه أبو داود (٣٦٧، ٣٦٨، ٦٤٥)، والترمذي (٥٣٥)، وابن الجارود (١٣٤)، والبيهقي (٤٠٩/٢، ٤١٠) وسنده صحيح، والسياق لأبي داود].

ش: قوله: «**شعرنا**»: تعني ما يلي أجسادهن من الثياب. وقوله:

«**لحفنا**»: جمع لحاف وهو ما تلتحف به المرأة وتتغطى به.

وظاهر الحديث يدل على أنه ﷺ كان يتجنَّب ثياب نسائه فلا يصلي فيها. قال الترمذي في «الجامع»: وقد وردت فيه رخصة، وهو الحديث التالي.

٦٠٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان النبي ﷺ يصلي من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض، وعليَّ مِرْطٌ، وعليه بعضُه إلى جنبه.**

[رواه مسلم (٤/٢٣٠)].

ش: قوله: «**مرط**» بكسر الميم: كساء من صوف أو شعر، فهذا يدل على أنه كان تارة يصلي في ثياب نسائه وتارة يترك، فالأمر في ذلك واسع، ما لم يكن هناك قذر ونجاسة كما جاء ذلك في أحاديث أخرى.

كراهية الصلاة في ثوب فيه ما يشغل المصلي

٦٠٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ صلى في خَمِيصَةٍ لها أعلامٌ، فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلما انصرف قال: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هذه إلى أبي جَهْمٍ، وائْتُوني بأَنْبِجَانِيَة أبي جَهْم، فإنَّها أَلْهَتْنِي آنفاً عَنْ صلاتي**».

[رواه البخاري (٢/٢٨، ٢٩)، ومسلم (٥/٤٣) وغيرهما].

ش: قوله: «**خميصة**»: هو كساء غليظ مربع له علمان. «**والأنبجانية**»: كساء غليظ لا علم له.

وفي الحديث كراهية الصلاة في ثوب فيه شيء يشغل المصلي ويلهيه عن الحضور والخشوع، وهذا لا مفهوم في اللباس بل حتى ما يوجد أمام المصلي وتحته في المسجد، وهذا مما لا خلاف فيه.

تحريم الصلاة في لباس الحرير

٦٠٤ ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قد أُهْدِي

لرسول الله ﷺ فَرُّوجُ حَرِيرٍ، فلبسه، ثم صلى فيه، ثم انصرف فنزعه نَزْعاً شديداً كالكَارِه له ثم قال: «**لا يَنْبَغِي هذا للمتَّقِينَ**».

[رواه البخاري في الصلاة (٣٠/٢، ٣١)، وفي اللباس، ومسلم في اللباس والزينة].

ش: قوله: «**الفروج**»: هي القباء ـ بضم القاف ـ وهو لباس يكون له شق من خلفه.

والحديث يدل على تحريم لبس ثياب الحرير والصلاة فيها، وهذا لا خلاف فيه وإنما اختلفوا في صحة الصلاة معها، والصواب بطلانها.

الصلاة في النعال والأحذية

٦٠٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قيل له: **أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم**.

[رواه البخاري (٤٠/٢)، ومسلم (٤٢/٥)، والترمذي (٣٥٨) كلهم في الصلاة].

٦٠٦ ـ وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَالِفُوا اليَهُودَ، فإنَّهُم لا يُصلُّون في نِعالِهم ولا فِي خِفَافِهم**».

[رواه أبو داود (٦٥٢)، وابن حبان (٣٥٧)، والحاكم (٢٦٠/١) وصححه ووافقه الذهبي].

٦٠٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه **أن النبي ﷺ صلى حافياً ومتنعلاً**.

[رواه أحمد (٢٤٨/٢) بسند حسن، وهو صحيح لشاهدين له، عن عائشة عند النسائي بسند صحيح، وعن عبدالله بن عمرو عند أبي داود (٦٥٣)، وأحمد (١٧٤/٢، ١٧٨، ١٩٠، ٢٠٦، ٢١٥) وسنده حسن].

ش: فهذه الأحاديث تدل على مشروعية الصلاة في الأحذية، ولولا حديث أبي هريرة وما معه لقلنا بوجوب ذلك، أو على الأقل تأكدها مخالفة لليهود. وبديهي أن الصلاة بأحذيتنا اليوم لا بد وأن ننزه عنها المساجد لما

أحدث فيها من الفرش خلاف ما كان عليه المسجد النبوي أيام الوحي حيث كان مفروشاً بالحصباء والتراب.

سترة المصلي وما يقطع الصلاة وتوابع ذلك

٦٠٨ ـ عن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وضع أحدُكم بينَ يديهِ مثل مُؤخرةِ الرَّحل فلْيُصلِّ، ولا يُبَالِي مَن مَرَّ وَراء ذلِكَ**».

[رواه أحمد (١٦١/١)، ومسلم (٢١٦/٤)، وأبو داود (٦٨٥)، والترمذي (٣٠٠) بتهذيبي، وابن ماجه (٩٤٠)، وحسنه الترمذي وصححه، ومثله عن عائشة عند مسلم (٢١٧/٤)].

٦٠٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما **أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبَةِ فتُوضعَ بَينَ يديْهِ فيُصلي إليها، والنَّاسُ وراءَهُ وكان يَفعلُ ذلك في السفر**.

[رواه البخاري (١١٩/٢)، ومسلم (٢١٨/٤) وغيرهما].

٦١٠ ـ وعنه، عن النبي ﷺ **أنه كان يَعْرِضُ رَاحِلَتَه فيصلي إليها**.

[رواه البخاري (١١٦/٢)، ومسلم (٢١٨/٤) وزاد البخاري: قلت: أفرأيت إذا هبت الركاب؟ قال: كان يأخذ هذا الرحل فيعد له فيصلي إلى آخرته، أو قال مؤخره، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنه يفعله].

ش: قوله: «**مؤخرة**» بضم الميم وسكون الهمزة وكسر الخاء وفيها لغات أخر: هي آخرة رحل البعير التي يستند إليها الراكب وهو عود مقدار ذراع. وقوله: «**الحربة**» بفتح الحاء: هي من الآلات الحربية القديمة كانوا يتبارزون ويتقاتلون بها وهي شبيهة بالعنزة والعصا غير أنها طويلة.

وفي هذه الأحاديث مشروعية اتخاذ السترة للمصلي، وهو نصب أي شيء بين يديه سواء كان عوداً أو عصاً أو رحلاً أو بردعة، أو جداراً أو أي ساتر، فإن لم يجد شيئاً خط خطاً، لحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صَلَّى أحدُكم فليجعلْ تلقاء وجهه شيئاً، فإنْ لم يكنْ فلْينصبْ عصاً، فإن لم تكن عصاً فليخُطَّ خطّاً، ولا يضُرُّه مَن مَرَّ بَيْن يديه**» رواه الطيالسي (٣٨٣)، وأحمد (٢/٢٤٩)، وأبو داود (٦٨٩)، وابن ماجه (٩٤٣)، وصححه ابن حبان وقبله أحمد وحسنه الحافظ في «التلخيص» و«بلوغ المرام» و«النكت» وصححه شيخنا في «الهداية». وردوا ما قيل فيه من الاضطراب.

وقد نقل ابن رشد في «البداية» الاتفاق على أن هذه السترة مستحبة. وفيما قال نظر فإن هناك من العلماء من قال بوجوبها كما تدل على ذلك الأحاديث الآتية.

٦١١ ـ وعن سهل بن أبي حثمة رضي الله تعالى عنه يَبْلغُ به النبيَّ ﷺ قال: «**إذا صلَّى أحدُكم إلى سُتْرةٍ فلْيدْنُ منها، لا يقطعُ الشَّيطانُ عليه صلاته**».

[رواه أبو داود (٦٩٥)، والنسائي (٢/٤٩)، وكذا أحمد (٤/٢)، وابن حبان (٤٠٩)، والحاكم (١/٢٥١، ٢٥٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كذلك فإن سنده صحيح].

٦١٢ ـ وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: **كان بين مصلى رسول الله ﷺ وبين الجِدارِ ممرُّ الشاةِ**.

[رواه البخاري (٢/١٢١)، ومسلم (٤/٢٢٥)].

ش: في الحديثين استحباب الدنو من السترة مقدار ما تمر الشاة. قال العلماء: ينبغي أن لا يزيد على متر ونصف. وفي قوله ﷺ في الحديث الأول: «**لا يقطع الشيطان..**» إلخ، إشارة إلى أن المار بين المصلي وبين سترته الحامل له على المرور هو الشيطان.

٦١٣ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّى الرجلُ وليس بينَ يديهِ كآخِرةِ الرَّحلِ أو كواسطة الرَّحلِ قَطَع صلاته الكلبُ الأسودُ والمرأةُ والحمارُ**»، فقيل لأبي ذر: ما بال الأسود من الأحمر ومن الأبيض؟ فقال: يا ابن أخي سألتني كما سألتُ رسولَ الله ﷺ فقال: «**الكلبُ الأسودُ شيطانٌ**».

[رواه مسلم ٢٢٦/٤، ٢٢٧)، وأبو داود (٧٠٢)، والترمذي (٣٠٣)، والنسائي (٥٠/٢)، وابن ماجه (٩٥٢)، والدارمي (١٤٢١) وغيرهم].

ش: ظاهر الحديث يدل على أن مرور هؤلاء بين يدي المصلي العاري عن السترة يقطع صلاته وتكون باطلة، وبهذا قال الظاهرية. وقال أحمد: يقطعها الكلب الأسود، وفي نفسي من الحمار والمرأة شيء، وذهب الجمهور إلى عدم القطع وأولوا الحديث بمعنى نقص الصلاة لشغل القلب بهذه الأشياء، والله أعلم.

٦١٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: **كان رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي صلاته مِن الليلِ وأنا مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُ وبينَ القِبلةِ كاعْتِراضِ الجَنَازَة.**

[رواه البخاري (١٣٧/٢)، ومسلم (٢٢٨/٤، ٢٢٩)].

ش: في الحديث مشروعية اتخاذ المرأة سترة والصلاة إليها إذا كانت زوجة أو محرماً إذا لم ينشغل بها. وقد قيل: إن هذا الحكم خاص بالنبي ﷺ.

٦١٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: **أَقْبَلْتُ راكِباً على أتانٍ وأنا يومئذٍ قد ناهَزْتُ الاحْتِلامَ ورسولُ الله ﷺ يُصَلِّي بالناسِ بمِنًى فمررتُ بين يدي بعضِ الصَّفِّ فنزلتُ فأرسلتُ الأَتانَ تَرْتَعُ ودخلتُ في الصَّفِّ فلم يُنكِر ذلك عليَّ أحَدٌ.**

[رواه البخاري (١١٨/٢)، ومسلم (٢٢١/٤، ٢٢٢) والأربعة].

ش: قوله: «**الأتان**»: هي الأنثى من الحمير. واستدل بالحديث من قال بأن الحمار لا يقطع الصلاة، وليس كذلك فإن ابن عباس صرح بأنه مر بين يدي بعض الصف، ولا شك أن سترة الإمام سترة لمن خلفه فلا حجة في الحديث لذلك.

ولهذا المعنى ترجم البخاري في صحيحه لهذا الحديث بقوله: باب سترة الإمام سترة من خلفه.

٦١٦ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «**إذا كان أحدُكم يُصلي فلا يَدَعْ أحداً يَمُرّ بين يديه ولْيدرَأْهُ ما استَطاعَ، فإن أبى فلْيقاتِلْهُ، فإنَّما هُوَ شيطانٌ**».

[رواه البخاري (١٢٨/٢، ١٣٠)، ومسلم (٢٢٣/٤، ٢٢٤) وغيرهما].

ش: الحديث يدل على وجوب دفع المار بين يدي المصلي ولا يمكنه من المرور فإن امتنع من الرجوع قاتله بما لا ينافي الخروج من الصلاة بأن يضربه في صدره مثلاً ونحو ذلك. وأكثر العلماء على أنه لا يلزمه مقاتلته بالسلاح. وذهب ابن حزم وغيره إلى ظاهر الحديث وقالوا بل يقاتله وإذا مات لا قود على القاتل.

٦١٧ ـ وعن أبي جُهَيْم رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ يَعلمُ المارُّ بينَ يدَيْ المُصَلِّي ماذا عليه لكانَ أن يَقِف أربعينَ خيراً لهُ مِنْ أن يَمُرَّ بين يدَيْهِ**». قال أبو النضر: لا أدري أقال أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة.

[رواه البخاري (١٣١/٢، ١٣٢)، ومسلم (٢٢٤/٤، ٢٢٥)].

ش: قوله: «**لو يعلم..**» إلخ، يعني من الإثم.

ففي الحديث وعيد شديد، وتهديد أكيد لمن يمر بين يدي المصلي. وهذا بديهي إذا لم تكن ضرورة كما يقع بالحرمين الشريفين فإن في الوقوف حتى يفرغ المصلون حرجاً عظيماً. ولذلك أجاز ذلك جماعة من أهل العلم في تلك البقاع المقدسة ونحوها، والله تعالى أعلم.

* * *

صفة الصلاة وأحكامها

صفتها على العموم وبيان أركانها الضرورية

٦١٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رجُلاً دخَل المسجد ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في ناحيةِ المسجدِ فصلى، ثم جاء فسلم عليه، فقال

قوله: «**فلم يُصَوِّبْ**»: في رواية: «**يصب**»، ومعناه: لم يخفضه جداً. وقوله: «**لم يقنع**» بضم الياء وفتح القاف وكسر النون: أي لم يرفعه حتى يكون أعلا من جسده. وقوله: «**جافى عضديه**»: أي باعد بهما عن إبطيه. وقوله: «**وفتخ أصابع رجليه**»: أي لينها حتى تنثني فيوجهها نحو القبلة، وفتخ بالخاء المعجمة.

وفي الحديث مما لم يذكر في الحديث السابق رفع اليدين عند الاستفتاح، وعند الركوع، وعند القيام من اثنتين بحيث يحاذي بهما منكبيه. وسيأتي في حديث آخر أنه كان يحاذي بهما فروع أذنيه. وفيه الاعتدال في الركوع، وتكبيرات الانتقال، وتباعد العضدين عن الإبطين، والقعود على الرجل اليسرى بين السجدتين وفي التشهد الأول، والقعود على الورك، وتأخير الرجل اليسرى، ونصب اليمنى في التشهد الأخير، وهو التورك. وفيه السلام. وكل هذه الصفات لم تذكر في حديث المسيء. وفيه أيضاً وهي من المهمات ـ جلسة الاستراحة ـ وستأتي.

صفة صلاة رسول الله ﷺ بالتفصيل

٦٢٠ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مِفْتَاحُ الصَّلاةِ الطُّهُورُ وتَحرِيمُها التَّكْبِيرُ، وتَحلِيلُها التَّسْلِيمُ**».

[رواه أحمد (١/١٢٣، ١٢٩)، وأبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥)، والدارمي (٦٩٣) وسنده حسن، وهو صحيح لشاهد له عن أبي سعيد، رواه الترمذي (٢١٤)، والحاكم (١/١٣٢)، وصححه على شرط مسلم].

٦٢١ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **رأيتُ النبي ﷺ افتتح التكبير في الصلاة فرفع يديه حين يكبر حتى يجعلهما حذو منكبيه، وإذا كبر للركوع فعل مثله.**

[رواه البخاري (٢/٣٦٣) في أوائل صفة الصلاة].

ش: في الحديثين أنه ﷺ كان يدخل في الصلاة بالتكبير وأنه تحريمها

وبذلك قال الجمهور وذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى إلى جواز الدخول فيها بأي اسم من أسمائه تعالى، وهو خلاف الأحاديث وسيأتي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، رواه مسلم.

رفع اليدين في الصلاة

٦٢٢ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك، وقال: «**سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَه، ربَّنا لك الحمدُ**»، وكان لا يفعل ذلك في السجود. وفي رواية: وإذا قام من الركعتين رفع يديه.

[رواه أحمد (١٨/٢)، والبخاري (٣٦٢/٢، ٣٦٤)، ومسلم (٩٣/٤)، والترمذي رقم (٢٢٩) وباقي أهل السنن، والحميدي (٦١٤)، والدارمي (١٢٥٣) وغيرهم].

ش: رفع اليدين في هذه المواضع الأربع ورد متواتراً عن النبي ﷺ وبه قال كل الأئمة حتى مالك في آخر أمره. أما أبو حنيفة فلم يقل به في غير الأول. وقول ابن عمر: وكان لا يفعل ذلك في السجود يعارضه حديث مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي ﷺ رفع يديه في صلاته وإذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع وإذا سجد، وإذا رفع رأسه من السجود حتى يحاذي بهما فروع أذنيه. رواه النسائي (١٦٣/٢) من طرق بأسانيد صحيحة وترجع عليه بقوله: باب رفع اليدين للسجود.

وقد أخذ بهذا ابن المنذر وجماعة من أهل الحديث بل هو رواية لأحمد والشافعي. ونهاية رفع اليدين يكون إلى المنكبين كما في روايتي ابن عمر وأبي حميد، أو إلى محاذاة الأذنين كما في رواية وائل بن حجر كما عند مسلم وأبي داود، أو إلى فروع الأذنين كما في حديث مالك بن الحويرث عند مسلم وغيره فالأمر في ذلك واسع، والكل صحيح.

وضع اليمين على الشمال في الصلاة

٦٢٣ ـ عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنه قال: **كان الناس يُؤمَرُونَ أن يَضعَ الرجلُ يدَه اليُمنى على ذراعِه اليسرى في الصَّلاةِ.**

[رواه مالك في الموطأ في قصر الصلاة في السفر رقم (٣٧٧)، والبخاري في أوائل صفة الصلاة (٢/٣٦٦)].

ش: قوله: «**كان الناس يؤمرون**»: الآمر لهم بذلك هو رسول الله ﷺ، فالحديث مرفوع اتفاقاً ويؤيده الأحاديث الكثيرة الصحيحة الواردة في هذه السنة.

٦٢٤ ـ فعن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي ﷺ **رفع يديه حين دخل في الصلاة كبر.. ثم التحف بثوبه، ثم وضع يده اليمنى على اليسرى إلخ.**

[رواه مسلم (٤/١١٤) وسيأتي مطولاً بنحوه وفيه: ثم أخذ شماله بيمينه رواه أبو داود (٧٢٦) بسند صحيح، وفي رواية له (٧٢٧) ثم وضع يده اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد، وكذا رواه النسائي (٢/٩٨) وسنده صحيح].

٦٢٥ ـ وعن قبيصة بن هلب عن أبيه قال: **كان رسول الله ﷺ يؤمنا فيأخذ شماله بيمينه.**

[رواه الترمذي رقم (٢٢٦)، وابن ماجه (٨٠٩)، والبيهقي (٢/٢٩)، والدارقطني (١/٢٨٥)، وكذا أحمد (٥/٢٢٦، ٢٢٧) وسنده حسن وهو صحيح].

٦٢٦ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: **رآني النبي ﷺ واضعاً يدي اليسرى على يدي اليمنى فنزعها ووضَعَ اليُمنى على اليُسرى.**

[رواه أبو داود (٧٥٥)، والنسائي (٢/٩٧) وغيرهما بسند حسن].

٦٢٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «**إنَّا مَعْشَرَ الأنبياءَ أُمِرْنَا بِتَعجِيلِ فِطرِنا وتأخِير سَحُورِنا، ووضع أيمَانِنا على شمَائِلِنا في الصَّلاة**».

[رواه ابن حبان (٨٨٥)، والطبراني في الكبير (١١/١٩٩) بسند صحيح، وأورده

الهيثمي في «المجمع» (٢ ١٠٥) وقال: رجاله رجال الصحيح، وكذا قال (٣ ١٥٥) وفي الباب أحاديث كثيرة فلنكتف بهذه النبذة].

ش: وفي هذه الأحاديث مشروعية وضع اليد اليمنى على اليسرى بعد تكبيرة الإحرام في القيام. وهو مذهب كل الأئمة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وداود وأهل الحديث قاطبة.

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين فمن بعدهم يرون أن يضع الرجل يمينه على شماله في الصلاة.

وقال ابن عبدالبر: لم يأت عن النبي ﷺ فيه خلاف وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، وهو الذي ذكره مالك في «الموطأ» ولم يحك ابن المنذر وغيره عن مالك غيره إلخ.

وكيفيته: وضع الكف على الكف، ووضع الأصابع على الرسغ والساعد والقبض عليهما، وبهذا يجمع بين الوضع على الذراع الوارد في حديث سهل وبين ما ورد في حديث وائل وغيره لأن من وضع بعض أصابعه على الساعد فقد وضعها على الذراع. ومن اقتصر على الذراع خالف حديث وائل، أما موضعه فيكون فوق السرة على الصدر أو تحته بقليل وهو قول الجمهور، أما وقته ففي القيام قبل الركوع وما ظهر اليوم من الوضع بعد الركوع فلم يقل به أحد من علماء الإسلام الصحابة فمن بعدهم ولا يوجد في كتاب من كتب سائر المذاهب وإنما ابتدعه ورآه بعض العلماء المعاصرين. أما الإرسال والسدل مطلقاً فلم يقل به إلا الروافض من الشيعة والخوارج وبعض مقلدة مالك المتعصبين ولا دليل لهم من السنة أصلاً لا صحيحاً ولا ضعيفاً.

أدعية افتتاح الصلاة

٦٢٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سكت رسول الله ﷺ بين التكبير والقراءة إسْكَاتَةً قال: حسبته قال: هُنَيَّةً، قال: قلت: بأبي وأُمّي

يا رسول الله أرأيت إسْكَاتَك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «أقول: **اللَّهُمَّ باعِدْ بيني وبينَ خطَاياي كما بَاعدْتَ بينَ المشرِق والمغرب، اللَّهُمَّ نَقِّني من خَطاياي كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْني من خطاياي بالثَّلْجِ والماءِ والبَرَد**».

[رواه البخاري (٢/٣٧١، ٣٧٢)، ومسلم ٥/٩٦)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٢/٩٩، ١٠٠) وغيرهم].

٦٢٩ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استفتح الصلاة قال: «**سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدِك وتبارَك اسمُك وتعالى جدُّك ولا إلَه غيرُك**».

[رواه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي رقم (٢١٨)، والحاكم (١/٢٣٥) وسنده صحيح عند أبي داود. وهو في صحيح مسلم (٤/١١١) أن عمر كان يجهر بهؤلاء الكلمات، إلخ].

ش: الحديثان يدلان على مشروعية استفتاح الصلاة بما ذكر، وقد صح في ذلك أحاديث، وبهذا قال الجمهور، رأوا الاستفتاح بالأدعية الواردة بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة، وستأتي أدعية أخرى في القراءة في الصلاة وفي قيام الليل إن شاء الله تعالى.

* * *

القراءة في الصلاة

التعوذ

٦٣٠ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كَبَّر ثم يقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ وتَبَارَكَ اسْمُك وتَعَالى جَدُّك ولا إلَه غَيرُكَ، الله أكبَرُ كَبِيراً، ثم يقول: أعوذُ بالله السَّمِيعِ العليمِ مِن الشَّيطانِ الرجيمِ، مِن هَمْزِهِ، ونَفْخِهِ، ونَفْثِهِ**».

[رواه أحمد (٣/٥٠)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢١٧)، والنسائي (٢/١٠٢)، والدارمي (١٢٤٢)، وابن ماجه (٨٠٤)، والطحاوي في «المعاني» (٨/١٩٧، ١٩٨)، والدارقطني (١/١٩٨) بسند صحيح].

٦٣١ ـ وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي ﷺ يصلي قال: فكبَّر، فقال: «**الله أكبرُ كبيراً ثلاثَ مرَّات، والحمدُ لله كثيراً ثلاثَ مَرَّات، وسُبْحَانَ الله بُكرةً وأصيلاً ثلاثَ مرَّاتٍ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الشَّيطانِ الرَّجِيمِ من همْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ**».

[رواه أحمد (٤/٨٠، ٨٥)، وأبو داود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧)، وابن حبان (٤٤٣)، والحاكم (١/٣٣٥)، وصححه ووافقه الذهبي وهو في مسلم بدون التعوذ].

ش: قوله: «**همزه**»: هي الجنون. «**ونفخه**»: الكبر؛ لأن الشيطان ينفخ فيه حتى يعظمه في نفسه فيدخله لذلك الكبر. «**ونفثه**»: الشعر.

والحديثان يدلان على مشروعية الاستعاذة من الشيطان قبل القراءة وبالأخص في الصلاة، وبذلك قال الجمهور لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾. واختلفوا في وجوبها واستحبابها وقد غلط من قال بكراهتها في الصلاة مع صريح القرآن والسنة الصحيحة.

والإنسان مخيَّر بين ما في الحديثين من الصيغتين وبين أن يأتي بلفظ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالأمر في ذلك واسع.

والاستعاذة معناها طلب التحصن من الشيطان والاستجارة بالله من وساوسه، وفي الحديثين مشروعية الإتيان بتلك الأذكار العظيمة من التكبير والحمد والتسبيح قبل الاستعاذة، وهي من أدعية التوجه كما قدمنا قريباً.

البسملة قبل الفاتحة

٦٣٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قَرأتُم الحَمْدُ لله فاقْرَأُوا بِسم الله الرَّحمٰنِ الرَّحِيم، إنَّها أُمُّ القُرآن، وأُمُّ الكِتابِ، والسبعُ المَثَانِي، وبِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحِيم إحْدَاهَا**».

[رواه الدارقطني (١ ٣١٢)، والبيهقي (٢/٤٥) كلاهما في السنن وسنده صحيح].

٦٣٣ ـ وعن نعيم المُجْمِر قال: صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم الكتاب حتى إذا بلغ ولا الضالين قال: آمين. وقال الناس: آمين، ويقول كلما سجد: **الله أكبر**، وإذا قام من الجلوس من الاثنين قال: الله أكبر، ثم يقوم إذا سلم: **والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله** ﷺ.

[رواه النسائي (٢/١٠٣، ١٠٤)، والطحاوي في معاني الآثار (١/١٩٩)، وابن الجارود في «المنتقى» (١/٧٢)، والدارقطني (١/٣٠٥)، وابن خزيمة (١/٢٥١)، وابن حبان رقم (٤٤٥) موارد، والحاكم (١/٢٣٢)، والبيهقي (٢/٤٦) وعلقه البخاري في باب جهر المأموم بالتأمين، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي وغيرهم. وقال الحافظ في «الفتح» (٢/٤١٠): وهو أصح حديث ورد في ذلك. وهو كما قال: فإن سنده صحيح لا مطعن فيه].

٦٣٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: **كان النبي** ﷺ **يفتتح صلاته: بسم الله الرحمن الرحيم.**

[رواه الترمذي (٢٢٠)، والدارقطني (١/٣٠٤)، والبيهقي (٢/٤٧)، ورواه البزار والطبراني في الكبير (١١/١٨٥)، والدارقطني (١/٣٠٣)، والحاكم (١/٢٣٢)، والبيهقي (٢/٤٩، ٥٠) بلفظ: كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وصححه البيهقي وقال في «مجمع الزوائد» (٢/١٠٩): ورجاله موثقون. وقال الحافظ سيدي أحمد الصديق في «الهداية» (٣/٣٤) وهو بمجموع طرقه وشواهده حديث صحيح].

ش: هذه الأحاديث تدل على أن البسملة من الفاتحة وأنها تقرأ معها جهراً وسراً، وبها استدل الشافعي وغيره ممن قال بوجوبها في الفاتحة حتى أبطلوا صلاة من تركها، وبهذا ندين الله تعالى.

٦٣٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه **أن النبي** ﷺ **وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين.**

[رواه البخاري فيما يقول بعد التكبير (٢/٣٦٩)، ومسلم في حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٤/١١٠، ١١١)، والطيالسي (٤٠٠)، والدارمي (١٢٤٣)، والترمذي (٢٢١)،

وابن ماجه (٨١٣)، والطحاوي في «المعاني» (٢٠٣/١) وزاد بعضهم كمسلم: «فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم»، وهي زيادة فيها اضطراب كما ذكره الحفاظ].

ش: وهذا الحديث استدل به من لا يرى قراءة البسملة في الفاتحة في الصلاة كمالك وغيره، واستدل به أحمد وأبو حنيفة وغيرهما على الإسرار بها.

وقال النووي في «شرح مسلم»: ومذهب الشافعي وطوائف من السلف والخلف أن البسملة آية من الفاتحة وأنه يجهر بها حيث يجهر بالفاتحة قال: واعتمد أصحابنا ومن قال بأنها آية من الفاتحة أنها كتبت في المصحف بخط المصحف، وكان هذا باتفاق الصحابة وإجماعهم على أن لا يثبتوا فيه بخط القرآن غير القرآن وأجمع بعدهم المسلمون كلهم في كل الأعصار إلى يومنا، إلخ.

ومعنى هذا أنها آية مستقلة من كل سورة لإجماع الصحابة على ذكرها في أول كل سورة. أما معنى حديث الباب فقال الترمذي في «الجامع»: قال الشافعي: إنما معنى هذا الحديث أنهم كانوا يبدءون بقراءة فاتحة الكتاب قبل السورة وليس معناه أنهم كانوا لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم. قال الترمذي: وكان الشافعي يرى أن يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم وأن يجهر بها إذا جهر بالقراءة.

وقصارى القول في الموضوع أن البسملة آية من الفاتحة وأنها أثبتت في المصحف بإجماع الصحابة أول كل سورة وأنه صح عن النبي ﷺ قراءتها في الصلاة جهراً وسراً، وأن الأمر في ذلك واسع، لكن الأفضل الآن الإجهار بها في كل الصلوات الجهرية إظهاراً لمشروعيتها ورداً وإنكاراً على من يقول بكراهتها.

قراءة الفاتحة في كل ركعات الصلاة

٦٣٦ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا صلاةَ لِمَنْ لَمْ يقرأْ فِيها بفاتِحَةِ الكتابِ»**. وفي رواية: **«لا صَلاةَ لِمنْ لَمْ يقرأْ بِأُمِّ القرآن فصاعِداً»**.

[رواه أحمد (٥/٣١٤، ٣١٦، ٣٢١، ٣٢٢)، والبخاري (٢/٣٨٢، ٣٨٣)، ومسلم (٤/١٠٠)، والدارمي (١٢٤٥)، والترمذي (٢٢٢)، وباقي أهل السنن واللفظ الثاني لمسلم وأبي داود].

ش: ذهب عامة العلماء إلى وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة إلا أبا حنيفة فقال: يكفي ما تيسر من القرآن. ثم اختلف من أوجبها فذهب الجمهور إلى وجوبها على الإمام والفذ والمأموم. وقال مالك وغيره بسقوطها عن المؤتم.

وقوله: «**فصاعداً**»: تعلق به من يرى وجوب ما زاد على الفاتحة وجمهور الأئمة على خلافه.

٦٣٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلَّى صلاةً لم يَقْرأْ فيها بأُمِّ القُرآنِ فهي خِدَاجٌ، هِي خِدَاجٌ، هِيَ خِدَاجٌ، غَيْرَ تَمَام**»، فقيل: يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام، فغَمَزَ ذراعي وقال: اقْرأ بها يا فارسي في نَفسِك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدِي نِصْفَين، فنِصْفُها لي ونِصْفُها لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سألَ**»، قال رسول الله ﷺ: «**اقرأوا: يقول العبد: الحمدُ لله ربِّ العالمين، يقول الله: حَمِدَني عَبْدِي، ويقول العبدُ: الرَّحمنِ الرَّحِيم، يقول الله: أثْنَى عليَّ عَبْدِي، ويقول العبدُ: مالِكِ يومِ الدِّينِ، يقول الله: مَجَّدَني عبدي، بقول العبدُ: إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين، هذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سألَ، يقول العبدُ: اهدِنَا الصِّراطَ المُستقيم، صِراطَ الذِين أنعمتَ عليهِم، غيرِ المغضُوب عليهِم ولا الضَّالِّين، فَهَؤُلاءِ لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سألَ**».

[رواه مالك ومسلم (١/١٠١، ١٠٢)].

ش: «**الخداج**» بكسر الخاء هو النقصان. وقوله: «**مجدني عبدي**»: أي عظمني. وقوله: «**قسمت الصلاة**»: أي القراءة وذلك أن هذه السورة نصفها ثناء وتعظيم ونصفها مسألة ودعاء، وقسم الثناء ينتهي إلى قوله: إياك نعبد، وباقيها دعاء.

والحديث يدل على أن الصلاة بلا فاتحة غير كاملة فلا يعتد بها وأن قراءتها واجبة حتى وراء الإمام. واستدل به من لم ير البسملة منها. ولا دليل في ذلك لأنه صح ضده والمثبت مقدم على الساكت أو النافي، وفيه فضل الفاتحة وقد جاء في الصحيح: «**أنها أفضلُ سورةٍ في القرآنِ الكريم**».

فضل التأمين في الصلاة والجهر به

٦٣٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قَالَ الإمامُ غَيرَ المغْضُوب عليهِم ولا الضَّالّين، فقولوا: آمين، فإنَّ المَلائِكةُ تقولُ: آمين، وإن الإمَام يقولُ: آمين، فمَنْ وافَقَ تأمينُه تأمين الملائِكة غُفِرَ لهُ مما تقدَّم من ذنْبِه**».

[رواه أحمد (٢/٢٠٣)، والنسائي (٢/١١١) بسند صحيح، ورواه الشيخان وغيرهما بلفظ: «**إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه**» وله ألفاظ أخرى. وهذه أكملها].

٦٣٩ ـ وعن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقال: **آمين**، مَدَّ بها صَوْتَه.

[رواه أبو داود (٩٣٢)، والترمذي رقم (٢٢٣) وسنده صحيح].

٦٤٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: آمين حتى يَسْمعَ مَنْ يليهِ من الصَّفِّ**. وفي رواية: **حتى يسْمعَها أهلُ الصَّفِّ الأوَّلِ فَيرْتَجّ بها المَسْجِدُ**.

[رواه أبو داود (٩٣٤)، وابن ماجه (٨٥٣)، والدارقطني (١/٣٣٥)، وابن حبان (١٨٠٦)، والحاكم (١/٢٢٣)، وحسنه الدارقطني، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال البيهقي: حسن صحيح. والرواية الأولى لأبي داود، والثانية لابن ماجه، والباقون بنحو ذلك].

ش: وهذه الأحاديث تدل على فضل التأمين وعلى الجهر به من الإمام والمأمومين ومد الصوت بذلك. وبذلك قال الجمهور: وآمين يجوز مده، وكذا قصره على وزن فعيل. ومعناه: اللهم اسمع واستجب.

القراءة في الظهر والعصر والإسرار فيهما

٦٤١ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه **أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الركعتين الأوليَيْنِ من الظُهرِ والعَصْر بفاتحة الكتاب وسورةٍ، ويُسْمِعُنَا الآية أحياناً، ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب.**

[رواه البخاري (٣٨٧/٢)، ومسلم (١٧١/٤، ١٧٢) وغيرهما].

٦٤٢ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الظهر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قَدْرَ ثلاثين آية، وفي الأخريين قدرَ خَمْسَ عَشْرَةَ آيةً، أو قال: نصف ذلك. وفي العصر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر خمس عشر آية، وفي الأخريين قدر نصف من ذلك.

[رواه مسلم (١٧٢/٤)].

٦٤٣ ـ وعن جابر بن سمرة **أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾، و ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، وشبههما.**

[رواه أبو داود (٨٠٥)، والنسائي (١٢٩/٢)، والترمذي (٢٧٥) وحسنه وصححه وسنده عنده صحيح على شرط مسلم].

٦٤٤ ـ وعن أبي معمر قلتُ لِخَبَّابِ بن الأَرَتّ: أكان النبيُّ ﷺ يقرأ في الظهر والعصر؟ قال: نعم، قلت: بأيِّ شيءٍ كنتم تعلمون قراءته؟ قال: باضطراب لحيته.

[رواه البخاري (٣٨٨/٢)، وأبو داود (٨٠١)، وابن ماجه (٨٢٦)].

ش: في هذه الأحاديث بيان قدر ما كان يقرؤه ﷺ في صلاتي الظهر والعصر وأنه كان يقرأ في الأوليين من الظهر قدر ثلاثين آية وقد جاءت مفسرة في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٧٢/٤)، قدر قراءة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، أما الأخريات فعلى النصف من ذلك. وأما العصر فكان يقرأ في الأوليين قدر خمس عشرة آية وكان أحياناً يقرأ في الظهرين بالقصار كالبروج والطارق، والأمر في ذلك واسع. وفي حديث خباب دليل على أنه

كان يُسر القراءة في الظهرين. وهذا لا خلاف فيه، نعم حديث أبي قتادة يدل على جواز الجهر بها فيهما لقوله ويسمعنا الآية أحياناً.

القراءة في المغرب

٦٤٥ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ أُمَّ الفَضل بنت الحارث رضي الله تعالى عنها سمعته وهو يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾، فقالت: يا بني لقد ذكَّرتَنِي بقراءتك هذه السورة إنها لآخرُ ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

[رواه البخاري (٢/٣٨٨، ٣٨٩)، ومسلم (٤/١٨٠)، والترمذي (٢٧٦)، وباقي أهل السنن].

٦٤٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين.

[رواه النسائي (٢/١٣٢) بسند صحيح].

٦٤٧ ـ وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور.

[رواه البخاري (٢/٣٩٠) في الصلاة، وفي الجهاد، والمغازي، والتفسير، ومسلم (٤/١٨٠)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية القراءة في المغرب بالسور الطوال خلافاً لمن كره ذلك من المالكية.

القراءة في العشاء

٦٤٨ ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ في العشاء الآخِرة «بالتين والزيتون»، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءةً.

[رواه البخاري (٢/٣٩٣)، ومسلم (٤/١٨١)، والنسائي (٢/١٣٥)، والترمذي (٢٢٨) بتهذيبي].

٦٤٩ ـ وعن بُرَيْدَة رضي الله تعالى عنه قال: **كان رسول الله ﷺ يقرأ في العِشاء الآخرة «بالشمسِ وضحاها»** ونحوها من السور.

[رواه أحمد (٣٥٥/٥)، والترمذي (٢٢٧)، والنسائي (١٣٤/٢) بسند صحيح].

ش: في الحديثين مشروعية القراءة في صلاة العشاء بما ذكر فيهما «كالتين»، و «الشمس وضحاها» ونحوهما «كسبح اسم ربك الأعلى»، «والسماء والطارق»، «والليل إذا يغشى» كما جاء في حديث جابر في قصة معاذ كما يأتي في محله في صلاة المفترض خلف المتنفل.

القراءة في الصبح

٦٥٠ ـ عن أبي بَرْزَة الأسْلَمِي رضي الله تعالى عنه قال: **كان النبي ﷺ يصلي الصبح وأحدنا يعرف جليسه ويقرأ فيها بين الستين إلى المائة.**

[رواه البخاري (١٦١/٢)، ومسلم (١٤٥/٥) وقد تقدم مطولاً برقم (٤٨٩)].

ش: قوله: «**ما بين.. الستين..**»، نحو من ثلاثة أرباع الحزب، والمائة نحو من حزب ونصف.

٦٥١ ـ وعن عبدالله بن السائب رضي الله تعالى عنه قال: **صلى لنا النبيُّ ﷺ الصُبحَ بمكةَ فاستَفْتَحَ سُورةَ المؤمنين حتى جاء ذِكرُ مُوسى وهَارونَ، أو ذُكِرَ عيسى أخذتْ النبيَّ ﷺ سعلةٌ فركعَ.**

[رواه مسلم (١٧٧/٤) وعلقه البخاري].

٦٥٢ ـ وعن جابر بن سمرة قال: **إن النبي ﷺ كان يقرأُ في الفجر بـ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ وكان صلاته بعدُ تَخْفِيفاً.**

[رواه مسلم (١٧٩/٤)].

٦٥٣ ـ وعن عمرو بن حريث رضي الله تعالى عنه **أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾.**

[رواه مسلم (١٧٨/٤)، وأبو داود (٨١٧)، والنسائي (١٢١/٢)، وابن ماجه (٨١٧)].

ش: وهذه الأحاديث تدل على مشروعية القراءة في صلاة الصبح بالسور الطوال من المفصل وغيره، ولا بأس بالقراءة فيها بالقصار للحديث التالي.

٦٥٤ ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: كنت أقودُ لرسول الله ﷺ ناقتَهُ في السَّفَر، فقال لي: «**يا عُقْبة! ألا أُعلِّمُكَ خيرَ سُورتين قُرِئَتَا؟**»، فعَلَّمَنِي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، فلما نزل لصلاة الصبح صلى بهما صلاة الصبح للناس.

[رواه أبو داود (١٤٦٣)، والنسائي (١٢٢/٢) وغيرها وسنده صحيح].

٦٥٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: **ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان لرجل كان أميراً على المدينة، صليت خلفه فكان يُطِيلُ الركعتين الأُولَيَيْن من الظهر، ويُخَفِّف الأُخْرَيَيْن، ويُخَفِّفُ العصر، ويقرأ في الركعتين الأوليين من المغرب بقصار المُفَصَّلِ، ويقرأ في الركعتين الأوليين من العشاء بوَسَطِ المفصل، ويقرأ في الصبح بطوال المفصل.**

[رواه أحمد (٢١٥/٣)، والنسائي (١٣٠/٢) بسند حسن صحيح، وصححه الحافظ في بلوغ المرام].

ش: قوله: «**المفصل**»: هو من الحجرات إلى آخر القرآن، وطواله من الحجرات إلى سورة البروج، ووسطه منها إلى الزلزلة وقصاره إلى آخر القرآن.

قال الترمذي في «الجامع»: روي عن أصحاب النبي ﷺ والتابعين أنهم قرأوا بأكثر من هذا وأقل، كان الأمرُ عندهم واسعاً في هذا.

لكن الأفضل أن يقرأ في الصبح بِطِوَال المفصل ونحوها، وفي العصر والعشاء بأوسطه، وفي المغرب بقصاره، وفي الظهر بالطوال، والكل جائز فلا حرج في ذلك.

القراءة في صبح يوم الجمعة

٦٥٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾.

[رواه البخاري (٢٨/٣)، ومسلم (١٦٨/٦) كلاهما في الجمعة. ورواه البخاري في مواضع ومثله عن ابن عباس. رواه مسلم (١٦٨/٦)، وأبو داود (١٠٧٤)، والترمذي (٤٦٨)، والنسائي ٩١/٣) كلهم في الجمعة].

القراءة خلف الإمام

٦٥٧ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فثَقُلَتْ عليه القراءةُ، فلما انصرف قال: **«إنِّي أَرَاكُم تَقْرَأُون وَرَاءَ إمَامِكُم»**، قال: قلنا: يا رسول الله إي والله!، قال: **«لا تَفْعَلُوا إلا بأُمِّ القرآن، فإنَّه لا صَلاةَ لمَنْ لم يقرأ بها»**.

[رواه أحمد (٣١٦/٥، ٣٢٢)، وأبو داود (٧٢٣)، والترمذي (٢٧٩)، والحاكم (٢٣٨/١، ٢٣٩)، وابن حبان (٤٦٠) بالموارد، وسنده حسن وهو صحيح لشاهد حسن له عند أحمد].

٦٥٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جَهَر فيها بالقراءة فقال: **«هلْ قرأَ معِي أحدٌ مِنكم آنِفاً؟»**، فقال رجل: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«إنِّي أقولُ: ما لِي أُنَازَعُ القُرآنَ؟»**، قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما يجهر فيه رسول الله ﷺ من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

[رواه أحمد (٢٤٠/٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠١، ٤٨٧)، وابن أبي شيبة (٣٧٥/١)، ومالك رقم (١٩٠)، وأبو داود (٧٢٦)، والترمذي (٢٨٠)، والنسائي (١٠٨/٢، ١٠٩)، وابن حبان (٤٥٤) وغيرهم بأسانيد صحيحة].

ش: الحديث الأول يدل بظاهره على مشروعية قراءة الفاتحة وراء

الإمام ولا يزيد عليها، بينما الحديث الثاني يدل بزيادته: «فانتهى الناس» إلخ، على عدم قراءتها، وقد اختلف الأئمة في ذلك، قال الترمذي عقب الحديث الأول: والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وهو قول مالك، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق يرون القراءة خلف الإمام. ثم استدل لذلك عقب الحديث الثاني وذكر المذاهب في ذلك فانظره. واستدل من قال بعدم القراءة بهذه الزيادة: «فانتهى الناس..» إلخ، لكن صحح البخاري والذهلي وأبو داود والخطابي أنها مدرجة من قول الزهري.

واستدلوا أيضاً بحديث جابر: **«من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»**. رواه أحمد (٣٣٩/٣)، والطحاوي (١٢٨/١) وغيرهما من طرق كلها ضعيفة، نعم رواه مالك في «الموطأ» (١٨٤) بسند صحيح عن جابر موقوفاً.

وعلى كل حال فالأحوط والأفضل قراءة الفاتحة مطلقاً وتكون سراً بلا مخالجة.

ماذا يقول من لا يحسن الفاتحة

٦٥٩ ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً فعلّمني ما يُجزِئُنِي؟ قال: **«قُلْ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إلَه إلا اللهُ، والله أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ»**، قال: يا رسول الله هذا لله، فما لي؟ قال: **«قل: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، وعافِنِي، واهْدِنِي، وارْزُقْنِي»**، فلما قام قال: هكذا بيده، قال رسول الله ﷺ: **«أمَّا هذا فقد مَلأَ يَدَيْهِ مِن الخيرِ»**.

[رواه أحمد (٢٨٢/٤، ٣٥٣)، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (١١٠/٢)، وابن حبان (١١٥/٥)، والحاكم (٢٤١/١) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي].

ش: والحديث يدل على فضل هذا الذكر وما معه من الأدعية، وعلى أن الأعجمي والعاجز عن حفظ الفاتحة يكفيه الذكر المذكور في صلاته بدل القراءة، والله رحيم بعباده.

تكبيرات الانتقال

٦٦٠ ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُكَبِّرُ في كلِّ خَفْضٍ، ورَفْعٍ، وقيامٍ، وقُعُودٍ، وأبُو بكر وعمرُ.

[رواه أحمد (٣٦٦٠، ٣٧٣٦)، والترمذي (٢٢٧)، والنسائي (٢/١٦١، ١٨٢، ١٨٥)، والدارمي (١٢٥٢) وسنده صحيح، وحسنه الترمذي وصححه. ومثله عن أبي هريرة وعمران في الصحيحين].

٦٦١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يُكَبِّرُ حِينَ يقومُ، ثم يكبِّر حين يَركع، ثم يقول: «سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ» حين يرفعُ صُلْبَهُ من الركعة، ثم يقول وهو قائم: «ربَّنا لكَ الحمدُ»، ثم يكبر حين يَهْوِي، ثم يكبر حين يرفع رأسه، ثم يكبر حين يسجد، ثم يكبر حين يرفع رأسه، ثم يفعل ذلك في الصلاة كلها حتى يقضيها، ويكبر حين يقوم من اثنتين بعد الجلوس. وفي رواية: ثم يقول أبو هريرة: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ.

[رواه البخاري (٢/٤١٥، ٤١٦)، ومسلم (٤/٩٧، ٩٨) وغيرهما].

٦٦٢ ـ وعن عكرمة قال: صليت خلف شيخ بمكة فكبَّر ثنتين وعشرين تكبيرة، فقلت لابن عباس: إنه أحْمَقُ، فقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك، سنةُ أبِي القاسم ﷺ.

[رواه البخاري (٢/٤١٥)].

ش: اتفق الأئمة والعلماء على هذه التكبيرات، وهي ثنتان وعشرون تكبيرة في أربع ركعات، وكلها سنة، إلا التكبيرة الأولى فإنها فريضة بلا خلاف لا تنعقد الصلاة إلا بها. وقال أحمد والظاهرية بوجوب كل التكبيرات. والسنة أن يكون التكبير حين الشروع في الركن وينتهي بانتهائه.

صفة الركوع

٦٦٣ ـ عن أبي حُمَيْد الساعدي عن رسول الله ﷺ: وركع ثم اعتدل فلم يُصَوِّبْ رأسه، ولم يُقْنِعْ.

[رواه أحمد، والترمذي وغيرهما، وقد تقدم مطولاً (٦٢١)].

ش: «**يصوب**»: أي لم يخفضه جداً. «**ولم يقنع**»: أي لم يرفعه حتى يكون أعلا من جسده.

٦٦٤ ـ وعن عباس بن سهل قال: اجتمع أبو حميد وأبو أُسَيْد وسهل بن سعد ومحمدُ بن مَسْلَمة فذكروا صلاة رسول الله ﷺ قال أبو حُميدٌ: أنا أَعْلَمُكُم بصلاة رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ ركع فوضع يديه على ركبتيه كأنه قابضٌ عليهما، ووتَرَ يديه فنحاهما عن جنبه.

[رواه أبو داود (٧٣٤)، والترمذي (٢٣٣)، وحسنه وصححه وهو في البخاري (٢/٤٥٠، ٤٥١) من طريق آخر مطولاً].

ش: قوله: «**ووتر يديه**»: أي عَوَّجَهُما. فالسنة في الركوع أن يضع راحتيه على ركبتيه ويفرج بين أصابعه، ويجافي مرفقه عن جنبيه ويُسَوِّي ظهره وعُنُقَه ورأسَه.

٦٦٥ ـ وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو أنه ركع فجافى يديه ووضع يديه على ركبتيه وفرج بين أصابعه من وراء ركبتيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يصلي.

[رواه أبو داود (٨٦٣)، والنسائي (٢/١٤٥) مطولاً وبألفاظ وسنده صحيح].

وعيد من لا يتم الركوع والسجود ووجوب الطمأنينة في الاعتدال

٦٦٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**أقِيمُوا الرُّكوعَ والسُّجودَ فوَاللَّهِ إنِّي لأَرَاكُم مِن بعدِ ظَهْرِي إذا ركعتُم وسجدتُم**».

[رواه البخاري (٢/٣٦٨)، ومسلم (٤/١٤٩)].

٦٦٧ ـ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُجْزِئُ صلاةٌ لا يُقِيمُ الرجلُ فيها صُلْبَه في الركوعِ والسجودِ**».

[رواه أحمد (١٢٢/٤)، وأبو داود (٨٥٥)، والترمذي (٢٣٧) وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً النسائي (١٤٣/٢)، وابن ماجه (٨٧٠) وغيرهم].

٦٦٨ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أنه رأى رجلاً لا يُتِمُّ الركوع والسجود فقال: ما صليتَ، ولو مُتَّ مُتَّ على غير الفِطرة التي فطر الله محمداً ﷺ عليها.

[رواه البخاري (٤١٨/٢)].

ش: في هذه الأحاديث دليل على وجوب الطمأنينة وإقامة الصلب في الركوع والسجود والاعتدال فيهما، وهو مذهب عامة الأئمة مالك والشافعي وأحمد وداود وأهل الحديث، وقالوا: من ترك ذلك فسدت صلاته، ولم ير ذلك أبو حنيفة، وخالفه جماعة من أتباعه كابن الهمام وغيره فوافقوا الجمهور.

أذكار الركوع والسجود

٦٦٩ ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**»، وفي سجوده: «**سُبْحَانَ ربِّي الأعلى**» وما أتى على آية رحمة إلا وقفَ وسأل، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ.

[رواه مسلم في كتاب المسافرين مطولاً (٦١/٦)، ويأتي كاملاً في صلاة الليل. ورواه أبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٣٥)، والنسائي (١٤٩/٢) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: الحديث يدل على مشروعية هذا التسبيح في الركوع والسجود والجمهور على أنه سنة، وقال أحمد والظاهرية واجب، واختاره الخطابي

وجماعة لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، والحديث مفسر للآيتين، ويشهد لذلك حديث عقبة بن عامر قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُم**». فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم**» رواه أبو داود (٨٦٩، ٨٧٠) وهو حديث حسن صحيح لشواهده.

٦٧٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبحانَك اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي**» يَتأَوَّلُ القُرآنَ.

[رواه البخاري (٤٢٥/٢)، ومسلم (٢٠٢/٤)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائي (١٤٩/٢) وغيرهم].

ش: قوله: «**يتأول القرآن**»: تعني قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

٦٧١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أيضاً أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الملائِكَةِ والرُّوحِ**».

[رواه مسلم (٢٠٤/٤)، وأبو داود (٨٧٢)، والنسائي (١٤٩/٢)].

ش: قوله: «**سبوح قدوس..**» إلخ هما بضم أولهما وفتحهما، والمراد بهما تنزيه الباري عما لا يليق به، فسبوح معناه المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية. وقدوس قيل: المبارك أو المطهر من كل ما لا يليق بالخالق.

٦٧٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أيضاً قالت: فَقدتُ رسولَ الله ﷺ ليلةً مِن الفراشِ فالْتَمَسْتُه فوقعتْ يَدي على بطْنِ قدميْه وهو في المسجد وهما مَنْصُوبَتَانِ وهو يقولُ: «**اللَّهُمَّ أعُوذُ برضاكَ من سخطك، وبِمُعَافَاتِك مِن عُقُوبَتِك، وأعُوذُ بِكَ مِنكَ، لا أُحْصِي ثَناءَ عليك أنت كما أثْنَيتَ على نَفْسِك**».

[رواه مسلم (٢٠٣/٤)].

ش: استعاذ واستجار بالله منه، فسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته. وقوله: «**لا أحصي**»: أي لا أطيق الثناء عليك ولا أُحِيطُ به. وقوله: «**أنت كما أثنيت..**» إلخ: اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته.

٦٧٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّه دِقَّهُ وجِلَّهُ وأوله وآخِره وعلانِيَتَه وسِرَّه**».

[رواه مسلم (٤/٢٠١)، وأبو داود (٨٧٨)].

ش: قوله: «**دقه وجله**» بكسر أولهما: أي قليله وكثيره.

وفي هذه الأحاديث مشروعية الذكر والدعاء بما فيها، وهي من الأدعية العظيمة الهامة التي ينبغي للمسلم أن لا يتكاسل عنها، وأن يجعلها هِجِّيرَاهُ.

النهي عن القراءة في الركوع والسجود

٦٧٤ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كشفَ رسولُ الله ﷺ السِّتَارَة والناسُ صُفوفٌ خلفَ أبي بكر فقال: «**أيُّها النَّاسُ إنه لم يَبْقَ مِن مُبَشِّرَاتِ النُبُوَّةِ إلاَّ الرُؤْيَا الصَّالحةُ يراها المُسلمُ أو تُرَى له أَلاَ وَإنِي نُهِيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو سَاجداً، فأمَّا الرُكوعُ فعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ عزّ وجلّ، وأمَّا السُّجودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ فَقَمِن أن يُسْتَجَابَ لَكُم**».

[رواه مسلم (٤/١٩٦)، وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي في الكبرى (١/٢١٨)].

ش: قوله: «**فقمن**»: أي جدير وحقيق وحري أن يستجيب الله لكم دعاءكم.

الرفع من الركوع وما يقال عندئذ

٦٧٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة وفيه: ثم يقول: «**سَمِعَ الله لِمَن حَمِده**» حين يرفع صلبه

من الركعة، ثم يقول وهو قائم: «**ربَّنا ولَكَ الحَمْدُ**» الحديث تقدم رقم (٦٦٣) مطولاً.

٦٧٦ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمن حَمِدَه، ربَّنا ولَكَ الحمدُ مِلءَ السمواتِ والأرضِ ومِلْءَ ما بينَهُما، ومِلْء ما شِئتَ مِن شَيءٍ بعدُ**».

[رواه الطيالسي (٤٣٦)، ومسلم (٥٩/٦)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٢٣٨) وغيرهم].

٦٧٧ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**ربَّنا لكَ الحمدُ، مِلءَ السَّمواتِ والأرض، ومِلءَ ما شِئتَ من شيءٍ بعد أهلُ الثَّناءِ والمجْد أحقُّ ما قالَ العبدُ، وكُلُّنا لكَ عبدٌ، اللَّهُمَّ لا مَانِع لما أعطيتَ، ولا مُعْطِي لما مَنَعتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجدِّ مِنك الجَدُّ**».

[رواه مسلم (١٩٤/٤) ومثله عن ابن عباس عنده أيضاً (١٩٥/٤)].

وعن ابن أبي أوفى: وفيه إذا رفع ظهره من الركوع قال: «**سَمِعَ الله لِمَن حَمِدَهُ، اللَّهُم ربَّنا لكَ الحمدُ..**» إلخ، رواه مسلم (١٩٢/٤).

ش: وفي هذه الأحاديث بيان ما يقال عند الرفع وبعد الانتصاب وفيه مشروعية الجمع بين التسميع والتحميد لأنه عمل النبي ﷺ وقد قال: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**» رواه البخاري وبناء على هذا قال الشافعي، وداود، وعطاء، ومالك في رواية عنه يجمع بينهما الإمام والمنفرد والمأموم. ولا ينافي هذا حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إذ قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد**»، أخرجه البخاري ومسلم ومثله عن أبي هريرة وعائشة أخرجاه لأن غايته أن المأموم مأمور بالتحميد. والتسميع مأخوذ من قوله ﷺ أيضاً لأنه جمع بينهما ونحن مأمورون بالاقتداء به.

وقوله: «**ربنا ولك الحمد**»: جاء في رواية عن أبي هريرة عند البخاري (٤٢٥/٢): «**اللهم ربنا ولك الحمد**» وهي أتم وأكمل.

٦٧٨ ـ وعن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله تعالى عنه قال: كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: «**سَمِعَ الله لِمَن حمِدَهُ**»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حَمْداً كثيراً طيِّباً مُبَارَكاً فيه مُبَارَكاً عَلَيْهِ، كما يُحِبُّ رَبُّنا ويَرْضَى، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فقال: «**مَنْ المُتَكلِّم آنفاً؟**»، فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «**لقد رأيتُ بِضْعَةً وثَلاثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا أيُّهُم يَكْتُبُهَا أوَّلُ**».

[رواه البخاري (٤٢٩/٢)، وأبو داود (٧٧٣، ٧٧٠)، والنسائي (١٥٤/٢) وقوله: مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى؛ اختص بها أبو داود. ونحوه عن أنس رضي الله تعالى عنه رواه مسلم في المساجد (٩٧/٥)].

ش: واستدل بالحديث على جواز إنشاء ذكر في الصلاة غير مأثور إذا لم يكن مخالفاً للسنة.. وفيه فضل هذه الصيغة من الحمد.

الهوي للسجود

٦٧٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا سَجَدَ أحدُكُم فلا يَبْرُكْ كما يَبْرُكُ البَعِيرُ، ولْيَضَعْ يَدَيْهِ قَبلَ رُكْبَتَيْهِ**».

[رواه أحمد (٣٨١/٢)، وأبو داود (٨٤٠، ٨٤١)، والترمذي (٢٤١) بتهذيبي، والنسائي (١٦٣/٢)، والطحاوي في «معاني الآثار» (٢٥٤/١) وغيرهم بسند صحيح. وصححه عبدالحق الإشبيلي وجوده النووي والحافظ، وكذا صححه غير واحد].

٦٨٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا سجد بدأ فوضع يديه قبل ركبتيه وكان يقول: كان النبي ﷺ يصنع ذلك.

[رواه ابن خزيمة (٦٢٧)، والطحاوي في المعاني (٢٥٤/١)، والحاكم (٢٢٦/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: والحديثان يدلان على مشروعية تقديم اليدين على الركبتين في الهوي للسجود وبهذا قال مالك في المشهور عنه، وقال ابن حزم: إن ذلك واجب. وأخذ الأئمة الثلاثة بحديث وائل بن حجر، لكنه ضعيف.

السجود على سبعة أعظم

٦٨١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أن أسجدَ على سبعةِ أعضاءِ: الجَبْهَةِ، وأشارَ بِيَدِه إلى أنفِه، واليَدَيْنِ، والرُّكْبَتَيْنِ، وأطرافِ القدمَيْنِ**».

[رواه البخاري (٢/٤٤١)، ومسلم (٤/٢٠٧) وغيرهما].

٦٨٢ ـ وعن العباس رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال: «**إذَا سَجَدَ الرَّجلُ سَجَدَ معَه سبعةُ آرابٍ: وَجْهُه، وكَفَّاه، ورُكْبَتَاهُ، وقدَمَاهُ**».

[رواه مسلم (٤/٢٠٧)].

ش: ظاهر الحديثين يدل على وجوب السجود على هذه الأعضاء السبعة، وهو قول عامة أهل العلم. ومن الجهل رفع القدمين عند السجود كما يفعله كثير من الجهلة.

هيئة السجود

٦٨٣ ـ عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان إذا سجد أمكن أنفَه وجَبْهَتَه على الأرضِ، ونحَّى يديه عن جَنْبَيْه، ووضَع كفَّيه حَذْوَ مَنْكِبَيْه.

[رواه أبو داود (٧٣٤)، والترمذي (٢٤٢)، وحسنه وصححه وأصله في البخاري (٢/٤٥٠، ٤٥١) وسيأتي].

٦٨٤ ـ وعن وائِل بن حجر رضي الله تعالى عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ فكان إذا كبَّر رفع يديه، فذكر الحديث وفيه: ثم سجد ووضع وجهه بين كفَّيه. وفي رواية: رأيت النبي ﷺ حين يسجد ويديه قريبتين من أذنه.

[رواه مسلم (٤/١١٤)، وأبو داود (٧٢٣) بالرواية الأولى، وأحمد (٤/٣١٦) بالرواية الثانية وسنده صحيح].

٦٨٥ ـ وعن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: أين كان النبي ﷺ يضع وجهه إذا سجد قال: بين كفَّيه.

[رواه الترمذي رقم (٢٤٣)، والطحاوي في المعاني (٢٥٧/١) وحسنه الترمذي وهو صحيح لغيره].

ش: وهذه الأحاديث تدل على أن الساجد مخير بين أن يضع كفيه حذو منكبيه أو قريباً من وجهه وأذنيه، فالأمر في ذلك واسع، والحمد لله فكلاهما سنة.

٦٨٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سَجَدَ أحَدُكُم فلْيَعْتَدِلْ، ولا يَفْتَرِشْ ذِرَاعَيهِ افتراشَ الكَلْبِ»**.

[رواه الترمذي رقم (٢٤٧) وحسنه وصححه].

٦٨٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اِعْتَدِلُوا في السُّجودِ، ولا يَبْسُطْ أحدُكُم ذِرَاعَيهِ فِي الصَّلاةِ بَسْطَ الكَلْبِ»**.

[رواه الطيالسي رقم (٤٣٧)، والبخاري (٤٤٥/٢)، ومسلم (٢٠٩/٤، ٢١٠)، وأبو داود (٨٩٧)، والترمذي (٢٤٨) وغيرهم].

٦٨٨ ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سَجَدتَ فَضَعْ كفَّيكَ وارْفَع مِرْفَقَيكَ»**.

[رواه أحمد (٢٨٣/٤)، ومسلم (٢١٠/٤)].

٦٨٩ ـ وعن ميمونة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سجَد جافَى حتى يَرَى مَن خَلْفه وَضَحَ إبْطَيْهِ.. يعني بياضهما. وفي رواية: كان ﷺ إذا سجد جافى بين يديه، حتى لو أن بَهْمَةً أرادَتْ أن تَمُرَّ تحت يده مرَّتْ.

[رواه مسلم (٢١١/٤، ٢١٢)، وأبو داود (٨٩٨)، والنسائي ونحوه عن أبي بُحَيْنَة رواه مسلم (٢١٠/٤، ٢١١)].

٦٩٠ ـ وعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه في حديثه

الطويل المتقدم: ثم جافى عضديه عن إبطيه وفتح أصابع رجليه. رواه أحمد وأهل السنن وأصله في البخاري وقد تقدم مطولاً برقم (٦٢١).

وفي رواية له: وإذا سجد فرج بين فخذيه، غير حامل بطنه على شيء من فخذيه. رواه أبو داود (٧٣٥)، والبيهقي (١١٥/٢) بسند حسن.

وفي رواية: واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة. رواه البخاري (٤٥٢/٢) وغيره.

ش: قوله: «**جافى**»: أي باعد. وقوله: «**بهمة**» بفتح الباء الصغيرة من أولاد الضأن.

وفي هذه الأحاديث الطيبات بيان أكثر صفات السجود وهيئته وأنه يجب على المصلي أن يرفع مرفقيه وساعديه عن الأرض وأن لا يكون في سجوده كالكلب وأن يباعد عضديه عن جنبيه وإبطيه بحيث يرى بياضهما وأن يباعد بطنه عن فخذيه، وأن يستقبل القبلة بأطراف أصابع رجليه

الدعاء في السجود

٦٩١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّهِ وهو ساجدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعَاءَ**».

[رواه مسلم (٢٠٠/٤)، وأبو داود (٨٧٥) وغيرهما].

٦٩٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حديثه السابق رقم (٦٧٧): «**وأما السجود فاجتهدوا فيه من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم**».

[رواه مسلم (١٩٦/٤)].

٦٩٣ ـ وعن الإمام علي عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة فذكر الحديث، وفيه: وإذا سجد قال: «**اللَّهُمَّ لكَ سجدتُ وبِكَ آمنتُ ولَكَ أسلمْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذي خَلَقَهِ وصوَّره وشقَّ سَمْعَهُ وبصَرُه، تبارَكَ الله أحسنُ الخَالِقِين**».

[رواه مسلم في صلاة النبي ﷺ بالليل (٦/٦٠)، وتقدم بعضه رقم (٦٧٨)].

٦٩٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في صلاته، أو سجوده في صلاة الليل: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ في قلبي نُوراً، وفي بَصري نُوراً، وفي سَمْعي نُوراً، وعنْ يَميني نُوراً، وعَنْ يَساري نُوراً، ومِنْ فَوْقي نُوراً، ومِنْ تَحْتي نُوراً، وخَلْفي نُوراً، واجْعَلْ لي نُوراً، وفي عَصَبي نُوراً، وفي لَحْمي نُوراً، وفي دَمي نُوراً، وفي شَعَري نُوراً، وفي بَشَري نُوراً، وفي لِساني نُوراً، واجْعَلْ في نَفْسي نُوراً، واعْظِمْ لي نُوراً**».

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٣٦٣، ٣٦٤) وغيره، ومسلم في صلاة النبي ﷺ بالليل (٦/٤٤، ٥٢) وغيرهما].

ش: قوله: «**أقرب ما يكون العبد..**» إلخ: يجب أن يفوض إلى الله معنى هذا القرب بعد أن ينزه تعالى عن قرب المكان وصفات الحوادث فليس كمثله شيء، وأوله جمهور المتأخرين بقرب الرحمة والمغفرة.

وفي هذه الأحاديث مشروعية كثرة الدعاء في السجود لأنه من مظنات الاستجابة، وقد تقدمت عدة أدعية تقال فيه رقم (٦٧١) فما بعده.

الرفع من السجود
وكيفية الجلوس فيه وما يقال عنده

٦٩٥ ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كانت صلاة رسول الله ﷺ إذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع وإذا سجد وإذا رفع رأسه من السجود قريباً من السواء.

[رواه الطيالسي (٤٢٥)، والبخاري (٢/٤٤٤)، ومسلم (٤/١٨٩)، وأبو داود (٨٥٢)، والترمذي (٢٥٠) وغيرهم].

وفي رواية عند مسلم (٤/١٨٧، ١٨٨) وغيره: رمقت الصلاة مع محمد ﷺ فوجدت قيامه، فركعته، فاعتداله بعد ركوعه، فسجدته، فجلسته

بين السجدتين، فسجدته، فجلسته ما بين التسليم والانصراف قريباً من السواء.

٦٩٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» قام حتى نقول قد أَوْهَمَ، ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتى نقول قد أَوْهَمَ.

[رواه البخاري (٢/٤٤٥)، ومسلم (١٨٩/٤) واللفظ له.

٦٩٧ ـ وعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه في صفة صلاة رسول الله ﷺ ثم جلس فافترش رجله اليسرى، وأقبل بصدر اليمنى على قبلته، ووضع كفه اليمنى على ركبته اليمنى، وكفه اليسرى على ركبته اليسرى.

[رواه أبو داود (٧٣٤)، وابن خزيمة (٣٤٣/١) وغيرهما بهذا اللفظ وانظر ما سبق رقم (٦٢١).

٦٩٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن من السنة في الصلاة أن تَنْصِبَ القَدَمَ اليُمنى واستقبالَه بأصابِعِها القِبْلة والجلوس على اليسرى.

[رواه النسائي (١٨٧/٢)، وابن خزيمة (٣٣٨/١) بسند صحيح].

٦٩٩ ـ وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: كان الرجل إذا سلم علَّمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللَّهُمَّ اغْفِر لِي وارْحَمْنِي واهْدِنِي وعَافِنِي وارْزُقْنِي**». زاد في رواية: «**فإنَّ هَؤُلاء تَجْمَعُ لكَ دنياكَ وآخِرَتَك**».

[رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٠/١٧)].

٧٠٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وارْحَمْنِي، وعَافِنِي، واهْدِنِي، وارْزُقْنِي**».

[رواه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٥٥)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (١ ٢٦٢)، وزاد الترمذي وابن ماجه: «واجبرني»، وزاد هذا: «وارفعني». وسنده حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري في مختصر السنن].

٧٠١ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي».

[رواه أحمد (٣٩٨/٥)، وأبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١٨٣/٢)، وابن ماجه (٨٩٧)، والحاكم (٢٧١/١) بسند صحيح. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأصله في صحيح مسلم (٦١/٦، ٦٢) من صلاة المسافرين، وصحيح ابن خزيمة (٣٤٠/١، ٣٤١) مطولاً عندهما].

ش: وفي هذه الأحاديث بيان جلوس النبي ﷺ بين السجدتين وأنه كان مقدار الركوع والرفع منه والسجود. وأنه كان أحياناً يطيله حتى يقول أصحابه إنه أوهم ونسي. وكان ﷺ في هذا الجلوس يجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى قائمة ويَضَعُ يديْه على فخذيه، وقد تقدم نحو ذلك في أول صفة الصلاة رقم (٦٢٠، ٦٢١)، ويأتي بعض ذلك فيما بعد.

وفي الأحاديث الثلاثة الأخيرة مشروعية الدعاء والاستغفار بما جاء فيها في هذا الركن.

الإقعاء الجائز والممنوع

٧٠٢ ـ عن طاوس رحمه الله تعالى قال: قلنا لابن عباس في الإقعاء على القدمين، فقال: هي السنة، فقلنا له: إنا لنراه جَفاء بالرجل، فقال ابن عباس: بل هي سنة نبيك ﷺ.

[رواه مسلم في كتاب المساجد (١٨/٥، ١٩)، والترمذي (٢٥٤)، وأحمد رقم (٢٨٥٥، ٥٨٥٧)].

٧٠٣ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يَفْرِشُ رجله اليُسْرى ويَنصِبُ رجلَه اليُمنَى، وكان ينهي عن عُقْبَة الشيطان.

[رواه مسلم في صفة الصلاة مطولاً (٢١٣/٤) وسيأتي بتمامه قريباً].

ش: قوله: «**الإقعاء**»: فسره المحققون بمعنيين: أحدهما: سنة وهو الجلوس على القدمين معاً، أي عقِبَيْه بين السجدتين كذا قال البيهقي والقاضي عياض والنووي وجماعة من المحققين.

أما المعنى الثاني: وهو المنهي عنه الممنوع هو الإفضاء بالأليتين إلى الأرض ونصب الساقين مع وضع اليدين على الأرض كجلسة الكلب، وهذه هي عقبة الشيطان، والإقعاء الممنوع.

وبناءً على هذا فالجلوس بين السجدتين إما أن يفترش المصلي رجله اليسرى وينصب اليمنى، وإما أن يفترش رجليه معاً ويجلس على عقبيه فكلاهما سنة.

تسوية التراب ومسح الحصا حيث يسجد

٧٠٤ ـ عن مُعَيْقِبٍ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال في الرجلُ يُسَوِّي التُّرابَ حيثُ يسجد قال: «**إنْ كُنْتَ فاعِلاً فَوَاحِدَةً**».

وفي رواية ذكر النبي ﷺ المسح في المسجد يعني الحصا، قال: «**إن كنت لا بد فاعِلاً فواحدةً**».

[رواه البخاري ومسلم (٣٧/٥)، والطيالسي (٤٩٣)، والأربعة].

٧٠٥ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا قامَ أحدُكُم إلى الصَّلاةِ فلا يَمسخ الحَصَا، فإنَّ الرحمةَ تُواجِهُهُ**».

[رواه أبو داود (٩٤٥)، والترمذي (٣٣٩)، والنسائي، وابن ماجه (١٠٢٧)، وابن حبان (٤٨١، ٤٨٢)، وابن الجارود (٢١٩)، وكذا الطيالسي (٤٩٢) وهو حديث حسن لغيره].

ش: وفي الحديثين كراهة تسوية التراب والحصا عند إرادة السجود لأن ذلك من الأشغال المنافية للخشوع في الصلاة ويشمل النهي حتى مسح الجبهة كما قال العلماء. نعم جاءت الرخصة في المرة الواحدة كما في حديث معيقب.

جلسة الاستراحة

٧٠٦ ـ عن مالك بن الحُوَيْرِث رضي الله تعالى عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي فكان إذا كان في وِتْرٍ من صلاتِه لم يَنْهَض حتَّى يَستويَ جالِساً.

[رواه البخاري (٤٤٦/٢)، وأبو داود (٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤)، والترمذي (٢٥٧)، والنسائي (٨٦/٢)].

ش: قوله: «**لم ينهض**»: أي لم يقم. وهذه الجلسة هي التي تسمى بجلسة الاستراحة وتكون قبل القيام للركعة الثانية وللركعة الرابعة، وقد جاءت فيها أحاديث هذا أحدها. ومنها: حديث المسيء صلاته المتقدم وفيه: «**ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**». روياه. ومنها: حديث أبي حميد المتقدم أيضاً وفيه: ثم ثنى رجله وقعد واعتدل حتى يرجع كل عضو في موضعه ثم نهض. وجاءت في غير هذه الأحاديث. ومع ثبوت هذه الجلسة في صفة صلاة النبي ﷺ أنكرها الكثيرون من متعصبة المقلدة على عادتهم في رد السنة الثابتة مع عدم ما يعارضها.

كيف تفتتح الركعة الثانية

٧٠٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا نَهَضَ في الركعة الثانية افتتح القراءة بالحمد لله ربِّ العالمين، ولم يسكت.

[رواه مسلم، ورواه ابن خزيمة (١٦٠٣)، وابن حبان (٢٦٣/٥)، والبيهقي (١٩٦/٢) بسند صحيح بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا نهض في الثانية استفتح القراءة ولم يسكت].

ش: الحديث يدل على أنه لا سكوت في غير الركعة الأولى قبل القراءة، ولا دليل في الحديث لمن منع التعوذ والبسملة في القراءة في الركعة الثانية وغيرها.

كيفية الجلوس للتشهد الوسط وما يتبع ذلك

٧٠٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركعَ لم يُشْخِصْ رأسه ولم يُصَوِّبْه، ولكن بين ذلك، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائماً، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوي جالساً، وكان يقول في كل ركعتين التحية، وكان يفرش رجله اليسرى، وينصب رجله اليمنى، وكان ينهى عن عقبة الشيطان، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع، وكان يختم الصلاة بالتسليم.

[رواه مسلم (٤/١١٣)].

ش: هذا الحديث من جوامع صفة الصلاة وكان من اللائق ذكره أوائل الصفة وأكثر ما فيه تقدم. وفيه بيان صفة الجلوس في التشهد الأول وهو افتراش الرجل اليسرى، ونصب اليمنى كهيئته بين السجدتين وانظر ما سبق رقم (٦٩٩)، وعند البخاري عن أبي حُمَيد الساعدي: فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب اليمنى ويأتي كاملاً عنه من رواية البخاري.

٧٠٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في الصلاة وضع كفَّه اليمنى على فخِذِه اليمنى، وقبَضَ أصابِعَهُ كُلَّها، وأشار بأُصْبُعِه التي تلي الإبهام، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى.

[رواه مسلم (٥/٨٠، ٨١)].

ش: فيه مشروعية وضع اليدين على الفخذين في جلوس التشهد والإشارة بالسبابة. وجاء في رواية له عند النسائي: ونصب اليمنى وأضجع اليسرى، يعني الرجلين.

٧١٠ ـ وعن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: ثم جلس فافترش رجله اليسرى ووضع يده اليسرى على فخذه

اليسرى، وحَدَّ مرفقه اليمنى على فخذه اليمنى، وقبض ثنتين، وحلق حلقة، ثم رفع أصبعه فرأيته يحركها يدعو بها.

[رواه أبو داود (٧٢٦، ٧٢٧)، والنسائي (٣/٣١، ٣٢)، وابن الجارود (٢٠٨)، وابن خزيمة (٧١٤)، وابن حبان (٥/١٧٠) بسند صحيح].

٧١١ ـ وعن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ يشير بأصبعه إذا دعا ولا يحركها.

[رواه أبو داود (٩٨٩)، والنسائي (٣/٣٢) وسنده حسن أو صحيح. وأصله في صحيح مسلم (٥/٧٩، ٨٠) بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا قعد يدعو وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، ويده اليسرى على فخذه اليسرى، وأشار بأصبعه السبابة ووضع إبهامه على أصبعه الوسطى، ويُلقِمُ كفَّه اليسرى فخِذَه].

ش: وفي هذين الحديثين بيان صفة الجلوس للتشهد الأول كما فيهما مشروعية قبض الأصابع والتحليق بالإبهام مع الوسطى أو نحو ذلك، والإشارة بالسبابة غير أن ما في رواية ابن الزبير الأولى: ولا يحركها، تخالفها رواية وائل: فرأيته يحركها... وهي أصح من رواية ابن الزبير، وهي أيضاً مثبتة، والثانية نافية وهي موافقة لروايته عند مسلم: وأشار بأصبعه السبابة، ولم يذكر: ولا يحركها. وأرى أن هذا من الخلاف المباح.

٧١٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجلس الرجل في الصلاة وهو معتمد على يده.

[رواه أحمد (٢/١٤٧)، وأبو داود (٩٩٢) بسند صحيح].

ش: فيه المنع من الاعتماد على اليدين حالة الجلوس في الصلاة.

كيف الجلوس للتشهد الأخير

٧١٣ ـ عن أبي حُمَيْد الساعدي قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونَصَب اليمنى، فإذا جلس في الركعة الآخرة قدَّمَ رِجلَه اليسرى ونصَب الأخرى وقعد على مَقْعَدتِه.

[رواه البخاري وغيره كما تقدم، وفي رواية لأبي داود (٩٦٣): حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخر رجله اليسرى، وقعد متوركاً على شقه الأيسر وسنده صحيح، وفي رواية لابن حبان (٥/١٨٠، ١٨٤، ١٨٨). حتى إذا كانت السجدة التي تكون خاتمة الصلاة.. إلخ، وسنده صحيح أيضاً].

ش: في هذا الحديث مشروعية التورك في التشهد الأخير وهو الجلوس على الشق الأيسر من المقعدة مع تقديم الرجل اليسرى ونصب اليمنى عليها، وأنه يفرق بين هذا الجلوس والجلوس الوسط.

ألفاظ التشهد في الصلاة وما يتبع ذلك

٧١٤ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا صلينا خلف النبي ﷺ قلنا: السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان، فالتفتَ إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**إنَّ اللَّهَ هو السَّلام، فإذا صلَّى أحدُكم فليقلْ: التَّحِيَّاتُ لله، والصَّلواتُ، والطَّيِّباتُ، السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ الله الصَّالِحين، فإنَّه إذا قال ذلك أصابَ كلَّ عبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ، أشهدُ أنْ لا إلَه إلاَّ الله، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه، ثم يَتَخَيَّرْ بعدُ مِن الكلام ما شاء**». وفي رواية: «**ثم يَتَخَيَّرُ من الدُّعاءِ أعْجَبَهُ إليه فيدعو**».

[رواه البخاري (٢/٤٥٥)، وفي مواضع، ومسلم (٤/١١٥، ١١٧) وباقي الجماعة بألفاظ].

٧١٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا التشهُّدَ كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن، فكان يقول: «**التَّحياتُ المُباركاتُ، الصلواتُ الطيِّباتُ لله، سَلامٌ عليكَ أيُّها النبيُّ، ورحمةُ الله وبركاتُه، سلامٌ علينا وعلَى عِبادِ الله الصَّالِحين، أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ الله، وأشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله**».

[رواه مسلم (٤/١١٨، ١١٩)، وأبو داود (٩٧٤)، والترمذي (٢٦٠) وباقي أهل السنن وغيرهم].

٧١٦ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلّمنا صلاتنا.. فذكر الحديث. وقال: وإذا كان عند القعدة فليكن من أول قول أحدكم: التحيات الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فذكره كسابقه.

[رواه مسلم (٤/١٢١، ١٢٢)، وأبو داود (٩٧٢)، والنسائي وغيرهم ويأتي مطولاً].

ش: قوله: «**التحيات**»: هي أنواع التعظيم أو السلامة من الآفات والنقص. «**والصلوات**»: هي الخمس المكتوبات أو الدعوات. «**والطيبات**»: هي كل ما طاب من الكلام كالتلاوة والذكر... وقيل فيها غير ذلك.

وفي هذه الأحاديث بيان ألفاظ التشهد وكلها مشروعة، غير أن أصح ما جاء فيها هو تشهد ابن مسعود. قال الترمذي في «الجامع»: وهو أصح حديث عن النبي ﷺ في التشهد، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من التابعين إلخ.

وقال البغوي في «شرح السنة»: قال أهل المعرفة بالحديث: أصح حديث روي عن رسول الله ﷺ في التشهد حديث ابن مسعود، واختاره أكثر أهل العلم من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. ثم ذكر مذاهب ذلك كسابقه، على أن التشهد جاء عن جم غفير من الصحابة غير ما ذكرنا كأبي بكر، وعمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي حميد، وأنس، وأبي سعيد، وجابر، وحذيفة، وعائشة، وأم سلمة وغيرهم رضي الله تعالى عنهم. وفيها الصحيح والحسن والضعيف. ومن أشهرها حديث سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه الذي كان يعلمه الناس فوق المنبر رواه مالك في «الموطأ» (١/٩٠)، والشافعي في «الرسالة» رقم (٧٣٨)، والحاكم (١/٢٦٦) وصححه ووافقه الذهبي ولفظه: «**التحيات لله، الزكيات لله، الطيبات الصلوات**». والباقي كالسوابق. وجاء في حديث جابر زيادة: «**بسم الله وبالله، التحيات لله**» إلخ. رواه الطيالسي رقم (٤٦١) مع نسخة المعبود، وابن ماجه (٩٠٢)، والنسائي (٣/٣٧) بسند حسن لوجود أيمن بن نابل. وقال فيه الحافظ: صدوق يهم، غير أن الحفاظ قالوا: إنها غير محفوظة، والله أعلم. والجمهور على أن التشهد الأول سنة، والثاني واجب.

وقوله: «**ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه**». استدل به على جواز الدعاء بعد التشهد بكل ما يراه المصلي من الكلام الحسن وإن لم يرد به أثر عن النبي ﷺ، كما استدل به على عدم وجوب الصلاة على رسول الله ﷺ والاستعاذة من الأربع الآتية. وفي ذلك خلاف يأتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى.

٧١٧ ـ وعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: من السنة أن يُخْفِيَ التَّشَهُّدَ.

[رواه أبو داود (٩٨٦)، والترمذي (٢٦١)، والحاكم (١/٢٣٠) من طريقين وهو بهما صحيح ولذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: فيه أن السنة في التشهد إسراره وعدم الجهر به وعليه عمل المسلمين.

مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير

٧١٨ ـ عن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: أتانا رسولُ الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بَشِيرُ بن سعدٍ: أمَرَنا الله تعالى أن نُصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ قال: «**قُولُوا: اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيم، وبارِك على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم في العَالَمِين، إنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ، والسَّلام كما قد عَلمتم**».

[رواه مسلم (٤/١٢٣، ١٢٥)، والترمذي في التفسير رقم (٣٠٠٩)،وأبو داود، والنسائي].

٧١٩ ـ وعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «**قُولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى أزْوَاجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى أزْوَاجِهِ وذُرِّيَّتِه، كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ**».

[رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، وفي الدعوات ١٣/٤٢٤، ٤٢٥)، ومسلم (١١٧/٤)، وأبو داود (٩٧٩) وغيرهم].

ش: في الحديثين مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد في الصلاة لقوله في الحديث: «قولوا»، ولقوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ولا خلاف في ذلك. وإنما اختلفوا هل هي واجبة أم سنة مستحبة، فذهب الشافعي وأحمد وغيرهما إلى وجوبها وأن الصلاة تبطل بدونها، وذهب مالك وأبو حنيفة وغيرهما إلى أنها سنة.

وأفضل صيغها ما ذكره في الحديثين من الصلاة الإبراهيمية، علماً بأنه جاءت ألفاظ أخر في غير هذين الحديثين، فينبغي جمعها والإتيان بها. وقد ذكرتها نقلاً عن النووي والعراقي في «شرح المنهاج» وفي «زاد المتقين»، ويأتي زيادة لهذا في الدعوات.

الاستعاذة من الأربع وما ذكر معها

٧٢٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا فَرَغَ أحدُكم من التشهُّدِ الأخيرِ فليتعَوَّذْ بالله من أربعٍ يقول: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ من عذابِ جهنَّمَ، ومِن عذابِ القبرِ، ومِن فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ، ومن شَرِّ فِتنةِ المسيحِ الدَّجال»**.

[رواه مسلم (٨٧/٥، ٨٨)، وأبو داود (٩٨٣)، والنسائي وغيرهم ونحوه عن ابن عباس وفيه: أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن إلخ، رواه مسلم (٨٩/٥) وغيرهم].

٧٢١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: **«اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من عذابِ القَبْرِ، وأعوذُ بِكَ من فِتنةِ المسيحِ الدَّجال، وأعوذُ بِكَ من فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ من المَأْثَمِ والمَغْرَمِ»**.

[رواه البخاري في الصلاة وفي الفتن، ومسلم في المساجد (٨٧/٥)].

ش: في الحديثين مشروعية الاستعاذة بالله والتحصن به من فتن الحياة والموت والدجال وعذاب القبر والنار. وما أعظمها من فتن. كما فيهما الاستعاذة من المآثم والذنوب والديون لما في ذلك أيضاً من الفتنة عصمنا الله من كل فتنة، آمين.

والجمهور على أن هذه الاستعاذة مستحبة. وقال ابن حزم بوجوبها وبطلان الصلاة بتركها، وذكر مسلم في صحيحه (٨٩/٥)، أن طاوساً قال لابنه: أدعوت بها في صلاتك؟ فقال: لا، قال: أعِدْ صلاتك.

أدعية تقال بعد التشهد

٧٢٢ ـ عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله ﷺ علِّمْنِي دعاءً أدعُو به في صلاتي، قال: «قُل: **اللَّهُمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظُلماً كَثِيراً، ولا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنْتَ، فاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِن عِندِكَ، وارْحَمْنِي إنَّك أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

[رواه البخاري آخر الصلاة (٤٦٤/٢)، وفي الدعوات (٣٧٩/١٣)، وفي التوحيد، ومسلم في الذكر والدعاء (٦٧/١٧، ٦٨) وغيرهما].

٧٢٣ ـ وعن فَضَالَة بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: بَيْنَا رسولُ الله ﷺ قَاعِدٌ إذْ دخلَ رجلٌ فصلَّى قال: اللَّهم اغْفِر لي، فقال رسول الله ﷺ: «**عَجِلْتَ أيُّها المُصلِّي، إذا صليتَ فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله، وصلِّ عليَّ ثم ادْعُهُ**»، قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**ادْعُ تُجَبْ**».

[رواه أحمد (١٨/٦)، وأبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٢٥٠)، والنسائي (٣٨/٣)، وابن حبان (٥١٠) مع الموارد، والحاكم (٢٦٩/١) وصححه الترمذي والحاكم والذهبي].

٧٢٤ ـ وعن مِخْجَن بن الأدْرَع رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسولُ الله ﷺ المسجد فإذا هو برجلٍ قد قضى صلاته وهو يتشهد وهو يقول: اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصَّمدُ الذي لم يلِد ولم يُولد ولم

يكن له كفؤاً أحد أن تغفِرَ لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم، قال: فقال: **«قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له»** ثلاثاً.

[رواه أبو داود (٩٨٥)، والنسائي (٤٥/٣)، وأحمد (٢٣٨/٤) بسند صحيح].

٧٢٥ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله لا إلَه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم تلد ولم تولد ولم يكن له كفؤاً أحد، فقال النبي ﷺ: **«لقد سألتَ اللَّهَ بالاسمِ الذي إذا سُئِلَ به أعطَى وإذا دُعِيَ أجابَ»**.

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٢٤٨)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٢٣٨٣)، والحاكم (٥٠٤/١) من طرق صحيحة، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الدعاء عقب التشهد الأخير قبل السلام، وأنه ينبغي أن يتقدمه ثناء على الله تعالى ثم صلاة على نبيه ﷺ وأن يدعى بأسمائه الحسنى، وأن ذلك من أسباب الاستجابة وغفران الذنوب، ولا يخفى على اللبيب ما في هذه الأحاديث من آداب الدعاء.

السلام من الصلاة

٧٢٦ ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: كنت أرى صَفْحَتَيْ خَدَّيْ رسولِ الله ﷺ إذا سلم عن يمينه وعن شماله: **«السَّلامُ عليكم ورحْمَةُ الله، السَّلامُ عليكُم ورحمَةُ الله»**.

[رواه مسلم (٨٢/٥) وغيره].

٧٢٧ ـ وعن جابر بن سمرة قال: كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ قلنا: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله.

[رواه مسلم (١٥٣/٤)].

٧٢٨ ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يسلِّم عن يمينه وعن شماله حتى يُرَى بياضُ خَدِّه: **«السَّلامُ عليكُم ورحمَةُ الله»**.

[رواه أبو داود (٩٩٦)، والترمذي (٢٦٥)، والنسائي (٣/٥٢، ٥٣)، وابن ماجه (٩١٤)، والطيالسي (٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١)، وابن خزيمة (٧٢٨)، وابن حبان (٥١٦) بسند صحيح].

وزاد ابن حبان وغيره: وبركاته، وهي زيادة صحيحة، ويؤيدها الحديث التالي.

٧٢٩ ـ وعن وائِل بن حجر قال: صليت مع رسول الله ﷺ فكان يسلم عن يمينه: **«السَّلامُ عليكُم ورَحمةُ الله وبركَاتُه»**، وعن شِماله: **السَّلامُ عليكُم ورحْمَةُ الله وبركَاتُه»**.

[رواه أبو داود (٧٩٧) بسند صحيح، ولا يضره الانقطاع هنا. ولذا صححه بهذه الزيادة النووي في «الخلاصة»، والحافظ في «التلخيص»، و«البلوغ»، وصححه بها قبلهما عبدالحق الإشبيلي في «أحكامه»].

٧٣٠ ـ وعن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: **«مِفْتَاحُ الصَّلاة الطَّهُورُ، وتحريمُها التكبيرُ، وتحليلُها التَّسليمُ»**.

[رواه أحمد (١٠٠٦، ١٠٧٢)، وأبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، والدارمي (٦٩٣)، وابن ماجه (٢٧٥) وغيرهم بسند حسن وهو صحيح، وقد تقدم في الطهارة وفي أول الصلاة].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية التسليم من الصلاة عن اليمين والشمال وبهذا قال عامة أهل العلم. والأحاديث بذلك متواترة فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمسة عشر صحابياً، بينما لم يأت في التسليمة الواحدة إلا حديث واحد عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، وفي الحديث الأخير دليل على أن التسليم لا بد منه فهو تحليل الصلاة، ولذلك ذهب كل العلماء إلى وجوبه إلا من شذ منهم.

النهي عن الإشارة باليدين عند التسليم

٧٣١ ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا

رسول الله ﷺ فقال: «**مَا لِي أَرَاكُم رَافِعِي أيديكم كأنَّها أذنابُ خَيلِ شُمُسٍ، اسكُنُوا في الصَّلاة**».

وفي رواية: كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ قلنا: السلام عليكم ورحمة الله، وأشار بيده إلى الجانبين فقال رسول الله ﷺ: «**علامَ تُومِئُون بأيدِكُم كأنَّها أذنابُ خَيلِ شُمُس إنَّما يكفي أحدَكم أن يضَعَ يَدَهُ على فَخِذِهِ ثم يُسلِّم على أخِيهِ مِن على يمينِهِ وشمالِهِ**».

[رواه مسلم في الأمر بالسكون في الصلاة (١٥٢، ١٥٤)، وأبو داود (٨٩٨)، والنسائي وغيرهم].

ش: قوله: «**أذناب خيل شُمُس**»: هي التي تضطرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها. وفيه المنع من رفع اليدين عند السلام. وهو عند الشيعة من صفة الصلاة مخالفين فيه رسول الله ﷺ وجميع المسلمين.

كيفية الانصراف من الصلاة

٧٣٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لا يجعلنَّ أحدكم للشيطان من نفسه جزءاً لا يرى إلا أن حقاً عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه، أكثر ما رأيت رسول الله ﷺ ينصرف عن شماله.

[رواه البخاري في صفة الصلاة، ومسلم (٥/٢١٩، ٢٢٠)، وأبو داود (١٠٤٢) وغيرهم].

٧٣٣ ـ وعن السدي قال: سألت أنساً كيف أنْصَرِفُ إذا صليتُ عن يَمِيني أو عن يَسَاري قال: أمَّا أنا فأكثر ما رأيتُ رسول الله ﷺ يَنْصَرِفُ عن يمينه.

[رواه مسلم (٥/٢٢٠)].

٧٣٤ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ يَنْفَتِلُ عن يَمِينِه وعن يسارِهِ في الصَّلاة.

[رواه أحمد (١٧٨/٢، ٢٠٦)، وابن ماجه (٩٣١) وسنده حسن، ونحوه عن عائشة، رواه النسائي بسند حسن أيضاً].

ش: وفي هذه الأحاديث جواز الانصراف من الصلاة عن الجانبين وأن الأمر في ذلك واسع.

النهي عن الانصراف قبل الإمام

٧٣٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نهاهم أن يَنْصَرِفُوا قَبْلَ انصرافِهِ من الصلاةِ.

[رواه أحمد (٢٤٠/٣)، وأبو داود (٦٢٤) وسنده صحيح على شرط مسلم عند أحمد وأصله في صحيح مسلم مطولاً وسيأتي].

ش: فيه أن من السنة أن لا ينصرف الناس من الصلاة قبل الإمام، وهذه من السنن المهجورة.

تأخر الإمام والرجال حتى ينصرف النساء

٧٣٦ ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم قام النساءُ حِينَ يَقْضِي تَسْلِيمَه وَمَكَث يَسيراً قبل أن يَقومَ.

وفي رواية: كان يسلم فينصرفُ النساءُ فيَدْخُلْنَ بُيُوتَهُنَّ قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ. قال ابن شهاب: فأرَى ـ والله أعلم ـ أن مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النساءُ قبلَ أن يُدْرِكَهُنَّ مَن انْصَرَف مِن القوم.

وفي رواية: أن النساء في عهد رسول الله ﷺ كُنَّا إذا سَلَّمْنَ من المكتوبةِ قُمْنَ، وثَبَتَ رسولُ الله ﷺ ومَن صلى من الرجال ما شاءَ اللَّهُ فإذا قام رسولُ الله ﷺ قام الرجال.

[رواه أحمد (٢٩٨/٦، ٣١٠)، والبخاري (٥٩٣/٢، ٤٩٦)، وأبو داود (١٠٤٠)، وابن ماجه (٩٣٢)].

ش: قال الحافظ في «الفتح»: فيه اجتنابُ مواضع التُّهَم، وكراهةُ مخالطةِ الرجال للنساءِ في الطرقات فضلاً عن البيوت.

ولهذا جاء في سنن أبي داود (٤٦٢، ٥٧١) بسند صحيح على شرطهما عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ تَرَكْنَا هَذَا البابِ لِلنِّساءِ**». قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات.

فابتعاد الجنسين عن بعضهما مطلوب من الشارع وقد جاء في سنن أبي داود أيضاً (٥٢٧٢) من حديث أبي أسيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق ـ: «**اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أن تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عليكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ**»، فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به. وسنده حسن في الشواهد. ويأتي البحث في هذا في موضعه.

الذكر بعد الصلاة

٧٣٧ ـ عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يَنْصَرِفَ من صلاته استغفر ثلاث مرات ثم قال: «**اللَّهُمَّ أنتَ السَّلامُ ومِنك السَّلامُ، تباركتَ يا ذَا الجلالِ والإكرامِ**».

[رواه أحمد (٢٧٥/٥، ٢٧٩)، ومسلم (٨٩/٥)، وأبو داود (١٥١٣)، والترمذي (٢٦٩) بتهذيبي وغيرهم].

٧٣٨ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده يوماً ثم قال: «**يا مُعاذُ إنِّي لأُحِبُّكَ لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ أن تقولَ: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

[رواه أحمد (٢٤٤/٥، ٢٤٧)، وأبو داود (١٥٢٢)، وابن خزيمة (٧٥١) وسنده صحيح. ونحوه عن أبي هريرة رواه أحمد (٢٩٩/٢)، والحاكم (٤٩٩/١) بسند صحيح].

٧٣٩ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا صلينا

خلفَ رسول الله ﷺ أَحْبَبْنَا أن نكونَ عن يمينِه يُقْبِلُ علينا بوجْهِه قال: فسمعته يقول: «**رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**».

[رواه مسلم (٥/٢٢١)].

٧٤٠ ـ وعن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما كان يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إلَه إلا الله وحده لا شريك لهُ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ، وهو على كل شيء قديرٌ، لا حولَ ولا قوة إلا بالله، لا إلَه إلا الله، ولا نَعبدُ إلا إياه، له النِّعْمَةُ ولهُ الفضلُ، وله الثناءُ الحسَنُ، لا إلَه إلا الله مُخْلِصينَ لهُ الدينَ ولو كرِهَ الكافرون». وقال: كان رسول الله ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كلِّ صلاة.

[رواه مسلم (٥/٩١، ٩٢)، وأبو داود، والنسائي].

٧٤١ ـ وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول في دُبُر كل صلاة: «**لا إلَه إلاَّ الله وحدَه لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، وهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ**».

[رواه أحمد، والبخاري في الصلاة (٢/٤٧٦)، وفي الدعوات، وفي الرقاق، وفي القدر، وفي الاعتصام، ومسلم في المساجد (٥/٩٠، ٩١) وغيرهما].

٧٤٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ: «**مَن سبَّحَ اللَّهَ في دُبُر كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وحَمِد الله ثلاثاً وثلاثين، وكَبَّر الله ثلاثاً وثلاثين فَتِلكَ تِسعَةٌ وتِسْعُون، وقال: تمام المائة: لا إلَه إلاَّ الله، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْكُ ولهُ الحَمْدُ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، غُفرتْ خَطَايَاهُ وإن كانتْ مِثلَ زَبَدِ البحرِ**».

[رواه مسلم (٥/٩٥)] وجاء في حديث كعب بن عجرة عنه ﷺ: «**مُعَقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهُنَّ وفاعِلُهُنَّ**» فذكره وفيه أربع وثلاثون تكبيرة. رواه مسلم (٥/٩٤) وفي الباب غير هذا].

٧٤٣ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرأَ آيةَ الكُرْسِي دُبُرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِن دُخُولِ الجنَّةِ إلاَّ الموْتُ».

[رواه النسائي في «عمل اليوم» (١٨٢، ١٨٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠٦٤) بأسانيد. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠٢/١٠): واحدها جيد. وله شاهد عن سيدنا الحسن عليه السلام رواه الطبراني وحسنه الهيثمي في المجمع (١٤٨/٢، ١٠٢/١٠) فالحديث صحيح].

٧٤٤ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمُعَوِّذَتَيْنِ دُبُرَ كل صلاة. وفي رواية: بالمعوِّذات.

[رواه أحمد (١٥٥/٤)، وفي مواضع، وأبو داود (١٥٢٣)، والترمذي في فضائل القرآن رقم (٢٧١٢)، والنسائي (٥٨/٣) بسند صحيح، وصححه الحاكم (٢٥٣/١)، ووافقه الذهبي].

ش: المعوِّذات هي سورة الإخلاص وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، فينبغي للمسلم أن يحافظ على هذه الأذكار والأدعية لما لها من الفضل العظيم، وأن لا يتكاسل عنها ويهملها فيندم يوم لا ينفعه الندم.

الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح للذكر

٧٤٥ ـ عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الفجر جلس حتى تَطلُعَ الشمسُ وقال: كانوا يجلسون فيَتَحَدَّثُون ويأخُذون في أمرِ الجاهلية فيَضْحَكون، ويَتَبَسَّمُ معَهُم إذا ضَحِكُوا ـ يعني النبي ﷺ ـ.

[رواه أحمد (٩٧/٥، ١٠٥)، ومسلم في المساجد (١٧١/٥) وفي رواية له: كان إذا صلى الصبح لم يَبْرَحْ مِن مَجْلِسِه حتى تطلعَ الشمسُ حَسْنَاءَ].

٧٤٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن صَلَّى الفَجْرَ في جَماعَةٍ ثم قَعَدَ يَذكُرُ الله حتَّى تَطْلَع الشمسُ ثم صلَّى ركعتين، كانت له كأجْرِ حِجَّةٍ وعُمرةٍ»**، قال رسول الله ﷺ: **«تَامَّةٍ، تامَّةٍ، تامَّةٍ»**.

[رواه الترمذي رقم (٥٢٤) بسند حسن وهو صحيح لشواهده].

القنوت في الصلاة

٧٤٧ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قَنَتَ رسولُ الله ﷺ شهراً مُتَتابِعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح في دُبُرِ كل صلاة إذا قال: سمِعَ الله لِمن حمده من الركعة الأخيرة، يدعو عليهم على حَيٍّ من بَنِي سُلَيْم، على رِعْلٍ وذَكْوَان وعُصَيَّةٍ، ويُؤَمِّنُ من خَلْفَه، أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام فقتلوهم.

[رواه أبو داود (١٤٤٣)، والحاكم (١/٢٢٥، ٢٢٦)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٢/٢٠٠) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

وفي الباب عن أنس، وأبي هريرة، وابن عمر، وخِفَاف بن إيماء وغيرهم، وهي في الصحيحين أو أحدهما، وإنما آثرت حديث ابن عباس لجمعه ما تفرق في غيره، وهي تدل على مشروعية القنوت عند النوازل وبهذا قال الجمهور.

٧٤٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما زال رسول الله ﷺ يَقْنُتُ في الفجر حتى فارَقَ الدنيا.

[رواه عبدالرزاق رقم (٤٩٦٤)، والدارقطني (٢/٣٩)، والطحاوي في «معاني الآثار» (١/٢٤٤)، والبيهقي (٢/٢٠١)، قال النووي في «شرح المهذب» (٣/٣٨٥) حديث صحيح، رواه جماعة من الحفاظ وصححوه. وقال البيهقي: هذا إسنادٌ صحيحٌ، سنَدُه ثقاتٌ رُواتُه والحق أن الحديث حسن لحال أبي جعفر الرازي، وهو مختلف فيه].

٧٤٩ ـ وعن أبي مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: قلت لأبي: يا أبت قد صليتَ خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب هٰهنا بالكوفة نحواً من خمس سنين أكانوا يقْنُتُون في الفجر؟ قال: أي بني مُحْدَثٌ.

[رواه الطيالسي (٤٥٥)، والترمذي (٣٦٠) بتهذيبي، والنسائي (١٦٠)، والطحاوي في معانيه (١/٢٤٩)، والبيهقي (٢/٢١٣)، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: القنوت في الصبح على الدوام بلا سبب مختلف فيه. فالحديث الأول يثبته، والثاني ينفيه. ولذلك اختلف الأئمة في ذلك فأخذ بالأول المالكية والشافعية وأخذ بالثاني الحنفية والحنابلة. وتوسط آخرون فقالوا فعله سنة وتركه سنة، واختاره سفيان الثوري ورجحه ابن القيم وبه نأخذ. أما ابن حزم فقال: يشرع في جميع الصلوات ولو بدون سبب لأنه فعل خير.

* * *

ما لا يجوز في الصلاة وما يباح فيها

المنع من الكلام

٧٥٠ ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنا نَتكلمُ خَلْفَ رسول الله ﷺ في الصلاة يُكَلِّم الرجلُ منا صاحبَه إلى جنبه حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، فأُمِرْنَا بالسكوتِ ونُهِينا عن الكلامِ.

[رواه البخاري في الصلاة (٣١٦/٢)، والتفسير (٢٦٥/٩)، ومسلم في المساجد (٢٦/٥)، والترمذي (٣٦٢) وحسنه وصححه، ورواه أيضاً في التفسير، وكذا أبو داود (٩٤٩)، والنسائي].

٧٥١ ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كنا نسلِّم على رسول الله ﷺ وهو في الصلاة فيردُّ علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله كنا نسلِّم عليك في الصلاة فتردُّ علينا، فقال: «**إنَّ في الصَّلاةِ شُغْلاً**».

[رواه البخاري في الصلاة (٣١٥/٣)، ومسلم في المساجد ٢٥/٥، ٢٦) وغيرهما، ورواه البخاري في مواضع أخرى].

ش: في الحديثين تحريم الكلام ولو بالسلام في الصلاة ولا خلاف في ذلك. نعم يجوز ذلك للإصلاح كما يأتي.

ذم التثاؤب في الصلاة

٧٥٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**التَّثاؤبُ في الصلاةِ مِنَ الشَّيطانِ، فإذا تَثاءَبَ أحدُكم فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ**».

[رواه البخاري ومسلم].

وفي رواية: «**إذا تَثاءَبَ أحدُكم فلْيُمْسِك بِيَدِه على فِيه، فإنَّ الشَّيطانَ يدخُلُ**».

[ورواه مسلم بالروايتين في الزهد (١٢٣/١٨، ١٢٤)، والرواية الثانية عن أبي سعيد الخدري].

ش: «**التثاؤب**»: فتح الفم عند الكسل وهو من الشيطان كما في الحديث فيجب دفعه وإمساكه وهو الكظم، فإن غلب الإنسان وضع يده اليسرى على فيه.

النهي عن الاختصار في الصلاة

٧٥٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ نَهَى أن يُصَلِّيَ الرجلُ مُخْتَصِراً.

[رواه أحمد (٣٩٩/٢)، والبخاري في العمل في الصلاة (٨٤/٢)، ومسلم في المساجد (٧٤/٥)، وأبو داود (٩٤٧)، والترمذي (٣٤٢) وغيرهم].

ش: والاختصار هو وضع اليدين على الخاصرتين وهو من فعل اليهود كما في صحيح البخاري (٣٠٦/٤) عن عائشة.

النهي عن السَّدْلِ وتغطية الفم في الصلاة

٧٥٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن السدل في الصلاة، ونهى أن يُغطِّي الرجلُ فاهَ.

[رواه أحمد (٢/٢٩٥، ٣١٤)، وأبو داود (٦٤٣)، والترمذي (٣٣٨)، وابن حبان (٤٧٨)، والحاكم (١/٢٥٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: المراد بالسدل إرسال الثياب على عادة لباس العرب، كانوا ربما اشتملوا بثوب واحد وسدلوه عن اليمين والشمال فَتَبْدُو سَوْآتُهم، وقد يُرادُ بِسَدْلِها إرْسَالُها حتى تَتَعدَّى الكعبين لأن ذلك من الخُيَلاء.

أما تغطيةُ الفم فإنه من فعل الجاهلية وعبدةِ النار فلا يجوز التشبه بهم.

النهي عن الالتفات في الصلاة

٧٥٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «**هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُه الشَّيْطَانُ مِن صَلاة العَبْدِ**».

[رواه البخاري في صفة الصلاة (٢/٣٧٦، ٣٧٧)، وفي بدء الخلق (٧/١٥١)].

ش: «**الاختلاس**»: الاختطاف بسرعة. فهو مكروه في الصلاة لأنه ينافي الخشوع، فإن كان ولا بد ففي التطوع كما جاء في الترمذي وصححه.

كراهية رفع البصر إلى السماء في الصلاة

٧٥٦ ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يَرْفَعُونَ أبصارَهُم إلى السَّماءِ فِي الصَّلاةِ أوَ لا تَرْجِع إليهم أبصارُهم**».

[رواه مسلم (٤/٥٢) وغيره، ونحوه عنده عن أبي هريرة].

٧٥٧ ـ وفي رواية عن أنس عنه ﷺ: «**مَا بَالُ أقوام يَرْفَعُون أبصَارَهُم إلى السَّماءِ فِي صَلاتِهِم**» فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ عن ذلك أو لَتُخْطَفَنَّ أبْصَارُهم**».

[رواه البخاري في صفة الصلاة (٢/٣٧٦)].

ش: في الحديث بروايتيه تهديد لمن يرفعون أبصارهم إلى السماء داخل الصلاة وزجر لهم عن ذلك، لأنه يتنافى مع الصلاة التي ينبغي فيها الإقبال على الله تعالى والنظر إلى موضع السجود مع الخشوع والحضور.

كراهية البزاق لجهة القبلة أو عن اليمين

٧٥٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إذا كَانَ أحَدُكُم يُصَلِّي فلا يَبْصُقْ قِبَلَ وجهِه فإنَّ الله قِبَلَ وجْهِهِ**».

[رواه البخاري (٣/٣٢٦)، ومسلم في المساجد (٥/٣٨) وغيرهما].

٧٥٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قَامَ أحدُكُم إلى الصَّلاةِ فلا يَبْصُقْ أمامَهُ فإنَّهُ يُنَاجِي الله ما دامَ في مُصَلاَّه ولا عَن يَمِينِهِ، فإنَّ عَنْ يمِينِهِ مَلَكاً، ولَكِنْ لِيَبْصُقْ عن شِمَالِه أو تَحْتَ رِجْلِهِ فَيَدْفِنُهَا**».

[رواه البخاري (٢/٥٥، ٥٦)، ومسلم (٥/٤٠) كلاهما في المساجد].

ش: قوله: «**فإن الله قِبَلَ وجهه**»: ظاهره غير مراد فيجب الإيمان به وتفويض حقيقته إلى الله تعالى أو تأويله بالرحمة كما قالوا. وفي الحديث المنع من البصاق لجهة القبلة أو لجهة اليمين وخاصة في الصلاة.

التحذير من مسابقة الإمام

٧٦٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**أما يَخْشَى أحَدُكُم إذا رَفَعَ رأسَهُ قبْلَ الإمامِ أن يَجْعلَ اللهُ رأسهُ رأسَ حمارٍ**».

[رواه البخاري (٢/٣٢٤)، ومسلم (٤/١٥١)، وأهل السنن].

ش: في هذا وعيد وتهديد فليحذر المؤمن مسابقة إمامه في الركوع والسجود.

كراهية عقص الشعر وضم الثياب

٧٦١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ: «**إنَّما مَثَلُ الذي يُصَلِّي ورأسُهُ مَعْقُوصٌ مثلُ الذي يُصلِّي وهو مَكْتُوفٌ**».

[رواه مسلم (٤/٢٠٨)، وجاء في حديث أبي رافع عنه ﷺ ذلك كفل الشيطان. رواه أبو داود (٦٤٦)، والترمذي (٣٤٣)، وابن ماجه (١٠٤٢) بسند صحيح].

وتقدم حديث ابن عباس: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم**، وفيه: ولا نكفت الثياب ولا الشعر». رواه الشيخان.

ش: قوله: «**معقوص**»: أي مضفور أو مشدود عند القفا وكفت الثياب ضمها.

ففي الحديثين كراهية ضم الثياب وشد الشعر حالة الصلاة، بل يتركان على حالتهما لسجدا مع صاحبهما.

* * *

أشياء تباح في الصلاة بلا حرج

المشي والعمل اليسير

٧٦٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جئتُ ورسولُ الله ﷺ يُصَلِّي في البيت والبابُ عليه مُغْلَقٌ، فمشَى حتى فَتَحَ لي ثم رجع إلى مكانِه، ووصفتْ البابَ في القبلةِ.

[رواه أحمد (٦/٣١)، وأبو داود (٩٢٢)، والترمذي (٥٣٦)، والنسائي (٣/١٠) بسند صحيح].

الإشارة باليد لرد السلام ونحوه

٧٦٣ ـ عن صهيب رضي الله تعالى عنه أنه قال: مررتُ برسول الله ﷺ وهو يُصلي فسلَّمتُ فرَدَّ إليَّ إشارةً وقال: لا أعلم إلا أنه قال: إشارة بأصبعه.

[رواه أحمد (٤/٣٣٢)، وأبو داود (٩٢٥)، والترمذي (٣٢٧)، وابن ماجه (١٠١٧)، وابن خزيمة (٨٨٨) وسنده صحيح عند بعضهم].

٧٦٤ ـ وعن بلال رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: كيف كان النبي ﷺ يردُّ عليهم حين كانوا يُسلمون عليه وهو في الصلاة؟ قال: كان يُشيرُ بيده.

[رواه أحمد (٦/١٢)، وأبو داود (٩٢٧)، والترمذي (٣٢٨) وحسنه وصححه].

٧٦٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ صلَّى بأصحابه جالساً فقاموا خلفه، فأشار إليهم أن اجْلِسُوا.

[رواه الشيخان].

ش: فأمثال هذه الأشياء لا بأس بها ولا تبطل بمثلها الصلاة، أو يلزم لها سجود.

قتل الحية والعقرب

٧٦٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أمر بقَتْلِ الأَسْوَدَيْنِ في الصَّلاةِ: الحيَّةِ والعَقْرَبِ.

[رواه أبو داود (٩٢١)، والترمذي (٣٤٩)، والنسائي، وابن ماجه (١٢٤٥)، وابن خزيمة (٨٦٩)، وابن حبان (٥٢٨)، والحاكم (١/٢٥٦)، وابن الجارود (٢١٣) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم].

ش: فمثل هذا الفعل في الصلاة لا بأس به دفعاً للأذى، كما يؤيده الحديث التالي.

أخذ نحو مهاجم في الصلاة، ولعن الشيطان

٧٦٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ عِفريتاً مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عليَّ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عليَّ صَلاتِي، فأمْكَنَنِي اللَّهُ منه فأخذْتُه، فأرَدْتُ أن أرْبِطَهُ على سارية من سَوَارِي المسجدِ حتَّى تَنْظُرُوا إليه كلُّكم، فذكرتُ دعوةَ أخِي سُلَيمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، فرددْتُه خاسِئاً**».

[رواه البخاري في العمل في الصلاة (٣/٣٢٣)، وفي الأنبياء، وفي تفسير سورة صٓ وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد (٥/٢٨، ٢٩) وسيأتي في الأنبياء].

٧٦٨ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: «**أعُوذُ باللَّهِ منك**»، ثم قال: «**أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله**» ثلاثاً وبَسط يدَه كأنه يَتَنَاوَلُ شيئاً فلما فَرَغَ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك قال: «**إنَّ عَدُوَّ الله إبليسَ جاء بِشِهَابٍ من نَارٍ لِيَجْعَلَه في وَجْهِي، فقلتُ: أعُوذُ بالله منك ثلاثَ مرات، ثم قُلتُ: أَلعَنُك بلعنةِ الله التامَّةِ، فلم يستأخر ثلاثَ مرات ثم أردتُ أخذَه، واللَّهِ لولاَ دعوةُ أخينا سُلَيمان لأصْبَحَ مُوثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أهلِ المدينةِ**».

[رواه البخاري ومسلم (٥/٣٠، ٣١].

ش: قوله: «**تفلت عليَّ**»: أي تعرض لي فلتة وفجأة.

وفي الحديثين دليل على جواز مثل ما فعل النبي ﷺ وأن الصلاة لا تبطل بذلك، وهو القدوة الحسنة.

جواز حمل الأطفال في الصلاة

٧٦٩ ـ عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ يَؤُمُّ الناسَ وأمامةُ بنتُ أبي العاص وهي ابنةُ زينَب بنتِ النبي ﷺ على عَاتِقِه فإذا ركع وضعها، وإذا رفَعَ من السجود أعادها.

[رواه البخاري في سترة المصلي (١٣٧/٢، ١٣٨)، ومسلم في المساجد (٣٢/٥، ٣٣) وغيرهما].

ش: فيه جواز حمل طفل في الصلاة إذا لم ير فيه نجاسة وأن حمله ووضعه لا حرج فيه، ومنع من ذلك المالكية. وقد رد عليهم النووي ما اعتذروا به عن الحديث، فانظر «شرحه لمسلم» (٣٢/٥)، و«فتح الباري» (١٣٩/٢).

اللحظ في الصلاة يميناً وشمالاً

٧٧٠ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يَلْحَظُ في الصلاة يميناً وشمالاً ولا يَلْوِي عُنُقَه خلفَ ظهرِه.

[رواه أحمد (٢٧٥/١، ٣٠٦)، والترمذي (٥٢٥)، والنسائي (٩/٣)، والحاكم (٢٣٦/١، ٢٣٧) وغيرهم بسند صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: قوله: «يلحظ»: اللحظ هو النظر بطرف العين التي تلي الصدغ.

البكاء من خوف الله ونحوه

٧٧١ ـ عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله تعالى عنه قال: انْتَهَيْتُ إلى رسولِ الله ﷺ ولِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كأَزِيزِ المِرْجَل من البكاءِ.

[رواه أحمد (٢٥/٤)، وأبو داود (٩٠٤)، والترمذي في الشمائل، والنسائي (١٢/٣) بسند صحيح].

ش: قوله: «أزيز»: أي صوت. «والمرجل» بكسر الميم: القدر.

٧٧٢ ـ وعن ابن عمر في حديث الكسوف... وجعل ﷺ ينفخ في الأرض ويبكي وهو ساجد.

[رواه أحمد وغيره، وعلقه البخاري (٣٢٦/٣) ويأتي في الكسوف].

ش: وفي الحديثين جواز البكاء في الصلاة إذا كان من خشية الله أو عظمته أو محبته ولو كان مع نفخ وصوت خفيف.

التفكر في أمور خارجة عن الصلاة

٧٧٣ ـ عن عُقبةَ بن الحارث رضي الله تعالى عنه قال: صليتُ مع النبي ﷺ العصر فلما سلَّم قام سَريعاً دخل على بعض نسائه ثم خرج. فقال: **«ذكرتُ وأنا في الصلاة تِبْراً عندنا فكرِهتُ أن يُمْسِي أو يَبيت عندنا فأمرتُ بقسمته»**.

[رواه البخاري (٣/٣٣٢) وغيره].

ش: «التِّبر» بكسر التاء: الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا.

٧٧٤ ـ وعن أبي هريرة عنه ﷺ: **«إذا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ أدْبَر الشيطانُ ولَهُ ضُراط... ثم أقبل فلا يزال بالمرء يقول له: اذكر ما لم يكن يذكر حتى لا يدري كم صلى»**.

[رواه البخاري وغيره وقد تقدم في الأذان].

ش: وفي الحديثين دليل على أن حديث النفس داخل الصلاة لا يفسدها، لأن ذلك مما لا ينفك عنه بشر.

ماذا يفعل المصلي إذا أحدث

٧٧٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذَا أحْدَثَ أحَدُكُم في صَلاته فليأْخُذْ بأنْفِهِ ثُمَّ لِيَنْصَرِفَ»**.

[رواه أبو داود (١١١٤)، والحاكم (١/١٨٤) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما وأقره الذهبي].

ش: في هذا الحديث الأخذ بالأدب في ستر ما ينبغي أن لا يشاع، ولا يُعَدُّ مثل هذا من الكذب بل هو من أنواع التورية طلباً للسلامة من الناس.

فهذه نبذ من الأشياء الممنوعة والجائزة في الصلاة، وتقدمت أشياء في غضون الأبواب السابقة ويأتي بعضها في الأبواب اللاحقة إن شاء الله تعالى.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة تمهيدية	٦
كتاب العلم	٢١
ما جاء في فضل العلم والحث على طلبه والوصاية بأهله والترحيب بهم	٢١
الرحلة في العلم	٢٥
فضل مجالس العلم	٢٦
فضل العلماء وأنهم ورثة الأنبياء	٢٧
ما جاء في شرف أهل الحديث والفقه في الدين	٢٨
باب ما جاء في تبليغ العلم والحث عليه	٢٩
ما جاء في التخوُّل بالتبليغ وعقد مجالس علمية خاصة بالنساء	٣١
ما جاء في الدلالة على الخير وفضل ذلك وإرسال البعوث لتعليم الديانة الإسلامية	٣٣
ما جاء في وعيد كاتمي العلم والمقصرين في تبليغه	٣٦
من آداب الداعية	٣٨
ما جاء في ذم السؤال لغير حاجة والإكثار منه	٣٩
ما جاء في ذم الجدال في الدين والاختلاف فيه	٤٠
وعيد الكذب على رسول الله ﷺ	٤١
وجوب التثبت في التحديث	٤٢
باب ما جاء في معرفة أهل الحديث بصحيحه من سقيمه	٤٣
صفة إلقاء الحديث وإملائه والمراجعة فيه	٤٣
تحمل الصبي الحديث والعلم في صغره	٤٤
ما جاء في كتابة الحديث منعاً وجوازاً	٤٥

الموضوع	الصفحة
~~باب ما جاء في~~ رفع العلم	٤٧
ذم الإفتاء بلا علم ورد العلم في السؤال إلى الله تعالى	٤٩
~~ما جاء في~~ تعلم غير لغة العرب للحاجة	٥٠
~~ما جاء في~~ تعلم الأنساب	٥١
ما جاء في تعلم النجوم	٥٢
ما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل	٥٣
وعيد من تعلم العلم لغير الله عزّ وجلّ	٥٤
الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع	٥٥
سؤال العلماء عما عملوا في علمهم	٥٦
علماء السوء وشرارهم	٥٦
المجددون من هذه الأمة	٦٠
كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من التمسك بالقرآن الكريم	٦١
صراط الله المستقيم	٦٣
مثل ما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى والدين	٦٥
من التمسك بالسنة المحمدية وذم البدع والمحدثات	٦٧
التحذير من الدجاجلة والضالين والجاهلين	٧٣
لزوم الجماعة وذم التفرق	٧٦
الصحابة والكتابة والسنة:	٨٢
الاقتصاد في الأعمال، وذم التشدد والغلو في ذلك	٨٧
كتاب الإيمان والإسلام	٩٧
من فضائلهما	٩٧
خاتمة	١٠١
حقيقة الإيمان والإسلام وقواعد الدين	١٠٢
فائدة هامة	١٠٥
المبايعة على الإيمان وشرائع الدين	١١٤
دعاء الناس إلى توحيد الله وشرائع الدين وقتالهم على ذلك وحرمة دم المسلم وماله وعرضه	١١٨
من شعب الإيمان	١٢٣
كمال الإيمان وزيادته ونقصانه وتجديده	١٣١

الموضوع	الصفحة
تغرب الإيمان والإسلام وفضل الإيمان بالغيب	١٣٤
الوسوسة ودواؤها	١٣٨
كتاب القدر	١٤١
من ذم الخوض في القدر	١٤١
ذم القدرية ووعيدهم ومجانبتهم	١٤٢
وجوب الإيمان بالقدر وأن كل شيء بقدر الله عزّ وجلّ	١٤٤
القدر والدعاء	١٤٩
الهدى والضلال بقدر الله	١٤٩
العمل مع القدر	١٥٠
الأعمال بالخواتم	١٥٢
القدر عند الخلقة في الرحم	١٥٣
محاجة آدم وموسى	١٥٦
حكم الأطفال	١٥٩
خاتمة	١٦٠
كتاب الطهارة أبواب المياه	١٦٢
ماء زمزم	١٦٢
ماء البحر	١٦٣
ماء الآبار	١٦٣
ماء الفلاة ترده السباع والدواب	١٦٤
الماء الدائم الذي لا يجري	١٦٥
النهي عن التطهر بالماء المستعمل	١٦٥
صحة التطهر بالماء المستعمل	١٦٦
الماء الذي خالطه طاهر ولم يغيره	١٦٧
خاتمة	١٦٧
أبواب الطاهر والنجس وما يتبع ذلك	١٦٨
النجس	١٧٦
خاتمة	١٧٩
إزالة النجاسة بغير غسل	١٨١
الآنية	١٨٣

الموضوع	الصفحة
أبواب التخلي وقضاء الحاجة وما يتبع ذلك	١٨٦
الإبعاد	١٨٦
الاستتار عند التخلي	١٨٦
مواضع يجب اتقاؤها عند قضاء الحاجة	١٨٧
الملاعن الثلاث	١٨٧
الماء الراكد	١٨٨
المغتسل	١٨٨
الجُحْر	١٨٩
مشروعية البول في الآنية	١٩٠
البول من جلوس	١٩٠
البول من قيام	١٩٠
النهي عن استقبال القبلة أو استدبارها عند التخلي	١٩١
الرخصة في ذلك	١٩٢
ما يقال عند التخلي	١٩٣
ما يقال بعد الخروج منه	١٩٣
كراهية ذكر الله عند قضاء الحاجة	١٩٤
استعمال اليد اليسرى للخلاء والأذى	١٩٤
التشديد في عدم التحفظ من البول	١٩٥
الاستجمار بالأحجار وتراً والنهي عن استعمال الرجيع والعظم والحممة	١٩٥
الاستنجاء بالماء	١٩٧
الثناء على المتطهرين بالماء	١٩٨
دلك اليد بالأرض بعد الاستنجاء	١٩٩
أبواب الوضوء	٢٠٠
مشروعيته	٢٠٠
من فضائل الوضوء	٢٠١
شرطية الطهارة للصلاة	٢٠٣
لا يجب الوضوء إلا عند إرادة الصلاة	٢٠٤
المحافظة على الوضوء	٢٠٤
مشروعية الوضوء لكل صلاة من غير إيجاب	٢٠٥

الموضوع	الصفحة
الرخصة في أداء العديد من الصلوات بوضوء واحد	٢٠٥
صفة الوضوء	٢٠٦
غسل اليدين ابتداءً	٢٠٦
التسمية عند الوضوء	٢٠٦
حكم في السواك	٢٠٧
السواك عند الوضوء	٢٠٧
السواك عند الصلاة	٢٠٨
السواك عند القيام من النوم	٢٠٨
السواك عند الدخول للمنزل	٢٠٩
المبالغة في التسوك	٢٠٩
الأدب في استعمال السواك	٢١٠
الحض على السواك	٢١٠
السواك مطهر للفم ومرضي للرب تعالى	٢١٠
المضمضة والاستنشاق والاستنثار	٢١١
مشروعية الجمع بين المضمضة والاستنشاق من كف واحدة	٢١٢
تخليل اللحية والأصابع	٢١٢
البداءة باليمين في الوضوء	٢١٣
وجوب إسباغ الوضوء وفضل إطالة الغرة والتحجيل	٢١٤
صفة وضوء النبي ﷺ بالتفصيل	٢١٦
مسح الرأس والصدغين والأذنين مرة واحدة وأنهما من الرأس	٢١٨
الوضوء مرة ومرتين وثلاثاً	٢١٩
مقدار الماء الذي يتوضأ به واتخاذها في آنية	٢٢٠
منع الزيادة على الغسلات الثلاث	٢٢٠
المسح على العمامة والخفين والجوربين	٢٢١
لا يجب المسح إلا على أعلى الخف	٢٢٢
التوقيت في المسح	٢٢٣
دعاء يقال داخل الوضوء	٢٢٤
الأحداث ونواقض الوضوء	٢٢٤
الريح	٢٢٤

الموضوع	الصفحة
المـذي	٢٢٦
مـس الفـرج	٢٢٧
النـوم	٢٢٩
القـيء	٢٣٠
أكل لحوم الإبل	٢٣٠
الوضوء مما مست النار	٢٣١
ترك الوضوء مما مست النار	٢٣١
لمـس المرأة	٢٣٢
الوضوء لكل صلاة من دم الاستحاضة	٢٣٢
أحكام الجنابة والغـسل	٢٣٣
التقاء الختانين	٢٣٣
خروج المني	٢٣٤
الاحتلام مع خروج المني	٢٣٤
كيفية الغسل وصفته	٢٣٥
هل تنقض المرأة ضفائرها عند غسلها من الجنابة والحيض	٢٣٧
طواف الرجل على نسائه والاكتفاء بغسل واحد	٢٣٨
مشروعية الوضوء أو الغسل لمن أراد العودة	٢٣٨
لا يشرع الوضوء بعد الغسل	٢٣٩
مقدار الماء والإناء للغسل	٢٣٩
الاستتار عند الغسل والتنشيف بعده	٢٤٠
الرخصة في تأخير الغسل	٢٤١
مشروعية الوضوء للجنب إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام	٢٤٢
تنزه الجنب عن قراءة القرآن	٢٤٣
مجالسة الجنب ومحادثته وتصرفاته	٢٤٣
الجنب يريد الصلاة فيتذكر أنه جنب وهو بالمسجد	٢٤٤
الجنب يتذكر أنه جنب بعدما يكبر للصلاة	٢٤٤
أنواع الاغتسالات	٢٤٥
غسل الحائض والنفساء	٢٤٥
غسل الكافر عند إسلامه	٢٤٦

الموضوع	الصفحة
غسل من دفن كافراً	٢٤٦
غسل يوم الجمعة	٢٤٧
غسل من غسل ميتاً	٢٤٧
غسل الميت	٢٤٨
باب في الحمام	٢٤٨
كتاب الحيض والاستحاضة	٢٥٠
بداية الحيض في النساء	٢٥٠
صفة دم الحيض	٢٥٠
تحريم مواقعة الحائض	٢٥١
كفارة من يأتي امرأته وهي حائض	٢٥٢
إباحة مضاجعة الحائض ومباشرتها	٢٥٢
طهارة جسد الحائض وسؤرها	٢٥٣
جواز الصلاة والقراءة بحذاء الحائض	٢٥٤
وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة	٢٥٥
المستحاضة وأحكامها	٢٥٥
الكدرة والصفرة وعلامة الطهر	٢٥٧
النفساء والنفاس	٢٥٨
كتاب التيمم	٢٥٨
التيمم من خصائص هذه الأمة	٢٥٨
سبب نزول حكم التيمم	٢٥٩
تيمم الجريح والمريض	٢٦٠
التيمم من البرد	٢٦٠
حكم من تيمم وصلى ثم وجد الماء	٢٦١
الصلاة بلا وضوء ولا تيمم	٢٦١
الصعيد وضوء المسلم كافيه	٢٦٢
صفة التيمم	٢٦٣
خاتمة	٢٦٣
كتاب الصلاة	٢٦٤
فضائلها على الإجمال	٢٦٤

الموضوع	الصفحة
فضل الصلوات الخمس	٢٦٥
فرضية الصلوات الخمس	٢٦٥
وعيد من ترك الصلاة	٢٦٦
أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة	٢٦٨
أمر الصبيان بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين	٢٦٨
مواقيت الصلاة	٢٦٩
ما جاء في المواقيت الجامعة	٢٦٩
تعجيل الصلوات	٢٧٢
ما جاء في تعجيل صلاة الفجر والإسفار بها	٢٧٣
ما جاء في تعجيل صلاة الظهر وتأخيرها في شدة الحر	٢٧٤
تعجيل صلاة العصر	٢٧٧
وعيد من يؤخر العصر إلى الاصفرار أو يضيعها بخروج وقتها	٢٧٧
تعجيل صلاة المغرب	٢٧٩
فضل تأخير صلاة العشاء إلى نصف الليل وكراهة النوم قبلها والحديث بعدها	٢٧٩
فضل صلاتي الصبح والعصر	٢٨٠
ما جاء في الصلاة الوسطى وأنها العصر	٢٨٢
من أدرك ركعة من صلاة في وقتها فقد أدرك الوقت	٢٨٣
أفضل الأعمال الصلاة لوقتها ووجوب المحافظة على الوقت وإن صليت انفراداً	٢٨٣
قضاء الفوائت ووجوب الترتيب فيها وقضائها كما فاتت	٢٨٤
أبواب الأذان	٢٨٧
فضل الأذان	٢٨٧
الأذان من أعظم شعائر الدين وواجباته	٢٨٩
بداية الأذان وسببه وصفته وتوابع ذلك	٢٩٠
التثويب في أذان الفجر	٢٩٤
الأذان يكون في أول الوقت	٢٩٤
تقديم أذان الفجر الأول قبل دخول الوقت	٢٩٥
مشروعية الأذان في السفر كالحضر	٢٩٥

الموضوع	الصفحة
المؤذنون أمناء على الأوقات	٢٩٦
النهي عن أخذ الأجرة على الأذان	٢٩٦
كراهية الخروج من المسجد بعد الأذان	٢٩٧
مشروعية حكاية ألفاظ الأذان وما يقال بعده	٢٩٧
مشروعية الدعاء بين الأذان والإقامة	٢٩٩
خاتمة	٢٩٩
أبواب المساجد وما يتبع ذلك	٣٠٠
أول مسجد وضع في الأرض، وأن الأرض كلها مسجد	٣٠٠
المساجد أحب البقاع إلى الله	٣٠١
فضل بناء المساجد	٣٠١
كراهية زخرفة المساجد والتباهي فيها	٣٠٢
اتخاذ المسجد في موضع قبور المشركين	٣٠٣
النهي عن اتخاذ قبور الصالحين مساجد	٣٠٤
جواز اتخاذ الكنائس مساجد	٣٠٥
بناء المساجد في الدور وتنظيفها وتطييبها	٣٠٦
الصلاة داخل الكعبة	٣٠٧
فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبويّ	٣٠٧
فضل الصلاة في الروضة النبوية	٣٠٨
فضل المساجد الثلاثة وشدّ الرحال إليها	٣٠٨
فضل بيت المقدس	٣٠٩
زيارة مسجد قباء والصلاة فيه	٣١٠
ما هو المسجد الذي أُسّس على التقوى	٣١١
كراهية النخامة والبزاق في المسجد ولجهة القبلة	٣١١
تنزه المسجد عن الروائح الكريهة	٣١٢
تنزه المسجد عن البيع والشراء وتناشد الأشعار ونشد الضوال	٣١٣
رفع الأصوات في المساجد	٣١٤
من آداب دخول المسجد	٣١٥
ما يقال عند دخول المسجد	٣١٥
فضل كنس المسجد وتنظيفه	٣١٦

الموضوع	الصفحة
إباحة النوم والاستلقاء في المسجد	٣١٧
الصلاة في مرابض الغنم دون مراح الإبل	٣١٧
الصلاة في المقبرة	٣١٨
جواز الأكل والشرب في المسجد	٣١٩
إباحة اللعب في المسجد بنحو مباح	٣٢٠
دخول الكافر للمسجد للمصلحة	٣٢٠
خاتمة	٣٢١
استقبال القبلة وما جاء فيها	٣٢١
الرخصة في الصلاة على المركوب لغير القبلة في غير الفريضة	٣٢٣
أبواب ستر العورة والثياب التي يصلى فيها	٣٢٤
ما هي عورة الرجل	٣٢٤
عورة المرأة	٣٢٥
صحة الصلاة بجميع الثياب والألبسة	٣٢٦
الصلاة في ثياب النساء	٣٢٧
كراهية الصلاة في ثوب فيه ما يشغل المصلي	٣٢٨
تحريم الصلاة في لباس الحرير	٣٢٨
الصلاة في النعال والأحذية	٣٢٩
سترة المصلي وما يقطع الصلاة وتوابع ذلك	٣٣٠
صفة الصلاة وأحكامها	٣٣٣
صفتها على العموم وبيان أركانها الضرورية	٣٣٣
صفة صلاة رسول الله ﷺ بالتفصيل	٣٣٦
رفع اليدين في الصلاة	٣٣٧
وضع اليمين على الشمال في الصلاة	٣٣٨
أدعية افتتاح الصلاة	٣٣٩
القراءة في الصلاة	٣٤٠
التعوذ	٣٤٠
البسملة قبل الفاتحة	٣٤١
قراءة الفاتحة في كل ركعات الصلاة	٣٤٣
فضل التأمين في الصلاة والجهر به	٣٤٥

الموضوع	الصفحة
القراءة في الظهر والعصر والإسرار فيهما	٣٤٦
القراءة في المغرب	٣٤٧
القراءة في العشاء	٣٤٧
القراءة في الصبح	٣٤٨
القراءة في صبح يوم الجمعة	٣٥٠
القراءة خلف الإمام	٣٥٠
ماذا يقول من لا يحسن الفاتحة	٣٥١
تكبيرات الانتقال	٣٥٢
صفة الركوع	٣٥٣
وعيد من لا يتم الركوع والسجود ووجوب الطمأنينة في الاعتدال	٣٥٣
أذكار الركوع والسجود	٣٥٤
النهي عن القراءة في الركوع والسجود	٣٥٦
الرفع من الركوع وما يقال عندئذ	٣٥٦
الهوي للسجود	٣٥٨
السجود على سبعة أعظم	٣٥٩
هيئة السجود	٣٥٩
الدعاء في السجود	٣٦١
الرفع من السجود وكيفية الجلوس فيه وما يقال عنده	٣٦٢
الإقعاء الجائز والممنوع	٣٦٤
تسوية التراب ومسح الحصا حيث يسجد	٣٦٥
جلسة الاستراحة	٣٦٦
كيف تفتتح الركعة الثانية	٣٦٦
كيفية الجلوس للتشهد الوسط وما يتبع ذلك	٣٦٧
كيف الجلوس للتشهد الأخير	٣٦٨
ألفاظ التشهد في الصلاة وما يتبع ذلك	٣٦٩
مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير	٣٧١
الاستعاذة من الأربع وما ذكر معها	٣٧٢
أدعية تقال بعد التشهد	٣٧٣
السلام من الصلاة	٣٧٤

الموضوع	الصفحة
النهي عن الإشارة باليدين عند التسليم	٣٧٥
كيفية الانصراف من الصلاة	٣٧٦
النهي عن الانصراف قبل الإمام	٣٧٧
تأخر الإمام والرجال حتى ينصرف النساء	٣٧٧
الذكر بعد الصلاة	٣٧٨
الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح للذكر	٣٨٠
القنوت في الصلاة	٣٨١
ما لا يجوز في الصلاة وما يباح فيها	٣٨٢
المنع من الكلام	٣٨٢
ذم التثاؤب في الصلاة	٣٨٣
النهي عن الاختصار في الصلاة	٣٨٣
النهي عن السَّدْلِ وتغطية الفم في الصلاة	٣٨٣
النهي عن الالتفات في الصلاة	٣٨٤
كراهية رفع البصر إلى السماء في الصلاة	٣٨٤
كراهية البزاق لجهة القبلة أو عن اليمين	٣٨٥
التحذير من مسابقة الإمام	٣٨٥
كراهية عقص الشعر وضم الثياب	٣٨٦
أشياء تباح في الصلاة بلا حرج	٣٨٦
المشي والعمل اليسير	٣٨٦
الإشارة باليد لرد السلام ونحوه	٣٨٧
قتل الحية والعقرب	٣٨٧
أخذ نحو مهاجم في الصلاة ولعن الشيطان	٣٨٨
جواز حمل الأطفال في الصلاة	٣٨٨
اللحظ في الصلاة يميناً وشمالاً	٣٨٩
البكاء من خوف الله ونحوه	٣٨٩
التفكر في أمور خارجة عن الصلاة	٣٩٠
ماذا يفعل المصلي إذا أحدث	٣٩٠
المحتويات	1

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قرآن كريم،

« ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه » حديث صحيح

المجلد الثاني

تتمة كتاب الصلاة، وكتاب الزكاة،
والصيام، والحج، والأذكار، والأدعية

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

سجود السهو

قاعدة عامة في السهو

٧٧٦ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم أنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فإذا نَسِيتُ فَذَكِّرُوني، وإذا شَكَّ أحَدُكم في صَلاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوابَ، فَلْيُتِمَّ عليهِ، ثم لِيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ».

وفي رواية: «ثُمَّ يُسلِّم، ثمَّ يَسجُد».

[رواه البخاري (٤٩/٢، ٥٠)، ومسلم (٦١/٥، ٦٢، ٦٦) وغيرهما].

٧٧٧ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شَكَّ أحَدُكم في صَلاتِهِ فلم يَدْرِ كَمْ صلَّى أثلاثاً أمْ أرْبَعاً فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ ولْيَبْنِ علَى ما اسْتَيقَنَ ثُمَّ يَسجُدُ سَجْدَتَيْنِ قبلَ أن يُسلِّمَ، فإن كانَ صلَّى خَمْساً شَفعْنَ لَهُ صَلاتَه، وإنْ كانَ صلَّى تماماً كانتا تَرْغِيماً للشَّيطانِ».

[رواه مسلم (٦٠/٥)].

ش: قوله: «فليتحر»: التحري: القصد وطلب الأحرى والأولى. وقوله: «ترغيماً للشيطان»: أي إذلاله وإهانته.

وفي الحديثين قاعدة من قواعد السهو، وهو أن المصلي يبني على ما تيقن عنده ويطرح ما شك فيه، كما فيهما جواز سجود السهو للزيادة بعد السلام وقبله.

من سلم من ركعتين في الرباعية

٧٧٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة العصر فسَلَّم في ركعتين فقام ذُو اليدين فقال: أقُصِرَتْ الصلاة أم نَسِيتَ يا رسولَ الله، فقال رسول الله ﷺ: «كلُّ ذلكَ لَمْ يَكُنْ»، فقال: قد كان بعض ذلك يا رسول الله، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «أصَدَقَ ذُو اليدَيْنِ؟»، فقالوا: نعم، فأتمَّ رسول الله ﷺ ما بقي من صلاته ثم سجد سجدتين وهو جالس بعد التسليم.

[رواه البخاري (٣٣٩/٣، ٣٤٣)، ومسلم (٦٧/٥، ٧٠) وباقي الجماعة بألفاظ].

من سلم في ثلاث من الرباعية

٧٧٩ ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ صلى العصر فسلم في ثلاث ركعات ثم دخل منزله، فقام إليه رجل.. فقال: يا رسول الله.. فذكر له صنيعه وخرج غضبانَ يَجُرُّ رِداءَه حتى انتهى إلى الناس فقال: «أصَدَقَ هذا؟»، قالوا: نعم، فصلى ركعة ثم سلم ثم سجد سجدتين ثم سلم.

[رواه مسلم (٧٠/٥، ٧٣)، وأبو داود والنسائي وغيرهم].

من صلى الرباعية خمساً

٧٨٠ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ صلى الظهر خمساً فقيل له: أزِيدَ في الصلاة؟ قال: «وما ذاك؟»، فقالوا: صليت خمساً، فسجد سجدتين بعدما سلم.

[رواه البخاري (٣٣٦/٣)، ومسلم (٦٤/٥) وباقي الجماعة].

ش: إذا نظرت في هذه الأحاديث الثلاثة وجدتها كلها تحمل الزيادة في الصلاة.

ففي الحديثين الأولين زيادة التسليم، وفي الأخير زيادة الركعة الخامسة

وفي جميعها أوقع ﷺ سجود السهو بعد السلام، فخذها قاعدة في السجود المزيادة بعد السلام.

من ترك التشهد الوسط

٧٨١ ـ عن عبدالله بن بُحَيْنَة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ صلى فقام في الركعتين الأوليين ولم يجلس، فقام الناس معه حتى إذا قضى الصلاة وانتظر الناسُ تسليمَه كبَّر وهو جالس وسجد سجدتين قبل أن يُسَلِّم ثم سلَّم.

[رواه البخاري (٣/٣٤٠)، ومسلم (٥/٥٨) وباقي الستة].

٧٨٢ ـ وعن زياد بن علاقة قال: صلى بنا المغيرة بن شعبة فلما صلى ركعتين قام ولم يجلس فسبح به مَن خلفَه فأشار إليهم أن قُوموا، فلما سلَّمَ من صلاته سلم ثم سجد سجدتين وسلم ثم قال: هكذا صنع رسول الله ﷺ.

[رواه الطيالسي (٥٠٩)، وأبو داود (١٠٣٧)، والترمذي (٣٢٥)، والطحاوي في «المعاني» (١/٤٣٩، ٤٤٠) وهو حديث صحيح. ففي الباب عن عقبة بن عامر وعمران بن حصين وغيرهما].

ش: الحديث الأول يدل على أن النقصان من الصلاة يسجد له قبل السلام بينما الحديث الثاني يدل على العكس. والظاهر أن هذا مما يخير فيه المصلي، غير أن السجود لا يكون لنقصان واجب من واجبات الصلاة وأركانها باتفاق.

سجود التلاوة

٧٨٣ ـ عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأهُ خَمْسَ عشْرةَ سجدةً في القُرآنِ، منها ثلاثٌ في المُفَصَّلِ، وفي سورةِ الحَجِّ سَجْدَتَانِ.

[رواه أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجه (١٠٥٧)، والحاكم (١/٢٢٣)، وحسنه المنذري والنووي وقال الحاكم: هذا حديث رواته مصريون، قد احتج الشيخان بأكثرهم، وليس في عدد سجود القرآن أتم منه ولم يخرجاه، وأقره الذهبي].

٧٨٤ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله فُضِّلَتْ سُورةُ الحجِّ بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «**نعم، ومَنْ لم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهُمَا**».

[رواه أحمد (١٥١/٤، ١٥٥)، وأبو داود (١٤٠٢)، والحاكم (٢٢١/١ و ٣٩٠/٣) وسنده حسن].

٧٨٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يسجد في (صَ) قال ابن عباس: وليست من عزائم السجود.

[رواه البخاري في سجود القرآن، وفي الأنبياء، والترمذي في سجود القرآن رقم (٥١٥)، والدارمي (١٤٧٥) وغيرهم].

ش: وقوله: «**وليست من عزائم..**» إلخ: أي ليست مما وردت العزيمة على فعله. وهذا القول منه لا مفهوم له فكل سجدات القرآن ليس بمأمور بها أمر إيجاب.

٧٨٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سجد رسول الله ﷺ (بالنجم) وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس.

[رواه البخاري في سجود القرآن (٢٠٨/٣)، وفي تفسير سورة النجم، ومسلم في سجود التلاوة (٧٥/٥) من حديث ابن مسعود، والترمذي (٥١٣)، وحسنه وصححه وهو من أفراد البخاري عن مسلم].

٧٨٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾.

[رواه مسلم (٧٧/٥)، وأبو داود (١٤٠٧)، والترمذي (٥١٢)، والنسائي (٥٨/٥) وأصله في البخاري].

ش: هذه الأحاديث تدل على مشروعية سجود التلاوة في هذه السور المذكورة. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى في مواضع السجود وعددها

بعد اتفاقهم على مشروعيته في الجملة، فذهب مالك إلى أنه لا يسجد في شيء من المفصل وأنه لم ير السجود إلا في أحد عشر موضعاً. وقال الشافعي: إنها أربع عشرة سجدة ولم ير ذلك في صَ، أما أحمد فذهب لظواهر أحاديث الباب فقال: إنها خمس عشرة وهو أصح الأقوال دليلاً.

جواز السجود في صلاة الفريضة

٧٨٨ ـ عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خَلْفَ أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه.

[رواه البخاري في مواضع من الصلاة، ومسلم في سجود التلاوة (٧٨/٥)].

ش: الحديث نص في جواز سجود التلاوة في الصلاة، ولم يقل بذلك الإخوان المالكية.

مشروعية السجود للسامع

٧٨٩ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ يَقرأُ السجدةَ ونَحْنُ عِندَهُ فيَسجُدُ ونَسجدُ معه، فَنَزْدَحِمُ حَتَّى ما يجد أحدُنا لِجَبْهَتِهِ موضعاً يسجدُ عليه.

[رواه البخاري (٢١١/٣)، ومسلم (٧٤/٥) كلاهما في سجود التلاوة].

ش: هو ظاهر في مشروعية السجود للقارىء والمستمع.

لا حرج على من ترك السجود

٧٩٠ ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: قرأت على النبي ﷺ (والنجم) فلم يَسجُدْ فيها.

[رواه البخاري (٢٠٩/٣)، ومسلم (٧٥/٥) في المصدر السابق].

السجود فيه إرغام للشيطان

٧٩١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قَرَأَ ابنُ آدَمَ السجدةَ فسجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيطانُ يَبْكِي يقولُ: يا وَيْلَه أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسُّجودِ فسجدَ فلَهُ الجَنَّةُ، وأُمرتُ بالسُّجودِ فعَصيتُ فَلِي النَّارُ»**.

[رواه أحمد (٢/٤٤٣، ٤٤٠)، ومسلم (٢/٦٩، ٧٠) في الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة].

ش: سجود التلاوة وإن كان ليس بواجب كما يدل عليه حديث زيد، فالأولى أن لا يترك لأن فيه إغاظة الشيطان وإذلاله وفي ذلك فضل عظيم كما يدل عليه حديث أبي هريرة، فإن سجود المسلم يُغْضِبُ إبليسَ ويَحْملُه على البكاء على شَقَائه.

ما يقال في سجود التلاوة

٧٩٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل: **«سَجَدَ وجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وصَوَّرَهُ وشَقَّ سَمْعَه وبَصَرَه بِحَوْلِهِ وقُوَّتِه، فتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالِقِينَ»**.

[رواه أحمد (٦ ٣٠)، وأبو داود (٤١٤)، والترمذي (٥١٨)، والنسائي (٢/١٧٦)، والحاكم (١/٢٢٠)، وحسنه الترمذي، وصححه وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. والسياق للترمذي وزيادة: **فتبارك الله**.. إلخ للحاكم].

سجود الشكر

٧٩٣ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمْرٌ يُسَرُّ بِه خَرَّ سَاجِداً شاكِراً اللَّهَ تعالى.

[رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٧٤)، والترمذي في السير (١٤٤٨)، وابن ماجه (١٣٩٤) بسند حسن].

٧٩٤ ـ وفي حديث كعب بن مالك أنه سجد في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عزّ وجلّ عليه كما في الصحيحين مطولاً.

٧٩٥ ـ وسجد أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حين بلغه فَتحُ اليمامة.

[رواه البيهقي (٣٧١/١) وغيره].

٧٩٦ ـ وسجد الإمام علي عليه السلام حين رأى المخدج الخارجي.

[رواه أحمد رقم (٨٤٨، ١٢٥٤) بسند حسن، وأصله في الصحيحين].

صلاة المريض

٧٩٧ ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن صلاة المريض فقال: «**صَلِّ قَائِماً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فقَاعِداً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فعلَى جَنْبٍ**».

[رواه أحمد (٤٢٦/٤)، والبخاري في القصر، في الصلاة، وأبو داود (٩٥٢)، والترمذي (٣٣٢)].

٧٩٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال لمريض رآه يصلي على وسادة ورمى بها: «**صَلِّ علَى الأرضِ إن اسْتَطَعْتَ، وإلاَّ فأوْمِىءْ إيْمَاءً واجْعَلْ سُجُودَكَ أخْفَضَ مِن رُكُوعِكَ**».

[رواه البزار (٢٧٤/١) مع الكشف، والبيهقي (٣٠٦/٢) بسند صحيح، وصحح جماعة وقفه لكنه لا يقال من قبل الرأي فله حكم الرفع وقال النووي في «المجموع» (١٤٨/٢): رجال البزار رجال الصحيح، وانظر «التلخيص» للحافظ (٢٢٦/١)].

ش: دِينُنَا يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه، فلا يكلفنا الله فوق ما نطيق، ولذلك كان علينا أن نأتي بما في استطاعتنا ووسعنا كيفما أمكن كما هو مبين في هذين الحديثين.

صلاة الجماعة: فضلها وفضل السعي إليها

٧٩٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرَّجُل في الجماعةِ تَضْعُفُ على صلاتِهِ في بَيْتِه وفي سُوقِه خمساً وعِشرين ضِعْفاً، وذلِكَ أنَّهُ إذا توضَّأ فأحْسَنَ الوُضوءَ ثُمَّ خَرَجَ إلى المسجدِ لا يُخْرِجُه إلا الصَّلاة لم يخطُ خُطْوَةً إلاَّ رُفِعَتْ لهُ بها درجةٌ، وحُطَّ عنهُ بها خطيئةٌ فإذا صلَّى لم تَزَلْ المَلائِكَةُ تُصلِّي عليهِ ما دامَ في مُصَلاه: اللَّهُمَّ صلِّ عليه، اللَّهُمَّ ارْحَمْه ولا يزالُ أحدُكم في صلاة ما انتظر الصَّلاة».

[رواه البخاري (٢/٢٧٥، ٢٧٦)، ومسلم (٥/١٦٥، ١٦٦)].

٨٠٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةُ الجَماعَةِ تَفضُلُ صلاةَ الفَذِّ بِسبعٍ وعِشرينَ دَرجةً».

[رواه البخاري (٢/٢٧١، ٢٧٢)، ومسلم (٥/١٥٢) وغيرهما، وفي الباب عن جماعة].

٨٠١ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إنَّ أعظَمَ النَّاس فِي الصَّلاةِ أجْراً أبْعَدُهُم مَمْشَى».

[رواه مسلم (٥/١٦٧)].

ش: في هذه الأحاديث الفضل العظيم في صلاة الجماعة، وأنه كلما كان الإنسان أبعد من المسجد كلما كان أكثر ثواباً. ولذا جاء في الصحيحين في بني سَلِمَة: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم». أي الزموا دياركم ولا تنتقلوا منها إلى قرب المسجد فإن آثار مشيكم تكتب لكم...

فضل صلاتي العشاء والصبح في الجماعة على غيرهما وأنهما أثقل صلاة على المنافقين

٨٠٢ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**مَنْ صَلَّى العِشاءَ فِي جَماعةٍ فكأنَّما قامَ نِصفَ اللَّيلِ، ومَنْ صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما صلَّى اللَّيلَ كُلَّهُ**».

[رواه أحمد (٥٨/١، ٦٨)، ومسلم (١٥٧/٥)].

وهذا الأجر لا يتكاسل عنه إلا محروم. وفقنا الله تعالى للمحافظة على الصلوات كلها وتقدم حديث أبي هريرة في الأذان: «**ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً**»، ويأتي قريباً بسياق آخر مطولاً وفيه: «**أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الصبح**» وهو في الصحيحين.

التشديد على ترك الجماعة

٨٠٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أثقلَ الصَّلاةِ على المُنافقِينَ صلاةُ العشاءِ والفجرِ، ولو يعلمونَ ما فِيهما لأتوهما ولو حَبواً، لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ بالصَّلاةِ أنْ تُقامَ، ثم آمُرَ رجُلاً فيصَلِّي بالنَّاسِ، ثم أنْطَلِقَ معِي برجالٍ معَهم حُزَمٌ مِن حَطَبٍ، إلى قومٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ فأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهم بالنَّارِ**».

[رواه أحمد (٤٢٤/٢)، والبخاري (٢٨٢/٢)، ومسلم (١٥٤/٥، ١٥٥) وغيرهم].

٨٠٤ ـ وعنه قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ أعْمَى فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائدٌ يقُودُنِي إلى المسجدِ فسأل رسول الله ﷺ أن يُرَخِّص له فيصلي في بيته، فرخَّص له، فلما ولَّى دعاه فقال: «**هَلْ تسمعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ؟**»، فقال: نعم، قال: «**فأجِبْ**».

[رواه مسلم (١٥٥/٥)، وجاء عند أبي داود (٥٥٢، ٥٥٣) وغيره بسند صحيح أن هذا السائل هو ابن أم مكتوم].

ش: استدل بالحديثين على وجوب الجماعة في المسجد وهو قول جماعة من العلماء، وذهب الجمهور إلى أنها من السنن المؤكدة. وبالغ ابن حزم فقال: إنها شرط لصحة الصلاة.

التخلف عن الجماعة للضرورة

٨٠٥ ـ عن نافع رحمه الله تعالى أن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أَذَّنَ بالصَّلاة في ليلة ذات بردٍ وريح، فقال: **«ألاَ صَلُّوا فِي الرِّحال»**، ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يأمُرُ المؤذن إذا كانت ليلة باردة ذات مطر يقول: **«ألاَ صَلُّوا في الرِّحَالِ»**.

[رواه البخاري في الجماعة (٢/٢٩٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٥/٢٠٥، ٢٠٦)].

٨٠٦ ـ وعن محمود بن الربيع رضي الله تعالى عنه أن عِتْبانَ بن مالك كان يَؤُمُّ قومه وهو أعمى وأنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنها تكون الظُّلْمَةُ والسَّيْلُ وأنا رجلٌ ضريرُ البصر فصلِّ يا رسول الله في بَيْتِي مكاناً أَتَّخِذْهُ مُصَلًّى، فجاءه رسول الله ﷺ فقال: **«أينَ تُحِبُّ أن أُصَلِّي؟»**، فأشار إلى مكان من البيت فصلَّى فيه رسول الله ﷺ.

[رواه أحمد (٥/٤٤٩)، والبخاري في الجماعة (٢/٢٩٨) وفي مواضع].

٨٠٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا حَضَرَ العَشَاءُ وأُقِيمَتِ الصَّلاةُ فابْدَأُوا بالعَشَاءِ»**.

[رواه أحمد (٣/١١٠)، والبخاري في الجماعة (٢/٣٠١)، ومسلم في المساجد ٥/٤٥)، والترمذي (٣١٤) وغيرهم ونحوه عن ابن عمر عندهم، وعن عائشة كذلك].

٨٠٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا صلاةَ بحضْرَةِ طَعامٍ، ولا وهُو يُدَافِعُه الأَخْبَثَانِ»**.

[رواه مسلم (٥/٤٧) وغيره وتقدم في الطهارة].

٨٠٩ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن أكلَ البَصَلَ والثُّومَ والكُرَّاثَ فلا يَقْرَبَنَّ مَسجدَنا، فإنَّ الملائِكَةَ تَتأَذَّى مما يتأذَّى منه بنُو آدَمَ»**.

[رواه مسلم (٥/٥٠)، والترمذي، والنسائي وهو في الصحيحين بدون الكراث، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم وكلها في الصحيحين، وتقدم بعضها في المساجد].

ش: «الرحال»: هي الدور والبيوت. «والأخبثان»: البول والغائط. «والكراث» بضم الكاف وتشديد الراء: نوع من البقولات يشبه الثوم.

وفي هذه الأحاديث مشروعية التخلف عن حضور الجماعة في المسجد. ولا ينبغي الاختلاف في ذلك لما في ذلك من التنصيص. والضرورات تبيح المحظورات وقد ذكر العلماء أصنافاً من الناس يجب إبعادهم عن المساجد كما ذكروا أعذاراً لا تبيح التخلف عن الجماعة. فلتنظر في كتب الفقه الإسلامي.

لا تصح النافلة مع إقامة الصلاة للفريضة

٨١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أُقِيمتْ الصَّلاةُ فلا صَلاةَ إلاَّ المَكتوبةَ**».

[رواه مسلم في صلاة المسافرين (٥/٢٢١، ٢٢٢)، وأبو داود، والترمذي (٣٧٨)].

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم إذا أقيمت الصلاة أن لا يصلي الرجل إلا المكتوبة، إلخ.

فضل إتيان المساجد وأدب المشي إليها

٨١١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ غَدا إلى المسجدِ وَراحَ أعَدَّ اللَّهُ لهُ نُزُلَهُ مِنَ الجنَّةِ كُلَّمَا غَدا أوْ رَاحَ**».

[رواه أحمد (٢/٥٠٩)، والبخاري في الأذان رقم (٦٦٢)، ومسلم (٥/١٧٠) وغيرهما].

٨١٢ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثمَّ مَشى إلى بيتٍ مِن بُيوتِ الله لِيَقْضِي فَرِيضَةً مِن فرائِضِ اللَّهِ كانت خُطْوَتَاهُ إحداهُما تَحُطُّ خَطِيئَةً، والأُخرَى تَرْفَعُ دَرجَةً**».

[رواه مسلم (٥/١٦٩)].

٨١٣ ـ وعن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: كان رجل لا أعلم رجلاً أبعدَ من المسجد منه، وكان لا تُخطِئُه صلاةٌ قال: فقيل له: أو قلت له: لو اشتريتَ حِماراً تَرْكَبُهُ في الظَّلْمَاءِ وفِي الرَّمْضاءِ، قال: ما يَسُرُّنِي أنَّ مَنزِلِي إلى جَنْبِ المسجدِ، إنِّي أريد أن يُكْتَبَ لي مَمْشَايَ إلى المسجدِ ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «**قد جَمَعَ اللَّهُ لكَ ذلك كلَّهُ**». وفي رواية: «**إنَّ لكَ ما احْتَسَبْتَ**».

[رواه أحمد (٥/١٣٣)، ومسلم في المساجد (٥/١٦٧، ١٦٨)].

٨١٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أُقِيمَتْ الصلاةُ فلا تَأْتوها تَسْعَونَ، وائْتُوها تَمْشُون، عَليكُم السَّكِينة فما أدْرَكْتُم فَصَلُّوا، وما فَاتكُم فأتِمُّوا**».

[رواه البخاري في الأذان رقم (٦٣٦)، وفي الجمعة (٩٠٧)، ومسلم في المساجد (٥/٩٨، ٩٩)].

ش: في هذه الأحاديث الفضل العظيم والثواب الجزيل للساعي للمسجد لأداء الصلاة، ومن آدابه أن لا يسرع في مشيه بل يمشي مع سكينة ووقار.

متى يقوم الناس للصلاة

٨١٥ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أُقِيمَتْ الصلاةُ فلا تَقُومُوا حتَّى تَرَوْنِي، وعليكُمُ بالسَّكِينة**».

[رواه البخاري في الأذان رقم (٦٣٧، ٦٣٨)، ومسلم في المساجد (٥/١٠١)، والترمذي (٥٣٠) وغيرهم].

٨١٦ ـ وعن جابر بن سمرة قال: كان بلال يؤذن إذا دَحَضَتْ فلا يقيم حتى يخرج النبي ﷺ، فإذا خرج أقامَ الصلاة حين يراه.

[رواه مسلم (٥/١٠٢)].

٨١٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن الصلاة كانت تقام لرسول الله ﷺ فيأخذ الناس مصافهم قبل أن يقوم النبي ﷺ مقامه.

[رواه مسلم (١٠٢/٥)].

ش: اختلفت الأحاديث كما ترى متى يقيم المؤذن، ومتى يقوم المصلون. فالحديث الأول يقتضي تقديم إقامة الصلاة قبل خروج الإمام وأن المصلين لا يقومون حتى يروه. بينما الحديث الثاني فيه: أن الصلاة لا تقام حتى يخرج الإمام. أما الحديث الثالث ففيه إقامة الصلاة وتسوية الصفوف قبل قيام الإمام. والظاهر أن الكل جائز، وأنه لا حرج في ذلك.

تسوية الصفوف

٨١٨ ـ عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لَتُسَوُّنَّ صُفوفَكُم أو لَيُخالِفَنَّ الله بينَ وُجُوهِكُم»**.

[رواه البخاري (٣٤٨/٢، ٣٤٩)، ومسلم (١٥٦/٤، ١٥٧)، وأبو داود (٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٥)، والترمذي (٢٠٤) وغيرهم].

٨١٩ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«سَوُّوا صفُوفَكُم فإنَّ تَسْوِيةَ الصَّفِّ مِن تَمَامِ الصَّلاةِ»**. وفي رواية لأبي هريرة: **«فإنَّ إقَامَةَ الصَّفِّ مِن حُسْنِ الصَّلاةِ»**.

[رواهما البخاري (٣٥٠/٢، ٣٥١)، ومسلم (١٥٦/٤)].

ش: إقامة الصفوف وتسويتها كلاهما واجب، للأمر بذلك وللتوعد على تركها بمخالفة الوجوه.

فضل الصف الأول وسد الفرج

٨٢٠ ـ فعن أبي هريرة عنه ﷺ قال: **«لَوْ يَعلَمُ النَّاسُ ما فِي النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ ثم لم يَجِدُوا إلا أن يَسْتَهِمُوا لاسْتَهَمُوا عليهِ»**.

[رواه البخاري (٣٥٠/٢)، ومسلم (١٥٧/٤)].

٨٢١ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله ومَلائِكَتَه يُصَلُّونَ على الصُّفوفِ المُقدَّمَةِ»**. وفي رواية: **«على الصُّفوفِ الأُولَى»**.

[رواه أحمد (٢٨٤/٤، ٢٩٦، ٢٩٩)، وأبو داود (٦٦٤)، والنسائي (٧٠/٢)، وابن ماجه (٩٩٧)، والحاكم (٥٧١/١، ٥٧٢) من طرق بسند صحيح].

٨٢٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: **«إن الله عزَّ وجلَّ وملائِكته عليهم السَّلام يصلُّونَ علَى الذِين يَصِلُون الصُّفوفَ، ومن سَدَّ فُرْجَةً رفعَهُ اللَّهُ بِهَا درجةً»**.

[رواه أحمد (٦٧/٦، ٨٩، ١٦٠)، وابن ماجه (٩٩٥)، وابن خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٥٣٦/٥، ٥٣٧) مع الإحسان، والحاكم (٢١٤/١) من طرق هو بها حسن صحيح].

ش: مع هذا الفضل العظيم للصفوف الأولية وسد الفرج تجد أكثر الناس يتأخرون عن ذلك. وقد جاء في صحيح مسلم: **«لا يَزالُ قومٌ يتأخَّرُونَ حتى يُؤَخِّرَهم اللَّهُ»**.

من ينبغي أن يلي الإمام

٨٢٣ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لِيَلِنِي مِنكُم أولُو الأحلامِ والنُّهَى ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم ثلاثاً وإيَّاكم وهَيْشَاتِ الأسْوَاقِ»**.

[رواه مسلم (١٥٤/٤، ١٥٥)، وأبو داود (٦٧٥)، والترمذي (٢٠٥)، والدارمي (١٢٧١) ونحوه عن أبي مسعود الأنصاري... وفيه: **«اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قلوبُكُم، لِيَلِنِي منكم أولُو الأحلامِ والنُّهى»** إلخ رواه مسلم (١٥٤/٤)، والطيالسي (٦٤٥)، والحميدي (٤٥٦)].

ش: قوله: **«هيشات الأسواق»**: أي اختلاطها والمنازعات والخصومات.

وفي الحديث الإرشاد إلى تقديم أهل العلم والفضل والشرف للصف الأول، لأنه ربما احتاج الإمام إلى تنبيه أو استفتاح أو استخلاف.

خير صفوف الرجال والنساء

٨٢٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيرُ صُفُوفِ الرِّجالِ أوَّلُها، وشَرُّها آخِرُها، وخيرُ صفوفِ النِّساءِ آخرُها، وشَرُّها أوَّلُها**».

[رواه أحمد (٢/٢٤٧، ٣٤٠، ٣٦٧، ٤٨٥)، والطيالسي (٦٥٢)، والحميدي (١٠٠٠)، وأبو داود (٦٧٨)، والترمذي (٢٠٢)، والنسائي (٢/٧٢)، وابن ماجه (١٠٠٠)، والدارمي (١٢٧٢)].

ش: فكلما كان الجنسان الذكر والأنثى أبعد من الآخر كلما كانا أقرب إلى الله وأبعد من الفتنة ووساوس النفس والشيطان، والعكس بالعكس. ولذلك كان الصف الأخير من الرجال، والصف الأول من النساء شر الصفوف وسواهما خيرها. وإذا كان ذلك في أقدس عبادة فكيف الحال في غير ذلك يا ترى.

صف الأطفال يقدم على صف النساء

٨٢٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ جدَّتَه مُلَيْكَةَ دَعَتْ رسولَ الله ﷺ لطعام صنعته له فأكل منه، ثم قال: «**قُومُوا فلأُصَلِّ لَكُم**». قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسْوَدَّ من طُولِ ما لُبِسَ فَنَضَحْتُهُ بماءٍ، فقامَ رسولُ الله ﷺ وصَفَفْتُ أنَا والْيَتِيمُ وراءَهُ والعَجُوزُ مِن وَرَائِنا، فصلَّى لنا رسولُ الله ﷺ ركعتين ثم انصرفَ.

[رواه أحمد (٣/١٣١، ١٦٤، ١٩٤)، والبخاري باب الصلاة على الحصير رقم (٣٨٠)، وفي مواضع من كتاب الصلاة، ومسلم في المساجد (٥/١٦٢)، وفي رواية لمسلم (٥/١٦٣) قال: دخل النبي ﷺ علينا وما هو إلا أنا وأبي وأم حَرَام خالَتِي فقال: «**قُومُوا فلأصلِّي بِكُم**»..].

ش: فيه مشروعية تأخير صفوف النساء عن صف الأطفال وأن المرأة وحدها تعتبر صفاً.

موقف الواحد والاثنين من الإمام

٨٢٦ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سِرْتُ مع رسول الله ﷺ في غَزْوَةٍ فقامَ يُصلِّي.. ثم جئتُ حتى قمتُ عن يسارِ رسول الله ﷺ فأخذَ بِيدي فأدَارَنِي حتى أقامَنِي عن يَمِينه فجاء ابنُ صَخْرٍ حتَّى قامَ عن يسارِه فأخذَنا بِيديه جميعاً حتى أقامَنا خلفَه.

[رواه مسلم آخر الكتاب في حديث جابر الطويل ١٨/١٤١)، وأبو داود (٦٣٤)].

٨٢٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بِتُّ عند خالتِي فقام النبي ﷺ من الليل فقمتُ أصلي معه فقمت عن يساره فأخذ برأسي فأقامني عن يمينه.

[رواه أحمد في مواضع، والبخاري كذلك، ومسلم في صلاة المسافرين (٦/٤٤، ٤٨، ٥٢)، وأبو داود (٦١٠)، والترمذي، وغيرهم مطولاً ومختصراً، ويأتي في صلاة الليل مطولاً].

ش: في الحديثين مشروعية موقف الواحد عن يمين الإمام والاثنين خلفه.

الصلاة خلف الصف

٨٢٨ ـ عن علي بن شيبان أن النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي خلفَ الصف فوقف حتى انصرف الرجلُ فقال: «**اسْتَقْبِلْ صَلاتَك، فلا صلاةَ لِمُنْفَرِدٍ خَلْفَ الصَّفِّ**».

[رواه أحمد (٥/١٠٣)، وابن حبان (٤٠١، ٤٠٢) بسند صحيح، ونحوه عن وابصة بن معبد، رواه أبو داود (٦٨٢)، والترمذي (٢٠٧)، وابن ماجه (١٠٠٤)، وابن حبان (٤٠٣)، وهو صحيح].

ش: فيه دليل على أن صلاة المنفرد خلف الصف غير صحيحة لقوله: «**لا صلاة..**» إلخ.

من جاء فركع ثم دخل الصف

٨٢٩ ـ عن أبي بكرة أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع فركع قبل أن يَصِلَ إلى الصَّفِّ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**زادك الله حِرصاً ولا تَعُدْ**».

[رواه أحمد (٣٩/٥، ٤٢، ٤٦)، والبخاري في القراءة في الصلاة (٤١١/٢)، وأبو داود (٦٨٣، ٦٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٠٢/١)].

ش: استدل بالحديث على صحة صلاة من ركع خلف الصف ثم دخل فيه، وعلى صحة صلاة من لم يقرأ الفاتحة خلف الإمام، وفي هذا نظر كبير.

من جاء دخل مع الإمام على أي حال وجده

٨٣٠ ـ عن علي ومعاذ رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى أحَدُكُم الصَّلاةَ والإمامُ على حالٍ فَلْيَصْنَعْ كما صَنَعَ الإمامُ**».

[رواه الترمذي (٥٢٨، ٥٢٩) وهو حديث صحيح لطريق له عند أبي داود (٥٠٦) عن معاذ بسند صحيح وشاهد عن رجل رواه البيهقي (٨٩/٢) بسند صحيح بلفظ: «**إذا جئتم والإمام راكع فاركعوا، وإن كان ساجداً فاسجدوا ولا تَعتدُّوا بالسجود إذا لم يَكُن معهُ ركوع**»].

ش: ظاهر الحديثين وجوب الدخول مع الإمام على أي حالة وجد عليها، وفي الحديث الثاني إشارة إلى الاعتداد بالركعة وإن لم تكن معها فاتحة.

من أتى الجماعة وقد صلوا

٨٣١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَه ثمَّ رَاح فوَجَدَ النَّاسَ قد صَلُّوا أعطاهُ اللَّهُ مِثلَ أجْرِ مَنْ صَلاَّها أو حَضَرَهَا**».

[رواه أحمد (٣٨٠/٢)، وأبو داود (٥٦٤)، والنسائي (٨٦/٢)، والحاكم (٢٠٨/١) وغيرهم بسند صحيح].

بماذا تدرك الجماعة

٨٣٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أدرَكَ رَكْعَةً مِن الصَّلاةِ معَ الإمامِ فقد أدرَكَ الصَّلاةَ».

[رواه أحمد (٢/٢٦٥، ٢٨٠، ٣٧٥)، ومسلم في المساجد (٥/١٠٤) واللفظ له].

ش: ظاهره أنه لا تدرك الصلاة إلا مع إدراك الركعة كاملة بقيامها والقراءة فيها، وفي هذا الموضوع ألَّف البخاري رحمه الله تعالى كتاب «القراءة خلف الإمام».

* * *

أحكام الإمامة والمأموم

من أولى بالإمامة

٨٣٣ ـ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحَقُّ القَوم أنْ يَؤُمَّهُمْ أقرؤُهُم لِكِتَابِ الله، فإنْ كَانُوا فِي القِراءةِ سواءً، فأعلمُهُم بالسُّنَّةِ فإنْ كَانُوا في السُّنَّةِ سواءً فأقْدَمُهم هِجْرةً، فإنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَواءً، فأقْدَمُهم سِنّاً، ولا يُؤَمُّ الرجلُ فِي سُلْطَانِهِ، ولا يُقْعَدُ على تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إلاَّ بِإذْنِهِ».

[رواه مسلم في المساجد (٥/١٧٢، ١٧٤)، وأبو داود (٥٨٢)، والترمذي (٢١١)، وباقي أهل السنن].

ش: لا خلاف بين أهل العلم أن الأقرأ الأفقه مُقَدَّمٌ على غيره ثم يأتي الترتيب، ولا شك أن الأقرأ في العصور الأُولى كان هو الأفقه، أما اليوم فقد يكون الأقرأ أجهل الناس بالفقه الإسلامي فيقدم عليه الأفقه وإن لم يكن قارئاً. وفي الحديث النهي عن تقدم أحد للإمامة فيما يتحكم فيه غيره كمسجده أو بيته إلا بإذن منه.

بطلان صلاة من أمّ قوماً يكرهونه

٨٣٤ ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثةٌ لا تُجَاوِزُ صَلاتُهم آذَانَهم: العَبدُ الآبِقُ حتَّى يَرْجِعَ، وامرأةٌ باتتْ وزوجُها عَلَيها سَاخِطٌ، وإمامُ قومٍ وهم له كَارِهُونَ».

[رواه الترمذي (٣٢١) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده].

ش: ظاهر الحديث بطلان صلاة هؤلاء وأنها لا تقبل منهم حتى يتوبوا إلى الله.

إمامة الفاسق والمفتون

٨٣٥ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: إن خليلي أوصاني أن أسمعَ وأُطيعَ وإن كان عبداً مُجَدَّعَ الأطرافِ، وأنْ أُصَلِّي الصلاة لوقتها، فإن أدركتَ القومَ وقد صلوا كنتَ قد أحرزتَ صلاتك وإلا كانت لك نافلةً».

وفي رواية: «صلِّ الصلاةَ لوقتها فإن أدركَتْك الصلاةُ معهم فصَلِّ ولاتَقُل إني قد صليتُ فلا أُصلِّي».

[رواه مسلم (١٤٧/٥، ١٥٠) ونحوه عن معاذ بن جبل رواه أبو داود (٤٣٢) بسند صحيح].

٨٣٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُصَلُّونَ لَكُمْ فإنْ أَصَابُوا فلكُم ولهُم، وإن أَخْطَأُوا فلكُم وعَلَيهم».

[رواه البخاري (٣٢٩/٢)].

٨٣٧ ـ وعن قبيصة بن وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَكُونُ عليكُم أُمَرَاءُ مِن بَعْدي يُؤَخِّرُونَ الصَّلاة فَهِيَ لَكُم وهِيَ عَلَيهِم فَصَلُّوا مَعَهُم ما صلَّوا القِبْلَةَ».

[رواه أبو داود (٤٣٤) بسند صحيح].

٨٣٨ ـ وعن عُبَيْدِالله بن عَدِي بن خِيارٍ أنه دخل على عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو مَحْصُورٌ فقال: إنك إمامُ عامَّةٍ ونَزَلَ بك ما تَرَى، ويُصَلِّي لنا إمامُ فِتْنَةٍ ونَتَحَرَّجُ، فقال: الصَّلاةُ أحسنُ ما يَعملُ الناسُ، فإذا أحسنَ الناسُ فأحْسِن معهم، وإذا أَسَاءُوا فاجْتَنِبْ إساءَتَهُمْ.

[رواه البخاري (٢/٣٣٠)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الصلاة خلف الفسقة والظلمة، وأن ذلك لا يضر ما داموا مسلمين يصلون، وأن الواجب على من يصلي خلفهم أن يتم صلاته حسب ما أُمر به. وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن ابن عمر وجماعة من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يصلون خلف الحجاج الظالم وأمراء بني أمية الجائرين.

من آداب الإمام

٨٣٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا ما أَمَّ أحدُكم بالنَّاسِ فلْيُخَفِّفْ الصَّلاةَ، فإنَّ فِيهِم الكَبيرَ، وفِيهِم الضَّعيفَ، وفِيهِم السَّقِيمَ، وإنْ قامَ وحدَهُ فلْيُطِلْ صَلاتَه ما شَاءَ»**.

[رواه البخاري في الجماعة (٢/٣٤١)، ومسلم (٤/١٨٤، ١٨٥)، والترمذي (٢١٢) وغيرهم].

٨٤٠ ـ وعن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يُطِيل بنا فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشدَّ غَضَباً منه يومئذ ثم قال: **«إنَّ مِنْكُم مُنفِرينَ فأيُّكُم صَلَّى بالنَّاسِ فلْيَتَجَوَّزْ، فإنَّ فِيهِم الضَّعِيفَ والكبيرَ وذَا الحاجَةِ»**.

[رواه البخاري في مواضع من الصلاة، وفي الأدب، وفي الأحكام، ومسلم في الصلاة (٤/١٨٤)].

٨٤١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما صليتُ وراءَ إمامٍ قطُّ

أخفَّ صلاةً ولا أتَمَّ من النبي ﷺ وإن كان ليَسْمَعُ بكاءَ الصبي فيُخَفِّفُ مخافةَ أن تُفْتَنَ أُمُّهُ».

وفي رواية له عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ فأُرِيدُ إطَالَتَها فأسْمَعُ بكاءَ الصَّبِيِّ فأتجَوَّزُ مِمَّا أعلمُ مِن شِدَّةِ وَجْدِ أمِّهِ مِن بُكَائِهِ**».

[رواه البخاري (٣٤٣/٢، ٣٤٤)، ومسلم (١٨٦/٤، ١٨٧)].

ش: في هذه الأحاديث إرشاد الأئمة إلى تخفيف الصلاة مع الإتمام مراعاة لأحوال المصلين من مرض أو ضعف أو كبر.

كراهية وقوف الإمام أرفع من المأمومين

٨٤٢ ـ عن همام قال: صلى بنا حذيفة على دكان مرتفع فسجد عليه فجَبَذَهُ أبو مسعود فتابَعه حُذيفةُ، فلما قضى الصلاة قال أبو مسعود: أليس قد نُهِيَ عن هذا؟ فقال له حذيفة: ألَمْ تَرَنِي قد تَابَعْتُكَ.

[رواه أبو داود (٥٩٧)، وابن حبان (٣٧٣)، والحاكم (٢١٠/١) وسنده صحيح].

ش: فيه دليل على أنه لا يشرع للإمام أن يكون في محل أعلى من المأمومين. وما جاء في الصحيح من صلاته ﷺ على المنبر كان ذلك تعليماً للصحابة ولم يكن يسجد على المنبر بل كان يركع ثم يتأخَّر فينزل.

الإمام يتذكر أنه جنب

٨٤٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُقِيمتْ الصلاةُ وعُدِّلَت الصفوفُ قياماً فخرج إلينا رسولُ الله ﷺ فلما قام في مُصَلاَّه ذَكَر أنه جُنُبٌ فقال لنا: «**مَكَانَكُم**»، ثم رجع فاغتسل، ثم خرج إلينا ورأسه يَقْطُرُ فكبَّر فصلينا معه.

[رواه البخاري في الطهارة (٣٩٩/١، و ٢٦٣/٢) في الصلاة، ومسلم في المساجد باب متى يقوم الناس للصلاة (١٠٢/٥) وفيه عند مسلم: حتى إذا قام في مصلاه قبل أن يكبر... وقد تقدم في الطهارة].

ش: فيه دليل على أن الإقامة لا تعاد إذا مَنَع أمر من الدخول في الصلاة، وعلى أن الإمام له أن يذهب لقضاء حاجة ما، ثُمَّ يأتي والمأمومون على حالهم، وأنه لا حرج في أن يَعْلَمَ الناسُ أن الإمامَ جُنُبٌ.

إذا تأخر الإمام، للناس أن يستخلفوا غيره

٨٤٤ ـ عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ ذهب إلى بَنِي عَمْرو بن عوف لِيُصلِح بينهم فحَانَتْ الصلاةُ فجاء المؤذنُ إلى أبي بكر فقال: أتُصَلِّي للناس فأقيم؟ قال: نعم، فصلَّى أبو بكر، فجاء رسول الله ﷺ والناسُ في الصلاة فتَخَلَّفَ حتى وقَفَ في الصف، فصفَّقَ الناسُ وكان أبو بكر لا يلتفِتُ في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله ﷺ «**أنِ امْكُثْ مكانَكَ**»، فرفع أبو بكر رضي الله تعالى عنه يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله ﷺ فصلى فلما انصرف قال: «**يا أبا بكر ما مَنَعَكَ أن تَثْبُتَ إذْ أمرْتُكَ؟**»، فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لِي رأيتُكم أكْثَرْتُم التَّصْفِيق؟ مَنْ رَابَه شيءٌ فِي صلاتِهِ فلْيسبِّح فإنَّه إذا سبَّحَ التُفِتَ إلَيْهِ وإنَّما التَّصفيقُ للنِّساءِ**».

[رواه البخاري في الجماعة رقم (٦٨٤)، وفي مواضع، ومسلم رقم (٤٢١)].

٨٤٥ ـ وعن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ فذكر الحديث قال: فأقبلت معه حتى نَجِدَ الناسَ قد قدَّموا عبدَالرحمن بن عوف فصلى لهم فأدرك رسول الله ﷺ إحْدَى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سلم عبدالرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يُتِمُّ صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: «**أحْسَنْتُم**» أو قال: «**قد أصَبْتُم**» يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها.

[رواه مسلم رقم (٢٧٤)].

ش: اتفق العلماء على أن النبي ﷺ لم يصلِّ وراء أحد غير الصديق وابن عوف رضي الله تعالى عنهما. وفي الحديثين دليل على جواز استخلاف غير الإمام الراتب إذا لم يحضر وتأخر عن الوقت المعتاد، وأن الحق في الاختيار للمؤذن المقيم.

إمامة الصبي

٨٤٦ ـ عن عمرو بن سَلِمة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «ولْيَؤُمُّكُم أكْثرُكم قرآناً» فَنَظَرُوا فلم يَكُنْ أحدٌ أكثرَ مِني قُرآناً فقدَّمُوني وأنا ابنُ سِتٍّ أو سبعِ سنين.

[رواه البخاري في غزوة الفتح (٨٣/٩، ٨٤) وغيرها، وأبو داود (٥٨٥)، والنسائي (٦٢/٢، ٦٣) كلاهما في الإمامة والجماعة].

ش: فيه مشروعية إمامة الصبي إذا كان مميزاً، وبه قال الجمهور وخالف بعضهم.

إمامة الأعمى

٨٤٧ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم يَؤُمُّ الناس وهو أعمى.

[رواه أبو داود (٥٩٥) بسند صحيح].

ش: فيه دليل على جواز إمامة الأعمى ولا نعلم في ذلك خلافاً معتبراً. وقد تقدم حديث قصة عتبان وغيره في أول الجماعة.

وجوب متابعة الإمام

٨٤٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سَقَطَ رسولُ الله ﷺ من فرس فجُحِشَ شِقُّه الأيمنُ فدخلنا عليه نعودُه فحضرتْه الصلاة فصلى قاعداً

فصلينا قعوداً فلما قضى الصلاة قال: **«إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليُؤْتَمَّ به، فإذا كَبَّر فكَبِّروا، وإذا رَكَعَ فارْكَعُوا، وإذا رَفَعَ فارْفَعُوا، وإذا قالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، فقُولُوا: رَبَّنَا لكَ الحمدُ، وإذا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وإذا صَلَّى قَاعِداً فصلُّوا قُعُوداً أجْمَعُونَ»**.

[رواه أحمد (٣/١٦٢، ٣٠٠)، والبخاري في مواضع من الصلاة في صفة الصلاة وفي الجماعة وغيرهما، وفي مواضع أخرى من الصحيح، ومسلم (٤/١٣٠، ١٣١)].

٨٤٩ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يُسْمِعُ الناسَ تكبيرَه فالتفتَ إلينا فرآنا قياماً فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعوداً فلما سلم قال: **«إنْ كِدتُم آنِفاً لتفْعَلُون فعلَ فارسَ والرُّوم يقُومُون علَى مُلوكِهم وهم قُعُودٌ فلا تَفْعَلُوا ائتمُوا بأئمَّتِكُم إن صلَّى قَائِماً فصلُّوا قِياماً وإن صلَّى قَاعِداً فصلُّوا قُعُوداً»**.

[رواه مسلم (٤ ١٣٢، ١٣٣)، واتفقا عليه من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها وفيه: فصلى جالساً وصلى وراءه قوم قياماً فأشار إليهم أن اجلسوا، وفي آخره: **«وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً»** ونحوه عن أبي هريرة عندهما أيضاً].

٨٥٠ ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كانوا يصلون مع رسول الله ﷺ فإذا ركع ركعوا، وإذا رفع رأسه من الركوع فقال: **«سَمِعَ الله لِمن حَمِدَه»**، لم نزل قياماً حتى نراه قد وضع وجهه في الأرض ثم نتبعه.

[رواه مسلم (٤ ١٩٠، ١٩١)].

ش: في هذه الأحاديث وجوب متابعة الإمام في أفعاله وأقواله حتى ولو صلى قاعداً اتبع في ذلك على مقتضى أحاديث الباب وهي أربعة أحاديث.

واختلف الأئمة في ذلك فرأى اتباعه في القعود جماعة عملاً بهذه الأحاديث، وقال آخرون ومنهم مالك بوجوب القيام عملاً بحديث إمامة الصديق رسول الله ﷺ في مرض موت النبي ﷺ حيث جاء وجلس وصلى بالصحابة قاعداً وهم قيام.

الإئتمام بإمام بينه وبين الناس حائل

٨٥١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صلى رسول الله ﷺ في حُجْرتي والناس يأتمون به من وراء الحجرة يصلون بصلاته.

[رواه البخاري ٢/٣٥٦)].

ش: لا مانع من الصلاة خلف إمام يفصل بينه وبين المؤتمين به فاصل وحاجز.

* * *

إعادة الصلاة جماعة لمن صلاها ولو في جماعة، وفيها أحاديث

٨٥٢ ـ عن يزيد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: شهدت مع النبي ﷺ حجته فصليت معه صلاة الصبح في مسجد الخَيْفِ، فلما قَضَى صلاته انحرف فإذا هو برجلين في أُخْرَى القوم لم يُصَلِّيا معه فقال: «**علـيَّ بِهِمَا**»، فجِيءَ بهما تَرْعُدُ فَرائِصُهُما فقال: «**مَا مَنَعَكُما أن تُصَلِّيا مَعَنا؟**»، فقالا: يا رسول الله إنا كنا قد صلينا في رحالنا، قال: «**فَلا تَفْعَلا، إذا صلَّيتُما فِي رِحالِكُما ثم أتيتُما مسجدَ الجماعةِ فصلِّيا معَهُم، فإنَّها لكُمَا نَافلةٌ**».

[رواه الطيالسي (٦٥٦)، وأبو داود (٥٧٥، ٥٧٦)، والترمذي (١٩٧)، والنسائي، والدارمي (١٣٧٤)، وابن حبان (٤٣٤، ٤٣٥)، والحاكم (١/٢٤٤، ٢٤٥) وسنده صحيح، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

٨٥٣ ـ وعن مِحْجَن رضي الله تعالى عنه أنه كان في مجلس مع رسول الله ﷺ فأذن بالصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصلى ورجع ومحجن في مجلسه، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا مَنَعَكَ أنْ تُصلِّي مَعَ النَّاسِ أَلَسْتَ برجُلٍ مُسلمٍ؟**»، قال: بلى يا رسول الله، ولكني قد كنت صليتُ في أهلي،

فقال رسول الله ﷺ: «إذَا جِئْتَ فَصَلِّ مَعَ النَّاسِ وإنْ كُنْتَ صَلَّيتَ».

[رواه أحمد (٣٤/٤)، والنسائي، ومالك في «الموطأ» (١٣٢/١)، وابن حبان (٤٣٣)، والحاكم (٢٤٤/١) بسند صحيح].

٨٥٤ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن معاذ بن جبل كان يصلي مع النبي ﷺ العشاء الآخرة ثم يرجع إلى قومه فيصلي بهم تلك الصلاة.

[رواه البخاري (٣٣٤/٢)، ومسلم (١٨٢/٤، ١٨٣) وغيرهما. وفي رواية: فيصلي لهم العشاء، وهي له نافلة. رواه الشافعي في «مسنده» (١٤٣/١)، وعبدالرزاق (٢٢٦٦)، والطحاوي في «معاني الآثار»، والدارقطني وغيرهم وسنده صحيح].

٨٥٥ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: دخل رجل المسجد وقد صلى رسول الله ﷺ فقال: «أيُكُم يَتَّجِر على هذا؟»، فقام رجل فصلى معه. وفي رواية: «ألا رجلٌ يَتَصَدَّقُ على هذا فيصلي معه».

[رواه أحمد (٥/٣، ٤٥، ٦٤، ٨٥)، وأبو داود (٥٧٤)، والترمذي (١٩٨) وغيرهم بسند صحيح].

ش: وفي هذه الأحاديث مشروعية إعادة الصلاة لمن كان صلى ولو جماعة فأحرى وحده. وله أن يعيدها ولو إماماً كما في قصة معاذ، وتكون الثانية نافلة له كما أن في حديث أبي سعيد إنْشَاءَ جماعةٍ ثانية بعد الإمام الراتب، ما لم يؤد ذلك إلى فتنة.

هل للنساء الذهاب إلى المساجد

٨٥٦ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَعُوا إماء الله مساجِدَ الله».

[رواه البخاري (٤٩٢/٢، ٣٣/٣، ٣٤)، ومسلم ١٦١/٤، ١٦٢)].

٨٥٧ ـ وعن أبي هريرة عنه ﷺ قال: «لا تَمْنَعُوا إماءَ الله مساجدَ الله ولْيَخْرُجْنَ تَفِلاَتٍ».

[رواه أحمد (٤٣٨/٢)، وأبو داود (٥٦٥)، والدارمي (١٢٨٢)، وابن خزيمة (١٦٧٩) بسند صحيح].

٨٥٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعَهُنَّ المساجدَ كما مُنِعَتْ نِساءُ بني إسرائيل.

[رواه البخاري (٤٩٤/٢، ٤٩٥)، ومسلم (١٦٣/٤، ١٦٤)].

٨٥٩ ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**صلاةُ المرأةِ في بَيتِها أفضَلُ مِن صلاتِها في حُجرَتِها، وصلاتُها في مِخدَعِها أفضلُ مِن صلاتِها في بَيتِها**».

[رواه أبو داود (٥٧٠)، والحاكم (٢٠٩/١) بسند صحيح].

٨٦٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّمَا امرأةٍ أصَابَتْ بُخُوراً، فلا تَشْهَدْ مَعَنَا العِشاءَ الآخِرةِ**».

[رواه مسلم (١٦٣/٤)].

ش: المراد بإماء الله: النساء. وقوله: «**تفلات**» بفتح التاء وكسر الفاء: أي بملابس غير مطيبة. «**والمخدع**»: هو البيت الخاص بالمرأة.

وفي هذه الأحاديث جواز خروج النساء للصلاة في المساجد بشرط أن يخرجن في ثياب رثة غير مطيبة، ومع ذلك فالأفضل لهن أن يصلين في بيوتهن. وقد جاء في حديث ابن عمر المذكور أولاً زيادة: «**وبُيُوتُهُنَّ خيرٌ لَهُنَّ**». رواه أحمد (٧٦/٢)، وأبو داود (٥٦٧) بسند صحيح. وفي حديث لأم سلمة رضي الله تعالى عنها عنه ﷺ قال: «**خَيْرُ مَسَاجِدِ النساءِ قَعْرُ بُيُوتِهِنَّ**» رواه أحمد (٢٩٧/٦، ٣٠١)، وابن خزيمة (١٦٨٣)، والحاكم (٢٠٩/١) وغيرهم.

فكلما كانت المرأة أستر كلما كانت أقرب إلى الله عزّ وجلّ لأن خروجها يخدش دينها وكرامتها. ولهذا قالت عائشة ما قدمناه. ولو عاشت لهذا العصر فلا ندري ماذا كانت تقول.

* * *

أبواب التطوع بالصلاة

الترغيب في كثرة السجود

٨٦١ ـ عن ثوبان وأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ فإنَّكَ لا تَسْجُدُ لله سَجدةً إلا رفَعَكَ الله بِهَا دَرجةً وحطَّ بِهَا عَنْكَ خطيئةً».

[رواه أحمد (٥/٢٧٦)، ومسلم (٤/٢٠٥)، والترمذي (٣٤٨)، والنسائي، وابن ماجه (١٤٢٣) وقد تقدم أول الصلاة].

ش: وفيه فضل عظيم لمن يكثر من الصلاة والسجود لله عزّ وجلّ. وهو لا يحتاج إلى تعليق.

أفضل الصلاة ما كانت في البيوت

٨٦٢ ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلاةِ في بُيُوتِكُم، فإنَّ خَيرَ صَلاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إلاَّ الصَّلاةَ المَكْتوبةَ».

[رواه البخاري في الصلاة، وفي الأدب، وفي الاعتصام، ومسلم (٦/٦٩، ٧٠)، وأبو داود رقم (١٠٤٣)، والترمذي (٤٠٢) كلهم في الصلاة].

ش: إنما كانت صلاة المرء في بيته أفضل لأنها أقرب إلى الإخلاص والقبول، وأبعد من الرياء. وهذا بخلاف الفريضة فإن الناس كلهم فيها سواء.

أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل

٨٦٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ صلاةُ اللَّيلِ».

[رواه مسلم (٥٤/٨، ٥٥) في الصيام، وأبو داود (٢٤٢٩)، والترمذي (٣٩٢، ٦٥٢)، والدارمي (١٧٦٤)].

ش: وإنما كانت أفضل لما فيها من مجاهدة النفس وثقلها عليها وترك لذة النوم والراحة مع غفلة أكثر الناس عنها وإخلادهم إلى قضاء شهوتهم كاملة.

من فضائل قيام الليل

٨٦٤ ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عَليكُم بِقِيامِ اللَّيلِ، فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبلَكُم، وهو قُربَةٌ إلَى رَبِّكُم، ومَكْفَرةٌ لِلسَّيِّئاتِ ومَنْهَاةٌ للإثمِ**».

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٣/١)، والحاكم (٣٠٨/١)، وصححه ووافقه الذهبي وهو حسن صحيح لشواهده].

٨٦٥ ـ وعن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يَا أيُّهَا النَّاسُ أفْشُوا السَّلامَ وأطعِمُوا الطَّعَامَ، وصلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نِيامٌ تَدْخُلُوا الجنَّةَ بسَلامٍ**».

[رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٣٠٥)، وابن ماجه في الصلاة، وفي الأطعمة (٣٢٥١)، والدارمي، والحاكم (١٣/٣)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

٨٦٦ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**فِي الجَنَّةِ غُرَفٌ يُرَى ظاهِرُهَا مِن بَاطِنِها، وباطِنُها مِنْ ظَاهِرُهَا**». قيل: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «**لِمَنْ أطَابَ الكَلامَ، وأطْعَمَ الطَّعَامَ، وباتَ قَائِماً والنَّاسُ نِيَامٌ**».

[رواه الطبراني في الكبير، والحاكم (٣٢١/١)، وصححه على شرطهما، وله شاهد عن أبي مالك الأشعري رواه ابن حبان (٦٤١) وآخر عن ابن عباس رواه الترمذي وآخر عن أبي هريرة رواه أحمد، فالحديث صحيح].

ش: في هذه الأحاديث فضل قيام الليل وأنه عادة الصالحين قبلنا

وقربة إلى الله ومن شأنه أن يحمل على تهذيب الأخلاق ويوجب مغفرة الذنوب ودخول الجنة والتمتع بما فيها من نعيم. فيا لها من فضائل.

أفضل أوقات الليل

٨٦٧ ـ عن عمرو بن عَبسَة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الربُّ من العبدِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ الآخِرِ، فإن اسْتَطَعْتَ أنْ تَكُونَ مِمَّن يَذكُرُ الله فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**».

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٤٨)، وحسنه وصححه].

٨٦٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ ربُّنَا تَبَارَكَ وتَعَالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِر يقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأستجيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسألُنِي فأُعْطِيه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي فأغْفِرَ لَهُ... حتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ**».

[رواه أحمد (٢/٢٦٤، ٢٦٧) وفي مواضع، والبخاري في التهجد (٣/٢٧٢، ٢٧٣)، ومسلم آخر صلاة الليل (٦/٣٦)، والترمذي في الدعوات (٣٢٦٩)، وأبو داود (١٣١٥)، وابن ماجه (١٣٣٦) وغيرهم بهذا اللفظ].

وفي رواية: «**إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه**»، وهي عند مسلم (٦/٣٧/٣٨)، وفي رواية: «**حينَ يَمضِي ثُلُثُ اللَّيلِ الأَوَّلِ**» رواه مسلم أيضاً (٦/٣٩)، وأحمد (٢/٢٨٢، ٤١٩)، والترمذي قبيل الوتر (٣٩٨)، وكلها صحيحة لا مطعن فيها، وهي محمولة على اختلاف القارات. وهذا الحديث من أحاديث الصفات يجب الإيمان به وعدم الخوض فيه مع اعتقاد تنزه الله عن صفات خلقه وأن ظاهره المتعارف في حقنا محال في حقه عزّ وجلّ وغير مراد.

ش: وفي الحديثين بيان أشرف أوقات الليل وأنها النصف الآخر منه كما في حديث عمرو بن عبسة كما أن أوقات التجليات الإلهية التي يستجاب فيها الدعاء قد تكون بعد الثلث الأول إلى آخره.

* * *

أنواع النوافل

قيام الليل

٨٦٩ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى الله صلاةُ داوُد عليهِ السَّلام كَانَ يَنامُ نِصْفَ اللَّيلِ ويقُومُ ثُلُثَه وينَامُ سُدُسَهُ».

[رواه البخاري باب من نام عند السحر (٣/٢٥٨)، ومسلم في الصيام (٨/٤٦) وغيرهما مطولاً].

ش: فيه أن قيام ثلث الليل هو أفضل القيام لأنه وسط بين إفراط وتفريط.

صلاة النبي ﷺ وتهجده بالليل

٨٧٠ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: «اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ أنتَ نُورُ السَّمواتِ والأرضِ ومَنْ فِيهِنَّ، ولكَ الحمدُ أنتَ قَيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ ومَنْ فِيهِنَّ، ولكَ الحمدُ أنتَ رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَنْ فِيهِنَّ، أنتَ الحَقُّ، ووعدُك الحَقُّ، وقولُك الحَقُّ، ولقاؤُكَ حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، ومحمَّد ﷺ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ تَوكَّلتُ، وإليكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ، وإِلَيكَ حاكَمْتُ، فاغفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ، ومَا أَخَّرتُ، وما أَسْرَرْتُ، وما أَعْلَنْتُ، أَنتَ المُقَدِّمُ وأنتَ المُؤَخِّرُ لا إِلَه إِلاَّ أَنتَ».

[رواه البخاري في التهجد (٣/٢٤٥، ٢٤٦)، وفي الدعوات (١٣/٣٦٦)، ومسلم في صلاة النبي ﷺ (٦/٥٤، ٥٥) وغيرهما].

٨٧١ ـ وعنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي

قَلْبِي نُوراً، وفِي بَصَرِي نُوراً، وفِي سَمْعِي نُوراً، وعَنْ يَمِينِي نُوراً، وعَنْ يَسَارِي نُوراً، ومِنْ فَوْقِي نُوراً، ومِنْ تَحْتِي نُوراً، وخَلْفِي نُوراً، واجْعَلْ لِي نُوراً، وفِي عَصبي نُوراً، وفِي لَحْمِي نُوراً، وفِي دَمِي نُوراً، وفِي شَعَرِي نُوراً، وفِي بَشَرِي نُوراً، وفِي لِسَانِي نُوراً، واجْعَلْ فِي نَفْسِي نُوراً، وأَعْظِمْ لِي نُوراً».

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٣٦٣، ٣٦٤)، ومسلم في صلاة الليل (٦/٤٤، ٥٢)].

ش: في الحديثين مشروعية قراءة هذه الأذكار والأدعية عند القيام للتهجد.

٨٧٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل لِيُصَلِّيَ افْتَتَح صلاتهُ بركعتين خفيفتين.

[رواه مسلم (٦/٥٤)، وأحمد (٦/٣٠)].

٨٧٣ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ثلاثَ عشْرَةَ ركعةً، ثم يصلي إذا سمع النداء بالصبح ركعتين خفيفتين.

[رواه البخاري (٣/٢٨٨)، ومسلم (٦/١٧)].

٨٧٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه بات عند خالته ميمونة زوج النبي ﷺ فذكر الحديث وفيه: فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين ثم أوتر، ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح.

[رواه البخاري (٣/٢٦٢)، ومسلم (٦/٤٧، ٤٩) في صلاة النبي ﷺ بالليل].

٨٧٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحْدَى عَشْرَة ركعةً، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتِرَ؟ فقال: **«يا عَائِشَة إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَان ولا يَنامُ قَلْبِي»**.

[رواه مسلم (٦/١٧)، وأحمد (٦/٣٦)].

٨٧٦ ـ وعنها قالت: كنا نُعِدُّ له سِواكَه وطَهُورَه فَيَبْعَثُه اللَّهُ ما شاء أن يَبْعَثَه من اللَّيْلِ فيتسوَّكُ ويتوضَّأ ويصلي تِسع ركعات لا يجلس فيها إلا في الثامنة فَيذكُرُ الله ويحمدُه ويَدعُوهُ ثم ينهض ولا يُسَلِّم، ثم يقوم فيصلي التاسعة ثم يَقعدُ فيذكر الله ويحمده ويدعوه ثم يسلِّم تسليماً يُسْمِعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد.. الحديث.

[رواه مسلم (٢٦/٦، ٢٧)].

ش: في هذه الأحاديث ثلاث حالات في تهجده ﷺ، كان يأتي في كل وقت ما يناسبه منها تشريعاً لأمته فكان أحياناً يصلي تسع ركعات، وحيناً إحدى عشرة ركعة، ومرة ثلاث عشرة، وآونة يصلي ما قدر له كما في الأحاديث التالية.

الوتر وعدد ما صلى منه النبي ﷺ

٨٧٧ ـ عن سيدنا علي عليه السَّلام عن النبي ﷺ قال: «**أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ القُرآنَ، فإنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**».

[رواه أبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٠٥)، والنسائي (١٨٧/٣)، وابن ماجه (١١١٩) بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عن ابن مسعود عند أبي داود (١٤١٧)].

٨٧٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ قال: «**صَلاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فإذا خَشِيَ أَحَدُكُم الصُّبْحَ صلَّى رَكْعَةً واحِدَةً تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى**».

[رواه أحمد (٢٠٢/٢، ١٥٥)، والبخاري (١٣١/٣)، ومسلم (٣١/٦) كلاهما في الوتر].

٨٧٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن الوتر فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيلِ**».

[رواه مسلم (٣٣/٦)].

٨٨٠ ـ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «**الوِترُ حَقٌّ، فمَنْ شَاءَ أوْتَر بِسَبعٍ، ومَنْ شَاءَ أوْتَرَ بخَمْسٍ، ومَنْ شَاءَ أوْتَرَ بثَلاثٍ، ومَنْ شَاءَ أوْتَرَ بِوَاحِدَةٍ**».

[رواه أبو داود (١٤٢٢)، والنسائي ١٩٦/٣)، وابن ماجه (١١٩٠)، وابن حبان (٦٧٠) وسنده صحيح واللفظ للنسائي].

٨٨١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليلِ ثلاثَ عشْرَةَ ركعة، يُوتر من ذلك بخمسٍ، لا يجلس في شيء إلا في آخرها.

[رواه مسلم (١٧/٦)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية صلاة الوتر وهي سنة عند عامة أهل العلم، وعدده يؤخذ من أحاديث الفصل فلا حرج في ذلك.

وقت صلاة الوتر وأفضله

٨٨٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: مِنْ كُلِّ الليلِ قد أوْتَرَ رسولُ الله ﷺ من أول الليلِ وأوْسَطِه وآخِره، فانْتَهَى وِتْرُهُ إلى السَّحَرِ.

[رواه البخاري (١٤٠/٣)، ومسلم (٢٥/٦) وغيرهما].

٨٨٣ ـ وعن عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوتر أولَ الليل وأوْسَطه وآخِرَه.

[رواه أحمد (١١٩/٤) بسند صحيح].

٨٨٤ ـ وعن أبي بصرة الغفاري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ زَادَكُم صلاةً وهي الوِتْر، فصلُّوه فِيما بَيْنَ صلاةِ العِشاءِ إلى صَلاةِ الفَجْرِ**».

[رواه أحمد (٧/٦، ٣٩٧) من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح. وله شواهد عن خارجة بن حذافة عند الترمذي (٤٠٤)، وأبي داود (١٤١٨)، وابن ماجه (١١٦٨)، والحاكم (٣٠٦/١) وصححه، وآخر عن ابن عمر عند أحمد].

٨٨٥ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «أوتِرُوا قَبْلَ أن تُصْبِحُوا».

[رواه أحمد (٣/٣٧)، ومسلم (٦/٣٤)، والترمذي (٤١٩)، والنسائي، وابن ماجه (١١٨٩)].

٨٨٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَشِيَ مِنكُم أنْ لا يَسْتَيقظَ من آخِرِ الليلِ فلْيُوتِرْ مِن أوَّلِه، ومَن طَمِعَ مِنكُم أن يَقومَ مِن آخِرِ اللَّيلِ فلْيُوتِرْ مِنْ آخِرِ اللَّيلِ، فإنَّ قِراءَةَ القُرآنِ فِي آخِرِ اللَّيلِ محضورة وهُو أفْضَلُ».

[رواه أحمد (٣/٣١٥)، ومسلم (٦/٣٤، ٣٥)، والترمذي (٤٠٧)، وابن ماجه (١١٨٧) وغيرهم].

٨٨٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلاتِكُم مِن اللَّيلِ وِتْراً».

[رواه أحمد (٢/٣٠، ١٠٢، ١٤٣)، والبخاري (٣/١٤١)، ومسلم (٦/٣٢)، وأبو داود (١٤٣٨) وغيرهم].

ش: في هذه الأحاديث بيان وقت الوتر وبدايته ونهايته، وأن أفضله أن يكون آخر الليل، وأنه ينبغي أن يكون خاتمة صلاة المسلم من الليل.

بماذا يقرأ في الوتر

٨٨٨ ـ عن عبدالرحمن بن أَبْزَى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أوتر بثلاث: بسبِّح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد.

[رواه أحمد (٣/٤٠٦) من طرق، والنسائي (٣/٢٠٢، ٢٠٥)، وابن ماجه (١١٧١) وغيرهم بسند صحيح].

وله شواهد عن ابن عباس مثله رواه الترمذي (٤١٤) بسند حسن، وعن

أُبيّ بن كعب رواه أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (٢٠٢/٣)، وابن ماجه. وعن عائشة مثله. وفي رواية وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ رواه أبو داود (١٤٢٤)، والترمذي (٤١٥)، وابن ماجه (١١٧٣)، وابن حبان (٦٧٥)، والحاكم (٣٠٥/١)، وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي.

ش: ما في الفصل من الأحاديث يدل على مشروعية القراءة في الوتر بالسور المذكورة.

القنوت في الوتر

٨٨٩ ـ عن الإمام علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وتره: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِرِضَكَ مِن سَخَطِكَ وبمُعَافَاتِك مِن عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنكَ لا أُحصِي ثَنَاءَ عَلَيكَ أنتَ كما أثنَيتَ علَى نَفْسِكَ**».

[رواه أبو داود (١٤٢٧)، والنسائي (٢٠٦/٣)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (١٧٩) بسند صحيح].

٨٩٠ ـ وعن سيدنا الحسن بن علي عليهما السلام قال: علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «**اللَّهُمَّ اهدِنِي فِيمَن هَدَيتَ، وعَافِنِي فِيمن عَافَيتَ، وتَوَلَّنِي فِيمَن تَوَلَّيتَ، وبَارِكْ لِي فِيما أعطيتَ، وقِنِي شَرَّ ما قَضَيتَ، فإنَّك تَقْضِي ولا يُقْضَى عليكَ، وإنَّهُ لا يَذِلُّ مَن وَالَيتَ، تَبَارَكْتَ ربَّنا وتَعالَيتَ**».

[رواه أحمد رقم (١٧١٨، ١٧٢١، ١٧٢٣، ١٧٢٥)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤١٦)، والنسائي (٢٠٦/٣)، وابن ماجه (١١٧٨)، والدارمي (١٥٩٩) بسند صحيح، وصححه جماعة].

ش: في الحديثين مشروعية القنوت في الوتر والدعاء بما ذكر في الحديثين. ويشرع ذلك بعد الركوع وقبله فكلاهما ثابت.

قَدْرُ ورد القيام وأقلُّه وأكثره والأفضلُ في ذلك

٨٩١ ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ فافْتَتَح البَقَرَةَ فقلتُ يَركعُ عند المائة ثم مَضَى، فقلت: يُصَلِّي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النِّساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عِمْرَانَ فقرأها يقرأ مُتَرَسِّلاً إذا مرَّ بآية فيها تَسْبِيح سَبَّحَ، وإذا مَرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثم ركع، فجعل يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم»، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ثم سجد، فقال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»، فكان سجوده قريباً من قيامه.

[رواه أحمد (٣٩٧/٥)، ومسلم (٦١/٦، ٦٣)، والترمذي (٢٣٥)، والنسائي (١٤٩/٢)، وأبو داود (٨٧١)، واللفظ لمسلم، ورواه أحمد (٣٩٨/٥)، وأبو داود (٨٧٤) وغيرها بسياق آخر مطولاً ونحوه عن عوف بن مالك رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي، وغيرهما بسند حسن].

٨٩٢ ـ وعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ فأطالَ حتى هَمَمْتُ بأمْرِ سُوءٍ قيل: وما هَمَمْتَ به؟ قال: هممتُ أن أجْلِسَ وأدعَهُ.

[رواه مسلم (٦٣/٦)].

٨٩٣ ـ وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود قال: قرأت المفصل الليلةَ في ركعة، فقال: هَذّاً كَهَذِّ الشِّعْرِ، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود آخرهن من الحواميم (حمّ) الدخان، (وعمَّ يتساءلون).

[رواه البخاري في صفة الصلاة (٤٠١/٢، ٤٠٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (١٠٤/٦، ١٠٥، ١٠٨)].

وفي رواية لأبي داود (١٣٩٦)، لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر السورتين في ركعة: (الرحمن)، و(النجم) في ركعة، و(اقتربت) و(الحاقة) في ركعة، و(الطور) و(الذاريات) في ركعة، و(إذا وقعت) و(نون) في ركعة،

و (سأل سائل) و(النازعات) في ركعة، و (ويل للمطففين) و(عبس) في ركعة، و (المدثر) و(المزمل) في ركعة، و (هل أتى) و(لا أقسم) في ركعة، و (عم يتساءلون) و(المرسلات) في ركعة، و (الدخان) و(إذا الشمس كورت) في ركعة. وسنده صحيح.

٨٩٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة.

[رواه الترمذي (٤٠١)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والحاكم (٢٤١/١)، وصححه الحاكم والذهبي والبوصيري، ورجاله عند الترمذي رجال مسلم].

٨٩٥ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ ردَّد هذه الآية حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني في الصلاة.

[رواه النسائي (١٧٧/٢)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والحاكم (٢٤١/١) وصححه ووافقه الذهبي].

ش: في هذه الأحاديث بيان ما كان يقرأ به النبي ﷺ من السور في قيامه وتهجده. وأنه كان أحياناً يطيل القراءة وأحياناً يتوسط، وفي حديثي سيدتنا عائشة وأبي ذر رضي الله تعالى عنهما جواز ترديد آية في الصلاة، إذا كان له فيها عبرةٌ وصلاحٌ لقلبه.

٨٩٦ ـ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الآيَتَانِ مِن آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَن قَرأهُما فِي لَيلَةٍ كَفَتَاهُ»**.

[رواه أحمد (١١٨/٤)، والبخاري في فضائل القرآن (٤٣١/١٠)، ومسلم (٩١/٦، ٩٢)، والترمذي (٢٦٩٠)، وباقي الجماعة، والدارمي (٣٣٩١)].

٨٩٧ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، ومَنْ قَامَ بِمائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، ومَنْ قَامَ بألْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطَرِينَ»**.

[رواه أبو داود (١٣٩٨)، وابن خزيمة (١٢٥/١)، وابن حبان (٦٦٢) بسند حسن صحيح].

ش: في الحديثين مشروعية الاقتصار على قراءة آيتين أو عشر ونحو ذلك في صلاة الليل وأن ذلك كاف، ولا يكون القائم بذلك غافلاً، ومن زاد زاده الله.

٨٩٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ وعِندي امرأةٌ حَسنةُ الهيئةِ فقال: «مَنْ هَذِهِ؟»، قلت: هذه فلانة بنت فلان، وهي يا رسول الله لا تنامُ الليل، فقال: «مَهْ، **خُذُوا مِنَ العملِ ما تُطِيقونَ، فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا، وأحَبُّ العَملِ إلى الله ما دَاومَ عليه صاحبُه وإن قَلَّ**».

[رواه البخاري ومسلم وغيرهما وقد تقدم في الاعتصام رقم (١٣١) مع أحاديث أخرى].

ش: في الحديث مشروعية الوسط في قيام الليل من غير إفراط ولا تفريط.

أقل ما يكفي من القيام

٨٩٩ ـ عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أيقَظَ الرَّجُلُ أهلَهُ مِنَ اللَّيلِ فَصَلَّيا رَكْعَتَينِ كُتِبَا مِن الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ**».

[رواه أبو داود (١٣٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٥)، وابن حبان (٦٤٥)، والحاكم (٤١٦/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

٩٠٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيلِ فصلَّى وأيقَظَ امرأتَهُ فإنْ أبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِها الماءَ، ورَحِمَ اللَّهُ امرأةً قامَتْ مِنَ اللَّيلِ فصلَّتْ وأيقَظَتْ زَوْجَها فإنْ أبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الماءَ**».

[رواه أبو داود (١٣٠٨)، والنسائي (١٦٧/٣)، وابن ماجه (١٣٣٦)، وابن حبان (٦٤٦)، والحاكم (٣٠٩/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم والذهبي].

ش: في الحديث الأول بيان لأقلّ ما يصليه الإنسان من الليل وهو ركعتان، ولا يستهان بهما ففيهما ما ترى من الفضل العظيم.

أما الحديث الثاني ففيه حث الزوجين على التعاون وعلى قيام الليل وإيقاظ أحدهما الآخر.

الحذر من الشيطان في قيام الليل

٩٠١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيطانُ علَى قَافِيَةِ رأسِ أحَدِكُم إذا هُوَ نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ عليكَ لَيلٌ طويلٌ فَارْقُدْ، فإنْ اسْتَيقَظَ فذكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلا أصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ».

[رواه أحمد (٢/٢٤٣)، والبخاري (٣/٢٦٦، ٢٦٧) في باب التهجد، ومسلم في صلاة الليل (٦/٦٥، ٦٦)].

٩٠٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ذكر عند رسول الله ﷺ رجلٌ نامَ ليلةً حتى أصْبَحَ، قال: «ذاكَ رجلٌ بَالَ الشَّيطانُ فِي أُذُنَيهِ».

[رواه أحمد (١/٤٢٧)، والبخاري في الصلاة، وفي بدء الخلق، ومسلم في صلاة الليل (٦/٦٣، ٦٤)].

ش: في الحديثين تحذير من اتباع الشيطان وموافقته في أمره بالنوم في الليل والتفريط في القيام والتهجد، وإرشاد إلى مخالفته والمبادرة إلى ذكر الله تعالى عقب الاستيقاظ ثم الشروع في الوضوء فالصلاة.

من قام يصلي بالليل فغلبه النوم أو استعجم عليه القرآن

٩٠٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«إذا نَعَسَ أحَدُكُم وهُو يُصلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذهَبَ عَنْهُ النَّومُ، فإنَّ أحَدَكم إذا صلَّى وهو يَنْعَسُ لعلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فيَسُبُّ نَفْسَهُ».

[رواه أحمد (٢٠٥/٦)، والبخاري في الطهارة وغيرها، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٤/٦)].

٩٠٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا قَامَ أحَدُكم مِنَ اللَّيلِ فَاسْتَعْجَمَ القُرآنَ على لِسانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فلْيَضْطجِعْ».

[رواه أحمد (٣١٨/٢)، ومسلم (٧٤/٦، ٧٥)، وأبو داود، وابن ماجه].

ش: قوله: «استعجم...» إلخ: أي استغلق عليه ولم ينطق به لسانه لغلبة النوم أو لتخليط ونسيان.

ففي الحديثين إرشاد للمتهجدين أن يناموا ويضطجعوا إذا غلبهم نوم أو حصل لهم تخليط أو نحوه في القراءة.

صلاة الليل من قعود وأنها على النصف من قيام

٩٠٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها لم تَرَ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي صلاةَ الليل قاعِداً قَطُّ حتى أسَنَّ، فكان يقرأ قاعداً حتى إذا أراد أن يَركعَ، قام فقرأ نحواً من ثلاثين أو أربعين آية ثم ركع.

[رواه مالك في صلاة الجماعة، والبخاري في تقصير الصلاة، وفي التهجد... ومسلم في صلاة المسافرين (١١/٦، ١٢)، وفي رواية لمسلم: كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً قاعداً، وكان إذا قرأ قائماً ركع قائماً، وإذا قرأ قاعداً ركع قاعداً].

٩٠٦ ـ وعن حفصة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ صلى في سُبْحَتِهِ قاعداً حتى كان قبل وفاتِه بعام، فكان يصلي في سُبْحَتِهِ قاعداً وكان يقرأ بالسورة فيُرَتِّلُها حتى تكونَ أطولَ من أطولَ منها.

[رواه مسلم (١٣/٦) وغيره].

٩٠٧ ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أنه سأل النبي ﷺ عن صلاة القاعد، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى قَائِماً فَهُوَ أَفْضلُ وَمَنْ صلَّى قاعِداً فلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ، ومَنْ صَلَّى نَائِماً فلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَاعِدِ**».

[رواه البخاري في تقصير الصلاة (٣/٢٣٩، ٢٤٠)، وأبو داود (٩٥١)، والترمذي (٣٣١)، والنسائي (٣/٢٢٣، ٢٢٤)، وابن ماجه (١٢٣١)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية التنفل من قعود ولو بدون عذر غير أنه في الأجر على النصف من القيام، فإن كان لضرورة كان الأجر كاملاً إن شاء الله.

كراهية قطع الحزب والورد المعتاد من الليل

٩٠٨ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَبدَاللَّهِ لا تكونَنَّ مِثْلَ فُلانٍ كانَ يَقُومُ الليلِ فتَرَكَ قيامَ الليلِ**».

[رواه أحمد (٢/١٧٠)، والبخاري في التهجد (٣/٢٧٩، ٢٨٠)، ومسلم في الصيام (١١٥٩) وغيرهم].

ش: في الحديث إرشاد منه ﷺ لمن اعتاد القيام أن لا يتركه تكاسلاً أو مللاً.. فإن ذلك انحطاط عن المنزلة العلية.

من نام عن حزبه أو نسيه

٩٠٩ ـ عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبَهُ أَوْ عَنْ شَيءٍ منه فَقَرأَهُ فِيما بَيْنَ صَلاةِ الفَجرِ وصلاةِ الظُّهرِ كُتِبَ لَهُ كأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيلِ**».

ش: الحزب والورد ما يجعله المسلم على نفسه من قراءة وصلاة وذكر...

[رواه مسلم (٦/٢٩)، وأبو داود (١٣١٣)، والترمذي (٥١٩)، والنسائي، وابن ماجه (١٣٤٣)].

٩١٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ امرىءٍ تَكُونُ لهُ صَلاةٌ بِليلٍ يَغْلِبُهُ عليهَا نَوْمٌ، إلا كُتِبَ لَهُ أجرُ صلاتِه وكانَ نومُهُ عليه صَدقةً»**.

[رواه أحمد (٦/١٨٠)، ومالك (٢٥٤)، وأبو داود (١٣١٤)، والنسائي (٣/٢١٥) وهو صحيح لشاهد له عن أبي الدرداء بلفظ: **«من أتى فراشه وهو ينوي أن يقومَ يصلي من الليل فغلَبَتْهُ عيناه حتى أصبحَ كُتِبَ له ما نوى وكان نومُه صدقةً عليه من رَبِّه عز وجلّ»**. رواه النسائي (٣/٢١٦)، وابن ماجه (١٣٤٤)، وابن حبان (٦٤٠)، والحاكم (١/٣١١)، والبيهقي (٣/١٥) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وجوده المنذري].

٩١١ ـ وعن عائشة أيضاً قالت: كان النبي ﷺ إذا لم يُصلِّ من الليل مَنَعَه من ذلك النومُ أو غلبتْهُ عيناه صلَّى من النَّهار ثِنْتَيْ عشْرَةَ رَكْعَةً.

وفي رواية: إذا نام من الليل أو مرض.. إلخ. وفي رواية: من وجع أو غيره.

[رواه مسلم (٦/٢٨، ٢٩)، والترمذي (٣٩٧)، وفي الشمائل (٢٦٤)].

ش: وها هنا يتجلى فضل الله عزّ وجلّ على عباده المتهجدين القوامين فهم على كل الأحوال مأجورون حتى ولو ناموا غلبة كتب الله لهم أجر القيام وكان نومهم صدقة تصدق الله به عليهم. ومع ذلك فلهم أن يقضوا ما فاتهم ما بين الفجر والظهر ويكونون كأنهم صلوه من الليل، فلربنا الحمد والشكر على نعمه وإحسانه وإفضاله.

ركعتا الفجر

٩١٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: **«رَكْعَتَا الفجرِ خيرٌ مِن الدُّنيا ومَا فِيهَا»**.

[رواه أحمد (٦/٢٦٥)، ومسلم (٦/٥)، والترمذي (٣٧٣) بتهذيبي].

٩١٣ ـ وعنها قالت: لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ منه تعاهُداً على ركعتي الفجر.

[رواه البخاري في التهجد (٢٨٧/٣، ٢٨٨)، ومسلم في قيام الليل (٤/٦) وغيرهما].

٩١٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يَقرأُ فيهما بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

[رواه مسلم (٥/٦)، وأبو داود (١٢٥٦) وغيرهما].

٩١٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ التي في سورة البقرة، وفي الثانية التي في سورة آل عمران: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ إلى: ﴿مُّسْلِمُونَ﴾.

وفي رواية: وفي الآخرة منهما: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

[رواه مسلم (٥/٦، ٦)، وأبو داود رقم (١٢٥٩) وغيرهما].

٩١٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن.

[رواه البخاري (٢٨٥/٣)، ومسلم (١٦/٦، ٢٣)].

٩١٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا صلَّى أحدُكم رَكْعَتَيْ الفَجْرِ فَلْيَضْطَجِعْ علَى يَمِينِهِ»**.

[رواه أبو داود (١٢٦١)، والترمذي (٣٧٧)، وابن حبان (٦١٢) وحسنه الترمذي، وصححه وكذا صححه النووي في «شرح مسلم» (١٩/٦) على شرط البخاري ومسلم].

ش: هذه الأحاديث ظاهرة في تشريع صلاة ركعتي الفجر وفضلهما وتعاهدهما وبيان ما يقرأ فيهما وسنية الاضطجاع بعدهما.

قضاء ركعتي الفجر

٩١٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ لَمْ يُصَلِّ ركعتَيِ الفَجْرِ فلْيُصَلِّهِمَا بعدَما تطلُعُ الشَّمسُ».

[رواه الترمذي (٣٨٠)، وابن حبان (٦١٣)، والحاكم (٢٧٤/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي].

٩١٩ ـ وعن قَيْسِ بن قَهْدٍ رضي الله تعالى عنه أنه صلى مع رسول الله ﷺ الصبح ولم يكن ركع الركعتين قبل الفجر، فلما سلم رسول الله ﷺ قام فركع ركعتي الفجر ورسول الله ﷺ ينظر إليه فلم ينكر ذلك عليه.

[رواه ابن حبان (٦٢٤) بالموارد، والحاكم (٢٧٤/١، ٢٧٥)، والبيهقي (٤٨٣/٢) بسند صحيح. ورواه أبو داود (١٢٦٧)، والترمذي (٣٧٩)، وابن ماجه (١١٥٤)، وكذا أحمد (٤٤٧/٥)، والحاكم (٥٧٥/١) من رواية قيس بن عمرو، وسنده صحيح ولا يضر انقطاعه هنا وله شاهد أيضاً عن رجل من الأنصار، رواه ابن حزم في «المحلى» (١١٢/٣، ١١٣) بنحوه وحسنه العراقي].

ش: في الحديثين مشروعية قضاء ركعتي الفجر، إما عقب صلاة الصبح، وإما بعد طلوع الشمس فالأمر في ذلك واسع.

صلاة الضحى

٩٢٠ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُصْبِحُ علَى كُلِّ سُلاَمَى مِنْ أحدِكُم صَدقةٌ، فكلُّ تَسْبِيحه صَدَقةٌ، وكلُّ تَحميدةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تَهْلِيلةٍ صَدَقةٌ، وكلُّ تَكْبِيرةٍ صَدقةٌ، وأمرٌ بالمَعْرُوفِ صَدَقةٌ، ونهيٌ عن المُنكَرِ صَدقةٌ، ويجزىء من ذلك رَكْعَتَانِ يَرْكَعهما مِنَ الضُّحَى**».

[رواه أحمد (١٦٧/٥)، ومسلم (٢٣٣/٥)، وأبو داود (١٢٨٥، ١٢٨٦) وغيرهم].

٩٢١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد.

[رواه مسلم (١٣٤/٥) وغيره، ونحوه عن أبي ذر وأبي الدرداء رواهما مسلم أيضاً].

٩٢٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله.

[رواه أحمد (١٤٥/٦، ٢٦٥)، ومسلم (٢٢٩/٥)].

ش: قوله: «سلامى» بضم السين وفتح الميم: المراد بها عظام البدن ومفاصله.

وفي هذه الأحاديث مشروعية صلاة الضحى وأن لها فضلاً عظيماً حيث تقوم الركعتان منها مقام ثلاثمائة وستين صدقة. وأن أقلها ركعتان وأنه ﷺ كان يصلي أربعاً ويزيد عليها وقد جاء في الصحيحين من حديث أم هانىء أنه ﷺ صلى في بيتها يوم الفتح ثمان ركعات وذلك ضحى، ولم يصح شيء في الزيادة على الثمان.

صلاة الزوال

٩٢٣ ـ عن عبدالله بن السائب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي أربعاً بعد أن تَزولَ الشمسُ قبل الظهر فقال: «**إنَّها سَاعَةٌ تُفْتَحُ فيها أبوابُ السَّماءِ وأحِبُّ أن يُصْعَدَ لِي فيها عَمَلٌ صالِحٌ**».

[رواه الترمذي (٤٢٩) بسند صحيح].

وله شاهد عن أبي أيوب عند أبي داود (١٢٧٠)، وابن ماجه (١١٥٧) بسند حسن بلفظ: «**أربعٌ قبل الظهر ليس فيهِنَّ تسليمٌ تفْتَحُ لهُنَّ أبوابُ السَّماءِ**».

وهذه الصلاة غير راتبة الظهر الآتية عقبه.

راتبة الظهر والعصر

٩٢٤ ـ عن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن حَافَظَ علَى أربعِ رَكْعَاتٍ قَبْلَ الظُّهرِ، وأربعٍ بَعْدَهَا حَرَّمَهُ اللَّهُ علَى النَّارِ**».

[رواه أحمد (٣٢٥/٦، ٣٢٦)، وأبو داود (١٢٦٩)، والترمذي (٣٨٤)، والنسائي (٢٢٢/٣)، وابن ماجه (١١٦٠) من طرق بعضها صحيحة].

٩٢٥ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صلَّى قبل العَصْرِ أربَعاً**».

[رواه أبو داود (١٢٧١)، والترمذي (٣٨٦)، وكذا الطيالسي (٥٢٦)، وابن حبان (٦٦٦)، والبيهقي (٤٧٣/٢) وسنده حسن. وله شاهد عن سيدنا علي عليه السلام رواه أحمد (٨٥/١)، والترمذي (٣٨٥)، وابن ماجه (١١٦١) وسنده صحيح.

ولفظه: كان النبي ﷺ يصلي قبل العصر أربع ركعات يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة المقربين ومن تبعهم من المسلمين والمؤمنين].

ش: في الحديثين فضل هذه الرواتب للظهر والعصر.

راتبة المغرب والعشاء

٩٢٦ ـ عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صَلُّوا قبلَ المغرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ**»، ثم قال: «**لِمَنْ شَاءَ**».

[رواه البخاري في التطوع (٣٠٢/٣)، وأبو داود (١٢٨١) وغيرهما].

٩٢٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ أكثر من عشرين مرة يقرأ في الركعتين بعد المغرب، والركعتين قبل الصبح: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

[رواه الطيالسي رقم (٥٣٣) بسند صحيح. ونحوه عن ابن مسعود رواه الترمذي (٣٨٧)، وابن ماجه (١١٦٦) وفيه ضعف].

٩٢٨ ـ وعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أتى مسجد بني عبدالأشْهَلِ فصلى فيه المغرب، فلما قَضَوْا صلاتهم رآهم يُسَبِّحُون بعدها فقال: «**هٰذِهِ صَلاةُ البُيُوتِ**».

[رواه أبو داود (١٣٠٠) بسند حسن].

٩٢٩ ـ وعن عائشة أنها سئلت عن تطوع رسول الله ﷺ فقالت: **كان يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب ثم يدخل فيصلي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء ويدخل بيتي فيصلي ركعتين**...

[رواه مسلم في فضل السنن الراتبة (٨/٦)].

٩٣٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **صليت مع رسول الله ﷺ قبل الظهر سجدتين، وبعدها سجدتين، وبعد المغرب سجدتين، وبعد العشاء سجدتين، وبعد الجمعة سجدتين، فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبي ﷺ في بيته**.

[رواه البخاري في التطوع (٣٠١/٣)، ومسلم في كتاب المسافرين (٧/٦، ٨) وغيرهما].

٩٣١ ـ وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لله كُلَّ يوم ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعاً غيرَ فَرِيضَةٍ إلا بَنَى اللَّهُ لهُ بَيْتاً فيِ الجَنَّةِ**».

[رواه مسلم (٦/٦، ١١)، وأبو داود (١٢٥٠)، والترمذي (٣٧٢)، والنسائي (٢١٨/٣، ٢١٩، ٢٢٠)، وابن ماجه (١١٤١) مطولاً ومختصراً].

وزاد الترمذي وغيره: أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة. وله شاهد بذكر العدد عن عائشة رواه الترمذي (٣٧١)، والنسائي (٢١٧/٣، ٢١٨)، وابن ماجه (١١٤٠).

ش: ففي هذه الأحاديث مشروعية صلاة ركعتين قبل المغرب وبعدها وبعد العشاء ثبت ذلك من قول النبي ﷺ وفعله.

وفي حديثي أم حبيبة وعائشة أمَّي المؤمنين رضي الله تعالى عنهما فضل كبير لمن يثابر ويحافظ على صلاة ثنتي عشرة ركعة في كل يوم.

صلاة الطهور

٩٣٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال لِبلالٍ عِنْدَ صَلاةِ الفَجْرِ: **«يَا بِلاَلُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَه فِي الإِسْلاَمِ فَإِنِّي سَمِعتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الجَنَّةِ»**، قال: مَا عَمِلْتُ عَملاً أَرْجَى عِندي أَنِّي لم أَتَطَهَّر طَهُوراً في سَاعَةِ لَيلٍ أو نَهَارٍ إلا صليتُ بذلك الطُّهُورِ ما كُتِبَ لي أن أُصَلِّي.

[رواه البخاري (٢٧٦/٣)، في التهجد ومسلم].

ش: ففي الحديث فضل الصلاة إثر الوضوء وأن ذلك قد يكون من موجبات الجنة.

تحية المسجد

٩٣٣ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُم المَسْجِدَ فلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّي رَكْعَتَينِ»**.

[رواه البخاري في المساجد (٨٤/٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢٦/٥) والأربعة وغيرهم].

ش: تحية المسجد من النوافل المؤكدة على كل من دخل المسجد حتى قال بعضهم بوجوبها وسيأتي مزيد لهذا في الجمعة.

صلاة الاستخارة

٩٣٤ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمُنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: **«إِذا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَينِ مِن غيرِ الفريضةِ ثُم لِيَقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وأَسأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيم، فإِنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وتَعلمُ ولا أَعْلَمُ، وأنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنتَ تَعلَمُ أَنَّ هذا**

الأمرَ خَيرٌ لِي فِي دِيني ومَعَاشِي وعاقِبةِ أمْرِي، أو قال: عاجِلِ أمْرِي وآجِلِه، فاقْدُرْه ويَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِك لِي فيه، وإنْ كنتَ تَعْلَم أن هذا الأمرَ شَرٌّ لِي فِي دِيني ومَعَاشِي وعَاقِبَةِ أمْرِي، أو قال: عاجِلِ أمْرِي وآجِلِه، فاصْرِفْهُ عَنِّي واصْرِفْنِي عَنه، واقْدُرْ لي الخَيرَ حيثُ كانَ ثم أرْضِنِي بِهِ. قال: **ويُسَمِّي حَاجَتَهُ».**

[رواه أحمد والبخاري في التطوع (٣/٢٩٠)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٣١) وغيرهم].

ش: الاستخارة طلب ما فيه الخير من الله عزّ وجلّ، وذلك يكون بما وصف في هذا الحديث الشريف، غير أن هذا لا يكون إلا فيما لا يعرف خيره من شره.

صلاة التوبة

٩٣٥ ـ عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه قال: إنِّي كُنتُ رجلاً إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حَدِيثاً نَفَعَنِي اللَّهُ مِنه بما شاء أن يَنْفَعَنِي به، وإذا حَدَّثَنِي رجلٌ مِن أصحابِهِ اسْتَحْلَفْتُه، فإذا حَلَفَ صَدَّقْتُه، وأنه حدَّثَنِي أبُو بكرٍ وصَدَقَ أبُو بكرٍ رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«مَا مِن رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إلا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ.** ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ الآية».

[رواه أحمد وهو الحديث الثاني في المسند، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٣٦٣)، وفي التفسير (٢٨١٢)، وابن ماجه (١٣٩٥) بسند صحيح].

ش: في الحديث سعة فضل الله ورحمته، ولطفه بعباده المؤمنين حيث ضمن لهم المغفرة من ذنوبهم إذا هُمْ تابوا إليه واستغفروه. فله الحمد والشكر على ذلك.

وفي الحديث تكذيب للشيعة الروافض الذين يجعلون الإمام علياً عدواً

للصديق رضي الله تعالى عنهما فها هو الإمام علي يمدح الصديق ويصفه بالصدق في الحديث عن النبي ﷺ.

صلاة التسبيح

٩٣٦ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال للعبَّاس بن عبدِالمُطَّلِب: «يا عَبَّاسُ، يا عَمَّاهُ، ألا أُعْطِيك، ألا أَمْنَحُكَ، ألا أَحْبُوكَ، ألا أَفْعَلُ بِكَ عَشْرَ خِصالٍ؟ إذا أنْتَ فعلتَ ذلك غفر اللّهُ لك ذنبَكَ أوّله وآخِرَه، قَدِيمَه وحَدِيثَه، خَطَأَهُ وعَمْدَهُ، صَغِيرَهُ وكَبِيرَهُ، سِرَّهُ وعلانِيَتَه، عَشْرَ خِصَالٍ: أنْ تُصَلِّي أربعَ رَكَعَاتٍ تَقْرأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فاتحة الكِتاب وسُورةً، فإذَا فَرَغْتَ مِنَ القِراءَةِ في أوَّلِ رِكْعَةٍ وأنْتَ قَائِمٌ قُلْتَ: سُبْحَانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلَه إلاَّ الله، واللّهُ أكبرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، ثُمَّ تَرْكَعُ فتقُولُها وأنْتَ رَاكِعٌ عَشْراً، ثُمَّ تَرْفَعُ رأسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ فتقولُها عَشْراً، ثم تَهْوِي سَاجِداً فتقُولُها وأنْتَ ساجِدٌ عَشْراً، ثُمَّ تَرْفَعُ رأسَكَ مِنَ السُّجود فتقُولُها عَشْراً، ثُمَّ تَسْجُد فَتقُولُها عَشْراً، ثُمَّ تَرْفَعُ رأسَكَ فتقُولُها عَشْراً، فذلِكَ خمسٌ وسَبْعُونَ فِي كُلِّ رَكْعةٍ، تَفْعلُ ذلِكَ فِي أرْبَعِ رَكَعَاتٍ، إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تُصَلِّيَها فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فافْعَلْ، فإنْ لَمْ تَفْعَلْ ففِي كُلِّ جمعةٍ مَرَّةً، فإنْ لَمْ تفعلْ ففِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، فإنْ لَمْ تَفْعَلْ ففِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، فإنْ لم تَفْعَلْ ففِي عُمُرِكَ مَرَّةً».

[رواه أبو داود (١٢٩٧)، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦)، والحاكم (٣١٨/١) وصححه وأقره الذهبي].

وقال الحافظ: رجال إسناده لا بأس بهم.

وللحديث شواهد، عن ابن عَمْرو رواه أبو داود (١٢٩٨)، والحاكم (٢١٩/١) بسند حسن. وعن ابن عُمَرَ رواه الحاكم (٣١٩/١)، وصححه ووافقه الذهبي. وعن رجل من الأنصار رواه أبو داود (١٢٩٩) بسند حسن. وعن أبي رافع رواه الترمذي (٤٣٢)، وابن ماجه (١٣٨٦) وغير ذلك. فالحديث صحيح لا غبار عليه، ولذلك صححه جماعة كثيرون من الحفاظ، وردوا على ابن الجوزي في إيراده في الموضوعات.

ش: وفي هذا الحديث فضل عظيم حيث جعلت هذه الصلاة مكفرة لجميع ذنوب المسلم حتى الكبائر، وذلك فضل الله. فينبغي للمسلم أن يحافظ على هذه الصلاة وأن لا يغفل عنها طمعاً في مغفرة الله عزّ وجلّ. وقد كانت من عادات الصالحين والمتعبدين.

أوقات نهي عن صلاة النافلة فيها

٩٣٧ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ نَهَى عن الصلاةِ بَعْدَ العصر إلا والشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ.

[رواه أبو داود (١٢٧٤) بسند صحيح].

٩٣٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شَهِدَ عِنْدِي رجالٌ مَرْضِيُّون فيهم عُمرُ بن الخطاب، وأرضاهم عندي عمرُ أن نبيَّ الله ﷺ قال: «**لا صَلاةَ بَعْدَ صَلاةِ الصُّبْحِ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ولا صلاةَ بعدَ صلاةِ العَصْرِ حتى تَغْرُبَ الشَّمْسُ**».

[رواه البخاري ومسلم (١١١/٦)، وأبو داود (١٢٧٦) وغيرهما وهو في الصحيحين أيضاً عن أبي سعيد الخدري، وفي البخاري (٢٠٢/٢)، ومسلم (١١٠/٦) عن أبي هريرة].

٩٣٩ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: ثَلاثُ ساعاتٍ كانَ رسولُ الله ﷺ يَنْهَانَا أن نُصَلِّي فِيهِنَّ أو نَقْبُرَ فِيهِنَّ موتَانَا، حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بازِغَةً حتَّى تَرْتَفِعَ، وحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حتَّى تَمِيلَ، وحِينَ تُضِيفُ للغُرُوبِ حتَّى تَغْرُبَ».

[رواه أحمد ومسلم ١١٤/٦)، وأبو داود (٣٩١٢)، والترمذي في الجنائز (٩١٦)، وابن ماجه (١٥١٩) وغيرهم].

٩٤٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَحَرَّوْا بِصلاتِكم طُلُوعَ الشَّمسِ ولا غُرُوبَها فإنَّها تَطْلُعُ بِقَرْنَيْ شَيطانٍ**».

[رواه البخاري (٢٠٠/٢)، ومسلم (١١٢/٦) وغيرهما].

ش: في هذه الأحاديث النهي عن الصلاة النافلة في أوقات خمس: عند طلوع الشمس وعند غروبها وعند زوالها وسط النهار وبعد صلاة الصبح وصلاة العصر إلا إن كانت لا تزال الشمس مرتفعة.

وقوله في حديث عقبة: أو أن نقبر فيهن موتانا؛ فيه دليل على المنع من دفن الأموات في هذه الأوقات. أما الصلاة على الجنائز فيها فنقل النووي في «شرح مسلم» الإجماع على جوازها.

* * *

كتاب الجمعة

فضل يوم الجمعة

٩٤١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ أَنَّهُم أوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنَا، وأوتِينَاهُ مِن بَعْدِهِم، فهذا يَومُهُم الذي فُرِضَ عليهم فاخْتَلَفُوا فيه، فهَدَانَا اللَّهُ لهُ فهُم لنَا فِيهِ تَبَعٌ، فاليَهُودُ غداً، والنَّصارَى بَعْدَهَا**».

[رواه البخاري (٤/٣، ٥، ٦)، ومسلم (١٤٢/٦، ١٤٣، ١٤٤) كلاهما في الجمعة].

ش: قوله: «**نحن الآخرون..**» إلخ: يعني نحن آخر الأمم في الدنيا. و «**السابقون يوم القيامة**»: للقضاء والحساب ودخول الجنة.

وفي الحديث فضل هذه الأمة المحمدية حيث هداها الله ليوم الجمعة الذي اختلف فيه اليهود والنصارى وأضلهم الله عنه، وقد جاء في صحيح مسلم (١٤٤/٦) حديث لحذيفة رضي الله تعالى عنه موضحاً لحديث الباب.

٩٤٢ ـ وعن أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «**خَيرُ يوم طَلعتْ فيهِ الشَّمسُ يومُ الجُمُعَةِ فِيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنَّةَ، وفيهِ أُخرِجَ مِنْهَا، ولا تقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ يومَ الجُمُعَةِ**».

[رواه أحمد (٤٠١/٢، ٤١٨، ٤٨٦، ٥١٢)، ومسلم (١٤١/٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٣٩)، والنسائي (٧٤/٣) وغيرهم].

وزاد أحمد في رواية: «**وفيه مات وفيه تيبَ عليه... وما من دابَّةٍ إلاَّ وهِيَ مُسِيخَةٌ يومَ الجُمُعَةِ مِن حِينِ يُصبح حتى تَطْلَعَ الشمسُ شَفَقاً مِنَ السَّاعَةِ إلا الجنَّ والإنسَ وفيه ساعةٌ لا يُصادفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلي يسألُ اللَّهَ شيئاً إلا أعطاهُ إياه**».

ورواه البخاري (٦٧/٣)، ومسلم(١٣٩/٦، ١٤٠) بلفظ: «**إنَّ في الجمعة ساعةً لا يُصَادِفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يُصَلِّي أي يدعو يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه**».

٩٤٣ ـ وعن أوس بن أوس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكُم يومَ الجُمُعَةِ فيهِ خُلِقَ آدَمُ، وفيه قُبِض، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعْقَةُ، فأكْثِرُوا عليَّ مِنَ الصَّلاةِ فيهِ، فإنَّ صلاتَكُم معروضَةٌ علَيَّ**»، قالوا: يا رسولَ الله وكيف تُعْرَضُ صلاتُنَا عليكَ وقد أرَمْتَ؟ يقولون: بَليتَ. فقال: «**إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ على الأرضِ أجْسادَ الأنْبياءِ**».

[رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي ٧٥/٣)، وابن ماجه (١٠٨٥) وغيرهم بسند صحيح ونحوه عن أبي لبابة رواه أحمد (٤٣٠/٣) بسند حسن، وعن سعد بن عبادة رواه أحمد أيضاً (٣٨٤/٥) بسند حسن].

ش: الحديثان وما معهما تدل على فضل يوم الجمعة وأنه خير الأيام وسيدها وقد جاءت فيه عدة خصائص جمعها ابن القيم ثم السيوطي رحمهما الله تعالى، منها ما ذكر هنا في الحديثين.

من مات يوم الجمعة وُقِيَ فتنةَ القبر

٩٤٤ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يومَ الجُمُعَةِ أوْ ليلةَ الجُمُعَةِ إلا وقَاهُ الله مِن فِتنَةِ القَبْرِ**».

[رواه أحمد رقم (٦٥٨٢، ٦٦٤٦، ٧٠٥٠، ٢٦٩/٢)، والترمذي في الجنائز (٩٥٨) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده عن أنس وجابر وغيرهما].

ش: فتنة القبر عظيمة وعظيمة لا ينجو منها إلا السعداء المفلحون، ومنهم من يموت يوم الجمعة أو ليلتها، جعلنا الله تعالى منهم.

فرضية الجمعة على كل مسلم

٩٤٥ ـ عن حفصة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**رَوَاحُ الجُمُعَةِ واجبٌ علَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ**».

[رواه النسائي (٧٣/٣)، والبيهقي (١٧٣/٣) بسند صحيح].

٩٤٦ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**الجُمُعَةُ حَقٌّ واجِبٌ علَى كُلِّ مُسْلِمٍ في جَماعةٍ إلاَّ أربعةً: عَبْداً مَمْلُوكاً، أو امرأةً، أو صَبِيّاً، أو مرِيضاً**».

[رواه أبو داود (١٠٦٧)، والحاكم (٢٨٨/١)، والدارقطني (٣/٢)، والبيهقي (٧٢/٣) وصححه على شرط الشيخين. قال الحافظ في «التلخيص»: صححه غير واحد].

ش: أجمع العلماء على وجوب الجمعة في الجملة وأنها فرض عين إلا من له عذر شرعي معترف به كما ذكر في الحديث الثاني.

وعيد من ترك الجمعة بلا عذر

٩٤٧ ـ عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أنهما سَمِعَا رسولَ الله ﷺ يقول وهو على أعوادِ مِنْبَرِهِ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أقْوامٌ عَنْ وَدْعِهِم الجُمُعَاتِ أو لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ علَى قُلُوبهم ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ**».

[رواه مسلم (١٥٢/٦)، ورواه أحمد (٢٣٩/١، ٢٥٤، ٣٣٥، و ٨٤/٢) عن ابن عباس وابن عمر].

٩٤٨ ـ وعن أبي الجَعْد الضَّمْرِي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «مَنْ تَرَكَ ثلاثَ جُمَعٍ تَهَاوُناً بِها طبَعَ اللَّهُ على قَلْبِهِ».

[رواه أحمد (٤٢٤/٣)، وأبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٤٤٩)، والنسائي (٥١٦/١) في «الكبرى»، وابن ماجه (١٢٢٥)، وابن الجارود (٢٨٨)، وابن حبان (٥٥٣، ٥٥٤)، والحاكم (٢٨٠/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

وله شاهدان عن جابر عند أحمد، والنسائي، وابن خزيمة، وابن ماجه وصححه البوصيري، وعن أبي قتادة عند أحمد وغيره بسند حسن.

ش: وفي الحديثين وعيد شديد وتهديد أكيد لمن يتخلف عن الجمعة بلا عذر، ومن الأعذار: التمريض، والخوف، ووجود المطر، أو الريح الشديدة.

من أعذار التخلف عن حضور الجمعة

٩٤٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «قَدْ اجْتَمَعَ فِي يَومِكُم هذا عِيدانِ، فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ عَنِ الجُمُعَةِ وإنَّا مُجَمِّعُونَ».

[رواه أبو داود (١٠٧٣)، وابن ماجه (١٣١١)، والحاكم (٢٨٨/١) بسند صحيح].

٩٥٠ ـ وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: صلى النبي ﷺ العِيدَ ثم رَخَّصَ في الجُمعة فقال: «مَن شَاءَ أنْ يُصَلِّي فلْيُصَلِّ».

[رواه أبو داود (١٠٧٠)، وابن ماجه (١٣١٠)، والحاكم (٢٨٨/١) وصححه وأقره الذهبي].

ش: في الحديثين رخصة في التخلف عن صلاة الجمعة إذا اجتمع العيد مع الجمعة وليس معناه أن صلاة ظهر يوم الجمعة تسقط فلا تصلى كما فهمه بعضهم.

كفارة من تخلف عن الجمعة

٩٥١ ـ عن سمرة عنه ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ مُتَعَمِّداً فلْيَتَصَدَّق بِدِينَارٍ فإنْ لَمْ يجدْ فنِصْفُ دِينارٍ».

[رواه أحمد (٨/٥، ١٤)، وأبو داود (١٠٥٣، ١٠٥٤)، والنسائي (٧٤/٣)، وابن ماجه (١١٢٨) وسنده حسن عند بعضهم، وصححه ابن حبان (٥٨٢)، والحاكم (٢٨٠/١)، والذهبي].

ش: فيه أن من تخلَّف عن الجمعة بلا عذر، عليه أن يكفر بدينار أو نصفه أو ما يعادل ذلك.

الجمعة في القرى

٩٥٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن أول جُمُعَةٍ جُمِّعَتْ بعدَ جُمُعَةٍ فِي مسجدِ رسول الله ﷺ، في مسجدِ عَبْدِالقَيْسِ بجُوَاثَى مِن البحرين.

[رواه البخاري (٣٠/٣، ٣١)، وأبو داود (١٠٦٨) كلاهما في الجمعة. ورواه البخاري في المغازي].

ش: أول جمعة صليت بعد الهجرة في مسجده ﷺ، ثم مسجد جواثى بالبحرين. وهو يدل على مشروعية إقامة الجمع في القرى فضلاً عن الأمصار.

العدد التي تقام به الجمعة

٩٥٣ ـ عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب أنه كان إذا سمع النداء يومَ الجمعة تَرَحَّم لأسعد بن زُرَارَة فقلت له: إذا سمعتَ النداء تَرحَّمْتَ لأسعدَ بن زُرَارة قال: لأنَّه أوَّلُ مَنْ جَمَّعَ بنا في هَزْمِ النَّبِيتِ من حَرَّةَ بَنِي بَيَاضَةَ في نَقِيع يقال له نَقِيع الخَضِمَاتِ، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعونَ.

[رواه أبو داود (١٠٦٩)، والحاكم (٢٨١/١)، والبيهقي (١٧٦/٣) وسنده حسن].

ش: استدل بهذا الحديث مَن قال بأن العدد الذي تَنْعَقِدُ به الجمعةُ

أربعون رجلاً. وقد اختلف الأئمة في ذلك، والحق أنه لا نص في الموضوع، فتصحُّ بما تصدق عليه الجماعة مع الخطيب وكفى.

وقوله: «**الخضمات**»: جمع خضمة وهو موضع كان بالمدينة. والخضيمة: النبت الأخضر.

متى يجب الرواح إليها وعلى من يجب

تقدم حديث الأعمى: «**أتسمع النداء؟**» قال: نعم، قال: «**فأجب**».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فرتّب الأمر بالسعي إليها بعد النداء، ولا يكون ذلك إلا ممن سمعه.

تأكد الغسل للجمعة مع استعمال الطيب ولبس صالح الثياب وجواز الاقتصار على الوضوء

٩٥٤ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الغُسْلُ يومَ الجُمُعَةِ واجبٌ على كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وأنْ يَسْتَنَّ، وأن يَمَسَّ طِيباً إنْ وَجَدَ، ويَلْبَسَ مِن صَالِحِ ثِيَابِهِ**».

[رواه أحمد (٦/٣، ٣٠)، والبخاري (١١/٣)، ومسلم (١٣٣/٦) وغيرهم].

وفي الباب عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

٩٥٥ ـ وعن سمرة عنه ﷺ قال: «**مَنْ تَوَضَّأ يوم الجمعة فبِهَا ونِعْمَتْ، ومَن اغْتَسَل فالغُسْلُ أفضلُ**».

[رواه أحمد (١١/٥، ١٥)، وأبو داود (٣٥٤)، والترمذي (٤٤٦)، والنسائي (٧٧/٣)، وابن الجارود (٢٨٥) وغيرهم، وحسنه النووي في «شرح المهذب» (٤٠١/٤)].

والحديث حسن صحيح لشواهده، وأصحها حديث أبي هريرة الآتي قريباً.

٩٥٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان الناس مُهَّانَ أنفُسِهِم فَيَرُوحُونَ إلَى الجُمُعَةِ بِهَيْئَتِهِم، فقِيل لهُم: «**لَوِ اغْتَسَلْتُمْ**».

[رواه البخاري (٣٨/٣)، ومسلم (١٣٢/٦)، وأبو داود (٣٥٢) وغيرهم].

٩٥٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أناساً من أهل العراق جاءوا فقالوا: يا ابن عباس! أترى الغسل يوم الجمعة واجباً؟ قال: لا، ولكنه أطْهَرُ، وخيرٌ لمن اغتَسلَ، ومَن لم يغتسلْ فليس عليه بِواجبٍ، وسأُخْبِرُكُم كيف بدء الغسل؟.

كان الناسُ مَجْهُودِينَ يَلبَسُونَ الصوفَ ويَعمَلُون على ظهُورهم، وكان مسجدُهم ضَيّقاً مُقاربَ السَّقْفِ، إنما هو عَرِيشٌ، فخرج رسولُ الله ﷺ في يوم حارٍّ وعَرِقَ الناسُ في ذلك الصوفِ، حتى ثارَتْ منهم رياحٌ أذَى بذلِكَ بعضُهم بعضاً، فلما وَجَدَ رسولُ الله ﷺ تلك الريحَ قال: «**أيُّها النَّاسُ، إذَا كانَ هذا اليومُ فاغتسلوا، ولْيَمَسَّ أحدُكم أفضلَ ما يَجِدُ من دُهْنِهِ وطِيبِهِ**». قال ابن عباس: ثم جاء الله بالخير ولبسوا غير الصوف، وكُفوا العملَ ووُسِّعَ مسجدُهم، وذهبَ بعضُ الذي كان يُؤذِي بعضَهم بعضاً من العَرَقِ.

[رواه أبو داود (٣٥٣) بسند حسن، ونحوه عن عائشة في البخاري (٣٦/٣)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الاغتسال للجمعة وأنه ليس بواجب وأنه ينبغي للإنسان أن يلبس من أحسن ثيابه، وأن يتسوك ويتطيب بأطيب ما يجد.

فضل التبكير للجمعة والمشي إليها وآداب ذلك وتحريم تخطي الرقاب

٩٥٨ ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا كانَ يومُ الجُمُعَةِ كانَ على كلِّ بابٍ من أبوابِ المَساجِدِ مَلائكةٌ يكتبونَ النَّاسَ على منازِلِهم الأوَّلَ فالأوَّلَ، فإذَا خرجَ الإمامُ طُوِيَتْ الصُّحُفُ واسْتَمَعُوا الخُطبةَ، والمُهَجِّرُ إلى الصَّلاة كالمُهْدِي بَدَنَةً، ثمَّ الَّذِي يليه كالمُهدِي بقَرةً،**

ثم الذي يليه كالمهدِي كَبْشاً، حتَّى ذكرَ الدَّجاجَةَ والبَيْضَةَ».

[رواه البخاري (٣/١٧، ١٨)، ومسلم (٦/١٤٥)، وأبو داود (٣٥٨)، والترمذي (٤٤٨)، والنسائي (٣/٧٩، ٨٠)، وابن ماجه (١٠٩٢)، وفي رواية عند النسائي (٣/٨٠)، وأحمد (٢/٢٧٢): «وكرجل قدم طائراً، أو عصفوراً» وسنده صحيح].

٩٥٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضَّأ فأحْسَنَ الوُضُوءَ ثمَّ أتَى الجُمعةَ فاسْتَمعَ وأنصَتَ». وفي رواية: «فصلَّى ما قُدِّرَ لهُ ثم أنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِن خُطبته ثم يصلي معه غُفِرَ له ما بينه وبينَ الجُمُعَةِ الأُخرى وفضل ثلاثةِ أيَّامٍ».

[رواه مسلم (٦/١٤٦، ١٤٧) ونحوه عن أبي سعيد عند أحمد (٣/٨١)، وأبي داود (٣٤٣)، والحاكم (١/٢٨٣) بسند صحيح. وفيه: «ولَيْسَ مِن أحْسَنَ ثِيَابِهِ فلم يَتَخطَّ رِقابَ النَّاسِ].

٩٦٠ ـ وعن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَغْتَسِلُ رجلٌ يومَ الجُمُعَةِ ويَتطهَّرُ ما استطاع من طُهرٍ، ويَدَّهِنُ مِن دُهْنِه أو يَمَسُّ مِن طِيبِ بيتِهِ، ثم يَخرُجُ فلا يُفرِّقُ بينَ اثنينِ ثُم يُصلِّي ما كُتِبَ له، ثُمَّ يُنصِت إذا تَكَلَّمَ الإمامُ إلا غُفِرَ لهُ ما بينَهُ وبينَ الجُمُعَةِ الأُخرى».

[رواه البخاري (٣/٢١، ٢٢)].

٩٦١ ـ وعن أوس بن أوس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَسَّلَ يومَ الجُمُعَةِ واغْتَسَل، ثمَّ بَكَّر وابْتَكَر، ومَشَى ولم يَرْكَب، ودَنَا من الإمامِ واسْتَمعَ وأنْصَتَ، ولم يَلْغُ، كانَ لهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوها من بيتِهِ إلى المسجِدِ عملُ سَنةٍ، أجْرُ صِيَامِها وقيامِها».

[رواه أحمد (٤/١٠)، وأبو داود (٣٤٥)، والترمذي (٤٤٥)، وابن ماجه (١٠٨٧) وسنده صحيح].

٩٦٢ ـ وعن عبدالله بن بُسْرٍ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال لرجلٍ وقد جاء يَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ يومَ الجمعة: «اجْلِسْ فقد آذَيْتَ وآنَيتَ».

[رواه أحمد (١٨٨/٤، ١٩٠)، وأبو داود (١١١٨)، والنسائي (٨٤/٣)، وابن حبان (٥٧٢)، والحاكم (٢٨٨/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وله شاهد عن جابر رواه ابن ماجه بسند صحيح].

ش: ففي هذه الأحاديث فضل التبكير للجمعة، وفضل من اجتمعت فيه الآداب المذكورة فيها، وتحريم تخطي رقاب الناس - أي المرور على رقابهم والتجاوز عليهم - لما في ذلك من إذايتهم.

مشروعية تحية المسجد والإمام يخطب

٩٦٣ - فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: «**أصَلَّيتَ يا فُلان؟**»، قال: لا، قال: «**قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَين**». وفي رواية: «**إذا جَاءَ أحَدُكم والإمامُ يَخطبُ فلْيُصَلِّ ركعتين يَتَجَوَّزُ فِيهِمَا**».

[رواه البخاري (٦٣/٣)، ومسلم (١٦٢/٦)، وباقي الجماعة، والرواية الثانية لمسلم وأبي داود (١١١٧)].

ش: فالحديث نص في مشروعية تحية المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب، ومع ذلك خالفه المالكية.

أشياء تمنع وقت الخطبة

٩٦٤ - عن قيس بن أبي حازم عن أبيه أن أباه جاء ورسول الله ﷺ يخطب فقعد في الشمس قال: فأومأ إليه، أو قال: فأمر به أن يتحول إلى الظل.

[رواه أحمد (٤٢٦/٣، ٤٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٨٢٢) من طرق عند أحمد بعضها سندها صحيح].

٩٦٥ - وعن معاذ بن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ نهى عن الحُبْوَةِ يومَ الجمعة والإمامُ يَخطبُ.

[رواه أبو داود (١١١٠)، والترمذي (٤٦٢)، وكذا أحمد (٤٣٩/٣)، وحسنه الترمذي وذلك لشواهده، منها عن ابن عَمْرو عند ابن ماجه (١١٣٤)].

٩٦٦ ـ وعن ابْنِ عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا نَعَسَ أحَدُكُم يومَ الجُمعةِ فلْيَتَحَوَّلْ مِن مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**».

[رواه أحمد رقم (٤٧٤١، ٤٨٧٥)، وأبو داود (١١١٩)، والترمذي (٤٧٤)، وابن حبان (٥٧١) وحسنه الترمذي وصححه].

٩٦٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قُلْتَ لِصاحِبِك والإمامُ يَخطبُ يومَ الجُمعةِ أنْصِتْ فقد لَغَوْتَ**».

[رواه أحمد (٥٣٢/٢)، وفي مواضع، والبخاري (٦٥/٣)، ومسلم (١٣٧/٦، ١٣٨)، وأبو داود (١١١٢)، والترمذي (٤٦٠)، والنسائي (٨٤/٣)، وابن ماجه (١١١٠) وغيرهم كلهم في الجمعة].

٩٦٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ مَسَّ الحَصَى فقَدْ لَغَا**».

[رواه مسلم (١٤٧/٦) وقد تقدم قريباً مطولاً].

٩٦٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَكَلَّم يومَ الجُمُعةِ والإمامُ يخطبُ فهو كمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفاراً، والَّذي يقولُ لهُ: انْصِتْ لَيسَ له جُمُعَةٌ**».

[رواه أحمد (٢٣٠/١) بسند حسن عند الذهبي وغيره، وقال الحافظ: لا بأس بإسناده].

ش: فهذه جملة من الأشياء تمنع حالة الخطبة: الجلوس في الشمس، والاحتباء، والنعاس، واللغو، وهو كل ما ينافي الإنصات والاستماع للخطبة ومنه مس الحصا والكلام. وظاهر حديث: «**والذي يقول له أنصت ليس له جمعة**». يدل على بطلان جمعته بالمرة وبه يقول ابن حزم. وقال الجمهور: لا ثواب له.

متى تُصَلَّى الجمعةُ

٩٧٠ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يُصلي الجمعة حين تَمِيل الشمس.

[رواه البخاري (٣٨/٣)، وأبو داود (١٠٨٤)، والترمذي (٤٥٢) ونحوه عن سلمة بن الأكوع رواه البخاري في غزوة الحديبية، ومسلم (١٤٨/٦)، وأبو داود (١٠٨٥) في الجمعة، وعن جابر عند مسلم (١٤٨/٦)].

٩٧١ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: ما كنا نَتَغَدَّى في عهدِ رسول الله ﷺ ولا نقيل إلا بعد الجُمعة.

[رواه البخاري (٨٠/٣)، ومسلم (١٤٨/٦)، وأبو داود (١٠٨٦)، والترمذي (٤٧٣) وباقي الجماعة].

ش: الحديث الأول يدل على أن الجمعة كسائر الصلوات يدخل وقتها بزوال الشمس، وبه قال كل العلماء وذهب أحمد إلى جواز إيقاعها قبل الزوال.

والحديث الثاني وما جاء في معناه يدل على المبادرة بها في أول الوقت.

الأذان يوم الجمعة

٩٧٢ ـ عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: كان النِّداءُ يومَ الجمعة أوَّلُه إذا جلَسَ الإمامُ على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمانُ وكَثُرَ الناسُ زاد النداء الثالث على الزَّوْرَاء.

[رواه البخاري (٤٤/٣)، وأبو داود (١٠٨٧، ١٠٨٨)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (٨١/٣، ٨٢)، وابن ماجه (١١٣٥) وغيرهم].

ش: قوله: «**النداء الثالث**»: يعني باعتبار الإقامة، وإنما هو ثاني الأذانين، زاده عثمان رضي الله تعالى عنه قبل الزوال ليرتاد الناس المسجد كما هو مبين في محله.

وقد غلط بعض متأخري المالكية في هذا فجعلوا للجمعة ثلاثة آذان واحداً تلو الآخر، وقد رد عليهم قديماً بعض أئمتهم وهو القاضي أبو بكر بن العربي في سورة الجمعة من أحكام القرآن.

٩٧٣ ـ وعن السائب أيضاً قال: كان يؤذن بين يدي رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر يومَ الجمعة على باب المسجد وأبي بكر وعمر...

[رواه أبو داود (١٠٨٨) بسند صحيح].

ش: وهذه الرواية تبين موضع المؤذن يوم الجمعة وأنه يكون بباب المسجد ولا مانع من إيقاعه داخل المسجد أو نحوه بعدما ظهر مكبر الصوت (الميكروفون).

خُطبة الجمعة وصفتها

٩٧٤ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وعَلا صَوْتُه، واشْتَدَّ غَضَبُه، حتى كأنَّه مُنْذِرُ جَيْشٍ يقولُ: «**صَبَّحَكُم ومَسَّاكُمْ**»، ويقول: «**بُعِثْتُ أنا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»، ويَقْرِنُ بينَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَابَةِ والوُسْطَى، ويقول: «**أمَّا بعد! فإنَّ خَيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأُمورِ محدثاتُها، وكلُ بِدْعَةٍ ضلالةٌ**»، ثم يقول: «**أنَا أولَى بكلِّ مُؤمنٍ مِن نفْسِهِ، مَن تركَ مالاً فلأهْلِهِ ومَنْ تَرَكَ دَيْناً أو ضَيَاعاً فإليَّ وعليَّ**».

وفي رواية: كان يخطب الناس يَحمَدُ الله ويُثْنِي عليه بما هو أهله ثم يقول: «**مَن يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ، وخيرُ الحديثِ كِتابُ الله**».

[رواه مسلم (٦/١٥٣، ١٥٤، ١٥٦)].

٩٧٥ ـ وعن جابر أيضاً قال: بينا النبي ﷺ قائم يوم الجمعة إذ قدمت عِيرٌ إلى المدينةِ فابْتَدَرَها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يَبْقَ معه

إلا اثنا عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ الآية.

[رواه البخاري (٧٤/٣، ٧٥، ٧٦)، ومسلم (١٥١/٦) وغيرهما].

٩٧٦ ـ وعن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خُطبتانِ يَجلِسُ بينهما يقرأ القرآن ويُذَكِّرُ الناسَ، فكانت صلاتُه قصراً، وخطبتُهُ قصراً.

[رواه مسلم (١٤٩/٦، ١٥٣)].

٩٧٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان يخطبُ يوم الجمعة ثم يجلس فيخطب، قال: مثل ما يفعلون اليوم.

[رواه البخاري (٥٣/٣)، ومسلم (١٤٩/٦)، وأبو داود (١٠٩٢)، والترمذي (٤٥٤) وباقي الجماعة].

٩٧٨ ـ وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله تعالى عنها قالت: ما أخذتُ (قَ والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤُها كلَّ جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

[رواه مسلم (١٦٠/٦، ١٦١، ١٦٢)].

ش: ففي هذه الأحاديث جمل من آداب خطبة الجمعة، فينبغي أن تُفتَتَح بحمد الله والثناء عليه وما جاء في ذلك وأن تُلْقى مع عُلُوّ صَوْتٍ وغَضَبٍ وأن يكون الخطيب قائماً ويُخلِّلُ خطبته بجلوس، وأن يقرأ سورة من القرآن أو نحو ذلك ويُذكِّرُ الحاضرين بما يناسبهم.

جواز الكلام للحاجة من الخطيب والحاضرين

٩٧٩ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاء سُلَيْكُ الغَطَفاني يومَ الجمعة ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ على المنبر فقعد سُلَيْك قبل أن يصلي فقال له النبي ﷺ: «أَرَكَعْتَ رَكْعَتَين؟»، قال: لا، قال: «قُمْ فَارْكَعْهُما».

[رواه مسلم (١٦٣/٦) وقد تقدم بسياق آخر أخرجاه].

٩٨٠ ـ وعن أبي رفاعة رضي الله تعالى عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يَخطبُ فقلت: يا رسول الله رجلٌ غريبٌ جاء يسألُ عن دينه لا يَدْرِي ما دينه؟ قال: فأقبل إليَّ فأُتِي بِكُرْسي فقعد عليه فجعل يُعلِّمُني ما علَّمه الله تعالى، ثم أتى خطبته فأتمَّ آخرها.

[رواه مسلم (٦/١٦٥)، والنسائي آخر الزينة (٨/١٩٥)، وأحمد (٥/٨٠)].

ش: ففي الحديثين مشروعية كلام الخطيب لمن حضر وسؤال الحاضرين الخطيب عما يهمهم.

نزول الخطيب لسجود تلاوة أو حاجة تطرأ

٩٨١ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقرأ: (صّ)، فلما مَرَّ بالسجدة نزل فسجد وسجد الناسُ معه.

[رواه أبو داود (١٤١٠)، والحاكم (١/٢٨٤، و ٢/٤٣٢)، والبيهقي (٢/٣١٨) وسنده صحيح].

٩٨٢ ـ وعن بُرَيْدَةَ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يَخطبُ فجاء الحسنُ والحسينُ عليهما قمِيصان يَمْشِيانِ ويَعْثُرَانِ فنزل ﷺ من المنبر فحَمَلَهُما فوضعهما بين يديه.

[رواه أحمد (٥/٣٥٤)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي ٣٥٤٦)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن حبان (٢٢٣٠) بأسانيد حسنة صحيحة].

ش: ففي الحديثين مشروعية النزول عن المنبر لسجود التلاوة أو لحمل طفل ونحو ذلك.

مشروعية قصر الخطبة وإطالة الصلاة

٩٨٣ ـ عن عمَّار بن ياسر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت

رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ طُولَ صلاةِ الرجل وقِصَرَ خطبتِه مَئِنَّةٌ من فِقهِهِ، فأطِيلوا الصَّلاةَ وأقْصُرُوا الخُطبة، وإنّ مِن البيانِ سِحْراً**».

[رواه مسلم (١٥٨/٦)].

ش: قوله: «**مئنة**» بفتح الميم ثم همزة مكسورة ثم نون مشددة: أي علامة. والإطالة والقصر هنا نسبيان فقد تلقى الخطبة في نصف ساعة مثلاً والصلاة في خمس دقائق ويكون ذلك موافقاً لمعنى الحديث الشريف والمقصود هو القصد في ذلك كما جاء في «صحيح مسلم» وغيره.

القراءة في صلاة الجمعة

٩٨٤ ـ عن ابن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى لنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الآخرة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة، فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة.

[رواه مسلم (١٦٦/٦)، وأبو داود (١١٢٤)، والترمذي (٤٦٧)، وابن ماجه (١١١٨)].

٩٨٥ ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأ بهما.

[رواه مسلم (١٦٧/٦)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٩٣/٣)].

وفي رواية له سئل: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة على إثر سورة الجمعة، فقال: كان يقرأ بـ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ رواه مسلم (١٦٧/٦)، وأبو داود (١١٢٣)، والنسائي (٩٢/٣)، وابن ماجه (١١١٩).

ش: في الحديثين مشروعية قراءة سورتي الجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة أو سبح والغاشية، أو الجمعة والغاشية.

بماذا تدرك الجمعة

٩٨٦ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الجُمُعَةِ أوْ غَيرِها فقدْ تَمَّتْ صلاته**».

[رواه النسائي في المواقيت (١/٢٢٠)، وابن ماجه (١١٢٣)، والدارقطني (١٣/٢)، والطبراني في الأوسط (٤٢٠٠)، والصغير (١/٢٠٤) من طرق وسنده حسن، وهو صحيح فإن له شاهداً عن أبي هريرة رواه ابن ماجه (١١٢١)، والدارقطني (١٠/٢، ١٣)، والحاكم (٢٩١/١)، والبيهقي (٢٠٣/٣) وغيرهم وفيه: «**فلْيَضِفْ إليها أخرى**» وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: الحديث يدل على أن من فاتته الخطبة وأدرك ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى وقد صحت جمعته، وبهذا قال أكثر العلماء والأئمة. فأما من فاتته الجمعة فمذهب الأئمة الأربعة وأتباعهم أنه يصليها أربعاً؛ ظهر يومها وقال ابن حزم: يصليها ركعتين.

الصلاة بعد الجمعة

٩٨٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا صَلَّى أحدُكُم الجُمُعَةَ فلْيَصَلِّ بعدَها أرْبَعاً**». وفي رواية: «**فإن عَجِلَ بكَ شيءٌ فصلِّ ركعتين فِي المسجدِ، وركعتين إذا رَجَعْتَ**».

[رواه أحمد (٤٩٩/٢)، ومسلم (١٦٨/٦، ١٦٩)، وأبو داود (١١٣١)، والترمذي (٤٧٠)، والنسائي (٩٣/٣)].

وفي حديث ابن عمر: حفظت من رسول الله ﷺ عشر ركعات، قال: وركعتين بعد الجمعة في بيته. رواه الشيخان.

ش: فهذه سنة الجمعة، وقلما تجد من يحافظ عليها من أهل وقتنا، ولا سيما عندنا بالمغرب.

للمسلمين عيدان: يوم الفطر ويوم النحر

٩٨٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ولهم يومان يَلْعَبُون فيهما في الجاهلية، فقال: «**إنَّ الله تَبارَكَ وتعالى قد أَبْدَلَكُم بِهما خَيراً مِنهُما يَوْمَ الفِطرِ ويومَ النَّحرِ**».

[رواه أحمد (٢٥٠/٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٤٦/٣)، والحاكم (٢٩٤/١)، والبيهقي (٢٧٧/٣) بسند صحيح].

ش: فيه مخالفة أهل الجاهلية في أعيادهم، وأن للمسلمين بدلاً عنها: عيد الفطر والنحر.

* * *

الخروج لصلاة العيدين وآداب ذلك

تحسين الهيئة

٩٨٩ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: وجد عمر حُلَّة من اسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ في السوق فأخذها فأتَى بها رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابْتَعْ هذه فتَجَمَّلْ بِهَا للعِيدِ والوَفْدِ، فقال: «**إنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لا خَلاَقَ لَهُ**».

[رواه البخاري (٩١/٣) في العيدين، ومسلم في اللباس (٣٧/١، ٣٨)].

ش: ووجه الاستدلال بالحديث إقرار النبي ﷺ عمر على أصل التجمل للعيد وإنما أنكر عليه لباس هذه الحلة الحريرية المحرمة.

٩٩٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يَلبَسُ يومَ العيد بُرْدَةً حَمْراءَ.

[رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٠٥)، قال الهيثمي (١٩٨/١): ورجاله ثقات].

الخروج قبل الإفطار أو بعده

٩٩١ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يَغْدُو يَومَ الفِطر حتى يَأكُلَ تَمَرَاتٍ.

[رواه البخاري في العيدين (٩٨/٣)].

٩٩٢ ـ وعن بُرَيْدَة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يَخْرُجُ يوم الفطر حتى يَطْعَمَ، ولا يطعَمُ يوم الأضحى حتى يُصَلِّي. وفي رواية: وكان إذا كان يوم النحر لم يَطعم حتى يَرْجعَ، فيأكلَ مِن ذَبِيحَتِهِ.

[رواه أحمد (٣٥٢/٥، ٣٦٠)، والترمذي (٤٨٧)، وابن حبان (٥٩٣)، والحاكم (٢٩٤/١) وصححه ووافقه الذهبي].

مخالفة الطريق في الذهاب والإياب

٩٩٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا كان يومُ عيدٍ خالفَ الطريق.

[رواه البخاري في العيدين (١٢٥/٣)].

٩٩٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا خرج إلى العيدين رجَعَ في غَيرِ الطريق الذي خرجَ منه.

[رواه الترمذي (٤٨٦)، والدارمي (١٦٢١)، وابن حبان (٥٩٢)، والحاكم (٢٩٦/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

المشي على الأقدام

٩٩٥ ـ عن علي عليه السَّلام قال: من السنَّة أن يخرج إلى العيد ماشياً.

[رواه الترمذي (٤٧٧) وهو صحيح لشواهده عن ابن عمر وسعد القرظ وأبي رافع عند ابن ماجه أرقام (١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٧)، وعن سعد عند البزار (٦٥٣)].

التكبير والتهليل من المنزل حتى المصلى

٩٩٦ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَخْرُجُ في العيدين مع الفضل بن عباس وعبدالله والعباس وعلي وجعفر والحسن والحسين وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة وأيمن بن أم أيمن رضي الله تعالى عنهم رافعاً صوته بالتهليل والتكبير فيأخذ طريق الحذّائين حتى يأتي المصلى، وإذا فرغ رجع على الحذائين حتى يأتي منزله.

[رواه البيهقي في الكبرى (٢٧٩/٣) وسنده على شرط مسلم، غير أن عبدالله العمري في حفظه شيء، لكن له طريق آخر عن الزهري أن رسول الله ﷺ كان يخرج يوم الفطر فيكبر حتى يأتي المصلى وحتى يقضي الصلاة، فإذا قضى الصلاة قطع التكبير. رواه ابن أبي شيبة (٥٦٣١) وهو مرسل صحيح السند. كما صح موقوفاً على ابن عمر أنه كان إذا غدا يوم الفطر ويوم الأضحى يجهر بالتكبير حتى يأتي المصلى ثم يكبر حتى يأتي الإمام. رواه ابن أبي شيبة (٥٦١٩)، والدارقطني (٤٤/٢)، والبيهقي (٢٧٩/٣) وسنده صحيح].

إخراج النساء لصلاة العيد

٩٩٧ ـ عن أم عطية رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُخْرِجُ الأبْكَارَ والعَواتِقَ وذواتِ الخُدُورِ والحُيَّضَ في العِيدين، فأما الحُيَّضُ فيعتزِلْنَ المُصَلَّى ويَشهدْنَ دعوةَ المسلمين، قالت إحداهُنَّ: يا رسول الله إن لم يكن لها جِلْبابٌ، قال: **«فَلْتُعِرْها أُخْتُها من جِلْبَابِها»**.

[رواه البخاري (١١٦/٣)، ومسلم (٢٧٨/٦، ١٨٠)، والترمذي (٤٨٥) وباقي الجماعة. قال الترمذي: وروى عن ابن المبارك أنه قال: أكره اليوم الخروج للنساء في العيدين، فإن أبت المرأة إلا أن تخرج فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها ولا تتزين، فإن أبت أن تخرج كذلك فللزوج أن يمنعها عن الخروج].

صفة صلاة العيد وما يقرأ فيها

٩٩٨ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ في العيدين بغير أذان ولا إقامة.

[رواه البخاري (١٠٥/٣)، ومسلم (١٧٦/٦) ونحوه عن جابر بن سمرة رواه مسلم (١٧٦/٦)، وأبو داود (١١٤٨)، والترمذي (٤٧٩) وغيرهم].

٩٩٩ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كبَّر في عيد ثِنْتَيْ عَشْرَةَ تكبيرةً سبعاً في الأُولى، وخمْساً في الآخرة.

[رواه أبو داود (١١٥١، ١١٥٢)، وابن ماجه (١٢٧٨/٨)، والدارقطني (٤٨/٢) بسند حسن وهو صحيح لحديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يكبر في الفطر والأضحى في الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمساً. رواه أبو داود (١١٤٩)، وابن ماجه (١٢٨٠)، والحاكم (٢٩٨/١) وفي الباب غير ذلك].

١٠٠٠ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شيء يبدأ به الصلاة.

[رواه البخاري (١٠١/٣)، ومسلم (١٧٧/٦)].

١٠٠١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ يوم أضحى أو فطر، فصلى ركعتين لم يصلِّ قبلها ولا بعدها.

[رواه البخاري (١١٧/٣، ١٢٩)، ومسلم (١٨٠/٦، ١٨١)].

١٠٠٢ ـ وعن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أنه سئل ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الفطر والأضحى فقال: كان يقرأ بـ (قَ، والقرآن المجيد)، و (اقتربت الساعة) و (انشق القمر).

[رواه مسلم (١٨١/٦، ١٨٣)، وأبو داود (١١٥٤)، والترمذي (٤٨١)، وباقي أهل السنن].

خطبة العيدين بعد الصلاة

١٠٠٣ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يُصلُّونَ في العيدين قبل الخطبة ثم يَخْطُبُونَ.

[رواه البخاري (١٠٦/٣)، ومسلم (١٧٧/٦)، والترمذي (٤٧٨) وغيرهم. وفي الباب أحاديث].

١٠٠٤ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ كان يبدأ يوم الفطر ويوم الأضحى بالصلاة قبل الخطبة، ثم يخطب، فتكون خطبته الأمْرَ بالبَعْثِ والسَرِيَّةِ. وفي رواية: فإذا صلى صلاتَه وسلَّم قام فأقبل على الناس وهم جلوس في مُصلاَّهم فإن كان له حاجةٌ ببعث ذكرَهُ للناس، أو كانت له حاجة بغير ذلك أمَرَهُم بها، وكان يقول: «**تَصَدَّقُوا، تَصَدَّقُوا**».

[رواه أحمد (٥٦/٣)، والبخاري ومسلم وقد تقدم عزوه مختصراً].

تخصيص النساء بالموعظة

١٠٠٥ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أشهدُ على رسول الله ﷺ أنه صلى قبل الخطبة يوم العيد ثم خطب، فرأى أنه لم يُسْمِعْ النِّساءَ فأتاهُنَّ فذكَّرَهُنَّ ووعَظَهُنَّ وأمَرَهُنَّ بالصدقة ومعه بِلالٌ قائلٌ بثوبه هكذا فجعلتْ المرأة تُلْقِي الخُرْصَ والشَّيْءَ.

[رواه البخاري (١١٨/٣، ١٢٠)، ومسلم (١٨٠/٦، ١٨١) وغيرهما. وفي الباب عن جابر وابن مسعود وأبي سعيد وغيرهم في الصحيح وغيره. وتأتي بعضها في اللباس].

من فاتته صلاة العيد يومه

١٠٠٦ ـ عن أبي عُمَير بن أنس عن عمومة له من أصحاب النبي ﷺ أن رَكْباً جاءوا إلى رسول الله ﷺ يَشْهَدُون أنهم رأوا الهلال بالأمْسِ فأمرَهم أن يُفْطِرُوا وإذا أصْبَحُوا يَغْدُوا إلى مُصَلاَّهُم.

[رواه أبو داود (١١٥٧)، ومن طريقه ابن حزم في «المحلى» (٩٢/٥) وسنده صحيح].

الإذن في اللعب والغناء بالمباح يوم العيد

١٠٠٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بينا الحبشة يلعبون عند رسول الله ﷺ بِحِرَابِهم إذ دَخَلَ عُمرَ بن الخطاب فأهْوَى إلى الحَصْبَاء فحصَبَهم بها، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُم يا عُمَرُ**».

[رواه البخاري في المساجد، وفي الجهاد (٤٣٣/٦)، ومسلم في العيدين (١٨٧/٦)، وفي رواية لمسلم عن عائشة قالت: جاء حبش يَزْفِنُون في يوم عيدٍ في المسجد فدعاني النبي ﷺ فوضعتُ رأسي على منكِبِه فجعلتُ أنظر إلى لعبهم... وللبخاري معناه (٩٥/٣، ٩٦)].

ش: قوله. «**يزفنون**»: أي يرقصون.

١٠٠٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل أبو بكر وعِندِي جارِيَتَانِ مِن جَوَارِي الأنصار تُغَنِّيَانِ بما تَقَاوَلَتْ الأنصار يوم بُعَاثٍ، ولَيْستَا بمُغَنِّيَتَيْنِ، فقال أبو بكر: أبِمِزْمَارِ الشَّيطانِ في بيتِ رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر، إن لكلِّ قوم عيداً وهذا عِيدُنَا**». وفي رواية: فاضطجع رسول الله ﷺ على الفراش وَحول وجهه فدخل أبو بكر... إلخ.

[رواه أحمد (١٣٤/٦)، والبخاري (٩٣/٣، ٩٤)، ومسلم (١٨٥/٦) وغيرهم].

ش: ففي الحديثين مشروعية اللعب بالمباح يوم العيد ولو داخل المسجد، وجواز التغني بما لا يؤدي إلى الفتنة، وأنه لا حرج في سماع الأغاني من الجواري الصغار إذا أُمِنَتِ الفتنةُ.

الإكثار من الأعمال الصالحة أيام العشر من ذي الحجة

١٠٠٩ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِن أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ فيهِنَّ أحَبُّ إلى الله تعالى مِن هذِهِ الأيامِ العشْرِ**». فقالوا: يا رسول الله ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال:

«ولا الجهادُ فِي سبيلِ الله إلاَّ رجلٌ خرجَ بِنفسِهِ ومالِهِ فلم يَرْجَعْ مِن ذلِك بِشيءٍ».

[رواه أحمد (٢٢٤/١)، والبخاري (١١١/٣)، وأبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٦٦٩)، وابن ماجه (١٢٧) وغيرهم].

ش: فينبغي للمسلم أن ينتهز الفرصة بالإكثار من القربات وأعمال الخير في هذه الأيام، لا سيما وفيها يوم عرفة الذي هو أفضل أيام السنة وأشرفها.

الكسوف والخسوف والآيات

١٠١٠ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: انكسفت الشمس يوم مات إبراهيمُ بنُ رسول الله ﷺ فقال الناس: انكسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال النبي ﷺ: **«إنَّ الشَّمسَ والقَمرَ آيتانِ مِن آياتِ الله لا يَنْكَسِفَانِ لِموتِ أحدٍ ولا لِحياتِه فإذا رأيتُم شيئاً مِن ذلِكَ فصَلُّوا حتى تَنْجَلِيَ»**.

[رواه مسلم (٦/٢٠٦، ٢٠٨)].

وفي رواية لأبي موسى. . . : **«ولكن يُخَوِّفُ الله بهما عبادَه فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافْزَعُوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره»**.

[رواه البخاري (٣/٢٠٠)].

وفي رواية لأبي بكرة وغيره: **«وإذا كان ذلك فادْعُوا وصلُّوا حتى يَنْكَشِفَ ما بِكُم»**.

[رواه البخاري أيضاً (٣/٢٠١)].

ش: **«الخسوف والكسوف»**: تغَيُّرٌ يطرأ على الشمس أو القمر.

١٠١١ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: لما كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ نُودِي: **«أن الصَّلاةُ جامعةٌ»** فركع النبي ﷺ ركعتين في سجدة، ثم قام فركع ركعتين في سجدة ثم جلس، ثم جلي عن الشمس.

[رواه البخاري (٣/١٩٢)].

١٠١٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خَسَفَت الشمسُ على عهد رسول الله ﷺ، فصلّى رسولُ الله ﷺ فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم رفع فسجد، ثم فعل في الركعة الأخرى مثل ما فعل في الأولى، ثم انصرف وقد تَجَلَّتْ الشمسُ فخطب الناس فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنَّ الشمسَ والقَمَر آيتانِ من آياتِ الله لا يَنْخَسِفَانِ لِموْتِ أحدٍ ولا لِحياتِه، فإذا رأيتُمْ ذلِكَ فاذْكُرُوا الله وكَبّروا وصَلُّوا وتَصَدَّقُوا**»، ثم قال: «**يا أمَّةَ محمَّد! والله ما مِن أحد أغْيَرَ مِن الله أن يَزْنِي عبدُه أو تَزْنِيَ أمَتُه، يا أمَّةَ محمَّدٍ! والله لو تَعْلَمُونَ ما أعْلَمُ لضحِكْتُم قليلاً ولبَكَيتُم كَثِيراً**».

[رواه البخاري (٣/١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩)، ومسلم (٦/٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣)].

وفي رواية عنها: جَهَر في صلاةِ الخُسوف بقراءتِه فصلى أربعَ ركعات وأربعَ سجداتٍ.

[رواه مسلم (٦/٢٠٤) وغيره].

١٠١٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه صلى في كسوف، قرأ ثم ركع، ثم قرأ ثم ركع، ثم قرأ ثم ركع، ثم قرأ ثم ركع، ثم سجد، قال: والأخرى مثلها. وفي رواية: صلى ثماني ركعات في أربع سجدات.

[رواه مسلم (٦/٢١٣، ٢١٤) بروايتيه].

ش: أصح ما جاء في صلاة الكسوف هو أربع ركعات في ركعتين. وجاء خمس ركعات وأربع ركعات في كل ركعة وكلها صحيحة، وانظر توجيه ذلك عند الحافظ في «الفتح» والنووي في «شرح مسلم» وغيرهما.

وأحاديث الباب تدل على الالتجاء إلى الله، والتضرع إليه، والصلاة، والذكر عند حدوث كسوف أو خسوف، وعلى الإمام أن يشعر الناس بأن ذلك تخويف من الله لهم ليراعوا عما هم فيه من المخالفات ويتوبوا إليه عزّ وجلّ.

١٠١٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: ماتت فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ فخرَّ ساجداً فقيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتُم آيَةً فاسْجُدُوا**»، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ.

[رواه أبو داود (١١٩٧)، والترمذي في المناقب باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٦٥٦) وسنده صحيح].

وفيه أن ذهاب الصالحين من الآيات التي يخوف الله تعالى بها عباده أيضاً، والله أعلم.

ما يقال ويفعل إذا هبَّت ريح أو ظهر غيم

١٠١٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مُسْتَجْمِعاً ضاحِكاً حتى أَرَى منه لَهَوَاتِه، وكان إذا رأى غَيْماً أو ريحاً عُرِفَ ذلك في وجْهِه، فقلتُ: يا رسولَ الله إنَّ النَّاسَ إذا رأوا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أن يكونَ فِيهِ المَطر، وإذا رأيتَه عُرِفَ في وجهِك الكراهيةُ؟ فقال: «**يا عائشة، مَا يُؤْمِنُنِي أن يكونَ فيه عذابٌ؟ قد عُذِّبَ قومٌ بالرِّيحِ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنا**».

[رواه البخاري في التفسير (١٠/١٩٩)، وفي الأدب، ومسلم في الاستسقاء (٦/١٩٦، ١٩٧)].

وفي رواية لها: كان النبي ﷺ إذا رأى مَخِيلَةً تَغَيَّر وجهُه وتلوَّن ودخل وخرج وأقبل وأدبر، فإذا أمْطرت السماء سُرِّيَ عنه.

[رواه مسلم (٦/١٩٦)].

وفي رواية: كان إذا رأى شيئاً في السماء من سحابٍ أو ريح استقبله من حيث كان، وإن كان في الصلاة تَعَوَّذَ بالله من شرِّه، وإذا أمطرت قال: «**اللَّهُمَّ صَيِّباً نَافِعاً**».

[رواه أبو داود (٥٠٩٩)، وابن ماجه (٣٨٨٩) وسنده صحيح].

ش: «المخيلة»: السحابة. «سُرِّي عنه» بضم السين وتشديد الراء المكسورة: أي كشف عنه ما خامره من الوجل.

١٠١٦ ـ وعنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عَصَفَتْ الريحُ قال: «اللَّهُمَّ إني أسألك خَيرَها وخيرَ ما فِيها، وخيرَ ما أُرْسِلَتْ بِهِ، وأعُوذُ بِكَ من شَرِّهَا وشَرِّ مَا فِيها، وشرِّ ما أُرْسِلت به».

[رواه مسلم في الاستسقاء (١٩٦/٦)].

ش: ففي هذه الأحاديث بيان ما ينبغي للمسلم عمله إذا هبت ريح عاصفة، أو رأى غيماً، وأنه يستشعر الخوف من نزول عذاب، ثم يسأل الله عزّ وجلّ خير تلك الريح... ويستعيذ بالله من شرّها.

صلاة الاستسقاء وما يتبع ذلك

١٠١٧ ـ عن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المُصَلَّى يَسْتَسْقِي فاستقبلَ القبلةَ وحوَّلَ رداءَه وصلَّى ركعتين.

[رواه البخاري (١٥٢/٣، ١٥٣)، ومسلم (١٨٧/٦، ١٨٩) كلاهما في الاستسقاء].

وفي رواية: ثم صلى ركعتين يَجهَرُ فيهما بالقراءة.

[رواه البخاري (١٦٧/٣)].

١٠١٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً يستسقي فصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة، ثم خطبنا ودعا الله وحوَّل وجهه نحو القبلة رافعاً يديه، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن.

[رواه ابن ماجه (١٢٦٨) بسند صحيح].

١٠١٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال: خرج مُتَبذِّلاً مُتَوَاضِعاً مُتَضَرِّعاً، حتى أتى المصلى فلم

يخطب خطبَتَكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيدين.

[رواه أبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٠١)، وابن ماجه (٢٦٦)، وابن حبان (٦٠٣)، والحاكم (٣٢٦/١، ٣٢٧) وحسنه الترمذي وصححه].

ش: قوله: «**متبذلاً**»: أي لابساً لبسة البذلة المتواضعة. «**مترسلاً**»: أي ماشياً من غير عجل.

١٠٢٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: شكى الناسُ إلى رسول الله ﷺ قُحُوطَ المَطَر فأمر بمنبر فوُضِع له في المصلى، ووعَدَ الناس يوماً يَخرجُون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بَدَا حاجبُ الشمس فقعد على المنبر فكبَّر ﷺ وحمد الله عزّ وجلّ ثم قال: «**إنَّكم شَكَوْتُم جَدْبَ دِيارِكم واسْتِئْخَارَ المَطر عن إبَّانِ زمانه عنكُم، وقد أمرَكُم الله عزّ وجلّ أن تَدْعُوهُ، ووعَدَكُم أن يَسْتَجِيبَ لكُم**»، ثم قال: «**الحَمْدُ لله ربِّ العالمِين، الرَّحمنِ الرَّحيم، مالِكِ يوم الدِّين، لا إلَه إلا اللَّهُ يَفعلُ ما يُريد، اللَّهُمَّ أنْتَ الله لا إلَه إلاَّ أنتَ، أنتَ الغَنيُّ ونحنُ الفقراءُ، أَنْزِلْ عَلينا الغيثَ، واجْعَل ما أنزَلْتَ لنا قوةً وبلاغاً إلى حِينٍ**»، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بَدا بياضُ إبطيه، ثم حوَّل إلى الناس ظهرَه وقلبَ أو حوَّل رداءه وهو رافع يديه ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابَةً فرَعَدَتْ وأبْرَقَتْ ثم أمْطَرَتْ بإذن الله، فلم يأتِ مسجدَه حتى سالت السُّيُولُ، فلما رأى سُرْعَتَهم إلى الكِنِّ ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال: «**أشهَدُ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وأنِّي عبدُ الله ورسولُه**».

[رواه أبو داود (١١٧٣)، وابن حبان (٦٠٤)، والحاكم (٣٧٨/١) وسنده حسن، وجوَّده أبو داود وصححه النووي في شرح المهذب].

١٠٢١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يَرفعُ يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وأنه يرفع حتى يُرَى بياضُ إبطيه.

[رواه البخاري (١٧١/٣)، ومسلم (١٨٩/٦) وغيرهما].

١٠٢٢ ـ وعنه أن النبي ﷺ استسقى وأشار بظهر كفَّيه إلى السماء.

[رواه مسلم (٦/١٩٠)، وأبو داود (١١٧١) وغيرهما].

١٠٢٣ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أتَتْ النبيَّ ﷺ بَواكِي فقال: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً، مَرِيئاً، نافعاً غيرَ ضارٍّ، عاجِلاً غيرَ آجِلٍ**». قال: فأطبقت عليهم السماء.

[رواه أبو داود (١١٦٩)، والحاكم (١/٣٢٧)، والبيهقي (٣/٣٥٥) بسند صحيح. ونحوه عن ابن عباس رواه ابن ماجه (١٢٧٠) بسند صحيح].

ش: قوله: «**غيثاً مغيثاً**»: أي المطر المنقذ من الشدة. «**والمريء**»: المحمود العاقبة. «**والمريع**» بضم الميم وفتحها: الذي يأتي بالخصب والزيادة.

١٠٢٤ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا استسقى قال: «**اللَّهُمَّ اسْقِ عِبادَكَ وبَهائِمَك، وانْشُرْ رَحْمتَك، وأحْيِ بلدَكَ المَيْتِ**».

[رواه أبو داود (١١٧٦)، والبيهقي (٣/٣٥٦) بسند حسن].

ش: في هذه الأحاديث الثمانية جملة من الأحكام تتعلق بالاستسقاء، وهي أن يخرج الناس إلى المصلى في تواضع وترسل، وأن يصلوا ركعتين يجهر فيهما الإمام بالقراءة بدون تقدم أذان ولا إقامة ثم يخطبهم بما يناسب ثم يتوجه للقبلة رافعاً يديه بالدعاء جاعلاً بطون كفيه إلى الأرض ثم يحول ملابسه كالحاضرين فيجعلون الأيمن أيسر والأيسر أيمن. وينبغي أن يدعو الإمام بما في أحاديث عائشة وجابر وابن عمرو.

الاستسقاء بالدعاء يوم الجمعة على المنبر

١٠٢٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً دخلَ المسجدَ يومَ جُمعةٍ، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبلَ رسولَ الله ﷺ قائماً ثم قال: يا رسولَ الله هلَكتِ الأموالُ وانقطعتْ السُّبُلُ، فادْعُ الله يُغِثْنَا، فرفعَ

رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنا، اللَّهُم أغِثْنا، اللَّهُمَّ أغِثْنا**». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزعَةٍ، وما بيننا وبين سِلْعٍ من بيتٍ ولا دارٍ، قال: فطلعتْ من ورائِه سحابةٌ مثل التُّرْس، فلما توسَّطت السماءَ انتشرتْ ثم أمطرتْ، فلا والله ما رأينا الشمس ستاً، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة يعني الثانية ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «**اللَّهُمَّ حوالَيْنا ولا عَلَينا، اللَّهُمَّ على الآكَامِ والظِّرَابِ، وبطونِ الأوْدِيَةِ ومنابِتِ الشَّجَرِ**»، قال: فأقْلعتْ، وخرجنا نمشي في الشمس.

[رواه البخاري (٣/١٥٩)، ومسلم (٦/١٩٣)].

ش: قوله: «**حوالينا**»: أي بنواحي مدينتنا. «**والآكام والظراب**»: هي الهضبات والجبال المنبسطة.

وفي الحديث مشروعية الاستسقاء بمجرد الدعاء بلا صلاة.

الاستسقاء بأهل الفضل

١٠٢٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ عُمَر كان إذا قُحِطُوا اسْتَسْقَى بالعبَّاس بنِ عبدِالمطلب فقال: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا نَتَوسَّلُ إليكَ بِنَبِيِّنا فَتَسْقِينا وإنَّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنا فاسْقِنَا، قال: فَيُسْقَوْنَ.

[رواه البخاري في الاستسقاء (٣/١٥٠)، وفي المناقب].

١٠٢٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى رسولِ الله ﷺ على المنبر يستسقي فما ينزل حتى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ وأذْكُرُ قول الشاعِر:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجْهِهِ ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

[ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٣/١٥٠)، ورواه أحمد وابن ماجه (١٢٧٢) متصلاً وسنده حسن. وأشار الحافظ في «الفتح» إلى انقطاعه].

ش: «**والشمال**» بكسر الشاء: الملجأُ والمُغِيث. «**والأرامل**»: النساء اللاتي مات لهن الأزواج أو طُلِّقْنَ ولَم يتزَوَّجْنَ.

وفي الحديثين مشروعية التوسل بأهل الفضل والالتجاء إليهم عند الشدائد ليسألوا الله عزّ وجلّ، أو يسأل بهم كما فعل سيدنا عمر بالعباس رضي الله تعالى عنهما.

التبرك بالمطر النازل

١٠٢٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أصابَنا ونحن مع رسول الله ﷺ مَطَرٌ قال: فحَسَرَ رسولُ الله ﷺ ثَوْبه حتى أصَابَهُ مِنَ المَطَرِ فقُلْنا: يا رسول الله! لِمَ صَنَعْتَ هذا؟ قال: «**لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تعالى**».

[رواه مسلم (٦/١٩٥)].

ش: وقوله: «**حديث عهد بربه**»: أي هو قريب العهد بخلق الله تعالى وهو رحمة فيتبرك به.

ما هي السَّنَةُ

١٠٢٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيسَتْ السَّنَةُ بأنْ لا تُمْطَرُوا، ولكنَّ السنةَ أن تُمْطَرُوا وتُمْطَرُوا ولا تُنْبِتُ الأرضُ شيئاً**».

[رواه مسلم في الفتن (١٨/٣٠)].

ش: السنة تقال للعام الذي يكون فيه الجفاف والقحط والجدب، وبين النبي ﷺ أن عدم إنبات الأرض هو من جملة ذلك ولو مع وجود المطر.

من أسباب تأخر المطر

١٠٣٠ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ ضمن

حديث يأتي: «**ولَمْ يَنقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إلا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وجَوْرِ السُّلْطَانِ عَليهم، ولم يَمْنَعُوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْر مِن السماءِ، ولوْلا البَهَائِمُ لم يُمْطَرُوا**».

[رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم (٥٤٠/٤) كلاهما في الفتن وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: ففي الحديث بيان سبب انحباس المطر عن أهل الأرض، وأن ذلك بسبب البخس في الكيل والميزان والغش والخيانة ومنع الزكاة والتفريط في أداء الحقوق.

صلاة السفر وما يتبع ذلك هي ركعتان

١٠٣١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: فُرِضَتْ الصلاةُ رَكْعَتَيْنِ فأُقِرَّتْ صلاةُ السَّفر وأُتِمَّتْ صلاةُ الحَضَرِ.

[رواه البخاري في قصر الصلاة (٢٢٤/٣)، ومسلم في أول كتاب صلاة المسافرين (١٩٤/٥، ١٩٥) وغيرهما].

١٠٣٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: فرض اللَّهُ الصلاة على لِسانِ نَبيِّكُم ﷺ في الحَضَرِ أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعةً.

[رواه أحمد رقم (٢١٢٤، ٢٢٦٣)، ومسلم (١٩٦/٥، ١٩٧)، وأبو داود (١٢٤٧) وغيرهم].

١٠٣٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: صحبت رسول الله ﷺ حتى قبضه الله فلم يزد على ركعتين ركعتين، ثم صحبت أبا بكر حتى قبضه الله تعالى فلم يزد على ركعتين ركعتين، ثم صحبت عمر فلم يزد على ركعتين ركعتين، ثم صحبت عثمان فلم يزد على ركعتين ركعتين. ثم قال: لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة.

[رواه البخاري (٢١٧/٣، ٢٣١، ٢٣٢)، ومسلم (١٩٧/٥، ١٩٨)، والترمذي

(٤٨٩)، وباقي الجماعة. وفي الباب عن جماعة من الصحابة حتى عدّ من المتواتر].

ش: بوجوب تقصير صلاة السفر قال أبو حنيفة والظاهرية ومالك في رواية، وعلَيْهِ مَشَى ابنُ أَبِي زَيْدٍ في «الرسالة». وقال الشافعي وأحمد بسنيته فقط. وقال البغوي في «شرح السنة»: فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب.. إلخ.

قصر الصلاة صدقة من الله علينا

١٠٣٤ ـ عن يعلى بن أُمَيَّة قال: قلتُ لِعُمر بن الخطاب: إنما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، فقد أمن الناس قال عمر: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ فقال: «**صَدقةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِها عليكُم فاقبَلُوا صَدَقَتَهُ**».

[رواه مسلم (١٩٦/٥)، وأبو داود (١١٩٩)، والترمذي في صلاة السفر وفي التفسير (٢٨٣٨)، وباقي أهل السنن].

ش: فيه أن تقصير الصلاة هو صدقة من الله علينا، فمن أعرض عن التقصير وأتم في السفر فقد رد صدقة الله وأبى أن يقبلها. وفي ذلك ما لا يخفى من سوء الأدب مع الله تعالى.

ما هي مسافة التقصير؟

١٠٣٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سُئِلَ عن قَصْرِ الصلاة فقال: كان رسول الله ﷺ إذا خَرَجَ مَسِيرةَ ثلاثةِ أمْيَالٍ أو ثلاثةِ فَراسِخَ صلّى ركعتين.

[رواه أحمد (١٢٩/٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠/٥)، وأبو داود (١٢٠١)].

١٠٣٦ ـ وعن جُبَيْر بن نُفَيْر رحمه الله تعالى قال: خرجت مع

شُرَحْبِيل بن السِّمْطِ إلى قرية على رأس سبعة عشر أو ثمانية عشر ميلاً فصلّى ركعتين فقلت له: فقال: رأيت عمر صلّى بذي الحليفة ركعتين، فقلت له: فقال: إنما أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

[رواه مسلم (٢٠١/٥)].

ش: لم يأت عن النبي ﷺ نص صريح من قوله يحدد المسافة التي تقصر فيه الصلاة، غير أنه سمى ثلاثة أيام ويوماً وليلة سفراً كما في الصحيحين، كما سماه بريداً كما في سنن أبي داود (٧٢٥) من حديث أبي هريرة. والسفر خلاف الحضر، فمن خرج عن بلدته ومزارعها وبساتينها فهو مسافر. والحديثان المذكوران في الباب يدلان على ذلك. وللأئمة رحمهم الله أقوال واجتهادات في الباب تراجع في مظانها.

من نزل بموضع ولم يجمع إقامة له أن يقصر

١٠٣٧ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سافر رسول الله ﷺ فأقام تِسعةَ عَشَرَ يوماً ـ يعني في فتح مكة ـ يُصَلِّي ركعتين.

قال ابن عباس: فنحن نصلي ما بيننا وبين مكة تسعة عشر ركعتين ركعتين فإذا أقمنا أكثر من ذلك صلينا أربعاً.

[رواه البخاري أوائل التقصير (٢١٥/٣، ٢١٦)، وأبو داود (١٢٣٠)، والترمذي (٤٩٤) وغيرهم].

١٠٣٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ مكث بتبوك عشرين يوماً يقصر.

[رواه أحمد (٢٩٥/٣)، وأبو داود (١٢٣٥)، وابن حبان (٥٤٦)، والبيهقي (١٥٢/٣) بسند صحيح. وصححه ابن حزم والنووي وغيرهما].

ش: والحديثان يدلان على مشروعية القصر ولو مع إقامة ونزول في

مكان، إذا لم تُجْمع إقامة وسكنى، وقد حكى الترمذي على ذلك الإجماع. أما قول ابن عباس هنا فهو اجتهاد منه رضي الله تعالى عنه، وحديث جابر يخالف ما قال لأن النبي ﷺ لم يقل لنا: من زاد على تسعة عشر أتم.

الجمع في السفر

١٠٣٩ ـ عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في سَفْرَةٍ سافَرْنَاهَا وذلك في غَزْوَةِ تَبُوك فجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قيل له: ما حمله على ذلك؟ قال: أراد أن لا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ.

[رواه مسلم في صلاة المسافرين (٥/٢١٦)].

وفي رواية: فأخَّر الصلاة يوماً ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً.

[رواه مسلم أيضاً، وأبو داود (١٢٠٦)، والنسائي في المواقيت (١/٢٢٩) واللفظ لهما وعن ابن عباس مثله رواه مسلم (٥/٢١٦)].

١٠٤٠ ـ وعنه أيضاً، أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس عجل العصر إلى الظهر وصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب.

[رواه أبو داود (١٢٢٠)، والترمذي (٤٩٧)، والدارقطني (١/٣٩٢)، والبيهقي (٣/١٦٣) وسنده صحيح ونحوه عن ابن عباس رواه أحمد (١/٣٦٧، ٣٦٨)، والبيهقي (٣/١٦٣، ١٦٤) وهو صحيح لطرقه].

١٠٤١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يَجْمَعُ بين صلاة الظهر والعصر إذا كان على ظَهْرِ سَيْر، ويَجْمعُ بين المغرب والعشاء.

[رواه البخاري (٣/٢٣٤)].

١٠٤٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا أعْجَلَهُ السَّيْرُ في السفر يُؤَخِّرُ صلاة المغرب حتى يَجمعَ بينها وبين العشاء.

[رواه البخاري (٢٣٥/٣)، ومسلم (٢١٢/٥، ٢١٣، ٢١٤)].

١٠٤٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا ارتحل قبل أن تَزِيغَ الشمس أخَّرَ الظهر إلى وقتِ العصرِ، ثم نزل فجمع بينهما، فإن زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب.

[رواه البخاري (٢٣٦/٣، ٢٣٧)، ومسلم (٢١٤/٥)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية الجمع بين الظهرين وبين العشاءين في السفر، وبذلك قال أكثر الأئمة وعامة العلماء سواء كان جمع تقديم أم تأخير ولو كان نازلاً، وسواء أعجله السير أم لا، كما دل على ذلك حديث معاذ المتأخر الذي كان في غزوة تبوك وهي آخر غزواته ﷺ. ثم إن الأفضل أداء كل صلاة في وقتها فالجمع رخصة.

* * *

من آداب السفر

توديع المسافر

١٠٤٤ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا أتى الرجل وهو يريد السفر قال: ادْنُ حَتَّى أُوَدِّعَكَ كما كان رسول الله ﷺ يُوَدِّعُنا فيقول: **«أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وأَمَانَتَكَ وخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ»**.

[رواه أحمد (٧/٢، ٢٥، ٣٨، ١٣٦)، وأبو داود (٢٦٠٠)، والترمذي (٣٢١٦، ٣٢١٧) في الدعاء، والحاكم (٤٤٢/١، و٩٧/٢) من طرق، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. وفي الباب أحاديث].

ش: فيه استحباب توديع المسافر، فإن الله إذا استودع شيئاً حفظه كما جاء به حديث.

وصاية المسافر والدعاء معه

١٠٤٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يريد سفراً فقال: يا رسول الله أوْصِني، قال: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله والتَّكْبِيرِ على كلِّ شرَفٍ، اللَّهم ازوِ لهُ الأرض، وهَوِّن عليه السَّفَر**».

[رواه أحمد (٢/٣٣١، ٣٣٢)، والترمذي (٣٢١٩)، وابن حبان (٢٣٢٨، ٢٣٧٩) وسنده صحيح].

١٠٤٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أريد سفراً فزَوِّدْنِي، فقال: «**زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى**»، قال: زِدْنِي، قال: «**وغَفَر ذَنْبَكَ**»، قال: زِدْنِي، قال: «**ويَسَّرَ لكَ الخيرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**».

[رواه الترمذي (٣٢١٨)، والحاكم (٢/٩٧) وحسنه الترمذي].

ش: قوله: «**ازو له الأرض**»: أي اجمعها له.

وفي الحديثين وصية المسافر بتقوى الله وذكره، والدعاء معه بالتقوى وتيسير أموره والاستغفار له.

اتخاذ الرفيق

١٠٤٧ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ يَعلَمُ النَّاسُ مِنَ الوَحدةِ ما أعلمُ ما سَار رَاكِبٌ وحدَه بليلٍ أبَداً**».

[رواه أحمد (٢/١٢٠)، والبخاري (٦/٤٧٨)، والترمذي (١٥٣٤) في الجهاد، وابن ماجه في الأدب (٣٧٦٨)].

ش: فالحديث يدل على ذمّ السفر على الانفراد، وخاصة بالليل وفي البوادي والمفاوز.

١٠٤٨ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكبُ شيطانٌ، والراكِبانِ شَيطَانَانِ، والثَّلاثةُ رَكْبٌ**».

[رواه أحمد (١٨٦/٢، ٢١٤)، وأبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٥٣٥)، والحاكم (٢٠٢/٢) وغيرهم، وسنده حسن صحيح].

ش: وفي الحديث تحريم سفر المسلم وحده أو مع شخص ثان لقوله: «**شيطان**.. **شيطانان**». ولا شك أن تشبيهه بالشيطان يدل على عصيانه، غير أن هذا لا يتناول الأسفار الحالية الجماعية في القطارات والسيارات والطائرات. والله أعلم.

أدعية المسافر

١٠٤٩ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بَعِيرِهِ خارجاً إلى سَفَرٍ كبَّر ثلاثاً ثم قال: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرِنِينَ وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُون، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومن العَمَلِ الصَّالِح ما تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفرنا هذا واطْوِ عنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَر وكَآبَةِ المَنظَرِ، وسُوء المُنْقَلَبِ في الأهْلِ والمَالِ**»، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «**آيِبُون تَائِبُون، عَابِدُون، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**».

[رواه أحمد (١٥٠/٢)، ومسلم آخر الحج (١١٠/٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩) ونحوه عن عبدالله بن سرجس رواه مسلم (١١١/٩)، والترمذي في الدعوات (٣٢١٣)].

١٠٥٠ ـ وفي رواية لمسلم (١١٢/٩) عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ إذا قَفَل من الجُيُوشِ أو السَّرايَا أو الحجِّ أو العُمرةِ إذا أوْفَى على ثَنِيَّةٍ أوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثلاثاً ثم قال: «**لا إلَهَ إلاَّ الله، وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لهُ المُلكُ وله الحَمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صدَقَ الله وَعْدَهُ، ونَصَرَ عَبدَهُ، وهزَم الأحزابَ وحدَهُ**».

ش: قوله: «وعثاء..» إلخ: أي مشقة السفر وتعبه. «وكآبة»: أي حزنه. «فدفد» بفتح الفاءين بينهما دال ساكنة: هو الهضبة والجبل الصغير.

ففي الحديثين مشروعية هذه الأدعية في السفر في الذهاب والإياب.

لا يطرق المسافر أهله ليلاً

١٠٥١ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال له: «إذا دخلتَ ليلاً فلا تَدْخلْ على أهلِكَ حتَّى تَسْتَحِدَّ المُغِيبَةُ وتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ».

وفي رواية: «إذَا دَخَلْتُم ليلاً فلا يَأْتِيَنَّ أحَدُكُم أهلَهُ طُرُوقاً».

[رواه البخاري (٢٥٤/١١، ٢٥٥، ٢٥٧)، ومسلم (٥٤/١٠) كلاهما في النكاح، والترمذي في الأدب (٢٥٢٧) وغيرهم].

ش: «الشعثة»: التي طال عهدها بالامتشاط. «المغيبة» بضم الميم: التي غاب عنها زوجها.

وفي الحديث أدب من آداب الرجوع من السفر والدخول على الأهل وأنه ينبغي أن يأتي نهاراً وأن يخبرهم بقدومه خوفاً من أن يجدهم على حالة لا يرضاها.

صلاة الخوف

١٠٥٢ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرِّقَاعِ وأُقِيمَتْ الصلاةُ فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكان للنبي ﷺ أربعٌ وللقوم ركعتان.

[رواه البخاري في غزوة ذات الرقاع (٤٣٢/٨)، ومسلم في صلاة الخوف (١٢٩/٦، ١٣٠)].

وفي رواية: ثم سلم ثم صلى بآخرين ركعتين ثم سلم.

[رواه النسائي (١٤٩/٣)، وابن خزيمة (١٣٥٣) ورجاله ثقات. وعنعنة الحسن لا

تضر هنا فقد جاء في رواية عن أبي بكرة نحوه وفيه: فصار للنبي ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان.

[رواه أحمد (٣٩/٥)، وأبو داود (١٢٤٨)، والنسائي (١٤٥/٣) ورجاله ثقات أيضاً، وأشعث بن سوار روى له مسلم متابعة فهو شاهد قوي فيصحح الحديث لذلك].

١٠٥٣ ـ وعن صالح بن خَوَّاتٍ رحمه الله تعالى عمَّن صلّى مع رسول الله ﷺ يومَ ذاتِ الرِّقَاعِ صلاة الخوف أن طائفة صفَّتْ صَلَّتْ معه وطائفة وِجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم ثبت قائماً وأتَمُّوا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وِجَاه العَدُوِّ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم.

[رواه البخاري في الغزوات (٤٢٦/٨)، ومسلم في صلاة الخوف (١٢٨/٦، ١٢٩)، وأبو داود (١٢٣٨) وغيرهم].

١٠٥٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ صلى بذي قُرَد وصفَّ الناس خلفَه صفين، صفاً خلفه وصفاً مُوازِي العدو، وصلى بالذين خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم يَقْضُوا.

[رواه أحمد رقم (٢٠٦٣، ٣٣٦٤)، والنسائي (١٣٧/٣)، والحاكم (٣٣٥/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. ونحوه عن حذيفة رواه أحمد (٣٨٥/٥، ٣٩٩)، وأبو داود (١٢٤٦)، والحاكم (٣٣٥/١) وسنده صحيح].

ش: إذا حصل للمسلمين خوف من عدو يشغلهم عن أداء الصلاة جماعة واحدة على حدة فلهم أن يصلوا صلاة الخوف كما فعلها النبي ﷺ وكما أشار إليها القرآن بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلخ، وقد صلاها النبي ﷺ مرات متعددة. قال ابن القصار: صلاها في عشرة مواضع. وقال الخطابي: صلاها في أيام مختلفة وأشكال متباينة.

قال الإمام أحمد: ثبت في صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز. ذكره ابن قدامة في «المغني» (٣٠٦/٢). وقال ابن العربي:

جاء فيها روايات كثيرة أصحها ستة مختلفة. نقله الحافظ في «الفتح».

وقال ابن حزم في «المحلى» (٣٣/٥): فأميرهم مخيَّر بين أربعة عشر وجهاً كلها صح عن رسول الله ﷺ. وقال ابن القيم في «الهدي»: أصولها ست صفات إلخ، وما ذكرناه هنا كاف. وهي ثلاث صفات: **الأولى**: أن يصلي الإمام بالطائفة الأولى ركعتين ويسلم إن كانوا في سفر، ثم تأتي الطائفة فيصلي بهم أيضاً ركعتين. **الصفة الثانية**: أن يصلي بالطائفة الأولى ركعة ويثبت قائماً، ثم يقضوا ركعتهم ويسلمون، ثم تأتي الطائفة الثانية فيصلي بهم ركعة ثم يجلس، ثم يقضوا ركعتهم، ثم يسلم ويسلمون. **الصفة الثالثة**: أن يصلي بكل طائفة ركعة ركعة ولم يزيدوا عليها.

ولا شك أن النبي ﷺ كان يصلي بهم هذه الصلاة حسب الخوف وهجوم العدو.. ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، يعني صلوا على أي حال كنتم راجلين أم راكبين.. فإذا أمنتم، أي حصل لكم أمن فاذكروا الله، أي صلوا كما علمكم الله إلخ.

* * *

كتاب الجنائز

الإكثار من ذكر الموت

١٠٥٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ** ـ يعني الموت ـ».

[رواه أحمد (٢٩٣/٢)، والترمذي والنسائي (٥/٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٣٢١/٤)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وأقره الذهبي].

ش: قوله: «**هاذم**» بالذال المعجمة أي: قاطع. وبالدال المهملة أي: دافع ومخرب.

وفي الحديث إرشاد إلى الإكثار من التفكر في الموت وسكراته وما يتبعه من فتنة القبر وعذابه والفناء والبِلى.

تحريم تمني الموت

١٠٥٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموت لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فإنْ كان لا بُدَّ مُتَمَنِّياً فليَقُلْ: اللَّهُمَّ أحْيِنِي ما كانتْ الحياةُ خيراً لي، وتَوفَّنِي ما كانت الوفاةُ خيراً لي**».

[رواه أحمد (٣/٢٤٧)، وفي مواضع، والبخاري في الطب والمرضى (١٢/٢٣٢)، وفي الدعوات (١٣/٤٠١)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧، ٨)، وأبو داود (٣١٠٨، ٣١٠٩)، والترمذي (٨٦٥)، والنسائي (٤/٣) وغيرهم].

ش: فيه النهي عن تمني الموت لطوارىء الحياة وبلاياها فإذا كان ولا بد فليسأل الله تعالى ما فيه خير له.

خير الناس من طال عمره وحسن عمله

١٠٥٧ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «**مَن طالَ عُمُرُه وحَسُنَ عَملُه**»، قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «**مَن طالَ عُمُرُه وساءَ عَمَلُهُ**».

[رواه أحمد (٥/٤٣، ٤٤)، والترمذي (٢١٥٠) وغيرهما، وحسنه الترمذي وصححه].

١٠٥٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**خِيارُكُم أطوَلُكم أعماراً، وأحسنُكُم أعمالاً**».

[رواه أحمد (٢/٤٠٣، ٢٣٥)، وابن حبان رقم (٢٩٨١) وسنده صحيح].

ش: فيهما فضل طول العمر مع حسن العمل.

من علامة سعادة المرء في الدنيا

١٠٥٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ خيراً اسْتَعْمَلَهُ**»، فقيل: كيف يَسْتَعْمِلُه يا رسول الله؟ قال: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قبلَ الموتِ**».

[رواه أحمد (١٠٦/٣، ١٢٠)، والترمذي (١٩٧٤)، وابن حبان (١٨٢١) وحسنه الترمذي وصححه].

ش: هذا من علامات حسن الخاتمة، وهو أن يوفق الله المرء للأعمال الصالحة آخر حياته ليموتَ عليها فإن «**المرء يُبْعَثُ على ما مات عليه**» كما في مسلم (١٧ ٢١٠) في الجنة، وأحمد (٣٣١/٣، ٣٦٦) من حديث جابر رضي الله تعالى عنه.

ما يُستحب أن يُقال عند المُحتَضَرِ

١٠٦٠ ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سَلَمة وقد شُقَّ بصرُه فأغْمَضَه، ثم قال: «**إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَه البَصَرُ**»، فضَجَّ ناسٌ من أهله، فقال: «**لا تَدْعُوا على أنفُسِكم إلاَّ بخيرٍ، فإنَّ الملائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ على ما تقُولونَ**».

[رواه مسلم في الجنائز (٢٢٢/٦، ٢٢٣) ونحوه عن شداد بن أوس رواه أحمد (٤ ١٢٥)، والحاكم (٣٥٢/١)، وصححه ووافقه الذهبي. ولفظه: «**إذا حَضَرْتُم مَوْتَاكُم فاغْمِضُوا البَصَرَ، فإنَّ البَصر يَتْبَعُ الروحَ، وقولوا خيراً فإنَّه يُؤَمِّنُ على ما قال أهلُ البيت**»].

ش: في الحديث إرشاد إلى إغماض بصر الميت وأن لا يقال عنده إلا خيرٌ.

تحسين الظن بالله عند الموت

١٠٦١ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل موته بثلاثة أيام: «**لا يَمُوتَنَّ أحدُكُم إلاَّ وهُو يُحسنُ الظَّنَّ بالله تعالى**».

[رواه مسلم في الجنة (٢٠٩/١٧)، وأحمد (٣١٥/٣)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٤٧)].

١٠٦٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ الله عزّ وجلّ: أنا عِند ظَنّ عَبْدِي بي وأنَا معَهُ إذا ذَكَرَني». وفي رواية: «وأنَا مَعَهُ إذا دَعَانِي».

[رواه البخاري في التوحيد (١٥٥/١٧)، ومسلم في الذكر (١١/١٧، ١٢) والرواية الثانية للأخير].

١٠٦٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تَجِدُكَ؟»، قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يَجْتَمِعَانِ في قَلْبِ عَبدٍ في مِثْلِ هذا الموطِنِ إلا أعطاهُ الله ما يَرجُو وأمَّنه ممَّا يَخافُ».

[رواه الترمذي (٨٧٥)، وابن ماجه (٤٢٦١) بسند حسن].

ش: في الحديثين مشروعية تحسين الظن بالله عند الموت بأن يغلب على ظنه أن الله عزّ وجلّ سيرحمه ويقابله بمغفرته، ويتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله ورحمته وعفوه. فمن فعل ذلك عامله الله تعالى بما يرجو، وإن جمع بين الخوف من ذنوبه والرجاء في عفو الله ورحمته، قابله الله كذلك بما نوى. وإن كان الأولى تغليب جانب الرجاء هنا لأنه لم يبق للخوف وقتئذ موجب ولا معنى، عاملنا الله بعفوه ورحمته آمين.

استحباب لبس الثياب الجدد عند الاحتضار

١٠٦٤ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه لما حَضَرهُ الموتُ دعا بثِيابٍ جُدُدٍ فلبِسَها ثم قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «المَيّتُ يُبْعَثُ في ثيابِهِ التي يَمُوتُ فيها».

[رواه أبو داود (٣١١٤)، وابن حبان (٢٥٧٥)، والحاكم (٣٤٠/١)، ومن طريقه البيهقي (٣٨٤/٣) وسنده صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: في الحديث الاستعداد للقاء الله والأحبة بلبس الثياب الجديدة.

الوصية عند الموت

١٠٦٥ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَا حَقُّ امرىءٍ مُسلم يَبِيتُ لَيلَتَينِ وله شيءٌ يُرِيدُ أن يُوصي فِيه إلا وَوَصِيَّتُهُ مكتوبةٌ عند رأسِهِ**».

[رواه أحمد (٢/٨٠)، والبخاري ٢٨٦)، ومسلم (١١/٧٤، ٧٥)، وأبو داود (٢٨٦٢)، والترمذي (١٩٥٠) كلهم في الوصايا، وسيأتي حديث سعد.. فأوصي بمالي، قال: «**الثلثُ والثلث كثير**»].

ش: اتفق العلماء على وجوب الوصية على من كان عليه حق للغير، واستحبابها في غير ذلك.

تلقين المحتضر الشهادة

١٠٦٦ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُم: لا إلَه إلاَّ اللَّهُ**».

[رواه أحمد (٣/٣)، ومسلم (٦/٢١٩)، وأبو داود (٣١١٧)، والترمذي (٨٧٠)، والنسائي (٤/٥)، وابن ماجه (١٤٤٥) كلهم في الجنائز].

١٠٦٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ حضر رجلاً من الأنصار في سياق الموت فقال له: «**يا خال قل: لا إلَه إلاَّ الله**».

[رواه أحمد (٢/١٥٢، ١٥٤، ٢٦٨) بسند صحيح].

ش: في الحديثين مشروعية تلقين المحتضر لا إلَه إلا الله بأن تذكر عنده أو يقال له قل... وأن لا يكثر عليه بل تقال له الآونة بعد الآونة ليموت عليها.

فضل الشهادة عند الموت

١٠٦٨ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وهُوَ يَعلمُ أنه لا إلَه إلاَّ اللَّهُ دخلَ الجنَّةَ».

[رواه مسلم في الإيمان (٢١٨/١)].

١٠٦٩ ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانَ آخرُ كلامِه لا إلَه إلاَّ الله وَجبتْ لهُ الجنَّةُ ولَوْ بَعْد حِينٍ».

[رواه أحمد (٢٤٧/٥)، وأبو داود (٣١١٦)، والحاكم (٣٥١/١) بسند صحيح، وذكره البخاري ضمن ترجمة].

١٠٧٠ ـ وعن طلحة بن عُبَيْدِالله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنِّي لأعْلَمُ كلِمَةً لا يَقُولُها أحدٌ عند حَضْرَةِ الموتِ إلاَّ وَجَدَ رُوحُه لها رُوحاً حين تَخْرُجُ من جسدِهِ وكانتْ لهُ نُوراً يوم القِيامةِ».

[رواه أحمد (٢٨/١، ٣٧) بسند صحيح].

وفي رواية: «إنِّي لأعْلَمُ كَلِمةً لا يقُولُها عبدٌ عند مَوتِه إلا فَرَّجَ الله كُرْبَتَه، وأشْرَقَ لَوْنَه».

[رواه الحاكم (٣٥٠/١، ٣٥١)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي].

ش: في هذه الأحاديث فضل عظيم لمن ختم حياته بلا إلَه إلا الله، وأنه سيجد لها روحاً وتكون له نوراً يوم القيامة، وسيفرج الله عنه كربته ويشرق له نوره، وأنه من أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

المؤمن يموت بعرق الجبين

١٠٧١ ـ عن بُرَيْدَة رضي الله تعالى عنه أنه كان بخراسان فعاد أخاً له وهو مريض فوجَدَه بالموت وإذا هو يَعْرِقُ جَبِينُه فقال: الله أكبر سمعتُ

رسول الله ﷺ يقول: «**مَوْتُ المؤمنِ بعَرَقِ الجَبِينِ**».

[رواه أحمد (٣٥٧/٥)، والترمذي (٨٧٤)، والنسائي (٦/٤)، والحاكم (٣٦١/١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: فَرَشْحُ جَبينِ المُحْتَضَرِ بالعَرَق علامة حُسْنِ خاتمِه إن شاء الله تعالى.

الموت راحة للمؤمن

١٠٧٢ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: «**مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**». فقالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «**العبدُ المؤمنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيا وأَذَاها إلَى رحمةِ الله تعالى، والمُسْتَراحُ مِنْهُ العبدُ الفاجِرُ يَستريحُ منه العبادُ والبِلادُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ**».

[رواه أحمد (٢٩٦/٥، ٣٠٢، ٣٠٤)، والبخاري في الرقاق (١٥١/١٤)، ومسلم في الجنائز (٢٠/٧، ٢١)].

١٠٧٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «**تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ**».

[رواه الحاكم (٣١٩/٤)، والطبراني، قال الهيثمي (٣٢٠/٢): رجاله ثقات].

ش: في الحديثين بشارة للمؤمن وأنه بموته تحصل له الراحة الكاملة من بلايا الدنيا ومصائبها وأذاها، وأنه تحفة له يتحفه الله به رغم أن الكل يخاف من الموت.

متى يحب أو يبغض الإنسان لقاء الله

١٠٧٤ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ الله أحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لقاءَ الله**

كَرِهَ الله لقاءَهُ». فقلت: يا نبي الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت، فقال: «ليسَ كذَلِكَ ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمةِ اللَّهِ ورِضوانِه وجنَّتِه أحبَّ لقاءَ الله فأحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، وأن الكافِر إذا بُشِّرَ بعذابِ الله وسَخَطِه كرِهَ لقاءَ الله وكَرِهَ الله لقاءَهُ».

[رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٤٤، ١٤٥، ١٤٧)، ومسلم في الذكر (١٧/٩) وغيرهما].

١٠٧٥ ـ ونحوه عن أبي هريرة وعائشة وفيه: «ولكِنْ إذا شَخَصَ البصَرُ وحَشْرجَ الصَّدرَ واقْشعرَّ الجِلدُ وتشَنَّجَتْ الأصَابع فمِند ذلكَ من أحَبَّ لِقَاءَ الله أحبَّ الله لقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ الله لقاءَهُ».

[رواه أحمد (٢/٣١٣)، ومسلم في الذكر (١٧/١٠، ١١) وفي الباب عن جماعة].

ش: قوله: «شخص البصر»: أي طمح وجَدَّد النظر إلى فوق. وقوله: «حشرج»: أي ترددت فيه النفس. وقوله: «واقشعر»: أي قام شعره. وقوله: «وتشنجت»: أي تقبضت.

وفي الحديثين بيان الوقت الذي يحب فيه الإنسان الموت أو يكرهه وذلك عند معاينة مقامه في الآخرة، وذلك يكون عند وصول الروح إلى الحلقوم وانقطاع وقت التوبة.

صفة قبض الروح وما يتبع ذلك

١٠٧٦ ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العَبدَ المُؤمِنَ إذَا كانَ فِي انقطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخرة نَزَلَ إليه ملائكةٌ من السَّماءِ بِيضُ الوُجوه كأنَّ وُجُوهَهُم الشَّمسُ، معَهُم كَفَنٌ من أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ مِن حَنُوطِ الجنَّةِ، حتَّى يَجْلِسُوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثم يَجيءُ ملكُ المَوْتِ عليه السَّلام حتى يَجلِسَ عند رأسِهِ فيقول: أيَّتُها النَّفسُ الطَّيِّبَةِ اخرُجِي إلى مَغفرةٍ مِنَ الله ورضوان قال: فتخرُجُ تَسِيلُ كما تَسِيلُ القَطْرَةُ مِن فِي السِّقاءِ فيأخذُها فإذا أخذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يأخذُوها

فيجعلُوها في ذلِكَ الكَفَنِ وفي ذلكَ الحَنُوطِ فذلك قولُه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ويخرجُ منها كأطْيَبِ نَفْحَةِ مِسكٍ وُجِدتْ على وَجْهِ الأرضِ قال: فيَصْعَدُونَ فلا يَمُرُّونَ بها على مَلأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاَّ قالوا: مَا هَذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولُون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأحْسنِ أسمَائِه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهُوا إلى السَّماءِ الدُّنيا فيَستَفتِحون فيُفتَحُ لهم فيُشيَّعُ مِن كل سماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السَّماءِ التي تَليها حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ السَّابعَةِ فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيِّين ثم يُقال: وأعِيدُوه إلى الأرض فإنِّي وَعدتُهُم أنِّي منها خلقتُهم وفيها أُعِيدُهم ومنها أُخرِجُهم تارةً أخرى، قال: فيُردُّ إلى الأرض»، وفي رواية: «حتَّى إذا خرجتْ رُوحُهُ صلَّى عليها كلُّ ملكٍ بين السَّماء والأرض وكلُّ ملكٍ في السَّماء وفُتحتْ لهُ أبوابُ السَّماءِ ليس مِن أهلِ بابٍ إلا وهم يدْعُونَ الله عزَّ وجلَّ أن يَعرج بِرُوحه مِن قِبلِهم».

قال: «وإنَّ العبدَ الكافِر إذا كانَ في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبال مِنَ الآخِرَةِ نزل إليه من السَّماءِ ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ سُودُ الوُجُوه معهم المُسُوحُ مِنَ النَّارِ فيجلِسُون منه مدَّ البصر ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلس عند رأسه فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ اخْرُجِي إلى سخطٍ مِن الله وغضبٍ، قال: فتفرَّقُ جسده فينتَزِعُها كما يُنتزع السَّفُّود من الصوف المَبْلول فيأخذُها فإذا أخذَها لم يدَعُوها في يَدِه طرفَةَ عينٍ حتَّى يجعَلُوها في تِلكَ المُسُوحِ ويخرُجُ منها كأنْتَنِ ريحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرضِ فيَصْعَدُونَ بها فلا يَمُرُّونَ بها على ملأٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبحِ أسمائِهِ الذي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا حتى يُنتهَى بها إلى السماء الدنيا فيُستَفتَحُ له ثم قرأ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السفلى، ثم يقال: أعِيدُوا عبْدِي إلى الأرضِ فإنِّي وعَدتهم أنِّي منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرى فتُطْرَحُ روحُه من السَّماء طَرْحاً حتى تقَعَ في جَسدِه ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

وفي رواية: «فتَقْطَعُ معَها العُرُوق والعَصَب فيلعنُه كلُّ ملكٍ بينَ السَّماء والأرضِ وكلُّ ملكٍ فِي السَّماءِ وتُغلقُ أبوابُ السماء ليسَ من أهلِ باب إلا وهُم يدعُونَ الله ألاَّ تُعرَجَ رُوحُه من قِبَلِهم».

[رواه أحمد (٤/٢٨٧)، والطيالسي (٧٤٣)، وأبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٤)، والحاكم (١ ٣٧، ٤٠) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي واللفظ لأحمد والزيادة له (٤ ٢٩٥، ٢٩٦) بسند حسن ويأتي بقيته في فتنة القبر].

١٠٧٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إذا خرجتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يُصْعِدَانِها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكَر المسك قال: ويقول أهل السماء: روحٌ طيبةٌ جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسدٍ كنتِ تعمُرِينه فيُنطلق به إلى ربه عزَّ وجلَّ ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه، قال حماد: وذكر مِن نَتْنِها وذكر لَعْناً ويقول أهل السماء روحٌ خبيثةٌ جاءت من قبل الأرض قال: فيُقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطَةً كانت على أنفه.

[رواه مسلم (١٧/٢٠٥) في الجنة، والريطة: ثوب رقيق كالملاءة].

وفي رواية: «إذا حُضِر المؤمن أتتْهُ ملائِكةُ الرحمة بجَريرة بيضاءَ فيقولون: اخرُجي راضيةً مَرْضِيَّةً عنكِ إلى رُوحٍ ورَيْحَانٍ وربٍّ غيرِ غَضْبَانَ فيخرُج كأطيبِ ريحِ المِسْكِ حتى إنه ليُنَاوِلُه بعضُهم بعضاً، حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ما أطيبَ هذا الريح التي جاءتْكُم من الأرض فيأتون به أرواحَ المؤمنين فلَهُمْ أشدُّ فَرَحاً به من أحدِكم بغائبه يقدُم عليه فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غمِّ الدنيا، فإذا قال: ما أتاكم؟ قالوا: ذُهِب به إلى أمه الهاوية. وإن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرُجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله، فيخرج كأنتن ريح جيفة، حتى يأتوا بها باب الأرض فيقولون: ما أنتَنَ هذهِ الريحَ؟ حتى يأتوا بها أرواح الكفارِ».

وفي رواية: «أيَّتها النَّفسُ الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي

حميدةً، وأبْشِري برُوح ورَيحان». «وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانَت في الجسد الخبيث اخرجي ذمِيمَةً وأبشِري بحِمَيمٍ وغَساقٍ وآخر من شَكْلِه أزواجٌ فيقال لها: لا مَرْحباً بالنَّفس الخبيثة».

[رواه بالرواية الأولى النسائي (٤/٧، ٨)، وابن حبان (٧٣٣)، والحاكم (١/٣٥٢) بسند صحيح، والرواية الثانية عند ابن ماجه (٤٢٦٢) بسند صحيح].

ش: فالحديثان قد جمعا واستوعبا مشهد الموت لكل من المؤمن والكافر وما يحصل لهما وما يقابلان ويبشران به. وفيهما ما يحمل على العبرة والتفكر في الموت والمآل عاملنا الله بفضله ورحمته وكرمه.

تغطية الميت بعد خروج روحه

١٠٧٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ حين توفي سُجِّيَ بثَوْبِ حِبَرَةٍ.

[رواه البخاري في اللباس (١٢/٣٩١)، ومسلم في الجنائز (٧/١٠)].

ش: «**سُجِّي**»: أي غطي. «**والحبرة**» بكسر الحاء وفتح الباء: ضرب من برود اليمن وثيابها.

لا بأس بتقبيل الميت

١٠٧٩ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قبَّل عثمان بن مظعون بعد موته.

[رواه الطيالسي (٧٤٥)، وأبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٨٧٩)، وابن ماجه (١٤٥٦)، وحسنه الترمذي وصححه].

١٠٨٠ ـ وعنها قالت: أقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه على فرسه من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلِّم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله تعالى عنها فتيمَّم النبي ﷺ وهو مُسَجّى بِبُرْدِ حِبَرةٍ فكشَفَ

عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبَّله ثم **بكى**، فقال: بأبي أنتَ وأُمّي يا نبي الله لا يَجمعُ الله عليك موتَتَيْن.

[رواه البخاري في أوائل الجنائز (٣/٣٥٧)].

البكاء على الميت منعاً وجوازاً

١٠٨١ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليسَ مِنَّا مَن لَطَم الخُدُودَ وشَقَّ الجُيُوب ودعى بدعْوى الجاهِلِيَّةِ**».

[رواه أحمد (١/٤٥٦)، والبخاري (٣/٤٠٦، ٤٠٧)، ومسلم في الإيمان (١/١٠٩)، والطيالسي (٧٤٧)، والترمذي (٨٨٨) وغيرهم].

ش: «**دعوى الجاهلية**» هنا قولهم عن الميت: يا جبلاه، يا ثبوراه... وما إلى ذلك من ألفاظ الندبة.

١٠٨٢ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا بَرِيءٌ ممَّن حَلَق، وسَلَقَ، وخَرَقَ**».

[رواه مسلم في الإيمان (١/١١٠، ١١١)، والنسائي (٤ ١٨) وغيرهما].

ش: قوله: «**حلق**»: أي شعر رأسه أو لحيته. «**وخرق**»: أي ثوبه ومزقه. «**وسلق**»: أي تكلم بما لا يتناسب مع الإيمان. كل ذلك يفعله تسخطاً وعدماً للرضا بالقضاء.

١٠٨٣ ـ وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**أربعٌ في أُمَّتِي من أمرِ الجاهليَّة لا يَتْرُكونَهُنَّ، الفخرُ في الأحْسَابِ، والطَّعنُ في الأنْسَابِ، والاستسقاءُ بالنُّجوم، والنِّياحَةُ**». وقال: «**النَّائِحَةُ إذا لم تَتُبْ قبْلَ مَوْتِها تقامُ يومَ القِيامَةِ وعليها سِرْبَالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَبٍ**».

[رواه مسلم في الجنائز (٦/٢٣٥، ٢٣٦)].

ش: «**السربال**» بكسر السين: القميص.

١٠٨٤ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن حفصة رضي الله

تعالى عنها بكت على عمر فقال: مهلاً يا بُنَيَّةُ ألم تَعْلَمِي أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الميتَ يُعَذَّبُ ببكاءِ أهلِه عليهِ»**. وفي رواية: **«الميتُ يعذَّبُ في قبرِهِ بِمَا نِيحَ عليه»**.

[رواه البخاري (٣ ٤٠١، ٤٠٣)، ومسلم (٦/٢٢٨، ٢٢٩)، وأهل السنن وغيرهم واللفظ لمسلم وفي الباب أحاديث كثيرة].

١٠٨٥ ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: أرسلتْ بنتُ النبي ﷺ إليه أن ابناً لي قُبِض فأْتِنا، فأرسل يُقْرِئُ السلام ويقول: إن لله ما أَخَذ ولَهُ ما أعْطى، وكلٌّ عِنده بأجلٍ مُسمًّى، فلْتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ، فأرسلتْ إليه تُقسمُ عليه ليأتينَّها، فقام ومعه سعدُ بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرُفِع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونَفْسُه تَتَقَعْقَعُ كأنها شَنٌّ ففاضتْ عيناه فقال سعدٌ: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: **«هذِه رَحمةٌ جعلَها الله في قلوبِ عِبادِهِ، وإنَّما يَرْحَمُ الله من عبادِهِ الرُّحَمَاءَ»**.

[رواه البخاري (٣ ٣٩٧، ٣٩٩)، ومسلم (٦/٢٢٤، ٢٢٥) كلاهما في الجنائز].

١٠٨٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه في قصة موت إبراهيم بن النبي ﷺ قال: فجاء رسول الله ﷺ فدُعِي بالصبي فضمَّه إليه قال أنس: فلقد رأيتُه بين يدي رسول الله ﷺ وهو يَكِيدُ بِنَفْسِه قال: فدَمَعَتْ عينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«تَدْمَعُ العينُ ويَحزَنُ القلبُ ولا نقول إلا ما يُرْضي ربَّنا عزَّ وجلَّ واللَّهِ إنَّا بِكَ يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُونَ»**.

[رواه البخاري (٣ ٤١٦، ٤١٧) في الجنائز، ومسلم في الفضائل (١٥/٧٤، ٧٥) وغيرهما].

ش: في جملة هذه الأحاديث تحريم النياحة، ورفع الصوت على طريق الجاهلية، وأن ذلك من أسباب عذاب النائحة ومن نيح عليه، وأن البكاء المجرد رحمة للميت مباح مرخص فيه، لأن ذلك من الرحمة التي جعلها الله في قلوب من شاء من خلقه.

الإخبار بموت الميت جوازاً ومنعاً

١٠٨٧ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**أخذَ الرايةَ زيدٌ فأُصِيبَ، ثم أخذَها جَعْفر فأُصِيبَ، ثم أخذها عبدُالله بن رَوَاحة فأُصِيبَ**»، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، «**ثم أخذها خالدُ بن الوليد من غيرِ إمرة ففُتِحَ لهُ**».

[رواه البخاري (٣/٣٥٩) في الجنائز، ورواه في المغازي وفي علامات النبوة].

١٠٨٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي اليوم الذي مات فيه.

[رواه ويأتي في صلاة الجنازة].

١٠٨٩ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: إذا مُتُّ فلا تُؤْذِنُوا بي أحداً، فإنِّي أخَافُ أن يكونَ نَعياً وإني سمعت رسول الله ﷺ يَنْهى عن النَّعْي.

[رواه أحمد (٥/٣٨٥)، والترمذي (٨٧٦)، وابن ماجه (١٤٧٦) بسند حسن].

ش: النعي هو الإخبار بموت الميت، فإن كان الإخبار به للأقارب وأهل العلم والصلاح فهذا سنة. وإن كان بقصد المفاخرة والمباهاة والإشهار بذلك على طريق أهل الجاهلية فهذا محرم بلا ريب.

وأحاديث الباب تدل للأمرين.

غسل الميت

١٠٩٠ ـ عن أمّ عطية رضي الله تعالى عنها قالت: دخَل علينا النبيُّ ﷺ ونحن نُغَسِّل ابنَتَه فقال: «**اغْسِلْنَها ثلاثاً، أو خَمْساً، أو سَبْعاً، أو أكثرَ مِن ذلك إن رأيتُنَّ ذلك، بماءٍ وسِدْرٍ، واجْعلْنَ في الآخِرة كَافُوراً أو شيئاً من كَافُور**»، وفي رواية: «**ابْدأْنَ بِمَيَامِنِها ومَواضِع الوُضُوءِ مِنها**». وفي أخرى: «**فضَفَرنا شَعَرَها ثلاثَةَ قُرونٍ، فألْقَيناها خَلفَها**». قالت: فلما فرغنا آذناه فألْقى إلينا حِقْوه فقال: «**أشْعِرْنَها إيَّاهُ**».

[رواه البخاري (٣/٣٧٠، ٣٧٦)، ومسلم (٢/٧، ٣، ٥)، والترمذي (٨٨٠) وباقي الجماعة].

ش: «**الحقو**» بكسر الحاء: الإزار. «**أشعرنها**»: أي اجعلنه شعاراً لها أي يكون مما يلي الجسم.

أولى الناس بغسل الميت أقاربه

١٠٩١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ في اليوم الذي بُدِئَ فيه فقلت: وارَأْساه، فقال: «**وَدِدْتُ أن ذلك كان وأنا حيٌّ فَهَيَّأْتُكِ ودَفَنْتُكِ**». وفي رواية: «**مَا ضَرَّكِ لو مُتِّ قَبْلِي فغَسَّلْتُكِ وكَفَّنْتُكِ ثم صَليتُ عليكِ ودفنتكِ**».

[رواه أحمد (٦/١٤٤) بالرواية الأولى بسند صحيح، ورواه ابن ماجه (١٤٦٥) بالثانية برجال ثقات، وابن إسحاق قد توبع والحديث أصله في المرضى من صحيح البخاري (١٢/٢٢٨، ٢٢٩) بسياق آخر].

وعنها أنها كانت تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسَّلَ رسول الله ﷺ إلا نساؤه.

[رواه أحمد (٦/٢٦٧)، وأبو داود (٣١٤١)، وابن الجارود (٢٥٧)، وابن حبان (٢١٥٦، ٢١٥٧)، والحاكم (٣/٥٩، ٦٠) بسند صحيح].

ش: حديث أم عطية هو أصل في وجوب غسل الميت ومشروعية كل ما فيه من إيتار الغسل، والبداءة بالميامن ومواضع الوضوء، واستعمال السدر أو ما يقوم مقامه ثم استعمال الكافور.

أما حديثا عائشة فيدلان على مشروعية تولي الأقارب غسل ميتهم.

شهيد المعركة لا يغسل

١٠٩٢ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم أحد أشرف

النبي ﷺ على الشهداء الذين قُتِلُوا يومئذٍ فقال: «**زَمِّلُوهُم، زَمِّلُوهُم في ثِيابِهِم**»، وفي رواية: وأمر بدفنهم في دِمَائِهِم ولم يُغَسَّلُوا ولم يُصَلَّ عَلَيْهِم.

[رواه أحمد (٢٩٩/٣)، والبخاري ٤٥٣/٣، ٤٥٥)، وأبو داود (٣١٣٨، ٣١٣٩)، والنسائي (٢٥/٦)، وابن ماجه (١٤١٥)، ولفظ أحمد: «**لا تُغَسِّلُوهم**» وسنده صحيح].

ش: والحديث يدل على عدم مشروعية تغسيل الشهيد وأنه يدفن كذلك بثيابه ودمائه. وبهذا قال عامة أهل العلم.

صفة كفن الميت وتكفينه

١٠٩٣ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْبَسُوا مِن ثِيابِكُم البياضَ فإنها مِن خيرِ ثيابِكُم وكَفِّنُوا فيها مَوْتَاكُم**».

[رواه أحمد رقم (٣٤٢٦، ٣٣٤٢)، وأبو داود (٤٠٦١)، والترمذي (٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٦٦)، وابن حبان رقم (٣٣٩) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه].

١٠٩٤ ـ وعن جابر أن النبي ﷺ خطب يَوماً فذكر رجلاً من أصحابه قُبِض فكُفِّن في كفَنٍ غيرِ طائل فقال: «**إذا كَفَّنَ أحدُكم أخَاهُ فليُحْسِن كفنَه**».

[رواه مسلم (١٠/٧، ١٢)].

١٠٩٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كُفِّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ يَمانِيةٍ بيضٍ سَحُولِيَّةٍ من كُرْسُفٍ، ليسَ فيهن قميصٌ ولا عِمامةٌ.

وفي رواية: جُدُد.. أُدرِجَ فيها إدْرَاجاً.

[رواه البخاري (٣٧٨/٣)، ومسلم (٧/٧، ١٠)، والأربعة، والرواية الثانية عند أحمد بسند حسن].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية تكفين الميت. ولا خلاف في فرضيته على الكفاية، ويستحب أن يكون من الثياب البيض، وأن يكون كثيفاً نظيفاً ساتراً، وهو المراد بتحسينه وليس المغالاة فيه.

واختلفت أنظار الأئمة في معنى حديث عائشة، فقال بعضهم وهم الجمهور: أنه يلف في ثلاثة أثواب ويدرج فيها إدراجاً، وقال آخرون ومنهم مالك بن أنس رحمه الله: يزاد القميص والإزار والعمامة والرداء.. إلخ.

تجمير الميت

١٠٩٦ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أَجْمَرْتُم الميّتَ فَأجْمِرُوهُ ثلاثاً»**.

[رواه أحمد (٣/٣٣١)، وابن حبان (٧٥٢)، والحاكم (١/٣٥٥)، والبيهقي (٣/٤٠٥)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: ومعنى الإجمار: استعمال البخور.

فضل تشييع الجنازة والصلاة عليها

١٠٩٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن شَهِدَ الجَنازةَ حتى يُصَلّي عليها فلَهُ قِيراطٌ، ومَنْ شَهِدَها حتى تُدْفَنَ فلَهُ قِيرَاطانِ»**. قيل: وما القيراطان؟ قال: **«مَثَلُ الجبلين العَظِيمَيْنِ»**. وفي رواية: **«حتَّى تُوضَعَ في اللَّحْدِ»**. وفي أخرى: **«مَنْ تَبِعَ جنازةَ مسلمٍ إيماناً واحتساباً وكانَ معَها حتى يُصَلَّى عليها ويُفرغَ من دَفْنِها...»**.

[رواه البخاري (٣/٤٤٠، ٤٤١)، ومسلم (٧/١٣، ١٧)، والرواية الثانية لمسلم والثالثة للبخاري].

ش: وفي الحديث فضل تشييع الجنازة والصلاة عليها وحضور دفنها.

كيف المشي مع الجنازة

١٠٩٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يمشون أمام الجنازة.

[رواه أبو داود (٣١٧٩)، والنسائي (٤/٤٦) بسند صحيح].

١٠٩٩ ـ وعن المغيرة بن شعبة رحمه الله تعالى عن النبي ﷺ قال: «**الرَّاكِبُ يَمشِي خلفَ الجَنازةِ، والمَاشِي حيثُ شَاءَ مِنها، خَلْفَها وأَمَامَها وعَن يمِينِها وعَن يسارِهَا قرِيباً مِنْهَا**».

[رواه أحمد (٢٤٧/٤، ٢٤٨، ٢٥٢)، وأبو داود (٣١٨٠)، والنسائي (٤٥/٤)، وابن ماجه (١٤٨١) بسند صحيح].

ش: والحديثان يدلان على أن المشيعين للجنازة إن كانوا ركباناً يمشون خلفها، وإن كانوا رجالاً يمشون معها حيث شاءوا.

الإسراع بالجنازة

١١٠٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْرِعُوا بِالجِنازةِ فإنْ تَكُ صالحةً فخيرٌ تُقَدِّمُونَها إليهِ، وإن تَكُ سِوَى ذلك فشَرٌّ تَضَعُونَه عن رِقَابِكُم**».

[رواه البخاري (٤٢٧/٣، ٤٢٨)، ومسلم (١٢/٧)، والترمذي (٩٠٠) وبافي الجماعة].

ش: وفي الحديث مشروعية الإسراع بالجنازة، لكن ليس المراد به العدو والجري.

كلام الروح عند حمل نعشها

١١٠١ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**إذا وُضِعَتْ الجنازةُ فاحْتَمَلَها الرِّجالُ على أعْنَاقِهِم فإنْ كانَتْ صالحةً قالت: قدِّمُونِي، وإن كانَتْ غَيرَ صالحةٍ قالت لأهلِها: يا وَيلَها أينَ تَذْهَبُون بِهَا؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ ولو سَمِعَ الإنسانُ لصَعِقَ**».

[رواه أحمد (٤١/٣، ٥٨)، والبخاري (٤٢٨/٣) وهو من أفراد البخاري].

ش: إن الأمر لعظيم وعجيب، فالأموات يتكلمون بين أظهرنا ويصرخون في طريقهم إلى القبور ونحن لا نشعر بهم، قد حيل بيننا وبين سماع ما يقولون رحمةً بنا، بينما سائر الحيوانات والبهائم يشعرون بذلك ويسمعون كل ما يقال.

نسخ القيام للجنازة

١١٠٢ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا، وقعد فقعدنا ـ يعني في الجنازة ـ.

[رواه مسلم (٢٩/٧، ٣٠) من طرق، وهذا ناسخ لما صح عن أبي سعيد الخدري وعامر بن ربيعة وجابر بن عبدالله وقيس بن سعد وسهل بن حنيف من أن رسول الله ﷺ أمر بالقيام للجنازة.. وجميعها في صحيح مسلم (٢٧/٧، ٢٩)].

الثناء على الميت

١١٠٣ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن أثنَيتُم عليهِ خَيراً وجَبَتْ لهُ الجَنَّةُ، ومن أثنَيتُم عليهِ شَرّاً وَجَبَتْ لهُ النَّارُ، أنتُم شُهداءُ الله فِي الأرضِ**».

[رواه أحمد (٣٨٦/٣)، والبخاري (٤٧٢/٣)، ومسلم (١٨/٧، ١٩) ونحوه عندهما عن عمر رضي الله تعالى عنه].

ش: فيه الثناء والشهادة على الميت بالخير والشر، وأن الله تعالى سيعامله حسب شهادة الناس فيه، لكنه لا بد وأن يكون هؤلاء الشهداء صالحين كالصحابة.

كراهية إتباع النساء الجنازة

١١٠٤ ـ عن أم عطية رضي الله تعالى عنها قالت: نهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعْزَمْ علينا.

[رواه البخاري (٣٨٧/٣)، ومسلم (٢/٧) وغيرهما].

ش: قولها: «ولم يعزم علينا»: أي لم يؤكد علينا في النهي.

وفي الحديث إبعاد النساء عن تشييع الجنائز، لأن المقام لا يناسب خروجهن، فالوقت وقت عبرة وتفكر في المآل والبلى وأهوال القبر وفتنته.

* * *

أبواب الصلاة على الجنازة

أين يصلى عليها؟

١١٠٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نَعَى النجاشي في اليوم الذي مات فيه خرج إلى المُصلَّى فصَفَّ بهم وكبَّر أربعاً.

[رواه الشيخان].

١١٠٦ ـ وعن عباد بن عبدالله بن الزبير أن عائشة رضي الله تعالى عنها أَمَرَتْ أن يُمَرَّ بجنازة سَعْد بن أبي وقاص في المسجد فتُصَلِّي عليه، فأنكر الناسُ ذلك عليها فقالت: مَا أسرعَ ما نَسِيَ الناسُ، والله لقد صلّى رسولُ الله ﷺ على ابني بَيْضَاءَ في المسجدِ سُهَيْل وأخِيه.

[رواه مسلم (٣٨/٧، ٣٩)، وأبو داود (٣١٨٩)، والترمذي (٩١٩)].

ش: وقع الإجماع على أن النبي ﷺ كان يصلي على الجنائز خارج المسجد في موضع خاص كان معروفاً، وصلى مرة على ابني بيضاء داخل المسجد فدل ذلك على جوازه.

كيف توضع الجنائز إذا اجتمع فيها الجنسان

١١٠٧ ـ عن نافع رحمه الله تعالى عن ابن عمر أنه صلى على تسع جنائز جميعاً فجعل الرجالَ يَلُونَ الإمامَ، والنساءَ يَلِينَ القِبْلَةَ، فصَفَّهُنَّ صفاً

واحداً، ووُضِعَتْ جنازةُ أمّ كُلْثُوم بنتِ علي امرأة عمر بن الخطَّاب وابن لها يقال له زيد وُضِعَا جميعاً والإمام يومئذ سعيد بن العاص، وفِي الناس ابن عباس وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة فوُضِع الغلامُ مما يلي الإمامَ، فقال رجل: فأنكرت ذلك، فنظرتُ إلى ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي قتادة فقلت: ما هذا؟ قالوا: هي السُّنَّة.

[رواه النسائي (٤/٥٨)، وابن الجارود (٢٦٧، ٢٦٨)، والبيهقي (٤/٣٣) وسنده صحيح، وحسنه النووي وصححه الحافظ، وفي الباب غير ذلك].

ش: ففي الحديث بيان ما يفعل بالأموات عند الصلاة عليهم إذا كان فيهم ذكور وإناث، وأنهم يصفون كصفوف الصلاة: الرجال يلون الإمام، والنساء خلف الرجال لجهة القبلة.

فضل من صلى عليه أمة من الناس يبلغون مائة أو أقل

١١٠٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِن مَيتٍ تُصَلِّي عليه أُمَّةٌ مِنَ المُسلمينَ يَبْلُغُونَ مائةً كُلُّهم يَشْفَعُونَ لهُ إلا شُفِّعُوا فِيهِ**».

[رواه أحمد (٦/٣٢)، ومسلم (٧/١٧)، والترمذي (٩١٥)، وكذا الطيالسي (٧٦٩)، والحميدي (٢٢٢)].

١١٠٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه مات ابنٌ له بقُدَيْدٍ، أو بعُسْفَانَ، فقال: يا كُرَيْب انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجتُ فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرْته فقال: نقول هم أربعون، قال: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِن مُسلِمٍ يَموتُ فيقومُ على جنازتِه أربعونَ رجلاً لا يُشرِكُونَ بالله شيئاً إلا شفَّعَهُم اللَّهُ فيهِ**».

[رواه مسلم (٧/١٨)].

ش: وفي الحديثين فضل من صلى عليه أربعون شخصاً إلى مائة، وأن الله عزّ وجلّ بفضله ورحمته يشفعهم فيه فيغفر الله له ويتجاوز عما صدر منه من زلل، والله ذو الفضل العظيم.

طوائف من الناس
لم يكن رسول الله ﷺ يصلي عليهم

١١١٠ ـ عن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله تعالى عنه أن رجلاً تُوُفِّي يومَ خَيْبَر، فقال ﷺ: «**صَلُّوا على صَاحِبِكُم، إنَّ صَاحِبَكُم غَلَّ في سبيلِ الله**».

[رواه أحمد (١١٤/٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٠)، والنسائي في الجنائز (٥٢/٤)، والحاكم (١٢٧/٢) وسنده صحيح].

١١١١ ـ وعن جابر بن سمرة قال: مرض رجل فصيح عليه فجاء جاره إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنه مات فقال: «**ما يُدْرِيكَ؟**»، قال: رأيتُه يَنحرُ نفسَه بِمِشْقَصٍ معه. قال: «**إذاً لا أُصَلِّي عليهِ**».

[رواه أحمد (٨٧/٥)، ومسلم (٤٧/٧)، وأبو داود (٣١٨٥)، والترمذي (٩٥٣)، والنسائي (٥٣/٤) وغيرهم بألفاظ].

١١١٢ ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا دُعِيَ لجنازةٍ سأل عنها، فإن أُثْنِيَ عليهَا خيرٌ قام فصلَّى عليها، وإن أُثْنِيَ عليها غير ذلك قال لأهلها: «**شأنَكُم بِهَا**» ولم يُصَلِّ عليها.

[رواه أحمد (٢٩٩/٥، ٣٠٠، ٣٠١)، والحاكم (٣٦٤/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

١١١٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يُؤتَى بالرجُلِ المُتَوَفَّى عليه الدَّيْنُ فيقول: «**هل تَرَكَ لدَيْنِه مِن قضاءٍ**» فإن حُدِّثَ أنه ترك قضاءً صلّى عليه، وإلا قال للمسلمين: «**صَلُّوا على صَاحِبِكُم**».

[رواه البخاري في النفقات (٤٤٤/١١)، ومسلم في الفرائض (٦٠/١١)، والترمذي (٩٥٥)، والنسائي (٥٣/٤) وغيرهم وفي الباب عن أبي قتادة وسلمة بن الأكوع].

ش: وإنما كان يمتنع من الصلاة على من ذكر تأديباً لهم وزجراً لغيرهم أن يعملوا عملهم، ولذا قال العلماء: ينبغي لأهل الفضل والعلم أن يقتدوا به ﷺ في ذلك فلا يصلوا على من ذكرنا وأمثالهم من الفاسقين، ويصلي عليهم مطلق الناس فإن الصلاة على الميت من فروض الكفاية فلا بد منها، ولا يدفن أحد بدونها سواء أكان طائعاً أم عاصياً ذكراً أم أنثى كبيراً كان أم صغيراً.

الصلاة على الغائب وعلى القبر

١١١٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ نَعَى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخَرَج بهم إلى المُصَلَّى فصَفَّ بهم وكبَّر عليه أربع تكبيرات.

[رواه البخاري (٤٤٥/٣) وفي مواضع، ومسلم (٢١/٧، ٢٢، ٢٣) وغيرهما].

وفي رواية عن جابر عنه ﷺ: **«إن أخاً لكم قد مَاتَ فقُومُوا فصَلُّوا عليهِ»**.

[رواه مسلم].

١١١٥ ـ وعنه أن امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد أو شابّاً فَفَقَدَها رسولُ الله ﷺ فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات، قال: **«أفَلا آذَنْتُمُونِي»**، قال: **«دُلُّونِي على قَبْرِهِ»** فدَلُّوه فصلَّى عليها.

[رواه البخاري (٤٤٨/٣)، ومسلم (٢٥/٧، ٢٦) وفي الباب عن أنس وابن عباس وغيرهما].

ش: الحديث الأول يدل على مشروعية الصلاة على الغائب ولم يصب من منع من ذلك، وأوَّل الحديثَ، فإنه من التعسفات التي ينبغي أن ينزه عنها أهل الإنصاف. كما يدل الحديث الثاني على جواز الصلاة على

الميت بعد دفنه في قبره، ولم يصب من منع ذلك أيضاً أو فصل بين أن يكون دفن بلا صلاة فيجوز، وإلا فلا، فإن كل ذلك خلاف الظاهر والعمل النبوي.

صفة الصلاة على الأموات

١١١٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه صلى على جنازة رجل فقام حِيَالَ رأسِه، ثم جاءوا بجنازة امرأة فقام حِيَالَ وَسَطِ السَّرِيرِ، وفي رواية: فقام عند عَجِيزَتِها. فقيل له: هكذا رأيت رسول الله ﷺ قام على الجنازة مَقَامَك منها، ومن الرجلِ مَقامَك منه، فقال: نَعَمْ

[رواه أحمد (١١٨/٣)، وأبو داود (٣١٩٤)، والترمذي (٩٢٠)، وابن ماجه (١٤٩٤)، وكذا الطيالسي (٧٧٦) وسنده حسن].

١١١٧ ـ وعن سمرة أن النبي ﷺ صلَّى على امرأة فقام وسطَها.

[رواه الطيالسي (٧٧٧)، والبخاري (٤٤٤/٣، ٤٤٥)، ومسلم (٣١/٧، ٣٢)، وباقي الجماعة].

ش: في الحديثين التفرقة بين الرجل والمرأة في موقف الإمام عند الصلاة على الجنازة فيقف عند رأس الرجل، وعند وسط المرأة وقد خالف المالكية فعكسوا.

مشروعية قراءة الفاتحة في الصلاة على الجنازة ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم الدعاء

١١١٨ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه صلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب، قال: لِتَعْلَمُوا أنَّها سُنَّةٌ.

[رواه البخاري (٤٤٧/٣)، وأبو داود (٣١٩٨)، والترمذي (٩١٣)، والنسائي (٦١/٤) وقال: فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة وجَهَر ثم قال: سُنَّةٌ وحَقٌّ، وكذا رواه ابن الجارود في «المنتقى» (٢٦٤)، وذكر السورة، وسندهما صحيح].

١١١٩ ـ وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ: أنَّ السُّنَّةَ في الصلاة على الجنازة أن يُكَبِّرَ الإمامُ ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سِرّاً في نفسِه، ثم يُصلّي على النبي ﷺ ويُخْلِصُ الدعاء للجنازة في التكبيرات الثلاثِ، لا يقرأ في شيءٍ منهن، ثم يُسلِّم سِرّاً في نفسِه حين يَنصَرِف عن يَمينِه، والسنة أن يَفعلَ مَن وراءَه مِثْلَما فَعل إمَامُهُ.

[رواه الشافعي في «الأم» (١/٢٣٩، ٢٤٠)، وابن الجارود (٢٦٥)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» (٩٤)، والحاكم (١/٣٦٠)، والبيهقي (٤/٣٩)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. ورواه عبدالرزاق (٦٤٢٨)، والنسائي (٤/ ٦١)، ومن طريقه ابن حزم في «المحلى» (٥/١٢٩) عن أبي أمامة نفسه قال: السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر ثم يقرأ بأُمِّ القرآن، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يُخلص الدعاء للميت، ولا يقرأ إلا في الأولى.. وسنده صحيح].

١١٢٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ صلّى على قبر بعدما دفن فكبّر عليه أربعاً.

[رواه مسلم (٧/٢٤، ٢٥)].

١١٢١ ـ وعن ابن أبي أوْفَى أنه كبّر على جنازة أربعاً ثم قام ساعة يَدْعُو ثم قال: أَتَرَونِي كنتُ أُكبّر خمساً، قالوا: لا، قال: إن رسول الله ﷺ كان يكبّر أربعاً.

[رواه البيهقي (٤/٣٥) بسند صحيح].

وتقدم حديث الصلاة على النجاشي وأنه كبر أربع تكبيرات.

١١٢٢ ـ وعن زيد بن أرقَم رضي الله تعالى عنه أنه كان يكبر على الجنائز أربعاً وأنه كبر على جنازة خمساً فسُئِل عن ذلك فقال: كان رسول الله ﷺ يُكَبِّرُها.

[رواه مسلم (٧/٢٦)، وأبو داود (٣١٩٧)، والترمذي (٩٠٨)، والنسائي (٤/٥٩)، وابن ماجه (١٥٠٥)، وفي الباب عن علي وابن الزبير وعبدالله بن مغفل وغيرهم].

١١٢٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ صلّى على جنازة فكبَّر عليها أربعاً وسلَّم تسليمة واحدة.

[رواه الدارقطني (٧٢/٢)، والحاكم (٣٦٠/١)، والبيهقي (٤٣/٤) بسند حسن].

وذكر الحاكم أن ذلك صح عن علي، وابن عمر، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وابن أبي أوفى، وأبي هريرة، وأنهم كانوا يسلِّمون على الجنازة تسليمة واحدة.

ش: في هذه الأحاديث بيان صفة صلاة الجنازة وأنه يكبر أربع تكبيرات يقرأ الفاتحة وسورة بعد الأولى، ثم يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ثم يدعى للميت بعد الثالثة والرابعة.. ولا مانع من الزيادة على الأربع، بل وردت خمس وست وسبع وتسع وكلها ثابتة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «الهدي النبوي» بعد أن ذكر الآثار في ذلك: وهذه آثار صحيحة فلا موجب للمنع منها، والنبي ﷺ لم يمنع مما زاد على الأربع بل فعله هو وأصحابه من بعده.

وفي حديثي أبي أمامة وأبي هريرة ما يدل على أن التسليم في الجنازة واحدة عن اليمين. وقد جاء ما يدل على تسليمتين، والأمر في ذلك واسع.

الدعاء للميت

١١٢٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا صلَّيتُم على المَيْتِ فأخْلِصُوا لهُ الدُّعَاءَ»**.

[رواه أبو داود (٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧)، وابن حبان (٧٥٤)، والبيهقي (٤٠/٤) بسند حسن].

١١٢٥ ـ وعن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظتُ مِن دعائه وهو يقول: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ له وارْحَمْهُ، وعَافِهِ واعْفُ عَنْهُ، وأكْرِمْ نُزُلَهُ، ووسِّع مُدْخَلَهُ، واغْسِلْهُ بِالماء، والثَّلْجِ والبَرَدِ، ونقِّهِ مِنَ الخَطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ مِنَ الدَّنَسِ، وأبْدِلْهُ**

دَاراً خيراً مِن دارِهِ، وأهلاً خيراً مِن أهلِهِ، وزوجاً خَيراً مِن زَوْجِه، وأَدْخِلْهُ الجنَّةَ وأعِذْهُ مِن عذابِ القَبْرِ ومِنْ عذابِ النَّارِ». قال: فتمنيت أن أكون أنا ذلك الميت.

[رواه أحمد (٦/٢٣، ٢٨)، ومسلم (٧/٣٠، ٣١)، والطيالسي (٧٨٢)، والترمذي (٩١١)، والنسائي (٤/٥٩، ٦٠)، وابن ماجه (١٥٠٠)، وابن الجارود (٢٦٤، ٢٦٥)].

١١٢٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى على جنازة يقول: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا ومَيِّتِنا، وشاهِدِنا وغائِبِنَا، وصَغِيرِنَا وكَبِيرِنا، وذكَرِنَا وأُنْثَانَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فاحْيِهِ على الإسلامِ، ومَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فتَوَفَّهُ على الإيمانِ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنا أجْرَه ولا تُضِلَّنا بَعْدَهُ»**.

[رواه أحمد (٢/٣٦٨)، وأبو داود (٣٢٠١)، والترمذي (٩١٠)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وابن حبان (٧٥٧)، والحاكم (١/٣٥٨) وسنده صحيح، وحسنه الترمذي وصححه من طريق آخر، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، ووهم الحافظ في «بلوغ المرام» فعزاه لمسلم].

١١٢٧ ـ وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: صلّى بنا رسولُ الله ﷺ على رجلٍ من المسلمين فسمعْتُه يقول: **«اللَّهُمَّ إنَّ فُلانَ بنَ فلان في ذِمَّتِك وحَبْلِ جِوارِكَ، فَقِهِ مِن فِتنةِ القَبْرِ وعذابِ النَّارِ، وأنْتَ أهلُ الوَفاءِ والحَقّ، اللَّهُمَّ فاغفر له وارْحَمْهُ، إنَّكَ أنتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»**.

[رواه أحمد (٣/٤٧١)، وأبو داود (٣٢٠٢)، وابن ماجه (١٤٩٩)، وابن حبان (٧٥٨) وسنده صحيح].

١١٢٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا صلى على الجنازة قال: **«اللَّهُمَّ عَبْدُك وابنُ عَبْدِك كان يَشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ أنتَ، وأنَّ محمَّداً عَبْدُك ورسولُكَ، وأنتَ أعْلَمُ بِهِ، إنْ كان مُحسناً فزِدْ في إحسانِه، وإن كانَ مُسيئاً فاغْفِرْ له، ولا تَحْرِمْنا أجْرَهُ، ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ»**.

[رواه ابن حبان (٧٥٦)، وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، قاله الهيثمي (٣/٣٣)، ورواه مالك في «الموطأ» (٥٣٦)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٩٣) موقوفاً عليه وسنده صحيح].

ش: هذه أدعية جامعة ينبغي للمسلم أن يدعو بها جميعها في صلاته على الجنازة وإن اقتصر على بعضها كفاه ذلك. نسأل الله تعالى أن يعاملنا بمحض فضله وكرمه.

* * *

أبواب الدفن والقبور

وجوب دفن الآدمي

١١٢٩ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: لما تُوفِّي أبو طالب أتيتُ النبي ﷺ فقلت: إن عَمَّكَ الشيخَ الضالَّ قد مات فمَنْ يُواريه؟ قال: «**اذْهَبْ فَوَارِهِ، ثمَّ لا تُحْدِثْ شيئاً حتَّى تَأْتِيَنِي**». فقال: إنه مَات مُشْرِكاً، فقال: «**اذْهَبْ فَوَارِهِ**»، قال: فوارَيْتُه ثم أتيتُه قال: «**اذْهَبْ فاغْتَسِل، ثم لا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتِيَنِي**»، قال: فاغتسلتُ ثم أتيته قال: فدعى لي بدعوات ما يَسُرُّنِي أن لي بها حُمْرَ النَّعَم وسُودَهَا.

[رواه أحمد (٩٧/١، ٨٠٧)، وابنه في زوائده (١٢٩/١، ١٣٠)، وأبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٦٥/٤، ٦٦)، والبيهقي (٣٩٨/٣) بسندين صحيحين].

ش: في الحديث وجوب إقبار الآدمي ولو كان كافراً. ولا خلاف في ذلك بين المسلمين.

لا يدفن المسلم مع الكافر

١١٣٠ ـ عن بَشِير بن الخَصَاصِيَةِ رضي الله تعالى عنه أنه كان يُمَاشِي رسولَ الله ﷺ فأتى على قُبُورِ المُشْرِكين فقال: «**لقد سُبِقَ هؤلاء بخيرٍ كَثيرٍ**»، ثم أتى على قبور المسلمين فقال: «**لقَدْ أدْرَكَ هؤُلاءِ خيراً كثيراً**».

[رواه أحمد (٨٣/٥، ٨٤، ٢٢٤)، وأبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي (٧٨/٤)، وابن ماجه (١٥٦٨)، والحاكم (٣٧٣/١) وصححه وأقره الذهبي].

ش: ففي الحديث التفرقة بين قبور المسلمين وقبور المشركين، وهو العمل المتوارث المعمول به بين المسلمين من لدن أيام النبوة بدون خلاف.

صفة حفر القبر

١١٣١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: اللَّحْدُ لنا والشَّقُّ لِغَيْرِنَا.

[رواه أبو داود (٣٢٠٨)، والترمذي (٩٣١)، والنسائي (٦٦/٤)، وابن ماجه (١٥٥٤) وهو صحيح لطرقه].

١١٣٢ ـ وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عند موته: أَلْحِدُوا لِي لَحْداً وانْصِبُوا عليَّ اللَّبِنَ نَصْباً كما صُنِعَ برسولِ الله ﷺ.

[رواه أحمد (١٦٩/١، ١٧٣، ١٨٤)، ومسلم (٣٣/٧، ٣٤) وغيرهما].

١١٣٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما توفي النبي ﷺ كان بالمدينة رجل يُلْحِدُ، وآخر يَضْرَحُ، فقالوا: نَسْتَخِيرُ ربَّنا ونَبْعَثُ إليهما، فأيُّهما سَبَقَ تَرَكْناهُ، فأَرْسِلَ إليهما فسَبَق صاحب اللَّحْدِ، فلَحَدُوا للنبي ﷺ.

[رواه أحمد (٩٩/٣)، وابن ماجه (١٥٥٧)، وحسنه الحافظ في التلخيص وصحح إسناده الحافظ البوصيري في زوائد ابن ماجه. وله شاهد عن عائشة عند ابن ماجه (١٥٥٨) قال فيه البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات].

١١٣٤ ـ وعن هشام بن عامر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«اخفِرُوا وأَوْسِعُوا وأَعْمِقُوا وأَحْسِنُوا»**.

[رواه أحمد (١٩/٤، ٢٠)، وأبو داود (٣٢١٥)، والترمذي (١٥٧١)، والنسائي (٦٦/٤، ٦٧) وحسنه الترمذي وصححه ويأتي بعضه قريباً رقم (١١٤٥) فهو من تمامه].

١١٣٥ ـ وعن رجل من الأنصار أن رسول الله ﷺ جلس على حَفِيرَةِ القبر فجعل يُوصِي الحافر ويقول: **«أَوْسِعْ مِن قِبَلِ الرأسِ، وأَوْسِعْ من قِبَلِ الرِّجلين»**.

[رواه أحمد (٤٨/٥)، وأبو داود (٣٣٣٢) بسند صحيح].

ش: في الأحاديث الأولى جواز كل من اللحد والشق في القبر، غير أن الأفضل هو اللحد، لأن الشق من عادة أهل الكتاب.

وفي الحديثين الأخيرين مشروعية إعماق القبر وتوسعته وإحسانه، وليس كما يفهمه جهلة العوام وأشباههم من تضييقه.

دفن العديد في قبر واحد

١١٣٦ ـ عن هشام بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: شُكِيَ إلى رسول الله ﷺ الجِرَاحَاتُ يومَ أُحُدٍ فقال: «**اذفِنُوا الاثْنَيْنِ والثلاثةَ في قَبْرٍ واحدٍ، وقَدِّمُوا أَكْثَرَهُم قُرآناً**».

[رواه أحمد (١٩/٤، ٢٠)، وأهل السنن وحسنه الترمذي وصححه].

١١٣٧ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قَتْلَى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثم يقول: «**أيُّهُم أكثرُ أخذاً للقرآن**» فإذا أشير له إلى أحد قدمه في اللحد.

[رواه البخاري في الجنائز (٤٥٥/٣، ٤٦١)، وفي المغازي (٣٧٨/٨) مطولاً ومختصراً، ورواه أهل السنن أيضاً].

ش: وفي الحديثين مشروعية جمع الاثنين فأكثر في قبر واحد مع تقديم أكثرهم حفظاً للقرآن لجهة القبلة. وهذا خاص بالضرورة كما حصل في غزوة أُحُد.

كيف يدخل الميت إلى قبره ومن يتولى ذلك

١١٣٨ ـ عن أبي إسحاق قال: أوصى الحارث أن يُصليَ عليه عبدُالله بن يَزِيدَ فصلى عليه، ثم أدخله القبر من قبل رِجلي القبر، وقال: هذا من السنة.

[رواه ابن أبي شيبة رقم (١١٦٨٤)، وأبو داود (٣٢١١)، والبيهقي (٥٤/٤) بسند صحيح، ولا يصح ما ورد ضد هذا].

١١٣٩ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: غسَّلْتُ رسولَ الله ﷺ فذهبتُ أنظرُ ما يكونُ مِن الميت فلم أرَ شيئاً، وكان طَيِّباً حَيّاً ومَيِّتاً، ووَلِيَ دَفْنَه وإجْنَانَه دون الناس أربعةٌ: عليٌّ والعباسُ والفضلُ وصالحٌ مولى رسول الله ﷺ.

[رواه الحاكم (٣٦٢/١)، والبيهقي (٥٣/٤) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وورد عن الشعبي خلاف هذا وفيه: فلما فرغ علي قال: إنما يلي الرجلَ أهلُه. رواه أبو داود (٣٢٠٩، ٣٢١٠) بسند صحيح إلى الشعبي وهو مرسل].

ش: وفي الحديث الأول أن السنة إدخال الميت إلى قبره من قبل رجلي القبر، وفي الثاني أن يتولى غسل الميت وإقباره أقاربه. ولا خلاف في جواز غيرهم وهو عمل الأمة.

ما يقال ويفعل عند الدفن

١١٤٠ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا وُضعَ المَيِّتُ في لَحْدِه قال: «بسم الله وبِاللَّهِ وعلى مِلَّةِ رسولِ الله ﷺ».

[رواه أحمد (٣٧/٢، ٦٩)، وأبو داود (٣٢١٣)، والترمذي (٩٣٢)، وابن ماجه (١٥٥٠)، وابن حبان (٧٧٣)، والحاكم (٣٦٦/١) بتغيير يسير وسنده صحيح عند بعضهم، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، ونحوه عن البياضي رواه الحاكم (٣٦٦/١) بسند حسن].

١١٤١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ صلّى على جنازة ثم أتَى الميتَ فحَثَى عليه مِن قِبَل رأسِه ثَلاثاً.

[رواه ابن ماجه (١٥٦٥) وجوده النووي. وقال الحافظ في «التلخيص»: إسناده ظاهره الصحة. وله شواهد وآثار تقويه. انظر «مصنف أبي شيبة» (٢٠/٣، ٢١)، و«التلخيص الحبير» (١٣١/٢)].

ش: في الحديث الأول مشروعية ذكر ما جاء فيه. وما يزيده الناس بعده من قولهم: اللهم إن صَاحِبَنَا قد نَزَل بك وخلّف الدنيا وراءَ ظهْرِه وافْتَقَر إلى ما عندَك، اللهم ثَبِّتْ عند المسألةِ مَنْطِقَهُ ولا تَبْتَلِه في قبرِهِ بِمَا لا طاقةَ له به وألْحِقْه بنبينا عليه السَّلام، هو دعاء حسن لا بأس به وهو داخل في حديث سؤال التثبيت له. وفي الحديث الثاني استحباب حثي التراب على رأس الميت إذا أدخل قبره.

الاستغفار للميت وسؤال له التثبيت

١١٤٢ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دَفْنِ الميِّتِ وقَف عليه فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُم وسَلُوا لهُ التَّثْبِيتَ فإنَّهُ الآن يُسْأَلُ**».

[رواه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (٣٧٠/١)، والبيهقي (٥٦/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: فيه مساعدة الميت على الجواب عند السؤال، وذلك بالاستغفار له وسؤال الله عزّ وجلّ التثبيت له. وفيه أن السؤال يكون عقب الدفن، وبذلك جاءت الأحاديث النبوية.

الدفن ليلاً

١١٤٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: زَجَرَ النبيُّ ﷺ أن يُقْبَرَ الرجلُ بالليل حتى يُصلَّى عليه إلا أن يُضْطَرَّ الإنسانُ إلى ذلك.

[رواه مسلم (١٠/٧، ١١)].

١١٤٤ ـ وعنه قال: رأى ناسٌ ناراً في المقبرة فأتوها فإذا رسول الله ﷺ في القبر وإذا هو يقول: «**نَاوِلُونِي صَاحِبَكُم**»، فإذا هو الرجل الذي كان يرفع صوته بالذكر.

[رواه أبو داود (٣١٦٤)، والحاكم ٣٦٨/١)، و(٣٤٥/٢)، والبيهقي (٥٣/٤)، وصححه الحاكم على شرط مسلم في الموضع الأول وصححه بإطلاق في الثاني وأقره الذهبي].

ش: وفي الحديثين جواز الدفن ليلاً وخاصة للحاجة والضرورة. وقد دفن النبي ﷺ ليلاً، وكذا أبو بكر، وعثمان، ومولاتنا فاطمة، وأم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وعنا معهم.

أحوال الروح بعد قبضها، وسؤالها وفتنتها

١١٤٥ ـ عن البراء في الحديث السابق قال ﷺ: «فيردُّ ـ أي المؤمن ـ إلى الأرض وتُعادُ رُوحُهُ في جسدِه قال: فإنَّه يسمعُ قرعَ نِعالِ أصحابِه إذا ولَّوا عنه مُدْبِرين، فيأتيه مَلَكَان شديدا الانتهارِ فينْتَهِرَانِهِ ويُجْلِسَانِهِ، فيقولان لهُ: ما دِينُك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكُم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عِلْمُكَ فيقول: قرأتُ كتابَ الله فآمَنْتُ به وصدَّقتُ، فينْتَهِرُه فيقول: مَن رَبُّك؟ ما دِينُك؟ مَن نَبِيُّكَ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فيقول: ربِّي الله، ودِيني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ في السماء: أن صَدَقَ عَبْدِي فأفرِشُوه مِنَ الجنَّةِ، وألبسُوه من الجنة، وافْتَحُوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه مِن رُوحِها وطِيبِها ويُفْسَحُ له في قبره مدَّ بَصرِه، قال: ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثِّياب، طَيِّبُ الريح، فيقول: أبْشِر بالذي يَسُرُّك، أبْشِر بِرِضْوَان الله وجَناتٍ فيها نَعِيمٌ مقيمٌ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعدُ فيقول له: وأنت فبَشَّرَك الله بخيرٍ من أنتَ؟ فوجْهُكَ الذي يَجيءُ بالخير، فيقول: أنا عَمَلُكَ الصالحُ، فوالله ما علِمْتُكَ إلا كُنتَ سَرِيعاً في إطاعةِ الله، بَطيئاً في معْصِيةِ الله، فجزاك الله خيراً، ثم يُفْتَحُ له بابٌ من الجنة، وبابٌ من النار، فيقال: هذا منزلك لو عَصيتَ، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: ربِّ عَجِّلْ قِيامَ الساعة كيمَا أرجعَ إلى أهلي ومالي، فيقال له: اسْكُنْ. وقال في الكافر: فتُعَادُ رُوحُه في جسدِه ويأتيه مَلَكَان فيجلسانه فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: مَا

دِينُك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كَذَبَ فافْرِشُوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرّها وسَمُومِها ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتى تختلفَ أضلاعُه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، مُنْتِنُ الرّيح، فيقول: أبشر بالذي يَسُوءُكَ، هذا يومُك الذي كنت توعدَ، فيقول: مَنْ أنتَ؟ فوجْهُك الوجهُ يَجِيءُ بالشر، فيقول: أنا عَمَلُك الخبيثُ، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعةِ.

[رواه أحمد وأبو داود وغيرهما كما تقدم عزوه].

١١٤٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميتُ أو قال أحدُكم أتاه مَلَكان أسْوَدان أزْرَقانِ، يقال لأحدهما المُنكَرُ والآخر النَّكِيرُ، فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبدُالله ورسولُه، أشهد أن لا إلَه إلاَّ الله، وأن محمَّداً عبدُه ورسولُه فيقولان: قد كُنَّا نَعلمُ أنك تقول هذا، ثم يُفسحُ له في قبره سبعُون ذراعاً في سبعين ثم يُنَوَّرُ له فِيهِ ثم يُقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نَم كنومَةِ العَرُوس الذي لا يُوقِظه إلا أحبُّ أهله إليه حتى يبعثُهُ من مضجَعِهِ ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنَّا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض الْتَئِمِي عليهِ، فتَلْتَئِمُ عليه فتَخْتَلِفُ أضلاعُه، فلا يزال فيها مُعذَّباً حتى يبعثَه الله من مَضْجَعِه ذلك.

[رواه الترمذي في الجنائز (٩٥٦) بسند صحيح على شرط مسلم].

١١٤٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قَبْرِه وتولَّى عنه أصحابُه وإنه ليَسْمَعُ قرع نِعالِهم، أتاه ملكان ـ فذكره بنحو سابقه ـ وفيه فيقول ـ يعني المؤمن ـ: دعُوني حتى أذْهَبَ فأبشر أهلي إلخ. وفيه في الكافر: فيُضرب بمِطْرَاقٍ من حَدِيدٍ بَينَ أُذُنَيهِ فيَصِيحُ صَيحَةً يَسْمَعُها الخلقُ غيرَ الثَّقَلَينِ».

[رواه البخاري (٤٧٩/٣، ٤٨٣)، ومسلم (٢٠٣/١٧)، وأبو داود (٤٧٥١)، والنسائي (٨٣/٤) بألفاظ متقاربة].

١١٤٨ ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، نزلت في عذاب القبر، يقال له: مَن رَبُّكَ؟ فيقول: ربِّي الله، ونبيي محمد ﷺ».

[رواه البخاري في الجنائز (٣/٤٧٥، ٤٧٦)، وفي التفسير ومسلم في الجنة (١٧/٢٠٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٥٠)، والترمذي في التفسير].

١١٤٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحَدَكم إذا ماتَ عُرِض عليه مَقْعدُه بالغداةِ والعَشِيِّ إنْ كانَ مِن أهلِ الجنَّةِ فمِنْ أهلِ الجنَّةِ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النَّارِ فمِنْ أهلِ النَّارِ، فيقَالُ: هذا مَقْعَدُكَ حتى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يومَ القيامةِ».

[رواه أحمد (٢/١١٣)، والبخاري في الجنائز وفي الرقاق (١٤/١٥٣)، ومسلم في الجنة (١٧/٢٠٠، ٢٠١) وغيرهما].

١١٥٠ ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا الذي تَحَرَّكَ له العَرْشُ، وفُتِّحَتْ لهُ أبوابُ السَّماءِ، وشهِدَه سَبعُونَ ألفاً مِنَ الملائِكة لقد ضُمَّ ضَمَّةً ثم فُرِّجَ عنه».

[رواه النسائي (٤/٨٢) بسند صحيح على شرط مسلم].

ش: في هذه الأحاديث الشريفة أمور تتعلق بالروح بعد الموت:

أولاً: أنه إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه دخل الروح في جسده وسمع قرع نعالهم وهم مولون، وهو يدل على أن الأموات يسمعون كلام الأحياء ويشعرون بهم، ولهذا أدلة كثيرة حتى أفردت بالتأليف.

ثانياً: فيها ثبوت سؤال القبر وفتنته من طرف الملكين المكلفين بذلك وأن المؤمن يثبته الله فيجيب بما كان يؤمن به ويعتقده، وأن الكافر يتلعثم ويتحير فلا يجيب.

ثالثاً: فيها ثبوت عذاب القبر للكافر ومن نحا نحوه.

رابعاً: فيها وقوع ضمة القبر وأنه لا ينجو منها مؤمن ولا كافر.

خامساً: فيها ثبوت عذاب الكافر، وتنعم المؤمن في البرزخ إلى يوم القيامة، وأن مقام كل واحد منهما يعرض عليه غدواً وعشياً.

سادساً: فيها تجسم الأعمال في صفة الرجال، فالمؤمن يأتيه عمله في صفة رجل جميل طيب الريح، حسن الهيئة فيؤنسه في قبره ويسليه في غربته والكافر وغيره بخلاف ذلك. وفيها غير ما ذكرنا.

حبس الروح المدينة وأسرُها في البرزخ

١١٥١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَفْسُ المؤمنِ مُعَلَّقَةٌ مَا كانَ عليهِ دَيْنٌ**».

[رواه أحمد (٢/٤٤٠، ٤٧٥)، والترمذي آخر الجنائز (٩٦٢)، وابن ماجه (٢٤١٣)، وابن حبان (١١٥٨) بسند حسن صحيح].

١١٥٢ ـ وعن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائةِ دِرْهَم وتركَ عِيالاً قال: فأردت أنْ أُنْفِقَهَا على عِيَالِه، فقال لي النبي ﷺ: «**إنَّ أخاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ فاقْضِهِ عَنْهُ**».

[رواه أحمد (٤/١٣٦، و٥/٧)، وابن ماجه (٢٤٣٣)، والبيهقي (١٠/١٤٢) وسنده صحيح عند أحمد، ونحوه عن سمرة عند أحمد (٥/١١، ٢٠)، وأبي داود (٣٣٤١)، والنسائي كلاهما في البيوع، وسنده حسن أو صحيح].

ش: وفي هذه الأحاديث دليل على أن الميت إذا كان عليه دَيْن يحبس به ولا يغفر له ولا يدخل الجنة حتى يؤدى عنه. هذا ولو قتل شهيداً ففي الإمارة من صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كلَّ شيءٍ إلا الدَّيْنَ**». وإذا كان هذا في الدين فكيف بغيره من الغصب والسرقة.

روح المؤمن في البرزخ

١١٥٣ ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال لأم مُبَشِّر: أوَلَمْ

تَسْمَعِي ما قال رسول الله ﷺ: «إنَّما نَسَمَةُ المُسْلِم طَيْرٌ تَعْلُقُ في شَجَرِ الجنَّة حتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى جَسَدِهِ يومَ القِيامَةِ».

[رواه أحمد (٤٥٦/٣، ٤٦٠)، والنسائي (٨٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) من طرق وأحدهما سنده صحيح. وله شاهد عن أم هانىء رواه أحمد (٤٢٤/٦، ٤٢٥) بسند حسن في الشواهد].

ش: قوله: «تعلق» بفتح التاء وضم اللام: أي ترعى.

وفي الحديث دليل على أن روح المؤمن تدخل الجنة الآن في صورة طير وتأكل من أشجارها كالشهيد، وفي ذلك خلاف بين العلماء حيث تباينت أنظارهم في مقر الأرواح الآن بالنسبة للمؤمنين، باستثناء الأنبياء والشهداء وأطفال المؤمنين فإنها في الجنة. وقد ذكرت نبذة من هذا الموضوع في كتاب: «مشاهد الموت» وسيأتي مزيد لهذا في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

ما يلحق الميت بعد موته من عمل

١١٥٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا مَاتَ الإنسانُ انقطعَ عَمَلُه إلاَّ مِنْ ثلاثٍ: صدَقَةٍ جَارِيةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

[رواه أحمد (٣٧٢/٢)، ومسلم (٨٥/١١، ٨٦)، وأبو داود (٢٨٨) كلاهما في الوصايا، والترمذي في الأحكام (١٢٤٧) بتهذيبي وغيرهم].

١١٥٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افْتُلِتَتْ نَفْسُها ولم تُوصِ، وأظُنُّها لو تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، فهلْ لَها أجْرٌ إنْ تَصدَّقْتُ عنها؟ ولِيَ أجْرٌ؟ قال: «نعم، فَتَصَدَّقْ عَنْهَا».

[رواه أحمد (٥١/٦)، والبخاري (٣١٨/٦)، ومسلم (٨٣/١١، ٨٤) كلاهما في الوصايا].

١١٥٦ ـ وعن عمرو بن العاص رحمه الله تعالى أنه أتى النبي ﷺ

فقال: يا رسول الله إن أبي أوْصَى أن يُعْتَق عنه مائةُ رقَبَةٍ، وإن هِشَاماً أعْتَقَ عنه خَمْسِينَ، وبَقيت عليه خمسُونَ أفأُعْتِقُ عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّهُ لَوْ كانَ مُسْلِماً فأعْتَقْتُمْ أو تَصَدَّقْتُم عنه أو حَجَجْتُم عنهُ بَلَغَهُ ذلِكَ**». وفي رواية: «**فلَوْ كَانَ أقَرَّ بالتَّوحيدِ فَصُمْتَ وتصدقتَ عنه نَفَعَه ذلِكَ**».

[رواه أحمد (١٨٢/٢)، وأبو داود (٢٨٨٣)، والبيهقي (٢٧٩/٦) بسند حسن].

ش: في هذه الأحاديث بيان أن الميت ينتفع بصدقته الجارية كوقف ونحوه، والعلم الذي خلفه بعده، ودعاء ولده الصالح، والصدقة عليه، وعتق الرقاب، والصوم والحج عنه، وما إلى ذلك من القرب المهداة له. وقد اختلف العلماء في وصول بعض القرب إليه كالقرآن، والصحيح أنه ينتفع به كالدعاء والاستغفار.

سبّ الأموات

١١٥٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنَّهُم قد أفْضَوا إلَى مَا قَدَّمُوا**».

[رواه أحمد (١٨٠/٦)، والبخاري (٥٠٣/٣)، والنسائي (٤٣/٤) كلاهما في الجنائز].

وفي رواية: «**لا تَسُبُّوا الأمواتَ فَتُؤْذُوا الأحْيَاءَ**».

[رواه أحمد (٢٥٢/٤) وفي مواضع، والترمذي في البر والصلة (١٨٢٦)، وابن حبان (١٩٨٧) من حديث المغيرة بن شعبة رحمه الله تعالى وسنده صحيح عند الترمذي على شرط مسلم].

ش: في الحديثين تحريم سب الأموات المسلمين لأن ذلك من أعظم الذنوب، لا سيما إذا كان فيه إذاية للأحياء كما في حديث المغيرة.

نعم استثنى العلماء جرح رواة الحديث بذكر ما فيهم، أو ذكر بدعة المبتدعة والتحذير منهم من غير تجاوز للحد.

التعزية

١١٥٨ ـ عن قُرَّةِ المُزَنِي أنَّ رجلاً كان له ولدٌ يُحِبُّه فمات، فلَقِيَهُ النبيُّ ﷺ فسأله عن بَنِيه فأخبره بأنه هَلَكَ فعَزَّاه عليه، ثم قال له: **«يا فلان أيُّمَا كانَ أحبَّ إليكَ أن تُمَتَّعَ به عُمُرَك أوْ لا تَأتِي غداً إلى بَابٍ من أبوابِ الجنَّةِ إلا وَجدتَهُ قد سَبَقَكَ إليه يَفْتَحُهُ لَكَ؟»**، قال: يا نبي الله بل يَسبِقُني إلى بابِ الجنَّةِ فيفْتَحُها لي لهو أحبُّ إليَّ. قال: **«فذاكَ لَكَ»**.

[رواه أحمد (٥/٣٥)، والنسائي (٤/٩٥، ٩٦)، والحاكم (١/٣٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي].

١١٥٩ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يَتَعَهَّدُ الأنصارَ ويَعُودُهم ويسألُ عنهم، فبلغه عن امرأةٍ مِن الأنصار ماتَ ابْنُها وليس لها غيرُه وأنها جَزِعَتْ عليه جَزَعاً شَدِيداً، فأتاها النبي ﷺ فأمرها بتقوى الله والصبر...

[رواه الحاكم (١/٣٨٤) وصححه ووافقه الذهبي].

وسيأتي حديث المرأة التي قال لها: **«إن الصَّبرَ عند الصَّدْمَةِ الأُولَى»**.

ش: التعزية مطلوبة ومُرَغَّبٌ فيها كما جاء في أحاديث، ومعناها حمل المصاب على الصبر بما يناسب من الكلام أو الموعظة.

وفي الحديثين ما كان عليه النبي ﷺ من الرحمة والشفقة وتعهده لأصحابه وسؤاله عنهم وعيادتهم وتعزيتهم فيما يصابون به.

إعداد الطعام لأهل الميت

١١٦٠ ـ عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: لما نُعِيَ جَعْفَرُ حينَ قُتِلَ قال النبي ﷺ: **«اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً فَقَدْ أتَاهُم أمْرٌ يَشْغَلُهُم أوْ أتَاهُم مَا يَشْغَلُهُم»**.

[رواه أحمد (١/٢٠٥)، وأبو داود (٣١٣٢)، والترمذي (٨٨٧)، وحسنه وصححه

وكذا الطيالسي (٨٠٨)، والحميدي (٥٣٧)، وابن ماجه (١٦١٠)].

١١٦١ ـ وعن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كنا نَعُدُّ الاجتماعَ إلى أهْلِ الميتِ وصَنِيعَةَ الطعامِ بَعْدَ دَفْنِهِ مِنَ النِّيَاحَةِ.

[رواه أحمد (٢٠٤/٢)، وابن ماجه (١٦١٢) من طرق صحيحة].

ش: الحديث الأول يدل على تهيئة الطعام والبعث به إلى أهل الميت لأنهم قد نزل بهم ما يمنعهم من القيام بإعداد الطعام... بينما الحديث الثاني يدل على أن صنيعة الطعام من أهل الميت واجتماع الناس لأجله يعد من قسم النياحة. وقد اعتاد الناس ذلك عندنا بالمغرب حتى أصبح سنة متبعة.

الإحداد على الميت

١١٦٢ ـ عن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ رضي الله تعالى عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ عَلى المِنْبرِ: «**لا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخر أنْ تُحِدَّ على مَيِّتٍ فوقَ ثلاثٍ إلا على زَوْجٍ أربعةَ أشهُر وعشراً**».

[رواه البخاري (٤١١/١١، ٤١٢)، ومسلم (١١٣/١٠) كلاهما في النكاح، ونحوه عن عائشة وحفصة وأم حبيبة وأم عطية رضوان الله عليهن وكلها في الصحيح].

ش: الإحداد ترك الزينة وما يدعو إلى النكاح من عطر وكحل وحناء وحلي وملابس لافتة... ولا يكون ذلك إلا من المرأة على زوجها أيام عدتها من الوفاة، أما غير ذلك فلا إحداد فيه، وما اعتاده الناس اليوم من الإحداد العام هو جاهلية وعادة غربية.

فضل موت الأولاد مع الصبر

١١٦٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَمُوتُ لمسلمٍ ثلاثةٌ مِنَ الولدِ فَيَلِجَ النَّارَ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ**».

[رواه البخاري (٣/٣٦٥، ٣٦٦)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٠)، والترمذي (٩٤٥) وغيرهم].

١١٦٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ النَّاسِ مِن مُسْلِمٍ يُتَوَفَّى لَهُ ثلاثَةٌ لم يَبْلُغُوا الحِنثَ إلا أدخلَهُ اللَّهُ الجنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إيَّاهُمْ**».

[رواه البخاري في الجنائز (٣/٣٦٢، ٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (١/٦١٥)].

١١٦٥ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن النساء قُلنَ للنبي ﷺ: اجْعَل لنا يَوماً فوَعَظَهُنَّ فقال: «**أيُّمَا امرأةٍ ماتَ لَها ثلاثةٌ مِنَ الولد كانُوا حِجاباً مِنَ النَّارِ**». قالت امرأة: واثنان؟ قال: «**واثنان**».

[رواه البخاري (٣/٣٦٤)، ومسلم في البر (١٦/١٨١) وفي الباب أحاديث وهي متواترة].

١١٦٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ على امرأة وهي تَبْكِي عند قَبْرٍ فقال لها: «**اصْبِرِي**»، فقالت له: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي... ثم دخلت عليه فقالت: يا رسول الله إني لم أعرفك، فقال: «**إنَّ الصَّبْرَ عند الصَّدْمَةِ الأُولَى**».

[رواه البخاري (٣/٣٩١، ٣٩٢)، ومسلم (٦/٢٢٧، ٢٢٨) كلاهما في الجنائز].

ش: قوله: «**تحلة القسم**»: أي تحليل قسم الله على ورود النار بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الآية. وقوله: «**لم يبلغوا الحنث**»: أي البلوغ بأن ماتوا أطفالاً.

وفي هذه الأحاديث فضل من مات له ثلاثة أولاد أو اثنان فاحتسب ذلك وصبر، وأن ذلك من أسباب حفظه من النار ودخوله الجنة، ولا بد من الصبر وعدم التسخط والتضجر، وذلك عندما يصدم بموت الولد، وأن يحتسب بذلك الأجر من الله عزّ وجلّ. وقد تقدم في حديث موت صبي بنت النبي ﷺ أنه قال: «**فلتصبر ولتحتسب**» رواه أحمد (٥/٢٠٤) والشيخان.

فضل المصائب وأنها كفارات للذنوب ووجوب الصبر عليها وما يقال عندها

١١٦٧ ـ عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العَبْدَ إذا سَبَقَتْ لهُ مِنَ الله منزلةٌ لم يَبْلُغْها بعَمَلِهِ، ابْتلاهُ اللهُ في جَسَدِهِ، أوْ فِي مَالِه، أو فِي وَلَدِه، ثم صَبَّرَهُ علَى ذلك حتى يَبْلُغَهُ المنْزِلَةَ التي سبَقَتْ لهُ مِنَ الله تعالى**».

[رواه أحمد (٥/٢٧٢)، وأبو داود (٣٠٩٠)، والبخاري في التاريخ (١/٧٣) وغيرهم، وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شاهداً عن أبي هريرة رواه أبو يعلى في مسنده (٤/١٤٤٧، ١٤٤٨)، وابن حبان (٦٩٣) بالموارد، والحاكم (١/٣٤٤) وسنده حسن، وصححه الحاكم ورده الذهبي فلم يصب].

١١٦٨ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِم يُصِيبُه أذَى شَوْكَةٌ فَما فَوْقَها إلا حَطَّ اللَّهُ لهُ به سيِّئاتِه كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها**».

[رواه البخاري في المرضى (١٢/٢١٤، ٢١٥)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢٧)].

١١٦٩ ـ ونحوه عن عائشة بلفظ: «**لا يُصِيبَ المؤمِنَ شَوكةٌ فما فوقَها إلا رفَعهُ اللَّهُ بها درجةً، وحَطَّ عنه بها خَطيئةً**».

[رواه الشيخان والترمذي (٨٦٠)].

١١٧٠ ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ شيءٍ يُصِيبُ المؤمنَ مِن نَصَبٍ، ولا حُزْنٍ، ولا وَصَبٍ، حتَّى الهَمِّ يَهُمُّه، إلا يُكَفِّرُ الله به عنه سيئاتِه**».

[رواه أحمد (٣/٤، ٢٤)، والبخاري في أول المرضى (١٢/٢٠٩)، ومسلم (١٦/١٣٠)، والترمذي في الجنائز (٨٦١)].

ش: «**النصَب**»: التعب. «**والوصَب**»: الوجع اللازم.

١١٧١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا يَزالُ البَلاءُ بالمُؤمِنِ والمُؤمِنَة في نَفْسِهِ، ووَلَدِه، ومالِهِ، حتى يَلْقَى اللَّهَ ومَا عليه خطيئةٌ».

[رواه أحمد (٢/٤٥٠)، والترمذي في الزهد (٢٢١٩)، والحاكم (١/٣٤٦، و٤/٣١٤)، وحسنه الترمذي وصححه، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

١١٧٢ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ عبدٍ تُصِيبُه مُصيبةٌ فيقولُ: إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ. اللَّهُمَّ آجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي».** وفي رواية: **«اللَّهُمَّ عِندَكَ أحْتَسِبُ مُصِيبَتِي فَأْجُرْنِي فِيها واخْلِفْ لِي خَيراً مِنها، إلا آجَرَهُ اللَّهُ في مُصِيبَتِه، وأخْلَفَ له خَيراً مِنْهَا».**

[رواه أحمد (٦/٣٠٩)، ومسلم (٦/٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢) وغيرهما].

ش: في هذه الأحاديث فضل ما يصاب به المؤمن من فتنة وبلاء، وأن ذلك يكون كفارة لذنوبه وأنه لا يزال يصاب في نفسه وأهله وماله حتى يلقى الله طاهراً من خطاياه. وفي ذلك من لطف الله بعبده المؤمن ورحمته به ما لا يخفى فإنه لا ينفك عن الأكدار والهموم والأحزان وأنواع البلايا في جميع حياته، بل لا يمر عليه يوم أو ليلة بدون أن يصاب بشيء، وهذا فضل عظيم. وإنما الذي يجب عليه سلوكه في ذلك هو الصبر والرجوع إلى الله تعالى وأن يقول ما أرشدنا إليه نبينا ﷺ من الاسترجاع والدعاء الواردين في حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها.

فضل عيادة المريض

١١٧٣ ـ عن ثوبان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ المُسلمَ إذا عَادَ أخَاهُ المُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الجَنَّةِ».**

[رواه أحمد (٥/٢٨٣)، ومسلم في كتاب البر (٦/١٢٤، ١٢٥)، والترمذي في الجنائز (٨٦٢)].

ش: **«خرفة الجنة»**: الثمر المجتنى منها.

١١٧٤ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِماً غُدْوَةً إلاَّ صَلَّى عليهِ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي، وإنْ عَادَ عَشِيَّةً إلاَّ صَلَّى عليه سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ حتى يُصْبِحَ، وكان له خَرِيفٌ في الجَنَّةِ**».

[رواه أبو داود (٣٠٩٩، ٣٠٠٠)، والترمذي (٨٦٣)، وابن ماجه (١٤٤٢)، والحاكم (٣٥٠/١) وسنده صحيح عند بعضهم، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: «**الخريف**»: قيل: البستان، وقيل: ما يخرف ويجتنى من الثمار.

وفي الحديثين فضل عظيم لمن عاد مريضاً مسلماً، وأن ذلك من أسباب دخول الجنة والأكل من ثمارها، وأن ألوفاً من الملائكة تستغفر له يومه أو ليلته. وفي ذلك ما يحمل على الإكثار من العيادة.

البناء والمشي والجلوس على القبور ونحو ذلك

١١٧٥ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تُجَصَّصَ القُبُورُ، وأن يُكْتَبَ عليها، وأن يُبْنَى عليها، وأن تُوطَأ.

[رواه أحمد (٢٩٥/٣)، والطيالسي (٨٠٦)، ومسلم (٣٧/٧)، وأبو داود (٣٢٢)، والترمذي (٩٣٧)، والنسائي (٧٢/٤)، وابن ماجه (١٥٦٢، ١٥٦٣) كلهم في الجنائز].

١١٧٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لأن يَجْلِسَ أحدُكم على جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إلى جِلْدِهِ خَيرٌ لهُ مِنْ أنْ يَجْلِسَ على قَبرٍ**».

[رواه مسلم (٣٧/٧، ٣٨)].

١١٧٧ ـ وعن أبي مِرْثَدٍ الغَنَوِي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**لا تُصَلُّوا إلى القُبُور، ولا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا**».

[رواه أحمد (١٣٥/٤)، ومسلم (٣٧/٧)، وأبو داود (٣٢٢٩)، والترمذي (٩٣٦)، والنسائي (٥٣/٢)].

١١٧٨ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كُنَّا في جنازة بِبَقيع الغَرْقَدِ فأتَانَا رسولُ الله ﷺ فقعد وقعدْنا حوْلَه.. الحديث رواه الشيخان وتقدم في القدر (٢٣١)، ونحوه عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانْتَهَيْنا إلى القبرِ ولمَّا يُلْحَدْ فجلسَ رسولُ الله ﷺ مُسْتَقْبلَ القبلة وجلسنا حوله إلخ. رواه الطيالسي وأبو داود وغيرهما.

ش: خلاصة هذه الأحاديث المنع من البناء على القبور أو تجصيصها أو الكتابة عليها أو المشي فوقها أو الجلوس عليها أو الصلاة إليها.

نعم المشي عليها والجلوس فوقها للحاجة كزيارة أو دفن أو نحو ذلك لا مانع منه لحديثي علي والبراء وغيرهما وما عدا ذلك فلا دليل يبيحه. مع ما في ذلك من الخلاف بين الأئمة.

زيارة القبور وما يقال عندها

١١٧٩ ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**كنتُ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيارَةِ القُبورِ فزُورُوهَا فإنَّها تُذَكِّرُ الآخِرَةِ**».

[رواه مسلم (٤٦/٧، و١٣٤/١٣)، وأبو داود (٣٢٣٥)، والترمذي (٩٣٩)، والنسائي (٧٣/٤) وكذا أحمد].

وفي رواية: «**فإنَّهَا تُرَقِّقُ القَلْبَ وتُدْمِعُ العَين وتُذَكِّرُ الآخِرَة، ولا تَقُولُوا هُجْراً**».

[رواه الحاكم (٣٧٦/١). «والهجر» بضم الهاء: الكلام القبيح الفاحش].

وفي رواية: «**فإنَّها تُذَكِّرُ المَوْتَ**».

[رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة].

١١٨٠ ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا وقف على قبرٍ بَكى حتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَه فقيل له: تَذْكُر الجنةَ والنارَ فلا تَبْكِي، وتَبْكِي من هذا؟

فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**القَبْرُ أوَّلُ مَنازِلِ الآخِرةِ، فإن يَنْجُ منه فما بَعْدَه أيسَرُ منه، وإن لم يَنْجُ منه فما بَعْدَهُ أشَدُّ منه**». قال: وقال رسول الله ﷺ: «**واللَّهِ ما رأيتُ مَنْظَراً قَطّ إلا والقَبْرُ أفْظَعُ مِنهُ**».

[رواه أحمد (١/٦٣، ٦٤)، والترمذي (٢١٣٠)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والحاكم (١/٣٧١، و٤/٣٣٠، ٣٣١) في الرقاق، والبيهقي (٤/٥٦) وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١١٨١ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «**السلامُ عليكُم أهلَ الدِّيارِ مِن المُؤمنين والمُسلمين وإنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُم لاَحِقُونَ أسْألُ اللَّهَ لَنَا ولَكُم العافِيَةَ**».

[رواه مسلم (٧/٤٥)].

١١٨٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ جِبريلَ أتَاني فقال: إنَّ ربَّكَ يأمُرُكَ أن تأتِي أهلَ البَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لهُم**»، قالت: قلت: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولِي: السَّلامُ على أهلِ الدِّيارِ مِنَ المؤمِنينَ والمُسلِمين، ويرحمُ الله المُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا والمُسْتَأْخِرِينَ، وإنَّا إنْ شاءَ اللَّهُ بِكُم لَلاَحِقُونَ**».

[رواه مسلم (٧/٤٤) مطولاً].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية زيارة القبور، لأنها تذكر الموت والآخرة وترقق القلوب. ولا فرق في ذلك بين الذكور والإناث، لأن الكل يحتاج إلى الاعتبار والعظمة خاصة وأن القبور أمرها فظيع ولأنها أول منازل الآخرة.

وحديث: «**لعن الله زوارات القبور**» منسوخ عند الجمهور بحديث بريدة. وفي حديثي بريدة وعائشة سنية السلام على أهل المقابر والدعاء معهم والاستغفار لهم. وفي ذلك دليل على أن الأرواح تشعر بالزائرين والمسلمين عليها وأنها موجودة غير فانية. وهذا مع كونه له أدلة كثيرة لا ينبغي أن يختلف فيه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

كمل كتاب الجنائز

خاتمة: جميع ما في كتاب الصلاة وتوابعها حتى آخر الجنائز من الزوائد الصحيحة نحو مائتين ونيف وأربعين حديثاً وباقيها مما أخرجه الشيخان أو أحدهما وعلى نحو سبعماية وسبعين، والله تعالى أعلم.

كتاب الزكاة

وجوبها

١١٨٣ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ لما بَعَثَ مُعاذاً على اليَمنِ قال: «**إنَّكَ تَقْدَمُ على قوم أهلِ كتاب، فلْيَكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إليه عبادةُ الله، فإذا عَرفوا الله فأخْبِرْهُم أن الله قد فَرَضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في يومِهم وليلتهم، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاةً تُؤخذُ من أموالهم وتُرَدُّ على فُقرائِهم، فإذا أطَاعُوا بها فخُذْ منهم وتَوَقَّ كَرَائِمَ أموالِ النَّاسِ..**».

[رواه البخاري في الزكاة (٦٤/٤، ١٠٠) وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (١٩٦/١، ٢٠٠)].

١١٨٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكَفَر مَن كفر مِن العرَب فقال عُمر: كيف تُقاتِلُ الناسَ؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لا إلَه إلاَّ الله، فمن قالها فقد عَصَم مِنِّي مَالَهُ ونَفْسَهُ إلا بحقِّه وحسابُه على الله**»، فقال: والله لأُقَاتِلَنَّ مَن فرَّق بين الصلاةِ والزكاةِ، فإن الزكاةَ حَقُّ المال، والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يُؤَدُّونَها إلى رسول الله ﷺ لقاتَلْتُهُم على مَنْعِها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قَدْ شَرَح اللَّهُ صدرَ أبي بكر فعرفتُ أنه الحقُّ.

[رواه البخاري في الزكاة وفي استتابة المرتدين وفي الاعتصام، ومسلم في الإيمان وهو حديث متواتر].

ش: في الحديثين وجوب الزكاة ولا خلاف أنها من قواعد الإسلام وأُسسِه، وقد تقدم في كتاب الإيمان أحاديث في ذلك فارجع إليه.

وأجمع الصحابة فمن بعدهم على قتال مانعها، كما أجمعوا على كفر من أنكرها.

وعيد مانعي الزكاة

١١٨٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أتاهُ اللَّهُ مَالاً فلَمْ يؤدِّ زكَاتَهُ مُثِّلَ لهُ يومَ القِيامة شُجَاعاً أقْرَعَ له زَبِيبَتَانَ يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثم يأخذُ بِلِهْزِمَتيه ـ يعني بِشَدْقَيْه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كَنزُكَ، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾».

[رواه البخاري في الزكاة (١٢/٤)، وفي التفسير (٢٩٨/٩)، ومسلم في الزكاة (٧٢/٧) وغيرهما].

١١٨٦ ـ وعنه أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن صَاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّها إلا إذا كانَ يومُ القيامة صُفِّحَتْ لهُ صَفَائِحُ مِن نَارٍ فَأُحْمِي عليها في نارِ جهنَّم فيُكْوَى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهْرُه، كُلَّمَا رُدَّتْ أُعِيدَتْ لهُ في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقْضَى بين العِبادِ، فيَرى سَبِيلَه إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ، ولا صَاحِب إبلٍ لا يُؤَدِّي منها حقَّها، ومِن حَقِّها حَلْبُها يومَ وُرْدِها إلا إذا كان يومُ القيامة بُطِحَ له بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كانَت، لا يَفْقِد منها فَصِيلاً واحِداً تَطَؤُه بأخْفَافِها، وتَعَضُّهُ بأفْوَاهِها كُلَّما مَرَّ عليه أُخْرَاهَا رُدَّ عليه أولاَها في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقْضى بين العباد، فيَرى سبيله إمَّا إلىَ الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ ولا صَاحِبِ بَقَرٍ ولا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كانَ يومُ القيامةِ بُطِحَ لهُ

بِقاعٍ قَرْقَرٍ لا يَفْقِدُ مِنها شيئاً، ليسَ فيها عَقْصَاءُ ولا جَلْحَاءُ ولا عَضْبَاء، تَنْطَحُه بقُرونها وتَطؤُه بأظْلافِها، كُلَّما مَرَّ عليه أخراها رُدَّ عليه أولاها في يومٍ كانَ مقداره خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقضَى بينَ العبادِ، فَيرى سبيله إمَّا إلىَ الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ».

[رواه أحمد (٢/٢٦٢، ٢٦٣)، ومسلم (٧/٦٤، ٦٨) وغيرهما مطولاً، وروى البخاري بعضه في الزكاة مختصراً (٤/١٠)].

ش: قوله: «**شجاعاً أقرع**»: يعني ثعباناً عظيماً شديد السم وهو أخبث الثعابين. وقوله: «**يطوقه**»: يعني يجعل طوقاً في عنقه يلتوي عليه. قوله: «**بطح لها**»: أي ألقي على وجهه أو ظهره. وقوله: «**بقاع قرقر**»: هما المستوي من الأرض الواسع.

وفي الحديثين وعيد شديد بالغ لتاركي الزكاة ومانعيها، وأنه سيعذب بمالِه ويُنوع له به العذابُ، أعاذنا الله من ذلك آمين.

الأنواع التي تجب فيها الزكاة والقدر الذي تجب فيه

١١٨٧ ـ عن سيدنا علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كانَ لَكَ مائتا درهم وحالَ عليها الحولُ فَفِيها خمسةُ دراهمَ، وليسَ عليكَ شيءٌ حتَّى يكونَ لكَ عِشْرُونَ دِيناراً وحالَ عليها الحولُ ففِيها نصفُ دينارٍ**».

[رواه أبو داود (١٥٧٣) بسند حسن. وقد روى من طرق، ولذا صححه البخاري وحسنه الحافظ].

١١٨٨ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليسَ فيها دُونَ خمسةِ أوسُقٍ من التَّمرِ صدقةٌ، وليسَ فيما دُونَ خَمْسِ أواقٍ من الوَرِقِ صدقةٌ، وليسَ فيها دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ مِنَ الإبلِ صدقةٌ**».

[رواه البخاري (٤/٦٥، ٩٣)، ومسلم (٧/٥٢، ٥٣) كلاهما في الزكاة ونحوه عن جابر عند مسلم].

١١٨٩ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فِي كُلِّ ثَلاثِين مِن البقرِ تبيعٌ أو تَبِيعَةٌ، وفي كلِّ أرْبَعينَ مُسِنَّةٌ**».

[رواه الترمذي (٥٥٤)، وابن ماجه (١٨٠٤)، وابن الجارود (٣٤٤) وهو حديث حسن لشاهد له حسن صحيح عن معاذ بن جبل رواه أحمد وأبو داود (١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨)، والترمذي (٥٥٥)، والنسائي (١٧/٥، ١٨)، وابن ماجه (١٨٠٣)، والحاكم (٣٩٨/١) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وسيأتي وتقدم حديث أبي هريرة: «ما من صاحب إبل، ولا بقر، ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة..» إلخ، «وما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة..» إلخ رواياه].

١١٩٠ ـ وعن أبي بردة، عن أبي موسى، ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ بعثهما إلى اليمن فأمرهما أن يُعلِّما الناسَ أمْرَ دِينِهم وقال: «**لا تأخُذا في الصَّدقةِ إلا مِنْ هذِه الأصنافِ الأربعةِ: الشَّعِيرِ والحِنطَةِ والزَّبِيبِ والتَّمْرِ**».

[رواه الحاكم (٤٠١/١) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في «الكبرى» (١٢٥/٤)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١١٥/٥) من طرق. وقال: رواته ثقات وهو متصل].

١١٩١ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: إنما سنَّ رسول الله ﷺ الزكاة في الحنطةِ والشعير والتمرِ والزبيب.

[رواه ابن ماجه (١٨١٥)، والدارقطني (٩٤/٢)، وهو وإن كان فيه ضعف فقد أورد الهيثمي في «المجمع» (١٢٩/٤) عدة مراسيل وقال: هذه الأحاديث كلها مراسيل إلا أنها من طرق مختلفة فبعضها يؤكد بعضاً].

١١٩٢ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه أخذ من العسل العشر.

[رواه أبو داود (١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢)، والنسائي (٣٤/٥) من طرق هو بها حسن صحيح].

١١٩٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**وفي الرِّكازِ الخُمُس**».

[رواه البخاري في الزكاة (١٠٧/٤، ١٠٨)، وفي الديات، ومسلم في الحدود (٢٢٥/١١)، وأبو داود (٤٥٩٣)، والترمذي (٥٦٨) وباقي الجماعة ويأتي كاملاً].

ش: في أحاديث هذا الفصل بيان الأنواع التي تجب فيها الزكاة، وهي ما بين متفق عليها ومختلف فيها: أحد عشر صنفاً.

فالمتفق على وجوب الزكاة فيها هي: الذهب، والفضة، والإبل، والبقر، والغنم، والحنطة، والشعير، والتمر والزبيب. نقل الإجماع على ذلك ابن قدامة، وابن رشد، والنووي رحمهم الله تعالى، غير أن ابن حزم رحمه الله تعالى خالف في الزبيب فلا يقول بالزكاة فيه.

والمختلف فيها: العسل. ولم يقل به إلا أحمد، وأبو حنيفة رحمهما الله. أما الركاز فلا خلاف في أخذ الخمس منه، وهو ملحق بالزكاة.

واختلفت أنظار الأئمة رحمهم الله في غير ما ذكر من الحبوب كالسُلت، والذُرَة، والقطاني مثل: العدس، والفول، والحمص، واللوبيا وغيرها، والخضراوات والبقولات والفواكه... فقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بالزكاة في الجميع، وشاركه مالك رحمه الله في غير الخضراوات والبقولات والفواكه ولكل نظره. أما زكاة العروض والتجارة رغم أنه لم يأت فيها نص خاص فقال الأئمة الأربعة بوجوبها، وبه قال الفقهاء السبعة من أهل المدينة بل نقل ابن المنذر الإجماع عليه للأدلة العامة الدالة على وجوب الزكاة في المال ومنه عروض التجارة.

ما يجب فيه العشر أو نصفه من المحصولات الزراعية والثمار

١١٩٤ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: **«فِيما سَقَتْ السَّماءُ والعيونُ أو كانَ عَثرِياً العُشُر، وفيما سُقِيَ بالنَّضحِ نِصفُ العُشرِ»**.

[رواه البخاري (٤/٩٠، ٩١)، وأبو داود (١٥٩٦) وغيرهما وهو في مسلم عن جابر بنحوه].

ش: قوله: «**عثرياً**»: هو ما يشرب بعروقه من الأرض من غير سقي. قوله: «**سقي بالنضح**»: وهو ما يسقى بالدواب وغيرها على عادة العرب.

والحديث يدل على التفرقة في المحصولات الزراعية، وأن ما سقي بالمطر أو بعروقه فيه العشر كاملاً، وما سقي بكلفة ومشقة كان الواجب فيه نصف العشر فقط.

نصاب الحبوب والثمار

١١٩٥ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَيسَ فِيمَا دُونَ خَمسةِ أَوْسُقٍ مِن تَمْرٍ ولا حَبٍّ صدقةٌ**».

[رواه مسلم (٧/٥٢) وتقدم مطولاً عند الشيخين بسياق آخر].

ش: «**خمسة أوسق**»: هي ثلاثمائة صاع وهو نصاب محصولات الثمار والزروع بالإجماع.

نصاب الذهب والفضة

١١٩٦ ـ عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا كانتْ لكَ مائتَا دِرهمٍ وحالَ عليها الحولُ ففِيه خمسةُ دراهمَ، وليسَ عليكَ شيءٌ** ـ يعني في الذهبِ ـ **حتى يكون لك عشرونَ ديناراً وحالَ عليها الحولُ ففِيها نِصفُ دِينارٍ**».

[رواه أبو داود (١٥٧٣) وغيره، وهو حديث صحيح وقد تقدم].

ش: هذا النصاب والواجب فيه مجمع عليهما أيضاً.

نصاب الإبل والغنم وما يجب في ذلك

١١٩٧ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كتب له هذا الكتاب لما وجَّهه إلى البحرين: بسم الله الرحمن الرحيم: هَذِه فريضةُ الصدقةِ التي فرض رسولُ الله ﷺ على المسلمين والتي أمَرَ اللَّهُ رسولَه ﷺ فمن سُئِلَها من المسلمين على وَجْهِها فلْيُعْطِها، ومن سُئِل فوقَها فلا يُعْطِ: في أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم، من كل خَمْسٍ شاةٌ، فإذا بلَغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنتُ مخاضٍ أُنْثَى، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنتُ لبونٍ أُنْثَى، فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين ففيها حِقَّة طَرُوقَةُ الجمَل، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جَذَعَةٌ، فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لَبُون، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة، ففيهل حِقَّتان طَرُوقَتَا الجَمَل، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنتُ لبون وفي كل خمسين حقةٌ، ومن لم يكن معه إلا أربعٌ من الإبل فليس فيها صدقةٌ إلا أن يشاء ربُّها، فإذا بلغت خمساً ففيها شاةٌ، ومن بلغت عنده من الإبل صدقةُ الجذعةِ وليست عنده جذعةٌ، وعنده حقَّةٌ، فإنها تُقْبلَ منه الحِقَّةُ ويَجْعَلُ معها شاتَين إن اسْتَيْسَرَتَا له أو عشرين درهماً، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده الحقة وعنده الجذعة فإنها تُقبل منه الجذعة ويعطيه المُصَدِّق عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت عنده صدقةُ الحقة وليست عنده إلا بنتُ لبون فإنها تقبل منه بنت لبون ويُعطِي مَعها شاتين أو عشرين درهماً، ومن بلغت صدقته بنت لبون وعنده حقة فإنها تقبل منه الحقة ويعطيه المُصدِّق عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت صدقته بنت لبون وليست عنده وعنده بنت مخاض فإنها تقبل منه بنت مخاض ويُعطِي معها عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده وعنده بنت لبون فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين، فإن لم تكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن

لبون فإنه يقبل منه وليس معه شيء. وفي صدقة الغنم في سائِمَتِها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاةٌ فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه، فإذا زادت على ثلاثمائةٍ ففي كل مائة شاةٌ، فإذا كانت سائمةُ الرجل ناقصةً من أربعين شاةً واحدةً فليس فيها صدقةٌ إلا أن يشاء ربُّها، ولا تُخْرَجُ في الصدقة هَرِمَة ولا ذَاتُ عَوَارٍ ولا تَيْسٌ، إلا ما شاء المصدق، ولا يُجْمَعُ بين مُتَفَرِّقٍ، ولا يُفَرَّقُ بين مُجْتَمع خشيةَ الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. وفي الرِّقةِ ربعُ العشر، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها شيء إلا أن يشاء ربها.

[رواه البخاري (٤/٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢)، وأبو داود (١٥٦٧)، والنسائي (٥/١٣، ١٤، ١٩) كلهم في الزكاة. وذكره البخاري مقطعاً في مواضع].

ش: **«بنت مخاض»**: هي التي تمت لها سنة. **«بنت لبون»**: من تمت لها سنتان ودخلت في الثالثة. **«حقة»** بكسر الحاء: هي التي دخلت في السنة الرابعة. **«وطروقة الجمل»**: أي مركوبة للفحل. **«جذعة»** بفتحات: هي التي دخلت في الخامسة. **«في سائمتها»**: السائمة من الغنم هي الراعية غير المعلوفة. **«هرمة»**: هي الطاعنة في السن. **«ذات عوار»**: أي صاحبة عيب. **«المصدق»** بتخفيف الصاد المفتوحة وتشديد الدال: هو العامل على الصدقة. **«الرقة»**: هي الدراهيم المضروبة من الورق.

وفي هذا الحديث الشريف بيان لأنْصِبَةِ الإبلِ والغنمِ والورقِ ـ الفضةِ، ولا خلاف في ذلك يعتبر. وفيه أحكام وفوائد تطلب من شروح الحديث.

نصاب البقر

١١٩٨ ـ فعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأمرني أن آخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعةً، ومن كل أربعين مُسِنَّة.

[رواه الأربعة، والحاكم وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وانظر ما سبق].

ش: «**تبيع أو تبيعة**»: هما من البقر ما تمت لهما سنة. «**مسنة**»: هي التي لها سنتان ودخلت في الثالثة.

وفي الحديث بيان نصاب البقر وما يجب إخراجه فيه، ولا خلاف فيه أيضاً.

زكاة الحلي

١١٩٩ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن امرأة أتت رسول الله ﷺ ومعها ابنة لها، وفي يدِ ابْنَتِها مَسَكَتَان غَلِيظَان من ذهب فقال: «**أتُعْطِينَ زكاةَ هذا؟**»، قالت: لا، قال: «**أيَسُرُّكِ أن يُسَوِّرَكِ اللهُ بهما يومَ القيامةِ سِوَارَيْنِ مِن نَارٍ؟**»، قال: فخلعتهما فألقتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله عزّ وجلّ ولرسوله.

[رواه أبو داود (١٥٦٣)، وعبدالرزاق في المصنف (٧٠٦٥)، وكذا الترمذي (٥٦٣) وسنده حسن عند الأولين والحديث حسن وصححه جماعة كالنووي وابن القطان والمنذري وابن الملقن والحافظ].

١٢٠٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فرأى في يدي فَتَخَاتٍ مِن ورقٍ فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**»، فقلت: صَنَعْتُهُنَّ أتَزَيَّنُ لكَ يا رسول الله، قال: «**أتُؤَدِّينَ زكاتَهُنَّ؟**»، قلتُ: لا، أو ما شاء الله، قال: «**هو حَسْبُكِ مِنَ النَّارِ**».

[رواه أبو داود (١٥٦٥)، والبيهقي في «معرفة السنن» (١٤٣/٦)، والحاكم (٣٩٠/١) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وحسنه النووي في «شرح المهذب» (٣١/٦)، وفي الباب عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عند أبي داود (١٥٦٤) والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

ش: قوله: «**مسكتان**» بفتحات: هما سواران غليظان. وقوله: «**فتخات**»: جمع فتخة وهي خواتم.

والحديثان يدلان على وجوب الزكاة في الحلي من الذهب والفضة، ولو كان للاستعمال، وبه قال جماعة كالحنفية وغيرهم، ولم ير الجمهور ذلك، والأظهر الوجوب.

زكاة عسل النحل

١٢٠١ ـ عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء هلال أحد بني منعان إلى رسول الله ﷺ بعُشُورِ نَحْلٍ لَهُ، وكان سأله أن يَحْمِي له وادياً يُقال له سَلَبَة فحَمَى له رسولُ الله ﷺ ذلك الوادي، فلما ولِيَ عُمَر كتب سفيان بن وهب إلى عُمَر يسألهُ عن ذلك، فكتب عُمر رضي الله تعالى عنه: إن أدَّى إليكَ ما كان يُؤَدّي إلى رسول الله ﷺ من عُشورِ نَحْلِه فاحْمِ له سَلَبَه وإلاَّ فإنما هو ذُبابُ غَيْثٍ يأكلُه من يَشاءُ.

[رواه أبو داود (١٦٠٠)، والنسائي (٣٤/٥)، وسنده حسن، وفي رواية لأبي داود (١٦٠١) زيادة من كل عَشْرِ قِرَبٍ قِرْبَةٌ إلخ، وله شاهد عن ابن عمر عنه ﷺ قال: «في العسل في كل عشرَةِ أزْقٍ زِقٌّ» رواه الترمذي (٥٥٩) وفي سنده ضعف].

ش: والحديث يدل على وجوب الزكاة في العسل، تؤخذ قربة من كل عشر قرب، وبهذا قال أحمد وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى.

زكاة الركاز والمعادن

١٢٠٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«جُرْحُ العَجْمَاءِ جُبَارٌ، والبِئْرُ جُبَارٌ، والمعدنُ جبارٌ، وفي الرِّكاز الخُمُسُ»**.

[رواه البخاري في الزكاة، وفي الشرب، وفي الديات، ومسلم في الحدود، باب جرح العجماء (٢٢٤/١١، ٢٢٥)].

١٢٠٣ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال في كنز وجده رجل في خربة جاهليةٍ: **«إنْ وَجَدْتَه في قَرْيَةٍ مَسْكُونَةٍ أو سَبِيلٍ**

مِيتاء فعَرُفه، وإن وجَدته في خربةٍ جاهليةٍ، أو في قريةٍ غيرِ مسكونَةٍ ففيه وفي الرِّكاز الخُمُس».

[رواه أبو داود في اللقطة (١٧١٠)، وأحمد رقم (٦٦٨٣، ٦٩٣٦)، والبيهقي (١٥٥/٤) وسنده حسن].

١٢٠٤ ـ وعن ربيعة بن أبي عبدالرحمن رحمه الله تعالى عن غير واحد من علمائهم، أن رسول الله ﷺ أَقْطَعَ لِبلال بن الحارِثِ المُزَنِي مَعَادِن القَبَلِية وهي من ناحية الفرع، فتلك المعادن لا يؤخذ منها إلا الزكاة إلى اليوم.

[رواه مالك وأبو داود (٣٠٦١)، وأبو عبيدة في «الأموال» (٣٣٨) وهو مرسل صحيح].

ش: قوله: **«العجماء»**: هي البهيمة. وقوله: **«جبار»**: أي هدر. ومعناه: أن من أصيب بهذه الثلاثة لا ضمان على أصحابها ولا دية ولا قود لمن أصيب بذلك. قوله: **«الركاز»** بكسر الراء: هو دفن الجاهلية.

والحديثان الأولان يدلان على وجوب الخمس فيما يوجد من الدفائين إذا وجدت في أرض ميتة لا ملك لأحد عليها وإلا وجب تعريفها كاللقطة.

والحديث الأخير يدل على وجوب الزكاة في المعادن. واختلف في ذلك الأئمة رحمهم الله تعالى مع تفاصيل لهم في ذلك.

ما يشترط له مرور الحول وما لا زكاة فيه

١٢٠٥ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ اسْتَفَادَ مالاً فلا زكاةَ عليهِ حتى يَحُولَ عليهِ الحَولُ».**

[رواه الترمذي (٥٦٠) من طريقين مرفوعاً وموقوفاً وسند الموقوف صحيح وله حكم الرفع وتقدم حديث الإمام علي عليه السلام رقم (١١٩٠) وفيه: **«وحال عليها الحول»**، وهو حديث صحيح].

١٢٠٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليسَ على المسلِمِ في فَرَسِه ولا في مملوكه صدقةٌ»**.

[رواه البخاري (٦٩/٤)، ومسلم (٥٥/٧)، وأهل السنن في الزكاة].

١٢٠٧ ـ وعنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الحَمِير فيها الزكاة؟ فقال: **«ما جاءَنِي فيها شيءٌ إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾»**.

[رواه البخاري في الجهاد، وفي الأنبياء، وفي المناقب، وفي الاعتصام، وفي التفسير (٣٥٦/١٠، ٣٥٧)، ومسلم في الزكاة (٦٧/٧) مطولاً].

١٢٠٨ ـ وعنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا أدَّيْتَ زكاةَ مالِكَ فقد قَضَيْتَ مَا عليكَ»**.

[رواه الترمذي (٥٥٠)، وابن ماجه (١٧٨٨)، وابن حبان (٣٢١٦) مع الإحسان، والحاكم (٣٩٠/١)، والبيهقي (٨٤/٤) بسند حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أم سلمة رواه أبو داود (١٥٦٤)، والحاكم (٣٩٠/١) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي وشاهد ثان عن جابر رواه الحاكم (٣٩٠/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

ش: الحديث الأول يدل على اشتراط مرور الحول لوجوب الزكاة في المال، وهو قول الجماهير، غير أن ذلك خاص بالنقدين والمواشي، أما الحبوب والثمار فالوجوب يتعلق بحصادها وجنيها.

والحديث الثاني والثالث يدلان على أن الخيل والحمير والرقيق لا زكاة فيها، وهو قول كافة العلماء إلا من شذ منهم. واتفقوا أيضاً أنه لا زكاة في جميع الحيوانات الأخرى كالبغال مثلاً والطيور كالدجاج والحمام، وكذا الغزلان والأروى والأرانب.

والحديث الأخير يدل على كل ما سبق، وأن من أدى زكاة ما يجب عليه فقد قضى ما لزمه، ولا يجب عليه شيء آخر.

خرص الثمار والحبوب وترك الثلث أو الربع

١٢٠٩ ـ عن أبي حُمَيْد السّاعِدي رضي الله تعالى عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة تَبُوك، فلما جاء وادِي القُرى إذا امرأةٌ في حديقةٍ لها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**اخْرُصُوا**». وخَرَص رسولُ الله ﷺ عشرةَ أوسُقٍ فقال لها: «**احْصِي ما يَخْرُجُ مِنها..**» فلما أتى وادي القرى قال للمرأة: «**كم جاء حديقتُك؟**»، قالت: عشرة أوسق، خرص رسول الله ﷺ.. الحديث.

[رواه أحمد (٤٢٤/٥، ٤٢٥)، والبخاري في الزكاة (٨٧/٤، ٨٨)، ومسلم في الفضائل (٤١/١٥، ٤٣)].

١٢١٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق وزعم أن اليهود لما خيرهم ابن رواحة أخذوا الثمر وعليهم عشرون ألف وسق.

[رواه أحمد (٢٩٦/٣)، وابن أبي شيبة (١٩٤/٣)، والبيهقي (١٢٣/٤) بسند صحيح].

١٢١١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ يبعث ابن رواحة إلى اليهود فيَخْرُص عليهم النخل حين يَطِيبُ قبل أن يُؤكلَ منه ثم يُخَيِّرُونَ يهود أيأخذونه بذلك الخرْص أم يَدْفَعُونَه إليهم بذلك؟ وإنما كان أمر النبي ﷺ بالخرص لِكَيْ يحْصِي الزكاةَ قبل أن تُؤكل الثَّمَرة وتُفَرَّق.

[رواه أحمد (١٦٣/٦)، وأبو داود (١٦٠٦)، والبيهقي (١٢٣/٤) ورجاله ثقات ولا يضر انقطاعه للحديث السابق ولشاهد آخر عن عتاب بن أسيد عند أبي داود (١٦٠٤)، والترمذي (٥٧٠)، وابن ماجه (١٨١٩)، وابن خزيمة (٢٣١٦)، والحاكم (٥٩٥/٣) وغيرهم من طرق].

١٢١٢ ـ وعن سهل بن أبي حَثْمَة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**إذا خَرَصْتُم فَخُذُوا أوْ دَعُوا الثُّلُثَ، فإنْ لَم تَدَعُوا الثُّلُثَ فدَعُوا الرُّبُعَ**».

[رواه أحمد (٢/٤، ٣، ٤٤٨)، وأبو داود (١٦٠٥)، والترمذي (٥٦٩)، والنسائي (٣٢/٥)، وابن حبان (٧٩٨) بالموارد، وابن الجارود (٣٥٢)، والحاكم (٤٠٢/١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله شواهد].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية خرص الثمار والزروع. والمراد حزرها وتقدير ما يخرج منها من المحصولات خشية أن يكتم بعضها الفلاحون والزراعون.

وفي الحديث الأخير مشروعية ترك ثلث المحصولات أو ربعها بلا خرص لأنه قد يحتاج أهلها إلى الأكل منها قبل التصفية.

إخراج الزكاة قبل وقتها

١٢١٣ ـ عن علي عليه السلام أن العباس رضي الله تعالى عنه سأل رسول الله ﷺ في تعجيل صدقته قبل أن يحل، فرخص له في ذلك.

[رواه أحمد (١٠٤/١)، وأبو داود (١٦٢٤)، والترمذي (٥٩٩)، وابن ماجه (١٧٩٥)، والبيهقي (١١١/٤) وسنده حسن لحجيَّة بن عدي وله أيضاً طرق وشواهد].

ش: والحديث يدل على جواز تعجيل إخراج الزكاة قبل أن يحل وقتها، وبه قال أكثر الأئمة والعلماء.

أحكام جباة الزكاة

١٢١٤ ـ عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«العَامِلُ علَى الصَّدَقَةِ بِالحَقِّ كَالغازِي فِي سبيلِ الله حتَّى يرجعَ إلى بيتِهِ»**.

[رواه أبو داود (٢٩٣٦) في الخراج، والترمذي (٥٧٢)، وابن ماجه (١٨٠٩) في الزكاة، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم (٤٠٦/١) على شرط مسلم، وابن إسحاق صرح بالتحديث عند أحمد (١٤٣/٤)].

١٢١٥ ـ وعن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتاكُم المُصَدِّقُ فَلا يُفارقَنَّكُم إلا عَنْ رِضًى**».

[رواه أحمد (٣٦٥/٤)، ومسلم في الزكاة (٧٢/٧، ٧٣، ١٨٦)].

وفي رواية لمسلم: «**فَلْيَصْدُر عَنكُم وهو عَنْكُم رَاضٍ**».

١٢١٦ ـ وعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأُسْدِ يقال له: ابن اللُّتْبِيَةِ، على الصدقةِ فلما قدِم قال: هذا لكُم وهذا أُهْدِي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «**ما بَالُ العامِلِ نبعثُه على بعضِ أعمالِنا فيقولُ: هذا لكُم وهذا لي، فَهَلاَّ جلسَ في بيتِ أبيهِ، أو بيتِ أمِّه، فينْظُرَ يُهدى إليه أمْ لا؟ والَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ لا يأخذُ أحدٌ منها شيئاً إلاَّ جاءَ به يومَ القيامةِ يَحْمِلُه على رَقَبَتِهِ، إنْ كان بَعيراً له رُغَاءٌ، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شاةً تَيْعَرُ**»، ثم رفعَ يَدَيْه حتى رأينا عُفْرَةَ إبْطَيْه، ثم قال: «**اللَّهم هل بلَّغْتُ، اللَّهمَّ هل بلغْتُ**».

[رواه البخاري في الجمعة وفي الزكاة (١٠٨/٤) وفي الأحكام].

ش: الحديث الأول يدل على فضل جباية الزكوات وأن العامل على جمع ذلك يعطى فضل الغازي في سبيل الله إذا أدى حق الله وأَخْلَصَ في ذلك.

أما الحديث الثاني ففيه مشروعية معاملة السعاة بما يرضيهم وأن يعفى عنهم إذا صدر منهم بعض الظلم كما يدل لذلك أول الحديث فإن فيه: جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن ناساً من المُصَدِّقين يأتوننا فيظلموننا، فقال رسول الله ﷺ: «**أرضوا..**» إلخ، فينبغي ملاطفتهم، ولين الجانب لهم.

أما الحديث الأخير فيدل على تحريم ما يأخذه العمال من الهدايا، وأن من أخذ شيئاً مما يُهدَى إليه لأجل عمله جاء به يوم القيامة يحمل على رقبته.

دعاء الإمام أو الساعي مع دافع الزكاة

١٢١٧ ـ عن عبدالله بن أبي أوْفى رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قومٌ بِصدقةٍ قال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عليهم**»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللَّهُمَّ صلِّ على آل أبي أوْفَى**».

[رواه البخاري في غزوة الحديبية، وفي الدعوات، وفي الزكاة (١٠٤/٤)، ومسلم في الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقته (١٨٤/٧)].

ش: وفي الحديث مشروعية الدعاء مع دافع الزكاة وهو مستحب عند الجمهور. وقال الظاهرية: واجب. وأخذ منه بعض أهل العلم جواز الصلاة استقلالاً على غير الأنبياء وفي المسألة كلام طويل.

المعتدي في الصدقة

١٢١٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المُعْتَدِي في الصَّدقةِ كمَانِعِهَا**».

[رواه أبو داود (٥٨٥)، والترمذي (٥٧٣) وغيرهما وسنده حسن].

ش: المعتدي في الصدقة يكون بأخذ كرائم الأموال، والاعتداء على أربابها بالشتائم والسباب، وتحميلهم ما لا يجب عليهم ولا يطيقونه من الضيافة وغير ذلك.

زكاة الفطر

١٢١٩ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنا نُخْرِجُ زكاة الفطر إذْ كان فينا رسولُ الله ﷺ صاعاً من طعام، أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من تَمْرٍ، أو صاعاً من زَبيبٍ، أو صاعاً من أقِطٍ.

[رواه الطيالسي (٨٤٩)، والبخاري (١١٤/٤، ١١٥)، ومسلم (٦١/٧، ٦٣) وباقي الجماعة، والدارمي، ومالك، وابن الجارود (٣٥٧، ٣٥٨)].

١٢٢٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على الحُر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين، وأمر بها أن تُؤَدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة.

[رواه البخاري (١١٤/٤، ١١٥، ١١٨)، ومسلم (٥٧/٧، ٦٣) وباقي الجماعة].

ش: في الحديثين دليل على فرضية زكاة الفطر وهو مذهب عامة الأئمة وعلى أنها واجبة على كل مسلم من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، وأن الواجب منها صاع مما يقتاته الناس من الزروع والثمار، ويجب أن تخرج قبل صلاة العيد.

واختلف في إخراج القيمة فذهب أبو حنيفة والأوزاعي وغيرهما إلى جوازها. وقال الجمهور بعدم ذلك، والظاهر أن الحق مع الأولين نظراً لمصلحة الفقير.

مصاريف الزكاة ومن لا تحل له

١٢٢١ ـ عن عُبَيْدِالله بن عَدِي بن الخِيَار رحمه الله تعالى أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسولَ الله ﷺ فسألاه مِن الصدقة فصعَّد فيهما وصَوَّب فقال: **«إنْ شِئتُما أعطَيتُكُما، ولا حظَّ فيها لِغَنِيّ، ولا لذِي قُوَّة مُكْتَسِبٍ»**.

[رواه أحمد (٢٢٤/٤، و٣٦٢/٥)، وأبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٧٤/٥) بسند صحيح].

١٢٢٢ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تَحِلُّ الصَّدقةُ لِغَنِيٍّ إلاَّ لخمسةٍ: لِغازٍ في سَبيلِ الله، أوْ لِغَارِمٍ، أو رجُلٍ اشْتَراها بِمَالِهِ، أو رجلٍ له جارٌ مِسكينٌ، فتُصُدِّقَ علَى المِسكينِ، فأهْدَى المِسكينُ لِلْغَنِيِّ، أو لِعَامِلٍ علَيها»**.

[رواه أحمد (٣١/٣)، وأبو داود (١٦٣٦)، وابن ماجه (١٨٤١) بسند صحيح].

ش: مصاريف الزكاة فَصَّلها الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم في قوله

عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

فهؤلاء أصناف ثمانية هم مصاريف الزكوات، ولا حظ فيها لغيرهم إلا ما استثني. وحديثا الباب يدلان على أن القوي الذي له سبب يكتسب به لا يعطى منها، وكذا الغني غير المحتاج، نعم له أن يأخذ منها إذا كان أحد خمسة أصناف: غارم عليه دين يحتاج معه إلى الصدقة، أو كان غازياً فله أن يأخذ ما يستعين به في جهاده، أو كان عاملاً على الصدقة جابياً فلا مانع من إعطائه منها، وكذا إذا أهْدَى له منها مسكينٌ تُصُدِّق عليه بها.

تحريم الصدقة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته ومواليهم

١٢٢٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أخذ الحسنُ بن علي تَمْرةً من تَمْرِ الصَّدقةِ فجعلها في فيه، فقال له رسول الله ﷺ: **«كِخْ، ألْقِها أمَا شَعَرْتَ أنا لا نأكُلُ الصَّدقَةَ»**.

[رواه البخاري (١٩٧/٤)، ومسلم (١٧٥/٧) كلاهما في الزكاة].

١٢٢٤ ـ وعن عبدالمطلب بن ربيعة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الصَّدقةَ لا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ، ولا لآلِ مُحمَّدٍ، إنَّما هِيَ أوْسَاخُ النَّاسِ»**.

[رواه مسلم (١٧٨/٧، ١٧٩، ١٨١) مطولاً].

١٢٢٥ ـ وعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بَعَثَ رجلاً من بني مخزوم على الصدقةِ فقال لأبي رافع: اصْحَبْنِي كَيْمَا تُصِيبَ منها، فقال: لا، حتى آتي رسولَ الله ﷺ فأسأله، فانطلق إلى النبي ﷺ فسأله فقال: **«إنَّ الصَّدقةَ لا تَحِلُّ لَنا، وإنَّ مَوَالِي القومِ مِن أنفُسِهِم»**.

[رواه أحمد (٨/٦، ١٠)، وأبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٥٨١)، والنسائي

(٨٠/٥)، والطحاوي في معاني الآثار (٧/٢)، والحاكم (٤٠٤/١) وسنده صحيح، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: في هذه الأحاديث تحريم الزكاة على النبي ﷺ وعلى أهل بيته، وكذا مواليهم وعلل ذلك بكونها أوساخ الناس تطهرهم من قَاذُورَاتِهم وذنُوبهم فلا تليق بأهل البيت النبوي الطاهرين. نعم لهم أخذها إذا احتاجوا وخافوا الضياع ومنعوا من خمسهم المقرر لهم في الفيء، كما ذهب إليه المالكية والشافعية.

من هم أهل البيت الذين تحرم عليهم الصدقة

١٢٢٦ ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدْعَى خُمّاً، فذكر الحديث وفيه: «**أُذَكِّرُكُم اللَّهَ في أهلِ بيتي**» قالها ثلاثاً، فقيل له: ومن أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤُه من أهل بيته؟ قال: نِساؤُه مِنْ أهلِ بيتِهِ ولكِنَّ أهلَ بَيْتِهِ من حُرم الصدقةَ بعدَه، قال: ومَنْ هُم؟ قال: هُم آلُ عَليٍّ، وآلُ عَقِيلٍ، وآلُ جَعْفَرَ، وآلُ عبَّاسٍ، قال: كُلُّ هؤلاء حُرم الصَّدقةَ؟ قال: نَعم.

[رواه أحمد (٣٣٦/٤، ٣٣٧، ٣٧١)، ومسلم في فضائل الإمام علي من صحيحه (١٧٩/١٥، ١٨٠) وغيرهما وتقدم كاملاً في الاعتصام بالكتاب والسنة].

ش: وفي الحديث بيان أهل البيت النبوي الذين تحرم عليهم الصدقة. وهم كل من تناسل من المذكورين.

إباحة الهدية للنبي وأهل بيته ﷺ

١٢٢٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بطعام سَأَلَ عنه: «**أهَدِيَّةٌ أم هو صَدَقَةٌ؟**»، فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه: «**كُلُوا**» ولم يأكل، وإن قيل: هدية، ضرب بيده فأكل معهم.

[رواه البخاري في الهبة (١٣٠/٦)، ومسلم في الزكاة (١٨٤/٧) وفي الباب أحاديث].

١٢٢٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان يَقبلُ الهدية ويُثيبُ عليها.

[رواه البخاري في الهبة (١٣٢/٦)، والترمذي في البر والصلة (١٧٩٩) بتهذيبي، وأبو داود رقم (٣٥٣٦)].

ش: في الحديثين إباحة الهدية للنبي ﷺ وكذا آله تبعاً له. والفرق بين الهدية والصدقة واضح لأن الصدقة يراد بها ثواب الآخرة وتكونُ معها مِنَّة، واليَدُ العُلْيا خيرٌ من السُّفلى، ولا يليق ذلك ببيت النبوة، بينما الهديةُ يراد بها الدنيا ولا تكون إلا للأكابر غالباً من غير احتياج إليها وقد يُثاب عليها فتزول المنة، ولذلك كان النبي ﷺ يقبلها ويثيب عليها بمثلها أو أحسن.

ذم السؤال ووعيد ذلك

١٢٢٩ ـ عن قَبِيصَة بن المُخَارِق رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلا لثلاثَةٍ: رجلٍ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ بينَ قوم، ورجُلٍ أصابَتْهُ جائِحَةٌ فاجْتَاحَتْ مَالَهُ، فيسألُ حتَّى يُصِيبَ سَداداً مِن عَيْشٍ، أو قِواماً من عيشٍ، ورجلٍ أصابَتْهُ فَاقَةٌ حتى يَشْهَدَ له ثلاثةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَا مِن قومِه أن قدْ أصابَتْه حاجَةٌ، وأنْ قد حَلَّتْ له المسألةُ، وما سِوى ذلك من المسائِلِ سُحْتٌ**».

[رواه مسلم (١٣٤/٧)، وأحمد (٤٧٧/٣، و٦٠/٥)، وأبو داود (١٦٤٠) وغيرهم].

ش: «**تحمل..**» إلخ: الحمالة: هو أن يتحمل شخص عن غيره حقاً فلا يجد ما يؤدي به. «**جائحة**»: وهي ما ينزل بمال الإنسان من مطر أو برد أو ريح. «**فاقة**»: أي حاجة.

١٢٣٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَأل النَّاسَ أموالَهُم تَكَثُّراً فإنَّما يَسألُ جَمْراً فَلْيَسْتَقِلَّ أو لِيَسْتَكْثِرْ**».

[رواه مسلم (٧٣٠/٧) وغيره].

١٢٣١ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال:

«لا تَزَالُ المسألةُ بأحَدِكم حتَّى يأتِيَ اللَّهَ وليسَ في وجْهِه مُزْعَةُ لَحمٍ».

[رواه البخاري (٨١/٤)، ومسلم (١٣٠/٧) وغيرهما].

ش: «مزعة»: أي قطعة بمعنى أنه يأتي ووجهه عظم لا لحم فيه.

١٢٣٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَألَ ولَهُ ما يُغْنِيه جاءَ يومَ القِيامَةِ خُمُوشٌ، أو خُدُوشٌ، أو كُدُوحٌ في وَجْهِهِ».

[رواه أحمد (٣٨٨/١، ٤٤١)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٥٧٦) وباقي أهل السنن. والحاكم (٤٠٧/١) وسنده صحيح].

ش: «خموش..» إلخ: هذه الكلمات بضم أوائلها وهي متقاربة المعنى. ومعناها: أنه يأتي وجهه يوم القيامة كله جراحات.

وهذه الأحاديث تدل على تحريم السؤال لهذا الوعيد الوارد فيها عياذاً بالله وأنها لا تجوز إلا لأحد النفر الثلاثة المذكورين في الحديث الأول.

جواز السؤال لذي سلطان وذم الإلحاف

١٢٣٣ ـ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المسألةَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجلُ وجْهَهُ، إلاَّ أنْ يسألَ الرجلُ سُلطاناً، أو في أمرٍ لا بُدَّ مِنْهُ».

[رواه أبو داود (١٦٣٩)، والترمذي (١٦٠٢) وحسنه وصححه].

ش: «كدٌّ يَكُدُّ بِهَا»: أي يكدح ويسعى ليذهب ماء وجهه ورونقه.

١٢٣٤ ـ وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُلْحِفُوا في المسألةِ فواللَّهِ لا يَسْألُنِي أحدٌ مِنكُم شيئاً فَتُخْرِجُ له مسألَتُه مِني شَيئاً وأنَا لَهُ كَارِهٌ فيُبَارَكُ لَهُ فيما أعطيتُه».

[رواه مسلم (١٢٨/٧)، وأحمد (٩٨/٤) وغيرهما].

ش: في الحديث الأول مشروعية السؤال من ذوي سلطان، وذلك لحق كل مسلم في بيت المال مما يأتي من الفيء وغيره، أو السؤال للضرورة كما تقدم.

أما الحديث الثاني فيدل على المنع من الإلحاح في السؤال حتى يتحرج المسؤولون لما في ذلك من إذايتهم. وفي القرآن الكريم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

الحض على إعطاء السائل

١٢٣٥ ـ عن حواء بنت السَّكَن رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «رُدُّوا السَّائِلَ ولو بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ».

[رواه أحمد (٣٨٣/٥، ٤٣٥)، والنسائي (٦١/٥) وغيرهما وسنده صحيح].

١٢٣٦ ـ وعن الحسين بن علي عليهما السلام أن رسول الله ﷺ قال: «للسَّائِلِ حَقٌّ وإنْ جَاءَ على فَرَسٍ».

[رواه أحمد (٢٠١/١)، وأبو داود (١٦٦٥، ١٦٦٦)، وجوده العراقي وحسنه جماعة وصححه آخرون وذلك لطرقه].

ش: وفي الحديثين إرشاد إلى رد السائل ولو بشيء تافه، وأن لا يحرم من العطاء ولو جاءنا مثلاً راكباً على فرس أو سيارة، لأن ذلك لا يدل على غناه فقد يكون بسيارة وهو محتاج لا يجد ما يسد به رمقه، وهذا كان خلق رسولنا الكريم ﷺ فكان لا يرد سائلاً خائباً أبداً.

جواز السؤال للمحتاجين

١٢٣٧ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: أُصِيبَ رجلٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ في ثِمارٍ ابْتَاعَها فكَثُر دَيْنُه، فقال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ»، فتَصدَّق الناسُ عليه فلم يَبْلُغْ ذلك

وفاءَ دَيْنِه، فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «**خُذُوا ما وَجَدْتُم وليسَ لكُم إلاَّ ذلِكَ**».

[رواه مسلم في المساقاة (٢١٨/١٠)، وأبو داود (٣٤٦٩)، والنسائي رقم (٤٢٢١) في البيوع، ورواه الترمذي في الزكاة (٥٧٩)].

ش: لا خلاف في جواز السؤال للمحتاجين، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ إلخ، وسيأتي الحديث مرة ثانية إن شاء الله تعالى في البيوع.

جواز أخذ العطاء من غير إشراف نفس

١٢٣٨ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يُعْطي عُمَر بنَ الخطاب رضي الله تعالى عنه العَطاءَ فيقول له عُمر: اعطه يا رسولَ الله أفقَرَ إليهِ مِنّي، فقال له رسول الله ﷺ: «**خُذْ فَتَمَوَّلْه أو تصدَّق بِهِ، وما جَاءكَ مِن هذا المالِ وأنتَ غَيرُ مُشرِفٍ ولا سَائِلٍ فخُذْهُ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**». قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لَا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أُعطِيَهُ.

[رواه البخاري (٨٠/٤)، ومسلم (١٣٤/٧، ١٣٧) وغيرهما].

ش: وفي الحديث دليل على جواز أخذ ما أعطيه الإنسان من منحة أو هدية إذا لم يكن مع سؤال أو إشراف نفس وتطلع لذلك، ولم يكن من مال حرام.

الحث على العمل والاستعفاف عن المسألة

١٢٣٩ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعْطَاهُم، ثم سَألُوه فأعطاهم حتَّى نَفد ما عِندَهُ، فقال: «**مَا يكونُ عِندِي من خَيرٍ فلَنْ أدَّخِرَهُ عَنكُم، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ،**

ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّهُ، ومَنْ يَتَصَبَّر يُصَبِّرْه اللَّهُ، وما أعْطِيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصَّبْرِ».

[رواه أحمد (٣/٩٣)، والبخاري (٤/٣٨، ٧٧)، ومسلم (٧/١٤٤، ١٤٥) كلاهما في الزكاة].

١٢٤٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: **«اليَدُ العُلْيا خَيرٌ مِنَ اليدِ السُّفْلَى، فاليدُ العُلْيا هي المُنفِقَةُ، والسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ».**

[رواه البخاري (٤/٣٩)، ومسلم (٧/١٢٤)].

١٢٤١ ـ وعن حَكِيم بن حِزَام رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: **«يا حَكِيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فمَنْ أخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لهُ فيهِ، ومَنْ أخَذَهُ بإشرافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ لهُ فِيهِ، وكانَ كالذِي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيا خيرٌ من اليدِ السُّفْلَى».**

[رواه أحمد (٢/٤٠٢)، والبخاري (٤/٧٨)، ومسلم (٧/١٢٦) في الزكاة، ورواه البخاري في الوصايا، وفي فرض الخمس وفي الرقاق].

١٢٤٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأنْ يأخُذَ أحَدُكم حَبْلَهُ فيَحْتَطِبَ على ظَهْرِهِ، خَيرٌ لَهُ مِنْ أنْ يأتِيَ رَجُلاً فيسألَهُ، أعطاهُ أو مَنَعَهُ».**

[رواه البخاري (٤/٧٨)، ومسلم (٧/١٣١)].

١٢٤٣ ـ وعن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أمَرَنا بالصَّدقةِ انطلق أحدُنا إلى السُّوق فيُحَامِلَ فيُصِيبُ المُدَّ، وإن لِبعضِهِم اليومَ لِمَائَة ألفٍ.

[رواه البخاري في الزكاة (٤/٢٦)].

ش: في هذه الأحاديث الإرشاد إلى التعفف والاستغناء عن الناس، وأخذ المال بسخاوة نفس، والعمل باليد ولو بأخس المهن.

مدح الإنفاق وذم البخل والإمساك

١٢٤٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ يوم يُصْبِحُ العِبادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ فيقولُ أحدُهُما: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً».

[رواه البخاري (٤/٤٧)، ومسلم (٧/٩٥) وغيرهما].

١٢٤٥ ـ وعنه قال: قال النبي ﷺ: «مَثَلُ البَخِيلِ والمُتَصَدِّقِ كمَثَلِ رَجُلَيْنِ عليهما جُبَّتانِ مِن حَديدٍ من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقِيهما، فأما المُنْفِق فلا يُنْفِقُ إلاَّ سَبَغَتْ أو وَفَرت على جِلْده حتَّى تُخْفِي بَنَانَهُ وتعفوَ أثَرَهُ، وأمَّا البَخيلُ فلا يُريد أن يُنفقُ شيئاً إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مكانَها، فهُو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ».

[رواه أحمد (٢/٢٥٦، ٥٢٣)، والبخاري (٤/٤٨، ٤٩)، ومسلم (٧/١٠٧، ١١٠)].

١٢٤٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلمَ، فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القِيامةَ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم، حَمَلَهُم على أن سَفَكُوا دِمَاءَهُم، واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُم».

[رواه أحمد (٣/٣٢٣)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم].

١٢٤٧ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالسٌ في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هُم الأخْسَرُونَ وربِّ الكعبة»، فقلت: فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: «هم الأكْثَرُونَ أموالاً إلاَّ مَن قال هَكَذا وهَكَذا وهكذا من بَيْنِ يَدَيْهِ، ومِن خلفِه، وعَن يَمِينِهِ، وعن شِمَالِهِ، وقليلٌ ما هُم».

[رواه أحمد (٥/١٥٢، ١٥٨)، والبخاري في الأيمان والنذور وغيره، ومسلم في الزكاة (٧/٧٣)].

١٢٤٨ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ إن تَبْذُلَ الفَضْل خيرٌ لَكَ، وإن تُمْسِكْه شَرٌّ لَكَ، ولا تُلامُ

على كفافٍ، وابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، واليَدُ العليا خيرٌ مِنَ اليدِ السُّفلى».

[رواه أحمد (٢٦٢/٥)، ومسلم في الزكاة باب بيان أن اليد العليا خير إلخ (١٢٦/٧)].

١٢٤٩ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ليس لي شيءٌ إلا ما أدْخَلَ عليَّ الزبيرُ فهل عليَّ جناحٌ أن أرْضَخَ مما يدخل عليّ؟ فقال: «**ارْضَخِي ما استطَعْتِ، ولا تُوعِي فيوعي الله عليكِ**». وفي رواية: «**انضَحُوا، أو: انضَحِي، أو انفِقِي، ولا تُحصِي فيُحصِيَ الله عليكِ، ولا توعِي فيوعِيَ الله عليكِ**».

[رواه البخاري (٤٢/٤، ٤٣)، ومسلم (١١٨/٧، ١١٩) والألفاظ له كلاهما في الزكاة].

١٢٥٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قال لي: أنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ**».

[رواه مسلم (٧/٧، ٨٠) وغيره].

ش: أحاديث هذا الفصل كلها تدل على مدح الإنفاق وذم الإمساك والشح، وفي الموضوع أحاديث كثيرة وسيأتي بعضها في الزهد إن شاء الله تعالى.

فضل الصدقة والحض عليها

١٢٥١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تَصَدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ مِن طَيِّبٍ ولا يَقبَلُ الله إلا طيباً إلا أخذَها الرحمنُ بيَمِينِه وإنْ كانَتْ تَمرةً تربو في كَفِّ الرَّحمن حتَّى تكونَ أعظمَ مِن الجبل، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّهُ وفَصِيلَهُ**».

[رواه البخاري (٢٠/٤، ٢١)، ومسلم (٩٨/٧، ٩٩)، والترمذي (٥٨٤، ٥٨٧)].

١٢٥٢ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ امرِىءٍ في ظلِّ صدَقَتِه حتى يُقْضَى بينَ النَّاسِ**».

[رواه أحمد (١٤٧/٤، ١٤٨)، وابن حبان (٨١٧)، والحاكم (٤١٦/١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

وسيأتي حديث: «**سبعةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ تحتَ ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ**، فذكر منهم: **ورجلٌ تَصَدَّق بِصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُهُ ما تُنفِقُ يَمِينُه**» وهو في الصحيحين كما يأتي حديث معاذ...: «**والصَّدقة تُطفِىء الخطيئةَ كما يُطفِىءُ الماءُ النارَ**».

[رواه أحمد (٢٣١/٥، ٢٣٧)، والترمذي وحسنه وصححه].

١٢٥٣ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**على كلِّ مُسلم صدقةٌ**»، قالوا: فإنْ لم يجد؟ قال: «**فلْيَعْمَلْ بيَدَيْهِ فينفعَ نَفسَهُ ويتصدَّقُ**»، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «**فيعينُ ذا الحاجةِ المَلْهُوف**»، قالوا: فإن لم يفعله؟ قال: «**فيأمُرُ بالخيرِ**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيمسِكُ عن الشرِّ فإنَّه له صدقةٌ**».

[رواه البخاري (٥٠/٤)، ومسلم (٩٤/٧) كلاهما في الزكاة، ورواه البخاري في الرقاق أيضاً].

ش: «**الملهوف**»: هو المضطر أو المظلوم.

١٢٥٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**يا نِساءَ المُسلمات لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لِجارتِها ولو فِرْسَنَ شَاةٍ**».

[رواه مسلم في الزكاة (١١٩/٧)].

١٢٥٥ ـ وعن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَطاعَ مِنكُم أن يَتَّقِيَ النَّار فلْيَتَصَدَّقْ ولو بِشِقِّ تَمْرةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِد فبِكَلِمةٍ طيِّبَةٍ**».

[رواه أحمد (٢٥٦/٤، ٢٥٨، ٣٧٩) وفي مواضع، والبخاري في الزكاة (٢٤/٤، ٢٦)، وفي علامات النبوة، وفي الرقاق مطولاً ومختصراً. ورواه مسلم في الزكاة كذلك (١٠١/٧، ١٠٢)].

١٢٥٦ ـ وعن عائشة مثله.

[رواه أحمد (١٣٧/٦)].

ش: في هذه الأحاديث الحض على الصدقة وبعض فضائلها، وقد جاء فيها الشيء الكثير الذي لا يتَّسع لإيراده هذا الملخص وسيأتي بعض ذلك مفرقاً في الكتاب.

أفضل الصدقة

١٢٥٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ الله، ودينارٌ أنفقتَهُ في رقَبةٍ، ودينارٌ تصدَّقتَ بهِ على مِسكينٍ، ودينارٌ أنفقتَهُ على أهلِكَ، أعظَمُها أجْراً الَّذي أنفقتَهُ على أهلِكَ**».

[رواه مسلم (٨٢/٧)، ويأتي في النكاح أيضاً كتاليه].

١٢٥٨ ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضلُ دينارٍ يُنفقُه الرجلُ دينارٌ ينفقُه على عِيالِه، ودينارٌ يُنفقه على دابَّتِه في سبيل الله، ودينارٌ يُنفقُه على أصحابِه في سبيلِ الله**».

[رواه مسلم (٨١/٧)].

١٢٥٩ ـ وعن أبي هريرة وحكيم بن حزام رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ الصَّدقةِ ما كانَ عن ظَهرِ غِنَى، وابدأْ بِمَنْ تَعُولُ**».

[رواه البخاري (٣٧/٤، ٣٨)، ورواه مسلم عن حكيم (١٢٥/٧)].

١٢٦٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ الصدقة أعظمُ أجراً؟ قال: «**أنْ تَصَّدَّق وأنتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفقرَ وتأملُ الغِنَى، ولا تُمْهِل حتَّى إذا بلغتْ الحلقومَ، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**».

[رواه البخاري (٢٧/٤، ٢٨)، ومسلم في الزكاة (١٢٣/٧)، والنسائي فيهما، وفي الوصايا].

١٢٦١ ـ وعنه أنه قال: يا رسول الله أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهْدُ المُقِلِّ وابدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**».

[رواه أبو داود (١٦٧٧)، وأحمد (٣٥٨/٢)، والحاكم (٤١٤/١) وسنده صحيح. وله مع هذا شاهد صحيح عن عبدالله بن حبشي، رواه أحمد (٤١١/٣، ٤١٢)].

١٢٦٢ ـ وعن أبي أيوب وحكيم بن حزام رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضلُ الصَّدقَةِ الصَّدقةُ على ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**».

[رواه أحمد (٤١٦/٥) عن أبي أيوب (٤٠٢/٣) عن حكيم. وهو حسن بهما وله شاهد عن أبي سعيد. رواه أبو داود والترمذي، وآخر عن أم كلثوم رواه الحاكم (٤٠٦/١)، والبيهقي (٢٧/٧) وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

ش: «**الكاشح**»: الذي يطوي باطنه على عداوتك.

١٢٦٣ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**أفضلُ الصَّدقاتِ ظِلُّ فُسْطَاطٍ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ أو مَنِيحةُ خادِمٍ في سبيلِ الله، أو طَرُوقَةُ فَحْلٍ في سبيلِ الله**».

[رواه الترمذي في أوائل فضل الجهاد رقم (١٦٢٧) بسند صحيح، ولذلك حسنه وصححه وله شاهد عنده أيضاً عن عدي بن حاتم].

ش: قوله: «**فسطاط..**» إلخ: أي خيمة يستظل بها. وقوله: «**منيحة خادم**»: أي هبة عبد للمجاهد يخدمه. وقوله: «**طروقة فحلٍ**»: أي مركوبة من ناقة أو فرس يعطيها الإنسان لأخيه هبة أو قرضاً أو إعارة.

١٢٦٤ ـ وعن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «**المَاءُ**»، قال: فحفر بئراً، وقال: هذه لأم سعد.

[رواه أحمد (٢٨٤/٥، ٢٨٥، و٧/٦)، وأبو داود (١٦٨١)، والنسائي في الوصايا، وابن ماجه (٣٦٨٤)، وابن حبان (٨٥٨)، والحاكم (٤١٤/١) وهو حديث حسن وصححه الحاكم على شرطهما].

١٢٦٥ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعُونَ خَصْلةً: أعلاهُنَّ مَنِيحَةُ العِنْزِ ما يَعْمَلُ رجلٌ بخصلةٍ منها رجاءَ ثوابِها وتصديقَ موعُودِها إلا أدْخَلَهُ اللَّهُ بها الجنَّةَ**».

قال حسان: فعددنا ما دون منيحة العنز: من رد السلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه، فما استطعنا أن نبلغ خمسة عشر خصلة.

[رواه أحمد (٢/١٦٠، ١٩٤، ١٩٦)، والبخاري في العمرى (٦/١٧٢)، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٣)].

ش: في هذه الأحاديث من هذا الفصل عدة أنواع تُؤْذِنُ بأفضلية الصدقات فيها كالنفقة على الأهل والعيال والأصحاب والصدقة على القريب العدو، والصدقة عن ظهر غني، أو عن جهد المقل، أو ما كان حالة الصحة والشح، أو مساعدة المجاهدين بفسطاط، أو خادم، أو مركوب، وسقي الماء، ومنيحة العنز. فكل هذه الأنواع لها فضل على غيرها في الصدقة. وتفصيل الكلام فيها ينظر في مظانها من الشروح، ويأتي لها مزيد في الآداب إن شاء الله تعالى.

فضل الصدقة على الأقارب والأزواج والأولاد

١٢٦٦ ـ عن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ المسلمَ إذا أَنفقَ على أهلِهِ نفقةً وهُوَ يَحْتَسِبُها كانَتْ لهُ صدقةً**».

[رواه البخاري في النفقات، وفي المغازي، ومسلم في الزكاة (٧/٨٨)].

١٢٦٧ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**لَوْ أعطيتها أخوالَك كان أعظمَ لأجرِكِ**».

[رواه البخاري في الهبة، ومسلم (٧/٨٥، ٨٦) في الزكاة].

١٢٦٨ ـ وعن سلمان بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «**الصَّدقةُ على المِسكينِ صدقةٌ، وهِيَ على ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَان صدقةٌ وصلةٌ**».

[رواه أحمد (١٧/٤، ١٨، ٢١٤)، والترمذي في الزكاة رقم (٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، والحاكم (٤٠٧/١) وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح لشواهده].

١٢٦٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: عندي دينارٌ، فقال: «**أنفِقْهُ على نفسِكَ**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفِقْهُ على وَلَدِكَ**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفِقْهُ على أهلِكَ**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنفِقْهُ علَى خَادِمِك**»، قال: عندي آخر، قال: «**أنتَ أعلمُ**».

[رواه أبو داود (١٦٩١)، والنسائي (٦٢/٥)، وكذا أحمد (٢٥١/٢، ٤٧١)، والحاكم (٤١٥/١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ويأتي مرة ثانية في النكاح].

١٢٧٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أعْتَقَ رجلٌ من بَنِي عُذْرة عَبداً له عن دُبُرٍ فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «**ألَكَ مالٌ غيره؟**»، قال: لا، فقال: «**مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟**»، فاشتراه نُعَيْم بن عبدالله العَدَوي بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ثم قال: «**ابْدَأْ بِنَفْسك فتصَدَّقْ عليها، فإن فَضَلَ شيءٌ فلأَهلِك، فإن فضَلَ عَن أهلِكَ شيءٌ فَلِذِي قرابَتِك، فإن فَضَل عن ذِي قرابَتِك شيءٌ فهكذا، وهكذا**»، يقول: «**فبَيْنَ يَدَيْكَ وعَنْ يَمِينِكَ وعن شِمالِكَ**».

[رواه أحمد (٣٠٥/٣)، ومسلم في الزكاة (٨٢/٧، ٨٣)].

١٢٧١ ـ وعن زَيْنَب امرأةِ عبدِالله رضي الله تعالى عنهما قالت: كنت في المسجد فرأيتُ النبي ﷺ قال: «**تَصَدَّقْنَ ولو مِنْ حُلِيِّكُنَّ**»، وكانت زينبُ تُنفِقُ على عبدالله وأيتام في حِجْرِها، فقالت لعبدالله: سَلْ رسولَ الله ﷺ أيُجزِئُ عَنِّي أن أُنفِقَ عليْكَ وعلى أيتام في حِجْرِي من الصَّدقَةِ، فقال: سَلِي أنتِ رسولَ الله ﷺ، فانطلقتُ إلَى النبي ﷺ فوجَدْتُ امرأةً من الأنصارِ على الباب حاجَتُها مثلُ حاجَتِي فمَرَّ علينا بلالٌ فقلنا: سلْ النبي ﷺ أيُجزِئُ عني أن أُنفِقَ على زوجي وأيتامٍ لي في حِجري؟ وقلنا: لا تُخْبِرْهُ

بِنَا، فدخل فسأله فقال: «مَنْ هُمَا؟»، قال: زينب، قال: «أيُّ الزَّيَانِب؟»، قال: امرأة عبدالله، فقال: «نعم، لها أجْرُ القرابَةِ وأجْرُ الصَّدقَةِ».

[رواه البخاري (٤/٧٠، ٧١)، ومسلم (٨٧/٧) كلاهما في الزكاة، ويأتي مطولاً في الأدب من حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى].

١٢٧٢ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله إن بَنِي أبِي سَلَمَةَ في حِجْرِي ولَيس لهم شيءٌ إلاَّ ما أنفَقْت عليهم، ولستُ بتارِكَتِهم كذا ولا كذا، أفَلِي أجرٌ إنْ أنفقتُ عليهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنْفِقِي عليهِم فإنَّ لكِ أجرَ ما أنفَقْتِ عليهِم».

[رواه البخاري (٤/٧٣) في الزكاة، وفي النفقات، ومسلم في الزكاة (٨٨/٧) وغيرهما].

١٢٧٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: أرَى ربَّنا يسألُنا من أمْوَالنا فأُشْهِدُكَ يا رسولَ الله أنِّي قد جعلتُ أرضِي بَيْرُحاء للَّهِ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اجْعَلْهَا في قَرَابَتِك»، قال: فجعلها في حسَّان بن ثابت، وأُبَيّ بن كعب.

[رواه أحمد (٣/٢٨٥)، والبخاري (٤/٦٧)، ومسلم (٧/٨٥) كلاهما في الزكاة وغيرهما ويأتي مطولاً في التفسير إن شاء الله تعالى، وفي الوقف].

ش: في هذه الأحاديث الشريفة فضل الصدقة والنفقة على الأهل، والأولاد، والأقارب، وأنهم يقدمون في ذلك على غيرهم، لأن في ذلك صدقة وصلة. وفيها مشروعية الإنفاق على النفس أولاً ثم الأولاد ثم الأهل.. وفيها جواز صرف الزكاة في الزوج والأولاد بالنسبة للمرأة. وفيها غير ذلك.

ثبوت أجر الصدقة وإن وقعت في غير أهلها

١٢٧٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجلٌ لأتَصَدَّقَنَّ بِصدقةٍ، فخَرَج بصدقَتِهِ فوضَعَها في يدِ سَارِقٍ فأصبَحُوا

يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقالَ: اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ، لأَتَصَدَّقَنَّ بصدقةٍ فخرجَ بصدقَتِه فوضَعَها في يدي زَانِيةٍ فأَصْبَحُوا يتحدَّثُونَ تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، فقال: اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ على زانيةٍ، لأَتَصَدَّقَنَّ بصدقةٍ، فخرَجَ بصدَقَتِه فوضعها في يدي غنيٍّ فأَصْبَحُوا يتحدَّثون، تُصُدِّق على غَنِيٍّ، فقال: اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ، على سارقٍ وعلى زانيةٍ، وعلى غَنِيٍّ، فأُتي، فقيل له: أمَّا صدقتُك على سارقٍ فلعلَّه أن يَسْتَعِفَّ عن سرِقَتِهِ، وأمَّا الزَّانيةِ فلعلَّها أن تَسْتَعِفَّ عن زِناها، وأمَّا الغَنِيُّ فلعلَّه يعْتَبِرُ فينْفِقُ ممَّا أعطاهُ الله».

[رواه أحمد (٢/٣٢٢)، والبخاري (٤/٣٢)، ومسلم (٧/١١٠، ١١١) وغيرهم].

١٢٧٥ ـ وعن مَعْن بن يزيدَ رضي الله تعالى عنهما قال: بايعت رسول الله ﷺ أنا وأبي وجَدّي، وخطب علي فأنكحني، وخاصمتُ إليه كان أبي يزيد أخرج دنانيرَ يَتصدَّقُ بها، فوضعها عند رجل في المسجد، فجِئْتُ فأخذْتُها، فأتيْتُه بها، فقال: والله ما إياك أردتُ، فخاصمْتُه إلى رسول الله ﷺ فقال: «لَكَ ما نَوَيْتَ يا يزيدُ، ولكَ ما أخذْتَ يا معنُ».

[رواه أحمد (٣/٤٧٠)، والبخاري (٤/٣٤، ٣٥)].

ش: وفي الحديثين صحة الصدقة وحصول ثوابها ولو أعطيت لغير أهلها من الفساق والأغنياء وغيرهم ممن يجهل حالَهم المُتَصَدَّقُ.

أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها

١٢٧٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أَنْفَقَتْ المرأةُ مِن طعامِ بَيْتِها غيرَ مُفْسِدَةٍ كانَ لها أجرُها بما أَنْفَقَتْ ولِزَوْجِها أجْرُهُ بِمَا كَسَبَ، وَللخازِنِ مثلُ ذلكَ، لا يَنقُصُ بعضُهم أجْرَ بَعْضٍ شيئاً».

[رواه البخاري (٤/٤٥، ٤٦)، ومسلم (٧/١١١)].

١٢٧٧ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال:

«الخَازِنُ المُسلِمُ الأمينُ الذي يَنفذ وربما قال: يُعطي ما أُمِرَ به كاملاً مُوَفْراً طيِّباً به نَفْسُه فيَدفعُه إلى الذي أُمِرَ له به أحدُ المُتَصَدِّقِينَ».

[رواه أحمد (٤/٣٩٤)، والبخاري (٤/٤٥)، ومسلم (٧/١١١) كلاهما في الزكاة].

ش: وفي الحديثين جواز تصدق الزوجة من بيت زوجها وكذا الخازن والخادم إذا كان ذلك بإذن من الزوج ولو إذناً عاماً بشرط عدم الإفساد مع الأمانة وأن لهما من الأجر ما لرب البيت.

وستأتي أحاديث مفرقة تتعلق بالصدقة في الوصايا، والنكاح، والأدب وغيرها. وبهذا تمَّ كتاب الزكاة. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذريته وزوجاته وصحابته أجمعين، كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره الغافلون. ويليه كتاب الصيام.

كتاب الصيام

من فضائل الصيام

١٢٧٨ ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله مُرْني بِعَمَلٍ آخُذُه عنك يَنْفَعُنِي الله به، قال: «**عَليكَ بالصَّوْمِ فإنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ**».

[رواه أحمد (٥/٢٥٥، ٢٥٨)، والنسائي (٤/١٣٧)، وابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٩٢٩، ٩٣٠) بالموارد، والحاكم (١/٤٢١) وصححه ووافقه الذهبي].

ش: قوله: «**لا عدل له**»: أي لا مثل له كما في رواية لبعضهم. وهو يدل على أن الصيام لا يماثله عمل ويدل لذلك الحديث التالي.

١٢٧٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لهُ إلاَّ الصِّيامَ فإنَّهُ لِي وأنا أجْزِي بِه، والصِّيامُ جُنَّةٌ، وإذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخب، فإنْ سابَّهُ أحدٌ أو قَاتَلَهُ فليَقُلْ: إنِّي امرؤٌ صَائِمٌ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِندَ اللهِ مِن رِيحِ المِسْكِ، للصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ ربَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**».

[رواه أحمد (٢/٢٨١، ٥٠٣)، والبخاري في الصيام (٥/١٩، ٢٠) وغيره، ومسلم فيه (٨/٢٩، ٣١)، وأبو داود (٢٣٦٣)، والنسائي (٢/٢٥٥)، والترمذي (٦٧٦، ٦٧٨)، وابن ماجه (١٦٣٨) وغيرهم مطولاً ومختصراً].

وعند مسلم وغيره: «**كُلُ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحسنةُ بعَشْرِ أمْثَالِها إلَى سَبعمائَة ضعْفٍ**».

ش: قوله: «**والصوم لي**» في معناه أقوال أقربها إلى الصواب، أنه خاص بالله لا يدخله رياء. وقوله: «**جنة**» بضم الجيم: أي وقاية من المعاصي في الدنيا ومن النار في الآخرة. وقوله: «**لخلوف**» بضم الخاء: أي تغير فمه، وفيه الفضل الجزيل للصيام.

١٢٨٠ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ فِي الجنَّةِ باباً يُقالُ له الرَّيَّانُ، يَدخلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يومَ القِيامةِ لا يَدخُلُ مِنْهُ أحدٌ غيرُهُم، يُقالُ: أينَ الصَّائِمُونَ؟ فيقُومُون، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ**».

[رواه البخاري (١٢/٥، ١٣)، ومسلم (٣٢/٨)، والترمذي (٦٧٧) وغيرهم].

ش: قوله: «**الريان**»: من الري.

وفي الحديث فضيلة الصيام وكرامة الصائمين.

١٢٨١ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يصُومُ يوماً فِي سَبيلِ الله إلا بَاعَدَ اللَّهُ بذلِكَ اليومِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبعينَ خَرِيفاً**».

[رواه البخاري في الجهاد (٣٧٨/٧)، ومسلم في الصيام (٣٣/٧) وغيرهما، واللفظ لمسلم].

ش: قوله: «**خريفا**»: الخريف: السنة، وهذا العدد غير مراد بدليل مجيء في رواية عند النسائي وغيره مائة عام. وفيه فضل الصيام وعلى الأخص في الجهاد، وهو محمول على من لا يتضرر به، ولا يفوت به حقاً ولا غير ذلك من المهمات.

من فضائل رمضان وصيامه

١٢٨٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إذَا جَاءَ رمضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّارِ وصُفِّدَتْ الشَّياطِينُ».

[رواه أحمد (٢/٣٥٧)، والبخاري (٥/١٤، ١٥)، ومسلم (٧/١٨٧) في الصيام، ورواه البخاري أيضاً في بدء الخلق].

١٢٨٣ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانَ أوَّلُ ليلةٍ مِن شَهرِ رمضانَ صُفِّدَتْ الشَّياطينُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّارِ، فلم يُفْتَحْ مِنها بابٌ، وفُتِّحَتْ أبوابُ الجَنَّةِ فلم يُغْلَقْ منها بابٌ، ويُنَادِي مُنادٍ: يَا بَاغِيَ الخير أقْبِلْ، ويَا بَاغِيَ الشَّرِّ أقْصِرْ، ولِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ».

[رواه الترمذي (٦٠٣)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣)، والحاكم (١/٤٢١)، والبيهقي (٤/٣٠٣)، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، والحديث وإن كان في سنده مقال فإن له طريقاً آخر رواه أحمد (٢/٢٣٠، ٣٨٥، ٤٢٥) وسنده صحيح، ولا يضر انقطاعه فإن له شاهداً عن رجل من أصحاب النبي ﷺ رواه أحمد (٤/٣١١، ٣١٢، و ٥/٤١١)، والنسائي (٤/١٠٤، ١٠٥) فالحديث صحيح].

١٢٨٤ ـ وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «مَن صَامَ رمضَانَ إيمَاناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

[رواه أحمد (٢/٢٣٢، ٢٤١، ٥٠٣)، والبخاري في الإيمان، وفي الصلاة، وفي الصيام (٥/١٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦/٣٩، ٤٠)، وأبو داود (١٣٧٢)، والترمذي (٦٠٤)، والنسائي (٣/١٦٤، و ٤/١٢٧)، وابن ماجه (١٣٢٦) وغيرهم، وزاد أحمد في رواية بسند صحيح: «غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، ويأتي مطولاً في قيام ليلة القدر].

ش: قوله: «وصفدت»: أي سُلْسِلَتْ وشُدَّتْ بالأغلال. قوله: «مَرَدَةُ الجن»: هو جمع مارد وهو العاتي الخبيث الشرير. قوله: «يا باغي»: أي يا طالب الخير ومريده. قوله: «إيماناً واحتساباً»: أي تصديقاً به وطلباً لوجه الله وثوابه والرغبة فيه.

وفي هذه الأحاديث فضل رمضان وفضل صيامه، وأنه تصفد وتغل فيه

المردة من الجن وتفتح له أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار، وذلك تشريفاً له. وينادي ملك من قبل الله عزّ وجلّ: يا طالب الخير أقبل على عملك، ويا مريد الشر ارعو عما أنت فيه وقصر من ذلك.

وجوب صوم رمضان

١٢٨٥ ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يومُ عاشوراء يوماً تصومُه قريشٌ في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومُه في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامَه وأمَرَ الناسَ بصِيامه، فلما فُرِضَ رمضانُ كان هو الفريضَةَ وتُرِكَ يومُ عاشوراءَ فمَنْ شَاءَ صامَهُ ومَنْ شَاءَ تَرَكَهُ.

[رواه أحمد (١٦٢/٦، ٢٤٤)، والبخاري في الصيام (١٤٩/٥) وفي مواضع في الحج، وفي أيام الجاهلية وفي تفسير البقرة، ومسلم (٤/٨، ٥، ٦)، والترمذي (٦٦٥)، وأبو داود (٢٤٤٢) وغيرهم ونحوه عن ابن عمر عند مسلم (٦/٨، ٧) وغيره].

ش: الحديث يدل على وجوب صوم رمضان وفرضيته وهو إجماع يكفر منكره وقد قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلخ. وتقدم حديث عمر في سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإسلام وقوله له: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله**» إلخ، رواه مسلم كما تقدم حديث ابن عمر: «**بُنِيَ الإسلام على خمس**» إلخ، روياه. في أحاديث أخرى تقدمت في الإيمان وفي الصلاة.

كانت فرضية الصيام أولاً على التخيير

١٢٨٦ ـ عن سَلَمَة بن الأكْوَع رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شَاءَ صَامَ ومَنْ شاءَ أفْطَرَ فافتدى بطعَامِ مِسكِينٍ حتَّى أُنزِلَتْ هذه الآية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾».

[رواه البخاري في التفسير (٩/٢٤٧)، ومسلم في الصيام ٨/٢٠)، وأبو داود (٢٣١٥)، والترمذي (٧٠١) وغيرهم].

١٢٨٧ ـ وعن ابن أبي لَيْلَى رحمه الله تعالى قال: حدَّثنا أصحابُ محمد ﷺ نزل رمضانُ فشَقَّ عليهم فكان من أطْعَم كلَّ يوم مسكيناً ترك الصومَ مِمَّنْ يُطِيقُه ورُخِّصَ لهم في ذلك فنَسَخَتْها: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فأُمِرُوا بالصيام.

[ذكره البخاري معلقاً في الصيام (٥/٩١)، ووصله أبو نعيم في «المستخرج»، ومن طريقه رواه البيهقي في «السنن» (٤/٢٠٠) مطولاً].

ش: الحديثان يدلان على أن الصوم في الأول كان على التخيير، وهكذا كانت أكثر الأحكام على التدريج نظراً لطبائع العرب، وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفى.

وجوب الصيام متوقف على رؤية الهلال

١٢٨٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا رَأَيْتُمْ الهِلالَ فصُومُوا، وإذا رأيْتُمُوهُ فأفْطِرُوا، فإنْ غُمَّ عليكُم فصُومُوا ثلاثينَ يَوْماً»**.

[رواه البخاري (٥/٢٥)، ومسلم (٧/١٩٣) واللفظ له ونحوه عن ابن عمر عندهما].

وفي بعض رواياته: **«إنَّما الشَّهرُ تِسْعٌ وعِشْرُونَ، فلا تَصُومُوا حتَّى تَرَوْهُ، ولا تُفْطِرُوا حتى تَرَوْهُ، فإنْ غُمَّ عليكُم فاقْدُرُوا لَهُ»**.

[رواه البخاري (٥/٢٢)، ومسلم (٧/١٩٠)].

ش: قوله: **«فاقدروا له»**: هو معنى قوله: **«فأكملوا عدة شعبان»**. وأبعد من قال معناه: احسبوا له، واستدل به على العمل بحساب النجوم.

العمل برؤية رجل واحد

١٢٨٩ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: تَراءَى الناسُ

الهِلالَ فأخْبَرْتُ رسولَ الله ﷺ أني رأيتُه، فصامَه، وأمرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ.

[رواه أبو داود (٢٣٤٢) بسند صحيح].

ش: قوله: «تراءى..» إلخ: أي طلبوا رؤيته.

وفي الحديث دليل على العمل برؤية رجل واحد عدل. وفي ذلك خلاف بين الأئمة رحمهم الله تعالى.

إذا لم ير الهلال حتى ارتفع النهار

١٢٩٠ ـ عن بعض أصحاب النبي ﷺ أن رَكْباً جاءُوا إلى رسول الله ﷺ يَشْهَدُونَ أنهم رأوْا الهِلالَ بالأمْسِ فأمَرَهُم أن يُفْطِرُوا وإذَا أصْبَحُوا يَغْدُونَ إلى مُصَلاَّهُم.

[رواه أبو داود (١١٥٧)، وابن ماجه (١٦٥٣) وسنده صحيح، وله شاهد عند أبي داود (٢٣٣٩) وغيره بسند صحيح أيضاً].

ش: في الحديث دليل على وجوب الفطر أو الصيام على من بلغته رؤية الهلال ولو نهاراً، وفيه مشروعية قضاء صلاة العيد لمن لم يعلم به.

النهي عن تقدم رمضان بالصيام وعن صيام يوم الشك

١٢٩١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَقَدَّمُوا شَهْرَ رَمضَانَ بِصِيامِ يومٍ، ولا يَوْمَيْنِ إلاَّ رجلٌ كانَ يصومُ صوماً فلْيَصُمْهُ»**.

[رواه البخاري (٢٩/٥، ٣٠)، ومسلم (١٩٤/٧) وباقي الجماعة].

١٢٩٢ ـ وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: **«مَن صَامَ اليومَ الذي يُشَكُّ فِيهِ فقد عَصَا أبا القاسم ﷺ»**.

[رواه أبو داود (٢٣٣٤)، والترمذي (٦٠٦)، والنسائي (٣٦/٤)، وابن ماجه (١٦٤٥)، والدارمي (١٦٨٩)، وابن خزيمة (١٩١٤)، وابن حبان (٨٧٨) بالموارد، والحاكم

(٤٢٣/١، ٤٢٤) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وذكره البخاري في الصيام معلقاً بصيغة الجزم].

ش: في الحديث الأول النهي عن أن يصوم الرجل قبل رمضان يوماً أو يومين إلا من كانت له عادة من صيام. وفي الثاني النهي عن صيام يوم الشك وهو اليوم الثلاثون من شعبان، لأن ذلك مخالف للأحاديث المتقدمة: «**لا تصوموا حتى تروه..**» إلخ.

تحريم صيام أيام العيد والتشريق

١٢٩٣ ـ عن عُمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن صِيام هَذَيْنِ اليومين: «**أمَّا يومُ الفِطْر ففِطْرُكُم مِن صَوْمِكُم، وأمَّا يَوْمُ الأضْحَى فكُلُوا مِن نُسُكِكُم**».

[رواه أحمد (٦٠/١)، والبخاري (١٤٢/٥، ١٤٣)، ومسلم (١٥/٨) وباقي الجماعة ونحوه عن أبي سعيد الخدري عند البخاري (١٤٤/٥)، ومسلم (١٥/٨)].

١٢٩٤ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يومُ عرفةَ ويومُ النَّحر وأيَّامُ التَّشريقِ عِيدُنَا أهلَ الإسلامِ، وهي أيَّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ**».

[رواه أحمد (١٥٢/٤)، وأبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٦٨٥)، والنسائي في الكبرى (١٥٥/٢)، والدارمي (١٧٧١)، والحاكم (٤٣٤/١) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

١٢٩٥ ـ وعن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيَّامُ التَّشريقِ أيامُ أكْلٍ وشُربٍ**».

[رواه أحمد (٧٥/٥)، ومسلم (١٧/٨) وغيرهما].

وفي الباب عن كعب بن مالك عندهما أيضاً، وعن أبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وبشر بن سحيم عند أحمد، وعن عمرو بن العاص عند الدارمي وغيره.

ش: قوله: «أيام التشريق»: هي أيام منى ثلاثة أيام بعد عيد الأضحى سميت بذلك لأن العرب كانوا يشرقون فيها اللحوم.

وما في الباب يدل على أن هذه الأيام لا ينبغي صيامُها لأنها أعيادٌ، والعيد فيه إكرام من الله لعباده عزّ وجلّ، فصيامها فيه سُوءُ أدب معه تعالى.

النهي عن صيام الجمعة وعرفة وبعد انتصاف شعبان

١٢٩٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَصُومُ أحدُكُم يومَ الجُمُعَةِ إلاَّ أن يَصُومَ قَبْلَهُ، أوْ يَصُومَ بَعدَهُ».

وفي رواية: «لا تَخْتَصُّوا ليلةَ الجُمُعَةِ بقِيامٍ مِن بَينِ اللَّيالي، ولا تَخْتَصُّوا يومَ الجُمُعَةِ بصِيامٍ مِن بينِ الأيّام إلاَّ أنْ يَكونَ في صومٍ يصومُه أحدُكُم».

[رواه أحمد (٢/٤٩٤)، والبخاري (٥/١٣٧)، ومسلم (٨/١٨)، والترمذي (٦٥٥) وباقي الجماعة، والرواية الثانية لمسلم].

١٢٩٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن صوم عرفة ـ يعني بعرفة ـ فقال: حَجَجْتُ مع النبي ﷺ فلم يَصُمْه، ومع أبي بكر فلم يَصُمْهُ، ومع عُمَرَ فلم يَصُمْهُ، ومع عُثمان فلم يَصُمْه، وأنا لا أصُومُه، ولا آمُرُ به، ولا أنْهَى عَنْهُ.

[رواه أحمد رقم (٥٩٤٨، ٥٤٢٠)، والترمذي (٦٦٣)، والدارمي (١٧٧٢)، وابن حبان (٩٣٤) بسند صحيح على شرط مسلم].

١٢٩٨ ـ وعن أم الفضل رضي الله تعالى عنها أن الناس تَمَارَوْا عندها يومَ عرفة في صيام رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلتْ إليه بقَدَحِ لَبَنٍ وهو واقفٌ على بعيرِه بعرفة فشَرِبَهُ. رواه الشيخان.

١٢٩٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا انْتَصَفَ شَعبانُ فلا تَصُومُوا حَتَّى يكونَ رَمَضَانُ».

[رواه أبو داود (٢٣٣٧)، والترمذي (٦٥٠)، والدارمي (١٧٤٧، ١٧٤٨)، وابن حبان ٨٧٦) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه ابن عبدالبر، وابن حزم، والمنذري وغيرهم، ولم يصب من ضعفه].

ش: وفي هذه الأحاديث ما يدل على تحريم أو كراهة صوم يوم الجمعة مفرداً، وصوم يوم عرفة لمن وقف بها، وصوم ما بعد انتصاف شعبان. وقد اختلف العلماء فيها، منهم من حرم صيامها، ومنهم من كره ذلك.

كراهية صوم الدهر

١٣٠٠ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ**».

[رواه البخاري (٥/١٢٥)، ومسلم (٨/٤٥)].

وفي رواية لأبي قتادة: «**لا صَامَ ولا أفْطَرَ**».

[رواه مسلم ٨/٤٩، ٥٠) مطولاً].

١٣٠١ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «**مَن صامَ الدَّهرَ ضُيِّقت علَيهِ جَهَنَّمُ هكذا**»، وقَبَضَ كفَّه. وفي رواية: «**وعقَدَ تِسْعِينَ**».

[رواه أحمد (٤/٤١٤)، وابن خزيمة (٢١٥٤، ٢١٥٥)، وابن حبان رقم (٣٥٨٤)، والطيالسي (٥١٤)، والبيهقي (٤/٣٠٠) وغيرهم وسنده صحيح، وعزاه الهيثمي (٣/١٩٣) لأحمد والبزار وكبير الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح].

ش: في هذه الأحاديث دليل على كراهية صوم الدهر وأن من صامه يعتبر كأنه لم يصم ولم يفطر، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا أجر له وأنه منع نفسه من الطعام بلا فائدة، وفي قوله: «**ضيقت عليه جهنم**»: دليل على تحريم صيام الأبد. وهذا حمله العلماء على من لم يفطر أيام العيدين ونحوهما.

وجوب تبييت النية من الليل في الصيام

١٣٠٢ ـ عن حفصة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيامَ قَبْلَ الفَجْرِ فلا صِيَامَ لَهُ»**.

[رواه أحمد (٦/٢٨٧)، وأبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٦٤٤)، والنسائي (٤/١٦٦، ١٦٧)، وابن ماجه (١٧٠٠)، والدارمي رقم (١٧٠٥) وسنده صحيح، وصححه ابن حزم والخطابي وغيرهما، وردوا على من أعله بالوقف. والمراد بالنية القصد والعزم على الصيام].

ش: الحديث يدل على وجوب نية الصيام من الليل، وهذا في الفرض، أما الصوم تطوعاً فلا مانع من إحداثه ولو نهاراً قبل الأكل للحديث التالي.

إنشاء الصيام التطوع من النهار

١٣٠٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم فقال: **«أعِنْدَكِ شيءٌ؟»**، فقلت: لا، قال: **«إنِّي إذاً صَائِمٌ»**، ثمَّ أتانا يوماً آخر فقلنا: يا رسول الله أُهْدِيَ لَنا حَيْسٌ، فقال: **«أرِنِيهِ فلَقَدْ أصْبَحْتُ صائِماً»** فأكل.

[رواه مسلم (٨/٣٤)، وأبو داود (٢٤٥٥)، والترمذي (٦٤٦)، والنسائي (٤/١٦٣، ١٦٤) وغيرهم. وفي رواية للدارقطني (٢/١٧٥، ١٧٦، ١٧٧)، والبيهقي (٤/٢٧٤، ٢٧٥): **«إذاً أطعم وإن كنتُ قد فَرَضْتُ الصومَ»**. قال الدارقطني: إسناده حسن صحيح].

ش: ففي هذا الحديث سنتان: مشروعية إنشاء صيام التطوع من النهار، وجواز الفطر منه إذا أصبح صائماً، وسيأتي لهذا مزيد.

وجوب تنزه الصائم عن الجهل والمعاصي

١٣٠٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ لَمْ يَدَعْ قولَ الزُّور والجهلَ والعملَ بِه، فليسَ لله حاجةٌ في أنْ يَدَعَ طعامَهُ أو شَرَابَهُ»**.

[رواه أحمد (٢/٤٥٢، ٥٠٥)، والبخاري في الصيام (٥/١٨)، وفي الأدب، وأبو داود (٢٣٦٢)، والترمذي (٦٢٥)، وابن ماجه (١٦٨٩) كلهم في الصيام].

ش: «قول الزور»: الكذب. «والجهل»: السفه والفحش في القول.

وظاهر هذا الحديث يدل على عدم قبول الصيام المحفوف بالمعاصي. ولذا قال ابن المنير: هو كناية عن عدم القبول. وقال ابن العربي: مقتضى هذا الحديث أن من فعل ما ذكر لا يثاب على صيامه، ومعناه: أن ثواب الصيام لا يقوم في الموازنة بإثم الزور وما ذكر معه.

حكم من أكل ناسياً أو استقاء

١٣٠٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا نَسِيَ فأكَلَ وشَرِبَ فلْيتِمَّ صَوْمَه فإنَّما أطْعَمَهُ اللَّهُ وسَقَاهُ».

[رواه أحمد (٢/٤٨٩)، والبخاري (٥/٥٨)، ومسلم (٨/٣٥)، وأبو داود (٢٣٩٨)، والترمذي (٦٣٧) بنهذيبي، والدارمي وباقي الجماعة].

وفي رواية: «مَنْ أفْطَرَ فِي رَمَضَانَ نَاسِياً فلا قَضَاءَ عليْهِ وَلا كفَّارَةَ».

[رواه ابن خزيمة (١٩٩٠)، وابن حبان (٩٠٦) بالموارد، والحاكم (١/٤٣٠)، والدارقطني (٢/١٧٨، ١٧٩)، والبيهقي (٤/٢٩٩) بسند حسن، وصححه الحاكم على شرط مسلم. وقال البيهقي في المعرفة (٦/٢٧٢): كلهم ثقات].

١٣٠٦ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذَرعَهُ قَيْءٌ وهوَ صَائِمٌ فلَيسَ عليْهِ قَضَاءٌ، وإنْ اسْتَقَاءَ فَلْيَقْضِ».

[رواه أحمد (٢/٤٩٨)، وأبو داود (٢٣٨٠)، والترمذي (٦٣٦)، والدارمي (١٧٣٦)، وابن ماجه (١٦٧٦)، وابن حبان (٩٠٧)، والحاكم (١/٤٢٦، ٤٢٧) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وقال ابن حزم في «المحلى» (٦/١٧٥): حديث صحيح].

ش: قوله: «استقاء»: أي طلب إخراج القيء.

الإمساك عن الأكل والشرب في الصيام فرض وشرط فيه بلا خلاف

لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فمن أكل أو شرب عن تعمد بطل صومه، ووجبت عليه الكفارة الآتية، فإذا نسي فأكل أو شرب فلا شيء عليه وليتم صومه وعليه يدل الحديث الأول بروايتيه.

أما الحديث الثاني فيدل على أن من غلبه القيء فخرج بنفسه فلا حرج عليه، أما من تعمد إخراجه فقد أفطر وعليه قضاؤه، وهل يأثم لذلك أم لا؟ الحديث سكت عن ذلك، والله تعالى أعلم.

الحجامة للصائم

١٣٠٧ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم، واحتجم وهو صائم.

[رواه البخاري (٥/٨٠، ٨١) في الصيام، ورواه أيضاً في الطب].

ش: الحديث يدل على جواز الحجامة للصائم. أما حديث: **«أفطر الحاجمُ والمحجومُ»** رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وغيرهم وهو صحيح، بل متواتر، فالجمهور على أنه منسوخ.

القبلة للصائم

١٣٠٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُقَبِّلُ وهو صائمٌ، ويُبَاشِرُ وهو صائِمٌ، ولكنَّه كان أَمْلَكَكُم لإِرْبِهِ.

[رواه البخاري (٥/٥١، ٥٢)، ومسلم (٧/٢١٦، ٢١٧)، وأبو داود (٢٣٨٢)، والترمذي (٦٤٣) وغيرهم ونحوه عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها روياه].

١٣٠٩ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: هَشَشْتُ يوماً فقبَّلْتُ وأنا صائم، فأتيتُ النبي ﷺ فقلت: صنعتُ اليوم أمراً عظيماً فقبَّلتُ وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: **«أَرَأَيتَ لو تَمَضْمَضْتَ بِماءٍ وأنتَ صَائِمٌ؟ لا بأسَ بذلِكَ»**.

[رواه أحمد (٢١/١)، وأبو داود (٢٣٨٥)، والحاكم (٤٣١/١) وصححه وأقره الذهبي].

ش: قوله: «لإربه»: أي عضوه، وذلك كناية منها عن ملك نفسه عن مجامعتها، فغيره قلما يتمالك مع ثوران الشهوة. وقد اختلف العلماء في القبلة للصائم فمنعها البعض وأجازها آخرون مستدلين بحديثي الباب، وفصل آخرون بين الشاب والشيخ فأجازوه للثاني ومنعوها للأول لحديث جاء بذلك. وقوله: «هششت»: أي فرحت وارتحت. وفي تشبيه النبي ﷺ القبلة بالمضمضة دليل ظاهر على الجواز، وفي ذلك إشارة إلى العمل بالقياس.

حكم من أصبح جنباً وهو صائم

١٣١٠ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ يُدْرِكُهُ الفجر، فِي رمضانَ وهو جُنُبٌ مِن مِن غَيْرِ حُلُمٍ فيَغْتَسِلُ ويَصُومُ.

[رواه البخاري (٥٧/٥)، ومسلم (٢٢٠/٧، ٢٢١، ٢٢٣)].

ونحوه: عن أم سلمة عند مسلم وغيره وفيه: ثم لا يفطر ولا يقضي.

ش: الحديث يدل على صحة صوم من أدركه الفجر وهو جنب وأن ذلك لا يضر صومه بل يغتسل ويصلي، ولا حرج عليه، خلافاً لمن قال سوى ذلك.

جواز الاستحمام في نهار رمضان

١٣١١ ـ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يُسْكَبُ على رأسِه الماءُ بالسُّقْيَا إمَّا مِنَ الحرّ، وإمَّا مِنَ العَطَشِ وهو صائمٌ، ثم لم يَزَلْ صائِماً حتى أتى كَدِيداً.

[رواه أبو داود (٢٣٦٥)، والنسائي، والحاكم (٤٣٢/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وتقدم حديث عائشة وغيرها: أنه كان يصبح جنباً فيغتسل، تعني بعد طلوع الفجر].

ش: لا خلاف في مشروعية اغتسال الصائم نهاراً من الجنابة، وإنما اختلفوا في الاغتسال تبرداً.. والأحاديث تدل على الجواز وذلك هو الأصل.

تقديم الإفطار وتأخير السحور وما جاء من الحض على ذلك

١٣١٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّا مَعْشَرَ الأنبياءِ أُمِرْنَا بِتَعْجِيلِ فطْرِنَا وتأْخِيرِ سُحُورِنَا وأنْ نَضَعَ أيْمَانَنَا على شَمَائِلِنَا في الصَّلاةِ**».

[رواه الطبراني في الأوسط (١٩٠٥، ٤٢٦١)، وفي الكبير (١٠٨٥١، ١١٤٨٥)، وابن حبان (٦٧/٥، ٦٨)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠٥/٢)، وعزاه لكبير الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، وأعاده في الصيام (١٥٥/٣) وعزاه لأوسط الطبراني وقال أيضاً: رجاله رجال الصحيح].

وللحديث شواهد منها: «**ثلاثٌ من أخلاقِ النبوَّة: تعجيلُ الإفطار، وتأخيرُ السحور، ووضع اليمين على الشمال في الصلاة**» رواه الطبراني في الكبير مرفوعاً وموقوفاً على أبي الدرداء، والموقوف صحيح، والمرفوع في رجاله من لم أجد من ترجم له قاله الهيثمي في المجمع (١٠٥/٢) وعلى كل فالحديث صحيح.

١٣١٣ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ بخيرٍ ما عَجَّلُوا الفِطْرَ**».

[رواه البخاري (١٠١/٥)، ومسلم (٢٠٧/٧، ٢٠٨)، والترمذي (٦١٩)، وابن ماجه (١٦٩٧) وغيرهم].

١٣١٤ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا أقْبَلَ اللَّيلُ من هَهُنَا وأدْبَرَ النَّهارُ مِن هَهُنَا وغَرَبَتْ الشَّمْسُ فقد أفْطَرَ الصَّائِمُ**».

[رواه البخاري (٥/٩٨، ٩٩)، ومسلم (٧/٢٠٩)، وأبو داود (٢٣٥١)، والترمذي (٦١٨) وغيرهم].

١٣١٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ بِلالاً يُؤَذِّنُ بليلٍ فكُلُوا واشرَبُوا حتَّى يُؤَذِّنَ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ**»، قالت: فلا أعلمه إلا كان قدر ما ينزل هذا ويَرْقَى هذا.

[رواه البخاري (٥/٣٩)، ومسلم (٧/٢٠٣) وغيرهما ونحوه عن ابن عمر عندهما ولفظه: «**إن بلالاً يُؤذن بليلٍ فكلوا واشربوا حتى تسمَعُوا أذان ابنِ أُمِّ مكتومٍ**»].

١٣١٦ ـ وعن أنس، عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهما قال: تَسَحَّرْنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصَّلاة قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية.

[رواه البخاري (٥/٤٠) وغيره].

١٣١٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا، فإنَّ فِي السُّحُورِ بركةً**».

[رواه البخاري (٥/٤١)، ومسلم (٧/٢٠٦)، والترمذي (٦٢٦)، والنسائي (٤/١١٥)، وابن ماجه (١٦٩٢)].

١٣١٨ ـ وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه دخل على النبي ﷺ وهو يَتَسَحَّرُ فقال: «**إنَّها بَرَكَةٌ أعْطَاكُم اللَّهُ إيَّاهُ فلا تَدَعُوه**».

[رواه النسائي (٤/١١٩) بسند حسن].

١٣١٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على المُتَسَحِّرين**».

[رواه الطبراني في الأوسط رقم (٦٤٣٠)، وابن حبان (٨٨٠) وهو حديث حسن لشواهده انظرها في مجمع الزوائد (٣/١٥٠، ١٥١)].

١٣٢٠ ـ وعن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «**فَصْلُ مَا بَينَ صِيامِنا وصِيامِ أهلِ الكِتابِ أكْلَةُ السَّحَرِ**».

[رواه أحمد (٢٠٢/٤)، ومسلم (٢٠٧/٧)، وأبو داود (٢٣٤٣)، والترمذي (٦٢٧)، والنسائي (١٢٠/٤) وغيرهم].

ش: في هذه الأحاديث أمور: **أولاً**: إن تقديم الإفطار وتأخير التسحر من أخلاق الأنبياء التي أمروا بها من قبل الله عزّ وجلّ.

ثانياً: إن تعجيل الإفطار من علامات وجود الخير في الأمة ويؤخذ من مفهوم ذلك أن تأخيرهم الإفطار دليل على ذهاب الخير منهم.

ثالثاً: إن الإفطار يدخل وقته بغروب قرص الشمس لا غير ذلك من زيادة التمكين بعد الغروب بخمس دقائق فأكثر.

رابعاً: إن وقت السحور يمتد إلى أذان الفجر الصادق وأن السنة أن يؤخر إلى قبيل الفجر بقليل.

خامساً: إن السحور مبارك فلا ينبغي للصائم تركه وكيف يترك والله وملائكته يصلون على المتسحرين.

سادساً: تسحر المسلم فيه مخالفة لليهود والنصارى الذين لا يتسحرون، ومعلوم أننا مأمورون بمخالفتهم في كل شؤونهم كما هو مبين في موضعه.

لا حرج على من يشرب بعد أذان الفجر

١٣٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سَمِعَ أَحَدُكُم النِّدَاءَ والإناءُ على يَدِه، فلا يَضَعْهُ حتَّى يَقْضِيَ حاجَتَهُ مِنْهُ»**.

[رواه أحمد (٥١٠/٢، ٤٠٢٢)، وأبو داود (٢٣٥٠)، والحاكم (٤٢٦/١)، وصححه على شرط مسلم وهو كما قال: فإن إحدى طريقي أحمد صحيحة أيضاً على شرط مسلم. وللحديث شاهد عن بلال رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١٢/٦) بسند صحيح بلفظ قال: أتيت النبي ﷺ أؤذنه لصلاة الفجر وهو يُريد الصيام فدعا بإناء فشرب ثم ناولني فشرب ثم خرجنا إلى الصلاة. وله شاهد آخر عن جابر رواه أحمد

أيضاً (٤٣٨/٣)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (١٥٣/٣)].

ش: ومع صحة هذه السنة تجد الناس يتحرجون عن الشرب عند الأذان، فكيف بعده حتى بعض العلماء منهم، والأمر كما ترى.

على ماذا يفطر الصائم وماذا يقول عند فطره

١٣٢٢ ـ عن سلمان بن عامر الضبي عن النبي ﷺ قال: «**إذا أفطَرَ أحَدُكُم فلْيُفطِرْ على تَمرٍ، فإنْ لَمْ يَجِدْ فليُفطِرْ على مَاءٍ فإنَّهُ طَهُورٌ**».

[رواه أحمد (١٧/٤، ١٨، ٢١٤)، والترمذي في الزكاة (٥٨٢)، وفي الصيام (٦١٥)، وأبو داود (٢٣٥٥)، والنسائي (٦٩/٥)، وابن ماجه (١٦٩٩، ١٨٤٤)، والدارمي (١٧٠٨)، وابن حبان (٨٩٢، ٨٩٣)، والحاكم (٤٣١/١، ٤٣٢) وحسنه الترمذي في الصيام وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٣٢٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُفْطِرُ قبل أن يُصَلِّيَ على رُطَبَاتٍ، فإنْ لم تَكُنْ رُطَبَاتٍ فتُمَيْرَاتٍ، فإنْ لم تَكُنْ تُمَيْراتٌ حَسَا حَسَواتٍ مِن مَاءٍ.

[رواه أحمد (١٦٤/٣)، وأبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦١٦)، والحاكم (٤٣٢/١)، والبيهقي (٢٣٩/٤) وسنده صحيح على شرط مسلم، وكذا صححه الحاكم والذهبي والدارقطني].

١٣٢٤ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطَر قال: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ وابْتَلَّتِ العُرُوقُ وثَبَتَ الأجْرُ إنْ شَاءَ اللَّهُ**».

[رواه أبو داود (٢٣٥٧)، والحاكم (٤٢٢/١) وسنده حسن، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. وزاد أبو داود في رواية (٢٣٥٨) في أوله: «**اللَّهُمَّ لكَ صمتُ وعلى رِزْقِكَ أفطرتُ ذَهَبَ الظَّمَأُ..**» إلخ].

ولهذه الزيادة شاهدان عن ابن عباس عند الطبراني في الكبير وعن أنس عنده في الأوسط. انظر «المجمع» (١٥٦/٣).

١٣٢٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة فجاء بِخُبْزٍ وزَيْتٍ فأكلَ، ثم قال ﷺ: «**أفطَرَ عِنْدَكم الصَّائِمُونَ وأكَلَ طعَامَكُم الأبرارُ، وصلَّتْ عليكُم المَلائِكَةُ**».

[رواه أحمد (١١٨/٣، ٢٠١، ٢٠٢)، وأبو داود آخر الأطعمة (٣٨٥٤)، والبيهقي (٢٨٧/٧) وغيرهم، وسنده صحيح عند أبي داود، وصححه غير واحد ومع ذلك فإن له شاهداً عن ابن الزبير رواه ابن ماجه (١٧٤٧)، وابن حبان (١٠٧/١٢)].

ش: وفي هذه الأحاديث مشروعية الإفطار على الرطب، أو التمر، أو الماء لما في ذلك من المصلحة الطبية للجسم كما ذكره العلماء.

وفي حديث ابن عمر سنية هذا الذكر عند الفطر. أما حديث أنس الأخير فيدل على أن من أفطر عند قوم: السنة أن يقول ما ذكر فيه، وفي كل ذلك ما لا يخفى من القيام بحق العبودية لله عزّ وجلّ.

النهي عن الوصال

١٣٢٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إيَّاكُم وَالوِصَالَ**»، قالوا: إنك تُواصل يا رسول الله، قال: «**لستُ كهَيْئَتِكُم، إنِّي أبِيتُ يُطْعِمُنِي ربِّي ويَسْقِينِ**».

[رواه البخاري (١٠٩/٥، ١١٠)، ومسلم (٢١٢/٧) وغيرهما].

١٣٢٧ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُوَاصِلُوا، فأيُكم إذا أرادَ أن يُواصِلَ فلْيُواصِلْ حَتَّى السَّحر**».

[رواه البخاري (١٠٦/٥)، ومسلم (٢١٢/٧، ٢١٣)].

ش: «**الوصال**»: هو الصيام من غير أن يتخلله فطر ولا سحور.

وظاهر الحديثين منعه، وبذلك قال بعض الأئمة، وذهب آخرون إلى كراهته فقط.

الصوم في السفر وعدمه

١٣٢٨ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ في رمضان فلم يَعِبْ الصَّائمُ على المُفْطِر، ولا المُفْطِرُ على الصَّائِمِ.

[رواه البخاري (٨٩/٥)، ومسلم (٢٣٥/٧) ونحوه عندهما عن أبي سعيد].

١٣٢٩ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن حَمزةَ بن عَمْرو الأسْلَمِي قال لِرسولِ الله ﷺ: أأصُومُ في السفر؟ وكان كثير الصيام، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن شِئْتَ فَصُمْ، وإنْ شِئْتَ فأفْطِرْ**». وفي رواية: «**هِيَ رُخصةٌ مِنَ الله فمَنْ أخَذَ بها فحسنٌ، ومَنْ أحبَّ أن يَصومَ فلا جُناحَ عليهِ**».

[رواه البخاري (٨٢/٥)، ومسلم (٢٣٦/٧، ٢٣٧)، وباقي الجماعة، والرواية الثانية لمسلم].

١٣٣٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفرٍ، فرأى زَحاماً ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه فقال: «**ما هذا؟**»، قالوا: صائِم، فقال: «**لَيسَ مِنَ البِرِّ الصِّيامُ فِي السَّفَرِ**».

[رواه أحمد (٣١٩/٣، ٣٩٩)، والبخاري (٨٨/٥)، ومسلم (٢٣٣/٧) وغيرهم].

١٣٣١ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كُراعَ الغَمِيم، فصام الناس ثم دعا بقَدَح من ماء فرفعه حتى نظرَ الناسُ إليه ثم شَرِب، فقيل له بعد ذلك: إنَّ بعضَ الناس قد صام، فقال: «**أُولَئِكَ العُصَاةُ، أُولَئِكَ العصاةُ**».

[رواه مسلم (٢٣٢/٧)].

ش: في الحديثين الأولين تخيير المسافر بين الفطر والصوم، وأنه لا حرج في ذلك علماً بأن الفطر أفضل قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. أما الحديث الثالث والرابع فيدلان على وجوب الفطر لمن شق عليه الصوم وأجهده السفر. وبذلك يجمع بين الأحاديث.

فطر المسافر إذا نزل ببلدة ولم ينو إقامة

١٣٣٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: صام النبي ﷺ حتى إذا بلغ الكَدِيد ـ الماء الذي بَيْنَ قُدَيْدٍ وعُسْفَانَ ـ أفْطَرَ، فلم يَزَلْ مُفْطِراً حتى انسلَخَ الشهْرُ.

[رواه البخاري في المغازي (٦٣/٩)، وروا، في الصيام (٩٠/٨٩/٥) بنحوه، ومسلم (٢٣١/٧، ٢٣٢) بمعناه].

ش: فقوله: «**لم يزل مفطراً..**» إلخ: يعني بعد أن دخل مكة، وذلك كان في العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة النبوية. كما يأتي ذلك مفصلاً في السيرة النبوية.

للمسافر أن يفطر قبل خروجه من منزله

١٣٣٣ ـ عن محمد بن كعب القُرَظِي رحمه الله تعالى قال: أتيتُ أنسَ بن مالك في رمضان وهو يُرِيدُ سفراً وقد رُحِّلَتْ له راحلتُه ولبِس ثيابَ السَّفَرِ، فدعا بطعام فأكَلَ فقلتُ له: سُنَّةٌ؟ قال: سنة، ثم ركِب.

[رواه الترمذي (٧٠٢) بنهذيبي من طريقين أحدهما سنده صحيح].

قال: وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا الحديث وقال: للمسافر أن يفطر في بيته قبل أن يخرج اهـ. وفي الباب عن أبي بصرة الغفاري عند أبي داود (٢٤/١٣) وغيره.

كفارة من أفطر في رمضان متعمداً

١٣٣٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أتَى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله هَلَكْتُ، قال: «**مَا لَكَ؟**»، قال: وَقَعْتُ على امْرَأتِي وأنا صائِمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟**»، قال: لا، قال: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أن تَصومَ شَهرَيْنَ مُتَتَابِعَيْنِ؟**»، قال: لا، فقال: «**فَهَلْ تَجِد إطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِيناً؟**»، قال: لا، قال: فسكت النبي ﷺ

فأتي بِعَرَقٍ فيه تَمْرٌ فقال: «**تَصَدَّقْ بِهَذَا**»، قال: على أفْقَرَ مِنَّا فما بَيْنَ لابَتَيْهَا أهلُ بيتٍ أحْوَجُ إليه مِنَّا، فضَحِكَ النبي ﷺ حتى بدَتْ أنْيَابُه ثم قال: «**اذْهَبْ فأطْعِمْهُ أهْلَكَ**».

[رواه البخاري (٥/٦٥، ٧٤، ٧٥، ٧٦)، ومسلم (٧/٢٢٤، ٢٢٥) وباقي الجماعة].

ش: قوله: «**بعرق**» بفتح العين والراء: هو مِكْتَلٌ يسع خمسة عشراً صاعاً. وقوله: «**لابتيها**»: تثنية لاَبَةٍ وهي الحَرَّةُ والمدينة المشرفة جاءت بين حرتين شرقية وغربية، لكنهما لم يبق لهما الآن أثرٌ، فقد نُسِفَتَا وبُنِي فوقَهُما العماراتُ والقصورُ.

والحديث يدل على وجوب الكفارة بما ذكر فيه على من جامع في نهار رمضان متعمداً ولا خلاف في ذلك، وإنما اختلفوا فيمن أفطر بأكل أو شرب، والظاهر أن عليه الكفارة كما هو مذهب مالك وغيره، ويجب مع ذلك قضاء ذلك اليوم لما جاء في رواية: «**وصُمْ يوماً واسْتَغْفِرِ اللَّهَ**». رواه أبو داود (٢٣٩٣)، والبيهقي (٤/٢٢٦) وغيرهما بسند صحيح، وبذلك قال عامة العلماء.

قضاء رمضان في سائر السنة

١٣٣٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يكونُ عليَّ الصومُ من رمضان فما أستطيعُ أن أقْضِيَهُ إلا في شعبانَ للشُّغْلِ من النبي أو بالنبي ﷺ. وفي رواية: فما تَقْدِرُ على أنْ تَقْضِيَهُ مَعَ رسولِ الله ﷺ حتى يأتيَ شعبانُ.

[رواه البخاري (٥/٩٣)، ومسلم (٨/٢١، ٢٢)].

ش: قضاء رمضان لمن أفطر لمرض أو سفر أو غير ذلك واجب، وله أن يعجل قضاءه وهو الأفضل، وله أن يؤخره لكن قبل حلول رمضان الثاني، وإلا كان آثماً إذا لم يكن له عذر، ويلزمه الإطعام عن كل يوم مسكيناً لحديث ورد بذلك، وهو وإن كان فيه ابن لهيعة فإن ذلك جاء عن

ابن عباس وعمر وابنه عبدالله وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم ولا يعرف لهم مخالف.

قضاء الصوم عن الميت

١٣٣٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وعليهِ صيامٌ صامَ عنه وَلِيُّهُ».

[رواه أحمد (٦٩/٦)، والبخاري (٩٥/٥)، ومسلم (٢٣/٨) وغيرهم وفي الباب غير ذلك].

ش: في الحديث مشروعية الصيام عن الميت وأن أولياءه يقتسمون ذلك بينهم فإن انفرد أحدهم صامه عنه، وظاهر الحديث أن ذلك واجب وفي ذلك خلاف.

من دعي إلى طعام وهو صائم

١٣٣٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دُعِيَ أحدُكُم فَلْيُجِبْ، فإنْ كانَ صائِماً فليُصَلِّ، وإنْ كَانَ مُفْطِراً فَلْيَطْعَمْ».

[رواه مسلم في النكاح (٢٣٦/٩)، وأبو داود في الصيام (٢٤٦٠)].

وعن جابر نحوه رواه أحمد (٣٩٢/٣)، ومسلم في النكاح أيضاً (٢٣٥/٩).

ش: في الحديث أن الصائم عليه أن يُجِيبَ الدعوةَ وإذا حَضَرَ دَعا مع صاحب الدعوة.

للصائم المتطوع أن يفطر

١٣٣٨ ـ عن أم هانىء رضي الله تعالى عنها قالت: لما كان يومُ الفتح

فَتْح مكَّة جاءت فاطمةُ عليها السلام فجَلستْ عن يَسارِ رسول الله ﷺ وأمُّ هانىء عن يَمِينِه قالت: فجاءتْ الوليدةُ بإناءٍ فيه شرابٌ فناولتْه فشرب منه، ثم ناولَه أمَّ هانِىءٍ فشَرِبَتْ منه، فقالت: يا رسول الله لقد أفطرتُ وكنتُ صائِمةً، فقال لها: «**أكُنتِ تَقْضِينَ شَيئاً؟**»، قالت: لا، قال: «**فلا يَضُرُّكِ إنْ كَانَ تَطَوُّعاً**».

[رواه أحمد (٣٤١/٦)، وأبو داود (٢٤٥٦)، والترمذي (٦٤٥)، والدارمي (١٧٤٢، ١٧٤٣)، والحاكم (٤٣٩/١)، والبيهقي (٢٧٦/٤، ٢٧٧، ٢٧٨) من طرق هو بها حسن صحيح].

وفي رواية للترمذي وغيره زيادة: «**الصَّائِمُ المُتَطَوِّعُ أميرُ نَفْسِهِ إنْ شَاءَ صامَ وإنْ شَاءَ أفْطَرَ**». والحديث حسنه العراقي وابن حجر وجوده النووي وصححه الحاكم والذهبي، وكذا أستاذنا الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في «الهداية».

ش: والحديث دليل على جواز فطر الصائم من التطوع وأنه لا قضاء عليه ولا إثم، ويؤيده حديث عائشة المتقدم فقلنا: يا رسول الله، أُهْدِي لنا حيسٌ، فقال: «**أرِنِيهِ فلقد أصبحتُ صائماً**» فأكل. رواه مسلم وغيره.

وفي رواية: «**إذاً أطْعَم وإن كنتُ قد فرضتُ الصومَ**» رواه الدارقطني (١٧٥/٢، ١٧٦، ١٧٧)، والبيهقي (٢٧٤/٤، ٢٧٥)، قال الدارقطني: إسناده حسن صحيح وتقدم في الاعتصام حديث قصة سلمان وأبي الدرداء وفطر أبي الدرداء.

لا تصوم المرأة التطوع إلا بإذن من زوجها

١٣٣٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تَصُم المرأةُ يوماً واحداً وزوجُها شاهدٌ إلا بإذنِهِ إلاَّ رمضانَ**».

[رواه أحمد (٢٤٥/٢، ٣١٦، ٤٦٤)، والبخاري في النكاح، ومسلم في الزكاة (١١٥/٧) وغيرهم].

ش: فيه إرشاد الزوجة إلى مراعاة الأدب مع زوجها، ومنه صومها

تطوعاً فلا ينبغي لها أن تُنشِيء صياماً حتى تستأذن زوجَها لأنه ربما توقف عليها فيضطرها إلى الفطر وإفساد صومها، قياماً منها بحقوقه.

أيام في السنة جاء الحض على صيامها

١٣٤٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه سئل ـ يعني النبي ﷺ ـ أي الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ قال: «**صيامُ شَهرِ الله المُحَرَّمِ**».

[رواه مسلم (٨/٥٥) وغيره وقد تقدم مطولاً في قيام الليل من كتاب الصلاة].

١٣٤١ ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي أحتَسِبُ على الله في عَرفةَ أن يُكَفِّر سنةَ قبلَه وسنةَ بَعْدَهُ، وعاشوراءَ سنة قبْلَهُ**».

[رواه أحمد (٥/٣٠٨، ٣١١)، ومسلم (٨/٥٠، ٥١) وغيرهما].

ش: ففي الحديث الأول دليل على أن صيام المحرم على الإطلاق أفضل الصيام بعد رمضان.

وفي الحديث الثاني بيان أن صيام عرفة أفضل صيام أيام السنة حتى يوم عاشوراء، وهما أفضل باقي أيام السنة، فينبغي للمسلم مراعاة صيامهما.

١٣٤٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تُعْرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنين والخميسِ، فأُحِبُّ أن يُعْرَضَ عَمَلِي وأنا صَائِمٌ**».

[رواه أحمد (٢/٣٢٩)، والترمذي (٦٥٩)، وابن ماجه (١٧٤٠) وهو صحيح لطرقه ولشاهدين له عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما رواه أحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٠)، وأبو داود (٢٤٣٦)، والنسائي (٤/١٧١، ١٧٢)، وابن خزيمة (٢١١٩) من طرق هو بها صحيح. وعن عائشة رواه أحمد (٦/٨٠، ٨٩، ١٠٦)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٤/١٧٢، ١٧٣) وسنده صحيح. ولفظه: كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس].

١٣٤٣ ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم الاثنين فقال: «فِيهِ وُلِدْتُ، وفيهِ أُنزِلَ عَلَيَّ».

وفي رواية: «ذَاكَ يَومٌ وُلِدْتُ فِيهِ، ويومٌ بُعِثْتُ أو أُنزِلَ عليَّ فيهِ».

[رواه أحمد (٥/٢٩٧)، ومسلم (٨/٥١، ٥٢)].

ش: ففي الحديثين فضل صيام الاثنين والخميس، وأن الأعمال تعرض فيهما على الله عرضاً خاصاً لا نعلم كيفية ذلك، وفي الاثنين فضيلة ومزية أخرى وهي كونه كان اليوم الذي ولد فيه سيد البشر ﷺ وأنه بعث وأنزل عليه فيه.

١٣٤٤ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنكُم صائِماً مِنَ الشَّهرِ ثلاثَةَ أيّامٍ فلْيَصُمْ الثلاثَ البِيضَ».

[رواه أحمد (٥/١٥٠، ١٥٢)، والترمذي (٦٧٣)، والنسائي (٤/١٩١)، وابن حبان (٣٦٥٥، ٣٦٥٦)، والبيهقي (٤/٢٩٤) وسنده حسن].

وفي لفظ للترمذي وغيره: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إذا صُمْتَ مِنَ الشَّهرِ ثلاثَةَ أيام فصُمْ ثلاثَ عشْرَةَ وأرْبَعَ عشْرَةَ وخَمْسَ عشْرَةَ».

١٣٤٥ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَامَ مِنْ كُلِّ شَهرٍ ثلاثَةَ أيّام فذلِكَ صِيامُ الدَّهرِ»، فأنزل الله تبارك وتعالى تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، اليومُ بعشْرَةِ أيامٍ.

[رواه الترمذي (٦٧٤)، والنسائي (٤/١٨٨)، وابن ماجه ١٧٠٨) وسنده صحيح].

١٣٤٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: عهد إليَّ رسولُ الله ﷺ، وفي رواية: أوصاني خليلي ﷺ بثلاثةٍ: أنْ لا أنَامَ إلا عَلَى وِتْرٍ، وصَوْمِ ثلاثَةِ أيامٍ مِنْ كُلِّ شَهرٍ، وأن أُصَلِّي الضُّحَى.

[رواه أحمد والشيخان والترمذي (٦٧٢)، والنسائي (٤/١٨٧) وغيرهم، ونحوه عن أبي ذر].

ش: ففي هذه الأحاديث الترغيب في صيام ثلاثة أيام من كل شهر

وهي أيام البيض التي جاءت مبينة في حديث أبي ذر الأول، وسميت بذلك لأن لياليها تكون بيضاً مقمرة لتمام قرص القمر فيها.

١٣٤٧ ـ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ رمضانَ ثمَّ أتْبَعَه سِتّاً مِن شَوَّالٍ كانَ كصِيامِ الدَّهْرِ**».

[رواه أحمد (٥/٤١٧، ٤١٩)، ومسلم (٨/٥٦)، وأبو داود (٢٤٣٣)، والترمذي (٦٧١)، وابن ماجه (١٧١٦) وغيرهم].

ش: وفي هذا الحديث فضل صيام الست من شوال خلافاً لمن كرهها من العلماء، وأنها مع رمضان يعدلان صيام الدهر، وهذا خير كبير.

أفضل الصيام

١٣٤٨ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه في حديثه الطويل عنه ﷺ: «**صُمْ يَوماً وأفْطِرْ يوماً، فإنَّهُ أفضلُ الصِّيامْ، وهو صَوْمُ أخِي داود**».

[رواه البخاري في الصيام (٥/١٢٧، ١٢٨)، وفي فضائل القرآن، ومسلم في الصيام (٨/٤٠، ٤١) وغيرهما. وقال فيه مسلم: «**وهو أعدل الصيام**». وفي رواية للبخاري وغيره: «**لا صومَ فوقَ صومِ داود عليه السلام شطر الدهر صم يوماً، وأفطر يوماً**». وفي رواية للترمذي (٦٨٢)، والنسائي (٤/١٦٨): «**أفضل الصوم صوم أخي داود كان يَصومُ يوماً ويُفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى**»].

ش: الحديث برواياته يدل على أن أفضل الصيام إطلاقاً صيام يوم وإفطار يوم، لأنه أشق على النفس، وفي ذلك رياضة وتهذيب لها.

الاعتكاف

١٣٤٩ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ مِن رمضانَ حتَّى تَوَفّاهُ اللَّهُ، ثم اعتكفَ أزواجُه مِنْ بَعْدِهِ.

[رواه أحمد (٥٠/٦، ١٦٨)، والبخاري (١٧٧/٥)، ومسلم (٦٦/٨، ٦٧، ٦٨)، وأبو داود (٢٤٦٢)، والترمذي (٧٠٥)].

١٣٥٠ ـ وعنها رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يَعتكفَ صلى الفجرَ ثم دَخَل في مَعْتَكَفِهِ.

[رواه مسلم (٦٨/٨، ٦٩)، وأبو داود (٢٤٦٤)، والترمذي (٧٠٦)، وابن ماجه (١٧٧١)].

١٣٥١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان فلم يعتكفْ عاماً، فلما كان في العام المُقْبِل اعتكف عشرين.

[رواه الترمذي (٧٠٨) بسند صحيح، ورواه باقي أهل السنن عن أُبيّ بن كعب بمعناه].

١٣٥٢ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدْنَى إليَّ رأسَه فَأُرَجِّلُه، وكان لا يَدخُلُ البيتَ إلا لحاجةِ الإنسانِ.

[رواه البخاري (١٧٨/٥)، ومسلم (٢٠٨/٣، ٢٠٩) في الحيض، وأبو داود (٢٤٦٧، ٢٤٦٩)، والترمذي (٧٠٧) وباقي الجماعة].

١٣٥٣ ـ وعنها أن النبي ﷺ أراد أن يعتكف فلما انصرف إلى المكان الذي أراد أن يَعتكفَ إذا أَخْبِيَةٌ خِباءُ عائشة وخِباءُ حفصة وخباءُ زينب فقال: البِرَّ تَقُولُون بِهن، ثم انصرف فلم يَعتكف حتى اعتكف عشراً من شوال.

[رواه البخاري (١٨٢/٥)، ومسلم (٦٩/٨)].

ش: الاعتكاف في الشرع هو لزوم المسجد للعبادة والانقطاع فيه عن مشاغل الدنيا. وهو من السنن النبوية التي كان يداوم عليها.

وأحاديث هذا الباب فيها أمور وأحكام. ففيها: مشروعية الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، علماً بأن الاعتكاف مشروع في سائر السنة.

وفيها: أن مريد الاعتكاف يدخل معتكفه لصلاة الفجر. وفيها: جواز مباشرة المرأة زوجها حالة اعتكافه لتسريح شعره أو غسله ونحوه، وأن ذلك خارج عن النهي القرآني: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾. وفيها: أن المعتكف لا يخرج من المسجد إلا لحاجته لتناول ما يأكله مثلاً أو للوضوء ونحو ذلك. وفيها: جواز قضاء الاعتكاف وأن الصيام ليس شرطاً فيه لأنه لم يثبت أنه ﷺ صام العشر من شوال في اعتكافه. ويدل لذلك ما في الصحيح أن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال للنبي ﷺ: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: «**أَوْفِ بِنَذْرِك**» وسيأتي في النذر إن شاء الله تعالى، والليلة ليس فيها صوم.

قيام رمضان وخاصة العشر الأواخر وما يرجى فيها من ليلة القدر

١٣٥٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن قامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ لهُ ما تقدَّم مِن ذَنْبِهِ**».

[رواه البخاري (٥/١٥٤، ١٥٥)، ومسلم (٦/٣٩، ٤٠) وباقي الجماعة].

ش: والمراد بالقيام هنا صلاة التراويح فيحصل بها المطلوب من ذلك، وقد يحصل القيام بما تيسر من التنفل مع الوتر.

١٣٥٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان إذا دخل العشْرُ الأواخرُ أحيَا الليلَ وأيْقَظَ أهلَهُ وشَدَّ المِئْزَرَ.

[رواه البخاري (٥/١٧٤)، ومسلم آخر الصيام (٨/٧٠)، وفي رواية له: كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره].

ش: وقوله: «**أحيا الليل**»: ليس معناه إحياءه كله، بل ذلك لم يقع منه ليلة من حياته. وقوله: «**وشد المئزر**»: عبارة عن اجتهاده، أو كناية عن عدم قربانه أهله.

١٣٥٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن رجالاً من

أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلةَ القدر في المنام في السبع الأواخِرِ، فقال رسول الله ﷺ: «**أرَى رُؤْيَاكُم قد تَوَاطَأَتْ في السبعِ الأَوَاخِرِ، فمَنْ كانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّها في السبعِ الأواخِرِ**».

[رواه أحمد (٨/٢)، والبخاري (١٦٠/٥)، ومسلم (٥٧/٨، ٥٨) في الصيام].

١٣٥٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قامَ ليلةَ القَدْرِ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

[رواه البخاري (١٥٩/٥)، ومسلم (٤١/٦) وباقي الجماعة].

ش: أجمع من يعتد به على وجود ليلة القدر ودوامها إلى آخر الدهر. والجمهور على أنها في رمضان وأنها في أوتار العشر الأواخر للأحاديث الصحيحة الكثيرة في ذلك، ثم إن بعض الأئمة كمالك وأحمد وغيرهما قالوا: تنتقل في العشر مرة تكون ليلة إحدى وعشرين، وسنة تكون في ثلاث وعشرين وهكذا ولذلك جاءت الأحاديث مختلفة في ذلك.

وعلى كل؛ فمن صادفها غفر له ما تقدم من ذنبه، وكان كمن قام أكثر من ألف شهر وحصل له فيها بركة وخير كبير.

١٣٥٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: يا رسول الله إن وَافَقْتُ ليلة القدر بِمَ أَدْعُو؟ قال: «**قولي: اللَّهُمَّ إنَّك عَفُوٌ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي**».

[رواه أحمد (١٨٣/٦، ٢٥٨)، والترمذي (٣٢٨٣)، والحاكم (٥٣٠/١)، وصححه الترمذي وغيره].

ش: في هذه الليلة المباركة يفرق كل أمر محكم يكون في تلك السنة فلان سيموت وفلان سيوجد وفلان، سيتزوج وفلان سيصاب بكذا، وهكذا فيعلم الله تعالى من شاء من ملائكته وغيرهم. وفيها تتنزل جموع من الملائكة ومعهم الروح فيصلون ويسلمون على عباد الله المؤمنين القائمين، وهكذا إلى أن يطلع الفجر. وبما أن هذه الليلة هي أفضل ليلة في السنة وكانت مظنة للاستجابة اختار النبي ﷺ أن يقال فيها دعاء جامع لخيري

الدنيا والآخرة: **«اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»**. فإن من عفا الله تعالى عنه فقد سعد في دنياه وأخراه. جعلنا الله تعالى ممن يشملهم عفوه، آمين.

وبهذا تم كتاب الصيام وما يتعلق به، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وزوجه وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وسبحان الله وبحمده سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، في كتابي الزكاة والصيام مائة وستة وسبعون حديثاً الزوائد الصحيحة منها ستون حديثاً وباقيها في الصحيحين أو أحدها، ويليه كتاب الحج والمناسك.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وسلم

كتاب الحج

من فضائل الحج والعمرة

١٣٥٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «**إيمانٌ بالله ورسولِهِ**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جِهادٌ في سبيلِ الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**».

[رواه أحمد (٢/٢٥٨)، والبخاري في الإيمان (١/٨٥)، وفي الحج (٤/١٢٤، ١٢٥)، ومسلم في الإيمان (٢/٧٢) وغيرهم].

ش: إنما كان الحج من أفضل الأعمال وقرن مع الجهاد والإيمان لما فيه من الخروج في سبيل الله ومفارقة الأهل والمال والوطن، والتعرض لمعاناة السفر ومتاعبه وما يشتمل عليه من التعبد لله عزّ وجلّ والتواضع والخشوع له وزيارة حرمه وأحب الأرض إليه والإنفاق للأموال في سبيل ذلك كله.

١٣٦٠ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَجَّ البيتَ فلَمْ يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ، رجَعَ مِن ذُنُوبِه كيَوْمِ ولَدَتْهُ أمُّهُ**».

[رواه أحمد ٢/٢٢٩، ٤١٠، ٤٨٤، ٤٩٤)، والبخاري (٤/١٢٥)، ومسلم

(١١٩/٩)، والنسائي (٨٥/٥)، والترمذي (٧١٨)، وابن ماجه ٢٨٨٩) غير أن الترمذي قال: «غفر له ما تقدم..» إلخ].

ش: قوله: «فلم يرفث»: الرفث يطلق على الجماع أو التعريض به وعلى الفحش في القول.. قال الحافظ: الذي يظهر أن المراد به في الحديث ما هو أعم.

وفي الحديث فضل عظيم لمن حج وكان حجه خالياً مما ذكر في الحديث، وظاهر الحديث يقتضي غفران كل الذنوب حتى الكبائر، وهو موافق لحديث عمرو بن العاص الطويل الوارد في سياقة موته حيث قال: قال لي النبي ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قبلَها، وأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كانَ قَبْلَهُ»، رواه مسلم في الإيمان (١٣٧/٢، ١٣٨).

١٣٦١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِن يومٍ أَكْثَرُ مِن أَنْ يُعْتِقَ الله فيه عَبْداً مِنَ النَّارِ مِن يومِ عَرَفة، وإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُم يُبَاهِي بِهِم الملائِكَةَ فيقولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ؟».

[رواه مسلم (١١٦/٩، ١١٧)، وابن ماجه (٣٠/٤)].

ش: يوم عرفة هو أفضل يوم في السنة وأشرفه، ومن شرفه أنه الركن الأعظم للحج حتى إن من فاته بطل حجه بالإجماع، ومن شرفه أن الله تعالى يتجلى فيه لعباده عشيته ويباهي بهم ملائكته ويقول لهم: «انْظُرُوا إلى عِبادِي أَتَوْنِي شُعْثاً غُبْراً»، رواه أحمد (٢٢٤/٢) عن ابن عمرو، وعن أبي هريرة أيضاً رواه أحمد (٣٠٥/٢)، والحاكم (٤٦٥/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي..

١٣٦٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العُمْرَةُ إلى العُمرةِ كَفَّارةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا والحَجُّ المبرُورُ ليسَ لَهُ جَزَاءٌ إلاَّ الجَنَّة».

[رواه أحمد (٢٤٦/٢، ٤٦١)، والبخاري (٣٤٧/٤)، ومسلم (١١٧/٩، ١١٨)].

ش: الحج المبرور هو الخالي من الآثام مع إطعام الطعام وإفشاء

السلام، والحديث بالغ الأهمية في فضل الحج والعمرة وفيه بشارة أي بشارة.

١٣٦٣ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمرةِ فإنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذُّنوبَ كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ**».

[رواه أحمد (٣٨٧/١)، والترمذي (٧١٧)، والنسائي (٨٧/٥)، وابن خزيمة (٢٥١٢)، وابن حبان (٩٦٧) بسند حسن صحيح، ونحوه عن ابن عباس رواه النسائي (٨٧/٥) وغيره].

ش: المراد بالمتابعة بين الحج والعمرة هي كلما فرغ من الحج اعتمر، وكلما فرغ من العمرة حج، فمن فعل ذلك كان كالذهب والفضة في النظافة من قذر الذنوب ووسخ المعاصي لا يبقى فيه درن بفضل الله تعالى.

الحج والعمرة جهاد الضعاف

١٣٦٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**جِهَادُ الكَبِيرِ والضَّعِيفِ والمَرْأةِ: الحَجُّ والعُمْرَةُ**».

[رواه أحمد (٤٢١/٢)، والنسائي (٨٥/٥) بسند صحيح].

١٣٦٥ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الحَجُّ جِهادُ كُلِّ ضَعِيفٍ**».

[رواه أحمد (٢٩٤/٦)، وابن ماجه (٢٩٠٢) ورجاله ثقات].

ش: الحديثان يدلان على أن الحج والعمرة جهاد، وأن من لا يستطيع جهاد العدو وحضور المعارك فليحج وليعتمر فهما جهاده.

فرضية الحج مرة في العمر وتأكده كل خمس سنوات

١٣٦٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ

فقال: «**يا أيُّها النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عليكُم الحَجَّ فحُجُّوا**»، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسولَ الله، فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ قُلْت نَعَمْ لوَجَبَتْ ولَمَا اسْتَطَعْتُم**».

[رواه مسلم (٩/١٠٠، ١٠١)].

١٣٦٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بنحوه وفيه: «**الحَجُّ مَرَّةً فمَا زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ**».

[رواه أحمد (١/١٩١، ٢٩٠)، وأبو داود (١٧٢١)، وابن ماجه (٢٨٨٦) بسند صحيح، وفي الباب عن الإمام علي وأنس رضي الله تعالى عنهما].

ش: ما ذكر في الحديثين مجمع عليه كما قال النووي والحافظ وغيرهما. وقال ابن قدامة في «المغني» (٣/٢١٣): وأجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة.

أما مطلق فرضيته على المستطيع فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

وفي حديث جبريل المتقدم في الإيمان: «**وأن تَحُجَّ البيتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليهِ سَبيلاً**» رواه مسلم وغيره وفي الباب أحاديث كثيرة.

١٣٦٨ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: إنَّ عَبْداً أَصْحَحْتُ لهُ جِسْمَهُ، ووَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي المَعِيشَةِ تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أعْوَامٍ لا يَفِدُ علَيَّ لَمَحْرُومٌ**».

[رواه ابن حبان في صحيحه (٩٦٠)، والبيهقي (٥/٢٦٢)، والخطيب في «التاريخ» (٨/٣٢٨) بسند صحيح على شرط مسلم، واختلاط خلف بن خليفة آخر حياته لا يضر هنا فقد تابعه سفيان الثوري كما في «المصنف» لعبدالرزاق (٨٨٢٦)].

ش: في الحديث تأكد الحج على الموسع عليه كل خمسة أعوام، ومرغب فيه كل سنة لما فيه من الفضل العظيم كما تقدم.

الاستنابة في الحج للمعطوب وغيره

١٣٦٩ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان الفضلُ بن

العباس رديفَ رسول الله ﷺ فجاءَتْهُ امرأةٌ من خَثْعَمَ تَسْتَفْتِيهِ، قالت: يا رسولَ الله إنَّ فريضةَ اللهِ على عبادِهِ في الحجِّ أدْرَكَتْ أبِي شَيْخاً كَبِيراً لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَثْبُتَ على الرَّاحِلَةِ أفَأَحُجَّ عَنْهُ؟ قال: «نَعَمْ»، وذلك في حجة الوَدَاعِ.

[رواه البخاري (١٢١/٤)، ومسلم (٩٧/٩، ٩٨) وغيرهما].

١٣٧٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ، قال: «مَنْ شُبْرُمَةَ؟»، قال: أخٌ لِي، أو قريبٌ لِي، قال: «حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟»، قال: لا، قال: «حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ».

[رواه أبو داود (١٨١١)، وابن ماجه (٢٩٠٣)، وابن الجارود (٤٩٩)، وابن حبان (٩٦٢)، والبيهقي (٣٣٦/٤) وسنده صحيح، وفيه كلام طويل وقد صححه البيهقي وابن الملقن والحافظ وغيرهم].

ش: في الحديثين مشروعية النيابة في الحج مطلقاً والتنصيص في الحديث الأول على المعطوب لا يدل على المنع من غيره، لأن الحديث الثاني ليس فيه معطوب ولا غيره. وقد قال ﷺ لمن سمعه يلبي عن غيره: «حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة»، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممنوع كما هو معروف في الأصول.

الحج عن الميت

١٣٧١ ـ عن بُرَيْدَة رضي الله تعالى عنه قال: بينا أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ أتَتْهُ امرأةٌ فقالت: إني تصدَّقْتُ على أمي بجاريةٍ وإنها ماتَتْ، قال، فقال: «وَجَبَ أجْرُكِ وردَّها عليكِ الميراثُ»، قالت: إنها لم تَحُجَّ قط، أفأَحُجَّ عنها؟ قال: «حُجِّي عَنْهَا».

[رواه مسلم في الصيام (٢٥/٨)].

١٣٧٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن امرأة من جُهَيْنَة

جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أُمِّي نَذَرَتْ أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأَحُجُّ عنها؟ قال: «**نعم، حُجِّي عنها، أرأيتِ لَوْ كَانَ على أُمِّكِ دَيْنٌ أكُنتِ قاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا اللَّهَ فاللَّهُ أحقُّ بالوَفاءِ**».

[رواه البخاري (٤٣٦/٤)، ورواه مسلم في الصيام (٢٣/٨، ٢٤) لكن بدل الحج عنده الصوم، ولابن عباس حديث آخر بنحو هذا مختصراً رواه الشيخان وغيرهما].

ش: ففي الحديثين جواز قضاء الحج عمن وجب عليه من الأموات، وبذلك قال عامة العلماء إلا من شذ منهم، وفي الحديثين فوائد تطلب من المطولات.

الاستطاعة في الحج

١٣٧٣ ـ عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَلَكَ زاداً أو رَاحِلَةً تُبَلِّغُه إلى بَيتِ الله ولم يَحُجَّ فلا عليهِ أن يَموتَ يَهُودياً أو نَصرانِياً، وذلِكَ أنَّ الله تعالى يقولُ في كِتابِه**: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾».

[رواه الترمذي (٧١٩) والحديث حسن لطرقه، وانظر «تهذيبي للجامع» في الرقم المذكور].

ويؤيد معناه أيضاً حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما يُوجِبُ الحج؟ قال: «**الزَّادُ والرَّاحِلَة**» رواه الترمذي (٧٢٠)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والدارقطني (٢١٧/٢)، والحاكم (٤٤٢/١)، وصححه على شرط البخاري، ومسلم، ووافقه الذهبي. وللحديث طرق وشواهد عن جماعة من الصحابة انظر «التلخيص» (٢٢١/٢)، و«نصب الراية» (٧/٣، ١٠)، و«هداية الرشد» (٢٧١/٥، ٢٧٢) لأستاذنا أحمد بن الصديق رحمه الله. وقال الترمذي: والعمل عليه عند أهل العلم أن الرجل إذا ملك زاداً أو راحلة وجب عليه الحج.

هل تحج المرأة وحدها؟

١٣٧٤ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني اكْتُتِبْتُ في غَزْوَةِ كذا وكذا، وامْرَأَتِي حاجَّةٌ، قال: «**فارْجِعْ فحُجَّ معَها**».

[رواه أحمد (٣٤٦/١)، والبخاري (٤٤٨/٤)، ومسلم (١٠٩/٩، ١١٠) وغيرهم].

ش: فيه أن المرأة لا يجب عليها الحج إذا لم يكن لها محرم، وبهذا قال الجمهور لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤمِنُ باللَّهِ واليوم الآخِر أن تُسَافِرَ سَفراً فَوْقَ ثلاثةِ أيَّام فَصاعِداً إلاَّ ومَعَها أَبُوها أو أَخُوها أو زَوْجُها أو ابْنُها أو ذُو مَحْرَمٍ مِنها**»، رواه مسلم، وكذا البخاري مختصراً وجاء في الصحيحين عن أبيَ هريرة... «**أن تسافر يوماً وليلة**»، وفي رواية عند أبي داود: «بريداً» وتقدم في تقصير الصلاة.

التعجيل بالحج لمن وجب عليه

١٣٧٥ ـ عن ابن عباس، عن الفضل، أو أحدهما عن الآخر رضي الله تعالى عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أرادَ الحَجَّ فلْيَتَعَجَّلْ، فإنَّه قَدْ يَمْرَضُ المَرِيضُ، وتَضِلُّ الضَّالَّةُ، وتَعْرِضُ الحَاجَةُ**».

[رواه أحمد (٢١٤/١، ٣١٤، ٣٢٣، ٣٥٥)، وابن ماجه (٢٨٨٣)، والبيهقي (٣٤٠/٤) وغيرهم، وفيه عندهم إسماعيل بن خليفة الملائي ضعيف لكنه لم ينفرد به فقد جاء من طريق آخر رواه أحمد (٢٢٥/١)، وأبو داود (١٧٣٢)، والحاكم (٤٤٨/١) وغيرهم، وصححه الحاكم والذهبي، غير أن فيه مهران أبا صفوان لا يعرف بجرح. فالحديث حسن بطريقيه].

ش: والحديث يدل على وجوب التعجيل بالحج لمن كان مستطيعاً. وقد اختلف العلماء في ذلك فقال بعضهم: هو على الفور، وقال آخرون: هو على التراخي وهذا مبني منهم على الخلاف في وقت فرضية الحج، هل

كان في السنة التاسعة كما قال البعض أم كان قبل ذلك كما قال البعض الآخر، وصحح الأول القرطبي وابن القيم في «الهدى».

مواقيت الحج

١٣٧٦ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: وقَّتَ رسولُ الله ﷺ لأهلِ المدينة ذا الْحُلَيْفَةِ، ولأَهلِ الشَّامِ الجُحْفَةَ، ولأهلِ نَجْدٍ قَرْنَ المَنَازِلِ، ولأهْلِ اليَمَنِ يَلَمْلَمَ، فهُنَّ لهُنَّ ولِمَن أتَى عليهِنَّ مِن غير أهْلِهِنَّ، لِمَنْ كانَ يُرِيدَ الحجَّ والعُمرةَ، فمَنْ كانَ دونَهُنَّ فمهلُّه مِن أهْلِهِ، وكذلك حتَّى أهلُ مكةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا.

[رواه البخاري (١٢٨/٤، ١٣١)، ومسلم (٨٢/٨، ٨٣، ٨٤) وغيرهما، ونحوه عن ابن عمر وجابر وغيرهما وكلها في الصحيح].

١٣٧٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ وقَّت لأهل العراق ذات عِرْقٍ.

[رواه أبو داود (١٧٣٩)، والنسائي (٩٥/٥) وغيرهما وهو حديث صحيح لطرقه، بل جاء في صحيح مسلم (٨٦/٨) من حديث جابر: «**ومَهَلُ أهلِ العراقِ مِن ذَاتِ عِرْقٍ**»].

ش: مواقيت الحج زمانية ومكانية، فالزمانية شوال، والقعدة، وعشر من ذي الحجة. وإليها يشير قوله تعالى: ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ**﴾. والمكانية هي المفصلة فيما ذكرناه، وهي خمسة حسب الآفاق. «**ذو الحليفة**»: ويقال له الآن آبار علي لأهل المدينة المنورة ومن مر عليها وهو أبعد المواقيت إذ بينه وبين مكة المكرمة أكثر من أربعمائة كيلومتراً. «**والجحفة**» بضم الجيم وسكون الحاء: لأهل الشام وكان ذلك في القديم، أما اليوم فطريقهم على المدينة، نعم هي موقت لكل من حاذاها جواً وبحراً ممن يأتي من جهة المغرب، على أنها لم تبق الآن موقتاً لخرابها بل نقل الموقت إلى رابغ. «**وقرن المنازل**» لأهل نجد ومن مر عليهم من الجهات الشرقية. «**ويلملم**» بفتحات مع سكون الميم: لأهل اليمن وأستراليا والحبشة

ونحوهم. «وذات عرق»: لأهل العراق ومن سامتهم ومر عليهم.

فهذه المواقيت جعلها الشارع لأهلها ولكل من مر عليها، أما من كان داخلها بينها وبين مكة فمهله داره، ولا يجوز لأي مسلم يريد أحد النسكين أن يجاوز هذه المواقيت بدون إحرام، فمن فعل ذلك فقد أثم وعليه دم عند الجمهور، وأبطل بعض الأئمة حجه ومنهم ابن حزم لقول ابن عمر: أمر رسول الله ﷺ أهل المدينة.. إلخ، رواه مسلم (٨/٨٥)، وفي رواية: فرضها رسول الله ﷺ.. إلخ رواه البخاري (٤/١٢٦)، ومن ترك فرضاً من الحج بطل حجه عنده لكن الجمهور قالوا يلزمه دم.

* * *

أنواع الإحرام

الإفراد والتمتع والقران

١٣٧٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أحَبَّ أن يُهِلَّ بعُمرةٍ فلْيُهِلَّ، ومَنْ أحبَّ أن يُهِلَّ بحَجَّةٍ فليُهِلَّ، فلولا أنّي أهْدَيتُ لأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ»**. وفي رواية: خرجنا مع رسول الله ﷺ ثلاثة أنواع، فمنا من أهلَّ بحج وعمرة، ومنا من أهلَّ بحج مُفْرِدٍ، ومنا من أهلَّ بعمرة، فمن كان أهلَّ بحج وعمرة معاً، لم يَحِلَّ مِن شيء مما حرَّم الله عزّ وجلّ عليه حتى يَقْضِيَ حَجَّه، ومن أهلَّ بعمرة ثم طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وقصَّر أحل مما حرم منه حتى يَسْتَقْبِلَ حَجّاً. وفي رواية: فقال النبي ﷺ: **«من أهلَّ بالعُمرة ولم يُهْدِ فلْيَحِلَّ، ومن أهلَّ بعُمرةٍ فأهدَى فلا يَحِلُّ، ومَن أهلَّ بحجٍّ فليُتِمَّ حجه»**.

[رواه البخاري (٤/١٦٧) وفي مواضع من كتاب الحج، ومسلم فيه في باب وجوه الإحرام (٨/١٣٤، ١٤١، ١٤٣) وغيرهما].

١٣٧٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: تمتع

رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهَدْيَ مِن ذِي الحليفة وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعُمرة ثم أهلَّ بالحجِّ، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، ومنهم من لم يُهْدِ، فلما قدِمَ النبيُّ ﷺ مكة، قال للناس: «**مَنْ كانَ مِنكم أهدَى، فإنَّه لا يَحِلُّ مِن شيءٍ حَرُمَ منه حتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، ومَنْ لم يَكُنْ مِنكُم أهدَى، فليَطُفْ بالبيتِ وبالصَّفا والمَرْوَة ويُقَصِّر، ولْيَحْلِلْ ثُمَّ يُهِلَّ بالحجِّ، فمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْياً فليصُمْ ثلاثةَ أيام في الحجِّ، وسبعةً إذا رجَعَ إلى أهْلِهِ فطافَ حين قَدِمَ مكة**»، واستلَمَ الرُّكن أول شيءٍ، ثم خَبَّ ثلاثةَ أطوافٍ، ومشَى أربعاً، فركَعَ حين قضى طَوَافهُ بالبيتِ عند المَقَام ركعتين ثم سلَّم، فانصرف فأتى الصفا فطافَ بالصفا والمروة سبعةَ أشواطٍ، ثم لم يَحْلِلْ من شيء حَرُمَ منه حتى قضى حجه ونحرَ هديَه يومَ النحر وأفاضَ فطاف بالبيتِ ثم حَلَّ من كل شيء حرُم منه وفعل مثلَ ما فعل رسولُ الله ﷺ مَنْ أهدَى وساق الهدي من الناس.

[رواه البخاري (٤/٢٨٦، ٢٨٧) باب من ساق الهدي معه، ومسلم باب وجوب الدم على المتمتع (٨/٢٠٨، ٢٠٩) وغيرهما].

١٣٨٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ ونحن معه بالمدينة الظُّهْرَ أربعاً والعَصْرَ بذِي الحُلَيْفَة رَكْعَتَيْنِ ثم بَاتَ بها حتى أصبحَ ثم رَكب حتى اسْتَوَتْ به على البيداءِ حمِدَ الله وسَبَّح وكبَّر، ثم أهلَّ بحج وعمرة، وأهلَّ الناس بهما، فلما قدمنا أمر الناس فحلوا حتى كان يومُ التَّرْوِيَةِ أهلُّوا بالحج، ونَحَرَ النبيُّ ﷺ بدَنَاتٍ بِيَدِه قياماً، وذبح رسول الله ﷺ بالمدينة كَبْشَيْنِ أمْلَحَيْنِ.

[رواه البخاري (٤/١٥٥) في باب التحميد والتسبيح.. قبل الإهلال إلخ].

١٣٨١ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: «**أتانِي الليلةَ آتٍ مِن رَبِّي فقال: صلِّ في هَذا الوادِي المُبَارَك وقُلْ عُمْرَةً في حَجَّةٍ**».

[رواه أحمد (١/٢٤)، والبخاري في الحج (٤/١٣٥)، وفي الاعتصام].

١٣٨٢ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنه حج مع النبي ﷺ يوم ساق البُدْنَ معهم وقد أهَلُّوا بالحج مُفْرداً، فقال لهم: «**أحِلُّوا من إحرامِكم بطوافِ البيتِ وبين الصَّفا والمَرْوَة وقَصِّروا، ثم أقِيمُوا حَلالاً حتى إذا كان يومُ التَّرْوِيَة فأهِلُّوا بالحجِّ، واجْعَلُوا الذي قدِمْتُم بها مُتْعَةً**»، فقالوا: كيف نجعلها مُتعة وقد سَمَّيْنا الحَجَّ؟ فقال: «**افْعَلُوا ما أمَرْتُكم فلَوْلا أنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثلَ الَّذي أمَرْتُكم، ولكِنْ لا يَحِلُّ مِنِّي حَرامٌ حتى يَبْلُغَ الهَدْيَ مَحِلَّه**» ففعلوا.

[رواه أحمد (٣/٣٠٢، ٣٨٨)، والبخاري (٤/١٧٥)، ومسلم (٨/١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١) وغيرهما، وله ألفاظ عند مسلم].

١٣٨٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن متعة الحج فقال: أهَلَّ المُهاجرُون والأنصارُ وأزواجُ النبي ﷺ في حجة الوداع، وأهْلَلْنا، فلما قدمنا مكة قال رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوا إهْلالَكُم بالحَجِّ عُمْرَةً إلاَّ مَنْ قَلَّدَ الهَدْيَ**»، طُفْنا بالبيتِ وبالصفا والمَرْوة، وأتَيْنا النساءَ ولَبِسنا الثِّيابَ، وقال: «**مَن قَلَّدَ الهَدْيَ فإنَّهُ لا يَحِلُّ لهُ حتى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّه**»، ثم أمرنا عشيةَ التروية أن نُهِلَّ بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقد تم حجنا وعلينا الهدي.

[رواه البخاري مطولاً (٤/١٧٨، ١٧٩)].

ش: جملة هذه الأحاديث الشريفة تدل على مشروعية الإحرام في الحج بالأنواع الثلاثة: الإفراد والقران والتمتع، وقد نقل غير واحد الاتفاق على جواز ذلك كله بل قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في كتاب «اختلاف الحديث»: إن الكتاب ثم السنة ما لا أعلم فيه خلافاً يدل على أن التمتع بالعمرة إلى الحج، وإفراد الحج، والقران، واسع كله.

وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في «شرح السنة»: اتفقت الأمة في الحج والعمرة على جواز الإفراد والتمتع والقران إلخ.

وفيها أن النبي ﷺ كان قارناً بين الحج والعمرة وأنه لم يحل هو ومن كان معه هدي من الصحابة حتى يوم النحر.

وجاء في إحرامه بالقران نحو من خمسة وعشرين حديثاً، وفيها أنه ﷺ أمر من لم يكن معه هدى أن يجعلها عمرة متمتعاً بها إلى الحج وتمنى أن يكون كذلك حيث قال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة ولما سقت الهدي**» وأحاديث أمره بالتمتع بالعمرة رواها أربعة عشر صحابياً وأكثر ذلك في الصحيحين. أما ما جاء في صحيح مسلم وغيره عن عائشة وجابر وابن عمر رضي الله تعالى عنه من أن النبي ﷺ كان مفرداً بالحج فمؤول بأنه أهل أولاً بالحج ثم أردفه بالعمرة. قال الحافظ في «الفتح»: والذي تجتمع به الروايات أنه ﷺ كان قارناً بمعنى أنه أدخل العمرة على الحج بعد أن أهل به مفرداً لا أنه أول ما أهل أحرم بالحج والعمرة معاً قال: وقد تقدم عن عمر مرفوعاً: «**وقل عمرة في حجة**». وحديث أنس: ثم أهل بحج وعمرة، ولمسلم من حديث عمران بن حصين: جمع بين حج وعمرة، ولأبي داود والنسائي من حديث البراء مرفوعاً: «**إني سقت الهدي وقرنت..**» إلى آخر ما ذكر (١٧١/٤)، وانظر للتوسع في هذا الموضوع «صحيح ابن حبان» (٢٢٩/٩)، و«الهدي النبوي» لابن القيم (١٠٧/٢ ـ ١٨٦).

صفة الإحرام وما يلزم أو يستحب عنده

١٣٨٤ ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل.

[رواه الترمذي ٧٣٩)، والدارمي (١٨٠١)، وحسنه الترمذي وهو وإن كان سنده ضعيفاً، فإن معناه صحيح للأحاديث الصحيحة الواردة في إحرام النبي ﷺ وللحديث التالي أيضاً].

١٣٨٥ ـ فعن جابر رضي الله تعالى عنه في حديثه الآتي في حجة النبي ﷺ قال: حتى إذا أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فقال ﷺ: «**اغْتَسِلي واسْتَثْفِرِي بثوبٍ وأحْرِمِي...**».

[رواه أحمد (٣٢٠/٣)، ومسلم (١٧٢/٨) وغيرهما].

١٣٨٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: انطلق رسول الله ﷺ من المدينة بعدما ترجل وادَّهن ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه فلم يَنْه عن شيء من الأرْدِيَة والأُزُر تُلْبَسُ إلا المُزَعْفَرَة.

[ذكره البخاري في مواضع من الحج].

١٣٨٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: كنت أُطَيِّبُ رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يُحرِمَ، ولِحِلِّه قبل أن يَطُوفَ بالبيتِ.

وفي رواية: كأني أنظرُ إلى وَبِيصِ الطِّيبِ في مَفْرِقِ رسولِ الله ﷺ بعدَ ثلاثٍ مِن إحْرامِهِ.

[رواه البخاري (١٤١/٤، ١٤٢) في الحج، وفي اللباس، ومسلم (٩٨/٨، ٩٩)، وأبو داود (١٧٤٥)، والترمذي (٨١٤)، وباقي الجماعة].

١٣٨٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: صلى رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة أربعاً، وصلى العصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بذي الحليفة حتى أصبح، فلما ركب راحلته واستوت به أهلَّ.

وفي رواية: صلى الظهر ثم ركب راحلته فلما علا على جبل البيداء أهلَّ.

[رواه البخاري (١٥٠/٤، ١٥١) بالرواية الأولى، وأبو داود (١٧٧٤) بالثانية وسنده صحيح، وكذا رواه النسائي (١٢٦/٥)].

١٣٨٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ: **«لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ، لبَّيكَ لا شَرِيكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ لا شَرِيكَ لكَ»**.

[رواه البخاري (١٥٢/٤)، ومسلم (٨٧/٨، ٨٩)، والترمذي (٧٣٤)، والدارمي (١٨١٥) وباقي الجماعة، وفي رواية لمسلم وغيره: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهلَّ فقال: **«لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيكَ»** إلخ].

١٣٩٠ ـ وعن السائب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل عليه السَّلام فأمَرَني أن آمُرَ أصحَابِي ومَن مَعِي أن يَرْفَعُوا أصواتَهم بالإهْلالِ أو قالَ بالتَّلْبِيَةِ فإنَّها مِن شِعَارِ الحَجِّ**».

[رواه أحمد (٤/٥٥)، وأبو داود (١٨١٤)، والترمذي (٨٣٨)، والنسائي (٥/١٢٥)، وابن ماجه (٢٥٢٢)، وابن حبان (٩٧٤)، والحاكم (١/٤٥٠)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا الحاكم وآخره لابن حبان. ونحوه عن أبي هريرة رواه الحاكم (١/٤٥٠)، والبيهقي (٥/٤٢)، وصححه الحاكم، وعن زيد بن خالد الجهني رواه ابن ماجه (٢٩٢٣)، والحاكم (١/٤٥٠) وصححه ووافقه الذهبي وكلهم عندهم: «**فإنها مِن شِعارِ الحَجِّ**»].

١٣٩١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُلَبِّي حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ.

[رواه البخاري (٤/٢٨٠)، ومسلم وغيرهما].

١٣٩٢ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إلاَّ لَبَّى مَنْ عَن يَمِينِهِ وشِمَالِهِ مِن حَجَرٍ أو شَجَرٍ أو مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأرضُ مِن هَهُنَا وهَهُنَا**».

[رواه الترمذي (٧٣٧)، وابن ماجه (٢٩٢١)، والحاكم (١/٤٥١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي].

ش: في هذه الأحاديث الشريفة الطيبة أمورٌ تتعلق بالإحرام وهي كالآتي:

أولاً: التجرد من الثياب المخيطة ولبس الإزار والرداء وهذا إجماع لا خلاف فيه، ولا بد أن يكشف مع ذلك رأسه ووجهه لما سيأتي في حديث ابن عباس: «**ولا تُخَمِّرُوا رأسَهُ ووَجْهَهُ**» رواه مسلم وغيره.

ثانياً: الاغتسال تأهباً للدخول في النسك العظيم وهو مستحب بالاتفاق حتى للنفساء والحائض.

ثالثاً: التطيب بأطيب ما يجد الإنسان، وأفضله المسك، ولا يضر بقاء أثره بعد الإحرام، وما جاء بخلاف ذلك فمنسوخ كما سيأتي بعد.

رابعاً: أن يكون الدخول في الإحرام بعد صلاة اتفاقاً فريضة كانت أم نافلة.

خامساً: يكون رفع الصوت بالإهلال عقب الصلاة أو بعد ما يركب والأمر في ذلك واسع.

سادساً: مشروعية ذكر التلبية المأثورة عن النبي ﷺ وأن يرفع الصوت بها لأنها من شعار الحج وعلامته وأن لا تقطع حتى يشرع في طواف القدوم بالنسبة للمتمتع، وإلى يوم النحر بالنسبة للمفرد والقارن. والتلبية معناها الإجابة. انظر بسط ذلك في المطولات.

سابعاً: بيان فضل التلبية وأن كل ما خلق الله من هذه الكائنات والأجرام تشارك الملبي في ذلك لأنها كلها توحيد لله عزّ وجلّ وثناء وتمجيد له عزّ وجلّ.

تعليق الإحرام بإحرام الغير

١٣٩٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قدم عَلِيٌّ من سِعَايَتِه فقال له النبي ﷺ: «**بِمَ أَهْلَلْتَ يَا عَلِيُّ؟**»، قال: بما أهلَّ به النبي ﷺ، قال: «**فامْكُثْ حَرَاماً كما أَنْتَ**»، قال: وأهدى له علي هدياً.

[رواه البخاري في الحج (٤/١٦٠) وفي مواضع من صحيحه، وفي رواية لأنس نحوه وزاد: «**لولا أن معي الهَدْى لأحللْتُ**» رواه البخاري (٤/١٦٠)، ومسلم (٨/٢٣٣)، والترمذي (٨٥٢) وغيرهم، وعن أبي موسى نحوه أيضاً رواه البخاري (٤/١٦١)، ومسلم (٨/١٩٨، ٢٠١)].

ش: في الحديث جواز الإحرام على الإبهام، وإن لم يعين نوعاً من أنواع النسك، ثم له بعد ذلك أن يفعل ما ظهر له.

الاشتراط عند الإحرام

١٣٩٤ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ ضُبَاعَة بنتَ الزُّبَيْرِ بن

عبدِالمطلب رضي الله تعالى عنها أتَتْ رسول الله ﷺ فقالت: إني امْرأةٌ ثَقِيلَةٌ وإنِّي أُرِيد الحج فما تأمُرُنِي؟ قال: «أهِلِّي بالحجِّ واشْتَرِطِي أن مَحِلِّي حيث تَحْبِسُنِي»، قال: فأدركتْ.

[رواه مسلم (٨/١٣١، ١٣٢)، وأبو داود (١٧٧٨)، والنسائي (٥/١٣٠)، وابن ماجه (٢٩٣٨)، وكذا أحمد (١/٣٣٧، ٣٥٢)، والترمذي (٨٣٧) بتهذيبي ونحوه عن عائشة رواه مسلم (٨/١٣١) في الحج، ورواه البخاري في النكاح].

ش: فيه جواز الاشتراط في الإحرام فإذا مرض أو تعذر له الوصول إلى قضاء المناسك حلَّ من إحرامه.

المحرم يكسر أو يعرج

١٣٩٥ ـ عن الحجاج بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كُسِرَ أو عَرَجَ فقد حَلَّ وعَلَيْهِ الحجُّ مِن قَابِلٍ».

[رواه أحمد (٣/٣٥٠)، وأبو داود (١٨٦٢، ١٨٦٣)، والنسائي (٥/١٥٦، ١٥٧)، والترمذي (٨٣٦)، وابن ماجه (٣٠٧٧، ٣٠٧٨)، والحاكم (١/٤٧٠) وسنده صحيح، ولذا صححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند الترمذي وغيره صحيح على شرط مسلم].

ش: الحديث يدل على أن من عَرَضَ له عارِضٌ من كسر أو عرج أو نحو ذلك مما يمنعه من أداء المناسك فقد حلَّ من إحرامه ووجب عليه قضاؤه إن تيسر له وظاهره أنه لا يلزمه هدي ولا شيء.

الإحصار

١٣٩٦ ـ عن عبدالله وسالم بن عبدالله أنهما كلَّمَا عبدَالله بنَ عمرو رضي الله تعالى عنهم لما نزل الجيشُ بابن الزبير قبل أن يُقْتَلَ فقالا: لا يَضُرُّكَ أن لا تَحُجَّ العامَ، إنَّا نَخَافُ أن يُحَالَ بيننا وبين البَيتِ، قال: خرجْنَا مع رسول الله ﷺ فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ دُون البيت فنَحَرَ رسولُ الله ﷺ هَدْيَه وحلَقَ رأسَهُ.

وأُشهِدُكم أنّي قَد أوْجَبْتُ عُمْرَةً إن شاء الله تعالى أَنْطَلِقُ فإن خُلِّيَ بيني وبين البيتِ طُفْتُ، وإن حِيلَ بيني وبين البيت فَعلتُ ما فَعَلَ رسولُ الله ﷺ وأنا معه، ثم سار ساعة ثم قال: فإنما شأنُهُمَا وَاحِدٌ، أُشهِدُكم أني قد أوْجَبْتُ حجَّةً مع عُمْرَتِي، فلم يَحْلِلْ منهما حتى أحلَّ يومَ النحر وأهدي.

[رواه البخاري (٣٧٧/٤، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣)، ومسلم (٢١٤/٨، ٢١٥) وغيرهما].

١٣٩٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قد أُحْصِرَ رسولُ الله ﷺ فَحَلق وجَامعَ نِساءَه ونَحر هَدْيَه حتى اعْتَمَر عاماً قَابِلاً.

[رواه البخاري (٣٧٨/٤)].

ش: «**الإحصار**»: هو الحبس والمنع من دخول الحرم بعَدُوٍّ ونَحْوِه. وقد اتفق العلماء على أن من أُحْصِرَ عن الحج بِعَدُوّ أنّه يتَحَلَّل وعليه هَدْيٌ وهو ما تيسر وأقله شاة ثم يحلق رأسه وكفى، هكذا فعل النبي ﷺ عام الحديبية حينما صدَّه مشركو قريش عن البيت.

* * *

ممنوعات الإحرام

الملابس الممنوعة

١٣٩٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا يَلْبَسُ القُمُصَ ولا العَمَائِمَ، ولا السَّرَاوِيلاَتِ، ولا البَرَانِسَ، ولا الخِفَافَ، إلاَّ أحَدٌ لا يَجِدُ نَعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ ولْيَقْطَعْهُمَا أسفلَ من الكَعْبَيْنِ، ولا تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيابِ شيئاً مَسَّهُ زَعْفَرانٌ أو وَرْسٌ ولا تَنْتَقِبْ المرأةُ الحرامُ ولا تَلْبَسُ القُفَّازَيْنِ**».

[رواه أحمد (٣٤/٢، ٤١، ٨/٤)، والبخاري (١٤٤/٤، ١٤٧)، ومسلم (٧٢/٨، ٧٤)، والترمذي (٧٤٢) وباقي الستة، والدارمي (١٨٠٥)، وابن الجارود (٤١٦) وغيرهم].

ش: «البرانس»: هو جمع برنس، وهو كل جبة لها رأس منها كما قال النووي رحمه الله في أوائل «شرح مسلم». «والورس»: نبت أصفر طيب الريح كان يصبغ به. وقوله: «ولا تنتقب»: أي لا تلبس النقاب على وجهها بل تسدل ثوباً من فوق رأسها على وجهها إذا حاذت الرجال. «والقفازان»: تثنية قفاز بضم القاف وتشديد الفاء: هو غشاء لليد يلبس للبرد ونحوه.

وهذه الملابس وما معها محرمة على المحرم بدون خلاف، فالرجل لا يزيد على الرداء والإزار والنعلين، أما المرأة فالممنوع في حقها هو تغطية وجهها بنقاب مباشر وتغطية يديها بنحو قفازين.

وفي الحديث تحريم استعمال الطيب ويستوي في ذلك الرجل والمرأة، وفي الحديث إشارة إلى أن المحرم يجب أن يكون بعيداً عن الرفاهية.

منع المحرم من النكاح

١٣٩٩ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**المُحْرِم لا يَنْكِح ولا يُنْكِح ولا يَخْطُبُ**».

[رواه أحمد (١/٦٤، ٦٩)، ومسلم في النكاح (٩/١٩٣)، وأبو داود (١٨٤١، ١٨٤٢)، والترمذي (٨٤٨)، والنسائي (٥/١٥١)، وابن ماجه (١٩٦٦) كلهم في الحج].

ش: الحديث يدل على منع المحرم من أن ينكح لنفسه أو لغيره ولو بخطبة، وما جاء بخلاف هذا فغلط من راويه بالاتفاق.

تحريم إزالة الشعر والتفث

١٤٠٠ ـ عن كعب بن عُجْرَةَ رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ مَرَّ بِهِ وهو بالحُدَيْبِيَةِ قبل أن يدخل مكة وهو مُحرِمٌ وهو يُوقد تحت قِدْرٍ والقَمْلُ يَتَهَافَتُ على وجهه قال: «**أتُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ هَذِي؟**»، فقال: نعم، فقال:

«اخلِقْ وأطْعِم فَرَقاً بينَ سِتَّةِ مسَاكِينَ»، والفرق: ثلاثة آصع، «أو صُمْ ثلاثةَ أيّامٍ، أو انسُك نَسِيكَةً».

[رواه أحمد (٤/٢٤١، ٢٤٣)، والبخاري (٤/٣٨٤، ٣٩٠)، ومسلم (٨/١١٨، ١٢١)، والترمذي (٨٥٠) وباقي الجماعة بألفاظ].

ش: الحديث يدل على تحريم حلق شعر الرأس لغير ضرورة فإذا كان هناك عارض من مرض جاز حلقه مع الفدية المذكورة في الحديث، ولا خلاف بين العلماء فيما ذكر.

منع المحرم من الرفث

١٤٠١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «مَن حَجَّ هذا البيتَ فلم يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ رجَعَ مِن ذُنُوبِهِ كيوْمَ ولدتْهُ أُمُّهُ».

[رواه الشيخان وغيرهما وقد تقدم].

ش: «والرفث»: الجماع، أو التعريض به، ويطلق على الفحش في القول، ولا خلاف في تحريم كل ذلك وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

تحريم صيد البر على المحرم

١٤٠٢ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: خرجْنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كُنَّا بالقَاحَةِ فمِنَّا المحرمُ ومنَّا غيرُ المحرم إذْ بَصُرْتُ بأصحابي يتراءَوْن شيئاً فنظرتُ فإذا حِمارُ وَحْشٍ، فأسْرَجْتُ فَرَسِي وأخذتُ رُمْحِي ثم ركبتُ فسقطَ مِني سَوْطِي، فقلتُ لأصحابي ـ وكانوا مُحرمين ـ: نَاوِلُوني السَّوْطِ، فقالوا: والله لا نُعِينُك عليه بشيءٍ، فنزلتُ فتَنَاوَلْتُه ثم ركبتُ فأدركتُ الحمار من خَلْفِه وهو وراء أَكَمَةٍ فَطَعَنْتُه بِرُمْحِي فعَقَرْتُه فأتيتُ به أصحابي فقال بعضهم: كُلُوه، وقال بعضُهم: لا تأكُلُوه. وكان النبي ﷺ أمامَنا فحَرَّكْتُ فرَسِي فأدركْتُه فقال: «هو حَلالٌ فكُلُوهُ».

وفي رواية: فأكلنا من لحمها فقلنا: نأكل صَيْداً ونحن مُحْرِمُون، فحملنا ما بقي من لحمها فقال ﷺ: «**هَلْ مِنْكُم أحدٌ أمَرَهُ، أو أشَارَ إليه بشيءٍ؟**»، قال: قالوا: لا، قال: «**فكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا**».

وفي رواية: «**إنَّما هِيَ طُعْمَةٌ أطْعَمَكُمُوهَا الله تعالى**».

[رواه أحمد (٥/٣٠٨، ٣٠١)، والبخاري (٤/٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١)، ومسلم (٨/١٠٧، ١١١)، والترمذي (٧٥٣) وباقي الجماعة].

ش: الحديث يدل على تحريم الاصطياد في البر على المحرم أو إعانته على ذلك وأن تحريم ذلك كان معروفاً عند الصحابة لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وصيد البر كالظباء، وحمر الوحش، والأروى، والأرانب ونحو ذلك وسيأتي ما يلزم في ذلك.

ما يحل للمحرم وما يحرم عليه من أكل الصيد

١٤٠٣ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ الصَّعْبَ بنَ جَثّامَة رضي الله تعالى عنه أهْدَى إلى رسول الله ﷺ رِجْلَ حِمَارٍ وَحْشٍ وهو مُحْرِمٌ فردَّه وقال: «**إنا لم نَرُدّه عَلَيْكَ إلا أنَّا حُرُمٌ**». وفي رواية فلما رأى ما في وجهي قال.. إلخ.

[رواه أحمد (٤/٧١، ٧٢، ٧٣)، والبخاري (٤/٤٠٣، ٤٠٤)، ومسلم (٨/١٠٣، ١٠٤، ١٠٦)، والترمذي (٧٥٤) وغيرهم].

وفي رواية لزيد بن أرقم: «**إنَّا لا نأكُلُه إنَّا حُرُمٌ**».

[رواه أحمد (٤/٣٦٧)، ومسلم (٨/١٠٦)، والنسائي (٥/١٤٤، ١٤٥)].

ش: ظاهر هذا الحديث تحريم أكل لحم الصيد على المحرم، وعارضه الحديث السابق وجمع بينهما بتحريمه على من صيد لأجله وإباحته لغيره ويستأنس لهذا الجمع بحديث جابر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**صَيدُ البَرِّ لكُم حَلالٌ وأنتُم حُرُمٌ، ما لم تَصِيدُوهُ، أو يُصَدْ لَكُم**».

رواه أبو داود (١٨٥١)، والترمذي (٧٥٢)، والنسائي (١٤٧/٥)، وابن حبان (٩٨٠)، والحاكم (٤٥٣/١)، والبيهقي (١٩٠/٥)، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وفيه كلام ويشهد له حديث أبي قتادة السابق أيضاً.

جزاء من قتل صيد البر

١٤٠٤ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن الضَّبُعِ، فقال: «**هُوَ صَيْدٌ، ويُجْعَلُ فِيه كَبْشٌ إذا صَادَهُ المُحْرِمُ**».

وفي رواية: قيل له: الضبع صيد هي؟ قال: نعم، قيل: آكُلُها؟ قال: نعم، قيل: أقالَهُ رسولُ الله ﷺ؟ قال: نعم.

[رواه أبو داود (٨٥١) باللفظ الأول، والترمذي (٧٥٦)، والنسائي (١٥٠/٥)، وابن ماجه (٣٢٣٦) في الصيد، وابن حبان (١٠٩٨)، والحاكم (٤٥٢/١)، وصححه البخاري والترمذي وغيرهما].

ش: في الحديث وجوب الجزاء على من قتل صيداً، ولا خلاف في ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، إلخ.

المحرم يموت أو المرأة تحيض أو تنفس

١٤٠٥ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً أَوْقَصَتْه راحِلتُه وهو مُحرمٌ فمات فقال رسول الله ﷺ: «**اغْسِلُوهُ بِماءٍ وَسِدْرٍ وكَفِّنُوه في ثَوْبَيْهِ ولا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ولا وَجْهَه، فإنَّه يُبْعَثُ يوم القِيامَة مُلَبِّياً**»، وفي رواية: «**ولا تقْرَبُوهُ طِيباً، ولا تُغَطُّوا وَجْهَهُ فإنَّهُ يُبْعَثُ يُلَبِّي**».

[رواه أحمد (٢١٥/١، ٣٢٨، ٣٣٣)، والبخاري (٤٣٥/٤) آخر الحج، وفي الجنائز (٣٧٨/٣)، ومسلم (١٢٦/٨، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠) واللفظ له، والترمذي (٧٤٨)، وباقي الجماعة كلهم في الحج].

١٤٠٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرجنا مع

رسول الله ﷺ في حجة لا نرى إلا الحجَّ حتى إذا كُنَّا بِسَرِفَ أو قريباً منها حِضْتُ فدخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا أبْكِي، فقال: **«مَا لَكِ أَنُفِسْتِ؟»**، قلت: نعم، فقال: **«إنَّ هذا أمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ على بناتِ آدَمَ، فاقْضِي ما يَقْضِي الحاجُّ غيرَ أن لا تَطُوفِي بالبَيْتِ»**. وفي رواية: **«افْعَلِي ما يَفْعَلُ الحاجُّ غير أنْ لا تطُوفِي بالبيتِ حتى تَطْهُرِي»**.

[رواه أحمد (٦/٢٤٥)، والبخاري في الحيض (١/٤١٦)، وفي الحج (٤/٢٥٠)، ومسلم فيه (٨/١٤٦، ١٤٧) وغيرهم].

١٤٠٧ ـ وعنها قالت: نُفِسَتْ أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ بمحمد بن أبي بكر بالشجرة فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر يأمُرُها أن تَغْتَسِل وتُهِلَّ.

[رواه مسلم (٨/١٣٣، ١٣٤) وسيأتي أيضاً في حديث جابر الطويل، وتقدم لنا بعضه].

ش: في الحديث الأول دليل على أن المحرم إذا مات لا يقرب بطيب ولا يغطى رأسه ولا وجهه ولا يكفن في غير ثوبيه، لأنه محرم وسيبعث كذلك.

أما حديثا عائشة فيدلان على أن المرأة المحرمة إذا طرأ عليها حيضٌ أو نِفاسٌ تغتسل وتستمر على إحرامها وأن ذلك لا يمنعُها من الدخول في أحد النسكين وأن لها أن تأتي بجميع أفعال الحج غير أنها لا تقرب المسجد لِطوافٍ وسعي حتى تطهر. وهذا شيء لا خلاف فيه إلا شذوذ لا يعبأ به ولا يلتفت إليه.

* * *

أمور تباح للمحرم

قتل الفواسق

١٤٠٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله ﷺ قال: **«خَمْسٌ فَواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الفَأرَةُ، والعقربُ، والغُرابُ، والحُدَيَّا، والكلبُ العَقُورُ»**.

[رواه أحمد (٩٧/٦، ١٢٢)، والبخاري (٤٠٧/٤، ٤١٠)، ومسلم (١١٣/٨، ١١٨)، والترمذي (٧٤٥)، والنسائي (١٤٨/٥)، وابن ماجه (٣٠٨٧) وذكر النسائي: الحية بدل العقرب، ومثله عن ابن عمر رواه الشيخان وغيرهما وزاد مسلم (١١٦/٨): الحية، وفي الباب عن حفصة عند مسلم (١١٦/٨)، وعن أبي هريرة عند أبي داود (١٨٤٧)].

ش: في الحديث جواز قتل هذه الدواب والطيور لما فيها من الإذاية والضرر، ولهذا سميت فواسق. والغراب قيد في بعض الروايات بالأبقع وهو الذي في بطنه وظهره بياض. والكلب العقور مثل الأسدِ والنَّمِرِ والثَّعْلب ونحوهم، والحُدَيَّا طير معروف يأكل الدجاج ونحوهم.

اغتسال المحرم ولو لغير حاجة

١٤٠٩ ـ عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه سأله عبدالله بن حُنَيْن كيف كان رسول الله ﷺ يغسل رأسَه وهو مُحرم فوضع أبو أيوب رضي الله تعالى عنه يدَه على الثوب فطأطَأه حتى بَدَا لي رأسُه ثم قال لإنسان يصُبُّ: اصْبُبْ، فصبَّ على رأسِه ثم حرَّك رأسَه بيَدَيْه فأقبل بهما وأدبر ثم قال: هكذا رأيتُه ﷺ يَفعلُ.

[رواه البخاري (٤٢٧/٥، ٤٢٨)، ومسلم (١٢٥/٨) وغيرهما].

ش: فيه جواز اغتسال المحرم ولو للتبرد خلافاً لمن يمنع من ذلك ويتشدد فيه.

الحجامة للمحرم

١٤١٠ ـ عن عبدالله بن بُحَيْنَةَ رضي الله تعالى عنه أن رسولَ الله ﷺ احْتَجَمَ بِلِحْيَيْ جَمَلٍ على وسَطِ رأسِه وهو مُحرمٌ.

[رواه البخاري (٤٢٢/٤)، ومسلم (١٢٣/٨) وغيرهما ونحوه عندهما عن ابن عباس وعن أنس، وجابر عند أحمد والنسائي].

ش: «بلحي جمل»: هو موضع في طريق مكة.

والحديث يدل على جواز الحجامة للمحرم إن احتاج إليها وتلزمه الفدية إن حلق شعره لذلك بالاتفاق.

اكتحال المحرم للتداوي

١٤١١ ـ عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه حدث عن رسول الله ﷺ في الرجل إذا اشْتَكَى عَيْنَيْه وهو محرمٌ ضَمَّدَهُما بالصَّبِرِ.

[رواه مسلم (١٢٤/٨)، وأحمد رقم (٤٢٢، ٤٦٥)، وأبو داود (١٨٣٨، ١٨٣٩)، والترمذي (٨٤٩)].

ش: قوله: «ضمدهما»: أي شدهما. «بالصبر» بكسر الباء: نبات مر يتداوى به.

قال النووي رحمه الله تعالى: واتفق العلماء على أن للمحرم أن يكتحل بكحل لا طيب فيه إذا احتاج إليه ولا فدية عليه فيه.

استظلال المحرم بثوب ونحوه

١٤١٢ ـ عن أم الحُصَيْنِ رضي الله تعالى عنها قالت: حججتُ مع رسولِ الله ﷺ حجة الوداع فرأيتُ أسامةَ وبلالاً وأحَدُهما آخِذٌ بخطام ناقَةِ النبي ﷺ والآخَرُ رافِعٌ ثوبَه يَسْتُرُه من الحَرِّ حتى رَمَى جَمْرة العَقبةِ.

[رواه مسلم (٤٥/٩، ٤٦، ٤٧)].

قال النووي: وفيه جواز تظليل المحرم على رأسه بثوب وغيره وهو مذهبنا ومذهب جماهير العلماء سواء كان راكباً أو نازلاً. وقال مالك وأحمد: لا يجوز وإن فعل لزمته الفدية، وعن أحمد رواية: أنه لا فدية، قال: وأجمعوا على أنه لو قعد تحت خيمة أو سقف جاز إلخ.

لبس السروال والخفين للضرورة

١٤١٣ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ وقال: «**إذَا لَمْ يَجِدْ المُحرِمُ إزاراً فلْيَلْبَسْ السَّرَاوِيلَ، وإذا لَمْ يَجِد النَّعْلَيْنِ فلْيلْبَس الخُفَّينِ**».

[رواه أحمد (٢١٥/١)، والبخاري آخر الحج (٤٢٩/٤)، ومسلم (٧٥/٨) وغيرهم].

ش: في الحديث الرخصة في لبس السراويل لمن لم يجد الإزار، ولبس الخفين لمن لم يجد النعلين غير أنهما قيدا بقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين كما تقدم في حديث ابن عمر الذي رواه الجماعة.

دخول مكة المكرمة والاغتسال عند التوجه إلى البيت

١٤١٤ ـ عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا دخل أذنَى الحرَم أمْسَك عن التَّلْبِيَةِ ثم يَبِيتُ بذِي طُوَى، ثم يُصَلِّي به الصُبْحَ ويَغتسلُ، ويُحَدِّثُ أن نبي الله ﷺ كان يَفعلُ ذلك.

[رواه البخاري (١٨٠/٤)، ومسلم (٥/٩، ٦) وغيرهما].

١٤١٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما جاء النبي ﷺ إلى مكةَ دخَلها من أعْلاها وخَرَج من أسفَلِها.

[رواه البخاري (١٨١/٤، ١٨٢)، ومسلم (٤/٩)، والترمذي (٧٥٨) وغيرهم، ونحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عندهما].

ش: الحديث الأول يدل على أن من دخل الحرم قطع التلبية وتقدم أنه ﷺ لم يزل يُلَبِّي حتى رمَى جمْرةَ العقبة، ويدل على استحباب المبيت بذي طُوَى، وهذا لم يَبْقَ له أثرٌ بل أصبح داخلَ مكة المكرمة وبَدِيلُه المبيتُ في السَّكَن. ويدل على أنه يصلي الصبح بِمَبِيتِه فإذا أصبح اغتسل وقصد البيت.

بينما الحديث الثاني يدل على سنية الدخول من أعلى مكة أي من

ناحية المِعْلاةِ والحَجُونِ التي تَرْبِطُ بشارع الأندلس اليومَ، وهو المُعَبَّرُ عنه في حديث آخر بِكَدَاء بفتح الكاف والمد وبالثَّنِيَّة العُلْيَا، وهذا ليس بلازم، وقد قال ﷺ: «فِجَاجُ مكةَ كلُّها طَريقٌ» وسيأتي في الهدايا.

صفة طواف القدوم ومتى يستحب وما يتبع ذلك

١٤١٦ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى فأتَى النبيُّ ﷺ بابَ المسجد فأناخَ راحلَتَه ثم دخل المسجد فبدأ بالحَجَرِ فاسْتَلَمه وفاضَتْ عَيْناهُ بالبُكَاء ثم رَمَل ثلاثاً ومَشَى أربعاً حتى فَرَغ، فلما فرغ قَبَّل الحَجَرَ ووَضَعَ يديْهِ عليه ومَسَح بهما وجْهَه.

[رواه الحاكم (١/٤٥٥)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو طرف من حديثه الطويل الآتي في حجة النبي ﷺ].

١٤١٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت وهي تُحَدِّثُ عن حجةِ النبي ﷺ: أنه أولُ شيءٍ بدأ به حين قدِم أنه توضأ ثم طاف بالبيت....

[رواه البخاري (٤/٢٢٣، ٢٤٣)، ومسلم (٨/٢٢٠، ٢٢١)].

١٤١٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يَقدَم سعى ثلاثةَ أطوافٍ، ومشى أربعاً ثم يُصلي سجدتين، ثم يَطوفُ بين الصفا والمروة.

[رواه البخاري (٤/٢٢٥)، ومسلم (٩/٧، ٨) وغيرهما].

١٤١٩ ـ وعنه أن النبي ﷺ كان إذا طاف بالبيت الطوافَ الأوَّل يَخُبُّ ثلاثةَ أطْواف ويَمْشِي أربعةً.

[رواه البخاري (٤/٢٢٥)، ومسلم (٩/٦) وغيرهما].

١٤٢٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ يَرْمُل مِن الحَجَر الأسْوَدِ حتى انتهى إليهِ ثلاثةَ أطواف.

[رواه مسلم (٩/٩)، والترمذي (٧٦٢) وباقي أهل السنن].

١٤٢١ ـ وعن يعلى بن أمية رضي الله تعالى عنه قال: طاف رسول الله ﷺ مُضْطَبِعاً بِبُرْدٍ أَخْضَرَ.

[رواه أحمد (٢٢٣/٤)، وأبو داود (١٨٨٣)، والترمذي (٧٦٤) بهذيبي، وابن ماجه (٢٩٥٤)، وحسنه الترمذي وصححه].

١٤٢٢ ـ وعن جابر أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجرَ فاسْتَلَمَه ثم مَضى عن يَمِينه فرَمَل ثلاثاً ومشَى أربعاً.

[رواه مسلم ويأتي، والترمذي (٧٦١)].

١٤٢٣ ـ وعن ابن عمر قال: لم أرَ رسول الله ﷺ يَمسحُ من البيت إلا الرُّكْنَيْنِ اليَمَانِيَيْنِ.

[رواه البخاري (٢٢٠/٤)، ومسلم (١٣/٩، ١٤)].

١٤٢٤ ـ وعنه أنه سئل عن استلام الحجر فقال: رأيت رسولَ الله ﷺ يَسْتَلِمه ويُقَبِّله قال: أرأيتَ إن زُحِمْتُ؟ أرأيت إن غُلِبْتُ؟ قال: اجْعل أرأيتَ باليمن، رأيْتُ رسول الله ﷺ يَسْتَلِمُه ويُقَبِّلُهُ.

[رواه البخاري (٢٢١/٤)، ومسلم].

١٤٢٥ ـ وعنه قال: ما تركتُ استلامَ هذينِ الركنين في شِدّةٍ ولا رَخاءٍ مُنذُ رأيت النبي ﷺ يَسْتَلِمُهُما.

[ورواه].

١٤٢٦ ـ وعنه أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان يستلم الركن اليماني والأسود كلَّ طوْفة.

[رواه أبو داود (١٨٧٦)، والنسائي (١٨٤/٥) بسند صحيح].

١٤٢٧ ـ وعن عباس بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب يُقبل الحجر ويقول: إني أقبلك وأعلمُ أنك حَجَرٌ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبلُك لم أقَبِّلك.

[رواه أحمد رقم (٩٩، ١٣١، ١٧٦، ٢٢٦، ٢٢٩)، والبخاري (٢٢١)، ومسلم (١٦/٩، ١٧)، وأبو داود (١٨٧٣)، والترمذي (٧٦٥) وغيرهم].

١٤٢٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ طاف في حجة الوداع على بعير يَسْتَلِمُ الركن بِمِحْجَنٍ. وفي رواية: كلما أتى الرُّكنَ أشار إليه بشيء كان عندَه وكَبَّر.

[رواه البخاري (٢٢٢/٤) بالرواية الثانية، ومسلم (١٩/٩)].

١٤٢٩ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «**نزل الحَجَرَ الأسودُ من الجنة وهو أشدُّ بَيَاضاً من اللَّبَنِ فسَوَّدَتْه خَطَايا بَنِي آدم**».

[رواه أحمد (٣٠٧/١)، والترمذي (٧٧٨) وحسنه وصححه].

١٤٣٠ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «**والله لَيَبْعَثَنَّه اللَّهُ يومَ القِيامةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بهما، ولِسانٌ يَنطِقُ بِهِ يَشْهَدُ على مَن اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ**».

[رواه أحمد (٣٧١/١، ٣٠٧)، والترمذي (٨٥٦)، والدارمي (١٨٤٦)، وابن حبان (١٠٠٥)، والحاكم (٤٥٧/١) وسنده صحيح على شرط مسلم].

١٤٣١ ـ وعن ابن عمر أنه كان يُزَاحِمُ على الركنين فقِيل له في ذلك، فقال: إنْ أفْعَلْ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ مَسْحَهُمَا كَفَّارَةُ الخَطَايَا**».

[رواه أحمد (٣/٢، ٩٥)، والترمذي آخر الحج (٨٥٤) بسند صحيح عند أحمد].

١٤٣٢ ـ وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرُّكنُ والمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ من يَاقُوتِ الجنَّةِ طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُما ولو لم يَطْمِسْ نُورَهُمَا لأَضَاءَتَا مَا بَينَ المشرِقِ والمغرِبِ**».

[رواه أحمد (٢١٣/٢، ٢١٤)، والترمذي (٧٧٩)، وابن حبان (١٠٠٤)، والحاكم (٤٥٦/١)، والبيهقي (٧٥/٥) وسنده صحيح عند بعضهم].

ش: في هذه الأحاديث السبع عشرة أحكام وآداب وفضائل تتعلق بطواف القدوم وتوابعه وهي كالتالي:

أولاً: أن يتقدم قبل الطواف الوضوء وهو شرط في الطواف عند الجمهور.

ثانياً: يستحب فيه الاضطباع وهو وضع وسط الرداء تحت الإبط الأيمن ورمي طرفيه على الكتف الأيسر.

ثالثاً: البداية بتقبيل الحجر الأسود والبكاء عنده.

رابعاً: بداية الطواف من قبالته جاعلاً البيت عن يساره.

خامساً: مشروعية الرمل في الأشواط الثلاثة الأول من الحجر إلى الحجر، والرمل هو الاهتزاز مع تقارب الخطا.

سادساً: تقبيل الحجر في كل شوط، فإن لم يمكن أشار إليه وسمى الله وكبر.

سابعاً: لا يشرع الاستلام إلا للركنين اليمانيين.

ثامناً: جواز الطواف راكباً ولو من غير ضرورة.

تاسعاً: تقبيل الحجر بعد الفراغ من الطواف.

عاشراً: صلاة ركعتي الطواف خلف المقام، وستأتي صفة الحج مستوفاة في حديث جابر إن شاء الله تعالى.

حادي عشر: بيان فضل الحجر الأسود والمقام، وما لهما من القداسة.

طواف النساء وراء الرجال

١٤٣٣ ـ عن أم سلمة زوج النبي ﷺ ورضي عنها أنها قالت: شَكَوْتُ إلى رسولِ الله ﷺ أنّي أشْتَكِي، فقال: «**طُوفِي مِن وَراءِ النَّاسِ وأنتِ راكِبةٌ**»، فقالت: فطُفْتُ ورسولُ الله ﷺ حِينَئِذٍ يُصَلِّي إلى جَنبِ البيتِ وهو يَقرأ (بالطورُ وكِتاب مَسْطُورٌ).

[رواه البخاري في المساجد، وفي الحج (٢٣٦/٤، ٢٣٧)، وفي التفسير، ومسلم في الحج (٢٠/٩)].

١٤٣٤ ـ وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله أنه تَحَاوَرَ مع إبراهيم بن هشام المخزومي في شأن طواف النساء، فقال ابنُ هشام لعطاء: كيفَ يُخَالِطْنَ الرجالَ؟ قال عطاء: لم يَكُنَّ يُخَالِطْنَ كانت عائشةُ رضي الله تعالى عنها تطوف حَجَرة من الرجال لا تُخَالِطهم، يعني معتزلةً بعيدةً عنهم.

[رواه البخاري في باب طواف الرجال مع النساء (٢٢٦/٤)].

ش: ابتعاد النساء عن الرجال في الطواف واجب إسلامي كالصلاة، فما هو موجود اليوم من اختلاطهن بالرجال اختلاطاً فظيعاً منكرٌ وجاهليةٌ، لا يُقرُّهُ شرعٌ ولا ذو عَقْل.

الدعاء في الطواف

١٤٣٥ ـ عن عبدالله بن السائب رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقولُ فيما بين رُكْنِ بَنِي جُمَح والركنِ الأسودِ: «﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾».

[رواه أحمد (٤١١/٣)، وأبو داود (١٨٩٢)، وابن حبان (١٠٠١)، والحاكم (٤٥٥/١) وصححه ووافقه الذهبي].

١٤٣٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا استلم الحجر قال: اللَّهم إيماناً بك وتَصْدِيقاً بِكِتابِكَ وسُنَّةِ نبيِّك ثم يصلي على النبي ﷺ».

[رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٨٢) ورجاله رجال الصحيح، كذا في مجمع الزوائد (٢٤٠/٣) ونحوه عنده أيضاً عن الإمام علي عليه السلام غير أنه قال: «واتباع سنة نبيك ﷺ» رواه الطبراني في الأوسط وفيه الحارث وهو ضعيف وقد وثق].

ش: لم يصح شيء من الأدعية والأذكار على الخصوص في الطواف عن النبي ﷺ أو عن أحد من أصحابه إلا ما ذكرنا، والأمر في ذلك واسع.

السعي بين الصفا والمروة وما يتبع ذلك

١٤٣٧ ـ عن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ وأنا يومئذ حديثُ السِّنِّ: أرأيتِ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فما أرى على أحد شيئاً ألاَّ يطَّوَّفَ بهما، قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهِلُّون لمَناة وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْد فكانوا يَتَحَرَّجُون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، قالت عائشة: وقد سنَّ رسولُ الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يَتْرُكَ الطواف بينهما.

[رواه البخاري في الحج (٤/٢٤٤)، وفي التفسير، ومسلم (٩/٢٢، ٢٣، ٢٤) في باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به].

١٤٣٨ ـ وعن حَبِيبَة بنت أبي تُجْزِئة رضي الله تعالى عنها قالت: دخلنا على دار أبي حُسَيْن في نِسْوةٍ من قريش والنبي ﷺ يطُوفُ بين الصفا والمروة قالت: وهو يَدُورُ به إزارُه من شِدَّةِ السعي وهو يقول لأصحابه: **«اسْعَوْا إنَّ اللَّه كَتَبَ عليكُم السَّعْيَ»**.

[رواه أحمد (٦/٤٢١)، والحاكم (٤/٧٠) وفي سنده عبدالله بن المؤمل وفيه ضعف، لكن رواه الدارقطني (٢/٢٥٥)، والبيهقي (٥/٩٧) من طريق آخر صحيح، وله شاهد عن ابن عباس رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٠٢٨) وقد صحح الحديث الحفاظ المزي وابن عبدالهادي والزيلعي وقواه الحافظ في «الفتح»].

١٤٣٩ ـ وعن قُدَامةَ بن عبدالله بن عمار قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَسْعَى بين الصفا والمروة على بَعِير لا ضَرْبَ ولا طَرْدَ ولا إلَيْكَ إلَيْكَ.

[رواه أحمد (٣/٤١٣)، والترمذي (٨٠١)، والنسائي (٥/٢١٩)، وابن ماجه (٣٠٣٥)، والحاكم (١/٤٦٦) وحسنه الترمذي، وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٤٤٠ ـ وعن علي عليه السلام أنه رأى النبي ﷺ يسعى بين الصفا والمروة في السعي كاشِفاً عن ثوْبه قد بلغ إلى رُكْبَتَيْهِ.

[رواه أحمد، والبزار، قال الهيثمي (٢٤٧/٣): ورجاله ثقات].

وفي الباب أحاديث كثيرة وسيأتي حديث جابر المستوعب لذلك.

ش: وهذه الأحاديث تدل على وجوب السعي بين الصفا والمروة وأنه من شعائر الحج ومناسكه العظمى، ولذا قال كثير من الأئمة بركنيته وأنه لا يصح الحج ولا العمرة إلا بالإتيان به، وستأتي صفته مفصلة في حديث جابر.

الخروج إلى منى يوم التروية

١٤٤١ ـ عن عبدالعزيز بن رُفَيْع قال: سألتُ أنسَ بنِ مالك قلت: أخبرني بشيء عَقَلْتَه عن رسول الله ﷺ أيْنَ صلى الظهرَ والعصرَ يومَ التروية؟ قال: بِمِنًى، قلت: أين صلى العصر يوم النَّفْرِ؟ قال: بالأبْطَح، ثم قال: افْعَل كما يَفعَلُ أمراؤُك.

[رواه البخاري (٢٥٤/٤)، ومسلم (٥٨/٩)].

١٤٤٢ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه في حديثه الطويل الآتي فلما كان يوم التَّروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسولُ الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

[رواه مسلم].

١٤٤٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: صلى رسولُ الله ﷺ الظهرَ يومَ التروية والفجرَ يوم عرفةَ بمِنًى.

[رواه أبو داود (١٩١١) بسند صحيح].

ش: «يوم التروية»: هو اليوم الثامن من الحجة، والخروج إلى منى هذا اليوم متفق على استحبابه ولا يَتَرَتَّبُ على من تَركَه وذهب إلى عرفة مباشرة شيءٌ بالإجماع.

الصعود إلى عرفة من منى وما يقال فيه

١٤٤٤ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: غدا رسول الله ﷺ من منى حين صلى الصبح في صبيحة يوم عرفة حتى أتى عرفة فنزل بنمرة.. حتى إذا كان عند صلاة الظهر راح رسول الله ﷺ مُهَجِّراً فَجَمَعَ بين الظهرِ والعصرِ ثم خَطَب الناسَ ثم رَاحَ فوقفَ على الموقف من عرفة.

[رواه أحمد (١٢٩/٢)، وأبو داود (١٩١٣) وسنده حسن].

١٤٤٥ ـ وعنه قال: غدونا مع رسول الله ﷺ من مِنًى إلى عرفاتٍ منا المُلَبِّي ومنَّا المُكَبِّرُ.

[رواه مسلم (٢٩/٩) وغيره].

١٤٤٦ ـ وعن أنس أنه سئل وهو غادٍ من منى إلى عرفة كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ، فقال: كان يُهِلُّ المُهِلُّ منا فلا يُنْكَرُ عليه، ويُكبر المُكَبِّر فلا يُنْكَرُ عليه.

[رواه البخاري (٢٥٧/٤)، ومسلم (٣٠/٩)].

١٤٤٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينَها يقفون بالمزدلفة وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْسَ وكان سائرُ العرب يقفونَ بعرفة قالت: فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يُفيض منها فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

[رواه البخاري (٢٦٤/٤)، ومسلم (١٩٧/٨)، وأبو داود)١٩١٠)، والترمذي (٧٨٤) وباقي الجماعة].

ش: قوله: «**الحمس**»: أي أهل الشدة في الدين.

في هذه الأحاديث بيان ما يفعله الحاج يوم التروية وصبيحة عرفة فما بعده وأنه يشرع الذهاب إلى عرفة بعد صلاة الصبح بمنى، ولهم أن يلبوا أو يكبروا ثم يصلوا الظهر والعصر جمعاً وقصراً كما يأتي، وفي الحديث الأخير مخالفة النبي ﷺ للجاهلية الذين كانوا يقفون بالمزدلفة ولا يصعدون لعرفة.

الوقوف بعرفة وما يتعلق به
والنزول إلى المزدلفة

١٤٤٨ ـ عن عبدالرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي رضي الله تعالى عنه قال: شهدتُ رسولَ الله ﷺ وهو واقفٌ بعرفة وأتاه ناسٌ من أهل نَجْدٍ فقالوا: يا رسول الله كيف الحجُّ؟ فقال: «**الحَجُّ عَرَفة، فمن جاءَ قبلَ صلاةِ الفَجرِ من ليلةِ جَمْع فقد تَمَّ حجُّه، وأيامُ منى ثلاثةُ أيام فمن تعجَّل في يومين فلا إثمَ عليه، ومن تأخَّر فلا إثمَ عليهِ**» ثم أردف رجلاً خلفه فصار ينادي بهن.

[رواه أحمد (٤/٣٠٩، ٣٣٥)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي ٧٨٨)، والنسائي (٥/٢١٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وابن حبان (١٠٠٩) وغيرهم، وسنده صحيح].

١٤٤٩ ـ وعن عروة بن مُضَرِّس رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسولَ الله إني جئتُ من جَبل طَيءٍ أكْلَلْتُ راحلتي وأتْعَبْتُ نَفْسِي والله ما تركتُ من جَبَلٍ إلا وقفْتُ عليه فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَن شَهِد صلاتَنا هذِه ووقَفَ معنا حتى نَدْفَعَ وقد وقَفَ بِعرفةَ قبلَ ذلكَ ليلاً أو نهاراً فقد تَمَّ حَجُّهُ وقَضَى تَفَثَهُ**».

[رواه أحمد (٤/١٥)، وأبو داود (١٩٥٠)، والترمذي ٧٨٩)، والنسائي (٥/٢١٣، ٢١٤)، وابن ماجه (٣٠١٦)، وابن حبان (١٠١٠) بسند صحيح على شرط مسلم].

١٤٥٠ ـ وعن يزيد بن شيبان قال: أتانا ابن مِرْبَع الأنصاري ونحن وقُوفٌ بالموقف مكاناً يباعده عمر فقال: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ يقول: «**كُونُوا على مشاعِرِكُم فإنكم على إرْثٍ من إرْثِ إبراهيم**».

[رواه أحمد (٤/١٣٧)، وأبو داود (١٩١٩)، والترمذي (٧٨٣)، والنسائي (٥/٢٠٦)، وابن ماجه (٣٠١١) بسند صحيح].

١٤٥١ ـ وعن جابر في حديثه الطويل قال: فراح النبي ﷺ إلى الموقف بعرفة فخطب الناس الخطبة الأولى، ثم أذن بلال، ثم أخذ

النبي ﷺ في الخطبة الثانية ففرغ من الخطبة وبلال من الأذان، ثم أقام بلال فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر.. وقال: **«وقفت ههنا وعرفة كلها موقف»**.

[رواه مسلم].

١٤٥٢ ـ وعن سالم بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كتب عبدُالملك إلى الحجاج أن لا يُخالِفَ ابنَ عُمر في الحج فجاء ابنُ عمر رضي الله تعالى عنهما وأنا معه يوم عرفة حين زالت الشمس فصَاح عند سُرادِق الحَجَّاج فخرج وعليه مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرةٌ فقال: ما لكَ يا أبا عبدالرحمن؟ فقال: الرَّوَاح إن كنتَ تُريد السنةَ، قال: هذه الساعة؟ قال: نعم، قال: فانْظِرْنِي حتى أُفِيضَ على رأسِي ثم أخرج فنزل حتى خرج الحجاج فسار بيني وبين أبي فقلت: إن كنت تريد السنة فاقْصُر الخطبةَ وعَجِّل الوُقوف فجعل يَنظُرُ إلى عبدالله فلما رأى ذلك عبدالله قال: صدق.

[رواه البخاري باب التهجير بالرواح يوم عرفة (٤/٢٥٨، ٢٦١)، والنسائي (٥/٢٠٣، ٢٠٤)].

١٤٥٣ ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: كنت رديفَ النبي ﷺ بعرفاتٍ فرفع يديْه يدعُو فمالت به ناقتُه فسَقَط خِطَامُها فتناول الخطام بإحْدَى يَديْه وهو رافع يده الأخرى.

[رواه النسائي (٥/٢٠٥) بسند صحيح].

١٤٥٤ ـ وعنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ عشيةَ عرفة قال: فلما وقعتْ الشمسُ دفع رسول الله ﷺ فلما سمع حَطمةَ الناس خَلْفَهُ قال: **«رُوَيداً أيُّها النَّاسُ عليكُم السكِينةَ فإنَّ البِرَّ ليسَ بالإيضَاعِ!»**، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا التحم عليه الناس أعْنَق وإذا وجد فُرْجَة نَصَّ حتى مر بالشِّعْبِ الذي يزعم كثير من الناس أنه صلى فيه. وفي لفظ: فأتى النقب الذي ينزل الأمراء والخلفاء فنزل به فبال ثم جئته بالإداوة فتوضأ ثم قال: قلت: الصلاة يا رسول الله! قال: فقال: **«الصَّلاةُ أمَامَكَ»**، قال: فركب

رسول الله ﷺ وما صلَّى حتى أتى المزدلفة فنزل بها فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة.

[رواه أحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٠)، والبخاري (٤/٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠)، ومسلم (٩/٣٠، ٣١، ٣٤) وغيرهم بألفاظ].

ش: في هذه الأحاديث أحكام وآداب وهي كما يلي:

أولاً: إن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج لا يُجْبَرُ بشيء فمن فاته بطل حَجُّه.

ثانياً: إن الوقوف يصح من ليل أو نهار، غير أن السنة أن يجمع بين النهار وجزء من الليل.

ثالثاً: إن الوقوف بعرفة هو من إرث سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا وسائر الأنبياء، وأن عرفات كلها موقف وإن كان الأفضل تحري موقف النبي ﷺ، وهو عند الصخرات في أسفل جبل الرحمة شرقيهُ.

رابعاً: مشروعية الخطبة في هذا اليوم والجمع بين الظهر والعصر مع تعجيل ذلك عقب الزوال.

خامساً: مشروعية الإكثار من الدعاء مع رفع اليدين.

سادساً: أن يكون الدفع من عرفة إلى المزدلفة بعد غروب الشمس.

سابعاً: أن تُؤَخَّرَ المغربُ إلى المزدلفة فتجمع مع العشاء.

وهذه الأشياء كلها متفق عليها في الجملة بين الأئمة والعلماء رحمهم الله.

النزول بالمزدلفة والمبيت بها والنزول إلى منى ورمي جمرة العقبة

١٤٥٥ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جَمَعَ النبيُّ ﷺ

المغربَ والعِشاءَ بِجَمْعٍ كُلُّ واحدةٍ منهما بإقامةٍ ولم يُسَبِّحْ بينهما ولا على إثْرِ كلِّ واحدةٍ منهما.

[رواه البخاري (٤/٢٧٠)، ومسلم (٩/٣٥) ونحوه عن أبي أيوب عندهما].

١٤٥٦ ـ وعن جابر في حديثه الآتي... حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً ثم اضْطَجَعَ رسولُ الله ﷺ حتى طلع الفجرُ فصلى الفجر حين تبين له الصُّبحُ بأذان وإقامة ثم ركب القَصْوَاءَ حتى أتى المشْعَرَ الحَرامَ فاستقبل القبلة فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده فلم يزل واقفاً حتى أسْفَر جداً فدَفَع قبل أن تَطلُع الشمسَ.

[رواه مسلم وغيره].

١٤٥٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذنتْ سودةُ رسولَ الله ﷺ ليلةَ المزدلفة أن تَدْفَعَ قَبلَه وكانت ثَبِطَةً ـ تعني ثقيلة ـ فأذن لها.

[رواه البخاري (٤/٢٧٧)، ومسلم (٩/٣٨، ٣٩)].

١٤٥٨ ـ وعن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: إن نبي الله ﷺ أذِنَ لِلظُّعُنِ.

[رواه البخاري (٤/٢٧٥)، ومسلم (٩/٣٩، ٤٠)].

١٤٥٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بَعَثَنِي النبيُّ ﷺ في الثَّقَلِ، أو قال: في الضَّعَفَة من جَمْعٍ بِلَيْلٍ.

[رواه البخاري (٤/٢٧٤)، ومسلم (٩/٤٠، ٤١)].

١٤٦٠ ـ وعنه أن النبي ﷺ أفاض قبل طلوع الشمس.

[رواه أحمد رقم (٢٠٥١، ٣٠٢١)، والترمذي (٧٩٣) وحسنه وصححه، ورجاله رجال الصحيح].

١٤٦١ ـ وعن عمرو بن ميمون قال: كنا وقوفاً بِجَمْع فقال عُمرُ بن الخطاب: إن المشركين كانوا لا يُفِيضُون حتى تطلع الشمس فكانوا يقولون:

أَشْرِقْ ثَبِيرُ كيما نُغيرُ وإن رسول الله ﷺ خالفهم فأفاض قبل طلوع الشمس.

[رواه أحمد رقم (٨٤، ٢٠٠، ٢٧٥، ٢٩٥، ٣٥٨)، والبخاري (٢٧٩/٤)، وأهل السنن].

١٤٦٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداةَ جَمْعٍ: «**هَلُمَّ ألْقُطْ لي**»، فلَقَطْتُ له حَصَيَاتٍ مِن حَصَى الخَذْفِ، فلما وضعتها في يده قال: «**نعم، بأمثالِ هؤلاء وإيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّينِ**».

[رواه أحمد (٢١٥/١، ٣٤٧)، والنسائي (٢١٨/٥)، وابن ماجه ٣٠٢٩) بسند صحيح على شرط مسلم].

١٤٦٣ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة يومَ النحر ضُحًى.

[رواه مسلم (٤٧/٩)، والترمذي (٧٩٢)، وباقي أهل السنن، والدارمي (١٩٠٢) وعلقه البخاري].

١٤٦٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدَّمَنَا رسولُ الله ﷺ أُغَيْلِمَةَ بَنِي عبدِالمطلب على حُمُراتٍ لنا من جَمْع فجعل يَلْطَخُ أفْخَاذَنَا ويقولُ: «**أُبَيْنِيَّ لا تَرْمُوا الجَمْرَةَ حتى تَطْلُعَ الشَّمسُ**».

[رواه أبو داود (١٩٤١)، والترمذي (٧٩١)، والنسائي (٢٢٠/٥)، وابن ماجه (٣٠٢٥) من طرق هو بها صحيح وحسنه الترمذي وصححه].

١٤٦٥ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه رمى الجمرة بسبع حصيات وجعل البيت عن يَسارِه ومِنًى عن يَمِينِه وقال: «**هذا مَقَامُ الَّذي أُنزِلَتْ عليهِ سورة البقرة**».

[رواه البخاري (٣٢٩/٤)، ومسلم (٤٤/٩)].

١٤٦٦ ـ وعن الإمام علي رضي الله تعالى عنه قال: وقَفَ رسول الله ﷺ بعرفة فقال: «**هَذِهِ عَرَفَةُ وهو المَوْقِفُ، وعَرَفَةُ كُلُّها مَوقفٌ**»، ثم أفاض حين غربت الشمس وأردف أسامةَ بنَ زيد وجعل يشير بيده على

هيئته والناس يَضْرِبُونَ يميناً وشمالاً لا يلتفتُ إليهم ويقول: «**يا أيُّها النَّاسُ عليكُم السَّكِينة**»، ثم أتى جمعاً فصلى بهم الصلاتين جَمْعاً فلما أصبح أتى قُزَحَ ووقف عليه وقال: «**هذا قُزَحُ وهو الموقف وجَمْعٌ كلُّها موقفٌ**»، ثم أفاض حتى انتهى إلى وادي مُحَسِّرٍ فَقَرَع ناقتَه فخَبَّتْ حتى جاوز الواديَ فوقف وأردف الفضل ثم أتى الجمرة فرماها ثم أتى المنحر فقال: «**هذا المَنْحَرُ ومِنًى كُلُّها مَنْحَرٌ**».

[رواه أحمد رقم (٥٦٢)، وعبدالله في الزيادات (٥٢٥، ٥٦٤)، والترمذي (٧٨٥) مطولاً، ورواه أبو داود وابن ماجه مختصراً وبعضه في الصحيح].

١٤٦٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الفضل بن عباس أنه كان رديفَ رسول الله ﷺ فوقَفَ يُهَلِّلُ ويُكَبِّرُ الله ويَدعوه فلما نَفَر دفَع الناسُ فصاح: «**عليكُم بالسَّكِينة**»، فلما بلغ الشِّعب أهْرَاقَ الماء وتوضأ ثم ركب فلما قدم المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، فلما صلى الصبح وقف فلما نَفَر دفع الناس فقال حين دفعوا: «**عليكُم السَّكِينة**» وهو كاف راحلته حتى إذا دخل بطن منى قال: «**عليكُم بحصَى الخَذْفِ الذي يَرْمَى به الجَمرة**» وهو في ذلك يهل حتى رمى الجمرة.

[رواه أحمد (٢١٠/١، ٢١٣، ٢١٨/٥)، وابن خزيمة، وابن حبان (١٦٨/٩) بسند صحيح].

ش: هذه جملة من الأحاديث استوعبت ما يتعلق بالنزول في المزدلفة ثم الانصراف منها إلى منى ورمي جمرة العقبة، وخلاصتها كالآتي:

أولاً: فيها مشروعية تأخير المغرب عشية عرفة إلى العشاء حيث يجمع بينهما بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين ولا يُتَنفل بينهما ولا بعدهما.

ثانياً: المبيت بالمزدلفة وهو من الواجبات عند الجمهور وركن للحج عند بعض الأئمة.

ثالثاً: الرخصة في تقديم الضعفة من النساء والأطفال وغيرهم إلى منى ليلاً.

رابعاً: مشروعية الدعاء بعد صلاة الصبح حتى يقع الإسفار والأفضل أن يكون عند المسجد الحالي حيث وقف النبي ﷺ ودعا.

خامساً: المزدلفة كلها موقف فأينما نزل الحاج كفاه ذلك ولا حرج.

سادساً: الانصراف والإفاضة من المزدلفة يكون قبل طلوع الشمس مخالفة للمشركين الذين كانوا لا يُفِيضُون حتى يَرَوا الشمسَ مُشْرِقَةً على جبل ثَبِير.

سابعاً: مشروعية الإسراع بوادي مُحَسِّرٍ وهو بَرْزَخٌ بين المزدلفة ومنى وهو موضع حُسِرَ فيه فِيلُ أبْرَهَة.

ثامناً: يشرع التقاط الحصى لرمي الجمرة في صبيحة يوم النحر ولا يختص التقاطها بالمزدلفة كما يفعله أكثر الناس، بل تؤخذ من أي موضع ولو من منى أو من الطريق، ويجب أن تكون صغيرة فوق حبة الحمص ودون الباقلاء ـ الفول ـ.

تاسعاً: تشرع التلبية حتى ترمى جمرة العقبة.

عاشراً: مشروعية رمي جمرة العقبة يوم النحر، ويجب أن ترمى بعد طلوع الشمس ضحوة بسبع حصيات مع التكبير عند كل حصاة، ورمي هذه الجمرة من الواجبات وقال بعض الأئمة بركنية ذلك. وبهذا يحصل الحل الأصغر.

حادي عشر: مشروعية النحر لمن يلزمه ذلك ويكون عقب رمي الجمرة، ومنى كلها محل للنحر والذبح، وسيأتي مزيد لهذا عقبه.

الهدي والحلق والإفاضة والتحلل

١٤٦٨ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: طَيَّبْتُ رسولَ الله ﷺ بِيَدي بذَرِيرَة لِحَجَّةِ الوداع للحل والإحرام حين أحْرَمَ وحين رمى جمرة العقبة يوم النحر قبل أن يطوف بالبيت.

[رواه أحمد (٦/٢٠٠، ٢٤٤)، والبخاري ومسلم واللفظ لأحمد].

١٤٦٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا رَمَيْتُم الجَمرةَ فقد حَلَّ لكُم كلُّ شيءٍ إلا النِّساءَ»**، وفي رواية: قيل له: والطيب؟ قال: أما أنا فقد رأيت رسول الله ﷺ يَتَضَمَّخُ بالمِسْكِ أفَطِيبٌ هُوَ؟.

[رواه أحمد (٢٣٤/١، ٣٤٤)، والنسائي (٢٢٥/٥)، وابن ماجه (٣٤١) وغيرهم، وسنده صحيح].

ولا يضر انقطاعه فإن له شاهداً عن عائشة رضي الله تعالى عنها فقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رميتم الجمرة بسبع حصيات وذبحتم وحلقتم فقد حلَّ كل شيء إلا النساء والطيب. قال سالم: وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: حلَّ له كل شيء إلا النساء، قالت: أنا طيبتُ رسول الله ﷺ تعني لحله.

[رواه البيهقي (١٣٥/٥) وغيره بسند صحيح].

١٤٧٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتى منى فأتي الجمرة فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر ثم قال للحلاق: **«خُذْ»** وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس.

وفي رواية: رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البُدْنِ فنَحَرَها والحَجَّامُ جالسٌ وقال بيده عن رأسه فحلق شِقَّه الأيمنَ فقسَمَه فِيمَن يَلِيهِ ثم قال: **«اخلِقْ الشِّقَّ الآخَرَ»**، فقال: **«أيْنَ طَلْحَةُ؟»** فأعطاه إياه.

[رواه مسلم بالروايتين (٥٢/٩، ٥٣، ٥٤)، وروى بعضه البخاري باختصار، وكذا رواه أبو داود (١٩٨١، ١٩٨٢)، والترمذي (٨١٠)].

١٤٧١ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ»**، قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: **«اللَّهُمَّ ارْحَمْ المُحَلِّقِينَ»**، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: **«والمُقَصِّرِينَ»**.

[رواه أحمد (٧٩/٢)، والبخاري (٣٠٩/٤)، ومسلم (٤٩/٩)، وأبو داود (١٩٧٩)، والترمذي (٩١١)].

١٤٧٢ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليسَ على النِّساءِ الحَلْقُ إنَّما عَلَى النِّساءُ التَّقْصِيرُ**».

[رواه أبو داود (١٩٨٤، ١٩٨٥) بسند صحيح، وقواه البخاري في التاريخ وحسنه الحافظ].

١٤٧٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بِمِنًى.

[رواه أحمد (٣٤/٢)، ومسلم (٥٨/٩)، وأبو داود (١٩٩٨)].

١٤٧٤ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه... ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر رواه مسلم (١٩٤/٨) وسيأتي بتمامه.

ش: في هذه الأحاديث جملة من المناسك وهي كالآتي:

أولاً: بِرَمْيِ جَمْرَةِ العقبة يَحِلُّ للمحرمِ كُلُّ شيء، إلا قُرْبانَ المرأة وبهذا قال أكثر العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى.

ثانياً: يسن استعمال الطيب عقب الرمي قبل الإفاضة.

ثالثاً: الأفضل في حق الرجال الحلقُ ولهم أن يُقَصِّرُوا، أما النساء فليس لهم إلا التقصير بالاتفاق.

رابعاً: السنة أن يكون طواف الإفاضة يوم النحر، وأجمع العلماء على أَنَّ من أخره إلى آخر أيام منى لا شيء عليه.

خامساً: أعمال يوم النحر يسن ترتيبها كالآتي: رمي جمرة العقبة، ثم النحر، أو الذبح لمن لزمه، ثم الحلق، أو التقصير، ثم طواف الإفاضة.

خطبة يوم النحر وما وقع للصحابة يومه

١٤٧٥ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «**أتَدْرُونَ أيُّ يومٍ هذا؟**»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى

ظننا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «**أَلَيسَ يومَ النَّحرِ؟**»، قلنا: بلى، قال: «**أيُّ شَهرٍ هذا؟**»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: «**أَلَيسَ ذُو الحِجَّةِ؟**»، قلنا: بلى، قال: «**أيُّ بَلَدٍ هذا؟**»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أَلَيسَتْ بِالبَلْدَةِ الحَرَامِ؟**»، قلنا: بلى، قال: «**فإنَّ دِمَاءَكُم وأَمْوَالَكُم عليكُم حرامٌ، كحُرْمَةِ يومِكم هذا، في شَهْرِكم هذا، في بَلَدِكُم هذا إلى يوم تَلْقَوْنَ رَبَّكم، ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الغائبَ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى مِن سَامِعٍ، فلا تَرْجِعُوا بعدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بعضُكُم رقاب بَعْضٍ**».

[رواه البخاري في خطبة يوم النحر (٤/٣٢٣، ٣٢٤)، ومسلم في القسامة (١١/١٦٧، ١٧٢) وسيأتي بسياق آخر في التفسير إن شاء الله تعالى عن ابن عمر في الصحيحين، وعن ابن عباس عند البخاري في الحج (٤/٣٢٢، ٣٢٣) وعندهما زيادة: «وأعْراضَكُم» بعدَ «دِماءَكُم وأمْوالَكُم» وهي رواية لأبي بكرة].

١٤٧٦ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وأتاه رجل يوم النحر وهو واقف عند الجمرة، وفي رواية: وهو يخطب يوم النحر، فقال: يا رسول الله إني حَلقْتُ قبلَ أن أرْمِي، فقال: «**ارْمِ ولا حَرَجَ**»، وأتاه آخر فقال: إني ذبحتُ قبل أن أرْمِي، قال: «**ارْمِ ولا حَرَجَ**»، وأتاه آخر فقال: إني أفَضْتُ إلى البيت قبل أن أرمي، قال: «**ارْمِ ولا حَرَجَ**»، قال: فما رأيته سئل يومئذ عن شيء إلا قال: «**افْعَلْ ولا حَرَجَ**».

[رواه أحمد (٢/١٥٩، ١٩٢، ٢٠٢)، والبخاري (٤/٣١٧، ٣٢٠)، ومسلم (٩/٥٤، ٥٧) ونحوه عن ابن عباس عندهما أيضاً].

ش: في الحديث الأول مشروعية الخطبة يوم النحر يُذَكِّر فيها الإمامُ الحجاج ويوصيهم بأمور الدين وقواعده العامة وما يلزمهم في دينهم ودنياهم.

بينما الحديث الثاني يدل على عدم وجوب الترتيب في المناسك يوم النحر، وأن من قدم أو أخر شيئاً فلا حرج عليه، لا إثم ولا فدية.

يوم النحر هو يوم الحج الأكبر

١٤٧٧ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجَمَراتِ في الحَجَّةِ التي حَجَّ وقال: «**هذا يومُ الحجِّ الأكْبَرِ**»، فطفق النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، فودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع.

[ذكره البخاري في الحج معلقاً مجزوماً به، ورواه أبو داود (١٩٤٥)، وابن ماجه (٣٠٥٨)].

١٤٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤَذِّنُ يومَ النحر بِمِنى ألاَّ يَحُجَّ بعد العامِ مُشْرِكٌ ولا يطوفَ بالبيت عريانٌ، ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر.

[رواه البخاري في التفسير وغيره وسيأتي فيه إن شاء الله تعالى].

ش: في الحديثين أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، ولا خلاف في ذلك وسمي بذلك لأن أكثر مناسك الحج تقع فيه وهو من أفضل الأيام عند الله تعالى.

رمي الجمار أيام منى وما يتعلق بها

١٤٧٩ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه.. ثم رجع إلى مِنى فمكث بها أيام التشريق يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى والثانية فيطيل القيام ويتضرع، ويرمي الثالثة ولا يقف عندها.

[رواه أحمد وأبو داود (١٩٧٣)، وابن حبان (١٠١٣) ورجاله ثقات].

١٤٨٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه كان النبي ﷺ يرمي يوم النحر ضحى، وأما بعد ذلك فبعد زوال الشمس.

[رواه مسلم (٤٧/٩)، والترمذي (٧٩٢) وباقي أهل السنن، والدارمي (١٩٠٢) وذكره البخاري معلقاً].

١٤٨١ ـ وقال الزهري رحمه الله تعالى: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا رمى الجمرة الأولى التي تَلِي المسجدَ رماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ثم ينصرفُ ذاتَ اليسار إلى بطنِ الوادي، فيَقفُ ويَستقْبِلُ القبلة رافعاً يديه يدعو، وكان يُطيلُ الوقوف، ثم يرمي الثانية بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، ثم يَنصرفُ ذاتَ اليسار إلى بطنِ الوادي فيقف ويستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو، ثم يَمْضِي حتى يأتِي الجمرة التي عند العقبة فيرميها بسبع حَصَياتٍ يكبر عند كل حصاة ثم ينصرف ولا يقف.

قال الزهري: سمعت سالم بن عبدالله يحدث عن ابن عمر عن النبي ﷺ بمثل هذا، وكان ابن عمر يفعل مثل ذلك.

[رواه البخاري (٣٣٢/٤، ٣٣٣)، وابن حبان (١٠١٤) بنحوه، وانظر البخاري (٣٣١/٤)].

١٤٨٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يأتي الجمار في الأيام الثلاثة بعد يوم النحر ماشياً ذاهباً وراجعاً ويخبر أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك.

[رواه أبو داود (١٩٦٩) وسنده صحيح].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية رمي الجمار الثلاث أيام منى الثلاثة، ولا خلاف في وجوبها، وأن السنة أن يكون البدء بالأولى التي عند مسجد الخَيْفِ والختم بجمرة العقبة، وأن السنة أن يدعو الله عزّ وجلّ بعد الأُولَيَيْن ولا يدعو عند الأخيرة ويكون الرمي في هذه الأيام بعد زوال الشمس لفعله ﷺ وقد قال: «**لِتَأْخُذُوا عنّي مَنَاسِكَكُم**» رواه مسلم وغيره ويسن تكبير الله تعالى عند رمي كل حصاة.

واتفق الأئمة الثلاثة على وجوب المبيت بمنى هذه الأيام. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعدم وجوبه، وكذا هي رواية للشافعي وأحمد رحمهما الله.

الرخصة في عدم المبيت بمنى لمن له عذر

١٤٨٣ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن العباس بن عبدالمطلب رضي الله تعالى عنه استأذن رسول الله ﷺ أن يَبِيتَ بمكة ليالِيَ مِنى من أجلِ سِقايَتِهِ، فأذِنَ له.

[رواه أحمد (٢/٢٢)، والبخاري (٤/٣٢٧)، ومسلم (٩/٦٢، ٦٣)، وأبو داود (١٩٥٩)، وابن ماجه (٣٠٦٥) وغيرهم].

١٤٨٤ ـ وعن عاصم بن عدي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ رخَّص لرعاة الإبل في البيتوتة أن يَرمُوا يوم النحر ثم يَجْمَعُوا رَمْي يومين بعد يوم النحر فيرمونه في إحداهما. قال مالك: ظننتُ أنه قال في الأول منهما ثم يَرْمُون يوم النَّفر.

[رواه أبو داود (١٩٧٥، ١٩٧٦)، والترمذي (٨٥١)، والنسائي (٥/٢٢١)، وابن ماجه (٣٠٣٦، ٣٠٣٧)، وابن حبان (١٠١٥)، والحاكم (١/٤٧٨) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: في الحديثين مشروعية التخلف عن المبيت بمنى أيام رمي الجمار إذا كان هناك عذر أو حاجة ملحة أو ضرورة ملجئة ككثرة الزحام مثلاً، واختلاط النساء بالرجال في المخيمات ودورات الماء.

ومن تخلف فله أن يجمع في الرمي بين يومين بعد يوم النحر، إما جمع تقديم أو تأخير، والحمد لله على انتفاء الحرج.

الخطبة في وسط أيام التشريق

١٤٨٥ ـ عن أبي نَضْرَة: حدثني من سمع خطبةَ رسولِ الله ﷺ في وَسَط أيام التشريق فقال: «**يا أيُها النَّاسُ ألا إنَّ ربَّكُم واحدٌ، وإن أبَاكُم واحدٌ، ألاَ لا فَضلَ لِعَرَبيٍّ على عَجَمِيٍّ، ولا لِعَجَمِي على عَرَبِي، ولا لأَحْمَر على أسودَ، ولا لأَسْوَدَ على أحمَرَ إلاَّ بالتَّقوى، أبَلَّغتُ؟**»، قالوا: بلَّغ

رسول الله ﷺ، ثم قال: «أيُّ يوم هذا؟»، قالوا: يومٌ حرامٌ، ثم قال: «أيُّ شَهرٍ هذا؟»، قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: ثم قال: «أيُّ بلدٍ هذا؟»، قالوا: بلدٌ حرامٌ، قال: «فإنَّ الله قد حَرَّم بينَكم دِمَاءَكم وأموالَكُم»، قال: ولا أدري قال: «أوْ أعراضَكُم» أم لا «كحُرمَةِ يومِكم هذا في شَهرِكُم هذا في بَلدِكم هذا أبَلَّغتُ؟»، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ».

[رواه أحمد (٤١١/٥) بسند صحيح ونحوه باختصار عن بشر بن سحيم رواه أحمد (٤١٥/٣، و٣٣٥/٤)].

ش: في الحديث مشروعية الخطبة على الحجيج يوم الرُّؤُوس ثاني يوم النحر، وخُطَبُ الحجِّ عند الجمهور: يوم سابع الحجة، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم الرؤوس.

تقصير الصلاة بمنى

١٤٨٦ ـ عن حارثة بن وهب رضي الله تعالى عنه قال: صلى بنا النبي ﷺ آمَن ما كان بِمِنًى ركعتين.

[رواه البخاري في التقصير من كتاب الصلاة (٢١٧/٣)].

١٤٨٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: صليت مع النبي ﷺ بمنى ركعتين، وأبي بكر، وعمر، وعثمان صدراً من إمارته ثم أتمها.

[رواه البخاري (٢١٧/٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣/٥)، وأخرجه البخاري في الحج أيضاً].

١٤٨٨ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بمنى ركعتين، فليتَ حَظِّي من أربعِ ركعات ركعتان مُتَقَبَّلتَانِ.

[رواه البخاري في التقصير (٢١٨/٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤/٥) وغيرهما].

ش: الحديثان يدلان على مشروعية التقصير بمنى وهو قول عامة العلماء وجمهورهم، وإتمام الخليفة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه اجتهاد منه. قال العلماء: إنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً وأما من أقام في مكان في أثناء سفره فله حكم المقيم فيتم، انظر «الفتح».

نزول الأبطح والتحصيب

١٤٨٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة بالمُحَصَّبِ، ثم ركب إلى البيت فطاف به.

[رواه البخاري (٣٣٤/٤)].

وفي رواية: أنه سئل: أين صلى ـ يعني النبي ﷺ ـ العصر يوم النَّفر، قال: بالأبطَح.

[رواه البخاري (٣٣٩/٤)].

١٤٩٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر ينزلون الأبطح.

[رواه مسلم (٥٩/٩)].

١٤٩١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: نُزُولُ الأبْطَحِ ليس بسُنَّة إنما نَزَلَه رسول الله ﷺ لأنه كان أسْمَحَ لِخُرُوجِه إذا خرج.

[رواه البخاري (٣٤٠/٤)، ومسلم (٦٠/٩) وغيرهما، وفي الباب غير ما ذكرنا].

ش: «المحصب»: هو الأبطح والبطحاء وهو موضع بأعلى مكة بين منى وجبل النور نزله النبي ﷺ في حجة الوداع عندما فرغ من رمي الجمار فصلى به أربع صلوات ورقد رقدة ثم نزل للحرم فطاف طواف الوداع، واختلف الأئمة هل نزوله من مناسك الحج أم لا؟ فذهب الجمهور إلى قول عائشة وغيرها من الصحابة أنه ليس بسنة متبعة، وذهب آخرون إلى أنه من المناسك فيستحب نزوله لمن أمكنه ذلك.

طواف الوداع

١٤٩٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أُمِرَ النَّاسُ أن يكونَ آخرُ عَهْدِهِم بالبيتِ إلا أنه خُفِّفَ عن الحائض. وفي رواية: رُخِّصَ للحائض أن تَنْفِر إذا أفاضت.

[رواه بالرواية الأولى البخاري (٤/٣٣٤)، ومسلم (٩/٧٩)، ورواه بالثانية البخاري (٤/٣٣٧)، وفي رواية عند مسلم: كان الناس يَنْصَرِفُون في كل وَجْهٍ فقال رسول الله ﷺ: «لا يَنفِرَنَّ أحدٌ حتى يكون آخِرُ عهدِه بالبيت» (٩/٧٨)].

١٤٩٣ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: حججنا مع النبي ﷺ فأفضنا يوم النحر فحاضت صفيةُ، فأراد النبي ﷺ منها ما يُريدُ الرجل من أهلِه، فقلتُ: يا رسول الله إنها حائضٌ، قال: «حَابِسَتُنَا هِيَ؟»، وفي رواية: «عَقْرَى حَلْقَى إنَّكِ لَحَابِسَتُنَا»، قالوا: يا رسول الله أفاضتْ يومَ النحر، قال: «اخْرُجُوا».

[رواه البخاري (٤/٣٣٥، ٣٣٨)، ومسلم (٩/٨٠، ٨١)].

ش: قوله: «عقرى حلقى»: هو دعاء عليها، أي عقرك الله وأصابك في حلقك.

والحديث الأول يدل على وجوب طواف الوداع وهو قول الجمهور وهو مع الثاني يدلان على الرخصة للحائض في سقوطه عنها. كما أن الحديث الثاني يدل على وجوب طواف الإفاضة وركنيته وأن الحائض يجب أن تنتظر حتى تطهر، وبالتالي أهلُ رُفْقَتِها والمَحْرَمُ منها يَجِبُ عليهم انتظارُها.

الهدايا وعلى من تجب

١٤٩٤ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: أهدى النبي ﷺ مائةَ بدَنَةٍ فأمَرَني بلحومها فقسمتُها ثم أمرني بِجَلالِها فقَسَمْتُها، ثم بِجُلُودِها

فقسَمْتُها وأن لا أُعْطِيَ الجزَّارَ منها قال: «نحنُ نُعطيهِ مِن عندِنا».

[رواه البخاري (٣٠٤/٤)، وفي مواضع من الحج، ورواه في الوكالة أيضاً، ومسلم (٦٤/٩، ٦٦)، وأبو داود (١٧٦٩)، وابن ماجه (٣٠٩٩) وغيرهم، ولم يذكر البخاري: «نحن نعطيه..» إلخ].

١٤٩٥ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: تمتَّع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعمرة ثم أهلَّ بالحج فتمتع الناسُ مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي ومنهم من لم يُهدِ فلما قدِم النبي ﷺ مكة قال للناس: «مَن كانَ مِنكم أهدَى فإنَّه لا يَحِلُّ لشيءٍ حَرُم منه حتى يَقْضِيَ حجَّهُ، ومَنْ لَمْ يكُنْ مِنكم أهدى فليطُفْ بالبيتِ وبالصَّفا والمَرْوَة ويقصِّر وليُحْلِلْ ثم ليهلَّ بالحجِّ، فمَنْ لم يَجِدْ هَدْياً فلْيَصُم ثلاثةَ أيامٍ في الحجِّ وسبعةً إذا رجعَ إلى أهْلِهِ»، فطافَ حين قدِم مكة واستلم الركنَ أولَ شيءٍ ثم ذكر الطواف والسعي ثم قال: «ثُمَّ لم يَحْلِلْ مِن شيءٍ حَرُم مِنْهُ حتى قضَى حجَّه ونحَرَ هَدْيَه يومَ النَّحر» وأفاض فطاف بالبيت ثم حلَّ من كل شيء حرم عليه وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى وساق الهدي من الناس.

[رواه البخاري (٢٨٦/٤)، ومسلم (٢٠٨/٨، ٢١٠) وغيرهما].

١٤٩٦ ـ وعن أبي جمرة قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن المتعة فأمرني بها وسألته عن الهدي فقال: فيها جَزُورٌ أو بقرةٌ أو شاةٌ أو شِرْكٌ في دم، قال: وكان الناس كرهوها فنمتُ فرأيتُ في المنام كأنَّ إنساناً يُنَادِي: حَجٌّ مبرورٌ ومتعةٌ مُتَقَبَّلةٌ.

وفي رواية: عمرة متقبلة وحج مبرور قال: فأتيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فحدثته فقال: الله أكبر سنة أبي القاسم ﷺ.

[رواه البخاري (٢٨٢/٤، ٢٨٣)، ومسلم (٢٢٧/٨) وغيرهما].

١٤٩٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ نحر عن آل محمد في حجة الوداع بقرةً واحدةً.

وفي رواية: ذبح عمَّن اعتمر من نِسائِه بقرةً.

[رواه الشيخان وأبو داود (١٧٥٠) بالرواية الأولى، والثانية لأبي داود (١٧٥١)].

١٤٩٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة كلُّ سبعةٍ في بدنةٍ فقال رجل لجابر: أيُشْتَرَكُ في البَدَنَة ما يُشْتَرَكُ في الجزور، قال: ما هي إلا من البُدْن.

[رواه مسلم (٦٧/٩، ٦٨)].

١٤٩٩ ـ وعنه قال: كنا لا نأكل من لحوم بُدُنِنَا فوقَ ثلاثٍ منى فرخَّص لنا النبيُّ ﷺ فقال: «كُلُوا وتزَوَّدُوا» فأكلنا وتزودنا.

[رواه البخاري في الحج، وفي الجهاد، وفي الأطعمة، ومسلم في الأضاحي. وفي رواية عند أحمد (٣٦٨/٣): عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نتزود لحوم الأضاحي إلى المدينة، وسنده صحيح].

ش: في هذه الأحاديث أحكام تتعلق بالهدي نجملها فيما يلي:

ففيها: مشروعية الهدايا، ولا خلاف في استحبابها لكل الناس فهي من شعائر الله كما ذكره القرآن الكريم.

وفيها: أن الإكثار منها مطلوب ومرغب فيه.

وفيها: أنها تجب على من أحرم قارناً أو متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وبذلك جاء القرآن الكريم والسنة المتواترة. أما من لم يجد فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع لبلده.

وفيها: أن الواجب إما جزور أي جمل، أو بقرة، أو شاة.

وفيها: أنه يجوز اشتراك سبعة في بدنة.

وفيها: أنه يتصدق من لحومها وبجلودها.

وفيها وهي مسك الختام: جواز التزود من لحومها وحملها إلى الآفاق.

العمرة المفردة

١٥٠٠ ـ عن أبي زر بن العُقَيلي أنه قال للنبي ﷺ: إن أبي شيخٌ كبيرٌ لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظَّعَنَ. فقال: «**حُجَّ عن أبيكَ واعْتَمِرْ**».

[رواه أحمد (١٠/٤)، وأبو داود (١٨١٠)، والترمذي (٨٢٦)، والنسائي (٨٨/٥)، وابن ماجه (٢٩٠٦) وسنده صحيح على شرط مسلم وحسنه الترمذي وصححه].

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: لا أعلم في إيجاب العمرة حديثاً أجود من هذا ولا أصح منه.

ش: اتفق الأئمة والعلماء على مشروعية العمرة في سائر السنة، واختلفوا في حكمها فذهب جماعة منهم إلى أنها سنة، وذهب آخرون إلى فرضيتها مرة في العمر كالحج. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنها ـ يعني العمرة لقرينتها ـ أي فريضة الحج ـ في كتاب الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، علقه البخاري وعزاه الحافظ في «الفتح» إلى الشافعي وسعيد بن منصور.

١٥٠١ ـ وعن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ أمر عبدالرحمن بن أبي بكر أن يُعْمِرَ عائشة من التَّنْعِيمِ.

[رواه البخاري (٣٥٨/٤، ٣٥٩)، وفي مواضع من الحج، ومسلم (١٣٤/٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٤٨)، والترمذي (٨٣١)، وباقي الجماعة مطولاً ومختصراً وقد تقدم بعضه].

ش: «**التنعيم**»: هو المسمى اليوم بمسجد عائشة.

كانت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قد أحرمت بالحج والعمرة فحاضت قبل أن تطوف فأمرها النبي ﷺ أن تنْقُضَ العُمرةَ وتجعلَها حجة، فلما أفاضت يومَ النحر وأتمَّت حجها ذكرت ذلك للنبي ﷺ وقالت له: إن نِساءَك يَرْجِعْنَ بحج وعمرةٍ وأنا أرجع بحج فقط، فقال لأخيها عبدالرحمن: «**أعمرها من التنعيم**» إلخ.

واستدل أكثر أهل العلم بقصتها هذه على مشروعية العمرة مفردة بعد الحج وعليه عمل الناس. وقال الأئمة الأربعة وداود باستحباب الخروج إلى التنعيم أو الجعرانة للإتيان بالعمرة لمن كان داخل الحرم عملاً بحديث عائشة هذا وخالفهم آخرون فلم يروا ذلك.

فضل العمرة في رمضان

١٥٠٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لامرأة من الأنصار: «**مَا مَنَعَكِ أن تَكُونِي حَجَجْتِ مَعَنَا؟**»، قالت: نَاضِحَانَ كانَا لأَبِي فلان زوجِها حج هو وابنه على أحدهما وكان الآخر يَسْقِي عليه غلامُنا، قال: «**فعُمْرةٌ في رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً، أو حَجَّةً مَعِي**».

[رواه مسلم (٢/٩، ٣)].

وفي رواية: «**فإذا جاء رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة**».

[رواه البخاري (٣٥٢/٤، ٣٥٣)، ومسلم (٢/٩)، ورواه أبو داود (١٩٨٨)، والترمذي (٨٣٥) وغيرهما عن أم معقل].

ش: في الحديث فضل العمرة في رمضان وأنها تعدل ثواب حجة مع النبي ﷺ. ويا له من فضل أكرمنا الله تعالى بعمرة في رمضان كل عام حتى الموت.

كم اعتمر النبي ﷺ ومتى كان ذلك

١٥٠٣ ـ عن قتادة أن أنساً أخبره قال: اعتمر النبي ﷺ أَرْبَعَ عُمَر كلُّهن في ذِي القَعْدَةِ إلا التي كانت مع حجته: عمرةً من الحديبية في ذي القعدة، وعمرةً من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرةً من الجِعْرَانةِ حيث قَسَّم غنائِم حُنَيْن في ذي القعدة، وعمرةً مع حجَّتِه.

[رواه البخاري في العمرة (٣٥٠/٤)، وفي الجهاد، وفي المغازي، ومسلم (٢٣٤/٨، ٢٣٥)].

وفي رواية: سألت أنساً كم حج رسول الله ﷺ؟ قال: حجة واحدة واعتمر أربع عمر.

[رواه مسلم].

١٥٠٤ ـ وعن عكرمة بن خالد قال: سألت ابن عمر عن العمرة قبل الحج، فقال: اعتمر النبي ﷺ قبل الحج.

[رواه البخاري (٣٤٨/٤)].

١٥٠٥ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين.

[رواه البخاري في العمرة (٣٥١/٤)، وفي مواضع].

ش: في هذه الأحاديث بيان أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر كانت اثنتان منهما مفردتين: عمرة القضاء في السنة السابعة، وعمرة الجعرانة في السنة الثامنة بعد فتح مكة وغزوة حنين، وعلى هذين يحمل حديث البراء، أما الأخريتان فإحداهما عمرة الحديبية حينما صده المشركون عن الدخول إلى الحرم فحلق هنالك ونحر وحل هو وأصحابه.

أما الأخرى فكانت مقرونة مع حجته وجميعها كانت في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته وفي حديثي ابن عمر والبراء دليل على جواز الاعتمار قبل أن يحج الإنسان، وفي ذلك رد على من يمنع ذلك وينكر على من يعتمر قبل الحج. وحيث أنهينا ما أردناه من أحاديث المناسك وما يتعلق بها فلنختم ذلك بحديث جابر الذي وصف حجة النبي ﷺ من أولها إلى نهايتها فنقول:

صفة حجة النبي ﷺ

١٥٠٦ ـ عن جَعْفَر بن مُحمَّد عن أبيه عليهم السلام قال: دخلنا على جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما فسأل عن القوم حتّى انتهَى إليَّ فقُلْتُ: أنا محمدُ بن عَلِي بن حُسَيْن فأهْوَى بِيَدِه إلىَ رَأسِي فنَزَع زِرِّي الأعْلى ثم نَزَعَ زِرِّي الأسْفَل، ثم وضع كفَّه بين ثَدْيَيَّ وأنا يومئذٍ غلامٌ

شابٌّ، فقال: مَرْحَباً بكَ يا ابنَ أخِي، سَلْ عمَّا شِئْتَ، فسألتُه وهو أعْمَى، وحَضَر وقْتُ الصلاة فقامَ في نَسَّاجَةٍ مُلْتَحِفاً بِها، كُلَّمَا وَضعها على مَنكِبِه رجعَ طَرَفَاهَا إليه مِن صِغَرِها، ورِدَاؤُهُ إلى جَنبِه على المِشْجَبِ فصَلَّى بِنا فقلتُ: أخْبِرْني عن حِجَّةِ رسول الله ﷺ فقال بِيَدِه فعَقَد تِسعاً فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ ثم أُذِّنَ في النَّاس في العاشِرةِ أن رسول الله ﷺ حاجٌّ، فقدِمَ المدينةَ بَشَرٌ كثيرٌ كلُّهم يَلْتَمِسُ أن يأتَمَّ برسول الله ﷺ ويَعْمَلَ مِثلَ عَمَلِه، فخرجْنا مَعَه حتى أتَيْنَا ذا الحُلَيْفَةِ فوَلَدَتْ أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ مُحَمَّد بنِ أبي بَكْرٍ فأرْسَلتْ إلى رسولِ الله ﷺ كيف أصْنَعُ؟ قال: «**اغْتَسِلِي واسْتَثْفِرِي بِثَوْبٍ وأحْرِمِي**»، فصلَّى رسولُ الله ﷺ في المَسْجِدِ ثم رَكِب القَصْوَاءَ حتى إذا اسْتَوَتْ به ناقتُه عَلى البَيْداءِ نَظَرْتُ إلى مَدِّ بَصَرِي بينَ يدَيْهِ مِن رَاكِبٍ وماشٍ وعَن يَمِينه مثلُ ذلك، وعن يَسارِه مثلُ ذلك، ومِن خلفِهِ مثلُ ذلك، ورسولُ الله ﷺ بَيْنَ أظْهُرِنا وعليه يَنزِل القرآنُ وهو يَعْرِفُ تأويلَه، وما عَمِلَ به مِن شيء عَمِلْنا به، فأهَلَّ بالتَّوحِيدِ:

«**لَبَّيكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيكَ، لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لكَ، لَبَّيكَ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ**». وأهلّ الناس بهذا الذي يُهِلُّون به، فلَمْ يَرُدَّ رسولُ الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزِمَ رسولُ الله ﷺ تَلْبِيَتَه، قال جابر رضي الله تعالى عنه: لَسْنَا نَنْوِي إلاَّ الحَجَّ لَسْنَا نَعْرِفُ العُمْرَةَ، حَتى إذا أتَيْنَا البيتَ معَه اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فرَمَل ثلاثاً ومَشَا أرْبعاً، ثُمَّ نَفَذَ إلى مَقَامِ إبراهيمَ عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وجعل المقامَ بينَه وبينَ البيت فكان أبي يقول ـ ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ ـ: كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ثم رجع إلى الركن فاسْتَلَمَهُ، ثم خرج مِن الباب إلى الصفا، فلما دَنَا مِن الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، «**أبدأ بما بدأ الله به**»، فبدأ بالصفا فرَقِيَ عليه حتى رأى البيت فاستقبلَ القبلةَ فوحَّد الله وكَبَّره، وقال: «**لا إلَه إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كل شيءٍ قديرٌ. لا إلَه إلا الله وحدَه، أنْجَزَ وَعْدَه، ونَصَر عَبْدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه**». ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا

انصبَّت قدمَاه في بَطْن الوادي سَعَى حتى إذا صَعِدَتَا مَشَى حتى أتَى المروةَ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافِه على المروة فقال: «**لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِن أَمْرِي ما اسْتَدْبَرْتُ لم أَسُقْ الهَدْيَ وجعلتُها عُمْرة، فمن كان مِنكم ليسَ معه هدْيٌ فَلْيحلّ، ولْيَجْعَلْها عُمرةً**». فقام سُراقةُ بن مالك بن جُعْشُم فقال: يا رسول الله ألِعَامِنا هذا أم لأبَد؟ فشبَّكَ رسولُ الله ﷺ أصابِعَه واحدةً في الأُخرى، وقال: «**دخلتْ العُمرة في الحَجّ مرتين لا بل لأبَدِ أبَدٍ**». وقدِم عليٌّ من اليمن ببُدْن النبي ﷺ فوجدَ فاطمةَ عليها السلام ورضي الله تعالى عنها ممن حلَّ ولبِسَت ثياباً صَبِيغاً واكْتَحَلَتْ فأنكرَ ذلك عليها فقالت: إن أبي أمَرَنِي بِهَذا قال: فكان علي عليه السلام يقول بالعراق: فذهبتُ إلى رسول الله ﷺ مُحَرِّشاً على فاطِمةَ للذي صنعتْ مُسْتَفْتِياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرتْ عنه فأخبرْتُه أنِّي أنكَرْتُ ذلك عليها فقال: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، مَاذا قُلتَ حِين فَرَضت الحَجَّ؟**»، قال: قلت: اللهم إني أُهِلَّ بما أَهَلَّ به رسولُك، قال: «**فإنَّ معي الهديَ فلا تَحِلُّ**»، قال: فكان جماعةُ الهدْيِ الذِي قدِم به عليٌّ من اليمن والذي أتَى به النبيُّ ﷺ مَائَةً قال: فحَلَّ الناس كلُّهم وقَصَّرُوا إلا النبيَّ ﷺ ومَن كان معه هدْيٌ. فلما كان يومُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إلى مِنًى فأَهَلُّوا بالحج وركِبَ رسولُ الله ﷺ فصلى بهما الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعِشاءَ والفجرَ ثم مَكَثَ قليلاً حتى طَلَعَتْ الشمسُ وأمر بقُبَّةٍ مِن شَعَرٍ فَضُرِبَتْ له بِنَمِرَةَ فسارَ رسولُ الله ﷺ ولا تَشُكُّ قُريشٌ إلا أنه واقفٌ عند المَشْعَرِ الحرام كما كانت قريش تَصْنعُ في الجاهلية، فأجَازَ رسولُ الله ﷺ حتى أتى عَرَفةَ فوجَد القُبَّةَ قد ضُرِبَتْ له بنمرةَ فنزل بها حتى إذا زاغَتْ الشمسُ أمَرَ بالقَصْوَاء فرُحِّلَتْ له فأتى بَطْن الوادِي فخَطَبَ الناسَ وقال: «**إنَّ دِمَاءَكُم وأموالَكُم حرامٌ عليكُم كحُرْمَةِ يومِكم هذا في شَهْرِكم هذا في بلدِكم هذا، ألاَ كُلُّ شيءٍ مِن أمرِ الجاهليةِ تحتَ قَدَمي موضوعٌ، ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ، وإن أوَّل دَم أضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمَ ابنِ رَبِيعَة بن الحارثِ كانَ مُسْتَرْضَعاً في بَني سَعد فقَتَلَتْهُ هُذَيلٌ، وربا الجاهلية موضوعٌ، وأولُ ربا أضَعُ رِبَا عباسِ بن عبدِالمطلب فإنه موضوعٌ كلُّه، فاتَّقُوا اللَّهَ في النساء فإنكم أخَذْتُمُوهُنَّ بِأمانِ الله واسْتَحْلَلْتُم**

فُرُوجَهُنَّ بكَلِمة اللَّهِ ولكُم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُم أحداً تَكْرَهُونَهُ، فإن فَعَلْنَ ذلِك فاضرِبُوهُن ضَرباً غَير مُبَرِّحٍ ولهُنَّ عليكُم رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروفِ، وقد تركتُ فِيكم ما لَن تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنْ اعْتَصَمْتُم بِهِ كتابَ اللَّهِ، وأنتم تُسْألُون عَنِّي فَمَا أنْتُم قَائِلُون»، قالوا: نَشْهَدُ أنَّك قد بَلَّغْتَ، وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ، فقال بأصبعه السَّبَّابَةِ يرْفعها إلى السماء ويَنكُتُها إلى الناس: «**اللَّهم اشْهَد، اللَّهُم اشْهَد**» ثلاث مرات، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى المَوقِفَ فجعل بطْنَ ناقتِه القَصْوَاءِ إلى الصَّخَرَاتِ وجعل جَبَلَ المُشاةِ بين يديه واستقبل القِبلة فلم يَزَلْ واقفاً حتى غَرَبت الشمسُ وذهَبت الصُّفرةُ قليلاً حتى غاب القرصُ، وأردفَ أسَامة خلفَه ودفعَ رسولُ الله ﷺ وقد شَنَقَ لِلقَصْواء الزِّمامَ حتى إنَّ رأسَها لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رحلِه ويقول بيده اليمنى: «**أيُها النَّاس السَّكينةَ السَّكينةَ**» كلما أتى حَبلاً من الحِبال أرْخَى لها قليلاً حتى تَصْعَدَ حتى أتى المُزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذانٍ واحدٍ وإقامتين ولم يُسَبِّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسولُ الله ﷺ حتى طَلَعَ الفَجرُ وصلى الفجرَ حِين تَبيَّنَ له الصبحُ بأذان وإقامة ثم ركب القصواءَ حتى أتى المَشعرَ الحرامَ فاستقبل القبلة فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده فلم يزل واقفاً حتى أسْفَرَ جداً، فدفع قبل أن تطلُع الشمس وأردف الفَضلَ بن عباس وكان رجلاً حَسَنَ الشعر، أبْيَض، وَسِيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ مَرَّت به ظُعُنٌ يَجْرِينَ فطَفِقَ الفضل ينظرُ إليهن فوضع رسول الله ﷺ يَدَه على وجهِ الفضل فحوَّل الفضل وجْهَه إلى الشِّقِّ الآخَرِ ينظرُ فحَوَّل رسولُ الله ﷺ يدَه من الشق الآخر على وجه الفضل يَصْرِف وجْهَه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ فحَرَّك قليلاً ثم سَلَك الطريق الوُسْطَى التي تخرج على الجَمْرة الكبرى حتى أتى الجمرةَ التي عند الشجرة فرماها بسبع حَصَياتٍ يُكبِّرُ مع كل حصاة منها مثلَ حَصَى الخَذْفِ رَمى مِن بَطْنِ الوادِي، ثم انصرف إلى المَنْحَرِ فنَحَر ثلاثاً وستين بِيَدِهِ، ثم أعْطى علياً فَنَحَر ما غَبَرَ وأشْرَكَه في هديه ثم أمر من كل بدنةٍ بِبَضْعَةٍ فجُعِلتْ في قِدْرٍ فطُبِخَتْ فأكَلا من لَحْمِها وشربا من مَرَقِها، ثم ركِبَ رسولُ الله ﷺ فأفاضَ إلى البيت فصَلَّى بمكة الظهرَ فأتَى بني

عبدالمطلب يَسْقُون على زَمْزَمَ فقال: «**انْزِعُوا بني عبدالمطلب فلولا أن يَغْلِبَكُم النَّاسُ على سِقَايَتِكُم لَنَزَعْتُ معَكُم**» فَنَاوَلُوه دَلْواً فشَرِب مِنهُ.

[رواه أحمد (٣/٣٢٠، ٣٢١)، ومسلم (٨/١٧٠ ـ ١٩٤)، وأبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٧٦١، ٧٦٢)، وابن ماجه (٣٠٧٤) وغيرهم، والسياق لمسلم، وللحديث روايات وألفاظ وزيادات، وأخرجه أهل الصحاح والسنن والمسانيد من طرق].

ش: هذا حديث عظيم الشأن لا مثيل له في سائر الأحاديث الواردة في الحج فهو أجمع حديث لأفعال الحج والمناسك فمن اقتصر عليه وعمل بما فيه كفاه. وسنشير هنا إلى ما فيه من المناسك مما لم يتقدم لنا منه فيما سبق. ففيه: أن النبي ﷺ مكث بعد الهجرة تسع سنين لم يحج وهذا مما لا خلاف فيه، وأنه حج في السنة العاشرة.

وفيه: أنه خرج معه جموع غفيرة من سكان المدينة وما جاورها من القبائل وكان معهم النساء والأطفال وأكثر ما قيل أنه حج معه من المسلمين ثمانون ألفاً.

وفيه: ما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من اتباعه في كل شيء والاقتداء بأفعاله وتصرفاته.

وفيه: أن الصحابة لم يكن لهم علم بالاعتمار في أشهر الحج وإنما خرجوا قاصدين وناوين الحج فقط، حتى أمر النبي ﷺ من لم يكن معه هدي بالفسخ وجعلهم ما أحرموا به من الحج عمرة حتى شق ذلك عليهم.

وفيه: أن السنة في القراءة في ركعتي الطواف أن تكون بالكافرون والإخلاص.

وفيه: أن العمرة التي فعلها الصحابة متمتعين بها إلى الحج عامة، خلافاً لمن خصها بالصحابة.

وفيه: أن جملة ما أهداه النبي ﷺ وشرك معه فيها الإمام علياً عليه السلام مائة بدنة وأنه نحر بيده الشريفة منها ثلاثاً وستين ونحر ما بقي الإمام علي.

وفيه: أنه ينبغي الأكل من لحم الهدي وشرب مرقه.

وفيه: استحباب النزول صبيحة عرفة إلى الزوال بنمرة، ثم الذهاب إلى وادي عرنة بعد الزوال.

وفيه: الوصية بالنساء وبالحقوق الزوجية في خطبة يوم عرفة.

وفيه: وضع أمور الجاهلية وإهدار ما وقع فيها من دماء ووضع رباها ونحوه.

وفيه: تغيير المنكر باليد وصرف العاصي عن معصيته.

وفيه: أن الشباب مظنة الفتنة بالنساء وأنه يجب التحفظ من ذلك ما أمكن.

وفيه: الرد على ابن حزم في إبطاله حج من صدرت منه معصية حالة الإحرام، فهذا الفضل بن عباس تعمد النظر إلى تلك الظعن وتكرر منه ذلك ولم يأت نص عن النبي ﷺ في ذلك أنه أبطل حجه.

وفيه: يُسَنُّ في النزول من المزدلفة سُلوكُ الطريق الوَسَطِ المُؤَدّي إلى جمرة العقبة.

وفيه: مشروعية الشرب من زمزم بعد طواف الإفاضة كما يسن ذلك بعد طواف القدوم وغيره. هذا جُمْلَةُ ما فيه مما لم يتقدم لنا في الأحاديث السابقة.

فضل مكة المكرمة

١٥٠٧ ـ عن عبدالله بن عَدِي رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسولَ الله ﷺ واقفاً على الحَزْوَرَةِ فقال: **«واللَّهِ إنَّكِ لَخَيرُ أرْضِ اللَّهِ، وأحَبُّ أرضِ الله إلى اللَّهِ»**.

[رواه أحمد (٤/٣٠٥)، والترمذي (٣٦٨٩)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وابن حبان (١٠٢٥) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه].

١٥٠٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**مَا أَطْيَبَكِ مِن بَلَدٍ وأَحَبَّكِ إِلَيَّ، ولولا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنكِ ما سَكَنْتُ غَيْرَكِ**».

[رواه الترمذي في المناقب (٣٦٩٠) كسابقه، وابن حبان (١٠٢٦) وحسنه الترمذي وصححه أيضاً].

ش: قوله: «**الحزورة**» بفتح الحاء وسكون الزاي ثم واو وراء مفتوحتين: كان سوقاً لمكة وبعد توسعة المسجد أُدْخِلَ فِيهِ.

والحديثان يدلان على أن مكة المكرمة أفضل البلاد إطلاقاً وخير الأراضي، وأنها أحب البلاد إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وهما نص في ذلك وهذا قول جمهور أهل العلم، وذهب فريق آخر إلى تفضيل المدينة المنورة، وقوله ﷺ: «**لولا أن قومي أخرجوني**» إلخ، يعني تسببوا في إخراجه بما كانوا يضايقونه من أنواع الإذايات.

حرمة مكة المكرمة

١٥٠٩ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ الله تعالى يومَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، فهُو حَرامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يومِ القِيامةِ، وإِنَّه لا يَحِلُّ القِتالُ فيهِ لأَحَدٍ قبلِي، ولم يَحِلَّ لِي إلا سَاعةٌ مِن نَهارٍ، لا يُعْضَدُ شَوْكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيدُه، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلا من عَرَّفَها ولا يُخْتَلَى خَلاَهَا**». قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخرَ فإنه لِقَيْنِهم ولِبُيُوتِهم، قال: «**إلا الإِذْخَر**».

[رواه أحمد (١/٢٥٩، ٣١٥)، والبخاري (٤/٤١٨، ٤٢٠)، ومسلم (٩/١٢٣، ١٢٤) كلاهما في الحج].

١٥١٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عن مَكَّةَ الفِيلَ، وسَلَّطَ عليها رسولَه والمُؤمنينَ، وإِنَّها لَن تَحِلَّ لأَحَدٍ كانَ قَبْلِي، وإِنَّها أُحِلَّتْ لِي سَاعةً مِن نهارٍ، وإِنَّها لَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ**

بَعْدِي، فلا يُنَفَّرُ صَيدُها، ولا يُخْتَلَى شُوكُهَا، ولا تَحِلُّ سَاقِطَتُها إلا لمُنْشِدٍ».

[رواه البخاري في العلم (٢١٦/١)، وفي الحج، ومسلم فيه (١٢٨/٩، ١٢٩)].

١٥١١ ـ وعن أبي شُرَيْح رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إنَّ مَكَّةَ حرَّمَها اللَّهُ ولم يُحَرِّمْها النَّاسُ فلا يَحِلُّ لامْرِىءٍ يؤمِنُ بالله واليوم الآخِرِ أن يَسْفِكَ بِهَا دَماً، ولا يَعْضِدَ بها شَجَرَةً، فإن أحدٌ تَرَخَّص بقتالِ رسول الله ﷺ فيها فقُولُوا لَه: إنَّ الله أذِنَ لِرسوله ولم يَأْذَنْ لَكُم، وإنَّما أذِنَ فيها ساعةً مِن نَهارٍ، وقد عادتْ حُرمَتُها اليومَ كحُرْمَتِها بالأَمْسِ».

[رواه أحمد (٣٨٥/٦)، والبخاري (٤١٣/٤، ٤١٦)، ومسلم (١٢٧/٩، ١٢٨) كلاهما في الحج].

ش: قوله: «لا يعضد»: أي لا يقطع. وقوله: «لا ينفر صيده»: أي لا يزعج. وقوله: «ولا يختلى..» إلخ: أي لا يقطع نباتها الرطب. وقوله: «الإذخر»: هو نبات طيب الرائحة كانوا يستعملونه في سقف بيوتهم وفي حِدَادَتِهِم. وقوله: «حبس عن مكة الفيل» معناه: منع فيل أبرهة الذي غزا مكة المكرمة من استحلاله الحرم وهدم الكعبة. «وسلط عليها رسوله..» إلخ: بمعنى أذن لهم بالقتال فيها عند فتحها.

وفي هذه الأحاديث بيان ما لمكة المكرمة من العظمة والقداسة والحرمة، وأن الله تعالى حرمها يوم أنشأ هذه الأجرام قبل أن يكون أي حي من هذه الأحياء الإنسية أو الجنية. وأنه لا يَجوزُ في دمها سَفكُ دم ابتداءً من غير دفاع ولا قَطْعُ شجرِه ونباتِه ولا إزعاجُ صَيْدِهِ فضلاً عن قتله كما أن لُقطَتَه لا تَحِلُّ إلا لمُنْشِدِها ومُعَرِّفها. ومع هذه القداسة لهذا البلد الطيب لم يَحْتَرِمْها الناسُ حتى المسلمون منهم. وقد جاء في الحديث الصحيح ما معناه: «إنَّ أهْلَها هُم الذين يَسْتَحِلُّونها فإذا اسْتَحَلُّوهَا فلا تَسألْ عن هَلكةِ العَرَبِ» وهذا هو الواقع فإن سكان مكة المكرمة لا يعطونها أي قيمة تستحقها ولا يعيرونها احتراماً.

وعلى أي حال فمكانة مكة المكرمة عند الله معلومة، وحرمتها في قلوب أهل الإيمان والتقوى متفاوتة، وكل المسلمين يقرأون ويسمعون ما

حكاه الله عن خليله صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أجمعين حيث قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

فكان الخليل عليه السلام من أول من قدَّس هذا البلد وبنى بيته ودعا مع سكانه وبنيه الذين منهم سكانه اليوم وزواره، فمن واجبهم أن يحترموه ويعظموه.

فضل المدينة المنورة

١٥١٢ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ طَلع له أُحُدٌ فقال: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ، اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وإنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا**».

[رواه البخاري في الأطعمة وغيرها، ومسلم في الحج (١٣٩/٩)].

١٥١٣ ـ وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ إبراهيمَ حَرَّمَ مكةَ ودَعَا لها وحَرَّمتُ المدينةَ كما حَرَّمَ إبراهيمُ مكةَ ودعَوْتُ لَهَا في مُدِّها وصَاعِها مِثْلَ ما دَعَا إبراهيمُ عليه السَّلام لِمكَّةَ**».

[رواه البخاري في البيوع وغيره، ومسلم في الحج (١٣٤/٩، ١٣٥) ونحوه عن جماعة].

١٥١٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليسَ مِنْ بَلدٍ إلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مكَّةَ والمدينةَ ليسَ لهُ مِن نِقابِهَا نِقْبٌ إلاَّ عليهِ الملائِكَة صافِّينِ يَحْرُسُونَها**».

[رواه البخاري (٤٦٧/٤)، ومسلم آخر الفتن (٨٥/١٨)].

١٥١٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**علَى أنْقَابِ المدِينَةِ مَلائكةٌ لا يَدخُلُها الطَّاعُونَ ولا الدَّجَّالُ**».

[رواه البخاري في الحج (٤/٤٦٧)، وفي الطب (١٢/٢٩٥)].

وجاء في رواية: «**المدينة ومكَّةُ مَحفُوفَتَانِ بالمَلائِكةِ على كُلِّ نِقْبٍ مِنها ملَكٌ لا يَدخُلها الدَّجَّالُ ولا الطَّاعُونُ**».

[عزاه الحافظ في الفتح (١٢/٣٠٠) لعُمر بن شَبَّة وقال: رجاله رجال الصحيح. وجاء في رواية لأبي بكرة عند البخاري في الحج (٤/٤٦٧): «**لها يومئذٍ سبْعَةُ أبوابٍ على كُلِّ بابٍ مَلَكان**»].

ش: في هذه الأحاديث فضل المدينة الشريفة وأنها في الحرمة كمكة المكرمة سواء، وأنها مباركةٌ بطعامِها وشرابِها وجميع مرافِقِها مثل مكة أيضاً، وأنها كمكةَ مَحرُوسةٌ من الدجَّال والطَّاعُون لا يَدْخُلانِهما وأنه ما من طريق من طُرقِها الرئيسة إلا عليها مَلَك مُصْلتٌ سَيْفَه يَحْرُسُها من الطاعون والدجال، وفي ذلك شرفٌ عظيمٌ لها ولمكة وقداسة ليست لغيرها من البلاد وحتى بيت المقدس ليس له ذلك.

وعيد من أراد أهلها بسوء أو أحدث فيها حدثاً

١٥١٦ ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يُرِيدُ أحَدُ أهلَ المدِينةِ بِسُوءٍ إلا أذَابَهُ اللَّهُ في النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ أو ذَوْبَ المِلْحِ فِي المَاءِ**».

[رواه مسلم آخر الحج (٩/١٣٧، ١٣٨)].

١٥١٧ ـ وعن الإمام علي عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: «**المَدينةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عِيرٍ إلى ثَوْرٍ، فمَنْ أحْدَثَ فيها حَدَثاً أوْ آوَى مُحْدِثاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ، لا يَقبلُ اللَّهُ منهُ يَومَ القيامةَ صَرْفاً ولا عَدْلاً**».

[رواه مسلم (٩/١٤١، ١٤٢) وغيره مطولاً].

ش: في الحديثين وعيد من آذى أهل المدينة أو أساء إليهم وأن كل من

أحدث فيها حدثاً من بدعة أو فجور أو فساد أو ضم إليه محدثاً فهو ملعون بلعنة الله والملائكة والناس. وذلك منتهى ما يمكن أن يجازى به أي مجرم، يضاف إلى ذلك أن الله لا يقبل منه لا فرضاً ولا نفلاً. وذلك يدل على عظم الجريمة.

الصبر على شدّتها يوجب شفاعة نبي الله ﷺ

١٥١٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَبَرَ على شِدَّتِهَا وَلأْوَائِهَا كُنتُ لَهُ شَهِيداً أو شفِيعاً يوم القيامة»**.

[رواه أحمد (٢/١٥٥)، ومسلم (٩/١٥١، ١٥٢)، والترمذي في المناقب (٣٦٨٢) وغيرهم، ونحوه عن أبي هريرة عند مسلم (٩/١٥٢)، والترمذي (٣٦٨٨) وغيرهما].

١٥١٩ ـ وعن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ اسْتَطاعَ أنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ، فإنِّي أشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»**.

[رواه أحمد (٢/٧٤، ١٠٤)، والترمذي (٣٦٨١)، وابن ماجه (٣١١٢)، وابن حبان (١٠٣١) بسند صحيح على شرط الشيخين عند الترمذي].

ش: في الحديثين فضل الموت بالمدينة مع الصبر على ضيقها وحرارتها، وأن من صبر عليها ومات بها حلت له شفاعة الرسول الكريم ﷺ.

المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وأنها تنفي عنها خَبَثَها

١٥٢٠ ـ عن سفيان بن أبي زُهَيْر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تُفتح الشَّامُ فَيَخْرُجُ مِنَ المَدِينَةِ قومٌ بأهْلِيهِم يبسُّون والمدينةُ خيرٌ لهُم لَوْ كَانُوا يعلَمون، ثم يُفْتَح اليمنُ فيَخْرُج مِن المدينةِ قومٌ بأهْلِيهم يَبسُّونَ والمدينة خيرٌ لهم لو كانُوا يَعلمون، ثم يُفتحُ العراقُ فيَخرج من المدينة قومٌ بأهلِيهم يَبسُّونَ والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يَعلمونَ»**.

[رواه أحمد (٥/٢٢٠)، والبخاري (٤/٤٦٣)، ومسلم (٩/١٥٨، ١٥٩) كلاهما آخر الحج].

١٥٢١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يأتِي علَى النَّاسُ زمانٌ يَدعُو الرَّجلُ ابنَ عَمِّهِ وقَرِيبَه هَلُمَّ إلى الرَّخَاءِ، هلُمَّ إلى الرَّخَاءِ، والمدينةُ خيرٌ لهُم لو كانوا يعلمونَ، والَّذي نَفْسِي بيَدِه لا يَخْرُجُ مِنهم أحدُ رغبةً عنها إلا أخْلَفَ الله فيها خَيراً منه، ألاَ إنَّ المدينةَ كَالكِيرِ تُخرِجُ الخَبِيثَ لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَنْفِي المدينةُ شِرَارَها كما يَنفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»**.

[رواه مسلم (٩/١٥٣)].

ش: قوله: **«يبسون»** بفتح الياء وكسر الباء وضمها: أي يزجرون إبلهم خارجين من المدينة ذاهبين إلى تلك البلاد التي فيها السَّعَةُ والعَيشُ الرَّغد.

وفي الحديثين فضل سكنى المدينة المنورة وأنها خير وأفضل لمن يخرجون منها، من غيرها لو كانوا يعلمون حقيقةَ الأمر، وكيف وفي سُكْنَاها مُجاوَرةُ الحبيب الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. فلا يَخرجُ منها رغبةً عنها بقصد التوسُّع في الحياة وتَرْفِيهِ النَّفسِ إلا محرومٌ، ويُخْشَى عليه أن يكون من الخُبَثاءِ الذين تَطْرُدُهم المدينةُ عنها.

وفي الحديثين معجزة ظاهرة للنبي ﷺ وعَلَمٌ من أعلام النبوة حيث أخبر ﷺ بفتح الشام والعراق، وقد كانا لا يَزالان تحت نُفُوذِ العَجَم والرُّوم فصدق الله تعالى ما أخبر به ووقع ما قال أيام الصديق والفاروق رَضي الله تعالى عنهما، فهاجر كثير من الصحابة من المدينة وسكنوا العراق والشام وغيرهما من الأقطار.

فضل المسجد النبوي والروضة وقباء

١٥٢٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يبلغ به النبي ﷺ: **«لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هذا، ومَسْجِدِ الحَرَامِ، ومَسْجِدِ الأقْصَى»**.

[رواه أحمد (٢/٢٧٨) وفي مواضع، والبخاري في التطوع (٣/٣٠٦)، ومسلم آخر الحج (٩/١٦٧، ١٦٨)].

١٥٢٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن امرأة اشتكت شكوى فقالت: إن شَفَانِي الله لأَخْرُجَنَّ فَلأُصَلِّيَنَّ في بيتِ المقدِس، فَبَرأَتْ ثم تَجَهَّزَتْ تُرِيدُ الخُروج فجاءت مَيْمُونة زَوْجَ النبي ﷺ تُسَلِّمُ عليها فأَخْبَرَتْهَا ذلك فقالتْ: اجْلِسِي فكُلِي ما صَنَعْتِ وصَلِّي في مَسجدِ الرَّسُولِ ﷺ، فإنِّي سَمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**صَلاةٌ فِيهِ أفضلُ مِن ألفِ صلاةٍ فِيما سِواه من المَساجِد إلا مَسْجِدَ الكَعْبَةِ**».

[رواه مسلم (١٦٦/٩، ١٦٧) وهو وارد عن جماعة منهم أبو هريرة في الصحيحين].

١٥٢٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَينَ بَيْتِي ومِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجنَّةِ، ومِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**».

[رواه أحمد (٤٠١/٢)، والبخاري (٤٧١/٤) في الحج، وفي مواضع، ومسلم آخر الحج (١٦١/٩، ١٦٢) وهو وارد عن جماعة].

١٥٢٥ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً.

[رواه البخاري في التطوع (٣١١/٣)، ومسلم في الحج (١٧٠/٩، ١٧١)].

١٥٢٦ ـ وعن سهل بن حُنَيْفٍ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثم أتى مَسْجِدَ قُبَاءَ فصلَّى فيهِ صلاةً كانَ لهُ أجرُ عُمْرَةٍ**».

[رواه أحمد (٣٨٧/٣)، والنسائي (٣٠/٢)، وابن ماجه (١٤١٢) ورجاله ثقات، ومحمد بن سليمان الكرماني لا تضر جهالة حاله، فإن للحديث شاهداً عن أُسَيْد بن ظُهَير رواه الترمذي (٢٩١)، وابن ماجه (١٤١١)، والحاكم (٤٨٧/١) وصححه وحسنه الترمذي وصححه العراقي في «المغني»، فالحديث حسن صحيح].

ش: الحديث الأول يدل على أنه لا تشد الرحال للسفر إلا للمساجد الثلاثة، والمراد بذلك لأجل الصلاة كما جاء في رواية عند أحمد فلا يجوز السفر للصلاة في مسجد من المساجد غير هذه، أما السفر لغير ذلك فلا

يتناوله الحديث، فالسفر لطلب العلم وللتجارة وللسياحة ولزيارة العلماء والصالحين ونحو ذلك غير داخل فيما ذكر.

أما الحديث الثاني فيدل على أفضلية الصلاة في المسجد النبوي وأن صلاة واحدة فيه أفضل عند الله من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام فإنه بمائة ألف صلاة كما جاء في الأحاديث الكثيرة.

أما الحديث الثالث ففيه فضل الروضة الشريفة وهي ما بين موضع منبره وبيته الذي فيه قبره المقدس. فهذا الموضع هو روضة من رياض الجنة، أي الصلاة فيه تؤدي إلى الجنة أو هو نفسه سينقل إلى الجنة أو هو نفسه من الجنة، أقوال للعلماء.

أما الحديثان الأخيران ففيهما فضل مسجد قباء وسنية زيارته، والصلاة فيه، وأن من صلى فيه كأنه أتى بعمرة. وهذا المسجد هو أول مسجد أسس على التقوى في الإسلام بعد الهجرة النبوية. وقد أشاد الله عزّ وجلّ بذكره في القرآن الكريم ومدَحَ أهلَه وسُكّان حَيّهِ فقال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الآية.

* * *

خاتمة

في زيارة القبر النبوي الشريف

جرت عادة المحدثين والفقهاء أن يذكروا آخر الحج زيارة قبر نبينا ﷺ وهو وإن كان لم يصح حديث في خصوص زيارته ﷺ فعموم حديث: **«كنتُ نَهَيتُكُم عَن زِيارَةِ القُبُورِ فزُورُوهَا»** رواه مسلم وغيره، يدل على مشروعيتها، على أنه هناك من المحدثين من حسن حديث زيارته لشواهده. بل أجمع العلماء على مشروعيتها وجعلوها من أفضل القربات وكيف لا وهو

رسولنا وقائدنا ومنقذنا من الضلال والمهالك، فزيارته بعد موته كزيارته في حياته.

قال القاضي عياض في «الشفا»: وزيارة قبره ﷺ سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها.. إلخ.

وقال النووي في «شرح المهذب»: واعلم أن زيارة قبر رسول الله ﷺ من أهم القربات، وأنجح المساعي، فإذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة استحبَّ لهم استحباباً متأكداً أن يتوجهوا إلى المدينة لزيارته ﷺ إلخ.

وقال الشوكاني في «نيل الأوطار»: وزيارة قبره ﷺ من السنن الواجبة كذا قال عبدالحق. واحتج أيضاً من قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب الوصول إلى المدينة المشرفة لقصد زيارته ﷺ ويعدون ذلك من أفضل الأعمال، ولم ينقل أن أحداً أنكر ذلك عليهم، فكان إجماعاً.

وهكذا ذكر العلماء على سائر المذاهب في كتب المناسك مشروعية الزيارة للقبر الشريف، من أصغر كتاب ألف في العبادات إلى أكبره.

فما يوجد اليوم من بعض الطوائف من الرغبة عن زيارته بل وعدم الدخول إلى مسجده هو من الزيغ والضلال بمكان، نسأل الله السلامة والعافية مما ابتلي به هؤلاء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذريته وأزواجه وأصحابه والتابعين لهم بإحسان آمين، وسبحان الله وبحمده سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلّه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. في كتاب الحج من الزيادات الصحيحة نحو خمسين حديثاً. وبهذا تم كتاب الحج. والحمد لله على توفيقه وفضله. ويليه كتاب الأذكار.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب الأذكار والدعوات

فضائل القرآن وسوره، وآياته، وأدب تلاوته، وفضل حامليه

١٥٢٧ ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: إن نبيكم ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ بِهَذا القُرآنِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».

[رواه أحمد (٣٥/١)، ومسلم في فضائل القرآن (٩٨/٦)، والدارمي (٣٣١٨)، وابن ماجه (٢١٨)، وابن حبان (٧٧٢) بالإحسان].

ش: في الحديث فضل القرآن الكريم وحامليه، وأن من حفظه شرفه الله تعالى ورفعه، وإن كان وضيعاً لا قيمة له عند الناس وخاصة إذا فهمه وعمل بمقتضاه، أما من أعرض عنه واستهان به وضعه الله تعالى وأذله وأهانه، وإن كان ذا مكانة عند الناس.

١٥٢٨ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**القُرآنُ**

شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَن جَعَله أَمَامَه قادَهُ إِلَى الجنَّةِ، ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهرِهِ ساقَهُ إِلَى النَّارِ».

[رواه ابن حبان (١٢٤)، والبزار مع الكشف (١٢٢) وسنده حسن، وأورده الهيثمي في المجمع برواية البزار وقال: رجاله ثقات].

١٥٢٩ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«الصِّيامُ والقُرآنُ يَشْفَعَانِ لِلعَبْدِ يومَ القِيامةِ، يَقُولُ الصيام: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشَّهَواتِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، ويقول القُرآنُ: مَنَعْتُه النومَ باللَّيلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قال: فَيُشَفَّعَانِ».**

[رواه أحمد (١٧٤/٢)، والحاكم ٥٥٤/١)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأورده النور في المجمع (١٨١/٣) برواية أحمد وكبير الطبراني وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح. ويأتي قريباً حديث: **«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»** رواه مسلم].

ش: **«مشفع»** بضم الميم وفتح الشين والفاء المشددة: أي مسموع الشفاعة ومقبولها. **«ماحل»** بكسر الحاء: أي ساع إلى الله تعالى بصاحبه مُصَدَّقٌ فيما يقول.

وفي الحديثين فضل القرآن الكريم وأنه سيكون شفيعاً لأصحابه العاملين به وأن من جعله قدوة له باتباع ما فيه والرجوع إلى تعاليمه والعمل بمقتضاه قاده إلى النعيم الخالد، ومن جعله خلفه وأعرض عن تعاليمه قاده إلى النار ودار الشقاء الدائم.

* * *

فضائل سوره وآياته مرتبة على المصحف الكريم

فاتحة الكتاب

١٥٣٠ ـ عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله تعالى عنه قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجِبْه ثم أتيتُه فقلتُ:

يا رسولَ الله إني كنتُ أُصَلِّي، فقال: «**ألَم يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**»، ثم قال: «**ألا أُعَلِّمُكَ سُورةً هِيَ أعظمُ السُّوَرِ في القُرآنِ قبلَ أن تَخرجَ مِن المسجِدِ؟**»، ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «**الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، هِيَ السَّبعُ المَثَانِي والقُرآنُ العظيم الذي أُوتِيتُهُ**».

[رواه أحمد (٤٥٠/٣، و٢١١/٤)، والبخاري في تفسير الفاتحة وفي الأنفال وفي الحجر (٣٧٧/٩، ٣٧٨)، وأبو داود (١٤٥٨)، والنسائي (١٣٩/٢)، ورواه في الكبرى (٢٨٣/٦)، وابن ماجه (٣٧٨٥)].

١٥٣١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: وقرأ عليه أُبَيُّ بن كعب أم القرآن فقال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما أُنْزِلَ فِي التَّوراةِ ولاَ في الإنجِيلِ ولا فِي الزَّبُورِ ولاَ فِي القُرآنِ مِثْلُها، وإنَّها السَّبعُ المَثَانِي والقُرآنُ العظيم الذي أُعْطِيتُ**».

[رواه أحمد (٣٥٧/٢، ٤١٢، ٤١٣، و١١٤/٥)، والنسائي في الصلاة (١٣٩/٢)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٦٨٤) بتهذيبي، وابن حبان (١٧١٤)، والحاكم (٥٥٧/١، ٥٥٨) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الترمذي، وصححه وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

وحديث أبي هريرة في الحديث القدسي: «**قسمت الصلاة..**» إلخ، تقدم في الصلاة.

وحديث ابن عباس: «**أبشر بنورين**» سيذكر عند خواتيم البقرة إن شاء الله تعالى.

ش: في الحديثين فضل الفاتحة وأنها أعظم سورة في القرآن، وأنها لا مثيل لها في سائر الكتب الإلهية، وحق لها ذلك، فإنها أصل القرآن وأمه، فقد أجمل فيها ما فصّل في سائر سور القرآن من مقاصده، وسميت السبع المثاني لأنها سبع آيات تثنى في سائر ركعات الصلاة.. وقد ذكرت ما احتوت عليه من الأصول والفروع والمقاصد في أول «دلائل التوحيد» ولله الحمد كثيراً.

سورة البقرة

١٥٣٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِن البَيتِ الذي يُقْرأُ فيهِ سورةُ البقرةِ»**.

[رواه أحمد (٢/٣٣٧، ٣٧٨)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٧٨٠)، والترمذي في فضائل القرآن رقم (٢٦٨٥)، وفي رواية الترمذي: «إنَّ البيتَ الذي تُقرأ البقرةُ فيه لا يدخُله شيطانٌ»].

ش: قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**»: يحتمل معنيين، أي لا تهجروا الصلاة فيها كالمقابر أو لا تدفنوا فيها موتاكم فتصيروها مقابر، وإن كان المعنى الأول أظهر.

وفي الحديث فضل سورة البقرة، ولعظمتها وما فيها من أسرار وقوة الأنوار الإلَهية يهرب الشيطان من البيت والمنزل الذي تقرأ فيه وليس هذا لغيرها.

البقرة وآل عمران

١٥٣٣ ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقولُ: **«اقْرأُوا القرآنَ فإنَّه يَأتي شَفيعاً يَومَ القِيامةِ لأصحابِه، اقرأُوا الزَّهرَاوَيْنِ البقرةَ وآلَ عِمرانَ، فإنَّهُما يَأْتِيانِ يومَ القِيامة كأنَّما غَمَامَتَان أو غَيَايَتَانِ أو فَرْقَانِ مِن طَيرٍ صَوَّافٍ تُحَاجَّانِ عَن صاحِبِهما، اقرأُوا البقرةَ، فإنَّ أخْذَهَا بَركةٌ، وتَركَها حَسْرَةٌ، ولا يَستطيعُها البَطَلَةُ»**.

[رواه أحمد (٥/٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٨٠٤)].

١٥٣٤ ـ وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يُؤْتَى يومَ القِيامةِ بالقُرآنِ وأهلِه الَّذِينَ كانُوا يَعملون به في الدنيا تَقْدُمُهم سورةُ البقرةِ وآلِ عِمران»**، وضَرب لهُما رسولُ الله ﷺ ثلاثَةَ أمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بعدُ، قال: **«كأنهما غَمَامَتان أو ظُلَّتان سَوْدَاوَانِ بينهما**

شَرْقٌ أو كأنهما حِزقان من طير صَوَّاف تُحَاجَّان عن صاحِبِهما».

[رواه أحمد (١٨٣/٤)، ومسلم (٨٠٥)، والترمذي (٢٦٩٢) كلاهما في فضائل القرآن].

ش: «**الزهراوان**»: تثنية زهراء. وقوله: «**غيايتان**» بفتحات: هي كل ما أظل الإنسان كالغمام وغيره. وقوله: «**فرقان**»: أي قطيعان من الطير وجاء في رواية: «**حزقان**» بالحاء المكسورة والزاي. وفي رواية: «**خرقان**» بالخاء المكسورة أيضاً والراء، وكلاهما قريب في المعنى وهي الجماعة أو القطعة من الشيء. وقوله: «**صواف**»: جمع صافة أي مثل طير باسطات أجنحتها. وقوله: «**شرق**» بفتح الشين وسكون الراء ثم قاف: أي نور وضياء. وقوله: «**البطلة**» بفتحات: هم السحرة.

وفي الحديثين فضل سورتي البقرة وآل عمران وأنهما يأتيان يوم القيامة يخاصمان عن قارئهما وحافظهما، ويظلانه مما يسوءه ويكونان فوقه كالغمام أو كقطيع من طير، وأنهما يأتيان مع القرآن أمام أهله العاملين به يوم القيامة، جعلنا الله تعالى من أشرف أهل القرآن القائمين بحقوقه الذين يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، والذين يتلونه حق تلاوته آناء الليل وآناء النهار، آمين.

وفي حديث أبي أمامة فضل البقرة على الخصوص، وأن لها خاصية وبركة لمن أخذها، وأن السحرة لا يستطيعونها ولذلك كانت علاجاً للسحر.

آية الكرسي

١٥٣٥ ـ عن أُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَبَا المُنذِرُ أَيُّ آيَةٍ مِن كتابِ الله أعْظَمُ؟**»، قُلت: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري ثم قال: «**لِيَهْنِكَ العِلمُ أَبَا المُنذِر**»، ثم قال: «**والَّذِي نَفْسِ محمد بِيَدِهِ، إنَّ لِهَذِهِ الآيَة لِساناً وشفتين تقدِّس المَلِك عند ساقِ العَرشِ**».

[رواه أحمد (١٤٢/٥)، ومسلم في الصلاة رقم (٨١٠)، وأبو داود رقم (١٤٦٠)].

ش: قوله: «ليهنك»: هو مضارع هنأ دخلت عليه لام الأمر والتهنئة ضد التعزية.

وفي الحديث فضل آية الكرسي وأنها أعظم آية في القرآن الكريم وما ذلك إلا لما احتوت عليه وجمعته من أصول الأسماء والصفات: الألوهية، والوحدانية، والحياة، والقيومية، والعلم، والملك، والقدرة، والإرادة، والعلو، والعظمة. وفيه فضل أُبيّ بن كعب وفهمه وتضلعه من العلم وحذقه. وفيه أن المعاني قد تجسم وتتكلم وتسبح الله تعالى كهذه الآية حيث أخبر الصادق ﷺ بأن لها لساناً وشفتين تسبح الله تعالى وتقدسه عند العرش. آمنا بالله وبكل ما جاء به رسوله ﷺ وإن كان فوق مستوى عقولنا.

وحديث قراءتها عند النوم سيأتي في أذكار النوم، وحديث قراءتها عقب كل صلاة تقدم في الصلاة.

أواخر سورة البقرة

١٥٣٦ ـ عن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقرةِ مَنْ قَرأَ بِهِمَا فِي لَيلَةٍ كَفَتَاهُ».

[رواه أحمد (١٥١/٥)، والبخاري في فضل سورة البقرة رقم (٥٠٠٩)، وفي المغازي (٤٠٠٨)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٧٠٧)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٦٩٠)، وباقي الجماعة، والدارمي (٣٣٩١)].

ش: قوله: «الآيتان»: هما: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلخ. وقوله: «كفتاه»: أي عن قيام الليل، أو عن قراءة القرآن مطلقاً في الصلاة وغيرها، أو كفتاه في الإيمان لما اشتملت عليه من ذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والابتهال إلى الله ودعائه، وقيل غير ذلك. قال الحافظ: ويجوز أن يراد جميع ما تقدم من المعاني.

١٥٣٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بَيْنَا رسولُ الله ﷺ عِندَه جبريلُ عليه السلام إذ سَمِع نَقِيضاً مِن فوقِه فرفعَ جبريلُ عليه السَّلام بَصَرَه إلى السَّماء فقال: **هذا بابٌ فُتِحَ مِنَ السَّماءِ ما فُتِحَ قَطُّ، فنزَل منه مَلَكٌ فأتَى النبيَّ ﷺ فقال: أبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الكِتابِ، وخَوَاتِيمِ سُورَةِ البقرةِ، لَن تَقرأَ حَرفاً مِنهما إلا أُعْطِيتَهُ.**

[رواه مسلم في فضائل القرآن رقم (٨٠٦)].

ش: قوله: **«نقيضاً»**: أي صوتاً.

وفي الحديث بيان أن الوحي قد يأتي به غير جبريل عليه السلام فهذا ملك خاص جاء من قبل الله ليبشر النبي ﷺ بما أوتيه من الفاتحة وخواتيم البقرة تأكيداً لفضلهما وزيادة لبيان عظمتهما وأنهما من خصائص هذا النبي ﷺ.

١٥٣٨ ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ اللَّهَ تبارك وتعالى كَتبَ كِتاباً قَبْلَ أن يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بألْفَيْ عام فأنزلَ مِنه آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورةَ البَقرة فلا تُقْرَأُ فِي دارٍ ثَلاثَ لَيالٍ فيقْرَبُها شَيْطانٌ».**

[رواه أحمد (٤/٢٧٤)، والدارمي (٣٣٩٠)، والترمذي (٢٦٩١)، وابن حبان (١٧٢٦)، والحاكم (١/٥٦٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: قوله: **«بألفي عام»**: هذا لا ينافي ويعارض ما في صحيح مسلم من حديث ابن عمرو: **«بخمسين ألف سنة»**، لجواز مغايرة الكتابين أو غير ذلك مما لا نعرفه فحسبنا في ذلك الإيمان والتسليم.

وفي الحديث زيادة فضل هاتين الآيتين حيث أنزلتا من كتاب كتب في وقت خاص، بل جاء في حديث آخر أنهما أنزلتا من كنز تحت العرش. وفيه بيان خاصية لهما وهي فرار الشيطان من المنزل الذي تقرآن فيه ثلاث ليال.

سورة الكهف

١٥٣٩ ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه يرويه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِن أَوَّلِ سُورةِ الكَهفِ عُصِمَ مِن فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**».

[رواه أحمد (١٩٦/٥)، ومسلم (٩٢/٦، ٩٣) والترمذي في فضائل القرآن (٢٦٩٤)، غير أنه قال: «ثلاثَ آياتٍ»، وهي رواية شاذة وفي رواية لأحمد (٤٤٦/٦): «مَن قرأ عشرَ آياتٍ مِن آخرِ الكَهفِ» إلخ].

ش: الحديث دال على فضل سورة الكهف، وأن من خاصية حفظها وقراءتها الحفظ من الدجال وفتنته لمن حفظ ولو عشر آيات من أولها أو قرأ العشر الأواخر منها.

١٥٤٠ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ فِي يومِ الجُمعة أضاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ**».

[رواه الحاكم (٣٦٨/٢)، ومن طريقه البيهقي (٢٤٩/٣) وسنده صحيح، ونعيم بن حماد حافظ وفيه ضعف، لكنه تابعه يزيد بن مخلد كما عند البيهقي].

ش: في الحديث فضل قراءة هذه السورة يوم الجمعة، وأن قارئها يعطى نوراً أسبوعاً كاملاً، بل جاء في رواية: «**من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يسلط عليه**» الحديث رواه الحاكم (٥٦٤/١)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

سورة يس

١٥٤١ ـ عن جندب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ يس في لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله عزَّ وجلَّ غُفِرَ لَهُ**».

[رواه ابن حبان في صحيحه (٢٥٧٤) وسنده صحيح وفيه عنعنة الحسن غير أن له شاهداً عن أبي هريرة رواه الدارمي (٣٤٢٠)، وأبو يعلى (٦١٩٦)، والطبراني في الصغير (٤١٧) وغيرهم وسنده صحيح أيضاً، وقد اختلف في سماع الحسن من أبي هريرة].

ش: هذا أمثل ما جاء في سورة يّس ولا يصح شيء فيها غيره، وفيه فضل قراءتها كل ليلة وأن ذلك من أسباب غفران الذنوب. وقد جربت قراءتها لتفريج الكرب وقضاء المآرب والتخفيف عن المحتضر.

سورة الملك

١٥٤٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ سُورَةً مِنَ القُرآنِ ثَلاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وهِي سورةُ تَبَارَكَ الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**».

[رواه أحمد (٢/٢٩٩، ٣٢١)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٦٩٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٦)، وابن ماجه (٣٧٨٦)، وابن حبان (١٧٦٦)، والحاكم (١/٥٩٥) وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: في الحديث فضل قراءة هذه السورة وأنها تشفع لصاحبها وقارئها ولذلك كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأها مع آلم تنزيل كما يأتي فيما يقرأ عند النوم.

الزلزلة

١٥٤٣ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: أتَى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: أقْرِئْنِي يا رسولَ الله، قال: «**اقْرأ ثَلاثاً مِن ذَوَاتِ «الَر»**» فقال: كبِرَتْ سِنِّي، واشْتَدَّ قَلْبِي، وغَلُظَ لِسَانِي، قال: «**فاقْرأ ثلاثاً من ذوات «حَمَ»**»، فقال مثلَ مقالته، قال: «**اقرأ ثلاثاً من المُسَبِّحَاتِ**»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله أقرئني سورةً جامعةً، فأقرأه رسولُ الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ حتى فرغَ منها، فقال الرجلُ: والذي بعثك بالحق لا أزيدُ عليها أبداً ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «**أفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ مرتين**».

[رواه أحمد (٢/١٦٩)، وأبو داود (١٣٩٤)، والحاكم (٣/٥٣٢) وصححه ووافقه الذهبي].

ش: «**الرويجل**»: تصغير رجل.

وفي الحديث فضل هذه السورة، وأنها من الجوامع الكافية فمن اقتصر على قراءتها وحفظها مع الفاتحة كفته وكان مفلحاً إذا لم يتيسر له حفظ ما زاد عليها، وقد ورد في شأنها حديثان آخران صحيحان ذكرتهما في التفسير، وفي الحديث أيضاً الإرشاد إلى قراءة ذوات «آلر» وهي ست.

«**والحواميم**»: وهي سبع. «**والمسبحات**»: وهي سبع أيضاً، وتأتي فيما يقرأ عند النوم. وفيه إشارة إلى فضل هذه السور بالخصوص على غيرها.

الإخلاص

١٥٤٤ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سَمِع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُها، فلما أصبح أتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجلُ يَتَقَالُّها فقال له رسولُ الله ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآنُ**».

[رواه أحمد (٣/٣٥، ٤٣)، والبخاري (١٠/٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٨١١، ٨١٢) كلاهما في فضائل القرآن].

١٥٤٥ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**أيَعْجِزُ أحَدُكُم أنْ يقرأَ في ليلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟**»، قالوا: وكَيْفَ يَقْرأُ ثُلُثَ القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **يَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**».

وفي رواية: «**إنَّ اللَّهَ جَزَّأَ القُرآنَ ثلاثَةَ أجزاء فجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ جُزْءاً من أجزاءِ القُرآنِ**».

[رواه أحمد (٦/٤٤٢)، ومسلم في فضائل القرآن (٨١١)].

ونحوه عن أبي سعيد عند أحمد (٣/٨)، والبخاري (٥٠١٥)، وعن أبي أيوب عند أحمد (٥/٤١٩)، وعن أبي مسعود عند أحمد أيضاً (٤/١٢٢).

وحديث عائشة في الرجل الذي كان يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في

كل ركعة تقدم في الصلاة، وأن النبي ﷺ قال: «**أخبروه أن الله يحبه**»..
ونحوه عن أنس أيضاً.

ش: قوله: «**يتقالها**»: أي يعتقد أنها قليلة العمل. وقوله: «**إن الله جزأ القرآن**..» إلخ: فالقرآن في جملته: أحكام، وأخبار، وتوحيد. فكانت سورة الإخلاص ثلث القرآن باعتبار أنها كلها توحيد، ثم إنها اشتملت على اسمين من أسماء الله تعالى يتضمنان جميع صفات الكمال لم يوجدا في غيرها من السور وهما الأحد والصمد، فإنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة بجميع أوصاف الكمال بالإضافة إلى ما فيها من إثبات القدم لله تعالى ونفي الزوجة والولد والكفؤ والمثيل له عزّ وجلّ.

المعوذتان

١٥٤٦ ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنزِلَتْ عَلَيَّ هذِهِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»..

[رواه أحمد (١٤٤/٤، ١٥١، ١٥٢)، ومسلم (٨١٤)، وأبو داود (١٤٦٢)، والترمذي (٢٧١١، ٣١٤٧) بتهذيبي، والنسائي في افتتاح الصلاة].

وجاء في رواية: «**ما سأل سائلٌ بمِثْلِهما، ولا استعاذَ مُستَعِيذٌ بمِثْلِهِمَا**».

[رواه النسائي رقم (٥٠٢٦) في المجتبى، وأبو داود في الصلاة (٤٥٨) بسند صحيح].

وجاء في رواية أخرى إضافة الإخلاص إليهما ثم قال: «**مَا تَعَوَّذَ بمِثْلِهِنَّ مُتَعَوِّذٌ**».

[رواه النسائي في «المجتبى» (٢٢٠/٨)، وفي الكبرى (٤٤١/٤) بسند صحيح].

ش: في الحديث برواياته فضل هاتين السورتين مع الإخلاص وأنه لم يرَ مثلهن في باب الاستعاذة وطلب التحصن بالله والاستجارة به، ولذلك

ينبغي للمسلم أن لا يترك قراءتهما ليلاً ونهاراً في الصباح والمساء وعند النوم وعقب كل صلاة مكتوبة وعند الاستعاذة والتحصن.

فضل حملة القرآن وتعلمه وتعليمه

١٥٤٧ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «**المَاهِرُ بِالْقُرآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرامِ البَررَة، والَّذي يَقرأُ القُرآن وهو يَتَعْتَعُ عليهِ لهُ أجرانِ**».

وفي رواية: «**وهو عَليهِ شَديدٌ**».

[رواه أحمد (٦/٩٨، ١٧٠، ٢٣٩)، والبخاري في سورة عبس (١٠/٣٢٠)، ومسلم في فضائل القرآن (٦/٨٤)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي في التفسير (٢٧١٣)].

ش: «**الماهر**»: هو الحاذق فيه الحافظ له عن ظهر قلب بإتقان. «**يتعتع**»: أي يتردد فيه ويشق عليه.

وفيه فضل عظيم لحافظ القرآن الكريم وأنه سيكون في أعلى عليين مع الملائكة.

١٥٤٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ أهْلِينَ مِن النَّاسِ**»، قيل: مَن هُم يا رسولَ الله؟ قال: «**أهْلُ القُرآنِ هُمْ أهلُ الله وخاصَّتُه**».

[رواه أحمد (٣/١٢٨، ٢٤٢)، والنسائي في الكبرى (٥/١٧)، وابن ماجه (٢١٥)، والحاكم (١/٥٥٦) بسند صحيح].

ش: قوله: «**أهلين**»: جمع أهل، أي مقربين مختصين برحمته ورضوانه. قال العلماء: هذا على سبيل المجاز والتوسع فإنهم لما كانوا مقربين عنده كانوا كأهله كما يقال للأولياء أهل الله. فحفظة القرآن الحافظون لحدوده أهل الله وخاصته من عباده.

١٥٤٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال:

«يَجِيءُ صَاحِبُ القُرآنِ يومَ القِيامةِ فيقول: يا رب حَلِّه فيُلْبَسُ تاجَ الكرامةَ، ثم يقول: يا رب زِدْهُ، فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامةِ، ثم يقول: يا رب ارْضَ عنه، فيقال: اقرأ وارْقَ ويزادُ بكل آية حسنةً».

[رواه الترمذي (٢٧١٩)، والحاكم (٥٥٢/١) مرفوعاً وموقوفاً وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم].

١٥٥٠ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «يُقالُ لِصاحِبِ القُرآنِ اقْرأ وارْقَ ورَتِّلْ كمَا كُنتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنيا فإنَّ مَنْزِلَتَك عِند آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا».

[رواه أحمد (١٩٢/٢)، وأبو داود ١٤٦٤)، والترمذي (٢٧٢٢)، وابن حبان (٨٦٦) بالإحسان، والحاكم (٥٥٢/١، ٥٥٣)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: قوله: «حله»: من التحلية أي ألبسه الحلية وزينه. وقوله: «ورتل»: الترتيل الترسل والتبيين وإعطاء الحروف والكلمات حقوقها في التلفظ بها.

وفي الحديثين فضل عظيم لحملة القرآن الكريم، وهذا لمن يعملون بتعاليمه حيث سيعطون من المنازل في الجنة على عدد آي القرآن الكريم ويحلون من تيجان الكرامة وملابسها فوق ما يوصف.

١٥٥١ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَ القُرْآنُ في إهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ».

[رواه أحمد (١٥٥/٤)، والدارمي (٣٣١٣) بسند صحيح، وابن لهيعة روى عنه هنا عبدالله بن يزيد أحد العبادلة الذين رووا عنه قبل احتراق كتبه].

ش: «والإهاب»: الجلد قبل أن يدبغ.

وفي الحديث بشارة لحَملة القرآن بحفظهم من النار إن شاء الله تعالى.

١٥٥٢ ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «خَيرُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ». قال أبو عبدالرحمن السُّلَمِي: ذلك الذي

أقعدني مَقْعَدِي هذا وكان يُعَلِّمُ مِن خلافة عثمان إلى إمْرَةِ الحجاج.

[رواه أحمد (٥٨/١، ٦٩)، والبخاري في فضائل القرآن (٤٥٠/١٠، ٤٥٤)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٧١٦)، والنسائي في الكبرى (١٩/٥)، وابن ماجه (٢١١)].

ش: قوله: «خيركم»: في رواية: «أفضلكم».

وفي الحديث أن من جمع بين تعلم القرآن وتعليمه سواء كان بالتَّلقين والتَّحفيظ، أم بالتفسير والتبيين كان خير الناس وأشرفهم وأفضلهم عند الله تعالى، وحق له ذلك لأنه جمع بين النفع القاصر والمتعدي مع اهتمامه بكتاب الله وكلامه العزيز وهو أيضاً من جملة الدعاة إلى الله عزّ وجلّ وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية؛ فليطب نفساً من أحرز على ذلك ووفقه الله ورزقه الإخلاص وليبشر ولتقر عينه بذلك، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه، آمين.

تعاهد القرآن وفضل تلاوته ونزول السكينة له

١٥٥٣ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعْقَلَةِ إنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أمْسَكَها، وإنْ أطْلَقَها ذَهَبَتْ**».

وفي رواية: «**وإذَا قَامَ صَاحِبُ القرآنِ فقرَأَهُ بالليلِ والنَّهارِ ذَكَرَهُ، وإنْ لم يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**».

[رواه أحمد (١١٢/٢)، والبخاري (٤٥٥/١٠)، ومسلم (٧٥/٦، ٧٦) وغيرهم، واللفظ لمسلم].

١٥٥٤ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَعَاهَدُوا هذا القرآنَ فَوَالَّذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أشَدُّ تَفَلُّتا مِن الإبِلِ في عُقُلِها**».

[رواه أحمد (٣٩٧/٤)، والبخاري (٤٥٩/١٠)، ومسلم (٧٨/٦) في فضائل القرآن].

وفي الباب عن ابن مسعود عند أحمد والشيخين وفي أوله: «**بِئْسَمَا لأحَدِهم أن يقول: نَسِيتُ آية كيت وكيت بل هو نُسِّي**».

ش: قوله: «**تعاهدوا**»: أي راعوا القرآن بالتكرار والتلاوة المرة بعد المرة، والتعاهد: المراجعة والمعاودة. وقوله: «**تفلتاً**»: أي أشد تفصياً وتخلصاً من الحافظة. وقوله: «**من عقلها**» بضم العين والقاف: جمع عقال، وهو الحبل الذي تربط به الإبل ونحوها والمعلقة المربوطة بالعقال.

وفي الحديثين الأمر من النبي ﷺ باستذكار القرآن الكريم وتكراره وتلاوته الآونة بعد الآونة، وأن من تلاه وتعاهده بقي في حافظته، ومن تغافل عنه أو أعرض عن قراءته كلية تفلت منه ونسيه، وأتى النبي ﷺ لذلك بمثل الإبل التي يربطها صاحبها في عقالها فإن كان يتعاهدها ويراجع أمرها بقيت معقولة، وإن غفل عنها وأهملها تخلصت وذهبت.

١٥٥٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أيُحِبُّ أحَدُكم إذا رجعَ إلى أهْلِهِ أن يَجِدَ ثلاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامِ سِمَانٍ؟**»، قلنا: نعم، قال: «**فثلاثُ آياتٍ يقرأ بِهِنَّ أحدُكم في صلاتِهِ خيرٌ لَهُ من ثلاثِ خَلِفَاتٍ عِظامِ سِمَانٍ**».

[رواه أحمد (٣٩٧/٢، ٤٦٦)، ومسلم في فضائل القرآن (٨٩/٦)].

١٥٥٦ ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّةِ فقال: «**أيُكم يُحِبُّ أن يَغْدُوَ كُلَّ يوم إلى بُطْحَانَ أو إلى العَقِيقِ فيأتي منه بناقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ في غيرِ إثْمٍ ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «**أفَلا يَغْدُو أحَدُكم إلى المَسْجِدِ فيَعلم أو يَقْرأ آيتين من كتاب الله عزّ وجلّ خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ لهُ من أربعٍ، ومِن أعْدادِهِنَّ من الإبِلِ**».

[رواه أحمد (١٥٤/٤)، ومسلم (٨٩/٦)، وأبو داود (١٤٥٦)].

ش: قوله: «**خلفات**» بفتح الخاء وكسر اللام: جمع خلفة وهي الناقة

الحامل. وقوله: «**بطحان أو العقيق**»: هما واديان من أودية المدينة المنورة، وبطحان بضم الباء وسكون الطاء. قوله: «**كوماوين**» تثنية كوماء وهي الناقة العظيمة السنام.

وفي الحديثين فضل تعلم القرآن وتلاوته ولو كان شيئاً قليلاً كثلاث آيات ونحوها مثلاً، فإن في ذلك خيراً كثيراً لا يعادله شيء من متاع الحياة التي يرغب فيه الناس، فقراءة آيتين أو ثلاث من كتاب الله عزّ وجلّ أفضل للمسلم من أن يكون له ناقتان عظيمتان أو حاملتان مثلاً، بل لا مناسبة بين الأمرين، وإنما هو مجرد مثال فقط.

١٥٥٧ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِن كِتابِ الله فلهُ بهِ حَسنةٌ، والحسنةُ بعَشْرِ أمْثالِها، لا أقولُ ألم حَرْفٌ، ولكِن ألِفٌ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، ومِيمٌ حَرْفٌ**».

[رواه الترمذي في التفسير (٢٧١٨)، والدارمي (٣٣١١) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: فيه فضل واسع وأجر كبير لمن يتلو القرآن الكريم حيث يجازى بكل حرف عشر حسنات، وانظر كم في القرآن الكريم من حرف.

ثم يجب أن يعلم أن تلاوة القرآن ولا سيما مع التدبر هي أفضل الأذكار وأشرفها وأعلاها على الإطلاق إلا في الأوقات والمناسبات التي جاءت فيها أذكار خاصة، أما ما عدا ذلك فينبغي للمؤمن المداومة على التلاوة، فإن أمكن له الختم في كل ثلاثة أيام كان الغاية القصوى وإلا ففي كل أسبوع، وعليه كان كثير من السلف.. ولا ينبغي أن يختم في أكثر من أربعين يوماً كما جاء ذلك مفصلاً في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، أما الإعراض عن التلاوة والتكاسل عنها فمن الإفلاس وعلامة الحرمان والشقاء.

١٥٥٨ ـ وعن أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله تعالى عنه: بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضاً. قال أسيد: فخشيت أن تطأ لحييه فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها

أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأ ابن حضير**»، قال: فقرأت ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأ ابن حضير**»، قال: فقرأت ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأ ابن حضير**». وفيه: «**تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم**».

[رواه أحمد (٣/٨١)، ومسلم (٦/٨٣)، وعلقه البخاري (١٠/٤٣٩) في فضائل القرآن].

١٥٥٩ ـ وعن البراء نحوه وفيه: «**تلك السكينة تنزلت للقرآن**».

[رواه أحمد (٤/٢٨١، ٢٨٤)، والبخاري في علامات النبوة، وفي مواضع، ومسلم (٦/٨١، ٨٢)].

ش: قوله: «**جالت**»: أي نفرت ووثبت. قوله: «**الظلة**»: أي السحابة. قوله: «**مربده**» بكسر الميم وفتح الباء: المراد به هنا موضعه الذي كان جالساً فيه.

وفي الحديثين بيان عظمة القرآن وفضل تلاوته، وأن الملائكة تحضر لقراءته والاستماع إليه ونزول السكينة معها، وفيهما دليل على إمكان رؤية الملائكة. وفي ذلك أحاديث أورد بعضها الحافظ السيوطي في «تنوير المَلَك في إمكان رؤية النبي والملك».

مثل المؤمن والمنافق في قراءة القرآن

١٥٦٠ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمِنِ الذي يَقرأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وطعْمُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المُؤمِنِ الذي لا يَقرأُ القُرآنَ، مَثَلُ التَّمْرة لا رِيحَ لها وطعْمُها حُلْوٌ، ومثلُ المُنافِقِ الذي يقرأُ القرآن مَثَلُ الرَّيْحَانة رِيحُها طَيِّبٌ**

وطعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المُنافِقِ الذي لا يقرأُ القرآن كَمَثَلِ الحَنظَلَةِ ليسَ لها رِيحٌ وطعمُها مُرٌّ».

[رواه البخاري (١٠/٤٤٢، ٤٤٣)، ومسلم (٦/٨٣، ٨٤)، وأبو داود (٤٨٣٠)، والترمذي في الأمثال (٢٦٧٥) وباقي الجماعة].

ش: قوله: **«الأترجة»** بضم الهمزة والراء وسكون التاء وفتح الجيم المشددة: شبيهة بالليمون لها ريح طيبة ومذاق حلو. قوله: **«الحنظلة»**: هي معروفة بمرارتها وخبث مذاقها وهي من نبات الصحراء.

وفي الحديث فضل المؤمن التالي للقرآن وغيره، وفيه ذم المنافق الفاجر وأنه لا ينتفع بالقرآن وإن تلاه، بخلاف المؤمن فهو بخير على كل الأحوال تلا أو لم يتل.

التنافس والغبطة في القرآن

١٥٦١ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ حَسَدَ إلا على اثْنَتَيْنِ: رجُلٌ آتاهُ اللَّهُ القُرآنَ فهُوَ يَقُومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ أتاهُ اللَّهُ مالاً فهو يُنفِقُ مِنهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ».**

[رواه أحمد (٢/٣٦، ٨٨، ١٥٢)، والبخاري (١٠/٤٤٩)، ومسلم (٦/٩٧) ونحوه عن ابن مسعود، وأبي هريرة كلاهما في الصحيح، ويأتي بعضها في القضاء إن شاء الله تعالى].

ش: قوله: **«آناء الليل»**: أي أوقاته. وقوله: **«لا حسد»**: الحسد تمني زوال النعمة عن المنعم عليه وهو حرام بالإجماع ويجب على من خطر له ذلك في باله أن يكرهه ويدفعه كما يكره ما وضع في طبعه من المنهيات. وأما الحسد المذكور في الحديث فالمراد به الغبطة، وأطلق عليه الحسد مجازاً، وهو أن يتمنى الإنسان مثل ما لغيره من غير أن يتمنى زواله عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة فإن كان في الطاعة كان محموداً ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، وإن كان في المعصية كان حراماً، وإن كان في الجائزات فهو مباح والأولى تركه.

وفي الحديث الحض على التنافس في حفظ القرآن وتلاوته والقيام به والعمل بمقتضاه، وفي ضمنه فضل حافظه والعامل به تلاوةً وسلوكاً.

فضل الاجتماع على تلاوة القرآن

١٥٦٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ عزَّ وجلَّ وَيَتَدَارَسُونَه بَيْنَهُم إلاَّ نَزَلَتْ عليهِم السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهُم الملائِكَةُ، وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِندَهُ**».

[رواه أحمد (٢/٢٥٢)، ومسلم في الذكر (١٧، ٢١، ٢٢) مطولاً، وأبو داود بهذه القطعة في ثواب قراءة القرآن من الصلاة (١٤٥٥)].

ش: قوله: «**يتدارسونه**»: معناه يتعلمون معانيه وأحكامه وحلاله وحرامه. قوله: «**السكينة**»: هي الطمأنينة والوقار. قوله: «**وغشيتهم**»: أي غطتهم. قوله: «**وحفتهم**»: هي من الحفاوة أي بالغت في العناية بهم وإكرامهم معنوياً، أو استداروا بهم وطافوا حولهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ إلخ.

وفي الحديث الشريف فضل عظيم وخير وفير للمجتمعين على تلاوة القرآن الكريم ودارسيه وحسبهم فخراً وفضلاً أن تغشاهم رحمة الله وذكره إياهم ونزول الملائكة لقراءتهم وحصول الطمأنينة لقلوبهم. وفيه دليل على مشروعية الاجتماع على تلاوة القرآن، وفضل ذلك، وبه قال جمهور العلماء كما ذكره النووي رحمه الله في «شرح مسلم».

وفيه فضل المجالس العلمية الشرعية، وخاصة تفسير القرآن الكريم، ولا شك أنه أشرف رياض الجنة الوارد في حديث: «**إذا مَرَرْتُم بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فارْتَعُوا**» وسيأتي.

* * *

من آداب التلاوة

تحسين الصوت بالقرآن

١٥٦٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بالقُرآنِ يَجْهَر بِهِ».

[رواه أحمد (٢/٢٧١، ٤٥٠)، والبخاري (١٠/٤٤٤، ٤٤٥)، ومسلم (٦/٧٨، ٧٩) كلاهما في فضائل القرآن، وأبو داود (١٤٧٣)، والنسائي كلاهما في الصلاة].

وفي رواية عنه: «لَيس مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرآنِ».

[رواه البخاري].

ومثله عن سعد بن أبي وقاص رواه أحمد (١/١٧٥)، وأبو داود (١٤٦٩)، والدارمي، وابن حبان (١/٣٢٧) بالإحسان، والحاكم (١/٥٦٩) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

١٥٦٤ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «زَيِّنوا القُرآن بأَصْوَاتِكُمْ».

[رواه أحمد (٤/٢٨٣، ٢٩٦، ٣٠٤)، وأبو داود (١٤٦٨)، والنسائي في المجتبى، وفي الكبرى (١/٣٤٨، و٥/٤١)، وابن ماجه (١٣٤٢) من طرق، وسنده صحيح وعلقه البخاري في التوحيد].

ش: قوله: «ما أذن»: أي ما استمع. قوله: «يتغنى»: أي يحسن صوته بالقرآن وهو معنى: «زينوا القرآن بأصواتكم». وقد اختلف العلماء في المراد بالتغني هنا على أقوال: فقيل: تحسين الصوت وهو الذي اختاره الشافعي وابن المبارك والنضر بن شُمَيْل وجمهور العلماء لظاهر الحديث الأول، ولحديث: «لَلَّهُ أشدُّ إذناً ـ أي استماعاً ـ للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»، رواه ابن حبان والحاكم.

ولرواية أبي هريرة عند أبي داود وغيره: «**حسن الترنم بالقرآن**». والترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه القارىء وطرب به. وقيل معناه: الاستغناء به، وقيل: التحزن، وقيل: التشاغل به، وقيل: التلذذ والاستحلاء كما يستلذ أهل الطرب بالغناء. والظاهر القول الأول، وانظر بسط ذلك في «الفتح» (١٠/٤٤٦، ٤٤٧).

١٥٦٥ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وأنا أَسْتَمِعُ لقراءَتِكَ البَارِحَة، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً من مَزَامِيرَ آلِ دَاوُدَ**».

[رواه أحمد (٥/٣٥٩)، والبخاري في فضائل القرآن (١٠/٤٧٠)، ومسلم كذلك (٦ ٨٠)، والترمذي في المناقب (٣٦٢٣)].

ش: قوله: «**مزماراً**»: أي صوتاً حسناً جميلاً لذيذاً كصوت الزمارة، وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**أما أني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً**» رواه أحمد وأبو يعلى والروياني. والتحبير: التزيين.

والحديث يدل على استحباب تحسين الصوت بالقراءة، وقد أجمع على ذلك العلماء كما ذكره النووي عن القاضي عياض رحمهما الله تعالى لكنه يجب على القارىء الحذر من الرياء والنفاق في القراءة وليخلص عمله لله عزّ وجلّ.

البكاء عند الاستماع للقراءة

١٥٦٦ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل، قال: «**نَعم، إنِّي أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، قال: «**حَسْبُكَ الآنَ**»، فالتفت إليه فإذا عيناه تَذْرِفانِ.

[رواه البخاري (١٠/٤٧١، ٤٧٥)، ومسلم (٦/٨٦، ٨٧) وغيرهما].

ش: وفي الحديث استحباب الاستماع إلى قراءة أهل الحذق والحفظ والفضل مع البكاء والعبرة، علماً بأن البكاء عند قراءة القرآن من صفات أهل الإيمان والصدق والخشوع، ويستوي في ذلك القارىء والمستمع، ومن لا يبكي عند قراءة القرآن فهو والحجارة سواء.

الجهر والإسرار بالقراءة

١٥٦٧ ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الجَاهِرُ بِالقُرْآنِ كَالجَاهِرِ بالصَّدَقةِ، والمُسِرُّ بالقُرآنِ كالمُسِرِّ بالصَّدقةِ**».

[رواه أحمد (١٥١/٤، ١٥٨)، وأبو داود (١٣٣٣)، والنسائي (٥٩/٥)، والترمذي في التفسير (٢٧٢٦) بسند صحيح].

ش: الجهر بالقرآن من أفضل الأعمال مع الإخلاص، وأفضل منه الإسرار، لأنه أقرب إلى الإخلاص والقبول وأبعد من الرياء والعجب الذين يخشى منهما في العلانية.

١٥٦٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنّ رجُلاً قام مِن الليل فقَرأَ فرفَعَ صَوْتَه بالقُرآنِ، فلمَّا أصْبَحَ قال رسول الله ﷺ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ فُلاناً كَأَيِّن مِن آيَةٍ أَذْكَرَنِيها اللَّيلَةَ كُنتُ قد أَسْقَطْتُهَا**»، وفي رواية: «**كُنتُ أُنسِيتُهَا**».

[رواه البخاري (٤٦٢/١٠)، ومسلم، وأبو داود ١٣٣١) وغيرهم].

ش: في الحديث مشروعية القراءة جهراً ولو في المسجد، وذلك لمن أمِن على نفسه من الرياء والسمعة.

وفي الحديث جواز النسيان على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وما في هذا الحديث من نسيانه للآية.. محمول على ما بعد التبليغ وأنه لا يدوم نسيانه لذلك وقد يراد بالنسيان رفع الحكم ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أما نسيان القرآن وغيره من الوحي فيما طريقُهُ البلاغ قبل التبليغ فهذا لا يكون أبداً.

١٥٦٩ ـ وعنها أيضاً، أنها سئلت كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ بالليل أكان يسرُّ بالقراءة أم يجهر؟ فقالت: كل ذلك قد كان يفعل، ربما أسرَّ بالقراءة وربما جهر، فقال السائل: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة.

[رواه أبو داود (١٤٣٧)، والترمذي (٢٧٣١)، ورواه مسلم في الطهارة (٣/٢١٦، ٢١٧) مختصراً].

ش: وفي الحديث جواز الجهر بتلاوة القرآن كالإسرار، وهي سنة النبي ﷺ الدائمة.

الائتلاف على القراءة والنهي عن التخليط

١٥٧٠ ـ عن جندب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقرأُوا القُرآنَ مَا ائتَلَفَتْ عليهِ قُلُوبُكُم، فإذَا اختَلَفْتُم فقُومُوا عَنْهُ»**.

[رواه أحمد (٤/٣١٣)، والبخاري (١٠/٤٧٨، و١٧/١١)، ومسلم في العلم (١٦/٢١٨، ٢١٩)].

ش: **«ائتلفت»**: أي اتفقت.

والحديث يدل على ذم الاختلاف في القرآن المؤدي إلى الشر بإثارة تأويل أو ذكر شبهة تؤدي إلى المنازعة والافتراق والاختلاف في الحروف وكيفية الأداء... فإذا وقع ذلك وجب الكف عن القراءة، وتعين القيام والانصراف.

١٥٧١ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسَمِعَهُم يَجْهَرُونَ بالقِراءةَ فكَشَفَ السِّتْرَ وقال: **«ألا إنَّ كُلَّكُم يُنَاجِي رَبَّهُ فَلا يُؤْذِيَنَّ بَعضُكُم بَعْضاً، ولا يَرْفَعْ بَعْضُكُم على بعضٍ في القراءةِ، أو قال: في الصَّلاةِ»**.

[رواه أحمد (٣/٩٣)، وأبو داود (١٣٣٢) بسند صحيح].

ش: في الحديث النهي عن الجهر بالقراءة والتخليط على الغير فمن سمع غيره يجهر بالقراءة سواء كان في الصلاة أم خارجها، فلا يجوز له هو الآخر الجهر عليه، لأن ذلك من إذاية المسلم وهو حرام بالإجماع، وقد جهل هذا الأدب كثير من الناس.

ذم السؤال بالقرآن والأكل به

١٥٧٢ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي، فقال: «**اقْرَأُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ وسَيَجِيءُ أقوامٌ يُقِيمُونَه كما يُقامُ القِدَحُ يَتَعَجَّلُونَه ولا يَتَأَجَّلُونَهُ**».

[رواه أحمد (٣/٣٥٧، ٣٩٧)، وأبو داود (٨٣٠) وسنده صحيح على شرط مسلم].

١٥٧٣ ـ وعن عبدالرحمن بن شبل رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَأُوا القُرآنَ ولا تَغْلُوا فِيهِ، ولا تَجْفُوا عنه، ولا تَأْكُلُوا به، ولا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ**».

[رواه أحمد (٣/٤٢٨، ٤٤٤)، والطبراني في الأوسط (٢٥٩٥) وسنده صحيح].

ش: «**الأعرابي**»: هو ساكن البادية. «**والعجمي**»: هو كل من تكلم بغير العربية ولو كان عربياً. «**القِدَح**» بكسر القاف وفتح الدال: هو السهم قبل أن يعمل له الريش والنصل. «**يتعجلونه**»: أي يطلبون أجره في الدنيا. «**ولا يتأجلونه**»: أي لا يؤخرون أجره للآخرة. «**ولا تغلوا**»: أي لا تتجاوزوا فيه الحد. «**ولا تجفوا**»: أي لا تتباعدوا عنه وتهجروا تلاوته. «**ولا تستكثروا**»: أي لا تطلبوا به كثرة المال ومتاع الحياة.

وفي الحديثين فوائد وأحكام:

منها: الحض على قراءة القرآن الكريم.

ومنها: صحة قراءة الأمي والأعجمي، وأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا ما في طاقتها، وأنه تعالى يتجاوز عما يصدر ممن لا يجيد التلاوة بالترتيل، وأنه كيفما قرأ فقراءته حسنة بنص الحديث النبوي.

ومنها: ذم إقامة حروف القرآن وتجويده وإتقان تلاوته، ويكون المقصود من ذلك العاجلة من عرض الدنيا والرفعة بها، ولا يراد بها الآجلة وما عند الله في الآخرة كما هو شأن أكثر مشاهير القراء اليوم، فالقرآن سيكون وبالاً عليهم، وفي الحديث الصحيح: **«أكثر منافقي أمتي قُرَّاؤُها»** والمراد بالنفاق هنا الرياء. وانظر ما سبق في العلم.

ومنها: ذم مجاوزة الحد في قراءة القرآن من التدقيق البالغ في التجويد والتمطيط مما يخرج عن مقصود التلاوة.

ومنها: ذم إهمال القرآن والانقطاع عن تلاوته، والنظر في معانيه، فإن ذلك يعتبر جفاء له وهو من موجبات العقاب عياذاً بالله تعالى.

ومنها: ذم الاستئكال به واستكثار المتاع بقراءته كما هي عادة كثير من المتسولين بقراءته. وقد جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أنه مر على قارىء يقرأ ثم يسأل فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قرأ القرآن فليسأل الله عزّ وجلّ به فإنه سيجيء أقوام يقرأون القرآن يسألون به الناس»** رواه أحمد (٤/٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٥)، والترمذي (٢٧٢٤)، وحسنه ـ يعني لشواهده ـ. وأخذ الإمام أحمد وغيره بهذه الأحاديث في المنع من أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وأجاز ذلك الجمهور عملاً بحديث: **«إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»** وسيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

تحزيب القرآن وفي مقدار كم يختم

١٥٧٤ ـ عن شداد بن الهاد رحمه الله تعالى قال: سألني نافع بن مطعم فقال لي: في كم تقرأ القرآن؟ فقلت: ما أُحَزِّبُه، فقال لي نافع: لا تقل: ما أحزبه، وفي نسخة: ما أُجَزِّئُه، فإن رسول الله ﷺ قال: **«قرأتُ جزءاً مِن القُرآن»**، قال: حسبت أنه ذكره عن المغيرة بن شعبة.

[رواه أبو داود في تحزيب القرآن من كتاب الصلاة (١٣٩٢) وسنده صحيح].

١٥٧٥ ـ وعن عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألم**

أخبر أنَّك تصومُ الدَّهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟»، قلت: بلى يا نبي الله ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: **«فصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ وكانَ أعبد البَشَر، واقرأ القُرآنَ في كلِّ شَهرٍ»**، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: **«فاقْرَأْهُ في كلِّ عِشرينَ»**، قال: قلت: يا نبي الله إني أُطيق أفضل من ذلك، قال: **«فاقْرَأْهُ فِي كلِّ عشرٍ»**، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: **«فاقْرَأْهُ في كلِّ سبعٍ، لا تَزِدْ على ذلك»**.

وفي رواية بعد عشرين: **«اختمه في خمسة عشر... اختمه في خمس»**.

وفي رواية بعد سبع: **«اقرأه في ثلاث فإنه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»**. وفي أخرى ذكر في الأول أربعين.

[رواه البخاري ومسلم باللفظ الأول، ورواه الترمذي (٢٧٥٢) بالرواية الثانية، وأبو داود بالثالثة، وهو والترمذي بالرابعة، وتقدم عزوه في الصيام].

ش: **«الحزب»**: كان يطلق عند السلف على ما يجعله الإنسان على نفسه من قراءة وصلاة.

وفي الحديثين مشروعية تحزيب القرآن، وقراءة كل ليلة أو يوم حصة خاصة منه، وقد أرشد النبي ﷺ عبدالله بن عمرو إلى تحزيب القرآن وجعل له فيه أعلا وأدنى وبين ذلك، فأعلاه ثلاثة أحزاب فيختم في ثلاث، وأدناه أربعون أو ثلاثون، وهو منهج الضعاف، وما بين ذلك من العشرين إلى الخمسة وسط، وأكثر السلف كانوا يختمون القرآن كل أسبوع وهو حسن جداً لمن وفق له، وقد جاء في تحزيب الصحابة للقرآن حديث عن أوس بن حذيفة قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل.

[رواه أحمد (٣٤٣/٤)، وأبو داود في قيام رمضان (١٣٨٨)، وابن ماجه في قيام الليل رقم (١٣٤٥)].

ومعنى هذه الأعداد سور القرآن، فالحزب الأول يشمل البقرة، وآل عمران، والنساء وهكذا إلى آخر الحزب السابع وهو حزب المفصل وذلك ابتداء من سورة قَ إلى آخر القرآن الكريم.

فعليك أيها المسلم بتلاوة القرآن الكريم، واجعل لنفسك أحزاباً منه تقرأها في حياتك اليومية ولا تكن من الكسالى الغافلين المحرومين، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾، فجعل تعالى تلاوة القرآن الكريم والمحافظة على الصلاة وأداء الزكاة التجارة الرابحة التي لا خسارة فيها ولا كساد، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأمته تابعة له في ذلك. وقال لنسائه أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله تعالى عنهن: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وصلى اللَّه وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

فضل الذكر إجمالاً

١٥٧٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنَا معَهُ إذَا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذكرتُهُ في نفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في ملأٍ ذَكَرْتُه في ملإٍ خيرٍ مِنهُم، وإن تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تقرَّبْتُ إليهِ ذِراعاً، وإن تَقرَّب إليَّ ذِراعاً تقرَّبْتُ إليه بَاعاً، وإنْ أتَانِي يَمْشِي أتيتُه هَرْوَلَةً».

[رواه أحمد ٢/٢٥١، ٤١٣، ٥١٦، ٥٣٥)، والبخاري في التوحيد رقم (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر ٢/١٧، ٣)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٧٧٣٠)، وابن ماجه (٣٨٢٢) وغيرهم].

ش: هذا من أحاديث الصفات والذراع، والباع، والهرولة ظاهرها الموهم للجارحة غير مراد في جانب الله عزّ وجلّ هنا اتفاقاً.

وقالوا في معناها: من تقرب إليَّ بطاعته تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي صببت عليه

الرحمة وسبقته بها ولم أُخوِجْهُ إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود. والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه، وقوله: **«أنا عند ظن عبدي بي»**: أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به بحيث يظن به الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والمجازاة عند فعل العبادة تمسكاً بصادق وعده، ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقناً بأن الله تعالى يقبله ويغفر له لأنه وعد بذلك، وهو لا يخلف الميعاد. فإن ظن أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله تعالى وهو من كبائر الذنوب.

وفي الحديث ترجيح جانب الرجاء على جانب الخوف، وانظر الفتح (١٥٦/١٧، ١٥٧)، والنووي على مسلم (٣/١٧). وقوله: **«وأنا معه إذا ذكرني»**: أي أنا معه معية خاصة بأن نوفقه ونحفظه ونعينه إذا ذكرني بلسانه أو به مع قلبه أو ذكرني عند أمري ونهيي والمختار الأول لحديث: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»** رواه أحمد (٥٤٠/٢)، وذكره البخاري في التوحيد معلقاً مجزوماً به، ورواه أيضاً ابن ماجه (٣٧٩٢)، والحاكم (٤٩٦/١) وغيرهما عن أبي هريرة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وفي الباب عن ابن عباس، ومعاذ بن أنس، وأنس بن مالك، وكلها صحيحة.

هذا وذكر الله عزّ وجلّ من القربات العظيمة، ولذلك شرعه الله تعالى بإطلاق ولم يجعل له وقتاً خاصاً كما فعل في سائر العبادات كما يعرف من الآيات الكثيرة الواردة في فضله والترغيب فيه والحض عليه كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾... إلى غير ذلك مما جاء في فضل الذكر وعظيم ثوابه، مما سيذكر في الأحاديث مفصلاً.

١٥٧٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملائِكَةً يطُوفُونَ في الطُرق يلتمِسونَ أهلَ الذِكرِ فإذا وَجَدُوا قَوْماً يَذكرُون الله تعالى تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتكُم، قال: فَيَحُفُّونهُمْ بأجنحتهم إلى السَّماء الدُّنيا، قال: فيسألُهم ربُّهم وهو أعلمُ مِنهم ما يقول عبادِي؟ قال: تقول: يُسبِّحُونَك ويُكبِّرُونَك ويحمَدُونك ويمجُدونَك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رَأوْني؟ قال: يقولون: لو رأوكَ كانوا أشد لك عبادةً وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثرَ لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونَك الجنَّةَ، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنَّهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فمِمَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: مِن النَّارِ، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافةً، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم. وفي رواية: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطَّاء إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

[رواه أحمد (٢/٢٥١، ٣٥٨، ٣٨٢)، والبخاري في الدعوات (١٣/٤٦٧)، ومسلم في الذكر (١٧/١٤، ١٥)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٠)، وابن حبان (٨٥٦، ٨٥٧) وغيرهم].

ش: قوله: «يطوفون»: في رواية: «سيارة فضلا» بضم الفاء والضاد وتُسكَّن: أي زائدون على الكتبة الحفظة. وقوله: «فيحفونهم»: أي يستديرون بهم. وقوله: «لا يشقى بهم جليسهم»: أي من جلس معهم لا يكون شقياً.

وفي الحديث فضل عظيم لمجالس الذكر، وجليس الذاكرين. ومجالس الذكر تشمل قراءة القرآن تلاوةً وتفسيراً وأنواع الذكر من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وصلاة على النبي ﷺ، ومجالس العلوم الدينية بجميع أنواعها جعلنا الله عزّ وجلّ من صالحي أهلها، آمين.

وذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن ذكر الله ضربان: قلبي ولساني، والقلبي نوعان: **أحدهما**: وهو أرفع الأذكار وأجلها الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه. **والثاني**: ذكره بالقلب عند الأمر بالامتثال وعند النهي بالانتهاء، وأضعف الأذكار ما كان باللسان المجرد ومع ذلك فله فضل عظيم لا يُستهان به، وانظر «إكمال المعلم» للقاضي عياض (١٨٩/٨).

١٥٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يَقْعُدُ قومٌ يَذكُرونَ الله عزَّ وجلَّ إلا حفَّتْهُم المَلائِكة، وغَشِيَتْهُم الرَّحمَة، ونَزَلَتْ عليهُمُ السَّكِينةُ وذكَرَهُم الله فِيمَن عِندَهُ**».

[رواه أحمد (٩٢/٣)، ومسلم في الذكر (٢٢/١٧)].

ش: «**السكينة**»: هي الطمأنينة. وفيه فضل الاجتماع على ذكر الله عزّ وجلّ ولو لم يكن فيه من الفضل إلا ذكره تعالى لهم لملائكته وثنائه عليهم عندهم لكفى وقد جاء في حديث آخر: «**أن الله عزّ وجلّ يباهي بكم الملائكة**». رواه مسلم (٢٢/١٧)، والحديث يشمل الذاكرين ذكراً جماعياً وأفراداً.

١٥٧٩ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُون الله عزَّ وجلَّ لا يُرِيدُونَ بِذلكَ إلاَّ وَجْهَهُ إلاَّ نَادَاهُم مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أنْ قُومُوا مَغْفُوراً لكُم فقدْ بُدِّلَتْ سيِّئَاتُكُم حسَناتٍ**».

[رواه أحمد (١٤٢/٣)، وأبو يعلى (٤١٤١)، والطبراني في الأوسط (١٥٧٩)، والبزار (٣٠٦١). والحديث حسن لشاهدين له عن سهل بن الحنظلية وعبدالله بن مغفل].

ش: فيه أن الاجتماع على ذكر الله تعالى من أسباب غفران الذنوب وتبديلها حسنات.

١٥٨٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له جُمْدَانُ، فقال: «**سِيرُوا هذا جُمْدَانُ سبق المُفْرِدون**»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُون الله كَثِيراً، والذَّكِرَاتِ**».

[رواه أحمد (٢/٤١١)، ومسلم (١٧/٤)، وابن حبان (٨٥٨)].

وفي رواية قالوا: يا رسول الله ومن المفردون؟ قال: «**الَّذِينَ يهترون في ذكرِ الله عزَّ وجلَّ**».

[رواه أحمد (٢/٣٢٣)، والحاكم (١/٤٩٥)، والبيهقي في الشعب ١/٣١٤) وإسناده صحيح على شرط مسلم].

ش: «**المفردون**» بضم الميم وفتح الفاء وكسر الراء المشددة، وروي بسكون الفاء وكسر الراء المخففة، وقد فَسَّرَهُم النبي ﷺ بما ذكر، وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم فبقوا يذكرون الله تعالى. وقال ابن الأعرابي: يقال: فرد الرجل إذا تفقه واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهي. وقوله: «**الذين يهترون**»: أي يلهجون بذكر الله تعالى.

وفي الحديث أن هؤلاء هم السابقون فلا أحد يلحقهم إلا من عمل عملهم.

١٥٨١ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لا يَذكُرُ ربَّهُ مَثَلُ الحَيِّ والميِّتِ**».

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٤٦٥، ٤٦٦)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٧٧٩)].

ش: في الحديث بيان الفرق الشاسع بين الذاكرين والغافلين، وأن ما بينهما من الفرق كما بين الحي والميت.

١٥٨٢ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«ألاَ أُنَبِّئُكُم بِخَيرِ أعْمَالِكُم وأزْكَاهَا عندَ مَلِيكِكُم، وأرْفَعِها في درجَاتِكم، وخَيرٍ لكُم مِن إنْفَاقِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، وخيرٍ لكم مِنْ أنْ تَلْقَوْا أعداءَكُم عَدُوَّكُم فتَضرِبُوا أعْنَاقَهُم ويَضرِبُوا أعْنَاقَكُم؟»**، قالوا: بلى، قال: **«ذِكْرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»**.

[رواه أحمد (٥/١٩٥، ٦/٤٤٧)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، والحاكم (١/٤٩٦) وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: **«الورق»** بكسر الراء: الفضة.

والحديث يدل على أن ذكر الله تعالى خير الأعمال وأزكاها عند الله وأرفعها درجة لأصحابه، وأنه خير من إنفاق الذهب والفضة، بل وحتى من الجهاد في سبيل الله، وهذا تفوق كبير اختص به ذكر الله تعالى. وهذا الفضل العظيم لذكر الله تعالى لا بد أن يكون للذكر الكامل، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب مع استحضار عظمة الله تعالى والخشوع.

١٥٨٣ ـ وعن عبدالله بن بُسْر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثُرَت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: **«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِن ذكرِ الله»**.

[رواه أحمد (٤/١٨٨، ١٩٠)، والترمذي (٣٣٢٩، ٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٤) والحاكم (١/٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٥)، والبيهقي (٣/٣٧١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: في الحديث الحض على ذكر الله تعالى وملازمته في كل الحالات والأوقات وأن ذلك أفضل ما يتمسك به المسلم من شرائع الإسلام.

١٥٨٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا مَرَرْتُم بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فارْتَعُوا»**، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **«حِلَقُ الذِّكْرِ»**.

[رواه أحمد ٣/١٥٠)، والترمذي (٣٥١٠)، وأبو يعلى (٣٤٣٢)، والبيهقي في

الشعب (٣٢٢/١) وللحديث شواهد تصححه، ولذا حسنه الترمذي والمنذري وصححه الحاكم والمناوي وغيرهم].

ش: «رياض»: جمع روضة وهي الأرض المخضرة بأنواع النبات. وقوله: «فارتعوا»: أي كلوا واشربوا. وقد فسر الرياض في حديث آخر لأبي هريرة بالمساجد، والرتع بذكر الله عزّ وجلّ، لأنه قوت الروح وغذاؤها وفسر هنا بحلق الذكر لأنها غالباً ما تكون في المساجد، والله أعلم.

وفي الحديث فضل ذكر الله تعالى وفضل حلقه والجلوس فيها والرتع منها مع أهلها.

ذم المجالس التي لا يذكر الله عزّ وجلّ فيها

١٥٨٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قومٌ مَجْلِساً لم يَذْكُرُوا اللَّهَ فيهِ ولم يُصَلُّوا فيهِ على النبي ﷺ إلاَّ كانَ عليهم تِرةً يومَ القيامةِ إن شاءَ عَفَا عنهم، وإن شاءَ أَخَذَهم بها». وفي رواية: «وإنْ دَخَلُوا الجنَّةَ للثَّوَابِ». وفي أخرى: «إلاَّ قامُوا على مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ وكان عليهِم حَسْرَةً».

[رواه أحمد (٤٤٦/٢، ٤٥٣، ٤٨١، ٤٩٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٥٦، ٥٠٥٩)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٧)، والحاكم (٤٩٦/١، ٥٥٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٠٤)، والبيهقي في الكبرى (٢١٠/٣) وسنده صحيح وصالح مولى التوأمة سمع منه ابن أبي ذئب قبل الاختلاط كما في رواية لأحمد (٤٥٣/٢)، والحاكم (٤٩٢/١) أعني جاء من روايته عندهما].

ش: قوله: «ترة»: على وزن عدة، وأصلها النقص ومعناها هنا التبعة.

وفي الحديث ذم مجالس الغافلين عن ذكر الله عزّ وجلّ وأن مجالسهم قذرة منتنة بكثرة القيل والقال، وأنها ستكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة كما جاء في حديث آخر لمعاذ مرفوعاً: «لَيسَ يَتَحَسَّرُ أهلُ الجنَّةِ إلا على ساعةٍ مَرَّتْ بِهِم لم يَذكُروا اللَّهَ تعالى فيها» رواه الطبراني في الكبير

(٩٣/٢٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٢، ٥١٣) وهو حديث صـ ـيقين له. جعلنا الله تعالى ممن يعمرون أوقاتهم بذكره والصلاة على حبيبه ﷺ، آمين.

* * *

فضائل لأذكار مخصوصة

أسماء الله تعالى وبيان اسمه الأعظم

١٥٨٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجنَّةَ، وهو وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»**.

[رواه أحمد (٢٥٨/٢، ٤٩٩)، والبخاري في الدعوات (٤٧١/١٣، ٤٧٦)، وفي الشروط، وفي التوحيد (١٤٨/١٧)، ومسلم في الذكر (٥/١٧، ٦)، والترمذي في الدعوات (٣٥٠٦، ٣٥٠٨)، وابن ماجه (٣٨٦٠)، وابن حبان (٨٠٧)، والحاكم (٧/١) وغيرهم].

ش: قوله: **«من أحصاها»**: أي حفظها، قاله البخاري وغيره، وقيل معناه: أطاقها أي أطاق القيام بحقها والعمل بمقتضاها فإذا قال مثلاً الرزاق وثق بالرزق، وإذا قال الضار النافع علِمَ أن كلاً من الخير والشر منه وهكذا قاله البغوي وغيره.

وفي الحديث فضل إحصاء هذه الأسماء، وأن ذلك من موجبات الجنة ويا له من عمل لمن أطاقه، والتنصيص على هذه الأسماء لخاصية لها وليس معناه أنه ليس له أسماء أخر، فإن له تعالى أسماء كثيرة لا حصر ولا عد لها وقد جاء بذلك حديث سيأتي في غضون الأدعية.

١٥٨٧ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: **اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلَه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد.** قال: فقال:

«والَّذِي نفسي بيدِه لقد سألَ الله باسْمِه الأعظَمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى».

[رواه أحمد (٥/٣٥٠، ٣٦٠)، وأبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩١، ٨٩٢)، والحاكم (١/٥٠٤) من طرق صحيحة، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي وله شاهد عن محجن بن الأدرع رواه أحمد (٤/٣٣٨)، وأبو داود (٩٨٥) وسنده صحيح].

١٥٨٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالساً في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع سجد وتشهد دعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلَه إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، اللهم إني أسألك، فقال النبي ﷺ: «أتَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لقد دَعَا باسْمِهِ العظِيمِ الذِي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى».

[رواه أحمد (٣/١٢٠، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٢)، وفي المجتبى، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/٥٠٣، ٥٠٤) من طرق بعضها صحيحة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٥٨٩ ـ وعن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾.

[رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي ٣٢٤٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٣٨٥٥) وحسنه الترمذي وصححه، يعني لشاهد له عن أبي أمامة رواه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (١/٥٠٥) بسند حسن فهو به صحيح، رواه أحمد عن أسماء أيضاً (٦/٤٦١) لكن ذكر آية الكرسي بدل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾].

ش: في هذه الأحاديث الثلاثة بيان اسم الله الأعظم الذي لا يخيب

من دعا الله به أو سأله. وقد اختلف العلماء في تعيينه، والجمهور على أنه اللَّهُ الذي هو جامع لجميع أسماء الله وصفاته، لأنه علم على الذات المقدسة وعليه مدار أسمائه تعالى وصفاته.

فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة

١٥٩٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قالَ: سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ فِي يومٍ مِائَةَ مرَّة حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البحرِ».

[رواه أحمد (٣٠٢/٢، ٥١٥)، والبخاري في الدعوات (٦٤٠٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٩١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٦)، وابن ماجه (٣٨١٢)، وابن حبان (٨٢٩)].

١٥٩١ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ عَلى اللِّسانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمٰنِ، سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيمِ».

[رواه أحمد (٢٣٢/٢)، والبخاري في الدعوات (٤٦٤/١٣)، وآخر الكتاب، ومسلم في الذكر (٢٦٩٤)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧)، والنسائي في اليوم والليلة (٨٣٠)، وابن ماجه (٣٨٠٦)، وابن حبان (٨٣١، ٨٤١)].

١٥٩٢ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ سئل أيُّ الكلام أفضل قال: «مَا اصْطَفَى الله لِملائِكَتِهِ أو لِعِبادِهِ سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ».

[رواه مسلم في الذكر (٢٧٣١)].

١٥٩٣ ـ وعن سعد بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ قال: «أيَعْجزُ أحَدُكُم أن يَكْسِبَ في كلِّ يوم ألفَ حَسنة؟»، قالوا: وكيف يكسب أحدنا يا رسول الله ألف حسنة؟ قال: «يُسبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحة فيُكتبُ له بِها ألفَ حسنة، ويحَطُّ عنهُ بها ألف خطيئة».

[رواه الحميدي (٨٠)، وأحمد (١٧٤/١، ١٨٠، ١٨٥)، ومسلم في الذكر

(٢٦٩٨)، والترمذي (٣٤٦٣)، والنسائي في الكبرى (٤٥/٦)، وابن حبان (٨٢٥)].

١٥٩٤ ـ وعن جويرية بنت الحارث رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها فخرج وهي في المسجد فرجع بعدما تعالى النهار فقال: «مَا زِلْتِ في مَجْلِسِكِ هذا مُنْذُ خَرجتُ بَعدُ؟»، قالت: نعم، فقال: «لَقَدْ قُلتُ بَعدَكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مَرَّاتٍ لو وُزِنَّ بِكلماتِك لوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلقِه، ورِضَا نَفْسِه، وزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

[رواه أحمد (٣٥٨/١، ٣٢٦، ٣٥٣)، ومسلم في الذكر (٢٧٢٦)، وأبو داود (٥٠٣)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٥)، والنسائي في الكبرى (١١٨٤)، وفي السهو من المجتبى وفي اليوم والليلة (١٦٤، ١٦٥)، وابن ماجه (٣٨٠٨)، وابن خزيمة (٧٥٣)، وابن حبان (٨٢٨، ٨٣٢)].

١٥٩٥ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أفضلَ الدُّعَاءِ: الحمدُ لله، وأفضَلَ الذِّكرِ: لا إلَهَ إلاَّ الله».

[رواه الترمذي (٣٣٨٠)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان (٣٣٢٦) بالموارد، والحاكم (٥٠٣/١) وصححه ووافقه الذهبي].

١٥٩٦ ـ وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربعٌ: لا إلَه إلاَّ الله، والله أكبرُ، وسُبْحَانَ الله والحمدُ لله، لا يَضُرُّكَ بأيِّهِنَّ بدأتَ».

[رواه أحمد (١٠/٥، ٢١)، ومسلم في الأدب (٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٢١١/٦)].

١٥٩٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنْ أقُولَ سُبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلَه إلاَّ الله والله أكبَرُ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليهِ الشَّمس».

[رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٥)، والترمذي (٣٥٩٧)، والنسائي في الكبرى (٢٠٩/٦)، وابن حبان (٨٣٤)].

١٥٩٨ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: جاء

أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علّمني كلاماً أقوله، قال: «**قُلْ: لا إلَه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ له الله أكبر كَبِيراً والحَمدُ لله كثيراً وسُبْحَانَ الله ربِّ العالمينَ لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلاَّ بالله العزيزِ الحكيم**». قال: هؤلاء لربي فما لي؟ قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي وارْحَمْنِي وعافِنِي وَارْزُقْنِي**».

[رواه أحمد (١/١٨٠، ١٨٥)، ومسلم في الذكر (٢٦٩٦)، وابن حبان (٩٤٦)].

١٥٩٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قالَ: لا إلَه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قدِيرٌ فِي يوم مائةَ مرَّة كانَتْ له عِدْلَ عَشْر رِقاب، وكُتِبَتْ له مِائَةُ حسنةٌ، ومُحِيَتْ عنهُ مِائَةُ سيِّئة، وكَانَتْ له حِرْزاً مِنَ الشَّيطَانِ يومَهُ ذلِكَ حتَّى يُمسِي، ولم يأتِ أحدٌ أفضَل مِمَّا جاءَ به إلا أحدٌ عَمِلَ بأكثرَ من ذلك**». وفي رواية زيادة: «**يُحْيِي ويُمِيتُ..**».

[رواه أحمد (٢/٣٠٢، ٣٦٠، ٣٧٥)، والبخاري في الدعوات (٦٢٩٣)، وفي بدء الخلق، ومسلم في الذكر (٢٦٩١)، والترمذي (٣٤٦٨)، وابن ماجه (٣٧٩٨)، وابن حبان (٨٤٩)].

١٦٠٠ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمعني النبي ﷺ وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: «**يا عبدالله بن قيس**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**ألا أدُلُّكَ على كلِمةٍ مِن كُنوزِ الجنَّةِ؟**»، قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: «**لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله**».

[رواه أحمد (٤/٤٠٢)، والبخاري في الدعوات (٦٣٨٤)، وفي المغازي وفي القدر (٦٦١٠)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٨)، والترمذي (٣٤٦١)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٩٩)، وفي الباب عن أبي ذر وأبي أيوب ومعاذ بن جبل وغيرهم].

ش: «**التسبيح**»: هو التنزيه، فمعنى سبحان الله أي أنزه الله تعالى عما لا يليق به من النقائص والشرك معه. «**وزبد البحر**»: رغوته. وقوله: «**ومداد كلماتك**»: قال البغوي: هو بمعنى المدد أي قدر ما يوازيها في الكثرة والعدد. «**والحول**»: قيل: الحيلة أو الحركة أي لا حركة لي ولا استطاعة إلا بمشيئة الله عزّ وجلّ.

وفي هذه الأحاديث فضائل عظيمة لما ذكر من الأذكار، فينبغي للمؤمن أن لا يحرم نفسه منها لما يترتب عليها من عظيم الثواب وجزيل الجزاء.

وفي حديثي أبي هريرة وسمرة بيان أن أحب الكلام إلى الله وإلى رسوله ﷺ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وحق لها ذلك لأن فيها توحيد الله وتنزيهه وحمده وتعظيمه وتبجيله. وكل ذلك مما يرضاه الله عزّ وجلّ ويحبه.

وفي حديث أبي موسى فضل الحوقلة وأنها من كنوز الجنة، وذلك لما فيها من تبرؤ العبد من حوله وقوته واعترافه بالعجز والضعف، وأنه ليس له من الأمر شيء إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وذلك من صميم التوحيد.

الاستغفار والتوبة وفضل ذلك

١٦٠١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ عَبْداً أذْنَبَ ذَنباً فقال: أذْنَبْتُ ذَنباً فَاغْفِرْ لِي، قال: فقال رَبُّه عزَّ وجلَّ: عَلِم عَبْدي أنَّ لَهُ ربّاً يَغفرُ الذنبَ ويأخذُ به فغفرَ لهُ، فمَكَثَ ما شَاءَ الله ثم أصابَ ذَنباً آخرَ فقالَ: أَذْنَبْتُ ذَنباً فاغْفِرْهُ لِي، قال: قال ربُّه: عَلِم عَبْدِي أن له رباً يَغفرُ الذنب ويأخذُ به فغَفَرَ له فمَكَثَ ما شاء الله ثم أصَابَ ذنباً آخر فقال: أذْنَبْتُ ذَنباً فاغْفِرْهُ لِي، قال: قال ربُّه عزَّ وجلَّ، علِمَ عَبْدي أن له رباً يَغفرُ الذَّنب ويأخذ به قد غفَرْتُ لِعَبدي فلْيَفْعَل ما شاءَ**». وفي رواية: «**اعْمَلْ مَا شِئتَ قد غَفرتُ لكَ**».

[رواه أحمد (٢/٤٠٥، ٤٩٢)، والبخاري في التوحيد (١٧/٢٤٨، ٢٤٩)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٥، ٧٦)].

ش: قوله: «**اعمل ما شئت..**» إلخ: ليس معناه الأمر بالذنوب والإتيان بالمعاصي على الإطلاق بل معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك. ولذا قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: لو تكرر الذنب مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت

ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة به جميعها صحت توبته إلخ.

ولهذا جاء في حديث ابن عباس مرفوعاً: «**ما أضرَّ مَن استغْفَرَ وإن عاد في اليوم سَبعين مرَّةً**» رواه الطبراني في الدعاء (١٧٩٧) بسند حسن في الشواهد، وله شاهد عن أبي بكر رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٣٢٧) بتهذيبي، وأبو يعلى (١٣٧) وهو وإن كان ضعيفاً فإنه ليس شديد الضعف فيحسن الحديث لذلك.

ونقل الحافظ في «الفتح» عن القرطبي في «المفهم» قال: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة.

١٦٠٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لذَهَبَ اللَّهُ بِكُم ولجَاءَ بِقَومٍ يُذْنِبُونَ فيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فيَغْفِرُ لَهُمْ**».

[رواه مسلم في التوبة (٦٥/١٧) هكذا مختصراً، ورواه أحمد (٣٠٤/٢، ٣٠٥، ٤٤٥)، ومسلم، وابن حبان وغيرهم مطولاً، ورواه أحمد (٤١٤/٥)، ومسلم رقم (٢٧٤٨)، والترمذي (٣٥٣٩) من حديث أبي أيوب، وأحمد (٢٨٩/١) عن ابن عباس (٢٢٨/٣) عن أنس ويأتي أيضاً في الرقاق إن شاء الله تعالى].

ش: الحديث الشريف من أحاديث الرجاء. قال القاضي عياض في «الإكمال» (٢٤٧/٨) على حديث أبي أيوب: هذا من فضل الله العظيم وكرمه الجسيم. قال: يجب لمذكر وواعظهم ألا يكثر عليهم من أحاديث الرجاء لئلا ينهمكوا في المعاصي والتعطيل للأعمال والاتكال، ويكون وعظه أغلب عليه التخويف والتحذير، ولكن على حد لا يؤيِّسَ ويقنط.

وقال الشوكاني في «شرح الحصن» (٢٩١): وفي الحديث دليل على كثرة وقوع الذنوب من بني آدم، وأن من حاول أن لا يقع منه ذنب ألبتة فقد حاول ما لا يكون، لأن هذا أعني وقوع الذنب من النوع الإنساني هو الذي جبلوا عليه، وقد خلقهم الله تعالى وأمرهم بالخير والكف عن الشر، ولكن

ما في جبلتهم يأبى أن لا يقع منهم ذنب لأن العصمة لا تكون إلا لمن أعطي النبوة من بني آدم فلو أرادوا أن لا يذنبوا أصلاً راموا ما ليس لهم.

١٦٠٣ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يدَهُ باللَّيلِ ليَتُوب مُسِيء النَّهارِ، ويَبْسُطُ يدَهُ بالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسيء اللَّيلِ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمس من مَغْرِبِها»**.

[رواه أحمد (٤/٣٩٥، ٤٠٤)، ومسلم (٧٦/١٧) وفي الباب عن صفوان بن عسال رواه الترمذي، وابن عمر رواه أحمد، والترمذي (٣٣٠٤) بتهذيبي، وابن حبان (٢٤٤٩)، والحاكم (٤/٢٥٧) وصححه].

١٦٠٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال ﷺ: **«مَن تابَ قبلَ أن تطلُعَ الشَّمسُ من مغرِبِها تابَ الله عليهِ»**.

[رواه مسلم (٢٧٠٣) وغيرهم].

ش: في الحديثين بيان أن الله تعالى يقبل توبة عباده دائماً ما لم تطلع الشمس من مغربها وأن مغفرته تعالى متوالية ليل نهار، ولذا جاء في حديث لأبي ذر: **«إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم..»** الحديث بطوله رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٥٧٧)، ويأتي في الرقاق.

١٦٠٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أشدُّ فَرَحاً بِتَوبةِ عَبْدِهِ حِينَ يتُوبُ إليهِ مِن أحدِكُم كانَتْ رَاحِلَتُهُ بأرضٍ فَلاةٍ فانْفَلَتَتْ مِنهُ وعليها طَعَامُهُ وشرابُهُ فأيِسَ منها، فأتى شجرةً فاضْطجعَ في ظلِّها قد أيِسَ مِن راحلتِهِ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائِمةٌ عندَهُ فأخذ بِخِطَامِها ثم قال من شدَّةِ الفَرحِ: اللَّهمَّ أنت عَبْدي وأنا ربُّكَ. أخطأ من شِدَّة الفرحِ»**.

[رواه أحمد (٣/٢١٣)، والبخاري في الدعوات (١٣/٣٥٤)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٣) وفي الباب عن جماعة ستأتي إن شاء الله في الرقاق].

ش: **«لله أفرح..»** إلخ: قال النووي: قال العلماء: فرح الله تعالى هو رضاه. ثم نقل عن المازري أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضي

واجد ضالته بالفلاة، قال: فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره.

وقال الخطابي: معنى الحديث: إن الله أرضى بالتوبة وأقبل لها، والفرح الذي يتعارفه الناس بينهم غير جائز على الله، وانظر «الفتح» (١٣/٣٥١).

والفرح هنا صفة لله تعالى لا نعلم حقيقتها، فالواجب فيه الإيمان به مع التفويض وكفى.

١٦٠٦ ـ وعن الأغر المزني رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أيُّها النَّاسُ تُوبُوا إلى الله فإنِّي أتُوبُ في اليومِ مِائةَ مَرَّةٍ»**.

[رواه أحمد (٤/٢٦٠)، ومسلم في الذكر (١٧/٢٤)، وابن حبان (٩٢٩) ونحوه عن أبي هريرة رواه البخاري في الدعوات (١٣/٣٤٥، ٣٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١١٤)، وابن ماجه].

وفي رواية للأغر قال رسول الله ﷺ: **«إنَّهُ ليُغَانُ على قَلْبِي وإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليومِ مِائةَ مرَّةٍ»**.

[رواه أحمد (٤/٢١١، ٢٦٠)، ومسلم في الذكر (١٧/٢٣)، وأبو داود (١٥١٥)].

وفي رواية لأنس عنه ﷺ: **«إنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليومِ وأتوبُ إليهِ أكثرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةٍ»**.

[رواه النسائي في «الكبرى» (٦/١١٤)].

ش: في الحديث الأول الأمر بالتوبة، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية.

وقوله ﷺ: **«فإني أتوب..»** إلخ. إذا كان عليه الصلاة والسلام يتوب مائة مرة في اليوم، وقد غفر له ما تقدم وما تأخر فنحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج في كل لحظة من حياتنا، لكثرة ذنوبنا وتوالي مخالفاتنا. وقد ذكر العلماء لقبول التوبة شروطاً ثلاثة:

أولاً: الإقلاع عن المعصية.

ثانياً: أن يندم بقلبه ويتألم على فعلها خوفاً من الله عزّ وجلّ.

ثالثاً: أن يعزم بنية جازمة أن لا يعود إليها أبداً، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فيزاد شرط **رابع**: وهو رد المظلمة إلى صاحبها، أو حصول البراءة منها. ومن كمالياتها التطهر، وصلاة ركعتين، والاستغفار، فإذا وقعت كذلك كانت مقبولة قطعاً من الكافر والمؤمن خلافاً لمن فرق بينهما. وتأتي بقية للموضوع في الرقاق إن شاء الله تعالى.

وقوله: «**إنه ليغان..**» إلخ: أي يغطى، وأصله من الغين وهو الغطاء والحائل بينك وبين الشيء، ومنه قيل للغيم غين، والمراد به هنا إما فتوره ﷺ عن الذكر الذي كان شأنه المداومة عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنباً فاستغفر منه، وإما لكونه كان دائم الترقي في مقامات اليقين ومعرفة الله عزّ وجلّ فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها فاستغفر من الحالة السابقة. وقيل غير ذلك. والظاهر أن هذا الغين هو بمنزلة الغيم للأبرار والغفلة للعامة، والرين لقلوب الكفار.. فهو غين أنوار كان يعتريه أحياناً لا غين أغيار فكان يستغفر الله عزّ وجلّ إظهاراً للعبودية لله تعالى وشكراً لما أولاه الله عزّ وجلّ، والله تعالى أعلم.

١٦٠٧ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان تعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «**ربِّ اغفرْ لي وتُبْ علَيَّ إنَّكَ أنْتَ التوَّاب الغفُورُ**». وفي رواية: «**التوَّابُ الرَّحيمُ**».

[رواه أحمد (٢/٢١، ٦٧، ٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨، ٦٢٧)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤) وغيرهم وسنده صحيح، وحسنه الترمذي وصححه].

ش: فيه ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه من توالي الاستغفار وطلبه التوبة من الله عزّ وجلّ في مجالسه... فينبغي لنا أن نقتدي به في ذلك.

١٦٠٨ ـ وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**سَيِّدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللَّهمَّ أنتَ رَبِّي لا إلَه إلاَّ أنتَ خَلقْتَنِي وأنَا عَبْدُكَ وأنَا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعوذُ بِكَ من شرِّ ما صَنَعتُ أبُوءُ لكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ، وأبُوءُ لَكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي فإنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنتَ..**» الحديث ويأتي كاملاً في أدعية الصباح والمساء.

[رواه أحمد (١٢٢/٤، ١٢٤، ١٢٥)، والبخاري في الدعوات، والنسائي في الكبرى (١٥٠/٦)، والترمذي (٣٣٩٣) وغيرهم].

ش: قوله: «**أنا على عهدك..**» إلخ: معناه: أنا على ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك وإني مقيم على ذلك ومتمسك به ومُتَنَجِّزٌ وعدك في المثوبة والأجر عليه. وقوله: «**ما استطعت**»: في اشتراط ذلك اعتراف بالعجز والقصور عن القيام بحق تكاليفه عزّ وجلّ. وقوله: «**أبوء لك.. وأبوء لك بذنبي**» معناهما: الاعتراف بنعمة الله تعالى والإقرار له عزّ وجلّ بالذنب وذلك من آداب الدعاء كما يأتي.

وقال الإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى في «بهجة النفوس»: إنه جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى بسيد الاستغفار. ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو.. إلخ.

فضل الصلاة على رسول الله ﷺ

١٦٠٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى علَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْراً**».

[رواه أحمد (٣٧٢/٢، ٣٧٥)، ومسلم (٤٠٨)، أبو داود (١٥٣٠)، والترمذي

(٤٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٥/١) كلهم في الصلاة، والدارمي في الرقاق (٢٧٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٤٥)، وابن حبان (٩٠٦)].

١٦١٠ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صلَّى عَلَيَّ صلاةً واحدة صلَّى اللَّهُ عليهِ عَشْرَ صَلَواتٍ، وحَطَّ عنهُ عَشْرَ خَطِيئاتٍ، ورُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجاتٍ»**.

[رواه أحمد (١٠٢/٣، ٢٦١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٣٨٥/١، و٢١/٦، ٩٨)، وفي السهو من «المجتبى»، وصححه الحاكم (٥٥٠/١) ووافقه الذهبي وهو كما قالا].

١٦١١ ـ وعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: جاء النبي ﷺ يوماً وهو يُرَى البِشْرُ في وَجْهِهِ فقيل: يا رسول الله إنا نَرَى في وَجْهِك بِشْراً لم نَكُنْ نَراهُ، قال: **«أجَلْ، إنَّ مَلَكاً أتانِي فقال لي: يا مُحمد إنَّ ربَّكَ يَقولُ لكَ: أمَا يُرْضِيكَ أن لا يُصَلِّي عليكَ أحدٌ مِن أمَّتِك إلا صلَّيتُ عليهِ عَشراً، ولا يُسلِّمَ عليكَ إلا سلَّمتُ عليهِ عَشراً، قال: قلت: بلى أيْ رَبِّ»**.

[رواه أحمد (٢٩/٤، ٣٠)، والدارمي (٢٧٧٩)، والنسائي في الكبرى (٣٨٠/١)، وابن حبان (٩١٥)، والحاكم (٤٢٠/٢)، وصححه ووافقه الذهبي والحديث صحيح لطريقين له عند إسماعيل القاضي رقم (٢/١) ولشواهده عن أنس وعمر وابن عوف، انظر «المستدرك» (٥٥٠/١)].

١٦١٢ ـ وعن أوس بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ مِنْ أفْضَلِ أيَّامِكُم يومَ الجُمُعَةِ فيها خَلَقَ اللَّهُ آدمَ، وفِيهِ قُبِضَ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعْقَةُ، فأكْثِرُوا عليَّ من الصَّلاةِ فيهِ فإنَّ صلاتَكُم مَعْرُوضَةٌ عليَّ»**، قالوا: وكيف تُعرَضُ صلاتُنا عليك وقد أرَمْتَ، فقال: **«إنَّ الله جلَّ وعلا حرَّم على الأرضِ أن تَأكُلَ أجْسادَ الأنبياءِ»**.

[رواه أحمد (٨/٤)، وأبو داود (١٠٤٧، ١٥٣١)، والنسائي في «الكبرى» (٥١٩/١)، وفي المجتبى، وابن ماجه (١٠٨٥) كلهم في الصلاة، والحاكم (٢٧٨/١) وصححه ووافقه الذهبي وكذا صححه ابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠) وسنده صحيح عند بعضهم على شرط الصحيح].

١٦١٣ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائكة سَيَّاحِينَ في الأرضِ يُبَلِّغُونِي عن أُمَّتِي السَّلامَ».

[رواه أحمد (٤٤١/١، ٤٥٢، ٣٨٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٠/١)، والدارمي (٢٧٧٧)، وابن حبان (٩/٤)، وإسماعيل القاضي (٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (٦٨٧)، والحاكم (٤٢١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا].

١٦١٤ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يومَ القِيامةِ أَكْثرُهم علَيَّ صلاةً».

[رواه الترمذي (٤٨٤)، والبخاري في التاريخ (١٧٧/٥)، وابن حبان (٩١١)، والبغوي وحسنه الترمذي، وله شاهد عن أبي أمامة رواه البيهقي في «الكبرى» (٢٤٩/٣)، وفي «حياة الأنبياء» (١١) وحسنه المنذري وقال الحافظ في «الفتح»: لا بأس بسنده].

ش: «أرمت» بفتح الراء: أي بليت وصرت رميماً.

وفي هذه الأحاديث أمور نجملها في الآتي:

أولاً: في معنى الصلاة على النبي ﷺ وعلى غيره وهي محتملة للرحمة والدعاء والثناء، غير أن المشهور بين العلماء أن صلاة الله على نبيه ﷺ زيادة تشريف وتعظيم وتكريم، وعلى غيره رحمة وبركة، وهي من العباد دعاء، ومن ملائكة الله استغفار.

ثانياً: في حديث أوس تخصيص يوم الجمعة بالإكثار فيه من الصلاة على النبي ﷺ وأنها تعرض عليه وهو يقتضي معرفته ﷺ للمصلين عليه.

ثالثاً: فيه أن الأنبياء لا تَبلى أجسامهم، ولا يأكلها التراب، وهذا متفق عليه بين العلماء، ولا عبرة بمن شذ من المنحرفين المبتدعين.

رابعاً: في حديث ابن مسعود الأول بيان أن هنالك ملائكة خاصين مكلفين بإبلاغ سلامنا على النبي ﷺ إليه، وفي ذلك اهتمام عظيم بالسلام عليه.

خامساً: فيها فضل عظيم وثواب جزيل للصلاة عليه صلوات الله وسلامه عليه، وأن لها أهمية بمكان، ويكفي المصلي عليه شرفاً أن

يصلي الله عليه ويحط عنه خطاياه، ويرفع درجاته، ثم يكون يوم القيامة أحق الناس وأولاهم بالكون معه ﷺ والحشر في زمرته، والشرب من حوضه وكوثره، ودخول الجنة في السابقين معه.

كيفية الصلاة على النبي ﷺ وصيغها

١٦١٥ ـ عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحمَّدٍ وأزْوَاجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبَارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِهِ وذُرِّيَّتِه. كما باركْتَ على آلِ إبراهيمَ، إنَّك حَميدٌ مَجِيدٌ**».

[رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، وفي الدعوات (١٣/٤٢٤، ٤٢٥)، ومسلم (٤/١٢٧)، وأبو داود (٩٧٩) كلاهما في الصلاة].

١٦١٦ ـ وعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نُصلي عليك؟ قال: «**قُولُوا: اللَّهُم صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلَ محمَّدٍ كما باركتَ على آلِ إبرهيم، إنَّك حَميدٌ مجيدٌ**».

[رواه البخاري في تفسير سورة الأحزاب (١٠/١٥٢)، وفي الدعوات (١٣/٤٢٠)، ومسلم في الصلاة (٤/١٢٦)].

١٦١٧ ـ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه نحوه.

[رواه مالك في قصر الصلاة، ومسلم (٤/١٢٤، ١٢٥)، وأبو داود (٩٨٠)].

١٦١٨ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله هذا التسليم فكيف نصلي عليك؟ قال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ عَبْدِكَ ورسولِكَ كما صلَّيتَ على آل إبراهيمَ وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ كما باركْتَ على إبراهيمَ..**».

[رواه البخاري في سورة الأحزاب (١٠/١٥٢، ١٥٣)، وفي الدعوات (١٣/٤١٨)، وأحمد].

ش: فهذه الصيغ من أصح ما جاء عن النبي ﷺ في الصلاة الإبراهيمية وغيرها، وهناك ألفاظ أخر استوعبت في موضعها.

وهذه الصيغ هي أفضل ما صلى به على النبي ﷺ ولا يعني ذلك أنه لا تجوز الصلاة عليه بغيرها، وفي حديث أبي حميد رد على الشيعة الرافضة الذين ينكرون أن يكون النبي ﷺ جمع زوجاته في الصلاة عليه مع ذريته الطاهرة. وانظر لهذا الفصل «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي و«جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام» لابن القيم فإن فيهما ما يشفي مما يتعلق بالصلاة على الحبيب ﷺ ومواضع ذلك... وراجع معهما «الشفا» لعياض.

ذم الغافلين عن الصلاة عليه ﷺ والمعرضين عنها

١٦١٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذكرتُ عندَه فلم يصلِّ عليَّ، ورغمَ رجلٌ أدرَكَ أبَوَيْه عند الكِبَرِ فلم يُدخلاهُ الجنَّةَ، ورَغِم رجُلٌ دَخَلَ عليه شَهرُ رمضانَ ثم انْسَلَخَ قبلَ أن يُغفَرَ لَهُ»**.

[رواه أحمد (٢/٢٥٤)، والترمذي في الدعوات (٣٥٤٥)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (١٦، ١٧)، وابن حبان (٩٠٨)، والحاكم (١/٥٤٩) وسنده صحيح].

وأخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/١٠٨، ١٠٩) مختصراً بلفظ: **«رَغِمَ أنفُه، ثُمَّ رغم أنفه، ثم رغم أنفه»**، قيل: من يا رسول الله، قال: **«مَنْ أدْرَكَ والِدَيْهِ عِندَ الكِبَرِ أحدَهما أو كِلَيْهِما ثم لم يَدْخُلِ الجنَّةَ»**.

وأخرجه كاملاً بسياق آخر البخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٦)، وإسماعيل القاضي (١٨)، والبزار (٣١٦٩)، وابن خزيمة (١٨٨٨)، وابن حبان (٩٠٧): أن النبي ﷺ رقي المنبر فقال: **«آمين، آمين، آمين»**، قيل له: يا رسول الله ما كنت تصنع هذا، فقال: **«قال لي جبريل عليه السَّلام: رَغِمَ أنفُ عَبْدٍ أدْرَكَ أبَوَيْهِ أو أحدَهُما لم يُدْخِلْهُ الجنَّةُ، قلت: آمين»**، ثم قال:

«رغم أنف عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له، فقلت: آمين»، ثم قال: «رغم أنف امرىء ذكرتُ عنده فلم يصل عليك فقلت: آمين».

وفي رواية في الثلاثة: «فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت: آمين».

وفي رواية: «شقي عبد أدرك...»، «شقي عبد ذُكِرت عنده ولم يصل عليك».

١٦٢٠ ـ وعن الحسين بن علي عليهما السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «البَخيلُ الذي مَنْ ذُكِرْتُ عِندَهُ فلَمْ يُصَلِّ علَيَّ».

[رواه الطيالسي (٨١٧)، وأحمد (٣٥٤/٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٧٦، ٦٨٤)، والترمذي (٣٥٤٦)، والنسائي في الكبرى (٣٤/٥، و١٩/٦)، وفي «المجتبى»، وإسماعيل القاضي وابن حبان (٩٠٩)، والحاكم (٥٤٩/١)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وللحديث شواهد].

ش: قوله: «رغم» الرغم مثلث الراء، وأصله لصق أنفه بالرغام وهو تراب مختلط برمل، وقيل: الرغم كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه، ومعناه هنا الذل والخزي، فمن سمع ذكر اسم النبي ﷺ ولم يصلِّ عليه كان ذا خزي وهوان وذل وكان معرضاً لدخول النار والشقاء كباقي الصنفين، وهما من أدرك أبويه عند الكبر أو دخل عليه شهر رمضان فلم يسعد ولم يغفر له.

وفي الحديثين ذم من لا يهتم بالصلاة على النبي ﷺ عند ذكر اسمه الشريف، وأنه يعتبر بخيلاً بعيداً من رحمة الله تعالى ومغفرته. ويؤخذ من الحديثين وجوب الصلاة عليه عند ذكره ﷺ لأن الوعيد لا يكون إلا على ترك واجب أو فعل محرم، والله تعالى أعلم.

فضل الدعاء وآدابه
وأوقات الاستجابة ومظانها

١٦٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال:

«لَيسَ شيءٌ أكرَمَ عَلَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الدُّعَاءِ».

[رواه الطيالسي (٢٥٣/١)، وأحمد (٣٦٢/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٢)، والترمذي (٣٣٦٧)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وابن حبان (٨٧٠)، والحاكم (٤٩٠/١) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٦٢٢ ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «إنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾».

[رواه أحمد (٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٦)، والطيالسي (١٥٣/١)، وأبو داود (٤٧٩)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٧)، وفي الدعوات (٣٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤٥٠/٦)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (٤٩١/١) وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: في الحديثين فضل دعاء الله عزّ وجلّ وأنه أكرم شيء عليه، وأنه من أعلى أنواع العبادة وأشرفها فإنه تعالى أمرنا بدعائه ووعدنا بالاستجابة ثم أخبر بأن من استكبر عن عبادته ـ وهي هنا دعاؤه ـ فلم يدعه سيدخل جهنم داخراً وصاغراً.

١٦٢٣ ـ وعن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ إذا رفعَ العبدُ إليهِ يَدَيْهِ يَسْتَحْيِي أن يَرُدَّهُمَا صفراً حتى يَضَعَ فِيهِما خيراً».

[رواه أحمد ٤٣٨/٥)، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وابن حبان (٨٧٦، ٨٨٠)، والحاكم (٤٩٧/١) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ وله شاهد عن أنس رواه الحاكم (٤٩٧/١، ٤٩٨)، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٦)].

ش: قوله: «حيي..» إلخ: أي كثير الحياء وهو محمول على ما يليق بعظمته وليس كحياء بني آدم من تغير وانكسار. وقوله: «كريم»: أي الذي يعطي بلا سؤال. وقوله: «صفراً» بكسر الصاد وسكون الفاء: أي خاليتين خائبتين بلا عطاء.

وفي الحديث أن الله عزّ وجلّ لا يرد سائلاً ودعاء داعٍ، وفيه الحث على الإكثار من الدعاء مع رفع اليدين عنده.

١٦٢٤ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ في الدُّعَاءِ لم يَحُطَّهُما حتى يَمْسَح بِهِما وجْهَهُ.

[رواه الترمذي (٣٣٨٦)، والحاكم (٥٣٦/١) ورجاله رجال الشيخين غير حماد بن عيسى فضعفه أبو حاتم، وقال ابن معين: شيخ صالح، وللحديث شاهد عن ابن عباس رواه أبو داود (١٤٨٥)، وابن ماجه (٣٨٦٦)، والحاكم (٥٣٦/١)، وشاهد ثان عن السائب بن يزيد رواه أبو داود رقم (١٤٨٧)، فالحديث حسن كما قال الحافظ في «بلوغ المرام»: ومجموعها يقتضي أنه حديث حسن].

ش: في الحديث مشروعية رفع اليدين في الدعاء كسابقه، وفي ذلك أحاديث كثيرة تقارب الثلاثين، أفردها العلماء بالتصنيف، وفيه مسح الوجه بعد الدعاء باليدين معاً، وكل ذلك من آداب الدعاء، وفي ذلك سر مذكور في غير هذا الموضع.

١٦٢٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يستجابُ لأحدِكُم ما لم يعجلْ فيقولُ قد دعوتُ فلم يستجبْ لِي»**.

وفي رواية: **«فيتحسَّر عند ذلكَ فيدعُ الدُّعاءَ»**.

[رواه أحمد (٤٨٧/٢)، والبخاري في الدعوات (٣٩٠/١٣)، ومسلم في الذكر (٢٧٣٥)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٣٣٨٧)، وابن ماجه (٣٨٥٣)، وابن حبان (٩٧٥، ٨٨١) وغيرهم].

ش: قوله: **«فيتحسر»**: أي يمل فيترك الدعاء.

وفي الحديث وعد من الله على لسان نبيه ﷺ باستجابة دعاء من دعاه إذا لم يستعجل.

١٦٢٦ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ولا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لهُ فِي**

والحديث يدل على أن من شروط الإجابة حضور القلب، وأن الداعي مع الغفلة لا يستجاب له.

١٦٣١ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَدْعُوا على أنفُسِكُم، ولا تَدْعُوا على أوْلاَدِكُم، ولا تَدْعُوا علَى أمْوَالِكُم، لا تُوافِقُوا مِن الله ساعةً يُسْأَلُ فيها عطاءٌ فيَسْتَجِيبَ لكُمْ»**.

[رواه مسلم آخر الكتاب (١٩/١٣٨، ١٣٩)، وأبو داود في الصلاة (١٠٣٢)].

ش: في الحديث النهي عن الدعاء على النفس، والأولاد، والأموال، والنهي ظاهره التحريم.. ويأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

١٦٣٢ ـ وعن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه أنه سمع ابنه يقول. اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بُنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سيَكُونُ في هَذِهِ الأُمَّةِ قومٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ والدُّعَاءِ»**.

[رواه أحمد (٥/٥٥)، وأبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، والحاكم (١/١٩٢) بسند صحيح، ونحوه عن سعد بن أبي وقاص رواه أحمد (١/١٧٢، ١٧٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وأبو يعلى (٧١١)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/٥٠٠) ولا يضر الرجل المجهول فيه].

ش: وفي الحديث ذم الاعتداء في الدعاء، ومنه الجهر به، أو الدعاء بما لا طائل تحته، أو سؤال منازل الأنبياء مثلاً أو الدعاء بالمستحيل، أو بالمحرم.

الدعوات المستجابة وأوقات وأحوال الإجابة

١٦٣٣ ـ عن أم الدرداء رضي الله تعالى عنها قالت لرجل: تريد الحج العام؟ قال: نعم، قالت: فادع لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: **«دُعَاءُ المسلِمِ مُسْتَجابٌ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، عِندَ رَأسِه مَلَكٌ موكَّلٌ ما دَعَا لأَخِيهِ بِخَيرٍ إلاَّ قال له: آمين ولك بِمِثْلِهِ»**.

[رواه مسلم في الذكر رقم (٢٧٣٣)].

١٦٣٤ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وهُو فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنَّهُ لَمْ يَدْعُ بها رجلٌ مُسلِمٌ في شيءٍ قَطُّ إلا استَجَابَ اللَّهُ لهُ..».

[رواه أحمد (١/١٠٧)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١٦٨)، وأبو يعلى (٧٧٢)، والطبراني في الدعاء (١٢٤)، والحاكم (١/٥٠٥، و٢/٣٨٢، ٣٨٣) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٦٣٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثُ دَعَواتٍ مُسْتَجَابات لا شَكَّ فيهِنَّ: دَعْوةُ المَظلومِ، ودعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ الوَالِدِ على ولَدِهِ».

[رواه الطيالسي (٢٥١٧)، وأحمد (٢/٢٥٨، ٣٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢/٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٥)، وفي الدعوات (٣٤٤٨)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وابن حبان (٢٦٩٩) وجهالة جعفر المؤذن لا تضر فإن له شاهداً عن عقبة بن عامر الجهني رواه أحمد (٤/١٥٤)، والخطيب في «التاريخ» (١٢/٣٨٠، ٣٨١) وسنده حسن في المتابعات، فالحديث حسن، ولذا حسنه الترمذي والحافظ في «تخريج الأذكار». وأورده النور في «المجمع» رقم (١٧٢٣٠) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن زيد الأزرق وهو ثقة].

١٦٣٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ سُبحانه وتعالى لَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الدَّرَجَةَ فيقولُ: رَبِّ أَنَّى لِي هذِهِ الدَّرَجَةُ؟ يقولُ: بدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ».

[رواه أحمد (٢/٥٠٩)، وابن ماجه (٣٦٦٠)، والبغوي في شرح السنة (١٣٩٦) وسنده حسن، بل قال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات].

١٦٣٧ ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لهُ عِندَ الشَّدَائِدِ والكُرَب فلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ».

[رواه الترمذي (٣٣٨٢)، وأبو يعلى (٥/٤٥٤)، والحاكم (١/٥٤٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن سلمان رواه الحاكم].

والحديث يدل على أن من شروط الإجابة حضور القلب، وأن الداعي مع الغفلة لا يستجاب له.

١٦٣١ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَدْعُوا على أنفُسِكُم، ولا تَدْعُوا على أوْلاَدِكُم، ولا تَدْعُوا علَى أمْوَالِكُم، لا تُوافِقُوا مِن الله ساعةً يُسْأَلُ فيها عطاءٌ فيَسْتَجِيبَ لكُمْ»**.

[رواه مسلم آخر الكتاب (١٩/١٣٨، ١٣٩)، وأبو داود في الصلاة (١٠٣٢)].

ش: في الحديث النهي عن الدعاء على النفس، والأولاد، والأموال، والنهي ظاهره التحريم.. ويأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

١٦٣٢ ـ وعن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه أنه سمع ابنه يقول. اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بُنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سيَكُونُ في هَذِهِ الأُمَّةِ قومٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ والدُّعَاءِ»**.

[رواه أحمد (٥/٥٥)، وأبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، والحاكم (١/١٩٢) بسند صحيح، ونحوه عن سعد بن أبي وقاص رواه أحمد (١/١٧٢، ١٧٣)، وأبو داود (١٤٨٠)، وأبو يعلى (٧١١)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/٥٠٠) ولا يضر الرجل المجهول فيه].

ش: وفي الحديث ذم الاعتداء في الدعاء، ومنه الجهر به، أو الدعاء بما لا طائل تحته، أو سؤال منازل الأنبياء مثلاً أو الدعاء بالمستحيل، أو بالمحرم.

الدعوات المستجابة وأوقات وأحوال الإجابة

١٦٣٣ ـ عن أم الدرداء رضي الله تعالى عنها قالت لرجل: تريد الحج العام؟ قال: نعم، قالت: فادع لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: **«دُعَاءُ المسلِمِ مُسْتَجابٌ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، عِندَ رَأْسِه مَلَكٌ موكَّلٌ ما دَعَا لأَخِيهِ بِخَيرٍ إلاَّ قال له: آمين ولك بِمِثْلِهِ»**.

[رواه مسلم في الذكر رقم (٢٧٣٣)].

١٦٣٤ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وهُو فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنَّهُ لَمْ يَدْعُ بها رجلٌ مُسلِمٌ في شيءٍ قَطُّ إلا استَجَابَ اللَّهُ لهُ..».

[رواه أحمد (١/١٠٧)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١٦٨)، وأبو يعلى (٧٧٢)، والطبراني في الدعاء (١٢٤)، والحاكم (١/٥٠٥، و٢/٣٨٢، ٣٨٣) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٦٣٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثُ دَعَواتٍ مُسْتَجَابات لا شَكَّ فيهِنَّ: دَعْوةُ المَظلومِ، ودعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ الوَالِدِ على ولَدِهِ».

[رواه الطيالسي (٢٥١٧)، وأحمد (٢/٢٥٨، ٣٤٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢/٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٥)، وفي الدعوات (٣٤٤٨)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وابن حبان (٢٦٩٩) وجهالة جعفر المؤذن لا تضر فإن له شاهداً عن عقبة بن عامر الجهني رواه أحمد (٤/١٥٤)، والخطيب في «التاريخ» (١٢/٣٨٠، ٣٨١) وسنده حسن في المتابعات، فالحديث حسن، ولذا حسنه الترمذي والحافظ في «تخريج الأذكار». وأورده النور في «المجمع» رقم (١٧٢٣٠) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن زيد الأزرق وهو ثقة].

١٦٣٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ سُبحانه وتعالى لَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الدَّرَجَةَ فيقولُ: رَبِّ أَنَّى لِي هذِهِ الدَّرَجَةُ؟ يقولُ: بدُعَاءِ وَلَدِكَ لَكَ».

[رواه أحمد (٢/٥٠٩)، وابن ماجه (٣٦٦٠)، والبغوي في شرح السنة (١٣٩٦) وسنده حسن، بل قال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات].

١٦٣٧ ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لهُ عِندَ الشَّدَائِدِ والكُرَب فلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ».

[رواه الترمذي (٣٣٨٢)، وأبو يعلى (٥/٤٥٤)، والحاكم (١/٥٤٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن سلمان رواه الحاكم].

ش: في هذه الأحاديث بعض الأصناف الذين تستجاب لهم دعواتهم وهم الداعي لأخيه بظهر الغيب، والداعي بدعاء ذي النون، والمظلوم، والمسافر، والوالد لولده، والولد لوالده، والداعي حالة الرخاء، وتقدم من دعا باسم الله الأعظم، ومن قدم أمام دعائه الثناء على الله والصلاة على نبيه ﷺ. وهناك أصناف آخرون يجدها من تتبع الأحاديث، ويأتي باقيه قريباً في الخاتمة.

١٦٣٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنزِلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخَرِ يقولُ: مَنْ يَدْعُوني فأستَجيبَ لَهُ؟ مَنْ يسألُني فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي فأَغْفِرَ لَهُ؟**».

[رواه كل الجماعة وتقدم بألفاظه في أبواب التطوع من كتاب الصلاة].

ش: وهو من أحاديث الصفات، والسلف كالأئمة الأربعة والأوزاعي، والليث، والسفيانين، والحمادين وغيرهم على أنه يجرى على ما ورد مع الإيمان به وتنزيهه تعالى عن النزول المعهود عندنا ونفي الكيفية والتشبيه فإن صفات الله لا تكيف ولا تُقاس بصفات المخلوقات تعالى وتقدس عن ذلك.

وفي الحديث أن هذا الوقت المذكور وهو ثلث الليل الأخير أو الأول أو النصف حسب اختلاف ألفاظ الحديث هو وقت الاستجابة لمن دعا الله عزّ وجلّ وسأله واستغفره.

وتقدم حديث عمرو بن عَبَسة رضي الله تعالى عنه في أبواب التطوع عنه ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن**».

[رواه أحمد (١١١/٤، ١١٢)، وأبو داود، والترمذي، وابن خزيمة (١١٤٧) وغيرهم].

١٦٣٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أقْرَبَ ما يَكُونُ العبدُ مِنْ رَبِّهِ وهُو سَاجِدٌ فأكْثِرُوا الدُّعاءَ**».

[رواه أحمد (٤٢١/٢)، ومسلم رقم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي في الكبرى (٢٤٢/١)، وفي «المجتبى» كلهم في الصلاة].

١٦٤٠ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله، أي الدعاء أسمع، قال: «**جَوْفُ الليلِ الآخَرِ، ودُبُرُ الصَّلواتِ المَكتوبة**».

[رواه الترمذي (٣٤٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (٣٢/٦) وحسنه الترمذي لشواهده].

١٦٤١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ لا يرد بينَ الأذانِ والإقامةِ**».

[رواه أحمد (١٥٥/٣، ٢٢٥)، والنسائي في اليوم والليلة (٦٧)، وابن خزيمة (٤٢٥، ٥٢٦، ٤٢٧)، وابن حبان (٤٢٦، ٤٢٧) وسنده صحيح، ورواه أحمد، وأبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢، ٣٥٩٤) وغيرهم من طريق آخر ضعيف، والحديث تقدم في الأذان].

١٦٤٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ فِي الجُمُعَةِ سَاعةً لا يُصادِفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلِّي** ـ أي يدعُو ـ **يسألُ الله شيئاً إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ**».

[رواه البخاري (٦٧/٣)، ومسلم (١٣٩/٦، ١٤٠) وتقدم في الجمعة مطولاً].

ش: في هذه الأحاديث جملة من الأوقات يستجاب فيها الدعاء ينبغي للمؤمن تحينها، منها جوف الليل الآخر إلى السحر، لأنه وقت التجلي الإلٰهي، ومنها أثناء السجود في الصلاة لأنه أقرب ما يكون العبد فيه من الله لتذلله له عزّ وجلّ، ومنها بين الأذان والإقامة، ومنها ساعة الجمعة وهي إما آخر ساعة منها أو ما بين ابتداء الخطبة إلى انقضاء الصلاة، ومنها دبر الصلوات الخمس، والظاهر أن ذلك بعد السلام منها فيكون حديثها من أدلة الدعاء عقب الصلاة، وهناك أوقات ومواضع ترجى فيها الاستجابة فلتراجع في كتب الأذكار.

ذم تاركي الدعاء

١٦٤٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّهُ مَنْ لَمْ يَسألْ الله يغضبْ عليهِ**».

[رواه أحمد (٤٤٢/٢، ٤٤٣، ٤٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)،

والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأبو يعلى (٦٦٥٥)، والحاكم (٩٩١/١) وهو حسن لشواهده عن ابن مسعود وعائشة وابن عمر. انظر «تهذيبي للجامع» (٣١٥٣)].

ش: في الحديث ذم المعرضين عن سؤال الله تعالى وأن من لم يسأله يغضب عليه وحق له ذلك، فإن ترك دعاء الرب سبحانه فيه نوع من الاستكبار ولا أقبح من هذا الاستكبار وكيف يستكبر العبد الضعيف المحتاج الفقير عن دعاء من هو خالقه وموجده من العدم ورازقه، ومحييه ومميته، ومدبر هذا العالم علويه وسفليه فلا شك أن ترك دعاء هذا الرب العظيم مبغوض له تعالى والمبغوض مغضوب عليه، فالله عزّ وجلّ يحب أن يسأل ويحب الملحين في دعائه وسؤاله فهو بخلاف المخلوقين الذين يبغضون من يلح عليهم في السؤال. ولذا جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعاً: «**إنَّ الله يُحِبُّ المُلِحِّين في الدُّعاءِ**» رواه الطبراني في «كتاب الدعاء»، ورجاله ثقات لولا عنعنة بقية، وفي سنن الترمذي (٣٥٦٦) عن ابن مسعود مرفوعاً: «**سَلُوا الله مِن فضلِه فإن الله يُحِبُّ أن يُسْأَلَ**».

* * *

خاتمة

وفيها أمور:

أولاً: فوائد الذكر وآداب الذاكر.

ثانياً: آداب الدعاء.

ثالثاً: أوقات وأماكن الإجابة.

رابعاً: الذين يستجاب دعاؤهم.

لقد ذكر العلماء[1] الذين ألفوا في الأذكار والأدعية فصولاً في فوائد

(١) وأشهر من استوعب هذا الموضوع النووي، وابن الجزري، والقنوجي.

الذكر والدعاء وآداب ذلك وأوقات الإجابة وأماكنها وصفة من يستجاب لهم الدعاء، وإتماماً لفائدة القارىء نلخص له ذلك بالإضافة إلى بعض ما سبق ليكون على علم بما يذكر به ويدعوه.

فوائد الذكر:

إنه يرضي الله عزّ وجلّ، ويطرد الشيطان، ويزيل الهموم والأكدار، ويجلب الفرح والنشاط، وينور القلب ويقويه، ويكسو صاحبه الجلالة والنضرة، ويورث محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ويورث مراقبة الله تعالى والقرب منه، والإنابة إليه، ومعرفته، وذكره عبده عند ملائكته، ويجلب الرزق، ويحط الخطايا، ويزيل الوحشة، ويحفظ من فضول الكلام، وتحضر صاحبه الملائكة، ويظلله الله تحت ظله، ويُعطى أفضل ما يعطى للسائلين ويذهب القسوة ويجلي القلب، ويشفي الصدور ويداويها ويجلب النصر ويسهل الصعاب، ويباهي الله بالذاكر ملائكته، والذاكر أسبق الناس إلى كل خير.

من آداب الذكر:

من آداب الذاكر: أن يكون على طهارة كاملة من خبث وحدث، خالياً، نظيف الفم، مستقبل القبلة، ويكون على أكمل الصفات، وكل هذا من الكماليات.

من آداب الدعاء:

ومن آداب الدعاء: تجنب الحرام أكلاً وشراباً ولباساً وسكناً.. والإخلاص لله تعالى، والوضوء، وتقديم صلاة، وعمل صالح، وثناء على الله تعالى وصلاة على نبيه ﷺ، ورفع اليدين وبسطهما ومسح الوجه بهما بعد الفراغ، والخشوع، وحضور القلب، والمسكنة والافتقار، والسؤال بأسماء الله تعالى، والأدعية المأثورة، والتوسل بالأعمال الصالحة وبالأنبياء والصالحين، والاعتراف لله بالذنوب، والسؤال بعزم، وتكرير الدعاء والإلحاح فيه، والتأمين على الدعاء، والبداءة بالنفس، وأن لا يخص نفسه بذلك، وأن لا يدعو بحرام وأن لا يحجر رحمة الله تعالى.

أوقات الإجابة:

لإجابة الدعاء أوقات كليلة القدر، ويوم عرفة، وشهر رمضان، وليلة الجمعة، ويومها، وساعتها، وجوف الليل، ونصفه الثاني، وثلثه الأول، وثلثه الأخير، وعند الأذان، وبين الأذانين، وعند الإقامة، وعند الصف في الجهاد، وعند التحام الحرب، ودبر الصلوات الخمس، وعند السجود، وعند تلاوة القرآن، وعند ختمه، وعند قول الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وعند شرب زمزم، وعند صياح الديكة، وعند مجالس الذكر، وعند تغميض عين الميت، وعند نزول الغيث.

أماكن الإجابة:

وللإجابة أماكن أيضاً ذكروا منها المواضع المقدسة المباركة كالمسجد، والمسجد النبوي الشريف، والمسجد الأقصى، وجوف الكعبة، وعند الطواف، وعند الملتزم، وفي الحجر، وعند زمزم، وعلى الصفا والمروة، وعند المسعى، وخلف المقام، وفي عرفات، والمزدلفة، ومنى، وعند الجمرات الثلاث، وعند قبور الأنبياء، وجربت عند قبور الصالحين.

الذين يستجاب دعاؤهم:

وذكروا ممن يستجاب دعاؤهم ما سنذكره وهم: المضطر، والمظلوم، والإمام العادل، والوالد على ولده، والولد البار الصالح، والمسافر، والصائم عند فطره، والمسلم لأخيه بالغيب، ومن لا يستعجل في دعائه، والتائب بشروطه، ومن تعار من الليل فذكر الله ودعا، والداعي بقوله: يا ذا الجلال والإكرام، والداعي بدعاء ذي النون، ومن سأل الله الجنة ثلاثاً، واستعاذ من النار ثلاثاً، والمستغفر للمؤمنين كل يوم سبعاً أو خمساً وعشرين مرة... هذا خلاصة ما ذكروه وقد ذكر أدلة كل ذلك وتوجيهه كل من الإمام النووي «في الأذكار»، والشوكاني في «تحفة الذاكرين شرح الحصن الحصين» ومحمد حسن خان القنوجي في «نزل الأبرار» رحمهم الله وأثابهم على ذلك.

الأذكار والأدعية والتعاويذ العامة والجامعة

١٦٤٤ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أكثرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بها رسولُ الله ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

[رواه أحمد، والبخاري، ومسلم وغيرهم، ويأتي تخريجه في تفسير سورة البقرة].

ش: قال ابن كثير رحمه الله تعالى في «تفسيره»: فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء حسن، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والمحرمات.

١٦٤٥ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: **«اللَّهُمَّ ربِّ اغفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وجَهْلِي، وإسْرَافِي في أَمْرِي، وما أنتَ أعلَمُ بهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئِي وعَمْدِي، وكُلُّ ذلك عِندي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعلنْتُ، وما أنتَ أعلمُ به منِّي، أنتَ المُقدِّمُ، وأنتَ المُؤخِّرُ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ»**.

[رواه أحمد (٤١٧/٤)، والبخاري في الدعوات (٤٥٢/١٣، ٤٥٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٣٩/١٧، ٤٠)].

ش: «**الخطيئة**»: الذنب. «**والإسراف**»: مجاوزة الحد في كل شيء. «**والجد**» بكسر الجيم ضد الهزل واللعب.

والحديث من الجوامع وقد جاء في بعض طرقه أنه كان يقول بعضه عقب الصلاة كما جاء في صحيح مسلم وفي آخره: «**لا إله إلا أنت**».

١٦٤٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ أسلمتُ، وبِكَ آمنتُ، وعليكَ توكّلتُ، وإليكَ أنَبْتُ، وبِكَ خاصَمتُ، اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِعِزَّتِكَ لا إلَه إلاَّ أنتَ أن تُضِلَّني، أنتَ الحَيُّ الذي لا يَمُوتُ والجِنُّ والإنس يمُوتُون**».

[رواه البخاري في التوحيد (١٤٠/١٧) مختصراً، ومسلم (٣٩/١٧) واللفظ له].

ش: «**لك أسلمت**»: أي انقدت. «**وعليك توكلت**»: أي فوضت أموري. «**وإليك أنبت**»: أي أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك. «**وبك خاصمت**»: أي بك أحتج وأدافع. وفيه الاستعاذة بعزته تعالى عن الإضلال لأن القلوب بيده عزّ وجلّ، وتقدم نحو هذا الدعاء مطولاً في التهجد.

١٦٤٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ أصْلِحْ دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأصْلِحْ دُنْيَايَ التي فيها مَعَاشِي، وأصْلِحْ لِي آخِرَتِي التِي فيها مَعَادِي، واجْعَلْ الحياةَ زِيادَةً لِي فِي كُلِّ خَيرٍ، واجْعَلْ الموتَ راحةً لِي مِن كُلِّ شَرٍّ**».

[رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤٠/١٧)].

ش: هذا الدعاء جامع لخيري الدنيا والآخرة ديناً ودنيا ومعاداً فمن دعا به فقد أبلغ في الدعاء.

١٦٤٨ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللَّهُمَّ إنّي أسألُكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفَافَ والغِنَى**».

[رواه مسلم (١٧/٤٠، ٤١)، والترمذي (٣٤٨٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٧٤)، وابن ماجه (٣٨٣٢)، وابن حبان (٩٠٠)، وكذا أحمد (١/٣٨٩، ٤١١، ٤٤٣) وفي مواضع].

ش: «**الهدى والتقى**»: معناهما واحد. «**والعفاف**» والعفة: هو التنزه عما لا يباح والكف عنه. «**والغنى**»: المراد به غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم من الحطام.

١٦٤٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «**ربِّ أعِنِّي ولا تُعِن عليَّ، وانصُرني ولا تَنصُر عليَّ، وامكُرْ لي ولا تَمْكُر عليَّ، واهْدِني ويسِّر الهُدى لِي، وانصُرْني على مَنْ بَغَى عليَّ، ربِّ اجْعَلْنِي لكَ شَاكِراً، لكَ ذَاكِراً، لكَ راهِباً، لكَ مِطْوَاعاً، لكَ مُخْبِتاً، إليكَ أوَّاهاً منيباً، ربِّ تقبَّلْ تَوْبَتِي، واغْسِلْ حَوْبَتِي، وأجِبْ دَعْوَتِي، وثبِّتْ حُجَّتِي، وسَدِّد لِساني، واهْدِ قَلْبِي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**».

[رواه أحمد (١/٢٢٧، ٦٦٤، ٦٦٥)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١٥٥)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وابن حبان (٩٤٧، ٩٤٨)، والحاكم (١/٥١٩، ٥٢٠) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: «**امكر لي**»: المكر: الخدع، وهو من الله تعالى إيقاع المكروه بالعدو وصرفه عن وليه تعالى. «**راهباً**» الرهبة: الخوف والفزع. «**مطواعاً**» بكسر الميم: أي طائعاً لك. «**مخبتاً**» بضم الميم وسكون الخاء وكسر الباء: أي خاشعاً خاضعاً متواضعاً. «**أواهاً**»: الأواه: البكاء، وقيل: المتضرع الكثير الدعاء. «**منيباً**»: أي رجاعاً إليك بالتوبة والإخلاص. «**حوبتي**»: الحَوبة والحُوب: الإثم والذنب. «**وثبت حجتي**»: أي بالدليل والبينة. «**سدد لساني**»: أي اجعله ينطق بالصواب والرشاد. «**سخيمة صدري**»: السخيمة: الغل والحقد، وهذا دعاء جامع عظيم لا ينبغي للمسلم تركه.

١٦٥٠ ـ وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قام على المنبر ثم بكى فقال: قام رسول الله ﷺ عام أوّل على المنبر ثم بكى فقال: «**سَلُوا اللَّهَ العَفْوَ والعَافِيَةِ، فإنَّ أحداً لم يُعْطَ بَعْدَ اليقِينِ خيراً مِنَ العَافِيَةِ**».

[رواه أحمد (٣/١، ٤)، والترمذي (٣٥٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وأبو يعلى (٨٦)، وابن حبان (٢٤٢١) بالموارد، والحاكم (٥٢٩/١) وسنده حسن وهو صحيح، وله شاهد عن أنس وفيه: «**سل ربك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة**»، رواه الترمذي (٣٥١٢)، وأحمد (١٢٧/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٣٧)، وابن ماجه (٣٨٤٨)، وحسنه الترمذي. وشاهد ثان عن العباس وفيه: «**سل الله العافية في الدنيا والآخرة**»، رواه الحميدي (٤٦١)، وأحمد (٢٠٩/١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٦)، والترمذي (٣٥١٤) وصححه. وشاهد ثالث رواه الحاكم (٤٩٨/١) من حديث ابن عمر وصححه. وشاهد رابع عن أبي هريرة رواه ابن ماجه (٣٨٥١) بسند صحيح]. .

ش: «**العفو**»: الصفح عن الذنب وترك العقوبة. «**والعافية**»: السلامة من الأسقام والبلايا. «**والمعافاة**»: أن تسلم من إذاية الناس ويسلموا منك، وقيل غير ذلك.

وفي الحديث وما معه أن أفضل ما أعطيه الإنسان العفو والعافية، وحق له ذلك فإن ما ذكر جمعا كل خير في الدارين.

١٦٥١ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فأراد أن يكلمه وعائشة تصلي فقال لها رسول الله ﷺ: «**عليكِ بالكَوامِلِ**» أو كلمة أخرى، فلما انصرفت عائشة سألته عن ذلك فقال لها: «**قولِي: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ مِن الخيرِ كُلِّهِ عاجِلِهِ وآجِلِهِ ما علمتُ منه ومَا لَمْ أعلمْ، وأعوذُ بِكَ من الشرِّ كُلِّه عاجِلِهِ وآجِلِهِ، ما علمتُ منه وما لم أعلم، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قَرَّبَ إليها مِن قولٍ أو عَمَلٍ، وأعوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وما قَرَّب إليها مِن قولٍ أوْ عَملٍ، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ مِن خَيرِ ما سألَكَ عَبدُكَ ورسولُكَ محمَّد ﷺ، وأعوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما اسْتَعاذَكَ مِنهُ عبدُكَ ورسولُكَ محمَّد ﷺ، وأسألُكَ ما قضيتَ لِي مِن قضاءٍ أن تَجعَلَ عاقِبَتَهُ رُشداً**».

[رواه الطيالسي (١٢٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٣٩)، وأحمد (١٤٦/٦، ١٤٧)، وابن ماجه رقم (٣٨٤٦)، وابن حبان (٢٤١٣) بالموارد، وسنده صحيح].

ش: هذا دعاء عظيم جداً فهو من الكوامل كما قال ﷺ، فهو أجمع

دعاء على الإطلاق، فينبغي للمسلم الاهتمام به والدعاء به في كل أدعيته.

١٦٥٢ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خيرَ المسألةِ، وخيرَ الدُّعَاءِ، وخيرَ النَّجَاةِ، وخيرَ العَمَلِ، وخيرَ الثَّوابَ، وخيرَ الحَياةِ، وخيرَ المَمَاتِ، وثَبِّتْنِي وثقلْ موازِيني، وأَحقَّ إيمانِي، وارْفَعْ دَرَجَتِي، وتقبَّلْ صلاتِي، واغْفِرْ خَطيئَتِي، وأسألُكَ الدَّرجاتِ العُلى من الجنَّةِ، آمين. اللَّهُمَّ إِنِّي أسألُكَ فواتِحَ الخيرِ وخواتِمَهُ وجَوامِعهُ، وأوَّلَهُ وآخِرَهُ، وظاهِرَهُ وباطِنَهُ، والدَّرجات العُلى مِنَ الجنَّةِ، آمين. اللَّهُمَّ نَجِّنِي منَ النَّارِ، ومَغْفِرَةً باللَّيل، ومغفرةً بالنَّهار، والمَنزلَ الصَّالح مِنَ الجنَّةِ، آمين. اللَّهُمَّ إِنِّي أسألُكَ خلاصاً مِنَ النَّارِ سالماً، وأدْخِلْنِي الجنَّةَ آمِناً. اللَّهُمَّ إِنِّي أسلُكَ أن تُبارِكَ لِي فِي نَفْسِي، وفِي سَمْعِي، وفِي بَصَرِي، وفِي رُوحِي، وفِي خَلْقِي، وفي خُلُقِي، وفي أهلِي، وفي حياتِي، ومماتِي، وفي عِلْمِي. اللَّهُمَّ وتقبَّلْ حَسناتِي وأسألُكَ الدَّرجاتِ العُلى مِنَ الجنَّةِ، آمين».

وفي رواية جاء في أوله: «اللَّهُمَّ أنتَ الأوَّلُ فلا شيءَ قبلَكَ، وأنتَ الآخرُ فلا شيءَ بعدكَ، أعُوذُ بِكَ من شرِّ كلِّ دابَّةٍ ناصِيَتُها بيَدِكَ، وأعُوذُ بِكَ من المأثَمِ والمَغْرَمِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي من الخَطايا كما نقَّيتَ الثَّوبَ الأبيضَ من الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ باعِدْ بيني وبينَ خطاياي كما باعَدْتَ بين المَشْرِقَ والمَغْرِبَ».

[رواه الطبراني في «الدعاء» (١٣٥٦، ١٤٢٢)، وفي «المعجم الكبير» (٣١٦/٢٣، ٣١٧)، والحاكم (٢٤/٢) واللفظ للطبراني وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال النور في المجمع (١٧٧/١٠): رواه الطبراني في الكبير، وفي الأوسط باختصار بأسانيد وأحد إسنادي الكبير ورجال الأوسط ثقات].

ش: هذا الدعاء من أجمع ما جاء في الأدعية التفصيلية فعليك به أيها المسلم، فإنه لم يترك خصلة تهم المسلم إلا ذكرها.

١٦٥٣ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ قُلوبَ بَنِي آدَمَ كلَّها بين أصبُعَيْنِ من أصابِعِ

الرَّحمٰنِ كقَلْبٍ واحدٍ يَصَرِّفُهُ حيث يشاءُ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا على طَاعَتِكَ».

[رواه أحمد (١٦٨/٢، ١٧٣)، ومسلم في القدر (٢٠٣/١٦، ٢٠٤)، والنسائي في الكبرى (٤١٤/٤)، وابن حبان (٩٠٢) بالإحسان وعنده: «اللَّهُمَّ اصْرِفْ قُلوبَنا إلى طَاعَتِكَ»].

ش: قوله: «صرف قلوبنا..» إلخ: أي حوّلها ووجهها.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجلّ يصرف قلوب جميع عباده كيف يشاء من معصية إلى طاعة، والعكس، ومن بغض إلى حب، ومن كفر إلى إيمان... ولذلك ينبغي للمسلم أن يدعو بهذا الدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ حتى لا يصرفه إلى معصية.. فإن الأمور متعلقة بأسبابها.

١٦٥٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلُوبَ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ». قلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أصبُعَيْنِ مِن أصابعِ الله يُقلِّبُها كيفَ شاءَ».

[رواه أحمد (١١٢/٣، ٢٥٧)، والترمذي (٢١٤٠) في القدر، وابن ماجه (٣٨٣٤)، والحاكم (٥٢٦/١)، والبغوي في شرح السنة (٨٨) وحسنه الترمذي وسنده صحيح، وله شواهد عن أم سلمة عند الترمذي في الأدعية (٣٥٢٣)، وعن النواس بن سمعان عند أحمد، وابن ماجه، وعن شهاب الجرمي عند الترمذي (٣٥٨٧) فالحديث صحيح جداً].

ش: «يا مقلب..» إلخ: أي يا رب. «مقلب القلوب»: أي مصرفها ومغيرها ومبدلها من حالة إلى حالة. «ثبت قلبي..» إلخ: أي اجعل قلبي ثابتاً على التمسك بدينك لا يتبدل ولا يتغير.

وهذا الحديث كسابقه معنى ومبنى وكلاهما من أحاديث الصفات فيجب الإيمان بالأصابع هنا على ما أراده الله ورسوله ﷺ، ويجب صرفه عن ظاهره بمعنى الجارحة فإن الله تعالى منزه عن صفات خلقه.

١٦٥٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ والهَرَمِ، والمَغْرَمِ والمَأْثَمِ. اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بِكَ مِن عذابِ النارِ وفتنةِ النَّارِ، وفِتنةِ القبرِ وعذابِ القبرِ، وشرِّ فِتنة القَبْر، ومن شرِّ فِتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ. اللَّهُمَّ اغسِلْ خطاياي بماءِ الثَّلجِ، وماءِ البَردِ، ونقِّ قَلْبِي من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضِ مِنَ الدَّنَسِ، وباعِدْ بيني وبينَ خطَاياي كما بَاعَدْتَ بينَ المشْرِقِ والمغربَ».

وفي رواية: «ومن شرِّ فِتنة الغِنَى..» إلخ.

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٦، ٤٣٧)، ومسلم في الذكر (١٧/٢٨، ٢٩) وباقي الجماعة].

ش: «الكسل»: فترة تلحق بالإنسان ينشأ عنها تثبطه عن العمل وقلة الرغبة فيه. «والهرم»: أرذل العمر والخرف وضعف الحواس. «والمغرم»: الاستدانة مع تعذر القضاء وتعسره. «والمأثم»: ما يكون سبباً للوقوع في الآثام. «وفتنة النار»: هي الأسباب التي تؤدي إلى النار. «وفتنة القبر»: ما يحصل للمخذول في قبره من عدم الإجابة. «وفتنة الغنى»: ما ينشأ عنه من البطر والشح والطغيان. أما «فتنة الفقر» فما ينشأ من السخط والقنط وعدم الرضا بما قضاه الله تعالى.

والحديث من جوامع الاستعاذات إذ فيه أحد عشر مستعاذاً منه.

١٦٥٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت أسمع النبي ﷺ يكثر أن يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الهمِّ والحُزْنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدين وغَلَبَةِ الرِّجال». زاد في رواية: «وأرْذَلِ العُمر، وعذابِ القبرِ وفتنةِ المَحيا والمَمَاتِ».

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣١)، ومسلم في الذكر (١٧/٢٩، ٣٠)].

ش: «الهم»: كل ما يهم الإنسان ويكدره. «وضلع الدين» بفتحتين: المراد به هنا ثقل الدين وشدته. «وغلبة الرجال»: أي شدة تسلطهم عليه. «وفتنة المحيا..» إلخ: أي زمن الحياة وزمن الموت.

١٦٥٧ ـ وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من العَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، والهَمْ وعذابِ القبرِ. اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاها، وزكِّها أنتَ خَيرُ مَنْ زَكَّاها، أنتَ وليُّها ومَوْلاها. اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ من عِلمٍ لا يَنْفَعُ، ومِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، ومِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، ومِنْ دَعْوَةٍ لا يُستَجَابُ لَها**».

[رواه أحمد (٣٧١/٤)، ومسلم في الذكر (٤١/١٧)، والنسائي في الاستعاذة من الكبرى (٤٤٣/٤، ٤٤٤)، والترمذي في الأدعية (٣٥٧٢)].

ش: «**وزكها**»: أي طهرها من نقائص ومساوىء الأخلاق.

١٦٥٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من شرِّ ما عَمِلْتُ، ومِنْ شرِّ مَا لَمْ أعمَلْ**».

[رواه مسلم (٣٨/١٧)، وأبو داود (١٥٥٠)، وابن ماجه (٣٨٣٩)].

ش: «**من شر ما عملت..**» إلخ: أي من شر ما اكتسبته مما يقتضي العقوبة في الدنيا أو في الآخرة، وهذا تشريع للأمة، أما هو ﷺ فمأمون من العقوبة إجماعاً.

١٦٥٩ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وجَمِيعِ سَخَطِك وغَضَبِكَ**».

[رواه مسلم في الرقاق (٥٤/١٧)، وأبو داود في الصلاة (١٥٤٥)].

ش: «**الفجاءة**» بضم الفاء وفتح الجيم والمد، وفتح الفاء وسكون الجيم على وزن ضربة: هي البغتة وهو تعوذ عظيم.

١٦٦٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه **أن النبي ﷺ كان يتعوذ من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء.**

[رواه البخاري (٣٩٨/١٣)، ومسلم (٣٠/١٧)].

ش: «سوء القضاء»: أي المقضي السوء، سواء كان في الدين أو في الدنيا، في البدن والمال، والأهل، أو الخاتمة. وقوله: «درك الشقاء» بفتح الراء وسكونها ومعناه: أتحصن بك أن يدركني شقاء في أموري دنيا وأخرى. وقوله: «شماتة الأعداء»: هي فرح الأعداء ببلية ومحنة تنزل بالإنسان. «وجهد البلاء» بضم الجيم وفتحها: هي الحال الشاقة مع قلة المال وكثرة العيال.

١٦٦١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، والكَسَلِ، والجُبْنِ، والبُخْلِ، والهَرَمِ، والقَسْوَةِ، والغَفْلَةِ، والعَيْلَةِ، والذِّلَّةِ، والمَسْكَنَة. وأَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ، والفُسُوقِ، والشِّقَاقِ، والنِّفَاقِ، والسُّمْعَة، والرِّيَاء. وأَعُوذُ بِكَ من الصَمَمِ والبَكَمِ، والجُنُونِ والجُذَامِ والبَرَصِ، وسَيِّئِ الأسقام».

[رواه ابن حبان (٢٤٤٦) بالموارد، والطبراني في «الصغير» (١/١١٤)، والحاكم (١/٥٣٠، ٥٣١) من طريقين، وسندهما صحيح، وصححه الحاكم على شرط البخاري ومسلم ووافقهما الذهبي].

ش: هذا الدعاء من الجوامع العظام، فقد اشتمل الحديث على اثنتين وعشرين خصلة مستعاذاً منها تتعلق بجميع حياة الإنسان وأحواله وشؤونه.

١٦٦٢ ـ وعن قطبة بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخلاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ».

[رواه الترمذي (٣٥٩١)، وابن حبان (٢٤٢٢) بالموارد، والطبراني في «الكبير» (١٩/١٩)، والحاكم (١/٥٣٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي].

ش: وقوله: «من منكرات الأخلاق»: أي الأخلاق السافلة الهابطة. «والأهواء»: الذميمة.

وهذا ما أمكن إيراده واختياره من جوامع الأذكار والأدعية والتعاويذ، جعلنا الله تعالى ممّن يعتاد ذكرها والمداومة عليها حتى الموت آمين. ولنشرع بعد هذا في الأذكار والأدعية المؤقتة والعارضة في حياة المسلم.

أذكار الصباح والمساء عموماً

١٦٦٣ ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى المُلْكُ لله، والحمدُ لله لا إلَه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ**» أراه قال: «**لهُ المُلكُ، ولهُ الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ربِّ أسألُكَ خيرَ ما في هذه الليلةِ وخيرَ ما بَعْدَها، وأعُوذُ بِكَ من شرِّ هذه الليلةِ وشرِّ ما بعدَها. ربِّ أعوذُ بِكَ من الكَسَل وسُوءِ الكِبَرِ. ربِّ أعُوذُ بِكَ من عذابٍ في النَّارِ، وعذابٍ في القَبْرِ**». وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «**أصْبَحْنَا وأصْبَحَ المُلْكُ لله والحمدُ لله**». وفي رواية: «**وخيرِ ما فيها. وشرِّ ما فيها**».

[رواه أحمد (١/٤٤٠)، ومسلم (١٧/٤٢)، وأبو داود (٥٠٧١)، والترمذي (٣٣٩٠)، وأبو يعلى (٥٠١٤)، وابن حبان (٩٦٣) وغيرهم].

١٦٦٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه يقول: «**إذا أصبح أحدُكم فليقل: اللَّهُمَّ بِكَ أصْبَحْنَا وبِكَ أمْسَينَا، وبِكَ نَحْيا وبِكَ نَمُوتُ وإليكَ المَصِير. وإذا أمسى فليقُل: اللَّهُمَّ بِكَ أمْسَينا وبِكَ أصبَحْنا وبِكَ نحيا وبك نَموتُ وإليك النُّشور**».

[رواه أحمد (٢/٣٥٤، ٥٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩٩)، وأبو داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٩٢)، وابن ماجه (٣٨٦٨)، وابن حبان (٩٦٤، ٩٦٥) وهو صحيح لطرقه بل بعض طرقه صحيحة على شرط مسلم].

١٦٦٥ ـ وعنه أيضاً قال: قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ**

فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ، ربَّ كل شيءٍ ومليكه أشهدُ أن لا إلَه إلاَّ أنتَ أعُوذُ بِكَ من شرِّ نفسي ومِن شرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه وأن أقترفَ على نَفْسي سوءاً أو أجُرَّه إلى مسلمٍ».

[رواه أحمد (٩/١، ١٠)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (٣٨٦٨)، والدارمي (٢٦٩٢)، وابن حبان (٩٦٤، ٩٦٥)، والحاكم (٥١٣/١) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم والذهبي والنووي والحافظ].

ش: قوله: «وشركه»: أي ما يدعو إليه ويوسوس من الإشراك بالله تعالى، ويروى بفتح الشين والراء أي حبائله ومصائده.

١٦٦٦ ـ وعن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الكلمات حين يمسي وحين يصبح: **«اللَّهُمَّ إنِّي أسلُكَ العفوَ والعافيةَ فِي دِيني ودُنْيايَ وأهلِي ومالِي. اللَّهُمَّ اسْتُر عَوْرَاتي وآمِن رَوْعَاتِي واحْفَظْنِي مِن بينَ يديّ ومِن خَلْفِي وعَن يَمِينِي وعَنْ شِمالِي ومِن فَوْقِي، وأعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أن أُغْتَالَ مِن تحْتِي».**

[رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وأحمد (٢٥/٢)، وابن ماجه (٣٨٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠)، وابن حبان (٩٦١)، والحاكم (٥١٧/١، ٥١٨) وصححه ووافقه الذهبي].

١٦٦٧ ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِن عبدٍ يقول في صباحِ كلِّ يوم ومساءِ كلِّ ليلةٍ: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ وهو السَّميعُ العليمُ ثلاثَ مراتٍ فيضرُّه شيءٌ».**

[رواه الطيالسي (٧٩)، وأحمد (٦٢/١، ٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٠)، وأبو داود (٥٠٨٨، ٥٠٨٩)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، وابن حبان (٨٥٢، ٨٦٢)، والحاكم (٥١٤/١) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٦٦٨ ـ وعن عبدالرحمن بن أبزى عن أبيه رضي الله تعالى عنهم أن

رسول الله ﷺ كان يقول إذا أصبح: «**أصْبَحْنَا على فِطْرَةِ الإسلام وكلِمَةِ الإخلاصِ وعَلى دِينِ نبيِّنَا محمَّد ﷺ وعلى مِلَّةِ أبِينَا إبراهيم عليهِ السَّلام حَنِيفاً مُسلماً وما كانَ من المُشرِكِين**».

[رواه أحمد (٤٠٦/٣، ٤٠٧)، والدارمي رقم (٢٦٩١)، وابن السني (١٢) وسنده حسن].

ش: «**فطرة الإسلام**»: كلمة التوحيد أو السنة.

١٦٦٩ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قالَ حين يُصبِحُ: اللَّهُمَّ أصْبَحْنَا نُشْهِدُك ونشهدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وملائِكَتَك وجميعَ خَلْقِكَ بأنَّكَ أنتَ الله لا إلَهَ إلاَّ أنتَ وحْدَكَ لا شَريكَ لك، وأنَّ محمداً عبدُكَ ورسولُكَ إلا غَفَر الله له مَا أصابَ في يَومِه ذلكَ، وإن قالها حِينَ يُمسي غفرَ الله له مَا أصابَ في تِلك اللَّيلةَ من ذنبٍ**».

[رواه أبو داود (٥٠٦٩) في الأدب، والترمذي في الدعوات (٣٥٠١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠١)، والنسائي (١٠/٩)، وابن السني (٦٨) كلاهما في «اليوم والليلة» وهو حديث حسن لطريق وشاهد له عن أبي هريرة عند الحاكم (٥٢٣/١)، وآخر عن سلمان وصححه].

وفي رواية لأنس: «**من قالها حين يصبح أو يمسي أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه، فإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار، كذا عند أبي داود وغيره وجوده النووي.**

١٦٧٠ ـ وعن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قالَ حِينَ يُصبِحُ: لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ وله الحمدُ يُحْيِي ويُميتُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ عشرَ مراتٍ كتبَ الله له بكلِّ واحدةٍ قالَها عشرَ حسناتٍ، وحَطَّ الله عنهُ عَشرَ سيِّئاتٍ، ورفَع الله بها عَشرَ دَرَجَاتٍ، وكُنَّ لهُ كعشرِ رِقابٍ، وكنَّ له مَسْلَحَةً من أوَّلِ النَّهار إلى آخِرِه، ولم يعملْ يومئذٍ عَملاً يَقْهَرْهُنَّ، فإن قالَ حينَ يُمسي فمثلُ ذلك**».

[رواه أحمد (٥/٤٢٠، ٤١٥)، وابن حبان (٥/٣٦٩، ٣٧٠) من طريقين وأحدهما سنده صحيح وأصله في الذكر من صحيح مسلم (٢٦٩٣)، وله شاهد عن أبي عياش الزرقي بنحوه رواه أحمد (٤/٦٠)، وأبو داود (٥٠٧٧)، وابن ماجه (٣٨٦٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٧) وسنده صحيح على شرط مسلم، وشاهد ثان عن أبي ذر عند النسائي في الكبرى (٦/٣٧)، وشهر بن حوشب تكلموا فيه بلا حجة].

ش: وفي الحديث فضل هذا الذكر صباحاً ومساءً وأن لذاكره أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً.

١٦٧١ ـ وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«سيِّدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ: اللَّهُمَّ أنتَ ربِّي لا إلَه إلاَّ أنتَ خلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ أعُوذُ بِكَ من شرِّ ما صنعتُ أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عليَّ وأبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لي إنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنتَ»**. قال: **«إن قالها بعدما يصبح موقناً بها ثم مات كان من أهل الجنة، وإن قالها بعدما يمسي موقناً بها ثم مات كان من أهل الجنة»**.

[رواه أحمد (٤/١٢٢)، البخاري في الدعوات (١٣/٣٤٣، ٣٤٥)، والترمذي (٣٣٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٦/١٥٠) ونحوه عن بريدة رواه أبو داود (٥٠٧٠)، وابن ماجه (٣٧٨٢)، والحاكم (١/٥١٤، ٥١٥) وسنده صحيح، وقد قدمنا معنى الحديث في باب الاستغفار والتوبة].

١٦٧٢ ـ وعن عبدالله بن خبيب رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلي لنا فأدركناه فقال: **«قُلْ»**، فلم أقل شيئاً، ثم قال: **«قُلْ»**، فلم أقل شيئاً، ثم قال: **«قُلْ»**، قلت: يا رسول الله ما أقول، قال: **«قُلْ هُوَ اللَّهُ أحد والمُعَوِّذَتَيْنَ حِين تُمْسِي وحِينَ تُصبِحَ ثلاثَ مراتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شيءٍ»**.

[رواه أبو داود (٥٠٨٢)، والترمذي في الأدعية (٣٥٧٥)، والنسائي (٨/٢١٩)، وفي الكبرى (٤/٤٤٢، ٤٤٣) وسنده صحيح].

ش: في حديث شداد في سيد الاستغفار بشارة بدخول الجنة لقائله صباحاً ومساءً. أما حديث ابن خبيب فيدل على فضل قراءة المعوذات

صباحاً ومساءً، وأنها تكفي المسلم عن كل شيء.

وتقدم حديث: الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه وهو في الصحيحين.

هذا ما تيسر لنا اختياره من أذكار الصباح والمساء، ولا شك أن لهذين الوقتين شأناً عظيماً، ولذلك كان النبي ﷺ يحافظ على أذكار كثيرة يخصها بالذكر في الصباح والمساء امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾، وجاءت السنة بالحض على ذلك أيضاً.

الأذكار والأدعية المؤقتة بأسبابها
حسب تصرفات المسلم في حياته

ما يقرأ قبل النوم من السور والآيات

١٦٧٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوَى إلى فِراشِهِ كُلَّ ليلةٍ جَمَعَ كَفَّيْه ثُم نَفَثَ فِيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يَمسح بهما ما استطاع من جَسَدِه يَبْدأ بهما على رأسِه ووجهِهِ وما أقبل مِن جسدِه يَفعلُ ذلك ثلاثَ مراتٍ.

[رواه أحمد (١١٦/٦، ١٥٤)، والبخاري في فضائل القرآن (٥٠١٧)، وفي الطب (٥٧٤٨)، وفي الدعوات (٦٣١٩)، ومسلم في السلام (٢١٩٢)، وأبو داود في الطب ٣٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٢)، وبتهذيبي (٣١٨٢)، وابن ماجه (٣٨٧٥) وغيرهم].

١٦٧٤ ـ وعن فَرْوَةَ بن نَوفلٍ عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله عَلِّمْني شيئاً أقولُه إذا أوَيْتُ إلى الفِراشِ، فقال: «اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ فإنَّها بَراءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ».

[رواه أحمد (٤٥٦/٥)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، وبتهذيبي (٣١٨٣)، والنسائي في الكبرى (٢٠٠/٦)، وابن حبان (٢٣٦٣، ٢٣٦٤) بالموارد، والحاكم (٥٦٥/١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وللحديث شاهدان عن ابن

مسعود وعن رجل من الصحابة رواهما النسائي في «الكبرى» (١٧٧/٦)، وشاهد ثالث عن أنس رواه البيهقي].

١٦٧٥ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان لا يَنامُ حتى يَقرأَ سورة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

[رواه أحمد (٣٤٠/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧، ١٢٠٩)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٧٠٠) بتهذيبي، وفي الدعوات (٣١٨٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨)، والحاكم (٤١٢/٢) وهو حديث صحيح، له طريق على شرط مسلم وصححه جماعة من أهل الحديث].

١٦٧٦ ـ وعن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ لا ينامُ حتى يقرأَ «بني إسرائيل والزمر».

[رواه أحمد (٦٨/٦، ١٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤٤٤/٦)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٧٢٧)، وفي الدعوات (٣١٨٥) بتهذيبي، وسنده حسن].

١٦٧٧ ـ وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ المُسبِّحاتِ قبل أن يَرْقُدَ يقول: «إنَّ فِيهِنَّ آيةً خيرٌ مِن ألفِ آيةٍ».

[رواه أحمد (١٢٨/٤)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٧٢٨)، وفي الدعوات (٣١٨٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧١٣، ٧١٤)، وفي «الكبرى» (١٧٩/٦)، وهو حديث حسن كما قال الترمذي، وكذا حسنه الحافظ في «نتائج الأفكار» ص (١٩٥)].

١٦٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الثالثة قال له: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، حتى تختمها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال له النبي ﷺ: «صَدَقك وهو كذوبٌ، ذاكَ شيطانٌ».

[رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٠)، وفي بدء الخلق (٣٢٧٥)، وفي الشركة (٢٣١١)].

ش: في هذه الأحاديث مشروعية قراءة ما فيها قبل النوم وهي: المعوذات، وقل يا أيها الكافرون، وألم تنزيل، وتبارك الملك، وبنو إسرائيل والزمر، وآية الكرسي والمسبحات؛ وهي كل سورة افتتحت بالتسبيح وهي: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، و﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي ثلاث: الحديد، والحشر، والصف، و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي اثنتان: الجمعة، والتغابن، ثم ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فجملتها سبع ومن فضلها أن فيها آية خير من ألف آية ويقال: إنها خواتم الحشر: هو الله الذي لا إلَه إلا هو عالم الغيب والشهادة.. إلخ.

وفي حديث أبي هريرة في قصته مع الشيطان فضل آية الكرسي وأن قارئها لا يزال معه من الله حافظ يحفظه من الشياطين ومن الآفات. كما أن حديث فروة بن نوفل يدل على أن قراءة سورة الكافرون تبرىء صاحبها من الشرك. وتقدم في فضائل القرآن فضل قراءة المعوذات، كما تقدم فضل خواتيم سورة البقرة في قيام الليل وفي فضائل القرآن.

أذكار النوم

١٦٧٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوَى أحدُكم إلى فراشِه فَلْيَنفُض فراشه بداخِلَةِ إزاره فإنه لا يَدري مَا خَلَفَهُ عليه ثم يقول: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أرْفَعُه، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإن أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عِبادَكَ الصَّالِحينَ». وفي رواية: «فإذا أرادَ أنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ على شِقِّه الأيمَنِ ولْيَقُلْ: سُبحانك رَبِّي لَكَ وضعتُ جنبي. .» إلخ.

[رواه أحمد (٢/٢٩٥، ٤٣٢)، والبخاري في الدعوات (١٣/٣٧٤، ٣٧٥)، ومسلم في الذكر (١٧/٣٧)، والترمذي رقم (٣٤٠١)، وأبو داود (٥٠٥٠)، والدارمي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٣٨٧٤) وغيرهم].

١٦٨٠ ـ وعن سهيل قال: كان أبو صالح رحمهما الله يأمرنا إذا أراد أحَدُنا أن ينامَ أن يَضْطَجِعَ على شِقِّهِ الأيمنِ ثم يقول: «اللَّهُم ربَّ السَّمواتِ السبعِ وربَّ الأرضِين، وربَّ العرشِ العظيم، ربَّنَا وربَّ كلِّ شيءٍ فالقَ الحبِّ والنَّوى مُنْزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والفُرقَانِ، أعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ شيءٍ، أنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِه، إن ربي على صراط مستقيم أنتَ الأولُ فليس قبلَك شيءٌ وأنت الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَك شيءٌ، وأنتَ الباطنُ فليس دونَك شيءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأغْنِنِي مِن الفَقْرِ»، وكان يروي ذلك عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وفي رواية: عن أبي هريرة كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا

مضجعنا أن نقول... وفيه: «أعوذُ بِكَ من شرّ كلّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بِنَاصِيَتِها»، وفي أخرى: «أعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ».

[رواه مسلم في الذكر (٣٥/١٧، ٣٦)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠)، وبتهذيبي (٣١٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٨، ٧٦٦٩)، وابن ماجه (٣٨٣١) وغيرهم].

١٦٨١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمدُ لله الذي أطْعَمَنا وسَقانا وكَفَانا وآوَانا فكَم مِمَّن لا كَافِي له ولا مُؤوِي».

[رواه مسلم في الذكر (٣٧/١٧)، وأبو داود (٥٠٥٣)، والترمذي بتهذيبي (٣١٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٦)، وأبو يعلى (٣٥٢٣) وغيرهم].

١٦٨٢ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه أمر رجلاً إذا أخذ مضجعه قال: «اللَّهُمَّ خَلقتَ نَفْسِي وأنتَ تَوفَّاها لك مَمَاتُها ومَحْيَاها إن أحيَيْتَها فاحْفَظْها وإن أمَتَّها فاغْفِرْ لها، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ العَافِيَةَ». فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: من خيرٍ من عمر من رسول الله ﷺ.

[رواه مسلم في الذكر (٣٥/١٧)].

١٦٨٣ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن ينام وضع يده تحت رأسه ثم قال: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَك يومَ تَجْمَع أو تَبْعَثُ عِبادَكَ».

[رواه أحمد (٣٨٢/٥)، والحميدي (٤٤٤)، والترمذي (٣٣٩٨)، وبتهذيبي (٣١٧٨) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسنه الترمذي وصححه ومثله عن البراء عند أحمد (٢٨١/٤، ٢٩٨)، وأبي داود (٥٠٤٥)، والترمذي (٣١٧٩) وغيرهم].

١٦٨٤ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجَعَك فتوضَّأ وُضُوءَكَ للصَّلاةِ، ثمَّ اضْطَجِع على شِقِّكَ الأيمَن وقُلْ: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ وَجْهِي إليكَ، وفوَّضْتُ أمرِي إليكَ، وألْجأتُ ظَهْرِي إليكَ، رغبةً ورَهبةً إليكَ، لا ملجأ ولا مَنجا مِنكَ إلا إليكَ،

آمَنْتُ بِكِتابِكَ الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسَلت، فإن مِتَّ متَّ على الفِطرةِ، واجْعَلْهُنَّ آخر ما تقول»، فقلت: أستذكرهن وبرسولك الذي أرسلت، قال: **«ونبيك الذي أرسلت»**، وفي رواية: **«اللَّهُمَّ أسْلمتُ نَفْسِي إليكَ، ووجَّهتُ وجهي إليكَ..»** إلخ.

[رواه البخاري في الدعوات (١٣/٣٥٥، ٣٦٢)، ومسلم في الذكر (١٧/٣٢، ٣٤)، والترمذي (٣٣٩٤)، والدارمي (٢٦٨٦) وغيرهم].

١٦٨٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن فاطمة عليها السلام أتت النبي ﷺ تسأله خادماً وشكت العمل، فقال: **«ما ألفيتيه عندنا»**، قال: **«ألا أدُلُّكِ على ما هُوَ خيرٌ لكِ مِن خادم، تُسبِّحين الله ثلاثاً وثلاثين، وتَحمدين ثلاثاً وثلاثين، وتُكبِّرين أربعاً وثلاثين حينَ تأخُذِين مَضْجَعَكِ»**.

[رواه مسلم في الذكر (١٧/٤٦)، ورواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي وغيرهم من حديث الإمام علي عليه السلام مطولاً].

ش: قوله: **«أنت الظاهر.. وأنت الباطن»** معناه: أنت الظاهر في الكائنات بدلائلك وآيات قدرتك، والباطن فلا ترى بالحواس ولا تدرك كنه ذاتك ولا صفاتك في هذه الحياة. قوله: **«آوانا»**: أي رحمنا. وقوله: **«فكم ممن لا كافي له..»** إلخ: أي كم من واحد لا راحم له ولا سكن، وقيل غير ذلك. وقوله: **«لك مماتها..»** إلخ: أي لك حياتها وموتها وجميع أمورها. وقوله: **«أسلمت نفسي»**: أي انقدت لحكمك فلا قدرة لي على تدبيرها ولا على جلب ما ينفعها أو دفع ما يضرها. **«وفوضت أمري إليك»**: أي توكلت عليك في جميع أموري. **«وألجأت»**: أي اعتمدت في أموري عليك لتعينني على ما ينفعني. وقوله: **«رغبة»**: أي طمعاً في رفدك وثوابك. **«ورهبة»**: أي خوفاً من غضبك وعقابك. وقوله: **«لا ملجأ..»** إلخ: أي ليس لنا ملجأ نلجأ إليه سواك ولا لنا منجا من عذابك إلا إليك.

في هذه الأحاديث من هذا الفصل آداب للنوم وفوائد:

فيؤخذ منها سنية الوضوء قبل النوم، ثم نفض الثياب، ثم الاضطجاع على الشق الأيمن، ثم وضع اليد تحت الرأس، ثم قراءة ما أوردنا من

الأذكار، وهي أذكار ودعوات عظيمة كلها توحيد وتسليم وتفويض وتبري من الحول والقوة، تضاف إلى قراءة ما سبق من السور والآيات.

وفي حديث البراء فضل ما ذكر فيه حيث إن من ذكر ما فيه مع شرطه ومات من ليلته مات على فطرة الإسلام، وإن أصبح أصبح وقد أصاب خيراً كثيراً، وفقنا الله تعالى للعمل بكل ما ذكرنا.

ماذا يقول من يفزع في نومه

١٦٨٦ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يُعَلِّمُهم من الفَزَعِ كَلِماتٍ: «**أعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِن غَضَبِهِ وشَرِّ عِبَادِهِ ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وأنْ يَحْضُرُونُ**».

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «**إذا فَزِعَ أحَدُكُم فِي النَّوم فلْيَقُلْ: أعُوذُ بكَلِماتِ الله التَّامَّة مِن غَضَبِه وعَذَابِه وشرِّ عِبادِهِ ومِن هَمَزاتِ الشَّياطِينِ وأن يَحْضُرُونِ فإنَّها لَنْ تَضُرَّهُ**». وكان عبدالله يُلَقِّنُها مَن بلغ من أولاده، ومَن لم يَبْلُغْ منهم كَتَبها في صكٍّ وعلَّقها في عُنُقِه.

[رواه أحمد (١٨١/٢)، وأبو داود (٣٨٩٣) بالرواية الأولى، والترمذي (٣٥٢٨)، وبتهذيبي (٣٢٩٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٧٦٥، ٧٦٦)، والطبراني في الدعاء (١٠٨٦)، والحاكم (٥٤٨/١) وغيرهم وهو حديث حسن لطريقين له بل صححه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند وللمرفوع منه شاهد صحيح عن الوليد بن الوليد قال: يا رسول الله إني أجد وحشة قال: «**إذا أخَذْتَ مَضْجَعَكَ فقُلْ: أعُوذُ بكلماتِ الله التَّامَّة مِن غَضَبِهِ وعِقَابِهِ، وشرِّ عِبادِهِ، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِين وأن يَحضرونِ، فإنَّه لا يَضُرُّ، وبالحرى أن لا يقربك**» سنده صحيح على شرط الصحيح رجاله رجال الشيخين، وله شاهد آخر عن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ذكره مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن خالد بن الوليد.. إلخ رقم (١٨٣٦) وانظر ما قاله الزرقاني عليه].

ش: قوله: «بكلمات الله..» إلخ: أي صفاته القائمة بذاته، وقيل القرآن. والظاهر أنها جميع ما أنزله تعالى على أنبيائه صلوات الله وسلامه

عليهم. وقوله: «**التامة**»: أي الكاملة الفاضلة التي لا يدخلها نقص ولا عيب. وقوله: «**من همزات..**» إلخ: أي وساوسهم ونزغاتهم. وقوله: «**صَكّ**»: الصك: الكتاب.

وفي الحديثين إرشاد لمن يفزع في منامه أو يصيبه خوف أن يتحصن بكلمات الله عزّ وجلّ ويستعيذ بالله من غضبه تعالى وعقابه ومن شر جميع عباده ومن خطرات الشياطين وحضورهم عنده. فينبغي للمؤمن أن لا يغفل عن هذه الاستعاذة فإنها نافعة من تلاعب الشياطين وتخيلاتهم في المنام.

وفي فعل عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه من كتابتها وتعليقها على أطفاله ما يدل على جواز تعليق ما فيه قرآن أو اسم الله تعالى على من لا يقرأ. وأن ذلك يقوم مقام القراءة. وقد اختلف السلف وغيرهم في ذلك فمنعها بعضهم، وجعلها من التمائم المنهي عنها، وجوزها آخرون وحملوا التمائم على ما كان سائداً عند الجاهلية من تعليق الودع والوتر ونحو ذلك مما كانوا يعتقدون فيها التأثير وذلك شرك.

ولذا قال الحافظ في «الفتح» (٤٨٣/٦) من الجهاد بعد كلام.. هذا كله في تعليق التمائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه، فأما ما فيه ذكر الله فلا نهي فيه، فإنه إنما يجعل للتبرك به والتعوذ بأسمائه وذكره، وكذلك لا نهي عما يعلق لأجل الزينة إلخ. وانظر: «فيض القدير» للمناوي (١٨١/٦)، والزرقاني على «الموطأ» (٣١٩/٤) وانظر ما يأتي في الطب رقم (٥٧٥).

ما يقول من استيقظ من نومه ليلاً

١٦٨٧ ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ وهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ لله، وسُبحانَ الله، ولا إلَه إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ**»، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي، أو دَعَا، استُجِيبَ لَهُ، فإنْ توضَّأ وصلَّى قُبِلَتْ صلاتُه**».

[رواه أحمد (٣١٣/٥)، والبخاري في التهجد (٢٨١/٣، ٢٨٢)، وأبو داود (٥٠٦٠)، والترمذي (٣٤١٤)، وبتهذيبي (٣١٩٢)، والنسائي في الكبرى (٢١٥/٦)، والدارمي (٢٦٩٠)، وابن ماجه (٣٨٧٨) وغيرهم].

وزيادة: «**العلي العظيم**» بعد الحوقلة عند النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

ش: قوله: «**تعار**»: الأكثر أن التعار هو اليقظة مع صوت فمعناه استيقظ وصوت إما بذكر الله أو غيره، ويطلق التعار على السهر والانتباه والتقلب على الفراش.

وظاهر الحديث يدل على أنه الاستيقاظ والانتباه من النوم لقوله: «**من تعار فقال..**» إلخ. وفي الحديث الشريف فضل فاعل ما ذكر فيه وأنه مغفور له مستجابة دعوته مقبولة صلاته.

قال ابن بطال في شرح البخاري (١٤٧/٣، ١٤٨): وعد الله تعالى على لسان نبيه ﷺ أن من استيقظ من نومه لهجاً لسانه بتوحيد ربه والإذعان له بالملك، والاعتراف بنعمة يحمده عليها وينزهه عما لا يليق به بتسبيحه والخضوع له بالتكبير، والتسليم بالعجز عن القدرة إلا بعونه أنه إذا دعاه أجابه، وإذا صلى قبلت صلاته، فينبغي لمن بلغه هذا الحديث أن يغتنم العمل به ويخلص نيته لربه سبحانه وتعالى اهـ بتصرف.

قال الإمام أبو عبدالله الفربري راوي البخاري: أجريت هذا الذكر على لساني عند انتباهي ثم نمت فأتاني آت فقرأ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية ذكره الحافظ.

١٦٨٨ ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَوَى إِلَى فِراشِه طَاهِراً وذَكَرَ الله تعالى حَتَّى يُدرِكَهُ النُّعَاسُ لم يَنْقَلِبُ ساعةً مِنَ اللَّيلِ يَسأَلُ اللَّهَ شيئاً مِن خيرِ الدنيا والآخرةِ إلاَّ أعطَاهُ اللَّهُ إيَّاهُ**».

[رواه الترمذي (٣٥٢٦)، والطبراني في الكبير (٧٥٦٨)، وابن السني في «اليوم

والليلة» (٧١٣)، وحسنه الترمذي وذلك لشواهده منها عن عمرو بن عبسة عند أحمد (١١٣/٤)، وعند أبي داود في الأدب (٥٠٤٢) عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسلم يَبِيتُ على ذِكْرٍ طاهراً فيتعَارُّ من اللَّيل فيسألُ الله خيراً مِنَ الدُّنيا والآخرةِ إلا أعطاهُ إيَّاهُ**» وسنده صحيح].

ش: فيه فضل النوم على طهارة وأن فاعل ذلك يستجاب له إذا دعا الله عند انتباهه.

ما يقول من رأى رؤيا تفزعه

١٦٨٩ ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الرُّؤيَا مِنَ الله والحُلُمُ مِنَ الشَّيطانِ، فإذا رأى أحدُكُم شيئاً يَكْرَهُهُ فلْينفُثْ عَن يَسارِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ولْيَسْتَعِذْ باللَّهِ مِن شرِّها فإنَّها لا تَضُرُّه**».

[رواه الحميدي (٤١٨، ٤١٩)، وأحمد (٢٩٦/٥، ٣٠٥، ٣١٠)، والبخاري (١٦، ٢٢، ٢٤)، ومسلم (١٥، ١٦، ١٧، ١٩) كلاهما في الرؤيا والتعبير، وأبو داود (٥٠٢١)، والترمذي (٢٢٧٧)، وابن ماجه (٣٩٠٩)، والنسائي في «الكبرى» (٢٢٣/٦، ٢٢٤)].

١٦٩٠ ـ وعن جابر نحوه وفيه: «**ولْيستعِذْ بالله مِنَ الشَّيطانِ ثلاثاً ولْيتحوَّلْ عن جَنْبِهِ الذي كانَ عليهِ**».

[رواه مسلم في الرؤيا (١٥، ٢٠) وتأتي أحاديث في هذا في كتاب الرؤيا والتعبير].

ش: في الحديثين مشروعية ما ذكر فيهما لمن يرى في منامه ما يكره من الرؤيا وهو أن يتحول عن جنبه الذي كان عليه ثم لينفث ويتفل عن يساره ثلاث مرات وليتعوذ بالله من الشيطان ومن شر ما رأى ثلاثاً، بأن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأيت.

ما يقول من استيقظ وأصبح

١٦٩١ ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ

كان إذا أوى إلى فراشه قال: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتُ**»، وإذا أَصْبَحَ، وفي رواية: وإذا اسْتَيْقَظَ قال: «**الحمدُ لله الذي أَحْيَانَا بعدَمَا أَمَاتَنا وإليهِ النُّشُورُ**».

[رواه البخاري (٣٧٨/١٣)، والترمذي (٣٤١٧) كلاهما في الدعوات، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٧/٦)، وابن ماجه (٣٨٨٠)، والدارمي (٢٦٨٩) وغيرهم].

ومثله عن أبي ذر عند البخاري (٣٧٩/١٣)، وعن البراء مثله أيضاً عند مسلم في الذكر (٢٧١١).

١٦٩٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فإذا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الحمدُ لله الَّذِي عَافَانِي في جَسَدِي ورَدَّ علَيَّ رُوحِي وأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**».

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٠١)، وأصله في الصحيحين].

ش: في الحديثين مشروعية ما ذكر فيهما من الحمد والذكر عند القيام من النوم، وشرع الحمد هنا على اليقظة لكون النوم موتاً أصغر والقيام منه بعثاً أصغر كذلك، فكان من المناسب حمد الله تعالى على ذلك وخاصة وأنه تعالى أحياه معافى في جسده ووفقه لذكره، وتقدمت أحاديث فيما يقال في الصباح فانظرها فيما سبق.

ملحوظة: تقدمت أذكار الوضوء، وقضاء الحاجة، والأذان، ودخول المسجد، والخروج منه، وجميع أذكار الصلاة ومعقباتها، وسجود التلاوة، وأدعية قيام الليل، ودعاء الوتر، ودعاء الاستخارة، ودعاء الريح، ودعاء الاستسقاء، وبعض أدعية السفر، ودعاء الوفاة، وأدعية صلاة الجنازة، ودعاء الدفن، ودعاء نزول المصيبة، ودعاء زيارة القبور، ودعاء الفطر عند الصيام، وأدعية الحج فارجع إليها فيما سبق من مظانها وإلى القارىء أدعية وأذكار ما بقي حسب الأسباب.

ما يقال عند الخروج من المنزل

١٦٩٣ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَالَ إذا خَرَجَ مِنْ بَيتِهِ: بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ على الله لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله تعالى، يُقال له: كُفِيتَ وَوُقِيتَ وهُدِيتَ، وتَنَحَّى عنهُ الشَّيطانُ فيقولُ لشيطانٍ آخَر: كيفَ لَكَ برجلٍ قَدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ»**.

[رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦)، وبتهذيبي (٣٢٠١)، والنسائي في اليوم والليلة (٨٩)، وابن حبان (٨٢٢)، والبيهقي (٢٥١/٥)، وحسنه الترمذي وصححه وللحديث شواهد].

ش: «**توكلت على الله**»: أي اعتمدت عليه في كل أموري. قوله: «**كفيت..**» إلخ: أي نودي من قبل الله كفاك الله من كل شيء يهمك، وحفظك من كل ما تخشى، وهداك لطريقه القويم وقوله: «**وتنحى عنه الشيطان**»: أي ابتعد عنه ولم يقربه.

وهذا ذكر عظيم قد جمع كل خير لذاكره فلا ينبغي للمؤمن تركه كلما خرج من منزله.

١٦٩٤ ـ وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: **«اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَل عليَّ»**.

[رواه أحمد (٣٠٦/٦، ٣١٨، ٣٢١)، والحميدي (٣٠٣)، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧) في الدعوات، وبتهذيبي (٣٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (٢٦/٦)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والحاكم (٥١٩/١) وحسنه الترمذي وصححه، وزاد الترمذي في أوله: «**بسم الله توكلت على الله**»].

ش: فيه الاستعاذة بالله عزّ وجلّ من هذه الأحوال أن يتلبس بها الإنسان ويتصف بها أو يصاب بها من طرف غيره، وهي الضلال والزلل، والظلم والجهالة. ولا شك أن من حَصَّنَهُ الله عزّ وجلّ منها كان من السعداء الموفقين.

ما يقال عند الدخول إلى المنزل

١٦٩٥ ـ عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وَلَجَ الرَّجُل بَيتَه فليقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ خَيرَ المَوْلَج، وخَيرِ المَخْرَج، بِسم الله ولَجْنا، بسم الله خَرَجْنَا، وعَلى الله ربِّنا توكَّلنا ثم لِيُسَلِّم على أهْلِهِ**».

[رواه أبو داود في الأدب (٥٠٩٦)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٤٥٢) وسنده صحيح، وإسماعيل بن عياش روايته هنا عن شامي بلديه].

١٦٩٦ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا بُنَيَّ إذا دَخَلْتَ على أهْلِكَ فسَلِّم يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيكَ وعلى أهْلِ بَيتِكَ**».

[رواه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٨) وحسنه، وفي نسخة أنه صححه ولعله لطرقه التي جمعها الحافظ وجزم معها بتقوية الحديث].

١٦٩٧ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إذا دَخَلَ الرجلُ بَيتَه فذكر الله تعالى عندَ دُخولِهِ وعندَ طعامِه قال الشَّيطانُ: لا مَبِيتَ لكُم ولا عَشَاءَ، وإذا دَخَلَ فلم يَذكُر الله تعالى عند دُخولِه قال الشَّيطانُ: أدرَكْتُم المبِيتَ، وإذا لم يَذكرْ الله تعالى عندَ طعامه قال: أدرَكْتُم المَبِيتَ والعَشاءَ**».

[رواه أحمد (٣٤٦/٣، ٣٨٣)، ومسلم في آداب الطعام (١٩٠، ١٩١)، وأبو داود (٣٧٦٥)، وابن ماجه (٣٨٨٧)].

ش: «**ولج**» بفتح اللام: أي دخل. و«**المولج**» بفتح اللام: كالمخرج.

وفي هذه الأحاديث مشروعية ذكر الله تعالى عند الدخول إلى المنزل وسؤال الله عزّ وجلّ خير الدخول والخروج ثم السلام على من في المنزل، وأنه بذكر الله تعالى تحرم الشياطين من المبيت في ذلك المنزل.

ما يقال عند الجلوس
وعند القيام منه وبيان كفارة المجلس

١٦٩٨ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لنا مِن خَشيتِكَ ما يَحُولُ بَيْنَنا وبينَ مَعَاصِيكَ، ومِن طاعتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جنَّتَك، ومِنَ اليَقِينِ ما تُهَوِّن بِهِ علينا مُصِيباتِ الدُّنيا ومَتِّعْنا بأسْماعِنا وأبْصارِنا وقُوَّتِنا ما أحْيَيْتَنَا واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنّا، واجْعَلْ ثَأْرَنا عَلى مَنْ ظَلَمنا، وانصُرْنا على مَن عَادَانا، ولا تَجعلْ مُصِيبَتَنا في دِينِنا، ولا تَجْعَلْ الدُّنيا أكْبَرَ هَمِّنا، ولا مَبْلَغَ علمِنَا، ولا تُسَلِّط علينا مَن لا يَرْحَمُنا**».

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وبتهذيبي (٣٢٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧/٦)، والحاكم (٥٢٨/١)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

١٦٩٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ جَلسَ مَجْلِساً كَثُرَ فيهِ لَغَطُه فقال قَبلَ أن يَقومَ مِن مَجلِسِهِ ذلك: سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ أشْهَدُ أن لا إلَه إلا أنتَ، أسْتَغْفِرُك وأتُوبُ إليكَ، إلا غُفِرَ لهُ ما كانَ في مجلسِهِ ذلِكَ**».

[رواه أحمد (٤٩٤/٢)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣)، وبتهذيبي (٣٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٥/٦)، وابن حبان (٢٣٦٦) موارد، والحاكم (٥٣٦/١) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وله مع ذلك شواهد حسنة. انظرها آخر سورة الطور من «التفسير بالسنة الصحيحة»].

وتقدم حديث ابن عمر أيضاً كان تعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب علـيّ إنك أنت التواب الغفور**»، رواه أحمد وأهل السنة وسنده صحيح.

ش: قوله: «**واجعله الوارث منا..**» إلخ: أي اجعل ذلك التمتيع الذي تمتعنا به يبقى مصاحباً لنا حتى نموت. وقوله: «**لغطه**»: اللغط: هو القبيح من الكلام.

والحديث الأول من جوامع الدعوات فينبغي للمسلم أن لا يحرم نفسه مما ذكر فيه مهما كان في مجلس، بينما الحديث الثاني يبين عن فضل عظيم ولطف ورحمة من ربنا الكريم بعباده المؤمنين حيث جعل سبحانه وتعالى في هذا الذكر كفارة ومحواً لما عسى أن يصدر من الإنسان في مجلسه من الهفوات والمزالق والذنوب، ولهذا يقال له كفارة المجلس. والكفارة الخصلة التي تمحو الذنوب، وهي المرة الواحدة من التكفير، وهي التغطية للشيء.

ما يقال في السوق

١٧٠٠ ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فقال: لا إلَه إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلْك ولهُ الحمدُ يُحْيِي ويُمِيتُ، وهو حَيٌّ لا يَمُوتُ، بيدِهِ الخيرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. كُتِبَ لَهُ ألفُ ألفِ حسنةٍ، ومُحِيَ عنهُ ألفُ ألفِ سيئةٍ، ورُفِعَ لهُ ألفُ ألفِ درجةٍ**».

[رواه الترمذي (٣٢٠٢) بتهذيبي، باب ما يقول إذا دخل السوق من كتاب الدعوات، والدارمي (٢٦٩٥)، وابن ماجه (٢٢٣٥)، والحاكم (٥٣٨/١، ٥٣٩) وهو حديث حسن، وصحح الحاكم بعض طرقه على شرط البخاري ومسلم].

ش: في هذا الحديث فضل بالغ لمن دخل السوق فذكر الله تعالى بهذا الذكر العظيم فلا يستهين بهذا الفضل إلا محروم، فينبغي للمسلم أن يذهب للسوق ليقول هذا الذكر ولو لم تكن له حاجة بالذهاب إليه ليحرز هذا الفضل العظيم كتابة مليون حسنة، ومحو مليون سيئة، ورفع مليون درجة، إنه لشيء عظيم بالغ الأهمية.

ما يقال عند الكروب والهموم والأحزان

١٧٠١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان

يقول عند الكَرْب: «**لا إلَه إلاَّ اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلَه إلاَّ الله ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إلَهَ إلاَّ الله، ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ**».

[رواه أحمد (٢٢٨/١، ٢٨٠، ٣٥٦)، في مواضع، والبخاري في الدعوات (٣٩٦/١٣)، ومسلم في الذكر (٤٧/١٧)، والترمذي (٣٤٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٦٧/٦)، وابن ماجه (٣٨٨٣) وغيرهم].

ش: قوله: «الكرب» بفتح الكاف وسكون الراء: هو الحزن والهم. وفي رواية لمسلم: **كان إذا حَزَبَهُ أمر قال**.. إلخ، وهو بفتح الحاء والزاي والباء: أي نابه وألم ونزل به أمر شديد.

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: هو حديث جليل ينبغي الاعتناء به والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة. قال الطبري: كان السلف يدعون به ويسمونه دعاء الكرب.. إلخ.

قال الطيبي: صدر هذا الثناء بذكر الرب ليناسب كشف الكرب لأنه مقتضى التربية وفيه التهليل المشتمل على التوحيد، وهو أصل التنزيهات الجلالية والعظمة التي تدل على تمام القدرة، والحلم الذي يدل على العلم إذ الجاهل لا يتصور منه حلم ولا كرم، وهما أصل الأوصاف الإكرامية. ذكره الحافظ في «الفتح».

١٧٠٢ ـ وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فلا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لا إلَه إلاَّ أنتَ**».

[رواه أحمد (٤٢/٥)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وابن حبان في صحيحه (٢٣٧٠) بالموارد وسنده حسن].

ش: «**المكروب**»: المهموم.

وفي الحديث الفزع إلى التعلق بالله تعالى ورجاء رحمته عند النزول بالعبد ما يكدره وأن يسأله صلاح شأنه وأن يقوم بأموره ولا يكله إلى نفسه لضعفه وعجزه.

١٧٠٣ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَا أَصَابَ عَبْداً هَمٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُكَ وابنُ عبدِك وابنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُك، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسم هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو أَنْزَلْتَه في كِتابِك، أو علَّمْتَه أحداً مِن خَلقِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغيبِ عندكَ، أن تَجْعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجَلاء حُزْنِي، وذَهَاب غمِّي، إلاَّ أذْهبَ الله هَمَّه وحُزْنَه، وأبْدَلَهُ مكانَه فَرَجاً»**، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها، فقال: **«بلى ينبغي لِمَن سَمِعَها أن يَتَعلَّمَها»**.

[رواه أحمد (٣٩١/١، ٤٥٢)، وابن حبان (٢٥٣/٣)، وأبو يعلى، والحاكم (٥٠٩/١) وغيرهم بسند صحيح، كما جزم به الشيخ أحمد شاكر والشيخ ناصر الألباني وانظر تعاليق الشيخ شعيب الأرناؤوط على «صحيح ابن حبان» (٢٥٣/٣، ٢٥٤) وقد وهم من ضعف الحديث].

ش: هذا حديث عظيم في باب أدعية الكرب إذ فيه الاعتراف بالعبودية لله تعالى والتسليم لقضائه وحكمه والإقرار بعدله فيه، وقدم ذلك بين يدي الدعاء ليكون أرجى وأقرب للإجابة، وفيه التوسل بأسماء الله تعالى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم كما فيه طلب الحصول على ثمرات تلاوة القرآن الكريم التي هي المقصود الأهم من التلاوة، وهو تطهير القلب وتزكيته وتنويره وجلاء الهموم والأكدار عنه، وفيه دليل على أن لله أسماء استأثر بها عنده فلا يعلمها أحد سواه كما أن له أسماء اختص بها بعض عباده المصطفين من خلقه، وفيه وعد من الله على لسان رسوله ﷺ أنه سيفرج كروب قارىء هذا الدعاء ويجلى عنه ما نزل بقلبه من الأحزان والهموم.

١٧٠٤ ـ وعن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أُعَلِّمُكِ كلماتٍ تقُولِينَهُنَّ عندَ الكَرْبِ أو فِي الكَرْبِ: الله الله ربِّي لا أُشْرِكُ بِهِ شيئاً»**.

[رواه ابن أبي شيبة (١٩٧/١٠)، وأحمد (٣٦٩/٦)، وأبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه

في الدعاء (٣٨٨٢) وسنده حسن، وله شاهد عن عائشة رواه ابن حبان (١٤٦/٣)، وبالموارد (٢٣٦٩)، والطبراني في «الأوسط» (٥٢٨٦) ولفظه: أن النبي ﷺ جمع أهل بيته فقال: **«إذا أصابَ أحدَكُم غمٌّ أو كَرْبٌ فليقُلْ: الله الله ربّي لا أشرِك بهِ شيئاً»**، وشاهد آخر عن ابن عباس رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٧٨٨) فالحديث حسن صحيح].

ش: في الحديث أن ذكر التوحيد والبراءة من الشرك من أسباب ذهاب الهموم والأحزان. وفي الحديث بطرقه دليل على مشروعية ذكر الاسم المفرد الله وتكراره.

ما يقول من خاف قوماً

١٧٠٥ ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كانَ إذا خَافَ قَوْماً قال: **«اللَّهُمَّ إنَّا نَجْعَلُكَ في نُحُورِهِم ونعوذُ بِكَ مِن شُرُورِهِم»**.

[رواه أحمد (٤١٤/٤، ٤١٥)، وأبو داود في الدعاء (١٥٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (٥٦٢/١، و١٨٨/٥، و١٥٤/٦، ٢٢٧)، وابن حبان (٤٧٦٥)، والحاكم (١٤٢/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وتأتي أحاديث في الجهاد بنحو هذا].

ش: فيه الالتجاء إلى الله تعالى عند خوف شر قوم وأذاهم، وأن يسأل الإنسان الله عزّ وجلّ أن يكفيه شرهم وأن يتحصن به تعالى منهم، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

ما يقول من رأى ما يحب أو يكره

١٧٠٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا رَأى ما يُحِبُّ قال: **«الحمدُ لله الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ»**، وإذا رَأى ما يَكرَهُه قال: **«الحمدُ لله على كلِّ حالٍ»**.

[رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، وابن السني في «اليوم والليلة» (٣٧٢)،

والحاكم (٤٩٩/١) وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي وجوده النووي. وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وفي الحديث بعض كلام لكنه يتأيد بشاهدين له عن أبي هريرة رواه ابن ماجه (٣٨٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥٧/٣)، وعن أنس رواه ابن ماجه (٣٨٠٥) وحسنه البوصيري].

ش: في الحديث مشروعية حمد الله عزّ وجلّ في كل الأحوال خيراً كان أم شراً.

ما يقول من غلبه الدَّيْنُ

١٧٠٧ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أن مكاتباً جاءه فقال: إني عجزت عن كتابتي فأعنّي، قال: ألا أُعَلِّمُك كلماتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رسولُ الله ﷺ لو كان عليك مثلُ جبلٍ دَيْناً أدّاه الله عنكَ قُلْ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عن حَرَامِكَ وأغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّن سِوَاكَ**».

[رواه أحمد (١٥٣/١)، والترمذي في الأدعية (٣٥٦٣)، والحاكم (٥٣٨/١) وسنده حسن صحيح، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي].

ش: أمر الدَّين عظيم وخاصة إذا عجز الإنسان عن قضائه وغلبه أمره، فإنه يكدر على المسلم حياته، ولذلك كان النبي ﷺ يتعوذ منه كما تقدم في الاستعاذات، ولا حيلة للمسلم إذا لم يجد له قضاء إلا الالتجاء إلى الله عزّ وجلّ الذي بيده كل الأمور فيدعو الله عزّ وجلّ بهذا الدعاء النبوي الشريف وقد تقدم دعاء آخر في الحديث الثاني من أذكار النوم، وفيه: «**اقضِ عنّي الدَّين وأغنني من الفقر**».

ما يقول من رأى مبتلى

١٧٠٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ رَأى مُبْتَلًى فقال: الحمدُ لله الذي عَافَانِي مِمَّا ابتَلاكَ بِهِ، وفضَّلَنِي عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً لَمْ يُصِبْهُ ذلِكَ البَلاءُ**».

[رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٣٢)، والبراز (٣١١٨)، والطبراني في «الصغير»، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣/٥)، وفي «تاريخ أصبهان» (٢٧١/١)، وحسنه الترمذي والمنذري وهو كما قالا لطريقين له ولشاهد عن عمر عند الترمذي (٣٤٣١)، وابن ماجه (٣٨٩٢)، والطيالسي (١٣) وغيرهم غير أن ابن ماجه جعله عن ابن عمر].

ش: وفي الحديث مشروعية حمد الله تعالى على العافية عند رؤية أهل البلاء. وأن من قال ذلك عوفي من ذلك البلاء بإذن الله.

ما يقول عند الغضب

١٧٠٩ ـ عن سليمان بن صرد رضي الله تعالى عنه قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ورجلان يَسْتَبَّانِ وأحدُهما قد احْمَرَّ وجهُه وانتفَخَتْ أوْدَاجُه، فقال رسول الله ﷺ: **«إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذَهَب عنه مَا يَجِدُ لو قال: أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ، ذهبَ عنهُ ما يَجِدُ»**.

[رواه البخاري في الأدب (٧٦/١٣، ١٣٤)، ومسلم في البر والصلة (١٦٣/١٦) وغيرهما].

ش: في الحديث أن الغضب مصدره من الشيطان فهو الذي يثيره فيه، ويحمله عليه، فينبغي عند ذلك أن يرجع إلى الله خالق كل شيء فيتحصن به من هذا اللعين فإنه إذا استرسل مع غضبه يصبح كالمجنون يضرب ويقتل ويفسد الأموال ويكسر الأواني بل وينتحر... وستأتي بقية لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

ما يقول من غلبه أمر

١٧١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزَنَّ، وإنْ أصَابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ إنِّي لَوْ فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا، ولكنْ قُلْ: قَدَرَ اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ، فإنَّ لَو تفتحُ عَملَ الشَّيطانِ»**، وفي رواية: **«ولا تَضْجَرْ فإنْ غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ: قَدَرَ اللَّهِ**

وما شَاءَ صَنَعَ، وإيَّاك واللَّوْ فإن اللَّو يفتحُ عملَ الشَّيطانِ».

[رواه أحمد (٣٦٦/٢، ٣٧٠)، ومسلم في القدر (٢١٥/١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٤١/٢، و١٥٩/٦، ١٦٠)، وابن ماجه (٤١٦٨) في الزهد، والرواية الثانية عند النسائي والحديث تقدم ويأتي في الأدب إن شاء الله تعالى].

ش: الحرص على الشيء هو الرغبة فيه، فمعنى الحديث: احرص على طاعة الله والرغبة فيما عنده واطلب الإعانة من الله ولا تكن عاجزاً كسولاً عن ذلك. **وقوله: «وإن أصابك شيء..»** إلخ: أي إذا أصبت بما لا يلائمك فلا تتضجر وتتسخط لأن ذلك جار على قدر الله الذي قضاه وحكم به على عباده. **«ولا تقل لو فعلت كذا لما كان هذا...»**: لأن ذلك ربما أدى بك إلى الاعتراض على قدر الله. نعم من رد ذلك إلى مشيئة الله بأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله لم يكن ذلك ممنوعاً بدليل ما جاء في كثير من الأحاديث قول النبي ﷺ ذلك كقوله: **«لولا حدثان عهد قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم»**، وقوله: **«لو كنت راجماً بغير بينة..»** إلخ، وقوله: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت..»** إلخ ويأتي مزيد لهذا في الأدب.

والمقصود أن من غلبه أمر لسابق القدر فليقل: **«قدَرُ الله، وما شَاءَ فَعَل»**.

ما يقال عند ركوب دابة ونحوها

١٧١١ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه أُتِي بدابَّةٍ لِيَرْكَبَها فلما وضع رِجْله في الرِّكَابِ قال: **«بسم الله»**، فلما استوى على ظهرها قال: **«الحمدُ لله»**، ثم قال: **«سُبْحَان الذِي سخَّرَ لنا هذا ومَا كُنَّا لهُ مُقْرِنِينَ وإنَّا إلى ربِّنا لَمُنْقَلِبُون»**، ثم قال: **«الحمدُ لله»** ثلاث مرات، ثم قال: **«الله أكبر»** ثلاث مرات، ثم قال: **«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ إنِّي ظَلمتُ نَفْسِي فاغْفِر لِي فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنتَ»**، ثم ضحك فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: إني رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا

رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: «**إنَّ ربَّكَ سبحانَه وتعالى يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِه إذا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**».

[رواه الطيالسي (١٣٢)، وأحمد (١/٩٧، ١١٥، ١٢٨)، وأبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥/٢٤٨)، وابن حبان رقم (٢٦٩٨) «بالإحسان» وغيرهم بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم (٢/٩٨، ٩٩)].

ش: **قوله**: «**وما كنا له مقرنين**»: أي مطيقين.

وفي الحديث مشروعية ذكر ما جاء فيه عند ركوب أي مركوب حمداً لله تعالى وشكراً له وتعظيماً لجلاله وذكراً لاسمه مع الاعتراف بظلم النفس وسؤاله تعالى المغفرة من السقطات والتقصير في القيام بحقوق الله وشكر نعمه. ويكون الجزاء على ما يقول غفران ما عسى أن يصدر منه من الذنوب. وقوله في الحديث: «**يعجب من عبده**»، هذا من صفات الله، وفسره الخلف برضاء الله وتقدمت أحاديث في كتاب صلاة السفر تتعلق بالموضوع.

ما يقال عند دخول قرية يراد دخولها

١٧١٢ ـ عن صهيب رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ لَمْ يَرَ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخولها إلا قال حِين يَراها: «**اللَّهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السبعِ وما أظْلَلْنَ، ورَبَّ الأرَضِينِ السبعِ ومَا أقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطِينَ وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ، أسألُكَ خَيرَ هذه القريةِ وخيرَ أهلِها وخيرَ ما فيها، ونَعوذُ بِكَ مِنْ شرِّها وشرِّ أهلِها وشرِّ مَا فيها**».

[رواه النسائي في «الكبرى» (٥/٢٥٦، و٦/١٣٩، ١٤٠)، وابن خزيمة (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، والحاكم (١/٤٤٦، و٢/١٠٠، ١٠١)، وصححه ووافقه الذهبي وأورده الهيثمي (١٠/١٣٥) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير عطاء بن أبي مروان وأبيه، وكلاهما ثقة].

ش: فيه مشروعية هذا الدعاء العظيم عند رؤية قرية يراد دخولها،

وفيه أدب عظيم من آداب الدعاء، وهو نداء الله تعالى مقروناً بربوبيته عزّ وجلّ للعالم العلوي والسفلي وما فيهما، ثم سؤال خير القرية وأهلها وما فيها والاستعاذة من شرها وشر أهلها، وما فيها. إنه دعاء أي دعاء.

ما يقول من نزل منزلاً

١٧١٣ ـ عن خولة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثم قال: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرُّه شيءٌ حتى يَرتحِلَ مِن منزِلِه ذلِكَ»**.

[رواه مسلم (٣١/١٧)، والترمذي (٣٤٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٤٤/٦)، وابن ماجه (٣٥٤٧) وغيرهم].

ش: **قوله: «بكلمات الله التامات»**: كلماته جميع كتبه. **«والتامات»**: الكاملات التي لا عيب فيها أو النافعة الشافية. أفاده النووي وغيره.

وفيه أن هذه الاستعاذة حصن من شر كل ذي شر يوجد في أي منزل ينزله المسلم فينبغي له أن لا يغفل عن ذكره.

ما يقول من عثرت دابته

١٧١٤ ـ عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ فعَثَرَتْ دابَّتُه فقلت: تَعِسَ الشَّيْطانُ، فقال: **«لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيطانُ، فإنَّكَ إذا قُلتَ ذلك تَعَاظَم حتى يَكونَ مثْلَ البَيْتِ ويقولُ: بِقُوَّتِي، ولكنْ قُلْ: بِاسْمِ الله، فإنَّك إذا قُلْتَ ذلكَ تَصَاغَر حتى يكونَ مثْلَ الذُّبَابِ»**.

[رواه أحمد (٥٩/٥، ٧١)، وأبو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٤٢/٦) بسند صحيح، والرجل هو والد أبي المليح يسمى أسامة].

ش: **«التعاسة»**: الهلاك.

وفي الحديث النهي عن ذكر الشيطان عند عثور دابة أو حصول عطب

في سيارة، أو حادث بل يجب أن يذكر اسم الله تعالى، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويذله ويهينه.

ما يقال عند صياح الديكة ونهيق الحمير

١٧١٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا سمِعْتُم صياحَ الدِّيَكةِ فسلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فإنَّها رَأَتْ مَلَكاً، وإذا سَمِعْتُم نَهِيقَ الحِمَارِ فتَعوَّذُوا باللَّهِ مِن الشَّيطانِ فإنَّهَا رَأَتْ شَيطاناً**».

[رواه أحمد (٢/٣٠٦، ٣٦٤)، وفي مواضع، والبخاري في بدء الخلق (٧/١٦١، ١٦٢)، ومسلم في الذكر (١٧/٤٦، ٤٧)، وأبو داود (٥١٠٢)، والترمذي (٣٤٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٣٤، ٤٢٧)، وابن حبان (١٠٠٥) وغيرهم، وزاد النسائي من حديث جابر «ونباح الكلاب»].

ش: **قوله**: «**صياح**» بكسر الصاد: أي صوتَ. «**والديكة**» بكسر الدال وفتح الياء: جمع ديك وهو ذكر الدجاج.

وفي هذا الحديث مشروعية ذكر ما فيه عند صياح الديكة ونهيق الحمير، وفيه فضل وجود الملائكة، ومجالس أهل الفضل، وأن الدعاء عندهم مستجاب، ولذا جاء في الحديث الصحيح: «**هم القوم لا يشقى جليسُهم**». قال الحافظ على هذا الحديث نقلاً عن عياض: كأنَّ السبب فيه رجاء تأمين الملائكة على دعائه واستغفارهم له وشهادتهم له بالإخلاص. ويؤخذ منه استحباب الدعاء عند حضور الصالحين والتبرك بهم، وهو أيضاً في «شرح النووي» لمسلم، كما يؤخذ من الحديث أن مواقع أهل الشر ينبغي أن يستعاذ فيها بالله تعالى من الشيطان تحصناً به تعالى من شر وجود الشياطين.

ما يقال عند رؤية الهلال

١٧١٦ ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان

رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: **«الله أكبرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ علينَا بالأمنِ والإيمانِ، والسَّلامةِ والإسْلامِ، والتَّوفِيقِ لما تُحبُّ وتَرضَى، ربُّنا وربُّك الله»**.

[رواه الدارمي (١٦٩٤)، وابن حبان (١٧١/٣، و٢٣٧٤) بالموارد، وهو حديث حسن صحيح لشواهده منها عن طلحة بن عبيدالله رواه أحمد (١٦٢/١)، والترمذي (٣٤٥١)، وبتهذيبي (٣٢٢٥)، والدارمي (١٦٩٥)، والحاكم (٢٨٥/٤)، وعن عبادة بن الصامت وأنس عند الطبراني وغير ذلك].

ش: **قوله**: **«أهله»**: في رواية بالفَكِّ: **«أَهْلِلْهُ»** من الإهلال أي أدخله وأطلعه علينا بالأمن واليمن والبركة ودوام الإيمان والسلامة والانقياد لك يا ربنا مع التوفيق لما تحبه وترضاه من الأقوال والأفعال، فربنا وخالقنا ومتولي أمورنا وربك يا هلال هو الله وحده لا شريك له.

وليكن هذا آخر ما نورده من الأذكار على وجه الاختصار وستأتي أذكار وأدعية أخرى كثيرة في الأضاحي، وفي الطب والمرضى، وفي الجهاد، وفي النكاح، وفي الأدب، وغير ذلك.

فليحرص المؤمن على ذكر كل ما يمر ويقف عليه من الأدعية والأذكار ليكون من جملة الذاكرين الله كثيراً، والذاكرات، ولتدوم معية الله معه لحديث: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»** جعلنا الله تعالى من أشرفهم، آمين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذريته وزوجاته وصحابته وأتباعه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

آخر العبادات في أبواب الأذكار والدعوات من الزوائد الصحيحة نحو نيف وتسعين حديثاً. . ويليه التفسير.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
سجود السهو	٣٩١
قاعدة عامة في السهو	٣٩١
من سلم من ركعتين في الرباعية	٣٩١
من سلم في ثلاث من الرباعية	٣٩٢
من صلى الرباعية خمساً	٣٩٢
من ترك التشهد الوسط	٣٩٣
سجود التلاوة	٣٩٣
جواز السجود ولو في صلاة الفريضة	٣٩٥
مشروعية السجود للسامع	٣٩٥
لا حرج على من ترك السجود	٣٩٥
السجود فيه إرغام للشيطان	٣٩٦
ما يقال في سجود التلاوة	٣٩٦
سجود الشكر	٣٩٦
صلاة المريض	٣٩٧
صلاة الجماعة فضلها وفضل السعي إليها	٣٩٨
فضل صلاتي العشاء والصبح في الجماعة على غيرهما وأنهما أثقل صلاة على المنافقين	٣٩٨
التشديد على ترك الجماعة	٣٩٩
التخلف عن الجماعة للضرورة	٤٠٠

الموضوع	الصفحة
لا تصح النافلة مع إقامة الصلاة للفريضة	٤٠١
فضل إتيان المساجد وأدب المشي إليها	٤٠١
متى يقوم الناس للصلاة	٤٠٢
تسوية الصفوف	٤٠٣
فضل الصف الأول وسد الفرج	٤٠٣
من ينبغي أن يلي الإمام	٤٠٤
خير صفوف الرجال والنساء	٤٠٥
صف الأطفال يقدم على صف النساء	٤٠٥
موقف الواحد والاثنين من الإمام	٤٠٦
الصلاة خلف الصف	٤٠٦
من جاء فركع ثم دخل الصف	٤٠٧
من جاء دخل مع الإمام على أي حال وجده	٤٠٧
من أتى الجماعة وقد صلوا	٤٠٧
بماذا تدرك الجماعة	٤٠٨
أحكام الإمامة والمأموم	٤٠٨
من أولى بالإمامة	٤٠٨
بطلان صلاة من أمّ قوماً يكرهونه	٤٠٩
إمامة الفاسق والمفتون	٤٠٩
من آداب الإمام	٤١٠
كراهية وقوف الإمام أرفع من المأمومين	٤١١
الإمام يتذكر أنه جنب	٤١١
إذا تأخر الإمام للناس أن يستخلفوا غيره	٤١٢
إمامة الصبي	٤١٣
إمامة الأعمى	٤١٣
وجوب متابعة الإمام	٤١٣
ائتمام بإمام بينه وبين الناس حائل	٤١٥
إعادة الصلاة جماعة لمن صلاها ولو في جماعة، وفيها أحاديث	٤١٥
هل للنساء الذهاب إلى المساجد	٤١٦

الموضوع	الصفحة
أبواب التطوع بالصلاة	٤١٨
الترغيب في كثرة السجود	٤١٨
أفضل الصلاة ما كانت في البيوت	٤١٨
أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل	٤١٨
من فضائل قيام الليل	٤١٩
أفضل أوقات الليل	٤٢٠
أنواع النوافل	٤٢١
قيام الليل	٤٢١
صلاة النبي ﷺ وتهجده بالليل	٤٢١
الوتر وعدد ما صلى منه النبي ﷺ	٤٢٣
وقت صلاة الوتر وأفضله	٤٢٤
بماذا يقرأ في الوتر	٤٢٥
القنوت في الوتر	٤٢٦
قَدْرُ ورد القيام وأقلُّه وأكثره والأفضلُ في ذلك	٤٢٧
أقل ما يكفي من القيام	٤٢٩
الحذر من الشيطان في قيام الليل	٤٣٠
من قام يصلي بالليل فغلبه النوم أو استعجم عليه القرآن	٤٣٠
صلاة الليل من قعود وأنها على النصف من قيام	٤٣١
كراهية قطع الحزب والورد المعتاد من الليل	٤٣٢
من نام عن حزبه أو نسيه	٤٣٢
ركعتا الفجر	٤٣٣
قضاء ركعتي الفجر	٤٣٤
صلاة الضحى	٤٣٥
صلاة الزوال	٤٣٦
راتبة الظهر والعصر	٤٣٦
راتبة المغرب والعشاء	٤٣٧
صلاة الطهور	٤٣٩
تحية المسجد	٤٣٩

الموضوع	الصفحة
صلاة الاستخارة	٤٣٩
صلاة التوبة	٤٤٠
صلاة التسبيح	٤٤١
أوقات نهي عن صلاة النافلة فيها	٤٤٢
كتاب الجمعة	٤٤٣
فضل يوم الجمعة	٤٤٣
من مات يوم الجمعة وُقِيَ فتنةَ القبر	٤٤٤
فرضية الجمعة على كل مسلم	٤٤٥
وعيد من ترك الجمعة بلا عذر	٤٤٥
من أعذار التخلف عن حضور الجمعة	٤٤٦
كفارة من تخلف عن الجمعة	٤٤٦
الجمعة في القرى	٤٤٧
العدد التي تقام به الجمعة	٤٤٧
متى يجب الرواح إليها وعلى من يجب	٤٤٨
تأكد الغسل للجمعة مع استعمال الطيب ولبس صالح الثيبات وجواز الاقتصار على الوضوء	٤٤٨
فضل التبكير للجمعة والمشي إليها وآداب ذلك وتحريم تخطي الرقاب	٤٤٩
مشروعية تحية المسجد والإمام يخطب	٤٥١
أشياء تمنع وقت الخطبة	٤٥١
متى تُصَلَّى الجمعةُ	٤٥٣
الأذان يوم الجمعة	٤٥٣
خُطبة الجمعة وصفتها	٤٥٤
جواز الكلام للحاجة من الخطيب والحاضرين	٤٥٥
نزول الخطيب لسجود تلاوة أو حاجة تطرأ	٤٥٦
مشروعية قصر الخطبة وإطالة الصلاة	٤٥٦
القراءة في صلاة الجمعة	٤٥٧
بماذا تدرك الجمعة	٤٥٨
الصلاة بعد الجمعة	٤٥٨

الموضوع	الصفحة
صلاة العيدين	٤٥٩
الخروج لصلاة العيدين وآداب ذلك	٤٥٩
تحسين الهيئة	٤٥٩
الخروج قبل الإفطار أو بعده	٤٦٠
مخالفة الطريق في الخروج والإياب	٤٦٠
المشي على الأقدام	٤٦٠
التكبير والتهليل من المنزل حتى المصلى	٤٦١
إخراج النساء لصلاة العيد	٤٦١
صفة صلاة العيد وما يقرأ فيها	٤٦٢
خطبة العيدين بعد الصلاة	٤٦٣
تخصيص النساء بالموعظة	٤٦٣
من فاتته صلاة العيد يومه	٤٦٣
الإذن في اللعب والغناء بالمباح يوم العيد	٤٦٤
الإكثار من الأعمال الصالحة أيام العشر	٤٦٤
الكسوف والخسوف والآيات	٤٦٥
ما يقال ويفعل إذا هبَّت ريح أو ظهر غيم	٤٦٧
صلاة الاستسقاء وما يتبع ذلك	٤٦٨
الاستسقاء بالدعاء يوم الجمعة على المنبر	٤٧٠
الاستسقاء بأهل الفضل	٤٧١
التبرك بالمطر النازل	٤٧٢
ما هي السُّنَّةُ	٤٧٢
من أسباب تأخر المطر	٤٧٢
صلاة السفر وما يتبع ذلك هي ركعتان	٤٧٣
قصر الصلاة صدقة من الله علينا	٤٧٤
ما هي مسافة التقصير؟	٤٧٤
من نزل بموضع ولم يجمع إقامة له أن يقصر	٤٧٥
الجمع في السفر	٤٧٦
من آداب السفر	٤٧٧

الموضوع	الصفحة
توديع المسافر	٤٧٧
وصاية المسافر والدعاء معه	٤٧٨
اتخاذ الرفيق	٤٧٨
أدعية المسافر	٤٧٩
لا يطرق المسافر أهله ليلاً	٤٨٠
صلاة الخوف	٤٨٠
كتاب الجنائز	٤٨٢
الإكثار من ذكر الموت	٤٨٢
تحريم تمني الموت	٤٨٣
خير الناس من طال عمره وحسن عمله	٤٨٣
من علامة سعادة المرء في الدنيا	٤٨٤
ما يُستحب أن يُقال عند المُحْتَضَرِ	٤٨٤
تحسين الظن بالله عند الموت	٤٨٤
استحباب لبس الثياب الجدد عند الاحتضار	٤٨٥
الوصية عند الموت	٤٨٦
تلقين المحتضر الشهادة	٤٨٦
فضل الشهادة عند الموت	٤٨٧
المؤمن يموت بعرق الجبين	٤٨٧
الموت راحة للمؤمن	٤٨٨
متى يحب أو يبغض الإنسان لقاء الله	٤٨٨
صفة قبض الروح وما يتبع ذلك	٤٨٩
تغطية الميت بعد خروج روحه	٤٩٢
لا بأس بتقبيل الميت	٤٩٢
البكاء على الميت منعاً وجوازاً	٤٩٣
الإخبار بموت الميت جوازاً ومنعاً	٤٩٥
غسل الميت	٤٩٥
أولى الناس بغسل الميت أقاربه	٤٩٦
شهيد المعركة لا يغسل	٤٩٦

الموضوع	الصفحة
صفة كفن الميت وتكفينه	٤٩٧
تجمير الميت	٤٩٨
فضل تشييع الجنازة والصلاة عليها	٤٩٨
كيف المشي مع الجنازة	٤٩٨
الإسراع بالجنازة	٤٩٩
كلام الروح عند حمل نعشها	٤٩٩
نسخ القيام للجنازة	٥٠٠
الثناء على الميت	٥٠٠
كراهية إتباع النساء الجنازة	٥٠٠
أبواب الصلاة على الجنازة	٥٠١
أين يصلي عليها؟	٥٠١
كيف توضع الجنائز إذا اجتمع فيها الجنسان	٥٠١
فضل من صلى عليه أمة من الناس يبلغون مائة أو أقل	٥٠٢
طوائف من الناس لم يكن رسول الله ﷺ يصلي عليهم	٥٠٣
الصلاة على الغائب وعلى القبر	٥٠٤
صفة الصلاة على الأموات	٥٠٥
مشروعية قراءة الفاتحة في الصلاة على الجنازة ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم الدعاء	٥٠٥
الدعاء للميت	٥٠٧
أبواب الدفن والقبور	٥٠٩
وجوب دفن الآدمي	٥٠٩
لا يدفن المسلم مع الكافر	٥٠٩
صفة حفر القبر	٥١٠
دفن العديد في قبر واحد	٥١١
كيف يدخل الميت إلى قبره ومن يتولى ذلك	٥١١
ما يقال ويفعل عند الدفن	٥١٢
الاستغفار للميت وسؤال له التثبيت	٥١٣
الدفن ليلاً	٥١٣

الموضوع	الصفحة
أحوال الروح بعد قبضها وسؤالها وفتنتها	٥١٤
حبس الروح المدينة وأسرها في البرزخ	٥١٧
روح المؤمن في البرزخ	٥١٧
ما يلحق الميت بعد موته من عمل	٥١٨
سبّ الأموات	٥١٩
التعزية	٥٢٠
إعداد الطعام لأهل الميت	٥٢٠
الإحداد على الميت	٥٢١
فضل موت الأولاد مع الصبر	٥٢١
فضل المصائب وأنها كفارات للذنوب ووجوب الصبر عليها وما يقال عندها	٥٢٣
فضل عيادة المريض	٥٢٤
البناء والمشي والجلوس على القبور ونحو ذلك	٥٢٥
زيارة القبور وما يقال عندها	٥٢٦
كتاب الزكاة	٥٢٨
وجوبها	٥٢٨
وعيد مانعي الزكاة	٥٢٩
الأنواع التي تجب فيها الزكاة والقدر الذي تجب فيه	٥٣٠
ما يجب فيه العشر أو نصفه من المحصولات الزراعية والثمار	٥٣٢
نصاب الحبوب والثمار	٥٣٣
نصاب الذهب والفضة	٥٣٣
نصاب الإبل والغنم وما يجب في ذلك	٥٣٤
نصاب البقر	٥٣٥
زكاة الحليّ	٥٣٦
زكاة عسل النحل	٥٣٧
زكاة الركاز والمعادن	٥٣٧
ما يشترط له مرور الحول وما لا زكاة فيه	٥٣٨
خرص الثمار والحبوب وترك الثلث أو الربع	٥٤٠

الموضوع	الصفحة
إخراج الزكاة قبل وقتها	٥٤١
أحكام جباة الزكاة	٥٤١
دعاء الإمام أو الساعي مع دافع الزكاة	٥٤٣
المعتدي في الصدقة	٥٤٣
زكاة الفطر	٥٤٣
مصاريف الزكاة ومن لا تحل له	٥٤٤
تحريم الصدقة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته ومواليهم	٥٤٥
من هم أهل البيت الذين تحرم عليهم الصدقة	٥٤٦
إباحة الهدية للنبي وأهل بيته ﷺ	٥٤٦
ذم السؤال ووعيد ذلك	٥٤٧
جواز السؤال لذي سلطان وذم الإلحاف	٥٤٨
الحض على إعطاء السائل	٥٤٩
جواز السؤال للمحتاجين	٥٤٩
جواز أخذ العطاء من غير إشراف نفس	٥٥٠
الحث على العمل والاستعفاف عن المسألة	٥٥٠
مدح الإنفاق وذم البخل والإمساك	٥٥٢
فضل الصدقة والحض عليها	٥٥٣
أفضل الصدقة	٥٥٥
فضل الصدقة على الأقارب والأزواج والأولاد	٥٥٧
ثبوت أجر الصدقة وإن وقعت في غير أهلها	٥٥٩
أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها	٥٦٠
كتاب الصيام	٥٦٢
من فضائل الصيام	٥٦٢
من فضائل رمضان وصيامه	٥٦٣
وجوب صوم رمضان	٥٦٥
كانت فرضية الصيام أولاً على التخيير	٥٦٥
وجوب الصيام متوقف على رؤية الهلال	٥٦٦
العمل برؤية رجل واحد	٥٦٦

الموضوع	الصفحة
إذا لم ير الهلال حتى ارتفع النهار	٥٦٧
النهي عن تقدم رمضان بالصيام وعن صيام يوم الشك	٥٦٧
تحريم صيام أيام العيد والتشريق	٥٦٨
النهي عن صيام الجمعة وعرفة وبعد انتصاف شعبان	٥٦٩
كراهية صوم الدهر	٥٧٠
وجوب تبييت النية من الليل في الصيام	٥٧١
إنشاء الصيام التطوع من النهار	٥٧١
وجوب تنزه الصائم عن الجهل والمعاصي	٥٧١
حكم من أكل ناسياً أو استقاء	٥٧٢
الحجامة للصائم	٥٧٣
القبلة للصائم	٥٧٣
حكم من أصبح جنباً وهو صائم	٥٧٤
جواز الاستحمام في نهار رمضان	٥٧٤
تقديم الإفطار وتأخير السحور وما جاء من الحض على ذلك	٥٧٥
لا حرج على من يشرب بعد أذان الفجر	٥٧٧
على ماذا يفطر الصائم وماذا يقول عند فطره	٥٧٨
النهي عن الوصال	٥٧٩
الصوم في السفر وعدمه	٥٨٠
فطر المسافر إذا نزل ببلدة ولم ينو إقامة	٥٨١
للمسافر أن يفطر قبل خروجه من منزله	٥٨١
كفارة من أفطر في رمضان متعمداً	٥٨١
قضاء رمضان في سائر السنة	٥٨٢
قضاء الصوم عن الميت	٥٨٣
من دعي إلى طعام وهو صائم	٥٨٣
للصائم المتطوع أن يفطر	٥٨٣
لا تصوم المرأة التطوع إلا بإذن من زوجها	٥٨٤
أيام في السنة جاء الحض على صيامها	٥٨٥
أفضل الصيام	٥٨٧

الموضوع	الصفحة
الاعتكاف	٥٨٧
قيام رمضان وخاصة العشر الأواخر وما يرجى فيها من ليلة القدر	٥٨٩
كتاب الحج	٥٩٢
من فضائل الحج والعمرة	٥٩٢
الحج والعمرة جهاد الضعاف	٥٩٤
فرضية الحج مرة في العمر وتأكده كل خمس سنوات	٥٩٤
الاستنابة في الحج للمعطوب وغيره	٥٩٥
الحج عن الميت	٥٩٦
الاستطاعة في الحج	٥٩٧
هل تحج المرأة وحدها؟	٥٩٨
التعجيل بالحج لمن وجب عليه	٥٩٨
مواقيت الحج	٥٩٩
أنواع الإحرام	٦٠٠
الإفراد والتمتع والقران	٦٠٠
صفة الإحرام وما يلزم أو يستحب عنده	٦٠٣
تعليق الإحرام بإحرام الغير	٦٠٦
الاشتراط عند الإحرام	٦٠٦
المحرم يكسر أو يعرج	٦٠٧
الإحصار	٦٠٧
ممنوعات الإحرام	٦٠٨
الملابس الممنوعة	٦٠٨
منع المحرم من النكاح	٦٠٩
تحريم إزالة الشعر والتفث	٦٠٩
منع المحرم من الرفث	٦١٠
تحريم صيد البر على المحرم	٦١٠
ما يحل للمحرم وما يحرم عليه من أكل الصيد	٦١١
جزاء من قتل صيد البر	٦١٢
المحرم يموت أو المرأة تحيض أو تنفس	٦١٢

الموضوع	الصفحة
أمور تباح للمحرم	٦١٣
قتل الفواسق	٦١٣
اغتسال المحرم ولو لغير حاجة	٦١٤
الحجامة للمحرم	٦١٤
اكتحال المحرم للتداوي	٦١٥
استظلال المحرم بثوب ونحوه	٦١٥
لباس السروال والخفين للضرورة	٦١٦
دخول مكة المكرمة والاغتسال عند إرادة البيت	٦١٦
صفة طواف القدوم ومتى يستحب وما يتبع ذلك	٦١٧
طواف النساء وراء الرجال	٦٢٠
الدعاء في الطواف	٦٢١
السعي بين الصفا والمروة وما يتبع ذلك	٦٢٢
الخروج إلى منى يوم التروية	٦٢٣
الصعود إلى عرفة من منى وما يقال فيه	٦٢٤
الوقوف بعرفة وما يتعلق به والنزول إلى المزدلفة	٦٢٥
النزول بالمزدلفة والمبيت بها والنزول إلى منى ورمي جمرة العقبة	٦٢٧
الهدي والحلق والإفاضة والتحلل	٦٣١
خطبة يوم النحر وما وقع للصحابة يومه	٦٣٣
يوم النحر هو يوم الحج الأكبر	٦٣٥
رمي الجمار أيام منى وما يتعلق بها	٦٣٥
الرخصة في عدم المبيت بمنى لمن له عذر	٦٣٧
الخطبة في وسط أيام التشريق	٦٣٧
تقصير الصلاة بمنى	٦٣٨
نزول الأبطح والتحصيب	٦٣٩
طواف الوداع	٦٤٠
الهدايا وعلى من تجب	٦٤٠
العمرة المفردة	٦٤٣
فضل العمرة في رمضان	٦٤٤

الموضوع	الصفحة
كم اعتمر النبي ﷺ ومتى كان ذلك	٦٤٤
صفة حجة النبي ﷺ	٦٤٥
فضل مكة المكرمة	٦٥٠
حرمة مكة المكرمة	٦٥١
فضل المدينة المنورة	٦٥٣
وعيد من أراد أهلها بسوء أو أحدث فيها حدثاً	٦٥٤
الصبر على شدَّتها يوجب شفاعة نبي الله ﷺ	٦٥٥
المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون وأنها تنفي عنها خَبَثَها	٦٥٥
فضل المسجد النبوي والروضة وقباء	٦٥٦
خاتمة	٦٥٨
في زيارة القبر النبوي الشريف	٦٥٨
كتاب الأذكار والدعوات	٦٦٠
فضائل القرآن وسوره، وآياته، وأدب تلاوته، وفضل حامليه	٦٦٠
فضائل سوره وآياته مرتبة على المصحف الكريم	٦٦١
فاتحة الكتاب	٦٦١
سورة البقرة	٦٦٣
البقرة وآل عمران	٦٦٣
آية الكرسي	٦٦٤
أواخر سورة البقرة	٦٦٥
سورة الكهف	٦٦٧
سورة يّس	٦٦٧
سورة الملك	٦٦٨
الزلزلة	٦٦٨
الإخلاص	٦٦٩
المعوذتان	٦٧٠
فضل حملة القرآن وتعلمه وتعليمه	٦٧١
تعاهد القرآن وفضل تلاوته ونزول السكينة له	٦٧٣
مثل المؤمن والمنافق في قراءة القرآن	٦٧٦

الموضوع	الصفحة
التنافس والغبطة في القرآن	٦٧٧
فضل الاجتماع على تلاوة القرآن	٦٧٨
من آداب التلاوة	٦٧٩
تحسين الصوت بالقرآن	٦٧٩
البكاء عند الاستماع للقراءة	٦٨٠
الجهر والإسرار بالقراءة	٦٨١
الائتلاف على القراءة والنهي عن التخليط	٦٨٢
ذم السؤال بالقرآن والأكل به	٦٨٣
تحزيب القرآن وفي مقدار كم يختم	٦٨٤
فضل الذكر إجمالاً	٦٨٦
ذم المجالس التي لا يذكر الله عزّ وجلّ فيها	٦٩٢
ذكر فضائل لأذكار خاصة	٦٩٣
أسماء الله تعالى وبيان اسمه الأعظم	٦٩٣
فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة	٦٩٥
الاستغفار والتوبة وفضل ذلك	٦٩٨
من حاول أن لا يقع منه ذنب ألبتة فقد حاول ما لا يكون	٦٩٩
فضل الصلاة على رسول الله ﷺ	٧٠٣
كيفية الصلاة على النبي ﷺ وصيغها	٧٠٦
ذم الغافلين عن الصلاة عليه ﷺ والمعرضين عنها	٧٠٧
فضل الدعاء وآدابه وأوقات الاستجابة ومظانها	٧٠٨
الدعوات المستجابة وأوقات وأحوال الإجابة	٧١٣
ذم تاركي الدعاء	٧١٦
خاتمة	٧١٧
الأذكار والأدعية والتعاويذ العامة والجامعة	٧٢٠
أذكار الصباح والمساء عموماً	٧٢٩
الأذكار والأدعية المؤقتة بأسبابها حسب تصرفات المسلم في حياته	٧٣٤
ما يقرأ قبل النوم من السور والآيات	٧٣٤
أذكار النوم	٧٣٧

الموضوع	الصفحة
ماذا يقول من يفزع في نومه	٧٤٠
ما يقول من استيقظ من نومه ليلاً	٧٤١
ما يقول من رأى رؤيا تفزعه	٧٤٣
ما يقول من استيقظ وأصبح	٧٤٣
ما يقال عند الخروج من المنزل	٧٤٥
ما يقال عند الدخول إلى المنزل	٧٤٦
ما يقال عند الجلوس وعند القيام منه وبيان كفارة المجلس	٧٤٧
ما يقال في السوق	٧٤٨
ما يقال عند الكروب والهموم والأحزان	٧٤٨
ما يقول من خاف قوماً	٧٥١
ما يقول من رأى ما يحب أو يكره	٧٥١
ما يقول من غلبه الدَّيْنُ	٧٥٢
ما يقول من رأى مبتلى	٧٥٢
ما يقول عند الغضب	٧٥٣
ما يقول من غلبه أمر	٧٥٣
ما يقال عند ركوب دابة ونحوها	٧٥٤
ما يقال عند دخول قرية يراد دخولها	٧٥٥
ما يقول من نزل منزلاً	٧٥٦
ما يقول من عثرت دابته	٧٥٦
ما يقال عند صياح الديكة ونهيق الحمير	٧٥٧
ما يقال عند رؤية الهلال	٧٥٧
المحتويات	٧٦١

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾

المجلد الثالث
قسم التفسير
سورة الفاتحة - سورة إبراهيم

دار ابن حزم

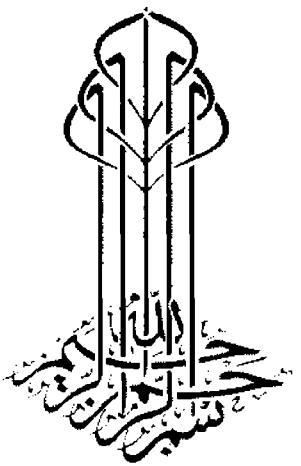
بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

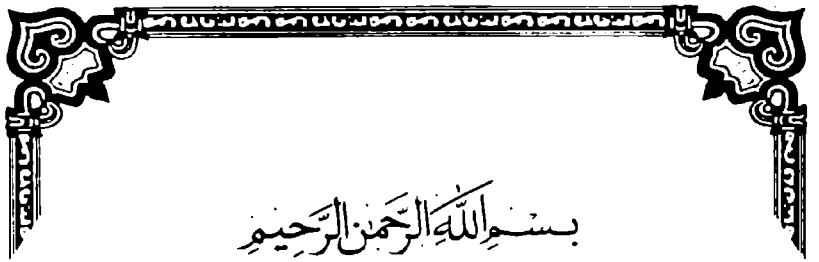

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه

اللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، ولك الحمد حمداً لا إحصاء له ولا نهاية، وأشهد أنك أنت الله إلٰهنا الواحد الأحد، المتفرد في ذاتك وصفاتك وأفعالك، لا شريك لك في ذلك، تقدست عن الند والشبيه والنظير، لا صاحبة لك، ولا ولد، ولا والد. أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، وأشهد أن حبيبنا وعظيمنا وقدوتنا سيدنا محمد بن عبدالله المطلبي الهاشمي رسولك الصادق الأمين، أرسلته على فترة من الرسل رحمةً للعالمين، كافةً للناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إليك بإذنك وسراجاً منيراً وخصصته بختم النبوءة والرسالة، وشرفته بأفضل كتاب أنزلته عليه، وعلمته ما لم يكن يعلم، وكان فضلك عليه عظيماً.

اللّهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وذريته وأزواجه وأصحابه وحزبه أبد الآبدين، وكلما ذكرك وذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكرك وذكره الغافلون..

أما بعد: فهذا هو قسم التفسير وما يتعلق به، من سلسلة كتابنا هذا، من كتابي **«بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول»** وهذا التفسير غير

التفسير المطبوع باسم «الجواهر واللآلىء المصنوعة» فإن في كل منهما ما ليس في الآخر.

وهذه فصول قدمتها بين يديه لما لها من الأهمية والفائدة وهي: «القرآن الكريم»، «نزوله ومتى كان ذلك وكيف وقع النزول»، «ما هي الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن»، «اختلاف الصحابة في القراءات أيام النبي»، «جمع القرآن أيام النبوة»، «جمع القرآن أيام الصديق»، «جمع القرآن أيام عثمان»، «قراء الصحابة»، «القراء السبعة والعشرة»، «القراءات الواردة المنصوص عليها».

القرآن الكريم

القرآن: هو كلام الله عز وجل المقدس الذي أنزله على رسوله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نزل به الروح الأمين سيدنا جبريل عليه السلام على قلبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بلسان عربي مبين باللفظ والمعنى، وهو المكتوب في المصاحف، المقروء بالألسنة، المسموع من القارئين بالآذان، المحفوظ في صدور أهله، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه؛ وهو الذي جمعه الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكتبوه في المصاحف مرتباً بأمر من ذي النورين سيدنا عثمان، رضي الله تعالى عنه، وبعثوا به إلى الآفاق. وانتشر بين المسلمين، وأجمعوا على أنه كلام الله وكتابه وهو ذكرنا، وفخرنا، وأعظم مقدساتنا، وإمامنا، ومصدر ديننا، وطريق سعادتنا، ودستورنا، ونظام حكمنا، وموئلنا عند اختلافنا، ومعقلنا عند نوازلنا، وحصننا عند نزول الفتن والأهواء بنا، وهو أساس الفضائل والأخلاق والشرائع، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

❊ ❊ ❊

نزول القرآن الكريم، ومتى كان ذلك؟ وكيف وقع النزول؟

{١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أنزل القرآنُ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فكان الله إذا أراد أن يُوحِيَ منه شيئاً أوحاه، أو أن يُحْدِثَ منه في الأرض شيئاً أحدثه.

وفي رواية: وكان الله عز وجل يُنزِلُ على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بعضه في أثر بعض: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

وفي رواية ثالثة: فُصِل القرآن من الذكر فوُضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينزل به على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفي رواية رابعة: ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة قال: ﴿**ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾. وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٤٤/٦)، والنسائي في الكبرى (٥١٩/٤٢١/٦)، وابن جرير (٢٥٩/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٥٢/١٠) في تفسيريهما، والحاكم (٥٣٠/٢٢٢/٢) من طرق بأسانيد صحيحة، وصحح الحاكم جميعها ووافقه الذهبي.

{٢} ـ وعن عائشة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم قالا: لبث النبيُّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكةَ عشرَ سنين يَنزِلُ عليه القرآنُ، وبالمدينة عشرَ سنين.

رواه البخاري في فضائل القرآن (٣٧٧/١٠).

حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بجميع ألفاظه يدل على أن القرآن الكريم نزل جملةً واحدة من اللوح المحفوظ، ثم وضع في بيت العزة من السماء الدنيا، وأن هذا النزول بهذه الكيفية كان في ليلة القدر في رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، وهي الليلة المبهمة المباركة التي قال فيها عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ثم كان بعد ذلك ينزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مُنَجَّماً مُفَرَّقاً حسب الأحداث والأسباب وذلك ليقرأه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أصحابه على مكث وليثبت الله تعالى به فؤاد نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع فوائد وحكم أخرى.

وما ذكرناه في هذا التعليق هو قول عامة العلماء من السلف والخلف، بل حكى القرطبي وغيره الإجماع عليه.

يبقى الأمر بعد هذا كيف كان نزول القرآن من اللوح المحفوظ، وكيف أخذه جبريل عليه السلام منه؟ وقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً كثيراً.

والذي تدل عليه ظواهر القرآن والسنة النبوية هو أن القرآن كلام الله عز وجل تكلم به وهو صفة من صفاته القديمة، ثم لما خلق اللوح والقلم قال عز وجل للقلم: اكتب ما هو كائن إلى الأبد وكان ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان من جملة ما كتب في اللوح المحفوظ القرآن الكريم وجميع الكتب الإلٰهية كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

وأُمّ الكتاب هو اللوح المحفوظ فالقرآن موجود فيه كما هو عندنا، وقال في سورة عبس: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾، وقال في سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾، فالكتاب المكنون والصحف المكرمة كلاهما يطلق على اللوح المحفوظ...

ثم لما أراد سبحانه أن ينزل كتبه على أنبيائه وكان من جملتها القرآن نُسِخَ ذلك من اللوح ونزل به جبريل أو غيره من الملائكة، فوضع في بيت العزة وفي هذا النسخ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ..﴾ الأنبياء. والزبور: هي الكتب الإلٰهية المنزلة على رسل الله عليهم الصلاة والسلام. وهذا النسخ من اللوح المحفوظ في الكتب هو مذهب أهل السنة كما نقله النووي عن القاضي عياض في شرح مسلم (٢٢١/١)، أما ما عدا ذلك مما لا دليل عليه فلا يجوز الخوض فيه بالتدقيق لأنه من عالم الغيب الذي لا علم لنا به، والله تعالى أعلم.

* * *

نزول القرآن إلى الأرض

أجمع العلماء على أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن الكريم من بيت العزة على نبي الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بلغة العرب لفظاً ومعنًى، وأن ذلك كله من الله عز وجل يسمى كلامه تعالى لا دخل فيه لأحد.

قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وقال جل علاه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

وكان أول ما نزل منه: **بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾، إلى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، كما يأتي تفصيل ذلك في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى، ثم تتابع الوحي والنزول حتى تم في ظرف ثلاث وعشرين سنة على الصحيح المعتمد. وحديثا عائشة وابن عباس المذكوران مؤولان عند العلماء كما يعرف من فتح الباري.

ثم كان آخر ما نزل على الإطلاق قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

* * *

الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن

حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ورد متواتراً، فقد رواه جم غفير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فقد جاء عن أُبيّ بن كعب، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وابن عباس، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وهشام بن حكيم، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي بكرة، وسليمان بن صُرَد، وأبي ذر في آخرين، وأورده السيوطي ثم الكتاني وغيرهما في

الأحاديث المتواترة. وسنقتصر منها على أصحها وأجمعها باختصار، وهي:

{٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أقْرأَنِي جِبريلُ عليه السلام على حرْف، فرَاجَعْتُه، فلم أزَل أسْتَزِيدُه ويَزِيدُنِي حتى انْتَهى إلى سبعة أحْرُفٍ**».

رواه البخاري في بدء الخلق (١١٩/٧)، وفي فضائل القرآن (٣٩٨/١٠، ٣٩٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (١٠١/٦) وغيرهما.

وقوله: «**فلم أزل أستزيده ويزيدني**» معناه: لم أزل أطلب منه أن يسأل الله الزيادة في الحروف للتوسعة والتخفيف ويسأل جبريل عليه السلام ربه سبحانه وتعالى فيزيده حتى انتهى إلى السبعة، أفاده النووي.

{٤} ـ وعن سيدنا عُمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت هِشامَ بنَ حَكيم بن حرام يقرأُ سورة الفرقان على غير ما أقْرَؤُهَا وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أقْرأَنِيها، فكِدْتُ أن أعْجَلَ عليه، ثم أمْهَلْتُ حتى انصرف ثم لَبَّبْتُه بِردائِه فجِئْتُ به رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: إني سمعتُ هذا يَقرأُ سورة الفرقان على غَير ما أقْرأتَنِيها، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اقرأ**»، فقرأ القراءةَ التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هكذَا أُنزِلَتْ**»، ثم قال لي: «**اقرأ**»، فقرأتُ، فقال: «**هكذا أُنزِلَتْ، إن هذا القرآن أُنزِل على سَبْعَةِ أحْرُفٍ، فاقْرَؤُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ**».

رواه أحمد (٢٤/١، ٤٠، ٤٢)، والبخاري (٣٩٩/١٠، ٤٠١)، ومسلم (٩٨/٦، ٩٩)، وأهل السنن الثلاثة.

وقوله: لَبَّبْتُه بتشديد الباء الأولى المفتوحة وسكون الثانية، يعني: قبض عليه يجره بثوبه.

{٥} ـ وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْب رضي الله تعالى عنه قال: كنتُ في المسجد فدخَلَ رجلٌ يُصلِّي فقرأ قراءة أنكرتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءةً سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله

تعالى عليه وآله وسلم فقلت: إن هذا قرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرآ، فحسن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم شأنَهُمَا، فسقط في نفسي من التَّكْذِيبِ ولا إذ كنتُ في الجاهلية، فلمَّا رأى رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مَا قَدْ غشيني ضَرَب في صَدْرِي ففِضْتُ عَرَقاً، وكأنَّما أنْظُرُ إلَى الله عز وجل فَرَقاً، فقال لي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إليّ أن اقرأ القرآن على حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إليه أنْ هوِّنْ على أمتي، فرد إليّ الثانية، اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إليّ الثالثة، اقرأه على سبعة أحرف، ولَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكها مسألة تَسْأَلُنِيهَا، فقلت: اللَّهم اغفِر لأُمَّتِي، اللَّهم اغفر لأمتي، وأخَّرتُ الثالثة ليوم يَرْغبُ إليَّ الخلْقُ كلُّهم حتى إبراهيمُ عليه السلام**».

رواه أحمد (١٢٧/٥)، ومسلم (١٠١/٦، ١٠٢)، وابن جرير (١٦/١، ١٧، ١٨).

وفي رواية لمسلم (١٠٣/٦): أنَّ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان عند أضَاةِ بَنِي غِفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمُرُك أن تَقْرَأ أُمَّتُكَ القرآن على حرف، فقال: «**أسألُ اللَّهَ معَافَاتِه ومغفرتَه، وإن أُمَّتي لا تُطِيقُ ذلك**»، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرتَه، وإن أمتي لا تطيق ذلك**»، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك على ثلاثة أحرف، فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك**»، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على سبعة أحْرُفٍ فَأيُّما حَرْف قرؤُوا عليه فقد أصابوا.

وفي رواية عند الترمذي (٢٧٤٩) بتهذيبي، وأحمد (١٢٢/٥)، وأبي داود (١٤١/٨)، وابن جرير (١٦/١) بسند صحيح قال: لقي رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جبريلَ عليه السلام فقال: «**يا جبريل! إني بُعِثتُ إلى أمَّةٍ أُمِّيين، منهم العجوزُ، والشيخُ الكبيرُ، والغلامُ، والجاريةُ،**

والرجل الذي لم يقرأ قطُّ»، قال: يا محمد! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف. قال الترمذي: حسن صحيح.

وقول أُبَيّ: سُقِطَ في نَفْسِي - بضم السين وكسر القاف، قال القاضي عياض في الإكمال (١٩٤/٣): أي: اعترته حيرة ودهشة، وقوله: ولا إذ كنت في الجاهلية، معناه: أن الشيطان نزغ في نفسه تكذيباً لم يعتقده أيام جاهليته، ولكن هذه النزغة لم تستمر بل زالت في الحال حين ضرب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بيده في صدره ففاض عرقاً.

وقوله: فرقاً بفتحتين أي: خوفاً.

وقوله: أضاة مثل حصاة: هو الغدير.

وقوله: «**أميين**»: جمع أمي وهو من لا يقرأ ولا يكتب كما كانت عادة العرب، والأمي منسوب إلى أصل ولادة أمه.

{٦} - وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرؤها على خلاف ذلك، قال: فأخذتُ بيده، فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، فعرفتُ في وجهه الكراهيةَ وقال: «**اقْرَأُوا فكلاكما مُحْسِنٌ، ولا تَخْتَلِفُوا فإن مَن كان قَبْلَكم اختلفوا فَهَلَكُوا**».

رواه أحمد (٤١٢/١)، والبخاري في فضائل القرآن (٤٧٩/١٠).

{٧} - وعن أبي جُهَيْم الأنصاري رضي الله تعالى عنه، أن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تماريا في آية من القرآن كلاهما يزعم أنه تلقاها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فتماشيا جميعاً حتى أتيا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فكلاهما ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سمعه منه، فذكر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ هذا القرآنَ نَزَلَ على سبعة أحرف، فلا تُمَارُوا في القرآنِ، فإن مِرَاءً فِيهِ كُفْرٌ**».

رواه أحمد (١٦٩/٤، ١٧٠)، وابن جرير (١٩/١). قال ابن كثير في

فضائل القرآن: وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه ـ يعني: الستة ـ. وقال نور الدين الهيثمي في المجمع (١٥١/٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

ولنكتف بهذه النبذة الطيبة.

المراء: الجدال.. والشك.

ولنا في هذه الأحاديث مبحثان هامان: أحدهما في معنى الأحرف السبعة، وثانيهما في اختلاف الصحابة في القراءة.

* * *

الأحرف السبعة

اختلف العلماء اختلافاً كثيراً في المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، فحكى القرطبي في تفسيره (٤٢/١، ٤٣): أن ابن حبان ذكر لها خمسة وثلاثين قولاً ثم سرد بعضاً منها. وأورد السيوطي أكثرها في الإتقان (٢٠٠/١، ٢٠٢)، وقبله الزركشي في البرهان (٢١٣/١، ٢٢٦)، وأكثر ما أوردوه بعيد عن الصواب، وقد أجاد وأفاد الحافظ في الفتح (٣٩٩/١٠، ٤٠١) إلى (٤٠٨) حيث نقل ما قيل في ذلك وزيف باطلها، وصوب صحيحها، ونقل أقوال أهل العلم مع التحقيق بما لا يوجد عند غيره مجموعاً كعادته رحمه الله تعالى وأثابه وأشهر ما قالوا في ذلك وأقربه للصواب ثلاثة أقوال:

الأول: أنها اللغات واللَّهَجَاتُ، بأن يقرأ كل قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عادتهم من الإدغام، والإظهار، والإمالة، والتفخيم، والإشمام، والإتمام، والهمز، والتليين، وغير ذلك من وجوه اللغات إلى سبعة أوجه، وهذا القول اختاره الإمام البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة (٥٠٧/٤)، فقال: وأظهر الأقاويل وأصحها وأشبهها بظاهر الحديث أن المراد من هذه الحروف اللغات الخ. وبهذا قال ابن جرير، والطحاوي، وابن الأنباري، وابن عطية وآخرون.

وقالوا: إنها مفرقة في القرآن، وليس معنى ذلك أن كل كلمة تقرأ بسبع حروف.

الثاني: أن المراد بها تأدية المعنى باللفظ المرادف، وإن كان من لغة واحدة، كقوله: هلم، تعالوا، أقبلوا، واسْعَوْا، وامْضُوا، وانْظر، وأخِّر، وامْهِلْ...

ذكره ابن عبدالبر، ونقل عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة.

الثالث: وهو أظهرها وأقواها، وأجمعها أن المراد بها الوجوه التي يقع بها التغاير في الألفاظ، وهي لا تخرج عن سبعة أوجه. وهذه أنواعها مشفوعة بأمثلتها:

أولاً: اختلاف الأسماء من إفراد، وتثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾، قرىء لأماناتهم بالجمع، وقرىء «لأمانتهم» بالإفراد، ولذلك كتبت في المصحف بحذف الألف لتقرأ بالحرفين.

ثانياً: اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع، وأمر، كقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، قرىء: باعِدْ بفتح الباء مع الحذف وكسر العين بصيغة الأمر، وقرىء: بَعَّد بفتح العين المشددة فعل ماض مع ضم ربنا قبله على الابتداء.

ثالثاً: اختلاف وجوه الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، قرىء بفتح الراء وضمها، فالفتح على أن لا ناهية والفعل مجزوم بعدها، وفتحة الراء فتحة إدغام المثلين، أما الضم فعلى أن لا نافية والفعل بعدها مرفوع.

رابعاً: الاختلاف بالنقص والزيادة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾، قرىء هكذا بزيادة خلق، وقرىء: «والذَّكرِ والأُنْثى».

خامساً: الاختلاف بالتقديم والتأخير، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقرىء: «وجاءتْ سكرةُ الحق بالموت».

سادساً: الاختلاف بالإبدال، كقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، قرئت بالراء والزاي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾، بالحاء، وقرئت: وطلع بالعين.

سابعاً: اختلاف اللغات واللهجات وذلك كالفتح، والإمالة، والترقيق، والتفخيم، والإظهار، والإدغام، وغير ذلك وهي كثيرة في القرآن الكريم.

وهذا القول ـ كما يبدو ـ هو أقوى الأقوال، وهو الذي اختاره الإمام الفخر الرازي كما ذكره عنه ابن الجزري وغيره، قال في النشر (٢٤/١، ٢٦، ٢٧): إن الإجماع على أنه ليس المقصود أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وعلى أنه لا يجوز أن يكون المراد هؤلاء السبعة القراء المشهورين، وإن أكثر العلماء على أنها لغات، ثم اختلفوا في تعيينها ثم ذكر بعضها فقال: ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله تعالى عليَّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله تعالى، وذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها، وضعيفها، ومنكرها، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج منها، ثم ذكر نحو ما أوردنا.. وقريب منه أيضاً ما ذكره الإمام ابن قتيبة من الأقدمين، وحكاه ابن عبدالبر عن بعض المتأخرين كما في البرهان للزركشي (٢١٤/١)، وانظر: الإكمال لعياض (١٨٧/٣، ١٨٩)، والنووي على مسلم (٩٩/٦، ١٠٠) ومناهل العرفان للزرقاني.

* * *

اختلاف الصحابة في قراءاتهم

وما ذكرناه في الأحاديث الآنفة الذكر من اختلاف الصحابة في قراءاتهم يدل على أن كل ذلك صواب حسن نزل من عند الله عز وجل، من قرأ بشيء منه كان على صواب قارناً للقرآن، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لسيدنا عمر وهشام بن حكيم: «**هكذا نزلت**»، وقال لابن مسعود ومن اختلف معه: «**فكلاكما محسن**»، وقال صلى الله تعالى عليه

وآله وسلم في حديث أُبيّ: «**فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا**»، وقال أبيّ في شأن الرجلين اللذين قرآ على غير حرفه: فحسن شأنهما ـ يعني: النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ، وفي حديث عمرو بن العاص عند أحمد: «**فأي ذلك قرأتم فقد أصبتم**».

فكل ذلك يدل على أن كل القراءات والوجوه نزلت من عند الله عز وجل، وأن كل من قرأ منها بحرف ووجه فقد قرأ القرآن الكريم ولا يجوز الاعتراض على من قرأ بغير حرفه من القراءات كما لا يجوز التشكك في قرآنيتها إذا اثبتت، ولا المراء والجدال في شأنها، فإن ذلك قد يؤدي إلى الكفر عياذاً بالله تعالى.

ويؤخذ من حديثي عُمَر وَأُبَيْ رضي الله تعالى عنهما أن اختلاف الأحرف حصل تيسيراً على الأمة ورحمة ورفقاً بها لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فاقرأوا ما تيسر منه**»، وقوله: «**أنْ هَوِّن على أمتي**»، وقوله: «**فإن أُمَّتِي لا تُطِيق ذلك**»، وقوله: «**بُعثت إلى أمة أميين منهم العجوز...**»، فللَّه الحمد كثيراً على ما سهَّل ويسَّر.

* * *

جمع القرآن أيام النبوة

{٨} ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: كُنّا عندَ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نُؤَلِّف القرآن من الرقاع.

رواه أحمد (١٨٩/٥)، والترمذي آخر المناقب (٣٧١٥)، وابن حبان (١١٤)، والحاكم (٢٢٩/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: نؤلف القرآن: أي: نجمعه.

وقوله: من الرقاع، بكسر الراء جمع رقعة بضم الراء. المراد بها هنا ما يكتب عليه من جلد أو ورق.

والحديث يدل على أن القرآن الكريم كان مجموعاً أيام النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بحسب ما كان ينزل منه حتى تم نزوله، غير أنه لم يكن مكتوباً مرتباً في موضع واحد على ما فعله الصديق ثم عثمان بعده رضي الله تعالى عنهما، بل كان مكتوباً في العُسُب، واللِّخاف، مفرقاً، ومجموعاً عند بعض الصحابة، ومحفوظاً في الصدور.

قال الحاكم في المستدرك (٢/٢٢٩): وفيه البيان الواضح أن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جمع بعضه بحضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الخ.

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كلما نزلت عليه آية، أو سورة، حفظها وقرأها على أصحابه أو بعضهم، وأمر أحد كتابه بكتابتها، وكان يأمرهم أن يضعوا كل آية في سورتها، وكان يعرض ما ينزل عليه من القرآن على جبريل عليه السلام مرة في كل سنة حتى كانت سنة وفاته عرضه عليه مرتين كما يأتي.

❊ ❊ ❊

جمع القرآن أيام الصديق رضي الله تعالى عنه

{٩} ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: بعث إليَّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه لمَقْتَلِ أهل اليمامة وعنده عُمر رضي الله تعالى عنه، قال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد اسْتَحرَّ يومَ اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فَتَتَبَّعْ القرآن واجْمَعْه. قال زيد: فوالله لو كَلَّفَني نقلَ

جَبَلٍ من الجبال ما كان أثقلَ عليّ بما كلفني من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يحث مراجعتي حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، ورأيت في ذلك الذي رأياه، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ، والرِّقاع، واللِّخافِ، وصدور الرجال، قال: فوجدت آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها مع خزيمة ـ أو أبي خزيمة ـ فألحقتها في سورتها، وكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفَّاه الله تعالى ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما.

رواه البخاري في فضائل القرآن (١٠/٣٨٥، ٣٩٠) وفي مواضع، والترمذي في التفسير (٢٩٠٣)، والنسائي في الكبرى (٥/٥).

قوله: استحر بسكون السين وفتح التاء والحاء وتشديد الراء، أي: اشتد وكثر.

وقوله: اليمامة هي في ناحية نجد، وكانت بها الوقعة المشهورة بين الصحابة وبين جند مسيلمة الكذاب الذي كان ادعى النبوة وقوي أمره بعد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والتحق به كثير من القبائل العربية المرتدين فجهز الصديق رضي الله تعالى عنه إليه جيشاً من الصحابة فوقعت معارك طاحنة أوْدَتْ في النهاية بقتل مسيلمة وانهزام جيشه، وقتل في هذه الوقعة نحو سبعمائة صحابي، وكان فيهم كثير من قراء القرآن.

وقوله: العُسُب بضم العين والسين، جمع عسيب: وهو جريد النخل.

وقوله: والرِّقاع بكسر الراء جمع رقعة: كل ما يكتب فيه من جلد وورق ونحو ذلك.

وقوله: واللِّخاف بكسر اللام جمع لَخفة بفتحها مع سكون الخاء: وهي حجارة بيض.

دل هذا الحديث على فوائد هامة:

أولها: فضل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه حيث ألهمه الله تعالى لجمع القرآن الذي هو دين المسلمين، وطريق سعادتهم، ورأى في ذلك مصلحة عظيمة لكل الأجيال.

ثانيها: في قول الصديق: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ دليل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يجمع القرآن في موضع واحد مرتبة سوره وآياته على ما هو عليه الآن، رغم أنه قد كان كتب كله وجمع بعضه وحفظ جميعه في الصدور.

ثالثها: جواز إحداث ما لم يكن أيام النبوة من أمور الديانة إذا ترتبت عليه مصلحة أو مصالح، ولم يخالف نصاً من كتاب أو سنة، فإن جمع القرآن على الطريقة المذكورة بدعة لكنها لما كانت فيها مصلحة عامة دينية أكيدة ترجع إلى حفظ القرآن الكريم فعلوها، وكانت من قسم ما سماه علماء الأصول «المصالح المرسلة»، وقد بنى العلماء على هذه القاعدة عدة أحكام، ولم يعدوا ذلك من البدع الضالة، كما يتبناه بعض الفرق المتشددة.

رابعها: قول زيد: فتتبعت القرآن أجمعه، الخ، فعله هذا يدل على أنه كان يجمعه مكتوباً ومحفوظاً، وكان لا يكتفي بأحدهما عن الآخر، بدليل قوله: فوجدت آخر سورة التوبة.. الخ، فإن الآية كانت موجودة عند زيد نفسه في حافظته، كما كانت محفوظة عند من تلقاها عن غير النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإنما كان يجمع القرآن عمن سمعه من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مباشرة.

خامسها: قوله: فوجدتها مع خزيمة - أو أبي خزيمة - صحح الحفاظ أن هذه الآية كانت مع أبي خزيمة، أما الآية التي وجدت مع خزيمة هي قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ من سورة الأحزاب.

سادسها: في الحديث مناقب خالدة لزيد بن ثابت حيث اختاره الصديق لجمع القرآن وأثنى عليه بكونه شاباً عاقلاً أميناً غير متهم، وكان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهذه مزايا هامة له رضي الله تعالى عنه.

سابعها: أن جمع الصديق القرآن في الصحف كان جمعاً غير مرتب السور وإنما جمعه بترتيب آياته في سورها علماً بأن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرؤه مرتباً كبعض الصحابة، وفي ذلك أحاديث تقدم بعضها في قيام الليل وفي فضائل القرآن.

ثامنها: بقي القرآن في الصحف عند الصديق، ثم عند الفارق، ثم عند حفصة... وفي هذه المدة كان القرآن محفوظاً في الصدور ومنتشراً بين الصحابة ومن دخل في الإسلام لكنه كان غير مرتب الترتيب المعهود وكان يقرأ بقراءات مختلفة حتى المنسوخ منها حتى جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه.

* * *

جمع القرآن أيام عثمان رضي الله تعالى عنه

{١٠} ـ عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه حدثه أن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قدم على عثمان رضي الله تعالى عنه وكان يُغازِي أهلَ الشام في فتح أرْمِينِية وأذَرْبِيجَانَ مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فيْ الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرْسِلِي إلينا بالصُّحُف نَنْسَخُهَا في المصاحف ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحَرَّقَ.

وفي رواية: أن زيد بن ثابت قال: فقدت آية من سورة الأحزاب كنت

أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرؤها: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة، فألحقتها في سورتها.

وفي رواية: قال الزهري: فاختلفوا يومئذ في التابوت، والتابوه، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فَرُفِعَ اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش.

رواه البخاري (١٠/٣٩٠، ٣٩٥)، والترمذي (٢٩٠٤) بتهذيبي.

قوله: يُغَازي أهل الشام، معناه: كان يغزو مع أهل الشام فيمن اجتمع من أهل العراق في فتح أرمينية.. الخ. وإرْمِينية بكسر الهمزة والميم والنون. وقوله: أذربيجان بفتح الهمزة والذال المعجمة وسكون الراء، ويسكن الذال وتفتح الراء مع كسر الياء وهما من بلاد العجم غرب شمال آسيا وأرمينية تحت النفوذ الروسي وأذربيجان بعضه عند إيران والآخر عند الروس. وكان فتحهما أيام عثمان رضي الله تعالى عنه سنة خمس وعشرين من الهجرة وكان حذيفة رضي الله تعالى عنه في جملة من غزاهما وحضر فتحهما.

وفي هذا الحديث الشريف بيان سبب جمع عثمان للقرآن الكريم ويتضح ذلك في الآتي:

أولاً: إن السبب الرئيسي الحامل على جمع القرآن مرة ثانية هو اختلاف الناس في حروف القرآن حسب ما تلقوه وحفظوه، وكان في ذلك عدة وجوه وقراءات قد نسخت ورفعت، ولم يعلم بذلك كثير من الصحابة، وإنما كانت العبرة بمن سمع العرضتين الأخيرتين من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كما يأتي.

ثانياً: كان أهل الشام يقرأون بقراءة أُبيّ بن كعب، وأهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود، وآخرون يقرأون بقراءة أبي موسى وهكذا، فكان

كل يأتي بما لم يسمعه غيره، فجعل بعضهم يكفر بعضاً فلما سمع حذيفة ذلك رفع الأمر إلى عثمان، بينما هذا كان قد بلغه من قبلُ اختلاف المعلمين والغلمان، فتعاظم ذلك في نفسه، ووافق ما بلغه قول حذيفة.

فلما رأى ما حصل من الاختلاف جمع الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم وأخبرهم بما وقع واستشارهم بأن يجمع الناس على مصحف واحد، فوافقوه.. وقالوا له: نِعْم ما رأيتَ. رواه ابن أبي داود في المصاحف عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه بسند صحيح كما في الفتح.

وقال مصعب بن سعد رحمه الله تعالى: لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود وقراءة أبيّ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة، قال: فجمع عثمان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني رأيت أن أكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت، ثم أبعث بها إلى الأمصار، قالوا: نِعْمَ ما رأيتَ، قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص، قال: فأي الناس أكتب؟ قالوا: زيد بن ثابت كاتب الوحي، قال: فليملل سعيد، وليكتب زيد بن ثابت، فكتب مصاحف فبعث بها إلى الأمصار، قال: فرأيت أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولون: أحسن والله عثمان. رواه ابن أبي داود في المصاحف ص (٢٣، ٢٤)، قال ابن كثير في فضائل القرآن: إسناده صحيح.

وجاء نحوه عن الإمام علي وفيه: أيها الناس إياكم والغلوّ في عثمان، وقولكم حَرَّاقُ المصاحف والله ما حرقها إلا على ملأ من أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جميعاً. قال الإمام علي عليه السلام: ولو وليتُ الذي ولي عثمان لصنعت مثل الذي صنع. رواه ابن أبي داود (٢٢، ٢٣)، وصححه الحافظ في الفتح.

أما ما جاء عن ابن مسعود من اعتراضه... فقد رجع عن ذلك واتفق مع الصحابة.

ثالثاً: الصحابة الذين أسند إليهم جمع القرآن كان معهم جماعة آخرون

يساعدونهم وأمرهم عثمان أن لا يكتبوا شيئاً حتى يتحققوا قرآنيته مما هو محفوظ ومكتوب معاً، وأن يتحروا العرضتين الأخيرتين اللتين صدرتا من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وجبريل عليه السلام في السنة التي توفي فيها.

{١١} ـ فعن مولاتنا فاطمة عليها السلام قالت: أَسَرَّ إليَّ النبيُّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أن جبريل عليه السلام كان يُعَارِضُنِي بالقرآن كلَّ سنةٍ، وأنه عارضني العامَ مرتين، ولا أراه إلا حَضَر أجَلِي**».

رواه البخاري (١٠/٤١٨، ٤١٩) وغيره، ويأتي مطولاً ومخرجاً في المناقب وغيره.

وقوله: يُعَارِضُنِي بالقرآن كل سنة.. الخ: كان العرض مناوبة مرة من جبريل عليه السلام ومرة من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رابعاً: العرضتان الأخيرتان شهدهما زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه.

وقد نقل البغوي في شرح السنة عن أبي عبدالرحمن السلمي رحمه الله تعالى قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة كانوا يقرؤون قراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على جبريل عليه السلام مرتين في العام الذي قبض فيه قال: ويقال: إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على جبريل عليه السلام وهي التي بين فيها ما نسخ وما بقي قال: وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد لأنه كتبها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقرأها عليها وشهد العرضة الأخيرة وكان يقرىء الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كتبة المصاحف.

وقد ذكر الحافظ في الفتح ما يدل على أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ممن شهد العرضة الأخيرة مع زيد بن ثابت أيضاً فانظر (١٠/٤١٩، ٤٢٠) منه.

خامساً: قول عثمان رضي الله تعالى عنه: إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم. وفي رواية: إذا اختلفتم في عربية من عربية القرآن، هو دليل على أن القرآن كله نزل بلغة قريش، مع أن فيه عدة لغات من لغات العرب غير قريش، وأجيب عن ذلك: بأنه أولاً نزل بلغة قريش ثم جاء التخفيف من عند الله عز وجل بقراءته بأحرف ولغات أخرى وهي السبع المتقدمة.

سادساً: بما أن الله عز وجل سهَّل على الأمة ورخَّص لها أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف كان من المصلحة الأكيدة أن توضع كلها في المصحف الموحد ولذلك لما كتبوه باتفاق الصحابة وإشرافِ الخليفة الثالث الراشد، سلكوا في ذلك طريقة هامة إلْهاماً من الله عز وجل إيَّاهُم، فكتبوا عدة مصاحف متفاوتة في إثبات، وحذف، وبدل، وغيرها، لأنهم قصدوا اشتمالها على الأحرف السبعة، وجعلوها خالية من النقط والشكل، فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه، عند تجردها من النقط والشكل كقوله: «فتبينوا» من قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، فإنها تقرأ فتثبتوا أيضاً، وكذا كلمة نُنْشِرُها من قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، فإن تجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة عندهم أن يقرؤوها ننشزها بالزاي، وكذا: «يخدعون الله» فإنها تقرأ بفتح الياء والدال، كما تقرأ بضم الياء وكسر الدال، ولذلك رسمت الخاء بحْذف الألف بلا شكل ولا نقط.

أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾، بتشديد الصاد، وهي موجودة في مصحف حفص عن عاصم، وقرئت وأوصى وهي في مصحف ورش عن نافع وكذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قرئت بزيادة من كما هي قراءة أهل مكة بابن كثير، وقرئت تحتها مجردة وهي قراءة الجمهور.

وكانوا يتحاشون أن يكتبوا مثل هذا في مصحف واحد سواء كان في صلب المصحف أو في الحاشية. والذي حمل الصحابة على هذه الخطة في كتابة المصاحف أنهم تلقوا القرآن الكريم عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل عليها. هذا ما ذهب إليه المحققون من أهل الاستقراء في القراءات وهو المعمول به في القراءات المشهورة.

نعم ذهب البعض إلى أن هذه الأحرف السبعة لا توجد جُميعها في المصحف العثماني. وانظر الفتح (٤٠٥/١٠) لزيادة الاطلاع.

سابعاً: جمهور الأئمة والعلماء على أن ترتيب القرآن الموجود بالرسم العثماني بسوره وآياته هو أمر توقيفي من الشارع، وأنه هكذا موجود في اللوح المحفوظ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرؤه كذلك ويلقنه أصحابه.

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة عند حديث أنس (٥٢١/٤): فيه البيان الواضح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً.. فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو عليه الآي في مصاحفنا بتوقيف جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية. إن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا قال: فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا قال: وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة برحمة من الله عز وجل على عباده وتحقيقاً لوعده في حفظه كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا

﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. وقد استوعب الموضوع بما لا مزيد عليه السيوطي في الإتقان.

ثامناً: الصحيح من قولي العلماء أن رسم المصحف وكتابته توقيفي من الشارع أيضاً، لا تجوز مخالفته وكتابته على غير ما هو فيه. هذا مذهب جمهور الأئمة والعلماء من السلف والخلف، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان له كتاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن بهذا الرسم الموجود وأقرهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على كتابتهم ومضى عهده والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير، ثم جاء الصديق فكتبه بهذا الرسم في الصحف ثم حذا حذوه عثمان وأقر الصحابة ذلك وهكذا انتهى الأمر إلى التابعين فمن بعدهم ولم يتجرأ أحد أن يغير الرسم العثماني لأنهم علموا أن ذلك كان بتوقيف من الشارع ولذلك نقل غير واحد الإجماع على أنه لا يجوز العدول عن رسم القرآن الموجود وكتابته على غير ذلك.

وقد ذكر الإمام أحمد بن المبارك الفاسي عن شيخه العارف الدباغ ـ قدس الله سره ـ أن رسم القرآن سر من أسرار الله تعالى وهو معجزة كنظم القرآن وقال: كيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وزيادة الياء في بايد، وبأييكم، وزيادة الألف في سعوا في الحج وعدمها من سعو بسبإ، وزيادتها في عتوا ونقصانها في عتو في الفرقان، وزيادتها في آمنوا وإسقاطها في باءو، وجاءو، وتَبَوَّءُو، وفَاءُو، بالبقرة، وزيادتها في يَعْفُوا الذِي، ونقصانها مِن يَعْفُو عَنْهُم في النساء، وكيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون حذف بعض، كحذف الألف من قُرْءاناً بيوسف، والزخرف، وإثباتها في سائر المواضع، وإثبات الألف بعد واو سَمَٰوَٰتٍ في فصلت، وحذفها في غيرها، وإثبات الألف في المِيعَادِ مطلقاً، وحذفها في الأنفال، وإثبات الألف في سِرَاحاً حيثما وقع، وحذفه في الفرقان. قال: وكيف تتوصل العقول إلى فتح بعض التاءات، وربطها في بعض فكل ذلك لأسرار إلٰهية فهي بمنزلة الحروف المتقطعة في أوائل السور فإن لها أسراراً عظيمة.. قال: ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي صلى الله تعالى عليه

وآله وسلم وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة الخ، ما قال فانظره في الإبريز.

ومن أمعن النظر في رسم القرآن وقارن بين كلماته في وضعها وكتابتها حصلت له حيرة ودهشة، وقد اهتم بهذا الجانب جماعة من علماء الرسم وأفردوا موضوعات منها بالتأليف كالحذف، والثابت وغريبهما وغير ذلك مما تجده في كتب القوم.

هذا وقد رخص جماعة من أهل العلم في تغيير رسم القرآن كالباقلاني والعز ابن عبدالسلام وغيرهما، وهو مذهب مرجوح مطروح.

تاسعاً: لما جمع سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه المصحف كتب منه عدة مصاحف ثم بعث بها إلى الآفاق، واختلفوا كم كان عددها فنقل الزركشي في البرهان (٢٤٠/١) عن الداني في المقنع: أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعله أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحداً: الكوفة، والبصرة، والشام، وترك واحداً عنده. قال: وقد قيل: إنه جعله سبع نسخ، وزاد إلى مكة، وإلى اليمن، وإلى البحرين، قال: والأول أصح وعليه الأئمة.

وقال الحافظ في الفتح (٣٩٥/١٠): فالمشهور أنها خمسة...، وقال ابن أبي داود: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كتبت سبعة مصاحف: إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً... وعنه نقله السيوطي في الإتقان (١٧١/١)، وزاد ابن الجزري في النشر (٧/١) ثامناً أمسكه عثمان لنفسه وأياً كان عددها فقد كان لكل أفق مصحف.

عاشراً: قوله: وأمر بما سواه... أن يحرق. إما حرق من لم تثبت قرآنيته، أو كان مما نسخ لفظه، أو ما كان يكتبه بعض الصحابة من تفسير ونحوه، ولم يبق إلا ما ثبتت قرآنيته في العرضتين الأخيرتين من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم التي تلقاهما عنه زيد بن ثابت ومن كان معه..

❋ ❋ ❋

قراء الصحابة الذين جمعوا القرآن أيام النبوة

{١٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سئل: من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد... أحد عمومتي.

وفي رواية: مات النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

رواه البخاري في المناقب وفي التفسير (١٠/٤٢٦، ٤٢٩)، ومسلم (١٦/١٩، ٢٠)، والترمذي (٣٥٦٥) كلاهما في المناقب.

قوله: جمع القرآن: أي: حفظه عن ظهر قلب.

وحصر جمع القرآن في هؤلاء الأربعة أو الخمسة لا مفهوم له، بل جمعه وحفظه كثير من الصحابة كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة، فقد عدوا من حفظته الخلفاء الأربعة وابن مسعود، وعبدالله بن عمرو، وسالماً مولى أبي حذيفة، وأبا هريرة، وأبا موسى في آخرين، وقد قتل في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سبعون قارئاً في غزوة بئر معونة كما قتل كثير من القراء في وقعة اليمامة وكانت قريبة من زمان موت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. وقد أجاب العلماء رحمهم الله تعالى عن حديث أنس المذكور وحصره الجمع في المذكورين بأجوبة ثمانية أوردها الحافظ في الفتح نقلاً عن أبي بكر الباقلاني وغيره انظر: (١٠/٤٢٦، ٤٢٧).

{١٣} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«خذوا القرآن»**، وفي رواية: **«استقرؤوا القرآن من أربعةٍ: من: ابنِ مَسْعُود، وسَالِمٍ مَوْلَى أَبي حُذَيفة، وأُبَيّ بن كعب، ومعاذِ بنِ جَبَلٍ»**.

رواه البخاري (١٠/٤٢٢)، ومسلم (١٦/١٧، ١٨، ١٩).

قال العلماء: إنما خص صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هؤلاء بأخذ القرآن عنهم لأنهم كانوا أحفظ له وأضبط، وأتقن، أو لأنهم كانوا متفرغين لأخذه منه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مشافهةً، وغيرهم كانوا يأخذونه عن بعضهم بعضاً.

{١٤} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إلٰه غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله تعالى مني تبلغه الإبل لركبت إليه.

وفي رواية من طريق آخر: ولقد علم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أني أعلمهم بكتاب الله تعالى ولو أعلم أن أحداً أعلم مني لرحلت إليه.

قال شقيق: فجلست في حلَقِ أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فما سمعت أحداً يرد ذلك عليه ولا يعيبه.

رواه البخاري (١٠/٤٢٣، ٤٢٦)، ومسلم (١٦/١٦، ١٧).

وفي حديث ابن مسعود هذا بروايتيه بيان أنه كان أعلم الصحابة بالقرآن حفظاً ونزولاً، وزاد تأييداً لما قال إقرار الصحابة لمقالته هذه، غير أن ذلك لا ينفي أن يكون في الصحابة من هو أعلم منه وأحفظ، أو على الأقل مساوياً له، فإنه قال ذلك حسب ما كان يعتقده ويعلمه.

هذا والأحاديث الدالة على بيان حفظة القرآن من الصحابة كثيرة.

❊ ❊ ❊

من اشتهر من الصحابة والتابعين لإقراء القرآن

لما بعث عثمان بالمصاحف إلى الآفاق أصبح أهل كل مصر يقرؤون بما في مصحفهم من الأحرف والوجوه، ثم اختص جماعة من الصحابة بإقراء القرآن حسبما تلقوه من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أو من بعضهم بعضاً.

وكان من أشهر الصحابة الذين تجردوا لتبليغ القرآن وإقرائه وعليهم تدور أسانيد القراء المشاهيرِ سبعةٌ: الإمام علي، وعثمان، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء رضي الله تعالى عنهم ثم أخذ عن هؤلاء جموع غفيرة من التابعين، وكان ممن اشتهر في ذلك العصر منهم بحفظ القرآن وإقرائه أعلام من كبار وخيار التابعين وهم الآتون:

فمن أهل المدينة المنورة:

سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبدالله، وعمر بن عبدالعزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء بن يسار، وزيد بن أسلم، وابن شهاب الزهري، وعبدالرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث القاري.

ومن أهل مكة المكرمة:

عطاء بن أبي رباح، وطاوس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعُبَيد بن عُمَير.

ومن أهل البصرة:

أبو العالية، والحسن البصري، وابن سيرين، وقتادة، وعامر بن عبدالقيس، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر.

ومن أهل الكوفة:

علقمة، والأسود، ومسروق، وعَبيدةُ السلماني، وزِرّ بن حُبَيْش، وعمر بن شُرَحْبِيل، وعمر بن ميمون، وأبو عبدالرحمن السلمي، وسعيد بن جبير، والنخعي، وعامر الشعبي.

ومن أهل الشام:

المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، وخُلَيْد بن سعيد في آخرين من تلامذة أبي الدرداء.

❋ ❋ ❋

القراء السبعة والعشرة

ثم ظهر في التابعين فمن بعدهم إلى أوائل القرن الثالث الهجري أئمة وحفاظ كبار تفرغوا للقراءات وضبطها والاعتناء بها، فاشتهروا بين الناس بالضبط، والحفظ والإتقان، والأمانة، والتقوى، والصلاح، فرحل الناس إليهم وأخذوا عنهم القراءات والوجوه التي جاء بها الوحي الإلٰهي وتلقوها عمن قبلهم من القراء. وكان من هؤلاء الحفاظ المشهورين في الآفاق القراءُ السبعةُ والعشرةُ المشهورون وهذه أسماؤهم مرتبين حسب وفياتهم مشفوعين بذكر مشاهير رواة كل طريق من طرقهم:

الأول: عبدالله بن عامر اليَحصُبِي الشامي المتوفى (١١٨).

روى قراءته هشام بن عمار الدمشقي المتوفى (٢٤٥)، وابن ذكوان أبو عمرو عبدالله بن أحمد الدمشقي المتوفى (٢٤٢) روياها عن أصحابه عنه.

الثاني: عبدالله بن كثير المكي المتوفى (١٢٠).

من مشاهير رواة قراءته عن أصحابه عنه أحمد بن محمد البَزِّي المتوفى (٢٥٠)، ومحمد بن عبدالرحمن المخزومي قُنْبُل المتوفى (٢٩١).

الثالث: عاصم بن أبي النجود بن بهدلة الكوفي المتوفى (١٢٢ ـ ١٢٧).

روى عنه من المشاهير مباشرة حفص أبو عمرو بن سليمان بن المغيرة الكوفي المتوفى (١٨٠)، وشعبة بن عياش الأسدي المتوفى (١٩٣).

الرابع: أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى (١٥٤).

روى عنه بواسطة اليزيدي حفص بن عمر الدوري المتوفى (٢٤٦)، وصالح بن زياد الرقي السوسي المتوفى (٢٦١).

الخامس: حمزة بن حبيب الزيات الكوفي المتوفى (١٥٦).

اشتهر من رواة قراءته خلاد بن خالد الشيباني المتوفى (٢٢٠)، وخلف أبو محمد الأسدي المتوفى (٢٢٩) كلاهما عن سليم عنه.

السادس: نافع بن أبي نُعيم أبو رُوَيْم الليثي المدني المتوفى (١٦٩).

روى عنه مباشرة ورش عثمان بن سعيد المصري المتوفى (١٩٧)، وقالون عيسى بن مينا الزرقي المتوفى (٢٢٠).

السابع: علي بن حمزة الكسائي الكوفي المتوفى (١٨٩).

روى عنه أبو عمرو الدوري المتوفى (؟؟؟)، وأبو الحارث الليثي المتوفى (؟؟؟).

فهؤلاء هم القراء السبعة المشهورون بأصحاب القراءات السبع.

أما القراء العشرة فيزاد عليهم هؤلاء الثلاثة وهم:

الثامن: أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني من أقران ابن عامر، وابن كثير، ومن التابعين وشيوخ نافع أبي رُوَيْم توفي (١٢٧، ١٣٠، ١٣٣).

من رواة قراءته عيسى بن وردان الحذاء المتوفى (١٦٠)، وسليمان بن مسلم بن جماز المدني المتوفى (١٧٠).

التاسع: يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري المتوفى (٢٠٥).

من رواته رُوَيْسٌ محمد بن المتوكل البصري المتوفى (٢٣٨)، وروح بن عبدالمؤمن الهُذَلي البصري المتوفى (٢٣٤).

العاشر: خلف أبو محمد الأسدي البزاز البغدادي المتوفى (٢٢٩). وهو آخر القراء العشرة موتاً.

من رواة قراءته إسحاق بن إبراهيم المروزي المتوفى (٢٨٦)، وإدريس بن عبدالكريم الحداد البغدادي المتوفى (٢٩٢).

فهؤلاء العشرة هم المشهورون بأصحاب القراءات العشر، وكل هذه القراءات متواترة عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وما وراءها فشواذ، وإن صح سندها لأنها مختلة الشروط التي ذكرها أهل هذا الشأن. ولذا قال ابن السبكي في جمع الجوامع: «والسَّبْعُ مُتَوَاتِرَةٌ، ولا تَجُوزُ القِراءةُ

بالشاذ، والصَّحِيحُ أنَّهُ ما وَرَاءَ العَشْرَةِ وِفاقاً لِلبغَوي والشَّيخ الإمَامِ»... والشيخ الإمام هو والده تقي الدين السبكي.

وما وراء العشرة هي قراءة الحسن البصري، وابن مُحَيْصن، ويحيى اليزيدي، والشَّنْبُوذِي وبها تتم القراءات الأربع عشرة. ولصحة القرآن شروط ثلاثة قال ابن الجزري في طيبة النشر في القراءات العشر:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوٍ، وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالاً يَحْوِي، وَصَحَّ إسْناداً هُوَ الْقُرآنُ، فَهٰذِهِ الثَّلاثَةُ الأرْكَانُ، وحَيْثُمَا يَخْتَلُّ رُكْنٌ أُثْبِتَ شُذُوذُهُ، لَوْ أنَّهُ في السَّبْعَةِ، يعني: أن تكون القراءة موافقة لوجه من الوجوه العربية، وأن تكون موافقة لأحد المصاحف العثمانية، وأن يصح سندها فإن اختل شرط منها.. فهي شاذة ولو كانت في القراءات السبع.

ولما اشتهرت هذه القراءات ـ وخاصة السبع ـ في الأمصار الإسلامية أخذ الناس بها. فكان أهل المدينة على قراءة نافع، وأهل مكة على قراءة ابن كثير، وأهل الشام على قراءة ابن عامر، وأهل البصرة على قراءة أبي عَمْرو ويعقوب، وأهل الكوفة على قراءة حمزة وعاصم، ثم مع مر العصور لم يبق من القراءات المقروء بها عند الناس إلا قراءة نافع من طريق ورش وهي قراءة أكثر الأفارقة اليوم، وتقرأ على قلة من طريق قالون في بعض الأمصار، ثم قراءة عاصم من طريق حفص، وهي السائدة الآن في أكثر الأقطار، وأما ما عدا هذين القراءتين فلا تعرف إلا في كتب القراءات، أو عند من يتعاطاها، ومن قرأ ببعضها فهو نادر ولا شك أن قراءة نافع وعاصم أجود القراءات وكانتا أحب القراءات إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كما نقله عنه ابنه صالح.

علماً بأن كل هذه القراءات من عند الله تعالى وإنما نسبت لهؤلاء القراء لأنهم اعتنوا بها واختار كل واحد منهم وجوهاً وأحرفاً قرأ بها عملاً بقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فأيما حرف قرأوا به فقد أصابوا**»، وقوله: «**فاقرأوا ما تيسَّر منه**»، وقوله للمختلفين: «**هكذا أُنزل**»... فكل من قرأ بحرف ووجه فهو قارىء للقرآن الكريم.

❊ ❊ ❊

نماذج من القراءات الواردة المنصوص عليها

من الفاتحة:

{١٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبا بَكْر وعُمَرَ وعثمانَ كانُوا يَقرؤون: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، بالألف.

رواه الترمذي (٢٧٣٥) متصلاً، وأورده مرسلاً، ورواه أبو داود (٤٠٠٠) مرسلاً أيضاً بسند صحيح.

وللحديث شاهد عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها.

رواه أحمد (٣٠٢/٦)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٧٣٤) بتهذيبي، والحاكم (٢٣٣/٢) وصححه، وكذا صححه الدارقطني، وابن الجزري في النشر.

قرئت ملك بألف وبدونها، فقرأها بالألف عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلف؛ وقرأها بدونها نافع، وابن كثير، وحمزة، وباقيهم فالقراءتان متواترتان.

ومن البقرة:

{١٦} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا من مقام إبراهيمَ مُصَلًّى**﴾ بكسر الخاء.

رواه أبو داود في الحروف (٣٩٦٩) بسند صحيح.

وفي حديث جابر الطويل في صفة حجة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم... ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: «﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مقامِ إبراهِيمَ مُصَلًّى**﴾» رواه مسلم وغيره وتقدم مطولاً في الحج.

قرأ نافع، وابن عامر بفتح الخاء، وقرأ حفص والباقون بكسرها.

{١٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قرأت على

أُبَيّ بن كعب: ﴿واتَّقُوا يوماً لاَ تَجزِي نَفْسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾ بالتاء، ﴿ولا تُقْبَلُ مِنهَا شَفَاعةٌ﴾. قال أُبَيُّ: أقرأني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿لا تَجزِي﴾ بالتاء، ﴿ولا تُقبل منها شفاعةٌ﴾ بالتاء، ﴿ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ﴾ بالياء.

رواه الحاكم (٢/٢٣٣) وصححه، ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

وبهذا قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وقرأ نافع والباقون: ولا يقبل، بالياء.

{١٨} ـ وعن أبي يونس مولى عائشة رضي الله تعالى عنها أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذِنّي: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فلما بلغتها آذنتُها فأملَتْ عليَّ: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين»، قالت عائشة: سمعتها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (٦/٧٣، ١٧٨)، ومسلم (٥/١٢٩، ١٣٠)، وأبو داود (٤١٠)، والترمذي (٢٧٩١) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٤) ونحوه عن حفصة أيضاً رواه مالك وغيره.

{١٩} ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: نزلت هذه الآية: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر»، فقرأناها ما شاء الله ثم نسخها الله عز وجل فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فقال رجل: هي إذن صلاة العصر، فقال: قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله تعالى.

رواه مسلم في الصلاة (٥/١٣١).

الحديثان يدلان على أن الصلاة الوسطى المأمور بالمحافظة عليها مؤكداً هي صلاة العصر، وأن الآية كانت تقرأ: وصلاة العصر بدل: والصلاة الوسطى، ثم نسخت، وأثبت بدلها: والصلاة الوسطى وهي قراءة كل القراء.

ومن النساء:

{٣٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ: ﴿**إنَّ الله يأمرُكم أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهلِها وإذا حكمتُم بين الناس أن تَحكُموا بالعدْل إن الله نعِمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً**﴾.

رواه الحاكم (٢٣٦) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

نعماً بفتح النون وكسر العين وتشديد الميم المفتوحة. قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي، وقرأ نافع وحفص وابن كثير وغيرهم بكسر النون، والباقي سواء.

{٣١} ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرأ: «غَيْرَ أُولِي الضَّرر» بنصب الراء.

رواه أبو داود في الحروف (٣٩٧٥) بسند حسن.

وهذه القراءة متواترة قرأ بها نافع وأبو جعفر والكسائي وخلف، وقرأ حفص وحمزة وأبو عمرو والباقون بضم الراء.

ومن المائدة:

{٣٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرأ: «والعَيْنُ بالعين» بالرفع في الأولى.

رواه أبو داود (٣٩٧٦، ٣٩٧٧)، والترمذي (٢٧٣٦) وحسنه، والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

الآية بتمامها: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

قرأ نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب وغيرهم بنصب الجميع، وقرأ الكسائي بِضَمّ «والعينُ» فما بعدها.

ومن الأنعام:

{٣٣} ـ عن أُبَيّ رضي الله تعالى عنه قال: أقرأني رسول الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «﴿وَلِيَقُولُوا درسْتَ﴾» يعني: بجزم السين ونصب التاء.

رواه الحاكم (٢/٢٣٩) وصححه ووافقه الذهبي.

وبهذا قرأ كل القراء إلا ابن عامر ويعقوب فقرآ دَرسَتْ بفتح السين وسكون تاء التأنيث وهي أيضاً متواترة وفيها قراءة ثالثة: دَارَسْتُ بحمل الدال قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو.

ومن يونس:

{٢٤} ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِه فَبِذٰلِكَ فَلْتَفْرَحُوا﴾ بالتاء.

رواه أبو داود (٣٩٨٠) بسند حسن.

قرأ بهذه القراءة يعقوب، وقرأ الباقون من السبعة وغيرهم بالياء: فليفرحوا.

ومن هود:

{٢٥} ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرؤها: إنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صالح.

رواه أبو داود (٣٩٨٣)، والترمذي (٢٧٣٨) وسنده حسن أو صحيح.

وشهر بن حوشب حسن الحديث وصحح حديثه جماعة من أهل الحديث.

وقوله: وكان يقرؤها: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح» يعني: على أن عمل فعل ماض، وغير منصوب على أنه صفة لمفعول محذوف، أي: عَمِل عَمَلاً غيرَ صالح.

وبهذا قرأ الكسائي ويعقوب، وقرأ نافع وحفص والباقون بضم اللام من عَمَلٌ على أنه خبر إنَّ وغير بالضم صفة له.

ومن يوسف:

{٣٦} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ: «هَيْتَ لَك»، وقال: إنَّمَا نَقْرَؤُهَا كما عُلِّمْنَا. وفي رواية: أنه قرأ: «هَيْتَ لك»، فقال شقيق: إنا نقرؤها: «هَيْتُ لك» فقال: إني أقرؤها كما علمت أحب إليّ: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٤٣٤/٩) مختصراً باللفظ الأول، ورواه أبو داود (٤٠٠٤، ٤٠٠٥) بالباقي.

وفي قوله: «هيت لك» خمس قراءات، وقراءة ابن مسعود هذه هَيْتَ بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء قرأ بها حمزة وأبو عمرو وعاصم والكسائي، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان: هيت بكسر الهاء وياء ساكنة وتاء مفتوحة، وقرأ ابن كثير: هَيْتُ بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء، وقرأ هشام: هئت بكسر الهاء وسكون الهمزة مع فتح التاء، وكل هذه القراءات متواترة. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، أي: تَعالَ وأقْبِلْ وهَلُمَّ.

ومن الرعد:

{٣٧} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾**» مخففة.

رواه الحاكم (٢٤٢/٢) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

«ويثبت» بضم الياء وسكون الثاء وكسر الباء قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب، وقرأ نافع وحمزة والباقون بفتح الثاء وكسر الباء المشددة.

ومن الحجر:

{٣٨} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قرأ: **﴿الٓرَ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَّما يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾** مثقلة.

رواه الحاكم (٢/٢٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٤٣)، وابن جرير (١٤/٢)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وللحديث شواهد ستأتي في تفسير الآية.

قوله: مثقلة يعني: رُبَّما قرأها بفتح الباء المشددة وهي قراءة جمهور القراء، وقرأ نافع وعاصم وحفص وأبو جعفر بتخفيف الباء.

ومن الكهف:

{٢٩} ـ عن أُبَيّ رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ: **﴿لَوْ شِئْتَ لَتخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾** مخفف.

رواه الحاكم (٢/٢٤٣) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

وقوله: مخفف يعني: «لَتَخِذْتَ» بفتح التاء المخففة وكسر الخاء، وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وقرأ نافع وحمزة وعاصم والباقون بتشديد التاء وفتح الخاء.

ومن مريم:

{٣٠} ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ: **﴿تَكَادُ السمٰواتُ يَنْفَطِرْنَ﴾** بالياء والنون. **﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾** بالتاء، **﴿هدّاً أن دَعَوْا لِلرحْمٰنِ وَلَداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾** مفتوحة بعد مفتوحة.

رواه الحاكم (٢/٢٤٥) وصححه ووافقه الذهبي.

«ينفطرن» بالنون قرأ بها أبو عمرو وحمزة ويعقوب وابن عامر، وقرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر والكسائي بالتاء مع فتح الطاء المشددة.

ومن النور:

{٣١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: نزل الوحي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرأ علينا: **﴿سُورَةٌ أنزَلْنَاها وفَرَضْناها﴾**. قال أبو داود: يعني: مخففة الراء حتى أتى على هذه الآيات.

رواه أبو داود في الحروف (٤٠٠٨) بسند صحيح.

قرأ بتخفيف الراء من «فرضناها» نافع وعاصم وحمزة والجمهور ومعناه: أي: فرضنا ما فيها أو ألزمناكم العمل بما فرض فيها. وقرأها بالتشديد ابن كثير وأبو عمرو ومعناه: على هذا فصلنا ما فيها من الحلال والحرام، وفرضنا فيها فروضاً.

ومن الزخرف:

{٣٣} ـ عن يعلى بن أمية رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾. قال سفيان: وفي قراءة عبدالله: «ونادوا يا مَالِ».

رواه البخاري (١٠/١٨٩)، ومسلم في الجمعة (٦/١٦٠)، وأبو داود (٣٩٩٢)، والترمذي في الجمعة (٤٥٦) بتهذيبي.

وقوله: وفي قراءة عبدالله: «يا مال» يعني: مرخماً وهي قراءة الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكان يقرأ بها الأعمش وهي قراءة شاذة، والقراءة المتواترة هي الأولى.

ومن الذاريات:

{٣٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أقرأني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿**إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ**﴾.

رواه أبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٧٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٩)، والحاكم (٢/٢٤٩)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

هذه قراءة شاذة والتي تواترت عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقرأ بها القراء هي: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾.

ومن الطور:

{٣٤} ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه

وآله وسلم قرأ: ﴿وَالذِينَ ءامَنُوا وَاتَّبَعَتهم ذُرِّيَاتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذِرِّيَاتِهِم﴾ الآية.

رواه الحاكم (٢/٢٤٩) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: ذرياتهم بالجمع فيهما وبه وبالإفراد قرىء في السبع وغيره على اختلاف القراء وبإفراد الأولى وجمع الثانية قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وحمزة.

ومن القمر:

{٣٥} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قرأت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «فهل من مُذَكِّرٍ» فردَّها عليَّ: «مُدَّكِرٍ».

وفي رواية سمعته يقول: «مُدَّكِرٍ» دالاً.

رواه البخاري في التفسير (١/٢٤١، ٢٤٢) وغيره، ومسلم في الصلاة (٨٢٣)، وأبو داود (٣٩٩٤)، والترمذي (٢٧٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٦).

قراءة مُذَكِّرٍ بالذال المعجمة قراءة شاذة، والمتواترة المقروء بها هي «مُدَّكِرٍ» بضم الميم وتشديد الدال المهملة المفتوحة مع كسر الكاف، وقد كررها الله عز وجل في هذه السورة ست مرات.

ومعنى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من معتبر ومتعظ بأحوال من سلف من الأمم الغابرة الهالكة.

ومن الواقعة:

{٣٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرأ: ﴿فَرُوحٌ وَرَيحَانٌ وَجَنَّةُ نعيمٍ﴾.

رواه أبو داود (٣٩٩١)، والترمذي (٢٧٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٠) وسنده صحيح.

قوله: «فَرُوحٌ» يعني: بضم الراء قرأ بها رُوَيس، وقرأ سائر القراء بفتح الراء وسكون الواو.

ومن المدثر:

{٣٧} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾** بكسر الراء.

رواه الطبراني في الكبير (١٠٠٧)، والحاكم (٢/٢٥١) وصححه ووافقه الذهبي.

{٣٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ: **﴿وَالرُّجْزَ فاهْجُر﴾**.

رواه الحاكم أيضاً (٢/٢٥١) وصححه قال الذهبي: المصيصي خرج له النسائي وهو صويلح.

قوله: «والرجز فاهجر» قرئت بكسر الراء قرأ بها نافع وحمزة والجمهور، وقرئت بضمها وهي قراءة حفص وأبي جعفر ويعقوب.

ومن الانفطار:

{٣٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ: **﴿فسواك فَعَدَّلَكَ﴾** مثقل.

رواه الحاكم (٢/٢٥٢) وصححه ووافقه الذهبي.

وعبدالرحمن بن حرملة من رجال مسلم فلا معنى للطعن فيه بلا حجة.

وقوله: «فعدلك»: قرأها بتشديد الدال نافع وأبو عمرو وأبو جعفر والجمهور، وقرأها بالتخفيف عاصم وحمزة والكسائي وخلف.

ومن الغاشية:.

{٤٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّر إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بالصاد.

رواه الحاكم (٢/٢٥٥) وصححه ووافقه الذهبي على شرط مسلم.

قراءة بِمُصَيْطِرٍ بالصاد هي قراءة نافع وحفص وباقي العشرة إلا حمزة فقرأها بإشمام الصاد زاياً، وقرأ هشام بالسين.

ومن الفجر:

﴿٤١﴾ ـ عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبيه رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرأ: ﴿كَلا بَلْ لا يُكْرِمُون اليَتِيم ولا يَحُضُّون عَلى طعامِ المِسْكِينِ ويأْكُلُون التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا ويُحِبُّون﴾ كلها بالياء.

رواه الحاكم (٢/٢٥٥) وصححه ووافقه الذهبي.

هذه القراءة قرأ بها أبو عمرو ويعقوب، وقرأ الباقون بالتاء في الجميع غير أن حمزة وحفصاً والكسائي قرأوا: ولا تَحاضُّونَ بإثبات الألف بعد الحاء مع فتح التاء.

﴿٤٢﴾ ـ وعن أبي قلابة رحمه الله تعالى عمن أقرأه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عذابه أحدٌ ولا يُوثِقُ وَثَقَاً وثاقه أحدٌ﴾.

رواه أبو داود (٣٩٩٦، ٣٩٩٧)، وابن جرير والحاكم (٢/٢٢٥) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال من يعذب، وفتح الثاء من يوثق بالبناء للمجهول، وقرأهما بالكسر بالبناء للفاعل نافع وحفص وحمزة وباقي القراء.

ومن البلد:

{٤٣} ـ عن علقمة رحمه الله تعالى قال: قدم أصحاب عبدالله بن مسعود على أبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما فطلبهم فوجدهم فقال: أيكم يقرأ قراءة عبدالله؟ قالوا: كلنا، قال: فأيكم أحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة قال: كيف سمعته يقرأ: **﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾**؟ قال: **﴿والذكر والأنثى﴾**. قال أبو الدرداء: والله لا أتابعهم، ثم قال أبو الدرداء: أنت سمعته من فِي صاحِبِك؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعت من فِي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهؤلاء يأبون علينا.

رواه البخاري (١٠/٣٣٥، ٣٣٦)، ومسلم في الصلاة (٦/١٠٩)، والترمذي (٢٧٤٥) وغيرهم.

قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء هذه قراءة شاذة منسوخة كباقي كثير من قراءات ابن مسعود، والقراءة المتواترة هي: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

ومن البينة:

{٤٤} ـ عن أُبَيّ بن كَعْب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله تعالى أمَرَني أن أقرأ عليك القرآنَ**»، **فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ الذِين كَفَرُوا﴾**، وقرأ فيها: إنَّ الدِّين عِند الله الحَنِيفِيَّةُ المُسْلِمَةُ، لا اليَهُودِيَّةُ، ولا النصرانِيَّةُ، ولا المجوسِيَّةُ، ومَن يَعملْ خيراً فلَنْ يُكْفَرَه، وقرأ عليه: «لَوْ أن لابن آدم وادياً مِن مَالٍ لابْتَغَى إليه ثانياً، ولو أن له ثانياً لابْتَغَى إليه ثالثاً، ولاَ يَمْلأُ جَوْف ابنِ آدمَ إلا الترابُ، ويتوبُ الله على من تابَ».

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٦٢) بتهذيبي، والحاكم (٢/٥٣١)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وليس عند الحاكم: ولو أن لابن آدم.

وهو في الصحيحين عن ابن عباس وأنس وصدره الأول: «إن الله

أمرني أن أقرأ عليك» الخ، رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي في الكبرى (٥٢٠/٦)، ويأتي في المناقب.

ما ذكر في الحديث هي من القراءات التي نسخ لفظها من القرآن وبقي حكمها وهي من القراءات الشاذة التي لا تجوز القراءة بها على أنها قرآن.

وإلى هنا انتهى ما أردنا ذكره من القراءات المنصوص عليها على سبيل الاختصار، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

قسم التفسير للقرآن الكريم

فاتحة الكتاب

هذه السورة تعتبر أعظم سورة في القرآن الكريم، وقد اشتملت بالإجمال على كل ما فصل في القرآن من المقاصد وهي سبع آيات بالبسملة ولها فضائل وخصائص.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

{٤٥} ـ عن عَدِي بن حاتم رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اليهودُ مَغْضُوبٌ عليهم، والنصارى ضُلاَّلٌ**».

رواه أحمد (٤/٢٥٧) وفي مواضع، والترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وابن جرير (١/٧٩)، وابن حبان (٦٢٤٦) بالإحسان بعضهم مطولاً ومختصراً، وهو حديث حسن أو صحيح لطرقه.

وفي الحديث الشريف بيان لما أبهم في الآية الكريمة من المغضوب عليهم والضالين وفي الأولين جاء قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ

عَلَيْهِ﴾، وإنما كانوا مغضوباً عليهم لأنهم عرفوا الحق وكتموه. أما النصارى فجاءهم الضلال من جهلهم وتقليدهم لرهبانهم وفيهم قال الله عز وجل: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟﴾ الآية، وهذا التقسيم متفق عليه بين المفسرين.

وفضائل السورة تقدَّمت في فضائل القرآن، وللتوسع ارجع إلى كتابي: «الجواهر واللآلىء المصنوعة».

❊ ❊ ❊

سورة البقرة

هذه السورة من أشرف السور وأطولها إطلاقاً وقد احتوت على أكثر مقاصد الشريعة، وآياتها (٢٨٦) وهي أم السبع الطوال.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

{٤٦} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سألتُ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أي الذنب أعظمُ عند الله؟ قال: «**أن تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وهو خَلَقك**»، قلت: إنَّ ذلك لَعَظِيمٌ، قلت: ثم أي؟ قال: «**وأن تَقتُلَ وَلدَك تخاف أن يَطعمَ معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**».

رواه أحمد (١/٣٨٠، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤)، والبخاري في التقسيم (٩/٣٣٠)، وفي الأدب، وفي الديات، وفي التوحيد، ومسلم في الإيمان (٢/٨٠)، وأبو داود (٢٣١٠)، والترمذي في تفسير سورة الفرقان (٣١٨٢)، والنسائي في تفسيره من الكبرى (٦/٢٨٥) وغيرهم.

قوله: «**نداً**»: الند بكسر النون النظير والشبيه.

وقوله: «**حليلة جارك**»: أي زوجه. فأعظم الذنوب اتخاذ شريك مع الله ثم يأتي بعده قتل النفس بغير حق وأفحش ذلك قتل الأولاد خوفاً من

إطعامهم كما كان سائداً في الجاهلية، ثم تأتي جريمة الزنا تلك الفاحشة العظيمة وأشنعها قبحاً، وأعظمها جرماً ما كان بزوجة الجار الذي له من الحقوق ما ليس لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [الآيتان: ٣٠، ٣١].

﴿٤٧﴾ ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله خلقَ آدمَ مِن قَبْضةٍ قَبَضَها مِن جَميعِ الأرضِ فجاءَ بَنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ فجاء منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وبين ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطيِّبُ**».

رواه أحمد (٤٠٦/٤)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٥)، وابن جرير (٢١٤/١)، وابن حبان (٦١٦٠، ٦١٨١) بالإحسان، والحاكم (٢٦١/٢، ٢٦٢) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه.

قوله: «**قبضة**»: هي ملء الكف بالنسبة لنا وهي من الله لا تكيف. «**والحزن**»: بفتح الحاء وسكون الزاي: هو الغليظ الصعب.

وفي الحديث إعلام بأصل الإنسان وما ركب فيه من الأخلاق، وما جبل عليه من الطبائع، وأنه تابع للأرض في جميع ما فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الخ، صريح في أنه عز وجل كلم ملائكته بما ذكر وأنهم أجابوه بما في الآية. وقد ضل أقوام من المعاصرين العقلانيين فردوا ذلك ولم تقبله عقولهم الضيقة فقالوا: إن ذلك مجرد تمثيل فقط تعالى الله وكلامه عما يقولون علواً كبيراً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: إشارة إلى أنه لا بد للإنسانية من خليفة يخلف الله في الأرض في الحكم بالعدل والقيام بمهمات

الدين والدنيا، وباب الخلافة واسع له أحكام وشروط تأتي إن شاء الله تعالى.

{٤٨} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يَجْتَمِعُ المؤمنون يومَ القيامة فيقولون: لو اسْتَشْفَعْنا إلى ربنا حتى يُرِيحَنا من مكانِنا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو الناس خلقك الله بِيَدِه وأسْجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماءَ كُلِّ شيء، فاشفعْ لنا إلى ربك حتى يُريحنا من مكاننا**» هذا الحديث بطوله يأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى.

رواه أحمد (١١٦/٣)، والبخاري في التفسير (٢٢٦/٩، ٢٢٧)، وفي الرقاق، وفي التوحيد، ومسلم في الإيمان (٥٣/٣، ٥٨)، والنسائي في الكبرى (٢٨٤/٦)، وابن حبان (٦٤٦٥)، وابن خزيمة في التوحيد، والبغوي (٤٣٣٤) وغيرهم كما يأتي في الرقاق.

قوله: «**أنت أبو الناس**»، وفي رواية: «**أنت أبو البشر**»، وفيه رد على الداروينيين الذين يزعمون أن الإنسان أصله قرد ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ.

وقوله: «**وعلمك أسماء كل شيء**»: معناه: أن الله عز وجل علَّمه جميع أسماء الذوات وغيرها مما سيوجد من أنواع الكائنات بجميع لغات بنيه، وكان ذلك من أعظم ما أكرمه الله عز وجل به، وأفاضه عليه من نعمه، وفضَّله بذلك حتى على الملائكة المقدسين عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [٣٤].

{٤٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا قرأ ابنُ آدم السَّجدة فسجد، اعْتزَل الشيطانُ يَبكي يقول: يا وَيلَه! أُمِر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فعصيتُ فَلِي النارُ**».

رواه أحمد، ومسلم، وابن خزيمة (٥٣٩)، وابن ماجه (١٠٥٣) وقد تقدم في سجود التلاوة.

في الحديث فضل سجود التلاوة وأنه من موجبات الجنة. وكان هذا السجود من الملائكة سجوداً حقيقياً لآدم عليه السلام إكراماً له واحتراماً وسلاماً وطاعةً لله عز وجل، لأن ذلك امتثال لأمره، والله يأمر عباده بما يشاء. ورجح هذا القول الرازي وابن كثير وغيرهما وضعفوا ما عداه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٥].

{٥٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**احْتَجَّ آدمُ ومُوسى عليهما السلام، فقال له مُوسى: يا آدم! خلقَك اللَّهُ بِيَدِه ثم نَفَخَ فِيكَ من رُوحِه ثم قال لك كُن فكنتَ، ثم أمر الملائِكة فسجدُوا لك، ثم قال:** ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، **فنهاك عن شجرة واحدةٍ فعصيتَ ربَّك. فقال آدم: يا موسى! ألم تعلمْ أن الله قدّر هذا عليّ قبل أن يَخلُقَنِي؟**» قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد حَجَّ آدمُ مُوسَى، لقد حجَّ آدم موسى، لقد حجَّ آدم موسى...**».

رواه أحمد (٢/٢٤٨، ٢٦٤، ٣٩٨)، والبخاري (١٤/٣٠٨)، ومسلم (١٦/٢٠٠)، وأبو داود (٤٧٠١)، والترمذي (٢١٣٤) كلهم في القدر، ورواه البخاري في الأنبياء، وفي التفسير، وفي التوحيد، والنسائي في الكبرى (٦/٢٨٤، ٢٨٥)، وابن ماجه (٨٠)، وابن حبان (٦١٧، ٦١٨٠) وغيرهم بألفاظ وسيأتي مكرراً إن شاء الله تعالى.

قوله: فعصيت، كان ذلك نسياناً منه كما قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، وقوله: «**وحج آدم موسى**»: أي غلبه بالحجة، لأنه

لامه وعاتبه على شيء صدر منه على جهة النسيان مع سابق قدر الله تعالى وقد غفر الله له ذلك وتاب عليه واجتباه ومن كان كذلك فلا يوجه إليه اللوم.

وفي الحديث دليل على أن الله عز وجل قدَّر كل شيء من خير وشر وطاعة ومعصية خلافاً للشيعة والمعتزلة. وفي الآية الكريمة دليل على أن الجنة التي كان فيها آدم عليه السلام هي الجنة المعهودة التي أعدها الله تعالى لأوليائه المؤمنين خلافاً للمعتزلة ومن نحا نحوهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ الآية [٣٦].

{٥١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خَيْرُ يوم طلعتْ عليه الشمسُ يومُ الجُمُعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخرِجَ منها..**».

رواه أحمد (٤٠١/٢، ٤١٨، ٤٨١، ٥١٢)، ومسلم (١٤١/٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٨٨، ٤٩١)، والنسائي وغيرهم وتقدم في الجمعة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، أي: حملهما على الزلة، وقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا..﴾ الخ، أي: فكان السبب في إخراجهما من الجنة، وما كانا فيه من العيش الرغد.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [٤٤].

{٥٢} ـ عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يُجاءُ بالرجل يوم القيامة فيُلْقى في النار فتَندلِقُ به أقْتابُه فيدورُ بها في النار كما يدورُ الحِمارُ بِرحاه، فيُطِيفُ به أهلُ النار فيقولون: يا فلان! ما أصابك؟ ألم تكن تأمُرنا**

بالمعْروف، وتنهانا عن المُنكر؟ فيقول: كنت آمُرُكم بالمعروف ولا آتيه، وأنْهاكم عن المُنكر وآتِيهِ».

رواه أحمد (٥/٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩)، والبخاري في صفة النار من بدء الخلق (٦/١٤٤)، وفي الفتن (١٦/١٦١، ١٦٢، ١٦٣)، ومسلم في الزهد (١٧/١١٧، ١١٨) وغيرهم.

قوله: «**فتندلق**» أي: تخرج. وقوله: «**أقتابه**»: جمع قتب بكسر القاف وهي الأمعاء.

وفي الحديث كالآية الكريمة وعيد عظيم، وزجر بالغ لمن يأمر غيره بالبر والمعروف وينهاهم عن الفواحش والمناكير ثم ينسى نفسه فيخالفهم إلى ما يقول كما هو الشأن في كثير ممن ينتمي إلى العلم اليوم، وإذا كان هذا جزاء من يقول الخير ولا يعمل به فكيف الحال فيمن يعكس فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف كالكثير من شياطين العلماء الذين غرَّتهم الحياة وفتنوا باتباع أهوائهم.

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [٥٧].

{٥٣} ـ عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الْكَمْأَةُ مِن المَنّ الذي أنزل اللّهُ على بني إسرائيل، وماؤُها شِفاءٌ لِلعَينِ**».

رواه أحمد (١/١٨٧، ١٨٨)، والبخاري في التفسير (٩/٢٣٠)، وفي الطب، وفي الأطعمة، ومسلم (١٤/٣، ٤)، والترمذي في الطب (٢٠٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٨٥)، وابن ماجه (٣٤٥٤) وغيرهم.

«**الكمأة**»: نبات يخرج وحده. وقوله: «**من المن**»: أي هو شبيه بالمن الذي كان ينزل على بني إسرائيل في التيه ووجه شبهها به من حيث إنها تنبت بلا زرع ولا علاج كما كان يأتي المن الإسرائيليين من السماء بلا كلفة ولا مشقة.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ الآية [٥٩].

{٥٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قيل لبني إسرائيل: ادْخُلُوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ، فدخَلُوا يزحُفُون على أسْتَاهِهِم وبَدَّلُوا فقالوا: حِنْطَة ـ حَبَّة في شَعَرةٍ ـ**».

رواه أحمد (٣١٨/٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء، وفي التفسير (٢٣١/٩، ٣٧٣، ٣٧٤)، وفي الأنبياء، ومسلم آخر الكتاب (١٥٢/١٨)، والترمذي (٢٩٥٦)، وابن حبان (٦٢٥١)، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

قوله: «**حطة**»: أي طلبنا حطة، أي أن تحط عنا خطايانا. وقوله: «**يزحفون**» أي: يمشون على أدبارهم. قوله: «**حبة في شعرة**»، وفي رواية: «**حبة في شعيرة**».

لما فتح يوشع بن نون عليه السلام بيت المقدس أمر من قبل الله عز وجل أن يأمر بني إسرائيل الذين كانوا معه أن يدخلوا الحرم خاضعين متواضعين منحنين شكراً لله عز وجل على ما أولاهم من الظفر والنصر على عدوهم، وأن يسألوا الله عز وجل حط ذنوبهم فبدلوا ما أمروا به تمرداً على الله واستهزاءً بأمره فعاجلهم الله تعالى بالعذاب من عنده، وكان فيما بدلوا «حطة» قالوا بدلها بلغتهم: «عطي سمقاً» وهي بالعربية: حنطة حمراء قوية فيها شعيرة سوداء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [٥٩].

{٥٥} ـ عن أسامة بن زيد وسعد وخزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ هٰذا الطاعُون رِجْزٌ وبَقيةُ عَذَابٍ عُذِّب به قومٌ فإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتُم بها فلا تَخْرُجُوا منها فراراً منه، وإذا وقع بأرض ولستُم بها فلا تَدْخُلُوها**».

رواه أحمد (١٨٢/١)، ومسلم في السلام (٢٥/١٤، ٢٠٧، ٢٠٨).

وفي رواية له عن أسامة: «**إن هذا الطاعونَ رِجْزٌ سُلِّط على من كان قَبْلَكم، أو على بني إسرائيل**».

وفي رواية: «**هو عذابٌ أو رِجْزٌ أرسله الله على طائِفة من بني إسرائيل..**».

الطاعون كل مرض عام كالوباء فيعم الكثير من الناس في جهة خاصة، والمراد به في الحديث الشريف هنا ضرب الجن لحديث: «**الطاعون وَخْزُ أعدائِكم من الجن**» رواه أحمد (٣٩٥/٤، ٤١٣) من حديث أبي موسى بسند صحيح.

والمقصود: أن هذا الطاعون هو بقية عذاب عذب الله به بني إسرائيل لما تمردوا على الله تعالى وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، فالحديث مبين للرجز المذكور في الآية.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ الآية [٧٠].

{٥٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لَو أَخَذُوا أدْنَى بَقَرةٍ لاكْتَفَوْا بها ولكنهم شَدَّدُوا فشَدَّدَ اللَّهُ عليهم».

رواه ابن جرير في التفسير (٣٤٧/١) بسند صحيح، ثم ذكر معلقاً عن ابن جريج مرفوعاً.

وما قاله ابن عباس متفق عليه بين المفسرين في قصة البقرة.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [٧٩].

{٥٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت في أهل الكتاب.

رواه البخاري في خلق أفعال العباد (٤١٢)، والنسائي في الكبرى (٢٨٦/٦) بسند صحيح.

يقصد ابن عباس أن الآية نزلت بسبب اليهود الذين غيَّروا التوراة ونسبوا ذلك لله تعالى فجمعوا بين سيئتين ثم أضافوا إلى ذلك أكل الحرام الذي كانوا يأخذونه من عوامهم في مقابلة ذلك الكذب. عليهم لعائن الله المتتابعة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [٨٠].

{٥٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما فتحت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اجْمَعُوا لي مَن كان من اليهود هٰهُنا»**، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ أبوكم؟»**، قالوا: فلان، قال: **«كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكم فلان»** فذكر الحديث وفيه: فقال لهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَن أهلُ النار؟»**، فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اخْسَأُوا فيها والله لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً»** الحديث وسيأتي بتمامه في المغازي إن شاء الله تعالى.

رواه أحمد (٤٥١/٢)، والبخاري في كتاب الجزية، وفي المغازي (٣٧/٩، ٣٨)، وفي الطب، وفي الهدية، والنسائي في الكبرى (٤١٣/٦)، والدارمي في المقدمة رقم (٧٠).

ما ذكر في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف هو من افتراءات اليهود وغرورهم حيث ادعوا أنهم لا تصيبهم النار إلا أياماً معدودة يعنون مقدار الأيام التي عبد فيها أجدادهم العجل وهي أربعون يوماً ثم يخرجون منها فيخلفهم فيها مسلمو هذه الأمة فكذبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما زعموا.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الخ [٩٥].

{٥٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو أن اليهودَ تَمَنَّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعِدَهم من النار، ولو خرج الذين يُبَاهِلُون رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لرَجَعُوا لا يَجِدُون أهلاً ولا مالاً**».

رواه أحمد (٢٤٨/١، ٣٦٨)، وابن جرير (٤٣٤/١)، والإسماعيلي في صحيحه كما في الفتح، وأصله في صحيح البخاري وغيره وسيأتي في سورة آل عمران كاملاً، والحديث سنده صحيح.

اليهود كانوا يزعمون أن الجنة خاصة بهم دون غيرهم من سائر الأمم الأخرى فأكذبهم الله تعالى وقال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك فتمنوا الموت واشتاقوا إليه ليوصلكم إلى الجنة، ثم أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يتمنونه أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من الآثام والجرائم، وجاء النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبر بوحي من الله تعالى أنهم لو كانوا تمنوا الموت لماتوا عن آخرهم ولشاهدوا منازلهم من جهنم عياناً.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية [٩٧].

{٦٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمع عبدالله بن سلاَّم رضي الله تعالى عنه بقُدُوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في أرض يَخْتَرِفُ فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعلمُهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهلِ الجنة؟ وما يَنْزِعُ الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «**أخبرني بهن جبريل عليه السلام آنفاً**»، قال: جبريل، قال: «**نعم**»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الحديث.

رواه أحمد (١٠٨/٣، ١٨٩، ٢٧١)، والبخاري في التفسير (٢٣٢/٩)،

والنسائي في الكبرى (٢٨٦/٦، ٢٨٧) وسيأتي في مواضع في المناقب وفي أشراط الساعة وغيرهما.

{٦١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم! إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، فذكر الحديث وفيه: إنما بقيتْ واحدةٌ وهي التي نُتَابِعُك إن أخْبَرْتَنَا بها فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخير فأخبرنا مَن صَاحِبُك؟ قال: «**جبريل عليه السلام**»، قالوا: جبريل!!! بل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٧٤/١، ٢٧٣، ٢٧٨)، والترمذي في سورة الرعد (٣١١٧)، والنسائي في عشرة النساء من الكبرى (٣٣٦/٥)، وحسنه الترمذي وصححه وسيأتي في آل عمران.

وفي الحديثين بيان أن سبب نزول الآية هو تعنت اليهود وإغراقهم في الجحود والكفران وبغضهم لسيد الملائكة ورئيسهم، ومناصبتهم إياه العداوة، وذلك كفر بواح بإجماع المسلمين.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أجمع أهل العلم بالتأويل على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم.. الخ.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [١٠٦].

{٦٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: أقرؤنا أُبَيٌّ وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ وإنا لندع من قول أُبَيّ، وذاك أن أُبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٣٣، ٢٣٤)، وفي فضائل القرآن (١٠/٤٢٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٨٩).

قوله: وإنا لندع، معناه: أنه كان يترك بعض ما كان يقرؤه أبيّ من القراءات التي قد نسخت مع إصرار أُبيّ على عدم تركها لكونه سمعها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولكنه ربما قرأ ما نسخ ولم يبلغه ذلك.

وفي الآية الكريمة دليل على ثبوت النسخ في الوحي الإلٰهي وأنه عز وجل قد يرفع آية أو حكماً ويأتي بمثل ذلك أو بخير منه حسب حكمته ومصالح عباده، ولا خلاف بين المسلمين في وقوع النسخ في القرآن والسنة، وإنما أنكره اليهود ومن نحا نحوهم من الملحدين والزائغين.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٠٩].

{٦٣} ـ عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يتأوَّل من العفو ما أمره الله تعالى به حتى أذن الله فيهم بالقتال، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

رواه ابن أبي حاتم (١/٢٠٦) بسند صحيح، وله أصل في الصحيحين.

الأمر كما قال هذا الحبيب ولا خلاف في ذلك والسور المكية وبعض المدنية ملآنة بالآيات الآمرة بالعفو عن المشركين وكلها واردة قبل نزول قوله تعالى في سورة الحج المدنية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ الآية.

﴿ قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١١٥].

{٦٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلي على راحلته مقبلاً من مكة إلى المدينة حيث توجهت به وفيه نزلت هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

رواه أحمد (٧/٢، ٣٨، ٧٥، ٢٠، ٤١)، ومسلم في الصلاة (٢٠٩/٥)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي في الكبرى (١٨٢/٦)، وابن جرير (٥٠٣/١) ثلاثتهم في التفسير وكذا رواه أبو يعلى (٥٦٤٧)، وابن خزيمة (١٢٦٧، ١٢٦٩)، والحاكم (٢٦٦/٢)، والبيهقي (٤/٢) وغيرهم.

{٦٥} ـ وعن عامر بن ربيعة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفر في ليلة مظلمة فلم ندرِ أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

رواه الطيالسي (١١٤٥)، والترمذي في الصلاة (٣٤٥)، وفي التفسير (٢٩٥٧)، وابن ماجه (١٠٢٠)، وابن جرير (٥٠٣/١، ٥٠٤)، والبيهقي (١١/٢)، وحسنه الترمذي. وللحديث طرق وشواهد يشد بعضها بعضاً كما قال ابن كثير وغيره، وانظر تهذيبي للجامع (٣٠٨).

ظاهر الحديثين أن الآية نزلت لسببين ولا مانع من ذلك كما في سور وآيات أُخَرَ وإن كان السبب الأول هو الأصح، علماً بأن كلا القولين قال بهما جمع من المفسرين وبناءً على ما في الحديثين يستفاد منهما أمران اثنان: **أولهما**: صحة صلاة النافلة على المركوب والاستقبال لأي جهة وبهذا قال عامة أهل العلم لصحة ذلك من فعل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. **ثانيهما**: صحة صلاة من أخطأ القبلة في صلاة الفريضة وتوجه باجتهاد منه لجهة من الجهات، ولا ينبغي أن يختلف في هذا أيضاً للعمل عليه عند الأكثر ولحديث عامر المذكور.

يبقى ما المراد بقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، قال ابن جرير رحمه الله تعالى (٥٠٤/١): ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، محتمل أينما تولوا في حال سيركم في أسفاركم، في صلاتكم التطوع، وفي حال مسايفتكم عدوكم في تطوعكم ومكتوبتكم فثمَّ وجه الله كما قال ابن عمر والنخعي ومن قال ذلك مما ذكرنا آنفاً ومحتمل فأينما تولوا من أرض الله فتكونوا بها فثم قبلة الله التي توجهون وجوهكم إليها لأن الكعبة ممكن لكم التوجه إليها منها..

﴿ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ الخ [١١٦].

{٦٦} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال الله تعالى: كَذَّبَنِي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَنِي ولم يكن له ذلك، فأما تَكْذِيبُه إيَاي فزعم أني لا أقدِرُ أن أُعِيدَه كما كان، وأما شَتْمُه إياي فقوله لي ولَدٌ فسبحاني أن اتخذ صاحبةً أو ولداً**».

رواه البخاري في التفسير (٢٣٤/٩).

وفي رواية: «**فأما تكذيبه إياي**»، فقوله: «**لن يُعِيدَني كما بدأني، وليس أول خلق بأهون علي من إعادته، وأما شتْمُه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الله الأحدُ الصَّمد لم أَلِدْ ولم أُولَدْ ولم يَكُن لِي كُفُوًا أحدٌ**».

رواه البخاري في بدء الخلق رقم (٣١٩٣)، وأحمد (٣١٧/٢، ٣٩٣، ٣٩٤)، والنسائي في الكبرى (٣٩٥/٤، ٤٠٩/٦) ثلاثتهم من حديث أبي هريرة.

قوله: «**وشتمني**»: سماه شتماً لأن فيه تنقيصاً لله عز وجل، فإن الولد يستلزم والدة وهي طبعاً تستلزم ناكحاً... وكل ذلك محال على الله تعالى فمن نسب ذلك إليه تعالى فقد شتمه. وقد اتفقوا أن هذه الآية نزلت فيمن زعم أن لله عز وجل ولداً من يهود خيبر، ونصارى نجران، ومن قال من

مشركي العرب: الملائكة بنات الله فردَّ الله تعالى عليهم. وهذا لا ينفي عموم الآية في كل المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [١٢٥].

{٦٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن عمر رضي الله تعالى عنه: قلت: يا رسول الله لو اتَّخَذْتَ مِن مقام إبراهيم مُصَلًّى فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

رواه أحمد (٢٣/١، ٢٤، ٣٦)، والبخاري في الصلاة (٥١/٢)، وفي تفسير البقرة (٢٣٥/٩)، وفي الأحزاب (١٤٦/١٠)، وفي التحريم (٢٨٦/١٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٠) ويأتي مطولاً.

هذا من جملة موافقات سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه التي وافق فيها نزول القرآن. وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ﴾ الخ: المقام: هو الحجر المنزل من الجنة الذي كان يقف عليه خليل الرحمن على نبينا وعليه الصلاة والسلام عند بناء الكعبة وهو الموجود هنالك اليوم أمام الكعبة المشرفة لجهة الشروق وعنده خلفه أو حذاءه تشرع صلاة الطواف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [١٢٧].

{٦٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ألم تَرَيْ أن قومَكِ بنوا الكعبة واقتصروا على قواعد إبراهيم**»، فقلت: يا رسول الله! ألا تَرُدُّها على قواعِدِ إبراهيم؟ قال: «**لولا حِدْثَانُ قومِك بالكفر**». فقال عبدالله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ما أرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ترك استلام الركنين الذين يليان الحِجْر إلا أن البيت لم يُتَمَّمْ على قواعد إبراهيم.

رواه أحمد (١١٣/٦، ١٧٦، ١٧٧، ٢٤٧)، والبخاري في الحج، وفي التفسير (٢٣٦/٩، ٢٣٧)، وفي الأنبياء، ومسلم في الحج (٨٨/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٥٤/٣، ٣٥٥)، وفي الحج من المجتبى وغيرهم.

القواعد: جمع قاعدة، والمراد بها أساس البيت. ومعنى الحديث: أن قريشاً لما هدموا الكعبة وجددوا بناءها لم يجعلوها كلها على أساس إبراهيم بل اقتصروا على قاعدتين منها وهما الركنان اليمانيان أما اللذان يليان الحِجْر فغيروهما وأخرجوا الحجر من البيت فأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عائشة أنه لولا أن قريشاً حديثو عهد بالكفر لهدمها وردها لأصلها على قواعد إبراهيم وقال: كما في رواية للبخاري في العلم: **«لولا قومُك عهدُهم بكفر لَنَقَضتُ الكعبة فجعلتُ لها بابين: باباً يَدخلُ منه الناسُ، وباباً يَخرُجون منه»**.

{٦٩} ـ وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إني عِند الله لخاتم النبيين وإن آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه، وسَأخبِرُكم عن ذلك دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى، ورُؤيا أُمي التي رَأت، وكذلك أمهاتُ النبيين يَرَيْنَ، وإن أُمَّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم رَأَتْ حين وَضَعَتْه نوراً أضاءَتْ له قصور الشام»**.

رواه أحمد (١٢٧/٤)، وابن جرير (٥٥٦/١)، وابن حبان (٦٤٠٤) بالإحسان، والحاكم (٦٠٠/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٩) وغيرهم من طرق بعضها حسنة صحيحة وله شاهد قوي عن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم رواه ابن إسحاق في السيرة (١٧٥/١)، وابن جرير (٥٥٦/١)، والحاكم (٦٠٠/٢)، وصححه ووافقه الذهبي كالأول.

الحديث مطابق للآية الكريمة في كونه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دعوة إبراهيم... وقوله لمنجدل: أي لمطروح في جدالته وطينته لم ينفخ فيه الروح بعد.

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [١٣٦].

{٧٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان أهلُ الكتاب يقرؤون التوراة بالعِبْرَانية ويُفَسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتاب ولا تُكَذِّبُوهم و ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ...﴾** الآية».

رواه البخاري في التفسير (٢٣٧/٩)، وفي الاعتصام، وفي التوحيد (٧٥٤٢)، والنسائي في الكبرى (٤٢٦/٦)، ويأتي في العنكبوت ونحوه عن أبي نملة الأنصاري رواه أحمد (١٣٦/٤).

حالتنا مع أهل الكتاب في الإسرائيليات أن لا نصدقهم ولا نكذبهم بإطلاق بل نقول كما أرشدنا إليه القرآن والنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهذا فيما لا يكون مخالفاً للفطرة أو الدين المتفق عليه بين الأنبياء أو لِدِينِنَا وإلا كذبناهم في ذلك وردنا عليهم ما حدثونا به.

وفي الآية إرشاد لنا بأن نؤمن بالله وما أنزل إلينا بواسطة رسولنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء مجملاً، وأن لا نفرق بينهم فنؤمن بالبعض ونكفر بالبعض الآخر كما فعلت اليهود، فإن ذلك كفر بالإجماع.

والأسباط: هم قبائل بني إسرائيل الذين تناسلوا من أولاد يعقوب عليه السلام وقد كان منهم أنبياء ورسل عليهم الصلاة والسلام.

{٧١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أكثرَ ما يُصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وفي رواية: كان يقرأ في الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا إلى: وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ التي في البقرة، وفي الثانية التي في آل عمران: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ إلى: مُّسْلِمُونَ﴾.

رواه أحمد (٢٣١/١)، ومسلم في الصلاة (٥/٦، ٦).

وفي الحديث مشروعية قراءة ما ذكر في ركعتي الفجر وبه قال الجمهور وتقدم في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [١٤٣].

{٧٢} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يُدْعَى نُوحٌ يومَ القيامة فيقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا مِن نَذِير، فيقول: من يَشهدُ لك؟ فيقول: محمد وأمتُه فيشهدون أنه قد بلَّغ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»**، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾»، والوسط: العدل، وفي رواية: **«فَتُدْعَى أمةُ محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيقال: هل بلَّغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبَرَنا نبيُّنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنَّ الرُّسُلَ قد بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ»**.

رواه أحمد (٣/٣٢، ٥٨)، والبخاري في بدء الخلق، وفي التفسير (٩/٢٣٨، ٢٣٩)، وفي الاعتصام، والترمذي (٢٩٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢)، وابن ماجه (٤٢٨٤)، وابن حبان (٧٢١٦) وغيرهم.

في الآية والحديث شرف الأمة المحمدية وفضلها على سائر الأمم حيث جعلها الله عز وجل خياراً عدولاً وأنها ستشهد يوم القيامة على الناس.

وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً...﴾ الخ: أي: كما هديناكم إلى الإسلام وإلى طريق الله القويم كذلك فضلناكم على غيركم وجعلناكم أمة خياراً عدولاً تستحقون الشهادة على غيركم من الأمم الماضية المكذبة لرسلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٤٣].

{٧٣} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كان الذي مات على

القبلة قبل أن تحول القبلة رجالٌ قالوا: لم نَدْرِ ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٢٣٨/٩)، والنسائي في الكبرى (٢٩١/٦) ونحوه عن ابن عباس، رواه أحمد (٢٩٥/١، ٣٠٤، ٣٤٧)، وأبو داود (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٩٦٤)، والحاكم (٢٦٩/٢) وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم، فأطلق الإيمان على الصلاة لأنها جزء منه على قول جماعة من السلف وغيرهم القائلين بأن العمل شرط للإيمان. والموضوع فيه كلام طويل.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ...﴾ الخ [١٤٤].

{٧٤} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة صلّى نحوَ بيت المقدس ستةَ أو سبعةَ عشَرَ شهراً، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فوُجِّه نحوَ الكعبة، وكان يُحِبُّ ذلك، فصلى رجلٌ معه العصرَ قال: ثم مَرَّ على قوم من الأنصار وهم ركوعٌ في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنه قد وُجِّه إلى الكعبة قال: فانحرفوا وهم ركوع.

رواه البخاري في الإيمان، وفي الصلاة، وفي خبر الواحد، وفي التفسير (٢٣٧/٩، ٢٣٨)، ومسلم (٩/٥، ١٠)، والترمذي (٣٤١)، والنسائي في الكبرى (٢٩٠/١)، وابن ماجه (١٠١٠) وغيرهم كلهم في الصلاة. ورواه أحمد (٢٨٣/٤، ٢٨٨، ٣٠٤)، والترمذي أيضاً في التفسير (٢٩٦٢)، وابن خزيمة (٤٢٨، ٤٣٣، ٤٣٧).

{٧٥} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه نحوه غير أن فيه: فمرّ رجل من بني سَلِمة وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حوِّلت فمالوا كما هم نحو القبلة.

رواه مسلم في المساجد (٥/١٠، ١١)، وأبو داود (١٠٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢) وغيرهم.

{٧٦} ـ وعن ابن عمر نحوه أيضاً وفيه: بينما الناس في صلاة الصبح بقُباء إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

رواه الشيخان.

في هذه الأحاديث بيان وقوع النسخ وتبديل الأحكام، وكانت القبلة من أول ما نسخ ولما حوِّلت القبلة قالت اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وكان الله عز وجل قد أخبر بما سيقوله هؤلاء وسماهم سفهاء حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾. والسفهاء هنا هم ضعفاء العقول من اليهود وكان في هذه الآية معجزة باهرة حيث أخبر الله بمقولتهم قبل وقوعها فكانت كما أُخبر.

وانظر على هذه الآية البخاري رقم (٣٩٩) من كتاب الصلاة، وكبرى النسائي (٦/٢٩٠). واختلف العلماء في أول صلاة جاء فيها نسخ القبلة فقيل: الظهر في بني سلمة، وصحح هذا القول جماعة منهم ابن كثير، وقال آخرون: كانت صلاة العصر لظاهر حديث البراء غير أنه ليس بصريح، وفي الحديث فوائد فقهية وأصولية ليس هذا موضعها.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [١٥٢].

{٧٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يقول الله تعالى: أنا عِند ظَنّ عَبْدِي بي، وأنا مَعَه إذا ذَكَرني، فإن ذَكَرَني في نَفْسِه ذكرتُه في نفْسِي، وإن ذكرَني في**

ملأ ذكرْتُه في ملأ خيرٍ منهم، وإن تَقَرَّبَ إليّ بِشِبْرٍ تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليّ ذراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هَرْوَلةً».

رواه أحمد (٢/٢٥١، ٤١٣، ٥١٦، ٥٣٥)، والبخاري (١٦/١٥٥، ١٦٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢، ٣)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٧٧٣٠)، وابن ماجه (٣٨٢٢) وغيرهم من طرق.

هذا من أحاديث الصفات والذراع والباع والهرولة ظاهرها غير مراد في جانب الله تعالى فلنؤمن بها ونكل حقيقتها إلى الله تعالى، والشاهد من الحديث كالآية أن الله عز وجل يذكر عبده إذا ذكره ولا ندري كيف يذكره وإن تقاربت في ذلك أقوال العلماء، فإن ذلك من عالم الغيب ويأتي لهذا مزيد.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [١٥٥ ـ ١٥٧].

{٧٨} ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«ما من عَبدٍ تُصِيبُه مصيبةٌ فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهم أْجُرْني في مُصيبتي، وفي رواية: اللهم عندك أحْتَسِبُ مُصِيبَتِي فأجُرْني فيها واخْلِفْ لي خيراً منها إلا أجَرَه الله في مُصيبتِه وأخْلف له خيراً منها»** فلما تُوُفِّي أبو سَلَمَة قلت: مَن هو خير من أبي سلمة صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قالت: ثم عزم الله لي فقلتها، قالت: فتزوجتُ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (٦/٣٠٩)، ومسلم (٦/٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢).

المصيبة: هي كل ما يصاب به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله مما

يؤلمه ويسوءه حتى الشوكة يشاكها، والهم يحزنه، فإذا أصيب بشيء من ذلك فليفزع إلى ما أرشد إليه القرآن والسنة النبوية من الاسترجاع فإنه إن فعل ذلك لا بد أن يثيبه الله عز وجل على ذلك ويخلف له خيراً مما نزل به يضاف إلى ذلك ما سيغمره من صلوات الله تعالى ورحمته وهدايته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [١٥٨].

{٧٩} ـ عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وأنا يومئذ حديث السن ـ: أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: كلا، لو كان كما تقول: كانت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهِلُّون لمَنَاة، وكانت مناة حَذْوَ قُدَيْدٍ وكانوا يَتحرَّجُون أن يَطَّوَّفُوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

رواه أحمد (١٤٤/٦، ١٦٢، ٢٦٧)، والبخاري في الحج، وفي التفسير (٢٤٢/٩)، ومسلم في الحج (٢٢/٩، ٢٣، ٢٤)، وأبو داود (١٩٠١)، والترمذي (٢٩٦٥)، والنسائي (٢٩٢/٦) كلاهما في التفسير، وابن ماجه (٢٩٨٦) وغيرهم.

{٨٠} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾. وفي رواية: كنا نرى ذلك من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الآية. وفي رواية: كانت الأنصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الآية.

رواه البخاري في الحج، وفي التفسير (٢٤٢/٩)، ومسلم في الحج (٢٤/٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٦)، والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة (٢٧٦٨) وغيرهم.

الصفا والمروة: جبلان عند المسجد الحرام وهما من شعائر الله، أي: أعلام دينه، ولذلك كان السعي بينهما من أهم فرائض الحج والعمرة بإجماع المسلمين.

وقوله: مناة: هو صنم كان لهذيل وخزاعة. وقوله: يتحرجون: أي: كانوا لا يسعون بينهما خروجاً من الحرج والإثم.

ويؤخذ من الحديثين تجنب شعائر الجاهليين والابتعاد عن أعمالهم ومراسمهم لأنها وحي من الشيطان فلنقارن بين أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وبين مسلمي عصرنا حيث أجمعوا ـ إلا من رحم الله ـ على اتباع الكفار في جميع عُجَرهم وبُجَرهم حتى الخارجة عن الإنسانية والملحقة بالحيوانات المتوحشة.

{٨١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: «﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: **«أبدأ بما بدأ الله به»**.

رواه أحمد (٣٢٠/٣)، ومسلم في الحج (١٧٥/٨، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨) وغيرهما في حديثه الطويل في حجة الوداع، وقد تقدم في الحج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [١٥٩].

{٨٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثت حديثاً ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ إلى: ٱلرَّحِيمُ﴾، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان

يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يَلزمُ رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لِشِبَعِ بَطْنِه، ويَحضُر ما لا يحضرون، ويَحفَظ ما لا يحفظون.

رواه أحمد رقم (٧٢٧٣، ٧٢٧٤، ٧٦٩١)، والبخاري في العلم (٢٢٤/١)، وفي البيوع، وفي المزارعة، ومسلم في الفضائل (٥٢/١٦، ٥٣، ٥٤) وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [١٦٥].

{٨٣} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كلمة وقلت أخرى، قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَن مات وهو يَدْعو مع الله نِداً دخل النار**»، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة.

رواه أحمد (٣٧٤/١، ٤٦٢، ٤٦٤)، والبخاري في الجنائز، وفي التفسير (٢٤٢/٩)، ومسلم في الإيمان (٩٢/٢، ٩٣)، والنسائي في الكبرى (٣٩٤/٦) وغيرهم.

ما في الحديث متفق عليه بين أهل السنة لا خلاف فيه بينهم خلافاً للخوارج والمعتزلة القائلين بخلود صاحب الكبيرة في النار وإن مات موحداً.

والند: هو الشريك والنظير وكان المشركون يتخذون الشركاء مع الله ويحترمونهم ويقدسونهم ويحبونهم كمحبة المؤمنين لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [١٧٢].

{٨٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيُها الناس إن اللَّه طَيِّبٌ لا يَقبلُ إلا**

طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمَرَ به المُرسلين.. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، **ثم ذكر الرجل يُطيلُ الشَّعرَ أشعثَ أغبرَ يمُدُّ يده إلى السماء: يا رب! يا رب، ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرام، ومَلْبَسُه حرام، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يُستَجاب له**».

رواه أحمد (٣٢٨/٢)، ومسلم في الزكاة (١٠٠/٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٩)، والدارمي (٢٧٢٠)، والبيهقي (٣٤٦/٣)، والبغوي في شرح السنة (٢٠٢٨).

في الآية الكريمة امتنان من الله عز وجل على عباده بما أعطاهم من طيبات الرزق، وأرشدهم إلى الأكل منها وأن يشكروه على ما أولاهم.

أما الحديث فيدل على أنه تعالى طيب ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وأنه كذلك لا يقبل من عباده إلا ما كان حلالاً طيباً...

وفي الحديث أن كل من كان يعيش على الحرام أكلاً وشرباً ولباساً... فلا تستجاب دعوته وإن تقشف وتذلل وتضرع وأطال السفر في طاعة من الطاعات، فذلك لا يقبل منه لأنه أضاع الأصل الذي هو طيب العيش.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ الآية [١٧٨].

{٨٥} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان القصاص في بني إسرائيل ولم يكن فيهم الدية، فقال الله تبارك وتعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ إلى قوله: فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ الآية.

فالعفو أن تقبل الدية في العمد، واتباع بالمعروف أن تتبع هذا بمعروف وتؤدي هذا بإحسان فخفف عن هذه الأمة.. ذلك تخفيف من

ربكم ورحمةٌ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قتل بعد قبول الدية.

رواه البخاري في التفسير (٢٤٣/٩)، وفي الديات، والنسائي في الكبرى (٢٩٥/٦)، وفي المجتبى، وابن حبان (٦٠١/٧) بالإحسان، والبيهقي (٥١/٨، ٥٢) وغيرهم.

القصاص معناه: المساواة والمماثلة في القتل والجراح والدية.

وفي الآية الكريمة دليل على مشروعية العفو في القتل وأخذ الدية، وأن ذلك من تخفيف الله تعالى على هذه الأمة ورحمته بها، وقد كان عند اليهود قصاص بلا عفو، وعند النصارى عفو بلا دية، فجمع الله تعالى لهذه الأمة الأنواع الثلاثة.

{٨٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن الرُّبَيِّعَ عَمَّتَه كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضوا الأرْشَ فأبوا، فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبَوْا إلا القِصاصَ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقصاص. فقال أنسُ بن النضْر: يا رسول الله! أتُكْسَر ثَنِيَّةُ الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أنس! كتاب الله القصاص»**، فرضِي القومُ فعفوا، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّ مِن عباد الله من لو أقْسَمَ على الله لأبَرَّه»**.

رواه أحمد (١٢٨/٣، ١٦٢، ٢٨٤)، والبخاري في التفسير (٢٤٣/٩)، وفي الجهاد، ومسلم في القسامة (١٦٢/١١)، وأبو داود (٤٥٩٥)، والنسائي في الكبرى (٢٢٢/٤ و ٣٣٥/٦، ٣٦٢).

الأرش: بفتح الهمزة: الدية. وفي الحديث وجوب القصاص في الأطراف وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، وفيه إثبات كرامات الأولياء فإن أنس بن النضر لما حلف أن لا تكسر ثنية الربيع أبَرَّ الله قسمه ولم يحنثه إكراماً له. ولم يَرُدَّ أنسُ بن النضر حكمَ الله وإنما حلف ثقة بهم أن لا يحنثوه أو ثقة بفضل الله ولطفه أن لا يحنثه بل يلهمهم العفو كما حصل.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [١٨٠].

{٨٧} ـ عن عمرو بن خارجة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطب وهو يقول: **«إن الله قد أعطى كُلَّ ذِي حَقٍّ حقَّه فلا وصية لوارث»**.

رواه أحمد (١٨٦/٤)، والترمذي في الوصايا (١٩٥٣) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (١٠٧/٤)، وابن ماجه (٢٧١٢)، والبيهقي (٢٥٦/١) وسنده صحيح وَشَهْرٌ تكلم فيه بلا حجة، كما قال النووي في شرح مسلم ثم إن له شواهد يصحح معها بلا شك. وقال الشافعي في الأم: إنه متواتر نقل كافة عن كافة.

الآية الكريمة منسوخة الحكم بهذا الحديث وبآية المواريث. نعم بقي حكمها للأقارب غير الورثة بالإجماع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [١٨٣].

{٨٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يومُ عاشوراء يوماً تصومُه قريش في الجاهلية، وكان رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يصومُه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه فنزل صومُ رمضان هو الفرضية فمن شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء ترك.

رواه البخاري في التفسير (٢٤٥/٩)، ومسلم في الصيام، والنسائي في التفسير من الكبرى (٢٩٥/٦)، وعن ابن عمر نحوه رواه البخاري وغيره.

أجمع المسلمون على أن الواجب في الصيام هو رمضان، وأن عاشوراء نسخت فرضيته وبقي الاستحباب. وفيه مع الآية الكريمة أن الصيام كان واجباً على من قبلنا غير أنه كان عليهم شاقاً، أما هذه الأمة فهو عون لهم على التقوى وجنة لهم من المعاصي ومن النار.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [١٨٤، ١٨٥].

{٨٩} ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كان مَن أرادَ أن يُطْعِمَ ويَفْتَدِيَ حتى نَزلتْ الآية التي بعدها فنسختْها.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٤٧)، ومسلم (٨/٢٠)، والترمذي (٧٠١) بتهذيبي، وأبو داود (٢٣١٥)، والنسائي في المجتبى كلهم في الصيام، ورواه هذا في الكبرى أيضاً (٦/٣٩٥) وغيرهم.

ظاهر الحديث: أن الآية منسوخة وهو قول عامة العلماء وقد كان الصيام أولاً مفروضاً على التخيير فمن شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً عن كل يوم فلما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، تحتَّم الصيام وارتفع التخيير.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [١٨٦].

{٩٠} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في غزوة فجعلنا لا نصعد شَرَفاً ولا نَعلو شَرَفاً ولا نَهْبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال: فدَنَا مِنّا فقال: **«يا أيها الناس! ارْبَعُوا على أنفسكم فإنكم لا تَدْعُون أصَمَّ ولا غائباً، إنما تَدعون سميعاً بصيراً، إن الذين تَدعون أقربَ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلتِه»**. وفي رواية: **«إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»**.

رواه أحمد (٤/٤٠٢، ٤١٨)، والبخاري في القدر (١٤/٣٠٣)، وفي الجهاد، وفي الدعوات، ومسلم في التوبة (١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٧)، وأبو داود وغيرهم.

قوله: شرفاً: أي: موضع مرتفع. وقوله: **«اربعوا»** بهمزة وصل مع

فتح الباء بمعنى: ارفقوا بأنفسكم لا تتعبوها برفع أصواتكم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» الخ؛ الأولى عدم تأويله مع تنزيه الله تعالى عن الحلول والتشبيه لأن مقام الربوبية عظيم لا يدرك كنهه ولا تتصوره العقول. وفي الحديث دليل على أن من دعا الله ولو في نفسه سمعه تعالى وأجاب دعاءه وهذا من اليقينيات.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [١٨٧].

{٩١} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كان أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطارُ فنام قبل أن يُفطِر لم يأكل ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسي. وأن قَيسَ بن صِرْمَة الأنصاري كان صائماً فلما حضره الإفطارُ أتى امرأتَه فقال: هل عندك طعامٌ؟ فقالت: لا، ولكن أنْطَلِقُ فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبتْه عينُه وجاءتْه امرأتُه، فلما رأته قالت: خَيْبةً لك! فلما انتصف النهار غُشِيَ عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، ففرحوا بها فرحاً شديداً، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

رواه أحمد (٤/٢٩٥)، والبخاري (٥/٣١، ٣٢)، وأبو داود (٢٣١٤)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٧)، وفي المجتبى، والدارمي (١٧٠٠)، وابن خزيمة (١٩٠٤)، وابن حبان (٣٤٦٠) وغيره.

وفي رواية للبخاري رواها في التفسير (٩/٢٤٨): لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه، وكان رجالٌ يَخونون أنفُسهم

فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، وجاء ما ذكر في سبب نزول الآية عن، جماعة من الصحابة.

الرفث هنا: المراد به الجماع. وقوله تعالى: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: تخونونها بمقارفة الجماع ليالي الصيام. وقوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ...﴾ الخ: أي: اطلبوا بمباشرة نِسائكم ونِكاحهن ما كتب الله لكم من الولد ولا يكن قصدكم مجرد قضاء الشهوة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [١٨٧].

{٩٢} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، ولم ينزل: «من الفجر»، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربَط أحدُهم في رجله الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسودَ ولا يزالُ يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتُهما، فأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فعلموا إنما يعني بذلك: الليل والنهار.

رواه البخاري في الصوم، وفي التفسير (٢٤٩/٩)، ومسلم في الصيام (٢٠١/٧، ٢٠٢) وغيرهما.

{٩٣} ـ وعن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، قال له: يا رسول الله! إني أجْعَل تحتَ وِسَادَتي عِقَالَيْنِ: عِقالاً أبيضَ وعِقالاً أسودَ أعرفُ الليلَ من النهار. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن وِسَادَكَ لَعَرِيضٌ**»، وفي رواية: «**إنكَ لَعِريض القَفَا، إنما هو سوادُ الليل وبياضُ النهار**».

رواه البخاري في التفسير (٢٤٩/٩)، ومسلم في الصيام (٢٠٠/٧)، وأبو داود (٢٣٤٩)، والترمذي (٢٩٧٠، ٢٩٧١)، والدارمي (١٧٠١) وغيرهم.

قوله: عقال: هو الحبل الذي يشد به البعير. قوله: «**وسادك لعريض**»: أي: نومك لعريض فهو من باب الكناية، وقيل في تفسيره غير ذلك.

وفي الحديثين مع الآية الكريمة بيان لنهاية الأكل والشرب في ليالي رمضان، وأن ذلك يبقى حتى يَبْدُوَ بياضُ النهار ظاهراً من سواد الليل، وهو الفجر الصادق الذي يمتد بياضه يميناً وشمالاً جهة الشروق.

وفي الحديثين بيان أن النصوص الشرعية تحمل على ظواهرها وحقائقها اللغوية حتى يأتي البيان الشرعي، وهذا بحمد الله مما لا ينبغي أن يختلف فيه.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [١٨٩].

{٩٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**جَعَلَ الله الأهِلَّة مواقيتَ لِلناس فصومُوا لِرؤيتِه، وأفْطِرُوا لِرُؤيَته، فإن غمَّ عليكُم فعُدُّوا ثلاثين**».

رواه عبدالرزاق في المصنف (٧٣٠٦)، والحاكم (٤٢٣/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وله شاهد عن طلق بن علي رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٢٢/١).

كان سؤال الصحابة نبي الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن سبب صغر الهلال وكبره، فأجابهم الله عز وجل عن حكمة تجدده كل دورة من دوراته في فلكه، وأن ذلك هو المقصود الأهم الذي ينبغي الاهتمام به والسؤال عنه لأنه جعل مواقيت لصيام الناس وإفطارهم وحجهم وعدة نسائِهم ومحل ديونهم... فلهذه الأحكام... خلقه الله كذلك لأن هذا الكون كله خلق لنا ولأجلنا وسخر لنا كل ما فيه بسمائِه وأرضه فللّه الحمد في الأولى والآخرة حمداً دائماً لا ينقطع، وجاء الحديث مصدقاً للآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٨٩].

{٩٥} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حَجُّوا فجاؤوا لم يَدخُلوا مِن قِبَل أبواب البيوت، فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من قِبَلِ بابِه فكأنَّه عُيِّر بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وفي رواية: كانوا إذا أحْرَمُوا في الجاهلية أتَوْا البيتَ من ظَهْرِه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟...﴾ الخ.

رواه البخاري في الحج، وفي التفسير (٩/٢٤٩)، ومسلم آخر الكتاب (١٨/١٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٧، ٢٩٨) وغيرهم.

البر: اسم جامع لكل أعمال وأقوال الخير وما كان يفعله الأنصار من إتيان البيوت من الظهور بدل الأبواب بعد قدومهم من الحج هو من وحي إبليس الذي كانوا يعتمدون عليه في حياتهم ويتبعون إرشاداته ومحدثاته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ الآية [١٩١].

{٩٦} ـ عن أبي شريح العدوي رضي الله تعالى عنه قال لعَمْرِو بن سَعيد: ائْذَن لِي أيُّها الأمِيرُ أُحَدِّثْك قَوْلاً قام به رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الغَدَ مِن يوم الفتح فسمِعتْه أُذُنَايَ، ووعاهُ قلْبي، وأبصرتْه عيناي حِينَ تكلم به: أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«إن مكة حَرَّمها الله ولم تُحرِّمها الناس، فلا يَحِلُّ لامرِئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفِكَ بها دماً، ولا يَعْضِد بها شَجَرة، فإنْ أحَدٌ تَرخَّص لقتال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقولوا له: إن الله أذن لرسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعةً من نهار، وقد عادتْ حُرمتُها اليوم كحرمَتِها بالأمس، ولْيَبْلُغ الشاهدُ الغائبَ...»**.

رواه البخاري (٤/٤١٣، ٤١٦)، ومسلم (٩/١٢٧، ١٢٨) كلاهما في الحج، ورواه البخاري في غير موضع أيضاً. ونحوه عن جماعة من الصحابة في الصحيح وغيره.

في الحديث دليل على تحريم القتال في حرم الله المكي، وإنما أبيح ذلك لنبي الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ساعة من نهار يوم فتح مكة، غير أن القرآن صرح بجواز قتال من قاتل فيه دفاعاً لا ابتداءً، وهكذا فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم الفتح فلم يقاتل أحداً إلا من قاتل كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [١٩٣].

{٩٧} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه أتاه رجلان في فِتْنَةِ ابنِ الزُّبَيْر فقالا: إن الناسَ قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحبُ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فما يَمنعُك أن تَخْرُجَ؟ فقال: يمنعني أن الله حَرَّم دمَ أخِي، قالا: ألم يَقل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدِّينُ لله وأنتم تُرِيدُون أن تُقاتلوا حتى تكونَ فِتنةٌ ويكون الدين لغير الله.

وفي رواية: قال: ثَكِلَتْكَ أمُّك! أتَدْرِي ما الفِتْنَةُ؟ إنما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يُقاتل المشركين وكان الدخول في دينهم فتنةً وليس يُقاتلهم على المُلك.

وفي رواية: أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمن ما حملك على أن تَحُجَّ عاماً وتعتمر عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغَّبَ الله عز وجل فيه، قال: يا ابن أخي! بُني الإسلامُ على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبدالرحمن! ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قال: فعلنا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتتن في دينه إما قتلوه وإما يعذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله تعالى عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وخَتَنُه وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون، وفي رواية: هذه بنته حيث ترون.

رواه البخاري بالرواية الأولى والأخيرة في التفسير (٢٤٩/٩، ٢٥٠، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١)، ورواه النسائي في الكبرى (٢٩٨/٦) بالرواية الثانية.

قوله: فتنة ابن الزبير: يعني: حربه مع بني أمية حيث كان استقل بالخلافة على الحرمين وما معهما فكانت بينه وبينهم حروب ومعارك أودت بانهزامه وقتله وصلبه بالحرم المكي الشريف على يد الحجاج الثقفي، وكان ابن عمر ممن لم يتدخل في تلك الفتنة فجاءه بعض من كان مغرماً بالفتن والطعن في الصحابة يلومه على تأخره ويأمره بالمشاركة في قتال الأمويين فأجابه بما ذكر في الباب وعرفهم بأنهم يسعون في الفتنة والقتال على الملك والرياسة لا كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه في القديم. والآية الكريمة تدل على وجوب قتال الكفار وخاصة الوثنيين واللادينيين حتى لا تبقى فتنة الكفر ويصبح الدين كله خالصاً لله عز وجل لا يشاركه فيه أحد، والآية محكمة معمول بها إلى يوم القيامة ويستثنى الكتابيون فلا يجبرون على الإسلام إذا أدوا الجزية.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [١٩٤].

{٩٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يَغْزُوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ.

رواه أحمد (٣٣٤/٣، ٣٤٥) بسند صحيح.

كانت الأشهر الحرم محترمة عند العرب حتى في الجاهلية، فلا يقاتلون فيها، فجاء الإسلام فأباح القتال فيها لمن قاتل، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الخ: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فيه فافعلوا بهم مثله وهذا هو الموافق لحديث الباب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الآية [١٩٥].

{٩٩} ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الخ، قال: نزلت في النفقة.

رواه البخاري في التفسير (٢٥١/٩).

{١٠٠} ـ وعن أسلم بن عمران رحمه الله تعالى قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يُلْقِي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس! إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصْلَحْنَا ما ضاع منها فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.

رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٢)، والنسائي في الكبرى (٢٩٨/٦، ٢٩٩)، وابن حبان (٤٧١١)، والحاكم

(٢/٢٧٥)، والبيهقي (٩/٤٥، ٩٩) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: في الروم، المراد بهم هنا الأتراك. وقوله: شاخصاً: أي: لم يزل متنقلاً من بلد إلى بلد يقاتل في سبيل الله حتى قتل في اسطنبول وبه قبره رضي الله تعالى عنه. والآية وإن كان سبب نزولها هو ترك النفقة والجهاد فهي عامة أمَّا ما فعَلَهُ ذلك المسلمُ من حَمْلِه على صَفِّ الروم فهو محمودٌ وهو من الأدلة الدالة على جواز العمليات الاستشهادية ولذلك شروط ذكرها العلماء.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [١٩٦].

{١٠١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل على ضُبَاعَة بنتِ الزبير بن عبدالمطلب فقالت: يا رسول الله! إني أريد الحج وأنا شاكيةٌ، فقال: «**حُجِّي واشترطي أن مَحِلِّي حيث حَبَسْتَنِي**».

رواه البخاري في النكاح (١١/٣٥)، ومسلم في الحج (٨/١٣١، ١٣٣) وغيرهما ونحوه عن ابن عباس رواه مسلم وغيره وتقدم في الحج.

وتقدم حديثه أيضاً: أحصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فحلق وجامع نساءه ونحر هديه حتى اعتمر قابلاً، رواه البخاري.

عامة المفسرين على أن الآية نزلت في الحديبية حيث منَع كفارُ قريش النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من دخول مكة فنحر هديه وحلق رأسه وأمر أصحابه بذلك، وكان الصلح بينه وبين المشركين كما يأتي في موضعه، واتفق العلماء على أن كل من أحصر ومُنِع من الحج أو العمرة فعليه أن يحِلَّ ويُهْدي ويحلق رأسه وألْحَقَ جماعةٌ من العلماء كلَّ مانع من إتمام المناسك من مرض وسيل وحيوان.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [١٩٦].

فيه حديث كعب بن عجرة في سبب نزول الآية تقدم في الحج وهو عند البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ الآية.

{١٠٢} ـ عن عِمران بن حُصَين رضي الله تعالى عنه قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله تعالى ففعلناها مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يَنزل قرآنٌ يُحَرِّمُها ولم ينه عنها حتى مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال رجل برأيه ما شاء.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٥٢) وغيره، ومسلم في الحج، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٠) وغيرهم.

المراد بالمتعة هنا متعة الحج وهي تقديم العمرة والتحلل منها ثم يحج من العام، وقد أخبر الله تعالى في هذه الآية عنها وشرعها لعباده وأمر بها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كلَّ من لم يكن معه هديٌ من أصحابه وتمنَّى هو فعلها وأحاديث مشروعيتها متواترة ومن أحرم بالتمتع وجب عليه ما تيسر من الهدي فمن لم يتمكن منه فعليه صيام ثلاثة أيام قبل عرفة وسبعة أيام إذا رجع لبلاده.

قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾ الآية [١٩٧].

{١٠٣} ـ عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: كنت أمشي مع ابن عباس وهو محرم وهو يرتجز بالإبل ويقول: «وهنَّ يَمْشِين بنا هَميساً»، فقلت: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما روجع به النساء.

رواه ابن جرير (٢/٢٦٣)، والحاكم (٢/٢٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

وحديث: «**من حج هذا البيت فلم يرفث..**» الخ، تقدم في الحج.

الرفث: بفتحتين في الآية، والرفث هنا هو الجماع ومقدماته من كلام وغمز ولمس وتقبيل ومعانقة وكل ذلك محرم حالة الإحرام بالإجماع، والآية جاء فيها بلفظ النفي ومعناه النهي.

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [١٩٧].

{١٠٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ...﴾ الخ، قال: كان ناس يحجون بغير زاد فنزلت: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ الآية. وفي رواية: كان أهل البيت يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قَدِمُوا المدينة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ الآية.

رواه البخاري في الحج (٤/١٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٠)، وابن جرير (٢/٢٧٩) وغيرهم.

المحققون من العلماء على أن التوكل لا يكون مع السؤال، وأن التزود لا ينافي التوكل المطلق كسائر الأسباب، وهذا بالنسبة للزاد المادي، أما الزاد الروحي وهو تقوى الله تعالى لا بد منه لأنه سبب لدخول الجنة، فالتوكل والاعتماد على الله في دخولها بلا عمل هو أمنية بل جهالة وسفاهة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [١٩٨].

{١٠٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت عُكاظُ ومِجَنة وذو المَجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يَتَّجِروا في المواسم،

فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا﴾ الخ في مواسم الحج.

رواه البخاري في الحج (٣٤٢/٤، ٣٤٤)، وفي التفسير (٢٥٢/٩)، وابن جرير (٢٨٣/٢)، والحاكم (٢٢٧/٢) بنحوه.

كان أهل الجاهلية يتجرون في هذه الأسواق أيام موسم الحج ويشربون الخمر ويفخرون ويتفاخرون وقد يقضون فيها شهوراً قبل الموسم، فلما جاء الإسلام وعرفوا ما كانوا يفعلون بهذه الأسواق من الوقوع في الآثام وخافوا من الإثم إن اتجروا فيها رفع الله عنهم الحرج وأباح لهم طلب الربح والفضل بالتجارة ما داموا يؤدون مناسك الحج كاملة على وجهها الأتم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [١٩٨].

تقدم حديث عبدالرحمن الديلي: «الحج عرفة»، وحديث عروة بن مُضَرّس: «مَن شَهِدَ صَلاتَنا هذه فَوَقَفَ مَعَنا» الخ في الحج، وكذا حديث جابر الطويل وفيه: «وقفتُ هٰهنا وعرفةُ كلُّها موقِفٌ، ووقفتُ هٰهنا وجَمْعٌ كلها موقف»، وقد تقدم أيضاً في الحج.

الإفاضة: الدفع، والمشعر الحرام: هو المزدلفة، وتقدمت أحكام ذلك في الحج.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [١٩٩].

{١٠٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت قريش ومن دانَ دينَها يقفون بالمزدلفة وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْسَ وكان سائرُ العرب يقِفُون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يُفيضُ منها فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٢٥٣/٩)، ومسلم (١٩٧/٨)، وأبو داود

(١٩١٠)، والترمذي (٧٨٤) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٠)، وفي المجتبى وغيرهم.

قوله: الحمس بضم الحاء وسكون الميم: سموا بذلك لتشددهم في دينهم كما كانوا يزعمون. وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ...﴾ الخ معناه: ثم ادفعوا من عرفات مع الناس إلى المزدلفة.

والآية والحديث يدلان على وجوب الوقوف بعرفة ثم الدفع منها إلى المزدلفة وذلك مخالفة لمشركي مكة الذين كانوا يقفون بالمزدلفة ولا يخرجون إلى عرفة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [٢٠١].

{١٠٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اللَّهم آتِنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار»**.

رواه أحمد (٣/١٠١، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٧٧)، والبخاري في التفسير (٩/٢٥٤)، وفي الدعوات، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/١٦) وغيرهم.

الحسنة في الدنيا: الإيمان، والعمل الصالح، والمال الحلال، والزوجة الصالحة، والمسكن الواسع، والمركب الحسن.. وحسنة الآخرة: المغفرة، ودخول الجنة، ورضوان الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [٢٠٣].

تقدم حديث نُبَيْشَةَ؛ «أيامُ التشريق أيامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ الله» في الحج وهو في صحيح مسلم وغيره، وكذا حديث عبدالرحمن الديلمي تقدم في الحج.

والأيام المعدودات المأمور بذكر الله تعالى فيها هي أيام منى.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [٢٠٤].

{١٠٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ**».

رواه أحمد (٦/٥٥، ٦٣، ٦٠٥)، والبخاري في التفسير (٩/٢٥٤)، وفي المظالم وفي الأحكام، ومسلم في العلم (١٦/٢١٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠١)، وفي المجتبى، وابن حبان (٥٦٩٧) وغيرهم.

الألد بفتح اللام الثانية والخصم بفتح الخاء وكسر الصاد: هو الكثير الخصام، والألد: الشديد الخصومة، فهذا الصنف من الناس أبغضهم إلى الله عز وجل وهو يتجلى في المحامين المبطلين وبعض المغرمين بالخصام والجدال في المسائل الخلافية بين العلماء.

قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٢١٣].

{١٠٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نحنُ الآخرُون الأوَّلُون يومَ القيامةِ، نحنُ أوَّلُ الناسِ دُخولاً الجنةَ، بَيْدَ أنَّهُم أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِنَا وأُوتِينا مِن بعدِهم فهدَانا اللَّهُ لما اختلفوا فيه مِن الحقِّ بإذنِه فهذا اليومُ الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، فغداً لليهود، وبعْدَ غدٍ للنصارى**».

رواه عبدالرزاق في التفسير (١/٨٢، ٨٣)، وأحمد (٢/٢٧٤)، والبخاري (٣/٤، ٦)، ومسلم (٦/١٤٢، ١٤٤)، وابن جرير (٢/٢٣٨،

٢٣٩)، وابن أبي حاتم (٣٧٧/٢) وهو بذكر الآية عند عبدالرزاق، وابن أبي حاتم، وابن جرير وسندهم صحيح.

{١١٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول: **«اللَّهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ أنتَ تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُون، اهْدِنِي لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنِك إنك تَهْدِي من تَشاء إلى صراطٍ مستقيم»**.

رواه أحمد (١٥٦/٦)، ومسلم في صلاة الليل (٥٦/٦، ٥٧).

في الحديث الأول فضل هذه الأمة على غيرها، وسيأتي ذلك في الفضائل بحول الله. أما الحديث الثاني ففيه مشروعية الدعاء بما فيه عند قيام الليل وهو من دعاء الاستفتاح، وفيه اقتباس من الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [٢١٩].

{١١١} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: اللَّهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الخ.

فدُعِيَ عمر فقرئت عليه فقال: اللَّهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية، فكان منادي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أقامَ الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكرانُ، فدُعِيَ عمرُ فقرئت عليه فقال: اللَّهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعِيَ فقرِئت عليه فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قال عمر: انتهينا، انتهينا.

رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي في تفسير المائدة (٣٠٤٩)، والنسائي في الأشربة، والحاكم (٢٧٨/٢ و ١٤٣/٤)، والبيهقي (٢٨٥/٨) وغيرهم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ونقل ابن كثير في التفسير ثم الحافظ في

الفتح أن علي بن المديني والترمذي صححا هذا الحديث ولمعناه شاهدان في الجملة عن أبي هريرة عند أحمد، وعن ابن عمر عند الطيالسي.

كان لتحريم الخمر ثلاثة أدوار كما بيَّنه الحديث، وذلك نظراً لما كان عليه المجتمع الجاهلي من تأثرهم بشربها، فاقتضت الحكمة الإلٰهية تحريمها تدريجياً وحتى يقفوا على مضارها عقلياً واجتماعياً، ويشاهدوا ما يؤول إليه أمرها، وأمر شاربها كما سيأتي بيان ذلك في المائدة إن شاء الله تعالى.

وفي الآية الكريمة دليل على أن جانب المفسدة مقدم على جانب المصلحة وهي قاعدة من قواعد الفقه الإسلامي، وأصل من أصول الدين، لأن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، أو بعبارة جلب النافع ودفع الضار فأيهما كان أرجح قدم، ومنافع الخمر والميسر لا تقاوم مفاسدهما، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [٢١٩].

{١١٢} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لرجل: «**ابْدَأْ بنفسِك فتصدَّقْ عليها، فإن فضَلَ شيءٌ فلأهلِك، فإن فضَل شيءٌ عن أهلِك فلِذِي قرابَتِك، فإن فضَل عن ذي قرابتك شيءٌ فهكذا وهكذا..**».

رواه مسلم في الزكاة (٨٣/٧)، وأبو داود (٣٩٥٧)، والنسائي في البيوع (٣٠٤/٧)، وكذا أحمد (٣٩٩/٣)، والطيالسي (١٧٤٨)، وابن حبان (٣٣٣٩)، والبيهقي (٣٠٩/١٠) وغيرهم.

{١١٣} ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا ابْنَ آدَمَ! إنك إن تَبْذُل الفضلَ خيرٌ لك، وإن تُمْسِكْه شرٌّ لك، ولا تُلامُ على كَفَافٍ وابدأْ بمن تَعُول، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفْلَى**».

رواه مسلم في الزكاة (١٢٦/٧، ١٢٧).

في الحديثين بيان لما ينبغي أن ينفقه الإنسان مما سأل عنه الصحابة وهو الفضل والعفو الذي يبقى عند الشخص من النفقات الواجبة عليه. وفي حديث أبي أمامة بيان أن إمساك المال لغير حاجة هو شر للإنسان وأنه لا لوم عليه ولا عتاب فيما يحتاجه من الرزق الضروري وهو المسمى بالكفاف أي: الكافي بلا زيادة ولا نقصان.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [٢٢٠].

{١١٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾، انطلق من كان عنده يتيمٌ فَعَزَل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه فجَعَل يفضل له الشيء من طعامه فيُحْبَسُ له حتى يأكلَه أو يَفسُدَ فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

رواه أبو داود في الوصايا (٢٨٦٣)، والنسائي في الكبرى (٦٤٩٦، ٦٤٩٧)، وابن جرير (٣٦٩/٢، ٣٧٠)، وابن أبي حاتم (٣٩٥/٢)، والحاكم (٢٧٨/٢، ٢٧٩)، وصححه ووافقه الذهبي، ولا يضر هنا عطاء بن السائب لاتفاق المفسرين على ما في الحديث، ورووا ذلك عن مفسري الصحابة والتابعين.

قوله تعالى: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾، العنت: بفتحتين هو المشقة أي: لو أراد الله لأدخل عليكم الحرج وشدد عليكم في أمور اليتامى ولكنه يسَّر عليكم في مخالطتهم بأموالكم على وجه المصلحة.

وفي الآية دليل على أن القيام بشؤون أموال اليتامى يجب أن يكون

على وجه المصلحة، ذلك أن الإساءة إلى اليتامى بأي طريق كانت تعتبر من كبار الذنوب، ولذلك رغب الإسلام في الإحسان إليهم ومراعاة جانبهم وجعل كافل اليتيم مع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [٢٢٢].

{١١٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية.

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اصْنَعُوا كُلَّ شيءٍ إلاَّ النكاح»**، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أُسَيْد بن حُضَيْر وعَبَّادُ بن بِشْرٍ رضي الله تعالى عنهما فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن، فتغير وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هَدِيَّةٌ من لَبَنٍ إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما.

رواه أحمد (٣/١٢٢، ٢٤٦، ٢٤٧)، ومسلم (٣/٢١١)، وأبو داود (٢٥٨، ٢١٦٥)، والترمذي (٢٩٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠١)، وفي المجتبى (١/١٥٣)، وابن ماجه (٦٤٤)، والدارمي (١٠٥٨) وغيرهم.

لم يؤاكلوها: أي: لم يأكلوا معها على مائدة واحدة. ولم يجامعوهن في البيوت: أي: لم يساكنوهن ما دمن متلبسات بالحيض.

والحديث يدل على وجوب مخالفة اليهود في شؤونهم التي يختصون بها. وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن مخالفة الكفار من أهم مقاصد البعثة النبوية. وفيه جواز التمتع بالزوجة ولو كانت حائضاً، وإنما الممنوع

مواقعتها في محل الأذى أيام الحيضة، ولا خلاف بين المسلمين في تحريم إتيان الحائض أيام دورتها الشهرية.

قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [٢٢٣].

{١١٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كانت اليهود تقول: مَن أتى امرأتَهُ في قُبُلِها من دُبُرِها كان الولدُ أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٥٧)، ومسلم في النكاح (١٠/٦، ٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٨)، وأبو داود (٢١٦٣)، وابن ماجه (١٩٢٥)، والنسائي، وأبو يعلى وغيرهم.

زاد مسلم: إن شاء مُجَبِّيَةً وإن شاء غير مجبية غير أن ذلك في صمام واحد.

{١١٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء عمر رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هلكتُ، قال: «**وما أهلكك؟**»، قال: حوّلتُ رحلي، قال: فلم يرد عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً، فأنزل الله على رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ الخ، فقال الرسول: «**أقبل وأدبر واتّقِ الدُّبُرَ والحَيضَةَ**».

رواه أحمد (١/٢٩٧)، والترمذي (٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٢)، وابن حبان (٤١٩٠)، وأبو يعلى (٢٧٣٦)، والبيهقي (٧/١٩٨) بسند صحيح.

{١١٨} ـ وعن ابن عباس أيضاً قال: إن ابن عمر والله يغفر له أوهم إنما كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب فكانوا يرون أن لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف،

وذلك أستر ما تكون المرأة فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون منهن مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات؛ فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت: إنا كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني حتى شَرِيَ أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أي: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات يعني بذلك: موضع الولد.

رواه أبو داود في النكاح (٢١٦٤)، والحاكم (٢/٢٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: جاء الولد أحول: يعني: تكون عيناه مائلتين إحداهما لأنفه والأخرى لصدغه. وقوله: مُجَبِّيَة بضم الميم وفتح الجيم وكسر الباء المشددة أي: تكون على وجهها باركة على ركبتيها. وقوله: في صمام واحد: يعني به: الفرج. وقوله: حولت رحلي: يريد أنه واقع زوجته من جهة ظهرها في قبلها وكنى عن ذلك بالرحل لأن المجامع يعلو ويركب المرأة مما يلي وجهها فحيث ركبها من جهة ظهرها فقد حول رحله وهذا الأدب في التعبير من سيدنا عمر جميل.

وقوله: على حرف: أي: كانوا يجامعونهن منحرفات على جوانبهن.

وقوله: يشرحون: يعني: يطؤونهن مستلقيات على القفا.

وقوله: شَرِيَ بفتح الشين وكسر الراء: أي: ارتفع وتفاقم شأنهما وما فعلاه.

وهذه الأحاديث كلها تدل على أن الآية نزلت بهذه الأسباب ولا مانع من التعدد كما أنها تحوم حول إتيان المرأة في قبلها، وأن الإنسان له أن يأتيها من أي جهة شاء إذا كان في فرجها، لأنه محل الحرث والزرع، وقد

جاءت أحاديث كثيرة صحيحة تقتضي تحريم إتيان المرأة في دبرها، وقد ذكرت خلاصة ما قيل في ذلك في «الجواهر واللآلىء المصنوعة» فارجع إليه فإنه مفيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [٢٢٤].

{١١٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صوتَ خصُوم بالباب عالية أصواتُهما وإذا أحدُهما يَسْتَوْضِع الآخر ويَسْترْفِقُه في شيءٍ وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليهما فقال: «**أينَ المُتَألِّي على الله لا يَفعلُ المَعروفَ**»، قال: أنا يا رسول الله، فله أي ذلك أحب.

رواه البخاري في أوائل الصلح (٦/٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١/٢١٩، ٢٢٠) وغيرهما.

قوله: يستوضع: أي: يطلب منه أن يضع عنه بعض ما عليه من الدين ويطلب منه أن يرفق به.

وقوله: المتألي بضم الميم وفتح التاء والهمزة ثم لام مكسورة مشددة: هو الحالف.

والحديث موافق للآية الكريمة في المنع من الحلف بالله على ترك البر والخير وأن يجعل الإنسان يمينه بالله مانعة له من المعروف، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي﴾ الخ، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما جاء في حديث بذلك يأتي في الأيمان والنذور.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [٢٢٥].

{١٢٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: نزل في قول الرجل: لا والله بلى والله.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٤٤، ٣٤٥)، ورواه أبو داود (٣٢٥٤) مرفوعاً، والنسائي في الكبرى (٦/٢٢٦) موقوفاً. وهو من قبيل المرفوع.

لغو اليمين: هو الذي لا يعتد به ولا فيه كفارة ولا إثم، لأنه يكون عن غير قصد ولا عقد بالقلب، ولذلك عقب الله ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: أي: عقدتم بقلوبكم كما في آية المائدة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

ومن هذا القبيل ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من حَلف فقال في حَلِفِه: باللاَّتِ والعُزَّى فليقل: لا إلٰه إلا الله**»؛ لأن القوم كانوا حديثي عهد بالجاهلية قد أسلموا وأَلْسِنَتُهم قد أَلِفَتْ ما كانت عليه بالحلف باللات من غير قصد، فأُمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه؛ قاله ابن كثير.

❊ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ الآية [٢٢٦].

{١٣١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: آلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من نسائه وكانت انفكَّت رِجْلُه فأقام في مَشْرُبَةٍ له تسعاً وعشرين، فقيل: يا رسول الله! إنك آليت شهراً، قال: «**إن الشهر تسعٌ وعِشرون**».

رواه البخاري في النكاح (١١/٢١٢) وغيره، ونحوه عنده (٢١٣) عن أم سلمة ويأتي مطولاً في التحريم عن عمر رضي الله تعالى عنه إن شاء الله تعالى.

يؤلون: الإيلاء في اللغة: هو الحلف، وفي عرف الشرع: الحلف عن الامتناع من وطء الزوجة. وفي حديث أنس وأم سلمة... ما يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم آلى من نسائه شهراً لأسباب اقتضت ذلك له كما هو مبين في أحاديث أخرى، والآية الكريمة صرحت بأن من

آلى من نسائه له أن يتربص أربعة أشهر فإذا مضت كان بين أمرين إما أن يرجع إلى معاشرة زوجته، وإما أن يطلق، هذا هو ظاهر الآية الكريمة وللفقهاء مذاهب في ذلك.

۞ قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [٢٢٨].

{١٢٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلّق امرأته فهُو أحقُّ برَجْعَتِها وإن طلَّقها ثلاثاً فنُسِخَ ذلك فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

رواه أبو داود (٢١٩٥)، والنسائي (٢١٢/٦) بنحوه كلاهما في الطلاق وسنده حسن.

{١٢٣} ـ وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال: لا والله لا آويك إليَّ ولا تَحِلِّينَ أبداً، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ﴾ الخ، فاستقبل الناس الطلاق جديداً من ذلك من كان طلق أو لم يطلق.

رواه مالك في الموطأ رقم (١٢٨٢)، وابن جرير (٤٥٦/٢)، وابن أبي حاتم (٤١٨/٢) وغيرهم هكذا مرسلاً وسنده صحيح، ورواه الترمذي في الطلاق (١٠٧٤) بتهذيبي موصولاً ومرسلاً وكلاهما صحيح، ورواه الحاكم (٢٧٩/٢، ٢٨٠) موصولاً، وصححه ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: أي: ينتظرن.

وقوله: ﴿قُرُوٓءٍ﴾: جمع قرء بضم القاف وهو من المشترك اللفظي جاء في اللغة بمعنى الطهر والحيض معاً وبالمعنى الأول قال الجمهور، وبالثاني قال أبو حنيفة.

وقوله: شارفتْ: أي: قاربت.

وقوله: لا آويك: أي: لا أسكنك في منزلي كزوجة لي.

وقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ معناه: أن الطلاق الذي تصح معه وبعده المراجعة هو الطلاق الأول والثاني فبعد ذلك إما أن يمسكها ويعاشرها بالمعروف، وإما أن يسرحها ويطلقها بإحسان بلا إضرار، وبعد هذه الطلقة الثالثة تحرم عليه حتى تتزوج زوجاً آخر فكانت الآية الكريمة إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من ظلم المرأة والإضرار بها ثم إعطاءها حقها وحل مشكلتها وبيان ما يجب أن تعامل به من طرف زوجها.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [٢٢٨].

{١٢٤} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال في خطبته في حجة الوداع: **«فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذْتُموهنَ بأمانةِ الله واستحللْتُم فُروجَهُنَ بكلِمَةِ الله ولكُم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضَرباً غيرَ مُبَرِّح، ولهُنَ رزقُهن وكسوتُهن بالمعروف»**.

رواه مسلم في صفة حجة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم (١٨٣/٨) مطولاً، وتقدم في الحج ونحوه عن أبي الأحوص رواه الترمذي وغيره. ويأتي لهذا مزيد في النكاح.

{١٢٥} ـ وعن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا؟ قال: **«أن تُطْعِمَها إذا طَعِمْتَ، وتَكْسُوهَا إذا اكْتَسَيْتَ، ولا تَضرِب الوَجْهَ ولا تُقَبِّح، ولا تهجُر إلا في البيت»**.

رواه أحمد (٤٤٧/٤)، و (٣/٥)، وأبو داود (٢١٣)، وابن ماجه (١٨٥٠) كلاهما في النكاح بسند صحيح.

قوله: **«بأمانة الله»** وكلمة الله هي قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ الآية، أو كلمة التوحيد، أو قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخ، أو الإيجاب والقبول..

وقوله: «**مبرح**» بضم الميم وفتح الباء وكسر الراء المشددة: هو الضرب الشديد الشاق.

وقوله: «**ولا تقبح**»: أي: لا تقل لها قبحك الله...

وفي الحديثين بيان بعض حقوق كل من الزوجين على الآخر وبيانها مستوفىً في كتب السنة والفقه الإسلامي. ويأتي ذلك في كتاب النكاح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [٢٢٩].

{١٣٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شَمَّاس أتت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله! ما أعْتِبُ على ثابت بن قيس في دينٍ ولا خُلُقٍ، ولكني أكره الكفر في الإسلام لا أُطِيقُه بُغْضاً، فقال لها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتَرُدِّينَ إليهِ حديقَتَه؟**»، قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اقبَل الحديقةَ وطلِّقها تطليقة**».

رواه البخاري (٣١٦/١١، ٣٢٠)، والنسائي (٣٢٤٠)، ورواه أيضاً (٣٢٣٩) عن حبيبة بنت سهل بسند صحيح، ورواه أحمد (٣/٤) عن سهل بن أبي حثمة.

قوله: ما أعتب، في رواية: ما أعيب عليه.

وقولها: لا أطيقه بغضاً، في رواية عند ابن ماجه: والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه.

وقولها: ولكني أكره الكفر في الإسلام: أي: أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضي الكفر.

امرأة ثابت بن قيس هي جميلة بنت أُبيّ أختُ عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين وكانت ذات حسن وجمال وكان ثابت بن قيس فيه دمامة شديد

السوادُ، قصير القامة، قبيح الوجه مع صلاحه وفضله وبشارته بالجنة، فأبغضته أشد البغض، فشكت حالها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأشار عليها بالخلع وفداء نفسها بردها عليه ما أصدقها في مقابلة طلاقها.

وفي هذا الحديث مشروعية خلع المرأة نفسها من زوجها إذا تعذرت العشرة الزوجية مع قيام حدود الله وكان الشقاق حاصلاً من قبل المرأة كما في هذه القصة وهي مبينة للآية الكريمة. أما في غير ذلك فلا يحل له أخذ شيء منها كما يدل عليه أول الآية، وكما في آية النساء: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [٢٣٠].

{١٣٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتتزوج رجلاً آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول؟ قال: «**لا، حتى يَذوق عُسَيلَتَها**».

رواه البخاري (١١/٢٨٣)، ومسلم (١١/٤) كلاهما في الطلاق.

«**حتى يذوق عسيلتها**»: هو كناية عن حلاوة الجماع الذي يحصل بتغييب الحشفة في الفرج.

والحديث يدل على أن المطلقة ثلاثاً لا تحل للأول حتى تنكح زوجاً آخر عملياً مع إيلاج، وقد أجمع الأئمة على ذلك إلا قولاً لسعيد بن المسيب وسيأتي مزيد لهذا في كتاب النكاح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [٢٣٢].

{١٣٨} ـ عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: كانت لي أخت

تُخطَب فأمنعها، فخطبها ابن عم لي فزوّجتها إياه فاصْطَحَبا ما شاء الله أن يصطحبا ثم طلقها طلاقاً له عليها رجعة فتركها حتى انقضت عدتها وخطبها الخطاب، جاء فخطبها فقلت: يا لكع! خُطِبتْ أختي فمنعتُها الناس وآثرتُك بها طلقتها، فلما انقضت عدتها جئت تخطبها لا والله الذي لا إله إلا هو لا أُزوّجُكها، ففي نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الآية، فقلت: سمعاً وطاعة، كفرت عن يميني وأنكحتُها.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٥٨، ٢٥٩)، وفي النكاح (١١/٩١، ٩٢، ٤٠٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٠٧٨)، والترمذي في التفسير (٢٩٨١)، وعند الترمذي: فهويها وهويته.

الآية مع سببها نص في أن المرأة لا ولاية لها في النكاح لا لنفسها ولا لغيرها كما جاءت بذلك نصوص الكتاب والسنة، وقال به كل الأئمة إلا من شذ عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [٢٣٤].

{١٣٩} ـ عن ابن الزبير قلت لعثمان رضي الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ الآية، قال: قد نسختها الآية الآخرى. فلِمَ تَكْتُبُها أو تَدَعُها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

رواه البخاري (٩/٢٥٩)، والإسماعيلي كما في الفتح.

ما حصل بين ابن الزبير وعثمان رضي الله تعالى عنهم هو المتفق عليه بين العلماء بل كل الأئمة، فآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، إلخ، هي منسوخة حكماً بآية الباب رغم أن الناسخة مقدمة في المصحف الكريم والمنسوخة مؤخرة لأنها كذلك كتبت في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولذلك أبقاهما سيدنا عثمان على حالتيهما عند كتابته المصحف. وذلك يدل على أن ترتيب

المصحف بسوره وآياته توقيفي لا دخل لأحد في اختيار ترتيبه، وقد نقل غير واحد الإجماع على هذا، وقالوا: إن ترتيب القرآن الموجود بين أظهرنا نزل كذلك من اللوح المحفوظ، ولهذا قال سيدنا عثمان لابن الزبير: يا ابن أخي لا أغيِّر شيئاً منه من مكانه فرضي الله تعالى عنه.

فالأمة الإسلامية بأجمعها مدينة لعمله في القرآن كأخويه السابقين أبي بكر وعمر وجميع من شارك في جمعه وكتابته فرضي الله تعالى عنهم جميعاً وجزاهم عن خدمة القرآن وعنا خير الجزاء.

{١٣٠} ـ وعن أم عطية رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمِن باللَّهِ واليوم الآخَر أن تُحِدَّ فوقَ ثلاثٍ إلا على زوج أربعةَ أشهُرٍ وعشراً فإنها لا تَكْتَحِلُ ولا تلبسُ ثوباً مَصْبُوغاً إلا ثوبَ عَصْبٍ ولا تَمَسُّ طِيباً إلا إذا طَهُرَتْ من مَحِيضِها نُبْذَةً من قُسْطٍ أظْفارٍ»**.

رواه أحمد (١٨٤/٦، ١٨٥)، والبخاري (٤١٧/١١)، ومسلم (١١٨/١٠)، وأهل السنن إلا الترمذي، وتأتي في النكاح أحاديث من هذا القبيل إن شاء الله تعالى.

قوله: **«أن تحد»** بضم التاء وكسر الحاء: الإحداد: هو حزن المرأة على زوجها وتركها ما فيه زينة ما دامت في عدتها عدة الوفاة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام وهذا في غير الحامل. أما الحامل فعدتها وضع حملها أياً كان وقته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [٢٣٥].

{١٣١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال في قوله تعالى: ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، هو أن يقول: إنّي أُريدُ التزوج وإن النساء لمن حاجتي، ولوددْتُ أن تُيَسَّرَ لي امرأةٌ صالحةٌ.

رواه البخاري في النكاح (٨٣/١١)، وابن جرير (٥١٧/٢، ٥١٨) وغيرهما.

قوله: ﴿عَرَّضْتُم﴾: التعريض هو أن يذكر المتكلم شيئاً يدل به على شيء آخر لم يذكره، وهذا التفسير الذي ذكره ابن عباس متفق عليه بين السلف، وأجمع العلماء على تحريم خطبة المرأة في عدتها صراحة سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ الآية [٢٣٦].

{١٣٢} ـ عن سهل بن سعد وأبي أُسَيْد رضي الله تعالى عنهما قالا: تزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أُمَيْمَة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيْد أن يُجَهِّزها ويكسوها ثوبين أزرقين. وفي رواية: قال لها: هَبِي نَفْسَكِ لي، فقالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُّوقَة، فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: **«قد عذت بمعاذ»**، فقال: **«يا أبا أسيد! اكسها رازقيَّين وألحقها بأهلها»**. ونحوه عن عائشة ويأتي في النكاح.

رواه البخاري في الطلاق (١١/٢٧٥).

الآية الكريمة تدل على جواز طلاق المرأة قبل مسيسها وقبل فرضية صداقها وأن على الزوج أن يمتعها ثياباً أو حلياً أو مالاً.

والحديث يدل أيضاً على الطلاق قبل الدخول وعلى تمتيع المطلقة وقتذ، والرازقيين: براء ثم زاي وهي ثياب من كتان بيض طوال.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [٢٣٨].

{١٣٣} ـ عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم الأحزاب: **«شَغَلُونا عن الصلاةِ الوُسْطَى صَلاةِ العصر مَلأ اللَّهُ بُيُوتَهم وقُبُورَهُم نَاراً»** ثم صلاها بين العشاءين: بين المغرب والعشاء.

رواه أحمد (٨١/١، ١١٣، ١٤٦، ١٥١)، والبخاري في التفسير (٢٦١/٩)، ومسلم في الصلاة (١٢٨/٥)، وأهل السنن وغيرهم.

الحديث نص في أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، فالكلام والخلاف فيها بعد هذا ضائع.

قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [٢٣٨].

{١٣٤} ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كُنَّا نتكلمُ في الصلاة يُكَلِّمُ أحدُنا أخاه في حَاجَتِه حتى نزلت هذه الآية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ... وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأُمِرْنَا بالسُّكُوتِ ونُهِينَا عَنِ الكلامِ.

رواه أحمد (٣١٨/٤)، والبخاري (٢٦٥/٩)، ومسلم (٢٦/٥)، وأهل السنن وغيرهم.

الحديث يدل على أن الآية نزلت في تحريم الكلام في الصلاة، وأن معنى القنوت هنا السكوت، أي: قوموا لله ساكتين وهذا أحد معانيه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [٢٣٩].

{١٣٥} ـ عن نافع رحمه الله تعالى: أن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما كان إذا سُئِل عن صلاة الخوف قال: يَتَقدَّمُ الإمامُ وطائفةٌ من الناس، فيُصلي بهم الإمام ركعة، وتكونُ طائفةٌ منهم بينهم وبين العدُوِّ لم يُصلوا، فإذا صلوا الذين معه ركعةً، استأخروا مكانَ الذين لم يُصلوا ولا يُسلِّمون، ويَتقدمُ الذين لم يصلوا فيصلون معه ركعةً ثم ينصرف الإمام وقد صلَّى ركعتين، فيقومُ كلُّ واحد من الطائفتين فيصلون لأنفسِهم ركعة بعد أن يَنْصَرِف الإمامُ، فيكون كل واحد من الطائفتين قد صلى ركعتين، فإن كان خوفٌ هو أشد من ذلك صلوا رِجالاً قياماً على أقدامِهم أو رُكْباناً، مُسْتَقْبِلي القبلة أو غير مُستقبليها.

قال مالك: قال نافع: لا أرى عبدالله بن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري بهذا السياق في التفسير (٢٦٧/٩)، ومسلم في صلاة الخوف (١٢٤/٦، ١٢٥)، زاد مسلم في رواية: «فإذا كان خوفٌ أكثر من ذلك فصلِّ راكباً أو قائماً تومىء إيماءً».

صلاة الخوف وردت على هيئات وصفات، وأصولها ست وما ذكر هنا واحدة منها وقد صلاها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في عدة غزوات.

والآية الكريمة دلت على الرخصة في صلاتها قياماً وقعوداً، رجالاً وركباناً، وهذا من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده عند اشتداد الخوف ويأتي مزيد للموضوع في سورة النساء إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [٢٤٩].

{١٣٦} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كُنَّا أصحابَ محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نَتحدَّثُ أن أصحابَ بَدْرٍ على عِدَّةِ أصحابِ طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزْ معه إلا مؤمنٌ بِضعةَ عشر وثلاثمائةً.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٣/٨، ٢٩٤)، وابن جرير (٦٢١/٢) وغيرهما.

الآية الكريمة جيء بها لبيان قصة طالوت في قتاله لجالوت، وكان الله تعالى اختبر جيش الإسرائيليين بنهر من الماء وقد عطشوا فمن

شرب منه كان بريئاً منه، ومن لم يشرب كان ولياً له مخلصاً لله تعالى فجاوز النهر هو وثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ممن لم يشرب إلا غرفة بيده، فلما رأوا جيش جالوت الجرار قالوا: لا طاقة لنا اليوم بهم، فطمأنهم أهل اليقين من علمائهم وصلحائهم الربانيين بأن النصر ليس بكثرة القوة والعدد، فكثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجيوش الكثيرة العرمرمة بإرادة الله تعالى وإذنه وعونه، فالنصر من عند الله ينصر من يشاء.

ولذلك لما اصطف الجيشان وتقاتلوا قتل نبي الله داود عليه السلام الرئيس الطاغية جالوت فانهزم جيشه وانتصر المسلمون، والقصة مبسوطة في القرآن الكريم وهكذا وقع لنبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه مع كفار قريش ببدر فأيده الله عليهم مع وفرة عددهم وكثرة قوتهم وقلة الصحابة وكانوا كعدد جيش طالوت الذين قاتلوا معه، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [٢٥٥].

{١٣٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: وكَّلَني رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بحِفْظِ زكاةِ رمضان فأتاني آتٍ فجعل يحْثُو من الطعام فأخذتُه وقلت: لأرفعنَّك إلى رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: إني مُحتاجٌ وعليَّ عِيَالٌ ولِي حَاجةٌ شديدةٌ فخلَّيت عنه فأصبحتُ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أبا هريرة! ما فعل أسيرك البارحة؟»**، قال: قلت: يا رسول الله! شَكى حاجَةً شديدةً وعيالاً فرحِمْتُه فخلَّيتُ سبيلَه، قال: **«أما إنه قد كذبك وسيعود»**، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنه سيعود»**

فَرَصَدته، فجاء يَحثُو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفَعَنَّك إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فوقع منه ذلك ثلاث ليال فقال له: وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم لا تعودُ ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الخ، حتى تختم الآية، فإنك لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلّيتُ سبيله فأصبحتُ فقال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما فعل أسيرك؟**»، قلت: يا رسول الله! زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: ما هي؟ قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الخ، وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما إنه قد صَدقك وهو كَذُوبٌ، تعلمُ مَن تخاطبُ مُنذُ ثلاث ليالٍ أبا هريرة؟**» قال: لا، قال: «**ذاك شيطان**».

رواه البخاري في الوكالة (٢٣١١)، وفي بدء الخلق، وفي فضائل القرآن معلّقاً مجزوماً به، ورواه النسائي في الكبرى (٢٣٨/٦) متصلاً، ونحوه عن أبي أيوب وغيره.

في هذا الحديث أن قراءة هذه الآية الكريمة هي حرز من الشيطان، وأن لها ملائكة خاصين مكلفين من قبل الله عز وجل بحفظ قارئها وهٰهنا أسرار لله عز وجل لا يطلع عليها إلا من شاء من عباده، وفي الحديث دليل على جواز رؤية الجن، وفي ذلك أحاديث ولا تعارض بينها وبين قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فإن ذلك محمول على رؤيتهم في خلقتهم الأصلية والقرآن لا يخالف الواقع أبداً.

{١٣٨} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بأربع كلمات فقال: «**إن اللَّه لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينام يَخْفِضُ القِسْط ويرفعُه، يُرفعُ إليه عملُ النهار قبل عمل**

الليل، وعملُ الليل قبل عمل النهارِ، حِجَابُه النورُ أو النار ولو كَشَفَه لأحرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِهِ».

رواه أحمد (٤/٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥)، ومسلم في الإيمان (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥، ١٩٦)، وابن حبان في صحيحه (١٦٦) بالإحسان، وأبو يعلى (٧٢٢٦)، والبغوي في شرح السنة (٩١) وغيرهم.

قوله: **«لا ينام»**: النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط معه الإحساس. والله تعالى منزَّه عن ذلك ومستحيل في حقه جلَّ وعلا.

وقوله: **«يخفض القسط»**: القسط بكسر القاف: الميزان، لأن به يقع العدل، ومعناه: أن الله يرفع الميزان ويخفضه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ويوزن من أرزاقهم النازلة، وقيل: المراد بالقسط قسط كل مخلوق من رزقه يخفضه فيقتره ويرفعه فيوسعه.

وقوله: **«سبحات»** بضم السين والباء جمع سبحة: أي: نور وجهه وبهاؤه؛ والمراد بالحجاب هنا المانع من رؤيته تعالى.

وقوله: **«بما انتهى إليه بصره من خلقه»**: أي: جميع المخلوقات؛ لأن بصره تعالى محيط بجميع الكائنات.

والحديث من أحاديث الصفات يجب الإيمان به مع تنزيه الله تعالى عما يوهم التشبيه فيُمَرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبية ولا تعطيل، ومذاهب الناس في مثل هذا مختلفة فلا ينبغي الاشتغال بها.

والمقصود من إيراد الحديث هو قوله: إن الله لا ينام فهو موافق لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة عشر جمل، كل جملة منها مستقلة بنفسها وبمعنى خاص وليس لها مثيل في القرآن إلا آية واحدة وهي قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ... إلى قوله: وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [١٥] وهذا من إعجاز القرآن وأسراره.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [٢٥٥].

{١٣٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت المرأة من الأنصار لا يكون لها ولد تجعل على نفسها لئن كان لها ولد لتُهوِّدنَّه، فلما أسلمتْ الأنصار قالوا: كيف نَصنعُ بأبنائنا؟ فنزلت هذه الآية. وفي رواية: لما أُجْلِيَتْ بنُو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار قالوا: لا ندعُ أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾.

رواه أبو داود (٢٦٨٢) في الجهاد، والنسائي في الكبرى (٣٠٤/٦)، وابن حبان (١٧٢٥) بالموارد، والبيهقي في الكبرى (١٨٦/٩) بسند صحيح.

جمهور المفسرين على أن الآية الكريمة منسوخة، وأنها كانت قبل الأمر بقتال الكفار كافة بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾، وقوله جل علاه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، مع قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي تواتر عنه: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**» الحديث، وقد ثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قاتلَ العرب على الإسلام، وهكذا كان شأن الخلفاء بعده.

وقال قوم: إنها خاصة بأهل الكتاب، وأنهم إذا قبلوا أداء الجزية لا يكرهون على الدخول في الإسلام، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾؛ فأمر بقتالهم وجعل غايته إعطاءهم الجزية وهو واضح بحمد الله تعالى، وسيأتي هذا في الجهاد ومفصلاً، وقد انحرف أقوام في معنى آية الباب تبعاً للمستشرقين الكذابين. وقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾: أي: قد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [٢٥٦].

{١٤٠} ـ عن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقصصْتُها عليه: رأيتُني في رَوْضَةٍ ذكر سَعَتَها وعُشْبَها وخُضْرَتَها، ووسطُ الروضة عمودٌ من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروةٌ فقيل لي: ارْقَه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف؛ قال ابن عون: والمنصف: الخادم، فقال: بثيابي من خلفي وصف أنه رفعه من خلفه بيده، فرَقِيتُ حتى كنت في أعلى العَمُود فأخذت بالعُرْوَةِ، فقيل لي: اسْتَمْسِك فلقد استيقظتُ وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«تلك الروضةُ الإسلامُ، وذلك العَمُود عَمُود الإسلام، وتلك العروة عروة الوُثْقَى، وأنت على الإسلام حتى تموتَ»**. وفي رواية: **«يموت عبدالله وهو آخذ بالعروة الوثقى»**. وفي رواية: **«ولن تزال مُتَمَسّكاً بها حتى تَمُوتَ»**.

رواه البخاري (٨/١٣٠، ١٣١)، ومسلم (١٦، ٤٢، ٤٣، ٤٤) كلاهما في المناقب.

العروة: كل ما يستمسك به وهي من الكوز مقبضه، والوثقى: مؤنث أوثق وهو الأقوى. ومعناه: أن من كفر بغير الله من الطواغيت والأنداد وآمن بالله عز وجل فقد تمسك واعتصم بأقوى سبب وهو دين الإسلام. ورؤيا عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه تُفَسِّرُ العروة الوثقى، وأنها دين الإسلام الذي تمسك به ومات عليه. وفي الحديث فضل ابن سلام وأنه من أهل الجنة وحق له ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ الآية [٢٦٠].

{١٤١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نَحنُ أحقُّ بالشَّكِّ مِن إبراهيم إذ قال**: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية».

رواه أحمد (٣٢٦/٢)، والبخاري في التفسير (٢٦٩/٩)، وفي بدء الخلق (٢٢٢/٧)، ومسلم في الإيمان، وفي الفضائل (١٢٣/١٥) وغيرهم.

ظاهر الحديث أن الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام شك في كيفية إحياء الموتى، والآية بخلاف ذلك وقد وجّه العلماء الحديث بأن إبراهيم لم يشك، ولو شك لكنا أولى بذلك منه، ولكنه لم يطرأ عليه شك، وكيف يعتري الأنبياء الشك في صفة من صفات الله عز وجل وهم سادات الموحدين عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [٢٦١].

{١٤٢} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: «**لك بها يومَ القيامة سبعُمائة نَاقَة**».

رواه أحمد (١٢١/٤)، و (٢٧٤/٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (٣٣/٣)، وفي المجتبى، وابن حبان (٥٠٦/١٠) وغيرهم.

{١٤٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُّ عَملِ بني آدم يُضاعَفُ الحسنةُ بعشر أمثالِها إلى سبْعِمائةِ ضِعْف إلى ما شاء اللَّهُ..**» الخ.

رواه مسلم وغيره مطولاً في فضل الصوم وتقدم في الصيام.

في الآية الكريمة والحديثين الشريفين فضل الصدقة والإنفاق وخاصة في سبيل الله، وأن ذلك سيضاعف لصاحبه يوم القيامة إلى سبعمائة ضعف

وقد ضرب الله عز وجل لذلك مثلاً بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ الآية [٢٦٤].

{١٤٤} ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللَّهُ يومَ القِيامةُ ولا يَنظُرُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليم: المنَّانُ بما أعطى، والمُسْبِلُ إزَارَهُ، والمُنفِقُ سِلْعَتَه بالحلِف الكَاذِب**».

وفي رواية: «**المنان الذي لا يُعطي شيئاً إلا مَنَّهُ..**».

رواه مسلم في الإيمان (١١٤/٢)، وأحمد (١٥٨/٥)، وأبو داود (٤٠٨٧) في اللباس، والترمذي في البيوع (١٢١١)، وباقي الجماعة غير البخاري.

في الحديث عظم هذه المعاصي وأن أصحابها هالكون مغضوب عليهم إن لم يتوبوا. والمنان: هو الذي لا يعطي أحداً شيئاً من مال أو غيره إلا امتنَّ عليه وتطاول بذلك وفيه من إذاية المؤمن ما لا يخفى، ولذلك جعله الله تعالى في هذه الآية من مبطلات الصدقة. وقال في آية قبلها: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [٢٦٧].

{١٤٥} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر

كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقِنْوِ والقِنْوَيْن فيُعَلِّقُه في المسجد وكان أهل الصُّفَّةِ ليس لهم طعام، فكان أحدُهم إذا جاء أتى القِنْو فضَرَبه بعصاه فيَسقُط البُسْرُ والتَّمْرُ فيأكل، وكان ناس ممن لا يَرغبُ في الخَيْرِ يأتي الرجل بالقِنو فيه الشِّيصُ والحَشَفُ وبالقنو قد انكَسَر فيُعلِّقُه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ الخ، قال: لو أن أحدكم أهْدِيَ إليه مثلُ ما أعْطى لم يأخذْه إلا على إغْمَاضٍ أو حَيَاءٍ قال: فكان بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده.

رواه الترمذي (٢٩٨٧)، وابن ماجه (١٨٢٢)، وابن جرير (٨٢/٣)، وابن أبي حاتم (٥٢٨/٢)، والحاكم (٢٨٥/٢) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

القنو: بكسر القاف هو العذق يكون فيه الرطب والتمر وهو كالعنقود للعنب. والشيص بالكسر: التمر الغير قوي الذي لا نوى له، والحَشَف بفتحتين: هو أردأ التمر وأقبحه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾، أي: لا تقصدوا التصدق بالخبيث الرديء، وفي الآية الكريمة إرشاد العباد إلى الإنفاق من الكسب الطيب الجيد الذي يحبه المرء ويرضاه لا من الخبيث الرديء الذي يكرهه ولا يقبله إذا أعطيه إلا إذا تساهل وأغمض بصره.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [٢٦٩].

﴿١٤٦﴾ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا حَسَدَ إلا في اثْنَتين: رجُلٌ أتاهُ اللَّهُ مالاً فسلَّطَهُ على هَلَكَتِه في الحق، ورجلٌ أتاهُ الله الحِكمةَ فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها**».

رواه أحمد (٣٨٢/١، ٤٣٢)، والبخاري في العلم (١٨٦/١) وغيره،

ومسلم في الصلاة رقم (٨١٦). وفي رواية لابن عمر: «**رجلٌ أتاه الله القرآن فهو يَقُوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار**» رواه أحمد (٩/٢، ٣٦)، والبخاري، ومسلم وغيرهم. وفي رواية لأبي هريرة: «**رجلٌ علَّمه اللَّهُ القرآنَ فهو يَتْلُوه آناءَ الليل وآناءَ النهار**» رواه أحمد (٤٧٩/٢)، والبخاري.

الحكمة تطلق على معان؛ والمراد بها هنا معرفة القرآن والسنة النبوية والعمل بهما. والحديث نص في أنها القرآن، ولا شك أن السنة تابعة له لأنها المبينة له بنص القرآن. والحسد في الحديث المراد به الغبطة وهو تمنى ما يراه المسلم من خير عند غيره من غير أن يتمنى زواله عنه وهو محمود وهو من التنافس في الخير، والآية الكريمة تنص على أن من أتاه الله الحكمة فقد أتاه الخير الكثير جعلنا الله تعالى منهم.

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [٢٧١].

{١٤٧} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصَّدقةِ، والمُسِرُّ بالقرآنِ كالمُسِرِّ بالصدقة**».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بسند صحيح، وقد تقدم في فضائل القرآن.

وفيه مع الآية الكريمة أن الإسرار بالصدقة كالتلاوة خير وأفضل من الإجهار؛ لأن ذلك أقرب إلى الإخلاص والقبول وأبعد من الرياء، علماً بأن إظهار ذلك مع الإخلاص هو عمل مبرور محمود من أسباب تكفير الذنوب، وقد جاء في حديث السبعة المظللين... «**ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفقُ يمينُه**» وهو في الصحيحين عن أبي هريرة ويأتي كاملاً في موضعه.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [٢٧٢].

{١٤٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانوا يكرهون أن يَرْضَخُوا لأنسبائهم من المشركين فسألوا فرُخِّصَ لهم فنزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، إلى: ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٣٠٥/٦)، وابن جرير (٩٤/٣، ٩٥)، وابن أبي حاتم (٥٣٧/٢، ٥٣٩)، والحاكم (٢٨٥/٢ و ١٥٦/٤، ١٥٧)، والبيهقي في الكبرى (١٩١/٤) بسند صحيح، وصححه الحاكم والذهبي.

قوله: يرضخون: الرضخ: هو العطاء القليل من الغنيمة والفيء.

وقوله: لأنسبائهم: أي: قراباتهم؛ والمراد بإعطاء المشركين هنا من الصدقة والفيء تأليفاً لهم ليدخلوا في الإسلام وقد جعل الله عز وجل لهم في الزكاة حصة خاصة بهم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ... وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [٢٧٣].

{١٤٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لَيْسَ المسكينُ الذي تَرُدُّه التمرةُ والتَّمرَتانِ، واللُّقمةُ واللقمتانِ، إنما المسكين الذي يَتَعَفَّفُ اقرأوا إن شِئتم** يعني: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾».

رواه أحمد (٣٩٥/٢، ٤٦٩) من طرق، والبخاري في الزكاة في التفسير (٢٦٩/٩)، ومسلم في الزكاة (١٣٩/٧)، والنسائي في الكبرى (٣٠٦/٦)، وفي المجتبى، وأبو داود (١٦٣١، ١٦٣٢)، وابن خزيمة (٢٣٦٣)، وابن حبان (٣٢٩٨، ٣٣٥٢) بالإحسان.

قوله: ﴿إِلْحَافًا﴾: أي: إلحاحاً.

وفي الحديث بيان الفقير الوارد في القرآن الذي ينبغي أن يتصدق عليه وهو المسكين الذي يتعفف ولا يعرفه الناس، وليس ذلك الذي يتعرض للتسول مع الإلحاح وإذاية الناس حتى يمقتوه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [٢٧٥].

{١٥٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: آخر ما نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم آية الربا.

رواه البخاري في التفسير (٢٧١/٩).

{١٥١} ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قُبِض قبل أن يُفَسِّرها لنا فدَعُوا الربا والرِّيبَةَ.

رواه أحمد (٣٦/١)، وابن ماجه (٢٢٧٦) بسند صحيح، وله شاهد عن أبي سعيد عند ابن ماجه.

{١٥٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا فقرأها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر ثم حرم التجارة في الخمر.

رواه البخاري في التفسير (٢٧٠/٩، ٢٧١)، وفي البيوع، وفي المساقاة (٥/١١)، وأبو داود (٣٤٩٠، ٣٤٩١)، والنسائي في الكبرى (٣٠٦/٦)، وفي المجتبى.

{١٥٣} ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: «لعن النبيُّ

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم آكِلُ الرّبا ومُوكِلَه وشاهِدَيه وكاتِبَه».

رواه أحمد (٣٩٣/١، ٣٩٤، ٤٠٢)، ومسلم في المساقاة (٢٦/١١)، وأبو داود (٣٣٣٣)، والترمذي (١٢٠٦)، والنسائي في الكبرى (٣٠٦/٦)، وفي المجتبى، وابن ماجه (٢٢٧٧) وغيرهم. وعن جابر مثله رواه أحمد ومسلم (٢٦/١١)، وزاد فيه بعضهم **«هم سواء»**.

قوله: يتخبط: التخبط هو الضرب الشديد في الأرض والسقوط كما يشاهد في الذي يصرع بالجن.

وقوله: من المسّ: أي: الجن.

وقوله: الربا: هو في الأصل الزيادة مطلقاً ثم استعمل عند العرب في الزيادة على رأس المال، فجاء الإسلام وأبطل ذلك وحرمه، وهو في الإسلام على ثلاثة أنواع: ربا النسيئة وهي الفائدة التي يأخذها رب الدين في مقابلة دينه وهذا النوع هو الذي كان سائداً في الجاهلية، وهو المعمول به اليوم عالمياً في سائر البنوك الربوية الدولية وهو عندهم من قبيل التجارة، ثم ربا الفضل وهو يكون عند التبادل في الأصناف الستة التي جاء بها النص النبوي، وهي القمح والشعير والتمر والزبيب والملح والذهب والفضة، فالتفاضل في الجنس الواحد منها ربا، ثم ربا التأخير ويكون في تبادل هذه الأصناف مع الاختلاف والتأخير لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فإذا اختلفت الأجناس فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»**.

والأحاديث المذكورة تدل على أمرين اثنين:

أولاً: أن آية الربا من آخر ما نزل كما هو صريح قول ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهم غير أن هذا يعارض ما سيأتي آخر سورة النساء عن البراء.

أما قول سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قبض قبل أن يفسرها لنا، يقصد بذلك تفصيل جزئيات الربا

التي تفوق الحصر كما بينت ذلك في الجواهر واللآلىء المصنوعة.

ثانياً: فيها كالآية الكريمة الوعيد الشديد للمرابين وأنهم ملعونون الآخذ منهم والمعطي والكاتب والشاهد والآكل والمؤكل كلهم سواء في ذلك، وأن المرابين يحشرون يوم القيامة يتخبطون ويصرعون كالمجانين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هو ظاهر في أن المرابين مخلدون في النار، وهذا محمول على من استحله وأباحه كالمتعاملين به اليوم. هذا وظهور الربا مع الزنا من أسباب هلاك الأمم كما جاء في حديث: **«ما ظهر الربا والزنا في قوم إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»** رواه أحمد وغيره.

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [٢٧٦].

{١٥٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنَّ الرِّبا وإن كَثُر فإن عاقبتَه تَصيرُ إلى قُلٍّ»**، وفي رواية: **«ما أحدٌ أكثرَ مِن الرِّبا إلا كان عاقبةُ أمره إلى قُلٍّ»**.

رواه أحمد (٣٩٥/١، ٤٢٤)، وابن ماجه (٢٢٧٩)، والحاكم (٣٧/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح.

{١٥٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَن تَصدَّق بعدلِ تمْرَةٍ من كَسْبٍ طيِّبٍ ولا يَقبلُ الله إلا الطَّيِّبَ، فإن اللَّهَ يتقبلُها بيمينه ثم يُرَبِّيها لصاحِبِها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه حتى تكون مثلَ الجبل»**.

رواه أحمد (٣٣١/٢)، والبخاري (٢٠/٤، ٢١)، ومسلم (٩٨/٧، ٩٩) كلاهما في الزكاة.

الحديث الأول مفسر لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، والمحق: نقص الشيء حالاً بعد حال، والربا مآله النقصان والإفلاس لصاحبه.

أما الحديث الثاني فجاء مفسراً لقوله تعالى: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: ينميها ويكثرها فلذلك جاء في الحديث بأن الله يأخذ الصدقة فيربيها لصاحبها كما يربي أحدنا الفصيل الصغير من الإبل حتى تصبح في العظمة مثل الجبل، والله ذو فضل عظيم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [٢٧٨، ٢٧٩].

{١٥٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ﴾ الخ، قال: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يَسْتَتِيبَه فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

{١٥٧} ـ وعنه قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خُذ سِلاحَك لِلْحَرب قال: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله.

رواهما ابن جرير (١٠٨/٣)، وابن أبي حاتم (٥٥٠/٢) وكلاهما سنده صحيح إلا ما قيل في عبدالله بن صالح وهو حسن الحديث.

{١٥٨} ـ وعن عمرو بن الأحوص رضي الله تعالى عنه أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى عليه وذَكَّر ووعظ ثم قال: «**أي يوم أحرمُ**» فذكر الحديث وفيه: «**ألاَ وإن كلّ ربًا في الجاهلية فإنه موضوعٌ كُلُّه**» الحديث يأتي في التوبة وغيرها.

رواه أبو داود (٣٣٢٧)، والترمذي في تفسير التوبة (٣٠٨٧، ١١٦٣، ٢١٥٩)، والنسائي في الحج من الكبرى (٤١٠٠)، وابن ماجه في المناسك

(٢٦٦٩) بسند صحيح وحسنه الترمذي وصححه، ورواه ابن أبي حاتم (٥٥١/٢) وغيره وفيه: وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله.

ذكر المفسرون أن قوماً من بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه اختصموا في ذلك فأخبروا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بما حصل لهم فنزلت الآية فكتب بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، وفي الآية الكريمة تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، ولذا ذهب ابن عباس إلى قتل المرابي إن لم يتب لأنه محارب لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي: فإن لم تتوبوا وتتركوا التعامل بالربا أو ما بقي لكم منه فأذنوا واعلموا وتيقنوا بحرب من الله ورسوله، وكفاهم بذلك خسارة.

وحديث عمرو بن الأحوص يدل على وجوب وضع الربا مطلقاً ولا يأخذ المرابي إلا رأس ماله كما في الآية الكريمة أيضاً: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [٢٨٠].

{١٥٩} ـ عن أبي اليَسَر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«مَن أنظَرَ مُعسِراً أو وَضَع عنه أظلَّه اللَّهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه»**.

رواه أحمد (٤٢٧/٣)، ومسلم آخر الزهد (٣٠٠٦)، ومثله عن أبي هريرة عند أحمد والترمذي.

{١٦٠} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«مَن أنظر مُعسِراً فله بكُلِّ يوم مثلُه**

صدقةً قبل أن يُحلَّ الدينُ، فإن أحلَّ الدينُ فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة».

رواه أحمد (٣٥١/٥، ٣٦٠)، وابن ماجه (٢٤١٨)، والحاكم (٢٩/٢)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

في الآية الكريمة مع الحديثين فضل إنظار المعسر مع الإرشاد إلى الوضع عنه والصدقة عليه بما عليه كما في الحديث الثاني فضل إنظار المعسر بزيادة الأجر بعد حلول أجل الدين وهذا الخلق الكريم جاء على خلاف ما كان عند الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [٢٨١].

{١٦١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٣٠٦/٩)، وابن جرير (١١٤/٣، ١١٥)، والبيهقي في الدلائل (١٣٧/٧) بسند صحيح.

هذا الأثر لا يعارض ما تقدم في آية الربا، فإن هذه الآية خاتمة سابقتها، وهذه الآية آخر ما نزل إطلاقاً حتى قال سعيد بن جبير وغيره: عاش النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بعدها تسع ليال ثم مات، رواه ابن جرير (١١٥/٣) عن ابن جريج وابن أبي حاتم (٥٥٤/٢) وغيره عن ابن جبير.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [٢٨٢].

{١٦٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة وهم يُسْلِفُون في الثمار السنةَ والسنتين، فقال: **«من أسلف في تمر فلْيُسْلِف في كَيْلٍ معلومٍ، ووزن معلوم، إلى أجلٍ معلوم»**.

رواه البخاري (٥/٣٣٥)، ومسلم (١١/٤١، ٤٢) كلاهما في البيوع، باب السَّلَم.

{١٦٣} ـ وعنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

رواه ابن أبي حاتم (٢/٥٥٤)، والحاكم (٢/٢٨٦)، وصححه على شرط الشيخين واعترضه الذهبي بأن إبراهيم بن بشار ذو زوائد عن ابن عيينة. قلت: ووثقه ابن حبان وكان خادم إبراهيم بن أدهم الزاهد وهو ممن يستشهد به.

{١٦٤} ـ وعنه أيضاً أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّ أوّلَ من جَحَدَ آدم عليه السلام أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذَارٍ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يَزْهُو فقال: أي رب! من هذا؟ قال: هو ابنُك داود، قال: أي رب! كم عُمرُه؟ قال: ستون عاماً، قال: رب! زد في عمره، قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً، وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقي من عمره أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلتُ، فأبرزَ الله الكتابَ وأشهد عليه الملائكةَ فأتمَّها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة»**.

رواه أحمد (١/٢٥١، ٢٥٢، ٣٧١)، والطيالسي (١٩٣٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/٥٥٥)، وابن سعد في الطبقات (١/٩٨)، والبيهقي (١٠/١٤٦) ورجاله ثقات، وابن جدعان مختلف فيه لكن الحديث صحيح، فإن له شاهداً عن أبي هريرة رواه ابن أبي عاصم (١/٩٠)، والحاكم (١/١٤) من طرق وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الحديث الأول كالآية الكريمة يدل على ضرب الأجل في الدين ولا

خلاف في ذلك بين العلماء، بينما الحديث الثاني يوافق قوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ وأن ذلك أقسط عند الله وأقوم وأقرب أن لا يشك في قدر الدين والأجل، ولا سيما إذا طال الزمان كما وقع لأبينا آدم عليه السلام، فإنه أنكر ما وهبه لابنه داود عليه السلام لطول المدة ولكنه كان قد كتب عليه بذلك وشهدت عليه الملائكة فلم يجد بداً من الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [٢٨٢].

{١٦٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**يا مَعْشَرَ النساء! تَصدَّقن وأكْثِرْنَ الاستغفار، فإني رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النار**»، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تكثِرنَ اللَّعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودين أغلبَ لذي لُبٍّ منكن**»، قالت: يا رسول الله! ما نقصان العقل والدين؟ قال: «**أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين**».

رواه أحمد (٦٦/٢، ٣٢٣)، ومسلم في الإيمان (٦١/١)، والترمذي فيه أيضاً (٢٦١٣) وهو في الصحيحين عن أبي سعيد، وفي مسلم عن ابن عمر.. وسيأتي بعضها في الرقاق.

الشاهد من الحديث هو أن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل وذلك موافق للآية الكريمة، وفي الحديث فوائد ليس هذا محل إيرادها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [٢٨٢].

{١٦٦} ـ عن زيد بن خالد الجُهَنِي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ألا أُخبِرُكم بخيرِ الشُّهَدَاءِ؟ الذي يأتِي بشهادتِه قبلَ أن يُسألها**».

رواه أحمد (١١٥/٤، ١١٧، و١٩٢/٥، ١٩٣)، ومسلم (١٧/٢)، وأبو داود (٣٥٩١)، والترمذي (٢٢٩٥) في أول الشهادات، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٤) وغيرهم.

في الحديث فضل الإدلاء بالشهادة لمن كانت عنده إذا تُوقِّفَ عليها، كما أن الآية الكريمة تنهى من كانت لديه عن الامتناع من أدائها إذا ما دعي إليها.

خلاصة آية المداينة:

آية المداينة هي أكبر آية في القرآن إطلاقاً، وقد اشتملت على عدة أحكام نجملها في الآتي:

أولاً: مشروعية المداينة إلى أجل.

ثانياً: كتابة ذلك ليكون أوثق وأقوم.

ثالثاً: بيان ما يجب على الكاتب والمدين في ذلك.

رابعاً: بيان الشهود المعتبرين شرعاً.

خامساً: عدم الامتناع من أداء الشهادة إذا احتيج إليها.

سادساً: عدم السآمة من كتابة ما يحتاج إلى كتابته سواء كان كبيراً أو صغيراً.

سابعاً: الإشهاد عند البيع والشراء.

ثامناً: لا يَضُرُّ صاحبُ الحق الكُتَّابَ والشهودَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [٢٨٣].

{١٦٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم توفي ودِرعُه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وَسْقاً مِن شعير، رَهَنَها قُوتاً لأهله.

رواه البخاري في البيوع (٢٠٦/٥)، وفي الرهن (٦٥/٦، ٦٦)، والترمذي (١٢١٥)، والنسائي وابن ماجه (٣٤٣٧)، وكذا أحمد (١٣٣/٣، ٢٠٨، ٢٣٢، ٢٣٨)، وفي الباب عن ابن عباس عند أحمد وأهل السنن غير أبي داود بسند صحيح، وعن عائشة في البخاري في الرهن (٦٧/٦، ٧٠)، وفي الجهاد (٤٤٠/٦)، ومسلم في الرهن (٣٩/١١، ٤٠) أيضاً، والنسائي وغيرهم.

الرهن في الأصل: الاحتباس، وفي الشرع الإسلامي جعل مال وثيقة على دين وهو مشروع بالإجماع. والسفر في الآية خرج مخرج الغالب، فإن السنة الصحيحة جاءت بمشروعيته في الحضر أيضاً كما في أحاديث الباب، وخالف ابن حزم فخصه بالسفر والسنة ترد عليه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [٢٨٣].

{١٦٨} ـ عن سمرة، عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«على اليد ما أخذت حتى تؤدّيه»**.

رواه أحمد (٨/٥، ١٣)، وأبو داود (٢٥٦١)، والترمذي (١٢٦٦)، وابن ماجه (٢٤٠٠)، والدارمي (٢٥٩٩)، والحاكم (٤٧/٢) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه.

في الحديث وجوب أداء ما أخذه الإنسان من أمانة وغيرها سواء كان ديناً، أو عارية، أو ما إلى ذلك؛ ومعناه موافق للآية ويأتي حديث: **«أد الأمانة لمن ائتمنك»** في سورة النساء إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٢٨٤ ـ ٢٨٦].

{١٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت على

رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم بَرَكُوا على الرُّكَب فقالوا: أيْ رسول الله! كُلِّفْنَا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نُطيقها، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أتريدون أن تقولوا كما قال أهلُ الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا»**، قولوا: **«سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»**، قالوا: سمعنا وأطعنا الخ، فلما اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم فأنزل الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، الحديث وفيه عقب كل دعاء منها: نعم، نعم، نعم.

رواه أحمد (٤١٢/٢)، ومسلم في الإيمان (١٤٥/٢، ١٤٦)، وابن جرير (١٤٣/٣)، وابن أبي حاتم (٥٧٣/٢) ونحوه عن ابن عباس وفيه عقب كل دعاء قد فعلت... رواه أحمد (٢٣٣/١)، ومسلم (١٤٦/٢)، والترمذي، والنسائي في الكبرى (٣٠٧/٦)، وابن جرير (٣/٣، ١٤٣) وغيرهم.

{١٧٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنَّ الله تعالى تَجَاوَزَ لي عن أمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَهَا ما لم تكلَّم أو تعْمَلْ»**.

رواه أحمد (٣٩٣/٢، ٤٢٥، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٩١)، والبخاري في العتق (٢٥٢٨)، وفي الطلاق (٥٢٦٩)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٦٤)، ومسلم في الإيمان (١٤٦/٢، ١٤٧)، وأهل السنن أربعتهم في الطلاق.

في حديثي أبي هريرة الأول، وابن عباس بيان أن قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية منسوخة بالآيتين بعدها أو مخصوصة كما قيل، وفيهما بشارة عظيمة للأمة حيث رفع عنها الحرج وتكليف ما لا يطاق إضافة

إلى ما أجاب الله عز وجل قارئي الآيتين بقوله: قد فعلت، ونعم.. نعم..

أما حديث أبي هريرة الآخير ففيه بيان ما تفضل الله به على عباده بعدم مؤاخذتهم على ما يُحَدِّثُون به أنفسَهم من الوساوس والخواطر القلبية ككفر مثلاً، وقتل، وزنا، وطلاق ونحو ذلك مما لم يقع فيه عزم، أو عمل، أو كلام؛ وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين ولطفه بهم، فله الحمد على ذلك كثيراً طيباً.

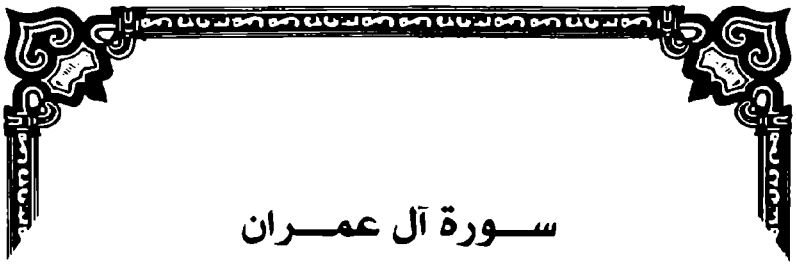

سـورة آل عمـران

هذه السورة الكريمة هي ثانية الزهراوين وثانية السور الطوال آياتها (٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [٢].

{١٧١} ـ عن أسماءَ بنت يزيدَ رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اسمُ اللَّهِ الأعظَم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ البقرة: ١٦٣، وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾...

رواه أبو داود (١٤٩١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وابن أبي حاتم (٥٨٣/٢)، وحسنه الترمذي وصححه وله شاهد عن أبي أمامة رواه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (٥٠٥/١) بسند حسن.

الحديث يدل على أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين، وهذا لا يعني أنه لا يكون في غيرهما، وذلك لمجيء أحاديث أخرى تدل على أنه جاء في أسماء أخرى مثل: «**لا إله إلا أنت الأحد الصمد**»، كما جاء في السنن من حديث بريدة: «**ولا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام**»، كما في حديث أنس عند أحمد، وابن ماجه، والحاكم من طرق صحيحة، وانظر ما سبق في الأدعية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [٧].

{١٧٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخ، فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا رأيتِ الذين يَبتغَون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّاهُم اللَّهُ فاحذَرُوهم»**.

رواه أحمد (٢٥٦/٦)، والبخاري في التفسير (٢٧٧/٩، ٢٧٨)، ومسلم في العلم (٢٨/١٦)، وأبو داود في السنة (٤٥٩٨)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٣، ٢٩٩٤) وغيرهم.

في الآية الكريمة ذم الزائغين والمائلين عن الحق، والمحكم من الكتاب الكريم المتبعين ما استأثر الله تعالى بعلمه أو ما هو غير واضح الدلالة فيؤولونه بتآويل باطلة منحرفة طلباً للفتنة كما هو شأن أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والنواصب والشيعة الروافض الذين يتركون المحكم الواضح ويردونه ويتعلقون بالمتشابه وما هو باطل وهكذا أعمى الله بصائرهم.

وفي الحديث الشريف إرشاد لنا إلى وجوب الحذر من هؤلاء وعدم الاستماع إليهم أو قراءة كتبهم.

واختلف العلماء والمفسرون في المراد بالمحكم والمتشابه على أقوال كثيرة؛ فقال المتقدمون: المحكم ما عرف المراد منه إما بظهوره أو بتأويله بدليل. والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه واختار هذا القول أبو منصور البغدادي. وقال ابن السمعاني: إنه أحسن الأقوال والمختار على طريقة أهل

السنة، واختار المتأخرون أن المحكم ما وضح معناه والمتشابه ضده.. ومعنى القولين متقارب. وموقف أهل الرسوخ في العلم أنهم يؤمنون بالجميع وأن الكل من عند الله.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [١٢، ١٣].

{١٧٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أصاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قَيْنُقَاع فقال: «**يا معشر يهود! أسلموا قبل أن يُصيبَكم مثلَ ما أصاب قريشاً**»، قالوا: يا محمد! لا يَغُرَّنك مِن نفسك أن قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفتَ أنا نحنُ الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الآية.

رواه أبو داود في الخراج (٣٠٠١)، وابن جرير (١٩٢/٣) ورجاله ثقات غير محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت فلم يوثقه غير ابن حبان، لكن رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (٦٠٤/٢) وغيرهما من طريق آخر مرسلاً فيتأيد، ولذلك لم يذكر ابن جرير ولا ابن كثير في سبب نزول الآية غير ذلك.

في الآية الكريمة معجزة ظاهرة للقرآن الكريم حيث أخبر عن اليهود أنهم سيهزمون ثم يحشرون إلى أمهم جهنم، فوقع ذلك لهم كما أخبر ولم يعتبروا بما حصل لإخوانهم في الكفر ببدر رغم أن الله تعالى قال لهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ـ أي: عبرة ـ ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ وبذلك ختم الآيتين بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ولكنه أتى لليهود أن تكون لهم الأبصار حتى يعتبروا.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الخ [١٤].

{١٧٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُم النساءُ والطيبُ وجُعِلتْ قرةُ عيني في الصَّلاةِ»**.

رواه أحمد (١٢٨/٣، ٢٨٥، ١٩٩)، والنسائي في الكبرى (٢٨٠/٥)، وأبو يعلى (٣٤٦٩٩)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم (٢٢٩، ٣٣٠)، والحاكم (١٦٠/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

محبة الرجال للنساء هي شيء طبيعي فطر عليه الإنسان غير أن محبة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لهن تختلف عن محبة غيره. وقد نتج عن هذه المحبة فتنة عظيمة للرجال ليس بعدها فتنة، ولذا جاء عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»** رواه البخاري (٤١/١١)، ومسلم (٥٤/١٧) وغيرهما.

{١٧٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«القنطار اثنا عشر ألف أوقية، كل أوقية خير مما بين السماء والأرض»**.

رواه أحمد (٣٦٣/٢)، وابن ماجه (٣٦٦٠). قال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

هذا أصح ما ورد في مقدار القنطار رغم أنه جاءت فيه آثار مختلفة. قال ابن جرير: الصواب أن يقال هو المال الكثير.. وهذا الذي ذكره النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم **«كل أوقية خير..»** الخ إشارة منه إلى ما في الجنة كما يظهر والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [٣٦].

{١٧٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَا مِن مَولودٍ يُولَدُ إلا والشيطانُ يَمَسُّه حِين يُولد فيستهِلُّ صارخاً من مَسِّ الشيطانِ إيَّاه إلا مريمَ وابنَها»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٤)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٧/٢٨٠)، وفي التفسير (٩/٢٧٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/٢٢٠)، وكذا الحميدي (١٠٤٢)، وابن جرير (٣/٢٣٨، ٢٣٩) وغيرهم.

وفي الحديث استجابة الله دعوة أم مريم في حفظ ابنتها وابنها من الشيطان، وفيه خصيصة لمريم وعيسى من مس الشيطان عند ولادتهما، وذكر القاضي عياض أن هذا عام في كل الأنبياء، غير أنه لم يأتِ دليل في ذلك عن الشارع. أما ما طعن به الزمخشري وغيره في هذا الحديث فهو مما لا يلتفت إليه، وانظر رد الحافظ عليه في التفسير من فتح الباري.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [٤٢].

{١٧٧} ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«خيرُ نسائِها مريمُ بنتُ عِمرانَ، وخيرُ نسائِها خَدِيجةُ بنتُ خُوَيلِد»**.

رواه أحمد (١/٨٤، ١١٦، ١٣٢)، والبخاري في بدء الخلق، وفي الفضائل (٨/١٣٤)، ومسلم فيه أيضاً (١٥/١٩٨)، وأبو يعلى (٥٢٢، ٦١٢)، والحاكم (٣/١٨٤). وفي رواية لمسلم: وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

الاتفاق على أن مريم أفضل أهل زمانها وعَالِمِهَا، واختلفوا في أفضل

نساء هذه الأمة؛ فقال بعضهم: خديجةُ وهو ظاهر هذا الحديث، وقال آخرون: عائشة، والصحيح المختار أن أشرف نساء هذه الأمة وأفضلهن مولاتنا فاطمة، ثم خديجة، ثم عائشة رضي الله تعالى عنهن جميعاً.

واستدل بهذه الآية وغيرها من قال بنبوة مريم، والخلاف فيها وفي غيرها من النساء مشهور، والجمهور على أنه ليس في النساء نبية، وخالفهم أبو الحسن الأشعري وابن حزم وجماعة وقولهم قوي من جهة الدليل.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦].

{١٧٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابن مريم، وصاحبُ جُرَيج**»، ثم ذكر الحديث وفيه: «**الصبي الذي ترك الثدي وقال: اللهم لا تجعلني مثله** ـ يعني: رجلاً جباراً ـ **وقال: اللهم اجعلني مثلها** ـ يعني: أمه كانت مظلومة ـ».

رواه البخاري أواخر الصلاة وفي المظالم وفي أحاديث الأنبياء (٢٨٧/٧، ٢٩٢)، ومسلم في البر (١٠٥/١٦، ١٠٨) روياه مطولاً ويأتي في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

في الآية الكريمة والحديث الشريف بيان معجزة لروح الله سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث أجرى الله الكلام على لسانه وهو لا يزال طفلاً في المهد، والحديث حصر المتكلمين في المهد في هؤلاء الثلاثة، والواقع أنهم أكثر كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، فمنهم: طفل المرأة في قصة الأخدود وهو في مسلم، ومنهم رضيع ماشطة بنت فرعون، ومنهم شاهد يوسف جاء بهما حديث ابن عباس عند أحمد وغيره وهو حديث صحيح، نعم لم يصح في غير هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [٥٢].

{١٧٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِياً، وحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ . . .**».

رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٦)، والمغازي (٤١١٣)، والمناقب (٣٧١٩)، ومسلم في الفضائل (١٨٨/١٥)، والترمذي (٣٧٤٥)، والنسائي في الكبرى (٢٦٤/٥، ٢٦٥)، وابن حبان (٦٩٨٥)، وكذا أحمد (٣٠٧/٣، ٣٣٨)، وفي مواضع، وابن ماجه (١٢٢) وغيرهم.

الحواري هو الناصر، وفي الحديث فضل الزبير وحق له ذلك فإنه من كبار العشرة وأحد السابقين والمهاجرين الأولين وصاحب المشاهد وابن عمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قتل شهيداً يوم الجمل سنة ست وثلاثين.

والحديث يدل على أن لكل نبي حوارياً وليس ذلك خاصاً بابن مريم عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [٦١].

{١٨٠} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾ الخ، دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحُسَيناً عليهم الصلاة فقال: «**اللَّهم هَؤُلاءِ أهْلي**».

رواه أحمد (١٨٥/١)، ومسلم (١٧٥/١٥، ١٧٦)، والترمذي (٣٧٢٤) كلاهما في المناقب، والنسائي في الكبرى (٨١٤٩)، وكذا الترمذي في التفسير (٢٩٩٩)، وابن حبان (٦٩٢٦).

كان هذا الدعاء عندما أراد مباهلة النصارى الذين جادلوه في شأن عيسى عليه السلام، وقوله: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ الخ، يعني: رسول الله، والإمام علياً، وأبناءنا الحسنين ونساءنا أمهما مولاتنا فاطمة عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

وفي الآية مع الحديث فضل ظاهر وخصيصة لهؤلاء السادات الكرام وستأتي مناقبهم.

{١٨١} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يريدان أن يُلاعِنا قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعَنَّاه لا نُفْلِحُ نحن ولا عقبُنا من بعدِنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً.

رواه البخاري (٨/٩٤، ٩٥)، ومسلم (١٥/١٩٢)، والترمذي (٣٧٩٦) كلهم في المناقب.

في الحديث إقرار صاحبي نجران بصدق نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنهما خشيا على أنفسهما الهلاك إذا باهلاه، ولذلك عدلا عنها إلى الصلح وأداء الجزية.

{١٨٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال أبو جهل ـ قبحه الله وأخزاه ـ: إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة... وفيه: ولو خَرَج الذين يُبَاهِلُون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُون مالاً ولا أهلاً.

رواه أحمد وغيره وسيأتي في سورة العلق وتقدم في سورة البقرة.

المباهلة: التلاعن، بأن يتلاعن المتجادلان فيلعنا المبطل الكاذب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [٦٤].

{١٨٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حدثني أبو سفيان من فيه إلى فِيَّ قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى هِرَقْل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل قال: فقال هرقل: هل هٰهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيُّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا ترجمانه فقال: قل لهم: إني سائِل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: وأيم الله لولا أن يؤثروا عليَّ الكذب لكذبت، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آبائه مَلِكٌ؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطةً له، قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع، قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا، ثم قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول

آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا، فقلت: لو كان في آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له، فزعمت أن لا وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشتُه القلوبَ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالاً ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله فزعمت أن لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم بقول قيل قبله، وسألتك بماذا يأمركم فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والصدقة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وهذه صفة النبي قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم وإن يك كما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين ولو أرجو أن أخْلُص إليه لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّه ولو كنت عنده لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرىء فإذا فيه: **بسم الله الرحمن الرحيم، من مُحمد رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى هِرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى، أمَّا بعد: فإني أدعُوك بدعاية الإسلام أسْلِم تَسْلَمْ يُؤتِك اللَّهُ أجرَك مرتين فإن تَوَلَّيتَ فإن عليك إثم الأريسيِّين،** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط،

وأُمِرنا فأُخْرِجنا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أُمِر أمْر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقناً بأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سيظهر حتى أدخلَ اللَّهُ عليَّ الإسلام.

رواه أحمد (٢٦٣/١)، والبخاري في بدء الخلق (٣٥/٧، ٤٨)، وفي الجهاد، وفي التفسير (٢٨١/٩، ٢٩٠)، ومسلم في الجهاد (١٠٣/١٢، ١١١) وغيرهم.

هذا حديث عظيم فيه فوائد هامة، وفيه مشروعية إرسال الرسائل إلى عظماء الكفار لدعوتهم إلى الله ودين الحق، وفيه العمل بخبر الواحد العدل في كل ميادين أمور الديانة، ولذلك أدلة كثيرة، وفيه بيان ما كان يدعو إليه النَّبِيُّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من خصال الخير ومكارم الأخلاق مع توحيد الله عز وجل وأداء فرائضه... وغير ذلك مما يحبه ويرضاه كل ذي عقل سليم. وفيه بيان علامات الرسل.. وفيه غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ الخ، الكلمة هنا هي: **لا إله إلا الله** باتفاق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [٦٨].

{١٨٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن لكل نبي وُلاةً من النبيين، وإن وليي أبي وخليلُ رَبِّي ثم قرأ:** ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية».

رواه أحمد (٤٠١/١)، والترمذي (٢٩٩٥)، وابن جرير (٣٠٢/٣)، وابن أبي حاتم (٧٣١/٢)، والطحاوي في المشكل، والحاكم (٢٩٢/٢، ٥٥٣) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي وما قيل من انقطاعه مدفوع بمجيئه متصلاً من طريق ثقتين.

قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى﴾ الخ، أي: أحقهم بإتباعه وولايته.. هو النبي وأتباعه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [٧٧].

{١٨٥} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من حلف على يمينٍ صَبْرٍ لِيَقْتَطِع بها مالَ امْرِىءٍ مسلم لقِيَ اللهَ وهو عليه غَضبانُ، فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾** الآية، قال: فدخل الأشعثُ بن قيس وقال: ما يحدثكم أبو عبدالرحمن؟ قلنا كذا وكذا، قال: في أنزلت كانت لي بئر في أرض ابنِ عَمٍّ لي، قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بينتك أو يَمينُه**»، فقلت: إذاً يحلف يا رسول الله، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من حلف على يمين صبر**» الخ.

رواه البخاري في المساقاة، وفي الخصومات، وفي الشهادات، وفي التفسير (٩/٢٨٠)، ومسلم في الإيمان (٢/١٥٨، ١٥٩)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٤٣)، والترمذي (٢٩٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٩)، وابن ماجه (٢٣٢٢) وغيرهم.

يمين صبر: هي اليمين التي يحبس عليها حالفها.

وقوله: فاجر أي: كاذب.

وفي الآية والحديث وعيد شديد للحالف الفاجر الذي يحاول أخذ مال أخيه المسلم بيمينه الكاذبة وأنه لا خلاق له ولا خير في الآخرة وأنه سيلقى الله وهو عليه غضبان وهذا كله إذا لم يتب، وفي الحديث بيان القاعدة العامة في القضاء والشهادات وهي البينة على المدَّعِي واليمين على من أنكر وسيأتي في القضاء.

{١٨٦} ـ وعن ابن مسعود أيضاً قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الخ، ثم لم ينسخها شيء، فمن اقتطع مال امرىء مسلم بيمينه فهو من أهل هذه الآية.

رواه النسائي في التفسير من الكبرى (٣٠٩/٦) بسند صحيح.

وفي الباب عن عدي بن عميرة الكندي في قصة أمرىء القيس مع الحضرمي وسيأتي في الأقضية إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [٨٥].

{١٨٧} ـ عن الحسن ـ هو البصري ـ رحمه الله تعالى قال: حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تجيءُ الأعمالُ يومَ القيامة فتجيءُ الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقةُ فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنكِ على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال كل ذلك يقول الله تعالى: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾**».

رواه أحمد (٣٦٢/٢)، وأبو يعلى (٦٢٣١)، ورجال أحمد رجال الصحيح غير عباد بن راشد وثقه عبدالله بن أحمد وأبو حاتم وضعفه آخرون وانظر المجمع (٣٤٢/١٠).

وفي هذا الحديث تصريح الحسن بسماعه من أبي هريرة، وجاء ذلك في غير ما حديث وإن خالف في ذلك كثير من الحفاظ، فالله أعلم.

الآية نص في أن الله عز وجل لا يقبل ديناً غير دين الإسلام وهو إجماع مقطوع به فمن قال خلافه وساوىٰ بين الأديان كان كافراً.

والحديث يدل على أن الأعمال الصالحة ستشفع لصاحبها يوم القيامة، وأن الإسلام هو أعظمها خيراً وبركةً فبه يأخذ الله عز وجل وبه يعطي. أماتنا الله تعالى عليه وعلى الدين الحق، آمين.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٨٦ ـ ٨٩].

{١٨٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه سلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: إن فلاناً ندم وإنه قد أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ الخ، فأرسل إليه فأسلم.

رواه أحمد (٢٤٧/١)، والنسائي في تحريم الدم من المجتبى، وفي التفسير من الكبرى (٣١١/٦)، وابن جرير (٣٤٠/٣)، وابن حبان (١٧٢٨) بالموارد، والحاكم (١٤٢/٢ و ٣٦٦/٤)، والبيهقي (١٩٧/٨) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المصدرين.

والآية مع الحديث يدلان على قبول توبة المرتد إذا صح ندمه وأنه يغفر له كفره وما صدر منه لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [٩١].

{١٨٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه، أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«يُقال للرجل من أهل النار يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان ما على الأرض مِن شيءٍ؟ أكنتَ مُفتدِياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله تعالى: قد أردتُ منك أهون من ذلك أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تُشرِكَ بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تُشرِكَ»**.

رواه أحمد (١٢٧/٣، ٢٩١)، والبخاري في الرقاق (١٩٣، ١٩٥،

٢١٦)، ومسلم في المنافقين (١٤٧/٧، ١٤٨)، ورواه ابن جرير (٣٤٦/٣)، وقال في آخره: فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الخ.

وهذا خزي بالغ متناه عياذاً بالله من الكفر وأسبابه وطرقه وأهله.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [٩٢].

{١٩٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أبا طَلْحَة كان أكثَرَ أنصاري مالاً بالمدينة بالنخل وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاءُ وكانت مستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يَدخلُها فيأكل من ثَمَرها ويشرَبُ من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ الخ، وإن أحبَّ أموالي إلي بيرحاءُ وأنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بَخٍ! ذلك مال رَابِحٌ وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعله في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة بين أقربائه وبني عمه.

رواه أحمد (٤١/٣، ٢٥٦)، والبخاري في الزكاة، وفي الوكالة، وفي الوقف، وفي التفسير (٢٩٠/٩، ٢٩١)، ومسلم في الزكاة (٨٤/٧، ٨٥)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي (٢٩٩٧)، والنسائي في المجتبى، وفي الكبرى (٣١١/٦، ٣١٢)، وابن خزيمة (٢٤٥٨) وغيرهم.

وفي رواية لمسلم (٨٥/٧)، وأبي داود (١٦٨٩)، والنسائي (٣١٢/٦) قال أبو طلحة: أرى ربنا يسألنا أموالنا فأُشْهِدُكَ يا رسول الله إني قد جعلت أرض بيرحاء لله، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اجْعَلْها في قَرابَتِك**»، قال: فجعلها في حسان بن ثابت وأُبيّ بن كعب.

بيرحاء بكسر الباء بعدها ياء ثم راء مضمومة وحاء ممدودة، ويقال

بفتح الباء: وهو اسم بستان كان لأبي طلحة لجهة الشام وهو الآن داخل المسجد.

وقوله: «بخ» بإسكان الخاء وتنوينها مع الكسر وفيها لغات، ومعناه: تعظيم الأمر وتفخيمه.

وفي الآية الكريمة إرشاد المسلمين إلى التصدق بأحب الأموال إليهم وأن ذلك من كمال البر.

وفي الحديث فضل أبي طلحة وسخائه ومسارعته إلى التقرب إلى الله تعالى بأحب ما كان يملكه، وفيه مشروعية الوقف والحبس وأفضله أن يكون على الأقارب.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [٩٣].

{١٩٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حضرت عصابةٌ من اليهود نبي الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «**سلوني عما شئتم**» فذكر الحديث، وفيه أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه، قال: «**أنشُدُكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرِضَ مرَضاً شديداً وطال سُقْمُه فنذر لله نذراً لئن شَفاهُ الله من سقمِه ليُحرِمَنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها..**».

رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وقد تقدم بعضه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الخ، ويأتي بعضه في سورة الرعد.

وفي الآية الكريمة مع الحديث بيان أن إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام، حرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها نذراً منه إن شفاهُ الله، وهذا النذر في شرعنا لا يجوز فلا يحل لمسلم أن ينذر تحريم شيء مباح على نفسه بل النذر على أي معصية غير جائز ويجب على صاحبه الحنث ولا يجوز له الوفاء به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [٩٣].

{١٩٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم برجلٍ منهم وامرأةٍ قد زَنَيا فقال لهم: «**كَيفَ تفعلون بمَن زَنَى مِنكُم؟**»، قالوا: نُحَمِّمُهُمَا ونضرِبُهما، فقال: «**لا تجدون في التوراة الرجم**»، فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدْرَاسُها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يَحْنَأ عليها يَقِيها الحجارة.

رواه أحمد (٥/٢)، والبخاري في التفسير (٢٩٢/٩)، وفي المحاربين، وفي التوحيد، ومسلم في الحدود (٢٠٨/١١، ٢٠٩)، وأبو داود (٤٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٣١٢/٦).

قوله: نحممهما بضم النون وفتح الحاء وكسر الميم الأولى المشددة: أي: نسود وجوههما بالحمم بضم الحاء وفتح الميم، أي: الفحم.

وفي الحديث مشروعية رجم الزناة والزواني إذا ثبت الإحصان، وأن هذا الحكم كان موجوداً في التوراة. وفيه إقامة الحد على أهل الكتاب من حكام المسلمين، ولا خلاف في ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [٩٦].

{١٩٣} ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سأله عن أول مسجد وضع للناس قال: «**المسجد**

الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: **«المسجد الأقصى»**، قلت: كم كان بينهما؟ قال: **«أربعون عاماً»**، ثم قال: **«حيثما أدركتك الصلاة فصلِّ والأرض لك مسجد»**.

رواه أحمد (٥/١٥٠، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٦)، والحميدي (١٣٤)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٧/٢٧٣)، ومسلم في المساجد (٥/٢، ٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٢، ٣١٣)، وفي المجتبى، وابن ماجه (٧٥٣) وغيرهم.

في الآية والحديث دليل على أن الكعبة المشرفة هي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله عز وجل كما يدل القرآن على أن أول من بناه خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام، أما المسجد الأقصى فالجمهور على أن أول من بناه يعقوب، وقيل: إبراهيم، وكان بين المسجدين أربعون سنة، أما ما جاء من بناء سليمان للمسجد الأقصى فمعناه تجديده.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [٩٧].

{١٩٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«أيها الناس! قد فُرِضَ عليكُم الحجُّ فحجُّوا»**، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم»**، ثم قال: **«ذروني ما تركْتُكُم فإنما هَلَك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافِهم على أنبيائهم وإذا أمَرْتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعُوه»**.

رواه أحمد (٢/٢٤٧، ٢٥٨، ٣١٣)، والبخاري في الاعتصام (١٧، ١٩، ٢١)، ومسلم في الحج (٩/١٠٠، ١٠١)، واللفظ لأحمد، ومسلم، ورواه أيضاً الترمذي في العلم، والنسائي في الحج.

في الآية مع الحديث وجوب الحج، وأن ذلك مرة في العمر لمن

استطاع إليه سبيلاً ولا خلاف في ذلك وباقي الفقرات من الحديث يأتي الكلام عليها في موضع آخر.

{١٩٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! ما يوجب الحج؟ قال: «الزادُ والرَّاحِلَةُ».

رواه الترمذي في الحج (٨١٣)، وفي التفسير (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والدارقطني (٢١٧/٢)، والبيهقي (٥٨/٥)، وحسنه الترمذي: لشواهده التي تجدها في نصب الراية (٧/٣، ١٠)، وهداية الرشد (٢٧١/٥، ٢٧٢)، والتلخيص الحبير (٢١٧/٢)، وصحح الحاكم (٤٤٢/١) بعض طرقه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي وقد حسنه جماعة.

والحديث مبين للاستطاعة الواردة في الآية الكريمة، قال الترمذي في الجامع: والعمل عليه عند أهل العلم أن الرجل إذا ملك زاداً وراحلةً وجب عليه الحج... ويزاد على ذلك صحة الجسم وأمن الطريق...

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [١٠٣].

{١٩٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إن الله يَرْضَى لكُم ثلاثاً ويَسْخَط لكم ثلاثاً، يَرضى لكم أن تَعْبُدُوه ولا تُشرِكوا بهِ شيئاً، وأن تَعْتَصِمُوا بحِبْلِ الله جميعاً ولا تَفَرَّقوا، وأن تناصحُوا مَن ولاَّه الله أمرَكم، ويسخطُ لكم ثلاثاً، قِيل وقَال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال».

رواه أحمد (٣٦٧/٢، ٣٢٧، ٣٦٠)، ومسلم في الأقضية (١٠/١٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٢)، وابن حبان (٣٣٨٨) بالإحسان، والبغوي في شرح السنة (٢٠٢/١).

حبل الله عبر به عن القرآن الكريم، والاعتصام به التمسك بالعمل بما

فيه من الشرائع، وإنما نهى عن التفرق لأن ذلك يمزق شمل الأمة ويضعفها. وللحديث فوائد ليس هذا محل إيرادها.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [١٠٤].

{١٩٧} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَن رأى مِنكم مُنكراً فليُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فإن لم يستَطِعْ فبلسَانِه، فإن لم يَستطِعْ فبِقَلْبِه، وذلك أضعفُ الإيمانِ**».

رواه أحمد (٣/٢٠، ٤٩، ٥٤)، ومسلم في الإيمان (٢/٢١، ٢٢، ٢٥)، وأبو داود (٤٣٤٠)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٣٢)، وابن ماجه (١٢٧٥، ٤٠١٣).

{١٩٨} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتَنْهَوُنَّ عن المُنكر أو ليُوشِكَنَّ الله أن يَبْعَثُ عليكُم عذاباً مِنه فتدْعُونَه فلا يستجِيب لكُم**».

رواه أحمد (٥/٣٨٨، ٣٨٩)، والترمذي في الفتن (٢١٦٩)، وحسنه لشاهد عن عائشة، رواه ابن ماجه (٤٠٤٣) في الفتن، ويأتي حديث الصديق في سورة المائدة.

في الحديثين وجوب تغيير المنكر حسب الاستطاعة باليد، أو باللسان، وأدناه كراهة القلب، وعدم الرضا به وهو أضعف الإيمان وهو من فروض الكفاية، وقد أضاعه المسلمون وخاصةً ذوي السلطة منهم، فعمَّ الفساد وانتشرت المناكير في الحواضر والبوادي وشملت الفواحش كل الطبقات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ﴾ [١٠٥].

{١٩٩} ـ عن معاوية قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه

وآله وسلم: «**إن أهل الكتاب افْتَرَقُوا في دينِهم على ثِنتين وسبعين مِلَّةً، وأن هذه الأمَّةَ ستَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة - يعني: الأهواء -، كلها في النارِ إلا واحدةً وهي الجماعة، وأنه سيخرُجُ في أمَّتي أقوامٌ تَتَجارَى بهم تلك الأهواء كما يَتَجارَى الكَلَبُ بِصاحِبِه، لا يَبْقَى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دَخَلَهُ**».

رواه أحمد (١٠٢/٤)، والطيالسي (٢٧٥٤)، وأبو داود في السنة (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥٢١)، والحاكم (١١٨/١) وغيرهم وهو حديث صحيح، وله شواهد ذكرتها أول الكتاب (١٠٣).

قوله: تتجارى: أي: يتواقعون في الأهواء ويتداعون فيها تشبيهاً بجري الفرس.

وفي الحديث تنبؤ بما وقع في هذه الأمة من التفرق في الدين، وأن الفرق ستبلغ ثلاثاً وسبعين فرقة كلها خاسرة هالكة إلا الجماعة التي على قدَم الرسول ونهجه ونهج أصحابه من الخلفاء الراشدين والمهاجرين والأنصار وهي قليلة بالنسبة لغيرها من أهل الضلال، وانظر ما سبق في الاعتصام.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [١٠٦].

{٢٠٠} - عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رُؤُوساً مَنْصُوبةً على درج دِمشق فقال أبو أمامة: كِلابُ النار شَرُّ قتلى تحتَ أديم السماءِ، خيرُ قَتْلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، حتى عدَّ سبعاً ما حدثتكموه.

رواه الحميدي (٩٠٨)، وأحمد (٢٥٠/٥، ٢٥٣، ٢٥٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٠٧٦)، والطبراني في الأوسط (٧٦٥٦) وسنده حسن.

أصحاب هذه الرؤوس كانوا خوارج، والحديث نص بأنهم سيمسخون

في النار كلاباً، وأنهم عند الله شر القتلى كما أن من قتلوه كان خير القتلى ـ يعني: شهيداً ـ، وذلك إشارة إلى أن هؤلاء الخوارج من شر خلق الله لما لهم من عقائد منحرفة وتصرفات شائنة مخالفة للقرآن والسنة والإجماع، وكان أولئك من الخوارج الذين كفروا أكابر الصحابة وخيارهم كالإمام علي، وطلحة، والزبير، وعثمان.. رضي الله تعالى عنهم، وإذا كان هذا الوعيد جاء في هؤلاء فكيف بالشيعة الروافض الذين فاقوا هؤلاء بمراحل في تضليل كل الأمة سلفها وخلفها، حكامها ومحكوميها.

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [١١٠].

{٢٠١} ـ عن بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه أنه سَمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: «**إنكم تُتِمُّونَ سبعين أمةً، أنتم خَيرُها وأكرمُها على الله**».

رواه أحمد (٣/٥، ٥)، والترمذي في التفسير (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والدارمي (٢٧٥٣)، والحاكم (٢٩٤/٢)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم وهو كما قال الترمذي.

الخطاب في الآية الكريمة للصحابة ومن على شاكلتهم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هم الذين هاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة. رواه أحمد (١٧٣/١، ٣١٩)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٦)، والحاكم (٢٩٤/٢)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وهذا لا ينافي العموم. وفي الآية فضل هذه الأمة التي هذه صفتها وهي كونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

والحديث يدل على أن هذه الأمة هي خاتمة الأمم، وأنها خير الأمم وأكرمها على الله، ولا شك أن هذه الفضيلة أسعد الناس بها الملتزمون بشرع الله أما غيرهم فهم على خطر...

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [١١٣ ـ ١١٥].

{٢٠٢} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أخّر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينظرون الصلاة فقال: **«أما إنّه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يَذكُرُ الله هذه الساعةَ غيرُكم»**، قال: **وأنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾**، إلى: **﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾**.

رواه أحمد (٣٩٦/١)، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٦)، وابن جرير (٥٣/٤)، وابن حبان (٢٧٤) بالموارد، وزاد في الدر المنثور (٣٩٧/١)، البزار، وأبا يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (٧٣٨/٣)، والطبراني وسنده حسن.

{٢٠٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أسلم عبدالله بن سَلاَم وثَعلبةُ بن سَعْيَة وأَسَدُ بن عُبَيْد، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصَدَّقوا ورغِبُوا في الإسلام قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: **﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ﴾**، إلى قوله تعالى: **﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾**.

رواه ابن إسحاق، وابن جرير (٥٢/٤، ٥٣)، وابن أبي حاتم (٧٣٧/٣) وغيرهم، قال النور في المجمع (٣٢٧/٦) ورجاله ثقات.

ظاهر الحديث أن الآية نزلت بالسببين ولا مانع من ذلك غير أن سياق الآية يشهد للثاني، وانظر الجواهر واللآلىء فقد شرحت هناك الموضوع.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ الآية [١٢٢].

{٢٠٤} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الخ، قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلِمة، وما يَسُرُّني أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٣/٩)، وفي المغازي (٣٦٠/٨)، ومسلم في الفضائل (٦٦/١٦، ٦٧).

في الآية فضل هذين الحيَّين حيث أخبر الله تعالى بأنه وليهما، والآية وإن كان في أولها نوع من الغض غير أن في آخرها شرفاً عظيماً لهم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [١٢٨].

{٢٠٥} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم أُحُدٍ: «**اللَّهم العنْ أبا سُفيان، اللَّهم العنْ الحارثَ بنِ هِشام، اللَّهم العَنْ سُهَيل بن عَمْرو، اللَّهم العَنْ صَفوانَ بن أُمَيَّة**؛ فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الخ»، فتِيبَ عليهم كلهم. وفي رواية: «**فهداهم اللَّهُ للإسلام**».

رواه أحمد رقم (٥٦٧٤، ٥٨١٢، ٥٩٩٧)، والبخاري في المغازي، وفي التفسير (٣٩٣/٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٤، ٣٠٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، وابن جرير (٨٨/٤)، وابن أبي حاتم (٧٥٦/٣، ٧٥٧)، وابن خزيمة (٦٢٢) وغيرهم.

{٢٠٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كُسِرَتْ رباعِيَتُه يومَ أُحُدٍ وشُجَّ وجْهُه شَجَّةً في جَبْهَتِه حتى سالَ

الدمُ على وجْهِه فقال: «**كيف يُفْلِحُ قوم فَعلوا هذا بِنَبِيِّهِم وهو يدعوهم إلى الله**»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٥٣/٣)، ٢٨٨)، ومسلم في السير (١٤٩/١٣)، والترمذي (٣٠٠٢، ٣٠٠٣)، والنسائي (٣١٤/٦)، وابن جرير (٨٦/٣، ٨٧)، وابن أبي حاتم (٧٥٦/٣)، وعلقه البخاري في المغازي وغيرهم.

{٢٠٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا أراد أن يَدْعُوَ على أحدٍ أو يَدْعُوَ لأحدٍ قَنَتَ بعد الركوع: «**اللَّهم أنْجِ الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعَيَّاشَ بن أبي رَبِيعة، والمُسْتَضْعَفِينَ من المؤمنين؛ اللَّهم اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ، واجعلها عليهم سِنِين كسِنِي يوسف**» يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاة الفجر: «**اللَّهم العَن فلاناً وفلاناً لأحْياء من أحياء العرب**» يجهر بذلك حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٣/٩)، ومسلم، وابن جرير (٨٩/٤)، وابن أبي حاتم (٧٥٧/٣) وغيرهم.

في هذه الأحاديث دليل على أن الآية نزلت بسبب ما ذكر فيها، ومن المعروف في علوم القرآن وأسباب النزول أن الآية قد يكون لها سبب واحد، أو سببان، أو أسباب، وهذا منها وفي حديثي ابن عمر وأبي هريرة مشروعية الدعاء على الكفار باللعنة والدعاء مع المؤمنين ولو كان داخل الصلاة وهو المعبر عنه بالقنوت، وهو مشروع للنوازل.. وقد تقدم حكمه في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [١٣٣].

{٢٠٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: «**أرأيت الليل إذا جاء لبس كل**

شيء، فأين النهار؟»، قال: حيث شاء الله، قال: **«وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل»**.

رواه البزار (٢١٩٦)، وابن حبان (١٠٤)، بالموارد، والحاكم (٣٦/١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال النور في المجمع رقم (١٠٩٠٢): ورجاله رجال الصحيح.

هذا جواب من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مفحم مقنع، علماً بأن الكل من عالم الغيب لا ينبغي لنا الخوض فيه، فحسبنا الإيمان بما جاء في ذلك.

{٢٠٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال يوم بدر: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»**، فقال عُمَيْر بن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: **«نعم»**، قال: بخ بخ، لا والله يا رسول الله! لا بد وأن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»**، فأخرج تميرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

رواه أحمد (١٣٦/٣)، ومسلم في الإمارة (٤٥/١٣)، والحاكم (٤٢٦/٣).

بخ بخ بسكون الخاء وكسرها مع التنوين، ومعناها: تفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

والحديث يدل على فضل الشهادة والترغيب فيها وفيه كالآية أن الجنة كعرض السموات والأرض لو بسطت جميعها ثم ألصق بعضها إلى بعض فهي عرضها وكيف بطولها؟.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [١٣٤].

{٢١٠} ـ عن معاذ بن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى

عليه وآله وسلم قال: «**مَن كَظَم غَيظاً وهو يَقدِرُ على أن يُنَفِّذَه دعاهُ الله على رُؤُوس الخلائق حتى يُخَيِّرَه في أيِّ الحورِ شاءَ**».

رواه أحمد (٤٣٨/٣، ٤٤٠)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١، ٢٤٩٣)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وأبو يعلى (١٤٩٧)، والطبراني في معاجمه الثلاثة، وحسنه الترمذي وهو صحيح لطريقين له عند أحمد ولشواهد له أيضاً.

الغيظ: هو شدة الغضب، وكظمه رده في الجوف وعدم إظهاره والعمل بمقتضاه، وفيه فضل عظيم للكاظمين الغيظ. والآية مصرحة بأنه من صفات المتقين جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين.

وهذا هو الصُّرَعَة الوارد في حديث الصحيحين: «**ليس الشديد بالصُّرَعَة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [١٣٥، ١٣٦].

{٣٩١} ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حديثاً يَنْفَعُنِي الله منه بما شاء أن يَنفَعَنِي فإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صَدَّقْته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**ما مِن رجلٍ يُذنِبُ ذنباً ثم يقوم فيتَطهَّر فيُحسِنُ الطُّهور ثم يصلِّي ركعتين فيستغفر الله تعالى إلا غفر الله له ثم تلا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الآية**».

رواه أحمد (٨/١، ٩، ١٠)، والحميدي (٤٩)، وأبو داود (١٥٢١)،

والترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، وابن ماجه (١٣٩٥) بسند صحيح.

في الآية الكريمة والحديث الشريف بشارة أي بشارة للمذنبين التوابين المستغفرين الغير مصرّين على ما يأتون من فاحشة وذنب.

وتقدم في الأذكار في حديث أبي هريرة: «**قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**» كلام في الموضوع.

وقوله تعالى: ﴿فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، الفاحشة: كل ما فحش وعظم من الذنوب، وظلم النفس يشمل الصغائر وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [١٤٣].

{٣١٢} ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العدُوّ وسَلُوا الله العافِيةَ، فإذا لَقيتُمُوهم فاصبِرُوا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحت ظِلالِ السُّيُوف**».

رواه البخاري في الجهاد (٣٨٥/٧)، وفي التمني (٣٥٢/١٦)، ومسلم في الجهاد (٤٦/١٢) أيضاً، والبخاري كذلك معلقاً عن أبي هريرة.

المراد بتمني الموت في الآية أي: تمنّيهم لقاء العدو ليحظوا بالشهادة ولكنهم لما شاهدوا ما حصل من قَتْلِ مَن قُتِل انهزموا، وفي الآية عتاب للمنهزمين يوم أُحُد. وجاء الحديث ينهى عن تمنّي لقاء العدو لأنه ابتلاء ولا يطيق الصبر عليه إلا الأكابر والأفضل سؤال الله العافية لأن فيها السلامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [١٥٢].

{٣١٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما نصر الله تبارك وتعالى في موطن كما نصر يوم أُحُد. فقال ابن عتبة: فأنكرنا ذلك، فقال

ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله تبارك وتعالى، إن الله عز وجل يقول في يوم أُحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾. يقول ابن عباس: والحس: القتل. حتى إذا فشلتم إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، عني بهذا الرماة، وذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أقامهم في موضع ثم قال: **«احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا»**، فلما غنم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأباحوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعاً فدخلوا العسكر ينتهبون وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيهم كذا وشبك بين أصابع يديه والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه أول انتصار.

رواه مطولاً أحمد (٢٨٧/١، ٢٨٨)، والحاكم (٢٩٦/٢، ٢٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

الآية الكريمة تتحدث عن غزوة أُحد وكانت من أخطر الغزوات على المسلمين، فأخبر تعالى بأنه صدقهم ما وعدهم به من النصر حيث قتلوا الكفار قتلاً ذريعاً وهزموهم، ولكنهم سرعان ما انقلبت عليهم الدائرة لفشلهم وتنازع رماة الجبل ومخالفتهم أمر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بثباتهم على الجبل فحصل ما حصل بعدما أراهم ما يحبون، ولكن الله بفضله وإنعامه عفا عنهم وسامحهم لأنها هفوة صدرت منهم في جنب حسنات كثيرة لهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ الآية [١٥٣].

{٣١٤} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جعل رسول الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على الرماة يوم أُحُد - وكانوا خمسين رجلاً - عبدالله بن جبير قال: ووضعهم مكاناً وقال لهم: **«إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، فإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»**، قال: وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن معهم، قال: فهزمهم قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن على الجبل بدت خلاخلهن وأسُوقُهُنَّ رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، قد ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم! فقالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين فذاك حين يدعوهم الرسول في أخراهم فلم يبق مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ فنهاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله! إن الذي عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم سترون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تَسُؤْني، ثم أخذ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألا تُجيبوه؟»**، فقالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجَلّ»**، قال: إنا لنا عُزَّى ولا عزى لكم، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألا تجيبوه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**.

رواه أحمد (٤/٢٩٣، ٢٩٤)، والبخاري في الجهاد (٦/٥٠٣)، وفي المغازي (٨/٣٦٧)، وفي التفسير (٩/٣٩٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٥) وغيرهم.

الحديث الشريف جاء شارحاً لبعض مواقف غزوة أُحُد وما حصل فيها للصحابة بعد انتصارهم بادىء بدء، وأن ما وقع لهم من المحنة إنما كان جراء مخالفتهم للرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ففي ذلك عبرة ودرس لهم ولكل من جاء بعدهم من المسلمين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [١٥٤].

{٢١٥} ـ عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحُد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه.

رواه أحمد (٢٩/٤)، والبخاري في المغازي (٣٦١/٨)، وفي التفسير (٢٩٦/٩)، والترمذي (٣٠٠٨)، والنسائي في الكبرى (٣١٦/٦) وغيرهم.

هذا من لطف الله تعالى بالصحابة ورفقه بهم حيث أخذهم النعاس والأمان بعد الغم والجراحات.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [١٦١].

{٢١٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمرهُ، ثم قال: «**لا أُلفينَّ أحدَكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء، فيقول: يا رسول الله! أغثني، فأقول: لا أملِك لك من الله شيئاً، قد بلَّغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حَمْحَمَةٌ فيقول: يا رسول الله! أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلَّغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله! أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلَّغتك**».

رواه أحمد (٤٢٦/٢)، والبخاري في الجهاد (٥٢٦/٦)، ومسلم في الأمارة (٢١٦/١٢، ٢١٧)، وابن حبان (٤٨٤٧، ٤٨٤٨) وغيرهم.

{٣١٧} ـ وعن عدي بن عَمِيرة الكندي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**من استعملنا منكم على عَمَل فكتَمنا مِخْيطاً فما فوقَه كان غُلُولاً يأتي به يومَ القيامة**».

رواه أحمد (١٩٢/٤)، ومسلم (٢٢٢/١٢) وغيرهما.

الرغاء: صوت البعير. والحمحمة: صوت الخيل. والصامت: الذهب والفضة.

وفي الآية الكريمة كالحديثين تحريم الغلول وهو يطلق على السرقة من المغنم قبل القسمة، وأطلق هنا في الحديث الثاني على ما يأخذه جابي الصدقة من الهدايا وغيرها، والغلول من كبائر الذنوب وقد جاء فيه وعيد شديد غير ما ذكرنا فمن غلَّ شيئاً جاء به يوم القيامة حاملاً له على عاتقه فَضْحاً له وتشهيراً به عياذاً بالله من موجبات سخطه وغضبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [١٦٩، ١٧٠].

{٣١٨} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: أما إنَّا سألْنا رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ يعني: عن هذه الآية ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ الخ، فقال: «**أرواحُهم في جَوْف طَيرٍ خُضرٍ لها قَناديلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرشِ تَسْرَحُ من الجنة حيث شاءَتْ ثم تأوِي إلى تلك القناديل فاطَّلَع عليهم ربُّهم اطِّلاعَةً فقال: هَلْ تَشْتَهُونَ شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نَشتهي ونحن نَسْرحُ من الجنةِ حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنَّهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْأَلوا قالوا: يا رب! نريد أن تَرُدَّ أرْواحَنا في أجْسادِنا حتى نُقْتَل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى ليس لهم حاجةٌ تُرِكُوا**».

رواه مسلم في الإمارة (٣٠/١٣، ٣١).

فيه فضل الشهادة في سبيل الله وأن الشهداء يسرحون في الجنة الآن حيث شاؤوا، وقد صرحت الآية الكريمة كآية البقرة بأنهم أحياء عند ربهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [١٧٢ ـ ١٧٤].

{٢١٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما انصرف المشركون عن أُحد وبلغوا الرَّوْحاء قالوا: لا محمداً قتلتُم، ولا الكواعِبَ أرْدَفْتُم، وبِئْسَ ما صَنَعْتم، ارْجِعوا. فبلغ ذلك النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فَنَدَب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراءَ الأسَد وبِئْرَ أبي عُتَيْبَةَ فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ الآية، وقد كان أبو سفيان قال للنبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: مَوْعِدُكَ موسِمُ بَدْرٍ حيث قَتَلْتُم أصحابَنا، فأما الجَبانُ فرجع، وأما الشُّجَاعُ فأخذ أُهْبَةَ القتال والتجارة فلم يجدوا بَعْدُ أحَداً وتَسَوَّقُوا فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٣١٧/٦)، وابن جرير (١٨٠/٤)، وابن أبي حاتم (٨١٦/٣)، والطبراني في الكبير (١١٦٣٢) بسند صحيح، وقال النور في المجمع (١٢١/٦): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة.

{٢٢٠} ـ وعنه قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٧/٩)، والنسائي في الكبرى (٣١٦/٦)، وابن جرير (١٨٢/٤)، وابن أبي حاتم (٨١٨/٣).

لا زالت الآيات تتحدث عن غزوة أُحد وما جاء في أعقابها من خروج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وراء جيش أبي سفيان إلى أن وصل حمراء الأسد فلم يلق حرباً بل رجع سالماً، ولما كان شعبان من السنة الرابعة خرج صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى بدر لموعد أبي سفيان فلم يجد به أحداً فرجع بنعمة الله وفضله، وكان قبل خروجه من المدينة قدم عليه نُعَيْمُ بن مسعود مُرْجِفاً بما جمعه أبو سفيان وقال للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، أي: الله كافينا شر ذي شر، ونعم الوكيل: الله سبحانه وتعالى.

{٣٣١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كيف أنعَمُ وصاحبُ القرن قد التقم القرن وأصغَى بِسَمْعِهِ وجثَى بِجَبْهَتِه ينتظر متى يُؤمَرُ فينفُخُ**»، قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «**قولوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ على الله توكلنا**».

رواه النسائي في الكبرى (٣١٦/٦) بسند صحيح، وله شاهد عن أبي سعيد رواه أحمد والحميدي والترمذي، وعن ابن عباس رواه أحمد والحاكم، ويأتي في النفخة، وانظر تهذيبي للجامع (٢٢٥٢).

في الحديث إرشاد إلى ذكر الحسبلة عند الأمور العظام وترقب نزول الدواهي لما في ذلك من التفويض إلى الله تعالى والتوكل والاعتماد عليه، فمن لجأ إلى ذلك وذكره كفاه الله ما أهمه وكان وكيله الأكبر الذي لا يضام ولا يقهر سبحانه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [١٨٠].

{٣٣٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أتاه الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّل له ماله شجاعاً أقرعَ له زَبيبتان يُطَوَّقُه يوم القيامة يأخذ بِلِهزِمَتَيه** - يعني: شدقيه - **يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية**: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية».

رواه أحمد (٢/٢٧٩، ٣١٦، ٣٥٥، ٣٨٩)، والبخاري في التفسير (٩/٢٩٨) وغيرهما، ورواه أحمد (١/٣٧٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٧)، وفي المجتبى، وابن ماجه (٧٨٤) من حديث ابن مسعود بنحوه وسنده صحيح وهو في الصحيحين في نزول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الخ وتقدم.

وقوله: شجاعاً أقرع: هو الذكر من الحيات الخبيث الكثير السم.

وفي الآية والحديث وَعيدٌ شديدٌ لمانعي الزكاة، وأن ذلك المال سيمثَّل لصاحبه ثعباناً عظيماً يأخذ بلحييه ويطوق على عنقه وينادي: أنا مالك الذي كنزتني ولم تؤدِّ حق الله تعالى مني، نعوذ بالله من ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [١٨٥].

{٣٣٣} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن موضعَ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرأوا إن شئتم**: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ **الآية**».

رواه أحمد (٢/٤٣٨)، والترمذي في التفسير (٣٠١٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٧)، وابن جرير (٤/٢٠٠)، وابن أبي حاتم (٣/٨٣٣)، والدارمي (٢٨٢٣، ٢٨٣١، ٢٨٤١)، وابن ماجه (٤٣٣٥) وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم (٢/٢٩٩) وهو في الصحيحين بدون ذكر الآية.

في الآية والحديث بشارة للمؤمن المقضي له بالجنة والحفظ من النار.

{٢٢٤} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَن أحبَّ أن يُزَحزَحَ عن النار ويُدخلَ الجنة فلْتُدرِكْه مَنِيَّتُه وهو يُؤمِنُ بالله واليوم الآخر وليأتِ إلى الناسِ ما يُحب أن يُؤتَى إليه**».

رواه أحمد (١٩٢/٢) بسند صحيح.

في الحديث: أن الإيمان بالله واليوم الآخر والإحسان إلى الناس من موجبات الجنة والإبعاد من النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [١٨٦].

{٢٢٥} ـ عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ركب على حِمارٍ على قَطِيفَةٍ فدكية وأردف أُسَامةَ بن زيد وراءَه يعود سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبْل وقْعَة بدر قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبدالله بن أبي بنُ سَلُول وذلك قبل أن يُسلم عبدالله بن أبي فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهودِ والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رَواحة فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابَّة خَمَّرَ عبدالله بن أبي أنفَه بردائه ثم قال: لا تُغَبِّرُوا علينا، فسلَّم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بن أبي بن سلول: أيها المرءُ! إنه لا أحسنَ مما تقول إن كان حقاً فلا تُؤذِنا به في مجالسنا ارجِعْ إلى رحْلِك فمن جاءك فاقصُصْ عليه، فقال عبدُالله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغْشَنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك فاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَتَثَاوَرُون، فلم يزل النبي

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يُخَفِّضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دابّته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا سعدُ! ألم تسمعْ ما قال أبو حُبَاب؟** - يريد عبدالله بن أبي -، **قال: كذا وكذا»**، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله! اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصْطَلَحَ أهلُ هذه البُحْرة أن يُتَوِّجُوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفَى عنه رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله عز وجل ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية.

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يتأوَّل العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على الإسلام فأسلموا.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٨/٩) وغيره، ومسلم في السير (١٥٧/١٢، ١٥٨، ١٥٩)، ورواه مسلم عن أنس بسياق آخر.

في الحديث ما كان عليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من تحمل الأذى من المشركين والمنافقين في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل مع عفوه عن الجاهلين والسفهاء منهم، وكان ذلك بمكة أكثر منه بالمدينة، وفي الآية الكريمة إخبار منه تعالى بما سيصاب به المسلمون من طرف الكفار من أنواع الأذايات.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [١٨٨].

{٢٢٦} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الغزو وتخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٣٠١/٩)، ومسلم في صفات المنافقين (١٢٣/١٧).

في الآية والحديث ذم الفرح، وحب المدح بما لم يفعله الإنسان كما كان شأن المنافقين واليهود مع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأن صانع ذلك والراضي به له وعيد شديد إن لم يرعو عما هو متصف به، ويدخل في ذلك من يفرح بمدح الناس له بما هو عار عنه، وذلك من علامات الإفلاس وصاحبه مغرور معجب بنفسه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [١٩٠، ١٩١].

{٢٢٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه بات ليلة عند ميمونة زوج النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهي خالته، فاضطجعت في عرض الوسادة، واضطجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأهله في طولها، فنام رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله صلى الله تعالى

عليه وآله وسلم يمسح النوم عن وجهه ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ مُعلَّقَةٍ فتوضأ منها وضوءه ثم قام يصلي.. الحديث تقدم في قيام الليل.

رواه البخاري في الطهارة، وفي الصلاة، وفي التفسير (٣٠٣/٩، ٣٠٥)، ومسلم في صلاة الليل (٤٤/٦، ٤٦)، وأبو داود (١٣٦٤، ١٣٦٧)، والترمذي في الشمائل (٢٦٦)، والنسائي في الكبرى (٣١٨/٦، ٣١٩)، وفي المجتبى، وابن ماجه (١٣٦٣) وغيرهم.

{٢٢٨} ـ وعن عُبَيد بن حُمَيْدٍ رحمه الله تعالى قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: أخبريني بأعجب شيء رأيتِه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال: فسكتَتْ ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «**يا عائشة! ذَرِيني أتعبد الليلة لربي؟**»، قلت: والله إني لأحب قربك وأحِبُّ ما سَرَّكَ، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! لِمَ تبكي؟ وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر! قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليَ الليلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها**».

رواه ابن حبان (٦٢٠) بالإحسان، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٨١) وغيرهما، وانظر الدر المنثور (٤٠٩/٢) وسنده صحيح على شرط مسلم عند ابن حبان.

في الحديث الأول مشروعية قراءة هذه الآيات عند القيام للتهجد، وهي آيات عظيمة ففيها إرشاد المؤمنين للتفكر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من عجائب الكائنات كما فيها مدح فاعلي ذلك والداعين الله عز وجل بأنواع الأدعية وابتهالهم إليه مع إخباره عز وجل بأنه يستجيب لهم وأنه لا يضيع أجر عمل عامل منهم.

أما الحديث الثاني ففيه ما كان عليه الحبيب الأعظم صلى الله تعالى

عليه وآله وسلم من التعبد لربه وكثرة بكائه قياماً بشكر الله تعالى على ما أتمَّ عليه وأسبغ من النعم التي منها غفران ما تقدم له وما تأخر.

وفيه ذم من قرأ هذه الآية ولم يتفكَّر فيها وأنه يوشك أن يكون من الخاسرين الهالكين الغافلين جعلنا الله تعالى من أهل الذكر والتفكر والتيقظ وحفظنا من أهل الغفلة والقسوة والملل والفتور، آمين.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [١٩٥].

{٣٣٩} ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: يا رسول الله! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم . . .﴾ الخ.

رواه عبدالرزاق في تفسيره (١٤٤/١٥)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٣)، وابن جرير (٢١٥/٤)، وابن أبي حاتم (٨٤٤/٣)، وأبو يعلى (٦٩٥٨)، والحاكم (٣٠٠/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

في الآية الكريمة: أن الجنسين الذكر والأنثى كلاهما سواء في الإيمان والعمل الصالح والجزاء، وأنه لا فضل لهذا على ذاك إلا بالتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [١٩٩].

{٣٤٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**صلوا عليه**»، قالوا: يا رسول الله! نصلي على عبد حبشي؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ الخ.

رواه النسائي في الكبرى (٣١٩/٦)، والبزار (٨٣٢)، وابن أبي حاتم (٨٤٦/٣)، والطبراني في الأوسط (٢٦٨٨) وغيرهم وهو حديث حسن أو صحيح لطرقه، وقال النور في المجمع (٣٨/٣): ورجال الطبراني ثقات.

نعي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم النجاشي عند موته والصلاة عليه في الصحيحين، والحديث يدل على أن الآية نزلت بسبب نعي النجاشي، وقد جاء في سبب نزولها حديث آخر رواه الحاكم (٣٠٠/٢) من حديث ابن الزبير، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر ابن جرير (٢١٨/٤، ٢١٩)، والدر المنثور (٤١٦/٢)، واختار ابن جرير رحمه الله تعالى عموم الآية في جميع أهل الكتاب من النصارى واليهود وهذا لا ينبغي فيه الخلاف، فالعبرة بالعموم وإنما كلامنا في سبب النزول.

وفي الآية فضيلة للنجاشي بمدح الله تعالى ولأمثاله بما ذكر فيها من الصفات الحميدة كالإيمان بالله، والإيمان بالكتب الإلٰهية مع الخشوع لله عز وجل، وعدم الكتمان لما في كتبهم من الحق، وأخذ الرشا في مقابلة ذلك كما كان سائداً بين أوساط أحبارهم الفجرة.

وبه تم الكلام على سورة آل عمران، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

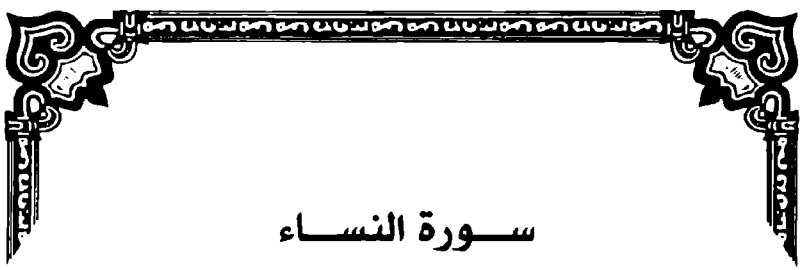

سـورة النسـاء

السورة الكريمة من السور المدنيات الطوال آياتها (١٧٦) وقد اهتمت بأحكام النساء، ولذلك سميت باسمهن ولها من الخصائص في ذلك ما ليس لغيرها.

{٣٣١} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ في النِّسَاءِ لَخَمْسَ آياتٍ ما يَسُرُّنِي بِها الدنيا وما فيها، وقد علمتُ أن العلماء إذا مَرُّوا بها يَعْرِفُونَها:

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [١١٠].

رواه الحاكم (٣٠٥/٢) وصححه وأشار إلى الاختلاف في اتصاله، وعزاه النور في المجمع رقم (١٠٩٥٤) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

{٣٣٢} ـ وعنه في رواية: إن في كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر له: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ آل عمران: ١٣٥، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ النساء: ١١٠.

عزاه النور (١٠٩٥٢) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

فيما ذكره ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن هذه الآيات يحمل خيراً كبيراً وبشارة عظيمة لمن عقل وعمل بمقتضى ذلك جعلنا الله تعالى من أهلها بمنّه وكرمه آمين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [١].

{٣٣٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن المرأة خُلِقَتْ من ضِلعٍ: لن تَسْتَقِيم لك على طَرِيقةٍ، فإن اسْتَمْتَعتَ بها اسْتَمْتَعْتَ بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طَلاقُها»**.

رواه مسلم في الرضاع (٥٧/١٠)، والترمذي آخر النكاح (١١٨٨) وغيرهما وهو عند البخاري وغيره بسياق آخر سيأتي في النكاح إن شاء الله تعالى مع غيره.

الحديث مبين للآية الكريمة وأن الزوجة خلقت من ضلع آدم عليه السلام. وفي الحديث إرشاد للرجال لملاطفة النساء والصبر على سوء أخلاقهن وتحمل إذايتهنّ وذلك لضعفهن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [٣].

{٢٣٤} ـ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الآية، فقالت: يا ابن أختي! هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تُشْرِكُه في ماله ويُعْجِبُه مالُها وجمالُها فيُرِيد وليُّها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِط في صداقها فيُعْطيها مثلَ ما يعطيها غيرُه فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسِطوا لهن ويبلغوا لهن أعْلى سُنَّتِهِنَّ فأُمِرُوا أن يَنْكِحُوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قالت: وإن الناس اسْتَفْتَوْا رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.. قالت: وقول الله في آية أخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، رغبة أحدكم عن يتيمته حيث تكون قليلة المال والجمال. قالت: فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال.

رواه البخاري في التفسير (٣٠٧/٩، ٣٠٩) وغيره، ومسلم آخر الكتاب (١٥٤/١٨، ١٥٥)، والنسائي في الكبرى (٩/٦، ٣)، وابن جرير (٢٣١/٤، ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٨٥٧/٣، ٨٥٨).

في الآية وأثر السيدة عائشة دليل على وجوب العدل في المهر بين اليتيمة وغيرها، وأن الأوصياء لا يجوز لهم غصب اليتامى اللاتي تحت أيديهم بالنقص في مُهُورِهن، كما أن الآية صريحة في إباحة تعدد الزوجات للحاجة ونهاية ذلك أربع بالإجماع والزيادة على ذلك من خصائص نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد جاء في حديث غيلان الثقفي أنه أسلم وله عشر نسوة، فأسلمن معه، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يختار منهن أربعاً ويفارق باقيهن؛ رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، كما صححه ابن حزم، وابن كثير، وابن القطان..

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾: أي: لا تعدلوا.

وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾: أي: ما حل وأبيح لكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [٦].

{٣٣٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ الآية، قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يُصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدرِ ماله بالمعروف. وفي رواية: إذا كان فقيراً أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف.

رواه البخاري في التفسير (٣٠٩/٩، ٣١٠) وغيره، ومسلم (١٥٦/١٨، ١٥٧).

الآية نص في وجوب استعفاف وصي اليتيم عن أخذ ماله إذا لم يكن محتاجاً فإن احتاج فله أن يأخذ بقدر الحاجة ولا يعتدي فإن ذلك عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [٨].

{٣٣٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن ناساً يزعمون أن هذه الآية نسخت ولا والله ما نسخت ولكنها مما تهاون الناس، هما واليان: والٍ يَرِثُ وذاك الذي يُرْزَقُ، ووالٍ لا يَرِث فذاك الذي يقال له بالمعروف، يقول لا أملك لك أن أُعطِيَك، وفي رواية: هي محكمة وليست منسوخة.

رواه البخاري في التفسير (٣١٠/٩)، وفي الوصايا (٣١٨/٦).

جمهور الأئمة على أن الآية منسوخة بآية المواريث، نعم يستحب أن يعطى الأقارب الذين لا يرثون إذا حضروا القسمة مع ما ذكر في الآية، ويقال لهم قولٌ معروف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية [١٠].

{٣٣٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اجْتَنِبُوا السبعَ المُوبِقَاتِ**»، قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «**الشركُ بالله، والسِّحر، وقتلُ النفس التي حرَّمَ اللَّهُ إلا بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتَولِّي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤمِناتِ**».

رواه البخاري في الوصايا، وفي الطب، وفي الحدود (٦٨٥٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، وأبو عوانة (٥٥/١)، وأبو داود، والنسائي في الوصايا من المجتبى، وفي الكبرى أيضاً (١٤/٤).

«**الموبقات**»: الذنوب الكبار التي توبق صاحبها في النار، وهي ليست محصورة في هذه السبع بل هي تناهز الأربعمائة كما ذكرها مفصلة ابن حجر الهيتمي في الزواجر وحد الكبيرة هي كل ما جاء بها نص من كتاب أو سنة، أو إجماع، أو لعن صاحبها، أو علق على مرتكبها حداً أو جاء فيها عقاب شديد أو نحو ذلك.

وفي الحديث عظم هذه الذنوب وأنها من كبائر السيئات، ولا خلاف في ذلك ومنها تناول مال اليتيم كما نصت على ذلك الآية الكريمة أيضاً وقرنته بذلك الوعيد الشديد، وجعلت آكله كأنه الآن يأكل النار عياذاً بالله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الخ [١١].

{٣٣٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: عادَني النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَيْن فوجدَني النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لا أعقِل، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ عليَّ فأفَقْتُ فقلت: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في الطهارة، وفي الفرائض، وفي التفسير (٣١١/٩)، وفي الاعتصام، ومسلم في الفرائض (٥٥/١)، والترمذي في التفسير (٣٠١٥)، وأبو داود (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، والنسائي في الكبرى (٣٢٠/٦)، وفي مواضع، وابن جرير (٢٧٦/٤)، وابن أبي حاتم (٨٨٠/٣).

هكذا جاء في هذه الرواية: أن الآية نزلت لهذا السبب، وسيأتي خلاف هذا آخر السورة. وفي الآية مشروعية أخذ الذكر من تركة أحد والديه مثل نصيب الأنثيين وهو إجماع لا خلاف فيه لما في ذلك من الحكمة الإلهية التي تتجلى في تصرفات الجنسين، فمن خالف هذا الحكم وطالب تسوية الذكر والأنثى كان مرتداً كافراً.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [١١].

{٣٣٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاءت امرأة سعدِ بن الرَّبيع إلى رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله! هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ أبُوهما معك في يوم أُحُد شهيداً وأن عمَّهما أخَذ مالهما فلم يَدعْ لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال: **«يقضي الله في ذلك»**، فنزلت آية المواريث فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى عمهما فقال: **«اعْطِ ابْنَتَي سعدٍ الثلثين، وأمَّهُمَا الثُّمُنَ، وما بَقِي فهو لك»**.

رواه أحمد (٣٥٢/٣)، وأبو داود (٢٨٩)، والترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، والحاكم (٣٤٢/٤) كلهم في الفرائض، وحسنه الترمذي، وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في هذا الحديث: أن هذه القصة إحدى أسباب نزول آية المواريث.

وفي الحديث دليل على أن العم مع الزوجة والبنتين.. عاصب يأخذ ما بقي بعد أخذ ذوي الفرائض أنصباءهم وهو إجماع أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ الآية [١٢].

{٢٤٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

رواه البخاري (٣١٣/٩)، وابن جرير (٢٧٥/٤)، وابن أبي حاتم، والنسائي في الكبرى (٢٢٦/٦) وغيرهم.

في هذا الأثر بيان الأنصباء والفرائض التي قدرها الله تعالى للذين يرثون بالفرضية وهي ستة، السدس للأبوين إن كان للميت ولد، والثلث للأم، والثلثان للأب عند فقدان ولد للميت، والثمن للزوجة من زوجها إن كان له ولد، أو الربع إن لم يكن له ولد، وله منها النصف إن لم يكن لها ولد، والربع إن كان لها ولد، وهنالك ورثة آخرون يرثون بالفرضية أو التعصيب مستوفون في كتب المواريث.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [١٢].

{٢٤١} ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى بالدَّين قبل الوصية، وأن أعيان بَنِي الأم يرثون دون بني العلات الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه.

رواه أحمد (٥٩٥، ١٠٩١، ١٢٢١)، والحميدي (٥٥، ٥٦)، والترمذي (٢٠٩٤)، وابن ماجه (٢٢٣٩)، والحاكم (٣٣٦/٤)، وكذا ابن الجارود (٩٥٠)، وأبو يعلى (٣٠٠، ٦٢٥) وغيرهم وسنده صحيح، والحارث ثقة على الصحيح ولا يضر هنا أبو إسحاق السبيعي فإنه وقع

الإجماع على العمل بمقتضاه، وأن إخراج الديون من التركة مقدم على تنفيذ الوصية، وما قاله الإمام علي هنا إجماع لا خلاف فيه، وأعيان بني الأم هم الأخوة الأشقاء، وبنو العلات الأخوة للأب من أمهات شتى.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ [١٢].

{٢٤٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الرجلَ ليعملُ والمرأةُ بطاعة الله ستين سنة ثم يَحْضُرُهم الموتُ فيضارَّان في الوصية فتجب لهما النار**»، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

رواه أحمد (٢/٢٢٨)، وأبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وابن ماجه (٢٧٠٤) بسند حسن، وشهر تكلم فيه بغير حجة كما قال النووي في شرح مسلم والمهذب.

والحديث يدل على تحريم المضارة في الوصية وللناس فنون في ذلك، وورد عن ابن عباس أنه قال: الإضرار في الوصية من الكبائر، رواه ابن جرير (٢٨٨، ٢٨٩)، وابن أبي حاتم (٣/٨٨٩) وورد مرفوعاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعٗا مِّنكُمۡۖ﴾ [١٥].

{٢٤٣} ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الخ، قال: ففعل ذلك بهن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جالس ونحن حوله وكان إذا نزل عليه الوحي أعْرَض عنَّا وأعْرَضْنا عنه، وتَرَبَّدَ وجهُه وكُرِبَ لذلك، فلما رفع عنه الوحي قال: «**خذوا عني، خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن**

سبيلاً، البِكْرُ بالبكر جلدُ مائةٍ نفيُ سنةٍ، والثَّيِّبُ بالثيب جلدُ مائةٍ ثم الرجمُ».

رواه أحمد (٥/٣١٣، ٣١٨، ٣٢٧)، ومسلم في الحدود (١١/١٨٨، ١٩١)، وأبو داود (٤٤١٥)، وباقي أهل السنن، وابن جرير (٤/٢٩٣)، وابن حاتم (٣/٨٩٤).

قوله: تربد وجهه: أي: تغير حتى صار كلون الرماد.

وقوله: كرب بضم الكاف: أي: أصابه كرب وشدة.

والحديث يدل على أن الآية منسوخة فقد كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، ثم جاء الأمر الإلهي بالحد ورفع ما كان قبلُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [١٧].

{٢٤٤} ـ عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره.

رواه عبدالرزاق في تفسيره (١/١٥١)، ومن طريقه ابن جرير (٤/٢٩٨)، وورد ذلك عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد وغيره انظر ابن جرير (٤/٢٩٨، ٢٩٩)، وابن أبي حاتم (٣/٨٩٧).

ما قاله هؤلاء يدل على أن كل عاص جاهل سواء كان عالماً أم لا، وسواء أتى المعصية عن عمد أم غيره حفظنا الله تعالى من مواقع سخطه وغضبه، آمين.

{٢٤٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ**».

رواه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٣٠٤)، وابن ماجه

(٤٢٥٣)، وابن حبان (٢٤٤٩) بالموارد، والحاكم في التوبة (٢٥٧/٤) بسند حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو صحيح لشواهده عن أبي هريرة، وأبي ذر وعن أربعة من الصحابة.

والآية تدل على أن من أذنب وتاب من قريب تاب الله تعالى عليه، والقرب بينه الحديث وهو ما دام على قيد الحياة ولم تصل الروح إلى الحلقوم حيث تقع الغرغرة ويشاهد المحتضر مقامه فإذا أبلغ إلى هذه الحالة لا يقبل الله توبته ولا إسلامه وهذا من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين ورحمته بهم، فإن رحمته سبقت غضبه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الآية [١٩].

{٢٤٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخ، قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها فنزلت الآية في ذلك.

رواه البخاري في التفسير (٣١٥/٩)، وفي الإكراه، وأبو داود في النكاح (٢٠٨٩)، والنسائي في الكبرى (٣٢١/٦)، وابن جرير (٣٠٥/٤)، وابن أبي حاتم (٩٠٢/٣).

{٢٤٧} ـ وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيف عن أبيه قال: لما توفي أبو قيس بن الأَسْلَتِ أراد ابنه أن يتزوج امرأته من بعده، فكان ذلك لهم في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخ.

رواه النسائي في الكبرى (٣٢١/٦)، وابن جرير (٣٠٥/٤) بسند حسن.

هذا من مخازي الجاهلية وعاداتها الهابطة، فقد كانت المرأة عندهم تورث كما يورث المتاع حتى زوجة الأب يأخذها الابن ويكون له الخيار في التزوج بها أو تزويجها أو منعها حتى تموت، فحرم الله كل ذلك وأعطى

المرأة حقها وحريتها تتزوج بمن شاءت من المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [١٩].

{٢٤٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خَيْرُكُم خيرُكُم لأَهلِه وأَنا خَيرُكُم لأَهْلِي**».

رواه أبو داود (٤٨٩٩)، والترمذي (٣٨٩٥)، والدارمي (٢٣٦٥)، وابن حبان (١٣١٢) بالموارد بسند صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه وله شواهد عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما.

{٢٤٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً إن كَرِهَ منها خُلُقاً رضِيَ مِنها آخَرَ**».

رواه أحمد (٣٢٩/٢)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأبو يعلى (٤٥٩/٥).

الآية الكريمة ترشد الرجال إلى معاملة النساء بطيب من القول والمعاملة الحسنة، وجاء الحديث الأول يبين أن أفضل الناس وخيرهم خيرهم معاملة لأهلهم، أما الحديث الثاني فيشير إلى ما عسى أن يَصْدُر من الرجل تجاه امرأته من الكراهية، فأرشدنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الصبر وتحمل ما يصدر منها، فإن لها أخلاقاً حسنة وآثاراً كريمة فليغض الطرف عن سيء أخلاقها، فعسى الله تعالى أن يجعل له في ذلك خيراً.

وقوله: «**لا يفرك**»: من باب تَعِب أي: لا يبغض.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [٢١].

{٢٥٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه في خطبة حجة الوداع أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال فيها: «**واستَوْصُوا بالنساء خيراً، فإنكم**

أَخَذْتُمُوهُنَّ بأَمَانَةِ اللَّهِ تعالى واستَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بكلمةِ الله».

رواه أحمد، ومسلم في الحج وقد تقدم فيه وفي سورة البقرة.

الحديث جاء مفسراً لقوله تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: أي: أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً، وهو عقد النكاح وهو الوارد عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم في تفسير الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [٢٢].

{٢٥١} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: مَرَّ بِي خَالي أبو بُرْدَةَ بن نِيَّار ومعه لواءٌ فقلت: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى رجُلٍ تَزَوَّجَ امرأةَ أبيه أن آتِيَهِ بِرَأْسِهِ.

رواه أحمد (٢٩٢/٤)، وأبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٢)، والنسائي (١٠٩/٦)، وفي مواضع من الكبرى في النكاح والحدود.. وابن ماجه (٢٦٠٧)، وابن حبان (١٥٦٦)، والحاكم (٣٥٦/٤، ٣٥٧)، والدارقطني (١٩٦/٣)، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم؛ وللحديث طرق بعضها رجاله رجال الصحيح وبعضها حسنة.

تحريم نكاح أزواج الآباء محرم بالإجماع وهو من فواحش الجاهلية وحكمه في الإسلام قتل من تزوج بذلك كقتل من وقع على ذات محرم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [٢٣].

{٢٥٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يَحرمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النسب»، وفي رواية: «من الولادة».

رواه أحمد (٥١/٦، ٦٦)، والبخاري (١١، ٤٣)، ومسلم (١٠، ١٩، ٢٠)، وأبو داود (٢٠٤٨)، والنسائي (٨١/٦، ٨٢)، وابن ماجه (١٩٣٧) وغيرهم.

لا خلاف في تحريم التزوج بالأم والأخت من الرضاعة كما هو صريح القرآن، وجاء هذا الحديث بالتسوية في التحريم بين ما حرم من النسب وبين مثله من الرضاعة، فالأمهات والأخوات والبنات والخالات والعمات وبنات الإخوة وبنات الأخوات من الرضاعة كلهن محرمات على الرضيع كمثلهن من النسب، ولا فارق وبسط هذا في كتب الفقه الإسلامي. ويأتي لنا ذلك في النكاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ...﴾ [٢٣].

{٢٥٣} ـ عن الديلمي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله! إني أسلمتُ وتحتي أختان، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«طَلِّق أيَّتَهُما شِئْتَ»**.

رواه أحمد (٢٣٢/٤)، وأبو داود (٢٢٤٣)، والترمذي (١٠١٢)، وابن ماجه (١٩٥١)، وابن حبان (١٢٧٦) بالموارد وهو حديث حسن، والقرآن يعضده: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾.

وهذا أيضاً لا خلاف فيه، والحديث جاء موافقاً للآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [٢٤].

{٢٥٤} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يومُ أوطاس أصَبْنا نساءً لهن أزواجٌ في المشركين فكرِهْنَ رجالٌ منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

رواه أحمد (٨٤/٣)، ومسلم في الرضاع (٣٥/١٠)، وأبو داود (٢١٥٥)، والترمذي في النكاح، وفي التفسير (٣٠١٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢١/٦) وهو عند مسلم مطولاً مبسوطاً.

الآية الكريمة معطوفة على المحرمات من النساء المتقدمات، وهن ثلاثة عشر بدايةً من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الخ، ومعنى قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: أن المتزوجات من النساء يحرم التزوج بهن ما دمن تحت عصمة أزواجهن إلا ما أخذن بملك اليمين من نساء الكفار فهن حلال إذا استبرأن بحيضة... ولا عبرة بعصمة أزواجهن.

ويوم أوطاس: كان بعد حنين في السنة الثامنة من الهجرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [٢٥].

{٢٥٥} ـ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس! أقيموا على أرقائكم الحد من أحْصَنَ منهنَّ ومن لم يُحصِن فإنَّ أمةً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زنَت فأمرني أن أجلِدَها فإذا هي حديثةُ عَهْدٍ بنفاس فخشيتُ إن جلدتها أن أقتلَها فذكرتُ ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«أحْسَنْتَ»**، وفي رواية: **«فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين»**.

رواه أحمد (١٥٦/٢)، ومسلم في الحدود (٢١٤/١١).

{٢٥٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: **«إذا زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولو بضفير»**، وفي رواية: **«ولا يُثرِّبْ عليها»**.

رواه أحمد (٢٤٩/٢، ٤٩٤، ٤٢٢)، ومسلم في الحدود (٢١١/١١، ٢١٢).

الحديثان مبينان للآية الكريمة، وأن الأمة إذا زنت وجب حدها خمسين جلدة على النصف من الحرة. وبيَّن الحديثان أن إحصان الأمة المذكور في الآية لا مفهوم له بل تحد مطلقاً أحصنت أم لا؟.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [٢٩].

{٢٥٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ الخ، فكان الرجل يَحْرَجُ أن يأكل عند أحد من الناس بعدما نزلت هذه الآية فنسخ ذلك بالآية الأخرى التي في سورة النور فقال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾. فكان الرجل الغني يدعو الرجل من أهله إلى طعام فيقول: إني لأجنح أن آكل منه. والتجنح: الحرج، ويقول: المسكين أحق به مني، فأحلَّ ذلك أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وأحلَّ طعام أهل الكتاب.

رواه أبو داود في الأطعمة (٣٧٥٣) بسند حسن.

قوله: لم يحرج بفتح الياء والراء: أي: يرى ذلك إثماً وجناحاً أن يأكله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [٢٩].

{٢٥٨} ـ عن عمرو بن العاصي قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشْفَقْتُ إن اغْتَسَلْتُ أن أهْلِكَ فتيمَّمْت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«يا عَمْرُو! صَلَيتَ بأصحابك وأنت جنبٌ؟»**، فأخبرتُه بالذي مَنَعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يقل شيئاً.

رواه أحمد (٤/٣٠٣، ٣٠٤)، وأبو داود (٣٣٤)، والحاكم (١/١٧٧)، والبيهقي (١/٢٢٥) بسند صحيح، وله طرق وعلقه البخاري.

في الحديث دليل على أن كل ما يؤدي إلى قتل الإنسان نفسه من الوسائل هو محرم كمن تيقن أو ظن الموت إن اغتسل بالماء البارد أو اقتحم

نهراً أو ناراً فمات كان منتحراً آثماً.

وفي الحديث العمل بالعموم وسنية إقرار النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [٣١].

{٢٥٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الكبائر قال: «**الشرك بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، وقولُ الزور**».

رواه أحمد (١٣١/٣، ١٣٤)، والبخاري في الشهادات وغيرها، ومسلم في الإيمان، والترمذي في البيوع، وفي التفسير (٣٠/٨) وغيرهم، وفي الباب أحاديث عن عبدالله بن عمرو، وعبدالله بن أُنَيْس، وأبي بكرة وغيرهم.

قد قدمنا الكلام على الكبيرة من الذنوب، وفي هذا الحديث التنصيص على بعضها وراجع آية (١٠) من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [٣٢].

{٢٦٠} ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يَغْزُو الرِّجالُ ولا تَغْزُو النِّساءُ وإنما لنا نصفُ الميراثِ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. قال مجاهد: وأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدِمَتْ المدينة مهاجرةً.

أخرجه عبدالرزاق (١٥٦/١)، وأحمد (٣٢٢/٦)، والترمذي (٣٠٢٢)، وابن جرير (٤٦/٥، ٤٧)، وأبو يعلى (٦٩٥٩)، والحاكم (٣٠٥/٢، ٣٠٦)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصحح الشيخ أحمد شاكر صحة سماع مجاهد من أم سلمة وصحح الحديث لذلك.

في الآية الكريمة النهي عن تمني ما فضل الله به بعضنا على بعض وبالأخص ما جعله الله من الفرائض والتكاليف الشرعية، وما خص به كلاً من الرجال والنساء وقد طغى نساء عصرنا المستغربات وتطاولن على ما قضى الله تعالى عز وجل من تفضيل الرجال على النساء بما أعطاهم من القوامة والرياسة السياسية والولايات، وما فضلهم عليهن في الإرث، والنكاح، والطلاق وما إلى ذلك من خصائص الرجال فقمن يعترضن على الله تعالى وينتقدن حكمه العادل والناعقون إلى جهنم من الملاحدة والعلمانيين... وراءهن هنا وهناك يمهدون لهن السبل ويسعون جادين في مساوتهن مع الرجال في كل شيء تبعاً لأسيادهم وأساتذتهم من الغربيين الأوربيين والأمريكيين... حفظ الله الإسلام والمسلمين من كيدهم وشرورهم وفتنهم آمين.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [٣٢].

{٣٦١} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«سَلُوا اللَّهَ مِن فضْلِه فإن الله يُحِبُّ أن يُسْأَل»**.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٧١) وهو حديث حسن له شاهد عن رجل رواه ابن جرير (٤٩/٥)، وعن ابن عباس عند ابن مردويه، والحديث حسنه الحافظ، وصححه السيوطي.

وفيه كالآية إرشاد لنا إلى سؤال الله تعالى من فضله وخيره ورحمته فإنه ذو الفضل الواسع يحب السائلين من عباده، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي لكل من الجنسين أن يقنعوا ويرضوا بما أعطاهم الله وأن لا يسيئوا الأدب معه في تمنيهم ما ليس لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [٣٣].

{٣٦٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا

مَوَٰلِيَ﴾، قال: ورثة. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾، نسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له.

رواه البخاري في الكفالة، وفي الفرائض، وفي التفسير (٩/٣١٦، ٣١٧)، وأبو داود (٢٩٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٢)، وابن جرير (٥/٥٣)، وابن أبي حاتم (٣/٩٣٧).

ما قاله ابن عباس متفق عليه.

فمعنى الآية الكريمة: ولكل إنسان من ذكر وأنثى جعلنا له موالي، أي: عصبة وأقارب من أبناء وآباء وأخوة وإخوات وأعمام... يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقربون. والذين عاهدتموهم على النصرة والإرث فاعطوهم شيئاً كالوصية مثلاً، وما إلى ذلك. أما الإرث فقد نسخ بينكم وبينهم.

{٣٦٣} ـ وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا حِلْفَ في الإسلام وأيُمَا حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يَزِدْه الإسلامُ إلا شِدَّة»**.

رواه أحمد (٤/٨٣)، ومسلم (٢٥٣٠)، والنسائي في الكبرى (٤/٩٠)، وأبو داود (٢٩٢٥) وغيرهم، وفي الباب عن أم سلمة وقَيْس بن عاصم وابن عباس.

{٣٦٤} ـ وعن عاصم الأحوال رحمه الله تعالى قال: قيل لأنس بن مالك رضي الله تعالى عنه بلغك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا حلف في الإسلام»**، فقال أنس: قد حالف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين قريش والأنصار في داره بالمدينة.

رواه مسلم في الفضائل (٢٥٢٩).

كان أهل الجاهلية يتحالفون بالأيمان المؤكدة ويتعاقدون فيما بينهم على التناصر والتوارث، فلما جاء الإسلام حالف النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فكانوا يتوارثون، ثم نسخ ذلك وبقي الحلف على التناصر والتعاون على الحق..

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الخ [٣٤].

{٣٦٥} ـ عن الحسن رحمه الله تعالى قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تستعدِي على زَوْجِها أنه لَطَمَها فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«القصاص»**، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، فرجعت بغير قصاص.

رواه ابن جرير (٥/٥٨)، وابن أبي حاتم (٣/٩٤٠) وجاء نحوه عن قتادة رواه عبدالرزاق (١/١٥٧)، وابن جرير (٥/٥٨) كما أخرج هذا الأخير نحوه عن السدي وكلها مراسيل ثابتة، وذكر ابن كثير أنه جاء متصلاً عن الإمام علي رواه ابن مردويه.

فالآية الكريمة تنص على أفضلية الرجال على النساء في الجملة وأن لهم القوامة عليهن في كل شيء، ولذلك كانت الخلافة والإماراة والولاية العامة والقضاء العام وشؤون المسلمين العامة خاصة بالرجل دون المرأة، ولذا جاء في الحديث الصحيح: **«لن يُفْلِحَ قومٌ وَلَّوْا أمْرَهُم امْرأةً»** ويأتي هذا في الخلافة.

قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [٣٤].

{٣٦٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«خيرُ النساءِ التي إذا نَظَرت إليها سَرَّتْك، وإذا أمَرْتها أطاعَتْك، وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ في مَالِكَ ونَفْسِها»**، ثم قرأ

رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، إلى قوله: ﴿قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾.

رواه الطيالسي وأحمد (٢/٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨)، والنسائي وابن جرير (٥/٦٠)، وابن أبي حاتم (٣/٩٤١)، والحاكم (٢/١٦١)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وذكر الآية خاص بابن جرير وابن أبي حاتم.

والحديث مبين للصالحات من النساء الحافظات للغيب وأنهن اللاتي يحفظن مال أزواجهن ونفوسهن من الحرام عند غياب أزواجهن.

وقد جاء في الحديث الصحيح: **«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»** رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [٣٤].

{٣٦٧} ـ عن معاوية بن حَيْدة القُشَيْري رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سأله رجلٌ ما حقُّ المرأة على زوجها؟ قال: **«تُطعِمُها إذا طَعِمْتَ، وتَكْسُوها إذا اكْتَسَيْتَ، ولا تَضْرِبِ الوَجْهَ، ولا تُقَبِّح، ولا تَهْجُر إلا في البيت»**.

رواه أحمد (٤/٤٤٦، ٤٤٧)، وأبو داود في النكاح (٢١٤٢، ٢١٤٤)، والنسائي في التفسير (٦/٣٢٣)، وفي عشرة النسائي، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٠)، وابن حبان (١٢٨٦) بالموارد، والحاكم (٢/١٨٧، ١٨٨) بسند حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث بيان بعض حقوق المرأة على زوجها وهي أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، وإذا ضربها فليجتنب الوجه، ولا يقول لها قبحك الله، وإذا أدى الحال إلى الهجران فلا يهجرها إلا في البيت.

أما الآية الكريمة فمؤداها أن النساء اللاتي يتعالين على أزواجهن

ويتمردن عن طاعتهم فعليهم أن يسلكوا معهن ثلاث مراحل: الوعظ، والتذكير، ثم الهجران في مضاجعهن، ثم في النهاية إن لم يرجعن ضربهن ضرباً غير مبرح كما جاء في خطبته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

والآية مع الحديث صريحان في الإذن بضربهن، لكنه ينبغي للزوج أن لا يكون ضراباً، ولا خشناً شديداً، وخير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يكن يضرب نساءه.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [٣٦].

{٣٦٨} ـ عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**»، فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»، قال: «**فتدري ما حقهم على الله إذا فعلوا ذلك؟**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن لا يعذبهم**».

رواه أحمد (٥/٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤)، والبخاري في الجهاد، وفي الرقاق (١٤/١٢٢، ١٢٤)، وفي التوحيد... ومسلم (١/٢٣٠، ٢٣٣)، والترمذي (٢٦٤٣) كلاهما في الإيمان، وأبو داود (٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦) مطولاً ومختصراً.

في الحديث أن حق الله على عباده في هذه الحياة هو قيامهم بعبادته عقيدة وعملاً وطاعته أمراً ونهياً، وأن لا يتخذوا معه أي شريك، فإذا فعلوا ذلك كان حقاً عليه عز وجل تفضلاً منه عليهم أن لا يعذبهم.

{٣٦٩} ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنة هكذا**»، وقال بأصبعيه: السبابةِ والوُسطى.

رواه أحمد (٣٣٣/٥)، والبخاري في الأدب (٤٣/١٣)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨)، ورواه مسلم في الزهد عن أبي هريرة (١١٣/١٨).

في الحديث فضل الإحسان إلى اليتيم وأن كافله سيكون مع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجنة وهي بشارة لأوصياء اليتامى وما أعظمها من بشارة.

واليتيم من بني آدم من فقد أباه قبل الاحتلام.

{٣٧٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«السَّاعِي على الأَرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»**.

رواه أحمد (٣٦١/٢)، والبخاري في الأدب (٤٤/١٣)، ومسلم في الزهد (١١٢/١٨)، والنسائي في الكبرى (٤٦/٢)، وفي المجتبى والترمذي في البرّ والصلة (١٩٦٩)، وابن ماجه في التجارة (٢١٤٠).

الأرملة ـ بفتح الميم ـ التي طلقت أو توفّي لها زوجها.

وفي الحديث فضل عظيم للقائم بالأرملة والمسكين الذين لا قوام لهم من عيش، فمن وفّق للقيام بهما والسعي عليهما حسب المستطاع كان كالمجاهد الشاهر سلاحه في سبيل الله، وكالصائم النهار القائم الليل وما أعظمه من فضل.

{٣٧١} ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما زال جبريل عليه السلام يُوصِيني بالجار حتى ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُهُ»**.

رواه أحمد (٨٥/٢، ١٦٠)، والبخاري في الأدب (٤٩/١٣)، ومسلم في البرّ والصلة (١٧٦/١٦)، وأبو داود (٥١٥٢)، والترمذي في البرّ والصلة (١٧٨٨) بتهذيبي وغيرهم.

فيه الحضّ الشديد الأكيد على الإحسان إلى الجار وإكرامه ورفع

الإذاية عنه، وأن حقه قريب من حق القريب الوارث.

{٣٧٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت عامة وصية رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين حضره الموت: **«الصلاة وما ملكت أيمانكم»**.

رواه أحمد (١١٧/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٨)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٦)، وابن ماجه في الوصايا (٢٦٩٧، ٢٦٩٨) من طريقين هو بهما صحيح، وله شاهد عن أمّ سلمة رواه ابن ماجه في الجنائز (١٦٢٥) بسند صحيح، قال البوصيري: على شرط الشيخين.

وفي الحديث الوصاية بالأرقاء والإحسان إليهم، وهذه الآية الكريمة تعتبر ذات الحقوق العشرة، وقد ذكرنا لها بعض ما جاء فيها من السنة النبويّة. أمّا ما يتعلق بالوالدين فيأتي في سورة الإسراء إن شاء الله تعالى وغيرها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [الآية: ٤٠].

{٣٧٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه في الآية، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِناً حسنةً يُعْطَى بها في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخِرة، وأما الكافر فَيُطْعَم بحسناتِ ما عَمِلَ بها للهِ في الدُّنيا حتى إذَا قُضِي إلى الآخِرة لم تَكنْ له حسنةٌ يُجْزَى بها»**.

رواه أحمد (١٢٣/٣، ١٢٥، ٢٨٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٤٩/١٧، ١٥٠).

ومعنى الآية الكريمة أن الله عزّ وجلّ لا يبخس وينقص أحداً من عمله شيئاً، ولو كان وزن ذرة، وهي أقل شيء، وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمّيها ويجعلها أضعافاً كثيرة، ويعطي من عنده تعالى تفضّلاً على ثواب العمل أجراً عظيماً وهي الجنّة وما يتبعها من نعيم ورضوان.

أما الحديث، فيدلّ على أن المؤمن يجازى بعمله الصالح في الدنيا والآخرة بينما الكافر يجازى به في الدنيا صحة في جسمه، وسعة في رزقه،

ونصراً على عدوّه، ولكنه لا حظّ له في الآخرة، بل مآله العذاب الخالد وهذا من كمال عدله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [٤١].

{٢٧٤} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اقرأ عليّ»**، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: **«فإني أحب أن أسمعه من غيري»**، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، قال: **«أمسِكْ»**، فإذا عيناه تَذْرِفان.

رواه أحمد (٣٨٠/١)، والبخاري في التفسير (٣١٩/٩)، وفي فضائل القرآن، ومسلم في فضائل القرآن (٨٦/٦، ٨٧)، وأبو داود في العلم (٣٦٦٨)، والترمذي (٣٠٢٤، ٣٠٢٥)، والنسائي (٣٢٣/٦) في التفسير.

في الحديث استحباب استماع القرآن من القراء الأفاضل والبكاء عنده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [٤٣]:

{٢٧٥} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وسقانا خمراً قبل أن تحرم، فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فخلطت فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلخ، وفي رواية: إن رجلاً من الأنصار دعاه وعبد الرحمٰن بن عوف وفيه فأمّهم عليّ في المغرب.

رواه أبو داود في الأشربة (٣٦٧١)، والترمذي (٣٠٢٦)، والنسائي في الكبرى وابن جرير (٩٥/٥)، وابن أبي حاتم (٩٥٨/٣)، والحاكم (٣٠٧/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وعطاء بن السائب سمع منه الثوري قبل الاختلاط.

في الآية الكريمة نهي المسلم عن الصلاة حالة السكر لأن السكران لا يدري ما يقول، وأخذ بعض أهل البصائر من الآية قربان الصلاة مع الغيبة في شؤون الدنيا حتى لا يدري الإنسان ما قال أو فعل في صلاته؛ لأن ذلك يشبه السكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [٤٣]:

{٢٧٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: هلكت قلادة لأسماء، فبعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طلبها رجالاً، فحضرت الصلاة وليسوا على وضُوء ولم يجدوا ماء فصلّوا وهم على غير وضوء، فأنزل الله تعالى ـ يعني: آية التيمّم ـ فقال أُسَيْد بن حُضَيْر لعائشة: جزاكِ الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيراً. وفي رواية عنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس أبا بكر رضي الله تعالى عنه، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على فخذي قد نام، فقال: أحبستِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتَبَني أبو بكر، وقال: ما شاء الله أن يقول: وجعل يطعُن بيده في خاصِرَتي فما يمنعُني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على فخذي، فنام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمّم فتيمّموا، فقال أُسَيد بن حُضَير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العِقد تحته.

رواه البخاري في التيمّم (٤٥٦/١، ٤٥٧) وفي التفسير (٣٢١/٩) وفي النكاح وفي اللباس وفي الحدود، ومسلم في الحيض (٥٩/٤) مختصراً، ورواه البخاري في التيمّم (٤٤٨/١) وفي المناقب وفي التفسير رقم (٤٦٠٧) من المائدة، ومسلم في التيمّم (٥٦/٤، ٥٨)، والنسائي في الكبرى (٣٢٤/٦) مطوّلاً.

في الحديث أن الآية التي نزلت بهذا السبب هي آية النساء، وهي آية التيمّم. أما آية المائدة، فيقال لها: آية الوضوء، ويأتي الكلام على هذه الآية في المائدة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [٤٨]:

{٣٧٧} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«كُلُّ ذَنْب عَسَى الله أن يَغْفِرَه إلا من مات مشركاً أو من قَتَلَ مُؤمناً متعمّداً»**.

رواه أبو داود في الفتن (٤٢٧٠)، وابن حبان (٥٩٨٠)، والحاكم (٣٥١/٤)، والبيهقي (٢١/٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن معاوية، رواه أحمد (٩٩/٤)، والنسائي في الكبرى رقم (٣٤٤٦)، وفي الدم من المجتبى والحاكم (٣٥/٤).

الآية كالحديث يصرحان بأن الشرك لا يغفره الله بحال، وأنه تعالى يغفر ما عداه لمن شاء، والأحاديث بهذا المعنى متواترة. أما قوله: أو من قتل مؤمناً إلخ، هذا مؤول بالإجماع، وللآية الكريمة وما قاله ابن عباس لم يتابع عليه.

وقد كان بعض الصالحين يدعو فيقول: اللَّهُمَّ إِنِّي قد أَطَعْتُكَ فِي أَحَبِّ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، ولَمْ أَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ وَهُوَ الكُفْرُ وَالشِّرْكُ بِكَ فَاغْفِر لِي مَا بَيْنَهُمَا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [٥٨]:

{٣٧٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أدِّ الأَمَانَةَ إلى من ائْتَمَنك، ولا تَخُن من خانك»**.

رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والدارمي (١١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٥٠)، والحاكم(٤٦/٢)، وسنده حسن، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وحسّنه الحافظ وردّ قول من ضعّفه.

الأمانة: كل حق لزمك أداؤه، والحديث كالآية يدلاّن على وجوب أداء الأمانة، ولا خلاف في ذلك بل عدم أدائها من خصال المنافقين؛ للحديث: **«وإذا ائتمن خان»**، والحديث يفيد أن الخائن لا يقابل بخيانته وهو من باب الأفضل لأدلة أخرى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [٥٩]:

{٣٧٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حُذَافَة بن قيس بن عَدِي إذ بَعَثَه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سرية.

رواه أحمد (٣٣٧/١)، والبخاري في التفسير (٣٢٢/٩)، ومسلم في الإمارة (٢٢٣/١٢)، وأبو داود (٢٦٢٤)، والترمذي (١٦٧٢) كلاهما في الجهاد، والنسائي في التفسير من الكبرى (٣٢٤/٦)، وفي البيعة من المجتبى وغيرهم.

في الآية الكريمة وجوب طاعة أولي الأمر وهم الأمراء والعلماء علماً بأن طاعتهم إنما تكون في المعروف لا في معصية الخالق؛ لأن طاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مقدّمة على طاعة كل مخلوق كائناً من كان.

ويلاحظ أن الحديث ذكره ابن عباس هنا مختصراً، وقد رواه أحمد (٨٢/١)، والبخاري ومسلم في الإمارة (٢٢٦/١٢، ٦٦٧) عن الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه، قال: بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً ثم دعا بنار فأضْرَمَها فيه ثم قال: عَزَمْتُ عليكم لتدخُلنّها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فَرَرْتُم إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من النار، فلا تَعْجَلُوا حتى تلقوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبروه فقال لهم: **«لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»**.

فهذا مفسّر لذاك، والأحاديث في وجوب طاعة الله ورسوله وأولي الأمر كثيرة فلا نطيل بها، ولعلّ بعضها يأتي في مواضعه إن شاء الله تعالى في الخلافة والإمارة.

❋ قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٦٥]:

{٢٨٠} ـ عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شِرَاج الحرَّةِ التي يُسْقُون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماء يمُر فأبى عليه الزبير، فاختصموا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للزبير: **«اسْقِ يا زبير وأرْسِل الماء إلى جارك»**، فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، إن كان ابن عمتك، فتغيّر وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم قال: **«يا زبير اسْقِ واحبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر»**، فقال الزبير: أحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٢٣) وغيره، ومسلم في الفضائل (١٥/١٠٧)، وأبو داود في الأقضية (٣٦٣٧)، والترمذي في الأحكام وفي الفسير (٣٠٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٤)، وفي آداب القضاء من المجتبى، وابن ماجه (١٥/٢٤٨٠).

شِراج ـ بكسر الشين ـ: جمع شرج بفتح أوله مسيل الماء، والحرّة: الحجارة السود، وللمدينة حرتان. والجدر ـ بفتح الجيم وسكون الدال ـ ويضمّان جمع جدار وهو هنا الحفر الذي يحفر في أصول النخل فتصير مثل الجدار.

فالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سلك معهما أولاً طريق الصلح، فلما قال الأنصاري ما قال حكم للزبير وأمره أن يأخذ حقّه من الماء كاملاً ثم يرسله لجاره. وظاهر الآية الكريمة يدلّ على نفي الإيمان عمن لم يحكم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يرضَ بحكمه...

﴿ قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [الآية ٦٩]:

{٢٨١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«ما من نبيّ يَمْرضُ إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة»**، وكان في شكواه الذي قبض فيه، أخذته بُحَّةٌ شديدة، فسمعته يقول: **«مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين»**، فقلت: إنه خير.

رواه البخاري في الوفاة النبويّة وفي التفسير (٩/٣٢٣)، ومسلم في الفضائل (١٥/٢٠٨، ٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٥)، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٠) وغيرهم.

في الحديث إكرام الله تعالى أنبياءه واعتناؤه بهم حيث كان يخيرهم بين هذه الحياة والدار الآخرة، فكانوا يختارون الآخرة ورفقة المنعم عليهم...

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [الآية ٧٥]:

{٢٨٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، قال: كنتُ أنا وأمي ممن عَذَرَ الله، وفي رواية: كنت أنا وأمي من المستضعفين.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٢٤) بالروايتين، وعزاه الحافظ في الفتح إلى الإسماعيلي وأبي نعيم في مستخرجيهما.

في الآية الكريمة إنكار من الله تعالى على المسلمين الذين لا يقاتلون في سبيل الله ولتحرير المسلمين من الأعداء والاستعمار وأهل الأعذار الذين لا استطاعة لهم في الهجرة والخروج من بين الأعداء كما كان المسلمون بمكّة قبل الفتح.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية ٧٧]:

{٢٨٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عبدالرحمٰن وأصحاباً له أتوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكّة، فقالوا: يا نبيّ الله إنا كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلمّا آمنا صرنا أذلّة، فقال: **«إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»**، فلما حوله الله إلى المدينة أمر بالقتال فكفوا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٢٥) وفي المجتبى، وابن جرير (٥/١٧٠، ١٧١)، وابن أبي حاتم (٣/١٠٠٥)، والحاكم (٢/٦٦، ٣٠٧)، والبيهقي (٩/١١) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

والأمر كما في الحديث، فكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكة المكرمة مأموراً بالعفو والصبر على أذى الكفار، فلما هاجر ونزل الإذن بالقتال جَبُنَ قوم عن القتال وخافوا الكفار بعد أن كانوا يستأذنون رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكّة في القتال.

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٨٠]:

{٢٨٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطِعِ الأمير فقد أطاعَني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»**.

رواه أحمد (٢/٩٣، ٢٧٠، ٢٤٤، ٤٧١، ٥١١) وفي مواضع، والبخاري في الجهاد (٢٩٥٧)، وفي الأحكام (٧١٣٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٥)، والنسائي في الكبرى (٤/٤٣٢، ٤٦٢) و(٥/٢٢٢)، وفي البيعة من المجتبى، والبيهقي (٨/١٥٥) وغيرهم.

في الآية والحديث عظم قدر الرسول عند الله تعالى حيث جعل طاعته طاعة لله وعصيانه عصياناً له عزّ وجلّ، كما في الحديث وجوب طاعة أمراء الرسول وخلفائه الذين هم سائرون على نهجه ونهج شريعته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٨٣]:

{٢٨٥} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لما اعتزل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصا ويقولون: طلّق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساءه، فقلت: يا رسول الله أطلّقتهن؟ قال: **«لا»**، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساءه، فنزلت

هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ الآية.

رواه مسلم في الطلاق (٨٢/١٠، ٨٥)، وابن أبي حاتم (١٠١٤)، وهو عند مسلم مطوّلاً.

في الآية إرشاد إلى التثبت في الأُمور وعدم إفشائِها قبل تحققها وردّها إلى من يستنبطها من أهل العلم والدين والرأي القويم.

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [٨٥]:

{٢٨٦} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة، قال: **«اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»**.

رواه أحمد (٤٠٩/٤، ٤١٣)، والحميدي (٧٧١)، والبخاري في الزكاة (٤٢/٤)، وفي الأدب وفي التوحيد، ومسلم في البرّ (١٧٧/١٦)، وأبو داود في الأدب (٥١٣١)، والترمذي في العلم (٢٤٨٦) بتهذيبي، والنسائي في الزكاة (٤٨/٥) وغيرهم.

في الآية والحديث فضل الشفاعة والسعي في قضاء حوائج المحتاجين وبالأخص عند ذوي السلطة غير أنها لا تجوز في المتمردين والمفسدين، لما في ذلك من الإعانة على الإفساد والإثم والعدوان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [الآية ٨٦]:

{٢٨٧} ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رجلاً جاء إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: السلام عليكم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«عشرة»**، وجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«عشرون»**، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ثلاثون»**.

رواه أحمد (٤/٤٣٩، ٤٤٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٩٥)، والترمذي في الاستئذان رقم (٢٥٠٣) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٩١) بسند صحيح على شرط مسلم، وله شاهد بنحوه عن أبي هريرة عند ابن حبان (١٩٣١) بالموارد بسند صحيح.

{٢٨٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خلق اللهُ آدَمَ على صُورَتِهِ وطُوله سِتُّون ذِراعاً، فلما خلقه قال: اذْهَبْ فَسلِّم على أولئك النَّفَر ـ وهم مِنَ الملائكة جُلُوسٌ ـ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تحيَّتُك وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتك، قال: فذهب فقال: السَّلام عليكم فزادُوه ورحمة الله، قال: فكل من يَدْخُلُ الجنة على صُورَة آدم طُولُه سِتُّون ذراعاً، فلم يزل الخلق يَنْقُصُ حتى الآن**».

رواه أحمد (٢/٣١٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/١٧٥)، وفي الاستئذان رقم (٦٢٢٧)، ومسلم في الجنّة رقم (٢٨٤١)، وابن حبان (١٤/٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٣٢٩٨) وغيرهم، ويأتي في الأنبياء وفي الرقاق.

هذه هي تحية الإسلام تبعاً لما شرّعه الله عزّ وجلّ لأبينا آدم عليه السلام لكن أهل الجاهلية استبدلوا ذلك بألفاظ كانوا يحيّون بها بعضهم بعضاً، وقد اتّفق العلماء على أن إفشاء السلام بهذه الكلمات من أخلاق الإسلام ومن حقوق المسلمين فيما بينهم، وأن بدايته سنّة وردّه فرض. وفي الحديث الأول فضل هذه التحية، وأن كل جملة منها يثاب صاحبها عليها بعشر حسنات.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [الآية ٨٨]:

{٢٨٩} ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال في هذه الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، قال: رجع ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أُحُدٍ، فكان الناس فيهم فرقتين: فريق منهم يقول: اقتلهم، وفريق يقول: لا، فنزلت الآية، وقال صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم: «إِنَّها تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النارُ خَبَثَ الفِضَّةِ».

رواه البخاري آخر الحجّ (٤٦٩/٤)، وفي التفسير (٣٢٥/٩)، ومسلم في الحجّ وفي صفات المنافقين (١٢٣/١٧)، والترمذي (٢٨٣٢)، والنسائي في الكبرى (٣٢٥/٦) وغيرهم.

قوله تعالى: أركسهم: أي: قلبهم وردّهم إلى الكفر، والركس: نَكْسُر الشيء مقلوباً.

لما خرج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى غزوة أحد رجع رئيس المنافقين ابن أبي سلول بمن معه من أصحابه ومن أطاعه أو اغترّ به من ضعفاء الإيمان، فاختلف المسلمون في شأنهم، ماذا يفعل بهم حيث خذلوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في وقتٍ كان في أشدّ الحاجة إلى من يؤازره ويقاتل معه، فقال الصحابة فيهم ما قالوا، فأنزل الله الآية في شأنهم، وبيان حالهم ومآلهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٩٣]:

{٢٩٠} ـ عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: قلت لابن عباس: ألِمَنْ قتل مؤمناً متعمّداً من توبةٍ؟ قال: لا، فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه آية مكّية نسختها آية مدنية، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية، وفي رواية قال: اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن فرحلت فيه إلى ابن عباس، فقال: نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء.

رواه البخاري في الفضائل وفي التفسير (٣٢٦/٩) وفي مواضع، ومسلم آخر الكتاب (١٥٨/١٨، ١٥٩)، وأبو داود (٤٢٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦/٦) وفي المجتبى...

{٢٩١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل عمّن قتل مؤمناً متعمداً ثم تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ثم اهتدى، فقال: فأنّى له

بالتوبة سمعت نبيّكم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«يَجِيءُ المَقْتولُ مُتعلِّقاً بالقَاتِلِ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَماً فيقول: أي: ربّ سَلْ هذا فِيمَ قَتَلَنِي، ثم قال: واللهِ لقد أنزلها الله ثم ما نسخها»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨٣٣) بتهذيبي، والنسائي في المجتبى في تحريم الدم وابن ماجه (٢٦٢١) بسند صحيح.

تشخب ـ بفتح التاء وضم الخاء ـ أي: تسيل.

ظاهر الآية الكريمة مع قول ابن عباس أن القاتل المتعمد لا توبة له، وأنه مخلد في النار، لكن جمهور السلف والخلف، بل عامّة العلماء جميعاً ذهبوا إلى أن له توبة، وأنه لا يخلد في النار إلا الكافر، وأنه تعالى يغفر الذنوب كلّها إلا الشرك الأكبر، والأحاديث بهذا المعنى متواترة وسيأتي بعض ذلك في الرقاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [٩٤]:

{٣٩٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾** إلخ، قال: كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المُسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غُنَيْمَته فأنزل الله في ذلك إلى قوله: **﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**، تلك الغنيمة.

رواه البخاري في التفسير (٣٢٧/٩)، ومسلم آخر الكتاب (١٦١/١٨)، وأبو داود في الحروف (٣٩٧٤)، والترمذي (٢٨٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦/٦) كلاهما في التفسير.

أُمِرَ المسلمون إذا سافروا وخرجوا للجهاد أن يتثبتوا ويتحقّقوا المسلم من الكافر ولا يقدموا على قتل مسلم، فإن ذلك عظيم، فمن أشهر إسلامه قُبِل منه ذلك، ولو كان في نفس الوقت غير صادق. لكن هؤلاء الصحابة قتلوا هذا الرجل بعد أن سلّم عليهم، وكان قصدهم من ذلك أخذ غنيمته، فنزلت الآية تعاتبهم على ما صنعوا... وفي الباب أحاديث كثيرة تقدم بعضها في الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الآية [٩٥]:

{٢٩٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٣٠) هكذا مختصراً، ورواه الترمذي (٢٨٣٦) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٧) مطوّلاً.

{٢٩٤} ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال: فجاء ابن أمّ مكتوم وهو يُمْلِيها عليَّ، فقال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرَضّ فَخِذي ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

رواه البخاري (٩/٣٢٨)، والترمذي (٢٨٣٧)، وابن جرير (٤/٢٢٨، ٢٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/١٠٤٣)، ونحوه عن البراء بن عازب رواه البخاري والترمذي وغيرهما.

الآية الكريمة مع هذه الأحاديث تدلّ على أنه لا يستوي المجاهدون والمتخلّفون القاعدون رغم أنهم مؤمنون، وأن الجميع من أهل الجنّة غير أصحاب الأعذار والضرر كالعُمْي والعَرجى والمَرضى والضعاف والكبار، فهؤلاء لهم أجر المجاهدين لنيّاتهم الصالحة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ إلخ.

{٢٩٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكْثِرون سَوادَ المشركين على رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم يأتيهم السَّهْم يُرْمَى فيُصِيبُ أحدَهم فيقتُله أو يُضْرَبُ فيُقْتَل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، إلى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٣١، ٣٣٢)، وفي الفتن باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٧)، وابن جرير (٤/٢٣٤)، وابن أبي حاتم (٣/١٠٤٥).

كان جماعة من المسلمين بمكة المكرمة يخفون إيمانهم ولم يهاجروا، فأخرجهم المشركون يوم بدر فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان هؤلاء أصحاباً لنا مسلمين فأكرهوا على الخروج، فأنزل الله الآية توبّخهم وتعدهم بالنار إذا كانوا مستطيعين للهجرة ومفارقة الكفار وديارهم ثم استثنى المستضعفين الذين لا طاقة لهم بالهجرة والخروج.

ويؤخذ من الآية الكريمة أن الإقامة بدار الحرب ومساكنة المحاربين وتكثير سوادهم لا تجوز، لا سيما من تجنس منهم وكانت قوانينهم تطبق عليهم، إلا من كان لاجئاً مضطهداً أو داعية أو تاجراً أو سائحاً للاعتبار.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلخ:

{٣٩٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً، فقال لأهله: احْمِلُوني فأَخْرِجوني من أرض المشركين إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فنزل الوَحْيُ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى بلغ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

رواه أبو يعلى (٢٦٧٩)، والطبراني في الكبرى (١١٧٠٩)، قال الهيثمي في المجمع: (٧/١٠)، ورجاله ثقات.

وفي الآية الكريمة الترغيب في الهجرة ومفارقة ديار الكفار المحاربين.

وفي الهجرة جاء الحديث الصحيح المشهور: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**» إلخ، وأن الأعمال بالنيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [١٠١]:

{٢٩٧} ـ عن يعلى بن أميّة رضي الله تعالى عنه قال: قلت لعمر بن الخطاب: فليس عليكم جناح أن تقصروا فقد أمن الناس، فقال: عجبتُ مما عجبت منه فسألتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّق الله بها عَلَيْكُمْ فاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**».

رواه أحمد (٢٥/١، ٣٦)، ومسلم (١٩٦/٥)، وأبو داود (١١٩٩)، والترمذي في الصلاة وفي التفسير (٢٨٣٨) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٢٨/٦)، وفي المجتبى (٩٥/٣) وابن ماجه وآخرون.

ظاهر الآية أن الخوف كان شرطاً في تقصير الصلاة الرباعية وليس كذلك، وإنما المراد إدخال التخفيف في أدائها بترك بعض ركعاتها أو الاكتفاء بالإيماء مثلاً إذا اشتدّ الخوف والقتال؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، وحديث سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يدلّ على أن تقصير الصلاة الرباعية هي صدقة من الله عزّ وجلّ علينا يجب قبولها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ الآية [١٠٢]:

{٢٩٨} ـ عن أبي عياش الزرقي رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعُسْفَان فاستقبلَنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلّى بنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال:

فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر، ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾ إلخ، قال: فحضرت فأمرهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والصف الذي يليه والآخرون قيام ينحرسونهم، فلما جلس، جلس الآخرون فسجدوا فسلّم عليهم ثم انصرف فصلاّها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّتين بعسفان، ومرّة بأرض سليم.

رواه أحمد (٤/٥٩، ٦٠)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي في المجتبى رقم (١٤٥٨)، وابن حبان (٥٨٧)، والحاكم (١/٣٣٧)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

في الحديث بيان سبب نزول آية صلاة الخوف، وقد صلاّها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في عدة مواطن، وعلى صفات وهيئات مختلفة. قال ابن حزم رحمه الله تعالى: صحّ فيها أربعة عشر وجهاً. وقال النووي رحمه الله تعالى: جاء فيها ستة عشر كلّها مجزئة. وموضع بسطها كتاب الصلاة من كتب الأحكام والفقه الإسلامي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآية [١٠٥]:

﴿٢٩٩﴾ ـ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشرٌ ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسْمَعُ، فمن قضيتُ**

له من حقّ أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطعُ له قطعةً من النارَ يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة»، فبكى الرجلان وقال كل منهما: حَقّي لأخي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أما إذا قلتما فاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا ثُمَّ تَوَخَّيَا الحَقَّ بينكم، ثم اسْتَهِمَا ثم لِيَحْلِل كلُّ منكما صاحبَه»**.

رواه أحمد (٦/٢٩٠، ٣٠٧، ٣٢٠) واللفظ له، والبخاري في الشهادات (٢٦٨٠)، وفي الأحكام (٧١٦٩) وفي المظالم... ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، والترمذي في الأحكام، والنسائي في آداب القضاة... وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧)، وابن الجارود (٩٩٩، ١٠٠٠).

احتجّ بالآية والحديث من يقول باجتهاد الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والأدلّة على ذلك كثيرة غير أنه لا يُقَرّ على خلاف الواقع والكلام على الحديث يأتي في الأحكام والقضاء إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [١١٠]:

{٣٠٠} ـ فيه حديث الإمام عليّ عليه السلام عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما من مُسلم يُذنب ذنباً ثم يتوضّأ ثم يصلّي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له»**، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي بسند صحيح، وقد تقدم في آل عمران.

وفي الآية والحديث بيان سعة فضل الله ورحمته ولطفه بعباده، وأنه عزّ وجلّ يقبل توبة عبده المذنب كلما تاب واستغفر وفي الحديث أدب من آداب التائب، وهو تقديم الوضوء وصلاة ركعتين ثم طلب المغفرة...

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [١١٤]:

{٣٠١} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كُلُّ معروف صدقةٌ»**.

رواه أحمد (٣/٣٤٤، ٣٦٠)، والبخاري في الأدب (٦٠٢١)، والترمذي في البرّ والصلة، وأحمد ومسلم وأبو داود عن حذيفة وهو عند بعضهم مطوّلاً ويأتي في البرّ والصلة.

{٣٠٢} ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألاَ أُخبِرُكُمْ بأفضل مِن درجةِ الصيام والصلاة والصدقة»**؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«إِصْلاَحُ ذَات البَيْنِ»**، قال: **«وفساد ذات البين هي الحالقة»**.

رواه أحمد (٦/٤٤٤، ٤٤٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة الجنّة (٢٥٠٩)، وكذا البخاري في الأدب المفرد (٣٩١)، وابن حبان (٥٠٩٢)، وحسّنه الترمذي وصححه.

في الآية والحديثين فضل الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين المتنافرين، وأن لفاعل ذلك الأجر الجزيل والثواب العظيم.

قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية [١٢٣]:

{٣٠٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغتْ من المسلمين مَبْلغاً شديداً، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«قارِبُوا وَسَدِّدُوا، ففِي كلّ ما يُصابُ بِهِ المسلمُ كفارةٌ حتى النكبة يُنْكَبُها والشوكة يُشَاكُهَا»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٣٠)، وأحمد (٢/٢٤٨)، والترمذي

في التفسير (٢٨٤٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٢٨/٦) ويأتي في البرّ والصلة.

قاربوا أي: توسّطوا واقتصدوا في العبادة ولا تغلو وتجاوزوا الحدّ، ولا تقصروا وتُفَرّطوا في ترك الواجبات مع انتهاك المحرمات والإصرار عليها. وسدّدوا أي: اقصدوا السداد وهو الصواب، وقوله: النكبة هي ما ينزل بالإنسان ولو عثرة أو جرح مثلاً.

وفي الحديث كالآية دليل على أن المسلم قد يجازى على سيئاته في الدنيا بما يصاب به من الأحداث التي تطرأ عليه في نفسه وأهله وماله ويساء بها، وأن كل ذلك من أسباب تكفير الذنوب وهذا من رحمة الله تعالى بعبده ولطفه به في هذه الحياة من غير أن يشعر.

{٣٠٤} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، قال: إنا لنجزى بكل عملنا هلكنا إذاً، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«نَعَمْ يُجْزَى به المؤمنُ في الدنيا في مُصِيبته في جسَدِهِ فِيمَا يُؤْذِيهِ»**.

رواه أحمد (٦٦/٦) بسند صحيح.

الحديث كسابقه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [١٢٥]:

{٣٠٥} ـ عن جندب رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول قبل أن يموت بخمس: **«قد كان لي منكم إخوةٌ وأصدقاءُ وإني أبرأ إلى كلّ خليل من خلّته، ولوكنتُ متّخذاً خليلاً مِنْ أُمّتي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، وإن رَبّي اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً، ولا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**.

رواه مسلم في المساجد (١٣/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٢٨/٦)، وفي الباب أحاديث.

قوله: أبرأ أي: أمتنع من هذا وأُنْكِرُهُ، والخليل الصديق الخالص، والخلّة الصداقة، والمحبة التي تخلّلت القلب. وفي الحديث فضيلة هامة للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث اتّخذه الله خليلاً مثل ما فعل بأبيه إبراهيم عليه السلام. وفي الحديث أيضاً فضل الصديق رضي الله تعالى عنه وأن له مكانة خاصة عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما أن في الحديث النهي عن اتّخاذ القبور مساجد، وذلك يحتمل أن تتخذ مسجداً يصلّى عليها، وقد جاء النهي عن ذلك في الصحيح، ويحتمل أن يبنى عليها مسجد بعد وجودها فكلاهما يشملهما النهي، وقد تقدم بعض هذا في المساجد من الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [١٢٧]:

{٣٠٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، قالت: أنزلت في اليتيمة تكون عند الرجل لعلّها أن تكون شَرِكَته في ماله وهو وليّها فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلاً فيَشْرَكه في ماله بما شركته فيَعْضُلُها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ إلخ.

رواه البخاري في التفسير (٣٣٤/٩) وغيره، ومسلم آخر الكتاب (٥٦/١٨)، وأبو داود (٢٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٣١٩/٦) وفي المجتبى.

تقدم معناه في آية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية [١٢٨]:

{٣٠٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ

خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ إلخ، أنزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد أن يطلقها ويتزوّج غيرها، فتقول: لا تطلّقني وأمسكني وأنت في حلّ من النفقة والقسمة لي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٣٤)، ومسلم (١٨/١٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٩).

النشوز يكون من الرجل ومن المرأة، وهو هنا من الرجل يعني: أنه يبغضها ويعرض عنها ولا يستكثر منها، يعني: في المحبة والمعاشرة، وهذا من طبيعة البشر أن المرأة إذا طعنت في السن يتباعد عنها الرجل ولا يكاد يبقىٰ له إليها ميل ويتمنى البديل غير أن المؤمن ينبغي له أن يكون كريماً وفياً لزوجته فلا يجرحها بالضرّة والتزوّج عليها، فإن حسن العهد من الإيمان، ولا سيما إذا تشاركا في إنجاب الأولاد وطالت العشرة فينبغي له أن يصبر حتى يفرق بينهما الموت.

﴿٣٠٨﴾ ـ وعنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يُفَضِّلُ بعضَنَا على بعضٍ في القَسْمِ من مُكْثِهِ عِنْدنا، وكان قلَّ يومٌ إلا وهو يطوفُ علينا جميعاً فيَدْنُو من كلِّ امرأةٍ من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنّت وفَرِقَت أن يفارقها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: يا رسول الله يَوْمِي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم منها، قالت: تقول في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾.

رواه أبو داود (٢١٣٥)، والحاكم (٢/١٨٦)، والبيهقي (٧/٧٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأصله في الصحيحين ونحوه عن ابن عباس عند الطيالسي (٢٦٨٣)، والترمذي (٢٨٤٤) بتهذيبي، والبيهقي (٧/٢٩٧) وحسّنه الترمذي وصححه.

في الحديث أن الآية نزلت بسبب سودة رضي الله تعالى عنها، والحديث يأتي في النكاح بل في السيرة النبوية.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ الآية [١٢٩]:

{٣٠٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَقْسِمُ بين نسائه فيعدِل، ثم يقول: «**اللّهمّ هذا قسْمِي فيما أمْلِك فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك**»، يعني: القلب.

رواه أحمد (١٤٤/٦)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١٠٢٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٢٨١/٥)، وابن ماجه (١٩٧١)، وابن حبان (٣٠٥) بالموارد، والحاكم (١٨٧/٢) بسند صحيح على شرط مسلم، وهكذا صححه الحاكم، ووافقه الذهبي ولا يضرّ إرسال من أرسله.

قوله: فلا تلمني إلخ، يعني به الحبّ والمودة، فإن هذا الميل إلى بعض الزوجات دون الباقي لا يضرّ ولا يستطيع أحد العدالة بين الضرائر في ذلك ولو حرص، وهو معنى الآية الكريمة؛ فالعدالة في كل شيء حتى في المحبّة والمَيْل القلبي ليست في طَاقة الإنسان ولا يملكها، وإنما الواجب هو النفقة والكسوة والسَّكَن والمبيت. أما المحبة والشهوة والجماع، فلا بدّ وأن يكون هناك تفاوت وهو خارج عن المستطاع، ومن حمل الآية على ظاهرها مطلقاً فقد أخطأ وجهل.

قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [١٤٣]:

{٣١٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَثَلُ المنافق كَمَثَلِ الشَّاةِ العَايِرَةِ بين الغَنَمَيْنِ تعيرُ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تدري أيهما تتبع**».

رواه مسلم في صفات المنافقين رقم (٢٧٨٤).

قوله: العايرة أي: المتردّدة بينهما لا تدري لأيهما تتبع، وما في الحديث الشريف مثل ضربه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

للمنافق بالشاة العايرة بين قطع الغنم، فالمنافق لا هو مع المؤمنين ولا هو مع الكافرين، وهو الوصف الذي ذكره الله تعالى لهم، وهي الذبذبة أي: التردّد بين الأمرين فهم متحيّرون ومتردّدون بين فريقي المؤمنين والكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إلخ [١٥٩]:

{٣١١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده ليُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً عَدلاً فيكسِرُ الصَّلِيبَ ويَقتلُ الخنزير ويضع الجزية ويفيضُ المال حتى لا يقبله أحدٌ وحتى تكونَ السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إلخ.

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٠٢/٧، ٣٠٣)، ومسلم في الإيمان (١٨٩/٢، ١٩٠)، والترمذي في الفتن (٢٠٦٢) بتهذيبي، وابن ماجه وغيرهم.

وفي الحديث دليل على نزول سيدنا عيسى عليه السلام آخر الزمان ليحكم بشريعة الإسلام ويقضي على سائر المِلل والأديان، وقد تواترت بنزوله الأحاديث، ويأتي الكلام عليه عند ذكر أشراط الساعة إن شاء الله تعالى.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، فمعناه أنه إذا نزل لا يبقى أحد من اليهود والنصارى إلا آمن به، وبهذا جزم ابن عباس وهو قول أكثر أهل العلم، ورجحه ابن جرير وصححه ابن كثير، وقالوا: إن الضمير في قوله: به وفي موته يعود على عيسى عليه السلام لا على الكتابي، وعلى هذا حمل الآية أبو هريرة رضي الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [١٦٤]:

{٣١٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**احتجَّ آدمُ ومُوسى فقال موسى لآدم: أنتَ الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، أغْوَيْتَ الناسَ وأخرجْتَهم من الجنة، فقال آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلّمك تكليماً، أتلُومني أن أعْمَل عملاً كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، فحجّ آدم موسى**».

رواه أحمد، والشيخان وغيرهم من طرق وألفاظ وتقدم في البقرة وغيرها بلفظ آخر.

أجمع المسلمون على أن الله عزّ وجلّ كلّم نبيّه موسى عليه السلام في هذه الدنيا بكلام سمعه منه تعالى لا نعرف كيفيّته ولا صورته وهو صريح القرآن في مواضع، وبه جاءت الأحاديث الصحيحة، فمن أنكر ذلك فليس بمسلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ [١٧١]:

{٣١٣} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَت النَّصارى عيسَى ابن مريم، فإنَّما أنا عبدٌ فقولوا: عبدُ الله ورسوله**».

رواه أحمد (١/٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/٣٠٠) وفي كتاب المحاربين، ورواه ابن حبان ضمن حديث طويل (٤١٣، ٤١٤).

الإطراء مجاوزة الحدّ في المدح والثناء، وفي الحديث النهي عن الغلوّ في مدح النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما فعل النصارى في نبيّهم عيسى عليه السلام حيث تغالوا فيه حتى رفعوه إلى مقام الألوهيّة، فالحديث جاء مؤيّداً للآية الكريمة: ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾.

وتقدم في الإيمان حديث عبادة بن الصامت: «**من شهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنّة حق وأن النار حقّ أدخله الله الجنّة على ما كان من عمل**».

رواه أحمد والشيخان وغيرهم.

﴿ قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية [١٧٦]:

{٣١٤} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

رواه أحمد (٢٩٨/٤)، والبخاري في التفسير (٣٣٧/٩)، ومسلم (٥٨/١١، ٥٩)، وأبو داود (٢٨٨٨)، والنسائي في الكبرى (٣٣١/٦)، وفي المجتبى كلّهم في الفرائض.

الآخرية هنا في النزول مؤوّلة، فبالنسبة للسور الطوال براءة، وبالنسبة لآيات المواريث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وقد ثبت أن آخر سورة نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، وآخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وكلها في الصحيح، وهذه الآية كانت بعد نزول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية النازلة في حجة الوداع.

{٣١٥} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: مَرِضتُ فأتاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه يعودَاني، وفيه: قلت كيف أوصي في مالي ثلاثاً؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية المواريث.

رواه مسلم والأربعة، وتقدم في آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾.

وقد قدمنا الخلاف أي الآيتين نزلتا بهذا السبب، فرجح ابن كثير وغيره آية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ، وقال آخرون: كلاهما نزلت بهذا السبب، والله تعالى أعلم.

والكلالة في الآية المراد بها هنا من مات ولا والد له ولا ولد، وإنما ترك أختاً فلها نصف ما ترك من التركة، فإن كانتا أختين فلهما منه ثلثا ما ترك. أما إن كان الهالك أنثى وتركت أخاً شقيقاً لها أو لأب استوعب كل التركة، فإن كان الإخوة رجالاً ونساء، فللذكر مثل حظّ الأُنثيين، هذه هي القسمة الإلهيّة العادلة، فمن رفضها فقد ضلّ وكفر، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وهناك صفة أخرى للكلالة، وهي من مات ولم يترك إلا أخاً أو أختاً أو أكثر كلهم إخوة لأُمّ، فإن كان واحداً ذكراً كان أم أنثى كان حظّه السدس فقط، فإن تعددوا اشتركوا في الثلث، والباقي يوضع في بيت مال الدولة، وفي هذا يقول الله فيما سبق: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ إلخ، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، وبهذا تمّ تفسير سورة النساء والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وذرّيته وزوجه وصحبه وحزبه.

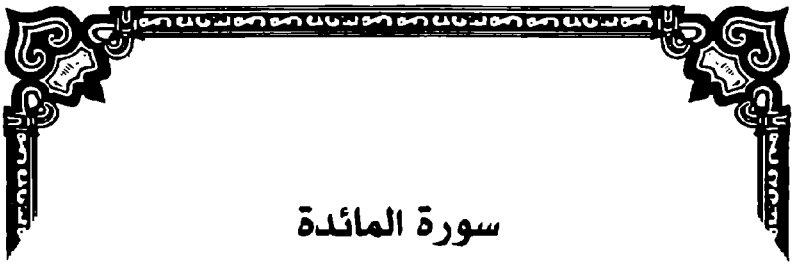

سورة المائدة

وهي السورة الرابعة من السور الطوال على التوالي، من المدنيات وهي مائة وعشرون آية، أكثرها يتحدّث عن الأحكام الشرعية، كالعقود والصيد والذبائح ونكاح الكتابيات وحلية طعام أهل الكتاب وأحكام الوضوء والغسل والتيمّم وقتل الصيد حالة الإحرام وجزاء ذلك والوصية عند الموت حالة السفر وحد السرقة والبغي والإفساد في الأرض وتحريم الخمر والميسر وكفارة اليمين وغير ذلك من الأحكام التي لا توجد إلاّ فيها فهي سورة عظيمة.

{٣١٦} ـ عن جبير بن نفير رحمه الله تعالى قالت: دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت لي: هل تقرأ سورة المائدة؟ قلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه.

رواه أحمد (١٨٨/٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣٣/٦)، والحاكم (٣١١/٢)، والبيهقي (١٧٢/٧) وغيرهم وسنده حسن، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ونحوه عن عبدالله بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة، رواه أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه.

اختلفت الأحاديث في آخر ما نزل، وقد تقدم قريباً بعض ذلك، فقد يقال في هذه السورة: إنها آخر ما نزل من أحكام الدين وفرائضه وحلاله وحرامه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [١]:

{٣١٧} ـ عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم رحمهم الله تعالى، قال: هذا كتاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلّمهم السنّة ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه بأمره، فكتب: **«بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتابٌ من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهدٌ من محمد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعَمْرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمَرهُ بتقوى الله في أمْره كلّه، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»**.

رواه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن إسحٰق وسنده إلى أبي بكر حسن، ورواه ابن جرير (٤٩/٥) من طريق آخر عن ابن شهاب الزهري، قال: قرأت كتاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران، قال: فكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم إلخ، وروى بعضه مالك في الموطأ، وعبدالرزاق في المصنف، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٨٨/١) ج(١٨٩/١٠) بسند صحيح.

كتاب عمرو هذا صحيح أشبه المتواتر، كما قال غير واحد من الأعلام وفيه فرائض وأحكام، ومنها ذكر الآية الكريمة الآمرة بالوفاء بالعقود، وانظر ما سيأتي في سورة الواقعة رقم (١٠٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [٢]

{٣١٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«انْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً أو مظلوماً»**، قيل: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً، قال: **«تَمنعُه من الظلم، فذلك نَصْرُكَ إيَّاهُ»**.

رواه أحمد (٩٩/٣، ٢٠١)، والبخاري في المظالم (٢٤٤٣، ٢٤٤٤)

وفي الإكراه، والترمذي في الفتن (٢٠٨٣) بتهذيبي وغيرهم، وفي الباب عن جابر عند مسلم.

في الحديث وجوب نصر المظلوم وكفّ الظالم عن ظلمه، وذلك من باب التعاون على البرّ والخير والتقوى، والآية أوسع من هذا وأشمل فهي من أكبر وأعظم قواعد الدين الإسلامي، فيدخل فيها جزئيات كثيرة.

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ الآية [٣]:

{٣١٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أحلّت لنا ميتتان ودمان، فأمّا الميتتان فالجراد والحوت، وأمّا الدمان فالكَبِد والطِّحَال**».

رواه أحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه (٣٣١٤)، والدارقطني (٤/٢٧١، ٢٧٢)، والبيهقي (١/٢٥٤) وج(٩/٢٥٧) من طرق هو بها حسن، وأخرجه البيهقي (١/٢٥٤) موقوفاً بسند صحيح، وقال: إنه في معنى المسند وصححه هو والنووي في شرح المهذّب (٢/٥٦٦).

جاء الحديث النبويّ مخصّصاً للآية الكريمة، فالميتة والدم كلاهما حرام إلاّ ما في الحديث، فمستثنيان، فالجراد والحيتان كلّها حلال، وإن لم تذك كما أن الكبد والطحال مباحان، وهما دم معقود.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [٣]:

{٣٢٠} ـ عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله إنّا لاقُوا العدُوّ غداً وليس معنا مُدَى أفَنَذْبَحُ بالقَصَب؟ فقال: «**مَا أنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسمُ الله عليه فكلُوهُ ليس السِّنّ والظفر، وسأُحَدِّثُكُم عن ذلك. أمّا السِّنُّ فعظمٌ، وأمّا الظفر فمُدَى الحبشة**».

رواه أحمد (٣/٤٦٣)، والبخاري في الذبائح والمظالم، ومسلم في الأضاحي (١٣/١٢٢)، وأهل السنن الأربعة، ويأتي في الذبائح.

الحديث يدلّ على أن كل ما أراق الدم من البهيمة؛ من حلقها مع

ذكر اسم الله تعالى، فهو مباح، غير أنه يستثنى من ذلك العظم والظفر مثلاً فلا تجوز التذكية بهما، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ هو استثناء متصل على قول الجمهور من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ فما بعدها يعني: إلا ما لحقتم من هذه على قيد الحياة، فعملتم فيها الذكاة، فإنها حلال.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [٣]:

{٣٣١} ـ عن طارق بن شهاب رحمه الله تعالى قال: قالت اليهود لعمر رضي الله تعالى عنه: إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عِيداً، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، حيث أنزلت يوم عرفة، وأنا والله بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في الإيمان وفي المغازي وفي التفسير (٩/٣٣٩) وفي الاعتصام، ومسلم (١٨/١٥٢، ١٥٣، ١٥٤)، والترمذي (٢٨٤٧) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٢).

هذه آية عظيمة؛ فيها امتنان الله عزّ وجلّ على كافّة الأُمّة الإسلامية بإتمام هذا الدين، وإسباغه تعالى علينا النعمة ورضائه لنا الإسلام ديناً، وهي من النِّعم التي لا توازيها نعمة، بل ولا تقاربها وهي من النِّعم الخمس التي لا يَدَ للإنسان فيها، بل هي مجرد فضل ورحمة منه عزّ وجلّ.

والآية الكريمة من أواخر ما نزل من الأحكام والحلال والحرام، فيحق للمسلمين أن يتّخذوا يوم نزولها عيداً وذكرى إخلاداً لتلك النعمة العظمى، وشكراً لما منَّ به علينا وأنعم، فله الحمد والشكر دائماً سرمداً.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣]:

{٣٣٢} ـ عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا: يا

رسول الله إنا بأرض تُصِيبُنا بها المَخْمَصةُ، فمتى تَحِلُّ لنا بها المَيْتَة؟ فقال: **«إذا لم تَصْطَبِحُوا ولم تَغْتَبِقوا ولم تَحْتَفِئُوا بها بَقْلاً فشأنكم بها»**.

رواه أحمد (٥/٢١٨) وسنده صحيح على شرط الشيخين، ورواه ابن جرير (٥/٨٦، ٨٧) من طرق، والحاكم (٤/١٢٥).

{٣٣٣} ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً نزل الحرَّة ومعه أهله وولَدُه، فقال رجل: إن ناقة لي ضَلَّت فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت امرأته: انْحَرْها، فأبَى فنفَقت، فقالت: اسْلَخْهَا حتى نُقَدِّدَ شَحْمَها ولَحْمَها ونأكُله، فقال: حتى أسأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأتاه فسأله فأخْبَره الخبَر، فقال له: **«هل عندك غِنًى يُغْنِيك»**؟ قال: لا، قال: **«فكُلُوها»**، قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلاَّ كُنْتَ نَحَرْتَها، قال: اسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ.

رواه أبو داود في الأطعمة (٣٨١٦) بسند حسن.

اضطر أي: ألجيء، مخمصة: أي: مجاعة، متجانف: أي: مائل لإثم.

وقوله في الحديث: تصطبحوا أي: لا توقدوا سراجاً ولا مصباحاً، وقوله: لم تغتبقوا أي: ليس لكم حليب تشربونه في الغبوق أي: العشي، وقوله: ولم تحتفئوا، أي: لم تجدوا شيئاً من البقول في الأرض تفتعلونه وتأكلونه.

الآية الكريمة تنصّ على أن من ألجأته الضرورة عند المجاعة إلى أكل المحرمات المتقدمة فلا حرج عليه، فالله غفور له، رحيم به ما لم يكن في ذلك متعمداً للأكل فوق الشبع ومنحرفاً إلى الإثم أو متعرّضاً لمعصية.

وجاء الحديث الأول يوضح حالة الاضطرار وهي أن لا يجد الإنسان ما يوقد به مصباحه ولا ما يشربه في مسائه من لبن، ولا يجد بقلاً يطبخه ويسدّ به رمقه، ففي هذه الحالة له أن يتناول ما حرم الله تعالى عليه من الأطعمة...

أما الحديث الثاني، فجاء مبيحاً للميتة عند فقدان ما يغني عنها من الحلال، ومن هنا يعلم بطلان ما يردده كثير من الناس من قولهم: الضرورات تبيح المحظورات بإطلاق، وقد يكون عنده ما يسدّ به رمقه، ويكون له أثاث وأمتعة وأشياء فضلة قد تغنيه عن المحرمات وتعاطيها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [٤]:

{٣٢٤} ـ عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أُرْسِل الكلاب المُعَلَّمة وأذكر اسمَ الله، فقال: «**إذا أرسلت كلبَك المُعلَّم وذكرتَ اسم الله عليه فكُلْ ما أمْسَك عليكَ**»، قلت: وإن قتلن؟ قال: «**وإن قتلنَ ما لم يَشْرَكْهَا كلبٌ ليس منها، فإنك إنما سمَّيت على كَلْبك ولم تُسَمِّ على غيره**»، قلت له: فإني أرمي بالمِعْرَاض في الصيد فأُصِيبُ، فقال: «**إذا رميتَ بالمِعْرَاضِ فخَزَقَ فكُلْه، وإن أصابه بِعَرْضٍ فإنه وَقِيذٌ فَلا تَأْكُلْه**».

وفي رواية: «**إذا أرسلتَ كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركْتَه حياً فاذْبَحْه، وإن أدركْته قد قَتل ولم يأكل منه فكلْه فإن أخذ الكلب ذكاتُه**».

وفي رواية: «**فإن أكل فلا تأكلْ، فإني أخافُ أن يكون أمسك على نَفْسه**».

رواه أحمد (٤/٢٥٦، ٣٨٠) وفي مواضع، والبخاري (١٢/٢٢، ٢٩)، ومسلم (١٣/٧٣، ٧٨) كلاهما في الصيد، ورواه البخاري في مواضع ورواه باقي الجماعة، ويأتي أيضاً في الصيد ونحوه عندهم عن أبي ثعلبة الخشني، ويأتي في الذبائح والصيد إن شاء الله.

من نِعم الله تعالى علينا وخاصة سكان البادية أن أباح لنا ما تأخذه الجوارح المُعَلَّمة من الصيد بشرط أن يكون الجارح من كلب وغيره معلَّماً عند صاحبه، وأن يذكر اسم الله عند إرساله، وأن لا يشركه كلب آخر في قتله، وأن لا يأكل منه.

وفي الحديث شرعية ما يقتل بما يجرح إذا سمّي الله عند الضرب، فإن ضرب ولم يجرحه فقتل كان ميتة، وستأتي بقية في الصيد إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [٦]:

{٣٢٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سَقطتْ قلادةٌ لي بالبَيْداء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر فلكَزَني لَكْزَةً شديدة، وقال: حَبَسْت الناس في قِلادة، فتمنّيتُ الموت لِمكانِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مِنّي، وقد أوجعني، ثم إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اسْتيقظ وحضرت صلاة الصبح، فالتمس الناس الماء فلم يوجد فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، فقال أُسَيْد بن الحُضَيْر: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

رواه البخاري في التيمّم (١/٤٤٨، ٤٥١)، وفي سورة المائدة (٩/٢٤١، ٢٤٢) وتقدم في التيمّم.

هكذا رواه البخاري في التفسير، وأن هذه الآية نزلت بسبب قلادة مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، وتقدم في النساء أن الآية النازلة بهذا السبب هي الآية الأخرى المتقدمة. ولذلك جعل القاضي أبو بكر ابن العربي هذه المسألة من المعضلات التي لم يجد لها دواء، قال: لأنا لا نعلم أي الآيتين عنت عائشة. قال ابن بطال: هي آية النساء أو آية المائدة. وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء وآية

النساء لا ذكر فيها للوضوء فيتّجه تخصيصها بآية التيمّم إلخ. قال الحافظ: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أن المراد بها آية المائدة بغير تردّد لرواية عمرو بن الحارث؛ إذ صرّح فيها بقوله: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وما ذكره واضح، فإن هذه الرواية صريحة في المراد بنزول آية التيمّم التي عنت سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

{٣٢٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خرج من الخلاء فَقُرِّبت إليه طعامٌ، فقالوا: ألا نأتِيكَ بوَضوءٍ؟ قال: **«إنما أُمِرْتُ بالوُضوء إذا قمت إلى الصلاة»**.

رواه أحمد رقم (١٩٣٢، ٢٥٤٩، ٢٥٥٨، ٢٥٧١)، وأبو داود (٣٧٦٠)، والترمذي في الأطعمة (١٨٤٧)، والنسائي (٨٥/١)، وابن خزيمة (٣٥)، والبيهقي (٤٢/١، ٣٤٨)، وهو في صحيح مسلم رقم (٣٧٤) بلفظ: **«أريد أن أُصَلِّي فَأَتَوَضَّأَ»**، وفي رواية: **«ما أردتُ صلاة فأتَوَضَّأ»**.

{٣٢٧} ـ وعن عبدالله بن حنظلة بن الغَسِيل رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان أُمِرَ بالوُضُوءِ لكُلِّ صلاةٍ طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شَقَّ ذلك أُمِر بالسواك عند كل صلاة، وَوُضِعَ عنه الوُضوء إلا من حدث.

رواه أحمد (٢٢٥/٥)، وأبو داود في السواك رقم (٤٨) بسند حسن، وابن إسحٰق صرّح بالتحديث.

{٣٢٨} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتوضّأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح صلّى الصلوات كلَّها بوضوء واحد ومسحَ على خفّيه، فقال عمر: إنك فعلتَ شيئاً لم تكن تفعله، قال: **«عَمْداً فعلتُه»**.

رواه أحمد (٣٥٠/٥، ٣٥٨)، والطيالسي (١٨٧)، ومسلم (١٧٧/٣)، وأبو داود (١٧٢)، والترمذي (٥٣) بتهذيبي، والنسائي، وابن ماجه (٥١٠).

{٣٢٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة، قيل له: فأنتم ما كنتم تصنعون؟ قال: كنّا نصلّي الصلوات كُلَّها بوُضوء واحد ما لم نُحْدِثْ.

رواه البخاري (٣٢٨/١)، والترمذي (٥١)، والنسائي (٧٣/١)، والدارمي (٧٢٦)، وابن ماجه (٥٠٩).

أحاديث الباب تدلّ على أن الوضوء واجب للصلاة، وهذا لا خلاف فيه فهو شرط صحة لها بالإجماع، ولا يجب إلا عند إرادتها بدليل ظاهر الآية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ إلخ، وحديث ابن عباس والأحاديث الأخرى تدلّ على جواز الصلاة بوضوء واحد ما لم يطرأ حدث لكن السنّة تجديده لكل صلاة.

قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [٦]:

الصحابة الذين رووا لنا عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيان صفة الوضوء المذكور في هذه الآية كثيرون، وأشهرهم ثلاثة عشر نفراً، والذين استوعبوا صِفَتَهُ هم الإمام علي وعثمان وابن عباس وعبدالله بن زيد والرُّبَيِّع رضي الله تعالى عنهم، وكل هذا قد تقدّم في الطهارة والحمدلله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [٦]:

تقدم في كتاب الطهارة ما يتعلق بالتيمّم، وما جاء فيه من الأحاديث والسنّة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [١١]:

{٣٣٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نزل منزلاً وتفرق الناس في العِضَاهِ يستظلّون تحتها، وعلّق النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سِلاَحَه بِشَجَرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: مَنْ يَمْنَعُك مني؟ قال: «الله عزّ وجلّ»، قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «الله»، قال: فشاحَ الأعرابي السيف فدعا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يُعاقبه، وقال معمر: كان قتادة يذكر نحو هذا، ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكُوا برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

رواه ابن جرير (١٤٦/٦)، والبيهقي في الدلائل (٣٧٤/٣)، وزاد في الدرّ المنثور (٣٥/٣) عَبْدَ بن حُمَيْد وابن المنذر، وسنده صحيح رجاله رجال الشيخين.

والحديث رواه أحمد (٣١١/٣، ٣٦٤، ٣٩٠)، والبخاري في الجهاد وفي غزوة ذات الرقاع (٤٣٠/٨، ٤٣٢)، ومسلم في الفضائل (٤٤/١٥، ٤٥)، والحاكم (٢٩/٣) بنحوه بدون ذكر الآية، والأعرابي هو غَوْرَثٌ كما جاء مسمى في رواية.

وفي الآية الكريمة تذكير من الله عزّ وجلّ بنعمته على الصحابة حيث كفّ أيدي الأعادي عنهم بعد أن همّوا بالإيقاع بهم، والحديث ظاهر في أن سبب الآية هو ما ذكر فيه، ورجح ابن جرير أنّ السّبب كان هَمُّ يَهُودِ بني النضير بِقَتْل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ إلخ [١٥]:

{٣٣١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مَنْ كفر بالرجم فقد كَفَرَ بالقرآن من حيث لا يَحتسب، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٣٣)، وابن جرير (٦/١٦١)، وابن حبان (٥١١) بالموارد، والحاكم في الحدود (٤/٣٥٩) وصححه ووافقه الذهبي.

الآية والأثر يدلاّن على أن اليهود كانوا يكتمون كثيراً من الأحكام التي كانت عندهم في التوراة، فجاء رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يفضحهم ويبيّن ما أخفوه كآية الرجم كما تقدم في آل عمران.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [١٧]:

{٣٣٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في نفرٍ من أصحابه وصَبِيٌّ في الطريق، فلما رأت أمُّه القومَ خَشِيَتْ على ولدها أن يُوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابنِي ابْنِي وسَعَت فأخذتْه، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتُلْقِي ولدَها في النار، قال: فخَفضهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**ولا الله يُلْقِي حَبِيبَه في النارِ**».

رواه أحمد (٣/١٠٤، ٢٣٥)، وأبو يعلى (٣٧٣٥)، والحاكم (١/٥٨)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وعزاه النور (١٠/٣٨٣) لأحمد والبزار وأبي يعلى، وقال: رجالهم رجال الصحيح.

في الحديث بشارة للمحبّين لله عزّ وجلّ بأن الله لا يعذّبهم، فإن الحبيب لا يمكن له بحال أن يعذّب حبيبه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [١٩]:

{٣٣٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أنا أَوْلَى الناس بعيسى ابن مريم في الأُولى والآخرة**»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «**الأنبياءُ إخوةٌ من علاّتٍ وأُمَّهاتُهم شتّى، ودينهم واحدٌ ليس بيننا نبيّ**».

رواه أحمد (٣١٩/٢، ٤٣٧، ٤٦٣، ٤٨٢، ٥٤١)، والبخاري في الأنبياء (٢٩٨/٧، ٢٩٩)، ومسلم في الفضائل (١١٩/١٥)، وأبو داود في السنّة (٤٦٧٥) وغيرهم.

قوله: إخوة علاّت، في رواية: أبناء علات، وفي أخرى: أولاد علات.

والعلات ـ بفتح العين ـ: هن الضرائر، وأولادهن هم الإخوة من أبٍ واحد وأمّهات شتى، وهذا تمثيل لاختلاف شرائع الأنبياء، فأُمّهاتهم هن شرائعهم والأب هو أصول الدين، فالأنبياء متّفقون فيه مع اختلاف شرائعهم. والحديث يدلّ على أنه ليس بين نبيّنا وعيسى عليهما الصلاة والسلام نبيّ، فكانت بعثته جاءت بعد فترة من الرسل، كما في الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [٢٤]:

{٣٣٤} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: جاء المقداد رضي الله تعالى عه يوم بدر وهو على فرس له، فقال: يا رسول الله إنا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ إلخ، ولكنه امْضِهْ ونحنُ معك، فكأنه سري عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في المغازي وفي التفسير (٣٤٢/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٣/٦)، والحاكم، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل.

{٣٣٥} ـ وعن أنس نحوه، رواه أحمد (١٠٥/٣، ١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٣٣٤/٦)، وأبو يعلى (٣٧٦٦، ٣٨٠)، وابن حبان (٤٧٠١) بالإحسان بسند صحيح، وأصله في صحيح مسلم (١٢٤/١٢). وفيه قول سعد بن عبادة...: والذي نفسي بيده لو أمَرْتَنا أن نُخيضَها البحر لأخَضْنَاها، ولو أمرتنا أن نَضْرب أكبادَها إلى بَرْكِ الغِماد لفعلنا... الخ، وسيأتي تامّاً مطولاً في الغزوات والسير. وبرك ـ بفتح الباء وسكون الراء ـ

والغماد ـ بكسر الغين المعجمة وضمّها ـ موضع بطرف اليمن...

وفيه فضل الصحابة وخاصة الأنصار، حيث كانوا أطوع الناس لله ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولم يكونوا كاليهود الملاعين الذين قالوا لنبيّهم: اذهب أنت وربك فقاتلا، إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ الآية [٢٧]:

{٢٣٦} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كانَ على ابن آدم الأول كفلٌ من دمِها، لأنه أوّل من سَنَّ القتل**».

رواه أحمد (٣٨٣/١، ٤٣٠)، والبخاري في الأنبياء (١٧٩/٧)، وفي الديات وفي الاعتصام، ومسلم في القسامة (١٦٦/١١)، والترمذي في العلم (٢٦٧٣)، والنسائي في الكبرى (٣٣٤/٦)، وفي المجتبى، وابن ماجه في الديات (٢٦١٦) وغيرهم.

كفل ـ بكسر الكاف ـ أي: نصيب، وفي الحديث وعيد شديد لابن آدم قابيل الذي قتل أخاه هابيل عدواناً وظلماً، وأن جميع ما يراق من الدماء بغير حقّ في هذه الأرض فعليه نصيب منها لأنه أول من سنّ هذه السنّة الظالمة، وقد قصّ الله عزّ وجلّ علينا قصّتهما وما دار بينهما، وكان الحامل لقابيل على سفك دم أخيه هو الحسد، وهو أول شرّ وفساد وقع في الأرض من بني آدم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [٢٨]:

{٢٣٧} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنها ستكونُ فتنةٌ، القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من السَّاعي**»، قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني،

قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كن كابْنَي آدَم**»، وتلا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ الآية.

رواه أحمد (١٨٥/١)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢٠٢٥) كلاهما في الفتن بسند صحيح على شرط مسلم.

{٣٣٨} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه نحوه، وفيه: «**فكَسِّرُوا قِسِيَكم، وقَطِّعُوا أوْتَارَكُم، واضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بالحِجَارَة، فإن دخل يعني: على أحدكم فليكن كخير ابني آدم**».

رواه أبو داود (٤٣٥٩)، والترمذي (٢٠٣٤) في الفتن، وابن ماجه (٣٩٦١)، وابن حبان (١٨٦٩) بالموارد، وسنده صحيح.

ما في الحديثين محمول على أيام الفتنة والقتال بين المسلمين عند اشتباه الحق بالباطل وعدم بيان المحق من غيره، ففي هذه الحالة ينبغي للمؤمن الملتزم أن يكفّ عن الدخول في الفتنة، وأن لا يقاتل أحداً بل يسلم نفسه لمن يقتله كما وقع من هابيل حيث استسلم لأخيه، وقال له ما قصّه الله تعالى علينا. أما عند ظهور جانب الحقّ، فيجب قتال المبطلين من البغاة وغيرهم، على أنه يجوز للإنسان الدفاع عن نفسه، كما جاء في الأحاديث الأخرى.

﴿قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ [٢٩]:

{٣٣٩} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، أو قال: ما خار الله لي ورسوله؟ قال: «**عليك بالصبر**» أو قال: «**تصبر**»، ثم قال لي: «**يا أبا ذرّ**»، قلت: لبّيك وسعديك، قال: «**كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم**»؟ قلت: ما خار الله لي ورسوله؟ قال: «**عليك بمن أنت منه**»، قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفي وأضعه على عاتقي، قال: «**شاركت القوم**

إذن»، قلت: فما تأمرني؟ قال: **«تلزم بيتك»**، قلت: فإن دخل على بيتي؟ قال: **«فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف، فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه»**.

رواه أحمد (١٦٣/٥)، وأبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وابن حبان (١٨٦٢، ١٨٦٣)، والحاكم (٤٢٣/٤، ٤٢٤)، والبيهقي (١٩١/٨) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

{٣٤٠} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: يا أبا عبدالله ما تأمرنا إذا اقتتل المصلون؟ قال: **«آمرك أن تنظر أقصى بيت من دارك فتلِجَ فيه، فإن دخل عليك فتقول: هابُؤ بإثمي وإثمِك فتكون كابن آدم»**.

رواه الحاكم (٤٤٤/٤، ٤٤٥) وصححه على شرط الشيخين، وأورده ابن كثير وغيره عن ابن مردويه، وذكره مرفوعاً وقال فيه: لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت في داري فلألجنّه فلئن دخل عليّ فلان لأقولن: هابُؤ بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم.

فما ذكر في الحديثين هو تفسير للآية الكريمة: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ أي: ترجع ﴿بِإِثۡمِي﴾ قتلي إن قتلتني ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الذي كان منك قبل قتلي، فتصير من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلخ [٣٣]:

{٣٤١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن نفراً من عُكْلٍ قدموا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأسلموا واجْتَوَوْا المدينة، فأمرهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها فقتلوا راعيها واستاقوها، فبعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طلبهم قافّة فأُتِي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَل أعينهم،

ولم يحسِمْهم وتركَهم حتى ماتوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية.

رواه البخاري في الطهارة وفي الجهاد وفي المغازي وفي الحدود وفي التفسير (٣٤٣/٩)، ومسلم في القسامة (١٥٤/١١، ١٥٦، ١٥٧)، وأبو داود في الحدود (٤٣٦٤، ٤٣٦٥، ٤٣٦٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣٤/٦) وغيرهم.

الآية الكريمة والحديث الشريف كلاهما يدلاّن على أن حكم المفسدين من قاطعي الطريق ومخيفي المسلمين... أن يخيّر فيهم الحاكم الإسلامي بين ما ذكرته الآية. وهذا الحكم يجري على كل من أفسد في الأرض بالقتل أو قطع الطريق أو نَشْرِ ما يُفْسِد العقول كأرباب المخدّرات ونحو ذلك.

وقوله في الحديث: فاجتَوَوْا المدينة، أي: لم يوافقهم هواؤها، وقوله: سمل أعينهم أي: فقأها، وفي رواية: سمر - بالميم - أي: كحلها بمسامير، وقوله: لم يحسمهم أي: لم يكو منهم موضع القطع، بل تركهم كذلك حتى نزفوا فماتوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [٣٦]:

{٣٤٢} - عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقول: **«يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملىء الأرض ذهباً أكنتَ تَفْتَدِي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئِلتَ ما هو أيسَرُ من ذلك».**

وفي رواية: **«يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنتَ مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم ألا تشرك ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك».**

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إنّ الله لم يُهلِك قوماً**»، أو قال: «**لم يَمْسخْ قوماً فيَجْعَل لهم نَسْلاً ولا عَقِباً، وأن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**».

وفي رواية: سألْنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**لا إن الله لم يَلْعَنْ قوماً قطّ فمسَخَهم، فكان لهم نسلٌ، ولكن هذا خلق فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم**».

رواه بالرواية الأُولى أحمد (٣٩٠/١، ٤١٣)، ومسلم في القدر (٢١٣/١٦)، وبالثانية أحمد (٤٢١/١)، وابن أبي حاتم (١١٦٥/٤) وغيرهما.

الآية كالحديث يدلاّن على أن اليهود قد مسخوا قردة وخنازير بعد أن لعنهم الله وغضب عليهم، كما أن الحديث يدلّ على أن القردة والخنازير الموجودة هي من جملة ما خلق الله من الكائنات، وليست من بقايا ممسوخي بني إسرائيل، فإن الحديث صريح في أن الممسوخ لا نسل له ولا عقب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

{٣٤٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يَمِينُ الله مَلأَى سَحّاء لا يَغِيضُها الليل والنهار**»، قال: «**أَرَأَيْتُم ما أنفقَ منذُ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، وعَرشُه على الماء، وبيدِه الأُخرى الميزانُ، يَخْفِض ويرفع**».

رواه أحمد (٥٠٠/٢)، والبخاري في سورة هود (٤٢١/٩)، وفي التوحيد ومسلم في الزكاة (٧٩/٧)، والترمذي في التفسير (٢٨٤٩) بتهذيبي، وابن ماجه وغيرهم.

قوله: سحّاء ـ بفتح السين والحاء المشدّدة الممدودة ـ أي: دائمة الصب والعطاء، وقوله: لا يغيضها أي: لا ينقصها.

وفي الآية والحديث ردّ على اليهود الملاعين الذين وصفوا الله عزّ وجلّ بالبخل مع أنه جواد كريم يمينه ملآنة دائمة العطاء لا ينقصها الليل والنهار، وما ذكر في الآية من اليد واليدين، وفي الحديث من اليمين يجب الإيمان بذلك كما جاء من غير توهّم ولا تكييف ولا تشبيه، قال الإمام أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى عند هذه الآية والحديث: وهذا حديث قد روته الأئمّة نؤمن به كما جاء من غير أن يفسّر أو يتوهّم، هكذا قال غير واحد من الأئمّة والثوري ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك أنه تروى هذه الأشياء ويؤمن بها فلا يقال كيف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [٦٧]:

{٣٤٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ثلاثٌ من قال واحدة منهنّ فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أنه يعلم ما في غد، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، ومن زعم أن محمداً صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كتم شيئاً من الوحي والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، ومن زعم أن محمداً صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ إلخ، الحديث.

رواه أحمد (٦/٤٩، ٥٠)، والبخاري في التفسير (٩/٣٤٤)، وفي بدء الخلق وفي التوحيد ومسلم في الإيمان، والترمذي (٣٠٦٨)، والنسائي (٦/٣٣٥، ٣٣٦) كلاهما في التفسير، ويأتي في الأنعام وفي النجم.

والآية الكريمة صريحة في الأمر الإلهي لنبيّه الكريم بتبليغ الرسالة، وقد بلغ ونصح وما كتم شيئاً من الوحي الذي يحتاجه الناس، وحاشاه من ذلك، ولذلك كان يقول: **«اللّهمّ هل بلّغت، اللّهمّ فاشهد»**.

ومن زعم أنه كتم شيئاً خصّ به الأوصياء من أهل البيت كما يزعمه الروافض، فقد كفر لتكذيبه القرآن.

رواه النسائي في الكبرى (٣٣٦/٦)، وابن جرير (٥/٧)، وابن أبي حاتم (١١٨٥/٤)، وعزاه النور في المجمع (٤١٩/٩) للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عثمان بن بحر وهو ثقة.

فيه الثناء الجميل من الله عزّ جلّ على هؤلاء النصارى المؤمنين وحق لهم ذلك، فإن البكاء من خشية الله ومحبّته... من أخلاق الصادقين وصفات الصالحين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ إلخ [٨٧]:

{٣٥٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إني إذا أصبتُ اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتْني شهوتي، فحرَّمتُ عليَّ اللحم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ﴾ إلخ. إلى قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

رواه الترمذي (٣٠٥٤) في التفسير بتهذيبي، ورواه ابن جرير (١١/٧)، وابن أبي حاتم (١١٨٦/٤) بسند حسن.

{٣٥٤} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن ناساً من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سألوا أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصومُ وأُفطر، وأنامُ وأقوم، وآكلُ اللَّحمَ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منّي»**.

وفي رواية: فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا

أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء إليهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكُمْ له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»**.

رواه مسلم بالرواية الأُولى (٩/١٧٥، ١٧٦)، والبخاري بالثانية (١١/٤، ٥) كلاهما في النكاح.

{٣٥٥} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنّا نغزو مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وليس معنا نساء، فقلنا: يا رسول الله ألا نَسْتَخْصِي؟ فنهانا عن ذلك، ورخّص لنا أن نَنْكِحَ المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٤٥) وفي النكاح، ومسلم في باب نكاح المتعة (٩/١٨٢).

في هذه الآية الكريمة مع الأحاديث المذكورة النهي عن تحريم ما أحلّ الله لنا من الطيّبات مأكولات ومشروبات وملبوسات ومنكوحات... وأن من فعل ذلك كان من المعتدين خارجاً عن هدي الرسول، ويأتي في النكاح بقية إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [٩٠، ٩١]:

{٣٥٦} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: نزلت فيَّ آياتٌ من القرآن، فذكر الحديث وفيه: وأتيتُ على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمراً، وذلك قبل أن تحرم

رواه النسائي في الكبرى (٣٣٦/٦)، وابن جرير (٥/٧)، وابن أبي حاتم (١١٨٥/٤)، وعزاه النور في المجمع (٤١٩/٩) للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عثمان بن بحر وهو ثقة.

فيه الثناء الجميل من الله عزّ جلّ على هؤلاء النصارى المؤمنين وحق لهم ذلك، فإن البكاء من خشية الله ومحبّته... من أخلاق الصادقين وصفات الصالحين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ إلخ [٨٧]:

{٣٥٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إني إذا أصبتُ اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتْني شهوتي، فحرَّمتُ عليَّ اللحم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ﴾ إلخ. إلى قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

رواه الترمذي (٣٠٥٤) في التفسير بتهذيبي، ورواه ابن جرير (١١/٧)، وابن أبي حاتم (١١٨٦/٤) بسند حسن.

{٣٥٤} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن ناساً من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سألوا أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«ما بال أقوام يقول أحدُهم كذا وكذا، لكني أصومُ وأُفطر، وأنامُ وأقوم، وآكلُ اللَّحمَ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني»**.

وفي رواية: فلما أُخبِرُوا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا

أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء إليهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكُمْ له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»**.

رواه مسلم بالرواية الأُولى (٩/١٧٥، ١٧٦)، والبخاري بالثانية (١١/٤، ٥) كلاهما في النكاح.

{٣٥٥} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنّا نغزو مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وليس معنا نساء، فقلنا: يا رسول الله ألا نَسْتَخْصِي؟ فنهانا عن ذلك، ورخّص لنا أن نَنْكِحَ المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٤٥) وفي النكاح، ومسلم في باب نكاح المتعة (٩/١٨٢).

في هذه الآية الكريمة مع الأحاديث المذكورة النهي عن تحريم ما أحلّ الله لنا من الطيّبات مأكولات ومشروبات وملبوسات ومنكوحات... وأن من فعل ذلك كان من المعتدين خارجاً عن هدي الرسول، ويأتي في النكاح بقية إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [٩٠، ٩١]:

{٣٥٦} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: نزلت فيَّ آياتٌ من القرآن، فذكر الحديث وفيه: وأتيتُ على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمراً، وذلك قبل أن تحرم

الخمر، قال: فأتيتهم في حُشٍّ ـ والحُشّ البستان ـ قال: فإذا رأس جزور مشوي عندهم وزِقٌّ من خمر، فأكلتُ وشربتُ معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرَحَ أنفي، فأتيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبرتُه، فأنزل الله عزّ وجلّ فيّ، ـ يعني: نفسه ـ شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

رواه مسلم في الفضائل (١٤/١٨٥، ١٨٦)، وابن جرير (٧/٣٣، ٣٤)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٠٠).

في الحديث أن قصة سعد هذه هي سبب نزول الآية، وتقدم في البقرة حديث عمر في ذلك وأنه بسببه نزلت. قال ابن جرير ما معناه: وجائز أن يكون نزولها بسبب دعاء عمر وبسبب ما نال سعداً من الأنصاري...

وتحريم الخمر لا خلاف فيه بين المسلمين وهو قطعي الدلالة والثبوت معاً، ورغم ذلك يوجد في عصرنا من يزعم أن تحريمه ليس فيه نص من القرآن... مع الإجماع على تحريمه وكفر مستحلّيه، وانظر ما كتبته في التفسير بالحديث المرفوع في هذا الموضوع، فقد ذكرت دلالة الآية على تحريمه من ثمان وجوه مع إيراد الأحاديث في تحريم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾:

{٣٥٧} ـ عن بريدة بن الحُصَيب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنما صَبَغَ يَدَه في لَحمِ خِنْزِير ودَمِهِ»**.

رواه أحمد (٥/٣٥٢)، ومسلم في كتاب الشعر (٢٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٣٩)، وابن ماجه (٣٧٦٣) ونحوه عن أبي موسى بلفظ: **«من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله»**، رواه أحمد (٤/٣٩٤)، وأبو داود (٤٩٣٨)، وابن ماجه (٣٧٦٣)، والحاكم (١/٥٠) وغيرهم.

النردشير - بفتح النون وسكون الراء وفتح الدال ثم شين مكسورة - هي كلمة معربة، وهي عبارة عن لعبة كانت عندهم معروفة، وقد صحّ عن ابن عمر أنها من الميسر، فاللاعب بها وبغيرها من ألعاب القمار عاصٍ لله ولرسوله، وكفى بذلك خبثاً وقذارة أن يكون كملطخ يده في لحم خنزير ودمه.

وسمّي القمار ميسراً لأن المقامر يأخذ أموال المقامرين معه بيسر وبدون أي تعب وعناء، وهو محرّم بالإجماع.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ إلخ [١٩٣]:

{٣٥٨} - عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر فأمر منادياً فنادى، فقال أبو طلحة: اخرج، فانظر ما هذا الصوت، قال: فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرّمت، فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فَجرتْ في سِكَك المدينة، قال: وكانت خمرُهم يومئذ الفضيخَ، فقال بعض القوم: قتل قوم، وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾.

رواه البخاري في التفسير (٣٤٨/٩) وفي الأشربة، ومسلم في الأشربة أيضاً.

وجاء نحوه باختصار عن البراء قال: مات رجال من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل أن تحرم الخمر، فلما حرمت قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٥٠، ٣٠٥١)، وابن حبان (١٧٤٠)، وحسّنه الترمذي وصححه، ونحوه أيضاً عن ابن عباس عند الترمذي (٣٠٥٢) وحسّنه وصححه.

في الآية كالأحاديث أنه لا حرج على مَن كان يشرب الخمر قبل تحريمها بل لا مفهوم للخمر فكل المحرمات كذلك، فلا تكليف قبل الشرع، وهكذا الأمر فيمن ارتكب أي معصية قبل معرفته بتحريمها، فإنه لا حرج عليه إذا انتهى وأصلح.

﴿ قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [٩٦]:

{٣٥٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمَّر علينا أبا عُبَيدة نتلقى عيراً لقريش، وزوَّدنا جِراباً من تمر لم يجد لنا غيرَه، وكان أبو عبيدة يُعطينا تَمْرةً تَمْرة، قال: **فقلت**: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصّها كما يمصُّ الصَّبيّ ثم نَشْرَبُ عليها من الماء، فتَكْفِينا يومَنا إلى الليل، وكنا نضرب بعُصِيّنا الخَبَط ثم نَبُلُّه بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العَنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا نحن رُسُلُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكُلُوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتى سمِنَّا فذكر الحديث، وفيه: فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرنا ذلك له، فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم مِن لحمه شيءٌ فتُطْعِمُونا**»؟ قال: فأرسلنا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم منه فأكله.

رواه البخاري في الشركة وفي المغازي (٩/١٤٠، ١٤٤)، ومسلم في الصيد والذبائح (١٣/٨٤، ٨٥، ٨٩) بألفاظ.

في هذا الحديث الشريف كالآية الكريمة دليل على إباحة صيد البحر وطعامه ولا خلاف في ذلك في الجملة، وإنما الخلاف في بعض أفراده كالكلب والخنزير ونحوهما، وقد تقدم في الطهارة حديث: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»، وفي الحديث فوائد لها محل آخر.

قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [٩٦]:

فيها حديثا أبي قتادة في حمار الوحشي والصعب بن جثامة في ذلك أيضاً وتَقَدَّما في كتاب الحج.

وفي كل ذلك دليل على تحريم الاصطياد حالة الإحرام أو الأكل من الصيد لمن صيد لأجله.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [٩٧]:

{٣٦٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يَغْزُو جيشٌ الكعبة فإذا كانوا بِبَيْداءَ من الأرض خُسِفَ بأوّلهم وآخِرهم»**، فقلت: يا رسول الله كيف يُخْسَفُ بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟ قال: **«يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُبعثون على نيّاتهم»**.

رواه البخاري في البيوع (٥/٢٤٢، ٢٤٣)، وفي الحجّ ونحوه عند النسائي عن أبي هريرة.

{٣٦١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يُخَرِّبُ الكعبةَ ذُو السُّوَيْقتين مِنَ الحَبَشَةِ»**.

رواه أحمد (٢/٢٢٠)، والبخاري في الحجّ (٤/١٩٩، ٢٠٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٥، ٣٦)، وكذا النسائي في الكبرى (٦/٣٣٧)، وفي المجتبى في المناسك، وكذا الحميدي (١١٤٦)، وابن حبان (١٥/١٥٢) وغيرهم.

الكعبة جعلها الله عزّ وجلّ قياماً للناس، أي: يقيمون بها أمور دينهم من استقبالها في الصلاة والطواف بها في الحجّ والعمرة وغيرهما، فإذا انقرض المسلمون وذهبت مهمّتها جاءت الحبشة فغزتها وهدمتها حجراً حجراً واستخرجوا كنزها ثم لا تعمّر أبداً، وهذا سيكون بعد موت عيسى بزمان.

وقوله: السويقتين هو تصغير ساقين، وإنما صغرهما لأن سيقان الحبشة رقيقة غالباً. أما قبل سيدنا عيسى حيث لا يزال المسلمون يحجّون فسيؤمُّه جيشٌ ظالمٌ مُلْحِدٌ، فيخسف الله بهم الأرض جميعاً دفاعاً عن حرمه الشريف وانتقاماً من الملحدين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية [١٠١]:

{٣٦٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بلغ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أصحابه شيء فخطب، فقال: **«عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنار فلم أرَ كاليوم في الخير والشرّ، ولو تعلمون ما أعلم لضَحِكْتُمْ قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كثيراً»**، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يومٌ أشدّ منه، قال: غَطُّوا رُؤُوسَهُم ولهُم حَنِينٌ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله رَضِينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً، فقام ذلك الرجل فقال: من أبي؟ فقال: **«أبوك فلان»**، قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ﴾ الآية.

رواه أحمد (١٦٢/٣)، والبخاري في التفسير (٣٤٩/٩، ٣٥٠) وفي الرقاق وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل (١١١/١٥، ١١٢، ١١٣)، والترمذي (٢٨٥٨)، والنسائي (٣٣٨/٦) بألفاظ.

{٣٦٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تَضِلُّ ناقتُه: أين نَاقَتِي؟ فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ﴾ إلخ.

رواه البخاري في التفسير (٣٥٢/٩).

قد وردت لنزول الآية أسباب وما ذكرناه أصح ما جاء.

وفي الآية مع الحديثين ذم كثرة السؤال إذا لم يكن لحاجة ملحّة، أو كان بقصد الاستهزاء أو التعنّت أو التعجيز، فإن ذلك كلّه حرام.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [١٠٣]:

{٣٦٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رأيت عَمْرو بن لُحَيّ الخُزَاعي يَجُرُّ قُصْبَه في النار، كان أوَّل من سَيَّبَ السَّوَائِب**».

رواه البخاري في التفسير (٣٥٣/٩)، ومسلم في الجنّة (١٨٨/١٧، ١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨/٦)، ونحوه عن عائشة رواه البخاري (٣٥٤/٩)، وأوله: «**رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً**» إلخ.

{٣٦٥} ـ وعن مالك بن نَضْلة الجُشَمي رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فصعَّدَ فِيَّ النظر وَصَوَّبه، وقال: «**أرَب إبل أو غنم**»، قلت: من كل قد أتاني الله فأكثر وأطْيَب، فقال: «**ألستَ تُنتِجُها وافيةً أعيانَها وآذانَها فتَجْدَعُ هذه، وتقول: بَحيرَة، وتُفَقأ هذه، ساعِدُ الله أشدُّ، ومُوسَاه أحدُّ**».

رواه أحمد (٤٧٣/٣) و(١٣٦/٤، ١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨/٦)، وابن حبان (١٠٧٣)، والحاكم (١٨١/٤) وصححه، ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

قوله: قُصبه ـ بضم القاف وسكون الصاد ـ وهي المعى والمصارين. وقوله: ساعد الله إلخ، قال في النهاية: أي: لو أراد الله تحريمها بشقّ آذانها لخلقها كذلك، فإنه يقول لها: كوني فتكون.

والساعد والموسى معلومان وهما محال في حقّ الله عزّ وجلّ، لكن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو أعلم الخلق بربّه وبصفاته عبّر بذلك عن كمال قدرة الله عزّ وجلّ، وأنه ذو القوّة المتين لا يتعاظمه شيء.

فالساعد حكمه بالنسبة لله كاليد، واليمين نؤمن بذلك ولا يكيف شيء منها ولا يؤول ولا يشبّه.

هذا الخطاب الإلهيّ لرسوله عيسى عليه السلام سيكون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، كما قال ابن عباس وغيره وفيه فضيحة للنصارى الغالين الكذّابين.

قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [١١٨]:

{٣٦٩} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فرفع يديه وقال: «أُمّتي أُمّتي»، ثم بَكَى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أُمّتك ولا نسوءك.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٧٧، ٧٨)، وابن جرير (١٣/٢٢٩)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٥٤) وغيرهم، ويأتي في سورة الإسراء بأطول من هذا.

في هذا الحديث بيان كمال شفقته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورحمته بأُمّته واهتمامه بها، وأن الله سيعطيه من أنواع الشفاعة ما سيرضيه في أُمّته.

{٣٧٠} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى أصبح بآية، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٥/١٥٦، ١٧٠، ١٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والطحاوي في المعاني (١/٣٤٧)، والحاكم (١/٢٤١) وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها رواه الترمذي في الصلاة (٤٠١) بتهذيبي، ومن طريقه البغوي في شرح السنة (٩١٤) وسنده صحيح، وشاهد آخر عن أبي سعيد رواه أحمد (٣/٦٢) وسنده صحيح أيضاً.

وفي الحديث مشروعيّة تكرار الآية الواحدة في صلاة الليل ولو في كل ركعة طوال الليل وخاصة إذا وجد المسلم فيها دواء قلبه بما يحصل له من تجلّيات إلهيّة وأنوار... جعلنا الله من أهل ذلك، آمين.

وبهذا تم ما أردناه من تفسير آيات سورة المائدة والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وزوجه وصحبه وحزبه.

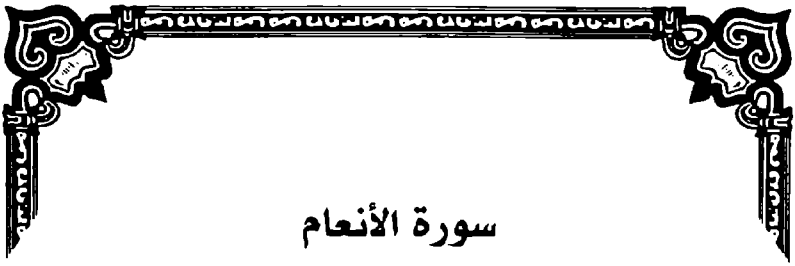

سورة الأنعام

هذه السورة الكريمة من السور المكيات الطوال كالأعراف الآتية عقبها، وآياتها مائة وخمس وستون، وهي تعني بالكلام على الألوهية ودلائل التوحيد والرسالة وذكر الأنبياء، وما يتبع ذلك من بعض التسليات للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وليس فيها تعرّض للتشريع على قاعدة السور المكّيات.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [١٢]:

{٣٧١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله لما خلق الخَلْق كتب كِتاباً عندَه فوقَ العرش أنّ رحمته تَغْلِبُ غَضَبه»**.

رواه أحمد (٢/٣١٣، ٣٥٨، ٤٦٦)، والبخاري في بدء الخلق (٧/١٠١)، وفي التوحيد (١١/١٥٥)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٧، ٦٨)، والترمذي (٣٥٤٣)، وابن ماجه (١٨٩)، وابن حبان (٦١٤٥).

الحديث يدلّ على أسبقية رحمة الله عزّ وجلّ على غضبه، فتعلق الرحمة سابق على تعلق الغضب، لأن الرحمة مقتضى ذاته المقدّسة. وأما الغضب، فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث. وأما الآية الكريمة، فمقتضاها أنه تعالى ألزم على نفسه الرحمة لعباده تفضّلاً منه عليهم ولطفاً بهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣]:

{٣٧٣} ـ عن عليّ عليه السلام أن أبا جهل قال للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إنا لا نكذّبك، ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٦٤)، وابن أبي حاتم (١٢٨٢/٤)، والحاكم (٣١٥/٢)، وصححه على شرطهما، وناجية لم يخرجا له كما قال الذهبي، وأخرجه ابن جرير (١٨٢/٧) مرسلاً، لكن الواصل ثقة فالحكم له.

الآية الكريمة صريحة في تصديق الكفار للنبيّ وأنهم لم يكونوا يتّهمونه بالكذب، لكنهم كانوا يكذّبون ما جاء به، وهذا تناقض منهم يدلّ على غباوتهم وإغراقهم في الجحود والعناد وإصرارهم على الضلال.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [٤٤]:

{٣٧٤} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا رأيت الله عزّ وجلّ يُعطي العبدَ من الدنيا ما يُحِبُّ وهو مُقيمٌ على معاصيه فإنمَّا ذلك منه استدراجٌ»**، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟﴾ الآية إلى: ﴿مُّبْلِسُونَ﴾.

رواه أحمد (١٤٥/٤)، وابن جرير (١٩٥/٧)، وابن أبي حاتم (١٢٩٠/٤)، وعزاه العراقي في المغني للطبراني، والبيهقي في الشعب (٤٥٤٠)، وحسّنه وهو صحيح لطرقه.

الآية صريحة كالحديث في أن من فتحت عليهم الحياة ووسّع عليهم في العيش وفرحوا بذلك مع إصرارهم على ارتكاب ما حرّم الله، فإنما هو استدراج من الله لهم، وأنّه سوف يأخذهم من غير شعور.

وقوله: فإذا هم مبلسون، أي: يائسون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [٥٢]:

{٣٧٤} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ستّةَ نفر، فقال المشركون للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: اطْرُدْ هؤلاء لا يَجْتَرِئُونَ علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجلٌ من هُذَيْل ورجلان لست أُسَمّيهما فوقع في نفس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يقع فحدَّث نفسه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/١٨٧، ١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٠)، وأبو يعلى (٨٢٢)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٩٨)، والحاكم (٣/٣١٩).

في الآية الكريمة فضل ضعفاء المؤمنين الذين يعبدون الله وحده بإخلاص ولا يريدون غيره من الكائنات، كما فيه النهي عن طردهم وإحلال الكفار أو أهل الدنيا محلّهم، وسيأتي بقية لهذا في سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [٥٩]:

{٣٧٥} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «مفاتح الغيب خمسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾».

رواه البخاري في تفسير سورة الأنعام (٩/٣٦٠)، ولقمان، ويأتي هنالك تخريجه وشرحه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [٦٥]:

{٣٧٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أعوذُ بوجهك**»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هذا أهونُ أو هذا أيسَرُ**».

رواه أحمد (٣٠٩/٣)، والحميدي (١٢٥٩)، والبخاري في التفسير (٣٦١/٩) وفي التوحيد، والنسائي في الكبرى (٣٤٠/٦)، وابن حبان (٧١٧٦) بالإحسان.

قوله: يلبسكم شيعاً أي: يخلطكم فرقاً.

ما في الآية الكريمة ظاهر في هذه المخترعات الحربية المدمرة من الصواريخ والقنابل والألغام... ولذا استعاذ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بوجه الله منها لما لها من الفتك والتدمير... وبعيد جداً تفسيرها بالرجم والخسف وأئمة الجور، والخدم السوء وحبس المطر فما كان يقوله المفسرون قبل هذا الوقت.

ويؤيّد ما فسرنا به حديث: «**أما إنها كائنةٌ ولم يأتِ تأويلها بعد**»، رواه أحمد (١٧١/١)، والترمذي (٣٠٦٦)، وأبو يعلى (٧٤٥) وغيرهم، وضعفه لا يضرّ، فإن الواقع يؤيّده والله تعالى أعلم. أما تشيّع الأُمّة، فهو أمر واقعي في الأمة بداية من القرون الأُولى حتى يومنا هذا، ولا يزال الصراع قائماً بين الفرق.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [٨٢]:

{٣٧٧} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ الآية، قال أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

وأيُنا لم يَظْلِم؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وفي رواية: شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقالوا: أيُنا لا يظلم نفسه، فقال: «**ليس هو كما تَظُنُّون إنّما هو كما قال لقمان لابنه: يا بُنَيّ لا تُشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم**».

رواه البخاري في الإيمان (٩٥/١، ٩٦)، وفي التفسير (٣٦٣/٩) وفي أحاديث الأنبياء وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (١٤٣/٢، ١٤٤)، والترمذي (٣٠٦٧)، والنسائي في الكبرى (٣٤١/٦).

الظلم: وضع الشيء في غير محلّه، ولذلك فهم الصحابة من الآية عموم الظلم وهو مطلق المعاصي، فبين لهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ذلك من العام الذي أريد به الخصوص، وأن المراد بالظلم هنا الشرك الأكبر المخرج من الملّة والذي هو أعظم الظلم.

﴿قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [٩٠]:

{٣٧٨} ـ عن مجاهد رحمه الله تعالى أنه قال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنسجد في صّ، فقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ حتى أتى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ فقال: نبيّكم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ممن أمر أن يَقْتَدِي بهم.

رواه أحمد (٣٦٠/١)، والبخاري في التفسير (٣٦٤/٩)، وفي أحاديث الأنبياء رقم (٣٤٢١)، والنسائي في الكبرى (٣٤٢/٦)، وابن خزيمة (٥٥٢)، وابن حبان (٦٧٦٦) وغيرهم.

وسيأتي في سورة صّ بسياق آخر.

في الآية الكريمة مع الأثر دليل على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان مأموراً بالاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وهذا لا خلاف فيه، غير أنه مخصوص بغير ما نسخ من شرائعهم بشرعنا، ومن هنا اختلف الأصوليون في العمل بشرع من قبلنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [٩٤]:

{٣٧٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يقول العبدُ: مالِي مَالِي، وأن له من ماله ثلاثاً: ما أكل فأفنَى، أو لَبِس فأبْلَى، أو أعْطِيَ فَاقْتَنَى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**».

رواه أحمد (٣٦٨/٢، ٤١٢)، ومسلم في الزهد (٩٤/١٨)، ونحوه عن مطرف عن أبيه عنده: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت**».

هذه حياة الإنسان وهذا حاله في الدنيا يعيش مخدوعاً يدعي أن له ملكاً ومالاً وليس له من ذلك إلا ما انتفع به في حياته ففني واضمحل ولم يبق له إلاّ ما قدمه لآخرته، فسوف يجده أحوج ما يكون إليه. أمّا ما خزنه وكدّسه فلا يملك منه ذرّة، بل سوف يرتحل ويذره وراء ظهره لورثته يقتسمونه ويقال له: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [١٠٤]:

فيه حديث عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهنّ فقد أعظم على الله الفرية، من زعم أن محمداً رأى ربّه، والله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، إلخ.

رواه الشيخان وغيرهما كما تقدم في المائدة، ويأتي أيضاً في النجم.

واختلف العلماء في رؤية نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ربّه ليلة الإسراء على قولين منعتها مولاتنا عائشة ومن تبعها، وأثبتها آخرون ونسبه النووي في شرح مسلم لأكثر العلماء مع اتفاقهم على عدم استحالتها؛

لأن كل موجود يصح أن يرى، وهذا في الدنيا. أما في الآخرة، فأجمع أهل السنّة على وقوعها، ويأتي ذلك في سورة القيامة. أمّا قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تحيط بحقيقة ذاته الأبصار الفانية في هذه الحياة.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [١١٠]:

{٣٨٠} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُكْثِرُ أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِك**»، فقلت: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم إنّ القلوبَ بين أصْبُعين من أصابع الله يُقَلِّبها كيف شاء**».

رواه أحمد (١١٢/٣)، والترمذي في القدر (١٩٧٢)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، والحاكم (٥٢٦/١) وصححه على شرط مسلم، وحسنه الترمذي وصححه، وتقدم في الدعوات حديث ابن عَمْرو.

في ذلك تقليب القلوب هو تحويلها من حالة إلى حالة من كفر إلى إيمان، ومن معصية إلى طاعة، ومن بغض إلى محبّة أو عكس ذلك، وهذا من خصائص ربّنا العظيم فلا يقدر على ذلك أحد أيّاً كان، فينبغي للمؤمن أن يلتجىء إليه تعالى بأن يثبّت قلبه على الإيمان والدين اقتداء بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الآية [١١٢]:

{٣٨١} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في المسجد فجلست، فقال: «**يا أبا ذرّ هل صلّيت**»؟ قلت: لا، قال: «**قم فصلّ**»، قال: فقمت فصلّيت ثم جلست، فقال: «**يا أبا ذرّ تعوّذ بالله من شر شياطين الإنس والجنّ**»، قال: قلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «**نعم**» الحديث بطوله.

رواه أحمد (١٧٨/٥، ٢٦٥)، والنسائي في الكبرى (٤٦١/٤)، وفي الاستعاذة من المجتبى والبزار (٩٣/١، ٩٤) مع كشف الأستار، وابن جرير (٤/٨، ٥) وغيرهم، وسنده صحيح ولا يضرّ اختلاط المسعود، فإن للحديث طرقاً مجموعها يقوي صحته، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

الآية والحديث يدلاّن على أن للإنس شياطين كالجن، وهم المتمردون المتجاوزون الحدّ في الشر، وأنهم إخوة في الإغواء والإضلال ومعاداة الرسل وأتباعهم.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [١٢٠]:

{٣٨٢} ـ عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن البرّ والإثم، فقال: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثْمُ ما حَاكَ في صدرِكَ وكَرِهتَ أن يطّلِعَ عليه الناسُ**».

رواه أحمد (١٨٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد، ومسلم في البرّ والصلة (٢٥٥٣)، والترمذي في الزهد (٢٢٠٧) بتهذيبي.

البِرّ ـ بكسر الباء ـ: اسم جامع للخير، والإثم: الذنب والمعصية والسيّئة، وقوله: حاكَ في صدرك أي: وقع فيه تردّد ولم ينشرح له الصدر ويطمئن.

وفي الحديث ميزان نبوي يعرف به الإثم من الطاعة، فكل شيء وقع فيه تردّد القلب وكره الإنسان اطّلاع الناس عليه فهو إما محرم أو فيه شبهة.

والآية الكريمة تأمرنا بترك كل الآثام الظاهرة والباطنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [١٢٢]:

{٣٨٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوا وما ذبحتم

فكلوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

رواه أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣)، وابن جرير (١٦/٨)، وابن أبي حاتم (١٣٨٠/٤)، والحاكم (١١٣/٤، ٢٣١)، والبيهقي (٢٤١/٩) وسنده صحيح ولا تضرّ هنا رواية سماك عن عكرمة، فإن للحديث طريقاً آخر رواه النسائي في الكبرى (٣٤٢/٦) وفي الضحايا من المجتبى، والحاكم (٢٣٣/٤) بسند حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ومعنى قول ابن عباس: أن المشركين كانوا جادلوا المسلمين بما تلقوه عن شياطيهم فقالوا لهم: كيف تأكلون ما قتلتم وذبحتم ولا تأكلوا ما ذبح الله، أي: مات وحده وهي الميتة، فجاءت الآية الكريمة تحرم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وذلك يشمل الميتة وما ذبح لغير الله عزّ وجلّ وأن كل ذلك فسق ومعصية وخروج عن طاعة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية [١٢٥]:

{٣٨٤} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: تَلاَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: «**نُورٌ يقذف به في القلب**»، قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة تعرف؟ قال: «**نعم**»، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت**».

رواه ابن أبي حاتم (١٣٨٤/٤)، وابن جرير (٢٧/٨)، والحاكم (٣١١/٤) بنحوه، وله طرق أخرى أوردها ابن كثير وقال عقبها: فهذه الطرق لهذا الحديث مرسلة ومتّصلة يشدّ بعضها بعضاً.

التجافي: التباعد، والحديث جاء مبيناً للانشراح الوارد في الآية الكريمة وهو نور يضعه الله عزّ وجلّ في قلب من شاء هدايته، فإذا تمّ حمل

صاحبه على الإقبال على الله استعداداً للقائه تعالى، وإعراضاً عن هذه الحياة الغرّارة الصاخبة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [١٤١]:

{٣٨٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمَرَ من كل جاذٍ عشرةَ أوسق من التمر بقِنْوٍ يُعَلَّقُ في المسجد للمساكين.

رواه أحمد (٣/٣٦٠)، وأبو داود في الزكاة وسنده جيّد قوي، قاله ابن كثير.

الحديث بين المراد بحق الثمار والزروع الذي يعطى يوم الحصاد، وهو التصدّق على المساكين من غير تقدير، وهو قول ابن عباس وابن جبير وعطاء ومجاهد في آخرين، وكان هذا قبل الزكاة التي فرضت بالمدينة.

قوله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ الآية [١٤٦]:

{٣٨٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عام الفتح يقول: «**إنّ الله ورسولَه حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**»، فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنها يُدْهَنُ بها الجلود وتُطلَى بها السفُنُ ويَسْتَصبحُ بها الناسُ، فقال: «**لا هو حرام**»، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند ذلك: «**قاتل الله اليهود إن الله لمّا حرّم عليهم شُحُومها جَملُوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه**».

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٦٥)، ومسلم في المساقاة (١٥٨١)، وأحمد وأهل السنن.

كان الله عزّ وجلّ حرّم على اليهود شحوم البقر والغنم إلا ما استثنت الآية، ولكنهم احتالوا فأذابوه وباعوه وأكلوا ثمنه، وجاء في رواية: «**إن الله**

وفي الحديث بيان أن الله عزّ وجلّ يحب المدح ويحب من يمدحه بالثناء عليه وتمجيده وتسبيحه... وفيه أنه يقبل عذر من اعتذر إليه والتجأ إليه معترفاً بذنبه أو بتقصيره، وذلك من فضله على عباده ورحمته بهم، فله الحمد والشكر كثيراً دائماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية [١٥٣]:

{٣٩١} ـ فيه حديث عبدالله أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خطّ يوماً خطّاً فقال: **«هذا سبيل الله»**، ثم خطّ خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله فقال: **«هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه»**، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

رواه أحمد، والنسائي، والدارمي وغيرهم بسند حسن صحيح، وتقدم في الإيمان.

فيه بيان طريق الله وهو سبيله القويم، سبيل الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمّة والعلماء الربانيين. أما السبل الأخرى، فهي سبل أهل الأهواء الذين أضلّهم الشيطان؛ كالخوارج والمعتزلة والشيعة الروافض والجهمية المعطلة والنواصب أعداء أهل البيت.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [١٥٨]:

{٣٩٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تقوم الساعة حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها»**، ثم قرأ الآية.

رواه أحمد (٢/٢٣١، ٣١٣) وفي مواضع، والبخاري في التفسير (٩/٣٦٦)، ومسلم في الإيمان (٢/٢٩٤)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨).

{٢٩٣} ـ وعنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ثلاثٌ إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ: الدجالُ، والدابّةُ، وطلوعُ الشمس من مغربها**».

رواه أحمد (٢/٤٤٥)، ومسلم في الإيمان (٢/١٩٥)، والترمذي في التفسير (٢٨٧٤) بتهذيبي.

في الآية مع الحديثين بيان أنه لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، وأنها إذا طلعت آمن كل الناس، ولكن ذلك لا ينفع لأن بطلوعها من المغرب تغلق باب التوبة مطلقاً، وسيأتي لهذا مزيد في أشراط الساعة وفي الرقاق.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [١٦١]:

{٢٩٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قال الله تبارك وتعالى: إذا هَمّ عبدي بالحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عَمِلها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها فإن عَمِلها فاكتبوها بمثلِها، فإن تركَها ـ وربما قال ـ فإن لم يعمل فاكتبوها له حسنة**»، ثم قرأ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية.

رواه مسلم في الإيمان (١/١٤٧، ١٤٨)، والترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي (٦/٣٤٤، ٣٤٥) في التفسير.

في الآية والحديث فضل واسع وتكرّم من الله عظيم على عباده المؤمنين، فله الحمد والشكر، وبهذا تمّت سورة الأنعام.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وزوجه وصحبه، وسبحان الله وبحمده، سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى الربع الأول من التفسير

وفي الحديث بيان أن الله عزّ وجلّ يحب المدح ويحب من يمدحه بالثناء عليه وتمجيده وتسبيحه... وفيه أنه يقبل عذر من اعتذر إليه والتجأ إليه معترفاً بذنبه أو بتقصيره، وذلك من فضله على عباده ورحمته بهم، فله الحمد والشكر كثيراً دائماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية [١٥٣]:

{٣٩١} ـ فيه حديث عبدالله أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خطّ يوماً خطّاً فقال: **«هذا سبيل الله»**، ثم خطّ خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله فقال: **«هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه»**، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

رواه أحمد، والنسائي، والدارمي وغيرهم بسند حسن صحيح، وتقدم في الإيمان.

فيه بيان طريق الله وهو سبيله القويم، سبيل الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمّة والعلماء الربانيين. أما السبل الأخرى، فهي سبل أهل الأهواء الذين أضلّهم الشيطان؛ كالخوارج والمعتزلة والشيعة الروافض والجهمية المعطلة والنواصب أعداء أهل البيت.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [١٥٨]:

{٣٩٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تقوم الساعة حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها»**، ثم قرأ الآية.

رواه أحمد (٢/٢٣١، ٣١٣) وفي مواضع، والبخاري في التفسير (٩/٣٦٦)، ومسلم في الإيمان (٢/٢٩٤)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨).

{٢٩٣} ـ وعنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ثلاثٌ إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ: الدجالُ، والدابّةُ، وطلوعُ الشمس من مغربها**».

رواه أحمد (٢/٤٤٥)، ومسلم في الإيمان (٢/١٩٥)، والترمذي في التفسير (٢٨٧٤) بتهذيبي.

في الآية مع الحديثين بيان أنه لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، وأنها إذا طلعت آمن كل الناس، ولكن ذلك لا ينفع لأن بطلوعها من المغرب تغلق باب التوبة مطلقاً، وسيأتي لهذا مزيد في أشراط الساعة وفي الرقاق.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [١٦١]:

{٢٩٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قال الله تبارك وتعالى: إذا هَمّ عبدي بالحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عَمِلها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها فإن عَمِلها فاكتبوها بمثلِها، فإن تركَها** ـ وربما قال ـ **فإن لم يعمل فاكتبوها له حسنة**»، ثم قرأ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية.

رواه مسلم في الإيمان (١/١٤٧، ١٤٨)، والترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي (٦/٣٤٤، ٣٤٥) في التفسير.

في الآية والحديث فضل واسع وتكرّم من الله عظيم على عباده المؤمنين، فله الحمد والشكر، وبهذا تمّت سورة الأنعام.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وزوجه وصحبه، وسبحان الله وبحمده، سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى الربع الأول من التفسير

سورة الأعراف

هذه السورة الكريمة هي السادسة من السبع الطوال، وهي مكية كالسابقة، مقاصدها بيان أصول الدين، التوحيد، الرسالة، القصص...

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ [٢٦]:

{٣٩٥} ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمدُلله الذي كساني ما أُوارِي به عَوْرَتي وأتجمّلُ به في حياتي، ثم عَمَد إلى الثوب الذي أُخلِق فتصدّق به كان في كَنَفِ الله وفي حفظ الله وفي سِتْر الله حيّاً ومَيتاً».**

رواه أحمد (٤٤/١)، والترمذي في الدعوات (٣٣٢٨) بتهذيبي، وابن ماجه (١٩٢/٢، ٣٥٥٧)، والحاكم (١٩٣/٤) ورجاله لا بأس بهم غير أبي العلاء الشامي فمجهول، لكن له شاهداً عن الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١٥٧/١)، وابن أبي حاتم (٤٥٧/٥)، وهو وإن كان في سنده ضعف فإنّه يتقوّى به في الجملة، وخاصة وأنه في الفضائل.

في الآية امتنان من الله عزّ وجلّ على بني آدم حيث أعطاهم من الألبسة ما يغطّون به عوراتهم ويتجمّلون به من أنواع الزينة، وهو الريش، وهذا خلاف ما كان عليه الجاهلية من كشف عوراتهم عند الطواف، وكذا ما

صار إليه الناس اليوم وخاصة النساء، فإن ذلك لا يليق بمن كرمه الله تعالى وشرّفه.

والحديث يدلّ على أن من استجدّ ثوباً يستحب أن يحمد الله تعالى على ذلك ويتصدّق بسابقه.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [٣٠]:

{٣٩٦} ـ عن عبد بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله تبارك وتعالى خلقَ خلقَه في ظُلْمة فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله**».

رواه أحمد (١٧٦/٢، ١٩٧)، والطيالسي (٥٧)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥٨) بتهذيبي، وابن حبان (١٨١٢)، والحاكم (٣٠/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وعبدالله الديلمي لم يخرجا له لكنه ثقة، فالحديث صحيح.

كل من الهداية والإضلال بيد الله عزّ وجلّ يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء ويخذله بعدله، ولا يُسأل عما يفعل فمن سبقت له الهداية فبفضل الله ومن سبق له الانحراف فبعدله.

وهذا الحديث الشريف يبيّن أصل الهداية والضلال وأن ذلك راجع إلى من أصابه نور الله، ومن أخطأه في عالم الأرواح. فالحمد الله عزّ وجلّ حمداً كثيراً دائماً على الإيمان والهداية، فنسأله تعالى أن يتكرّم علينا بالثبات والموت على السعادة.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [٣١]:

{٣٩٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت المرأةُ تطوف بالبيت وهي عُرْيانة، فتقول: من يُعيرنا تِطْوافاً، تجعله على فرجها،

وتقول: اليوم يَبْدُو بَعْضُه أو كلُّه، وما بدا منه فلا أُحِلُّه.

رواه مسلم آخر الكتاب (١٦٢/١٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٥/٦)، وفي الحج من المجتبى.

تطوافاً ـ بكسر التاء ـ ثوب تلبسه المرأة تطوف به.

كان الناس في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراة وعرايا نساء ورجالاً إلا من استعار ثوباً من سكان الحرم، فجاء الإسلام فأبطل ذلك ونادى منادي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عام حجّ أبو بكر في السنة التاسعة: **«ولا يطوف بالبيت عُرْيان»**.

وقد رجع الناس اليوم إلى جاهليّتهم الأُولى، فأصبحوا عراة وعرايا في الشوارع والأسواق والشواطىء ومواضع اللّهو والعهر... وليس عند البيت فقط، وهم مع ذلك ينتمون للإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [٣١]:

{٣٩٨} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كلوا واشربوا وتصدّقوا والبَسُوا في غير إسراف ولا مَخِيلة»**.

رواه أحمد (١٨١/٢، ١٨٢)، والنسائي في المجتبى (٥٩/٥)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، والحاكم (١٣٥/٤) بسند حسن، وعلقه البخاري في أول اللباس مجزوماً به (٣٦٥/١٢).

وذكر البخاري أيضاً معلقاً عن ابن عباس: **«كل ما شئتَ، والبَسْ ما شئت، ما أخطأتْك اثنان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ»**، وذكر الحافظ أن ابن أبي شيبة وغيره وصلوه.

الإسراف والسرف: هو مجاوزة الحدّ في كل شيء، والمخيلة: التكبّر والتعاظم والمباهاة والإعجاب، وكل ذلك محرّم. والآية والحديث نصّان في

إباحة كل المآكل والمشارب المأذون فيها إذا لم يكن إسراف وتجاوز في الحد وتكبّر وتفاخر...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [٤٠]:

{٣٩٩} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولمّا يُلْحَد بعدُ، فجلس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وجلسنا حوله كأنّ على رؤوسنا الطَّيْر وفي يده عُودٌ يَنْكُتُ به في الأرض، فرفعَ رأسه فقال: «**استَعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «**إن العبد إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء**» فذكر الحديث في قبض روح المؤمن والصعود به إلى السماء وثناء الملائكة عليه، وقبض روح الكافر والصعود بها إلى السماء، وأنه لا يمرّ بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، «**فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى فتُطْرَح روحه طرحاً**» الحديث بطوله.

رواه أحمد (٤/٢٨٧، ٢٨٨)، والطيالسي (٧٤٣)، وأبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٤)، والحاكم (١/٣٧، ٤٠) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

هذا حديث عظيم في قبض الأرواح وسؤال القبر وقد ذكرته بطوله في كتاب مشاهد الموت، فارجع إليه للذكرى والعبرة.

وفيه كالآية أن السماء لا تفتح للكافرين مثل المؤمنين الذين يحظون بالترحيب بهم والثناء عليهم وإكرامهم، جعلنا الله من أكرمهم عنده.

قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٤٣]:

{٤٠٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ الآية، قال: «**نُودوا أنّ صِحُّوا فلا تَسْقَمُوا، وانْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا، وشِبُّوا فلا تهرَمُوا**»، وفي رواية: «**ينادي منادٍ: إنّ لَكُمْ أن تَحيَوْا فلا تَمُوتُوا أبداً**» إلخ.

رواه أحمد (٣/٩٥)، ومسلم في الجنّة (١٧/١٧٥)، والترمذي في تفسير الزمر (٣٠٣١) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٥)، وابن أبي حاتم (٥/١٤٨٠) وغيرهم.

قوله: فلا تسقموا أي: لا يصيبكم سقم ولا مرض، وقوله: فلا تبأسوا من البؤس: وهو شدّة الحال والفاقة؛ فأهل الجنّة في نعيم دائم. وقوله: وشبّوا أي: دوموا على شبابكم فلا يعتريكم كِبَرٌ ولا هَرَمٌ ولا خَرفٌ ولا مَوْتٌ، وانظر ما يتعلق بالآية والحديث في كتابي الجواهر واللآلىء.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [٤٤]:

{٤٠١} ـ عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفُوا في طوى من أطواء بَدْر خَبِيث مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلها ثم مشى واتّبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الرَّكِيّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيَسُرُّكُمْ أنكم أطعتُم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً**»، قال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم: **«والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتُمْ بأسمعَ لما أقول منهم»**.

رواه البخاري في المغازي رقم (٣٩٧٦)، ومسلم في الجنّة رقم (٢٨٧٥)، وأخرج نحوه مسلم (٢٨٧٤) عن أنس وفيه: **«ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»**، وسيأتي في المغازي حديث عمر وابنه في ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله: طوى ـ بفتح الطاء وكسر الواو ـ: البئر المبنية بالحجارة، وقوله: شفة ـ بفتح الشين والفاء المخفّفة ـ والركي ـ بفتح الراء وكسر الكاف ـ طرف البئر.

في الحديث دليل على أن الأموات يسمعون كلام الأحياء، وهذا مع كونه يكاد يكون من اليقينيّات خالفت فيه مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها ومن تبعها من بعض أهل الشذوذ فخالفوا الأحاديث الصحيحة والواقع المشاهد.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [٥٥]:

{٤٠٢} ـ عن أبي نعامة رحمه الله تعالى أن عبدالله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللّهمّ إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنّة إذا دخلتها، فقال: أي بنيّ سل الله الجنّة وتعوّذ بالله من النار، فإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إنه سيكونُ في هذه الأُمّة قومٌ يعتدون في الطَّهُور والدُّعاء»**.

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح، وتقدم في الأدعية مع حديث آخر.

وقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال ابن جرير: تضرعاً تذلّلاً وإسكاناً لطاعته، وخفية يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيّته وربوبيّته فيما بينكم وبينه لا جهاراً ومراآة.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [٧٧]:

{٤٠٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما مرّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالحِجْرِ قال: «**لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت** ـ يعني: الناقة ـ **تَرِدُ من هذا الفجّ وتصدُر من هذا الفجّ، فعتَوْا عن أمر ربهم فعَقَرُوها وكانت تَشْرَبُ ماءهم يوماً ويشرَبُوا لبنَها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة، أخْمَدَ الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله**»، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**أبو رغال**»، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه.

رواه أحمد (٢٩٦/٣)، وابن أبي حاتم (١٥١٦/٥)، والحاكم (٣٢٠/٢) وسنده صحيح على شرط مسلم.

في الحديث النهي عن طلب الآيات، فإن ذلك ينافي كمال العبودية لله تعالى، ويدلّ على ضعف الدين أو ذهابه، وربما كان المآل التكذيب، فيحق العذاب على السائلين كما وقع لقوم صالح عليه السلام، وسيأتي مزيد للموضوع في سورة الحجّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [١٣٨]:

{٤٠٤} ـ عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنْوَاطٍ كما للكفار ذاتُ أنواط، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ من كان قبلكم**».

رواه أحمد (٢١٨/٥)، والحميدي (٨٤٨)، والترمذي في الفتن

(٢٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٩٩/٦)، وابن أبي حاتم (١٥٥٣/٥) وغيرهم وسنده صحيح.

ذات أنواط: هو اسم شجرة كان المشركون يعلّقون بها أسلحتهم. وقوله: الله أكبر، في رواية للترمذي وغيره: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى لموسى».

وقوله: لتركبنّ أي: لتتبعن طريق من سبقكم من اليهود والنصارى وغيرهم.

وفي الحديث ذمّ اقتفاء أثر الكفار والتشبّه بهم في شؤونهم، وأنه يجب على المسلمين التباعد عن تقليدهم في مظاهرهم، وهذا مما أغرق فيه المسلمون اليوم حتى ذابت شخصيتهم في شخصية الكفار، وأصبحوا لا مظهر لهم يُعرفون به عن غيرهم إلا من رحم الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

{٤٠٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال حماد: هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى صعقاً.

رواه أحمد، والترمذي في التفسير (٢٨٧٦) بتهذيبي، وابن جرير (٥٣/٩)، وابن أبي حاكم (١٥٦٠/٥)، والحاكم (٣٢٠/٢) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: تجلى أي: ظهر بنوره، فألقاه على الجبل فصار مدكوكاً تراباً مستوياً بالأرض، قوله: وأمسك بطرف إبهامه، جاء في رواية: ووضع النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل.

وهٰهنا يظهر جلال الله وعظمته وكبرياؤه وأن رؤية شيء ضئيل من نوره لا تطاق، فكيف برؤية ذاته المقدّسة العلية التي ليس كمثلها شيء.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الآية [١٥٦]:

{٤٠٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدةً بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ، فَبِها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٣/٥٥، ٥٦)، والبخاري في الأدب (١٣/٣٨)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٨، ٦٩) واللفظ له، والترمذي في الدعوات (٣٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٩٣) وغيرهم بألفاظ، وسيأتي في الرقاق أحاديث أخرى.

رحمة الله رحمتان: رحمة عامة تعمّ كل الخلائق في هذه الحياة إنسهم وجنّهم، مؤمنهم وكافرهم... ورحمة خاصة، وهي التي اختصّها تعالى بمن آمن به واتّقاه وأطاعه ومنّ عليه في هذه الحياة بنعمة الإيمان... وشارك سائر الخلق في الرحمة التي قسمت بينهم في هذه الأرض، ثم أتمّ عليه النعمة في الآخرة بباقي الرحمات ويا لها من سعادة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إلخ [١٥٧]:

{٤٠٧} ـ عن رجل من الأعراب قال: جلبتُ جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما فرغتُ من بيعتي قلت: لأُلَقِيَنَّ هذا الرجل فلأَسْمَعَنَّ منه، قال: فتلقّاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يُعَزّي

بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنشُدُك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صِفَتِي ومَخْرَجي»**؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنك رسول الله، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أقِيمُوا اليَهُودي عن أخِيكُم»**، ثم تولّى كفَنَه والصلاةَ عليه.

رواه أحمد (٤١١/٥) وسنده صحيح، وقال ابن كثير: هذا حديث جيّد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس، وذكر النور في المجمع (١٢٣٤/٨) أن رجاله رجال الصحيح، وقال: إنه لم يعرف أبا صخر مع أن الشيخين وابن حبان جزموا بأن له صحبة...

في الحديث بيان أن اليهود كانوا يعرفون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وصفته ومخرجه بما كان عندهم في التوراة، لكنهم كتموا ذلك وكفروا به.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [١٥٨]:

{٤٠٨} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر محاورةٌ فأَغْضَبَ أبو بكر عمرَ رضي الله تعالى عنهما، فانصرف عنه عمر مُغْضَباً فاتّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أما صاحبكم فقد غامر»**، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم وجلس إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقصّ على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«هل أنتُم تارِكُو لي صاحبي، هل أنتم تاركو لي صاحبي، إني قلت: يا أيُّها الناس إني**

رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ».

رواه البخاري في الفضائل وفي التفسير (٩/٣٧٣).

وفي حديث جابر عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أُعطيت خمساً...**» وفيه: «**وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**».

رواه الشيخان وغيرهما، وقد تقدم في التيمّم، ويأتي في المناقب...

وفي الباب أحاديث عن جماعة ستأتي في المناقب إن شاء الله تعالى. عموم بعثته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من اليقينيّات التي لا يخالف فيها إلا كافر، فمن خصّص دعوته بالعرب أو بالأوائل، أو قال بنبوّة غيره أو سوّى بين الأديان كان كافراً حلال الدم والمال بالإجماع وبدون خلاف بين طوائف المسلمين، وفي الحديث فضل ظاهر للصدّيق رضي الله تعالى عنه وكم له من فضائل...

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [١٧٢]:

{٤٠٩} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إلخ، فقال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُسألُ عنها، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم فمسحَ ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرّيةً فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله إذا خلق العبد للجنّة استعمله بعمل أهل الجنّة حتى يموت على عمل أهل الجنّة فيدخله به الجنّة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل أهل النار فيدخله به النار**».

رواه أحمد (١/٤٤، ٤٥)، وأبو داود (٤٧٠٣، ٤٧٠٤)، والنسائي في

الكبرى (٥٠٤/٦)، وابن حبان (١٨٠٤) بالموارد (١٨٠٦)، والحاكم (٣٢٤/٢، ٣٢٥، ٥٤٤، ٥٤٥) وصححه، ورواه أيضاً أحمد (١٨٦/٤)، وابن حبان (١٨٠٦)، والحاكم (٣١/١) مختصراً بسند صحيح.

{٤١٠} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان ـ يعني: عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذَرَأها فنَثَرَهُم بين يديه كالذَّرّ ثم كلَّمهم قُبُلاً، قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**» الآية.

رواه أحمد (٢٧٢/١، ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١)، والنسائي في الكبرى (٥٠٦/٦)، والحاكم (٢٧/١) و(٥٤٤/٢) وصححه ووافقه الذهبي وسنده صحيح على شرط مسلم، ونحوه عن أبي بن كعب رواه عبدالله بن أحمد في الزوائد كذا في المجمع (٢٥/٧).

قوله: فمسح ظهره هذا مما يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تأويل ولا تشبيه، وقوله: ذرأها أي: خلقها، وقوله: قبلاً ـ بضم القاف والياء ـ أي: كلّمهم مواجهة.

وفي الحديثين أن الآجال والسعادة والشقاوة كلّها مقدّرة لا تتبدّل ولا تتغيّر، وأنه تعالى خلق كلاً من أهل الجنّة وأهل النار ويسّر وهَيَّأ كلاً لما خلق له، كما أنه تعالى أخذ العهد على جميع أرواح بني آدم في عالم الذر بأن يوحدوه ويعترفوا بربوبيّته، وفيهما أن الله تعالى قد أطلع آدم عليه السلام على جميع نسل بنيه وعرفه إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [١٧٥]:

{٤١١} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما في هذه الآية: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلت.

رواه النسائي في الكبرى (٣٤٨/٦)، وابن جرير (١٢١/٩)، وابن أبي

حاتم (١٦١٦/٥) بسند صحيح، وعزاه البوصيري في الإتحاف (٣٧٥/٤) لمسدد وكبرى النسائي وقال: رجاله ثقات، وأورده الهيثمي (٢٢٥/٧) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

{٤١٢} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في الآية قال: هو بلعم، وقال: نزلت في أميّة.

رواه النسائي في الكبرى (٣٤٨/٦)، وابن جرير (١١٩/٩، ١٢٠) بسند صحيح.

الآية الكريمة تتحدّث عن بلعام بن باعوراء كما هو قول عامّة المفسّرين، وكان من أصحاب سيدنا موسى عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، فأضلّه الله ومسخه بعد أن كان قد أوتي علماً. ولكن ابن مسعود وابن عمرو رضي الله تعالى عنهما يصرّحان هنا بأن الآية نزلت في أُميّة بن أبي الصلت، فكأنه لشبهه بابن باعوراء نزلت فيه الآية الكريمة، فإنه كان على علم من الشرائع القديمة، وجاء في شعره الكثير من التوحيد والكلام على البعث والآخرة، ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه لما بعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبلغته آياته ومعجزاته كفر في جملة من كفر، وكان علمه وبالاً عليه كابن باعوراء، ففر إلى الشام ومات كافراً لعنه الله. وفي قصة ابن باعوراء اللعين الخاسر عبرة لعلماء السوء الذين يخلدون إلى الدنيا وشهواتها، ويبيعون دينهم لأهلها ويتملّقون للأمراء والظَّلمة والأغنياء وذوي الثراء السقطاء فيضلّون في أنفسهم ويضلّون الغير من العوام والغوغاء عياذاً بالله تعالى منهم ومن أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ الآية [١٧٩]:

{٤١٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: دعي النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار، فقالت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنّة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنّة وخلقَ لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»**.

رواه أحمد (٢٠٨/٦، ٤١)، ومسلم في القدر (٢١١/١٦، ٢١٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (٤٦/٤، ٤٧)، وابن ماجه (٨٢)، وتقدم قريباً حديث: **«خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنّة يعملون، وخلقت هؤلاء للنار»** الحديث.

قوله: «أو غير ذلك يا عائشة» هذا محمول على أنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله بأن الأطفال في الجنّة وأنهم أفراط لآبائهم... والحديث كالآية يدلاّن على أن الله تعالى خلق كثيراً من الجنّ والإنس لجهنّم، وكذا خلق آخرين للجنّة وكل ذلك قد سبق به علمه وقدره، وهذا من القطعيات اليقينيّات.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [١٨٠]:

{٤١٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن لله تسعةً وتسعين اسماً مِائَة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنّة، وهو وتر يحب الوتر»**.

رواه أحمد (٢٥٨/٢، ٤٩٩)، والبخاري في الشروط وفي الدعوات (٤٧١/١٣، ٤٨٦) وفي التوحيد (١٤٨/١٧)، ومسلم في الذكر (٥/١٧، ٦)، والترمذي في الدعوات (٣٢٧٧، ٣٢٧٨) وغيرهم.

من أحصاها أي: حفظها كما قال البخاري وغيره، وفي الحديث فضل حفظ أسماء الله تعالى، وأن ذلك من موجبات الجنّة، وفي الآية الكريمة الحضّ على سؤاله تعالى ودعائه بأسمائه.

تعالى عليه وآله وسلم لا حاكمية لأحد فيها، وأن الواجب الاستسلام لله في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [١]:

{٤١٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أتى مكان كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فله كذا وكذا، فأسرع إليه الشبان وثبت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله لهم جاء الشباب يطلبون ما جعل لهم، فقال الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا فإنما كنا رِدْءاً لكم**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ﴾ إلخ.

رواه أبو داود (٢٧٣٧، ٢٧٣٨، ٢٧٣٩)، والنسائي في الكبرى (٣٤٩/٦)، وابن حبان (١٧٤٣) بالموارد، والحاكم (١٣١/٢، ١٣٢، ٢٢١، ٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي.

الحديث يدلّ على أن كل من حضر المعركة يعطى من الغنيمة سواء كان مقاتلاً أم حارساً، وأنه لا ينبغي للجنود الاختلاف في ذلك بل يجب عليهم إصلاح ذات بينهم...

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [٧]:

{٤١٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما فرغ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من بدر قيل له: عليك العير ليس دونها شيء، قال: فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح لك ذلك، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولِمَ**»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، قال: «**صَدَقْتَ**».

رواه أحمد (٢٢٩/١، ٣١٤، ٣٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٨٨٢)، وابن أبي حاتم (١٦٦٠/٥)، وسنده صحيح ولا يضرّ هنا رواية سماك عن عكرمة.

العِير ـ بكسر العين ـ يقال للإبل الموقرة بالبضائع التجارية، وكان هذا العير مكوّناً من ألف بعير شارك فيه جميع أهل مكّة، فخرج إليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ففاته، وكان الله وعده إحدى الطائفتين ذات العير أو المقاتلة ذات الشوكة، فكانت الثانية وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وسيأتي ذلك في الجهاد والغزوات.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [٩]:

{٤١٩} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: نظر نبي الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم القبلةَ ثم مدَّ يدَه وجعل يَهتِف بربّه: «**اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللّهمّ إن تُهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض**»، فما زال يهتِف به ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على مَنْكِبَيْه ثم التَزَمَه من ورائه، وقال: يا نبيّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتك ربَّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية.

رواه أحمد (١/٣٠، ٣١) مطوّلاً، والبخاري في المغازي (٨/٢٩٠، ٢٩١) مختصراً، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٨٤، ٨٥) مطوّلاً، والترمذي في التفسير (٢٨٨١) بتهذيبي واللفظ له، وابن أبي حاتم (٥/١٦٦٢، ١٦٦٣).

قوله: يَهتف أي: يصيح. ومناشدتك أي: سؤالك، والعصابة الجماعة، والاستغاثة طلب الغوث وهوبمعنى الخلق خاص بالله عزّ وجلّ، وقد تأتي بمعنى طلب الشفاعة. والآية تدلّ على أن الله عزّ وجلّ أمدّ المسلمين ببدر بألف من الملائكة ثم بثلاثة آلاف ثم بخمسة... كما تقدّم في آل عمران، وبذلك جاءت السنّة المطهرة، ومع ذلك نرى بعض المفسّرين المعاصرين ينكر ذلك، وقانا الله الزَّلَل والزيغ والخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٤٢٠} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: ما كان فارسٌ يومَ بدرٍ غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فِينا إلا نائمٌ إلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُصَلِّي تحتَ شَجرة ويَبْكي حتى أصبح.

رواه أحمد (١/١٢٥، ١٣٨)، والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة (٧٣٤)، وأبو يعلى (١/١٤٦) وسنده صحيح.

{٤٢١} ـ وعنه قال: أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر، يعني: الليلة التي كانت صبيحتَها وقعةُ بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظِلّ تحتها من المطر، وبات رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو ربّه، ويقول: «**اللّهمّ إن تُهلِك هذه الفِئة لا تُعبَد**».

رواه أحمد (١/١٧١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٥) بسند صحيح، ونحوه عن ابن عباس عند الحاكم (٣/١٨٧، ١٨٨).

من رحمة الله تعالى ولطفه بالمسلمين يوم بدر، أن ألقى عليهم النوم والنعاس أمْناً مِنْهُ تعالى وطمأنينة لهم من شدّة البأس مع نزول الغيث عليهم ليتطهروا به وليثبت به أقدامهم في تلك الرمال.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ الآية [١٥ ـ ١٦]:

{٤٢٢} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ الآية، قال: نزلت في أهل بدر.

رواه أبو داود (٢٦٤٨)، والنسائي في الكبرى (٣٥٠/٦)، وابن جرير (٢٠١/٩)، وابن أبي حاتم (١٦٧٠/٥)، والحاكم (٣٢٧/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الآية الكريمة وإن نزلت في أهل بدر فحكمها عام ومُحْكَمَةٌ فلا يحلّ لمؤمن أن يفرّ من المعركة إلا إذا كان القصد بذلك التحرُّفَ للقتال حيلة أو التَّحَيُّز إلى فئة أخرى من المؤمنين، وهذا الذي عليه جمهور المفسّرين والعلماء. وقد جاء في الحديث الصحيح: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، فذكر منها التولي يوم الزحف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾:

{٤٢٣} ـ عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يومُ بدر أمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخذ كفّاً من الحصى، فاستقبلنا به فرمى بها وقال: «**شاهَتْ الوجوه**»، فانهزمنا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآية.

رواه الطبراني، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤/٦) وعنده نحوه عن ابن عباس، وقال فيه: رجاله رجال الصحيح.

والآية تدلّ على أن أفعال العباد مخلوقة لله عزّ وجلّ، وأنه الفاعل الحقيقي... وليس للعبد من ذلك إلا الكسب بتقدير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [١٩]:

{٤٢٤} ـ عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَيْر رضي الله تعالى عنه قال: كان المُسْتَفْتِحُ يوم بدر أبو جهل، وأنه قال حين التقَى القوم: اللّهمّ أيّنا كان أقطعَ للرحم وأتانَا بِمَا لا نَعْرِف فافْتَح الغد، وكان ذلك استفتاحَه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

رواه أحمد (٤٣١/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٥٠/٦)، وابن جرير (٢٠٧/٩، ٢٠٨)، والحاكم (٣٢٨/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

أبو جهل لعنه الله طلب الفتح والنصر لأحد الحزبين، فجاء النصر لحزب الله وهزم حزب الشيطان، فقتلوا وأُسِروا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [٢٤]:

{٤٢٥} - عن أبي سعيد بن المُعَلّى رضي الله تعالى عنه قال: كنت أصلّي فمرّ بي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فدعاني فلم آته حتى صلّيت ثم أتيته، فقال: «**ما منعك أن تأتي ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**»، ثم قال: «**لأُعَلِّمَنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج**»، فذهب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليخرج فذكرت له وقال: «**الحمدلله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته**».

رواه أحمد (٤٥٠/٣) و(٢١١/٤)، والبخاري (٣٧٧/٩، ٣٧٨، ٤٥٣)، وأبو داود (١٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٣٨٣/٦) وفي الصلاة من المجتبى، وابن ماجه (٣٧٨٥) وغيرهم، وتقدم في فضائل القرآن.

في الآية والحديث وجوب الاستجابة لله وللرسول، وللعلماء كلام فقهي يتعلق بالموضوع، وفي الحديث فضل سورة الفاتحة وأنها أعظم سور القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [٢٥]:

{٤٢٦} - عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ﴾ الآية، قال: ونحن يومئذٍ مُتَوافِرُون، قال: فجعلت أتعجّبُ من هذه الآية أيُّ فتنةٍ تُصِيبُنا، ما هذه الفتنة! حتى رأيناها.

رواه أحمد (١٦٧/١)، والنسائي في الكبرى (٣٥١/٦)، وابن جرير (٢١٨/٩)، وابن أبي حاتم (١٦٨٢/٥)، وفي رواية: قرأت هذه الآية زماناً

وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيّون. وسنده صحيح، وعزاه في المجمع (٢٧/٧) لأحمد، وقال: بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح. وذكر ابن جرير عن الحسن البصري أنها نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير، والآية الكريمة عامة تجرّ ذيلها على كل الأجيال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [٣٢]:

{٤٢٧} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: اللّهمّ إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا من السماء أو ائتنا بعذاب أليم الآية، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٣٧٨/٩، ٣٧٩)، ومسلم

هذا من فرط جهل أبي جهل وشدّة كفره وعناده، فبدل أن يسأل الهداية استعجل العذاب، ولكن الله عزّ وجلّ لم يَسْتَأْصِلْهُم بالعذاب إكراماً لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث كان بين أظهرهم، فلما فارقهم جاءهم عذاب الله وخزيه بالتقتيل والأسر والإذلال، وفتح عاصمتهم مكة المكرمة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [٣٤]:

{٤٢٨} ـ عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول جِهاراً غير سِرّ: **«ألاَ إنّ آل أبي فلان لَيسُوا لي بأولياء، إنما وَلِيّ الله وصالِحُ المؤمنين»**.

رواه البخاري في الأدب (٢٤/١٣، ٢٥، ٢٦)، ومسلم في الإيمان (٨٧/٣).

أولياء الله هم الذين والوا الله بطاعته، فوالاهم بألطافه وكراماته وهم المتقون. وفي الحديث إرشاد للمؤمنين بأن يقطعوا ولايتهم وصداقاتهم عن المخالفين في الدين، وأن يعلنوا البراءة من موادتهم وأن يخلصوا الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين الصالحين. والمراد بقوله في الحديث: إن آل أبي فلان،

قيل: الحكم بن أبي العاص، وقيل: أبو طالب ومن كان كافراً من أولاده معه. ولا يدخل في الحديث الإمام عليّ وجعفر رضي الله تعالى عنهما، لأنهما من أكابر صالحي المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [٣٨]:

{٤٢٩} ـ عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أما علمتَ يا عَمْرُو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدِم ما كان قبلها، وأن الحجّ يهدم ما كان قبله»**.

رواه مسلم في الإيمان (١٣٧/٢) مطولاً في قصة موت عمرو بن العاص وتوبته وبكائه. وسيأتي مطولاً لاحقاً

في الآية والحديث بشارة لمن أسلم من الكفار كما فيه فضل الحجّ والهجرة، وأنهما يكفران كل ما سبق من آثام وفواحش... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [٤١]:

{٤٣٠} ـ عن عمرو بن عَبَسة رضي الله تعالى عنه قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى بعير من المَغْنم فلما سلّم أخذ وَبَرة من جَنْب البعير، ثم قال: **«ولا يحلّ لي من غنائمكم مثلُ هذا إلا الخمس، والخُمُس مردودٌ فيكم»**.

رواه أبو داود (٢٧٥٥)، والحاكم (٦١٦/٣)، والبيهقي (٣٣٩/٦) بسند صحيح، وللحديث شواهد حسان، سيأتي بعضها في سورة الحشر إن شاء الله تعالى.

لا خلاف بين المسلمين أن حكم الغنيمة التي تؤخذ من الكفار على أيدي المسلمين أنها تجعل خمسة أخماس: أربعة منها تقسم بين المقاتلين،

والخُمُس الباقي يوزع بين المذكورين في الآية الكريمة المذكورة.

وخمس الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم واحد كما قال بعض مفسري السلف وقد صح عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه كان يأخذ من الغنيمة الصَّفيَّ أَمَةً أو ما شاء يصطفيه لنفسه زيادة على سهمه من الخُمُس. ويأتي ذلك من الجهاد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [٤٥]:

{٤٣١} ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوّ حتى إذا مالَت الشَّمْسُ قامَ فيهم، فقال: «**يا أيها الناس لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» الحديث، وسيأتي في سورة الأحزاب.

رواه البخاري في مواضع من الجهاد منها (٦/٤٩٧، ٤٩٨)، ومسلم فيه أيضاً (١٧٤٢) وغيرهما.

الآية الكريمة والحديث الشريف يدلاّن على وجوب الثبات والصبر عند التحام القتال ولقاء العدوّ مع ذكر الله تعالى والالتجاء إليه وسؤاله النصر والظفر بالعدوّ، كما في الحديث النهي عن تمني لقاء العدوّ وسؤال العافية أفضل.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ إلخ [٦٠]:

{٤٣٢} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول: «**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوّة، ألا إن القوة الرَّمْيُ ثلاثاً**».

رواه أحمد (١٥٧/٤)، ومسلم في الإمارة (٦٤/١٣)، وأبو داود (٢٥١٤)، والترمذي في التفسير (٢٨٨٤)، وابن ماجه (٢٨٨٣)، والحاكم (٣٢٨/٢)، وزاد مسلم والترمذي: «**ألا إن الله سيفتح لكم الأرض وستُكْفَوْنَ المَؤُونة فلا يَعْجِزَنَّ أحدكم أن يَلْهُوَ بأسْهُمِهِ**»، غير أن مسلماً أفردها حديثاً مستقلاً.

في الآية والحديث الحضّ على اتخاذ القوّة والاستعداد لقتال الكفار وإرهابهم وأن أعظم القوة هي الرمي، وفي الحديث إشارة لطيفة إلى الرمي بهذه الصواريخ والقنابل الحالية المدمّرة، وأنها هي القوة الحقيقية لا غيرها من كثرة الجنود والأسلحة الخفيفة، فإن الرمي بهذه الصواريخ والقنابل يكون بواسطة الطائرات والدبابات البريّة، والبواخر الحربية البحرية... مما لا تبقي ولا تذر ويتولّى شخص واحد أو اثنان... قتل الألُوف من البشر وتدمير مدن بأتمّها، فيجب على الدولة الإسلامية إن وُجدت أن تنافس الكفار في الحصول على هذه الأسلحة المتطوّرة... وتنشئ لها المصانع... والتدرب على استعمالها لكننا...

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [٦٣]:

{٤٣٣} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلخ، قال: «**هم المتحابّون في الله**»، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله.

رواه النسائي في الكبرى (٣٥٢/٦)، وابن جرير (٣٧/١٠)، وابن أبي حاتم (١٧٢٧/٥)، والحاكم (٣٢٩/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه نور الدين (٢٧/٧، ٢٨) للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح غير جنادة بن مسلم وهو ثقة. والصواب مسلم بن جنادة كما عند البزار.

في الآية الكريمة امتنان من الله عزّ وجلّ على نبيّه صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم بما أيّده به من المهاجرين والأنصار حيث جمع قلوبهم على الإيمان وآخى بينهم وحبّبهم إلى بعضهم وألف بين قلوبهم بعد أن كانوا متخاذلين متعادين متقاتلين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الآية [٦٥]:

{٤٢٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ شقّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾، قال: فلما خفف الله عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ما خفّف عنهم.

رواه البخاري (٣٨١/٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٦)، وابن جرير (٣٩/١٠) واللفظ لأبي داود.

الآية واضحة في وقوع النسخ، وكان ذلك هنا من الشدّة إلى التخفيف رحمةً بالعباد، فإن مقاومة رجل واحد لعشرة وعشرين لمائتين ومائة لألف شاقّ وصعب جداً، وخاصة في وقتٍ كان الحرب فيه بالسيوف والحراب والنبال، ولذلك لما علم الله ضعفهم خفّف عنهم فجعل المائة بالمائتين والألف بالألفين.

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾:

{٤٢٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لم تَحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ سُودِ الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نارٌ من السماء، فتأكلها فلما كان يومُ بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحلّ لهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾**».

رواه أحمد (٢/٢٥٢)، والترمذي (٢٨٨٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٥٢)، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي (٦/٢٩٠) بسند صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه.

في الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، وأن الله عزّ وجلّ أباح لنا الغنائم رحمةً بنا وتخفيفاً علينا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [٧٢]:

{٤٣٦} ـ عن جرير بن عبدالله البَجلي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطُّلَقاءُ من قريش والعُتَقَاءُ من ثَقِيف، بعضُهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة**».

رواه أحمد (٤/٣٦٣)، والطبراني في الكبير (٢/٣١٤، ٣١٦)، والحاكم (٤/٨٠، ٨١)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه نور الدين (١٠/١٥) لأحمد والطبراني قال: بأسانيد وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح، ورواه أبويعلى (٥٠١١)، والطبراني في الكبير (١١/٢٣٠) من حديث ابن مسعود وسنده حسن.

في الآية الكريمة مع الحديث الشريف أن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء والعتقاء كذلك، وقد كانوا كذلك أيام النبوّة، وحياة الصديق والفاروق وطرفاً من أيام عثمان رضي الله تعالى عنهم حتى جاءت الفتنة فحصل ما حصل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [٧٣]:

{٤٣٧} ـ عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يتوارثُ أهلُ ملّتين، ولا يرثُ مسلمٌ كافراً، ولا كافرٌ مسلماً**»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

رواه الحاكم (٢/٢٤٠) وصححه ووافقه الذهبي، وهو في الصحيحين بلفظ: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**»، وأوّله عند أهل السنن من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وصححه.

في الآية والحديث وجوب قطع علاقة الولاية والإرث بين المسلم والكافر، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾ إلخ، معناه: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وقعت في المجتمع فتنة وفساد عريضٌ... وقد وقع ما حذّرنا الله تعالى منه، فإن المسلمين لما والوا الكفار واختلطوا بهم وتشبّهوا بمظاهرهم وأخلاقهم انتشر الفساد بما لم يتقدم له مثيل، وتميّع الناس وأخلدوا إلى الشهوات المحرمة وانخلعوا من كل خلق كريم وأصبحوا كالبهائم، وذابت شخصية المسلم في شخصية الكافر ذكوراً وإناثاً، وهذا آخر تفسير سورة الأنفال، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

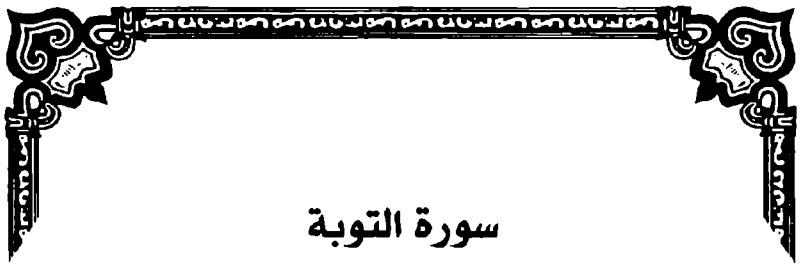

سورة التوبة
بـــراءة

هذه السورة الكريمة من السور المدنية وهي آخر ما نزل من السور الطوال، نزلت في السنة التاسعة مرجع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غزوة تبوك، وقد يجعلها بعضهم سورة واحدة مع ما قبلها ويستدلّون على ذلك بحديث ورد في ذلك عن سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه. وآياتها مائة وتسع وعشرون، وأهدافها: التشريع الإسلامي وخاصّة الشؤون السياسية، كالجهاد في سبيل الله والحضّ عليه والاستنفار لقتال أعداء الدين، وذكر بعض أحكام السياسة الخارجية ثم التحدّث عن المنافقين وكشف عوراتهم وما فعلوه وقاموا به من أدوار ومكر وكذب... في غزوة تبوك والكلام عليه أخذ معظم السورة.

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [١ ـ ٣]:

{٤٣٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعليّ بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، إلا الذين عاهدتم من المشركين.

وفي رواية: **«ويوم الحجّ الأكبر يوم النحر»**... وفي رواية: **«ومن كان بينه وبين رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عهد فأجله وأمَدُه إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسولُه»**.

رواه البخاري (٣٨٧/٩، ٣٩٠)، ومسلم في الحجّ (١١٥/٩، ١١٦)، وأبو داود (١٩٤٦)، والنسائي في الكبرى (٣٥٣/٦)، والرواية الثانية لأبي داود والثالثة للنسائي وسندهما صحيح.

{٤٣٩} ـ وعن زيد بن يُثَيْع قال: سألنا عليّاً بأيّ شيء بُعِثْتَ في الحجّة؟ قال: بُعِثْتُ بأربع أن لا يطوفَ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عهدٌ فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له عهدٌ فأجلُه أربعةُ أشهر، ولا يدخل الجنّة إلا نفسٌ مؤمنةٌ، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعدَ عامِهم هذا.

رواه أحمد (٣/١)، وعبدالله في الزوائد (١٥٠/١، ١٥١)، والترمذي (٢٨٩٢) من طرق صحيحة.

في الحديث بيان أن السنة التاسعة من الهجرة كانت الفاصل بين المشركين وبين دخول الحرم المكي الشريف، والمنع البات من الطواف بالبيت مع العُرْي كما كان الحال أيام الجاهلية كما فيه وفي الآية قطع العلاقة بين الله ورسوله وبين المشركين. وفيه أن الذين تولوا الإعلام بهذه البراءة هم الإمام عليّ والصدّيق وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم، وفيه بيان المدة المضروبة للمعاهدين وغيرهم غير أنه تعارض حديث عليّ مع رواية

أبي هريرة عند النسائي، فإن هذه تنصّ على أن الأربعة أشهر هي مدة لمن كان لهم عهد، بينما رواية الإمام عليّ تدلّ على أنها أجلّ لمن لم يكن لهم عهد، وقد رجّح ابن جرير وابن كثير وغيرهما رواية الإمام وحكموا على رواية أبي هريرة التي رواها النسائي بالوهم، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [٥]:

{٤٤٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**أُمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله**».

رواه البخاري في الإيمان (٨٢/١)، ومسلم فيه أيضاً (٣١٢/١) وغيرهم.

والحديث متواتر وارد عن جماعة كثيرة من الصحابة حتى أفرده بعض الحفاظ بالتأليف.

والحديث موافق للآية الكريمة والمراد بالناس في الحديث غير أهل الكتاب ومن ألحق بهم فهم الذين يجب قتالهم حتى يسلموا... ولا يقبل منهم غير ذلك. ويأتي هذا مفصلاً في الجهاد.

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [١٢]:

{٤٤١} ـ عن زيد بن وهب قال: كنّا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة. فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمّد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تخبروننا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا، قال: أولئك الفسّاق

أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده.

رواه البخاري في التفسير (٣٩٢/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٥٤/٦) والسياق للأول.

أئمّة الكفر: رؤساؤه كانوا كفاراً خلصاً أم منافقين، وقوله: لا إيمان لهم أي: لا عهد لهم، فهم كلما عاهدوا خانوا، وقوله: يبقرون ـ بضم القاف ـ أي: ينقبون، وقوله: أعلاقنا أي: نفائس أموالنا، وقول حذيفة في الآية من قبيل المرفوع لأنه لولا ما كان عنده من علم عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتعيين المنافقين لما تجاسر على رمي الأبرياء برأيه وحدسه، وقد كان رضي الله تعالى عنه ممن اختصّ بعلم المنافقين كما هو معروف عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [١٨]:

{٤٤٢} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المَسْجِدَ فاشهَدُوا له بالإيمان**»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية.

رواه أحمد (٧٦/٣)، والترمذي في الإيمان (٢٤٣٦)، وفي التفسير (٢٨٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢)، والحاكم (٢١٢/١، ٢١٣)، وغيرهم وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم، وهو وإن كان فيه أبو السمح عن أبي الهيثم، وروايته عنه ضعيفة، فإن لمعناه شواهد تقوّيه عن أنس رواه عبيد بن حميد والبزار بلفظ: «**إنما عمار المساجد هم أهل الله**»، وعن معاذ بن جبل رواه أحمد، وعن أبي الدرداء رواه ابن أبي شيبة والبزار.

الآية مع الحديث وما في معناه تدلّ على أن من اعتاد المسجد للصلاة فيه والذكر والعلم كان مؤمناً تقيّاً مهتدياً، وهذا مما لا شكّ فيه، وقد جاء

في حديث الصحيحين في السبعة الذين يظلّهم الله تحت ظلّ عرشه... «ورجل قلبه معلّق بالمساجد»، ففي كل ذلك بشارة لروّاد المساجد، جعلنا الله تعالى بمنّه وكرمه من أشرفهم وأفضلهم.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [١٩]:

{٤٤٣} ـ عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: كنت عند منبر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمُر المسجد الحرام، وقال آخر: والجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صلّيت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ إلخ.

رواه مسلم في الإمارة باب فضل الشهادة (١٣/٢٥، ٢٦) وغيره.

الحديث كالآية يدلاّن عن أن الجهاد في سبيل الله مع الإيمان لا يوازيه أي عمل، فأحرى من ادّعى السقاية وعمارة المسجد الحرام ولاسيما مع الكفر بالله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [٢٥ ـ ٢٦]:

{٤٤٤} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: أفررتم عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، ولقد رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يومئذ وأبو سفيان بن الحارث آخِذٌ بلجام البغلة ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**أنا النبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبد المطَّلب**».

رواه البخاري في الجهاد (٤١٥/٦)، وفي المغازي (٩٢/٩، ٩٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١١٧/١٢، ١١٨).

{٤٤٥} ـ وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: أخذ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم حنين حصيّاتٍ ثم رمَى بها في وجوه الكفار ثم قال: «**انهزموا وربّ محمد**»، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً وأمْرَهُم مُدْبراً.

رواه مسلم في الجهاد (١١٣/١٢، ١١٧)، والنسائي في الكبرى (١٩٥/٥) وغيرهما.

{٤٤٦} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: لما غَشَوْا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم حنين نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولّوا مدبرين.

رواه مسلم (١٢٢/١٢) مطوّلاً كسابقه، ويأتي في المغازي بإذن الله تعالى.

جاءت هذه الآية الكريمة يُذكّر الله بها الصحابة نعمه الكثيرة وفضله عليهم، وأنه تعالى أيّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم في مواطن وغزوات كثيرة كبدر والخندق وقريظة والنضير وخيبر والفتح... وغيرها، وكذا يوم حنين حيث أعجبوا بكثرتهم. ورغم ذلك لم تغن عنهم شيئاً حيث ولّوا مدبرين ثم

نصرهم بتأييده وعونه لا بكثرة عددهم ولا عدّتهم. وجاءت هذه الأحاديث تبيّن بعض ما وقع لهم في هذه الغزوة وما صدر من حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من تلك المعجزة العظمى حيث رماهم بالتراب فانهزموا وضعفوا وأبان فيها صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن شجاعة فاق بها الأبطال، وقوله: حدّهم كليلاً أي: قوتهم ضعيفة، وكَلَّ السيفُ إذا ضعف حده ولم يقطع فهو كليل. وقوله: شاهت الوجوه أي: قبحت الوجوه، والشوهاء من النساء القبيحة.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٣١]:

{٤٤٧} ـ عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفي عُنُقي صَلِيبٌ من ذهب، فقال: «**يا عدي اطرح عنكَ هذا الوثَن**»، وسمعته يقرأ: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوه، وإذا حرّمُوا عليهم شيئاً حرموه**».

رواه الترمذي (٢٨٩٥)، وابن جرير (١١٤/١٠)، والبيهقي (١١٦/١٠) وغيرهم وهو حديث صحيح لشاهد له عن حذيفة عند ابن جرير (١١٤/١٠)، وابن عبد البرّ في العلم (١٠٩/٢)، والبيهقي (١١٦/١٠) بسند صحيح.

الوثن: هو ما يعبد من دون الله، والمراد به هنا الصليب. والأحبار: جمع حبر ـ بفتح الحاء وكسرها ـ هو العالم، والرهبان جمع راهب، وهو العابد المنقطع إلى الله تعالى.

وفي الآية والحديث ذمّ تقليد العلماء والعباد... في آرائهم من التحليل والتحريم بدون حجّة من الله عزّ وجلّ، وأن ذلك يعتبر نوعاً من الشرك، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ

بِهِ ٱللَّهُ﴾. وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [٣٣]:

{٤٤٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا يَذهبُ الليلُ والنهارُ حتى تُعبدَ اللاَّتُ والعُزَّى**»، فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، أن ذلك تام قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عزّ وجلّ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم**».

رواه مسلم في الإيمان وفي التفسير (١٨/٣٣).

{٤٤٩} ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله زَوى لي الأرض فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وأن ملك أمتي سيبلُغ ما زُوي لي منها**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/١٣، ١٤).

زوى لي الأرض: جمعها لي، والهدى ـ بضم الهاء وفتح الدال مع ألف مقصورة ـ هو ما جاء به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الأخبار الصادقة والعلم النافع والإيمان الصحيح، ودين الحقّ هو توحيد الله عزّ وجلّ والأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. والآية صريحة في أن الله تعالى سيظهر دينه على سائر الأديان الأخرى الباطلة، وأن مُلْكَ الأمة سيعمّ المشارق والمغارب كما بيّنه حديث ثوبان، وقد صدق الواقع كل ذلك، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [٣٤]:

{٤٥٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يكون كنز أحدهم يوم القيامة شجاعاً أقْرَع يَفِرُّ منه صاحبُه ويطلبُهُ أنا كنزُك، فلا يزال به حتى يُلْقمه أُصبعَه»**.

رواه البخاري في الزكاة وفي التفسير (٣٩٣/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٥٤/٦)، وكذا أحمد (٢٧٩/٢، ٣٥٥)، وابن حبان (٣٢٥٨) بالإحسان، والبيهقي (٨١/٤).

فسّروا الكنز بالمال الذي لا يزكى، ورد ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر وأبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً. والشجاع الأقرع: أخبث الأفاعي، وفي هذا وعيد شديد لمن لا يزكي ماله، وقد تقدم شيء من هذا في سورة آل عمران.

{٤٥١} ـ وعن زيد بن وهب رحمه الله تعالى قال: مررت على أبي ذرّ بالرَّبَذَة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنّا بالشام فقرأتُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال معاوية: ما هي فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها فينا وفي أهل الكتاب إلى أن كان قول وتنازع وكتب إلى عثمان يشكوني، كتب إليَّ عثمان أن أقدم، فقدمت المدينة فكثر ورائي الناس كأنهم لم يروني قط، فدخلت على عثمان فشكوت إليه ذلك، فقال: تنحّ وكن قريباً، فنزلت هذا المنزل، والله لو أُمّر عليَّ حبشي ما عصيته ولا أرجع عن قولي.

رواه البخاري في الزكاة (١٦/٤، ١٧)، وفي التفسير (٣٩٣/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٥٤/٦، ٣٥٥).

في الحديث بيان أن الآية وإن كان سياقها في أحبار أهل الكتاب... فإنها شاملة لنا أيضاً، وأن الحق كان مع أبي ذرّ في محاورته مع معاوية.

•

وفيه وجوب طاعة الخليفة والانقياد لأوامره ما لم تكن معصية ومخالفة للحق.

{٤٥٢} ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية، قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: نزلت في الذهب والفضّة لو علمنا أي المال خير فنتخذه، فقال: أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه.

رواه أحمد (٥/٢٧٨، ٢٨٢)، والترمذي (٢٨٩٤) وحسّنه وصححه وله شواهد.

{٤٥٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ﴾ إلخ، كبُرَ ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أُفَرِّجُ عنكم، فانطلق فقال: يا نبي الله إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّ الله لم يفرض الزكاة إلا ليُطَيِّبَ ما بَقِي من أمْوَالِكُم، وإنما فَرَضَ المواريثَ لتكون لمن بعدكم»**، فكبّر عمر ثم قال: **«ألا أخبرك بخير ما يكنِزُ المرءُ: المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سَرَّتْه، وإذا أمَرها أطاعتْه، وإذا غاب عنها حَفِظَتْه»**.

رواه أبو داود في الزكاة (١٦٦٤)، والحاكم (٤/٣٣٣) وصححه ووافقه الذهبي.

في الحديث الثاني أن الزكاة فرضت تطهيراً للأموال... وفي الحديثين بيان أن أفضل ما يملك المسلم في هذه الحياة هو الإكثار من ذكر الله مع الشكر له عزّ وجلّ والزوجة الصالحة التي تساعده على دينه...

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٥]:

{٤٥٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما من صاحب ذهب ولا فضّة لا يُؤَدّي حقَّها إلا إذا كانت يوم القيامة صُفحتْ له صفائحُ من نار، فيُكْوى بها جَنْبُه وجبهتُه وظهرُه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضَى بين العباد ثم يَرى سبيله إمَّا إلى الجنّة وإمَّا إلى النار**».

رواه أحمد (٢/٢٦٢)، ومسلم في الزكاة (٧/٦٤، ٦٨)، وأبو داود (١٦٥٨، ١٦٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٨)، وفي المجتبى وغيرهم مطوّلاً.

{٤٥٥} ـ وعن الأحنف بن قيس قال: جلستُ إلى ملإ من قريش فجاء رجل خشِنُ الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلّم، ثم قال: بشّر الكانزين برضَفٍ يُحْمَى عليهم في نار جهنم، ثم يوضع على حَلَمَةِ ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْض كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حَلَمَة ثديه يتزلزل، ثم ولّى فجلس إلى سارية وتبعتُه وجلستُ إليه وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئاً. وفي رواية: فقمت إليه، فقلت: ما شيءٌ سمعتك تقوله؟ قال: ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيّهم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري (٤/١٧، ١٨)، ومسلم (٧/٧٧، ٧٨) كلاهما في الزكاة، والرواية الثانية عند مسلم وهو عندهما مطوّل.

الرضف: الحجارة المحماة، وقوله: نغض ـ بضم النون وسكون الغين آخره ضاد معجمة ـ: هو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف، وقيل: هو أعلى الكتف.

وفي الآية والحديثين وعيد عظيم لمانعي الزكاة، وأنهم سيعذّبون بأموالهم على كيفيّات يعلمها الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الآية:

{٤٥٦} ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الزمان قد استدَارَ كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرضَ السَّنة اثْنَا عشر شَهراً منها أربعةٌ حُرُمٌ ثلاثٌ متواليات: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان**».

رواه أحمد (٣٧/٥، ٧٣)، والبخاري في بدء الخلق وفي التفسير (٣٩٤/٩)، ومسلم (١٦٧/١).

يخبر تعالى بأن عدد الشهور المعتد بها عنده في شرعه وحكمه هو اثنا عشر شهراً هلالية على منازل القمر، وعليها تدور الأحكام الشرعية من صيام وحجّ وعدد النساء وغير ذلك، وقد كتب الله ذلك في الكتاب الإمام اللوح المحفوظ يوم خلق هذا العالم بأرضه وسمائه، فكانت منها أربعة أشهر محرمة معظمة محترمة فتضاعف فيها الطاعات ويحرم فيها القتال وهتك الحرمات وارتكاب ما حرم الله من الآثام، فذلك المذكور هو الدين المستقيم.

وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إن الزمان أي: السنة، استدار استدارة مثل حالته الأُولى أي: وقوع تاسع ذي الحجّة في الوقت الذي حلّت فيه الشمس برج الحمل عندما يستوي الليل والنهار في فصل الربيع.

قال الخطابي رحمه الله تعالى: كانوا ـ يعني: الجاهلية ـ يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير لأسباب تعرض لهم منها استعجال الحرب، فيستحلّون الشهر الحرام ثم يحرّمون بدله شهراً غيره،

فتتحول في ذلك شهور السنة وتتبدّل، فإذا أتى على ذلك عدّة من السنين استدار الزمان وعاد الأمر إلى أصله، فاتّفق وقوع حجّة الوداع عند ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [٤٠]:

{٤٥٧} ـ عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما**».

رواه أحمد (٤/١)، والبخاري في المناقب (١١/٨)، وفي التفسير (٣٩٥/٩)، ومسلم في الفضائل (١٤٩/٥)، والترمذي (٢٨٩٦)، وابن جرير (٣٦/١٠)، وابن حبان (٦٢٧٨) وغيرهم.

{٤٥٨} ـ وعن سالم بن عُبيد أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما قُبِض قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، فقال عمر: مَن له مثلُ هذه الثلاث: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾، من هما ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، من هما؟ ثم بسط يده وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة.

رواه الترمذي في الشمائل (٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٣٥٥/٦)، وابن خزيمة (١٥٤١/ ١٦٢٤)، وابن أبي حاتم (١٨٠٠/٦) وسنده صحيح عند بعضهم.

المراد بالصاحب في الآية هو أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه بالإجماع، وكان الصحابة لا يختلفون في ذلك.

وقد استوفيت فضائل الصديق في فضائل الصحابة، فارجع إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [٦٠]:

{٤٥٩} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تحل الصدقة لغنيٍّ إلاّ لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ أو رجلٍ اشتراها بمالِه، أو رجلٍ له جارٌ مسكين فتُصُدِّق على المسكين فأهدَى المسكين للغني أو لعامل عليها**».

رواه أحمد (٣/٣١)، وأبو داود (١٦٣٦)، وابن ماجه (١٨٤١)، وأبو يعلى (١/٥٠٧) بسند صحيح.

{٤٦٠} ـ وعن صفوان بن أُميّة رضي الله تعالى عنه قال: أعطاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم حُنين، وإنه أبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليّ.

رواه مسلم في فضائل النبيّ (١٥/٧٣)، والترمذي في الزكاة (٥٨٩) بتهذيبي.

{٤٦١} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن عليّاً عليه السلام بعث إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذُهَيْبَة في تربتها من اليمن، فقسَمَها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس وعُيَيْنَة بن بَدْر وعلقمَةَ بن عِلاثة وزيد الخير، وقال: «**أتألفهم**».

رواه الشيخان وغيرهما، وهو من أحاديث الخوارج.

{٤٦٢} ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلّني على عمل يقرّبني من الجنّة ويباعدني من النار، فقال: «**أعْتِقْ النَّسَمة وفُكَّ الرّقبة**»، فقال: يا رسول الله أوَليستا واحداً؟ قال: «**لا عِتْق النَّسَمة أن تَنْفرد بِعِتْقِها وفكُّ الرقبة أن تُعِينَهُ في ثَمَنِها**».

رواه أحمد (٤/٢٩٩)، والطيالسي (٧٣٩)، وابن حبان (٢/٣٧٤)،

والبيهقي (٢٧٢/١٠، ٢٧٣) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

{٤٦٣} ـ وعن قَبِيصة بن مُخارق رضي الله تعالى عنه قال: تحمّلت حَمالة، فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أسأله فيها، فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**»، قال: ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحلّ لأحد إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألةُ حتى يصيبها ثم يمسك**» الحديث.

رواه أحمد ومسلم في الزكاة (١٣٤/٧) وغيرهما، وتقدم بطوله في الزكاة.

{٤٦٤} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: أصيب رجل في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ثمار ابتاعها فكثُر دَيْنُه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تصدّقوا عليه**»، فتصدّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لغرمائه: «**خذوا ما وجدتم وليس لكم إلاّ ذلك**».

رواه أحمد (٣٦/٣، ٣٨)، ومسلم في البيوع (١٥٥٦)، وأبو داود (٣٤٦٩)، والترمذي في الزكاة (٥٧٩)، والنسائي في البيوع، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٥٦) وغيرهم.

الغارم: هو مَن عليه دين؛ أعمّ من أن يكون تحمل حمالة، أو غيره، والعامل عليها: هو الساعي والجابي للصدقة، والمؤلّفة قلوبهم من هم حديثو عهد بالإسلام، وفكّ الرقبة: المساعدة على تحريرها، وقوله: رجل تحمّل حمالة معناه: أن يتحمل شخص عن غيره حقاً فلا يجد ما يؤدّي به.

وفي هذه الأحاديث بيان للآية الكريمة وأن المذكورين فيها هم الذين يعطون من الزكوات والصدقات ومن سواهم لا حظّ لهم فيها، وإنما يأخذونه سحتاً محرماً، وقد تركنا أحاديث هنا اختصاراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ **الآية:**

{٤٦٥} ـ عن عبدالله بن عمر رضيَ الله تعالى عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونزل القرآن. قال عبدالله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون»**.

رواه ابن جرير (١٠/١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/١٨٢٩) وغيرهما وسنده صحيح.

الآية الكريمة استدلّ بها العلماء على كفر من طعن في القرآن أو في الله ورسوله، ولو كان عابثاً ولاعباً كما هي عادة أرباب المسرحيات والممثلين اليوم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [٧٩]:

{٤٦٦} ـ عن أبي مسعود البدريّ رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنّا نُحامِلُ على ظهورنا، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدّق بصاع، فقالوا: إن الله لغنيّ عن صاع هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وفي رواية: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المدّ وإن لبعضهم اليوم لمائة ألف.

رواه البخاري (٤/٢٥)، ومسلم (٧/١٠٥) كلاهما في الزكاة، ورواه البخاري في التفسير (٩/٤٠٠، ٤٠٢) أيضاً.

نحامل أي: نتكلّف الحمل بالأجرة، وقوله: آية الصدقة، يعني: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وفي الآية والحديث بيان ما كان عليه

الصحابة من المسارعة إلى العمل بمقتضى الشريعة والإنفاق من أموالهم كل على حسبه من السعة والضيق والقلّة، كما يدلاّن على سوء معاملة المنافقين لأهل الإيمان، وأن عادتهم الطعن واللمز وسوء الظن بالناس وأنه لا يسلم من شرّهم مسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

{٤٦٧} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لما مات عبدالله بن أُبيّ بن سلول دُعِي له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليصلّي عليه، فلما قام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وثَبْتُ إليه وقلت: يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا، أعدد عليه قوله، فتبسّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: **«أخّر عني يا عمر»**، فلما أكثرت عليه، قال: **«أما إني خُيرتُ فاخترت لو أعلم أني زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»**، قال: فصلّى عليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾، قال: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم.

رواه البخاري (٤٠٦/٩)، والترمذي (٢٨٩٧) كلاهما في التفسير.

{٤٦٨} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين مات أبوه، فقال: أعطني قميصك أكفّنه وصلّ عليه واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: **«إذا فرغتم فآذنوني»**، فلما أراد أن يصلّي جذبه عُمر وقال: أليس قد

نهى الله أن نصلّي على المنافقين، فقال: «**أنا بين الخيرتين استغفر لهم أو لا تستغفر لهم**» فصلّى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، فترك الصلاة عليهم.

رواه البخاري في التفسير (٤٠٣/٩، ٤٠٤، ٤٠٨)، ومسلم في الفضائل (١٦٧/١٥)، والترمذي (٢٨٩٨).

في الآيتين المنع من الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم وذلك لكفرهم بالله ورسوله وموتهم على ذلك، فهم ليسوا أهلاً للاستغفار والاستشفاع لهم...

وفي الحديثين فضل عمر رضي الله تعالى عنه حيث نزل القرآن بسببه، وأنه كان ملهماً موفّقاً، وهذه إحدى موافقاته، وقد ذكرت ما صح منها في فضائل الصحابة.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

{٤٦٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سِرتم سَيراً إلا وهُمْ معكُم حَبَسَهُمْ العذرُ**».

رواه البخاري في الجهاد (٣٨٧/٦)، وفي المغازي (١٩٠/٩)، ومسلم في الإمارة باب من حبسه العذر عن الغزو (٥٧/١٣)، وفي رواية عن جابر: حبسهم المرض.

{٤٧٠} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في رهط من الأشعريين أستحمله، فقال: «**والله لا أحملكم ما عندي ما أحملكم**»، ثم لبثنا ما شاء الله، فأتى بإبل فأمر

لنا بثلاث ذود، فلما انطلقنا قال بعضنا لبعض: لا يبارك الله لنا، أتينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نستحمله فحلف لا يحملنا فحملنا، فقال أبو موسى: فأتينا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرنا ذلك له، فقال: «**ما أنا حملتكم، بل الله حملكم، إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفّرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**».

رواه أحمد (٣٩٨/٤، ٤٠٤)، والبخاري (٤١٦/١٤، ٤١٧)، ومسلم (١٠٨/١١، ١٠٩، ١١١) وغيرهم، ورواه أيضاً البخاري في المغازي (١٧٥/٩).

في الآيتين والحديث بيان أن صاحب العذر من مرض ونحوه لا حرج عليه ولا إثم في تخلّفه عن الجهاد ونحوه من التكاليف الشرعية إذا كانت نيّته صادقة، وأنه يكون في الأجر مشاركاً لمن خرج وعدل. وقوله: إلا وهم معكم، معناه: معهم بأرواحهم ونيّاتهم الصادقة، وفيه فضل النيّة الصالحة وأن الله يكتب لأصحابها ما نووه.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [٩٥ ـ ٩٦]:

{٤٧١} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال حين تخلّف عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غزوة تبوك: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدقي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين أنزل الوحي: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

رواه البخاري في المغازي وفي التفسير (٤١٠/٩) وغيره، ومسلم، ويأتي مطوّلاً قريباً.

الآية الكريمة نزلت في المنافقين المتخلّفين عن غزوة تبوك، وجاءت تخبر بكذبهم على رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتأكيده بحلفهم الغموس وتسجل عليهم الشقاء الأبدي والعذاب الخالد، لأنهم قوم رجس فاسقون مغضوب عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [١٠٢]:

{٤٧٢} ـ عن سمرة قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم رؤيا فيقصّ من شاء الله أن يقصّ، وأنه قال لنا ذات يوم: «**إنه أتاني آتيان الليلة وأنهما انبعثاني فقالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما فانتهيا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب وفضّة، فأتيا باب المدينة فاستفتحا ففتح لنا فدخلنا فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر كأقبح ما أنت راء، فقال لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، وإذا هو معرض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم وصاروا كأحسن صورة، فقالا لي: هذه جنّة عدن، وذاك منزلك، فبينما بصَري صَعْداً فإذا قصر قالا لي: هذا منزلك، قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني أدخله، قالا: أمّا الآن فلا، وأنت داخله، فقال: القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن وشطراً منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً فتجاوز الله عنهم**».

رواه البخاري في مواضع مطوّلاً ومختصراً في التفسير (٤١١/٩)، وفي التعبير (٩٩/١٦، ١٠٦)، ومسلم فيه (٣٥/١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٥٨/٦)، والترمذي في الرؤيا وغيرهم.

وفي الحديث بيان لمن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وأنهم الذين ماتوا على ذلك بدون توبة، وأن الله سيتجاوز عنهم بفضله ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [١٠٣]:

{٤٧٣} ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أُتِيَ بصدقَةِ قومٍ صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «**اللّهمّ صلّ على آل أبي أوفى**».

رواه أحمد (٣٨٢/٤)، ومسلم آخر الزكاة (١٨٤/٧).

في الآية والحديث مشروعية الدعاء مع مُؤَدّي الزكاة، واستدلّ بالحديث من أجاز الصلاة استقلالاً على غير الأنبياء، وفي ذلك خلاف وتفصيل للعلماء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [١٠٤]:

{٤٧٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله يقبلُ الصدقةَ ويأخذُها بيمينه فيُرَبّيها لأحدِكم كما يُرَبّي أحدكم مَهْرَه، حتى إن اللقمة لتصير مثل أُحد، وتصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ و﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾**».

رواه الترمذي في الزكاة (٥٨٧) بتهذيبي، وهو في الصحيحين بمعناه بدون ذكر الآيتين.

المهر: هو الفصيل الصغير من الإبل، وفي الحديث كالآية فضل الصدقة وأن الله ينميها لصاحبها حتى تصبح أضعاف أضعاف ما تصدّق به. وقوله: ويأخذها بيمينه تقدم ما فيه مراراً.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [١٠٨]:

{٤٧٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: تمارى رجلان

في المسجد الذي أُسّس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال آخر: هو مسجد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«هو مسجدي هذا»**.

رواه أحمد (٨/٣، ٢٣، ٢٤، ٩١)، ومسلم آخر الحجّ (١٦٨/٩، ١٦٩)، والترمذي (٢٩٠، ٢٨٩٩)، والنسائي (٣٥٩/٦) وغيرهم، وزاد الترمذي: وفي ذلك خير كثير.

والحديث نصّ في أن المسجد المؤسّس على التقوى هو المسجد النبوي الشريف، ولا شكّ أنه كذلك بالأولى والأحرى من غيره، غير أن سياق الآية الكريمة إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا قال بعده: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ إلخ، وهؤلاء هم سكان قباء، وقد قدّمنا في الطهارة ما يتعلق بآية طهور أهل قباء الذين أثنى الله عليهم بسببه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ الآية [١١٣]:

{٤٧٦} ـ عن سعيد بن المسيّب عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أُميّة، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أي عم قل: لا إله إلاّ الله أحاجُّ لك بها عند الله»**، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أُميّة: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبدالمطّلب، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لأستغفرن لك الله ما لم أُنْهَ»**، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ.

رواه البخاري في الجنائز وفي التفسير (٤١١/٩) وغيرهما، ومسلم في الإيمان (٢١٤/١، ٢١٥، ٢١٦) وغيرهما.

الحديث نصّ في أن أبا طالب لم ينطق بكلمتي الشهادة وأن الآية نزلت بسببه، وكم كنا نتمنى أن يعتنق الإسلام ويموت عليه ولكن الله يفعل ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [١١٧ ـ ١١٩]:

{٤٧٧} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه في حديث تخلّفه عن غزوة تبوك، قال: فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منّا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبت، سمعت صارخاً أوفى على أعلى جبل بأعلى صوت: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، قد هم الناس يبشّروننا وهب قبل صاحبي مبشّرون وركض رجل إليّ فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته بشّرني نزعت ثوبيّ فكسوته إياهما بشارة، والله ما أملك غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جالساً حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحني وهنّأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يبرق وجهه من السرور، قال: «**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك**»، فقلت: من عندك يا رسول الله أو من عند الله؟ قال: «**بل من عند الله**»، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أحد من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أحسن مما أبلاني، وما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام بأعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يومئذ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين أنزل الله تعالى الوحي بشرّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [٩٦]، قال كعب: وكنا خُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، وليس الذي ذكر الله تعالى تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

رواه البخاري في أكثر من ستّة مواضع منها في التفسير (٤١٢/٩،

٤١٣)، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧، ٩٧)، وأهل السنن وغيرهم مطوّلاً ومختصراً.

هذا حديث عظيم وفيه فوائد وأحكام وآداب، وجاء مبيّناً لنزول الآيات المذكورة، وما حصل لكعب راويه وصاحبيه المتخلفين عن غزوة تبوك، ومقاطعة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه إياهم حتى نزلت توبتهم. وهذا آخر سورة التوبة والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

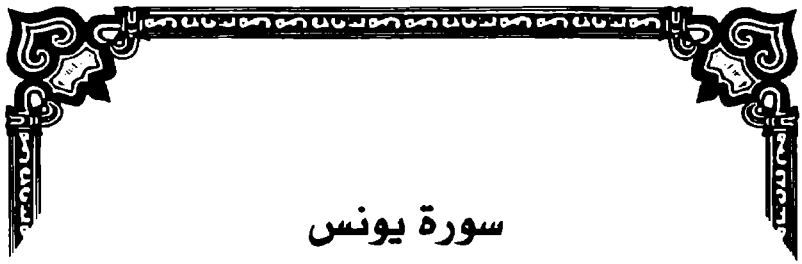

سورة يونس

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه، هذه السورة الكريمة بداية السور المكية المتوالية من هنا إلى سورة الحج المدنية، وهي تهتم بجانب العقيدة والكلام على الأُلوهية ودلائل التوحيد وما يتبع ذلك من الكلام على الرسالة والكتب الإلٰهيّة. وآياتها تسع ومائة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٤٧٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تَدْعو على أنفسكم، ولا تَدْعُو على أولادكم، ولا تَدْعو على خَدَمِكم، ولا تدعو على أموالكم، لا تُوافِقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاء فيستجابُ لكم**».

رواه مسلم في الزهد (١٣٩/١٨)، وأبو داود في الوتر (١٥٣٢)، وابن حبان (٢٤١١) بالموارد.

في الحديث الشريف النهي عن دعاء الإنسان على نفسه ونحوه، وهذا مضمون الآية، فإن الله لا يستجيب في الشر كاستجابته في الخير، ولكنه ربما وافق وقت الإجابة... قال مجاهد في هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليهم: اللّهم لا تبارك فيه والعنه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [١٤]:

{٤٧٩} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ وأن الله مستخلفكُم فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتّقوا الدنيا واتّقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء»**.

رواه أحمد (٣/١٩، ٢٢، ٦١، ٨٤)، ومسلم (١٧/٥٤، ٥٥)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والبيهقي (٧/٩١).

حُلْوة ـ بضمّ الحاء ـ وخضرة ـ بفتح ثم كسر ـ ومعناه: أن النفوس تستحليها وتحبها كما تحب الخضرة وغيرها من مظاهر الجمال، وقوله: مستخلفكم معناه: سيجعلكم خلفاء فيها لمن سبقكم لينظر هل تقومون بحقّها أم تغترون بها وتنساقون وراءها! وسيأتي الكلام على الحديث في الزهد والرقاق.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [٢٥]:

{٤٨٠} ـ عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنْبَي الصراط سُورَان فيهما أبواب مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبواب ستور مُرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تَعْوَجُوا، وداعٍ يدعو من فَوق الصراط، فإذا أراد أحدكم أن يفتح شيئاً من تلك الأبوابَ قال: ويحك لا تَلِجْهُ فإنك إن تَفْتَحْهُ تَلِجْه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على باب الصراط كتاب الله عزّ وجلّ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»**.

وفي رواية: «**وداع يدعو من فوقه ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾**».

رواه أحمد (١٨٢/٤، ١٨٤)، والترمذي في الأمثال (٢٦٧٠) وحسّنه، والنسائي في الكبرى (٣٦١/٦) وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والحديث تقدم في الاعتصام.

ضرب الله أي: بيّن، والمثل - بفتحتين - تصوير شيء خفي بأمر جليّ والغائب بالشاهد، وواعظ الله هو المسمّى بلمة الملك.

والحديث يدلّ على أن طريق الله واضح لا لبس فيه ولا غموض، وأن الله عزّ وجلّ يوفق من يشاء من عباده، فيهديه إليه، وهذا المثل من الأمثال العظيمة.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [٢٦]:

{٤٨١} - عن صُهَيْب رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنّة إن لكم عند ربكم موعداً يريد أن يُنجزكُموه؟ قالوا: ألم يُبَيِّضْ وجوهنا ويُثقّل موازيننا ويُدْخِلنا الجنّة ويُجرنا من النار؟ قال: فيكْشِفُ الحجاب فينظرون إلى الله عزّ وجلّ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم**».

رواه أحمد (٣٣٢/٤) و(١٥/٦)، ومسلم في الإيمان (١٧/٣)، وأبو عوانة (٤١١)، والترمذي في صفة الجنّة (٢٣٢٩)، وفي التفسير (٢٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣٦١/٦، ٣٦٢)، وابن ماجه (١٨٧) في المقدمة.

قوله: فيكشف الحجاب أي: عن أهل الجنّة، والحديث صريح في تفسير الزيادة بالنظر إلى الله عزّ وجلّ. أما الحسنى: فهي هنا الجنّة.

وسيأتي الكلام على رؤية الله في الجنّة في سورة القيامة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الآية [٦٢]:

{٤٨٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: من أولياء الله؟ قال: **«الذين إذا رُؤُوا ذكر الله»**.

رواه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، وابن المبارك في الزهد (٢١٧)، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٥)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٣١/١) وسنده حسن ولا يعتد بمن أرسله.

وللحديث شواهد منها عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«ألا أُنبئكم بخياركم»؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«خيارُكم الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله عزّ وجلّ. ألا أُخبركم بشِرَارِكُمْ؟»** قالوا: بلى، قال: **«شراركم المفسدون بين الأحبّة، المشّاؤون بالنميمة الباغون البراء العَنَت»**.

رواه أحمد (٤٥٩/٦)، وابن ماجه (٤١١٩)، وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٨٠)، قال البوصيري في المصباح: هذا إسناد حسن، شهر وسويد مختلف فيهما، وباقي رجاله ثقات.

ومنها عن عمرو بن الجموح عند أحمد (٤٣٠/١)، وأبي نعيم في الحلية (٦/١)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (١٩)، ومنها عن عبدالرحمٰن بن غنم عند أحمد (٢٢٧/٤) فالحديث صحيح.

{٤٨٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن من العباد عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء»**، قيل: مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال: **«هم قوم تحابُّوا برُوح الله على غير أموال ولا أنساب، وجوهُهم نور** ـ يعني: على منابر من نور ـ لا

يخافون إن خاف الناس، ولا يحزنون إن حَزِنَ الناس»، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ الآيه.

رواه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، وأبو يعلى (٦١١٠)، وابن حبان (٥٧٣) بالإحسان، وكذا ابن جرير (١٣٢/١١) وسنده صحيح، وله شاهد عن عمر رضي الله تعالى عنه رواه أبو داود (٣٥٢٧)، وابن جرير (١٣٢/١١)، وجوّده ابن كثير ولا يضرّ انقطاعه، وله شاهد آخر عن أبي مالك الأشعري رواه أحمد (٣٤١/٥، ٣٤٣)، وأبو يعلى (٦٨٤٢) بسند حسن.

في هذه الأحاديث بيان لما في الآية الكريمة: بأن أولياء الله عزّ وجلّ هم الذين إذا رآهم الناس ذكروا الله لما عليهم من الصبغة الإلهيّة، أو لما يغشاهم من جلال الله تعالى، وأنهم لعلوّ منازلهم يوم القيامة يغبطهم الأنبياء والشهداء، وأنهم كانوا في الدنيا متحابّين في الله من غير أنساب ولا أموال تجمعهم. ولا شكّ أن هؤلاء صنف من كبار الأتقياء الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في الآية، وأنهم لا يخافون إن خاف الناس ولا يحزنون إن حزن الناس، جعلنا الله عزّ وجلّ من أشرفهم بمنّه وكرمه، آمين.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [٦٤]:

{٤٨٤} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عنها، فقال: **«ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له»**.

رواه أحمد (٤٤٧/٦)، والترمذي في الرؤيا وفي التفسير (٢٩٠٦)، وابن جرير (١٣٣/١١، ١٣٧)، والحاكم (٣٩١/٤) من طرق بعضها صحيحة، وله شاهد عن عبادة بن الصامت رواه أحمد (٣١٥/٥)، والترمذي

في الرؤيا (٢١٠٣)، وابن ماجه (٣٨٩٨)، والحاكم (٣٩١/٤)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وجاء معناه في الصحيحين من حديث أبي هريرة وغيره، وفيه: «**فالرؤيا الصالحة بشرى من الله عزّ وجلّ**»، انظر ج (٢٦/١٦) وح(٢٠/١٥، ٢١)، وفي صحيح البخاري (٢٩/١٦)، وغيره عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لم يبق من النبوّة إلا المبشّرات**»، قالوا: وما المبشّرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»، وفي صحيح مسلم (١٩٦/٤) من باب القراءة في الركوع عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيها الناس إنه لم يبق من مبشّرات النبوّة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له**»، وعنده (٢٣/١٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رؤيا المسلم يراها أو تُرى له**».

فهذه الأحاديث كلها تدلّ على أن البشرى المذكورة في الآية للمؤمن في الدنيا هي الرؤيا الصالحة الحسنة يراها بنفسه أو يراها له غيره، وتكون مؤذنة بأنه من جملة أولياء الله الذين ذكرهم الله هنا، جعلنا الله من أفضلهم وأكرمهم لديه.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [٩٠، ٩١]:

{٤٨٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قدم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه**»؟ فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فنحن أحق وأولى بموسى منكم**»، فصامه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمر بصيامه.

رواه البخاري (٥/١٥٠، ١٥١)، ومسلم (٨/٩، ١٠) كلاهما في الصيام، ورواه البخاري في التفسير (٩/٤١٨).

{٤٨٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لما أغرق الله تعالى فرعون قال**: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلخ، **فقال جبريل عليه السلام: يا محمد لو رَأَيْتَنِي وأنا آخُذُ من حَال البحر وأدُسُّه في فيه مخافَةَ أن تُدركَه الرحمة**».

وفي رواية: «**إن جبريل جعل يدسّ في في فرعون الطين خشية أن يقول: لا إلـه إلاّ الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله**».

رواه أحمد (٢٢٠٣، ٢١٤٤، ٣١٥٤)، والترمذي (٢٩٠٧) بالروايتين، والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٣)، وابن جرير (١١/١٦٣)، وابن أبي حاتم (٦/١٩٨٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

في الحديثين بيان واضح للآية الكريمة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، وأن الله عزّ وجلّ أغرقه وقومه بالفعل، وأن ذلك لا يحتمل تأويلاً.

وفي الحديث الأول بيان أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان من هديه الاقتداء بالأنبياء قبله، كما فيه مشروعية الشكر على دفع البلاء وإهلاك الأعداء واتخاذ ذلك عادة كلما حلّ ذلك الوقت.

انتهت سورة يونس والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.

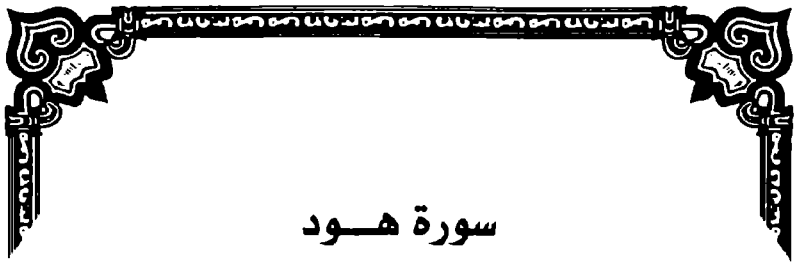

سورة هـــود

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه. آيات السورة ثلاث وعشرون ومائة. وأهدافها نفس أهداف السور المكّية، وفيها ذكر الأنبياء وخاصة قدماءهم؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ورئيس أنبياء بني إسرائيل وصاحب كتابهم العظيم التوراة كليم الله سيدنا موسى وأخيه هٰرون، على نبيّنا وعليهم جميعاً الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [٥]:

{٤٨٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل عن هذه الآية، فقال: **أناس كانوا يستخفون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم.**

رواه البخاري (٩/٤٢٠)، وابن جرير (١١/١٨٥) في التفسير، ومعنى هذا أن الناس كانوا لجهلهم بالإحاطة العلمية والبصرية الإلٰهيّة إذا أتوا نساءهم أو قضاء حاجتهم من بول... تلفّفوا بثيابهم كراهة أن يفضوا بفروجهم إلى السماء فيراهم الله في زعمهم، فأخبرهم تعالى بأن كل ذلك لا يخفى عليه منه شيء.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [٧]:

{٤٨٨} ـ عن عمران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»، وفي رواية: «**غيره**»، وفي أخرى: «**معه**»، «**وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السمٰوات والأرض**».

رواه أحمد (٤/٤٣٢، ٤٣٣)، والبخاري في بدء الخلق (٧/٩٨) وفي المغازي... والترمذي في آخر المناقب (٣٦١٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٣) بنحوه.

{٤٨٩} ـ وعن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**قدّر الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخلُق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

رواه أحمد (٢/١٦٩)، ومسلم (١٦/٢٠٣)، والترمذي (٢١٥٦) كلاهما في القدر.

كلا الحديثين يوافقان الآية الكريمة في أن العرش كان على الماء قبل خلق هذه الأجرام، وقبل أن يقدر الله المقادير ويكتبها في الذكر، وهذا قول الجمهور، وأن العرش خلق قبل الكائنات حتى اللوح والقلم، وأنه كان على الماء ولا ندري ما وراء ذلك. وفي حديث عمران بيان واضح بأن الله عزّ وجلّ كان ولم يكن شيء غيره ولا أحد معه قبله، فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية، وآخر كل شيء بلا نهاية؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾، ومن قال غير هذا فليس بمسلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [١٧]:

{٤٩٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لا يسمعُ بي أحد من هذه الأُمّة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلاّ كان من أصحاب النار»**.

رواه أحمد (٣١٧/٢، ٣٥٠)، ومسلم في الإيمان (١٨٦/٣) ونحوه عن أبي موسى رواه أحمد (٣٩٦/٤، ٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦) بسند صحيح، وعن ابن عباس رواه الحاكم (٣٤٢/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

الحديث جاء مبيّناً للآية، وأن كل من بلغته رسالة هذا النبيّ ولم يؤمن به وبما جاء به كان من المخلدين في النار، وهذا لا خلاف فيه بحمد الله بين المسلمين لأن شريعة الإسلام جاءت ناسخة لجميع الشرائع وخاتمة لها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [١٨]:

{٤٩١} ـ عن عبدالله بن عُمَر رضي الله تعالى عنه أنه بينا هو يطوف إذ عرض رجل فقال: يا أبا عبدالرحمٰن هل سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في النجوى؟ فقال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«يُدْنَى المؤمنُ من ربه حتى يضعَ عليه كَنَفَه فيقرّرُه بذنوبه، تَعْرِفُ ذنب كذا، يقول: أعرف ـ مرتين ـ فيقول: سترتُها في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم يُعْطَى صحيفة حسناته. وأما الآخرون أو الكفار، فينادى على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذَبُوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين»**.

رواه أحمد (١٠٥/٢)، والبخاري في المظالم وفي التفسير (٤٢٤/٩)، وفي الأدب (٩٩/١٣، ١٠٠) وفي التوحيد، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦)، وابن ماجه (١٨٣).

النجوى: هي ما يتكلّم به المرء مع غيره بحيث يسمع نفسه، والمراد بها هنا المناجاة التي تقع من الرب يوم القيامة مع المؤمنين، وقوله: كنفه ـ بفتحات ـ أي: ستره وعفوه. والحديث تتجلّى فيه رحمة الله تعالى بعبده

المؤمن يوم القيامة ولطفه به، وهذا بخلاف الكفرة والظَّلَمة المتمردين المطرودين من رحمة الله عزّ وجلّ، فإنهم سيفضحون ويلعنون على رؤوس الأشهاد.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [٤٦]:

{٤٩٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: **«ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فينادونه فيقول: لست هنا ويذكر سؤاله ربّه ما ليس له به علم ويستحي من ذلك»** الحديث سيأتي.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٢٦)، ومسلم في الإيمان وغيرهما.

لمّا أغرق الله عزّ وجلّ قوم نوح عليه السلام بالطوفان كان من جملتهم ولده كنعان، فنادى ربّه: إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق... فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب حتى تقف على حقيقته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [٨٠]:

{٤٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كان يأوي إلى ركن شديد إلى ربّه عزّ وجلّ قال: فما بعث بعده نبياً إلا في ثروة من قومه»**، وفي رواية: **«ولكنه عنى عشيرته»** الحديث.

رواه أحمد، والشيخان وغيرهم، ويأتي كاملاً مع تخريجه في سورة يوسف وفي الأنبياء.

الظاهر من الآية الكريمة أن لوطاً عليه السلام لم تكن له منعة في

قومه، ولذلك قال ما قال مع أنه كان في الواقع يأوي إلى ركن عظيم وهو الله عزّ وجلّ، فإنه لا يُضَامُ ولا يقهر ولا يغلب من احتمى به أو التجأ إليه وتوكّل عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [١٠٢]:

{٤٩٤} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٤٢٥/٩)، ومسلم في البرّ والصلة (١٣٧/١٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٠٩)، والنسائي في الكبرى (٣٦٥/٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠/٨).

قوله: يملي ـ بضم الياء ـ أي: يمهل ويؤخر ويطيل له المدة، وقوله: لم يفلته ـ بضم الياء أيضاً ـ أي: لم يطلقه وينفلت منه.

وفي الآية مع الحديث تهديد أكيد للعتاة الظلمة المتجبّرين، وأن الله عزّ وجلّ يمهلهم في هذه الحياة ويمدّ لهم فيها ويعطيهم من كل أنواع المتاع، وقد ينصرهم على أعدائهم ويمنحهم قوّة ونفوذاً ويطيل أعمارهم ويملأ قصورهم جواري حساناً وخدماً... حتى إذا اطمأنوا لذلك أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فيصبحون لا ترى لهم أثراً...

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [١٠٥]:

{٤٩٥} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: يا نبيّ الله فعلى ما نعمل على شيء قد فُرِغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «**بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسّر لما خُلق له**».

رواه الترمذي في التفسير (٢٩١٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١٧٠)، وهو حسن صحيح لطرقه، وانظر تهذيب الجامع (٢٩٦٧) من كتاب القدر.

والحديث يدلّ على أن الله عزّ وجلّ قد فرغ من كل شيء، وأن جميع ما يصدر في هذه الكائنات من خير وشر وهدى وضلالة قد كتب في الذكر وسبق به علم الله وقدره وتعلّقت به قدرته وإرادته، فالسعيد سعيد لا يتبدّل، والشقيّ شقيّ كذلك، وسيأتي بقية لهذا في سورة الليل إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [١١٣]:

{٤٩٦} ـ عن كعب بن عُجْرَة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن تسعة خمسة وأربعة، أحد العددين من العرب، والآخر من العجم، فقال: **«اسْمَعُوا وأطِيعُوا هل سَمِعْتُم أنه سَيَكُون بَعْدِي أمراء فمن دخل عليهم فَصَدَّقَهُم في كَذِبِهم وأعانَهُمْ على ظُلْمِهِم فليس منّي ولستُ منه، وليس بوارِدٍ عليّ الحوضَ، ومن لم يَدْخُلْ عليهم ولم يُعِنْهُم على ظلمهم ولم يُصَدِّقهم في كذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد عليّ الحوضَ»**.

رواه أحمد (٤/٢٤٣)، والترمذي آخر الصلاة (٥٤٧) بتهذيبي، وفي الفتن (٢٠٨٧)، والنسائي في البيعة (٧/١٤٣)، وابن حبان (١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣) بالموارد، وحسّنه الترمذي وصححه. وللحديث شواهد عن جابر وخباب والنعمان بن بشير وأبي سعيد وابن عمر وهي مخرجة في تهذيبي للجامع رقم (٥٤٧).

هذا الحديث الشريف من أخطر ما جاء في ذمّ موالاة الظلمة والدخول عليهم والركون إليهم ومعاونتهم ومساعدتهم على ظلمهم وتصديقهم في كذبهم ولو بالسكوت، وحسب مواليهم أن يكون رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم بريئاً منه وأنه سيحرم الشرب من حوضه، وفي مقابلة هذا الوعيد بشارة لمن يجانبهم ولا يدخل عليهم بكونه مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأنه سيحظى بالشرب من حوضه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والآية الكريمة نصّت على أن الركون إلى الظلمة كفاراً كانوا أم مسلمين يوجب النار، عياذاً بالله تعالى من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [١١٤]:

{٤٩٧} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة وأني أصبتُ منها ما دون أن أمَسَّها، فأنا هذا فاقضِ فيّ ما شِئْتَ، فقال له عُمر: لقد سَتَرَكَ الله لو سترتَ نَفْسك، قال: فلم يرد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً، فقام الرجل فانطلق فاتبعه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ الآية، فقال رجل من القوم: يا نبيّ الله هذا له خاصة؟ فقال: **«بل للناس كافّة»**.

وفي رواية: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلةً، فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكر ذلك، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

قال الرجل: ألِي هذه؟ قال: **«لمن عَمِل بها من أُمّتي»**.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير (٩/٤٢٦، ٤٢٧)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذي (٢٩١١)، والنسائي (٦/٣٦٦) كلاهما في التفسير، وابن ماجه في الصلاة (١٣٩٨)، وفي الزهد (٤٢٥٤).

{٤٩٨} ـ وعن أبي اليَسَر رضي الله تعالى عنه قال: أتتني امرأة تبتاعُ تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيبَ منه، فدخلَتْ معي في البيت، فأهْوَيْتُ إليها فقبّلْتُها، فأتيت أبا بكر فذكرتُ ذلك له فقال: اسْتُر على نفسك

وتُبْ ولا تُخْبِر أحداً، فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك، فقال: اسْتر على نفسك وتُب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر، فأتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، فقال لي: «**أخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا**»؟ حتى تَمَنَّى أنه لم يكن أسلمَ إلا تلك الساعةَ حتى ظنّ أنه من أهل النار، قال: وأطرقَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى أُوحِيَ إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، قال أبو اليسر: فأتيتُه فقرأها عليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال أصحابه: يا رسول الله ألهذا خاصّة أم للناس عامّة؟ قال: «**بل للناس عامّة**».

رواه الترمذي (٢٩١٣)، والنسائي (٣٦٦/٦)، وابن جرير (١٣٢/١١)، وحسنه الترمذي وصححه.

قوله: عالجت أي: تناولتها واستمتعت بها بالمعانقة والقبلة إلا الجماع، والظاهر أن هذه القصة كانت واحدة وقعت لرجل واحد، هو أبو اليسر بن عَمْرو الأنصاري، تصرف الرواة الناقلون في ألفاظها.

وفي الحديثين أنه ينبغي للمؤمن إذا أتى ذنباً في خفاء أن يستر على نفسه ويتوب إلى الله تعالى منه ولا يذكره لأحد، وفي الآية والحديثين بيان فضل الله ورحمته الواسعة وأنه تعالى يكفّر السيئات بالحسنات، وأهم الحسنات وأعلاها المحافظة على الصلوات الخمس.. وفي الحديثين إشارة إلى أنه لا تنبغي الخلوة بالأجنبية كما وردت بذلك أحاديث، وقد جاءت الشريعة بالاحتياطات في هذا الميدان لأن الجنسين جُبِلا على تبادل الفتنة بينهما في هذا المجال، فيجب التباعد فيما بينهما ما أمكن.

وفي حديث أبي اليسر دليل على جواز شراء المرأة من الرجل ما تحتاجه من طعام وغيره إذا كان ذلك مع حشمة وعفاف وفي غير خلوة، والله الموفق الهادي لا ربّ سواه.

انتهت سورة هود والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

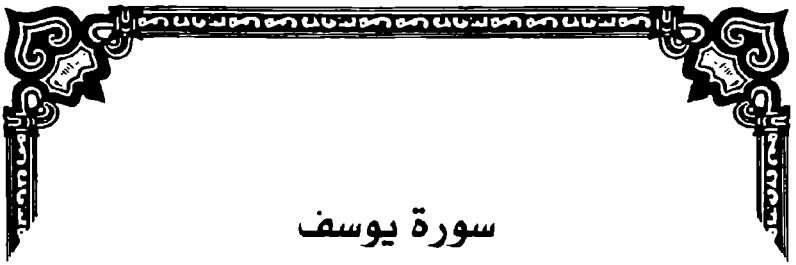

سورة يوسف

هذه السورة الكريمة تناولت قصة نبيّ الله يوسف عليه السلام بإسهاب وما ناله من بلايا ومحن وما تعرّض له من نكبات وشدائد، وجاءت هذه القصة الرائقة تعزية للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وطمأنة لقلبه وتسليةً له، وآيات السورة إحدى عشرة ومائة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [٦]:

{٤٩٩} ـ عن عبدالله بن عَمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يُوسُفُ بنُ يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم**».

رواه أحمد (٢/٩٦)، والبخاري في التفسير (٩/٤٣٢).

في الحديث بيان للآية وفضيلة خاصة لنبيّ الله يوسف عليه السلام وأنه الكريم ابن الكرماء، وأن الله عزّ وجلّ اجتباه وخصّه بتعبير الرؤيا وأتمّ عليه النعمة بالنبوّة كما أتمّها على آبائه يعقوب وإسحٰق وإبراهيم، وجعل في ذرّيتهم النبوءة والكتاب على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام.

﴿ قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [٧]:

{٥٠٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمُهم عند الله أتقاهم**»، قالوا: لسنا عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ الله ابن نبيِّ الله ابن نبيِّ الله ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فعن معادن العرب تسألوني**»؟ قالوا: نعم، قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقُهُوا**».

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (١٩٨/٧، ٢٢٥، ٢٢٨)، وفي التفسير (٤٣٢/٩) وغيرهما، ومسلم في الفضائل (١٣٤/١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٦٧/٦) وغيرهم، وقد تقدم في العلم بالاقتصار على آخره رقم (٣).

أصل الكرم كثرة الخير، وقد تضمّن الحديث الشريف في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه مجمله ومبيّنه إنما هو الدين والتقوى والنبوّة والإسلام والفقه في الدين.

﴿ **قوله تعالى:** ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ **إلخ** [٥٠]:

{٥٠١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعيَ ونحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾**».

رواه أحمد (٣٢٦/٢)، والبخاري في الأنبياء، وفي بدء الخلق وفي

التفسير (٢٦٨/٩، ٤٣٧)، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥)، وانظر ما سبق في البقرة.

{٥٠٢} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم، قال: ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاءني الرسول أجبت»**، ثم قرأ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، قال: **«ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد، فما بعث الله من بعده نبيّاً إلا في ذروة من قومه»**، وفي رواية: **«إلا في ثروة»**.

رواه أحمد (٢٣٢/٢، ٣٤٦، ٣٨٩)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي (٣٦٩/٦) كلاهما في التفسير، والحاكم (٣٤٦/٢، ٥٦١، ٥٧٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو في الصحيحين مفرقاً.

الذُّروة ـ بكسر الذال وضمّها ـ: أعلى الشيء، والثروة: الغنى والسَّعة.

وقوله: ولو لبثت في السجن إلخ، هذا من تواضعه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإلا فهو قد حوصر في الشعب سنوات مع قومه الموالين له حتى كادوا يموتون جوعاً وهو صابر ثابت مستسلم لله عزّ وجلّ، وذلك قد يكون أعظم من سجن يوسف عليه السلام. وباقي أبحاث الحديث تقدَّمت.

وبهذا تمّت سورة يوسف والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

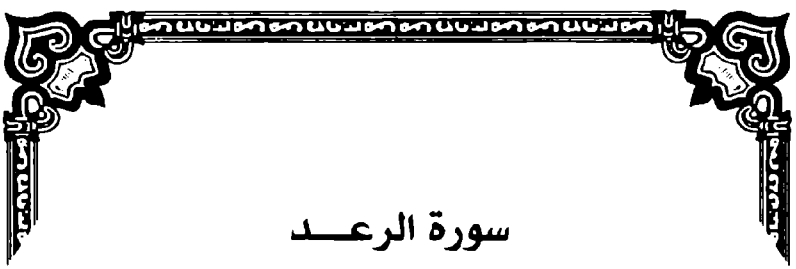

سورة الرعـــد

السورة الكريمة ثلاث وأربعون آية.

قـولـه تـعـالـى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [٨]:

{٥٠٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلاّ الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلاّ الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلاّ الله عزّ وجلّ**».

رواه أحمد (٢/٢٤، ٥٢، ٨٥)، والبخاري في التفسير، ويأتي في سورة لقمان، وهناك شرحه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [١١]:

{٥٠٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألُهم ربُّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**».

رواه أحمد (٤٨٦/٢)، والبخاري في المواقيت (١٧٣/٢، ١٧٦)، ومسلم في المساجد (١٣٣/٥) وغيرهما.

التعاقب أن يأتي البعض عقب بعض، ويتناوبون كالحرس في الدوائر الحكومية، وهؤلاء الملائكة هم الحفظة لنا من الطوارىء والأحداث، فإذا جاء قدر الله وإنفاذ قضائه تخلوا عنا، وفي هذا كرامة وشرف لنا والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [١٣]:

{٥٠٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقبلت يهود إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة مُوكَّلٌ بالسحاب معه مخارِيقُ من نار يَسُوق بها السحاب حيث شاء الله**»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره**»، قالوا: صدقتَ.

رواه أحمد (٢٧٣/١، ٢٧٤، ٢٧٨)، والترمذي (٢٩١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٦/٦) كلاهما في التفسير وحسّنه الترمذي وصححه.

الحديث صريح بأن الرعد المذكور في القرآن هو اسم ملك خاص موكّل بالسحاب، وأن ما نسمعه من الصواعق هو أثر زجره السحاب بمخاريق له عليه السلام، وقد جهل هذا علماء الطبيعة والجغرافية والفلك المعاصرون فليصدقوا رسول الإسلام صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما أخبر به عن ذلك ويتركوا آراء الكفار العفنة.

وبه تمّت سورة الرعد والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه. آيات السورة الكريمة ثنتان وخمسون، وأهدافها لا تخرج عن أهداف سائر السور المكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [٤]:

{٥٠٦} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لم يَبْعثْ الله نبيّاً إلا بِلُغَةِ قومِهِ»**.

رواه أحمد (١٥٨/٥) بسند صحيح ولا يضرّ انقطاعه، فالواقع يصدقه مع القرآن.

الآية والحديث نصّان في أن الرسل كانت تبعث بلغات قومها، لأن المقصود من الرسالة هو تبليغ دين الله تعالى وشرعه للعباد ولا يستقيم ذلك إلا بما يفهمون... فمن الخطأ الفاحش والجمود والسخف ما يشترطه بعض الفقهاء في خطبة الجمعة بأن تكون باللغة العربية، فهذا جمود وظاهرية باردة.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [٥]:

{٥٠٧} ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: **«قام موسى يوماً في قومه فذكّرهم بأيام الله، وأيام الله نَعْمَاؤه»**.

رواه النسائي في الكبرى (٣٧١/٦) بسند صحيح.

في الآية والحديث مشروعية تذكير الناس بنِعَم الله وآلائه، فإن في ذلك حملاً لهم على المزيد من محبّته وشكره وطاعته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [٢٤ ـ ٢٥]:

{٥٠٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن من الشجر شجرةً لا يَسقطُ ورَقُها، وأنها مثلُ المؤمن فحدّثوني ما هي»**؟ قال عبدالله: فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييتُ، فقالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: **«هي النخلة»**.

رواه البخاري في العلم وفي التفسير (٤٤٩/٩)، ومسلم في صفة القيامة (١٥٣/١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٧١/٦)، والترمذي في الأمثال (٢٦٧٧) بتهذيبي.

{٥٠٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أُتِي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقِنَاع من بُسْر، فقرأ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: **«هي النخلة»**، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، قال: **«هي الحنظلة»**.

رواه الترمذي (٢٩١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٧١/٦)، وأبو يعلى وابن حبان (١٧٤٨)، والحاكم (٣٥٢/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: بقناع أي: طبق، والبسر: نوع من التمر، والحديثان يدلاّن على

أن المؤمن في ثبات قلبه وعمله الصالح وبركته في كل وقت مثل النخلة التي هي راسخة في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء وتعطي ثمرها كل وقت بتكوين الخالق، والكلمة الطيّبة هي لا إله إلاّ الله. أما الكلمة الخبيثة فهي كلمة الإشراك التي لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة كشجرة الحنظل الخبيث التي استؤصلت من جذورها وليس لها ثبات في الأرض ولا استقرار.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [٢٧]:

{٥١٠} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**المسلم إذا سُئِل في القبر يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾**» الآية.

وفي رواية: نزلت في عذاب القبر يقال له: «**من ربك؟ فيقول: ربّي الله ونبيّي محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾**» الآية. وفي رواية: «**إذا قيل له: من ربك وما دينك ومَن نبيّك**»؟

رواه البخاري في الجنائز (٣/٣٧٥)، وفي التفسير (٩/٤٥٠)، ومسلم في الجنة (١٧/٢٠٤، ٢٠٥)، والترمذي في التفسير (٢٩١٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٢)، وفي المجتبى، وابن ماجه (٤٢٦٩).

{٥١١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ﴾ إلخ، قال: المخاطبة في القبر: من ربّك وما دينك ومن نبيّك؟ وفي الآخرة مثل ذلك.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٧٢)، والطبراني في الكبير (١١/٤٣٧) بسند صحيح.

الحديثان مفسّران للآية الكريمة، فالمؤمن إذا دفن أجلس في قبره،

فيقال له: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيثبته الله فيجيب: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيقال له: صدقت على هذا عشت وعليه متّ وعليه تُبعث.

وجمهور المفسّرين ومنهم شيخهم ابن جرير على أن التثبيت في الدنيا يكون على كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله، فلا يزيغون ولا يفتنون في دينهم وعقيدتهم، وفي الآخرة عند سؤال الملكين في القبر، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [٢٨]:

{٥١٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إلخ، قال: هم أهل مكّة، وفي رواية: هم والله كفار قريش، ومحمد نعمة الله، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، قال: النار يوم بدر.

رواه البخاري في التفسير (٩/٤٥٠) وفي المغازي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٢)، وابن جرير وابن أبي حاتم ونحوه عن الإمام عليّ عليه السلام عند النسائي (٦/٣٧٢) بسند صحيح.

قال المفسّرون: إن كفار مكة أسكنهم الله حرمه الآمن، وجعل عيشهم في السّعة، وبعث فيهم أشرف الرسل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ولم يشكروها، بل بدّلوها كفراً وتكذيباً فأنزلوا قومهم دار الهلاك وهي البوار بسبب طغيانهم وكفرهم، وجعل قرارهم جهنّم يصلونها وبئست مستقراً.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [٣٦]:

{٥١٣} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تلا قوله تعالى في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ

ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الآية، وقال في عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**» وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وربك أعلم فاسأله ما يُبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما قال وهو أعلم، فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: «**إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**».

رواه مسلم في الإيمان (٣/٧٧، ٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٣) وغيرهما، وانظر ما سبق آخر سورة المائدة (ص ٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [٤٥]:

{٥١٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما مرّ بالحِجْر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفُسَهم إلا أن تَكُونُوا باكين أن يُصِيبَكُم مثلُ ما أصابَهم وتقَنَّع بردائه وهو على الرحل**».

رواه أحمد (٢/٦٦، ٩٦، ٥٨، ٧٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٧/١٩٠)، وفي المغازي (٩/١٨٩)، ومسلم في الزهد (١٨/١١١)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٣).

الحِجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ ديار قوم ثمود، وكان مروره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى غزوة تبوك على ديارهم، وقوله: أن يصيبكم إلخ، أي: خشية أو كراهية أن يصيبكم ما أصابهم.

والحديث يدلّ على أن المسلم يجب عليه أن لا يمكث في ديار المغضوب عليهم، بل يسرع في المشي إذا مرّ بها، ولذلك جاءت الآية مخوّفة للكفار الذين سكنوا مساكن الظالمين بعد أن أهلكهم الله ولم يعتبروا بذلك.

وأخذ العلماء من الآية والحديث منع الإقامة في ديار الملعونين

والمغضوب عليهم، بل وحرّموا الدخول إليها إلا لضرورة ملجئة، ومثلوا لذلك بديار الظلمة فضلاً عن ديار الكفرة، وكذا مواضع المعاصي ومحاربة دين الله والمحاكم التي تُحكَمُ غير دين الله، ومنها المدارس التي يكفر فيها بالله ودور الشباب والأندية السياسية والاجتماعية المختلطة المصبوغة بالميوعة والإباحية، وقاعات الأفلام السافلة العفنة الفاضحة وأمثال ذلك مما فيه مجاهرة بالمعاصي علناً وجماعياً، ومن مرّ ببعض ذلك أو دخلها فليكن باكياً أو متباكياً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [٤٨]:

{٥١٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«على الصّراط»**، وفي رواية: **«على متن جهنم»**.

رواه أحمد (٦/١٣٤)، ومسلم في كتاب الجنّة (١٧/١٣٤)، والترمذي في التفسير (٢٩١٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٩).

الآية صريحة في أن الله عزّ وجلّ سيبدل هذه الأجرام كلها بأرضها وسمائها، والحديث يدلّ على أن ذلك سيكون بعد البعث، وأن الخلائق سيكونون على الصراط ومتن جهنّم، وجاء في حديث لثوبان مولى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنهم سيكونون في الظلمة دون الجسر»** وهو في صحيح مسلم أيضاً في كتاب الطهارة مطولاً (٣/٢٢٦، ٢٢٨)، وهذا من عالم الغيب فلا تدرى كيفيته فنكل أمره إلى الله تعالى، وبهذا تمّت سورة إبراهيم والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
القرآن الكريم	٧
نزول القرآن إلى الأرض	١٠
الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن	١٠
الأحرف السبعة	١٤
اختلاف الصحابة في قراءاتهم	١٦
جمع القرآن أيام النبوة	١٧
جمع القرآن أيام الصدّيق	١٨
جمع القرآن أيام عثمان	٢١
قراء الصحابة الذين جمعوا القرآن أيام النبوة	٢٩
من اشتهر من الصحابة والتابعين لاقراء القرآن	٣٠
القراء السبعة والعشرة	٣٢
نماذج من القراءات الواردة المنصوص عليها	٣٥
قسم التفسير للقرآن الكريم	٤٧
سورة الفاتحة	٤٧
سورة البقرة	٤٨
سورة آل عمران	١٢٨
سورة النساء	١٦٩
سورة المائدة	٢١٨

الموضوع	الصفحة

سورة الأنعام ٢٥٤
سورة الأعراف ٢٦٨
سورة الأنفال ٢٨٣
سورة التوبة / براءة ٢٩٦
سورة يونس ٣٢١
سورة هود ٣٢٨
سورة يوسف ٣٣٦
سورة الرعد ٣٣٩
سورة إبراهيم ٣٤١
فهرس الموضوعات 1

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾

المجلد الرابع
قسم التفسير
سورة الحجر - سورة الفلق

دار ابن حزم

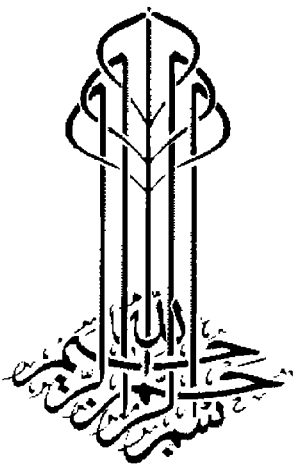
بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

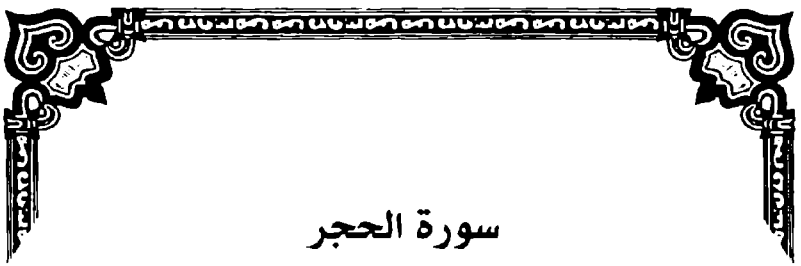

سورة الحجر

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه. آيات السورة تسع وتسعون.

قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [٢]:

{٥١٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال ـ وقد ذكر الخوارج ـ، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن ناساً من أُمّتي يُعذّبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يُعَيّرُهم أهلُ الشرك فيقولون لهم: ما نَرى ما كنتم تُخَالِفُوننَا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم لما يُريد الله تعالى أن يُري أهل الشرك من الحسرة، فما يبقى موحد إلا أخرجه الله تعالى**»، ثم تلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٧٣)، والطبراني في الأوسط (٥١٤٢) بسند حسن وهو صحيح لشواهده عن أبي موسى عند ابن أبي عاصم في السنة (٨٤٣)، وابن جرير (١٤/٢)، والحاكم (٢/٢٤٢) وصححه بموافقة الذهبي، وعن أنس رواه ابن جرير (١٤/٣)، وابن أبي عاصم (٨٤٤)، وعن ابن عباس رواه ابن جرير (١٤/٣، ٥)، والحاكم وصححه...

والحديث بشواهده مبين للآية الكريمة متى يتمنى الكفار لو كانوا

مسلمين، وأن ذلك سيكون بعد خروج عصاة المسلمين من النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [١٦ ـ ١٨]:

{٥١٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جالساً في نَفَرٍ من أصحابه فرُمِي بنجم فاستنار، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية**»؟ قالوا: كنّا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم... الحديث، ويأتي في سورة سبأ إن شاء الله تعالى.

رواه أحمد (٢١٨/١)، ومسلم في السلام باب تحريم الكهانة (٢٢٥/١٤، ٢٢٦).

لقد خلق الله عزّ وجلّ بقدرته في هذه السماء الدنيا بروجاً ومنازل تسير فيها الأفلاك والكواكب السيّارة وزيَّنها بنجوم ليسرّ الناظر إليها، وتولّى سبحانه حفظها من كل متمرّد لعين من الشياطين إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء التي تتكلّم بها الملائكة الكرام، فيضرب بشهاب ثاقب من النار فيحرقه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [٢٤]:

{٥١٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت امرأةٌ تُصلّي خلفَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حسناء من أجمَلِ الناس، فكان ناس يصلّون في آخر صفوف الرجل فينظرون إليها، فكان أحدهم ينظر إليها من تحتِ إبطه إذا ركع، وكان أحدُهم يتقدم إلى الصف الأول حتى لا يراها، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ الآية.

رواه أحمد (٣٠٥/١)، والترمذي (٢٩٢٠)، والنسائي في الكبرى (٣٧٤/٦) وفي المجتبى، وابن ماجه (١٠٤٦)، وابن خزيمة (١٦٩٦)، وابن حبان (١٧٤٩) بالموارد، والحاكم (٣٥٣/٢)، والبيهقي في الكبرى (٩٨/٣) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أيضاً جمع من المحدثين، هذا هو سبب نزول الآية الكريمة، ومع ذلك فلا تقصر على ما نزلت فيه بل تحمل على عمومها، ولذلك قال ابن جرير (٢٦/١٤)، وتبعه الألوسي وغيره: وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزّ وجلّ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم وما كانوا يعملون ومن هو حيّ منكم ومن هو حادث بعدكم أيها الناس... قال: فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء، ولكل من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعد لمن تقدم في الصفوف لسبب النساء وسارع إلى محبّة الله ورضوانه في أفعاله كلّها.

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [٧٢]:

{٥١٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نَفْساً أكرَم عليه من محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره.

رواه ابن جرير (٤٤/١٤) من طريقين أحدهما سنده صحيح، ورواه أبو يعلى (٢٧٥٤)، وأبو نعيم (١٣/١٢)، والبيهقي كلاهما في الدلائل وجوّده الهيثمي في المجمع (٤٦/٧).

نقل القاضي عياض اتفاق المفسرين على أن هذا قسم بمدة حياة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكذا نقل على ذلك الإجماع كل من القاضي ابن العربي والقرطبي... ومعنى الآية: وبقائك يا محمد أو وعيشك وحياتك إن قومك من قريش لفي شركهم وجهلهم يعمهون أي: يتردّدون تحيّراً. والعَمَه ـ بفتحتين ـ للقلب مثل العمى للبصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [٧٥]:

{٥٢٠} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اتّقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»**، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

رواه البخاري في التاريخ (٣٥٤/٧)، والترمذي (٢٩٢٤) بتهذيبي، وابن جرير (٤٦/١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨١/١٠، ٢٨٢)، والخطيب في التاريخ (٩١/٣) وج(٢٤٢/٧) وغيرهم، وهو وإن كان فيه عطية العوفي وقد ضعّفوه، فإن الترمذي حسن له عدّة أحاديث، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه فمثله لا يترك، وللحديث شاهد مثله أو أمثل منه رواه أبو نعيم (١١٨/٦)، والخطيب (٩٩/٥)، وابن عبدالبرّ في العلم (١٩٦/١) من حديث أبي أُمامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث مختلف فيه، فالحديث لذلك حسن، وقد حسّنه الهيثمي في المجمع (٢٦٨/١٠)، والسيوطي في اللآلئ، وقال في موضع آخر: حسن صحيح.

قوله: فراسة هي بكسر الفاء وهي نوعان: الأول: ما يُوقعُه الله عزّ وجلّ في قلوب بعض أوليائه المتقين من العلوم والمعارف وبعض الغيوب، والثاني: ما يُعْرفُ بالخَلْق والأخْلاق والتجربة، والمراد به هنا الأول لقوله: «فإنه ينظر بنور الله تعالى»، والمتوسّمون: هم الذين يتوسّمون في الناس ويتأمّلون بعين البصر والبصيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [٨٧]:

{٥٢١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الحمد لله أم القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني»**.

رواه البخاري (٤٥٣/٩)، والترمذي (٢٩٢٢) كلاهما في التفسير، وأبو داود وغيرهم.

{٥٢٢} ـ وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أنزل الله في التورة ولا الإنجيل مثل أمّ القرآن وهي السبع المثاني، وهي مقسومةٌ بيني وبين عبدي ولِعَبْدي ما سأل**».

رواه الترمذي (٢٩٢٣)، وابن حبان(١٧١٤)، والحاكم (٢/٢٥٨) وسنده صحيح على شرط مسلم، ولذا صححه الحاكم كذلك ووافقه الذهبي، وتقدم حديث أبي سعيد بن المُعَلّى في الأنفال بنحو هذا. والحديثان يدلاّن على أن المراد بالسبع المثاني في الآية هي سورة الفاتحة، وسمّيت بذلك لأنها تتكرّر وتثنى في الصلاة.

وقد جاء عن ابن عباس أن السبع المثاني هن السبع الطوال من البقرة إلى الأنفال، رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٧٥)، والحاكم (٢/٣٥٥) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وانظر كلاماً لابن كثير هٰهنا في تفسيره للآية.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [٨٩]:

{٥٢٣} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنما مَثَلِي ومَثَلُ ما بَعَثَني الله كمثلِ رجُلٍ أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النَّذير العُرْيان فالنَّجاءَ النجاء فأطاعه طائفةٌ من قومه، فأدْلجُوا فانطلقوا على مَهلِهِمْ فنجوا وكذَّبَت طائفةٌ منهم، فأصبحوا مكانهم فصبَّحَهُم الجَيْشُ فأهلكهم واجْتاحهم، فذلك مثلُ من أطاعني فاتَّبع ما جئت به، ومن عصاني وكذّب ما جئت به من الحق**».

رواه البخاري في الرقاق وفي الاعتصام (١٧/١٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/٤٨، ٤٩) وغيرهما.

الحديث قد تقدم بمعناه في الاعتصام أول الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [٩١]:

{٥٢٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ **قال:** هم أهل الكتاب جزّؤوهُ أجزاءً فآمنوا ببَعضِهِ وكفروا ببعضه.

رواه البخاري (٤٥٥/٩)، وابن جرير (٦١/١٤، ٦٢، ٦٤) وغيرهما.

على ما قال ابن عباس ذهب جمع من المفسّرين، وقال آخرون: المراد بهؤلاء كفار قريش تقسّمت أقوالهم وجعلوها في القرآن عضين، أي: فرقاً، قالوا فيه: سِحْرٌ، شِعْرٌ، كهانةٌ، أساطير الأوّلين، واختار ابن جرير العموم.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [٩٩]:

{٥٢٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمْسك بعنان فرسه في سبيل الله يَطِيرُ على مَتْنِهِ كلما سمع هَيْعة أو فَزعة طار عليه يَبْتَغِي القتل والموتَ مظانَّه، أو رجل في غُنَيْمَة في رأس شَعَفَة من هذه الشّعف أو بَطْن واد من هذه الأودية، يُقيمُ الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبدُ ربّه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلاّ في خير**».

رواه مسلم في الإمارة في باب فضل الجهاد والرباط (٣٤/١٣، ٣٥)، والنسائي في الكبرى (٣٧٥/٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٧).

عنان ـ بكسر العين ـ اللّجام، وقوله: على متنه، أي: ظهره، وقوله: هيعة أي: صوت العدو، وقوله: شعفة ـ بفتحات ـ: رأس الجبل، وفي رواية: شعب ـ بكسر الشين وسكون العين وآخره باء ـ بطن الوادي. والحديث يفسّر اليقين في الآية بأنه الموت لأنه متيقّن مجيئه، ومنه قوله: «حتى أتانا اليقين»، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند موت عثمان بن مظعون: «**أما هو فقد جاءه اليقين**»، وبه فسّر الآية مجاهد وقتادة وسالم بن أبي الجعد... فقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

﴿ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: دم على عبادة ربّك حتى يأتيك الموت المتيقّن. وفي الحديث فضل الجهاد في سبيل الله بقصد الاستشهاد كما فيه فضل اعتزال الناس في الجبال ونحوها من الأماكن الخالية للتفرّغ للعبادة، وفراراً من الفتن والشرور التي يعيش فيها الناس... من غير أن يكون مؤذياً لأحدٍ حتى يأتيه الموتُ. وبهذا تمّت سورة الحجر والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة النحل

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه. السورة الكريمة من أهم السور المكية التي تحدّثت عن دلائل التوحيد في السمٰوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال والسهول والسحاب والمطر والنبات والفلك الماخرة في المحيطات والأنعام والحيوانات وما إلى ذلك مما ذكر فيها، وآياتها ثمان وعشرون ومائة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [٣٠]:

{٥٢٦} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله لا يَظْلِمُ مُؤمناً حسنةً، يُعْطَى بها في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة. وأما الكافر، فيُطْعَمُ بحسنات ما عَمِل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجْزَى بها»**، وفي رواية: **«إن الكافر إذا عَمِل حسنةً أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا. وأما المؤمن، فإن الله يَدَّخِرُ له حسناته في الآخرة ويُعْقِبُه رزقاً في الدنيا على طاعته»**.

رواه أحمد (٣/١٢٣، ١٢٥، ٢٨٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٤٩، ١٥٠).

في الحديث وعد من الله عزّ وجلّ للمؤمن كالآية بأنه تعالى يجازيه

على حسناته في الدنيا والآخرة، فيعيش هنا في حياة طيّبة من انشراح وطمأنينة ورَغَد العيش، فإذا أفضى للآخرة كان له ما لا عينٌ رأت...

أما الكافر، فيجازى على ما عمل من خير في هذه الحياة، أما الآخرة فلا حظّ له فيها إطلاقاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [٦٨ ـ ٦٩]:

{٥٣٧} ـ عن أبي رَزِين العُقَيلي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مثل المؤمن مثل النَّخلة، لا تأكُلُ إلا طيّباً، ولا تَضَعُ إلا طيباً»**.

رواه النسائي في الكبرى (٣٧٦/٦)، وابن حبان (٣٠) بالموارد، والبخاري في التاريخ الكبير (١/٤، ٢٤٨)، والطبراني في الكبير (٤٥٩، ٤٦٠)، وهو حديث صحيح فله شاهد صحيح عن ابن عمرو رواه أحمد (١٩٩/٢)، والحاكم (٧٥/١، ٧٦) و(٥١٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي وعزاه في المجمع (٢٩٥/١٠) لأحمد وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي سبرة، وقد وثّقه ابن حبان وله طريق آخر عند البزار، قال في المجمع (٢٢٧/٧): فيه عبدالرحمٰن بن مغراء وثّقه أبو زرعة وجماعة، وضعّفه ابن المديني وبقية رجاله رجال الصحيح.

المؤمن الكامل من شأنه أن يحتاط في كَسْبِه فلا يأكل إلا الحلال الطيّب، ولا يخرجُ من فمه إلا القولُ الحسنُ، فهو كالنحلة تلك الحشرةُ الضعيفة المباركَة التي لا تَرْعى إلا من الأشجار الطيبة، وتَتَنزّه عن الأقذار ومواضع النَّجاسات والعفونات ولا يخرجُ منها إلا العسلُ والشرابُ الطيبُ الحلوُ النافع الشافي.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن أخي اسْتُطْلِقَ بَطنُه، فقال: **«اسْقِهِ عسلاً»**، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيتُه عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال: **«اذهب فاسقِهِ عسلاً»**، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«صدق الله، وكذبَ بطنُ أخيك، اذهب فاسقه عسلاً»**، فذهب فسقاه عسلاً فبرىء.

رواه البخاري (٢٤٧/١٢)، ومسلم (٢٠٢/١٤، ٢٠٣) كلاهما في الطب. ويأتي فيه أيضاً.

الحديث يؤكد الآية الكريمة: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، فالعسل شفاء للأمراض المادية بنصّ القرآن والسنّة النبوية الصحيحة، غير أن الأطباء قالوا: حسب فهمهم وتجربتهم إنه شفاء للأمراض الناشئة عن البرودة؛ لأنه حار والشيء يداوى بضده، قالوا: والله قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ منكراً، ولو قال: فيه الشفاء معرّفاً لكان شفاء لكل الأمراض. أما الرجل الذي سقي العسل وزاده استطلاقاً، فكان عنده فضلات فلما سقي تحلّلت فأسرعت في الاندفاع، فازداد إسهالاً ثم زاده، فازداد التحليل فلما اندفعت الفضلات الفاسدة التي كانت في أمعائه استمسك بطنه وصَلُح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وعلى كلٍّ فالأعمال بالنيّات، فمن شربه معتقداً الشفاء به تصديقاً لعموم كتاب الله شفاه الله بلا ريب، وهو القادر على كل شيء، وبيده الأمر كلّه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [٧٠]:

{٥٢٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يدعو: **«أعوذ بك من البخل والكَسَل وأرْذَلِ العُمُر وعذابِ القَبر وفتنة المحيا والممات»**.

رواه البخاري في التفسير (٤٥٩/٩)، وفي الدعوات (٤٣٠/١٣، ٤٣١)، وأبو داود (١٥٤٠) وغيرهما، ونحوه عن سعد بن أبي وقاص

عند البخاري والترمذي والنسائي وفي الباب عن جماعة.

أرذل العمر أي: العمر الأَرْذَل وهو أيام الضعف والخَرَف نعوذ بالله تعالى منه، فالإنسان قد يقطع أشواطاً من حياته، ثم قد يموت طفلاً، أو شاباً، أو كهلاً، أو شيخاً، وقد تطول به الحياة فيعمر حتى يضعف بالمرض ويصبح في عمر رديء، قد ذهب منه كل شيء، فلذا كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يستعيذ بالله من هذا العمر. اللّهمّ إنا نعوذ بك من الهرم والخرف والعمر الأرذل اقتداءً بنبيّك صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ونسألك كما سألك نبيّك عليه الصلاة والسلام **«أن تمتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا وأن تجعله الوارث لنا»**.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [٩٠]:

{٥٢٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بينما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بفناءِ بيته جالسٌ إذ مَرَّ به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألا تَجْلِسُ»**؟ قال: بلى، قال: فجلس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مُسْتَقْبِلَه بينما هو يحدثه إذ شخصَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضع بصره عن يمينه في الأرض، فأخذ يُنْغِضُ رأسَه كأنه يستفقه ما يقال له: وابنُ مظعون ينظر، فلمَّا قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كما شخص أول مرة، فأتْبَعَه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بصره حتى تَوَارَى في السماء، فأقبل على عثمان بجلسته الأُولى، فقال له: يا محمد فِيمَا كنتُ أُجالسك وأتيك ما رأيتك تفعل كفِعْلِك الغداةَ، قال: **«وما فعلت»**؟ قال: رأيتك شخصت ببصرك إلى السماء، ثم وضعته

حيث وضعته عن يمينك فتحرفت إليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «**وفطِنتَ لذلك**»؟ قال عثمان: نعم، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني رسولُ ربّي عليه السلام آنفاً وأنتَ جالسٌ**»، قال رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: فما قال لك؟ قال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾» الآية.

رواه أحمد رقم (٢٩٢٢)، والطبراني في الكبير (٨٣٢٢) وسنده حسن وشهر مختلف فيه، والحديث حسّنه ابن كثير في التفسير وجوّده فقال: إسناده جيد متّصل حسن قد بيّن فيه أسماء المتصل.

{٥٣٠} ـ وعن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ شخص بصره فقال: «**أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾» الآية.

رواه أحمد (٢١٨/٤) وحسنه الهيثمي في المجمع (٤٩/٧)، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

فناء البيت ـ بكسر الفاء ـ ما امتدّ من جوانبه، كَشَرَ إِلَيْهِ أي: فتح فاه ضاحكاً حتى بدت أسنانه. شخص بصره أي: جعل ينظر بعينيه لا يَطْرُفُ، يُنْغِضُ ـ بضم الياء وسكون النون ثم غين معجمة مكسورة آخره ضاد ـ أي: يحرّك رأسه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها... والحديث الأول مبين لسبب نزول الآية، وأن ذلك بمكة لأن ابن مظعون مات بالمدينة عقب هجرته إليها، وكون ابن عباس لم يحضر القصة لا يدلّ على انقطاع السند لأن مرسل الصحابي حجّة كما هو معروف عند الجمهور.

والحديث الثاني يدلّ على أن تركيب السور القرآنية ونسق الآيات توقيفي، وأن القرآن الموجود بين المسلمين هكذا أنزل من اللوح المحفوظ، وقد قدمنا هذا أوائل التفسير، وهذه الآية الكريمة هي أجمع آية في القرآن: حلال وحرام وأمر ونهي، كما قال ابن مسعود رواه الطبراني في الكبير (٨٦٦١) بسند حسن.

ففي الآية الكريمة الأمر بمكارم الأخلاق، ومنها العدل بين الناس والإحسان إلى جميع الخلق ومواساة الأقارب بدءاً من الوالدين... والنهي عن المنكر وكل ما تناهى قبحه كالشرك والقتل والزنا واللواط والسحر والربا والظلم والاعتداء على الغير وكل ما تنكره الشريعة والفطرة السليمة.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ إلخ [١٠٦]:

{٥٣١} ـ عن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم قال: أخذ المشركون عمّار بن ياسر، فلم يتركوه حتى سبّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه فلما تركوه أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما وراءك»**؟ قال: شرٌّ يا رسول الله ما تُرِكْتُ حتى نِلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: **«كيف تجد قلبك»**؟ قال: مطمئنٌّ بالإيمان، قال: **«إن عادُوا فَعُدْ»**.

رواه ابن جرير (١٨٢/١٤)، وابن أبي حاتم (٢٣٠٤/٧)، والحاكم (٣٥٧/٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي لكنه مرسل، وله طرق أخرى مرسلة تقوّيه أوردها ابن جرير وغيره، والآية نزلت في عمار بن ياسر باتفاق المفسّرين وأهل السير.

وهي تدلّ على أن من نطق بالكفر أو فعل فعلاً يكفر به عن إكراه مع مخالفة قلبه لما نطق به أو فعله لا حرج عليه فيه ولا إثم، وهذا متّفق عليه بين العلماء لا نَعْلَمُ في ذلك خلافاً بينهم، وإن كان الأفضلُ هو الثبات والصمود والصبر ولو أدّى إلى القتل لمن أطاق ذلك، وقوي على التعذيب، نسأل الله السلامة والعافية، آمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [١٢٦]:

{٥٣٢} ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم

أحد أُصيب من الأنصار أربعةٌ وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستّةٌ منهم حمزةُ فمَثَّلُوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنُرْبِيَنَّ عليهم، قال: فلما كان يوم فتح مكّة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية.

فقال رجل: لا قُريش بعد اليوم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كُفُّوا عن القوم إلا أربعة»**.

رواه أحمد (٥/١٣٥)، والترمذي (٢٩٢٧)، والنسائي (٦/٣٧٦) كلاهما في التفسير وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: مثلوا بهم أي: قطعوا أطرافهم وجدعوا آذانهم وأنوفهم وبقروا بطونهم.

والآية الكريمة نزلت تُعَلِّم المسلمين كيف يتعاملون مع من أساء إليهم وأن لهم الحقّ في المقابلة بالمثل، ولكن الأَوْلى والأفضل الصبر والعفو بالنسبة للمسلمين، وبهذا تمّت سورة النحل والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

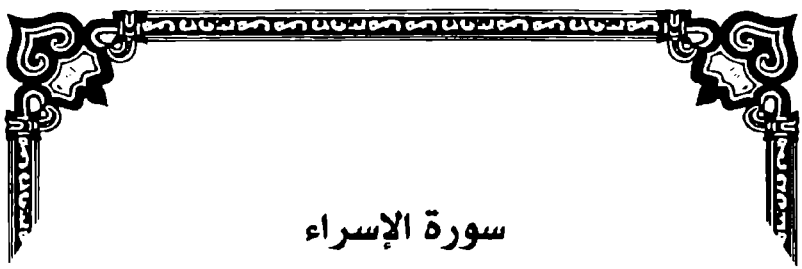

سورة الإسراء

السورة الكريمة إحدى عشرة ومائة آية، وأهدافها الكلام على أصول الدين والآداب والأخلاق، وأهمّ ما ذكر فيها: حادث الإسراء، والمقام المحمود.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [١]:

{٥٣٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِي بالبُراق ليلةَ أُسري به مُلْجَماً مُسْرَجاً، فاسْتَصْعَب عليه، فقال له جبريل عليه السلام: بمحمّد تفعل هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرمَ على الله منه، فارْفضّ عَرَقاً، وفي رواية: فوالله ما ركبك أحد... إلخ.

رواه أحمد (١٦٤/٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٢٩)، وابن حبان (٤٦) بالإحسان، وابن جرير (٦/١٥، ١٥)، والبيهقي في الدلائل (٣٦٢/٢، ٣٦٣) بسند صحيح على شرط الشيخين.

البُراق ـ بضم الباء ـ يأتي تفسيره في الحديث الثالث، وقوله: ملجماً أي: له لجام، وقوله: مسرجاً أي: عليه سرج، قوله: فاستصعب أي: نفر منه وتظاهر بالصعوبة، وقوله: فارفضّ أي: سال عرقه خجلاً، وفي الحديث أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذهب من مكّة إلى بيت المقدس راكباً فوق البُراق طائراً به بصحبة جبريل عليه السلام.

{٥٣٤} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لما كان ليلةَ أُسْرِي بي انتهيتُ إلى بيتِ المقدِس فخَرَقَ جبريل عليه السلام الصَّخْرَة بأصبعه وشدَّ بها البُراقَ**».

رواه الترمذي (٢٩٣٠)، وابن حبان (٤٧)، والحاكم (٢/٣٦٠) وصححه ووافقه الذهبي.

في الحديث سلوك طريق الأسباب حيث ربط جبريل البراق بالصخرة مع أنه مسخر من الله لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذه الرحلة ولا يتصوّر منه الفرار.

وهذه الصخرة المذكورة عليها بنيت القبّة المشاهدة اليوم، وقد زرناها والحمد لله مراراً قبل الاحتلال الصهيوني.

{٥٣٥} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أُوتيت بالبُراق وهي دابّة أبيض طويلٌ فوق الحمار ودون البَغْلِ، يضع حَافِرَهُ عند منتهى طَرَفِهِ، قال: فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس فربطتُه بالحَلْقَةِ التي يَرْبِط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصلّيتُ فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لَبَن، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل: اخترت الفِطْرة ثم عُرِجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِح لنا فإذا أنا بآدم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيىٰ بن زكرياء صلّى الله عليهم وعلى نبيّنا وسلم، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف صلّى الله عليه وعلى نبيّنا وسلم، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة**

فذكر مثله، فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله، فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مُسْنِداً ظَهْرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدخلُه كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يَعُودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورَقُها كآذان الفِيَلَةِ وإذا ثَمرُها كالقِلاَل، قال: فلما غَشِيَها من أمر الله ما غَشِي تَغَيَّرَتْ فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن يَنعتها من حُسْنِها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرضَ عليَّ خمسين صلاة في كلِّ يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى فقال: ما فرض ربّك على أُمّتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمّتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهم، قال: فرجعت إلى ربّي، فقلت: يا ربّ خفّف عن أُمّتي، فحطّ عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً، قال: إن أُمّتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد إنهنّ خَمْسُ صلوات كلَّ يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ، فتلك خمسون صلاةً ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت لَه حسنةً، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت سيئةً واحدةً، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقلت: قد رجعت إلى ربّي حتى استحييتُ منه».

رواه أحمد (١٤٨/٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٩/٢، ٢٢٥)، ورواه البخاري في التوحيد وغيره من طريق شريك بن أبي نمر لكن روايته هذه مطعون فيها.

أحاديث الإسراء جاءت من طرق كثيرة وسياقات مختلفة عن جمّ غفير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والجمهور والمحقّقون من أهل العلم على أن الإسراء كان مرة واحدة يقظة بجسمه وروحه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٥٣٦} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قال: «**لما كذّبَتْني قريشٌ قمتُ في الحِجْرِ فَجَلَّى الله لي بيتَ المقدس، فطفِقْتُ أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**».

رواه أحمد (٣/٣٧٧، ٣٧٨)، والبخاري في التفسير (٦/١٠) وفي المناقب، ومسلم في الإيمان (٢/٢٢٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٣١) ونحوه عن أبي هريرة عند مسلم.

فجلّى - بفتح اللام المشدّدة وتخفّف - أي: أظهر، فطفقت أي: جعلت.

وفي هذا آية ومعجزة عظيمة له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث كشف الله له عن بيت المقدس وهو ينظر إليه من مكّة، وما أظهر الله عزّ وجلّ التلفزيون اليوم إلا تأييداً للمعجزات النبوية ولكرامات الأولياء، فإن كل ذلك خلق الله وتصريفه لا إلٰه سواه، والمسجد الحرام هنا المراد به مكّة المكرمة والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، وسمّي أقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام. ويأتي الكلام على هذا الموضوع في سورة النجم وفي السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [١٥]:

{٥٣٧} - عن الأسود بن شريح رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أربعة يوم القيامة يُدْلون بحجّة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام والصبيان يخذِفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربّ ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليُطِيعُنَّهُ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً**».

رواه أحمد (٤/٢٤)، وابن حبان (١٦/٣٥٦، ٣٥٧)، والطبراني في

الكبير (٨٤١) بسند صحيح، ورواه أحمد (٢٤/٤)، وابن جرير (٥٤/١٥) عن أبي هريرة بنحوه، وسنده صحيح أيضاً، وفي آخره: قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وورد عن أنس وأبي سعيد ومعاذ بن جبل وغيرهم أوردها ابن كثير في تفسيره، وما ذكرناه هو أصحها.

في الحديث بيان أن الله سيمتحن هؤلاء يوم القيامة، ومنهم من مات في الفترة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [٢٦]:

{٥٢٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار، والمسكين**»، فقال: يا رسول الله أقلِلْ لي، قال: «**فآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً**»، فقال: حسبي يا رسول الله إذا أدّيت الزكاة إلى رسولك، فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نعم إذا أدّيتها إلى رسولي فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها**».

رواه أحمد (١٣٦/٣)، والطبراني في الأوسط (٨٧٩٧) بسند صحيح، وقال النور (٦٦/٣): رجاله رجال الصحيح.

في الآية مع الحديث أمر من الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل... حقوقهم مما يستحقونه من الصلة والمساعدة والإحسان من غير تبذير، فإن ذلك من عمل الشياطين.

﴿ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [٣٢]:

{٥٣٩} ـ وعن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه أن فتًى شابّاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القومُ عليه فزجرُوه وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: «ادْنُه»، فدنا منه قريباً فقال: «اجلس»، فجلس فقال: «أفتحبّه لأُمّك»؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأُمّهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك»؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك»؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبّه لعمّتك»؟ فقال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعمّاتهم»، قال: «أفتحبّه لخالتك»؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبّونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللّهمّ اغفر ذنبه وطهّر قلبه وأحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

رواه أحمد (٥/٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٨/١٩٠، ٢١٥) وسنده صحيح على شرط مسلم، وقال النور في المجمع (١/١٢٩): رجاله رجال الصحيح.

الزنا من كبار الفواحش والذنوب العظام، وهو محرم في جميع الشرائع لا يحلّ بحال إلا من أُكره عليه، وقد ضرب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لذلك الفتى مثلاً رائعاً بنساء من خواص الأقارب: الأُم، البنت، الأخت، العمّة، الخالة، يتحاشى المؤمن ويغار أن تفعل فاحشة الزنا بإحداهنّ، فكما أنه لا يسمح لأحد أن يقرب هؤلاء الحرم بما يخدش أعراضهنّ، كذلك كل الناس لا يسمحون لأي شخص أن يتعاطى مع محارمه تلك الفاحشة، وكفى بذلك عبرة وذكرى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [٥٥]:

{٥٤٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خُفِّفَ على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن تفرغ**».

رواه أحمد (٣١٤/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٦٥/٧)، وفي التفسير (١١/١٠، ١٢).

المراد بقوله القرآن يعني: قراءة كتابه الزبور، وقيل: التوراة، وفي ذلك معجزة له عليه السلام ظاهرة لأن قراءة الزبور في مثل هذا الوقت شيء خارق للعادة.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [٥٧]:

{٥٤١} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كان نفر من الإنس يعبدون الجنّ فأسلم الجنُّ وثبتَ الإنسُ على عبادتهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ إلخ.

رواه البخاري (١٢/١٠)، ومسلم (١٦٤/١٨) كلاهما في التفسير.

يبتغون: يطلبون، والوسيلة: ما يتقرّب به إلى الله. والحديث بين أن الآية نزلت بسبب قوم من العرب كانوا مشركين يعبدون طائفة من الجنّ، فأسلم الجنّ وبقي الإنس على عبادتهم إياهم ولم يشعروا أن الجنّ أسلموا.

ومعنى الآية الكريمة: أولئك الجنّ هم أنفسهم يطلبون القربة إلى الله ويتوسّلون إليه بالطاعة والعبادة، فكيف يُعبدون من دون الله وهم لا يستطيعون رفع البلاء عن أحد ولا تحويله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [٥٩]:

{٥٤٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سأل أهل مكّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، قال الله عزّ وجلّ: «**إن شئت آتيناهم ما سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، وإن شئت تستأني بهم لعلنا ننتج منهم**»، فقال: «**لا، بل أستأني بهم**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ إلخ.

رواه أحمد (٢٥٨/١)، والنسائي في الكبرى (٣٨٠/٦)، والحاكم (٣٦٢/٢)، والبيهقي في الدلائل (٢٧١/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال النور (٥٠/٧)، ورجال الروايتين رجال الصحيح.

قوله: نستأني من التأني، أي: ننتظر ونتربّص، وقوله: ننتج منهم أي: نخرج من أصلابهم من يؤمن بي. والحديث يدلّ على أنه لو كان الله أجابهم لما اقترحوا ولم يؤمنوا لأهلكهم الله كما أهلك من كان قبلهم، ولكنه استأنى بهم رجاء أن يخرج من أصلابهم من يوحّد الله عزّ وجلّ ويطيعه كما حصل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [٦٠]:

{٥٤٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ إلخ، قال: هي رؤيا عين أُريها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة أُسري به إلى بيت المقدس، والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرةُ الزَّقُّوم.

رواه أحمد (١٩١٦)، والبخاري (١٣/١٠)، والترمذي (٢٩٣٢)، والنسائي (٣٨١/٦) كلهم في التفسير.

قوله: رؤيا عين أي: مشاهدة يقظة، وهي ما شاهده في تلك الليلة من الآيات وعجائب الأرض والسماء، وكان ذلك امتحاناً وفتنة لأهل مكّة حيث كذب بذلك قوم وارتد آخرون؛ لأن عقولهم الضيّقة لم تتحمل ذلك، وهكذا شجرة الزقوم جعلت فتنة لهم أيضاً، وهي شجرة خبيثة مُرّة جعلت طعاماً للكفار في جهنّم، وبعدما أنزلت هذه الآية، قال أبو جهل استهزاء بالقرآن: هاتوا لنا تمراً وزبداً وجعل يأكل ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [٧٨]:

{٥٤٤} ـ عن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُصلّي الظهر إذا زاغَتْ الشمسُ، ثم تلا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ إلخ.

رواه ابن جرير (١٥/٢٣٥) بسند صحيح وأصله في الصحيحين بغير ذكر الآية.

الحديث يدلّ على أن دلوك الشمس في الآية هو زوال الشمس عند الظهر، وبهذا قال الجمهور، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وغسق الليل هو سواده وظلامه، وقال جماعة من السلف: إن الدلوك والغسق هما غروب الشمس، والصحيح الأوّل.

قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [٧٨]:

{٥٤٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**فضل صلاة الجَمْع على صلاةِ الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتَجْتَمِعُ ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح**»، يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير (١٠/١٤)، والترمذي (٢٩٣٣)، والنسائي (٦/٣٨١)، وابن ماجه (٦٧٠) وغيرهم.

قوله: وقرآن الفجر أي: صلاة الفجر، ومعناه: أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إلى اشتداد ظلمة الليل، ثم صلّ صلاة الفجر وهي الصبح، فإن صلاتها مشهودة تشهدها الملائكة الذين يتعاقبون على الإنسان طوال حياته في وقتي العصر والصبح.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [٧٩]:

{٥٤٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، قال: **«هي الشفاعة»**.

رواه أحمد (٤٤١/٢، ٤٤٤، ٤٧٨، ٥٢٨)، والترمذي (٢٩٣٥)، وابن جرير (١٤٥/١٥، ١٤٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١٩٨)، والطحاوي في المشكل (٤٤٩/١).

وفي رواية: «هو المقام الذي أشفع لأمّتي فيه»، وحسّنه الترمذي.

{٥٤٧} ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يُبْعَثُ الناسُ يومَ القيامة فأكون أنا وأمتي على تلٍّ ويَكْسُوني ربّي حُلَّةً خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقام المحمود»**.

رواه أحمد (٣٥٦/٣)، وابن حبان (٦٤٤٥) بالإحسان، والحاكم (٣٦٣/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وكذا رواه ابن أبي حاتم (٢٣٤٢/٧).

{٥٤٨} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثى كل أمّة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.

رواه البخاري (١٤/١٠)، والنسائي (٣٨٨/٦) كلاهما في التفسير، وحكمه الرفع.

قوله: تل ـ بفتح التاء ـ: قطعة من الأرض مرتفعة عما حولها، وقوله: جثى أي: جماعة. وفي هذه الأحاديث بيان للمقام المحمود وأنه شفاعة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم العظمى التي خصّه الله تعالى بها لإراحة الخلائق من هول الموقف، وقد تواترت بها الأحاديث واتّفق عليها كل الطوائف حتى من ينكر غيرها، وانظر حديث جابر في كتاب الأذان فيما يقال بعد الأذان.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [٨٠]:

{٥٤٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكّة ثمّ أمر بالهجرة فنزلت عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٢٣/١)، والترمذي (٢٩٣٧)، وابن جرير (١٤٨/١٥) وحسّنه الترمذي وصححه وقابوس بن أبي ظبيان حجة عند الترمذي صحح له غير ما حديث، وقال فيه ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وضعّفه غيرهما.

ومدخل صدق هو دخوله المدينة، ومخرج صدق خروجه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من مكّة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [٨١]:

{٥٥٠} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مكّة عام الفتح وحول الكعبة ثلاث مائة وستون نُصُباً، فجعلَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَطْعُنُها بمِخْصَرةٍ في يده، وربما قال: بعود ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ «**جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد**».

رواه البخاري في مواضع منها في التفسير (١٥/١٠)، ومسلم في الجهاد (١٣٢/١٢)، والترمذي (٢٩٣٦). والنسائي في الكبرى (٣٨٢/٦) ونحوه عن أبي هريرة مطوّلاً رواه مسلم (١٣٠/١٢)، ويأتي في السير.

نُصُب ـ بضمّتين ـ: جمع أنصاب وهي ما عُبِدت من دون الله من الأصنام والتماثيل، وقوله: يطعنها ـ بضم العين ـ ويأتي بقية الكلام على هذا في السير والجهاد والمغازي.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [٨٥]:

{٥٥١} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حَرْثٍ بالمدينة وهو يتوكّأ على عَسِيب فمرَّ به نَفَرٌ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فإنه يُسْمِعُكُمْ ما تكرهون، فقالوا: يا أبا القاسم حدِّثنا عن الروح، فقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ساعة ورفع رأسه إلى السماء، فعرفت أنه يُوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

رواه البخاري في العلم وفي التفسير (١٥/١٠، ١٨)، وفي الاعتصام وفي التوحيد، ومسلم آخر الكتاب، والترمذي (٢٩٣٩)، والنسائي في الكبير (٣٨٣/٦).

{٥٥٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قالت قريش ليهود: اعْطُونا شيئاً نسألُ عنه هذا الرجل، فقالوا: سَلُوه عن الروح، فسألوه عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، قالوا: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً، فأنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٥٥/١)، والترمذي (٢٩٣٨)، والنسائي في الكبرى

(٣٩٢/٦)، والحاكم (٥٣١/٢) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم والذهبي بموافقته.

العسيب: عود من النخل، وظاهر الحديثين أن الآية نزلت بمكة وبالمدينة، فيكون كل من كفار قريش واليهود سألوه عن الروح، والله أعلم.

والآية نصّ في أن الروح من أمر الله عزّ وجلّ وأنه من الأسرار الغيبية التي لا يعلم حقيقتها إلاّ الله عزّ وجلّ، فالبحث فيها بعد هذا يعدّ بحثاً ضائعاً وفضولاً وتقدماً بين يدي الله عزّ وجلّ. وراجع عجائب القلوب من الإحياء للغزالي، وكتاب الروح لابن القيم، وفتح الباري للحافظ (١٧/١٠).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [٩٧]:

{٥٥٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا نبيّ الله يُحْشَرُ الكافر على وجهه؟ قال: **«أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدُّنيا قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة»**، قال قتادة: بلى وعزَّة ربّنا.

رواه البخاري في تفسير سورة الفرقان (١٠٩/١٠)، وفي الرقاق (١٧١/١٤)، ومسلم في صفة جهنم (٢٨٠٩)، والنسائي في الكبرى (٤٢٠/٦)، وابن جرير (١٢/١٨)، وستأتي أحاديث في هذا المعنى في الرقاق وغيره.

في الآية والحديث بيان أن أُمور الآخرة على خلاف عادات الدنيا، وأن ما يكون مستحيلاً عقلاً أو عادة في هذه الدار سيكون عادياً في الآخرة، فالواجب الإيمان بكل ما جاء عن الله وعن رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مما هو فوق مستوى عقولنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٠٩]:

{٥٥٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا

الأقدمين» الطبعة الثالثة، والشاهد منه هو أنه عليه السلام لو قال إن شاء الله لجاءت كل امرأة بولد فارس، ولذا نهى الله نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن لا يقول لشيء يريد فعله غداً إلا أن يقرنه بالمشيئة الإلهيّة.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [٢٨]:

{٥٥٧} ـ عن عبدالرحمٰن بن سهل بن حُنَيْف رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآية على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية، خرج يلتمسُ فوجد قوماً يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس، وحافِ الجِلْد، وذو الثَّوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، فقال: «**الحمد لله الذي جعل في أُمّتي من أمَرَني أن أصْبِرَ نفسي معهم**».

رواه ابن جرير (١٥/٢٣٥)، والطبراني، قال النور في المجمع (٧/٢١): ورجاله رجال الصحيح ونحوه عن أبي سعيد الخدري عند الطبراني وأبي يعلى وغيرهما مطوّلاً، وفي الباب عن خباب بن الأرتّ رواه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٢٥١٨)، وأبو يعلى مطوّلاً قال البوصيري في الإتحاف رقم (٦٤٧٦): وسنده صحيح.

وفيما ذكر فضل فقراء الصحابة وأنهم بالمكان الأعلى عند الله عزّ وجلّ، وقد تقدم نحو هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [٥٤]:

{٥٥٨} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طرقَه وفاطمة عليهما السلام فقال: «**ألاَ تُصَلُّون**»؟ قلت: يا رسول الله إنما أنفُسُنا بيد الله، فإذا شاء أن يَبْعَثَها بعثها، فانصرف رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو مُدْبِرٌ يضربُ فَخِذَه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

رواه البخاري في التهجد وفي التفسير (٢٢/١٠) وفي الاعتصام وفي التوحيد، ومسلم فيمن نام الليل أجمع من كتاب الصلاة رقم (٧٧٥)، والنسائي في الكبرى (٣٨٦/٦) وفي المجتبى وغيرهم.

طرقه أي: أتاه ليلاً، وفي الحديث الحضّ على قيام الليل. وفيه أنه لا ينبغي للإنسان أن ينسب تقصيره إلى الله تعالى، وإن كانت كل الأُمور بيده وبإذنه ومشيئته، فإن الأدب يأبى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ

نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [٦٠ ـ ٨٢]:

{٥٥٩} ـ عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن نَوْفاً البَكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحبَ بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدوُّ الله حدّثني أبيُّ بن كعب رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتَب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكْتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ الحوت فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه يُوشَعُ بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رُؤُوسَهما فناما فاضطرب الحوت في المِكْتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتّخذ سبيله في**

البحر سَرباً، وأمسَكَ الله عزّ وجلّ عن الحوت جَرْيَةَ الماء، فصار عليه مثل الطّاق، فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يُخبرَه بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال: ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً، فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجّى ثوباً فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لِتُعَلّمني مما عُلّمْتَ رُشْداً، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يا موسى إني على علم من الله علّمَنيه لا تعلمُه أنت وأنت على علم من الله علّمَكَهُ لا أعلمه، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يَحملُوهم فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نولٍ، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجَأ موسى إلا والخضر قد قَلَع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نول عَمَدت إلى سفينتهم فخرقْتَها لتُغرِق أهلَها، لقد جئت شيئاً إمْراً، قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾»، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «وكانت الأُولى من موسى نسياناً»، قال: «وجاء عصفورٌ فوقع على حَرْف السفينة فنقَر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، قال: وهذا أشدّ من الأُولى، قال: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ

بَلَغَتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، **قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يُطْعِمُونا ولم يُضِيفُونا** ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾».

فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ودِدْنا أن مُوسَى كان صَبَر حتى يَقُصَّ الله علينا من خَبَرِهِمَا**»، قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامَهم ملِكٌ يأخذ كل سَفِينَة صالحةٍ غَصْباً وكان يقرأ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ﴾ كافراً وكان ﴿أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

رواه أحمد (١١٨/٥، ١٢٠، ١٢٢)، والبخاري في العلم (٢٢٨/١، ٢٢٣)، وفي الأنبياء (٢٤٢/٧)، وفي تفسير سورة الكهف (٢٣/١٠، ٣٩) وفي مواضع نحو العشرة، ومسلم في الفضائل (١٣٦/١٥)، وأبو داود في السنة والترمذي (٢٩٤٦)، والنسائي (٣٨٦/٦، ٣٩١) كلاهما في التفسير وغيرهم مطوّلاً ومختصراً.

هذا حديث عظيم جاء مُفَسِّراً لهذه الآيات الواردة في قصة هذين النبيّين العظيمين، وقد ذكرته مشروحاً مبيناً فوائده في العبر من عجائب الأقدمين وبيّنت هناك أن الصحيح من قولي العلماء: أن الخضر كان نبياً وأنه لا يزال حياً، فليراجع الكتاب المشار إليه فإن فيه فوائد وعبراً.

{٥٦٠} ـ وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الغلامُ الذي قَتَلَه الخَضِر طُبِعَ يوم طُبع كافراً**»، وفي رواية: «**ولو عاش لأرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْياناً وكُفْراً**».

رواه أحمد (١٢١/٥)، ومسلم في الفضائل وفي القدر (٢١١/١٦)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٤٧) بتهذيبي.

هذا من تتمة تفسير القصة في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ إلخ، وأن هذا الغلام ختم على قلبه في بطن أمه وأنه سبق علم الله وقدره بكفره قبل كونه. وقوله: ولو عاش لأرهق إلخ، أي: لحملهما على الكفر والطغيان.

{٥٦١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنما سُمِّيَ الخضر لأنه جلس على فَرْوَةٍ بَيْضاء فاهْتَزَّتْ تحته خَضِراً**».

رواه أحمد (٣١٢/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٤٦/٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٤٨).

فروة ـ بفتح الفاء وسكون الراء ـ: هي هنا قطعة يابسة من حشيش، وقوله: فاهتزت أي: تحرّكت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾:

{٥٦٢} ـ عن زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها قالت: انْتَبَه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من نوم مُحْمَرّاً وجهُه وهو يقول: «**لا إلـه إلاّ الله**» ثلاث مرات، «**ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذا**»، وعَقَدَ تسعين أو مائة، قلت: يا رسول الله أنَهْلَكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»، وفي رواية: وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها.

رواه أحمد (٤٢٨/٦، ٤٢٩)، والبخاري في الأنبياء (١٩٥/٧) وفي علامات النبوّة وفي الفتن، ومسلم (٢/١٨، ٣)، والترمذي (٢٠١٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣) ثلاثتهم في الفتن، والنسائي في الكبرى (٣٩٢/٦).

يأجوج ومأجوج: قبيلتان من ذرية يافث بن نوح عليه السلام كانوا مفسدين بالقتل وقطع الطريق والسلب والنهب... فبنى ذو القرنين السد بينهم وبين غيرهم من بني آدم المجاورين لهم، والجمهور على أن هذا السد في غرب شمال آسيا، والقرآن مصرّح بوجودهم وبناء السد دونهم ودون غيرهم، والحديث نصّ في أنهم يعالجونه وسينهدم عند قرب قيام الساعة فيخرجون على الناس ويعيثون في الأرض فساداً حتى يهلكهم الله. وقوله:

نعم إذا كَثر الخبث، هو بفتح الخاء والباء: هو الفسوق والفجور وأولاد الزّنا والهلاك بوجود الخبث يتجلى في واقعنا بأجلى مظهر.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [٩٩]:

{٥٦٣} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: ما الصور؟ قال: **«قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه»**.

رواه أحمد (٢/٢٦٢، ٢٩٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في القيامة (٢٢٥١)، وفي تفسير الزمر (٣٠٢٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٢)، والدارمي (٢٨٠١)، وابن حبان (٢٥٧٠)، والحاكم (٢/٤٣٦ ج٤/٥٦٠)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي. الحديث مفسّر للصور الوارد في الآية الكريمة وأنه قرن ينفخ فيه الملك المكلّف به.

قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [١٠٥]:

{٥٦٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنه ليأتي الرجلُ العظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جَناح بَعوضة، وقال اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٤١)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٢٩).

إن الكافر وغيره من الأشقياء لا قيمة لهم يوم القيامة ولا وزن، وأن المنعم منهم السمين اللحيم لا يزن مقدار جناح بعوضة.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [١١٠]:

{٥٦٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إنّ الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّرْكِ، فمن عَمِلَ عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه»**، وفي رواية: **«فأنا منه بَريءٌ، وهو للذي أشْرك»**.

رواه أحمد (٣٠١/٢، ٤٣٥)، ومسلم (١١٥/١٨)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٢٣٩٥) وغيرهم.

الآية والحديث يدلاّن على وجوب إخلاص العمل لله، وأن لا يشرك معه غيره في أي عمل. وسيأتي لهذا مزيد في الأدب.

* * *

خاتمة

{٥٦٦} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَنْ حَفِظ عَشْر آياتٍ من أوّل سُورة الكهف عُصِمَ من الدجال»**.

رواه مسلم (٩٢/٩) وغيره، وفي رواية: **«من حفظ من خواتيم سورة الكهف»**، رواه أبو داود وغيره، والأول أصح.

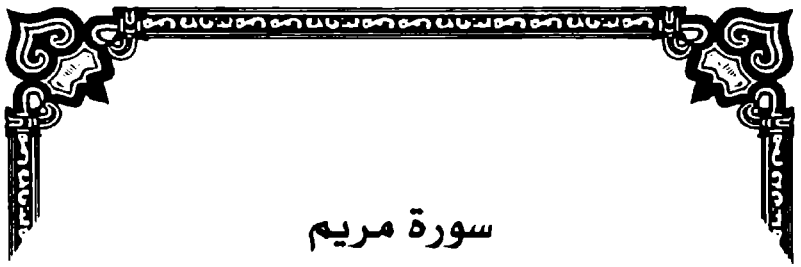

سورة مريم

هي من السور المكية وامتازت بذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام بسياقات لم تذكر في غيرها من السور.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [٢٨]:

{٥٦٧} ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه قال: كنت بأرض نَجْرَان فسألوني أرأيتُم شيئاً تقرؤونه: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وبين موسى وعيسى ما قد علمتُم من السنين، قال: فلم أدرِ ما أُجيبُهم به، فلما قدمت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذكرتُ ذلك له فقال: «**ألا أخبرتَهُم أنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين**».

رواه أحمد (٢٥٢/٤)، ومسلم في الأدب (١١٦/١٤)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي (٣٩٣/٦) كلاهما في التفسير، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

خاطبوا مريم بيا أخت هارون لأنها كانت لكثرة تعبّدها تُشبَّه برجل صالح في عصرها، وفي الحديث مشروعية التسمّي بأسماء الأنبياء، وقد نقل بعضهم الإجماع على جواز ذلك بالنسبة إلينا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [٣٩]:

{٥٦٨} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا دخل أهلُ النار النارَ، ودخل أهلُ الجنّة الجنّةَ يجاء بالموت كأنه كبشٌ أملحُ فينادِي مناد: يا أهلَ الجنّة تعرفون هذا؟ قال: فيَشْرَئِبُّون وينظُرون وكلٌّ قد رأوه، فيقولون: نعم هذا الموتُ. ثم ينادي مناد: يا أهل النار تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون وكلهم قد رأوه، فيقولون: نعم هذا الموت، فيؤخذ فيُذْبَحُ ثم ينادي: يا أهل الجنّة خلودٌ ولا موتَ، ويا أهل النار خلودٌ ولا موت**»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، قال: أهل الدنيا في غفلة.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٤٣)، ومسلم في الجنّة (١٧/١٨٤، ١٨٥)، والترمذي (٢٩٥٣، ٢٣٧٥)، والنسائي (٦/٢٩٣) كلاهما في التفسير، ونحوه عن أبي هريرة عند أحمد (٢/٢٦١) والشيخين.

الأملح من الأنعام ما فيه بياضٌ وسوادٌ، يَشْرَئِبُّون أي: يُشْرِفون وينظرون.

والحديث يدلّ على أن أهل الجنّة والنار مخلّدون فيهما، وأن لا موت يلحقهم، وهذا إجماع لم يخالف فيه إلا بعض أهل الشذوذ، كما أنه يدلّ على أن يوم الحسرة هو وقت ذبح الموت.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [٦٤]:

{٥٦٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لجبريل عليه السلام: «**ما يَمنعُك أن تَزُورَنا أكثَر مِما تَزُورُنا**»؟ قال: فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

رواه أحمد (٢٣٦٥)، والبخاري في التفسير (١٠/٤٣) وفي بدء الخلق وفي التوحيد، والترمذي (٢٩٥٥)، والنسائي (٦/٣٩٤) كلاهما في التفسير.

الآية تدلّ على أن جبريل عليه السلام كان لا يزور نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلا بإذن الله تعالى وأمره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [٦٤]:

{٥٧٠} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أحلَّ الله في كِتابِهِ فهو حلالٌ، وما حَرَّم فهو حرامٌ، وما سكتَ عنه فهو عَفْوٌ فاقبَلُوا من الله عافِيَته فإن الله تعالى لم يكن لِيَنْسَى شيئاً**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

رواه البزار (٢٢٣)، والحاكم (٢/٣٧٥) ومن طريقه البيهقي (١٠/١٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال النور في المجمع (٧/٢٥٥): رجاله ثقات، وللحديث شواهد أوردها البيهقي وغيره، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٤٢).

في الحديث ردّ على من يتزمت ويشدّد على العباد بتحريم ما سكت الله تعالى عنه، وجعله من المعفوّات رحمةً بعباده.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [٧١]:

{٥٧١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسَّه النارُ**»، وفي رواية: «**فيلج النار إلا تحلَّة القَسَم**».

رواه أحمد (٢/٢٣٩)، والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه كلّهم في الجنائز، ويأتي في الرقاق.

في الآية والحديث دليل على أنه لا بدّ من ورود النار من كل أحد وهو المرور على الصراط، وفي الحديث بشارة لمن يموت لهم الأطفال بعدم دخولهم النار إن شاء الله تعالى.

{٥٧٢} ـ وعن مرّة الهمداني أنه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال: حدّثني عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرد الناسُ النارَ ثم يَصْدُرُون عنها بأعمالِهم فأولُهم كلَمْح البَرْقَ، ثم كالرِّيح، ثم كحُضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كَشَدُّ الرجل، ثم كَمَشْيِه**».

رواه أحمد (٤١٢٨، ٤١٤١)، والترمذي (٢٩٥٦)، والحاكم (٢/٢٧٥) مرفوعاً وموقوفاً وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو عند الترمذي من ثلاثة طرق وكلّها حسنة، ولا يعل الحديث بالوقف فإن الحكم لمن رفع.

قوله: يرد الناس، أي: يمرون على الصراط. وقوله: ثم يصدرون أي: ينصرفون، وقوله: حضر ـ بضم الحاء وسكون الضاد ـ أي: عدو الفرس.

وفي الحديث بيان مراتب الناس في مرورهم على الصراط وأنهم ستّة أصناف، جعلنا الله تعالى من الصنف الأول بمنّه وكرمه آمين، ويأتي لهذا مزيد في الرقاق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [٧٢]:

{٥٧٣} ـ عن أمّ مُبَشِّر رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول عند حفصة رضي الله تعالى عنها: «**لا يدخلُ النارَ إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحدٌ من الذين بايعوا تحتها**»، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، قالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فقد قال الله تعالى**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾».

رواه أحمد (٦/٤٢٠)، ومسلم في الفضائل (١٦/٥٧، ٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٥)، وابن جرير (١٦/١١٢) وغيرهم، وفي الباب عن جابر عند البخاري في المغازي (٨/٣٢٥).

قوله تعالى: جثياً أي: جاثين على ركبهم. في الحديث فضل أهل بيعة الرضوان وأن جميعهم من أهل الجنة، وفي الآية بشارة للمتقين بإنجائهم من السقوط في النار.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [٧٧ ـ ٨٠]:

{٥٧٤} ـ عن خَباب رضي الله تعالى عنه قال: كنت قَيْناً بمكة فعمِلتُ للعَاص بن وائل السَّهْمي سيفاً، فجِئْتُ أتقَاضَاهُ فقال: لا أعطيك حتى تَكْفُرَ بمحمّد، قلت: لا أكفر بمحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى يُمِيتك الله ثم يُحْييك، قال: إذا أماتَنِي الله ثم بعثني ولي مال وولد... وفي رواية: وإني لميّت، ثم مَبْعوث؟ قلت: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولداً فأعطيك... وفي أخرى: فَذَرْني حتى أموتَ ثم أُبْعَثَ فسوف أُوتَى مالاً وولداً فأقضِيكَ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

رواه أحمد (١١١/٥)، والبخاري في البيوع وفي الإجارة وفي الخصومات وفي التفسير (٤٥/١٠، ٤٦)، ومسلم في صفة القيامة (١٣٨/١٦)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي في الكبرى (٣٩٥/٦) كلاهما في التفسير.

القَيْن ـ بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة ـ: الحداد، أتقاضاه أي: أطلب منه قضاء حقّي. وفي الآية تهديدٌ بالغ لذلك الطاغية المغرور المعجب بنفسه وأهله وماله، وبيان ما كان عليه من العتوّ والأنانية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [٩٢]:

{٥٧٥} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا أحد أصبرُ على أذى يَسْمَعُه مِن الله إنّه يُشْرِكُ به ويُجعلُ له نِدٌ وهو يُعَافيهم ويَرْزُقُهم ويَدْفَعُ عنهم»**.

رواه أحمد (٤/٣٩٥، ٤٠٥)، والبخاري في الأدب رقم (٦٠٩٩) وفي التوحيد، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٤ ج ١٧/١٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٥).

إن الله عزّ وجلّ حليم كريم لا يعاجل بالعقوبة من عصاه، ولا يقطع مدده ورفده عن من كفر وأشرك به، بل يرزقه ويعافيه ويدفع عنه البلايا والمضار، بل ينصره على عدوّه ويمهّد له أسباب الحياة ويسهلها عليه، رغم أنه يؤذي الله بأقواله وأفعاله، فلا أحد يتحمل ذلك ويصبر عليه سواه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [٩٦]:

{٥٧٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا أحبَّ الله عبداً نادَى جبريل: إنّي قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، قال: فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾. وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض»**، وفي رواية في الأولى: **«ثم يوضع له القبول في الأرض»**.

رواه أحمد (٢/٣٤١، ٥١٤)، والبخاري في الأدب (١٣/٧١) وفي بدء الخلق (٧/١١٥، ١١٦)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٨٣، ١٨٤)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٧) وغيرهم.

في الآية والحديث بشارة للمؤمن الصالح حيث إن الله تعالى يحبّه ويحبه أهل السماء ويحبه المؤمنون... ويصدق ذلك ولو من بعضهم، ومن أبغضه فإنما يبغضه لعارض. أما من أبغضه الله فبعكس ذلك حيث يبغضه كل شيء إلا مَن كان مثله.

وبهذا تمّت سورة مريم. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وصحبه وآله.

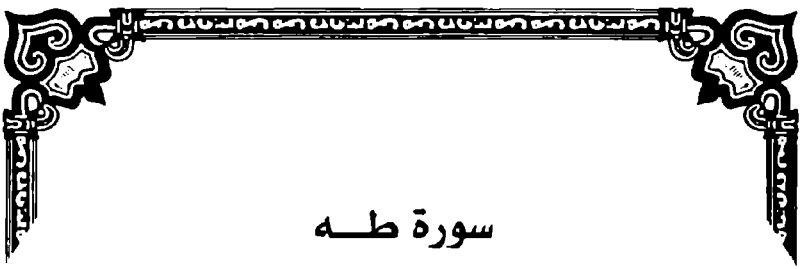

سورة طـــه

هي مكية، وآياتها مائة وخمس وثلاثون، وامتازت بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية... مطولة مفصلة بما لم يذكر في غيرها، وقد أخذت من السورة نحواً من تسعين آية، وهي أكثر من نصف السورة.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾:

{٥٧٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من نَسِي صلاةً أو نامَ عنها فكفّارتُها أن يُصَلّيها إذا ذكَرَها**»، وفي رواية: «**إذا رقد أحدُكم عن الصلاة أو غَفَلَ عنها فلْيصلّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾**».

رواه البخاري (٢/٢١١)، ومسلم (٥/١٩٣) كلاهما في قضاء الفوائت، واللفظ للأخير. وفي الباب عن جماعة في الصحيح وغيره.

وقوله: لذكرى: فيه قراءتان؛ بفتح الراء مع ألف مقصورة، ومعناه: متى ذكرت أن عليك صلاة فاقضها سواء كانت في وقتها أو خارجه، وقرىء بكسر الراء أي لتذكرني فيها، فإن كل من صلّى ذكر الله عزّ وجلّ، واستدلّ بالآية على أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا لأن الآية جاءت في خطاب كليم الله موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [٧٤]:

{٥٧٨} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما أهلُ النار الذين هم أهلُها فإنهم لا يموتُون فيها ولا يَحيَون، ولكن أناسٌ تصيبُهم النارُ بذنوبهم فتُمِيتُهم إماتَةً حتى إذا صارُوا فَحْماً أُذِن في الشفاعة جِيءَ بهم ضَبَائِر ضَبَائِر فبُثُّوا على أنهار الجنّة، فيقال: يا أهل الجنّة أفيضوا عليهم، فينبُتُون نبات الحِبَّة تكون في حَمِيل السَّيل**»، فقال رجل من القوم: كأنَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان بالبادية.

رواه أحمد (٣/٥/١١)، ومسلم في الإيمان (٣/٣٧، ٣٨)، والنسائي في الكبرى وابن ماجه (٤٣٠٩).

حميل السيل ـ بالحاء المهملة ـ أي: محمول السيل، وهو الغثاء الذي يحمله سيل الماء، وقوله: ضبائر أي: جماعات متفرّقة.

والآية الكريمة والحديث يدلاّن على أن الكفار مخلدون في النار لا يموتون فيستريحون ولا يحيون حياة تنعم كأهل الجنّة. أما عصاة الموحدين فتصيبهم إماتة حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون منها بفضل الله ورحمته، أعاذنا الله من عذابه، آمين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [١١٧]:

{٥٧٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**حاجَ آدم موسى فقال له: يا آدم أنت الذي أخرجتَ الناس من الجنّة وأشْقَيتَهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالَتِه وبكلامِه؟ أتَلُومُني على أمرٍ كتبه الله عليّ أو قَدَّره عليَّ قبل أن يخلُقني؟**» قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فحجَ آدمُ موسى**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٥٠)، ومسلم في القدر وغيرهما، وقد تقدم بسياق آخر.

قوله: أشقيتهم أي: تسبّبت في شقائهم بنزولك لهذه الدنيا، فعانوا من متاعبها ومشاقها ما هو معروف، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وقوله: وحجّ آدم موسى أي: غلبه بالحجّة. والآية الكريمة جاءت ضمن قصة أبينا آدم عليه السلام، فخاطبه الله عزّ وجلّ وزوجته محذّراً لهما من الشيطان أن لا يطيعاه، فيكون ذلك سبباً لإخراجهما من الجنّة فيشقيا.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [١٣٠]:

{٥٨٠} ـ عن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: **«إنكُمْ سَتَرَوْنَ ربَكُم كما تَرَوْن هذا لا تُضارُّون في رؤيته، فإن استطعتُم أن لا تُغلَبُوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»**، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

رواه البخاري في المواقيت وفي التفسير في سورة قَ (ج ٢٢٠/١٠) وفي التوحيد، ومسلم في فضائل صلاتي الصبح والعصر (١٣٤/٥)، وأبو داود في السنة (٤٧٢٩)، والترمذي في رؤية الله من صفة الجنّة، والنسائي في الكبرى (٤٠٧/٦)، وابن ماجه (١٧٧).

الجمهور على أن الآية الكريمة جاءت في الصلوات الخمس، فقوله: وسبح بحمد ربك أي: صلّ وأنت حامد لربّك قبل طلوع الشمس ـ صلاة الصبح ـ وقبل غروبها ـ صلاة العصر ـ ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: وصلّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره، فآناء الليل: صلاة العشاء، وأطراف النهار: صلاة المغرب والظهر؛ لأن الظهر آخر طرف النهار الأول، والمغرب آخر طرف النهار الأخير.

وفي الحديث إثبات رؤية الله يوم القيامة، وقد تواترت بذلك الأحاديث كما فيه الحضّ على المحافظة على صلاتي الصبح والعصر، وقد جاء في الصحيح **«من صَلَّى البَرْدَيْن دَخَلَ الجَنَّة»**، والبردان: الصبح والعصر.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [١٣٢]:

{٥٨١} ـ عن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا نزل بأهله الضيقُ أمرَهم بالصلاة، ثم قرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٠)، قال الهيثمي في المجمع (٦٧/٧): ورجاله ثقات.

{٥٨٢} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى.

رواه أحمد (٣٨٨/٥)، وأبو داود (١٣١٩) بسند حسن.

حزَبه ـ بفتح الزاي والباء ـ أي: أصابه، وورد حَزَنَه بالنون.

وفي الحديثين مشروعية الفزع إلى الصلاة عند نزول البلايا والشدائد وضيق المعيشة، ولذلك شرعت صلاة الاستسقاء، وصلاة الكسوف، وصلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة وصلاة التوبة... لأن الصلاة صلة وثيقة بالله عزّ وجلّ، ولها من البركة وشمول الرحمة ما ليس لغيرها من سائر القُرَب.

وبهذا تمّت سورة طٰه. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

سورة الأنبياء

وهي مكية وآياتها مائة واثنتا عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [١]:

{٥٨٣} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «**في الدنيا**».

رواه النسائي في الكبرى (٤٠٧/٦) بسند صحيح، وأخرجه ابن جرير (١/١٧، ٢) من حديث أبي هريرة وسنده صحيح أيضاً.

ومعنى الآية الكريمة أنه قد دنا وقرب وقت حساب الناس على أعمالهم، وهم مع ذلك غافلون عن ذلك اليوم مستغرقون في الشهوات، لا يعملون للآخرة ولا يتأهبون لها.

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [٤٧]:

{٥٨٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً قعد بين يدي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يَكْذِبُونني، ويَخُونُونَني، ويَعْصُونَني، وأشْتِمُهم وأضْرِبُهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «**يُحسب ما خانوك وعَصَوْك وكذَبُوكَ وعِقابُك إيّاهم، فإن كان عقابُك إياهُم بقدرِ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم أقْتُصَّ لهم منك الفضل**»، قال: فتنحّى الرجل فجعل يبْكي ويهْتِف، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما تقرأ كتاب الله:**

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾» الآية، فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم أُشهِدُك أنَّهم أحرارٌ كلُّهم.

رواه أحمد (٦/٢٨٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٠) وسنده صحيح.

قوله: ونضع الموازين إلخ، أي: ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال يوم القيامة فلا يجحد إحسان محسن، أو يضيع، كما تحضر السيئآت فلا تكتم أو تخفى، مهما كان الإحسان أو الإساءة، ولو مثقال حبة خردل.

{٥٨٥} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله سَيُخَلِّص رجلاً من أُمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلاًّ، كلّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصر، ثم يقول: أَتُنْكِرُ مِن هذا شيئاً أظلمَكَ كَتَبَتِي الحافِظون؟ يقول: لا يا ربّ، فيقول: أفلَكَ عذرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظُلم عليك اليومَ، فتُخرِجُ بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأن محمّداً عبده ورسوله، فيقول: احضُر وَزْنَك فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلاّتِ؟ فقال: فإنك لا تُظْلَمُ، قال: فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفّة، فطَاشَتْ السجلات، وثَقُلَتْ البطاقة ولا يَثْقُل مع اسم الله شيء**».

رواه أحمد (٢/٢١٣، ٢٢١)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥٥) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٥٢٤) بالموارد، والحاكم (٥٢٩/٦/١)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

سيخلص ـ بفتح السين وضم الياء وكسر اللام المشدّدة ـ أي: يميز ويختار، سجلاّ ـ بكسر السين والجيم ـ الكتاب الكبير، فطاشت أي: خفت. وفي الحديث فضل كلمة التوحيد كيف وهي مفتاح الجنّة، وعليها مدار الأحكام الشرعية كلّها، وفي الحديث دليل على أن في القيامة ميزاناً، وأن له كفتين كفة للحسنات وأخرى للسيّئات، وبهذا قال جمهور العلماء لظواهر القرآن والسنّة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [٦٣]:

{٥٨٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لم يَكْذِبْ إبراهيمُ عليه السلام في شيءٍ قطّ إلا في ثلاثِ كَذَباتٍ: قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾** ولم يكن سقيماً، وقوله لسارة: ﴿أختي﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾».

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٦٢) هكذا مختصراً وحسنه وصححه، ورواه البخاري في الأنبياء (٢٠١/٧، ٢٠٤)، وفي النكاح وفي البيوع وفي مواضع، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥) مطولاً، وقد أوردته في العبر مفصلاً مطولاً ومشروحاً والحمدلله.

الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، وإطلاق الكذب هنا من باب المعاريض، وهو القول الذي يحتمل معنيين: معنى يعتقده السامع كذباً ومعنى هو عند المتكلم حق وصدق، وفي الحديث: «**إن في المعارض لمندوحة عن الكذب**»، رواه البخاري في الأدب المفرد.

وإذا رجعنا إلى واقع الحديث وجدنا كل ما قاله الخليل عليه السلام حقاً.

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [٧٩]:

{٥٨٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهُما جاء الذِّئْب، فذهب بابنِ إحداهما، فقالت صاحبتُها: إنَّما ذهبَ بابنِك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتَحاكَما إلى داود عليه السلام فقضى به للكُبْرَى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرَتَاه، فقال: إيتوني بالسكين أشُقُّهُ بينكم، فقالت الصُغْرى: لا تَفْعَلْ يَرْحَمك الله هو ابنُها، فقضَى به للصُغْرى**».

رواه أحمد (٣٤٠/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٧٥/٧) وفي الفرائض، ومسلم (١٨/١٢)، والنسائي في الكبرى (٤٧٢/٣، ٤٧٣) كلاهما في الأقضية.

ما جاء في هذا الحديث هو داخل في الآية الكريمة، لأن الله تعالى فهَّم الحكم والقضاء سليمان، في هذه الحادثة... وفيه أدب من آداب القاضي لاستخراج الحق.

قوله تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٨٧]:

{٥٨٨} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دعوةُ ذِي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدْع بها رجلٌ مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له**».

رواه أحمد رقم (١٤٦٢)، والترمذي في الدعوات (٣٢٧٦)، والنسائي في الكبرى (١٦٨/٦)، والحاكم (٥٠٥/١) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث أن الدعاء بهذه الآية الكريمة مما تُرجى معه الاستجابة إذا كانت شروط الاستجابة متوفرة، والآية قد اشتملت على توحيد الله تعالى وتنزيهه ثم الاعتراف له تعالى بالذنب وظلم النفس، وفي ذلك استمطار لرحمة الله ومغفرته...

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [٩٦]:

{٥٨٩} ـ عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الدجالَ ذات غداة، وفيه: «**فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: أني قد**

أخرجتُ عباداً من عبادي لا يَدَانِ لك بقتالهم فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور فيبعث الله عزّ وجلّ يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾».

رواه أحمد (١٨١/٤، ١٨٢)، ومسلم (٦٣/١٨، ٧٠)، والترمذي (٢٠٦٨)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، ثلاثتهم في الفتن، ويأتي مطوّلاً في المصدر المذكور مع أحاديث أخرى إن شاء الله تعالى.

الحدب ـ بفتحتين ـ: ما ارتفع من الأرض، وقوله: ينسلون أي: يسرعون. وقوله: فَحَرِّزْ عبادي أي: اجعل الطور لهم حرزاً.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [١٠٣]:

{٥٩٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالموعظة فقال: «**يا أيها الناس إنكم مَحشورون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾**» الآية، قال: «**أول من يكسى يوم القيامة إبراهيمُ، وأنه سيُؤْتَى برجال من أُمّتي فيُؤخذُ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فيقال: هؤلاء لم يزالوا مُرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم**».

رواه البخاري في التفسير (٥٣/١٠) وفي الرقاق، ومسلم في الجنّة والنار (١٩٣/١٧، ١٩٤)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٣)، وفي التفسير (٢٩٦٣)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨/٦).

الآية والحديث يدلاّن على أن العباد سيحشرون من قبورهم على الحالة التي ولدوا عليها، وأنه تعالى وَعَدَ وعداً لا يَتَخَلَّفُ... وما جاء في الحديث في طرد بعض من صاحب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الحوض والأخذ بهم ذات الشمال المراد بهم الأعراب الذين ارتدوا آخر

حياة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأيام الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ولا يوجد من الصحابة المخلصين كالمهاجرين والأنصار من ارتدّ منهم أحد أبداً، خلاف ما يفتريه الشيعة الروافض في قولهم بأن الصحابة كلّهم ارتدوا إلا نفراً منهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [١٠٧]:

{٥٩١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: **«إني لم أُبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمةً»**.

رواه مسلم في الأدب (١٥٠/١٦).

{٥٩٢} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنَّما أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»**.

رواه الحاكم (٣٥/١)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، ورواه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/١)، والدارمي رقم (١٥) عن أبي صالح ذكوان السمان مرسلاً وسنده صحيح، وأورده نور الدين في المجمع (٢٥٧/٨) برواية البزار، والطبراني، وقال: رجال البزار رجال الصحيح.

كانت حياته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رحمة، وموته رحمة، ورحمته عمّت المؤمن والكافر، فمن آمن به كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي في الدنيا مما أصاب الأُمم من الاستئصال فهو رحمة أهداها الله إلينا، فمن قبلها سعد في الدارين، ومن ردّها خسر وشقي شقاء لا يسعد بعده أبداً.

وبهذا تمّت سورة الأنبياء، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه.

سورة الحج

هي من السور المدنية جاءت بعد ثنتي عشرة سورة مكيات متواليات، وهي ستّ وسبعون آية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [١ ـ ٢]:

{٥٩٣} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبّيك ربنا وسَعْدَيك، فينادَى بصوتٍ: إن الله يأمرُكَ أن تُخرِجَ من ذرّيتك بعْثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعثُ النار؟ قال: مِنْ كل ألفٍ أراهُ، قال: تسعمِائة وتسعةً وتسعين، فحينئذٍ تضع الحامل حَمْلها ويَشِيبُ الولد،** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فاشتدّ ذلك عليهم قالوا: يا رسول الله أيّنا ذلك الرجل؟ فقال: **أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل،** قال: ثم قال: **والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنّة»**، فحمدنا الله وكبّرنا ثم قال: **«والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنّة»**، فحمدنا الله وكبّرنا ثم قال: «**والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنّة، إن مَثَلَكُمْ في الأمم كمثل**

الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار»، وفي رواية: **«أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»**...

رواه أحمد (٣/٣٠٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء وفي التفسير (١٠/٥٧)، وفي الرقاق ومسلم آخر الإيمان (٣/٩٧، ٩٨).

{٥٩٤} ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما نزلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾، قال: نزلت عليه وهو في سفر، قال: **«أتدري أي يوم ذلك»**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنّة»**، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«قارِبُوا وسَدِّدُوا فإنها لم تكن نبوّةٌ قط إلا كان بين يديها جاهليةٌ»**، قال: **«فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابّة، أو كالشامة في جنب البعير»**، ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة»** فكبّروا، ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنّة»** فكبّروا، ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة»** فكبّروا قال: ولا أدري أقال: الثلثين أم لا. وفي رواية: **«فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قطّ إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس»**، قال: فأسري عنهم.

رواه أحمد (٤/٤٣٥)، والترمذي (٢٩٦٤)، والنسائي (٦/٤١٠) في الكبرى، والحاكم (١/٢٨) ج (٢/٢٢٣، ٣٨٥) ج (٤/٥٦٧)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي.

وفي الباب عن أنس رواه ابن حبان (١٧٥٢) بالموارد، والحاكم (١/٢٩) ج (٤/٥٦٦، ٥٦٧) وصححه، وعن ابن عباس رواه الحاكم أيضاً (٤/٥٦٨) وصححه ووافقه الذهبي.

الشامة: هي الخال في الجسد تخالف لونه، وقوله: الرقمة أي: التي تكون في ذراع الدابة، وهما رقمتان في ذراعيها.

وفي حديثي الباب وما معهما هول عظيم مما سيكون يوم القيامة حيث لا يدخل الجنّة إلا واحد من الألف، لكن فيهما بشارة لهذه الأُمّة حيث إنهم سيحتلون النصف من سكان الجنّة، وأنّ ذلك الواحد من الألف سيكون منهم إن شاء الله تعالى.

والخاسرون الهالكون سيكونون من يأجوج ومأجوج وغيرهم من الكافرين والمنافقين وبني إبليس، جعلنا الله تعالى بمنّه وكرمه من أشرف سكان الجنّة وأكرمهم لديه، آمين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ إلخ [٥]:

{٥٩٥} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق: **«إنّ أحدكم يُجمعُ خَلْقه في بطن أمه أربعين يوماً نُطفة، ثم يكون عَلَقة مثلَ ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يُرسلُ الله المَلك فينْفُخُ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات: بكَتْب رزقِهِ، وأجلِهِ، وعملِهِ، وشقيّ أم سعيد، فوالله الذي لا إلـه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها»**.

رواه أحمد (١/٣٨٢، ٤٣٠)، والبخاري في بدء الخلق وفي القدر (١٤/٢٧٧، ٢٧٨)، ومسلم (١٦/١٩٠، ١٩٢)، وأبوداود (٤٧٠٨)، والترمذي (١٩٦٩)، وابن ماجه (١٩) كلّهم في القدر.

العلقة: دم جامد مثل علقة الماء، والمضغة ـ بضم الميم ـ: القطعة اليسيرة من اللحم بقدر ما يمضغ. وفي الآية والحديث بيان للأطوار التي

يمرّ عليها الإنسان في نشأته في رحم أُمّه، وأنه يكتب عليه كتابة ثانية أو ثالثة في بطن أمّه: رزقه، وأجله، وعمله، وحالته من سعادة أو شقاوة، وهذه الكتابة كالتأكيد للكتاب الأول وإعلام الملائكة... وباقي أبحاث الحديث تأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ الآية [١١]:

{٥٩٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية، قال: كان الرجل يقدَمُ المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله، قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء.

رواه البخاري في التفسير (٥٨/١٠)، وفي رواية: كان ناس من الأعراب يأتون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب، وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسّكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله تعالى على نبيّه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية.

رواه ابن جرير (٢٢/١٧)، وابن أبي حاتم (٢٤٧٦/٨، ٢٤٧٧) في تفسيريهما.

على حرف أي: على شكٍّ، وقوله: فتنة أي: الضيق في العيش... وقوله: انقلب على وجهه أي: ارتدّ ورجع إلى ما كان عليه من الكفر.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [١٩]:

{٥٩٧} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أنا أوّل من يَجْثُو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة، قال قيس بن عباد: وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ

خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليّ، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٨/٨)، وفي التفسير (٥٩/١٠)، والنسائي في الكبرى (٤٠١/٦)، ومثله عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه رواه البخاري في المصدرين، ومسلم آخر الكتاب (١٦٦/١٨)، والنسائي في الكبرى (٤٠١/٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٥).

المراد بالخصمين: الفريقان فريق أهل الإيمان وهم: عليّ وحمزة وعبيدة، وفريق أهل الكفر وهم شيبة وأخوه وابن أخيه، وخصامهم هو معاداتهم ومحاربتهم، وقول الإمام عليّ: أنا أول من يجثو للخصومة، أي: يقعد على ركبتيه مخاصماً. قال العلماء: والمراد بهذه الأولية تقييدها بالمجاهدين من هذه الأُمّة؛ لأن المبارزة المذكورة هي أول مبارزة وقعت في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [١٩ ـ ٢٠]:

{٥٩٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الحميم ليُصَبّ على رؤوسهم فينفذ الجمْجَمَة حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيسلُت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصَّهر ثم يعاد كما كان**».

رواه الترمذي في صفة جهنّم (٢٣٩٩)، وابن جرير (١٣٣/١٧)، وابن أبي حاتم (٢٤٨١/٨)، وحسنه الترمذي وصححه.

الحميم: هو الماء البالغ النهاية في الحرارة، وقوله: فينفذ أي: يدخل ويخلص ـ بضم اللام ـ أي: يصل، فيسلت أي: يمسح ويقطع، والصهر ـ بفتح الصّاد المشدّدة ثم هاء مفتوحة ـ: هو الإذابة. ومعنى الآية والحديث أن الكفار سيصب من فوق رؤوسهم الماء الحار، فيدخل في جماجم

نصف يوم؟ قال: «**أو ما تقرأ القرآن؟**» قلت: بلى، قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

في الحديث مع الآية أن يوم الآخرة فيه ألف سنة، وهذا إنما هو تقريب لعقولنا فقط؛ لأن الآخرة ليس فيها أيام كأيامنا، لأن اليوم والليل ينشآن بسبب سير الشمس ولا شمس في الآخرة فالواجب الإيمان بما قال الله على ما أراد سبحانه، لأن ذلك من عالم الغيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [٧٣]:

{٦٠٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال الله عزّ وجلّ: ومن أظلمُ مِمّن ذهب يخلُق كخَلْقي فليَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً، أو ذُبابةً، أو حَبَّةً**»، وفي رواية: «**فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شَعِيرة**».

رواه أحمد (٣٩١/٢، ٤٥١، ٥٢٧)، والبخاري في اللباس وفي التوحيد (٣٢٠/١٧)، ومسلم في اللباس (٩٣/١٤، ٩٤) وغيرهم.

ومن أظلم أي: لا أحد أظلم ممن إلخ، فالإنسان وغير الإنسان من أي خلقٍ كان، لا يستطيع خلق أصغر شيء مما في هذا الكون لا ذرة ولا حبّة ولا أي شيء، فالكل خلق الله، ومن خلق شيئاً، فإنما خلقه بقدرة الله وإذنه... وقد ضلّ هنا أقوام وأمم. وإذا كان الإنسان لا قدرة له على خلق شيء بذاته، فكيف بالجمادات التي يعبدها الضالون مِن بني آدم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [٧٨]:

{٦٠٦} ـ وعن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ دعا بدَعْوى الجاهليّة فإنه من جُثَى جهنم**»، قال: يا رسول الله وإن صام وصلّى؟ قال: «**وإنْ صام وصلى،**

فادْعُوا بِدَعْوى الله التي سَمَّاكم الله بها المسلمين المؤمنين عبادَ الله».

رواه أحمد (٤/١٣٠، ٢٠٢)، والترمذي في الأمثال (٢٦٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤١٢)، وابن خزيمة (١٨٩٥)، وابن حبان (١٢٢٢، ١٥٥٠) بالموارد، وأبو يعلى (١٥٧١)، والحاكم (١/١١٧، ١١٨، ٤٢١، ٤٢٢) مطوّلاً ومختصراً، وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قوله: من جثى جهنم أي: من جماعات أهل جهنّم.

والحديث مبيّن للآية الكريمة وأن الضمير المذكور في قوله تعالى: ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ إلخ يعود على الله عزّ وجلّ، فهو الذي سمّانا مسلمين في الكتب القديمة، وفي هذا القرآن، وهذا القول هو الصحيح الراجح، وبه فسّره ابن عباس وغيره من السلف رضي الله تعالى عنهم وعليه مشى ابن جرير رحمه الله تعالى. وبه تمت سورة الحج، والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه.

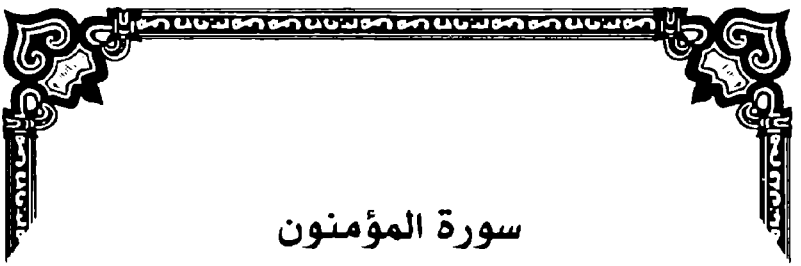

سورة المؤمنون

هي من السور المكية جاءت بين سورتين مدنيتين: الحج قبلها، والنور بعدها.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى: ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [١ ـ ٩]:

{٦٠٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: يا أمّ المؤمنين كيف كان خُلُق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قالت: كان خُلُقُهُ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى انتهت إلى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾.

قالت: هكذا كان خلق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤١٢/٦)، والحاكم (٣٩٢/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وشطره الأول في صحيح مسلم، كما يأتي في سورة القلم وغيرها.

والحديث يدلّ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان متخلّقاً بأخلاق القرآن أمراً ونهياً، فكانت أخلاق القرآن متمثّلة فيه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [١٠ ـ ١١]:

{٦٠٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**فإذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسَطُ الجَنّة، وأعلى الجنة وفوقَه عرشُ الرحمٰن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنّة**».

رواه البخاري في الجهاد (٣٥٢/٧)، وفي التوحيد (١٨٦/١٧)، ويأتي في الجهاد وغيره.

الحديث يدلّ على أن الفردوس هي أفضل منازل الجنان وأشرفها، وقد أخبر تعالى في هذه الآيات أنه جعلها إرثاً لهؤلاء المؤمنين الذين وصفهم بالصفات المذكورة وهي: الإيمان، والخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللَّغو، وأداء الزكاة، وحفظ الفرج، ومراعاة الأمانات والعهد، والمحافظة على الصلوات الخمس، فمن أحرز هذه الصفات وتخلّق بها كانت الفردوس إرثاً له.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [١٢]:

{٦٠٩} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله خلق آدم من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جَميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر، والأبيضُ، والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيّب وبين ذلك**».

رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٧٦٣) وغيرهما، وحسّنه الترمذي وصححه، وقد تقدم أول البقرة.

والسلالة: هي الخلاصة والصفوة اسلتّت من الطين، وسُمّي سلالة لأنه سل من كل تربة الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [٢٠]:

{٦١٠} ـ عن عُمَر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به فإنه مِن شجرةٍ مُبارَكَة**».

رواه الترمذي في الأطعمة (١٦٩٦)، وفي الشمائل (١٥٩)، وابن ماجه (٣٣١٩)، والحاكم (١٩٥/٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وللحديث شواهد أحسنها حديث أبي أُسيد رواه أحمد، والترمذي في الشمائل (١٥٩)، وفي الجامع (١٦٩٧)، والحاكم (٣٩٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

والحديث مبيّن للشجرة المذكورة وأنها شجرة الزيتون، وكانت مباركة لما فيها من المنافع وأعمّها وأعظمها منفعة الزيتون وزيته، فإنهما من أعظم نعم الله تعالى علينا. وفي الزيت بالإضافة إلى أنه إدامٌ عظيمٌ، منافعُ طبّية وصحية، ولذلك أرشدنا الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى أكله والادّهان به. وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي: الزيت، وصبغ للآكلين، أي: وإدام للآكلين، وسمّي الزيت صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غُمس فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [٥١]:

{٦١١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله طَيِّبٌ لا يَقبل إلاّ طيّباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾**، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾»، ثم ذكر «**الرجل يُطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربُّ، يا ربُّ، ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرام، ومَلْبَسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك**».

رواه أحمد (٣٢٨/٢)، ومسلم في الزكاة (٧/٥، ١٠٠)، والترمذي في التفسير (٢٧٩٨)، والدارمي في الرقاق وغيرهم.

هذا الحديث يعدّ من قواعد الإسلام، وفيه أن الله عزّ وجلّ لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا الطيّب الخالص لله تعالى، وأن الرسل وأتباعهم كلّهم في الأحكام سواء، وفيه أن من كان كسبه خبيثاً لا يُستجاب له دعاؤه، بل ولا يقبل منه أي عمل، ولو بلغ ما بلغ في التقشّف وإطالة السفر في تعاطي القُرُبات والتظاهر بالتواضع والتذلّل، فإن الأصل ـ وهو طيب اللقمة ـ ضائع، أعاذنا الله تعالى من مواقع سخطه وغضبه، آمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [٥٧ ـ ٦١]:

{٦١٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ إلخ، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: **«لا يا بِنْتَ الصِّدّيق وَلٰكِنَّهُمْ الذين يَصُومُونَ ويُصَلُّون وَيَتَصَدَّقُونَ، وهم يخافُون أن لا تُقْبَل منهُم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»**، وفي رواية: أهو الذي يَزْني، ويسرِق، ويشربُ الخمر؟

رواه أحمد (١٥٩/٦، ٢٠٥)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وابن جرير (٣٤/١٨)، والحاكم (٢٩٣/٢، ٢٩٤) وصححه ووافقه الذهبي، والانقطاع وصله ابن جرير.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وأن المنافق جمع إساءةً وأمناً، قال بعض الأكابر: إن تركيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى دلّت على حصول الخوف

الشديد، والثانية دلّت على التصديق بوحدانيّة الله تعالى، والثالثة دلّت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة دلّت على أن المُسْتَجْمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقام الصدّيقين، رزقنا الله تعالى التحقّق بها والوصول إليها، آمين.

فالقوم متّصفون بصفات الكمال قائمون بما كلّفهم الله تعالى بإخلاص، وهم مع ذلك خائفون وجلون أن لا تقبل منهم أعمالُهم الصالحةُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [٧٦]:

{٦١٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء أبو سفيان إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا محمد أنْشُدُكَ الله والرحمَ فقد أكلنا الهِلْعِزَ ـ يعني: الوبر والدَّم ـ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ إلخ.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٤١٣)، وابن حبان **(١٧٥٣)** بالموارد بسند حسن، وله طرق يصحح بها، وأصله في الصحيحين كما يأتي في سورة الدخان إن شاء الله تعالى.

والهلعز ـ بكسر الهاء وسكون اللام ثم عين مكسورة آخره زاي ـ: وهو خلط الدم بوبر الإبل، ثم يشوى فيؤكل.

ومعنى الآية الكريمة: ولقد ابتليناهم بأنواع من المصائب والشدائد من قحط وجوع... ومع ذلك فلم يتّعظوا ولا خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله، وما دعوا ربهم وتضرّعوا إليه لكشف ما نزل بهم من بلاء، بل تمادوا واستمرّوا على عتوّهم وطغيانهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [١٠١]:

{٦١٤} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه سمع عمر رضي الله تعالى عنه يقول للناس حين تزوج ابنَةَ عليّ رضي الله تعالى عنهما: ألاَ تُهنّوني

سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يَنْقَطِعُ يومَ القِيامةِ كُلَّ سَبَبٍ ونَسَبٍ إلا سببي ونسبي**».

رواه الطبراني في الكبير (٢٦٣٣، ٢٦٣٤)، والحاكم (١٤٢/٣)، والبيهقي (١١٤/٧)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١٩٩/١)، قال النور في المجمع (٢٧١/٤، ٢٧٢ ج ١٧٣/٩)، رجال الطبراني رجال الصحيح غير الحسن بن سهل وهو ثقة. وللحديث مع ذلك شواهد عن ابن عباس وابن الزبير وابن عمر والمسور بن مخرمة وغيره، فالحديث صحيح لا شكّ فيه.

ظاهر الآية الكريمة يدلّ على أن كل الأنساب تنقطع يوم القيامة، غير أن الحديث خصّ الآية بأن نسب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا ينقطع، وأنه موصول في الدنيا والآخرة، وهذا ما دعا سيدنا عمر إلى التزوّج بأمّ كلثوم بنت الإمام عليّ رضي الله تعالى عنهم جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [١٠٥]:

{٦١٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، قال: «**تَشْوِيه النار فتَقلُص شَفتُهُ العُلْيا حتى تَبْلُغَ وَسطَ رأسِهِ، وتَسْتَرْخِي شفتُه السُّفْلَى حتى تبلُغَ سُرَّته**».

رواه أحمد (٨٨/٣)، والترمذي (٢٩٧٠)، والحاكم (٣٩٥/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم ووافقه الذهبي، وذلك لشاهد له عن ابن مسعود أورده النور (٧٣/٧) برواية كبير الطبراني (٩١٢١) وقال: رجاله ثقات. ولا يضرّ انقطاعه. تَقْلُصُ أي: ترتفع وتنزوي.

قوله: كالحون أي: عابسون قد بدت أسنانهم، وتقلّصتْ شفاهُهُم أي: انزوت وارتفعت، وهذا بعض من مشاهد عذاب الكفار وصفاتهم في جهنم، أعاذنا الله تعالى منها، آمين.

وبهذا تمّت سورة المؤمنون والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أبد الآبدين.

سورة النـــور

هي سورة عظيمة من السور المدنية التي اهتمّت بالحديث عن أحكام الأسرة وشؤون النساء وذوات البيوت، وذكرت لهن من الأحكام ما لم يذكر في غيرها، وهي أربع وستون آية.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [٢]:

{٦١٦} ـ عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله تعالى عنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أنشُدك إلاّ قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصْم الآخر، وهو أفْقَهُ منه: نعم، واقضِ بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قل**»، فقال: إنّ ابني كان عَسِيفاً على هذا، فزَنى بامرأتِهِ وإنّي أُخْبِرْتُ أن على ابْنِي الرجم فافتديتُ منه بمائة شاة وبوليدةٍ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدَ مائةٍ وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده لأقضيَنَّ بينكما بكتاب الله، الوليدةُ والغنمُ ردٌّ عليه وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريبُ عام، اغْدُ يا أُنَيس إلى امرأةِ هذا فإن اعترفت فارْجُمْهَا فغدا عليها، فاعترفت فأمَرَ بها فرُجِمَتْ**».

رواه أحمد (١١٦/٤)، والبخاري (٦٨٢٧/٦٨٢٨، ٦٨٣١)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨)، وأبو داود (٤٤٤٥)، والترمذي (١٤٣٣)، والنسائي في

الكبرى (٤١٤) وفي المجتبى، وابن ماجه (٢٥٤٩) كلّهم في الحدود، ورواه البخاري في الوكالة وفي الشهادات، وفي الشروط وفي الأحكام وفي أخبار الآحاد.

العسيف: هو الأجير، والوليدة: الأَمَة.

وفي الآية نصّ صريح في جلد الزاني والزانية مائة جلدة، وقيدتها السنة بالبكر وزادت تغريب عام، فمن أنكر هذا الحكم فليس من المسلمين في شيء، ومن اعترف به واسْتَبْدَلَهُ بغيره من قوانين البشر كان كافراً ظالماً فاسقاً، كما نطق به القرآن الكريم.

وفي الحديث العمل بخبر الواحد، وأن الاعتراف والإقرار معمول به، وأن المرأة المحصنة إذا زنت ترجم ولا خلاف في ذلك إلا ما أنكره الخوارج.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [٣].

{٦١٧} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كان رجل يقال له: مِرثَدُ بن أبي مِرْثَد وكان رجلاً يحمل الأَسْرَى من مكّة حتى يأتيَ بهم المدينة، قال: وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ بمكة، يقال لها عَناقٌ وكانت صديقَةً له، وأنه كان وعد رجلاً من أُسارى مكة يحتمله قال: فجئتُ حتى انتهيت إلى ظلّ حائطٍ فلما انتهت إليّ عرفتْ، فقالت: مرثد، فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمّ فبِتْ عندنا الليلةَ، قلت: يا عناقُ حرّم الله الزّنا، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحتمل أسرَاءَكُم، قال: فتبعني ثمانيةٌ، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى غارٍ أو كهف فدخلت فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فطلّ بولهم على رأسي، وعمَاهُم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعتُ إلى صاحبي، فحملتُه وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيتُ إلى الإذْخِر، ففكَكْتُ عنه أكْبُلَه، فجعلت أحمِلُه ويُعينُني حتى قدمتُ المدينة، فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله أنكِحُ عناقاً

ـ مرتين ـ فأمسك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يرد عليَّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ الآية، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا مرثد الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فلا تنكحها**».

رواه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي في التفسير (٢٩٧١) بتهذيبي، والنسائي في المجتبى (٣٢٢٨)، وابن أبي حاتم (٢٥٢٦/٨)، والحاكم (١٦٦/٢)، والبيهقي (٥٣/٧)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله طريق آخر مختصراً، وسمّيت المرأة أم مهزول رواه أحمد (١٥٩/٢، ٢٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤١٥/٦)، وابن أبي حاتم (٢٥٢٥/٨)، والحاكم (١٥٩/٢، ٢٢٥) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: أكبله ـ بضم الباء وفتح اللام ـ: جمع كبل وهو القيد.

وفي الآية والحديث دليل على تحريم نكاح الزانية، وأن كل جنس يرغب في جنسه، فالزاني لا يرغب إلا في زانية مثله أو مشركة، وكذا العكس، وتأتي بقية في كتاب النكاح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ إلخ:

{٦١٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هلالَ بن أُمَيّة قذف امرأته عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بشَريك بن سَحْماء، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**البيّنةُ وإلا حدٌّ في ظهرك**»، قال: فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلنّ في أمري ما يُبَرِّئُ ظهري من الحدّ، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فقرأ إلى أن بلغ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾، قال: فانصرف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأرسل إليهما فجاءا، فقام هلالُ بن أمية فشهد والنبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله يعلمُ أن أحدَهُما كاذبٌ، فهل منكما تائبٌ**»؟ ثم قامت فشهدتْ، فلما كانت عند الخامسة: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، قالوا لها: إنها موجبة، فقال ابن عباس: فَتَلَكَّأت ونكَسَتْ حتى ظننا أن ستترجع، فقالت: لا أَفْضَحُ قومي سائرَ اليوم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أبْصِرُوها فإن جاءَتْ به أكْحَلَ العَيْنَين سابغ الأَلْيَتَيْنِ خدلَّج الساقين فهو لِشَرِيك بن سحْماء**»، فجاءت به كذلك، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لولاَ ما مَضَى مِنْ كِتَابِ الله لكانَ لَنا ولَها شَأْنٌ**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٦٥، ٦٦) وفي اللعان، وأبو داود (٢٢٥٤، ٢٢٥٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٣)، وابن ماجه (٢٠٦٧) وغيرهم، وقصة عويمر العجلاني تأتي في النكاح إن شاء الله تعالى.

قوله: سابغ الاليتين أي: عظيم الفخذين، وقوله: خدلَّج ـ بفتحات مع تشديد اللام ـ أي: عظيم الساقين، وقوله: فتلكّأت ـ بفتحات مع تشديد الكاف ـ أي: وقفت وتباطأتْ أن تُلاعِنَ.

وفي الآية مع الحديث بيان حكم اللعان وهو أن يقذف الرجل زوجته بالزنا ولا يجد من يشهد له، فيرفع أمره إلى الحاكم الإسلامي، فيأمره بأن يقول: أشهد بالله إني لصادق، يقول ذلك أربع مرات ويختم في الخامسة بقوله: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإن صدقته رجمت بالحجارة، وإن كذبته حلفت هي الأخرى أربع مرات قائلة: أشهد بالله أني لصادقة وتقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم يفرق بينهما فلا يجتمعان أبداً، ويلحق الولد بأمّه ترثه ويرثها... ويأتي مزيد لهذا في اللعان من النكاح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٦٦٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قالت: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهنّ خرج سهمُها خرج بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعدما نزل الحجابُ، فأنا أُحْمَل في هَوْدَجي وأنزلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غزوته تلك وقَفَل ودَنَوْنا من المدينة فأقبلت، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى إذا جاوزت الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي فإذا عقدٌ لي من جَزْع أظفارٍ قد انقطع، فالتمستُ عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحّلون لي فاحْتَمَلُوا هودجي فرحّلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يُثْقِلْهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العَلَقة من الطعام، فلم يستنكر القومُ خفةَ الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثةَ السنّ فبعثوا الجَمَل وساروا، فوجدت عِقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيب، فأمَمْتُ منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمِي ثم الذَّكْوَاني من وراء الجيش، فأدْلَجَ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخَمَّرْتُ وجهي بجلبابي والله ما كلّمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة، غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطىء على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغِرينَ في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولّى الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشْتَكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيسلّم ثم يقول: «كيف تِيكُمْ»؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت

بعدما نَقَهْتُ، فخرجت مع أمّ مِسْطَح قِبَل المناصع وهو مُتَبَرَّزُنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمرُنا أمر العرب الأُول في التبرّز قِبَل الغائط، فكنّا نتأذّى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأمّ مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبدمناف وأمّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأمّ مسطح قِبَل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مِرْطِها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بِئْسَ ما قلت، أتسبّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنتاهُ أوَ لم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، قالت: فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ تعني سلّم ـ ثم قال: **«كيف تيكم»**؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما؟ قالت: فأذن لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فجئت أبوي فقلت لأُمّي: يا أُمّتاه ما يتحدّث الناس؟ قالت: يا بنيّة هوّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله أوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عـلـيّ بن أبي طالب، وأُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهم حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أُسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الودّ، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وأن تسأل الجارية تَصْدُقك، قال: فدعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بريرة، فقال: **«أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك»**؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحقّ إن رأيت عليها أمراً أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاستعذر

يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو على المنبر: **«يا معشر المسلمين مَن يَعْذِرُني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»**، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعْذِرُك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملتْه الحَمِيَّةُ فقال لسعد: كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أُسَيْدُ بن حُضَيْر وهو ابن عمّ سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنّان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه، في شأننا، قالت: فتشهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين جلس ثم قال: **«أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»**. قالت: فلما قضى مقالته قلص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقلت لأُمّي: أجيبي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم، قالت: قلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني منه بريئة لا تصدّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدّقُنّني والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، قالت: ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فِيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في النوم رؤيا يبرّئني الله بها، قالت: فوالله ما راح رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدر مثل الجُمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثِقَل القول الذي ينزل عليه، قالت: لما سُرِّيَ عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُرِّي عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلّم بها: **«يا عائشة، أمّا الله عزّ وجلّ فقد برّأك»**، فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله عزّ وجلّ، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ العشر الآيات كلّها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثالة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: **«يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ؟»** فقالت: يا رسول الله، أَحْمِي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فعصمها الله بالورع وصفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

رواه أحمد (١٩٤/٦، ١٩٨)، والبخاري في التفسير (٦٨/١٠، ٩٥) وفي الشهادات وفي الجهاد رقم (٢٨٧٩)، وفي المغازي (٤١٤١)، وفي التوحيد (٧٥٠٠) وفي مواضع، ومسلم في التوبة (١٠٢/١٧، ١١٤)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٣٦٧/٦، ٤١٥، ٤١٨) وغيرهم.

حادث الإفك من أعظم الأحداث وأخطرها التي حصلت أيام النبوّة والذي أثاره قائد المنافقين اللعين عبدالله بن أُبيّ بن سلول في جانب السيدة الطاهرة العفيفة النزيهة مولاتنا عائشة حبيبة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وزوجه في الدنيا والآخرة رضي الله تعالى عنها، فقذفها بصفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنه، وأذاع ذلك بين الناس، ووقعت بسبب ذلك فتنة بين صفوف الصحابة حتى كادوا يقتتلون لولا حكمة الرسول الأعظم وسياسته الرشيدة صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتأخر نزول الوحي، ثم جاءت البشارة العظيمة بتبرئة السيدة مما رُمِيَتْ به من عند الله عزّ وجلّ، فأنزل في طهارتها عشر آيات كما في هذه الرواية، وآخرها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي رواية آخرها: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إلخ، وعددها ثلاث عشرة آية. وجاء في رواية ثالثة آخرها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وعددها من أول القصة إلى هنا خمس عشرة آية.

ولا اختلاف في ذلك، فكلٌّ حدَّث بما بلغه وظاهر سياق القرآن في القصة أن آخرها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لأن الإشارة جاءت للطيبين والطيبات... وهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وزوجه عائشة، وأبوها الصديق وزوجته وصفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنهم، وهم الذين أصابهم الطعن في أعراضهم، فأخبر الله تعالى عنهم بأنهم مبرّؤون مما قيل فيهم.

{٦٣٠} ـ وعن ابن أبي مُلَيْكَة قال: استأذن ابن عباس على عائشة رضي الله تعالى عنها قبل موتها وهي مَغْلُوبَةٌ قالت: أخشى أن يُثْنِيَ عليَّ، فقيل: ابنُ عم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن وجوهِ المسلمين، قالت: ائذَنُوا له، فقال: كيف تَجِدينَكِ؟ قالت: بخير إن اتقيت، قال: فأنتِ بخير إن شاء الله تعالى زوجةُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولم ينكح بكراً غيرك، ونزل عذرُكِ من السماء، ودخل ابن الزبير خلافه فقالت: دخل ابن عباس فأثنى عليّ، وودت أني كنت نسياً منسياً. وفي رواية: وأنزل الله براءتك من فوق سبع سمٰوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار.

رواه أحمد والبخاري في التفسير (١٠/١٠٠)، وفي فضائل عائشة من المناقب.

{٦٣١} ـ وعن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة رضي الله تعالى عنها، فشَبَّبَ وقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ بِرَيْبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحومِ الغَوَافِلِ

قالت عائشة: لست كذلك، قلتُ: تدَعِينَ مثلَ هذا يدخل عليكِ وقد أنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فقالت: وأي عذاب أشدّ من العَمَى؟ قالت: وكان يردُّ عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. وفي رواية: إنه كان يُنافح أو يُهَاجِي عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في المغازي وفي التفسير (١٠/١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

قوله في الحديث الأوّل: وهي مغلوبة، يعني: كانت في سياق الموت. وقول مسروق: فتشبب هو بباءين مع فتحهما وتشديد الأُولى، يقال: شبب الشاعر بفلانة إذا عرَّضَ بحبها وذكر حسنها وهو التغزّل، والمراد ترقيق الشعر بذكر النساء، وقد يطلق على إنشاد الشعر وإنشائه

(٢٣١١)، والنسائي في الكبرى (٤١٩/٦)، والحاكم (٣٩٧/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

البغاء هو الزنا وكان أهل الجاهلية يكرهون إماءهم على الزّنا طلباً لما يَكْتَسِبْنَه من الأُجور، فنهى الله تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾:

{٦٢٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: يَرحمُ الله نساء المهاجرات الأُول لمّا أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُروطهنّ فاخْتَمَرْنَ به، وفي رواية: أخذن أُزُرهُنّ فشَقَقْنَها مِن قِبَل الحواشي فاختمرن بها.

رواه البخاري في تفسير سورة النور (١٠٦/١٠)، وأبو داود (٤١٠٢).

قال الحافظ في الفتح على قولها: فاختمرن أي: غطّين وجوههنّ، وصفة ذلك أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر وهو التقنّع.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [٥٥]:

{٦٢٦} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً»**، ثم تكلّم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بكلمة خفيتْ عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ فقال: **«كلهم من قريش»**، وفي رواية: **«يكون من بعدي اثنا عشر أميراً»**، وفي رواية ثالثة: **«لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة»**، فكبر الناس وضجوا وفي رواية رابعة: **«إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»**، وفي رواية خامسة: **«لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»**.

رواه أحمد (٥/٥٢، ٩٠، ٩٢، ١٠٨)، والبخاري في الأحكام (١٦/٣٣٨، ٣٣٩)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣)، وأبو داود في المهدي (٤٢٧٩، ٤٢٨٠)، والترمذي في الفتن (٢٠٥٣)، وابن حبان (١٥/٤٣، ٤٤، ٤٥)، وأبو يعلى (٦/٢٨٢) وغيرهم من طرق وألفاظ واللفظ الأوّل للبخاري ومسلم وابن حبان، والثاني لأبي داود، والباقي لمسلم.

هذه الروايات تدلّ بمجموعها على أمرين اثنين، الأول: أن دين الإسلام لا يزال قائماً حتى يأتي أمر الله وهو اضمحلال الإسلام بموت المؤمنين ورفع القرآن وسيبقى كذلك متمثلاً في طائفة منصورة لا يضرّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم...

الثاني: لا بد وأن يكون في هذه الأُمّة اثنا عشر خليفة يلون أمر الناس ويقومون بشؤونهم العامّة كلّهم من قريش، وبهم وفي أيامهم يكون أمر الدين عزيزاً منيعاً، هذا ظاهر الحديث برواياته، وقد تكلّم الناس في هؤلاء الخلفاء بعد إجماع أهل السنّة والحق على أنهم خلفاء وأمراء في الحكم والسلطة خلافاً لما يزعمه الشيعة الإمامية من أن المراد بهم أئمتهم المعصومون، فإن هذا يخالف ظاهر نص الحديث ويخالف الواقع، فإن أولئك الأئمة لم يكونوا ذوي سلطة وحكم غير الإمام عليّ والسبط الحسن عليهما السلام، ثم اختلف أهل السنّة هل تقدم جميعهم أم هم مفرّقون في الأُمّة، وهذا الأخير هو الصحيح، وكان منهم الخلفاء الأربعة والحسن السبط وعمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنهم، وباقيهم مفرّقون في الأُمّة آخرهم المهدي رضي الله تعالى عنه.

{٦٢٧} ـ وعن سَفِينة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الخلافة في أُمّتي ثلاثون سنةً، ثم تكونُ مُلْكاً عَضُوداً**»، ثم قال سفينة: أمْسِك خلافة أبي بكر، وخلافةَ عمر، وخلافةَ عثمان، ثم قال: أمْسِك خلافة عَلي، فوجدناها ثلاثين سنة. قال سعيد:

فقلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: كذبوا بنور الزرقاء هم ملوك من شرّ الملوك.

رواه أحمد (٥/٢٢٠)، وأبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٠٥٥) في الفتن وسنده حسن.

في الحديث أن الخلافة التي كانت على نهج النبوّة متوالية هي خلافة الأربعة رضي الله تعالى عنهم، وفي عصر هؤلاء انتشر الإسلام، وفتحت الأقاليم والأمصار، وكسرت شوكة العملاقين كسرى وقيصر، وفي ذلك العصر مكّن الله للمسلمين دينهم الذي ارتضاه لهم وصدقهم وعده كما في الآية الكريمة.

وبهذا انتهت سورة النور. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

سورة الفرقان

ومنها إلى سورة الأحزاب كلهنّ مكيات وهن ثمان سور متواليات وهي سبع وسبعون آية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [٣٣]:

{٦٢٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أنزل القرآن جملة إلى السماء في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ولا يأتونك بمثل إلا جئتك بالحق وأحسن تفسيراً، وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٢١)، والحاكم (٢/٢٢٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

لا خلاف أن نزول القرآن جملة واحدة كان في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجماً إلى الأرض في ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة بمكة، وعشر سنة بالمدينة، وقول ابن عباس هنا في عشرين سنة مؤوّل ويأتي مزيد في سورة القدر. وتقدم مثله في المقدمة لهذا التفسير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ إلخ أي: ولا يأتيك هؤلاء المعاندون بحجة أو شبهة للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك بالحق الواضح، والنور الساطع، لتدفع به باطلهم، وأحسن تفسيراً أي: أحسن بياناً وتفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [٣٤]:

{٦٢٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله كيف يُحشرُ الناس على وجُوههم؟ قال: «**إن الذي أمْشاهم على أقْدامِهِم قادر أن يُمْشِيَهُمْ على وجوههم**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٠٩)، وفي الرقاق (١٤/١٧١)، ومسلم في صفة جهنّم رقم (٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٠)، وانظر ما سبق في الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ إلخ.

في الآية وفي الحديث أن الله قادر على كل شيء أراده وأنه لا يعجزه شيء مما تستبعده عقولنا الضعيفة ويستحيل في عاداتنا المتعارفة، وأن أمور الآخرة على خلاف حياتنا هذه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [٦٧ ـ ٦٨]:

{٦٣٠} ـ عن عبدالله رضي الله عنه قال: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: أي الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك**»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدَك مخافة أن يَطْعَمَ معك**»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تُزاني حليلَةَ جارِك**»، قال عبدالله: فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ الآية.

رواه البخاري (١٠/١٠٩، ١١١، ١١٢) في التفسير، ومسلم في الإيمان (٢/٨٠) وغيرهما.

{٦٣١} ـ وعن سلمة بن قيس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حجّة الوداع: **«ألا إنما هي أربع، فما أنا بأشحّ عليهن منذ سمعتهنّ من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا»**.

رواه أحمد (٤/٣٣٩، ٣٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢١، ٤٢٢)، والحاكم (٤/٤٥١) بسند صحيح.

النِّدّ ـ بالكسر ـ: هو الشريك والمثيل، والحليلة: الزوجة.

والحديثان مع الآية تدلّ على أن هذه المعاصي هي أكبر الذنوب عند الله تعالى، ولا شكّ في ذلك، وأكبرها وأفحشها الشرك والكفر بالله، ثم الباقي على الترتيب المذكور، غير أنه يجب أن يلاحظ بأن ترك الصلاة ولو صلاة واحدة عن تعمّد حتى يخرج وقتها يلي الشرك بالله تعالى عياذاً به من ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [٧٧]:

{٦٣٢} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدخانُ، والقَمَرُ، والرُّوم، والبَطْشَة، واللِّزام، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١١٣)، ومسلم آخر الكتاب رقم (٢٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٢)، وسيأتي في الدخان وهناك شرحه إن شاء الله تعالى.

وبه تمّت سورة الفرقان. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

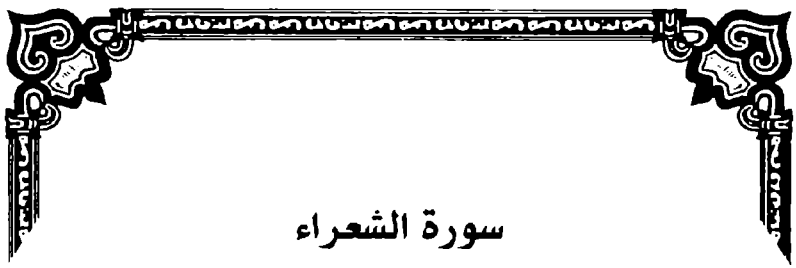

سورة الشعراء

وهي سبع وعشرون ومائتا آية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [٨٧]:

{٦٣٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يلقَى إبراهيم آزرَ يوم القيامة وعلى وجهِ آزر قَترَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا ربّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأي خِزيٍ أخزَى من أبي الأبعدِ، فيقول الله تعالى: إني حرَّمت الجنّة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تَحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذيخٍ مُتلطِّخٍ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

رواه البخاري في الأنبياء رقم (٣٣٥٠) وفي التفسير (١١٦/١٠، ١١٧)، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦).

قوله: ذيخ ـ بكسر الذال المعجمة ثم ياء بعدها خاء معجمة ـ: هو ذكر الضبع.

واختلف العلماء هل آزر كان أبا إبراهيم أم عمّه؟ لما ورد في لغة العرب من إطلاق الأب على العمّ، وفي الآية إخبار من الله عزّ وجلّ بأنه لا يخزي خليله يوم القيامة، والحديث جاء مقيداً لإطلاق الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [٢١٤]:

{٦٣٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي**»؟ قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألِهَذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾.

رواه البخاري في تفسير المسد رقم (٤٩٧١)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨) ويأتي في المسد.

{٦٣٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطّلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وفي رواية: «**غير أن لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبلالَها**».

رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣) وفي المناقب (٣٥٢٧)، وفي التفسير (١٠/١٢٠)، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٣، ٢٠٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٣) وغيرهم.

وفي الباب عن عائشة في مسلم، والترمذي والنسائي، وعن قبيصة بن مخارق عند مسلم والنسائي، وعن أبي موسى عند الترمذي.

قوله: سأبُلُّها ببلالها ـ بكسر الباء من البلال ـ: وهو الماء، ومعناه: أن لكم رحماً معي سأصلها يعني: شفاعةً خاصة... وهو يخصّص قوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً» لأنه محمول على أنه لا يغني عنهم شيئاً بذاته، بل بإذن الله وقدرته وإرادته مع الإيمان.

غير أن قوله في الحديث: يا فاطمة إلخ هو شاذ بل منكر، لأن فاطمة عليها السلام وقت هذا النداء كانت بنت نحو سنة، فكيف يناديها فالله أعلم كيف وقع هذا.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢﴾ [٢٢١، ٢٢٢]:

{٦٣٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«إن الملائكة تَحدَّثُ في العَنان** ـ والعنان: الغمامُ ـ **بالأمرِ في الأرض، فتسْمَعُ الشياطين الكلمةَ فتقُرُّها في أُذُنِ الكاهن كما تقرُّ القارورة فيزيدون معها مائة كذبة»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١١٦/٧) وفي الطب، وستأتي أحاديث أخرى في سورة سبأ.

قوله: فتقرّها ـ بضم التاء وفتحها ـ أي: فتلقيها في أذنه بصوت يسمعه كما يسمع الصوت في القارورة عند إلقاء شيء فيها، والقر: ترديد الكلام في أذن المخاطب. والآية والحديث يدلاّن على أن الشياطين لا تأتي إلا الأفّاكين الكذابين من الكهنة. أما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فبخلاف ذلك، فإنه الصادق الأمين، وقد كانوا يعلمون صدقه وما جربوا عليه كذباً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ [٢٢٤]:

{٦٣٧} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إن الله عز وجلّ قد أنزل في الشعراء ما

أنزل، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن المؤمن يُجاهِد بسَيْفِهِ ولِسانِهِ، والذي نَفْسِي بيده لَكَأَنَّ ما تَرْمُونَهُمْ به نَضْحَ النَّبْلِ**».

رواه أحمد (٤٥٦/٣) ج (٣٨٧/٦) من طريقين، وكلاهما سنده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

{٦٣٨} ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لحِسّان: «**أُهْجُهُم أو هَاجِمهم وجبريل معك**».

رواه البخاري في بدء الخلق (١١٧/٧) وغيره، ومسلم في الفضائل (٤٦/١٦) وغيرهما.

جاء في الشعر أحاديث كثيرة ذمّاً ومدحاً، وسيأتي الكلام على ذلك في الأدب إن شاء الله تعالى. والحديث الأول يدلّ على أن هجاء الكفار بالشعر يعتبر جهاداً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ يعني: أن الشعراء الذين كانوا يهجون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يتبعهم السفهاء الضالون ويروون هجاءَهم وينشرُونه. وقوله: ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي: في كل واد من أودية الشعر يذهبُون على وجوههم حائرين، يقولون ما لا يفعلون، ولما ذمّ الشعراء الأفّاكين الثَّرثارين استَثْنى الصالحين المؤمنين الذين ينتصرون بهجائهم من أولئك الكافرين الظالمين.

وبهذا تمت سورة الشعراء. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

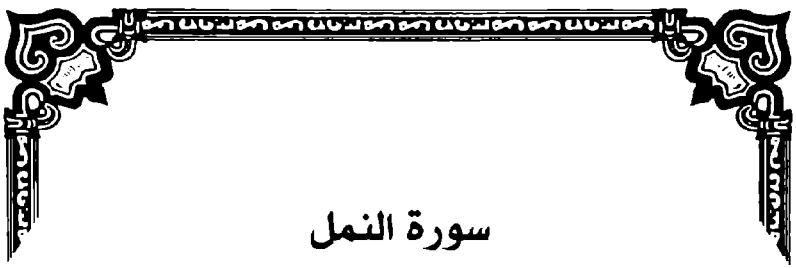

سورة النمل

هي من السور الثلاث اللاتي نزلت بالتوالي، ووضعت في المصحف كذلك، وهي الشعراء، والنمل، والقصص، وآياتها ثلاث وتسعون.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [٦٣]:

{٦٣٩} ـ عن رجل من بلهجيم قال: قلت: يا رسول الله إلامَ تَدْعُو؟ قال: **«أدْعُو إلى الله وحدَه الذي إذا مَسَّكَ ضُرٌّ فدعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْك»**.

رواه أحمد (٥/٦٤، ٣٧٧) ج (٤/٦٥) من طريقين أحدهما سنده صحيح.

وفي الآية مع الحديث بيان فضل الله عزّ وجلّ ولطفه بعباده حيث يستجيب دعوة من التجأ إليه حالةَ الاضطرار ويُغِيثُه بما يستحقّ أن يُغاث به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [٨٢]:

{٦٤٠} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: حفظْتُ من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حديثاً لم أنسه بعدُ، سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إن أوّل الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحى، وأيّتهما كانت قَبْلَ صاحِبَتِها فالأخرى على أثرها قريباً»**.

رواه أحمد (٢/٢٠١)، ومسلم في الفتن رقم (٢٩٤١).

الحديث يدلّ على أن خروج دابة الأرض من أشراط الساعة الكبرى الأُولى، وأنه إذا وقع ووجب العذاب أو غضب الله على الناس أخرج لهم هذه الدابة تكلمهم كما نطقت بذلك الآية الكريمة، وأن خروجها مقرون بطلوع الشمس من مغربها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [٩١]:

{٦٤١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم فتح مكة: **«إن هذا البلد حرَّمَه الله يوم خلقَ السمٰوات والأرضَ، فهو حرام بحرمةِ الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شَوْكَهُ، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يَلْتقطُ لُقَطتَه، إلا مَنْ عرَّفَها، ولا يُخْتَلى خَلاَهَا».**

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الحجّ، وقد تقدم فيه.

البلدة: هي مكة المكرمة حرم الله كسائر منطقة الحرم، وهذا من أعظم فضائل هذه البلدة المقدّسة، لكن أكثر الناس لا يراعون حرمتها لا من ساكنيها ولا من زوّارها والطارئين عليها. وبهذا تمّت سورة النمل، والحمد لله على إفضاله وإحسانه، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وصحبه وحزبه.

سورة القصص

هي ثمان وثمانون آية، وقد امتازت بذكر قصة قارون الطاغية.

قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [٢٨]:

{٦٤٢} ـ وعن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس رضي الله تعالى عنهم: أيّ الأجلين قَضَى مُوسى عليه السلام؟ قال: قضى أكثرَهما وأطيبهما.

رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٤)، وابن جرير (٦٨/٢٠)، وروي مرفوعاً من طرق.

المراد بالأجلين: الثمان أو العشر سنين التي اشرطها على موسى الشيخ في رعاية غنمه مقابل تزوّجه بابنته، فأتمّ موسى عشر سنين.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [٥٤]:

{٦٤٣} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين: عبدٌ أدّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، فذلك يؤتى أجْرَه مرتين، ورجلٌ كانت عِنده جاريةٌ وضِيئةٌ فأدّبها فأحْسَن أدَبها، ثم أعتقها ثم تزوّجها يَبْتَغِي بذلك وجه الله،**

فذلك يُؤتى أجرَه مرتين، ورجلٌ آمن بالكتاب الأول، ثم جاء الكتاب الآخر فآمن به، فذلك يُؤتى أجره مرتين».

رواه البخاري في العلم (٩٧/١) وفي العتق رقم (٢٥٤٤) وفي الجهاد (٣٠١١) وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٤٦) وفي النكاح (٥٠٨٣)، ومسلم في الإيمان رقم (١٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٢/٣) وفي المجتبى، والترمذي (٩٩٧)، وابن ماجه (١٩٥٦) وغيرهم.

في الحديث فضل هؤلاء الأصناف وأنهم يعطون الأجر مرّتين، ومنهم المذكورون في الآية الكريمة من الكتابيين الذين آمنوا بكتابهم ثم بكتابنا. ولا شكّ أن الأُمّة المحمدية ممن لهم السَّبْق في ذلك لإيمانهم بجميع الرسل والكتب بدون تفرقة بين ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [٥٦]:

{٦٤٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعمّه: «**قل: لا إله إلاّ الله أشهدُ لك بها يومَ القيامة**»، قال: لولا أن تُعَيِّرَني بها قريشٌ إنما يَحْمِلُه عليه الجَزَعُ لأقْرَرْتُ بها عَيْنك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

رواه مسلم في الإيمان (٢١٦/١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٨١).

في الحديث بيان معنى الآية الكريمة التي نزلت بسبب عدم إيمان أبي طالب، وفي ذلك دليل على أنه لم ينطق بشهادة الإسلام، وكم كنا نود أن يشهر إسلامه لكن الله هو العليم الحكيم يفعل ما يشاء لا معقّب لحكمه، وقد تقدم شيء من هذا في سورة التوبة، ويأتي تمام الكلام على هذا في السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥]:

{٦٤٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكّة.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٥)، وابن جرير (٢٠/١٢٥).

هذا أصح ما جاء في تفسير الرد إلى المعاد، وانظر باقي الأقوال عند ابن جرير. وقوله: إن الذي فرض عليك القرآن أي: أنزل عليك القرآن.

وبهذا تمت سورة القصص. والحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلم وبارك على حبيبنا محمد وآله الطيّبين وزوجاته الطاهرات وصحابته الأبرار وحزبه الأخيار.

سورة العنكبوت

أياتها تسع وستون، وفيها آية كريمة تبشر المحبّين المشتاقين لله عزّ وجلّ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [٨]:

{٦٤٦} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: أُنزلتْ فيّ أربعُ آيات، فذكر قصته في ذلك. وقالت أمّ سعد: أليس قد أمر الله بالبرّ، والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطْعِمُوها شَجَرُوا فاهَا، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية.

رواه أحمد رقم (١٥٦٧، ١٦١٤)، ومسلم (١٥/١٨٥)، والترمذي (٢٩٨٢) كلاهما في الفضائل، وأبو داود وغيرهم.

شجروا أي: فتحوا فمها. وفي الآية الكريمة وجوب الإحسان إلى الوالدين والبرور بهما وإن كانا كافرين غير أنهما لا يطاعان في غير طاعة الله تعالى. وفي الحديث فضل سعد وقوّة إيمانه وثباته رغم ما كان يعانيه من البلاء وقت هذه القصة مع والدته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [٤٥]:

{٦٤٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن فلاناً يُصَلّي بالليل فإذا أصْبَح سَرَق، فقال: «**سَيَنْهاهُ مَا تَقُولُ**».

رواه أحمد (٤٤٧/٢)، وابن حبان رقم (٢٥٦٠)، والبزار(٧٢٠) وسنده صحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢): ورجاله رجال الصحيح، وله شاهد عند البزار (٧٢١، ٧٢٢) عن جابر برجال ثقات. الآية مع الحديث يدلاّن على أن الصلاة من شأنها أن تنهى صاحبها عن المعاصي وتهذّب أخلاقه، وهو نصّ القرآن والسنّة النبويّة. وإذا وجد من يصلّي ولا ينتهي عن الفواحش، فإنما ذلك لعدم توفر شروط صحة صلاته، وأنها غير معتبرة ولا مقبولة.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية [٤٦]:

{٦٤٨} ـ فيه حديث أبي هريرة: «**لا تُصَدّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذّبُوا ولكن قُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية**»، رواه البخاري وغيره، وقد تقدم في سورة البقرة.

وبهذا تمّت سورة العنكبوت ولله الحمد على توفيقه وإنعامه، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.

سورة الروم

وهي مكية وآياتها ستون، وفيها ذكر تلك المعجزة الخالدة بالإخبار بتغلب الروم على فارس ووقوع ذلك كما أخبرت.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [١ ـ ٥]:

{٦٤٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يَظْهَر أهلُ فارس على الروم لأنهم وإياهم أهلُ الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يَظْهَر الرُّوم على فارس لأنهم أهل الكتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«أما إنهم سيغلبون»**، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين فلم يظهروا فذكروا ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«ألا جعلته إلى دون»**، قال: أراه العشر، قال: قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾، قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر.

رواه أحمد (٢٧٦/١، ٣٠٣)، والترمذي (٢٩٨٥)، والنسائي (٤٢٦/٦) في الكبرى كلاهما في التفسير، والحاكم (٤١٠/٢)، وصححه الترمذي، والحاكم وقال: هذا على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

كان الروم وفارس يتقاتلون دائماً فانتصرت فارس على الروم، ودخلت الشام وغيرها حتى ألجأت قيصر إلى استنبول وحاصروها مدة، فأخبر الله عزّ وجلّ بأن الروم ستغلب فارساً وتهزمها، فبعد بضع سنين نشبت بينهما حرب من جديد، فانتصرت الروم، وانهزمت أمامها فارس وكان ذلك في وقعة بدر عند انتصار المسلمين على كفار قريش، ففرح المسلمون بالنصرين.

وفي الآية معجزة غيبية عظيمة دالّة دلالة قطعية على حقّية القرآن، وأنه كلام الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نبيّ صادق ليس في ذلك شكّ ولا ريب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [٢٧]:

{٦٥٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يقول الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياه فقوله: لن يُعِيدَني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمد الذي لم يلِد ولم يُولَد ولم يَكن له كُفُواً أحد**».

رواه أحمد (٣١٧/٢، ٣٩٣، ٣٩٤)، والبخاري في التفسير رقم (٤٩٧٥، ٤٩٧٤) وفي بدء الخلق (١٠٠/٧)، والنسائي في الكبرى (٣٩٥/٤)، وابن حبان (٥٠٠/١) بالإحسان.

الشتم: هو الوصف بالنقائص، والحديث من الأحاديث القدسية، وفيه بيان حلم الله حيث إنه تعالى خلق بني آدم ورزقهم... وهم يكذّبونه ويشتمونه ومع ذلك فلا يعاجلهم بالعذاب ولا يقطع عنهم رفده.

وفي الآية مع الحديث بيان عظمة الله وقدرته على كل شيء، وأنه سيعيد خلقه من جديد بعد موتهم وتلاشيهم كما بدأهم أول مرة وكل ذلك عنده سهل هيّن.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [٣٠]:

{٦٥١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانِهِ أو يُنَصّرانِهِ أو يُمَجّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهمة جمعاء لا تُحسون فيها من جَدْعاء، ثم يقول:** ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾» إلخ.

رواه البخاري في التفسير (١٣١/١٠)، ومسلم في القدر (١٠٧/١٦، ٢٠٩).

فطرة الله: اختلف العلماء في المراد بالفطرة هنا في الآية والحديث، فقيل: هي ما أخذ الله تعالى عليهم في أصلاب آبائهم، وأن الولادة تقع طبق ذلك حتى يقع التغيير من الأبوين، وقيل معناه: كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به، ويؤيده حديث: «**إني خلقت عبادي حُنَفاء كلّهم، وأنهم أتتهم الشياطينُ فأضَلّتْهُم عن دينهم**» الحديث يأتي في موضعه، وهو في صحيح مسلم. قال النووي: والأصح أن معناه: أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام، فمن كان أبواه أو أحدهما مسلماً استمرّ على الإسلام إلخ.

وقوله في الحديث: بهمة جمعاء أي: مجمعة للأعضاء سالمة لا توجد فيها جدعاء أي: مقطوعة الأذن، ومعناه: كما أن البهيمة تولد كاملة لا نقص فيها، وإنما يحدث الجدع والنقص فيها فيما بعد، كذلك الأولاد يولدون سالمين من الكفر ومبادئه حتى يكفرهم مربّوهم من الآباء وغيرهم بواسطة الشياطين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [٥٢]:

فيه حديثا أبي طلحة وابن عمرو رضي الله تعالى عنهما في قصة القليب قليب بدر، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا فلان بن فلان**»... وجعل ينادي الكفار الملقون في البئر ثم قال لهم: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً**»، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، وتقدم تخريجهما في سورة الأعراف في آية (٤٤)، ففي الحديث دليل على أن الأموات يسمعون كلام الأحياء، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، وهذا قول عامّة العلماء، وفي الحديث الصحيح: «**إن العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولّى عنه أصحابه إنه ليسمعُ قرعَ نِعالهم**»، رواه مسلم (٢٠٣/١٧).

قال ابن كثير: والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم أن الميت يعرف بزيارة الحي ويستبشر، ثم ذكر آثاراً كثيرة عن السلف في ذلك، ثم قال: والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المُسَلَّم الرَّدَّ، إلخ. وراجعه فإن له بقية مهمة. أمّا ما جاء عن مولاتنا عائشة في استدلالها بهذه الآية، فهو فهم لما فهمته رضي الله تعالى عنها؛ لأن المراد بهؤلاء في الآية موتى القلوب من الكفار..

وبهذا تمّ الكلام على تفسير سورة الروم. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

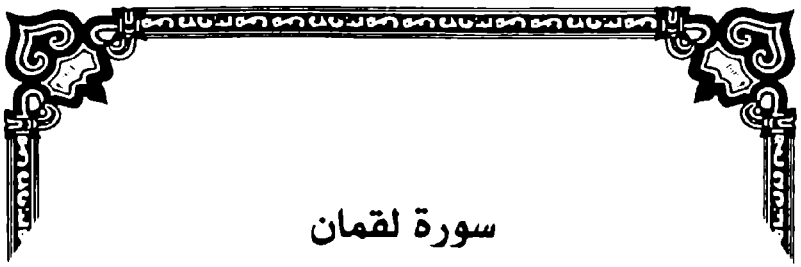

سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون، وامتازت بذكر وصايا لقمان الحكيم لولده، تلك الوصايا الرائقة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٥]:

{٦٥٢} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تَبِيعُوا القَيْنَاتِ ولا تَشْتَرُوهُنَّ ولا تُعَلِّمُوهُنَّ، ولا خَيرَ في تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وثَمَنُهُنَّ حرامٌ، وفي مثل هذا أنزلت هذه الآية:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾» الآية.

رواه أحمد (٥/٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٦٨)، والحميدي (٩١٠)، والطيالسي (١١٣٤)، والترمذي في التفسير (٢٩٨٨)، وابن ماجه (٢١٦٨)، والطبراني في الكبير (٨/٢١٢)، والبيهقي (٦/١٤)، وهو حديث حسن لطرقه، ومن شواهده ما أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٣٠٩)، وابن جرير (٢١/٦١)، والحاكم (٢/٤١١)، والبيهقي (١٠/٢٢٣) عن ابن مسعود أنه سُئل عن هذه الآية، فقال: هو الغناء والذي لا إله إلاّ هو. يردّدها ثلاث مرات. وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. ومنها ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٦٥)، وابن جرير (٢١/٦١)، والبيهقي (١٠/٢٢١) عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في الغناء وأشباهه، وسنده صحيح أيضاً ولا يضرّ هنا عطاء بن السائب.

القينات جمع قينة ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ: هي المغنية، والحديث يدلّ على أن الآية الكريمة نزلت في الغناء، وأنه لا يجوز بيع الجواري المغنيات ولا شراؤهنّ إن وجدن، وفي ضمن ذلك تحريم تأجير المغنيات مطلقاً كما يفعله الناس اليوم؛ كما يدلّ على تحريم سماع أغاني النساء لما في ذلك من إثارة الشهوة الجنسية وفساد القلب وفتنته، والغناء رُقيةُ الزنا كما يقال، وقد زاغ وافترى من أباح سماع أغاني النساء على الإطلاق، فإن من أباح ذلك فقد أباح زنى السمع، عافانا الله من ذلك، آمين.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣]:

{٦٥٣} ـ عن عبيدالله رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقالوا: أيّنا لم يلبِسْ إيمانه بظلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»**.

رواه الشيخان: وقد تقدم في سورة الأنعام، فهناك تخريجه وبيان معناه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآية [٣٤]:

{٦٥٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهنّ إلاّ الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾»** الآية.

رواه أحمد (٢/٢٤، ٥٢، ٥٨، ١٢٢)، والبخاري في مواضع، وقد تقدم في سورة الأنعام والإحالة إلى هنا، ونحوه عن أبي هريرة في حديث جبريل رواه الشيخان وتقدم في الإيمان، وفي الباب عن جماعة.

مفاتيح: جمع مفتاح وهو آلة الفتح، وهذا على الاستعارة، فالأُمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيّبات، فاستعير المفاتيح لها.

والآية وما في الباب يدلّ على أن خزائن المغيّبات الخفية لا يعلمها إلاّ الله تعالى، فهو المنفرد بعلمها جملةً وتفصيلاً، غير أنه يجب أن يعلم أن العلم المنفي هنا، وفي الأنعام وفي قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إنما هو العلم بالذات، أما بواسطة تعليم الله عزّ وجلّ، فغير مراد قطعاً لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وإذا ثبت أن الرسل قد يطلعهم الله على بعض غيبه وكذا بعض ملائكته، كما ثبت في الأحاديث الكثيرة، كذلك قد يطلع بعض عباده الصالحين على ذلك بالإلهام والمكاشفة إكراماً لهم، كما تواتر ذلك عن الكثير من الصالحين. وقد ثبت الآن في الطب الحديث الاطّلاع على ما في رحم المرأة من الجنين ذكراً أم أنثى، كما ثبت بواسطة علم الأرصاد الجوية معرفة نزول المطر ومجيء الريح في مستقبل الأيام. وبهذا نعلم قطعاً أن نفي علم الخمس ونحوها إنما هو لمن يدّعيها بنفسه، أمّا ما كان بإعلام الله عزّ وجلّ على أيّ وجهٍ كان فلا مانع من ذلك، فاعرف هذا ليذهب عنك كثير من الإشكالات.

وما قلناه ليس ببدع منّا، بل قاله العلماء قبلنا، ومنهم الإمام أبو الفداء بن كثير، فقد قال رحمه الله تعالى في تفسير سورة لقمان عند هذه الآية ما نصّه: هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلاّ بعد إعلامه تعالى بها... ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه... وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه إلاّ الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون ومن شاء الله من خلقه... وللحافظ في الفتح هنا كلام جيد.

وبهذا تمّت سورة لقمان. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

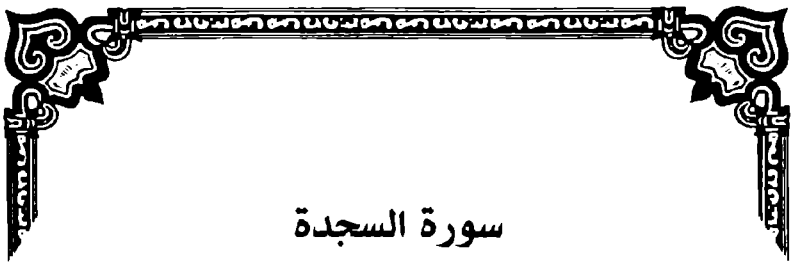

سورة السجدة

هذه السورة الكريمة هي خاتمة الثمان المكّيات المتواليات، وآياتها ثلاثون.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [١ ـ ٢]:

{٦٥٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان.

رواه البخاري (٢٨/٣)، ومسلم (١٦٨/٦) كلاهما في الجمعة، ورواه البخاري في مواضع، وجاء مثله عن ابن عباس رواه مسلم (١٦٨/٦) وغيره.

{٦٥٦} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا ينامُ حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١ ـ ٢] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

رواه أحمد (٣٤٠/٣)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٧٠٠)، وفي الدعوات (٣١٨٤) بتهذيبي، والحاكم (٤١٢/٢) بسند صحيح.

في الحديثين مزية اختصاص لهذه السورة، ففيهما سنية تعاهدها بأن تقرأ مع سورة الملك كل ليلة، وأن يصلّى بها صبح الجمعة مع سورة الإنسان.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [١٦ ـ ١٧]:

{٦٥٧} ـ فيه حديث معاذ الطويل، وفيه: وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

رواه أحمد والترمذي وغيرهما، ويأتي مطوّلاً في موضعه.

وقوله: تتجافى أي: تتباعد عن مواضع النوم قياماً لصلاة الليل والتهجّد، خوفاً من عذاب الله ورجاء في رحمته.

{٦٥٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يبلُغ به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بشر، وتصديقُ ذلك في كتاب الله:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾»، وفي رواية: «**اقرؤوا إن شئتم**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٣٤) وغيره، ومسلم في الجنّة رقم (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٠، ٣٠٧٥)، وفي الباب عن المغيرة يأتي في صفة الجنّة إن شاء الله تعالى.

وفي الحديث كالآية بشارة للمتهجدين بالليل، وأن الله عزّ وجلّ أعدّ لهم في الجنّة ما لا يخطر على بال ولا سمعت به أذن، ولا رأته عين من أنواع النعيم مما هو فوق مستوى عقولنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [٢١]:

{٦٥٩} ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ الآية، قال: مصائب الدنيا والروم والبطشة أو الدخان.

رواه مسلم في صفة القيامة رقم (٢٧٩٩).

في الآية والحديث أن للكافرين عذاباً أدنى، هو بلايا الحياة وما يشابهها وعذاباً أكبر هو المعدّ لهم في جهنّم، أعاذنا الله تعالى منه، أمين.

وبه تمّ الكلام على سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، والحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

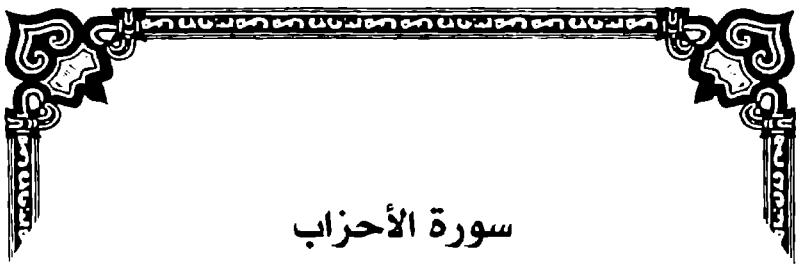

سورة الأحزاب

السورة الكريمة مدنية، وقد جاءت مفردة خلال العديد من السور المكّية، فقد تقدم قبلها ثمان سور مكّيات على التوالي، كما جاء بعدها ثلاث عشرة سورة على التتابع كلها مكّيات بدءاً من سورة سبأ إلى نهاية سورة الأحقاف.

وآيات هذه السورة ثلاث وسبعون:

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [٤]:

{٦٦٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: أرأيت قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، ما عنى بذلك؟ قال: قام نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً يصلّي فخطر خَطْرةً، فقال المنافقون الذين يُصَلُّون معه: ألا تَرَوْن أن له قلْبين قلباً معكم وقلباً معهم، فأنزل الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ﴾ الآية.

رواه أحمد رقم (٢٤١٠)، والترمذي (٢٩٩٢)، وابن جرير (١١٨/٢١)، وابن أبي حاتم (٣١١٢/٩)، والحاكم (٤١٥/٢)، وحسّنه الترمذي، وصححه الحاكم وتبعه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند، وفيه قابوس بن أبي ظبيان مختلف فيه، وباقي رجاله رجال الصحيح.

نفت الآية الكريمة أن يكون للإنسان قلبان في جوفه، كما رمى المنافقون بذلك نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [٥]:

{٦٦١} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيدَ بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

رواه البخاري (١٠/١٣٦)، ومسلم في الفضائل رقم (٣٢٠٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٠١) بتهذيبي.

في الآية كالحديث إبطال ما كان عند الجاهلية من إلحاق الأولاد بغير آبائهم كما هو حال الناس اليوم، بل زاد أهل العصر إدراجهم معهم في الوثائق الرسمية، فيصبحون كالأولاد الشرعيّين ينسبون إليهم ويتوارثون فيما بينهم، وهذا منكر أيّ منكر لا يجوز الإقدام عليه ولا إقراره.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [٦]:

{٦٦٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولَى الناس به في الدُّنيا والآخرة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن تركَ مالاً فَلْيَرِثْه عَصَبَتُه من كانوا، فإن تركَ دَيْناً أو ضَياعاً فَلْيأتِني فأنا مَوْلاهُ»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٣٥) وفي الفرائض (١٥/١٠) وفي الكفالة وفي الاستقراض، ومسلم في الفرائض رقم (١٦١٩).

قوله: «النبيّ أولى بالمؤمنين» إلخ، معناه: أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أحقّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم، وأنه أرأف بهم، وأعطف عليهم، ولذلك كان حكمه أنفذ، وطاعته أوجب. والحديث يدلّ على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يتكفّل بديون المديونين، والقيام بالضائعين الذين لا مال لهم ولا مموّل، والمراد بالعصبة في الحديث: الورثة مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [٩]:

{٦٦٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقول: «**لا إلـه إلاّ الله وحدَه أعزَّ جُنْدَه، ونصَر عبدَه، وغَلَبَ الأحزابَ وَحْدَه فلا شيء بعدَه**».

رواه البخاري في المغازي (٤١١٤)، ومسلم في الذكر (٢٧٢٤).

{٦٦٤} ـ وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: دعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الأحزاب: «**اللّهمّ مُنزلَ الكِتابَ، سَرِيعَ الحساب، اهزم الأحزابَ وَزَلْزِلْهُم**».

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١٠) وغيره، ومسلم رقم (١٧٤٢)، والترمذي (١٥٣٩) كلاهما في الجهاد، وأبو داود (٢٦٣١)، والنسائي في الكبرى (٥/١٨٨) و(٦/١٥٤)، وابن ماجه (٢٧٩٦).

الأحزاب: هم الكفار الذين تحزّبوا واجتمعوا ضدّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه وهاجموه في المدينة وحاصروه، ويأتي الكلام على غزوة الأحزاب في الغزوات إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ [٢٣]:

{٦٦٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال عَمّي أنس بن النضر سُمّيتُ به، لم يشهد بدراً مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فكَبُر عليه، فقال: أول مشهد قد شهده رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غِبْتُ عنه أنا، والله لئن أراني الله مَشْهَداً مَعَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليَرَيَنَّ الله ما أصنع، قال: فهابَ أن يقول غيرَها، فشهد مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم أُحد من العام

القابل، فاستقبله سعدُ بن معاذ فقال: يا أبا عَمْرو أيْنَ؟ قال: وَاهًا لِريحُ الجنّة أجدُها دون أُحد، فقاتل حتى قُتل، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربَة وطَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ، قالت عمّتي الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببَنَانِهِ، ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٣)، والترمذي (٢٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٣٠)، وابن جرير (٢١/١٤٦، ١٤٧) وغيرهم، ويأتي بقيته في مواضع متفرّقة.

وفي الحديث فضل أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه، وأنه ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [٢٨ ـ ٢٩]:

{٦٦٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما أُمِرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بِتَخْيير أزواجِهِ بدَأ بي، فقال: **«يا عائشة، إني ذَاكِرٌ لكِ أمراً فلا عليك أن لا تَعْجَلي حتى تستأمري أبَوَيْكِ»**، قالت: وقد علم أن أبوايَ لم يكونا ليأْمُراني بفراقِهِ، قالت: ثم قال: **«إن الله قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾**»**، قلت: في أي هذا أستأمر أبوَيَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مثلَ ما فعلتُ.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٣٨، ١٣٩، ١٤٠)، ومسلم في النكاح (١٠/٧٨)، والترمذي (٢٩٩٦) بتهذيبي، ويأتي حديث جابر في ذلك أيضاً في كتاب النكاح إن شاء الله تعالى.

وفي الحديث فضل أُمّهات المؤمنين وخاصة عائشة حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا ومتاعها. وفي الآية بيان شرف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكرمه على الله حيث انتصر له، وأمره أن يأمر نساءه بالتخيير بين الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [٣٢]:

{٦٦٧} ـ عن عُمَر بن أبي سلَمَة رضي الله تعالى عنهما ربيبِ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: لما نزلت هذه الآية على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ إلخ، في بيت أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام، فجلَّلَهُم بكساءٍ، وعليّ عليه السلام خلف ظَهْره فجلَّله بكِسَاء، ثم قال: «**اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً**»، قالت أُمّ سلمة: وأنا معهم يا نبيّ الله؟ قال: «**أنتِ على مكانك وأنتِ على خير**».

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٩٧) وفي المناقب، والحديث صحيح لشواهده عن أُمّ سلمة رواه الحاكم (٤١٦/٢) وسنده صحيح، وعن واثلة رواه الحاكم (٤١٦/٢) وصححهما معاً ووافقه الذهبي.

«جلّلهم» أي: غطاهم بالكساء، قوله: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي»، لا شكّ في هذا وأنهم أخصّ آله وأنهم داخلون في الآية الكريمة وأن الطهارة من الرجس... تشملهم، وانظر «الأنوار الباهرة» لكاتبه، ففيه ذكر فضائل أهل البيت...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ **الآية** [٣٥]:

{٦٦٨} ـ عن أُمّ عِمارة الأنصارية رضي الله تعالى عنها أنها أتت النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت: ما أرى كُلَّ شَيْءٍ إلا للرِّجَال، وما أرَى النِّساء يُذْكَرْنَ بشيءٍ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

رواه الترمذي (٣٠٠٢)، وابن جرير (٨/٢٢)، والطبراني في الكبير (٣١/٢٥، ٣٢) ورجاله ثقات، وشريك لا يضرّ، فإن للحديث شواهد أقواها حديث أمّ سلمة بنحوه رواه أحمد (٣٠١/٦)، والنسائي في الكبرى (٤٣١/٦)، وابن جرير (٨/٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٦٣/٢٣)، وورد أيضاً عن ابن عباس وغيره، فالحديث صحيح.

في الحديث دليل على فضل الرجال على النساء، وأنهم الأصل في كل شيء، والنساء إنما هنّ لهم بالتبعية، ولذلك خصّ الرجال بأُمور كثيرة اجتماعية أعفى منها النساء، وقد شعر بذلك النساء الصحابيّات رضي الله تعالى عنهنّ.

والآية الكريمة تدلّ على الأجر العظيم لمن اتّصف بهذه الصفات المذكورة فيها، وهي عشر.

{٦٦٩} ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من اسْتَيْقَظَ مِنَ اللّيل وأيْقَظَ امْرَأَته فصَلَّيا ركعتين جميعاً كُتبا لَيلَتَهُما مِن الذَّاكِرين الله كثيراً والذَّاكرات»**.

رواه أبو داود (١٣٠٩، ١٤٥١)، والنسائي وابن ماجه (٣٣٥)، وأبو يعلى (١١١٢)، وابن حبان (٦٤٥) بالموارد، والحاكم (٤١٦/٢)، والبيهقي (٥٠١/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

في الحديث فضل عظيم للمتهجدين، وفيه استحباب حمل الأهل على قيام الليل والتعبّد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [٣٦]:

{٦٧٠} ـ عن قتادة قال: خطب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زينب وهي بنت عمّته وهو يريدها لزيد، فظنّت أنه يُريدُها لِنَفْسِه، فلما علمتْ أنه يريدها لزيد أبتْ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ الآية.

رواه الطبراني في الكبير (٤٥/٢٤)، وابن جرير (١١/٢٢)، قال النور في المجمع (٩٢/٧): رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح.

الآية كالحديث يدلاّن على أنه لا خِيرَة لأحد مع حكم الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقضائهما، فمن رفض ذلك ولم يستسلم فقد ضلّ وزاغ عن طريق الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [٣٧]:

{٦٧١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لو كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآية.

رواه أحمد (١٤١/٦)، والترمذي (٣٠٠٠)، والنسائي (٤٣٢/٦) كلاهما في التفسير، وسنده صحيح، وأصله في التوحيد (١٨٣/١٨) من صحيح البخاري.

ما قالته مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها ظاهر، لأن الإنسان

مجبول على الدفع عن نفسه كل ما يشينه، وكان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بخلاف ذلك؛ فالآية وإن كانت نزلت تخبر بما كان يخفيه في نفسه... فقد بلّغ ذلك ولم يكتمه.

{٦٧٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ الآية، نزلت في شأن زينب بنت جَحْش وزَيْد بنِ حارثة رضي الله تعالى عنهما.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٤٢) وفي التوحيد، والترمذي (٣٠٠٥)، والنسائي (٦/٤٣٢) في التفسير، وفي رواية للترمذي: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ في شأن زينب بنت جحش جاء زيد يشكو فَهَمَّ بطلاقها، فاستأذن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾».

رواه أحمد والحاكم (٢/٤١٧) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وانظر ابن جرير (٢٢، ١٣).

قصة زواج زيد بزينب رضي الله تعالى عنهما وهمُّه بطلاقها، وقول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: أمسك عليك زوجك إلخ، وقع فيها خَبْطٌ وأخطاء فاحشةٌ من بعض من لا يحترم مقام النبوّة، رغم أن الأمر فيها واضح لا خفاء فيه، فهو صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمره في الظاهر بإمساك زوجته وأخْفَى في نفسه ما سيُبْديه الله مما كان قد أوحاه الله من أنها ستكون زوجته إذا طلّقها زيدٌ، وليس في ذلك ما يَخْدِش عصمته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. أمّا ما زعمه بعض قليلي الدين من أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رآها فأعجبته وأخفى في نفسه التزوّج بها إلى آخر ذلك الهراء، هو كلام باطل ساقط لا يليق بمقام النبوّة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ الآية [٣٧]:

{٦٧٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ إلخ، قال: فكانت تَفْتَخِر على نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تقول: زَوَّجَكُنَّ أهْلُوكُنَّ وزوّجني الله من فوق سبع سمٰوات.

رواه البخاري في التوحيد (١٨/١٨٣، ١٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٣) وحسّنه وصححه.

زينب هذه كانت من أُمّهات المؤمنات الصالحات الوَرِعَات، وهذه مَزية لها ليست لغيرها، حيث إن الله زوّجها له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بغير وليّ...

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [٤٥]:

{٦٧٤} ـ عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالى قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه فقلت: أخْبِرْني عن صفة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في التوراة، قال: أجَلْ والله إنّه لَمَوْصُوفٌ في التوراة ببعْض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأُمّيين أنتَ عَبْدي ورسولي سمَّيتُك المُتوكّل ليس بفَظٍّ ولا غَليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يَدْفعُ السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويَصْفَحُ ويغفرُ، ولن يقبِضَهُ الله حتى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجاء بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله، فيفتحُ به أعْيُنا عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً.

رواه أحمد (٢/١٧٤)، والبخاري في البيوع (٥/٢٤٦)، وفي تفسير سورة الفتح (١٠/٢٠٧، ٢٠٨)، وفي الأدب المفرد (٢٤٦).

قوله: «حرزاً للأميين» أي: حِصْناً للعَرَب، وقوله: «صَخَّاب» ويقال بالسين: هو الرافع صوته، وقوله: «الملة العوجاء» يعني: دينَ إبراهيم عليه السلام الذي غيَّرهُ العربُ وعَوَّجُوه، فبعث هذا الرسول العظيم ليقيمه ويُرْجِعَه إلى أصله الخالِص.

والحديث يدلّ على موافقة التوراة للقرآن في بعض صفات النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ككونه رسولاً وشاهداً ومبشّراً ونذيراً، فيا خسارة من عرفه وكفر به من اليهود والنصارى وغيرهم، وباقي أبحاث الحديث تأتي في السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [٥١]:

{٦٧٥} ـ قال عروة رحمه الله تعالى: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهَبْن أنفُسَهُن للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما تَسْتَحيي المرأة أن تَهَب نفسَها للرجل، فلمّا نزلت: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾، قلت: يا رسول الله ما أرى ربَّك إلا يُسارعُ في هواك.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٤٤، ١٤٥) وفي النكاح، ومسلم في الرضاع رقم (١٤٦٤)، وأبو داود (٢١٣٩)، والنسائي رقم (٣١٩٩) كلاهما في النكاح، ويأتي هناك بألفاظ أُخر.

في هذه الآية الكريمة خصيصة لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، حيث أباح الله له أن يعامل زوجاته كيف يشاء يمسك منهنّ من يشاء، ويطلّق من يشاء، ويجامع من يشاء، ويترك من يشاء، واختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات من النساء اللائي عنده أنه مخيّر فيهنّ إن شاء قسم، وإن شاء لم يقسم. قال ابن كثير: وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي... إلخ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ [٥٢]:

{٦٧٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نُهي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أصناف النساء إلاّ ما كان من المؤمنات المهاجرات، قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ الآية، وأحلّ الله فتياتكم المؤمنات، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٠٦) بسند صحيح.

{٦٧٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما مات رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى أحلّ الله له النساء.

رواه أحمد (١٨٠/٦، ٢٠١)، والترمذي (٣٠٠٧) بتهذيبي، والنسائي في المجتبى (٣٢٠٥)، وابن حبان (٢١٢٦) بالموارد، والحاكم (٤٣٧/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

خلاصة ما ذكره المفسّرون وشراح الحديث في هذا الموضوع، أن هذه الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ إلخ نزلت مجازاة لأزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أحْسَنَّ في اختيار الله ورسوله والدار الآخرة بدل الدنيا ومتاعها، فحرم عليه تعالى أن يتزوج بغيرهنّ أو يتبدّل بهنّ أزواجاً سواهنّ إلا ما كان من الإماء، ثم رفع عنه هذا الحرج وأباح له التزوّج كما صرحت به السيدة المبرأة عائشة رضي الله تعالى عنها، ولكنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يقع منه بعد ذلك زواج.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا

طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [٥٣]:

{٦٧٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أنا أعلم الناس بهذه: الآية الحجاب لما أُهديَتْ زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت معه في البيت صنع طعاماً ودعا القوم، فقعدوا يتحدّثون فجعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخرجُ ثم يرجع وهُمْ قُعُودٌ يتَحدَّثُون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، فضرب الحجاب وقام القوم.

رواه البخاري في التفسير (١٤٨/١٠) وفي التوحيد، ومسلم في النكاح (١٤٢٨)، والنسائي في الكبرى (٤٣٤/٦، ٤٣٥، ٤٣٦) بألفاظ مطوّلاً ومختصراً.

{٦٧٩} ـ وعنه قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: قلت: يا رسول الله يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ، فلو حجبتَ أُمّهاتِ المؤمنين، فأنزل الله عزّ وجلّ آيةَ الحجاب.

رواه البخاري في التفسير (٢٣٥/٩) ج (١٤٦/١٠، ٢٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٣٥/٦)، وراجع ما سبق في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

{٦٨٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت آكُلُ مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حِيساً في قَعْبٍ، فمرّ عمرُ رضي الله تعالى عنه فدعاه، فأكل فأصاب أصبعُه أصبُعِي، فقال: حس أو أوه! لو أُطاعُ فيكُنَّ ما رأتكنَّ عينٌ، فنزل الحِجاب.

رواه النسائي في الكبرى (٤٣٥/٦)، والطبراني في الأوسط قال النور في المجمع (٩٣/٧): ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة.

قوله: قعب ـ بفتح القاف وسكون العين ـ: قدح ضخم، وقوله: حس: هي كلمة تقال عند العرب إذا أصيب الإنسان أو أصاب غيره بما تكرهه نفسه، وقوله: أوه: كلمة تقال عند التوجّع والشكاية.

في هذه الأحاديث بيان سبب نزول آية الحجاب، والاختلاف إما يحمل على التعدّد أو نزولها بأحد السببين، ثم صادف الثاني النزول. والآية الكريمة جاءت تؤدّب الصحابة في تعاملهم مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند دخولهم بيوته، وفيها آداب سامية تتعلّق بالثقلاء الذين يطيلون الجلوس بعد الأكل في الولائم وعند الزيارات ولا يراعون جانب أهل الدار، كما فعل بعض الصحابة مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولذلك كان بعض السلف يقول: إن هذه الآية تسمى آية الثقلاء. وقال بعض المفسّرين: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [٥٦]:

{٦٨١} ـ عن كعب بن عُجرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: **«قولوا: اللّهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنك حميدٌ مَجِيدٌ، اللّهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».**

رواه البخاري في التفسير (١٥٢/١٠)، ومسلم في الصلاة (١٢٦/٤، ١٢٧) وباقي الجماعة، وتقدم في الأذكار والدعوات مع أحاديث أخرى والحمد لله.

الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن العباد دعاء

وصلاة الله تعالى على نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ثناؤه عليه عند ملائكته المقرّبين بما يليق بقدره ومنزلته عنده. ثم الصلاة عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الواجبات الإسلامية على المؤمنين في كل صلواتهم، ومن الرغائب العظيمة في كل الأحيان، وخاصة ليلة الجمعة ويومها، ولها فضائل جمّة لا يستهان بها، فالسعيد من وُفّق للإكثار منها عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [٥٩]:

{٦٨٢} ـ عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأنّ على رؤوسهنّ الغِرْبان من الأكْسِيَة، وفي رواية: من أكسية سُودٍ يلبَسْنها.

رواه ابن أبي حاتم (١٠/٣١٥٤) من طريق عبدالرزاق، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٨) بسند صحيح، وانظر الدرّ المنثور (٦/٦٥٩).

{٦٨٣} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرجت سودة رضي الله تعالى عنها بعدما ضُرب الحجاب لحاجتِها، وكانت امرأةً جَسِيمَة لا تَخْفَى على مَن يَعْرِفُها، فرآها عُمر رضي الله تعالى عنه فقال: يا سودة إنك والله ما تَخْفين علينا، فانظري كيف تَخْرجين، فانكفأتْ راجعةً ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بيتي، وإنه ليَتَعَشَّى وفي يده عِرْقٌ فدخلتْ، وقالت: يا رسول الله إني خرجتُ لبعض حاجتي فقال لي عمر: كذا وكذا، فأوحي إليه ثم رفع عنه، وإن العِرْقَ في يده فقال: **«إنَّهُ قد أُذِنَ لكُنَّ أن تَخْرُجن لحاجتِكُنَّ»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٥٠)، ومسلم في السلام (١٤/١٥٠، ١٥٢) وغيرهما.

الجلابيب: جمع جلباب، وهي الملاءة التي تلبسها المرأة فوق الثياب وتلتحف بها عند خروجها من منزلها، ولا يكون ذلك إلاّ مع الأجانب غير

ذوي محرم، والجلباب يشبه ما يستعمله نساء الحجاز والعراق وإيران المسلمات.

وحجاب المرأة المسلمة واجب إسلامي فمن أنكره فقد أنكر القرآن وكذب الله عزّ وجلّ فيما قال وأمر به، فالقرآن الكريم يأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بإبلاغ نسائه وبناته ونساء المؤمنين بأن يسْتُرْنَ محَاسِنَهُنَّ وزِينَتَهُنَّ بالجلابيب، غير أن أُمّهات المؤمنين اختصن بحجب جميع أجسادهنّ وأشخاصِهِن فهو فرض عليهنّ بلا خلاف في الوجه والكفّين، فلا يجوز لهنّ كشف ذلك لشهادة ولا غيرها، ولا يجوز لهنّ إظهار شخوصهن وإن كنّ مستترات، أمّا غيرهنّ من سائر النساء فلا يجب عليهن إلا تغطية محاسنهنّ وزينتهنّ بما يعدّ ساتراً شرعاً، بأن يكون الثوب واسعاً غير شفّاف ولا رقيق، سابغاً غير قصير، ولا زينة في نفسه، ولا مطيباً معطّراً. وفي حديث عائشة في قصة سودة دلالة على الإذن للنساء في الخروج لحوائجهنّ. وبهذا تمّت سورة الأحزاب، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة سبأ

آيات السورة أربع وخمسون، واختصّت بذكر تلك القصة الغريبة قصة أهل سبإ التي سمّيت السورة بهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ الآية [١٥]:

{٦٨٤} ـ وعن فَرْوَة بن مُسَيْك المرادي رضي الله تعالى عنه قال: وأنزل في سبإ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله وما سبأ أرضٌ أو امرأة؟ قال: «**ليس بأرضٍ ولا امرأة، ولكنه رجلٌ ولد عشرةً من العرب فتَيَامَنَ منهم سِتَّةٌ، وتَشَاءَمَ منهم أربعةٌ، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة. وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار**»، فقال رجل: يا رسول الله، ما أنمار؟ قال: «**الذين منهم خذعم وبجلة**».

رواه أبو داود في الحروف (٣٩٧٨)، والترمذي في التفسير (٣٠١١)، والحاكم (٤٢٤/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث حسنه قوم وصححه آخرون لشواهده.

قال المؤرّخون: كانت سبأٌ ملوكَ اليمن، وكان نُبَّعٌ وبِلْقِيسُ صاحبةُ سليمان عليه السلام من جُمْلَتِهم، وكانوا في نِعمةٍ وغِبْطَة في بلادهم وعيشِهم واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسلَ فآمنوا بهم وأطاعوهم ما شاء الله، ثم أعرضوا عمّا أُمِرُوا به فعُوقبوا بإرسال السَّيْل العَرِم فتفرّقوا في البلاد.

وقوله: ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، يقال: إن سبأ كان يسمّى عبد شمس وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وتناسل منه عشرة رجال هم أصول القبائل العربية، فلما نزل بهم سيل العرم تفرّقوا في البلاد، فسكن الشام لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، فكانوا رؤوس القبائل العربية هنالك، وسكن اليمن الباقي وهم الأزد، والأشعريّون، وحِمْيَر، وكِنْدَة، ومَذْحِج، وأنمار.

ولخم - بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة - وجُذام - بضم الجيم - وغسان - بفتح الغين المعجمة والسين المشددة - وعاملة - بكسر الميم - وحمير كمنبر، وكنده - بكسر الكاف وسكون النون - ومذحج - بفتح الميم وسكون الذال وكسر الحاء - والأزد - بفتح الهمزة وسكون الزاي - واختلف النسّابون هل كان قحطان من العرب العاربة الذين كانوا قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام أم هو من سلالة إبراهيم والعرب المستعربة؟ الصحيح أنه من ولد إبراهيم ويؤيّده حديث البخاري أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّ بنفر من أسلم ينتضلون فقال: «**ارمُوا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**»... وأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار بأوْسِهَا وخَزْرَجِها من غسّان من عرب اليمن السبئيين الذين نزلوا يثرب - المدينة - بعد سيل العرم، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [٢٣]:

{٦٨٥} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربَتْ الملائكةُ بأجْنِحَتِها خُضْعاناً لقوله كأنه سِلْسِلة على صَفْوَان، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: الحقّ وهو العليّ الكبير**».

رواه البخاري (١٠/١٥٧)، والترمذي (٣٠١٢) كلاهما في التفسير.

قوله: «**إذا قضى الله الأمر**» في رواية للنواس بن سمعان عند الطبراني:

«**إذا تكلّم الله تعالى بالوحي**»، وقوله: خضعاناً أي: خاضعين، وقوله: سلسلة إلخ أي: كصوت السلسلة على حجر أملس، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: رُفع عن قلوبهم الفزعُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨]:

{٦٨٦} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء: نُصرت بالرعب... وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى الناس عامّة**».

رواه البخاري في التيمّم (١/٤٥٣، ٤٥٥)، ومسلم في المساجد (٥/٤، ٤) مطوّلاً، وتقدم في التيمّم كاملاً، وانظر ما سبق في سورة الأعراف آية (١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [٣٩]:

{٦٨٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما من يوم يُصْبِح العبادُ فيه إلا ملكان ينْزلان فيقولُ أحدهما: اللّهمّ أعْطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللّهُمّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**».

رواه البخاري (٤/٤٧)، ومسلم (٧/٩٥) كلاهما في الزكاة.

هذه النفقة تشمل النفقة على النفس وعلى الزوجة والأولاد والوالدين والضيوف وغير ذلك، فكلها يخلفها الله بأضعاف أضعافها، وهذا مما لا ينبغي أن يشك فيه. أما تلف الممسك، فالظاهر أنه يكون في الإمساك عن الواجبات، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [٥٠]:

{٦٨٨} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفر، فأشرف الناس على وادٍ فجهروا بالتكبير والتهليل: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أيُها الناسُ ارْبَعُوا على أنفسكم إن الذي تَدعون ليس بأصمّ إنه سميعٌ قريب إنه معكم»** أعادها ثلاث مرات.

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٩٢) وفي المغازي وفي الدعوات (٦٢٨٤) وفي القدر، ومسلم في الذكر (٢٧٠٤)، وأبو داود في الصلاة والترمذي في الدعوات.

اربعوا ـ بكسر الهمزة وفتح الباء ـ أي: ارفقوا، وفي الآية والحديث بيان أن الله متّصف بالسمع والقرب، وهما صفتان لله عزّ وجلّ يليقان بألوهيّته وجلاله، فليس كمثله شيء، فتفسيرهما إمرارهما كما جاءتا، فهو تعالى حاضر شاهد قريب سميع بصير، وكل هذه الصفات هي خلاف صفاتنا، فاعرف ذلك.

وبهذا تمّت سورة سبأ. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة فاطر

وهي خمس وأربعون آية، وامتازت بذكر العلماء الذين يخشون الله عزّ وجلّ...

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [٣٢]:

{٦٨٩} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، فأما الذين سبقُوا بالخيرات فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقْتَصَدوا فأولئك يُحاسَبُون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يُحْبَسُون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى ﴿لُغُوبٌ﴾**».

رواه أحمد (٥/١٩٤، ١٩٧ـ ١٩٨)، وابن جرير (٢٢/١٣٧)، وابن أبي حاتم وهو عند أحمد من طريقين: أحدهما سنده صحيح على شرط مسلم، وللحديث شواهد عن أبي سعيد رواه أحمد (٣/٧٨)، والترمذي (٣٠١٤)، وابن جرير (٢٢/١٣٧)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٨١) وفيه: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة». وعن ابن عباس رواه ابن أبي حاتم (١٠/٣١٨١) بلفظ: مظالمهم.. مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم في الجنة بغير حساب. وعن عوف بن مالك رواه ابن أبي

حاتم (١٠/٣١٨١، ٣١٨٣)، وفي الباب آثار كثيرة في هذا المعنى انظرها عند ابن جرير وغيره.

وفي الآية الكريمة مع ما في الباب من الأحاديث فضل عظيم لهذه الأُمّة المحمدية، وفسروا الظالم لنفسه بالمفرط في بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، والمقتصد بالمؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات. أما السابق فهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات... جعلنا الله تعالى من هذا القسم بمنّه وكرمه، آمين.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [٣٧]:

{٦٩٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرىءٍ أخَّرَ عُمُرَه حتى بَلغ سِتين سنة»**، وفي رواية: **«العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم سِتُّون»**، يعني ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ الآية.

وفي رواية: **«لقد أعذرَ اللهُ إلى عبدٍ أحيَاهُ حتى بلغ سِتين أو سبعين سنة لقد أعذر الله إليه»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥، ٣٢٠، ٤١٧)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٤)، والرواية الثانية رواها البزار. أما الأخيرة فهي عند أحمد (٢/٢٧٥)، والحاكم (٢/٤٢٧، ٤٢٨).

أعذر أي: بالغ في العذر حتى لم يبق له عذر، فإن إطالة العمر إلى الستين هو وقت يتاح للعبد فيه الرجوع إلى الله تعالى والانكفاف عن مواقع سخطه وغضبه، فبعد هذا العقد لم يبق له عذر يعتذر به، فما بقي بعده إلا

ترقب الموت ولقاء الله والاستعداد لذلك، ألهمنا الله رشدنا، وجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائه، آمين.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ﴾، معناه: أوَ لست قد فسحت لكم في الأجل وأطلت أعماركم حتى وصلت بكم إلى سنّ يتذكر فيها من يريد أن يتذكر، فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟! هذا يقال للكفار وأشباههم يوم القيامة...

وبه تمّت سورة فاطر. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

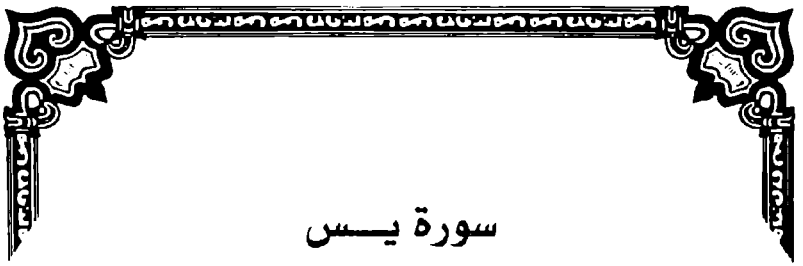

سورة يـــس

السورة ثلاث وثمانون آية، ولها خصائص مجرّبة، ومن فضائلها الحديث الآتي:

{٦٩١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من قرأ يـٰس في ليلةٍ أصبح مَغْفُوراً له، ومن قرأ حم التي يُذكرُ فيها الدُّخان أصبح مغفوراً له**».

رواه الطيالسي (١٩٧٠) مع المنحة، والدارمي (٣٤٢٠)، وأبو يعلى (٦١٩٦)، والطبراني في الصغير (٤١٧)، والسياق لأبي يعلى غير أنه قال: في ليلة جمعة، قال ابن كثير في التفسير: إسناده جيد، قلت: بل سنده صحيح رجاله رجال الصحيح عند الدارمي مع اختلاف في سماع الحسن من أبي هريرة، وللشطر الأول شاهد عن جندب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من قرأ يـٰس في ليلة ابتغاءَ وجه الله عزّ وجلّ غُفر له**».

رواه ابن حبان (٢٥٧٤) بسند صحيح، وعنعنة الحسن هنا لا تضر، والله أعلم، أما غير هذا فلا يصح شيء منه.

ومن خصائصها كما قال ابن كثير أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسّره الله تعالى قال: وكأنَّ قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [١٢]:

{٦٩٢} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النُّقْلة إلى قُرْب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن آثاركم تكتب»** فلم ينتقلوا.

رواه الترمذي (٣٠١٥) في التفسير وحسّنه، والحاكم (٢/٤٢٨، ٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبي، ويشهد له حديث ابن عباس بنحوه رواه ابن جرير (١٥٤/٢٢)، قال الحافظ في الفتح: (٢٨١/٢): أخرجه ابن ماجه وإسناده قوي.

وظاهر الحديثين أن الآية نزلت بسبب بني سلمة غير أن الآية مكّية، وقصة بني سلمة كانت بالمدينة، وقد يُجاب باحتمال نزولها مرتين، وقصة بني سلمة جاءت في الصحيحين دون ذكر الآية، وقد تقدم بعض ذلك في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ [٣٨]:

{٦٩٣} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال: **«يا أبا ذرّ أتَدْرِي أين تذهب هذه الشمسُ»**؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«تذهب تسجدُ تحت العرش فتَسْتَأْذِنُ فيُؤذن لها، ويوشك أن تسجدَ فلا يُقبلُ منها، وتَسْتَأْذِنُ فلا يُؤذَنُ لها فيقال لها: ارْجِعِي مِن حَيثُ جِئْتِ، فتَطْلُع مِنْ مغربها»**، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

رواه أحمد (٥/١٧٧، ١٥٢)، والبخاري في التفسير (١٠/١٦١) وفي بدء الخلق وفي التوحيد، ومسلم في الإيمان (٢/١٩٥، ١٩٦)، وأبو داود

في الحروف (٤٠٠٢)، والترمذي في الفتن (٢٠١٦)، وفي التفسير (٣٠١٦)، والنسائي في الكبرى (٤٣٩/٦).

الكلام على الآية والحديث في مبحثين: أولاً: في سجود الشمس، ثانياً: في مستقرّها. أما سجودها تحت العرش بين يدي الربّ فتضاربت فيه الأقوال، والظاهر أنها دائمة السجود وليس لها وقت خاص لا تسجد إلا فيه، فإنها إذا غربت على قوم طلعت على قوم آخرين، فسجودها مستمر، وهي مع سائر هذا العالم تحت العرش، وهذا وأمثاله يجب الإيمان به على ما أراده الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

أما مستقرّها فلها استقرار مكاني وهو تحت العرش على ما سلف، واستقرار زماني وهو منتهى سيرها وهو يوم القيامة حيث يبطل سيرها وتسكن حركتها. وفي الآية والحديث دليل قاطع على أن الشمس تجري في فلكها كباقي الكواكب السيارة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فالفكرة التي كانت تقول بثباتها فكرة خاطئة، معتقدها كافر.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [٦٥]:

{٦٩٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فضحك حتى بدتْ نواجذه، ثم قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتدرون مِمّ أضحكُ؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من مُجادلة العبدِ ربَّه يوم القيامة، يقول: ربِّ ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أُجيزُ عليَّ إلا شاهداً من نَفْسِي، فيقول: كفَى بنفسك اليومَ عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شُهُوداً، فيُختَم على فِيه ويقال لأركانه انطِقي فتنطِقُ بِعَملِه، ثم يُخلَّى بينَه وبَين الكلام، فيقول: بُعْداً لكنَّ وسُحقاً فعنكنَ كنتُ أناضِل**».

رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٥٠٨/٦)، وتقدم في سورة النور، ويأتي أيضاً في الانفطار وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [٦٩]:

{٦٩٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: هل كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة ويقول:

ويـــأتـــيـــكَ بـــالأَخـــبَـــارِ مَـــنْ لـــم تُـــزَوِّدِ

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٧)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٧)، وفي الشمائل (٢٤١) وحسّنه وصححه.

{٦٩٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لأَنْ يَمْتَلِىءَ جوفُ أحدِكم قَيحاً حتى يَريهِ خيرٌ له من أن يمتلىء شِعْراً»**.

رواه البخاري في الأدب (١٦٧/١٣)، ومسلم في الشعر (١٤/١٥، ١٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٦١)، وابن ماجه (٣٧٥٩) وغيرهم.

قوله: تزوّد ـ بضم التاء وكسر الواو المشدّدة ـ من التزويد، أي: قد يأتيك بالأخبار من لم تعطه زاداً، بل يأتيك بها بالمَجان. وقوله: يريه ـ بضم الياء الأُولى وتفتح ـ أي: حتى يفسده أو يهلكه، وقيل: حتى يصيب رئتيه.

والآية دالّةٌ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكن يعلم قرض الشعر، وأنه منزّه عن ذلك؛ لأن أغلبه كذبٌ، وخيالاتٌ، ولذلك يقولون: أحْلاه أكْذَبه، كما أن أكثره في وصف الخمر والنساء، وخدودهنّ، وعيونهنّ، ونهودهنّ، وقدودهنّ... وكل ذلك لا يليق بمطلق المؤمنين الملتزمين فكيف بمقام النبوّة، وإنما كان يتمثّل ببعض الأشعار المشهورة المشتملة على الحكم، ولذا قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن من الشعر لَحِكماً»**، وحديث أبي هريرة يدلّ على ذمّ الشعر وحفظه، وذلك محمول على ما ذكرنا من الشعر البذيء؟

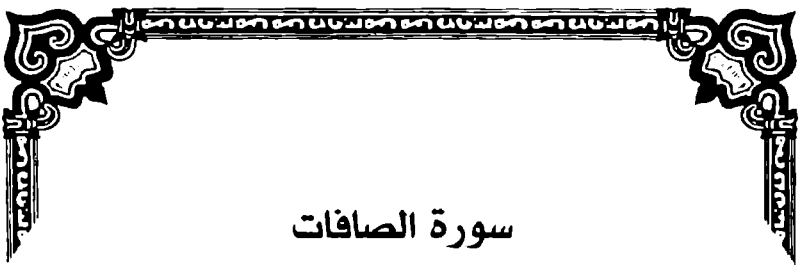

سورة الصافات

آياتها ثنتان وثمانون، ومن أبرز خصائصها قصة الذبيح وفديته بالذبح العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [٧٧]:

{٦٩٧} ـ عن سمرة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحَبَش، ويافِثُ أبو الرُّوم»**.

رواه أحمد (٥/٩، ١٠، ١١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٠)، والطبراني في الكبير (٦٨٧١)، والحاكم (٢/٥٤٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

الآية الكريمة مع الحديث الشريف دالاّن على أن ما يوجد من البشر هم من ذرية نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام الذين تناسلوا من أولاده الثلاثة المذكورين، وكان له ولد رابع كنعان غرق كافراً مع من غرق في الطوفان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [١٦٥، ١٦٦]:

{٦٩٨} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«ألا تَصُفُّون كما تصُفُّ**

الملائكةُ عند ربهم»، قالوا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: **«يُتِمُّونَ الصَّفَّ المُقَدَّم، ويتراصُّون في الصف»**.

رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، والنسائي في الكبرى (٤٤١/٦) وفي المجتبى، وابن ماجه (٩٩٢).

في الآية والحديث دليل على أن الملائكة يصلون مصطفين، وأنهم يسوّون صفوفهم ويتمّونها، وأنه ينبغي لنا أن نتشبّه بهم ونقتدي بأفعالهم في صلاتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ إلخ، قال المفسّرون: في قولهم هذا ردّ على المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله أو شركاء له، فها هم يعترفون على أنفسهم بالعبودية لله تعالى والطاعة له وتنزيهه جلّ علاه عمّا لا يليق به.

﴿قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [١٧٧]:

{٦٩٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أتى خيبر فصلّى عندها الغداةَ، فركِبَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وركِب أبو طلحة وأنا رَدِيفُ أبي طلحة، فأجْرى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في زُقاقِ بخَيْبر، فانكشفَ فخِذُه حتى إني لأنظر إلى بياضِ فخذِهِ، فأتى خيبر فقال: **«إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**.

رواه البخاري في الصلاة (٣٧١) وغيرها، ومسلم في غزوة خيبر من الجهاد والسير (١٦٣/١٢، ١٦٤).

زقاق ـ بضم الزاي ـ: طريق ضيّق. وأشار النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله هذا إلى أنه سينتصر على اليهود، وأن العذاب سيحقّ بهم لا محالة. والساحة: هي فناءُ أمام البيوت.

{٧٠٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأمُرنا بالتخفيف ويؤمّنا بالصّافّات.

رواه أحمد (٢/٢٦، ٤٠)، والنسائي في الكبرى وفي المجتبى (٨٢٦)، وابن خزيمة (١٦٠٦)، وابن حبان (٤٧٠) بالموارد وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على أن التخفيف المأمور به في السنة هو تخفيف نسبي، فالسور فيها طوال وأطول ووسط وقصار، فمن قرأ مثلاً بالبقرة فقد أطال، لكن من قرأ بقّ أو بالصافات فقد خفّف بالنسبة للبقرة، وهكذا من قرأ بوسط القصار كسبح الأعلى والشمس وضحاها، فالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت أحوالُه في صلاته تختلفُ تشريعاً لأُمّته التي يختلف أفرادُها قوةً وضَعْفاً. وبهذا تمّت سورة الصافات. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة ص

وهي ثمانون آية، وتمتاز بذكر فتنة سليمان وداود عليهما الصلاة السلام.

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [١ ـ ٧]:

{٧٠١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مَرِض أبو طالِب فجاءتْه قُريشٌ، وجاءه النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وعند أبي طالب مجْلِس رجُلٍ فقام أبو جهل كَيْ يمنعَه، قال: وشكَوْهُ إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تُرِيد من قومك؟ قال: «**أُرِيد مِنهم كَلِمةً تَدِينُ لهم بها العربُ، وتُؤَدِّي إليهم العَجَمُ الجِزْية**»، قال: كلمة واحدة، قال: «**كلمة واحدة**»، فقال: «**يا عمّ قولوا: لا إلـه إلاّ الله**»، فقالوا: أإلٰهاً واحداً؟ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾، قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

رواه أحمد (٢٢٧/١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢١)، والنسائي في الكبرى (٤٤٢/٦)، وأبو يعلى (٢٥٨٦)، وابن حبان (١٧٥٧)، والحاكم (٤٣٢/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

تعجّب الكفار مما قال لهم حبيب الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

هو من أعجب العجائب، فلو كانت لهم عقولٌ يهتدون بها لما تعجّبوا من وحْدَة الأُلوهيّة، ولما تأخّروا عن إجابته إلى ما دعاهم إليه، ولكنها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢٤]:

{٧٠٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: السَّجْدَةُ في صَ لَيْسَتْ مِن عَزَائِم السُّجُود، وقد رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَسْجُدُ فيها.

رواه البخاري في الصلاة وفي الأنبياء، والترمذي في سجود القرآن (٥١٥)، والدارمي (١٤٧٥)، وأبو داود (١٤٠٩) والنسائي وغيرهم.

{٧٠٣} ـ وعن مجاهد رحمه الله تعالى أنه سُئِل عن سجدة صَ، فقال: سألت ابن عباس من أينَ سجدتَ؟ فقال: وما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾... ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠]، فكان داود ممن أمر نبيّكم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يَقْتَدِيَ به فسجدَها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٦٤).

في الحديثين كالآية الكريمة أن السجود عند هذه السجدة مشروعٌ في ديننا تبعاً لسجود داود عليه السلام الذي سجدها توبةً، وسجدها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شُكْراً، كما جاء في حديث لابن عباس رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٤٢)، والبيهقي (٢/٣١٩) برجال ثقات.

وليست من العزائم كباقي السجدات التي شرعها لنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ووردت العزيمة على فعله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾:

{٧٠٤} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالتْ: قدم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غَزْوة تبُوك أو خيبر وفي سهْوتِها سِتْرٌ

فَهَبَّ ريحٌ فكشفتْ ناحِيةَ السِّتْرِ عن بناتٍ لعائشة، فقال: **«ما هذا يا عائشة»**؟ قالت: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: **«ما هذا الذي أرى وسطهُنَّ»**؟ قالت: فرسٌ، قال: **«وما هذا الذي عليه»**؟ قالت: جناحان، قال: **«فرسٌ له جناحان»**؟ قالت: **«أما سمعت أنَّ لِسليمان خَيلاً لها أجنحة»**؟ قالت: فَضَحِكَ حتى بَدَتْ نَواجِذُه.

رواه أبو داود (٤٨٩٤) في الأدب، والنسائي في الكبرى (٣٠٦/٥، ٣٠٧) في عشرة النساء، وابن حبان (٥٨٦٤)، والبيهقي (٢١٩/١٠) بسندٍ صحيح.

في الحديث جواز اتخاذ البنات من صور الحيوانات للتدريب على التربية، وأن ذلك مرخَص فيه للفتيات الصغار، وأنها مستثناة من تحريم اتخاذ الصور، وفي الحديث فطنة مولاتنا عائشة وفقهها رضي الله تعالى عنها، وفيه موافقة الزوجة على لعبها وعدم الإنكار عليها، وجواز الضحك بالقهقهة لمن لا يتخذ ذلك عادة له.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [٣٥]:

{٧٠٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنّ عِفريتاً من الجِنّ تَفَلَّتَ عليَّ البارحة أو كلمة نحوها ليقطعَ عليَّ الصلاة، فأمكنَنِي الله تعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارِيةٍ من سوارِي المسجد حتى تُصْبِحُوا وتنظروا إليه كُلُّكُمْ فذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّه خاسئاً»**.

رواه البخاري في أول الصلاة وفي بدء الخلق وفي الأنبياء وفي التفسير (١٦٧/١٠)، ومسلم في المساجد رقم (٥٤١)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣/٦)، ونحوه عن أبي الدرداء في مسلم (٥٤٢)، وعن عائشة في كبرى النسائي.

في الحديث بيان عظمة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقوّته الجسمية والروحية حيث ألقى القبض على العفريت من الجنّ، وفيه تأدُّبه مع نبيّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام، ولولا دعاؤه لتحكم فيه وربطه حتى يصبح فيَراهُ الناسُ مُعْتقلاً.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾ [٥٠]:

{٧٠٦} ـ عن عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رِداءُ الكِبْرِ على وجهه في جَنّاتِ عَدْنٍ**».

رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٩) وفي التوحيد (٢٠٦/١٧)، ومسلم في الإيمان رقم (١٨٠)، والترمذي في صفة الجنّة (٢٣٤٥)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣/٦)، وابن ماجه (١٨٦).

رؤية المؤمنين لربّهم في الجنّة وغيرها ثابتة بطريق التواتر عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونصّ عليها القرآن الكريم، وأجمع عليها أهل السنّة، وأنكرها المعتزلة والجهمية والإمامية الروافض وغيرهم من المبتدعة الضالّين، وقوله: إلا رداء الكبرياء على وجهه، هو من أحاديث الصفات، ومذهب السلف إجراؤه على ظاهره من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾ [٥٩]:

{٧٠٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الميت تحضُره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قال: أُخرُجي أيّتها النفسُ الطيّبة، كانت في جسد طيب أُخرجي حَميدة، وأبْشِري برَوْح وريحان، وربٌ غير غضبان، يقولون ذلك حتى تخرج ثم يُصعَدْ بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيّبة كانت في الجسد الطيّب ادخلي حميدةً، وأبْشِري**

بروح وريحان، وربٌ غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة.

وإذا كان الرجل السوء قيل: أخرُجي أيتُها النفسُ الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، أخرجي ذميمةً، وأبشِري بحميم وغَساق، وآخر من شكْله أزواجٌ، فيقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، أخرجي ذميمة فلن تفتح لك أبواب السماء».

رواه أحمد (٣٦٤/٢، ٣٦٥) ج (١٤٠/٦)، والنسائي في الكبرى (٤٤٣/٦، ٤٤٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٢) وسنده صحيح، وله شاهد عن البراء مطوّلاً ذكرته في «مشاهد الموت»، وتقدم في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

الشاهد من الحديث: «وآخر من شكله أزواج»، والحميم: هو الماء الحار الذي بلغ النهاية في الغليان، والغساق: ما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم، ثم عذاب آخر من مثل هذا العذاب وشكله أزواج كالسموم، والزمهرير، وأصناف العذاب وأنواعه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [٦٩]:

{٧٠٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أتاني الليلة ربّي تبارك وتعالى في أحسن صورة ـ قال: أحسبه قال: في المنام ـ فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدتُ بَرْدَها بين ثَدْيَيّ ـ أو قال: في نَحْري ـ فعلمتُ ما في السمٰوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات، والكفاراتُ المكثُ في المسجد بعد الصلاة، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك

عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدَتْه أُمُّه، وقال: يا محمد إذا صلّيت فقل: اللّهمّ إني أسألك فعلَ الخَيرات وتركَ المُنْكِرات وحُبَّ المساكين، وإذا أردتَ بعبادِك فِتنةً فاقْبِضْني إليك غير مفتون، قال: والدَّرجاتُ إفْشاء السلام وإطعام الطعام، والصلاةُ بالليل والناس نِيام».

رواه أحمد رقم (٣٤٨٤)، والترمذي في سورة صّ رقم (٣٠٢٢) وسنده صحيح وله شاهد عن معاذ بن جبل بنحوه رواه أحمد (٢٤٣/٥)، والترمذي (٣٠٢٣)، والحاكم (٥٢١/١)، وحسّنه الترمذي وصححه، وفيه: «**فتجلّى لي كلُّ شيء، وعرفتُ**»، وقال في الدعاء: «**وأن تغفر لي وترحمني**» بعد حبّ المساكين، وله شاهد ثانٍ رواه أحمد (٦٦/٤) ج (٣٧٨/٥)، والحاكم (٥٢٠/١، ٥٢١) من حديث عبدالرحمٰن بن عايش وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

حديثا ابن عباس ومعاذ فيهما فوائد جمّة منها جواز رؤية الله في المنام، وهو قول الجمهور. وفي قوله: «فوضع يده» إلخ هو من أحاديث الصفات، فالله لا يوصف بجارحة. وقوله: «فعلمت ما في السمٰوات وما في الأرض»، وفي الرواية الثانية: «فتجلّى لي كل شيء وعرفت»، فيستدل بذلك على أن الله أطلع نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على كل شيء أراد اطّلاعه عليه مما في السمٰوات وما في الأرض، وأن إسباغ الوضوء والمشي إلى الجماعات وانتظار الصلاة من أفضل القُرُبات، وأن ذلك من مكفّرات الذنوب، وأن إفشاء السلام وما ذكر معه من أفضل القربات، وأنها من الدرجات، وهذه الخصال مما يتحدّث به الملائكة.

وبهذا تمّت السورة الكريمة. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [٩]:

{٧٠٩} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على رجلٍ يعودُه، فوافقه وهو في الموت فسلّم عليه، وقال: «**كيف تجدُك**»؟ فقال: بخير يا رسول الله أرجو الله عزّ وجلّ وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لن يجْتمِعا في قلْبِ رجُلٍ عند هذا الموطنِ إلا أعْطاهُ اللهُ ما رَجاهُ وأمَّنهُ ممّا يخافُ**».

رواه الترمذي في الجنائز (٨٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)، وأبو يعلى في المسند (٣٢٩٠، ٣٤٠٤) وحسّنه الترمذي والمنذري، وجوّده النووي.

في الآية فضل القائم الساجد الذي يخاف الآخرة ويرجو رحمة ربّه وأنه لا يستوي مع من هو منحرف غافل، كما أن الحديث يدلّ على أن من استوى رجاؤه وخوفه عند الموت كان من الفائزين؛ ففي الآية والحديث بيان مقامي الخوف والرجاء، حقّقنا الله تعالى بهما.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ **الآية** [٢٠]:

{٧١٠} ـ عن أبي سعيدٍ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قال: «**إن أهل الجنّةَ يَتَرَاءَوْنَ أهل الغُرف مِن فوقهم كما تَرَاءون الكوكب الدُّرّي الغابرَ في الأُفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمَنوا بالله وصدَّقُوا المُرسلين**».

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنّة (٢٨٣١)، وفي الباب غير هذا ويأتي في الرقاق. في الآية والحديث تفاضل سكان الجنّة في المنازل والدرجات حسب إيمانهم واستقامتهم وتفاوتهم في ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ الآية [٤٢]:

{٧١١} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن في سفر ذات ليلةٍ، قلنا: يا رسول الله لم عَرَّستَ بنا، فذكر نومهم عن الصلاة، وفيه: «**إن الله قَبَضَ أرواحَكم حِينَ شاء وردَّها عليكم حِينَ شاء**» الحديث.

رواه البخاري وغيره، وقد تقدم في الصلاة، وهو مع الآية يدلاّن على أن النوم موت وقبض لروح الإنسان، فلا يبقى له شعورٌ، فإذا كان قد حلّ أجلُه قبضها الله تعالى، وإلا أرسلها حتى تستوفي أجلها المضروب لها في هذه الحياة.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦]:

{٧١٢} ـ فيه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللّهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادةِ**» الحديث.

رواه مسلم وغيره، وقد تقدم في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ الآية [٥٣]:

{٧١٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخْبِرُنا أن لِما عملْنا كفارةً، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، ونزلت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾ إلخ.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢/١٣٩، ١٤٠) وغيرهما.

هذه الآية الكريمة ذكر العلماء أنها أرجى آية في القرآن للعصاة، فهي تدلّ على عظيم رحمة الله وشمول مغفرته لكل مؤمن، وعلى الأخص التائب.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [٥٧]:

{٧١٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كلّ أهل الجنّة يقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً، وكل أهل النار يقول: لو أن الله هداني ليكون عليه حسرة**».

رواه أحمد (٢/٥١٢)، والنسائي (٦/٤٤٧)، والحاكم (٢/٤٣٥) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. في الحديث بيان أن كل الناس يوم القيامة يتمنّون أن لو كانوا هدوا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [٦٧]:

{٧١٥} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال له: يا محمد إنا نجد أن الله تعالى يجعل السمٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملِك، فضحك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى بدَتْ نواجذه تَصْدِيقاً لقول الحَبر، ثم قرأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية.

رواه أحمد (٣٥٩٠، ٤٣٦٨)، والبخاري في التفسير (١٧١/١٠)، وفي التوحيد (٢١٤/١٧، ١٦٩، ١٧٠)، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٦)، والترمذي (٣٠٢٦)، والنسائي (٤٤٦/٦، ٤٤٧) كلاهما في التفسير. وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة، وسيأتي ذلك في الرقاق إن شاء الله تعالى.

ما في الآية والحديث من اليمين والقبض هي من صفات الله تعالى الذاتية يجب الإيمان بها وإمرارها كما جاءت من غير اعتقاد الجارحة والجسمية أو التشبيه.

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: لا يحمل ذكر الإصبع على الجارحة، بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيّف ولا تحدّد، وقال الحافظ في الفتح: والأَولى في هذه الأشياء الكفّ عن التأويل مع اعتقاد التنزيه، فإن كل ما يستلزم النقص من ظاهرها غير مراد.

وقد أبعد النجعة بعض الأشاعرة المتأخرين، فزعم أن هذا الحديث وأمثاله شواذ رغم أنها في الصحيح وتلقاها العلماء بالقبول، ولذلك ردّ الحافظ على هذا القائل، وقال: إن في ذلك طعناً على ثقات الرواة، وردّاً للأخبار الثابتة. انظر كتاب التوحيد من الفتح (١٧١/١٧)، وكتاب التفسير

(١٧١/١٠)، لهذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظموه حقّ عظمته، وما أعطوه الصفات اللائقة به مع ما له من العظمة والكبرياء.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [٦٨]:

{٧١٦} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كيف أنعَمُ وقد التقَمَ صاحب القرنِ القرن، وحَنَى جبهتَه وأصْغَى سَمْعه ينتظر أن يُؤمَر أن يَنفخ فينفخ»**، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا: حسبنا الله ونِعْم الوكيل، توكّلنا على الله»**، وربما قال سفيان: **«على الله توكّلنا»**.

رواه أحمد (٧/٣، ٧٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٥٢) وفي التفسير (٣٠٢٨)، وعطية العوض لا يضرّ هنا فقد رواه ابن ماجه (٢٥٦٩) من غير طريقة، ثم إن له شاهداً عن أبي هريرة رواه الحاكم (٥٥٩/٤) بسندٍ صحيح على شرط مسلم.

قوله: كيف أنعم ـ بفتح الهمزة والعين ـ أي: كيف تطيب لي الحياة والعيش والملك صاحب الصور قد تهيّأ للنفخ. وفي الحديث فضل حسبنا الله ونعم الوكيل، وأنه ينبغي قولها عند الشدائد والأهوال، فإن من كفاه الله لا يضام أبداً.

وهناك أحاديث تتعلق بالنفخة تأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى. وبهذا تمّت سورة الزمر والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

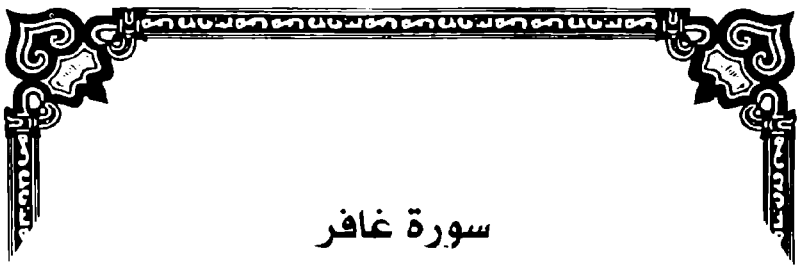

سورة غافر

وآياتها خمس وثمانون، وهي بداية السور الحَوامِيم السبعة، وهي غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، وكلها مكيات.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [١٤]:

{٧١٧} ـ فيه حديث ابن الزبير: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: **«لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله ولا إلـه إلاّ الله ولا نعبد إلاّ إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إلـه إلاّ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»**.

رواه مسلم وغيره، وتقدم في الصلاة.

قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [٢٨]:

{٧١٨} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن أشدّ ما صنع المشركون برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: بينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عُقبة بن أبي مُعيْط، فأخذ بمنكب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولوّى ثوبه في عُنُقه فخَنَقَه خَنْقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: «﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾»...

رواه أحمد (٢/٢٠٤)، والبخاري في أوائل السيرة النبويّة (٨/١٦٨)، وفي التفسير (١٠/١٧٥)، ورواه أحمد (٢/٢١٨) من طريق ابن إسحٰق، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥٠) مطوّلاً من حديث عمرو بن العاص، وللحديث شواهد عن عليّ وأنس وأسماء.

والحديث يصوّر لنا أشدّ ما فعله الكفار مع نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أنواع الإذايات، وفيه فضل الصدّيق وشجاعته في دفاعه عن رسولنا الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، اقتداء في ذلك بمؤمن آل فرعون عندما قال ذلك لقومه في شأن رسالة كليم الله موسى عليه السلام ودعوته.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [٤٦]:

{٧١٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ألا إن أحدكم إذا مَاتَ عُرض عليه مقعدُه بالغداةِ والعشي، إنْ كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار حتى يَبْعثَه الله يوم القيامة».**

رواه أحمد (٢/١١٣)، والبخاري في بدء الخلق رقم (٣٢٤٠)، ومسلم في الجنّة (١٧/٢٠٠، ٢٠١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥٠)، وفي الجنائز من المجتبى.

الآية الكريمة استدلّ بها أهل السنّة على عذاب البرزخ والقبور وهي نصّ في عذاب الأرواح، وجاءت السنّة بثبوت عذاب الأجسام أيضاً، والأحاديث بثبوت فتنة القبر وعذابه كثيرة متواترة، ومع ذلك فقد أنكرها المعتزلة، ومن لفّ لفهم من المبتدعة الضالين وهوّنوا من أمر القبور.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [٦٠]:

{٧٣٠} ـ عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

رواه أحمد، وأهل السنن وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدَّم في الدعوات.

والحديث يدلّ على أن الدعاء يُطلق على العبادة، وأنه أعلى وأرفع أنواعها وأشرفها، وبه تمّت السورة والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

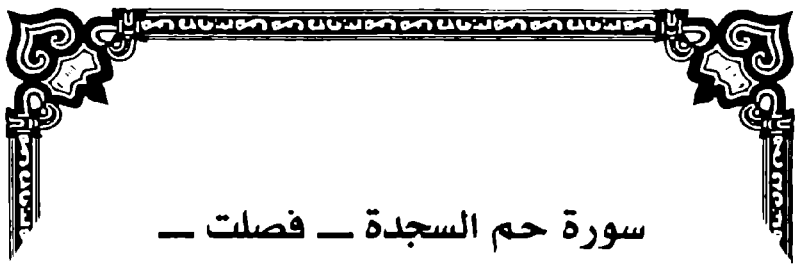

سورة حم السجدة ـ فصلت ـ

نزلت بعد ما قبلها، وآياتها أربع وخمسون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [٢٢]:

{٧٣١} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: اجتمع ثَقَفِيَّان وقُرشي عند البيت، فقال بعضُهم: الله يعلم ما نقول، وقال بعضهم: إذا أخفينا لم يعلم، وإذا جهرنا علم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٨٢)، وفي التوحيد رقم (٧٥٢١)، ومسلم في صفات المنافقين (١٧/١٢٢)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥١) بألفاظ.

{٧٣٢} ـ وعن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، قال: إنكم تدعون مُفْدَماً على أفواهكم بالفِدام، فأول شيء يُبينُ على أحدِكم فخِذُه وكَفُّه.

رواه أحمد (٥/٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥١)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٢٧٠، ٣٢٧١)، والحاكم (٢/١٨٧، ١٨٨) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده حسن، وهو صحيح لطريقين له.

قوله: مفدماً إلخ ـ بضم الميم وسكون الفاء ثم دال مفتوحة ـ أي: أفواهكم مشدودة لأن الفدام ـ بكسر الفاء ـ هو ما يشدّ به الكوز والإبريق من خرقة ونحوها، ومعناه: أنهم يمنعون من الكلام بأفواههم ويختم عليها لتتكلّم جوارحهم.

والآية والحديث يدلاّن على تكلّم الجلود والجوارح يوم القيامة، وهذا ليس بمستحيل في حقّ الله، فالإيمان به واجب، وتصديقه متحتّم والتكذيب به كفر، وها نحن أولاء الآن نشاهد الجمادات تتكلم وليست بجلود ولا بأجسام فيها حياة، فآمنا بالله وما جاء من عنده على ألسنة رُسُلِه صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [٣٠]:

{٧٢٣} ـ عن سفيان الثقفيّ رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله مُرْنِي بأمرٍ في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدَكَ، قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قل: آمنتُ بالله ثم استقِمْ**»، قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه. وفي رواية: «**قل: ربّي الله ثم استقِم**».

رواه أحمد (٤١٣/٣) و(٣٨٥/٤)، والترمذي في الزهد (٢٢٣٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢)، ورواه مسلم في الإيمان (٨/٢، ٩) مختصراً.

الاستقامة: هي الثبات على الإيمان وطاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الأقوال والأفعال والسلوك الحسن مع التخلّي عن الفواحش والذنوب... وهذا هو المطلوب من العبد، ولذا قالوا: كن طالب الاستقامة، لا طالب الكرامة، والحديث موافق للآية الكريمة، وأن من آمن بالله وما يتبع ذلك من كلّيات الإيمان ثم لزم طاعة الله ودام على ذلك فقد حاز كل خير، فلا يحتاج إلى شيء آخر يسأل عنه أهل العلم، وفي الحديث الحذر من سقطات اللسان، فإنه ذو حدّين فهو مصدر كل خير وشرّ، نسأل الله عزّ وجلّ الحفظ من آفاته، وأن يتفضّل علينا بالعفو والغفران.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [٣٧]:

فيه حديث أبي بكر: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده»**.

رواه البخاري وغيره، وقد تقدمت الإشارة إليه في الكسوف مع أحاديث أخرى، فارجع إليها.

وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الشورى

وهي ثلاث وخمسون آية، وقد امتازت بتلك الآية العظيمة التي هي روح التوحيد في النفي والإثبات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فمن اعترف بوجود الله ووحدانيته وأثبت له أسماءه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة ونزّهه عما لا يليق بذاته من سمات الحدوث والنقائص كان موحداً بريئاً من التعطيل والتشبيه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [٣]:

{٧٢٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجرسِ، وهو أشدُّه عليَّ، فيفْصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول**»، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.

رواه البخاري في بدء الوحي (٢٠/١)، ومسلم في الفضائل (٨٨/١٥) وغيرهما، ويأتي في السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

الصلصلة: هي الصوت، والجرس ـ بفتحتين ـ: هو الناقوس، فيفصم

من الثلاثي والرباعي أي: يقلع عني، وعيت أي: حفظت، ليتفصّد أي: ليسيل بالعرق.

للوحي معانٍ يطلق على الإشارة، وعلى الإلهام، وعلى ما ذكر هنا وله مراتب، ستأتي آخر السورة إن شاء الله تعالى، والحديث يدلّ على عظمة الوحي وثقله، وأنه لا يطيقه إلا من جعل الله تعالى فيه قوّة روحانيّة، وليس ذلك إلا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [٧]:

{٧٢٥} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفي يده كتابان، فقال: «**أتَدْرُونَ ما هذان الكتابان**»؟ قال: قلنا: لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال للذي في يده اليمنى: «**هذا كتابٌ من ربّ العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنّة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِل على آخرهم لا يُزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً**»، ثم قال للذي في يساره: «**هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً**»، فقال أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: فلأي شيء إذاً نعمل إنْ كان هذا الأمر قد فرغ منه، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا، فإن صاحبَ الجنّة يُختمُ له بعمل الجنّة، وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عمل**»، ثم قال بيده فقبضها ثم قال: «**فرغ ربكم عزّ وجلّ من العباد**»، ثم قال باليمنى فنبذها فقال: «**فريق في الجنّة**»، ونبذ باليسرى فقال: «**فريق في السعير**».

رواه أحمد (١٦٧/٢)، والترمذي في القدر (١٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (٤٥٢/٦، ٤٥٣) وسنده صحيح، ولذا حسّنه الترمذي وصححه.

في هذا الحديث الشريف أمور لا يعقلها البشر ولا تدركها العقول، فحسبنا الإيمان بما قال نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولكونه فوق مستوى العقول البشرية أنكره بعض المحدثين فضلاً عن غيرهم، وهو خطأ،

فإن لهذا الحديث مثلاً: الذاكرة، فهي حاملة لمحفوظات غير محصاة بحيث لو كتبت لجاءت في مجلّدات، ومثلاً آخر: وهو ما ظهر اليوم من أشرطة الحاسوب فيسجل في شريط صغير مئات المجلّدات من الكتب... وفي الحديث دليل على أن من كتب سعيداً أو شقياً لا يتبدّل أبداً. وقوله: سدّدوا أي: اطلبوا بأعمالكم السداد والقصد، وقاربوا أي: اتركوا الغلوّ والتقصير.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]:

{٧٣٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّتٍ أُمّهاتُهم شتّى، ودينهم واحدٌ»**.

رواه أحمد (٢/٤٠٦، ٤٣٧، ٤٦٢، ٤٦٣، ٥٤١)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٩٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/١١٩)، وأبو داود في السنّة (٤٦٧٥)، وابن حبان (١٤/٧٤، ٧٥، ٣١٧).

إخوة لعلاّت هم الأخوة لأب واحد من أُمّهات شتّى.

ومعناه أن أصل إيمان الأنبياء واحد لا يختلفون فيه وشرائعهم مختلفة. والدين المذكور في الآية هو أصوله من التوحيد ومتعلّقاته اتفاقاً.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [٢٣]:

{٧٣٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سُئل عن هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الآية، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: عجلت إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكن بطنٌ من بطون قريش إلا وله فيهم قرابةٌ، قال: إلا أن تَصِلُوا ما بَيْني وبينكم من القرابة.

رواه البخاري في المناقب وفي التفسير (١٠/١٨٥)، والترمذي في التفسير (٣٠٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥٣).

ومعنى الآية الكريمة لا أطلب منكم أجرة على التبليغ، وإنما أطلب منكم أن تودّوا قرابتي التي هي قرابتكم أيضاً، وقيل في الآية غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الآية [٣٠]:

{٧٣٨} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تصيبُ عبداً نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر**»، قال: وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ إلخ.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٣٨)، وهو وإن كان في سنده مجهول فإن له شاهداً عن الحسن مرسلاً رواه ابن أبي حاتم (١٠/٣٢٧٨) بسند صحيح، وله شاهد عن الإمام عليّ، يأتي في الرقاق وفي الباب آثار تؤيّده.

والآية والحديث يدلاّن على أن كل ما يصاب به الإنسان من نكبات وبلايا هو من كسبه وما عملت يداه من السقطات وذلك غالباً، وبهذا جاءت آيات أُخر في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

وهذا من لطف الله بعباده ورفقه بهم، فيكفّر عنهم ما يأتونه من ذنوب بما يصابون به وما يعفو عنه أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [٤١]:

{٧٢٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما علمت حتى دخلت عليَّ زينبُ بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت: يا رسول الله أحسبُكَ إذا قلبتُ لك بنتُ أبي بكر ذُرْبَعَتَيْهَا ثم أقبلتْ عليَّ، فأعرضتُ عنها حتى قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دُونَكِ فانْتَصِرِي**»، فأقبلتُ عليها حتى رأيتُها وقد يَبِسَ رِيقُها في فِيها ما تَرُدُّ عليَّ شيئاً، فرأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَتَهَلَّلُ وجهُه.

رواه أحمد وابنه في الزوائد (٩٣/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٨)، والنسائي في الكبرى (٤٥٣/٦)، وابن ماجه (١٩٨١) بسند صحيح.

الانتصار عند الظلم لا مانع منه كما في الآية، وكما في الحديث الشريف من الإذن النبويّ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [٥١]:

{٧٣٠} ـ فيه حديث جابر: «**ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب**» إلخ، رواه أحمد، والترمذي وابن ماجه وغيرهم، ويأتي في الجهاد، وفيه حديث عائشة وغيرها، ويأتي ذلك مستوفى في السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

للوحي أنواع ثلاثة: وحي ويشمل الرؤيا والإلهام، أو من وراء حجاب كما كلّم موسى ونبيّنا ليلة الإسراء عليهما الصلاة والسلام، أو بواسطة جبريل، وهذا إما أن يلقى في روعه ما يؤمر بإلقائه، أو يأتيه في صفة رجل فيحدثه بما يأتي به من عند الله عزّ وجلّ، والله تعالى أعلم.

وبهذا تمّ الكلام على سورة الشورى، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

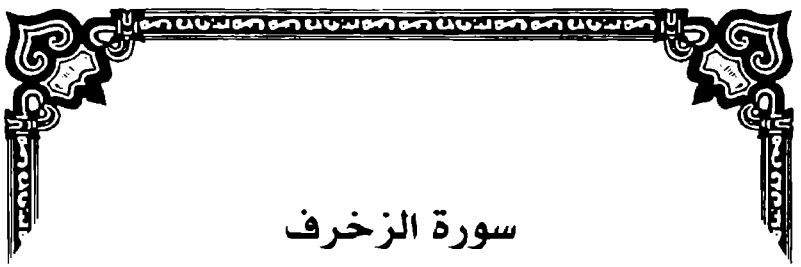

سورة الزخرف

آياتها تسع وثمانون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [١٢ ـ ١٤]:

{٧٣١} ـ عن عليّ بن ربيعة رحمه الله تعالى قال: شهدت عليّاً رضي الله تعالى عنه أُتِي بدابّة ليَركبَها فلمّا وضع رِجْلَه في الرِّكاب، قال: «بسم الله»، فلما استوى على ظهرها قال: «الحمد لله»، ثم قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»، ثم قال: «الحمد لله» ثلاثاً «الله أكبر» ثلاثاً «سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صنع كما صنعتُ، ثم ضحك فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: **«إن ربَّك ليَعْجَبُ من عبدِه إذا قال: ربِّ اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: عَلِمَ عَبْدي أنّه لا يغفر الذنوب غيري»**.

رواه أحمد (١/٩٧، ١١٥، ١٢٨)، والطيالسي (١٣٢)، وأبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٢٢١)، والنسائي في الكبرى (٥/٤٨)،

وابن حبان (٦/٤١٤، ٤١٥)، والحاكم (٢/٩٨، ٩٩)، وحسّنه الترمذي وصححه، وهو صحيح على شرط الشيخين عند بعضهم.

قوله: وما كنّا له مقرنين أي: ما كنّا لهذا المركوب مطيقين قصره وإذلاله حتى نركبه لولا تسخير الله إيّاه لنا، والمراد بالأزواج في الآية أصناف المخلوقات من الحيوان والنبات وغير ذلك، وفي الحديث مشروعيّة قول هذه الأذكار والأدعية، وتقدم بسط ذلك في الأذكار والأدعية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٥]:

{٧٣٢} ـ في حديث عمر رضي الله تعالى عنه في قصة اعتزاله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساءه في مَشْرُبَة ـ أي: غرفة ـ ودخول عمر عليه وقوله له: وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنتَ رسول الله وصفوته... فقال: **«يا ابن الخطاب ألاَ ترْضَى أن تكونَ لَنا الآخِرةُ ولهُم الدنيا»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٨٤) وغيره، ومسلم في الطلاق (١٠/٨٢)، ويأتي مطوّلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

{٧٣٣} ـ وفي حديث حذيفة في نهيه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الشرب في آنية الذهب والفضّة ولبس الحرير والديباج، وقوله: **«هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»**.

رواه البخاري في الأطعمة وفي اللباس (٥٨٣٧)، ومسلم في اللّباس (٢٠٦٧) وغيرهما، ويأتي في اللباس. وفي الحديثين أن متاع الدنيا لا عبرة به لأنه شيء ضئيل، وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون همّه دائماً الآخرة، وأن يكون راضياً بها دون هذه الحياة.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [٥٨]:

{٧٣٤} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما ضَلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُوتُوا الجدَل**»، ثم تلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية.

رواه أحمد (٥/٢٥٢، ٢٥٦)، والترمذي (٣٠٣٩)، وابن ماجه (٤٨)، والحاكم (٢/٤٤٧) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم.

الجَدَل ـ بفتحتين ـ: الخصومة بالباطل، والحديث يدلّ على أن من أراد الله به الضلال صرفه إلى كثرة الجدل، ففيه ذمّ الجدال والخصام مطلقاً. وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي: ما قال لك هؤلاء الكفار هذا القول في حق عيسى إلاّ على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحق، فهم قوم شديدو الخصومة واللّجاج بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [٧٧]:

{٧٣٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء، قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فحانت الصلاة وأَمَمْتُهم فلما فرغتُ من الصلاة، قال لي قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار، فسلّم عليه فالتفتَ إليَّ فبَدأني بالسلام**».

رواه مسلم في الإيمان رقم (١٧٢).

القرآن يدلّ على أن مالكاً خازن النار، أي: رئيس ملائكة النار وخَزنتها كما يدلّ الحديث على ذلك أيضاً... وبه تمّت سورة الزخرف، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الدخان

وآياتها تسع وخمسون، وامتازت بذكر الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمرٍ حكيم.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [١٠]:

{٧٣٦} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: إن قريشاً لما استعصتْ على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الآية.

رواه الشيخان وغيرهما، وتقدم في الفرقان وفي الروم مطوّلاً.

السنة: هي القحط والجدب، والحديث يدلّ على أن الدخان المذكور في القرآن هنا هو ما أصاب كفار قريش، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة. نعم هناك دخان آخر سيكون من أشراط الساعة، وسيأتي ذلك في الفتن والأشراط إن شاء الله تعالى.

{٧٣٧} ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كنا نمشي مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فمرّ بابن صيّادٍ، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد خبَّأْتُ لك خبْأً**»، فقال: دُخٌّ، فقال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إخسأ فلنْ تَعْدُو قدرك»**، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله دعني أضرب عنُقَه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«دعْه فإن يكن الذي تخاف لن تستطيع قتله»**.

رواه أحمد (٣٨٠/١)، ومسلم في الفتن (٤٧/١٨، ٤٨)، وابن حبان (١٨٥/١٥، ١٨٦)، والطحاوي في مشكل الآثار (٩٩/٤).

ابن صياد هذا جاءت فيه أحاديث تأتي في الفتن، وحديثه هذا يشير إلى أن الكهنة يتلقون عن الشياطين كلمات غير كاملة ولا مفهومة، وكان هذا الرجل معه رئي من الجنّ، ولمّا لقيه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد كانت نزلت عليه سورة الدخان أضمر له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في نفسه السورة، وقال له: إني قد خبأت لك خبأً فلم يهتد للآية كاملة إلا لهذا اللفظ: دخ الناقص، ولهذا قال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إخسأ فلن تعدو قدرك»** أي: اذهب طريداً فلن تعدو القدر الذي يدرك الكهان من الاهتداء إلى بعض الشيء، وما لا يصل إلى بيان أُمور الغيب. وانظر شرح مسلم للنووي (٤٦/١٨، ٤٩)، ويأتي مزيد لهذا في الفتن إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [٥٦]:

{٧٣٨} ـ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يقال لأهل الجنّة: إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً، وإن لكم أن تَعِيشوا فلا تمُوتوا أبداً، وإن لكم أن تَنَعَّمُوا فلا تَبْأَسُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبّوا فلا تَهرمُوا أبداً»**.

رواه أحمد (٣١٩/٢) ج (٣٨/٣)، ومسلم في الجنّة (١٧٥/١٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٣١).

الآية الكريمة نصّ في أن أهل الجنّة لا يموتون، وبذلك جاءت السنّة

أيضاً، كما تقدم في حديث ذبح الموت. وفي حديث الباب أن أهل الجنّة في أمْنٍ من السّقم، والبُؤس، والهَرَم، والموت، فهم شبابٌ مُنْعَمُون مُخَلَّدون.. وبهذا تمّ تفسير سورة الدخان، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

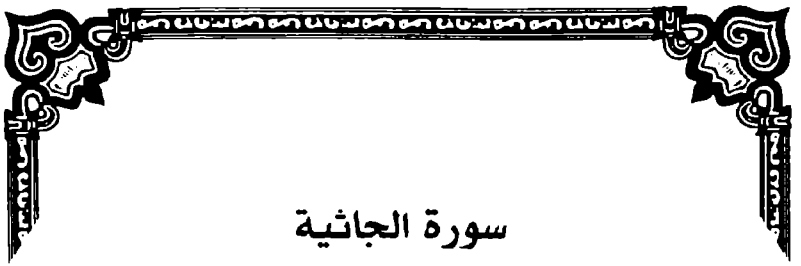

سورة الجاثية

وآياتها سبع وثلاثون.

قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [٢٤]:

{٧٣٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تَسُبّوا الدَّهْرَ، فإن الله هو الدهر، قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الخير أقلّبُ الليل والنهار**».

رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦) وفي الأدب وفي التوحيد (٧٤٩١)، ومسلم في الأدب (٢٢٤٦)، وأبو داود في الأدب (٥٢٧٤) وغيرهم.

ومعنى الحديث أن الله عزّ وجلّ خالق الدهر، وليس المراد أنه مُسَمّى بالدهر كما ذهب إليه ابن حزم، وعلى ذلك فمن سبّ الدهر فإنما يسبّ الله لأنه الخالق لما يقع في الدهر، ولعلّه يأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

أمّا الآية الكريمة فتشير إلى ما كان يعتقده الكفار الدهريّون من أنه لا حياة بعد الموت، ولا بعث ولا حساب، وأنه ليس هناك قابض للأرواح وإنما يهلكهم ويؤثر فيهم مرور الزمان. وبهذا تمّت سورة الجاثية، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الأحقاف

هذه السورة الكريمة هي آخر الحواميم وآخر السور المكية المتوالية، وهي نحو من إحدى وعشرين سورة لم يتخلّلها من المدنيات إلا سورة الأحزاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [٩]:

{٧٤٠} ـ عن أم العلاء وكانت من المبايعات رضي الله تعالى عنها قالت: طارَ لهم في السُّكَنِ حيث اقْتَرَعَتْ الأنصار على سُكْنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه عندنا فمرَّضناه حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثْوابه، فدخلَ علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب شَهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وما يُدريك أن الله أكرمه**»؟ قالت: فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما هو فقد جاءه اليقين من ربّه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعلُ بي**»، قالت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، فأحزنني ذلك فنمت فأُريتُ لعثمان عيناً تجري، فجئت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبرته ذلك، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ذاكَ عمَلُه**»، وفي رواية: «**ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم**».

رواه أحمد (٤٣٦/٦)، والبخاري في الهجرة النبوية (٢٩٦/٨) وفي الجنائز (٣٥٨/٣) وفي التعبير (٤٩/١٦) وفي مواضع وهو من أفراده.

في الحديث فضل عثمان بن مظعون، وكان أوّل ميّتٍ بالمدينة من المهاجرين، ودُفن بالبقيع، وقوله: «والله ما أدري ما يُفعل» إلخ، مع الآية الكريمة كان ذلك قبل أن يخبره الله بأنه أوّل من يدخل الجنّة، وأنه سيد الناس وصاحب المقام المحمود وصاحب الوسيلة... وانظر لهذا الموضوع تفسير ابن كثير لهذه الآية، وفتح الباري، أبواب الهجرة النبوية (٣٥٨/٨).

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [١٠]:

{٧٤١} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنّة إلا لعبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

رواه البخاري في مناقب عبدالله بن سلام (١١٩/٨).

{٧٤٢} ـ وعن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: انطلق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً وأنا معه حتى دخلنا كَنِيسَة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكَرِهُوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا معشر اليهود أَرُوني اثني عشر رجلاً يشهدوا أن لا إلـه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه**»، قال: فسكتوا ما جاوبه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: «**أبيتم فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبيّ المصطفى آمنتم أو كذبتم**»، ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد، قال: فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبيّ الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردّوا عليه

قوله، وقالوا فيه شرّاً، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كذبتم لن يُقبل قولُكم أمّا آنفاً فتُثنُون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن أكذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم**»، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنا وعبدالله بن سلام، وأنزل الله عـــزّ وجـــلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

رواه أحمد (٢٥/٦)، والطبراني في الكبير (٤٦/١٨، ٤٧)، وابن حبان (١١٨/١٦، ١٢٠) مع الإحسان، والحاكم (٤١٥/٣، ٤١٦) وسنده صحيح، وأورده النور في المجمع (١٠٥/٧، ١٠٦) برواية الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح.

في الحديث بيان الشاهد الإسرائيلي المذكور في الآية، وأنه عبدالله بن سلام وأن الآية نزلت فيه وبسببه، غير أن هذا يعارضه أن السورة مكية وقصة ابن سلام مع اليهود بالمدينة، وقد يُحمل على أن هذه الآية بخصوصها نزلت بالمدينة، والله تعالى أعلم.

وقول سعد: ما سمعت إلخ، هذا لا ينفي المبشرين الآخرين وهم كثير جمعتهم في كتاب «المبشرون بالجنة» طبع مراراً، والحمد لله على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ إلخ [١٧]:

{٧٤٣} ـ عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمٰن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما شيئاً فقال: خُذُوه، فدخل بيتَ عائشة رضي الله تعالى عنها فلم يَقْدِرُوا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٩٧، ١٩٨) وهو من أفراده عن مسلم، ورواه النسائي في الكبرى (٦/٤٥٩)، والحاكم (٤/٤٨١) وفيه: لما بايع معاوية لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبدالرحمٰن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب والله ما هو به، ولو شئت أن أُسَمي الذي أنزلت فيه لسمّيتُه، ولكن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعَنَ أبا مَرْوَان، ومروانُ في صُلْبِه، فمَرْوَان فضض من لعنة الله تعالى، وصححه الحاكم على شرطهما مع انقطاع فيه، لكن الحديث صحيح لطريق آخر له رواه البزار، قال النور في المجمع (٥/٢٤١): وإسناده حسن.

عبدالرحمٰن بريء مما رماه به مروان، فقد كان مسلماً صالحاً، لكن أبا مروان الحكم بن العاص كان ملعوناً من قبل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ومروان فرع من أثر تلك اللعنة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ الآية [٢٤]:

{٧٤٤} ـ فيها حديث عائشة: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا رأى ريحاً قام وقعد وأقبل وأدبر، قالت: فقلت له، فقال: «**يا عائشة ما يُؤْمِنُنِي أن يكون كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**» الآية.

الحديث رواه الشيخان وغيرهما، وتقدم في صلاة الكسوف.

وفيه أنه ينبغي للإنسان إذا رأى ريحاً أن يخاف ويفزع ويذكر الله تعالى ويقوم ويقعد حتى تذهب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ

إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [٢٩ ـ ٣٣]:

{٧٤٥} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: هَبَطُوا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلَة، فلمّا سمعوه قالوا: أنْصِتُوا، قال: صَهْ، وكانوا تسعة أحدهم زَوْبَعَة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية.

رواه الحاكم (٤٥٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي، ويأتي في الجنّ حديث ابن عباس في ذلك مطوّلاً، وهو في الصحيحين.

{٧٤٦} ـ وعن مسروق رحمه الله تعالى قال: سألتُ ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من آذن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟ قال: أَذَنَتْهُ عنهُم شجرةٌ.

رواه البخاري في البعثة النبويّة (١٧٢/٨)، ومسلم في الصلاة.

قوله: بطن نخلة: هو موضع بينه وبين مكّة ليلة لجهة الطائف، وقوله: أذنته أي: أعلمته، وما في الآية والحديثين يدلّ على أن الجنّ استمعوا القرآن وآمنوا به ولم يرهم في هذه المرة، وفي ذلك بيان أن الجنّ عالم يعيشون معنا، وأنهم مكلّفون ومخاطبون بالشرائع كالإنس، وقد ألف الناس في حياتهم وشؤونهم، فمن أنكرهم كان جاهلاً وكافراً. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾ أي: وجهنا إليك وبعثنا جماعة من الجنّ نحوك...

وبهذا تمّت سورة الأحقاف، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة محمد
صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم

من هذه السورة بدىء في الكلام على بعض السور المدنية، وقد جاءت هٰهنا ثلاث سور مدنيّات متواليات هذه السورة، والفتح، والحجرات ثم بعدها توالت سور مكّيات. هذه السورة ثمان وثلاثون آية، وأهدافها التحدّث عن الأحكام التشريعية.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [٤]:

{٧٤٧} ـ عن سلمة بن نُفَيْل رضي الله تعالى عنه أنه أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**إني سبّمْتُ الخيل وألْقَيتُ السلاحَ ووضعتُ الحربُ أوزارها**»، قلت: لا قتال، فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغُ اللهُ قلوبَ أقوام فيُقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله عزّ وجلّ وهم على ذلك، ألا إنّ عُقْر دار المؤمنين الشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**».

رواه أحمد (٤/١٠٤)، والنسائي في كتاب الخيل من المجتبى (٦/١٧٨، ١٧٩)، والطبراني في الكبير (٧/٥٩، ٦٠، ٦١) وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على أن وضع الحرب أوزارها لا يزال، وأن القتال مشروع وواقع حتى يأتي أمر الله عزّ وجلّ. وذلك لا يكون إلاّ بعزّة الإسلام

والمسلمين واندثار الكفر والكفّار، وذلك سيكون بإذن الله أيام سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، فالحديث الشريف نصّ في محل النزاع بين المفسّرين. والحديث متواتر بلفظه الأوّل، فهو من أحاديث الطائفة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٧٤٨} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه في حديثه عن غزوة أحد، وفيه قول أبي سفيان: ألا لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أجيبُوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**».

رواه أحمد (٤/٢٩٣)، والبخاري في الجهاد (٣٠٣٩) وفي المغازي (٣٩٨٦، ٤٥٦١)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/١٩٠)، وابن حبان (١١/٤٠، ٤١)، وابن سعد (٢/٤٧)، ويأتي في السيرة مطوّلاً إن شاء الله تعالى.

وفي الآية والحديث بيان أن الله عزّ وجلّ مولى المؤمنين، أي: وليّهم وناصرهم وسيّدهم، بينما الكفار لا مولى لهم، بل أولياؤهم الجمادات من الأوثان والأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تضرّ ولا تنفع.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]:

{٧٤٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما خرج من مكّة قال لها: «**ما أطيبك من بلدٍ وأحبّك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك**».

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٩٠) بتهذيبي، وابن حبان (١٠٢٦) بالموارد، وحسّنه الترمذي وصححه.

{٧٥٠} ـ وعن عبدالله بن عدي بن حمراء رضي الله تعالى عنه قال:

استغفر لكل مؤمن ومؤمنة من أُمّته، وفيه مزية لهذا الصحابي حيث أراه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الخاتم واستغفر له.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [٢٣]:

{٧٥٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«خلق الله الخَلْق فلما فرغ منه قامت الرَّحِمُ فأخذتْ، فقال لها: مَهْ، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألاَ تَرْضَين أن أصلَ من وصلكِ وأقطعَ من قطعَكِ، قالت: بلى يا ربّ، قال: فذاك»**، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٠١، ٢٠٢) وفي الأدب وفي التوحيد، ومسلم في البرّ والصلة (٢٥٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١)، وابن جرير (٢٦، ٥٦) وغيرهم.

«قامَتْ الرحم»: هو على ظاهره، فالله قادر على أن يجعل للمعاني أعراضاً وأجساداً فتتكلم، ولهذا أمثلة كثيرة جاءت في السنّة. وقوله: فأخذت هكذا بحذف المفعول، وجاء في رواية بحقْوِ الرحمٰن فحَذَفَها بعضُ الرواة لإشْكَالِهِ عنده ولا إشكال في ذلك، فهي كحديث: **«العظمة إزاري والكبرياء ردائي»**، والله تعالى ليس كمثله شيء.

«والحقو»: الإزار ومعقده، وفي الآية والحديث وعيد شديد لقاطع الرحم، ويأتي ذلك في البرّ والصلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ الآية [٣٩]:

{٧٥٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: تلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية يوماً: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ الآية، قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم على منكب سلمان، ثم قال: **«هذا وقومه»**، زاد في رواية: **«والذي نفسي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإيمانُ منوطاً بالثُّريا لتناوَلَه رجال من فارِس»**.

رواه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم (٤٥٨/٢) بسند صحيح على شرط مسلم، وهو في الصحيحين بنحوه، وسيأتي ذلك في سورة الجمعة.

قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ أي: تدبروا وتعرضوا عن طاعة الله تعالى يأت بقوم غيركم، بدلكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ﴾ في التولّي.

وفي الحديث فضل مُسْلِمي العجم من أبناء فارس، وهو إشارة إلى ما ظهر فيهم من كثرة علماء الحديث وحملة السنة وغير ذلك. وبهذا تمّت سورة محمد، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الفتح

السورة الكريمة من السور العظيمة المدنية نزلت مرجع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الحديبية في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة حيث صدّه المشركون عن البيت، وعقدوا معه الصلح على أن يرجع ويأتي العام القابل، فنحر هديه وحلق رأسه ورجع، فلما كان بالطريق نزلت السورة الكريمة تتحدث عمّا كان من أمره وأمرهم، وهي تسع وعشرون آية، وهي تمتاز بذكر بيعة الرضوان، والفتح المبين على المسلمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [١]:

{٧٥٦} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يسير في بعض أسفاره، وكان عمر يسير معه ليلاً، فسأله عُمر عن شيء، فلم يُجِبْه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم سأله فلم يُجِبْه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر: ثَكلتْكَ أمُّك يا عمر نَزَرْتَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمتُ أمام المسلمين وخَشِيتُ أن ينزل فيّ قرآنٌ، فما نَشِبتُ أن سمعتُ صارخاً يصرُخ بي قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، وجئتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسلمتُ، فقال: **«لقد أنزلتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمسُ»**، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

رواه أحمد (٣١/١)، والبخاري في المغازي (٤١٧٧)، وفي التفسير

(١٠/٢٠٤، ٢٠٥)، وفي فضائل القرآن، والترمذي (٣٠٤٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١).

{٧٥٧} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أنزلت على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها**»، فتلاها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: هنيئاً مريئاً رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لقد بيّن لك الله ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى الآية بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.

رواه أحمد (٣/٢١٥، ١٢٢، ١٣٤، ٢٥٢)، والبخاري في المغازي (٤١٧٢)، وفي التفسير (٤٨٣٤)، ومسلم في الجهاد (١٧٨٦)، والترمذي (٣٠٤٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٢)، وابن حبان (٢/٩٢، ٩٣).

قوله: ثكلتك أي: فقدتك أمك، وقوله: نزرت أي: ألححتَ عليه إلحاحاً، وقوله: نشبتُ أي: لبثت، وفي الحديثين فضل سورة الفتح وذلك لما احتوت عليه من البشارات لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولأصحابه الحاضرين معه، وأن الله تعالى رضي عنهم ووعدهم بدخول الجنّة وتكفير ذنوبهم، ويا لها من بشارة فتلك أمنية كل مؤمن.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [١٨]:

{٧٥٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أنتم اليوم خيرُ أهل الأرض**».

رواه البخاري في غزوة الحديبية وفي التفسير (٢٨٤٠ ج ٢٠٩/١٠)، ومسلم في الإمارة (١٨٥٦) وغيرهما.

{٧٥٩} ـ وعنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يدخلُ النارَ أحدٌ بايعَ تحت الشجرة**».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي، ويأتي في الفضائل.

فيها فضل أهل بيعة الرضوان، وأنهم كانوا خير أهل الأرض، وأن أحداً منهم لا يدخل النار، وهذا وعد من نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو وعد لا يتخلف لأنه من عند الله، وكان من جملة هؤلاء: الخلفاء الثلاثة، وباقي العشرة الذين يجعلهم الشيعة الروافض أئمّة النواصب، ويصبون عليهم اللّعنات والشتائم في كل المناسبات.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ الآية [٢٤]:

{٧٦٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن ناساً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من جبل التنعيم عند صلاة الفجر، فأخذهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فعَفَى عنهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

رواه مسلم في الجهاد (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٤٦٤/٦) كلاهما في التفسير.

في الحديث بيان سبب نزول هذه الآية، وفيها امتنان من الله تعالى على الصحابة حيث أنعم عليهم فكفّ أيدي الكفار عنهم، فلم يسلطوا عليهم بل ظفروا بهم وأسروهم، فعفى عنهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويأتي بسط ذلك في السِّيَر.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [٢٧]:

فيه حديث المسور بن مخرمة الطويل في الصلح، ويأتي في السِّيَر والمغازي بحول الله، وبهذا تمّت سورة الفتح، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الحجرات

هي من السور المدنيات، وهي تعنى بالأخلاق والتربية الإسلامية وتطهير المجتمع المسلم من أدران الفواحش الاجتماعية، وهي مع قصرها جمعت من الفضائل ومكارم الأخلاق ما لم تجمعه سورة سواها، حتى أطلق عليها بعض العلماء سورة الأخلاق، وهي ثمان عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [١ ـ ٥]:

{٧٦١} ـ عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قدم ركبٌ من بني تميم على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أمّر القعقاع بن مَعْبَد، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعتْ أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسْمِعُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمَهُ.

رواه أحمد (٤/٤، ٦)، والبخاري في المغازي وفي التفسير (٢١٢/١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥) وفي الاعتصام، والترمذي في التفسير (٣٠٥١)، والنسائي في الكبرى (٤٦٩/٦)، وفي المجتبى رقم (٥٣٨٦).

كان سبب نزول الآيات هم بنو تميم حين قدموا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأوائل الآيات جاءت بسبب تجادل الشيخين رضي الله تعالى عنهما بين يدَيْ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والكلام على غَضّ الصوت جاء في شأن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، ولهذا قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله بعد هذه الآية حتى يستفهمه، وذلك لغضّه صوته وتأدبه بعد نزول الآية، وقولة ابن الزبير هذه رواها البخاري في التفسير. أما المناداة من وراء الحجرات، فجاءت في شأن بني تميم، وهم الذين نادوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو قائل وسط النهار، فجعلوا ينادونه: يا محمّد اخرج إلينا أين أنت؟

{٧٦٢} ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية، قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن حَمْدِي زَيْنٌ، وأن ذَمّي شَيْنٌ، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ذاك الله عزّ وجلّ»**.

رواه الترمذي (٣٠٥٧)، والنسائي في الكبرى (٤٦٦/٦)، وابن جرير (١٢١/٢٦) وسنده صحيح، ولا يضرّ السبيعي هنا، فإن للحديث شاهداً عن الأقرع بن حابس، وهو الذي نادى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقال له هذه الكلمات، وحديثه هذا عند أحمد (٤٨٨/٣ ج ٢٩٣/٦، ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (٨٧٨) وسنده صحيح.

الحجرات جمع حجرة: وهي هنا بيوت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وزوجاته الطاهرات. وقوله: حمدي إلخ يعني: أن من مدحته

فهو المحمود ومن ذممته فهو المعيب المشين، والشين ـ بفتح الشين وسكون الياء ـ: هو العيب خلاف الزين، ولما كان مخطئاً في تلك الكلمات عرّفه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأن المتّصف بذلك في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ.

{٧٦٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى ﴿تَشْعُرُونَ﴾ جلس ثابتُ بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحْتَبَسَ عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سعدَ بنَ معاذ فقال: **«يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى»**؟ قال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«بل هو من أهل الجنّة»**، وفي رواية: قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنّة، فلما كان يوم اليمامة وكان ذلك الانكشاف لبس ثوبه وتحنّط وتقدم فقاتل حتى قُتل.

رواه أحمد (١٤٦/٣، ٢٨٧)، والبخاري في المناقب (٣٦١٣) وفي الجهاد، ومسلم في الإيمان رقم (١٨٧) وغيرهم. في الحديث فضل هذا الصحابي وأنه من أهل الجنّة قطعاً، وقد جاء في رواية عند الحاكم (٢٣٤/٣) أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له: **«أما ترضى أن تعيش حميداً وتُقتلَ شهيداً وتدخل الجنّة»**، وصححه الحاكم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية [٦]:

{٧٦٤} ـ عن الحارث بن ضرار الخزاعي والد جويرية أم المؤمنين

رضي الله تعالى عنهما، قال: قدمت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررتُ به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، قلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظنّ الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عزّ وجلّ ورسوله، فدعا بسروان قومه فقال لهم: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الخُلْفُ ولا أرى حُبِسَ رسولُ الله إلا من سخطة كانت، فانْطَلِقُوا فنأتي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الوليدَ بن عقبةَ إلى الحارث ليقبضَ ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ فرجع فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث، وفصل من المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتّةً ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**منعت الزكاة وأردت قتل رسولي**»، قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسولِ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خَشِيتُ أن تكون كانت سخطةٌ من الله عزّ وجلّ ورسوله، قال: فنزلت الحجرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ

نَدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

رواه أحمد (٢٧٩/٤)، وابن أبي حاتم (٢٣٠٣/١٠) قال في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات، وجوّده السيوطي في الدرّ المنثور، وللقصّة طرق. انظر ابن جرير (١٢٣/٢٢، ١٢٤، ١٢٥). لا خلاف بين المفسّرين أن الآية نزلت بسبب الوليد بن عقبة، وهو ابن أبي مُعَيْط مات والده كافراً وأسلم الوليد يوم الفتح، وولاّه أخوه لأمّه سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه الكوفة، وكان شرّاباً للخمر، وصلّى بالناس مرة الصبح أربع ركعات، وقال لهم: أزيدكم؟ فرفع أمره إلى سيدنا عثمان فأمر بحدّه وعزله، ثم سكن بعد الرقة. قال ابن عبدالبرّ: خبره في صلاته بالناس الصبح أربعاً مشهور من رواية الثقات. وقصة حدّه وجلده في صحيح البخاري. والآية الكريمة أصل أصيل وقاعدة عظيمة من قواعد الدين ألا وهو وجوب التثبّت في نقل الأخبار، ورواية الأحاديث النبويّة وأداء الشهادة، وأن الفاسق لا تُقبل روايته ولا شهادته، كما لا يُعمل بخبره مطلقاً، بل لا بدّ من العدالة وهي معروفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [٧]:

{٧٦٥} ـ عن أبي نضرة رحمه الله تعالى قال: قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ إلخ، فكيف بكم اليوم.

رواه الترمذي (٣٠٥٤) وحسّنه وصححه.

العَنَت ـ بفتحتين ـ أصله التعب، والمراد به الحرج أو مطلق المشقّة.

ومعنى الآية: لو أطاع رسول الله الناس في أكثر ما يقترحون عليه أو يحبون لحصل لهم تعب وحرج.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [٩]:

{٧٦٦} ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطب يوماً ومعه على المنبر الحسنُ بن عليّ رضي الله تعالى عنهما، فجعل ينظر إليه مرةً وإلى الناس أخرى، ويقول: **«إن ابني هذا سَيِّدٌ ولعلّ الله تعالى أن يُصْلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**.

رواه أحمد (٣٨/٥، ٤٤، ٤٩)، والبخاري في الصلح (٢٧٠٤) وفي المناقب (٣٦٢٩، ٣٧٤٦) وفي الفتن (٧١٠٩)، وأبو داود في السنة (٤٦٦٢)، والنسائي في الجمعة، والترمذي في المناقب (٣٥٤٥).

السيّد: من فاق أقرانه وأهل زمانه في خصال الخير، وقد يطلق على غيره مجازاً.

وهذا الحديث من أعلام نبوّته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقد حقّق الله تعالى ما أخبر به وذلك بعقد الصلح مع معاوية فحُقِنَتْ بذلك دماءُ المسلمين التي كانت على وشكِ الإراقة فرضي الله تعالى عنه وسلم عليه حيث زهد في الملك لمصلحة المسلمين وسدّ باب الفتنة.

{٧٦٧} ـ وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قيل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: لو أتيتَ عبدالله بن أبي، فانطلق إليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وركب حماراً فانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سَبِخَةٌ، فلما أتاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إليك عنّي، والله لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك، فقال رجل من الأنصار: والله لحِمارُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أطيبُ ريحاً منكَ، فغَضِبَ لعبدالله رجلٌ من قومه، قال: فغضِبَ لكل واحدٍ منهما أصحابُه، فكان بينهما ضربٌ بالجريد والنِّعال والأيْدي، فبلغنا أنها نزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾.

رواه البخاري في الصلح (٢٦٩١)، ومسلم في السير (١٥٩/١٢)، وقد تقدم في سورة آل عمران حديث أُسامة في ذلك مطوّلاً فارجع إليه، وفي الحديث بيان سبب نزول هذه الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [١١]: .

{٧٦٨} ـ عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل منّا يكون له الإسمان والثلاثة، فيُدْعَى ببعضها فعسَى أن يَكْره قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، وفي رواية: وليس أحدٌ إلا له لقبٌ أو لقبان، قال: فكان إذا دعي بلقبه، قلنا: يا رسول الله إن هذا يكره هذا.

رواه أحمد (٦٩/٤ ج ٣٨٠/٥)، وأبو داود (٤٩٦٢)، والترمذي (٣٠٥٣)، والنسائي في الكبرى (٤٦٦/٦)، وكذا البخاري في الأدب المفرد (٣٣٠)، وابن حبان (١٧٦١) بالموارد، والحاكم (٤٦٣/٢) و(٢٨١/٤، ٢٨٢)، وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

التنابز بالألقاب: التنادي بالأسماء المكروهة للإنسان، وذلك محرم بنصّ الآية الكريمة، وأنه فسوق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]:

{٧٦٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خطب الناس يوم فتح مكّة، فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهبَ عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تَقِيٌّ كريم على الله، وفاجر شقيٌّ هَيِّنٌ على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من التراب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾**» الآية.

رواه أحمد (٥٢٤/٢)، والترمذي (٣٠٥٥)، وابن أبي حاتم (٣٣٠٦/١٠)، والحديث صحيح لطرقه وشواهده، يأتي بعضها في الأدب إن شاء الله تعالى.

عُبِّيَّة - بضم العين المهملة وكسر الباء الموحدة المشدّدة ثم ياء مفتوحة مشدّدة -: هي النخوة والكِبْر. وما ذكر في الحديث موافق للآية، فإنه لا عبرة بالأشخاص ولا بالأموال... وإنما العبرة بالإيمان والدين والتقوى لا غير.

{٧٧٠} - وعن سمرة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«الحَسَبُ المالُ، والكرَمُ التقوى»**.

رواه أحمد (١٠/٥)، والترمذي (٣٠٥٦)، وابن ماجه (٤٢١٩)، والحاكم (١٦٣/٢) و(٢٢٥/٤)، وسنده صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه.

الحديث مبيّن للكرم في الآية، وأن المراد به تقوى الله عزّ وجلّ، وأن الحسب عند أهل الدنيا هو المال، فمن لا مال له لا حسب له عندهم.

وبه تمّ الكلام على الحجرات، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

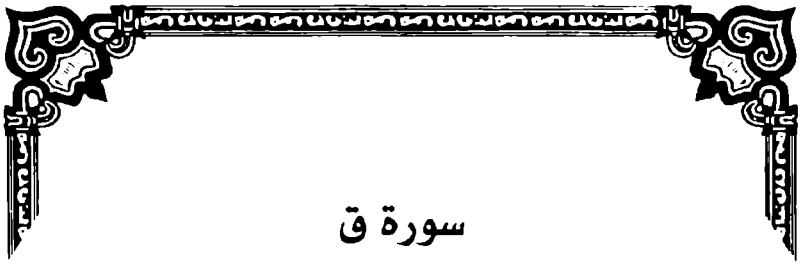

سورة ق

وهي أول سورة من سور المفصل، وآياتها خمس وأربعون.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [٣٠]:

{٧٧١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تزالُ جهنّم يُلْقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يَضَعَ ربُّ العِزّة قدمَه فيها فينْزوي بعضُها إلى بعض، وتقول: قط، قط، وعزّتك وكرمك**».

رواه أحمد (٣/١٣٤، ١٤١، ٢٣٠، ٢٣٤)، والبخاري في التفسير (١٠/٢١٧) وغيره، ومسلم في صفة جهنم (١٧/١٨٣، ١٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٧)، ونحوه في الصحيحين عن أبي هريرة.

قوله: قط قط ـ بفتح القاف وسكون الطاء ـ أي: حسبي، وقوله: ينزوي أي: يجتمع، وينضم.

الحديث من أحاديث الصفات يمرّ كما جاء من غير تشبيه ولا تعطيل. وفي الآية والحديث أن جهنم ستتكلم، وهذا لا استحالة فيه، فإن الآخرة على خلاف الدنيا، فحسبنا الإيمان بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [٣٩]:

{٧٧٢} ـ وعن جرير رضي الله تعالى عنه قال: كنّا عند رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فجعلنا ننظر إلى القمر ليلة البدر، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أما إنكم تنظرون إلى ربكم تبارك وتعالى كما تنظرون إلى القمر لا تُضامُون في رؤيته، فإن استطعتُم أن لا تُغلبوا على صلاتين صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها»**، وتلا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٢٠)، ومسلم في المساجد (٥/١٣٤) وغيرهما.

الحديث بيّن أن المراد بالتسبيح في الآية قبل طلوع الشمس وقبل الغروب هما صلاتي الصبح والعصر. وبه تمّت سورة قٓ، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الذاريات

وهي مكّية، وآياتها ستون.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [١٨]:

{٧٧٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أقربُ ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعتَ أن تكون ممّن يذكر الله في تلك الساعة فكن»**.

رواه الترمذي في الأدعية (٣٣٤٨) بتهذيبي وحسّنه وصححه.

هذا الوقت من مظانّ الاستجابة ووقت التجلّيات الإلٰهيّة، ولذا مدح الله المتّقين باستغفارهم فيه، جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

{٧٧٤} ـ عن الحسن بن عليّ عليهما السلام قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«للسائل حق وإن جاء على فرس»**.

رواه أحمد (٢٠١/١)، وأبو داود (١٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٦٨)، وأبو يعلى (٣٣/٦) جوّده العراقي والسخاوي، وقال الحافظ: وجزم بصحته غير واحد.

في الآية والحديث دليل على أن للسائل حقاً كيفما كان حاله، ولو جاء راكباً على أو فرس أو سيارة فاخرة مثلاً، فلا يردّ إلا بالإعطاء أو بالكلمة الطيّبة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [٤١]:

{٧٧٥} ـ عن رجل من ربيعة قال: قدمت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت عنده وافِد عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وما وافد عاد**»؟ قال: فقلت: على الخبير بها سقطت إن عاداً لَمَّا أقحطت بعثت قيلاً فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللّهمّ إني لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية يشكر له الخمر الذي سقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهنّ، فاختار السوداء منهنّ، فقيل له: خذها رماداً رِمْدِداً لا تَذَرْ من عادٍ أحداً، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة، يعني: حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

رواه أحمد (٣/٤٨١، ٤٨٢)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٨) بسند صحيح.

قوله: على الخبير سقطت أي: على العليم بقصته، وقوله: أقحطت ـ بضم الهمزة ـ أي: تأخر عنهم نزول المطر، وقوله: قيلا ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ: اسم وافد عاد، وقوله: الجرادتان: هما مغنيتان كانتا بمكّة في الجاهلية، وقوله: رماداً ـ بفتح الراء ـ وقوله: رمدداً ـ بكسر الراء والدال الأولى بينهما ميم ساكنة ـ أُريد به المبالغة في الاحتراق.

وقوله تعالى: ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ هي التي لا خير فيها، بل هي شر محض، وفي الحديث كالآية عبر لا تخفى، وبه تمّت سورة الذاريات، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الطور

السورة الكريمة كسابقتها مكّية، وآياتها تسع وأربعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [٤]:

{٧٧٦} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذكر «**البيت المعمور في السماء السابعة، وإذا إبراهيم عليه السلام مُسْنِدٌ ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لا يعودون إليه أبداً**».

رواه البخاري ومسلم ضمن حديث الإسراء الطويل، وقد تقدم في سورة الإسراء ـ بني إسرائيل ـ ورواه أحمد (١٥٣/٣)، والنسائي في الكبرى (٤٧٠/٦)، والحاكم (٤٦٨/٢) مختصراً كما أوردناه، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

الحديث مبين للبيت المعمور، وأنه في السماء السابعة، وقد تقدم الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ [٣٥ ـ ٣٧]:

{٧٧٧} ـ عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الآية، كاد قلبي أن يطير.

رواه البخاري في التفسير (٢٢٦/١٠) وفي الصلاة وفي المغازي، ومسلم في الطلاق (٤٦٣)، وأبو داود (٨١١)، والنسائي وابن ماجه (٨٣٢).

قال العلماء على هذه الآية الكريمة: أم خلقوا من غير خالق، وذلك لا يجوز فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق أفهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشدّ لأن ما لا وجود له كيف يخلق، وإذا بطل الوجهان قامت الحجّة عليهم بأن لهم خالقاً، ثم قال: أم خلقوا السمٰوات والأرض، أي: إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السمٰوات والأرض، وذلك لا يمكنهم فقامت الحجّة... ومن هذا انزعج جبير بن مطعم حتى كاد قلبه يطير، ودخل الإسلام قلبه. آمنّا بالله وبكل ما جاء به رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [٤٨ ـ ٤٩]:

{٧٧٨} ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«من تعارّ من الليل، فقال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله»**، ثم قال: **«ربّ اغفر لي»**، أو قال: ثم دعا استجيب له، وفي رواية: **«وإن قام فتوضّأ وصلّى قُبلت صلاته»**.

رواه أحمد (٣١٣/٥)، والبخاري في التهجّد (١١٥٤)، والترمذي في الدعوات (٣١٩٢)، والنسائي في الكبرى (٢١٥/٦)، وابن ماجه (٣٨٧٨)، والبيهقي (٥/٣).

تعارّ معناه: استيقظ من النوم، وأصل التعار السهر والتقلّب على

الفراش. وفي الحديث فضل من استيقظ من الليل، وذكر الله تعالى بما في الحديث، وأن من فعل ذلك غُفر له واستُجيب له وقُبلت صلاته. وبه تمّ الكلام على سورة الطور، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

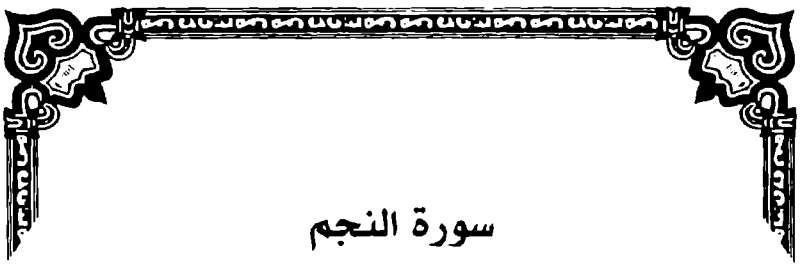

سورة النجم

وامتازت بذكر معجزة المعراج، وآياتها اثنتان وستّون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [٣ ـ ٤]:

{٧٧٩} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أريد حفظه فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورسول الله بشر يتكلّم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«اكتب فوالذي نفسي بيده ما خَرَج مني إلا الحقّ»**.

رواه أحمد (١٦٢/٢، ١٩٢)، وأبو داود (٣٦٤٦)، والدارمي (٤١٠)، والحاكم (١٠٦/١) وسنده صحيح.

الحديث نصّ في أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يقول إلاّ الحق، وهو الوحي الإلهيّ الذي نصّ عليه الله عزّ وجلّ في الآية الكريمة، وهذا بخلاف شؤون الحياة، فإنّه قال: **«أنتم أعلم بدنياكم»**.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [٩ ـ ١٠]:

{٧٨٠} ـ عن زِرّ بن حُبَيْش رحمه الله تعالى أنه سُئِل عن قوله تعالى:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ الآية، فقال: أخبرني ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٣٣، ٢٣٤) وفي بدء الخلق، ومسلم في الإيمان (١٧٤)، والترمذي (٣٠٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٢).

{٧٨١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، قال ابن عباس: قد رآه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه الترمذي (٣٠٦٤) بسند صحيح.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٧٨٢} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ إلخ قال: رأى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جبرائيل عليه السلام في حُلَّةٍ من رَفْرَفٍ قد ملأ ما بين السماء والأرض.

رواه أحمد (٣٧٤٠)، والترمذي (٣٠٦٧) بسند صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه.

{٧٨٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ قال: رآه بقلبه مرّتين.

رواه أحمد (١٩٥٦)، ومسلم (١٧٦) بنحوه، والترمذي (٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا

يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [١٢ ـ ١٨]:

{٧٨٤} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام قد سدّ الأفق لم يره إلاّ في هذين المكانين.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٧٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٣٣، ١٣٤) بسند صحيح، وفي رواية: رأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق، رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٣).

{٧٨٥} ـ وعنه قال: لمّا بلغ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سدرة المنتهى، قال: **«انتهى ما يعرج من الأرض وما ينزل من فوق»**، فأعطاه الله عندها ثلاثاً لم يُعْطَهُنّ نبيٌّ كان قبله: فُرِضت عليه الصلاة خمساً، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لأمّته المُقْحِمات ما لم يشركوا بالله شيئاً. قال ابن مسعود: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، قال: السدرة في السماء السادسة، قال سفيان: فراش من ذهب، وفي رواية: إليها ينتهي علم الخلق لا علم لهم بما فوق ذلك. رواه مسلم في الإيمان (١/٣، ٢)، والترمذي (٣٠٦٠) وحسّنه وصححه.

قوله: قاب قوسين أي: قدرهما، أو أدنى أي: أقلّ منهما، وقوله: نزلة أخرى أي: مرة أخرى، وقوله: سدرة المنتهى هي بكسر السين: شجرة في أقصى الجنّة إليها ينتهي علم الخلائق، وقوله: في حلة من رفرف بفتح الراءين بينهما فاء ساكنة أصله ما كان من الديباج رقيقاً حسن الصنعة، ولعلّ المراد به هنا صفة ريشه، وقوله: غفر لأمّته المُقْحِمَات بضم الميم وكسر الحاء: هي الذنوب العظام التي تدخل أصحابها النار.

في هذه الآيات الإحدى والعشرين مع ما ذكرنا معها من الأحاديث أمور:

أولاً: ثبوت عروج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نصاً كتاباً وسنّة، بل وإجماعاً، ولم يخالف في ذلك إلاّ بعض من طمس الله بصيرته من العقلانيين المنحرفين.

ثانياً: وصول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة وما جاء من أنها في السادسة شاذّ، وهي عن يمين العرش، وعندها جنّة المأوى التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء، وهذه السدرة شجرة لها ثمار الواحدة منها مثل قلال هجر، كما جاء في حديث الإسراء.

ثالثاً: إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يمل بصره في ذلك المقام لا يميناً ولا شمالاً، وما جاوز الحدّ الذي رأى تأدّباً منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في تلك الحضرة.

رابعاً: إن الله تعالى أراه في تلك الليلة أكبر آياته، فرأى عجائب الملكوت، رأى الأنبياء والملائكة والجنّة والنار والبيت المعمور وسدرة المنتهى وجبريل على صورته الأصلية، إلى غير ذلك من الآيات.

خامساً: اختلفت الروايات عن ابن مسعود وابن عباس في رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ربّه تعالى، فالأول فسّر الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ إلخ برؤية جبريل، بينما الثاني فسّرها برؤية الله عزّ وجلّ، لكنه في الرؤية الأولى أطلق، وفي الثانية قيّدها بقوله: رآه بقلبه مرّتين. وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في هذه القضية بداية من الصحابة فمن بعدهم، فذهب ابن مسعود وأبو هريرة وعائشة رضي الله تعالى عنهم وتبعهم جماعة من المحدثين والمتكلّمين إلى عدم الرؤية، وذهب آخرون ومن هؤلاء ابن عباس وأبو ذر وكعب وأبو هريرة في رواية إلى ثبوتها، وهو قول الحسن البصري، وكان يحلف على ذلك، وبه قام الإمام أحمد وأبو الحسن الأشعري ورجحه النووي في شرح مسلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [١٩]:

{٧٨٦} ـ عن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: لما فتح رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مكّة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد، وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره، فقال: **«ارجع فإنك لم تصنع شيئاً»**، فرجع خالد، فلما أبصرت به السدنة وهم حجبتها أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عزى فأتاها خالد، فإذا هي امرأة عريانة ناشرة شعرها تحتفن التراب على رأسها، فعمّمها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره، فقال: **«تلك العزّى»**.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٧٤)، وأبو يعلى في مسنده (٩٢٤١) بسند حسن.

في الحديث أن الشياطين هم المضلّلون لعبدة الأصنام، وأنهم يتظاهرون لهم في أصنامهم ويتراءون لهم عند عبادتهم إياها فيُغْرونَهم على عبادتها والاستغاثة بها، فيزدادون إغراقاً في الكفر والضلال، ولا أدلّ على ذلك من العزّى التي كانت تمثلها امرأة من الشياطين.

ملحوظة: بمناسبة ذكر اللات والعزى نشير إلى أن ما هو شائع بين كثير من المفسّرين وغيرهم من ذكر قصة الغرانيق هو باطل من وضع الزنادقة ولا يصح شيء فيها لا من طريق النقل ولا من جهة المعنى، وقد ذكرت خلاصة الموضوع في حواشي تهذيب الشفا (ص٤١٣، ٤١٤).

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [٢٥]:

{٧٨٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا تَمَنَّى أحدُكم فلْينظُر ما يَتَمَنَّى فإنه لا يدري ما يُكتبُ له من أُمْنِيتِهِ»**.

رواه أحمد (٢/٣٥٧، ٣٨٧) بسند صحيح.

الأُمور كلّها تابعة لقضاء الله عزّ وجلّ وقدره، فليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه، فقد تأتي الرياح بما لا تهوى السفن، ولذلك ينبغي للمسلم أن لا يتمنى إلا ما فيه خير وصلاح ومنفعة له عاجلاً أو آجلاً، مما لا يتنافى وقواعد الدين، فإذا تمنّى شراً فليبادر بالإنابة والرجوع إلى الله تعالى والاستعتاب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [٣٢]

{٧٨٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما رأيتُ شيئاً أشبه باللّمم مما قال أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: **«إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطقُ، والنفسُ تتمنى وتَشْتَهِي، والفرجُ يُصَدّقُ ذلك أو يُكذبُه»**.

وفي رواية: **«وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، وزنا الفم القُبل...»**.

رواه أحمد (٣/٢٧٦، ٣١٧، ٢٧٢، ٥٣٦)، والبخاري في القدر (٦٦١٢) وفي الاستئذان (٦٢٤٣)، ومسلم في القدر (٢٦٥٧)، وأبو داود (٢١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٣).

{٧٨٩} ـ وعنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ إلخ، قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«إن تَغْفِر اللَّهُمَّ تَغْفِر جَمّاً وأيُّ عَبْدٍ لك ما أَلَمّا»

رواه الترمذي (٣٠٦٨)، والحاكم (٢/٤٦٩)، وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قوله: وأي عبد لك ما ألمّا، اللّمم: صغار الذنوب، وهي المفسّرة في حديث أبي هريرة من النظر والنطق والتقبيل والمشي والبطش والتمني، وسمّيت هذه المعاصي زنا مجازاً لأن كل ذلك يدعو إلى الزنا الحقيقي مع ما في ذلك من الالتذاذ والتمتّع ويصدق كل ذلك الفرج، فإن لم يفعل غفرت له تلك المقدمات بالوضوء والصلاة والصدقة والصيام والتلاوة والذكر والتوبة فضلاً من الله تعالى ولطفاً به، ولذلك عقب الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فيا واسع المغفرة اغفر لنا واعف عنا وتجاوز عن سيئاتنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [٣٢]:

{٧٩٠} ـ عن زينب بنت أبي سلمة رضي الله تعالى عنها أنها سُمّيت بَرّة، فنَهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك وقال: **«لا تُزَكُّوا أنفُسَكُم إن الله أعلم بأهل البرّ منكم»**، فقالوا: بِمَ نسمّيها؟ قال: **«سمّوها زينب»**.

رواه مسلم في الأدب (١٤/١٢٠) من طرق.

في الآية كالحديث ذم تزكية النفس، نعم جاء المدح للمصلحة وتحدّثاً بنعمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [٣٩، ٤٠]:

{٧٩١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا مات الإنسان انقطَعَ عملُه إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدْعُو له»**.

رواه أحمد (٢/٣١٦، ٣٧٢)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٨٨٠)، والترمذي في الأحكام (١٢٤٧)، والنسائي في الكبرى (٤/١٠٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨).

رواه البخاري وغيره، وتقدم في سورة الأنفال، ويأتي أيضاً في المغازي إن شاء الله تعالى. وفي الآية معجزة حيث أخبر تعالى بانهزام الكفار قبل الوقعة، فوقعت كما أخبر.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦]:

{٧٩٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لقد أنزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكّة، وإنّي لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٤٣) وفي فضائل القرآن، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٧).

ومعنى الآية: أن عذاب الساعة والآخرة أشدّ وأعظم وأمر وأقبح من يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [٤٩]:

{٧٩٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

رواه مسلم (٢٦٥٦ ج١٦/٢٠٤، ٢٠٥)، والترمذي (١٩٨٨) كلاهما في القدر، ورواه الثاني في التفسير أيضاً (٣٠٧٣)، وابن ماجه في المقدمة (٨٣).

الحديث مع الآية يدلاّن على ثبوت القدر ـ بفتحتين ـ ومعناه: أسبقية علم الله بما سيكون ويقع من الكائنات خيرها وشرّها، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، وانظر ما سبق في القدر.

وبه تمّت سورة القمر، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

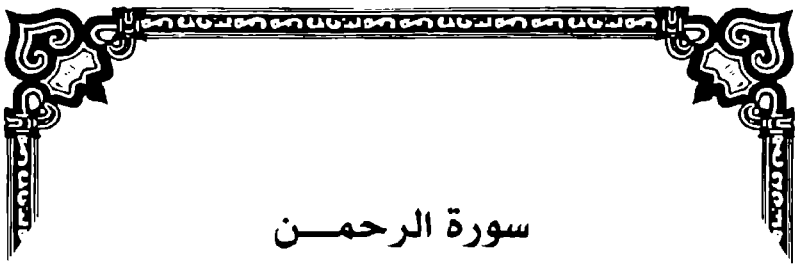

سورة الرحمـــن

وآياتها ثمان وسبعون، ومن أبرز أهدافها تعداد نعمه تعالى على الإنسان...

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾:

{٧٩٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أوّلها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «**لقد قرأتُها على الجنّ ليلةَ الجن فكانوا أحسنَ مَرْدوداً مِنكُم، كنتُ كلما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِكَ ربنا نُكَذِّب فلك الحمدُ**».

رواه الترمذي (٣٠٧٤)، والحاكم (٤٧٣/٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وللحديث شاهد عن ابن عمر رواه البزار (٢٢٦٩) بسند حسن في الشواهد.

في الحديث فضل صحابة الجنّ وحسن تأدّبهم مع القرآن الكريم، وفيه ما ينبغي أن يقال عند قراءة أو سماع هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [١٤ ـ ١٥]:

{٧٩٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خُلِقَتْ الملائكةُ من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلِق آدمُ مما وُصِف لكم**».

رواه أحمد (١٥٢/٦، ١٦٨)، ومسلم (١٢٣/١٨). المارج: اللهب المختلط بسواد النار.

في الحديث بيان أصل خلقة الأصناف الثلاثة المكلّفين، وهم الملائكة وأصلهم من النور، والجنّ وأنهم خلقوا من لهب النار، وآدم عليه السلام وأنه مخلوق من أصناف الأرض، كما وصف لنا ذلك القرآن الكريم: من تراب، من حمإ مسنون، من طين لازب، من صلصال كالفخار... فسبحان القادر الفعّال لما يشاء، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٩]:

{٧٩٩} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، قال: «**من شأنه أن يغفِرَ ذنباً، ويُفَرّج كرباً، ويَرْفعَ قوماً، ويَخْفِضَ آخرين**».

رواه ابن ماجه (٢٠٢)، والبزار (٢٢٦٧). قال البوصيري: إسناده حسن، وللحديث شاهدان عن عبدالله الأزدي، رواه ابن جرير (١٣٥/٢٧)، والبزار (٢٢٦٦)، وعن ابن عمر عند البزار أيضاً، وبما في الحديث قال كل المفسّرين: فهو تعالى كل يوم في شأن عباده يحيي ويُميت، ويعطي ويمنع، ويغني ويفقر، ويعزّ ويذلّ، ويبتلي ويفرج، ويبسط ويضيق، ويرفع ويخفض، ومع ذلك فلا يشغله شأن عن شأن.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [٤٦]:

{٨٠٠} ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يقصّ على المنبر، يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الثانية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الثالثة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، فقلت الثالثة: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «**وإن رَغِمَ أنف أبي الدَّرداء**».

رواه أحمد (٣٥٧/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٧٨/٦)، والبغوي في شرح السنّة (٤١٨٩) بسند صحيح، وقال النور: رجال أحمد رجال الصحيح، وفي الصحيح نحوه عن أبي ذرّ لكن بدون ذكر الآية.

وفي الآية الكريمة مع الحديث بشارة لمن يخاف الله تعالى بأنه من أهل الجنّة، غير أن ذلك لا يدلّ على أنه يدخلها بدون سابقة عذاب، بل لا بدّ من التفصيل، فإن من مات وله كبائر وفواحش، فهذا في مشيئة الله تعالى قد يعذّبه أو يعفو عنه، ولكن مآله الجنّة على كل حال لإيمانه وخوفه من الله تعالى ولو مرة من عمره، أما من مات تائباً لا ذنوب له، فهذا لا يعذّب بل هو من السابقين إلى الجنّة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾﴾ [٤٨]:

{٨٠١} ـ عن أسماء بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وذكر سدرة المنتهى فقال: «**يَسِيرُ الراكبُ في ظل الفنَنَ منها مائة سنة**» أو قال: «**يَسْتَظِلُّ بِظِلِّها مائةُ راكب فيها فراشُ الذَّهب كأن ثَمَرَها القِلال**».

رواه الترمذي في صفة الجنّة (٢٣٥٨) وحسّنه وصححه، ويأتي في الرقاق نحوه إن شاء الله تعالى.

قوله: أفنان أي: أغصان، وفي ذلك إكرام للمؤمن داخل الجنّة، وكم له من متع هنالك.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [٥٨]:

{٨٠٢} ـ عن ابن سيرين رحمه الله تعالى قال: إمّا تَفاخَروا أو تذاكَرُوا:

الرِّجَالُ أَكْثَرُ في الجنّة، أم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: أوَ لم يقل أبو القاسم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن أول زمرةٍ تدخلُ الجنّة على صورة القمر ليلة البدر... ولكل واحدٍ منهم زوجتان يرى سُوقُها من وراء اللَّحمِ من الحُسْنِ**».

رواه البخاري في بدء الخلق وغيره، ومسلم في الجنّة، والترمذي في صفة الجنّة (٢٣٥٤)، ورواه الترمذي (٢٣٥١) عن ابن مسعود بلفظ: «**إن المرأة من نساء أهل الجنّة ليُرى بياضُ ساقِها من وراءِ سبعين حُلَّة حتى لَيُرى مُخُّها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾، فأمّا الياقوت فإنه حَجَرٌ لو أدخلتَ فيه سلكاً ثم اسْتَضْفَيْتَه لأُورِيتَه من ورائه**»، وهو عند الطبراني في الأوسط بسند صحيح، ورواه ابن جرير (١٥٢/٢٧)، وابن حبان (٢٦٣٢) بالموارد، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤)، والبزار (٣٥٣٦) من حديث أبي سعيد.

في الآية والحديث بعض صفات نساء أهل الجنّة، وأنهنّ في الصفاء كالياقوت، وفي البياض كالمرجان، ولذلك كان سوق إحداهنّ ليرى من وراء سبعين حلّة لصفاء أجسامهنّ.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ [٦٢]:

{٨٠٢} ـ عن عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**جَنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنَّتانِ من ذهب آنِيَتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداءُ الكِبْرِ على وجْهِهِ في جنّة عدْنٍ**».

رواه أحمد (٤١١/٤)، والبخاري في التفسير (٢٤٨/١٠) وفي التوحيد في الرؤية، ومسلم في الجنّة، والترمذي كذلك (٢٣٤٥)، وابن ماجه (١٨٦)، وقد تقدم، ويأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ يعني: في المنزلة والفضل، فالأوليتان للمقرّبين السابقين والأُخريتان لأهل اليمين، كما قال بعض السلف

من المفسّرين: وعلى كل فبينهما بون وفضل، وكلّها من النّعم العظيمة التي سيُمَتَّعُ بها المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ (٧٢):

{٨٠٤} ـ عن عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن في الجنّة خيمةً من لؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ عَرْضُها ستُّون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون**» الحديث.

رواه البخاري في التفسير (٢٤٨/١٠)، ومسلم في الجنّة، والترمذي (٢٣٤٦)، والدارمي (٢٨٣٦)، والنسائي في الكبرى (٤٧٩/٦) مطوّلاً ومختصراً، ويأتي في الرقاق.

الزاوية: الناحية من البيت، والخيمة عند العرب: بيت من الوبر، وعبّر بها هنا عن البيت أو القصر، وقوله: عرضها ستّون ميلاً إذا كان هذا عرضها، فكيف يكون طولها، وهذه خيمة واحدة، وكم لوليّ الله تعالى من خيام وقصور، والحديث يدلّ على أن المؤمن سيعطى من الحور العين والنساء ما لا عدّ له.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ أي: محبوسات فيها لا ينظرن إلى غير أزواجهنّ، فهنّ في بيوتهن قد قصرت أطرافهنّ على أزواجهنّ، فلا يتشوّقن إلى غيرهم فضلاً عن النظر إليهم. وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ إلخ أي: لم يقربهنّ أحد قبل أزواجهنّ فهن أبكار.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [٧٨]:

{٨٠٥} ـ عن ربيعة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**ألِظُّوا بذِي الجلال والإكرام**».

رواه أحمد (١٧٧/٤)، والنسائي في الكبرى (٤٧٩/٦)، والحاكم

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خلق الله آدم عليه السلام حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحُمَم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنّة ولا أبالي، وقال للذي في كفّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي**»، رواه أحمد (٤٤١/٥) وسنده صحيح.

{٨١٣} ـ الثاني: عن عبدالرحمٰن بن قتادة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله عزّ وجلّ خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنّة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**»، قال: فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: «**على مواقع القدر**». رواه أحمد (١٨٦/٤)، وابن حبان (٥٠/٢)، والحاكم (٣١/١) وصححه ووافقه الذهبي، وقال النور في المجمع (١٧٦/٧): ورجاله ثقات.

{٨١٤} ـ الثالث: عن أبي نَضْرة قال: مرض رجل من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فدخل عليه أصحابه يعودونه، فبكى فقيل له: ما يبكيك يا عبدالله؟ ألم يقل لك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خذ من شاربك ثم أقرره حتى تلقاني**»، قال: بلى ولكني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله تبارك وتعالى قبض قبضة بيمينه، فقال: هذه لهذه ولا أبالي، وقبض قبضة أخرى ـ يعني: بيده الأخرى ـ فقال: هذه لهذه ولا أبالي، فلا أدري في أيّ القبضتين أنا**»، رواه أحمد (١٨٨/٥) بسند صحيح.

{٨١٥} ـ الرابع: عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه، فتفرق الناس وهم لا يختلفون في القدر**».

رواه الطبراني في الصغير (١٣٠/١) بسند صحيح.

فهذه الأحاديث كلّها شواهد صحيحة لحديث الباب في الجملة، وهي تدلّ على أُمور، أولاً: أن الله تعالى أخرج من كتفي أبينا آدم عليه السلام

جميع ذرّيته، وهم في الصغر والظالة كالذرّ. ثانياً: فيها ثبوت أسبقية قدر الله عزّ وجلّ للخلق، وأن جميع الأُمور سبق بها علم الله تعالى، وكتبت في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ، وليست مُسْتَأْنَفَةً كما يقوله القدرية المبتدعة. ثالثاً: أن الله عزّ وجلّ مايز بين أهل السعادة، فجعلهم بيضاً، وبين أهل الشقاوة فجعلهم سوداً كالفحم عياذاً بالله تعالى منهم.

رابعاً: جعل لكل من الصنفين علامة يعرف بها، وهي الإيمان والعمل بمقتضاه، أو ترك ذلك ولذلك قال لمن قال له: فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر، يعني: كلاً سييسر لما سبق له، كما جاء في الحديث الوارد عن جماعة من الصحابة: «**اعملوا فكلٌ ميسَّر لما خُلِق له**»، وسيأتي إيراده في سورة الليل إن شاء الله تعالى.

خامساً: أن الله عزّ وجلّ قضى وحكم وحكمه عدل بالجنّة لأقوام، وبالنار لآخرين بدون مبالاته بأحد ولا اكتراث، لأن الملك ملكه، والخَلْق خلقه، فلا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه، ولا يسأل عمّا يفعل، فنسأله تعالى أن يمنّ علينا ويتفضّل بالموت على السعادة.

سادساً: ما ذكر في هذه الأحاديث من القبضتين واليمين هي من أحاديث الصفات نؤمن بها ونمرها كما جاءت بلا تعطيل ولا تشبيه.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [٣٠]:

{٨١٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يَقْطَعُها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٥١)، ومسلم في الجنّة (٢٨٢٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٧٥)، وفي صفة الجنّة (٢٢٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٩)، ومثله عن أنس رواه الشيخان، والترمذي (٣٠٧٦).

في الحديث بيان الظل الممدود في الآية، وأن الراكب المُجِدّ لا يقطعه في مدة مائة عام، والظل هنا لا نعرفه لأنه ليس هنالك شمس ولا

قمر ينشؤ عن ضوئهما ظلّ الأشجار، وإنما هو ظلّ ينشئه الله عزّ وجلّ من أنوار لا ندركها، وقوله: ممدود، أي: لا زوال له بل هو دائم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨﴾ [٣٥ ـ ٣٨]:

{٨١٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نصِلُ إلى نسائِنا في الجنّة؟ قال: **«إنّ الرجل لَيَصِلُ في اليوم إلى مائة عَذْرَاء»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٧٢٢)، والصغير (٧٩٥)، والبزار (٣٥٢٥)، قال النور في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن ثواب وهو ثقة.

{٨١٨} ـ وعنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قيل له: أَنَطَأُ في الجنّة؟ قال: **«نعم والذي نفسي بيده دَخماً دَخماً، فإذا قامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَة بِكْراً»**.

رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/٤١٥)، والبزار (٣٥٢٤) وغيرهما بسند حسن صحيح، وفي الباب أحاديث.

قوله: عذراء أي: بكراً، وقوله: دحماً دحماً في النهاية: هو النكاح، والوطىء بدفع وإزعاج.

والحديثان يدلاّن كالآية على أن نساء الجنّة ليست فيهنّ ثيّبة، بل كلهن أبكار، وحتى من جومعت عادت بكراً مطهّرة، وسيعطى المؤمن قوة مائة في الجماع ليتمّ له التمتّع، كما جاء في حديث أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: **«يعطى المؤمن في الجنّة قوة كذا وكذا من الجماع»**، قيل: يا رسول الله أوَ يطيق ذلك؟ قال: **«يعطى قوة مائة»**، رواه الترمذي (٢٣٥٣)، وابن حبان (٦٣٥) بالموارد، وصححه الترمذي. وعن زيد بن أرقم نحوه رواه الدارمي (٢٨٢٨) بسند صحيح، وسيأتي مزيد لهذا في الرقاق. وقوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب أي:

متحبّبات إلى أزواجهنّ، وقوله: أتراباً جمع تِرْب أي: مستويات في السنّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [٧١ ـ ٧٣]:

{٨١٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ نارَكم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنّم، وضُرِبَتْ بالبحر مرَّتَين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحدٍ**»، وفي رواية: «**نار بني آدم التي يوقِدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم**»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «**إنها قد فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً**».

رواه أحمد (٣١٣/٢، ٤٦٧، ٢٤٤)، والبخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في صفة الجنّة (١٧٩/١٧)، والترمذي (٢٤٠٨) وغيرهم.

في الحديث بيان عظمة نار جهنّم، وأنها تعادل نارنا بتسع وستين مرة، ولذا قال الصحابة: إن كانت ـ يعنون نار الدنيا ـ لكافية للتعذيب، ولكن الله عزّ وجلّ جعلها كذلك ليعذّب بها من كفر به وعبد معه غيره أو طغى في هذه الحياة وعتا وتجبّر وأسرف في المخالفات فهم فيها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ الآية.

فلأمثال هؤلاء أعدّت تلك النار عياذاً بالله منها ومن أهلها.

والآية جيء بها كأخواتها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ إلخ لإقامة الحجة على الكفار، وعلى وحدانيّته تعالى وعظمة قدرته، وأنه تعالى الذي يخلق الإنسان من المني الذي يمنونه، وأنه الذي ينبت الزروع من البذر الذي يلقونه في مزارعهم، وأنه الذي ينزل الماء العذب من السحاب، ولو شاء لجعله مالحاً شديد الملوحة لا يستساغ، وأنه الذي أنشأ شجرة النار وجعلها تذكرة لهم ونسخة من النار الكبرى إذا رأوها تذكروا بها جهنّم، فيخافون عقابه ويؤمنون به ويطيعونه.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [٧٥ ـ ٨٢]:

{٨٢٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر**»، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ الآية، حتى بلغ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾.

رواه مسلم في الإيمان (٦١/٢، ٦٢) ونحوه في الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني...

مواقع النجوم: منازلها وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها، وقيل: مساقط غروبها ونزولها، وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ الصحيح أنه اللوح المحفوظ، وباقي أبحاث الحديث تأتي في الطبّ... إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [٧٩]:

{٨٢١} ـ عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم رحمهم الله تعالى قال: إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم: «**أن لا يمس القرآن إلاّ طاهر**»، رواه مالك في الموطأ باب الأمر بالوضوء لمن مسّ القرآن، وهو مرسل صحيح.

ورواه ابن حبان (٧٩٣) بالموارد، والحاكم (٣٩٥/١) متصلاً، وصححه الحاكم وغير واحد من الحفاظ، ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عبدالله بن أبي بكر إلخ، قال ابن

كثير رحمه الله تعالى: وهذه وجادة جيدة قرأها الزهري وغيره، قال: ومثل هذا ينبغي الأخذ به.

وفي الآية إخبار بأن القرآن في اللوح المحفوظ وأنه لا يمسّه إلا المطهّرون من الملائكة، والحديث يدلّ على عدم مسّ المصحف لغير الطاهر، وتقدم هذا في كتاب الطهارة.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [٨٢]:

{٨٢٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما مُطر قومٌ قط إلا أصبح بعضُهم كافراً يقولون: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، وقال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

رواه ابن جرير (٢٠٨/٢٧) بسند صحيح، وجاء مثله عن الإمام عليّ عليه السلام رواه الترمذي (٣٠٧٨)، وابن جرير (٢٠٨/٢٧)، وابن أبي حاتم (٣٣٣٤/١٠).

ومعنى الآية: وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب، فبدل أن يشكروه على ما أنعم عليهم من أسباب الرّزق ونزول الرحمة قابلوا ذلك بالكفران والتكذيب ونسبة الإمطار إلى الأنواء والنجوم.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [٩٦]:

{٨٢٣} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾، قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**».

رواه أحمد (١٥٥/٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٧١)، وابن خزيمة (٦٠٠، ٦٧٠)، والحاكم (٢٥٥/١) و(٤٧٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي في الموضع الثاني.

وصح ذلك من فعله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أيضاً، ففيه

رحمه الله تعالى في صحيحه عن يحيىٰ بن زياد الفراء، حيث قال: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً، فهو وإن كان محتملاً فما فسّره به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مقدم عليه، وإذا ظهرت شمس الله بطلت شمس معقل، أو كما يقولون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [١٠]:

{٨٢٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمٰن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تَسُبُّوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدّ أحدِهم ولا نَصِيفَهُ»**.

رواه مسلم (٩٢/١٦، ٩٣) في فضائل الصحابة، وفي رواية قال خالد لعبدالرحمٰن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها... فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحد أو مثل الجِبَالِ ذهباً ما بلغْتُم أعمالَهُمْ»**، رواه أحمد (٢٦٦/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

الآية والحديث يدلاّن على أنه لا يستوي السابقون من الصحابة مع اللاحقين منهم، وإن كانوا جميعاً تشملُهم البشارة بدخول الجنّة، ويأتي مزيد لهذا في الفضائل.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [٢٢]:

{٨٣٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله قدَّرَ المقادير قبل أن يَخْلُقَ السمٰواتِ والأرض بخمسين ألف سنة**»، وفي رواية: «**كتب الله مقادير الخلائق**» إلخ، قال: «**وكان عرشه على الماء**».

رواه أحمد (١٦٩/٢)، ومسلم (٢٠٣/١٦)، والترمذي (١٩٨٧) كلاهما في القدر، وتقدم في القدر. قال العلماء رحمهم الله تعالى: المراد بكتابة مقادير الخلائق تحديد وقت الكتابة في اللّوح المحفوظ لا أصل التقدير، فإن ذلك أزليّ لا أوّل له.

وفي الحديث والآية دليل على أن الله تعالى فرغَ من كل شيء، وأن كل ما يقع في هذا العالم من خير أو شرّ طاعة أو معصية هو مكتوب ومقدّر في اللوح المحفوظ، وهذا من كلّيات الإيمان الستّ. ومن تحقّق بهذا المقام هانت عليه البلايا والمصائب واستراح من تعب طلب الدنيا والسعي وراءها بتلهف، وقوله تعالى: ﴿نَبْرَأَهَآ﴾ أي: نخلقها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۙ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [٢٧]:

{٨٣٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى عليه السلام بدَّلُوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، قيل لملكهم: ما نجد شتماً أشدّ من شتم يَشْتُمُونَنَا هؤلاء إنهم يقرأون: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدَّلوا منها، فقالوا: ما تُريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطواناً ثم ارفعونا إليها ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نردّ

عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قَدَرْتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول، ولا نَرِدُ عليكم ولا نَمُرُّ بكم، وليس أحد من القبائل إلاّ وله حَمِيمٌ فيهم، قال: ففعلوا ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، والآخرون قالوا: نتعبد كما تعبّد فلان، ونسيح كما ساح فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يبق منهم إلا قليل انحطّ رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدَّيْر من دَيْره، فآمنوا به وصدّقوه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى عليه السلام وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمّد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتصديقهم وقال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ القرآن واتّباعهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين يتشبّهون بكم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٤٨٠، ٤٨١) وفي أدب القضاة من المجتبى رقم (٥٤٠٠) وسنده صحيح، وعطاء بن السائب ثقة، وسفيان الثوري الراوي عنه هنا سمع منه قبل الاختلاط.

هذا الحديث يصوّر لنا ذلك المجتمع المسيحي الجاهلي وما فعله ملوكهم المنحرفون من تبديل الإنجيل وتحريفه حسب أهوائهم، وما صار إليه أمر المؤمنين منهم من مضايقات والهَمُّ بقتلهم، فكان ذلك سبباً في مهاجرتهم ذلك المجتمع الكافر وسياحتهم في الأرض، واتّخاذهم الصوامع والدَّيْرَات وابتداعهم الرهبانية والانقطاع للعبادة والزهد في التزوّج، وكان قصدهم في ذلك طلب مرضاة الله عزّ وجلّ، لكنهم لم يقوموا بما التزموه ولم يراعوه حقّ رعايته، كما نَطَقَتْ بذلك الآية الكريمة، فلما جاء الإسلام أبطل الرهبانية، وجاء بالقصد والاعتدال فأمرنا بالتزوّج وحذّر من الرغبة عنه، وجعل رهبانية هذه الأُمّة الجهاد في سبيل الله، كما قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لكل نبيّ رهبانيةٌ، ورهبانية هذه الأُمّة الجهاد في**

سبيل الله عزّ وجلّ»، رواه أحمد (٢٦٦/٣) من حديث أنس بن مالك، وهو وإن كان في سنده زيد العمي وهو ضعيف، فإن له شاهداً عن أبي سعيد الخدري رواه أحمد (٨٢/٣) عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام»**، وسنده لا بأس به. وجاء في حديث آخر عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا صَرُورة في الإسلام»** رواه أحمد رقم (٢٨٤٥)، وأبو داود (١٧١٣)، والحاكم (٤٤٨/١) وصححه وأقرّه الذهبي، وهو من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

والصرورة: هو التبتّل والرغبة عن التزوّج لأن ذلك من فعل الرهبان وليس من أخلاق أهل الإسلام، وهذا بلا شكّ ممنوع إذا حرم الإنسان على نفسه النساء وترك ذلك رغبةً عن السنّة. أما من لم تكن له رغبة فيهنّ وخاف على نفسه من فتن الحياة وانقطع للعبادة، فلا لوم عليه في ذلك، وقد كان على هذا كثير من سلف هذه الأمّة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [٢٨]:

{٨٢٨} ـ فيه حديث أبي موسى: **«ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران»** الحديث، تقدم في القصص رقم آية (٥٤) وهو في الصحيحين، وبه تمّت سورة الحديد، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

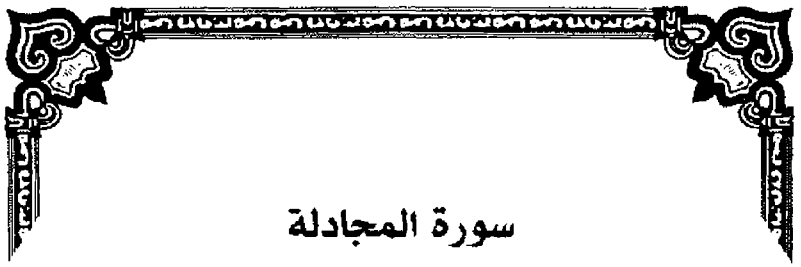

سورة المجادلة

وآياتها ثنتان وعشرون وموضوعها بيان أحكام الظهار، والمناجاة الأثيمة وأدب المجالس، وذكر بعض صفات اليهود السافلة مع بيان عوار المنافقين وصفاتهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾:

{٨٣٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة خولةُ إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكلّمته في جانب البيت وما أسمع ما تقول: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٤١/٦)، والنسائي في الكبرى (٤٨٢/٦) وفي الظهار من المجتبى (٣٤٦٠)، والحاكم (٤٨١/٢) وصححه وأقره الذهبي، وذكره البخاري في التوحيد معلّقاً رقم (٧٣٨)، ورواه ابن ماجه (٢١٦٣) بلفظ: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، وهو عند الحاكم أيضاً (٤٨٢/٢) وصححه وأقرّه الذهبي، ورواه أحمد (٤١٠/٦) عن خولة نفسها.

الظِّهار: هو أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أُمي، يقصد بذلك تحريمها عليه، وكان هذا سائداً في الجاهلية، فكان أوس بن الصامت

أوّل من ظاهر من امرأته خولة بنت عمّه ثعلبة، فأنزل الله فيهما قرآناً وسمّى الظهار كذباً وزوراً لأن امرأته ليست أمّاً له ثم أمره بالكفارة.

وفي الآية الكريمة بيان عظمة الله تعالى وكبريائه، فالسيدة عائشة لم تسمع كلام خولة وهي معها في البيت بينما سمعها الله تعالى، فجلّ ربنا وعظم فلا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة.

{٨٣٠} ـ وعن خولة بنت ثَعْلَبَة رضي الله تعالى عنها قالت: والله فيّ وفي أوس بن صامت أنزل الله عزّ وجلّ صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خُلُقُه وضَجِر، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعتُه بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليّ، فإذا هو يُريدُني على نَفْسِي، قالت: فقلت: كلا والذي نفسُ خُوَيْلة بيده لا تَخْلُصُ إليّ وقد قلتَ ما قلت حتى يحكمَ الله ورسولُه فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيْتُه عنّي، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرتُ منها ثيابها ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجلستُ بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه، فجعلتُ أشكو إليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما ألقى من سُوء خُلُقِه، قالت: فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يا خُوَيْلَةُ ابنُ عمّك شيخٌ كبيرٌ فاتّقي الله فيه**»، قالت: فوالله ما برِحْتُ حتى نزل فيّ القرآن، فتغَشّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما كان يتغشّاه، ثم سرّي عنه فقال لي: «**يا خُوَيْلَةُ قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**»، ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقال لي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مُريه فليُعْتِقْ رقبة**»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتقه، قال: «**فليصم شهرين متتابعين**»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «**فليُطْعِم ستّين مسكيناً وسقاً من تمر**»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فإنا نستعينُه بعَرَقٍ من تَمْرٍ**»، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأُعِينُه بعَرَق آخر، قال:

«**قد أصبتِ وأحسنتِ فاذْهَبِي فتصدّقي عنه، ثم استوصِ بابن عمّك خيراً**»، قالت: ففعلت.

رواه أحمد (٦/٤١٠، ٤١١)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥)، وابن حبان (١٠/١٠٧، ١٠٨)، وابن الجارود (٧٤٦)، والبيهقي (٧/٢٩١، ٢٩٢)، وابن إسحٰق صرّح بالتحديث، وفي الباب غير هذا، تأتي في الظهار إن شاء الله تعالى.

وفي الحديث بيان كالحديث السابق أن الآية نزلت بسبب خولة وأوس زوجها، وفي ذلك دليل على أن الظهار يُحرّمُ الزوجة، وأنها لا تحلّ حتى يُكفّر المُظاهرُ بعِتْقِ رقبة أو إطعام ستّين مسكيناً أو صيام شهرين متتابعين، ويأتي مزيد لهذا في كتاب النكاح.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [٨]:

{٨٣٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل يهوديّ على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: السام عليك، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وعليك**»، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: وعليك السامُ وغضبُ الله، قالت: فخرج اليهودي فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عائشة إنّ الله تبارك وتعالى لا يحبُّ الفاحِشَ المُتَفَحِّش**»، قالت: يا رسول الله أما تَذْري ما قال؟ قال: «**وما قال**»؟ قالت: قال: السام عليك فهو قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، قال: فخرج اليهودي وهو يقول بينه وبين نفسه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وفي رواية: فقلت: بل عليكم السام واللعنة، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عائشة إن الله يحبُّ الرِّفق في الأمر**

كلُه»، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قلت: عليكم».

رواه البخاري (٦٩٢٧) في استتابة المرتدين، ومسلم في السلام (١٤٦/١٤، ١٤٧، ١٤٨)، والنسائي في الكبرى (٤٨٢/٦)، وابن ماجه (٣٦٩٨)، ورواه الشيخان أيضاً عن أنس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم.

في الآية الكريمة والحديث الشريف بيان ما كان عليه اليهود الملاعن من المكر والنّفاق، فها هم يحيّون سيد الخلق صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والمسلمين بما ظاهره تحية وسلام، وباطنه سبّ وشتم، فيفضحهم الله عزّ وجلّ ويكشف عوارهم وبوارهم عليهم لعائن الله المتوالية... وفي الحديث مشروعية الرّفق والمعاملة بالتي هي أحسن حتى مع الكفار، وخاصة بالنسبة إلى الدعاة إلى الله تعالى؛ لأن الله عزّ وجلّ يعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [١١]:

{٨٣٢} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا يُقِيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسِهِ فيجلسُ فيه، ولكن تَفَسَّحُوا وتوسّعوا»**.

رواه أحمد (٨٩/٢، ١٢٦)، والبخاري في الجمعة وفي الاستئذان (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧)، وأبو داود (٤٨٢٨)، والترمذي (٢٥٦٣) في الاستئذان.

الآية والحديث يدلاّن على أن الجالس لا يقام من مجلس ليجلس فيه غيره، لأن ذلك ينافي الأدب، ويمس بحرمة المؤمن ويُخرِجُه، والواجب في الأدب الإسلامي أن يتوسّعوا، وهو التفسّح المذكور في الآية، وفيه إشارة إلى فضل التوسّع، وأن ذلك يوجب التفسح في رحمة الله وجنّته.

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١]:

{٨٣٣} ـ فيه حديث سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله لَيرفَعُ بهذا القرآن أقواماً ويضعُ به آخرين»**.

رواه أحمد ومسلم والدارمي وابن ماجه، وتقدم في فضائل القرآن. ففي الآية والحديث فضل أهل العلم بالله وبأحكامه... وأن الله عزّ وجلّ يرفعهم درجات فوق غيرهم من سائر طبقات المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [١٨]:

{٨٣٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان في ظل حُجْرَةٍ من حُجَره وعنده نفرٌ من المسلمين قد كاد يَقْلص عنهم الظلُّ، قال: فقال: **«إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بِعَيْنَيْ شَيطان، فإذا أتاكُم فلا تكَلِّمُوه»**، قال: فجاء رجل أزرقُ فدعاه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فكلَّمه فقال: **«علام تَشْتُمُني أنت وفلانٌ وفلانٌ»** نفر دعاهم بأسمائهم، قال: فذهب الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

رواه أحمد (١/٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠)، والحاكم (٢/٤٨٢) وصححه، وقد جاء من طرق صحيحة.

في الآية الكريمة بيان بعض صفات المنافقين وهو حلفهم على الكذب والبهتان، حتى أنهم سينافقون الله في الآخرة ويحلفون له أنهم كانوا مسلمين كما كانوا! يحلفون للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غير ما مشهد كما في هذا الحديث.

وبهذا تمّت سورة المجادلة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

سورة الحشر

هي أربع وعشرون آية، وأهدافها بيان أحكام الجهاد والغنائم، وبالأخص ما يتعلق بغزوة بني النضير وما وقع فيها ونزل باليهود وما أخذه المسلمون من فيء، وما إلى ذلك من أحكام.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [٥]:

{٨٣٥} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حَرَّق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نخلَ بني النَّضِير وقطعَ، وهي البُوَيْرَة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية.

رواه أحمد (٦٠٥٤، ٦٢٥١)، والبخاري في المغازي وفي التفسير (١٠/٢٥٤)، ومسلم في الجهاد (١٧٤٦)، والترمذي في السير (١٤١٩) وفي التفسير (٣٠٨٥)، وأبو داود (٢٦١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٤)، وتأتي بقية في المغازي إن شاء الله تعالى.

{٨٣٦} ـ وعنه في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إلخ، قال: اللينة: النخلة ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل فحك في صدورهم فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هل لنا فيما

قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وِزر؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآية.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٨٣/٦) بسند صحيح على شرط البخاري في طريق للترمذي.

البويرة بالتصغير: أرض ليهود بني النضير.

وفي الآية والحديث جواز تحريق أشجار الكفار... وقطعها عند محاربتهم ولا يعدّ ذلك من الإفساد، بل في ذلك أجر وثواب، فإن كل ما يغيظ الكفار ويحزنهم يكتب به للمسلمين أجر وثواب.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [٦ ـ ٧]:

{٨٣٧} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: كانت أموالُ بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُنفق منها على أهلِه نفقةَ سنةٍ، وما بقي جعلَه في السلاح والكراع عُدةً في سبيل الله.

رواه البخاري في التفسير (٢٥٤/١٠) وفي الجهاد، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، وأبو داود في الخراج (٢٩٦٥)، والترمذي في الجهاد (١٥٧٧)، والنسائي في الكبرى (٤٨٤/٦) وفي المجتبى.

{٨٣٨} ـ وعنه قال: سأخبركم بهذا الفيء إن الله تعالى خصّ نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بشيء لم يعطه غيره، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا﴾، فكانت هذه لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خاصة، فوالله ما اختارها دونكم ولا استأثر بها عليكم، ولقد قسمها عليكم حتى بقي منها هذا المال، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينفق منه على أهله سنتهم، ثم يجعل ما بقي في مال الله عزّ وجلّ.

رواه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٤)، وفي المغازي (٤٠٣٣)، وفي الاعتصام (٧٣٠٥) وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (١٧٥٧)، وأبو داود في الخراج (٢٩٦٣)، والترمذي في السير (١١٧٦)، والنسائي في المجتبى (٤١٤٨)، وفي الكبرى (٦/٤٨٣، ٤٨٤) مطوّلاً ومختصراً، ويأتي في المغازي وغيره.

الإيجاف: سرعة السير، والفَيْء: ما أخذ من الكفار بدون حرب ولا قتال، وكانت أموال بني النضير من هذا القبيل، ففرقها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كما أمره الله عزّ وجلّ وخمسها على خمسة أسهم: سهم لله ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم ذوي القربى، ثم اليتامى، ثم المساكين، ثم ابن السبيل... وهي مصاريف الغنائم والأنفال، وكان الخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما قد قاما بذلك أحسن قيام بعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، لكن الروافض أخزاهم الله أبوا إلا أن يجعلوا الخليفتين... ظالمين ظلما مولاتنا فاطمة والإمام عليّاً وسيدنا العباس رضي الله تعالى عنهم جميعاً. وحاشا الخليفتين أن يظلما قرابة رسول الله فهما أعرف بقدر آل البيت من الذين يرتزق بهم الرافضة اليوم قبحهم الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [٧]:

{٨٣٩} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**الواشماتِ والمستوشماتِ، والمتفلّجاتِ للحُسْن، المُغيّراتِ خلق الله**»، قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسدٍ يقال لها: أم يعقوب كانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنك لعنت

الواشمات والمستوشمات والمُتَنَمِّصَات والمُتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله، فقال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في كتاب الله، قالت المرأة: لقد قرأت القرآن ما بين لوحي المصحف فما وجدته، قال: والله إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، قال: قالت المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك، قال: فاذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبدالله فلم تر شيئاً، فجاءت إليه فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها. وفي رواية: لو رأيت شيئاً من ذلك ما صحبتْني.

رواه أحمد (٤٣٣/١، ٤٣٤، ٤٤٣)، والبخاري في التفسير (٢٥٤/١٠، ٢٥٥) وفي اللباس (٥٩٤٣، ٥٩٤٨)، ومسلم في اللباس (٢١٢٥)، والترمذي في الأدب (٢٥٩٣)، والنسائي في الكبرى (٤٨٥/٦) وفي الزينة من المجتبى.

{٨٤٠} ـ وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنهما شهدا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه نهى عن الدباء، والحنتم، والنقير، والمزفّت، ثم تلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

رواه مسلم في الأشربة (١٩٩٧)، وأبو داود (٢٦٩٠)، والنسائي في الكبرى (٤٨٤/٦) وفي المجتبى.

{٨٤١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ذَرُوني ما تَرَكْتُكُمْ، فإنَّما هلكَ مَن كانَ قَبْلَكم بكثْرة سؤالهم واختلافِهم على أنْبيائهم، ما نَهَيْتُكم عنه فانْتَهُوا، وما أَمَرْتُكم به فأْتوا منه ما استطعتم»**.

رواه أحمد (٢٤٧/٢، ٢٥٨، ٤٢٨، ٥١٧)، والبخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، وفي الفضائل (١٠٩/١٥، ١١٠)، والترمذي في العلم (٢٤٩٣)، وابن ماجه (٢/١).

في الآية الكريمة وما ذكر من الأحاديث دليل على وجوب اتباع ما جاء به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أقواله أمراً ونهياً وخبراً، ومن أفعاله ابتداء أو بياناً للقول، وفي تقريراته فإنه لا يقرّ على منكر أبداً، وكل هذا لا خلاف فيه بين علماء الإسلام إن صح ذلك عنه. واختلفوا فيما تركه وسكت عنه، والصحيح أنه من المعفوات لحديث: «**وسكت عن أشياء رحمةً بكم فلا تسألوا عنها**». ومن الجهل الفاضح قصر بعض المحاضرين والكتّاب الآية الكريمة على سببها من قضيّة الفيء، وهذا جهل سافر وقول في الدين بالرأي والهوى، فإننا لو قصرنا القرآن على خصوص الأسباب لما بقي معنا من الدين إلا النزر، فالعبرة بالعموم، وباقي أبحاث الأحاديث تأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [٨ ـ ٩]:

{٨٤٢} ـ عن عمرو بن ميمون رحمه الله تعالى قال: أوصى عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال: أوصي الخليفةَ من بعدي بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين الأولين ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية، أن يعرف لهم هجرتهم ويعرف لهم فضلهم، وأوصيه بالأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، أن يعرف لهم فضلهم وأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل ذمة محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يوفي لهم بعهدهم، وأن لا يحمل عليهم فوق طاقتهم، وأن يقاتل عدوّهم من ورائهم.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٥٥) وفي مواضع، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٥).

في الآية الكريمة إشادة بفضل المهاجرين والأنصار، ولذا جاءت الوصية بهم في السنة، وعلى لسان أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [٩]:

{٨٤٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دعا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الأنصار أن يَقْطعَ لهم البَحْرَيْن، قالوا: لا، إلا أن تَقطعَ لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «**أما لا فاصبِرُوا حتى تَلْقَوْني فإنه سيُصِيبُكم أثَرَةٌ**»، وفي رواية لأبي هريرة: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قالوا: لا، فقالوا: أتكفونا المؤونة ونشرككم في التمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

رواه أحمد (٣/١١١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤)، والبخاري في المساقاة (٢٣٧٦) وفي المناقب (٣٧٩٤)، والحميدي (١١٩٥)، والطيالسي (١٩٦٩)، والبيهقي (٦/١٤٣، ١٤٤).

ورواه البخاري في المزارعة (٥/٤٠٥)، وفي المناقب (٨/١١٤) من حديث أبي هريرة. هكذا كان المسلمون أيام النبوّة يحب أحدُهم ما يُحِبُّ لأخيه، ويأتي الكلام على الحديث في المناقب إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [٩]:

{٨٤٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأنصار بات عنده ضَيْفٌ فلم يكن عنده إلا قوتُ صِبْيانِه، فقال لامرأته: نَوّمي الصِّبْية وأَطْفِئي السِّراجَ وقَرِّبي للضيف ما عندك، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٥٦، ٢٥٧) وفي المناقب، ومسلم في الأشربة (٢٠٥٤)، والترمذي في التفسير (٢٠٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٦) هكذا مختصراً، وهو مطوّل عند البخاري وغيره، ويأتي إن شاء الله في فضائل الأنصار.

الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وتفضيله، والخصاصة: الفقر والحاجة، وما فعله هذا الصحابي لضيفه هو غاية في الإيثار، ونهاية في كرم النفس وحسن الضيافة إذ بات طاوياً هو وزوجه وأطفاله ليُشبع ضَيْفَه، وتأتي قصة ما وقع لجماعة من الصحابة في غزوة اليرموك في المناقب إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الآية [١٨]:

{٨٤٥} - عن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كُنا عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في صدر النهار، قال: فجاء قوم حفاة عراة مجتابي النِّمار أو العباء، متقلّدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر فتمعّر وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما رأى ما بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلّى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، تصدّق رجلٌ من دِينارِه، من درْهمه، من ثَوْبِه، من صاعِ بُرّه، من صاع تَمْره، حتى قال: «**ولو بشقّ تمرة**»، قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفُّه تَعْجِزُ عنها، بل قد عجزتْ، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَيْنِ من طعام وثياب، حتى رأيت وجْه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتهلّل كأنّه مُذْهَبة، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من سنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجْرُها وأجْرُ من عمِل بها بعدَه من غير أن ينْقُص من أجورهم شيءٌ، ومن سنّ في الإسلام سُنّةً سيّئة كان عليه وزرُها ووِزْرُ من عمل من بعده من غير أن ينْقُص من أوْزَارِهم شيءٌ**».

رواه الطيالسي (٦٧٠)، وأحمد (٣٥٧/٤، ٣٥٨، ٣٥٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٢/٧، ١٠٣، ١٠٤)، والترمذي في العلم (٢٤٨٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣).

مجتابي أي: لابسي النمار جمع نمرة وهي العباءة، فتمعّر ـ بتشديد العين المفتوحة ـ أي: تغيّر، كومين: تثنية كوم بالضم والفتح وهو الصبرة العظيمة، يتهلّل أي: يستنير كالهلال فرحاً وسروراً، مذهبة ـ بضمّ الميم ثم ذال معجمة ساكنة ثم هاء مفتوحة ـ ومعناه: كأنه فضّة مذهبة في حس الوجه وإشراقه.

والآية الكريمة جاءت تنبّه المسلم على التيقّظ ومحاسبة النفس والاستعداد للآخرة. وأبحاث الحديث تقدمت في كتاب العلم.

وبه تمّت سورة الحشر، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الممتحنة

وهي ثلاث عشرة آية، وهدفها الرئيسي النهي عن اتّخاذ الأعداء أولياء وأصحاباً تلقى إليهم المودة ويحتفىٰ بهم، ثم ذكر امتحان النساء المهاجرات ثم مبايعتهن.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية [١]:

{٨٤٦} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: بعَثَنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنا والزُّبير والمقدادُ وقال: «**انطلقوا حتى تأتُوا روضةَ خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، فذهبنا تُهَادي بنا خَيْلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخْرِجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتُخْرِجنَّ الكتابَ أو لتُلقينَ الثياب فأخرجَتْه من عقاصها، فأتينا به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكّة يخبرهم ببعض أمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما هذا يا حاطب**»؟ قال: لا تَعْجَل عليَّ يا رسول الله إني كنتُ امرأً من قريش ولم أكن من أنفسُهِم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُون بها أهلَهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذْ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يَحْمُون قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دِيني، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنه قد صَدَقكم**»، فقال عمر رضي الله

تعالى عنه: دَعْني يا رسول الله فأضرِب عنقَه، فقال: «**إنه شَهِد بَدْراً، وما يُدْرِيك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعْمَلوا ما شِئْتُمْ فقد غفرتُ لكم**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٥٨، ٢٥٩) وفي الجهاد (٣٠٠٧) وفي المغازي (٤٢٧٤)، ومسلم في الفضائل (٢٤٩٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٧).

الظغينة: تطلق على المرأة في الهودج، وتقال للمرأة نفسها أو للهودج، وقوله: عقاصها أي: ضفيرتها.

وفي الحديث فضل أهل بدر وأنهم مغفور لهم مَرْضِيٌّ عنهم لا تَضُرُّهم أيُّ جِناية.

وفي الآية الكريمة النهي عن اتخاذ الكفار أولياء والتحذير من إطلاعهم على أسرار المسلمين، وفي قول الإمام علي لتلك المرأة: لتخرجنّ أو لنلقينّ الثياب جواز تفتيش المرأة إذا شكّ فيها... ولو بتجريدها من ثيابها.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [٨]:

{٨٤٧} ـ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: قدمتْ أمّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله إن أمّي قد قدمت وهي راغبة أفأصِلُها؟ قال: «**نعم صِلِي أمّك**».

رواه أحمد (٦/٣٤٤، ٣٤٧)، والبخاري في الأدب (١٣/١٧)، ومسلم في الزكاة (٧/٨٩)، وعند البخاري: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

في الآية والحديث مشروعية الإحسان إلى المشركين الموادعين للمسلمين والبرور بهم والعدل بينهم. وقيل ذلك هو خاص بالنساء والأطفال

كما في الحديث البرور بالوالدين، وإن كانوا مشركين وأنه لا بأس بدخولهم لبيت المسلم، كما فيه جواز قبول هداياهم المباحة لنا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [١٠]:

سيأتي حديث المسور أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات بعد أن رجع إلى المدينة، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

كان في المعاهدة بين النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبين قريش أن من جاءهم من المؤمنين ردّوهم إليهم فجاءه نساء، فأنزل الله الآية واستثنى النساء ونهاهم أن يردّوهم إلى الكفار؛ لأنهنّ لم يكن في العهد، وأمر الله تعالى نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يمتحن كل امرأة جاءته مهاجرة أنها ما خرجت إلا رغبة في الله وفي رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [١٢]:

{٨٤٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد بايَعْتك**» كلاماً لا والله ما مست يدُه يد امرأةٍ قط في المبايعة ما بايعهنّ إلا بقوله: «**قد بايعتكن على ذلك**».

رواه البخاري في التفسير (٢٦١/١٠)، ومسلم في الإمارة (١٠/١٣)، والنسائي في الكبرى (٤٨٨/٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٥).

{٨٤٩} ـ وعن أمّ عطية رضي الله تعالى عنها قالت: بايَعْنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضتْ امرأةٌ يدَها فقالت: أسْعَدَتْني فلانةٌ أريد أن أجْزِيَها، فما قال لها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً فانطلقتْ ورجعتْ فبايَعَها، وفي رواية: فقلت: إلا آل فلان، فإنهم قد كانوا أسْعَدُوني في الجاهلية، فلا بدّ لي من أن أسعدهم، قال: «**إلا آل فلان**».

رواه البخاري في التفسير (٢٦٢/١٠) وغيره، ومسلم في الجنائز (٩٣٦)، والنسائي في الكبرى (٤٨٨/٦)، ونحوه عن أم سلمة رواه الترمذي (٣٠٩٠)، وفيه ما هو المعروف الذي لا ينبغي أن نعصيك فيه، قال: «**لا تَنُحْنَ...**» وسنده صحيح.

{٨٥٠} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شهِدتُ الصلاةَ يومَ الفطر مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلّهم يصلّيها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فكأنّي أنظر إليه حين يُجْلِس الرجال بِيَدِهِ ثم أقبل يَشُقّهم حتى أتى النساء مع بلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «**أنْتُنَّ على ذلك؟**»، وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله.

رواه البخاري في التفسير (٢٦٥/١٠)، ومسلم في العيدين (١٧١/٦، ١٧٢، ١٧٣)، وتقدم في كتاب الإيمان حديث عبادة بن الصامت، وحديث أُمَيْمة بنت رقيقة كما تقدم في العيدين حديث ابن عباس بسياق آخر.

وفي هذه الأحاديث بيان للمبايعة التي بايع فيها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم النساء، وهي التي نزلت فيها الآية، وعلى هذه الخصال بايع صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الرجال كما تقدم في حديث عبادة، وفي حديث عائشة دليل على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكن يصافح النساء في المبايعة كما كان يفعلُ مع الرجال؛ لأن مسّ المرأة الأجنبية ممنوع، بل يعتبر زنى باليد كما تقدم في حديث أبي هريرة: **«واليدان تزنيان»**، ولذلك قالت مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: لا والله ما مسَّت يدُه يدَ امرأة قط... إلخ.

وبهذا تمّت سورة الممتحنة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الصف

هي أربع عشرة آية، وموضوعها ذكر الجهاد والتضحية بالنفس في سبيل الله ونصر دينه، وبيان التجارة الرابحة.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ إلى آخر السورة:

{٨٥٩} ـ عن عبدالله بن سَلاَم رضي الله تعالى عنه قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فتذاكرنا، فقلنا: لو نَعلمُ أيّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ إلى آخرها.

رواه أحمد (٤٥٢/٥)، والترمذي (٣٠٩١)، والحاكم (٢٢٨/٢، ٢٢٩، ٤٨٧) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في الإتحاف بعد أن عزاه لأبي يعلى: رواته ثقات، وكذا صححه الحافظ، وهذا الحديث من المسلسلات الصحيحة التي قلّ نظيرها. وفي الحديث ما كان عليه الصحابة من تمنّي الخير والعمل بالأفضل، لكن الله تعالى أنكر عليهم ما تمنّوه لتقصيرهم في القيام بما يجب القيام به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝٤﴾ [٤]:

{٨٦٠} ـ عن كعب الأحبار رحمه الله قال: نجد مكتوباً: محمد

رسول الله لا فظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيّئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وأمته الحمّادون، ويكبّرون الله عزّ وجلّ على كل نجْدٍ، ويَحْمَدُونه في كل منزلة، ويأتَزِرون على أنصافهم، ويَتَوَضَّؤُونَ على أطرافهم، مُنادِيهِم يُنادي في جوّ السماء، صفُّهم في القتال وصفُّهم في الصلاة سواء، لهم باللّيل دَوِيٌّ كدَوِيّ النحل، ومولِدُه بمكّة، ومُهاجَرُه بِطيبة، ومُلْكه بالشام.

رواه الدارمي في أول سننه رقم (٥) بسند صحيح، ورواه من طريقين آخرين (٨/٧) بنحوه وأحدهما سنده حسن. كلام كعب هذا منقول من التوراة، وهو ثقة مصدق خلافاً لمن طعن فيه ظلماً، وفيه صفات النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وصفات أُمّته التي منها أنهم يصفون في الصلاة والقتال وهو موافق لمضمون الآية الكريمة. والآية تدلّ على أن الله عزّ وجلّ يرضى من عباده اصطفافهم أمام الْعَدُوّ عند القتال ملتصقين إلى بعضهم، كأنهم البنيان الثابت، فلا يَفرّون ولا يجبنون ولا يضعفون وأن فاعلي ذلك محبوبون عنده تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [٥]:

{٨٥٣} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قِسْمةً، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبرته فتَمَعَّرَ وجهُه، وقال: **«رحم الله مُوسى لقد أُوذي أكثر من هذا فصبَر»**.

رواه البخاري في الأدب (٨٦/١٣، ١٢٦) وفي المغازي وفي الاستئذان، والحميدي (١١٠)، وكذا أحمد (٣٨٠/١، ٤٣٥، ٤٥٣).

في الآية الكريمة لفت أنظار المؤمنين من هذه الأُمّة، وتحذيرهم من أن ينالوا من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو يؤذوه بأيّ نوع من

أنواع الإذايات، وقد آذاه المنافقون فصبر وصفح عنهم، ولا أدلّ على ذلك من حديث الباب، فإن نسبته إلى الظلم في القسمة أذى أي أذى، ولكنه ذكر أخاه موسى وما لاقى من اليهود فاقتدى به في صبره وإعراضه عن الجاهلين وضعفاء الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [٦]:

فيه حديث العرباض بن سارية: «**إني عند الله خاتم النبيّين...**»، وفيه: «**وبشارة عيسى**»، رواه أحمد والبخاري في التاريخ وابن حبان والحاكم وغيرهم وصححه غير واحد، وقد تقدم في سورة البقرة، ويأتي في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى. في الآية والحديث إخبار ببشارة روح الله عيسى عليه السلام بنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ **إلخ** [١٤]:

{٨٥٤} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أراد الله عزّ وجلّ أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج على أصحابه وهم في بيتٍ اثنا عشرَ رجلاً ورأسُه يقْطُرُ ماء، فقال: أيُكُم يُلْقَى شَبَهي عليه فيُقتلُ مكاني فيكون مَعِي في درجتي، فقام شابٌّ من أحدَثهم سِنّاً، فقال: أنا، فقال: اجْلِسْ ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم الثالثة، فقال الشاب: أنا، فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت، فألقي عليه شبه عيسى، ثم رُفع عيسى من رَوْزَنَةٍ كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشابّ للشَّبَه فقَتَلُوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان فينا الله عزّ وجلّ ما شاء الله ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابنُ الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت طائفة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله ثم رفعه، فهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعثَ الله محمداً صلّى الله تعالى عليه

وآله وسلم فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِیٓ إِسۡرَٰٓءِیلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عليه السلام والطائفة التي آمنت في زمان عيسى عليه السلام: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٤٨٩، ٤٩٠)، وابن جرير (٢٨/٩٢) وسنده صحيح، والمنهال بن عمرو لا يضرّهُ من تكلم فيه، فإنه من رجال البخاري.

قوله: ثم رفع من روزنة، على وزن رونقة: هي خرق في سقف البيت، ورفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء مقطوعٌ به صرح به القرآن، وتواترت الأخبار بنزوله آخر الزمان وكونه شبّه على اليهود الذين أرادوا قتله هو نص القرآن أيضاً، وهذا الأثر يرفع النزاع الذي طالما حصل بين المفسّرين في الذي أُلْقِيَ عليه الشبه وصلب، وأنه الشاب أحد أصحابه من الحواريين، وفيه أن أمهات فرق النصارى هي ثلاثة، إحداها: مسلمة والباقيتان كافرتان، ثم كثرت فرقهم بعد ذلك وتشعبت. وبهذا تمّت سورة الصف، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وصحبه وحزبه.

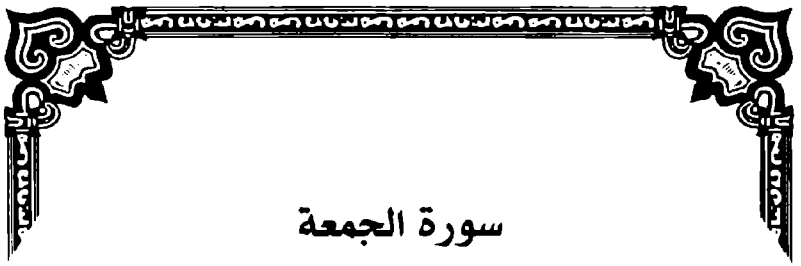

سورة الجمعة

هي إحدى عشرة آية، وأهم أهدافها النعمة العظمى ببعثة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الأميين وآخرين لما يلحق قوم بهم وهم العجم وغيرهم ثم ذكر الجمعة والسعي إليها.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ [٣]:

{٨٥٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنّا جلوساً عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ نزلت سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي وضع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يده على سلمان، ثم قال: **«لو كان الإيمانُ عِند الثُّريا لنالَه رجالٌ أو رجلٌ من هؤلاء»**، وفي رواية: **«والذي نفسي بيده لو كان الإيمان عند الثريا لذهب رجال من أبناء فارس حتى يَتَناوَلُوهُ»**.

رواه أحمد (٤١٧/٢)، والبخاري في التفسير (٢٦٧/١٠، ٢١٨)، ومسلم في الفضائل (٢٥٤٦)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٧) وفي الفضائل (٣٦٩٧)، والنسائي في الكبرى (٧٦/٥)، وابن حبان (٢٥٨/١٦).

أما حديث: «لو كان العلم بالثريا»، رواه ابن حبان وغيره فضعيف.

في الآية والحديث معجزة غيبية ظاهرة حيث أخبر تعالى بقوم يأتون بعد الصحابة يؤمنون بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد عيّنهم الحديث الشريف، وأنهم ناس من أبناء فارس ورجال العجم، أوكد من صدق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير العرب الأميين.

وفي الحديث فضل مؤمني العجم، وحرصهم على الإيمان والعمل بمقتضاه، والحديث صدقه الواقع فإن للعجم أيادي في خدمة دين الإسلام وعلومه، ويكفي في ذلك أن يكون أكثر حفّاظ الحديث وأصحاب الأُمّهات المشهورة من العجم؛ فالبخاري عجمي، ومسلم عجمي، وأبو داود عجمي، والترمذي عجمي، وابن ماجه عجمي، والنسائي عجمي... وغيرهم كثير، وهكذا شأنُهم في التفسير والعلوم العربية واللغة والأدب، والتصوّف، فالعجم لهم شأن عظيم في خدمة الإسلام والتمسّك به، وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم يأتوا بعد أو لم يلحقوهم في الفضل والسابقة، وذلك كلّه فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [٧]:

تقدم حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار»**.

رواه أحمد وغيره بسند صحيح انظر ما سبق في سورة البقرة آية (٩٥)، فقد ذكر هنالك مطوّلاً:

كان اليهود الملاعين يدَّعون أن الآخرة خاصة بهم دون سائر الأُمم، فأكذبهم الله تعالى بما ذكر هنا وفي سورة البقرة...

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [٩]:

تقدم حديث السائب بن يزيد في أذان الجمعة، وأنه كان واحداً، مع حديث أبي هريرة في فضل روّاد الجمعة، انظر ذلك في كتاب الجمعة مع أحاديث أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [١١]:

{٨٥٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجمعة فمرّت عير تحمل الطعام، فخرج الناس إلا اثني عشر رجلاً، فنزلت الآية. وفي رواية: بينما النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر.

رواه البخاري في الجمعة (٩٣٦) وفي البيوع وفي التفسير (٢٦٨/١٠)، ومسلم في الجمعة (٨٦٣)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٣)، والنسائي في الكبرى (٤٩٠/٦)، وفي الجمعة من المجتبى.

العِير ـ بكسر العين ـ: هي الإبل التي تحمل التجارة والميرة، واللهو في الآية: هو الضرب في الطبل الذي كانوا يضربون فيه عند قدوم تجارة إعلاماً للناس بذلك.

وهذه الحادثة كانت خطيرة على من انفضّ عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يخطب، لولا أن الله عزّ وجلّ عفا عنهم وغفر لهم لكونهم لم يكونوا يعلمون أن ذلك محرم.

وبهذا تمّت سورة الجمعة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة المنافقون

وهي إحدى عشرة آية، وهي تعنى بذكر المنافقين وصفاتهم والكشف عن كذبهم وبيان مقالاتهم حول الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **إلخ:**

{٨٥٧} ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع عمي فسمعت عبدالله بن أُبيّ بن سلول يقول لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ و﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فذكرتُ ذلك لعمي فذكر ذلك عمر للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فدعاني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فحدّثته، فأرسل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى عبدالله بن أُبي وأصحابه فحلفُوا ما قالوا، فكذّبني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وصدّقه، فأصابني شيء لم يصبني شيء قط مثله، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلا أن كذّبك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرأها ثم قال: **«إن الله قد صدّقك»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/ ٢٦٩، ٢٧٣) من طرق، ومسلم في

كتاب صفات المنافقين (١٢٠/١٧) وغيرهما، ويأتي مع حديث جابر في المغازي إن شاء الله تعالى.

في الحديث بيان سبب نزول هذه السورة التي جاءت تكشف عن بواطن المنافقين وتفضحهم وتسجل عليهم الكذب والمكر والخيانة والطعن في الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وبه تم الكلام على سورة المنافقون، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة التغابن

آياتها ثمان عشرة، وهي وإن كانت مدنية، فروحها روح السور المكّية كما يظهر متجلّياً فيها.

﴿ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن﴾ إلخ [١٤]:

{٨٥٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلخ، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما أتوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا يعاقبونهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ إلخ.

رواه الترمذي (٣٠٩٩)، وابن جرير (١٢٤/٢٨، ١٢٥)، وابن أبي حاتم (٣٣٥٨/١٠)، والحاكم (٤٩٠/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو عند الترمذي صحيح على شرط مسلم.

الأزواج والأولاد كثيراً ما يكونون سبباً في خسارة الإنسان وشقاوته عياذاً بالله تعالى إذا هو أطاعهم فيما يَهوون، فإنهم بالطبع لا يحبون الجهاد في سبيل الله، ولا يرضون منه أن يتصدّق ويواسي المحتاجين، ولا يتركونه يخرج

للدعوة إلى الله تعالى أو الهجرة إلى بلد يقيم فيه دينه، وبذلك يكونون له أعداء وقد يعادونه لأسباب تافهة دنيوية محضة، فيجب عليه أن يكون على حذرٍ منهم، ألهمنا الله وإياهم رشدنا وحفظنا وإياهم من شرور أنفسنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [١٥]:

{٨٥٩} ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطبُ فجاء الحَسَنُ والحُسَيْنُ عليهما السلام عليهما قميصان أحْمَرانِ يمشيان ويَعْثُران، فنزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، قال: «**صدق الله ورسوله**: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي فرفعتهما.

رواه أحمد (٣٥٤/٥)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي في المناقب (٣٥٤٦)، والنسائي في الجمعة (١٠٨/٣) وفي الكبرى (٥٣٥/١، ٥٥١)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن خزيمة (١٠٨٢)، وابن حبان (٢٢٣٠) بالموارد، والحاكم (٢٨٧/١)، وهو حسن صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الآية والحديث يدلاّن على ما ابتلي به الإنسان في هذه الحياة من الفتنة العظيمة والمحنة الشديدة بالأموال والأولاد.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [١٦]:

فيه حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»، رواه الشيخان، وانظر ما سبق في سورة الحشر آية (٧)، فهناك تخريجه ولفظه ومعناه.

الآية والحديث فيهما تقييد ما أطلق في القرآن والسنّة من التقوى بالاستطاعة، فالحمد لله على رحمته ولطفه بنا وإحسانه إلينا.

وبهذا تمّت سورة التغابن، والحمد لله التي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه.

سورة الطلاق

هي اثنتا عشرة آية، وأهدافها بيان أحكام الزوجين من الطلاق والرجعة والعدة والنفقة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [١]:

{٨٦٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه طلّق امرأة له وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فتَغَيَّظَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم قال: «**ليُراجعها ثم يُمْسِكْها حتى تَطهُر ثم تحيضَ فتطهرَ، فإن بدا له أن يُطلّقها فلْيطلقها طاهراً قبل أن يمَسَّها فتلك العدة التي أمر الله عزّ وجلّ أن يُطلّق لها النساء**»، وفي رواية: قال ابن عمر: وقرأ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وفي رواية: «**مُرْه فلْيراجِعْها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً**».

رواه أحمد (٢/٢٦، ٤٣، ٥٤)، والبخاري (١١/٢٦١، ٢٦٦)، ومسلم (١٠/٥٩، ٦٩)، وأهل السنن وغيرهم مختصراً، ويأتي مبسوطاً في كتاب النكاح إن شاء الله تعالى.

والآية مع الحديث يدلاّن على أن الطلاق المشروع لا يكون إلاّ عند حصول حمل أو مع طهر لم يقربها فيه، وهذا هو الطلاق السني، وسيأتي مبسوطاً في النكاح.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [٢]:

{٨٦١} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: جعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتلو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الآية، ثم قال: «**يا أبا ذرّ لو أن الناس كلّهم أخذوا بها لكفتهم**».

رواه أحمد (١٧٨/٥)، والنسائي في الكبرى (٤٩٤/٦)، وابن ماجه (٤٢٢)، وابن حبان (٥٣/١٥) بالإحسان، وسنده صحيح لولا انقطاعه لكن له طريقاً آخر رواه أحمد (١٤٤/٥ و٤٥٧/٦) مطوّلاً، وشهر بن حوشب تكلّم فيه بلا حجّة كما قال النووي، فالحديث قوي بطريقيه.

الآية مع الحديث يدلاّن على أن من تحقّق بهذه الآية وعمل بمقتضاها فاتّقى الله عزّ وجلّ وتوكل عليه كفاه الله ما أهمّه وأتاه برزقه من حيث لا يدري، وذلك يدلّ على أن التقوى من أسباب الرزق، لأن الأسباب لا تنحصر في الأسباب الظاهرة العادية، فالإقبال على العبادة أو الانقطاع للاشتغال بالعلم الديني بإخلاص، كل ذلك من أسباب الرزق.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [٤]:

{٨٦٢} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إنّ سُورة النساء القُصْرَى نزلت بعد البقرة: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

رواه أبو داود (٢٣٠٧)، والنسائي في الطلاق من المجتبى، وفي التفسير من الكبرى (٤٩٤/٦)، وابن ماجه (٢٠٣٠)، والبيهقي (٤٣٠/٧) وسنده صحيح.

{٨٦٣} ـ وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه أن سُبيْعة الأسلميّة نُفِسَت بعد وفاة زوجها بليال، فجاءت النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم فاستأذنته أن تنكح فأذن لها، فنكحت.

رواه البخاري في الطلاق (٥٣٢٠)، وفي الباب غير هذا، تأتي في النكاح إن شاء الله تعالى.

سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق، لأنها ذكرت أحكام النساء وجاءت بعد سورة البقرة التي فيها عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر، وعدة الطلاق ثلاثة قروء... فجاءت هذه السورة تخبر بأن عدة الحامل هي وضعها ونفاسها مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [١٢]:

{٨٦٤} ـ عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن رحمه الله تعالى أنه كان بينه وبين أناس خصومة، فذكر لعائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت له: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من ظَلَم قِيدَ شِبْرٍ من الأرض طُوِّقَهُ من سبع أرَضين**».

رواه أحمد (٦/٦٤، ٧٩، ٢٥٢، ٢٥٩)، والبخاري في المظالم (٦/٣٠) وفي بدء الخلق (٧/١٠٣)، ومسلم في تحريم الظلم من البيوع (١١/٥٠).

{٨٦٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين**».

رواه أحمد (٢/٩١)، والبخاري في المظالم (٦/٣٠) وفي بدء الخلق (٧/١٠٣) وغيره، وفي الباب أحاديث سيأتي بعضها في المظالم وغيره إن شاء الله تعالى.

قوله: قيد شبر ـ بكسر القاف ـ أي: قدر شبر، يقال: قيد وقاد وقيس وقاس بمعنى واحد، وقوله: طوّقه ـ بضم الطاء وكسر الواو المشدّدة ـ أي: جعل ذلك في عنقه كالطوق.

والآية الكريمة صريحة كالحديثين في أن الأرضين سبع كالسمٰوات، وجاء صريح القرآن بأن السمٰوات طباق، وهكذا جاء في السنّة الصحيحة في أحاديث الإسراء والمعراج، يبقى الأمر بعد هذا في الأرضين، فصريح القرآن أنها مثل السمٰوات مطلقاً في العدد والطّباق، وبهذا قال أكثر العلماء. قال النووي في شرح مسلم (٤٨/١١): هذا تصريح بأن الأرضين سبع طبقات، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. وأما تأويل المماثلة على الهيئة والشكل فخلاف الظاهر، وكذا قول من قال: المراد بالحديث سبع أرضين من سبع أقاليم، لأن الأرضين سبع طباق وهذا تأويل باطل أبطله العلماء بأنه لو كان كذلك لم يطأ الظالم بشبر من هذه الأقاليم شيئاً من إقليم آخر بخلاف طباق الأرض، فإنها تابعة لهذا الشبر في الملك، فمن ملك شيئاً من هذه الأرض ملكه وما تحته من الطباق. وذكر الحافظ نحوه مختصراً في الفتح في بدء الخلق (١٠٢/٧) كما نقل عن بعضهم أن الأرض واحدة، قال: وهو مردود بالكتاب والسنّة.

نعم، بيد أن الظاهر أن الأرضين مرتوقات متلاصقات لما اكتشف الآن من أن هذه الأرض التي نعيش عليها هي كوكب في الفضاء كجملة الكواكب، والله تعالى أعلم بكتابه وكونه. وبهذا تمّت سورة الطلاق، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة التحريم

هذه السورة الكريمة هي خاتمة السور العشر المدنيات المتواليات، وهي اثنتا عشرة آية، وهدفها البارز هو الكلام على بيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وزوجاته الطاهرات وما صدر منهنّ نحوه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من التنافس والغيرة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ **إلخ:**

{٨٦٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يمكث عند زينب ويشربُ عندها عسلاً، فتواصيتُ وحفصةُ أيتنا ما دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عليها فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: **«بل شربتُ عسلاً عند زينب»**، وقال لي: **«لن أعود له»**، فنزلت: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: **«بل شربت عسلاً»**... وفي رواية: **«فلن أعود له وقد حلفتُ لا تُخبري بذلك أحداً»**.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٨٢) وفي الطلاق وفي الأيمان والنذر، ومسلم في الطلاق (١٠/٧٣)، وأبو داود (٣٧١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٥) وفي عشرة النساء وفي النذور من المجتبى.

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ إلخ [٤]:

{٨٦٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سأل عمر رضي الله تعالى عنه عن اللتين تظاهرتا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما.

رواه البخاري في التفسير (٢٨٣/١٠)، ومسلم في الطلاق (٨٥/١٠)، والترمذي في التفسير (٣١٠٠) كلّهم رووه مطولاً، ورواه النسائي في الكبرى (٤٩٥/٦) مختصراً كما ذكرناه، ويأتي مطوّلاً في النكاح.

اختلفت الأحاديث في سبب نزول هذه الآيات، وماذا حرم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عليه هل الأمة أم العسل؟ وعلى الثاني من الساقية؟ هل زينب أم حفصة؟ ومن المتظاهرتان عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هل عائشة وحفصة؟ أم عائشة وسودة وصفية؟ فالصحيح أن التحريم كان العسل، وهو سبب نزول الآيات، والمتظاهرتان عائشة وحفصة، والساقية زينب رضي الله تعالى عنهنّ جميعاً. وما جاء في صحيح البخاري من كتاب الطلاق ومسلم فيه أيضاً أن المتظاهرات هنّ عائشة وسودة وصفيّة، وأن الساقية كانت حفصة هو غلط، وانقلاب الأسماء على بعض الرواة وهو مخالف لصريح القرآن: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ إلخ، فهما في الآية ثنتان لا ثلاث رضي الله تعالى عنهن.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾:

{٨٦٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا حرّم الرجلُ عليه امرأته فهي يمينٌ يُكفّرها، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وفي رواية: قال في الحرام يكفّر، ثم قرأ الآية... وفي رواية ثالثة: إذا حرم امرأته ليس بشيء.

رواه مسلم في الصلاة (٧٢/١٠، ٧٣) بالرواية الأولى، ورواه البخاري في التفسير (٢٨٢/١٠) بالرواية الثانية، وفي الطلاق (٢٩١/١١) بالرواية الثالثة.

مراد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ من حرم عليه زوجته أن يكفّر كفارة اليمين ولا يلزمه طلاق، واستدلّ بالآية إشارة منه إلى أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حرم عليه مارية كما جاء من حديث أنس عند النسائي والحاكم وغيرهما بسند صحيح.

وهذا قولٌ للعلماء وجمعوا بين هذا وبين ما قبله بتعدّد القصة، والله تعالى أعلم. ولكن الصحيح أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إنما حرّم شرب العسل، وقال: لن أعود وقد حَلَفْتُ، فجاءت الآية الكريمة تبيّن أنه تعالى قد شرع للمؤمنين ما يتحلّلون به من أيمانهم وذلك بالكفارة، ويأتي مزيد لهذا في النكاح إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [٥]:

{٨٦٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: اجتمع على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساؤه في الغَيْرة عليه، فقلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾ إلخ، فنزلت مثل ذلك.

رواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم، وتقدم في البقرة آية (١٢٥) وفي الأحزاب آية (٥٣)، وذكرت في كل موضع قطعة منه مما يناسب الموضوع.

هذه إحدى موافقات سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وقد ذكرت موافقاته لنزول القرآن الكريم في «فضائل الصحابة»، وهي ست موافقات جاءت بأسانيد صحيحة.

أما الآية الكريمة، فقال القرطبي: هذا وعد من الله تعالى لرسوله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لو طلقهنّ في الدنيا أن يزوّجه نساء خيراً منهنّ، والله عالم بأنه لا يطلقهنّ، ولكن أخبر عن قدرته على أن رسوله لو طلقهنّ لأبْدَلَهُ خيراً منهن تخويفاً لهنّ، إلخ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية [٨]:

{٨٧٠} ـ عن الأغرّ المزني رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوبُ في اليوم إليه مائة مرة»**.

وفي رواية: **«إنه ليُغَانُ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»**.

رواه أحمد (٤/٢١١، ٢٦٠)، ومسلم في الدعوات (١٧/٢٣، ٢٤)، وأبو داود (١٥١٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/١١٦)، والروايتان لمسلم. وفي رواية من حديث أنس: **«إني لأستغفر الله في اليوم وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة»**، رواه النسائي (٦/١١٤).

لَيُغَانُ: الغين يكون للمقربين وهو بمنزلة الغيم للأبرار، والغفلة للعامة، والرَّيْن لقلوب الكفار وأشباههم. واستغفار النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتوبته إنما هو تعبّد منه لله عزّ وجلّ وتشريع لأُمّته، أو كان يستغفر من فعل خلاف الأولى أو من فعل بعض المباحات. والتوبة النصوح: هي الخالصة الصادقة، وهي التي تتوفر فيها ثلاثة شروط: الندم وتألم القلب على فعل المعصية، ثم الإقلاع عن الذنب، ثم نيّة عدم الرجوع إليه، ثم سؤال المغفرة، فإذا كان حق لمخلوق استرضى صاحبه، ومن كمال التوبة صلاة ركعتين، فإذا حصلت بهذه الشروط قبلت قطعاً خلافاً لمن قال غير ذلك، وكان جزاء التائب ما وعد الله به في تتمّة الآية، وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إلخ:

{٨٧١} ـ عن رجل من بني كنانة قال: صلّيت خلف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عام الفتح، فسمعته يقول: **«اللّهمّ لا تُخْزِني يوم القيامة»**.

رواه أحمد (١٣٤/٤) بسند صحيح وأورده في المجمع (١١٢/١٠) وقال: رجاله ثقات.

في الآية وعد من الله عزّ وجلّ في أنه لا يخزي النبيّ ومن معه من المؤمنين ودعاؤه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا كان تعبّداً منه وقياماً بالأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ إلخ [١٢]:

{٨٧٢} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كمُل من الرجال كثير ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، وخديجةُ بنت خُوَيلد وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**.

رواه أحمد والشيخان وغيرهم، ويأتي في الفضائل والمناقب إن شاء الله تعالى.

وبهذا تمّت سورة التحريم، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة تبارك، الملك

من هنا استؤنف ذكر السور المكيات إلى آخر القرآن، وهي نحو من خمس وأربعين سورة، وليس يتخلّلها من المدنيات إلا ثلاث سور: البيّنة، والزلزلة، والنصر... وهي ثلاثون آية وأهدافها بيان أصول الدين ودلائل التوحيد... وحديث فضلها تقدم في فضائل القرآن.

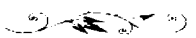

سورة ن والقلم

وهي ثنتان وخمسون آية.

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [١]:

{٨٧٣} ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنّ أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد**».

رواه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (١٩٨٦) وفي التفسير (٣٠٩٨)، والطيالسي (٥٣) وغيرهم، وسنده صحيح عند أحمد وهو مطوّل عندهم.

لفظة (ن) من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، والقلم يشمل كل الأقلام بدءاً من قلم الله عزّ وجلّ الذي أمره بكتابة المقدورات والمكوّنات، وهو نعمة من نعم الله العظيمة على الإنسانية، فهو من أعظم أسباب المعارف والعلوم، فلولاه لما حفظ علينا القرآن الكريم، ولما حفظت علينا السنّة المحمدية، ولما دوّنت العلوم ووصلت إلينا عسلاً مصفّى، فالقلم وما يكتب ويسطر به لهما شأن عظيم، ولهذا أقسم الله عزّ وجلّ بهما هنا لما لهما من منافع ومصالح دينية ودنيوية، وسيأتي امتنان الله تعالى علينا به في سورة العلق.

والحديث يدلّ على أن القلم من أول ما خلق، وأنه كتب كل ما هو كائن مما شاء الله تعالى أن يكون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [٤]:

{٨٧٤} ـ عن سعد بن هشام رحمه الله تعالى أنه سأل مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها عن خُلُق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: كان خلقه القرآن.

رواه أحمد (٦/٩١، ١٦٣)، ومسلم في صلاة الليل (٦/٢٥، ٢٦).

قولها: كان خلقه القرآن هو بضم الخاء واللام، تعني: أنه صار امتثال القرآن له، أمراً ونهياً، سجيّة وصفة له تطبعه، فكان نسخة من القرآن حية، فعامة أخلاق القرآن متجلّية ومتمثّلة فيه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [٤٢]:

{٨٧٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«يَكْشِف ربُّنا عن ساقه فيَسْجُدُ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويَبْقى مَن كان يَسْجُد في الدنيا رياءً وسُمعةً، فيذهبُ يسجد فيعود ظهره طبَقاً واحداً».**

رواه أحمد (٣/١٦، ١٧)، والبخاري في التفسير (١٠/٢٩٠) وفي التوحيد، ومسلم في الإيمان رقم (١٨٣)، هذا قطعة من حديث طويل يأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى.

واختلف في المراد بالساق هنا، والأسلم أننا نؤمن به كما جاء بلا تعطيل مع تنزيه الله عزّ وجلّ عن الجارحة وتشبيهه بخلقه. والحديث مطابق للآية في عدم استطاعة الكفار والمنافقين للسجود يوم القيامة عندما يدعون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [٥١]:

{٨٧٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**العينُ حقٌّ ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العينُ، وإذا استُغسِلْتُم فاغسِلُوا**».

رواه مسلم في السلام (١٤/١٧١) وستأتي أحاديث في الموضوع في الطب والمرضى.

قوله: ليزلقونك أي: يصرعونك ويهلكونك بأعينهم، والآية تدلّ كالحديث على إصابة العين وتأثيرها بإذن الله تعالى وأنّها حق، وهذا شيء محسوس مشاهد لا ينكر. وإنما اختلفوا في صفة وطبيعة تأثير العين. وخلاصة ما قاله العلماء رحمهم الله تعالى: هو أن هذه خاصية جعلها الله عزّ وجلّ في عين العائن الحاسد، أو المعجب، إما بسهم يصل من عينه في الهواء إلى بدن المعيون، أو بذبذبات كذلك... وهذا كبعض الأفاعي إذا وقع بصرها على الإنسان هلك من حينه أو عمي، وكالصحيح يخالط المريض فيصاب بمرضه، وقد يتثاءب شخص بحضرة آخر فيتثاءب الآخر، وهذا شيء كثير، فالأجسام والأرواح والمعادن والأشجار والنبات وأنواع الحيوان والطير الكلّ له خواص يختصّ بها. وقد ذكر الأطباء وعلماء الحيوان والروحانيُّون والطبائعيون... خواص الأشياء، وقد اكتشف بواسطة العلوم التجريبية اليوم العجائب من هذا القبيل، فلا معنى لإنكار العين، وقد أخبر بها الصادق المصدوق صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم عن الله عزّ وجلّ الذي خلق الأشياء وخواصها، والذي يعلم النافع والضارّ منها على الإجمال والتفصيل، ويأتي مزيد لهذا في الطبّ.

وبه تمّت سورة القلم، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

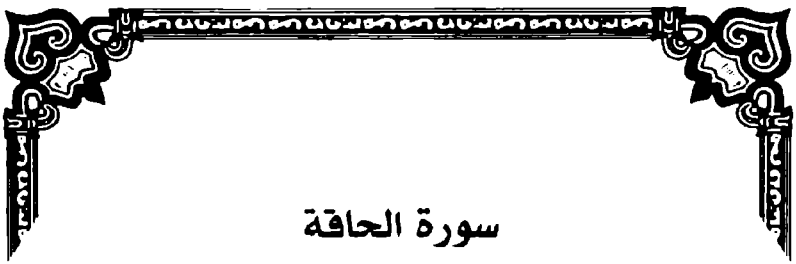

سورة الحاقة

هي ثنتان وخمسون آية، وأبرز أهدافها الكلام على القيامة وأهوالها...

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ إلخ:

{٨٧٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نُصِرتُ بالصَّبا وأُهلِكتْ عاد بالدَّبُور**».

رواه البخاري (٧/١١٠)، ومسلم (٦/١٩٧) وغيرهما.

الصَّبا ـ بفتح الصاد ـ: الريح الشرقية، وبها كان هلاك الأحزاب في غزوة الخندق، والدَّبور ـ بفتح الدال المشدّدة المفتوحة ـ: الريح الغربية، وهي التي أهلك الله بها قوم عاد. والريح الصرصر هي التي لها صرير وصوت شديد وعصف عظيم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ إلخ:

{٨٧٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**من نوقش الحساب هلك**»، قلت: يا رسول الله فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْ

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، قال: «**ذلك العرض**». وفي رواية: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك**»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلخ، قال: «**ذاك العرض يُعْرِضُون، ومن نوقش الحساب هلك**».

رواه البخاري في التفسير رقم (٤٩٣٩) وفي الرقاق (٦٣٤٦) وفي العلم (١٠٣)، ومسلم في الجنّة (٢٨٧٦)، والترمذي في صفة القيامة وفي التفسير في الانشقاق.

الحديث الشريف يبين أن من نُوقش الحساب يوم القيامة كان من الهالكين... والمناقشة أن يقال له: عملت وعملت ولم فعلت؟ ألم يأتك كتابي... وهذا سيأخذ كتابه بشماله فيكون ذلك علامة على شقاوته، فيتمنى أن لم يحاسب ولم يؤت كتابه ويودّ الموت وينادي: ما أغنى عني ما كنت أملك من المال وما كان لي من سلطة شيئاً في هذا اليوم.

أما الصنف الثاني من أهل الحساب فيحاسب حساباً يسيراً بأن يعرض عليه عمله، ثم يقال له: اذهب فقد غفرت لك فيعطى كتابه بيميه، فينادي من شدّة الفرح: خذوا واقرؤوا كتابي، فقد أخذته بيميني وكنت أظن أني سألقى حسابي، فهو في عيش رغد وحياة مرضية في الجنان العالية قطوفها وثمارها قريبة المأخذ، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً لكم بما أمضيتم في أيام الدنيا من الإيمان وطاعة الرحمٰن، وهنالك صنف ثالث لم يذكر هنا وهم الذين يدخلون الجنّة بدون حساب، لا بمناقشة ولا بعرض، جعلنا الله تعالى بفضله وكرمه منهم، آمين.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [١٧]:

{٨٧٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حَمَلَةِ العرش أن ما بين شحمة أُذُنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**».

رواه أبو داود في السنة (٤٧٢٧) بسند صحيح، والطبراني في الأوسط

(١٧٣٠، ٤٤١٨)، قال الهيثمي في المجمع (٨٠/١): ورجاله رجال الصحيح.

العرش أعظم خلق الله عزّ وجلّ وهو سقف هذا العالم وله حملة مكلّفون به من قبل الله تعالى يحملونه، لهم من الخلقة والعظمة ما لا يعلمه إلا الله، فإذا كان الواحد منهم ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وهو شيء مدهش لا تتحمله عقولنا، فكيف يا ترى تكون جثته، وكل ذلك يدلّ على عظمة ربنا وإلهنا سبحانه لا إله إلاّ هو العليّ العظيم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [٣٢]:

{٨٨٠} - عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لو أنّ رصاصةً مثلَ هذه** - وأشار إلى مثل جُمْجُمةٍ - **أُرسلتْ من السماء إلى الأرض وهي مسيرةُ خمسمائة سنة لبلغتْ الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلتْ من رأس السِّلْسِلة لسارتْ أربعين خريفاً الليلَ والنهار قبل أن تبلغ أصلَها وقعرَها»**.

رواه أحمد (١٩٧/٢)، والترمذي في صفة جهنّم (٢٤٠٧) وحسّنه وصححه.

الحديث الشريف يدلّ على أمرين اثنين، أولاً: أن المسافة بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يرد على من أنكر ذلك. ثانياً: عظم السلسلة التي يشد بها الكافر ويسلك فيها، وأن طولها مسيرة سبعين سنة، والظاهر أن هذا العدد لا مفهوم له، والله تعالى أعلم بمراده ومراد رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وبه تمّت سورة الحاقة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة سأل سائل

وآياتها أربع وأربعون، وأهم أهدافها ذكر القيامة وأهوالها والآخرة وشدائدها.

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إلخ:

{٨٨١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾، قال: النضر بن الحارث بن كِلدة.

رواه النسائي في الكبرى (٤٩٨/٦)، والحاكم (٥٠٢/٢) وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي، وسنده عند النسائي صحيح على شرط البخاري، يريد ابن عباس أن السائل بنزول العذاب والداعي به هو الشقي النضر وهو القائل أيضاً: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطِر علينا حجارة من السماء إلخ، وقد أهلكه الله عزّ وجلّ يوم بدر، فصار إلى أمّه الهاوية.

ومعنى الآية الكريمة: دعا داعٍ من كفار مكّة لنفسه ولقومه بنزول عذاب واقع لا محالة، للكافرين ليسَ له دافع، أي: لا رادّ له إذا أراد الله وقوعه...

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [٤]:

{٨٨٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما من صاحب كنز لا يُؤَدّي زكاته إلا أُحمِي عليه في نار جهنّم فيجعلُ صفائح فيكوَى بها جَنْباه وجَبِينُه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»** الحديث.

رواه مسلم في الزكاة (٧/٦٤، ٦٨)، والبخاري مطوّلاً وغيرهما، وتقدم في سورة التوبة رقم آية (٣٥).

اليوم المذكور هو يوم القيامة كما قال عامّة المفسرين، وهو ظاهر هذا الحديث. وجمع العلماء بين هذه الآية وبين الآية الأخرى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بأن القيامة فيها مواقف ومشاهد فيكون اليوم على البعض خمسين ألف سنة، وعلى البعض الآخر ألف سنة وعلى آخرين وهم المؤمنون مقدار صلاة مكتوبة. لطف الله بنا وسامحنا وعاملنا بفضله وإحسانه، آمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [١٩ ـ ٢١]:

{٨٨٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«شرُّ ما في الرجل شُحٌّ هَالِعٌ، وجُبْنٌ خَالِعٌ»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٢، ٣٢٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١١)، وابن حبان (٨٠٨) بالموارد، والبخاري في التاريخ (٦/٨، ٩)، والبيهقي (٩/١٧٠) بسند صحيح.

الشحّ الهالع: هو الذي يحمل صاحبه على الحرص على المال والجزع على ذهابه، فالهلع أفحش الجزع. أما الجبن الخالع، فهو الخوف الذي ينشؤ عنه ضعف القلب وأنواع الأفكار، فكان الجبن يخلع القوة والنجدة من القلب، فهاتان الصفتان شرّ ما في الإنسان من حيث هو، وجاءت الآية الكريمة تصور ما في بني آدم الغير مستقيم من أنه هَلوعٌ جَزوعٌ إذا مسّه الشر، شحيح منوع إذا مسّه الخير، إلا المؤمنين الصالحين الذين ذكر صفاتهم الطيّبة، فليسوا كذلك جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [٣٧]:

{٨٨٤} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خرج عليهم وهم حِلَقٌ، فقال: **«ما لي أراكم عِزين، ألا تَصُفُّون كما تَصُف الملائكة عند ربّها»**.

رواه أحمد (٥/٩٢، ٩٣، ١٠١، ١٠٧)، ومسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٢٣، ٤٨٢٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٨).

عزين جمع عزة: وهي الحلقة المجتمعة من الناس.

ومعناه: متفرّقين، فالآية الكريمة جاءت تنكر على المشركين الذين كانوا يشاهدون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وما أتى به من الآيات، ومع ذلك كانوا مهطعين، أي: مسرعين فارّين متفرّقين يجتمعون حوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حلقاً حلقاً عن يمينه وعن شماله يسمعون كلامه ويتحدثون ويتعجّبون ويستهزئون به وبأصحابه.

وفي الحديث الشريف الإنكار على تفرّق الصحابة حلقاً حلقاً، وفي ذلك ذمّ التفرّق والإرشاد إلى الاجتماع، وفيه استحباب التشبّه بالملائكة الكرام في أفعالهم.

وبه تمّت سورة المعارج، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الجنّ

آياتها ثمان وعشرون، وهي تتحدّث عن الجنّ الذين استمعوا لقراءة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وآمنوا به وذهبوا إلى قومهم منذرين وإخبارهم بما كانوا عليه من قبل وما نزل بهم وانقسامهم إلى راشدين وقاسطين ظالمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ إلخ [١]:

{٨٨٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما قرأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الجنّ ولا رآهم، انطلق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسِلَتْ عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلتْ علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حَدَث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حَدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجّهوا نحو تِهامةَ إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بنَخْلَة وهوعامدٌ إلى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له فقالوا: هذا هو الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا

قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾، وأنزل الله عز وجلّ على نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجنّ.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٦/١٠) وفي الصلاة رقم (٧٧٣)، ومسلم فيها (٤٤٩)، والترمذي (٣١٠٥)، والنسائي (٤٩٩/٦)، والحاكم (٥٠٣/٢) ثلاثتهم في التفسير، وله حديث آخر سيأتي في الطبّ إن شاء الله تعالى.

{٨٨٦} ـ وعن علقمة رحمه الله تعالى قال: قلنا لعبدالله: هل صحب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم منكم أحدٌ ليلة الجنّ؟ قال: لم يصحبه منّا أحد ولكنّا كنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: اسْتُطِيرَ واغْتِيل، قال: فبتنا بشَرّ ليلةٍ بات بها قوم، فلمّا أصبحنا إذا هو جاءٍ من قِبَل حِراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشرّ ليلةٍ بات بها قوم، فقال: **«أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن»**، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: **«لكم كلُّ عظم ذُكِر اسمُ الله عليه يقعُ في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عِلْفٌ لدوابكم»**، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»**.

رواه أحمد والطيالسي (١٤٣)، ومسلم في الجهر بالقراءة في الصبح (١٦٩/٤، ١٧٠)، وأبو داود والترمذي في التفسير (٣٠٤٤)، والنسائي في الكبرى (٤٩٩/٦) وغيرهم.

في حديث ابن عباس بيان أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يرَ الجنّ يومئذ، وإنما أخبرتْهُ بهم شجرة كما تقدم في الأحقاف. أما حديث ابن مسعود، فهي قصة أخرى كانت الدعوة فيها من الجنّ فأجابهم وقرأ عليهم القرآن وعلّمهم بعض شؤون دينهم، وكل ذلك كان بمكّة المكرمة، وأخذ العلماء من حديث ابن عباس كالقرآن أن العبرة بما قضى الله للعبد من

حسن الخاتمة لا بما يظهر منه من الشرّ، فإن هؤلاء الجنّ الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجّه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها، ومع ذلك غلب عليهم ما قضي لهم من السعادة بحسن الخاتمة. ونحو هذا قصة سحرة فرعون أصبحوا على ذروة الكفر، وأمسَوْا مؤمنين شهداء، وهكذا يقال في كبار أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذين كانوا عبدة الأصنام والأوثان، وبين عشية وضحاها صاروا أكابر هذه الأُمّة من المقرّبين السعداء ولهذا يقولون: من سبقت له السعادة لا تضره الجناية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [١٩]:

{٨٨٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قول الجن لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ﴾ إلخ، قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته، ويسجدون بسجوده، قال: تعجّبوا من طوعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ إلخ.

رواه أحمد (١/٢٧٠)، والترمذي (٣١٠٦)، والحاكم (٢/٥٠٤) كلاهما في التفسير وصححاه ووافقهما الذهبي، وكذا رواه ابن جرير (٣٠/١١٨).

عبد الله في الآية هو رسولنا الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ﴾ إلخ، معناه: كاد الجنّ يركب بعضهم بعضاً من شدّة الازدحام حرصاً على سماع القرآن.

وبهذا تمّت سورة الجّن، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة المزمل

هي عشرون آية، ومحورها يدور حول جانب من جوانب الرسول الكريم وحياته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعبادته وتبتّله ونزول الوحي الثقيل عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [١ ـ ٢]:

{٨٨٨} ـ عن سعد بن هشام رحمه الله تعالى قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله تعالى عنها، فاستأذنا عليها فدخلنا، قلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قالت: ألستَ تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾، قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفختْ أقدامُهم، وأمْسك الله خاتِمَتَها اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله عزّ وجلّ التخفيفَ في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة.

رواه أحمد (٦/٥٣، ٥٤)، ومسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢) وغيرهم مطوّلاً، ورواه النسائي في الكبرى (٦/٥٠٠)، وفي المجتبى، وابن ماجه (١١٩) مختصراً كما أوردناه وسنده صحيح.

{٨٨٩} ـ وعنها، قالت: قلما كان ينام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الليل، لما قال الله عز وجلّ له: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٥٠٠)، وأبو يعلى (٤٩٣٩)، والبيهقي (٣١٢/١) بسند صحيح.

كان قيام الليل أوّل الأمر واجباً على العموم وبقي ذلك سنة كاملة، ثم خفّف الله تعالى فنسخ ذلك وبقي فرضاً على الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما هو قول جمهور العلماء، وفضيلة مرغباً فيها بالنسبة لسائر الأُمّة، والحكمة في نسخ ذلك هي ما ذكره تعالى في قوله آخر السورة: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأسباب التخفيف إذاً: المرض، والتجارة، والجهاد في سبيل الله؛ لأن هؤلاء لا يتيسّر لهم قيام الليل في الغالب، والله رؤوف رحيم لطيف بعباده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [٥]:

{٨٩٠} ـ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: أنزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفَخِذُه على فخذي، فكادت تُرَضُّ فَخِذِي.

رواه البخاري مطولاً في التفسير (٩/٣٢٩) وفي الصلاة وفي الجهاد، ومسلم (١٣/٤٣) في الجهاد، والترمذي (٢٨٣٧)، والنسائي في المجتبى (٦/٩)، وتقدمت أحاديث في هذا المعنى.

قوله: تُرَضّ أي: تدقّ وتكسر، وفي الحديث بيان ثقل الوحي وشدّته، فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ محتملاً الثقل المذكور، ومحتملاً ثقل التكاليف الشرعية... وبه تمّت سورة المزمل، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

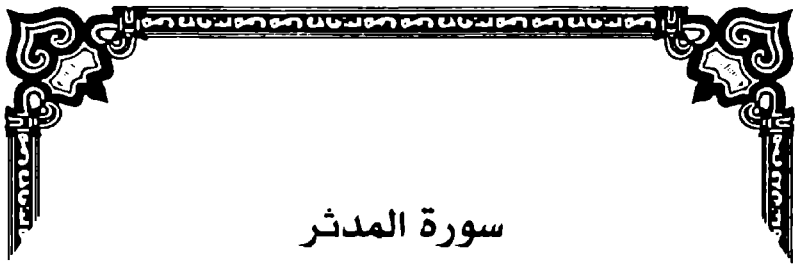

سورة المدثر

هي ستّ وخمسون آية، وأبرز أهدافها الكلام على بعض أحوال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأمر الله إياه بإنذار الناس والدعوة إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [١ ـ ٢]:

{٨٩١} ـ في حديث جابر رضي الله تعالى عنه في تحديثه عن فترة الوحي عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرُعِبْتُ فرجعتُ فقلت: زمّلوني زمّلوني، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾** إلى قوله: **﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾** فحمى الوحي».

رواه البخاري في بدء الوحي (٣١/١) وفي بدء الخلق وفي الأدب وفي التفسير (٣٠٥/١٠، ٣٠٦)، ومسلم في الإيمان (١٦١، ٢٥٥، ٢٥٦)، والترمذي في التفسير (٣١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٥٠٢/٦، ٥٠٣)، ويأتي بلفظ آخر في العلق إن شاء الله تعالى.

الحديث يدلّ على أن هذه السورة نزلت بعد فترة الوحي وهو الحقّ، ويأتي له مزيد في سورة العلق، وبه تمت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

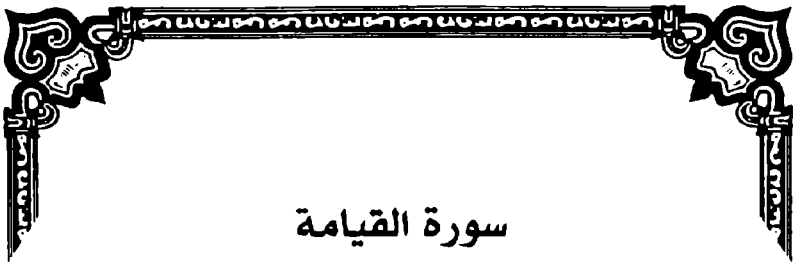

سورة القيامة

وهي أربعون آية، وتعنى بالكلام على البعث والجزاء والقيامة وأهوالها وبيان مشهد من مشاهد الاحتضار.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [١٦ ـ ١٩]:

{٨٩٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾، قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُعالجُ من التنزيل بشدَّة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحرّكهما لكم كما كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحركهما... فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ ثم إن علينا أن نقرأه، فكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كما قرأه.

رواه البخاري في بدء الوحي (٣٢/١) وفي التفسير (٣٠٩/١٠، ٣١٠) وفي فضائل القرآن، ومسلم في الصلاة (٤٤٨)، والترمذي (٣١١٢)، والنسائي في الكبرى (٥٠٣/٦) كلاهما في التفسير.

كان يعالج، أي: يحاول حفظه بمشقّة، ولذلك أرشده الله تعالى إلى الإنصات واستماعه لقراءة جبريل عليه السلام، فإذا فرغ وجد ذلك في حافظته مبيناً مفسّراً، وهذا من لطف الله ورفقه بنبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [٢٢ ـ ٢٣]:

{٨٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال الناس: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«هل تُضارُّون في رؤية الشمس ليس دونَها سحابٌ؟ وهل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟»**، قالوا: لا، قال: **«فكذلك ترونه عزّ وجلّ»**، وفي رواية: **«فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥، ٢٩٣، ٥٣٤)، والبخاري في الرقاق (١٤/٢٤١، ٢٤٢) وفي التوحيد (٢٤٣٧)، في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ ومسلم في الإيمان (١٨٢، ١٩٩)، والترمذي في صفة الجنّة (٢٣٧١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥٦، ٥٠٤)، وتقدم حديث صهيب في سورة يونس كما تقدم حديث جرير البجلي في سورة قّ، والأحاديث بالرؤية يوم القيامة متواترة.

وقوله: هل تضارون، أي: هل يضرّ بعضكم بعضاً.

ورؤية المؤمنين لربّهم يوم القيامة متفق عليها بين أهل السنة من السلف والخلف، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة والروافض.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ بالضاد المعجمة المراد بها المبتهجة المضيئة البهيّة المسرورة، والنضرة: النعمة وجمال البشرة والإشراقة الجميلة. وفي سورة التطفيف ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾، جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه، آمين. وسيأتي مزيد لهذا في الرقاق إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [٤٠]:

{٨٩٤} ـ عن موسى بن أبي عائشة رحمه الله تعالى قال: كان رجل يصلّي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، قال: سبحانك اللّهمّ فَبَلَى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعتُه من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أبو داود (٨٨٤)، وابن أبي حاتم (٣٣٨٩/١٠)، والبيهقي (٣١٠/٢) بسند صحيح، وما قيل من انقطاعه يشهد له حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ المرسلات فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله**» رواه أحمد (١٤٦/٢)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣١٢٩)، والبيهقي (٣١٠/٢)، وهو وإن كان فيه رجل مجهول فإنه يتأيّد بحديث قتادة رواه ابن جرير (٢٠١/٢٩ و٢٥٠/٣٠) وهو مرسل صحيح، وله شاهد آخر عن ابن عباس رواه ابن جرير (٢٥٠/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٣٨٩/١٠) موقوفاً عليه، وبالجملة فالحديث يصلح للعمل به.

والاستفهام في الآية للتقرير، وفي الحديث مشروعيّة الجواب عند ذكر تلك الآيات بما ذكر، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الإنسان

هي إحدى وثلاثون آية، وتتحدّث بإسهاب عن شؤون الآخرة ونعيم المتّقين الأبرار وما حباهم الله وأعطاهم من متعة، مع ذكر أوصافهم ونعيمهم بما لم يتقدم له ذكر في غيرها.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [١٣]:

{٨٩٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربّ أكل بَعْضِي بعضاً فنَفّسني، فأذن لها كل عام بنَفَسين، قال: أشدّ ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشدّ ما تجدون من الحرّ من حرّ جهنم**».

رواه البخاري في الصلاة (٥٣٧) وفي بدء الخلق (٣٢٦٠)، ومسلم في الصلاة (٦١٧)، والترمذي في صفة جهنم (٢٤١١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣١١)، وكذا أحمد (٥٠٣/٢) وغيرهم، ويأتي في الرقاق.

الزمهرير: شدّة البرد ونهايته المفرطة. وفي الآية الكريمة بشارة لأهل الجنّة، وأنهم إذا دخلوها لا يذوقون ولا يرون فيها حرارة شمس، ولا شدّة برد، وهذا بخلاف أهل النار. وفي الحديث دليل على أن الجنّة والنار مخلوقتان الآن خلافاً للمعتزلة...

وفيه تكلم الجمادات والله عزّ وجلّ يفعل ما يشاء، وهو القادر على ما يريد لا يعجزه شيء، وبه تمّت سورة الإنسان، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة والمرسلات

وهي خمسون آية، وحديثها يدور حول الآخرة مع ذكر آثار القدرة في هذه الكائنات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ إلخ:

{٨٩٦} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غار وأنزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فإنا لنتلقّاها من فيه إذ خرجت علينا حيّة فابتدرناها فدخلت جُحْرها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«وُقيتْ شرَّكُم ووُقيتُم شرَّها»**.

وفي رواية: كنّا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفح جبل وهو قائم يصلّي وهم نيام، قال: إذ مرّت حية فاستيقظنا وهو يقول: **«منعها منكم الذي منعكم منها»**، وأنزلت عليه المرسلات.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٣١٣، ٣١٤) وفي بدء الخلق (٣٣١٧)، ومسلم في السلام (٢٢٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٥) وفي المناسك من المجتبى، والرواية الثانية رواها أحمد (١/٤٥٣) بسند حسن.

في الحديث بيان سبب نزول السورة، وفيه الإذن في قتل الحيّات، وقد جاء الأمر بقتلها في رواية عند البخاري، ويأتي ذلك في موضعه، وفيه أن الحيات شرّ لنا، وأنها إذا اختفت وجب تركها. وبهذا تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

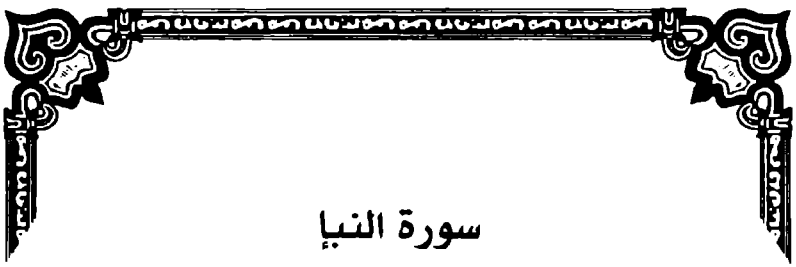

سورة النبإ

وهي أربعون آية، والمحور التي تدور عليه: الكلام على القيامة والبعث والنشور ودلائل التوحيد وآثار القدرة في هذا الكون الفسيح، مع بيان مصير أهل النار ومصير أهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [٣٢]:

{٨٩٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لاَ يَقُلْ أحدُكم الكَرْم، فإنما الكَرم الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب**».

رواه أبو داود (٤٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٥٠٦/٦) بسند صحيح، وأصله في البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧)، ويأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

وفي الآية الكريمة بشارة للمتقين وأن لهم ظفراً وفوزاً بجنّات النعيم وبساتين ناضرة فيها كروم الأعناب الطيّبة المتنوّعة، ونساء عذارى أبكاراً قد ظهرت ثديهن. وبه تمّت السورة، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة النازعات

هي ستّ وأربعون آية، وهي تتحدّث عن القيامة وأهوالها ومآل المتّقين والفاجرين.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [٦ ـ ٧]:

{٨٩٨} ـ عن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «**يا أيها الناس اذكُروا الله جاءتْ الراجفةُ تَتْبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه**»، قال أُبيّ: فقلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعلُ لك من صلاتي؟ قال: «**ما شئت**»، قلت: الربع؟ قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت وإن زدت فهو خير لك**»، قال: فالثلثين؟ قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلّها، قال: «**إذاً تُكْفَى همّك ويغفر لك ذنبك**».

رواه أحمد (١٣٦/٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٨)، والحاكم (٤٢١/٢) وصححه، والحديث حسن صحيح لطريق له.

الراجفة: هي النفخة الأُولى التي ترجف فيها الأرض والجبال، وأما الرادفة: فهي نفخة القيامة التي تدكّ فيها الأرض والجبال دكّاً.

وفي الحديث تنبيه من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتحذير وتذكير.

وفيه أن من جعل صلاته على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كلّها له كفاه الله ما أهمّه من أمر دنياه وأُخراه وغفر له ذنبه، جعلنا الله عزّ وجلّ منهم بمنّه وكرمه، آمين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾:

{٨٩٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لما خلق الله الأرضَ جعلت تَميدُ، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرَّت، فعَجِبتْ الملائكةُ من شدّة الجبال، فقالوا: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديدُ، فقالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد؟ قال: نعم، النارُ، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من النار؟ قال: نعم الماءُ، قالوا: يا ربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء؟ قال: نعم الريحُ، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشدّ من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم تصدَّق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله**».

رواه أحمد (٣/١٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٤٩) ورجاله ثقات، وسليمان بن أبي سليمان الهاشمي تابعي مستور، روى عنه ثقة من رجال الصحيحين، وهو العوام بن حوشب، فالحديث حسن على مذهب جماعة من أهل الحديث.

جعل الجبال راسيات للأرض من لطف الله عزّ وجلّ بعباده، فهي آية باهرة ونعمة شاملة، ولولاها لتحركت الأرض بأصلها وغرقت في المحيطات التي هي أكثر بكثير من اليابسة.

والحديث يدلّ على تفاضل الخلق في العظمة والشدّة، وأن أشدّها وأعظمها قهر النفس وحملها على التصدّق سرّاً من دون أن يطّلع عليه أحد.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ [٤٢]:

{٩٠٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما زال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُسْأَلُ عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾، فكفّ عنها.

رواه ابن جرير (٤٩/٣٠)، والبزار مع الكشف (٢٢٧٩)، والحاكم (٥١٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١٣٣/٧): رجاله رجال الصحيح.

وله شاهد عن طارق بن شهاب عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ إلخ.

رواه النسائي (٥٠٦/٦)، وابن جرير (٤٩/٣٠)، والطبراني في الكبير (١٢١٠)، وسنده صحيح إلى طارق.

كانوا يسألون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كثيراً عن وقت قيام الساعة، فقال الله تعالى له: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي: مردّها ومرجع علم وقتها إلى الله عزّ وجلّ، فالواجب عليك إنذار من يخافها.

وبه تمت «النازعات»، والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة عبس

وهي ثنتان وأربعون آية، وهي تتحدّث عن ترسيخ العقيدة وبيان دلائل التوحيد والقدرة في الإنسان والنبات والطعام ولفت الأنظار إلى ما في ذلك من نعم سوابغ، ثم الكلام على القيامة وأهوالها.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [١]:

{٩٠١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابن أُمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُعْرِضُ عنه ويُقْبِلُ على الآخر، ويقول: **«أترى بما أقول بأساً»؟** فيقول: لا، ففي هذا أنزل.

رواه الترمذي (٤١١٤)، وابن جرير (٣٠/٥٠)، وابن حبان (١٧٦٩)، والحاكم (٢/٥١٤) وسنده صحيح على شرط الشيخين.

عبس معناه: كلح، وتولى أي: أعرض، ولم يكن ذلك منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم احتقاراً له، وإنما كان ذلك حرصاً منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على إسلام ذلك الكافر، فجاءت الآيات الكريمات ترشده صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى ما كان ينبغي له أن يفعله، وهو تذكير الأعمى رضي الله تعالى عنه وإرشاده لعله يزكى... وقد ضلّ هنا أقوام وأساؤوا الأدب مع حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾:

{٩٠٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**تحشرون حُفاةً عراة غرلاً**»، فقالت امرأة: أيُبْصِر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة «**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**».

رواه الترمذي في التفسير (٣١١٥)، والنسائي في الكبرى (٥٠٧/٦)، وابن أبي حاتم (٣٤٠٠/١٠)، وحسّنه الترمذي وصححه، وهو عنده صحيح على شرط الشيخين، وسيأتي ما يشهد له في الرقاق إن شاء الله تعالى.

الحشر: هو الجمع، والغُرل ـ بضم الغين وسكون الراء ـ: جمع أغرل، والغرلة: الجلدة التي تكون على حشفة الذكر فتقطع في الختان... وفي الآية والحديث إخبار عن مشاهد يوم القيامة، وأن الناس سيخرجون من قبورهم كما خلقهم الله، وأن كل امرىء منهم له ما يشغله ويغنيه عن النظر إلى غيره، فهم عراة نساءً ورجالاً، ورغم ذلك لا يبالي أحدهم بغيره لما دهمهم من الأهوال والشدائد والدواهي التي يشيب له الولدان عياذاً بالله من ذلك.

وبه تمّت سورة عبس، والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه وبركاته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه أبد الآبدين.

سورة التكوير

هي تسع وعشرون آية، وحديثها جاء عن القيامة وفناء هذا الكون واضمحلاله..

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [١]:

{٩٠٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**».

رواه أحمد رقم (٤٨٠٦، ٤٩٣٤، ٤٩٤١)، والترمذي (٣١١٦)، والحاكم (٥١٥/٢) وسنده صحيح، إنما كانت القيامة متجلية في هذه السور الثلاث لأنها وصفتها بأوصاف دقيقة مخيفة، نسأل الله تعالى العفو والعافية، آمين.

{٩٠٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الشمس والقمر مكوّران يوم القيامة**».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٠٨/٧)، والإسماعيلي في مستخرجه كما في الفتح.

قوله: مكوّران أي: مجموعان مع طمس نورهما، ثم يلقيان في النار زيادة في تعذيب أهلها، وليس معناه كما قد يفهم أنهما يعذّبان. كلا إنهما

خلق الله تعالى جعلا في النار تبكيتاً لمن كان يعبدهما، وليعلموا أن عبادتهم كانت باطلة.

وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه.

سورة الانفطار

هي تسع عشرة آية، وهي كسابقتها في الكلام على الانقلاب الكوني وقيام الساعة...

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [٨]:

{٩٠٥} ـ عن بُسْر بن جحاش أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بصق يوماً في كفّه ووضع عليها أصبعه، ثم قال: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدمَ أنّى تُعْجِزُني، وقد خلقتُك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدّلتك مشيتَ بين بُرْدَيْن وللأرض منك وَئِيدٌ فجمعتَ ومنعتَ حتى إذا بلغت نفسُك هذه**» وأشار إلى حلقه. وفي رواية: «**حتى إذا بلغتْ التراقي قلت: أتصدَّق وأنّى أوان التصدّق**».

رواه أحمد (٤/٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وابن سعد في الطبقات (٧/٤٢٧). قال البوصيري في الزوائد: وإسناده صحيح ورجاله ثقات.

قوله: أنّى تعجزني ـ بفتح الهمزة وتشديد النون المفتوحة ـ أي: كيف يتسنّى لك أن تجعلني أو تعتقدني عاجزاً عن إعادتك وإحيائك من جديد، وأنا الذي أوجدتك من مثل هذه النطفة... وقوله: وللأرض منك وئيد أي: ثقل.

وفي الآية امتنان من الله تعالى على عباده وتعداد نعمه عليهم في

خلقتهم وتسويتهم وتعديلهم. أما الحديث، فجاء يوبخ الكافر الظلوم الأثيم المنكر للبعث والجزاء.

قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [١١ ـ ١٢]:

{٩٠٦} ـ فيه حديث أنس عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل تدرُون مِمّ ضَحِكت... من مخاطبة العبد ربّه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم... وفيه: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه**» الحديث، وتقدم في سورة يٰس وغيرها، وهو عند مسلم وغيره.

والكرام... هم الحفظة الذين يكتبون حسناتنا وسيئاتنا ولا يفارقوننا ليل نهار طوال حياتنا، وكل منّا معه اثنان أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [١٩]:

{٩٠٧} ـ فيه حديث أبي هريرة عندما نزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا مَعْشَرَ قريش اشْتَرُوا أنفُسَكم لا أُغْني عنكم من الله شيئاً**، وهكذا نادى بني عبد مناف وعمّه العباس وعمّته صفية، كلٌ يقول لهم: **لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، رواه الشيخان وغيرهما، وتقدم في الشعراء آية (٢١٤).

وفي الآية والحديث التأكيد على أنه لا يملك أحد لأحد شيئاً يوم القيامة بإذنه، لأن المُلْك يومئذ لله وحده. نعم من أذن الله تعالى له من أصفيائه أن يشفع لمن أراد تعالى رحمته فعل ونفعه بإذنه عزّ وجلّ. أما أن يملك أحد لآخر بإذنه شيئاً فهذا ليس لأحد سوى الله عزّ وجلّ، وبهذا تمّت الانفطار، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة المطفّفين

هي ستّ وثلاثون آية، وجاءت حرباً سافراً عنيفاً على المطفّفين الذين يبخسون الناس أشياءهم ويخدعون الآخرين في الكيل والميزان.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [١ ـ ٣]:

{٩٠٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة كانوا أخبث الناس كَيْلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فحسّنُوا الكيل بعد ذلك.

رواه النسائي في الكبرى (٥٠٨/٦)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٢٣)، وابن حبان (١٧٧٠) بالموارد، والحاكم (٣٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وهو أيضاً عند ابن جرير (٩١/٣٠).

التطفيف: البخس والنقص في الكيل والميزان ونحوهما إما بالزيادة إن اكتال من الغير لنفسه، وإما بالنقص إن كال لهم من عنده، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الناس يستوفون أي: يأخذون حقّهم بالوافي والزائد، وإذا كالوا لهم أو وزنوهم يخسرون أي: ينقصون ويبخسون. وحسب المطففين أن الله افتتح الكلام معهم بالويل والهلاك. والحديث يدلّ على أن السورة مدنية، ولذلك اختلف فيها المفسّرون، فمن قائل إنها مكية ومن قائل إنها مدنية، ومن قائل إنها نزلت بين مكة

والمدينة، ومن قائل إنها مدنية إلا ثمان آيات فمكّية، وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ألخ، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [٦]:

{٩٠٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ **يقوم أحدُهم في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذُنَيْهِ**»، وفي رواية: «**يَغيبُ أحدُهم في رَشْحِ عَرقه**».

رواه أحمد (٤٦١٣، ٤٦٩٧)، والبخاري في التفسير (٣٢٤/١٠) وفي الرقاق (٦٥٣١)، ومسلم في الجنّة (٢٨٦٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٢) وفي التفسير (٣١١٨)، والنسائي في الكبرى (٥٠٩/٦)، وابن ماجه (٤٤٧٨).

الرشح: هو العرق، وما في الآية والحديث موقف خطير هائل، وسيكون ذلك عقب خروج الناس من القبور وقبل الشفاعة العظمى التي سيحظى بها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتي الكلام على هذا الموضوع بإسهاب في الرقاق إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [١٤]:

{٩١٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن العبدَ إذا أذنب ذنباً نكتتْ في قلبه نكتة سوداء، فإنْ هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبُه، وإن عاد زِيد فيها حتى تعلوَ قلبه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾**».

رواه أحمد (٢٩٧/٢)، والترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٥٠٩/٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤) وحسّنه الترمذي وصححه، وابن حبان (١٧٧١)، والحاكم (٥١٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

نكتت، النكت: هو الأثر القليل كالنقطة مثل أثر الوسخ في المرآة،

والران ويقال: الرين، من ران هو التغطية والصدأ على القلب يعتري الكفار والمسرفين في الإجرام والفواحش، فالذنوب إذا تتابعت على القلب ولم يتب صاحبها أغلقته وأصبح أسود مظلماً، فإن تاب ورجع إلى الله تعالى صقل وانجلى ورجع إلى حاله الأصلي.

قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ [٢٥]:

{٩١١} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أراه قد رفعه إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيما مؤمن سَقَى مؤمناً شُربة ماءٍ على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيُما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمارِ الجنة، وأيُما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُرْي كساه الله من خُضْر الجنة**».

رواه أحمد (٣/١٣، ١٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٠) من طريقين هو بهما حسن، وقد حسّنه المنذري والسيوطي والمناوي.

في الآية والحديث بشارة للأبرار والمحسنين الذين يطعمون الجائعين، ويسقون العطشى ويكسون العراة والعرايا، وأن الله عزّ وجلّ سيجازيهم يوم القيامة من جنس أعمالهم، حقّقنا الله تعالى بذلك بمنّه وكرمه، آمين. وبه تمت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الانشقاق

هي خمس وعشرون آية، وموضوعها كسوابقها: الكلام على الانقلاب الكوني وأهوال يوم القيامة.

{٩١٢} ـ تقدم حديث: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كوّرت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقّت**»، رواه أحمد والثلاثة وغيرهما؛ لأن هذه السور الثلاث قد جمعت مشاهد يوم القيامة، بكل أهواله ومخاويفه وتقلّباته بأهله.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾:

{٩١٣} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر: إذا السماء انشقّت والسماء والطارق ونحوهما.

رواه أحمد (١٠٣/٥، ١٠٦، ١٠٨)، وأبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٢٧٥)، والنسائي (١٢٩/٢)، وابن حبان (٤٦٥) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه.

{٩١٤} ـ وعن أبي رافع قال: صلّيتُ مع أبي هريرة رضي الله تعالى عنه العتمة فقرأ إذا السماء انشقّت فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه.

رواه البخاري (٢/٢١٤)، ومسلم (٥٧٨)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٦/٥١٠) وغيرهم.

في الحديث الأول مشروعيّة قراءة الانشقاق والطارق في الظهرين، ولا خلاف في ذلك. بينما الحديث الثاني يدلّ على جواز سجود التلاوة في الفريضة، وبه قال جمهور الأئمّة والعلماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [٤]:

{٩١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تُلْقِي الأرضُ أفلاذ كبدها أمثال الأسْطُوانَة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قُتِلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعتْ يدي، ثم يَدَعُونَه فلا يأخذون منه شيئاً**».

رواه مسلم في الزكاة (٧/٩٧، ٩٨)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٩)، وابن حبان (١٥/٩٠).

أفلاذ: جمع فلذ ـ بكسر الفاء وسكون اللام ـ: وهي القطعة من اللحم، والأسطوانة: هي السارية. ومعنى الحديث أن الأرض ستلقي ما في بطنها من المعادن كالذهب والفضّة... وهو مبيّن لبعض ما في الآية الكريمة، فإن الآية أعمّ منه، فإنها تشمل ما في جوفها من الأموات والمعادن وغيرها، فستلقي الجميع وتتخلى عنهم. قال القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلّت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن، كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يؤذن بعظم الهول.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [٨]:

تقدم حديث: «**من نُوقش الحساب هلك**» في الحاقة آية (١٩)، وهو في الصحيحين.

{٩١٦} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول في بعض صلاته: **«اللّهمّ حاسِبْني حساباً يسيراً»**، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: **«أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»**. وفي رواية: **«وكل ما يصيب المؤمن يُكفَّر عنه من سيئاته حتى الشَّوكة تَشُوكُه»**.

رواه أحمد (٤٨/٦، ١٨٥)، وابن جرير (١١٥/٣٠)، وابن حبان (٣٧٢/١٦)، والحاكم (٥٧/١، ٢٥٥) و(٢٤٩/٤، ٥٧٩) وصححه ووافقه الذهبي، وابن إسحٰق صرّح بالتحديث عند أحمد.

في الحديث بيان ما في الآية من الحساب اليسير والعرض، وهو أن ينظر في كتاب العبد ويرى ما فيه من سيئات، فيتجاوز الله عنه ولا يناقشه، وللحساب اليسير أسباب كثيرة وموجبات عدّة، والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع غفران ما تقدم له وما تأخر يسأل الله عزّ وجلّ الحساب اليسير، وذلك يدلّ على شدّة خوفه من الله تعالى وعدم أمنه من عذابه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ [١٦]:

{٩١٧} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«وقت المغرب ما لم يَغِب الشَّفَق»**.

رواه مسلم في المواقيت (١١٢/٥، ١١٣) مطوّلاً.

الشَّفَق ـ بفتحتين ـ: هو الحمرة التي تبقى على الأفق الغربي بعد غيبوبة الشمس، هكذا فسّره جمهور أهل اللغة، وهو الظاهر من الحديث وعمل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فوقت المغرب يمتدّ إلى ذهابه، فإذا غاب دخل وقت العشاء. وهذا طبعاً في الأقاليم المعتدلة التي يغيب فيها الشفق، وهي وسط الكرة الأرضية التي علم الله أن الإسلام سيكون فيها.

وبه تمّت الانشقاق، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة البروج

هي ثنتان وعشرون آية، وهدفها البارز الكلام على أصحاب الأُخدود.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [٢ ـ ٣]:

{٩١٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اليومُ الموعودُ يوم القيامة، واليومُ المشهودُ يومُ عرفة، والشاهدُ يومُ الجمعة»**، قال: **«وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٨)، والترمذي (٣١٢١)، والحاكم (٢/٥١٩) بسند حسن أو صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي مالك رواه الطبراني، وهو في المجمع (١/٢٣٥).

في الحديث بيان ما أبهم في الآيتين من اليوم الموعود والشاهد والمشهود.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلخ [٤]:

{٩١٩} ـ عن صُهَيب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني كبرتُ فابعث إليَّ غلاماً أعلّمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه**

فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللّهمّ إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابّة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي: بُنَيَّ أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك سَتُبْتَلَى، فإن ابْتُلِيتَ فلا تدلّ عليّ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربّي وربّك الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي: بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعي بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه حتى وقع شقّاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه به حتى وقع شقّاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللّهمّ اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور فتوسّطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللّهمّ اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى، فقال

للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كَبِدِ القوس، ثم قل: بسم رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم ربّ الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام، آمنّا برب الغلام، آمنّا برب الغلام، فأُتِي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس، فأمر الأخدود في أفواه السكك فخُدَّتْ وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيه، فقال لها الغلام: يا أمّه اصبري فإنك على الحق».

رواه أحمد (١٦/٦، ١٨)، ومسلم آخر صحيحه (١٣٠/١٨، ١٣٣)، والترمذي **(٣١٢٢)** بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٥١٠/٦، ٥١١، **٥١٢)** زاد الترمذي قال: يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، قال: فأمّا الغلام فإنه دُفن قال: فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل.

قوله: مفرق رأسه أي: وسطه، وذروة الجبل ـ بكسر الذال وضمّها ـ أعلاه، فرجف أي: اضطرب، قرقور ـ بضم القافين ـ: السفينة الصغيرة، الأخدود: شقّ مستطيل في الأرض، تقاعست أي: تأخرت.

هذا حديث عظيم فيه فوائد وعبر وهو مبيّن للآية الكريمة، وقد ذكرت فوائده وعبره في «عجائب الأقدمين». وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الأعلى

هي تسع عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [١]:

تقدمت أحاديث تتعلق بالسورة في العيدين وفي الجمعة، وفي سورة الحديد وغير ذلك.

سورة الفجر

هي ثلاثون آية، وأبرز ما تحدّثت عنه قصص الأقدمين كعاد وثمود وفرعون الطاغية: العتاة المفسدين وما نزل بهم من العذاب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾:

{٩٢٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما من أيام العمل فيهنّ أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**»، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يَرجع من ذلك بشيء**».

رواه أحمد (٢/٢٢٤، ٣٣٨)، والبخاري في العيدين (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٦٦٩)، وابن ماجه (١٧٢٧) كلّهم في الصوم.

في الحديث بيان أن العشر المذكورة في القرآن هي عشر ذي الحجّة، وأن العمل فيها أحب إلى الله تعالى من العمل في غيرها، حتى أن العمل فيهنّ أفضل من مطلق الجهاد في سبيل الله.

{٩٢١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن العشر عَشْرُ الأضحى والوتر يومُ عرفة، والشفع يوم النحر**».

رواه أحمد (٣/٣٢٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٤)، والحاكم (٤/٢٢٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.. والحديث مفسّر

للآية، ومع ذلك فقد اختلفت في ذلك أقوال المفسّرين كما يعلم من تفسيري ابن جرير وابن كثير وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [١٧]:

{٩٣٢} ـ فيه حديث أبي هريرة مرفوعاً: **«كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنّة إذا اتّقى الله تعالى»**.

رواه مسلم وغيره، وفي الباب أحاديث ستأتي في البرّ والصلة إن شاء الله تعالى.

وكافل اليتيم: هو القائم بنفقته وتربيته والإحسان إليه وإكرامه.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [٢٢]:

في حديث الشفاعة الطويل: **«فيجيء الله لفصل الخطاب»**، ويأتي في محله في الرقاق.

{٩٣٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في حديث الصراط والرؤية: **«... فيأتيهم الله تعالى في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا»** الحديث.

رواه البخاري في الرقاق (٢٤٦/١٤) مطوّلاً، ويأتي إن شاء الله تعالى في الرقاق.

هذا المجيء مما يجب الإيمان به على ما أراد الله عزّ وجلّ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: وجاء ربك يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق ـ سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ـ بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلّهم يقول: لست بصاحب ذاكم حتى ينتهي السؤال إلى سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيقول: **«أنا لها أنا لها»**، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يذهب الناس لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك، وهي أولى الشفاعات وهي المقام المحمود كما

تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الربّ تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً...

فيجب علينا أن نؤمن بهذا المجيء كما أخبر القرآن ونطقت به السنّة الصحيحة، مع اعتقادنا أن الله عزّ وجلّ ليس كمثله شيء، وما يقع في الآخرة هو من علم الغيب وفوق مستوى عقولنا.

قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [٢٣]:

{٩٢٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يُؤتَى بجهنّم يومئذ لها سَبعُون ألف زِمام مع كلّ زمامٍ سبعون ألف ملك يجُرُّونها»**.

رواه مسلم في كتاب الجنّة (١٧/١٧٩)، والترمذي في صفة جهنم (٢٣٩٠).

الآية والحديث متفقان في أنه يؤتى يوم القيامة بجهنم، وذلك لموقف الناس لِيُرْعِبَ الكفار بها ويزعجهم، وهذا أيضاً من علم الغيب مما لا ندري كيفيّته، فيجب الإيمان به وكفى.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [٢٤]:

{٩٢٥} ـ عن محمد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: لو أنّ عبداً خرَّ على وجهه من يوم وُلِد إلى أن يموتَ في طاعة الله لحَقَره يومَ القيامة، ولودَّ أنه رُدَّ إلى الدنيا كَيْمَا يَزْدَاد من الأجر والثواب.

رواه أحمد (٤/١٨٥) بسند صحيح وهو من قبيل المرفوع لأنه لا مجال فيه للنظر.

ويتجلّى في الآية والحديث ما سيحصل للإنسان يوم القيامة وما يتمنّاه، ولكنه هيهات هيهات، وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه أبد الآبدين.

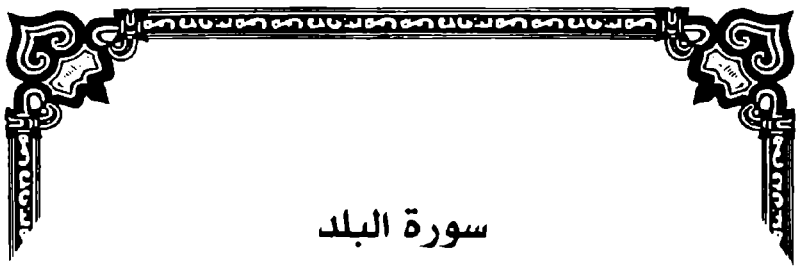

سورة البلد

وهي عشرون آية، وأبرز ما فيها القسم بالبلد الأمين وبكل والد وما ولد على أن الإنسان في كبد وشدّة يقاسي المتاعب والشدائد طوال حياته، مع ذكر نِعم الله تعالى على عباده من العينين واللّسان والشفتين... وبيان العقبة الكئود التي ينبغي اقتحامها.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]:

{٩٣٦} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنّة، قال: **«لَئِن كنت أقْصَرْتَ الخُطبة لقد أعرَضْتَ المسألة أعتق النسمة، وفُكَّ الرقبة»**، فقال: يا رسول الله أوَ ليستا بواحدة؟ قال: **«لا، إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف، والفيءُ على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطق ذلك فأطعم الجائع، واسقِ الظمآن، وأمر بالمعروف وانْه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكفَّ لسانك إلا من الخير»**.

رواه أحمد (٤/٢٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩)، والطيالسي (٧٣٩)، وابن حبان (٢/٩٧، ٩٨)، والحاكم (٢/٢١٧)، والبيهقي (١٠/٢٧٢، ٢٧٣)، والبغوي في شرح السنّة (٩/٣٥٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال النور في المجمع برواية أحمد: رجاله ثقات (٤/٢٣٤).

أقصرت الخطبة أي: جئت بها قصيرة، لقد أعرضت أي: جئت بها عريضة واسعة، والنسمة: ذات الروح والمنحة الوكوف أي: غزيرة اللبن.

وفي الحديث فضل فكّ الرقاب وعتقها، وذلك بعض اقتحام العقبة المذكورة في الآية.

وفي الحديث مع ذلك مكارم ينبغي للمسلم الاتصاف بها، وهي من موجبات الجنّة بإذن الله تعالى وفضله، وهي منحة الماشية لشرب لبنها، والصدقة على القريب المعتدي، وإطعام الجائع، وسقي العطشان، والأمر بالخير والنهي عن الشر، فمن لم يطق ذلك فلا أقل أن يكون سلبياً لا له ولا عليه بأن يكفّ لسانه عن الآخرين إلا من خير، فالحديث من جوامع الأخلاق.

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [١٤ ـ ١٦]:

{٩٣٧} ـ عن سلمان بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة»**.

رواه أحمد (١٧/٤، ١٨، ٢١٤)، والحميدي (٨٢٣)، والترمذي (٥٨٢)، والنسائي (٦٩/٥) كلاهما في الزكاة، ورواه الأخير في الكبرى (٢/٦، ٤٩)، وابن ماجه (٨٤٤)، وابن خزيمة (٢٣٨) وغيرهم، والحديث صحيح لشواهده.

وفي الحديث بيان فضل الصدقة على القريب، وهي من اقتحام العقبة.

وقوله: في يوم ذي مسغبة أي: ذي مجاعة. وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

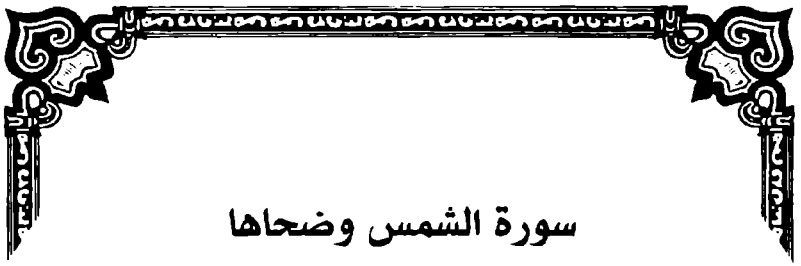

سورة الشمس وضحاها

هي خمس عشرة آية، وأبرز ما فيها الكلام على تزكية النفس أو إيرادها موارد الهلاك.

فيه حديث أنس في قصة معاذ في صلاته العشاء، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها»** ونحوهما، رواه أحمد وغيره، ونحوه عن جابر في مسلم، وانظر كتاب الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [٧ ـ ١٠]:

{٩٢٨} ـ فيه حديث زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«اللّهمّ آتِ نَفْسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها»**، رواه أحمد ومسلم، وتقدم في الأدعية.

زكّاها أي: طهّرها، وقوله: دسّاها أي: حقّرها بالكفر والذنوب، وأوردها الموارد...

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ [١٢]:

{٩٢٩} ـ عن عبدالله بن زمعة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطب وذكر الناقة والذي

عقرها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارِم مَنيعٌ في رهطِهِ مثل أبي زَمْعَة**».

رواه أحمد (١٧/٤)، والبخاري في التفسير (٣٣٣/١٠، ٣٣٤) وفي أحاديث الأنبياء، ومسلم في الجنّة (٢٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥١٥/٦).

قوله: إذ انبعث أي: انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط، وعاقر الناقة اسمه قُدار على وزن غراب لعنه الله وأخزاه.

وقوله: عارم أي: صعب كثير الشهامة والشر، وقوله: منيع أي: قوي ذو منعة، له رهط يمنعونه من كل ضَيْم. وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه أبد الآبدين.

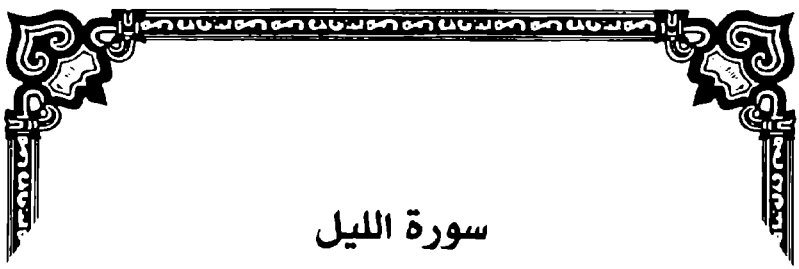

سورة الليل

هي إحدى وعشرون آية، وأهم ما فيا القسم ببعض الكائنات على أن الناس مختلفون في سعيهم وأعمالهم منهم المؤمن، ومنهم الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [١ ـ ٣]:

{٩٣٠} ـ عن علقمة رحمه الله تعالى قال: قدمنا الشام، فدخلنا مسجد دمشق على أبي الدرداء، فقال: كيف يقرأ عبدالله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ فقرأت عليه: **﴿والَّيل إذا يغشى والنَّهار إذا تجلَّى والذَّكر والأُنثى﴾** قال: والله لقد أقرأنيها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من فيه إلى فيّ.

رواه البخاري في مواضع في الفضائل (٢٧٤٢، ٣٧٦١) وفي الاستئذان (٦٢٧٨)، ومسلم في الصلاة (٨٢٤)، والترمذي في القراءات (٢٧٤٥)، والنسائي في الكبرى (٥١٦/٦).

قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء هذه ليست بمتواترة، وهي مخالفة للمصحف الإمام الذي أجمع عليه الصحابة والموجود بين أيدي المسلمين، ولعلّها من القراءات المنسوخة التي لم يبلغ نسخها ابن مسعود وأبا الدرداء رضي الله تعالى عنهما، وهذا مما لا ينبغي التشكّك فيه، وقد تقدم هذا أوّل التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [٥ ـ ٧]:

{٩٣١} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كنّا في جنازة ببقيع الغَرْقَد، فأتانا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مِخْصَرة، فجعل ينكت بها الأرض، ثم قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتّكل على كتابنا؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسّر لما خُلِق له، أمّا من كان من أهل السعادة فسييسر إلى عمل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فسييسر إلى عمل الشقاء**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

رواه الطيالسي (٦١)، وأحمد رقم (١٢١، ١٦٧، ١٦٨، ١١٠)، والبخاري في القدر وفي التوحيد (٣٠٥/١٧)، ومسلم في القدر (١٩٥/١٦، ١٩٦)، وأبو داود (٤٦٩٤) في القدر، والترمذي فيه (١٩٦٨) وفي التفسير (٣٢١٦)، والنسائي في الكبرى (٥١٧/٦)، وابن ماجه (٧٨)، وفي الباب أحاديث عن أنس وعمران بن حصين في الصحيحين، وعند ابن عمر عند أحمد والترمذي، وقد تقدم بعضها في القدر.

قوله: مخصرة ـ بكسر الميم ـ كالسوط والعصا، ينكت أي: يضرب أفلا نتكل ـ أي: نعتمد على القدر وما كتب علينا وندع العمل، اعملوا: أي: لا بدّ من العمل، فإنه الذي يصدق ما كتب في الأزل، فالسعيد سيهيؤ للإيمان والعمل الصالح وييسره الله لما خلق لأجله، والشقي بعكس ذلك فمن اعتمد على ما كتب عليه وترك العمل كان ذلك علامة على شقاوته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ إلخ، أي: أنفق ماله ابتغاء وجه الله واتّقى ربّه فآمن وكفّ عن محارمه، وصدق بالجنة فسنهيّئه لعمل الخير ونسهل عليه فعل الطاعات، وترك المحرمات، والعكس بالعكس، فمن بخل

بإنفاق ماله واستغنى عن ربّه وعن عبادته وكذب بالجنّة فسنهيّئه للخصلة المؤدية للعسرى، وهي طريق الشرّ المؤدي إلى النار

وبه انتهت سورة الليل، والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على نبيّه وعلى آله وصحبه وحزبه، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكر الغافلون.

سورة الضحى

آياتها إحدى عشرة، وهي تتحدّث عن شخصية الحبيب المصطفى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [١ ـ ٣]:

{٩٣٢} ـ عن جندب البجلي رضي الله تعالى عنه قال: اشتكى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين، وفي رواية: ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

رواه البخاري في التهجّد (١١٢٤، ١١٢٥) وفي التفسير (٣٣٩/١٠، ٣٤٠) وفي فضائل القرآن ج (٣٨٢/١٠)، ومسلم في الجهاد (١٥٦/١٢)، والترمذي (٣١٢٧)، والنسائي في الكبرى (٥١٧/٦، ٥١٨).

قوله: ما ودّعك أي: ما تركك، وما قلا أي: أبغضك، وفي الآيات ردّ على تلك المرأة وهي امرأة أبي لهب.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [٥]:

{٩٣٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: عُرِض على

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أُمّته كُفْراً كُفْراً، فسرّ بذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾، فأعطاه في الجنّة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم.

رواه ابن جرير (٢٣٢/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٤٣/١٠) وزاد في الدر المنثور: عبد بن حميد والطبراني والحاكم والبيهقي وابن مردويه وأبا نعيم، وسنده صحيح.

ما ذكره ابن عباس جميعه مرفوع لأنه لا مجال فيه للرأي، وفي الحديث كالآية ما شرف الله تعالى به نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من العطايا والخصائص مما لا يلحقه فيه لاحق أبداً.

وبه تمّت الضحى، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سور الانشراح

هي ثمان آيات، وموضوعها الكلام على شخصية الرسول الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وامتنانه عليه بما أولاه من نعم وخصائص.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [١]:

{٩٣٤} ـ عن أنس بن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة فأُتِيتُ بطَسْت من ذهب فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا**»، قال قتادة: قلت لأنس: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: «**فاستخرج قلبي فغسل قلبي بماء زمزم ثم أُعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة**».

رواه البخاري ومسلم مطوّلاً في قصة الإسراء، وقد تقدم.

وقع له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا الحادث ـ شقّ الصدر ـ مراراً أوّله كان وهو رضيع في بني سعد، وظاهر قوله: وشرح صدري إلى كذا وكذا أنه كان محسوساً وهو مما لا ينبغي الخلاف فيه، لما ثبت في الصحيح عن أنس أن أثر ذلك كان يرى ببطنه الشريف.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [٤]:

{٩٣٥} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**أتاني جبريل عليه السلام فقال**:

إن ربي وربك يقول لك: تَدْرِي كيف رفعتُ ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي».

رواه ابن جرير (٢٣٥/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٤٥/١٠)، وأبو يعلى (٥٧٦/١) وصححه ابن حبان (١٧٥/٨)، وحسّنه نور الدين في المجمع (٣٥٤/٨)، ومعناه صحيح.

إن هذا النبيّ العظيم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرفوع الذكر في الدنيا والآخرة بأبي هو وأمّي، فلا يؤذن مؤذّن ولا يصلّي مصلٌ، ولا يذكر ذاكر إلا ذكر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكيف لا وذكره مقرون بالله في عدة سور من القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [٥ ـ ٦]:

{٩٣٦} ـ عن الحسن رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ إلخ، قال: خرج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: **«لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، لن يغلب عسرٌ يسرين، إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً».**

رواه عبدالرزاق (٣٨٠/٢)، وابن جرير (٢٣٦/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٤٦/١٠) ثلاثتهم في التفسير، والحاكم (٥٢٨/٢) وهو مرسل صحيح ونحوه عن قتادة أيضاً مرفوعاً رواه ابن جرير (٢٣٦/٣٠) بسند صحيح أيضاً، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ذكر لنا أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بشّر أصحابه الآية: **«لن يغلب عسر يسرين»** عزاه الحافظ في الفتح لعبد بن حميد، وقال: سنده جيّد، وذكره البخاري ترجمة في التفسير (٣٤١/١٠) فقال: ولن يغلب عسر يسرين. وقال الحاكم (٥٢٨/٢): صحّ ذلك عن عمر وعليّ رضي الله تعالى عنهما.

وبالجملة فالحديث ثابت بما أوردنا.

وفي الآية مع الحديث بشارة للمكروبين بحصول الفرج بعد الشدّة،

وقد كتب الناس في الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر.

ومعنى قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لن يغلب عسر يسرين**» أن العرب جرت عادتها في كلامها أن المعرفة إذا تكرّرت كانت الثانية هي الأُولى، فالعسر الثاني في الآية هو الأول فهو عسر واحد، بينما النكرة إذا تكرّرت كانت الثانية غير الأُولى، وعليه فاليسر الثاني غير الأول، فيكون يسران في مقابلة عسر واحد.

وهذا من دقيق فهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعظيم استنباطه.

وبه تمّت الانشراح، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة التين والزيتون

هي كسابقتها ثمان آيات، وأبرز ما فيها بيان أن الإنسان خُلق في أحسن تقويم.

{٩٣٧} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: صلّيت مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم العشاء فقرأ بالتين والزيتون.

رواه البخاري (٧٦٧/٧٦٩)، ومسلم (٤٦٤) وغيرهما في الصلاة، ورواه البخاري في التفسير أيضاً (٣٤٢/١٠)، وقد تقدم في الصلاة والحمد لله.

{٩٣٨} ـ وتقدم حديث أبي هريرة: «**من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى أخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»، رواه أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم، وقد قدمنا في سورة القيامة أنه حديث حسن، يصح العمل به.

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وحزبه.

سورة العلق

هي تسع عشرة آية، وهي تتحدّث عن أعظم نعمة، وأشمل رحمة، وأعمّ خير حظيت به هذه الأُمّة تبعاً لنبيّها العظيم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ألا وهو الوحي الإلـٰهيّ ونزول القرآن الكريم، وأوّل خطاب من الحضرة الإلـٰهيّة إلى الحضرة النبوية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [١ ـ ٥]:

{٩٣٩} ـ عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: أوّل ما بدىء به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكا يخلو بغار حِراء، فيتحنث فيه وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءهُ الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارىء**»، قال: «**فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، قلت: «**ما أنا بقارىء**»، قال: «**فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني**»، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، فرجع بها رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، فقال: **«زمّلوني، زمّلوني»** حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: **«لقد خشيت على نفسي»**، فقالت خديجة: كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابنْ عمّ خديجة، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أوَ مخرجي هم»**؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي.

رواه أحمد **(٦/٢٣٢، ٢٣٣)**، والبخاري في بدء الوحي **(١/٢٥، ٣٠)** وفي التفسير **(١٠/٣٤٤، ٣٥٠)** وفي التعبير وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان **(٢/١٩٧، ٢٠٥)** وغيرهم.

قولها: الرؤيا الصالحة، في رواية: الصادقة، وقولها: كفلق الصبح أي: يظهر صدقها في اليقظة كضياء الصبح، وقوله: ما أنا بقارىء أي: لا أحسن القراءة، فلما قال ذلك ثلاثاً قال له في الأخير: ﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلخ، وقيل: هي استفهامية أي: ماذا أقرأ أو كيف أقرأ والله أعلم، وقوله: فغطني أي: ضمّني وعصرني، وقوله: الجهد ـ بضم الجيم وفتحها ـ: وهو المشقّة والغاية، وقولها: يرجف أي: يرتعد ويضطرب، وقوله: الروع ـ بفتح الراء ـ الفزع، وقولها: لا يخزيك الله أي: لا يهينك ولا يفضحك، والكل ـ بفتح الكاف ـ ومعناه: تنفق على الضعيف واليتيم والعيال، وقولها: وتكسب المعدوم أي: تكسب غيرك المال المعدوم

وتعطيه إياه، وقوله: جذعاً ـ بفتحتين ـ أي: شاباً قوياً، وقوله: نصراً مؤزراً أي: قوياً بالغاً.

وفي هذا الحديث الشريف فوائد كثيرة هامّة، فهو يدلّ على أن أوّل ما بدىء به من الوحي الرؤيا، ومكث على ذلك ستّة أشهر على الصحيح، وفيه أن أوّل ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو قول الجمهور، وفيه فضل مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها وقوّة يقينها وتأييدها للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويؤخذ منه أنها أوّل من آمن إطلاقاً، وفيه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان متّصفاً بالأخلاق الكريمة قبل النبوة، وقد عرفت ذلك خديجة منه، فلذلك طمأنته بقولها ما قالت...، وفيه الفزع إلى أهل العلم عند نزول المدلهمات، وفيه فضل ورقة بن نوفل وأنه آمن بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتمنّى نصره عندما يدعو قومه ويخرجونه من بلدته، وقد جاء في رؤيا له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما يدلّ على أنه من أهل الجنّة، وفي الحديث غير ذلك من الفوائد.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ [١٧ ـ ١٩]:

{٩٤٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلّي فجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فزبره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

رواه أحمد (١/٢٥٦، ٣٢٩، ٣٦٨)، والترمذي في التفسير (٣١٣١)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨) بسند صحيح على شرط مسلم.

{٩٤١} ـ وعنه في رواية، قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً

يصلي لأطأنّ على عنقه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو فعل لأخذته الملائكة عياناً**».

رواه عبدالرزاق في التفسير (٢/٣٨٤)، وأحمد (٣٤٨٣)، والبخاري (١٠/٣٥٣، ٣٥٤)، والترمذي (٣١٣٠)، والنسائي (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٦، ٢٥٧) كلّهم في التفسير.

{٩٤٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، قال: فقال: واللات والعزّى لَئِن رأيته يصلّي كذلك لأطأنّ على رقبته ولأعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يصلّي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ قال: فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»، قال: وأنزل الله ـ لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ـ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ ـ يعني: أبا جهل ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ ـ يدعو قومه ـ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ ـ الملائكة ـ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

رواه مسلم في صفة المنافقين (١٨/١٣٩، ١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٦)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٤٥٠) من طريقه.

قوله: فزبره أي: نهره وأغلظ عليه، والزبانية: هم ملائكة النار المكلّفون بها وبأهلها، وقوله: لأعفرنّ أي: لألصقنّ وجهه بالتراب وأمرغه، وقوله: ينكص أي: يرجع إلى الوراء... وفي هذه الأحاديث حماية الله عزّ وجلّ نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحفظه من أعدائه، وأنه لو شاء

لبعث عليهم بعض ملائكته الشداد الغلاظ العظام فأخذوهم بدون كبير تعب منهم، ولكنه تعالى كان يسلك به كغيره من الأنبياء والمقرّبين سبيل سنّته في خلقه وهو طريق الأسباب.

وبه تمّ الكلام على سورة العلق، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

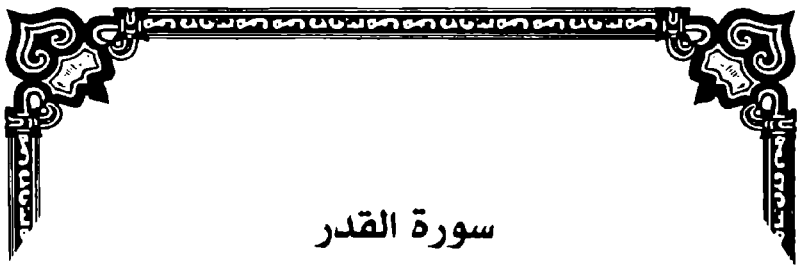

سورة القدر

هي خمس آيات، وتمتاز بالكلام على بيان الليلة المباركة ليلة القدر التي ذكرت مبهمة في سورة الدخان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [١]:

{٩٤٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ قال: نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر وكان الله عزّ وجلّ ينزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعضه في إثر بعض، قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. وفي رواية: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا.

رواه النسائي في الكبرى (٥١٩/٦)، وابن جرير (٢٥٩/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٥٢/١٠)، والحاكم (٢٢٢/٢، ٥٣٠) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه النور في المجمع (١٤٠/٧) لكبير الطبراني (٢٣٨٢)، والبزار (٢٢٩٠) وقال: رجال البزار رجال الصحيح.

الحديث يبين أن نزول القرآن في رمضان، ومعناه: نزوله من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم جعل ينزله الله منجماً حسب الأسباب حتى تمّ في ثلاث وعشرين سنة، وهذا معلوم لا شكّ فيه، وقد تقدم شيء من هذا في سورة البقرة، وفي سورة الفرقان، وفي أول هذا التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾:

{٩٤٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ليلة القدر، فقال: «**تَحَرَّوْها في السبع الأواخر من شهر رمضان**».

رواه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (٨/٥٨، ٥٩) كلاهما في الصيام.

فضل ليلة القدر والكلام على وقتها يطول، وقد تقدم الكلام على فضلها وما جاء فيها آخر الصيام فارجع إليه. وبهذا تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

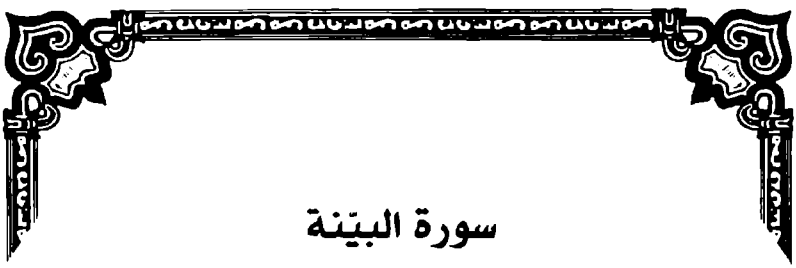

سورة البيّنة

هي أول سورة مدنية تتخلّل خمساً وأربعين سورة مكية كما تقدم أول (تبارك) الملك، وهي ثمان آيات، وامتازت بذكر خير البرية وشرها.

{٩٤٥} ـ فيها حديث أنس مرفوعاً إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لأُبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾**»، رواه الشيخان، وتقدم، ويأتي أيضاً في الفضائل.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [٦]:

{٩٤٦} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا خير البرية، قال: «**ذاك إبراهيم**».

رواه مسلم في الفضائل (١٢١/١٥)، وأبو داود (٤٦٧٢)، والترمذي (٣١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٥٢٠/٦).

قوله: خير البرية أي: أفضل المخلوقات، وما قاله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو من تواضعه مع جدّه إبراهيم عليه السلام، والآية تدلّ على أن المؤمنين الصالحين خير المخلوقات الكافرة والمنحرفة، وبه تمّت السورة، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

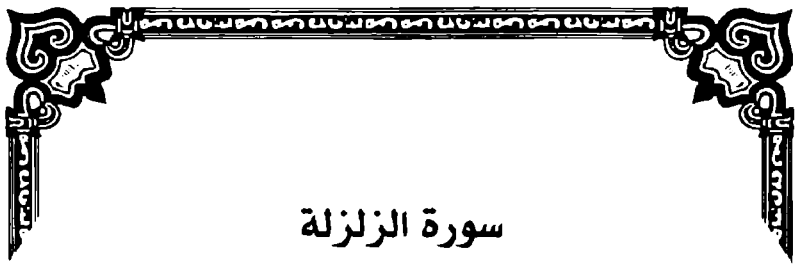

سورة الزلزلة

هذه السورة من المدنيات، وهي ثمان آيات، وموضوعها يخالف موضوعات السور المدنية، إذ هي تتحدّث عن القيامة وأهوالها وإخراج ما في بطن الأرض من الأموات والكنوز... وتحدث الأرض بما وقع عليها ثم انصراف الناس وصدورهم فرقاً فرقاً ليروا أعمالهم، وامتازت بتلك الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾:

{٩٤٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾، قال: **«أتدرون ما أخبارها»؟** قال: قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول: عمل يوم كذا كذا وكذا فهذه أخبارها»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٤)، والترمذي (٢٢٤٩، ٣١٣٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠)، وابن حبان (٢٥٨٦) بالموارد، والحاكم (٢/٢٥١، ٥٣٢)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث شاهد عند الطبراني. انظر المجمع (٧/٢٤١) وبه صححه الترمذي. في الحديث بيان أخبار الأرض يوم القيامة، وأنها ستشهد على كل من عمل فوقها شيئاً من الأعمال...

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [٧ ـ ٨]:

{٩٤٨} ـ عن صَعْصَعَة عم الفرزدق قال: قدمت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسمعته يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ الآية، قال: حَسْبِي لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

رواه أحمد (٥/٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠، ٥٢١)، والحاكم (٣/٦١٣)، والطبراني في الكبير (٧٤١١)، قال النور في المجمع (٧/١٤١)، مرسلاً ومتصلاً ورجال الجميع رجال الصحيح، وكذا صححه البوصيري في الإتحاف (٨/٤٤٥).

المثقال: هو الوزن والذرة: أقلّ شيء، والآية الكريمة كافية لمن اعتبر كهذا الرجل الذي لم يتطلع إلى غيرها لما علم منها أن العبرة بالخير والشر، فمن أكثر من الخير كان سعيداً، ومن ازداد من الشر كان خاسراً، والله تعالى حكم عدل لا يظلم أحداً.

{٩٤٩} ـ وتقدم حديث أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن الحُمُر فيها زكاة؟ فقال: «**ما جاءني فيها شيء إلا هذه الآية الفاذة**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾».

رواه البخاري ومسلم، وانظر ما سبق في الزكاة.

الفاذّة: هي قليلة النظير، وبه تمّت السورة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه أبد الآبدين.

سورة التكاثر

هي ثمان آيات كسابقتيها، وامتازت بالتهديد الشديد والزجر الأكيد للإنسان بأنه سيعلم ما أنذر به علم اليقين، وسيرى الجحيم ويشاهدها عين اليقين...

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [١]:

{٩٥٠} ـ عن أُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: كنّا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، يعني: لو كان لابن آدمَ وادٍ من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يَملأ فاهُ إلا الترابُ ويتوبُ الله على من تاب.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٣٢، ٣٣)، ويأتي مع أحاديث أخرى إن شاء الله تعالى. وفي الآية والحديث بيان ما جبل عليه ابن آدم من حبّ المال وتفاخره بالكثرة حتى الموت.

{٩٥١} ـ وعن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس»**.

رواه أحمد (٤/٢٤، ٢٦)، ومسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢١٦١)

كلاهما في الزهد، ورواه أيضاً في التفسير (٣١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٥٢١/٦).

الحديث يفيد أن مال الإنسان الذي يجول ويصول به في حياته ليس له منه إلا ما قدمه بين يديه من صدقة ومعروف وما عدا ذلك فسيتركه وراءه ليقتسمه ورثته.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾:

{٩٥٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حديث: **«هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة: الظلّ البارد والرطب الطيب عليه الماء البارد»**.

رواه مسلم (٢٠٣٨) مطوّلاً، وأبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الاستئذان وفي الزهد (٢١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢١/٦)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، ويأتي في الرقاق والزهد.

{٩٥٣} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة** ـ يعني: العبد ـ **من النعيم أن يقال: ألم نُصِحّ لك جِسمَك، ونُرْوِك من الماء البارد»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٤٠)، وابن حبان (٢٥٨٥) بالموارد، والحاكم (١٣٨/٤) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الآية والحديثين بيان أن الإنسان سيُسأل يوم القيامة عن كل ما يتمتّع به من نعيم في هذه الحياة بداية من الظلّ والماء البارد والتمر الطيّب وصحة الجسم فضلاً عمّا هنالك من نِعَم سوابغ ظاهرة وباطنة، يتنعّم ويتمتّع بها الإنسان طوال حياته. وبه تمت التكاثر، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الفيل

هي خمس آيات، وامتازت بقصة أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله حماية لبيته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾:

{٩٥٤} ـ تقدم حديث: «**إن الله تعالى حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين**» إلخ، وهو في الصحيحين. ومعنى ذلك أن الله منع الفيل عن استباحة الحرم الشريف وأباح ذلك لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ساعة من نهار يقاتل فيها من قاتله...

وسيأتي حديث: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»، وهو في البخاري مطوّلاً في حديث صلح الحديبية، ويأتي في المغازي. وقوله: حبسها حابس الفيل أي: حبسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكّة كما حبس الفيل... والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

سورة الماعون

هي سبع آيات، وامتازت بذكر الويل للساهين عن الصلاة والمرائين بأعمالهم والمانعين الماعون.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [٦]:

{٩٥٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من سَمَّع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به**».

رواه مسلم في الزهد (٢٩٨٦) وغيره، وهو في البخاري عن جندب، وفي الباب غير ذلك.

سمّع ـ بتشديد الميم ـ: أي: ذكر أعماله الصالحة ليسمعه الناس ويثنوا عليه، وقوله: راءى أي: عمل عملاً أراه للناس ليحترموه ويعتقدوا فضله. وهذا كلّه شرك في العمل إذا كان قصده ذلك، فإن كانت نيّته الاقتداء به أو التحدّث بنعمة الله عليه فليس بمذموم.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾:

{٩٥٦} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كل معروف صدقة، كنا نعدّ الماعون على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عارية الدلو، والقدر، وفي رواية: والفاس، والميزان، وما تتعاطون بينكم.

رواه أبو داود (١٦٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٢)، وابن جرير

(٣١٧/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٦٩/١٠)، والطبراني في الكبير (٩٠١٣)، والأوسط (١٤٩٥)، والبزار (٢٢٩٢)، والبيهقي (١٨٣/٤) وسنده حسن وهو صحيح لطرقه وشواهده، بل قال النور في المجمع (١٤٣/٧): رجال الطبراني رجال الصحيح.

في هذا الحديث بيان الماعون الذي يعاقب مانعه وهو ما ذكر من القدر والفاس ونحو ذلك كالإبرة والملح... والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه.

سورة الكوثر

هي ثلاث آيات، وهي أقصر سورة في القرآن الكريم، وامتازت بذكر كوثر نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي أعطاه الله إيّاه في الجنّة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾:

{٩٥٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **«لقد أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾»**.

قال: **«أتدرون ما الكوثر؟»** فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه نهر وعدنيه ربّي عزّ وجلّ، عليه خير كثير ترد عليه أُمّتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيُخْتَلَجُ العبدُ منهم، فأقول ربّ: إنه من أُمّتي، فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك»**.

رواه أحمد (٣/١٠٢، ١٦٤، ٢٣٦)، ومسلم (٤/١١٢)، وأبو داود (٧٨٤) كلاهما في الصلاة، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٣)، وتأتي أحاديث الكوثر والحوض في الرقاق إن شاء الله تعالى.

قوله: أغفى أي: نام، وقوله: فيختلج أي: ينتزع ويقتطع. الكوثر: هو نهر في الجنّة وهو أصلٌ لِلْحَوض الذي هو قبل الصراط وهو الذي

سيختلج العباد دونه، وجاءت الأحاديث متّحدة في الكوثر والحوض، وسيأتي بيان ذلك في الرقاق بحول الله عزّ وجلّ وإذنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾:

{٩٥٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيّدهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنتبر من قومه زعم أنه خير منّا ونحن! يعني: أهل الحجيج، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٥٢٤/٦)، وابن جرير (٣٣٥/٣٠)، والبزار (٢٢٩٣)، وابن حبان (١٧٣١) بالموارد، والطبراني في الكبير (١٦٤٥) وسنده صحيح.

الشانىء: هو المبغض، والأبتر: هو الذي إذا مات انقطع نسله وذكره. وكان المشركون يلمزون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك، لكونه لم يكن له ذكر، فدافع الله عنه وأخبره بأن شانئه ومبغضه هو الأبتر الأذلّ الأخزى الأقل، أما هو صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقد أعلى الله ذكره على رغم أنوفهم وأعزّه وأظهر دينه وأوجب شرعه على جميع العباد عبر الأجيال، وآمن به واتّبعه ملايين من الإنس والجنّ، ولا يزال الناس يدخلون في دينه من سائر الأديان في كل عصر من العصور، وكل ذلك يعتبر عزّاً له وتشريفاً، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه إلى الأبد.

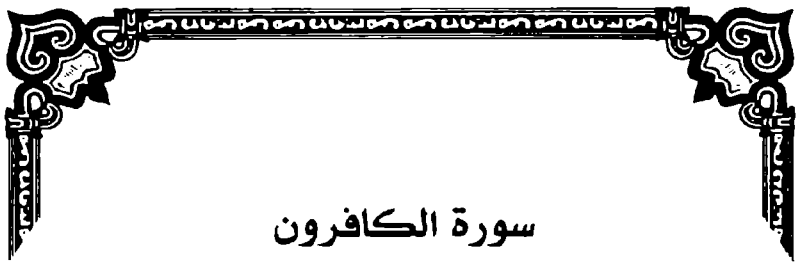

سورة الكافرون

هي ستّ آيات، وامتازت بالبراءة من الكفر والشرك وقطع أطماع الكافرين فيما طلبوه من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والمسلمين في التسامح بينهم وتبادل العبادة بين الله وبين الأصنام...

وتقدمت مواضع كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ هذه السورة فيها، كصلاة الفجر، وصلاة ما بين العشائين، وصلاة الطواف.

{٩٥٩} ـ وعن قرة بن نوفل عن أبيه رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما جاء بك؟»** قلت: جئت يا رسول الله لِتُعَلِّمَنِي شيئاً أقوله عند منامي، قال: **«إذا أخذتَ مَضْجَعك فاقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٥٥)، والترمذي في الدعوات (٣١٨٣)، والنسائي في الكبرى (٥٢٤/٦)، وابن حبان (٢٣٦٣، ٢٣٦٤) بالموارد، والحاكم (٥٦٥/١) وصححه ووافقه الذهبي.

فيه أن قراءة هذه السورة عند النوم تبرىء صاحبها من الشرك...

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه أبد الآبدين.

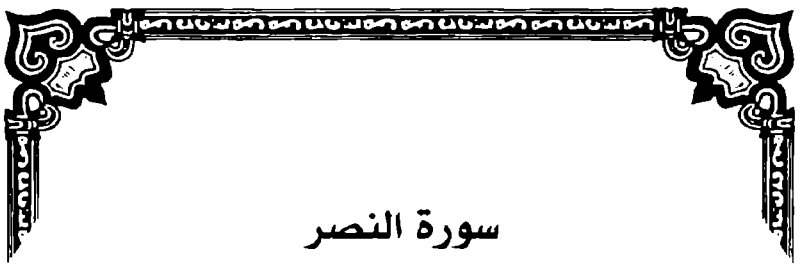

سورة النصر

هي مدنية، وهي الثالثة تتخلل نيفاً وأربعين سورة مكّية وآياتها ثلاث كالكوثر، لكن هذه أطول من تلك بكلماتها وهي تتحدّث عن مجيء نصر الله للإسلام وأهله وفتح مكّة المكرمة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وإعلام نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بدنوّ أجله.

{٩٦٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان عمر رضي الله تعالى عنه يسألني مع أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال له عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه: أتسأله ولنا بنون مثله، قال: فقال له عمر: إنه من حيث يعلم فسأله عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إلخ، فقلت: إنما هو أجل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعلمه إيّاه، وقرأ السورة إلى آخرها، فقال له عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٣٦٥، ٣٦٧) وفي مواضع، والترمذي (٣١٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٥)، ويأتي في الفضائل مطوّلاً إن شاء الله تعالى.

فيه بيان ما امتاز به ابن عباس من التفسير، ولذلك كان سيدنا عمر يقدمه، وفيه أن السورة كانت نعياً لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقُرب أجله.

{٩٦١} ـ وعنه أنه قال لعبيدالله بن عتبة: يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة

من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾، قال: صدقت.

رواه مسلم آخر الكتاب (١٨/١٦٠، ١٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٥).

هذا بالنسبة للسور القصار وقد قيل إن آخر سورة نزلت المائدة أو التوبة، أما آخر ما نزل إطلاقاً فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه إلى الأبد.

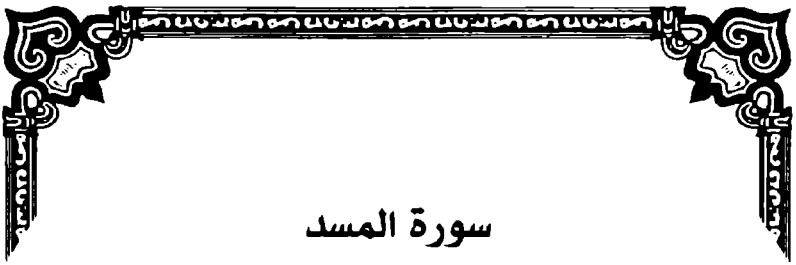

سورة المسد

هي خمس آيات، وحديثها يدور بالخصوص حول ذلك الخائن الخاسر الشقي أبي لهب وزوجته القذرة أم جميل، وقد سجل الله تعالى عليهما الخيبة والتباب في قرآن يتلى مدى الدهر.

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾:

{٩٦٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: صعِد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذات يوم على الصفا فنادى: «**يا صَباحَاه**»، فاجتمعتْ إليه قريش، فقال أبو لهب: أَلِهَذا جمعتنا تَبّاً لك؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

رواه البخاري في التفسير (٣٦٨/١٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، والترمذي (٣١٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥٢٦/٦)، وقد تقدم مطوّلاً في سورة الشعراء عند آية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ أي: خسرت، والتباب: الهلاك والخسران وعبّر تعالى باليدين عن الذات وهو شائع في الأساليب العربية، وقوله: ذات لهب أي: صاحبة اشتعال وتلهّب، والجيد: العنق، والمسد: الليف.

{٩٦٤} ـ وعن ربيعة بن عباد الديلمي قال: رأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «**يا أيها**

الناس قولوا: لا إلـه إلاّ الله تُفْلِحُوا»، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت يقول: **«أيها الناس قولوا: لا إلـه إلاّ الله تفلحوا»** إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب، فقلت: من هذا؟ قال: محمد بن عبدالله وهو يذكر النبوّة، قلت: من هذا الذي يكذّبه؟ قالوا: عمّه أبو لهب.

رواه أحمد وابنه عبدالله (٤٩٢/٣، ٤٩٣) من طرق و(٣٤١/٤)، والطبراني في الكبير (٦١/٥)، وأورده الهيثمي (٢٢/٦) وقال: بأسانيد، وأحد أسانيد عبدالله بن أحمد ثقات الرجال... وله شاهد عن طارق بن عبدالله وعن رجل من بني مالك بن كنانة، وعن منيب الأزدي، وعن مدرك أوردها كلّها الهيثمي في المجمع (٢١/٦، ٢٢)، وفيها ما رجالها رجال الصحيح أو رجالها ثقات غير أن في بعضها بدل أبي لهب أبو جهل.

وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من تحمّل المشاق والشدائد في تبليغ رسالة ربّه مع تغرّبه وهو صابر صامد لا يتضجّر ولا يتأخر حتى أظهره الله تعالى ونصره، وفيه ما كان عليه ذلك الخاسر الخائب أبو لهب من خذلانه ابن أخيه الكريم، وما كان يعامله به من سفاهة وخبث...

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

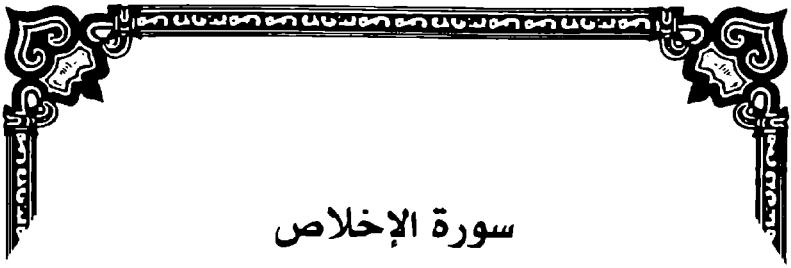

سورة الإخلاص

هي أربع آيات، وتتحدّث عن التوحيد وصفات الألُوهية إثباتاً ونفياً، فأثبتت لله عزّ وجلّ الوحدانية والصمدية، ونفت عنه الولادة والولد والكفؤ والمماثل، وفي ذلك ردّ على المشركين القائلين بالذرية والبنين له، وعلى النصارى القائلين بالتثليث، وبذلك كانت جامعة لتوحيد الله عزّ وجلّ؛ لأن التوحيد مركب من الإثبات والنفي: إثبات ذات لا تشبه الذوات غير معطلة عن الصفات، منزّهة عن الشَّبَه والمماثلة للمحدثات، ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾:

{٩٦٤} ـ عن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أن المشركين قالوا لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: انسب لنا ربك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

والصمد: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس بشيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد، قال: لم يكن له شبيه ولا عدل ولا كمثله شيء.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٤٥)، وابن جرير (٣٤٢/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٧٤/١٠)، والحاكم (٥٤٠/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وللحديث طرق يحسن أو يصحح بها.

في الحديث بيان سبب نزول هذه السورة العظيمة، وأحاديث فضائلها تقدّمت في فضائل القرآن، وحديث بريدة في كونها فيها الاسم الأعظم تقدّم في الدعوات، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه إلى الأبد.

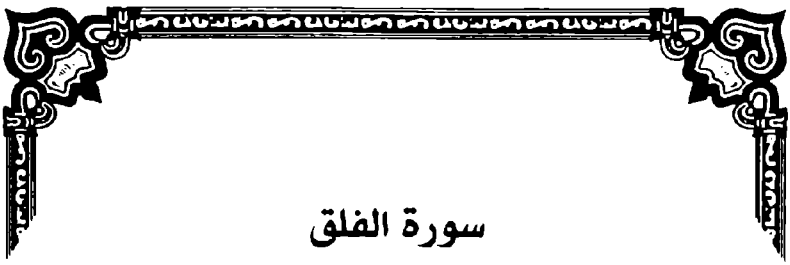

سورة الفلق

هي خمس آيات، وأهدافها طلب التحصّن برب الفلق من الشرور العارضة من المخلوقات، ومن شرّ الليل إذا أظلم، ومن شرّ الساحرات والحاسدين.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾:

{٩٦٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أخذ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدي، وإذا القمر حين يطلع فقال: **«يا عائشة، اسْتَعِيذِي بالله مِن شرّ هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَب»**.

رواه أحمد (٦/٦١، ٢٣٧، ٥٠٦، ٦١٥)، والترمذي في التفسير (٣١٤٦)، والنسائي والحاكم (٢/٥٤٠، ٥٤١)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي، وحسّنه الحافظ.

ظاهر الحديث أن الغاسق هو القمر إذا طلع، ويقال أيضاً للّيل إذا أظلم، والأمر متقارب، وقوله: وَقَب أي: دخل بظلامه.

المعوذات

تقدّمت أحاديث مشتركة في فضل المعوّذات: الإخلاص والفلق والناس في فضائل القرآن، وسيأتي لها مزيد في الطبّ إن شاء الله تعالى. وبه تم التفسير، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا وحبيبنا ومرشدنا أبي القاسم مولانا محمد النبيّ الأمين وعلى آله وذرّيته الطيبين الطاهرين، ورضي الله تعالى عن صحابته البررة الأكرمين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وكان الفراغ منه صبيحة يوم الثلاثاء خامس محرم الحرام مفتتح عام ثلاثة وعشرين وأربعمائة وألف.

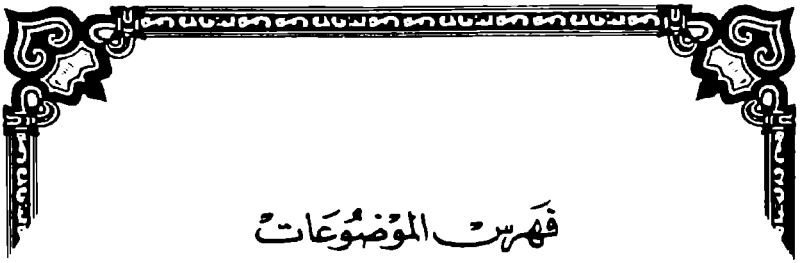

فهرس الموضوعات

الموضوع	الفهرس
سورة الحجر	٣٤٧
سورة النحل	٣٥٤
سورة الإسراء	٣٦١
سورة الكهف	٣٧٥
سورة مريم	٣٨٤
سورة طه	٣٩١
سورة الأنبياء	٣٩٥
سورة الحج	٤٠١
سورة المؤمنون	٤١٠
سورة النور	٤١٦
سورة الفرقان	٤٣١
سورة الشعراء	٤٣٤
سورة النمل	٤٣٨
سورة القصص	٤٤٠
سورة العنكبوت	٤٤٣
سورة الروم	٤٤٥
سورة لقمان	٤٤٩
سورة السجدة	٤٥٢
سورة الأحزاب	٤٥٥

الموضوع	الصفحة
سورة سبأ	٤٧٠
سورة فاطر	٤٧٤
سورة يٰس	٤٧٧
سورة الصافات	٤٨١
سورة صٓ	٤٨٤
سورة الزمر	٤٩٠
سورة غافر	٤٩٥
سورة حم السجدة (فصلت)	٤٩٨
سورة الشورى	٥٠١
سورة الزخرف	٥٠٦
سورة الدخان	٥٠٩
سورة الجاثية	٥١٢
سورة الأحقاف	٥١٣
سورة محمد (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم)	٥١٨
سورة الفتح	٥٢٤
سورة الحجرات	٥٢٨
سورة قٓ	٥٣٦
سورة الذاريات	٥٣٨
سورة الطور	٥٤٠
سورة النجم	٥٤٣
سورة القمر	٥٥١
سورة الرحمٰن	٥٥٣
سورة الواقعة	٥٥٩
سورة الحديد	٥٦٩
سورة المجادلة	٥٧٤
سورة الحشر	٥٧٩
سورة الممتحنة	٥٨٧

الموضوع	الصفحة
سورة الصف	٥٩٢
سورة الجمعة	٥٩٦
سورة المنافقون	٥٩٩
سورة التغابن	٦٠١
سورة الطلاق	٦٠٣
سورة التحريم	٦٠٧
سورة تبارك، الملك	٦١٢
سورة ن والقلم	٦١٣
سورة الحاقة	٦١٦
سورة سأل سائل (المعارج)	٦١٩
سورة الجنّ	٦٢٢
سورة المزّمّل	٦٢٥
سورة المدثر	٦٢٧
سورة القيامة	٦٢٨
سورة الإنسان	٦٣١
سورة والمرسلات	٦٣٣
سورة النبأ	٦٣٤
سورة النازعات	٦٣٥
سورة عبس	٦٣٨
سورة التكوير	٦٤٠
سورة الانفطار	٦٤٢
سورة المطفّفين	٦٤٤
سورة الانشقاق	٦٤٧
سورة البروج	٦٥٠
سورة الأعلى	٦٥٣
سورة الفجر	٦٥٤
سورة البلد	٦٥٧

الموضوع	الصفحة

سورة الشمس وضحاها ٦٥٩
سورة الليل ٦٦١
سورة الضحى ٦٦٤
سور الانشراح (الشرح) ٦٦٦
سورة التين والزيتون ٦٦٩
سورة العلق ٦٧٠
سورة القدر ٦٧٥
سورة البيّنة ٦٧٧
سورة الزلزلة ٦٧٨
سورة التكاثر ٦٨٠
سورة الفيل ٦٨٢
سورة الماعون ٦٨٣
سورة الكوثر ٦٨٥
سورة الكافرون ٦٨٧
سورة النصر ٦٨٨
سورة المسد ٦٩٠
سورة الإخلاص ٦٩٢
سورة الفلق ٦٩٤
المعوذات ٦٩٥
فهرس الموضوعات ٦٩٧

بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

«نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها» حديث شريف صحيح

المجلد الخامس

البيوع، الإجارة، الصلح، الهبة والهدية، الوقف، الوصايا، الشامي، الفرائض والمواريث، أحكام الرقيق، الأطعمة، الصيد والذبائح، الأشربة، المرض والطب

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

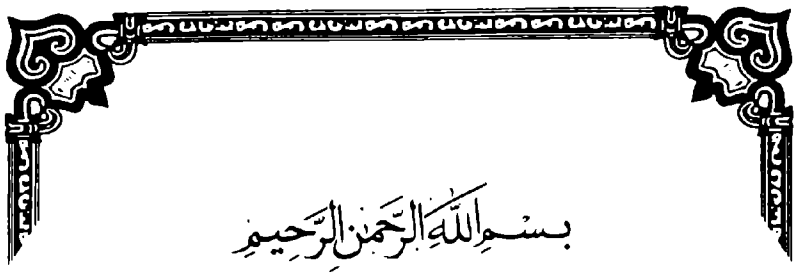

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبيّ الرحمة وهادي الأمّة، وعلى آله وأصحابه ليوث العدا ونجوم البرية. وبعد فهذا هو القسم الثالث من كتاب: «**بداية الوصول، بلب صحيح الأمهات والأصول**»، نقدمه لقرائنا الميامين عسلاً مصفّى ملخصاً من بطون أمّهات كتب السنّة المشرّفة المشهورة المعتمدة، تقريباً للقاصرين وإفادة للمستفيدين المتذكرين.

هذا: وقد كنت أوضحت في أول الكتاب الأصول التي أعتمدها وأستقي منها مشروعي هذا، وذكرت هنالك منهجي في الكتاب، غير أنني أنبّه القارىء على أنني قد أطلت في كثير من الأحيان في التعاليق على الأحاديث خلاف ما ذكرته أولاً، وذلك لعموم الفائدة، فليصبر معنا القارىء على ذلك، فإنه لا يعدم زيادة في علمه، كما أنبّهه ثانياً على أنّ ما أُخَرّجه من الأحاديث التي أُحيل على أرقامها في أصولها، وعلى أجزاء الكتب وصفحاتها، قد تختلف طبعاتها فأحيله على ما سأثبته في جريدة المصادر آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، والله أسأل أن يوفّقنا لصالح الأعمال، ويجنّبنا الخطأ والزلل، وأن يجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقاه، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه وزوجه وحزبه.

المؤلف

كتاب البيوع

البيع لغة: مطلق المبادلة، وهو ضد الشراء، وقد يطلق كل منهما على الآخر، وفي القرآن الكريم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه، والبيعان: البائع والمشتري، وهو في الشرع: مبادلة المال بالمال على سبيل التراضي.

ومن أركانه: الإيجاب والقبول، ومن شروطه أهلية المتعاقدين. وحكمه ثبوت الملك للمشتري في المبيع، وللبائع في الثمن...

ومن حكمته إطفاء نار المنازعات، والنهب، والخيانات، وبقاء نظام المعاش، فإن حاجة الإنسان تتعلق بما في يد صاحبه غالباً، وصاحبه قد لا يبذله له، ففي تشريع البيع وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج، وهو مشروع كتاباً وسنّة وإجماعاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وثبت بالتواتر أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم وأصحابه كانوا يتبايعون. ونقل غير واحد الإجماع على إباحته. ثم هو قد تعتريه الأحكام الخمسة من الوجوب والتحريم وغيرهما.

* * *

الحثُّ على الكسب

{١} ـ عن المقدام رضي الله تعالى عنه عن رسول الله (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم)، قال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطّ خَيراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»، رواه أحمد (١٣١/٤، ١٣٢)، والبخاري في البيوع رقم (٢٠٧٢).

{٢} ـ وعن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: قال النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلاَدَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»، رواه الطيالسي (١٥٨٠)، وأحمد (٣١/٦، ٤٢، ١٣٧، ١٩٣)، والحميدي (٢٤٦)، وأبو داود (٣٥٢/٨)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٢١٢/٧)، وابن ماجه (٣٣٩٠)، والدارمي (٢٥٤٠)، وغيرهم بسند صحيح عند بعضهم على شرط الشيخين.

وقوله: إن أطيب، أي: أحل وأهنأ.

والحديثان يدلّان على أن أحلّ وأطيب ما أكله المرء ما اكتسبه بيده بصناعة أو تجارة أو زراعة أو غيرها. وقد اختلف العلماء في أفضل المكاسب، والمختار أن أشرفها ما يؤخذ من أموال الكفار بالجهاد، وهو مكسب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ لقوله في حديث: «**وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»، رواه أحمد وغيره عن ابن عمر. ثم تأتي الزراعة والتجارة والصناعة... وكل كسب فيه نفع عام متعد وتوكل على الله تعالى هو خير من غيره. هذا ومن أَحَلّها مال الولد بالنسبة لوالده، فله أن يأخذ من مال ولده ما يحتاجه، فإن ذلك يعدّ من كسبه، كما هو نصّ الحديث، وجاء في حديث آخر صحيح: «**أنت ومالك لأبيك**»، ويأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وأنواع المكاسب كثيرة، حتى إن علماء الاقتصاد قالوا: إنها تصل إلى ألف نوع، وفي الحديث دليل على أن الأنبياء عليهم السلام، ومنهم داود، كانوا مكتسبين. وقد جاء في المستدرك للحاكم عن ابن عباس: «**وكان داود**

زرّاداً، وكان آدم حرّاثاً، وكان نوح نجّاراً، وكان إدريس خيّاطاً، وكان موسى راعياً..».

وقد كان نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله سلم في شبيبته يتاجر، وجاء في كتاب الإجارة من صحيح البخاري عن أبي هريرة عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَا بَعَثَ الله نَبِيّاً إلاّ رَعَى الغَنَم»**، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال. **«نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّة»**. قراريط: جمع قيراط، وهو جُزْءٌ من الدينار أو الدرهم. ويأتي في السيرة.

{٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزمَةً عَلَى ظَهرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحداً فَيُعْطِيه أَوْ يَمْنَعَهُ»**.

رواه أحمد (٢/٢٤٣، ٢٥٧، ٣٩٥، ٤٥٥)، والبخاري (٤/٧٨)، ومسلم (٧/١٣١) كلاهما في الزكاة. ورواه البخاري أيضاً في البيوع وفي المساقاة. ورواه الحميدي (١٠٥٧)، والنسائي (٥/٧٠)، والترمذي (٦٨٠)، وابن خزيمة (١٠٤٠)، وابن حبان **(٣٣٨٧)** وغيرهم.

ونحوه عن الزبير رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١/١٦٧)، والبخاري (٤/٧٨)، وابن ماجه قوله: **«لأَنْ يَحْتَطِب»** في رواية: **«لأَنْ يَأْخُذ أَحَدُكُمْ حَبْلَه فَيأْتِي الجَبَلَ فيجيء بحزمة الحَطَبَ عَلَى ظَهرِه»** إلخ، وللحديث ألفاظ.

وفي الحديث الحثُّ على الأكل من عمل اليد والاكتساب بالمباح، ولو كان بالاحتطاب والحمل على الظهر وغير ذلك؛ كالاتّجار في البقولات والفحم مثلاً.. فذلك خير للمرء من التعرّض للسؤال.. وذلك لما يدخل عليه من الذلّ، ولما في السؤال من إحراج المسؤول. والله الموفّق الهادي لأقوم طريق.

* * *

الترغيب في الكسب من الحلال

{٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسلين فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون: ٥١]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، ومَطْعَمُه حَرامٌ، وَمَشْرَبه حرامٌ، وَمَلْبَسُه حرامٌ، وَغُذِّيَ بالحَرَام، فأنَّى يُسْتَجابُ لَهُ».

رواه أحمد (٣٢٨/٢)، ومسلم (١٠٠/٧)، والترمذي (٢٩٨٩)، والدارمي (٢٧٢٠) وغيرهم.

وقوله: أشعث أي: شعث الشعر غير مُسَرَّح ولا مدهون، وقوله: أغبر أي: أصيب ثوبه وجسمه بالغبار لطول سفره وبعده عن الغسل، وقوله: وغذي بضم الغين المعجمة وكسر الذال المخفّفة. وقوله: فأنّى يستجاب ـ بفتح الهمزة ـ: أي: فكيف يستجاب لمثل هذا، وقد أحاط به الحرام.

والحديث عدّ من قواعد الدين ومباني الأحكام، وقد ضمَّنه النووي «أربعينيّته»، وهو يدلّ على وجوب طلب الحلال والتكسّب من الوجوه الشرعية، فإنّ الله تعالى طيّب، أي: قدوس منزّه عن النقائص، فلا يقبل من عباده إلا ما كان طيباً، وهو الحلال العاري عن الحرام الخبيث، كما في الحديث الشريف بيان أن من كان يعيش بالحرام أكلاً وشرباً ولباساً.. لا يستجاب له، وبالتالي لا يقبل منه عمل، وإن أطال السفر في نحو حجّ أو جهاد مثلاً ومدّ يده سائلاً ربّه شعثاً مغبراً... لأنه ضيع الأصل وهو العيش الحلال.. والحديث يحتاج إلى بسط، وليس ذلك من شرطنا.

❊ ❊ ❊

الكسب بالزراعة وفضلها

{٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعاً، أَوْ يَغْرِسُ غَرْساً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةً**».

رواه أحمد (١٩٢/٣)، والبخاري (٤٠٠/٥) في المزارعة، ومسلم (٢١٥/١٠) في فضل الغرس من البيوع، والترمذي (١٣٨٢) في البيوع ونحوه عن أمّ مُبَشِّرٍ رواه أحمد (٤٢٠/٦)، ومسلم (٢١٣/١٠، ٢١٤)، وعن جابر عند أحمد (٣٩١/٣)، ومسلم (٢١٣/١٠) وفيه زيادة: «**فَيَأْكُلُ منه... سَبُعٌ أَوْ دابَّةٌ أو شَيْءٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةً**»، والزرع يشمل جميع الزروع المثمرة، كما أن الغرس يشمل كل الأشجار التي تنتج الفواكه وهي لا تحصى. وفي الحديث فضل الاكتساب بالزراعة والغرس لما في ذلك من النفع العام، ولذلك فضل جمع من العلماء الكسب بالفلاحة. وفيه إشارة إلى أن المسلم يُثاب على ما سرق من ماله، أو أتلفته دابّة، أو أكله حيوان.

* * *

الكسب بالتجارة

{٦} ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه، قال: قيل: يا رسول الله أيُّ الكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قالَ: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**».

رواه أحمد (١٤١/٤)، والبزار (١٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٤٤١١) والأوسط، والحاكم (١٠/٢)، ورجال أحمد رجال الصحيح غير المسعودي وهو ثقة لكنه اختلط، والحديث صحيح، فإن له شاهداً عن أبي بردة بن نيار رواه أحمد (٤٦٦/٣)، والطبراني في الكبير (١٩٧/٢)، والبزار (١٢٥٨) وهو وإن كان فيه شريك وهو سيء الحفظ، فإن له شاهداً ثالثاً عن ابن عمر رواه الطبراني في الأوسط (٣١٦١)، والكبير، ورجاله ثقات كما قال

المنذري والهيثمي (٦١١٤)، البيعُ المبرور: هو الذي لا شبهة فيه، ولا غشّ ولا خيانة.

والحديث يدلّ على أن من أطيب المكاسب التجارة، وتواترت الأخبار في كسب الصحابة بالتجارة، فمنها حديث أبي هريرة: وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق بالأسواق. ومنها حديث أنس في قصة عبد الرحمٰن بن عوف مع سعد بن الربيع... وقوله: دُلُّوني على السوق، فما رجع حتى اسْتَفضل أقطاً وسمْناً. ومنها حديث ابن عباس قال: كانت عُكَاظُ ومَجَنَّة وذو المجازِ أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام فكأنّهم تأثَّموا فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، في مواسم الحجّ. ومنها حديث جابر: بينما نحن مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ أقْبَلَتْ من الشام عِيرٌ تَحْمِلُ طعاماً، فالتَفتوا إليها حتّى ما بقِي مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلاّ اثْنَا عَشَر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١]، إلى غير ذلك من الآثار، وكل ما ذكرنا في الصحيح وستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

الكسب بتربية المواشي

{٧} ـ عن أمّ هانىء رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لها: **«اتَّخِذِي غَنَماً يا أُمَّ هَانىء فإنَّها تَرُوح بِخَيرٍ وَتَغْدُو بِخَيرٍ»**، وفي رواية: **«اتَّخِذِي غَنَماً فَإنَّ فِيهَا بَرَكَة»**.

رواه أحمد (٣٤٣/٦)، وابن ماجه (٢٣٠٤) باللفظ الثاني، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وله شاهد عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنه رواه الخطيب (١١/٧) بسند صحيح وشاهد ثاني عن عروة البارقي وفيه: **«والغَنَمُ بَرَكَةٌ»**، رواه ابن ماجه (٢٣٠٥) بسند صحيح على شرط الشيخين. قاله البوصيري: قوله: تروح.. إلخ. معناه:

تمسي وتصبح بخير، وهو ما تنتجه من اللبن. وقوله: بركة أي: خير ونماء، وذلك لسرعة نتاجها وكثرته فقد تنتج في العام مرتين، وتلد الاثنين والثلاثة، ويؤكل لحمها وينتفع بصوفها لباساً، وفراشاً وغطاء...

وفي الحديث الترغيب في اتخاذها وكسبها، وقد جاء في الصحيح عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما يدلّ على فضل كسب صاحبيها، وسيأتي ذلك في الفضائل إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

التنفير من الحرام والتحفّظ من التكسب به

{٨} ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لكعب بن عُجْرَة: **«يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرة إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّة لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ»**.

رواه أحمد (٣/٣٢١، ٣٩٩)، وابن حبان (١٥٦٩، ١٥٧٠) مع الموارد وسنده صحيح، ورواه الطبراني في الكبير (١٩/١٤٥) وغيره عن كعب بن عجرة نفسه، وسنده صحيح أيضاً، وأصله في حديث طويل سيأتي في الإمارة إن شاء الله تعالى.

السحت ـ بضمّ السين وسكون الحاء ـ: المال الحرام الذي لا يحلّ كسبه ولا استعماله. وقوله: أولى به، أي: أحق بإيوائه عندها للعذاب.

والحديث يدلّ على أن الذي يعيش على الحرام ومات على ذلك كان من أهل النار وهو واضح.

{٩} ـ وعن جابر أيضاً أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لاَ تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ العَبْدُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ أَخْذِ الحَلاَلِ وَتَرْكِ الحَرَامِ»**، وفي رواية: **«فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ»**.

رواه ابن حبان (٣٢/٨، ٣٤)، والحاكم (٤/٢)، والبيهقي (٢٦٤/٥، ٢٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٣، ١٥٧) بسند صحيح بالرواية الأولى، ورواه ابن ماجه (٢١٤٤)، والبيهقي (٢٦٥/٥) وفيه جماعة من المدلسين ولا يضرّ، فإن للحديث شواهد عن الهيثم في المجمع (٧٢/٤).

قوله: لا تستبطئوا أي: لا تحسبوه تأخر عنكم وأبطأ مجيئه، فإنه عمّا قريب يأتيكم. وقوله: فأجملوا في الطلب، مفسّر بما بعده، وهو طلب الحلال وترك الحرام، والحديث يدلّ على وجوب التوقّي من طلب الرزق بالحرام، وإن رأى الإنسان تأخره عنه، فإنه لا بدّ وأن يأتيه رزقه ما دام على قيد الحياة، ولن يموت حتى يستوفي ويستكمل ما قدّر له من الرزق، فالواجب عليه أن يطلبه من وجهه المشروع.

* * *

التوقّي عن الشبهات

{١٠} ـ عن الحسن بن عليّ عليهما السلام، قال: حَفِظْتُ مِن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ، فَإِنَّ الخَيرَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالشَّرُّ رِيبَةٌ**».

رواه أحمد (٢٠٠/١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨)، والنسائي (٥٢٦٩) في الأشربة، والدارمي (٢٥٣٥)، وابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم (١٣/٢ و٩٩/٤) وسنده صحيح، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: يريبك بفتح الياء وضمّها. والرّيب: الشكّ، وقوله: طمأنينة، يعني: يطمئن إليه القلب ويسكن بخلاف الشرّ، فإن القلب لا يطمئنّ إليه بل يضطرب ويرتاب منه، غير أن هذا خاص بقلب المؤمن المنور بأنوار الطاعات والهداية.

ومعنى الحديث الشريف: اترك ما تشكّ فيه هل هو حلال أم حرام،

حسن أم قبيح، واعدل إلى ما تتيقّن حليته وحسنه وإباحته. والحديث أصل في ترك الشبهات عظيم في باب الورع.

{١١} ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**الحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ، ومَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ ملك حِمًى، إِلاَ وَإِنَّ حِمى اللهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**».

رواه أحمد (٢٦٩/٤)، والبخاري في البيوع (١٩٥/٥)، ومسلم في المساقاة (٢٧/١١، ٢٨)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٢١٣/٧) كلاهما في البيوع، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣٤) وغيره.

قوله: استبرأ إلخ، أي: طلب براءة دينه وعرضه من الطعن فيهما، قوله: الحمى: هو ما يحميه الإنسان من أرض... يختصّ بها وبما فيها من نبات ونحوه كما كانت عادة ملوك الجاهلية، ومن الحمى ما يتعارف عليه بعض الجماعات في البوادي فيحمون أرضاً لا يُرْعَى فيها حتى يأتي وقت خاص.

وفي قوله: يوشك. أي: يقرب، وقوله: مضغة ـ بضم الميم وغين معجمة مفتوحة بينهما ضاد ساكنة ـ: هي القطعة من اللحم. هذا حديث عظيم الشأن ينبغي أن يفرد بشرح في كتاب خاص لكثرة فوائده.

ولإتمام الفائدة ننقل ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى فيه، فليصبر القارىء معنا قليلاً.

قال ابن بطال في شرحه للبخاري (١٩٢/٦، ١٩٦): ما نصّ الله تعالى على تحليله فهو الحلال البيّن؛ كقوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**﴾ [المائدة: ٥]، و﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ**﴾ [البقرة: ٢٧٥]، و﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ**﴾ [النساء: ٢٤]. وما نصّ على تحريمه فهو الحرام البيّن، مثل قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**﴾ إلى آخر الآية

[النساء: ٢٣]، و﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]. وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكل ما جعل الله تعالى فيه حدّاً أو عقوبة أو وعيداً فهو الحرام، كأكل أموال اليتامى، وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا باب يتّسع القول فيه، وهو واضح يغني عن تدبّره وطلبه.

وأما المشتبهات، فكل ما تنازعته الأدلّة من الكتاب والسنّة، وتجاذبته المعاني فوجه منه يعْضُدُه دليل الحرام، ووجه منه يَعْضُدُه دليل الحلال، فهذا الذي قال فيه عليه الصّلاة والسلام: «**وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ**»، وقال فيه: «**مَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»، فالإمساك عنه ورع، والإقدام عليه لا يقطع عالم بتحريمه؛ لأن الحرام ما عرف بعينه منصوصاً عليه، أو في معنى المنصوص، وقد اختلف العلماء في معنى الشبهات، فقالت طائفة: الشبهات التي أشار إليها عليه الصّلاة والسلام في هذا الحديث حرام، أو في حيّز الحرام، واستدلوا بقوله عليه السلام: «**فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»، قالوا: ومن لم يستبرىء لدينه وعرضه فقد واقع الحرام. وقال آخرون: الشبهات المذكورة في هذا الحديث حلال، بدليل قوله عليه السلام فيه: «**كالراعي حول الحمى**»، فجعل الشبهات ما حول الحمى، وما حول الحمى غير الحمى، فدلّ أن ذلك حلال، وأن تركه ورع، والورع عند ابن عمر ومن ذهب مذهبه ترك قطعة من الحلال خوف مواقعة الحرام. وقال آخرون: الشبهات لا نقول إنها حلال ولا أنها حرام؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الحلال بيّن والحرام بيّن**»، وجعل الشبهات غير الحلال البيّن والحرام البيّن، فوجب أن نتوقف عندها، وهذا من باب الورع أيضاً، ويقضي عليه قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولا يعلمها كثير من الناس**»، فدلّ أن منهم من يعلمها، فمن علمها فهي عنده في أحد الحيّزين الحلال أو الحرام.

وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (٢٧/١١): أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث وكثرة فوائده، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، قال جماعة: هو ثلث الإسلام، وأن الإسلام يدور عليه، وعلى حديث: «**الأعمال بالنية**»، وحديث: «**من حُسْنِ إسلام المرء**

تركُه ما لا يَعْنيه»، وقال أبو داود السجستاني: يدور على أربعة أحاديث، هذه الثلاثة، وحديث: **«لا يُؤمنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحب لِنَفْسِهِ»**، وقيل: حديث: **«ازْهَدْ في الدنيا يُحِبّك الله، وازهد في ما في أيْدِي الناس يُحِبُّك النَّاس»**. قال العلماء: وسبب عظم موقعه أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نبّه فيه على إصلاح المطعم، والمشرب، والملبس وغيرها، وأنه ينبغي ترك المشتبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه، وحذّر من مواقعة الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى، ثم بيّن أهم الأُمور وهو مراعاة القلب، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألا وإنّ في الجسد مُضغة»** إلى آخره، فبيّن صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد باقيه. وأمّا قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الحلال بيّن والحرام بيّن»**، فمعناه: أن الأشياء ثلاثة أقسام: حلال بيّن واضح لا يخفى حاله: كالخبز، والفواكه، والزيت، والعسل، والسمن، ولبن مأكول اللحم، وبيضه، وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام والنظر والمشي، وغير ذلك من التصرّفات فيها حلال بيّن واضح لا شكّ في حلّه. وأمّا الحرام البيّن؛ فكالخمر، والخنزير، والميتة، والبول، والدم المسفوح، وكذلك الزنا، والكذب، والغيبة، والنميمة، والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك... وأمّا المشتبهات، فمعناه: أنها ليست بواضحة الحلّ ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك، فإذا تردّد الشيء بين الحل والحرمة ولم يكن فيه نصّ ولا إجماع، اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا أُلحق به صار حلالاً، وقد يكون دليله غير خال عن الاحتمال البيّن، فيكون الورع تركه، ويكون داخلاً في قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**، وما لم يظهر للمجتهد فيه شيء، وهو مشتبه فهل يؤخذ بحله أم بحرمته أم يتوقف فيه؟ ثلاثة مذاهب حكاها القاضي عياض وغيره، والظاهر أنها مخرجة على الخلاف المذكور في الأشياء قبل ورود الشرع، وفيه أربعة مذاهب، الراجح أنه لا يحكم بحل ولا حرمة ولا إباحة ولا

غيرها؛ لأن التكليف عند أهل الحق لا يثبت إلاّ بالشرع، والثاني أن حكمها التحريم، والثالث الإباحة، والرابع التوقف، والله أعلم. وقال: في قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه**»، معناه: أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه، ولله تعالى أيضاً حمى، وهي محارمه، أي: المعاصي التي حرّمها الله تعالى؛ كالقتل والزنا والسرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حِمى الله تعالى، من دخله بارتكابه شيئاً من المعاصي استحقّ العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية، فلا يدخل في شيء من الشبهات.

وقال الحافظ في الفتح من كتاب البيوع (٥/١٩٥): فيه تقسيم الأحكام إلى ثلاثة أشياء، وهو صحيح لأن الشيء إما أن ينصّ على طلبه مع الوعيد على تركه، أو ينص على تركه مع الوعيد على فعله، أو لا ينصّ على واحدٍ منهما، فالأوّل الحلال البيّن، والثاني الحرام البيّن، فمعنى قوله: «**الحلال بيّن**» أي: لا يحتاج إلى بيانه، ويشترك في معرفته كل أحد، والثالث مشتبه لخفائه، فلا يدرى هل هو حلال أو حرام وما كان هذا سبيله ينبغي اجتنابه؛ لأنه إن كان في نفس الأمر حراماً فقد برىء من تبعتها، وإنْ كان حلالاً فقد أجرى على تركها بهذا القصد، لأنه الأصل، فالأشياء تختلف فيه حظراً أو إباحة إلخ، ثم نقل عن الخطابي قال: كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه، ثم هو على ثلاثة أقسام: واجب ومستحب ومكروه، فالواجب اجتناب ما يستلزمه ارتكاب الحرام، والمندوب اجتناب معاملة من أكثر ماله حرام، والمكروه اجتناب الرخص المشروعة على سبيل التنطع.

وقال في كتاب الإيمان (١/١٣٥): وحاصل ما فسّر به العلماء أربعة أشياء، أحدها: تعارض الأدلّة كما تقدم، ثانيها: اختلاف العلماء، ثالثها: أن المراد بها مسمى المكروه؛ لأنه يجتذبه جانبا الفعل والترك، رابعها: أن

المراد بها المباح، ثم نقل عن ابن المنير عن شيخه القُباري أنه كان يقول: المكروه عَقَبةٌ بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرّق إلى الحرام، والمباح عقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرّق إلى المكروه.. ثم قال على رواية: اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال إلخ، والمعنى: أن الحلال حيث يخشى أن يؤول فعله مطلقاً إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه، كالإكثار مثلاً من الطيبات، فإنه يُخوِجُ على كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق، أو يفضي إلى بطر النفس، وأقل ما فيه الاشتغال عن موقف العبودية، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان، والذي يظهر لي رجحان الوجه الأول... ولا يبعد أن يكون كل من الأوجة مراداً أو يختلف ذلك باختلاف الناس، فالعالم الفطن لا يخفى عليه تمييز الحكم، فلا يقع له ذلك في الاستكثار من المباح أو المكروه ودونه تقع له الشبهة في جميع ما ذكر بحسب اختلاف الأحوال، ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجملة، أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي غير المحرم على ارتكاب المنهي المحرم... وللقاضي عياض في إكمال المعلم، والعيني في كتاب الإيمان من عمدة القارىء كلام هام، فليراجع.

وقد أفاض ابن رجب رحمه الله تعالى الكلام على هذا الحديث في جامع العلوم والحكم بما لم يسبق إليه، فليراجعه من أراد التوسّع وسيأتي لنا مزيد على ما فيه شبهة في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

{١٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»**.

رواه أحمد (٤٥٢/٢)، والبخاري (٢٠٠/٥)، والنسائي رقم (٤١٤٩) كلاهما في البيوع، وابن حبان (١٢٠/١٥)، والبيهقي (٢٦٤/٥).

قوله: لا يبالي أي: لا يعبأ... والحديث فيه نبأ من أنباء النبوّة ومعجزة من معجزاته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أخبرنا بأهل هذا

الزمان الذين لا يبالون بوجوه كسب أموالهم، ولا يتورّعون عن الحرام، أو ما فيه شبهة، بل كل ما حلّ بأيديهم فهو الحلال عندهم، وقد عمّت البلوى بهذه الفتنة عياذاً بالله، فلا تكاد تجد من يتحرّى عيش الحلال، وخاصة التعامل بالرّبا والاتجار في المحرمات والتعامل بالغشّ والخديعة والرشوة... ولذلك عمّ الله تعالى الجميع بعقابه ومنغصات الحياة.

❊ ❊ ❊

الصدق والنصح في البيع

{١٣} ـ عن حكيم بن حِزَام رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقَا**»، أو قال: «**حَتَّى يَتفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وإِنْ كتما وَكَذَبا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**».

رواه أحمد (٤٠٢/٣)، والبخاري (٢١٥/٥)، ومسلم (١٧٦/١٠)، وأبو داود (٣٤٥٩)، والترمذي (١٢٤٦)، والنسائي (٢١٥/٧، ٢١٧)، والدارمي (٢٥٥٠، ٢٥٥١)، والبيهقي (٢٦٩/٥) كلّهم في البيوع.

قوله: مُحِقت أي: ذهبت بركة ذلك البيع، وهي نماؤه وزيادته، والمحق النقص، وفي الحديث حصول البركة والنماء للبيعان إن صدق كل واحد منهما وتناصحا ولم يكتما العيب ولم يكذبا، وإلا وقع النقص والمحق في بيعهما، والكلام على بيع الخيار سيأتي.

{١٤} ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ مع النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ**».

رواه الترمذي (١٢٠٩)، وبتهذيبي (١٠٩١)، والدارمي (٢٥٤٢)، والحاكم (٦/٢)، والدارقطني (٧/٣)، وحسّنه الترمذي وهو وإن كان في سنده عبد الله بن جابر، وقد قال فيه الحافظ: مقبول، فإن له شاهداً عن

ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، رواه ابن ماجه (٢١٣٩)، والحاكم (٧/٢)، فيتقوّى به.

{١٥} ـ وعن رفاعة بن رافع رضيَ الله تعالى عنه أنه خرج مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فرأى الناس يتبايعون، فقال: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ**»، فاستجابوا لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورَفَعُوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّاراً إِلاَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ**».

رواه الترمذي (١٢١٠)، وبتهذيبي (١٠٩٢)، وابن ماجه (٢١٤٦)، والدارمي (٢٥٤١)، وابن حبان (٤٩١٠)، وبالموارد (١٠٩٥)، والحاكم (٦/٢) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي وله شاهد عن عبدالرحمٰن بن شِبْل ويأتي قريباً.

قوله: فاستجابوا. أي: أجابوا دعاءه، وقوله: وبَرَّ أي في حلفه وصدقَ ولم يكذب، والصدوق هو الكثير الصدق الذي لا يعرف منه كذب، والفجار جمع فاجر، وهو الذي يأتي بالفجور؛ كالزنا والكذب ونحوهما، وسمّاهم فجاراً لكثرة ما يصدر منهم من الكذب في تجارتهم. وفي الحديث فضل التاجر البار الصدوق الأمين، وأنه سيكون في الجنّة مع ما ذكر من المنعم عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء، وليس المراد أنه سيكون معهم في درجاتهم، بل ستحويه الجنّة معهم في جملة من يدخلها منهم من المبشّرين بالجنّة.

* * *

ذمّ الحلف في البيع وحض التجار على الصدقة

{١٦} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الحَلِفِ فِي البَيْعِ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ**».

رواه مسلم في المساقاة (٤٥/١١)، والنسائي (٢١٦/٧)، ورواه البخاري في البيوع (٢١٩/٥)، ومسلم في المساقاة (٤٤/١١) عن أبي بكر بلفظ: «**الحلفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ للرِّبح**».

{١٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيهِم: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَتِهِ لقد أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِي وَهُو كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَائِهِ، فيقولُ الله تعالى: اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ**».

رواه البخاري في البيوع (٤٣١/٥)، ومسلم في الإيمان (١١٥/٢) وغيرهما، وتأتي أحاديث في الموضوع.

{١٨} ـ وعن عبدالرحمٰن بن شبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ**»، قيل: يا رسول الله أَوَلَيْسَ قد أحلَّ اللهُ البَيْعَ؟ قالَ: «**بَلَى، وَلٰكِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ فَيَأْثَمُونَ**».

رواه أحمد (٤٢٨/٣)، والحاكم (٦/٢، ٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وجوّده المنذري.

{١٩} ـ وعن قيس بن أبي غَرْزَة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن نسمّى السَّماسِرَة، فقال: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِنَّ الشَّيْطَانَ وَالإِثْمَ يَحْضُرانِ البَيْعَ فشوبوا بَيْعَكُم بِالصَّدَقَةِ**»، وفي رواية: «**إِنَّ البَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالحَلِف**»، وفي رواية: «**اللَّغْوُ وَالكَذِبُ فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ**».

رواه أحمد (٦/٤، ٢٨٠)، وأبو داود (٣٣٢٦، ٣٣٢٧)، والترمذي (١٢٠٨)، والنسائي (٢١٧/٧)، وابن ماجه (٢١٤٥)، وابن الجارود (٥٥٧)، والحاكم (٢، ٥، ٦)، وكذا الحميدي (٤٣٨)، والطحاوي في المشكل

وغيرهم، وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقوله: يُنفّقُ ـ بضم الياء وكسر الفاء المشدّدة ـ: أي يروج البيع، وقوله: ثم يمحق ـ بفتح الياء ـ: أي: يذهب وينقص، وقوله: منفقة وممحقة ـ بفتح الميمين ثم سكون وفتح ـ: أي: هما مظنّة ذلك، وهما بمعنى ما سبق قبله.

وقوله: لا يكلّمهم الله أي: كلام رحمة ورضا ولا ينظر إليهم بل يعرض عنهم سخطاً عليهم. وقوله: فشوبوه أي: خلطوه بالصدقة، والسماسرة في العرف هم الذين يتوسّطون بين البيّعان. وفي أحاديث الباب تحريم الحلف في البيع كذباً، وأنه من الكبائر التي توجب غضب الله تعالى على صاحبها لما في ذلك من الغشّ والخيانة والتدليس، وما أكثر ذلك في التجّار، ولا سيّما في عصرنا الحاضر الذي أصبح كلّه غشّاً وتدليساً حتى من الملتزمين الأدعياء. وفي الحديث الأخير حض التجار على الصدقة عساها تكفر عنهم ما يشوب تجارتهم من آثام وكذب ولغو وحلف، فإن الحسنات يُذهبن السيئات.

* * *

تحريم الغش والخديعة

{٢٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّ على صُبْرَةِ طَعَام فأدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أصابِعُه بَلَلاً، فقال: **«مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعام»**، قَال: أصابَتْهُ السَّمَاء يا رسول الله، قال: **«أفَلاَ جَعَلْتَه فوقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاس، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»**.

رواه الحميدي (١٠٣٣)، وأحمد (٢/٢٤٢)، ومسلم في الإيمان (١/١٠٩)، والترمذي (١٣١٥)، وأبو داود (٣٤٥٢)، وابن ماجه (٢٢٢٤)، وابن الجارود (٥٦٤)، والحاكم (٢/٨، ٩)، وغيرهم بألفاظ...

البَلَل: أثر الماء، والسماء معناه: ماء السماء، والغش: ضدّ النصح، فالغشاش يزيّن ما يريده مما هو خلاف الواقع، وهو حرام بإجماع المسلمين، فلا يجوز التدليس في البيع مثلاً وإخفاء العيب، فإن ذلك ليس من أخلاق الإسلام، ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فَلَيْس منّا**»، أي: ليس على طريقتنا ولا هدينا ولا سنّتنا وأخلاقنا في النصح وعدم الغش، وليس معناه: خروجه عن دين الإسلام.

{٢١} ـ وعن عبدالله بن عُمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً ذكر للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه يُخْدَعُ في البُيُوع، فقال: «**إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ**»، فكان الرجل إذا باع يقول: لا خلابة.

رواه أحمد (١١٦/٢)، والبخاري (٢٤٠/٥، ٢٤١)، ومسلم (١٧٦/١٠)، ومالك (١٤٢٩)، وأبو داود (٣٤٩٤)، والنسائي (٤١٧٦)، ورواه أحمد (٢١٧/٣)، وأبو داود (٣٤٩٥)، والترمذي (١٢٥٠)، والنسائي (٤١٧٧)، وابن ماجه (٢٣٥٤)، وابن الجارود (٥٦٨) وغيرهم عن أنس بسياق آخر.

الخلابة ـ بكسر الخاء ـ: الخديعة، وفي الحديث بيان أن من كان جاهلاً بالسلعة أو كان ضعيف العقل في تصرّفاته واشترط على صاحبه في البيع عدم الغشّ والخديعة، كان له الخيار بعد ذلك، فله أن يرجع في بيعه أو شرائه إن خُدع، لأنه يعتبر مغبوناً.

* * *

التسامح والتساهل في البيع والإقالة

{٢٢} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**رَحِمَ الله رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ، وَإِذا اشْتَرى، وَإِذَا اقْتَضى**».

رواه البخاري (٢١٠/٥)، وأحمد (٣٤٠/٣)، والترمذي (١٣٢٠)، وابن

ماجه (٢٢٠٣)، وابن حبان (٤٩٠٣) وغيرهم، واللفظ للبخاري وابن ماجه وابن حبان، ولفظ الآخرين: «غَفَرَ الله لِرَجلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ سهلاً إذَا بَاعَ، سَهلاً إذَا اشْتَرَى، سهلاً إذَا اقْتَضَى».

قوله: سمحاً هو معنى سهل في الرواية الثانية، والمراد المساهلة في المعاملة سواء كان الإنسان بائعاً أو مشترياً أو طالباً قضاء حقه أو مؤدّياً حق غيره، فلا ينبغي له أنْ يتّصف بالشدّة والمشاحة، وفي الحديث بلفظيه الترغيب في الاتّصاف بالسهولة في جميع المعاملات، وأن صاحب ذلك مرحوم مغفور له من أهل الجنّة إن شاء الله تعالى، كما في حديث آخر: «أدْخَلَ الله الجَنَّةَ رَجُلاً كَانَ سَهلاً مُشْتَرِياً وَبائِعاً وقاضِياً ومُقْتَضِياً»، رواه النسائي من حديث عثمان، وفي الترمذي: «إنَّ الله يحب سمح البيع» إلخ.

{٢٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً أَقَالَهُ الله عَثْرَتَهُ».

رواه أحمد (٢/٢٥٢)، وأبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩)، وابن حبان (١١٠٤)، والحاكم (٢/٤٥) وسنده صحيح.

الإقالة: هي فسخ البيع أو الإجارة أو أي عقد إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما، فمن أقال مسلماً أقاله الله ذنوبه يوم القيامة، فجازاه من جنس عمله، وفي ذلك فضل لا يستهان به.

* * *

أبواب البيوع المنهي عنها
النهي عن بيع الخمر والنجاسة وما لا نفع فيه

{٢٤} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول عام الفتح وهو بمكّة: «إنَّ الله وَرَسُولَه حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَة وَالخِنْزِير وَالأَصْنَام»، فقيل: يا رسول الله أرأيْتَ شُحُومَ المَيْتَة، فإنّها يُطلى بها السفن ويُدْهَنُ بها الجُلُودُ ويَسْتَصْبِحُ بها

الناسُ، فقال: «**لاَ هُوَ حَرَامٌ**»، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند ذلك: «**قَاتَلَ الله اليَهُود إنَّ الله لَمَا حَرَّمَ عَلَيهِم الشُّحُوم جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا**».

رواه أحمد (٣٢٤/٤، ٣٢٦، ٣٤٠)، والبخاري (٣٢٩/٥، ٣٣٠)، ومسلم (٥/١١، ٦)، وأبو داود (٣٤٨٠)، والترمذي (١٢٩٧)، والنسائي (٢٧٣/٧)، وابن ماجه (٢١٦٧)، وابن الجارود (٥٧٨)، وابن حبان (٤٩٣٧) وغيرهم، كلّهم في البيوع، وفي الباب عن أبي هريرة وعُمَر رضي الله تعالى عنهما أخرجاه، وعن ابن عباس رواه أحمد (٣٢٢/١، ٢٤٧، ٢٩٣)، وأبو داود (٢٤٨٢)، بسند صحيح، وفيه زيادة: «**وأنَّ الله إذا حَرَّمَ عَلَى قَوْمٍ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ عَلَيهِمْ ثَمَنَهُ**»، وستأتي أحاديث في الأشربة تتعلق بالخمر وبيعها...

الخمر: ما خامر العقل وغطّاه، ويأتي الكلام عليه في الأشربة. والميتة ـ بفتح الميم وسكون الياء وتشديدها مع الكسر ـ: هي كل من مات بلا ذكاة شرعية. والخنزير: الحيوان المعروف. والأصنام جمع صنم: هو الوثن، وقيل: الوثن ما له جثّة، والصنم ما كان مصوّراً، واستصباح الناس بالشحوم اتّخاذها في المصباح والسراج للإضاءة بها، وقوله: جملوها ـ بفتح الميم المخفّفة ـ: أي: أذابوها.

وفي الحديث تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، ولا خلاف في ذلك بين العلماء[1]، وإنما اختلفوا في بعض أجزاء الثلاثة الأخيرة؛ كالشعر والعظام والأصنام إذا كسرت، فأجاز البعض بيعها ومنعها آخرون، كما في الحديث تحريم الانتفاع بما هو نجس؛ كالأعيان المذكورة وأُلحِقَ بها غيرها من الأنجاس، واختلفوا في الزيت والسمن... ونحوهما من الأدهان التي أصابتها نجاسة، فأجاز البعض استعمالها في غير الأكل والبدن، وهو الصحيح عند كثير من الصحابة والشافعي والثوري وأبي حنيفة واللّيث،

---

(١) نقل النووي والحافظ والعيني وغيرهم الإجماع على تحريمها.

ونقله القاضي عياض عن مالك، ومنع ذلك أحمد وغيره؛ كذا عُند النووي بتصرّف. وفي الحديث تحريم الحيل والعمل عليها، وفيه دليل على أن كل ما حرّم الله أكله حرّم ثمنه إلا ما استثني؛ كالبغال والحمير مثلاً، وبناءً على هذه القاعدة فلا يجوز بيع ولا شراء السباع والقردة والأفاعي.. ونحوها من المحرمات كالفأرة، والحدأة، والرخمة، والنسر، وحشرات الأرض. فما جرى به عمل الدول العربية وغيرها من اتّخاذ حدائق الحيوانات وشرائها والنفقة على اقتنائها هو مخالف للإسلام وأحكامه ومتابعة للكفار.

وأخذ من تحريم بيع الأصنام تحريم بيع جميع الصور المتّخذة من الخشب، والحديد، والذهب، والفضّة، وهذا مما لا ينبغي الخلاف في تحريمه، وسيأتي مزيد لهذا في اللباس والزينة، وانظر شرح السنة (٢٨/٨)، وفتح الباري (٣٢٩/٥، ٣٣٠)، والعيني في العمدة (٥٥/١٢).

* * *

تحريم ثمن الكلب والهرّ ومهر البغي وحلوان الكاهن والدَّم

{٣٥} ـ عن أبي الزبير قال: سألت جابراً عن ثَمَنِ الكلبِ والسِّنَّور، قال: زَجَرَ النَّبِيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك.

رواه مسلم (٢٣٣/١٠، ٢٣٤) في المساقاة. السنور بكسر السين وفتح النون المشدّدة وسكون الواو: هو الهر والقط.

{٣٦} ـ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نَهَى عَنْ ثَمَنِ الكَلْبِ، وَمَهْرِ البَغِيّ، وَحُلْوَانِ الكَاهِنِ».

رواه البخاري (٣٣١/٥)، ومسلم (٢٣١/١٠) وغيرهما.

البغي ـ بفتح الباء وكسر الغين المعجمة ـ: ومهرها: ما تأخذه في مقابلة زناها وفجورها وحلوان إلخ ـ بضم الحاء وسكون اللام ـ: ما يأخذه العرّاف في مقابلة تكهّنه.

{٢٧} ـ وعن أبي جُحَيْفَة رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ النَّبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نَهَى عنْ ثمنِ الكلْبِ، وثَمَنِ الدَّمِ، وكَسْبِ البَغِيّ، ولَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَه، وَالوَاشِمَةَ، والمُسْتَوْشِمَة، والمُصوِّر».

رواه البخاري في اللباس (١٢/٥١٧، ٥٠٢)، وفي الطلاق.

الواشِمَة: التي تباشر الوشم، والمستوشمة: التي تطلب فعل ذلك بها، وفي الحديث الأول النهي عن ثمن السنور والزجر لا يكون إلاّ عن ممنوع مذموم، وقد اختلف الفقهاء في بيعه، فأباحه البعض ومنعه آخرون. وفي الحديث الثاني والثالث النهي عن ثمن الكلب وظاهرهما الإطلاق سواء كان بيعه وشراؤه للترفيه أم للحاجة كالصيد والحراسة... فذهب جمع إلى التحريم مطلقاً، وذهب البعض إلى التفرقة، فأجازه للصيد والحراسة، وهذا هو الظاهر لصحة ما جاء من الإذن في اتّخاذه لذلك، ولا يمكن التوصّل إليه إلاّ بالبيع والشراء، وفيهما النهي عن كَسْب البغي ومهرها، ولا خلاف في تحريم ذلك وخبثه. وكذلك ما يأخذه الكاهن في مقابلة كهانته، ومثله المنجم وكل من يدّعي الاطّلاع على الغيب من العرّافين؛ لأن كل ذلك باطل وكذب وتخرص وتدخل في غيب الله تعالى وعلمه بلا حجّة شرعية.

أما ثمن الدم، فإن كان بيع الدم نفسه فهو حرام بلا خلاف، وإن كان المراد به ما يأخذه الحجام من الأجرة، فيأتي الكلام عليه وعلى آكل الرّبا... والواشمة... في مواضعها.

❊ ❊ ❊

تحريم ثمن المغنيات

{٢٨} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لاَ تَبِيعُوا القَيْنَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ، وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلاَ خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ، فِي مِثْلِ هذا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَة:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]» الآية.

رواه الحميدي (٩١٠)، والطيالسي (١١٣٤)، وأحمد (٥/٢٥٢. ٢٦٤، ٢٦٨)، والترمذي في البيوع (١٢٨٢)، وفي التفسير (٢٩٨٨) بتهذيبي، وابن ماجه (٣١٦٨)، والطبراني في الكبير (٨/٢١٢) و(٣١/٦٠، ٦١)، والبيهقي (٦/١٤) وهو حديث حسن لطرقه، ومن شواهد معناه: ما أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٣٠٩)، وابن جرير (٢١/٦١)، والحاكم (٢/٤١١)، والبيهقي (١٠/٢٢٣) عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية، فقال. هو الغناء والذي لا إله إلاّ هو، يردّدها ثلاث مرات، وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. ومنها ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٦٥)، وابن جرير (٢١/٦١)، والبيهقي (١٠/٢٢١) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية، قال: نزلت في الغناء وأشباهه وسنده صحيح، ولا يضرّ هنا عطاء بن السائب.

القينات: جمع قينة ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ: هي المغنيّة. والحديث يدلّ على تحريم بيع المغنية وشرائها على فرض وجود الإماء والجواري كما كان قديماً، وفي ضمن ذلك تأجير المغنيات مطلقاً، كما جرت به عادة الناس، وخاصة في عصرنا، فللمغنيات سوق رائجة والغناء رقية الزنا والحامل عليه والمثير للغريزة، ومن يشاهد القنوات العالمية التلفزيونية يرى ويسمع ما يندى له الجبين ويستحيي منه إبليس، والناس فرحون مرحون...

* * *

النهي عن بيع فضل الماء وضراب الفحل

{٢٩} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما، قال: «نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْعِ فَضْلِ المَاءِ».

رواه أحمد (٣/٣٣٨)، ومسلم في المساقاة (١٠/٢٢٨) وغيرهما.

{٣٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ تَمْنَعُوا فَضْلَ الماءِ لِتَمْنَعُوا بِهِ الكَلأَ**».

رواه البخاري (٥/٤٢٨، ٤٣٠)، ومسلم (١٠/٢٣٠).

{٣١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْعِ ضِرَابِ الفَحْلِ، وعَنْ بَيْعِ المَاءِ وَالأَرْضِ لِتُحْرَث»، فعن ذلك نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه مسلم (١٥/٢٢٩، ٢٣٠)، والنسائي رقم (٤٣٥٥) في البيوع.

{٣٢} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «نَهَى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن عَسْبِ الفَحْل».

رواه البخاري (٢٢٨٤)، وأبو داود (٣٤٢١)، والترمذي (١٢٧٣)، والنسائي (٤٣٥٦) وغيرهم.

الكلأ ـ بفتحتين ـ: هو النبات الذي ترعاه المواشي، وضراب الفحل ـ بكسر الضاد ـ: هو عسب الفحل، ومؤاجرة إنزاله على الأنثى من جنسه، والفحل كل ذكر من المواشي. وفي هذه الأحاديث النهي عن أمور ثلاثة: بيع الماء، وبيع الأرض للحرث، وأخذ الأجرة على جماع الفحل. أما الأول، فهو محمول على ما في رواية أبي هريرة، وهو كما قال النووي وغيره أن تكون لإنسان بئر له في فلاة وفيها ماء فاضل، ويكون هناك كلأ ليس عنده ماء إلا هذه، فلا يمكن أصحاب المواشي رعيه إلاّ إذا حصل لهم السقي من هذه البئر، فيحرم عليه منع فضل هذا الماء وكذا بيعه، ويجب عليه بذله بلا عوض لأرباب تلك المواشي؛ لأنه إذا منع بذله امتنع الناس من رعي ذلك الكلأ خوفاً على مواشيهم من العطش. أما منع الماء الفاضل في غير هذه الحالة، ففيه خلاف وتفصيل، والصحيح أنه لا يجوز منعه ولا بيعه إذا لم يكن محتاجاً إليه، وكان طالبه مضطراً إليه. والموضوع يحتاج إلى بسط. أمّا ما يتعلق بالأرض، فيأتي في موضعه. أما أخذ العوض عن الضراب، فالظاهر أنه محرم خبيث كما ذهب إليه جماعة منهم أبو حنيفة والشافعي وآخرون رحمهم الله تعالى. نعم رخص في ذلك مالك رحمه الله في آخرين، وقالوا: إن الحاجة تدعو إلى ذلك، وهي منفعة مقصودة،

وحملوا النهي على التنزيه والحثّ على مكارم الأخلاق والله تعالى أعلم.

* * *

بيوع الغرر وبيان جملة من ذلك

بيع الغرر: هو كل بيع يغُرّك ظاهره، فتُؤثِرُه وتشتريه، ويكون باطنه مجهولاً تكرهه، ويظهر ذلك ويتّضح بالأحاديث الآتية.

* * *

بيع حبل الحبلة

{٣٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: «كانَ أَهْلُ الجاهليَّةِ يَتَبَايَعُونَ لَحْم الجَزُورِ إلى حَبَلِ الحبلة. وحَبَل الحبلة أن تُنْتَجَ النَّاقَة ثُمَّ تَحْمِلَ التي نُتِجَتْ، فنهاهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك».

رواه أحمد (٢/٥، ١٥، ٦٣، ٧٦، ٨٠)، والبخاري (٢٦١/٥)، ومسلم (١٥٧/١٠)، والأربعة. حبل الحبلة بفتح الحاء والباء، والجزور ـ بفتح الجيم ـ: البعير ذكراً كان أم أنثى، وتنتج ـ بضم التاء الأولى وفتح الثانية ـ: أي: تلد الناقة ولداً وهذا الفعل وقع نادراً حيث أسند إلى المفعول. والحديث يدلّ على تحريم بيع مثل ما في الحديث، لأنه بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه، وهو من بيع الغرر.

* * *

بيع الحصاة

{٣٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْعِ الحصاةِ وَعَنْ بَيْعِ الغَرَرِ».

رواه مسلم (١٠/١٥٦، ١٥٧)، والأربعة والدارمي (٢٥٥٧)، وابن الجارود (٢١٩٤).

بيع الحصاة، قال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في جامعه: أن يقول البائع للمشتري إذا نبذت إليك الحصاة، فقد وجب البيع فيما بيني وبينك، وهذا شبيه ببيع المنابذة، وكان هذا من بيوع الجاهلية. ولبيع الحصاة تفاسير أخرى ذكرها النووي في شرح مسلم وغيره في غيره.

وبيع الغرر يدخل فيه مسائل كثيرة، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ومن بيوع الغرر بيع السمك في الماء، وبيع العبد الآبق، وبيع الطير في السماء، ونحو ذلك من البيوع. وقال النووي رحمه الله تعالى: وأما النهي عن الغرر فهو أصل عظيم من أصول كتاب البيوع، ويدخل فيه مسائل كثيرة كبيع الآبق والمعدوم، والمجهول، وما لا يقدر على تسليمه، وما لم يتمّ ملك البائع عليه، وبيع السمك في الماء الكثير، واللبن في الضرع، وبيع الحمل في البطن، وبيع بعض الصبرة مبهماً، وبيع ثوب من أثوابه، وشاة من شياه، ونظائر ذلك وكل هذا بيعه باطل لأنه غرر من غير حاجة، وقد يحتمل بعض الغرر بيعاً إذا دعت إليه حاجة، كالجهل بأساس الدار، وبيع الشاة الحامل، والتي في ضرعها لبن، فإن الحاجة تدعو إلى ذلك ولا يمكن رؤية ما ذكر، وكذلك أجمع العلماء على جواز إجارة الدار والدابّة والثوب إلى شهر مثلاً، وقد يكون الشهر ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين، كما أجمعوا على جواز دخول الحمام بالأجرة مع اختلاف الناس في استعمالهم الماء وقدر مكثهم، وكل ذلك من الغرر الجائز، إلخ.

❊ ❊ ❊

بيع المنابذة والملامسة

{٣٥} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: «نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المُلاَمَسَةِ والمُنَابَذَةِ فِي البَيْعِ». والملامسة: لَمْس الرجل ثوبَ الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا

يَقْلِبُه، والمنابذة: أن يَنْبُذَ الرجل إلى الرجل بثوبه، وينبذ الآخر بثوبه، ويكون ذلك بَيْعَهما من غير نظرٍ ولا تراضٍ.

رواه البخاري (٢٦٣/٥)، وفي مواضع ومسلم رقم (١٥١٢) وغيرهما ونحوه عندهما عن أبي هريرة وعن ابن عمر عند النسائي وغيره.

وهذان النوعان أيضاً من بيوعات الغرر، والبيع بهما باطل فاسد لا ينعقد.

{٣٦} ـ وعن أبي سعيد أيضاً رضي الله تعالى عنه قال: «**نهى النَّبِيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن شِرَاءِ ما في بُطُونِ الأَنْعَامِ حتى تَضَعَ، وعن بيع ما في ضُرُوعِهَا إلا بِكَيْلٍ، وعن شِراء العبد وهو آبِقٌ، وعن شراء المَغَانِمِ حتى تُقْسَم، وعن شراء الصَّدَقَاتِ حتى تُقْبَضَ، وعن ضربة الغائِصِ...**».

رواه أحمد (٤٢/٣)، وابن ماجه (٢١٩٦)، وأبو يعلى (١٠٩٣)، والبيهقي (٣٣٨/٥) وغيرهم، وروى الترمذي منه شراء الغنائم حتى تقسم (١٥٦٣).

والحديث وإن كان ضعيفاً بهذا السياق، فإن معناه صحيح ولأبعاضه شواهد يحسن أو يصحح بها. وقوله: ضربة الغائص هو أن يقول الغائص في البحر للتاجر: أغوص غوصة فما أخرجته من الجواهر هو لك بكذا... وهذه ستة بيوعات كلّها من بيوعات الغرر لا خلاف في تحريمها وبطلان البيع بها؛ لأن فيها شراء ما لم يوجد بعد، وما لا يقدر على تسليمه، وما ليس في ملك البائع، وكلّها بيوعات فاسدة بالإجماع.

* * *

النهي عن بيع الشيء قبل ملكه أو قبضه

{٣٧} ـ عن حَكِيم بن حزام رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ رسولَ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلتُ: يأتِيني الرجل يسألني من البيع ما

لَيْسَ عِنْدي، أَبْتَاعُ له مِنَ السُّوق ثم أبيعه، قال: «لاَ تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ».

رواه أحمد (٤٠٢/٣، ٤٣٤)، وأبو داود (٣٥٠٣)، والترمذي (١٢٣٣)، والنسائي (٢٥٤/٧)، وابن ماجه (٢١٨٧)، وابن حبان (٤٩٨٣)، وابن الجارود (٦٠٢)، والبيهقي (٢٦٧/٥) وغيرهم، وسنده صحيح رجاله رجال الصحيح.

{٣٨} ـ وعن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لاَ يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ، ولاَ شَرْطانِ فِي بَيْعٍ، وَلاَ رِبْحُ مَا لَمْ يَضْمَنْ، وَلاَ بَيْعُ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ».

رواه أبو داود (٣٥٠٤)، والترمذي (١١١٤) بتهذيبي، والنسائي (٢٥٤/٧)، وابن ماجه (٢١٨٨)، والدارمي (٢٥٦٣)، وابن الجارود (٦٠١)، وابن خزيمة والحاكم (١٧/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وسنده صحيح كما قالوا.

{٣٩} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «مَنْ ابْتَاعَ طَعاماً فَلاَ يَبِعْهُ حتَّى يَسْتَوْفِيهِ»، وفي رواية: «فلاَ يَبِعْه حتَّى يَقْبِضَه».

رواه البخاري (٢٥٣/٥)، ومسلم (١٧٠/١٠) وغيرهما، ونحوه عن جابر في مسلم (١٥٢٩)، وفي الباب عن ابن عباس في الصحيحين، وعن زيد بن ثابت عند أبي داود (٣٤٩٩) بلفظ: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَهَى أَنْ تُبَاعَ السِّلَعُ حتَّى يَحُوزَها التُّجَّار إلى رِحَالِهِمْ.

قوله: ابتاع له، أي: اشتري له، وقوله: ما لم يضمن، أي: ربح ما ليس في مِلكه وقبضته. وفي هذه الأحاديث تحريم بيع ما لا يملكه الإنسان، ولا هو في قبضته يقدر على تسليمه مما يكون عنده مضموناً، وقد عمّت البلوى بتعامل الناس بهذا النوع من البيوع، فيبيعون ما ليس عندهم ولا يملكونه، وهو بيع فاسد محرّم. وباقي أبحاث حديث ابن عمرو تأتي.

* * *

تحريم تلقي الركبان، وبيع الحاضر لباد وغير ذلك من البيوعات الفاسدة

{٤٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ تَلَقَّوْا السِّلَعَ حتى يُهْبَطَ بها إلى السُّوق**»، وفي رواية: «نَهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن تَلَقِّي البُيُوع».

رواه البخاري (٢٧٩/٥)، ومسلم (١٦٢/١٠) وغيرهما.

{٤١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «نَهَى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يُتَلَقَّى الجَلَبُ، فمن تلقَّى فَاشْتَرَاهُ منه فإذا أَتَى سَيِّدُه السُّوق فَهُو بالخِيارِ».

رواه البخاري (٢٧٨/٥)، ومسلم (١٦٤/١٠) وأهل السنن.

{٤٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ تَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ وَلاَ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ**»، فقال له طاوس: ما قوله لا يبيع حاضر لباد؟ قال: لا يكون له سمساراً.

رواه البخاري (٢٧٥/٥)، وفي مواضع، ومسلم (١٦٤/١٠) والأربعة وغيرهم.

{٤٣} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَدَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ الله بَعْضَهُمْ بَعْضاً**».

رواه مسلم (١٦٥/١٠)، وأبو داود (٣٤٤٢)، والترمذي (١١٠٥) بتهذيبي، والنسائي (٤١٨٧)، وابن ماجه (٢١٧٦).

{٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ يَبِيعَنَّ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ يُسَاوِمُ الرَّجُلُ على سَوْمِ أَخِيهِ**» الحديث.

رواه البخاري (٢٧٧/٥) وفي مواضع، ومسلم (١٥١٥) وباقي الجماعة.

{٤٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن النَّجَشِ.

رواه البخاري (٢٥٩/٥، ٢٦٠) ومسلم.

{٤٦} ـ وعنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ**».

رواه البخاري (٢٥٦/٥)، ومسلم (١٤١٢) وأهل السنن.

في هذه الأحاديث أحكام نجملها في الآتي، أولاً: تلقي الركبان خارج الأسواق بقصد تغريرهم ومخادعتهم، فيشتري منهم المتلقي بسعر أقل من السوق، وذلك حرام وخداع، فمن تُلُقِّيَ فوجد السوق على خلاف ما باعه فهو مخيّر بين إمضاء البيع وبين فسخه والرجوع فيه. ثانياً: بيع حاضر لباد، كأن يأتي البدوي ببضاعة مثلاً للسوق الحضري فلا يبيعها فيدعها عند صاحب له حضري يبيعها له، ويكون له سمساراً فهذا لا يجوز، ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دعوا الناس يرزق الله بعضهم بعضاً**»، فإن الحضري ربما تحين لتلك البضاعة ارتفاع سعرها وفي ذلك نوع من الاحتكار. ثالثاً: بيع النجش ـ بفتح النون والجيم ـ: وهو الزيادة في السلعة لا بقصد الشراء، بل بنيّة رفع ثمنها وتغرير مشتريها، وذلك محرّم وغش وخداع. رابعاً: البيع على بيع الأخ المسلم، وهو المساومة، وذلك بعد اتّفاق الطرفين، فإن السوم بعد ذلك لا يجوز إلاّ أن يأذن المشتري أو يترك الشراء. نعم إذا كان البيّعان لم يتّفقا ولم يتراكنا فلا بأس بالمساومة والمزايدة، بدليل حديث من أعتق غلامه عن دبر، فاحتاج إليه فأخذه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعرضه للبيع، فقال: «**من يشتريه مني..**» الحديث، رواه البخاري ويأتي، فإن ظاهره يدلّ على المزايدة في شرائه.

* * *

بيع المُصرّاة

{٤٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنِ اشْتَرَى غَنَماً مُصَرَّاةً فَاحْتَلَبَها، فإنْ رَضِيها أمْسَكَها، وَإنْ سَخِطَهَا فَفِي حَلْبَتِهَا صاعٌ مِنْ تَمْرٍ**»، وفي رواية: «**وَلاَ تُصَرُّوا الغَنَمَ، وَمَن ابْتَاعَهَا فَهُوَ بِخَيرِ النَّظَرَيْنِ بَعْد أَنْ يَحْتَلِبَهَا، إنْ رَضِيها أَمْسَكَهَا، وَإنْ سخِطَهَا رَدَّهَا وَصَاعاً مِنْ تَمْرٍ**».

رواه البخاري (٢٧٢/٥، ٢٧٣)، ومسلم (١٦٥/١٠) وغيرهما.

تُصَرُّوا وردت بفتح التاء وضم الصاد وبالعكس، والثاني هو المشهور، ومعناه: لا تجمعوا اللبن في ضرعها عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها، فيغترّ المشتري ويظنّ أنها حلوب فيشتريها، فالشاة المصراة، ويقال لها المُحَفَّلة: هي التي يربط ضرعها ويترك حلبها اليومين والثلاثة حتى يجتمع لبنها ثم يبيعها صاحبها، وهو من الغشّ والخديعة، فمن اشترى ناقة أو بقرة أو شاة على هذه الصفة، فقد خيّره النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين إمضاء البيع وبين ردّها مع صاع من تمر مقابل ما شرب من اللّبن.

* * *

النهي عن بَيع العِينَة وعن بَيعَتين في بَيعَةٍ

{٤٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَة وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الجهادَ، سَلَّطَ الله عليكُمْ ذُلاً، لاَ يَنْزِعُه حتى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ**».

رواه أحمد (٤٢/٢)، وأبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي (٣١٦/٥) وغيرهم، وله طرق هو بها صحيح.

العِينة ـ بكسر العين وفتح النون ـ: فسّرها العلماء بأن يبيع الرجل

بضاعة لرجل آخر إلى أجل ثم يشتريها منه بثمن حال نقداً بالمجلس بأقل من الثمن الذي باعها به، ويبقى الكثير في ذمّته، وهو بيع محرّم من باب الحيل وأكل أموال الناس بالباطل. والحديث يدلّ على أن اتّصاف المسلمين بما ذكر فيه يوجب لهم الذلّ والخزي لا يصرف ذلك عنهم حتى يراجعوا دينهم، فيتركوا التعامل بالرّبا والخديعة، ويجاهدوا في سبيل الله أعداء الله نصراً لدين الله عزّ وجلّ، ويتركوا الرغبة في الدنيا والإخلاد إليها والانشغال بها عن القيام بشؤون الدين، ومنها الجهاد.

{٤٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أو الرِّبا»**.

رواه أبو داود (٣٤٦١)، وابن حبان (٤٩٧٤)، والحاكم (٤٥/٢)، والبيهقي (٣٤٣/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه غير واحد.

وفي رواية: **«نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ»**.

رواه أحمد (٤٣٢/٢، ٤٧٥، ٥٠٣)، والترمذي (١١١٢) بتهذيبي، والنسائي (٢٦٠/٧)، وابن الجارود (٢٨٦)، وابن حبان (٤٩٧٣)، والبيهقي (٥٤٣/٥)، وحسّنه الترمذي وصححه.

وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٣٩٣/١)، وابن حبان (١١١٢) بالموارد موقوفاً بلفظ: **«لاَ يَحِلُّ صَفْقَتَانِ فِي صَفْقَةٍ»**، وأنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه»** وسنده صحيح، وفي رواية: **«صفقتان في صفقة ربا»**، وهو عند عبدالرزّاق (١٣٨/٨، ١٣٩)، وابن أبي شيبة (١٩٩/٦) وسنده صحيح، ورواه أحمد (٣٩٨/١) مرفوعاً بلفظ: **«نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن صَفْقَتين في صَفْقةٍ واحدةٍ»**. وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رواه أحمد (٧١/٢)، والبزار (١٠٠/٢) كشف الأستار. وعن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (١٧٤/٢، ١٧٥).

قوله: أوكسهما أي: أنقصهما، والوكس هو النقص، وقوله: صفقة أي: بيعة.

واختلف العلماء في هذه الصورة: «بيعتين في بيعة»، فذهب جماعة إلى أن معناه: أن يشتري الإنسان السلعة إلى أجل بدينارين، ونقد عاجل بدينار، فمن باع أو اشترى على هذه الصفة فهو بين أمرين، إما أن يأخذ بالأقل والأوكس، فيكون البيع صحيحاً سالماً من الرّبا، وإما أن يأخذ بالأكثر إلى أجل فيأخذ الربا، وبهذا فسّره سماك بن حرب كما في المسند، وغيره: أن يقول الرجل إن كان بنقد فبكذا وكذا، وإن كان إلى أجل فبكذا وكذا. قال ابن سيرين أن تقول: أبيعك بعشرة دنانير نقداً أو بخمسة عشر إلى أجل. وكذا قال طاوس وسفيان الثوري ذكر كل ذلك عبدالرزاق في المصنّف (١٣٧/٨، ١٣٨) بأسانيد صحيحة، وهو مقتضى ما قاله النسائي في سننه حيث قال تحت عنوان باب بيعتين في بيعة: وهو أن يقول: أبيعك هذه السلعة بمائة درهم نقداً، وبمائتين درهم نسيئة، ومثله قول ابن حبان في صحيحه (٢٢٥/٧) حيث قال: ذكر الزجر عن بيع الشيء بمائة دينار نسيئة، وبتسعين ديناراً نقداً ثم ذكر الحديث، وبهذا التفسير قال ابن قتيبة في غريب الحديث، وابن الأثير في النهاية، وبناء على هذا التفسير فلا يجوز البيع بالتقسيط السائد اليوم. فهناك دور وشقق وسيارات وبضائع وأجهزة تباع على هذا النحو، فإن كان الثمن نقداً مقدّماً كان بمبلغ، وإن كان إلى أجل كان بثمن أعلى، وهو الربا والزيادة.

وذهب جماعة آخرون إلى أن هذا النوع من البيع لا بأس به، ونسب إلى الشافعي وغيره، وفسروا البيعتين في بيعة بأن يقول أحد البيّعين: أبيعك داري هذه بكذا على أن تبيعني غلامك بكذا... والله تعالى أعلم، وأنا شخصياً أختار في نفسي التفسير الأول لأنه أحوط وأبعد من الريبة، لا سيما والحديث ينصّ على أن للبائع أوكس البيعين أو الربا، علماً بأن للشوكاني رسالة في جواز بيع التقسيط تبعاً منه لجماعة من أهل العلم.

* * *

إثبات خيار المجلس واختلاف المتبايعين

{٥٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«البَيِّعَانِ بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقَا، أَوْ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اخْتَرْ»**، وفي رواية: **«إلاَّ بَيْعَ الخِيَارِ»**.

رواه أحمد (٢/٧٣)، والبخاري (٥/٢٣١، ٢٣٣)، ومسلم (١٠/١٧٣)، والأربعة بألفاظ.

{٥١} ـ وعن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«البَيِّعَانِ بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا إلاَّ أَنْ تَكُونَ صَفْقَةُ خِيَارٍ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُفَارِقَ صَاحِبَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَقِيلَهُ»**.

رواه أحمد (٢/١٨٣)، وأبو داود (٣٤٥٦)، والترمذي (١٣٤٧)، والنسائي (٧/٢٢١)، والبيهقي (٥/٢٧١)، وحسنه الترمذي وهو صحيح لغيره وتقدّم لنا حديث حكيم بن حزام قبل، وفي الباب عن جماعة. والحديثان يدلاّن على مشروعيّة خيار المجلس، وأن كلاً من البائع والمشتري له الخيار ما داما لم يفترقا، فإذا افترقا لم يبق لهما خيار إلاّ إذا افترقا على بيع الخيار إلى أجل ما، وهو معنى قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إلاّ بيع الخيار»**، وقوله: **«صفقة خيار»**. وفي الحديث الثاني النهي عن مفارقة أحد المتبايعين صاحبه في مجلس البيع خوفاً من أن يستقيله البيع؛ لأن ذلك مبني على التراضي والقبول من الجانبين. وبهذا البيع قال الجمهور، وخالف ذلك أبو حنيفة ومالك رحمهما الله تعالى، فلم يريا خيار المجلس.

{٥٢} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إِذَا اخْتَلَفَ البَيِّعَانَ فَالقَوْلُ قول البائع، وَالمُبْتَاعُ بالخِيار»**.

رواه الترمذي (١١٤٨) بتهذيبي وغيره، ورواه أبو داود (٣٥١١، ٣٥١٣)، وابن ماجه (٢١٨٦)، والدارمي (٢٥٥٢)، وابن الجارود وغيرهم من

طرق هو بها صحيح وسياقه: «**إِذَا اخْتَلَفَ البَيِّعَانِ وَلَيْسَ بَيْنَهُما بَيِّنَةٌ، فَهُوَ مَا يَقُولُ رَبُّ السِّلْعَةِ أَوْ يَتَتَارَكَانِ**». والحديث بلفظيه يدلّ على أن البائع والمشتري إذا حصل بينهما نزاع في قدر الثمن أو شرط من شروط البيع، ولم تكن هناك بيّنة، فالقول قول البائع مع يمينه لرواية عند أحمد والنسائي (٤٣٣٤)، ثم يختار المبتاع، إن شاء ترك، وإن شاء أمضى. والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

الشروط في البيع وما يستثنى فيها

{٥٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ**».

رواه أبو داود (٣٥٩٤)، وابن الجارود (٦٣٧، ٦٣٨)، وابن حبان (١١٩٩) بالموارد، والحاكم (٤٩/٢)، والبيهقي (٧٩/٦)، وسنده حسن لوجود كثير بن زيد الأسلمي، والحديث صحيح لشواهد له عن عائشة عند الحاكم، وعن عمرو بن عوف عند الترمذي ويأتي في الصلح مطوّلاً إن شاء الله تعالى.

والحديث يدلّ على أن المسلمين واقفون عند الشروط ثابتون عليها، فيجب عليهم الوفاء بها والوقوف عندها، إلا ما كان خارجاً عن الشريعة كما يأتي.

❊ ❊ ❊

بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى موضع ما

{٥٤} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه كان يَسيرُ على جملٍ له قد أعْيَا، فمرَّ به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فضَرَبَهُ فدَعَا له، فسارَ سَيْراً ليس يسير مثله، ثم قال: «**بِعْنِيهِ بِأُوقِيَةٍ**»، فبِعْته فاسْتَثْنيت. وفي رواية: فاشترطْتُ حُمْلاَنه إلى أهلي. وفي رواية أخرى: فَبِعْتُه إيَّاه على أن لي فَقَار

ظَهْرِه حتى أَبْلُغَ المدينة، فلما قَدِمْنا أَتَيْتُه بالجَمل ونقدَني ثَمَنه، ثم انصَرَفت، فأرسل على أثري، قال: **«ما كنتُ لآخُذ جَمَلكَ، فخُذْ جَمَلَكَ ذلك فهو مالك»**، وفي رواية فقال: **«أترَاني مَاكَسْتك لآخذ جمَلَك، خذ جملك ودراهمك فهو لك»**.

رواه البخاري في البيوع (٥/٢٢٤) وفي مواضع، ومسلم (١١/٣٠، ٣١، ٣٦)، وأهل السنن وغيرهم وللحديث ألفاظ وروايات، وما ذكرنا هو خلاصتها، ولعله يأتي إن شاء الله في الفضائل، وفي الحديث مشروعيّة اشتراط البائع على المشتري منفعة المَبِيع مدة؛ كاشتراطه ركوب السيارة مثلاً، واشتراطه سكنى الدار مدة وما أشبه ذلك، كما حصل من جابر حيث اشترط على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ركوب جمله الذي باعه إيّاه إلى المدينة.

* * *

اشتراط الولاء في البيع والعتق

{٥٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن بريرة أَتَتْهَا وهي مُكاتَبةٌ، قد كَاتَبَها أهلُها على تِسع أَواقٍ، فقالت لها: إن شاء أهلكِ عَدَدْتُ لهم عَدَّةً واحدةً وكان الولاَء لي، قال: فأتت أهلَها، فذكرتْ ذلك لهم فأبَوْا إلا أن تَشْتَرِطَ الوَلاَء لهم، فذكَرَتْ عائِشَةُ ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا، وَاشْتَرِطِي لهم الوَلاَء، فَإِنَّ الوَلاَءَ لِمَنْ أَعْتَقَ»**، قالت: فقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«مَا بَالُ رجال يَشْتَرِطُونَ شُروطاً لَيست في كِتَابِ الله، كُل شرط ليس في كتاب الله فَهُو باطِلٌ، وإنْ كان مائةَ شَرْطٍ، كتابُ الله أحقُّ، وشرطُ الله أَوْثق، وَالوَلاءُ لمن أعتق»**.

رواه البخاري في البيوع (٥/٢٤٢، ٢٥٢، ٢٥٥) وفي مواضع، ومسلم في العتق (١٠/١٣٩، ١٤٨) وباقي الجماعة بألفاظ. الولاء: بفتح الواو له

معان، وهو هنا كلحمة النسب والقرابة بحيث إن من أعتق عبداً كان إرثه له، وقوله: واشترطي لهم الولاء، اختلف العلماء في هذا الشرط حتى إن بعضهم أنكر هذه الرواية مع وجودها في الصحيحين من وجه صحيح، ووجه بعضهم ذلك بأنّ قوله: «لهم» بمعنى عليهم، والكلام في ذلك طويل فليراجع في الفتح للحافظ من كتاب العتق (١١٧/٦)، وشرح النووي لمسلم (١٤٠/١٠، ١٤١) وغيرهما، وستأتي أحكام أُخر تتعلق بالشروط في غضون الكتاب وتقدم حديث: «. . . **ولا شرطان في بيع**»، انظر رقم (٣٨).

* * *

الاحتكار والتسعير

{٥٦} ـ عن معمر بن عبدالله العدوي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ يَحْتَكِرُ إلاَّ خاطِىءٌ**».

رواه أحمد (٤٠٠/٦)، ومسلم (٤٣/١١)، وأبو داود (٢٤٤٧)، والترمذي (١٢٦٧) وغيرهم.

الاحتكار: هو إمساك الطعام عن البيع وانتظار الغلاء مع حاجة الناس إليه، قال النووي رحمه الله تعالى: الاحتكار المحرم هو في الأقوات خاصة. وقوله: خاطىء من خطىء إذا أذنب وعصى، وهو ظاهر صريح في تحريم الاحتكار. والحكمة في تحريمه دفع الضرر عن عامّة الناس.

{٥٧} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: غَلاَ السِّعر على عَهْدِ رسولِ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسولَ الله لو سَعَّرْتَ لنا، فقال: «**إنَّ الله هو الخالِقُ القابِضُ الباسِطُ الرَّازِقُ المُسَعِّر وإنِّي لأَرْجُو أن أَلْقَى الله عزّ وجلّ ولا يَطْلُبُني أحدٌ بِمَظْلمةٍ ظَلَمْتُها إيَّاه في دَمٍ ولا مالٍ**».

رواه أحمد (١٥٦/٣)، وأبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١١٩٢) بتهذيبي وحسّنه وصححه، وابن ماجه (٢٢٠٠)، والدارمي (٢٥٤٨)، وأبو يعلى (٣٣٢/٣) وغيرهم وإسناده صحيح، وله شاهد عن أبي هريرة رواه أبو

داود (٣٤٥٠) وغيره، وآخر عن أبي سعيد الخدري عند ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح.

التسعير: هو تعيين وتحديد أثمان البضائع والسلع من طرف السلطات بحيث لا تباع السلعة إلا بذلك السعر، وقوله: مظلمة بكسر اللام وفتحها هي ما تطلب من عند الظالم، وفي الحديث النهي عن التسعير، وهو ظلم، لأنه تصرف في أموال الناس بغير إذنهم. نعم إذا كان في التجار من يعتدي ويبالغ في رفع ثمن السلعة ويخالف السوق، فلذي السلطة الأخذ على يده، وفي الحديث بيان أن ارتفاع الأسعار وانخفاضها وإغداق الأرزاق على العباد... الكل بيد الله عزّ وجلّ، فلا دخل لأي مخلوق في التصرف في ذلك، ولا إيجاده أو إعدامه، فَإِلَيْهِ الأمر كلّه يفعل ما يشاء.

❋ ❋ ❋

الأسواق وما جاء فيها

{٥٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَى الله المَسَاجِدُ، وَأَبْغَضَ البِلادِ إِلَى الله الأسواقُ**».

رواه مسلم في المساجد (٦٧١)، ورواه أحمد والحاكم عن جبير بن مطعم كما عزاه إليهما السيوطي.

قوله: إن أحب... إلخ. كانت أحب بلاد الله تعالى لأنها مجمع الملائكة الذين يأتون لحضور الصلوات وتلاوة القرآن وذكر الله عزّ وجلّ، ولما يلقى فيها من الدروس العلمية والوعظية.. وكانت الأسواق مبغوضة إلى الله عزّ وجلّ لما يجتمع فيها من كثرة الشياطين الذين يحضرون لإغواء الناس وحملهم على الكذب والغشّ واليمين الغموس وكثرة الخصام، ولذلك جاء عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنّه قال: لا تكونن إن

استطعت أوّل من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته. رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥١)، وقوله: معركة الشيطان، أي: موطنه ومحله وأصل المعركة موضع القتال، وقوله: وبها ينصب رايته، هو كناية عن قوة طمعه في إغوائهم، قاله ابن الأثير.

{٥٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ فَقولوا: لا أَرْبَحَ الله تِجَارَتَك**» الحديث، وتقدّم كاملاً في المساجد.

رواه أحمد والترمذي آخر البيوع (١١٩٨) بتهذيبي، والدارمي (١٤٠٨)، والحاكم (٥٦/٧) بسند صحيح.

قوله: يبتاع أي: يشتري، والحديث يدلّ على أن المسجد لا يتّخذ سوقاً لأنه لم يبن لذلك، فلهذا كان من المفروض أن يدعي على من يتّجر فيه بالخسارة وعدم الربح.

{٦٠} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه في ذكر صفة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في التوراة: «**ولا صَخَّاباً في الأسواق**»، رواه البخاري وغيره، ويأتي مطوّلاً في السيرة النبوية.

الصخاب، ويقال بالسين هو الذي يرفع صوته، وفي ذلك ذمّ الأسواق؛ لأن الأصوات ترفع فيها بالتشاجر والخصام والأيمان الكاذبة.

{٦١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت عُكاظٌ، ومَجَنَّة، وذو المَجَازِ، أسواقاً في الجاهلية، فلمّا كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨]، قرأ ابن عباس كذا.

رواه البخاري في الحجّ (٣٤٢/٤، ٣٤٤)، وفي البيوع (٢٢٤/٥)، وفي التفسير (٢٥٢/٩) وغيره، وتقدم في التفسير.

والحديث يدلّ على جواز التجارة في أسواق الجاهلية والكفار، وأنه لا حرج في ذلك ما دام التاجر يتّقي الله ويتوقّى الحرام.

أبواب بيع الأصول والثمار

بيع النخل بعد أن أُبِّرَت

{٦٢} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «من ابْتَاعَ»، وفي رواية: «**مَنْ باعَ نَخْلاً قد أُبِّرَتْ فثَمرتُها للبائع، إلا أن يَشْتَرِطَ المُبْتاعُ، ومن ابتاع عبداً فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع**».

رواه أحمد (٦/٢، ٦٣، ٨٢)، والبخاري (٣٠٦/٥، ٣٠٧) وفي مواضع، ومسلم (١٥٤٣)، ومالك (١٣٣٩)، وأبو داود (٣٤٣٣)، والترمذي (١٢٤٤)، والنسائي (٣٩٦/٧) وغيرهم، وقد غفل المجد في المنتقى فلم يعزه لغير ابن ماجه وتبعه على ذلك الشوكاني في النيل، كما غفل السيوطي فلم يعزه لمسلم في جامعه.

قوله: أُبِّرت: التأبير: هو التلقيح، وهو أن يشق طلع إناث النخل ويؤخذ من طلع الذكر فيذر فيه ليكون ذلك بإذن الله أجود وأحسن مما لم يؤبّر، وهذا يفعله الفلاّحون في التين أيضاً عندنا بالمغرب، ويقال له التذكير، وقوله: المبتاع أي: المشتري.

والحديث نص في أن النخيل إذا بيع بعد أن لُقِّح كانت ثماره للبائع، فإذا اشترطها المشتري في العقد كانت له، وهكذا الحال في بيع العبد وله مال، فهو للذي باعه إلاّ أن يشترطه المشتري.

* * *

النهي عن بيع الثمر قبل بدو صلاحه

{٦٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نهى عن بَيْعِ الثِّمَارِ حَتَّى يَبْدُو صَلاَحُهَا، نَهَى البَائِع والمُبْتَاع».

رواه مالك (١٣٤٠)، والبخاري (٥/٣٠٠)، ومسلم (١٥٣٤، ١٥٣٥)، وباقي الجماعة إلا الترمذي. وفي رواية: نهى عن بيع النخل حتى تَزْهُو، وعن بيع السُّنْبُلِ حتى يَبْيَضَّ ويَأْمَنَ العَاهَة. رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجه.

{٦٤} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نَهَى عن بَيْعِ الثِّمار حتى تَزْهُو»، فقلنا لأنس: مَا زَهْوُها؟ قال: «تَحْمَرُّ وتَصْفَرُّ»، قال: «**أرأيت إن منع الله الثَّمَرةَ بِمَ تَسْتَحِلُّ مال أخيك**».

رواه مالك (١٣٤١)، والبخاري في البيوع (٥/٣٠٢) وفي مواضع، ومسلم (١٥٥٥) وغيرهم.

{٦٥} ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: كان الناس في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتبايعون الثمار، فإذا جذّ الناس وحضر تقاضيهم قال المبتاع: إنه أصاب الثمر الدَّمَان أصابه مُراض أصابه قُشاع؛ عاهات يحتجون بها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لمَّا كثرت عنده الخصومة في ذلك: «**إمالا فلا تبايعون حتى يبدو صلاح الثمر كالمشورة**» يشير بها لكثرة خصومهم.

رواه البخاري (٥/٢٩٨، ٢٩٩)، وفي الباب عن جابر في الصحيحين.

قوله: يَبْدو أي: يظهر نضجها، وقوله: تزهو، وفي رواية في البخاري وغيره: تزهي بضم التاء وكسر الهاء، وقد فسّر في الحديث بأن يظهر في الثمار الاصفرار أو الاحمرار، وتلك هي صلاحيتها، وجاء في رواية لجابر في الصحيحين: حتى تشقح ـ بضم التاء وكسر القاف ثم حاء مهملة ـ، وفسرت بأن تحمر وتصفر.

وقوله: جذ الناس، الجذاذ أي: قطع الثمار، والدَّمان ـ بفتح الدال وتخفيف الميم ـ: عفن يصيب النخل، والمُراض ـ بضم الميم ـ: داء يقع في الثمرة، وقشاع ـ بضم القاف ـ: انتقاص ثمر النخل، وقوله: إمالاً أي: إن لم تفعلوا... إلخ.

وهذه الأحاديث تدلّ بجملتها على تحريم بيع الثمار قبل ظهور صلاحها، وهي عامّة في جميع الثمار، وقد جاء في رواية لأنس أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن بيع العِنَبِ حتى يَسْوَدَّ، وعن بيع الحبِّ حتى يَشْتدّ. رواه أبو داود (٣٣٧١)، والترمذي (١٢٢٨)، وابن ماجه (٢٢١٧)، والحاكم (١٩/٢)، والبيهقي (٣٠١/٥) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم على شرط مسلم، ولمعناه شواهد، ففي هذا بيان أن النهي عام في جميع الثمار والحبوب.

وقد ذهب إلى تحريم هذا البيع جماهير العلماء، وقد بيّن حديث زيد بن ثابت سبب النهي وهو تخاصم الصحابة في تبايعهم ذلك قبل بدوّ الصلاح، وقبل ذهاب العاهة والجوائح، ولا يكون ذلك إلاّ عند طلوع الثريا في الصباح، فإنه إن وقع البيع قبل ذلك فربما وقعت عاهة فاجتاحت الثمار، فيخسر المشتري ويأكل البائع مال أخيه بلا مقابل، فهذا هو السرّ في النهي. وأمّا ما يتعلق بالجوائح، فيأتي الكلام فيها.

❋ ❋ ❋

بيع المحاقلة والمزابنة والمعاومة

{٦٦} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: «**نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المُحاقَلَةِ والمُزابَنَةِ، وَالمُعَاوَمَة، والمُخابَرة**»، قال أحدهما: بيعُ السنين هي المعاومة، «**وعن الثُّنْيا ورَخَّصَ في العَرَايا**».

رواه أحمد (٣٦٤/٣، ٣٩٢)، ومسلم (١٩٣/١٠، ١٩٥)، والترمذي

(١٢٩٠)، والنسائي وغيرهم، ورواه البخاري ومسلم بزيادة: «**وعن بيع الثَّمَرِ حتى يَبْدُوَ صلاحُه، وأن لا يُباعَ إلا بالدِّينار والدِّرْهم إلا العرايا**».

{٦٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «**نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المُحَاقَلَةِ، وهو اشْتِرَاءِ الزَّرْع وهو في سُنْبُلِهِ بالحِنطَةِ، ونَهى عن المُزَابَنَة وهو شراءُ الثَّمارِ بالتَّمْرِ**».

رواه أحمد ومسلم (١٥٤٥)، والترمذي (١٢٢٤)، والنسائي (٣٩١٧) كلّهم في البيوع.

{٦٨} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «**نَهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المُزابَنة أن يَبِيعَ الرَّجلُ ثَمَرَ حائِطِهِ إنْ كانَ نَخْلاً بتَمْرٍ كَيلاً، وإنْ كانَ كَرْماً أن يَبِيعَه بِزَبِيبٍ كيلاً، وإن كان زرعاً أن يبيعه بكيل طعام نهى عن ذلك كلّه**».

رواه البخاري (٢٨١/٥، ٢٨٨)، ومسلم (١٥٤٢) وغيرهما بألفاظ.

في هذه الأحاديث النهي عن عدّة أمور أولاً: المحاقلة: وهي بيع الزرع في سنبله بالقمح كيلا، ثانياً: المزابنة: وهي بيع الثمار في نخلها بتمر كيلاً، وبيع العنب في كرمه بزبيب كيلاً، ثالثاً: بيع السنين: وهو بيع ثمار النخل أو غيره سنين قبل وجودها، وكل ذلك من البيوع الفاسدة المحرّمة لما في ذلك من التفاضل والجهل ببعض المبيعات، وتأتي بقية الأبحاث في الموضوع والكلام على الثّنيا وعلى العرايا إن شاء الله تعالى.

* * *

ما جاء في وضع الجوائح

{٦٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أَمَرَ بِوَضْعِ الجَوَائِحِ، وفي رواية قال: «**إنْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ تَمْراً فَأَصَابَتْها جَائِحَةٌ فَلاَ يَحِلُّ لكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئاً بِم تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكِ بِغَيرِ حَقٍّ**».

رواه مسلم (١٥٥٤)، وأبو داود (٣٤٧٠)، والنسائي (٤٢١٨)، وابن ماجه (٢٢١٩) وغيرهم، وانظر حديث أنس المتقدم رقم (٦٤)، وهو في الصحيحين وفيه: «أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللهُ الثَّمَرَةَ بِمَ تَسْتَحِلُّ مَالَ أَخِيكَ».

الجوائح جمع جائحة: وهي الآفة التي تصيب الثمار، فتهلكها. قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى: الجوائح كل ظاهر مفسد من مطر أو بَرد، أو جراد، أو ريح، أو حريق. ذكره أبو داود (٣٤٧١) ولا خلاف في هذا. وقد اختلف العلماء في وضع الجوائح بحيث إذا باع الرجل لآخر ثمرة... ثم نزلت بها آفة فاجتاحتها وأهلكتها، هل يرجع المشتري على البائع، فيطالبه بماله أم لا؟ من العلماء من قال بالرجوع مطلقاً، كان ذلك البيع قبل بدوّ صلاح الثمرة أم بعده، وقال آخرون بالتفصيل، فما كان قبل بدوّ صلاحها رجع عليه؛ لأن وقت العاهات لم يكن ذهب بعد، وما كان بعد بدوّ الصلاح لم يكن له حقّ لأن وقت الجوائح يكون قد ذهب، وذلك في أوائل فصل الصيف. أما من قيّد الوضع بالثلث وعدمه بأقله، فهو اجتهاد من الإمام مالك رحمه الله تعالى، كما في الموطأ (٣/٢٦٤) بالزرقاني، ورجّح الشوكاني رحمه الله تعالى الوضع مطلقاً في القليل والكثير كان بعد بدوّ الصلاح أو قبله، وفي ذلك نظر.

أبواب الربا

الربا: هو الزيادة مطلقاً، وفي الشرع ينقسم إلى أقسام ثلاثة: ربا الزائد على رأس المال، وهي الفائدة التي يأخذها رب الدين في مقابلة دينه، وهذه مُحرّمةٌ بالإجماع وهي التي نصّ عليها القرآن في سورة البقرة، وسجل على أصحابها الخلود في النار، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥].

القسم الثاني: ربا الفضل، ويأتي هذا في المبادلات الستّ الآتية. القسم الثالث: ربا النسيئة ويكون في المبادلات مع تأخير تسليم أحد الجنسين، وستأتي كل هذه الأقسام إن شاء الله تعالى. ويطلق الربا في الشرع على كل بيع محرّم، كما يأتي.

❊ ❊ ❊

لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه

{٧٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم آكل الربا ومُوكِلهُ وكاتبهُ وشَاهِديْه»، وقال: «**هُمْ سواءٌ**».

رواه مسلم (٢٦/١١) في المساقاة، وهو من أفراده، وروى البخاري: «**آكل الربا وموكله**» عن أبي جحيفة (٢١٨/٥) ضمن حديث.

{٧١} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مثله، رواه أبو داود (٣٣٣٣)، والترمذي (١٠٨٨) بتهذيبي، والنسائي (٤٧٢٠)، وابن ماجه (٢٢٧٧)، والدارمي (٢٥٣٨)، وابن حبان (١١٥٤، ١١٢) بالموارد وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وزاد النسائي: «إذا علموا ذلك»، وفي الباب عن الإمام علي رواه أحمد (٨٣/١)، والنسائي (٤٧٢٢)، وعن ابن مسعود مطولاً عند الطبراني، وعند النسائي (٤٧٣١).

قوله: وموكله، أي: مطعمه غيره، وعبّر عن الآخذ بالآكل، وكذا دافعه بالمؤكل؛ لأن المقصود منه هو الأكل، وهو أعظم منافعه... وإلا فغيرهما كذلك من لباس أو سكن أو تزويج أو ركوب... وفي الحديثين وعيد شديد للمرابين ومساعديهم من شهود وكتّاب وغيرهم، حيث إنهم ملعونون ومبعدون عن رحمة الله تعالى في حالتهم الراهنة، وكفى بذلك زجراً لمن يتعاطى التعامل بالربا أو المساعدة على ذلك بأيّ وسيلة.

والرّبا هنا عام يشمل أنواعه الثلاثة التي صدرنا بذكرها سابقاً، نسأل الله تعالى السلامة.

* * *

أكل الربا أشدّ من الزنا

{٧٢} ـ عن عبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتٍّ وَثَلاثِينَ زِنْيَةً**».

رواه أحمد (٢٢٥/٥)، والطبراني في الأوسط والكبير والدارقطني رقم (٢٩٥)، وسنده صحيح عند أحمد، قال الهيثمي في المجمع (٦٥٧٣)، ورجال أحمد رجال الصحيح ثم إن للحديث شواهد.

{٧٣} ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ باباً أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمّه، وإنّ أَرْبَى الرِّبا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ**».

رواه الطبراني في الأوسط (٧١٤٧)، وفيه عمر بن راشد وثّقه العجلي وضعفه جمهور الأئمّة. قاله الهيثمي رقم (٦٥٨٥): لكن الحديث له طرق وشواهد يصحح بها عن أبي هريرة، رواه ابن الجارود في المنتقى (٦٤٧) بلفظ: «**الرِّبا سَبْعُونَ باباً أَهْوَنُها عند الله كالَّذي يَنْكِحُ أُمّهُ**»، وسنده صحيح رجاله على شرط مسلم، ولا يضرّ هنا عكرمة بن عمار، ورواه ابن ماجه من طريقه رقم (٢٢٧٤)، وشاهد ثان عن ابن مسعود رواه الحاكم (٣٧/٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه ابن ماجه (٢٢٧٤) قال البوصيري: إسناده صحيح. وبالجملة فالحديث صحيح مطوّلاً ومختصراً، وما أعلّ به ليس بشيء.

قوله: أدناها أي: أقلّها وأهونها، وقوله: أربى الربا يعني: أعظم أنواع الربا، استطالة الرجل: اعتداؤه على عرض أخيه بالطعن فيه وذمّه.

وفي الحديثين زجر بالغ وإثم عظيم لمن يرابي، وأن ذنبه بلغ في الفحش والنكارة ما فاق به فاحشة الزّنا المتكررة، بل أدنى أبوابه مثل الزنا بأمّه، وهذا نهاية القبح والفظاعة عياذاً بالله، فعسى أن يكون هذا زجراً لمن اعتاد تعاطي الربا وامتصاص أموال الناس بالباطل. والظاهر من قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الربا اثنان وسبعون باباً**» إطلاقه ذلك على كل ما أخذ بباطل من تطفيف، وغش وغصب وسرقة وما إلى ذلك من المحرمات، والله تعالى أعلم.

* * *

عقوبة المتعامل بالربا ومآله في الدنيا وأنه من أسباب الهلاك

{٧٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قال: «مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزِّنَا وَالرِّبَا إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِم عِقابَ الله».

رواه أحمد (٤٠٢/١)، وأبو يعلى (٣١٤/٤)، وجوّده المنذري والهيثمي (١١٨/٤)، وهو كما قالا، وشريك لم يتفرّد به وله شاهد عن ابن عباس رواه الطبراني في الكبير (٤٦٠)، والحاكم (٣٧/٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

أحلوا بأنفسهم، أي: أوجبوا عليهم وأنزلوا بهم عذاب الله، وهذا وعيد شديد وزجر أكيد، وهو يدلّ على أن انتشار هاتين الجريمتين وشيوعهما بين الناس من أسباب هلاكهم ونزول أنواع العقاب بهم، كما هو حال الأمة اليوم، فإنهم لما تمالؤوا على ظهور الزّنا والتعامل بالرّبا جهاراً شَملهم الله تعالى بأنواع النكبات والنكسات والبلايا والمشاكل الأسرية والاجتماعية والدولية وأصبحوا حائرين عياذاً بالله تعالى.

{٧٥} ـ وعن ابن مسعود أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إلى قِلَّةٍ».

رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، والحاكم (٣٧/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه البوصيري.

في الحديث دليل على أن المرابي وإن ربح وأثرى، فإن مآله الخسارة والإفلاس، وهذا مشاهد من الرأسماليين والأثرياء، فإنهم بين عشية وضحاها يصبحون صفر الأيدي مثقلين بالديون والتبعات، وذلك جزاء لهم على محاربتهم لله عزّ وجلّ وأكلهم أموال الناس بالباطل ومساعدتهم للشركات الرأسمالية على التعامل بما حرّمه الله تعالى.

باب ما يدخله الربا
من أنواع المبيعات

ما يوزن ويكال من ذلك، وفيه ربا الفضل

{٧٦} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ تَبِيعُوا الذَّهَبَ بالذَّهَبِ إلاَّ مِثلاً بِمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُوا بعضها على بعض، ولا تَبِيعُوا الوَرِقَ بالوَرِقِ، إلاَّ مِثلاً بِمِثْلٍ، ولا تُشِفُوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائباً بناجِزٍ إلا يداً بِيَدٍ**».

وفي رواية: «**الذَّهبُ بالذَّهبِ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعير بالشَّعِيرِ، والتمرُ بالتَّمرِ، والمِلْحُ بالمِلْحِ مِثلاً بمِثْلٍ، يداً بِيَدٍ، فَمَنْ زادَ أوْ اسْتَزَادَ فَقَد أرْبَى، الآخِذُ والمُعْطِي فيهِ سواءٌ**»، وفي رواية: عن أبي نضرة قال: سألتُ ابنَ عمر وابن عباس عن الصَرْف فلم يريا به بأساً، فإنّي لَقاعدٌ عند أبي سعيد الخدري فسألتُه عن الصرف، فقال: ما زاد فهو ربا، فأنكرتُ ذلك لقولهما، فقال: لا أُحدِّثُك إلا ما سمِعتُ من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جاءه صاحبُ نَخْلة بصاعٍ من تمرٍ طيّب، وكان تمرُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا اللَّوْن، فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أنّى لك هذا**»؟ قال: انطلقت بصاعين فاشتريتُ به هذا الصاع، فإن سِعْر هذا في السوق كذا، وسعر هذا كذا، فقال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وَيلَكَ أَرْبَيْتَ، إذا أَرَدْتَ ذلك فَبِعْ تَمْرَكَ بِسِلْعَةٍ، ثم اشْتَرِ بِسِلْعَتِكَ أيَّ تَمْرٍ شِئْتَ**». قال أبو سعيد: فالتمر بالتمر أحق أن يكون ربا؟ أم الفضة بالفضة؟ قال: فأتيت ابن عمر بعدُ فنهاني ولم آت ابن عباس، قال: فحدثني أبو الصهباء أنه سأل ابن عباس عنه بمكّة فكرهه.

رواه البخاري (٥/٢٨٤)، ومسلم (١١/٩، ١١، ١٥، ٢٢، ٢٥) وغيرهما بألفاظ، والرواية الأولى لهما والأخيرتان لمسلم.

{٧٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**التَّمْرُ بالتَّمر والحِنطةُ بالحِنطة، والشَّعيرُ بالشَّعير، والمِلحُ بالملح مثلاً بمثل، يداً بيدٍ، فمن زاد أو اسْتَزاد فقد أربى، إلاّ ما اخْتلفَتْ ألْوَانُه**».

رواه مسلم (١١/١٥)، وفي رواية: «**الدِّينارُ بالدِّينارِ لا فَضْلَ بَيْنَهُمَا، والدِّرْهَمُ بالدِّرْهَم لاَ فَضْلَ بَينهما**».

{٧٨} ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اسْتَعْمَلَ رَجُلاً على خَيْبَر، فجاءَهُم بِتَمْر جَنيب، فقال: «**أكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذا؟**» قال: إنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ بالصَّاعَيْنِ والصَّاعينِ بالثلاثة، قال: «**لاَ تَفْعَلْ، بِعْ الجَمْعَ بالدَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بالدَّراهِمِ جَنِيباً**»، وقال في الميزان مِثْل ذلك.

رواه البخاري (٥/٣٠٤) وفي مواضع، ومسلم (١٥٩٣) وغيرهما.

قوله: تشفوا بضم التاء وكسر الشين أي: لا تزيدوا وتفضلوا، والناجز: هو العاجل، والبرّ ـ بضم الباء ـ: هو الحنطة والقمح، وقوله: يداً بيد أي: يقبض كل من المتبايعين المبيع في الحال، استزاد أي: طلب الزيادة، وقوله: أربى أي: فعل الربا المحرم، وقوله: جنيب ـ بفتح الجيم وكسر النون ثم ياء وباء ـ: نوع من جيّد التمر. والجمع تمر مختلط من أنواع التمور. دلّت هذه الأحاديث على تحريم التفاضل في الأجناس الستّة المذكورة، وهي الذهب والفضة، والبرّ، والشعير، والتمر، والملح، وأنه لا يجوز تبادل الجنس الواحد منها مع التفاضل والزيادة، بحيث يقع التبادل

بدينار في مقابلة دينارين من الذهب، أو درهم بدرهمين من الفضّة، ومدّ من حنطة مثلاً بمدّين من حنطة، وهكذا باقي الأنواع، فإن كل ذلك يعتبر ربا الفضل، وإلى تحريم ذلك ذهب الجماهير من الأئمّة والعلماء سلفاً وخلفاً لهذه الأحاديث وغيرها، كما فيها تحريم بيع عاجل ناجز بآجل بحيث يدفع أحد البَيِّعَيْنِ لصاحبه ديناراً ومن الغد.. يدفع له الآخر ديناره، فهذا لا يجوز ولو مع التساوي في كل هذه الأجناس. وهنا يأتي الصرف فلا يجوز تبادل الذهب بالذهب والفضّة بالفضة مع الزيادة من أحد الجانبين. نعم إذا اختلفت الأجناس جاز ذلك كما يأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

واتّفق الأئمّة على أن هذه الأجناس الستّة هي أصل الربويات، ثم اختلفوا هل يلحق بها غيرها مما في معناها، أم لا؟ فذهب الظاهرية إلى عدم الإلحاق، وذهب الجمهور إلى إلحاق غيرها بها من موزون ومكيل ومطعوم.. ويقوّي هذا المذهب ويؤيّده حديث ابن عمر المتقدم في المزابنة، وفيه: «وإن كانَ كرماً أن يبيعه بزبيب كيلاً»، وفي رواية لمسلم: «وعن كل ثمن يخرصه»، ففيه التنصيص على الزبيب وعن كل ثمر، وذلك زائد على الأجناس الستّة، وكذا ما صح من التنصيص على الوزن والكيل، فإن كل ذلك يدلّ على جواز الإلحاق. ثم اختلف العلماء في العلّة التي لأجلها يناط بها حكم الإلحاق، فقيل: الاتفاق في الجنس والطعم، وقيل: الجنس والتقدير بالكيل والوزن والاقتيات... والله تعالى أعلم.

* * *

جواز التفاضل مع اختلاف الأجناس وتحريم النسيئة في ذلك

{٧٩} ـ عن مالك بن أوس أنه التمس صرفاً بمائة دينار، فدعاني طلحة بن عبيدالله فتراوضنا حتى اصْطَرَفَ مني، فأخذ الذهب يُقَلِّبُها في يده، ثم قال: حتى يأتي خازِني من الغابة، وعمرُ يسمع ذلك فقال: والله لا تُفارقه حتى تأْخُذ منه، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«الذهبُ بالذهب ربا إلا هاءَ وهاء والورق بالوَرِقِ ربا إلا هاءَ وهاء، والبُرُّ بالبرّ ربا إلا هاءَ وهاء، والشعيرُ بالشعير ربا إلا هاءَ وهاء، والتَّمْرُ بالتمر ربا إلا هاءَ وهاء».

رواه مالك (١٣٧٠)، والبخاري (٢٨٢/٥، ٢٨٣)، ومسلم (١٢/١١)، والترمذي (١١٢٢) بتهذيبي، وباقي الجماعة.

الورِق ـ بكسر الراء ـ: الفضّة، وقوله: هاءَ وهاء، أي: خذ، وأصله هاك، والبُرّ ـ بضم الباء ـ: هو الحنطة والقمح.

{٨٠} ـ وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«الذَّهبُ بالذهبِ مِثْلاً بمِثْلٍ، والفضّة بالفضّة مثلاً بمثل، والتَّمْرُ بالتمر مثلاً بمثل، والبُر بالبرّ مثلاً بمثل، والمِلحُ بالملح مثلاً بمثل، والشعير بالشعير مثلاً بمثل، فمن زاد أو ازداد فقد أرْبَى، بِيعُوا الذهب بالفضة كيف شِئْتُمْ يداً بيد، وبِيعُوا البرُ بالتمر كيف شئتم يداً بيد، وبيعوا الشعير بالتمر كيف شئتم يداً بيدٍ»**.

رواه مسلم (١٤/١١)، وأبو داود (٣٣٤٩)، والترمذي (١١١٩) بتهذيبي، وباقي أهل السنن، وزاد مسلم: **«فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هذه الأصْنافُ فَبِيعُوا كَيف شِئْتُمْ»**.

{٨١} ـ وعن أبي المنهال رحمه الله تعالى قال: باع شريك لي ورقاً بنسيئة إلى الموسم أو إلى الحجّ، فجاء إليّ فأخبرني، فقلت: هذا أمر لا يصلح، قال: قد بعته في السوق فلم ينكر ذلك عليّ أحدٌ، قال: فأتيتُ البراء بن عازب، فأتيته فسألته، فقال: قدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن نبيع هذا البيع، فقال: **«ما كان يداً بيد فلا بأس به، وما كان نسيئة فهو ربا»**، وائت زيد بن أرقم فإنه أعظم تجارة مني، فأتيته فسألته فقال مثل ذلك، وفي رواية: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْع الذهب بالوَرِق دَيْناً.

رواه البخاري (٢٨٧/٥) وفي مواضع، ومسلم (١٦/١١) وغيرهما.

{٨٢} ـ وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إِنَّما الرِّبا في النَّسِيئَة**»، وفي رواية: «**لا رِبا فِيمَا كَانَ يَداً بِيَدٍ**».

رواه البخاري (٥/٢٨٥، ٢٨٦)، ومسلم (١١/٢٥)، وفي الباب عن أبي بكرة عند الشيخين وغير ذلك.

في هذه الأحاديث أحكام نجملها في الآتي: أولاً تحريم بيع النسيئة، وهو التبادل في هذه الأصناف الستّة مع تقديم أحدهما وتأخير الثاني إلى أجلٍ ما، فهذا يعدّ ربا النسيئة، ولهذا قال: «**البرّ بالبر ربا إلا هاءَ وهاء**»، بمعنى أن كلاً من المتعاقدين يقول للآخر خذ فهو عبارة عن التبايع نقداً بلا تأخير من أحد الجانبين. ثانياً: تدل على أن الصرف في الذهب والفضة وما في معناهما لا يصح إلا إذا كان يداً بيد في المجلس الواحد، وقد جهل الناس هذا الحكم اليوم، فلا تكاد ترى أحداً يهتم به بل لا يعرفونه. ثالثاً: فيها جواز التفاضل في هذه الأصناف مع اختلافها كبيع قنطار من قمح مثلاً بقنطارين من تمر أو العكس، وكذا باقي الأصناف وهذا هو المعبّر عنه بقوله: فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم، ولكن بشرط القبض من الجانبين في المجلس؛ لقوله: يداً بيد هاءَ وهاء. رابعاً: يؤخذ منها أن البرّ والشعير صنفان يجوز فيهما التفاضل، وبذلك قال الجمهور، ولم يرَ ذلك آخرون، والأحاديث حجّة للأوّلين.

* * *

النهي عن بيع الصبرة المجهولة بكيل معلوم

{٨٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى قال: «نَهَى رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيْعِ الصُّبْرَةِ مِن التَّمْرِ لا يُعْلَمُ كَيْلُها بالكَيْلِ المُسَمّى مِنَ التَّمْرِ».

رواه مسلم (١٠/١٧٢)، والنسائي (٤٢٣٨، ٤٢٣٩)، وفي رواية: «**لا تُباعُ الصُّبْرَةُ مِنَ الطَّعامِ بالصُّبْرَةِ من الطعام، ولا الصبرة من الطعام بالكَيْلِ المُسَمّى مِن الطَّعام**».

الصُّبرة ـ بضم الصاد وسكون الباء ـ: ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن. والحديث يدلّ على عدم جواز بيع الطعام المجهول الكيل والوزن بنوعه كيلاً أو وزناً لما في ذلك من الغرر ومظنّة الزيادة أو النقصان. وهذا ممنوع في الجنس الواحد، أمّا مع الاختلاف، فلا مانع منه كما يؤخذ من مفهوم الحديث، ومن الأحاديث السابقة، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

النهي عن بيع الذهب وغيره بذهب

{٨٤} ـ عن فَضالَة بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: اشتريتُ يوم خيبرَ قِلادَةً باثْنَيْ عشرَ ديناراً فيها ذهبٌ وخَرَز، ففصَلْتُها فوجدتُ فيها أكثر من اثني عشر ديناراً، فذكرتُ ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«لاَ تُبَاعُ حتَّى تُفصلَ»**.

رواه مسلم (١٧/١١، ١٨)، وأبو داود (**٣٣٥٢**)، والترمذي (١١٣٣) بتهذيبي، والنسائي (**٢٤٥/٧**).

قوله: قلادة ـ بكسر القاف ـ: ما يعلقه النساء في أعناقهنّ من الحلي وغيره، وقوله: خرز ـ بفتحتين ـ: الجواهر، وقوله: حتى تفصل ـ بضم التاء وفتح الصاد بالبناء للمجهول ـ: أي: حتى تميّز. والحديث كما قال النووي وغيره فيه دليل على أنه لا يجوز بيع ذهب مع غيره بذهب حتى يميز، فيباع الذهب بوزنه ذهباً، ويباع الآخر بما أراد، وكذا الاتباع فضة مع غيرها، ثم ذكر أن هذا يجري في سائر الأجناس الربوية الستّة، كحنطة مع غيرها بحنطة وهكذا، وقال الترمذي رحمه الله تعالى في الجامع: والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وغيرهم لم يروا أن يباع سيفٌ مُحَلّى، أو مِنْطَقةٌ ـ حزام ـ مُفَضَّضَةٌ أو مثل هذا بدراهم، حتى يميّز ويفصل إلخ.

وإنما منع بيع مثل ما ذكر لما في ذلك من ربا الفضل في الجنس

الواحد، وقد تقدم الذهب بالذهب مثلاً بمثل يداً بيد، إلخ. فالصحابي الذي اشترى القلادة المعلّق فيها الجوهر باثني عشر دبناراً ذهبياً عندما فصلها وميزها وجد فيها أكثر مما اشتراها به مع زيادة الجواهر، وذلك ربا.

❋ ❋ ❋

الرخصة في بيع العرايا

{٨٥} ـ عن سَهْل بن أبي حَثْمَة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَهَى عن بَيْعِ التَّمر بالتَّمْر، ورخَّص في العريَّة أن تُباعَ بخَرْصِهَا يأكُلُها أهلُها رُطباً.

رواه البخاري (٥/٢٩٣)، ومسلم (١٥٤٠) (١٠/١٨٥، ١٨٧)، والترمذي (١١٧٨) بتهذيبي وباقي الجماعة بألفاظ.

{٨٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أَرْخَصَ في بَيْعِ العَرَايَا فيما دُونَ خَمْسَةِ أوسُقٍ. وفي رواية: في خَمْسَةِ أوْسُق أو دون خَمْسَةَ أوْسُق على الشك.

رواه مالك والبخاري (٥/٢٩٢)، ومسلم (١٠/١٨٧)، والترمذي (١١٧٩) وغيرهم..

وفي الباب عن زيد بن ثابت ورافع بن خديج وغيرهما، وهي في الصحيح.

قوله: بخرصها ـ بفتح الخاء وسكون الراء ـ: الخرص: هو التخمين والحدس والمراد به هنا التقدير والحزر، وقوله: أوسق ـ بضم السين ـ: جمع وسق، والوسق: ستون صاعاً، والصاع: أربع حفنات من اليد المتوسطة لا مقبوضة ولا مبسوطة، وفي هذا تقييد لما أبيح من العرايا.

وقوله: العرايا جمع عرية هي في الأصل عطية ثَمَر النخل دون أصله، فكان العرب أيام الجدب يتطوّعون بذلك على الفقراء، كما كانوا يعطون منيحة اللبن، وكان ذلك من مكارم أخلاقهم، وقد فسّرها الإمام مالك

رحمه الله تعالى فقال: العرية أن يُعْرِي الرجلُ الرجل النخلة ثم يتأذى بدخوله عليه، فرُخِّص له أن يشتريها منه بتَمْرٍ، ذكره البخاري (٥/٢٩٤).

وفي رواية عنه: العرية النخلة للرجل في حائط غيره فيكره صاحب النخل الكثير دخول الآخر عليه، فيقول: أنا أعطيك بخرص نخلة تمراً فيرخص له في ذلك، نقله عنه الطحاوي وفي تفسيرها أقوال، وعلى كل فهذا البيع وإن كان فيه نوع من الغرر، بل وربا الفضل وبيع عاجل بآجل، وكل ذلك من الممنوعات، فقد استثني هذا النوع للحاجة الملحة رأفة بالعباد، ورفعاً للحرج.

* * *

بيع الثنيا

{٨٧} ـ تقدم حديث جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نَهَى عَنِ المُحَاقَلَةِ... والثُّنْيَا إلاَّ أنْ تُعْلَم»، رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم، وانظر ما سبق في (٦٦).

الثنيا: استثناء بعض البيع من غير تعيين، كما إذا باع دوراً أو عدداً من المواشي أو نحو ذلك، واستثنى بعضها من غير تعيين لها، فهذا بيع فاسد لا يصح، فإن عين جاز اتفاقاً.

* * *

بيع الحيوان بالحيوان واللحم بالحيوان

{٨٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاء عبدٌ فبايع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الهِجْرة ولم يَشْعُر أنه عبدٌ، فجاء سيِّده يُرِيدُه، فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بِعْنِيهِ واشْتَرَاهُ بِعَبْدَيْنِ أَسْوَدَيْنِ ثم لم يُبايِعْ أحداً بعدُ حتى يسأله أعبدٌ هو**».

رواه مسلم (٣٩/١١)، وأبو داود (٣٣٥٨)، والترمذي (١١١٨) بتهذيبي، وابن الجارود (٦١٣) وغيرهم.

{٨٩} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمَرَه أن يُجَهِّزَ جَيْشاً، فنَفِدَتْ الإبلُ فأمَرَهُ أنْ يأْخُذَ على قَلائِص الصَّدَقَة، فكان يأْخُذ البعيرَ بالبعيرين إلى إبلِ الصدقة.

رواه أبو داود (٣٣٥٧) وسنده ضعيف، لكنه جاء من طريق آخر رواه البيهقي (٢٨٧/٥، ٢٨٨) وصححه.

{٩٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشْتَرَى رَاحِلةً بِأَرْبَعَةِ أبْعِرَة مَضْمُونَةٍ عَلَيْهِ يُوفِيهَا صَاحِبَها بالرَّبَذَةِ.

رواه مالك في الموطأ (١٣٩٢) بسند صحيح، وعلّقه البخاري (٣٢٤/٥).

{٩١} ـ وعن سمرة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «نَهَى عن بَيْعِ الحَيَوانِ بالحَيَوانِ نَسِيئَة».

رواه أحمد (١٩/١٢)، وأبو داود (٣٣٥٦)، والترمذي (١١١٦) بتهذيبي، والنسائي (٢٥٧/٧)، وابن ماجه (٢٢٧٠)، والدارمي (٢٥٦٧)، وابن الجارود (٦١١)، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: قلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابّة، وقوله: نسيئة أي: إلى أجل. بيع الحيوان بالحيوان ولو متفاضلاً جائز إذا كان يداً بيد اتفاقاً بدون خلاف، وعليه يحمل حديث جابر، وحديث أنس أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اشْتَرَى صَفِيَّةَ بِسَبْعَةِ أَرؤُسٍ من دِحْيَةَ الكَلْبِي، رواه مسلم وغيره ويأتي في السير.

وإنما وقع الخلاف في بيع ذلك إلى أجل وهو مقتضى حديث سمرة، لكنه عارضه حديث ابن عمرو، فتعارض أمره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونهيه، فذهب جماعة من أهل العلم إلى الجواز مطلقاً. ففي البخاري (٣٢٤/٥)... معلقاً: واشترى رافع بن خديج بعيراً ببعيرين فأعطاه أحدهما،

وقال: آتيك بالآخر غداً... إن شاء الله، وقال الحافظ: وصله مالك والشافعي. وقال ابن المسيب: لا ربا في الحيوان البعير بالبعرين، والشاة بالشاتين إلى أجل. وقال ابن سيرين: لا بأس ببعير ببعيرين نسيئة.

وبالجواز قال الجمهور، ورجح آخرون المنع، وقالوا: إن جانب التحريم أرجح، والمسألة من المشتبهات.

{٩٢} ـ وعن سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَهَى عن بَيْعِ الحَيَوَانِ باللَّحْمِ.

رواه مالك في الموطأ (١٣٦٩)، وسنده صحيح، وهو من صحاح مراسيل ابن المسيّب، وله شاهد عن سمرة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن بيع الشاة باللحم، رواه الحاكم (٢/٣٥)، والبيهقي (٥/٢٩٦) وصححاه ووافقهما الذهبي، وفي الباب عن أبي بكر الصديق والقاسم بن محمد وعروة بن الزبير وأبي بكر بن عبدالرحمٰن رضي الله تعالى عنهم ذكر ذلك الشافعي وغيره، وذكر مالك في الموطأ عن أبي الزّناد، قال: وكل من أدركت من الناس ينهون عن بيع الحيوان باللحم، وقال ابن المسيّب: من ميسر أهل الجاهلية بيع الحيوان باللحم بالشاة والشاتين. وهذا البيع مما لا ينبغي الخلاف في تحريمه لما فيه من الغرر والخداع والمقامرة، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

جواز البيع إلى أجل

{٩٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثوبان قِطْرِيانِ غَلِيظَانِ، فكان إذا قَعَدَ فغرق ثُقُلاً عليه، فقدم بَزٌّ من الشام لِفُلان اليهودي، فقلتُ: لو بعثْت إليه فاشتريت منه ثَوْبَيْن إلى المَيْسَرة، فأرسل إليه، فقال: قد علمتُ ما يريدُ، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كذبَ قد عَلِمَ أني مِن أتقاهم، وأدَّاهُم للأمانة»**.

رواه الترمذي (١٠٩٥)، والنسائي (٤٣،١٤)، والحاكم (٢٤/٢)، وصححه الترمذي والحاكم والذهبي وهو كما قالوا، ويأتي مزيد لهذا في الرهن.

قوله: قطريان ـ بكسر القاف ـ: وهي ضرب من البرود فيها حمرة وأعلام مع بعض خشونة، والبز ـ بفتح الباء ثم زاي مشدّدة ـ: نوع من الثياب تكون من القطن أو الكتّان.

وفي الحديث جواز البيع والشراء إلى أجل، ولا خلاف في ذلك إذا لم يكن من البيوعات السابقة.

* * *

النهي عن التفريق بين الأقارب في البيع

{٩٤} ـ عن عليّ عليه السلام، قال: أمرني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن أبيع غلامين أخوين، ففرّقت بينهما، فذكرت ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**أَدْرِكْهُمَا وَأَرْجِعْهُمَا وَلاَ تَبِعْهُمَا إِلاَّ جَمِيعاً**».

وفي رواية: وهب لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غلامين أخوين، فبعت أحدهما، فقال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَا فَعَلَ غُلامَاكَ**»، فأخبرتُه، فقال: «**رُدَّهُ رُدَّهُ**».

وفي رواية: إنه فرّق بين والدة وولدها فنهاه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك، وردّ البيع.

رواه أحمد باللفظ الأول (٩٨/١، ١٢٧)، والرواية الثانية للترمذي (١١٦٢) بتهذيبي، والثالثة لأبي داود (٢٦٩٦)، ورواه أيضاً الطيالسي (١٣٢٨)، وابن ماجه (٢٢٤٩)، والحاكم (٥٤/٢) وصححه على شرطهما، وسنده صحيح عند أبي داود وأحمد.

{٩٥} ـ وعن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**من فرّق بين والدة وَوَلَدها فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

رواه أحمد (٤١٣/٥)، والترمذي (١١٦١، ١٤٣٧) بتهذيبي، والدارمي (٢٤٨٢)، والحاكم (٥٥/٢) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث طرق وشواهد. انظر نصب الراية (٢٣/٤، ٢٤، ٢٥).

والحديثان يدلاّن على تحريم التفريق بين الوالدة وولدها أو بين الأخوين، وبذلك قال جمهور أهل العلم لهذا الوعيد الشديد والزجر والتهديد، فإن من فرّق الله تعالى بينه وبين أحبّته قد لا يدخل الجنّة.. عياذاً بالله. وهذا التفريق سواء كان بالبيع في الرق أم في غيره، كالطلاق ونحو ذلك، غير أن العلماء قيدوا ذلك بالصغار وهو ظاهر.

* * *

مشروعية الوزن والكيل وما جاء في ذلك

{٩٦} ـ عن المقدام بن معديكرب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كِيلُوا طَعَامَكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**».

رواه أحمد (١٣١/٤) و(٤١٤/٥)، والبخاري (٢٤٩/٥)، ورواه ابن ماجه (٢٢٣١) عن عبدالله بن بُسْرٍ بسند صحيح، ورواه أحمد (٢٤٩/٥)، وابن ماجه (٢٢٣٣) عن أبي أيوب.

{٩٧} ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما، قال: بِعْتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بَعِيراً في سَفَرٍ، فلمّا أتينَا المدينةَ قال: «**ائْتِ المسجدَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**»، وقال: فوزَنَ لي فأرْجَحَ، فما زال منها شيءٌ حتى أصابَها أهلُ الشام يوم الحرَّة.

رواه البخاري في البيوع وفي الهبة وغيرهما، ومسلم (١٦٠٠)، وقد تقدم بعضه في الشروط في البيع.

{٩٨} ـ وعن سُوَيْد بن قَيْس رضي الله تعالى عنه قال: جلبتُ أنا

ومَخْرفة العَبْدِيّ بَزّاً من هَجَر، فجاءنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فساومنا بسراويلَ وعِنْدي وزّانٌ يزن بالأجر، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للوزّان: «**زِنْ وأَرْجِحْ**».

رواه أبو داود (٣٣٣٦)، والترمذي (١١٨٤) بتهذيبي، والنسائي (٤٢٧٩). وابن ماجه (٢٢٢٠)، والدارمي (٢٥٨٨)، وابن الجارود (٥٥٩)، والحاكم (٣/٣٠، ٣١)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وعند ابن ماجه (٢٢٢٢) عن جابر مرفوعاً: «**إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحوا**»، وسنده صحيح.

{٩٩} ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له: «**إِذَا بِعْتَ فَكِلْ وَإِذَا ابْتَعْتَ فَاكْتَلْ**»، ذكره البخاري في البيوع معلّقاً (٥/٢٤٧)، ورواه أحمد (١/٧٥) وسنده صحيح.

{١٠٠} ـ وعن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنهما قال: كان الصاع على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مدّاً وثلثاً بمدّكم اليوم، وقد زيد فيه في زمن عمر بن عبدالعزيز.

رواه البخاري في الأيمان والنذور وفي الاعتصام، والنسائي في الزكاة.

{١٠١} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الوَزْنُ وَزْنُ أَهْلِ مكّة، والمِكْيالُ مِكْيالُ أهلِ المدينة**».

رواه أبو داود (٣٣٤٠)، والنسائي (٤٢٨١)، وابن حبان (١١٠٥) بالموارد.

يوم الحرة: هو يوم مشهور كان فيه بين أهل المدينة وبين أهل الشام حرب أيام يزيد بن معاوية أوْدَتْ باستشهاد كثير من الصحابة وساداتِ التابعين، ونُهِبت المدينة واستُبِيحَتْ. وأحاديث الباب تدلّ بمجموعها على مشروعية الوزن والكيل، وينبغي للوزّان أو الكيال أن يرجح حالة البيع، وأنه يعتبر في المكيال مكيال أهل المدينة، وفي الوزن وزن أهل مكّة، والصاع

الذي ذكره السائب قدره هو أربع حفنات من الرجل المتوسط. وبهذا تقدر المحصولات الزراعية في إخراج الزكوات، وفي حديث عثمان دليل على وجوب الكيل والاكتيال عند البيع والشراء معاً، وقد تقدم معنى ذلك سابقاً، وفي حديث المقدام وَعْدٌ من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالبركة في الطعام إذا كيل، وإنما الأعمال بالنيّات.

* * *

ما جاء في بيع الفضولي

{١٠٢} ـ عن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه قال: دفع إليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ديناراً لأشتري له شاة، فاشتريت له شاتين، فبعت إحداهما بدينار، وجئت بالشاة والدينار إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فذكر له ما كان من أمره، فقال: «**بارَكَ اللهُ لك في صَفْقَةِ يمينك**»، فكان من أكثر أهل الكوفة مالاً، وفي رواية: فكانَ لَوْ اشترى التراب لَرَبِحَ فيه.

رواه أحمد (٤/٣٧٥، ٣٧٦)، والبخاري في علامات النبوّة وغيرها، وأبو داود (٣٣٨٤)، والترمذي (١١٣٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٤٠٢).

قوله: صفقة إلخ، أي: بيعتك. والحديث يدلّ على جواز الاتّجار والتصرّف في مال الغير، ولو بغير إذنه إذا كان المتّجر أميناً ناصحاً لرب المال، وهذه الصورة التي صدرت من هذا الصحابي مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تدلّ على أن ربح التاجر الفضولي لصاحب المال، وفي هذه المسألة تفاصيل عند الفقهاء ويسمونها: «بيع الفضولي»، ويأتي مزيد لهذا في المضاربة إن شاء الله تعالى.

ضربهم الله وأنزل بهم أنواعاً من البلاء، وشتّت شملهم وسلّط عليهم أعداءهم.

❊ ❊ ❊

جواز الزيادة على القرض عند الوفاء

{١٠٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان لرجُلٍ على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سِنٌّ من الإبل، فجاء يتقاضاه فأغْلَظَ له فهَمَّ به أصحابُه، فقال: «**أَعْطُوهُ**»، فلم يجدُوا له إلا سِناً فوق سنِّه فأعْطَوْه، فقال: أَوْفَيْتَني أوْفَى الله لك، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضاءً**».

رواه أحمد (٢/٣٧٧، ٤٠٣١، ٥٠٩) وفي مواضع، والبخاري في الوكالة (٥/٣٨٩، ٣٨٨)، ومسلم (١١/٣٨) وباقي الجماعة.

{١٠٧} ـ وعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اسْتَسْلَفَ مِنْ رجُلٍ بَكْراً فقدِمتْ عليه إبلٌ من إبل الصَّدقةِ، فأمر أبا رافعٍ أن يقضِيَ الرجُل بَكْرَهُ فرَجَعَ إليه أبو رافع فقال: لم أجد فيها إلا خِياراً رباعياً، فقال: «**أَعْطِهِ إِيَّاهُ، إِنَّ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضاءً**».

رواه مسلم (١١/٣٦)، وأبو داود (٣٣٤٦)، والترمذي (١٣١٨)، والنسائي (٤٣٠٣) وغيرهم.

وفي الباب عن أنس وابن عباس وعائشة وغيرهم، ويأتي بعضها في الرهن.

قوله: يتقاضاه يطلب منه قضاء دينه، وقوله: أوفيتني أي: أعطيتني وافياً زائداً على حقّي، وقوله: استسلف أي: طلب منه أن يسلفه، وقوله: بكراً ـ بفتح الباء ـ: هو من الإبل بمنزلة الغلام من الذكور، وقوله: رباعياً ـ بفتح الراء وتخفيف الباء ـ: هو الذي دخل في السنة السابعة، والحديثان

يدلاّن على جواز الزيادة على مقدار الدين من المستدين يدفعها لربّ القرض، وهو ظاهر الحديثين. وبهذا قال الجمهور بشرط أن لا يكون شرطاً في العقد، أو تعطى في أول القرض، وإلا كانت رشوة أو ربا. والقاعدة أن كل سلف جرّ منفعة فهو ربا.

وفي الحديثين ما كان عليه النبيّ ﷺ من حسن القضاء والمعاملة الطيبة.

❊ ❊ ❊

معاملة الله تعالى المستدين حسب نيّته

{١٠٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أخذ أموال الناسِ يُريدُ أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذَها يُريدُ إتْلافَهَا أتْلَفَهُ الله عزّ وجلّ**».

رواه أحمد (٣٦١/٢، ٤١٧)، والبخاري في الزكاة وفي الاستقراض (٤٥١/٥)، وابن ماجه (٢٤١١).

فيه أن الله عزّ وجلّ يعامل المرء حسب نيّته، فإن أخذ مال الآخرين وكانت نيّته القضاء قضى الله تعالى عنه بأن ييسّر له ذلك حتى يردّه، وإن تعذّر عليه حتى يتوفّى تكفّل الله تعالى عنه لصاحب الدين، ولم تكن عليه تبعة. أما من أخذه بنيّة سيّئة فسوف يتلفه الله تعالى في الدنيا، وذلك في معاشه وفي نفسه، وقد يراد بالإتلاف عذاب الآخرة.

❊ ❊ ❊

خطر من مات وعليه دين لم يقضه

{١٠٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نَفْسُ المُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ**».

رواه أحمد (٢/٤٤٠، ٤٧٥)، والترمذي (٩٦٢) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٤١٣)، وابن حبان (١١٥٨) بالموارد، والحاكم (٢/٦٧)، وصححه الحاكم وهو وارد من طرق بعضها صحيحة.

وفي الحديث بيان أن الدَّيْن من الحقوق العظيمة التي تحول بين الإنسان وبين راحته بعد موته، وأن نفسه لا تزال في ضيق وأسر حتى يقضى عنه، وإذا كان هذا في الدين المشروع، فكيف بمن يأخذ أموال الناس غصباً أو سرقةً أو غشّاً وخديعة...

{١١٠} ـ وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقول إذا توفّي المؤمن في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعليه الدين، فيسأل: «**هل ترك لِدَيْنِهِ مِنْ قَضاء**»؟ فإن قالوا: نعم صلّى عليه، وإن قالوا: لا، قال: «**صلُّوا على صاحبكم**»، فلما فتح الله على رسوله الفتوح، قال: «**أنا أوْلَى بالمؤمنين مِن أنْفُسِهِم، فمن تُوُفِّي وعليه دَيْنٌ فعليَّ قضاؤُهُ، ومن ترك مالاً فهو لِوَرَثَتِهِ**».

رواه البخاري (١١/٤٤٤) و(٥/٤٥٨) وفي مواضع، ومسلم (١١/٦٠)، والترمذي (٩٥٥) بتهذيبي، والنسائي (٤/٥٣)، وابن ماجه (٢٤١٥) وغيرهم.

في الحديث خطر على المدين إذا توفّي ولم يترك ما يقضى به دينه، فإن في ترك الصلاة عليه من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زجراً بالغاً. ويؤخذ من الحديث أن من مات وعليه دين لم يجد له قضاء كان قضاؤه على الخليفة من بيت المال، وبذلك قال العلماء رحمهم الله تعالى.

❊ ❊ ❊

الاستعاذة من الدَّين

{١١١} ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يدعو في الصلاة ويقول: «**اللَّهمّ إني**

أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ»، فقال قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم، قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»**.

رواه البخاري (٤٥٨/٥) وفي مواضع، ومسلم (٨٧/٥) وغيرهما.

المأثم: الإثم، والمغرم: الدين. وفي الحديث التحذير من الاستدانة ولا سيما لمن لا يطيق الأداء؛ لأن ذلك يؤدي بصاحبه إلى الكذب وخلف الوعد، وكلاهما من كبار المعاصي عياذاً بالله، فمن علم من نفسه العجز عن أداء الدين فلا يقدم عليه، وقد جاء عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الاستعاذة من غلبة الدين، كما تقدم في الأدعية. أما ما صحّ عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من استدانته مرات متعدّدة، فذلك محمول على أنه كان عالماً من نفسه القضاء.

❊ ❊ ❊

فضل إنظار المعسر أو الوضع عنه

{١١٢} ـ عن أبي اليسر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّه يومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ»**.

رواه أحمد (٤٢٧/٣)، ومسلم في الزهد في آخر الكتاب (١٣٥/١٨).

وفي رواية لأبي هريرة مثله، وفيه: **«أظلَّهُ الله يومَ القيامة تحت ظِلّ عَرْشِهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّهُ»**، رواه أحمد (٣٥٩/٢)، والترمذي (١١٨٥) بتهذيبي بسند صحيح على شرط مسلم. والأحاديث بإنظار المعسر متواترة، ولم يذكرها السيوطي ولا الكتاني رحمهما الله تعالى. قوله: أنظر معسراً إلخ، الإنظار هو التأخير، والمعسر: الغريم الذي لم يجد ما يؤدي به دينه. وفي الحديث فضل إنظار الغريم المعسر، وأفضل منه الوضع عنه ومسامحته، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وحسب المنظر أو المسامح أن يكون تحت ظلّ العرش يوم القيامة ، ذلك اليوم العبوس.

{١١٣} ـ وعن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّن كانَ قَبْلَكُمْ فلمْ يُوجدْ لهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ إلاَّ أَنَّهُ كانَ رَجُلاً مُوسِراً، فكانَ يُخَالِطُ الناس، فكانَ يَأْمُرُ غِلْمَانه أن يَتَجَاوَزُوا عن المُعْسِرِ، فقال الله تعالى: نَحْنُ أحقُّ بذلك منه، تَجاوَزُوا عنه**».

رواه أحمد (٤/١٢٠)، ومسلم (١٠/٢٢٦) ونحوه عن حذيفة عنده بنحوه ومعناه.

في الحديث كسابقه فضل المسامحة والتجاوز عن المعسر، وأن الله عزّ وجلّ سيعامل المحسنين بإحسانهم والمسامحين بمسامحتهم، وهكذا في كل شيء.

وسيأتي بقية لهذا الموضوع في الإفلاس وفي المظالم، وغير ذلك إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

استحباب وضع بعض الدين

{١١٤} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه تقاضى ابن أبي حَدْرَد دَيْناً كان له عليه في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، ونادى كعب بن مالك، فقال: «**يا كعبُ**»، فقال: لبّيك يا رسول الله، فأشار إليه بيده «**أن ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ**»، قال كعب: قد فعلتُ يا رسول الله، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قُم فاقْضِهِ**».

رواه البخاري في الصلاة وغيرها، ومسلم في المساقاة (١٠/٢٢٠) ونحوه عندهما عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

قوله: تقاضى أي: طالب، وقوله: سجف ـ بكسر السين ـ: أي: ستر، والشطر هنا: النصف، وفيه استحباب الوضع عن المدين لأن ذلك من مكارم الأخلاق.

* * *

تحريم المماطلة في أداء الدين مع الوجد

{١١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مطل الغنيّ ظُلْمٌ**».

رواه أحمد (٢/٢٤٥، ٤٦٥) وفي مواضع، والبخاري (٥/٤٥٦)، ومسلم (١٠/٢٢٨)، وباقي الجماعة، ويأتي في الحوالة كاملاً إن شاء الله تعالىٰ.

{١١٦} ـ وعن الشَّريد بن سُوَيْد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وعُقُوبَتَهُ**».

رواه أحمد (٤/٢٢٢، ٣٨٨)، وأبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٣٨٣)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، والحاكم (٤/١٠٢) وغيرهم، وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وعلّقه البخاري في الاستقراض (٥/٤٥٩)، وحسّنه الحافظ في الفتح.

قوله: مطل ـ بفتح الميم وسكون الطاء ـ: هو تأخير الأداء هنا، وقوله في الحديث الثاني: لَيّ ـ بفتح اللام وتشديد الياء ـ: هو المطل، والواجد: هو الغني القادر على الأداء، وقوله: يُحِل ـ بضم الياء وكسر الحاء ـ: أي: يجوز وصفه بكونه ظالماً.

والحديثان يدلاّن على تحريم المماطلة وتأخير أداء الحقوق، ومنها الديون وذلك ظلم من الواجد المتمكّن من الأداء إذا لم يمنعه مانع معتبر،

والحديث الثاني يدلّ على جواز تكلّم المظلوم في عرض الماطل الظالم بأن يقول: ماطلني وظلمني، كما أن ذلك يوجب عقوبته إذا رفع أمره إلى الحاكم بأن يحبسه مثلاً أو يؤدّبه على حسب ما يراه، وبهذا يعرف أن المماطلة بلا ضرورة من كبار المعاصي.

* * *

باب الحوالة

{١١١٧} ـ فيه حديث أبي هريرة السابق قبل... «**مطل الغني ظلم، فإذا أُتبِعَ أحَدُكُمْ على مَلِيء فَلْيَتْبَعْ**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود (٣٣٤٥)، والترمذي (١٣٠٨)، والنسائي (٣٠٦/٧، ٣٠٧)، وابن ماجه (٢٤٠٣)، والدارمي (٢٥٨٩) وغيرهم.

الحوالة بفتحات: هي نقل دين من ذمّة إلى ذمّة، ويشترط لها رضَى المحيل والمحال عليه، وأن يكون هذا الأخير مليئاً، وأن يكون في شيء معلوم.

وهي مشروعة اتفاقاً، وإنما اختلفوا هل هي واجبة لظاهر الأمر بها كما ذهب إليه الحنابلة والظاهرية وغيرهم، أم هي من باب الإرشاد ومكارم الأخلاق، كما قال آخرون، وعلى كل حال فهي من المعاملات الأخلاقية التعاونية.

* * *

باب الرهن

{١١١٨} ـ عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من

حديد، وفي رواية: توفي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ودِرْعُه مرهونَةٌ عند يهودي بثلاثين صاعاً من شَعِيرٍ.

رواه البخاري (٥/٣٤٠) رقم (٢٠٦٨، ٢٩١٧)، ومسلم (١٦٠٣) (ج ١١/٣٩، ٤٠) وغيرهما.

{١١٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الظَّهْرُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إذا كان مَرْهُوناً، وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ بنَفَقَتِهِ إذَا كَانَ مَرْهُوناً، وعلى الذي يَرْكَبُ ويَشْرَبُ النَّفَقَةُ**».

رواه البخاري (٢٥١٢، ٢٥١١)، وأبو داود (٣٥٢٦)، والترمذي (١٢٥٤)، وابن ماجه (٢٤٤٠) وغيرهم.

الرهن ـ بفتح الراء ـ: هو الاحتباس، وفي الشرع: إعطاء مال ونحوه وثيقة على دين.

وفي الحديثين دليل على مشروعية الرهن ولا خلاف في ذلك بين العلماء، وفيه دليل على صحته، ولو في الحضر خلافاً للظاهرية، وتقييده في الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إلخ [البقرة: ٢٨٣]، خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وحديثا الباب نص في جوازه مطلقاً، وفي الحديث الأول جواز معاملة الكفار، ويستثنى معاملتهم فيما يتقوون به على المسلمين وما يعود علينا بالضرر في ديننا ودنيانا، والحديث الثاني يدلّ على جواز الانتفاع بالشيء المرهون إذا كان حيواناً يحتاج إلى نفقة وضمان، فللمرتهن أن يركب فرساً أو بغلاً أو ناقة أيام الارتهان، وله أن يشرب لبن ما يحلب منها، وله أن يحرث بها... وذلك في مقابلة نفقة المرهون وضمانه، وليس من هذا القبيل الأراضي والدور والحمامات والمصانع والسيارات ونحو ذلك، فإنه لا يجوز استغلالها في الرهن، بل ذلك يعدّ ربا.

❋ ❋ ❋

باب الإفلاس والتحجير على السفيه وبيان علامة الرشد والبلوغ

{١٣٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيّما رَجُل أفْلس فأدْرَكَ رَجُلٌ مَالَهُ بِعَيْنِهِ فَهُوَ أحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ**».

رواه مالك رقم (١٤٢٠)، والبخاري (٢٤٠٢)، ومسلم (١٥٥٩) والأربعة وغيرهم.

{١٣١} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: أُصِيبَ رَجُلٌ في عَهْدِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ثِمارٍ ابْتَاعَها، فَكَثُر دَيْنُه، فقال رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ**»، فتصدق الناس عليه، فلم يَبْلُغ ذلك وفاءَ دينه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لِغُرَمَائِهِ: «**خُذوا ما وَجَدْتُمْ وليس لكُمْ إلا ذلك**».

رواه مسلم (١٥٥٦).

الإفلاس: هو إحاطة الديون بالرجل ولا يجد لها قضاء، وقوله: ابتاعها أي: اشتراها، والحديثان يدلاّن على أن من أفلس يجب عليه ردّ ما كان تبقّى من أمتعة الناس إلى أربابها، وأن من وجد متاعه عنده بعينه فهو أحقّ بأخذه من غيره.

وفي الحديث الثاني مشروعية التصدّق على المفلس وإرشاد الناس إلى ذلك، فإنه من التعاون على البرّ والتقوى والتنفيس على المؤمن، وفي ذلك خير كبير، وفيه أن الغرماء يقتسمون ما وجدوا عنده من مال إذا لم يكن لأحدهم، وسواء كان المفلس حياً أم ميتاً.

{١٣٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يبتاع، وكان في عقدته ـ يعني: عقله ـ: ضعف، فأتى أهلُه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا نبيّ الله أُحْجُرْ على فلان، فإنه يَبْتَاعُ وفي عُقْدته ضعفٌ، فدعاه النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنهاه عن البيع، فقال: يا نبيّ الله إني لا أصْبِرُ عن البيع، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن كنت غير تارك البيع فقل ها ها ولا خِلابَة**».

رواه أحمد (٢١٧/٣)، وأبو داود (٣٤٩٥)، والترمذي (١١٢٩) بتهذيبي، والنسائي (٢٢٢/٧)، وابن ماجه (٣٣٥٤) وسنده صحيح على شرط مسلم وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدم حديث ابن عمر في معناه مختصراً برقم (٢١).

قوله: في عقدته ـ بضم العين ـ: أي: عقله، وقيل: العقدة في اللسان، وقوله: ها: أصله هاء، أي: خذ، وقد استدلّ بالحديث الأئمة مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم رحمهم الله تعالى على التحجير على السفيه الذي لا يحسن التصرّف، ووجه ذلك أن أهل الرجل لما طلبوا من النبيّ (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) الحجر عليه نهاه عن البيع، وهذا هو الحجر والمنع واحتجّوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] الآية، وفسّر العلماء السفيه بالذي لا يحسن التدبير والتصرّف في ماله، ومثلوا لذلك بالنساء والصبيان والمجانين والحمقى وغيرهم.

{١٢٣} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ: عن النَّائِم حتَّى يَسْتَيقِظ، وعَنِ الطِّفْل حتى يَحْتَلِم، وعَنِ المَجْنُون حتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَعْقِلَ**».

رواه أحمد (١١٦/١، ١١٨، ١٤٠)، وأبو داود (٤٤٠١، ٤٤٠٢)، والترمذي في أول الحدود (١٤٢٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢)، وابن خزيمة (١٠٠٣)، وابن حبان (١٤٣)، والحاكم (٣٨٩/٤)، والبيهقي (٢٦٤/٨) وغيرهم بألفاظ وطرق بعضها صحيحة، وانظر تهذيبي للترمذي (١٢٩٣)، والهداية للحافظ سيدي أحمد الصديق رحمه الله تعالى (٩٧/١، ٩٨).

قوله: يحتلم أي: يبلغ وقت الاحتلام، وفي رواية: حتى يشبّ، وقوله: المجنون، في رواية: المعتوه، وهو الناقص العقل.

والحديث يدلّ على أن هؤلاء الأصناف غير مخاطبين بالتكاليف

الشرعية، ولا خلاف في ذلك، واستدلّ بالحديث على التحجير على الصبي والمجنون، وهذا مما لا ينبغي فيه الخلاف لأنهما لا يحسنان التصرّف في أموالهما.

{١٢٤} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: عرضت على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يُجِزْني، وعُرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني.

وفي رواية: فلم يجزني ولم يرني بلغت.

رواه البخاري في الشهادات (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨)، والترمذي (١٢٣٢، ١٥٦٩) بتهذيبي، وأبو داود (٢٩٥٧، ٤٤٠٦، ٤٤٠٧)، والنسائي (١٥٥/٦)، وابن ماجه (٢٥٤٣) وغيرهم، والرواية الثانية عزاها الحافظ لابن خزيمة، والبيهقي. هذا الحديث استدلّوا به على حدّ بلوغ الغلام، قال نافع رحمه الله تعالى: قدمت على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى وهو خليفة فحدثته بهذا الحديث، فقال: إن هذا لَحَدٌّ بَيْنَ الصغير والكبير وكتب إلى عمّاله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة، وبهذا أخذ الشافعي وغيره، وهذا إذا لم تظهر فيه علامة أخرى، فإن للبلوغ علامات ومنها الآتي.

{١٢٥} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها نزلت على صفّية أم طلحة الطلحات، فرأت بنات لها يصلين بغير خمرة قد حِضْنَ، قال: فقالت عائشة: لا تُصَلِّيَنَّ جاريةٌ منهنّ إلا في خِمار، إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليَّ وكانت في حِجْرِي جاريةٌ فألقى عليَّ حقْوه، فقال: **«شُقّيه بَيْنَ هذه وبين الفتاةِ التي في حِجْرِ أمّ سلمة، فإني لا أراها إلاّ قد حاضَتْ»** أو **«لا أراهُما إلا قد حاضَتا»**.

رواه أحمد (٩٦/٦، ٢٣٨)، وأبو داود (٦٤٢)، وابن ماجه وغيرهم ورجاله رجال الصحيحين.

قوله: خمرة ـ بكسر الخاء ـ: لغة في الخمار، وقوله: حقوه أي: إزاره.

والحديث استدلّ به على أن الحيض بالنسبة للجارية من علامات البلوغ، ولا خلاف في ذلك. وقد ذكر العلماء للبلوغ خمس علامات: الاحتلام، والسن، وبروز شعر العانة، والحيض، والحمل، والأخيران يختصّان بالنساء.

{١٣٦} ـ وعن عطية القرظي رضي الله تعالى عنه قال: عُرِضْنا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لم ينبت خلّى سبيله، فكنت ممّن لم ينبت فخلّى سبيلي.

رواه أبو داود في الحدود، والترمذي (١٤٥٥)، والنسائي في الطلاق وابن ماجه (١٥٤١)، وابن حبان (١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١)، والحاكم (١٢٣/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو عند الترمذي على شرط مسلم.

قوله: خلّى سبيله أي: تركه فلم يقتله، لأنه كان أهدر دماء يهود قريظة لخيانتهم، فكان يقتل كل من رأى أنه بلغ الحلم، وكان يأمر من شكّ فيه من الغلمان بالكشف عن عانته، فمن رآه أنبت أمر بقتله، فكان ذلك علامة على بلوغ الأطفال... والحديث سيأتي أيضاً في السير. وإذا عرفنا علامة البلوغ، علمنا أن من كان دونه كان من المحجر عليهم فلا يمكنون من التصرّف في أموالهم حتى يبلغوا رشدهم. وسيأتي مزيد للموضوع في محل آخر إن شاء الله تعالى.

* * *

الشركة والوكالة

{١٣٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالت الأنصار للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا»، فقالوا: تكْفُونا المَؤُونَة ونَشْرِكُكُم في الثَّمَرَةِ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا.

رواه البخاري في المزارعة (٥/٤٠٥) وفي مواضع.

{١٢٨} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جَمعُوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد ثم اقْتَسَمُوهُ بينهم في إناء واحدٍ بالسّوِيَّةِ، فَهم منّي وأنا مِنْهُمْ**».

رواه البخاري في أول الشركة (٥/٥٥)، ومسلم في فضائل الصحابة.

في الحديثين مشروعية الشركة، ولا خلاف في ذلك، وقد جاءت بها أحاديث كثيرة سيأتي بعضها إن شاء الله تعالى في غضون الكتاب، وتجوز في كل شيء في الدور والأراضي والأشجار وفي المواشي وفي التجارات وغير ذلك مما هو مباح شرعاً.

{١٢٩} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطاه غنماً يقسمها على صحابته، فبقي عتود فذكره للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**ضحِّ به أنت**».

رواه البخاري في الوكالة (٥/٣٨٥).

{١٣٠} ـ وعن زيد بن خالد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**واغْدُ يا أُنَيسِ إلى امْرَأةِ هذا، فإنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**».

رواه البخاري (٥/٣٩٧) وفي مواضع، ومسلم (١١/٢٠٧)، وأبو داود (٤٤٤٥)، والترمذي (١٣٠٢)، والنسائي والدارمي وغيرهم، ويأتي مطولاً في الحدود إن شاء الله تعالى.

الوكالة ـ بفتح الواو ـ: هي التفويض والحفظ، وفي الشرع: إقامة الشخص غيره مقام نفسه مطلقاً أو مقيداً ينوب عنه فيما اتّفقا عليه، وهي جائزة إجماعاً، وجاءت فيها أحاديث كثيرة يفيد مجموعها التواتر المعنوي.

❊ ❊ ❊

مشروعية العارية ووجوب ضمانها على المستعير

{١٣١} ـ عن عبدالواحد بن أيمن عن أبيه، قال: دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها وعليها دِرْعُ قِطْر ثمنه خمسة دراهم، فقالت: ارْفع بَصرك إلى جاريتي انظر إليها، فإنّها تُزْهَى أن تَلْبَسَه في البيت، وقد كان لي منهن درع على عهدِ رسولِ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فما كانت امرأة تُقَيَّنُ بالمدينة إلا أرسلتْ إليّ تَسْتَعيرُهُ.

رواه البخاري في الهبة (٦/١٦٩، ١٧٠).

{١٣٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان فزع بالمدينة فاستعار النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرساً من أبي طلحة يقال له المندوب، فركبه فلما رجع قال: «**ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً**».

رواه البخاري في الهبة (٦/١٦٩)، ومسلم في الفضائل (٢/٢٣٠٧) (١٥/٦٧)، والترمذي (١٦٨٦، ١٦٨٧)، وأبو داود (٤٩٨٨) وغيرهم، والأحاديث في العارية كثيرة.

قوله: تزهى مبني للمجهول أي: تأنف وتتكبر، وقوله: تقين بضم التاء وفتح القاف والياء المشدّدة ـ: أي: تُزَيَّنُ، وقوله: تستعير أي: تطلب إعارته.

وقوله: وإن وجدناه إلخ، أي: ما وجدناه إلا بحراً، يعني: واسع الجري والعدو.

وفي الحديثين مشروعية العارية، وهي هبة المنافع دون الرقبة، ولا خلاف في جوازها، وتصحّ في كل شيء من قليل وكثير وحيوان وأثاث وغير ذلك غير ما حرم الله تعالى كإعارة النساء أو الأطفال للفجور بهم...

قال عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا نعد الماعون عارية، الدلو والقدر.

رواه أبو داود في الزكاة (١٦٥٧) بسند صحيح، ومعناه أن قوله

تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٧] مثل منعهم إعارة دلو الماء والقدر للطبخ ونحو ذلك، فإعارة هذه الأشياء واجبة، ومنعها محرم لمانعها الويل بنصّ الآية، ﴿فَوَيْلٌ﴾ إلخ.

{١٣٣} ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما أراد المسير إلى حنين بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى صفوان بن أميّة، فسأله أذراعاً مائة دِرْع وما يُصْلِحُها من عِدَّتِها، فقال: أَغَصْباً يا محمد؟ فقال: **«بل عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ حتى نُؤدِّيها إليك»**.

رواه الحاكم (٤٨/٣)، والبيهقي (٨٩/٦) بسند صحيح وصححه الحاكم، وله شاهد عن صفوان نفسه، رواه أبو داود (٢٥٦٢)، وأحمد (٤٦٥/٦ ج٤٠١/٣)، والحاكم (٤٧/٢)، والبيهقي (٨٩/٦)، وفيه شريك القاضي ولا يضر هنا.

{١٣٤} ـ وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«العَارِيَة مُؤدَّاةٌ، والمِنْحَةُ مَرْدُودَةٌ، والدَّيْنُ مَقْضِيٌّ، والزَّعِيمُ غَارِمٌ»**.

رواه أحمد (٢٦٧/٥)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (١٢٦٦)، وابن ماجه (٢٠٠٧) وفي مواضع وغيرهم، وسنده حسن وهو صحيح لشاهد له عن أنس عند ابن ماجه (٢٣٩٩) بسند صحيح، وآخر عن رجل رواه أحمد (٣/٥ و٢) بسند صحيح.

قوله: والمنحة بكسر الميم؛ كان من عادات العرب أنهم يمنحون للضعيف ناقة حلوبة يشرب لبنها، فإذا انقضى اللبن ردّها إلى ربّها، وهي من مكارم الأخلاق ومما رغب فيه الشارع، وقوله: والزعيم: الكفيل.

وفي الحديث دليل على وجوب ردّ العارية وأنها مضمونة عند المستعير، فإذا تلفت غرمها، وهذا ما ذهب إليه الجمهور من الأئمّة والعلماء لظاهر الحديثين، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والعارية أمانة، ولحديث سمرة عنه صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم قال: «**على اليَدِ ما أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيه**»، رواه أبو داود (٣٥٦١)، والترمذي (١١٤٤)، وابن ماجه (٢٤٠٠)، والحاكم (٤٧/٢) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي. فالحديث ظاهر في وجوب ضمان العارية، فقوله على اليد أي: يجب على اليد ردّ ما أخذته، وفي حديث أبي أُمامة دليل على وجوب أداء الكفيل والزعيم ما تكفّل به وتحمّله...

* * *

مشروعية الوديعة

{١٣٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**».

رواه الترمذي (١٢٦٤)، والدارمي (٢٦٠٠)، وأبو داود (٣٥٣٥)، والحاكم (٤٦/٢)، والبيهقي (٢٧١/١٠) وغيرهم، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وصححه أيضاً ابن السكن وحسّنه الحافظ، والحديث له شواهد تقوّيه خلافاً لمن ضعّفه مطلقاً. الوديعة: هي شيء يضعه مالكه عند آخر ليحفظه له.

واستدلّ الفقهاء بهذا الحديث على مشروعيّة الوديعة وضمانها وأدائها، ولا خلاف في جوازها، وقد دلّ عليها الكتاب والإجماع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. ومن الأمانات الودائع، وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وأجمع العلماء في كل عصر على جواز الإيداع والاستيداع، لأن الضرورة تقتضي ذلك، والناس محتاجون إليها، فإنه يتعذّر على الجميع حفظ أموالهم بأنفسهم.

والحديث يدلّ على وجوب أداء ما اؤتمن عليه الإنسان، كالآيتين ولا

يجوز خيانة من خانك، وفي ذلك خلاف بين العلماء وكلام طويل ليس هذا محل بسطه.

❊ ❊ ❊

باب الشفعة

{١٣٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالشفعة في كل ما لم يُقْسَمْ، فإذا وقعتْ الحدود وصُرِفَت الطُّرُقُ فلا شُفْعَةَ.

وفي رواية: «**الشُّفعة في كل شِرْكٍ في أرض أو رَبْع أو حائط لا يصلح**»، وفي لفظ: «**لا يحلّ أن يبيع حتى يَعْرِض على شريكه**»، وفي رواية: «**فإنْ شاء أخذ وإن شاء ترك، فإن باعه ولم يُؤْذِنْه فهو أحقُّ به**».

رواه البخاري (٣٤٢/٥)، ومسلم (٤٦/١١، ٤٧)، وأبو داود (٣٥١٣، ٣٥١٤)، والترمذي (١٢٤١)، والنسائي (٤٦٤٦، ٤٣٣١) وغيرهم بألفاظ مطولاً ومختصراً.

{١٣٧} ـ وعن جابر أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الجارُ أَحَقُّ بِشُفْعَةِ جارِهِ يُنْتَظَرُ بها، وإن كان غائباً إذا كانَ طريقُهُما واحداً..**».

رواه أبو داود (٣٥١٨)، وابن ماجه (٢٤٩٤)، وكذا الترمذي (١٢٤٠)، والدارمي (٢٦٣٠).

{١٣٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا قُسِمتْ الأرض وحُدِّدَتْ فلا شُفْعَةَ فيها**».

رواه أبو داود (٣٥١٥)، وابن ماجه (٢٤٩٧).

وفي الباب عن عبادة وعن سمرة وعن الشريد بن سويد وغيرهم.

الشُّفعة ـ بضم الشين ـ: مأخوذة من شفعت الشيء إذا ضممته وثنيته وسمّيت شفعة لضمّ نصيب إلى نصيب، وهي في الشرع: انتقال حصّة شريك إلى شريك كانت انتقلت إلى أجنبي بمثل العوض المسمى. قال الحافظ: ولم يختلف العلماء في مشروعيّتها إلا ما نقل عن أبي بكر الأصمّ من إنكارها. وقوله: فإذا وقعت الحدود إلخ استدلّ به الجمهور على أنه لا شفعة للجار إذا لم يكن شريكاً، فإذا وقعت القسمة ووضعت علامات الحدود وشقت الطرق ونحو ذلك لم تبق للجار شفعة، وقوله: في كل شيء، هذا عام مخصوص بالعقار والدور وما إلى ذلك دون ما يمكن نقله كالدواب والأمتعة؛ لقوله: في أرض أو ربع أو حائط، والربع هو الدار والمسكن، والحائط بستان النخل، وفي الموضوع خلاف بين العلماء، والحق ما ذكرناه، فإنه قول الجمهور وظاهر ما في الصحيحين. والحكمة في تشريع الشفعة: رفع الضرر ودفعه عن الشريك، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

غرز الخشب في دار الجار

{١٣٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لاَ يَمْنَعْ أَحَدُكم جارَهُ أن يَغْرِزَ خَشَبَتَهُ في جِدَارِهِ»**، قال: ثم يقول أبي هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله **لأَرْمِيَنَّ** بها بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ.

رواه البخاري (٣٥/٦)، ومسلم (٤٧/١١) وغيرهما، وفي الباب عن ابن عباس وغيره.

في الحديث مشروعية تمكين الجار من وضع خشبة ونحوها على جدار جاره إذا اضطر إلى ذلك، لأنه من حسن الجوار ومن مكارم الأخلاق، وقد قال بوجوب ذلك أحمد وأصحاب الحديث. وقول أبي هريرة: لأرمينّ بها إلخ، أي: بالسنة والموعظة، وقيل: بالخشبة.

❊ ❊ ❊

باب الغصب والمظالم

{١٤٠} ـ عن عبدالله بن يزيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: «نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن النُّهْبَى والمُثْلَى».

رواه البخاري في المظالم (٤٥/٦) وغيره ونحوه عن زيد بن خالد، رواه أحمد (١١٧/٤) بلفظ: «نَهَى عن النُّهْبَة والخُلْسَة».

{١٤١} ـ وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من انْتَهَبَ فَلَيْسَ مِنّا**».

رواه الترمذي (١٦٠١)، والنسائي (١٦/٤)، وأبو داود (٣٢٢٢)، وابن ماجه (١٨٨٥)، وابن حبان (٤١٥٤)، وحسّنه الترمذي وصححه، وللحديث شواهد عن جابر عند أبي داود وابن ماجه.

وعن عمران عند ابن حبان وابن ماجه، وعن ثعلبة بن الحكم عند ابن ماجه وابن حبان.

النَّهْبَى ـ بضمّ النون ـ: من النهب، وهو أخذ الإنسان ما ليس له جهاراً، والخلسة ـ بضم الخاء وسكون اللام ـ: ما يؤخذ مكابرة وسلباً أيضاً والمثلى ـ بضم الميم ـ: يأتي الكلام عليها في الجهاد إن شاء الله تعالى. والغصب: أخذ الشيء ظلماً. والمظالم جمع مظلمة ـ بفتح اللام وكسرها ـ: ما يجب أداؤه للغير من حقوق...

والحديثان يدلاّن على تحريم غصب أموال الآخرين مما لا حقّ للإنسان فيها، وهذا مما لا خلاف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إلخ [البقرة: ١٨٨]، فالنهبة غصب يستحق فاعلها العقوبة، وهي وإن كانت تتناول في الحديثين الجماعة ينتهبون الغنيمة بلا قسم أو يقدم إليهم طعام فينتهبونه فهي تتناول نهب كل الأموال بلا حقّ، وذلك محرّم بدون خلاف، وفي الصحيح: «**إن دماءكم وأموالكم**

وأعراضكم عليكم حرام» إلخ، وفي الصحيح أيضاً: **«كُلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**، رواه مسلم ويأتي ذلك.

* * *

إثْمُ مَنْ غَصَبَ أرضَ غيره

{١٤٢} ـ عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْراً من الأرض ظُلْماً طَوَّقَهُ الله إياه يومَ القيامة من سَبْع أرضين»**.

رواه البخاري في المظالم (٦/٢٨، ٢٩)، وفي بدء الخلق، ومسلم في المساقاة (١١/٤٨) وغيرهما.

{١٤٣} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقّه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»**.

رواه البخاري في المظالم (٦/٣٠)، وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة ووائل عند مسلم وعن يعلى بن مرّة عند أحمد.

قوله: اقتطع أي: أخذ شيئاً، وقوله: شبراً في رواية لمسلم: قيد شبر ـ بكسر القاف ـ: أي: قدر، وقوله: ظلماً. الظلم: هو وضع الشيء في غير محله أو التصرّف في مال الغير بغير حقّ، وقوله: طوّقه الله، قيل: معناه: أنه يحمل مثله من سبع أرضين، وقد جاء في رواية لأحمد عن يعلى بن مرّة: **«جاء يوم القيامة يحمل ترابها إلى المحشر»**، وقيل: يجعل كالطوق في عنقه من سبع أرضين. وقوله: خسف به، قيل: إنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، فتكون كل أرض طوقاً في عنقه، والله أعلم بمراد الله تعالى ومراد رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، غير أن ما في الباب من أحاديث تدلّ على عظيم جرم غصب أراضي الناس ولو كان شيئاً قليلاً، وأن الله عزّ وجلّ سيحمل الظالم يوم القيامة ما لا يطيقه.

والحديثان يدلاّن على أن الأرضين سبع طبقات، وذلك موافق لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

❊ ❊ ❊

الحثّ على التحلل من المظالم

{١٤٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ كانَتْ له مظلمةٌ لأحدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْه منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا دِرهم إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقَدْر مظلمته، وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذ من سيئات صاحبِه فحُمِلَ عليه**».

رواه البخاري (٢٦/٦)، والمظالم ويأتي في الرقاق مع حديث المفلس الذي رواه مسلم.

المظلمة ـ بكسر اللام وفتحها ـ: هي كل ما يجب التحلّل منه من أخذ مال بغير حق أو طعن في عرض ونحو ذلك من حقوق الناس. وفي الحديث زجر بالغ لمن عليه مظالم العباد، وأنه إذا لم يتحلّل من ذلك في الدنيا كان في الآخرة على خطر عظيم، عاملنا الله بفضله وكرمه، آمين.

❊ ❊ ❊

قصاص المظالم يوم القيامة

{١٤٥} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا خَلَصَ المُؤْمِنونَ من النار حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار، فيتقاصُّونَ مظالِمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بِيَدِهِ لأحَدُهُم بمَسْكَنه في الجنة أدلُّ بمنزله كان في الدنيا**».

رواه البخاري في المظالم (٦/٢١)، ويأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى.

قوله: خلص ـ بفتح الخاء واللام ـ: أي: سلموا ونجوا من النار، وقوله: حبسوا بقنطرة، قيل: إنها طرف الصراط مما يلي الجنّة، وقيل غير ذلك. وقوله: فيتقاصون ومعناه: تَتَبُّع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض.. وقوله: نقّوا وهذبوا أي: طهّروا من الآثام بإعطاء الحقوق. والحديث يدلّ على أن المظالم لا بدّ من المقاصصة فيها، وأنه لا يدخل صاحبها الجنّة حتى ينقّى من ذلك، وسيأتي لهذا بقية في الرقاق.

❊ ❊ ❊

وجوب التحفظ من الظلم ودعوة المظلوم

{١٤٦} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يومَ القيامة**» الحديث.

رواه مسلم رقم (٢٥٧٨) وأحمد وغيرهما.

اتّقوا الظلم، أي: تحفّظوا منه ولا تظلموا أحداً فإنه سيكون يوم القيامة ظلمات على صاحبه تُحيط به من جميع جوانبه، وذلك علامة على خسارته عياذاً بالله تعالى، وتقدم في الزكاة في حديث معاذ: «**اتَّق دعوةَ المظلوم، فإنّه ليس بينها وبين الله حجابٌ**»، بمعنى أنَّ دعوته على ظالمه مستجابة لا بدّ أن يأخذ له منه حقّه.

❊ ❊ ❊

أخذ الظالم وعقوبته

{١٤٧} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ الله لَيُمْلِي لِلظالِمِ حتَّى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ**»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البرّ والصلة رقم (٢٥٨٣) وغيرهما.

قوله: يملي ـ بضم الياء ـ: أي: يمهل ويطيل له المدة، وقوله: لم يفلته، أي: لم ينفلت منه، ولم يخلصه أحد منه سبحانه.

وفي الحديث تهديد بالغ ووعيد شديد للظالم المعتدي، وأن الله يمهله ويستدرجه حتى إذا جاء وقت هلاكه أخذه أخذ عزيز مقتدر ولا يجد من ينقذه منه، ويخلصه من عذابه، وكفى بذلك زجراً، وسيأتي مزيد لهذا في البرّ والصلة.

* * *

ضمان المتلفات

{١٤٨} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان عند بعض نسائه، فأرْسَلَتْ إحدى أُمّهاتِ المؤمنين مع خادم بِقَصْعَةٍ فيها طعامٌ، فضربَتْ بيَدِها فكسَرَتْ القَصْعَة، فضمَّها وجعل فيها الطعام، وقال: «**كُلُوا**»، وحبس الرسول والقَصْعة حتى فَرَغوا فدفع القَصْعة الصحيحة وحَبَس المكسورة.

رواه البخاري في المظالم (٩/٤٩، ٥٠)، وأبو داود (٣٥٦٧)، والترمذي (١٣٥٩)، والنسائي (٧/٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٤)، وعند الترمذي وغيره: «**طعامٌ بطعامٍ وإناءٌ بإناءٍ**».

قوله: عند بعض نسائه: هي مولاتنا عائشة كما جاء عند بعضهم، والمرسلة المهدية: هي أمّ سلمةَ رضي الله تعالى عنها.

وفي الحديث وجوب ضمان المتلفات، فمن أتلف شيئاً وجب عليه مثله أو قيمته. وهذا مما لا خلاف فيه في الجملة.

{١٤٩} ـ وعن حرام بن مُحَيّصة أن ناقة البراء بن عازب دخلتْ حائطاً فأفْسَدتْ فيه فقضَى نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّ على أهل الحوائِطِ حِفْظَها بالنهار، وأنّ ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها.

رواه أحمد (٤٣٥/٥، ٤٣٦)، وأبو داود (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢)، وكذا النسائي وابن حبان (١١٦٨)، والحاكم (٤٨/٢)، وصححه الحاكم والبيهقي وغيرهم، وقال الشافعي: أخذنا به لثبوته ولاتصاله ومعرفة رجاله.. وفي الحديث كلام، لكنه صحيح.

في الحديث دليل على أن ما أتلفته الماشية وأفسدته من زروع ونحوها يضمنه أهلها إذا كان ما جنته ليلاً، ولا يضمنون بالنهار، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وبهذه التفرقة قال مالك والشافعي رحمهما الله تعالى وهو ظاهر الحديث، فهما أسعد الناس بالعمل به، بل قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن جناية البهائم بالنهار لا ضمان فيها إذا لم يكن معها أحد، فإن كان معها راكب أو سائق أو قائد فجمهور العلماء على ما أتلفته.

* * *

دفع الصائل والقتال دون المال

{١٥٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاءَ رجلٌ يريد أخْذَ مالي؟ قال: «**فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ**»، قال: أرأيت إن قاتَلَني، قال: «**قَاتِلْهُ**»، قال: أرأيت إن قَتَلَني؟ قال: «**فأنْتَ شَهِيدٌ**»، قال: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قال: «**هو في النار**».

رواه مسلم في الإيمان (١٦٣/٢).

{١٥١} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مَنْ قُتِل دون ماله فهو شهيد**».

رواه البخاري في المظالم (٤٨/٦)، ومسلم في الإيمان (١٦٤/٢) وغيرهما.

دون ماله، أي: لأجله، والحديثان يدلاّن على جواز القتال دفاعاً عن المال، وأن الصائل المهاجم، للإنسان أن يُقاتله ولا شيء عليه شرعاً لا قود ولا دية، وأن من قتل دفاعاً عن ماله كان شهيداً، والصائل إن قتل كان في النار، وبمقتضى الحديثين قال الجمهور، ويأتي حديث سعيد بن زيد في ذلك أيضاً في الجهاد إن شاء الله تعالى.

* * *

باب اللقطة

{١٥٢} ـ عن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسأله عن اللُّقطَة، فقال: **«اعْرِفْ عِفَاصَها ووِكَاءها ثم عَرِّفْها سنة، فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنُكَ بها»**، قال: فضالَّةُ الغنم؟ قال: **«هي لك أو لأخيك أو للذِّئب»**، قال: فضالَّةُ الإبل؟ قال: **«ما لكَ ولهَا معها سِقَاؤُها وحِذاؤُها، ترِدُ الماءَ وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربّها»**.

رواه مالك رقم (٢٩٧٥)، رواية أبي مصعب الزهري، والبخاري (٥/٦، ٨، ١٠) في اللقطة وفي مواضع، ومسلم (٢/١٢، ٢٦) فيها أيضاً، والترمذي (١٢٤٤) بتهذيبي وباقي الجماعة.

{١٥٣} ـ وعن سويد بن غفلة رضي الله تعالى عنه قال: خرجت أنا وزيد بن صوحان وسلمان بن ربيعة غازين فوجدت سوطاً فأخذته، فقالا لي: دعه، فقلت: لا ولكني أُعَرِّفُه فإن جاء صاحبه وإلا استمتعت به، قال: فأبيت عليهما، فلما رجعنا من غزاتنا قضي لي أن حججت فأتيت المدينة، فلقيت أُبيّ بن كعب فأخبرته بشأن السوط وبقولهما، فقال: إني وجدت صرة فيها مائة دينار على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم،

فأتيت بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«عرّفها حولاً»**، قال: فعرفتها فلم أجد من يعرفها ثم أتيته، فقال: **«عرّفها حولاً»**، فعرّفتها فلم أجد من يعرفها، ثم أتيته فقال: **«عرّفها حولاً»**، فعرّفتها فلم أجد من يعرفها، فقال: **«احفظ عددها ووعاءها ووكاءها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها»**، فاستمتعت بها فلقيته بعد ذلك بمكة، فقال: لا أدري بثلاثة أحوال أو حول واحد.

رواه البخاري (٣/٦، ٤)، ومسلم (٢٦/١٢، ٢٧)، والترمذي (١٢٤٣) بتهذيبي كلاهما، في اللقطة وكذا ابن ماجه (٢٥٠٦).

{١٥٤} ـ وعن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من وجَدَ لُقَطَة فلْيُشْهِدْ ذا عدل أو ذَوي عدل ولا يكتُمْ ولا يُغَيِّبْ فإن وجَدَ صاحبها، فلْيَرُدَّها عليه، وإلا فهو مال الله عزّ وجلّ يؤتيه من يشاء»**.

رواه أحمد (١٦٢/٤)، وأبو داود (١٧٠٩)، وابن ماجه (٢٥٠٥) وسنده صحيح.

اللُّقطة ـ بضم اللام وفتح القاف ـ: على المشهور عند أهل اللغة والحديث، كما قال الحافظ وغيره، واللقطة تقال للمال الذي يوجد ضائعاً فيلتقط.

وقوله: عفاصها ـ بكسر العين ـ: أي: وعاءها الموضوع فيه، ووكاءها ما يربط به العفاص، وقوله: فضالة الغنم، أي: لقطة الغنم، وقوله: معها سقاؤها إلخ، يعني: أن الإبل مستغنية عن الالتقاط والحفظ؛ لأن سقاءها في جوفها تختزنه فيه، فتصبر على العطش ومعها حذاؤها، أي: خفها فهي مجبولة على الجلادة، وتناول المأكول بغير تعب لطول عنقها، فهي بخلاف الغنم. وأحاديث الباب تدلّ على أن من وجد لقطة ومالاً ضائعاً، فعليه أن يعرف عدد المبلغ، ثم العفاص والوعاء الموجود فيه من كيس أو محفظة أو نحو ذلك، ثم يشهد على ذلك رجلين عدلين، ولا يحل له أن يكتم شيئاً أو يغيبه، ثم يعرّفه حولاً أو ثلاثة أحوال، ويكون ذلك على أبواب

المساجد، وفي المجامع العامة، وإن اقتضى الحال عرف ذلك عن طريق الإعلام في الصحف والإذاعة... وهكذا الحال في المواشي غير الإبل، فإن وجد صاحب المال دفعه إليه، وإلاّ فله أن يستمتع به، فإذا جاء صاحبه ولو بعد حين دفع إليه ماله. وقوله في الحديث في شأن الغنم: «**هي لك أو لأخيك**»، يعني: أنها إما أن تلتقطها وتعرّفها وذلك واجب عليك، وإما أن يجدها صاحبها، وإلا افترسها الذئب.

ثم اختلف العلماء في الشيء اليسير هل يجب تعريفه أم لا؟ الجمهور على أنه لا يعرّف. فقد جاء عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رخّص لنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في العصا والسوط والحبل وأشباهه يلتقطه الرجل ينتفع به. رواه أبو داود (١٧١٧)، وسنده حسن إن شاء الله تعالى. بل جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وجد ديناراً فأتى به فاطمة عليها السلام، فسألت عنه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**هو رزق الله عزّ وجلّ**»، فأكل منه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأكل عليّ وفاطمة عليهما السلام، فلما كان بعد ذلك أتته امرأة تنشد الدينار، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عليّ أدِّ الدينار**»، وفي رواية: فأخذه عليّ وقطع منه قيراطين فاشترى به لحماً، رواه أبو داود (١٧١٤، ١٧١٥، ١٧١٦) من طرق بعضها حسنة أو صحيحة.

* * *

وعيد اللاقط الذي لا يُعرّف اللُّقطة

{١٥٥} ـ عن عبدالله بن الشخير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ضالَّةُ المُسْلِمِ حَرَقُ النَّارِ**».

رواه ابن ماجه (٢٥٠٢)، وابن حبان (٤٨٨٨)، وكذا أحمد (٢٥/٤)، والطحاوي في المعاني (١٣٣/٤)، والبيهقي (١٩١/٦)، والبغوي (٢٢٠٩)، وسنده صحيح وله شاهد عن الجارود بن المعلى رواه أحمد (٨٠/٥)،

والترمذي (١٨٨١)، والنسائي في الكبرى (٤١٤/٣)، وابن حبان (٤٨٨٧)، والدارمي (٢٦٠٤، ٢٦٠٥)، والطحاوي في المعاني (١٣٣/٤)، والبيهقي (١٩٠/٦) وسنده حسن صحيح.

{١٥٦} ـ وعن زيد بن خالد قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَوَى ضالَّةً فَهُوَ ضالٌّ مَا لَمْ يُعَرِّفْهَا**».

رواه مسلم آخر اللقطة (٢٨/١٢)، وعند أبي داود (١٧٢٠) عن جرير، قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا يأوي الضالَّةَ إلاَّ ضالٌّ**»، وسنده صحيح.

قوله: حرق النار ـ بفتح الحاء والراء ـ: أي: لهب النار، ومعناه: أن ضالّة المسلم إذا أخذها إنسان ليتملّكها ولا يعرف بها أدّت به إلى النار.

وقوله: من أوى أي: أخذ وضمّ إليه لقطة فهو ضال خارج عن الجادّة عاصٍ لربّه، وفي الحديثين دليل على تحريم أخذ اللقطة وإخفائها وعدم تعريفها، وأن ذلك عظيم يوجب الضلال ودخول النار عياذاً بالله تعالى.

* * *

النهي عن حلب المواشي بلا إذن أصحابها

{١٥٧} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لاَ يَحْلُبَنَّ أحدٌ ماشية امرىء بغير إذنه، أيحبّ أحدكم أن تُؤتَى مَشْرُبَتُه فتكسر خزانتُه فَيُنْتَقَل طعامُه، فإنما تَخْزِنُ لهم ضُرُوعُ مواشيهم أطْعِمَاتِهِمْ، فلا يَحْلُبَنَّ أحدٌ مَاشِيَةَ أحدٍ إلاَّ بِإِذْنِهِ**».

رواه البخاري (١٣/٦، ١٤)، مسلم (٢٨/١٢، ٢٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٣)، وابن ماجه (٢٣٠٢) وغيرهم.

قوله: مشربته ـ بفتح الميم وضمّ الراء ـ: هي الغرفة يخزن فيها الطعام وغيره.

وفي الحديث تحريم أخذ مال الغير بغير إذنه والأكل منه والتصرّف فيه، وهو وإن كان جاء في اللبن فغيره مثله إجماعاً، وهذا في غير المضطر الذي لا يجد ما يسدّ به رمقه، وكذا من علم منه أو ظنّ أن نفسه تطيب بأكله منه بغير إذنه، فله الأكل وأخذ ما يحتاجه. ويستثنى ما ذكرهم الله تعالى في سورة النور: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، فللمرء أن يأكل من بيوت ما ذكر.

* * *

ابن السبيل وغيره يأكل من التمر ويشرب من اللبن إذا مرّ به

{١٥٨} ـ عن عبَّاد بن شُرَحْبيل رضي الله تعالى عنه قال: أصابَنَا عامُ مَخْمَصَة، فأتيتُ المدينة فأتيتُ حائطاً من حِيطانِها، فأخذت سُنْبلاً فَفَرَكْتُه وأكلتُه وجعلتُه في كِسائي، فجاء صاحبُ الحائط فضرَبَني وأخذ ثَوْبي، فأتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبرتُه، فقال للرجل: «**ما أطْعَمْتَه إذ كان جائعاً أو ساغباً، ولا علَّمتَه إذْ كان جاهلاً**»، فأمَرَه النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فردَّ إليه ثوبَه، وأمر له بوَسْقٍ مِن طعامٍ، أو نِصْف وسق.

رواه أبو داود (٢٦٢٠)، وابن ماجه (٢٢٩٨) وسنده صحيح.

{١٥٩} ـ وعن رافع بن عمرو الغفاري قال: كنت أرمي نخل الأنصار فأخذوني، فذهبوا بي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «**يا رافع لِمَ تَرْمِي نَخْلَهم**»، قال: قلت: يا رسول الله الجوع؟ قال: «**لا ترم وكُلْ ما وقع أشْبَعَكَ الله وأرْوَاكَ**».

رواه أبو داود (٢٦٢٢)، والترمذي (١١٦٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٢٩٩)، وحسّنه الترمذي وصححه.

{١٦٠} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن الثَّمَر المُعَلَّقِ فقال: «**مَنْ أصاب مِن ذي حاجةٍ غير مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فلا شيء عليه**».

رواه أحمد (٢/١٨٠، ٢٢٤)، وأبو داود (١٧١٠)، والترمذي (١١٦٥) بتهذيبي، والنسائي (٤/٣٤٤) في الكبرى، وابن ماجه وسنده حسن، وله شاهد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ دَخَلَ حائطاً فليأكُلْ ولا يَتَّخِذْ خُبْنَةً**»، رواه الترمذي (١١٦٤)، وابن ماجه (٢٣٠١) ورجاله رجال مسلم على كلامٍ فيه.

{١٦١} ـ وعن سمرة بن جندب أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا أتَى أحدُكم على ماشية، فإن كان فيها صاحبُها فليستأذنه، فإن أذن له فليحلُب وليشرَبْ، فإن لم يكن فيها فليُصَوِّتْ ثلاثاً فإن أجابه فليستأذنه وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمِلْ**».

رواه أبو داود (٢٦١٩) بسند صحيح، وله شاهد عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: «**إذا أتيتَ على راعٍ فنادِ ثلاث مرّات فإن أجابك وإلا فاشْرَبْ في غير أن تفسد، وإذا أتيتَ على حائط بُسْتَانٍ فنادِ صاحب البستان ثلاث مرات، فإن أجابك وإلا فكل في أن لا تفسد**».

رواه أحمد (٣/١٢١)، وابن ماجه (٢٣٠٠)، وابن حبان (٥٢٨١)، والحاكم (٤/١٣٢) وسنده صحيح.

قوله: مخمصة، أي: مجاعة، وقوله: ساغباً أي: محتاجاً جائعاً، وقوله: خبنة ـ بضم الخاء وسكون الباء بعدها نون ـ: هي ما يتّخذ من الطعام في طرف الثوب.

وهذه الأحاديث بجملتها تدلّ على عدم الأكل من البساتين والمزارع

وعدم شرب ألبان المواشي، إلا بإذن من أربابها، فإن مرّ عليها فلينادِ ثلاث مرات، فإن أجابه أحد فذاك وإلا فله أن يأكل ويشرب بقدر الحاجة من غير إفساد، ومن غير أن يحمل معه شيئاً، وحديث عباد يدلّ على أن الجاهل لا حرج عليه إذا أكل من مزرعة... كما أن حديث رافع يدلّ على جواز الأكل مما سقط ووقع من الثمار، وبالجملة فأموال الناس محرم تناولها أصالة إلا عن طيب نفس وإذن منهم، فإن كان الإنسان محتاجاً جائعاً ولم يجد ما يسدّ به رمقه، فله أن يأكل ويشرب بقدر حاجته، والضرورات تبيح المحظورات، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، وهٰهنا مذاهب وتفاصيل لعلمائنا رحمهم الله تعالى، فلا داعي لإيرادها.

* * *

أبواب المساقاة والمزارعة والمضاربة

{١٦٢} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عامَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وفي رواية: دفَعَ إلى يَهود خيبر نخل خيبر وأرضَها على أن يَعْمَلُوهَا من أموالهم ولرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شَطْرُ ثَمَرِهَا، وفي رواية: أعْطَى يَهُودَ خَيْبر أن يعملوها وَيَزْرَعُوهَا ولهم شَطْرُ ما يَخْرُجُ مِنْهَا.

رواه البخاري (٤٠٩/٦) وفي مواضع، ومسلم رقم (١٥٥١)، وأبو داود (٣٤٠٨)، والترمذي (١٢٥٤)، وابن ماجه (٢٤٦٧) بألفاظ، والرواية الأولى للجماعة، والثانية لمسلم والثالثة للبخاري.

المساقاة: أن يدفع الرجل نخيله أو كرمه أو أشجاره إلى رجل ليعمل فيها بما فيه صلاحها وصلاح ثمرها من تنقية السواقي والسقي وقطع الحشائش المضرّة بالأشجار، وغير ذلك من الأعمال ولربّ الأشجار جزء معلوم من الثمر نصف أو ثلث أو ربع على حسب ما يتفقان عليه، وأجازها كل الأئمّة، بل وقع عليها الإجماع إلاّ من شذّ. وانظر شرح المهذّب

(٢٣٢/١٤)، وشرح السنة (٢٥٢/٨)، وحديث الباب نصّ في الموضوع حيث إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطى أرض خيبر لليهود على أن يعملوا ويصلحوا نخيلها... ولهم نصف المحصول وعمل بذلك الخلفاء الراشدون رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم...

وإنما اختلف العلماء فيما تصح فيه المساقاة من الأشجار، فبعضهم عمّم وبعضهم خصّصها بالنخل وكرم العنب، والأول أظهر.

وأمّا المزارعة: فهي أن يكون لشخص أرض ولآخر عمل، والبذر إما من مالك الأرض أو من العامل، وللزراع جزء معلوم من المحصول.

وهذه المعاملة جائزة أيضاً عند جمهور العلماء من الصحابة، فمن بعدهم من الأئمّة.

فعن سيدنا محمد الباقر عليه السلام قال: ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع، وزارع علي وسعد بن مالك وعبدالله بن مسعود وعمر بن عبدالعزيز والقاسم وعروة وآل أبي بكر وآل عمر وآل عليّ وآل سيرين. ذكر كل ذلك البخاري في صحيحه (٤٠٧/٦)، وانظر الفتح على ذلك. وقال الترمذي في الجامع: والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وغيرهم لم يروا بالمزارعة بأساً على النصف، والثلث، والربع، واختار بعضهم أن يكون البذر من ربّ الأرض... والحجّة في جواز المزارعة هي معاملة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليهود خيبر كما في حديث الباب، فإنه عاملهم على إصلاح النخيل... وهي المساقاة، وعلى الزراعة، لرواية: «أن يعملوها ويزرعوها»، وقوله: «أو زرع» وهذه هي المزارعة غير أن البذر كان من أموال اليهود كما في رواية مسلم، والله تعالى أعلم.

أما المضاربة، ويقال لها القراض والمقارضة، فهي أن يدفع شخص مالاً لآخر على أن يعمل فيه هذا الثاني، ويكون الربح بينهما على حسب ما يتّفقان عليه، ولا يكون المال مضموناً إلاّ مع التفريط، وقد أجمع أهل العلم

على جوازها غير أنه لم يأت فيها نصّ من السنّة النبوية. نعم صحّ ذلك عن أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وغيره من الصحابة.

{١٦٣} ـ فعن عبدالله وعبيدالله ابني عمر رضي الله تعالى عنهم أنهما خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا مرّا على عامل لعمر، فرحّب بهما وسهّل وهو أمير البصرة، فقال: لو أقدر على أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال: بلى هٰهنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، فأُسْلِفَكُمَاهُ، فتبتاعان متاعاً من متاع العراق، ثم تبيعانه بالمدينة، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح فلما قدما المدينة باعا فربحا، فلما دفعاها إلى عمر قال لهما: أكل الجيش قد أسلف كما أسلفكما، قالا: لا، فقال عمر: ابنا أمير المؤمنين، فأسلفكما؟! أدّيا المال وربحه، فأما عبدالله فسكت، وأما عبيدالله فقال: ما ينبغي لك هذا يا أمير المؤمنين لو هلك المال أو نقص لضمناه، فقال: أدياه فسكت عبدالله وراجعه عبيدالله، فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين، لو جعلته قراضاً، فقال عمر: قد جعلته قراضاً، فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه، وأخذ عبدالله وعبيدالله نصف ربح ذلك المال.

رواه مالك في الموطأ (١٤٣٣)، والبيهقي في معرفة السنن (٣٢٢/٨، ٣٢٣)، وهو عند الشافعي في مسنده (١٦٩/٢)، والدارقطني (٢١٥/٢) بسند صحيح، فهذا يدلّ على أن القراض كان معمولاً به معلوماً لهم، ويؤيّده في الجملة حديث عمرو البارقي المتقدم رقم (١٠٢) حيث أعطاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ديناراً ليشتري له به أضحية، فاشترى شاتين فباع إحداهما بدينار وجاء بالشاة الأخرى، وهو في البخاري وغيره، وفي كتب السيرة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قارض بمال خديجة إلى الشام... أيام شبابه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كما نقله الكافّة عن الكافّة، وكان معروفاً في الجاهلية، فجاء الإسلام فأقرّه، ومع هذا فقد قال ابن حزم في مراتب الإجماع: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلاّ وله أصل في الكتاب والسنّة نعلمه، ولله الحمد، حاشا القراض، فما وجدنا له أصلاً فيهما البتّة. ولكنه إجماع صحيح مجرّد، والذي نقطع عليه أنه كان في عصره

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعلمه فأقرّه، ولولا ذلك لما جاز...

❊ ❊ ❊

باب المخابرة

{١٦٤} ـ عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: كنا أكثر أهل المدينة حَقْلاً، وكان أحدُنا يُكْرِي أرْضه، فيقول: هذه القِطْعَةُ لي، وهذه لكَ، فرُبَما أخرجَتْ ذِه، ولم تُخْرِج ذِه، فنهاهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك.

وفي رواية: إنّما كان الناس يؤاجرون على عهدِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما على الماذِيَانَات وأقبال الجداول وأشياء من الزَّرْع، فيَهْلِكُ هذا ويَسلمُ هذا، ويسلمُ هذا ويهلك هذا ولم يكن للناس كِرَى إلا هذا، فلذلك زَجَرَ عنه، فأما شيءٌ معلومٌ مضمونٌ فلا بأس به.

رواه البخاري في المزارعة (٥/٤١٢) وفي مواضع، ومسلم في البيوع (١٠/٢٠٦)، والروايتان لمسلم والأولى للبخاري أيضاً.

{١٦٥} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ كانت له أرضٌ فليَزْرَعْهَا أو لِيَمْنَحْهَا أخاه**».

رواه البخاري في المزارعة (٥/٤٢٠) ومسلم، في كراء الأرض من البيوع (١٠/١٩٦، ١٩٧).

{١٦٦} ـ وعن طاوس رحمه الله تعالى أنه كان يُخابِرُ فقيل له: لو تركتَ هذه المُخابَرَة، فإنهم يَزعُمون أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن المُخَابَرَة، فقال: أخْبَرَني أعلمُهم بذلك، يعني: ابن عباس أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يَنْهَ عَنْها، إنما قال: «**يَمْنَحُ أحدُكم أخاه خَيْرٌ له من أن يَأْخُذَ عليها خرْجاً مَعْلوماً**».

رواه البخاري (٥/٤١١، ٤١٢)، ومسلم (١٠/٢٠٧) وغيرهما.

قوله: حقلاً ـ بفتح الحاء وسكون القاف ـ: هو الزرع إذا تشعب ورقه من قبل أن يغلظ ساقه، ثم أطلق على الزرع، وقوله: الماذِيَانَات ـ بذال معجمة مكسورة ـ: وهي ما ينبت على حافّة النهر ومسائل الماء، وقوله: وأقبال الجداول ـ بفتح الهمزة ـ: أي: أوائل السواقي، قوله: وأشياء من الزرع، يعني: مجهول المقدار، وقوله: ليمنحها أي: ليعطها، وقوله: نهى عن المخابرة هي في معنى المزارعة، وهي كراء الأرض ببعض ما يخرج منها، وقد أجازها كثير من أهل العلم إذا كان الكراء معلوماً ليس فيه غرر ولا مخاطرة، ولم يعيّن صاحب الأرض موضعاً خاصاً منها له كما جاء في حديث رافع مبيّناً، فإن النصّ وقع على ما إذا عيّن صاحب الأرض مواضع منها منتجة يكون محصولها له، والباقي للزارع المكري، فإن في ذلك غرراً، وعلى هذا حمل الجمهور أحاديث النهي، وفي حديث ابن عباس دليل على أن الأمر الوارد في منح الأرض للآخرين ليس على الوجوب، ولذا جاء في رواية له أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يحرم المزارعة، ولكن أمر أن يرفق بعضهم ببعض، رواه الترمذي (١٢٥٦)، والبخاري (٤٢١/٥) بمعناه.

كتاب الإجارة

الإجارة على رعي الغنم

{١٦٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما بعث الله نَبِياً إلا رَعَى الغَنَم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنتُ أرْعَى على قراريط لأهل مكّة**».

رواه البخاري في الإجارة (٣٤٨/٥)، وابن ماجه (٢١٤٩).

قراريط: جمع قيراط، وهو جزء من الدينار.

الإجارة في الأصل: الإثابة، وفي اصطلاح الفقهاء: تمليك رقبة بعوض، وهي جائزة بالإجماع إذا كانت في نطاق شرعي، وقد جاءت أحاديث كثيرة فيها ذكر الإجارة، والحديث المذكور يدلّ على جواز الاستئجار على رعي الغنم... كما يدلّ على أن كل الأنبياء رعوا الغنم لما في ذلك من تمرنهم برعيها على ما يقومون به من شؤون الدعوة وسياسة أممهم وصبرهم على ما يعانونه منهم، فإن راعي الغنم لا بدّ له من الصبر على رعيها وجمعها بعد تفرّقها ونقلها من مسرحها إلى مرعاها ومراقبتها وحفظها من الذئاب ونحوها، فإذا كلفوا بدعوة الخلق كانوا مدرّبين على مخالطتهم وسياستهم...

* * *

الإجارة على إرشاد الطريق

{١٦٨} ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: اسْتَأْجَرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه رجلاً من بني الدِّيلِ هَادِياً خِرِّيتاً وهو على دينِ كُفارِ قُرَيشٍ، فَدَفعَا إليه راحِلَتَيْهِمَا وَوَعَدَاهُ غارَ ثور بعدَ ثلاثِ ليالٍ.

رواه البخاري في الإجارة (٥/٣٤٩، ٣٥٠)، وفي الهجرة النبوية ويأتي مطولاً فيها.

وقوله: خريتا ـ بكسر الخاء وتشديد الرّاء ـ: هو الماهر بالهداية في الطريق، وهو يدلّ على صدور الاستئجار من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو القدوة العظمى كما يدلّ على جواز استئجار الكافر، وعامّة الفقهاء يجيزون ذلك عند الضرورة... لما في ذلك من إذلالهم، وإنما الممتنع هو أن يؤاجر المسلم نفسه من المشرك لما فيه من إذلال المسلم، قاله ابن بطال ونقله الحافظ عنه وأقرّه.

* * *

الإجارة على الرقية

{١٦٩} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: انطلق نَفَرٌ من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفرة سافروها حتى نَزَلُوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يُضِيفوهم، فَلُدِغَ سيد ذلك الحيّ فسعَوْا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرَّهْط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرَّهْط إن سيدنا لدغ وسَعَيْنا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ قال بعضهم: إني والله لأَرْقِي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فجاعلوهم على قَطِيعٍ من غنم، فانطلق يَتْفِلُ عليه ويقرأ الحمد لله ربّ

العالمين، فكأنما نُشِط من عِقالٍ، فانطلق يَمْشي وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنذكر له الذي كان، فننظر الذي يأمرنا، فقدموا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكروا له ذلك، فقال: «**وما يُدْرِيكَ أَنَّها رُقْيَةٌ**»، ثمَّ قال: «**قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً**»، وضحك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري (٣٦١/٥، ٣٦٤)، ومسلم في الطب (١٨٧/١٤)، وأبو داود (٣٤١٨، ٣٩٠٠)، والترمذي (٢٠٦٤)، وابن ماجه (٢١٥٦)، ورواه البخاري أيضاً في الطب (٣٠٧/١٢).

{١٧٠} ـ وجاء نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي آخره: قالوا: يا رسول الله أَخَذَ على كتاب الله أجراً، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ أحَقّ ما أخَذْتُمْ عليه أجْراً كتابُ اللهِ**».

رواه البخاري في الطب (٣٠٨/١٢).

قوله: فاستضافوهم، أي: طلبوا منهم الضيافة. قوله: فلدغ ـ بالبناء للمجهول ـ: واللدغ: اللّسع، وقوله: فسعوا له، أي: طلبوا له ما يداويه، قوله: الرهط: هم ما دون العشرة، وقيل: يصل إلى الأربعين، وقوله: قطيع من الغنم، أي: طائفة منها، وقوله: كأنما نشط من عقال، أي: كأنما حلّ من حبل كان مربوطاً به.

والحديث يدلّ على جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن الكريم، وبه قال الجمهور عملاً بهذا الحديث، وأجاز مالك والشافعي وأحمد وابن راهويه وأبو ثور أخذ الأجرة على تعليم القرآن أخذاً من هذا الحديث، ولرواية ابن عباس فإن فيها تصريحاً بأن أحقّ وأولى ما أخذ عليه الأجر كتاب الله، ومنع ذلك آخرون مستدلين بأحاديث في النهي عن ذلك، وفيها كلام، وما في الصحيح مقدّم على غيره.

❋ ❋ ❋

الإجارة على الحجامة

{١٧١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: احتجمَ النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأعْطَى الحجَّامَ أجرَهُ، ولو عَلِمَ كراهِيَةً لم يُعْطِهِ... وفي رواية: ولو كان سحتاً لم يعطه.

رواه البخاري في الإجارة (٣٦٥/٥)، ومسلم في المساقاة (٢٤٢/١٠).

{١٧٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن كسب الحجام، فقال: احتجم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حجمه أبو طيبة، فأمر له بصاعين من طعام وكلّم أهله، فوضعوا عنه من خَرَاجِه، وقال: «**إنَّ أفضلَ ما تداوَيْتُمْ به الحجامةُ، أو هو من أمْثَلِ دَوَائِكم**».

رواه البخاري في الطب ومسلم في المساقاة (٢٤٢/١٠).

في الحديثين دليل جواز أخذ الأجرة على الحجامة؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يفعل حراماً ولا يساعد عليه، وقد عارض هذين الحديثين حديث رافع بن خديج عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: «**ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث**»، رواه مسلم في المساقاة (٢٣٠/١٠)، وأبو داود (٣٤٢١)، والترمذي (١٢٧٥)... وفي رواية: «**شرّ الكسب مهر البغي**» إلخ، وكذا حديث مُحَيّصة عند أبي داود (٣٤٢٢)، وابن ماجه (٢١٦٦) وأنه استأذن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في إجارة الحجام فنهاه عنها، فلم يزل يسأله ويستأذنه حتى أمره «أن أعلفه ناضحك ورقيقك»... وسنده صحيح، فذهب الأكثرون من السلف والخلف إلى عدم التحريم وحملوا النهي عن ذلك على التنزيه والارتفاع عن دنيء الاكتساب، والحثّ على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، قاله النووي.

* * *

وعيد من منع أجرة الأجير

{١٧٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال الله: ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامة: رجلٌ أعطَى بي ثم غَدَر، ورجلٌ باع حراً فأكل ثَمَنَه، ورجل اسْتَأْجَرَ أجيراً فاسْتَوْفَى مِنه ولم يُعْطِهِ أجْرَهُ**».

رواه البخاري في البيوع وفي الإجارة رقم (٢٢٢٧) (ج ٥/٣٥٤).

قوله: خصمهم أي: سأخاصمهم نيابة عن المظلوم، وهو تعالى خصم لجميع الظالمين وخصّ هؤلاء الثلاثة تشديداً لحقهم، وقوله: أعطى بي إلخ، أي: عاهد عهداً وحلف عليه بالله ثم غدر ونقض ذلك، ولا شكّ أن الاتّصاف بهذه الخصال أو بإحداها من الخطورة بمكان وصاحبها قد عرّض نفسه للهلاك والبوار، فإنه ظالم غدّار باغٍ معتدٍ، وقد جاء في حديث لابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَه قبل أن يجِفَّ عَرَقُه**»، رواه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وهو وإن كان ضعيفاً فمعناه صحيح، فإن الأجير يجب إعطاء أجرته فور فراغه من شغله، ولا يجوز تأخير ذلك ومماطلته كما يفعل كثير ممن لا دين له ولا أخلاق.

***

إحياء الموات

{١٧٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ أَعْمَرَ أَرْضاً لَيسَتْ لأحدٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

رواه البخاري في البيوع (٥/٤١٦، ٤١٧).

{١٧٥} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ أَحْيَى أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ له**».

رواه أحمد (٣/٣٣٨)، والترمذي (١٢٥٠) بتهذيبي، والنسائي والدارمي

(٢٦١٠)، وابن حبان (١١٣٦) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم، وحسّنه الترمذي وصححه.

{١٧٦} ـ وللترمذي (١٢٤٩)، وأبي داود (٣٠٧٣)، والنسائي من حديث سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مثله، وزاد: «**وليس لعِرقِ ظالمٍ حَقٌّ**»، وسنده صحيح مع اختلاف فيه.

المَوَات ـ بفتح الميم ـ: الأرض التي لا ملك لأحد عليها، فمن عمد إلى أرض لم يسبق لأحد ملكها فأحياها وأعمرها، وذلك بالغرس والزرع والبناء والسقي ونحو ذلك، كان أحق بها من غيره، وأصبحت ملكاً له، وسواء كانت قريبة من العمران أم بعيدة، وسواء أذنت له السلطة أم لا، هذا قول جماهير العلماء.

وقوله: ليس لعرق ظالم إلخ، العرق الظالم: هو من غرس أو زرع أو بنى أو حفر في أرض الغير بلا إذن ولا حق ولا شبهة، فظاهر هذه الزيادة أن الذي يسطو على أرض غيره فيتصرّف فيها بالبناء أو الغرس... ونحو ذلك لا حقّ له فيما فعل، والله تعالى أعلم.

* * *

القطائع

{١٧٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أراد أن يُقْطِعَ مِن البحرين، فقالت الأنصار: حتى تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تقطع لنا، قال: «**سترون بعدي أثَرَة فاصبروا حتى تلقَوني**».

رواه البخاري (٥/٤٤٥).

{١٧٨} ـ وعن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أقطعه أرضاً بحضرموت.

رواه الطيالسي (١٣٩٧)، والترمذي (١٢٥٢)، والدارمي (٢٦١٢)، وأبو داود (٣٠٥٨) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

{١٧٩} ـ وعن أبْيَض بن حَمَّال المَأرِبي أنه وفد إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاسْتَقْطَعَه المِلْحَ الذي بمأرِب، فأقطعه إياه، فلما ولّى، قال رجلٌ: يا رسول الله، أتدري ماذا أقطعتَ، إنما أقطعتَ له الماءَ العِدَّ، قال: فرجَعَه منه، قال: وسأله ماذا يُحْمَى من الأراك، قال: «**مَا لَمْ تَنَلْهُ أخْفَافُ الإبِلِ**».

رواه أبو داود (٣٠٦٤، ٣٠٦٦)، والترمذي (١٢٥١)، والدارمي (٢٦١١)، وابن ماجه (٢٤٧٥)، وابن حبان (١١٤٠) من طريقين هو بها حسن.

القطائِع: جمع قطيعة، يقال: أقطعته أرضاً إذا جعلت ماله قطيعة، والمراد به ما يخصّ به الإمام والخليفة بعض الرعيّة من الأرض الموات، فيختصّ به ويصير أولى بإحيائه من غيره. وقوله: يُقْطِع لهم البحرين إلخ، قال الخطابي: يشبه أن يكون إقطاعه من البحرين على وجهين إما أن يكون من المَوَات الذي لم يملكه أحد فيتملك بالإحياء، وإما أن يكون ذلك من العمارة من حقّه في الخمس، فقد روي أنه افتتح البحرين وترك أرضها ولم يقسمها، كما فتح أرض بني النضير فتركها ولم يقسمها كما قسم خيبر.

وقوله: أقطعه أرضاً إلخ، أي: خصّه بإحيائها وتعميرها. وقوله: استقطعه أي: طلب منه أن يقطعه ويعطيه معدن الملح، وقوله: بمأرب على وزن منزل: هي بلاد الأزد باليمن بين حضرموت وصنعاء. وقوله: الماء العد بكسر العين: وهو الدائم الذي لا ينقطع. وقوله: ما لم تنله أخفاف الإبل، أراد به أنه يحمى من الأراك ما بَعُد عن حضرة العمارة ولا تبلغه المواشي الرائحة إذا أرسلت في الرعي.

والأحاديث بجملتها تدلّ على مشروعية الإقطاع من ذوي السلطة لمن شاء من رعيّته، وله أن يخصّه بما فيه نفعه، كما في حديث أبيض تقييد الحمى والإقطاع بما كان بعيداً عن العمران ومواضع المواشي، ورجوعه

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في إقطاع الملح لأبيض بن حمّال يدلّ على أن المعدن الظاهر لا يجوز إقطاعه، وذلك كالملح في الجبال والنفط، والقار، والكبريت وما إلى ذلك، فهذا النوع لا يملك ولا يجوز إقطاعه من ذوي السلطة؛ لأن الناس فيه سواء، فهو كالماء والكلأ والنار. وقد جاء في الحديث الصحيح عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال:

{١٨٠} ـ «**المسلمون شركاء في ثلاث: في الكَلإ والماءِ والنارِ**»، رواه أبو داود (٣٤٧٧)، وأحمد (٣٦٤/٥)، والبيهقي (١٥٠/٦) عن رجل وسنده صحيح، والمراد بهذه الثلاث التي لا ملك لأحد عليها. أما المعادن والنبات والماء والنار المملوكة فهي لأصحابها.

* * *

الحِمَى

{١٨١} ـ عن الصعب بن جثامة رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا حِمَى إلاَّ لله ولِرَسُولِهِ**» صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (٧١/٤، ٧٣)، والبخاري في المزارعة (٤٤١/٥)، وأبو داود (٣٨٣).

الحِمَى ـ بكسر الحاء وفتح الميم ـ: منع الرعي في أرض مخصوصة.

وكان الرجل العزيز في الجاهلية إذا أعجبته أرض مخصبة أوفى بكلب على جبل ونحوه ثم استعوى الكلب وأوقف له من يسمع منتهى صوت الكلب، فحيث انتهى الصوت حماه من كل ناحية لنفسه، فلا يقربه أحد، ويرعى مع عامة الناس فيما سواه. قال العلماء: فقول رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا حِمَى إلا لله ولرسوله**» محمول على هذا الحمى الخاص، فللّه كل محمي وغيره ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إنما يحمي لصلاح عامّة المسلمين كما حمى النقيع للخيل المعدة للجهاد،

،وما كان يفضل من سهمان الصدقات، ومن فضل من نعم الجزية، ولم يكن يحمي لنفسه على عادة الجاهلية. قال العلماء: ولا يجوز لأحد من الخلفاء بعد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يحمي لخاصة نفسه، وقد ثبت عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر حمى الرَّبذة لنعم الصدقة، ذكره البخاري بلاغاً، ووصله ابن أبي شيبة بسند صحيح، فمن حمى لمصالح المسلمين العامة فلا حرج عليه. وأما ما يحمى لنفسه خاصة، كعادة الملوك الظلمة، فذلك عدوان وبغي وظلم.

❋ ❋ ❋

ترتيب سقي الأراضي بين الشركاء

{١٨٢} - عن الزبير رضي الله تعالى عنه أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للزبير: «**اسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك**»، فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله، إن كان ابن عمتّك، فتلوّن وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم قال: «**اسْقِ ثم احبِسْ حتى يبلغ الجَدْرَ**»، فاسْتَوْعَى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حينئذ حقّه للزبير، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي سَعة له وللأنصاري، فلما أحْفَظ الأنصاري رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم استوعى للزبير حقّه في صريح الحكم، قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلاّ في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥].

رواه البخاري في التفسير (٣٢٣/٩) وفي مواضع، ومسلم في الفضائل (١٠٧/١٥)، وأبو داود في الأقضية (٣٦٣٧)، والترمذي في الأحكام (١٢٣٤)، وفي التفسير والنسائي في الكبرى (٣٢٤/٦)، وفي أدب القضاء من المجتبى، وابن ماجه (٢٤٨٠/١٥).

شِراج ـ بكسر الشين ـ: جمع شرج ـ بفتح أوله ـ: مسايل الماء، والحَرة: حجارة سود، وكان بالمدينة حرّتان شرقية وغربية، ولم يبق لهما أثر، والجدر ـ بفتح الجيم وسكون الدال، وقيل: بضمّتين ـ: جمع جدار، وهو هنا الحفر الذي يحفر في أصول النخل فتصير مثل الجدار، وقوله: أن كان ابن عمّتك، أي: حكمت له لأجل كونه ابن عمّتك، وقوله: فلمّا أحفظ إلخ، أي: أغضب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سلك معهما طريق الصلح، فلما قال الأنصاري ما قال حكم للزبير بحقّه وأمره أن يأخذ حقّه وافياً كاملاً في السقي، بحيث يسقي حتى يرتفع الماء في الحفر، ثم بعد يرسله لصاحبه.

والحديث يدلّ على أن أحق الناس بمياه الأنهار والأودية والسيول الأعلى منهم، فهو أحق بالسقي من غيره سواء كانت في ملكه أم لا. أما المياه التي لا تملك منابعها ومجاريها، فالناس فيها سواء، ولهم أن يصطلحوا على ما فيه مصالحهم، والكلام في الموضوع طويل، فراجع عليه كتب الفقه.

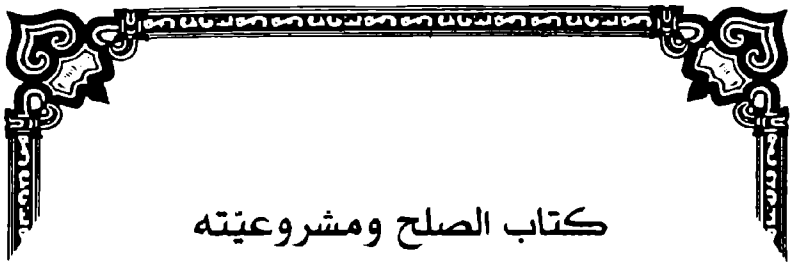

كتاب الصلح ومشروعيته

{١٨٣} ـ عن عمرو بن عوف المزني رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الصُّلْحُ جائِزٌ بين المسلمين إلا صُلحاً حَرَّمَ حلالاً أو أحلَّ حراماً، والمُسلمون على شُرُوطِهِمْ إلا شَرْطاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً**».

رواه الترمذي (١٢٢٤) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٣٥٣)، والحاكم (١٠١/٤)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكثير بن عبدالله وإن ضعفه بعضهم، فقد قوّاه البخاري والترمذي وابن خزيمة وغيرهم، وللحديث شاهد عن أبي هريرة عند أحمد (٣٦٦/٢)، وأبي داود (٣٥٩٤)، وابن حبان (١١٩٩) بالموارد، والحاكم (٤٩/٢) وصححه وسنده حسن، وله شواهد أخرى، فالحديث كما قال الترمذي رحمه الله تعالى، وقد رددت على من قال بأن العلماء لا يعتمدون على تصحيحه في مقدمة تهذيب الجامع.

الصلح مشروع بالكتاب والسنّة والإجماع في الجملة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال جلّ علاه: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وجاءت أحاديث كثيرة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيها ذكر الصلح سيأتي بعضها قريباً إن شاء الله تعالى، وهو أنواع ذكر الحافظ منها في الفتح: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الفئة الباغية

والعادلة، والصلح بين المتغاضبين كالزوجين، والصلح في الجراح كالعفو على مال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاحمة، إما في الأملاك أو في المشتركات، كالشوارع، وهذا الأخير هو الذي يتكلّم فيه أصحاب الفروع، يعني الفقهاء في كتب الفقه، وهذه الأنواع كلّها جاءت بها السنّة النبوية.

وقوله في حديث الباب: **«إلا صلحاً حرّم حلالاً»** إلخ، مثل أن تصالح الزوجة زوجها على أن لا يتزوّج عليها، أو لا يتسرى بجارية، أو يطلّق زوجته الأُولى بلا موجب ونحو ذلك. وقوله: **«أو أحلّ حراماً»** كأن تصالحه على أن يتزوّج أختها أو خالتها ونحو ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة، فكل صلح يؤدي إلى تحريم ما أباحه الله أو إحلال ما حرّمه الله فهو باطل، ويتصور ذلك في جميع الأنواع المتقدمة وبسط ذلك يحتاج إلى طول.

* * *

الصلح على الوضع من الحق

{١٨٤} ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صوت خصوم بالباب عاليةً أصواتُهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«أين المُتألّي على الله لا يَفعلُ المعروفَ»**، فقال: أنا يا رسول الله، فله أيُّ ذلك أحَبَّ.

رواه البخاري في الصلح (٦/٢٣٦)، ومسلم في المساقاة (١٠/٢١٩)، وتقدم حديث كعب بن مالك مع ابن أبي حدرد في باب الدين رقم (١١٤).

قوله: يستوضع، أي: يطلب منه أن يضع عنه بعض الدين. وقوله: يسترفقه، أي: يطلب منه أن يرفق به. وقوله: أين المتألّي إلخ، أي: الحالف المبالغ في اليمين.

والحديث يدلّ على مشروعية الصلح بين المتخاصمين على الوضع من بعض الدين مع رضا صاحب الحق، وفيه ذمّ الحلف على عدم فعل المعروف، وفيه عدم مؤاخذة المتخاصمين بما يجري بينهما من اللَّغط.

* * *

الصلح بين المتقاتلين

{١٨٥} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن أهل قُباء اقْتَتَلُوا حتى تَرَامَوْا بالحِجَارة، فأُخْبِرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك، فقال: «**اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحْ بَيْنَهُم**».

رواه البخاري (٢٢٩/٦) وفي مواضع، ومسلم في الصلاة مطوّلاً وقد تقدم في الإمامة.

وفي الحديث مشروعية التدخّل بين المتقاتلين في الإصلاح بينهم؛ لأنّ ذلك من مكارم الأخلاق ومن حقوق المسلمين، وفيه بيان أن التقاتل بين المسلمين ولو كانوا صالحين لا يخرجهم من الدين وعن صفة التقوى، فالصحابة أفضل الناس بعد الأنبياء وكانوا يتقاتلون، وباقي أحاديث الصلح ستأتي مفرقة في أبوابها ستمرّ علينا إن شاء الله في النكاح، وفي الحدود، وفي الجنايات، وفي الجهاد...

* * *

جواز الكذب في الصلح

{١٨٦} ـ عن أُمّ كُلْثُوم بنت عُقبة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لَيْسَ الكذَّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فينمي خَيراً أو يَقُولُ خَيراً**».

رواه البخاري في الصلح (٦/٢٢٨) وفي مواضع، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٥٧) ويأتي مطوّلاً في البرّ.

قوله: ينمي ـ بفتح الياء وكسر الميم ـ: ومعناه: يبلغ الخبر. وفي الحديث دليل على جواز الكذب بين المتخاصمين للإصلاح فيما بينهم؛ لأن الكذب المذموم الذي هو من صفات المنافقين ما كان فيه مضرّة وفساد... أمّا ما كان لأجل الإصلاح، فلا مانع منه، بل قد يكون واجباً إذا كان لإنقاذ مسلم من قتل أو ظلم... وستأتي بقيّة لهذا في البرّ والصلّة.

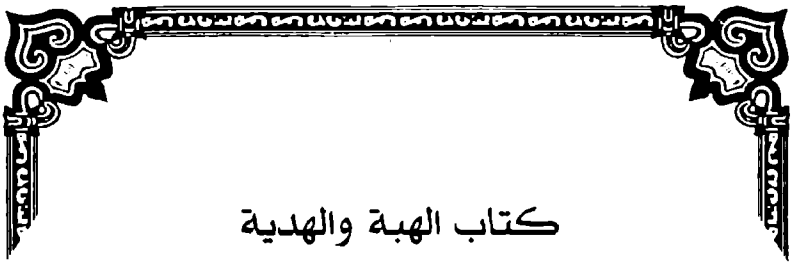

كتاب الهبة والهدية

{١٨٧} ـ عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما أن أباه أتى به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: إنّي نَحَلْتُ ابْني هذا غُلاماً كان لي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أكُلَّ ولدك نحلته مثل هذا**»؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فأرجعه**»، وفي رواية: فانطلق أبي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليُشْهِدَه على صدقته، فقال: «**أفعلت هذا بولدك كلّهم**»؟ قال: لا، قال: «**اتّقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»، فرجع أبي فردّ تلك الصدقة، وفي رواية قال: «**فأشْهِدْ على هذا غيري**»، ثم قال: «**أيَسُرُّكَ أن يكونوا لك في البرّ سواء**»، قال: بلى، قال: «**فلا إذن**».

رواه البخاري في الهِبَة (١٣٨/٦)، ومسلم فيها (٦٥/١١)، وأبو داود (٣٥٤٢)، والنسائي (٣٤٣٣) وغيره، والترمذي (١٢٣٨) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٣٧٥) بألفاظ وزيادة ونقصان.

الهِبَة ـ بكسر الهاء وتخفيف الباء ـ: تُطلق بالمعنى الأعمّ على الإبراء من الدَّين وعلى الصدقة التي يراد بها ثواب الآخرة، وعلى الهدية التي يكرم بها الموهوب له. وتطلق على المعنى الأخص، وهي ما لا يقصد له بدل، وهي التي يعرفها الفقهاء بأنها تمليك بلا عوض.

وقوله: نحلت ابني، هو بفتح الحاء، أي: أعطيته.

وفي الحديث مشروعية الهبة وخاصة للأولاد، وفيه وجوب التسوية

بينهم لأن التفضيل بينهم يؤدّي إلى العدوان والتحاسد وعقوق الوالدين وما يؤدّي إلى الحرام حرام، ويدلّ لذلك قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في رواية: «**لما عرض عليه أن يشهد على النحلة**»، «**إنها شهادة جور**»، كما أن قوله: «**واعدلوا بين أولادكم**» يؤخذ منه أن التفضيل ظلم، وفي جواز ما ذكر ومنعه خلاف بين الأئمّة والعلماء، والحديث ظاهر فيما ذكرنا.

❊ ❊ ❊

تحريم الرجوع في الهبة إلا من الوالد لولده

{١٨٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثم يَعُودُ فِي قَيئِهِ**»، وفي رواية: «**لَيسَ لنا مَثَلُ السُّوء الذي يَعُودُ في هِبته كالكلب يَقِيء ثمّ يَرجعُ فِي قَيئِهِ**».

رواه البخاري (١٦٣/٦)، ومسلم (٦٤/١١، ٦٥)، والطيالسي (١٤١٩)، وأهل السنن بألفاظ.

{١٨٩} ـ وعن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: حملت على فرس في سبيل الله فأضاعه الذي كان عنده، فأردت أن أشتريه منه، وظننت أنه بائعه برُخص، فسألت عن ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «**لاَ تَشْتَرِهِ وإن أعطاكَهُ بدرهم واحدٍ، فإنّ العائِدَ في صَدَقتِهِ كالكَلْبِ يعودُ في قَيئِهِ**».

رواه البخاري (١٦٤/٦، ١٦٥)، ومسلم (٦٢/١١، ٦٣)، وأبو داود والنسائي (٢٤٥٢، ٢٤٥٤).

{١٩٠} ـ وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: «**لا يحلّ لأحد أن يُعْطي عَطِيَة فيرجعَ فيها إلاّ الوالد فِيمَا يُعْطِي لِوَلدِهِ**».

رواه أبو داد (٣٥٣٩)، والترمذي (١١٧٧، ١٩٦٤) بتهذيبي، وابن

ماجه (٢٣٧٧)، وابن حبان (١١٤٨)، والحاكم (٤٦/٢)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقوله: ليس لنا مثل السوء، أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتّصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخسّ الحيوانات وهو الكلب في أخسّ أحواله، وهو قَيْئه ثم رجوعه لأكله.

وقوله: حملت على فرس، أي: تصدّقت به على شخص ليجاهد عليه، فأضاعه، يعني لم يحسن القيام عليه، وقصر في خدمته ثم أراد بيعه بثمن بخس.

وهذه الأحاديث تدلّ على تحريم الرجوع في الهِبَة بعد أن تقبض، ويحوزها الموهوب له، وإلى ذلك ذهب الجمهور وهو ظاهر قوله: لا يحلّ إلخ، وتشبيه العائد بالكلب في أكل قَيْئه يؤيّد ذلك، فإن أكل القَيْء محرم، فيكون الرجوع في الهبة مثل أكل القَيْء.

وذهب أكثر العلماء إلى جواز رجوع الوالد في هبة ولده خاصة لحديث ابن عمر وابن عباس، ولحديث النعمان بن بشير المتقدم؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيه: «**فأرجعه**».

* * *

قبول الهدية والثواب عليها

{١٩١} ـ عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَقْبلُ الهديَّة ويُثِيبُ عليها.

رواه البخاري (١٣٧/٦)، وأبو داود (٣٥٣٦)، والترمذي.

{١٩٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أعرابيّاً وهب للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هبة فأثابه عليها، قال: «**رضيت**»، قال: لا، قال: فزاده، قال: «**رضيت**»، قال: لا، قال: فزاده، قال: «**رضيت**»، قال: نعم، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد هَمَمْتُ أن لا أتهَبَ إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي**».

رواه أحمد (٢٩٥/١)، وأبو داود (٣٥٣٧)، وابن حبان (١١٤٥/١١٤٦) بالموارد، والبيهقي (١٨٠/٦) من طرق بعضها صحيحٌ على شرطهما، وفي الباب أحاديث ستأتي في غضون الكتاب.

كان من هديه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبول الهدية، ولو كان شيئاً بسيطاً، ثم كان يجازي عليها بأكثر منها كما في الحديثين، وقد اختلف الفقهاء في هدية الثواب، فأجازها مالك وغيره، ومنعها الشافعي وأبو حنيفة. والظاهر أن الأمر يرجع في ذلك إلى النيات وعادات الناس، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

الهدية المحرّمة

{١٩٣} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَنْ شَفَعَ لأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى له هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَها فقد أَتَى باباً عظِيماً مِنْ أبوابِ الرِّبَا»**.

رواه أبو داود (٣٥٤١)، وأحمد (٢٦١/٥) بسند حسن، وابن لهيعة عند أحمد توبع عند أبي داود.

الحديث يدلّ على تحريم أخذ الهدية في مقابل الشفاعة، وفي ذلك نزاع بين العلماء وتفاصيل، سيأتي الكلام عليها مفصّلاً في الأحكام إن شاء الله تعالى مع هدايا العمّال والموظّفين مع الدولة الإسلامية.

❊ ❊ ❊

ما لا يردّ من الهدية

{١٩٤} ـ عن ثمامة بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: كان أنس رضي الله تعالى عنه لا يَرُدُّ الطِّيب، قال: وزعم أنس أن النبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان لا يَرُدُّ الطِّيب.

رواه البخاري في الهبة (٦/١٣٦)، والترمذي (٢٧٨٩)، والنسائي (٤٨٥٢) وغيرهم.

{١٩٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ عُرِضَ عليه رَيْحَانٌ فَلاَ يَرُدَّه، فإنّه خَفِيفُ المَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيح**».

رواه مسلم (١٤/٩)، وأبو داود (٤١٧٢)، والنسائي (٤٨٥٣)، لكنهما قالا: «طيب» بدل ريحان.

{١٩٦} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ثلاثٌ لا تُرَدُّ: الوسائِدُ والدُّهْنُ واللَّبن**».

رواه الترمذي (٢٧٩٠) وبتهذيبي (٢٦٠١) وسنده حسن، وقد حسّنه الحافظ في الفتح.

قوله: ريحان: هو كل نبت مشموم طيب الريح، وقيل: المراد الطيب كلّه، قاله عياض. وقوله: المَحمل ـ بفتح الميم وتكسر الثانية ـ: أي: خفيف الحمل، وقوله: والدهن: هو الطيب. والأحاديث بجملتها تدلّ على استحباب قبول هدية الطيب والرياحين؛ لأنه طيب وليس في قبوله كبير منّة، فمن عرض عليه فلا يردّه اقتداءً بالرسول الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما أن حديث ابن عمر يدلّ على أن الوسائد واللبن مما ينبغي قبوله وعدم ردّه، والكلام على مطلق الطيب والتطيّب سيأتي في كتاب اللباس والزّينة.

* * *

الإهداء والأخذ ولو من شيء يسير

{١٩٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا نِسَاءَ المُسْلِمَات لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ**».

رواه البخاري (١٢٤/٦، ١٢٥)، ومسلم في الزكاة (١١٩/٧).

فرسن ـ بكسر الفاء وسكون الراء ثم سين مهملة مفتوحة ـ: هو للبعير موضع الحافر للفرس، ويطلق على الشاة مجازاً. وفي الحديث دليل على أنه لا ينبغي للجار ذكراً كان أم أنثى أن يستصغر ما يهديه لجاره، بل يتعاهده بالهدية ولو كان شيئاً حقيراً، ولم يرد إهداء الفرسن فإنه لا ينتفع به، وإنما أراد المبالغة في الإهداء، كما أنه يؤخذ من الحديث ضمنياً أن المهدى إليه لا يحتقر ما يعطاه بل يقبله، وإن كان قليلاً.

{١٩٨} ـ وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ أو ذِرَاع لأجبتُ، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت**».

رواه أحمد (٤٧٩/٢، ٤٨١، ٥١٢)، والبخاري في الهبة (١٢٧/٦)، ويأتي في الوليمة...

كُراع ـ بضمّ الكاف ـ: هو من الدابّة ما دون الكعب.

والحديث يدلّ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان غاية في التواضع، وأبعد الناس عن التعاظم والتفاخر، فكان لا يستنكف من قبول أصغر هديّة أو إجابة دعوة إلى تناول أقلّ ما يؤكل وأحقره، فكان عنده الحقير والعظيم من الهدايا... سواء، فيجيب من دعاه إلى تناول أحقر شيء كالكراع مثلاً، أو أفضله كالذراع كما يقبلهما في الهدية إذا أهديت إليه.

* * *

هدايا الكفار

ستأتي أحاديث في ذلك مفرقة في غضون الكتاب في الجهاد وفي اللباس وفي المناقب وغير ذلك، فلنرجىء الكلام عليها إلى مواضعها إن شاء الله تعالى.

* * *

باب الحثّ على الهدية

{١٩٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٣٦٢/٥)، وحسّنه الحافظ في التلخيص وبلوغ المرام، ورواه أحمد (٤٠٥/٢)، والترمذي (١٩٦٢) بتهذيبي من طريق آخر بلفظ: «**تهادوا فإن الهدية تذهب وَحَر الصَّدْر**»، وله مع ذلك شواهد عن عائشة، وعبدالله بن عمر وأم حكيم بنت وداع... انظرها في مسند الشهاب (٣٨٠/١، ٣٨٣) وحواشيه.

وَحَر الصدر ـ بفتح الحاء ـ: هو الحقد والعداوة.

وفي الحديث الحثّ على التهادي بين المسلمين، وأن ذلك من أسباب التحابب بينهم، وذهاب ما عساه أن يكون بينهم من الأضغان والبغضاء والعداوة.

* * *

باب العُمرى والرُّقبى

{٢٠٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**العُمْرَى لِمَنْ وُهِبَتْ له**»، وفي رواية: «**أَمْسِكُوا عليكم أَمْوَالكم ولا تُفْسِدُوها، فإنه مَنْ أَعْمَرَ عُمْرَى فهِيَ لِلَّذِي أُعْمِرَها حَيّاً ومَيّتاً ولِعَقِبه**»، وفي أخرى: إنَّما العُمْرَى التي أجَازَها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يقول: هي لكَ ولِعَقِبك، فأمّا إذا قال: هي لك ما عِشْتَ، فإنها ترجِعُ إلى صاحِبِها.

رواه البخاري (١٦٦/٦)، ومسلم (٧١/١١)، والرواية الأولى والثانية والثالثة لمسلم. وفي رواية له أيضاً (٦٩/١١، ٧٠)، وللترمذي (١٢٢٢) وغيره: «**أيما رجل أُعْمِرَ عُمْرَى له ولعقبه فإنها للذي يُعْطاها ما لا تَرْجِعُ إلى**

الذي أعطاها لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث»، وهي أيضاً عند أبي داود (٣٥٥٣)، والنسائي (٣٧٤٥).

{٢٠١} ـ وعنه أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تُرْقِبُوا ولا تُعْمِرُوا فمَنْ أُرْقِبَ شَيْئاً أَوْ أُعْمِرَه فَهُوَ لِوَرَثَتِه**».

رواه أبو داود (٣٥٥٦)، والنسائي (٣٧٣١) بسند صحيح.

العُمرى ـ بضم العين وسكون الميم ثم راء بعدها ألف مقصورة ـ: هي أن يقول شخص لآخر: قد أعمرتك هذه الدار، أي: جعلتها لك تسكنها مدة عمرك، وكان هذا العمل سائداً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام عدلها ونظمها، فجعلها ثلاثة أحوال، الحالة الأولى: أن يقول الواهب هي لك ولعقبك، أي: ما تناسل منك من الأولاد، فهذه العمرى للمُعْمر ولورثته لا ترجع إلى الواهب، وبهذا قال جمهور العلماء. الحالة الثانية: أن يطلق أيضاً ولا يقيد، فيقول: أعمرتك هذه الدار، فالجمهور على أنها للذي أُعْمِرها ولورثته، وقال مالك والشافعي: ترجع إلى صاحبها. الحالة الثالثة: أن يقول له: هي لك ما عشت، فإذا متّ رجعت إليّ، فهذه لا تورث وترجع إلى صاحبها، وبهذا أيضاً قال أكثر العلماء، وعلى ما ذكرنا تدلّ الأحاديث.

أما الرقبى، فهي على وزن حبلى، ومعناها كالعمرى، وصورتها أن يقول شخص لآخر: هذا الشيء لك ما عشت، فإن مُتَّ قبلي فهي راجعة إليّ، وإن متّ قبلك فهي لك، وسمّيت رقبى لأن كل واحد منهما يرقب موت صاحبه لتكون له، وهي جائزة كالعمرى، وكلاهما من مكارم الأخلاق التي كان العرب متخلّقين بها، ولم نسمع عن أحد من المسلمين في عصرنا أنه اتّصف بهذا الخلق على هذه الصفة، والله المستعان.

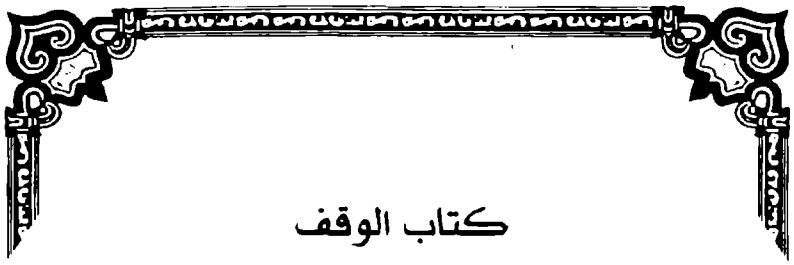

كتاب الوقف

{٢٠٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أبا طلحة كان أكثر أنصاري مالاً بالمدينة بالنخل، وكان أحبّ أمواله إليه بِيرُحاء، وكانت مُستقبِلةَ المسجد، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يدخلُها، فيأكل من ثمرها ويشربُ من ماءٍ فيها طيِّبٌ، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«بخ ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإنّي أرى أن تجعله في الأقربين»**، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة بين أقربائه وبني عمّه. وفي رواية: قال أبو طلحة: أرى ربنا يسألنا أموالنا فأُشْهِدُك يا رسول الله أني قد جعلت أرض بيرحاء لله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اجعلها في قرابتك»**، قال: فجعلها في حسان بن ثابت وأُبَيّ بن كعب.

رواه أحمد (٣/١٤١، ٢٥٦)، والبخاري في الوقف (٦/٣١٧، ٣٢٥)، وفي التفسير (٩/٢٩٠) وفي مواضع، ومسلم في الزكاة (٧/٨٤، ٨٥)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي في التفسير (٢٨٠٥)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٦/٣١١، ٣١٢)، والرواية الثانية رواها مسلم والنسائي وأبو داود.

بَيْرُحاء ـ بكسر الباء بعدها ياء ثم راء مضمومة وحاء ممدودة، ويقال: بفتح الباء ـ وهو اسم بستان كان لأبي طلحة قبالة المسجد لجهة الشام، وهو الآن ضمن التوسعة السعودية عند باب المسجد، وقوله: بخ ـ بإسكان الخاء وتنوينها مع الكسر ـ ومعناه: تفخيم الأمر.

{٢٠٣} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر بن الخطاب أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قطّ أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: **«إن شئت حبست أصلها وتصدّقت بها»**، قال: فتصدّق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث وتصدّق بها في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها، أن: يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متموّل... أو متأثل مالاً.

رواه البخاري في الوقف (٣٢٨/٦، ٣٣٠) وفي مواضع، ومسلم رقم (١٦٣٢) في الوقف أيضاً.

قوله: حبست ـ بفتح الباء المشدّدة وتخفّف ـ أي: وقفت أصلها وتصدّقت بمنافعها، وقد جاء في رواية: احبس أصلها وسبل ثمرتها. رواه النسائي في الكبرى (٩٣/٤، ٩٤)، وابن ماجه (٢٣٩٧) بسند صحيح. وقوله: غير متموّل، وفي رواية: غير متأثّل مالاً، أي: جامع ومدّخر.

والحديثان يدلاّن على مشروعية الوقف والتحبيس للأرضين وغيرها، ولا خلاف في جوازه بين المسلمين، وشرطه أن يوقف ويحبس الأصل، وينتفع بمنافعه فيمن يوقف عليهم، ولا يجوز بيعه ولا هبته ولا إرثه، وعلى القيّم على الوقف أن يأكل منه بالمعروف ويطعم صديقاً له أو ضيفاً من غير أن يدّخر لنفسه من ذلك شيئاً، وقد كان المسلمون القدامى يوقفون كثيراً ويحبسون أراضي ودوراً وبساتين وغيرها على المجاهدين وعلى حملة القرآن وعلى العلماء وعلى الفقراء والمحتاجين وعلى ابن السبيل، بل هناك عندنا بالمغرب أوقاف على بعض الطيور وغيرها، وأصبحت كل الشعوب غنية

بالأوقاف ولها وزارات خاصة بها، ولكنك اليوم قلَّما ترى إنساناً يحبس شيئاً ما لكثرة الخيانة والتلاعب بالأوقاف.

* * *

فضل الوقف والتحبيس

{٢٠٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُه إلاَّ من ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جاريةٍ، وعِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، وولدٍ صالح يَدْعُو له**».

رواه أحمد (٢/٣٧٢)، ومسلم في الذكر رقم (٢٦٨٢)، وفي الوصايا (١١/٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨)، وأبو داود (٣٨٨٠)، والترمذي (١٢٤٧) في الأحكام، والنسائي في الكبرى (٤/١٠٩) وقد تقدم.

قوله: صدقة جارية هي الوقف، فأجره دائم لا ينقطع حتى لا يبقى له أثر، وهذا من الأعمال التي يجري لصاحبها الأجر بعد موته، وقد جاء بجملتها حديث لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

{٢٠٥} ـ وهو قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ مِمَّا يَلْحَقُ المؤمنَ من عَمَلِهِ وحسناتِهِ بعد موته علماً علَّمه ونَشَره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته**».

رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٤٢) بسند محتمل للتحسين، ولذا حسنه المنذري في الترغيب، فهذه أعمال يبقى أجرها جارياً لصاحبها بعد موته، ومنها الحبس والوقف.

كتاب الوصايا

الوصية تطلق على معانٍ، فتطلق على الأمر بالشيء والإرشاد إليه؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: أمرناه، وقوله في وصية سيدنا إبراهيم وحفيده سيدنا يعقوب عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ومن ذلك قول ابن أبي أوفى: «أوصى - يعني: النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم - بكتاب الله»، رواه البخاري وغيره، أي: أمر باتّباع ما فيه والتمسّك به... وتطلق على العهد بالشيء، كما جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها في ردّها على من زعم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أوصى بالخلافة للإمام عليّ عليه السلام، حيث قالت: متى أوصى وقد مات بين سَحْري ونَحْري، وسيأتي في السير، فالمراد بالوصية هنا العهد بالخلافة، ومنه قول الإمام عليّ عليه السلام: أيها الناس إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئاً، أخرجه أحمد، أي: لم يوصنا بشيء، وتطلق على القيام بشؤون الصغير من اليتامى وغيرهم من القاصرين، والمراد بالوصايا هنا ما يوصى به لما بعد الموت من مال ونحوه.

❋ ❋ ❋

الحثّ على الوصية

{٢٠٦} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَا حَقُّ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيلَتَينِ وَلَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِي بِهِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُه مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**».

رواه أحمد (٥٦/٢، ١١٣)، والبخاري (٢٨٦/٦، ٢٨٧)، ومسلم (٧٤/١١)، والترمذي (١٩٥٠)، وأبو داود (٢٨٦٢)، والنسائي (٣٣٧٩)، وابن ماجه (٢٧٠٢) وغيرهم.

قوله: ما حقّ إلخ، ما بمعنى ليس، وحق اسمها، وقوله: ووصيته إلخ، خبره، ومعناه كما قال الشافعي ثم الخطابي وغيرهما: ما الحزم والاحتياط إلا أن تكون وصيّته مكتوبة عنده.

وظاهر الحديث يدلّ على وجوب كتاب الوصية فيما يلزمه الوصاية به كالديون والودائع ونحو ذلك، وأن الوصية بمثل ذلك ضرورية، أمّا ما عدا ذلك فالجمهور على أنها مستحبّة.

* * *

كيف كانت وصية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٢٠٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أُوصِيكُمْ بِثَلاَثٍ: أَخرِجُوا المُشْرِكين من جَزِيرةِ العرَب، وأَجِيزُوا الوَفْد بنحو ما كنت أُجِيزُهُم**»، قال: وسكت عن الثالثة، أو قال: فأنسيتها.

رواه مسلم في الوصايا (٩٣/١١، ٩٤).

جزيرة العرب ما بين المحيط الهندي جنوباً والعراق شمالاً والبحر الأحمر غرباً والبحر العربي شرقاً، فهذه المناطق لا يجوز للمشركين

دخولها أو سكناها، وفي ذلك تفاصيل للعلماء. وقوله: أجيزوا إلخ، هو أمر منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بإجازة الوفود وضيافتهم وإكرامهم تطييباً لنفوسهم وترغيباً لغيرهم في الإسلام من المؤلّفة قلوبهم، وفي الحديث أن هذه من الوصايا التي أوصى بها صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند وفاته.

{٢٠٨} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت عامّة وصية رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين حضره الموت: **«الصلاة وما ملكت أيمانكم»**، حتى جعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُغَرْغِر بِهَا صَدْرَه، وما يكاد يفيض بها لسانه.

رواه أحمد (١١٧/٣)، والنسائي وابن ماجه (٢٦٩٧)، وابن حبان (١٢٢٠) بالموارد، وسنده صحيح وله مع ذلك شاهد عن الإمام عليّ عليه السلام: كان آخر كلام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الصلاة الصلاة اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم»**، رواه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، وأحمد (٦٠٨/١)، والبيهقي (١١/٨)، وسنده لا بأس به، وشاهد آخر عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كان من آخر وصيّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الصّلاة الصّلاة وما ملكت أيمانكم»** حتى جعل نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُلَجْلِجُها في صدره وما يفيض بها لسانه... رواه أحمد (٢٩٠/٦، ٣١١، ٤٢١)، وابن ماجه (١٦٢٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٣٥/٤، ٢٣٦) وسنده صحيح، فالحديث صحيح جداً.

{٢٠٩} ـ وعن طلحة بن مُصَرِّف قال: قلت لعبدالله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بشيء؟ قال: لا، قلت: فكيف أمر المسلمين بالوصية، قال: أوصى بكتاب الله تعالى.

رواه البخاري (١٢٩٠/٦، ١٢٩١)، ومسلم (٨٧/١١، ٨٨) كلاهما في الوصايا، ورواية مسلم: قلت: فلم كتب على المسلمين الوصية، أو فلم أمروا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله تعالى.

{٣١٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما ترك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشيء.

رواه مسلم (٨٩/١١)، وأبو داود (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٢٦٩٥) وغيرهم.

قوله: جعل يغرغر ـ بضم الياء وفتح الغين الأُولى وكسر الثانية بينهما راء ساكنة ـ على معنى يلجلجها أي: يردّدها في صدره ولا يكاد يتكلّم بها.

وهذه الأحاديث تدلّ على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يوصِ الوصية المتعارفة، بمعنى أنه أوصى بماله أو بعضه لأحد بعد موته، بل ماله الذي تركه من الأراضي جعله صدقة كما هو معروف وكما يأتي في السير والجهاد. وإنما الذي كان يوصي به هو الوصايا العامة الإرشادية المتعلّقة بالدين والأخلاق كما يبدو من هذه الأحاديث التي أوردناها، بل حياته كلها كانت وصايا من هذا القبيل، وفي حديث أنس وما معه وجوب الاهتمام بالمحافظة على الصلاة ومعاملة العبيد بالرّفق والإحسان، ويأتي شيء من هذا في البرّ والصلة.

أما حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، فيدلّ على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يخلف بعده شيئاً من الأموال والمواشي، وهذا لا ينافي ما سيأتي في السير من تركه أرض فدك وخيبر إلخ.

* * *

الوصية لا تجوز فيما فوق الثلث

{٣١١} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: مَرِضْتُ عام الفتح مرضاً أشْفَقْتُ منه على الموت، فأتاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعودني، فقلت: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً وليس يَرِثُني

إلا ابنتي، فأُوصي بمالي كُلّه؟ قال: **«لا»**، قلت: فثلثي مالي؟ قال: **«لا»**، قلت: فالشطر؟ قال: **«لا»**، قلت: فالثلث، قال: **«الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس، إنك لن تنفق نفقة إلاّ أُجِرْتَ فيها حتى اللُّقمة ترفعها إلى فِي امرأتك»**، قال: قلت: يا رسول الله اخلف عن هجرتي، قال: **«إنك لن تخلف بعدي، فتعمل عملاً تريد به وجه الله إلا ازددت به رفعة ودرجة، ولعلك أن تخلف حتى يَنتفعَ بك أقوام ويُضرَّ بكَ آخرون، اللّهمّ امضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم البائس سعد بن خولة»** يَرْثِي له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن مات بمكة.

رواه البخاري في الوصايا (٦/٢٩٢، ٢٩٧) وفي مواضع، ومسلم (١١/٧٦، ٨٢)، ومالك رقم (١٥٣٣)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (١٩٤٨) بتهذيبي، والنسائي (٣٣٨٩)، وابن ماجه (٢٧٠٨) كلّهم في الوصايا.

قوله: أشفقت على الموت، أي: قارب فيه الموت، قوله: فالشطر أي: النصف، قوله: عالة، أي: فقراء، يتكفّفون: أي: يسألون الناس بأكفهم، قوله: يرثي - بفتح الياء وسكون الراء وكسر الثاء - أي: يتوجّع ويحزن له. والحديث يدلّ على جواز الوصية بالثلث ومنع ما فوقه، وهي صدقة من الله علينا جعلها لنا عند الوفاة زيادة في أعمالنا، كما جاء بذلك حديث رواه ابن ماجه (٢٧٠٩) عن أبي هريرة، وله شواهد يحسن بها، وقد قوّاه الحافظ في بلوغ المرام، كما في الحديث المنع من التصدّق عند المرض بجميع المال، وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بأقاربه الورثة، وأن يدّخر لهم من ماله ما يستغنون به عن الناس، وأن لا يكون حسوداً لهم فيحتال في صرف ماله إلى غيرهم، كما يفعل بعض من لا دين له، وباقي أبحاث الحديث تأتي في الفضائل وغيرها.

* * *

لا حقّ للوارث في الوصية

{٢١٢} ـ عن عَمْرو بن خارجة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خطب على ناقته وأنا تحت جِرَانِها وهي تَقْصَع بِجِرَّتِها، وإن لُعَابَها يَسِيلُ بين كَتِفَيَّ فسمعته يقول: «**إنَّ الله عزّ وجلّ أعطى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، فلا وَصِيَّة لِوَارِثٍ**».

رواه أحمد (١٨٦/٤)، والترمذي (١٩٥٣)، والنسائي (٣٤٠٢، ٣٤٠٣)، وابن ماجه (٢٧١٢) وحسنه الترمذي وصححه، ونحوه عن أبي أُمامة رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (١٩٥٢)، وابن ماجه (٢٧١٣) وسنده حسن، وله شاهد ثان رواه ابن ماجه (٢٧١٤) عن أنس وسنده صحيح، وقال الشافعي: إنه متواتر نقل كافّة عن كافّة.

قوله: جرانها ـ بكسر الجيم ـ: مقدم العنق، وقوله: تقصع، أي: تبتلع، والجرة ـ بكسر الجيم ـ: هي هيئة الجرّ وما يفيض به البعير فيأكله ثانياً.

والحديث يدلّ على أنه لا تصحّ الوصية للوارث، وهو إجماع، وقوله: «... **الوصية للوالدين والأقربين**» إلخ، منسوخ بآية المواريث مع هذا الحديث، ولذا قال فيه: «**إنّ الله قد أعطى كل ذي حقّ حقّه**»... وسيأتي ذلك في الفرائض إن شاء الله تعالى قريباً.

❊ ❊ ❊

وجوب تأخير الوصية عن الدين

{٢١٣} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى بالدَّيْن قبل الوصية، وأنتم تقرأون الوصية قبل الدين.

رواه أحمد رقم (٥٩٥، ١٠٩١، ١٢٢١)، والترمذي (١٩٥٤، ١٩٢٩)، وابن ماجه (٢٧١٥) وسنده صحيح، والحارث ثقة تكلموا فيه بلا حجّة.

الإجماع على وجوب مقتضى هذا الحديث، فإذا مات إنسان وترك وراءه مالاً وكان قد أوصى ببعضه لغير ورثته وترك عليه ديناً، فلا تنفذ الوصية حتى يُؤدَّى ما عليه من الديون المترتّبة عليه لله ولعباده.

* * *

قضاء الدين قبل الإرث

{٣١٤} ـ عن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم وترك عيالاً، قال: فأردت أن أُنْفِقَها على عِياله، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّ أخاكَ مَحْتَبَسٌ بِدَيْنِهِ فَاقْضِ عَنْهُ»**، فقال: يا رسول الله قد أدّيت عنه إلاّ دينارين ادّعتهما امرأة وليس لها بيّنة، قال: **«فاعطها فإنها محقّة»**، وفي رواية: **«فإنها صادقة»**.

رواه أحمد (١٣٦/٤) ج(٧/٥)، وابن ماجه (٢٤٣٣)، والبيهقي (١٤٢/١٠) وسنده صحيح عند أحمد.

والحديث يدلّ على وجوب تقديم أداء الديون قبل الإرث؛ كالوصية كما سبق، وهذا مما لا خلاف فيه.

* * *

الجور والمضارة في الوصية

{٣١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنَّ الرجلَ ليعملُ والمرأةَ بطاعة الله ستين سنة ثم يَحضُرهم الموت فيُضارّان في الوصية، فيجب لهما النار»**، ثم قرأ أبو هريرة: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٢، ١٣].

رواه أحمد (٢/٢٧٨)، وأبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (١٩٤٩)، وابن ماجه (٢٧٠٤) بسند حسن رجاله ثقات، وشهر تكلم فيه بغير حجة كما قال النووي في شرحي مسلم والمهذب.

والحديث يدلّ على تحريم المضارة في الوصية، وللناس فنون في ذلك، والظاهر أن ذلك من الكبائر للتوعّد عليه بالنار، وجاء عن ابن عباس الإضرار في الوصية من الكبائر رواه ابن جرير (٤/٢٨٨، ٢٨٩)، وابن أبي حاتم (٣/٨٨٩) وورد مرفوعاً، ومن المضارة تخصيص أولاد الذكور بالوصية دون أولاد الإناث أو العكس، ومنها الوصية للزوجة أو للبنات مثلاً بأن لهم على المُوصِي ديناً... والأمثلة على ذلك كثيرة يحتال بها الناس على الورثة، وذلك ظلم وجور وتعرّض لغضب الله عزّ وجلّ وعذابه.

* * *

كراهية تأخير التصدّق إلى وقت الاحتضار

{٣١٦} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: يا رسول الله، أي: الصدقة أفضل؟ قال: **«أن تَصَّدَّقَ وأنت صحيحٌ حَرِيصٌ تأمُل الغِنى وتخشى الفقر ولا تُمْهِل حتى إذا بلغتَ الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»**.

رواه البخاري (٦/٣٠٣) في الوصايا وفي الزكاة، ومسلم في الزكاة (٧/١٢٣)، وأبو داود (٢٨٦٥)، والنسائي (٣٣٧٦) وغيرهم.

تأمل أي: ترجو، ولا تمهل أي: تؤخر حتى إذا بلغت الروح الحنجرة.

{٢١٧} ـ وعن بسر بن جحاش القرشي رضي الله تعالى عنه قال: تَلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج: ٣٦ ـ ٣٩]، ثم بَزَقَ رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على كفّه، فقال: «**يقول الله عزّ وجلّ: يا ابنَ آدم أنّى تُعجِزُني وقد خَلَقْتُكَ من مثلِ هذه حتى إذا سَوَّيْتُك وعدلتك مشيت بين بُرْدَين وللأرض منك وَئِيدٌ** ـ يعني: شكوى ـ **فجمعتَ ومنعتَ حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدقُ وأنّى أوان الصدقة**».

رواه أحمد (٤/٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، والحاكم (٢/٥٠٢، ٣٢٣) وصححه ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

أنّى تعجزني ـ بفتح الهمزة ـ أي: كيف تدعي عجزي عن إعادتك بعد موتك وقد خلقتك من نطفة بسيطة، وبعد أن أوجدتك مستوياً معتدلاً تكبّرت عليّ وتعاظمت حتى أن الأرض لتشكو من طغيانك وتكبّرك، فجمعت من الأموال ما شئت، ومنعت الحقوق وغرّتك الحياة حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، وفوجئت بالموت فزعت إلى تفريق مالك والتصدّق به وهيهات، فقد فات الأوان.

وفي الحديثين ذمّ تأخير الوصية والصدقة إلى وقت الاحتضار والإدبار عن الدنيا، فقد جاء في حديث: «**مثل الذي يتصدق عند موته أو يُعْتِق كالذي يهدي بعد ما شَبِع**»، رواه الترمذي والحاكم وصححه وحسّنه الحافظ، فإن ذلك قليل الجدوى وقد يكون مصحوباً بالمضارّة، فينبغي للمسلم أن يقدم ما استطاع من البرّ وأعمال الخير قبل الفوات وقبل أن يباغته الموت وينزل به أجله، فإن ما جمعه من المال لم يبق ملكاً له وقتئذ، بل قد انتقل إلى غيره بمجرّد خروج روحه، والله الهادي الموفق.

* * *

كيف كان السلف يكتبون الوصية

{٢١٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أوصى به فلان بن فلان يشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين وأوصاهم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

أخرجه سعيد بن منصور والدارقطني ومن طريقه البيهقي (٦/٢٨٧) بسند صحيح، ورواه الدارمي (٣١٨٦) بنحوه من طريقين، وسنده صحيح ثم أخرج ذلك عن جماعة من السّلف.

في هذا الأثر وما معه استحباب كتابة ما ذكر مع الوصية وتعم ذلك، فينبغي لكل من كتب وصية أن يقدم بين يديها هذه الشهادة، ووصية الأهل بتقوى الله تعالى وطاعة الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ودوام الاستقامة حتى الموت.

أحكام اليتامى

اليتامى: جمع يتيم، وهو من بني آدم من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال، وقد أوصى الله عزّ وجلّ في كثير من الآيات بالإحسان إليه، ونهى عن ظلمه والاعتداء على ماله وأوعد على ذلك بالعذاب الأليم. وهكذا جاء في السنّة النبوية الوصاية به ومراعاة حقوقه، حتى بلغ من الحض على الإحسان إليه وكفالته بالمعاملة الجميلة أن جعل كافله مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجنّة كالسبابة والوسطى.

وأفردنا الكلام عليه هنا تبعاً للمحدثين والفقهاء الذين يذكرونه ضمن الوصايا، لأنها تشمله في الوصية به لدَى وَصِيّه وكفِيلِهِ الذي يقوم بكفالته والتصرّف في ماله، علماً بأنه هناك أحاديث تتعلق به في البرّ والصلة ستأتي إن شاء الله تعالى.

* * *

كراهية تولّي مال اليتيم لمن كان ضعيفاً عن القيام به

{٣١٩} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أبا ذرّ إني أراك ضعيفاً، وإني أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لِنَفْسي، لا تأمرنّ على اثنين، ولا تَوَلّينّ على مال يَتيم»**.

رواه مسلم في الإمارة (١٢/٢١٠)، وأبو داود (٢٨٦٨)، والنسائي (٣٤٢٨) وغيرهم في الوصايا.

قوله: أراك ضعيفاً، يعني: في القيام بوظائف الولاية والإمارة وشؤون اليتيم لما في ذلك من المشاقّ والمتاعب. والحديث يدلّ على مشروعيّة الابتعاد عن تولي مال اليتيم لما في ذلك من الخطورة زيادة على صعوبته. أما ما يتعلق بتولي الإمارة، فسيأتي في موضعه.

* * *

جواز مخالطة مال اليتيم وإصلاحه

{٣٣٠} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ٦]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، قال: اجتنب الناس مال اليتيم وطعامه فشقّ ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

رواه أبو داود (٢٨٧١)، والنسائي (٣٤٣١)، وفي الكبرى (٦٤٩٦)، والحاكم (٢/٢٧٨، ٢٧٩) وغيرهم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ولا يضرّ هنا عطاء بن السائب لاتّفاق الصحابة والتابعين وغيرهم على ما في الحديث.

والحديث يدلّ على جواز مخالطة اليتيم وماله وإصلاحه، وأن ذلك خير من تركه وإهماله، والله تعالى يعلم المصلح من المفسد. نعم من خالط مال اليتيم بقصد السطو عليه وأخذه، فهذا ستكون عاقبته خطيرة وخطيرة عياذاً بالله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

* * *

جواز الأكل من مال اليتيم بالمعروف

{٣٣١} - عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني فقيرٌ ليس لي مالٌ وَلِي يتيمٌ،

قال: «كُلْ مِن مال يَتِيمِك غَيرَ مُسْرِفٍ ولا مُبادِر ولا مُتَأَثِّل».

رواه أحمد (١٨٦/٢، ٢١٥)، وأبو داود (٢٨٧٢)، والنسائي (٣٤٢٩)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وابن الجارود (٩٥٢)، والبيهقي (٢٨٤/٩)، وسنده حسن أو صحيح للاختلاف الواقع في صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

قوله: غير مسرف، أي: مبذّر لماله، ولا مبادر أي: من غير أن تأكل منه لتبادر كبره ورشده، ولا مُتَأَثِّل أي: غير جامع منه ولا مدّخر.

{٣٣٣} ـ وعن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]، قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف، وفي رواية: إذا كان فقيراً أن يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف.

رواه البخاري في الوصايا (٣٢٢/٦)، وفي التفسير (٣٠٩/٩، ٣١٠)، ومسلم آخر الكتاب (١٥٦/١٨، ١٥٧) وهو أيضاً عند ابن الجارود (٩٥١)، والبيهقي (٢٨٤/٦) كلاهما في الوصايا.

والحديثان يدلاّن على أن لِوَصيّ اليتيم أن يأكل من مال يتيمه، ويأخذ منه بقدر الحاجة إن كان فقيراً من غير أن يجمع ويدّخر منه أو يفسده ويبادر رشده.

والآية الكريمة نصّ في وجوب استعفاف الوصي عن مال يتيمه إن كان غنيّاً، فإن كان فقيراً واحتاج فليأكل بالمعروف ولا يعتدي، فإن أخذ مال اليتيم جعله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من السبع الموبقات، كما في الصحيحين، ويأتي الحديث بجملته في الأدب والأخلاق.

* * *

متى ينقطع اليتم

{٣٣٤} ـ عن الإمام عليّ عليه السلام قال: حفظت من رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَم، ولا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ**».

رواه أبو داود (٢٨٧٣)، والطحاوي في المشكل (١/٢٨٠)، والطبراني في الصغير وسنده ضعيف، لكن الحديث حسن صحيح لطرقه، بل جاء معناه عن ابن عباس بسند صحيح رواه أحمد (١/٢٩٤) مطولاً وفيه: «وعن اليتيم متى ينقض يتمه»، قال: «**إِذَا احْتَلَم أو أُونِسَ منه خيرٌ**»، وفي رواية له (١/٣٠٨): ولعمري إن الرجل تنبت لحيته وهو ضعيف الأخذ لنفسه، فإذا كان يأخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب اليتم.

الحديث يدلّ على أن اليُتْم ينقطع عن اليتيم إذا احتلم وظهرت منه علامة البلوغ، فإذا بلغ إلى هذا السنّ فقد أصبح راشداً ولم تبق الوصية عليه لأحد إذا بلغ مع رشده وصلاحه، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم ومالهم، ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] الآية، وهو معنى ما قاله ابن عباس: إن الرجل تنبت لحيته... إلخ.

وقوله: ولا صمات يوم إلخ، هذا كان من عادات الجاهلية فأبطله الإسلام، وهو أن ينذر الإنسان السكوت من الصباح إلى المساء، فإن هذا النذر باطل لا ينعقد.

كتاب الفرائض والمواريث

قبل أن نخوض في إيراد أحاديث الفرائض وما يتبعها، لا بدّ وأن نذكر أموراً لها تعلق وثيق بالمواريث، وهي:

أولاً: للإرث أسباب وموجبات، وهي ثلاث: نَسَب، ويشمل الأقارب الذين وَرَّثَهُم الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتون بأعيانهم،

ومصاهرة وتشمل الزوج والزوجة،

وولاء وهو ولي النعمة من السيد أو المعتق ـ بكسر التاء ـ.

ثانياً: للحرمان من الإرث موانع، وهي اختلاف الدين، فلا إرث بين مسلم وكافر، والقتل، فالقاتل لا حظ له في إرث قتيله، وولد الزنا فلا يلحق بأبيه الغير الشرعي فلا توارث بينهما، وإنما يرث أُمّه كولد الملاعنة أيضاً.

والعبد الرقيق، فلا يرث عبد مملوك.

ثالثاً: الورثة الذين أباح الله لهم أموال أقاربهم بعد موتهم إرثاً لَها هم سبعة عشر وارثاً، عشرة من الرجال، وسبع من النساء،

فالرجال هم: الابن، وابن الابن، والأب، والجدّ أبو الأب، والأخ، وابن الأخ، والعمّ، وابن العمّ، والزوج، ومولى النّعمة.

أما النساء، فهنّ: البنت، وبنت الابن، والأم، والجدة، والأخت، والزوجة، ومولاة النعمة.

رابعاً: الفرائض والأنصباء التي نصّ الله تعالى عليها وبيّنها أيضاً رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هي ستّة: النصف، والربع، والثُّمُن، والثلثان، والثلث، والسدس، ويعبّرون عنها بقولهم: النصف ونصفه ونصف نصفه، والثلثان، ونصفه ونصف نصفه.

خامساً: الورثة في الإسلام: ثلاثة أقسام: قسم يرث بالفرضية، وهم الذين عيّن الله لهم أنصباءهم بالتنصيص عليها، وهم: الأب، والأُمّ، والجد، والبنت، وبنت الابن، والبنات، والأخوات، والأخ أو الإخوة للأُمّ، والزوج، والزوجة.

وقسم يرثون بالتعصيب، وهم الذين يرثون ما يبقى عن أهل الفروض، وهم: الابن، وابن الابن، والأخ الشقيق أو للأب، وابن الأخ الشقيق، أو للأب، والعم للأب والأُمّ، أو للأب، وابن العم كذلك، والمولى المنعم. وقسم يرثون تارة بالفرضية، ومرة بالتعصيب، كالأخ الشقيق، والأب، والجد...

سادساً: لا تقسم التركة بين الورثة حتى يتحقّق موت رب التركة، وتخرج الديون، وما يجهز به الميت من مصاريف، ثم تنفيذ الوصية من ثلث المال، ثم ما يبقى يقسم على الورثة كل يعطى ما يستحقه حسب ما فصله الله تعالى، وكل ما ذكرنا مجمع عليه لا يعرف فيه خلاف، دع عنك أهل الشذوذ، فلا عبرة بهم.

سابعاً: علم الفرائض والمواريث من العلوم العظيمة النافعة، والتي يجب على المسلمين الاهتمام بها وتعلّمها وإتقانها، وذلك من فروض الكفاية، وقد جاء في فضل تعلّمها أحاديث عدة لكنها لا تخلو من ضعف ولا يصح منها شيء.

* * *

تفصيل المواريث والفرائض
سبب نزول آية المواريث

{٢٢٤} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: عادني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبو بكر في بني سَلمة يمشيان، فوجدني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ ثم رشّ عليّ منه، فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وفي رواية: فلم يردّ عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وفي رواية: فقلت: يا رسول الله إنما يرثني كلالة، فنزلت آية الميراث.

رواه البخاري (١٥/٤، ٢٦)، ومسلم (١١/٥٥، ٥٦)، وأبو داود (٢٨٨٦)، والترمذي (١٩٣٠) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٧٢٨) كلّهم في الفرائض والروايات لمسلم وغيره.

هكذا جاءت الروايات مختلفة بعضها يدلّ على أن الآية التي نزلت بسبب جابر هي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية، وبعضها يدلّ على أن الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وأشكل ذلك على كثير من العلماء، فذهب بعضهم إلى الترجيح، وذهب آخرون إلى أن كلاً من الآيتين نزلتا بسببه، وهذا هو الظاهر، ويأتي في ميراث الأخوات والبنات زيادة إن شاء الله تعالى.

* * *

موانع الإرث

{٢٢٥} ـ عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يَرِثُ المسلمُ الكافر، ولا الكافر المسلم**».

رواه البخاري (١٥/٥٣)، ومسلم (١١/٥٢)، وأبو داود (٢٩٠٩)،

والترمذي (١٩٣٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٧٢٩)، والدارمي (٣٠٠٢، ٣٠٠٤، ٣٠٠٥) وغيرهم.

نقل غير واحد الإجماع على أن الكافر لا يرث المسلم، وأما المسلم فلا يرث الكافر عند الجمهور، وهو مقتضى الحديث.

{٢٣٦} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى**».

رواه أحمد (١٧٨/٢، ١٩٥)، وأبو داود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١) وغيرهم بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عن جابر عند الترمذي (١٩٤٠)، أو آخر عن الشعبي مرسلاً رواه الدارمي (٢٩٩٥).

وقوله: لا يتوارث أهل ملّتين يقتضي العموم حتى الكفار لا يتوارثون مع اختلاف مللهم.

{٢٣٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**القاتِل لا يَرِث**».

رواه الترمذي (١٩٤١) بتهذيبي، ورجاله رجال الصحيحين غير إسحٰق بن عبدالله بن أبي فروة فضعيف، لكنه ورد من حديث عبدالله بن عمرو في حديث طويل في الديّات، وفيه: «**ليس للقاتل شيء**»، رواه أبو داود (٤٥٦٤) بسند حسن صحيح.

والحديث يدلّ على أن القاتل لا يرث من قتيله شيئاً، ولو كان ابنه أو أباه فأحرى غيرهما، وظاهر الحديث سواء كان القتل عمداً أم خطأ.

{٢٣٨} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيُما رَجُل عَاهر بحرَّة أو أَمَةٍ فالوَلَدُ وَلَدُ زِنَا، لا يَرِثُ ولا يُورَثُ**».

رواه الترمذي (١٩٤٥) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٧٤٥، ٢٧٤٦)، والحاكم (٣٤٢/٤) وسنده حسن عند الأخيرين. ولا خلاف بين المسلمين

في حرمان ولد الزّنا من إرث والده الزاني بأُمّه، وأنه يرث أُمّه وترثه، والعاهر الزاني والعَهَر ـ بفتحتين ـ: الزّنا.

❊ ❊ ❊

من ترك مالاً فلورثته

{٣٢٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**والَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ إنْ على الأرضِ مِنْ مُؤمِنٍ إلاَّ أنا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ، فأيُّكُمْ ما ترك دَيْناً أو ضَيَاعاً فأنا مولاه، وأيكم ترك مالاً فإلَى العصبة من كان**»، وفي رواية: «**ومن ترك مالاً فلورَثَتِهِ**».

رواه البخاري (١٥/١٠)، ومسلم (١١/٦٠، ٦١)، وأبو داود (٢٩٠٠)، والترمذي (١٩٢٥)، وابن ماجه (٢٤١٥) واللفظ لمسلم.

قوله: ضياعاً، يعني: أولاداً وعيالاً. والحديث يدلّ على أن مال الميت يستحقه عصبته الورثة، ولا خلاف في هذا بين المسلمين، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالحديث في الجنائز.

❊ ❊ ❊

وجوب تقديم أهل الفرائض في القسمة

{٣٣٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لأَوْلَى رجُلٍ ذَكَرٍ**».

رواه البخاري (١٥، ١١، ١٢)، ومسلم (١١/٥٢)، وأبو داود (٢٨٩٨)، والترمذي (١٩٣١).

قوله: ألحقوا الفرائض إلخ، أي: اقسموا المال بين أهل الفرائض وهم الذين أعطاهم الله أنصباءهم، وقوله: فما بقي فلأَوْلى إلخ، أي: فما يبقى

من التركة بعد أن يأخذ أهل الفرائض ما فرض لهم يعطى لأقرب رجل نسباً إلى الميّت، وكمثالٍ لذلك: إذا مات رجل وترك زوجة، وأخاً، وعمّاً يعطى للزوجة الربع، لأنه المفروض لها في القرآن، فتبقى ثلاثة أرباع التركة يأخذها الأخ لأنه أقرب من العمّ إلى الميت، وكذلك إذا مات رجل وترك أخوات أو بنات وعمّاً وابن عم، فللأخوات أو البنات الثلثان والباقي يأخذه العمّ؛ لأنه أقرب إلى الميت من ابن العم وهكذا. فهذا الحديث الشريف يضفْ عِلْمِ الفرائض وقاعدة عظيمة من قواعده.

❊ ❊ ❊

ميراث البنات والأخوات

{٢٣١} ـ عن الأسود بن يزيد رحمه الله تعالى قال: أتانا معاذ بن جبل باليمن معلماً وأميراً فسألناه عن رجل توفّي وترك بنتاً وأختاً، فقضى أن للابنة النصف، وللأخت النصف، ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيّ.

رواه البخاري (١٥، ١٦، ٢٥)، وأبو داود (٢٨٩٣).

لا خلاف في هذه الفريضة، وأن البنت والأخت إذا اجتمعتا بمفرديهما حازتا التركة كلّها.

❊ ❊ ❊

ميراث البنت والأخت مع بنت الابن

{٢٣٢} ـ عن هزيل بن شرحبيل قال: جاء رجل إلى أبي موسى وسليمان بن ربيعة وسألهما عن ابنة، وابنة ابن، وأخت لأبٍ وأُمّ، فقالا: للابنة النصف، وللأخت من الأب والأُمّ ما بقي، وقالا له: انطلق إلى عبدالله فاسأله، فإنه سيتابعنا، فأتى عبدالله فذكر له ذلك، وأخبره بما قالا، قال عبدالله: قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، ولكني أقضي فيهما كما قضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وللأخت ما بقي.

رواه البخاري (١٥، ١٧، ١٨)، وأبو داود (٢٨٩٠)، والترمذي (١٩٢٨)، وابن ماجه (٢٧٢١)، والدارمي (٢٨٩٣) وغيرهم.

في الحديث أن الأخت ترث بالتعصيب مع البنت وبنت الابن، ولو وجد الابن لحجب الأخت حجب إسقاط.

❋ ❋ ❋

ميراث الزوج والولد من المرأة

{٢٣٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في جَنِينِ امرأةٍ من بني لِحْيَانَ سَقَطَ مَيّتاً بغُرَّةٍ عبدٍ أو أمةٍ، ثم إن المرأة التي قَضَى عليها بالغُرّة توفّيت، فقضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنّ مِيرَاثَها لبنيها وزوجها، وأن العقل على عَصَبتها.

رواه البخاري (٢٥/١٥) وفي مواضع، ويأتي في الديّات، ومسلم في القسامة (١٦٨١)، والترمذي في الديات.

الغرّة عند العرب: هو العبد والأَمة، ويأتي الكلام على الحديث في الديّات.

والشاهد منه هنا هو أن الزوجة يرثها زوجها وأولادها، فإن انفرد الزوج أخذ نصف التركة، وإن شاركه ولد من الزوجة حجبه إلى الربع، وهذا مما لا خلاف فيه.

❋ ❋ ❋

ميراث الإخوة من الأب والأُم

{٢٣٤} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١٢]، وأن

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى بالدَّيْنِ قبل الوصية، وأن أعْيان بني الأُم يَرِثُون دُون بني العَلاَّتِ، الرجُل يَرِثُ أخاه لأبِيه وأُمّه دون أخِيه لأبِيهِ.

رواه الترمذي (١٩٢٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٧٣٩)، والحاكم (٣٣٦/٤) وقال: صحت هذه الفتوى عن زيد بن ثابت.

قوله: قضى بالدين إلخ، تقدم ذلك في الوصايا وهو إجماع، وقوله: أعيان بني الأُم، المراد بهم الإخوة الأشقاء، وقوله: بني العلات هم الأخوة لأب واحد من أُمّهات شتّى، وقد وقع الإجماع على أن من مات وترك إخوة أو أخوات أشقّاء، وأخوة لأب، فإن الأشقاء هم الذين يرثونه دون الإخوة للأب.

* * *

ميراث العمّ والبنتين والزوجة

{٣٣٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الرَّبيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِل أبوهما معك يوم أُحُد شهيداً، وأن عَمَّيْهِمَا أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنْكَحانِ إلا ولهما مال، قال: **«يقضي الله في ذلك»**، فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى عمّيهما، فقال: **«أعطِ ابنتي سعدِ الثلثين، وأعطِ أُمَّهُما الثُّمُن، وما بقي فهو لك»**.

رواه أحمد (٣٥٢/٣)، وأبو داود (٢٨٩١)، والترمذي (١٩٢٧) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٧٢٠)، والحاكم (٣٤٢/٤) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث بيان أن حظّ البنتين الثلثان، والقرآن نصّ على ما فوق الاثنتين كما قال: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء:

١١]، كما في الحديث أن حظّ الزوجة وفرضها مع الأولاد الثمن، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ [النساء: ١٢]، وفيه أن العم عاصب مع البنات والزوجة يأخذ ما بقي، وكل هذا إجماع لا خلاف فيه.

* * *

ميراث الكلالة

{٢٣٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات لي، فدخل عليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنفخ في وجهي، فأفقت فقلت: يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين؟ ثم خرج وتركني ثم رجع إليّ، فقال: **«إني لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك، فجعل لهنّ الثلثين»**، فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فيّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية [النساء: ١٧٦].

رواه البخاري (١٥/٢٦)، وأبو داود (٢٨٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٠).

{٢٣٧} ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: آخر آية نزلت خاتمة سور النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

رواه البخاري (١٥/٦٧)، ومسلم (١١/٥٨)، وأبو داود (٢٨٨٨) وغيرهم، والترمذي (٢٨٤٥) وغيرهم، وفي رواية قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ ما الكلالة؟ قال: **«تجزيك آية الصيف»**.

رواه أبو داود (٢٨٨٩)، والترمذي (٢٨٤٦) وله شاهد في صحيح مسلم (١١/٥٧) عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وسياقه عن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خطب يوم جمعة، فذكر

نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وذكر أبا بكر رضي الله تعالى عنه، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهمّ عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: «**يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وإني إن أعِشْ أقضِ فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأ القرآن...**».

«آية الصيف» سمّيت كذلك لأنها نزلت في فصل الصيف.

والكلالة جاءت في موضعين من سورة النساء: خاتمتها، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية [النساء: ١٧٦].

فهذه الكلالة تختص بمن مات ولم يترك والداً ولا ولداً وترك أختاً أو أخاً أو أختين أو أخوة وأخوات، إما أشقاء أو لأب؛ فهؤلاء بيّن الله ما لكل منهم، فإن كانت أختاً واحدة فلها نصف التركة والباقي يأخذه العصبة إن وجدوا، وإن كان أخاً واحداً شقيقاً أو لأب أخذ كل المال، وإن كانتا أختين كان لكل واحدة منهما الثلث، وإن كانوا مزيجاً من الذكور والإناث اقتسموا ذلك بينهم للذكر مثل حظّ الأُنثيين.

هذه كلالة آخر النساء، وفيها جاء حظ وفرض أخوات جابر وهو الثلثان.

والكلالة الثانية جاءت في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ الآية [النساء: ١٢].

وهذه خاصة فيمن مات من ذكر أو امرأة ولم يتركا إلا أخاً أو أختاً من أم، فحَظُّ كلّ واحد منهما السدس إذا انفرد، فإن تعدَّدُوا اقتسموا ثُلُثَ التركة فيما بينهم، والباقي يأخذه العاصب إن وجد ولو كان بعيداً. هذا ما

يتعلق بالكلالة. أما اهتمام سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه بالكلالة... فإنه كان يريد زيادة بيان وإيضاح أكثر، فأرشده النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الاكتفاء بهذه الآية الكريمة التي ختمت بها السورة، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

ميراث الأولاد، والأبوين والزوجين

{٣٣٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحبّ، فجعل للذكر مثل حظّ الأُنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

رواه البخاري في الفرائض (٢٤/١٥) وفي الوصايا وفي التفسير.

ما ذكره ابن عباس من ميراث ما ذكر هو نص آية المواريث.

❊ ❊ ❊

ميراث ابن الابن إذا لم يكن ابن

{٣٣٩} ـ قال زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: ولد الأبناء بمنزلة الولد إذا لم يكن دونهم ولد ذكرهم كذكرهم، وأنثاهم كأُنثاهم، يرثون كما يرثون، ويحجبون كما يحجبون، ولا يرث ولد الابن مع الابن. ذكره البخاري في الفرائض، وعزاه الحافظ لسعيد بن منصور.

وما ذكره زيد مجمع عليه بين الأمّة، فابن الابن بمنزلة الابن عند فقدان الابن، ولا يرث ابن الابن مع وجود عمّه ابن الميّت، وما جرت به القوانين اليوم من تنزيل ولد الابن منزلة أبيه ولو مع وجود ابن للميّت هو ظلم وضلال وجاهلية وخرق للإجماع.

❊ ❊ ❊

{٢٤٠} ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن ابني مات فما لي من ميراثه؟ فقال: «**لك السدسُ**»، فلما ولّى دعاه فقال: «**لك سدس آخر**»، فلما ولّى دعاه قال: «**إن السدس الآخر لك طعمة**».

رواه أحمد (٤٣٨/٤)، وأبو داود (٢٨٩٦)، والترمذي (١٩٣٢) بتهذيبي، وحسّنه الترمذي وصححه.

صورة هذه المسألة أن الميت ترك بنتين وهذا الأب، فأعطي البنتين الثلثين، وأعطي الأب السدس لأنه فرضه، وزاده سدساً آخر تعصيباً فأصبح الأب وارثاً بالفرضية والتعصيب. وعن الحسن أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: أيكم يعلم ما وَرَّثَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الجدَّ؟ فقال معقل بن يسار: أنا، وَرَّثَه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم السدس، قال: مع من؟ قال: لا أدري، قال: لا دريت، فما تغني إذاً.

رواه أبو داود (٢٨٩٦)، ومعناه في صحيح البخاري.

{٢٤١} ـ وعن ابن الزُّبير رضي الله تعالى عنهما قال: أما الذي قال فيه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولو كنت متّخذاً من هذه الأُمّة خليلاً لاتخذته، أنزله أباً**». يعني: أبا بكر.

رواه البخاري في الفضائل (١٨/٨)، وقال في الفرائض (١٩/١٥)، وقال أبو بكر وابن عباس وابن الزُّبير: الجد أب، قال: ولم يذكر أن أحداً خالف أبا بكر في زمانه، وأصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم متوافرون. وفي هذا الأثر بيان أن توريث الجدّ كان متّفقاً عليه بين الصحابة، فإن الصدّيق رضي الله تعالى عنه حكم به، ولم يخالفه أحد منهم، لا سيما وقد تقدم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى به له، ثم يجب أن يعلم أن الجدّ لا يرث مع وجود أب الميّت بالإجماع.

{٢٤٢} ـ وعن قبيصة بن ذؤيب رضي الله تعالى عنه، قال: جاءت

الجدّة أمّ الأُمّ أو أمّ الأب إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقالت: إن ابن ابني أو ابن ابنتي مات وقد أُخْبِرْتُ أن لي في الكتاب حقّاً، فقال أبو بكر: ما أجد لك في الكتاب من حق، وما سمعت من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى لك بشيء، وسأسأل الناس، قال: فسأل الناس، فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطاها السدس، قال: ومن سمع ذلك معك؟ قال: محمد بن مسلمة، قال: فأعطاها السدس، ثم جاءت الجدة الأخرى التي تخالفها إلى عمر رضي الله تعالى عنه، فقال عمر: إن اجتمعتما فهو لكما، وأيّتكما انفردت به فهو لها.

رواه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (١٩٣٢)، وابن ماجه (٢٧٢٤)، وابن حبان (١٢٣٤)، والحاكم (٣٣٨/٤)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وفي الحديث كلام لكن له شاهد عن بريدة عند أبي داود (٢٨٩٥) وغيره بسند حسن، بلفظ: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جعل للجدة السدس إذا لم يكن دونها أمّ، وآخر عن ابن عباس عند ابن ماجه (٢٧٢٥)، والدارمي (٢٩٣٦)، وفيه شريك وليث بن أبي سليم وفيهما كلام من جهة حفظهما، فالحديث صحيح، وإذا ثبت كان حكم الجدّة من حفيدها السدس إذا انفردت، فإذا اجتمعت الجدّتان من جهة الأب، ومن جهة الأُمّ كانتا شريكتين في السدس. هذا قضاء الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين**» إلخ تقدم تخريجه في الاعتصام، وقال: «**اقتدوا بالخليفتين من بعدي أبي بكر وعمر**»، رواه الترمذي وغيره ويأتي في الفضائل.

* * *

ميراث المرأة من دية زوجها

{٢٤٣} ـ عن الضحاك بن سفيان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كتب إليه: **«أن وَرِّثْ امرأةَ أشْيَمَ الضبابي من دية زوجها»**.

رواه أبو داود (٢٩٢٧)، والترمذي (١٢٨٥، ١٩٤٢) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٦٤٢) وحسنه الترمذي وصححه. والحديث يدلّ على أن الدية كالتركة يرثها ورثة المقتول أيا كانوا، ومنهم زوجته، وبهذا قال جمهور الأئمّة والعلماء، وأخرج بعضهم المرأة من ذلك والحديث يخالفه.

* * *

ميراث ذوي الأرحام

{٢٤٤} ـ عن المقدام الكندي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنا أولى بكل مؤمن مِنْ نَفْسِهِ، فمن ترك دَيْناً أو ضَيعةً فإليَّ، ومن ترك مالاً فلورثته، وأنا مولى مَنْ لا مَوْلَى له، أرِثُ ماله وأفُكُّ عَانَه، والخالُ مولَى من لا مولى له يرث ماله ويفكّ عانه»**.

رواه أبو داود (٢٨٩٩، ٢٩٠٠، ٢٩٠١)، وابن ماجه (٢٧٣٨)، وابن حبان (١٢٢٥)، والحاكم (٣٤٤/٤) وصححه الحاكم على شرطهما، بل هو حسن فقط وصحيح لشواهده عن عائشة رواه الترمذي (١٩٣٦)، والحاكم (٣٤٤/٤) بسند يحتمل التحسين، وشاهد آخر عن عمر رواه الترمذي (١٩٣٥)، وابن ماجه (٢٧٣٧) بسند حسن، وكلاهما اقتصرا على «الخال وارث من لا وارث له»، أما الجملة الأُولى فجاءت في الصحيحين وغيرهما.

وذوو الأرحام هم: الخال، والخالة، والجد للأُم، وولد البنت، وولد الأخت، وبنت الأخ، وبنت العم، والعمّة، والعمّ للأُم، وابن الأخ للأُمّ، ومن أدلى بأحدٍ منهم.

{٢٤٥} ـ وقد ثبت عن الإمام عليّ وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما

أنهما نزلا بنت البنت بمنزلة البنت، وبنت الأخ بمنزلة الأخ، وبنت الأخت بمنزلة الأخت، والعمة منزلة الأب، والخالة منزلة الأمّ. رواه الدارمي والبيهقي (٢١٧/٦)، وسنده صحيح عند البيهقي، وأخرج الطحاوي نحوه عن ابن مسعود أيضاً بسند صحيح، ويؤيّد ما ذكرنا حديث: «**ابن أخت القوم منهم**»، رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

واختلف الأئمّة في توريثهم إذا لم يكن للميت عصبة، فذهب أكثر أهل العلم كما حكاه الترمذي إلى توريثهم، وبذلك يقول أحمد وأبو حنيفة وابن راهويه وغيرهم، وخالف في ذلك مالك وغيره، فلم يورثوهم. وحديث الباب نص في أن الخال وارث من لا وارث له، كما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وارث من لا وارث له، ولذلك اتّفق العلماء على أن من لا وارث له يدفع ماله لبيت مال المسلمين.

❊ ❊ ❊

الولاء لمن أعتق ووليّ النعمة

{٢٤٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الوَلاَءُ لمَنْ أعْطَى الوَرِق ووليّ النّعمة**».

رواه البخاري (٥٠/١٥) وفي مواضع، ومسلم وغيرهما، ويأتي مطوّلاً في أحكام الرقيق.

الوَلاَء ـ بفتح الواو ـ: هو كالنسب صلة بين السيد وعبده، وبين المُعْتِق ـ بكسر التاء ـ: ومعتقه ـ بفتحها ـ: لا يباع ولا يشترى ولا يوهب، وإذا مات العبد سواء كان لا يزال رقّاً أم عتق ورثه صاحب ولائه، وهذا مما لا خلاف فيه، وقوله في الحديث: وليّ النعمة، يعني به: المعتق ـ بكسر التاء ـ.

❊ ❊ ❊

تحريم بيع الولاء وهبته

{٢٤٧} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **«نهى النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن بَيعِ الولاءِ وعن هِبَتِه»**.

رواه البخاري في الفرائض (١٥/٤٦)، ومسلم (١٠/١٤٨) والأربعة وغيرهم.

إذا ثبت أن الولاء لحمة كلحمة النسب، كما جاء من طرق كان بيعه وشراؤه وهبته حراماً كالنسب، وقال ابن بطال: أجمع العلماء على أنه لا يجوز تحويل النسب، فإذا كان حكم الولاء حكم النسب، فكما لا ينتقل النسب لا ينتقل الولاء، وكانوا في الجاهلية ينقلون الولاء بالبيع وغيره، فنهى الشرع عن ذلك.

❊ ❊ ❊

ميراث الولاء بالإسلام

{٢٤٨} ـ عن تميم الداري رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا رسول الله ما السنّة في الرجل يُسْلِمُ على يدي الرجل من المسلمين؟ قال: **«هُوَ أَوْلَى الناس بمَحْيَاهُ وَمَمَاتِهِ»**.

رواه أبو داود (٢٩١٨)، والترمذي (١٩٤٤)، وابن ماجه (٢٧٥٢)، والدارمي (٢٠٣٧)، وذكره البخاري معلقاً في الفرائض بصيغة التمريض، والحديث ضعّفه الجمهور وحسّنه أو صححه جماعة، ومنهم أبو زرعة الدمشقي والحاكم وابن التركماني، وصححه أيضاً من المعاصرين أستاذنا الحافظ أبو العباس ابن الصديق رحمه الله تعالى في الهداية، وأطال الكلام في الرد على من ضعفه بما لا تجده عند غيره، وكذلك صححه محدث الديار الشامية ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى، وإذا صحّ الحديث كان حكم من مات ولم يترك وارثاً إلا من أسلم على يديه كان إرثه له بولاء الإسلام، وبهذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

توريث أهل القرية لمن لا وارث له

{٢٤٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن مولى للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مات وترك شيئاً، ولم يدع ولداً ولا حميماً، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أعطوا ميراثه رجُلاً من أهل قَرْيَتِهِ**»، وفي رواية: «**ها هنا أحد من أهل أرضه**»، قالوا: نعم، قال: «**فأعطوه مِيراثه**».

رواه أبو داود (٢٩٠٢)، والترمذي (١٩٣٧)، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (٢٧٣٣) وسنده حسن صحيح.

الحديث يدلّ على أن أهل القرية لهم أن يرثوا من مات منهم ممّن لا وارث له.

* * *

هل العبد يرث سيده

{٢٥٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً مات على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يدع وارثاً إلا عبداً هو أعتقه، فأعطاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ميراثه.

رواه أبو داود (٢٩٠٥)، والترمذي (١٩٣٨)، والنسائي، وابن ماجه (٢٧٤١)، والحاكم (٣٤٦/٤، ٣٤٧)، وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي... وسنده صحيح.

ظاهر هذا الحديث أن العبد يرث سيده إذا لم يكن له وارث، وإنْ كان أعتقه، لكن العمل على خلاف هذا الحديث.

* * *

لا حلف في الإسلام ونسخ التوارث بالعقد

{٢٥١} ـ عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا حِلْف في الإسلام، وأيّما حِلْف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة**».

رواه أحمد (٤/٨٣)، ومسلم (١٦/٨٢)، وأبو داود (٢٩٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤/٩٠).

{٢٥٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: حالف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا، فقيل له: أليس قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا حلف في الإسلام**»، فقال: حالف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرّتين أو ثلاثاً.

رواه البخاري (٥/٣٧٩)، ومسلم في الفضائل (١٦/٨٢)، وأبو داود (٢٩٢٦) وغيرهم.

{٢٥٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: ٣٣]، قال: وَرَثَته، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة ورث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخوة التي آخى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلا النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويُوصى له.

رواه البخاري في الحوالة (٥/٣٧٧، ٣٧٨)، وأبو داود (٢٩٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٢).

الحِلْف ـ بكسر الحاء وسكون اللام ـ: هو العهد، وقوله: لا حِلْف في الإسلام، يعني: لا تعاهد في الإسلام على ما كانت عليه الجاهلية من التعاهد على الباطل، وأما الحلف الذي أوقعه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، فكان على التوارث والتناصر في الدِّين... فنسخ التوارث وبقيت المحالفة على طاعة الله تعالى، والمؤاخاة في الإسلام، والتناصر في الدين والتعاون على البرّ والتقوى وإقامة

الحق... وهو معنى قوله: وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة. أفاده القاضي عياض، فهذا فقه ما ذكر في الباب، وانظر ما ذكرته في سورة النساء من الجواهر عند الآية: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾.

❋ ❋ ❋

ترکة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٢٥٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا نُورَثُ ما تَرَكْنا صدَقَةٌ»**.

رواه البخاري في الفرائض (٨/٦/١٥) وفي مواضع، ومسلم (١٧٥٩) وغيرها، ويأتي مطوّلاً.

{٢٥٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومَؤُونَة عاملي فهو صدقةٌ»**.

رواه البخاري في الفرائض (٨/٧/١٥) وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (١٧٦٠، ١٧٦١)، وأبو داود (٢٩٧٤).

الحديثان يدلاّن على أن ما تركه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أرض وغيرها هو صدقة في سبيل الله بعد نفقة أهله ومؤونة العامل على ذلك، ولا يورث شيء منها. وهذا إجماع من الأُمّة لم يخالف فيه أحد إلا الشيعة الخبثاء الذين نسبوا للشيخين الظلم والحيف وغصب حق مولاتنا فاطمة وزوجها سيدنا عليّ عليهما السلام، مع تواتر حديث: **«لا نورث»**، وإجماع الأُمّة على مقتضاه، وسيأتي بقية للموضوع في الخمس إن شاء الله تعالى.

وبهذا تمّ الكلام على الفرائض والحمدلله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

كتاب أحكام الرقيق

التعبير بالرقيق أعمّ وأشمل من التعبير بالعتق الذي اعتاده الفقهاء والمحدّثون، والرقّ واتّخاذه هو ظاهرة قديمة عند جميع الأُمم من الرومان، والأكاسرة، والعرب وغيرهم، ولم يختصّ به الإسلام كما يفتريه الحاقدون على الإسلام والمسلمين...

غير أن القدامى كانوا يستعبدون الأحرار بواسطة الحروب كما يسترقونهم بالسطو عليهم واختطافهم... وكانت القوى العاملة في تلك المجتمعات مركّزة على الرقيق، فالزراعة، والصناعة، والبناء... كل ذلك كان يتولاّه العبيد كما يُعرف من تاريخ الأُمم، فالعبيد كانوا هم الخدم، وهم أصحاب الأعمال الشاقّة وغيرها، وقد بلغ الرومان إلى درجة أن حرَّموا عتق العبيد، وكانوا يحكمون بالسجن أو التعذيب على من يضبطونه متلبّساً بجريمة عتق عبد له... في زعمهم.

ولما جاء الإسلام نظم الرق وجعله خاصاً بما يسبى من الجهاد وحرم استعباد الحرّ بغير ذلك، ثم أمر بالإحسان إلى العبيد ومعاملتهم المعاملة الجميلة كآدميين ورغب في عتقهم وتحريرهم... رغم أن الرقّ شيء ضروري في حياة المسلمين له تعلق بكثير من الأحكام الشرعية، فيحتاج إليه في قتل الخطأ، وفي الظهار، وفي الفطر عمداً في رمضان، وفي كفارة اليمين...

بيد أن هذا الأمر أصبح في خبر كان حيث انقطع الجهاد في سبيل الله

مع ضعف المسلمين وتخلّفهم في الصناعات المعاصرة، ومنها التكنولوجيا، وخاصة أن الدول الغربية أصدرت أمراً بمنع الرقّ خلال الحرب العالمية الأُولى، فتبعهم المسلمون على ذلك... فارتفع هذا الجانب الإسلامي من الساحة كما ارتفع تطبيق الشريعة الإسلامية كلها إلا نتفاً لا تذكر، لكننا لا نُخْلي كتابنا هذا من ذكر ما جاء في تراثنا الإسلامي وسنّة نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، عسى الله أن يأتي بفتح من عنده فترجع الأُمور إلى نصابها، وتظهر الخلافة الإسلامية الراشدة، فتطبق عندها الأحكام الشرعية، ومنها الجهاد في سبيل الله والاسترقاق واتّخاذ ملك اليمين، والله المستعان على ذلك.

* * *

فضل العتق والترغيب فيه

{٢٥٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيُما رجلٍ أعْتَقَ امْرأً مسلماً اسْتَنْقَذَ الله بكل عُضْوٍ منه عُضْواً منه من النار**»، قال سعيد بن مرجانة: فانطلقت به إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام، فعمد ابن الحسين إلى عبدٍ له قد أعطاه به عبدالله بن جعفر عشرة آلاف درهم أو ألف دينار، فأعتقه.

رواه البخاري (٦/٧٢، ٧٣)، ومسلم (١٠/٥٢)، وأبو داود (٣٩٦٥، ٣٩٦٦)، والترمذي (١٤٠٨) وغيرهم كلّهم في العتق. وفي رواية للشيخين وغيرهما: «**من أعْتق رَقبةً أعْتَقَ الله بكل عضوٍ منها عضواً من أعضائِهِ من النار حتى فَرْجه بفَرْجِهِ**»، وفي رواية: «**رقبة مؤمنة**».

{٢٥٧} ـ وعن كعب بن مَرّة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار عَظْمَيْنِ منهما بعَظْمٍ، وأيما امرأةٍ مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار**».

رواه النسائي في الكبرى (١٦٩/٣، ١٧٠) بسند صحيح، وكذا رواه ابن ماجه (٢٥٢٢).

ومثله عند الترمذي (١٤١٤) عن أبي أُمامة.

في الحديثين، فضل عتق الأرقاء وأن ذلك يكون فكاك صاحبه من النار عضواً بعضو بشرط أن تكون الرقبة المعتقة مؤمنة، والرجل والمرأة كلاهما في ذلك سواء، وفي الحديث الأول فضل زين العابدين رضي الله تعالى عنه، وزهده وإيثاره الآخرة على الدنيا ومسارعته للعمل بما سمعه من العلم.

* * *

أي الرقاب أفضل عتقاً

{٢٥٨} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبيّ صلّى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم: أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قال: **«إيمانٌ بالله وجهادٌ في سَبيلِهِ»**، قلت: فأيُّ الرّقابِ أفضل؟ قال: **«أَغْلاَهَا ثَمَناً وأَنْفَسُهَا عند أهلِهَا»**، وسيأتي كاملاً في البرّ والصلة.

رواه البخاري (٧٤/٦، ٧٥)، وابن ماجه (٢٥٢٣)، ومسلم في الإيمان (٧٣/٢)، والنسائي في الكبرى (١٤/٣).

وفي الحديث أن أفضل الرّقاب التي ينبغي عتقها وتحريرها هي من كانت نفيسة عند أهلها، وكانت مرتفعة الثمن لما يكون فيها من كثرة المنافع...

* * *

الإرشاد إلى العتق عند كسوف الشمس

{٢٥٩} ـ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، قالت: **«كُنَّا نُؤْمَرُ عِنْد الخُسُوفِ بالعَتَاقَةِ»**، رواه البخاري وغيره.

فيه مشروعية عتق العبيد عند خسوف الشمس، لأن ذلك يخفّف من غضب الله، ويفرج الكروب ويكشف البلاء، وقد تقدم شيء من هذا في صلاة الخسوف.

❊ ❊ ❊

حكم عتق العبد المشترك

{٣٦٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أعتق شِرْكاً له في عبد، فكان له مال يبلُغُ ثمن العبد قُوِّم قيمةَ عَدْلٍ، فأعطى شُركاءه حِصَصَهُم، وعَتَقَ عليه العبدُ وإلا فقد عَتَق منه ما عَتَق**».

رواه البخاري (٦/٧٨، ٨٠)، ومسلم (١٠/١٣٥)، وأبو داود (٣٩٤٠، ٣٩٤٣)، والنسائي في الكبرى (٣/١٨١، ١٨٣، ١٨٤)، وابن ماجه (٢٥٢٨) كلّهم في العتق.

{٣٦١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أعتق نصيباً له في مملوك، أو شِقْصاً، فعليه خَلاصُه من ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال اسْتُسْعِيَ العبدُ في قيمته غير مشقوق عليه**».

رواه البخاري (٦/٨٢)، ومسلم (١٠/١٣٧)، وأبو داود (٣٩٣٧)، والنسائي في الكبرى (٣/١٨٥، ١٨٦)، وابن ماجه (٢٥٢٧) وغيرهم.

قد يكون للمرء مملوك خاص به، وقد يكون شركاً بين اثنين أو جماعة، فإن كان مملوكاً للواحد فهو حر في أمره، فإذا أعتقه أصبح حراً بلا نزاع، أمّا إذا كان شركاً لجماعة أو فردين مثلاً، فأعتق واحد منهم حِصَّته ونصيبه وشِقْصه، فإن كان هذا المُعتِق ـ بكسر التاء ـ: غنياً موسعاً عليه وجب عليه أن يقوم ما بقي من نصيب شريكه... ويعطيه ثمن حصّته، ويعتق العبد عليه، وإلا بأن لم يكن له مال، فقد عتق من العبد ما عتق من

حصص الشركاء، ثم على العبد أن يسعى في فكاك ما بقي عليه، فيستعين بأهل الإحسان أن يساعدوه حتى يحصل قيمة نصيب الشريك الآخر... ولا يشقّ على هذا العبد في الطلب، هذا فقه الحديثين، وما فيهما يدل على أن الشارع يحب من العباد أن يكونوا أحراراً لله تعالى غير مستعبدين لغيره.

❊ ❊ ❊

العتق مع اشتراط استخدام العتيق

{٣٦٢} ـ عن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: كنت مملوكاً لأُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، فقالت: أُعْتِقُكَ وأَشْتَرِطُ عليك أن تَخْدُمَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما عشْتَ، فقلت: إن لم تشترطي عليَّ ما فارقتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما عشت، فأعتقتني واشترطت عليَّ.

رواه أبو داود (٢٩٣٢)، وابن ماجه (٢٥٢٦) بسند حسن.

فيه جواز عتق العبد واشتراط عليه خدمة شخص مدّة حياته، وفيه فضل أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها وحبّها الخير لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والترفيه له، كما فيه فضل سفينة رضي الله تعالى عنه وحق له ذلك، فإنه قد حاز السبق في انتسابه لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكونه من جملة مواليه الأماجد.

❊ ❊ ❊

لا يجوز العتق مع الحاجة

{٣٦٣} ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أعتق ستّة أعْبُدٍ عند موته، ولم يكن له مالٌ غَيْرُهم، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال له قولاً شديداً، ثم دعاهم فجزأهم ثلاثة أجزاء، فأقرع بينهم، فأعتق اثنين، وأرقَّ أربعة، وقال له قولاً شديداً.

رواه مسلم (١٣٩/١١، ١٤٠)، وأبو داود (٣٩٥٨)، وابن ماجه (٢٥١٣)، وكذا النسائي وابن الجارود (١٠٢١).

قوله: وأرَقَّ ـ بفتحات مع تشديد القاف ـ: أي: تركهم أرقّاء مملوكين له.

والحديث يدلّ على تحريم العتق عند الموت لجميع ممالكه، وأنّ له أن يعتق منهم الثلث، وللحاكم أن يُحَجِّرَ عليه في ذلك. ويؤخذ منه منع التصدّق بجميع ما يملكه عند الموت؛ لأن في ذلك حرماناً للورثة، وقد يكون ذلك مقصوداً من المتصدّق.

* * *

من ملك ذا رحم عتق عليه

{٣٦٤} ـ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «مَن ملَكَ ذا رَحِمٍ محرمٍ فهو حرّ».

رواه أحمد (١٥/٥، ٢٠)، وأبو داود (٣٩٤٩)، والترمذي (١٣٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٧٣/٣)، وابن ماجه (٢٥٢٦) وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على أن من وقع في ملكه ذو محرم من أقاربه أصبح حراً، وأن استعباده بعد العلم بأنه ذو رحم محرم، حرام لا يجوز.

* * *

المكاتب

{٣٦٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن بريرة أتتها وهي مكاتبة قد كاتبها أهلها على تسع أواقٍ، فقالت لها: إن شاء أهلك عددت لهم عدة واحدة، وكان الولاء لي، قال: فأتت أهلها فذكرت ذلك لهم، فأبوا إلا أن تشترط الولاء لهم، فذكرت عائشة ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم فقال: «**اشتريها وأعتقيها، واشترطي لهم الوَلاء، فإن الولاء لمن أعتق**»، قالت: فقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال رجالٍ يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، كلُّ شرط ليس في كتاب الله فهو باطلٌ، وإن كان مائة شَرْط كتاب الله أحقُّ، وشرطُ الله أوْثَق، والوَلاء لمن أعتق**».

رواه البخاري (١٥/٥٠) في الفرائض وفي مواضع مطوّلاً ومختصراً، ورواه أيضاً مسلم في العتق (١٠/١٣٩، ١٤٨) بألفاظ، وأبو داود (٣٩٢٩)، والترمذي (١٢٥٤، ١٢٥٦) مختصراً، وابن ماجه (٢٥٢١)، والنسائي وابن الجارود (٨٩١) وغيرهم.

قوله: وهي مكاتبة إلخ، المكاتبة: هي أن يتعاقد السيد المالك مع عبده ورقيقه على أن العبد إذا جاء بمبلغ كذا وكذا فهو حرّ، وقد أمر الله تعالى بمكاتبة الرقيق في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، والخير هو الإسلام...

فهذه بريرة كانت أَمَةً مملوكة لقوم، فكاتبها أهلها على مبلغ من الفضة، فجاءت إلى عائشة تستعينها في ذلك، فحصل ما ذكر في الحديث، ثم كانت النهاية أن اشترتها عائشة من أهلها وأعتقتها، وفي قصة بريرة أحكام كثيرة يأتي بعضها، كما أن في حديثها إشكالات أشكلت على بعض العلماء لا داعي هنا لذكرها.

* * *

المكاتب عبد ما بقي عليه درهم

{٣٦٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**المُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ مكَاتَبَتِهِ دِرْهَمٌ**».

رواه أبو داود (٣٩٢٦)، والبيهقي (١٠/٣٢٤) بسند حسن.

وفي رواية: «**أيما عبد كاتب على مائة أُوقية فأدَّاها إلا عشرة أواقٍ فهو عبدٌ، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأدّاها إلا عشرة دنانير فهو عبد**».

رواه أبو داود (٣٩٢٧)، وأحمد (١٨٤/٢)، وكذا الترمذي (١٢٦٠)، وابن ماجه (٢٥١٩) مختصراً بمعناه.

في الحديث دليل على أن العبد إذا كاتب سيّده وأدّى إليه بعض ما تعاقدا عليه وعجز عن الأداء بقي عبداً حتى يؤدّي المبلغ كاملاً.

* * *

بيع المدبر، وأمهات الأولاد

{٣٦٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأنصار أعتق غلاماً له عن دبر، ولم يكن له مالٌ غيرُه، فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**من يشتريه مِنّي**»، فاشتراه نُعَيْمُ بن عبدالله بثمانمائة درهم، وفي رواية: فاحتاج، وفي أخرى: وكان عليه دين فباعه، فأعطاه وقال: «**اقضِ دينك**».

رواه البخاري في البيوع (٣٢٥/٥)، وفي العتق (٩١/٦، ٩٢)، ومسلم في الزكاة (٨٣/٧)، وفي النذور (١٤١/١١، ١٤٢)، وأبو داود (٣٩٥٥، ٣٩٥٧)، وابن ماجه (٢٥١٢، ٢٥١٣)، وكذا النسائي (١٩٣/٣) في الكبرى، والرواية الثانية للبخاري، والثالثة للنسائي، وفي رواية لمسلم زيادة في آخره تأتي في البرّ والصلة.

{٣٦٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه: كنا نبيع سَرَارِينا وأمَّهَاتِ أولادِنا والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فينا حيٌّ لا نرى بذلك بأساً. وفي رواية: بعنا أمّهات الأولاد على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبي بكر، فلما كان عمر نهانا فانتهينا.

رواه أبو داود (٣٩٥٤)، وابن حبان (١٢١٦)، والحاكم (١٨/٢، ١٩) بالرواية الثانية، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

ورواه ابن ماجه (٢٥١٧)، وابن حبان (١٢١٥)، والبيهقي (٣٤٨/١٠) بالرواية الأُولى وسنده صحيح.

المدبر ـ بضم الميم وفتح الدال والباء المشدّدة ـ: هو العبد الذي يعتقه سيده عن دُبرٍ منه، بمعنى أنه إذا مات أصبح حراً، فعتقه معلّق بموت السيد وسمّي بذلك لأن الموت دبر الحياة ولأن فاعله دبر أمر دنياه باستمرار العبد لخدمته، ودبر آخرته بتحصيل ثواب الأجر بعتقه، أمّا أُمّهات الأولاد فهنّ الجواري والسراري اللاتي يلدن من أسيادهن، فإذا توفّي السيد أصبحن حرائر.

لكنه جاء في هذين الحديثين جواز بيع كل من المدبر وأم الولد، وقد اختلف العلماء في ذلك، أما بيع المدبر، فنقل البيهقي في المعرفة عن أكثر الفقهاء جواز بيعه وهو مذهب أهل الحديث، وذهب الجمهور إلى منع ذلك، وفصل آخرون فقالوا: إذا احتاج السيد إلى بيعه لدين عليه أو ضرورة ملحّة جاز بيعه، وإلا فلا، وهذا في رأيي أعدل المذاهب؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اقضِ دينك وأنفق على عيالك»**، وقول جابر: فاحتاج، وقوله: وكان محتاجاً وكان عليه دين، فإن كل ذلك يدلّ على أنه كان محتاجاً فباعه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يجز له تدبيره.

وأما أُمّ الولد، فالخلاف فيها أشدّ، فحكى ابن قدامة إجماع الصحابة على تحريم بيعها عملاً بنهي عمر رضي الله تعالى عنه عن ذلك، وقالوا: إن حديث جابر ليس فيه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اطلع على بعضها، فأقرّهم عليه، وذهب الظاهرية وجماعة آخرون إلى الجواز، قال الشوكاني في النيل: والأحوط اجتناب البيع لأن أقلّ أحواله أن يكون من الأمور المشتبهة والمؤمنون وقافون عندها.

* * *

جواز استرقاق العرب

{٣٦٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: أغار النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على بني المُصْطَلِق وهم غارُون وأنعامُهم تُسْقَى على الماء، فقَتل مُقاتِلَتَهم وسَبَى ذَرَارِيهِم وأصاب يومئذ جُوَيْرِيَة.

رواه البخاري في العتق (٩٦/٦) وفي مواضع، وسيأتي في المغازي.

قوله: وهم غارُون ـ بضم الراء المشدّدة ـ: أي: غافلون، واستدلّ بالحديث على جواز استرقاق العرب، وهو ظاهر تصرّفات النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غزواته، وسيأتي ذلك في موضعه.

* * *

الإحسان إلى الرقيق وتحريم الاعتداء عليهم

{٢٧٠} ـ عن المعرور بن سُوَيْد رحمه الله تعالى، قال: رأيت أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حلّة، فسألناه عن ذلك فقال: إني سابَبْتُ رجلاً فشكاني إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال لي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أعَيَّرْتَه بأمّه**»، ثم قال: «**إنَّ إخْوَانَكُم خَوَلُكُم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطْعِمْه مما يأكل، وليُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تُكَلِّفُوهم ما يغلِبُهم، فإن كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم**».

رواه البخاري في الإيمان وفي العتق (١٠٠/٦)، ومسلم في الأيمان (١٣٢/١١، ١٣٣)، وأبو داود (٥١٥٧، ٥١٥٨)، والترمذي (٢٠٢٧) وغيرهم.

قوله: أعيّرته بأمّه، كان قال له: يا ابن السوداء، وجاء في رواية: «**إنّك امْرُؤٌ فيك جاهليّة**»، أي: فيك خصلة من خصال أهل الجاهلية، وقوله: خولكم ـ بفتح الخاء والواو ـ: أي: خدمكم، سمّوا بذلك لأنهم يتخوّلون الأمور ويصلحونها.

وفي الحديث مشروعية الإحسان إلى الرقيق، وبالتالي الخدم ومعاملتهم بالجميل وإطعامهم مما يطعم الإنسان، وإلباسهم مما يلبس ولا يكلّفون من

الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلّفوا بما يغلبهم وجبت معاونتهم. وهذه المساواة بين الخادم والمخدوم لا توجد إلاّ في الإسلام، وهذا من محاسنه الكثيرة.

{٣٧١} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دعا بغلام له، فرأى بظهره أثراً، فقال له: أوجعتُك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق، ثم قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«من ضرب غلاماً له حَدّاً لم يأتِه أو لَطَمَه فإنّ كَفّارتَه أن يُعْتِقَه»**.

رواه مسلم في الأيمان (١١/١٢٦، ١٢٧).

في الحديث كسابقه الرفق بالرقيق والإحسان إليهم، وعدم الاعتداء عليهم بالضرب بلا موجب، فمن أتى من ذلك بشيء، فكفارة ما أتى أن يعتقه.

{٣٧٢} ـ وعن سويد بن مُقَرِّن رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيتنا سبعَ إخْوَةٍ ما لنَا خادمٌ إلا واحدة، فلطَمَها أحدُنا، وفي رواية: فلطمها على وجهِهَا، فأَمَرَني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن نُعْتِقَها. وفي رواية: قالوا: ليس لهم خادمٌ غيرُها، قال: **«فَلْيَسْتَخْدِمُوها فإذا اسْتَغْنَوْا عنها فَلْيُخَلُّوا سَبِيلَها»**.

رواه مسلم في الأيمان (١١/١٢٨، ١٢٩)، وأبو داود (٥١٦٦)، والترمذي (١٤٠٩) في الأيمان والنذور.

وفي الحديث كسابقه مشروعية عتق من اعتدى عليه، فلطم في وجه.. ولنكتف بهذا القدر في أحكام العبيد، فإنّ الكلام فيهم طويل متشعّب وستأتي بقيّة فيهم في غضون الكتاب إن شاء الله تعالى.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه. في كتب المعاملات والشؤون المدنية.. نحو من ثلاثة وتسعين حديثاً صحيحة زائدة على الصحيحين والباقي وهي مائة وثمانون أخرجها أو أحدهما.

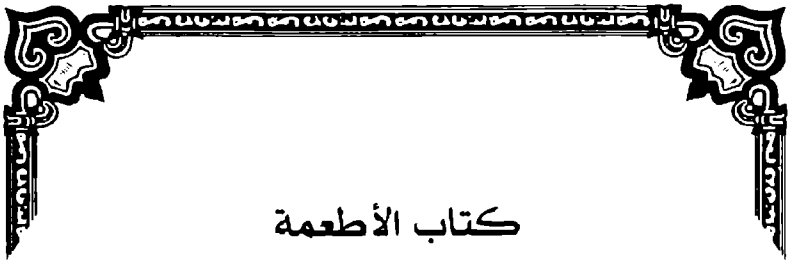

كتاب الأطعمة

يشمل كتاب الأطعمة ثلاثة أبواب، الباب الأول في آداب الأكل ومتعلّقاته. الباب الثاني في الأطعمة المحرمة والمكروهة. الباب الثالث في الأطعمة المباحة، وتحت كل باب فصول وعناوين.

❊ ❊ ❊

فمن الآداب:
التورّع عن اتّخاذ الموائد والمُشهِيَات

{٣٧٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى قال: ما علمت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أكل على سُكُرُّجَةٍ قط، ولا خُبِزَ له مرقق قط، ولا أكل على خِوَانٍ، قيل لقتادة: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: على السُّفَر.

رواه البخاري (٤٦١/١١)، والترمذي (١٦٤١)، وابن ماجه (٣٢٩٢).

سكُرُّجة ـ بضم السين والكاف ثم راء مشدّدة مضمومة ـ: أيضاً: إناء يوضع فيه ما يلذّ من الأطعمة الفاتحة للشهيّة. والخوان ـ بكسر الخاء ـ: المائدة، والسُّفر ـ بضم السين وفتح الفاء ـ: جمع سفرة، أصله الطعام يتّخذه المسافر، ثم استعمل اللفظ في الجلد ونحوه مما يوضع عليه الطعام عند الأكل، وهو المراد هنا، وهذه العادة لا زالت في بلاد العرب، وعند بعض الأعاجم. وقوله: ولا خبز له مرقّق، يعني: الخبز المأخوذ من الدقيق

الأبيض المغربل، والحديث يدلّ على استحباب تجنّب ما لم يتّخذه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من هذه الأشياء، فإنه الأُسوة والقدوة في كل مسلم.

❊ ❊ ❊

الأدب مع الأكابر عند الأكل والتسمية على الطعام

{٣٧٤} ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا حضرنا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيضعُ يدَه، وإنا حَضَرنا معه مرة طعاماً، فجاءت جاريةٌ كأنها تُدْفَعُ، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدها ثم جاء أعرابي كأنما يُدفعُ، فذهب ليضع يده في الطعام، فأخذ بيده، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنَّ الشَّيطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعام أن لا يُذْكَرَ اسمُ الله عليه، وأنه جاء بهذه الجارية ليستحلّ بها، فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحلّ به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إن يَدَه في يدي مع يدِهَا»**، وفي رواية: **«إن يده في يدي مع أيديهما»**، وفي رواية: **«ثم ذكر اسم الله وأكل»**.

رواه مسلم في الأشربة (١٨٨/١٣، ١٨٩)، وأبو داود (٣٧٦٦) في الأطعمة أيضاً.

قوله: تدفع ـ بالبناء للمجهول ـ: معناه: كأن وراءها أحد يدفعها إلى أمام.

وفي الحديث مشروعيّة التسمية عند الأكل لئلا يستحلّ الشيطان ذلك الطعام فيأكله، فتذهب بركته، وفيه معجزة للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أخذ يد الشيطان مع يدي الجارية والأعرابي... وفيه أن الشيطان يأكل حقيقة، ولذلك أدلّة كثيرة، وفيه التأدّب مع الأكابر عند تناول الطعام، فلا يتقدم أحد قبلهم...

{٣٧٥} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل طعاماً في ستّة من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلُقْمَتَيْن، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أمَا إنّه لو سَمّى لكفاكم»**.

رواه الترمذي (١٧٠٥)، وابن ماجه (٣٢٦٤)، وابن حبان (١٣٤١) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه.

فيه بركة تسمية الله وشؤم تركها، وأن تركها من بعض الآكلين قد يؤثر في محق البركة، ولو كان الآكلون صالحين.

{٣٧٦} ـ وعن عائشة أيضاً قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا أكل أحدُكم طعاماً فليقل بسم الله، فإن نسي في أوّله فليقل: بسم الله في أوّله وآخره»**.

رواه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٧٠٤)، والحاكم (١٠٨/٤)، وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث شاهدان ذكرتهما في تهذيب الجامع.

في الحديث الاهتمام بالتسمية عند الأكل حتى ولو نسي في الابتداء، فليسمّ ولو أثناء الأكل أو آخره، وما ذلك إلا لبركة اسم الله عزّ وجلّ.

{٣٧٧} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إذا دخل الرجلُ منزله، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاء، وإن ذكر الله عند دخوله ولم يذكره عند عَشائه يقول: أدركتم العَشاء ولا مبيتَ لكم، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركْتُم المَبيتَ والعَشاء»**.

رواه أحمد (٣٤٦/٣، ٣٨٣)، ومسلم (١٩١/١٣) في الأشربة، وأبو داود (٣٧٦٥) في الأطعمة، وابن ماجه (٣٢٨٦).

في الحديث أن الشيطان وجنوده يأكلون مع بني آدم وينامون على فرشهم إذا لم يذكروا الله عزّ وجلّ عند دخولهم منازلهم وعند أكلهم، فإن

ذكروا الله تعالى حيل بين الشياطين وبين ما يريدون من الأكل والمبيت. وهذا الأكل والمبيت من الشياطين كلاهما محمول على ظاهره، ولا داعي لتأويله وإنكاره، فإن الأخبار أثبتت ذلك مع الواقع.

❋ ❋ ❋

الأكل باليمين والنهي عن الأكل بالشمال

{٢٧٨} ـ عن عُمر بن أبي سَلَمة رضي الله تعالى عنهما قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكانت يدي تَطِيشُ في الصَّحْفَة، فقال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا غلامُ سَمِّ الله وكُلْ بِيَمِينِكَ، وكُلْ مما يَلِيك»**، وفي رواية: **«اذْنُ يا بُنَيَّ»** إلخ.

رواه البخاري (١١/٤٥٠، ٤٥٢)، ومسلم (١٣/١٩٣)، وأبو داود (٣٧٧٧)، والترمذي (١٧٠٢)، وابن ماجه (٣٢٦٧)، وابن حبان (١٣٣٨) وغيرهم.

عُمر ـ بضم العين ـ: ابن أبي سلمة كان ربيب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع أمّه أُمّ سلمة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وفي حديثه هذا عدّة سنن من آداب الأكل: الدنوّ من الآنية، والتسمية، والأكل باليمين، والأكل مما يلي الإنسان.

وقد ذهب الظاهرية وغيرهم إلى وجوب هذه الأشياء لظاهر الأمر، وقال الجمهور بالاستحباب.

{٢٧٩} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا أكَلَ أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإنّ الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»**.

رواه مسلم (١٣/١٩١)، ومالك رقم (١٧٧٧)، وأبو داود (٣٧٧٦)، والترمذي (١٦٥١)، والدارمي (٢٠٣٦).

(٢٧٩م) ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تأكلوا بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال**».

رواه مسلم (١٩١/١٣) وغيره.

في الحديثين الإرشاد إلى الأكل والشرب باليمين وتجنّب الشمال في ذلك؛ لأن في استعمال الشمال تشبّهاً بالشيطان، وذلك مذموم، فإنّ من اتّخذ الشيطان قدوة فقد خاب وخسر، وظاهر الحديثين وجوب مخالفة الشيطان في ذلك. وهذا إذا لم تدع ضرورة للأكل والشرب بالشمال، كما إذا كانت اليمين مشغولة أو مريضة أو نحو ذلك.

❊ ❊ ❊

التواضع في الجلوس للأكل

{٢٨٠} ـ عن أبي جُحيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أمّا أنا فلا آكُلُ مُتّكِئاً**».

رواه البخاري (٤٧١/١١، ٤٧٢)، وأبو داود (٣٧٦٩)، والترمذي (١٦٧٧)، والنسائي في الكبرى (١٧١/٤)، وابن ماجه (٣٣٦٢)، وهو في الشمائل لأبي عيسى الترمذي (١٤٢).

الاتّكاء: هو الاعتماد على أحد الشّقين أو الاعتماد في الجلوس، والسنّة في الجلوس للأكل أن يكون الآكل جاثياً على ركبتيه وظهور قدميه، أو ينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى، واختلف في الأكل مع الاتّكاء فقيل: مكروه، وقيل خلاف الأولى، والظاهر أنه مباح لأنه لم يأتِ فيه نهي.

❊ ❊ ❊

من صفة المؤمن إقلاله من الأكل

{٢٨١} ـ عن المقدام بن معديكرب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«ما ملأ آدَمِيٌ وِعاءً شَرّاً من بطنه، بِحَسْبِ ابن آدم أُكُلات يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالة فثلُثٌ لطعامه، وثلُثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفسِهِ»**.

رواه أحمد (١٣٢/٤)، والترمذي (٢١٩٨)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، والحاكم (٣٣١/٤، ٣٣٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعاء: الآنية. بحسب: الباء موكدة أي: كافيه، أُكلات ـ بضم الهمزة والكاف ـ: جمع أكلة، أي: لُقَيمات، صُلْبه ـ بضم الصاد ـ: أي: ظهره.

والحديث يدلّ على أن شرّ ما يملأه الإنسان من الأواني بطنه، ففيه ذمّ الإكثار من الأكل، فإنّه يكفي الإنسان تناول لقيمات لإقامة بنيته، وإذا كان ولا بدّ من الزيادة فعليه أن يجعل بطنه أقساماً ثلاثة: قسماً للطعام، وقسماً للشراب، وقسماً فارغاً ليتسنّى له التنفّس. وهذا الحديث الشريف قاعدة عظيمة في الطبّ الوقائي، فإن الإقلال من الأكل نافع جداً، وعكسه مضرّ بالجسم والروح معاً.

وقد ذكر بعضهم أنه رأى هذا الحديث مكتوباً في إحدى كليّات الطب بألمانيا.

{٢٨٢} ـ وعن نافع رحمه الله تعالى قال: كان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلتُ رجلاً يأكل معه، فأكل كثيراً، فقال: يا نافع لا تدخل هذا عليَّ، سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«المؤمن يأكل في مِعىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»**، وفي رواية: كان أبو نُهَيْك رجلاً أكولاً، فقال له ابن عمر: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إن الكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء»**، قال: فأنا أؤمن بالله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في الأطعمة (٤٦٦/١١، ٤٦٧)، ومسلم (٢٣/١٤،

٢٤)، والترمذي (١٦٦٧) بتهذيبي، وابن ماجه (٣٢٥٧) ومثله عن أبي هريرة عند الشيخين، وعن أبي موسى عند مسلم.

المعى ـ بكسر الميم ـ: واحد الأمعاء: وهي المصارين، وقد اختلف اختلافاً كثيراً في توجيه معنى هذا الحديث، فقيل: إن هذا في رجل خاص قيل له ذلك على جهة التمثيل، وقيل: إن المراد أن المؤمن يقتصد في أكله، وقيل: المراد المؤمن يسمي الله تعالى عند طعامه فلا يشركه الشيطان، فتحصل له البركة في الطعام القليل بخلاف الكافر، فلا يشبع ولا يكفيه إلا ملىء أمعائه السبعة، وقيل: المراد بالمؤمن هنا تامّ الإيمان المعرض عن الشهوات المقتصر على سدّ خلته، واختار النووي أن الأكل في معى واحد يكون في بعض المؤمنين، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء... قال العلماء: ومقصود الحديث التقليل من الدُّنيا والحثّ على الزهد فيها والقناعة، مع أن قلّة الأكل من محاسن أخلاق الرجل، وكثرة الأكل بضدّه... أفاده عياض والنووي وغيرهما.

***

من الأدب أن لا يعاب الطعام

{٢٨٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما عاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طعاماً قطّ، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه.

رواه البخاري (٤٧٩/١١)، ومسلم (٣٦/١٤) وغيرهما.

عيب الطعام من سوء أدب الأكل؛ كقولهم: هذا مالح، قليل الملح، حامض، رقيق، غليظ، غير ناضج ونحو ذلك، فينبغي للمسلم أن يكون له اقتداء برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى في هذا الأمر البسيط الذي ليس فيه إثم.

***

ذمّ الأكل من وسط القصعة

{٢٨٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ البركة تنزل وسَط الطعام، فكلوا من حافَتَيه، ولا تأكلوا من وسَطِهِ**».

رواه أحمد (٣٦٤/١)، وأبو داود (٣٧٧٢)، والترمذي (١٦٥٦)، وابن ماجه (٣٢٧٧)، والدارمي (٢٠٥٢)، وابن حبان (١٣٤٦)، والحاكم (١١٦/٤)، وحسنه الترمذي وصححه وذلك لشواهده.

حافَتيه أي: أطرافه، وفي الحديث دليل على أن البركة تنزل وسط الطعام، فينمو ويزيد، فينبغي أن لا يؤكل من موضع البركة، بل من أطراف الطعام.

* * *

الإقران في التمر وغيره عند الأكل مع الجماعة

{٢٨٥} ـ عن جَبَلة بن سُحَيْم قال: كان ابن الزبير يرزقنا التمر، قال: وقد كان أصاب الناس يومئذ جُهْدٌ، وكنّا نأكل فيمرّ علينا ابن عمر ونحن نأكل، فيقول: لا تقارنوا، فإن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**نهى عن الإقران، إلا أن يستأذن الرجلُ أخاه**».

رواه البخاري (٥٠٢/١١)، ومسلم (٢٢٨/١٣).

الإقران: أن يأخذ الرجل تمرتين في كل مرة، فجاء هذا الحديث بالنهي عن ذلك إلاّ إذا استأذن الرجل من حضر معه للأكل، فإن الآكلين شركاء في الطعام، فينبغي لكل واحد منهم مراعاة حقّ صاحبه، والتمر لا مفهوم له بل يراعى ذلك في كل شيء حتى في الزبيب مثلاً أو أي فاكهة وهذا نهاية في العدالة وأدب الأكل الجماعي.

* * *

نهش اللحم بالأسنان وانتشاله

{٢٨٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تَعَرَّقَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كَتِفاً، ثم قام فصلّى ولم يتوضّأ، وفي رواية: انْتَشَلَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عَرْقاً من قِدْر، فأكل ثم صلّى ولم يتوضأ.

رواه البخاري في الأطعمة (١١/٤٧٦، ٤٧٧)، ومسلم في الطهارة (٤/٤٥).

قوله: تعرّق إلخ، أي: تناول اللحم من العرق ـ بفتح العين ـ: وهو العظم، وهو معنى قول ابن عباس: انتشل، أي: قطع واقتلع وتناول بأسنانه، والحديث يدلّ على جواز أكل اللحم بالفَم من العظم، وهو النَهش الوارد في حديث صفوان بن أُميّة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«انهشوا اللحم نهشاً، فإنّه أهنأ وأمرأ»**، رواه الترمذي (١٦٨٢)، وأبو داود (٣٧٧٩)، وأحمد (٣/٤٠٠، ٤٠١، ٤٦٤، ٤٦٥)، والدارمي (٢٠٧٦)، والحاكم (٤/١١٣) وصححه، والحديث حسن لشواهده، وانظر تهذيبي للجامع (١٦٨٢).

فقوله: انهسوا وارد بالشين والسين، ومعنى النهس والنهش: هو عضّ اللحم وأخذه بالأضراس وبمقدّم الأسنان، وقوله: أهنأ، أي: ألَذّ، وأمرَؤ أي: أذهب لثقله.

فأكل اللحم على هذه الكيفية أحسن مما يفعله الأنانيّون الذين يستنكفون تناوله بالأسنان مباشرة، ويرون ذلك تخلّفاً.

* * *

جواز قطع اللحم بالسكين

{٢٨٧} ـ عن عَمْرو بن أُمَيّة الضَّمْرِي رضي الله تعالى عنه أنه رأى

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم احْتَزَّ من كَتِفِ شاةٍ فأكل منها، ثم مضى إلى الصلاة ولم يتوضأ، وفي رواية: فألقاها والسكين التي يحتزّ بها فصلّى ولم يتوضّأ.

رواه البخاري (٤٧٨/١١) في الأطعمة وفي الطهارة... ومسلم في الطهارة (٤٥/٤) وغيرهما.

قوله: احتزّ أي: قطع، وفي الحديث جواز قطع اللحم بالسكين إذا دعت لذلك حاجة وضرورة إمّا لصلابة اللحم، أو لكبر القطعة. أما قطعه على العادة الحالية، فهي من عادات الكفّار والمتفرنجين وأهل الكبر.

❊ ❊ ❊

إذا وقعت اللقمة فلا يتركها للشيطان

{٢٨٨} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا أكل أحدُكم طعاماً فسقطتْ لُقمتُه فليُمِطْ ما رابَه منها، ثم لِيَطْعَمْها ولا يَدَعْها للشيطان»**.

رواه مسلم (٢٠٥/١٣) في الأشربة، والترمذي في الأطعمة (١٦٥٣) بتهذيبي.

قوله: فليمط ـ بضم الياء وكسر الميم ـ: أي: فليُزل ما رابه، أي: كرهه من تراب أو غبار. وفي الحديث الندب إلى أخذ ما يسقط من لقم أو فتات ولا يترك للشيطان، فإنه قد يكون هو الذي أسقطها.

❊ ❊ ❊

الاجتماع على الطعام

{٢٨٩} ـ عن وَحْشِيّ أن رجلاً قال: يا رسول الله إنّا نأكل ولا نَشْبَعُ، قال: **«فلعلّكم تأكلون متفرّقين»**، قال: **«فاجْتَمِعُوا على طعامِكُم واذكُرُوا اسْمَ اللهِ يُبارَكْ لكُمْ فيه»**.

رواه أحمد (٥٠١/٣)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، حسنه العراقي في المغني، وفي سنده مستور ومقبول وقد يحسن لهما، بعض الحفاظ كابن رجب وابن كثير... ولمعنى الحديث شواهد منها، وهو أقواها، حديث جابر قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنّ أحبّ الطعام إلى الله تعالى ما كَثُرَتْ عليه الأَيْدِي**»، رواه أبو يعلى (٢٠٤٥)، والطبراني في الأوسط (٧٣١٣) ورجاله ثقات، ولا يضرّ عبد المجيد بن أبي رواد هنا. وإذا ثبت الحديث كان الاجتماع على الطعام سنّة مستحبّة، وهي عادة المسلمين شرقاً وغرباً إلا المتفرنجين المستغربين، فإنهم يقتفون أثر الكفار في الانفراد بالأكل. وأفضل الهدي هدي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

طعام الواحد يكفي الاثنين

{٢٩٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**طعام الواحد يَكْفِي الاثنين، وطعام الاثنين يَكْفِي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية**».

رواه مسلم (٢٢/١٤، ٢٣)، والترمذي (١٦٧٠)، والنسائي في الكبرى (١٧٨/٤)، وكذا أحمد (٣٠١/٣، ٣٨٢)، ونحوه عن أبي هريرة عند البخاري (٤٦٥/١١)، ومسلم (٢٢/١٤)، والترمذي (١٦٦٩) وغيرهم.

ومعنى الحديث أن طعام الفرد يكفي من فوقه في الجملة لا سيما إذا حصلت البركة بالاجتماع على الطعام وتسمية الله تعالى من كل الآكلين مع وجود الصالحين... وفي الحديث الحثّ على المواساة في الطعام والابتعاد عن البخل والشح والشَّرَه.

* * *

ما يقال من الأذكار والأدعية بعد الطعام

{٢٩١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ الله لَيَرْضَى عَنِ العبدِ أنْ يَأْكُلَ الأَكْلَة أو يَشْرَب الشَّربة فيحمدَهُ عليها**».

رواه أحمد (٣/١٠٠، ١١٧)، ومسلم (١٧/٥١) في الذكر، والترمذي في الأطعمة (١٦٦٥)، والنسائي في الكبرى (٤/٢٠٢).

الأكلة هنا بفتح الهمزة: وهي المرة الواحدة من الأكل، وكذا الشربة.

وفيه سنّية واستحباب حمد الله عزّ وجلّ عقب تناول الطعام أو الشراب، فإن ذلك يرضي الله عزّ وجلّ لأنه يحب أن يحمد ويمجّد.

{٢٩٢} ـ وعن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا رفع مائِدته، قال: «**الحمدُ لله حَمْداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه غير مَكْفِيٍّ، ولا مُودَّع، ولا مُسْتَغْنى عنه ربَّنا**».

وفي رواية: «**الحمد لله الذي كفانا وآوانا وأزْوَانا غير مَكفِيٍّ ولا مَكْفُور**».

رواه البخاري (١١/٥١٣، ٥١٤)، وابن ماجه (٣٢٨٤)، وأبو داود (٣٨٥٠)، والترمذي (٣٢٣٠).

قوله: غير مكفيّ ـ بفتح الميم وسكون الكاف وكسر الفاء ثم ياء مشددة ـ: هو إما من كفات الإناء أي: غير مردود عليه إنعامه، أو من الكفاية أي: أن الله غير مكفّي رزق عباده، فلا يكفيهم أحد غيره، وقوله: ولا مودع ـ بفتح الدال المشدّدة ـ: أي: غير متروك، وقوله: ولا مستغنى عنه، بل هو محتاج إليه في كل حال ليستجلب به المزيد من النِّعم، وقوله في الرواية الأخرى: كفانا إلخ، أي: كفانا الإطعام والريّ، وآوانا إلى مساكننا التي أنعم بها علينا وقوله: غير مكفور أي: غير مجحود فضله ونعمته.

والحديث من جوامع حمد الله تعالى والثناء عليه، فلا ينبغي للمسلم أن يتركه عقب تناوله الطعام.

{٢٩٣} ـ وعن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أكل أو شرب قال: «**الحمد لله الذي أطْعَمَ وسَقَى، وسوَّغَه، وجعل له مَخْرجاً**».

رواه أبو داود (٣٨٥١)، وابن حبان (١٣٥١)، وابن السني في عمل اليوم رقم (٤٦٤) بسند صحيح.

وقوله: وسوّغه إلخ، أي: أدخله بلطفه للجوف حتى إذا أدّى مهمّته جعل له السبيل للخروج من موضع خاص.

{٢٩٤} ـ وعن رجل خدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثمان سنين أنه كان يسمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا قُرّب إليه طعامُه يقول: «**بسم الله**»، فإذا فرغ قال: «**اللَّهُمَّ أَطْعمْتَ وسقَيتَ، وأغْنَيتَ وأقْنَيتَ وهَدَيتَ وأَحْيَيتَ، فلك الحمدُ على ما أعْطَيتَ**».

رواه النسائي في الكبرى (٢٠٢/٤) وسنده صحيح.

قوله: أقنيت أي: أفقرت، وهذا ذكر عظيم يشتمل على الاعتراف بنعم الله تعالى على عباده مع ختامه بحمده تعالى على ما أولى وأنعم.

{٢٩٥} ـ وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطْعَمَني هذا ورَزَقَنِيهِ مِن غيرِ حَوْلٍ مِنّي ولا قُوَّة غُفِر له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه**».

رواه أحمد (٤٣٩/٣)، وأبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، والحاكم (٥٠٧/١) و(١٩٢/٤)، وكذا الدارمي (٢٦٩٣)، وأبو يعلى (١٤٨٨، ١١٣٩٧)، وحسّنه الترمذي، وهو كما قال، وحسّنه جماعة منهم الحافظ ابن حجر.

في الحديث فضل هذا الحمد بهذا السياق الدالّ على تبري العبد من حوله وقوّته، وأنه لا حركة له ولا سكون إلا بالله عزّ وجلّ، ولذلك كان جزاء صاحب هذا الحمد غفران ما تقدّم من ذنبه.

* * *

الأكل بثلاثة أصابع ولعقها قبل مسحها أو غسلها

{٢٩٦} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكُل بثلاثِ أصابع ويَلْعَقُ يدَه قبل أن يَمْسَحَها».

رواه مسلم (١٣/٢٠٤)، وأبو داود (٣٨٤٨).

{٢٩٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا أكَلَ أحدُكم طعاماً فلا يَمْسَخ يدَه حتى يَلْعَقَها أو يُلْعِقَها»**.

رواه البخاري (١١/٥١٠، ٥١١)، ومسلم (١٣/٢٠٣)، وأبو داود (٣٨٤٧) وغيرهم.

{٢٩٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا وقعت لُقمةُ أحدكم فليأخذْها فلْيُمِطْ ما كان بها من أذىً وليأكلْها ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يَلْعَقَ أصابعه، فإنه لا يَدْرِي في أيّ طعامِهِ البركة»**.

رواه مسلم (١٣/٢٠٥) ونحوه عن أنس رواه مسلم أيضاً، وفيه: وأمرنا أن نَسْلُتَ الصحفة، وقال: **«إن أحدكم لا يدري في أيّ طعامه يبارك له»**.

وقوله: يلعق: الأُولى بفتح الياء أي: هو بنفسه، والثانية بضمّها وكسر العين يَلعقها له غيره من زوجة أو ابن...

وفي هذه الأحاديث الإرشاد إلى التخلّق بآداب الأكل، ومنها، **أولاً**: أن يأكل بثلاثة أصابع، والأكل بأكثر منها يدلّ على الشَّرَه وسوء الأدب، اللّهمّ إلاّ إن احتاج إلى الزيادة. **ثانياً**: لعق الأصابع قبل مسحها أو غسلها، **ثالثاً**: لعق الصحفة وعدم تركها ملوّثة، **رابعاً**: استحباب التعرّض لبركة الطعام في لعق الأصابع أو الصحفة والآنية.

❊ ❊ ❊

هل يُسَنُّ استعمالُ المنديل للمسح؟

{٢٩٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن الوضوء مما مسّت النار، فقال: لا قد كنّا زمان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا نجد مثل ذلك من الطعام إلاّ قليلاً، فإذا نحن وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفّنا وسواعِدَنا وأقدامنا، ثم نصلّي ولا نتوضّأ.

رواه البخاري في الأطعمة (٥١٣/١١).

مناديل: جمع منديل وهو كل ما يمسح أو ينشفّ به.

وظاهر هذا الحديث يدلّ على أنهم أيام النبوّة لم تكن لهم مناديل يمسحون بها أيديهم بعد تناولهم الطعام، وإنما كانوا يمسحونها في سواعدهم وأقدامهم، وهو يدلّ على نهايتهم في التقشّف وبُعْدهم عن الرفاهية التي حدثت بعدهم، ثم إن حديث جابر المتقدم قبل هذا يدلّ على أنّهم كانت لهم مناديل، يشير إلى ذلك قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ولا يمسح يده بالمنديل»... غير أنه لم يكن مستعملاً بكثرة، علماً بأنه مباح، والله تعالى أعلم.

* * *

كراهية النوم
مع وجود الدسم في اليد بدون غسل

{٣٠٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا نام أحدكم وفي يده ريح غَمَر فلم يغسل يدَه فأصابه شيءٌ، فلا يَلُومَنَّ إلاّ نَفْسَه»**.

رواه أبو داود (٣٨٥٢)، والترمذي (١٧٠٧)، وابن ماجه (٣٢٩٧)، والدارمي (٢٠٦٩) وغيرهم وسنده صحيح، قال الحافظ: على شرط مسلم.

غَمَر ـ بفتحتين ـ: هو الدسم وزهومة اللحم، وفي الحديث إرشاد إلى تنظيف اليدين من أثر الطعام بغسلها، فربما نام فقصدته هامة لرائحة الطعام في يده فتؤذيه، وفي الحديث إشارة إلى أن غسل اليد بعد الأكل كان معتاداً أيام النبوّة.

* * *

إباحة الأكل في المسجد

{٣٠١} ـ عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ رضي الله تعالى عنه قال: كنّا نأكل على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المسجد الخبز واللّحم.

رواه ابن ماجه (٣٣٠٠) بسند صحيح.

فيه جواز الأكل في المسجد، وفي ذلك أحاديث سيأتي بعضها في المناقب.

* * *

الأكل قائماً

{٣٠٢} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نأكُلُ ونحن نَمْشِي، ونَشْرَبُ ونحن قِيَامٌ.

رواه الترمذي (١٧٢٧)، وابن ماجه (٣٣٠١)، والدارمي (٢١٣١)، وابن حبان (١٣٦٩)، وابن الجارود (٨٦٧)، وحسّنه الترمذي وصححه.

فيه جواز الأكل من قيام كالشرب، ويأتي في الأشربة بقية للموضوع.

* * *

الأطعمة المحرمة والمكروهة
الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله

{٣٠٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تَقَذُّراً، فبعث الله نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله، وحرّم حرَامَه، فما أحلَّ فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكتَ عنه فهو عَفْوٌ وتلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

رواه أبو داود في الأطعمة (٣٨٠٠)، والحاكم (٣١٧/٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

ما قاله هذا الحبر هو متفق عليه لا ينازع فيه أحد، فلا يجوز لأي إنسان أن يقول هذا حلال أو حرام إلاّ بحجّة من الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإلاّ كان من المفترين، وفي هذا المبدأ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]، وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، فالواجب على المسلم أن يقف عند ما حدّه الله تعالى.

فالمسألة ثلاثية إما حرام أو حلال بنصّ من الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، أو مسكوت عنه، فيكون من المعفوّات، فإن كان طيباً كان مباحاً، وإن كان مستخبثاً أو مضرّاً كان حراماً...

وبناء على هذا، فالأطعمة المحرّمة هي التي نصّ عليها القرآن والسنّة. أما القرآن فحرّم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب وما لم يذكر عليه اسم الله وكل خبيث، لأنه تعالى ذكر

من صفات النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه يحرم الخبائث.

وأمّا السنة النبوية، فجاءت بأمور زائدة على القرآن، فيجب أن تضمّ إليه. ومن ذلك الآتي:

* * *

تحريم أكل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير

{٣٠٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن كلّ ذِي نابٍ مِن السباع، وكل ذي مِخْلَبٍ من الطير.

رواه مسلم في الصيد (٨٣/١٣)، وأبو داود (٣٨٠٣، ٣٨٠٥)، والنسائي وابن ماجه (٣٢٣٤).

{٣٠٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أكل كل ذي ناب من السباع حرام**».

رواه مسلم (٨٣/١٣)، وابن ماجه (٣٢٣٣).

ونحوه عن أبي ثعلبة الخشني عند الشيخين.

قوله: ذي ناب، أي: صاحب ناب يفترس به، ويشمل الأسد، والنَّمِر، والذئب، والثَّعْلب، والكلب والهِرّ[1] وغيرهما، فهذه كلّها محرّمة الأكل... وذي مخلب ـ بكسر الميم وسكون الخاء ـ: هو للطير، بمنزلة الظفر للإنسان، فالطيور ذوات الأظافر المفترسة كلها محرمة وتشمل الباز والغراب والحديّا والنسر والعُقاب ومُوكَا وكل ما يفترس بمخالبه، فكلها

(١) وجاء نص على أكل الهِرّ وأكل ثمنها في الترمذي وغيره لكن سنده ضعيف، وجاء في حديث في المسند بتسميته سبعاً وفيه رجل مختلف فيه.

محرمات، وبهذا قال جماهير العلماء والأئمة ولا يلتفت لمن أباحها أو بعضها، فإن ذلك مخالف لصريح السنّة.

* * *

تحريم الحمر الأهلية والبغال

{٣٠٦} ـ عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: أصابتنا مجاعة ليالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية، فانتحرناها، فلما غلت بها القدور نادى منادي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أن أكفئوا القدور ولا تأكلوا من لحم الحمر شيئاً»**، وفي رواية: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد حرّم لحوم الحمر، فاكفئوا القدور بما فيها فأكفأناها.

رواه البخاري (٧٥/١٣)، ومسلم (٩١/١٣)، والنسائي في الصيد (٤٠٤٧)، وابن ماجه (٣١٩٢).

{٣٠٧} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أتانا منادي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينهاكم عن لحوم الحمر، فإنها رجس فأُكفيت القُدُور، وإنَّهَا لتَفُورُ باللحم.

رواه البخاري في الذبائح (٧٦/١٣) وفي مواضع، ومسلم (٩٤/١٣)، والنسائي (٤٠٤٨). وفي الباب عن الإمام علي وابن عمر وجابر وأبي ثعلبة وغيرهم وكلّها في الصحيح، بل هي متواترة.

قوله: اكفئوا أي: اقلبوا وكبُّوا، وقوله: فإنها رجس أو ركس أي: نجس.

والحديثان يدلاّن على تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية، وذلك متفق عليه إلاّ من شذّ في ذلك، كابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

{٣٠٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: حرّم رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ يعني يوم خيبر ـ: الحمر الإنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطَّيْر.

رواه الترمذي في الصيد (١٣٤٧) بتهذيبي، وابن أبي شيبة (١٢١/٥)، وأحمد (٣٢٣/٣)، والطحاوي في المعاني (٢٠٤/٤)، والدارقطني (٢١٠/٤، ٢١١) وسنده حسن صحيح غير أن بعضهم رواه مختصراً.

في هذا الحديث زيادة تحريم البغال، ولا خلاف أيضاً في تحريمها لأنها من نسل الحمير، وخالف في ذلك أبو محمد علي بن حزم الظاهري رحمه الله تعالى، فأباحها وهو شذوذ مردود.

* * *

تحريم لحم الجلالة وألبانها والمجثمة المصبورة

{٣٠٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن أكل المُجَثَّمَة، وهي المصبورة للقتل، وعن أكل الجلاَّلة وشرب لبنها.

رواه أبو داود (٣٧٨٦)، والترمذي (١٦٧٣)، والنسائي (٤١٤٣)، وابن ماجه (٣٤٢١)، وابن حبان (١٣٦٣)، وحسّنه الترمذي وصححه.

{٣١٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أكل الجلاّلة وألبانها.

رواه أبو داود (٣٧٨٥)، والترمذي (١٦٧٢)، وابن ماجه (٣١٨٩) بسند صحيح على شرط مسلم.

{٣١١} ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أكل المجثمة، وهي التي تُصْبَرُ بالنبل.

رواه الترمذي (١٣٤٢) بسند صحيح.

{٣١٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تَتَّخِذُوا شيئاً فيه الروح غَرَضاً**».

رواه مسلم (١٠٨/١٣)، والنسائي (٤١٤٠)، وابن ماجه (٣١٨٧) وغيرهم، وتأتي أحاديث في هذا المعنى في البرّ والصلة إن شاء الله تعالى، وفي الأدب.

المجثّمة ـ بضم الميم وفتح الجيم ثم ثاء مفتوحة مشدّدة ـ: هي التي تحبس من الحيوان ثم تضرب وتُؤسر، وكان ذلك من عادات العرب يتعلّمون الرماية في الحيوان، فجاء الإسلام بتحريم ذلك، ولعن من فعله كما في الصحيح من حديث ابن عمر: «**لعن الله من فعل هذا**».

ثم حرّم أكلها تنفيراً من هذا العمل الغير أخلاقي، فإن في ذلك تعذيباً للحيوان وتمثيلاً به. أما الجلاّلة ـ بفتح الجيم واللام المشدّدة ـ: فهي في الأصل الإبل التي تأكل العذرة والنجاسة، وقد اتّفق العلماء في الجملة على تحريم أو كراهة أكلها وشرب ألبانها، وإن اختلفوا في تغذيها بذلك كثرة وقلّة، ثم جعلوا كل من تغذّى بالنجاسة من الأنعام والطيور في معنى ذلك سواء كانت بقراً أم غنماً أم دجاجاً... أم غيرها، وقالوا: العبرة بغلبة النجاسة عليها، ويُعرف ذلك بتغيّر لحمها أو مرقها بتلك النجاسة... ولا شكّ في تحريم أكل من بلغ أمرها إلى هذا الحدّ لأنها أصبحت من الخبائث والأقذار، وليست من الطيّبات.

وأيضاً جاء النهي عن ركوبها كما في سنن النسائي (٤١٤٢) بسند صحيح زيادة في التنفير عنها، ولأنها إذا عرقت لا يأمن راكبها من الإصابة برشحها وهو نجس.

❊ ❊ ❊

تحريم أكل ما قطع من البهيمة وهي حيّة

{٣١٣} ـ عن أبي واقد الليثيّ رضي الله تعالى عنه قال: قدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة وهم يَجُبُّون أسنمة الإبل، ويقطعون

ألّيات الغنم، فقال: «**ما يقطع من البهيمة وهي حيّة، فهو ميتة**».

رواه أبو داود (٢٨٥٨)، والترمذي (١٣٤٩)، والحاكم (٢٣٩/٤) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وله شواهد تقوّيه أيضاً انظر تهذيبي للجامع (١٣٤٩).

قوله: يجبون ـ بفتح الياء وضمّ الجيم والباء المشدّدة ـ: أي: يقطعون، وقوله: أسنمة جمع سنام ـ بفتح السين ـ: وهو أعلى ظهر الجمل، وقوله: ألّيات جمع إلية ـ بكسر الهمزة ـ: وهو مؤخرة الشاة.

والحديث يدلّ على تحريم أكل ما قطع من البهيمة وهي على قيد الحياة، ولا خلاف في تحريم ذلك، علماً بأن فعل ذلك محرّم أشدّ التحريم، وهي جاهلية ويلحق بذلك ما يقطع من الذكاة قبل تمام موتها.

* * *

الفواسق الخمس

{٣١٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: «**خمس فواسق يُقْتلن في الحلّ والحرم: الحيّة، والغراب الأبْقَع، والفأرة، والكلب العَقُور، والحُدَيا**».

وفي رواية بدل الحيّة «العقرب».

رواه مسلم في الحجّ (١١٣/٨)، والنسائي في الكبرى (٣٨٧/٢)، وابن ماجه (٣٠٨٧)، ورواه بالرواية الثانية البخاري (٤٧/٤، ٤١٠)، ومسلم (١١٥/٨، ١١٦).

{٣١٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل: ما يقتل الرجل من الدواب وهو محرم؟ قال: حدّثتني إحدى نِسْوَة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه كان يأمُرُ بقتل الكلب العقور، والفأرة، والعقرب، والحديا، والغراب، والحيّة.

رواه البخاري (٤٠٦/٤)، ومسلم (١١٦/٨)، وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس وقد تقدم شيء من هذا في الحجّ.

قوله: فواسق جمع فاسقة، وسمّيت فواسق لخروجها عن غيرها في الإيذاء أو في تحريم أكلها... وهذه الدوابّ المأمور بقتلها كلّها محرمة الأكل عند عامّة أهل العلم.

{٣١٦} ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اقتلوا الحيّات واقتلوا ذا الطُّفْيَتَيْنِ والأَبْتَر، فإنّهما يَلْتَمِسَانِ البَصَر ويُسْقِطانِ الحَبَل»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٥٨/٧)، ومسلم (٢٣٣/١٤)، والترمذي (١٣٥٢) وغيرهم، ويأتي مزيد لهذا في الأدب.

ذو الطُّفيتين ـ بضم الطاء وسكون الفاء ثم ياء وتاء مفتوحتين بعدهما ياء ـ: وهو صاحب الخطين الأسودين على ظهره، وهذا النوع من أخبث الحيّات، والأبتر هو القصير من الأفاعي لا ذَنَب له، وهو أيضاً خبيث، وقوله: يسقطان الحبل ـ بفتحتين ـ: يعني: إذا نظرتْ إليهما الحامل أسقطت ما في بطنها من الجنين... وهل هناك أَحَدٌ سليم الفطرة يقول بإباحة الأفاعي وما ذكر معها، فإنها جميعها خبيثة مستقذرة، ولو كانت مباحة لما أمر الشارع بقتلها وتعرّضها للضياع، ثم إن منها ما هو قاتل، ومنها ما أكله مضرّ، وما كان كذلك كان حراماً، وقد قدّمنا ما في السباع التي منها الكلب العقور، وسيأتي حديث في الفأرة على الخصوص.

* * *

الأمر بقتل الأوزاغ

{٣١٧} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر بقتل الوزغ وسمّاه فُوَيْسِقاً.

رواه مسلم (٢٣٧/١٤) ونحوه عن أُمّ شريك، رواه البخاري في بدء

الخلق وفي الأنبياء (٢٠٥/٧)، ومُسلم (٢٣٦/١٤)، وزاد البخاري في الأنبياء: كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام.

{٣١٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من قتَل وَزَغَةً بالضربة الأُولى كان له كذا وكذا حسنة، فإن ضربها في الضربة الثانية كان له كذا وكذا حسنة»**، وفي رواية: **«من قتل وزغاً في أول ضربة كتبت له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك»**.

رواه مسلم (٢٣٧/١٤، ٢٣٨)، وأبو داود (٢٥٦٣)، والترمذي (١٣٥١)، وابن ماجه (٣٢٢٩)، والرواية الثانية لمسلم وابن ماجه.

الوَزَغ ـ بفتحتين ـ: دويبة خبيثة سامّة لها أربع قوائم تشبه الضبّ لكنها صغيرة، وفي الحديثين الترغيب في قتلها، وأن من قتلها في ضربة واحدة كانت له مائة حسنة. والحكمة ـ والله تعالى أعلم ـ: في الأمر بقتلها بالإضافة إلى خبثها، كونها كانت تنفخ في النار ضد إبراهيم عليه الصّلاة والسلام، كما في حديث أُمّ شريك، وجاء أيضاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها عنه عليه الصلاة والسلام أن إبراهيم لما أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابّة إلا أطفأت عنه إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقتلها، رواه ابن ماجه، وعلى كل فهي من الفواسق المؤذيات السامّة يحرم أكلها بالإجماع.

* * *

الأمر بقتل الكلاب

{٣١٩} ـ عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لولا أن الكلاب أمّة من الأُمم لأمرت بقتلها كلّها، فاقتلوا منها كل أسود بَهِيم»**.

رواه أبو داود (٢٨٤٥)، والترمذي (١٣٥٥)، والنسائي (١٦٣/٧،

١٦٦)، وابن ماجه (٣٢٠٥)، والدارمي (٢٨١٤) بسند صحيح، وتأتي أحاديث في هذا الموضوع في الصيد.

كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أولاً أمر بقتل الكلاب، ثم توقف عن قتلها، إلا الأسود الخالص فإنه أمر بقتله، وأخبر في حديث آخر بأنه شيطان، بمعنى أن الشيطان قد يأتي متمثلاً في صورته.

والكلاب محرّمة الأكل عند عامّة الأئمّة، لأنها من السباع المفترسة، ولكونها خبيثة قذرة ولحومها عند الصينيين أفضل من لحوم الغنم كالأفاعي والضفادع من مأكولاتهم.

* * *

النمل والنحل والهدهد والصرد

{٣٢٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهُدْهُد، والصُرد.

رواه أحمد (٣٣٢/١)، وأبو داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤) وسنده صحيح.

وفي رواية لأبي هريرة: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل الصُرد والضِفْدَع والنملة والهدهد. رواه ابن ماجه أيضاً (٣٢٢٣) بسند صحيح.

{٣٢١} ـ وعن عبد الرحمٰن بن عثمان التيمي قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل الضفدع للدواء.

رواه أحمد (٤٥٣/٣)، وأبو داود (٣٨٧١، ٥٢٦٩)، والنسائي (٣١٨/٧)، والحاكم وصححه وسنده صحيح.

الهدهد ـ بضم الهاءين بينهما دال ساكنة ـ: طير معروف جميل يذكر الناس لأجزائه خواصاً، والصُرد ـ بضم الصاد وفتح الراء ـ: طير ضخم

الرأس أخضر الظهر أبيض البطن يعتاد اصطياد صغار الطير، والضفدع ـ بكَسْرِ الضاد وسكون الفاء ثم دال مفتوحة ـ: فيها البرية والبحرية.

وظاهر هذه الأحاديث يدلّ على تحريم قتل هذه الدواب والطيور، فيكون أكلها غير جائز، وبذلك قال جمهور العلماء.

❋ ❋ ❋

سقوط الفأرة في السمن

{٣٢٢} ـ عن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: سُئِل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن فأرة سقطت في سمن، فقال: «**ألقُوها وما حَولَها وكُلُوه**».

رواه البخاري في الوضوء وفي الصيد (١٣/٩٢، ٩٠)، وأبو داود (٣٨٤١)، والترمذي (١٦٥٠)، والنسائي (٧/١٥٧)، والدارمي (٢٠٨٩)، وابن الجارود (٨٧٢).

الحديث يدلّ على نجاسة الفأرة، وبالتالي تحريم أكلها، ولا خلاف في ذلك غير أن مالكاً رحمه الله تعالى يرى جواز أكل بعض أنواع فئران البادية، والحديث يدلّ على أنها إذا وقعت في طعام جامد يجب أن تطرح وما حولها من الطعام ثم يؤكل، ويبقى الحال فيما إذا كان الطعام أو الشراب مائعين، فالجمهور على أنه يهراق، واستدلُّوا بحديث: «**إن كان جامداً فألقوها وما حولها، وإن كان ذائباً فلا تقربوه**»، رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان وفيه كلام... وفرّق بعضهم بين المتغير وغيره. وعلى كل، فالفأرة محرّمة نجسة خبيثة فويسقة مؤذية كما تقدم مع أخواتها.

ملحوظة سيأتي لنا كلام على أشياء محرمة في الصيد والذبائح، إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

الثوم والبصل والكرّاث

{٣٢٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من أكل البصل والثوم والكُرّاثَ فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تَتَأَذّى مما يتأذى منه بنو آدم**».

رواه مسلم في المساجد (٥/٥٠)، والترمذي (١٦٥٧)، والنسائي وغيرهم.

وفي رواية: «**من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، أو فليعتزل مسجدنا أو ليقعد في بيته**»، وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِي بقِدْر فيه خَضِراتٌ من بُقول، فوجد لها ريحاً فأُخبِرَ فسأل بما فيها من البقول، فقال: «**قرّبوها**» إلى بعض أصحابه كان معه، فلما رآه كره أكلها، قال: «**كل فإني أناجي مَنْ لا تناجي**»، رواه البخاري آخر صفة الصلاة (٢/٤٨٦)، ومسلم (٥/٤٩، ٥٠) وغيرهما، وفي الباب عن ابن عمر وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري والمغيرة بن شعبة وأبي هريرة وغيرهم، وأكثرها في الصحيح وتقدم بعضها في المساجد وفي الجماعة.

الكُرّاث ـ بضم الكاف وفتح الراء المشدّدة ـ: هو نوع من البقولات له ورق شبيه بالثوم.

وفي الحديث بيان أن من المباحات ما يكره أكله، ولا سيما لمن أراد الصلاة بالمسجد، ومنها هذه البقولات الثلاث إذا لم تطبخ وأكلت نيئة، فإن لها رائحة تتأذى منها الملائكة، وفيه أن من أكلها نيئة عليه أن لا يقربن المسجد لئلاّ يؤذي الملائكة الموجودين فيه، وفيه إشارة إلى أن كل ما فيه رائحة خبيثة لا يجوز للمتلبس به قربان المسجد، ومن ذلك أصحاب التدخين، ومن لهم روائح كريهة تحت آباطهم وفي أقدامهم... فإن هؤلاء يؤذون الناس والملائكة معاً.

* * *

خاتمة

هذه جملة الأطعمة المحرمة المنصوص عليها في السنّة تصريحاً أو استنباطاً، وسيأتي ما في الأشربة إن شاء الله تعالى، غير أنه مما يجب أن يعلم هو أنه هناك أشياء محرمة بدون خلاف ولم يأتِ في تحريمها نصّ صريح بخصوصها، وهي:

البول، والغائط، والمني، والمذي، والصديد، والقيح، والتراب، والبقولات السامّة، والقرود بجميع أنواعها وغير ذلك، فهذه كلّها محرمة الأكل بالإجماع.

ويلحق بالأطعمة المحرمة كل ما فيه ضرر بالجسم، وكل خبيث مستقذر. أما الميتة والدم والخنزير، فجاء القرآن بتحريمها وليس فيها خلاف، والله تعالى أعلم.

* * *

الأطعمة المباحة والتي كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكلها وتعجبه: أطعمة البحر

{٣٢٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سأل رجل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنّا نركبُ البحر ونَحْمِل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عَطِشْنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هو الطَّهُور ماؤُه الحِلُّ مِيتَتُهُ**».

رواه أحمد والأربعة والدارمي وغيرهم وسنده صحيح، وتقدم في أول الطهارة.

فقوله: «**الحل ميتته**» يدلّ على أن كل ما في البحر حلال، ولا يحتاج

إلى تذكية سواء كان ممّا يعيش في البرّ والبحر أم لا، ولو كان كلباً أو خنزيراً ويؤيّد هذا عموم قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦]، ويأتي حديث العنبر في الغزوات، فصيد البحر وطعامه عام في كل ما فيه من حيوان، ولا يستثنى منه إلاّ ما علم أنه مضرّ بالجسم أو بالعقل، والسيارة هم المسافرون.

❊ ❊ ❊

حيوان البرّ المُباح
الخيل

{٣٢٥} ـ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرساً فأكلناه، وفي رواية: ذبحنا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرساً ونحن بالمدينة، فأكلناه.

رواه البخاري في الصيد (١٢/٦٢)، ومسلم (١٣/٩٦)، كذلك، والنسائي في الضحايا (٤١١٧)، وابن ماجه (٣١٩٠).

{٣٢٦} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أكلنا زمن خيبر الخيل وحُمُر الوحش، ونهانا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الحُمُر الأهلية، وأذن في الخيل. وفي رواية: أطعمنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر.

وفي رواية: نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخّص في لحوم الخيل.

رواه البخاري (١٢/٧٠)، ومسلم (١٣/٩٥) كلاهما في الصيد باللفظ الأخير، ورواه أبو داود (٣٨٠٨، ٣٧٨٨)، والنسائي (٧/١٧٧)، والدارمي (١٩٩٩)، والترمذي (١٦٤٦) باللفظ الثاني.

قوله: نحرنا... وذبحنا، يدلّ على جواز النحر والذكاة في الخيل،

ويأتي ذلك في موضعه. والحديثان يدلاّن على جواز أكل لحوم الخيل وأنها حلال؛ كالأنعام، ولا فارق، وبهذا قال الجمهورُ من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعي وأحمد وأبو داود وأهل الحديث. وقال بتحريم أكلها مالك وأبو حنيفة وخالفهما كثير من أصحابهما عملاً بالحديثين.

❊ ❊ ❊

الضَّبُعُ

{٣٢٧} ـ عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن أبي عمار، قال: قلت لجابر: الضَّبُعُ أصَيْدٌ هي؟ قال: نعم، قلت: آكلها؟ قال: نعم، قلتُ: أقاله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال: نَعَمْ.

رواه الترمذي (١٦٤٤)، وأبو داود والنسائي وابن ماجه وسنده صحيح على شرط مسلم، وتقدم في الحج. والضبع ـ بفتح الضاد وضم الباء ـ: حيوان مُغْرَمٌ بأكل الإنسان، ويعتاد نَبْشَ القبور في بعض البلاد وهو مباح الأكل رغم أنه يفترس، فهو مستثنى من الحيوان المفترس.

❊ ❊ ❊

لحم الضَّب

{٣٢٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن أكل الضبّ، فقال: «**لا آكُلُه ولا أُحَرِّمُه**».

رواه البخاري (١٢/٨٤، ٨٥)، ومسلم (١٣/٩٧)، والترمذي (١٦٤٣)، والنسائي (٧/١٧٤)، وابن ماجه (٤٢٤٢)، والدارمي (٢٠٢١).

الضَّب ـ بفتح الضاد ـ: دُويبة تشبه الوزغة غير أنها أكبر وأغلظ، وذكروا من خاصيته أنه يعيش سبعمائة عام، ولا يشرب الماء، ويكتفي ببرد الهواء. والحديث يدلّ على إباحة أكله...

{٣٢٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دخلت أنا وخالد بن الوليد مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيت ميمونة، فأُتي بضبّ مَحْنُوذ فأهوى إليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيده، فقال: بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة أخبروا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما يريد أن يأكل، فرفع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يده، فقلت: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه**»، قال خالد: فاجتررته فأكلته ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينظر.

رواه البخاري (١٢/٨٥، ٨٧)، ومسلم (١٣/٩٨، ٩٩، ١٠٢) وغيرهما.

قوله: محنوذ أي: مشوي، وقوله: أعافه، أي: أتقذّره. وفي الحديث كسابقه دليل على إباحة أكل الضبّ لإقراره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خالد بن الوليد على أكله، وهو لا يقرّ على منكر وحرام أبداً، وإنما ترك أكله لأنه لم يكن من مأكولات أهل مكّة، فكان يتقذّره كما يتقذّر كثير من الناس أكل لحوم الإبل والأرانب مع إباحتها وطيبها.

* * *

الأرانب

{٣٣٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أَنَفَجْنَا أَرْنَباً ونحن بمَرِّ الظَّهْران، فسعى القوم فلَغَبُوا فأخذتها، فجئت بها إلى أبي طلحة، فذبحها، فبعث بوَرِكها أو قال: بفخذها إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقبِلها، وفي رواية: فأكله، فقلت: أكله؟ قال: قبله.

رواه البخاري (١٢/٨٣) في الصيد وغيره، ومسلم (١٣/١٠٤)، وأبو داود (٣٧٩١)، والترمذي (١٦٤٢)، والنسائي وابن ماجه (٣٢٤٣)، والدارمي (٢٠١٩).

قوله: أنفجنا، أي: أثرْنا ونفَّرْنا، وقوله: فلَغَبُوا - بفتح الغين -: أي: أعيوا، ومرّ الظَّهران قريب من مكّة بأقلّ من ثمانين كيلو تقريباً، وهو قريب من عُسْفان في الطريق إلى المدينة المنوّرة، والأرنب حلال عند كافة العلماء إلاّ قولاً شاذّاً لا يُلتفت إليه.

* * *

الدجاج

{٣٣١} - عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل دجاجاً.

رواه البخاري في الصيد (١٢/٦٦، ٦٨) وفي مواضع، ومسلم في الأيمان والنذور (١١/١١١)، والترمذي في الجامع (١٦٧٤)، وفي الشمائل (١٥٨، ١٥٦) مختصراً ومطولاً، ويأتي في الجهاد وفي الأيمان والنذور.

قوله: دجاجاً هو مثلث الدال، وهو اسم جنس واحده دجاجة، وهو مباح بالإجماع، وإنما اختلفوا فيمن يأكل العذرة منها، فمنهم من ألحقها بالجلاّلة، ومنهم من أباحها مطلقاً، والصحيح أنها إذا كانت تكثر منها حتى يتغيّر لحمها ومرقها بالنجاسة حرمت، وإلاّ فتكره، ومما يلحق بالدجاج البطّ والبرك والطاووس وما إليها من الطيور المباحة بالإجماع، ويأتي التنبيه على ما يصاد منها.

* * *

الجراد

{٣٣٢} - عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن الجراد، فقال: غزوت مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ستّ غزوات نأكل الجراد.

الأشربة (٢٢٣/١٣)، وأبو داود (٣٧٨٢)، والترمذي في الجامع (١٦٩٥)، وفي الشمائل (١٦٣) وغيرهم.

دُباء ـ بضم الدال وتشديد الباء ـ: هو القرع واليقطين، والقديد ـ بفتح القاف وكسر الدال المخفّفة ـ: اللحم المملوح المجفّف في الشمس، وهو من ألذّ أطعمة العرب.

وفي الحديث إباحة كل ما ذكر فيه، ولا خلاف في ذلك، وفيه فضيلة الدُبّاء وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يحبها فيستحب حبها لذلك، وحكم الدعوة يأتي في موضعه.

{٣٣٦} ـ وعن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجلٌ فكلّمه، فجعل ترعُد فرائصه، فقال له: **«هَوّن عليك، فإني لستُ بمَلِك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»**.

رواه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٤٧/٣، ٤٨) وصححه، ووافقه الذهبي وله شاهد عن جرير رواه الحاكم (٤٦٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي وله شاهد ثان عن قيس بن حازم مرسلاً رواه ابن سعد في الطبقات (٢٣/١) بسند صحيح.

والحديث يدلّ على أن القديد كان معتاداً أكله عند العرب، ويأتي الحديث مرّة ثانية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى.

* * *

الأقط واللبن

{٣٣٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أهدت خالتي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ضِباباً وأقطاً ولبناً، فوضع الضب على مائدته، فلو كان حراماً لم يوضع وشرب اللبن، وأكل الأقط.

رواه البخاري (٤٧٥/١١).

ضباباً جمع ضب وقد تقدم، والأَقط ـ بكسر القاف ـ: هو جبن اللبن المستخرج منه زبده، واللبن: هو الحليب، وقد تكرّرا في الحديث بكثرة، وجاءا في أحاديث تقدم بعضها، وتأتي أخرى، ولا خلاف في إباحة الأقط واللبن سواء كان حليباً بزبده أم مخيضاً.

❊ ❊ ❊

الأُدُمُ والخبز واللحم

{٣٢٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليها يوماً وعلى النار برمة تفور، فدعا بالغداء، فأُتي بخبز وأُدم من أُدم البيت، فقال: «**ألم أر لحماً**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصُدِّقَ به على بريرة، فأهدتْه لنا، فقال: «**هو صدقة عليها، وهديّة لنا**».

رواه البخاري في الأطعمة (٤٨٨/١١) وفي مواضع، وتقدم تخريجه مراراً.

الأُدُم ـ بضم الهمزة والدال وتسكن ـ: جمع إدام وهو ما يؤكل مع الخبز سواء كان زيتاً أو سمناً أو حليباً أو مرقاً أو جبناً أو خلاً أو تمراً، غير أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم آثر هنا اللحم على ما قدّم له من غيره؛ لأن اللحم محبوب للنفوس، وقد ورد في حديث ضعيف: «**سيّد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم**»، وتقدم أنه كان يعجبه الذراع، وجاء في حديث أنه قال لبعض أصحابه: «كأنه علم أننا نحب اللحم» أو كما ورد.

❊ ❊ ❊

السويق

{٣٢٩} ـ عن سُوَيْد بن النعمان رضي الله تعالى عنه أنه أخبر أنهم كانوا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالصهباء، وهي على روحة

من خيبر، فحضرت الصلاة، فدعا بطعام، فلم يجده إلا سويقاً، فلاكَ منه فلُكْنا معه، ثم دعا بماء، فمضمض ثم صلّى وصلّينا ولم يتوضأ.

رواه البخاري في الطهارة وفي الأطعمة (٤٦٤/١١).

السويق: هو دقيق الشعير المحمص على النار، وهو من أطعمة أهل البادية، وثبت أكله عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أحاديث.

❊ ❊ ❊

القِثاء والرطب والبطيخ

{٣٤٠} ـ عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل الرُّطَبَ بالقِثَّاءِ.

رواه البخاري في الأطعمة (٤٩٦/١١، ٥٠٦)، ومسلم (٢٢٦/١٣)، وأبو داود (٣٨٣٥)، والترمذي (١٦٩٠)، وابن ماجه (٣٣٢٥).

{٣٤١} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل البطيخ بالرطب، فيقول: «**نكْسِرُ حرَّ هذا بِبَرْدِ هذا، وبَرْدَ هذا بِحَرِّ هذا**».

رواه الحميدي وأبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٦٨٩)، والنسائي في الكبرى (١٦٦/٤، ١٦٧) وسنده صحيح. وفي رواية لأنس: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يجمع بين الرطب والخِرْبِز، رواه النسائي في الكبرى (١٦٧/٤) بسند صحيح.

الرطب ـ بضمّ الراء وفتح الطاء ـ: ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يصير تمراً، والقثاء ـ بكسر القاف والثاء المشدّدة ـ: هو نوع من الخيار والبطيخ معروف، وهو أنواع فيه الأصفر والأخضر وغيرهما. والخِربز ـ بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وكسر الباء بعدها زاي ـ: أي: هو من البطيخ الأصفر.

وقوله: نكسر حرّ هذا إلخ، يقصد أن الرطب حار والبطيخ بارد، فكان يقابل الشيء الضارّ بالمضادّ له، وفيه مشروعية الوقاية والعلاج وجواز أكل طعامين معاً، وجواز التوسّع في المطاعم والفواكه، ولا خلاف في ذلك بين العلماء غير أنه يكره التوسّع والترفّه والإكثار من ذلك، وفيه كما قال العلماء مراعاة صفات الأطعمة وطبائعها واستعمالها على الوجه اللائق على قاعدة الطبّ.

غير أنه لم يصح عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كيفيّة أكله ما ذكر، وأي النوعين كان يأخذه بيمينه... وإن كان ورد عن عبدالله بن جعفر أنه قال: رأيت في يمين النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قثاء وفي شماله رطباً، وهو يأكل من ذا مرة ومن ذا مرّة، رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف، وورد غير ذلك ولا يصح شيء منه، والظاهر أن الآكل للنوعين مخيّر في ذلك.

* * *

الخلّ

{٣٤٢} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدي ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فَلَقاً من خبز، فقال: «**ما من أدم**»؟ فقالوا: لا، إلاّ شيء من خلّ، قال: «**فإن الخل نِعْمَ الأُدْمُ**»، قال جابر: فما زلت أحبّ الخلّ منذ سمعتها من نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه مسلم (٧/١٤)، وأبو داود (٣٨٢٠)، والترمذي (١٦٨٦)، والنسائي في الكبرى (١٦٠/٤)، وابن ماجه (٣٣١٧)، واللفظ لمسلم... وله لفظ آخر.

{٣٤٣} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نِعم الأُدم أو الإدام الخلّ**».

رواه مسلم (٦/١٤)، والترمذي (١٦٨٧)، وابن ماجه (٣٣١٦).

وقوله: فلقا ـ بفتحات ـ: هي كِسَرٌ من خبز، وقد فسّرت في رواية لمسلم: فأُتِي بثلاثة أقرصة إلخ.

والخلّ: ما حمض من عصير العنب وغيره مما عري عن مادة الإسكار، وهو مباح بالإجماع، وحسبنا ائتدام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم به ومدحه إيّاه، ولا يأكل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ويمدح إلا الطيّب الحلال.

* * *

الجبن

{٣٤٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أُتِيَ النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمّى وقطع.

رواه أبو داود (٣٨١٩) بسند حسن.

والجبن ـ بضم الجيم وسكون الباء ـ: ما جُمِّد من اللبن بكيفيّة مخصوصة ومادة ينعقد بها، وقد تكون من أَنْفَحَةِ العجول أو الجداء، وهي قطعة تؤخذ من معدتهما بها خميرة تجمد اللبن وتجعله جبناً، فإذا كانت من الأنعام المذكاة فالأمر واضح، وإذا كانت من الميتة ففيها خلاف، وظاهر هذا الحديث يدلّ على جواز أكل الجبن المنعقد بها؛ لأن الجبنة التي أكلها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت للكفار والصحابة رضي الله تعالى عنهم، لما فتحوا بلاد المجوس أكلوا من جبنهم...

* * *

الحلواء والعسل

{٣٤٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحِبُّ الحَلْواء والعَسَل.

رواه البخاري (٤٨٨/١١)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٤)، وأبو داود (٣٧١٥)، والترمذي (١٦٧٨)، وابن ماجه (٣٣٢٣).

الحلواء: كل حلو يؤكل، وقال الخطابي: اسم الحلواء لا يقع إلاّ على ما دخلته الصنعة... وقد تطلق على الفاكهة، وقال ابن بطال: الحلوى والعسل من جملة الطيّبات المذكورة في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١]، قال الحافظ بعد ما ذكر: ودخل في معنى هذا الحديث كل ما يشبه الحلوى والعسل من أنواع المآكل اللذيذة... وحبّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للحلوى والعسل يدلّ على أنه كان يحب لذائذ الأطعمة... وتناولها غير أن ذلك لا ينفي زهده في الحياة ومشتهياتها كما يأتي؛ لأن تناوله لذلك لم يكن دأبه الدائم... ومن خاصّية الحلويات تقويتها للحافظة والذاكرة، ولذلك كان كثير من العلماء يستعينون بذلك على الحفظ، ولا سيما العسل على الريق والزبيب الأحمر.

* * *

الزُّبد والتّمر

{٢٤٦} ـ عن عبدالله وعطية ابني بسر رضي الله تعالى عنهما، قالا: دخل علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقدَّمْنا إليه زُبْداً أو تَمْراً، وكان يُحِبُّ الزُّبْدَ والتَّمْرَ.

رواه أبو داود (٣٨٣٧)، وابن ماجه (٣٣٣٤) كلاهما في الأطعمة وسنده صحيح.

الزُّبد ـ بضم الزاي وسكون الباء ـ: ما يستخرج من الحليب، وهو من أطيب الأدم وأحبّها إلى النفوس، وحسبنا أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يحبه كالتمر ولا يستخبثهما إلا منحرف الطبع منخرم المزاج، وفي الحديث دليل على جواز تناول طعامين معاً كما تقدم في الرطب مع

القثاء والبطيخ، ولا خلاف في ذلك، وهذا أيضاً لا يحطّ من قدر الرجل الصالح الزاهد.

* * *

التمر

{٣٤٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عائشة بَيتٌ لا تَمْرَ فيه جِيَاعٌ أهلُه، يا عائِشَة بيتٌ لا تمر فيه جِياعٌ أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله**»، قالها مرتين أو ثلاثاً.

وفي رواية: «**لا يجوع أهل بيت عندهم التمر**»، رواه مسلم في الأشربة (٢٣/٣)، وأبو داود (٣٨٣١)، وابن ماجه (٣٣٢٧).

في الحديث فضيلة التمر وحقّ له ذلك، فإنه طعام وفاكهة، وقد كان غذاء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غالباً، حتى قالت سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: كان يمرّ علينا الشهر والشهران ليس لنا إلا الأسودان: الماء والتمر، وسيأتي في السيرة إن شاء الله تعالى. وقد تكرّر ذكر التمر وأكله أيام النبوّة بكثرة في الأحاديث النبويّة، وفي الحديث جواز الادّخار للعيال، وقد جاء في السنّة الصحيحة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يدّخر لأهله قوت سنة، ويأتي ذلك.

* * *

تفتيش التمر عند الأكل

{٣٤٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أتِي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتَمْرٍ عَتِيقٍ فجعل يُفتشه يُخْرِجُ السُّوسَ منه.

رواه أبو داود (٣٨٣٢)، وابن ماجه (٣٣٣٣) بسند صحيح.

عتيق أي: قديم، وفي الحديث مشروعية تنقية التمر مما عسى أن

يوجد فيه من الدويبات كالسوس والدود وما إلى ذلك، واختلف العلماء فيما يوجد في التمور والفواكه من الدود ونحوه، هل يجوز أكله كذلك، أم لا بدّ من تنقيته. وظاهر الحديث يدلّ على التنقية لأن الدود وما إليها من المستقذرات التي تعافها النفوس.

* * *

مدح النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الثريد

{٢٤٩} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كَمُلَ من الرجال كثيرٌ ولم يكمُل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

رواه البخاري في الفضائل وفي الأطعمة (٤٨٢/١١)، ومسلم في الفضائل (١٩٩/١٥)، والنسائي في عشرة النساء (٦٣/٧)، والترمذي (١٦٨١)، وابن ماجه (٣٢٨٠) كلاهما في الأطعمة.

قوله: كَمُل إلخ، المراد بالكمال هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البرّ والتقوى، وهؤلاء النسوة من فضليات النساء، ويلحق بهنّ مولاتنا خديجة وابنتها مولاتنا فاطمة عليهما السلام، وأفضلهنّ مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة ثم الباقي على الصحيح رضي الله تعالى عنهنّ جميعاً، وقوله: الثريد ـ بفتح الثاء وكسر الراء ـ: هو ثرد الخبز بمرق اللحم، وكان عند العرب أحسن الأطعمة، وقد فضّله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على سائر الطعام، وقد يتوسّعون فيجعلونه من الحيس وهو خلط سمن وتمر وأقط أو دقيق أو فتيت الخبز، وقد جاء حديث ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أحب الطعام إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الثريد من الخبز، والثريد من الحيس، رواه أبو داود (٣٧٨٣) وفي سنده رجل مجهول.

* * *

مدحه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم التلبينة

{٣٥٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء، ثم تفرّقن إلا أهلها وخاصّتها أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت ثم صنع ثريد فصبت التلبينة عليها، ثم قالت: كُلْنَ منها، فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**التلبينة مَجَمَّةٌ لفؤاد المريض تُذْهِبُ بعض الحُزْن**».

رواه البخاري في الأطعمة (٤٨٢/١١) وفي الطب، ومسلم في الطب (٢٠٢/١٤) وغيرهما.

التلبينة ـ بفتح التاء ـ: حساء من دقيق، وربما مزج بعسل أو حليب، وهي التي تسمّى عندنا الحريرة ـ بالحاء ـ، وقوله: مجمة ـ بفتح الميم والجيم وتشديد الميم الثانية المفتوحة ـ: أي: مريحة للفؤاد تزيل عنه الهمّ وتنشّطه.

وفي الحديث مدح لهذا النوع من الحساء، كيف وقد مدحه نبيّنا الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

مدحه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اللبن والتمر معاً

{٣٥١} ـ عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه، قال: دخلت على رجل وهو يتمجع لبناً بتمر، فقال: اُدْنُ، فإن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سماهما الأَطْيَبَيْنِ.

رواه أحمد (٤٧٤/٣)، قال الحافظ: إسناده قوي.

قوله: يتمجع ـ بفتحات مع تشديد الجيم وآخره عين ـ: أي: يأكل اللبن والتمر الممزوجين، وهذا النوع من الأطعمة لا نعرفه كما لا نعرف كثيراً من الأطعمة التي كانت سائدة عند العرب وفي أيام النبوّة، وهي من الطيّبات كما سمّاها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

إرشاده صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأكل الزيت

{٣٥٢} ـ عن أبي أسِيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كلُوا الزيت وادَّهِنُوا به، فإنه من شجرة مباركة**».

رواه أحمد (٤٩٧/٣)، والترمذي (١٦٩٧) بتهذيبي، والدارمي (٢٠٥٨)، والحاكم (١٩٥/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وفيه عطاء الشامي لم يوثقه غير ابن حبان وباقي رجاله ثقات، لكن الحديث مع ذلك صحيح، فإن له شاهداً عن سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه رواه الترمذي (١٦٩٦)، وفي الشمائل (١٥٩)، وابن ماجه (٣٣١٩)، والحاكم (١٩٥/٤) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

وفيه فضل زيت الزيتون والإرشاد إلى أكله والادّهان به؛ لأنه مبارك خرج من شجرة مباركة وله منافع كثيرة، كما في أصله الزيتون وهما من النِّعم العظيمة المحبوبة النافعة.

* * *

من طعام الصحابة رضي الله تعالى عنهم السِّلْق والشعير

{٣٥٣} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: إن كنا لنفرح يوم الجمعة كانت لنا عجوز تأخذ أصول السِّلْق فتجعله في قِدْر لها، فتجعل فيه حبات من شعير إذا صلّينا زرناها فقرّبته إلينا، وكنّا نفرح بيوم الجمعة من أجل ذلك، وما كنّا نتغدّى ولا نقيل إلاّ بعد الجمعة، والله ما فيه شحم ولا ودك.

رواه البخاري في الجمعة وفي الأطعمة (٤٧٥/١١) وفي الاستئذان.

السلق ـ بكسر السين ولام ساكنة ـ: نوع من البقولات كان عندهم

معروفاً وعرفوه بأن له ورقاً طوالاً وأصلاً ذاهباً في الأرض وورقه غضّ طري.

وقوله: ما فيه شَحم ولا ودك، الوَدك ـ بفتحتين ـ: هو الدسم من زيت وشحم.

وفي الحديث ما كان عليه الصحابة من الضيق في المعيشة والصبر على ذلك، حتى فتح الله عليهم الفتوح العظيمة الواسعة، فكان منهم من توسّع في المباحات، ومنهم من أعرض عن ذلك وزهد في الحياة طلباً لما في الآخرة.

* * *

ورَقُ الحُبلَة

{٣٥٤} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: رَأَيْتُني سابعَ سبعةٍ مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما لنا طعامٌ إلا ورق الحُبْلَة، حتى يضعَ أحدُنا ما تضع الشاة.

رواه البخاري في المناقب وفي الأطعمة (١١/٤٨٠، ٤٨١).

والحبلة ـ بفتح الحاء وضمّها وسكون الباء وتضمّ ـ: والمراد به ثمر العضاه وثمر السمر، قالوا: إنه يشبه اللُّوبيا وفيه كسابقه ما كان عليه السلف أيام النبوّة من القلّة والإملاق والشدّة في العيش، حتى إنهم كانوا يأكلون ورق الشجر وثمار البادية، وسيأتي بقيّته في الرقائق إن شاء الله تعالى.

* * *

الكَبَاث

{٣٥٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيْتُنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمَرّ الظَّهْرانِ نَجْنِي الكَبَاثَ وهو ثَمَر الأَرَاكِ، ويقول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**عليكم بالأسْوَدِ، فإنه أطْيَبُ**».

رواه البخاري في الأطعمة (٥٠٩/١١) وفي الأنبياء، ومسلم في الأشربة رقم (٢٠٥٠).

الكباث ـ بفتح الكاف وتخفيف الباء ـ: مفسر في الحديث، وهو ثمر شجر الأراك الذي يؤخذ منه السواك، وكان أكلهم لهذا الثمر عند فقدانهم القوت، لأنهم كانوا مسافرين وقد أرشدهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الأسود منه وأنه أطيبه، وهو يدلّ على إباحة جميع ما يوجد من الثمار في البادية، مما لا ضرر فيه ولا ملك لأحد عليه.

* * *

الزيت والملح

{٣٥٦} ـ عن حُمَيْدِ بن مالك بن خُثَيْم رحمه الله تعالى قال: كنت جالساً مع أبي هريرة بأرضه بالعَقِيقِ، فأتاه قوم من أهل المدينة على دوابّ، فنزلوا عنده وسلموا عليه، قال حميد: فقال لي أبو هريرة: اذهب إلى أمّي فقل: إن ابنك يقرئك السلام، ويقول لك: أطعمينا مما كان عندك، قال: فوضعت ثلاثة أقراص في صحفة وشيئاً من زيت وملح، ثم وضعت الصحفة على رأسي، فجئت بها، فلما وضعتها بين أيديهم كبّر أبو هريرة، وقال: الحمدلله الذي أشبعنا من الخبز بعد أن لم يكن طعامُنا إلا الأسودان الماء والتمر، قال: فلم يصب القوم من الطعام شيئاً، فلما انصرفوا قال: يا ابن أخي أحسن إلى غنمك وامسح الرُّعَام عنها، وأطب مراحها وصلِّ في ناحيتها، فإنها من دوابّ الجنّة، والذي نفسي بيده ليوشك أن يأتي على الناس زمان تكون الثُّلة من الغنم أحب إلى صاحبها من دار مروان.

رواه مالك في الموطأ في صفة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في جامع الطعام والشراب (١٨٠٢) وسنده صحيح.

الأسودان: التمر والماء، وهو من باب التغليب، فالأسود إنما هو التمر. والرُّعام ـ بضم الراء والعين المهملة المفتوحة آخره ميم ـ: هو المخاط، مراحها

ـ بفتح الميم ـ: الموضع الذي تأوي إليه الغنم بالعشي، يوشك أن يقرب ويسرع، والثلّة: الجماعة.

وفي هذا الأثر ما كان عليه الصحابة والسلف رضي الله تعالى عنهم من الفقر وقلّة الإدام، فهاهنا ائتدموا بالملح والزيت فقط، كما كانوا يأتدمون بالخلّ والتمر وما إلى ذلك مما تقدم ويأتي.

* * *

بيان ما يتناوله المضطر

{٣٥٧} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً نزل بالحرّة ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقةً لي ضَلَّتْ فإن وَجَدْتَها فأمْسِكْها، فوجدها فلم يجد صاحبها، فمرِضت، فقالت له امرأته: انْحَرْها، فأبى فنَفَقَتْ، فقالت له: اسلخها حتى نقدّد شحمها ولحمها، فقال: حتى أسأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأتاه فسأله فقال: «**هل عندك شيء يغنيك عنها**»؟ قال: لا، قال: «**فكلوها**»، فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلاّ كنت نحرتها، قال: استحييت منك.

رواه أحمد (٩٦/٥)، وأبو داود (٣٨١٦) في الأطعمة وسنده حسن.

قوله: فنفقت، أي: ماتت، وقوله: هل عندك إلخ، يدلّ على أن من لم يجد من الحلال ما يسدّ به رمقه له أن يأكل الميتة، وفي معناها كل ما هو حرام، وهذا أمر مجمع عليه، ففي القرآن الكريم: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وفي أخرى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وفي آخرى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وبناء على هذا المبدإ فيحل للمضطر المحتاج كل ما هو محرم حتى الرّبا ومال الغير، وقد قدّمنا قبل أبواب المساقاة ما يحلّ للإنسان من الثمار والحليب وغير ذلك إن احتاج.

هذا ما أمكن لنا ذكره من الأطعمة، وسيأتي مزيد لذلك في الكتب التالية.

كتاب الصيد والذبائح

جواز اتخاذ الكلب للصيد

{٣٥٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من اتّخذ كلباً إلا كلب صيد أو زرع أو ماشية انتقص من أجره كل يوم قيراطٌ»**.

رواه البخاري في المزارعة (٥/٤٠٢، ٤٠٣)، ومسلم في المساقاة (١٠/٢٤٠)، وأبو داود (٢٨٤٤)، والترمذي (١٣٥٧)، والنسائي (٧/١٦٦)، وابن ماجه (٣٢٠٤) وغيرهم.

{٣٥٩} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«من اقتنى كلباً إلا كلباً ضارياً لصيد أو كلب ماشية فإنها ينقص من أجره كل يوم قيراطان»**.

رواه البخاري في الصيد (١٢/٢٧، ٢٨)، ومسلم في المساقاة (١٠/٢٣٧، ٢٣٨)، والترمذي (١٣٥٦)، والنسائي (٧/١٦٣، ١٦٦)، وفي رواية: أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب ماشية، قال: قيل له: إن أبا هريرة يقول: أو كلب زرع، فقال: إن أبا هريرة له زرع رواه الترمذي (١٣٥٧)، والنسائي (٧/١٦٣)، والدارمي (٢٠١٣)، وابن ماجه (٣٢٠٢، ٣٢٠٣)، وأصله في الصحيحين مختصراً.

قوله: من اقتنى هو معنى اتخذ، وقوله: ضارياً الكلب الضاري: هو

الذي يصيح بالصيد، والقيراط: جزء من المثقال كانوا يتعاملون به، والحديثان يدلاّن على جواز اكتساب الكلب لهذه المصالح المنصوص عليها، وهي الاصطياد بها أو الحراسة للماشية، أو للزراعة أي: الفلاحة والحراثة، وقاس العلماء على هذه الأشياء اتخاذها لكل منفعة ودفع مضرّة، أما لغير حاجة كاتخاذها للترفيه والتفاخر... فغير جائز، والأمر في ذلك دائر بين التحريم والكراهة الشديدة، فإن من ينقص من حسناته كل يوم قيراط أو قيراطان بسبب اقتنائها يكون مذموماً ومغبوناً، وانظر للتوسّع في توجيه التمثيل بالقيراط... «الفتح» في كتاب المزارعة (٤٠٣/٥).

والأمر بقتل الكلاب وتركها وقتل الأسود تقدم فيما سبق.

* * *

إباحة الاصطياد

{٣٦٠} ـ عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا أرسلتَ كَلْبَكَ وسمَّيتَ فأمْسَكَ وقتَلَ فكُلْ، وإن أكل فلا تأكُلْ، فإنما أمْسَكَ على نفسِهِ، وإذا خالطَ كِلاباً لم يُذكر اسمُ الله عليها فأمسكْنَ وقتلْنَ فلا تأكل، فإنك لا تَدْري أيها قتل، وإذا رميتَ الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثرُ سَهمِكَ فكل، وإن وقع في الماء فلا تأكل»**.

رواه البخاري في الصيد (٣٩/١٢، ٣٠) وفي مواضع...، ومسلم (٧٦/١٣) في أول الصيد أيضاً، وأبو داود (٢٧٤٧)، والترمذي (١٣٣٣) وباقي الجماعة، وفي رواية: سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المعراض، فقال: **«إذا أصَبْتَ بحَدِّه فكل، فإذا أصاب بعرضه فقتل، فإنه وقيذ فلا تأكل»**.

قوله: أرسلت كلبك، في رواية: المُعَلّم، وقوله: المعراض هو بكسر الميم نصل عريض، وقوله: بحدّه أي: بالحاد الجارح، وفي رواية: ما

خزق أي: نفذ فكل، وقوله: فإنه وقيذ بالذال، وهو المضروب بالمثقل غير الحاد، والحديث يدلّ على مشروعيّة الاصطياد بالكلاب وغيرها من الجوارح والأسلحة والآلات، وأكل ما اصطيد بها، ولا خلاف في ذلك، فإن القرآن الكريم نصّ على إباحة كل ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ إلخ [المائدة: ٩٤].

فقوله: الجوارح جمع جارحة: وهي الكواسب، وسمّيت جوارح لأنها تجرح الصيد، وقوله: مكلبين، أي: معلّمين للكلاب الاصطياد، والمكلّب مؤدب الجوارح، وقوله: تعلمونهن إلخ، أي: طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد، وقد تقدم في ممنوعات الإحرام حديث أبي قتادة في صيد حمار الوحش، وكيف طعنه وأكله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه، والحديث الشريف يتضمن أمرين من أمور الصيد، **أحدهما**: الاصطياد بالجوارح المعلّمة المدرّبة؛ كالكلاب، والباز، والصقر، والعقاب، والنسر ونحوها. **ثانيهما**: الاصطياد بالآلات والأسلحة الحادّة الجارحة، فما قتل بالأمرين كان حلالاً، لكن ذلك مشروط بشروط، فشروط الجوارح **أولاً**: أن تكون معلّمة مدرّبة، وذلك بأن تذهب إذا أرسلت وأن تنزجر إذا زجرت، وأن لا تأكل من الصيد إذا أمسكته. **ثانياً**: أن يرسلها صاحبها. **ثالثاً**: أن يسمّي الله تعالى عند الإرسال. **رابعاً**: أن لا يشاركها كلب آخر في قتل الصيد لم يذكر اسم الله عنده. **خامساً**: أن لا يغيب ولا أثر فيه. **سادساً**: أن لا ينتن ذلك الصيد المقتول بالجارح كما يأتي قريباً، فإن فقدت هذه الشروط أو واحدها لم يؤكل الصيد.

أما شروط آلة الرمي، فأن يسمّي الله عند الرمي، وأن يقتله بالحادّ الجارح، وإذا غاب لا يوجد فيه غير أثر الرامي، وأن لا يقع في الماء لأنه

لا يدري هل قتل بالرمي أم بالماء، فإن تخلّفتْ هذه الشروط كان أكله حراماً.

{٣٦١} ـ وعن عدي أيضاً قال: قلت: يا رسول الله أرْمِي الصيد فأجِدُ فيه من الغد سهماً، قال: «**إذا علمت أن سَهْمَك قتلَه ولم تَرَ فيهِ أثرَ سَبُع فكُلْ**».

رواه أبو داود (٢٨٤٩)، والترمذي (١٣٣٧)، والنسائي (٧/١٧٠)، وابن الجارود (٩١٩/٩٢١)، وسنده صحيح وحسنه الترمذي وصححه، وفيه أن الصيد إذا رمي بشيء قاتل فغاب بعد يوم، فوجد وعلم الرامي أنه قتل برميه أكله، فإن شكّ في قتله برميه أو رأى فيه أثر افتراس سبع حرم عليه أكله، لأنه ربما كان حياً لم يمت بالرمي، فمات بافتراس السبع.

{٣٦٢} ـ وعن أبي ثعلبة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا نبيّ الله إنا بأرض قوم أهل الكتاب، أفنأكل في آنيتهم، وبأرض صيدٍ أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلَّم فما يصلح لي؟ قال: «**أما ما ذكرت من أنكم بأرض قوم من أهل الكتاب تأكلون في آنيتهم، فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها، وما صِدْتَ بقوسك فذكرتَ اسم الله فكل، وما صِدْتَ بِكَلْبِكَ المعلَّم فذكرت اسم الله فكل، وما صدت بكلبك غير معلَّم فأدركت ذكاته فكُل**».

رواه البخاري في الصيد (١٢/٢٤، ٢٥)، ومسلم كذلك (١٣/٧٩، ٨٠)، والترمذي (١٣٣٤) وباقي الجماعة.

قوله: إنا بأرض قوم أهل الكتاب، عند الترمذي وغيره، فإنا أهل سفر نمرّ باليهود والنصارى والمجوس إلخ، وفي رواية لأبي داود: إنا نُجَاوِرُ أهل الكتاب وهم يطبخون في قدورهم الخنزيرَ ويشربُون في آنيتهم الخمر إلخ، وكلتا الروايتين صحيحة.

وأفاد هذا الحديث أمرين، **الأول**: جواز استعمال أواني الكفار بعد غسلها وجوباً إن كانوا يأكلون فيها الخنزير ويشربون الخمر، والأَولى التنزّه عنها إن وجد غيرها، وقد تقدم في الطهارة نُتَفٌ من هذا وتأتي بقيّته في

اللباس. **الأمر الثاني**: الاصطياد بالكلب الغير معلم، فما أدرك منه حياً ذُكِّيَ وأكل وما قُتِلَ منه لا يؤكل لفقد شروط الكلب، وهكذا الحكم أيضاً فيما صيد بآلة وسلاح جارح، فما قتل كان حلالاً وما أدرك حياً وجبت ذكاته.

{٣٦٣} ـ وعن أبي ثعلبة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا رميت سهمك فغاب عنك، فأدركته فكل ما لم يُنْتِنْ**»، وفي رواية: «**ما لم يَصِلَّ**» يعني: ما لم يُنتن.

رواه مسلم (٨١/١٣)، وأبو داود (٢٨٦١)، والرواية الثانية له وسندها حسن.

يُنتن ـ بضم الياء وكسر التاء ـ: أي: يتغيّر، وهو يدلّ على أن ما أنتن من اللّحم لا يجوز أكله لأنه ضارّ للجسم مستقذر. نعم إذا تغيّر قليلاً فلا بأس بأكله، وعليه يحمل ما جاء في الصحيح أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أكل عند يهودي إهالة سنِخَةً، أي: شحماً متغيّراً.

واللحم لا مفهوم له، فكل طعام منتن ومتغيّر يَضُرُّ بصحَّةِ الإنسان، وهو محرّم بالاتّفاق.

* * *

الصيد بالمثقل

{٣٦٤} ـ عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه أنه رأى رجلاً يَخْذفُ، فقال له: لا تَخْذِفْ فإنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن الخذف، وقال: «**إنه لا يُصادُ به صيدٌ، ولا يُنكأ به عَدُوٌّ، ولكنها قد تَكْسِرُ السِّنَّ وتَفْقَأُ العَيْنَ**».

رواه البخاري في الصيد (٢٦/١٢)، ومسلم (١٠٥/١٣، ١٠٦)، وأبو داود...، وابن ماجه...، ومن هذا الباب ما تقدم في المصبورة التي تتّخذ غرضاً وترمى ولعن فاعل ذلك.

الخذف ـ بالخاء المفتوحة ثم ذال ـ: هو رمي الإنسان بحصاة ونحوها يجعلها بين أصبعيه السبابة والابهام، وقوله: ينكأ ـ بضم الياء آخره همزة ـ: وفي رواية: ينكى ـ بفتح الياء وكسر الكاف ـ، وهذه الرواية هي المناسبة لأنه من النكاية.

والحديث يدلّ على منع الرمي بما لا يقتل صيداً ولا فيه نكاية لعدو ولا تأتي منه مصلحة، ومن هذا رمي الصيد بالحجارة ونحوها التي لا تجرحه، فيكون ذلك كالمعراض المتقدم، فما وجد حياً وذكي كان حلالاً، وما قتل بذلك كان وقيذاً، وقد اختلف في المقتول بالرصاص الحالي الذي يدخل في الصيد ويخرقه بقوّة البارود، فأجازه البعض وجعلوه داخلاً في الجارح، ومنعه آخرون وقالوا: إنه مثقل فما قتل به كان وقيذاً، وبهذا أدين الله تعالى في نفسي.

❊ ❊ ❊

منع الاصطياد لغير مصلحة

{٣٦٥} ـ عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من قَتل عُصْفُوراً فما فَوْقَها بغير حَقّها سألهُ الله عن قَتْلِهِ»**، قيل: يا رسول الله وما حَقّها؟ قال: **«أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي بها»**.

رواه أحمد رقم (٦٥٥٠، ٦٥٥١)، والطيالسي (٢٢٧٩)، والنسائي (٢٣٩/٧)، والدارمي (١٩٨٤)، والحاكم (٢٣٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد عن الشريد رواه أحمد (٣٨٩/٤)، والنسائي (٢٣٩/٧) وهو حسن في الشواهد.

في الحديث ذمّ قتل الطيور وصيدها لغير الأكل، وأن فاعل ذلك سيسأل عنه يوم القيامة؛ لأنه من تعذيب الحيوان والإفساد في الأرض.

❊ ❊ ❊

كراهية الاصطياد للترفيه

{٣٦٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من بَدا جَفَا، وَمَنْ تَبِعَ الصيدَ غَفَل، ومن أتى أبواب السُّلْطانِ افْتُتِنَ**».

رواه أحمد (٣٧١/٢، ٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٠) بسند حسن وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود آخر الصيد (٢٨٥٩)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٤)، والنسائي في الصيد (١٧٢/٧).

قوله: من تبع الصيد غفل، هو يدلّ على ذمّ الإكثار من الصيد، وهذا محمول على من لم يكن مهنته وعيشه بأن كان يعتاد الاصطياد ترفّهاً وتنزّهاً، وكان يكثر من ذلك، فإن مثل هذا شأنه الغفلة عن الله تعالى. وقصة إبراهيم بن أدهم الزاهد في سبب توبته عند الصيد مشهورة... وباقي أبحاث الحديث يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

* * *

الذكاة وشروطها وبماذا تكون

{٣٦٧} ـ عن رافع بن خَدِيج رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إنا نَلْقَى العَدُوَّ غداً وليست معنا مُدىً أفَنَذْبَحُ بالقَصَبِ؟ فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أنْهَرَ الدَّم وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكلُوا ما لم يكن سِنٌّ أو ظُفْرٌ، وسأُحَدِّثُكم عن ذلك، أما السِّنُّ فعَظْمٌ، وأما الظُّفْرُ فَمُدَى الحَبَشَةِ**».

رواه البخاري في الصيد (٩٥/١٢، ٤٧، ٤٨)، ومسلم (١٢٢/١٣، ١٢٤)، وأبو داود (٢٨٢١)، والترمذي (١٣٥٩)، والنسائي (١٩٩/٧)، وابن ماجه (٣١٧٨).

مدى جمع مدية: وهي السكين، وقوله: أنهر الدم، أي: أراقه

وأساله، والحديث تضمن فقه الذكاة وشروطها ووسائلها:

أما الذكاة، فتكون بالذبح والنحر. أما الذبح، فهو قطع الحلقوم والودجين وقيل: الحلقوم فقط. والحلقوم مجرى الطعام إلى المَرِىء، والوَدَجان جمع وَدَج ـ بفتحتين ـ: عرقان بجانبي العنق، فقطع ذلك وإسالة الدم منها هي الذكاة وبها تموت البهيمة. وأما النحر، فيكون في اللَّبَّة ـ بفتح اللام مع تشديد الباء ـ: هي موضع القلادة من الصدر، وهي المنحر، فتضرب البهيمة فيها فينهر الدم وتموت وكل ما يُنْحَرُ يُذَكَّى اتّفاقاً؛ كالإبل والبقر، واختلفوا هل يصح نحر كل ما يذكى؟ كالشياه والدجاج والأرانب... رجح كل من الأمرين. أما بماذا تكون الذكاة؟ فالحديث نصّ على أن كل ما أراق الدم وأساله فتصح به إلاّ ما استثني، فتجوز الذكاة بجميع ما ينهر الدم ويقطع الحُلْقُوم والعروق، سواء كان حديداً أم قصباً أم خشباً أم حجراً، كما يأتي قريباً إلا العظم والظفر، ومن العظم السن، ولا ندري سرّ النهي في ذلك، غير أنه صحّ أن العظام طعام إخواننا من الجنّ، فَلَعَلَّه السِّرُّ في النَّهْي. وأما الظفر، فنصّ الحديث على أنها سكاكين الحبشة وشعارهم، والمسلمون منهيّون عن شعار الكفار والتشبّه بهم، قال النووي في شرح مسلم: قوله: وأما الظفر فمدى الحبشة، فمعناه: أنهم كفار وقد نهيتم عن التشبّه بالكفار، وهذا شعار لهم.

وأما شروط الذكاة، فإنهار الدم على ما وصفنا، وذكر اسم الله تعالى عليه، وهذا من الشروط الأساسية، فأي ذبيحة لا يذكر اسم الله عليها عن تعمّد فغير جائز أكلها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ودعك هنا من خلاف الفقهاء، فإن في الآية غُنْيَة وكفايةً مع قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام: ١١٨]. أما من نسي التسمية فلا شيء عليه، كما هو قول جمهور العلماء، فإن الناسي ليس بفاسق.

* * *

من شكّ في لحم بهيمة مذكاة هل سمّى الله عليها أم لا فليسمّ وليأكل

{٣٦٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن قوماً قالوا للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إن قوماً يأتوننا بلحم لا ندري أذُكِرَ اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سمّوا الله أنتم وكلوه**»، قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر.

رواه البخاري في الصيد (٥٥/١٢) وفي التوحيد. وأخذ العلماء من هذا الحديث حلّية كل ما يوجد من ذبائح المسلمين في أسواقهم ومجازرهم، وإن لم يعلم أنهم سموا الله تعالى، فإن شكّ فليسمّ الله تعالى عند أكله.

* * *

التذكية بالحجر

{٣٦٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من قومه صاد أرْنَباً أو اثنين فذبحهما بمَرْوَة فتَعَلَّقَهُما حتى لقي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسأله فأمره بأكلها.

رواه الطيالسي (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٨٢٢)، والترمذي (١٣٤١)، والدارمي (٢٠٢٠)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، والنسائي (١٧٤/٧)، وابن حبان (١٠٦٩)، والحاكم (٢٣٥/٤) بأسانيد صحيحة.

المروة ـ بفتح الميم وسكون الراء ـ: هي الحجارة البيضاء الرقيقة، والحديث يدلّ على جواز الذبح بالحجارة إذا كانت حادّة.

* * *

ذبائح الكفار

{٣٧٠} ـ عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: كنا مُحاصرين قصر خيبر فرَمَى إنسانٌ بجِراب فيه شَحْمٌ، فنَزَوْتُ لآخُذَهُ، فالتفت فإذا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاستَحْيَيْتُ منه.

رواه البخاري في الذبائح (٥٧/١٢) وفي الجهاد وفي المغازي، ومسلم في الجهاد رقم (١٧٧٢)، ويأتي.

قوله: بجراب: هو وعاء من أدم وجلد، وقوله: فنزوت، أي: وثبت وسارعت.

والحديث يدلّ على جواز أكل ذبائح أهل الكتاب؛ لأن هذا الشحم كان من ذبائح اليهود، وقد أقرّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا الصحابي على أخذه، وثبت في الصحيح أكل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من شحم يهودي، وسيأتي حديثه في السيرة، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، قال: ذبائحهم، ذكره البخاري معلّقاً ووصله البيهقي كما في الفتح، فلحومهم المذبوحة محمولة على الإباحة، فإن تيقنا أنهم سموا عليها غير الله، فلا نأكلها وإلا فقد أحلّها الله لنا، وقد علم كفرهم، وقال بعض السلف والخلف: تؤكل وإن سموا عليها اسم المسيح، هذا إذا كانوا يذبحون. أما إذا كانوا يقتلون البهيمة بالصعق أو بالضرب بآلة مثلاً، كما هي عادتهم اليوم، فهي ميتة لا تؤكل، وإن أفتى بجواز أكلها كثير من المتساهلين الذين رقّ دينهم.

❊ ❊ ❊

تحريم أكل ما ذبح على النُّصُب

{٣٧١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه حدث عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح وذاك قبل أن ينزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الوحيُ، فقدم إليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُفْرَة لحم، فأبى أن يأكل منها، ثم قال: «**إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه**»، وفي رواية: فَقُدِّمَتْ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سفرة، فأبى أن يأكل منها.

رواه البخاري في الذبائح (١٢/٥٠) وفي المناقب، وفيه الرواية الثانية.

زيد بن عمرو هذا ابن عمّ سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وهو والد سعيد بن زيد أحد العشرة، وكان مِمَّن طلب التوحيد وجانب الشرك والأوثان، وتوفي قبل البعثة النبوية، وتأتي قصته إن شاء الله تعالى قبيل السيرة. وقوله: بلدح ـ بفتح الباء والدال بينهما لام ساكنة ـ: وادٍ أو مكان في طريق التنعيم، ولا وجود له الآن، وقوله: سُفْرة ـ بضم السين ـ: هي كل ما يفرش للأكل عليه، والأنصاب جمع نصب ـ بضمّتين ـ: أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام، وقوله: فقدم إليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سفرة، هكذا في هذه الرواية، وفي الرواية الثانية: فَقُدِّمَتْ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ بضم القاف ـ.

واختلفوا في توجيه ذلك، فقال ابن بطال: كانت السُّفْرة لقريش قدموها للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأبى أن يأكل منها، فقدمها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها، وقال مخاطباً لقريش الذين قدموها أولاً: إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم... وقال الخطابي: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه؛ لأن الشرع لم يكن نزل بعد، بل لم ينزل الشرع بمنع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلاّ بعد المبعث بمدّة طويلة، ذكر الحافظ ذلك واختار ما قاله الخطابي، وقد أطال الحافظ في ذلك فلينظر، والمقصود من ذكر الحديث هو أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان على عادات قومه في كثير من شؤونهم غير أنه كان يتجنّب شركياتهم ووثنياتهم وما ينافي التوحيد، هذا مما لا يجوز اعتقاد خلافه فيه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وما ذبح على النُّصُب وباسم غير الله محرّم بالإجماع كما نصّ عليه القرآن في غير ما آية، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، ولعلنا نعود لحديث الباب في السيرة إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

لعن من ذبح لغير الله تعالى

{٣٧٣} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَح لِغير الله تعالى».

رواه أحمد رقم (٩٥٤، ١٣٠٦)، ومسلم في الأضاحي (١٤١/١٣) وأصله في الصحيحين، ويأتي في الجنايات.

كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد، يقولون: نجازيه على فعله، فيذرونها تأكلها السباع والطير، كما كانوا ينحرونها لأصنامهم وعلى النصب، فنهى الله تعالى عن ذلك ولعن فاعله، وأمر أن يذبح لله تعالى تقرّباً إليه، فمن ذبح ذبيحة متقرّباً بها لغير الله كان مشركاً ملعوناً، وليس من هذا القبيل ما يذبح باسم الله ويهدى ثوابه لولي لله تعالى أو لشيخ مثلاً ويطعم لحم الذبيحة للفقراء والمساكين... والأمر مبني على النيّة والقصد، وهنا أبحاث نرجىء الكلام عليها لموضع آخر.

* * *

تحريم أكل ما ذبح بلا إذن صاحبه

{٣٧٤} ـ عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذي الحليفة، فأصاب الناس جوع فأصبنا إبلاً وغنماً، وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أخريات الناس، فعجلوا فنصبوا القدور، فدفع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إليهم، فأمر بالقدور فأُكفيت، ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير.

رواه البخاري (٤٥/١٢، ٩٥)، ومسلم (١٢٢/١٣، ١٢٥) والأربعة، ويأتي في الجهاد أيضاً.

قوله: فأصبنا إبلاً وغنماً إلخ، يعني: أنهم كانوا غنموها فانتهبوها قبل القسمة، وذبحوا ونحروا وطبخوا فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

بقلب تلك القدور وإفراغ ما فيها، بل جاء في حديث عند أبي داود أنه رمل اللحم بالتراب، وكل ذلك يدلّ على أن ما ذبح بغير إذن مالكه كان أكله حراماً ويجب إتلافه، وهناك حديث آخر يدلّ لهذا وهو ما أخرجه أحمد وأبو داود بسند قوي كما قال الحافظ من طريق عاصم بن كليب عن أبيه في قصة الشاة التي ذبحتها المرأة بغير إذن صاحبها، فامتنع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أكلها.. لكنه قال: «**أطعموها الأسارى**» لأنهم كفار.

* * *

ذكاة ما لم يقدر عليه

{٣٧٤} ـ وعن رافع أيضاً قال: كنا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفر فندَّ بعيرٌ من إبل القوم، ولم يكن معهم خيل، فرماه رجل بسهم فحَبَسه الله تعالى، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن لهذه البهائم أوابِدَ كأوَابِد الوَحْشِ، فما فعل منها هذا فافعلوا به هكذا**».

رواه الشيخان والأربعة، وهو قطعة من الحديث السابق ومن حديث رقم (٣٦٧).

قوله: ندّ ـ بفتح النون وتشديد الدال ـ: أي: فرّ وهرب، وقوله: أوابد جمع أبدة: وهي التوحّش.

والحديث يدلّ على أن من توحّش من الأنعام ولم يُقدَر على حبسه ونحره أو ذبحه يصير حكمه كالصيد المتوحش مثل حمار الوحش وبقره والأروى والظباء والضباع وغيرها من الوحوش المباحة يُرمى بالجارح مع التسمية فيؤكل، ولو مات فتلك تذكيته، كما حكم به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذا البعير الذي ندّ، ولعلّ هذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه.

* * *

ذكاة الجنين

{٣٧٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ذَكَاةُ الجنين ذكاةُ أُمّه**».

رواه أبو داود (٢٨٢٧)، والترمذي (١٣٤٥) بتهذيبي، وابن ماجه (٣١٩٩)، وابن حبان (١٠٧٧) بالموارد، وهو حديث حسن صحيح لطرقه وشواهده حتى عدّ في المتواتر.

قوله: ذكاة الجنين إلخ، معناه: أن البهيمة إذا ذكيت ووجد في بطنها جنين ميّت فإنه يؤكل بذكاة أمّه لأنه قطعة منها. أمّا إذا وجد حيّاً، فلا بدّ من ذكاته لمن أراد أكله، هذا ظاهر الحديث، وهو قول عامّة العلماء وأبعد من ادّعى فيه المجاز.

* * *

جواز أكل ذبيحة المرأة

{٣٧٦} ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن جارية لهم كانت ترعى غنماً بسَلْع، فأبصرت بشاة من غنمها موتاً، فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لأهله: لا تأكلوا حتى آتي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأسأله، أو حتى أرسل إليه من يسأله، فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو بعث إليه، فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأكلها.

رواه البخاري في الصيد (١٢/٥١، ٥٢، ٥٣) وفي الوكالة.

وفي الحديث جواز ذكاة المرأة وأكل ذلك، وهو قول الجمهور، وقد ترجم على هذا البخاري بقوله: «باب ذبيحة المرأة والأَمة»، قال الحافظ: سواء كانت حرّة أو أمة كبيرة أو صغيرة مسلمة أو كتابية طاهراً أو

غير طاهر؛ لأنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر بأكل ما ذبحته ولم يستفصل.

❊ ❊ ❊

الإحسان بالحيوان

{٣٧٧} ـ عن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله كتَب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرَتَه ولْيُرِحْ ذبيحتَه**».

رواه مسلم (١٠٦/١٣)، وأحمد (١٢٣/٤، ١٢٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والنسائي (٢٢٧/٧، ٢٣٠)، والترمذي (١٢٧٨)، وابن ماجه (٣١٧٠) وغيرُهم.

قوله: على كل شيء، أي: إلى كل شيء، وقوله: القتلة ـ بكسر القاف. والذبحة ـ بكسر الذال وفتحها. وشفرته ـ بفتح الشين. وقوله: وليُرِح ذبيحته، أي: ليتركها حتى تستريح وتبرد.

وفي الحديث وجوب الإحسان إلى خلق الله تعالى حتى للحيوانات العجماء، ويجب الإحسان في القتلة على من وجب عليه القتل، بأن يجهز عليه حالاً وأن لا يعذب بالمثلة به، كأن تُقْطَعَ أطرافُه مثلاً، وتُفْقَأ عيناه، أو تُبْقَر بطنه ونحو ذلك، فذلك كلّه محرم أشدّ التحريم، وهكذا الأمر في الذبيحة يجب أن تحدّ السكين بعيداً عن البهيمة، وأن لا تذبح وأختها تنظر إليها، وأن يجهز عليها بسرعة بمدية حادّة، وبعد الإجهاز عليها يجب إراحتها بأن يقطع عقالها، وأن تترك تموت وتشحط حتى تهدأ وتسكن، هذا مقتضى ما يطلب منّا نحو خلق الله تعالى، وهذه التعاليم على هذه الوتيرة لا توجد إلاّ في الإسلام.

الأضاحي وأحكامها

الأضاحي جمع أضحية، وهي الذبيحة التي تذبح أو تنحر في يوم النحر عيد الأضحى، وسمّيت أضحية لأنها تذبح وقت الضحى، أي: ارتفاع الشمس وأصلها من سنة الخليل سيّدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام.

❊ ❊ ❊

سنّية الأضحية

{٣٧٨} ـ عن جَبَلة بن سُحَيْم أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن الأضحية: أوَاجِبَةٌ هي؟ فقال: ضحّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأعادها عليه، فقال: أتَعْقِل ضحّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والمسلمون.

رواه الترمذي (١٣٧٥)، وابن ماجه (٣١٢٤) وحسّنه الترمذي، يعني: لغيره، قال: والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأضحية ليست بواجبة، ولكنها سنّة من سنن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ويستحب أن يعمل بها... ومما يدلّ على عدم وجوبها هو ترك الخلفاء لها وبعض الصحابة أحياناً، وبهذا قال عامّة أهل العلم.

❊ ❊ ❊

وقت الأضحية وموضع ذبح الإمام

{٣٧٩} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلّي ثم نرجعَ فننحرَ مَن فعله فقد أصاب سُنَّتنا، ومن ذَبح قبل فإنما هو لحم قدَّمه لأهله، ليس من النُّسُك في شيء**»، فقام أبو بردة بن نَيَّار وقد ذبح، فقال: إن عندي جذعَةً، فقال: «**اذبحها ولن تُجزِي عن أحد بعدك**»، وفي رواية: خطبنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في يوم نحر، فقال: «**لا يَذْبَحَنَّ أحدُكم حتى يصلي**»، قال: فقام خالي فقال: يا رسول الله هذا يوم اللحم فيه مكروه، وإني عَجَّلْتُ نسيكتي لأُطْعِمَ أهلي وأهلَ داري وجيراني، قال: «**فأعد ذبحك بآخر**»، فقال: يا رسول الله عندي عناق لبن هي خير من شاتي لحم فأذبحها؟ قال: «**نعم وهو خير نسيكتيك، ولا تجزىء جذعة بعدك**».

رواه البخاري (١٢/٩٨، ١٠٠)، ومسلم (١٣/١١٢، ١١٣)، وأبو داود (٢٨٠٠، ٢٨٠١)، والترمذي (١٣٧٧)، والنسائي (٧/١٩٦)، والدارمي (١٩٦٨).

النُّسك ـ بضم النون والسين ـ: يطلق على العبادة وعلى ذبح البهيمة لله تعالى، ويقال لها نسيكة، وقوله: اللحم فيه مكروه أي: يكرهه الناس لكثرة اللحم فيه، والنظر إليه ينفر الطبع منه، وقوله: عندي عناق ـ بفتح العين ـ: هي الأنثى الصغيرة من المعز التي لم تكمل لها سنة، وهي المرادة بالجذعة.

والحديث يدلّ على أن أوّل ما يبدأ به يوم النحر صلاة العيد وبعد الخطبة تذبح أو تنحر الأضاحي، فمن فعل ذلك فقد أصاب السنّة، ومن ذبح قبل الصلاة كانت ذبيحته مجرد لحم قدَّمه لأهله وليس له من ثواب الأضحية شيء، وتلزمه الإعادة بشاة أخرى، واختلفوا: هل تعتبر صلاة الإمام أو مطلق الصلاة حتى لو فرض أن صلّى الإنسان مفرداً، فضحى بعد صلاته أو صلّى جماعة بإمام خاص لهم ثم ضحوا، هل تجزئهم أم لا؟

الشفرة، وأن يتولّى ذبحه صاحبه، وأن يضع رجله على جنب الذبيحة، وأن يقول: باسم الله والله أكبر، اللّهمّ تقبّل منّا.

* * *

أقل ما يجزىء في سنّ الأضحية

{٣٨٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ تَذْبَحُوا إلاَّ مُسِنَّةً إلاّ أن يَعْسُر عليكم فتذبحوا جَذَعَةً من الضأن**».

رواه مسلم (١١٧/١٣).

المُسنة ـ بضم الميم وكسر السين ـ: هي الثنية من الإبل والبقر والغنم... وهو من الإبل ما تمّ له ستّ سنين، ومن البقر ما دخل في السنة الرابعة، ومن الغنم ذات الصوف وذات الشعر ما دخل في السنة الثانية أو الثالثة، وقوله: جذعة من الضأن، وهي الغنم ذات الصوف، والجذعة منها من ستّة أشهر إلى كمال السنة.

وظاهر الحديث يدلّ على المنع من ذبح الجذعة مع وجود المسنّة، وأنه لا يلجأ إليها إلاّ عند تعذّر المسنة، قال النووي في شرح مسلم: وقد أجمعت الأُمّة أنه ليس على ظاهره لأن الجمهور يجوزون الجذع من الضأن مع وجود غيره وعدمه، فيكون ذبح المسنة من باب الأفضل...

* * *

ما لا يجزىء في الأضاحي

{٣٨٦} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: ضحّى خالي يقال له أبو بردة قبل الصلاة، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم: «**شاتك شاة لحم**»، فقال: يا رسول الله، إن عندي داجناً جذعة من المعز، قال: «**اذبحها ولا تَصْلُحُ لغيرك**».

رواه البخاري (١٠٨/١٢، ١٠٩، ١١٤)، ومسلم وقد تقدم رقم (٣٧٩) مطولاً.

الداجن: هي الشاة التي تألف البيوت، وقد تقدم في الرواية الأخرى: عندي عناق لبن، والعناق: هي الأنثى الصغيرة من الغنم. وقوله: ولا تصلح لغيرك، في رواية: ثم لا تجزىء عن أحد بعدك.

{٣٨٧} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطاه غنماً يقسمها في أصحابه، فبقي عَتُودٌ أو جَذْيٌ فذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «**ضحِّ به أنت**».

رواه البخاري (١٠٠/١٢، ١٠٧)، ومسلم (١١٨/١٣)، والترمذي (١٣٦٨)، والنسائي (١٩٢/٧)، وابن ماجه (٣١٣٨).

قوله: عتود: هو من أولاد المعز ما قوي ورعى وأتى عليه حول.

في هذين الحديثين تخصيص أبي بردة وعقبة بن عامر بالتضحية بالجذع من المعز، كالعتود والداجن والعناق، ولا يجوز ذلك لغيرهما، قال الترمذي في الجامع: وقد أجمع أهل العلم أن لا يجزىء الجذع من المعز، وقالوا: إنما يجزىء من الضأن... وكذا قال عياض والنووي وغيرهما أنه وقع الإجماع على عدم التضحية بجذع المعز، وأنه لا يجزىء.

* * *

ما يجب أن يتقى في الأضاحي

{٣٨٨} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أمرنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن نَسْتَشْرِفَ العين والأُذُن وأن لا نُضَحِّي بمُقابَلة، ولا مُدابَرة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء... والمقابلة ما قطع طرف أذنها،

فيهما مشروعيّة اشتراك عشرة في البعير، وسبعة في البقرة، وهذا وارد في الأضحية. أما في هدايا الحجّ أو العمرة، فيؤخذ من الحديث الثاني الاقتصار على سبعة في كل منهما، والله تعالى أعلم.

* * *

الشاة الواحدة تجزىء عن أهل بيت

{٣٩٣} ـ عن عطاء رحمه الله تعالى قال: سألت أبا أيوب رضي الله تعالى عنه: كيف كانت الضحايا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ فقال: كان الرجل يضحّي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويُطْعِمُون حتى تَبَاهى الناسُ، فصارت كما ترى.

رواه مالك رقم (١٠٦٩)، والترمذي (١٣٧٤)، وابن ماجه (٣١٤٧) وحسنه الترمذي وصححه.

تباهى الناس، أي: تفاخروا. والحديث يدلّ على جواز اشتراك أهل البيت الواحد في الشاة الواحدة، ولا يلزم كل واحد أُضحِيتُه على حِدَةٍ. أما الزيادة عليها مباهاة ومفاخرة، فحرام باتّفاق، وما ذبح كذلك لا يجوز أكله.

* * *

الأضحية بالبقرة عن الأزواج

{٣٩٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليها بسَرِف، فذكرت الحديث وفيه: كنا بمنى أُتِيتَ بِلَحْمِ بَقرٍ، فقلت: ما هذا؟ قالوا: ضحّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أزواجه بالبقر.

رواه البخاري في الأضاحي (١٠١/١٢، ١١٥)، وتقدم في الحجّ مطولاً مع تمام تخريجه.

وفي الحديث مشروعية التضحية بالبقرة عن الزوجات.

* * *

ادّخار لحوم الأضاحي والتزوّد منها

{٣٩٥} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا نتزوّد لحوم الأضاحي على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى المدينة، وقال غير مرة: لحوم الهدايا.

رواه البخاري (١٢٠/١٢).

{٣٩٦} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه كان غائباً فقدِمَ، فَقُدِّم إليه لحم قالوا: هذا من لحم ضحايانا؟ فقال: أخّروه لا أذوقه، قال: ثم قمت فخرجت حتى آتي أخي أبا قتادة، وكان أخاه لأُمّه وكان بدرياً، فذكرت ذلك له، فقال: إنه قد حدث بعدك أمر.

رواه البخاري (١٢٠/١٢، ١٢١).

{٣٩٧} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من ضحّى منكم فلا يُصبِحَنَّ بعد ثالثة وبقي في بيته منه شيء»**، فلمّا كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: **«كلوا وأطعموا وادَّخِرُوا، فإن ذلك العامَ كان بالناس جهدٌ فأردت أن تُعينوا فيها»**.

رواه البخاري (١٢١/١٢، ١٢٢)، ومسلم في الأضاحي (١٣٣/١٣).

{٣٩٨} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كُنتُ نَهيتُكُمْ عن لحوم الأضاحي فوقَ ثلاث... فكلوا ما بدا لكم وأطْعِمُوا وادَّخِرُوا»**.

{٤٠١} ـ وعنها قالت: أوّل مولود ولد في الإسلام عبدالله بن الزبير، أتوا به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأخذ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تَمْرةً فلاَكَها ثم أدْخَلَها في فيه، فأول ما دخل بطنَه ريقُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في الأضاحي (٥/١٢).

{٤٠٢} ـ وعن أسماء بنت الصدّيق رضي الله تعالى عنهما نحوه، وفيه: ثم أتيت به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فوضعتُه ثم دعا بتمرة فمضَغَها ثم تَفَل فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثمّ حنّكه بالتمرة، ثم دعا له فبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرِحُوا به فَرَحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سَحَرتكم فلا يولد لكم.

رواه البخاري (٩/١٢، ٦) في الأضاحي، وفي الهجرة النبوية ومسلم ويأتي في المناقب والفضائل.

قوله: فلاَكَها، أي: مضغها كما في الرواية الأخرى، وقوله: ثم حنّكه التحنيك أن: يمضغ التمر ثم يدلك به حنك الصبي من داخل فمه، وقوله: فيبرك عليهم إلخ، أي: يدعو لهم بالبركة مع إدخاله أثر ريقه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأجوافهم، وذلك من أعظم البركات. وفي هذه الأحاديث مشروعية تحنيك الصبيان والدعاء لهم بالبركة من الصالحين. وقول أسماء: وكان أول مولود إلخ، يعني: من المهاجرين بالمدينة المنوّرة بعد الهجرة، وإلاّ فالنعمان بن بشير الأنصاري ولد في الإسلام بالمدينة قبل ابن الزبير.

❊ ❊ ❊

مشروعية الأذان في أذن المولود

{٤٠٣} ـ عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أذّن في أُذن الحسن بن علي عليهما السلام، حيث ولدته فاطمةُ عليها السلام بالصلاة.

رواه أبو داود (٥١٠٥)، والترمذي (١٣٨٥)، وكذا الطيالسي (٢٠٢٠) وصححه الترمذي، ولعلّه لشواهده وإلا ففي سنده عاصم بن عبيدالله العمري، وهو ضعيف ومشاه بعضهم. وفي الحديث مشروعية الأذان بالصلاة في أذن المولود ليكون أول ما يصل مسامعه كلمة التوحيد، وذكر الله تعالى، فهذا مع التحنيك هي صبغة أبناء المسلمين.

* * *

إماطة الأذى عن المولود وإراقة الدم عنه

{٤٠٤} ـ عن سلمان بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مع الغلام عقيقَةٌ فأهْرِيقُوا عنه دَماً، وأَمِيطُوا عنه الأذى**».

رواه البخاري (٩/١٢، ١٠) وأبو داود (٢٨٣٩) والترمذي (١٣٨٤) بتهذيبي، والنسائي (١٤٦/١٤٥/٧) وابن ماجه (٣١٦٤) وغيرهم.

قوله: وأميطوا، أي: أزيلوا عنه الأذى وهو أقذاره وحلق شعره، وقوله: مع الغلام عقيقة إلخ، العقيقة: هي البهيمة التي تذبح عن الطفل يوم سابعه، فهي من السنن المشروعة شكراً لله تعالى على ما وهب وأعطى من الذرية، فهي هبة من الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إلخ [الشورى: ٤٩]، وقوله: فأهريقوا عنه دماً، أي: أسيلوا وانهروا عنه دماً من شاة أو نحوها وسيأتي بيان ما يذبح وعدده.

* * *

مشروعية العقيقة وأن كل مولود مرتهن بها وحلق رأسه وتلطيخه بزعفران

{٤٠٥} ـ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الغُلامُ مُرْتَهَنٌ بعقيقَتِهِ تُذْبَحُ عنه يومَ السابع، ويُسَمَّى ويُحلَقُ رأسُه**».

رواه أحمد (٥/١٧، ٢٢)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٣٩١)، والنسائي (٧/١٤٧)، وابن ماجه (٣١٦٥)، والدارمي (١٩٧٥)، وابن الجارود (٩١٠)، والحاكم (٤/٢٣٧)، وحسنه الترمذي وصححه وهو حديث صحيح، وقد أخرجه البخاري في الأضاحي (١٢/١٠، ١١) ولم يسق لفظه، وهذا مما اتّفقوا فيه على سماع الحسن من سمرة.

قوله: مرتهن، قيل: معناه أن العقيقة لازمة للغلام كلزوم الرهن للمدين عند الدائن، وقيل: إنه إذا لم يعق عنه فمات طفلاً لم يشفع في أبويه، وقوله: يوم السابع اختلفوا هل يعدّ اليوم الذي ولد فيه أم لا؟ والظاهر أنه يحسب. وقوله: ويسمّى هو يدلّ على جواز تأخير التسمية إلى يوم العقيقة، والأمر واسع. وقوله: ويحلق رأسه، يعني: يحلق ويوزن شعره ثم يتصدّق بزنة شعره عملة، ففي حديث الإمام عليّ عليه السلام قال: عقّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الحسن بشاة، وقال: **«يا فاطمة احلقي رأسه وتصدّقي بزنة شعره فضّة»**، فوزنته فكان وزنه درهماً أو بعض درهم. رواه الترمذي (١٢٨٨)، والحاكم (٤/٢٣٧) وحسّنه الترمذي، وذلك لشاهد له عن أبي رافع رواه أحمد (٦/٣٩٠، ٣٩٢).

{٤٠٦} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كنّا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدَمِها، فلما جاء الإسلام كنا نذبح الشاة يوم السابع ونحلق رأسه ونُلَطِّخُه بزعفران.

رواه أبو داود آخر الأضاحي (٢٨٤٢) بسند صحيح.

قوله: ولطخ رأسه بدمها كانوا يفعلون ذلك تفاؤلاً منهم بأن يكون الولد سفاكاً للدماء، مقداماً شجاعاً، وهذا من جهالاتهم، وقوله: ونلطخه بزعفران يعني: بدلاً مما كانوا يفعلونه في جاهليّتهم، والظاهر أن هذا مما عَلِمه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأقرّهم عليه.

* * *

يُعقُّ للذكر شاتان وللأنثى شاة

{٤٠٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم أمرهم عن الغلام شاتان مكافِئَتَان، وعن الجارية شاةٌ.

رواه الترمذي (١٣٨٢)، وابن ماجه (٣١٦٣)، وابن حبان (١٠٥٨) بالموارد، والحاكم (٤/٤٣٨، ٤٣٩) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو على شرط مسلم عند الترمذي وغيره.

قوله: مكافئتان، أي: متقاربتان في السنّ.

{٤٠٨} ـ وعن أُمّ كرز رضي الله تعالى عنها أنها سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن العقيقة؟ فقال: «**عن الغلام شاتان، وعن الجارية واحدة، ذكراناً كنّ أم إناثاً**».

رواه أبو داود (٢٨٣٦)، والترمذي (١٣٨٣)، والنسائي رقم (٣٩٣٣)، وابن ماجه (٣١٦٢)، وابن حبان (١٠٥٩)، والدارمي (١٩٧٤)، والحاكم (٤/٢٣٧)، وسنده حسن صحيح لطرقه وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي.

{٤٠٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عقّ عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً، وفي رواية: كبشين كبشين.

رواه أبو داود (٢٨٤١) بالرواية الأولى، والنسائي (٣٩٣٥) بالثانية، وكلاهما سنده صحيح.

وهذه الأحاديث تدلّ على أن السنّة في العقيقة هي أن يذبح للذكر شاتان لما في جنس الذكورة من الفضل... على الأنوثة. وللأنثى شاة، وهذا هو العدل الإلٰهي، فإنّ هذا موافق للأحكام الأخرى؛ كالمواريث والشهادة وما إلى ذلك، وليس في ذلك إزراء بالمرأة ولا هضم لحقوقها كما قد يتوهّم ما لا يفقه أسرار التشريع الإلٰهيّ.

* * *

الفَرَع والعَتِيرَة

{٤١٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قال: «**لا فَرَعَ ولا عَتِيرَةَ**»، والفَرَع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعَتِيرة في رجب.

رواه أحمد (٢/٢٧٩، ٤٩٠)، والبخاري (١٢/١٤)، ومسلم (١٣/١٣٥)، والأربعة والدارمي (١٩٧٠).

الفَرَع ـ بفتح الفاء والراء ـ: كان أهل الجاهلية إذا نتجت لهم ناقة أو شاة أول النتاج قدّموه لأصنامهم فذبحوه لها تبركاً بذلك على زعمهم، ثم يأكلونه ويلقون جلده على الشجر، وتطلق الفرع أيضاً على ذبح بحيث إذا بلغت الإبل عدد ما تمنّاه صاحبها ذبحوه، كما تطلق على طعام يصنع لنتاج الإبل. أما العتيرة ـ بفتح العين وكسر التاء ـ: كعظيمة، هي ذبيحة كانوا يذبحونها في رجب يعظّمون بها شهر رجب ويتقرّبون بها لأصنامهم، وكل ذلك من الشركيات والوثنيات؛ لأن التقرب بالذبائح كغيرها لا يكون إلا لله تعالى وعلى اسمه، فهي بهذه الصفة شرك، وعليها جاء هذا النفي الذي معناه النهي كما جاء مصرّحاً به عند النسائي: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الفرع والعتيرة، وفي رواية لأحمد: «**لا فرع ولا عتيرة في الإسلام**». نعم من ذبح مثل ذلك لله تعالى وشكراً له على ما أولى وأنعم فلا مانع منه، وعليه يحمل ما جاء في أحاديث، وقال به جمع من الأئمّة والعلماء.

* * *

نوع جائز من الفرع والعتيرة

{٤١١} ـ عن نُبَيْشَة رضي الله تعالى عنه قال: نادى رجل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إنّا كنا نَعْتِرُ عَتِيرةً في الجاهلية في رجب، فما تأمرنا؟ قال: «**اذبحوا لله تعالى في أي شهر كان، وبَرُّوا الله عزّ وجلّ وأطعموا**»، قال: إنا كنا نُفْرِعُ فَرَعاً في الجاهلية، فما تأمرنا؟ قال: «**في كل سائمة فرع تَغْذُوه ماشيتك حتى إذا استحمل للحجيج ذبحته، فتصدقت بلحمه على ابن السبيل، فإن ذلك خير**».

رواه أبو داود (٢٨٣٠)، والنسائي (٣٩٤٢، ٣٩٤٦)، وابن ماجه (٣١٦٧)، والحاكم (٤/٢٣٥) بسند صحيح.

فهذا الحديث يدلّ على أن من ذبح لله تعالى بارّاً في ذلك وتصدّق وأطعم كان ذلك خيراً في أي شهر كان، وأخذ الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من هذا الحديث استحباب الفرع والعتيرة، يعني: إذا كان الذبح لله عزّ وجلّ بعيداً عن فعل المشركين، والله تعالى أعلم.

وبهذا تم كتاب الصيد والذبائح والأضاحي وتوابعها والحمد لله وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

* * *

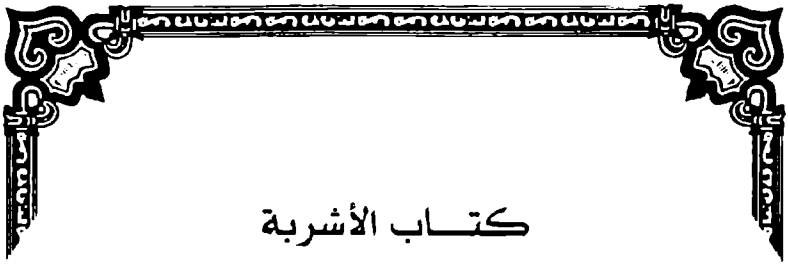

كتـــاب الأشربة

يذكر في هذا الكتاب الأشربة المباحة وآداب الشراب والأشربة التي كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يشربها في حياته... ثم بيان الأشربة المحرّمة؛ كالخمر بجميع أنواعه، والأنبذة الممنوع منها، والمباح، والأوعية التي ينبذ فيها وما يتبع ذلك.

❊ ❊ ❊

النّهي عن الشرب في أواني الذهب والفضّة

{٤١٢} ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تشربوا في آنية الذهب والفضّة، ولا تأكلوا في صِحَافِها، ولا تَلْبَسُوا الحرير ولا الدِّيبَاج، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**».

رواه البخاري في الأشربة (١٢/١٩٨) وفي اللباس، ومسلم في اللباس (١٤/٣٦، ٣٧)، وأبو داود (٣٧٢٣)، والترمذي (١٧٢٤)، والنسائي في الزينة...، وابن ماجه (٣٤١٤) وغيرهم، ويأتي في اللباس مطوّلاً.

الديباج نوع من الحرير، والحديث يدلّ على تحريم استعمال الذهب والفضّة والحرير، أما الرجال فبالإجماع مطلقاً، وأما النساء فلهنّ التحلّي بهما فقط. أما الأكل والشرب فيهما فهن والرجال سواء كما حكى الإجماع على ذلك النووي في شرح مسلم (١٤/٢٩). وفي قوله صلّى الله تعالى عليه

وآله وسلم: «**فإنها لهم**» إلخ، إشارة إلى أنه لا ينبغي للمسلم الانسياق وراء الكفار واتّباعهم والتشبه بهم في شؤون حياتهم، وخاصة فيما نهى عنه الشارع على الخصوص، فلنترك الكفار يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

{٤١٣} ـ وعن أمّ سلمة زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الذي يشرب في آنية الفضّة إنما يُجَرجِرُ في بطنه نارَ جهنم**»، وفي رواية: «**في آنية الفضّة والذهب**».

رواه البخاري في الأشربة (١٢/١٩٩)، ومسلم في اللباس (١٤/٢٨) والزيادة لمسلم.

الجرجرة: هو الصوت للمتردّد، وسمّى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المشروب ناراً تصوت في بطنه؛ لأن الشرب في هذا الإناء المحرم يؤول إليها، كما قال تعالى في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، والحديث يدلّ كسابقه على تحريم استعمال أواني الفضّة لهذا الوعيد على ذلك، وهو من دلائل التحريم.

* * *

الشرب من قيام منعاً وجوازاً

{٤١٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه نهى أن يشرب الرجل قائماً. قال قتادة: فقلنا: فالأكل؟ فقال: «**ذلك أشرّ وأخبثُ**»، وفي رواية: «**ذاك أشدُّ**».

رواه أحمد (٣/١٤٧)، ومسلم (١٣/١٩٥، ١٩٦)، وأبو داود (٣٧١٧)، والترمذي (١٧٢٥)، والطيالسي (١٦٨٢، ١٦٨٣)، وابن ماجه (٣٤٢٤).

{٤١٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَشْرَبَنَّ أحدٌ منكم قائماً، فمن نَسِيَ فَلْيَسْتَقِىء**».

رواه مسلم (١٣/١٩٧)، وفي الباب عن أبي سعيد عند أحمد (٣/٤٥)، ومسلم (١٣/١٩٧)، وعن الجارود بن العلاء عند الترمذي (١٧٢٦) بسند حسن صحيح.

{٤١٦} ـ وعن النَّزَّال بن سَبْرة عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه صلّى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة، حتى حضرت صلاة العصر، ثم أُتِي بكُوز فشَرِب وغسل وجهَه ويديه وذكر رأسه ورجليه، ثم قام فشرب فَضْلَه وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صنع مثل ما صنعتُ.

رواه البخاري (١٢/١٨٣، ١٨٤) وغيره.

{٤١٧} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا نأكل على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن نمشي، ونشرب ونحن قيام.

رواه الترمذي (١٧٢٧)، وابن ماجه (٣٣٠١)، والدارمي (٢١٣٢، ٢١٣١)، وابن حبان (١٣٦٩)، وابن الجارود (٨٦٧) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

{٤١٨} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يشرب قائماً وقاعداً.

رواه الترمذي (١٧٢٩)، وفي الشمائل (٢٠٨) وحسّنه وصححه.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شرب من زمزم من دلو منها، وهو قائم. رواه البخاري في الحجّ وفي الأشربة (١٢/١٨٧)، ومسلم (١٣/١٩٧، ١٩٨)، والترمذي (١٧٢٨)، والنسائي في الحجّ، وابن ماجه في الأشربة.

ظاهر أحاديث هذا الفصل يقتضي التعارض، فإن الأحاديث الأولى تقتضي النهي عن الشرب من قيام، بينما الأحاديث الأخيرة تدلّ على الجواز وجمع بينها العلماء، فقال النووي في شرح مسلم (١٣/١٩٥): بل الصواب أن النهي فيها محمول على التنزيه، وشربه قائماً لبيان الجواز، وأما من زعم نسخاً أو غيره فقد غلط، وقال المازري: والذي يظهر لي أن أحاديث شربه قائماً تدلّ على الجواز، وأحاديث النهي تحمل على الاستحباب، والحثّ على ما هو أولى وأكمل.

وهذه طريقة الخطابي وابن بطال، وعلى هذا جمهور العلماء ولم يقل بتحريم الشرب من قيام إلا ابن حزم وبعض أهل الشذوذ ومن لفّ لفهم كالشيخ ناصر الدين الألباني من المعاصرين.

* * *

اختناث الأسقية والشرب من فم السقاء

{٤١٩} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينهى عن اختناث الأسقية، يعني: أن تكسر أفواهها فيشرب منها.

رواه البخاري (١٢/١٩٢)، ومسلم (١٣/١٩٤)، وأبو داود (٣٧٢٠)، والترمذي (١٧٣٧)، وابن ماجه (٣٤١٨).

{٤٢٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يشرب من في السقاء.

رواه البخاري (١٢/١٩٣)، وعن ابن عباس مثله رواه البخاري (١٢/١٩٥) ومسلم.

اختناث الأسقية أن تثني فم القربة، ولا تكون إلا من إهاب، فيشرب منها، والمراد به النهي عن الشرب من أفواه الأسقية مطلقاً بدليل حديثي أبي هريرة وابن عباس؛ إذ لعلّها يكون في داخلها ما يؤذي من علقة أو هامة... زيادة على ما في ذلك بما يعلق بفمّ السقاء من بخار النَّفَس أو بما

يخالط الماء من ريق الشارب فيتقذره غيره. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى تحريم ذلك، والظاهر أنه جائز بدليل الحديث التالي.

{٤٢١} ـ عن كبشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فشرب من فِي قِربة مُعَلَّقةٍ قائماً، فقمتُ إلى فيها فقطعتُه.

رواه الترمذي (١٧٣٩)، وفي الشمائل (٢١٣)، وابن ماجه (٣٤٢٣)، وابن حبان (١٣٧٢) وحسنه الترمذي وصححه ونحوه عن عبدالله بن أُنَيْسَ رواه أبو داود (٣٧٢١)، والترمذي (١٧٣٨).

فهذا الحديث يدلّ على جواز الشرب من فم القربة وهو قرينة دال على صرف النهي عن التحريم، أو يكون مباحاً حيث أُمِنَ مِن الهوام ومن التقذّر... وفيه مشروعية التبرّك بآثار النبوّة وأهل الصلاح؛ لأن هذه السيدة ما قطعت فم القربة إلا لتتبرّك بأثر ريق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

❋ ❋ ❋

النهي عن التنفس والنفخ في الإناء

{٤٢٢} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا شرب أحدُكم فلا يَتَنَفَّسْ في الإناء**».

رواه البخاري في الطهارة وفي الأشربة (١٩٥/٢)، ومسلم (١٩٨/١٣)، والترمذي (١٧٣٦).

قوله: «**فلا يتنفس في الإناء**» بحيث يشرب ويتنفس داخل الإناء أثناء شربه، ونهى عن ذلك لئلا يخرج شيء من فمه أو تعلق بالماء رائحة فمه الصاعدة من بخار معدته، ولذلك كان من الأدب أن يتنفّس خارج الإناء.

{٤٢٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يتنفّس في الإناء ثلاثاً، وفي رواية: هو أَمْرَأُ وأَرْوَى.

رواه البخاري (١٩٦/١٢)، ومسلم (١٩٨/١٣، ١٩٩)، وأبو داود (٣٧٢٧)، والترمذي (١٧٣٠، ١٧٣١).

قوله: امرأ، أي: أقوى هضماً، وأروى أي: أكثر رِيّاً بكسر الراء.

قوله: كان يتنفّس في الإناء إلخ، معناه: كان إذا شرب تنفّس ثلاثاً وأبان الإناء عن فمه، وليس معناه أنه كان يتنفّس ثلاثاً داخل الإناء، فإن ذلك يعارض الحديث السابق بينما جاء ما يدلّ على أنه يبين الإناء عن فمه أثناء شربه وتنفّسه؛ كالحديث التالي، وهو:

{٤٢٤} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: القذاة أراها في الإناء، فقال: **«أهرقها»**، فقال: فإني لا أروى من نفس واحد، قال: **«فأبِنْ القَدَحَ إذاً عن فيك»**.

رواه الترمذي (١٧٣٤)، والدارمي (٢١٢٧)، وابن حبان (١٣٦٧) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه.

{٤٢٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى أن يتنفّس في الإناء، أو ينفخ فيه.

رواه أبو داود (٣٧٢٨)، والترمذي (١٧٣٥)، وابن ماجه (٣٤٢٩)، وابن حبان (١٣٦٨)، وحسنه الترمذي وصححه.

قوله: القذاة: هي كل ما يقع في عَيْنٍ أو ماء من تراب أو تبن ونحو ذلك، وقوله: أبِنْ القدح ـ بفتح الهمزة وكسر الباء ـ: أمر من أبان، أي: افصله عن فمك وأبعده عنه.

فحديث أبي سعيد يدلّ على ما ذكرناه من التنفّس خارج الإناء، وهو واضح كما فيه وفي حديث ابن عباس النهي عن النفخ في الماء والحكمة فيه هي ما ذكر في التنفّس في الآنية من أجل أنه قد يقع فيه شيء من الريق، فيعافه الشارب ويتقذّره إذ كان التقذّر في مثل ذلك عادة غالبة على طباع أكثر الناس.. وهذا إذا أكل أو شرب مع الغير. أما إذا كان وحده أو

مع من يعلم أنه لا يتقذّر شيئاً مما يتناوله، فلا بأس، نقله الحافظ عن المهلب.

* * *

ماذا يقول من أكل طعاماً أو شرب لبناً

{٤٣٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بلَبَنٍ فشرب، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا أَكَلَ أحدُكم طعاماً فليقل: اللّهمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقِي لبناً فليقل: اللّهمّ بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب إلاّ اللبن»**.

رواه أبو داود (٣٧٣٠)، والترمذي وابن ماجه **(٣٣٢٢)** بسند حسن.

فيه مشروعية هذا الدعاء والذكر عند الطعام وشراب اللبن، وفيه فضل اللبن وبركته وأنه يقوم مقام الطعام والشراب، وأنه غذاء كاملٌ لا يحتاج معه إلى غيره، فمن اقتصر عليه كفاه، ولذلك أرشدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الاستزادة منه من الله عزّ وجلّ.

* * *

التيمّن في الشرب الجماعي

{٤٣٧} ـ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بلبن قد شيب بماء، وعن يمينه أعرابي وعن شماله أبو بكر، فشرب ثم أعطى الأعرابي، وقال: **«الأيمن فالأيمن»**، وفي رواية: **«الأيمنون الأيمنون»**، قال أنس: فهي سنّة، فهي سنّة، فهي سنّة.

رواه البخاري (١٢/١٨٨، ١٧٧)، ومسلم (١٣/٢٠٠، ٢٠١)، والرواية الثانية لمسلم ورواه أبو داود والترمذي (١٧٤٠)، وابن ماجه (٣٤٢٥) وغيرهم باللفظ الأول.

{٤٢٨} ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أتي بشراب فشَرِبَ منه وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء»؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أُوثِر بنَصِيبي منك أحداً، قال: فتلَّه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في يده.

رواه البخاري (١٢/١٨٩، ١٩٠)، ومسلم (١٣/٢٠١) وغيرهما.

قوله: وعن يمينه غلام، هو ابن عباس، وقوله: الأشياخ كان منهم خالد بن الوليد، وقوله: فتله ـ بفتح التاء واللام المشدّدة ـ: أي: وضعه.

والحديثان يدلان على أن السنّة في الشراب الجماعي المشترك أن يقدم الأيمن فالأيمن، وإن كان على يسار الشارب الأول أفاضل وشيوخ، وعلى اليمين الصغار والمفضولون، وقد اتّفق العلماء على استحباب ذلك في الشراب وغيره، ويؤخذ من حديث سهل أن التيامن من حقّ الجالس على اليمين، وأن لا يدفع إلى غيره إلا بإذنه، وأن له الحقّ في عدم الإذن.

* * *

ساقي القوم آخرهم شرباً

{٤٢٩} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ساقي القوم آخِرُهُم شُرْباً».

رواه أحمد (٥/٣٠٣)، ومسلم (٥/١٨٩) في المساجد، والترمذي (١٧٤١)، وابن ماجه (٣٤٣٤)، ومثله عن ابن أبي أوفى عند أحمد (٣/٣٨٢) وغيره.

فيه أدب من آداب الشرب الجماعي، وهو أن ساقيهم يشرب آخرهم ليكون جامعاً بين فضيلتين: فضيلة الخدمة، وقد قال رسول الله صلّى الله

عليه وآله وسلم كان يشرب منها ماءً بارداً، انظر ما سبق في الوقف، ويأتي حديث في قصة ابن التيهان في عيش النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وشربه مع صاحبيه الصديق والفاروق الماء البارد، وقوله: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»، وجاء في حديث لعائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يستعذب له الماء من بئر سقيا، رواه أبو داود (٣٧٣٥)، والحاكم (١٣٨/٤)، وسنده حسن، وجوّده الحافظ في الفتح. وتأتي الآبار التي كان يستقي منها النبيّ ﷺ في السيرة إن شاء الله تعالى.

* * *

تكرر الأحاديث في شربه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اللبن

{٤٣٣} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: لما خرجنا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من مكّة إلى المدينة مررنا براع وقد عطش رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: فحلبت له كُثْبَةً من لبن، فأتيته بها فشرب حتى رضيتُ.

رواه البخاري في الأشربة (١٧٣/١٢) وفي مواضع، ويأتي مطوّلاً في السيرة النبويّة، ورواه مسلم في الأشربة (١٧٩/١٣، ١٨٠) وفي آخر الكتاب. وقوله: كثبة ـ بضم الكاف وسكون الثاء ـ: أي: شيء قليل من لبن.

{٤٣٤} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاء أبو حُمَيْد رجلٌ من الأنصار من النقيع بإناء من لبن إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ألا خَمَّرْتَه، ولو أن تعرُضَ عليه عُوداً»**.

رواه البخاري (١٧٣/١٢)، ومسلم (١٨١/١٣) كلاهما في الأشربة.

قوله: النقيع: بالنون هو موضع بوادي العقيق بضواحي المدينة، وقوله: ألاَ خمَّرْتَه، أي: غطيته. وفي الحديث مشروعية تغطية الأواني إذا كان فيها شراب أو طعام، ويأتي هذا قريباً.

{٤٣٥} ـ وعن أمّ الفضل رضي الله تعالى عنها قالت: شَكَّ الناسُ في صيام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم عرفة، فأرسلتُ إليه بإناء فيه لبن فشرب.

رواه البخاري (١٢/١٧٢)، ومسلم (٨/٢، ٣) ونحوه عن ميمونة عند مسلم (٨/٣).

{٤٣٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شرب لبناً فمضمض، وقال: «**إن له دَسَماً**».

رواه البخاري (١٢/١٧٤) وغيره، والأحاديث في شربه اللبن كثيرة.

فهذه الأحاديث وغيرها كلها تدلّ على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يشرب اللبن بكثرة، وكيف وقد أرشدنا إلى طلب الزيادة منه، وسيأتي في حديث الإسراء أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بثلاثة أقداح: قدح فيه لبن، وقدح فيه عسل، وقدح فيه خمر، فأخذ الذي فيه اللبن فشربه، فقيل له: أصَبْتَ الفطرة أنت وأمّتك، ولو شربْتَ الخمر لغوت أمّتك، فاللبن له شأنٌ ليس لغيره، وقد قال الله تعالى في معرض امتنانه على ما أعطانا من نعمه: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

❊ ❊ ❊

شربه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم النبيذ

{٤٣٧} ـ عن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنا نَنْبِذُ لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سِقاءٍ يُوكَأ أعْلاه وله عَزْلاء نَنْبِذُه غُدْوة، فيشربه عِشاء، وننبذه عشاء فيشربه غُدوة.

تحريم الخمر وإراقتها

{٤٤٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبا طلحة وأُبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنهم من فَضِيخ زَهْو وتَمْرٍ فجاءهم آتٍ، فقال: إن الخمر قد حُرِّمَت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس فهرقها[1]، فهرقتها. وفي رواية: كنت ساقي القوم يوم حرّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفَضِيخُ البُسْر والتمر، فإذا مناد ينادي فقال: اخرج فانظر، فخرجت فإذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فجرت في سِكَكِ المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهْرِقْهَا، فهرقتها، فقالوا أو قال بعضهم: قتل فلان، قتل فلان، وهي في بطونهم... فأنزل الله عزّ وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣].

رواه البخاري (١٣٦/١٢، ١٣٧)، ومسلم (١٤٨/١٣، ١٤٩، ١٥٠) وغيرهما.

قوله: الفضيخ ـ بالخاء المعجمة ـ: هو شراب يتّخذ من البسر والتمر يوضع في الماء ويترك حتى يغلي وتعلوه مادة الإسكار، فيكون أولاً نبيذاً مباحاً، فإذا غلي أصبح مسكراً.

وقوله: سكك المدينة، أي: طرقها جمع سكّة، وفي ذلك وجوب إراقة الخمور وعدم الانتفاع بها، والحديث نصّ في تحريم الخمر، ولا خلاف في تحريمها في الجملة، وقد تواترت الأحاديث عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتحريم كل مسكر كما سنذكر بعضها. والقرآن الكريم حرّمها بنصّه من عدة وجوه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

أولاً: اقترانه بما هو كفر وهو الأنصاب والأزلام.

---

(١) هذه لغة ورواية.

ثانياً: تسميته رجساً، وقد سمّى به ما هو مجمع على تحريمه وهو الخنزير، في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ثالثاً: كونه من عمل الشيطان، وما كان من عمله حرم تناوله.

رابعاً: الأمر باجتنابه وهو في الأصل للوجوب، وما وجب اجتنابه حرم تناوله.

خامساً: ترتب الفلاح على اجتنابه، والفلاح هو الفوز في الآخرة، فيجب علينا تحصيله بفعل الطاعات، واجتناب الآثام.

سادساً: كونه سبباً في العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتعاطي ما يوقع ذلك حرام.

سابعاً: كونه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وذلك محرم إجماعاً.

ثامناً: ختام الآية بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهو استفهام معناه الأمر أي: ارتدعوا وانزجروا وانتهوا عن شربه.

فهذه أدلّة ثمانية أخذها العلماء من الآية الكريمة كلّها دالّة بانفرادها على تحريم الخمر، فكيف باجتماعها.

وقد نقل الإجماع على تحريمه ابن حزم وصاحب البحر الزخّار وغيرهما، حتى قال ابن حزم: فمن استحلّها ممن سمع النص في ذلك وعلم بالإجماع، فهو كافر مرتدّ حلال الدم والمال إلخ.

❊ ❊ ❊

إيراد ما يدلّ من السنة على تحريم الخمر مع الوعيد الوارد في شاربها

{٤٤٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكل مسكر حرامٌ، ومَن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يُدْمِنُها لم يشرَبْها في الآخرة**».

رواه مسلم (١٧٢/١٣، ١٧٣)، وأبو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٧٠٨)، والنسائي (٢٨٥/٨)، وابن ماجه (٣٣٨٧، ٣٣٩٠).

{٤٤٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن البِتْع، فقال: «**كلُّ شراب أسكر فهو حرام**».

رواه البخاري (١٤٠/١٢)، ومسلم (١٦٩/١٣)، وأبو داود (٣٦٨٢)، والترمذي (١٧١٠)، والدارمي (٢١٠٣)، وابن ماجه (٣٣٨٦). البتع ـ بكسر الباء وسكون التاء ـ: نبيذ العسل.

{٤٤٣} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قدم من جَيشَان، وجيشان من اليمن، فسأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذُّرَةِ، يقال له: المزر، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أوَ مُسْكِرٌ هو**»؟ قال: نعم، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل مسكر حرام، إن على الله عزّ وجلّ عَهْداً لِمن يشربُ المسكر أن يُسْقِيَه من طِينةِ الخَبَال**»، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «**عَرَقُ أهل النار، أو عُصَارة أهل النار**».

رواه مسلم (١٧١/١٣)، ونحوه عن أبي موسى رواه البخاري في المغازي (١٢٩/٩) وفي الأدب.

{٤٤٤} ـ وعن جابر أيضاً أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**».

رواه أحمد (١١٢/٣، ٣٤٣)، وأبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٧١٢)، وابن ماجه (٣٣٩٣)، وابن الجارود (٨٦٠) وسنده صحيح، ونحوه عن عائشة عند أحمد والترمذي، وعن أبي هريرة عند أحمد. وفي هذه الأحاديث أمور:

أولاً: كل ما أسكر وخامر العقل يعتبر خمراً وسواء كان مائعاً أم جامداً ومنه الحشيش، بل هذا أخبث وأضر وأفسد للعقل والجسم وللمجتمع من الشراب.

ثانياً: التنصيص من الأحاديث على تحريم المسكر.

ثالثاً: كل شراب فيه مادة الإسكار يعتبر خمراً، ولو كانت مادّته قليلة، فلا يجوز تناوله بحال، سواء فيه القليل والكثير منه، وعلى هذا فالشراب المسمّى اليوم بالجُعَةِ، والبِيرَة، وسِرْبِيسَا الذي لا يسكر منه إلا الكثير تناوله

حرام؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**».

رابعاً: من مات مدمناً عليها لم يشربها في الآخرة، ومعنى هذا أنه لا يدخل الجنّة؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين.

خامساً: كل من تناول المسكر في الدنيا ولم يتب سقي يوم القيامة في جهنّم من عرق أهل النار أو عصارتهم من القيح والصديد... عياذاً بالله تعالى، فهذا وعيد شديد وزجر أكيد يحمل المؤمن على الكفّ عن هذا الرجس والابتعاد عنه.

* * *

لعن الله في الخمر عشراً

{٤٤٥} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لعن الله الخمرَ وشارِبَها، وساقِيَها، وبائِعَها، ومُبْتاعَها، وعاصِرَها، ومُعْتصرها، وحامِلَها، والمحمولة إليه، وآكل ثَمَنِها**».

رواه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، والحاكم (٣٢/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث شاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رواه أحمد (٣١٦/١)، وابن حبان (٣٧٤) بالموارد، والحاكم (٢٤٥/٤) وسنده صحيح ولفظه بنحوه.

مبتاعها أي: مشتريها، وقوله: ومعتصرها أي: الذي يباشر صنعها، فهؤلاء العشرة كلّهم ملعونون مبعدون عن رحمة الله تعالى، وحريّ بما يلعن فيه كل ما يتّصل به بأي رابطة أن يكون محرماً، وذلك من التأكيدات العظيمة لتحريم الخمر، وكيف لا وقد جاءت تسميتها في حديث أنها أمّ الخبائث، أي: أصل المعاصي، وحقّ لها ذلك، فإن من سكر لا يدع جريمة إلا أتاها.

* * *

أصول الخمر والأشياء التي تتّخذ منها

{٤٤٦} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: نزل تحريم الخمر يوم

نزل وهي من خمسة أشياء: من العِنَب، والتَّمْر، والعَسَل، والحِنْطَة، والشَّعِير، والخمرُ ما خامر العقل.

رواه البخاري (١٢/١٣٤، ١٤٤)، وأبو داود (٣٦٦٩)، والترمذي (١٧٢٠).

{٤٤٧} ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن من العنب خمراً، وإن من التمر خمراً، وإن من العسل خمراً، وإن من البُرْ خمراً، وإن من الشعير خمراً»**، وفي رواية: **«إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذُّرَة، وإني أنهاكم عن كل مسكر»**.

رواه أحمد (٤/٢٦٧)، وأبو داود (٣٦٧٦، ٣٦٧٧)، والترمذي (١٧١٩)، والحاكم (٤/١٤٨)، وكذا ابن ماجه (٣٣٧٩) من طرق بعضها صحيحة، والرواية الثانية لأبي داود.

{٤٤٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعِنَبة»**.

رواه مسلم (١٣/١٥٣)، وأبو داود (٣٦٧٨)، والترمذي (١٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٣/٣١٠)، وابن ماجه (٣٣٧٨).

الحنطة: هي القمح، قوله: والذرة ـ بضم الذال المشدّة وتخفيف الراء المفتوحة ـ.

وفي هذه الأحاديث بيان ما تكون منه الخمر، وأنها تكون من العنب، ومن الزبيب، ومن التمر بجميع أنواعه، ومن الحنطة القمح والبرّ، ومن الشعير، ومن الذرة، وهو الذي يقال له المزر ـ بكسر الميم وسكون الزاي ـ: ومن العسل، وهو البتع المتقدم، وهذه كلها جاءت بها الأحاديث الصحيحة، ثم جاء التعميم بأن الخمر ما خامر العقل، أي: غطّاه وأسكر، فشمل ذلك كل مسكر سواء كان من هذه الأشياء المنصوص عليها أم من غيرها من فواكه وبقولات وخضروات، وهذا قول كافّة العلماء: أن كل ما أسكر فهو حرام، والخلاف الذي وقع في النبيذ مقيّد بما لا يُسكر. أما قوله في حديث أبي هريرة: الخمر من هاتين الشجرتين إلخ، يريد أن أكثر ما

يستخرج الخمر من التمر والعنب، وكل من قال خلاف هذا فهو محجوج بما ذكر من صحاح الأحاديث.

❊ ❊ ❊

خلط التمر والزبيب ونحوهما في الانتباذ وأنه ينبذ كلٌ على حِدَةٍ

{٤٤٩} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يجمع بين التمر والزهو، والتمر والزبيب، ولينبذ كل واحد منهما على حدة.

رواه البخاري (١٦٩/١٢)، ومسلم (١٥٦/١٣) ونحوه عن جابر عندهما، وعن أبي سعيد عند مسلم والترمذي (١٧٢٣).

والزهو: هو البسر نوع من التمر عند بدوّ صلاحه ونضجه، قال العلماء: العلّة في النهي عن الجمع بين هذه الأنواع في الانتباذ لأن جمعها يسرع إليه الإسكار، فيشربه الإنسان ظنّاً أنه حلال خالٍ من الإسكار، وإذا به قد اشتدّ.

{٤٥٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الزبيب والتمر، والبسر والتمر، وقال: **«ينبذ كل واحد منهما على حدته»**.

رواه مسلم (١٥٧/١٣).

❊ ❊ ❊

ما جاء من النهي عن الانتباذ في الأوعية ونسخ ذلك

{٤٥١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لوفد عبدالقيس: **«أنهاكم عن الدُّبَّاء والحَنْتَمِ والنَّقِيرِ**

والمُقَيَّرِ والمِزَادة المَجْبُوبَة، ولكن اشرب في سقائك وأوْكِهِ».

{٤٥٢} ـ وفي رواية عن أنس أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن الدُّباء والمزفّت أن ينتبذ فيه، قال: وأخبره أبو سلمة أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تنتبذوا في الدُّباء، ولا في المُزَفَّت»**، ثم يقول أبو هريرة: واجتنبوا الحناتم.

رواه البخاري....، ومسلم (١٥٩/١٣)، وأبو داود (٣٦٩٣)، والنسائي (٥٦٤٦) بالرواية الأُولى، ورواه بالثانية البخاري (١٤٣/١٢)، ومسلم (١٥٨/١٣)، وقوله: المزادة المجبوبة أي: التي قطعت رأسها.

{٤٥٣} ـ وعن ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم قالا: نشهد أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن الدُّباء والحنتم والمزفّت والنقير.

رواه مسلم (١٦٣/١٣)، وأبو داود (٣٦٩٠)، والنسائي (٥١٩٢، ٥١٩٣).

{٤٥٤} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الحنتمية وهي الجرّة، ونهى عن الدُّباء وهي القرعة، ونهى عن النقير، وهي أصل النخل ينقر نقراً وتنسح نسحاً، ونهى عن المزفّت وهو المقيّر، وأمر أن ينتبذ في الأسقية.

رواه مسلم (١٦٤/١٣، ١٦٥)، والترمذي (١٧١٥)، والنسائي (٢٧٦/٨)، وقوله: تنسح، أي: تقشر وتنقر.

والأحاديث بالنهي عن الانتباذ في هذه الأوعية كثيرة واردة عن غير ما ذكرنا عن عائشة وعليّ وأبي سعيد الخدري وجابر وغيرهم، وكلّها عند مسلم وبعضها عند البخاري، وتقدم لنا حديث ابن عباس في وفد عبد القيس في ذلك انظر كتاب الإيمان، وجملة هذه الأوعية التي كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عنها هي الحنتمية وهي آنية تتخذ من الفخار وهي الجرّة، والدباء أي: القرعة، والنقير وهي أن تتخذ آنية من

أصل النخلة، والمزفّت أي: الآنية المطلية بالزفت. وكان نهى عنها لأن الإسكار يسرع إلى ما فيها من الأشربة لحرارتها، ثم جاءت الرخصة في ذلك كما في الأحاديث التالية.

{٤٥٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الظروف، فقالت الأنصار: إنه لا بدّ لنا منها، قال لي: **«فلا إذاً»**.

رواه البخاري (١٢/١٥٨)، وأبو داود (٣٦٩٩)، والترمذي (١٧١٧)، والنسائي (٨/٢٧٩).

{٤٥٦} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: لما نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الأسقية قيل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ليس كل الناس يجد سقاء، فرخّص لهم في الجر غير المزفّت.

رواه البخاري (١٢/١٥٩، ١٦٠)، ومسلم (١٣/١٦٨).

{٤٥٧} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«نَهيتُكُم عن الظُروف، وأن الظروف أو ظَرفاً لا يحلُّ شيئاً ولا يُحرّمُه، وكل مسكر حرام»**.

وفي رواية: **«كنت نهيتكم عن الأشربة إلا في ظروف الأدم، فاشربوا في كل وعاء غير أن لا تشربوا مسكراً»**.

رواه مسلم (١٣/١٦٧، ١٦٨)، والترمذي (١٧١٦)، والنسائي (٨/٢٧٨، ٢٧٩)، وابن ماجه (٣٤٠٥)، وابن الجارود (٨٧٣).

الظروف: هي الأوعية، والأدم ـ بفتحتين ـ: هو سقاء من الجلد.

وهذه الأحاديث دالّة على الرخصة في الانتباذ في أي ظرف ووعاء وآنية من أيّ نوع كان، وأن النهي عن ذلك نسخ، غير أنه ينبغي للمسلم الذي ينتبذ أن يكون على حذر من أن يسرع الإسكار إلى شرابه، فيقع في المحذور، فيشرب المسكر وهو لا يشعر.

❋ ❋ ❋

النّهي عن تخليل الخمر

{٤٥٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن الخمر تتّخذ خلاّ، فقال: «لا».

رواه مسلم (١٣/١٥٢).

في الحديث النهي عن معالجة الخمر بإلقاء شيء فيها كخبز أو بصل أو خميرة لتنقلب خلاّ؛ لأن مباشرتها حرام، فلا يجوز تخليلها. وأجمع العلماء على أنها إذا تخلّلت بنفسها بأن عريت عن مادة الإسكار كانت حلالاً، وكذا الحال فيها إذا تحجّرت فإن سكرها يذهب.

* * *

لا يجوز التداوي بالخمر

{٤٥٩} ـ عن طارق بن سويد رضي الله تعالى عنه أنه سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الخمر، فنهاه أو كره أن يَصْنَعَها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «**إنه ليس بدواء، ولكنّه داء**».

رواه مسلم (١٣/١٥٢) وابن ماجه.

وفيه دليل على تحريم التداوي بالخمر وأنها داء وليست بدواء، وهذا في حالة الاختيار. أما عند الضرورة، وهي خوف من الموت مثلاً، فالضرورات تبيح المحظورات، وقد أباح الله أكل الميتة والخنزير عند عدم وجود غيرهما خشية التلف، والله تعالى أعلم.

وبهذا تمّ كتاب الأشربة والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وعلى آله وذرّيته وأزواجه وصحابته وأتباعه إلى يوم الدين.

كتـــاب المرض والطب

الابتلاء بالأمراض وغيرها وأشدّ الناس بلاء

{٤٦٠} ـ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أي: الناس أشدّ بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمْثَلُ فالأمْثَلُ، يُبْتلَى الرجلُ على حسَبِ دينِهِ، فإن كان في دينه صُلْباً، اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّةٌ، ابتُلِي على قدر دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يَتْرُكَه يَمْشي على الأرض وما عليه خطيئَةٌ**».

رواه أحمد (١/١٨٠)، والترمذي (٢٢١٨)، والدارمي (٢٧٨٦)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠) بالموارد، والحاكم (٣/٣٤٣) وحسّنه الترمذي وصححه، وذلك لشاهدين له، وانظر تهذيب الجامع.

قوله: بلاء أي: امتحاناً، وقوله: الأمثل إلخ، أي: الصالحون الخيّرون كما في رواية أبي سعيد عند ابن ماجه (٤٠٢٤) بسند صحيح، وفي رواية: ثم الذين يلونهم، رواه أحمد عن فاطمة بنت اليمان، وقوله: صلباً ـ بضمّ الصاد وسكون اللام ـ: أي: قوياً شديداً، وقوله: فما يبرح أي: ما يزال.

والحديث يدلّ على أن أعظم الناس اختباراً بنزول المصائب على

اختلاف أنواعها، هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم يليهم من كان على طريقتهم حسب مراتبهم وقوّة إيمانهم وصلابة دينهم، فكل من كان أتقى لله تعالى وأقرب إليه كان أعظم بلاء إما بإذاية الخلق أو إصابة فقر أو نزول مرض... وقد جاء في حديث أبي سعيد: «**لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَجُوبُها فيَلْبَسُها، ويُبْتَلَى بالقمل حتى يَقْتُلَه، ولأَحَدُهم كان أشَدّ فرحاً بالبلاء مِن أحدِكم بالعطاء**»، قوله: يجوبها، أي: يقطع وسطها.

وفيه أن البلاء لا يزال يصيب المؤمن المرّة بعد المرّة، فيكفر الله ذنوبه حتى لا يبقى له ذنب، وقد قدّمنا في الجنائز حديث أبي هريرة: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»، رواه أحمد والترمذي وغيرهما بسند صحيح.

وستأتي أحاديث فيما أصيب به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمكّة المكرّمة من طرف كفار قريش في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى.

* * *

المؤمن كالخامة من الزرع

{٤٦١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَثَلُ المؤمن كَمثَلِ الخَامَة من الزرع مِن حيثُ أتَتْها الريح كفأتها، فإذا سَكنتْ اعتدلَتْ، وكذلك المؤمن يُكْفَأُ بالبلاء، ومثل الفاجر كالأَرْزَة صَمَّاء، معتدلة حتى يَقْصِمَها الله إذا شاء**».

رواه البخاري (٢١١/١٢) في المرضى، ومسلم في صفات المنافقين (١٥١/١٦) ونحوه عن أبي بن كعب روياه. قوله: الخامة: هو الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحد، وقوله: كفأتها، أي: أمالتها وهو معنى تفيئها في رواية أبي بن كعب، وقوله: فإذا سكنت أي: الريح اعتدلت الخامة، وقوله: الفاجر أي: الكافر، كالأرزة أي: كشجرة الأرز ـ بفتح الهمزة وسكون

الراء ـ: قال الخطابي: هو شجر الصنوبر وهو شجر طويل شديد ثابت لا تفيئه الريح حتى يقصمه الله تعالى، وقوله: صماء أي: صلبة شديدة، فهذا مثل المؤمن والكافر، فالمؤمن لا يزال مُعَرَّضاً للبلايا والمصائب الآونة بعد الآونة كالزرع من أي جهة جاءته الريح أمالته، بينما الكافر منعم صحيح ميسّر الأُمور عريٌّ عن البلايا لا يصاب بشيء حتى تأتيه منيّته... فيسقط صريعاً مقصوماً.. كشجر الصنوبر وأمثاله الذي لا تؤثر فيه أي ريح حتى يسقط ويقصمه الله عزّ وجلّ، وهذا في الغالب، وإلاّ فقد ينعكس الأمر فيصاب الكافر وينجو المؤمن، ولله في خلقه شؤون.

❊ ❊ ❊

شدّة المرض
على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٤٦٢} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يُوعَكُ، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وَعْكاً شديداً، قال: **«أجل، إني أوعك كما يُوعَكُ رجُلاَنِ منكم»**، قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: **«أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يُصيبُه أذىً شَوْكةٌ فما فوقَها إلا كَفَّر الله بها سيئاته، كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها»**.

رواه البخاري في المرضى (٢١٥/١٢)، ومسلم في البرّ والصلة (١٢٧/١٦)، والدارمي (٢٧٧٤).

الوعك ـ بسكون العين ـ: وهو الحمّى وألمها وتعبها وإرعادها، الموعوك وتحريكها إياه. قوله: أذى، الأذى: كل ما يؤذي الإنسان، وقوله: شوكة ـ بفتح الشين ـ.

{٤٦٣} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيت أحداً أشدَّ عليه الوجعُ من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري (٢١٤/١٢)، ومسلم (١٢٦/١٦)، الوجع المراد به المرض كما قال العلماء.

في الحديثين بيان أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان أشدّ الناس وجعاً وألماً في مرضه، وهكذا الأمر في سائر الأنبياء والصالحين.. وذلك لما خصّهم الله تعالى من عظيم نعمه، فكل من كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشدّ، قال الحافظ: ومن ثمّ ضُوعف حد الحر على العبد، وقيل: لأمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وفي حديث ابن مسعود فضل المصائب وأنها تكفّر السيئات والخطايا، ولا تُبْقِي لها أثراً كما أن فيه مضاعفة الأجر للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيما يُصاب به.

* * *

المصائب والأمراض مكفّرات للخطايا

{٤٦٤} ـ عن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما مِنْ مُصِيبَة تُصِيبُ المُسلم إلا كَفَّر الله به عنه حتى الشَّوْكَة يُشاكُها**».

رواه البخاري (٢٠٧/١٢، ٢٠٨)، ومسلم (١٢٩/١٦)، والترمذي (٨٦٠) وغيرهم.

وفي رواية: «**إلا رفعه الله بها درجة، أو حطّ عنه بها خطيئة**».

{٤٦٥} ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما يُصيبُ المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حُزنٍ ولا أذىً ولا غَمّ حتى الشَّوكَة يُشاكُها إلا كفّر الله بها من خطاياه**».

رواه البخاري (١٢/٢٠٨، ٢٠٩)، ومسلم (١٦/١٣٠)، والترمذي (٨٦١) وعنده: «**حتى الهمّ يهمّه إلا يكفّر الله به عنه سيّئاته**».

{٤٦٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قاربوا وسَدِّدوا، فَفِي كُلِّ ما يُصاب به المسلم كفارةٌ حتى النَّكْبَة يُنكَبُها، والشَّوْكَةُ يُشاكُها**».

رواه أحمد (٢/٢٤٨)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٣٠)، والترمذي في التفسير (٢٨٤٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٨) ويأتي قريباً حديث أمّ العلاء.

قوله: ما من مصيبة، المصيبة: كل ما ينزل بالإنسان من مكروه، وقد تستعمل مادة «أصاب» في الخير أيضاً، كما قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠] إلخ.

وقوله: نَصَب ـ بفتحتين ـ: الألم الذي يصيب البدن من جراحة ونحوها، وقوله: وصب ـ بفتحتين ـ: أيضاً السقم الدائم، وقوله: حزن ـ بضم الحاء وسكون الزاي وفتحهما ـ: هو تألم القلب بالهموم والأكدار، وقوله: سدِّدوا أي: اطلبوا السداد، وهو الصواب. وقوله: قاربوا أي: كونوا متوسّطين بلا غلوّ ولا تفريط. وقوله: النكبة ـ بفتح النون ـ: مثل العثرة يعثرها برجله وتطلق على ما هو أعم.

وفي هذه الأحاديث تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها، وإن قلّت مشقّتُها، وفيها رفع الدرجات بهذه الأُمور وزيادة الحسنات، قاله النووي رحمه الله تعالى، وهي صريحة في ثبوت الأجر ورفع الدرجات وتكفير الخطايا بمجرد حصول المصيبة.

❋ ❋ ❋

فضل الحمّى والنهي عن سبّها

{٤٦٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم دخل على أمّ السائب أو أم المسيّب، فقال: «**ما لك يا أمّ السائب، تُزَفْزِفِين**»، قالت: الحمّى لا بارك الله فيها، فقال: «**لا تَسُبّي الحُمَّى، فإنها تُذْهِبُ خطايا بني آدم كما يُذْهِبُ الكيرُ خَبَثَ الحديد**».

رواه مسلم (١٣١/١٦)، قوله: تزفزفين - بضم التاء ثم زاءين وفاءين -: أي: تتحركين وترتعدين.

في الحديث النهي عن سبّ الحمى، وفي معناها سائر الأمراض لأنها لا تأثير لها ولا تصريف، فالكل بإذن الله تعالى وإرادته، وفيه أن مثل هذا المرض المؤدي إلى الرعدة... يذهب الآثام والذنوب وينقّي صاحبه من الخطايا كتنقية الحديد من خبثه إذا أدخل النار.

* * *

المبتلى محبوب والعقوبة في الدنيا خير للمؤمن ومن أراد الله به خيراً أصاب منه

{٤٦٨} - عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمَن رَضِيَ فله الرِّضا، ومن سَخِط فله السُّخْطُ**».

رواه الترمذي (٢٢١٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسّنه الترمذي وهو كما قال.

في الحديث أن الله عزّ وجلّ يتفضل على عباده بالثواب والجزاء حسب ما يُبْتَلُونَ به كثرة وقلّة وعظماً وتفاهة، وأنه تعالى إذا أحبّ قوماً من عباده المؤمنين امتحنهم وأصابهم بأنواع من البلاء، فمن قبل ذلك بالرّضا والتسليم كافأه عليه، ومن قبله بالسَّخط والضجر كان له ما فعل وقوبل بسخطه.

{٤٦٩} - وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا أراد الله بعبده الخيرَ عَجَّلَ له العقوبةَ في الدنيا،**

وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسكَ عنه بذنبه، حتى يُوافي به يوم القيامة».

رواه الترمذي (٢٢١٥) وحسّنه وهو صحيح لشواهده.

في الحديث دليل على أن نزول المصائب والبلايا قد تكون عقوبة للمؤمن في الدنيا على ما قدم من سوابق الذنوب، ويكون ذلك خيراً له وأنه أُريد به الخير بخلاف من لم يؤاخذه على ذنوبه ويتركه وحاله، فإنه قد يكون مستدرجاً وأُريد به شرّ حيث أخّرت له عقوبته للآخرة.

{٤٧٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من يُرِد الله به خيراً يُصِبْ منه».**

رواه البخاري (٢١٢/١٢)، وأحمد (٢٣٧/٢).

قوله: يصب منه ـ بضم الصاد ـ: أي: يبتليه بالمصائب، وهو نصّ في أن المُبْتَلَى المصاب بأنواع المحن قد أراد الله تعالى به خيراً، وأيُّ خير أعظم من تكفير خطاياه حتى يلقى الله نقياً طاهراً طيباً مؤهلاً للإكرام.

❋ ❋ ❋

إذا مرض العبد كتب له ما كان يعمله أيام صحته

{٤٧١} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا مَرِضَ العبدُ أو سافر كُتِب له مثلُ ما كان يَعملُ مُقيماً صحيحاً»**، وفي رواية: **«كتب الله له من الأجْر»** إلخ.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٩٦)، وأحمد (٤١٠/٤)، وأبو داود (٣٠٩١) بنحوه.

{م٤٧١} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما أحدٌ من المسلمين يُصابُ ببلاءٍ في جسده إلا أمرَ اللَّه الحفظَة الذين يحفَظُونه فقال: اكتُبُوا لِعَبْدي في كلِّ يومٍ وليلةٍ مثلَ ما كان يعملُ من الخير ما كان مَحْبُوساً في وَثاقِي».**

رواه أحمد (١٥٩/٢)، والدارمي (٢٧٧٣)، والحاكم (٣٤٨/١) وصححه على شرطهما، ورجاله رجال الصحيح ووافقه الذهبي.

في الحديثين تفضل الله على عبده المؤمن المريض والمسافر بكتب ما كان يعمله من الخير والعمل الصالح قبل مرضه وسفره.

* * *

جزاء الصبر على البلاء

{٤٧٣} ـ عن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال: قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنّة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: إني أُصْرَعُ وإنّي أتَكَشَّفُ فادع الله لي، قال: **«إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنّة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافِيك»**، فقالت: أصْبِرُ، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها.

رواه أحمد (٣٤٧/١)، والبخاري (٢١٨/١٢، ٢١٩)، ومسلم (١٣١/١٦).

الصرع في الأصل: السقوط على الأرض، وأطلق على سقوط الشخص مع غيبوبة إما بسبب انحباس الريح في منافذ الدماغ أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، فيسقط على الأرض ويقذف بالزبد لغلظ الرطوبة، وهذا هو الذي يثبته الأطباء ويذكرون علاجه.

وإما بسبب مسّ الجن، ولا يكون إلا من النفوس الخبيثة. إما لاستحسانهم بعض الصور الإنسية، وإما لقصد الإذاية لسبب أو لغير سبب، وهذا النوع من الصرع ينكره الفلاسفة وأكثر الأطباء، وعلاج هذا النوع لا يكون إلا بالقرآن والأذكار والأدعية والتعاويذ الربّانية، وقد يعالج بالعقاقير والبخور... وقد ألّف الناس في هذا الموضوع كتباً...

وصرع هذه السوداء يحتمل من الأمرين، فالله تعالى أعلم بها. وفي

الحديث فضل من يصرع وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنّة... وفيه أن علاج الأمراض كلّها بالدعاء والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير إلخ، قاله الحافظ.

{٤٧٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إن الله تعالى قال: إذا ابتليتُ عبدي بِحَبيبتَيْهِ فصبر عَوَّضْتُه منهما الجنّة»**.

رواه البخاري (١٢/٢٢٠)، والترمذي (٢٢٢٠) بتهذيبي.

قوله: بحبيبتيه، في رواية الترمذي: **«إذا أخذتُ كَرِيمَتَيْ عبدي»**، وقوله: **«عَوَّضته»** إلخ، في رواية الترمذي: **«لم يكن له جزاءٌ عندي إلا الجنّة»**.

وفي الحديث بشارة عظيمة لمن فقد بصره، وأن الله سيعوّضه من ذلك الجنّة، ويا له من عوض، لكن ذلك مشروط بالصبر عندما يصادم بذلك في البداية مع احتساب الأجر والثواب من الله تعالى، ففي حديث أبي هريرة: **«فصبر واحتسب لم أرضَ له ثواباً دون الجنّة»** رواه أحمد (٢/٢٦٥)، والترمذي (٢٢٢١)، والدارمي (٧٩٨) وغيرهم بسند صحيح، فمن قلق وتضجر ولم يحتسب لم يكن له هذا الجزاء.

{٤٧٤} ـ وعن محمد بن خالد السُّلَمِي عن أبيه عن جدّه، وكان لجدّه صحبة أنه خرج زائراً لرجل من إخوانه فبلغه شَكاتُه، قال: فدخل عليه، فقال: أتيتك زائراً عائداً ومبشّراً، قال: كيف جمعت هذا كلّه؟ قال: خرجت وأنا أريد زيارتك، فبلغني شكاتك، فكانت عيادة وأبشرّك بشيء سمعته من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: **«إذا سَبقتْ للعبد من الله تعالى منزلةٌ لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبَّره حتى يُبَلِّغه المنزلة التي سبقت له منه»**.

رواه أحمد (٥/٢٧٢)، وابن سعد في الطبقات (٧/٤٧٧)، وأبو يعلى (١/٣٨٥)، ورواه أبو داود رقم (٣٠٩٠) لكنه قال فيه عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه عن جدّه، وكانت له صحبة من رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم، والحديث وإن كان ضعيفاً من هذا الطريق، فإن له شاهداً حسناً عن أبي هريرة رواه أبو يعلى (١٤٤٧/٤، ١٤٤٨)، وابن حبان (٦٩٣) بالموارد، والحاكم (٣٤٤/١)، وصححه وردّه الذهبي ولم يصب وللحديث شواهد أخرى يصحّح معها.

وفي الحديث دليل على أن الله تعالى قد يبتلي عبده في نفسه وماله وأهله بالأمراض والمحن والنكبات وضياع المال، ونحو ذلك لا سخطاً منه عليه ولا انتقاماً منه، ولكنه محبّة فيه وتطهيراً وإعداده لحلول منزلة في الجنّة سبقت له لا يصلها ويبلغها بعمله الصالح، وهذا من نعم الله تعالى العظيمة على عباده المؤمنين ولطفه بهم، فالواجب عليهم أن يَرْضَوْا بما نَزَل بهم، وأن يسلّمُوا الأمر له ويعلموا أنه تعالى لا يريد بهم إلا الخير.

ومن هنا نعلم أن ما تقدم لنا من الأحاديث فيها بشارة عظيمة لكل مؤمن، فإنه لا ينفك غالباً من آلام بسبب مرض أو فقد حبيب... أو ضياع مال أو همّ أو غمّ أو حزن، وأن الأمراض والأوجاع والآلام والمصائب بدنية كانت أو قلبية تكفر ذنوب من تقع له وترفع له الدرجات والمنازل في الجنّة إن شاء الله تعالى.

* * *

فضل عيادة المرضى

{٤٧٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من عادَ مريضاً أوزار أخاً له في الله ناداه منادٍ: أن طِبْتَ وطابَ مَمْشَاك وتَبَوَّأتَ من الجنة منزلاً»**.

رواه الترمذي (١٨٥١)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وابن حبان (٧١٢) وهو حسن لشواهده، وجوّد المنذري بعض طرقها كما في الترغيب.

طِبت.. هو دعاء له بطيب عيشه وطيب مشيه لزيارة أخيه، وقوله:

وتبوأت أي: اتّخذت، وفي الحديث فضل عيادة المرضى، وأن ذلك من موجبات الجنّة، ومما يرضاه الله تعالى.

{٤٧٦} ـ وقد قدّمنا في الجنائز حديث ثوبان عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خُرْفَةِ الجنّة**».

رواه مسلم في البرّ (١٢٤/١٦، ١٢٥).

خُرْفَة الجنّة: ثمارها المجتنى.

{٤٧٧} ـ وكذا حديث عليّ عليه السلام عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلاّ صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يُمسي وإن عاد عشية إلاّ صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنّة**».

رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسند صحيح.

الخريف: البستان، وقيل: ما يجتنى من الثمار، وصلاة الملائكة هنا استغفارهم له، كما في رواية أبي داود: «**يستغفرون له**»، وما أعظمها من كرامة: العبد نائم أو غافل لاه، والملائكة تدعو معه وتستغفر الله له لعيادته أخاه المسلم المريض!

* * *

الدعاء مع المريض عند عيادته

{٤٧٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل على أعرابي يعوده، قال: وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا دخل على مريض يعوده، فقال له: «**لا بأس، طهور إن شاء الله**» تعالى، قال: قلت: طهور؟! كلا بل هي حُمَّى تفور أو تثور على شيخ كبير تُزيرُه القبور، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فنعم إذاً**».

رواه البخاري (٢٢٣/١٢) وفي مواضع.

قوله: طهور أي: مرضك طهور لك من ذنوبك، وقوله: تزيره: هو من الزيارة، وقوله: فنعم إذاً، يعني: إذا أبيت الطهارة من الذنوب مع العافية، فلك ما ظننت من حمل حماك ومرضك على الموت وزيارة القبر.

وفي الحديث مشروعية قول العائد للمريض مثل هذا الدعاء تسلية له وتأنيساً وتطييباً لفؤاده، وينبغي أن يكون جواب المريض للعائد حسناً.

{٤٧٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من عادَ مريضاً لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرار: أسأل الله العظيم ربَّ العرشِ العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض**».

رواه أبو داود (٣١٠٦)، والترمذي (١٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٢٥٩/٦)، وابن حبان (٧١٤)، والحاكم (٤١٦/٤)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي بل هو حسن فقط، وليس على شرطهما ولا على شرط أحدهما.

{٤٨٠} ـ وعن ابن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا جاء الرجل يعود مريضاً فليقل: اللّهمّ اشفِ عبدك يَنكَأ لك عدُوّاً، أو يمشي لك إلى جنازة الصلاة**».

رواه أبو داود (٣١٠٧) وأحمد (١٧٢/٢) والحاكم (٥٤٩/٣٤٤/١) بسند حسن وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: ينكأ إلخ ـ بفتح الياء من النكاية ـ: يعني: يجرع، ويقتل لك عدوك الكافر..

في الحديثين كسابقهما مشروعية الدعاء مع المريض بما يناسب وما يحضر للعائد من الأدعية اللائقة.

* * *

عيادة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه رجالاً ونساء وأطفالاً

{٤٨١} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاءني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعودني ليس براكب بغل ولا بِرْذَوْن.

رواه البخاري (٢٢٧/١٢)، وأبو داود (٣٠٩٦)، والترمذي رقم (٣٦١٩) بتهذيبي.

{٤٨٢} ـ وتقدم حديثه قال: مرضت مرضاً فأتاني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم صبّ وضوءَه عليّ فأفقت، فإذا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكر نزول آية المواريث، انظر ما سبق في الفرائض.

البرذون بكسر الباء وسكون الراء والواو بينهما ذال مفتوحة وآخره نون ـ: نوع من الخيل أو البغال عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر.

{٤٨٣} ـ وعن أُسامة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ركب على حمار وأردف أُسامة وراءه يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر، فذكر الحديث في خبر عبدالله بن أبي، وقوله للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: لا تغبروا علينا... وما حصل بين المسلمين وبين المشركين واليهود، وهو في البخاري (٢٢٦/١٢، ٢٢٧) وفي مواضع، ومسلم في السير (١٥٧/١٢، ١٥٩) وقد ذكرته في آخر سورة آل عمران من التفسير، وسيأتي أيضاً في السير إن شاء الله تعالى.

{٤٨٤} ـ وعن أمّ العلاء رضي الله تعالى عنها قالت: عادني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنا مريضة، فقال: «**أبشري يا أمّ العلاء، فإن مرَضَ المسلم يُذْهِبُ الله به خطاياه كما تُذْهِبُ النار خَبَثَ الذهب والفضّة**».

رواه أبو داود (٣٠٩٢) بسند صحيح.

وللحديث شاهد عن فاطمة الخزاعية قالت: عاد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم امرأة من الأنصار وهي وجعة، فقال لها: **«كيف تجدينكِ»**، قالت: بخير إلاّ أن أمَّ مِلْدَم قد برَّحت بي، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اصْبِري فإنهاَ تُذْهِب خَبَثَ ابن آدم كما يذهب الكير خبثَ الحديدِ»**.

رواه الطبراني في الكبير (٤٠٥/٢٤)، قال الهيثمي (٣٠٧/٢): ورجاله رجال الصحيح.

قوله: خبث ـ بفتحتين ـ: أي: وسخ وقذر، وقوله: أمّ ملدم ـ بكسر الميم وسكون اللام وفتح الدال ـ: هي كنية الحمى، وقوله: قد برحت ـ بفتح الباء والراء المشدّدة ـ: أي: أصابتني ببرحائها، أي: شدّتها.

{٤٨٥} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن غلاماً ليهود كان يخدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمرض فأتاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعوده، فقال: **«أسلم»**، فأسلم وفي رواية: فنظر إلى أبيه، فقال له: أطع أبا القاسم فأسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الحمد لله الذي أنقذه الله بي»**.

رواه البخاري في الجنائز وفي التفسير وفي المرضى (٢٢٤/١٢).

فهذه الأحاديث وأمثالها كثير كلّها تدلّ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان من هديه عيادة أصحابه مطلقاً رجالاً ونساء وأطفالاً حتى المشركين، فهذا غلام يهودي يعوده النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ويعرض عليه الإسلام، فيهديه الله فيسلم، وقد اختلف العلماء في عيادة الكافر، فأجازه البعض إذا كانت في عيادته مصلحة دينية كموعظه مثلاً وعرض الإسلام عليه كما وقع لهذا الغلام، أو كانت عيادته مراعاة لبعض أهله المسلمين، كما حصل منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعيادته عبدالله بن أبي المنافق تطييباً لخاطر ولده عبدالله المسلم، ومنع عيادته آخرون مطلقاً والصواب الأول.

❊ ❊ ❊

عيادة الصحابة
رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٤٨٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليه ناس يعودونه في مرضه، فصلّى بهم جالساً. الحديث رواه الشيخان، وتقدم في الصلاة، ويأتي في النكاح، والأحاديث في هذا الفصل كثيرة، تقدم بعضها وتأتي أخرى في غضون الكتاب.

* * *

الإذن في التداوي والحثّ عليه

{٤٨٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما أنزل الله داءً إلا أنزل الله شفاء**».

رواه البخاري (١٢/٢٤٠)، وابن ماجه...

{٤٨٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لكلّ داءٍ دواءٌ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزّ وجلّ**».

رواه مسلم (١٤/١٩٠، ١٩١).

{٤٨٩} ـ وعن أُسامة بن شريك رضي الله تعالى عنه قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً**»، قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهَرَمُ**».

رواه أحمد (٤/٢٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (١٨٨١)، والنسائي في الكبرى وابن ماجه (٣٤٣٦) وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: ما أنزل الله، أي: ما أنزل علمه بواسطة الملك، أو عبر

بالإنزال عن التقدير، أو بمعنى خلق، وقوله: شفاه في رواية لابن مسعود عند ابن ماجه: إلا أنزل له الدواء، وقوله: لكل داء أي: مرض، وقوله: الهرم - بفتحتين -: هو الضعف والكبر. وفي هذه الأحاديث مشروعية التداوي وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكّل على الله لمن اعتقد أن تأثيرها بإذن الله تعالى، كما لا ينافيه علاج الجوع بالأكل، والعطش بالشرب، وكذلك تجنّب المهلكات، والتداوي في أصله ليس بواجب ولا بمكروه، بل هو مباح جائز غير أن تركه أفضل لمن يتحمل ويصبر على المرض لحديث الصحيحين: «**سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب... هم الذين لا يسترقّون ولا يتطيّرون ولا يكتوون وعلى ربّهم يتوكّلون...**» فمن أراد أن يكون من هؤلاء فليصبر ولا يتداوى... وليعتمد على الله تعالى الاعتماد الكامل بلا سبب، وفيها أيضاً أن الأدواء كلّها لها أدويتها عَلِمها من عَلِمَها، وجهلها من جَهِلها، إلا داء واحداً لا علاج له، وهو الكبر والهرم، وبعده الموت وهو يردّ على من يزعم بأن هنالك أمراضاً معضلة لا علاج لها، فإن ذلك بجهل الأطباء بأدويتها وعدم اطّلاعهم عليها، وإلا فلكل داء دواء، كما نطق به الصادق المصدوق صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما فيها إشارة إلى إثبات الطبّ ومشروعية البحث عن الأعشاب والعقاقير وخواصّها ليتداوى بها.

* * *

مشروعية الحِمْية للمريض والعلاج الوقائي

{٤٩٠} - عن قتادة بن النعمان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا كما يَظَلُّ أحدُكم يَحْمِي سقيمه الماء**».

رواه الترمذي (١٨٨٠)، وابن حبان (٢٤٧٤)، والحاكم (٢٠٧/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ولا يضرّ وقف من أوقفه، وله أيضاً شاهد عن أبي سعيد رواه الحاكم (٢٠٨/٤) وصححه أيضاً.

قوله: حماه، أي: حفظه ومنعه.

{٤٩١} ـ وعن أمّ المنذر رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومعه عليّ عليه السلام، ولنا دوالي مُعَلَّقةٌ، قالت: فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل ومعه عليّ يأكل، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعليّ: «**مه مه يا علي، فإنك ناقه**»، قالت: فجلس عليّ والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأكل، قالت: فجعلت لهم سلقاً وشعيراً، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عليّ من هذا فأصِبْ، فإنه أوفق لك**».

رواه أبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (١٨٧٩)، وفي الشمائل (١٨٢)، وابن ماجه (٣٤٤٢)، والحاكم (٢١٤/٤) وصححه ووافقه الذهبي، أما الترمذي فحسنه، وهو كما قال.

دوالي الدالية: ما تدلى من الأشجار المثمرة مثل العنب والتمر... وقوله: مه مه، أي: أكفف، وناقه ـ بالقاف ـ: هو القريب العهد بالمرض، ولم يستكمل صحّته. والسلق ـ بكسر السين ـ: نوع من البقولات.

{٤٩٢} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تُكْرِهُوا مرضاكم على الطعام، فإن الله تبارك وتعالى يُطعمهم ويَسقِيهم**».

رواه الترمذي (١٨٨٤)، وابن ماجه (٣٤٤٤)، والحاكم (٣٥٠/١) بسند حسن، ولذا حسّنه البوصيري في الزوائد. أما الحاكم فصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكر له شاهداً ج(٤١٠/٤) عن عبد الرحمٰن بن عوف وصححه، ووافقه الذهبي.

{٤٩٣} ـ وعن المقدام بن معديكرب رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**ما ملأ آدميٌ وعاءً شراً من بطنه بحسْبِ ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسِهِ**».

رواه أحمد (١٣٢/٤)، والترمذي (٢١٩٨) في الزهد، وابن ماجه (٣٣٤٩)، والحاكم (٣٣١/٤، ٢٣٢) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، ويأتي مرة أخرى في الزهد إن شاء الله تعالى، وتقدم في الأطعمة أيضاً.

وعاء أي: آنية، بحسب: الباء زائدة، أي: كافي ابن آدم. أُكلات - بضمّتين -. يقمن: - يضم الياء. صلبه بضم الصاد وسكون اللام -: أي: ظهره.

في هذه الأحاديث مشروعية حمية المريض ومنعه من الطعام والماء إذا كان ذلك لا يلائمه، وأن يداوى بالتجويع واستفراغ معدته، وأن لا يكره على تناول الطعام إذا كانت طبيعته تعافه، كما أن حديث المقدام فيه الإرشاد إلى الإقلال من تناول الطعام والشراب، وأنه يكفي في ذلك ما تقوم به بنية الإنسان من لقيمات.

وهذا الحديث قال فيه العلماء إنه قاعدة عظيمة في الطبّ الوقائي، نسأل الله الصحة والعافية، وسيأتي حديث... **«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد...»** في باب العدوى.

❊ ❊ ❊

ما جاء في الطاعون

{٤٩٤} - عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الطاعون رِجْزٌ أو عذابٌ أرسل على بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»**.

رواه البخاري في الطب (٢٨٩/١٢) وفي مواضع، ومسلم في الطب (٢٠٤/١٤، ٢٠٧).

{٤٩٥} - وعن عبدالله بن عامر أن عمر رضي الله تعالى عنه خرج إلى

الشام، فلما كان بسَرْغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**».

رواه البخاري (١٢/٢٩٤)، ومسلم (١٤/٢١٢).

{٤٩٦} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الطاعون كان عذاباً يَبْعَثُه الله على مَن يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، فليس من أحد يقع الطاعون فيَمكُثُ في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يُصيبُه إلا ما كتب الله له إلاّ كان له مثل أجر شهيد**».

رواه البخاري في الطبّ (١٢/٣٠١، ٣٠٢) وهو من أفراده.

الطاعون: يطلق على الوباء والمرض العام، وأخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه كان رجزاً وعذاباً عذّب الله به بني إسرائيل وغيرهم. وبينه لنا في أحاديث أخرى بأنه وخْزُ وطعن أعدائنا من الجنّ كغدة البعير، جاءت بذلك أحاديث عن عائشة في مسند أحمد، وعن أبي موسى عند الحاكم وغيرهما. وقوله: وخز ـ بفتح الواو وسكون الخاء ثم زاي ـ: هو الطعن. ويؤخذ من هذه الأحاديث أمور نجملها في الآتي، **أولاً**: من وجد في بلدة نزل بها طاعون وجب عليه أن يقيم بها ولا يخرج منها فراراً من قدر الله تعالى. **ثانياً**: من سمع بطاعون في جهة، وكان خارجها لا يجوز له دخولها. **ثالثاً**: فيها مشروعية الطب والعلاج الوقائي وهو التحفّظ من التعرّض للأمراض والأوبئة، لا اعتقاداً بأنها تعدي بنفسها كما يعتقده جهلة الأطباء، ومن يقلّدهم بل اتّباعاً لإرشادات رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع اعتقادنا أن الأُمور كلّها بيد الله لا تأثير لغيره كائناً من كان. **رابعاً**: فيها أن من أصيب بهذا الوباء الطاعون، فصبر واحتسب من الله الثواب والأجر، معتقداً أنه لا يصيبه إلا ما قدّر الله تعالى كان ذلك له شهادة، ويا له من فوز وفلاح

إن الشهادة لأمرها عظيم وعظيم، وسيأتي لنا موضوع خاص في الشهداء إن شاء الله تعالى.

* * *

الأدوية والعلاجات المنصوص عليها
الأدوية المادية

{٤٩٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الشفاء في ثلاثة: شَرْبة عسل، وشَرْطة مِحْجَم، وكيّة نار، وأنهى أُمَّتي عن الكَيّ**».

رواه البخاري (١٢/٢٤٣، ٢٤٤) وهو من أفراده.

{٤٩٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خيرٌ، ففي شَرْطة مِحْجَم، أو شَرْبة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي**».

رواه البخاري (١٢/٢٤٦)، ومسلم (١٤/١٩٢).

قوله: شرطة وشربة كلاهما بفتح الشين وسكون الراء، وقوله: محجم ـ بكسر الميم وفتح الجيم بينهما حاء ساكنة ـ: وهي أداة الحجم. أو القارورة التي يجمع فيها دم الحجامة والمراد هنا الأول، وقوله: لذعة ـ بفتح اللام والعين بينهما ذال ساكنة ـ: اللذع: هو الخفيف من حرق النار.

الحديثان يدلاّن على أن هذه الأشياء الثلاثة هي أصول ما يستشفى ويعالج بها مع أن الاستشفاء قد يكون بغيرها أيضاً، ووجه ذلك كما قال العلماء: أن الأمراض الامتلائية دموية أو صفراوية أو سوداوية أو بلغمية، فإن كانت دموية فشفاؤها وعلاجها يكون بإخراج الدم، وإن كانت الثلاثة الباقية فعلاجها بالإسهال اللائق لكل خلط منها، فكأنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نبّه بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على إخراج الدم بها

وبالفصد، ووضع العلق وغيرها مما في معناها، وذكر الكيّ لأنه يستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروعة، فآخر الطبّ والعلاج الكيّ، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وما أحبّ أن أكتوي، وأنهى أُمّتي عن الكيّ**»، إشارة إلى تأخير العلاج بالكيّ حتى يضطر إليه لما فيه من استعمال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكيّ، والله تعالى أعلم. وانظر الفتح وشرح مسلم للنووي وزاد المعاد لابن القيّم.

* * *

علاج الإسهال بالعسل

{٤٩٩} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: أخي يشتكي بَطْنَه، فقال: «**اسْقِه عسلاً**»، ثم أتاه الثانية فقال: «**اسقه عسلاً**»، ثم أتاه الثالثة فقال: «**اسقه عسلاً**»، ثم أتاه فقال: قد فعلت، فقال: «**صدَقَ اللهُ وكذب بطنُ أخيك، اسقه عسلاً**»، فسقاه فبَرَأ.

رواه البخاري (٢٤٧/١٢)، ومسلم (٢٠٣/١٤)، والترمذي (١٩٢٠)، والنسائي في الكبرى (١٦٣/٤، ٣٧٠).

قوله: أخي يشتكي، رواية الترمذي: استطلق بطنه، يعني: عرض له إسهال في بطنه، وقوله: صدق الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، فهذا نصّ من الله تعالى بأن العسل شفاء مطلقاً لجميع الأدواء، ولذلك أرشد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذلك الرجل إلى سقيه أخاه العسل عملاً بظاهر القرآن، وإنما زادت بطن الرجل إسهالاً لما وجدته العسل في أحشائه من الأخلاط والفضلات، ولذلك لما كرّر الشرب ذهبت الفضلات وقبض البطن وبرأ الرجلُ.

* * *

{٥٠٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: احتجم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حَجَمَه أبو طَيْبَة وأعطاه صاعَيْن من طعام، وكلم مَوَالِيه فخَفَّفُوا عنه، وقال: «**إن أمثَلَ ما تداويتم به الحجامة والقُسط البحري**»، وقال: «**لا تعذّبوا صبيانكم بالغَمْزِ من العُذْرة وعليكم بالقُسْط**».

رواه البخاري (٢٥٧/١٢)، ومسلم في المساقاة (٢٤٢/١٠).

قوله: إن أمثل إلخ، في رواية للنسائي: «**خير ما تداويتم به الحجامة**»، وفي رواية: «**أفضل**» إلخ. والقسط ـ بضم القاف وسكون السين ـ: هو العود الهندي، والعُذْرة ـ بضم العين وسكون الذال ـ: وجع في الحلق، ويأتي فيما بعد.

{٥٠١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم احتجم وأعطى الحجام أجره واستَعَطَّ.

رواه البخاري (٢٥٣/١٢)، ومسلم (١٩٤/١٤).

قوله: استعط، أي: استعمل السعوط بفتح السين، وهو تناول الدواء من الأنف يقطر فيه.

{٥٠٢} ـ وعن جابر أن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنهما استأذنت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحجامة، فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أبا طيبة أن يحجمها، قال: حسبت أنه قال: كان أخاها من الرَّضاعة، أو غلاماً لم يحتلم.

رواه مسلم (١٩٣/١٤).

في هذه الأحاديث مشروعية الحجامة وإخراج الدم عند الحاجة إلى ذلك، وأن أفضل وخير ما تداوى به الناس الحجامة، غير أن الخطاب بذلك كما قال أهل المعرفة خاص لأهل الحجاز، ومن كان في معناهم من أهل

البلاد الحارّة، قالوا: لأن دماءهم رقيقة وتميل إلى ظاهر الأبدان لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح البدن، قال الحافظ: ويؤخذ من هذا الخطاب أيضاً لغير الشيوخ لقلّة الحرارة في أبدانهم، وقد أخرج الطبري بسند صحيح عن ابن سيرين، قال: إذا بلغ الرجل أربعين سنة لم يحتجم، قال الطبري: وذلك أنه يصير من حينئذ في انتقاص من عمره وانحلال من قوى جسده، فلا ينبغي أن يزيده وهناً بإخراج الدم.

والمقصود أن الحجامة من خير ما يتداوى به لمن احتاج إليها، وكان في غير البلاد الباردة، وفي حديث جابر مشروعية الحجامة للمرأة إذا كان حاجمها محرماً لها، أو كانت مضطرّة لذلك، فإن الضرورات تبيح المحظورات.

* * *

أوقات الحجامة

{٥٠٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحتجم في الأَخْدعين والكاهل، وكان يحتجم لسبعَ عَشْرَةَ، وتِسْعَ عَشْرةَ، وإحْدَى وعشرين.

رواه الترمذي (١٨٩٣)، وفي الشمائل (٣٥٧)، والحاكم (٤/٢١٠) بسند صحيح، ورواه أبو داود (٣٨٦٠)، وابن ماجه (٣٤٨٣)، وابن حبان (٤٠١) مختصراً.

{٥٠٤} ـ وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال: كان لابن عباس رضي الله تعالى عنهما غلمة ثلاثة حجّامون، فكان اثنان يُغِلاّن عليه وعلى أهله، وواحد يحجمه ويحجم أهله، قال: وقال ابن عباس قال: نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نِعْمَ العبدُ الحجامُ يُذهِبُ بالدم ويخفّ الصلب ويجلو عن البصر**»، وقال: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حِينَ عرج به ما مرّ على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: عليك بالحجامة،

وقال: «**إن خير ما تداويتم فيه يوم سبع عشرة، ويوم تسع عشرة، ويوم إحدى وعشرين**»، وقال: «**إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي**».

رواه الترمذي (١٨٩٥) بسند حسن.

قوله: الأخدعين: هما عرقان في جانبي العنق، والكاهل: هو ما بين الكتفين.

والحديثان يدلاّن على اختيار الحجامة في هذه الأيام، وجاء من رواية أبي هريرة عند أبي داود (٣٨٦١): «**من احتجم لسبع عشرة... كان شفاء من كل داء**» وسنده حسن، فلا شكّ أن لهذه الأيام خاصية في إزالة الدم فيها، فالله تعالى أعلم بسرّ ذلك، فإنه لم يأت عن الشارع شيء يبيّن سبب اختيارها، وإن كان الأطباء تكلّموا في ذلك.

* * *

العلاج بالكيّ

{٥٠٥} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى أُبَيّ بن كعب طبيباً، فقطع منه عرقاً، ثم كواه عليه.

رواه مسلم (١٤/١٩٣).

{٥٠٦} ـ وعنه قال: رُمِيَ سعدُ بن معاذ في أَكْحَلِه، قال: فحسَمَه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيده بمِشْقَصٍ، ثم وَرِمَت فحسَمه الثانية.

رواه مسلم (١٤/١٩٤).

{٥٠٧} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كوى أسعدَ بن زرارة من الشوكة.

رواه الترمذي (١٨٩٢)، وابن حبان (١٤٠٤) بالموارد وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: فحسمه، الحسم: هو كيّ موضع سيلان الدم لينقطع، وقوله: ورمت ـ بكسر الراء ـ: أي: انتفخت، وقوله: بمشقص ـ بكسر الميم وفتح القاف ـ: حديدة، والأكحل: عرق في وسط الذراع.

وهذه الأحاديث تدلّ على جواز العلاج بالكيّ بالنار، وقد صدر ذلك من فعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتقريره وإذنه كما ترى، وهي تعارض ما جاء في النهي في ذلك، كما تقدم، وكما قال عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن الكيّ، قال: فابتلينا فاكتوينا، فما أفلحنا ولا أنجحنا. رواه أبو داود (٣٨٦٥)، والترمذي (١٨٩١)، وابن ماجه (٣٤٩٠)، وابن حبان (١٤٠٧)، والحاكم (٤/٤١٣)، وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم والذهبي.

قال الحافظ: وحاصل الجمع أن الفعل يدلّ على الجواز وعدم الفعل لا يدلّ على المنع، بل يدلّ على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تركه، وأما النهي عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإمّا عمّا لا يتعيّن طريقاً إلى الشفا. والظاهر أن الكيّ كما قدمنا لا يصار إليه إلا عند الضرورة، فآخر الدواء الكيّ، وذلك لما فيه من شدّة الألم، ولأنه يشبه التعذيب بالنار، وهو من خصائص الربوبية، والله تعالى أعلم.

***

العلاج بالحبة السوداء

{٥٠٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**عليكم بهذه الحبَّةِ السوداء، فإن فيها شفاءً من كل داء إلا السامَ، والسام الموت**».

رواه البخاري (٢٥١/١٢)، ومسلم (٢٠١/١٤، ٢٠٢)، والترمذي (١٨٨٥)، وابن ماجه (٣٤٤٧)، ونحوه عن عائشة رواه البخاري (٢٥٠/١٢).

الحبّة السوداء: هي الشونيز، ويقال لها الكمّون الأسود، والكمون الهندي، وعندنا بالمغرب تسمّى السانوج، والحديثان يدلاّن على أن لهذه الحبّة خاصية عامّة في الشفاء من كل مرض أياً كان عدا الموت، فهي كالعسل، وكلام الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صدقٌ ووعدٌ لا يتخلف أبداً، فمن تداوى بهذه الحبّة وعرف طريق العلاج بها شفاه الله عزّ وجلّ قطعاً، وإن كان الأطباء قيّدوا ذلك كالعسل بالأمراض الباردة، لأنها حارّة جداً كالعسل في الدرجة الأُولى، ولتنظر منافعها وخصائصها في الكتب المفردة والمؤلّفة في الأعشاب والعقاقير، فقد ذكروا لها منافع كثيرة، وانظر زاد المعاد والفتح (٢٥٠/١٢).

❊ ❊ ❊

العلاج بالعود الهندي

{٥٠٩} ـ عن أمّ قيس بنت مِحْصَنٍ رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعةَ أشْفِية: يُسْعَطُ به من العُذْرَة، ويُلدُّ به من ذات الجَنْبِ**»، ودخلت على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بابنٍ لي لم يأكل الطعام، فبال عليه، فدعا بماء فرشّ عليه.

رواه البخاري (٢٥٤/١٢)، ومسلم (٢٠٠/١٤، ٢٠١).

العُذْرة ـ بضمّ العين ـ: هي وجع في الحلق يهيج من الدم، وقيل: قرحة تخرج بين الحلق والأنف تعرض للصبيان، وقوله: ويلد، اللدّ ـ بفتح اللام ـ: اسم للدواء الذي يصبّ في أحد جانبي فم المريض ويسقاه، وذات

الجنب: قرحة تحدث في جنب الإنسان، فإن انفجرت للداخل مات صاحبها شهيداً.

والحديث يدلّ على أن للعود منافع وأشفية لعدة أدواء منها ما ذكر هنا، كالعُذْرة وذات الجنب، وقد جاء ذكر العود في أحاديث، وذكر الأطباء له منافع، فقالوا: إنه يدرّ البول والطمث، ويقتل ديدان الأمعاء، ويدفع السمّ، ويسخن المعدة، ويحرك شهوة الجماع إلى غير ذلك، ويعالج به إما شرباً أو دهناً أو تكميداً، والشراب يسحق ويجعل في عسل أو ماء ثم يشرب، والسعوط يسحق في زيت ويقطر في الأنف، ومنه التبخير به.

* * *

علاج الحمّى بالماء

{٥١٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنما الحمّى أو شدّة الحمّى من فَيح جهنّم، فأبْرِدُوها بالماء»**، وفي رواية: **«فأطْفِئوها بالماء»**.

رواه البخاري (١٢/٢٨٢، ٢٨٣)، ومسلم (١٤/١٩٥) ونحوه عن عائشة، ورافع بن خديج عند مسلم.

{٥١١} ـ وعن أسماء رضي الله تعالى عنها أنها كانت تُؤتَى بالمرأة الموعوكة فتدعو بالماء فتصُبّه في جيبها، وتقول: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أبردوها بالماء»**.

رواه البخاري (١٢/٢٨٥)، ومسلم (١٤/١٩٦).

وقوله: فيح جهنّم، أي: سطوع حرّها وفورانها، وقوله: الموعوكة، أي: التي أصيبت بشدّة الحمى، وما في الباب من أحاديث تدلّ على أن علاج الحمّى يكون بإطفائها بالماء البارد، وكيفية ذلك ما جاء عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا حُمّ أحدكم فليرشّ عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر»**، رواه الحاكم

(٤/٢٠٠) وصححه ووافقه الذهبي... غير أن بعض العلماء ومعهم الأطباء قالوا: هذا العلاج خاص بأهل الحجاز وما والاهم من البلاد الحارّة، فإن الماء البارد ينفع ذلك شرباً وغسلاً، أما في غيرها فربما مات بذلك.

❋ ❋ ❋

علاج عرق النسا

{٥١٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**دواء عِرق النَّسا أَلْيَة شاة أعرابية تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء**».

رواه ابن ماجه (٣٤٦٣)، وقال البوصيري: إسناده صحيح.

عرق النَّسا ـ بفتح النون المشدّدة ـ: وجع يبتدىء من مفصل الورك وينزل من خلف على الفخذ، وربما يصل للكعب، وهذا كما يظهر هو الذي نسمّيه بالمغرب عِرْقَ أبي زلُوم، وهو خطير جداً أكثر الناس يعالجونه بالكيّ من أناس خاصّين. وما ذكره النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من هذا العلاج قد يكون خاصّاً بعرب أهل الحجاز ومن جاورهم، والأَلية ـ بفتح الهمزة وسكون اللام ـ: من الشاة: هي عجيزتها أو ما ركبها من شحم ولحم وفي العلاج بألية الشاة العربية على الخصوص لهذا الداء سرّ نبوي عرفه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بوحي إلهي أو بما منحه الله تعالى من الفراسة أو التجربة... وقد بيّن ذلك ابن القيّم في الهدي النبوي بياناً لطيفاً، فارجع إليه.

❋ ❋ ❋

علاج سيلان الدم بالرماد

{٥١٣} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: لما كُسِرَتْ على رأس النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم البيضةُ وأُدْمِي وجهه،

وكُسِرت رباعيتُه، وكان عليّ يختلف بالماء في المِجَنّ، وجاءت فاطمة تغسل عن وجهه الدم، فلما رأت فاطمة عليها السلام الدم يزيد على الماء كثرةً عمَدَت إلى حصير فأحرقَتْها وألصَقتْهَا على جُرْحِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فَرَقأ الدمُ.

رواه البخاري في المغازي وفي الطبّ (٢٨١/١٢)، ومسلم في غزوة أُحُد من الجهاد والسير (١٤٨/١٢)، والترمذي (١٩٢٣) بتهذيبي.

الحديث يأتي في المغازي من السير إن شاء الله تعالى والشاهد منه هو معالجة سيلان الدم برماد الحصير، ويبدو أنه كان معروفاً عندهم قطع الدم بالرماد، وانظر بسط ذلك في الفتح.

* * *

علاج العين بماء الكمأة

{٥١٤} ـ عن سعيد بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الكَمْأةُ من المَنّ، وماؤُها شفاءٌ للعين»**.

رواه البخاري (٢٦٩/١٢، ٣٧٢)، ومسلم (٣/١٤، ٤، ٥) في الأشربة، والترمذي (١٩٠٨)، والنسائي في الكبرى (٢٨٥/٦)، وابن ماجه (٣٤٥٤)، وهو أيضاً في المسند (١٨٧/١، ١٨٨).

الكمأة: نبات لا ورق له ولا ساق، وقوله: من المنّ، أي: الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل لأنه كان يحصل لهم بلا كلفة ولا علاج، فكذلك الكمأة تنبت بلا زرع بزر ولا سقي ولا غير ذلك، وقوله: وماؤها شفاءٌ إلخ، يعني: أن ماءها يعالج به العين فتشفى بإذن الله تعالى. قال النووي رحمه الله تعالى: وقد رأيت أنا وغيري في زمننا من كان عمي وذهب بصره حقيقة، فكحل عينه بماء الكمأة، مجرداً فشفي وعاد إليه بصره، إلخ.

* * *

علاج المفؤود بعجوة المدينة

{٥١٥} ـ عن سعد رضي الله تعالى عنه قال: مرضت مرضاً فأتاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعودني، فوضع يده بين ثَدْيَيَّ حتى وجدتُ بَرْدَها على فؤادي، وقال لي: «**إنك رجل مفؤودٌ، فأت الحارث بن كَلَدَة من ثقيف، فإنه رجل يتطبّب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة، فَلْيجأهُنَّ بنواهنّ ثم لِيَلُدَّكَ بهنّ**».

رواه أبو داود (٣٨٧٥) بسند حسن.

قوله: يتطبب، أي: يتعاطى الطب، وقوله: فليجأهن أي: يدقهن، والمفؤود: هو المريض بفؤاده، واللدود: ما يسقاه المريض من أحد جانبي الفم، كما تقدم ويأتي، وقوله: عجوة المدينة نوع من التمر سعره مرتفع له خواص لا توجد في غيره منها أن يرضّ ويمزج مع الدقيق ويتّخذ منه حساء، فيتحساه المريض، وقد ذكر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هنا العلاج به بكيفية خاصّة، وتخصيص عجوة المدينة لعلّه لسرٌ خاص به لا نعلمه كما يأتي فيمن تصبح سبع تمرات منه. نعم مطلق التمر له منافع كثيرة، وهو من أفضل وأنفع الأغذية حافظ لصحة من اعتاده.

* * *

العلاج بالتلبينة لفؤاد المريض

{٥١٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت إذا مات الميت من أهلها واجتمع لذلك النساء، ثم تفرّقن إلى أهلهنّ أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت وصنعت ثريداً ثم صبّت التلبينة عليه، ثم قالت: كلوا منها، فإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**التلبينة مجمّةٌ لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن**».

رواه البخاري (٢٥٢/١٢)، ومسلم (٢٠٢/١٤)، والحديث تقدم في الأطعمة.

التلبينة: حساء من دقيق أو نخالة، وربما مزج بعسل أو حليب وسميت تلبينة لبياضها وشبهها باللبن وهي الحريرة والشربة عندنا، وقوله: مجمة ـ بفتحات ـ: أي: تريح الفؤاد... ففي الحديث أن هذا النوع من الحساء يريح قلب المريض ويدفع عنه بعض ما يجده من الحزن.

❊ ❊ ❊

علاج السم

{٥١٧} ـ عن عبدالرحمٰن بن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنهما أن امرأة يهوديّة أهدت إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شاة مَصْلِيَّةً بخيبر، فقال: **«ما هذه»**؟ قالت: هدية وحذرت أن تقول من الصدقة، فلا يأكل منها، فأكل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأكل الصحابة، ثم قال: **«أمسكوا»**، ثم قال للمرأة: **«هل سممتِ هذه الشاة»**؟ قالت: من أخبرك بهذا، قال: **«هذا العظم»** لساقها وهو في يده، قالت: نعم، قال: **«لم»** قالت: أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبيّاً لم يضرّك، قال: فاحتجم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثلاثة على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا، فمات بعضهم.

رواه عبدالرزاق في المصنف رقم (١٩٨١٤) بسند صحيح، وعبدالرحمٰن بن كعب، قيل: ولد أيام النبوّة وهو ثقة، فمرسله لا بأس بالعمل به، والحديث أصله في الصحيحين، وسيأتي في السير إن شاء الله تعالى.

ففي الحديث بهذه الرواية أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عالج السم بالحجامة على كاهله، وهو ما بين الكتفين، فخرجت المادة السمّية مع الدم، وبقي بعض أثرها حتى كانت السبب في موته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما يأتي ذلك مفصّلاً في السير. وقد قال بعض الأطباء: إن أهمّ طرق علاج التسمّم الغذائي يكون بغسل المعدة بحيث يتناول كمّيات كبيرة من الماء الدافىء المُذاب فيه الملح ثم استفراغه بالاستقاء بتكرار حتى

يعود الماء كما هو، ثم يعطى بعد ذلك مسهّلاً لإخراج ما تسرّب من المادة السمّية من الشرج.

{٥١٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«العجوةُ من الجنّة، وفيها شفاءٌ من السم، والكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين»**.

رواه أحمد (٤٢١/٢، ٣٢٥)، والترمذي (١٩٠٧) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده بعضها حسنة وصحيحة، انظر تهذيبي للجامع.

هذا من منافع العجوة وبركتها وأنها شفاء من السم، لكنه لم يبيّن هنا كيفيّة استعمالها لعلاج السمّ، وقوله: من الجنّة، قيل: إنها تشبه تمر الجنّة، فالله تعالى أعلم. وجاء في حديث لعائشة عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن في عجوة العالية شفاء أو إنها ترياق أول البَكْرة»**، رواه مسلم (٣/١٤)، والعالية: بنواحي المدينة شرقاً، والترياق: ما يستعمل من الأدوية والمعاجين ولحوم الأفاعي والزيوت العتيقة لعلاج السموم، فأطلق على العجوة الترياق للشفاء الكامل العاجل بها.

* * *

التحفظ من السم والسحر بعجوة المدينة

{٥١٩} ـ عن سعد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«من تَصَبَّح سبعَ تمرات عَجوة لم يضرّه ذلك اليوم سُمٌّ ولا سحرٌ»**.

رواه أحمد (١٨١/١)، والبخاري (٣٥٠/١٢، ٣٥١)، ومسلم في الأشربة (٣/١٤)، وأبو داود (٣٨٧٦).

قوله: من تصبّح أي: أكلها صباحاً على الريق، وفي الحديث بيان فضل عجوة المدينة وبركتها وأن لها مزية على سائر أنواع التمور وسراً لله عزّ وجلّ فيمن أكل منها سبع تمرات صباحاً، حيث إنه يحفظ من تأثير السم

والسحر يومه إلى الليل، ويضاف هذا أيضاً إلى فضائل المدينة المنوّرة، فإن ذلك من خصائص عجوتها، فقد جاء في رواية لمسلم: «**من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح**» الحديث، واللابة: هي الحرة، والمدينة جاءت بين حرّتين.

* * *

علاج السحر

{٥٢٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُحِرَ حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ، قال سفيان: وهذا أشدّ ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال: «**يا عائشة، أعلمتِ أن الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لَبِيد بن الأعصم رجل من بني زُرَيْق حليف ليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مُشْطٍ ومُشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكرٍ تحت رعوفة في بئر ذَرْوَان**»، قالت: فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى استخرجه، فقال: «**هذه البئر التي أُريتُها، وكأن ماءها نُقاعة الحنّاء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين**»، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا تنشرت، فقال: «**أما والله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً**»، فأمر بها فدُفنت.

رواه البخاري (١٢/٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٣٧، ٣٤٣)، ومسلم (١٤/١٧٤، ١٧٨) كلاهما في الطب.

قوله: مطبوب أي: مسحور، قوله: حليف ليهود في رواية: مسلم سحر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يهودي من يهود بني زريق إلخ، ويجمع بينهما بأنه نسب إلى اليهود لكونه حليفهم، وبنو زريق: بطن من الأنصار مشهور من الخزرج، وكان هذا المجرم يتظاهر بالإسلام منافقاً، وقوله: مشط ـ بضم الميم وسكون الشين ـ على المشهور: هو الآلة التي

يسرح بها الشعر، والمشاطة ـ بضم الميم وفتح الشين ـ: ويقال بالقاف، هو ما يخرج من الشعر إذا مشط، وقوله: في جف ـ بضم الجيم ثم فاء، ويقال بالباء ـ: وهو وعاء طلع النخل، أي: الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، وقيّده في الحديث بطلعة ذكر، وقوله: تحت رعوفة، وفي رواية: راعوفة، أي: تحت صخرة، قوله: فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، في رواية: فأتاها في ناس من أصحابه، وقوله: نقاعة ـ بضم النون وفتح القاف المخفّفة ـ: أي: لون ماء البئر كلون الماء الذي ينقع فيه الحناء، وقوله: وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، أراد بذلك قبح منظرها.

وقوله: أفلا تنشرت أي: استعملت النشرة ـ بضم النون ـ: وهي ضرب من العلاج يعالج به من به سحر أو مَسٌّ، وسيأتي ذلك، وقوله: أما والله فقد شفاني، في رواية: أما أنا فقد عافاني الله.

الكلام على هذا الحديث من جهات، **أولاً**: السحر له حقيقة وواقع ملموس نطق به القرآن الكريم حيث يَحْصلَ بإذن الله تعالى من تفريق بين شخصين أو تباغض أو تخبيل وما إلى ذلك، والقائمون بمباشرة ذلك هم الشياطين طاعة لمن يستخدمهم، وقد أنكر جماعة السحر من أصله أو بعض أنواعه، وذلك خطأ وغلط وإنكار للواقع. **ثانياً**: السحر لا يقع إلا من الفَجرة والفسقة، وذلك هو الفارق بين المعجزة أو الكرامة وبين السحر، فإن الخارق إذا صدر من صالح مستقيم كان معجزة لنبيّ وكرامة لوليّ، وإذا ظهر على يد كافر أو فاسق قليل الدين أو ذاهبه كان سحراً.

ثالثاً: في الحديث ثبوت سحر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنه أثر فيه، ومرض بسببه حتى كان يخيّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، ومثل هذا جائز عليه لأنه من جملة الأمراض والأعراض البشرية التي لا يخلو منها إنسان، وقد أبعد النجعة من أنكر ذلك في حقّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وردّ الحديث بعقله مدّعياً أن ذلك ينافي عصمته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد فنّد هذا الزعم علماؤنا رحمهم الله تعالى قديماً، منهم القاضي عياض في الشفا والمازري في شرح مسلم والنووي

كذلك وابن القيم في الهدي النبوي والحافظ في الفتح، فليرجع إلى هذه الكتب من يريد التوسع والبسط.

رابعاً: في بيان علاجه، وذلك يكون أولاً باستخراج ذلك السحر وفكّه كما فعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه لما استفتى الله ودعاه في ذلك دلّه عليه، فذهب إليه واستخرجه من تلك البئر، فلما استخرجه ذهب ما به حتى كأنما نشط من عقال، فهذا أبلغ علاجاته. ثانياً يعالج بالرقى والتعاويذ الإلٰهيّة من القرآن والأذكار النبويّة وأسماء الله عزّ وجلّ، وهي من أعظم العلاجات وأنفعها، وخاصة إذا صدرت من تقيّ نقي طاهر. **خامساً**: يعالج بالعقاقير والأعشاب وبأشياء لها خاصيات يعرفها من يتعاطى ذلك، ومنها إبطاله بسحر مثله إن لم يكن فيه محرم، ومنها النشرة ـ بضم النون المشدّدة وسكون الشين ـ، وقد قال البخاري: قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيّب: رجل به طبّ ـ أي: سحر ـ: أو يؤخذ عن امرأته أيُحلُّ عنه أو يُنشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنْه عنه. ووصله الأثرم في سننه وابن جرير في تهذيبه، كما أشار إليه الحافظ، وقال ابن الجوزي: النشرة حلّ السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر، وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور؟ فقال: لا بأس به. أما حديث: **«النُّشرة من عمل الشيطان»**، رواه أبو داود (٣٨٦٨) بسند حسن فذلك محمول على النشرة في الشر، أما في الخير ففي صحيح مسلم (١٨٦/١٤) من كتاب الطبّ: **«من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»**، رواه جابر عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وانظر الفتح (٣٤٥/١٢)، فقد ذكر أنواعاً من النشرة الجائزة النافعة للمسحورين.

سادساً: في قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: وأكره أن أثير إلخ، إنما ترك ذلك المنافق ساحره نظراً للمصلحة الراجحة، لا سيما ولم يكن ينتصر لنفسه، كما كان يغضّ عما يصدر من المنافقين من الهنات، وذلك من حسن سياسته وكريم أخلاقه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٥٢١} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنها أعتقت جارية لها عن دبر منها، ثم إن عائشة مرضت فدخل عليها سِنْدِي، فقال: إنك مطبوبة، فقالت: من طبّني، قال: امرأة من نعتها كذا وكذا، وقد بال في حجرها صبي، فقالت عائشة: ادعو لي فلانة، لجارية لها تخدمها، فوجدوها في بيت جيران لها في حجرها صبي قد بال، فقالت: حتى أغسل بول هذا الصبي، فغسلته، ثم جاءت، فقالت لها عائشة: أسَحَرْتني؟ فقالت: نعم، فقالت: لِمَ؟ قالت: أحببت العتق، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: والله لا تعتقي أبداً، فأمرت ابن أخيها أن يبيعها من الأعراب ممن يُسبي مَلَكَتَهَا ثم ابتع بثمنها رقبة حتى أعتقها، ففعلت. قالت عمرة: فلبثت عائشة ما شاء الله من الزمان، ثم أنها رأت في النوم أن اغتسلي من ثلاث آبار يمدّ بعضها بعضاً فإنك تُشْفين، قالت عمرة: دخل على عائشة إسماعيل بن عبدالله بن أبي بكر وعبدالرحمٰن بن سعد بن زرارة، فذكرت لهما التي رأت، فانطلقا إلى قتادة فوجدا الآبار ثلاثاً يمد بعضها بعضاً، فاستقوا من كل بئر منها ثلاث شجب حتى ملأوا الشجب من جميعهن، ثم أتوا به عائشة، فاغتسلت به فشفيت.

رواه مالك في الموطأ (٢٧٨٢) رواية أبي مصعب الزهري المدني بسند صحيح.

في هذا الأثر علاج آخر للسحر وهو اغتسال المسحور بماء يسقى من ثلاثة آبار تكون متصلات العناصر والينابيع، وفيه العمل على الرؤيا في الأُمور العادية، وفيه جواز معاقبة الخادم المؤذي بما يراه صاحبه أَلْيَق به.

* * *

التداوي من ضرر الذباب

{٥٢٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كلّه**

ثم ليطرحه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الآخر شفاء»، وفي رواية: **«وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء»**.

رواه البخاري (١٢/٣٦٢، ٣٦٣)، وأبو داود (٣٨٤٤)، وابن ماجه (٣٥٠٥).

قوله: فليغمسه، في رواية: فليمقله، وقوله: في إحدى جناحيه داء، في رواية لأبي سعيد الخدري: عند أحمد، والنسائي: في أحد جناحيه سماً، وقوله: يتقي أي: يتحفظ.

وفي الحديث بيان ما في الذباب من الداء والدواء، وأنه إذا وقع على طعام أو شراب يضع أحد جناحيه على الطعام، وهو الذي فيه المادة السمّية ويرفع الجناح الآخر، وقد ذكر بعض العلماء أن جناح الداء منه هو الأيسر كما شاهده، وفي الحديث علم من أعلام النبوة وهو إخباره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عمّا في جناحي الذباب من الداء والدواء وقد صدقه الطب الحديث مع اختلاف الأطباء من أين يأتيه ذلك الداء... والحديث يدلّ على أن علاج ذلك الداء يكون بغمس ذلك الذباب في الآنية ثم طرحه، وأن في جناحه الآخر شفاء ودفعاً لذلك السم. والكلام على الذباب وخواصه ومنافعه مذكور في «حياة الحيوان» للدميري، فلينظر.

* * *

العلاج بألبان وأبوال الإبل

{٥٢٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قدم رهطٌ من عُرَيْنَة وعُكْل على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاجْتَوَوا المدينة، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها»**، ففعلوا، فلما صحوا عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في آثارهم، فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّل

أعينهم وألقاهم في الشمس حتى ماتوا، وفي رواية لمسلم قالوا: إنا اجتوينا المدينة فعظمت بُطوننا وارتعشت أعضاؤنا... الحديث.

رواه البخاري في الطهارة وفي الجهاد وفي التفسير (٣٤٣/٩) وفي الطب (٢٤٧/١٢، ٢٤٨)، ومسلم في القسامة (٥٤/١١، ٥٧)، وأبو داود (٤٣٦٤)... والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٣٣٤/٦)، والترمذي في الطهارة وفي الأطعمة (١٦٩١)، وفي الطب (١٨٨٦).

عرينة ـ بضم العين وفتح الراء وسكون الياء ـ: وعكل ـ بضم العين وسكون الكاف ـ: وقوله: فاجتووا إلخ، أي: لم يوافقهم هواؤها، ويقال: الجوى داء من أدواء الجوف، وقيل: هو الذَّرَب ـ بفتحتين ـ: أي: فساد المعدة، وعلاج ذلك يكون بأبوال الإبل وألبانها، ولذلك أرشدهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لشربها فعوفوا وصحوا، ثم ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الرعاة وأخذوا ما كان عندهم من الإبل، فبعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أخذهم، فنزلت آية الحرابة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ إلخ [المائدة: ٣٣]، فقتلهم حسب ما جاء في الحديث، ويأتي هذا في أحكام البغاة والمحاربين إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

علاج القمل

{٥٢٤} ـ عن كعب بن عُجْرَة رضي الله تعالى عنه قال: أتى عليَّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زمن الحُديبية وأنا أُوقِدُ تحت بُرْمَةٍ والقَمْلُ يَتناثَرُ على رأسي، فقال: «**أيُؤْذِيك هوامك**»؟ قلت: نعم، قال: «**فاحْلِق وصُمْ ثلاثة أيام، أو أطْعِمْ ستّة أو انْسُك نسيكة**».

رواه الشيخان، وتقدم في الحجّ.

قال العلماء: القمل يتولّد في الرأس والبدن، إما من الوسخ

والدنس المتراكم في سطح الجسد، وإما من أخلاط رديئة عفنة، وأكثر ما يكون ذلك في رؤوس الصبيان. ومن أنفع علاج ذلك بالنسبة للرأس حلقه كما أرشد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كعباً هذا إلى ذلك، قالوا: وينبغي أن يُطْلَى الرأس بعد حلقه بالأدوية التي تقتل القمل وتمنع تولّده.

❊ ❊ ❊

علاج الحكّة بالحرير

{٥٢٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن عبدالرحمٰن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهما شكوا القمل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غزاة لهما، فرخّص لها في قمص الحرير ورأيته عليهما. وفي رواية: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعبدالرحمٰن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهما في لبس الحرير لحكّة كانت بهما.

رواه البخاري (٤١١/١٢)، ومسلم (٥٢/١٤، ٥٣) كلاهما في اللباس، ورواه البخاري في غير ما موضع.

الحكة ـ بكسر الحاء وتشديد الكاف المفتوحة ـ: نوع من الجرب، وفيها أنواع أعاذنا الله تعالى منها. وفي هذا الحديث الترخيص لمن به حكّة في لبس الحرير، وهو حكم عام غير خاصّ بهذين الصحابيين كما قيل، فإنه لا دليل على التخصيص ودفع ضرر حرارة الحكّة ليس خاصاً بهما ما دامت العلّة موجودة، وإنما أرشدهما إلى لبس قمص الحرير خاصة لأن الحكّة تنشأ عن الحرارة واليبس والخشونة، والحرير أملس بارد أعدل اللباس وأرفقه للبدن، فكان ملائماً لدفع الحكّة، فأبيح لبسه للتداوي به، علماً بأن لباس الحرير محرم على الرجال حالة الاختيار.

❊ ❊ ❊

علاج البثرة بالذريرة

{٥٣٦} ـ عن بعض أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليها فقال: «**أعندك ذَرِيرَةٌ**»؟ قالت: نعم، فدعا بها فوضعها على بَثْرَة بين أصابع رجليه، ثم قال: «**اللّهمّ مُطْفِئ الكَبِير، ومُكَبّر الصغير أَطْفِئْها عنّي**»، فطُفِئَت.

رواه أحمد (٥/٣٧٠)، والحاكم في الطب (٤/٢٠٧) وصححه ووافقه الذهبي ورجاله رجال الصحيحين إلا مريم بنت إياس، وقيل: بصحبتها.

البثرة ـ بفتح الباء وسكون الثاء ـ: وهي خراج صغير يتكون من مادة حارة تدفعها الطبيعة، والغالب أنها تنشأ عن حرق النار أو نحو ذلك، قوله: ذريرة على وزن عظيمة هو نوع من الطيب مركب كان معروفاً عند أهل الحجاز، وقد ثبت في الصحيح عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: طيّبتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدي بذريرة في حجة الوداع بالحل والإحرام، وكان في هذه الذريرة مسك كما جاء في رواية أخرى تقدمت في الحج وغيره، والمقصود هنا هو أنه عالج البثرة بوضع الطيب المركب عليها لتنضج ويخرج ما فيها، والله أعلم.

* * *

العلاج باللدود وكراهية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لذلك

{٥٣٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لَدَدْنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأشار «**أن لا تَلُدُّوني**»، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: «**ألم أنهَكُم أن تلدوني، لا يبقى منكم أحد إلاّ لُدَّ غير عمّي العباس، فإنه لم يشهدكم**».

رواه البخاري (١٢/٢٧٣)، ومسلم (١٤/١٩٩) كلاهما في الطبّ، ويأتي في الوفاة النبوية.

قوله: لددنا، اللَّدُود ـ بفتح اللام ـ: هو الدواء الذي يُصَبُّ في أحد حانبي فم المريض ويُسْقاه أو يدخل بأصبع وغيرها ويحنّك به. والحديث يدلّ على جواز العلاج باللّدود، وقد تقدم حديث العلاج بالقسط، وأنه يلدّ به من ذات الجنب، وإنما كره لدّ أهل بيته إيّاه؛ لقوله في رواية: «**وإن كنتم ترون أن الله يسلّط عليّ ذات الجنب، ما كان الله ليجعل لها سلطاناً**» إلخ، فعرفهم بأن اللدّ يكون من ذات الجنب، وهو بريء منها، ولذلك اقتصّ من جميع من حضر لُدَّهُ من باشر منهم ومن أقرّ ذلك، فأمر أن يلدّ جميعهم، وسيأتي لهذا بقية في مرض موته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

منع التداوي بالحرام

{٥٢٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الدواء الخبيث.

رواه أبو داود (٣٨٧٠)، والترمذي (١٨٨٨)، وابن ماجه (٣٤٥٩)، وكذا أحمد (٣٠٥/٢، ٤٧٨)، والحاكم (٤١٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا فسنده صحيح.

قوله: الدواء الخبيث في الترمذي، يعني: السمّ.

والحديث يدلّ على منع التداوي بالشيء الخبيث ومنه السم، وهو مقيّد بما فيه ضرر، والأطباء اليوم متّفقون على خلط الأدوية بالسمّ بقدر الحاجة، وتقدم لنا حديث طارق بن سويد في الأشربة أنه سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الخمر، وقال له: إني أصنعها للدواء، فقال: «**إنه ليس بدواء، ولكنه داء**»، رواه مسلم.

وجاء في حديث عند أبي داود (٣٨٧٤) عن أبي الدرداء مرفوعاً وفيه: «**ولا تداووا بالمحرم**»، وسنده حسن.

وتقدم لنا حديث عبدالرحمٰن بن عثمان في نهيه صلّى الله تعالى عليه

وآله وسلم عن قتل الضفدع للدواء، وهو عند أحمد وأبي داود والنسائي، انظر ما سبق في الأطعمة المحرمة.

وكل ذلك استدلّ به على تحريم التداوي بالحرام، وقد قلنا فيما سبق إن التداوي بالمحرم يجوز عند الضرورة، وهي خوف الهلاك.

❊ ❊ ❊

تضمين من طب الناس وهو جاهل بالطب

{٥٢٩} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من تطبَّبَ ولا يُعلمُ منه طِبٌّ فهو ضامن**».

رواه أبو داود (٤٥٨٦)، والنسائي في الكبرى (٢٤٨/٢٤١/٤) وابن ماجه (٣٤٦٦) وسنده حسن.

قوله: من تطبّب، أي: تكلف وادّعى الطب، وليس من أهله، وقوله: فهو ضامن يعني: يضمن ما أتلفه من نفوس وأطراف فيقتصّ منه ويعطي الديّة فيما تجب فيه الدية.

❊ ❊ ❊

ما جاء في العدوى

{٥٣٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا عَدْوَى ولا صَفَر ولا هَامَة**»، فقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرَّمل كأنّها الظِّباء فيُخالِطها البعيرُ الأجربُ فيُجْرِبُها؟ فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فمن أَعْدَى الأَوَّل**».

رواه أحمد (٢٦٧/٢)، والبخاري (٢٧٩/١٢، ٣٥٦)، ومسلم (٢١٣/١٤)، وأبو داود (٣٩١١) كلهم في الطب.

{٥٣١} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«لا يُعدِي شيءٌ شيئاً»، فقال أعرابي: يا رسول الله إن النُّقْبَة تكون بمِشْفَر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتُجْرِبُ كلُّها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما أعدَى الأول لا عدوى ولا صفر ولا هامة، خلق الله كل نفس فكتب حياتها وموتها ومصيباتها ورزقها»**.

رواه بهذا السياق الإمام أحمد **(٣٢٧/٢)** بسند صحيح، وبعضه في الصحيحين **(٥٣٢)**، وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا عدوى ولا صفر ولا غول»**، وفي رواية: **«لا عدوى ولا طيرة ولا غول»**، رواه أحمد ومسلم **(٢١٦/١٤، ٢١٧)**.

{٥٣٢} ـ وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا يُوردَنّ مُمْرِضٌ على مُصِحّ»**.

رواه أحمد **(٤٠٦/٢، ٤٣٤)**، ومسلم **(٢١٥/١٤)**، وأبو داود **(٣٩١١)** وابن ماجه وغيرهم.

{٥٣٣} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فِرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد»**.

رواه البخاري **(٢٧٦/١٢)**، وأحمد **(٤٤٣/٢)**.

{٥٣٤} ـ وعن عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: كان في وفد ثقيف رجلٌ مجذوم، فأرسل إليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنا قد بايعناك فارجع»**.

رواه مسلم **(٢٢٨/١٤)**، وابن ماجه **(٣٥٤٤)**.

{٥٣٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تُدِيمُوا النظر إلى المجذومين»**.

رواه أحمد **(٢٣٣/١)**، وابن ماجه **(٣٥٤٣)** بسند صحيح.

قوله: لا عدوى، المراد بها إصابة الصحيح بمرض السقيم بمقاربته ومجاورته، وقوله: ولا صفر، كانت العرب تزعم أن في البطن حية تصيب

الإنسان إذا جاع وأنها تعديه، وقوله: ولا هامة، يقال: إن العرب كانت تقول: إن عظام الميت تصير هامة، أي: طيراً، فتطير ولا تزال تقول: اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله، وقوله: ولا غول، كانوا يقولون: إنه ضرب من الشياطين كانت تتغوّل فتغتال الناس في الطرق، فهذه الأشياء الأربعة كانت العرب تزعم أنها تؤثر بنفسها فأبطل الإسلام ذلك، وبيّن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الأُمور كلّها بيد الله وأنه لا تأثير لأحد ولا لشيء بذاته. وقوله: إن النُّقبة ـ بضم النون وسكون القاف ـ: هو أول ما يظهر من الجرب، وقوله: بمشفر ـ بكسر الميم ـ: هو كالشّفة للإنسان، وقوله: بذنبه، في رواية: بِعَجْبه ـ بسكون الجيم ـ: وهو الذنب، وقوله: ممرض ـ بضم الميم الأولى وسكون الثانية مع كسر الراء ـ: قال الخطابي: هو الذي مرضت ماشيته، والمصح: هو صاحب الصحاح منها، والأحاديث المذكورة ظاهرها التعارض، فإن قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: لا عدوى... ولا يعدي شيء شيئاً تفيد عدم العدوى مطلقاً، وقوله ﷺ: «**فرّ من المجذوم فرارك من الأسد**»، وقوله: «**لا يوردن ممرض على مصح**»، وقوله للمجذوم: «**قد بايعناك فارجع**»، وقوله: «**لا تديموا النظر إلى المجذومين**»، فظواهرها تقتضي العدوى. ولهذا الاختلاف الظاهر ذهب العلماء في ذلك مذاهب، وقال كل حسب ما فهمه وظهر له، والصحيح في ذلك ما قاله النووي رحمه الله تعالى نقلاً عن الجمهور: إن حديث «**لا عدوى**» المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده أن المرض والعاهة تُعْدِي بطبعها لا بفعل الله تعالى، وأما حديث: «لا يوردن ممرض على مصح»، فأرشد فيه إلى مجانبة ما يَحْصُلُ الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالى وقدره، فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها، ولم ينفِ حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله، وأرشد في الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته وقدره تعالى، فهذا الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء ويتعيّن المصير إليه.. وقال الحافظ بعدما ذكر جمع ابن الصلاح: والأولى في الجمع بينهما أن يقال: إن نفيه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للعدوى

باقٍ على عمومه، وقد صحّ قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يعدي شيء شيئاً**»، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لمن عارضه بأن البعير الأجرب يكون في الإبل الصحيحة فيخالطها فتجرب، حيث ردّ عليه بقوله: «**فمن أعدى الأول**»، يعني: أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ ذلك في الثاني كما ابتدأ الأول. وأما الأمر بالفرار، فمن باب سدّ الذرائع لئلا يتفق للشخص الذي يخالطه شيء من ذلك بتقدير الله تعالى ابتداء لا بالعدوى المنفية، فيظن أن ذلك بسبب مخالطته فيعتقد صحة العدوى، فيقع في الحرج، فأمر بتجنّبه حسماً للمادة... ولابن القيم كلام قيّم في هذا الموضوع ذكره في زاد المعاد، والحقيقة التي لا تنكر هي أن مخالطة الصحيح لصاحب العاهة الخطيرة؛ كالجذام والسل والجرب... سبب لوقوع المرض؛ هذه سنّة طبيعية لا تنكر، وهو أمر محسوس مشاهد والأمثلة على ذلك في كل زمان كثيرة، غير أن الذي يجب ردّه هو أن المخالطة... والمرض لا دخل لهما في التأثير، وأن الذي يجب اعتقاده هو أن الأمور كلها بيد الله تعالى، فهو الذي يأتي بالمرض والشفاء والحياة والموت وما عدا ذلك، فأسباب خلقها الله تعالى ورتّب عليها مسبباتها، ومن اعتقد أن هناك من له تأثير بنفسه، فهو مشرك عقيدته كعقيدة الجاهلية.

* * *

ما جاء في الطِّيرة والفأل الحسن

{٥٣٦} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الطِّيرَةُ من الشِّرك، وما مِنَّا إلاَّ، ولكنَّ الله يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّلِ**».

رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي في السير (١٤٧٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وابن حبان (٤٢٧)، والحاكم (١/١٧، ١٨)، وحسنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

{٥٣٧} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا عدوى ولا طيرة، وإنما الشُّؤمُ في ثلاث: في الفرس والمرأة والدار»**، وفي رواية: **«ان كان الشؤم، ففي الدار والمرأة والفرس»**.

رواه البخاري (١٢/٣٢٣، ٣٢٤)، ومسلم (١٤/٢٢٠) كلاهما في الطبّ، ورواه البخاري في مواضع، وأبو داود (٣٩٢٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٣٤)، ونحوه عند الشيخين عن سهل بن سعد.

{٥٣٨} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا عدوى ولا طيرة ويُعْجِبُني الفأل»**، قالوا: وما الفأل؟ قال: **«كلمة طيّبة»**، وفي رواية: **«ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة»**.

رواه البخاري (١٢/٣٢٤)، ومسلم (١٤/٢١٩)، وأبو داود (٣٩١٦)، والترمذي في السير (١٤٨٠) بتهذيبي.

{٥٣٩} ـ وعنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نجيح.

رواه الترمذي (١٤٨١) بسند صحيح على شرط مسلم وحسّنه وصححه.

{٥٤٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«لا طيرة وخيرها الفأل»**، قيل: يا رسول الله وما الفأل؟ قال: **«الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»**.

رواه البخاري (١٢/٣٢٤)، ومسلم (١٤/٢١٨) كلاهما في الطب.

قوله: الطيرة ـ بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن ـ: والتطيّر: التشاؤم، وأصله الشيء المكروه من قولٍ أو فعل أو مرئي، وكان أهل الجاهلية يتطيّرون بالظباء والطيور، فكانوا إذا خرجوا لأسفارهم، فإن رأوا طيراً أو غيره أخذ جهة اليمين تيمنوا به ومضوا، وإن أخذت ذات الشمال تشاءموا ورجعوا، فكان ذلك يصدهم عن مصالحهم، فجاء الشرع بإبطال

ذلك، وأخبر أنه ليس له نفع ولا ضرّ. وقوله: الطِّيرَة من الشرك، سمّاها شركاً لأن العرب كانوا يرون ما يتشاءمون به سبباً في حصول المكروه، ويعتقدون لذلك تأثيراً، وذلك شرك بلا نزاع. وقوله: وما منا إلّا، يعني: ما منا من أحد إلاّ وقد يخطر له شيء من ذلك، ولكننا لاعتمادنا على الله دون سواه يذهب عنّا ذلك.

وقوله: وإنما الشؤم في ثلاث، الشؤم ـ بضم الشين المشددة ـ: ضدّ اليمن، قال النووي رحمه الله تعالى: واختلف العلماء في هذا الحديث، فقال مالك وطائفة: هو على ظاهره، وأن الدار قد يجعل الله تعالى سكناها سبباً للضرر أو الهلاك، وكذا اتّخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم، قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى، ومعناه قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة. وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة، أي: الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يسكنها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة. وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرّضها للريب، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها، وقيل: حرانها وغلاء ثمنها، وشؤم الخادم سوء خلقه وقلّة تعهده لما فُوِّضَ إليه، وقيل: المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة.

وقوله: وخيرها الفأل، هذا يدلّ على أن الطيرة تطلق على الشر والخير والشؤم واليمن وأن خيرها استثني من شرها، وأن خيرها هو الكلمة الصالحة الحسنة يسمعها الإنسان فتسرّه ويتيمّن بها، ولذلك كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحبّ الفأل الحسن، ويحبّ سماع: يا راشد، ويا نجيح، ويعجبه ذلك لأن كلمة راشد في معنى الرشد، وفي نجيح النجاح وكلاهما محمود، فالتيمّن بسماع الكلام الحسن أو رؤية الرجل الصالح أو موافقة فعل حسن من أحد وما جرى مجرى ذلك كلّه محمود. أما الطيرة والتشاؤم بالأشياء القبيحة أيّاً كانت، فلا يلتفت إليها ولا تصدّ الإنسان عما يريده.

* * *

{٥٤١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ناسٌ عن الكهان، فقال: «**ليس بشيء**»، فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدّثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيَقُرُّها في أذن وليه فيخلِطون معها مائة كذبة**».

رواه أحمد (٨٧/٦)، والبخاري (٣٢٩/١٢، ٣٣١)، ومسلم (٢٢٥/١٤) كلاهما في الطب.

{٥٤٢} ـ وعن معاوية بن الحكم رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله منّا رجال يتطيّرون؟ قال: «**ذلك شيء تجدونه في أنفسكم فلا يصدنكم**»، قال: قلت: ومنا رجال يأتون الكهّان، قال: «**فلا تأتوهم**»، قال: قلت: ومنّا رجال يخطون؟ قال: «**كان نبيّ من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطّه فذاك**».

رواه مسلم في الطب (٢٢٣/١٤، ٢٢٤).

{٥٤٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم**»، وفي رواية: «**فقد كفر بما أنزل على محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم**».

رواه أحمد (٤٠٨/٢، ٤٢٩، ٤٧٦)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١١٩)، والدارمي (١١٤١)، وابن ماجه (٦٣٩) وسنده صحيح، وصححه العراقي في أماليه، والحاكم على شرطهما، وقال الذهبي: إسناده قوي، ويأتي في النكاح مطوّلاً، وله شاهد عن ابن مسعود رواه أبو يعلى والبزار وجوّده المنذري وسنده صحيح، وانظر المجمع (١١٨/٥).

{٥٤٤} ـ وعن بعض أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة»**.

رواه أحمد (٦٨/٤ ج ٥/٣٨٠)، ومسلم في الطب (٢٢٧/١٤).

قوله: فيقرها في أذن وليه، في رواية مسلم: قر الدجاجة. يقرّ ـ بفتح الياء وضم القاف وتشديد الراء ـ: يعني: أن الشيطان يردّد تلك الكلمة في أذن صاحبه الكاهن، فيكون صوت ذلك كصوت الدجاجة، وقوله: يخطفها ـ بفتح الطاء ـ: أي: يأخذها ويسترقها بسرعة، وقوله: كذبة ـ بفتح الكاف ـ: وقوله: يخطون يعني به: ما يسمى بعلم الرمل والخط الذي يستخرج به علم الغيب، وقوله: كاهناً، الكاهن: هو الذي يكون معه رئي من الشياطين يأتيه بخبر السماء، وقوله: عرّاف هو من جملة الكهّان، الذي يتعاطى معرفة مكان السرقة أو الضالة وما إلى ذلك.

وفي جملة هذه الأحاديث أمور، **الأول والثاني**: الكهانة والعرافة، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب، أحدها: يكون للإنسان وليّ من الجن يخبره بما يسترقّه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حيث بعث الله نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، الثاني يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده، لكنهم يصدقون ويكذبون. الثالث: المنجمون، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوّة ما لكن الكذب فيه أغلب، ومن هذا الفنّ العرافة وصاحبها عرّاف، وهو الذي يستدلّ على الأُمور بأسباب ومقدمات يدّعي معرفتها بها، وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة، وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة، وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم.

وقال البغوي في شرح السنّة: فالكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب، وكان في العرب كهنة يدّعون معرفة الأُمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئياً من

الجنّ، وتابعة تلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يدعي أنه يستدرك الأُمور بفهم أعطيه، والعرّاف هو الذي يدّعي معرفة الأُمور بمقدمات وأسباب يستدلّ بها على مواقعها؛ كالمسروق من الذي سرقها، ومعرفة مكان الضالّة، وتتهم المرأة بالزنى فيقول من صاحبها، ونحو ذلك من الأُمور إلخ، وللحافظ كلام مبسط في الموضوع فلينظر (ج ٣٢٦/١٢، ٣٢٧).

الأمر الثالث: إن الكاهن قد يأتي بكلمة صدق وهي التي استرقها شيطانه من السماء، لكنه يزيد عليها مائة كذبة، فيخلط الصدق بالكذب، والحقّ بالباطل.

الأمر الرابع: في إتيان الكهان والعرافين وعيد شديد، وزجر أكيد، فإتيان الأولين مع تصديقهم يوجب الكفر بما أنزل على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والبراءة من ذلك، وهذا أمر خطير جداً، بينما إتيان العرافين ومجرد سؤالهم عن الغيبيّات يقتضي عدم قبول صلاة أربعين ليلة من صاحبه، وهذه خسارة، أيّ خسارة...

وما ذكر في ذلك وإن كان ظاهره يقتضي الكفر في الأول وعدم صحة الصلاة في الثاني، فإن العلماء أوّلوا ذلك بأن المراد بالكفر غير الكفر المخرج من الملّة، وأن ذلك خرج على الزجر والتغليظ. أما عدم قبول الصلاة، فقالوا: إن الصلاة تكون صحيحة إذا توفّرت شروطها ويسقط عن صاحبها التكليف، ولكنه لا ثواب له. وفي هذا نظر، لأن الحديث فيه لم تقبل له، وعدم القبول يقتضي المطالبة بها، وأنها لا تزال في ذمّته، والله تعالى أعلم.

الأمر الخامس: قوله: ومنّا رجال يخطّون إلخ، هو الخط الذي يخطّه الحازي أي: الكاهن يأتي صاحب الحاجة إلى الكاهن فيعطيه حلواناً فيقول له: اقعد حتى أخط لك، فيخط خطوطاً كثيرة على رمل أو نحوه بلا عدد، ثم يضرب عليها خطين خطين، ثم ينظر إلى ما يبقى منها، فإن بقي منها خطّان كان علامة على النجاح، وإن بقي خطّ واحد كان دليل الخيبة والحرمان... وقد ألّف الناس في هذا العلم رسائل وفيهم من

يستخرج منه علماً على زعمه، فالله أعلم بذلك، فإننا لا نعرف منه شيئاً، وقد رأينا كتباً في ذلك وأدركنا من كان يدّعي معرفته واستخراج ما في الضمير وغيره به، وقوله: «كان نبيّ يخط» يقال: إنه إدريس عليه السلام، وقوله: «فمن وافق خطّه»، قال الخطابي: يحتمل أن يكون معناه الزجر عنه إذا كان من بعده لا يوافق خطّه، ولا ينال حظّه من الصواب؛ لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبيّ، وعلماً لنبوّته، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعاً في نيله... وقال النووي: معناه من وافق خطّه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها إلخ. وقال عياض: المختار أن معناه أن من وافق خطّه، فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول لا أنه أباح ذلك لفاعله. وبالجملة، فمن أتقنه ووافق ما كان يتعاطاه ذلك النبيّ كان مصيباً فيه وفيما يستخرجه به، ومن لم يوافقه كان كهانة وعرافة وكذباً.

* * *

ما جاء في النجوم وما يتعلق بها

{٥٤٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من اقْتَبَس عِلْماً من النجوم اقتبس شُعْبَةً من السِّحر زاد ما زاد»**.

رواه أحمد (٢٢٧/١)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦) بسند صحيح وصححه غير واحد، وقد تقدم في كتاب العلم.

قوله: اقتبس، أي: أخذ واستفاد علماً منها، وقوله: شعبة، أي: قطعة منه. وفي الحديث تحريم استفادة العلوم الغيبية بواسطة النجوم مثل ما يدّعيه المنجمون من علم الحوادث المرتقبة كإخبارهم مثلاً بتغيّر الأسعار وموت فلان أو تولي فلان أو حدوث حرب... ويزعمون أنهم يعرفون ذلك بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها، ويدّعون أن لها تأثيراً

في السفليات، وكل ذلك تكهن وتهجم على ما لا علم لهم به... وانظر ما سبق في العلم.

يبقى الأمر فيما ظهر في العلم الحديث التجريبي من الاطّلاع على وجود الرياح أو المطر أو السحاب أو هيجان البحر ونحو ذلك مما يعرف بالعلامات والأسباب والموازين، هل ذلكم من قبيل ما ذكر أم لا؟ الظاهر أنه لا يدخل في الحديث... وإن ذكره بعض المتقدمين مثالاً لذلك.

{٥٤٦} ـ وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عام الحديبية، فأصابنا مَطرٌ ذات ليلةٍ، فصلّى لنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الصبح ثم أقبل علينا فقال: **«أتدرون ماذا قال ربُكم؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: **«قال الله تعالى أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مُطِرْنا برَحْمَة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بي»**.

رواه البخاري في الاستسقاء وفي المغازي (٨/٤٤٥)، ومسلم وغيرهما.

ونحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رواه مسلم في الإيمان (٢/٦١، ٦٢)، وذكرناه في التفسير في الحديث أن من نسب نزول المطر أو أي خلق لغير الله تعالى، فهو كافر به عزّ وجلّ قد أشرك معه غيره في الخلق والتدبير والأمر، بينما من نسب الأُمور كلّها لله تعالى خلقاً وإيجاداً وتدبيراً كان مؤمناً بالله تعالى موحداً له بريئاً من الشرك أدام الله تعالى علينا الإيمان به حتى نموت موحّدين طيبين آمين.

{٥٤٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رجل من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رُمِيَ بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِي بمثل هذا»**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنّا

نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فإنها لا يُرْمَى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكنّ ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبّح حملةُ العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلُغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا**»، ثم قال: «**الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السمٰوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجنّ السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويُرْمَوْن به فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**».

رواه أحمد (١٨٨٢، ١٨٨٣)، ومسلم (١٤/٢٢٥، ٢٢٧) في الطب، والترمذي في التفسير (٣٠١٣) وغيرهم.

في الحديث فوائد يحتاج بسطها إلى عدة ملازم، وهو يدلّ على عظمة الله عزّ وجلّ وتدبيره لخلقه، وفيه رد ما كان يعتقده أهل الجاهلية في النجوم وأن لها تأثيراً في هذا الكون وحركته بذواتها، وفيه أن ما يرى من النجوم المرمي بها هي شعب تقتبس من النجوم فيرمى بها الشياطين الذين يقتربون من السماء لاستراق السمع من الملائكة، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من القرآن، وذكرنا بعض ما جاء في ذلك في التفسير، في سورة الأحقاف وفي سورة الجنّ فلينظر ذلك.

* * *

من شروط الرقية

{٥٤٨} ـ عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: كنا نَرْقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعْرِضُوا عليَّ رُقَاكم لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شركٌ**».

رواه مسلم (١٤/١٨٧)، وأبو داود (٣٨٨٦).

{٥٤٩} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الرُّقَى، فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رُقْيَةٌ نَرْقِي بها من العقْرب، وأنك نهيتَ عن الرُّقَى، قال: فعرضوها عليه، فقال: **«ما أرى بأساً، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فَلْيَنْفَعْهُ»**، وفي رواية: **«فليفعل»**.

رواه مسلم (١٤/١٨٦، ١٨٧)، وأحمد (٣/٣٨٢)، وابن ماجه (٣٥١٥).

قوله: نَرْقِي ـ بكسر القاف ـ: وماضيه رقى ـ بفتحها ـ: ورقيت فلاناً ـ بكسر القاف ـ: أرقيه، وفي الحديث بيان بعض شروط الرقية، وهي أن تكون خالية من الشركيات؛ كالإقسام بالشياطين وندائهم وذكر ما لم يفهم من الكلام العجمي أو السرياني أو نحو ذلك، أو نداء الكواكب أو البحر وما إلى ذلك، مما فيه شرك لله أو يؤدي إلى الشرك.

وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه»** إلخ، دليل على جواز العلاج بكل ما ينفع سواء كان بالعقاقير والأعشاب، أو بالرقى، ولو كانت بغير القرآن، والمأثور، مما يؤثر بإذن الله تعالى. وقد تمسك ناس بهذا العموم فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، وإن لم يعقل معناها، لكن دلّ حديث عوف المذكور أن ما يؤدّي إلى شرك يمنع، وما لا يعرف معناه لا يؤمن أن يؤدي إليه، فيمنع احتياطاً، ذكره المناوي في «الفيض».

وقال القرطبي: الرقى ثلاثة أقسام: أحدها كان يرقى به في الجاهلية مما لا يعقل معناه، فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدّي إلى الشرك. الثاني: ما كان بكلام الله تعالى أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثوراً فيستحبّ. الثالث: ما كان بأسماء غير الله تعالى من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات كالعرش، قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه ولا من المشروع الذي يتضمّن الالتجاء إلى الله تعالى والتبرّك بأسمائه، فيكون تركه أولى، إلاّ أن يتضمّن تعظيم المرقي

به، فينبغي أن يجتنب؛ كالحلف بغير الله تعالى، نقله الحافظ في «الفتح».

❊ ❊ ❊

التداوي والعلاج بالرقى والتعاويذ
مشروعية الرقية بالمعوذات وغيرها

{٥٥٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان ينفُثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوّذات، فلما ثَقُل كنت أنفُث عنه بهنّ وأمسح بيد نفسه لبركتها، فسئل الزهري: كيف ينفُث؟ قال: كان ينفث على يديه، ثم يمسح بهما وجهه.

رواه البخاري (١٢/٣٠٦، ٣٠٧)، ومسلم (١٤/١٨٢، ١٨٣).

{٥٥١} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتعوّذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوّذتان، فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما.

رواه الترمذي (١٩٠٠)، والنسائي في الاستعاذة من «المجتبى» (٨/٢٣٩)، وابن ماجه (٣٥١١) بسند صحيح.

قوله: ينفث ـ بضم الفاء ـ والنفث: نفخ لطيف بلا ريق، والتفل: نفخ مع ريق يسير، وقوله: بالمعوذات ـ بكسر الواو المشدّدة ـ: هي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]، وقوله: يتعوذ، أي: يسأل الله تعالى التحصّن من الجان أي: الشياطين، وعين الإنسان أي: النظرة كما يأتي بيانها. وفي الحديثين مشروعية الرقية والتعوّذ بهذه السور، وإنما اختيرت هذه السور على الخصوص، وتركه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما سواها لأنهنّ جامعات للاستعاذة من كل المكروهات جملةً وتفصيلاً، ففيها الاستعاذة من شرّ كل ما خلق، فيدخل فيه كل شيء، ومن شرّ

النفاثات في العقد وهنّ السواحر، ومن شرّ الحاسدين، ومن شرّ الوسواس الخنّاس لعنه الله تعالى، وفي حديث عائشة استحباب النفث عند التعوّذ والرقية، قال النووي: وقد أجمعوا على جوازه. قال عياض: وفائدته التبرّك بتلك الرطوبة والهواء والنفس المباشرة للرقية والذكر الحسن، قال: كما يتبرّك بغسالة ما يكتب من الذكر والأسماء الحسنى، إلخ.

وفي الحديثين مشروعية الرقية، ولا خلاف في جوازها. قال الحافظ في الفتح: وقد أجمع العلماء على جواز الرقي عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى، إلخ.

* * *

الرقية بالفاتحة وأخذ الأجرة على ذلك

{٥٥٢} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن ناساً من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أتوا على حيّ من أحياء العرب، فلم يَقْرُوهم، فبينما هم كذلك إذ لُدِغَ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأُمّ القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذ حتى نسأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسألوه فضحك، وقال: «**وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم**».

رواه البخاري (١٢/٣٠٧)، ومسلم (١٤/١٨٧) كلاهما في الطبّ، ورواه البخاري في الإجارة أيضاً. وقد قدمنا كمال تخريجه والكلام على بعض معناه في كتاب الإجارة رقم (١٦٩).

قوله: فلم يقروهم ـ بفتح الياء ـ أي: لم يضيفوهم، قوله: لدغ

ـ بضم اللام وكسر الدال ـ: اللدغ يكون من حية أو عقرب... قوله: جعلاً ـ بضم الجيم وسكون العين ـ أي: أجرة، والجُعل مقيّد بإتمام العمل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وقوله: قطيعاً القطيع: طائفة من الغنم ونحوها، والمراد به هنا ثلاثون شاة كما جاء مبيّناً، وقوله: يتفل ـ بفتح الياء وكسر الفاء ـ: تقدم أنه قريب من النفث غير أن التفل يكون مع قليل من البزاق، ولهذا قال هنا: ويجمع بزاقه ويتفل، وقوله: وما أدراك، أي: ما عرفك أنها رقية، وقوله: بسهم، في رواية: بسهم معك، والسهم هنا: هو الحظ والنصيب.

وفي الحديث الشريف فوائد وأحكام نجملها في الآتي، أولاً: فيه مشروعية الاستضافة والضيافة، وستأتي إن شاء الله في محلها، وأنها من حقوق المسلم. وفيه مشروعية رقية الكافر بالقرآن الكريم، وفيه جواز أخذ الأجرة على القرآن، وبه قال كل العلماء؛ على الرقية، وعلى جوازها على تعليمه، قال به مالك والشافعي وأحمد وابن راهويه وأبو ثور وآخرون، كما جاء التصريح به في حديث ابن عباس الماضي في الإجارة. وفيه مشروعية التفل على المرقي عند الرقية كما تقدم، وفيه مشروعية العلاج بفاتحة الكتاب للديغ من ذوات السم ومن سائر الأمراض والعاهات. وفي عظمة الفاتحة لذلك، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الهدي النبوي وغيره ولخّصه الحافظ في الفتح، فقال: إذا ثبت أن لبعض الكلام خواصاً ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا غيره من الكتب مثلها لتضمّنها جميع معاني الكتاب، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله تعالى ومجامعها وإثبات المعاد، وذكر التوحيد، والافتقار إلى الربّ في طلب الإعانة به، والهداية منه، وذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمّن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه، ولتضمّنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به، ومغضوب عليه لعدوله عن الحقّ بعد معرفته، وضال لعدم معرفته له مع ما تضمّنته من إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب والرد على جميع أهل

البدع، وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من كل داء...

❊ ❊ ❊

رقية المجنون بفاتحة الكتاب

{٥٥٣} ـ عن عمّ خارجة بن الصلت رضي الله تعالى عنهما أنه مرّ بقوم فأتوه، فقالوا: إنك جئت من عند هذا الرجل بخير، فارق لنا هذا الرجل، فأتوه برجل معتوه في القيود، فرقاه بأمّ القرآن ثلاثة أيام غدوة وعشية، كلّما ختمها جمع بزاقه ثم تفل فكأنما أنشط من عقال، فأعطوه شيئاً، فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكره له، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل، فلَعَمْرِي لَمَن أكل برقيةِ باطل لقد أكلتَ برقية حقّ**».

رواه أحمد (٥/٢١٠، ٢١١)، وأبو داود (٣٤٢٠)، والحاكم (١/٥٥٩، ٥٦٠) وغيرهم وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: برجل معتوه، أي: ذاهب العقل، وقوله: أنشط إلخ، أي: كأنه كان مربوطاً بحبل فانحلّ منه. وفي الحديث مشروعية الرقية للمعتوه بالفاتحة، وذلك يكون مع تكرار الرقية بكرةً وعشية، والظاهر أن هذا المعتوه كان به مسّ من الجنّ، وهو الذي يحتاج إلى مدة من العلاج حتى يحترق ذلك الجنّي، أو يطلب الإغاثة أو يفرّ كما هو مشاهد، غير أن الرقية بهذه السورة وغيرها تحتاج إلى قوّة روح الراقي وتقواه واستعداد المريض لذلك أيضاً.

❊ ❊ ❊

رقية جبريل عليه السلام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٥٥٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم أنّها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رقَاهُ جبريل عليه السلام، قال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شرّ حاسد إذا حسد وشرّ كل ذي عين.

رواه مسلم (١٤/١٦٩، ١٧٠).

{٥٥٦} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن جبريل أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: «**نعم**»، قال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من كل شر نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك.

رواه مسلم (١٤/١٧٠).

في الحديثين مشروعية الرقية بأسماء الله تعالى، وفيه دليل على جواز الرقية مما نزل ومما لم ينزل من الآفات، كما يأتي إن شاء الله تعالى، وفيه ردّ على من زعم كراهية الرقية أو منعها، فهذا جبريل عليه السلام يرقي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من مرض نزل به... والرقية من العين تأتي قريباً إن شاء الله تعالى مع بيان علاج العين.

* * *

ما كان يرقي به النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم من الأذكار والأدعية أو يعلمها لأصحابه

{٥٥٧} ـ عن عبدالعزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت؟ فقال أنس: ألا أرْقِيكَ بِرُقْيَة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: بلى، قال: «**اللّهمّ ربَّ الناس مُذْهِب البأس اشْفِ أنت الشَّافي لا شافِي إلا أنت شِفاءً لا يغادر سَقماً**».

رواه البخاري (١٢/٣١٥، ٣١٦).

{٥٥٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يُعَوِّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى، ويقول: «**اللّهمّ ربّ الناس أذهب البأس واشفِه أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**».

رواه البخاري (٣١٦/١٢، ٣٢٠)، ومسلم (١٨٠/١٤، ١٨١).

{٥٥٩} ـ وعنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قُرحةٌ أو جُرْحٌ، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأصبعه هكذا، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها: «**باسم الله تربة أرْضِنَا بريقَةِ بعضِنا ليُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بإذن ربّنا**».

رواه البخاري (٣١٧/١٢)، ومسلم (١٨٣/١٤) كلاهما في الطب واللفظ لمسلم.

{٥٦٠} ـ وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله تعالى عنه أنه شكا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شرّ ما أجد وأُحاذر**».

رواه مسلم (١٨٩/١٤).

{٥٦١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُعَوِّذُ الحسن والحسين يقول: «**أُعِيذُكما بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة**»، ويقول: «**هكذا كان إبراهيم يعوّذ إسحٰق وإسماعيل**».

رواه الترمذي (١٩٠٢)، وابن ماجه (٣٥٢٥) وحسنه الترمذي وصححه، وسنده صحيح.

قوله: مذهب البأس أي: المرض والضرر، وقوله: لا يغادر أي: لا يترك، قوله: سقماً ـ بضم ثم سكون وبفتحتين ـ وقوله: كان يعوذ ـ بضم الياء وفتح العين وكسر الواو المشدّدة ـ: أي: يرقى، وقوله: كلمات الله التامّة، قيل: هي القرآن، وقيل: أسماء الله وصفاته تعالى، وقوله: هامّة ـ بفتح الميم المشدّدة ـ: هي كل ذات سم يقتل، والجمع هوامّ، وقوله: وعين لامّة أي: من كل عين تصيب بسوء، واللّمم ضرب من الجنون يعتري الإنسان.

وفي جملة هذه الأحاديث فوائد نلخصها في الآتي:

ففيها مشروعية الرقية بهذه الأذكار والأدعية والأسماء التي كان يرقي بها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ويعلّمها أصحابه، وفيها الاعتراف لله عزّ وجلّ بأنه الشافي وحده، وأنه لا شافي سواه، ولا شفاء إلا شفاؤه، فمن لم يشفه الله تعالى لا يعافى أبداً، وفيها مشروعية الرقية من جميع الأمراض والعاهات حتى من الجراحات والقروح، وفيها استحباب وضع اليد على موضع الألم عند الرقية، كما فيها وضع الأصبع على التراب بالريق، ثم وضعها على موضع الألم، ويقال: ما في الحديث: باسم الله تربة أرضنا إلخ، فإن لذلك سرّاً لله تعالى في الشفاء، وإن كان البعض قال: هذا خاصّ بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبتربة المدينة، وردّ ذلك بأن للتربة خاصية في العلاج، كما نصّ عليه الأطباء، وانظر الهدي النبوي وفتح الباري...

وفيها الاستعاذة بكلمات الله التامّة من شر الشياطين والهوام وعيون الحاسدين، كما فيها مشروعية تكرار الرقية ثلاثاً إلى سبع، فإن ذلك أقرب إلى تعجيل الشفاء ورفع الألم، وفيها مع كل ذلك التوكّل على الله تعالى والالتجاء إليه عزّ وجلّ وإلى ذكره ودعائه والابتهال إليه والتضرّع له والإعراض عن الأسباب المادية، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

الرقية من العين والنظرة وأن العين حق

{٥٦٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أمرني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو أمر أن يُسْتَرْقَى من العين.

رواه البخاري (٣١٠/١٢)، ومسلم (١٨٤/١٤).

{٥٦٣} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفْعَةً، فقال: «**استرقوا لها، فإن بها النظرة**».

رواه البخاري (٣١١/١٢)، ومسلم (١٨٥/١٤).

{٥٦٤} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لآل حزم في رقية الحيّة، وقال لأسماء بنت عميس: «**ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة تُصيبُهم الحاجة**»، قالت: لا ولكن العين تسرع إليهم، قال: «**ارقيهم**»، قالت: فعرضت عليه، فقال: «**ارقيهم**».

رواه مسلم (١٨٥/١٤، ١٨٦) وجاء بيان بني الأخ أنهم أبناء جعفر، رواه الترمذي (١٩٠١)، وابن ماجه (٣٥١٠) وغيرهما بسند صحيح عن أسماء نفسها.

{٥٦٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**العَيْنُ حقٌّ**».

رواه البخاري (٣١٢/١٢)، ومسلم (١٧٠/١٤).

{٥٦٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**العين حق ولو كان شيء سابِقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسلوا**».

رواه مسلم (١٧١/١٤)، والترمذي (١٩٠٤).

قوله: استغسلتم أي طلبتم للاغتسال فاغسلوا أطرافكم، قوله: سفعة

- بفتح السين وسكون الفاء -: يعني: صفرة، وقيل: سواد أو مجرد لون يخالف لون الوجه، وقوله: بها النظرة، يعني: العين من الإنس أو الجنّ، وقوله: ضارعة أي: نحيلة، وقوله: العين حقّ، يعني: أن الإصابة بها حق لا شكّ فيها، وذلك بإذن الله تعالى. ودلّت هذه الأحاديث على وقوعها، وأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرقية منها وعلاج المعين بالغسل من غسالة العائن، وقد أجمع أهل السنّة على الأخذ بظواهر هذه الأحاديث، وأن العين والنظرة السامّة قد تهلك الإنسان والحيوان، ولذلك قالوا: إن العين تدخل الرجل القبر، والجمل القدر[1]، وهذه خاصية وشيء أجراه الله تعالى عند نظر العائن الحاسد إلى غيره، كما يقع من نظر الحامل إلى الأبتر وذي الطفيتين من الخبائث أنها تسقط جنينها بخاصية جعلها الله تعالى في ذلك، وخواص الأشياء لا تنكر، فالذين ينكرون العين من أهل البدع هم جهلة ضالّون، فقد جمعوا إلى جهلهم إنكار ما جاءت به شريعة الإسلام وما هو واقع مشاهد ملموس.

وقد تكلّم العلماء على العين وكيف يتأثر بها الإنسان والحيوان وغيرهما، فقالوا في حقيقتها: إنها نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر، وقد جاء معنى هذا في حديث رواه أحمد عن أبي هريرة رفعه: «**العين حق ويحضرها الشيطان، وحسد ابن آدم**»، وقالوا: إن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سهم يصل من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون، وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنّه قال: إذا رأيت شخصاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني، ويقرب من ذلك الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، وكذا تدخل البستان فتضرّ بكثير من الغروس من غير أن تمسّها يدها، ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو، فللعين تأثير بإذن الله تعالى في النفوس، وذلك بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص لآخر كما قدمنا، وهل ثمّ «ذبذبات» خفية غير مرئية

---

(١) وقد ورد هذا مرفوعاً وهو حديث ضعيف جداً.

تنبعث من العائن، فتتصل بالمعيون وتتخلّل مسام جسمه، فيخلق الله الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السم؟ هذا أمر محتمل.

فالحق أن الله تعالى أجرى عادته بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح والتأثيرات، ولشدّة ارتباط الأرواح بالعين نسب الفعل إليها وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح بإذن الله تعالى والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفيّتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتّصال به لشدّة خبث تلك الروح وكيفيّتها الخبيثة.

والحاصل أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجّه الروح كالذي يحدث من الأدعية والرقى والالتجاء إلى الله تعالى، وتارة يقع ذلك بالتوهّم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي إن صادف البدن لا وقاية له أثر فيه وإلا لم ينفذ السهم، بل ربما ردّ على صاحبه كالسهم الحسي سواء، انتهى ملخّصاً من الفتح ومن الهدي النبوي بتصرّف يسير، فانظر الفتح (٣٠٩/١٢، ٣١٠)، والهدي (١٦٢) إلى (١٦٨)، وعند هذا الأخير كلام قيّم هام في الموضوع.

وإذا كانت العين حقاً وأنها لو فرض أن هناك شيئاً فيه قوّة وتأثير سبق القدر لكان العين، ولكنها لا تسبق فكيف بغيرها؟ وعلى هذا فمن أصيب بعين ونظرة، فعليه أن يعالج نفسه بالرقية والاغتسال بغسالة العائن إن عرف وأجاب لذلك، كما أرشد إليه حديث ابن عباس: «**وإذا استغسلتم فاغسلوا**»، وكما في الحديث التالي.

{٥٦٧} ـ عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيْف قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل فقال: والله ما رأيت كاليوم، ولا جلد مُخَبَّأةٍ، قال: فلُبِطَ سهل فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل بن حنيف، والله ما يرفع رأسه، فقال: «**هل تتهمون له أحداً**»، فقالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عامراً فتغيّظ عليه، فقال: «**علام يقتل**

أحدكم أخاه ألا بَرَّكْتَ اغْتَسِلْ له»، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صبّ عليه فراح مع الناس ليس به بأس.

رواه أحمد (٤٨٦/٣، ٤٨٧)، وابن ماجه (٣٥١٩)، وابن حبان (١٤٢٤)، وهو في الموطأ (١٩٧٢)، رواية أبي مصعب وسنده صحيح مع إرساله.

قوله: ولا جلد مخبأة، أي: ولا جلد عذراء مخبّأة في خدرها لا تخرج، عبر بذلك عن حسن جلده، فكان ذلك سبباً في إصابته بالعين. وقوله: فلبط ـ بضم اللام وكسر الياء ـ: أي: صرع وسقط إلى الأرض مريضاً، قوله: فتغيظ عليه أي: غضب عليه، وقال له قولاً غليظاً. وقوله: ألا بركت، أي: هلا قلت إذ أعجبك جسده: بارك الله تعالى عليه.

وفي الحديث بيان بعض علاج المصاب بالعين وهو أن يغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وفخذيه ومذاكره في قدح وآنية ثم يصبّ على المعين، كما فعل بسهل بن حنيف رضي الله تعالى عنه، وهذا الحديث مفسّر ومبيّن حديث ابن عباس: **«وإذا استغسلتم فاغسلوا»**.

* * *

الرقية من ذوات السموم ومن النملة

{٥٦٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه في الرقى، قال: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الرقية من العين والحُمة والنَّمْلة.

رواه مسلم (١٨٤/١٤، ١٨٥).

{٥٦٩} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سُئِلت عن الرقية من الحُمَة، فقالت: رخّص النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الرقية من كل ذي حُمَة. وفي رواية: رخص في الرقية من الحية والعقرب.

رواه البخاري (٣١٥/١٢).

{٥٧٠} ـ وعن الشّفاء بنت عبدالله رضي الله تعالى عنها قالت: دخل عليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تُعَلِّمِينَ هذه رُقْيَةَ النَّمْلة كما علَّمْتِهَا الكِتَابَة».

رواه أحمد (٣٧٢/٦)، وأبو داود (٣٨٨٧)، والحاكم (٥٦/٤، ٥٧) بسند حسن وصححه الحاكم والذهبي، وتقدم حديث جابر في الرقية من العقرب، وهو في مسلم.

قوله: الحمة ـ بضم الحاء وفتح الميم المخفّفة ـ: والمراد منها سمّ ذوات السموم، والنملة ـ بفتح النون المشدّدة مع سكون الميم ـ: هي قروح تخرج في الجنب وفي غيره، فتذهب بالرقية بإذن الله تعالى.

وفي هذه الأحاديث مشروعية الرقية من جميع السموم بدءاً من الأسودين، كما فيها علاج القروح بالرقية أيضاً كما تقدم سابقاً رقم (٥٥٩)، والله الشافي.

* * *

الرقية لدفع الضر وجلب النفع في المستقبل

{٥٧١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أوى إلى فراشه نَفَث في كفّيه بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وبالمعوّذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده، قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به.

رواه البخاري (٣١٩/١٢) في الطب وفي مواضع، ومسلم رقم (٢١٩٢)، وأبو داود (٣٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣١٨٢)، وفي رواية للبخاري والترمذي: ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

فهذه الاستعاذة منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بهذه السور لجلب

النفع والخير ودفع الضرّ والشرّ في ليلته تلك، وفيه جواز التبرّك بآثار القراءة وقد تقدّم ذلك...

{٥٧٢} ـ وعن خَوْلة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق، لم يضُرَّه شيءٌ حتى يتحوَّل**»، وفي رواية: «**حتى يرتحل من منزله ذلك**».

رواه مسلم في الدعاء (٣١/١٧)، والترمذي وغيرهما.

{٥٧٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ما لَقِيتُ من عقرب لدغَتْني البارحة، قال: «**أمَا لو قلتَ حين أمسيتَ: أعوذ بكلماتِ الله التامَّات من شرّ ما خلق، لم تضرّك**».

رواه مسلم أيضاً (٣٢/١٧)، وابن ماجه (٣٥١٨).

وفي الحديثين دليل على مشروعية الاستعاذة والرقية لدفع شرّ وضرّ ما لم ينزل بعد، والأدلّة على ذلك كثيرة غير ما ذكرنا.

* * *

تعليق التمائم

{٥٧٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنَّ الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلَة شِرْكٌ**».

رواه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، والحاكم (٤١٧، ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

الرقى: جمع رقية، والمراد بها هنا الغير مشروعة التي فيها شركيات واستغاثة واستعانة بالجنّ والإقسام بهم ونحو ذلك من الكلام الباطل أو الذي لا يفهم، فهذه الرقية محرّمة بالاتّفاق، وقد يكون صاحبها مشركاً كافراً.

وقوله: التولة ـ بكسر التاء وفتح الواو ـ: هي شيء من أنواع السحر يستعمل لتحبيب المرأة إلى زوجها، فهي شرك على ظاهر الحديث. وأما قوله: والتمائم: فهو جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلّقها على أولادهم يتّقون بها العين بزعمهم، فأبطلها الشرع. ومنها ما يعلّق على الأطفال أو المواشي من سن أو كف أو حديد ونحو ذلك بزعمهم الحفظ من العين والآفات، وكل ذلك شرك لنسبهم التأثير لغير الله تعالى.

* * *

التمائم المباحة

{٥٧٥} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يعلّمهم من الفزع كلمات: «**أعوذ بكلمات الله التامّةِ من غَضَبِهِ وشرّ عباده، ومن هَمَزَاتِ الشياطين وأن يَحْضُرُون**».

وكان عبدالله بن عَمْرو يعلّمهن من عَقَلَ من بنيه، ومن لم يَعْقِل كتبه فأعلقه عليه.

رواه أحمد (١٨١/٢)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨) وبتهذيبي (٣٢٩٣)، والنسائي في اليوم والليلة (٧٦٥، ٧٦٦)، والطبراني في الدعاء (١٠٨٦)، والحاكم (٥٤٨/١) وغيرهم، وهو حديث حسن لطريقين له. أما الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى فقد صححه كاملاً في شرح المسند.

قوله: الفزع: أي: الخوف، وقوله: بكلمات الله إلخ، وهي القرآن الكريم، أو صفاته القائمة بذاته. وقوله: التامّة أي: الكاملة الفاضلة التي لا يدخلها نقص ولا عيب، وقوله: من هَمَزات الشياطين، أي: نزغاتهم ووساوسهم.

وفي الحديث مشروعية الاستعاذة بهذه الكلمات لمن يفزع في نومه،

فينبغي للمؤمن أن لا يغفل عنها، فإنها نافعة من تلاعب الشياطين وتخيّلاتهم في المنام.

وفي فعل عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه من كتابتها وتعليقها على أطفاله الصغار ما يدلّ على جواز تعليق ما فيه قرآن أو اسم الله تعالى، وأن ذلك يقوم مقام القراءة، وقد اختلف السلف وغيرهم في ذلك، فمنعها بعضهم وجعلها من التمائم المنهيّ عنها، وأجازها آخرون وحملوا التمائم المنهي عنها على ما كان سائداً عند الجاهلية من تعليق الودع والوتر وغيرهما مما كانوا يعتقدون فيها التأثير.

ولذا قال البغوي في شرح السنة (ج ١٢/١٥٨)، وقال عطاء: لا يعدّ من التمائم ما يكتب من القرآن. وسُئِل سعيد بن المسيّب عن الصحف الصغار يكتب فيه القرآن فيعلق على النساء والصبيان، فقال: لا بأس بذلك إذا جعل في كيس من ورق أو حديد أو يُخرزُ عليه.

وقال الحافظ في كتاب الجهاد باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (ج ٦/٤٨٣) بعد كلام: هذا كله في تعليق التمائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه، فأمّا ما فيه ذكر الله تعالى فلا نهي فيه، فإنه إنما يجعل للتبرّك به والتعوّذ بأسمائه وذكره، وكذلك لا نصّ عما يعلق لأجل الزينة ما لم يبلغ الخيلاء أو السرف، وانظر كتاب الطبّ منه أيضاً (ج ١٢/٢٠٥).

وراجع الفيض للمناوي (٦/٣٨١)، والزرقاني على الموطأ (٤/٣١٩)، وشرح المهذب للنووي والهدي النبوي (٤/٣٥٧، ٣٥٨).

* * *

تتمة

ومن هذا القبيل كتابة القرآن وغسله وسقيه للمريض، نقل البغوي في شرح السنة (١٢/٦٦) عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: لا بأس أن يكتب

القرآن ويغسله ويسقيه المريض، قال: ومثله عن أبي قلابة قال: وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولادتها آيتين من القرآن، وكلمات ثم يغسل وتسقى. وقال أيوب: رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن ثم غسله بماء وسقاه رجلاً كان به وجع، يعني: الجنون.

وقد ذكر ابن القيّم في الهدي نصوصاً عن الإمام أحمد وغيره في ذلك، ثم قال (٣٥٨/٤): وكل ما تقدم من الرقى فإن كتابته نافعة... ورخّص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله تعالى فيه...

ومن هذا تعلم تطرّف البعض من إطلاقه تحريم تعليق القرآن أو شرب غسالته وشدّة إنكاره لذلك واستهزائه بمن يفعله كأنه منكر منهي عنه متفق على تحريمه كما تجد ذلك في كتب بعض المعاصرين المتزمّتين، فإن ذلك ليس من صنيع المنصفين والمعتدلين الربانيين، وإلى هنا ينتهي بنا الكلام على المرضى والطبّ والحمدلله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وأتباعه أبد الآبدين.

انتهى المجلد الخامس من كتاب الأطعمة والصيد والذبائح والأضاحي والعقيقة والأشربة والمرضى والطب من الزوائد الصحيحة على الصحيحين ثمان وثمانون حديثاً.

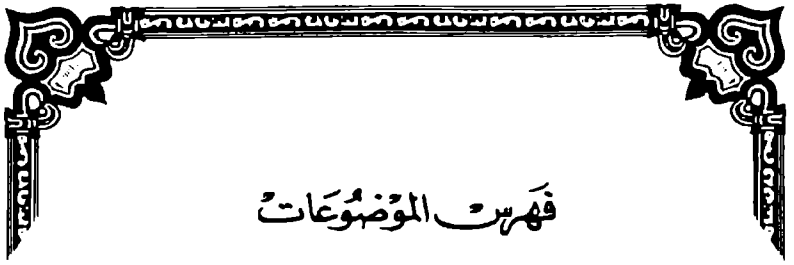

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
● **كتاب البيوع**	٧
الحثّ على الكسب	٨
الترغيب في الكسب من الحلال	١٠
الكسب بالزراعة وفضلها	١١
الكسب بالتجارة	١١
الكسب بتربية المواشي	١٢
التنفير من الحرام والتحفّظ من التكسب به	١٣
التوقّي عن الشبهات	١٤
الصدق والنصح في البيع	٢٠
ذمّ الحلف في البيع وحض التجار على الصدقة	٢١
تحريم الغش والخديعة	٢٣
التسامح والتساهل في البيع والإقالة	٢٤
أبواب بيوع المنهي عنها النهي عن بيع الخمر والنجاسة وما لا نفع فيه	٢٥
تحريم ثمن الكلب والهرّ ومهر البغي وحلوان الكاهن والدَّم	٢٧
تحريم ثمن المغنيات	٢٨
النهي عن بيع فضل الماء وضراب الفحل	٢٩
بيوع الغرر وبيان جملة من ذلك	٣١

الموضوع	الصفحة

بيع حبل الحبلة ٣١
بيع الحصاة ٣١
بيع المنابذة والملامسة ٣٢
النهي عن بيع الشيء قبل ملكه أو قبضه ٣٣
تحريم تلقي الركبان، وبيع الحاضر لباد وغير ذلك من البيوعات الفاسدة ٣٥
بيع المُصرّاة ٣٧
النهي عن بَيْع العِينَة وبيع بَيْعَتين في بَيْعةٍ ٣٧
إثبات خيار المجلس واختلاف المتبايعين ٤٠
الشروط في البيع وما يستثنى فيها ٤١
بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى موضع ما ٤١
اشتراط الولاء في البيع والعتق ٤٢
الاحتكار والتسعير ٤٣
الأسواق وما جاء فيها ٤٤
● **أبواب بيع الأصول والثمار** ٤٧
بيع النخل بعد أن أُبِّرَت ٤٧
النهي عن بيع الثمر قبل بدوّ صلاحه ٤٨
بيع المحاقلة والمزابنة والمعاومة ٤٩
ما جاء في وضع الجوائح ٥٠
● **أبواب الربا** ٥٢
لعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه ٥٢
أكل الربا أشدّ من الزنا ٥٣
عقوبة المتعامل بالربا ومآله في الدنيا وأنه من أسباب الهلاك ٥٤
● **باب ما يدخله الربا من أنواع المبيعات** ٥٦
ما يوزن ويكال من ذلك، وفيه ربا الفضل ٥٦
جواز التفاضل مع اختلاف الأجناس وتحريم النسيئة في ذلك ٥٨
النهي عن بيع الصبرة المجهولة بكيل معلوم ٦٠
النهي عن بيع الذهب وغيره بذهب ٦١

الموضوع	الصفحة
الرخصة في بيع العرايا	٦٢
بيع الثنيا	٦٣
بيع الحيوان بالحيوان واللحم بالحيوان	٦٣
جواز البيع إلى أجل	٦٥
النهي عن التفريق بين الأقارب في البيع	٦٦
مشروعية الوزن والكيل وما جاء في ذلك	٦٧
ما جاء في بيع الفضولي	٦٩
● أبواب السلم والقَرْض والدَّيْن وما يَتْبَعُ ذلك	٧٠
من فضل القرض والدين	٧١
جواز الزيادة على القرض عند الوفاء	٧٢
معاملة الله تعالى المستدين حسب نيته	٧٣
خطر من مات وعليه دين لم يقضه	٧٣
الاستعاذة من الدَّيْن	٧٤
فضل إنظار المعسر أو الوضع عنه	٧٥
استحباب وضع بعض الدين	٧٦
تحريم المماطلة في أداء الدين مع الوجد	٧٧
باب الحوالة	٧٨
باب الرهن	٧٨
باب الإفلاس والتحجير على السفيه وبيان علامة الرشد والبلوغ	٨٠
الشركة والوكالة	٨٣
مشروعية العارية ووجوب ضمانها على المستعير	٨٥
مشروعية الوديعة	٨٧
باب الشفعة	٨٨
غرز الخشب في دار الجار	٨٩
باب الغصب والمظالم	٩٠
إثْمُ مَنْ غَصَبَ أرضَ غيره	٩١
الحثّ على التحلل من المظالم	٩٢

الموضوع	الصفحة

فصاص المظالم يوم القيامة ٩٢
وجوب التحفظ من الظلم ودعوة المظلوم ٩٣
أخذ الظالم وعقوبته ٩٣
ضمان المتلفات ٩٤
دفع الصائل والقاتل دون المال ٩٥
باب اللقطة ٩٦
وعيد اللاقط الذي لا يُعرِّف اللُّقطة ٩٨
النهي عن حلب المواشي بلا إذن أصحابها ٩٩
ابن السبيل وغيره يأكل من التمر ويشرب من اللبن إذا مرّ به ١٠٠
أبواب المساقاة والمزارعة والمضاربة ١٠٢
باب المخابرة ١٠٥
● **كتاب الإجارة** ١٠٧
الإجارة على رعي الغنم ١٠٧
الإجارة على إرشاد الطريق ١٠٨
الإجارة على الرقية ١٠٨
الإجارة على الحجامة ١١٠
وعيد من منع أجرة الأجير ١١١
إحياء الموات ١١١
القطائع ١١٢
الحِمَىٰ ١١٤
ترتيب سقي الأراضي بين الشركاء ١١٥
● **كتاب الصلح ومشروعيته** ١١٧
الصلح على الوضع من الحق ١١٨
الصلح بين المتقاتلين ١١٩
جواز الكذب في الصلح ١١٩
● **كتاب الهبة والهدية** ١٢١
تحريم الرجوع في الهبة إلا من الوالد لولده ١٢٢

الموضوع	الصفحة
قبول الهدية والثواب عليها	١٢٣
الهدية المحرّمة	١٢٤
ما لا يردّ من الهدية	١٢٤
الإهداء والأخذ ولو من شيء يسير	١٢٥
هدايا الكفار	١٢٦
باب الحثّ على الهدية	١٢٧
باب العُمْرى والرُّقْبى	١٢٧
● **كتاب الوقف**	١٢٩
فضل الوقف والتحبيس	١٣١
● **كتاب الوصايا**	١٣٢
الحثّ على الوصية	١٣٣
كيف كانت وصية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	١٣٣
الوصية لا تجوز فيما فوق الثلث	١٣٥
لا حقّ للوارث في الوصية	١٣٧
وجوب تأخير الوصية عن الدين	١٣٧
قضاء الدين قبل الإرث	١٣٨
الجور والمضارة في الوصية	١٣٨
كراهية تأخير التصدّق إلى وقت الاحتضار	١٣٩
كيف كان السلف يكتبون الوصية	١٤١
● **أحكام اليتامى**	١٤٢
كراهية تولّي مال اليتيم لمن كان ضعيفاً في القيام به	١٤٢
جواز مخالطة مال اليتيم وإصلاحه	١٤٣
جواز الأكل من مال اليتيم بالمعروف	١٤٣
متى ينقطع اليتم	١٤٤
● **كتاب الفرائض والمواريث**	١٤٦
تفصيل المواريث والفرائض سبب نزول آية المواريث	١٤٨
موانع الإرث	١٤٨

الموضوع	الصفحة

من ترك مالاً فلورثته ١٥٠
وجوب تقديم أهل الفرائض في القسمة ١٥٠
ميراث البنات والأخوات ١٥١
ميراث البنت والأخت مع بنت الابن ١٥١
ميراث الزوج والولد من المرأة ١٥٢
ميراث الإخوة من الأب والأم ١٥٢
ميراث العمّ والبنتين والزوجة ١٥٣
ميراث الكلالة ١٥٤
ميراث الأولاد، والأبوين والزوجين ١٥٦
ميراث ابن الابن إذا لم يكن ابن ١٥٦
ميراث الأب والجد والجدّة ١٥٧
ميراث المرأة من دية زوجها ١٥٨
ميراث ذوي الأرحام ١٥٩
الولاء لمن أعتق ووليّ النعمة ١٦٠
تحريم بيع الولاء وهبته ١٦١
ميراث الولاء بالإسلام ١٦١
توريث أهل القرية لمن لا وارث له ١٦٢
هل العبد يرث سيده ١٦٢
لا حلف في الإسلام ونسخ التوارث بالعقد ١٦٢
تركة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ١٦٤
● **كتاب أحكام الرقيق** ١٦٥
فضل العتق والترغيب فيه ١٦٦
أي الرقاب أفضل عتقاً ١٦٧
الإرشاد إلى العتق عند كسوف الشمس ١٦٧
حكم عتق العبد المشترك ١٦٨
العتق مع اشتراط استخدام العتيق ١٦٩
لا يجوز العتق مع الحاجة ١٦٩

الموضوع	الصفحة

من ملك ذا رحم عتق عليه ١٧٠
المكاتب ١٧٠
المكاتب عبد ما بقي عليه درهم ١٧١
بيع المدبر، وأمهات الأولاد ١٧٢
جواز استرقاق العرب ١٧٣
الإحسان إلى الرقيق وتحريم الاعتداء عليهم ١٧٤
● **كتاب الأطعمة** ١٧٦
فمن الآداب: التورّع عن اتّخاذ الموائد والمُشَهِّيَاتِ ١٧٦
الأدب مع الأكابر والتسمية على الطعام ١٧٧
الأكل باليمين والنهي عن الأكل بالشمال ١٧٩
التواضع في الجلوس للأكل ١٨٠
من صفة المؤمن إقلاله من الأكل ١٨٠
من الأدب أن لا يعاب الطعام ١٨٢
ذمّ الأكل من وسط القصعة ١٨٣
الإقران في التمر وغيره ١٨٣
نهش اللحم بالأسنان وانتشاله ١٨٤
جواز قطع اللحم بالسكين ١٨٤
إذا وقعت اللقمة ١٨٥
الاجتماع على الطعام ١٨٥
طعام الواحد يكفي الاثنين ١٨٦
ما يقال من الأذكار والأدعية بعد الطعام ١٨٧
الأكل بثلاثة أصابع ولعقها قبل مسحها أو غسلها ١٨٩
هل يُسَنُّ استعمالُ المنديل للمسح؟ ١٩٠
كراهية النوم مع وجود الدسم في اليد بدون غسل ١٩٠
إباحة الأكل في المسجد ١٩١
الأكل قائماً ١٩١
الأطعمة المحرمة والمكروهة الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله ١٩٢

الموضوع	الصفحة
تحريم أكل ذي ناب من السباع أو ذي مخلب من الطير	١٩٣
تحريم الحمر الأهلية والبغال	١٩٤
تحريم لحم الجلالة وألبانها والمجثمة المصبورة	١٩٥
تحريم أكل ما قطع من البهيمة وهي حيّة	١٩٦
الفواسق الخمس	١٩٧
الأمر بقتل الأوزاغ	١٩٨
الأمر بقتل الكلاب	١٩٩
النمل والنحل والهدهد والصرد	٢٠٠
سقوط الفأرة في السمن	٢٠١
الثوم والبصل والكرّاث	٢٠٢
خاتمة	٢٠٣
الأطعمة المباحة والتي كان النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم يأكلها وتعجبه أطعمة البحر	٢٠٣
حيوان البَرّ المُباح الخيل	٢٠٤
الضَّبُعُ	٢٠٥
لحم الضَّب	٢٠٥
الأرانب	٢٠٦
الدجاج	٢٠٧
الجراد	٢٠٧
أنواع من الأطعمة كان يأكلها النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم ذراع الشاة	٢٠٨
الشِّواء	٢٠٩
القديد والدباء والمرق	٢٠٩
الأقط واللبن	٢١٠
الأُدُمُ والخبز واللحم	٢١١
السويق	٢١١
القِثاء والرطب والبطيخ	٢١٢

الموضوع	الصفحة
الخـلّ	٢١٣
الجبن	٢١٤
الحلواء والعسل	٢١٤
الزُّبد والتَّمر	٢١٥
التمر	٢١٦
تفتيش التمر عند الأكل	٢١٦
مدح النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم الثريد	٢١٧
مدحه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم التلبينة	٢١٨
مدحه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم اللبن والتمر معاً	٢١٨
إرشاده صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم لأكل الزيت	٢١٩
من طعام الصحابة رضي اللّه تعالى عنهم السِّلْق والشعير	٢١٩
وَرَقُ الحُبْلَة	٢٢٠
الكَبَاث	٢٢٠
الزيت والملح	٢٢١
بيان ما يتناوله المضطر	٢٢٢
● **كتاب الصيد والذبائح**	٢٢٣
جواز اتخاذ الكلب للصيد	٢٢٣
إباحة الاصطياد	٢٢٤
الصيد بالمثقل	٢٢٧
منع الاصطياد لغير مصلحة	٢٢٨
كراهية الاصطياد للترفيه	٢٢٩
الذكاة وشروطها وبماذا تكون	٢٢٩
من شكّ في لحم بهيمة مذكاة هل سمّى اللّه عليها أم لا فليسمّ وليأكل	٢٣١
التذكية بالحجر	٢٣١
ذبائح الكفار	٢٣١
تحريم أكل ما ذبح على النُّصُب	٢٣٢
لعن من ذبح لغير اللّه تعالى	٢٣٤

الموضوع	الصفحة

تحريم أكل ما ذبح بلا إذن صاحبه ٢٣٤
ذكاة ما لم يقدر عليه ٢٣٥
ذكاة الجنين ٢٣٦
جواز أكل ذبيحة المرأة ٢٣٦
الإحسان بالحيوان ٢٣٧
● **الأضاحي وأحكامها** ٢٣٨
سنّية الأضحية ٢٣٨
وقت الأضحية وموضع ذبح الإمام ٢٣٩
السنّة أن يضحي الإمام في المصلى ٢٤٠
صفة الأضحية وما يقال عند ذبحها ٢٤٠
أقل ما يجزىء في سِنّ الأضحية ٢٤٢
ما لا يجزىء في الأضاحي ٢٤٢
ما يجب أن يتقى في الأضاحي ٢٤٣
التضحية بالإبل والبقرة والاشتراك فيهما ٢٤٥
الشاة الواحدة تجزىء عن أهل بيت ٢٤٦
الأضحية بالبقرة عن الأزواج ٢٤٦
ادّخار لحوم الأضاحي والتزوّد منها ٢٤٧
● **العقيقة** ٢٤٩
تسمية المولود غداة ولادته وتحنيكه ٢٤٩
مشروعية الأذان في أذن المولود ٢٥٠
إماطة الأذى عن المولود وإراقة الدم عنه ٢٥١
مشروعية العقيقة وأن كل مولود مرتهن بها وحلق رأسه وتلطيخه بزعفران ٢٥١
يُعقُّ للذكر شاتان وللأنثى شاة ٢٥٢
الفَرَع والعَتِيرَة ٢٥٣
نوع جائز من الفرع والعتيرة ٢٥٤
● **كتاب الأشربة** ٢٥٦

الموضوع	الصفحة
النهي عن الشرب في أواني الذهب والفضة	٢٥٦
الشرب من قيام منعاً وجوازاً	٢٥٧
اختناث الأسقية والشرب من فم السقاء	٢٥٩
النهي عن التنفس والنفخ في الإناء	٢٦٠
ماذا يقول من شرب لبناً	٢٦٢
التيمّن في الشرب الجماعي	٢٦٢
ساقي القوم آخرهم شرباً	٢٦٣
أحبّ الشراب إلى رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم	٢٦٤
شراب رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم في حياته	٢٦٤
شربه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم الماء البارد واللبن	٢٦٥
تكرر الأحاديث في شربه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم اللبن	٢٦٦
شربه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم النبيذ	٢٦٧
إيكاء الأسقية وتغطية الأواني	٢٦٩
تحريم الخمر وإراقتها	٢٧٠
إيراد ما يدلّ من السنة على تحريم الخمر مع الوعيد الوارد في شاربها ..	٢٧١
لعن اللّه في الخمر عشراً	٢٧٣
أصول الخمر والأشياء التي تتّخذ منها	٢٧٣
خلط التمر والزبيب ونحوهما في الانتباذ وأنه ينبذ كلٌ على حِدَةٍ	٢٧٥
ما جاء من النهي عن الانتباذ في الأوعية ونسخ ذلك	٢٧٥
النهي عن تخليل الخمر	٢٧٨
لا يجوز التداوي بالخمر	٢٧٨
● **كتاب المرض والطب**	٢٧٩
الابتلاء بالأمراض وغيرها وأشدّ الناس بلاء	٢٧٩
المؤمن كالخامة من الزرع	٢٨٠
شدّة المرض على رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم	٢٨١
المصائب والأمراض مكفّرات للخطايا	٢٨٢
فضل الحمّى والنهي عن سبّها	٢٨٣

الموضوع	الصفحة

المبتلى محبوب والعقوبة في الدنيا خير للمؤمن ومن أراد الله به خيراً أصاب منه ٢٨٤
إذا مرض العبد كتب له ما كان يعمله أيام صحته ٢٨٥
جزاء الصبر على البلاء ٢٨٦
فضل عيادة المرضى ٢٨٨
الدعاء مع المريض عند عيادته ٢٨٩
عيادة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه رجالاً ونساء وأطفالاً ٢٩١
عيادة الصحابة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ٢٩٣
الإذن في التداوي والحثّ عليه ٢٩٣
مشروعية الجمْيَة للمريض والعلاج الوقائي ٢٩٤
ما جاء في الطاعون ٢٩٦
الأدوية والعلاجات المنصوص عليها الأدوية المادية ٢٩٨
علاج الإسهال بالعسل ٢٩٩
العلاج بالحجامة ٣٠٠
أوقات الحجامة ٣٠١
العلاج بالكيّ ٣٠٢
العلاج بالحبة السوداء ٣٠٣
العلاج بالعود الهندي ٣٠٤
علاج الحمّى بالماء ٣٠٥
علاج عرق النسا ٣٠٦
علاج سيلان الدم بالرماد ٣٠٦
علاج العين بماء الكمأة ٣٠٧
علاج المفؤود بعجوة المدينة ٣٠٨
العلاج بالتلبينة لفؤاد المريض ٣٠٨
علاج السمّ ٣٠٩
التحفظ من السم والسحر بعجوة المدينة ٣١٠
علاج السحر ٣١١

الموضوع	الصفحة
التداوي من ضرر الذباب	٣١٤
العلاج بألبان وأبوال الإبل	٣١٥
علاج القمل	٣١٦
علاج الحكّة بالحرير	٣١٧
علاج البثرة بالذريرة	٣١٨
العلاج باللدود وكراهية النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم لذلك	٣١٨
منع التداوي بالحرام	٣١٩
تضمين من طب الناس وهو جاهل بالطب	٣٢٠
ما جاء في العدوى	٣٢٠
ما جاء في الطّيرة والفأل الحسن	٣٢٣
الكهانة والعرافة	٣٢٦
ما جاء في النجوم وما يتعلق بها	٣٢٩
من شروط الرقية	٣٣١
التداوي والعلاج بالرقي والتعاويذ مشروعية الرقية بالمعوذات وغيرها	٣٣٣
الرقية بالفاتحة وأخذ الأجرة على ذلك	٣٣٤
رقية المجنون بفاتحة الكتاب	٣٣٦
رقية جبريل عليه السلام النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم	٣٣٦
ما كان يرقي به النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم من الأذكار والأدعية أو يعلمها لأصحابه	٣٣٧
الرقية من العين والنظرة وأن العين حق	٣٤٠
الرقية من ذوات السموم ومن النملة	٣٤٣
الرقية لدفع الضر وجلب النفع في المستقبل	٣٤٤
تعليق التمائم	٣٤٥
التمائم المباحة	٣٤٦
تتمة	٣٤٧
فهرس الموضوعات	1

بداية الوصول
بلب صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

«نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها» حديث شريف صحيح

المجلد السادس

اللباس والزينة، الرؤيا والتعبير، النكاح، النفقات، الرضاع، الطلاق، الأيمان والنذور

دار ابن حزم

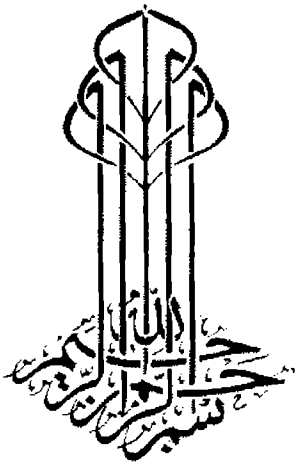
بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

كتـــاب اللباس والزينة

اللباس فيه ما هو واجب، وهو ما يواري العورات، وما يقي الجسم من الحرّ والبرد، وفيه ما هو مباح وهو ما زاد على ذلك مما يتزيّن ويتجمّل به، وفي ذلك يقول الله تعالى ممتناً علينا: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ الآية [الأعراف: ٢٦].

فذكر في هذه الآية النوعين: ما يغطّي السوأة والعورة من الجنسين، وما يتزيّن به، وهو المعبّر عنه بالريش، وقال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وسرابيل: جمع سربال وهو القميص أو كل ما يلبس، وقوله في الآية الأولى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا﴾ المراد بذلك أنه أنزل سبب اللباس وهو المطر، فإن جميع الألبسة مكوّنة من المطر فبه ينبت القطن والكتان، وبه يكون النبات والعشب الذي تعيش به المواشي ذوات الصوف كالغنم، وذوات الوبر كالإبل، وذوات الشعر كالمعز، ومن كل ذلك تكون الملابس، وقد قال في جملة هذه الأنعام ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: ٨٠]، وهناك مصادر أخرى للألبسة التي ظهرت حالياً، وهي الأشجار وأنواع النبات وغير ذلك، وباللباس امتاز الإنسان عن الحيوان والبهائم، فمن خرج عن هذه السنّة الإلهيّة وكشف سوأته من ذكر وأنثى فقد التحق بالحيوان الأعجم ولم يبق إنساناً.

❊ ❊ ❊

البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة

{٥٧٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كلوا واشربوا وتَصَدَّقُوا والْبَسُوا ما لم يُخالطْه إسرافٌ أو مَخِيلَةٌ»**.

رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧١/٥)، وابن ماجه (٣٦٠٥) بسند حسن أو صحيح، وذكره البخاري في أوّل كتاب اللّباس معلقاً مجزوماً به.

{٥٧٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: **«كل ما شئتَ، والبَسْ ما شئت ما أخطأَتْكَ خلَّتان: سرفٌ أو مَخِيلَةٌ»**.

رواه ابن أبي شيبة أيضاً (١٧١/٥)، وعبدالرزاق في المصنف بسند صحيح وعلّقه البخاري أيضاً (٣٦٦/١٢) بصيغة الجزم.

قوله: خلّتان ـ بفتح الخاء ـ: أي: خصلتان، وقوله: ما لم يخالطه هو معنى ما أخطأتك أي: تناول ما شئت من المباحات ما دامت كل خصلة من هاتين تجاوزك ولم تكونا فيك، وقوله: إسراف أو سرف، أي: مجاوزة الحدّ المطلوب شرعاً، وقوله: مخيلة على وزن عظيمة من اختال إذا تكبّر، فهي بمعنى الخيلاء وهو التكبّر.

والحديثان يدلاّن على إباحة كل ما أراده الإنسان من مأكول ومشروب وملبوس إذا لم يكن هناك مجاوزة للحد المشروع، كتناول ما فوق الحاجة، أو تهيئة أطعمة كثيرة ومختلفة ويرمي أكثرها... ومن الإسراف تناول الحرام أو شراء ما لا تدعو الحاجة إليه، ومن إسراف اللباس شراء الألبسة المرتفعة الأسعار جداً، أو شراء العديد منها مما لا يحتاج إليه، وباب الإسراف واسع جداً، وكذا يشترط فيما يتناوله المسلم أن لا يكون فيه تكبّر، ويدخل ذلك في كل شيء، ومنه اللباس، فيلبس الإنسان لبسة فارهة ويتعاظم في نفسه ويحتقر غيره من الضعفاء، وينظر في عطفيه فتعجبه نفسه فيصبح من الهالكين.

❋ ❋ ❋

ذمّ الإعجاب بالنفس وخطر مآل ذلك

{٥٧٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بينما رجل يمشي في حُلَّة تُعْجِبُه نَفْسُه، مُرَجَّلٌ جُمَّتَه إذ خسَف الله به فهو يَتَجَلْجَلُ إلى يوم القيامة**».

رواه البخاري (١٢/٣٧٢، ٣٧٣)، ومسلم (١٤/٦٣) كلاهما في اللّباس.

وفي رواية: «**بينما رجل يتبختر يمشي في بُرْدَيْه قد أعجبته نفسه**».

قوله: في حلّة، الحلّة عند العرب إزار ورداء، ولذا قال في رواية: «في برديه» وهو تثنية برد وهو كساء مخطّط كانوا يلتحفون به، وقوله: مرجل ـ بتشديد الجيم المفتوحة ـ: أي: ممشوط، جمّته ـ بضم الجيم وتشديد الميم ـ: وهو شعر رأسه إذا تدلّى... وقوله: يتبختر أي: يمشي مشية المتكبّرين، وقوله: يتجلجل ـ بجيمين ـ: أي: يسيخ وينزل في الأرض باضطراب وتدافع... وفي الحديث ذمّ أرباب الملابس الفخمة الثمينة المعجبين بها وبهيئتهم وجمال شعورهم وأنفسهم المتعاظمين المتغطرسين، قال القرطبي: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله تعالى، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم. والحديث يدلّ على أن إعجاب المرء بنفسه، وخاصة إذا كان ذا هيئة وجمال... هو من كبار الذنوب، فإن الخسف بالإنسان لا يكون إلا عن جريمة عظمى.

* * *

الحضّ على التظاهر بأثر نعم الله تعالى من العبد

{٥٧٩} ـ عن أبي الأحوص عن أبيه رضي الله تعالى عنه، قال: أتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعليَّ ثوبٌ دُونٌ، فقال لي: «**ألك مال**»؟ قلت: نعم، قال: «**من أي المال**»؟ قلت: من كل المال قد أعطاني الله تعالى من الإبل، والبقر، والغنم، والخيل، والرقيق، قال: «**فإذا أتاك الله تعالى مالاً فَلْيُرَ أثرُ نعمة الله تعالى عليك وكرامته**».

وبتهذيبي (٢٣٠١)، والحاكم (٦١/١) ح (١٨٣/٤)، والبيهقي (٣٧٣/٣) وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: حلل الإيمان، أي: ملابس أهل الإيمان.

وفي الحديث فضل من تواضع لله تعالى في لباسه وهيئته وزهد في الرفيع من الثياب، ولا شكّ في أفضلية ذلك، وسيأتي في الزهد عدّة أحاديث في الموضوع.

* * *

ذمّ لباس الشهرة

{٥٨٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من لبس ثوب شُهرة ألبسه الله يوم القيامة ثَوبَ مَذَلَّةٍ ثم تلهب فيه النار**».

رواه أحمد (١٣٩/٢، ٩٢)، وأبو داود (٤٠٢٩، ٤٠٣٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧، ٣٦٠٦) بسند حسن.

ولباس الشهرة هو الذي لا يعتاد الناس استعماله فيلفت الأنظار إليه، وقد يكون من الألبسة النفيسة الأنيقة، وقد يكون من الألبسة الدنيئة الساقطة التي يرفع الناس أبصارهم إلى لابسها، وقد يكون غير ذلك مما أراده النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

أنواع الملابس التي جاءت بها السنة المحمدية

القميص

{٥٨٤} ـ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم القميص. وفي رواية: كان

أحب الثياب إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يلبسه القميص.

رواه أبو داود (٤٠٢٥، ٤٠٢٦)، والترمذي (١٦١٩)، وفي الشمائل (٥٣، ٥٤، ٥٥)، وابن ماجه (٣٥٧٥)، والحاكم (١٩٣/٤) بسند حسن صحيح.

القميص: لباس قديم كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يلبسونه، وقد جاء ذكره في قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام. والحديث يدلّ على أنه كان أحبّ الثياب إلى نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، لأنه أستر لكل الجسم بلا معاناة؛ كالإزار والرداء.

{٥٨٥} ـ وعن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: كان كُمُّ قميص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الرُّسْغ.

رواه أبو داود (٤٠٢٧)، والترمذي (١٦٢١) بتهذيبي، وفي الشمائل (٥٦) وسنده حسن.

وشهر بن حوشب قال النووي في شرح مسلم: وثّقه كثيرون من أئمّة السلف، وتكلّم فيه بلا حجة.

الرسغ ـ بضمّ الراء وسكون السين، ويقال بالصاد ـ: هو مفصل ما بين الكفّ والساعد من اليد، والحديث يدلّ على أن السنّة في الكم أن لا يتعدّى الرسغ، وقد يكون تعديته من الإسبال الآتي.

{٥٨٦} ـ وعن معاوية بن قرة بن إياس رضي الله تعالى عنه عن أبيه رضي الله تعالى عنه، قال: أتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في رهط من مُزَيْنَة فبايعوه، وإنه لَمُطْلَق الأزْرار، فأدخلت يدي في جَيْب قميصه، فمسِسْت الخاتم، قال عروة: فما رأيت معاوية ولا ابنه قط في شتاء ولا حرّ إلا مطلقي أزرارهما...

رواه أحمد (٤٣٤/٣ و١٩/٤ و٢٥/٥)، وأبو داود (٤٠٨٢) وسنده صحيح، وتأتي أحاديث فيها ذكر قميص النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غضون الكتاب، وتقدم ذكر القميص في الحجّ، وفي الجنائز، وجاء في الأحاديث بكثرة. انظر الفتح (٣٨٠/١٢، ٣٨١).

الأزرار ـ بفتح الهمزة ـ: خيوط يشدّ بها جَيب القميص.

وفي الحديث بيان أن القميص غير مفتوح، وأن له جيباً وفتحة على الصدر يدخل منه الرأس، وأن الفتحة كان يشدّها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالخيوط، وفيه فضل معاوية ووالده قرّة وتمسّكهما بما رأيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يفعله في قميصه، فيكون شأنهما في غير ذلك أعظم وأشدّ اتّباعاً. وهذا من تمام المحبة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، فعلامة محبة الله ومحبة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هي الاتباع.

* * *

الجبّة

{٥٨٧} ـ عن المغيرة بن شعبة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لبس جبّة رومية ضيّقة الكمّين.

رواه البخاري في اللباس (٣٨٢/١٢) وفي مواضع، ومسلم في الطهارة في المسح على الخفّين وأهل السنن، وقد قدّمناه مطولاً في الطهارة.

قوله: جبّة رومية في رواية شامية، وفي أخرى: وعليه جبّة من صوف. والجبّة بضم الجيم وفتح الباء المشدّدة: هي مثل القميص غير أنها مفتوحة إلى أسفلها، وكان يلبسها الروم والعرب معاً، ولبسها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفره، وفي ذلك دليل على جواز لبس بعض الألبسة التي يتّفق فيها المسلمون والكفار، وما جاء في النهي عن التشبُّه بهم محمول على ما هو مختصّ بهم، أو ما يؤدّي إلى ذوبان الشخصية المسلمة في الشخصية الكافرة حتى لا يفرّق بين المسلم والكافر في المظهر؛ كحال وقتنا هذا الذي ذابت فيه شخصيتنا في شخصية الكفار، ولم يبق للمسلمين من مظاهرهم إلا اللسان، نسأل الله تعالى السلامة واللّطف آمين.

* * *

الإزار وقدر موضعه ووعيد إسباله

{٥٨٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: مررت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفي إزاري استرخاء، فقال: «**يا عبدالله ارفع إزارك**» فرفعته، ثم قال: «**زد**»، فزدت، فما زلت أتحرّاها بعد، فقال بعض القوم: إلى أين؟ فقال: «**أنصاف الساقين**».

رواه مسلم (٦٣/١٤)، وأحمد (٩٦/٢) مطوّلاً بنحوه.

{٥٨٩} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن الإزار، فقال: على الخبير سقطت قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إزرةُ المؤمن إلى نصفِ الساقِ، ولا حرج**» أو قال: «**لا جناحَ عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما كان أسفل من ذلك فهو في النار لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً**».

رواه مالك (١٧٦٤)، وأبو داود (٤٠٩٣)، وابن ماجه (٣٥٧٣) كلّهم في اللباس وسنده صحيح.

{٥٩٠} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: أخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعَضَلَةِ ساقي أو ساقِه، فقال: «**هذا موضع الإزار، فإن أبيت فأسفلُ، فإن أبيت فلا حَقَّ للإزار في الكعبين**»، وفي رواية: «**فمِن وراءِ السّاق**».

رواه الترمذي (١٦٣٦) بتهذيبي، والنسائي في الزينة (١٨٢/٨)، وابن ماجه (٣٥٧٢)، وابن حبان (١٤٤٧، ١٤٤٨) وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

{٥٩١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما أسفل الكعبين من الإزار في النار**».

رواه البخاري في اللباس (٣٧٠/١٢)، والنسائي في الزينة (١٨٣/٨).

{٥٩٢} ـ وعن عكرمة أنه رأى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يأتزر

فيضع حاشية إزاره من مقدمه على ظهر قدميه، ويرفع من مؤخره، قلت: لِمَ تأتزر هذه الإزرة؟ قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأتزرُها.

رواه أبو داود (٤٠٩٦) بسند صحيح.

الإزار ـ بكسر الهمزة ـ: عند العرب ما يأتزرون به ويغطّون به أسفل أجسامهم، وقوله: استرخاء، يعني: لم يكن عقده قوياً، فكان ينجرّ، وقوله: أنصاف الساقين وهو المعبّر عنه في الرواية الأخرى بعضلة الكعبين، والعضلة ـ بفتحات ـ: كل عضلة معها لحم غليظ، والساق ما رقّ من الرجل، وقوله: ما أسفل... في النار، قال الخطابي: يريد أن الموضع الذي يناله الإزار من أسفل الكعبين في النار، فكنى بالثوب عن بدن لابسه، ومعناه أن الذي دون الكعبين من القدم يعذّب في النار عقوبة له.

وقوله: بطراً ـ بفتح الطاء ـ: وهو الأشر وشدّة المرح، وقوله: إزرة المؤمن هو بكسر الهمزة وضمّها، هي الحالة وهيئة الائتزار.

وجملة هذه الأحاديث تدلّ على مشروعية الائتزار وأن السنّة أن يكون نهاية طول الإزار إلى نصف الساق فوق الكعب، وأنه لا حرج في الزيادة على ذلك لكن نهايته إلى الكعبين، فما كان تحت ذلك كان صاحبه آثماً معرّضاً للعقوبة يوم القيامة إذا لم يتب من ذلك، غير أن هذا الوعيد يجعل لمن يسبل إزاره ونحوه خيلاء ومرحاً بدليل الحديث التالي، وهو:

{٥٩٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من جرّ ثوبه خُيلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة»**، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله إن أحدَ شقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لستَ ممن يصنعه خُيلاء»**.

رواه البخاري (١٢/٣٦٧، ٣٦٨)، ومسلم (١٤/٦٠، ٦١، ٦٢)، وأبو داود (٤٠٨٥)، والنسائي في الزينة (٨/١٨٤)، وفي رواية: سمعتُ

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأذني هاتين، يقول: **«من جرّ إزاره لا يريد بذلك إلا المخيلة، فإن الله تعالى لا ينظر إليه يوم القيامة»**.

قوله: خيلاء والمخيلة، قال العلماء: الخيلاء بالمدّ والمخيلة والبطر والكبر والزهو والتبختر كلّها بمعنى واحد وهو حرام، وقوله: لا ينظر الله إليه، أي: نظر رحمة.

والحديث يدلّ على أن من جرّ إزاره بغير قصد فلا حرج عليه، فيكون الوعيد على من قصد الزهو والمخيلة.

❋ ❋ ❋

الإسبال يكون في كل الملابس

{٥٩٤} - عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«الإسبال في الإزار، والقميص، والعِمامة، من جرّ منها شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»**.

رواه أبو داود (٤٠٩٤)، وابن ماجه (٣٥٧٦) بسند حسن صحيح.

وفي الباب عن جماعة، وقوله: الإسبال: هو الإرخاء ويعني به هنا: إطالته وإرخاءه فوق المشروع، ففي الإزار والقميص ما كان تحت الكعبين، وفي العمامة ما كان زائداً على نحو ذراع... والله تعالى أعلم، ومما يلتحق بالإزار والقميص: السراويل وما أكثر مسبليها مع الخيلاء، فالواجب رفعها فوق الكعبين.

❋ ❋ ❋

الإذن في إسبال ذيول النساء

{٥٩٥} - عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قالت لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين ذكر

الإزار: فالمرأة يا رسول الله؟ قال: «**تُرْخِي شبراً**»، قالت أُمّ سلمة: إذاً ينكشف عنها؟ قال: «**فذراعاً لا تزيد عليه**».

رواه مالك في الموطأ (١٧٦٥)، وأبو داود (٤١١٧)، والنسائي في الزينة (١٨٥/٨) من طرق وسنده صحيح.

{٥٩٦} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، فقالت أُمّ سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخين شبراً**»، فقالت: إذاً تنكشف أقدامهن، قال: «**فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه**».

رواه الترمذي (١٥٨٩)، والنسائي في الزينة (١٨٤/٨)، وكذا عبدالرزاق (١٩٩٨٤) وسنده صحيح، وفي رواية عند أبي داود (٤١١٩) قال: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأُمّهات المؤمنين في الذيل شبراً ثم استزدنه فزادهنّ شبراً، فكنّ يرسلن إلينا فنذرع لهنّ ذراعاً، ورواه أيضاً ابن ماجه (٣٥٨١) وسنده صحيح.

قوله: بذيولهن جمع ذيل: وهو طرف الثوب الأسفل، وفي الحديث دليل على أن قدم المرأة عورة، وأنه يجب ستره، وأن ثوب المرأة يجب أن يكون ساتراً لجميع جسمها زائداً على القدمين بما فوق الشبر بحيث لا تظهر قدماها، فأحرى ساقاها، وقارن أيها المسلم بين هذه التعاليم الإسلامية وبين ما عليه النساء اليوم، وسيأتي مزيد لموضوع المرأة فيما بعد.

* * *

السراويل

{٥٩٧} ـ عن سُوَيْد بن قيس رضي الله تعالى عنه قال: جلبت أنا ومَخْرَفة العبدي بزّاً من هجر، فأتينا به مكّة، فجاءنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فساومنا سراويل، فبعنا منه فوزَن ثمنه، وقال للذي يزن: «**زِنْ وأرجح**».

رواه أبو داود (٣٣٣٦)، والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وقد تقدم في البيوع (٩٨).

وقوله: بزاً ـ بفتح الباء ـ: وهو نوع من الثياب.

وفي الحديث دليل على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اشترى السراويل، ولكنه لم يأتِ في حديث أنه لبسه، وهو يدلّ على مشروعية لبسه، وهو أحسن وأستر من الإزار، ولا شكّ أن السراويل كانت واسعة كما كانت معهودة إلى وقت قريب. أما السراويل الموجودة اليوم الضيّقة المحددة للعورات، فهي من اختراع الكفار الذين لا حياء لهم ولا مروءة ولا عقل، فاقتدى بهم وقلّدهم فيها المتمسلمون ومن تشبّه بقوم فهو منهم، ويأتي بعض هذا بعد القَباء.

* * *

القَبَاء

{٥٩٨} ـ عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنهما قال: قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أقْبِيَة فلم يُعط مخْرمة منها شيئاً، فقال مخرمة: يا بنيّ انطلق بنا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فانطلقت معه فقال: ادخل فادعه لي، قال: فدعوته له فخرج وعليه قَباء منها، فقال: «**خبأنا هذا لك**»، قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٣٨٣) وغيره، ومسلم في الزكاة (٧٥/١٤٧)، وأبو داود (٤٠٢٨)، والترمذي (٢٦٢٨) بتهذيبي، والنسائي في الزينة (٨/١٨١) وغيرهم.

أقبية جمع قباء ـ بفتح القاف ـ: هو ثوب كالقميص له فرجة وراءه كان يلبس فوق الثياب، وخاصة في السفر.

والحديث يدلّ على جواز لباس مثل هذا الثوب على هذه الصفة، وقد جاء في رواية عند البخاري (١٢/٤٣٢) وغيره: فخرج وعليه قباء من ديباج

مزرّر بذهب، فقال: «**يا مخرمة هذا خبّأته لك**»، فأعطاه إياه. والديباج: الحرير، ولا شكّ أن هذا كان قبل تحريم الحرير والذهب على الرجال، وكان أعطاه لمخرمة تأليفاً له لأنه كان قد تأخر إسلامه إلى يوم الفتح.

* * *

الحِبَرة

{٥٩٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أحب الثياب إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يلبسها الحبرةُ.

رواه البخاري (٣٩١/١٢)، ومسلم (٥٦/١٤)، وأبو داود (٤٠٦٠)، والترمذي (١٩٤٠)، والنسائي (١٧٩/٨).

الحبرة ـ بكسر الحاء وفتح الباء ـ: نوع من البرود اليمنية بخطوط حمر، وقد تكون زرقاً أو خضراً كانت تصنع في اليمن، وكانت أشرف ثيابهم، وقيل لها: حبرة لأنها كانت محبرة، أي: مزيّنة، والتحبير التزيين.

والحديث يدلّ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يلبس أحياناً النفيس من الثياب، وجاءت بذلك أحاديث كثيرة.

* * *

الكساء الملبّد

{٦٠٠} ـ عن أبي هريرة رحمه الله تعالى قال: دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمّونها الملبّدة، قال: فأقسمتْ بالله أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبض في هذين الثوبين.

رواه البخاري (٣٩٢/١٢)، ومسلم (٥٧/١٤)، كلاهما في اللباس.

قوله: الملبدة ـ بضم الميم وفتح اللام والباء المشدّدة ـ: أي: ضرب

بعضها في بعض حتى تتراكب وتجتمع، والكساء: الرداء وغيره مما يلتحف به على عادة العرب.

وجاءت أحاديث كثيرة فيها ذكر بعض الأكسية، كالخميصة والأنبجانية والأردية والبرانس والنمرة والشملة والبرد وغير ذلك، تقدم بعضها في الصلاة وفي الجنائز وفي الحجّ.

❊ ❊ ❊

اشتمال الصماء والاحتباء في الثوب الواحد

{٦٠١} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن اشتمال الصماء وأن يحتبي الرجل في ثوب واحد ليس على فرجه منه شيء.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٣٩٣) وفي مواضع، ومسلم في البيوع رقم (١٥١٢) وغيرهما.

{٦٠٢} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو محتبٍ بشملة، وقد وقع هَدَبُها على قدمَيْه.

رواه أبو داود (٤٠٧٥) في اللباس، وابن حبان (١٢٢١) بالموارد وسنده حسن.

الشملة: من أكسية العرب التي كانوا يأتزرون بها أو يرتدونها، والاحتباء: أن يجمع الإنسان بين ظهره ورجليه بمئزر ونحوه ليكون شبيهاً بالمستند إلى شيء، وقد تكرّر هذا في الحديث. والاحتباء في الثوب الواحد الممنوع هو أن يكون مع كشف العورة، واشتمال الصماء: هو أن يلتحف بثوب ويتلفّف فيه ولا يترك موضعاً منه لإخراج يديه وقد تقدم ذلك في الصلاة.

❊ ❊ ❊

العمائم
سدل العذبة بين الكتفين من العمامة السوداء

{٦٠٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء.

رواه مسلم (٩/١٣٣)، وأبو داود (٤٧٦)، والترمذي (١٥٩٣) بتهذيبي، والنسائي (٨/١٨٦)، وابن ماجه (٣٥٨٥).

{٦٠٤} ـ وعن عمرو بن حُرَيْث رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرْخَى طَرَفَيْها بين كتِفَيْه.

رواه مسلم في الحجّ (٩/١٣٢، ١٣٣)، وأبو داود (٤٠٧٧)، والنسائي (٨/١٨٦)، وابن ماجه (٣٥٨٧).

{٦٠٥} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا اعتمّ سدل عمامته بين كتفيه، قال نافع: وكان ابن عمر يسدل عمامته بين كتفيه، قال عبدالله: رأيت القاسم وسالماً يفعلان ذلك.

رواه الترمذي (١٥٩٤) وهو وإن كان في سنده يحيىٰ بن محمد المديني وفيه كلام مع عدالة باقي السند، فإن ما قبله يؤيّده.

العمامة: كل ما يلفّ على الرأس، واعتمّ ـ بتشديد الميم ـ: لفّ العمامة وكورها على رأسه، وقوله: أرخى أي: سَدَلَ وأرسل.

وفي هذه الأحاديث مشروعية لبس العمامة، وبالأخصّ السوداء، وهو أصح ما جاء عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك، وصح عنه أنه كان يصبغها صفراء كما يأتي. أما لبسه العمامه البيضاء، فلم يأتِ ذلك في حديث. نعم صحّ عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مدح البياض والإرشاد إلى لبسه كما يأتي وفي حديثي ابن عمر وعمرو بن حريث

مشروعية إرخاء طرفي العمامة بين الكتفين، هكذا جاء طرفي، وفي رواية طرف بالإفراد، وينبغي أن لا تطال العذبة التي ترخى من العمامة فلا تزاد على الذراع لئلا تدخل في الإسبال الممنوع، وللكلام في هذا موضع آخر إن شاء الله تعالى، وقد ألّف جماعة في العمامة منهم الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ألوان الثياب الواردة في السنة

الأبيض

{٦٠٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**البَسُوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم**».

رواه أبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي في الجنائز (٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٦٦) وغيرهم بسند صحيح، وتقدم في الجنائز ونحوه عن سمرة، وفيه: فإنها أطهر وأطيب، رواه الترمذي في الأدب والنسائي في الزينة (٨/١٨١)، والحاكم (٤/١٨٥)، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم والذهبي.

ففي الحديثين الإرشاد إلى لبس البياض وبيان أنه من خير ثيابنا وأنه أطهر وأطيب من غيره، وليس في الحديثين أنه خير الثياب، فإن الأخضر أفضل لأنه لباس أهل الجنّة.

❊ ❊ ❊

الأخضر

{٦٠٧} ـ عن أبي رِمْثَة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعليه ثوبان أخضران.

رواه أحمد (٢/٢٢٧، ٢٢٨)، وأبو داود (٤٠٦٥)، والترمذي في الأدب (٢٦٢٢)، والنسائي في الزينة (٨/١٨٠)، ورواية الترمذي: وعليه بردان أخضران، وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي وتقدم في الحج حديث طوافه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مضطبعاً ببرد أخضر، والبرد كساء مربّع، وقد تكرّر في الحديث كثيراً.

والحديث يدلّ على جواز لبس الأخضر، ولا شكّ أن له خصوصية لا توجد في غيره، كباقي الخضرة، فإن النفوس تحبها وتميل إليها بالطبع، والخضرة لها خاصية في إذهاب الهموم وجلب الفرح، ولذلك اختار الله تعالى لأهل الجنّة اللباس الأخضر لتدوم عليهم الأفراح والسرور.

* * *

الأصفر

{٦٠٨} ـ عن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يصبغ لحيته بالصفرة حتى تمتلىء ثيابه من الصفرة، فقيل له: لم تَصْبُغ بالصفرة؟ فقال: إني رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَصْبُغ بها، ولم يكن شيءٌ أحبّ إليه منها، وقد كان يصبغ بها ثيابه كلها حتى عِمامَته.

رواه أحمد وأبو داود (٤٠٦٤) واللفظ له، والنسائي (٨/١٦٢، ١٦٣) بسند صحيح.

وفي الموطأ عن نافع رحمه الله تعالى أن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يلبس الثوب المصبوغ بالمِشْق، والثوب المصبوغ بالزعفران (١٧٥٦) وسنده صحيح.

{٦٠٩} ـ وعن عُبَيْد بن جُرَيْج أنه قال لعبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: رأيتك تصنع أربعاً لم أرَ أحداً من أصحابك يصنعها، قال: ما هي يا ابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمسّ من الأركان إلا اليمانيين، ورأيتك تلبس

النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال، ولم تهلّ أنت حتى كان يوم التروية، فقال له عبدالله بن عمر: أما الأركان، فإني لم أرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يمس إلا اليمانيين، وأما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة، فإني رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها، وأما الإهلال فإني لم أرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يهلّ حتى تنبعث به راحلته.

رواه البخاري في الحجّ وفي اللباس (١٢/٤٢٥، ٤٢٦)، ومسلم في الحجّ (٨/٩٣).

{٦٩٠} ـ وعن أُمّ خالد بنت خالد رضي الله تعالى عنهما قالت: أتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفر، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «سَنَه سَنَه» ـ وهي بالحبشية حسنة حسنة ـ: قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوّة فزبرني أبي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «دعها»، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أبْلِي وأخْلِقِي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٥٢٤)، وفي الأدب (١٣/٣١).

قوله: النعال السبتية، أي: التي دبغت وقطع شعرها، وقوله: الإهلال أي: رفع الصوت بالتلبية عند الإحرام... وقوله: حتى تنبعث إلخ، أي: حتى تقوم به ناقته، وقوله: فزبرني أي: زجرني، وقوله: أبلي وأخلقي: هو دعاء معها بالبقاء حتى يبلى ويخلق ذلك الثوب.

وفي هذه الأحاديث دليل على جواز استعمال اللباس الأصفر، وحديث ابن عمر صريح في أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يحب الصفرة حتى كان يصبغ بها ثيابه وعمامته، وهو يرد على من قال: إن صبغه كان للحيته فقط.

أمّا ما ورد من النهي عن التزعفر، فهو خاص بالمحرم. قال الحافظ: قال ابن بطال رحمه الله تعالى: أجاز مالك وجماعة لباس الثوب المزعفر للحلال، وقالوا: إنما وقع النهي عنه للمحرم خاصة، وحمله الشافعي والكوفيون على المحرم وغير المحرم. قال الحافظ: وحديث ابن عمر الآتي في باب النعال السبتية يدلّ على الجواز، فإن فيه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يصبغ بالصفرة.

* * *

الأحمر

{٦١١} ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مربوعاً، وقد رأيته في حلّة حمراء ما رأيت شيئاً أحسن منه.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٤٢٢) وغيره، ومسلم في الفضائل (١٥/٩١)، وأبو داود (٤٠٧٢)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي في الزينة (٨/١٧٩)، وابن ماجه (٣٦٩٩)، وسيأتي بلفظ آخر في شمائله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٦١٢} ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ليلة إضْحيَان، فجعلت أنظر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإلى القمر وعليه حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر.

رواه الترمذي في الجامع (٢٦٢٠)، وفي الشمائل (٩)، والدارمي (٥٨)، والخطيب في التاريخ (٢/٣٥٤) وحسنه الترمذي ونقل عن البخاري تصحيحه.

قوله: في حلّة، الحلة عند العرب تطلق على إزار ورداء، وقد تطلق على مطلق الكساء، وقوله: إضحيان ـ بكسر الهمزة وسكون الضاد وكسر الحاء ـ: أي: مقمرة مضيئة.

واختلف العلماء في هذه الحلة الحمراء، قيل: إنها كانت حمراء بحتة، فيكون ذلك دليلاً على جواز لباس الأحمر، ويؤيّد ذلك أيضاً:

{٦١٣} ـ حديث عامر، قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمنى يخطب على بغلة وعليه برد أحمر، وعليّ رضي الله تعالى عنه أمامه يعبر عنه.

رواه أبو داود (٤٠٧٢) بسند صحيح، فقوله: برد أحمر ظاهر في أنه كان أحمر كلّه. وقال بعضهم: إن ما ورد من لباسه الأحمر المراد به المخطط بالأحمر، ورجّح هذا ابن القيم وأطال في ذلك في الهدي النبوي، ويؤيّد هذا القول ورود النهي عن لباس الأحمر كالآتي.

{٦١٤} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: رأى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عليّ ثوبين معصفرين، فقال: «**إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها**»، وفي رواية فقال: «**أأمك أمرتك بهذا**»؟ قلت: أغسلهما، قال: «**بل أحرقهما**»، وفي أخرى: «**اذهب فاطرحهما عنك في النار**».

رواه مسلم في اللباس (١٤/٥٢، ٥٤، ٥٥)، والنسائي في الزينة (٨/١٧٩)، وكذا رواه أحمد (٢/١٦٢، ١٩٣، ٢٠٧)، ورواه أبو داود (٤٠٦٦) بسياق آخر، قال: هبطنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من ثنية، فالتفت إليّ وعليَّ رَيْطةٌ مُضَرَّجةٌ بالعصفر، فقال: «**ما هذه الريطة عليك**»؟ فعرفت ما كره، فأتيت أهلي وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيه، ثم أتيته من الغد فقال: «**يا عبدالله ما فعلت الريطة**»؟ فأخبرته فقال: «**ألا كسوتَها بعض أهلك، فإنه لا بأس به للنساء**».

ورواه أيضاً ابن ماجه (٣٦٠٣) وسنده حسن بهذا السياق.

{٦١٥} ـ وعن عبدالله بن حنين قال: سمعت عليّاً رضي الله تعالى عنه قال: نهاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا أقول نهاكم عن لبس المعصفر.

رواه ابن ماجه (٣٦٠٢) بهذا السياق، وهو عند مسلم وأبي داود وغيرهما مطوّلاً ويأتي في فصل الذهب.

(٦١٥م) وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن المُفَدَّم، قيل للحسن: ما المفدم؟ قال: المشبع بالعصفر.

رواه ابن ماجه (٣٦٠١) وهو صحيح لشواهده، وقال عنه البوصيري هذا إسناد صحيح.

قوله: معصفرين، أي: مصبوغين بالعصفر، وقوله: ريطة هي الملاءة التي يشتمل ويلتحف بها على عادة العرب، وقوله: مضرجة ـ بضم الميم وفتح الضاد والراء المشدّدة المفتوحة وآخره جيم ـ: هي ما صبغ بالحمرة فوق المورد ودون المشبع، وقوله: المفدم ـ بضم الميم وفتح الفاء والدال المشدّدة ـ: كذلك، وهو الذي تناهى في الحمرة.

فهذه أحاديث صحيحة صريحة في النهي عن المعصفر والمصبوغ بالعصفر يكون لونه أحمر كما هو معروف. وظاهر هذه الأحاديث تعارض ما سبق قبلها، ولذلك اختلف العلماء اختلافاً كثيراً في اللباس الأحمر حتى حكى الحافظ في الفتح سبعة مذاهب في ذلك، ثم قال في النهاية: والتحقيق في هذا المقام أن النهي عن لبس الأحمر إن كان من أجل أنه لباس الكفار فالقول فيه كالقول في الميثرة الحمراء كما سيأتي، وإن كان من أجل أنه زيّ النساء فهو راجع إلى الزجر عن التشبّه بالنساء، فيكون النهي لا لذاته، وإن كان من أجل الشهرة أو خرم المروءة فيمنع حيث يقع ذلك، وإلا فيقوى ما ذهب إليه مالك من التفرقة بين المحافل والبيوت.

والذي نراه وندين الله تعالى به منذ زمان هو ما جمع به ابن القيم في الهدي النبوي، من أن الأحمر الذي لبسه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو المخطط بخطوط حمر، وما عداه فمنهيٌّ عنه، وهو الذي كان يختاره أستاذنا الحافظ أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى وإيانا.

أما قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن هذه من لباس الكفار فلا تلبسها»**، فله موضع خاص يأتي إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

الأسود

{٦١٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صنعت لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بردة سوداء فلبسها، فلمّا عرق فيها وجد ريح الصوف فقذفها، وكان تعجبه الريح الطيّبة.

رواه أحمد (٦/١٤٤، ٢١٩)، وأبو داود (٤٠٧٤)، والحاكم (٤/١٨٨، ١٨٩) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: بردة سوداء، في رواية: جبة من صوف سوداء.

والحديث يدلّ على مشروعية اللباس الأسود ولا خلاف في ذلك، وتقدم أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لبس العمامة السوداء، وجاء في بعض روايات حديث أُمّ خالد المتقدم في اللباس الأخضر أنه أُوتي بخميصة سوداء إلخ، رواه البخاري في اللباس (١٢/٣٩٤).

❋ ❋ ❋

الصوف والشعر

{٦١٧} ـ عن أبي بردة عن أبيه قال: قال لي: يا بنيّ لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أصابتنا السماء لَحَسِبْت أنّ رِيحَنَا رِيحُ الضَّأنِ.

رواه أبو داود (٤٠٣٣)، والترمذي (٢٤٧٩) في صفة القيامة، وابن ماجه (٣٥٦٢) بسند صحيح، وصححه الترمذي. قال الترمذي: ومعنى هذا

الحديث أنه كان ثيابهم الصوف، فإذا أصابهم المطر يجيء من ثيابهم ريح الضأن، فلباس الصوف كان عندهم معهوداً، وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ممن يلبسه كما تقدّم في حديث عائشة السابق: «جبة من صوف سوداء» وتقدم في الطهارة وغيرها حديث المغيرة: «فغسل وجهه ويديه وعليه جبة من صوف...» الحديث، وهو في الصحيح.

{٦١٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعر أسود.

رواه مسلم (٥٧/١٤)، وأبو داود (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٦٢٣) بتهذيبي، وفي الشمائل (٦٧).

وقوله: مرط ـ بكسر الميم وسكون الراء آخره طاء ـ: هو كساء يكون من صوف أو شعر كما هنا، وقوله: مرحّل ـ بضمّ الميم وفتح الراء والحاء المشدّدة ـ: أي: عليه صور الرحال، وفي الحديث ما كان عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من التواضع في أحواله وجميع شؤونه، ومنها اللباس فها هو يلبس الصوف والشعر ولا يستنكف من ذلك ولم يكن يتكلّف في لباسه وشؤون حياته، وهكذا كان أصحابه رضي الله تعالى عنهم حتى نساؤهم كن يلبسن المروط كما تقدم في كتاب الصلاة، وسيأتي مزيد لهذا الموضوع في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى.

* * *

النعال والانتعال

{٦١٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا خلع فليبدأ بالشمال**»، وقال: «**لا يمشِ أحدكم في نعل واحدة ليحفهما جميعاً أو لينعلهما جميعاً**»، وفي رواية: «**ولتكن اليمنى أوّلهما تنعل، وآخرهما تنزع**»، وفي رواية: «**وإذا انقطع شِسْعُ نعل أحدكم فلا يمش في الأخرى يصلحها**».

رواه البخاري (٤٢٧/١٢، ٤٢٩)، ومسلم (٧٤/١٤)، وأبو داود (٤١٣٩)، والترمذي (١٦٢٨)، وفي الشمائل (٧٧)، وابن ماجه (٣٦١٧)، وهو في الموطأ (١٧٦٦) كلّهم في اللباس.

قوله: إذا انتعل أي: لبس النعال، وقوله: ليحفهما ـ بضم الياء ـ: أي: **ليخلعهما، وقوله:** شسع ـ بكسر الشين وسكون السين ـ: هو السير الذي يشدّ به النعل في الزمام.

{٦٣٠} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا انقطع شِسْع أحدِكم فلا يمش في نعل واحدة حتى يُصْلِح شِسْعه، ولا يمشِ في خفٍّ واحد ولا يأكل بشماله»**.

رواه مسلم (٧٦/١٤)، وأبو داود (٤١٣٧).

{٦٣١} ـ **وعنه قال:** نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ينتعل الرجل قائماً.

رواه أبو داود (٤١٣٥) بسند صحيح على شرط مسلم، ورواه الترمذي (١٦٢٩)، وابن ماجه (٣٦١٨) عن أبي هريرة بسند صحيح، وعن ابن عمر عند ابن ماجه (٣٦١٩)، وعن أنس عند الترمذي (٢٦٣٠).

{٦٣٢} ـ وعنه جابر أيضاً قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفر، فقال: **«أكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل»**.

رواه مسلم (٧٣/١٤)، وأبو داود (٤١٣٣).

{٦٣٣} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحبّ التيمّن ما استطاع في شأنه كلّه في طهوره وترجّله وتنعّله.

رواه البخاري (٢٨٠/١)، ومسلم (١٦١/٣)، وأبو داود (٤١٤٠)، والنسائي في الطهارة والترمذي في الصلاة، وقد تقدم.

{٦٢٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا لبستم وإذا توضأتم فابدأوا بأيامنكم**».

رواه أبو داود (٤١٤١)، وابن حبان (١٤٧)، وابن ماجه في الطهارة (٤٠٢) وسنده صحيح.

قوله: وترجّله تعني: تسريح شعره.

هذه الأحاديث تدلّ على أحكام وآداب ونجملها في الآتي:

أولاً: مشروعية لبس النعال وهو من تمام الزينة والترفيه وشرع لدفع الأذى والضرر عن الرجلين، وكانت نعال العرب ساذجة لا كأحذية غيرهم من الأمم المعاصرة لهم ولا كأحذية من جاء بعدهم إلى عصرنا.

ثانياً: يشرع الانتعال من جلوس لا من قيام، وهذا طبعاً يحتاجه من يربط سيور أحذيته.

ثالثاً: إذا انقطع الحذاء أو عرض له عارض أذى إلى عدم استعماله لا يمشي في حذاء واحد، لما في ذلك من المثلة والتشويه ومخالفة الوقار فيتأكد عليه خلع الباقي، ولا بدّ.

رابعاً: يستحبّ تعداد الأحذية، فإنها مركوب الإنسان ووقايته من أذى الطريق.

خامساً: مشروعية التيمّن في لبسها وتأخير نزعها بحيث تكون اليمنى أوّلهما تلبس وآخرهما تنزع، كما في الحديث، وهذا من المواضع التي تسنّ فيه البداءة باليمين، وقد أجمع العلماء على سنّة ذلك. قال النووي رحمه الله تعالى: قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمين في كل ما كان من باب التكريم والتزيين، وما كان بضدّها استحبّ فيه التياسر.

وقال أيضاً مفصّلاً ذلك: يستحبّ البداءة باليمنى في كل ما كان من باب التكريم والزينة والنظافة ونحو ذلك؛ كلبس النعل والخفّ والمداس والسراويل والكم وحلق الرأس وترجيله وقصّ الشارب ونتف الإبط والسواك والاكتحال وتقليم الأظفار والوضوء والغسل والتيمّم ودخول المسجد

والخروج من الخلاء ودفع الصدقة وغيرها من أنواع الدفع الحسنة، وتناول الأشياء الحسنة ونحو ذلك، ويستحب البداءة باليسار في كل ما هو ضدّ السابق، فمن ذلك خلع النعال والخفّ والمداس والسراويل والكمّ والخروج من المسجد ودخول الخلاء والاستنجاء وتناول أحجار الاستنجاء ومسّ الذكر والامتخاط والاستنثار وتعاطي المستقذرات وأشباهها، ذكره في شرح مسلم وشرح المهذب، الأول في اللباس، والثاني في الطهارة.

❊ ❊ ❊

ما يقال عند لبس الثوب ونحوه

{٦٣٥} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا استجد ثوباً سمّاه باسمه عمامة أو قميصاً أو رداء، ثم يقول: «**اللّهمّ لك الحمد أنت كَسَوْتَنِيهِ أسألك خيره وخير ما صُنِعَ له، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له**».

رواه أبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٦٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٨٥)، وصححه الترمذي والحاكم (١٩٢) وصححه على شرط مسلم.

{٦٣٦} ـ وعن معاذ بن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقَنِيه من غَيرِ حولٍ مني ولا قوّة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه**».

رواه أحمد (٣/٤٣٩)، والترمذي (٣٢٣٢)، وأبو داود (٤٠٢٣) وسنده حسن، وتقدم في الأطعمة.

{٦٣٧} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى على عمر قميصاً أبيض، فقال: «**ثوبك هذا غسيل أم جديد**»؟ قال: لا، بل غسيل. قال: «**الْبَس جديداً وعِشْ حميداً ومُتْ شهيداً**».

رواه أحمد (٨٩/٢)، وابن ماجه (٣٥٥٨) وسنده صحيح رجاله رجال الشيخين.

قوله: استجدّ أي: لبس ثوباً جديداً، وقوله: خيره أي: بقاءه ونقاءه وكونه ملبوساً للحاجة، وقوله: وخير ما صنع له، أي: لاتّقاء الحر والبرد وستر العورة ولطاعة الله تعالى فيه، وشره عكس ذلك.

وفي الحديثين مشروعية تسمية ما اقتناه الإنسان من ملابس وحمد الله تعالى على تيسيره ذلك له، والاعتراف له بأنه تعالى هو الذي أوجده وجاءه به من غير أن تكون له يد في خلقه ورزقه. وفي حديث معاذ فضل عظيم لمن قال ما ذكر فيه، وأن ذلك يوجب غفران ما تقدم من الذنوب، وفي حديث ابن عمر علم من أعلام النبوّة، فإن ما دعا به صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لسيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه وقع له في حياته، كما دعا.

❊ ❊ ❊

ما جاء في الذهب والفضة والحرير

{٦٢٨} ـ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من شرب في إناء من ذهب أو فضة، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم»**.

رواه الشيخان وتقدم في الأشربة (٤١٣).

{٦٢٩} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»**.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وتقدم أيضاً في الأشربة رقم (٤١٢).

وفي الحديثين المنع من استعمال الذهب والفضّة والحرير وتحريم ذلك

على الرجال، لا خلاف فيه إلا ما رخّص فيه من خاتم الفضّة ولبس الحرير لمن به جرب أو قمل كما يأتي.

* * *

إباحتهما للنساء

{٦٣٠} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أُمّتي، وأحل لإناثهم**».

رواه أحمد (٣٩٢/٤)، والطيالسي (١٨٢٠)، والترمذي (١٥٧٨) بتهذيبي، والنسائي (١٣٩/٨) وحسنه الترمذي وصححه، كما صححه البغوي والعراقي وغير واحد، وذلك لشواهده عن عليّ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله، ثم قال: «**إن هذين حرام على ذكور أُمّتي، حِلٌ لإناثهم**».

رواه أحمد (١١٥/١)، والنسائي (١٣٨، ١٣٩)، وأبو داود (٤٠٥٧)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، وشاهد آخر عن عبدالله بن عمرو رواه ابن ماجه (٣٥٩٧).

وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «حلّ لإناثهم» فيه دليل على إباحة الذهب والحرير للإناث، ولا خلاف في ذلك، بل نقل الإجماع على حلية الذهب للنساء كل من الجصّاص في أحكام القرآن، والبيهقي في السنن الكبرى، والنووي في شرح مسلم، والحافظ في الفتح، فمن حرم ذلك عليهنّ مطلقاً من بعض المعاصرين فقد شذّ وخرق الإجماع وذلك يعدّ عظيماً عند العلماء.

* * *

ما جاء في تحريم الحرير على الرجال إلا ما استثني

{٦٣١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»**.

رواه البخاري (٤٠٣/١٢)، ومسلم (٥١/١٤) كلاهما في اللباس، ونحوه عن عمر وأبي أُمامة وهما في الصحيح.

{٦٣٢} ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة»**.

رواه البخاري (٤٠٥/١٢، ٤٠٦)، ومسلم (٣٩/١٤، ٤٠) مطوّلاً كلاهما في اللباس.

{٦٣٣} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأى عمر رضي الله تعالى عنه عطارداً التميمي يقيم بالسوق حلّة سيراء، وكان رجلاً يغشى الملوك ويصيب منهم، فقال عمر: يا رسول الله إني رأيت عطارداً يقيم في السوق حلة سيراء فلو اشتريتها فلبستها لوفود العرب إذا قدموا عليك، وأظنّه قال: ولبستها يوم الجمعة، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة»**، فلمّا كان بعد ذلك أتي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بحلل سيراء، فبعث إلى عمر بحلّة وبعث إلى أُسامة بن زيد بحلّة، وأعطى عليّ بن أبي طالب حلّة، وقال: **«شققها خُمُراً بين نسائك»**، قال: فجاء عمر بحلّته يحملها، فقال: يا رسول الله بعثت إليّ بهذه، وقد قلت بالأمس في حلة عطارد ما قلت، فقال: «إني لم أبعث بها إليك لتلبسها، **ولكن بعثت بها إليك لتصيب بها»**، وأمّا أُسامة فراح في حلّته فنظر إليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نظراً عرف أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد أنكر ما صنع، فقال: يا رسول الله ما تنظر إليّ، فأنت

بعثت إليَّ بها! فقال: **«إني لم أبعث إليك بها لتلبسها، ولكن بعثت بها لتُشَقِّقَها خُمُراً بين نسائك»**.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٤١٤، ٤١٥)، وفي الجمعة وفي العيدين وفي البيوع وفي الجهاد، ومسلم في اللباس (١٤/٣٩، ٤١) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٤٠، ٤٠٤١)، والنسائي (٨/١٧٣) وغيرهم.

{٦٣٤} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: أهدي لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فَرُّوج حرير فلبسه ثم صلّى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً كالكاره، ثم قال: **«لا ينبغي هذا للمتقين»**.

رواه البخاري في الصلاة وفي اللباس (١٢/٣٨٤)، ومسلم فيه (١٤/٥١، ٥٢).

قوله: لا خلاق له إلخ، أي: لا حظّ ولا نصيب له عند الله في الآخرة، وهذا وعيد شديد. وقوله: سيراء، في رواية: حلة من استبرق، وفي أخرى: حلة سندس، وفي أخرى: قباء من ديباج أو حرير، وكلها متقاربة ومؤدّاها واحد، فقوله: سيراء ـ بكسر السين وفتح الياء والراء الممدودة آخره همزة ـ: اختلفوا في معناه، فقيل: هي برود يخالطها حرير، وقيل: هي ثياب مختلفة الألوان، وقيل: إنها حرير محض، وهذا الأخير هو الصحيح للروايات التي ذكرناها من استبرق، وسندس، وديباج أو حرير، فإنها صريحة بأن تلك الحلّة كانت حريراً محضاً، قال النووي: وهو الصحيح الذي يتعيّن القول به في هذا الحديث جمعاً بين الروايات، ولأنها هي المحرمة. أما المختلط بالحرير وغيره فلا يحرم إلا أن يكون الحرير أكثر...

وقوله: بعثت بها إليك لتصيب منها، وفي رواية: فبعث بها عمر إلى أخ له مشرك بمكّة، وسيأتي ذلك في الأدب. وقوله: شققها خمراً بين نسائك، في رواية: بين الفواطم، وهنّ: فاطمة بنت سيد العالمين عليه وعليها الصلاة والسلام، وفاطمة بنت أسد والدة الإمام عليّ، وفاطمة بنت حمزة، وفاطمة بنت شيبة امرأة عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم. وقوله: فروج ـ بفتح الفاء وضمّ الراء المشدّدة ـ: هو القباء ـ بفتح القاف ـ:

كالجبّة لها فرجة من الوراء، والاستبرق: ما غلظ من الحرير والسندس: ما رقّ منه.

وفي هذه الأحاديث تحريم لباس الحرير ما رقّ منه وما غلظ على الرجال، وهو إجماع بلا خلاف، وأنه يجوز لهم اقتناؤه والانتفاع به ببيع مثلاً أو هبة ونحو ذلك، وفيها أن من لبسه في الدنيا حرمه في الآخرة، ويلزم من ذلك عدم دخوله الجنّة؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين... ولباسهم فيها حرير، وفيها حلّيتها للنساء، وهو إجماع أيضاً لا خلاف فيه.

* * *

ما يجوز لبسه من الحرير

{٦٣٥} ـ عن عبدالله مولى أسماء رضي الله تعالى عنها أنها قالت: هذه جبّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأخرجت إليّ جبة طيالسية كسروانية لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفان بالديباج، فقالت: كانت هذه عند عائشة حتى قبضت، فلمّا ماتت قبضتها، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يُسْتشفى بها.

رواه مسلم في اللباس (١٤/٤٢، ٤٣)، وأبو داود (٤٠٥٤)، وأحمد (٦/٣٤٧، ٣٤٨).

{٦٣٦} ـ وعن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ونحن بأذْرَبِيجَان مع عتبة بن فَرْقَد: يا عتبة إنه ليس من كدّك ولا كدّ أبيك ولا كدّ أمّك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياك والتنعّم وزيّ أهل الشرك، ولبوس الحرير، فإن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن لبوس الحرير، قال: إلا هكذا ورفع لنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصبعيه السبابة والوسطى وضمّهما، وفي رواية: نهى رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم عن لبس الحرير إلاّ موضع أصبعين أو ثلاث أو أربع.

رواه البخاري (١٢/٤٠٠، ٤٠١)، ومسلم (١٤/٤٥، ٤٨)، وأبو داود (٤٠٤٢)، والترمذي (١٥٧٩)، والنسائي في الزينة (٨/١٧٨)، وابن ماجه (٢٨٢٠، ٣٥٩٣) مطوّلاً ومختصراً.

قوله: جبة طيالسية جمع طيلسان ـ بفتح اللام ـ: هو ضرب من الألبسة وهو اسم أعجمي معرب، وقوله: كسروانية ـ بكسر الكاف منسوبة إلى كسرى ـ: وقوله: لبنة ـ بكسر اللام وسكون الباء ـ: هي ما يزيّن به جيب القميص، وقوله: وفرجاها: تثنية فرج كان أحدهما عن يمينها، والآخر عن يسارها.

وقوله: بأذربيجان ـ بفتح الهمزة وسكون الذال وكسر الباء ـ: من بلاد العجم، قوله: من كدّك أي: لبس من تعبك ومشقّتك، والمراد بذلك المال كأنه قال له: إن هذا المال ليس من كسبك الذي تعبت فيه وحصلت عليه ولا من كسب أبيك وأمك، وإنما هو مال المسلمين فلا تختصّ به دونهم فأشبعهم منه وهم في منازلهم ولا تحوجهم يطلبونه منك.

وقوله: وإياك والتنعّم وزي أهل الشرك ـ بكسر الزاي ـ: مقصوده بذلك حثّهم على خشونة العيش ومحافظتهم على ما كان عليه الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومخالفة الكفار في مظاهرهم.

والحديثان يدلاّن على جواز استعمال القليل من الحرير في الملابس كتزيين جيب القميص أو الجبّة... أو نحو كمّ أو فَرْج لباس بحرير كما ثبت استعماله من حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو تخطيط الثوب به، كنحو أصبعين إلى أربع ولا يزاد على ذلك.

وفي حديث أسماء مشروعية استعمال النفيس من الثياب وتزيينه بالحرير، وأن ذلك لا ينافي الزهد كما فيه جواز الاستشفاء بأثر الصالحين والتبرّك بثيابهم ونحوها، وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه مشروعية توصية الخلفاء لعمالهم بالرفق بالرعايا ومراعاة حقوقهم واتّباع أثر الرسول

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في التقشّف والابتعاد عن التزيي بمظاهر أهل الشرك.

* * *

الرخصة في الحرير لمن به حكّة أو قمل

{٦٣٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للزبير وعبدالرحمٰن بن عوف في لبس الحرير لحكّة كانت بهما، وفي رواية: شكوا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم القمل فرخّص لهما في قمص الحرير في غزاة لهما، وفي أخرى: من حكّة كانت بهما أو وجع كان بهما.

رواه البخاري (٤١١/١٢)، ومسلم (٥٣/١٤)، وأبو داود (٤٠٥٦)، والترمذي (١٥٨٠)، والنسائي (١٧٨/٨)، وابن ماجه (٣٥٩٢).

وفي الحديث جواز لبس الحرير المحض لمن كان به حكّة ـ جرب ـ أو قمل وذلك لما فيه من البرودة التي تدفع الحرارة والقمل، واختلاف الروايتين جمع الحافظ في الفتح بينهما باحتمال أن تكون الحكّة حصلت من القمل فنسبت العلّة تارة إلى السبب، وتارة إلى سبب السبب. وبالترخيص لذلك قال الجمهور، ومنع ذلك مالك رحمه الله تعالى والحديث حجّة عليه.

* * *

الخاتم

{٦٣٨} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اتّخذ خاتماً من ذهب، وجعل فصّه مما يلي كفّه، فاتخذه الناس فرمى به واتّخذ خاتماً من ورق أو فضّة.

وفي رواية: أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اتّخذ خاتماً من ذهب أو فضّة وجعل فصّه مما يلي كفّه ونقش فيه محمد رسول الله، فاتخذ الناس مثله، فلما رآهم قد اتّخذوها رمى به، وقال: «**لا ألبسه أبداً**»، ثم اتّخذ خاتماً من فضّة، فاتخذ الناس خواتيم الفضّة، قال ابن عمر: فلبس الخاتم بعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان حتى وقع من عثمان في بئر أريس.

رواه البخاري (١٢/٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٧)، ومسلم (١٤/٦٦)، وأبو داود (٤٢١٨)، والنسائي (٨/١٥٥، ١٥٦، ١٦٩، ١٧٢).

قوله: ورِق ـ بكسر الراء ـ: الفضّة.

والحديث يدل على تحريم التختّم بالذهب وهو قول كافة العلماء والأئمّة، وانقرض الخلاف في ذلك وما جاء عن البراء من تختّمه بالذهب هو رأي له فهمه من قول رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الْبَسْ ما كَساكَ اللهُ ورسوله**»، وكان قد ألبسه خاتماً من ذهب، فكأنه فهم خصوصيّته بذلك، ثم انعقد الإجماع بعده على التحريم، ولم يخالف في ذلك إلا من لا عِبرة به.

{٦٣٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أراد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يكتب إلى بعض الأعاجم فقيل له: إنهم لا يقرأون كتاباً إلا بخاتم، فاتّخذ خاتماً من فضّة ونقش فيه محمد رسول الله، فكان في يده حتى قبض، وفي يد أبي بكر حتى قبض، وفي يد عمر حتى قبض، وفي يد عثمان، فبينما هو عند بئر إذ سقط في البئر، فأمر بها فنُزِحَتْ فلم يُقْدَرْ عليه.

رواه البخاري (١٢/٤٤٢، ٤٤٤)، ومسلم (١٤/٦٩)، وأبو داود (٤٢١٤)، والنسائي (٨/١٦٩) وغيرهم.

{٦٤٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: اتّخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خاتماً من ورق، فكان في يده، ثم كان في

يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع منه في بئر أريس نقشه: محمد رسول الله.

رواه البخاري (٤٤٣/١٢)، ومسلم (٦٧/١٤) ومثله عن أنس عند البخاري (٤٤٨/١٢) وفيه: فلمّا كان عثمان جلس على بئر أريس قال: فأخرج الخاتم فجعل يعبث به فسقط، قال: فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان فنزح البئر فلم يجده.

{٦٤١} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صنع خاتماً من ورق، فنقش فيه محمد رسول الله، وقال: «**لا تنقشوا عليه**».

رواه البخاري (٤٤٧/١٢)، ومسلم (٦٨/١٤)، وأبو داود (٤٢١٤)، والترمذي (١٦٠٤)، والنسائي.

{٦٤٢} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اتّخذ خاتماً من فضّة، وجعل فصّه مما يلي كفّه، ونقش فيه: محمد رسول الله، ونهى أن ينقش أحد عليه، وهو الذي سقط من معيقيب في بئر أريس.

رواه مسلم (٦٨/١٤) والترمذي في الشمائل.

{٦٤٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان نقش خاتم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.

رواه البخاري (٤٤٨/١٢)، والترمذي في الشمائل، وفي الجامع (١٦٠٣)، وأبو داود (٤٢١٤) وغيرهم.

{٦٤٤} ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من ورق، وكان فصّه حبشياً كان يجعل فصه في بطن كفّه، وفي رواية: لبس خاتم فضة في يمينه فيه فص حبشي.

رواه مسلم (٧١/١٤)، وأبو داود (٤٢١٦)، والترمذي (١٥٩٧)،

والنسائي (١٦٩/٨، ١٧٠)، وابن ماجه (٣٦٤١، ٣٦٤٦) وهو في البخاري بزيادة: ونقشه محمد رسول الله.

{٦٤٥} ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من فضّة فصّه منه.

رواه البخاري (٤٤٠/١٢)، وأبو داود (٤٢١٧)، والترمذي (١٥٩٨)، والنسائي (١٧٠/٨).

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يجعل فصّ خاتمه مما يلي كفه.

رواه البخاري (٤٣٤/١٢)، ومسلم (٦٨/١٤)، وابن ماجه (٣٦٤٥).

{٦٤٦} ـ وعن الصلت بن عبدالله بن نوفل رحمه الله تعالى قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يتختّم في يمينه، ولا إخاله إلا قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتختّم في يمينه.

رواه أبو داود (٤٢٢٩)، والترمذي (١٦٠٠)، وفي الشمائل (٩٤)، وسنده صحيح عند أبي داود.

{٦٤٧} ـ وعن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى قال: رأيت ابن أبي رافع يتختّم في يمينه، فسألته عن ذلك، فقال: رأيت عبدالله بن جعفر يتختّم في يمينه، وقال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتختّم في يمينه.

رواه الترمذي (١٦٠٢)، وفي الشمائل (٩١)، وابن ماجه (٣٦٤٧) قال البخاري: وهذا أصحّ شيء روي عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والحديث صحيح وعبدالرحمٰن بن أبي رافع صالح الحديث.

{٦٤٨} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يتختّم في يمينه، ويجعل فصّه في باطن كفّه.

رواه الترمذي في أخلاق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

ص(١٣١، ١٣٢)، وأصله في صحيح مسلم والسنن.

{٦٤٩} ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذه، وأشار إلى خنصره من يده اليسرى.

رواه مسلم (٧٢/١٤)، والترمذي في أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم (١٣٤).

{٦٥٠} ـ عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يلبس خاتمه في يده اليسرى.

رواه أبو داود (٤٢٢٨) بسند صحيح.

{٦٥١} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: نهاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن أتختّم في أصبعي هذه أو هذه، فأومأ إلى الوسطى والتي تليها.

رواه مسلم (٧٢/١٤، ٧٣).

{٦٥٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن خاتم الذهب.

رواه البخاري (٤٣٤/١٢)، ومسلم (٦٥/١٤) وغيرهما.

{٦٥٣} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن التختّم بالذهب.

رواه مسلم مطوّلاً، وأبو داود (٤٠٤٤) وغيرهما.

{٦٥٤} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: **«يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»**، فقيل للرجل بَعْدما ذهب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه مسلم (٦٥/١، ٦٦).

{٦٥٥} ـ وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: أهدى النجاشي إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حلقة فيها خاتم ذهب فيه فصّ حبشي، فأخذه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعود وإنه لمعرض عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعا بابنة ابنته أُمامة بنت أبي العاص، فقال: «**تحلّي بهذا يا بنيّة**».

رواه أبو داود (٤٢٣٥)، وابن ماجه (٣٦٤٤) بسند حسن.

قوله: فصّه ـ بفتح الفاء ـ: الفص من الخاتم ما يركب فيه من الحجارة الكريمة ونحو ذلك، ويكون في وسطه، وقوله: أريس: هو اسم يهودي نسبت البئر له لأنها كانت في الأصل في بستانه أمام مسجد قباء، قوله: الأعاجم هم ضد العرب، وقوله: فنزحت أي: أخرج ماؤها، وقوله: وكان فصّه حبشياً مع قوله فصّة منه لا تعارض بينهما لاحتمال أن يكون نسب إلى الحبشة لصفة فيه كالصياغة أو النقش، وقوله: ولا إخاله أي: لا أظنّه، وقوله: الخنصر ـ بكسر الخاء وسكون النون ثم صاد مكسورة ـ: هي الأصبع الصغرى، وقوله: تحلّي به أي: تزيني به واتخذيه حلية لك...

وفي هذه الأحاديث الثمان عشرة أحكام وفوائد، وهي:

أولاً: بيان تحريم التختّم بالذهب بالنسبة للرجال، وذلك محرم بالإجماع، وقول كافّة الأئمّة، قال النووي: أجمع المسلمون على إباحة خاتم الذهب للنساء، وأجمعوا على تحريمه على الرجال إلاّ ما حكي عن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن حزم أنه أباحه وعن بعض أنه مكروه لا حرام، قال: وهذان النقلان باطلان فقائلهما محجوج بهذه الأحاديث مع إجماع من قبله على تحريمه.

وما جاء عن البراء من تختّمه بالذهب، هو رأي فهمه من قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم له: «**البس ما كساك الله ورسوله**»، وقد كان ألبسه خاتماً من ذهب، ففهم من ذلك الخصوصية، وقد انقرض الخلاف في تحريمه ووقع الإجماع عليه.

ثانياً: فيها صفة خاتم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنه

بعد ما اتّخذه من ذهب وطرحه اتّخذه من فضّة، وكان فصّه المزيّن به منه على صفة ما كان يتّخذه الحبشة.

ثالثاً: كان قد نقش فيه ثلاثة أسطر: سطر محمد، وسطر رسول، وسطر الله، فكان يختم به الرسائل التي كان يبعثها إلى الأمراء والملوك الكافرة حيث إنهم كانوا لا يقبلون الكتاب غير المختوم لكبريائهم وجبروتهم.

رابعاً: جواز اتّخاذ الخاتم للزينة وغيرها ما لم يصحبه إعجاب وخيلاء وهذا لا خلاف فيه يعتبر.

خامساً: فيها بيان موضع لبس الخاتم وقد جاءت الأحاديث بلبسه في اليمين واليسار، والأصح المختار أن الكل جائز، وأنه لا حرج في ذلك، وعليه كان عمل السلف.

سادساً: موضع الخاتم بالضبط هو الخنصر، الأصبع الصغرى.

سابعاً: السنّة أن يكون فصّه لجهة بطن الكف، وهذا لا يفعله أحد ممن يتختّم إطلاقاً.

ثامناً: لا يجوز التختّم في الأصبع الوسطى والتي تليها، وهي السبابة، وكذا الإبهام، فإن في التختم فيها مثلة. نعم التختّم في البنصر التي تلي الخنصر لا مانع منه، وعلى ذلك عمل الناس، والله تعالى أعلم.

* * *

جواز التختّم بالفضّة وذمّ التختم بالحديد الصرف

{٦٥٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى على بعض أصحابه خاتماً من ذهب فأعرض عنه فألقاه، واتّخذ خاتماً من حديد، فقال: «**هذا شرّ، هذا حلية أهل النار**»، فألقاه فاتخذ خاتماً من ورق، فسكت عنه.

رواه أحمد (٢/١٦٣، ١٧٩) وسنده حسن صحيح، وله شاهد عن بريدة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لرجل عليه خاتم من حديد: «**أرى عليك حلية أهل النار**»، فطرحه، فقال: «**اتّخذه من ورق ولا تُتِمَّه مثقالاً**»، رواه أبو داود (٤٢٢٣)، والترمذي (١٦٣٨)، والنسائي (٨/١٥٠)، ورجاله ثقات غير عبدالله بن مسلم المروزي ففيه ضعف وله شاهد آخر عن أبي موسى حسّنه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد.

{٦٥٧} ـ وأخرج عبدالرزاق في مصنفه (١٩٤٧٣) عن ابن سيرين رحمه الله تعالى أن عمر رضي الله تعالى عنه رأى على رجل خاتماً من ذهب، فأمره أن يلقيه، فقال: يا أمير المؤمنين إن خاتمي من حديد، قال: ذاك أنتن وأنتن، وسنده صحيح.

{٦٥٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من أحبّ أن يُحَلِّقَ حبيبه حَلَقَة من نار فليُحَلِّقه حلقة من ذهب، ومن أحبّ أن يُطَوِّق حبيبه طوقاً من نار فليُطَوِّقْه طوقاً من ذهب، ومن أحبّ أن يُسَوِّر حبيبه سواراً من نار، فليسوِّره سواراً من ذهب، ولكن عليكم بالفضّة فالعبوا بها**».

رواه أبو داود (٤٢٣٦) بسند حسن أو صحيح.

{٦٥٩} ـ وعن مُعَيْقِيب رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حديداً ملويّاً عليه فضّة، قال: وربما كان في يدي، فكان معيقيب على خاتم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه النسائي في الزينة (٨/١٥٢، ١٥٣)، وأبو داود (٤٢٢١) وسنده صحيح.

في هذه الأحاديث أمور:

أولاً: منع اتخاذ الخاتم من حديد، وتحريمه ظاهر من قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هذا شر**»، ومن قوله: «**أرى عليك حلية أهل**

النار»، وقوله سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: ذاك أنتن وأنتن.

ثانياً: جواز اتخاذه من حديد إذا كان ملوياً عليه فضة، وكذا يجوز المُفَضَّض بدليل ما جاء في قدح النبيّ عليه الصلاة والسلام الذي انكسر، فاتخذ مكان الشعب سلسلة من فضّة، رواه البخاري.

ثالثاً: منع التحلّي بالذهب مطلقاً حلقة كانت أم طوقاً أم سواراً، وحمل هذا على النساء كما فهمه بعضهم بعيد ومخالف لأحاديث الجواز.

رابعاً: في قوله: «**ولكن عليكم بالفضّة، فالعبوا بها**» استدلّ به بعضهم على جواز استعمال الفضّة في غير الأكل والشرب الوارد فيهما الوعيد، وقالوا: لا مانع من اتّخاذها في نحو سيف أو مدية أو نحو ذلك من ربط سن أو اتخاذ أنف كما يأتي.

* * *

اتخاذ الذهب للضرورة

{٦٦٠} ـ عن عَرْفَجَة بن أسعد رضي الله تعالى عنه قال: أصيب أنفِي يوم الكلاب في الجاهلية، فاتخذت أنفاً من ورِق، فأنتن عليّ، فأمرني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن أتخذ أنفاً من ذهب.

رواه أبو داود (٤٢٣٢، ٤٢٣٣)، والترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (١٤٢/٨) من طريقين واحدهما سنده صحيح. في الحديث جواز استعمال الفضّة والذهب لنحو أنف أو ربط سنّ أو تغشيته للحاجة والضرورة، قال الترمذي: وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنهم شدوا أسنانهم بالذهب، وفي هذا الحديث حجّة لهم، فإن اتخاذ الأنف أكبر بكثير من ربط السن أو تغشيته للحاجة، وليس اتخاذه أصالة للزينة كما يفعله الكثير ممن لا يفقهون.

* * *

{٦٦١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**الفطرة خمس: الخِتانُ، والاسْتِحْدَادُ، وقَصُّ الشارب، وتَقْلِيمُ الأظفار، ونَتْف الآباط**».

رواه البخاري في اللّباس (١٢/٤٥٦، ٤٧٠)، ومسلم في الطهارة (٣/١٤٦) وأهل السنن ونحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه بالاقتصار على حلق العانة وتقليم الأظفار وقصّ الشارب، رواه البخاري (١٢/٤٧٠).

{٦٦٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**عشر من الفطرة: قصّ الشارب وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونَتْف الإبط، وحلق العانة، وانتقاصُ الماء**»، قال زكرياء: قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، زاد قتيبة: قال وكيع: انتقاص الماء يعني: الاستنجاء.

رواه أحمد (٦/١٣٧)، ومسلم في الطهارة (٣/١٤٧)، وأبو داود (٥٣)، والترمذي (٢٥٧٠)، والنسائي في الزينة (٨/١٠٩).

قوله: الفطرة ـ بكسر الفاء ـ: جمهور العلماء على أنها السنّة التي فطر عليها الأنبياء، واتّفقت عليها الشرائع لما فيها من التنظيف وتحسين الهيئة، والجمهور على أنها ليست بواجبة على الإطلاق، بل فيها ما هو واجب، وفيها ما هو مختلف فيه. وقوله: قصّ الشارب وإعفاء اللحية، سيأتي الكلام عليهما. والسواك والاستنشاق والمضمضة والاستنجاء كلها تقدمت في الطهارة، فيبقى معنا من الخصال خمس: الختان: وهو قطع جميع الجلدة التي تغطي الحشفة من الرجل وقطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى فرج المرأة، والجمهور على أنه واجب، وعلى أنه يكون حالة الصغر. وقصّ الأظفار، أي: تقليمها ويستحب البداءة باليدين قبل الرجلين وباليمنى قبل اليسرى، ولم يثبت شيء في ترتيب تقليمها إلا ما ذكره الغزالي والنووي

من الاستحسان في ترتيب ذكراه، وغسل البراجم: وهي جمع برجمة ـ بضم الباء والجيم ـ: هي عقد الأصابع التي تجتمع عليها الأوساخ عند مزاولة الأشغال، ونَتْف الإبط أي: شعره لما ينشأ عن تركه من حدوث رائحة كريهة ويحصل إزالته بالنتف والحلق وغيرهما، وحلق العانة وهو المعبّر عنه في رواية أبي هريرة بالاستحداد أي: اتخاذ الحديدة، وهي الموسى لإزالة شعر العانة، وهو الشعر النابت فوق ذكر الرجل وحواليه، وتحت أُنثييه وحوالي حلقة دبره، وكذا النابت فوق فرج الأنثى وحواليه كذلك.

فهذه الخصال من أحسن ما يتجمّل به الإنسان ويحافظ به على صورته التي كرمه الله تعالى بها، فإن من تعاهدها الآونة بعد الآونة كان نظيفاً طيّباً حسن الهيئة، جميل الخلقة، طيّب الرائحة، ومن أهملها كان قذراً قبيح المنظر كريه الرائحة مشوّه الخلقة، فلا يبعد أن يكون آثماً في تركه ذلك، وأنها من الواجبات.

* * *

قصّ الشارب وإعفاء اللحية

{٦٦٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خالفوا المشركين ووَفِّرُوا اللِّحَى وأحفُوا الشوارب**»، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما إذا حجّ أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه، وفي رواية: «**انهكُوا الشوارب واعفُوا اللِّحَى**».

رواه أحمد (١٦/٢)، والبخاري في اللباس (٤٧١/١٢، ٤٧٣)، ومسلم في الطهارة (١٤٦/٣، ١٤٧)، وأبو داود (٤١٩٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٧٥)، والنسائي في الزينة (١١٢/٨) وغيرهم.

{٦٦٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**جُزّوا الشوارب وأرْخُوا اللِّحى خالفوا المَجُوس**».

رواه أحمد (٣٦٦/٢)، ومسلم في الطهارة (١٤٧/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٥٠/١).

{٦٦٥} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن أهل الشرك يَعْفُون شَوَارِبَهم ويُحْفُون لحاهم، فخالفوهم فاعفوا اللّحى وحفّوا الشوارب»**.

رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما عمر بن أبي سلمة اختلف فيه وبقيّة رجاله ثقات، قاله الهيثمي في المجمع (١٦٦/٥) وعمر المذكور حديثه حسن عند المحدثين.

قوله: «وفّروا» هذه رواية البخاري، وفي رواية: «واعفوا»، وفي أخرى: «وارخوا» وكلاهما عند البخاري أيضاً، وجاء عند مسلم وغيره: «وأوفوا»، وفي أخرى: «وأرجو»، فهذه خمس روايات وكلّها بمعنى واحد.

فقوله: وفّروا ـ بتشديد الفاء ـ: من التوفير وهو الإبقاء أي: اتركوها وافرة، وقوله: واعفوا جاء بهمزة وصل وقطع أي: اتركوها حتى تعفو وتكثر، وقوله: وارخوا بقطع الهمزة، أي: اتركوها ولا تتعرّضوا لها بتغيير، وقوله: وأوفوا بالقطع أي: اتركوها وافية كاملة لا تقصّوها، وقوله: وارجو بالقطع أيضاً، وأصله أرجئوا بالهمزة، أي: أخّروا فرجع الأمر إلى معنى واحد، وهو اتركوها على حالها فلا تحلقوها..

وقوله: احفوا بهمزة قطع من الإحفاء، ويقال: حفى حفواً إذا استأصل أخذ شعره، وقوله: انْهكُوا أمر من نهك ـ بكسر الهاء ـ: أي: بالغوا في قصّ الشوارب، وقوله: وجزّوا من الجزّ وهو القصّ.

وفي هذه الأحاديث بيان حكم شعر الشارب واللحية، أما الشارب وهو الشعر النابت على الشفتين، فظاهر الروايات تعارضها، ولذلك اختلف العلماء في ذلك، فذهب كثير من السلف وغيرهم إلى حلقه واستئصاله عملاً برواية: احفوا وانهكوا، وذهب آخرون إلى الجزّ فقط حتى تظهر طرف الشفة، وذهب فريق ثالث إلى التخيير بين الحلق والقصّ، ونرى والله تعالى أعلم الأمر في ذلك واسعاً، وانظر ما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك

مصنّف ابن أبي شيبة (٥/٢٢٥، ٢٢٦) من كتاب الأدب، أما تركه بدون جزّ فجاهلية، وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من لم يأخذ من شاربه فليس منّا**»، رواه النسائي (٨/١٢) بسند صحيح. أما اللّحية: وهي بكسر اللام فهو الشعر النابت على العارضين والذقن، وكان من عادة المجوس وأهل فارس أيام النبوّة قصّ اللحية وتوفير الشارب، فنهى الشارع عن ذلك وأمر بمخالفتهم، فقال: «**خالفوا المشركين**»، «**خالفوا المجوس**»... وقد كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه موفرين لحاهم، ولم يثبت عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا عن أحد من أصحابه أنهم حلقوها ولو مرة واحدة، وهكذا كان عمل السلف والأئمة والعلماء والمسلمين في كل العصور. وتكلّم الأئمّة والعلماء عليها، فصرح الحنفية والمالكية والحنابلة وأتباعهم بتحريم حلقها، ونقل عن الشافعي قول بالتحريم كالجماعة، وقول بالكراهة، وهو شاذّ، وما شاع حلقها حتى جاء الاستعمار المقيت، فقلّد المسلمون الكفار وتشبّهوا بهم في جميع مظاهرهم وهيآتهم، وكان منها حلق اللحية ووجد بين المسلمين بعض من رَقّ دينُهم من العلماء فهَوَّنُوا من أمرها وتساهلوا، فأفتوا بإباحة حلقها فضلّوا وأضلوا مع أن في حلقها عدة معاصي، أولاً: مخالفة الأمر النبويّ الذي لا صارف له عن الوجوب «اعفوا»، «ارخوا»، «أوفوا» و«وفّروا». ثانياً: التشبه بالمجوس والمشركين، واليوم بالملحدين واللادينيين. ثالثاً: التشبه بالنساء، ويأتي ما في ذلك من الوعيد. رابعاً: اتباع أمر الشيطان الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩].

ملحوظة: قد ذكر أبو طالب المكي وتبعه أبو حامد الغزالي في الإحياء ثم النووي في شرح مسلم خصالاً مكروهة في اللحية بعضها أشدّ قبحاً من بعض، وقد نقلها النووي وزاد عليها: وهي أكثر من عشر خصال، فانظرها عنده في باب خصال الفطرة من الطهارة.

خاتمة: يجوز الأخذ من طول اللحية وعرضها؛ لأن ذلك من تحسين الهيئة وتجميل الصورة، وتركها على حالتها مطلقاً يشوه الصورة ويصبح الإنسان

مثلة، فما نراه من بعض المتزمّتين الذين يرخون لحاهم فوق السنة والعادة حتى تصل عند بعضهم إلى قرب سرّتهم، ويرى كأنه وحش وليس آدمياً، هو بعيد عن محاسن الإسلام، وهذا النوع نشاهده كثيراً بالديار المقدّسة، ويتّصف بهذا المظهر المزري بعض من يدّعي السلفية وهي منهم بريئة.

وقد كان السلف الصالح يأخذون من لحاهم ويحسّنون هيأتهم وإليهم المرجع في ذلك لأنهم أدرى بالسنّة وأقرب إلى أيام النبوّة وعمل الصحابة، وقد ذكر ابن أبي شيبة في كتاب الأدب من مصنفه (٢٢٥/٥) جماعة من الصحابة والتابعين الذين كانوا يأخذون من طول لحاهم وعرضها، وفيهم أكابر العلماء كالإمام عليّ وأبي هريرة وجابر بن عبدالله وابن عمر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والقاسم بن محمد وعطاء بن أبي رباح وابن سيرين والحسن البصري وإبراهيم النخعي وغيرهم من كبار علماء التابعين.

* * *

التوقيت في الحلق والقصّ

{٦٦٦} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: وقّت لنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حلق العانة وتقليم الأظفار وقصّ الشارب ونتف الإبط أربعين يوماً مرّة.

رواه مسلم (١٤٦/٣)، وأبو داود (٤٢٠٠)، والترمذي (٢٥٧١)، والنسائي (١٩/١)، وابن ماجه (٢٩٥) كلاهما في الطهارة.

في الحديث أن السنّة في تنظيف الأطراف من حلق العانة وقصّ الأظفار وجزّ الشارب ونتف شعر الإبط أن لا تؤخر عن أربعين يوماً، وتعتبر هذه النهاية وإلاّ فالأحسن والأفضل أن يكون ذلك في أقلّ من هذا التحديد بكثير، وبالأخص الأظافر والشارب، فإن تأخير قصها بعد ثلاثة أسابيع أو نحوها يشوّه الخلقة.

* * *

سنّية توفير شعر الرأس

{٦٦٧} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كان شعر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ.

رواه البخاري في المناقب (٣٨١/٧)، ومسلم في الفضائل (٩١/١٥) وغيرهما، ويأتي بألفاظه في السيرة، ومثله عن أنس في مسلم وغيره.

{٦٦٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان شعر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق الوفرة ودون الجمّة.

رواه أبو داود (٤١٨٧)، والترمذي (١٦١٢)، وابن ماجه (٣٦٣٥)، والترمذي أيضاً في الشمائل (٢٤)، وابن سعد في الطبقات (٤٢٩/١) وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: إلى شحمة أذنيه، في رواية لأنس: إلى أنصاف أذنيه، وفي أخرى: بين أذنيه وعاتقه. وقوله: فوق الوفرة والجمّة، قال العلماء: الوفرة الشعر إلى شحمة الأذن، فإذا جاوزها فهو اللمّة، فإذا بلغ المنكبين فهو الجمّة وقيل غير ذلك، وما ورد من اختلاف الروايات في طول شعره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقصره محمول على أحواله، فكان إذا اعتمر حلقه فيقصر، ثم بعدُ يطول، وقد يصل إلى شحمة أذنيه، وقد يطول فيبلغ إلى منكبيه وعاتقه.

والحديثان يدلاّن على مشروعية اتخاذ شعر الرأس وتوفيره، وقد اتّفق العلماء على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكن يحلق رأسه إلاّ إذا اعتمر أو حجّ.

❋ ❋ ❋

إكرام الشعر وترجيله وضفره

{٦٦٩} ـ عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولي شعر طويل، فلمّا رآني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ذُبابٌ ذباب»، قال: فرجعت فجزَزْتُه ثم أتيته من الغد، فقال: **«إني لم أعنك، وهذا أحسن»**.

رواه أبو داود (٤١٩٠)، وابن ماجه (٣٦٣٦)، والنسائي (١١٧/٨) وسنده صحيح.

قوله: ذباب ـ بضم الذال ـ: أي: هذا شؤم أو شرّ دائم.

{٦٧٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من كان له شعر فَلْيُكْرِمْه»**.

رواه أبو داود (٤١٦٣) بسند صحيح.

{٦٧١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان أهل الكتاب يَسْدِلُون أشعارهم، وكان المشركون يَفْرُقُون رؤوسهم، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تُعْجِبُه موافقةُ أهل الكتاب فيما لم يُؤمر به، فسدل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ناصِيَتَه ثم فرَقَ بعدُ.

رواه البخاري (٤٨٣/١٢)، ومسلم في الفضائل (٩٠/١٥)؛ وأبو داود (٤١٨٨)، وابن ماجه (٣٦٣٢).

{٦٧٢} ـ وعن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الترجّل إلا غِبّاً.

رواه أبو داود (٤١٥٩)، والترمذي (١٦١٣)، والنسائي (١١٤/٨)، وابن حبان (١٤٨٠) بسند صحيح، وما قيل من انقطاعه ليس بشيء. انظر تهذيبي للجامع، ويكفي أن الترمذي صححه.

{٦٧٣} ـ وعن أُمّ هانىء رضي الله تعالى عنها قالت: قدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى مكّة، وله أربعُ غدائِرَ، تعني عقائص، وفي رواية: أربع ضَفائِر.

رواه أبو داود (٤١٩١)، والترمذي (١٦٣٤)، وفي الشمائل (٣٠/٢٧)، وابن ماجه (٣٦٣١)، وابن سعد في الطبقات (٤٢٩/١) وسنده صحيح رجاله رجال الصحيح.

في هذه الأحاديث أمور تتعلق بشعر الرأس:

أولاً: إكرامه بالأخذ منه إن طال فوق العادة بأن زاد على العاتق مع غسله وتنظيفه.

ثانياً: ترجيله وتسريحه، ويكون ذلك المرة بعد المرة، وهو الغبّ ـ بكسر الغين ـ: فإن التسريح كل يوم من شأن النساء وأهل الرفاهية والمترفين والتشبّه بهم مذموم، وفي سنن النسائي (١١٤/٨) عن رجل من الصحابة قال: نهانا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يمتشط أحدنا كل يوم... وسنده صحيح.

ثالثاً: السنّة في تسريحه أن يكون مع الفرق في وسط اليافوخ.

رابعاً: إذا طال الشعر لصاحبه أن يجعله أربع ضفائر، كما فعله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

جواز حلق شعر الرأس

{٦٧٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى صبياً قد حُلِق بعضُ شعره، وتُرِك بعضُه فنهاهم عن ذلك، وقال: «**احلقوه كلّه، أو اتركوه كلّه**».

رواه أحمد (٨٨/٢)، وأبو داود (٤١٩٥)، والنسائي (١١٢/٨) وسنده صحيح وأخرجه مسلم، ولم يذكر لفظه.

{٦٧٥} ـ وعن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ثم أتاهم،

فقال: «**لا تبكُوا على أخي بعد اليوم**»، ثم قال: «**ادعوا لي بني أخي**»، فجيء بنا كأنا أفْرُخٌ، فقال: «**ادعوا لي الحلاق**»، فأمره فحلق رؤوسنا.

رواه أبو داود (٤١٩٢)، والنسائي رقم (٤٨٢٣) وسنده صحيح.

قوله: أفرخ، جمع فرخ وهو صغير الطير.

وفي الحديثين مشروعية حلق شعر الرأس كلّه، وفيهما ردّ على من كره حلقه، وقد بالغ بعض علماء المالكية، فقال: إن اتّفق الناس على حلق رؤوسهم قوتلوا لاتفاقهم على ترك السنّة، وهذه مبالغة بل حلقه جائز وتوفيره سنّة؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يداوم على توفيره.

* * *

النهي عن القزع

{٦٧٦} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن القزع، والقزع أن يحلق رأس الصبي، فيترك بعض شعره.

رواه البخاري (٤٨٦/١٢)، ومسلم (١٠١/١٤) كلاهما في اللّباس، وأبو داود (٤١٩٣)، والنسائي (١١٣/٨) وغيرهم.

وقوله: والقزع ـ بفتحتين ـ: جاء في رواية: أن يحلق رأس الصبي ويترك له ذؤابة، وهي عند أبي داود (٤١٩٤) بسند صحيح.

والحديث يدلّ على المنع من حلق بعض الرأس وترك بعضه، وأن الواجب إما حلق جميعه أو تركه وتوفيره. وأما الذؤابة الواردة في بعض الأحاديث؛ كحديث زياد بن حصين عن أبيه أنه أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فوضع يده على ذؤابته وسمَّت عليه ودعا له، رواه النسائي (١١٦/٨) بسند صحيح. سمَّت ـ بفتح الميم المشددة ـ: أي: سمّى عليه، وحديث ابن مسعود: قرأت من في رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم سبعين سورة، وإن زيد بن ثابت لمع الغلمان له ذؤابتان، أصله في الصحيحين، ويأتي في موضعه. فجمع بين ذلك الحافظ بأن الذؤابة الجائز اتّخاذها ما يفرد من الشعر فيرسل، ويجمع ما عداها بالضفر وغيره، والتي تمنع أن يحلق الرأس كله ويترك ما في وسطه فيتّخذ ذؤابة... وهذا جمع حسن، ومن القزع ما يفعله الكفار اليوم والمقتفون أثرهم من متفرنجي المسلمين من حلق قفاهم وترك الباقي، أو حلق الجميع وإبقاء الناصية كما ظهر أخيراً، وكل ذلك من تغيير خلق الله وتشويه الخلقة مع التشبه بأعداء الله وشرّ خلقه، وهم الكفار، وانظر شرح النووي على مسلم (١٠١/١٤).

* * *

خضاب الشعر

{٦٧٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن اليهود والنصارى لا يَصْبُغون فخالفوهم**».

رواه أحمد (٢٤٠/٢، ٣٠٩، ٤٠١)، والبخاري (٤٧٦/١٢)، ومسلم (٨٠/١٤)، وأبو داود (٤٢٠٣)، والنسائي (١٣٧/٨، ١١٨، ١١٩)، وابن ماجه (٣٦٢١) وغيرهم.

{٦٧٨} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**غيّروا الشَّيْبَ ولا تَشَبَّهُوا باليهود ولا بالنصارى**».

رواه أحمد (٤٩٩/٢)، والترمذي في اللباس (١٦٠٩) بتهذيبي وحسنه وصححه، ومثله عن الزبير رضي الله تعالى عنه عند أحمد (١٦٥/١).

وفي الحديثين الأمر بصبغ الشعر، يعني: من الرأس واللحية، مخالفة لليهود والنصارى والابتعاد عن التشبّه بهم؛ لأنهم لم يكونوا يصبغون في ذلك الوقت.

وقد اتّفق العلماء على أن الأمر هنا ليس للوجوب بدليل ترك النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه الخضاب، وهذا بخلاف الأمر بإعفاء اللحية، فإنه لا صارف له عن الوجوب.

❊ ❊ ❊

جواز الخضاب بالحنّاء ومنعه بالسواد الصرف

{٦٧٩} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ أحسَنَ ما غُيّرَ به الشَّيبُ الحناءُ والكَتَمُ**».

رواه أحمد (٥/١٤٧، ١٥٤)، وأبو داود (٤٢٠٥)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي (٨/١٢٠)، وابن ماجه (٣٦٢٢)، وابن حبان (١٤٧٥) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

{٦٨٠} ـ وعن أبي رِمْثَة رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنا وأبي، فقال لرجل أو لأبيه: «**من هذا**»؟ قال: ابني، قال: «**لا تجنِ عليه**»، وكان قد لطخ لحيته بالحنّاء، وفي رواية: فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء، وعليه بردان أخضران.

رواه أبو داود (٤٢٠٦، ٤٢٠٨)، والترمذي والنسائي وتقدم تخريجه رقم (٦٠٧).

{٦٨١} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يلبس النعال السبتية ويُصَفِّرُ لحيته بالوَرْسِ والزَّعْفَران، وكان ابن عمر يفعل ذلك.

رواه أبو داود (٤٢١٠)، والنسائي وأصله في الصحيح، وقد تقدم مطوّلاً في اللباس الأصفر.

{٦٨٢} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أُتِي بأبي قُحافةَ يوم فتح مكة ورأسُه ولحيتُه كالثَّغَامَةِ بياضاً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**غيّروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد**».

رواه مسلم (٧٩/١٤)، وأبو داود (٤٢٠٤)، والنسائي (١١٩/٨)، وابن ماجه (٣٦٢٤).

{٦٨٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يكون قومٌ يَخْضِبُون في آخر الزمان بالسَّوادِ كَحَواصِلِ الحَمَامِ، لا يريحُون رائحَةَ الجنّة**».

رواه أحمد (٢٧٣/١)، وأبو داود (٤٢١٢)، والنسائي (١١٩/٨) بسند صحيح، ولم يصب ابن الجوزي في إيراده في الموضوعات.

قوله: الكتم ـ بفتح الكاف والتاء ـ: نبات له حبوب يستخرج منه صباغ يكون بين الحمرة والسواد، وقوله: لا تجن عليه سيأتي ذلك في الجنابات، وقوله: لطخ لحيته أي: جعل فيها الحنّاء، وقوله: ردع ـ بفتح الراء وسكون الدال ـ: أي: لَطْخُ حناء، وقوله: الورس: هو نبات طيّب الرائحة، وقوله: بأبي قحافة هو والد أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه من مسلمة الفتح، والثغامة ـ بفتح الثاء المشدّدة وقيل: بضمّها ـ: نبات شديد البياض زهره وثمره كالثلج، وقوله: كحواصل جمع حوصلة وهي للطير كالمعدة للإنسان، وتشبيهها بحوصلة الحمام لسوادها.

وفي هذه الأحاديث أحكام، منها جواز الخضاب بالحنّاء مع مزجها بما يقرّبها من السواد كالكتم المذكور، وكالعصفاء الحالية وشبه ذلك، وأنه لا بأس بتحمير اللّحية أو الرأس بما يكون أحمر قريباً من السواد. ومنها جواز الخِضاب بالأصفر البحت، كالورس والزعفران، ومنها المنع من الخضاب بالسَّواد الغربيب للأمر الصريح باجتنابه مع الوعيد الوارد في الخضاب به، وأن فاعل ذلك لا يشمّ رائحة الجنّة، وكفى بذلك زجراً.

وقد نقل النووي عن القاضي عياض رحمهما الله اختلاف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه، فقال بعضهم: ترك الخضاب أفضل، ورووا حديثاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في النهي عن تغيير الشيب، لأنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يغيّر شيبه روي هذا عن عمر وعليّ وأُبيّ وآخرين رضي الله تعالى عنهم، وقال آخرون:

الخضاب أفضل، وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم للأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره. ثم اختلف هؤلاء، فكان أكثرهم يخضب بالصفرة، منهم ابن عمر وأبو هريرة وآخرون رضي الله تعالى عنهم، وروي ذلك عن عليّ. وخضب جماعة منهم بالحناء والكتم، وبعضهم بالزعفران، وخضب جماعة بالسواد، روي ذلك عن عثمان والحسن والحسين ابني عليّ وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبي بردة وآخرين. قال القاضي: قال الطبري: الصواب أن الآثار المرويّة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتغيير الشيب وبالنهي عنه كلّها صحيحة، وليس فيها تناقض، بل الأمر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبي قحافة، فذلك ليس للوجوب بالإجماع، ولذلك لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك، قال: ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومنسوخ، قال القاضي: وقال غيره: هو على حالين، فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكروه. والثاني: أنه يختلف باختلاف نظافة الشيب، فمن كان شيبته تكون نقية أحسن منها مصبوغة، فالترك أولى، ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ أولى، هذا ما نقله القاضي في إكمال المعلم (٦/٦٢٤، ٦٢٥). قال النووي: والأصح الأوفق للسنّة ما قدمناه عن مذهبنا. وما قدمه هو قوله: ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة، ويحرم خضابه بالسواد على الأصح، وقيل: يكره كراهة تنزيه، والمختار التحريم؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**واجتنبوا السواد**» (١٤/٨٠). ولا يخفى على المنصف ما تدلّ عليه أحاديث الباب وغيرها من أن الخضاب بالحناء ولونها أحمر، أو بالورس والزعفران، ولونهما أصفر أو بالحناء مع الكتم ولونهما بين الحمرة والسواد، كل ذلك صدر من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأذن فيه، وكان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يخضبان كما في صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اختضب أبو بكر بالحناء والكتم، واختضب عمر بالحناء بحتاً، أي: صرفاً، أما السواد فممنوع صراحة لا يحتمل التأويل. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في النيل: وهذه السنة قد كثر اشتغال السلف بها، ولهذا ترى المؤرخين في

التراجم لهم يقولون: وكان يخضب، وكان لا يخضب، قال ابن الجوزي: قد اختضب جماعة من الصحابة والتابعين، وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وقد رأى رجلاً قد خضب لحيته: إني لأرى رجلاً يحيي ميتاً من السنة، وفرح به حين رآه صبغ بها.

* * *

استعمال الطيب

{٦٨٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أطيّب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأطيب ما أجد حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته.

رواه البخاري في اللباس (٤٨٨/١٢) وغيره، ومسلم في الحجّ (١٠٠/٨، ١٠١) وتقدم ذلك لنا في الحجّ بحمد الله تعالى.

{٦٨٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«طِيبُ الرجال ما ظهر ريحه وخَفِي لونُه، وطيب النساء ما ظَهر لونه وخَفِي ريحه»**.

رواه الترمذي في الأدب (٢٥٩٨)، والنسائي في الزينة (١٣٠/٨)، وهو صحيح لشاهدين له عن عمران بن الحصين عند الترمذي، وعن أنس عند الطبراني...

في الحديثين مشروعية استعمال الطيب، وأن طيب الرجال هو ما ظهر ريحه كالرياحين المشمومة والعطورات الطيبة الرائحة، بينما طيب النساء هو ما ظهر لونه ولا ريح له، كالحناء وأضرابها، وهذا إذا أرادت الخروج. أما في بيتها، فلها أن تتطيّب بما شاءت، وتقدمت أحاديث في التطيّب في الجمعة وفي الحج وفي الهدية، وتأتي أيضاً في السيرة النبوية، ويأتي قريباً تطيب النساء.

* * *

اتخاذ الفرش والزيادة على الحاجة

{٦٨٦} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما تزوجت قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اتخذت أنماطاً**»، قلت: وأنّى لنا أنماط، قال: «**أما إنها ستكون**»، قال جابر: وعند امرأتي نمطٌ، فأنا أقول: نَحِّيهِ عني، وتقول: قد قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنها ستكون**».

رواه البخاري في المناقب وفي النكاح ومسلم (١٤/٥٨، ٥٩)، وأبو داود (٤١٤٥)، والترمذي في اللباس (٢٥٨٤)، وكذا أحمد (٣/٢٩٤) وغيرهم.

أنماط جمع نمط ـ بفتحتين ـ: بساط لطيف له خمل.

وفي الحديث جواز اتّخاذ الفرش ولو كانت نفيسة، ومنها أنواع الفرش الموجودة حالياً كالزرابي ونحوها، فهي مباحة إذا لم تكن من الحرير أو تتخذ بطراً ومفاخرة.

{٦٨٧} ـ وعن جابر أيضاً أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له: «**فراش للرجل وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان**».

رواه مسلم (١٤/٥٩)، وأبو داود (٤١٤٢) والنسائي في الكبرى (٣/٣٣٤).

معنى هذا الحديث أن ما زاد على حاجة الإنسان من الفرش إنما يكون للمباهاة والاختيال، وما كان كذلك كان مذموماً، ولذلك أضيف للشيطان لأنه يرتضيه ويساعد عليه،وقد يكون الفراش الزائد مبيتاً للشيطان ومقيلاً له. نعم لا مانع من تعداد فراشه أو فراش زوجته، واستدلّ بعضهم بهذا الحديث على مشروعية الانفراد عن الزوجة في فراش خاص به، وهذا مع كونه مباحاً، فالسنّة أن ينام الرجل مع زوجته كما كان يفعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما هو معروف من سيرته وشمائله.

* * *

{٦٨٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيت فاطمة عليها السلام، فلم يدخل عليها، وجاء عليّ عليه السلام فذكرتْ له ذلك، فذكر للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إني رأيت على بابها ستراً مُوَشّياً فقال: ما لي وللدنيا**»، فأتاها علي فذكر ذلك لها، فقالت: ليأمرني فيه بما شاء، قال: «**تُرْسِلي به إلى فلان أهل بيت بهم حاجة**»، وفي رواية: «**وما أنا والدنيا، وما أنا والرقم**».

رواه البخاري في كتاب الهبة رقم (٢٦١٣)، وأبو داود (٤١٤٩، ٤١٥٠)، والرواية الثانية لأبي داود.

{٦٨٩} ـ وعن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في غزاته فأخذت نَمَطاً فسترته على الباب، فلما قدم فرأى النَّمَط عرفتُ الكراهية في وجهه، فجَذَبَه حتى هَتَكَه أو قطَّعَه، وقال: «**إن الله لم يأمرنا أن نَكْسُوَ الحجارة والطِّينِ**»، قالت: فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفاً، فلم يعب ذلك عليّ.

رواه البخاري ومسلم (٨٦/١٤)، وأبو داود (٤١٥٣)، وقال بدل الطين: اللبن.

قوله: ستراً موشياً، وفي رواية: موشّى ـ بضم الميم ـ: والموشى قيل: المخطّط بألوان شتّى... وقيل: المرقوم المنقوش، وكان من هديه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تنزّهه عن دخول البيوت المزوّقة، ولذلك كره لابنته ما كان يكره لنفسه من تعجيل الطيّبات في الدنيا، وليس معنى ذلك أن ستر الباب حرام، بل قد يكون واجباً. والحديث الثاني يدلّ على كراهة ستر الجدران والبيوت بالثياب، قال النووي: وهو منع كراهة تنزيه لا تحريم، هذا هو الصحيح. وقال أبو الفتح نصر المقدسي: هو حرام... والنمط كان فيه صور كما جاء مبيناً في رواية أخرى كما يأتي في الصور،

ولذلك هتكه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم وقطعه.

والحديثان يدلاّن على كراهة دخول البيت الذي فيه ما يكره، ولو كان غير حرام.

* * *

الصور والتصوير وما جاء في ذلك

{٦٩٠} ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قدم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من سفر، وقد سترت بقرام لي على سَهْوَة له فيها تماثيل، فلما رآه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هتكه، وقال: «**أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**»، قالت: فجعلناه وسادة أو وسادتين.

رواه أحمد (٦/٣٦)، والبخاري (١٢/٥١٠، ٥١١)، ومسلم (١٤/٨٧، ٨٨)، وفي رواية له: وقد سترت على بابي درنوكاً فيه الخيل ذوات الأجنحة، فأمرني فنزعته.

{٦٩١} ـ وعنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قام على الباب، فلم يدخل فعَرَفْتُ أو فعرفَتْ في وجهه الكراهية، فقالت: يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فماذا أذنبت؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما بال هذه النمرقة**»؟ فقالت: اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن أصحابَ هذه الصور يُعذَّبون ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»، ثم قال: «**إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة**».

رواه البخاري في البيوع وفي اللباس (١٢/٥١٣، ٥١٧)، ومسلم فيه (١٤/٨٩، ٩٠) وغيرهما، وعنها في البخاري: لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه.

{٦٩٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه دخل داراً بالمدينة فرأى أعلاها مصوراً يصور، فقال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**ومن أظلم مِمَّن ذهب يَخْلُقُ كخلقي فليَخلقُوا حَبَّة، وليخلقوا ذَرَّة**».

رواه البخاري (٥٠٩/١٢)، ومسلم (٩٣/١٤، ٩٤) كلاهما في اللباس.

{٦٩٤} ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني جبريل عليه السلام قال: أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أنه كان على الباب تماثيلُ، وكان في البيت قرامٌ سِتر فيه تماثيل، وكان في البيت كَلْبٌ فمُرْ برأس التمثال الذي على باب البيت فيقطع فيصير كهيئة الشجرة، ومُرْ بالستر فليقطع فليجعل وسادتين منبوذتين توطآن، ومُرْ بالكلب فليخرج**»، ففعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان ذلك الكلب جرواً للحسين أو الحسن تحت نضد له، فأمر به فأُخرج.

رواه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي في الأدب (٢٦١٥)، وابن حبان (١٤٨٧) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

{٦٩٤} ـ وعن ابن عباس عن ميمونة رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصبح يوماً واجماً وقال: «**إن جبريل عليه السلام كان وعدني أن يلقاني الليلة فلم يلقني، أما والله ما أخلفني**»، ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط له فأمر به فأُخرج، ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه، فلما أمسى لقيه جبريل عليه السلام، فقال: «**لقد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة**»، قال: أجل، ولكنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، فأصبح رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يومئذ فأمر بقتل الكلاب حتى أنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير ويترك كلب الحائط الكبير.

رواه مسلم (٨٢/١٤، ٨٣)، ومثله عنده (٨١/١٤) عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

{٦٩٥} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الصورة في البيت، ونهى أن يصنع ذلك.

رواه الترمذي في اللباس (١٦٠٦)، وابن حبان (١٤٨٥)، وحسّنه الترمذي وصححه وأبو الزبير صرّح بالسماع عند عبدالله بن أحمد في زوائد المسند، فالحديث صحيح.

{٦٩٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه أتاه رجل، فقال: يا ابن عباس إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير، فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: سمعته يقول: **«من صَوَّر صُورةً فإن الله لمعذّبه حتى ينفُخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً»**، فربا الرجل روبة شديدة، واصفرّ وجهه فقال: ويحك، إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر كل شيء ليس فيه روح.

رواه البخاري في البيوع مطوّلاً وفي اللباس (٥١٧/١٢، ٥١٨) مختصراً، ورواه مسلم (٩٣/١٤) في اللباس، وعنده فيه: **«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتُعَذّبه في جهنم»**.

{٦٩٧} ـ وعن زيد بن خالد الجهني رحمه الله تعالى عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه صاحب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة»**، قال بسر: ثم اشتكى زيد بعد، فعُدناه فإذا على بابه ستر فيه صورة، قال: فقلت لعبيدالله الخولاني ربيب ميمونة زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟ فقال عبيدالله: ألم تسمعه حين قال: **«إلا رقماً في ثوب»**، رواه مسلم (٨٥/١٤).

{٦٩٨} ـ وعن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة رحمه الله تعالى أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده فوجد عنده سهل بن حُنَيْف رضي الله تعالى عنه، قال: فدعا أبو طلحة إنساناً ينزع غطاء تحته، فقال له سهل: لم

تنزعه؟ قال: لأن فيه تصاوير، وقال فيه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما قد علمت، قال سهل: أو لم يقل: **«إلا ما كان رقماً في ثوب»**، قال: بلى، ولكنه أطيب لنفسي.

رواه أحمد (٤٨٦/٣)، والترمذي (١٦٠٧) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

قوله: قرام ـ بكسر القاف ـ: هو ستر رقيق، قوله: سهوة هي شبه مخزن، وقوله: تماثيل جمع تمثال ـ بكسر التاء ـ: صورة من صور الحيوانات، قوله: هتكه أي: أزاله، قوله: يضاهون أي: يشابهون الله، في الخلق والإيجاد، وقوله: درنوكاً ـ بضم الدال ـ: هو القرام، وقوله: نمرقة ـ بضم النون والراء ـ: هي الوسادة، منبوذتين أي: مطروحتين، توطآن أي: تمتهنان، وقوله: واجماً أي: ساكناً حزيناً، وقوله: فسطاط ـ بضم الفاء ـ: نوع من الأخبية، والمراد به هنا السرير، قوله: فنضح أي: رشّ موضعه، وقوله: الحائط هو عند العرب يطلق على المزرعة وبستان النخيل، قوله: فربا الرحل، أي: فزع من نقل ابن عباس الحديث حتى علا نفسه وصار يتنفّس الصعداء، وقوله: نفساً أي: يجعل له بكل صورة ذاتاً تعذّبه، وقوله: إلا رقماً في ثوب، أي: نقشاً.

دلّت هذه الأحاديث على أمور وأحكام:

أولاً: تحريم التصوير مطلقاً لمن فيه روح وهو من كبار الذنوب، لما جاء في ذلك من الوعيد الشديد على ذلك؛ لقوله: **«أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون»**، **«ومن صور صورة عذّب بها يوم القيامة»**، **«المصوّرون يعذّبون يوم القيامة... ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**.

وظاهر هذه الأحاديث سواء كان التصوير صنع للتعظيم أو للامتهان، فصنعته حرام لما في ذلك من مضاهاة ومشابهة لخلق الله تعالى، وسواء كان ذلك مجسماً له ظلّ أم لا، وسواء صنع في ثوب أو بساط، أو حائط، أو إناء، أو دينار أو درهم أو فلس أو ورق... لأن أكثر الأحاديث الواردة بالوعيد على ذلك جاءت في الأرقام في الستر وهو القرام والدرنوك، وبهذا

قال جماهير العلماء والأئمّة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله تعالى عنهم ورحمهم.

ثانياً: امتناع الملائكة من دخولهم بيتاً فيه صورة مطلقاً كيفما كانت من ذي روح إلا إذا كانت ممتهنة كما يأتي، والحكمة في ذلك ما قال القرطبي في المفهم كما نقله الحافظ في الفتح: إنما لم تدخل الملائكة البيت الذي فيه الصورة لأن متّخذها قد تشبّه بالكفار لأنهم يتخذون الصور في بيوتهم ويعظّمونها فكرهت الملائكة ذلك، فلم تدخل بيته هجراً له لذلك، ثم إن طبيعة الملائكة نورانية وهم مظنّة نزول الرحمة ومجبولون على طاعة الله تعالى، فهم لذلك يتأثرون بمشاهدة المعاصي وأهلها، كما يتأثرون بالأقذار والأصوات المزعجة وما إلى ذلك مما يمنعهم من الحضور.

وإذا لم تحضر الملائكة خَلَفَتْهَا الشياطين، وفي ذلك هلاك المسلم وخسارته.

ثالثاً: تحريم اتّخاذ الصورة إذا كانت معلّقة على جدار أو في ثوب ملبوس أو في ستر أو نحو ذلك مما ليس ممتهناً، لظاهر الأحاديث ولما في ذلك من التشبّه بمظاهر الوثنيين والكفار وأهل الترف الذين يزيّنون بيوتهم وقصورهم بصور رؤسائهم وزعمائهم.

رابعاً: جواز اتّخاذها إذا كانت ممتهنة في بساط يوطأ ويمشي أو يجلس عليه أو في مرفقة مخدة يتّكأ عليها ونحو ذلك، وكذا إذا قطع رأسها أو نصفها؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فمر برأس التمثال فيقطع، ومر بالستر فليقطع فليجعل وسادتين منبوذتين»**، وفي هذا قال العلماء الصور إذا غيّرت هيئتها بأن قطع رأسها أو حلت أوصالها حتى لا يبقى منها إلا أثر لا على شبه الصور فلا بأس بها.

خامساً: جواز تصوير ما لا روح فيه من الأشجار والنبات والجبال والبحار وغير ذلك من الكائنات كما يجوز تعليق ذلك وتزيين البيوت بها بدون إسراف وتبذير.

سادساً: ذهب قوم إلى جواز اتّخاذ ما كان رقماً في ثوب أو ورق

ونحو ذلك، واستدلّوا بحديث أبي طلحة: إلا رقما في ثوب، وبهذا قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى، وهو قول مرجوح لأن الأحاديث الواردة في ذمّ التصوير والوعيد عليه كلها جاءت في رقم الستر. أما حديث الرقم وحديث الطائر قد يكونان قبل النهي، فقد قال النووي على حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: كان لنا ستر فيه تمثال طائر، وكان الداخل إذا دخل استقبله، فقال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حَوّلي هذا، فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا**»، قال النووي: هذا محمول على أنه كان قبل تحريم اتخاذ ما فيه صورة... أو يجمع بينه وبين أحاديث الباب بما قال النووي وغيره: يجمع بين ذلك بأن المراد باستثناء الرقم في الثوب ما كانت الصورة فيه من غير ذوات الأرواح كصورة الشجرة ونحوها.

خلاصة ما قيل في اتخاذ الصور: إن كانت ذات أجسام حرم صنعها واتخاذها بالإجماع، وإن كانت رقماً فمنعها مطلقاً، وهو قول جمهور العلماء، وهو الأصح، والأقوى دليلاً. وجوازها عند قوم مطلقاً. أمّا ما كان ممتهناً أو قطع رأسها أو تفرّقت أجزاؤها فلا خلاف في اتّخاذها.

هذا، ومن مظاهر الوثنية واتّباع أثر الرومان واليونان والأوروبيين إقامة التماثيل في ميادين العواصم الإسلامية لأشخاص وعظماء تقدمت لهم آثار في التاريخ بدعوى تخليد ذكراهم، فهذه وثنية وجاهلية محرّمة أشدّ التحريم، ومثل ذلك ما يعلّقه الناس من صور العظماء تقديساً وتعظيماً لهم؛ كالأنبياء والعلماء وأئمّة أهل البيت والأمراء والزعماء والفنانين والفسقة والظلمة والدُّعاة إلى المذاهب الهدّامة، فكل ذلك محرّم، وقد يكون كفراً أو قريباً منه.

❊ ❊ ❊

تتمة

ما تقدم هو في التصوير باليد بالنحت أو بالرقم أو بالنسج أو بالكتابة.

أما ما ظهر في هذا العصر من التصوير الفوتوغرافي، فهو مجرد أخذ

ظلّ الشاخص بآلة التصوير، وقد اختلف في ذلك علماء العصر، فمن مانع مطلقاً، ومن مبيح كذلك، ومن كاره ومن معتدل متوسّط.

والذي أراه وأدين الله تعالى به وهو الأصح إن شاء الله تعالى هو أنه داخل في الأحاديث؛ لأن صاحبه يسمّى مصوّراً وما يخرجه يسمى صورة طبق الأصل، فإن كان ذلك لضرورة كاتّخاذها لبطاقة التعريف أو لجواز السفر، فهذه ضرورة ملزم بها الإنسان من طرف السلطات، وإن كانت لمجرد الذكرى والترفيه وما إلى ذلك، فذلك مكروه والورع تركه للخلاف الواقع فيه، ولا يبعد أن يكون حراماً ونستغفر الله تعالى مما تعاطيناه في ذلك، ومع ذلك فلا يجوز تعظيمها بالتعليق على جدران البيوت ونحوها، وهذا كلّه فيما لم يكن فيه تصوير النساء العاريات وإبراز محاسنهنّ من الشعور والأفخاذ والثدي والنهود وكل ما يثير الفتنة كما هو شائع اليوم ومنشور في الصحف والمجلات وموجود في دور السينما والمسارح والتمثيل، فمثل ذلك لا يجوز تصويره ولا نشره ولا اقتناؤه ولا تعليقه... ومثل ذلك تصوير الكفار والفسّاق والظلمة والفنّانين والراقصين وأهل المجون، والله الموفّق الهادي.

❊ ❊ ❊

النهي عن أزياء الكفار والتشبّه بهم

{٦٩٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من تشبّه بقوم فهو منهم»**.

رواه أحمد (٢/٥٠، ٩٢)، وأبو داود في اللباس (٤٠٣١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/٨٨) وغيرهم من طريقين هو بهما حسن وهو صحيح لشواهده، وقد ذكرتها في تخريج الاستنفار، وقد صححه جماعة من المحدثين كما حسنه آخرون.

وتقدم حديث عبدالله بن عمرو وقوله له: **«إن هذه من ثياب الكفار فلا**

تلبسها»، رواه مسلم وغيره، وحديث أبي عثمان النهدي في كتاب عمر إلى عتبة بن فرقد، وفيه: وإياك والتنعّم وزي أهل الشرك، رواه البخاري ومسلم وأهل السنن، وانظر ما سبق رقم (٦٣٦).

وفي رواية عند أبي عوانة في صحيحه: **«أما بعد، فائتزروا وارتدوا والقوا الخفاف والسراويلات وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل وإياكم والتنعّم وزيّ الأعاجم»**.

من أهم مقاصد البعثة النبوية مخالفة الكفار والمشركين في عقائدهم وعباداتهم وعوائدهم ومظاهرهم، وقد كان هذا معروفاً عند المسلمين لا يختلفون في ذمّه ومنعه والتنزّه عنه، ولكن المسلمين اليوم جهلوا ذلك أو تجاهلوه، فاقتفوا أثر الكفار في كل شيء وذابت شخصياتهم في شخصيات أعداء الله تعالى من اليهود والنصارى وأهل الملل الكفرية، ومسخت مظاهرهم مسخاً، فأصبحوا لا فرق بينهم وبين الكفار إلا بالأسامي والهويات وبطاقات التعريف.

وإتماماً للفائدة وإقناعاً للمغرورين ننقل فقرات لبعض علمائنا في هذا الموضوع:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره بعد أن ذكر حديث: **«من تشبه بقوم»** إلخ، ما نصّه: ففيه دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبّه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقرّ عليها، وانظر ما قال عند قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى في اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: هذا الحديث - يعني **«من تشبه بقوم فهو منهم»** -: أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبّه بهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، فقد يحمل هذا على التشبّه المطلق، فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابهوهم فيه إلى

آخره، فانظر بقيّته. وقال أيضاً على حديث: «**فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس**»، وهذا بيّن في أن مفارقة المسلم المشرك في اللباس أمر مطلوب للشارع؛ كقوله: «**فرق ما بين الحلال والحرام الدف والصوت**».

وقال الأمير الصنعاني في سبل السلام على حديث: «**من تشبه بقوم**» إلخ: والحديث دال على أن من تشبه بالفسّاق كان منهم أو بالكفار أو بالمبتدعة في أي شيء مما يختصّون به من ملبوس أو مركوب أو هيئة، قالوا: فإذا تشبّه بالكافر في زيٍّ واعتقد أن يكون بذلك مثله كفر، فإن لم يعتقد ففيه خلاف بين الفقهاء، منهم من قال يكفر وهو ظاهر الحديث، ومنهم من قال لا يكفر ولكن يؤدّب.

وقال الداعية أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى في كتابه الإسلام في مواجهة التحدّيات المعاصرة: تشبه أمة بأُمّة غيرها هو أمر ينافي الفطرة والعقل ولا يتولّد إلا حين تصاب أمة بداء الانحطاط وفقدان الحياء، ولذا فإن الإسلام لا يبيحه... قال: وفوق هذا، فإن هذا النوع من التشبّه فعلة شنيعة مَثَلُها كَمَثَل رجل يَنْسُبُ نفسه إلى غير أبيه... كذلك من يولد في أمّة، ولكنه يتشبه بأُمّة أخرى ابتغاء العزّة والفخار يستحق اللومة؛ لأنه بذلك يشهد أنه من العار أن ينتسب إلى الأُمّة التي أنجبته، قال: والذين يسلكون هذا السبيل لا هم من الأُمّة التي ولدوا فيها ولا من الأُمّة التي يحبون أن يعدّوا منها لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء إلخ.

وقد ذكرته بطوله في كتابي أسباب هلاك الأُمم، فراجعه فإنه مهم جداً.

وقال المحقّق المحدث الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في شرح المسند على حديث ابن عمرو: «**هذه ثياب الكفار لا تلبسها**»، ما نصّه: وهذا الحديث يدلّ بالنصّ الصريح على حرمة التشبّه بالكفار في اللبس وفي الهيئة والمظهر؛ كالحديث الآخر: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»، قال: ولم يختلف أهل العلم منذ الصدر الأول في هذا ـ أعني في تحريم التشبّه بالكفار ـ حتى جئنا في هذه العصور المتأخرة فنبتَتْ في المسلمين نابتةٌ ذليلةٌ

مُسْتَعْبَدةٌ هجيراها ودِيدَانها التشبّه بالكفار في كل شيء، والاستخدام لهم والاستعباد ثم وجدوا من الملتصقين بالعلم المنتسبين له من يزين لهم أمرهم ويهوّن عليهم أمر التشبّه بالكفار في اللباس والهيئة والمظهر والخلق وكل شيء، حتى صرنا في أُمّة ليس لها من مظهر الإسلام إلا مظهر الصلاة والصيام والحجّ على ما أدخلوا فيها من بدع، بل من ألوان بالتشبه بالكفار، قال: وأظهر مظهر يريدون أن يضربوه على المسلمين هو غطاء الرأس الذي يسمّونه القُبَّعَة ـ البرنيطة ـ قال: ثمّ كان من بضع سنين أن خرج الجيش الإنجليزي المحتل للبلاد بمظهره المعروف، فما لبثنا أن رأيناهم ألْبَسوا الجيش المصري والشُّرطة المصرية قُبَّعات الإنجليز، فلم تفقد الأُمّة داخل البلاد منظر جيش الاحتلال الذي ضرب الذلّة على البلاد سبعين سنة، فكأنهم لم يصبروا على أن يفقدوا مظهر الذلّ الذي ألفُوه واسْتَسَاغُوه وربُّوا في أحضانه، وما رأيت مرّة هذا المنظر الشنيع منظر جُنُودنا في زيّ أعدائنا وهَيْئتهم إلا تقزَّزَتْ نفسي...

أقول: وهذا الذي ذكره منذ أكثر من نصف قرن لتاريخه قد عمّ العالم الإسلامي عربيّه وعجميّه شرقيّه وغربيّه.

والكلام في هذا الأمر يطول، وقد ألّف فيه أستاذنا السيد أحمد الصديق رحمه الله تعالى كتاباً هاماً أسماه الاستنفار لغز والتشبه بالكفار ذكر فيه ما جاء في السنّة المحمدية من ذمّ التشبّه بالكفار والنهي عن ذلك مرتّباً على الأبواب، وقد لخّصته وزدت عليه وطبعته، فبلغت أحاديثه أكثر من مائة حديث، فارجع إليه فإنه ينفعك جداً، وللعلامة المحدث ناصر الدين الألباني بحث هام في ذلك في كتابه حجاب المرأة المسلمة وفي سلسلته الصحيحة...

هذا، ونرجو من القارىء الكريم أن يسامحنا على هذه الإطالة، فإنها من مصلحتك فلا تَمُلَّنَّ.

* * *

{٧٠٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرين الأول لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، شققن مروطهن فاختمرن بها، وفي رواية: أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها.

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٠٦)، وأبو داود في اللباس (٤١٠٢).

{٧٠١} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغِرْبان من الأكسية.

رواه أبو داود (٤١٠١) بسند صحيح وهو عند عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وغيرهم، كما عزاه إليهم السيوطي في الدرّ المنثور.

{٧٠٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنّ نساء المؤمنات يَشْهَدْن مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الفجر مُتَلَفِّعات بمُرُوطِهِنّ، ثم يَنْقَلِبْن إلى بُيوتهن حين يَقضين الصلاة لا يُعْرَفْنَ من الغَلَس.

رواه البخاري ومسلم، وقد تقدم في الصلاة.

{٧٠٣} ـ وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: كساني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قُبْطِيّة كثيفة مما أهداها له دِحْيَةُ الكلبي، فكسَوْتُها امرأتي، فقال: **«ما لك لم تَلْبَس القبطية؟»** قلت: كسوتها امرأتي، فقال: **«مُرْها فلتجعل تحتها غِلالَةً، فإني أخاف أن تصف حجم عظامها»**.

رواه أحمد (٥/٣٠٥)، والبيهقي (٢/٢٣٤) وسنده حسن.

{٧٠٤} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما دخلت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرض عنها رسول الله صلّى الله تعالى عليه

وآله وسلم وقال: «**يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المَحِيض لم يَصْلُح أن يُرَى منها إلا هذا وهذا**»، وأشار إلى وجهه وكفّيه.

رواه أبو داود (٤١٠٤)، والبيهقي (٢٢٦/٢ ج ٨٦/٧) وهو حديث صحيح لشاهدين له أحدهما سنده حسن في الشواهد رواه البيهقي عن أسماء بنت عُمَيْس رضي الله تعالى عنها.

قوله تعالى: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] جمع خمار: وهو ما تغطي المرأة به رأسها وجيبها وعنقها، وقوله: مروطهن جمع مِرْط ـ بكسر الميم ـ: وهو كساء يكون من صوفٍ أو وبرٍ: وقوله تعالى: ﴿جَلَابِيبِهِنَّ﴾ ـ جمع جلباب ـ بكسر الجيم ـ: المِلْحَفة وما ترتديه المرأة فوق ثيابها، وقوله: الغِرْبان ـ بكسر الغين ـ: جمع غراب، أي: كأنهنّ في لبسهنّ السواد مثل الغراب. وقوله: قبطيّة ـ بضم القاف ـ: هي ثياب من كتان بيض كانت تنسج بمصر، وقوله: كثيفة أي: غليظة، وكانت كما يبدو ضيّقة، وقوله: فلتجعل تحتها غلالة هي بكسر الغين: هو ثوب يلبس تحت الثياب، وقوله المحيض، أي: وقت حدوث الحيض.

قد أباح الشارع للمرأة جميع أنواع الألبسة وألوانها، سواء كانت من حرير أم من كتان أم من صوف أم من وبر... وسواء كان الثوب أبيض أم أخضر أم أحمر أم أصفر أم أسود، ولها أن تلبس الأُزر والأكسية والخمر والأردية والسراويلات والدروع والقمص وغيرها، غير أنه يشترط لخروجها أو مقابلة الأجانب أن يكون لباسها ساتراً لجميع جسمها واسعاً غير ضيّق يحدد أعضاءها غليظاً غير شفاف يصف جسمها، وأن يكون لها جِلْباب وملحفة فوق ثيابها مُخَمّرة رأسها وجبينها وما يتبع ذلك بخمار أو ببعض جلبابها، وأن لا يكون ثوبها ثوب زينة ولا مطيب ولا فيه تشبّه بالكفار أو بالرجال كما يؤخذ مما ذكرناه هنا، وما يأتي بعد هذا وغير ذلك مما جاء في السنّة النبوية.

أمّا ما يتعلق بالزينة الظاهرة والباطنة الجائز إظهارها للمرأة وإخفاؤها، فنرجيء الكلام عليها لكتاب النكاح إن شاء الله تعالى، وفيه ذكر الحجاب.

{٧٠٥} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية**»، وفي رواية: «**كل عين زانية، والمرأة إذا**» إلخ.

رواه أحمد (٣٩٤/٤، ٤٠٠، ٤٠٧، ٤١٨)، وأبو داود (٤١٧٣)، والترمذي (٢٥٩٧)، والنسائي (١٣٢/٨)، والدارمي (٢٦٤٩)، وابن حبان (١٤٤٧)، والحاكم (٣٩٦/٢) وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم ووافقه الذهبي.

{٧٠٦} ـ وعن زينب الثقفية رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا خرجت إحداكُنّ إلى المسجد فلا تَقْرَبَنّ طيباً**».

رواه مسلم (١٦٣/٤)، والنسائي (١٣٣/٨، ج١٣٣/٤)، ونحوه عن أبي هريرة وفيه: «**أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهدَنّ معنا العشاء الآخرة**»، رواه مسلم وأبو داود (٤١٧٥) والنسائي.

قوله: فهي زانية، قال العلماء: أي: هيّجت شهوة الرجال بعطرها وحملتهم على النظر إليها، فكل من ينظر إليها فقد زنى بعينيه، ويحصل لها إثم ذلك لأنها حملته على ذلك وشوّشت قلبه، فكانت زانية مجازاً.

وقوله: بخوراً، أي: ما يتبخر به كالعود ونحوه، فمن فعلت شيئاً من ذلك منعت من حضور المسجد حيث المصلّون والمتعبّدون، فكيف بحضور مواقع السوء حيث الذئاب الجائعة، وفي هذه الأحاديث تحريم استعمال المرأة الطيب والعطر للخروج، وهذا مما لا خلاف في تحريمه حتى عدّه الهيتمي في الزواجر من الكبائر. نعم لها أن تتطيّب وتتبخر بما شاءت في بيتها، بل ذلك مطلوب منها إذا كانت ذات زوج.

{٧٠٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شهدت العيد مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فصلّى قبل الخطبة، فأتى النساء فأمرهن بالصدقة، فجعلنَ يُلقين الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال، وفي رواية:

فجعلت المرأة تصدق بِخُرْصِها وسِخَابِها، وفي رواية: فرأيتُهن يُهْوِين إلى آذانهنّ وحلوقهن.

رواه البخاري في العيد (٣/١١٨، ١٢٠)، وفي اللباس (١٢/٤٤٩، ٤٥٠)، ومسلم في العيد (٦/١٨٠، ١٨١) وقد تقدم.

{٧٠٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: هلكت قلادة لأسماء، فبعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طلبها رجالاً، فحضرت الصلاة وليسوا على وضوء، الحديث تقدم في التيمّم.

قوله: الفتخ ـ بفتح الفاء والتاء ـ: جمع فتخة وهي الخواتيم، وقيل: كبارها، وقوله: بخرصها ـ بضم الخاء ـ: هي حلقة صغيرة من ذهب أو فضّة، وقوله: سخابها ـ بكسر السين ثم خاء ـ: هي قلادة كانت تتّخذ للنساء من قرنفل وغيره.

وفي الحديثين مشروعية تحلّي النساء وتزيين أيديهن وآذانهن وحلوقهن بالذهب والفضة وغيرهما، ولا خلاف في ذلك كما جاء في أحاديث متواترة ووقع الإجماع عليه كما قدمنا الإشارة إلى ذلك سابقاً.

* * *

لعن المتشبهات بالرجال، والمتشبهين بالنساء

{٧٠٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المتشبّهين من الرجال بالنساء، والمتشبّهات من النساء بالرجال.

وفي رواية: لعن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المُخَنَّثين من الرجال، والمُتَرَجِّلات من النساء، وقال: **«أخرجوهم من بيوتكم»**، قال: فأخرج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلاناً، وأخرج عمر رضي الله تعالى عنه فلانة.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٤٥٢، ٤٥٣)، وأبو داود (٤٠٩٧، ٤٩٣٠)، والترمذي (٢٥٩٥)، وابن ماجه (١٩٠٤).

{٧١٠} ـ وعن ابن أبي مليكة رحمه الله تعالى قال: قيل لعائشة رضي الله تعالى عنها: إن امرأة تلبس النعل، فقالت: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الرَّجُلَة من النساء.

رواه أبو داود (٤٠٩٩)، وسنده صحيح ولا تضرّ هنا عنعنة ابن جريج.

{٧١١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِي بمُخَنَّث قد خَضَب يديه ورجليه بالحنّاء، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما بال هذا**»؟ فقيل: يا رسول الله يتشبّه بالنساء، فأمر فنُفِي إلى النَّقِيع، فقالوا: يا رسول الله ألا نقتله؟ فقال: «**إني نُهيتُ عن قتل المصلّين**».

رواه أبو داود (٤٩٢٨) بسند صحيح.

{٧١٢} ـ وعنه قال: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الرجلَ يلبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لِبْسَة الرجل.

رواه أبو داود (٤٠٩٨)، وابن ماجه (١٩٠٣)، والحاكم (٤/١٩٤)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

{٧١٣} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان عندها وفي البيت مُخَنَّثٌ، فقال لعبدالله أخي أمّ سلمة: يا عبدالله إن فُتِح لكم غداً الطائفُ فإني أدلُّك على بنت غَيْلاَن فإنها تُقْبِلُ بأزبع، وتُدْبر بثمانٍ، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يدخلنَّ هؤلاء عليكُنَّ**»، وفي رواية: «**ألا أرى هذا يعرفُ ما ههنا، لا يَدْخُلَنَّ عليكن**»، فحجبوه.

رواه البخاري في النكاح وفي اللباس (١٢/٤٥٣)، ومسلم (١٤/١٦٢، ١٦٣)، وأبو داود (٤٩٢٩)، وابن ماجه (١٩٠٢).

قوله: المخنّثين جمع مخنّث ـ بضمّ الميم وفتح الخاء والنون

المشدّدة ـ: وهو الذي يشبه النساء في أخلاقه وكلامه وحركاته، وقوله: المترجّلات جمع مترجلة: وهي الرجلة ـ بفتح الراء وضمّ الجيم ـ: التي تتشبه بالرجال فيما يختصّون به، وقوله: النقيع ـ بفتح النون الفوقانية ـ: موضع خارج المدينة المنوّرة، وليس بالبقيع ـ بالباء التحتانية ـ: وقوله: فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال البخاري: تقبل بأربع يعني أربع عُكَن بطنها، فهي تقبل بهنّ، وقوله: تُدْبِرُ بثمان يعني أطراف هذه العكن الأربع لأنها محيطة بالجَنْبَيْنِ حتى لَحِقَتْ، ومعناه: أنها إذا أقبلت نحو الإنسان كان لها في بطنها أربع طيّات، وإذا أدبرت عنه كان لها ثمان طيّات، وذلك لسمَنها وكثرةِ لَحْمِها ونُعومة جِسْمِهَا.

وفي جملة هذه الأحاديث أمور، **أولاً**: تحريم تشبّه الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، وذلك يكون فيما يختصّ به كل من الجنسين، فلا يجوز للرجل أن يلبس ملابس النساء الخاصّة بهنّ، ولا التحلّي بما يتحلين به من الأفراط والقلائد والخواتم والحنّاء والأصباغ التي يتجمّلن بها والأساور وما إلى ذلك؛ كالمشي والكلام... فمن فعل شيئاً من ذلك كان آثماً عاصياً لله تعالى، وعُدَّ ذلك منه تخنثاً ككثير من الشباب وغيرهم ممن يتشبّهون بالنساء، وخاصة في حلق لحاهم ودهن وجوههم وتحليتهم بالذهب في آذانهم وحلوقهم... وهكذا الأمر في المرأة فلا يجوز لها أن تتشبّه بالرجل في شؤونه وأحواله الخاصّة به وبذكورته، وتتنافى مع أنوثتها من حلق رأسها مثلاً وارتدائها ملابسه وحذاءه وعمامته... وتقليده في مشيته أو كلامه أو أي تصرف من تصرفاته كذكر، ومن ذلك منافستها الرجل في شؤون الحياة الاجتماعية ومطالبتها مشاركة الرجل في كل شيء، وبهذا تعلم أن أكثر نساء عصرنا ملعونات بلعنة الله تعالى لأنهن أَصْبَحْنَ رَجُلات ومترجّلات كما سماهنّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وسجّل عليهنّ اللعنة بسبب ذلك.

ثانياً: عدّ العلماء رحمهم الله تعالى هذا التشبه من الجانبين من كبائر الذنوب، كما ذكر ذلك الذهبي في الكبائر والهيتمي في الزواجر، وهو ظاهر واضح لأن الوعيد واللعنة لا يكونان إلا على فعل محرّم أو ترك واجب.

ثالثاً: المخنّث قسمه العلماء إلى نوعين: أحدهما: من خلق كذلك في أخلاقه وحركاته وكلامه كالنساء، فهذا لا لوم عليه ولا عقوبة لأنه لا صنع له في ذلك، وهذا لا يكون له شهوة في النساء ويعدّ من غير أولى الإربة الذين تتراءى لهم المرأة ويرونها، ولذلك كان ذلك المخنث يدخل على نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم ينكر عليه حتى علم معرفته لأوصاف النساء... فأمر بإخراجه ولم ينكر عليه تخنّثه؛ لأنه كان خلقة فيه. النوع الثاني من المخنّثين: من لم يكن له ذلك خلقة، بل يتكلّف أخلاق النساء وحركاتهنّ وهيآتهن وكلامهنّ ويتزيا بزيّهن، فهذا هو المذموم الذي جاء لعنه، وقد يصل به الحال إلى أن يؤتى في دبره كالنساء، وتلك نهاية التخنّث، وهذا الصنف ما أكثره في عصرنا عياذاً بالله من غضبه ولعنته.

* * *

أنواع من التجميل توجب اللعنة

{٧١٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لعن الله الواصلة والمُسْتَوْصِلَة، والواشِمَة والمُسْتَوْشِمَة**»، قال نافع: الوَشْم في اللِّثَة.

رواه البخاري (٤٩٩/١٢)، ومسلم (١٠٥/١٤) كلاهما في اللباس.

{٧١٥} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت فتَمَعَّطَ شَعَرُها، فأرادوا أن يَصِلُوها فسألوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**لعن الله الواصلة والمستوصلة**».

رواه البخاري (٤٩٨/١٢)، ومسلم (١٠٤/١٤) ونحوه عن أسماء عندهما أيضاً.

{٧١٦} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «**لعن الله الواشمات، والمستوشمات والنامِصَات والمتنمصات، والمُتَفَلِّجَات للحُسْن، المُغَيِّراتِ خلقَ الله**»، قال فبلغ ذلك امرأة من بني أسدٍ يقال لها أمّ يعقوب،

وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنك لعنتَ الواشماتِ والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله؟ فقال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو في كتاب الله، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لَوْحَي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، فقالت المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن، قال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبدالله فلم ترَ شيئاً، فجاءت إليه فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها.

رواه البخاري (١٢/٤٩٤، ٤٩٥، ٥٠٣)، ومسلم (١٤/١٠٥، ١٠٦، ١٠٧) وباقي الجماعة، وفي الباب عن أبي هريرة وجابر وهما في الصحيح.

قوله: الواصلة: هي التي تصل الشعر سواء كان لها أم لغيرها، والمستوصلة: هي التي تطلب فعل ذلك ويفعل بها، والواشمة: هي التي تفعل الوشم، والمستوشمة: هي التي تطلب فعل ذلك بها، والوشم ـ بفتح الواو وسكون الشين ـ: أن يغرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يحشى بكحل أو نورة أو مداد فيخضرّ، وقد يجعلونه ذلك في اللثة وفي الخدين وفي الصدر وقد يصوّرون بذلك صوراً، والنامصة: التي تتولى فعل النمص وهو نتف شعر الوجه وترقيق الحواجب، قال أبو داود في السنن: النامصة: التي تنقش الحواجب حتى ترققه، والمتنمّصة: التي تطلب فعل ذلك، والمتفلجات: جمع متفلّجة وهي التي تعالج أسنانها لتكون لها فلجة بينها، ومن ذلك الوشر وهو تحديد الأسنان وقد جاء لعن فاعله كما عند النسائي بسند صحيح، وقوله: المغيّرات خلق الله هو راجع للجميع.

وهذه الأحاديث تدلّ على تحريم فعل هذه الأشياء الأربعة والمساعدة عليها، وهي الوصل، والوشم، والنمص، والفلج. أما الوصل والمراد به وصل شعر بشعر آخر لتوهم غيرها أن لها شعراً طويلاً، وهذا حرام بلا خلاف، ونقل القاضي عياض رحمه الله تعالى عن الأكثرين أن الوصل

ممنوع بكل شيء وصلته بشعر أو صوف أو خرق واحتجّوا بحديث جابر الذي ذكره مسلم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زجر أن تصل المرأة برأسها شيئاً، وقال الليث بن سعد: النهي مختص بالوصل بالشعر ولا بأس بوصله بصوف وخرق وغيرها. قال عياض: فأما ربط خيوط الحرير الملوّنة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه لأنه ليس بوصل... وإنما هو للتجمّل والتحسين، قال: وفي الحديث أن وصل الشعر من المعاصي الكبائر للعن فاعله، وفيه أن المعين على الحرام يشارك فاعله في الإثم، نقله النووي.

وأما الوشم، فهو مع كونه فيه تغيير خلق الله كأخواته فموضعه يصير نجساً ولا يمكن إزالته إلا بالجرح، قال العلماء: والتوبة من ذلك هو محوه إن أمكن إن لم يؤدّ ذلك إلى تشويه أو تلف أو فوات عضو، وعلى كلٍّ ففاعله وطالبه كل منهما آثم أشدّ الإثم، إلا إذا كان الموشوم صغيراً غير مكلّف، فالإثم حينئذٍ يتعلق بالفاعل وحده.

وأما النمص، وهو قلع الشعر من الوجه أو ترقيق الحواجب كما تقدم، فحرام ولا يجوز التجميل به. نعم إذا كان للمرأة لحية وجب عليها حلقها خلافاً لابن جرير الذي قال: يحرم عليها حلقها، وهكذا الأمر في شاربها أو عنفقتها إذا ظهر عليها شعر كثيف ينافي أنوثتها وجب عليها إزالتها، وهذا بخلاف شعر الحاجبين وما كان في الوجه والعارضين من شعر بسيط لا يلحقها بالتشبّه بالذكر، فإن إزالة ذلك هو النمص.

أما الفلج والوشر مما يتعلق بتغيير الأسنان وخلقة الله تعالى وإحداث فرجة بين الأسنان والغالب يكون ذلك في الثنايا والرباعيات هو محرم ملعون صاحبه كالباقي، وقوله: والمتفلجات للحسن إن ذلك يكون ممنوعاً إذا كان طلباً للحسن. أما إذا كان لإصلاح عيب في السنّ مثلاً أو غير ذلك، فلا إثم فيه ولا يدخل في تغيير خلق الله تعالى، وعلى أي فالتجميل بهذه الأشياء المذكورة ممنوع وملعون صاحبه ومن يساعده.

* * *

{٧١٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**صِنفان من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البَقَر يَضْرِبُون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ، عارياتٌ، مُمِيلات، مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهن كأسْنِمَة البُخْتِ المائلة لا يدْخُلْن الجَنَّة، ولا يَجِدْن رِيحَها، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِن مَسِيرَة كذا وكذا**».

رواه أحمد (٢/٣٥٥، ٣٥٦، ٤٤٠)، ومسلم (١٤/١٠٩، ١١٠)، والبيهقي (٢/٢٣٤).

{٧١٨} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يكون في آخر أُمّتي رجالٌ يَركَبُون على السُّرُوج كَأَشْبَاهِ الرِّحَال، يَنْزِلُون على أبواب المساجد نساؤُهم كاسياتٌ عارياتٌ على رؤوسِهِنّ كأسْنِمَة البُخْتِ العِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ ملعوناتٌ لو كان وراءَكم أمَّةٌ من الأُمم خدمهُن نساؤُكم كما خدمكُم نِساءُ الأُمم قبلكُم**».

رواه أحمد (٢/٢٢٣)، وابن حبان (١٤٥٤) بالموارد بسند صحيح، وعزاه في المجمع (٥/١٣٧) لأحمد ومعاجم الطبراني، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

وقوله: مائلات أي: عن طاعة الله تعالى مميلات، أي: يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، وقيل: يمشين متبخترات مميلات لأكتافهنّ، وقيل: مائلات يمشطن مشطة البغايا ويمشطن غيرهن كذلك، وقوله: السروج جمع سرج ـ بفتح السين ـ: ما يوضع على الخيل ونحوه، وقوله: كأشباه الرحال: هو جمع رحل ـ بفتح الراء ـ: وهو للبعير كالسرج للفرس، وقوله: كأسنمة هو جمع سنام ـ بفتح السين ـ: ما ارتفع من ظهر البعير، وقوله: البخت ـ بضم الباء وسكون الخاء ـ: طويلات الأعناق من الجمال، وقوله: على رؤوسهن قد يكون ذلك بتلفيف شعورهن على كيفيات مخصوصة وقد يراد بذلك

القبّعات، وقوله: العجاف ـ جمع عجفاء ـ: وهي الهزيلة والمريضة، وفي الحديثين معجزة هامة للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث تنبأ بصنفين من الناس خطيرين فظهرا في عصرنا هذا طبق ما أخبر: الصنف الأول أعوان الظلمة الذين يحملون معهم شبه عصي يضربون بها الناس بحقّ وباطل، ويتجلّى هذا في الشرطة المدنية وفي رجال القوة المسلحة الاحتياطية... وهم من أهل النار إن لم يتوبوا ويرعووا عما هم فيه.

أما الصنف الثاني وهو بيت القصيد، فالنساء الكاسيات العاريات المتبرجات، ويشمل هذا الكاسيات الملابس الرقيقة والشفافة والضيّقة المحدّدة والكاسيات بعض أجزاء أجسامهنّ وإبداء الباقي والجميع يطلق عليهنّ كاسيات عاريات متبرجات، وهؤلاء على الخصوص وصفهنّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنهن يركبن مع أزواجهن على السروج أشباه الرحال ـ وهي هذه السيارات ـ فينزلون على أبواب المساجد ويدخل الرجال للصلاة ويبقى نساؤهم أحياناً في انتظارهم داخل السيارات وهنّ عرايا، ولخطورة هؤلاء العرايا على الرجال وعلى المجتمع وارتكابهنّ أفحش الآثام أمرنا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأن نلعنهنّ لأنهن ملعونات بلعنة الله تعالى، فلتكن المسلمة على حذر من التبرّج وإبداء زينتها أو بعضها للأجانب من غير المحارم لئلا تشملها لعنة الله.

وهذان الصنفان كلاهما من أهل النار، فلا يدخلن الجنّة، بل ولا يرحن ريحها، وأن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام وما ذلك إلا لأنهما قد يكفران وهما لا يشعران، فيحقّ عليهما الخلود في النار.

* * *

منوعات
جلود السباع

{٧١٩} ـ عن أبي المليح بن أسامة عن أبيه رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن جلود السباع أن تُفْتَرَش.

رواه أحمد (٥/٧٤، ٧٥)، وأبو داود (٤١٣٢)، والترمذي (١٦٢٦)، والنسائي (٧/١٥٦)، وابن الجارود (٨٧٥)، والبيهقي (١/٢١)، وسنده صحيح.

السباع تَشْمل كلَّ من له ناب يفترش به كالأسد والنمر والذئب والثعلب والكلب... فجلود جميعهم لا يجوز استعمالها لا بالافتراش ولا بغيره؛ لأنها محرّمة بالأصالة، لذواتها.

{٧٣٠} ـ وعن خالد قال: وفد المقدام بن معديكرب وعمرو بن الأسود ورجل من بني أسد من أهل قِنَّسْرِين إلى معاوية بن أبي سفيان، فقال معاوية للمقدام: أعلمت أن الحسن بن علي توفي فرجَّع المقدام، فقال له رجل: أتراها مصيبة؟ قال له: ولم لا أراها مصيبة وقد وضعه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حجره، فقال: «**هذا مِنِّي، وحُسَيْنٌ من علي**» عليهم السلام، فقال الأسدي: جمرة أطفأها الله عزّ وجلّ، فقال المقدام: أما أنا فلا أبرح اليوم حتى أُغِيظَك وأُسْمِعَك ما تَكْرَهُ، ثم قال: يا معاوية إن أنا صدَقتُ فصدِّقني، وإن أنا كذبت فكذِّبْني، قال: أفعل، قال: فأنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن لبس الذهب؟ قال: نعم، قال: فأنشدك بالله هل سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن لبس الحرير؟ قال: نعم، قال: فأنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها؟ قال: نعم، قال: فوالله لقد رأيت هذا كلّه في بيتك يا معاوية، فقال معاوية: قد علمتُ أنّي لن أنجوَ منك يا مقدام، قال خالد: فأمر له معاوية بما لم يأمر لصاحبيه وفرض لابنه في المائتين ففرّقها المقدام على أصحابه.

رواه أبو داود (٤١٣١)، والنسائي (٣٩٦٨) وسنده صحيح. وخالد هو ابن معدان التابعي المشهور.

في هذا الحديث مع النهي عن لبس جلود السباع والركوب عليها لأن ذلك من عادات الأعاجم: صفاقة وجه ذلك الرجل المجهول الذي قال للمقدام في موت سيدنا الحسن عليه السلام: أتراها مصيبة؟ ومعه ذلك

الأسدي في قوله: جمرة أطفأها الله، وقد تجلّى في قوليهما ما كانا يبطنانه من النصب وعداوة أهل البيت الأطهار رضي الله تعالى عنهم، ولذلك كان ردّ المقدام عليهما كالصاعقة حيث حدّث الأول عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما يوجب احترام سيّدنا الحسن ووجوب الاسترجاع عند موته والتأسّف والتحزن عليه لا الشماتة بموته، ثم أغاظ الثاني وألقمه حجراً، وأراه أن معاوية الذي يقدسه ويقدمه على الحسن وهو يلبس الذهب والحرير ويستعمل جلود السباع ويركب عليها، وقد نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن كل ذلك لا يقاس بالحسن عليه السلام فرضي الله تعالى عن المقدام وجزاه الله تعالى خيراً عن دفاعه عن بضعة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وجزى مبغضي أهل البيت ومعاديهم بما يستحقّون.

* * *

جلود النمار

{٧٣١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تصحب الملائكة رُفْقَةً فيها جلدُ نَمِر**».

رواه أبو داود (٤١٣٠) بسند حسن.

{٧٣٢} ـ وعن معاوية قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تركبوا الخَزَّ ولا النِّمَار**».

رواه أبو داود (٤١٢٩)، وابن ماجه (٣٦٥٦) وسنده صحيح.

ونحوه عن أبي ريحانة صاحب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، رواه ابن ماجه (٣٦٥٥).

الخَزّ ـ بالخاء المعجمة المفتوحة والزاي المعجمة ـ: هي ثياب تنسج من الإبريسم والحرير الخالص، وقد تنسج من صوف إبريسم وكلاهما ممنوع بالنسبة للرجال، فلا يجوز استعماله لا في الفراش ولا في اللباس

ولا غيرهما كجلود النمار، وفي الحديث الأول التنفير من صحبة ما فيه جلد نمر، وأن ذلك من موانع صحبة الملائكة ومرافقتها للمؤمنين، ولا نعلم سرّ ذلك ولا علّته إنما الذي نستطيع أخذه من الحديثين هو تحريم استعمال جلود النمار... والنمار جمع نمر ـ بفتح النون وكسر الميم ـ: وهو من أخبث الحيوانات المفترسة، فهو أخبث من الأسد ولا يستطيع مقاومة الأسد ومصارعته من الحيوانات غيره.

* * *

المياثر الحمر وغيرها

{٧٢٣} ـ عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ركوب المياثر.

رواه الترمذي في اللباس (١٦١٧) هكذا مختصراً، وسنده صحيح.

{٧٢٤} ـ وعنه قال: أمرنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بسبع: عيادة المريض، واتّباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونهانا عن لبس الحرير، والديباج، والقسي، والاستبرق وياثر الحمر.

رواه البخاري (٤٢٤/١٢)، ومسلم (٣١/١٤) كلاهما في اللباس ويأتي بأطول من هذا في الأدب.

{٧٢٥} ـ وعن الإمام عليّ عليه السلام قال: نهاني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن خاتم الذهب وعن لبس القَسِّيّ، والمِيثَرة الحمراء.

رواه مسلم (٧٢/١٤)، وأبو داود (٤٠٥١)، والترمذي (١٦٣٩)، والنسائي (١٩٤/٨)، وابن ماجه (٣٦٥٤) بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً.

{٧٢٦} ـ وعنه قال: نُهِيَ عن المياثر الأرجوان.

رواه أبو داود (٤٠٥٠) بسند صحيح.

{٧٣٧} ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا أركب الأُرْجُوان**».

رواه أبو داود (٤٠٤٨) بسند صحيح، وقد تقدم بعضه في بيان طيب الرجال والنساء.

الكلام على مطلق الحرير ومنه الديباج والإستبرق ما غلظ وما رقّ منه قد تقدم. أما القسيّ ـ وهو بفتح القاف وكسر السين المشدّدة ـ: فهي ثياب كانت تصنع بمصر والشام من كتان مضلّعة مزيّنة بحرير، فلا يجوز لبسها. أما المياثر، فهي جمع ميثرة ـ بكسر الميم وسكون الهمزة ثم ثاء مفتوحة، وقيل: بياء دون همزة ـ قال العلماء: هي وطاء كانت النساء يصنعنه لأزواجهنّ على السروج، وكان من مراكب العجم ويكون من الحرير، ويكون من الصوف وغيره. وقيل: هي أغشية للسروج تتخذ من الحرير، وقيل: هنّ سروج من الديباج، وقيل: هي شيء كالفراش الصغير تتخذ من حرير تحشى بقطن أو صوف يجعلها الراكب على البعير تحته فوق الرحل، وهي أقوال متقاربة. قالوا: فإن كانت من الحرير كما كان الغالب من عادتهم فهي حرام، سواء كانت على رحل أو سرج أو غيرهما، وإن كانت من غير الحرير فإن كانت حمراء فقد ورد النهي عنها في حديث الإمام عليّ عليه السلام وحديث البراء؛ ولقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا أركب الأُرجوان**» وهو بضم الهمزة والجيم بينهما راء ساكنة، وقد فسّروها بالمياثر الحُمْر. أما ما عدا ذلك فهي مباحة، سواء كانت من صوف أم من كتّان...

وبهذا انتهى كتاب اللّباس والزينة وفيه من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين ثلاثة وسبعون حديثاً والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وأتباعه.

كتاب الرؤيا وتعبيرها

الرؤيا المنامية لها أهمية في الإسلام واعتبرها الشارع وجعلها نوعاً من الوحي الإلٰهي، ولذلك كان أول ما بدىء به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، وأخبر الله تعالى عن خليله سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسلام أنه أراه في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل... وذكرت الرؤيا وتعبيرها في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام، كما تحدث عنها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وذكر أقسامها وما يصح منها وما لا، وذكر كثيراً من تعبيرها وَبُنِيَ الأذان للصلوات عليها وهو من أعظم شعائر الدين... وسيمرّ بنا كثير من أحكامها وقواعد تعبيرها، وقد ألّف الناس كتباً وأسفاراً في أنواعها وأحكامها وأصول تعبيرها وتفسيرها مرتّبة على الأبواب والحروف.

* * *

الرؤيا الصالحة جزء من النبوّة

{٧٣٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الوحي الرُّؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح...

رواه البخاري في أول صحيحه مطولاً، ويأتي بتمامه في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى.

كانت مدة الوحي مناماً ستة أشهر، كما تدلّ عليه الأحاديث الآتية، ثم جاءه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الملك يقظة بغار حراء.

{٧٢٩} ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة**».

رواه البخاري (١٥/١٦)، ومسلم (٢٣/١٥) وغيرهما واللفظ للبخاري.

ومثله عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه بلفظ: «**الرؤيا الصالحة**» ولم يقل من الرجل الصالح، رواه البخاري (٢٩/١٦).

{٧٣٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة**».

رواه البخاري (٢٨/١٦)، ومسلم (٢٣/١٥)، وابن ماجه (٣٨٩٤) ومثله عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، رواه البخاري (٢٨/١٦)، ومسلم (٢٢/١٥)، وأبو داود (٥٠١٨)، والترمذي (٢٠٩٩).

قوله: الرؤيا الصالحة أو الحسنة هي الرؤيا الصادقة التي فيها بشارة لمن رؤيت عليه، وقيّدت من الرجل الصالح، فإن أغلب رؤاهم تكون صالحة. أما رؤيا الفاسق، فلا اعتبار بها غالباً. وقوله: جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة، يعني: أن الرجل الصالح إذا رأى رؤيا حسنة صادقة تبشّره بخير آجل أو تخبره عن غيب في المستقبل، فذلك يعتبر جزءاً من وحي الله تعالى الذي أعطاه للأنبياء، وإنما قيّد ذلك بستّة وأربعين؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عاش أيام الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، وأوحى إليه مناماً في هذه السنين ستّة أشهر، فكانت هذه الستة جزءاً من ستّة وأربعين.

وهذا من رحمة الله تعالى بعباده حيث أعطاهم جزءاً من النبوّة يعلمون به ما يقع لهم في مستقبل حياتهم، فما بعدها من أمور الآخرة. أمّا

ما جاء من الأعداد الأخرى التي فيها سبعون أو أربعون، فالذي أراه أنه من تصرّف الرواة والله تعالى أعلم.

* * *

أنواع الرؤيا

{٧٣١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا اقْتَرَبَ الزمانُ لم تَكَد رؤيا المؤمن تَكْذِبُ، وأصدقُهم رُؤيا أصْدَقُهم حَدِيثاً، ورؤيا المسلم جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة، والرؤيا ثلاثٌ: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا من تَحزِين الشيطان، والرؤيا مما يُحَدِّثُ بها الرجلُ نفسَه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم ولْيَتْفِل ولا يحدّث به الناسَ**»، قال: «**وأُحِبُّ القيدَ في النوم، وأكره الغُلَّ، والقَيدُ ثباتٌ في الدين**»، وفي رواية: «**فمن رأى ما يكره فليقم فليصلّ**»، وفيه: «**لا تُقَصُّ الرؤيا إلاّ على عالم أو ناصح**».

رواه البخاري (١٦/٦٢، ٦٥)، ومسلم (١٥/٢٠، ٢١)، وأبو داود (٥٠١٩)، والترمذي (٢٠٩٨، ٢١٠٧، ٢١١٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٣٩٠٦)، والرواية الأخيرة للترمذي وحسّنه وصححه.

{٧٣٢} ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث بها إلا من يحبّ، وإذا رأى ما يكره فليتفِل عن يساره ثلاثاً، وليتعوّذ بالله من شرّ الشيطان وشرها، ولا يحدّث بها أحداً فإنها لن تَضُرَّه**»، وفي رواية: «**والحُلُم من الشيطان**».

رواه أحمد (٥/٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٥)، والبخاري (١٦/٢٢)، ومسلم (١٥/١٦، ١٧، ١٩)، وأبو داود (٥٠٢١)، وابن ماجه (٣٩٠٩).

{٧٣٣} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إذا رأى أحدكم رؤيا يحبّها فإنما هي من الله**

فليحمد الله تعالى عليها وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرّها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضرّه».

رواه البخاري (٢٤/١٦).

في هذه الأحاديث عدّة أمور وآداب تتعلق بالرؤيا، وهي كالآتي:

أولاً: عندما يتباعد الناس عن زمان النبوّة وتقترب الساعة يعوّضهم الله تعالى عن الوحي بالرّؤيا الصالحة بشرى لهم، فلا تكاد تخالف رؤاهم الواقع.

ثانياً: إن كل من كان أصدق حديثاً في يَقَظَتِهِ كان أصدق رؤيا في منامه، وذلك لتنوير قلبه وصفائه بصدقه بخلاف غيره من الكذابين.

ثالثاً: إن الرؤى قد تكون من الله عزّ وجلّ رحمة منه بعباده ولطفاً بهم، وهي الرؤيا الصادقة الصالحة من المؤمن الصالح، وقد تكون من الشيطان أي: تهويله وتحزينه وتخويفه، فتكون من تخيّلاته وتلاعبه وتسبّبه لا أنها خلقه بل الكل خلق الله تعالى وفعله، لكن للشيطان تسبّب، فنسب ذلك إليه، وسيأتي في حديث مسلم: **«لا تخبرنا بتلاعب الشيطان»**، وقد تكون بما يحدث به الإنسان نفسه وَيَهم به في يقظته من شؤون حياته فيرى ذلك في منامه.

رابعاً: إذا رأى الإنسان ما يسرّه، فعليه أن يحمد الله تعالى على ذلك ويستبشر به، وله أن يحدث بها حبيباً له ذا رأياً ناصحاً، أما إن رأى ما يكرهه فعليه إن استيقظ أن يستعيذ بالله تعالى من شرّ الشيطان وشرّ الرؤيا ويتفل عن يساره ثلاثاً، ويتحوّل عن جنبه إلى الجنب الآخر أو يقوم فيصلّي، ولا يذكرها لأحد، فإن ذلك لا يضرّه إن شاء الله تعالى.

وقوله في حديث أبي هريرة: وأحب القيد إلخ، هذا من قسم التعبير، ويأتي ذلك في فصل خاص، وفي هذا الفصل أحاديث عن جماعة من الصحابة، وما ذكرناه خلاصة ذلك.

* * *

وعيد من يكذب في رؤياه

{٧٣٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من تَحَلَّمَ بحُلُم لم يرَه كُلِّفَ أن يَعْقِد بين شعِيرَتَيْن ولن يَفْعَل**»، وفي رواية: «**من تحلم كاذباً**.. **ولن يعقد بينهما**»، وفي أخرى: «**ويعذّب على ذلك**».

رواه أحمد (٢٤٦/١، ٢١٦)، والبخاري (٨٧/١٦)، وأبو داود (٥٠٢٤)، والترمذي (٢١٠٩)، وابن ماجه (٣٩١٦) مطوّلاً ومختصراً، وسيأتي في الأدب مطوّلاً.

{٧٣٥} ـ وعن الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أراه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من كذب في حُلُمِهِ كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة**».

رواه الترمذي (٢١٠٨)، والحاكم (٣٩٢/٤) بسند حسن. أما الحاكم فصححه.

قوله: من تحلّم، أي: تكلّف الحلم ـ بضم الحاء واللام ـ: أي: ادّعى أنه رأى رؤيا منامية.

في الحديثين وعيد شديد لمن يكذب في رؤياه ويدّعي ما لم يره، وأن ذلك من كبائر الذنوب للوعيد المذكور؛ لأن في ذلك كذباً على الله تعالى أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله عظيم، قال الله تعالى عن الكاذبين على الله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، ولأن الرؤيا جزء من النبوّة، وهي أيضاً من قِبَل الله تعالى فليتّق الله أولئك النَّصّابُون الذين يفترون أنواعاً من الرؤى كذباً وزوراً ليغروا غيرهم ممن يحسنون الظنّ بالناس، وقوله: كلف أن يعقد إلخ، هذا ليس من التكليف المصطلح عليه، فلا دليل فيه لمن يقول بوقوع التكليف بما لا يطاق، بل هو من باب التعجيز والتعذيب، ولهذا أمثلة.

{٧٣٦} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن مِن أفرَى الفِرى أن يُرِي الرجل عَينَه ما لم تَرَه**».

رواه أحمد (٩٦/٢)، والبخاري في التعبير (٨٩/١٦، ٩٠).

ورواه البخاري مطوّلاً عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه.

من أفرى: أي: أعظم الكذبات، والفِرى ـ بكسر الفاء والقصر ـ: جمع فِرْية: وهي الكذبة العظيمة التي يتعجّب منها، وقوله: يُري ـ بضمّ الياء وكسر الراء ـ.

والحديث يدلّ على أن الكذب في الرؤيا من أعظم أنواع الكذب، وقد قدمنا سبب ذلك.

* * *

ذهبت النبوة وبقيت المبشّرات

{٧٣٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لم يَبْقَ من النبوّة إلا المُبَشّرات**»، قالوا: وما المبشّرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**».

رواه البخاري (٢٩/١٦)، وفي رواية لمسلم: «**رؤيا المسلم يراها أو تُرى له**» (٢٣/١٥).

{٧٣٨} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كشف الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «**أيها الناس إنه لم يبق من مبشّرات النبوّة إلاّ الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له**».

رواه مسلم في الصلاة مطوّلاً (١٩٦/٤) وذكرنا بعضه هنالك.

{٧٣٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسولَ بعدي ولا نَبِيّ**»، قال: فشقّ ذلك على الناس فقال: «**لكن المبشّرات**»، فقالوا: يا رسول الله وما المبشّرات؟ قال: «**رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوّة**».

رواه الترمذي (٢١٠٠)، والحاكم (٣٩١/٤) وصححه الترمذي والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وحذيفة وأم كرز أوردها الحافظ في الفتح، فانظرها عنده معزوة بألفاظها (٣٠/١٦).

{٧٤٠} ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عنها، فقال: «**ما سألني عنها أحدٌ غيرك منذ أُنزِلت: هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أو تُرى له**».

رواه أحمد (٤٤٧/٦)، والترمذي في الرؤيا (٢١٠١)، وفي التفسير (٢٩٠٥)، وابن جرير (١٣٣/١١، ١٣٧)، والحاكم (٣٩١/٤)، من طرق بعضها صحيحة وله شاهد عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه بمثله رواه أحمد (٣١٥/٥)، والترمذي (٢١٠٣)، وابن ماجه (٣٨٩٨)، والحاكم (٣٩١/٤) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي وما قيل من انقطاعه لا يضرّ هنا.

قوله: لم يبق من النبوّة... وقوله: إن الرسالة والنبوّة، معناه: أن الوحي الإلـهي الذي كان يأتي الأنبياء والرسل قد انقطع وانتهى بانتهاء خاتمهم وهو رسولنا نبيّ الإسلام صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلم يبق وحي بعده؛ لأنه لا نبيّ ولا رسول سواه في هذه الأُمّة، غير أن الله تعالى لطف بعباده ورحمهم بالمبشّرات ـ بكسر الشين ـ: جمع مبشرة، وهي البشرى ـ بضم الياء مع القصر ـ: الواردة في صفة الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، فهذه البشرى لا تنقطع من الأمّة، بل جعلها الله تعالى كالوحي تقوم مقام بعض أجزائه في الإخبار بالمغيّبات والكشف عن أشياء تأتي في مستقبل حياة المسلم، فتبشّره بما يسرّه... في هذه الحياة وفي الآخرة وذلك بواسطة الرؤيا الصالحة الحَسَنة... وتكون مع ذلك علامة على أنه من أولياء الله تعالى وعباده المتّقين الصالحين جعلنا الله عزّ وجلّ من أشرفهم بمنّه وكرمه، آمين.

ملحوظة: ومن المبشّرات ما يقع من الإلهام والمكاشفات لكثير من الصالحين الذين صفت سرائرهم، قال الحافظ في الفتح: ويقع لغير الأنبياء كما في الحديث الماضي في مناقب عمر: «**قد كان فيمن قبلكم من الأمم محدَّثون**»، وفسّر المُحَدَّث ـ بفتح الدال ـ: بالملهم ـ بالفتح أيضاً ـ قال: وقد أخبر كثير من الأولياء عن أمور مغيبة، فكانت كما أخبروا. نقله عن ابن التين. قال الحافظ: وفي إنكار وقوع ذلك مع كثرته واشتهاره مكابرة ممن أنكره... بل هو جهل وضلالة وطمس للبصيرة.

{٧٤١} ـ وعن أبي رَزِين رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الرُّؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ فإذا عُبِّرَت وقعت**»، قال: وأحسبه قال: «**ولا يقصها إلا على وادٍّ أو ذي رَأْيٍ**».

رواه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢١٠٦)، وابن ماجه (٣٩١٤)، وابن حبان (١٧٩٥، ١٧٩٦)، وكذا أحمد (٤/١٠، ١١)، والسياق لأبي داود... وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: على رجل طائر، أي: هي كالشيء المعلّق برجل طائر لا يستقر تأويلها حتى تفسّر وتؤوّل فهي سريعة السقوط إذا عبّرت فإذا حدّث بها صاحبها وعُبّرت سقطت ووقع حكمها، فلذلك يجب أن لا تُقَصّ إلا على الأحبة وذوي الرأي والعلم، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

رؤيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المنام

{٧٤٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثّل في صورتي**»، وفي رواية: «**من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثّل الشيطان بي**».

رواه أحمد (٢/٢٦١)، والبخاري (١٦/٣٨)، ومسلم (١٥/٢٤)، وأبو داود (٥٠٢٣)، وابن ماجه (٣٩٠١).

{٧٤٣} ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من رآني فقد رأى الحق**».

رواه البخاري (١٦/٤٥)، ومسلم (١٥/٢٦) واللفظ لمسلم، وفي الباب عن أنس وأبي سعيد الخدري رواهما البخاري (١٦/٤٥)، وعن جابر رواه مسلم (١٥/٢٦)، وابن ماجه (٣٩٠٢)، وعن ابن مسعود رواه الترمذي (٢١٠٤)، وابن ماجه (٣٩٠٠) بسند صحيح، وعن ابن عباس رواه ابن ماجه (٣٩٠٥) وغيره، وعن أبي جحيفة عنده أيضاً (٣٩٠٤) والكل صحيح.

قوله: ولا يتمثل الشيطان في صورتي، في رواية لأبي سعيد: «**لا يَتَكَوَّنني**»، وفي رواية لأبي قتادة: «**لا يتراءى بي**»، وفي رواية جابر: «**لا ينبغي أن يتشبّه بي**»، ومؤدّى الجميع واحد، وهو أن الشيطان لا يستطيع أن يأتي أحداً في منامه متشبّهاً متظاهراً له بأنه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفي هذه الأحاديث إثبات رؤيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المنام، وأن من رأى صورةً فقال له: أنا رسول الله، أو قيل من قبل غيره: هذا رسول الله، أو ألقي في نفسه هذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو رسول الله حقاً، فكان كأنما رآه حقيقة، هذا أصح الأقوال لظواهر هذه الأحاديث خلافاً لمن اشترط شروطاً كرؤيته على صورته الأصلية... بل هي رؤياه حقاً على أي صورة رآه، وإنما ذلك يختلف

باختلاف حالة الرائي من استقامته وضعفها، فيتظاهر ويتراءى له حسب حالته، فإنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كالمرآة كل ما قابلها ظهر فيها من صفاء ووسخ... وفي هذه الأحاديث بشارتان، **إحداهما**: أن من رآه فقد رأى صورته حقاً، وأن الشيطان لا سبيل له إلى أن يتراءى للرائي في منامه في صورة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ لأنه معصوم من ذلك ومحفوظ في يقظته وحياته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبعد موته، وذلك لئلا يختلط الحقّ بالباطل.

ثاني البشارات: أن من قدرت له رؤياه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المنام، فسوف يراه في يقظته قبل موته، ولو عند آخر لحظة من حياته كما يقع للكثيرين ممن رأوه فإنهم يشاهدونه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل مفارقة أرواحهم أجسادهم، فإن كان صالحاً مستقيماً فقد يراه أيام حياته، كما حصل ذلك لكثير من الصالحين الذين صفت أرواحهم وتروحنت، وفي ذلك ألف سيدنا السيوطي رحمه الله تعالى رسالة تنوير الحَلَك في إمكان رؤية النبيّ والملك وهي مطبوعة في فتاواه... أمّا من قال: فسيراه في اليقظة، يعني: في الآخرة، فهو كلام باطل؛ لأن رؤيته في الآخرة لا تختصّ بمن رآه في المنام، بل هي عامة لجميع من آمن به سواء رآه أم لم يره، كما ذكره القاضي عياض في الإكمال (٧/٢٢٠)، وعلى أي حال فرؤيا النبيّ هي بشرى من الله تعالى لعبده المؤمن.

* * *

رؤيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ربّه في المنام

{٧٤٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة**»، قال: أحسبه قال: «**في المنام، فقال: يا محمد هل تدري فيم يَخْتَصِمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضع يده بين كَتِفَيَّ حتى وجدت بردها بين ثديَيّ**»، أو قال: «**في نحري، فعلمت ما في السموات**

وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فِيمَ يختصم الملأُ الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات... والدرجات».

رواه أحمد رقم (٣٤٨٤)، والترمذي في تفسير سورة صّ (٣٠٢٢) بتهذيبي من طريقين وكلاهما صحيح، ونحوه عن معاذ رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (٢٤٣/٥)، والترمذي (٣٠٢٣)، والحاكم(٥٢١/١) وسنده صحيح، وقد صححه البخاري وكفى، ونحوه أيضاً عن عبدالرحمٰن بن عايش رواه أحمد (٦٦/٤ ج٣٧٨/٥)، والحاكم (٥٢٠/١، ٥٢١) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث ذكرته كاملاً عن ابن عباس في التفسير، فارجع إليه.

الملأ الأعلى هم الملائكة سكّان السمٰوات، قوله: فوضع يده، اليد بالنسبة لله تعالى سواء جاءت في اليقظة أو في المنام هي صفة لله عزّ وجلّ ليست بجارحة مثلنا، فيجب الإيمان بها، وتمرّ كما جاءت بلا تأويل ولا تشبيه. وقوله: «فعلمت ما في السمٰوات وما في الأرض»، في رواية معاذ: «فتجلّى لي كل شيء وعرفت»، واستدلّ بهذا على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد أطلعه الله عزّ وجلّ في هذه الليلة على كل ما في هذا العالم من عرشه إلى فرشه، وليس ذلك بقادح في علم الله ولا بمستبعد عن قدرته عزّ وجلّ.

والحديث يدلّ على جواز رؤية الله تعالى في المنام، وهذا شيء متّفق عليه بين أهل الحقّ والسنّة وإن تجاهله الجاهلون، وردّه المعاندون. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الإكمال (٢٢٠/٧): ولم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله تعالى في المنام، وإذا رئي على صفة لا تليق بجلاله من صفات الأجسام للتحقيق أن ذات المرئي غير ذات الله عزّ وجلّ؛ إذ لا يجوز عليه التجسيم ولا اختلاف في الحالات بخلاف رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في النوم، فكانت رؤيته تعالى في النوم من أنواع الرؤيا من التمثيل والتخيّل. وقال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى في شرح الترمذي: رؤية الله تعالى في المنام خواطر في القلب، وهي

دلالات للرائي على أمور مما كان أو يكون كسائر المرئيات إلخ. ونقله عنه كسابقه النووي والأبي، ونقل هذا عن بعض أهل هذا الشأن أنه إذا قام دليل للعابد في رؤية الله تعالى أنه هو المرئي لا تأويل لها غيره كانت حقاً صدقاً لا كذب فيها لا في قول ولا فعل.. قال الأبي: فالحاصل أنه يجوز أن يرى سبحانه على ما يستحيل في حقه، كرؤيته في صفة رجل كما ذكر لكن يحمل على ما يليق كرؤيته سبحانه على ما يجب له من نعوت الجلال والسلامة من صفات الحدوث، وأن هذا الثاني يجوز أن يكون في الدنيا كما يقع للمؤمنين في الآخرة، ويكون صدقاً حقاً لا كذب فيه... وقد كنت كتبت رسالة في الموضوع عام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة وألف نقلت فيها عدّة نصوص لعلمائنا رحمهم الله تعالى طبعت باسم نشر الأعلام لمن أنكر رؤية الله في المنام، وانظر شرح ابن بطال للبخاري والفقه الأكبر بشرحه لملاّ القاري ومجموع الفتاوى لابن تيمية (ج٣/٣٩٠).

* * *

ما جاء في تعبير الرؤيا

{٧٤٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان يحدث أن رجلاً أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تَنطِف السمن والعسل، فأرى الناس يَتَكَفَّفُون منها، فالمستكثر والمستقلّ، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به وعلوتَ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقَطَع ثم وُصل، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله بأبي أنت والله لتَدَعَنّي فأعْبُرَها، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اعْبُرها**»، قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله تعالى، ثم يأخذ به رجل فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو

به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أصبتَ بعضاً وأخطأت بعضاً**»، قال: فوالله لتُحَدِّثَنِي بالذي أخطأت، قال: «**لا تقسم**».

رواه البخاري (٩٢/١٦، ٩٥)، ومسلم (٢٨/١٥، ٢٩)، كلاهما في الرؤيا والتعبير، ورواه الترمذي (٢١١٨) وغيره من حديث أبي هريرة، وانظر بيان ذلك في الفتح وما قيل فيه.

قوله: ظلة ـ بضم الظاء ـ: أي: سحابة لها ظلّ، وقوله: تنطف ـ بضم الطاء وكسرها ـ: أي: تقطر، وقوله: يتكفّفون أي: يأخذون بأكفّهم وأيديهم، وقوله: فالمستكثر إلخ، أي: الآخذ كثيراً، والآخذ قليلاً، وقوله: وإذا سبب أي: حبل، وقوله: فأعبُرها أي: أفسّرها.

هذا الحديث الشريف هو أول حديث يذكر فيه تعبير الرؤيا، وما ذكر فيه هو من الرؤى الصالحة، وهي التي تحتاج إلى تعبير وتكون حقاً. أمّا ما عداها من أضغاث أحلام وتخاليطها وأباطيلها، فهي من تلاعب الشيطان وحديث النفس، فلا عبرة بها ولا يشتغل بتعبيرها، وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى علامات هذه الأضغاث. قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة (٢١١/١٢): وهي على أنواع قد يكون من فعل الشيطان يلعب بالإنسان، أو يريه ما يحزنه، وله مكائد يُحْزِنُ بها بني آدم كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]... ومن لعب الشيطان به الاحتلام الذي يوجب الغسل، فلا يكون له تأويل، وقد يكون ذلك من حديث النفس، كمن يكون في أمر أو حرفة يرى نفسه في ذلك الأمر، والعاشق يرى معشوقه ونحو ذلك، وقد يكون ذلك من مزاج الطبيعة، كمن غلب عليه الدم يرى الفصد، والحجامة، والرعاف، والحمرة، والرياحين، والمزامير، ونحوها، ومن غلب عليه طبيعة الصفراء يرى النار، والشمع، والسراج، والأشياء الصفر، والطيران في الهواء ونحوها، ومن غلب عليه السوداء يرى الظلمة، والسواد،

والأشياء السود، وصيد الوحوش، والأهوال، والأموات، والقبور، والمواضع الخربة، وكونه في مضيق لا منفذ له، أو تحت ثقل ونحو ذلك، ومن غلب عليه البلغم يرى البياض، والمياه، والأنداء، والثلج، والجمد، والوحل ونحوها، فلا تأويل لشيءٍ منها...

وهذه قاعدة مهمة تريح الإنسان من الاهتمام بتعبير كل ما يراه أو يقصّ عليه، والرؤيا المذكورة في حديث الباب جاءت منبئة بالولاية الرشيدة بداية من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي أخذ السبب الواصل من الأرض إلى السماء، وهو القرآن الكريم، فعمل به وعلا، ثم جاء بعده الصديق فعلا به ثم خلفه عمر فعلا به،ثم جاء بعده عثمان فانقطع به بسبب ما حصل من الفتنة التي أودت بقتله لأجل خلافته وبعض تصرفاته التي نقَموها عليه، وتعبير الصديق رضي الله تعالى عنه لهذه الرؤيا يدلّ على علمه وفقهه وذكائه، وهو وإن لم يصب في جميعها كما قال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: وأخطأت بعضاً فأكثرها أصاب فيه، وفيه أن العسل في المنام يعبّر بالقرآن، وأما السمن فيعبّر بالسنة وَعَبَّرَهُ الصديق بالقرآن كالعسل، والحبل يعبّر بالحق وبالقرآن والتمسّك به تمسك بالحق والسحاب الذي له ظلّ يعبّر بالإسلام، وفي الحديث فضل علم تعبير الرؤيا وتفاوت العلماء في معرفته، وفيه الإرشاد إلى التعبير لمن له علم بذلك، وإن أخطأ فخطأه مغفور، هذا ولا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا مع عدم العلم بأصول هذا العلم وقواعده، لأن الرؤيا من قسم الوحي، وهو لا يجوز التكلّم فيه بالجهل والرأي المجرد. أمّا ما خاض فيه بعض العلماء من تعيين ما أخطأ فيه الصديق رضي الله تعالى عنه في تعبيره لهذه الرؤيا، فكل ذلك تخمين وتقدم بين يدي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٧٤٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بينما أنا نائم رأيتُني على قَلِيبٍ وعليها دَلْوٌ فَنَزَعْتُ منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذَنُوباً أو ذَنُوبَين، وفي نزعه ضَعْفٌ، والله يَغفرُ له، ثم استحالَتْ غَرْباً فأخذها عمرُ بن**

الخطّاب فلم أر عَبْقَرِياً من الناس ينزع نزعَ عمر بن الخطاب حتى ضرب الناس بعطَنٍ».

رواه البخاري (٧٣/١٦) في التعبير، ومسلم في الفضائل (١٦٠/١٥) ومثله عندهما، وعند الترمذي (٢١١٤) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما.

قوله: على قليب ـ بفتح القاف وكسر اللام ـ: هو البئر كما في رواية أخرى، وقوله: فنزعت أي: استقيت منها، وقوله: ابن أبي قحافة هو الصديق، وقوله: ذنوباً ـ بفتح الذال ـ: هي الدلو المملوءة، وقوله: استحالت أي: تحوّلت وصارت، وقوله: غرباً ـ بفتح الغين وسكون الراء ـ: أي: صارت دلواً عظيماً، وقوله: عبقرياً، العبقري من الرجال هو سيدهم وكبيرهم وقويّهم، وقيل: الذي ليس فوقه شيء ويطلق على كل شيء عظيم ونفيس، وقوله: ضرب الناس بعطن أي: أرووا إبلهم ثم آووها إلى عطنها، وهو موضع استراحتها.

أما معنى هذا الحديث، فقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: هذا المنام مثال واضح لما جرى لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في خلافتهما وحسن سيرتهما وظهور آثارهما وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن بركته وآثار صحبته، فكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو صاحب الأمر، فقام به أكمل قيام، وقرّر قواعد الإسلام ومهّد أموره وأوضح أصوله وفروعه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ثم توفي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فخلفه أبو بكر رضي الله تعالى عنه سنتين وأشهراً وهو المراد بقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ذنوباً أو ذنوبين، والمراد ذنوبان كما صرّح في الرواية الأخرى به، وحصل في خلافته قتال أهل الردة وقطع دابرهم واتّساع الإسلام، ثم توفّي فخلفه عمر رضي الله تعالى عنه، فاتّسع الإسلام في زمنه وتقرّر من أحكامه ما لم يقع مثله، فعبّر بالقليب عن أمر المسلمين لما فيها من الماء الذي به حياتهم وصلاحهم وشبّه أميرهم بالمستقي لهم، وسقيه هو قيامه

بمصالحهم وتدبير أمورهم، وأما قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أبي بكر رضي الله تعالى عنه: «**وفي نزعه ضعفٌ**»، فليس فيه حطّ من فضيلة أبي بكر ولا إثبات فضيلة لعمر عليه، وإنما هو إخبار عن مدّة ولايتهما وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها ولاتّساع الإسلام وبلاده والأموال وغيرها من الغنائم والفتوحات... وأما قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والله يغفر له**»، فليس فيه تنقيص له ولا إشارة إلى ذنب، وإنما هي كلمة كان المسلمون يُدَعْمُون بها كلامهم ونعمت الدعامة. قال العلماء: وفي كل هذا إعلام بخلافة أبي بكر وعمر وصحة ولايتهما وبيان صفتهما، وانتفاع المسلمين بهما...

{٧٤٧} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنّه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**بَيْنَا أنا نائم رأيتُ الناسَ عُرِضُوا عليّ وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغ الثَّدْي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرِض على عمرُ بن الخطاب وعليه قميص يجرّه**»، قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: «**الدين**».

رواه البخاري في التعبير (١٦/٥٢، ٥٣)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٥٩)، والترمذي (٢١١١) في الرؤيا.

قُمُص ـ بضمّتين ـ: جمع قميص، الثدي ـ بفتح الثاء ـ.

وفي الحديث بيان أن الملابس في الرؤيا تعبّر بالدين، فمن كان لباسه طويلاً كان دينه قويّاً، ومن كان غير ذلك كان حسب طوله وقصره، بل ونظافته ووسخه وصحّته وخرقه، فكل ذلك يؤوّل بدينه قوّة وضعفاً وكمالاً ونقصاً، وقد كان لسيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ذلك المقام العالي والفضل البالغ في الدين.

{٧٤٨} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**بينا أنا نائم أُتيت بقدَح لبنٍ فشربتُ منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يجري ثم أعطيتُ فَضْلَهُ عُمَر**»، قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: «**العِلْم**».

في وجهه أثر من خشوع، فقال بعض القوم: هذا رجل من أهل الجنّة، هذا رجل من أهل الجنّة، فصلّى ركعتين يتجوّز فيهما ثم خرج فاتّبعته فدخل منزله ودخلت، فتحدثنا فلما استأنس قلت له: إنك لما دخلت قبل قال رجل كذا وكذا، قال: سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك، رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقصصتها عليه، رأيتني في روضة ذكر سعتها وعُشْبها وخُضْرتها، ووسط الروضة عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: ارْقَه، فقلت له: لا أستطيع، فجاءني مِنصَفٌ ـ والمنصف الخادم ـ: فقال بثيابي من خلفي وصف أنه رفعه من خلفه بيده فرقِيتُ حتى كنت في أعلى العمود، فأخذت بالعروة، فقيل لي: استمسك، فلقد استيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى، وأنت على الإسلام حتى تموت**»، قال: والرجل عبدالله بن سلام.

رواه البخاري في التعبير (١٦/٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨)، ومسلم في الفضائل (١٦/٤٢، ٤٣، ٤٤).

في الحديث أن الروضة الخضراء تفسّر بالإسلام، وأن الأخذ بعروة في عمود يؤول بالتمسك بالإسلام، وفيه منقبة لعبدالله بن سلام ـ بتخفيف اللام ـ: الحبر اليهودي المسلم العالم.

{٧٥٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ذُكِر لي أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بينا أنا نائم رأيت أنه وُضِعَ في يديَّ سوَارَان من ذهب، ففظِعْتُهما وكرهتهما، فأُذِنَ لي فنفختُهما فطارا فأوَّلتهما كذا بين يخرجان... أحدهما العَنْسِي الذي قتله فَيْرُوزُ باليمن، والآخر مُسَيْلِمَة**».

رواه البخاري (١٦/٧٩)، ومسلم (١٤/٣٣، ٣٤) كلاهما في الرؤيا، ولمسلم أن أبا هريرة حدّث ابن عباس، وفي رواية لهما عن أبي هريرة

قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بينا أنا نائِم إذ أُوتيتُ خزائِنَ الأرض، فوُضع في يدي سوارين من ذهب فكبُر عليّ وأهمّاني فأوحي إليّ أن أنفخهما، فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء، وصاحبة اليمامة**»، وفي رواية: «**فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة**». رواه البخاري (٨٢/١٦، ٨٣)، ومسلم (٣٤/١٤)، والترمذي (٢١١٧) كلّهم في الرؤيا.

سواران تثنية سوار ـ بكسر السين ـ: هو الدملج، قوله: ففظعتهما هو معنى الرواية الأخرى، فكبر عليّ وأهمّاني، وقوله: فطارا أي: فذهبا طائرين في الجوّ، وقوله: فأوّلتهما أي: عبّرتهما. وقوله: أوتيت خزائن الأرض، أي: أعطاه الله ما سيفتح على أمّته من الغنائم وذخائر الفرس والروم وما في الأرض من معادن الذهب والفضّة وغيرهما.

والحديث يدلّ على أن لبس السوار الذهبي في اليد يدلّ على الكذب لأنه ليس من حلية الرجال المسلمين، بل هو من حلية الكفار والملوك... وزينة النساء ولذلك عظم عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لبسهما في منامه، فمن رأى له سواراً يؤول بكذاب يمكر به، ولذلك لما رأى النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه لبس سوارين في يديه معاً أوّلهما بالكذابين اللذين كانا بجنبيه في اليمن واليمامة، وكانا قد نافساه في النبوّة، فأمر بنفخهما فنفخهما فذهبا، وعلم أن أمرهما سيضمحلّ ولا يبقى له أثر، فكان الأمر كذلك، فالعنسي الذي كان ادّعى النبوّة بصنعاء قتله فيروز في قصة عجيبة مذكورة في غير هذا الموضع، ومسيلمة الكذاب الذي كان باليمامة قتل أيام الصديق رضي الله تعالى عنه بعد معارك دامية، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في السيرة.

{٧٥٣} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أراه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يَثْرِب، ورأيت فيها بقراً والله خيرٌ فإذا هم المؤمنون يوم أُحد، وإذا الخير ما جاء الله**

به من الخير، وثواب الصدق الذي آتانا الله به بعد يوم بدر»، وفي رواية: **«ورأيت في رؤياي هذه أني هَزَزْتُ سيفاً فانقطع صَدرُه، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحد ثم هززته أخرى، فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين»** إلخ.

رواه البخاري في التعبير (١٦/٨٠، ٨١) وغيره، ومسلم في الرؤيا (١٥/٣١، ٣٢) ويأتي في السير مفصّلاً.

قوله: وهلي ـ بفتح الواو والهاء ـ: أي: وهمي، وهجر: كانت قاعدة البحرين.

وتأويله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم انقطاع السيف بما حصل للصحابة من القتل والامتحان، لأن سيف الرجل أنصاره الذين يصول بهم كما يصول بسيفه، فأوّل السيف بأصحابه وانكسارهم، وقد يعبّر بغير ذلك. وقوله: ورأيت فيها بقراً، جاء في رواية: بقراً تنحر، قال النووي: وبهذه الزيادة يتمّ تأويل الرؤيا بما ذكر، فنحر البقر هو قتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين قتلوا بأُحد، فعبّر هنا البقر بالرجال، وقد تعبّر بغير ذلك كما يعلم من علم التعبير. وقوله: والله خير، معناه: ثواب الله خير، أي: صنع الله بالمقتولين خير لهم من بقائهم في الدنيا. وقوله: وإذا الخير ما جاء الله به إلخ، يعني من فتح خيبر ومكّة... وغيرهما.

{٧٥٤} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في رؤيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المدينة: **«رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى نزلت بمَهْيَعة فأوّلتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة، وهي الجحفة»**.

رواه البخاري (١٦/٨٤، ٨٥)، وابن ماجه (٣٩٢٤)، وأحمد (٢/١٠٧، ١١٧)، وكذا الترمذي (٢١١٥).

قوله: ثائرة الرأس أي: شعر رأسها متفرّق غير ممشوط، وفي رواية لأحمد: تفلة ـ بفتح التاء وكسر الفاء ـ: أي: كريهة الرائحة، وقوله: بِمَهْيَعة

ـ بفتح الميم وسكون الهاء ثم ياء وعين مفتوحتين ـ: وهو اسم الجحفة ـ بضم الجيم وسكون الحاء ـ: تقدّم في الحجّ، أنه موقت الإحرام لأهل المغرب... وقوله: وباء المدينة أي: حماها.

وفي الحديث تعبير المرأة السوداء الكريهة المنظر والريحة بما يسوء الإنسان من داء ومرض... فقد مُثّلَ للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الحُمَّى التي كانت مسلّطة على أهل المدينة بامرأة سوداء... وفرت منها حتى نزلت بالجحفة وبينها وبين المدينة نحو من ثلاثمائة كيلو، فاستنبط من السواد السوء والداء فأوّلها بالوباء، وهو استنباط دقيق، وهذا من أصول التعبير حيث إن المعبّر ينبغي له أن ينظر إلى الرائي والمرئي والأسماء والحروف... فيستخرج من ذلك تفسير الرؤيا، ويأتي بقية كلام على وباء المدينة في السيرة النبويّة إن شاء الله تعالى.

{٧٥٥} ـ وعن ابن عمر أيضاً رضي الله تعالى عنهما قال: إن رجالاً من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيقصّونها على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيقول فيها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما شاء الله، وأنا غلام حديث السن وبيتي المسجد قبل أن أنكِحَ، فقلت في نفسي: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء، فلما اضطجعت ليلة قلت: اللّهم إن كنت تعلم فيّ خيراً فأرني رؤيا، فبينا أنا كذلك إذ جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مِقْمَعَةٌ من حديد يقبلان بي إلى جهنّم وأنا بينهما أدعو الله تعالى: اللّهمّ أعوذ بك من جهنم، ثم أُراني لقيني ملك في يده مقمعة من حديد، فقال: لم تُرع نعم الرجل أنت لو تكثر الصلاة، فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنّم، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر، له قرون كقرون البئر بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد وأرى فيها رجالاً معلّقين بالسلاسل، رؤوسهم أسفلهم، عرفت فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين فقصصتها على حفصة فقصّتها حفصة على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن عبدالله رجل صالح**»، قال

نافع: لم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة. وفي رواية: رأيت في المنام كان في يدي سَرقةٌ من حرير لا أهوي بها إلى مكان في الجنّة إلا طارت بي إليه، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: **«إن أخاكِ رجل صالح»**، أو قال: **«عبدالله رجل صالح»**، أو قال: **«نِعْمَ الرجل ابن عمر لو كان يصلّي من الليل»**.

رواه البخاري في التعبير (١٦/٦١، ٧٦، ٧٧) وغيره، ومسلم في الفضائل (١٦/٣٨)، والترمذي **(٣٥٩٥)** بتهذيبي.

قوله: سرقة ـ بفتحات ـ: أي: قطعة من حرير، في رواية: من إستبرق، وقوله: لا أُهْوِي هو مضارع أهْوي أي: لا أميل إلى مكان، وقوله: مقمعة ـ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية بينهما قاف ساكنة ـ: جمع مقامع، وهي كالسياط، والمحجن من حديد رؤوسها معوجة، وقوله: لم ترع أي: لا روع عليك ولا فزع، وقوله: شفير جهنم أي: طرفها، وقوله: له قرون، وقرون البئر: جوانبها التي تبنى من حجارة توضع عليها الخشبة التي تعلق فيها البكرة على عادة أهل البدو.

وهذه الرؤيا جاءت مفسّرة، فلم تحتج إلى تعبير، ولذلك لم يزد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً على ما جاء فيها، وهي من الرؤى الصالحة جاءت بشرى لعبدالله رضي الله تعالى عنه، وعرف منها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن عبدالله رجل صالح.

وفي الحديث دليل على أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يهتمون بالرؤى ويتمنّون رؤياها، وكان كل من رأى شيئاً قصّه على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيعبّرها لهم، وكان كثيراً ما يقول لهم: هل رأى أحد منكم رؤيا... كما تقدم، وكما يأتي في حديث سمرة الخاتم لهذه الفصول، وسيأتي مزيد لهذا في فضل عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما.

{٧٥٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في**

دار عُقْبة بن رافع فأُتِينَا بِرُطَبٍ من رطب ابن طابٍ فأوّلت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب».

رواه أحمد (٣/٢٨٦، ٢١٣)، ومسلم في الرؤيا (١٥/٣٠، ٣١).

ابن طاب رجل من أهل المدينة، هذا تعبير بالغ الأهميّة، وهو يدلّ على الأصل الأصيل فيما قلناه سابقاً من أن المعبّر للرؤى لا بدّ وأن يفكر في مدلول الكلمات والحروف ليستخرج منها ما يريده من التعبير، فها نحن نرى نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم استنبط تأويل الرؤيا من كلمات: عقبة، رافع، رطب، طاب، فاستخرج من ذلك أن للمسلمين الرفعة في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن دين الإسلام قد تمّ ونضج، فصلّى الله وسلم وبارك على هذا النبيّ العظيم وعلى آله وصحبه، فلقد أوتي من العلوم والعقل والذكاء ما لم يؤته بشر.

❋ ❋ ❋

من الرؤى الباطلة التي لا تحتاج إلى تعبير

{٧٥٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتَدَحْرَجَ، فاشتددت على أثره، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للأعرابي: **«لا تحدّث الناس بتلعُّبِ الشيطان بك في منامك»**، قال: وسمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد يخطب، فقال: **«لا يحدّثن أحدكم بتلعّب الشيطان به في منامه»**.

رواه مسلم (١٥/٢٧).

قال العلماء: يحتمل أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم علم أن منامه هذا من الأضغاث بوحي، أو بدلالة من المنام دلّته على ذلك، أو على أنه من المكروه الذي هو من تحزين الشيطان. وأما علماء التعبير، فيعبّرون قطع الرأس بأمور شتّى فيها خير وشرّ كما يعرف من كتب التعبير.

❋ ❋ ❋

جملة من رُؤى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير ما تقدم رؤياه إتيانه بمفاتح خزائن الأرض

{٧٥٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونُصِرْت بالرعب، وبينما أنا نائم أُتيت بمفاتح خزائن الأرض فوُضعت في يدي**»، قال أبو هريرة: فذهب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنتم تَنْتَقِلُونها، وفي رواية: تَنْتَثِلُونَها.

رواه البخاري في التعبير (١٦/٤٦، ٥٨) وفي الاعتصام، ومسلم في المساجد (٥/٥).

مفاتح خزائن الأرض إلخ، قدمنا أن المراد بذلك ما سيفتح لأُمّته من خزائن الروم والأكاسرة والغنائم والمعادن. وقوله: تنتثلونها أي: تستخرجونها وتنتفعون بها، وفي هذه الرؤيا معجزة له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أخبر فيها بما سيحصل للأُمّة من الفتح، وأورد البخاري هذا الحديث في التعبير، لأن المفتاح يعبّر في المنام بالمال والعزّ والسلطان، قالوا: من رأى أنه فتح باباً بمفتاح، فإنه يظفر بحاجته بمعونة من له بأس، وإن رأى أن بيده مفاتح فإنه يصيب سلطاناً عظيماً، والله تعالى أعلم، ويأتي بمعناه في السيرة.

* * *

رؤياه التسوّك

{٧٥٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أراني في المنام أتسوّك بسواك، فجذَبني رجلان أحدهما أكبرُ من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبِّر فدفعته إلى الأكبر**».

رواه مسلم في الرؤيا (١٥/٣١).

في هذه الرؤيا الإرشاد إلى البداءة بالأكبر في الإعطاء وتناول الأُمور، وهذا ما لم يكن المعطى له على اليمين، وإلا فليبدأ به، ولو كان صغيراً كما تقدم في الأشربة. والتسوّك في المنام يعبّر بالإحسان إلى الأقارب وصلتهم وهو يدل على السنة والفطرة.

* * *

رؤياه عائشة قبل تزوّجه بها

{٧٦٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أُرِيتُكِ قبل أن أتزوّجكِ مرتين، رأيت الملك يَحملُك في سَرَقة من حرير، فقلت له: اكشف، فكشف فإذا هي أنت، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ، ثم أُرِيتُك يحملكِ في سرقة من حرير، فقلت: اكشف، فكشف فإذا هي أنت، فقلت: إن يك هذا من عند الله يمضه**».

رواه البخاري في التعبير (١٦/٥٦، ٥٧، ٥٨) وفي النكاح وفي السيرة ويأتي أيضاً، ورواه مسلم (١٥/٢٠٢)، والترمذي (٣٦٣٥) كلاهما في الفضائل.

قوله: أُرِيتك أي: أرانيك الله، وكانت هذه الرؤيا بمكّة المكرمة قبل أن يهاجر، وفي هذه الرؤيا إعلام الله تعالى إياه بأن عائشة زوجته حيث أريها ونظر إلى وجهها، وهي رؤيا وحي موافقة لقول عائشة: فكان لا يرى رؤيا إلا ظهرت مثل فَلَق الصبح.

* * *

رؤياه دخول الجنّة وقصر عمر وما فيه

{٧٦١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بينا أنا نائم رأيتني في**

الجنّة، فإذا امرأةٌ تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غَيرَته فولَّيتُ مُدْبراً»، فبكى عمر ثم قال: أعليك بأبي أنت وأمي يا رسول الله أغار!

رواه البخاري في التعبير (٧٤/١٦) وفي المناقب، ومسلم في الفضائل (١٦٢/١٥) ويأتي فيها وفي الحديث فضل سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه، ويأتي ذلك في الفضائل.

* * *

رؤيا نبيّ الله عيسى، ثم الدجّال

{٧٦٢} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أراني الليلة عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أُدم الرجال، له لِمَّة كأحسن ما أنت راءٍ من اللِّمَم قد رجَّلها تقطر ماء متّكئاً على رجلين، أو على عواتق رجلين يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟ فقيل: المسيح ابن مريم، وإذا أنا برجل جَعْدٍ قطِطٍ أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، فسألت: من هذا؟ فقيل: المسيح الدجال»**.

رواه البخاري في التعبير (٤٧/١٦، ٧٦) وغيره، ومسلم في الإيمان (٢٢٣/٢، ٢٢٦).

قوله: أراني ـ بفتح الهمزة ـ: واللِّمة ـ بكسر اللام وتشديد الميم المفتوحة ـ: هو الشعر المتدلّي من الرأس الذي جاوز شحمة الأذنين، وقوله: قد رجّلها ـ بتشديد الجيم ـ: أي: سرحها بمشط مع ماء أو غيره، وقوله: عواتق: جمع عاتق وهو ما بين المنكب والعنق.

وقوله: المسيح ـ بفتح الميم وكسر السين ـ: وقد وصف به كل من عيسى عليه الصّلاة والسلام والدجال، أما عيسى فوصف بذلك لأنه كان لا يمسح على ذي عاهة إلا برىء، وقيل: لأنه كان ممسوح أسفل القدمين لا

أخمص له، وقيل: لمسحه الأرض وقطعها، وقيل غير ذلك. وأما الدجال، فسمّي بذلك لكونه ممسوح العين أعور، والأعور يسمى مسيحاً، وقيل: لمسحه الأرض وقطعها عند خروجه. ويقال في الدجال: مسيخ أيضاً ـ بالخاء المعجمة ـ ويأتي الكلام عليه وعلى خروجه وفتنته في الفتن إن شاء الله تعالى. وقوله: في صفة الدجال جعد قطط ورد بكسر الطاء الأولى وفتحها، أي: شديد الجعودة، وهو مثل شعر السود، وقوله: عنبة طافية، ورد بالهمز والياء، فعلى الأول معناه: بارزة ناتئة، وعلى الثاني معناه: ذهب ضوءها، ويأتي بقية الكلام على الدجال في موضعه.

وهذه الرؤيا كانت مناماً مُثِّل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كلٌ من روح الله عيسى عليه السلام، والدجال. وقد رآهما معاً عند الكعبة والدجال لا يدخل مكّة ولا المدينة في يقظته وحياته أبداً.

* * *

رؤياه الغزاة من أمّته كالملوك على الأسرّة

{٧٦٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يدخل على أمّ حرام بنت مِلْحَان، وكانت تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها يوماً فأطعمته وجعلت تَفْلي رأسه، فنام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم استيقظ وهو يَضحكُ، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أُمّتي عُرضوا عليّ غزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرّة، أو مثل الملوك على الأسِرة**»، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمّتي عُرِضوا عليّ غزاة في سبيل الله**»، كما قال في الأولى، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**أنت من الأوّلين**»، فركبت البحر في زمان معاوية فصُرِعَتْ عن دابّتها حين خرجَتْ من البحر فهلكتْ.

رواه البخاري في التعبير (٤٨/١٦)، وفي الجهاد (٣٥٠/٩، ٣٥١) وفي الاستئذان، ومسلم في الإمارة وغيرهما، ويأتي في الجهاد... إن شاء الله تعالى.

وقوله: ثَبَج - بفتح الثاء والباء آخره جيم -: أي: وسطه، والأسرّة - بفتح الهمزة وكسر السين ثم راء مفتوحة مشدّدة -: جمع سرير.

في هذه الرؤيا معجزة له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أطلعه الله تعالى فيها على ما يكون في أُمّته من غزاة في البحر حتى ضحك من ذلك عندما استيقظ مستبشراً فرحاً، وباقي أطراف الحديث يأتي الكلام عليه في الجهاد وغيره.

* * *

أكبر وأعظم رؤيا رآها صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٧٦٤} - عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا**»؟ قال: فيَقُصُّ عليه من شاء الله أن يقصّ، وأنه قال ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتِيَانِ، وإنهما ابْتَعَثَاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما وإنا أَتَيْنَا على رجل مُضْطَجِع، وإذا آخر قائم عليه بصَخْرَةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرة لرأسه فَيَثْلَغُ رأسَهُ، فيَتَدَهْدَهُ الحجرُ ها هنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصحَّ رأسُه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فأتينا على رجل مُسْتَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخر قائم عليه بكَلُّوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شِقَّيْ وجهه فيُشَرْشِرُ شِدْقَه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينَه إلى قفاه**، قال: وربما قال أبو رجاء: **فيشقّ، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فيما يَفرُغُ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى، قال:**

قلت: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التَّنُّور، قال: وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ، قال: فاطَّلَعْنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللَّهَبُ ضَوْضَوْا، قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فأتينا على نهر ـ حسبت أنه كان يقول ـ: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيَفْغَر له فاه فيُلْقِمُه حجراً، قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المَرْآةِ كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مَرْآةً فإذا عندهُ نَارٌ يَحُشُّهَا ويسعى حولها. قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة مُعْتَمَّةٍ فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أرَ روضة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لي: ارق فيها، قال: فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضّة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر مُعترِض يجري كأن ماءَه المَخضُ في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قال: قالا لي: هذه جنّة عدن، وهذاك منزلك، قال: فسما بصري صُعُداً، فإذا قصر مثل الرَّبَابَةِ البيضاءِ، قال: قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله، قال: قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟

قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك، أمّا الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثْلَغُ

رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأمّا الرجل الذي أتيت عليه يُشَرْشَرُ شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنّور، فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة، فإنه آكل الرّبا.

وأمّا الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم وعلى نبيّنا وآله، وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: وأولاد المشركين.

وأمّا القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن وشطراً منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله تعالى عنهم».

وفي رواية: «رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل لم أرَ قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء».

وفي أخرى: «وأما هذه الدار، فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك، قلت: دعاني أدخل منزلي، قالا: إنه بقي لك عُمُر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك».

رواه البخاري مطوّلاً في التعبير (٩٨/١٦، ١٠٦) وفي الجنائز، وأخرج أطرافاً منه في الصلاة وفي أحاديث الأنبياء وفي التفسير وفي الجهاد وفي

الأدب وفي مواضع، وأخرجه أيضاً كاملاً أحمد (٨/٥، ١٤)، وابن حبان في صحيحه (٦٥٥) بالإحسان، ورواه مسلم (٣٥/١٥)، والترمذي (٢١١٩) بتهذيبي، كلاهما في الرؤيا مختصراً.

قوله: ابتعثاني، أي: أيقظاني، وقوله: فيثلغ ـ بفتح الياء وسكون الثاء وفتح اللام ـ: أي: يشدخه ويكسره، وقوله: فيتدهده ـ بفتح الياء والتاء والدالين وسكون الهاء ـ: وفي رواية: فيتدهدأ، وفي أخرى: فيتدأدأ، وكلها بمعنى واحد أي: ينحطّ ويتدحرج، وقوله: كلوب ـ بفتح الكاف وضمّ اللام المشدّدة ـ: وهو حديدة معوجة الرأس مفرد كلاليب، وقوله: فيشرشر ـ بضم الياء وفتح الشين الأولى وكسر الثانية وبينهما راء ساكنة ـ: أي: يقطعه شقّاً، والشدق هو جانب الفم، وقوله: التّنور ـ بفتح التاء وضمّ النون المشدّدتين ـ: زاد في رواية: أعلاه ضيّق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، وقوله: ذلك اللهب أي: لسان النار، ضوضوا ـ بضاءين مفتوحتين بينهما واو ساكنة ـ: وحكي همز الواو الأخيرة، ومعناه: ضجوا واستغاثوا ورفعوا أصواتهم مختلطة، وجاء في حديث لأبي أُمامة عند أحمد وغيره بسند جيد: «ثم انطلقنا فإذا نحن برجالٍ ونساءٍ أقْبَح شيء منظراً وأنْتَنُهُ ريحاً، كأنما ريحُهم المراحِيضُ، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزواني والزّناة»، وقوله: يفغر ـ بفتح الياء والغين بينهما فاء ساكنة ـ: أي: يفتح فمه له، وقوله: كريه المرآة ـ بفتح الميم وسكون الراء ثم همزة ممدودة وآخره هاء تأنيث ـ: أي: قبيح المنظر، وقوله: يحشها ـ بفتح الياء وضمّ الحاء والشين المشدّدة ـ: أي: يوقدها، وقوله: روضة معتمة ـ بضم الميم وسكون العين وكسر التاء ـ: أي: كثيرة الخضرة مأخوذة من العتمة وهو شدّة الظلام والشديد الخضرة يبدو من بعيد كأنه أسود، كما وصف الله الجنّتين الخضراوتين بقوله: مدهامتان، أي: شديدتا الخضرة، وقوله: فسما بصري أي: نظر إلى فوق، وقوله: مثل الربابة ـ بفتح الراء المشدّدة وتخفيف الباءين المفتوحتين ـ: هي السحابة البيضاء.

هذا حديث عظيم يشتمل على رؤيا هامة فيها مواعظ وإنذارات وتهديدات وبشارات وفوائد، وهي نوع من الإسراء بروح نبيّنا الطاهرة،

ويؤخذ منه أن هناك من العصاة من يعذّبون في البرزخ، وفيه عظم ترك الصلاة والنوم عنها، وخاصة من حامل القرآن. أما من رفضه، فعذابه أدهى وأمرّ. قال الحافظ: قال ابن هُبيرَة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء، وهو القرآن عُوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس، وفيه خطر مآل المرابين والزناة والزواني والكذّابين، وأن لهم أنواعاً من العذاب الآن قبل القيامة، فإذا بعثوا كانوا من أشقى عباد الله تعالى، وفيه أن من استوت حسناتهم وسيئاتهم لا يعذّبون، وإنما يحبسون مدة على الأعراف ثم يدخلون الجنّة. وفي الحديث آداب وفوائد لا تخفى كجواز استدبار الإمام القبلة واستقباله المصلّين وقعوده في مصلاه بعد الصبح وسؤاله الحاضرين عما رأوا من رؤى، والاهتمام بأمر الرؤيا وغير ذلك، وهذا ما أردنا ذكره من رؤى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهناك رؤى أخرى تأتي في المناسبات، وتقدّم بعضها في غضون الكتاب.

* * *

خاتمة تتعلق بالتعبير والرؤيا

نذكر هنا فوائد هامّة نختم بها موضوع الرؤيا والتعبير مضافة إلى ما سبق لنا في شرح الأحاديث:

أولاً: علم التعبير هو من العلوم الدينية الشرعية مأخوذ عن طريق الوحي كباقي العلوم الشرعية، ولذا قال ابن خلدون في مقدمة التاريخ وهو يتكلم على العلوم الشرعية، ما نصّه: الفصل الثاني عشر في علم تعبير الرؤيا: هذا العلم من العلوم الشرعية، وهو حادث في الملّة عندما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها، فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف، وربما كان في الملوك والأُمم من قبل إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبّرين من أهل الإسلام، وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق، ولا بدّ

من تعبيرها، فلقد كان يوسف الصدّيق عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام يعبّر الرؤيا، كما وقع في القرآن، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلخ. قال: ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء، وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد... إلخ. قلت: فهو عِلْمٌ توقيفي مأخوذ عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بوحي من الله عزّ وجلّ جاءت أصوله وقواعده في القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة.

أما القرآن الكريم، فقد ذكر الله عزّ وجلّ فيه ستّ مرائي مع بعضها تعبيرها:

أُولاها: رؤيا خليل الله إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

ثانيها: رؤيا سيدنا يوسف على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٤].

وقال آخر القصة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

ثالثها: رؤيا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم بدر في شأن كفار قريش، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣]، أراه الله تعالى الكفار في منامه قلائل، فأخبر أصحابه بذلك ليثبتوا ولا يجبنوا ويضعفوا ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً.

رابعها: رؤياه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عمرة الحديبية، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ إلخ [الفتح: ٢٧]، فكان قد

رأى في منامه أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين محلقين ومقصّرين، فلما ذهب وصدّه المشركون بالحديبية وصدر ما صدر من الصحابة، وقالوا في ذلك: أنزل الله سورة الفتح، وفيها آية الرؤيا وأخبره الله بأن صدقه في رؤياه ولم يكذبه، فاعتمر عامه المقبل في السنة السابعة، فكان الأمر كما رأى.

ويلاحظ أن هذه الرؤى كلها وحي إلهي.

خامس المرائي: رؤيا صاحبي السجن الذين كانا في السجن مع يوسف عليه الصلاة والسلام، قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: ٣٦].

سادسها: رؤيا ملك مصر البقرات والسنابل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، ويأتي تفسير ذلك.

ثانياً: قد مرّ بنا فيما أوردناه من الأحاديث تأويلات وتعبيرات من حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبعضها من الصدّيق رضي الله تعالى عنه كتعبير الغُل، والقَيْد، ونَزْع الذنوب، والعين الجارية، وطول القُمُص وقِصرها، وشرب اللبن، والروضة، والعروة والسّوارات من الذهب، والبقر التي نُحرت، وكسر السيف، والمرأة السوداء، ودخول الجنّة، واسم عقبة، ورافع، ورطب ابن طاب... والظلّة والسمن والعسل... وكانت تآويله لهذه الأشياء في غاية ما يكون من الصحة مع دقّة النظر وقوّة العقل والذكاء مما يدلّ على أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان قد أعطي من ذلك الحظّ الأعلى والنصيب الأوفر الذي لم يبلغ أحد شأوه، ولا حام حوله لا من الأوّلين ولا من الآخرين، فكان تعبيره أصلاً أصيلاً في هذا الميدان.

ثالثاً: ممن ثبت عنه التعبير من الأنبياء نصاً سيدنا يعقوب وولده سيدنا

يوسف عليهما الصلاة والسلام. أما سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام، فقد فهم بنور النبوّة من رؤيا ولده يوسف أن الكواكب الإحدى عشر هم أولاده غير يوسف والشمس والقمر هما أبو يوسف وأمّه، وفهم أن في هذه الرؤيا بشارة ليوسف، وأن الله تعالى سيجتبيه ويعلّمه من تأويل الأحاديث وهو التعبير... وأن العاقبة ستكون له، ولذلك حذّره من قصّ رؤياه على إخوته لئلا يمكروا ويكيدوا له كيداً حسداً منهم له.

وأما سيدنا يوسف، فكان تعبيره أدقّ وأعظم، فقد عبّر رؤيا صاحبي السجن تعبيراً رائعاً، وإن كانا كما قيل: كاذبين في رؤيتيهما. وهذا نصّ التعبير كما نطق به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٤١]، وبيان ذلك أن أحدهما ـ وكان ساقي الملك ـ رأى كأنه يعصر العنب ويسقي سيده الخمر، فعبّر له ذلك على ظاهره وأنه سيفرج عنه ويخرج من السجن، فيرجع إلى ما كان عليه من سقي سيده. أما الآخر ـ وكان خبّاز الملك ـ: فرأى كأن على رأسه طبقاً فيه خبز والطير تأكل منه، فعبّر له ذلك بأنه سيصلب ويقتل وتأتي الطير بعد موته فتأكل من رأسه، فكان الأمر كما عبر لهما تماماً، وكما عبر لصاحبي السجن رؤيتيهما كذلك عبر رؤيا أخرى عجيبة رآها ملك مصر، وهذا نصّ الرؤيا وتعبيرها كما نطق بذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٦].

هذا نصّ الرؤيا، فجاء تفسيرها بقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩]، وخلاصة الرؤيا وتعبيرها أن ملك مصر كان قد رأى رؤيا هائلة أفزعته ـ ويوسف في

السجن ـ رأى سبع بقرات سمينات ارتعت في روضة، فجاءت إليهن سبع بقرات أُخر عجاف ضعاف فأكلت البقرات السمان، فاستيقظ من منامه ثم عاد إلى النوم فرأى سبع سنابل خُضْراً طالعة في ساق واحدة، وإذا بسبع سنابل يابسات قد غدَتْ على السنابل الخُضْرِ فأكلتها، فاستيقظ فهاله ما رأى وتعجّب منه، وطلب تفسيره من كبراء دولته وكهنة زمانه، فاعتذروا إليه بأنها أخلاط وأباطيل ولا علم لهم بتفسير ذلك.

ففسّرها لهم نبيّ الله يوسف عليه السلام، بأن البقرات السبع السمان، والسنابل السبع الخضر كناية عن سبع سنين خصبة متوالية تنبت الأرض فيها ثمراتها وتخرج بركاتها، ثم تعقبها سبع سنين مجدبة، وهن البقرات العجاف والسنابل اليابسات، فتأتي على ما عندهم من الأقوات وتهلكها. ثم بشّرهم بوحي من الله تعالى بأنه بعد سني القحط والجدب المتوالية يأتي عليهم عام يُغاثون فيه بالأمطار وإنبات الزروع والثمار ويعصرون الأعناب والزيت...

ومن نصح يوسف عليه السلام وحسن تعليمه أنه أرشدهم إلى ما يتحفّظون به من الجدب الذي سيصيب البلاد ويجنّبهم المجاعة المهلكة، فقال لهم: تزرعون سبع سنين دأباً أي: دائبين مستمرين بجدٍّ واجتهاد فما حصدتم من الزرع فذروه ـ واتركوه ـ في سنبله، لئلا يسوّس، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: إلا ما أردتم أكله، فادرسوه ودعوا الباقي في سنبله...

وممن كان له علم بالتعبير من الصحابة الخلفاء الأربعة وعائشة وأختها أسماء وأسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنهم.

وممن اشتهر بهذا العلم من التابعين جعفر الصادق وسعيد بن المسيّب ومحمد بن سيرين وغيرهم كثير رحمهم الله تعالى.

رابعاً: قد ألّف الناس في هذا العلم كتباً كثيرة جداً، ومن أشهر ما ظهر في عالم المطبوعات وتداوله الناس فيما بينهم ألفية ابن الوردي، وتعطير الأنام للنابلسي، وكتاب التعبير المنسوب لابن سيرين، وكتاب التعبير لابن شاهين، وقد ذكر هذا الأخير في خطبة كتابه جماعة كبيرة ممن ألّفوا في هذا الفنّ.

ولحياة الحيوان للدميري الحظ الأكبر في ذلك أيضاً بالنسبة لرؤية الحيوانات.

خامساً: هذه نماذج نذكرها من قواعد التعبير نقلاً من شرح السنّة للإمام البغوي، قال رحمه الله تعالى:

واعلم أن تأويل الرؤيا ينقسم أقساماً، فقد يكون بدلالة من جهة الكتاب، أو من جهة السنّة، أو من الأمثال السائرة بين الناس، وقد يقع التأويل على الأسماء والمعاني، وقد يقع على الضدّ والقلب... فالتأويل بدلالة القرآن كالحبل يعبّر بالعهد؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والسفينة تعبّر بالنجاة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، والخشب يعبّر بالنفاق لقوله عزّ وجلّ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، والحجارة تعبّر بالقسوة لقوله جلّ ذكره: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، والمرض بالنفاق لقوله تبارك وتعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، والبيض يعبر بالنساء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٩]، وكذلك اللباس لقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، واستفتاح الباب يعبر بالدعاء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] أي: تدعو. والماء يعبر بالفتنة في بعض الأحوال لقوله عزّ وجلّ: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وأكل اللحم النيىء يعبر بالغيبة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، ودخول الملك محلة أو بلدة أو داراً تصغر عن قدره وينكر دخول مِثْلِهِ مِثلَها يعبر بالمصيبة والذلّ ينال أهلها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ الآية [النمل: ٣٤].

وأما التأويل بدلالة الحديث كالغراب يعبر بالرجل الفاسق؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سمّاه فاسقاً، والفأرة يعبّر بالمرأة الفاسقة لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سمّاها فويسقة، والضّلع يعبر

بالمرأة لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن المرأة خلقت من ضلع**»... والقوارير تعبر بالنساء لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا أنجشة رُوَيْدَك سَوْقاً بالقوارير**».

والتأويل بالأمثال كالصائغ يعبر بالكذاب، لقولهم: أكذب الناس الصوّاغون، وحفر الحفرة يعبر بالمكر لقولهم: من حفر حفرة وقع فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، والحاطب يعبر بالنمام لقولهم لمن وشى أنه يحطب عليه، وفسّروا قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] بالنميمة. ويعبر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم: فلان أطول يداً من فلان، ويعبر الرمي بالحجارة، وبالسهم بالقذف لقولهم: رمي فلان بالفاحشة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤]، ويعبر غسل اليد باليأس عما يأمل لقولهم: غسلت يدي عنك.

والتأويل بالأسامي كمن رأى رجلاً يسمى راشداً يعبر بالرشد، وإن كان يسمى سالماً يعبر بالسلامة، ثم ذكر حديث أنس في رؤيته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كأنه في دار عقبة بن رافع فأُتي برطب من رطب ابن طاب**»، قال: فأوّلت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الأخرى وإن ديننا قد طاب...

ثم قال البغوي: والتأويل بالمعنى كالأترج يعبر بالنفاق لمخالفة باطنه ظاهره إن لم يكن في الرؤيا ما يدلّ على المال، وكالورد والنرجس يعبر بقلّة البقاء إن عدل به عما ينسب إليه لسرعة ذهابه، ويعبر الآسر بالبقاء لأنه يدوم.

قال: وأما التأويل بالضد والقلب، فكما أن الخوف في النوم يعبر بالأمن؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، والأمن فيه يعبر بالخوف، ويعبر البكاء بالفرح إذا لم يكن معه رنّة، ويعبر الضحك بالحزن إلا أن يكون معه تبسّم، ويعبر الطاعون بالحرب، والحرب بالطاعون، ويعبر العجلة في الأمر بالندم، والندم بالعجلة، ويعبر العشق

بالجنون، والجنون بالعشق، والنكاح بالتجارة، والتجارة بالنكاح إلى آخر ما قال، والأمر طويل.

سادساً: من هذا يُعرف أن تعبير الرؤيا يحتاج إلى علم واسع ونظر ثاقب وذكاء وتفكير، وأنه لا يجوز تعبيرها بمجرد النظر؛ لأن ذلك يعتبر تهجّماً على تفسير جزء من النبوّة بالرأي المجرد وهو محرّم، وقد نقل الحافظ ابن عبدالبرّ عن الإمام مالك رحمهما الله تعلى أنه سُئِل: أيعبر الرؤيا كل أحدٍ؟ فقال: أبالنبوّة يلعب؟ ثم قال: الرؤيا جزء من النبوّة. ذكره الزرقاني في شرح الموطأ.

وقال ابن جزي رحمه الله تعالى: في القوانين الفقهية: ولا ينبغي أن يعبر الرؤيا إلا عارف بها، وعبارتها على وجوه مختلفة، فمنها مأخوذ من اشتقاق اللفظ، ومن قلبه، ومن تصحيفه، ومن القرآن، ومن الحديث، ومن الشعر، ومن الأمثال، ومن التشابه في المعنى إلخ.

وقال قبله الإمام ابن أبي زيد رحمه الله تعالى في باب الرؤيا من رسالته: ولا ينبغي أن يفسّر الرؤيا من لا علم له بها... قال شارحه الإمام زروق رحمه الله تعالى نقلاً عن عبدالوهاب: في تعبير ما لا علم له بها لأنه يكون كذباً وإفتاء بغير علم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبهذا يعرف أن للرؤيا المنامية مكانة عظيمة في الإسلام لا يستهان بها ولا يستهزؤ بمن يهتم بها، وكيف يستهان بها مع ما جاء فيها من نصوص القرآن والسنّة، والشارع قد بنى أحكاماً شرعية عليها من بعض أفراد المسلمين، فهذا الأذان أصل شرعيّته رؤيا عمر بن الخطاب وعبدالله بن زيد كما في الصحيح، وتعيين ليلة القدر في السبع الأواخر من رمضان جاءت من تواطؤ رؤيا جماعة من الصحابة، كما في الصحيح أيضاً وهنالك غير ذلك.

ولنكتفِ بهذا القدر مع اعتذارنا للقارىء عما أطلنا عليه، فإن ذلك لا

يخلو من فوائد هامّة، وبهذا ينتهي الكلام بنا على الرؤيا والحمدلله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذرّيته وزوجته وصحابته وحزبه أبد الآبدين.

كتاب النكاح وتوابعه

هذا الكتاب موضوعه أحكام الأسرة، وهو ما يسمّى الآن بالأحوال الشخصية، وهي عبارة عن الأحكام التي تتّصل بعلاقة الرجل بالمرأة بدءاً بالخطبة وعقد القران والبناء بها وحقوق كل من الزوجين، وحقوق الأولاد من نسب ورضاع ونفقة وانحلال الزواج بطلاق أو خلع أو ظهار أو إيلاء أو لعان أو لعيب أو ضرر أو إعسار... ونحو لك من الأحكام الآتية إن شاء الله تعالى.

والنكاح في الأصل: هو الضمّ والتداخل وقيل غير ذلك، أما في الشرع: فهو حقيقة في العقد بين الزوجين مجاز في الوطىء، وبهذا جاء القرآن الكريم والسنّة النبويّة، حتى قالوا: كل ما ذكر في القرآن من النكاح، فالمراد به العقد إلا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فالمراد به مع العقد الدخول لحديث: «**حتى تذوقي عسيلته**» الحديث.

والقِرانُ بين الرجل والمرأة بالنكاح آية من آيات الله تعالى؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، وامتنّ على عباده بذلك فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

والحكمة في مشروعيّته: إعفاف المرء نفسه وزوجه عن الوقوع في

الحرام ـ الزنا ـ مع حفظ النوع الإنساني من الزوال والانقراض وبقاء نظام هذا الكون بتعاضد الزوجين لإقامة الأُسَر والجماعات والشعوب والأُمم.

والزواج تعتريه الأحكام الخمسة، فقد يكون واجباً، وحراماً، ومستحباً، ومكروهاً، ومباحاً... حسب أحوال الإنسان. وقد اختلف الأئمّة والعلماء في أصله، فقال ابن قدامة في المغني: واختلف أصحابنا ـ الحنابلة ـ في وجوبه، فالمشهور في المذهب أنه ليس بواجب إلا أن يخاف أحد على نفسه الوقوع في محظور بتركه، فيلزمه إعفاف نفسه... وهذا قول عامّة الفقهاء. وقال ابن حزم في المحلّى: وفرض على كل قادر على الوطىء إن وجد من أين يتزوج أو يتسرى أن يفعل أحدهما، ولا بدّ، فإن عجز عن ذلك فليكثر من الصوم. وقال ابن رشد في البداية: فقال قوم: هو مندوب إليه وهم الجمهور، وقال أهل الظاهر: هو واجب... إلخ.

وانظر للتوسع شرح المهذب (٢٨٦/١٥، ٢٨٧)، والمغني (٤/٦، ٥)، وشرح الحطاب على مختصر خليل (٤٠٣/٣)، والفقه الإسلامي وأدلّته (٣١/٧)، وفتح الباري (١١/١١، ١٢)، وشرح مسلم للنووي (١٧٣/٩، ١٧٤) وغيرهم.

* * *

الحضّ على التزوج والنهي عن التبتّل

{٧٦٥} ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن شباب لا نقدر على شيء، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا معْشَرَ الشَّبابِ من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ»**.

رواه أحمد (٤٠٢٣، ٤٠٣٥، ٤١١٢)، والحميدي (١١٥)، والبخاري

في الصوم وفي النكاح (٧/١١، ٨)، ومسلم (١٧٢/٩)، وأبو داود (٢٠٤٦)، والترمذي (٩٦٤) بتهذيبي، والنسائي (٤٦/٦، ٤٧) وغيرهم.

قوله: يا معشر: المعشر: هم الطائفة الذين يشملهم وصف ما، فالأنبياء معشر، والشيوخ معشر، والشباب معشر.. وقوله: الشباب، هو جمع شاب، وهو من بلغ ولم يجاوز الثلاثين أو الأربعين وقيل غير ذلك. قوله: لا نقدر على شيء، أي: لا يجدون شيئاً من المال، قوله: الباءة، اختلف العلماء في المراد بها، والأصح أنها الجماع، وقيل: مؤن النكاح، ولا يستبعد أن يرادا معاً، وقوله: أغضّ للبصر وأحفظ للفرج، أي: هو أحفظ من الوقوع في النظر المحرم، وأحفظ من الوقوع في الفاحشة، وقوله: وجاء ـ بكسر الواو ـ: أي: كسر لشهوته، وهو في الأصل رضّ الخصيتين ودقّهما لتضعف الشهوة والفحولة.

والحديث يدلّ على أن الشاب لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يتزوّج إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإما أن يعالج شهوته ويضعفها بالصوم الدائم، وإلا فُتِنَ ووقع في الحرام، وإنما خصّ الشباب مع أن غيرهم مثلهم؛ لأن الشباب مظنّة للفتنة والطيش، واستدلّ الخطابي وغيره بالحديث على جواز التداوي لقطع الشهوة بالأدوية، وكذا قال البغوي في شرح السنّة، قال: لأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالمعالجة لقطعها بالصوم إلخ (٦/٩). قال الحافظ: وينبغي أن يحمل على دواء يسكن الشهوة دون ما يقطعها أصالة إلخ، وهذا هو الظاهر.

{٧٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يسألون عن عبادة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما أخبروا كأنّهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فقال أحدهم: أما أنا، فأنا أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً، فجاء إليهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا**

وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأفطرُ وأصلّي وأرقدُ وأتزوّج النساء، فمن رَغِب عن سنّتي فليس منّي».

رواه البخاري في أوّل النكاح (١١/٤، ٥)، ومسلم كذلك (٩/١٧٥، ١٧٦).

قوله: ثلاثة رهط، الرهط ثلاثة إلى عشرة، وجاء في مسلم أن نفراً - بفتحتين - وهو بمعناه... وقوله: تقالّوها - بتشديد اللام المضمومة - أي: استقلّوها، أي: رأوها قليلة. وقوله: فمن رغب إلخ، الرغبة عن الشيء الإعراض عنه، ومعناه: من تركها معرضاً عنها وآخذاً بسنّة غيري مثل طريقة الرهبان، فليس على ملّتي وطريقتي من الأخذ بالحنيفية السمحة.

وفي الحديث دلالة على أن دين الإسلام جاء بالوسطية والاعتدال في كل شيء، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتنطع فيحرم على نفسه المشتهيات المباحات، ويبالغ في العبادة وحمل النفس على ما لا تطيقه من دوام الصيام والقيام وترك الراحة... فإن ذلك قد يؤدي إلى السآمة والملل، ولذلك بيّن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأولئك النفر أنه مع كونه أتقاهم وأخشاهم لله يعطي لنفسه حظّها من الراحة وبعض المشتهيات، وعليه فالواجب التأسي به، وفيه دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه، وأنه من سنّته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمن تركه بلا ضرورة فقد ترك سنّته، وسيأتي مزيد لهذا في الرقاق إن شاء الله تعالى.

{٧٦٧} - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: ردّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على عثمان بن مظعون التَّبَتُّل، ولو أذن له لاخْتَصَيْنا.

رواه البخاري (١١/١٩)، ومسلم (٩/١٧٦، ١٧٧)، وأبو داود والترمذي (٩٦٥)، والنسائي (٦/٤٨)، وابن ماجه (١٨٤٨) وغيرهم كلّهم في النكاح.

{٧٦٨} - وعن سمرة أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن التبتّل، وقرأ قتادة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

رواه الترمذي (٩٦٦)، والنسائي (٤٨/٦)، وابن ماجه (١٨٤٩)، وابن الجارود (٦٧٣) والحديث صحيح لشاهد له عن عائشة رواه النسائي (٤٨/٦) بسند صحيح وللحديث السابق.

قوله: رد على عثمان.. التبتّل: هو في الأصل الانقطاع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، أي: انقطع إلى عبادته انقطاعاً، والمراد بالتبتّل الممنوع هو الانقطاع عن النكاح والإعراض عن الملاذ المفضي إلى التنطّع وتحريم ما أحلّ الله تعالى من الطيّبات. أما الإعراض عن الشهوات من غير تنطّع ولا إضرار بالنفس ولا تفويت حق لزوجة أو غيرها تقرّباً إلى الله تعالى واشتغالاً بالعبادة ففضيلة مرغب فيها، وقوله: لو أذن له لاختصينا، معناه: لو رخص له في الانقطاع عن النساء وغيرهنّ من المشتهيات لاختصينا لدفع شهوة النساء لنتمكن من التبتّل، ولكنه لم يأذن له في ذلك، والخصاء: نزع الأُنثيين، وذلك يذهب بشهوة النساء وهو محرم بالنسبة لبني آدم صغيراً كان أم كبيراً، واختلفوا في خصاء المواشي فأجازه البعض ومنعه آخرون، ونقل الحافظ عن القرطبي: أن الخصاء في غير بني آدم ممنوع في الحيوان إلا لمنفعة حاصلة في ذلك، كتطييب اللحم أو قطع ضرر عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ ما يدلّ على أن التزوّج من سنن الأنبياء، وأن ذلك من هديهم جميعاً، فمن سلك غير طريقهم فقد خرج عن هديهم، فلذلك كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحضّ عليه وينهى عما يقطع معنى الرجولة وهي شهوة النساء التي هي من نعم الله تعالى على العبد.

{٧٦٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إني رجل شابّ وأنا أخاف على نفسي العَنَتَ، ولا أجد ما أتزوّج به النساء، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا أبا هريرة، جفّ القلمُ بما أنت لاقٍ فاختَصِ على ذلك أو ذر**».

رواه البخاري (٢٠/١١، ٢١) معلّقاً، والنسائي في الكبرى (٢٦٤/٣) وغيره متّصلاً.

قوله: العَنَت ـ بفتح العين والنون ـ: أصله الشدّة والأمر الشاق، ويطلق على الإثم والفجور، ومراد أبي هريرة الخوف من وقوعه في الزّنا، فشكى ذلك إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسكت عنه حتى أعاد ذلك مراراً، ثم أعلمه بأن الأُمور كلّها بقدر الله تعالى، فما قضاه تعالى وكتبه من الطاعة والمعصية لا بدّ وأن يقع سواء اختصى أم لا. وفي الحديث ما كان عليه شباب الصحابة من معاناة الشهوة واهتمامهم بقطعها أو تضعيفها... وهذه المحنة لا يخلو شاب من مقاساتها، وخاصة المسلم الملتزم، وقد تقدم دواء ذلك، وهو الزواج أو الصيام، والله المُسْتعان. وقوله: جفّ القلم إلخ، أي: نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب جافاً لا مداد فيه لفراغ ما كتب به. قال عياض: كتابة الله ولوحه وقلمه من غيب علمه الذي نؤمن به ونكل علمه إليه. نقله الحافظ في الفتح.

* * *

التحذير من فتنة النساء
وأن فتنتهنّ أضرّ شيء على الرجال

{٧٧٠} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وأن الله مُسْتَخْلِفُكُم فيها فينظُرُ كيف تعملون، فاتّقُوا الدنيا واتّقوا النساء، فإن أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

رواه أحمد (١٩/٣، ٢٢، ٦١، ٨٤)، ومسلم (١٧، ٥٤، ٥٥)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والبيهقي (٩١/٧).

قوله: حلوة ـ بضم الحاء ـ وخضرة ـ بفتح الخاء وكسر الضاد ـ

ومعناه: أن النفوس تستحليها وتحبها كما تحب الخضرة وغيرها من مظاهر الجمال، وقوله: مستخلفكم معناه: أنه سيجعلكم خلفاء فيها عمّن سبقكم لينظر هل تقومون بحقّها، أم تغترّون بها وتساقون وراءها.

وفي الحديث التحذير من فتنة الدنيا والنساء وسيأتي في الرقائق الكلام على فتنة الدنيا، أما النساء ففتنتهن عظيمة وعظيمة، ولذا أمرنا نبيّنا الناصح صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالتحفّظ منهنّ وقرن فتنتهنّ بالدنيا التي هي أسحر من هاروت وماروت كما يقولون، وأخبرنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زيادة في التحذير أن بني أسرائيل فتنوا قبلنا، وكانت أوّل فتنتهم من قبل النساء عياذاً بالله...

{٧٧١} ـ وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما تركتُ بعدي في الناس فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء**».

رواه أحمد (٥/٢٠٠، ٢١٠)، والبخاري في النكاح (١١/٤٠)، ومسلم في الرقاق (١٧/٥٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٩٠) بتهذيبي، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، والبيهقي في النكاح (٧/٩١).

قال الحافظ في الفتح: إن الفتنة بالنساء أشدّ من الفتنة بغيرهن، ويشهد لذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فجعلهن من عين الشهوات، وبدأ بهنّ قبل بقيّة الأنواع إشارة إلى أنهنّ الأصل في ذلك إلخ. ولو عاش الحافظ إلى عصرنا وشاهد وضع المرأة وما وصلت إليه من الفجور ورفع الحجاب وتفننها فيما يفتن الرجال وجَوْبها الأسواق والشوارع والمجامع العامة والمنتزهات والشواطىء عارية ماجنة فما أدري ما كان يقول، فإلى الله المشتكى وهو المسؤول أن يجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

{٧٧٢} ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودين أذهبَ للُبِّ الرجل الحازِم من إحداكُنَّ**».

رواه البخاري في الطهارة (١/٤٢١، ٤٢٢)، وفي الصوم وفي الشهادات وغير ذلك، ومسلم في الإيمان (٢/٦٥، ٦٦) وسيأتي بتمامه في الأدب وفي الرقاق مع أحاديث أخرى إن شاء الله تعالى.

إن المرأة مع ضعفها ونقصان عقلها تستطيع بما فيها من الفتنة أن تستميل إليها وتفتن كبار الرجال الصالحين، فأحرى غيرهم فقد تأخذ قلب الرجل وتملكه ويصبح أسيراً لديها... وأنواع الفتنة بالمرأة كثيرة، وسيأتي لنا الحديث عن ذلك لاحقاً إن شاء الله تعالى.

* * *

من رأى امرأة فأعجبته فليأتِ أهله

{٧٧٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها، فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه، فقال: **«إن المرأة تُقْبِل في صورة شيطان، وتُدْبِر في صورة شيطان، فإذا أبْصَر أحدُكم امرأة فليأتِ أهله، فإن ذلك يَرُدُّ ما في نَفْسِهِ»**، وفي رواية: **«إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه، فليعْمِد إلى امرأته فليواقِعْها، فإن ذلك يرد ما في نفسه»**، وفي رواية: **«فإن معها مثلَ الذي معها»**.

رواه أحمد (٣/٣٣٠)، ومسلم (٩/١٧٧)، وأبو داود (٢١٥١)، والترمذي (١٠٤١) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٥/٣٥١)، والبيهقي (٧/٩٠)، والرواية الأخيرة للترمذي، وفي الباب عن ابن مسعود عند الدارمي قال: رأى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم امرأة فأَعْجَبَتْه فأتى سودة وهي تصنع طيباً وعندها نساء، فأخلينه فقضى حاجته ثم قال: **«أيما رجل رأى امرأة تعجبه فليقُم إلى أهله، فإنّ معها مثل الذي معها»**، وشاهد آخر عن أبي كبشة الأنماري رواه أحمد (٤/١٣١) بسند حسن.

وقوله: تقبل في صورة شيطان، قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله

تعالى في نفوس الرجال من المَيْل إلى النساء والالتذاذ بنظرهنّ وما يتعلق به، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشرّ بوسوسته وتزيينه له، ويستنبط من هذا أنه ينبغي لها أن لا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغضّ عن ثيابها والإعراض عنها مطلقاً. شرح مسلم (١٧٨/٩).

فشبّهها صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بصورة الشيطان في إقبالها وإدبارها لأنها تدعو بصورتها إلى الشرّ وهو النظر إليها عند إقبالها وإدبارها، ثم الافتتان وتعلق القلب بها، فكانت كأنها الشيطان نفسه الذي يدعو إلى الشرّ ويوسوس في الصدور، وسيأتي مزيد للموضوع في محلٍّ آخر.

وفي الحديث دلالة على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان كأحد أفراد بني آدم في اتصافه بالأعراض البشرية من ثوران شهوته وتأثّره برؤية النساء ولو بطرفة، وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قد يعجبه حسن النساء؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ غير أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان معصوماً من المعاصي أو الهم بها كبيرها وصغيرها، وفي الحديث بيان دواء من رأى امرأة فأعجبته، وأنه يجب عليه أن يفزع إلى زوجته، فإن ذلك يردّ ما وقع في نفسه من الشهوة، فإن لم تكن له زوجة فعليه بالصيام كما تقدم، والله المستعان وعليه التّكلان.

* * *

اختيار المرأة ذات الدين

{٧٧٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**تُنكَحُ المرأة لأربع: لِمالِها، ولِحَسَبِها، ولجَمالِها، ولِدِينها، فاظْفَر بذاتِ الدين تَرِبَتْ يداك**».

رواه البخاري (٣٧/١١، ٣٨)، ومسلم (٥١/١٠)، وأبو داود (٢٠٤٧)، والنسائي (٢٦٩/٣)، وابن ماجه. ورواه مسلم (٥٢/١٠)، والترمذي (٩٦٩) عن جابر بدون ذكر الحسب.

قوله: فاظفر الظفر بالشيء: الفوز به، وقوله: تَرِبَت أي: لصقت بالتراب.

ومعنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هي التي يُرْغَبُ في نكاح المرأة لأجلها، وظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك لكن الأفضل والأَوْلى أن يرغب في ذات الدين، فينبغي للمسلم أن يكون الدين هو مطمح نظره، ولا سيما في مثل اختيار الزوجة التي ستكون شريكه في الحياة وربّة بيته وبناء أسرته، ولذا أرشد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إليها لأن ذلك هو غاية البغية، ولا ينبغي للعاقل ذي الدين أن يرغب في مجرّد ذات الجمال أو المال أو الحسب، فإن ذلك قد يفضي به إلى المزالق والمشاكل.

{٧٧٥} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الدنيا متاعٌ وخَيْرُ متاعِها المرأةُ الصالحة**».

رواه أحمد (١٦٨/٢)، ومسلم في النكاح (٥٦/١٠)، والنسائي في الكبرى (٢٧٢/٣).

المتاع كل ما ينتفع به ويرغب فيه، ومعنى الحديث الشريف أن الدنيا كلها خلقت للتمتّع والانتفاع بما فيها وأفضل منافعها التي يتمتّع بها الزوجة الصالحة المؤمنة التقيّة الطائعة لله ورسوله ولزوجها، فمن رُزِقها فقد رُزِق خير متاع الدنيا، فليحمد الله على ذلك كثيراً، وقد جاء في بعض الأحاديث بيان الزوجة الصالحة، وهي إذا أمرها زوجها أطاعته، وإذا نظر إليها سرّته، وإذا غاب عنها حفظته في ماله ونفسها، أو كما ورد.

* * *

اخْتِيارُ الزَّوْجَةِ الوَدُود الوَلُود

{٧٧٦} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُود، فَإِنِّي مُكاثِرٌ بِكُمْ الأُمَم**».

رواه أحمد (١٥٨/٣، ٢٤٥)، وابن حبان (١٢٢٩، ١٢٣٠) بالموارد، والبيهقي (٨١/٧، ٨٢) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده من أشهرها حديث معقل بن يسار رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٥٤/٦)، والحاكم (١٦٢/٢) وصححه ولفظه جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب إلا أنها لا تلد أفأتزوجها فنهاه، ثم أتاه الثانية ثم الثالثة فنهاه، وقال: «**تزوّجو**» إلخ، ومن أجودها أيضاً حديث أبي أُمامة رواه ابن ماجه (١٨٦٢)، والبيهقي (٧٨/٧) وهو حسن في الشواهد ولفظه: «**تزوّجوا فإني مكاثر بكم الأُمم يوم القيامة، ولا تكونوا كرهبانية النصارى**».

قوله: الودود: هي المتحبّبة إلى زوجها بنحو أدب وتلطّف في الخطاب وبشاشة، وقوله: الولود أي: التي هي مظنّة الولادة، وتعرف بأقاربها، أو المراد بها الشابّة دون من انقطعت ولادتها، وقوله: مكاثر إلخ أي: أغالب بكم الأُمم السابقة في الكثرة. والحديث يدلّ على الترغيب في التزوّج بالولود الودود ليكثر تناسل الأُمّة، فتكون يوم القيامة أكثر الأُمم عدداً، وذلك يرضي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كما يؤخذ من قوله: «**فإني مكاثر بكم الأُمم**»، ولذلك نهى أيضاً عن الترهّب.

* * *

أنواع أنكحة الجاهلية

{٧٧٧} ـ عن مولاتنا عائشة زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجلُ إلى الرجلِ وليَّتَه أو ابنته فيُصْدِقها ثم يَنْكِحُها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهُرتْ من طَمْثِها: أرْسِلي إلى فلان فاسْتَبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمَسُّها أبداً، حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها

أصابها زوجها إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبُها، فإذا حَملتْ ووضعت، ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان تسمّي من أحبّت باسمه، فيُلْحَقُ به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهنّ البغايا كُنَّ يَنْصِبْنَ على أبوابهن راياتٍ، تكون عَلَماً، فمن أرادَهنّ دخل عليهنّ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حَملها جُمِعُوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتَاطَ به، ودُعِي ابنَه لا يمتنع من ذلك.

فلما بعث نبيّنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالحق هدَّم نكاح الجاهلية كلَّه إلا نكاح الناس اليوم.

رواه البخاري في النكاح (١١/٨٨، ٨٩، ٩٠)، وعزاه الحافظ لمستخرجي أبي نعيم والإسماعيلي.

قوله: أنحاء جمع نحو أي: ضرب، وقوله: من طَمْثها ـ بفتح الطاء وسكون الميم ـ: أي: حيضها، وقوله: فاستبضعي من المباضعة أي: اطلبي منه الجماع، والمباضعة المجامعة مشتقّة من البضع ـ بضم الباء ـ: وهو الفرج، وقوله: عَلَماً ـ بفتح اللام ـ: أي: علامة، وقوله: القافة جمع قائف: وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفيّة، وقوله: فالتاطه أي: استلحقه به. في هذا الحديث بيان ما كان عليه أهل الجاهلية من السفاهة والنذالة والسقوط، حيث يمكن الرجل غيره من زوجته لينجب له ولداً، ويجتمع الرهط والجماعة على امرأة واحدة، فينكحونها نكاحاً جماعياً، ثم إذا حملت ألحقت الولد بمن شاءت منهم، ثم الطامة والداهية الكبرى وجود البغايا والعواهر العامة، هذه هي الحياة العربية ما قبل

الإسلام، فهل هناك من أسفه عقلاً وأسقط قدراً وأبعد ضلالاً من هؤلاء، فالحمدلله على دين الإسلام والبعثة النبوية المحمدية... ورغم ما جاء به الإسلام من النور والهدى ووجود من يؤمن به وينتمي إليه، فقد رجع الكثيرون من أبنائه إلى أعمال الجاهلية الأولى من خمر، وفجور، ورقص، وعري، ولواط، إلى آخر الجريدة الطويلة.

والحديث يدلّ على أن النكاح الشرعي الموجود كان من جملة أنكحة الجاهلية فأقرّه الإسلام لما فيه من صفات مكارم الأخلاق والمصالح والمنافع وصحّة الأنساب وحقوق الزوجية وما إلى ذلك.

* * *

طلب الكفاءة في الدين

{٧٧٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا حُذَيْفة بن عتبة بن ربيعة، وكان ممن شهد بدراً مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تَبَنَّى سالماً وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار كما تبنّى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زيداً، وكان من تبنى رجلاً في الجاهلية دعاه الناس إليه ووَرِثَ من ميراثه حتى أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فرُدُّوا إلى آبائهم فمن لم يعلم له أب كان مولى وأخاً في الدين، فجاءت سَهْلَةُ بنت سهيل بن عمرو وهي امرأة أبي حذيفة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالماً ولداً وقد أنزل الله ما قد علمت، الحديث وسيأتي في الرضاع.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٠٠٠)، وفي النكاح رقم (٥٠٨٨ ج ١١/٣٤)، ومسلم في الرضاع (١٠/٣١، ٣٢).

الحديث يدلّ على أن الكفاءة بين الزوجين ليست شرطاً للنكاح، وأنه يجوز لغير العربي التزوّج بالعربية، والعامّي التزوّج بالشريفة، والأُمّي التزوج

بالعالمة بدليل هذا الحديث وأحاديث أخرى كثيرة، وإنما العبرة بالدين والصلاح، وبهذا جزم مالك وغيره، واعتبر الكفاءة في النَّسب الجمهور، ولم يثبت في ذلك حديث ومن تتبّع السنّة النبوية وجد مذهب الجمهور مرجوحاً.

* * *

الحضّ على نكاح الأبكار

{٧٧٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: هلك أبي وترك سبع بنات أو تسع بنات، فتزوّجتُ امرأة ثَيِّباً، فقال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تزوجت يا جابر**»؟ فقلت: نعم، فقال: «**بكراً أم ثيباً**»؟ فقلت: بل ثيّباً، قال: «**فهَلاّ جارية تُلاعِبُها وتُلاعِبُك، وتُضاحِكُها وتُضاحِكُك**»، قال: فقلت له: إن عبدالله هلك وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوّجت امرأة تقوم عليهنّ وتُصلحهُن، فقال: «**بارك الله لك**»، أو قال: «**خيراً**».

رواه البخاري في النكاح (١١/٢٢، ٢٥) وغيره، ومسلم في النكاح (١٠/٥٢، ٥٦)، وأبو داود (٢٠٤٨)، والترمذي (٩٨٢)، والنسائي (٦/٥١)، وابن ماجه (١٨٦٠) وغيرهم.

البكر ـ بكسر الباء ـ: العذراء التي لا زالت على بكارتها، والثيّب: هي التي أُزيلت بكارتها بالزواج أو الزّنا. وفي الحديث فضيلة التزوّج بالأبكار لما في ذلك من تمام الألفة والمحبّة، وعدول النبيّ عن تزوّج الأبكار كان لمصالح وحكم معروفة.

وفيه مشروعية مُضَاحَكَةِ الزوجة ومُلاعَبتِها، وجاء في رواية: «**ما لك وللعَذَارى ولُعابها**»، ضبطت بضم اللام من اللعاب، فيكون فيه إشارة إلى مصّ اللّسان ورشف الشفتين، وجاء في رواية: «وتعَضّها وتعَضُّك»، رواه الطبراني عن كعب بن عجرة، وكل ذلك من الأُمور المباحة، ومن كمال

التمتّع بالزوجة، فإن التمتّع بها يكون بجميع الجسم، فلكل عضو منه حظّ من ذلك، وهذا من الطيّبات التي أباحها الله للمؤمن.

❊ ❊ ❊

مشروعية النظر إلى الخطيبة قبل خطبتها

{٧٨٠} ـ عن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأة، فقال لي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل نظرت إليها**»؟ قلت: لا، قال: «**فانظر إليها، فإنه أحرَى أن يُؤدمَ بينكُما**».

رواه الترمذي (٩٧٠)، والنسائي (٥٧/٦)، وابن ماجه (١٨٦٥)، وابن حبان (١٢٣٦)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٨٤/٧)، وكذا ابن الجارود (١٧٥، ١٧٦) من طرق وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

{٧٨١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا خَطَب أحدُكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يَدعُوه إلى نِكاحِها فليفعل**».

رواه أحمد (٣٣٤/٣، ٣٦٠)، وأبو داود (٢٠٨٠٢) قال جابر: فخطبت جارية، فكنت أتَخَبَّأُ لها حتى رأيتُ منها ما دَعاني إلى نِكاحِها وتَزَوُّجِهَا فتزوجتُها.

رواه أحمد (٣٣٤/٣، ٣٦٠)، وأبو داود (٢٠٨٠٢) وسنده حسن، وصححه الحاكم (١٦٥/٢) وحسّنه الحافظ في الفتح، وقال في بلوغ المرام: رجاله ثقات.

قوله: أحرى أي: أولى، وقوله: أن يؤدم بينكما، أي: تدوم المودة بينكما.

وفي الحديث الرخصة في النظر إلى المرأة التي يريد الإنسان التزوّج بها، فله أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها إذا كان بقصد التزوّج، وهذا

قول كافّة العلماء، ويختصّ النظر بالوجه والكفّين، فيستدلّ بالوجه على الجمال، وبالكفّين على خصوبة البدن أو عدمها، وقال داود وأتباعه: ينظر إلى جميع بدنها، وهذا خطأ. قال النووي في شرح مسلم (٩/٢١٠): ويؤخذ من حديث جابر أن النظر إليها يجوز سواء كان بإذنها أم لا، والنظر إنما يكون قبل الخطبة، وله بعد ذلك أن يبعث إحْدَى قريباته لتنظر بقيّة جسمها وتشُمّ رائحتها...

أما ما هو شائع اليوم بين الشباب والفتيات من المصاحبة والمماشاة، بل والخلوة بقصد التعرّف على الأخلاق والطبائع من الجانبين كما يزعمون، فهي جاهلية جهلاء مخالفة لهدي الإسلام وآدابه وأخلاقه دَبَّت إلينا من عند الكفار أعداء الإسلام وشرّ البرية.

{٧٨٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خطب رجل امرأة، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**انظر إليها، فإن في أعْيُنِ الأنصار شيئاً**»، وفي رواية: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني تزوّجت امرأة من الأنصار... إلخ.

رواه أحمد ومسلم (٩/٢٠٩، ٢١٠) ويأتي مطوّلاً في المهر.

وهو في الدلالة كسابقيه، وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا خطب أحدكم**» إلخ، وقول المغيرة: خطبت امرأة إلخ، المراد بالخِطْبة هنا بكسر الخاء هو طلب المرأة للزواج بها من وليّها بالوسيلة المعروفة، وهي من مقدمات الزواج وقد شرعت قبل الارتباط بعقد الزوجية، ولا تحل لخاطبها بمجرّد الخطبة.

❋ ❋ ❋

من لا تباحُ خِطْبتُها

{٧٨٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**أن يَبِيعَ بعضُكم على بيع بعض، ولا**

يَخطُب الرجلُ على خِطبة أخيه حتى يترُكَ الخاطِب قبله أو يأذن له الخاطب».

رواه البخاري (١٠٤/١١)، ومسلم (١٩٧/٩) كلاهما في النكاح، وفي الباب عن أبي هريرة وعقبة بن عامر وكلاهما في الصحيح، وسيأتي حديث أبي هريرة مطوّلاً فيما بعد.

في الحديث مسألتان، **الأولى**: بيع المسلم على بيع أخيه، أي: سومه عليه بعد اتّفاق المتبايعين وهو محرم، وقد تقدم في البيوع. **الثانية**: الخطبة للمرأة بعد أن خطبها رجل آخر ورضيا واتّفقا، فهذه الخطبة محرّمة بالإجماع للحديث المذكور وغيره كما حكاه النووي وغيره. نعم إذا كانا لم يتّفقا بعد أو أذن الخاطب الأول، فلا حرج في ذلك.

وممن تحرم خطبتها تصريحاً المعتدّة سواء كانت معتدة عدة وفاة أم طلاق، بائناً كان أم رجعياً، فلا يجوز التصريح بطلب زواجها حالة العدة، وهذا إجماع متيقّن، وهو نصّ القرآن الكريم. نعم أباح الله تعالى التعريض بالخطبة في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۬ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

والتعريض يكون بذكر شيء يدل على شيء آخر لم يذكر؛ كقوله مثلاً للمرأة المعتدة: إني أريد التزوّج، ولوددت أن يهيء الله لي امرأة صالحة، أو يقول لها: إنك تعرفين أنني شريف أو أنني ثري أو رجل صالح.. فمثل هذا الكلام لا بأس به.

أما من صرّح بالخطبة فقد فعل حراماً، ومن تزوّجها حالتئذٍ كان نكاحه باطلاً فاسداً يجب فسخه، وذهب مالك إلى تحريمها عليه أبدياً بذلك.

* * *

جواز عرض الرجل بنته على الرجل الصالح

{٧٨٤} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما حدّث أن عمر رضي الله تعالى عنه حين تَأَيَّمَتْ حفصةُ بنتُ عمر من خُنَيْس بن حذافة السَّهْمِيّ رضي الله تعالى عنهم، وكان من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فتوفي بالمدينة، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أتيت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فعرَضْتُ عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثتُ ليالي ثم لقيني فقال: قَدْ بَدَا لي أن لا أتزوّج يَوْمِي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصدّيق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنتَ عمر، فصمَتَ أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثتُ ليالي ثم خطبَها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأنكحتُها إياه، فلقيت أبا بكر فقال: لقد وجدت عليَّ حِين عرضتَ عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً، قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يَمْنَعْني أن أرجع إليك فيما عرضتَ علي إلاّ أنني كنت علمت أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأُفْشِي سرَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولو تركها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قَبِلتُها.

رواه البخاري (١١/٨٠، ٨١، ٨٢).

قوله: تأيَّمت، أي: صارت أيّماً لا زوج لها.

في الحديث جواز عرض الإنسان ابنته على من يراه صالحاً لها ليزوّجه إيّاها، وليس في ذلك عيب، بل في ذلك ثواب وأجر لأنه عمل صالح، وَسَعْيٌ في إعفاف البنت...

* * *

جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح

{٧٨٥} ـ عن ثابت البناني رحمه الله تعالى قال: كنت عند أنس وعنده

ابنة له، قال أنس رضي الله تعالى عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تعرِضُ عليه نفسَها، قالت: يا رسول الله ألك بي حاجةٌ؟ فقالت بنتُ أنس: ما أقلَّ حياءَها واسَوْأتَاهُ، واسَوْأتَاهُ، قال: هي خيرٌ منك رغبتْ في النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فعرضتْ عليه نفسَها.

رواه البخاري (٧٩/١١) وهو من أفراده كسابقه، وسيأتي حديث سهل بن سعد في ذلك بعدُ وفي الحديث جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الملتزم تريد إعفاف نفسها، ورجاء أن تكون تحت عصمة رجل صالح يُحسِنُ عشرتها، ولا غَضَاضَة في ذلك عليها لأنها سعت في شيء مطلوب مرغوب فيه، ولذلك أنكر أنس على ابنته استِقْبَاحها لِما فعلتْ تلك المرأةُ حيث رأت ذلك من قِلَّة حيائها، وعَرَّفها بأنها خيرٌ منها حيث رغبتْ في النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

❊ ❊ ❊

المحرمات من النساء

{٧٨٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حَرُمَ من النَّسَب سبعٌ، ومن الصِّهْرِ سبعٌ، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣، ٢٤].

رواه البخاري في النكاح (٥٧/١١).

{٧٨٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»**، وفي رواية: **«من الولادة»**.

رواه أحمد (٤٤/٦، ٥١، ٦٦)، والبخاري (٤٣/١١)، ومسلم (١٩/١٠، ٢٠)، وأبو داود (٢٠٤٨)، والنسائي (٨١/٦، ٨٦)، وابن ماجه (١٩٣٧) ونحوه عن ابن عباس في صحيح مسلم وغيره، وعن عليّ عند مسلم أيضاً.

{٧٨٨} ـ وعن أُمّ حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله هل لك في بنت أبي سفيان؟ قال: **«فأفعل ماذا»**؟ قلت: تَنْكِحُ، قال: **«أتُحبِّين»**؟ قلت: لست لك بِمُخْلِيَةٍ، وأحبُّ من شركني فيك أختي، قال: **«إنها لا تحلّ لي»**، قلت: بلغني أنك تخطب بنت أبي سلمة، قال: **«ابنة أُمّ سلمة»**، قلت: نعم، قال: **«لو لم تكن رَبِيبَتي ما حلَّت لي، أرضعتني وأباها ثويبة فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتَكُن، ولا أخواتَكُنَّ»**.

رواه البخاري (٦٢/١١)، ومسلم (٢٥/١٠)، وأبو داود (٢٠٥٦).

{٧٨٩} ـ وعن فَيْرُوز الدَّيْلَمِي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أسلمتُ وتحتي أختان، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«طلِّق أيَّتَهُمَا شِئْت»**.

رواه أحمد (٢٣٢/٤)، وأبو داود (٢٢٤٣)، والترمذي (١٠١٢)، وابن ماجه (١٩٥١)، وابن حبان (١٢٧٦)، وهو وإن كان في سنده رجل مجهول الحال، فإن القرآن يَعْضُده... وأن تجمعوا بين الأختين، وكذا حديث أمّ حبيبة المتقدم.

{٧٩٠} ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: مرّ بي خالي أبو بُرْدَة بن نَيّار ومعه لواءٌ، فقلت: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى رجل تزوّج امرأة أبيه أن آتيه برأسه.

رواه أحمد (٢٩٢/٤)، وأبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٢٣٣)،

والنسائي في الكبرى وابن ماجه (٢٦٠٧)، والحاكم (٣٥٦/٤)، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم، وللحديث طرق بعضها صحيحة.

{٧٩١} ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أوطاس أصَبْنا نِساءً لهُنَّ أزواجٌ في المشركين، فكرِهْنَ رجالٌ منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٤].

رواه أحمد (٨٤/٣)، ومسلم (٣٥/١٠)، وأبو داود (٢١٥٥)، والترمذي في النكاح وفي التفسير وغيرهم، ويأتي في الغزوات.

{٧٩٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يُجْمَعُ بين المرأة وعمَّتِها، ولا بين المرأة وخالتها**».

رواه البخاري (٦٤/١١، ٦٥)، ومسلم (١٩٠/٩، ١٩١، ١٩٣)، وأبو داود (٢٠٦٦)، والترمذي (١٠٠٨)، وابن ماجه (١٩٢٩) وغيرهم ونحوه عن جابر عند مسلم، وعن ابن عباس عند أبي داود والترمذي وغيرهما.

ذكرنا في هذا الفصل من القرآن والسنة ما يدلّ على تحريم التزوّج بعدّة نساء.

وجملة المحرمات مما ذكرنا مع غيرهن مما يأتي يقاربن الأربعين أو يزدن.

وبيان ذلك أن الله عزّ وجلّ حرّم سبعاً بالنسب، وهنّ: الأُمّهات وإن عَلَوْنَ، والبنات وإن سفلن، والأخوات الأشقاء وللأب وللأُمّ، والعمات من جهة الأب والأُمّ وإن علون، والخالات من جهة الأُمّ والأب وبنات الأخ مطلقاً وإن سفلن، وبنات الأخت كذلك، فهذه سبع من جهة النَّسَب.

ومثلهن تماماً، ولا فارق من قبل الرضاعة: الأُمّ المرضعة وبناتها وأخواتها وعمّاتها وخالاتها وبنات الأخ وبنات الأخت.

كما حرّم تعالى بالمصاهرة الزواج بزوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة، وابنتها الربيبة المدخول بأُمّها، فهؤلاء ثمان عَشرة امرأةً يحرم

التزوج بهن تحريماً مؤبّداً يضاف إليهن الملاعنة كما يأتي في اللعان، وباقي المحرمات تحريمهنّ عارض وليس بمؤبّد، وهن الخامسة الزائدة على الأربع المأذون فيهن كما يأتي، والمرأة المحصنة المتزوّجة، والمرأة في عدتها، والحامل، والمطلقة ثلاثاً، والمشركة، والأَمة الكافرة، والمُحْرمة بحج أو عمرة، واليتيمة الصغيرة، والمنكوحة عند نداء الجمعة، والمنكوحة بعد خطبتها من رجل سابق، والجمع بين الأختين، وبين المرأة وخالتها، وبين المرأة وعمّتها؛ فهؤلاء أربع عشرة محرمات تحريماً عارضاً مؤقتاً، فإذا أُضِفْن إلى ما سبق كان جميع من يحرم التزوّج بهن وخطبتهن والعقد عليهنّ والدخول بهن ثنتان وثلاثون امرأة، وزيد عليهن غيرهن مما فيه خلاف، واقتصرنا على ما وقع عليه الإجماع أو اتّفاق عامّة الأئمّة والعلماء رحمهم الله تعالى.

* * *

ما يحل من النساء

{٧٩٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن غيلان بن سلمة الثَّقَفِيّ أسلم وتحته عَشْرُ نِسْوَةٍ فأسلَمْنَ معه، فأمرَه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«أن يَتَخَيَّرَ منهنّ أربعاً»**.

رواه أحمد (٤٦٠٩، ٤٦٣١)، والترمذي (١٠١١)، وابن ماجه (١٩٥٣)، والدارقطني (٢٦٩/٣)، وابن حبان (١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩)، والحاكم (١٩٢/٢، ١٩٣)، والبيهقي (١٨١/٧، ١٨٢) من طرق عن الزهري عن سالم عنه به، وسنده صحيح على شرط مسلم، والعلّة التي ذكرت فيه مدفوعة كما يعرف من تتبّع كلام الحفاظ فيه، ولذا صححه ابن القطان، وابن حزم، وابن كثير وآخرون.

{٧٩٤} ـ وعن قيس بن الحارث قال: أسلمتُ وعندي ثمانُ نسوة، فأتيتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت ذلك له، فقال: **«اخْتَرْ منهنّ أربعاً»**.

رواه أبو داود (٢٢٤١)، وابن ماجه (١٩٥٢)، والبيهقي (١٨٣/٧) حديث حسن صحيح.

الحديثان يدلاّن على أن للإنسان أن يتزوّج أربع نسوة مجتمعات، وأن ذلك حلال له ويعضدُ ذلك نصّ القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]، أي: تزوّجوا ما حلّ لكم من النساء وهن ما سوى ما تقدم من المحرمات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٤]، ثم فصل ما طاب، وأبيح لنا من الجمع والتعدد فأباح لنا الجمع بين اثنتين، أو ثلاث أو أربع وما زاد على ذلك فمن خصائص النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبعض أنبياء الله عزّ وجلّ، كسيدنا سليمان وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام، وهذا إجماع لا خلاف فيه يعتبر إلاّ ما عند الشيعة، فإنهم يبيحون الزيادة على الأربع وهو ضلال.

غير أن الله تعالى لمّا أباح لنا التعدّد قيّده بالعدل بينهنّ فمن علم من نفسه عدم القيام بحقوقهنّ، فعليه أن يقتصر على واحدة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣]، وسيأتي لنا مزيد في القسم بين الزوجات.

* * *

تزويج من جاءنا ممن نرضى دينه

{٧٩٥} ـ عن أبي حاتم المُزَني رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفَسَادٌ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد**»، قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: «**إذا جاءكم من تَرْضَوْنَ دينه وخُلُقَهُ فأنكحوه**» ثلاث مرات.

رواه الترمذي (٩٦٨) بتهذيبي، والبيهقي (٨٢/٧)، وأبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (٦٠٨/٩)، وحسّنه الترمذي وهو كما قال

لحديث أبي هريرة بنحوه عند الترمذي (٩٦٧)، وابن ماجه (١٩٦٧)، والحاكم (١٦٤/٢، ١٦٥)، وصححه الحاكم وفي سنده من لا يحتجّ به إلا في الشواهد.

قوله: ترضون أي: تستحسنون، وقوله: خُلُقه ـ بضم الخاء واللام ـ: أي: شِيَمه وشمائله.

وفي الحديث الحضّ على تزويج من كان ذا دين وخُلُق كريم، وأنه إذا لم يزوج من كانت هذه أوصافه وكانت رغبة الناس تزويج الأثرياء وذوي الأحساب... بقيت البنات عوانس بلا أزواج، وبقي شبابكم كذلك فتكثر الفتنة وينتشر الزنا... وذلك فساد كبير.

* * *

لا تُنكح المرأة إلا برضاها

{٧٩٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الأيِّمُ أحقُّ بِنَفْسها من وليِّها، والبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ في نفسِها، وإذنُها صُماتها**».

رواه مسلم (٢٠٤/٩، ٢٠٥)، وأبو داود (٢٠٩٨)، والترمذي (٩٨٩)، وابن ماجه (١٨٧٠) وغيرهم.

{٧٩٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الجارية يُنْكِحُها أهلُها أتُسْتَأْمَرُ أم لا؟ فقال لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نعم تُسْتَأْمَرُ**»، فقالت عائشة: فقلت له: فإنها تَسْتَحِيي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فذلك إذنُها إذا سكَتَتْ**».

رواه البخاري (٩٧/١١، ٩٨)، ومسلم (٢٠٣/٩، ٢٠٤) وغيرهما.

{٧٩٨} ـ ونحوه عن أبي هريرة بلفظ: «**لا تنكح الثَّيِّبُ حتى تُسْتَأْمَرَ ولا تُنكَحُ البِكْرُ حَتَّى تستأذَن، وإذْنُها الصَّمُوتُ**».

رواه البخاري (٩٧/١١)، ومسلم (٢٠٢/٩، ٢٠٣)، وأبو داود (٢٠٩٢)، والترمذي (٩٨٨)، وابن ماجه (١٨٧١) وغيرهم.

الأيِّم - بفتح الهمزة وكسر الياء المشدّدة -: تطلق على كل من لا زوج لها، والمراد بها هنا من عدا البكر، وقوله: تستأمر أي: تستأذن، وقوله: أحقّ بنفسها، أي: في اختيار الزوج والرّضا وعدمه.

وهذه الأحاديث تدلّ على أنه لا تزوج أيُّ امرأة سواء كانت ثيّباً أم بكراً إلاّ بعد استئذانها ورضاها. أمّا الأيّم، فلا بدّ من إعرابها عن نفسها بالقبول أو عدمه. وأما البكر، فيكفي في رضاها سكوتها، وبهذا قال جمهور الأئمّة والعلماء لهذه الأحاديث.

{٧٩٩} - وعن خَنْساء بنتِ خِذام الأنصارية رضي الله تعالى عنها أن أباها زوَّجها وهي ثيِّب، فكرهتْ ذلك، فأتت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فردّ نِكاحَها.

رواه البخاري (٩٩/١١، ١٠٠).

خذام: ضبطه الحافظ بالخاء المعجمة المكسورة والدال المهملة وضبطه غيره بالخاء والذال المعجمتين.

والحديث يدلّ على أن تزويج الثيّب بلا رضاها باطل لا يصحّ، وأن لها الحقّ في ردِّه.

* * *

حكم تزويج البنت الصغيرة

{٨٠٠} - عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوّجني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنا بنتُ سبع سنين، وبَنى بي وأنا بنتُ تِسع سنين، وكنت ألعبُ بالبنات وكنَّ جوارِي يأتِينَني فإذا رأيْنَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَنْقَمِعْنَ منه، فكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُسَرِّبُهُنَّ إليَّ.

رواه البخاري (٩٥/١١)، ومسلم (٢٠٨/٩)، وفي رواية له: وزُفَّتْ إليه وهي بنت تسع سنين، ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة.

وقوله: ينقمعن أي: يتغيبن ويختفين وراء شيء، وقوله: يسربهن أي: يرسلهن.

اتّفق العلماء والأئمّة على أن للأب والجدّ تزويج البنت الصغيرة البكر، بل نقل غير واحد الإجماع على ذلك، إلا أن ابن شبرمة خالف فيمن لا يوطأ مثلها، وحجّة الكافة هو حديث الباب وغيره.

واختلفوا في البكر البالغ العاقلة إذا زوّجها وليّها بلا استئذان، فذهب الأوزاعي وأبو حنيفة والثوري إلى أن الزواج مردود، وقال آخرون: إنْ زَوَّجَها أبوها أو جدّها من غير استئذان كان الزواج جائزاً صحيحاً، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وابن راهويه، وحملوا استئذانها على استطابة النفس، والله تعالى أعلم.

* * *

تزويج اليتيمة

{٨٠٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اليتيمة تُسْتَأْمَرُ في نَفْسِهَا، فإن صَمَتَتْ فهو إذنُها، وإن أبَتْ فلا جواز عليها»**.

رواه أبو داود (٢٠٩٣)، والترمذي (٩٩٠)، وابن حبان (١٢٣٩)، والحاكم (١٦٦/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي موسى رواه أحمد (٣٩٤/٤، ٤٠٨، ٤١١)، وابن حبان (١٢٣٨) والحاكم وصححه وفيه: وإن أبت لم تُكره.

اليتيم من بني آدم: من لا أب له، ومن البهائم: من لا أمّ له، ولا يتم بعد احتلام، والمراد بها هنا من كانت يتيمة ثم بلغت، فطلبت للزواج

من وليّها، فلا بد من استئذانها وطلب أمرها، فإن أجابت أو سكتت كان ذلك علامة رضاها، وإن أبَتْ فلها ذلك ولا يجبرها على الزواج وليّ ولا غيره.

{٨٠٢} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تزوّج بنت خاله عثمان بن مظعون، قال: فذهبت أمّها إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: إن ابنتي تكره ذلك، فأمره النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يفارقها، وقال: «**لا تنكحوا اليتامى حتى تستأمِرُوهُنَّ فإذا سكَتْن فهو إذنهنّ**».

رواه الدارقطني (٣/٢٣٠)، والحاكم (٢/١٦٧)، والبغوي في شرح السنّة (٩/٣٦)، وصححه الحاكم والذهبي.

الحديث كسابقه وفيه زيادة وجوب الفراق إن وقع الزواج بدون استئذانها.

* * *

شروط عقد الزوجية
الولاية

{٨٠٣} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا نكاح إلاّ بولي**».

رواه أحمد (٤/٣٩٤، ٤١٣، ٤١٨)، وأبو داود (٢٠٨٥)، والترمذي (٩٨٣) بتهذيبي، وابن ماجه (١٨٨١)، والدارمي (٢١٨٨)، وابن الجارود (٧٠٢ و٧٠٣، ٧٠٤)، وابن حبان (١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥)، والحاكم (٢/١٧٠)، والبيهقي من طرق بعضها على شرط الصحيح ولا يضرّه من أرسله، ولا الاختلاف الواقع فيه، وهو مع ذلك له شواهد كثيرة. قال الحاكم: وقد صحت الرواية فيه عن أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عائشة، وأمّ سلمة، وزينب بنت جحش، قال: وفي الباب عن عليّ،

وابن عباس، ومعاذ، وعبدالله بن عمر، وأبي ذرّ الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وعمران بن الحصين، وعبدالله بن عمرو، والمسور بن مخرمة، وأنس بن مالك... والحديث صححه أحمد وابن معين وابن المديني والبخاري وابن حبان والحاكم والذهبي وغيرهم من السابقين واللاحقين.

{٨٠٤} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيُما امرأة نُكِحَتْ بغير إذْنِ ولِيّها فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ، فنكاحُها باطلٌ، فإن دخل بها فلها المهرُ بما استحَلَّ من فَرْجِها، فإن اشْتَجَرُوا فالسُّلْطان وليّ من لا وَلِيّ له**»، وفي رواية زيادة: «**وشاهدي عدل**».

رواه أحمد (٦/٤٧، ١٦٥)، وأبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (٩٨٤)، وابن ماجه (١٨٧٩)، والدارمي (٢١٩٠)، وابن الجارود (٧٠٠)، وابن حبان (١٢٤٧، ١٢٤٨)، والحاكم (٢/١٦٨). وكذا الطيالسي والبيهقي وهو حسن صحيح لشواهده، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وكذا صححه أبو عوانة وغيره، ورواية شاهدي عدل عند ابن حبان (١٢٤٧)، والدارقطني (٣/٢٢٢)، والبيهقي (٧/١٢٦)، والخطيب في التاريخ (١٢/١٥٧)، والحاكم في علوم الحديث (١٣٤)، وابن حزم في المحلى (٩/٤٦٥) وقال: لا يصح في هذا الباب شيء غير هذا السند، يعني بذلك شاهدي عدل، وله مع ذلك شواهد وطرق. راجع الهداية للسيد أحمد الصديق والإرواء للشيخ ناصر الألباني رحمهما الله، فقد أجادا وأفادا في ذلك، وقبلهما البيهقي في السنن والحافظ في التلخيص.

والحديثان يدلاّن على أنه لا يصح عقد زواج أي امرأة إلا بأمر وليّها ورضاه وإذنه، وبهذا قال عامّة الأئمّة وأهل العلم. قال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في جامعه: والعمل في هذا الباب على حديث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا نكاح إلا بولي**» عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، منهم عمر بن الخطاب،

وعليّ بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وأبو هريرة، وغيرهم، ثم ذكر من ذهب إليه من التابعين وغيرهم، فذكر منهم الأئمة السبعة: الثوري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وابن راهويه. وقال الشيرازي في المهذب: لا يصح النكاح إلاّ بولي فإن عقدت المرأة لم يصح... وقال ابن أبي زيد في الرسالة: لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل.

وقال ابن حزم في المحلى: ولا يحل للمرأة نكاح، ثيباً كانت أو بكراً إلا بإذن وليّها الأب أو الأخوة أو الجدّ أو الأعمام إلخ.

وقال ابن قدامة في المغني على قول الخِرقي: ولا نكاح إلا بوليّ وشاهدين من المسلمين أن النكاح لا يصح إلا بوليّ، ولا تملك المرأة تزويج نفسها ولا غيرها، ولا توكل غير وليّها في تزويجها، فإن فعلت لم يصح النكاح إلخ.

والمقصود أن الولي لا بدّ منه في تزويج المرأة، وقد خاطب الله عزّ وجلّ الأولياء في ذلك، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ إلخ [النور: ٣٢]، والأيامى جمع أيّم وهي من لا زوج لها، فأمر أولياءهن بتزويجهن ولم يخاطب النساء في ذلك. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١]، أي: لا تزوّجوا نساءكم المشركين حتى يؤمنوا إلخ. فخاطب الأولياء بالنهي ولم يخاطب النساء، فدلّ كل ذلك على أن الولاية في التزويج للرجال، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «فإن اشتجروا» أي: اختلف الأولياء أيهم يتولّى العقد، فالأمر حينئذ لصاحب السلطة، وقوله: فإن دخل بها فلها المهر إلخ، معناه: أن من تزوج بلا ولي كان النكاح باطلاً مفسوخاً ووجب على من دخل بها مَهْرُ مثلِها بما استحلّ من فرجها. ومع وضوح الدليل من القرآن والسنّة على اعتبار الولي في النكاح، قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بخلاف ذلك، فأجاز للمرأة تزويج نفسها وهو رأي مرجوح.

* * *

إشهاد عدلين

{٨٠٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيُما امرأةٍ نُكِحَتْ بِغَيرِ إذنِ وليّها وشاهِدَيْ عدل فنكاحها باطلٌ**» الحديث.

تقدم تخريجه، وأنه بطوله حديث صحيح غير رواية وشاهدي عدل، وقد قدمنا ما فيها، وأن من جملة من صححها ابن حزم حيث قال: لا يصح في هذا الباب شيء غير هذا السند، يعني: ذكر شاهدي عدل، قال: وفي هذا كفاية لصحته.

فالإشهاد ضروري لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، والآية عامّة وبهذا قال جمهور العلماء.

{٨٠٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**البغايا التي يُنْكِحْنَ أنْفُسَهُنّ بغير بَيِّنَةٍ**».

رواه الترمذي (٩٨٥) بتهذيبي، والبيهقي (٧/١٢٥، ١٢٦) بسندين صحيحين غير أنهما صححا أنه موقوف، وقال المجد في منتقى الأخبار: وهذا لا يقدح لأن عبدالأعلى ثقة، فيقبل رفعه وزيادته، وقد يرفع الراوي الحديث وقد يوقفه.

البغايا جمع بغي ـ بفتح الباء وكسر الغين والياء المشدّدة ـ: وهي الزانية، والبيّنة هنا إشهاد عدلين، وهو يدلّ على وجوب إحضار البيّنة عند عقد الزواج، وأنّ عدمها من صفات الزواني لأنهنّ اللواتي يتصلن بلا بيّنة ولا شهود ولا وليّ.

ولذا قال الترمذي عقيب هذا الحديث وتحت عنوان لا نكاح إلا ببينة: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن بعدهم من التابعين وغيرهم قالوا: لا نكاح إلا بشهود لم يختلفوا في ذلك عندنا من مضى منهم إلا قوماً من المتأخرين، إلخ.

❋ ❋ ❋

إعلان النكاح

{٨٠٧} ـ عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أعلنوا النكاح**».

رواه أحمد وابنه في المسند (٥/٤)، وابن حبان (٤٠٦٦) مع الإحسان، والبزار (١٤٣٣)، والحاكم (١٨٣/٢)، والبيهقي (٢٨٨/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٨/٨) من طرق وسنده حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وعزاه نورالدين في المجمع (٢٨٩/٤) لأحمد والبزار وكبير الطبراني وأوسطه، وقال: ورجال أحمد ثقات.

ورواه الترمذي (٩٧٢) عن عائشة بزيادة: «واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف» وسنده ضعيف.

{٨٠٨} ـ وعن محمد بن حاطب الجُمَحِيّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فَصْلُ ما بَيْنَ الحَلاَلِ والحرام الدُّفُّ والصَّوْتُ**».

رواه أحمد (٢٥٩/٤)، والترمذي (٩٧١)، والنسائي (١٠٤/٦)، وابن ماجه (١٨٩٦)، والحاكم (١٨٤/٣)، والبيهقي (٢٨٩/٧) بسند حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

إعلان النكاح هو إظهاره ليخالف نكاح السر، ويكون الإعلان بالضرب في الدفوف والأغاني المباحة كما يأتي، وبذلك يذاع ويشاع بين الناس حتى قال بعض الأئمة: إن إعلان النكاح يقوم مقام الإشهاد وهو وجيه.

* * *

الصداق

{٨٠٩} ـ عن أَبي سلمة رحمه الله تعالى قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها: كم كان صداقُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قالت:

كان صداقُه لأَزْوَاجِهِ اثْنَتَيْ عشرةَ أُوقِيَّة ونشاً قالت: أتدري ما النش؟ قال: لا، قالت: نصف أُوقِيَّة، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأزواجه.

رواه مسلم (٩/١١٥).

{٨١٠} ـ وعن أبي العَجْفاء السُّلَميّ رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ألاَ لا تُغَالُوا في صَدُقات النساء، فإنها لو كانت مَكْرُمَة في الدنيا وتقوى عند الله تعالى لكان أولاكم بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ما علمتُ أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نكح شيئاً من نِسائه، ولا أَنْكَحَ شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرةَ أُوقيةٍ.

رواه أحمد رقم (٢٨٥، ٢٧٨، ٣٤٠)، وأبو داود (٢١٠٦)، والترمذي (٩٩٥)، والنسائي وابن ماجه (١٨٨٧)، والحاكم (٢/١٧٥، ١٧٦)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي.

أُوقية ويقال وقية، وهي عندهم أربعون درهماً فِضِيّة، والدرهم ثلاثة كرام، والنش بفتح النون المشدّدة.

وفي الحديثين بيان مقدار صداق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي كان يعطيه لنسائه ويزوج عليه بناته رضي الله تعالى عنهنّ، وهو أوسط الصُّدُقات وخير الهدي هدي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا ينبغي التغالي فيه، وليس من مكارم الأخلاق؛ كما قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وقد يتسبب التغالي في إعراض كثير من الشباب الفقراء عن الزواج وبقاء النساء عوانس، كما هو موجود بكثرة في دول الخليج وبعض الأقطار اللائي يجعل أهلُها الزواج تجارةً... فيجنون على بناتهم...

{٨١١} ـ أما ما ورد عن أُمّ حبيبة رضي الله تعالى عنها أن النجاشي زوّجها من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على صداق أربعة آلاف درهم، وبعث بها إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع شرحبيل بن حَسَنَة.

رواه الحاكم (١٨١/٢)، والبيهقي (٢٣٢/٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، فذلك كان إكراماً من النجاشي وتفضّلاً منه عليها ولا حجّة في فعله. أمّا قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ الآية [النساء: ٢٠]، فهو من باب المبالغة والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو أعلم الناس بكلام الله تعالى وشرعه.

{٨١٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عبدالرحمٰن بن عوف وتزوّج امرأة من الأنصار: «**كَمْ أَصْدَقْتَها**»؟ قال: وزن نواة من ذهب.

رواه البخاري (١١٠/١١، ١٣٩)، ومسلم (٢١٦/٩) ويأتي في الوليمة مطوّلاً.

قوله: كم أصدقتها، أي: كم أعطيتها من الصداق، وقوله: وزن نواة من ذهب يعني: مقدار ما تزنه نواة التمر ونحوها. قال الشافعي رحمه الله تعالى: هي ربع النش، وقد قدمنا أن النش نصف أُوقية فربعه خمسة دراهم، وبهذا جزم أبو عبيد وأبو عوانة وآخرون، كما في الفتح. وفي هذا الحديث دليل على أن الصداق لا حدّ له، وأنه على حسب ما يتراضى عليه الزوجان، فالحق الذي تقتضيه الأدلّة أنه ليس له حدّ، فكل ما تراضيا عليه مما تنتفع به المرأة يصح أن يكون صداقاً بدليل الحديث التالي.

{٨١٣} ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جاءته امرأة، فقالت: إني وهبتُ نفسي لك، فقامت طويلاً، فقال رجل: يا رسول الله زَوِّجْنِيها إن لم يكن لك بها حاجةٌ، فقال: «**هل عندك من شيء تُصْدِقُها**»؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إزارك إن أعطيتَها جلستَ ولا إزار لك، فالتمس شيئاً**»، فقال: ما أجد، قال: «**الْتَمِس ولو خاتماً من حديد**»، قال: فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل معك من القرآن شيء**»؟ قال: نعم سورة كذا

وسورة كذا، سور سمّاها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فقد زوَّجْتُكَهَا بما معك من القرآن**».

رواه البخاري (١١/١١١، ١١٤)، ومسلم (٩/٢١١، ٢١٥)، وأبو داود (٢١١١)، والترمذي (٩٩٤)، والنسائي وابن ماجه (١٨٨٩)، والدارمي (٢٢٠٧)، وابن الجارود (٧١٦)، والبيهقي (٧/٢٤٢، ٢٣٦).

ففي الحديث دليل على جواز إعطاء الصداق من أي شيء كان مما يصح أن ينتفع به، ولو كان مثلاً خاتماً من حديد وهو أدنى ما ينتفع به، وهو ظاهر في أنه لا حدّ لأقل الصداق، وأن كل ما تراضى عليه الزوجان أو من العقدُ إليه بما فيه منفعة، كالسوط والنعل والخاتم، ولو كان أقلّ من قيمة درهم جاز أن يكون صداقاً، وبهذا قال كافّة أهل العلم والأئمّة والفقهاء الأوزاعي والليث والثوري والشافعي وداود وأحمد وابن راهويه، وفقهاء أصحاب الحديث وبعض المالكية. وقال أبو حنيفة: أقلّه عشرة دراهم، وقال مالك: أقلّه ثلاثة إلى خمسة دراهم.

{٨١٤} ـ وجاء في حديث عامر بن ربيعة أن امرأة من بني فزارة تزوّجت على نعلين، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أرَضِيتِ من نفسِكِ ومالكِ بنعلين**»، قالت: نعم، قال: فأجازه.

رواه الترمذي (٩٩٣)، وابن ماجه (١٨٨٨)، والبيهقي (٢/١٦٩)، وحسنه الترمذي وصححه[1]، وخولف في ذلك لوجود عاصم بن عبيدالله في سنده وهو ضعيف، لكنه يستشهد به هنا.

وفي حديث سهل أيضاً صحة التزويج على تعليم بعض سور القرآن، ويكون ذلك أجراً لها، وادّعاء الخصوصية لا دليل عليه، وقد وفّقنا الله تعالى وله الحمد على العمل بهذه السنّة فقد زوجنا رجلين ببنتين على تعليم القرآن منذ زمان، وأنجبا أولاداً وحفدة ولا زالا على قيد الحياة وعمرهما فوق الستين الآن.

---

(١) ووافقه استاذنا أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى في الهداية ج٦/٤٠٥ مع البداية.

هذا، والصداق واجب المرأة يلزم بالدخول بالاتفاق فرضه قبل ذلك أم لا، فهو حق لها بنصّ القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الآية [النساء: ٤]، وقال جلّ وعلا: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية [النساء: ٢٥]، وهو شرط كالولي والإشهاد، فبهذه الثلاثة تحلّ المرأة لمريدها وبها تصحّ الزوجية.

* * *

خطبة النكاح

{٨١٥} ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: علمنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم التشهّد في الصلاة، والتشهّد في الحاجة، قال: التشهّد في الصلاة: «**التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**»، والتشهد في الحاجة إن الحمدلله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: ويقرأ ثلاث آيات: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، و﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٠]. في رواية: قيل لأبي إسحٰق: هذه خطبة النكاح وفي غيرها، قال: في كل حاجة.

رواه أحمد (٤١١٦، ٣٧٢١)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (٩٨٦) بتهذيبي، والنسائي (٦/٧٣)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والدارمي (٢٢٠٨)، وابن الجارود (٦٧٩)، والحاكم (٢/١٨٢، ١٨٣)، والبيهقي (٧/١٤٦) من طرق وسنده صحيح ولا يضرّ من رواه منقطعاً، ورواه بالزيادة الطيالسي (١٥٥٧) بالمنحة.

{٨١٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل خطبة ليس فيها تَشَهُّدٌ فهي كاليد الجَذْمَاءِ**».

رواه أحمد (٣٠٢/٢، ٣٤٣)، وأبو داود (٤٨٤١)، والترمذي (٩٨٧)، وابن حبان (١٩٩٤)، والبيهقي (٢٠٩/٤) بسند صحيح.

التشهد للصلاة تقدم في الصلاة، والتشهّد في الحاجة يعني: به الخطبة في كل حاجة من نكاح، وبيع، وإجارة، ومعاهدة، وكل أمرٍ مهمّ.

فَتُسَنُّ هذه الخطبة بهذه الصيغة ثم يُؤتى عقبها بالمقصود، وقوله: نستعينه أي: نطلب منه العون، ونستغفره أي: نطلب منه غفران ذنوبنا والتقصير في أعمالنا وعبوديتنا، وقوله: من يهده الله أي: من يوفّقه الله بفضله فلا أحد يستطيع إضلاله، ومن يخذله بعدله فلا يمكن لأحد أن يهديه بحال فبيده الأمر كله، وله الملك كلّه لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم. وقوله: كل خطبة ليس فيها تشهّد إلخ، المراد بالتشهّد: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن سيّدنا محمداً عبده ورسوله، والثناء على الله عزّ وجلّ أصدق الشهادات وأعظمها. وقوله: كاليد الجذماء ـ بالذال المعجمة ـ: أي: التي فيها الجذام أو المقطوعة، وهو يدلّ على أن الخطبة أيّاً كانت لا بدّ فيها من التشهّد، وإلا كانت جذماء كما جاء في حديث آخر، وهو قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل أمر ذي بال لا يُبْدَأُ فيه بالحمدلله فهو أقطع أو أجذم**».

رواه أحمد (٣٥٩/٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤)، والنسائي في الكبرى (١٢٧/٦)، وابن حبان (٢/١) مع الإحسان، وهو بهذا اللفظ عن أبي هريرة حسّنه ابن الصلاح والنووي وابن السبكي وغيرهم.

والمقصود أن الخطبة في النكاح سنّة مستحبّة عند الجمهور، أما الظاهرية فأوجبوها.

* * *

الوفاء بشرط النكاح

{٨١٧} ـ عن عُقْبَة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن أحقَّ الشروط أن يُوَفَّى بها ما اسْتَحْلَلْتُمْ بها فُروجُ النساءِ**».

رواه البخاري (١١/١٢٤)، ومسلم (٩/٢٠١)، وأبو داود (٢١٣٩)، والترمذي (١٠١٠)، والنسائي (٦/٧٦)، وابن ماجه (١٩٥٤)، والدارمي (٢٢٠٩)، والبيهقي (٧/٢٤٨).

إن أحق، أي: إن أولى ما يجب به الوفاء الشروطُ التي تشترط عند عقد النكاح من الجانبين، فإذا شرط الزوج شيئاً على الزوجة أو العكس وجب على كلٍّ منهما الوفاء بذلك، وهذا في شرط لا يخالف الشرع. قال النووي رحمه الله تعالى: قال الشافعي وأكثر العلماء: إن هذا محمول على شروط لا تنافي مقتضى النكاح، بل تكون من مقتضياته ومقاصده كاشتراط العشرة بالمعروف، والإنفاق عليها، وكسوتها، وسكناها بالمعروف، وأنه لا يقصر في شيء من حقوقها، ويقسم لها كغيرها، وأنها لا تخرج من بيته إلا بإذنه ولا تنشز عليه، ولا تصوم تطوّعاً بغير إذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولا تتصرّف في متاعه إلاّ برضاه ونحو ذلك. وأما شرط يخالف مقتضاه كشرط أن لا يقسم لها، ولا يتسرّى عليها، ولا ينفق عليها، ولا يسافر بها ونحو ذلك فلا يجب الوفاء به، بل يلغي الشرط، ويصح النكاح بمهر المثل؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل**». وقال أحمد وجماعة: يجب الوفاء بالشرط مطلقاً، وفي هذا نظر.

ونقل الحافظ عن الخطابي قال: الشروط في النكاح مختلفة، فمنها ما يجب الوفاء به اتّفاقاً وهو ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وعليه حمل بعضهم هذا الحديث، ومنها ما لا يوفى به اتّفاقاً كسؤال طلاق أختها، وسيأتي حكمه، ومنها ما اختلف فيه كاشتراط أن لا يتزوّج عليها أو لا يتسرّى أو لا ينقلها من منزلها إلى منزله إلخ.

* * *

من الشروط الباطلة في النكاح

{٨١٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تسأل المرأةُ طلاق أختها لتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَها ولِتَنْكِحَ، فإنما لها ما قُدِّرَ لها**».

رواه البخاري (١١/١٢٦، ١٢٧)، ومسلم (٩/١٩٢، ١٩٣) كلاهما في النكاح.

وفي رواية: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تُنكحَ المرأةُ على عمّتها، أو خالتها، أو أن تسأل المرأة طلاق أختها لتَكْتَفِيءَ ما في صحفَتِها، فإن الله عزّ وجلّ رازقها. رواه مسلم (٩/١٩٣) بهذا السياق.

قوله: طلاق أختها أي: أختها في الإسلام، وقوله: لتستفرغ، هو معنى لتكتفيء، ومعنى الحديث نهى المرأة الأجنبية أن تسأل الزوج طلاق زوجته وأن ينكحها ويصير لها من نفقته ومعروفه ما كان للمطلّقة،فعبّر عن ذلك باستفراغ ما في الصَّحفة.

والحديث ظاهر في بطلان مثل هذا الشرط، وهذا يَحْصُلُ كثيراً من النساء، فيحرم أولاً على المرأة اشتراط ذلك، ويجب ثانياً على الزوج أن لا يجيبها إلى ما طلبت منه. أمّا الجمع بين المرأة وعمّتها والمرأة وخالتها، فقد تقدم ضمن محرّمات النساء.

* * *

الوليّان يزوّجان المرأة

{٨١٩} ـ عن سمرة أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أيّما امرأة زوّجها وليان فهي للأوّل منهما، ومن باع بيعاً من رجلين فهو للأوّل منهما**».

رواه أبو داود (٢٠٨٨)، والترمذي (٩٩١)، والنسائي في الكبرى

(٥٧/٤)، وابن ماجه (٢١٩٠)، والحاكم (١٧٥/٢)، وكذا الدارمي (٢١٩٩) وهو عند بعضهم عن سمرة وعقبة بن عامر.

والحديث رجاله رجال الشيخين، وإنما الخلاف واقع في سماع الحسن من سمرة، وقد قدّمنا أن ابن المديني والبخاري والترمذي كانوا يرون سماعه منه مطلقاً.

والحديث يدلّ على أن المرأة إذا زوّجها وليّان كأخوين لها مثلاً بحيث خطبت منهما معاً على انفراد من رجلين فهي للأول منهما، وهكذا من باع بضاعة لرجلين فهي للمشتري الأول، وبمقتضى الحديث في المسألتين قال عامّة أهل العلم.

❋ ❋ ❋

التوكيل في التزويج ومن لم يُفرض لها صداقٌ

{٨٣٠} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لرجل: «**أترضى أن أُزَوِّجَكَ فلانة**»؟ قال: نعم، وقال للمرأة: «**أترضَيْن أن أزوّجكِ فلاناً**»؟ قالت: نعم، فزوّج أحدهما صاحبه فدخل بها الرجل، ولم يفرض لها صداقاً، ولم يعطها شيئاً، وكان ممن شهد الحديبية، وكان من شهد الحديبية له سهم بخيبر، فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زوّجني فلانة، ولم أفرض لها صداقاً، ولم أُعطها شيئاً، وإني أُشْهِدُكم أني أعطيتُها من صداقها سَهْمِي بخيبر، فأخذت سهماً فباعته بمائة ألف.

رواه أبو داود (٢١١٧) بسند حسن.

{٨٣١} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في رجل تزوّج امرأة، فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها الصداق، فقال لها: الصداق كاملاً وعليها العدّة ولها الميراث، فقال معقل بن سنان: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**قضى به في بَرْوَع بنتِ واشِقٍ**»، ففرح ابن مسعود.

رواه أحمد (٤٠٩٩، ٤١٠٠، ٤٢٧٦)، وأبو داود (٢١١٤، ٢١١٥، ٢١١٦)، والترمذي (١٠٢٧)، والنسائي (٦/٢٩٠)، والدارمي (٢٢٥٢)، وابن ماجه (١٨٩١)، وابن حبان (١٢٦٣، ١٢٦٥) من طرق وأسانيد صحيحة.

والحديثان يدلّان على صحة النكاح قبل فرض الصداق، وأنه يبقى فرضاً في ذمّة الزوج وإن دخل بها، إن رضيت الزوجة، فإن مات قبل الدخول كان لها الصداق كاملاً وترثه وتعتدّ عدة الوفاة كما في حديث ابن مسعود. والحديث الأول فيه دليل على جواز توكيل الزوجين في تزويجهما من شاء الوكيل وله أن يتولّى طرفي العقد لهما؛ كما فعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك والأوزاعي واللّيث وغيرهم رحمهم الله تعالى، وقد جاء عن أُمّ حكيم بنت قارظ أنها قالت لعبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه: إنه قد خطبني غير واحد فزوّجني أيّهُم رأيت، قال: وتجعلين ذلك إليّ؟ قالت: نعم، قال: قد تَزَوّجْتُكِ. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٣٤٦) بسند صحيح، وذكره البخاري في صحيحه معلّقاً مجزوماً به.

* * *

ما يقال لمن تزوّج

{٨٢٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا رفّأ الإنسان إذا تزوّج، قال: «**بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير**».

رواه أبو داود (٢١٣٠)، والترمذي (٩٧٤)، وابن ماجه (١٩٠٥)، وابن حبان (١٢٨٤)، والحاكم (٢/١٨٣)، والبيهقي (٧/١٤٨) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: رفأ ـ بفتح الراء والفاء المشدّدة ثم همزة ـ معناه: دعا له،

وكان من عادات الجاهلية إذا دعوا مع المتزوّج قالوا له: بالرفاء والبنين، ثم نهى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك، وشرع لهم البديل وهو ما في الحديث الشريف.

{٨٢٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى على عبدالرحمٰن بن عوف أثر صفرة، قال: «**ما هذا**»؟ قال: إني تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب، قال: «**بارك الله لك أولم ولو بشاة**».

رواه البخاري (١٢٩/١١)، ومسلم (٢١٦/٩).

قوله: أثر صفرة، يعني: أثر عرس كما في رواية، وذلك يكون بأثر الطيب والرياحين، وفيه كالذي قبله مشروعية الدعاء مع الزوجين بالبركة وخير الجمع.

* * *

متى يستحب الدخول بالزوجة

{٨٢٤} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوّجني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شوال وبنى بي في شوال، وكانت عائشة تستحبّ أن يُبْنَى بنسائها في شوّال.

رواه مسلم (٢٠٩/٩)، والترمذي (٩٧٦) بتهذيبي، والنسائي (٥٨/٦)، والدارمي (٢٢١٧)، والبيهقي (٢٩٠/٧)، زاد مسلم وغيره: فأيُّ نساء رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان أحظى عنده مني.

قوله: تزوّجني، أي: عقد عليّ، وقولها: وبنى بي، أي: دخل بي.

وفيه استحباب التزوّج والبناء في شهر شوّال عملاً بهذا الحديث، قال العلماء: وقصدت عائشة رضي الله تعالى عنها بهذا الكلام ردّ ما كانت الجاهلية عليه من كراهية التزوّج في شوال، وكانوا يتطيّرون بذلك. وكثير من العوام اليوم يَتَجَنَّبُون الزواج في بعض الشهور والأيام كشهر المحرم..

وكل ذلك باطل لا أصل له في الإسلام، بل أيام الله كلها صالحة للزواج عقداً وبناء. أما بالنسبة للبناء والدخول هل يكون ليلاً أم نهاراً؟ الأمر في ذلك واسع، وسيأتي في السيرة النبوية ما يدلّ على أن نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يبني بنسائه نهاراً، وفيه حديث عائشة: فأتتني أُمي فأدخلتني الدار فلم يُرُعْنِي إلا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ضُحَىً... رواه البخاري وغيره.

❊ ❊ ❊

زفاف النساء العروس إلى بيت الزوج

{٨٣٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها زَفَّتْ امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا عائشة، ما كان معكم لهْوٌ، فإن الأنصار يعجبُهم اللَّهْوُ»**.

رواه البخاري (١١/١٣٣).

{٨٣٦} ـ وعنها قالت: تزوّجني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأتتني أمي فأدخلتني الدار، فإذا نِسْوَةٌ من الأنصار، فقلن: على الخيرِ والبركةِ، وعلى خَيْرِ طائِر.

رواه البخاري (١١/١٢٩، ١٣٠).

قوله: زفّت ـ بفتح الزاي والفاء المشدّدة ـ: الزفاف نقل العروس من بيت أبويها إلى بيت زوجها.

في الحديثين بيان أن السنّة في زفّ العروس إلى زوجها أن يكون بواسطة النساء، فهن اللاتي يهيّئنها ويزيّنها ويدخلنها بيتها، وفي الحديث الثاني مشروعية الدعاء مع الزوجة وأهلها بما يناسب الزفاف. أمّا ما ذكر من اللّهو، فسيأتي الكلام عليه.

❊ ❊ ❊

كيف يأتي الرجل زوجته

{٨٢٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته في قُبُلِها من دُبُرِها كان الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

زاد في رواية: «**إن شاء مُجَبِّيَة، وإن شاء غير مُجَبِّيَة، غير أن ذلك في صِمام واحدٍ**».

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٥٧)، ومسلم في النكاح (١٠/٦، ٧)، والترمذي في التفسير (٢٧٨٧)، وأبو داود (٢١٦٣)، وابن ماجه (١٩٢٥) وغيرهم، والرواية الثانية لمسلم.

{٨٢٨} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، يعني: صماماً واحداً.

رواه أحمد (٦/٣٠٥، ٣١٠، ٣١٨)، والترمذي (٢٧٨٨) بسند صحيح على شرط مسلم وحسّنه الترمذي وصححه.

{٨٢٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء عمر رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هلكتُ؟ قال: «**وما أهلكَكَ**»؟ قال: حوَّلتُ رَحْلي، قال: فلم يَرُدَّ عليه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً، فأنزل الله تعالى على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أقْبِل وأدْبِرْ، واتّق الدبر والحيضة.

رواه أحمد (١/٢٩٧)، والترمذي (٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٢)، وابن حبان (٤١٩٠)، والبيهقي (٧/١٩٨) بسند صحيح.

{٨٣٠} ـ وعنه قال: إن ابن عمر والله يغفر له أوهم إنما كان هذا الحيّ من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحيّ من يهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون أن لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم،

وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحيّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحيّ من قريش يَشْرَحُون النساء شرحاً منكراً، ويَتَلَذَّذون منهن مُقْبِلاتٍ، ومُدْبِراتٍ، ومُسْتَلْقِياتٍ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوّج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه، وقالت: إنا كنا نُؤتى على حَرْفٍ، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني حتى شَرِي أمرُهما، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات، يعني بذلك: موضع الولد.

رواه أبو داود (٢١٦٤)، والحاكم (٢/٢٧٩)، وصححه ووافقه الذهبي، ونحوه عن أُمّ سلمة وفيه: وكان المهاجرون يجبون وكانت الأنصار لا تجبي، فأراد رجل من المهاجرين امرأته على ذلك، فأبَتْ عليه حتى تسأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قالت: فأتته فاستحيت أن تسأله، فسألته أمّ سلمة، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٣]، وقال: «**لا، إلا في صمام واحد**»، وقد تقدم مختصراً قبل حديثين.

قوله: كان الولد أحول، يعني: تكون عيناه مائلتين إحداهما لأنفه، والأخرى لصدغه، قوله: مجبية ـ بضم الميم وفتح الجيم وكسر الباء المشددة ـ: أي: على وجهها باركة على ركبتيها، يقال: جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه، أو على الأرض، أو انكبّ على وجهه. وقوله: في صمام واحد، أي: مسلك واحد وهو الفرج، وقوله: حوّلت رحلي يريد أنه واقع زوجته من جهة ظهرها في قبلها، وكنى بالرحل عن الزوجة لأن المجامع يركب المرأة مما يلي وجهها، فإذا ركبها من جهة ظهرها فقد حوّل رحله، وهذا أدب جميل في التعبير من سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه. وقوله: على حرف، أي: على جنب، فقد كانوا يجامعوهن منحرفات على جوانبهنّ، وقوله: يشرحون، يعني: يطئونهن مستلقيات على القفا وعلى وجوههن مستدبرات، وقوله: شري ـ بفتح الشين وكسر الراء ـ: أي: ارتفع وتفاقم شأنهما وما فعلاه.

وأحاديث الباب كلّها تحوم حول نزول قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٣].

وظاهرها أنها نزلت بعدة أسباب، ولا مانع من ذلك، وكلّها تدلّ كالآية على أن للإنسان أن يأتي زوجته على أيِّ حال، وكيف شاء، مستلقية على قفاها كالعادة، أم مستدبرة منبطحة على وجهها على شريطة أن يكون ذلك في مأتى واحد وهو القبل، لأنه موضع الحرث والزراعة التي تأتي بالمنتوج، وهو الولد، ولذلك كنى الله تعالى بالحرث عن المَأْتَى المعتاد. أما الإتيان في غير ذلك، فليس بموضع للحراثة والزراعة ومحصولاتها.

* * *

تحريم إتيان الزوجة من دبرها

{٨٣١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا ينظُرُ الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدُّبُرِ»**.

رواه الترمذي (١٠٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٢٠)، وابن الجارود (٧٢٩)، وابن حبان (٥/١٣٠٢، ١٣٠٣) وسنده صحيح على شرط مسلم، ولولا الضحاك لكان على شرطهما.

ونحوه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه أحمد (٢/٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٢٢، ٣٢٣)، ولا يضرّ وجود الحارث بن مُخَلَّد الذي قيل عنه: إنه مجهول الحال، فقد قيل بصحبته.

{٨٣٢} ـ وعن خزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن إتيان النساء في أدبارهنّ، أو إتيان الرجل امرأته في دبرها، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حلال**»، فلما ولّى الرجلُ دعاه أو أمر به فدُعِي، فقال: «**كيف قلت؟ في أي الخُربتين، أو في أي الخُرزتين، أو في أي الخُصفتين، أم من دبرها في**

قبلها فنعم، أم من دبرها في دبرها فلا، فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهنّ».

رواه النسائي في الكبرى (٥/٣١٦، ٣١٧، ٣١٨) من طرق، والدارمي (٢٢١٩)، وابن ماجه (١٩٢٤)، والطحاوي (٣/٤٣، ٤٤) والسياق له، وابن حبان (١٢٩٩) وسنده صحيح، وقد صححه ابن حزم في المحلى، والحافظ في الفتح وغيرهم.

{٨٣٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من أتى حائضاً أو امرأة في دُبُرِها أو كاهناً فقد كَفَر بما أُنزِلَ على محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم».**

رواه أحمد (٢/٤٠٨، ٤٧٦)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي في الطهارة (١١٩)، والدارمي (١١٤١)، وابن ماجه (٦٣٩)، وابن الجارود (١٠٧)، والبيهقي (٧/١٩٨) ورجاله ثقات، وصححه الحاكم على شرطهما، وقال الذهبي: إسناده قوي وصححه أيضاً العراقي في أماليه، وما قيل من انقطاعه مردود.

{٨٣٤} ـ وعنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ملعونٌ من أتى امرأة في دبرها».**

رواه أحمد (٢/٤٤٤، ٤٧٩)، وأبو داود (٢١٦٢)، والطبراني في الأوسط (٤٧٥١)، وفي الباب أحاديث كثيرة من طرق متعدّدة فيها الصحيح والحسن والجيّد والضعيف.

قوله: لا ينظر الله إلخ، يعني: نظر رحمة إنْ مات غير تائب، وقوله: أتى رجلاً أو امرأة، أي: فعل بهما اللّواط. وقوله: الخربتين ـ الخرزتين ـ: الخصفتين وجميعها بضمّ أولها ومعناها واحد، أي: الثقبتين، وهما الفرج، والدبر. وقوله: فقد كفر بما أنزل إلخ، قال الترمذي: وإنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ، وقوله: ملعونٌ إلخ، أي: مبعد عن منازل الأبرار؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد.

وهذه الأحاديث مع ما سبق قبلها كلّها تدلّ على تحريم إتيان النساء في الأدبار، ولو كنّ زوجات وقد جاءت هذه الأحاديث بدلالات مختلفة، ففيها اللعنة والكفر والأمر النبوي والتنصيص على أن ذلك يكون في مسلك واحد... مع قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾، ومع ذلك اختلف العلماء فيه فأجازه محمد بن كعب القرظي، وسعيد بن يسار، ومحمد بن المنكدر، وابن أبي مليكة، وصحّ ذلك عن مالك. قال ابن العربي في أحكام القرآن: جوّزته طائفة كثيرة، وقد جمع ذلك ابن شعبان في كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن، وأسند جوازه إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين، وإلى مالك من روايات كثيرة إلخ. وكان الشافعي رحمه الله تعالى يقول بإباحته وأنه القياس، ثم رجع فحرّمه، نقله غير واحد من أتباعه عنه.

واستدلّ من أباحه بما في صحيح البخاري عن ابن عمر أن قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ إلخ [البقرة: ٢٢٣]، نزلت في إتيان النساء في أدبارهنّ، كذا جاء مبيّناً عند ابن جرير في تفسيره من طرق صحيحة، وأورده الحافظ في الفتح وقال: ...من طرق ثابتة. وقال ابن عبد البرّ: الرواية عن ابن عمر بهذا المعنى صحيحة معروفة عنه مشهورة، ثم صحّ عنه خلاف ذلك، فعن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر: إنا نشتري الجواري فنحمض لهن، قال: وما التحميض؟ قال: نأتيهنّ في أدبارهنّ، قال ابن عمر: أفّ أفّ أفّ، أوَيعمل هذا مسلم؟ رواه ابن حزم في المحلى (٦٩/١٠) من طريق النسائي في الكبرى (٣١٥/٥) بسند صحيح. قال العلماء: هذا يدلّ على أن ما ورد عنه من الإباحة خطأ عليه، والله تعالى أعلم. وقد عرفت ما قال ابن عبدالبرّ والحافظ. والحقّ الذي لا ريب فيه إن شاء الله هو التحريم لظاهر القرآن وللأحاديث الكثيرة التي تمنع ذلك، وقد جاء عند النسائي في الكبرى (٣١٩/٥) عن ابن عمر مرفوعاً: «**تلك اللوطية الصغرى**». قال النووي في شرح مسلم (٦/١٠): واتّفق العلماء الذين يعتدّ بهم على تحريم وطىء المرأة في دبرها حائضاً كانت أو طاهراً لأحاديث كثيرة مشهورة، قال: قال أصحابنا: لا يحلّ الوطىء في الدبر في شيء من الآدميين ولا غيرهم من الحيوان في حالٍ من الأحوال.

وقال ابن حزم في المحلى (٦٩/١٠): ولا يحل الوطىء في الدبر أصلاً لا في امرأة ولا في غيرها. أمّا ما عدا النساء، فإجماع متيقّن، وأما في النساء ففيه اختلاف اختلف فيه عن ابن عمر وعن نافع ثم ذكر ذلك، وفنده ثم قال: وقد جاء تحريم ذلك عن أبي هريرة، وعليّ بن أبي طالب، وأبي الدرداء، وابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وأبي سلمة بن عبدالرحمٰن، وطاوس، ومجاهد، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وسفيان الثوري، قال: وما رأيت إباحة ذلك عن أحد إلاّ عن ابن عمر وحده باختلاف عنه، وعن نافع باختلاف عنه، وعن مالك باختلاف عنه فقط. قلت: وبالتحريم يقول أحمد وداود وأصحاب مالك وأهل الحديث. وقد نقل ابن كثير في تفسيره الإجماع على تحريمه، قال: إلا قولاً شاذّاً لبعض السلف... وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: وقد تيقنا بطرق لا محيد عنها نهي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أدبار النساء وجزمنا بتحريمه...

* * *

تحريم إتيان الزوجة حالة الحيض

{٨٣٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم النبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اصنَعُوا كلَّ شيء إلا النكاح**».

رواه أحمد (١٣٣/٣، ٢٤٧)، ومسلم في الطهارة (٢١١/٣، ٢١٢)، وأبو داود (٢٥٨)، والترمذي في التفسير (٢٧٨٦)، والدارمي (١٠٥٨)، والنسائي (١٥٣/١)، وابن ماجه (٦٤٤) وغيرهم.

لا خلاف في تحريم إتيان الحائض حال حيضها لنصّ القرآن الكريم،

ولقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»، فللإنسان أن يجالس زوجته الحائض ويؤاكلها وينام معها في فراشٍ واحد ويعانقها ويقبّلها ويتمتّع بها في غير الدبر ومحل الحيض، وقد تقدم في حديث ابن عباس: واتّق الدُّبُر والحيضة، وقد تقدمت أحكام الحيض في الطهارة، فليرجع إليها.

* * *

يستحب الوضوء لمن أراد المعاودة

{٨٣٦} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا أتى أحدُكم أهلَه ثم أراد أن يعود فليتوضّأ بينهما وُضوءاً فإنه أنشط في العودة**».

رواه أحمد (٣/٢٨)، ومسلم (٣/٢١٧)، وأبو داود (٢٢٠)، والترمذي (١٢٤)، والنسائي (١/١١٧)، وابن ماجه (٥٨٧)، وفي الحديث استحباب الوضوء عند إرادة العودة، وهو قول عامّة العلماء، وقال الظاهرية بوجوبه.

* * *

سنية الوضوء أو التيمم لمن أراد النوم

{٨٣٧} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر قال: يا رسول الله أيَرْقُد أحدُنا وهو جُنُبٌ؟ قال: «**نعم، إذا توضأ**»، وفي رواية: «**توضأ واغسل ذكرك**»، وفي أخرى: «**ليتوضأ ثم لينم حتى يغتسل إذا شاء**».

رواه البخاري (١/٤٠٨، ٤٠٩)، ومسلم (٣/٢١٦)، وأبو داود (٢٢١)، والترمذي (١٠٥)، والنسائي (١/١١٥).

فالحديث يدلّ على سنّية الوضوء للجنب إذا أراد النوم، وليس ذلك بواجب؛ لقوله: إذا شاء، مع حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: كان

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينام وهو جنب لا يَمَسُّ ماء، رواه أبو داود والترمذي وهو حديث صحيح كما قدمنا ذلك مع أحاديث أخرى في كتاب الطهارة.

{٨٣٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أجنب فأرادَ أن ينام توضأ أو تيمّم.

رواه البيهقي (١/٢٠٠) قال الحافظ في الفتح: إسناده حسن، ورواه ابن أبي شيبة (٦٧٦) عنها موقوفاً بسند صحيح، ورواه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٤٩) بلفظ: كان إذا واقع بعضَ أهله فكَسِل أن يقومَ ضرَب يده على الحائِط، فتيمّم ولا يضرّ إسماعيل بن عياش في سنده لوجود متابعة عثمان بن علي عليه عن هشام... فالحديث على أي حال ثابت عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهي رخصة عظيمة يحتاج إليها المتكاسلون وخاصة أيام البرد.

* * *

جواز نظر كل من الزوجين لفرج الآخر

{٨٣٩} ـ عن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نَذَر؟ قال: **«احفَظْ عورَتَك إلا من زَوْجَتِك أو ما ملكت يَمينُك»**، قال: قلت: يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: **«إن استطعتَ أن لا يَرينَّها أحدٌ فلا يَرَيَنَّها»**، قال: قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: **«الله أحقُّ أن يُسْتَحيى منه من الناس»**.

رواه أحمد (٥/٣، ٤)، وأبو داود في الحمام (٤٠١٧)، والترمذي في الآداب (٢٥٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/٣١٣)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/١٨٠)، والبيهقي (١/١٩٩ ج ٢/٢٢٥ ج٧/٩٤)، وسنده حسن وصححه الحاكم وذكره البخاري في الطهارة معلّقاً.

فالحديث نصّ في جواز كشف العورة للزوجة والأَمَة وأن لهما النظر إليها، وهكذا العكس، وهو كشفهما له ونظره إليهما، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، فإن كلاً من الرجل والزوجة متعة للآخر بالمباشرة والتقبيل والمعانقة والشمّ والمصّ والنظر إلى جميع الجسم، ثم المتعة الكبرى المواقعة... هذا وما ورد من أن النظر إلى فرج المرأة يورث العمى، فموضوع باتّفاق، وكذا حديث عائشة: ما رأيت عورة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قط، وهو باطل في سنده كذاب وضاع. وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: فالله أحق أن يستحيا منه هو يدلّ على أن الأفضل والأكمل أن يكون المسلم دائم التستّر، وأن لا يكشف سوأتيه، ولو كان خالياً فإن الله شاهد عليه وناظر إليه... وقد قدمنا شيئاً من هذا في الطهارة.

* * *

حكم العزل عند الجماع

{٨٤٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا نعزل على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبلغ ذلك نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلم ينهنا.

وفي رواية: كنا نعزل والقرآن ينزل، لو كان شيئاً ينهى عنه لنهانا عنه القرآن.

رواه البخاري (٢١٧/١١)، ومسلم (١٤/١٠)، والترمذي (١٠١٩) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٤٤/٥)، وابن ماجه (١٩٢٧)، والبيهقي (٢٢٨/٧) واللفظ في الروايتين لمسلم.

{٨٤١} ـ وعن جابر أيضاً أن رجلاً أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن لي جاريةً هي خادِمُنا وسانِيَتُنا، وأنا أطوفُ عليها وأنا أكره أن تحمل، فقال: «**اعزل عنها إن شئتَ، فإنه سيأتيها ما قدّر لها**»،

فلبث الرجل ثم أتاه، فقال: إن الجارية قد حبلت، فقال: **«قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدّر لها»**.

رواه أحمد (٣/٣١٢، ٣٨٦)، ومسلم (١٠/١٣)، وأبو داود (٢١٧٣)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٤٥)، والبيهقي (٧/٢٢٩).

{٨٤٣} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن لي وليدةً وأنا أعزل عنها، وأنا أريد ما يريدُ الرجل، وأن اليهود زعموا أن الموءودة الصغرى العزل، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كذبتْ يهودُ لو أراد الله أن يخلُقَه لم تستطع أن تَصْرفه»**.

رواه أبو داود (٢١٧١)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢)، وأحمد (٣/٣٣، ٥١، ٥٣)، والبيهقي (٧/٣٣٠) وسنده صحيح، ورواه الترمذي (١٠١٨) من حديث جابر بسند صحيح.

{٨٤٤} ـ وعنه أيضاً قال: ذكر العزل عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«ولِمَ يفعلُ ذلك أحدُكم»** ولم يقل: فلا يفعلْ ذلك أحدُكم، **«فإنه ليست نفسٌ مخلوقة إلا الله خالقها»**.

وفي رواية: **«وإنكم لتفعلون، وإنكم لتفعلون، وإنكم لتفعلون، ما من نَسَمة كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا هي كائنة»**.

رواه البخاري (١١/٢١٨، ٢١٩)، ومسلم (١٠/١٠) بالرواية الأخيرة، ورواه مسلم (١٠/١٢)، والترمذي (١٠٢٠)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٤٤)، وفي المجتبى (٦/٨٩)، وأبو داود (٢١٧٠)، وابن ماجه (١٩٢٦)، والدارمي (٢٢٢٩)، والبيهقي (٧/٢٢٩).

{٨٤٤} ـ وعن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة رضي الله تعالى عنهم قالت: حضرت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أُناس وهو يقول: **«لقد هممْتُ أن أنهى عن الغِيلة»**، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يُغِيلون أولادَهم، فلا يضر أولادَهم ذلك شيئاً، ثم سألوه

عن العزل، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ذلك الوأد الخفي**».

رواه أحمد (٣٦١/٦، ٤٣٤)، ومسلم (١٧/١٠)، والبيهقي (٢٣١/٧).

{٨٤٥} ـ وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني أعزل عن امرأتي، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لِمَ تفعل ذلك**»؟ فقال الرجل: أشفق على ولدها أو على أولادها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو كان ذلك ضاراً ضرَّ فارس والروم**»، وفي رواية: «**إن كان لذلك فلا، ما ضار ذلك فارس ولا الروم**».

رواه مسلم (١٧/١٠، ١٨).

قوله: كنا نعزل، العزل: هو أن يجامع فإذا قارب الإنزال وخروج الماء نزع وأنزل خارج الفرج، وقوله: وسانيتنا، أي: تسقي لنا النخل عوض البعير، قوله: وإني أطوف عليها، أي: أجامعها. وقوله: وليدة أي: جارية أمَة، وقوله: الموءودة الأصل فيها هي دفن البنت أو غيرها حيّة على عادات الجاهلية، وقوله: نسمة ـ بفتحات ـ: كل ما فيه روح، وقوله: الغيلة ـ بكسر الغين ـ: ويقال له: الغيل ـ بفتح الغين وسكون الياء ـ: والغيال ـ بكسر الغين ـ: والمراد به جماع المرأة، وهي مرضع كما ذكره مالك في الموطأ والأصمعي وغيرهما من أهل اللغة، وقال آخرون: هو أن ترضع المرأة وهي حامل، وقوله: يغيلون ـ بضم الياء ـ: من أغال، وقوله: ذلك الوأد الخفي، قال العلماء: هذا جاء على طريق التشبيه لأنه قطع طريق الولادة قبل مجيئه فأشبه قتل الولد بعد مجيئه.

وأقول: أحاديث الفصل تكلّمت على العزل، فالأحاديث الثلاثة الأولى تقتضي إباحته، ولا سيما حديث جابر الثاني: «**اعزل عنها إن شئت**»، ففيه الإذن صريحاً وهو في صحيح مسلم، وفي حديث أبي سعيد تكذيبه اليهود في قولهم: إنه الموءودة الصغرى. أما الحديث الرابع فليس فيه إلا استفهامه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الصحابة عن سبب فعلهم ذلك، ولم ينههم

دليل على جواز أخذ الأُمور التجريبية من الكفار، كمسائل الطب مثلاً والصناعات وما إليها مما فيه مصالح لا تمسّ ديننا ولا تؤثر على أخلاقنا ولا على شخصيّتنا، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

ما يقول الرجل إذا دخل بأهله

{٨٤٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا تزوّج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليقُل: اللّهمّ إني أسألك خيرَها، وخَير ما جَبَلْتَها عليه، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما جَبَلْتَها عليه، وإذا اشترى بعيراً فليأخُذْ بذِرْوَةِ سَنامِهِ وليقل مثل ذلك**»، وفي رواية: «**فليأخذ بناصِيَتِها ولْيَدْعُ بالبركة في المرأة والخادم**».

رواه أبو داود (٢١٦٠)، وابن ماجه (١٩١٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤/٦)، والحاكم (١٨٥/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقوله: ذِروة ـ بكسر الذال وضمّها ـ: أي: أعلى سنام البعير وهي كرته، وقوله: ما جبلتها، أي: ما طبعتها عليه، وقوله: بناصيتها، الناصية: مقدم الرأس.

في الحديث مشروعية ذكر هذا الدعاء عند الدخول على الزوجة ولقائها في البيت لأول مرة، فمن قال ذلك كان خيراً له إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ما يقول إذا أراد مواقعة أهله

{٨٤٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو أنَّ أحدَكُم إذا أراد أن يأتي أهله، فقال**

باسم الله اللّهمّ جَنِّبْنَا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطانَ ما رَزَقْتَنَا، فإنه إنْ يُقَدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّه شيطانٌ أبداً»، وفي رواية: «ولم يُسَلَّطْ عليه».

رواه البخاري في الوضوء رقم (١٤١)، وفي التوحيد (٧٣٩٦)، وفي النكاح (١١/١٣٥، ١٣٦)، ومسلم (١٠/٥)، وأبو داود (٢١٦١)، والترمذي (٩٧٥)، وابن ماجه (١٩١٩) كلّهم في النكاح.

قوله: جنّبنا أي: أبعد عنّا، وفي الحديث دليل على أن من لم يسمّ الله تعالى عند وقاعه زوجته يكون للشيطان نصيبٌ من عمله ذلك، فيكون ما يُرزقُ من ولد من تلك النُّطفةِ فيه حظٌّ ونصيب من الشيطان، فيُسلَّطُ عليه. وقوله: فإن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه إلخ، ليس على عمومه بحيث يكون معصوماً من المعاصي، بل المراد أنه لا يضرّه بفتنة في دينه حتى يكفر، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

الوليمة في العرس
الوليمة بالشاة

{٨٤٨} ـ عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن عبدالرحمٰن بن عوف جاء إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبه أثَرُ صُفرةٍ، فسأله رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره أنه تزوّج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «كم سُقْتَ إليها»؟ قال: زِنَة نواة من ذهب، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أولم ولو بشاة».

وفي رواية: رأى على عبدالرحمٰن وضراً من صفرة، فقال: «مهيم» إلخ، وفي رواية «بارك الله لك».

رواه أحمد (٣/١٦٥، ١٩٠، ٢٠٥، ٢٧١)، والبخاري (١١/١٢٨)، ومسلم (٩/٢١٦، ٢١٨)، وأبو داود (٢١٠٩)، والترمذي (٩٧٧) بتهذيبي،

والنسائي (١٠٥/٦)، وابن ماجه (١٩٠٧)، والدارمي (٢٢١٠)، وابن الجارود (٧١٥، ٧٢٦)، والبيهقي (٢٥٨/٧)، وكذا مالك في الموطأ (١١٨٤) ومن طريقه الشافعي.

قوله: وضراً ـ بفتحات ـ: أي: لطخاً من صفرة أي: طيب، ويكون الوضر من الصفرة والحمرة والطيب، وقوله: مهيم ـ بفتح الميم والياء بينهما هاء ساكنة ـ: أي: ما شأنك، وما هذا الذي أرى عليك، وهي كلمة يمانية.

{٨٤٩} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما أولم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على شيء من نسائه ما أولم على زينب، أولم بشاةٍ.

وفي رواية: أولم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين ابتنى بزينب بنت جَحْشٍ فأشبعَ المسلمين خُبْزاً ولحماً.

رواه البخاري (١٤٢/١١)، ومسلم (١٢٩/٩) بالرواية الأولى، ورواه البخاري (١٤٦/١١) وأحمد (١٠٥/٣، ٢٠٠، ٢٤٦، ٢٦٣) بالثانية، وهو في مسلم أيضاً بلفظ: أطعمَهُم خُبزاً ولَحماً حتى تَرَكُوه، ويأتي حديث تزوّجه بزينب ونزول الحجاب في السيرة النبوية.

وفي الحديثين مشروعية الوليمة في العرس، وهي عبارة عن صنع طعام واستدعاء الناس إليه، وفي الغالب تطلق على طعام العرس، وقد تطلق على طعام العقيقة، والختان، وغير ذلك.

وشرعت شكراً لله تعالى وإظهاراً للنكاح وفرحاً بما أعطى الله لصاحبها من زوجة، وهي سنّة مستحبة عند الجمهور. وقال ابن حزم بوجوبها على قاعدته في أن الأمر يدلّ على الوجوب مطلقاً، وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أولم ولو بشاة».

وقوله: ولو بشاة، يدلّ على التوسع فيها بنحر أو ذبح جزور مثلاً أو ثور، فأكثر إذا لم يقصد بذلك تفاخر، ولم يكن فيه إسراف وإلا كان محرماً. وفي قول أنس: ما أولم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على

شيء من نسائه ما أوْلَمَ على زينب، خصّصها بذلك وفضّلها على سائر نسائه بالتوسعة في الوليمة شكراً لنعمة الله تعالى عليه حيث إن الله عزّ وجلّ زوّجه إياها بوحي منه بلا ولي ولا شهود، وذلك من خصائصه وسيأتي بقية لهذا في السيرة النبوية.

وفي حديث أنس الأول مشروعية استعمال الطيب ممزوجاً بالزعفران، وأنه رخص فيه للعروس مع ورود النهي عنه، أو كان ذلك قبل النهي. ثم إن الوليمة تكون عند العقد وقبل الدخول وبعده، والأمر في ذلك واسع غير أن في حديث زواجه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بزينب رضي الله تعالى عنها أنه أولم بعد بنائه بها كما يأتي.

* * *

الوليمة بما تيسر

{٨٥٠} ـ عن صفيّة بنت شيبة رضي الله تعالى عنها قالت: أولم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على بعض نسائه بمدّين من شعير.

رواه البخاري (١١/١٤٨).

{٨٥١} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أولم على صفية بنت حيّ بسويق وتمر.

رواه أبو داود (٣٧٤٤)، والترمذي (٩٧٨)، وابن ماجه (١٩١٩)، وابن الجارود (٧٣٧)، والبيهقي (٧/١٥٩) بسند صحيح.

{٨٥٢} ـ وعنه قال: أقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين خيبر والمدينة ثلاثاً يُبْنَى عليه بصفية بنت حُيَيّ، قال: فدعوت المسلمين إلى وليمته، فما كان فيها من خبز ولا لحم، أمَر بالأنطاع فأُلْقِيَ عليها من التمر والأَقِطِ والسَّمْنِ، فكانت تلك وليمته...

رواه البخاري في الجهاد وفي النكاح (١١/١٣١)، وعند مسلم (٩/٢٢٢، ٢٢٤) حتى إذا كان بالطريق جهَّزَتْها له أمُّ سُلَيْم فأهدَتْها له من

الليل، فأصبح النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عَرُوساً فقال: «**من كان عنده شيء فَلْيَجِئ به**»، قال: وبسط نِطَعاً قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسُوا حَيْساً، فكانت وليمة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. وفي رواية: وجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وليمتها التمر والأقط والسمن.

قوله: بسويق: هو دقيق الشعير المقلي، والنِّطَع ـ بكسر النون وفتح الطاء ـ: وفيه لغات أُخر هو جلد الأديم من الإبل أو البقر.

وفي هذه الأحاديث مشروعية الوليمة بأي طعام كان، ولا يشترط لها الذبيحة، بل يكفي فيها أي طعام تيسّر، ولا يجوز فيها التكلّف، بله التفاخر والمباهاة كما هو الشائع بين الناس اليوم.

* * *

وجوب إجابة الدعوة

{٨٥٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا دُعِيَ أَحَدُكُم إلى الوَلِيمة فَلْيَأْتِها**»، وفي رواية: «**إيتُوا الدَّعْوة إذا دُعِيتُم**»، وفي أخرى: «**فليجب عرساً كان أو نحوه**».

رواه البخاري (١١/١٥٠)، ومسلم (٩/٢٣٣، ٢٣٥)، وأبو داود (٣٧٣٦)، والترمذي (٩٨٠)، وابن ماجه (١٩١٤)، والدارمي (٢٢١١)، والبيهقي (٧/٢٧٢).

{٨٥٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا دُعِيَ أحدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فإنْ كان صائِماً فليُصَلِّ، وإن كان مُفْطِراً فَلْيَطْعَمْ**»، وفي رواية: «**إذا دُعِيَ أحدُكم إلى الطعام وهو صائم فليقل: إني صائم**».

رواه أحمد (٤٨٩/٢)، ومسلم (٢٣٦/٩)، وأبو داود في الصيام (٢٤٦١، ٢٤٦٠) وغيرهم.

{٨٥٥} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم»**.

رواه البخاري (١٥٤/١١)، ومسلم (٢٣٦/٩، ٢٣٧).

سبق أن بيَّنَّا أن الوليمة في الغالب تطلق على طعام العرس. أما الدعوة، فهي أعمّ منها. وقد ذكر العلماء أن الولائم ثمانية أنواع، وهي: الختان، والعقيقة، والخرس ـ بضم الخاء ـ: عند نجاة النفساء من نفاسها، وعند قدوم المسافر، وعند تجدد السكن، وعند نزول المصيبة، والمأدُبة ـ بدال مضمومة ـ: لما يتّخذ بلا سبب، ووليمة الدخول وهو العرس.

وفيما أوردناه من الأحاديث دليل لمن يقول بوجوب إجابة الدعوة لوليمة عرس ونحوه. قال الحافظ: وقد نقل ابن عبدالبرّ ثم عياض ثم النووي الاتفاق على القول بوجوب الإجابة لوليمة العرس، قال: وفيه نظر. نعم المشهور من أقوال العلماء الوجوب، وصرّح جمهور الشافعية والحنابلة بأنها فرض عين، ونصّ عليه مالك إلى آخر ما نقل من المذاهب، والظاهر من الأدلّة والأوامر الواردة وجوب الإجابة، وخاصة وليمة العرس، فمن تخلّف بلا عذر فقد عصى الله ورسوله كما هو صريح الحديث.

وقوله: فإن كان صائماً فليصلّ إلخ، أي: ليدع مع ربّ الطعام بالبركة والخير، وإن كان مفطراً فليطعم، وفي رواية عن جابر عند مسلم وغيره: فإن شاء طعم وإن شاء ترك، وهو يدلّ على أن تناول الطعام والأكل منه ليس بواجب، وإنما الواجب هو الحضور لإيناس الداعي وإدخال السرور عليه وإكرامه. غير أن لإجابة الدعوة توفُّر شروط، وهي: أن لا يكون الداعي ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً... وأن لا يكون المال حراماً، وأن لا يكون فيه اختلاط النساء بالرجال، وأن لا توجد فيه مناكر لا يقدر على تغييرها كوجود الملاهي المحرّمة والصور المعلّقة، وأن لا يكون هناك مَن

يتأذى به، وأن لا يكون له عذر، ومن الأعذار تضييع الوظائف الدينية وانخرام نظام الوقت إذا حضر، وخاصة مع السهر، وأن لا يكون الطعام جعل مباهاة ومفاخرة ومراءاة لورود النهي عن ذلك.

من رأى منكراً فرجع عن الدعوة

{٨٥٦} ـ وعن سفينة أبي عبدالرحمٰن أن رجلاً أضاف عليّ بن أبي طالب فصنع له طعاماً، فقالت فاطمة عليها السلام: لو دعونا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأكل معنا، فدعوه فجاء فوضع يده على عِضَادَتَي الباب، فرأى القِرام قد ضُرِبَ به في ناحية البيت، فرجع فقالت فاطمة لِعَلِيٍّ عليهما السلام: الحَقْه فانظر ما رجعه، فتبعتُه فقلت: يا رسول الله ما ردّك؟ فقال: «**إنه ليس لي أو لنبيّ أن يَدخُل بيتاً مُزَوَّقاً**».

رواه أبو داود (٣٧٥٥)، وابن ماجه (٣٣٦٠) بسند حسن أو أعلى.

قوله: القرام ـ بكسر القاف ـ: هو الستر الرقيق المزخرف للزينة.

في الحديث التأخّر عن الإجابة إذا كان في منزل الداعي ما يكره، فهذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجع بعد الدعوة ولم يدخل لأنه رأى في البيت ما لا ينبغي أن يتّخذ، وقد قدمنا في اللباس والزينة تأخّره عن الدخول إلى بيته وغضبه على عائشة رضي الله تعالى عنها عندما شاهد الصور في الستر والقرام.

{٨٥٧} ـ وعن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه أن رجلاً صنع له طعاماً فدعاه، فقال: أفي البيت صورة؟ قال: نعم، فأبى أن يدخل حتى تكسر الصورة.

علّقه البخاري (١١/١٥٨)، ورواه البيهقي (٧/٢٦٨) بسند صحيح، وفي نسخة عند البخاري عن ابن مسعود، قال الحافظ: وهو تصحيف.

{٨٥٨} ـ وعن سالم بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: أعرست في عهد أبي، فآذن أبي الناس، وكان أبو أيوب فيمن آذنّا، وقد ستروا بيتاً بنجاد أخضر، فأقبل أبو أيوب فرآني قائماً واطّلع فرأى البيت مستتراً بنجاد

أخضر، فقال: يا عبدالله أتسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيا: غلبنا عليه النساء يا أبا أيوب، فقال: من خشيت أن تغلِبَه النساء فلم أكن أخْشَى عليك، والله لا أطْعَمُ لك طعاماً، فَرَجَعَ.

علّقه البخاري أيضاً (١١/١٥٨)، ورواه بلفظه البيهقي (٧/٢٧٢) وسنده صحيح.

وفي الأثرين ما في الحديث السابق من كراهية الدخول لدار الدعوة إذا كان فيها ما يكره... قال ابن بطال: فيه أنه لا يجوز الدخول في الدعوة يكون فيها منكر مما نهى الله تعالى ورسوله عنه، لما في ذلك من إظهار الرّضا به، وذكر العلماء في هذا أنه إن كان هناك محرّم وقدر على إزالته فأزاله فلا بأس، وإن لم يقدر فليرجع، وإن كان مما يكره كراهة تنزيه، فالورع عدم الحضور، ويؤيّد هذا اختلاف الصحابة في دخول البيت الذي سترت جدره، فلو كان حراماً ما قعد الذين قعدوا ولا فعله ابن عمر، وقد يحتمل أن يكون أبو أيوب وغيره يرون التحريم، والذين لم ينكروا يرون الإباحة.

وأما حكم ستر البيوت والجدران، ففيه اختلاف قديم فحرّمه بعضهم، وأجازه آخرون وقد قدمنا بعض هذا في اللّباس.

* * *

إتيان الوليمة بلا استدعاء مثل الطفيليين

{٨٥٩} ـ عن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل يقال له أبو شعيب إلى غلام له لحام، فقال: اصْنَع لي طعاماً يكفي خمسةً، فإني رأيت في وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الجوعَ، فصنع طعاماً ثم أرسل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فدعاه وجلساءَهُ الذين معه، فلما قام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اتّبعهم رجلٌ لم يكن معهم حين دعوا، فلما انتهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم إلى الباب، قال لصاحب المنزل: «**إنه اتَّبَعَنا رجلٌ لم يكن معنا حينَ دَعَوْتَنا، فإن أذنتَ له دخلَ**»، فقال: أذنّا له، فليدخل.

رواه البخاري في المظالم وفي الأطعمة (١١/٥١٧، ٤٩١)، ومسلم فيه (١٣/٢٠٨)، والترمذي (٩٨١) بتهذيبي، والبيهقي (٧/٢٦٥) كلاهما في النكاح.

وقوله: غلام له لحام، أي: جزار يبيع اللَّحم.

{٨٦٠} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن جاراً لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فارسياً كان طيِّبَ المَرَق، فصنع لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم جاء يدعوه، فقال: «**وهذه لعائشة**»، فقال: لا، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا**»، فعاد يدعوه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وهذه**»، قال: لا، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا**»، ثم عاد يدعوه فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وهذه**»، قال: نعم، في الثالثة فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.

رواه مسلم في الأطعمة (١٣/٢٠٩، ٢١٠).

قوله: فقاما يتدافعان، يعني: كل واحد منهما يمشي في أثر الآخر.

وفي الحديثين مشروعية استئذان الداعي في دخول من جاء بدون استدعاء بحيث تبع المدعوّين، وأن له أن يأذن له، وأن يردّه، لكن ردَّه ليس من مكارم الأخلاق، وقد كان أبو شعيب صاحب الغلام اللحام كريماً حسن الخلق، حيث أذن للرجل التابع ولم يردّه كما فعل الجار الفارسي، فإنه لم يعامل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حبيبته عائشة بما كان يستحقّه مقامه العظيم، وقد يكون له عذر في ذلك ونيّة صالحة، فالله تعالى أعلم.

وقد أخذ العلماء من الحديث الأول جواز التطفل، لكن قيّدوا ذلك بمن احتاج إلى ذلك، وما أكثر هذا الصنف في كل عصر حتى ذكروا عنهم

نوادر وغرائب في ذلك، وللخطيب البغدادي جزء في أخبار الطفيليّين ذكر فيه فوائد، وعلى أي حال فلا يجوز لأحد أن يحضر وليمة ولا دعوة إلا بإذن ربّ المنزل، كما لا يجوز للمدعوّ أن يصحب معه شخصاً إلا مع إذن الداعي، وإلا كان الطفيلي آكلاً للحرام...

❋ ❋ ❋

شرّ الطعام طعام الوليمة

{٨٦١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**شرُّ الطعام طعامُ الوليمة، يُمنعُها من يأتِيهَا، ويُدْعَى إليها مَن يَأْبَاهَا**».

وفي رواية: «**شرُّ الطعام طعام الوليمة يُدعَى إليها الأغنياء، ويُتركُ الفقراءُ**».

رواه مسلم بالرواية الأولى مرفوعاً (٩/٢٣٧)، ورواه البخاري (١١/١٥٤)، ومسلم (٩/٢٣٦، ٢٣٩) موقوفاً.

قوله: شرّ الطعام، في رواية: بئس الطعام.

والحديث يدلّ على أن الوليمة إذا كانت لا يدعى إليها إلاّ الأغنياء كان طعامها شرّ الأطعمة، لأن ذلك من عادات الجاهلية والمتكبّرين وأهل الرياء والتفاخر، فالطعام إنما يحتاجه الفقراء ولا سيما اللّحم... فإنهم قلما يأكلونه فينبغي إيثارهم بخلاف الأغنياء، فإنّهم يَشِمُونَ من أكلها، فينبغي للداعي إلى الوليمة أن لا يفرّق بين الغنّي والفقير.

❋ ❋ ❋

النهي عن أكل طعام المتباريين

{٨٦٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«نهى عن طعام المُتَبَارِيَيْن أن يُؤكَل»**.

رواه أبو داود (٣٧٥٤) وسنده صحيح وصححوا إرساله، لكنه جاء متّصلاً من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه البيهقي في شعب الإيمان (ج ١٢٩/٥)، وعزاه المناوي أيضاً إلى ابن لال والديلمي.

المتباريان قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: يعني: المتعارضين بالضيافة فخراً أو رياء، فهو مأخوذ من المباراة، وهي المعارضة والإتيان بمثل الغير المعارَض.

والحديث يدلّ على تحريم أكل طعام أهل المباهاة والمفاخرة والمراءاة كما هي عادة الأثرياء والشخصيات، ولهذا دعي بعض العلماء لوليمة، فلم يجب فعُوتب في ذلك، وقيل له: كان السلف يجيبون قال: كانوا يَدْعُون للمؤاخاة والمؤاساة وأنتم تَدْعُون للمباهاة والمكافاة... فلينظر المؤمن أي طعام يُدْعَى إليه.

* * *

الغناء واللّهو في العرس

{٨٦٣} ـ عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ رضي الله تعالى عنها قالت: جاء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فدخل حين بُنِيَ عليَّ فجلس على فراشي كمَجْلِسِك مني، فجعلت جُوَيْرِياتٌ لنا يضربن بالدُّفّ ويَنْدُبْنَ من قُتِلَ من آبائي يومَ بدر، إذ قالت إحْداهنّ: وفينا نَبِيٌّ يعلم ما في غدٍ، فقال: **«دعي هذه وقولي بالذي كنت تَقُولين»**.

رواه البخاري في النكاح (١٠٨/١١)، وابن ماجه (١٨٩٧) وفيه: وعندي جاريتان يتغنيان وتندبن آبائي... وفيه: **«أما هذا فلا تقولوه ما يعلمُ ما في غدٍ إلاّ الله»**، وسنده صحيح.

{٨٦٤} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سمع ناساً يُغَنُّون في عُرس وهم يقولون: وأهدى لها

أَكْبُش، يُبَخْبِخْنَ في المِرْبَدِ، وحبُّك في النَّادِي، ويعلمُ ما في غَدٍ، قالت: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يعلمُ ما في غد إلاّ الله سبحانه**».

رواه الحاكم (٢/١٨٤، ١٨٥)، والبيهقي (٧/٢٨٩)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وتقدم حديثها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللَّهو**»، رواه البخاري رقم (٥١٦٢) في النكاح.

قوله: يندبن ـ بفتح الياء وضمّ الدال ـ: من النُّدبة ـ بضم النون ـ: وهي ذكر أوصاف الميت بالثناء عليه وتعديد محاسنه، وقوله: أَكْبُش جمع كَبْش، وقوله: يبخبخن ـ بضم الياء وسكون الحاءين وفتح الباء الأُولى وكسر الثانية ـ: أي: يتوسّعن في مكانهنّ.

{٨٦٥} ـ وعن عمرو بن سعد رحمه الله تعالى قال: دخلت على قُرَظَة بن كعب، وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوارٍ يُغَنّينَ، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن أهل بدر يُفعلُ هذا عندكم؟ فقال: اجْلِسْ إن شئت، فاسْمَعْ معنا، وإن شئتَ اذْهَبْ، قد رُخِّصَ لنا في اللَّهْو عند العُرْسِ.

رواه النسائي (٦/١٠٩)، والحاكم (٢/١٨٤) وسنده صحيح.

{٨٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّ ببعض المدينة، فإذا هو بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ بِدُفِّهِنَّ ويَتَغَنَّيْنَ ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِن بَنِي النَّجَّارِ ... يا حَبَّذَا مُحَمَّدُ مِنْ جَارِ

فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الله يعلمُ إني لأُحِبُّكُنَّ».

رواه ابن ماجه (١٨٩٩) بسند صحيح.

وتقدم حديث فصل ما بين الحلال والحرام: الدفّ والصوت، وهو حديث حسن.

فهذه الأحاديث تدلّ بجملتها على جواز الأغاني المباحة في وليمة العرس مع الضرب بالدفّ وإعلان النكاح، وفيها مع ذلك جواز سماعها من الجواري والبنات، فهذا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سمع ما كان يقوله أولئك الجواري، وهكذا أبو مسعود الأنصاري وقرظة بن كعب وهما بدريّان قد سمعا ذلك أيضاً غير أن هذا يجب أن يقيّد بالأمن من الالتذاذ والفتنة... والرخصة لا يقاس عليها، وما جاء في حديث الرُّبيّع من جلوس النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عندها وهي عروس، قال الكرماني: هو محمول على أن ذلك كان من وراء حجاب، أو كان قبل نزول آية الحجاب، أو جاز النظر للحاجة أو عند الأمن من الفتنة... قال الحافظ: والأخير هو المعتمد، قال: والذي وضح لنا بالأدلّة القويّة أن من خصائص النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليها وهو الجواب الصحيح عن قصة أمّ حرام بنت ملحان في دخوله عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه، ولم يكن بينهما محرمية ولا زوجية.

ملحوظة: ما ابتدعه الناس من التوسّع في الأغاني المشتملة على الفجور والمجون ووصف الخدود والنهود... والخنا والفحش كل ذلك من المحرمات والمناكر التي لا يقرّها الشرع ولا يجوز إنشادها ولا سماعها ولا حضورها، والأغاني والسماع بصفة عامة سيأتي موضع خاص لها إن شاء الله تعالى في الأدب.

* * *

الإذن في ذهاب النساء إلى العرس

{٨٦٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أبصر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نساءً وصبياناً مُقْبِلِينَ من عُرْس فقام مُمْتَنّاً، فقال: **«اللّهمّ أنتُم مِن أحبّ الناس إليّ»**.

رواه البخاري في النكاح (١١/١٥٧)، وفي المناقب ومسلم في الفضائل (١٦/٦٧).

قوله: ممتناً ـ بضم الميم الأولى وسكون الثانية ثم تاء مفتوحة ثم نون ثقيلة بعدها ألف ـ: أي: قام قياماً قويّاً مسرعاً فرحاً بهم، ويؤيّد هذا التفسير رواية أخرى: فقام ممثلاً ـ بضم الميم الأولى وسكون الثانية وكسر الثاء وقد تفتح ـ: ومعناه: منتصباً قائماً، وجاءت بتشديد الثاء مع فتح الميم الثانية، وجعله بعضهم من الامتنان، قالوا: لأن من قام له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأكرمه بذلك فقد امتنّ عليه بشيء لا أعظم منه، قاله الحافظ. وفي الحديث مشروعية ذهاب النساء إلى الأعراس، ولا خلاف في جواز ذلك إذا خلت من المناكير والمحرمات كأعراس وقتنا، فإنها قلّما تخلو من ذلك، ويقع فيها من الفضائح وانتهاك الحرمات ما هو معروف، ولا سيما الأعراس العامّة، وخصوصاً إذا كانت من الأسر الغير متديّنة، فإنه يقع فيها ما يندي له الجبين... والله المستعان.

* * *

حكم هدايا الزوج للمرأة وأقاربها

{٨٦٨} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أيما امرأة نكحت على صداق أو جِباءٍ أو عِدَةٍ قبل عِصْمَةِ النكاح فهو لها، وما كان بعد عصمة النكاح فهو لمن أُعطِيَهُ، وأحقّ ما يُكْرَمُ عليه الرجلُ ابنتُه وأختُه»**.

رواه أحمد (١٨٢/٢)، وأبو داود (٢١٢٢) تحقيق الشيخ عوامة، والنسائي (٩٨/٦)، وابن ماجه (١٩٥٥) بسند حسن.

الحديث يدلّ على أن هدايا العريس لزوجته قبل العقد يكون لها باستحقاق مثل الصداق، وما كان بعد ذلك لمن سمي له، وقوله: وأحق ما يكرم عليه الرجل إلخ، فيه مشروعيّة صلة أقارب الزوجة والإحسان إليهم وإكرامهم بالهدايا والعطايا.

* * *

العشرة الزوجية
مجاملة النساء والوصية بهنّ

{٨٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ، فإنّ المرأةَ خُلِقَت من ضِلَعٍ، وإن أَعْوَجَ شيءٍ في الضِّلْعِ أعلاهُ، فإن ذهبت تُقيمُه كَسَرْتَه، وإن تركتَهُ لم يزلْ أعوج، فاسْتَوْصُوا بالنِّسَاء»**.

وفي رواية: **«إن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ لن تَسْتَقِيم لك على طريقةٍ، فإن استَمْتَعْتَ بها استمتعت بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتها، وكَسْرُها طَلاقُها»**.

رواه البخاري (١١/١٦٢، ١٦٣)، ومسلم (١٠/٥٧، ٥٨)، والترمذي (١٠٧٠) بتهذيبي، والدارمي (٢٢٢٨).

قوله: استوصوا أي: أُوصيكم بهنّ خيراً فاقبلوا وصيّتي فيهنّ واعملوا بها، وقيل: معناه: ليوص بعضكم بعضاً بهنّ، وقوله: ضلع ـ بكسر ثم فتح ـ: وقوله: وإن ذهبت تقيمها إلخ، أي: تردّها إلى الاستقامة. والحديث يدلّ على أن النساء جُبِلْنَ على الاعوجاج لأن أصلَهنّ كذلك، فإن الأُمّ الأولى سيدتنا حواء خُلقتْ من ضِلع آدم عليه وعليها السلام، ولذلك لا يمكن إقامة اعوجاجِهن، فمن حاول تغيير خُلُقِ المرأة وإرجاعها عن أصلِها حاول المحال، وكانت النهاية الكسرَ والفراق، ولذلك كان من الواجب على الرجل اللبيب مُدارَاتُها وملايَنَتُها والصبرُ على ما يَصدُر منها والإغضاءُ عن ذلك، ومعاشرتُها بالمعروف، والاستمتاعُ بها على ما فيها من اعوجاج. وشبههنّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في العوج بالضلع، وقال تأكيداً: «وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه»، إشارة منه إلى أن أعلا المرأة رأسها، وفيه لسانها ومنه يحصل الأذى... عفا الله عنا وعنهنّ، وسامحنا جميعاً، آمين.

{٨٧٠} ـ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم: «**لا يَفرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِه منها خُلُقاً، رَضِيَ منها آخر**»، أو قال: «**غيره**».

رواه أحمد (٣٢٩/٢)، ومسلم (٥٨/١٠)، وأبو يعلى (٤٥٩/٥)، والبيهقي (٢٩٥/٧).

قوله: لا يفرك ـ بفتح الياء والراء بينهما فاء ساكنة ـ: ما فيه فَرِك ـ بكسر الراء ـ: والفرك ـ بفتح الفاء وسكون الراء ـ: البغض، والخُلُق ـ بضمّتين ـ: السجية، ومعناه: أن المؤمن إذا رأى من زوجته من الأخلاق السيّئة ما يوجب بغضها، فلا يحمله ذلك على بغضها، فإن لها أخلاقاً أخرى حسنة ترضيه ويرضاها، ولو لم يكن إلا تحصينُ فرجه لكفى، فكيف والزوجةُ خَدِيمُ زوجها تُهَيِّئُ له الطعامَ والشراب وتَغسل ثيابَه، وتُنَظِّفُ له مَنْزِلَه، وتُعِدُّ له فِراشَه وتُوقِدُ له سِراجَه، وتُعَمِّرُ له منزلَه، وتَحْمِل بأولاده وتُرْضِعُهم له وتُرَبِّيهم وتَقُوم بِهم وتسهر عليهم، يُضاف إلى كل ذلك مُساعدته على دينه، وكفى... ونقول هذا في المرأة المسلمة الملتزمة لا الفاجرة والمتفرنجة، ولا المترجّلة.

* * *

حُسن المعاشرة

{٨٧١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خَيرُكم لأهلي، وإذا مات صاحبُكم فدعُوه**».

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٦٠)، والدارمي (٢٢٦٥)، وابن حبان (١٣١٢) بسند صحيح، وروى آخره أبو داود في الأدب (٤٨٩٩).

{٨٧٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أكملُ المؤمنين إيماناً أحْسَنُهُم خُلُقاً، وخيارُكُم خياركم لنسائهم**».

رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١٠٤٥)، والدارمي (٢٧٩٥)، وابن حبان (١٩٢٦)، والحاكم (٣/١)، والسياق للترمذي وابن حبان وسنده حسن وهو صحيح لشواهده...

قوله: خيركم لأهله، أي: لعياله وأقاربه.

والحديثان يدلاّن على أن خيار الناس مَن يعاملون نساءهم وأولادهم وأقاربهم المعاملة الحَسَنة، ويعاشرونهم بالخُلق الحسن، وقد كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المثل الأعلى في ذلك، ولذا قال هنا: وأنا خيركم لأهلي، وستأتي معاشرته معهنّ في السيرة...

* * *

حقوق الزوجين

{٨٧٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمَرْتُ المرأة أن تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**».

رواه الترمذي (١٠٤٢)، وابن حبان (١٢٩١) مطوّلاً بسند حسن، وهو صحيح لشواهده عن قيس بن سعد رواه أبو داود (٢١٤٠)، وعن عائشة عند أحمد (٧٦/٦)، وابن ماجه (١٨٥٢)، وعن معاذ رواه أحمد (٢٢٧/٥، ٢٢٨)، ورواه أحمد أيضاً (٣٨١/٤)، وابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان (١٢٩٠) من طريق آخر عنه.

{٨٧٤} ـ وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فِراشِه فأبَتْ فلم تَأْتِهِ، فباتَ غضبانَ عليها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصْبِحَ**».

رواه البخاري (٢٠٥/١١)، ومسلم (٨/١٠) كلاهما في النكاح، وأبو داود (٢١٤١) فيه أيضاً.

وفي رواية لمسلم (٧/١٠، ٨): «**والذي نفسي بيده ما من رجل يَدْعُو**

امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلاّ كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يَرْضَى عنها».

{٨٧٤م} ـ وعن طلق بن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إذا الرجلُ دعا زوجته لحاجتِهِ فلتَأْتِهِ، وإن كانت على التَّنُّورِ»**.

رواه الترمذي (١٠٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥/٣١٣) وسنده صحيح، وصححه ابن حبان (١٢٩٥).

{٨٧٥} ـ وعن معاوية القشيريّ رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: **«أن تُطْعِمَها إذا طعِمتَ، وتَكْسُوهَا إذا اكتسيتَ أو اكتسبت، ولا تَضرِبْ الوجه ولا تُقَبِّح، ولا تَهْجُر إلا في البيت»**، وفي رواية: ما تقول في نسائنا؟ قال: **«أطعموهن مما تأكلُون، واكسُوهنّ مما تكتَسُون، ولا تَضرِبُوهنّ ولا تُقَبِّحُوهُنَّ»**.

رواه أبو داود (٢١٤٢، ٢١٤٤)، وابن ماجه (١٨٥٠) وكذا، وأحمد (٤/٤٤٧ و٥/٣) وسنده صحيح.

{٨٧٦} ـ وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص رضي الله تعالى عنهما قال: حدّثني أبي أنه شهد حجّة الوداع مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى عليه وذكّر ووعَظَ، فذكر في الحديث قصّة، فقال: **«ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هُنَّ عوانٌ عندكم، ليس تملكُون منهنّ شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتِينَ بفاحشة مُبَيِّنةٍ، فإنْ فعلن فاهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مُبرِّح، فإن أطَعْنَكُم فلا تَبْغوا عليهنّ سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقُّكم على نسائكم فلا يُوطِئْن فُرُشَكُم مَن تَكْرَهُون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقُّهنّ عليكم أن تُحسِنُوا إليهنّ في كِسْوَتِهِنّ وطعامِهِنّ»**.

رواه الترمذي (١٠٤٦) في النكاح وفي التفسير، وابن ماجه (١٨٥١)، وأصله في صحيح مسلم (٨/١٨٣) من حديث جابر في حجّة الوداع... وفيه: **«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يُوطِئْن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن**

فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ، ولهن عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف».

قوله: فأبَتْ أي: امتنعت، وقوله: فراشها هو كناية عن الجماع، وقوله: التنّور ـ بفتح التاء وضم النون المشدّدتين ـ: هو المخبز والفرن، وقوله: ولا تقبح أي: لا تقل: قبّحك الله، وقوله: هنّ عوانٌ هو جمع عانية، والعاني الأسير، أي: هنّ عندكم كالأسيرات، وقوله: بفاحشة مبينة، الفاحشة هنا المراد بها الزّنا، وقوله: غير مبرّح ـ بضم الميم وفتح الباء وكسر الراء المشدّدة ـ: أي: غير شديد شاقّ، وقوله: فلا يوطئن أي: لا يأذنّ لأحد أن يدخل بيوتكم ولا الجلوس على فرشكم، ولا الخلوة بأحد مما تكرهون، وقوله: أخذتموهنّ بأمان الله، في رواية: بأمانة الله، أي: فهنّ عندكم أمانة، وقوله: بكلمة الله، قيل: هي قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقيل: كلمة التوحيد، وقيل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وصحح هذا الأخير النووي.

في هذه الأحاديث جملة من حقوق كل من الزوجين على الآخر، ففيها عظم حقّ الزوج على زوجته، وأنها يجب عليها أن تطيعه في كل شيء ليس معصية ولا ضاراً بها حتى أنه إذا احتاجها لقضاء حاجته منها وجب عليها إجابته، ولو كانت تخبز عند التنّور، ولو امتنعت وبات واجداً عليها دعت عليها الملائكة باللعنة، وكان الله عزّ وجلّ غاضباً عليها حتى يرضى زوجها عليها، وهذا نهاية ما يكون من وجوب حقوق الزوج، بل هناك ما هو أعظم، وهو أن تكون خاضعة لزوجها متذلّلة له بحيث لو كان يباح لأحد أن يسجد لمخلوق ويتذلّل له بذلك، لكانت المرأة أحق بالسجود وأوْلى به لزوجها.

بينما يجب على الزوج تجاه ذلك حقوق لزوجته، فيجب عليه أن يطعمها مما يطعم، ويكسوها مما يكتسى، ولا يستأثر بشيء من ذلك دونها، ولا يجوز له أن يَسُبَّها ويَشْتُمها فضلاً أن يَلْعَنَها أو يقول لها: قبّح الله وجهَكِ أو سَخطَ الله عليك في أمثال هذه الشتائم التي اعتادها كثير من

الرجال مع نسائهم، وهي من كبار الذنوب، وتدلّ على سقوطهم ولؤمهم، فأين غاب عن هؤلاء قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] إلخ.

ولأجل ذلك أكّد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا المعنى بقوله: «**فاتّقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله**»، وأخبر بأنهنّ كأسيرات عندنا، والأسير يجب الإحسان إليه، وأنهنّ لسن مملوكات لنا نتصرف فيهن كيف شئنا، بل لا نملك منهنّ إلا الاستمتاع فقط.

نعم إذا عصين وأتين بما يعظم من المخالفات كالنشوز على الزوج، والخروج بدون إذنه، والخلوة مع الرجال والكلام معهم، والإذن في إدخال البيت من يكرهه الزوج ونحو ذلك، كتضييع الصلاة وترك شعائر الدين وواجباته، فللزوج عندئذ تأديب زوجته بنحو ضرب غير شديد بعد تقديم وعظ وتذكير، ثم هجران ومفارقة في الفراش... فإن رجعن إلى الطاعة فلا سبيل بعد عليهنّ بوجه من الوجوه، هذه خلاصة ما في الباب.

* * *

لا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها

{٨٧٧} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يحلّ للمرأة أن تصومَ وزوجُها شاهدٌ إلا بإذنه، أو تأذنَ في بيته إلا بإذنه**».

وفي رواية: «**لا تصوم امرأة وزوجُها شاهد يوماً من غير رمضان إلا بإذنه**».

رواه البخاري (١١/٢٠٤، ٢٠٦)، ومسلم في الزكاة (٧/١١٥) باللفظ الأول والسياق للبخاري، ورواه باللفظ الثاني أبو داود (٢٤٥٨)، والترمذي (٦٩٢)، وابن ماجه (١٧٦١)، والدارمي.

والحديث يدلّ على أمرين اثنين، أولهما: أن المرأة لا يجوز لها أن تتطوّع بالصوم مع وجود الزوج إلا إذا أذن لها، لأنه ربما احتاجها، فيضطر لإرغامها على الفطر. وهذا أيضاً من جملة حقوقه عليها، وقوله: لا يحلّ يدلّ على تحريم صيامها، ويؤيّده الرواية الثانية: لا تصوم فإنها خبر بمعنى النهي. وقوله: من غير رمضان يضاف إليه قضاء رمضان وما في معناه من الصيام الواجب كالنذر مثلاً، أو كفارة اليمين وقتل الخطأ...

الثاني قوله: أو تأذن في بيته إلا بإذنه، وقد تقدم في حديث أبي الأحوص فلا يوطئن فرشكم مَن تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم مَن تكرهون.

قال المازري: أي: لا يستخلين بالرجال، قال: ولم يرد زناها لأن ذلك يوجب جلدها، بل رجمهما ولأن ذلك حرام مع مَن يكرهه الزوج ومن لا يكرهه.

وقال النووي: والمختار أن معناه لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم، سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً أو امرأة، أو أحداً من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك، قال: وهذا حكم المسألة عند الفقهاء أنها لا يحلّ لها أن تأذن للرجل أو امرأة، ولا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج إلاّ من علمت أو ظنّت أن الزوج لا يكرهه؛ لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن في ذلك منه أو ممن أذن له في الإذن في ذلك، أو عرف رضاه باطّراد العرف بذلك ونحوه، وَمَتَى حصل الشكّ في الرضا ولم يترجح شيء ولا وجدت قرينة لا يحل الدخول ولا الإذن (ج ١٨٤/٧).

* * *

تحذير الزوجة من إذاية زوجها

{٨٧٨} ـ عن معاذ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحُورِ**

العين: لا تُؤذيه قاتَلَكِ الله، فإنما هو عندك دَخِيلٌ، يُوشِك أن يفارِقَكِ إلينا».

رواه أحمد (٥/٢٤٢)، والترمذي في الرضاع (١٠٥٦)، وابن ماجه (٢٠١٤) بسند صحيح، وإسماعيل بن عياش روايته هنا عن بلديه بحير بن سعد الحمصي.

قوله: «قاتلك الله» يَرِدُ هذا اللفظُ بإزاء معانٍ كاللعنة مثلاً والتعجّب... مثل تربت يداك، وقوله: «دخيل» أي: ضيف ونزيل، ولست بأهل له حقيقة، وقوله: «يوشك» من أفعال المقاربة يدلّ على الدنوّ والقرب من الشيء، ومعناه قريباً سيتركك ويصل إلينا.

وفي الحديث الشريف تحذير النساء من إذايتهنّ أزواجهنّ، وأن نساءهم من الحور العين يتأذين بذلك، فيحملهنّ ذلك على الدعاء على المؤذيات؛ فالواجب على المرأة أن تبرّ بزوجها وتحسن إليه، ولا تعصه وتترفع عليه، فإنه عمّا قريب يرتحل عنها ويدعها فتندم عليه ولا تنفعها الندامة.

* * *

كراهية ضرب النساء

{٨٧٩} ـ عن عبدالله بن زَمْعَة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأتَه جَلدَ العبد، ثم يجامِعُها في آخر اليوم».**

وفي رواية: **«يَعْمِدُ أحدُكم فيجلدُ امرأته جلدَ العبد، فلعلّه يُضاجعُها من آخر يومه».**

وفي أخرى: خطب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم ذكر النساء، فوعظهم فيهنّ، ثم قال: **«إلامَ يجلدُ أحدكم امرأته جلد الأَمَة»**، وفي رواية: **«بِمَ يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ثم لعله يعانِقُها».**

رواه البخاري في النكاح (٢١٤/١١، ٢١٥) وفي مواضع، ومسلم في كتاب الجنة والنار (١٨٨/١٧)، والترمذي في تفسير الشمس وضحاها (٣١٢٥)، والنسائي في الكبرى (٥١٥/٦)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٣)، والدارمي (٢٢٢٦).

{٨٨٠} ـ وعن إياس بن عبدالله بن أبي ذُباب رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تضربوا إماءَ الله**»، فجاء عمر رضي الله تعالى عنه إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله قد ذَئِرَ النساءُ على أزواجهنّ، فأمر بضربهنّ، فضُرِبْن فطاف بآل محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طائف نساء كثير، فلما أصبح، قال: «**لقد طاف الليلة بآل محمد سَبعون امرأةً كلُّ امرأة تشْتَكِي زَوْجَها، فلا تَجِدُون أولئك خيارَكم**».

رواه أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥)، والدارمي (٢٢٢٥)، وابن حبان (١٣١٦)، والحاكم (١٨٨/٢) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله مع ذلك شاهدان عن ابن عباس، وعن أُم كلثوم بنت أبي بكر مرسلاً، انظر ابن حبان (١٣١٥)، والبيهقي (٣٠٤/٧).

{٨٨١} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن عنده، فقالت: زوجي صفوان بن المُعَطَّل يَضْرِبُني إذا صلّيتُ، ويُفَطِّرني إذا صمتُ، ولا يُصلي الفجر حتى تطلعَ الشمسُ، قال: وصفوان عنده، قال: فسأله عما قالت: فقال: يا رسول الله، أما قولها يضربني إذا صلّيت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها، قال: فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو كانت سورة واحدة لكفت الناس**»، قال: وأما قولها يفطرني إذا صمت، فإنها تنطلق تصوم وأنا رجل شاب فلا أصبر، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تصوم امرأةٌ إلا بإذن زوجها**»، وأمّا قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذلك لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: «**فإذا استيقظت يا صفوان فصلِّ**».

رواه أحمد (٣/٨٠)، وأبو داود آخر الصيام (٢٤٥٩)، وابن حبان (٩٥٦)، والحاكم (١/٤٣٦)، والبيهقي (٤/٣٠٣) وسنده صحيح، وروى ابن ماجه قطعة الصيام منه في الصيام.

قوله: لا يجلد أي: لا يضرب جلدها، وقوله: جلد العبد أي: مثل ضرب جلد العبد المملوك، وقوله: يضاجعها.. يعانقها.. يجامعها كلّها مؤدّاها واحد، وقوله: ضرب الفحل، أي: الجمل، وقوله: ذَئِر - بفتح الذال وكسر الهمزة -: أي: نشزن واجترأن على أزواجهنّ، والذائر المغتاظ على خصمه المستعد للشرّ، وقوله: ولا تجدون أولئك خياركم، معناه: ليس هؤلاء الذين يضربون نساءكم أفاضلكم وأتقاكم.

في حديث ابن زمعة، وإياس بن عبدالله النهي عن ضرب النساء، وأنه لا يجمل بالعاقل أن يجلد زوجته جلد العبد أو الأَمَة أو الجمل، فيبالغ في ضربها، ثم لعلّه يعانقها في مسائه ويقضي منها حاجته في ليلته، فهذا غير لائق، ولا هو من مكارم الأخلاق، فإن المضاجعة إنما تستحسن مع ميل النفس والرغبة في العشرة، والمضروب بخلاف ذلك، فإنه ينفر مِمَّن ضربه أو أساء إليه ويبغضه؛ فالأولى في حق الزوج أن يتحمّل ويصبر ولا يلجأ إلى الضرب من أوّل وهلة. نعم إن كان الضرب ولا بدّ إن عصت المرأة وتمرّدت، فليكن بالضرب اليسير بحيث لا يحصل معه نفور تام، ولا يفرط في ذلك... وإذا اكتفى بالوعظ أو التهديد كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بلا ضرب فلا يعدل عنه لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لِحُسن المعاشرة المطلوبة في الحياة الزوجية، اللّهمّ إلا إذا كان في أمر يتعلق بواجبات الله تعالى وانتهاك حرماته، فهٰهنا يتعين التأديب المأذون فيه...

وقد جمع الإمام البغوي في شرح السنة (٩/١٨٧) بين ما في الفصل من الأحاديث... فقال: يحتمل أن يكون النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن ضربهنّ قبل نزول الآية، ثم لما ذئر النساء أذن في ضربهنّ ونزل القرآن موافقاً له، ثم لما بالغوا في الضرب، أخبر أن الضرب وإن كان

مباحاً على شكاسة أخلاقهنّ، فالتحمّل والصبر على سوء أخلاقهنّ، وترك الضرب أفضل وأجمل، قال: ويحكى عن الشافعي هذا المعنى. وانظر الفتح (٢١٥/١١).

أما حديث قصة صفوان مع زوجته، فيتضمّن ثلاثة أحكام، أولاً: في ضربه زوجته إذا جمعت في صلاتها عدة سور، فكان غير مصيب في ضربها على ذلك؛ لأن الجمع بين السور في ركعة واحدة جائز، وقد كان يفعله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وفعله الصحابة وأقرّهم عليه. ثانياً: إرغامه على فطرها في الصيام كان محقّاً فيه لأنها لا يحلّ لها صيام التطوّع إلا بإذنه كما تقدم، وكما في نصّ الحديث. ثالثاً: نومه عن الصلاة حتى تطلع الشمس، وهذه أمّ الدواهي إن كان يؤخرها بعد استيقاظه، لكنه اعتذر للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنهم لا يستيقظون حتى تطلع الشمس، فقبل عذره وأمره أن يصلّي إذا استيقظ، لأنه لا تفريط في النوم كما تقدم في كتاب الصلاة مبسوطاً، والحمدلله.

* * *

العدل بين النساء

{٨٨٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقسم بين نسائه، فيعدل ويقول: «**اللّهمّ هذه قِسْمَتي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِك ولا أَمْلِكُ**».

رواه أبو داود (٢١٢٤)، والترمذي (١٠٢٢)، وابن ماجه (١٩٧١)، والدارمي (٢٢١٣)، والنسائي في الكبرى (٢٨١/٥)، وابن حبان (١٣٠٥)، والحاكم (١٨٧/٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، ولا يضرّه وروده مرسلاً من طريق آخر.

قال الترمذي: ومعنى قوله: لا تلمني فيما تملك إلخ، إنما يعني به: الحبّ والمودة، كذا فسّره بعض أهل العلم.. وفي الحديث دليل على

أن الله تعالى لا يؤاخذ العبد بالميل القلبي إلى بعض نسائه إذا كان له التعدّد، وأن العدل إنما يجب في غير ذلك؛ كالنفقة، والمبيت، والإسكان ونحو ذلك، وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]. والحديث ظاهر في أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقسم بين نسائه، وقد اختلف العلماء هل كان ذلك واجباً عليه أم لا؟ وسيأتي تفصيل ذلك في السيرة إن شاء الله تعالى.

{٨٨٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا كانت عند الرجل امرأتانِ فلم يَعْدِلْ بينهما جاء يوم القيامة وشِقُّه ساقطٌ**».

رواه أحمد (٤٧١/٢)، وأبو داود (٢١٣٣)، والترمذي (١٠٢٣)، والنسائي في الكبرى (٢٨١/٥)، وابن ماجه (١٩٦٩)، والدارمي (٢٢١٢)، وابن الجارود (٧٢٢)، وابن حبان (١٣٠٧)، والحاكم (١٨٦/٢)، والبيهقي (٢٩٧/٧)، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وما أعلّ به لا أثر له، فإن من رفعه ثقة وزيادته مقبولة. قوله: وشقّه ساقط أي: نصفه مائل، وفيه وعيد شديد للأزواج الجائرين الذين لا يعدلون بين نسائهم.

❊ ❊ ❊

القسمة للبكر والثيب

{٨٨٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لو شِئْت أن أقول قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولكنه قال: «**السُّنَّةُ إذا تزوّج الرجلُ البِكْرَ على امرأتِهِ أقام عندها سبعاً، وإذا تزوّج الثيب على امرأته أقام عندها ثلاثاً**».

رواه البخاري (٢٢٦/١١، ٢٢٧)، ومسلم (٤٥/١٠)، وأبو داود

(٢١٢٤)، والترمذي (١٠٢١)، والدارمي (٢٢١٥)، وابن ماجه (١٩١٦)، وابن الجارود (٧٢٤)، والبيهقي (٧/٣٠١، ٣٠٢).

{٨٨٥} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما تزوّجها أقام عندها ثلاثاً، وقال: «**إنه ليس بكِ على أهلكِ هوانٌ إن شئتِ سبَّعتُ لكِ، وإن سبَّعْتُ لكِ سبعتُ لنسائي**»، وفي رواية لغيرها: حين تزوّج أمّ سلمة، فدخل عليها فأراد أن يخرج أخذت بثوبه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن شئتِ زِدْتكِ وحاسَبْتُكِ به، لِلْبِكْرِ سبعٌ وللثَّيِّبِ ثلاثٌ**».

رواه مسلم (١٠/٤٣، ٤٤، ٤٥)، وأبو داود (٢١٢٢)، والدارمي (٢٢١٦)، وابن ماجه (١٩١٧).

وقوله: ليس بك على أهلك هوان، قال لها ذلك تطييباً لخاطرها، وأنها ليست عنده هينة لا يعتبرها ولا يعطي لها قيمة، بل هي عنده بمكان... ولكن القسمة لا بدّ منها.

والحديثان يدلاّن على أن للزوجة حقاً أيام الزفاف، حتى قال ابن عبدالبرّ: جمهور العلماء على أن ذلك حقاً للمرأة بسبب الزفاف، وسواء كان عنده زوجة أم لا، وحكى النووي أنه يستحبّ إذا لم يكن عنده غيرها وإلا فيجب... فمن تزوّج بكراً وكان عنده غيرها أقام عندها سبعة أيام، ثم يقسم للباقي، ومن تزوّج ثيباً اكتفى بإقامة ثلاثة أيام... هذا مقتضى الحديثين، وذلك غاية العدالة...

* * *

الغَيـرَةُ

{٨٨٦} ـ عن المغيرة قال سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربْتُه بالسيف غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**تَعْجَبُون مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، والله لأنا**

أغيرُ منه، والله أغْيَرُ مِنّي، ومن أجل غَيرَةِ الله حرَّمَ الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحد أحبُّ إليه العُذْرُ من الله، ومن أجل ذلك بعث المُنْذِرين والمُبَشّرين ولا أحدَ أحبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنّةَ»، وفي رواية: **«من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشّرين ومنذرين»**.

رواه البخاري في الحدود وفي التوحيد (١٧/١٧١، ١٧٢)، ومسلم في اللّعان (١٠/١٣١، ١٣٢)، والدارمي (٢٢٣٣) ويأتي في الحدود.

{٨٨٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله يَغارُ، وإن المؤمن يَغارُ، وغَيْرَةُ الله أن يأتي المؤمن ما حرَّمَ الله»**.

رواه البخاري في النكاح (١١/٢٣٤)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٨)، والترمذي في النكاح (١٠٥٠)، ونحوه عن أسماء وابن مسعود وكلاهما في الصحيح.

الغَيْرة ـ بفتح الغين وسكون الياء ـ: مشتقّة من تغيّر القلب وهيجان الغضب، وأشدّ ما يكون ذلك بين الزوجين، ويقال: الرجل غيور على أهله، أي: يمنعهم من التعلّق بأجنبي بنظر أو حديث أو غير ذلك، والغيرة صفة كمال، وضدّها الدياثة ولا يدخل الجنّة ديُّوث.

وقوله: غير مصفح ـ بضم الميم وكسر الفاء بينهما صاد ساكنة ـ: يعني: لضربته بحدّ السيف لا بصفحه، وهي الجهة الغير الحادة، وهو عرضه.

وقوله: والله أغير مني إلخ، غيرة الله بخلاف غيرتنا، فهي صفة لله تعالى كالغضب والرّضا، وقد فسّرها الحديث بقوله: وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه... وفي الرواية الأخرى من أجل غيرة الله حرم الفواحش إلخ، أي: أنها منعه سبحانه وتعالى الناس من الفواحش... وفي الحديثين مدح الغيرة، وأنها من صفات الله تعالى وصفات رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبالتالي من صفات المؤمن تبعاً لله ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأن المؤمن من شأنه أن تأتيه الأنفة

والحمية ويهيج غضبه إذا رآى ما يسوءه في حريمه من زوجة وبنت... ولذلك فقد لا يملك نفسه فينتقم ويضرب ويقتل كما أخبر سعد بن عبادة عن نفسه... غير أن القتل لا يجوز لمجرّد وجود مخالفة لا توجب حداً، وسيأتي مزيد لهذا في الحدود إن شاء الله تعالى وفي الرقائق.

{٨٨٨} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أُمّهات المؤمنين بصَحْفَةٍ فيها طعامٌ، فضربتْ التي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بَيْتِهَا يدَ الخادم، فسقطت الصحفةُ فانفَلَقَتْ، فجمعَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلَق الصَحْفَة ثم جعل يَجْمَعُ فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارَتْ أُمُّكُم**»، ثم حبس الخادم حتى أُتِيَ بصَحْفَةٍ مِن عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صحفتُها، وأمسكَ المكسورة في بيت التي كُسرتْ فيه.

رواه البخاري في النكاح (٢٣٧/١١) وفي المظالم، وأبو داود (٣٥٦٧)، والترمذي (١٣٥٩)، والنسائي (٧٠/٧)، وابن ماجه (٢٣٣٤) وتقدم بسياق آخر في الضمان (١٤٨).

قوله: بعض نسائه هي مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، وهي التي غارَت وكسرت الصحفة، وفي الحديث بيان شدّة غيرة النساء، فكما أن الرجل يغار على زوجته أن يشاركه فيها أحد، كذلك المرأة تغار ويهيج غضبها إذا رأت غيرها يريد مشاركة زوجها معها، سواء كان ذلك المشارك ضرّة أم غيرها من سائر النساء، حتى أنه لتصل الغيرة ببعضهنّ أن يمنعن رجالهنّ من الخروج ومن النظر مطلقاً فضلاً عن مخالطة النساء في التجارة والمعاملات... وهذا إفراط جائر.

{٨٨٩} ـ وعن جابر بن عتيك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن مِن الغَيْرَة ما يُحِبُّ الله، ومنها ما يُبْغضُ الله، فأما الغَيْرَة التي يُحبُّها الله فالغيرة في الرِّيبَةِ، وأما الغَيْرة التي يبغضها الله، فالغيرة في غير الرِّيبة**».

رواه أحمد (٤٤٥/٥، ٤٤٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٩)، والنسائي في الزكاة (٥٨/٥)، وابن حبان (١٦٦٦) بالموارد، والدارمي في النكاح (٢٢٣٢)، والطبراني في الكبير (١٧٧٣) من طرق ورجاله ثقات غير ابن جابر بن عتيك فمجهول، لكن الحديث حسن لشاهدٍ له عن عقبة بن عامر رواه أحمد (١٥٤/٤)، والحاكم (٤١٧/١، ٤١٨) وصححه، وعزاه النور في المجمع (٣٢٩/٤) لأحمد والطبراني، وقال: رجاله ثقات.

الرِّيبة ـ بكسر الراء المشدّدة بعدها ياء ثم باء مفتوحة ـ: هي التهمة وظنّ السوء.

والحديث دالّ على أن من الغيرة ما هو محمود يحبّه الله تعالى، وهو ما كان في أمر يرتاب فيه أو يتحقّق ثبوته، كالغيرة على المحارم إذا شُوهد منهم محرم أو ما يؤول إليه، أو كانت هناك قرائن تدلّ على ما فيه محذور يخدش العرض والكرامة، فهذا النوع من الغيرة يرضاه الله تعالى ويحبّه. أما الغيرة التي يبغضها الله وهي مذمومة، كأن يغار الإنسان على أخته أو ابنته مثلاً أن لا تتزوّج أو يغار على أُمّه أن لا ينكحها زوج غير والده، أو يغار على زوجة طلّقها أن لا تتزوّج غيره، فهذه الغيرة مبغوضة لله تعالى لأنها تخالف شرع الله تعالى وما أباحه لعباده هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من الغيرة من لا يؤاخذ الإنسان عليها، ولا سيما بالنسبة للنساء، فإن غيرتهنّ قد تصل بهنّ إلى الجنون، ولذلك جاء في حديث: «**إن الله كتب الغيرة على النساء، فمن صبر منهنّ كان لها أجر شديد**»، رواه البزار عن ابن مسعود ورجاله ثقات، ولا ننسَ ما حصل من السيدة سارة مع السيدة هاجر حتى هاجر بهذه الخليل عليه السلام إلى جبال مكّة. كما سيأتي في الأنبياء.

* * *

مساعدة الزوجة زوجها في العمل وخِدْمَتِهِ

{٨٩٠} ـ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: تزوّجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح

وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرزُ غرْبَه وأعجن، ولم أكن أحسن أخْبِز، فكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكنّ نِسوةَ صدقٍ وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على رأسي وهي مني على ثُلُثَيْ فرسخ، فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثم قال: «إخْ، إخْ» ليحملني خلفه فاستحييت أن أسيرَ مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغَيْرَتَه، وكان أغيرَ الناس، فعرف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئتُ الزبير فقلت: لَقِيَني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعلى رأسي النَّوَى ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت غيرتك، فقال: والله لحَمْلكِ النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبِكِ معه، قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

رواه البخاري في النكاح (١١/٢٣٤، ٢٣٦)، ومسلم في السلام (١٤/١٦٤، ١٦٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧٣)، وكذا أحمد (٦/٣٤٧، ٣٥٢)، والبيهقي، وفي رواية لمسلم: كنت أخدم الزبير خِدْمَةَ البيت، وكان له فرسٌ وكنت أسُوسُه، فلم يكن من الخدمة شيءٌ أشدّ عليَّ من سياسة الفرس، كنت أحْتَشُّ له وأقوم عليه وأسوسه، قال: ثم إنها أصابت خادماً جاء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَبيٌ فأعطاها خادماً، قالت: كفتني سياسة الفرس فألقتْ عني مَؤُونَتَهُ...

قوله: ناضح: هو الجمل الذي يسقى عليه الماء، وقوله: وأخرز غَرْبَه ـ بفتح الغين وسكون الراء ثم باء ـ: هو الدلو، وقوله: وأعجن، تعني: الدقيق، وقوله: إخ إخْ ـ بكسر الهمزة وسكون الخاء ـ: كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينيخه ويقعد.

في الحديث فوائد: منها خدمة المرأة زوجها في كل ما يحتاجه من طحن وعجن وخبز وسقي ماء وغسل ثياب وكنس المنزل وإحضار الطعام والشراب وعلف الدواب ونقل الثمار والحبوب... زيادة على إرضاع الأطفال وتربيتهم والقيام بهم، وقد اختلف العلماء في هذه الخدمة، فقال

القاضي عياض في الإكمال (٧/٧٥): فأمّا ما هو خارج بيتها مثل خدمة الفرس ونقل النوى، فلا يلزمها بإجماع إلا أن تتطوّع بذلك معونةً له، وإحساناً لصحبته، وأما خدمة البيت كالعجن والكنس والطبخ، فعلى العوائد ومقادير النساء واليسار. قال بعض شيوخنا: على كل امرأة من خدمة بيتها بقدرها وخدمة مثلها، حتى على الشريفة من ذلك الأمر والنهي للخدم بذلك، وليس بواجب عليها عند مالك إلا أن تطوّع... وبهذا قال الحنابلة، كما في المغني لابن قدامة (٧/٢٩٥، ٢٩٦) حيث قال: وليس على المرأة خدمة زوجها من العجن والخبز والطبخ وأشباهه نصّ عليه أحمد. وقال النووي في شرح مسلم (١٤/١٦٤): هذا كله من المعروف والمروءات التي أطبق الناس عليها، وهو أن المرأة تخدم زوجها بهذه الأُمور المذكورة ونحوها من الخبز والطبخ وغسل الثياب وغير ذلك، وكلُّه تبرع من المرأة وإحسان منها إلى زوجها وحسن معاشرة وفعل معروف معه ولا يجب عليها شيء من ذلك، بل لو امتنعت من جميع هذا لم تأثم ويلزمه هو تحصيل هذه الأُمور لها، ولا يحل له إلزامها بشيء من هذا، وإنما تفعله المرأة تبرّعاً، وهي عادة جميلة استمرّ عليها النساء من الزمن الأول إلى الآن، وإنما الواجب على المرأة شيئان: تمكينها زوجها من نفسها، وملازمة بيته... فبهذا قال الجمهور. وذهب جماعة إلى وجوب خدمتها، وهو مذهب أبي ثور وأبي بكر بن أبي شيبة وأبي إسحٰق الجوزجاني واختاره وأيّده ابن تيمية، فقال في الفتاوى (٢/٢٣٤، ٢٣٥): وتنازع العلماء: هل عليها أن تخدمه في مثل فراش المنزل ومناولة الطعام والشراب، والخبز والطحن، والطعام لممالكه وبهائمه مثل علف دابّته ونحو ذلك؟ فمنهم من قال: لا تجب الخدمة وهذا القول ضعيف كضعف قول من قال: لا تجب عليه العشرة والوطىء، فإن هذا ليس معاشرة له بالمعروف، بل الصاحب في السفر الذي هو نظير الإنسان وصاحبه في المسكن إن لم يعاونه على مصلحته لم يكن قد عاشره بالمعروف.

وقيل ـ وهو الصواب ـ: وجوب الخدمة، فإن الزوج سيدها في كتاب الله وهي عانية عنده بسنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم،

وعلى العاني والعبد الخدمة، ولأن ذلك هو المعروف قال: ثم من هؤلاء من قال: تجب الخدمة اليسيرة، ومنهم من قال: تجب الخدمة بالمعروف، وهذا هو الصواب، فعليها أن تخدمه الخدمة المعروفة من مثلها لمثله، ويتنوّع ذلك بتنوّع الأحوال، فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة... وقال ابن القيم في الهدي النبوي تحت عنوان فصل في حكم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في خدمة المرأة لزوجها، ما نصّه: قال ابن حبيب في الواضحة: حكم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وبين زوجته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين اشتكيا إليه الخدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت، وحكم على عليّ بالخدمة الظاهرة، ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة العجين والطبخ والفرش وكنس البيت، واستقاء الماء، وعمل البيت كلّه.

ثم ذكر ابن القيم حديث شكاية مولاتنا فاطمة إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما تلقاه في يديها من الرحى، وحديث أسماء المذكور، ثم قال: فاختلف الفقهاء في ذلك، فأوجب طائفة من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت، وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء، ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء، وممن ذهب إلى ذلك مالك والشافعي وأبو حنيفة وأهل الظاهر. وكذا أحمد كما تقدم عن المغني. ثم ذكر ابن القيم أدلة الفريقين، فانظر ذلك (ج ١٨٨/٥، ١٨٩) مع المغني لابن قدامة (٢٩٦/٧). وحكى ابن حبيب عن أصبغ وابن الماجشون عن مالك أن خدمة البيت تلزم المرأة، ولو كانت ذات قدر وشرف إذا كان الزوج معسراً، ثم قال: ولذلك ألزم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام بالخدمة الباطنة، وعليّاً بالخدمة الظاهرة. أمّا الحافظ ابن حجر فحمل قصة أسماء على الضرورة، فقال: وكانوا ـ أي: الرجال ـ لا يتفرغون للقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم ولضيق ما بأيديهم عن استخدام من يقوم بذلك عنهم، فانحصر الأمر في نسائهم، فكُنَّ يكفينَهم مَؤُونَة المنزل ومن فيه ليتوفروا هم على ما

هم فيه من نصر الإسلام، ثم قال: والذي يترجح حمل الأمر في ذلك على عوائد البلاد، فإنها مختلفة في هذا الباب.

والخلاصة أن عدم وجوب خدمة المرأة زوجها هو مذهب الأئمّة الأربعة، والقول بالوجوب مذهب أبي ثور وابن أبي شيبة والجوزجاني من الحنابلة وابن تيمية وتلميذه ابن القيم. والمسألة اجتهادية لا يقطع بأحد المذهبين.

وفي الحديث جواز إرداف المرأة خلف الرجل الصالح في موكب الرجال غير أن ذلك مشروط بالأَمْن من الفتنة، وأن تكون المرأة متسترة، وأن تكون ممن تحرم على المردف، فإن أسماء كانت أخت عائشة زوجته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. قال الحافظ: والذي يظهر أن القصة كانت قبل نزول الحجاب ومشروعيّته، قال: (ولم تزل عادة النساء قديماً وحديثاً يسترن وجوههن عن الأجانب) إلخ، ولهذا موضع آخر إن شاء الله تعالى، وفيه فضل الزبير وشدّة غيرته رضي الله تعالى عنه كما فيه فضل أسماء رضي الله تعالى عنها، وستأتي فضائلها كفضائل الزبير.

* * *

مشروعية مساعدة الرجل زوجته

{٨٩١} ـ عن الأسود رحمه الله تعالى قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَصْنَعُ في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهنةِ أهله، تعني: خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

وفي رواية: فإذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة.

رواه البخاري (٦٧٦) في الأذان و(٥٣٦٣) في النفقات وهو من أفراده، ويأتي أيضاً في الأدب.

في الحديث مشروعية مساعدة المرء زوجته في أشْغَالِ البيت، وهذا

من حُسْنِ المعاشرة والتعاون على الخير والبِرّ ومؤانسةِ الزوجة، وفيه ما كان عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من المسارعة إلى أداء حقوق الله تعالى وفرائضه، وأنه كان لا يشغله شاغلٌ عن ذلك، وهكذا يجب أن يكون عليه المسلم اقتداء بسيد الخلق صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

تحريم إفشاء السر فيما بين الزوجين

{٨٩٢} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن من أشرّ الناس عند الله منزلةً يومَ القيامة الرجلَ يُفْضِي إلى امرأتِهِ، وتُفْضِي إليه ثم ينشُرُ سِرَّهَا**»، وفي رواية: «**إن من أعظم الأَمَانَةِ عند الله**».

رواه مسلم رقم (١٤٣٧) في النكاح (٨/١٠)، وعمر بن حمزة العمري مختلف فيه، وهو ثقة عند مسلم.

«**وتفضي إليه**» أي: تباشره ويباشرها بالجماع وغيره. وفي الحديث تحريم إفشاء سر ما يقع بين الزوج وامرأته من أُمور الاستمتاع مع تفصيل ذلك، وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل كما يحصل مِن كثير من السفهاء السقطاء، وهذا إذا لم تدع إليه ضرورة كمثل قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إني لأفعله أنا وهذه**»، يعني: يجامع فيكسل من غير إنزال ثم يغتسلان، فإن في ذلك بيان حكم شرعي ضروري، وكذا قوله لأبي طلحة: «**أعْرَسْتُم الليلةَ**»، أي: جامعتم، وكان ذلك عندما توفّي له صبي بدون علمه، فقال له: نَعَمْ.

* * *

خاتمة لفصول العشرة الزوجية

من المقطوع به أن الزوجين يتبادلان الحقوق فيما بينهما، كما قدمنا

في الفصول، وقد قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فللنساء من الحقوق على الرجال مثل ما عليهن للرجال أيضاً، ولا فارق غير أن للرجال درجة الرئاسة والقوامية؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، فالرجل هو المسؤول عن البيت والأسرة، وهو المنفق والمكلّف بالتموين، وله الرئاسة والحكم والطاعة وبيده الحل والعقد، فمن هذه الناحية كان له فضل على المرأة كما له فضل عليها في الذكورة. أما بالنسبة لما عند الله، فالأمر كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أنكحة باطلة

الشغار

{٨٩٣} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن الشغار، والشغار أن يُزَوِّجَ الرجلُ ابنته على أن يزوجَه الرجل الآخَرُ ابنتَه، وليس بينهما صداقٌ.

رواه البخاري (٦٦/١١)، ومسلم (٢٠٠/٩)، وأبو داود (٢٠٧٤)، والترمذي (١٠٠٦) بتهذيبي، والنسائي (٩١/٦)، وابن ماجه (١٨٨٣)، وابن الجارود (٧١٩، ٧٢٠)، والبيهقي (١٩٩/٧).

الشغار ـ بكسر الشين وبالغين ـ: أصله في اللغة الرفع، يقال: شغر الكلب إذا رفع رجله ليبول، ويقال: شغرت المرأة إذا رفعت رجلها عند الجماع. قال ابن قتيبة: كل واحد منهما يشغر عند الجماع، فكأن المتزوجين بذلك يقول كل واحد لصاحبه: لا ترفع رجل بنتي حتى أرفع رجل ابنتك، وكان هذا من أنكحة الجاهلية، وقد نقل ابن عبدالبرّ والنووي وغيرهما الإجماع على عدم جوازه، وإنما اختلفوا في صحته بعد وقوعه، فالجمهور على بطلانه.

وصورة هذا النكاح فسّره نافع في الحديث بأنه تبادل الأُنثيين بلا صداق، واتّفق العلماء على منعه، سواء كان تبادل بين البنتين أو الأختين أو الأمهين أو غيرهن من المحارم.

* * *

{٨٩٤} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ له**».

رواه أحمد (٤٢٨٣)، والترمذي (١٠٠٢)، والنسائي (١٢١/٦)، والدارمي (٢٢٦٣)، والبيهقي (٢٠٨/٧) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه، وهو وارد عن جماعة، فعن عليّ رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وعن أبي هريرة رواه البزار وابن الجارود (٦٨٤)، والبيهقي (٢٠٨/٧) بسند صحيح، وعن ابن عباس رواه ابن ماجه (١٩٣٤)، وعن جابر رواه الترمذي (١٠٠٠) بتهذيبي.

{٨٩٥} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ألا أُخبركم بالتَّيس المُسْتَعَارِ**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**هو المُحَلِّلُ، لعن الله المحلِّلَ والمحلَّل له**».

رواه ابن ماجه (١٩٣٦)، والحاكم (١٩٨/٢)، والبيهقي (٢٠٨/٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفيه مِشرح بن عاهان، وهو حسن الحديث، ولذلك حسن الحديث جماعة كالحافظ عبدالحقّ في أحكامه وابن تيمية وغيرهما.

قوله: التيس ـ بفتح التاء المشدّدة ثم ياء ساكنة وآخره سين ـ: يطلق على ذكر المعز والظباء والوعول. والحديثان يدلاّن على تحريم تحليل الزوجة المطلّقة ثلاثاً إذا كان التزوّج بقصد ذلك، ولا تحل بذلك والعقد باطل، وكل من المحلِّل ـ بكسر اللام الأُولى ـ: والمحلَّل ـ بفتحها ـ: ملعونان بلعنة الله تعالى ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد سمّى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المحلّل التيس المستعار، يعني: الجدي والذكر من المعز الذي يستعيره مريد نزوه على الأنثى. قال الترمذي في الجامع: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم... وغيرهم، وهو قول الفقهاء من التابعين، وبه

يقول سفيان الثوري، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحٰق...

وعلى كل فمن تزوّج امرأة بنيّة تحليلها كان زانياً، وهي كذلك إن كان بعلمها، فإن طلّقها وتزوّجها الأول كان نكاحهما فاسداً، وهما زانيان يستحقان الحدّ الشرعي.

* * *

المُتْعَة

{٨٩٦} ـ عن عليّ عليه السلام أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عن متعة النساء، وعن لحوم الحُمُر الأهلية زمن خيبر.

رواه البخاري (٧١/١١)، ومسلم (١٨٩/٩)، والترمذي (١٠٠٣)، والدارمي (٢٢٠٢)، وابن ماجه (١٩٦١)، وابن الجارود (٦٩٧)، والبيهقي (٢٠١/٧).

{٨٩٧} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: رخّص رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عام أوطاس في المتعة ثلاثاً، ثم نهى عنها.

رواه مسلم (١٨٤/٩) ومعناه عند البخاري أيضاً (٧٩/١١).

{٨٩٨} ـ وعن سَبْرَة بن مَعْبَد الجُهَنيّ رضي الله تعالى عنه أنه كان مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**يا أيها الناس إنّي قد كنتُ أذِنْتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وأن الله تعالى قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شيءٌ فَلْيُخَلِّ سبيلَه ولا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً**»، وفي رواية: أنه غزا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فتح مكة، قال: فأقمنا خمس عشرة، ثلاثين بين ليلة ويوم، فلم أخرج حتى حرَّمها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. وفي أخرى: أمرنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكّة، ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها.

رواه مسلم (١٨٦/٩، ١٨٧).

نكاح المتعة: هو النكاح بمهر إلى أجل ولو ساعة أو ليلة... بدون وليّ، ولا إشهاد، ولا إعلان، ولا طلاق، ولا إلزام الزوج بنفقته على المرأة، ولا توارث، ولا إلحاق الولد بوالده... وكان في أوّل الإسلام مباحاً للضرورة جاءت بذلك أحاديث صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود وجابر وسلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنهم، وكلّها في الصحيحين أو أحدهما، ثم جاء الأمر الإلهي بنسخها وتحريمها، وثبت ذلك عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأحاديث متواترة جاءت عن أكثر من خمسة عشر صحابياً: عن عليّ، وعمر، وسلمة بن الأكوع، وسبرة بن معبد، وأبي هريرة، وجابر، وابن عمر، وأبي ذرّ، وسهل بن سعد، وكعب بن مالك، وأنس، وحُذيفة، وثعلبة بن الحكم، والحارث بن غزية... وهي مخرجة في مشهور أمّهات السنّة ودواوينها من صحاح وسنن ومسانيد وغيرها، وأشهرها ما أوردناه في الفصل.

وهي محرّمة عند عامّة العلماء وكافّتهم، وإلى القارىء بعض ما يقول العلماء في ذلك:

قال محيي السنة البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة (٩/١٠٠): اتّفق العلماء على تحريم نكاح المتعة، وهو كالإجماع بين المسلمين، وروى عن ابن عباس شيء من الرخصة للمضطر إليه بطول العزبة، ثم رجع عنه حيث بلغه النهي.

وقال الحافظ ابن عبدالبرّ رحمه الله تعالى في التمهيد (١٠/١٢١): وأما سائر العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين وفقهاء المسلمين، فعلى تحريم المتعة، منهم مالك في أهل المدينة والثوري وأبو حنيفة في أهل الكوفة، والشافعي فيمن سلك سبيله من أهل الحديث والفقه والنظر بالاتفاق، والأوزاعي في أهل الشام، والليث بن سعد في أهل مصر وسائر أصحاب الآثار... وقال أيضاً (١٠/١٠٢): واختلف العلماء في معنى المتعة في الرجل يتزوّج عشرة أيام أو نحوها إلى أجل يجوز أن يقول: أتزوجها شهراً، أو يقول: تُمتعيني بنفسك بهذا الدينار شهراً، فقال مالك

والثوري وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي والأوزاعي كلّهم يقول: هذا نكاح المتعة وهو باطل دخل أو لم يدخل، ويفسخ قبل الدخول وبعده، وهذه المتعة محظورة محرّمة، وهو قول أحمد وأهل الحديث.

وقال ابن حزم رحمه الله تعالى في المحلّى (٥١٩/٩): ولا يجوز نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل، وكان حلالاً على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم نسخها الله تعالى على لسان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نسخاً باتّاً إلى يوم القيامة إلخ.

وقال ابن رشد رحمه الله تعالى في البداية (٥٠٢/٦، ٥٠٧) بعد أن ذكر تواتر الأحاديث بتحريمها: وأكثر الصحابة وجميع فقهاء الأمصار على تحريمها.

وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى في المغني (١٧٨/٧) على قول الخِرقي: ولا يجوز نكاح المتعة: ومعنى نكاح المتعة أن يتزوّج المرأة مدة سواء كانت المدة معلومة أو مجهولة، فهذا نكاح باطل نصّ عليه أحمد، قال: وهذا قول عامّة الصحابة والفقهاء.

وقال المازري في المعلم (٨٦/٣): ثبت أن نكاح المتعة كان جائزاً أول الإسلام، ثم ثبت بالأحاديث الصحيحة المذكورة هنا أنه نُسِخ، وانعقد الإجماع على تحريمه، ولم يخالف فيه إلا طائفة من المبتدعة إلخ.

وقال عياض في الإكمال (٥٣٧/٤): وقع الإجماع من جميع العلماء على تحريمها إلا الروافض إلخ. وقال الخطابي رحمه الله تعالى: تحريم المتعة كالإجماع إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح على قاعدتهم في الرجوع في المختلف فيه إلى عليّ وآل بيته، فقد صحّ عن عليّ أنها نسخت... وقال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما: وقد سُئِل عن المتعة: هي الزنا بعينه، نقله الحافظ في الفتح (٧٧/١١). وقال ابن المنذر رحمه الله تعالى: جاء عن الأوائل الرخصة فيها، ولا أعلم اليوم أحداً يجيزها إلا بعض الرافضة، ولا معنى لقول يخالف كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، نقله الحافظ في الفتح.

وقال الحازمي رحمه الله تعالى في الاعتبار بعد كلام: فلم يبق اليوم في ذلك خلاف بين فقهاء الأمصار، إلا شيئاً ذهب إليه الشيعة.

إذا عرفت هذا، فكل من عُرِفَ عنه هذا النكاح بعد علمه بنسخه كان زانياً ووجب عليه الحدّ الشرعي، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لما ولي عمر رضي الله تعالى عنه خطب الناس، فقال: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أذن لنا في المتعة ثلاثاً ثم حرّمها، والله لا أعلم أحداً يتمتع وهو مُحْصَنٌ إلا رجمته بالحجارة، إلا أن يأتيني بأربعة يشهدون أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أحلّها بعد إذْ حَرَّمَها، رواه ابن ماجه (١٩٦٣) بسند حسن وأصله في الصحيحين، وهكذا جاء في صحيح مسلم (١٨٨/٩) عن ابن الزبير أنه هدّد ابن عباس بالرجم إذا ثبت عنه فعلها، وفيه أيضاً (١٩٠/٩) عن عليّ أنه سمع ابن عباس يُلَيِّنُ في متعة النساء، فقال: مهلاً يا ابن عباس إلخ، وفي رواية: إنك رجل تائه، إلخ.

ملحوظة: جاءت الأحاديث مختلفة في وقت تحريمها وإباحتها، فجاءت في خيبر، وفي عمرة القضاء، وفي الفتح، وفي أوطاس، وفي تبوك، وفي حجة الوداع، وفي حنين...

قال الحافظ في الفتح (٧٢/١١): والمشهور في تحريمها أن ذلك كان في غزوة الفتح كما أخرجه مسلم من حديث الربيع بن سبرة عن أبيه... وقال النووي (١٨١/٩): والصواب المختار أن التحريم والإباحة كانا مرتين، وكانت حلالاً قبل خيبر ثم حرّمت يوم خيبر، ثم أُبيحت يوم فتح مكّة وهو يوم أوطاس لاتصالهما، ثم حرّمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة، واستمر التحريم...

وقال أستاذنا الحافظ سيدي أحمد الصديق رحمه الله تعالى في هداية الرشد (ج ٥١٠/٦) بعد أن ذكر ما جاء في ذلك من أحاديث مختلفة ما نصّه: تنبيه: الصحيح من هذه الأقوال أن ذلك كان يوم خيبر ويوم الفتح، والمراد زمنهما، ومن قال حنين فتحريف من خيبر، ومن قال أوطاس

فلدخولها في زمن الفتح، لأنها كانت بعد الفتح، ومن قال: حجة الوداع فسبق ذهن من الفتح، ومن قال عمرة القضاء فواهم بلا شكّ، فسقطت الأقوال كلّها، ولم يبق إلا أن الله أباحها لهم في خيبر، ثم نهاهم عنها، ثم أباحها لهم في الفتح، ثم نهاهم عنها وحرّمها إلى يوم القيامة، وأصله عند الحافظ في الفتح.

❊ ❊ ❊

الدخول على النساء والخلوة بهنّ

{٨٩٩} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إيّاكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**».

رواه أحمد (١٤٩/٤)، والبخاري في النكاح (٢٤٤/١١)، ومسلم في السلام (١٥٣/١٤)، والترمذي في النكاح (١٠٥٣)، قال الترمذي: الحمو: أخو الزوج كأنه كره له أن يخلو بها ـ وهو بفتح الحاء وسكون الميم ثم واو ـ: اتّفق أهل اللغة على أن الأحماء أقارب الزوج، والمراد بهم هنا من تحرم عليهم زوجته كأخيه وابن أخيه وابن عمّه ونحوهم، وهؤلاء هم الذين يوصفون بالموت؛ لأن عادة الناس التساهل في دخول هؤلاء على المرأة، وقد يختلي أحدهم بها فيقع في المحظور، وهذا هو الموت والهلاك. قال القاضي عياض: معناه الخلوة بالأحماء مؤدّية إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله كهلاك الموت. وقال النووي: إن الخلوة بقريب الزوج أكثر من الخلوة بغيره، والشر يتوقع منه أكثر من غيره، والفتنة منه أمكن لتمكّنه من الوصول إلى المرأة، والخلوة بها من غير نكير بخلاف الأجنبي... (١٥٣/١٤).

وأقول: إنه يقع بدخول الأقارب على الزوجة من المفاسد والمصائب ما هو معروف ومشاهد، ففي هذا الحديث التحذير الشديد من دخول الرجال على النساء غير المحارم، فيتعيّن على أولئك الطفيليين على موائد

العلم والزاعمين الالتزام أن يدرسوا أمثال هذا الحديث مما يأتي حتى يتأدّبوا بآداب الإسلام، فيكُفُّوا عما هم عليه من الاختلاط باسم الإسلام في كل مناسبة حتى في قاعات المحاضرات والحفلات والمسرحيات.

{٩٠٠} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن نفراً من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبو بكر الصديق وهي تحته يومئذ، فرآهم فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: لم أرَ إلا خيراً، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله قد بَرَّأها مِن ذلك**»، ثم قام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر فقال: «**لا يَدْخُلَنَّ رجلٌ بعدَ يَوْمي هذا على مُغِيبةٍ إلاّ ومعه رجل أو اثنان**».

رواه أحمد (٦٥٩٥، ٦٧٤٤، ٦٩٩٥)، ومسلم في السلام (١٤/١٥٥).

{٩٠١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَدْخُل رجلٌ على امرأة ولا تُسافِرْ إلا ومعها ذُو مَحْرَم**»، وفي رواية: «**لاَ يَخْلُوَنَّ أحدُكم بامرأةٍ إلا مع ذي محرم**».

رواه أحمد (١/٢٢٢)، والبخاري في الحج والجهاد والنكاح، ومسلم في الحجّ والسياق للبخاري وتقدم ويأتي.

{٩٠٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تأذن المرأة في بيت زوجها، وهو شاهد إلا بإذنه**».

رواه ابن حبان (١٩٦٦) بالموارد وسنده صحيح على شرط مسلم غير شيخه الحسن بن سفيان، وهو ثقة حافظ إمام.

{٩٠٣} ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَخْلُوَنَّ أحدُكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثُهُما**».

رواه أحمد (١/١٨، ٢٦)، والترمذي معلّقاً، والحاكم (١/١١٣، ١١٥) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

{٩٠٤} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تَلِجُوا على المُغِيبَاتِ، فإن الشيطان يَجْرِي مِن أحدِكم مَجْرَى الدَّم**»، قلنا: ومنك؟ قال: «**ومني، ولكن الله أعانني عليه فأَسْلَم**».

رواه أحمد (٣٠٩/٣)، والترمذي (١٠٥٤)، ورجاله رجال الصحيح غير مجالد، لكن معنى الحديث صحيح من طرق أخرى.

المغيبات ـ بضم الميم وكسر الغين ـ: هن اللاتي غاب أزواجهن عن المنزل، وقوله: لا تلجوا، أي: لا تدخلوا.

في هذه الأحاديث النهي عن الدخول على النساء والخلوة بهنّ، وخاصة إذا كان رجالهن غير حاضرين، ولا يجوز لهنّ الإذن لدخول أحد إلا بإذنهم كما تقدم في حقوق الزوجين، وقد علّل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذلك بكون الشيطان يحضر وقته، فيوحي إلى الجانبين بوساوسه، فيوقعهما في المحظور. وفي حديث ابن عمرو دليل على أنه إذا اختلى جماعة بامرأة أو دخلوا عليها، وكانوا قوماً صالحين يُؤْمَنُ منهم التواطؤ على المعصية أن ذلك لا بأس به، وفيه فضل أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها حيث برّأها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من ارتكاب ما يخدش عرضها ويمسّ كرامتها.

وفي حديث ابن عباس نهي المرأة أن تسافر إلاّ مع ذي محرم، وفي ذلك أحاديث تقدم بعضها في غضون الكتاب، ويأتي بعضها في الأدب... وفي حديث جابر دليل على أن للشيطان تسلّطاً على الإنسان، وأنه يجري في عروقه... ويأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

والخلاصة أنه لا يجوز الدخول على النساء والخلوة بهنّ من غير محارمهن... وقد كان السلف والمسلمون في القديم يتّقون الخلوة بالأنثى حتى بالبهيمة، حتى قال بعضهم: شيطان مُغْوٍ وذكر قائم وأنثى حاضرة. وفي التاريخ وقائع وفضائح في ذلك، والسبب فيها الخلوة والدخول على النساء والاختلاط بهنّ...

* * *

الإذن للنساء في الخروج للحاجة

{٩٠٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرجت سودةُ بنتُ زَمْعَة رضي الله تعالى عنها ليلاً فرآها عمر رضي الله تعالى عنه فعرفها، فقال: إنك والله يا سودةُ ما تَخْفَيْن علينا، فرجعت إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، وهو في حُجْرَتي يَتَعَشَّى، وإن في يده لَعرقاً فأنزل عليه فرفع عنه، وهو يقول: **«قد أُذِنَ الله لكنَّ أن تخرجْن لحوائِجكُنَّ»**.

رواه البخاري (١٠/١٥٠) في النكاح، ومسلم في السلام (١٤/١٥٠) وغيرهما.

في الحديث مشروعية خروج المرأة من بيتها لحاجتها، والحديث وإن كان سببه الخروج للبراز فإضافة الجمع للضمير يدلّ على عموم كل حاجة أياً كانت من بيع وشراء وصلة رحم وإجابة دعوة وتعزية وزيارة وعبادة... إذا كان ذلك في إطار الشروط المطلوبة منها من الاحتجاب وعدم اختلاطها بالرجال وخلوّها من التعطّر...

وتقدم في الصلاة حديث: **«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»**، وكذا حديث خروج النساء واجتماعهن في بيت واجتماع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بهنّ في أحاديث كثيرة في مناسبات عديدة، وسيأتي بعضها في الجهاد أيضاً وفي السيرة النبوية وفي الأدب.

* * *

كراهية خروج المرأة لغير حاجة

{٩٠٦} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«المرأة عورة، فإذا خرجتْ اسْتَشْرَفَهَا الشيطانُ، وأقربُ ما تكون من ربّها إذا هي في قَعْرِ بَيْتِهَا»**.

رواه الترمذي (١٠٥٥)، وابن خزيمة (١٦٨٥، ١٦٨٦، ١٦٨٧)، وابن حبان (٣٢٩، ٣٣٠) بالموارد، وسنده صحيح على شرط مسلم عند ابن حبان وحسنه الترمذي وصححه كما في نسختنا، وأورده الهيثمي (٢/٣٥) موقوفاً بلفظ: إنما النساء عورة، وأن المرأة لتخرج من بيتها وما بها من بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وأن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضاً أو أشهد جنازة، أو أصلّي في مسجد، فقال: وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها، وعزاه لكبير الطبراني رقم (٩٤٧٤)، قال: ورجاله ثقات، وللحديث حكم الرفع كما لا يخفى.

قوله: المرأة عورة، قال في مجمع البحار: جعل المرأة نفسها عورة لأنها إذا ظهرت يستحيا منها كما يستحيا من العورة إذا ظهرت، والعورة السوأة وكل ما يستحيا منه إذا ظهر... قوله: استشرفها أي: زيّنها في نظر الرجال، وقيل: ينظر إليها ليغويها ويغوي بها، وأصل الاستشراف رفع البصر للنظر إلى الشيء.

والحديث يدلّ على أنه يستقبح خروج المرأة وبروزها لغير حاجة، لما جعل الله تعالى فيها من الفتنة وتعلق قلوب الرجال بها. وقد جعل الله عزّ وجلّ النساء في طالعة مشتهيات الدنيا ومفاتنها، فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، ولا يُنكر شعور وإحساس أن مجرد رؤية شخص المرأة يلفت الأنظار لكل طبقات الرجال، ولهذا جاءت الشريعة باستعمال تدابير نحو المرأة وإبعادها عن الرجال كما فصلت ذلك في كتابي «المرأة المتبرّجة».

* * *

احتجاب المرأة عن الرجال ونزول آيات الحجاب

{٩٠٧} ـ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت هذه

الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنّ الغِربانُ من الأكسية. وفي رواية: ما أكسية سود يلبسنها.

رواه عبدالرزاق في المصنف (٣١٥٤/١٠)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٨) بسند صحيح، وعزاه في الدرّ المنثور (٦٥٩/٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه أيضاً.

{٩٠٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شققن مروطهنّ فاختمرن بها، وفي رواية: أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها.

رواه البخاري في تفسير سورة النور (١٠٦/١٠) الحديث كالسابق تقدم في اللباس.

الغربان ـ بكسر الغين ـ: جمع غراب، أي: كأنهنّ في لبسهنّ السواد كالغراب. وقوله: مروطهنّ: جمع مرط ـ بكسر الميم ـ: كساء معروف من صوف أو وبر كان النساء يلبسنه ويتلففن فيه عند خروجهنّ.

من إكرام الله تعالى للمرأة ورفعه قدرها وصيانتها أن فرض عليها التستّر عن الرجال الأجانب وحجب محاسنها ومفاتنها عن عيون ذئاب البشر، وحرّم عليها السفور والتبرّج، وليْسَ الحجابُ قيداً للمرأة، ولا دليل التأخر ولا عادة قديمة كما يَنْعِقُ به الإباحيون أعداء الأخلاق والإنسانية.

وقد فرض الله الحجاب وأنزل فيه أربع آيات كريمات، وجاءت السنّة النبوية تؤكد ذلك وتبينه، ونحن سنذكر ذلك ونوضحه بإسهاب، فليصبر معنا القارىء.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ

ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فهذه الآية الكريمة أعظم آية في كتاب الله تعالى تفرض الحجاب على المرأة، وقد اشتملت على خمسة أُمور كلّها ترتبط بالحجاب، وهذه الأُمور هي الآتية:

أولاً: الزينة. **ثانياً**: ما ظهر منها. **ثالثاً**: ضرب الخمر على الجيوب. **رابعاً**: من يجوز لهم الاطلاع على زينة المرأة. **خامساً**: الضرب بالرجل... لتعلم زينة المرأة.

فالأول إبداء الزينة أي: إظهارها للرجال الأجانب، فهي محرمة بنص هذه الآية الكريمة، والزينة التي يحرم على المرأة إظهارها وكشفها في الإسلام تشمل زينتين اثنتين: الأولى خَلْقِيَّةٌ وهي جميع جسدها إلا ما ظهر بلا قصد... ولا شكّ أن الوجه من أصل الزينة وجمال الخلقة. ثانيهما: زينة مكتسبة، وهي ما تتجمّل به المرأة من أزياء وملابس وحلي كأساور الأيدي وقلائد الأعناق وأقراط الآذان وما تتجمّل به في خديها وشفتيها ومعاجرها من أصباغ وأدهان ومساحيق... فهذه هي الزينة التي نهى الله تعالى النساء عن إظهارها إلا ما لا يمكن إخفاؤه، وكان يبدو دون إرادة أو قصد كأن يكشف الريح مثلاً عن شيء مما ذكر أو ظهر بنفسه، فهذا هو الظاهر من سياق الآية، وهو مقتضى حكمة التشريع والسر في فرضية الحجاب، وهذا هو الأمر الثاني. ورجح هذا القول كثير من العلماء كالقرطبي، وابن عطية، وابن الجوزي، وأبي حيان، ومن المتأخرين صديق حسن خان القنوجي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وأبو الأعلى المودودي، ومحمد الصابوني وغيرهم.

قال ابن عطية في تفسيره: ويظهر لي في محكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كل ما غلبها، فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بدّ منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفوّ عنه، قال: ويقوي

ما قلناه الاحتياط ومراعاة فساد الناس، فلا يظنّ أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلا ما كان بذلك الوجه (٢٩٥/١١، ٢٩٦).

وقال القرطبي (٢٢٩/١٢): الزينة على قسمين: خلقية، ومكتسبة، فالخلقية وجهها، فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة... أما الزينة المكتسبة، فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها، كالثياب، والحلي، والكحل، والخضاب..

وقال ابن كثير (٨٨/٦، ٨٩) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب... وفي رواية: الزينة زينتان، فزينةٌ لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب.

وقال العلامة القنوجي في تفسيره: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ما يتزيّن به من الحلية وغيرها مثل الخلخال، والخضاب في الرجل، والسوار في المعصم، والقرط في الأذن، والقلائد في العنق، فلا يجوز للمرأة إظهارها، ولا يجوز للأجنبي النظر إليها... قال: ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها؛ كالجلباب، والخمار، وغيرها (٣٤٩/٦).

وقال المحقق محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان (١٩٨/٦، ١٩٩، ٢٠٠): أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا: إن هذا القول هو الأظهر لأنه هو أحوط الأقوال وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها كما هو معلوم، والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي. اهـ.

أما قول من قال بأن المراد ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] هو

الوجه والكفّان، فهو وإن قال به أعلام من العلماء ورجحه كثيرون، فنحن مع احترامنا لهم ولرأيهم نقول: إنه مما لا يتوافق وقواعد الشريعة الإسلامية وحكمتها، ولا نراه مراداً للآية الكريمة، وذلك لأن وجه المرأة على الخصوص هو الرائد الأول للجمال والفتنة، وهو زينة أيّ زينة، لا سيما إذا اقترن بشيء من الأصباغ والمساحيق... فالصحيح الذي نختاره كما اختاره كثير من المحقّقين أن الوجه والكفّين كسائر الجسد في وجوب سترهما وعدم إظهارهما إلا لضرورة.

قال الشيخ محمد الأمين في أضواء البيان (١٩٨/٦، ١٩٩، ٢٠٠): إن قول من قال في معنى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الوجه والكفّان، توجد في الآية قرينة تدلّ على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب هي ما تتزيّن به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها، كالحلي والحلل، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه...

وقال (٦٠٢/٦): وبالجملة، فإن المنصف يعلم أنه يَبْعُدُ كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب، مع أن الوجه هو أصل الجمال، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية، وداعٍ إلى الفتنة والوقوع فيما لا ينبغي. ألم تسمع بعضهم يقول:

إسْمَحُوا لي أن أفوزَ بنَظْرَةٍ ودعُوا القيامة بعد ذلك تقومُ

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك، ولقد صدق من قال:

وما عَجَبٌ أنّ النساءَ تَرجَّلَتْ ولكنَّ تأنِيثَ الرِّجالِ عُجابُ

وقال الداعية أبو الأعلى المودودي في الآية: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: وهذه الجملة تدل على أن النساء لا يجوز لهنّ أن يتعمدن إظهار هذه الزينة غير أن ما ظهر منها بدون قصد منهنّ، أو ما كان ظاهراً بنفسه لا يمكن

إخفاؤه، كالرداء الذي تجلّل به النساء ملابسهنّ، لأنه لا يمكن إخفاؤه، وهو ما يستجلب النظر لكونه على بدن المرأة على كل حال، فلا مؤاخذة عليه من الله تعالى، وهذا هو المعنى الذي بيّنه عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه والحسن البصري وغيرهما.

أمّا ما يقوله غيرهم: إن معنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما يظهره الإنسان على العادة الجارية ثم هم يدخلون فيه وجه المرأة وكفّيها بكل ما عليهما من الزينة، أي: أنه يصح عندهم أن تزيّن المرأة وجهها بالكحل والمساحيق والصبغ، ويديها بالحناء والخاتم والأسورة ثم تمشي في الناس كاشفةً وجهها وكفّيها... أما نحن، فنكاد نعجز عن أن نفهم قاعدة من قواعد اللغة يجوز أن يكون معنى ما ظهر منها ما يظهره الإنسان، فإن الفرق بين أن يظهر الشيء بنفسه أو أن يظهره الإنسان بقصده واضح، لا يكاد يخفى على أحد، والظاهر من الآية أن القرآن ينهى عن إبداء الزينة، ويرخّص فيما إذا ظهرت من غير قصد، فالتوسّع في حدّ هذه الرخصة إلى حدّ إظهارها عمداً مخالف للقرآن ومخالف للروايات التي يثبت بها أن النساء في عهد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما كنّ يبرزن إلى الأجانب سافرات الوجوه، وأن الأمر بالحجاب كان شاملاً للوجه، وكان النقاب قد جعل جزءاً من لباس النساء... وأدعى إلى العجب أن هؤلاء الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها وكفّيها للأجانب يستدلّون على ذلك بأن الوجه والكفّين من المرأة ليسا بعورة، مع أن الفرق كبير جداً بين الحجاب وستر العورة، والعورة ما لا يجوز كشفه حتى للمحارم من الرجال، وأما الحجاب فهو شيء فوق ستر العورة. تفسير سورة النور (ص ١٥٧).

وقال الشيخ المفسّر محمد علي الصابوني في روائع البيان (١٧١/٢) تحت عنوان: بدعة كشف الوجه: ظهرت في هذه الأيام الحديثة دعوة تطوّرية جديدة تدعو المرأة إلى أن تسفر عن وجهها وتترك النقاب الذي اعتادت أن تضعه عند الخروج من المنزل بحجّة أن النقاب ليس من الحجاب الشرعي، وأن الوجه ليس بعورة... لقد لاقت هذه الدعوة بدعة كشف الوجه رواجاً بين صفوف كثير من الشباب، وخاصة منهم العصريّين،

لا لأنها دعوة حق، ولكن لأنها تلبّي داعي الهوى، والهوى مُحَبَّب إلى النفس، وتسير مع الشهوة، والشهوة كامنة في كل إنسان، فلا عجب إذاً أن نرى أو نسمع من يستجيب لهذه الدعوة الأثيمة، ويسارع إلى تطبيقها ولست أدري أي إثم يتخلصون منه، وهم يدعون المرأة إلى أن تطرح هذا النقاب عن وجهها وتسفر عن محاسنها في مجتمع يتأجّج بالشهوة، ويصطلي بنيران الهوى، ويتبجح بالدعارة والفسق والفجور، ولقد سبقهم بهذه البدعة المنكرة بعض أهل الهوى من الشعراء، حيث قال:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الخِمَارِ المُذَهَّبِ أَذْهَبْتِ دِينَ أَخِي التُّقَيِّ المُتَعَبِّدِ
نُورُ الخِمَارِ ونُورُ وَجْهِكِ ساطِعٌ عَجَباً لِوَجْهِكَ كَيْفَ لَمْ يَتَوَقَّدِ

عجباً والله لهؤلاء وأمثالهم أن يدعوا المرأة المسلمة إلى كشف الوجه باسم الدين، وأن يزيّنوا لها طرح النقاب في مثل هذا العصر الذي فسد رجاله وفسق شبابه، وكثر فيه الفسق والفجور والمجون... والإسلام قد حرّم على المرأة أن تكشف شيئاً من عورتها أمام الأجانب خشية الفتنة، فهل يعقل أن يأمرها الإسلام أن تستر شعرها وقدميها، وأن يسمح لها أن تكشف وجهها ويديها وأيهما تكون فيه الفتنة أكبر الوجه أم القدم؟ يا هؤلاء كونوا عقلاء ولا تلبسوا على الناس أمر الدين، فإن كان الإسلام لا يبيح للمرأة أن تدق برجلها الأرض لئلا يسمع صوت الخلخال وتحرّك قلب الرجل أو يبدو شيء من زينتها، فهل يسمح لها أن تكشف عن الوجه الذي هو أصل الجمال، ومنبع الفتنة، ومكمن الخطر...

* * *

تنبيه هام

اتّفق العلماء من أهل المذاهب الأربعة على أن المرأة إذا كانت جميلة، أو كان في وجهها ما يثير الفتنة، ويحرك غرائز الرجال وجب عليها ستر وجهها، وعلى هذا حملوا قول إمام الحرمين: اتّفق المسلمون على منع

النساء من الخروج سافرات الوجوه، ذكره في مغني المحتاج (١٢٩/٣)، ونقل القرطبي في التفسير (٢٢٩/١٢) عن ابن خويز منداد: أن المرأة إذا كانت جميلة وخِيف من وجهها وكفّيها الفتنة فعليها ستر ذلك.

وقال في الدرّ المختار (٢٨٤/١): وتمنع المرأة الشابّة من كشف الوجه بين الرجال لا لأنه عورة، بل لخوف الفتنة. ونقل الشوكاني في النيل عن ابن رسلان اتّفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه... وقال الحافظ في الفتح (٣٥١/١١): إن العمل استمرّ على جواز خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار متنقّبات لئلا يراهنّ الرجال، وقال الدكتور البوطي في كتابه «إلى كل فتاة» (ص ٥٠): فقد ثبت بالإجماع عند جميع الأئمّة سواء من يرى منهم أن وجه المرأة عورة كالحنابلة، ومن يرى منهم أنه غير عورة كالحنفية والمالكية أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان حولها من ينظر إليها بشهوة، ومن الذي يستطيع أن يزعم بأن الفتنة مأمونة اليوم، وأنه لا يوجد في الشوارع من ينظر إلى وجه النساء بشهوة...

الأمر الثالث: مما تضمّنته آية الحجاب ضرب الخمر على الجيوب، والخُمُر ـ بضمّتين ـ: جمع خمار، وهو القناع الذي تغطّي به المرأة رأسها وعنقها... والجيوب جمع جيب ـ بفتح ثم سكون ـ: والمراد به فتحة القميص، والدرع الواقعة على النحر والصدر، فأمر الله تعالى النساء بضرب الخُمُر على جيوبهنّ لتغطي ما تحتها من النحور والصدور، وقد كان من شعار المرأة الجاهلية كشف صدرها وعنقها وذوائب شعرها، فجاء الأمر الإلٰهي بستر ذلك.

وفي ذلك جاء حديث عائشة رضي الله تعالى عنها المذكور: يرحم الله نساء المهاجرين... شققن مروطهنّ فاختمرن بها، مع حديث أمّ سلمة: كأن على رؤوسهنّ الغربان إلخ، وفي صفة هذا الاختمار يقول الحافظ في الفتح (١٠٦/١٠) وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر وهو التقنّع إلخ، ويأتي مزيد لهذا في الجلباب.

الأمر الرابع: بيان الأصناف الذين يحلّ للمرأة إظهار زينتها لهم سواء منها الزينة الظاهرة أم الباطنة، وهم الزوج وأبوه وأبوها، وابنها، وابن زوجها، وأخوها، وابن أخيها، وابن أختها، وكل النساء المسلمات، وعبد المرأة المملوك، وأمتها والتابع للبيت من الخدم وغيرهم ممن لا حاجة لهم في النساء، كالبله مثلاً والمجانين، وكذلك الأطفال الذين ليس لهم معرفة بشؤون الجنس... فإذا لاح منهم بوادر ذلك لم يبح لهم إبداء زينة المرأة الباطنة، وإن كانوا دون بلوغ هذا ما ذكر في هذه الآية.

وفي الشريعة أصناف أُخر لم يذكروا هنا وذكروا في غيرها مثل عمّ المرأة، وخالها، وزوج ابنتها وزوج أمّها، والأقارب من الرضاعة السبعة، وقد تقدم ويأتي «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب...» والقاعدة في ذلك كما قال النووي في شرح مسلم (١٠٥/٩)، والحافظ في الفتح (٢٤٥/١١)، وصاحب الحجة البالغة (٦٨٦/٢) حقيقة المحرم من النساء التي يجوز النظر إليها والخلوة بها والمسافرة بها كل من حرم نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها، ثم فصلوا ذلك فانظره.

الأمر الخامس: لفت أنظار الرجال إلى زينتها الخفيّة، وهذا مما لا يجوز لأنه يحرك الغرائز ويثير المطامع، والقرآن الكريم نصّ على تحريم نوع خاص منه، وهو أن تضرب برجلها الأرض بشدّة لِتُسْمِع الرجال صوتَ الخلخال الذي كان يُعْتَادُ لبسُه، فيلتفت إليها الرجال.

وفي ضمن ذلك كل حركة تثير غرائز الرجال، ومنها هذه الأحذية الإفرنجية التي يلبسها نساء عصرنا لأن صوتها وصداها مثير ولافت. وهكذا احتاطت الشريعة لهذا الجانب الخطير... وفي هذا الحكم الأخير دليل على أن القدمين من الزينة الباطنة، وقد قدّمنا في اللباس حديث ابن عمر في ذيول النساء، وأنها ترخى تحت القدمين ذراعاً، وكذا حديث أمّ سلمة وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شبر لفاطمة عليها السلام شبراً من نطافها.

قال الترمذي: وفي الحديث رخصة للنساء في جرّ الإزار لأنه يكون

أستر لهنّ. وقال البيهقي: في هذا دليل على وجوب ستر قدميها. وقال ابن حزم: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾، هذا نصّ على أن الرجلين والساقين مما يخفى، ولا يحل إبداؤه. قال النووي: أجمعوا على ذلك.

الآية الثانية: من آيات وجوب الحجاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وهذه الآية الكريمة من أصرح الآيات في وجوب الحجاب ولزومه لعامة النساء بما فيهنّ أمّهات المؤمنين نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبناته، ثم نساء عامّة المسلمين. والجلابيب جمع جلباب وهو ثوب واسع تلتحف به المرأة وتستتر به كالملاءة والملحفة.

❋ ❋ ❋

كيفية إدناء الجلابيب

ذهب المحقّقون إلى أن معنى إدناء الجلابيب أن تسدل المرأة جلبابها وتغطّي به رأسها ووجهها. قال ابن جزي في التسهيل (١٤٤/٣): كان نساء العرب يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال لهنّ، فأمرهنّ الله تعالى بإدناء الجلالبيب ليسترن بذلك وجوههن وصورة إدنائه عند ابن عباس أن تلويه على وجهها حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقيل: تلويه حتى لا يظهر إلا عيناها، وقيل: أن يغطي الجلباب نصف وجهها، ونحوه عند ابن جرير (٤٦/٢٢)، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٢٢/٦): يدنين عليهنّ من جلابيبهن أي: يغطّين رؤوسهن ووجوههن. وقال الرازي في أحكام القرآن (٤٥٨/٣): وفي هذه الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبيين، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج. وقال أبو السعود (٨٠١/٦): ومعنى الآية أي: يغطين بالجلابيب وجوههن وأبدانهن إذا برزن. وقال الزمخشري: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زلّ

الثوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك، الكشاف (٣/٥٦٠). وقال الجلال المحلي: ﴿يُدْنِينَ﴾ إلخ جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة، أي: يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلاّ عيناً واحدة.

فنستخلص من هذه النقول لهؤلاء الأعلام أن إدناء الجلابيب هو إرخاؤها على الجسم من فوق وستر سائر الأطراف صيانة للمرأة المسلمة عما يدنس كرامتها ويعرّضها للابتذال، وهذا الحكم بالنسبة للشابة ومن يقاربها. أما القاعدة، وهي المسنّة التي فقدت دورتها وإنجابها وضعفت شهوتها وأصبحت بعيدة عن تحريك الغرائز.. فقد رخّص لها الله تعالى في وضع الجلباب ورفع عنها الحرج في البروز للرجال إذا كانت بعيدة عن التبرّج بالزينة، ومع ذلك فاتّخاذ الجلباب خير لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

الآية الثالثة: من آيات الحجاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهذه الآية الكريمة نزلت بسبب نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهي من موافقات عمر رضي الله تعالى عنه كما يأتي في السيرة وفي المناقب، ولكن حكمها يشمل سائر النساء كما ستعرف من نقول العلماء. قال الرازي في أحكام القرآن (٣/٤٥٥): وهذا الحكم وإن نزل خاصّاً في النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأزواجه، فالمعنى عام فيه وفي غيره، إذ كلّنا مأمورون باتّباعه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والاقتداء به إلا ما خصّه الله تعالى به دون أُمّته.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن (٣/١٥٦٧): وإذا

سألتموهن متاعاً... وهذا يدلّ على أن الله تعالى أذن في مساءلتِهنّ من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتى فيها... قال: والمرأة كلّها عورة بَدَنُها وصورَتُها فلا يجوز كشف ذلك إلا لضرورة أو حاجة، كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعِنّ ويَعْرِض عندها.

قال: وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، المعنى: أن ذلك أنفى للريبة وأبعد للتُّهمة وأقوى في الحماية... قال: وهذا يدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحلّ له، فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحصن لنفسه، وأتمّ لعصمته.

وقال القرطبي في تفسيره (٢٢٧/١٤): ويدخل في ذلك، أي: الحكم الذي في الآية، جميع النساء بالمعنى وبما تضمّنته أصول الشريعة من أن المرأة كلّها عورة بدنها وصورتها إلخ، وقال محمد الأمين في تفسيره (٥٨٤/٦، ٥٨٥) قول كثير من الناس: إن آية الحجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، خاصة بأزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الرّيبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم؛ إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا حاجةَ إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهنّ، وقد تقرّر في الأصول أن العلّة تعمّ معلولها... وبما ذكرنا تعلم أن في هذه الكريمة الدليل الواضح على أنّ وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء لا خاصّ بأزواجه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن كان اللفظ خاصاً بهنّ رضي الله تعالى عنهنّ.

قال: فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، لو لم يكن علّة لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، لكان الكلام معيباً غير منتظم عند الفَطِن العارف، قال: وبهذا تعلم أن حكم آية الحجاب عام لعموم علّته.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

جاءت الآيتان الكريمتان خطاباً لزوجات الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويدخل في أحكامها كل النساء باتّفاق العلماء.

وأحكام الآيتين هي: الخضوع بالقول، القول المعروف، لزوم البيوت، تبرّج الجاهلية، إقام الصلاة، إخراج الزكاة، طاعة الله ورسوله.

وكل النساء مخاطبات بهذا الخطاب الإلهيّ، ومكلّفات بما فيه بلا خلاف بين علماء الإسلام لأدلّة أخرى تؤيّد ذلك.

أما الخضوع بالقول، فمعناه: تحسين الكلام وترقيقه وتمطيطه فأمرن أن يكون كلامهنّ مع الرجال الأجانب جزلاً فصلاً، ولا يكون فيه ما يثير كما كان عليه حال نساء الجاهلية والمومسات... ولذلك عقب ذلك بقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، أي: فيطمع من كان في قلبه مرض الشهوة وحبّ التغزّل والحديث مع النساء.

والقول المعروف: القول الحسن العادي العفيف الذي لا ترخيم فيه ولا ريبة ولا تكسّر، ولنقف هنا وقفة قصيرة، فنقول: إذا كان مطلق صوت المرأة لا بدّ فيه من مراعاة هذا الأدب، فكيف بأصوات المغنيّات والفنانات الفاجرات الراقصات العاهرات.

والقرار في البيوت: المكث فيها ولزومها ولا يخرجن إلا للضروريات والحاجة، وقد قدمنا في الصلاة بعض ما جاء في ذلك، ومرّ بعضها في الفصول الماضية، ويأتي بعض ذلك في الأدب إن شاء الله تعالى.

والتبرّج: هو إظهار الزينة والمحاسن والمفاتن للرجال والمتبرّجة ليس

لها جزاء إلا جهنم، كما قدمنا في الكاسيات العاريات من كتاب اللباس والزينة.

أما الجاهلية الأُولى، فهي ما قبل الإسلام. أما الثانية، فهي جاهليتنا، وهذه أقبح وأسقط وأسخف، ولا نظنّ أنه سبق في تاريخ البشرية مثيل لهذه الجاهلية التي نشاهدها في عصرنا.

ويبدو للمتأمّل أن هذه الأحكام وباقيها ليست بخاصة بأُمّهات المؤمنين، بل هي ترتبط بكل امرأة في كل عصر وتعمّ كل النساء...

ولذلك قال ابن كثير في تفسيره (٤٥١/٥): هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونساء الأُمّة تبع لهنّ في ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، قال السدي وغيره: يعني: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: دَغَلٌ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها، وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرّج الجاهلية، وقال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن قال: وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل: والتبرّج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كلّه منها، وذلك التبرّج ثم عمّت نساء المؤمنين في التبرّج....

هذه خلاصة آيات الحجاب، وقد تكلّمنا على المرأة وما يجب عليها وما تعمله في كتاب «المرأة المتبرّجة»، فاطلبه واقرأه فلعلك لا تجد مثله في موضوعه.

❋ ❋ ❋

العيوب التي يرد بها النكاح

{٩٠٩} ـ عن سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أيّما رجل تزوّج امرأة وبها جُنونٌ، أو جُذامٌ، أو بَرَصٌ، فمَسَّها، فلها صداقها، وذلك لزوجها غُرْمٌ على وليِّها.

رواه مالك في الموطأ (٣/١٣٠) مع الزرقاني، ومن طريقه البغوي في شرح السنّة (٩/١١٢)، ورواه البيهقي (٧/٢١٤، ٢١٥) من طريق سعيد بن منصور وغيره ورجاله ثقات، وفي الباب آثار كثيرة عن الصحابة وغيرهم انظرها عند البيهقي. إذا وجد أحد الزوجين عيباً بالآخر فله الخيار في فسخ النكاح أو إمضائه. والعيوب التي يثبت لأجلها الخيار في النكاح عند أكثر العلماء سبعة فأكثر، ثلاثة يشترك فيها الزوجان وهي: الجنون، والجذام، والبرص، وينفرد الرجل بالجب وهو قطع الذكر، والعنّة ـ بضم العين وتشديد النون ـ: وهو عدم القدرة على إتيان النساء إما لصغر ذكره أو لضعفه أو لفقدان شهوته، وهذا هو الذي يقال له العنّين ـ بكسر العين والنون ـ: وتنفرد المرأة بالرتق: وهو أن يكون فرجها مسدوداً يمنع من دخول الذكر، والقرن: وهو عظم أو لحم يكون في فرج المرأة يمنع من الوطىء. وهناك عيوب أخرى كثيرة اختلف فيها العلماء. وأثر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه المذكور يدلّ على أن من تزوّج امرأة وبها عيب من العيوب المذكورة، ودخل بها لزمه الصداق ثم يرجع على وليّها فيطالبه بمهره؛ لأنه خدعه ولم يعلمه بالعيب وذلك حرام بالإجماع: **«من غشنا فليس منّا»**.

النفقـــات

فضل النفقة على الأهل

{٩١٠} ـ عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إذا أنفق المسلم نفقةً على أهله، وهو يَحْتَسِبُها كانت له صدقة**».

رواه البخاري في النفقات (٤٢٥/١١)، ومسلم في الزكاة (٨٨/٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦/٢).

قوله: يحتسبها، أي: يريد بها وجه الله تعالى.

{٩١١} ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أفضل دينارٍ يُنفقُهُ الرجلُ دينارٌ ينفقه على عِيَالِهِ، ودينارٌ يُنْفِقُهُ الرجل على دابَّتِهِ في سبيل الله، ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله**».

رواه مسلم (٨١/٧).

{٩١٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دينارٌ أنفقْته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمُها أجراً الذي أنفقته على أهلك**».

رواه مسلم أيضاً (٨٢/٧).

في هذه الأحاديث فضل الإنفاق في سبيل الله، وفي الرقاب وعلى المسكين وأن أعظم ذلك أجراً وثواباً الإنفاق على الأهل والعيال، ويشمل ذلك الزوجة والأولاد والوالدين وغيرهم من الأقارب.

* * *

تحريم تضييع الأهل بلا نفقة

{٩١٣} ـ عن خَيْثَمَة رحمه الله تعالى قال: كنا جلوساً مع عبدالله بن عَمْرو إذ جاءه قَهْرَمان له فدخل، فقال: أعطيتَ الرقيق قُوتَهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كفى بالمرء إثماً أن يَحْبِسَ عمَّن يَمْلِك قُوتَه**».

رواه مسلم (٨٢/٧)، وفي رواية: «**كفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّعَ من يَقُوتُ**»، رواه أحمد (١٦٠/٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢)، والحاكم (٤١٥/١) (ج ٥٠٠/٤)، والبيهقي (٤٦٧/٧ و٢٥/٩).

قهرمان ـ بفتح القاف وسكون الهاء وفتح الراء ـ: هو القائم بحوائج الإنسان.

وفي الحديث وعيد شديد لمن يهمل مَن تلزمه نفقتهم ويضيّعهم مع يساره، فلو لم يكن له من الذنوب والآثام إلا ذلك لكفاه جريمة.

* * *

وجوب نفقة الأهل من زوجة وولد

{٩١٤} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أعتق رجل من بني عُذْرَة عبداً له عن دُبُر، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**ألك مالٌ غيرُه**»؟ فقال: لا، قال: «**من يشتريه مني**»، فاشتراه نعيم بن عبدالله العدوي بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم فدفعها إليه، ثم قال: «**ابدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا**»، يقول: «**فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك**».

رواه البخاري في البيوع (**٢١٤١**)، وفي الأحكام (٧١٨٦)، ومسلم في الزكاة (٨٣/٧) وتقدم في العتق (**٢٦٧**).

في الحديث وجوب النفقة على هذا الترتيب: النفس، ثم الأهل، ثم الأقارب وبعد ذلك ينوع في جهات الخير ووجوه البرّ، وفيه أن الحقوق إذا تزاحمت قدم الأوكد فالأوكد.

{**٩١٥**} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تصَدَّقُوا**»، قال رجل: عندي دينار، قال: «**تصدَّقْ به على نفسِك**»، قال: عندي دينار آخر، قال: «**تصدّق به على زوجتك**»، قال: عندي دينار آخر، قال: «**تصدّق به على ولدك**»، قال: عندي دينار آخر، قال: «**تصدّق به على خادمك**»، قال: عندي دينار آخر، قال: «**أنت أبصر به**».

رواه أحمد (**٢٥١/٢، ٤٧١**)، وأبو داود (**١٦٩١**)، والنسائي (**٣٤/٢**) في الكبرى، وابن حبان (**٤٢٣٦**)، والحاكم (**٤١٥/١**) بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

في الحديث كسابقه وجوب نفقة الرجل على زوجته، وولده، وخادمه. أما بالنسبة لنفقة الزوجة والولد الصغير فالإجماع على وجوبها... وأما نفقة الخادم، فواجبة أيضاً وكذا البهائم... كما يأتي في الأدب. وتقدم حديث معاوية القشيري: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهنّ مما تكتسون**» إلخ. واختلف العلماء رحمهم الله تعالى في تقدير نفقة الزوجة... الجمهور على أن المعتبر الكفاية، وقد نقل بعضهم الإجماع الفعلي من الصحابة والتابعين على ذلك.

والقرآن الكريم فرّق بين الموسع والمقتر، فقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

{٩١٦} ـ وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أفضلُ الصَّدَقَةِ ما تَرَكَ غني واليدُ العُلْيا خيرٌ من اليدِ السُّفْلى، وابدأ بِمَنْ تَعُولُ**»..

تقول المرأة: إما أن تُطْعِمَني، وإما أن تُطَلِّقَني، ويقول العبد: أَطْعِمْني واسْتَعْمِلْني، ويقول الابن: أَطْعِمْني إلى مَن تَدَعُني. فقالوا: يا أبا هريرة سمعت هذا من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ قال: لا، هذا من كيس أبي هريرة.

رواه البخاري (٤٢٨/١١)، ومسلم في الزكاة (١٢٤/٧، ١٢٥).

قوله: ما ترك غنىً، أي: أبقت بعدها غنى يعتمده صاحبها، وقوله: وابدأ بمن تعول، أي: ابدأ بمن تجب عليك نفقته، يقال: عالَ الرجل أهله إذا مانهم وقام بما يحتاجون إليه من قوت وكسوة، وقوله: من كيس ـ بكسر القاف ـ: أي: من حاصله واستنباطه مما فهمه من الحديث، والحديث يدلّ على أن أفضل الصدقة ما تركت بعدها لصاحبها ما يحتاجه، وأن المعطي أفضل من الآخذ، وأنه يجب البدء في النفقة بمن يلزمه المرء نفقتهم، ومنهم الزوجة والأولاد والولدان... واستدلّ الجمهور بقوله: إما أن تطعمني أو تطلّقني، على أن الزوج إذا لم ينفق على زوجته ولم تصبر واختارت فراقه فرّق بينهما، وفي قوله: ويقول الابن أطعمني إلخ، استدلّ به بعضهم على وجوب النفقة على الأولاد مطلقاً كباراً كانوا أم صغاراً، والجمهور على أنها تجب لهم صغاراً بالنسبة للذكور حتى يحتلموا، وللإناث حتى يتزوجن.

* * *

﴿ للزوجة أن تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وولدها

{٩١٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن هنداً قالت: يا رسول الله ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس

يُعْطِيني ما يكفيني وَوَلَدِي إلا ما أخذتُ منه وهو لا يَعْلَم، فقال: «**خُذِي ما يكفيك وولدَك بالمعروف**».

رواه البخاري (١١/٤٣١، ٤٣٦)، ومسلم في الأقضية (١١/٧، ٨، ٩) وغيرهما ويأتي مطوّلاً في موضعه.

قوله: شحيح في رواية مسيك - بكسر الميم والسين المشدّدة -.

وفي الحديث وجوب نفقة الزوجة والأولاد وأنها مقدرة بالكفاية، وفيه أن للمرأة أن تأخذ من مال زوجها بدون علمه ما تحتاجه لنفسها وأولادها بدون إسراف ولا تعدٍّ، ويؤخذ منه أن من له حقّ على الغير وعجز عن استيفائه ووقع في يده من ماله، فله أن يأخذ قدر حقّه بغير إذنه، وفي ذلك خلاف بين الأئمّة.

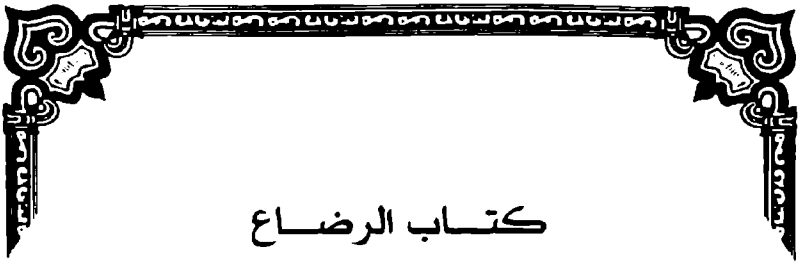

كتاب الرضاع

{٩١٨} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تُحَرِّمُ المَصَّةُ ولا المصّتان**».

رواه مسلم (٢٧/١٠)، وأبو داود (٢٠٦٣)، والترمذي (١٠٣٢)، والنسائي (٨٣/٦)، وابن ماجه (١٩٤١)، والدارمي (٢٢٥٦)، والبيهقي (٤٥٤/٧، ٤٥٥).

{٩١٩} ـ وعن أُمّ الفضل رضي الله تعالى عنها أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إني قد تزوّجت امرأة وعندي أخرى، فزعمت الأولى أنها أرضعت الحدثى، فقال: «**لا تُحَرِّم الإمْلاَجَةُ، ولا الإملاَجَتَانِ**».

رواه مسلم (٣٨/١٠، ٢٩)، والنسائي (٨٣/٦)، والدارمي (٢٢٥٧).

{٩٢٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عَشْرُ رضَعَاتٍ معلومات يُحَرِّمْنَ»، ثم نُسِخْنَ بخمس معلوماتٍ، فتوفي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهنّ فيما يقرأ من القرآن.

رواه مسلم (٢٩/١٠، ٣٠، ٣١)، وأبو داود (٢٠٦٢)، والترمذي (١٠٣٣)، والنسائي (٨٣/٦)، والدارمي (٢٢٥٨)، والبيهقي (٤٥٤/٧).

قوله: المصّة ـ بفتح الميم والصاد المشدّدة ـ: هي المرة من المصّ كالرضعة من الرضاع، وقوله: الإملاجة ـ بكسر الهمزة ـ: هي المصّة.

والحديثان الأولان يدلاّن على أنه لا أثر للمصّة والمصّتين في التحريم في باب الرضاع، كما أن حديث عائشة رضي الله تعالى عنها الأخير يدلّ على اعتبار خمس رضعات، وأنها كانت من القرآن ثم نسخ الله بها عشر رضعات لفظاً وحكماً، وتوفّي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والخمس تتلى غير أن هذه القراءة لم تتواتر، فهي من باب خبر الأحاد، وبهذا العدد في التحريم قال الشافعي وأحمد في رواية والليث وابن راهويه والظاهرية وجماعة من أهل الحديث.

قال الترمذي في الجامع: وبهذا كانت عائشة تفتي وبعض أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو قول الشافعي وإسحٰق. وقال أحمد بحديث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تحرّم المصّة ولا المصّتان**»، وقال: إن ذهب ذاهب إلى قول عائشة في خمس رضعات فهو مذهب قوي وجبن عن أن يقول فيه شيئاً. وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وغيرهم: يحرم قليل الرضاع وكثيره إذا وصل إلى الجوف، وهو قول سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وعبدالله بن المبارك ووكيع وأهل الكوفة.. وانظر للزيادة شرح مسلم للنووي (٢٩/١٠).

* * *

لا يحرم الرضاع إلا ما كان قبل الحولين

{٩٣١} ـ عن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يُحرّمُ من الرّضاع إلا ما فَتَقَ الأمْعاء في الثّدْيِ وكان قبل الفِطامِ**».

رواه الترمذي (١٠٣٥) بتهذيبي، وصححه وسنده صحيح، وهو وإن قالوا بانقطاعه فمعناه صحيح.

{٩٣٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم دخل عليها وعندها رجل، فكأنه تغيّر وجهه كأنه كره ذلك، فقالت: إنه أخي، فقال: «**انظرن ما إخوانكنّ فإنما الرضاعة من المجاعة**»، وفي رواية: فاشتدّ ذلك عليه، ورأيت الغضب في وجهه.

رواه البخاري (٥٠/١١)، ومسلم (٣٣/١٠، ٣٤)، وأبو داود (٢٠٥٨)، والنسائي (٨٤/٦)، وابن ماجه (١٩٤٥)، والدارمي (٢٢٦١) وغيرهم.

قوله: فتق كقتل، أي: شقّ، والأمعاء جمع معى ـ بكسر الميم والقصر ـ: موضع الطعام، وقوله: في الثدي، أي: في زمن الثدي وهو ما كان داخل الحولين.

وقوله: فإنما الرضاعة من المجاعة، يعني: الرضاعة التي تثبت بها الحرمة هي ما كانت حيث يكون الرضيع طفلاً لسدّ اللبن جوعته، لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت بذلك لحمه. والحديثان يدلاّن على أن الرضاعة التي تحرم ما يحرم من النسب هي ما كانت داخل الحولين حيث يقع الرضاع منه موقع الغذاء، فيشق أمعاءه ويسدّ جوعته ويكتفي به عن غيره، ويكون قبل فطامه وذلك داخل الحولين، وهي أيام الرضاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

* * *

رضاعة الكبير

{٩٢٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن سالماً مولى أبي حُذَيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فأتت ـ تعني ابنة سُهَيْل ـ: النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقالت: إن سالماً قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال لها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أرضعيه تَحْرُمي**

عليه ويذهبُ الذي في نفس أبي حذيفة»، وفي رواية: فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أرضعيه**»، قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير، فتبسّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: «**قد علمت أنه رجل كبير**»، وفي رواية: قالت أمّ سلمة لعائشة رضي الله تعالى عنهما إنه يدخل عليك الغلام الأَيْفَعُ الذي ما أُحِبّ أن يدخل عليَّ، قال: فقالت عائشة: أما لكِ في رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُسوةٌ؟ قالت: إن امرأة أبي حذيفة قالت: يا رسول الله إن سالماً يدخل عليّ وهو رجل وفي نفس أبي حذيفة منه شيء، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أرضعيه حتى يدخل عليك**».

رواه مسلم بجميع رواياته (٣١/١٠، ٣٢، ٣٣)، وأصله في البخاري (٣٤/١١، ٣٥)، وأبي داود (٢٠٦١) وغيرهما مطوّلاً.

وقوله: الغلام الأيفع ـ بسكون الياء وفتح الفاء ـ: هو الذي قارب البلوغ.

{٩٢٤} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: أبَى سائر أزواج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يُدْخِلْنَ عليهنّ أحداً بتلك الرّضاعة، وقلن لعائشة رضي الله تعالى عنها: والله ما نرى هذا إلا رُخصةً أرْخَصَها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لسالم خاصّةً، فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة، ولا رائينا.

رواه مسلم (٣٣/١٠)، وابن ماجه (١٩٤٧) وأصله في البخاري وأبي داود.

استدلّ جماعة من أهل العلم بهذه القصّة على أن إرضاع الكبير يثبت به التحريم، وبه قال سيدنا عليّ كرّم الله وجهه، ومولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، وابن أختها عروة، وعطاء بن أبي رباح، والليث بن سعد، وداود، وأيّده ابن حزم واختاره ابن تيمية وابن القيّم ورجّحه الشوكاني إذا دعت إلى ذلك ضرورة كرضاع الكبير الذي لا يستغنى عن دخوله على المرأة ويشقّ احتجابها منه. وذهب الجمهور إلى أن إرضاع الكبير لا عِبْرة به،

وقالوا: لأن هذه القصة خاصة بسالم مع زوجة أبي حذيفة، أو كان ذلك أوائل الهجرة ثم نسخ ذلك، والظاهر أن هذه رخصة يعمل بها عند الضرورة.

* * *

شهادة المرضعة

{٩٢٥} ـ عن عقبة بن الحارث رضي الله تعالى عنه أنه تزوّج ابنة لأبي إهاب بن عَزِيز، فأتته امرأة فقالت: قد أرضعتُ عقبةَ والتي تَزوَّج، فقال لها عقبةُ: ما أعلم أنكِ أرضعتِني ولا أخبرْتِني، فأرسل إلى آل إهاب يسألهم، فقالوا: ما علمنا أرضعت صاحبتنا، فركب إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالمدينة فسأله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كيف وقد قيل**»، ففارقها ونكحت زوجاً غيره. وفي رواية: «**دعها عنك**».

رواه البخاري (٨٨/٢٦٤٠) وقد تقدم في الرحلة في العلم.

هذه القصة وقعت بمكّة المكرمة ومنها شدّ الرحلة عقبة ليسأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ويستفتيه في هذه النازلة، وفيه دليل على قبول شهادة المرضعة على الرضاع، ويؤيّده قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دعها عنك**»، فلولا أنه اعتبر شهادتها بمفردها لما أمره بتركها، ولذلك فارقها فتزوّجت غيره. وقد اختلف الأئمّة في ذلك، فذهب أحمد وابن راهويه وغيرهما إلى قبول شهادة المرضعة الواحدة وتستحلف، وذهب آخرون إلى أنه لا بدّ من أربع نسوة، وهو مذهب الشافعي، وقال مالك: يكفي في ذلك امرأتان وسوّا في ذلك كل ما لا يطلع عليه إلا النساء، كالبكارة والثيابة والحيض والولادة.

وقوله: «كيف وقد قيل»، فيه إشارة إلى أنه من الاحتياط أن يفارقها وليس بنصّ في وجوب مفارقتها على هذه الرواية. نعم الرواية الأخرى،

وهي: «**دعها عنك**» ظاهرة في وجوب المفارقة، وبالتالي قبول قول المرأة، والله تعالى أعلم.

* * *

لبن الفحل

{٩٣٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء عمّي من الرضاعة يستأذن عليّ فأَبَيْتُ أن آذن له حتى أستأمِرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فَلْيَلِجْ عليكِ، فإنه عمّك**»، قالت: إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل، قال: «**فإنه عمّك فليلج عليك**»، قالت: وذلك بعد أن ضرب علينا الحجاب، قالت: «**يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة**».

رواه عبدالرزاق (٤٧٢/٧، ٤٧٣)، ومالك وأحمد والبخاري (٢٥٢/١١)، ومسلم (١٩/١٠، ٢٠)، وأبو داود وابن ماجه وغيرهم.

قوله: حتى أستأمر، تعني: حتى تطلب أمره وإذنه، قوله: فليلج، يعني: ليدخل.

وفي الحديث دليل على أن تحريم الرضاعة وأثرها لا يختصّ بالأُمّ المرضعة وأولادها، بل يعمّ كل المحارم حتى الزوج لأن لبن المرضعة فيه أثر ماء الفحولة وهو الزوج، وقد قدمنا في محرمات النساء أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، ولا فارق.

{٩٣٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية، والأخرى غلاماً، أيحل للغلام أن يتزوّج الجارية؟ فقال: «**لا، اللقاح واحد**».

رواه مالك رقم (١٣١٧) ومن طريقه عبدالرزاق في المصنف (١٣٩٤٢)، ورواه الترمذي (١٠٣١) أيضاً، والبيهقي (٤٥٣/٧) بسند صحيح.

قوله: اللقاح واحد، قال الترمذي: وهذا تفسير لبن الفحل، وهذا الأصل في هذا الباب. ففي هذا دليل على أن الفحولة لها أثرها في التحريم، وأن كل رضيع امتصّ من لبن امرأة لها زوج يطؤها فهو ابن لهذا الزوج من الرضاعة، وهذا مذهب الأئمّة الأربعة.

❋ ❋ ❋

ما يسنّ أن يعطى للمرضعة عند الفطام

{٩٢٨} ـ عن حجاج بن مالك الأَسْلَمِيّ أنه سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ما يُذْهِبُ عنّي مَذَمَّةَ الرّضاع؟ فقال. **«غُرّةُ عبدٍ أو أمة»**.

رواه أبو داود (٢٠٦٤)، والترمذي (١٠٣٦)، والنسائي (٨٩/٦) وغيرهم بسند حسن، وصححه الترمذي.

قوله: مذمّة ـ بفتحات مع تشديد الميم الثانية ـ: قال الترمذي: إنما يعني: ذمام الرضاعة وحقّها، يقول: إذا أعطيت المرضعة عبداً أو أمة فقد قضيت ذمامها... أي: حقّها اللازم بسبب الرضاع، فكأنه سأل ما يسقط عني حق المرضعة حتى أكون قد أدّيته كاملاً، وكانوا يستحبّون أن يهبوا للمرضعة عند فصال الصبي شيئاً سوى أجرتها.

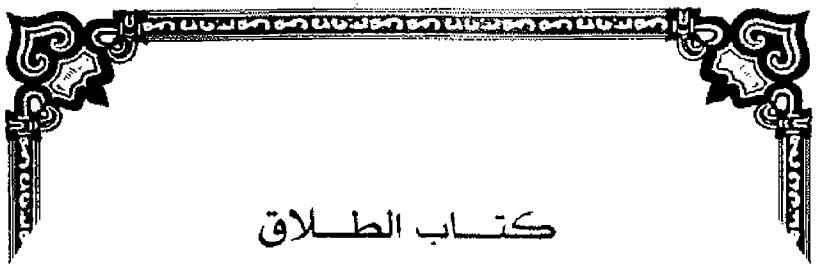

كتاب الطلاق

جوازه للحاجة

{٩٢٩} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**طلّق حفصة ثم راجعها**».

رواه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي (١٧٨/٦)، وابن ماجه (٢٠١٦)، والدارمي (٢٢٦٩)، وابن حبان (١٣٢٤)، والحاكم (١٩٧/٢)، والبيهقي (٣٢١/٧، ٣٢٢) وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وفي رواية عن ابن عمر أن عمر دخل على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعلّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد طلّقك، إنه قد كان طلقك ثم راجعك من أجلي، وأيم الله لئن كان طلقك لا كلّمْتُكِ كلمةً أبداً. رواه ابن حبان (١٣٢٥) بسند صحيح، وعزاه الهيثمي في المجمع (٣٣٣/٤) لأبي يعلى والبزار، وقال: رجالهما رجال الصحيح.

وفي رواية لقيس بن زيد: أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طلّق حفصة بنت عمر.. فجاء رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فدخل عليها فتجلْببتْ، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن جبريل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أتاني فقال لي: أرْجِعْ حَفْصَةَ، فإنها صَوَّامَةٌ قَوَّامةٌ، وهي زوجتُك في الجنّةِ**»، رواه الحاكم (١٥/٤) وفي سنده وهم وإرسال.

{٩٣٠} ـ وعن لَقِيط بن صبرة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن لي امرأة فذكر من بَذَائِها، قال: «**طلّقها**»، قلت: إن لها صحبة وولداً، قال: «**مُرْهَا أو قل لها فإن يكنْ فيها خيرٌ سَتَفْعَلُ ولا تَضْرِبْ ظَعِيتَكَ ضَرْبَكَ أَمَتِكَ**».

رواه أحمد (٤/٣٣، ٢١١)، وأبو داود في الطهارة (١٤٢) مطوّلاً وسنده صحيح.

الطلاق في اللغة: حلّ الوثاق، وفي الشرع: حل عقدة الزواج بألفاظ مخصوصة، وهو لفظ جاهلي، وجاء الشرع بتقريره.

والطلاق قد يكون واجباً كما إذا كانت المرأة خائنة لفراش زوجها، أو حصل بينهما شقاق لا علاج له، وقد يكون مكروهاً أو حراماً إذا لم يكن هناك موجب.

ويكون جائزاً إذا كان لذلك سبب كسوء خلق المرأة، أو عدم طاعتها لزوجها ونحو ذلك. وحديثا الباب يدلاّن على ذلك، فإن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أجَلُّ من أن يطلّق حفصة بلا سبب، ولقيط بن صبرة أمره النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بطلاق زوجته البذيئة اللّسان أمر إرشاد، ولذلك لما اعتذر له بصحبتها والأولاد أمره أن يعظها، ثم يجب أن يعلم على أن الطلاق ليس لعبة بين الأزواج، وإنما هو علاج فلا يصار إليه حتى تسدّ كل الأبواب.

* * *

تحكيم الحَكَمَين

{٩٣١} ـ عن عَبِيدَةُ السّلماني رحمه الله تعالى أنه قال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥].

قال: جاء رجل وامرأة إلى عليّ ومع كل واحد منهما فئام من الناس،

فأمرهم عليّ، فبعثوا حَكَماً من أهلِه وحكَماً من أهلها، ثم قال للحَكَمَيْنِ: أتَدْرِيان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعهما، وإن رأيتما أن تفرّقا، قال: قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليّ فيه وليّ، وقال الرجل: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت والله حتى تقرّ بمثل الذي أقرّت به.

رواه عبدالرزاق في المصنف (١١٣٨٨)، وابن جرير (٧١/٥) في التفسير، والبيهقي (٣٠٥/٧، ٣٠٦) وسنده صحيح.

إذا حصل خصام بين الزوجين ولم يتّفقا، فعلى أقاربهما أن ينظروا في أمرهما باستطلاع رجلين عدلين أحدهما من جهة الزوج والآخر من جهة الزوجة،فينظر كل واحد منهما في شأن صاحبه هل يريد الفرقة أو الألفة، ثم يجتمع الحَكَمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيهما من العلاج... وللعلماء أنظار في الموضوع لا داعي لذكرها.

❋ ❋ ❋

تحريم طلب المرأة طلاقها من زوجها

{٩٣٢} ـ عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيُما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأسٍ فحرامٌ عليها رائحة الجنة**».

رواه أحمد (٢٧٧/٥)، وأبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١٠٦٩)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، والدارمي (٢٢٧٥)، وابن حبان (١٣٢٠)، والحاكم (٢٠٠/٢)، وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

{٩٣٣} ـ وعن أبي هَريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**المُخْتَلِعَاتُ والمُنْتَزِعَاتُ هنَّ المُنافقاتُ**».

رواه أحمد (٤١٤/٢)، والنسائي (١٣٨/٦)، والبيهقي (٣١٦/٧) بسند صحيح، وفيه التنصيص على سماع الحسن من أبي هريرة، ورواه الترمذي (١٠٦٨) من حديث ثوبان بسند فيه مجاهيل وله شواهد أخرى كلها ضعيفة.

وقوله: من غير ما بأس، أي: من غير حاجة ملحّة تلْجئها إلى ذلك، وقوله: المختلعات أي اللاتي يطلبن الطلاق من أزواجهنّ... والحديثان يدلاّن على تحريم طلب الزوجة طلاقها من زوجها بلا موجب لذلك، وأن طالبة ذلك تعتبر منافقة ولا تشمّ رائحة الجنّة إن لم تَتُبْ من ذلك.

* * *

طاعة الوالدين في طلب الطلاق

{٩٣٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كانت تحتي امرأة أحبّها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلّقها فأبيت، فذكرت ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«يا عبدالله بن عمر طلّق امرأتك»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٣٨)، والترمذي (١٠٧١)، وابن ماجه (٢٠٨٨)، والحاكم (١٩٧/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: طلّق امرأتك، فيه دليل لمن يقول بوجوب طاعة الوالدين في تطليق الزوجة. وهذا إن حمل على إطلاقه وفتح الباب على مصراعيه لما تركت زوجة لمن كان له والدان إلا في النادر، ولذلك لما سُئِل الإمام أحمد عن هذا الحديث قال: من كان والده بمثل عمر فليطعه... فيحمل الحديث على ما إذا كان الوالد صالحاً... ولم تكن هناك أغراض نفسانية، وكانت المرأة غير ملائمة.

* * *

الطلاق السني والبدعي

{٩٣٥} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه طلّق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسأل عمرُ بن الخطاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ذلك،

فقال: «**مُرْهُ فليراجعها، ثم ليُمْسِكْها حتى تطهُر ثم تحيضَ ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلّق قبل أن يَمَسّ، فتلك العدةُ التي أمر الله تعالى أن يُطلَّق لها النساء**»، وفي رواية: «**فيعتدّ بتلك التطليقة**»، قال: فمه أرأيت إن عجز واسْتُحْمِقَ، وفي رواية: فراجعتها وحسبت لها التطليقة التي طلّقتها، وفي أخرى: فردّها عليّ ولم يرها شيئاً. وفي رواية: قال ابن عمر: وقرأ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وفي رواية: «**مُرْه فليراجعها، ثم ليُطَلِّقها طاهراً أو حاملاً**».

رواه أحمد (٢/٢٦، ٤٣، ٥٤)، والبخاري في النكاح (١١/٢٦١، ٢٦٦)، وفي التفسير وفي الأحكام، ومسلم (١٠/٥٩، ٦٩)، وأبو داود (٢١٨٥)، والترمذي (١٠٥٧)، والنسائي (٦/١١٢، ١١٣)، وابن ماجه (٢٠١٩) مطوّلاً ومختصراً وبألفاظ.

قوله: أرأيت، أي: أخبرني إن عجز عن الطلاق، وقوله: اسْتُحْمِقَ أي: ادّعى الحمق أيُسْقِط ذلك عنه الطلاق، وقوله: فطلّقوهنّ لعدتهنّ أي: في طهر من غير جماع، وقوله: قبل عدتهنّ ـ بضم القاف والباء ـ: أي: مستقبلات عدتهنّ وهو إقبال طهرهن.

وفي هذا الحديث بجميع رواياته عدّة أحكام:

أولاً: تحريم الطلاق حالة حيض الزوجة أو بعد طهرها ومسيسها.

ثانياً: وجوب مراجعتها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر ثم بعد ذلك له الخيار في إمساكها أو طلاقها.

ثالثاً: فيه بيان أن الطلاق ينقسم إلى بدعي، وسني، فالبدعي هو الذي يقع حالة الحيض، أو في طهر واقعها فيه، والسني هو الذي يقع حالة الحمل، أو بعد طهر من حيضها قبل أن يمسّها؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ثم ليطلّقها طاهراً أو حاملاً**»، وقوله: «**وإن شاء طلّقها قبل أن يمسّ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلّق لها النساء**».

رابعاً: فيه بيان الطلاق الذي أمر الله تعالى به في قوله تعالى:

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، أي: مستقبلات عدتهن، وذلك لا يكون إلاّ عند طهرها من حيضها، وقبل مواقعتها لتستقبل عدّتها من بدايتها، ومثلها الحامل، فإنها إذا عرفت أنها حامل استقبلت عدّتها حتى تضع حملها.

خامساً: الطلاق حالة الحيض هل يعتدّ به أم لا؟ جاءت الروايات في ذلك مختلفة، ففي بعضها «فجعلها واحدة»، وفي أخرى: وحُسِبتْ لها التطليقة التي طلّقتها، وفي رواية ثالثة: أفاحتسبت بها، قال: ما يمنعه أرأيت إن عجز أو استحمق وكل هذه الروايات في مسلم وغيره، وجاء في رواية: فردّها عليَّ ولم يرها شيئاً، وهي عند مسلم أيضاً. وفي أخرى: فردّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذلك عليّ وهي عند الطيالسي والنسائي بسند صحيح، ولذلك انقسم الناس في ذلك إلى قسمين: قسم رجّحوا الرواية الأولى، فقالوا: بلزوم الطلاق حالة الحيض، وهذا مذهب الأئمّة الأربعة. وقسم رجّحوا الرواية الثانية، فقالوا: بعدم لزومه، ونصر هذا المذهب ابن حزم في المحلّى، وتبعه ابن تيمية وابن القيم والشوكاني. والذي نراه ونذهب إليه ونستخير الله تعالى فيه الوقوع؛ لأن أدلّة الوقوع أرجح وأحوط، والله تعالى أعلم.

* * *

الطلاق ثلاثاً في كلمة واحدة

{٩٣٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان الطلاق على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن الناس قد استَعْجَلُوا في أمرٍ قد كانت لهم فيه أناةٌ، فلو أمْضَيْنَاه عليهم فأمضاه عليهم.

رواه عبدالرزاق (٣٩١/٦، ٣٩٢)، وأحمد (٣١٤/١)، ومسلم (٦٩/١٠، ٧٠)، وأبو داود (٢٢٠٠)، والنسائي (١١٨/٦)، والطحاوي في معاني الآثار (٥٥/٣)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي.

{٩٣٧} ـ وعنه أيضاً قال: طلّق ركانةُ بن عبد يَزِيد أخُو بني مُطَّلِب امرأتَه ثلاثاً في مجلس واحد فحَزِنَ عليها حُزناً شديداً، قال: فسأله رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كيف طلّقْتَها**»؟ قال: طلّقتها ثلاثاً، قال: فقال: «**في مجلسٍ واحد**»، قال: نعم، قال: «**فإنما تلك واحدةٌ فأرْجِعْهَا إن شِئْت**»، قال: فرَجَعَها، فكان ابن عباس يرى إنما الطلاق عند كل طهر.

رواه أحمد (٢٦٥/١)، وأبو يعلى (١٧٣، ٢٥٠٠)، والبيهقي (٣٣٩/٧) وسنده صحيح، وابن إسحٰق صرح بالتحديث، وقد صححه أحمد والضياء وغيرهما، وكذا صححه أستاذنا في الهداية، وردّ على من ضعّفه (١١/٧)، ورواه أبو داود (٢١٩٦)، وفيه: «**راجع امرأتك أمْ ركانة وإخوتَه**»، فقال: إني طلّقتها ثلاثاً يا رسول الله، قال: «**قد علمت، راجِعْها**»، وتلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وسنده حسن، ورواه الترمذي (١٠٥٨) عن ركانة بلفظ آخر وسنده ضعيف.

{٩٣٨} ـ وعن محمود بن لَبِيدٍ رضي الله تعالى عنه قال: أُخْبِرَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن رجلٍ طلّق امرأتَه ثلاثَ تَطْلِيقاتٍ جميعاً، فقام غضبانَ، ثم قال: «**أيُلْعَبُ بكتابِ الله تعالى وأنا بين أظْهُرِكم**»؟ حتى قام رجل وقال: يا رسول الله ألا أقتله؟

رواه النسائي (١١٦/٦) بسند صحيح.

قوله: استعجلوا في أمرٍ كان لهم فيه أناة، أي: كان لهم فيه مهلة وبقية استمتاع لانتظار المراجعة، وقوله: فأمضاه عليهم، أي: جعله بينونة كبرى لا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره.

في هذه الأحاديث أمران اثنان، **أولاً**: في حديث محمود بن لَبِيد دليل على تحريم جمع الطلاق الثلاث في كلمة واحدة، وأن ذلك يعدّ تلاعباً بكتاب الله عزّ وجلّ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومن جمعها في كلمة واحدة

فقد تلاعب بحكم الله عزّ وجلّ وما قضاه لعباده، وذلك عظيم، ولهذا غضب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الرجل وهو لا يغضب، إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله تعالى، ويؤيّد ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سُئِل عن رجل طلّق امرأته مائة، فقال: عصيت ربك وفارقت امرأتك. رواه الدارقطني (١٣/٤)، والطحاوي في معانيه (٥٨/٣)، والبيهقي (٢٣٧/٧) وسنده صحيح، وفي رواية عند الطحاوي (٥٨/٣): إن رجلاً طلّق امرأته مائة، فقال ابن عباس: ثلاثٌ تُحَرِّمُها عليه وسبعةٌ وتسعون في رقبته، إنه اتخذ آيات الله هزؤاً وسنده صحيح.

ثانياً: في حكم من صدر منه جمع الطلاق الثلاث، فظاهر حديث ركانة أنه طلقة واحدة رجعية، وهو نصّ في ذلك إن وقع في مجلس واحد، وقد علمت أن الحديث سنده صحيح. وحديث ابن عباس هو أيضاً نصّ في أنه كان أيام النبوّة، وأيام خلافة الصدّيق وصدراً من خلافة عمر: الطلاق الثلاث طلقة واحدة، وإنما الذي جعله ثلاثاً سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه عندما أكثر الناس منه أيّامه... هذا ظاهر الحديثين.

وقد اختلف العلماء والأئمّة في ذلك حتى عدوا المسألة من المشكلات الفقهية، فذهب كثير من الصحابة والأئمّة الأربعة والجمهور إلى أن من قال لزوجته: أنت طالق ثلاثاً حَرُمَتْ عليه حتى تنكح زوجاً غيره، وردّوا حديث ركانة وضعفوه وأوّلوا حديث ابن عباس، حتى قال بعضهم: إنه منسوخ، وذهب جماعة آخرون من الصحابة وغيرهم كعطاء وطاوس والهادي والقاسم والناصر من أهل البيت والظاهرية وآخرين إلى عدم الوقوع، وأنه واحدة حسب نصّ الحديث، ونصر هذا القول ابن تيمية وابن القيّم والشوكاني وغيرهم، وقد حصل بسبب هذه الجزئية الفقهية تعصّبات وتعسّفات من بعض أتباع المذاهب، حتى أدّى ذلك إلى اعتداءات على بعض أهل العلم وسجنه بسبب ذلك، وهذا تعصّب مقيت وتطرّف دخيل في الإسلام... فالمسألة اجتهادية والصواب فيها مع الفريق الثاني... والذي أختاره شخصياً هو أن من طلق كذلك ولم ينوِ شيئاً، وكان في مجلس واحد

طلقت عليه طلقة واحدة رجعية، ومن نوى شيئاً عمل على نيّته لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وإنما لكل امرىء ما نوى**»، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

حكم من حرم زوجته

{٩٣٩} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا حرم الرجل عليه امرأته فهي يمين يكفرها، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، وفي رواية: في الحرام يكفر، ثم قرأ الآية، وفي رواية ثالثة قال: إذا حرم امرأته ليس بشيء.

رواه مسلم (٧٢/١٠، ٧٣) في الطلاق بالرواية الأُولى، ورواه البخاري في التفسير (٢٨٢/١٠) بالرواية الثانية، وفي الطلاق (٢٩١/١١) بالرواية الثالثة.

{٩٤٠} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما حتى حرمها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢].

رواه النسائي في عشرة النساء (٦٧/٧)، وأخرجه في التفسير من الكبرى (٤٩٥/٦)، والحاكم (٤٢٣/٢)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الحافظ في الفتح، وله شاهد عن ابن عمر رواه الهيثم عن كليب في مسنده، قال ابن كثير. وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستّة.

{٩٤١} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يمكث عند

زينب ويشرب عندها عسلاً، فتواصَيْتُ وحفصةُ أيتنا ما دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عليها فلتقُل: إني أجد منك ريح مَغَافِير، فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: «**بل شربت عسلاً عند زينب**»، وقال لي: لن أعود له، فنزلت: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلخ، وفي رواية: «**فلن أعود له، وقد حلفت لا تُخبِري بذلك أحداً**».

رواه البخاري في التفسير وفي الطلاق (٢٩٣/١١، ٢٩٤، ٢٩٥) وفي الأيمان والنذور، ومسلم في الطلاق (٧٣/١٠)، وأبو داود (٣٧١٤)، والنسائي (٦٦/١)، وفي الكبرى (٤٩٥/٦) وغيرهم.

اختلفت الأحاديث في سبب نزول هذه الآيات من أوّل التحريم وماذا حرّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هل الأَمَة أم العسل، وعلى الثاني من الساقية هل زينب أم حفصة؟ ومن المتظاهرتان عليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هل عائشة وحفصة؟ أو عائشة وسودة وصفية؟ والأحاديث بذلك كلّها صحيحة. أما السبب لنزول الآية، فالظاهر أنها نزلت بالسببين معاً، وبناءً على هذا فالتحريم وقع للأمة والعسل معاً، ولا يجوز ردّ ما صحّ من السنّة النبويّة لمجرّد التعارض أو تخطئة الثقات بلا حجّة. أما الساقية للعسل، فهي زينب، والمتظاهرتان هما عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما. أمّا ما جاء من أن المتظاهرات هنّ عائشة وسودة وصفيّة، وأن الساقية كانت حفصة فهو غلط، وانقلاب الأسماء على بعض الرواة، وإن جاء في البخاري لأنه مخالف لصريح القرآن، وللحديث الذي ذكرناه أعلاه.

أما فقه الأحاديث، فاختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم فيمن حرّم على نفسه شيئاً... فذهب فريق إلى أن من حرم على نفسه مأكولاً أو مشروباً أو ملبوساً لم يترتّب عليه شيء؛ لأن التحريم لله وحده، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] الآية، وهذا مذهب الجمهور. أما من حرم على نفسه زوجته، فقال: أنت عليّ حرام، أو قد حرمتك، أو عليّ الحرام، فذهب مالك رحمه الله

وجماعة إلى أنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، وذهب آخرون كالشافعي وغيره إلى ما نوى، فإن نوى بذلك طلاقاً فهو طلاق، وإن نوى ظهاراً فهو ظهار، وإن أطلق فليس بطلاق وعليه كفارة اليمين، وبهذا الأخير أخذ ابن عباس كما ذكرنا عنه، فكان يرى فيمن حرم زوجته كفارة يمين فقط، ولهذا قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، فكان يذهب إلى قصته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع أمته، وهذا ظاهر حديث أنس، فإنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما حرّمها أنزل الله تحلّة قسمه فكفر عن اليمين، فكان ذلك دليلاً على أن تحريم الأمة أو الزوجة كفارته كفارة اليمين، وهذا مذهب قوي لا لوم على من أخذ به. وذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى إلى كفارة اليمين على من حرم على نفسه أي شيء، سواء كانت زوجته أم غيرها من المباحات. أما ابن حزم رحمه الله تعالى، فذهب إلى أن من حرم على نفسه زوجته لا يلزمه شيء، لا طلاق، ولا كفارة... وانظر مذاهب العلماء عند النووي على مسلم (١٠/٧٤، ٧٤) في ذلك.

* * *

طلاق الخيار

{٩٤٢} ـ عن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خيّرنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاخترنا الله ورسوله، فلم يعدّ ذلك علينا شيئاً. وفي رواية: فلم يعدّه طلاقاً....

رواه البخاري (١١/٢٨٤)، ومسلم (١٠/٧٩، ٨٠) كلاهما في الطلاق، ويأتي مطوّلاً في السيرة النبويّة.

ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار إلى أن من خيّر زوجته بين الطلاق والبقاء، فاختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقاً، وبهذا قال الأئمّة الأربعة رحمهم الله تعالى. أما إذا اختارت نفسها وفراقها، فذهب الشافعي وأحمد وابن راهويه إلى أنه يقع به طلقة واحدة رجعية. وقال مالك

وأبو حنيفة: تقع طلقة بائنة، وهم متفقون على الطلاق لا يختلفون فيه.

* * *

الطلاق قبل النكاح

{٩٤٣} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا نَذْرَ لابن آدم فيما لا يَمْلِك، ولا عِتْقَ له فيما لا يَمْلك، ولا طلاقَ له فيما لا يملك**».

رواه أبو داود (٢١٩٠)، والترمذي (١٠٦٢)، وابن ماجه (٢٠٤٧)، والحاكم (٢/٢٠٤، ٢٠٥) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي وقبلهم البخاري وغيرهم.

اتّفق العلماء رحمهم الله على أن من طلّق امرأة قبل نكاحها كان ذلك لغواً، وهكذا من نذر مال غيره أو عتق ما لا يملكه كل ذلك لغو لا يترتّب عليه شيء.

وإنما اختلف الفقهاء فيما إذا عيّن امرأة، فقال لها: إذا تزوّجتك فأنت طالق، أو قال: كل امرأة تزوجتها فهي طالق، فألزمه بعضهم وألغاه البعض الآخر، والمسألة نظرية لا نصّ فيها.

* * *

طلاق الهازل

{٩٤٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: الطلاقُ، والنِّكاح، والرَّجعةُ**».

رواه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١٠٦٥)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، والحاكم (٢/١٩٧، ١٩٨) وصححه وفيه عبدالرحمٰن بن أردك مختلف فيه،

وللحديث شواهد تقوّيه، انظرها في نصب الراية والتلخيص.

قوله: جدهنّ - بكسر الجيم -: ضدّ الهزل والمزاح.

والحديث يدلّ على أن هذه الأشياء تقع، ولو لم يكن صاحبها جاداً. قال البغوي رحمه الله تعالى في شرح السنة (٩/٢٢٠): اتّفق أهل العلم على أن طلاق الهازل يقع، وإذا جرى لفظ الطلاق على لسان العاقل البالغ لا ينفعه أن يقول: كنت فيه لاعباً أو هازلاً.

* * *

طلاق المكره

{٩٤٥} - عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله تَجَاوَزَ لي عن أُمّتي الخطأ والنسيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه»**.

رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) بسند صحيح مع انقطاع فيه لكنه جاء من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رواه الطحاوي في معانيه (٣/٩٥)، وابن حبان (١٤٩٨) بالموارد، والحاكم (٢/١٩٨)، وابن حزم في الأحكام (٥/١٤٩) وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قوله: تجاوز في رواية «عفى»، وفي أخرى: «رفع»، ومعناه: أن الله تعالى لا يؤاخذ هذه الأُمّة بما فعلته مع الخطأ أو النسيان أو الاستكراه.

واستدلّ به الجمهور على أن طلاق من استكره عليه لا يصح، وهو قول الأئمّة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وابن راهويه، وعليه امتحن الإمام مالك رحمه الله تعالى وضرب وطيف به بالمدينة المنوّرة من طرف بعض الظلمة، وهو يقول: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس: طلاق المكره لا يجوز.

* * *

طلاق الصبي والمجنون

{٩٤٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ عن النائِمِ حتّى يَسْتَيقِظَ، وعن المُبْتَلَى حتّى يَبْرَأَ، وعن الصَّبِيِّ حتى يَكْبَرَ**».

رواه أبو داود (٤٣٩٨)، والدارمي (٢٣٠١)، والنسائي في الكبرى (٣/٣٦٠)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وابن الجارود (٨٠٨)، وابن حبان (٤٩٦)، والحاكم (٢/٥٩) وصححه ووافقه الذهبي.

وله شاهد عن سيّدنا عليّ عليه السلام رواه أحمد (٩٤٠، ٩٥٦)، والترمذي (١٢٩٣)، والدارقطني (٣/٣٩)، والحاكم (٤/٣٨٩) بسند صحيح، وله طريق آخر عند أحمد وأبي داود وشاهد آخر عن ابن عباس رواه أبو داود (٤٤٠١)، وابن حبان والحاكم بسند صحيح وله قصة، وأصله عند البخاري معلّق في الطلاق وفي الحدود...

وقوله: عن المبتلى في رواية للإمام عليّ «المعتوه»، وفي أخرى: «المجنون». والحديث يدلّ على أن هؤلاء الثلاثة غير مُكلَّفين ولا مَخاطَبين بالأحكام الشرعية غير أن النائم مستثنى، فإنه يؤمر بقضاء ما فاته من الصلوات بأدلّة أخرى. أما الصبي والمجنون فلا يلزمهما شيء من الديانة، وقد اتّفق الأئمّة والفقهاء على أنهما لا يلزمهما الطلاق إذا تفوّها به، كما لا يلزمهما غيره من العقود...

واختلفوا في السكران هل يلزمه الطلاق أم لا؟ فقال بوقوعه الجمهور ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي والثوري، وقالوا: إنه تسبب في ذهاب عقله فيؤمر بقضاء الصلاة، ويقتل إن قتل غيره... ويلزمه طلاق زوجته، وفي هذا المعنى قال بعضهم: لا يلزم السَّكْران إقرار عقود، بل ما جَنَى وعِتْقٌ وطلاقٌ وحُدودٌ، وذهب آخرون إلى عدم الإلزام، ومنهم ربيعة وأبو ثور وابن راهويه والمزني والظاهرية، وقالوا: إنه لا عقل له، ولا تكليف إلا مع عقل، والظاهر أنه يلزمه.

* * *

طلاق من حدّث نفسه به

{٩٤٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله تَجاوَزَ لأُمَّتِي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم تَعمَلْ به أو تَتَكَلَّمْ به**».

رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (١٤٦/٢، ١٤٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١٠٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣٦٠/٣)، وابن ماجه (٢٠٤٠).

قوله: تجاوز أي: عفا، وقوله: حدّثت، في رواية البخاري: وسوست، وقوله: أنفسها ـ بضم السين ـ: على الفاعلية، وفتحها على المفعولية.

والحديث يدلّ على أن ما يعرض للإنسان من الخواطر القلبية من كفر وفجور وغيبة وقتل وزنا وطلاق لا يؤاخذ بشيء من ذلك، ولا يلزمه شيء مما خطر له وحدّثته به نفسه حتى ينطق بذلك أو يعمل به... ومن ذلك الطلاق، فمن حدّثته نفسه بطلاق زوجته لا تطلق عليه حتى ينطق بذلك، وهذا مما لا خلاف فيه، وهو من لطف الله عزّ وجلّ بعباده ورحمته بهم.

* * *

الطلاق حالة الإغلاق

{٩٤٨} ـ عن صفيّة بنت شَيْبَة رحمها الله تعالى قالت: حدّثتني عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا طلاق ولا عِتاقَ في إغلاقٍ**».

رواه أحمد (٢٧٦/٦)، وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والدارقطني (٣٦/٤)، والحاكم (١٩٨/٢)، والبيهقي (٣٥٧/٧) من طرق هو بها حسن.

الإغلاق اختلف في معناه، فقال الإمام أحمد وأبو داود في السنن: أظنّه الغضب، ويؤخذ من كتب اللغة أن الإغلاق يطلق على الغضب الشديد وعلى الإكراه وغيرهما.

وقال الزيلعي: قال شيخنا: والصواب أنه يعمّ الإكراه والغضب والجنون وكل أمر انغلق على صاحبه علمه وقصده مأخوذ من غلق الباب، إلخ.

وبناءً على ما سبق فقد اختلف العلماء في طلاق الغضبان المغلق عليه، فذهب بعض العلماء إلى عدم وقوعه لأنه يصير كالمجنون لا عقل له، وذهب آخرون إلى اللزوم، والذي نراه أن من اشتدّ غضبه حتى صار لا يدري ما يقول أو يفعل وفاهَ بالطلاق ثم لما صحا ندم حالاً أنه لا يلزمه لأنه كان كالمجنون، وليس معنى هذا أن كل من غضب لا يلزمه الطلاق، فَلْيُتَنَبَّهْ لذلك.

* * *

المطلقة ثلاثاً لا تحل حتى تنكح زوجاً غيره

{٩٤٩} ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رِفاعة القُرَظِي إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: إني كنتُ عند رِفاعة فطلّقَني فبَتَّ طلاقي، فتزوّجتُ بعده عبدالرحمٰن بن الزَّبِيرِ بن باطَا، وإنما معه مثلُ هُدْبَةِ الثوب، فتبسَّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: «**أتُرِيدِينَ أن تَرْجِعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوقَ عُسَيلَتكِ وتذوقي عُسَيلته**»، وأبو بكر عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وخالدُ بن سعيد بن العاص بالباب ينتظر أن يُؤْذَنَ له، فنادى: يا أبا بكر ألا تسمعُ ما تَجْهَرُ به هذه عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في النكاح (١١/٣٨٨، ٣٩١) وفي مواضع، ومسلم في النكاح (١٠/٢، ٣، ٤) وغيرهما.

قوله: هدبة ـ بضم الهاء وسكون الدال ثم باء مفتوحة ـ: هو طرف الثوب الذي لم يُنسَج وأرادت أن ذكره يُشْبه هُدْبَة الثوب في الاسْتِرْخَاء، وقوله: عسيلته إلخ هو مصغر العسل، والمراد بالعسيلة هنا حلاوة الجماع الذي يحصل بتغييب الحشفة في الفرج.

وأجمع الأئمّة والعلماء على أن من طلّق زوجته ثلاث تطليقات متباينة لا تحلّ له حتى تنكح زوجاً آخر زواجاً شرعياً صحيحاً، ويدخل بها ويولِجُ ذكره في فرجها هذا مما لا خلاف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ولهذا الحديث الصريح غير أن سعيد بن المسيّب شذَّ فقال: تحلّ بمجرّد العقد، وهو خرق للإجماع.

❊ ❊ ❊

ألفاظ الطلاق

{٩٥٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى أن ابنة الجَوْن لما أُدْخِلَتْ على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ودنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: **«لقد عُذْتِ بعظيم الْحَقِي بأهلك»**.

رواه البخاري (٢٧١/١١)، والنسائي في الكبرى (٣٥٥/٣)، وابن ماجه (٢٠٥٠)، ويأتي في السيرة مبسوطاً.

لقد عُذْتِ إلخ أي: لقد تحصّنت بربٍّ عظيم، وقوله: الحقي ـ بكسر الهمزة وفتح الهاء ـ، واستدلّ العلماء بقوله: الحقي بأهلك بأن ذلك من ألفاظ الطلاق، وجمهور أهل العلم على أن ألفاظ الطلاق الصريحة هي ما جاء في القرآن الكريم وتكرر في السنة وهي الطلاق والفراق والتسريح؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق ١]، وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله جلّ ذكره: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:

٢٢٩]، فهذه الألفاظ الثلاث صريحة في الطلاق، ولا سيما اللفظ الأول ـ الطلاق ـ ومن ألفاظه: الحقي بأهلك، أو أنت خليّة أو بريّة ونحو ذلك، وهذا كلّه إذا نوى الطلاق كما قال الإمام مالك وغيره، فإن نوى غيره كانت على نيّته؛ لحديث: «**وإنما لكل امرىء ما نوى**»، والخلاف في ذلك طويل.

* * *

الطلاق بيد الزوج بالإجماع

{٩٥١} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجلٌ فقال: يا رسول الله سيدي زوّجني أمته وهو يريد أن يفرّق بيني وبينها، قال: فصَعِد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المنبر، فقال: «**يا أيها الناس، ما بالُ أحدِكُمْ يُزَوِّجُ عبدَه أمتَه ثم يُريدُ أن يُفَرِّقَ بينهما، إنما الطلاقُ لِمَن أخَذَ بالسَّاقِ**».

رواه ابن ماجه (٢٠٨١)، والدارقطني (٣٧/٤)، والبيهقي (٣٦٠/٧)، وهو حديث حسن لشاهد له وطريق آخر ويؤيّده القرآن والعمل.

والحديث استدلّوا به على أن الطلاق ملك للزوج، وأنه بيده، فإن الله تعالى خاطب الرجال بذلك، فقال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، وانعقد الإجماع على أن الطلاق بيد الرجال، وليس للمرأة فيه نصيب إلا إذا اختلعت أو اختارت الفراق عند خيارها، ومن قال خلاف هذا فهو كافر مُرْتَدّ.

* * *

الإيلاء

{٩٥٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «آلَى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من نِسائه وحَرَّمَ فجعل الحرامَ حلالاً، وجعل لليمين كفارة».

رواه الترمذي (١٠٨٣) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٠٥٩)، قال الحافظ في بلوغ المرام: ورواته ثقات، ورجّح الترمذي إرساله، لكن ابن ماجه رواه من طريق آخر وحسّنه البوصيري ومعنى الحديث ثابت في الصحيح.

{٩٥٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: آلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من نسائه، وكانت انفكت رجلُه فأقام في مشرُبَةٍ له تسعاً وعشرين، ثم نزل فقالوا: يا رسول الله آليت شهراً، فقال: «**الشهرُ تسع وعشرون**»، وفي رواية: فجاء عمر فقال: أطلّقتَ نساءك؟ قال: «**لا، ولكني آليتُ منهنّ شهراً**».

رواه البخاري في النكاح (٣٤٧/١١) وفي غيره ويأتي في السيرة مع أحاديث أخرى.

الإيلاء: هو اليمين، يقال: آلى من امرأته أي: حلف أن لا يقربها، ويقال أيضاً: تآلى وائتلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وهو في عرف الفقهاء أن يحلف الرجل أن لا يقرب امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر، فإمّا أن يفيءَ ويرجع ويُكفّر عن يمينه، أو يطلق، وهذا مذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وابن راهويه وعليه أكثر الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول في الإيلاء الذي سمّى الله تعالى: لا يحلّ لأحد بعد الأجل إلا أن يمسك بالمعروف أو يعزم بالطلاق، كما أمر الله عزّ وجلّ.

رواه البخاري (٣٤٨/١١) ثم ذكر البخاري ذلك عن عثمان وعليّ وأبي الدرداء وعائشة واثني عشر رجلاً من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد وصلها كلّها الحافظ في الفتح. والأصل في الإيلاء هو قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

عليه أكثر أهل العلم أنه طلاق؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وطلّقها تطليقة**»، فهذا نصّ وبه قال مالك والثوري والأوزاعي والشافعي في أصح قوليه، وأبو حنيفة وآخرون. واختلف في عدّتها هل هي حيضة فقط، أو عدتها كباقي العدد؟ الصحيح الأول، لما جاء في حديثي الرُّبَيِّع وزوجة ثابت بن قيس حيث أمرهما النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يعتدّا بحيضة، والحديثان عند الترمذي وغيره.

* * *

الظهار

{٩٥٥} ـ عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: الحمدلله الذي وسع سمعُه الأصوات لقد جاءت المجادِلة خَوْلةُ إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكلّمَتْه في جانب البيت وما أسمع ما تقول: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١].

رواه أحمد (٤١/٦)، والنسائي في المجتبى (٣٤٦٠)، وفي الكبرى (٤٨٢/٦)، والحاكم (٤٨١/٢) وصححه، ووافقه الذهبي وذكره البخاري في التوحيد معلقاً ما بعد رقم (٧٣٨٥). ورواه ابن ماجه (٣٠٦٣)، والحاكم (٤٨١/٢) بلفظ: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء. وصححه الحاكم والذهبي.

{٩٥٦} ـ عن خويلة بنت ثعلبة رضي الله تعالى عنها قالت: والله في وفي أوْس بن صامت أنزل الله عزّ وجلّ صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلُقُه وضَجِر، قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعْتُه بشيء فغضب، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أُمّي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خُوَيْلة بيده لا تَخْلُص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثَبَني وامْتَنَعْتُ منه، فغلبْتُه

بما تغلِب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيتُه عنّي، قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابَها ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما ألْقَى مِن سُوء خُلُقه، قالت: فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يا خُويلةُ ابنُ عمّك شيخٌ كبيرٌ فاتّقِي الله فيه**»، قالت: فوالله ما بَرِحْتُ حتى نزل فيّ القرآن، فتغشّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما كان يتغشّاه ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «**يا خَوْيلةُ قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**»، ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: ١ ـ ٤]، فقال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مُريه فليُعْتِقْ رقبةً**»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «**فليصم شهرين متتابعين**»، قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «**فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر**»، قالت: قلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فإنا سَنُعِينُه بعَرَقٍ من تَمْرٍ**»، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخر، قال: «**قد أصَبْتِ وأحسنتِ، فاذهَبي فتصدّقي عنه ثم استوصِ بابن عمّك خيراً**»، قالت: ففعلت.

رواه أحمد (٦/٤١٠، ٤١١)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥)، وابن حبان (١٠/١٠٧، ١٠٨)، وابن الجارود (٧٤٦)، والبيهقي (٧/٢٩١، ٢٩٢) وغيرهم، وهو صحيح لطرقه وشواهده.

وفي الباب عن سلمة بن صخر وابن عباس...

حديثا عائشة وخويلة يدلاّن على أن حكم الظهار نزل بسبب خويلة وزوجها أوس، وجاء في حديث سلمة بن صخر عند أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم أن ذلك كان بسببه مع زوجته، والصحيح أن ذلك نزل بسبب خويلة وزوجها.

والظهار من الأُمور التي كانت سائدة في الجاهلية، وهو عبارة عن تحريم الزوجة بلفظ: «أنت عليّ كظهر أمّي»، فلما جاء الإسلام حرّمه وجعله منكراً من القول وزوراً، وجعل على من فعله إذا أراد الرجوع إلى زوجته كفارة وهي التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٣، ٤].

وهي التي بيّنها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حديثي خويلة وسلمة بن صخر، ولا يجوز للمظاهر أن يمسّ زوجته حتى يكفّر؛ لظاهر القرآن، وللحديث التالي:

{٩٥٧} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد ظاهر من امرأته، فوقع عليها فقال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال: **«ما حملك على ذلك يرحمُك الله»**؟ قال: رأيت خَلْخَالها في ضوءِ القمر، قال: **«فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله»**.

رواه أبو داود (٢٢٢١)، والترمذي (١٠٨١)، والنسائي (١٣٦/٦، ١٣٧)، وابن ماجه (٢٠٦٥)، والحاكم (٢٠٤/٢)، والبيهقي (٣٨٦/٧)، وسنده حسن صحيح وحسنه الترمذي وصححه.

ولا خلاف بين العلماء أن المظاهر لا يجوز له قربان زوجته حتى يكفّر، فإن فعل كان عاصياً وتلزمه كفارة واحدة مع التوبة مما ارتكب.

ومما يجب أن يعلم هو أن الظهار يعدّ من كبار المعاصي، فلا يجوز للمسلم الإقدام عليه.

* * *

{٩٥٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هلالَ بن أمَيّة قذفَ امرأته عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بشَريك بن سَحْمَاء، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**البيّنَةُ أو حدٌّ في ظهرك**»، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيّنة، فجعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**البيّنة وإلا حَدٌّ في ظهرك**»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فليُنزِلَنّ الله تعالى ما يُبَرّئُ ظهري من الحدّ، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ فقرأ إلى أن بلغ: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور: ٦ ـ ٩]، قال: فانصرف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب**»؟ ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقّفُوها وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتَلَكَّأَتْ ونكَصَتْ حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَبْصِرُوها فإن جاءَتْ به أكحلَ العينينِ سابغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقين، فهو لشَريك بن سَحْمَاء**»، فجاءت به كذلك، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لولا ما مَضى من كتاب الله لكان لي ولها شأنٌ**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٦٥، ٦٦) وفي الطلاق وغير ذلك، وأبو داود (٢٢٥٤، ٢٢٥٦)، والترمذي (٢٩٧٣) بتهذيبي، وابن ماجه (٢٠٦٧).

{٩٥٩} ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن عُوَيْمِراً العَجْلاني جاء فقال: يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتُلُه فتقتلُونَه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد أنزل الله القرآن**

فيك وفي صاحبتك»، فأمرهما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالملاعنة بما سمّى الله في كتابه، فتلاعنا، فقال: يا رسول الله إن حبسْتُها فقد ظلمتُها، فطلّقها، فكانت سنّة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«انظروا فإن جاءتْ به أسحَم أدْعَجَ العينين عظِيمَ الأليتين خدلج السّاقين، فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أُحَيمِر كأنه وحَرَةٌ فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها»**، فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من تصديق عويمر، فكان بعدُ ينسب إلى أمّه.

رواه البخاري في التفسير (٦٤/١٠) وفي اللعان وفي مواضع، ومسلم في اللّعان (١٤٩٢)، وأبو داود (٢٢٤٥)، والنسائي (١٧٠/٦، ١٧١).

قوله: يلتمس أي يطلب، فتلَكّأتْ أي توقفت، سابغ الأَلْيَتَيْن أي كامل العجيزة، خدلَّج ـ بفتحات مع تشديد اللام ـ أي عظيمهما.

وقوله: أسحم، أي أسود، وقوله: أدعج العينين أي شديد سواد العينين في بياضها، وقوله: أحيمر هو تصغير أحمر، والوَحَرة ـ بفتحات ـ هي دويبة تلزق بالأرض.

اللعان في الإسلام مشروع بالإجماع، وهو يكون بين الزوجين، وصورته: إذا رمى وقذف الرجل زوجته بالزّنا أو نفى الولد عنه وجب عليه أحد أمور ثلاثة، إما أن يأتي بالبيّنة وهي هنا أربعة شهود عدول أنهم شاهدوها تزني، أو أن الولد ليس له، فإذا أحضر البيِّنة أقيم الحدّ على المرأة وهو الرجم، فإن لم يجد بيِّنة كان بعد ذلك بين أمرين إما أن يسلم نفسه لحدّ القذف، وهو أن يُجلد ثمانين جلدة، وإما أن يلاعن الزوجة...

وصورة اللعان أن يَحْضُر كل من الزوجين عند الحاكم الإسلامي، فيتقدم الزوج، فيشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين، فيقول: بالله إني لمن الصادقين، يكرّرها أربع مرّات، ويسنّ للحاكم أن يأمر من يضع يده على فيه ويقول له: إنها موجبة، فإن امتنع قال: وعليَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين، فإذا فعل ذلك سقط عنه الحدّ، ثم تتقدم الزوجة فتقول: بالله إنه

لمن الكاذبين، تكرّرها أربع مرات ثم تُلَقَّنُ كالرجل وتخوَّفُ... ثم تقول: وعليَّ غضب الله إن كان لمن الصادقين، ثم يفرّق بينهما، فلا يجتمعان أبداً، ويلحق الولد بأُمّه ينسب إليها ويرثها وترثه.

{٩٦٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لاعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين رجل وامرأة وفرّق بينهما وألحق الولد بالأُمّ.

رواه البخاري في الطلاق (٣٨٤/١١)، ومسلم في اللعان (١٢٧/١٠).

وقوله: وفرّق بيهنما ظاهره أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرّق بينهما، وفي رواية قصة عويمر: فطلّقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ذلك التفريق بين كل متلاعنين، وفي رواية: فطلقها ثلاث تطليقات، فأنفذه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان ما صنع عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سنّة، رواه أبو داود. والرواية الأُولى في مسلم، وهذا يدلّ على أن اللعان يعتبر طلاقاً ثلاثاً على خلاف في ذلك، لكن الأئمّة والعلماء مجمعون على تحريمها أبدياً.

❊ ❊ ❊

التعريض بنفي الولد

{٩٦١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسودَ، قال: «**هل لك من إبل**»؟ قال: نعم، قال: «**فما ألوانُها**»؟ قال: حمرٌ، قال: «**هل فيها من أوْرَقَ**»؟ قال: نعم، قال: «**فأنّى ذلك**»؟ قال: لعله نَزعة عِرْقٍ، قال: «**فلعلّ ابنك هذا نزعة عِرْقٍ**».

وفي رواية: وهو يعرض بأن ينفيه... وفي أخرى: ولم يرخص له في الانتفاء منه.

رواه البخاري (٣٦٥/١١)، ومسلم (١٣٣/١٠).

قوله: أورق ـ بسكون الواو وفتح الراء ـ وهو الذي فيه سواد ليس بصاف، وقوله: نزعه عرق، أي اجتذبه إليه، وأظهر لونه عليه، والعرق ـ بكسر العين ـ الأصل من النسب، فقد يكون بعض أجداده من كان كذلك، فجاء أسود يشبهه.

والحديث يدلّ على أن من عرض بالقذف ولم يصرح لا يكون له حكم القاذف، كما أن الولد يلحق بأبيه أو أمّه، ولو خالف لونهما أو لون أحدهما، وأنّ نفيه بالتعريض لا يؤثر.

❊ ❊ ❊

الولد للفراش دون الزاني

{٩٦٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: اختصم سعدُ بن أبي وقاص وعَبْدُ بن زَمعة إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليَّ أنه ابنُه انظر إلى شبَهِهِ، وقال عبدُ بنُ زمعة: هذا أخي يا رسول الله وُلِد على فراش أبي، فنظر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى شبهه، فرأى شَبَهاً بيّناً بعُتْبَة فقال: «**هو لك يا عبدُ بن زمعة، الولدُ للفراش وللعاهِر الحجر، واحْتَجِبي منه يا سودةُ بنتَ زمعة**»، قال: فلم ير سودة قط.

رواه البخاري في البيوع (١٩٧/٥) وفي الفرائض وفي مواضع، ومسلم في الرضاع (٣٦/١٠، ٣٧) وغيرهما.

قوله: الولد للفراش، يعني: أن الولد يكون لمن وُلد على فراشه، وقوله للعاهر الحجر، العاهر هو الزاني، والعُهر الزنا، ومعنى له الحجر أي له الخيبة ولا حقّ له في الولد.

ومعنى الحديث أنه إذا كان للرجل زوجة أو أمَة مملوكة صارت فراشاً له، ثم أتت بولد لمدة ما فوق ستّة أشهر مثلاً لحِقَه الولدُ، وكان ولداً له لا

لغيره ممّن ادّعاه من زوج سابق، أو مالك لأَمة انتقلت لغيره.

ولذلك لما اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في الولد الذي ولدته تلك المرأة التي كانت تحت عتبة بن أبي وقاص ثم تحت عبد بن زمعة فأعطاه لمن ولد على فراشه، وهو عبد بن زمعة رغم أن الولد كان شبيهاً بعتبة بن أبي وقاص، ثم قال: «**الولد للفراش**»، وإنما أمر سودة بالاحتجاب من ذلك الولد وإن كان في هذا الحكم أخاً لها احتياطاً، فلربما كان في الواقع لعتبة الذي جاء يشبهه. وبمقتضى ما في هذا الحديث قال جمهور الأئمّة والعلماء؛ كمالك والشافعي وأحمد والظاهرية وسائر الأئمّة، إلا أبا حنيفة.

* * *

العمل بالقيافة

{٩٦٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليَّ مَسْروراً تَبْرُق أساريرُ وجهِهِ، فقال: «**ألم ترَيْ أن مُجَزِّزاً نظر آنفاً إلى زَيْدِ بنِ حارِثَةَ وأسامةَ بن زَيْدٍ رضي الله تعالى عنهما فقال: إنَّ هذه الأقدامَ بعضُها من بعض**».

وفي رواية: «**ألم تري أن مُجزِّزاً المُدْلِجيّ رأى زيد وأسامة قد غَطَّيا رُؤُوسَهما بَقَطيفَةٍ وبدتْ أقدامُهما فقال: إن هذه الأقدام بعضُها من بعض**»، وفي رواية: فسرّ بذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأعجبَه وأخبَر به عائشة.

رواه البخاري في الفرائض (١٥/٥٩)، ومسلم في الرضاع (١٠/٤٠، ٤١، ٤٢)، وأبو داود (٢٢٦٧، ٢٢٦٨)، والترمذي في أوائل الولاء (٢١٢٩)، والنسائي وابن ماجه (٢٣٤٩) وغيرهم.

مجزز ـ بضم الميم وفتح الجيم ثم زاءين أولاهما مكسورة مشددة ـ، وقوله: تبرق ـ بضم الراء مع فتح التاء ـ أي تضيء وتستنير، والأسارير

واحدها سرور، وهي خطوط الجبهة، واستنارت فرحاً منه بما قال المدلجي. وحاصل معنى الحديث أن أُسامة كان أسود ووالدهُ زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما كان أبيض، فكان الناس يطعنون في أُسامة رضي الله تعالى عنه وفي نسبه، فبينما هو نائم مع والده زيد وقد تغطّيا بقطيفة وبدت أقدامهما، فجاء مجزز المدلجي، وكان من قبيلة بني مدلج، وكانوا يمتازون عن غيرهم بالقِيافَة ومعرفة الأنساب بالأشباه، فلما رأى أقدام أسامة وزيد عرف أنهما يتشابهان، وأن أُسامة ابنٌ لزيد، فقال ما قال ففرح بذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وسُرّي عنه، وإقراره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المدلجي على إلحاقه أُسامة بأبيه زيد بالقيافة دليل على العمل بها وإثبات النسب بالشَّبه، ويؤيّده ما تقدم في حديثي المتلاعنين: «أبْصِرُوها إن جاءت به كذا وكذا فهو لفلان، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لفلان»، وكذلك حديث أمّ سليم المتقدم في الطهارة: أوَ تحتلم المرأة؟... فقال: فِيمَ يكون الشبه... وقال: «إن ماء الرجل إذا سبق ماء المرأة كان الشبه له»... وبالعمل بالقيافة قال جماعة من الصحابة وعطاء والأوزاعي ومالك والشافعي وأحمد.

* * *

وعيد من نفى ولداً له أو امرأة ألحقت ولداً أجنبياً عن زوجها

{٩٦٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول لما نزلت آية الملاعنة، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أيُما امرأةٍ أدخلتْ على قوم مَن ليس منهم فليست من الله في شيءٍ، ولن يُدْخِلَها الله جنَّتَه، وأيُما رجلٍ جَحَدَ ولدَه وهو يَنظر إليه احتجب الله تعالى منه وفضحَه على رؤوسِ الخلائق في الأوّلين والآخرين»**.

رواه أبو داود (٢٢٦٣)، والنسائي (١٤٧/٦)، وابن حبان (١٣٣٥)، والحاكم (٢٠٢/٢، ٢٠٣)، ورجاله ثقات إلا عبدالله بن يونس لم يوثقه غير

ابن حبان، غير أن الراوي عنه إمام ثقة وهو يزيد بن الهاد، وله شاهد عن ابن عمر رواه أحمد (٤٧٩٥)، والطبراني في الكبير والأوسط (٤٣٠٩)، ورجاله ثقات.

في الحديث وعيد شديد للمرأة التي تأتي بولد زنى... وتنسبه لزوجها، فإن ذلك يؤدي لأمر خطير وهو اختلاط الأنساب وسيحرمها الله من دخول الجنّة، كما أن من نفى ولداً له عن نسبه كان ممن يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق ويُحْرَمُ مِنَ النظر إليه تعالى.

* * *

القرعة في الولد إذا تنوزع فيه

{٩٦٥} ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: أُتِي أميرُ المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه وهو باليمن بثلاثةٍ وقعُوا على امرأةٍ في طُهْرٍ واحد، فسأل اثنين فقال: أتُقِرّانِ لهذا بالولد؟ قالا: لا، ثم سأل اثنين: اتُقِرّان لهذا بالولد؟ قالا: لا، فجعل كلما سأل اثنين أتقرّان لهذا بالولد؟ قالا: لا، فأقرع بينهم فألْحَق الولدَ بالذي أصابَتْهُ القُرْعَةُ، وجعل عليه ثُلُثَيْ الدية، فذكر ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فضحك حتى بدَتْ نواجذه.

رواه أبو داود (٢٢٦٩، ٢٢٧٠)، والنسائي (٦/١٥٠)، وابن ماجه (٢٣٤٨) وسنده صحيح، وما أعلّ به لا يضرّ.

الحديث يدلّ على أنه إذا حصل نزاع بين شخصين أو أكثر في ولد ولم تكن لواحد بيِّنة، وكل يدّعيه وينفيه عن غيره، فإنه يقرع بينهم، فمن خرجت فيه القرعة أخذه ودفع للباقين باقي دية الولد، كما فعل سيدنا عليّ رضي الله تعالى عنه وأقرّه عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى ضحك. وهذا النزاع يتصوّر في الإماء والجواري من المملوكات، فقد تباع الجارية مرات في طهر واحد لها وكل مشترٍ يطؤها ثم تحمل عند الأخير،

فيقع النزاع بينهم... أما في الأزواج فلا يتصوّر إلا إذا كان النكاح أو الطلاق غير شرعيين.

❊ ❊ ❊

نكاح غير العفيفة

{٩٦٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى رجل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن لي امرأة لا تردّ يد لامس، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**طلّقها**»، قال: إني أحبها، قال: «**فأمسكها إذاً**»، وفي رواية: «**غرّبها إن شئتَ**»، قال: إني أخاف أن تتبعها نفسي، قال: «**استمتع بها**».

رواه النسائي (٦/٥٥، ١٣٩)، وأبو داود (٢٠٤٩)، والبيهقي (٧/١٥٤، ١٥٥) وهو حديث صحيح لطرقه.

وقوله: غرّبها هو معنى طلّقها، وقوله: لا تردّ يد لامس، معناه: أنها لا تمتنع ممن يمد يده إليها يلمسها، وقيل: معناه لا تمنع أحداً طلب منها شيئاً من المال، وليس معناه أنها كانت تزني وأنها لا تمتنع من أحد أرادها كما قيل، فإن هذا منكر لا يقرّ عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولم يكن ليأمر زوجها بإمساكها مع فجورها، ثم لو كان المراد باللمس الفجور لكان زوجها قاذفاً لها ولاستحقّ الجلد أو اللّعان... فالحديث مؤوّل ولا بدّ.

❊ ❊ ❊

الرجعة

{٩٦٧} ـ عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: كانت لي أخت تُخطَبُ فأمْنَعُها فخطبها ابنُ عمٍّ لي، فزوّجْتُها إياه، فاصْطَحَبا ما شاء الله أن يَصطحبا ثم طلّقها طلاقاً له عليها رِجعةٌ، فتركها حتى انقضت عدّتُها وخطبها

الخُطَّاب جاء فخطبها، فقلت: يا لُكَعُ خُطِبتْ أختي فمنعتُها الناس وآثرتك بها طلقتَها فلما انقضت عدتها جئت تخطبها، لا والله الذي لا إله إلاّ هو لا أُزوّجُكها، ففيّ نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] إلخ، فقلت: سمعاً وطاعة كفّرتُ عن يميني وأنكحتُها. وفي رواية: فهَوِيها وهَوِيَتْه.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٥٨، ٢٥٩)، وفي النكاح (١١/٩١، ٩٢، ٤٠٨)، وأبو داود (٢٠٧٨)، والترمذي في التفسير (٢٧٩٠) وغيرهم.

قوله: يا لكع، اللكع يطلق على الأحمق وعلى اللئيم، وعلى الطفل الصغير.

في الحديث دليل على مشروعية الطلاق الرجعي كالبائن، وهو إجماع بلا خلاف، والطلاق الرجعي يكون فيه الحقّ للزوج مراجعة زوجته متى شاء ما دامت في العدّة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]، والإمساك هو الرجعة. وقوله: بلغن أجلهن، أي قاربن انقضاء العدة، وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والإمساك هو الرجعة، وتقدم حديث ابن عمر، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ليراجعها»... وحديث ركانة وقوله له: أرجعها إن شئت، والأحاديث في الرجعة كثيرة. فإذا خرجت عن عدّتها أصبحت بائناً منه يحتاج إلى خطبتها إذا أرادها، ثم يعقد عليها من جديد بوليّ وإشهاد ومهر، ولا يجوز لوليّها أن يَعْضُلها ويمنعَها من نكاح زوجها إن رَضِيَتْ كما في الآية الكريمة، وحديث معقل المذكور.

ثم إن الرجعة لا بدّ لها من الإشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]؛ لأن الآية جاءت في ذلك.

❊ ❊ ❊

التمتع للمطلقة

{٩٦٨} ـ عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله تعالى عنهما قال: تزوج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُمَيْمَة بنت شُراحِيل، فلما أُدْخِلَتْ عليه بَسَطَ يده إليها، فكأنما كَرِهَتْ ذلك فأمر أبا أسيد أن يُجَهِّزَها ويَكْسُوَها ثوبين أَزْرَقين.

رواه البخاري في الطلاق (١١/٢٧٥).

في الحديث مشروعية متعة النساء المطلّقات، وهو شيء يعطيه المطلق للمطلقة: ثوب أو أثاث أو نقود... دفعاً لوحشة الطلاق، وقد اختلف العلماء في ذلك هل هي واجبة أم لا؟ فذهب الظاهرية وجماعة إلى أنها واجبة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ويؤيد ذلك حديث الباب وما سيأتي في حديث فاطمة بنت قيس، «ولكن متاع بالمعروف». وذهب أبو حنيفة والشافعي وأحمد إلى أنها واجبة لمن طلقت قبل فرضية المهر ومستحبة لغير ذلك. أمّا مالك فقال باستحبابها مطلقاً، والله تعالى أعلم.

أما مقدارها، فعلى حسب حالة المُطَلِّق من اليُسْر والضيق.

* * *

نفقة الرجعية والمبتوتة والحامل وسكناهن

{٩٦٩} ـ عن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها أن زوجها طلّقها على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبعثه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سرية، قالت: فقال لي أخوه: اخْرُجِي من الدار، فقلت: إن لي نفقةً وسُكْنَى حتى يحِلَّ الأجلُ، قال: لا، قالت: فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: إن فلاناً طلّقني

وإن أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة، فأرسل إليه فقال: «**ما لك ولابنة آل قيس**»؟ قال: يا رسول الله إن أخي طلّقها ثلاثاً جميعاً، قالت: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**انظري يا ابنة آل قيس إنما النَّفقةُ والسُّكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعةٌ فلا نفقةَ ولا سُكْنَى**»...

رواه أحمد (٦/٣٧٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧) وسنده صحيح، ومجالد قد توبع عند أحمد (٦/٤١٥، ٤١٦)، وفي رواية عنها قالت: إن زوجها طلقها ثلاثاً فلم يجعل لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سكنى ولا نفقة، وفي رواية: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا نفقة لك ولا سكنى**»، وفي أخرى: «**ليس لك عليه نفقة**».

رواه مسلم برواياته (١٠/١٠٤، ١٠٥، ١٠٦)، وهو عند أبي داود (٢٢٨٤، ٢٢٨٨)، والترمذي (١٠٦١، ١٠١٧)، والنسائي (٦/١٢٢)، وابن ماجه (٢٠٣٥، ٢٣٦، ٢٣٦)، والبيهقي (٧/٣٧٢، ٣٧٣).

وفي رواية لأبي داود (٢٢٩٠): «**لا نفقة لك إلا أن تكوني حاملاً**»، وأصله عند مسلم (١٠/١٠١)، ويأتي هذا الحديث مطوّلاً في العدة قريباً إن شاء الله تعالى.

وفي هذا الحديث بجميع رواياته التي أوردناها ثلاثة أحكام:

أولاً: وجوب نفقة المطلقة طلاقاً رجعياً وسكناها؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة**»، ولقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، والآية سيقت في الطلاق الرجعي، ولا ينبغي أن يختلف في هذا ولا نعرف أحداً خالفه.

ثانياً: إن المطلقة البائنة والثلاث لا نفقة لها ولا سكنى، والحديث نصّ في ذلك لا يحتمل تأويلاً، وبذلك قال أحمد وأهل الحديث والظاهرية. وقال أبو حنيفة وغيره: لها النفقة والسكنى، وكان يقول بذلك

جمع من الصحابة، بينما ذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أن لها السكنى دون النفقة.

ثالثاً: الحامل لها السكنى والنفقة سواء كان طلاقها رجعياً أم بائناً، أم في عدّة وفاة زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] وهذا عموم، ولقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إلا أن تكوني حاملاً»**، وهذا أيضاً مما لا نعلم فيه خلافاً، والله تعالى أعلم.

العِـــدَدُ

عـدة الحامـل

{٩٧٠} ـ عن عبدالله بن عُتْبة أن سُبَيْعة بنت الحارث، وكانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدراً أخبرتْ أنه توفّي عنها في حجّة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعتْ حملها بعد وفاته، فلما تعلَّلَتْ من نفاسها تجمّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبُو السنابل بن بَعْكَكٍ، فقال لها: ما لي أراكِ مُتَجَمِّلةً، لعلّك تَرْجِينَ النكاح، إنكِ والله ما أنتِ بناكح حتى تمُرَّ عليك أربعة أشهر وعشرٌ، قالت سُبَيْعة: فلما قال لي ذلك، جمعتُ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسألتُه عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعتُ حَمْلي، وأمرني بالتزوّج إن بدا لي.

رواه البخاري (٣٩٦/١١)، ومسلم في الطلاق (١٠٩/١٠، ١١٠) واللفظ له.

{٩٧١} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: إن سُبَيْعَة الأسْلميَّة نُفِست بعد وفاة زوجها بليال، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأمرها أن تتزوّج.

رواه البخاري (٣٩٥/١١) (٢٧٩/١٠) مطوّلاً، ومسلم (١١٠/١٠، ١١١)، والترمذي (١٠٧٩) وغيرهم، ونحوه عن المسور بن مخرمة رواه البخاري (٣٩٧/١١).

{٩٧٣} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن سورة النساء القُصْرى نزلت بعد البقرة: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

رواه البخاري في التفسير (٢٨١/١٠) مطوّلاً، وأبو داود (٢٣٠٧)، والنسائي في المجتبى وفي التفسير من الكبرى (٤٩٤/٦)، وابن ماجه (٢٠٣٠)، والبيهقي (٤٣٠/٧).

سُبيعة مصغر، وقوله: فلم تنشب أي تلبث، وقوله: تعلَّلت من نفاسها، أي خرجت منه، وقوله: نفست ـ بضم النون وكسر الفاء ـ، وقوله: القصرى: وهي سورة الطلاق.

وجملة هذه الأحاديث كلها تدلّ على أمرٍ واحد وهو أن عدة الحامل وضعها حملها ولو من يومها، فالأحاديث نصّ في ذلك، وهو نصّ الآية الكريمة أيضاً، وهو عام في كل المعتدّات سواء كان ذلك من موت أو طلاق، وهذا مذهب أكثر العلماء والأئمّة من الصحابة فمن بعدهم، وبه قال الأئمّة الأربعة وغيرهم، وكان ابن عباس يرى أن تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً في المتوفّى عنها زوجها، وهذا ما حمل ابن مسعود على قوله بأن سورة النساء القصرى وهي سورة الطلاق التي فيها انقضاء عدّة الحامل بالوضع نزلت بعد البقرة التي فيها أن تتربّص أربعة أشهر وعشراً... فالقرآن والسنّة متّحدان في أن الحامل عدّتها وضعها ولا قول لأحد بعد كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كائناً من كان، ولا اجتهاد ولا رأي مع النصّ.

ويؤخذ من حديث سُبَيْعَة أن للمرأة أن تتجمّل للخطّاب إذا خرجت من العدة، وأن ذلك خارج عن التبرّج المنهي عنه، كما أن فيه جواز تزوّجها عقب نفاسها قبل أن تطهر، ويكون العقد صحيحاً غير أنه لا يدخل بها الزوج حتى تطهر، وذلك إجماع.

* * *

عدة المتوفى عنها زوجها مع الإحداد

{٩٧٣} ـ عن زينب بنت أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما أنها أخبرت بهذه الأحاديث الثلاثة، قالت: دخلت على أُمّ حبيبة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أمّ حبيبة بطيب فيه صفرةٌ خلوقٌ أو غيره، فدهنتْ به جارية ثم مسَّت به بَطنَها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر يقول: «**لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ على ميت فوق ثلاث ليال إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً**»، قالت زينب: وسمعت أمي أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفَنَكْحُلها؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا**»، ثم قال: «**إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكنّ في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول**»، قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشاً ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طيباً ولا شيئاً حتى تمرّ بها سنة، ثم تُؤْتي بدابّة حمار، أو شاة، أو طير، فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها ثم تراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره. وفي رواية في أُمّ حبيبة: فمسحت به ذراعيها وعارضيها...

رواه البخاري (١١/٤١٠، ٤١٦)، ومسلم (١٠/١١١، ١١٥)، والترمذي (١٠٧٧)، والدارمي (٢٢٨٩)، وذكر الترمذي الحديث الثالث، فقال: قالت زينب: فدخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب فمسّت منه، ثم قالت: والله ما لي في الطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث ليال، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً**».

{٩٧٤} ـ وعن أمّ عطية رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تُحِدُّ امرأةٌ على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل ولا تمسّ طيباً إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار**».

رواه البخاري (٤١٧/١١)، ومسلم (١١٨/١٠)، وفي الباب عن عائشة وحفصة عند مسلم (١١٧/١٠).

تحدّ ـ بضم التاء وكسر الحاء ـ: من الإحداد، ويأتي معناه. وقوله: حفش ـ بكسر الحاء وسكون الفاء آخره شين ـ: هو بيت صغير حقير قريب سقفه، وقوله: فتفتض به أي: تكسر ما هي فيه من العدّة، فتمسح قبلها بدابة أو طائر وقيل غير ذلك في معناه.

قد كانت المرأة الجاهلية إذا توفي زوجها لبست أحلاسها وشرّ ملابسها ودخلت بيتاً صغيراً حقيراً ومكثت فيه سنة لا تغتسل ولا تمسّ ماء إطلاقاً، ولا تقلم ظفراً ولا تمتشط شعراً، فإذا مرّ عليها حول خرجت بأقبح منظر فتمسح قبلها وفرجها بدابّة أو طير، فتخرج بذلك من عدّتها. ولما جاء الإسلام كانت المرأة تعتد لوفاة زوجها حولاً من غير خروج، ثم خفف الله تعالى عنها، فجعل لها أربعة أشهر وعشراً كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وكما جاء نصاً أيضاً في أحاديث الباب، وسواء في ذلك المرأة التي تحيض أو اليائسة أو الصغيرة أو التي لا تحيض سوى الحامل كما تقدم، ثم عليها الإحداد في هذه المدة، والإحداد: هو ترك المعتدة من الوفاة أنواع الزينة من ملابس رفيعة جذابة وحلي وكحل وخضاب وطيب وغير ذلك مما يعتبر زينة شرعاً وعرفاً غير أنه رخّص لها إذا طهرت من حيضتها أن تستعمل قطعة من مسك ونحوه دفعاً لرائحة الحيض ونتنه، والقسط: هو العود والأظفار: شيء طيب أسود يبخر به كالعود، وبما ذكرناه قال كل الأئمّة والعلماء إلا خلافاً بسيطاً في شيء من ذلك. ويؤخذ من هذه الأحاديث جواز الإحداد على كل ميّت من أهله ثلاثة أيام، أما ما هو سائد اليوم في

عالمنا من الإحداد على الرؤساء ومن شابههم الأسابيع، وربما الشهور: ليس من الإسلام في شيء.

* * *

أين تعتد المتوفى عنها زوجها

{٩٧٥} ـ عن فُرَيْعَة بنت مالك رضي الله تعالى عنها قالت: خرج زوجي في طلب أعلاج له، فأدركهم في طرف القدوم فقتلوه، فأتاني نَعْيُه وأنا في دار شاسِعَةٍ من دور أهلي، فأتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرتُ ذلك له، فقلت: إن نعي زوجي أتاني في دار شاسعة من دور أهلي ولم يدع نفقة ولا مالاً ورثته وليس المسكن له، فلو تحولتُ إلى أهلي وإخوتي لكان أرفق لي في بعض شأني، قال: **«تحوّلي»**، فلما خرجت إلى المسجد أو إلى الحجرة دعاني وأمر بي فدُعِيتُ، فقال: **«امكثي في بيتك الذي أتاكِ فيه نعي زوجك حتى يبلغ الكتاب أجله»**، قالت: فاعتددتُ فيه أربعةَ أشهر وعشراً، قالت: وأرسل إليّ عثمان فأخبرته فأخذ به.

رواه أبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٠٨٦)، والنسائي (١٦٥/٦)، وابن ماجه وابن حبان (١٣٣١، ١٣٣٢)، والحاكم (٢٠٨/٢) وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي.

فريعة ـ بضم الفاء وفتح الراء وسكون الياء ـ، أعلاج: جمع علج، وهم كفار العجم، القدوم ـ بفتح القاف ـ: نعي زوجي أي: خبر موته، شاسعة أي: بعيدة.

الحديث يدلّ على أن المتوفى عنها زوجها تعتدّ في المحل الذي توفي عنه الزوج ولو لم يكن ملكاً له، وأنها لا تخرج منه، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، قال ابن عبدالبر: وبه يقول جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق ومصر... وقال آخرون: تعتدّ حيث

شاءت... وعليها أن تبيت في منزلها ولا تبيت في غيره إلا لضرورة، وقد حكى الهادي في البحر الإجماع على ذلك. أما خروجها نهاراً لحوائجها فلا مانع منه كما يأتي في حديث جابر قريباً.

* * *

عدة المطلقة

{٩٧٦} ـ عن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها أن أبا عمرو بن حفص طلّقها ألبتّة وهو غائب بالشام، فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء، فجاءت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، فقال لها: «**ليس لك عليه نفقة**»، وأمرها أن تعتد في بيت أمّ شريك، ثم قال: «**تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدّي عند ابن أُمّ مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده، فإذا حللت فآذنيني**»، قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتِقِهِ، وأما معاوية فصَعْلُوكٌ لا مال له، انكِحِي أُسامةَ بن زيد**»، قالت: فكرهته، ثم قال: «**انكِحِي أُسامة**»، فنكحته فجعل الله تعالى فيه خيراً واغتبطتُ به.

رواه مسلم (١٠/٩٤، ١٠٦) من طرق كثيرة وألفاظ، وأبو داود (٢٢٨٤)، والترمذي (١٠٦١)، والنسائي (٦/١٢٢، ١٧٥)، وابن ماجه (٢٠٣٥)، والبيهقي (٧/٤٧٢) وغيرهم مطوّلاً ومختصراً.

قوله: فلا يضع عصاه، يعني: ضرّاب النساء كما في رواية لمسلم، وقوله: صعلوك أي: فقير قليل ذات اليد، وقولها: طلّقها البتّة تعني: الطلاق الثلاث.

والحديث يدلّ على وجوب عدة المطلقة وهو إجماع؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، غير

أن عدّة المطلقة تختلف باختلاف حالة المرأة، فإذا كانت تحيض تعتدّ بالأقراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، يتربصن أي: ينتظرن، والقروء جمع قُرْء ـ بضم القاف ـ، وقد اختلف فيه العلماء لتضارب الأحاديث فيه واختلاف اللغة في معناه، فذهب مالك والشافعي وأحمد والظاهرية إلى أن الأقراء الأطهار، فبداية العدة تكون في أوّل الطهر، وذهب الحنفية وآخرون إلى أنها الحيض، فيكون الطهر الأول غير معدود من العدّة، بل تبتدئ في الحيضة المقبلة بعده.

وإذا كانت آيسة من الحيض أو لم تحض مطلقاً أو لم تحض بعدُ لصغرها، فعدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، ثم قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: فعدتهن ثلاثة أشهر.

أما إذا كانت حاملاً، فقدمنا أن عدتها وضع حملها. وكل هذا لا اختلاف فيه بين الأئمّة والعلماء وهذه العدد كلها للمدخول بها أما من طلقت قبل المسيس فلا عدّة عليها في الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وهذا أيضاً لا خلاف فيه. وفي حديث فاطمة هذا دليل على أن المطلقة طلاقاً بائناً تعتدّ أي موضع شاءت بما يناسبها، وليس لها حكم المتوفّى عنها زوجها من كل وجه.

وفيه جواز ذكر عيوب الشخص لأجل المصلحة الراجحة، فإن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أشار إلى فاطمة بنصيحته في عدم تزوّجها بمعاوية وأبي جهم، وذكر لها بعض عيوبهما المانعة من التزوّج بها، فذكر لها أن أبا جهم كثير الضرب للنساء وذلك لا يصلح للمعاشرة، ومعاوية لا مال له فهو غير قادر على الإنفاق... وفيه لذلك مشروعية النصيحة، وهي من الدين.

* * *

جواز خروج المعتدة للحاجة

{٩٧٧} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: طُلِّقَتْ خالتي ثلاثاً، فخرجتْ تَجُد نخلاً لها، فلَقِيَها رجلٌ فنهاها، وفي رواية: فزَجَرَها رجلٌ أن تخرج، فأتت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**بلى فجُدّي نخلَك، فإنك عسى أن تَصَّدَّقي أو تَفْعلي معروفاً**»، وفي رواية: «**اخرجي فجدّي نخلك لعلّك أن تصدقي منه أو تفعلي خيراً**».

رواه مسلم (١٠/١٠٨)، وأبو داود (٢٢٩٧)، والنسائي (٦/١٧٤)، وابن ماجه (٢٠٣٤).

قوله: تجدّ ـ بفتح التاء وضمّ الجيم ـ: أي: تقطع التمر وتجنيه.

وفي الحديث دليل على جواز خروج المعتدة نهاراً لحاجتها وضروریاتها، وسواء كانت في عدة الطلاق أم الوفاة، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد والليث وأخرين، وخالفهم أبو حنيفة في البائن، فقال: لا تخرج ليلاً ولا نهاراً ونصّ الحديث يخالفه، هذا في النهار. أما في الليل، فقد قدمنا حكاية الهادي الإجماع على وجوب مبيتها في منزلها، وقد أخرج عبدالرزّاق في مصنفه (٣٦/٧) عن مجاهد مرسلاً بسند صحيح قال: استشهد رجال يوم أحد فجاء نساؤهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقلن: يا رسول الله نستوحِش بالليل، أفنَبِيتُ عند إحدانا، فإذا أصبحنا بادرنا إلى بيوتنا، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تحدَّثْنَ عند إحداكُن حتى إذا أَردْنَ النومَ فَلْتَؤُبْ كلُّ واحدة إلى بيتها**».

* * *

الأمة تعتق تعتد عدة الحرة

{٩٧٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن زوج بريرة كان عبداً أسود يسمّى مُغيثاً، وكنتُ أراه يَتْبَعُها في سِكَكِ المدينة يعصِرُ عينيه عليها، قال: فقضى فيها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أربع

قضيات: قضى أن الولاء لمن أعتق، وخيَّرها وأمرها أن تعتدّ، قال همام: مرة عدة الحرة، قال: وتصدق عليها بصدقة فأهدت منها إلى عائشة فذكرت ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**هو عليها صدقة ولنا هدية**»، وفي رواية: فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يا عباس ألا تعجبُ من حُبّ مُغيث بَريرة، ومن بُغض بريرة مُغيثاً**»، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو راجعتِه**»، قالت: يا رسول الله تأمُرُني؟ قال: «**إنما أنا أشفع**»، قالت: فلا حاجة لي فيه.

رواه أحمد (٣٦٠/١)، والبخاري (٣٢٦/١١، ٣٢٩) في النكاح وفي مواضع، وهو عن ابن عباس من أفراده.

{٩٧٩} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: كان في بريرة ثلاث سنن: إحدى السنن أنها أعتقت فخيرت في زوجها، وقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الوَلاءُ لمن أعتق**»، ودخل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والبُرْمة تفورُ بلحم فقُرِّب إليه خبزٌ وأُدْمٌ من أُدم البيت، فقال: «**ألم أرَ البُرْمَة فيها لحم**»؟ قالوا: بلى، ولكن ذلك لحم تصدّق به على بريرة، وأنت لا تأكل الصدقة، قال: «**عليها صدقة، ولنا هديّة**».

رواه البخاري في الطلاق (٣٢٣/١١، ٣٢٤، ٣٢٥) وفي مواضع، ومسلم في العتق (١٣٩/١٠، ١٤٧).

قوله: مُغيث ـ بضم الميم وكسر الغين ـ: والسِّكك: جمع سكة وهي الطريق.

والحديثان يدلاّن على أن الأمة إذا كانت تحت العبد ثم عُتقت كان لها الخيار في البقاء مع زوجها وفي فراقه، كما وقع لبريرة مع مغيث، فإنه كان عبداً فلما عتقت خيّرها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وجعل عدّتها عدة الحرة، كما في حديث ابن عباس لأنها أصبحت حرة، وفي الحديثين أيضاً ما ذكر فيهما من السنن: والولاء تقدم في البيع، وهدية ما تصدّق به على بريرة تقدمت في الأطعمة وتأتي في السيرة.

الأم أحقّ بحضانة الولد الصغير والابنة الصغيرة حتى يبلغا المحيض أو الاحتلام أو الإنبات مع التمييز وصحة الجسم إلخ.

{٩٨٣} ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن ابنة حمزة اختصم فيها عليّ وجعفر وزيد بن حارثة، فقال عليّ: أنا أحق بها هي ابنة عمي، وقال جعفر: بنت عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لخالتها، وقال: «**الخالة بمنزلة الأُم**»، وقال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**».

رواه أحمد (٤/٢٩٨)، والبخاريّ في الحج رقم (١٨٤٤)، وفي الصلح (٢٦٩٩)، وفي المغازي (٤٢٥١)، ومسلم في صلح الحديبية (١٢/١٣٦، ١٣٧) مختصراً، ويأتي مطولاً في السيرة إن شاء الله تعالى.

في الحديث بيان أن الخالة بمنزلة الأُم وعلى مقتضى ذلك لها الحق في حضانة أولاد أختها، وقد وقع الإجماع على أن الأُمّ هي أقدم الحواضن، فيكون مقتضى تشبيه الخالة بها أن تكون مقدمة على غيرها في الحضانة، هذا ظاهر الحديث، وللفقهاء خلاف في ذلك لا داعي لإيراده.

وبهذا تمّ كتاب النكاح وما يتعلق به والحمدلله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

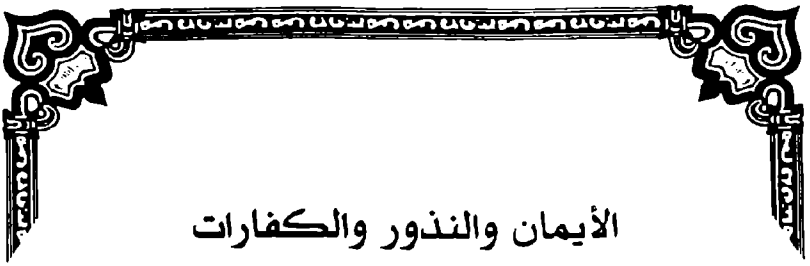

الأيمان والنذور والكفارات

كيف كانت يمين رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٩٨٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كانت يمين النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا ومُقَلِّب القلوبِ»**.

رواه البخاري (٣٢٨/١٤) في الأيمان... وفي القدر وفي التوحيد، وفي رواية: أكثر ما كان يحلف...

{٩٨٥} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«يا أمّةَ محمد والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»**.

رواه البخاري في الكسوف وفي الأيمان والنذور (٣٢٩/١٤)، وابن ماجه (٢٠٩٢) بلفظ: **«لاَ ومُصَرِّفِ القلوب»**.

{٩٨٦} ـ وعن أبي هريرة مثله، غير أنه قال: **«والذي نفسُ محمّد بيده»**، والباقي سواء.

رواه البخاري في الأيمان (٣٣٢/١٤).

{٩٨٧} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن امرأة من الأنصار أتت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم معها أولادها، فقال النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده إنكم لأحبُّ الناس إليَّ**»، قالها ثلاث مرات.

رواه البخاري (١٤/٣٣٥).

في هذه الأحاديث بيان الألفاظ التي كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقسم ويحلف بها، وهي: لا ومقلّب القلوب، والله، والذي نفس محمد بيده، والذي نفسي بيده... وكلّها إقسام بالله عزّ وجلّ، فمقلّب القلوب أو مصرف القلوب صفة لله عزّ وجلّ لأنه الذي يقلب ويصرّف أحوال القلوب وأعراضها، ولذلك كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كثيراً ما يدعو ويقول: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك، وقوله: والذي نفس محمد أو والذي نفسي هو أيضاً صفة لله عزّ وجلّ، كأنه قال: والله الذي نفسي... وهناك أقسام كان يحلف بها جاءت مفرقة في الأحاديث، وقوله: لا ومقلب إلخ، فلا إما مؤكدة؛ كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]، وإما نافية لكلام سابق كأن قيل له: هل الأمر كذا وكذا، فقال: لا، ومصرّف القلوب.

* * *

وجوب الحلف بالله والنهي عن الحلف بغيره

{٩٨٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: «**ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليلحف بالله أو ليَصْمُت**»، وفي رواية زيادة: قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نهى عنها ذاكراً ولا آثراً.

رواه البخاري (١٤/٣٣٥، ٣٣٦)، ومسلم (١١/١٠٤، ١٠٥، ١٠٦)، وأبو داود (٣٢٤٩، ٣٢٥٠)، والترمذي (١٤٠١)، والنسائي (٧/٥)، وابن ماجه (٢٠٩٤)، والدارمي (٢٣٤٦) كلّهم في الأيمان.

{٩٨٩} ـ وعنه أيضاً أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبةِ، فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**من حلف بغير الله فقد كَفَر أو أشْرَكَ**».

رواه أحمد (٢/٨٧، ١٢٥)، والترمذي (١٤٠٢)، وأبو داود (٣٢٥١)، وابن حبان (١١٧٧) بالموارد، والحاكم (٤/٢٩٧) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والحديث سنده صحيح على شرط مسلم فقط، كما قال الذهبي: وما أعلّ به الحديث من الانقطاع ردَّه الحافظ في التلخيص بوروده من طرق أخرى موصولة.

{٩٩٠} ـ وعن عبدالرحمٰن بن سَمُرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تَحْلِفُوا بالطَّوَاغِي ولا بآبائكم**».

رواه مسلم (١١/١٠٨)، وابن ماجه (٢٠٩٥).

قوله: ما حلفت بها ذاكراً ولا آثراً أي: ما حلفت بها من قبل نفسي، ولا آثراً أي: حالفاً عن غيره، وقوله: فقد كفر وأشرك، قال العلماء: هذا على التغليظ وليس على ظاهره، فهو كالرياء الذي أطلق عليه الشرك أيضاً، وقوله: الطواغي: جمع طاغية وهي الأصنام، وسمّيت كذلك لطغيان الكفار بعبادتها، لأنها سبب كفرهم وطغيانهم، وكل ما جاوز الحدّ في تعظيم أو غيره فقد طغى، فالطغيان مجاوزة الحد في كل شيء.

المقصود من الحلف هو تقوية الكلام وتأكيده، وكان أهل الجاهلية يحلفون بآلهتهم ونحوها مما كانوا يعظمونه، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، والنهي عنه والتشديد فيه؛ لأن العظمة في الحقيقة لا تكون إلاّ لله تعالى. قال ابن عبدالبرّ: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع... وقد اختلفت المذاهب في حكم ذلك، والجمهور على أن ذلك حرام، وهو قول للمالكية والمشهور عند الحنابلة ومذهب الظاهرية... فلا يجوز الحلف بغير الله تعالى لا بالكعبة ولا بالأنبياء ولا بالصالحين ولا بشمس ولا قمر ولا كوكب ولا أي: مخلوق... وما جاء في القرآن من إقسام الله تعالى بمخلوقاته، فذلك من خصائص الربوبية. أما ما ورد من قسم النبيّ صلّى الله تعالى عليه

وآله وسلم بغير الله تعالى؛ كقوله: «وأبيه»، فذلك محمول على أنه كان قبل النهي، أو كانت جارية على الألسن من غير قصد الحلف. واتّفق العلماء رحمهم الله على أن اليمين تصح وتنعقد بالله عزّ وجلّ وأسمائه؛ كقوله: والله، والرحمٰن، والرحيم، والخالق، والبارىء، والرزّاق، والسميع، والبصير، وفالق الإصباح، وتكون بصفات الذات، كقوله: وعظمة الله، وجلال الله، وعزّة الله، وقدرة الله، وكبرياء الله، وعلم الله، وكلام الله، فكل ذلك يمينٌ. ومن اليمين لعمرُ الله، كما في القرآن، وأيمُ الله كما قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في زيد بن حارثة: **«وأيمُ الله إن كان لخليقاً للإمارة»**، رواه البخاري. ومن ألفاظ اليمين: أقسم بالله، وحلفت بالله ونحو ذلك.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو، فيقال: بالله، وتالله، والله...

وعيد من حلف بغير الإسلام

{٩٩١} ـ عن ثابت بن الضحاك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من حَلَفَ بمِلّةٍ سوى الإسلام كاذِباً متعمداً فهو كما قال»**.

رواه البخاري في الجنائز وفي الأدب وفي الأيمان والنذور (١٤/٣٤٤، ٣٤٥)، ومسلم فيه (١١/١١٨، ١١٩)، وأبو داود (٣٠٥)، والترمذي (١٣٩٥، ١٤١٠)، والنسائي (٦/١٨)، وابن ماجه (٢٠٩٨).

{٩٩٢} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من قال إني بريءٌ من الإسلام، فإن كان كاذباً فهو كما قال، وإن كان صادقاً لم يَعدْ إلى الإسلام سالماً»**.

رواه أبو داود (٣٢٥٨)، وابن ماجه (٢١٠٠)، والنسائي (٧/٦، ٧)،

وكذا أحمد (٣٣٥/٥، ٣٥٦)، والحاكم (٢٩٨/٥)، والبيهقي (٣٠/١٠) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

قوله: من حلف بملّة سوى الإسلام كأن يقول مثلاً هو يهودي أو نصراني... إن فعل كذا وكذا ثم فعل ذلك الشيء، وكذا قوله: إني بريء من الإسلام إلخ.

وظاهر الحديثين أن من قال ذلك كاذباً متعمّداً فهو كما قال، وإن كان صادقاً في قوله فلن يرجع إلى الإسلام بخير لإتيانه وارتكابه أمراً عظيماً. وهل يكفر بذلك أم لا؟ فيه خلاف للفقهاء، وظاهر الحديثين يدلاّن على كفره، ثم اختلفوا: هل عليه كفارة في ذلك أم لا؟ إذا رجع وحنث فقال أحمد وأبو حنيفة والأوزاعي وابن راهويه وغيرهم: عليه كفارة يمين، وقال مالك والشافعي وأهل المدينة: لا كفار عليه، وعليه التوبة وتكرار قول لا إله إلاّ الله للحديث التالي:

{٩٩٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من حلف فقال في حَلِفِهِ: باللاّتِ والعُزّى فليقل: لا إله إلاّ الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق**».

رواه أحمد (٣٠٩/٢)، والبخاري (٣٤٢/١٤) وفي مواضع، ومسلم (١٠٧/١١)، وأبو داود (٣٢٤٧)، والترمذي رقم (١٤١٢)، والنسائي (٧/٧، ٨)، وابن ماجه (٢٠٩٦) وغيرهم ويأتي أيضاً في الأدب.

اللاّت والعزّى: صنمان كانا لقريش وهما أشهر أصنامهم وطواغيتهم، وكانوا يحلفون بهما تعظيماً وتقديساً لهما، فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أخطأ فحلف بهما أن يراجع إسلامه، ويتدارك توحيد الله عزّ وجلّ، ويقول لا إله إلاّ الله لكونه تعاطى صورة تعظيم الأصنام حيث حلف بهما.

وقد جاء في حديث آخر زيادة تكرار لا إله إلاّ الله والتفل عن اليسار مع الاستعاذة بالله من الشيطان.

{٩٩٤} ـ فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: حلفت باللاّت والعزّى، فقال أصحابي: قلت: هُجْراً، فأتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله إن العهد كان قريباً، وحلفت باللاّت والعزى، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«قل لا إله إلاّ الله وحده ثلاثاً، ثم انفِل عن يسارك ثلاثاً، وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تَعُدْ»**.

رواه أحمد (١/١٨٣، ١٨٦، ١٨٧)، والنسائي (٧/٨)، وابن ماجه (٢٠٩٧)، وابن حبان (١١٧٨) وسنده صحيح ولا يضرّ هنا أبو إسحٰق السبيعي.

ففي هذا الخبر تكرار لا إله إلاّ الله مع التفل عن اليسار والتعوّذ بالله من الشيطان، مع نهيه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سعداً عن العودة إلى ما قال.

وإنما أمر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بتدارك التوحيد لأن الحلف بالأصنام فيه نوع من الشرك، وإن كان ليس بشرك أكبر يخرج من الملّة، لكنه أمر عظيم.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: قال أصحابنا ـ الشافعية ـ: إذا حلف باللاّت والعزى وغيرهما من الأصنام، أو قال: إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام أو بريء من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو نحو ذلك لم تنعقد يمينه، بل عليه أن يستغفر الله تعالى ويقول: لا إله إلاّ الله ولا كفارة عليه سواء فعله أم لا، هذا مذهب الشافعي ومالك وجماهير العلماء، وقال أبو حنيفة: تجب الكفارة في كل ذلك إلاّ في قوله: أنا مبتدع أو بريء من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أو واليهودية، واحتجّ بأن الله تعالى أوجب على المظاهر الكفارة لأنه منكر من القول وزور، والحلف بهذه الأشياء منكر وزور، واحتجّ أصحابنا والجمهور بظاهر هذا الحديث، فإنه صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم إنما أمره بقول لا إله إلاّ الله ولم يذكر كفارة، ولأن الأصل عدمها حتى يثبت فيها شرع.

❊ ❊ ❊

من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها يتحلّل ويكفّر

{٩٩٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من حلف بيمين فرأى خيراً منها فلْيُكَفِّر عن يمينِهِ وليفعلْ الذي هو خيرٌ**».

رواه مالك في الموطأ (٣/٦٤)، ومسلم (١١/١١٤)، والترمذي (١٣٩٨)، وفي رواية عند مسلم: أعتم رجل عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم رجع إلى أهله فوجد الصِّبْيَة قد ناموا، فأتاه أهله بطعامه فحلف لا يأكل من أجل صَبِيَّته ثم بدا له فأكل فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكر ذلك له، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتِها وليكفّر عن يمينه**».

{٩٩٦} ـ وعن عبدالرحمٰن بن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وإذا حلفتَ على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك، وائتِ الذي هو خير**».

رواه البخاري في الأحكام وفي الأيمان والنذور (١٤/٣٢١)، ومسلم فيه (١١/١١٦) ويأتي مطوّلاً في الإمارة، وفي الباب عن عدي بن حاتم عند مسلم، وعن أبي موسى في الصحيحين ويأتي قريباً.

والحديثان يدلاّن على أن من حلف على شيء ثم رأى الخير في خلافه كأن حلف على ترك مندوب مثلاً أو فعل مكروه، فالأفضل أن يُحَنِّث

نفسه ويكفّر عن يمينه، وإلا فحفظ اليمين أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، واليمين على ترك طاعة أو فعل خير مكروهة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وهذا قول عامة أهل العلم والأئمّة. أما من حلف على فعل معصية أو ترك واجب فالحنث عليه واجب كما يأتي، غير أنهم اختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث، فذهب الأكثر إلى تقديمها قبل أن يحنث، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وابن راهويه، وذهب آخرون إلى تقديم الحنث والأمر واسع، لأن الأحاديث وردت بالأمرين.

❊ ❊ ❊

الاستثناء في اليمين

{٩٩٧} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من حلف على يمين فقال: إن شاء الله فلا حنث عليه**».

رواه أبو داود (٣٢٦١)، والترمذي (١٣٩٩) بتهذيبي، والنسائي (٢٣/٧)، وابن ماجه (٢١٠٦)، والدارمي (٢٣٤٧، ٢٣٤٨)، وابن حبان (١١٨٣)، والحاكم (٣٠٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

والحديث سنده صحيح، وإعلاله بالوقف ليس بعلّة لأن من رفعه ثقتان، فَالْعَمَلُ على زيادتهما.

{٩٩٨} ـ ونحوه عن أبي هريرة رواه أيضاً الترمذي (١٤٠٠)، والنسائي (٢٩/٧)، وابن ماجه (٢١٠٤)، وابن حبان (١١٨٥) وسنده أيضاً صحيح.

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وغيرهم أن الاستثناء إذا كان موصولاً

باليمين فلا حنث عليه، وهو قول سفيان الثوري والأوزاعي ومالك بن أنس وعبدالله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحٰق.

ومعناه: أن من حلف فقال: إن شاء الله موصولاً بحلفه ثم حنث، فلا كفارة عليه، وهو في حل.

{٩٩٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفنّ الليلةَ على تسعين امرأةً كلُّها تأتي بفارس يقاتلُ في سبيل الله، فقال له صاحبُه: قل: إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهنّ جميعاً فلم تحمِلْ منهنّ إلا امرأةٌ واحدةٌ، فجاءت بِشِقّ رجلٍ: وأيمُ الذي نفسُ محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فُرْساناً أجمعون**»، وفي رواية: «**لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دَرَكاً له في حاجته**».

رواه البخاري (٣٣٣/١٤)، ومسلم (١١٩/١١، ١٢١) كلاهما في الأيمان والنذور، ويأتي في الأنبياء إن شاء الله تعالى.

قوله: على تسعين امرأة هكذا في الصحيحين وجاء في رواية سبعين، وفي أخرى مائة... قال النووي: هذا كلّه ليس بمتعارض لأنه ليس في ذكر القليل نفي الكثير...

وقوله: فقال له صاحبه: الظاهر أنه الملك، وقوله: دَرَكاً ـ بفتح الدال والراء ـ: أي: لحاقاً له في حاجته، وقوله: لو قال إن شاء الله لم يحنث، معناه: لحصل له ما حلف عليه، وقيل: هذا خاص بسليمان عليه السلام، فإن هنالك من الأنبياء من استثنى بمشيئة الله ولم يحصل لهم ما قصدوا كموسى وإسماعيل عليهما السلام، والمقصود بالحديث هو مشروعيّة الاستثناء بعد اليمين، وفوائد هذا الحديث قد ذكرتها مبسوطة في عجائب الأقدمين وهو مطبوع فارجع إليه.

❊ ❊ ❊

كراهة التمادي في اليمين إذا كان فيها ضرر على أهل الحالف

{١٠٠٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**والله لأن يَلِجَ أحدُكم بيمينه في أهله آثمٌ له عند الله من أن يُعْطِي كفارته التي فرض الله تعالى عليه**».

رواه البخاري (٣٢٣/١٤)، ومسلم (١٢٣/١١)، وفي رواية للبخاري: «**من اسْتَلَجَّ في أهله بيمين فهو أعظم إثماً**، لِيَبَرَّ» يعني: الكفارة.

قوله: يلج ـ بفتح الياء واللام ـ ويجوز كسر اللام من اللجاج: وهو التمادي في الأمر ولو تبيّن خطؤه، وأصل اللّجاج الإصرار على الشيء، وقوله: آثم بهمزة ممدودة أي: أكثر إثماً، ومعنى الحديث أن من حلف على شيء في أهله وكانوا يتضرّرون بذلك، فالواجب عليه أن يحنث إن لم يكن في معصية ولا يصرّ على اليمين، فإن إصراره عليها أعظم إثماً من حنثه والكفارة عليها، ولذلك أمر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وفي الرواية الثانية بالإتيان بالبرّ وهي الكفارة.

* * *

اليمين تكون على نيّة المُستَحلِف

{١٠٠١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يمينك على ما يُصَدِّقُكَ عليه صاحبُك**»، وفي رواية: «**اليمينُ على نِيَّةِ المُسْتَحْلِفِ**».

رواه أحمد (٢٢٨/٢)، ومسلم (١١٧/١١، ١١٨)، وأبو داود (٣٢٥٥)، وابن ماجه (٢١٢٠).

المستحلف ـ بكسر اللام ـ: أي: الذي يُحَلِّفُ غيره.

ومعنى الحديث أنه إذا ادّعى رجل على آخر حقاً فحلّفه القاضي وعمل

تورية ونوى غير ما نواه القاضي المستحلف انعقدت اليمين على ما نواه القاضي، ولا تنفع الحالف توريته ونيّته، وهذا مجمع عليه أمّا إذا لم يُسْتَحلف فالاعتبار بنيّته، هكذا نقل النووي وغيره عن العلماء.

❊ ❊ ❊

مشروعية التورية في اليمين

{١٠٠٢} ـ عن سويد بن حنظلة قال: خرجنا نريد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومعنا وائل بن حجر، فأخذه عدوٌّ له فتحَرَّجَ الناسُ أن يَحْلِفُوا، فحلفتُ أنا أنه أخِي فخلَّى سبيلَه، فأتينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبرته أن القوم تحرّجوا أن يحلفوا وحلفت أنا أنه أخي، فقال: **«صدقت، المسلم أخو المسلم»**.

رواه أحمد (٧٩/٤)، وأبو داود (٣٢٥٦)، وابن ماجه (٢١١٩) وسنده صحيح.

في هذا الحديث جواز التورية في اليمين كما فعل سُوَيْد حيث حلف بأن حجراً أخاه، وقصد بذلك أخاه في الإسلام، وقد جاء هذا في أحاديث كثيرة منها في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ذلك الجبار، وقوله لسارة: إنك أختي، ويأتي مطوّلاً في الأنبياء، ولهذا جاء في الحديث المشهور: **«إن في المعاريض لَمَنْدُوحَةً»**، وهو عند البخاري في الأدب المفرد، والمعاريض: هي خلاف التصريح، ويأتي البحث فيها في الأدب إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

اليمين الغموس

{١٠٠٣} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من حلف على يمين صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بها مالَ امْرِىءٍ مسلمٍ لَقِي الله وهو عليه غضبان»**.

رواه البخاري (٣٦٧/١٤)، ومسلم (١٥٨/٢)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١١٤٧) وباقي الجماعة، وقد تقدم مطوّلاً ويأتي في الأحكام.

قوله: يمين صبر أي: كاذبة فاجرة، وفي الحديث وعيد شديد لمن حلف كاذباً ليأخذ مال أخيه المسلم. وهذه هي اليمين الغموس الواردة في حديث: «**الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس**»، وهو في الصحيحين ويأتي في الآداب، والغموس - بفتح الغين -: سمّيت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار عياذاً بالله تعالى.

* * *

يمين اللغو

{١٠٠٤} - عن عطاء رحمه الله تعالى في اللغو في اليمين قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**هو كلام الرجل في بيته: كلاّ والله، وبلى والله**».

رواه أبو داود (٣٢٥٤) هكذا مرفوعاً بسند صحيح، ورواه البخاري (٣٢١/١٤) في الأيمان والنذور، وفي التفسير (٣٤٤/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٦/٦) موقوفاً على السيدة عائشة رضي الله تعالى عنهما.

لغو اليمين: هو الذي لا يعتدّ به، وليس فيه إثم ولا كفارة لأنه يكون عن غير قصد ولا عقد بالقلب، وفيه يقول تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، أي: يؤاخذكم بما عقدتم بقلوبكم، كما في آية المائدة: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ١٧٩]، أي: قصدتموها مع النطق بها.

وقد جعل ابن كثير من اللغو ما قدمناه من حديث أبي هريرة: «**من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلاّ الله**»، قال: لأن القوم كانوا حديثي عهد بجاهلية قد أسلموا وألسنتهم قد ألِفَتْ ما كانت عليه من الحلف باللات

من غير قصد، فأُمِرُوا أن يتَلَفظُوا بكلمة الإخلاص، كما تلفَّظُوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه.

وعلى أيٍّ فمن جَرَى على لسانه يمينٌ من غير قصد ولا عقد بالقلب، فلا يترتّب عليه شيء.

* * *

ما هي كفارة اليمين

من حلف على شيء ورأى غيرها خيراً مما حلف عليه وحنث، فعليه أن يكفّر عن يمينه وذلك بواحد من أمور ثلاثة على الترتيب: إما أن يطعم عشرة مساكين من أوسط ما يأكله الناس أو يَكْسُوهُم، وإما أن يُعْتِقَ رقبةً مؤمنة، وهذه قد فقدت اليوم فمن لم يجد ما سبق لفقْرِهِ وقلّةِ يدِهِ فعليه صيامُ ثلاثةِ أيام... وفي هذا جاء قوله عزّ وجلّ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

* * *

وجوب الوفاء بالنذر في طاعة الله

{١٠٠٥} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصِيه فلا يَعْصِهِ**».

رواه مالك في الموطأ (٦٢/٣)، والبخاري في الأيمان والنذور (٣٩٢/١٤)، وأبو داود (٣٢٨٩)، والترمذي (١٣٩٤)، والنسائي (١٦/٧)، وابن ماجه (٢١٢٦)، والدارمي (٢٣٤٣) وغيرهم.

النذر: هو إيجاب ما ليس بواجب بأن يلزم الإنسان على نفسه شيئاً من صيام، أو صدقة، أو أي: طاعة، فمن ألزم على نفسه ما فيه طاعة لله عزّ وجلّ وجب عليه الوفاء به. وقد مدح الله تعالى الموفين بالنذر، وجعل ذلك من صفات الأبرار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ الآية [الإنسان: ٥ ـ ٧]، وجعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من علامات ظهور الشرّ في الأُمّة وجود أقوام ينذرون ولا يوفون، كما في الحديث الصحيح، ويأتي في الفضائل وغيرها.

أمّا من نذر معصية كأن يقول: لله عليّ أن أزني، أو أشرَب الخمر، أو أقاطع فلاناً أو نحو ذلك، فهذا لا يجوز الوفاء به، بل يجب الحنث فيه، وعليه في ذلك كفارة كما يأتي.

* * *

لا نذر فيما لا يملكه الإنسان

{١٠٠٦} ـ عن ثابت بن الضحاك رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ليس على العبد نذرٌ فيما لا يملك**».

رواه الترمذي (١٣٩٥) وغيره مختصراً هكذا وحسّنه وصححه، وأصله في الصحيحين وغيرهما مطوّلاً.

{١٠٠٧} ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه في قصة إغارة الكفار على سرح المدينة وأخذهم العضباء وأسرهم امرأة من المسلمين، وفيه أن المرأة قامت ليلة فأخذت العضباء فركبتها ونجت، وكانت قالت: إن الله أنجاها عليها لتنحرنها، فأخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بنذرها فقال: «**بِئْسَ ما جَزَيْتِها**»، ثم قال: «**لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك**».

رواه مسلم وأبو داود (٣٣١٦) ويأتي في السير إن شاء الله تعالى.

والحديثان يدلاّن على أنه لا يصح النذر فيما لا يملك الإنسان، وأن ذلك يعتبر لغواً؛ كأن يقول مثلاً: لله عليّ أن أتصدّق بمال فلان أو داره أو أن أذبح بقرة فلان أو شاته، فكلّ ذلك نذر باطل ولا يترتّب عليه شيء لا وفاء ولا كفارة.

* * *

النهي عن النذر

{١٠٠٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أوَ لم ينهوا عن النذر، إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن النَّذْرَ لا يُقَدِّمُ شيئاً ولا يُؤَخِّر، وإنما يُسْتَخْرَجُ بِهِ من البخيل**».

رواه أحمد (١١٨/٢)، والبخاري (٣٨٧/١٤)، ومسلم (٩٧/١١)، وأبو داود (٣٢٨٧)، والنسائي (١٥/٧)، والدارمي (٢٣٤٥)، وابن ماجه (٣١٢٢).

{١٠٠٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يأتي ابن آدمَ النذرُ بشيء لم أكن قدَّرْتُه، ولكن يُلقيه النذرُ إلى القَدَر قد قُدِّرَ له فيَسْتَخْرِجُ الله به من البخيل، فَيُؤْتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه من قبلُ**».

رواه البخاري (٣٩٠/١٤)، ومسلم (٩٨/١١، ٩٩)، وأبو داود (٣٢٨٨)، والنسائي (١٦/٧)، وابن ماجه (٣١٢٣)، والترمذي (١٤٠٥).

قد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في معنى قوله: إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج من البخيل، وقوله: لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم أكن قدرته إلخ.

فقال ابن الأثير: تكرّر النهي عن النذر في الحديث وهو تأكيد لأمره وتحذير عن التهاون به بعد إيجابه، ولو كان معناه: الزجر عنه حتى لا يفعل لكان في ذلك إبطالُ حُكْمِهِ، وإسقاطُ لزوم الوفاء به إذ كان بالنهي يصير

معصية فلا يلزم، وإنما وجه الحديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمر لا يَجُرُّ لهم في العاجل نفعاً، ولا يصرف عنهم ضرّاً، ولا يغيّر قضاء، فقال: لا تنذروا على أنكم تدركون بالنذر شيئاً لم يقدّره الله لكم، أو تصرفوا به عنكم ما قدّره عليكم، فإذا نذرتم فأخرجوا بالوفاء، فإن الذي نذرتموه لازم لكم، نقله الحافظ وحكى عن بعضهم أن أصله للخطابي ولأبي عبيد.

وقال الحافظ أيضاً وجزم القرطبي في المفهم بحمل ما ورد في الأحاديث من النهي على نذر المجازاة، فقال: هذا النهي محله أن يقول مثلاً إن شفى الله مريضي فعليّ صدقة كذا، ووجه الكراهة أنه لما وقف فعل القربة المذكورة على حصول الغرض المذكور ظهر أنه لم يتمحّض له نيّة التقرّب إلى الله تعالى لما صدر منه، بل سلك فيها مسلك المعاوضة، ويوضحه أنه لو لم يشف مريضه لم يتصدّق بما علقه على شفائه، وهذه حالة البخيل فإنه لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض عاجل يزيد على ما أخرج غالباً، وهذا المعنى هو المشار إليه في الحديث بقوله: وإنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن البخيل يخرجه، وقد يَنْضَمُّ إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض، أو أن الله يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر، وإليهما الإشارة بقوله في الحديث أيضاً: فإن النذر لا يردّ من قدر الله شيئاً، والحالة الأُولى تقارب الكفر، والثانية خطأ صريح. قال الحافظ: بلْ تقرّب من الكفر أيضاً.

ومعنى ما ذكره ابن الأثير والقرطبي وغيرهما هنا هو معنى ما نقله النووي عن المازري، والقاضي عياض في شرح مسلم.

وعلى كل حال فجمهور الأئمّة على أن النذر مكروه، إلا إذا كان لطاعة الله محضاً. أما إذا كان بقصد دفع ضرّ أو جلب نفع وطلب معاوضة فهو مكروه أشدّ الكراهة، وقد يكون محرماً وقريباً من الكفر كما تقدّم في تفصيل القرطبي، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

الوفاء بنذر شيء مباح

{١٠١٠} ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردّك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدفّ وأتغنى، فقال لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن كنتِ نذرتِ فاضْرِبي، وإلاّ فلا**» فجعلت تضرب، الحديث يأتي بتمامه في فضائل الفاروق.

رواه الترمذي (٣٤٦٢) وحسنه وصححه، وهو أيضاً في المسند (٣٥٣/٥)، وابن حبان (١١٩٣).

{١٠١١} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن امرأة أتت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدفّ، قال: «**أوفي بنذرك**»، قالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية، قال: «**لصنم**»؟ قالت: لا، قال: «**لوثن**»؟ قالت: لا، قال: «**أوفي بنذرك**».

رواه أبو داود (٣٣١٢)، ومن طريقة البيهقي (٧٧/١٠) وسنده حسن صحيح.

{١٠١٢} ـ وعن ثابت بن الضحاك رضي الله تعالى عنه قال: نذر رجل على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ينحر إبلاً ببوانَة، فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل كان فيها وثَنٌ من أوثان الجاهلية يُعبدُ**»؟ قالوا: لا، قال: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم**»؟ قالوا: لا، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أوفِ بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**».

رواه أبو داود (٣٣١٣) بسند صحيح وله شاهد عن ابن عباس وآخر عن ميمونة بنت كُردم، كلاهما عند ابن ماجه، والثاني رواه أبو داود أيضاً.

النذر كما قدمنا وإن كان مكروهاً بإطلاق، فالوفاء به واجب إنْ كان

في طاعة الله تعالى أو شيء مباح، وهذه الأحاديث التي ذكرناها تدلّ على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان في أمر جائز مباح كنذر الجاريتين الضرب بالدفّ... عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونذر من نذر الذبح عند بوانة وكانت الجارية الأُولى والذي نذر الذبح ببوانة كلاهما نذر للمعاوضة، فالجارية علقت نذرها بقدوم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سالماً، والثاني علّقه بولادة ولد له كما في رواية ميمونة، فأمرهما النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم معاً بالوفاء. وفي حديث الذبح ببوانة دليل على جواز الذبح في أي بقعة من الأرض، وأن الأرض لا أثر لها في التحريم... وإنما يأتي التحريم إذا ذبحت لغير الله تعالى أو ذكرت عليها اسم غير الله، أو كانت البقعة فيها صنم أو وثن يعبد من دونه تعالى، أو كانت محلات لأعياد الجاهلية، أما حديثا الجاريتين فيأتي معناهما في الأغاني من الآداب، إن شاء الله تعالى.

* * *

قضاء النذر عن الميت

{١٠١٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه استفتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في نذر كان على أمّه فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه أن يقضيه.

رواه البخاري (٣٩٤/١٤)، ومسلم (٩٦/١١) وغيرهما ونحوه عنه في نذر الحج عند البخاري، وقد تقدم وفيه دليل على وجوب الوفاء بنذر الميّت من طرف أقاربه وأوليائه.

* * *

من نذر الصلاة في غير الحرمين

{١٠١٤} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال يوم الفتح: يا

رسول الله إني نذرت إن فتح الله تعالى عليك مكّة أن أصلّي في بيت المقدس، فقال: «**صلِّ هٰهنا**»، فسأله فقال: «**صلِّ هٰهنا**»، فقال: «**فشأنك إذاً**».

رواه أبو داود (٣٣٠٥)، وأحمد (٣/٣٦٣)، والحاكم (٤/٣٠٤) وصححه، وهو على شرط مسلم، ورواه أيضاً الدارمي (٢٣٤٤)، وابن الجارود (٩٤٥).

في الحديث دليل على أن من نذر أن يصلّي في بيت المقدس أو في أي مسجد لا يجب عليه الوفاء بالصلاة فيه، ويكفيه أن يصلّي في المسجد النبوي الشريف وما في معناه: كالمسجد الحرام.

* * *

من نذر طاعة ومعصية

{١٠١٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بينا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظلّ، ولا يتكلّم ويصوم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مُرْه فليتكلم، وليستظلّ، وليقعد، وليتمّ صومه**».

رواه البخاري (١٤/٤٠١، ٤٠٢)، وابن ماجه (٢١٣٦).

فيه دليل على أن من نذر طاعة ومعصية وجب عليه أن يفي بالطاعة ويذر ما فيه معصية، وهل عليه كفارة في نذر المعصية أم لا؟ يأتي الكلام فيها.

وفي الحديث أن القيام بلا قعود، والوقوف في الشمس بلا استظلال، والصمت بلا كلام كل ذلك مخالف لما شرعه الله تعالى أو أباحه، فإلزام المرء ذلك على نفسه مما لا يجوز.

* * *

من نَذَرَ شيئاً لا يطيقه

{١٠١٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أدرك شيخاً يَمْشِي بين ابْنَيْه يَتَوَكَّأُ عليهما، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما شأنُ هذا»**؟ قال ابناه: يا رسول الله كان عليه نذر، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ارْكَبْ أيها الشيخ، فإن الله غَنِيٌّ عنك وعن نَذْرِكَ»**.

رواه مسلم (١١/١٠٣)، وابن ماجه (٢١٣٥)، ونحوه عن أنس رواه مسلم (١١/١٠٢)، وأبو داود (٣٣٠١)، والترمذي (١٤٠٤)، والنسائي (٧/٢٨).

{١٠١٧} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: نذرَتْ أُخْتي أن تَمْشِي إلى بيتِ الله تعالى حافِيَةً، فأمرتْنِي أن أَسْتَفْتِي لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فاستفتيتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«لِتَمْشِ ولْتَرْكَبْ»**.

رواه البخاري في الحجّ (٤/٤٥١)، ومسلم (١١/١٠٣)، وأبو داود (٣٢٩٩)، وفي رواية للترمذي وغيره: **«فلتَرْكَبْ ولْتَخْتَمِر ولتَصُم ثلاثةَ أيّام»**، وحسنه الترمذي وفيه ضعف. وفي رواية: **«إن الله لا يَصْنَعُ بمَشْيِ أُخْتِكَ إلى البيت شيئاً»**، رواه أبو داود (٣٣٠٤).

{١٠١٨} ـ وفي رواية عن ابن عباس: نذرتْ أن تَحُجَّ ماشيةً وأنها لا تُطيقُ ذلك، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الله لغَنِيٌّ عن مَشْيِ أُختك، فلْتَرْكَبْ ولْتُهْدِ بَدَنَةً»**.

رواه أبو داود (٣٣٠٣).

قوله: حافية، أي. بدون حذاء ونعل.

في هذه الأحاديث عدم مشروعية النذر الذي لا يطاق أو كانت فيه مشقّة على النفس، وأنه يجب فسخه والحنث منه، وعلى صاحبه إهداء بدنة جمل أو ناقة ينحرها ويوزعها على الفقراء والمساكين. وفي رواية: **«ولتصم**

ثلاثة أيام» دليل على أن له أن يصوم ثلاثة أيام بدل إهداء البدنة، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

النذر الذي يوجب الكفارة

{١٠١٩} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كفارة النذر كفارة اليمين»**، وفي رواية: **«كفارة النذر إذا لم يُسَمّ كفارةُ يَمِين»**.

رواه مسلم (١٠٤/١١)، وأبو داود (٣٣٢٣)، والترمذي (١٣٩٦)، والنسائي (٢٤/٧)، وابن ماجه (٢١٢٧)، والرواية الثانية للترمذي.

{١٠٢٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لا نَذْرَ في معصيةٍ وكفارتُهُ كفارةُ اليمين»**.

رواه أبو داود (٣٢٩٠)، والترمذي (١٣٩٣)، والنسائي (٢٤/٧، ٢٥)، وابن ماجه (٢١٢٥)، وكذا الطيالسي (١٢٢٣) مع المنحة، وسنده صحيح، وهو وإن جاء منقطعاً فقد رواه النسائي في طريق متّصلاً بسند صحيح.

{١٠٢١} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من نذر نذراً لم يسمّه فكفارته كفارةُ يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً أطاقه فَلْيَفِ به»**، وفي رواية: **«ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين»**.

رواه أبو داود (٣٣٢٢)، وابن ماجه (٢١٢٨)، وحسنه الحافظ في التلخيص وصححه الطحاوي وابن السكن وغيرهما، ورجح بعضهم وقفه لكنه له حكم الرفع على أن المتن صحيح.

{١٠٢٢} ـ وعن ابن عباس أيضاً رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إن النذر نذران، فما كان لله فكفارتُهُ الوفاءُ به، وما كان للشيطان فلا وفاءَ له، وعليه كفارةُ يمينٍ»**. رواه ابن

الجارود (٩٣٥)، والبيهقي (٧٢/١٠) بسند صحيح وله شاهد عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه رواه النسائي (٢٦/٧) بلفظ: «**فما كان من نذر في طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان**» إلخ، وفيه رجل لم يسمّ مع عنعنة ابن إسحٰق ولا يضرّ ذلك هنا.

جملة هذه الأحاديث تدلّ على أمرين اثنين:

أولاً: من نذر نذراً فيه طاعة الله تعالى والقربة إليه سواء كان مطلقاً أم مسمى وجب عليه الوفاء به، فإذا قال مثلاً: لله عليّ أن أتصدّق بكذا وكذا، أو عليّ أن أقرأ كذا وكذا... فلا بدّ وأن يفي بذلك لأنه أصبح واجباً عليه، فإن لم يفعل وحنث وجبت عليه كفارة اليمين، وهكذا الحال فيمن أطلق ولم يسمّ، فقال: لله عليّ أن أفعل خيراً فحكمه كسابقه ولا فارق، وهذا النوع قال به عامّة العلماء.

ثانياً: من نذر نذراً فيه معصية لله تعالى وحظّ للشيطان، كأن يقول: لله عليّ أن أقتل فلاناً... أو أهجره.. أو أزني أو أشرب الخمر... فهذا لا يجوز له الوفاء بنذره، وعليه أن يحنث وعليه كفارة يمين على أصح قولي العلماء، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد والثوري وابن راهويه وهو أقوى دليلاً، وقال مالك والشافعي: لا كفارة في نذر المعصية، وعلى الناذر الحنث فحسب، والله تعالى أعلم وأحكم وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه أبد الآبدين. في هذه الكتب الثلاثة الرؤية النكاح، الأيمان والنذور ستة ومائة حديث صحيحة زائدة على الصحيحين.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله وحسبنا الله ونِعْم الوكيل وبه تم كتاب الأيمان والنذور، ويليه: «كتاب الخلافة والإمامة والقضاء وما يتبع ذلك».

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
● كتاب اللباس والزينة	٣٤٩
إلْبس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة	٣٥٠
ذمّ الإعجاب بالنفس وخطر مآل ذلك	٣٥١
الحضّ على التظاهر بأثر نعم الله تعالى من العبد	٣٥١
فضل من ترك اللباس تواضعاً لله تعالى	٣٥٣
ذمّ لباس الشهرة	٣٥٤
أنواع الملابس التي جاءت بها السنة المحمدية القميص	٣٥٤
الجبّة	٣٥٦
الإزار وقدر موضعه ووعيد إسباله	٣٥٧
الإسبال يكون في كل الملابس	٣٥٩
الإذن في إسبال ذيول النساء	٣٥٩
السراويل	٣٦٠
القَبَاء	٣٦١
الجِبَرَة	٣٦٢
الكساء الملبّد	٣٦٢
اشتمال الصماء والاحتباء في الثوب الواحد	٣٦٣
العمائم سدل العذبة بين الكتفين من العمامة السوداء	٣٦٤

الموضوع	الصفحة
ألوان الثياب الواردة في السنة الأبيض	٣٦٥
الأخضر	٣٦٥
الأصفر	٣٦٦
الأحمر	٣٦٨
الأسود	٣٧١
الصوف والشعر	٣٧١
النعال والانتعال	٣٧٢
ما يقال عند لبس الثوب ونحوه	٣٧٥
ما جاء في الذهب والفضة والحرير	٣٧٦
إباحتهما للنساء	٣٧٧
ما جاء في تحريم الحرير على الرجال إلا ما استثني	٣٧٨
ما يجوز لبسه من الحرير	٣٨٠
الرخصة في الحرير لمن به حكّة أو قمل	٣٨٢
الخاتم	٣٨٢
جواز التختّم بالفضّة وذمّ التختم بالحديد الصرف	٣٨٨
اتخاذ الذهب للضرورة	٣٩٠
خصال الفطرة	٣٩١
قصّ الشارب وإعفاء اللحية	٣٩٢
التوقيت في الحلق والقصّ	٣٩٥
سنّية توفير شعر الرأس	٣٩٦
إكرام الشعر وترجيله وضفره	٣٩٦
جواز حلق شعر الرأس	٣٩٨
النهي عن القزع	٣٩٩
خضاب الشعر	٤٠٠
جواز الخضاب بالحنّاء ومنعه بالسواد الصرف	٤٠١
استعمال الطيب	٤٠٤
اتخاذ الفرش والزيادة على الحاجة	٤٠٥

الموضوع	الصفحة
اتخاذ الستور	٤٠٦
الصور والتصوير وما جاء في ذلك	٤٠٧
تتمة	٤١٢
النهي عن أزياء الكفار والتشبّه بهم	٤١٣
ملابس النساء وزينتهن	٤١٧
لعن المتشبهات بالرجال، والمتشبهين بالنساء	٤٢٠
أنواع من التجميل توجب اللعنة	٤٢٣
لعن العاريات والمتبرّجات	٤٢٦
منوعات جلود السباع	٤٢٧
جلود النمار	٤٢٩
المياثر الحمر وغيرها	٤٣٠
● **كتاب الرؤيا وتعبيرها**	٤٣٢
الرؤيا الصالحة جزء من النبوّة	٤٣٢
أنواع الرؤيا	٤٣٤
وعيد من يكذب في رؤياه	٤٣٦
ذهبت النبوة وبقيت المبشّرات	٤٣٧
رؤيا النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم في المنام	٤٤٠
رؤيا النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم ربّه في المنام	٤٤١
ما جاء في تعبير الرؤيا	٤٤٣
من الرؤى الباطلة التي لا تحتاج إلى تعبير	٤٥٥
جملة من رُؤى النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم من غير ما تقدم	
رؤياه إتيانه بمفاتح خزائن الأرض	٤٥٦
رؤياه التسوّك	٤٥٦
رؤياه عائشة قبل تزوّجه بها	٤٥٧
رؤياه دخول الجنّة وقصر عمر وما فيه	٤٥٧
رؤيا نبيّ اللّه عيسى، ثم الدجّال	٤٥٨
رؤياه الغزاة من أمّته كالملوك على الأسِرَّة	٤٥٩

الموضوع	الصفحة
أكبر وأعظم رؤيا رآها صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم	٤٦٠
خاتمة تتعلق بالتعبير والرؤيا	٤٦٤
● **كتاب النكاح وتوابعه**	٤٧٣
الحضّ على التزوج والنهي عن التبتّل	٤٧٤
التحذير من فتنة النساء وأن فتنتهنّ أضرّ شيء على الرجال	٤٧٨
من رأى امرأة فأعجبته فليأتِ أهله	٤٨٠
اختيار المرأة ذات الدين	٤٨١
اخْتِيارُ الزَّوْجَةِ الوَدُود الوَلُود	٤٨٢
أنواع أنكحة الجاهلية	٤٨٣
طلب الكفاءة في الدين	٤٨٥
الحضّ على نكاح الأبكار	٤٨٦
مشروعية النظر إلى الخطيبة قبل خطبتها	٤٨٧
من لا تباحُ خِطْبتُها	٤٨٨
جواز عرض الرجل بنته على الرجل الصالح	٤٩٠
جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح	٤٩٠
المحرمات من النساء	٤٩١
ما يحل من النساء	٤٩٤
تزويج من جاءنا ممن ترضى دينه	٤٩٥
لا تُنكح المرأة إلا برضاها	٤٩٦
حكم تزويج البنت الصغيرة	٤٩٧
تزويج اليتيمة	٤٩٨
شروط عقد الزوجية الولاية	٤٩٩
إشهاد عدلين	٥٠٢
إعلان النكاح	٥٠٣
الصداق	٥٠٣
خطبة النكاح	٥٠٧
الوفاء بشرط النكاح	٥٠٩

الموضوع	الصفحة
من الشروط الباطلة في النكاح	٥١٠
الوليّان يزوّجان المرأة	٥١٠
التوكيل في التزويج ومن لم يُفرض لها صداق	٥١١
ما يقال لمن تزوّج	٥١٢
متى يستحب الدخول بالزوجة	٥١٣
زفاف النساء العروس إلى بيت الزوج	٥١٤
كيف يأتي الرجل زوجته	٥١٥
تحريم إتيان الزوجة من دبرها	٥١٧
تحريم إتيان الزوجة حالة الحيض	٥٢٠
يستحب الوضوء لمن أراد المعاودة	٥٢١
سنية الوضوء أو التيمم لم أراد النوم	٥٢١
جواز نظر كل من الزوجين لفرج الآخر	٥٢٢
حكم العزل عند الجماع	٥٢٣
ما يقول الرجل إذا دخل بأهله	٥٢٨
ما يقول إذا أراد مواقعة أهله	٥٢٨
الوليمة في العرس الوليمة بالشاة	٥٢٩
الوليمة بما تيسّر	٥٣١
وجوب إجابة الدعوة	٥٣٢
من رأى منكراً فرجع عن الدعوة	٥٣٤
إتيان الوليمة بلا استدعاء مثل الطفيليين	٥٣٥
شرّ الطعام طعام الوليمة	٥٣٧
النهي عن أكل طعام المتباريين	٥٣٧
الغناء واللّهو في العرس	٥٣٨
الإذن في ذهاب النساء إلى العرس	٥٤٠
حكم هدايا الزوج للمرأة وأقاربها	٥٤١
العشرة الزوجية مجاملة النساء والوصية بهنّ	٥٤٢
حُسن المعاشرة	٥٤٣
حقوق الزوجين	٥٤٤

الموضوع	الصفحة
لا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها	٥٤٧
تحذير الزوجة من إذاية زوجها	٥٤٨
كراهية ضرب النساء	٥٤٩
العدل بين النساء	٥٥٢
القسمة للبكر والثيب	٥٥٣
الغَيْرَةُ	٥٥٤
مساعدة الزوجة زوجها في العمل وخِدْمَتِهِ	٥٥٧
مشروعية مساعدة الرجل زوجته	٥٦١
تحريم إفشاء السر فيما بين الزوجين	٥٦٢
خاتمة لفصول العشرة الزوجية	٥٦٢
● **أنكحة باطلة**	٥٦٤
الشغار	٥٦٤
التيس المستعار	٥٦٥
المُتْعَة	٥٦٦
الدخول على النساء والخلوة بهنّ	٥٧٠
الإذن للنساء في الخروج للحاجة	٥٧٣
كراهية خروج المرأة لغير حاجة	٥٧٣
احتجاب المرأة عن الرجال ونزول آيات الحجاب	٥٧٤
تنبيه هام يتعلق بوجوب تغطية وجه المرأة	٥٨٠
كيفية إدناء الجلابيب	٥٨٣
العيوب التي يرد بها النكاح	٥٨٨
● **النفقات**	٥٨٩
فضل النفقة على الأهل	٥٨٩
تحريم تضييع الأهل بلا نفقة	٥٩٠
وجوب نفقة الأهل من زوجة وولد	٥٩٠
للزوجة أن تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وولدها	٥٩٢
● **كتاب الرضاع**	٥٩٤

الموضوع	الصفحة
لا يحرم الرضاع إلا ما كان قبل الحولين	٥٩٥
رضاعة الكبير	٥٩٦
شهادة المرضعة	٥٩٨
لبن الفحل	٥٩٩
ما يسنّ أن يعطى للمرضعة عند الفطام	٦٠٠
● **كتاب الطلاق**	٦٠١
جوازه للحاجة	٦٠١
تحكيم الحَكَمَيْن	٦٠٢
تحريم طلب المرأة طلاقها من زوجها	٦٠٣
طاعة الوالدين في طلب الطلاق	٦٠٤
الطلاق السني والبدعي	٦٠٤
الطلاق ثلاثاً في كلمة واحدة	٦٠٦
حكم من حرم زوجته	٦٠٩
طلاق الخيار	٦١١
الطلاق قبل النكاح	٦١٢
طلاق الهازل	٦١٢
طلاق المكره	٦١٣
طلاق الصبي والمجنون	٦١٤
طلاق من حدّث نفسه به	٦١٥
الطلاق حالة الإغلاق	٦١٥
المطلقة ثلاثاً لا تحل حتى تنكح زوجاً غيره	٦١٦
ألفاظ الطلاق	٦١٧
الطلاق بيد الزوج بالإجماع	٦١٨
الإيلاء	٦١٨
الخُلع	٦٢٠
الظهار	٦٢٢
اللعان	٦٢٥

الموضوع	الصفحة
التعريض بنفي الولد	٦٢٧
الولد للفراش دون الزاني	٦٢٨
العمل بالقيافة	٦٢٩
وعيد من نفى ولداً له أو امرأة ألحقت ولداً في غير نسبه	٦٣٠
القرعة في الولد إذا تنوزع فيه	٦٣١
نكاح غير العفيفة	٦٣٢
الرجعة	٦٣٢
التمتع للمطلقة	٦٣٤
نفقة الرجعية والمبتوتة والحامل وسكناهن	٦٣٤
● **العِدَدُ**	٦٣٧
عدة الحامل	٦٣٧
عدة المتوفى عنها زوجها مع الإحداد	٦٣٩
أين تعتد المتوفى عنها زوجها	٦٤١
عدة المطلقة	٦٤٢
جواز خروج المعتدة للحاجة	٦٤٤
الأمة تعتق تعتد عدة الحرة	٦٤٤
الحضانة	٦٤٦
● **الأيمان والنذور والكفارات**	٦٤٩
كيف كانت يمين رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلم	٦٤٩
وجوب الحلف باللّه والنهي عن الحلف بغيره	٦٥٠
وعيد من حلف بغير الإسلام	٦٥٢
من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها يتحلّل ويكفّر	٦٥٥
الاستثناء في اليمين	٦٥٦
كراهة التمادي في اليمين إذا كان فيها ضرر على أهل الحالف	٦٥٨
اليمين تكون على نيّة المُسْتَحْلِف	٦٥٨
مشروعية التورية في اليمين	٦٥٩
اليمين الغموس	٦٥٩

الموضوع	الصفحة

يمين اللغو ٦٦٠
ما هي كفارة اليمين ٦٦١
وجوب الوفاء بالنذر في طاعة الله ٦٦١
لا نذر فيما لا يملكه الإنسان ٦٦٢
النهي عن النذر ٦٦٣
الوفاء بنذر شيء مباح ٦٦٥
قضاء النذر عن الميت ٦٦٦
من نذر الصلاة في غير الحرمين ٦٦٦
من نذر طاعة ومعصية ٦٦٧
من نذر شيئاً لا يطيقه ٦٦٨
النذر الذي يوجب الكفارة ٦٦٩
فهرس الموضوعات ٦٧١

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾

المجلد السابع

الإمامة والخلافة، والقضاء، والدماء والجنايات، والديات، والحدود، والجهاد في سبيل الله وما يتبعه

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

ISBN 9953-81-269-1
9 789953 812694

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

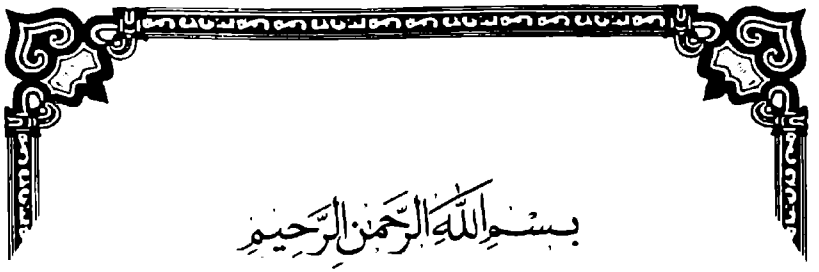

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي ورجائي

الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدّره تقديراً، والحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، الذي عجز الحامدون عن القيام بأداء شكر نعمة من نعمه، وكلّت ألسنة الواصفين عن بلوغ كُنْه عظمته.

ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ونشهد أن حبيبنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير، الداعي إليه بإذنه السراج المنير، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون.

والحمد لله الذي أعظم علينا المنّة بالإسلام والسنّة، ووفّقنا بفضله للاتّباع، وعصمنا برحمته من الابتداع، وصلِّ اللهم على حبيبك ومصطفاك سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النبيّين في كل ساعة ولحظة على دوام الأبد ما لا يدخل تحت العدد، ولا ينقطع عنه المدد، وعلى إخوانه من النبيّين والمرسلين والملائكة المقرّبين وعلى أزواجه وذرّيته وأصحابه وعترته وعلى متّبعي سنّته وأهل إجابة دعوته بمنّك وفضلك وسعة رحمتك[1].

---

(١) من خطبة الإمام محيي السنة البغوي في كتابه شرح السنة رحمه الله تعالى.

أما بعد: فهذا هو القسم الرابع من **«بداية الوصول»** وهو بحمد الله تعالى وتوفيقه حافل بذكر بقية الأحكام الشرعية؛ كالخلافة والقضاء والجنايات والحدود والجهاد **بالإضافة إلى** ما حواه من قصص الأنبياء وتاريخ الأقدمين وأخبار العرب **والجاهلية**، فجاء بإذن الله وعونه تحفة للدارسين، ورياضاً للقارئين.

جعله الله عزّ وجلّ خالصاً لوجهه الكريم عارياً عن كل علّة قادحة من رياء أو سمعة أو عجب أو افتخار. إنه السميع القريب المجيب البرّ الرحيم.

فللّه الحمد رب السمٰوات وربّ الأرض ربّ العالمين وله الكبرياء في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وزوجه وصحبه وحزبه.

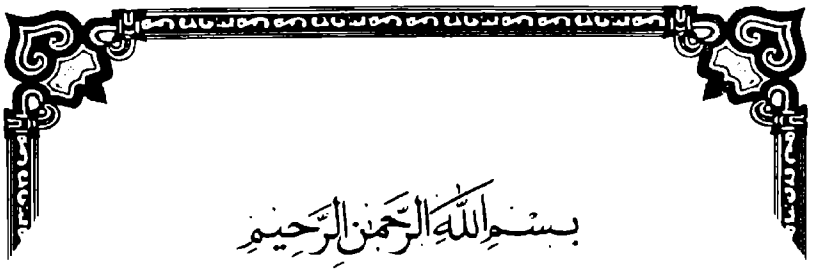

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه،
الحمد لله على انعامه وافضاله والصلاة والسلام على رسوله وآله وأصحابه.

كتاب الإمارة والخلافة وما يتبعها

الكلام على الخلافة يتطلّب تقديم أمور هامة قبلها، ويتّضح ذلك في مطالب:

أولاً: أجمع المسلمون إجماعاً مقطوعاً به أن مصدر الأحكام الشرعية هو الله عزّ وجلّ، وأن الحاكمية له وحده لا يشاركه فيها أحدٌ، كائناً من كان. قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال جلّ علاه: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ في آيات أُخر؛ فإعطاء التشريع للمخلوق شركٌ في الربوبية، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

وكل من حكَم غَيْر ما شرعه الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان عند الله تعالى في القرآن كافراً، ظالماً، فاسقاً؛ ففي سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، و﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ثم بعد هذا تأتي نيّات الحاكمين، فيكون الحكم عليها بالردّة أو الفسق.

ثانياً: الخلافة أو الإمامة العظمى أو إمارة المؤمنين، وهي ألفاظ مترادفة هي السلطة الحكومية العليا عرَّفها علماؤنا رحمهم الله تعالى بألفاظ مُؤَدَّاها واحدٌ، وهي: الرئاسة العامة في التصدّي لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام والقيام بالجهاد وما يتعلّق به وإقامة الحدود ورفع المظالم وسياسة الرعيّة بجلب مصالحها ودفع مضارّها ومفاسدها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابة عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وباختصار هي خلافة النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا طبقاً لشرائع الإسلام وتعاليمه.

ثالثاً: نَصْبُ الخليفة واجبٌ إسلامي على جماعة المسلمين، أجمع على ذلك أهل السنّة وغيرهم.

قال ابن حزم في الملل والنحل (٨٧/٤): اتّفق جميع أهل السنّة، وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمّة واجبٌ عليها الانقيادُ لإمام عادل يُقيم فيهم أحكام الله ويَسُوسُهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، الخ. ونحوه عنده باختصار في مراتب الإجماع (١٢٤).

رابعاً: ذكر علماؤنا وأئمّتنا رحمهم الله تعالى لنصب الخليفة ورئاسته طرقاً ثلاثة، أحدها: البيعة، وقد أجمعوا على صحتها بذلك، وقالوا: إنها تثبت ببَيْعة أهل الحلّ والعقد من العلماء المختصّين، ووجهاء الناس وأهلِ الرأي السَّديد، ويشترط فيهم الذكورة والعقل والعلم والرأي والحكمة. وهذا النوع أجمع عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم عندما بايعوا الصدّيق رضي الله تعالى عنه.

ثانيها: تثبت بالعهد من الخليفة السابق، كما فعل الصدّيق مع الفاروق رضي الله تعالى عنهما حيث اختاره ورشّحه في صورة عهد الى المسلمين بعد استشارته أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار... ثم بايعه المسلمون ورضوه خليفة وأجمعوا على بيعته.. واختياره، وهكذا فعل عمر رضي الله تعالى عنه حيث عهد بالخلافة لواحد من ستّة توفّي رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم وهو عنهم راضٍ، وهم عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنهم، فجعلها بينهم شورى يختارون وينتخبون أيّهم شاؤوا، فاختاروا بعد مشاورات دامت ثلاثة أيام ما أراده الله تعالى للأمة وقتئذ، وهو عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

ثالثها: مما تثبت به الخلافة التغلّب والقهر، فاتّفق أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على أن من استولى على الإمارة بالقوّة والقهر والتغلُّب دون مبايعةٍ ولا استخلاف من إمام سابقٍ يصيرُ بذلك إماماً، وتجب طاعته ويحرم الخروج عليه ومحاربته، حَقناً لدماء الأبرياء وإطفاء لنيران الفتن وعملاً بقاعدة سلوك أخف الضررين.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١٢/١٦) في كتاب الفتن: أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلّب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقنِ الدماء وتسكين الدَّهْماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل يجب مجاهدته لمن قدر على ذلك، الخ.

خامساً: لاختيار الخليفة كأمير للمؤمنين شروط شرطها علماء الإسلام حسب نصوص الشريعة وقواعدها، وهي أن يكون مسلماً، فلا ولاية لكافر، وأن يكون ذكراً فلا تصح إمامة أنثى إجماعاً، وأن يكون عاقلاً فلا تصح من مجنون ولا من صبيّ، وأن يكون عالماً بالكتاب والسنّة وما يتعلق بهما مجتهداً فلا إمامة لجاهل، وأن يكون عدلاً يجتنب الكبائر ويؤدي الفرائض فلا خلافة لفاسق، وأن يكون حراً غير مملوك، وأن يكون شجاعاً ذا نجدة، وأن يكون في رأيه حَصَافَةٌ في القضايا السياسية، والإدارية، والحربية، وأن يكون مع كل ذلك قرشياً... وهذه الشروط تعتبر فيمن يبايع شرعاً. أما المتغلب فلا يشترط فيه إلا الإسلام...

وسيأتي تفصيل ما ذكرناه إن شاء الله مع المزيد...

* * *

وإعطاء كل ذي حقّ حقه. ثانياً: سَيندم صاحبُها ويتحسَّر يوم القيامة ويذلّ ويُهان ويفتضح أمام الخلائق إن لم يكن أهلاً للولاية وأخذها بغير حقّها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها. ثالثاً: في حديثي أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه التحذير من الدخول في الولايات العامّة والخاصة لمن كان لا يستطيع القيام بمَهامُها كأبي ذرّ الذي كان عازفاً عن الدنيا زاهداً فيها الزهد الكامل مقبلاً على العبادة، فمثله لا يمكن له تولّي الوظائف السلطانية ولذلك نصحه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالابتعاد عنها والحذر منها، ولو كانت الإمارة على اثنين. رابعاً: في الحديث الأول جواز تولّي الإمارة لمن يأخذها بحقّها ويؤدي ما عليه فيها، وكان أهلاً لها وأنّى يوجد صاحبُ هذه الصفات. ولخطر الموضوع حذّر العلماء من الولايات، وامتنع منها خلائق من السلف وغيرهم. خامساً: في حديث أبي موسى دليل على إقصاء من طلب الولاية وأن كلَّ من كان حريصاً عليها ساعياً في الحصول عليها لا يُجابُ إلى ما طلبَ ولا يجوز توليتُه لأن حرصَه على ذلك يدلّ على عدم أمانَتِهِ وإخلاصه، وأنه سوف يصبح لصّاً سارقاً لأموال الدولة، ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لذينك الرجلين: «**إِنَّ أَخْوَنَكُمْ عندنا من طلبَه**».

{٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى به يومَ القِيامةِ مَغْلُولاً حتَّى يَفُكَّ عنه العَدْلُ أو يُوبِقَه الجَوْرُ**».

رواه أحمد (٤٣١/٢)، والدارمي (٢٥١٨)، والطبراني في الأوسط (٦٢٢١، ٢٧٤)، والبيهقي (١٢٩/٣ ح ٩٥/١٠، ٩٦) وسنده صحيح، وأورده نور الدين في المجمع (٢٠٥/٥) برواية الطبراني، والبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح ومع هذا فله شاهدان عن سعد بن عبادة عند أحمد (٢٨٤/٥، ٣٢٧)، وعن ابن عباس عند الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات كما قال المنذري.

{٧} ـ وعنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال:

«وَيلٌ للأُمَرَاءِ، وَيلٌ للعُرفاءِ، ويلٌ للأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوامٌ يوم القيامة أَنَّ نَوَاصِيَهُمْ مُعَلَّقَةٌ بالثُّرَيَّا يتجلْجَلُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يلُوا عَمَلاً».

رواه أحمد (٣٥٢/٢)، وابن حبان (١٥٥٩)، والحاكم (٩١/٤)، والبيهقي (٩٧/١٠) وغيرهم وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وفي رواية للحاكم (٩١/٤)، وأحمد رقم (٨٩٠١) قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«لَيُوشِكُ رَجُلٌ أَنْ يَتَمَنَّى أنه خرّ من الثُّرَيَّا ولم يَلِ من أمر الناس شيئاً»**، وصححه ووافقه الذهبي مع قصة في أوّله.

قوله: يوبقه أي: يهلكه، والعُرفاء جمع عريف بفتح العين وكسر الراء هو القيّم بأمر جماعةٍ ما، ليتعرّف الأميرُ بواسطتِهِ أحوالهم، والأُمناء هم الأوصياء على أموال اليتامى ونحوهم، وقوله: نواصيهم، في رواية: ذوائبهم جمع ذؤابة وهي الشعر المضفور من الرأس، والنواصي هنا شعر مقدم الرأس، وقوله: يَتَجَلْجَلُون أي: يتحركون مع أصوات شديدة.

وفي الحديثين تحذير بالغ من التعرّض للرئاسة، والتأمر على الناس والدخول في الولايات العامة والخاصة لما في ذلك من الخطر على دين المسلم، فإن للرئاسة والنفوذ فتناً كثيرة قلَّ من ينجو منها، ولذلك كان كل من تأمر على قوم ولو عشرة جاء يوم القيامة مغلولة يداه، فإن كان عادلاً فكّ ولحق بالسعداء، وإن كان جائراً ظالماً خاب وخسر وكان مع الهالكين.

وفي الحديث الثاني على الخصوص وعيد شديد وزجر بالغ للأمراء والعرفاء والأُمناء الظلمة الخونة، وأنّ لهم الويل يوم القيامة وسيودّون أنهم لو كانوا معلّقين بذوائبهم في الدنيا بين السماء والأرض يتحركون بأصوات مزعجة وأنهم لم يلو شيئاً من الإمارات والأعمال السلطانية لما يشاهدونه من مآلهم السيء المظلم وتراكم مظالمهم وكثرتها، نسأل الله السلامة والعافية فالحمدُ لله الذي عافى ممّا ابتلى به غيرنا وفضّلنا على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً.

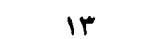

مسؤولية الراعي وتحذيره من الغش والغدر والشق على الناس واحتجابه عن ذوي الحاجات

{٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّته، فالأَمِيرُ الَّذِي على النَّاس راعٍ عليهِمْ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عنهُمْ... أَلاَ فَكُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عنْ رَعِيَّته**».

رواه أحمد (٢/٥، ٥٤، ١١١، ١٢١)، والبخاري في الأحكام (١٦/٢٢٩، ٢٣٠) وفي مواضع، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٣، ٢١٤) وغيرهم، ويأتي مطولاً في البرّ والصلة.

قوله: كلكم راعٍ الخ، أي: كلكم حافظ ملتزم بصلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره من الرعاية وهي الحفظ، فإن كان والياً طُولِب بالعدل والقيام بمصالح الرعيّة ديناً ودنيا مع الأمانة والنزاهة، فالأمير والخليفة الأعظم أو نائبه راعٍ فيمن ولي عليهم يقيم فيهم الحدود والأحكام على سنن الشرع ويَحْمِي بيضتهم ويجاهد عدوّهم ويسوسهم بالحكمة والعدالة، وهو مسؤول يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ عن رعيّته هل رعى حقوقها أم لا.

{٩} ـ وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: عادَ عُبَيْدُالله بْنُ زيادٍ مَعْقِلَ بنَ يَسَارٍ المُزَنِيّ في مرضه الذي مات فيه، فقال معقل رضي الله تعالى عنه: إنّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً سمِعْتُه مِن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي حَيَاةَ مَا حَدَّثْتُكَ، إنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يومَ يَمُوتُ وَهُو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِه إلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»، وفي رواية: «**مَا منْ أميرٍ يلِي أَمْرَ المُسْلِمِين ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وينْصَحْ إلاَّ لَمْ يدْخُلْ معهُمْ الجنة**».

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٢٤٥)، ومسلم في الإيمان (٢/١٦٥، ١٦٦)، وفي الإمارة (١٢/٢١٤، ٢١٥).

قوله: عبيدالله بن زياد، هذا كان عاملاً على البصرة من طرف معاوية، ثم من ولده يزيد، وهو الذي بعث الجيش لقتال الحسين بن عليّ عليهما السلام.

وقوله: يسترعيه الله رعيّة أي: يفوض إليه رعاية قوم وينصبه للقيام بمصالحهم ويعطيه زمام أمورهم، والراعي الحافظ المؤتمن. وقوله: ثم لا يجهد لهم ـ بفتح الياء والهاء ـ أي: لا يبلغ طاقته ووسعه في إيصال الخير إليهم وإبعاد الشرّ والسوء عنهم.

وفي الحديث التحذير من غش الولاة رعاياهم والتقصير في نصحهم، وأن كل أمير جاءته منيته وهو غير ناصح لرعيّته إلاّ كان مآله الهلاك والحرمان مما يعطاه الصالحون. قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في الإكمال، وعنه نقله النووي (١٦٦/٢): معناه بين في التحذير من غش المسلمين لمن قلده الله تعالى شيئاً من أمرهم واسترعاه عليهم ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم، فإذا خان فيما اؤتمن عليه فلم ينصح فيما قلده إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذبّ عنها لكل متعدٍّ لإدخال داخلة فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوزتهم، ومجاهدة عدوّهم، أو ترك سيرة العدل فيهم فقد غشّهم، وقد نبّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على أن ذلك من الكبائر الموبقة المبعدة عن الجنّة... أمّا قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حرَّم اللّه عليه الجنةَ**» فهو محمول على أنه لا يدخلها مع الأوّلين الفائزين، وأنه سيبقى في النار أو في الحساب أو هو محمول على من كان يستحلّ المحرمات المقطوع بها فيكون بذلك كافراً.

وفي الحديث إشارة إلى أن من مات تائباً من المظالم وكبار الذنوب دخل الجنّة إن شاء الله مع الأوّلين، وفيه تبليغ العلم للولاة وخاصة فيما يتعلق بظلمهم لرعاياهم، ويأتي شيء من هذا في الفصول المقبلة إن شاء الله تعالى.

{١٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقال: أَلا إِنَّ هَذِهِ غَدْرَة فُلانٍ**».

وفي رواية: «**إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فَيُقال: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلان بْنِ فُلانٍ**».

رواه البخاري في الأدب (١٨٢/١٣) وفي مواضع، ومسلم (ج ٤٤/٤٣/١٣)، وأبو داود (٢٧٥٦)، والترمذي (١٤٥٢)، وابن ماجه (٢٨٧٢) وغيرهم كلّهم في الجهاد والسير.

{١١} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، أَلا وَلا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْراً مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ**».

وفي رواية: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ أُسْتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

رواه مسلم في الإمارة (٤٤/١٢) بالروايتين، ويأتي حديث أنس في الجهاد وفي الأدب.

الغادر هو الذي يواعِدُ على أَمْرٍ ما ولا يَفِي به، ويطلق على من ينقض العهد وهو الختار الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾. أي كل غدار كفور والأُسْتُ الدُّبُرُ.

وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر لا سيما من صاحب الولاية العامّة؛ لأن غدره يتعدّى ضرره إلى خلق كثيرين وغدره يكون في عهوده لرعيّته وغيرهم أو غدرة للأمانة التي قُلِّدَها لرعيّته والتزم القيام بها والمحافظة عليها، ومتى خانهم أو ترك الرفق بهم فقد غدر بعهده. أفاده النووي في شرح مسلم.

وقوله: لكل غادر لواء الخ، هو على ظاهره وأنه سيكون له لواء حقيقة كالراية يعرف به أنه كان غادراً في الدنيا، ويحتمل أن يكون ذلك رمزاً لإشهاره بين الخلائق بعلامة تدل على غدره، والله تعالى أعلم. وفي

هذه الأحاديث إشارة إلى أن كل من كان معروفاً بذنب فاحش ومات عليه شُهِّر به يوم القيامة كما ورد في المرائين وغيرهم.

{١٢} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول في بيتي هذا: «**مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**».

رواه أحمد (٦/٦٢، ٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٢، ٢١٣).

في الحديث الشريف ترغيبٌ وترهيبٌ، وبشارةٌ وإنذارٌ؛ ففيه زجر بالغ عن إدخال الولاة المشقّة على رعاياهم وأن من عاملهم بالشدّة والقساوة والاعتداء عامله الله تعالى بذلك وجازاه من جنس عمله، كما أن من كان رفيقاً برعيّته رحيماً بهم عادلاً فيهم رحمه الله تعالى ولطف به وعامله بالرّفق في الدنيا والآخرة.

{١٣} ـ وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى حدث أن عائذ بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه وكان من أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل على عُبَيْدالله بن زياد، فقال: أيْ بُنَيَّ إني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**»، فقال له: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحاب محمدٍ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ.

رواه أحمد (٥/٦٤)، ومسلم في الإمارة (١٣/٣١٥، ٣١٦).

قوله: الرعاء ـ بكسر الراء جمع راع ـ وهو من يحفظ الماشية ويرعاها وكل من ولي أمراً بالحفظ والسياسة كالأمير والحاكم... وقوله: الْحُطَمَةُ ـ بضم الحاء وفتح الطاء والميم ـ هو العنيف في رعيته الشديد بها الذي لا يرفق بها في سوقها ومرعاها، بل يحطمها ويزحم بعضها ببعض. وهذا مثل ضربه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لوالي السوء الذي

لا يرفق برعيّته. وقول عبيدالله لعائذ: أنت من نخالة الخ، فيه من سوء أدبه ومهاجمته لصاحب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما لا يليق إلا بأمثاله الفجرة كلاب النار، فكيف يصف صحابي أشرف الخلق بالنخالة التي هي زبل الشعير ونحوه، فالنخالة ما كانت إلا في شرار بني أمية وأشياعهم.

{١٤} ـ وعن عَمْرو بن مُرّة الجُهَنِيّ رضي الله تعالى عنه أنه قال لمعاوية: سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مَنْ ولاَّهُ اللهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ المُسْلِمين فاحْتَجَب دونَ حَاجَتِهِمْ، وخلَّتهم، وفَقْرِهِم، احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وخَلَّتِهِ وفقْرِهِ**».

رواه أحمد (٢٣/٤)، وأبو داود (٢٩٤٨)، والترمذي (١٢٠٧)، والحاكم (٩٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي ورجاله عند الترمذي وأبي داود رجال الصحيح، فقول الحافظ في الفتح: إسناده جيد تقصير في الحكم.

الخَلَّة ـ بفتح الخاء وتشديد اللام ـ هي والفقر وذوو الحاجة؛ ألفاظ متقاربة المعنى.

ففي الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد لذوي السلطة الأنانيين الجبابرة الظالمين الذين يغلقون مكاتبهم دون ذوي الحاجات ويستنكفون من مقابلة الرعايا والمظلومين.

* * *

فضل الإمام العادل

{١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَى**

ذٰلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٌ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمُ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ».

رواه أحمد (٤٣٩/٢)، ومالك في الموطأ (١٨٤١)، والبخاري في مواضع، ومسلم في الزكاة وغيرهم، ويأتي تخريجه والكلام على معناه في الرقاق إن شاء الله تعالى.

الإمام العادل المراد به صاحب الولاية العظمى ويلتحق به كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين، والعادل هو الذي يتبع أمر الله تعالى بوضع كل شيء في موضعه وإعطاء كل ذي حق حقه بغير إفراط ولا تفريط. وقيل: الإمام العادل هو الجامع للكمالات الثلاثة: الحكمة والشجاعة والعفة، فمن كان بهذه الصفات كان يوم القيامة تحت ظلّ العرش مع السعداء المنعم عليهم، ويا لها من سعادة.

{١٦} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجلَّ على مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمٰنِ عَزَّ وجلَّ، وكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».**

رواه أحمد (١٦٠/٢)، ومسلم في الإمارة (٢١١/١٢)، والنسائي في آداب القضاة (١٩٥/٨).

المقسطون هم العادلون، وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. أما القاسطون فهم الجائرون، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾، وقوله: على منابر من نور هو على ظاهره، وأنهم سيكونون قاعدين على منابر في منازل رفيعة تتلألأ نوراً، وقوله: عن يمين الرحمٰن هذا من أحاديث الصفات يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه.

وفي الحديث كالذي قبله فضل هام، وبشارة رائقة للولاة العادلين المقسطين وكذا كل من حكموا بين الناس أو بين أهليهم فعدلوا ولم يجوروا

ولم يظلموا، فإن لهم منازل ودرجات ومقامات في الآخرة عظيمة رفيعة يُغْبَطُون عليها وحسبهم أنهم في ظل الرحمٰن يوم لا ظلّ إلا ظلّه، وأنهم على منابر عالية رفيعة عن يمين الرحمٰن، فكفاهم بذلك جزاءً ومصيراً.

❋ ❋ ❋

الأئمة والخلفاء من قريش

{١٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ**».

رواه أحمد (٢/٢٤٣، ٣١٩، ٤٣٣)، والبخاري في الأنبياء (٧/٣٤١)، ومسلم في الإمارة (١٢/١٩٩، ٢٠٠).

{١٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**النَّاسُ تَبَعٌ لقريش في الخَيرِ والشَّرِّ**».

رواه أحمد (٣/٣٣١، ٣٨٣)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٠٠).

{١٩} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لاَ يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ**».

رواه أحمد (٢/٢٩، ٩٣، ١٢٨)، والبخاري في الأنبياء (٧/٣٤٥) وفي الأحكام (١٦/٣٣٤)، ومسلم (١٢/٢٠١).

{٢٠} ـ وعن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم كان يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش أن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه يحدث أنه سيكون ملكٌ من قَحْطَانَ، فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه بلغني أن رجالاً منكم يتَحَدَّثُون أحاديثَ ليست في كتاب الله ولا تُؤثَر عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأولئك جُهَّالكم فإياكم والأَمَانِيَّ التي تُضِلّ أهْلَها، فإني سمعتُ رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنَّ هذا الأمْرَ في قُرَيش، لا يُعَادِيهم أحدٌ إلا كَبَّهُ الله على وَجْهِهِ ما أقامُوا الدِّين**».

رواه أحمد (٤/٩٤)، والبخاري في الأنبياء (٧/٣٤٥)، وفي الأحكام (١٦/٣١، ٣٢) باب الأمراء من قريش.

قوله: هذا الشأن، وهذا الأمر: المراد بهما الخلافة والولاية العظمى. وقوله: الناس تبع لقريش الخ، مسلمهم تبع الخ، وقوله: في الخير والشر فمعناه في الجاهلية والإسلام وقد صدقه الواقع، فإن قريشاً كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وسكان الحرم وأهل حج بيت الله الحرام، ولما جاء الإسلام كانت العرب تنتظر إسلامهم، فلما فُتِحت مكة وأسلم سكانُها تَبِعُهم الناس، وجاءت وفودُ العرب إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من كل جهة ودخلوا في دين الله أفواجاً، وهكذا وقع في الإسلام؛ هم أصحاب الخلافة والناس تبع لهم.

وقوله: لا يزال هذا الأمر، وقوله: إن هذا الأمر في قريش: ذهب جماعة إلى أن الخبرين وإن كانا بلفظ الخبر فمعناهما الأمر، وأن الخلافة لا يجوز أن تكون في غير قريش، ومن تسمّى بها من غير قريش فلا تصح خلافته، وعلى القول بأنهما خبر على ظاهره يكون الواقع قد صدقه، فيكون ذلك من جملة معجزاته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإن الخلافة لم تزل في قريش إلى الآن ولو في بعض الأقطار وإن اختلت شروطها، وستبقى كذلك ما بقي اثنان من قريش كما قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد جاء في المسند (٤/٢٠٣)، والترمذي (٢٠٥٧) بتهذيبي من حديث عمرو بن العاص عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة**»، وسنده صحيح وحسنه الترمذي وصححه، فالولاية لا تنقطع منهم خيراً وشراً. أما ما رد به معاوية على ابن عمرو فخطأ منه فإن القحطاني ورد به حديث مخرج في صحيح البخاري وغيره سيأتي في الفتن، ثم إن بقاء الخلافة في قريش مقيدة بإقامتهم الدين، فإذا تخلوا عنه وجاروا انتقلت إلى غيرهم ممن شاء الله كما وقع عملياً، فإن

العباسيين لما أسرفوا في الظلم والبغي والفساد سلّط الله تعالى عليهم غيرهم من الأعاجم والأتراك... فسلبوا الخلافة منهم إلى أن جاء الاستعمار الغربي بجيوشه ومدمراته فاستعمر العالم الإسلامي ولم يبق منه إلا الحجاز وطرف من اليمن... ومع ذلك فلم تنقطع إمارة قريش من بعض الأقطار.

وعلى أيٍّ فأحاديث الفصل تدلّ على أن قريشاً هم أحقّ الناس وأولاهم بالخلافة والإمارة، ولذلك اشترط العلماء والأئمّة في الخليفة صاحب البيعة أن يكون قرشياً، والله تعالى أعلم.

* * *

الخلافة الراشدة
بعد النبيِّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٣١} ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**يَكُونُ اثْنَا عَشر أميراً**، قال: **كلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**».

رواه بهذا اللفظ أحمد (٩٤/٥)، والبخاري في الأحكام (٣٣٨/١٦)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٣)، وفي رواية لمسلم (٢٠١/١٢): «**إنَّ هذا الأمرَ لا ينقضي حتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**»، وفي رواية له: «**لا يزالُ أمْرُ النَّاسِ مَاضِياً مَا وَلِيَهُمْ اثْنا عَشر رجُلاً... كلُّهُمْ مِنْ قُرَيْش**»، وفي لفظ له وابن حبان (٤٤/١٥): «**لا يَزالُ الإسْلامُ عزيزاً إلى اثْني عَشَرَ خَلِيفَةً**»، وفي لفظ لمسلم أيضاً (٢٠٣/١٢): «**لا يزالُ هذا الأمْرُ عَزِيزاً مَنِيعاً إلَى اثْني عَشَرَ خَلِيفَةً**»، وفي لفظ له: «**لا يَزالُ الدِّينُ قائماً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أو يكونَ عليكُمْ اثْنا عَشَرَ خليفة كُلُّهم من قريش**»، هذه الروايات كلّها عند مسلم.

وفي رواية عند أبي داود في المهدي (٤٢٧٩، ٤٢٨٠): «**لا يزالُ هَذَا الدِّينُ قَائِماً حَتَّى يكونَ عَلَيْكُمْ اثْنا عَشَرَ خليفة، كلُّهم تجْتمعُ عليه الأمَّةُ**».

{٢٢} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل كم يملكُ هذه الأُمّة من خليفة؟ فقال: سألنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**اثْنا عَشَرَ كَعِدَّة نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**».

رواه أحمد (٣٩٨/١)، وأبو يعلى (٣٣٩/٤)، والبزار (١٥٨٦) بسند صحيح، ومجالد رواه عنه حماد بن زيد قبل تغيّره.

قوله: نقباء بني إسرائيل هم الذين بعثهم كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام إلى الكنعانيين الجبارين يتجسّسون أخبارهم، والنقيب هو رئيس الجماعة الذي يتفقد أحوالهم...

وحديث جابر بجميع رواياته يشير إلى أنه سيكون بعده صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الأمراء والولاة كما في الرواية الأولى والثانية، وإلى وجود الخلافة كما في باقي الروايات، وإلى الملك والخلافة كما في حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

ومعنى ذلك أنه سيكون في هذه الأمة اثنا عشر خليفة خلافة على نهج النبوّة، ولا يزال دين الإسلام ظاهراً قوياً بإذن الله تعالى تمثّله الطائفة المنصورة ولو اعتراه ما اعتراه حتى يَتِمَّ ظهورُ هذا العدد المذكور كلُّ واحدٍ منهم يَلِي الإمارة والخلافة النبويّة، ويقوم بشؤون الأُمة ونظام حكمها.

وقد تقدم من هؤلاء الخلفاء الأربعة الأُوَل: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النورين، والإمام عليّ عليهم جميعاً السلام والرضوان، ثم خلافة السبط سيدنا الحسن بن عليّ عليهما السلام، وبه تمت الخلافة النبوية الراشدة المتوالية الوارد فيها الحديث التالي.

{٢٣} ـ عن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**الخِلافَةُ في أُمّتِي ثلاثون سنة، ثم مُلْكٌ بعد ذلك**»، ثم قال سفينة: امسك خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة عليّ رضي الله تعالى عنهم فوجدناها ثلاثين سنة. فقال سعيد بن جَهْمان: إنّ بَنِي أُمَيّة يزْعُمون أن الخلافة فيهم. قال سفينةُ: كَذَبُوا بَنُو الزَّرْقاء، هم ملوكٌ شَرُّ الملوك.

رواه أحمد (٥/٢٢٠)، وأبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٠٥٥) بتهذيبي وسنده حسن.

قوله: الخلافة في أُمتي الخ، المراد بها الخلافة الراشدة المتوالية. وقوله: ثلاثون سنة هذا العدد يتم بخلافة سيدنا الحسن عليه السلام، وذلك أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم توفي في ١٢ من ربيع الأول عام ١١ هجرية، وتنازل سيدنا الحسن عليه السلام عن الحكم لمعاوية في ٢٥ من ربيع الأول عام ٤١ هجرية، وهي ثلاثون سنة وأربعة عشر يوماً.

أما بعد هؤلاء الخلفاء، فكان الملك العضود من بني أمية حتى جاء الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه وبه تمّت عدة ستة خلفاء راشدين. أما الستة الباقون، فلا بدّ وأن يأتوا في الأُمّة، وقد يكون بعضهم قد مضى، وبقيت الخلافة المنتظرة التي ستكون على نهج النبوّة الوارد فيها الحديث الآتي بعد قليل. أما قول بعض الفقهاء بأن هؤلاء الخلفاء الاثني عشر قد مضوا وختموا أيام الأُمويين فهو قول ساقط لا يلتفت إليه، والواقع يكذبه ويردّه، وكذا قول سفينة في بني أُميّة إنهم ملوك شر الملوك يرد ذلك. وقوله: بنو الزّرقاء نسبهم إلى بعض جداتهم، وأبطل من هذا ما يزعمه الشيعة الإمامية الروافض بأن المراد بالخلفاء أئمّة أهل البيت بداية من الإمام عليّ حتى محمد بن الحسن العسكري؛ لأن هؤلاء الأئمّة لم يل أمرَ الأُمّة منهم إلا الإمامُ عليّ وابنُه الحسنُ عليهما السلام، وحديث ابن مسعود مصرّح فيه بأن الأُمّة تجتمع عليهم، ولم يكن أهل البيت كذلك، كما أن في روايات حديث جابر أنهم سيملكون ويلون الإمارة والخلافة ومتى ولي الإمارة وملك أمر الأمة غير الإمام عليّ وابنه السبط الحسن عليهما السلام، فأين الحسينُ وابنُه زينُ العابدين وحفيدُه محمد الباقر وولد هذا جعفر الصادق ثم ولد هذا موسى الكاظم إلى آخرهم رضي الله تعالى عنهم، بل كان في هؤلاء من ينهى عن الدخول في الولايات... فقول الشيعة في هذا من أبطل الباطل.

{٢٤} ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّكُمْ فِي النُّبُوَّةِ مَا شَاءَ الله أَن تكونَ، ثم يَرْفَعُها إذا**

شَاءَ، ثم تكونُ خِلافَةٌ على مِنهاجِ النبوّةِ، تكون ما شاء أن تكونَ، ثمّ يرْفعُها إذا شاء، ثم يكونُ ملكٌ عَضُوضٌ، ثم تكون جَبْرِيَةٌ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يرفعُها إذا شاء، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوّة».

رواه أحمد (٤/٣٧٣)، والطيالسي (٢٥٩٣) مع منحة المعبود بسند حسن، وأورده النور في المجمع (٥/١٨٩) برواية أحمد والبزار والطبراني وقال: رجاله رجال ثقات، وصححه العراقي وغيره.

قوله: ملك عضوض - بفتح العين - أي: يصيب الرعية فيه ظلم وعسف كأنهم يعضّون عضاً، وفي رواية: عضوض - بضمّ العين - جمع عض - بكسر العين - وهو الخبيث الشرس، وقوله: جبرية أي: يأخذون الملك والسلطة بالقوة والقهر والعتوّ والجبر.

والحديث من جملة معجزاته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقد أخبر بتفصيل ما سيقع بعده من أطوار الخلافة والولاية، وأنها ستكون بعده صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خلافة وإمارة على نهجه وطريقه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد تحقّقت بالخلفاء الراشدين ومن معهم رضي الله تعالى عنهم، ثم يعقب ذلك ملك مع ظلم وجور وهضم للحقوق، وقد تحقّق بولاية الأمويّين والعباسيين وغيرهم، ثم تأتي بعد ذلك الجبرية والاستيلاء بالقوّة والقهر والتغلّب، وقد عانى المسلمون من هذا العنف قروناً وقروناً، ولا زالوا وهم في انتظار الخلافة الآتية على نهج النبوّة كما بشّر بذلك نبيّ الرحمة صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويومئذ يفرح المؤمنون بتحقّق وعد الله عزّ وجلّ ونصرة دينه.

* * *

الاستخلاف والبيعة

{٢٥} - عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مات وأبو بكر بالسُّنح، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

فقبّله، قال: بأبي أنتَ وأُمّي طِبْتَ حياً وميتاً، ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبدُ محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموتُ، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، قال: فَنَشِج الناسُ يبكون، قال: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنهم، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، ثم تكلّم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، فبايعوا عمر وأبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيِّدُنا وخَيْرُنا وأحبُّنا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأخذ عمرُ بيده فبايعه وبايعه الناس. وفي رواية: فقال الحُبَابُ بن المنذر: لا والله لا نفعل منّا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمر الخ.

رواه البخاري في فضل الصديق (٢٨/٨، ٢٩) وفي الجنائز وفي المغازي.

{٣٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغَدُ من يوم تُوُفّي النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فتشهد وأبو بكر صامتٌ لا يتكلم، قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى يَدْبُرَنَا، يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يك محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهُرِكم نوراً تَهْتَدُون به بما هَدَى الله تعالى محمداً صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن أبا بكر صاحبُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثانِي اثنين، فإنه أولى المسلمين بأُموركم فقوموا فبايعوه، وكانت طائفةٌ منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعةُ العامّة على المنبر، قال أنس: سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصْعَد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر، فبايعه الناس عامّة.

رواه البخاري في الأحكام (٣٣٤/١٦).

قوله: السنح ـ هو بضم السين وسكون النون آخره حاء مهملة ـ وهو من منازل بني الحارث من الخزرج بالعوالي وبينه وبين المسجد النبوي ميل. وقوله: فنشج ـ هو بفتح النون وكسر الشين ـ آخره جيمٌ النشيج هو البكاء مع صوت وترجع كترديد الصبي بكاءه في صدره. وقوله: سقيفة بني ساعدة، السقيفة كانت لسعد بن عبادة كبير الخزرج في وقته، وكانت ظلة عريشاً يستظلّ بها. وقوله: يدبرنا ـ بفتح الياء وسكون الدال وضمّ الباء ـ أي: يكون آخرنا موتاً.

في الحديثين بيان وتفصيل لاستخلاف الصدّيق ومبايعته رضي الله تعالى عنه، وأن الصحابة من المهاجرين والأنصار اتّفقوا على مبايعته بعد اختلافهم، وحتى من تخلف عن ذلك من بني هاشم؛ كالعباس والإمام عليّ وغيرهما بايعوه بعد ذلك، وأجمع الصحابة عليه واعتمد الأئمّة والعلماء على هذا الإجماع وجعلوه حجة لبيعة من يتّفق عليه أهل الحلّ والعقد، ولم يخالف في ذلك إلا الشيعة ومن لا عبرة بهم من أهل البدع والأهواء، ويؤيّد صحة خلافة الصدّيق رضي الله تعالى عنه وأن بيعته كانت صحيحة الحديث التالي.

{٢٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مرضه: «**ادعِي لي أبا بكر أباكِ، وأخاكِ حتّى أكْتُبَ كتاباً، وإنّي أخاف أن يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ ويقول قائل: أنا أوْلَى، ويأْبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وفي رواية: «**لقد هَمَمْتُ أو أردتُ أن أرْسل إلى أبي بكر وابنه فأعْهَد أن يقول القائلُون أو يتمنَّى المتمنُّون، ثم قال: يأبَى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفعُ الله ويأبَى المؤمنون**».

رواه أحمد (٦/١٠٦، ١٤٤)، والبخاري في الأحكام (١٦/٣٣١، ٣٣٢)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٥٥) وغيرهم.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: في هذا الحديث دلالة ظاهرة لفضل أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه وإخبار منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما سيقع في المستقبل بعد وفاته، وأن المسلمين يأبون عقد

الخلافة لغيره. وقال الحافظ في الفتح على قوله: فأعهد، أي: أعيّن القائم بالأمر بعدي. هذا الذي فهمه البخاري فترجم به...

فالحديث صريح في عزمه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على كتابة العهد بالخلافة للصدّيق، وهو الذي كان عاودهم عليه أخيراً، فاختلفوا عليه فأمرهم بالقيام عنه، ولم يكتب ذلك اكتفاء بما أعلمه الله تعالى به مما سيكون من إلهام الله عزّ وجلّ للصحابة وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وصلاح الأُمّة من ترشيح الصدّيق للخلافة، ثم من جاء بعده على الترتيب السابق في علم الله عزّ وجلّ، والذي كان فيه صلاح المسلمين. وهذا بحمد الله تعالى واضح لا يردّه إلا الروافض الذين يتركون الظواهر المحكمات، ويتعلقون بالمتشابهات.

* * *

البيعة مع الشورى

{٢٨} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه خطب، فقال: إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترنّ امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمّت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرّها، وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يُتابَعُ هو ولا الذي تابعه تَغِرَّةً أن يقتلا، وإنه قد كان من خبرنا حين توفّى الله نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنّا عليّ والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم فلما دنونا منهم لقيَنا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينّهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في

سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مُزَمَّلٌ بين ظهرانَيْهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: يُوعَك، فلما جلسنا قليلاً تشهّد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط وقد دَفَّتْ دَافَّةٌ من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهة مثلها أو أفضل منها حتى سكت، فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أُقَدَّمَ فتُضْرَبَ عنقي لا يُقَرِّبُني ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر، اللّهمّ إلا أن تُسَوِّل لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن. فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ، وعُذَيْقُها المُرَجَّبُ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى فَرِقتُ من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة. قال عمر: إنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا.

رواه البخاري في الحدود (١٥/١٥٧، ١٦٧) مطولاً كما رواه في مواضع أخرى مقطعاً.

قوله: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة، أي: وقعت من غير مشورة مع

جميع من كان ينبغي أن يشاور، وكان ابتداؤها عن غير ملإ كثير والشيء إذا كان كذلك يقال له الفلتة، فيتوقع فيه ما لعله يحدث من الشرّ بمخالفة من يخالف في ذلك عادة، فكفى الله المؤمنين الشر المتوقّع في ذلك عادةً، وليس معناه أن البيعة كان فيها شرّ، وانظر الفتح. وقوله: تغرّة ـ بفتح التاء وكسر الغين المعجمة ثم راء مشددة آخره هاء تأنيث ـ أي: حذراً من القتل، والمعنى: أن من بايع من غير مشورة فقد غرّر بنفسه وبصاحبه وعرّضهما للقتل. وقوله: لقينا منهم رجلان صالحان هما: عُوَيْمُ بن ساعدة ومَعْن بن عَدِيٌ، وقوله: مزمّل ـ بضم الميم وفتح الزاي ثم ميم مفتوحة مشدّدة ـ أي: ملفف في ثوب. وقوله: ظهرانيهم أي: بينهم، وقوله: يوعك أي: مصاب بمرض الحمّى، وقوله: دفّت ـ بفتح الدال والفاء المشدّدة ـ أي: جاءت جماعة قليلة من قومكم، وقوله: يختزلونا من الاختزال أي: يقتطعوننا عن الأمر وينفردون به دوننا، وقوله: وإن يحضنونا من الأمر أي: يخرجوننا عنه ويستبدّون به.

ومعنى هذا الكلام: أنكم قوم غرباء أقبلتم من مكة إلينا في عدد قليل ثم أنتم تريدون أن تستأثروا علينا وتستبدّوا بالإمارة دوننا، وقوله: زوّرت مقالة، أي: هيّأت وحسّنت، وقوله: جُذَيْلُها ـ بضم الجيم وفتح الذال المعجمة ثم ياء ساكنة بعدها لام مضمومة ـ وهو تصغير جذل، وهو عود ينصب للإبل الجرباء لتحكّ فيه، وقوله: عُذَيْقُها تصغير عذق ـ بكسر العين ـ هو النخلة، والمرجب ـ بضم الميم وفتح الراء ثم جيم مفتوحة مشدّدة ـ هو الذي يدعم النخلة إذا كثر حملها، ومعنى هذا الكلام: أنا صاحب الرأي الذي يستشفى به كما تستشفى الإبل بحكّها في العود الذي ينصب لها، فأنا ذلك العود المحكّك فيه، وأنا العذق الذي يدعم النخلة. كنى بذلك عن قوّته وحصانة رأيه، وقائل ذلك هو حُباب بن المنذر وكان بدرياً رضي الله تعالى عنه.

وفي هذا الحديث فوائد هامّة وأهمها هو بيان كيفية بيعة الصدّيق رضي الله تعالى عنه، وأن البيعة إذا لم تكن عن مشورة لا تصح ولا تُقبل فهي كالعدم، وانظر ما يؤخذ من الحديث في الفتح في الحدود (١٥/١٦٧، ١٧٣).

{٢٩} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قيل لعمر: ألا تستخلف؟ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأثنوا عليه فقال: راغب وراهب، وددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا عليّ لا أتحمّلها حياً وميتاً. وفي رواية عنه قال: دخلت على حفصة رضي الله تعالى عنها فقالت: أعلمت أن أباك غير مستخلف، قال: قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل، قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك، فسكت حتى غدوت ولم أكلّمه، قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، قال: ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك زعموا أنك غير مُسْتَخْلِفٍ، وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيّع، فرعاية الناس أشدّ. قال: فوافقه قولي، فوضع رأسه ساعة ثم رفعه إليّ فقال: إن الله عزّ وجلّ يحفظ دينه، وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يستخلف، وإن استخلف فإن أبا بكر قد استخلف، قال: فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أحداً، وأنه غير مستخلف.

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٣٣٢، ٣٣٣)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦) وغيرهما.

قوله: راغب وراهب، اختلفوا في توجيهه، اختار عياض أنهما وصفان لعمر، أي: راغب فيما عند الله تعالى، راهب من عقابه فلا أعول على ثنائكم.

{٣٠} ـ وعن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، قال: لئن سلمني الله لأدعنّ أرامل العراق لا يحتجْنَ إلى رجل بعدي أبداً، قال: فما أتت عليه إلا رابعة حتى أُصيب، فقالوا: أوْصِ يا أمير المؤمنين استخلف، قال: ما أحد أحقّ بهذا

الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو عنهم راضٍ، فسمّى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبدالرحمٰن بن عوف، وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمرة سعداً وإلا فليستعن به أيكم ما أمّر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يُقبل من محسنهم وأن يُعْفَى عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رِدْءُ الإسلام وجُبَاةُ المال، وغيظُ العدوّ، وأن لا يؤخذ منهم إلاّ فَضلُهم عن رضاهم، وأُوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويردّ على فقرائهم، وأوصيه بذمّة الله وذمّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يُوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتَل من ورائهم، ولا يُكلَّفوا إلا طاقتهم.

رواه البخاري في الفضائل باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله تعالى عنه (٦١/٨، ٦٨) مطوّلاً، وفيه قصة قتل عمر رضي الله تعالى عنه، ويأتي بتمامه في الفضائل إن شاء الله تعالى.

في أحاديث هذا الفصل أُمور:

أولاً: إن خلافة الصدّيق رضي الله تعالى عنه كانت باتفاق من المهاجرين والأنصار بعد تشاور وأخذ وردّ، كما قدّمنا سابقاً.

ثانياً: كانت بيعة سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه باستخلاف من الصدّيق ووصيته، واتّفق الصحابة على خلافته وإمارته.

ثالثاً: إن عمر رضي الله تعالى عنه لما طعن وطُلِبَ منه الاستخلاف استدل لعدم الاستخلاف برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث ترك الأمر لأصحابه يرشحون للخلافة من يشاؤون بعد إشارته إلى خلافة الصديق في عدة أحاديث تأتي في الفضائل، واستدلّ ـ أعني عمر ـ للاستخلاف بالصديق حيث أوصى له بالبيعة، لكن الفاروق رضي الله تعالى

عنه اختار عدم الاستخلاف اقتداءً برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، بل جعل الأمر شورى بين ستة من كبار المهاجرين المبشّرين بالجنّة، فكان ما فعله هؤلاء الصحابة إجماعاً على صحة الخلافة بالبيعة والوصية بها، وفي هذا يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (٢٠٥/١٢): إن المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدمات الموت، وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف، ويجوز له تركه، فإن تركه فقد اقتدى بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذا، وإلا فقد اقتدى بأبي بكر، وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف وعلى انعقادها بعقد أهل الحلّ والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة، وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة كما فعل عمر بالستّة الخ، وعند الحافظ في الفتح (٣٣٣/١٦) كلام قريب من هذا، وسيأتي مزيد لهذا في الفضائل.

* * *

لا تكون البيعة إلا لخليفة واحد وأن الثاني يجب قتاله

{٣١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان بَنُو إسْرَائِيلَ تَسُوسُهُم الأنبياءُ كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُون**»، قالوا: فما تأمُرُنا؟ قال: «**فُوا بِبَيْعَةِ الأوَّلِ فَالأوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ**».

رواه أحمد (٢٩٧/٢)، والبخاري في الأنبياء (٣٠٧/٧)، ومسلم في الإمارة (٢٣١/١٢)، وابن ماجه (٢٨٧١).

قوله: تسوسهم أي: يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعيّة والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه.

والحديث يدلّ على وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأوّل، وأن بيعة الثاني باطلة. قال النووي في شرح مسلم: ومعنى الحديث إذا بويع لخليفة بعد

خليفة، فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها ويحرم عليه طلبها وسواء عقدوا للثاني عالمين بعقد الأول أو جاهلين، وسواء كانا في بلدين أو بلداً أو أحدهما في بلد الإمام المنفصل والآخر في غيره. هذا هو الصواب الذي عليه أصحابنا وجماهير العلماء. قال: واتّفق العلماء على أنه لا يجوز أن يعقد لخليفتين في عصر واحد سواء اتّسعت دار الإسلام أم لا. وقال إمام الحرمين: لا يجوز عقدها لاثنين في صقع واحد، وهذا مجمع عليه الخ، وفي هذا يقول ابن حزم في المحلى (٩/٣٦٠)، ولا يحل أن يكون في الدنيا إلاّ إمام واحد والأمر للأول ببيعة، ثم ذكر أدلّة ذلك وتأتي عقب هذا.

وفي الحديث وجوب إعطاء الولاة حقّهم من الطاعة والسمع لما يأمرون به. أما حقوقكم، فسيحاسبهم الله تعالى على ما يفعلونه بكم ويوفيكم الله حقكم منهم.

{٣٣} ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخِرَ مِنْهُمَا»**.

رواه مسلم (١٢/٢٤٢).

{٣٤} ـ وعن عَرْفَجَة بن شُرَيْح رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُم جَمِيعٌ على رَجُلٍ واحدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَائِناً مَنْ كان»**.

رواه مسلم أيضاً (١٢/٢٤٢).

{٣٤} ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص في حديث طويل أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«وَمَنْ بَايَعَ إِمَاماً فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَده وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْه إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جاء آخَرُ يُنازِعُه فاضربوا عُنُق الآخَر»**.

رواه مسلم (١٢/٢٣٣).

في هذه الأحاديث بيان أنه إذا بويع لخليفة من أهل الحل والعقد ثم بويع لآخر أو جاء يريد القيام على الأول وجب على المسلمين قتال هذا الثاني، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين إذا كانت بيعة الأول صحيحة، واتفق عليه المسلمون ولم يخرج من الإسلام كما يأتي.

❊ ❊ ❊

وجوب طاعة الولاة في المعروف

{٣٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الإِمَامَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَانِي فقدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ عَصَى الإِمَامَ فَقَدْ عَصَانِي**».

رواه أحمد (٢/٩٣، ٢٧٠، ٢٤٤) وفي مواضع، والبخاري في الأحكام (١٦/٢٢٨) وفي الجهاد، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٢٣)، والنسائي في المجتبى (٧/١٣٨)، وفي الكبرى (٤/٤٣٢، ٤٦٢) و(٥/٢٢٢)، وابن ماجه (٢٨٥٩)، وأبو يعلى (٦٢٤٣).

{٣٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**».

رواه أحمد (٣/١١٤)، والبخاري في الأحكام (١٦/٢٣٩)، وباقي الجماعة، وهو عن أنس من أفراد البخاري، ووهم من عزاه لمسلم.

{٣٧} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: «**إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْداً مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ**».

رواه أحمد (٥/١٦١)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٢٥).

{٣٨} ـ وعن أُمّ الحُصَيْن رضي الله تعالى عنها قالت: حججتُ مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حجّة الوداع، فقال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قولاً كَثِيراً ثم سمعته يقول: **«إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ ـ حَسِبْتُها قَالَتْ: أَسْوَدُ ـ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»**.

رواه أحمد (٤/٦٩، ٧٠) و(٥/٢٨١) و(٦/٤٠٢)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٢٥، ٢٢٦)، والنسائي في المجتبى (٧/١٣٨).

{٣٩} ـ وعن وائل رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورجلٌ يسأله فقال: أرأيت إن كان علينا أمراءُ يَمْنَعُونَا حَقَّنَا وَيَسْأَلُونَا حقَّهُم، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا فَإِنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وعَلَيْكُم ما حُمِّلْتُم»**.

رواه مسلم في الإمارة (١٢/٢٣٦)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٩) بتهذيبي وحسنه وصححه.

{٤٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«السَّمْعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أَحَبَّ وكَرِهَ ما لم يُؤْمَرْ بِمَعْصيةٍ، فَإِذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ»**.

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٢٤٠) وفي الجهاد، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٢٦).

{٤١} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»**.

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٢٤١) وفي مواضع، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٢٦، ٢٢٧) مطولاً، ويأتي في الجهاد إن شاء الله تعالى.

قوله: كأن رأسه زبيبة شبّه رأسه بذلك لتجمّع الزبيبة ولكون شعره أسود غربيباً، قالوا: وهو تمثيل في الحقارة وبشاعة الصورة، وقوله: عبد مجدّع الأطرف، أي: أطع ولو كان الأمير عبداً مقطّعاً أطرافه خسيساً دنيء النسب، وقوله: عليهم ما حملوا الخ على الأمراء ما كلفوا به من العدالة

وأداء حقوق الرعيّة، وعليكم ما كلفتم به من طاعتهم والسمع لهم والصبر على ظلمهم.

وفي هذه الأحاديث من الفقه أمور:

أولاً: من هم أولُو الأمر الوارد الأمر بطاعتهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ الخ. اختلفت أقاويل أهل العلم في المراد بأولي الأمر، فجماهير السلف والخلف من المفسّرين والفقهاء وغيرهم أنهم الأمراء والولاة، ويدلّ لذلك أن الآية نزلت في قصة عبدالله بن حذافة السَّهْمِي الذي بعثه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أميراً على سريَّة، كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس ويأتي ذلك في المغازي، وجاء تفسيرهم بالأمراء عن أبي هريرة كما عند ابن جرير (١٤٧/٥) بسند صحيح ونحوه عن ميمون بن مهران وغيره، وقال مجاهد وعطاء والحسن وأبو العالية: هم العلماء... وقال مالك الإمام رحمه الله تعالى: أولو الأمر أهل القرآن والعلم... وقال النووي: قال العلماء: المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعتهم من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسّرين والفقهاء وغيرهم، وقيل: هم العلماء، وقيل: الأمراء والعلماء... وعلى أي: فأولو الأمر هم قدوة الأمة وأمناؤها والقائمون بشؤونها فيدخل فيهم الأمراء والعلماء.. لأن الأُمّة بهذين الصنفين صلاحها وفسادها.

ثانياً: إن إطاعتهم إطاعة لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما أن عصيانهم يعتبر كذلك عصياناً لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ثالثاً: تجب طاعة ولي الأمر وإن كان بلغ النهاية في نقص الخلقة والنسب والحقارة، كالعبد الأسود الناقص الأطراف مثلاً إذا افترضنا توليته بالنيابة أو التغلّب.

رابعاً: طاعة الولاة واجبة علينا، وإن منعونا حقوقنا وظلمونا، فإن الله سائلهم على ذلك.

خامساً: طاعتهم واجبة إذا أمروا بما جاءت به الشريعة من المعروف، فإذا أمروا بما يخالف الشرع الصريح فلا سمع ولا طاعة، وهذا مما لا خلاف فيه.

❋ ❋ ❋

الصبر على ما يكره الإنسان من الأمير ولزوم الجماعة وأن لا يخرج عن الطاعة إلا مع الكفر

{٤٣} ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: بايعنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**على السمع والطاعة في اليُسْر والعُسْر، والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وأن لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بالحقّ حَيْثُما كُنَّا، لا نَخَافُ في الله لَوْمَةَ لائِم**».

وفي رواية: «... **وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَواحاً عِنْدَكُمْ مِنَ الله فِيهِ بُرْهَانٌ**».

رواه البخاري في الفتن (١١٣/١٦)، والأحكام (٣١٧/١٦)، ومسلم في الإمارة (٢٢٨/١٢).

{٤٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ رَأى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفارِقُ الجماعة شِبْراً فَيَمُوتُ إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**».

رواه البخاري في الأحكام (١١٢/١٦)، ومسلم في الإمارة (٢٣٩/١٢، ٢٤٠).

{٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من خرج من الطاعة وفارَق الجماعة ثم مات، مات مِيتةً جاهليّة، ومن قُتِل تحت رايةٍ عُمِّيَّة يغضبُ للعصبة ويقاتل للعَصَبة، فليس من أُمَّتي، ومن خرج من أُمَّتي على أُمتي يضربُ بَرَّها وفاجِرها لاَ يَتَحاشى من مُؤْمِنِها، ولا يفي بذي عَهدها فليس منّي**».

رواه أحمد (٢/٢٩٦)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢٣٨، ٢٣٩)، والنسائي في الكبرى (٢/٣١٤).

{٤٥} ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنّها ستكون بعدي أثرةٌ وأمور تنكرونها**»، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منّا ذلك؟ قال: «**تؤدُّون الحقّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم**».

رواه البخاري في الفتن (١٦/١١٠). ومسلم في الإمارة (١٢/٢٣٢).

{٤٦} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**».

رواه مسلم (١٢/٢٤٠).

{٤٧} ـ وعن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنه في حديث طويل يأتي في الأنبياء، وفيه قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع**».

رواه أحمد (٤/٢٠٢) و(٥/٣٤٤)، والترمذي وغيرهما بسند صحيح.

{٤٨} ـ وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فذكر الحديث وفيه: قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: «نعم»، قلت: كيف؟ قال: «**يكونُ بَعْدي أئِمَّةٌ لا يَهْتَدُون بِهُدَايَ ولا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتي، وسيَقومُ فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوبُ الشياطِين في جُثْمانِ إنس**»، قال: قلت: كيف أصْنَعُ يا رسول الله إن أدْرَكْتُ ذلك؟ قال: «**تَسْمعُ وتُطِيعُ للأمير وإن ضُرِبَ ظَهْرُك وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**».

رواه البخاري ومسلم (١٣/٣٣٨) ويأتي في الفتن.

{٤٩} ـ وعن أُمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يَكُونُ عليكُم أُمراءُ تَعْرِفُون وتُنْكِرُونَ، فمن أَنْكَرَ فقد بَرِىءَ، ومَن كَرِهَ فقد سَلِمَ، ولكن مَن رَضِيَ وتابعَ**»، قالوا: أفلا نَقْتُلُهم؟ قال: «**لا مَا صَلَّوا، لا ما صَلَّوا**».

رواه أحمد (٦/٢٤، ٢٨)، ومسلم (١٢/٢٤٢، ٢٤٣).

قوله: لومة لائم أي: لا يخشى معاتبة من يعاتبه ولا يبالي بأحد، وقوله: أثرة علينا هي بفتحات أي: الاختصاص بالولاية ومنافعها والاستبداد بها دوننا، وقوله: كفراً بواحاً أي: ظاهراً بيِّناً وهو بتخفيف الواو، وقوله مات ميتة جاهلية أي: مات عاصياً ضالاً لأنه خلع الطاعة وخرج على الإمام، وقوله: راية عمية ـ بضم العين وكسر الميم المشدّدة ـ أي: لا يتبيّن وجه الحق في ذلك، كذا قال الجمهور. وقوله: لا يتحاشى أي: لا يبالي من قتل، وقوله: قيد شبر أي: قدره، وقوله: فتعرفون أي: تعرفون أشياء يعملونها من الدين وتنكرون أخرى ليس لها أصل في الدين.

وفي هذه الأحاديث جملة من الفوائد الفقهية... منها وجوب طاعة الأمراء في جميع الأحوال، سواء كان الإنسان في حالة العسر أو اليسر، في حالة نشاطه وحال كسله وعجزه... ومنها: تحريم منازعة الأمراء وذوي السلطة في شؤون الولاية وإن استأثروا واختصوا و استبدّوا بها دون غيرهم ولو كانوا متغلّبين قاهرين بدون بيعة... فقد قال الحافظ في الفتح (١٦/١١٢): وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلّب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء...

ومنها: الإنكار على أهل الباطل والصراحة بالحق وأن لا يبالي الإنسان بمن يعاتبه أو يلومه على ذلك، وذلك إذا لم يخف على نفسه...

ومنها: وجوب الصبر على ما يراه الإنسان من أميره من المخالفات والظلم والبغي ويؤدّي له حقّه ويسأل حقه من الله عزّ وجلّ.

ومنها: وجوب لزوم الجماعة وتحريم الخروج عنها، والمراد بالجماعة أهل الحق من الأمراء والعلماء، فمن خرج عنها وشذّ ومات على ذلك مات

ميتة جاهلية، وكان قد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ومن مات وليس في عنقه بيعة لإمام كان جاهليّاً ذا ضلال.

ومنها: لا يجوز الخروج على الأمراء والولاة وإن جاروا وظلموا وضربوا الظهور وأخذوا الأموال ما داموا يتظاهرون بشعائر الدين ولم يكفروا ويغيّروا دين الله تعالى... فإن كفروا كفراً بواحاً ظاهراً بيّناً لا غبار عليه ولا تأويل فيه، فلا سمع ولا طاعة ووجب عندئذٍ الخروج عليهم وقتالهم لمن استطاع.

قال عياض في الإكمال (٢٤٦/٦): فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن امتنع ذلك الخ، وقال أيضاً: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل. قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها وكذلك عند جمهورهم البدعة. وقال أيضاً: لا يجوز الخروج على الإمام العدل باتّفاق، فإذا فسق وجار، فإن كان فسقه كفراً وجب خلعه، وإن كان ما سواه من المعاصي فمذهب أهل السنّة أنه لا ينخلع... انظر الإكمال (ج ٢٤٦/٦، ٢٤٧).

ونقل الحافظ عن الداودي، قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قُدِرَ على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفُرَ فيجب الخروج عليه... الفتح (١١٤/١٦)، أمّا ما حصل لأفاضِلِ السلف وعلمائهم من الخروج على بني أُميّة فمحمول منهم على الاجتهاد لما طرأ على أولئك الأمراء من الإسراف في الظلم والبغي وتغيير الشريعة، وكان القائمون من أكابر العلماء والزهّاد والنسّاك والصالحين.

* * *

خيار الأمراء وشرارهم

{٥٠} ـ عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الذين تُحِبُّونَهُم ويُحِبُّونَكُمْ، وتُصَلُّون عَلَيهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعنُونهُمْ وَيلْعنُونَكُمْ**»، قالوا: قلنا: يا رسول الله أفلا نُنابِذُهُمْ عند ذلك؟ قال: «**لا، ما أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاةَ، لا مَا أَقَامُوا فِيكُم الصَّلاة، أَلاَ مَنْ ولِيَ عليه والٍ، فرآه يَأْتِي شَيْئاً من مَعْصِيةِ الله فَلْيَكْره ما يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ الله ولا ينْزعنَّ يداً من طاعة**»، وفي رواية: «**وَإِذَا رَأَيتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئاً تَكْرَهُونَهُ فاكْرهُوا عملَهُ، وَلاَ تَنْزِعُوا يداً مِن طاعَةٍ**».

رواه أحمد (٢٤/٦)، ومسلم في الإمارة (٢٤٤/١٢، ٢٤٥).

في الحديث بيان أن خيار الأئمّة وأفاضل الولاة الذين يتبادلون الحب مع رعاياهم ويدعو بعضهم مع بعض بالتوفيق والهداية والبر... كما أن شرار الولاة هم الذين يتبادلون البغض واللعنة مع شعوبهم، كما في الحديث وجوب طاعتهم ولو كانوا أشراراً، وأنه لا يجوز القيام عليهم ولا الخروج من ولايتهم ما داموا مقيمين الصلاة، وأن الواجب على من رأى منهم ما يكره أن يبغض أعمالهم ولا ينزعن يده من طاعتهم جمعاً للكلمة وتوحيداً للصف.

* * *

لا تصح ولاية المرأة بالإجماع

{٥١} ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: لقد نَفَعَنِي اللهُ تعالى بكلمة سمعتُها من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أيام الجَمَل، بعدما كدتُ أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنَّ أهلَ فارسَ قد مَلَّكُوا عليهم بِنْتَ كِسْرَى، قال: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً**».

رواه أحمد (٤٧/٥، ٥١)، والبخاري في المغازي (٩٢/٩) وفي الفتن (١٦٤/١٦، ١٦٦)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢) وبتهذيبي (٢٠٩١)، والنسائي في القضاء (٢٠٠/٨)، والحاكم في الفتن (٥٢٤/٤، ٥٢٥)، والبيهقي (٩٠/٣ و١١٨/١٠). وهو في الكبرى للنسائي (٤٦٥/٣).

قوله: أيام الجمل يعني الوقعة التي كانت بين الإمام علي وطلحة والزبير وكانت معهما عائشة على جملها والناس يتقاتلون حولها فسمّيت الوقعة باسم جملها، وستأتي القصة مفصلة في موضعها. وقوله: لن يُفلح أي: لا يسعدون ولا يكون لهم شأن.

والحديث يدلّ على أن المرأة لا تكون أميرة ولا صاحبة ولاية سواء كانت ولاية عامّة؛ كالخلافة والوزارة والسفارة والقضاء والقيادة وغير ذلك، أو كانت ولاية خاصة مما تحتاج فيه المرأة إلى الاختلاط بالرجال والبروز لهم والاجتماع بهم، وكل أمّة خالفت هذا الإنذار النبويّ الخالد فولّت على شأن من شؤنها امرأة لن تفلح أبداً، وسيكون مآلها الانهيار والهلاك طال الزمان أو قصر... وبهذا قال كل الأئمّة والعلماء سلفاً وخلفاً إلا بعض أهل الشذوذ، فأجازوا للمرأة تولية القضاء فيما تجوز فيه شهادة النساء، والحديث النبوي يردّ عليهم، ولو كان هذا جائزاً لفعله النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وخلفاؤه الراشدون، وما ينسب لسيدنا عمر من توليته بعض النساء وظيفة في السوق باطل لا يصح.

وإلى القارىء بعض نصوص الأئمّة والعلماء في منع المرأة من الإمارة والولاية...

قال الشيرازي في المهذب: ولا يجوز أن يكون القاضي امرأة لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أفلح قوم أسندوا**[1] **أمرهم إلى امرأة**»، ولأنه لا بدّ للقاضي من مجالسة الرجال من الفقهاء والشهود والخصوم، والمرأة ممنوعة من مجالسة الرجال لما يخاف عليها من الفتنة بها.

---

(١) هذه الكلمة في رواية المسند.

وقال ابن حزم في المحلى: ولا يجوز الأمر لغير بالغ ولا لمجنون ولا امرأة.

وقال الخطابي كما في الفتح: في الحديث أن المرأة لا تلي الإمارة ولا القضاء (١٩٣/٩).

وقال ابن قدامة في المغني بعد كلام في تولية المرأة: ولأن القاضي يحضره محافل الخصوم والرجال ويحتاج فيه إلى كمال الرأي وتمام العقل والفطنة، والمرأة ناقصة العقل قليلة الرأي ليست للحضور في محافل الرجال... ولا تصلح للأمانة العظمى، ولا لتولية البلدان، ولذا لم يولِ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا أحد من خلفائه، ولا من بعدهم امرأة قضاء ولا ولاية بلد فيما بلغنا، ولو جاز ذلك لم يخل منه جميع الزمان غالباً. (٣٦/١٠).

وقال الإمام البغوي في شرح السنة (٧٧/١٠): اتّفقوا على أن المرأة لا تصلح أن تكون إماماً ولا قاضياً؛ لأن الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد والقيام بأُمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلى البروز لفصل الخصومات، والمرأة عورة لا تصلح للبروز، وتعجز لضعفها عند القيام بأكثر الأُمور، ولأن المرأة ناقصة، والإمامة والقضاء من كمالات الولايات، فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال...

وجاء في كتاب الفقه الإسلامي وأدلّته (٧٤٥/٦): وأما الذكورة فهي شرط أيضاً عند المالكية والشافعية والحنابلة، فلا تولى امرأة القضاء لأن القضاء ولاية، والله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، قال: وهي لا تصلح للولاية العامة؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**».

* * *

بطانة الأُمراء

{٥٢} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ**

خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بالخَيرِ، وَتَحُضُّهُ عَلَيهِ، وبطانةٌ تأمُرُه بالشَّرِّ وتحُضُّهُ عليه، فالمعْصُومُ من عَصمَ الله».

رواه أحمد (٣/٣٩)، والبخاري في الأحكام (١٦/٣١٤)، والنسائي في الكبرى (٤/٤٣٣) و(٥/٢٣٠).

{٥٣} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ وَلِيَ منكم عملاً فأرادَ اللهُ به خيراً، جَعَلَ له وَزِيراً صالِحاً، إنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإنْ ذَكَرَ أَعانَهُ»**.

رواه أحمد (٦/٧٠)، والنسائي في المجتبى (٧/١٤٢) وفي الكبرى (٥/٢٢٩) من طريقين وسنده عندهما صحيح، وبقية في سنن النسائي قد صرح بالتحديث، ورواه أبو داود (٢٩٣٢)، وابن حبان (١٥٥١) مع الموارد، وزادا فيه: **«وَإذَا أَرادَ اللهُ به غير ذلك جعلَ له وزيرَ سُوءٍ، إنْ نَسِيَ لم يُذَكِّرْه، وإن ذكَّرَه لم يُعِنْه»**، وفي سنده ضعف.

قوله: بطانتان تثنية بطانة والبطانة الأصفياء وأولياء الإنسان، وفي القرآن الكريم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: أصفياء من غير أهل دينكم.

وقوله: تأمره بالخير الخ، في رواية: تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وهي رواية لأبي أيوب عند النسائي (٧/١٤١) وسنده صحيح، وقوله: فالمعصوم إلخ، أي: المحفوظ من شر بطانة السوء من حفظه الله، وفي رواية أبي أيوب: وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقي بطانة السوء فقد وقي، وقوله: لا تألوه خبالاً أي: لا تقصر في إفساد أمره، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، والخبال: الفساد والشر.

في الحديثين أن الأنبياء وخلفاءهم لا يخلون من بطانتي خير وشر وهم أصحاب أسرارهم والمختصون بهم؛ كالوزراء مثلاً، فخيرهم يأمره بالخير ويرغّبه فيه ويعينه عليه. أما شرهم فلا يقصر في الإفساد والمكر والخديعة، لكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن ينهج نهجهم ممن

أراد الله بهم خيراً يقيض الله لهم بطانة الخير ويحفظهم من أصدقاء السوء. وقال بعضهم: أراد بالبطانتين الملك والشيطان، وهو بعيد.

وفي الحديثين إشارة إلى أنه ينبغي للخليفة أن يختار أصحاب مشورته وأهل سرّه، وأن لا يتخذ منهم إلا الصالحين النصحاء، وأن يكون على حذر من المفسدين.

❊ ❊ ❊

جواز اتخاذ الشُّرَط للأمير

{٥٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان قيس بن سعد رضي الله تعالى عنه من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمَنْزِلَةِ صاحِبِ الشُّرَط مِن الأمِير، يعني ينظر في أُموره.

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٢٥٤).

قوله: الشرط ـ بضم الشين وفتح الراء ـ جمع شرطة ـ بضم الشين وسكون الراء ـ وهم أعوان الأمراء والنسبة إلى ذلك شرطي.

لم يكن للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شرطة خاصون، وإنما حدث ذلك أيام بني أُميّة غير أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان له أصحاب يستعين بهم في المصالح العامة منهم هذا الصحابي قيس بن سعد الأنصاري... واتّخاذ الأمير الشرطة والجنود من المصالح المرسلة، فإذا كانوا مستقيمين كان لهم الأجر الوافر وإن كانوا غير ذلك وهو الواقع منذ عهد بعيد كان مآلهم ما أعده الله تعالى لأعوان الظلمة نعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه.

❊ ❊ ❊

وصية الأُمراء عمالهم بالتبشير والتيسير

{٥٥} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا بَعَث أحداً مِنْ أصحابه في بعض أمره، قال: «**بَشِّرُوا ولاَ تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا**».

رواه أحمد (٤/٤١٢)، ومسلم في الجهاد (١٢/٤٠)، ويأتي حديث آخر له ولأنس في السيرة وفي الأدب.

قوله: بشّروا إلخ، أي: قولوا للناس ما يسرهم ويدخل عليهم الفرح حتى يبدو أثر ذلك على بشرتهم ولا تخبروهم بما ينفرهم ويحملهم على الانحراف وعدم الرجوع إليكم، وقوله: يسّروا الخ، أي: دلوهم على ما فيه يسر وسهولة ولا تشدّدوا عليهم بذكر ما يشقّ عليهم.

وما ذكر في هذا الحديث من الأمر بالتبشير والتيسير والنهي عن ضدّهما هو خاص بقريب العهد بالإسلام أو بالتوبة. قال الحافظ في الفتح (١/١٧٣): والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطّف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حُبِّب إلى من يدخلُ فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد بخلاف ضدّه.

وقال النووي في شرح مسلم (١٢/٤١): وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير، وفيه تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان ومن بلغ، ومن تاب من المعاصي؛ كلهم يتلطّف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً...

وفي الحديث مشروعية أمر الولاة عمالهم بالرفق بالرعايا والتلطّف معهم وعدم التشديد عليهم وحملهم على ما يشقّ عليهم، ويأتي مزيد لهذا في السيرة وغيرها.

❋ ❋ ❋

نصح الولاة والإنكار عليهم ما يأتون من مناكير وظلم

{٥٦} ـ تقدم حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**إنه يُسْتَعْمَلُ عليكُم أُمراءُ فَتَعْرِفُونَ وتُنْكِرُونَ فمَن كَرِهَ فقَدْ بَرِيءَ، ومَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، ولكنه مَنْ رَضِيَ وتابَعَ**»... رواه مسلم وغيره ويأتي أيضاً.

قال النووي رحمه الله: ومعناه من كره ذلك المنكر فقد بريء من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه، فليكرهه بقلبه وليبرأ... قال: وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ولكن من رضي وتابع ولكن الإثم والعقوبة على من رضي يعني بما فعلوه من المناكير وتابعهم على ذلك، قال: وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرّضا به، أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه.

وسيأتي حديث: «**الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم**»، رواه مسلم. ومن نصحيتهم أمرهم ونهيهم برفق ولطف.

{٥٧} ـ وعن طارق بن شهاب رضي الله تعالى عنه قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد تُرِكَ ما هُنَالِكَ، فقال أبو سعيد: أمّا هذا فقد قَضَى ما عليه، سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مَنْ رَأَى منكم مُنْكِراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».

رواه أحمد (٣/١٠، ٤٩، ٥٢، ٥٤)، ومسلم في الإيمان (٢١/٢، ٢٥)، وأبو داود (٤٣٤٠)، والترمذي (٢٠٠٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٥٣٢/٦)، وابن ماجه في الصلاة (١٢٧٥) وفي الفتن (٤٠١٣).

قوله: «ترك ما هنالك» أي: ما كنت تعرفه من السنن قد ترك ولم يبق

له أثر، وقوله: أما هذا فقد قضى إلخ، أي: قام بواجب النهي وتغيير المنكر حسب استطاعته.

وفي الحديث وجوب تغيير المنكر حسب هذه المراتب التي ذكرها الحديث وهي التغيير أولاً باليد كإراقة الخمر مثلاً، وتكسير آلات اللهو والقمار وإزالة الغصوب وردّها إلى أربابها، وهذا غالباً يكون لصاحب الحسبة، فإن لم يتمكن من تغييره باليد انتقل إلى إنكاره باللّسان مع الرفق والحكمة، وخاصة مع الجاهل أو ذوي السلطة الظالم الذي يخاف من شرّه، فإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فإن علم أو ظنّ أن إنكاره يؤدي إلى ما هو أنكر من قتل مثلاً أو غير ذلك اقتصر على الإرشاد والوعظ، فإن لم يقدر على ذلك أنكر بقلبه بأن يكره ذلك ويبغضه مع اجتناب أصحابه، وهذه المرتبة هي أقلّ ثمرات الإيمان.

وقد نصّ المحقّقون من العلماء أن المنكر الذي يجب تغييره هو ما كان متفقاً ومجمعاً عليه. أما المختلف فيه، فلا إنكار فيه إلا على وجه الندب للخروج من الخلاف ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم من الأئمّة يختلفون في الفروع من غير أن ينكر عليهم محتسب ولا غيره، وانظر لهذا الموضوع الأحكام السلطانية للماوردي وشرح مسلم للنووي من كتاب الإيمان (٢٢/١٢، ٢٦)... وفي الحديث دليل على ما كان عليه أمراء بني أُميّة من مخالفة السنّة والسخرية بالصحابة المنكرين عليهم، كما يظهر جليّاً من فعل مروان مع الرجل أو مع أبي سعيد كما جاء في رواية أخرى في الصحيح، وإنما كان يقدم مروان الخطبة على الصلاة في العيد ليُسْمِعَ الناس السباب والشتائم في معارضيه؛ لأن الناس كانوا إذا صلوا العيد انصرفوا ولا يجلسون لاستماع الخطبة.

{٥٨} ـ وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية، وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**».

رواه أحمد وهو أول حديث في المسند، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (١٩٩٨) وفي التفسير (٢٨٥٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٤)، وأبو يعلى (٧٥/١) وسنده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

قوله: «فلم يأخذوا» إلخ، أي: لم يكفوه عن ظلمه بأمره ونهيه، وقوله: «أوشك» أي: قارب وقتئذ أن يشملهم الله تعالى جميعاً بالعذاب.

وفي الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد لمن ترك الإنكار على الولاة الظلمة والسكوت على ما يأتونه من ظلم وطغيان، وأن ذلك من موجبات العقاب الشامل في الدنيا. نعم الآية الكريمة تدلّ على الرخصة في لزوم الإنسان نفسه إذا اهتدى وعمل طاقته في الدعوة والإنكار، ولو بقلبه كما تقدم وأنه لا يضرّه بعد ذلك ضلال من ضلّ.

{٥٩} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ أَوَّلَ ما دخل النقصُ على بني إسرائيل أنه كان الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقولُ له: يا هذا اتّقِ الله ودَعْ ما تَصْنَعُ، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاهُ مِن الغدِ، وهو على حالهِ فلا يَمْنَعُه ذلك أن يكون أكِيلَه، وشَرِيبَه، وقَعِيدَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبَ بعضِهم ببعض**»، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾.

ثم قال: «**واللهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ على يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطِرُنَّهُ على الحقِّ أَطْراً، أَوْ لَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْراً**».

وفي رواية: فجلس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان متّكئاً، فقال: «**لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْراً**».

رواه أحمد (٣٩١/١)، وأبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي في التفسير (٢٨٥١)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وابن جرير في التفسير (٣١٨/٦)، وزاد في الدر المنثور (١٢٤/٣) ابن المنذر وابن أبي حاتم وعبدالرزاق وغيرهم، وسنده صحيح غير أن أبا عبيدة لم يسمع من والده ابن مسعود، وجاء في

رواية محتملة الوصل وهو مع ذلك له شاهد عن أبي موسى بنحوه رواه الطبراني. قال النور في المجمع (٢٦٩/٧): ورجاله رجال الصحيح، فالحديث صحيح وغاب عني هذا الشاهد فلم أورده في التفسير.

قوله: «إن أول ما دخل النقص» إلخ، يعني: النقص في دينهم، وقوله: «أكيله» إلخ، يعني: يأكل ويشرب ويقعد معه، وقوله: «ضرب الله قلوب بعضهم» أي: خلط قلوب بعضهم ببعض، وقيل: سوّد الله قلب من لم يعصه بشؤم من عصى، فصارت قلوب جميعهم قاسية مظلمة بعيدة عن قبول الحقّ والخير والرحمة بسبب المعاصي ومخالطة بعضهم بعضاً، وقوله: «حتى تأطروهم»، الأطر: الزدّ، أي: حتى تردّوهم إلى الحق وتعطفوهم، وقوله: «لتقصرنه» القصر: الحبس.

والحديث يدلّ على وجوب إرشاد الولاة والإنكار عليهم إذا حادوا عن الطريق وإرجاعهم إلى الحق والعدل، كما يدلّ على وجوب مقاطعة العصاة المصرّين على ذنوبهم وعصيانهم الله عزّ وجلّ ووعيد من خالطهم وصاحبهم على ذلك، وأنه إن لم ينكر عليهم ويهجرهم عاقبه الله تعالى ولعنه معهم، كما وقع لبني إسرائيل.

{٦٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إِذَا رَأَيتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ له: أَنْتَ الظَّالِمُ، فقد تُوُدِّعَ مِنْهُمْ**».

رواه أحمد (١٨٩/٢، ١٩٠)، والبزار (٣٣٠٢، ٣٣٠٣)، والطبراني قال في المجمع (٢٦٢/٧، ٢٧٠): وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، وكذلك إسناد أحمد.

قوله: تُودّع منهم ـ بضم التاء والواو مع كسر الدال ـ أي: استريح منهم وخذلوا وخلّي بينهم وما يرتكبون من المعاصي، فلا يبالي الله تعالى بهم.

وفي الحديث زجر بالغ للعلماء والدعاة إلى الله الذين يشاهدون ظلم الظالمين ولا ينكرون عليهم ولا ينصحونهم، بل قد يحسّنون لهم أفعالهم

ويغضّون الطرف عمّا يصدر منهم من كبار الفواحش وقبيح الذنوب.

{٦١} ـ وعن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «**أَفْضَلُ الجِهَادِ مَنْ قَالَ كَلِمَةَ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**».

رواه أحمد (٥/٢٥١، ٢٥٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٢) بسند حسن.

وعن طارق بن شهاب رضي الله تعالى عنه مثله، رواه أحمد (٤/٣١٤)، والنسائي (٧/١٤٤) بسند صحيح.

{٦٢} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَرَجُل قَامَ إِلى إِمامٍ جائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ**».

رواه الحاكم (٣/١٩٥)، والخطيب في التاريخ (٦/٣٧٧) و(١١/٣٠٢) من طريقين هو بهما حسن، وله مع ذلك شواهد وطرق.

قوله: أفضل الجهاد إنما كانت كلمة حق عند الإمام الجائر أفضل الجهاد؛ لأن من جاهد العدوّ كان متردّداً بين رجاء وخوف لا يدري هل يغلِب أو يُغْلَب، وصاحب السلطان مقصور في يده مُعرَّضٌ للتَّلفِ المُحَقَّقِ، فصار ذلك أفضل الجهاد، فإذا قتله كان سيد الشهداء بعد حمزة عمّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهذه فضيلة هامّة لا يقدم على الإحراز عليها إلا أكابر الأبطال الشجعان الذين باعوا أرواحهم لله عزّ وجلّ.

وسيأتي بقية للموضوع في كتاب الأدب والفتن.

* * *

التحذير من الدخول على الظلمة ومعاونتهم وتصديقهم في كذبهم

{٦٣} ـ عن كعب بن عُجْرَةَ رضي الله تعالى عنه قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن تسعةٌ خمسةٌ وأربعةٌ أحد

العددين من العرب والآخر من العجم، فقال: «**اسْمَعُوا وأَطيعُوا هَلْ سَمِعْتُمْ إنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ فَمَنْ دخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ في كَذِبِهِمْ وأَعَانَهُمْ على ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي ولَسْتُ مِنْهُ، وليس بِوارِدٍ عَلَيَّ الحوضَ، ومَن لم يدخُل عليهم ولم يُعِنْهُمْ على ظُلْمِهِمْ ولم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهِمْ، فهو مِني وأنا مِنْهُ وهو واردٌ عليَّ الحوضَ**».

رواه أحمد (٤/٢٤٣)، والنسائي في البيعة (٧/١٤٣)، والترمذي آخر الصلاة (٥٤٧) وفي الفتن (٢٠٨٧)، وابن حبان (١٥٧١، ١٥٧٣) بالموارد بأسانيد بعضها حسنة أو صحيحة، وللحديث شواهد ذكرتها في تهذيب السنن رقم (٥٤٧).

قوله: سيكون بعدي أمراء، يعني مسرفين في الظلم موصوفين بالكذب.

وفي الحديث ذمّ الأمراء الظلمة والتنفير من الدخول عليهم وتصديقهم في باطلهم وكذبهم ولو بالسكوت فمن اتصل بهم على هذا النحو لم تكن له صلة بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، بل هو بريء منه ولا يرد عليه حوضه يوم القيامة، أما من أعرض عنهم ولم يوالهم ولم يدخل عليهم ولم يساعدهم على ما هم عليه من الظلم والانحراف كان له بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صلة وثيقة وسيشرب معه من حوضه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٦٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ بَدَا جَفَا، ومَنْ تَبِعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ، وَمَا ازْدَادَ أَحَدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْباً إلاَّ ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْداً**».

رواه أحمد (٢/٣٧١، ٤٤٠)، وأبو داود (٢٨٦٠) بسند حسن صحيح. ورواه أحمد أيضاً رقم (٣٣٦٢)، وأبو داود آخر الصيد (٢٨٥٩)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٤)، والنسائي في الصيد (٧/١٧٢) عن ابن عباس...

قوله: بدا أي: سكن البادية، جفا أي: صار جافياً غليظ الطبع والعشرة، ومن تبع الصيد أي: اشتغل بالاصطياد غفل أي: ألهاه ذلك وصارت فيه غفلة عن الله تعالى وعن دينه، ومن أتى وقصد أبواب السلطان أي: ذا ولاية وإمارة وسلطة وتردّد إليه افتُتِن، أي: أصابته فتنة في دينه وخسر آخرته؛ لأن الداخل عليه لا بدّ أن يسكت عن المنكر الذي لا يخلو من التلبّس به أو وجوده في قصره، ولا يستطيع الإنكار عليه طمعاً في صلاته، أو خوفاً من سطوته وظلمه، وسيرى ما هو فيه من أنواع الترف والبَذخ فَيَزْدَري نعمة الله تعالى عليه وفي كل ذلك هلاكُه وخسارته. ولذا قال: وما ازداد عبد من السلطان وأرباب الولايات قرباً ودنوّاً وصحبة إلا ازداد من الله تعالى ومن رحمته ورضوانه بُعداً، وفي ذلك شقاوته وسخط الله تعالى.

وقد حذّر الأئمّة والعلماء وخاصة السلف الصالح من الدخول على الأمراء وصحبتهم وغشيان مجالسهم وزيارتهم وسؤالهم ما بأيديهم وتجد ذلك بكثرة في كتب التراجم وتواريخ العلماء والزهّاد، وقد ألّف في ذلك الحافظ السيوطي رسالة قيّمة سمّاها: ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، وما قدمناه في حديثي كعب وأبي هريرة ما يكفي للعبرة والحذر، وانظر ما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى حول ذلك في الإحياء تستفد.

* * *

تحذير الأُمراء من اتّهام رعاياهم وإساءة الظنّ بهم

{٦٥} ـ عن المقدام وأبي أُمامة وآخرين رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ في الناسِ أفْسَدَهُمْ»**.

رواه أحمد (٤/٦)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٩)، والحاكم في الحدود (٤/ ٣٧٨) وسنده حسن صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين وله شاهد عن معاوية عند أبي داود (٤٨٨٨) بنحوه.

الريبة: التهمة، وابتغى أي: طلب.

والحديث يدلّ على أن الأمير ومن يقوم نيابة عنه من الولاة والحكام إذا طلب التهمة في رعيّته بالتجسّس عليهم وظنّ السوء بهم أفسدهم لأنهم يصبحون أعداء له يضمرون له الأحقاد والأضغان، فربما ثاروا وتمرّدوا عليه وليس ذلك من مصلحته، فالأمير يجب عليه أن يكون متسامحاً يتغاضى عن الكثير من عيوب الناس. ولا يوظف العيون والجواسيس لاكتشاف أسرار الناس، فإن ذلك منهي عنه في القرآن: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، وجاء في السنة مثل ذلك. وما اتخذ الولاة والأمراء الجواسيس والعيون إلا عندما خرجوا عن الشريعة وظلموا عباد الله وطغوا في البلاد وأكثروا الفساد، وسيأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

{٦٦} ـ وعن عبدالله بن عتبة رحمه الله تعالى قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: إنَّ أُناساً كانُوا يُؤخَذُونَ بالوَحْي في عَهْدِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن الوَحْي قد انْقَطَعَ، وإنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الآن بما ظَهَر لنا من أعْمَالِكُمْ، فمن أظْهَرَ لنا خيراً أمِنَّاهُ وقَرَّبْنَاهُ، وليس إلينا من سَرِيرَتِهِ شيءٌ، اللهُ يُحاسِبُه في سَرِيرَته، ومن أظْهَرَ لنا سُوءاً لَمْ نأمَنْهُ ولم نُصَدِّقْه، وإنْ قال: إن سريرَتَهُ حَسَنةٌ.

رواه البخاري في الشهادات (٦/١٨٠).

في هذا الأثر الطيب دليل على أن الناس لا يؤخذون إلا بما ظهر منهم ولا يبحث عن سرائرهم ويتجسّس عليهم، وناهيك بعدل الفاروق صاحب هذا المقال الذي يفوح منه نور النبوّة.

❋ ❋ ❋

رزق الخليفة والحكام والعاملين معهم

{٦٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا استخلف أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: لقدْ عَلِمَ قَوْمِي أن حِرْفَتِي لم تكن تَعْجِزُ عن مَئُونة أهْلِي، وشُغِلتُ بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه.

رواه البخاري في البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده (٢٠٧/٥، ٢٠٨)

قوله: حرفتي ـ بكسر الحاء ـ والحرفة جهة الاكتساب والتصرّف في المعاش، وقوله: وشغلت، مبني للمجهول معناه القيام بالخلافة شغلني عن الاحتراف، وقوله: ويحترف للمسلمين إلخ، معناه نظره في أمورهم والسعي في مصالحهم ونظم أحوالهم.

وفي هذا الأثر دليل على أن الخليفة ومن ينوب عنه ممن يقوم بمصالح المسلمين يكون عيشه من مال بيت المسلمين يأخذ منه بقدر حاجته، وهذا إجماع من الصحابة فمن بعدهم لا خلاف فيه بين العلماء. قال البغوي في شرح السنة (٨٦/١٠): يجوز للولي أن يأخذ من بيت المال قدر كفايته من النفقة والكسوة لنفسه، ولمن يلزمه نفقته ويتخذ لنفسه منه مسكناً وخادماً. وقال أبو علي الكرابيسي: لا بأس للقاضي أن يأخذ الرزق على القضاء عند أهل العلم قاطبة من الصحابة ومن بعدهم، وهو قول فقهاء الأمصار لا أعلم بينهم اختلافاً نقله الحافظ في الفتح (٢٧١/١٦)، ولا مفهوم لما ذكره من القاضي؛ فغيره ممن يقوم بالمصالح العامّة مثله.

{٦٨} ـ وعن عبدالله بن السعدي رحمه الله تعالى أنه قدم على عمر في خلافته، فقال له عمر: أَلَمْ أُحَدَّثْ أَنَّك تَلِي مِن أَعْمَالِ النَاسِ أَعْمالاً، فإذا أُعْطِيَت العُمَالة كَرِهْتَها؟ فقلت: بلى، فقال عُمر: ما تُرِيدُ إلى ذلك؟ فقلت: إن لي أفْراساً، وأَعْبُداً، وأنا بِخَيْر، وأُرِيد أن تكون عُمَالتي صدقةً على المسلمين، قال عمر: لا تفعل، فإني كنت أردتُ الذي أردتَ فكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُعطِيني العطاء، فأقول: اعْطِهِ أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: اعطِه أفقر إليه مني، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خُذْهُ فتَمَوَّله وتصدَّقْ به، فما جاءكَ مِن هذا المالِ وأَنْتَ غيرُ مُشرِفٍ ولا سائلٍ فخُذْه، وإلاَّ فلا تُتْبِعْه نَفْسَك**».

وفي رواية: قال استعملني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على الصدقة، فلما فرغت منها وأدّيتها إليه أمر لي بعُمالة، فقلت: إني عملت لله

تعالى وأَجْري على الله، فقال: خُذْ ما أُعْطِيتَ فإني عملت على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فعمَّلَني فقلت مثل قولك، فقال لي: **«إذا أُعطِيتَ شيئاً من غير أن تسأل فكُلْ وتَصَدَّقْ»**.

رواه البخاري في الزكاة (٨٠/٤) وفي الأحكام (٢٧٢/١٦، ٢٧٣)، ومسلم في الزكاة (١٣٤/٧، ١٣٧).

قوله: العمالة ـ بضم العين ـ هي اسم أجرة العامل، وقوله: فعمَّلني أي: جعلني عاملاً.

وفي الحديث مشروعية أخذ الأجرة على أعمال المسلمين سواء كانت إمارة أو قضاء أو حسبة أو جباية... وسواء كان العمل دينياً أم دنيوياً، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه إلا ما كان من الأذان أو إمامة الصلاة... ففي ذلك خلاف معروف.

{٦٩} ـ وعن المستورد بن شداد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَنْ كان لنا عاملاً فليكتَسِبْ زوجةً، فإن لم يكن له خادمٌ فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مَسْكَنٌ فليكتسب مسكناً»**.

رواه أبو داود (٢٩٤٥) بسند صحيح.

وفي الحديث جواز اتخاذ ما ذكر بالنسبة للعامل مع ما يكفيه لنفقته ونفقة أهله.

وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «وما جاءك من هذا المال... فخذه»، اختلف الأئمّة والعلماء في قبول عطايا الولاة وغيرهم ممن يشتبه في أموالهم.

قال الحافظ في الفتح (٨٠/٤) من كتاب الزكاة: التحقيق في المسألة أن من عُلِم كونَ ماله حلالاً فلا تُرَدُّ عطِيَتُه، ومن عُلِم كونَ ماله حراماً فتَحْرُمُ عطيتُه، ومن شُكَّ فيه فالاحتياط ردُّه وهو الوَرَعُ، ومن أباحه أخذ بالأصل.

قال ابن المنذر: واحتجّ من رخص فيه بأن الله تعالى قال في اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وقد رهن الشارع درعه عند يهودي مع علمه بذلك، وكذلك أخذ الجزية منهم مع العلم بأن أكثر أموالهم من ثمن الخمر، والخنزير، والمعاملات الفاسدة.

* * *

هدايا العمال والموظفين

{٧٠} ـ عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم استعمل ابن الأَتَبِيَّةِ على صدقات بني سليم، فلما جاء إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحاسبه، قال: هذا الذي لكم وهذه هدية أُهديت لي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك وبيتِ أُمّك حتى تأتيك هَدِيَّتُك إن كنت صادقاً»**، ثم قام رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أما بعد، فإني أَستَعْمِلُ رجالاً منكم على أمورٍ مِمّا ولاّني الله فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكُمْ، وهَذِهِ هديَّةٌ أُهدِيَتْ لي، فَهلاَّ جلس في بَيْتِ أبيهِ وبَيتِ أُمِّهِ حتَّى تَأْتِيَه هَدِيَّتُهُ إنْ كانَ صادِقاً، فوالله لا يأْخُذ أحدُكم منها شيئاً بغيرِ حَقِّهِ إلاَّ جاءَ الله يَحْمِلُه يوم القيامة، ألا فلا أعْرِفَنَّ ما جاء الله رجلٌ بِبَعيرٍ له رُغَاءٌ، أَوْ بقرة لها خُوَارٌ، أو شاة تَيعَرُ»**، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه: **«ألاَ هَلْ بَلَّغْتُ»**.

رواه البخاري في الأحكام (١٦/٢٨٧، ٣١٤)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٨، ٢١٩).

قوله: الأَتَبِيَّة هكذا في رواية البخاري بالألف واللام والتاء المفتوحة ثم باء مكسورة، وعند مسلم وغيره باللام المضمومة وسكون التاء وباء مكسورة ثم ياء مفتوحة مشدّدة هكذا اللُّتْبِيَّة، قال عياض: وهو الصحيح، وبه قال النووي. وقوله: بعير له رغاء ـ بضم الراء وتخفيف الغين مع مدّها ـ هو

صوت البعير، وقوله: تيعر ـ بفتح التاء وسكون الياء ثم عين مفتوحة وتكسر ـ ويقال: يعار ـ بفتحتين ـ وهو صوت الشاة الشديد. والحديث يدلّ على أنّ العامل مع الدولة لا يجوز له أخذ ما يهدى إليه، وأن ذلك يعدّ غلولاً يأتي به على ظهره يوم القيامة.

قال النووي رحمه الله تعالى: في الحديث بيان أن هدايا العمّال حرام وغلول، لأنه خان في ولايته وأمانته، ولهذا ذكر في الحديث في عقوبته وحمله ما أهدي إليه يوم القيامة، كما ذكر مثله في الغال، وقد بيّن صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في نفس الحديث السبب في تحريم الهديّة عليه، وأنها بسبب الولاية بخلاف الهدية لغير العامل الخ.

{٧١} ـ وعن بُريْدة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقاً فَمَا أَخَذَ بَعْد ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**».

رواه أبو داود (٢٩٤٣) بسند صحيح.

الغلول ـ بضم الغين ـ أصله السرقة من الغنيمة قبل أن تقسم، وأطلق هنا على السرقة من مال بيت المسلمين، فأفاد الحديث الشريف أن من كان عاملاً مع الخليفة وكان له مرتب يعيش به ويكفيه فما أخذه بعد ذلك اعتبر سرقة وخيانة، وما أكثر هذا الصنف من الناس في كل العصور.

* * *

تحريم الرشوة ولعن أصحابها

{٧٢} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: لعن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**الرَّاشِي والمُرْتَشِي**»، وفي رواية: «**لعنةُ الله على الرَّاشي والمُرْتَشي**»

رواه أحمد (٢/١٦٤)، وأبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٢١١)، وابن ماجه (٢٣١٣)، والحاكم (٤/١٠٣) وغيرهم بسند صحيح، ومثله عن أبي

هريرة عند أحمد (٢/٣٨٧، ٣٨٨)، والترمذي (١٢١٠)، وابن حبان (١١٩٦) وسنده حسن، وفي الباب عن أُمّ سلمة عند الطبراني، قال في المجمع: ورجاله ثقات، وعن ثوبان عند أحمد (٥/٢٧٩).

الراشي هو الذي يدفع الرشوة، والمرتشي الذي يأخذها، وفي رواية ثوبان زيادة: والرائش وهو المتوسط الماشي بينهما.

والحديث يدلّ على تحريم الرشوة، وأنَّ صاحبها ملعون بلعنة الله تعالى، وسواء في ذلك الآخذ والمعطي والسمسار غير أن الرشوة المحرمة هي التي يتوصل بها إلى باطل وأخذ جقوق الآخرين وغصب أموالهم، قال البغوي رحمه الله تعالى: الرشوة ما يعطى لإبطال حق، أو لإحقاق باطل، فيعطي الراشي لينال باطلاً، أو ليمنع حقّاً يلزمه، ويأخذ الآخذ على أداء حق يلزمه فلا يؤدّيه إلاّ برشوة يأخذها، أو على باطل يجب عليه تركه، ولا يتركه إلا بها، فأما إذا أعطى المعطي ليتوصل به إلى حق أو يدفع عن نفسه ظلماً فلا بأس. يروى عن ابن مسعود أنه أُخِذَ فأعطى دينارين حتى خُلِّيَ سبيلُه، وروي عن الحسن والشعبي وجابر بن زيد وعطاء أنهم قالوا: لا بأس أن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم، قال البغوي: وكذلك الآخذ إذا أخذ ليسعى في إعانة صاحب الحق فلا بأس، (١٠/٨٨) من شرح السنة. وفي الرشوة جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، فقوله: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ نصّ فيها.

* * *

السلطة القضائية وتوابعها

إن ولاية القضاء ولاية خطيرة للغاية، إذ صاحبها معرّض للهلاك إن لم يراع آدابها ولوازمها الشرعيّة.

ولم يختلف العلماء رحمهم الله تعالى في فرضيّتها، وأنه لا بدّ للمسلمين من نصب القاضي للفصل بين الناس في خصوماتهم حسماً

للخلاف، وقطعاً للنزاع، حسب الأحكام التي شرعها الله تعالى، فهو واجب إسلامي من فروض الكفاية بالإجماع؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وقوله جلّ علاه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله جلّ ثناؤه ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

وكان القضاء أيام النبوة مفوّضاً إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم باعتباره رسولاً من عند الله جاء بالميزان والقسط كباقي الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

وكان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو الإمام الأعظم للمسلمين والداعية والمرشد والمعلم العام، وإمام المسلمين في الصلوات، والقاضي بينهم في منازعاتهم... فكان جامعاً بين التشريع والتبليغ والخلافة العظمى والقضاء والتنفيذ...

ولما فتحت مكة المكرمة أمّر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على أهلها عَتّاب بن أسِيد، فكان مرشداً وإماماً وقاضياً، وفي السنة التاسعة بعث صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الإمام عليّاً وخالد بن الوليد وأبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهم إليها دعاة وقضاة...

ثم سار الخلفاء الراشدون رضي الله تعالى عنهم على هديه ومنهاجه... ومن مشاهير قضاتهم عُمَر وعليٌّ وأُبيُّ بن كعب وابن مسعود وعبدالله بن قيس وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم، كما ذكره عبدالرزاق في مصنفه (٣٢٨/١١). ثم تطور القضاء في عهد الأمويّين والعباسيين وهلم جرّا، وأصبح له ناس خاصون غير الخليفة... ثم إن القضاء ولاية مستمدة من الخليفة كالوزارة والحسبة وغيرهما من الولايات، فلا يصلح أن يكون قاضياً إلا من توفّرت فيه شروط الأهليّة لذلك وهي الإسلام، فلا ولاية لكافر، والبلوغ فلا يصح القضاء من طفل، والعدالة فالقاضي لا يكون فاسقاً، والحرية فالعبد لا يقضي بين الناس، والذكورة فلا يصح أن تكون

المرأة قاضياً باتّفاق الصحابة والأئمّة، إلا أن أبا حنيفة أجاز قضاءها فيما تصح فيه شهادتها وهو شذوذ ردّه العلماء؛ لأن المرأة عورة والقاضي يحتاج إلى البروز للرجال... ثم لا بدّ أن يكون عالماً بالشريعة من الكتاب والسنّة والإجماع ومذاهب العلماء... مع فقاهة نفس وفطنة...

وقرّر فقهاء الإسلام وأصحاب المذاهب أن للقاضي الإسلامي سلطة مطلقة في أُمور، أولاً: فصل الخصومات إما صلحاً عن تراضٍ من الطرفين، وإما حكماً باتّاً. ثانياً: استيفاء الحقوق ممن مطل بها وإيصالها إلى مستحقّيها. ثالثاً: ولايته على عديم الأهليّة كالأطفال والمجانين ومن لا يحسن التصرّف... رابعاً: تنفيذ الوصايا... خامساً: إقامة الحدود والقصاص... سادساً: تصفح شهوده وأمنائه... سابعاً: التسوية في الحكم بين القوي والضعيف والشريف والوضيع والعدالة في ذلك.

* * *

خطر ولاية القضاء

{٧٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ وَلِيَ القضاء فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيرِ سِكِّينٍ»**، وفي رواية: **«مَنْ جُعِلَ قاضِياً»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٠، ٣٦٥)، وأبو داود (٣٥٧١، ٣٥٧٢)، والترمذي (١٢٠١)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٦٢)، وابن ماجه (٢٣٠٨)، والحاكم (٤/٩١) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه العراقي وهو كذلك.

قوله: «فقد ذبح بغير سكين» عبّر بهذا عن خطر القضاء، فالذبح بالسكين راحة للذبيحة بخلاف الذبح بنحو منشار أو آلة غير حادّة، فإن فيه ألماً شديداً بامتداد مدة الذبح به، وهكذا القضاء ففيه عذاب شديد وآلام في الدنيا والآخرة وهلاكه محقق، وخسارته في الآخرة لا شكّ فيها إن جار ولم يعدل. وهذا الذبح والهلاك إن كان يحكم بالشريعة الإسلامية وجار وظلم

فما بالك إن كان يحكم بالقوانين التي وضعتها أيدي شرار البشرية، فالويل ثم الويل لقضاة الجور فهم في الدنيا على شفير جهنم عياذاً بالله تعالى.

❋ ❋ ❋

القضاة ثلاثة

{٧٤} ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**القُضاةُ ثلاثَةٌ: واحِدٌ في الجَنَّةِ، واثْنان في النار. فأمّا الذي في الجَنَّةِ، فرجُلٌ عَرَفَ الحقَّ فَقَضَى بِهِ، ورجلٌ عَرَفَ الحقَّ فجار في الحُكْم فَهُوَ فِي النّارِ، ورجلٌ قَضَى للنَّاسِ على جَهْلٍ فَهُوَ في النّار**».

رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢) تحقيق أحمد شاكر، وابن ماجه (٢٣/٥)، والحاكم (٩٠/٤)، والبيهقي (١١٦/١٠) وغيرهم وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «القضاة ثلاثة» القضية ثنائية، فهي إما الجنة وإما النار، فمن عرف الحق وليس إلا ما شرعه الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحكم به بلا محاباة ولا رياء ولا ظلم كان من سكان الجنة ونعيمها... وكان الله معه بالتأييد والنصر والتوفيق، ففي حديث ابن أبي أوْفى مرفوعاً: «**الله مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جارَ تخلّى الله عنه ولزمه الشيطان**»، رواه الترمذي (١٢٠٥)، وابن ماجه (٢٣١٢)، وابن حبان (١٥٤٠)، والحاكم (٩٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي. ومن عرف الحق وظلم أو قضى عن جهل كالحكم بالقوانين كان من أهل سقر، والحديث الشريف يدلّ على خطورة ولاية القضاء؛ لأن القاضي معرّض لدخول النار بين الآونة والآونة... لأن العدالة والحكم بالحق عزيزان، فلا يغترّ الإنسان وتخدعه نفسه كما خدعت الملايين من القضاة عبر العصور حتى أكابر العلماء فخسروا دنياهم وأخراهم، وندموا حيث لم ينفعهم ندم.

❋ ❋ ❋

الاجتهاد من صفات القاضي

{٧٥} ـ عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَد فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**».

رواه أحمد (١٩٨/٤)، والبخاري في الاعتصام (٨٢/١٧)، ومسلم في القضاء (١٣/١٢)، وأبو داود (٣٥٧٤)، وابن ماجه (٢٣١٤)، ومثله عند الشيخين والأربعة عن أبي هريرة، وانظر تهذيبي للترمذي (١٢٠٢).

قوله: «فاجتهد» الاجتهاد بذل الجهد في الطلب، وفي اصطلاح الأصوليين: بذل الوسع في استخراج الحكم بواسطة الأدلّة الشرعيّة.

والحديث يدلّ على أمور ثلاثة:

أولها: يشترط في الحاكم أن يكون مجتهداً وهو العالم الذي يصح منه الاجتهاد بأن يكون جامعاً لآلاته عالماً بالعربية واللغة والفقه والخلاف العالي وآيات الأحكام وأحاديثها وأصول الفقه وعلوم الحديث وسطاً في كل ذلك.

ثانيها: أن المجتهد قد يصيب في الحكم ويخطىء، فإذا أصاب كان له أجران: أجر على اجتهاده وأجر على صوابه، وإذا أخطأ ولم يصادف الصواب كان له أجر واحد على اجتهاده، وكان خطؤه مغفوراً له فلا يُلام عليه ولا يؤخذ به.

ثالثها: يفيد أن المصيب في الاجتهاد واحد وهو من صادف الحقّ، أما من قال بأن كل مجتهد مصيب ولو أخطأ، فغلط لأن ذلك يكون جمعاً بين الضدّين، فلو كان كما قالوا لم يسمّ أحدهم مخطئاً.

* * *

كيف يقضي القاضي

{٧٦} ـ عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم بعثه إلى اليمن، فقال: **«كَيْفَ تَقْضِي؟»** فقال: أقضي بما في كتاب الله تعالى، قال: **«فإنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ الله تعالى؟»** قال: فبسنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: **«إن لم يكن في سنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم»؟** قال: أجتهد رأيي، قال: **«الحمدُ لله الذي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله** ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ **لما يُرْضِي رسولَ الله»**.

رواه أحمد (٢٣٦/٥، ٢٤٢)، وأبو داود (٣٥٩٢، ٣٥٩٣)، والترمذي (١٢٠٣)، والدارمي (١٧٠) وغيرهم، والحديث وإن كان سنده ضعيفاً وضعفه لذلك جماعة من الحفاظ، فمعناه صحيح وقد صححه سنداً ومتناً ابن القيم في إعلام الموقعين، وكذا مال إلى تصحيحيه ابن العربي في شرح الترمذي وقبله الخطيب البغدادي وصححه شيخ شيوخنا الشيخ زاهد الكوثري في مقالاته، وعلى أي: فقد تلقّاه العلماء بالقبول واعتمدوه ويؤيّده شواهد موقوفة عن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم ولنقتصر على أثر ابن مسعود من ذلك، وهو:

{٧٧} ـ وعن عبدالرحمٰن بن يزيد رحمه الله تعالى قال: أكثروا على عبدالله ذات يوم، فقال عبدالله: إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي، ولسنا هنالك، ثم إن الله عزّ وجلّ قدر علينا أن بلغنا ما ترون، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله تعالى، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقول: إني أخاف، وإني أخاف، فإن الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات، فدع ما يُريبك إلى ما لا يُرِيبُك.

رواه النسائي في الأقضية (٢٠٣/٨) من طريقين أحدهما سنده صحيح، ورواه الحاكم (٩٤/٤) مختصراً وصححه ووافقه الذهبي.

فهذا الأثر يؤكّد حديث معاذ ويقوّيه لا سيما والعمل عليه عند سائر

العلماء، وإذا ثبت ذلك فالحديث يفيد أن واجب القاضي إذا نزلت به نازلة أن ينظر حكمها في كتاب الله تعالى، فإن لم يوجد حكمها فيه نظر في سنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإن لم يوجد فيها انتقل إلى الاجتهاد، ومن الاجتهاد أن ينظر فيما قاله أهل العلم قبله، فإن كانت قضية مجمعاً على حكمها عمل بذلك، ولا يجوز له تعدّي المجمع عليه وله أن يأخذ بأقوال بعض أهل العلم، وله أن يستعمل القياس وغيره من أنواع الأدلّة كالمصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب ونحو ذلك، ولا يستعمل رأيه المجرّد ويأتي قريباً مزيد لهذا.

❋ ❋ ❋

القضاء بين الناس بالحكمة

قال البخاري في الاعتصام من صحيحه باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ومدح النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلمها، ولا يكلف من قبله، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم.

{٧٨} ـ ثم أخرج عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**».

رواه أحمد (٣٨٢/١، ٤٣٢)، والبخاري في الأحكام (٢٣٨/١٦)، وفي الاعتصام (٦٢/١٧)، ومسلم في فضائل القرآن (٩٧/٦، ٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤٢٦/٣)، وابن ماجه.

قوله: «لا حسد»، قال العلماء رحمهم الله تعالى: الحسد قسمان: حقيقي ومجازي، فالحقيقي... إضمار الحقد على المنعم عليه وتمني زوال

النعمة عنه، وهذا محرم إجماعاً أشد التحريم، وهي من أول المعاصي التي عصى الله تعالى بها الشيطانُ. وأما الحسد المجازي، فهو المسمى بالغبطة وهو أن يتمنى الإنسان مثل ما نال الآخرون من نعم من غير أن يتمنى زوالها عنهم ولا أن يُضمر لهم ضغناً ولا بغضاً، وهذه جائزة مرغّب فيها في أنواع الطاعات، ومباحة في أمور الدنيا، وهذه هي المرادة في الحديث هنا حيث مثل بمن أعطي مالاً فأنفقه في الحقّ، ومن أُوتي الحكمة فجعل يقضي بها ويعلّمها الناس. فهذان الصنفان ممن يغبطان ويتمنى المؤمن أن يكون مثلهما ويتنافس فيما أعطياه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وقوله: «ورجل آتاه الله حكمة»، الحكمة هنا هي معرفة القرآن والسنة... وقد قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وقد امتنّ الله عزّ وجلّ بها على نبيّه الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وفي الحديث الترغيب في تعلّم الحكمة والقضاء بها وتعليمها للآخرين، علماً بأن القضاء بها وتعليمها من فروض الإسلام، ولذلك ترجم البخاري هنا بقوله: باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله ثم ذكر آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾... وذكر في الأحكام باب من قضى بالحكمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فوصف تعالى من لم يحكم بالحكمة بالظلم والفسق، وفي آية أخرى بالكفر، والآيات وإن كانت نزلت في أهل الكتاب، فهي عامّة تشملنا لأن العبرة بالعموم لا بخصوص السبب، ونقل الحافظ عن إسماعيل القاضي في أحكام القرآن، قال: ظاهر الآيات يدلّ على أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حكماً يخالف به حكم الله وجعله ديناً يعمل به فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور (ج ٢٣٨/١٦).

وقال البخاري في الأحكام (٢٦٧/١٦، ٢٦٨) باب متى يستوجب الرجل القضاء، وقال الحسن: أخذ الله على الحكّام أن لا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، ثم قرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ

جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾، وقـــرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقـــرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال: فحمد سليمان ولم يلُمْ داود ولولا ما ذكر الله تعالى من أمر هذين لرأيت أن القُضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده، وكل ما ذكره البخاري من الآيات نقلاً عن الحسن البصري رحمهما الله تعالى يدلّ على وجوب الحكم والفصل بالحكمة والحقّ، فإن الله عزّ وجلّ أمر داود بالحكم بالحقّ ونهاه عن اتّباع الهوى؛ لأن ذلك يضلّ عن سبيل الله، ومن ضلّ عن سبيله كان له عذاب شديد... كما أخبر سبحانه عن الأنبياء والربانيّين والأحبار الذين كانوا يحكمون بالتوراة ونهاهم أن لا يخشوا غيره في تنفيذ أحكامه، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً بأن يأخذوا الرشا في مقابلة الحكم بالباطل، وهكذا الحال في قصة النبيّين الكريمين داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام، فكلاهما اجتهد في الحكم بما بلغا إليه، وكان الحق في جانب سليمان، فأثنى الله تعالى عليه وحمده ولم يلم داود الذي اجتهد ولم يصادف الصواب، والمقصود أن القاضي لا يجوز له القضاء إلا بالحكمة والحق من الكتاب والسنّة وإجماع العلماء... قال ابن حزم رحمه الله تعالى في المحلى (٣٦٢/٩): ولا يحل الحكم إلا بما أنزل الله تعالى على لسان رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو الحقّ، وكل ما عدا ذلك فهو جور وظلم لا يحل الحكم به ويفسخ أبداً إذا حكم به حاكم، برهان ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، وقال

تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، والظلم لا يحل إقراره، والخطأ لا يجوز إمضاؤه.

وقال ابن بطال رحمه الله تعالى: لا يجوز للقاضي الحكم إلا بعد طلب حكم الحادثة من الكتاب أو السنّة، فإن عدمه رجع إلى الإجماع، فإن لم يجده نظر هل يصح الحمل على بعض الأحكام المقرّرة لعلة تجمع بينهما، فإن وجد ذلك لزمه القياس عليها إلخ.

وقال الإمام أبو علي الكرابيسي صاحب الشافعي رحمهما الله تعالى، كما نقله الحافظ: لا أعلم بين العلماء ممن سلف خلافاً أن أحق الناس أن يقضي بين المسلمين من بان فضله وصدقه وعلمه وورعه قارئاً لكتاب الله عالماً بأكثر أحكامه عالماً بسنن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حافظاً لأكثرها، وكذا أقوال الصحابة، عالماً بالوفاق والخلاف وأقوال فقهاء التابعين يعرف الصحيح من السقيم يتبع في النوازل الكتاب، فإن لم يجد فالسنن، فإن لم يجد عمل بما اتفق عليه الصحابة، فإن اختلفوا فما وجده أشبه بالقرآن ثم بالسنّة ثم بفتوى أكابر الصحابة عمل به ويكون كثير المذاكرة مع أهل العلم والمشاورة لهم. ا.هـ. من الفتح (٢٦٦/١٦) كتاب الأحكام.

* * *

مشروعية مشاورة القاضي لأهل العلم

{٧٩} ـ قال البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الاعتصام (١٠٢/١٧) باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وأن المشاورة قبل العزم والتبيّن، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فإذا عزم الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله وشاور النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه يوم أُحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لامته وعزم قالوا: أقم فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «**لا ينبغي لنبيّ يلبس لامته فيضعها حتى يحكم الله**» قلت: ويأتي تخريجه

والكلام عليه في السيرة النبوية، وشاور علياً وأُسامة فيما رمى أهل الإفك عائشة فسمع منهما حتى نزل القرآن فجلد الرامين ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله تعالى، وكانت الأئمّة بعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يستشيرون الأُمناء من أهل العلم في الأُمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنّة لم يتعدّوه إلى غيره اقتداءً بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلاّ الله...»**[1]، فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين ما جمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم تابعه بعد عمر فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من بدّل دينه فاقتلوه»**[2]، وكان القراء أصحاب مشورة عمر، كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

ما ذكره البخاري في هذا الفصل كله يدلّ على مشروعية المشورة، وخاصة من القاضي، ويكون ذلك في غير ما اتّضح حكمه من الكتاب والسنّة والإجماع، فيشاور أهل العلم وذوي الرأي، ثم يختار ما أدّاه إليه اجتهاده ورآه أقرب إلى الحق، وستأتي أحاديث في المشورة في غضون الكتاب إن شاء الله، وخاصة في الجهاد وفي السيرة النبوية.

* * *

لا يقضي القاضي حتى يسمع كلام الخصمين

{٨٠} ـ عن عليّ عليه السلام قال: بعثني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله، تُرْسِلُني وأنا حَديث

(١) حديث متواتر تقدم في التفسير وغيره.

(٢) يأتي في الحدود.

السِّنّ، ولا عِلْمَ لي بالقضاء، فقال: «**إنَّ الله سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيُثَبِّتُ لسانك، فإذا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الخصْمان فلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخر، كما سمعتَ منَ الأوَّل، فإنَّه أحْرى أنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ القَضَاءُ**»، قال: فما زلتُ قاضياً، أو ما شككت في قضاء بعدُ... وفي رواية: «**فَسَوْفَ تَدْرِي كَيْفَ تَقْضِي**».

رواه أبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٢٠٦)، وابن ماجه (٢٣١٠)، وابن حبان (١٥٣٩) وهو حديث حسن لطريقين له وشاهد عن ابن عباس عند الحاكم (٨٨/٤) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

في الحديث أدب من آداب القاضي وهو الاستماع لكلام الخصمين معاً قبل إصدار الحكم، وفي الحديث مع ذلك فضل للإمام عليّ بهداية قلبه وتثبيت لسانه.

❋ ❋ ❋

لا يقضي القاضي وهو غضبان

{٨٩} ـ عن أبي بَكْرَةَ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**»، وفي رواية: «**لاَ يَحْكُمُ أَحَدٌ...**»، وفي رواية: «**لاَ يَحْكُمُ الحَاكِمُ**».

رواه البخاري في الأحكام (٢٥٦/١٦)، ومسلم في الأقضية (١٥/١٢)، وأبو داود (٣٥٨٩)، والترمذي (١٢٠٨)، والنسائي (٢٠٩/٨)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٦).

قوله: حكم ـ بفتحتين ـ هو الحاكم.

وفي الحديث من واجب القاضي أن لا يحكم في نازلة حالة غضبه لأنه لا يَأْمَنُ على نفسه من الجور عن عمد، أو مخالفة الصواب خطأً وغلطاً، وألْحَق العلماء بالغضب كلَّ ما يُغيّر طبيعة القاضي من جوع أو عطش أو نوم أو همّ أو فرح أو مُدافعة الأخبثين. فإن قضى حالة ذلك صحّ قضاؤه إن صادف الصواب؛ لأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى للزبير مع الأنصاري في شِراج الحرّة وهو غضبان، كما في الصحيحين، وقد

تقدم في التفسير في نزول قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ إلخ.

* * *

حكم القاضي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً

{٨٢} ـ عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَإِنْ قَضَيْتُ لأَحَدٍ مِنْكُم بِشَيْءٍ من حَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ مِنَ النارِ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً**»، وفي رواية: «**فلعلَّ بعضَكُم أن يكونَ أبلَغَ مِن بعض، فأحسِبُ أنه صادِقٌ**».

رواه البخاري في الأحكام (٢٩٦/١٦)، ومسلم في الأقضية (٥/١٢) وباقي الجماعة.

قوله: ألحَن هو معنى أبلغ، وأقدر عليها وأقوم بها منه.

وفي الحديث فوائد، منها: أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بَشَرٌ كسائر البشر تجري عليه الأعراض البشرية، فقد لا يَعلم كذبَ الخصمين إذا لم يُطْلِعْه الله تعالى على ذلك، وفيه أن العبرة بالحكم بالظاهر حسب ما ينبني عليه الحكم من البيّنة... وكلام الخصمين. وفيه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان مأموراً بالحكم المبني على الحجج لتقتدي به أُمّته في ذلك وتطيب نفوسهم للانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر للبواطن. وفي قوله: «فإن قضيت لأحد... فإنما أقطع له من النار» دليل على أن حكم الحاكم لا يحلّ حراماً، ولا يحرم حلالاً، وإنما العبْرَة عند الله بالواقع، فإذا حكم الحاكم اعتماداً على بيّنة جائرة كان الحكم باطلاً عند الله تعالى، وإن وقع تنفيذه، وكان الذي يأخذه المحكوم له قطعة من النار، وبهذا قال كل الأئمّة إلا أبا حنيفة فخالف.

* * *

الدعاوى والبينات
البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر

{٨٣} ـ عن وائِل بن حُجْرٍ رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل من حَضْرَمَوْتَ، ورجل من كِنْدَة إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا غلبني على أَرْضٍ لي، فقال الكندي: هي أرضي وفي يدي ليس له فيها حقٌّ، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للحضرمي: «**أَلَك بيّنة**»؟ قال: لا، قال: «**فلك يَمينُه**»، قال: يا رسول الله إنَّ الرَّجُلَ فاجِرٌ لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورّع من شيء، قال: «**ليس لك إلا ذاك**»، قال: فانطلق الرجل ليحلفَ له، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لمَّا أَدْبَر: «**لَئِنْ حلف على ما له ليأْكُلَه ظُلْماً ليلقيَنّ الله وهو عنه مُعْرِضٌ**».

رواه مسلم في الإيمان (١٥٩/٢)، وأبو داود (٣٦٢٣)، والترمذي (١٢١٤) وغيرهم.

{٨٤} ـ وعن ابن أبي مُلَيْكَة رحمه الله تعالى قال: إن امرأتين كانتا تَخْرُزَانِ في بيت وفي الحجرة[١]، فخرجت إحداهما وقد أُنْفِذَ بأَشْفَى في كفها، فادّعت على أخرى، فرفع إلى ابن عباس، فقال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَوْ يُعْطَى الناسُ بِدَعْوَاهُمْ لَذَهَبَ دِماءُ قوم وَأَمْوَالُهم**»، ذكّروها بالله واقْرَؤوا عليها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، فذكّروها فاعترفتْ، فقال ابن عباس: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اليَمِينُ على المُدَّعَى عَلَيْهِ**».

وفي رواية: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعَاوِيهِمْ لادَّعَى قَوْمٌ دِماءَ رِجالٍ وَأَمْوَالَهِمْ ولكنَّ اليَمِينَ على المُدَّعَى عليه**».

رواه البخاري في التفسير (٢٨٠/٩، ٢٨١) باللفظ الأول، ومسلم في الأقضية (٣/٢/١٢) باللفظ الثاني، وأبو داود (٣٦١٩)، والترمذي (١٢١٦)

(١) جاء في رواية زيادة: حُدَّاثاً، أي في الحجرة ناس يتحدثون.

وغيرهم، وفي رواية عند البيهقي (٢٥٢/١٠): ولكن البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر، قال النووي: بإسناد حسن أو صحيح، ولهذه الرواية شاهد عن ابن عَمْرو رواه الدارقطني (١١٨/٤) بسند حسن، ورواه الترمذي (١٢١٥)، وفي سنده العرزمي وهو ضعيف، وآخر عن أبي هريرة بلفظه رواه الدارقطني (٢١٨/٤)، فالمتن صحيح.

{٨٥} ـ وعن الأشعث بن قيس رضي الله تعالى عنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾... فيّ نزلت، كانت لي بئرٌ في أرض ابنِ عَمٌ لي، فأتيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**بَيِّنَتُك أو يَمِينُه**»، قلت: إذاً يَحْلِفَ عَلَيْهَا يا رسول الله. الحديث تقدم في التفسير.

رواه البخاري في التفسير (٢٨٠/٩، ٢٨١) وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (١٥٨/٢).

في هذه الأحاديث قاعدة كبيرة من قواعد الحكم والقضاء وكلية من كلّياته، وهي مطالبة المُدَّعِي بالبيّنة على ما ادّعاه ليرفع بها أصل البراءة عن المُدَّعَى عليه؛ لأن الأصل فيه براءة ذمّته من حقوق الآخرين، فإذا أدْلَى المدَّعِي بالبيّنة وجب على المدعى عليه أداء ما وُجِّه إليه وادُّعِيَ عليه، فإن لم توجد البيّنة طولب المدعى عليه وهو المنكر باليمين ليبرىء ذمّته، وبذلك تنحلّ مشكلة الخصام والنزاع من ساعتها. والحكمة في كون المدَّعِي لا يُعْطَى ما ادّعاه بمجرد مقاله، لأنه لو كان يُعْطَى بمجرد دعواه لادّعى قومٌ دماءَ قوم وأموالَهم واسْتُبِيحَ ما ليس لهم، لا سيما والأصل في ذمام الناس البراءةُ من حقوقِ الآخرين، فكان من الحكمة أن يطالب المدَّعِي بما يُثْبِتُ دعواه، وهذه الأحاديث تدلّ على أن اليمين تتوجّه على كل من ادُّعِي عليه حقٌّ فأنكر، وبذلك قال العلماء غير أن مالكاً رحمه الله تعالى اشترط لذلك الخلطة بين المدَّعِي والمدَّعَى عليه لئلاَّ يتسلَّط السُّفهاء على أهل الفضل بتحليفِهم، ثم إن البيّنة ما يتبين ويتّضح به الأمر وتشمل شهادة رجلين عدلين مرضيين، أو رجلاً وامرأتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ

وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، وهذه الشهادة في غير القذف ونحوه مما يتوقف على أربعة شهود وتشمل البينة شاهداً أو يمين المدعي، كما تشمل علم الحاكم وغير ذلك.

❋ ❋ ❋

القضاء بشاهد ويمين

{٨٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**قضى بيمينٍ وشاهِد**».

رواه مسلم في الأقضية رقم (١٧١٢) باب القضاء باليمين والشاهد.

القضاء بشاهدين عدلين أو عدل وامرأتين لا خلاف فيه، وأمّا إذا لم يوجد عند المدَّعِي إلا شاهد واحد فعليه أن يحلف معه ويستحقّ حقه من المدَّعَى عليه، كما هو نصّ الحديث، وبهذا قال الأئمّة مالك والشافعي وأحمد وفقهاء المدينة وسائر علماء الحجاز. قال النووي: ومعظم علماء الأمصار، والأحاديث بذلك كثيرة صحاح وحسان... قد أوصلها بعضهم إلى عشرين حديثاً ما ذكرناه أصحها، ومنها الآتي.

{٨٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**باليَمِين مَعَ الشَّاهِد**».

رواه أبو داود (٣٦١٠)، والترمذي (١٢١٧)، وابن ماجه (٢٣٦٨) وغيرهم بسند صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

{٨٨} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**قَضَى باليَمِينِ مَعَ الشَّاهِدِ**».

رواه الترمذي (١٢١٨)، وابن ماجه (٢٣٦٩) بسند صحيح على شرط مسلم عند ابن ماجه، ومع ثبوت هذا الحكم عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يقل به إخواننا الأحناف.

❋ ❋ ❋

تعارض البينتين

{٨٩} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أنَّ رَجُلَيْنِ تَعَارَضا ادَّعَيَا بَعِيراً على عَهْدِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبعث كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا شَاهِدَيْنِ، فَقَسَمَهُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بَيْنَهُمَا نِصْفَيْنِ.

وفي رواية: أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في دابَّةٍ لَيْسِ لِوَاحِدٍ مِنْهُما بَيِّنَةٌ، فَقَضَى بِهَا بَيْنَهُمَا.

رواه أبو داود (٣٦١٣، ٣٦١٤، ٣٦١٥) بالروايتين، والنسائي بالرواية الثانية (٢١٧/٨) في الأقضية ورجالهما ثقات، غير أن سند النسائي فيه انقطاع، والحديث فيه اختلاف كثير، وقد حسّنه بعضهم.

{٩٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا فِي مَتَاعٍ إِلَى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُما بَيِّنَةٌ، فقال النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اسْتَهِمَا عَلَى اليَمِينِ مَا كَانَ، أَحبَّا ذٰلِكَ أَوْ كَرِهَا»**.

رواه أبو داود (٣٦١٦)، وابن ماجه (٢٣٤٦، ٢٣٢٩)، وأحمد (٤٨٩/٢، ٥٢٤)، والبيهقي (٢٥٥/١٠).

وفي رواية: أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عَرَض على قومٍ اليمينَ فتسارَعُوا إليه، فأَمَر أَنْ يُسْهِمَ بَيْنَهُمْ في اليمينِ أَيُّهُم يَحْلِفُ.

رواه البخاري في الشهادات (٢١٤/٦)، وأبو داود (٣٦١٦، ٣٦١٧، ٣٦١٨).

في الحديث الأول بروايتيه أنه لو تنازع خصمان في عين دابة كانت أم غيرها، فادّعى كل واحد منهما أنها ملكه ولم يكن لأحدهما بيّنة، أو أقام كل واحد منهما بيّنة على دعواه تساقطتا وصارتا كالعدم وحكم الحاكم بينهما نصفين. أما الحديث الثاني، فيدلّ على حكم آخر زائد على سابقه وهو أنهما يستهمان على اليمين، فمن خرجت فيه قرعة اليمين حلف واستحقّ ما ادّعاه، وهذا كُلُّهُ ما لم يكن المتنازع في يد أحدهما وإلا استحقه المالك مع

يمينه لحديث عدي بن عدي الكندي قال: جاء رجلان إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يختصمان في أرض، فقال أحدهما: هي أرضي، وقال الآخر: هي أرضي حرثتها وقصبتها، فأحلف رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي بيده الأرض. قال في المجمع (٢٠٢/٤): رواه الطبراني في الكبير بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح. وقد أطال الفقهاء القول هٰهنا، والظاهر ما ذكرناه والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

القضاء بشاهد واحد إذا علم القاضي صدقه

{٩١} ـ عن خزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ابتاع فرساً من أعرابي فاستتبعه إلى منزله ليقضيه ثمن فرسِه، فأسْرع رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المَشْي وأبطأ الأعرابي بالفرس، فطفِق رجالٌ يعترضون الأعرابي يُساوِمُونه بالفرس، لا يَشْعُرون أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ابتاعه، فنادى الأعرابي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين سمع نداء الأعرابي، فقال: «**أوَ لَيسَ قد ابْتَعْتُه منك**»؟ قال الأعرابي: لا والله ما بِعْتُكَهُ، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بل قد ابتعْتُه منك**»، فطفق الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً، فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايَعْتَه، فأقبل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على خزيمة فقال: «**بِمَ تَشْهَدُ**»؟ قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شهادة خزيمة شهادة رجلين.

رواه أحمد (٥/٢١٥، ٢١٦)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٧/٢٦٥) وفي الكبرى (٤٨/٤) وغيرهم وسنده حسن صحيح.

قوله: استتبعه أي: أمره أن يتبعه، وقوله: ابتعته أي: اشتريته.

والحديث يدلّ على أن القاضي إذا تيقّن وعلم صدق شاهد واحد له أن يحكم به، وقد قال بهذا جمع من العلماء لأن الإدلاء بالشهادة المقصود منها هو إثبات ما ادّعاه الخصم ومطلق الشهود، وإن كانوا عدولاً ظاهراً، فالقاضي لا يكون جازماً متيقّناً بما قالوا بخلاف من علم صدقه وتيقّنه، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

خير الشهود

{٩٢} ـ عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا**».

رواه مسلم (١٧/١٢)، وأبو داود (٣٥٩٦)، والترمذي في الشهادات (٢١٢٠)، وكذا أحمد (١١٥/٤، ١١٧) و(١٩٢/٥، ١٩٣)، وابن ماجه (٢٣٦٤).

من كانت عنده شهادة واحتيج إليه في أدائها واجب عليه الإدلاء بها، وخاصّة إذا خيف ضياع الحق بعدم أدائها، ففي هذه الحالة يكون هذا الشاهد خير الشهود عند الله تعالى، ولا سيما إذا أدّاها قبل أن يُسْألها، فإنه سيُفَرِّجُ كربة عظيمة عن طالب حقّ أو مظلوم، علماً بأنها أمانة عنده، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾، وهذه الشهادة فيها خير كبير وصاحبها خير الشهود، سواء كانت في حقوق الناس أو كانت في الأوقاف، والوصايا، والحدود والطلاق... وغير ذلك. أما الحديث الآخر في ذمّ من يدلي بالشهادة قبل أن يسألها، فمحمول على معنى آخر يأتي البحث فيه في كتابيّ الفتن والمناقب.

❋ ❋ ❋

شهادة أهل الكتاب والكفار

{٩٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج رجل من بني سَهْم مع تَمِيم الدَّارِي، وعَدِيّ بن بَدّاء فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدمًا بتركته فقدوا جامَ فضةٍ مُخَوّصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم وُجِدَ الجامُ بمكّة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا لشهادتنا أحقّ من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم، قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

رواه البخاري في الوصايا (٦/٣٣٩)، وأبو داود في الأقضية (٣٦٠٦)، والترمذي في التفسير (٢٨٦٢).

قوله: جام هو إناء من فضة، وقوله: مخوصاً ـ بضم الميم ثم خاء مفتوحة فواو كذلك مشدّدة ـ أي: منقوشاً بخطوط طوال دقاق كالخوص وهو ورق النخل.

{٩٤} ـ وعن الشعبي رحمه الله تعالى أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاةُ بدَقُوقَاء هذه، ولم يَجِدْ أحداً من المسلمين يُشْهِدُه على وصيّته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدّلا، ولا كتما، ولا غيّرا، وأنها لوصيّة الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما.

رواه أبوداود (٣٦٠٥) بسند صحيح.

استُدِلّ بالآية الكريمة وحديثي الباب على جواز شهادة غير المسلمين في أرض ليس بها مسلم، ثم بعد يستحلف الشهود أنهم ما كذبوا وما بدّلوا، وهذا مذهب ابن عباس وأبي موسى وجماعة من الصحابة، وبه قال

أحمد وجماعة من أهل العلم، وقالوا: إن ذلك جائز للضرورة، وأن الآية محكمة في ذلك، وذهب آخرون ومنهم مالك والشافعي والجمهور إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، وأن الفاسق لا تجوز شهادته فكيف بالكافر بالإجماع، والحق الذي نراه جواز ذلك للضرورة لأننا إذا لم نُشْهِد ضاع الحقّ، وربما كان على الميت الموصي ديون وحقوق فتضيع بترك الإشهاد، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

من لا تصح شهادته

{٩٥} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ردّ شهادة الخائن والخائنة، وذي الغِمْر على أخيه، وردّ شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم، وفي رواية لأبي داود: ولا زان ولا زانية.

رواه أحمد (٢/٢٠٤، ٢٢٥، ٢٢٦)، وأبو داود (٣٦٠٠، ٣٦٠١)، وابن ماجه (٢٣٦٦)، والبيهقي (١٠/٢٠٠) وسنده حسن عند بعضهم، وقال الحافظ في التلخيص بعد أن ذكر رواية أبي داود: وسنده قوي.

قوله: الخائن إلخ، أي: الذي يخون في الدِّين والأمانات، فإن من ضيّع شيئاً من أوامر الله تعالى أو أتى شيئاً مما نهاه الله تعالى عنه ولم يكن يتورّع عن حفظ أمانات الناس لا يكون عدلاً، وقوله: ذي الغمر هو بكسر الغين المعجمة هو الحاقد على غيره، وقوله: القانع أي: السائل أو المنقطع إلى القوم يخدمهم كالأجير والوكيل...

والحديث يدلّ على أن كل من فيه شائبة ما لا تجوز شهادته كالخائن الذي لا يؤتمن على دينه ولا على أموال الناس وأمتعتهم، وكذا من بينه وبين رجل عداوة فلا تصح شهادته عليه، وكذا الخادم التابع لأهل بيت فشهادته باطلة لتهمته، وممن لا تجوز شهادتهم الزناة والزواني لأنهم فسّاق،

ومنهم القاذف الذي لا يدلي بشهادة على ما قال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلخ.

والحاصل أن الشاهد لا بدّ أن تتوفر فيه شروط الشهادة بأن يكون مسلماً عاقلاً عدلاً غير متّهم في شهادته، فلا تصح شهادة خصم على خصمه أو عدوّ على عدوّه أو زوجة لزوجها أو العكس، والوالد لولده والولد لوالده أو الأم لولدها، والعكس.

وما في هذا الحديث نموذج لما ذكرنا، وبذلك أخذ أهل العلم مع اختلاف يسير في ذلك. قال الحافظ في الفتح (٦/١٨٠): ويشترط في قبول شهادته يعني العدل الرّضا أن لا يكون عدوّاً للمشهود عليه، ولا متّهماً فيها بجر نفع، ولا دَفْع ضَرر، ولا أصلاً للمشهود له، ولا فرعاً منه. وقال البغوي في شرح السنة (١٠/١٢٤): شرائط قبول الشهادة سبعة: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ، والعدالة، وانتفاء التهمة، إلخ.

* * *

شهادة البدَوِي على القَرَوِي

{٩٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لاَ تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوِيٍّ عَلَى صاحِبِ قَرْيَةٍ**».

رواه أبو داود (٣٦٠٢)، وابن ماجه (٢٣٦٧)، وابن الجارود (١٠٠٩)، والحاكم (٤/٩٩) وسنده صحيح عند بعضهم.

البدوي هو ساكن البادية والبدويّون الغالب عليهم الجفاء والجهل بأحكام الشريعة وقلّة معرفتهم بشروط الشهادة. والقرويّ هو ساكن المدينة والحاضرة.

والحديث يدلّ بظاهره على عدم صحة شهادة البدويّ على الحضري، وبه قال مالك وبعض أهل العلم. والجمهور على خلاف ذلك، فأجازوا

شهادة البدوي على الحضري، والحضري على البدوي، وقالوا: العبرة بالعدالة مع باقي الشروط. أما الأماكن، فلا عبرة بها، والحديث خرج مخرج الغالب في البَدْوِ، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

القضاء بالإقرار

{٩٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء ماعز بن مالك الأسْلَمِي إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إني قد زنيتُ فأعْرَضَ عنه، فذكر ذلك له أربع مرات، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**انْطَلِقُوا به فَارْجُمُوهُ**» الحديث، وفي رواية: فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**أبِكَ جُنُونٌ**»؟ الحديث.

رواه البخاري في المحاربين (١٥/١٣٢، ١٣٥)، ومسلم في الحدود (١١/١٩٣) وغيرهما، وجاء عن جماعة آخرين ويأتي في الحدود.

{٩٨} ـ وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنهما قال: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فذكر حديث العَسِيف الذي زنى بالمرأة، وفيه: «**واغْدُ يا أُنَيسُ إلى امرأةِ هذا، فإنِ اعْتَرَفَتْ فارْجُمْها**»، قال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرُجِمَتْ.

رواه البخاري في المحاربين (١٥/١٧٤)، ومسلم في الحدود (١١/٢٠٦، ٢٠٧) وغيرهما، ويأتي في الحدود أيضاً.

في الحديثين مشروعية العمل والقضاء على الإقرار، وأن الإنسان إذا أقرّ على نفسه بشيء ما واعترف به وهو صحيح عاقل عُمِلَ على إقراره، وقد أجمع العلماء والأئمّة على العمل به لمشروعيّته كتاباً وسنّة، قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، مع الأحاديث

الكثيرة الواردة في ذلك كحديثي الباب، فإن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أباح به الدماء.

والإقرار أقوى الأدلّة لإثبات دعوى المدّعى عليه غير أنه يشترط له العقل والبلوغ والرّضا والاختيار وصحة التصرّف، وأن لا يكون هازلاً وأن لا يقر بمحال عقلاً أو عادة، فلا يصح إقرار مجنون، ولا صغير، ولا مُكْرَه وخاصة تحت التعذيب، ولا مَحْجُور عليه، ولا لاعبٍ عابثٍ، ولا بما تُحيله العقول والعادة.

❋ ❋ ❋

القضاء بالقرائن

{٩٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خَرَجَتْ امْرَأَتانِ معهما ولدَاهُما، فأخَذَ الذِّئْبُ أَحَدَهُمَا فَاخْتَصَمَتَا في الوَلَد إلى دَاوُد النبيّ عليه السلام فقضَى به للكُبْرى منهُما، فمَرَّتا على سُليمان عليه السلام، فقال: كَيف قضَى بينكما؟ قالت: قَضَى به للكبرى، قال سليمان عليه السلام: ائْتُوني بالسِّكِّين أَشُقُّهُ بينَكُما، فقالت الصُّغْرى: لا، يَرْحَمُكَ الله هو ابنُها، فقضَى به للصغرى**».

رواه البخاري في الأنبياء (٦/٢٧٥) وفي الفرائض (١٥/٥٨)، ومسلم في الأقضية (١٢/١٨/١٩) وغيرهما، ويأتي في الأنبياء.

استدلّ العلماء بهذا الحديث على الحكم بما يستخرج بالقرائن، فسليمان عليه السلام استعمل حيلة توصل بها إلى حقيقة الأمر وعرف بذلك أن الولد للصغرى، فحكم بالولد لها، وذلك لقرينة واضحة هي جزع الصغرى الدالّ على عظيم الشفقة دون الكبرى لأنها آثرت حياته، واعترفت بأنه ولد الكبرى، فأخذ سليمان من ذلك أنه ولدها ولم يلتفت إلى إقرارها للكبرى، فينبغي للحاكم أن يكون فطناً، ويلجأ إلى استعمال الحيل للتوصل إلى بيان الحقّ إذا لم تكن هناك حجج وبيّنات... يعتمد

عليها أو حصل إشكال في الحكم، ولهذه القصة من هذين النبيّين أمثلة كثيرة من القضاة.

* * *

هل يقضي الحاكم بعلمه

قال البخاري رحمه الله تعالى في الأحكام (٢٥٨/١٦) باب من رأى للقاضي أن يحكم بعلمه في أمر الناس إذا لم يخف الظنون والتُهمة كما قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لهند: «**خُذِي ما يكفيك وولدَك بالمعروف**»، وذلك إذا كان أمر مشهور، ثم أخرج قصة هند امرأة أبي سفيان المذكورة، وقد تقدّمت وتأتي أيضاً. وقال في موضع آخر (٢٨٠/١٦) باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء أو قبل ذلك للخصم، وقال شريح القاضي وسأله إنسان الشهادة فقال: ائت الأمير حتى أشهد لك، وقال عكرمة: قال عمر لعبدالرحمٰن بن عوف: لو رأيتَ رجلاً على حد زناً أو سَرِقَة وأنت أميرٌ، فقال: شهادتك شهادة رجل من المسلمين، قال: صدقت، قال عمر: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتُ آية الرجم بيدي، ثم قال: وقال أهل الحجاز: الحاكم لا يقضي بعلمه شهد بذلك في ولايته أو قبلها، ولو أقر خصم عنده لآخر بحق في مجلس القضاء فإنه لا يقضي عليه في قول بعضهم حتى يدعو بشاهدين فيحضرهما إقراره، وقال بعض أهل العراق: ما سمع أو رآه في مجلس القضاء قضى به، وما كان في غيره لم يقضِ إلا بشاهدين. وقال آخرون منهم: بل يقضي به لأنه مؤتمن، وإنما يراد من الشهادة معرفة الحق، فعلمه أكثر من الشهادة، وقال بعضهم: يقضي بعلمه في الأموال ولا يقضي في غيرها، وقال القاسم: لا ينبغي للحاكم أن يمضي قضاء بعلمه دون علم غيره، مع أن علمه أكثر من شهادة غيره، ولكن فيه تعرضاً لتهمة نفسه عند المسلمين، وإيقاعاً لهم في الظنون، وقد كره النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الظن فقال: «**إنما هذه صفية**».

لقد كفانا إمامنا البخاري رحمه الله تعالى مؤونة نقل ما قاله السلف والأئمّة في حكم الحاكم بعلمه وأن الخلاف في ذلك كبير، ولم يأتِ عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نص صريح في ذلك بنفي أو إثبات. نعم جاء في قصة الملاعنة قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لو جاءت به كذا وكذا فهو لفلان**»، فجاءت به على صفة الزاني المقذوف بها، وقوله أيضاً: «**لولا ما سبق من كتاب الله لكان لي ولها شأن**»، وهو في الصحيح ويأتي في الحدود، فإن ذلك يدلّ على أنه علم صدق الملاعن وكذب الملاعنة، ومع ذلك فلم يقض فيها بما علم، والله تعالى أعلم. واستدلّ البخاري على الجواز بقصة هند امرأة أبي سفيان حيث حكم لها ولم يطلبها ببينة على أنها زوجة أبي سفيان لعلمه بذلك وشهرته، وممن أجاز حكم القاضي بعلمه أبو حنيفة والشافعي وأحمد والعترة، كما نقله الشوكاني في النيل عن البحر الزخّار، وحكي المنع عن شريح والشعبي والأوزاعي ومالك وإسحٰق وأحد قولي الشافعي.

ونقل الحافظ في الفتح (٢٥٩/١٦) عن الكرابيسي صاحب الشافعي، قال: الذي عندي أن شرط جواز الحكم بالعلم أن يكون الحاكم مشهوراً بالصلاح، والعفاف، والصدق، ولم يعرف بكبيرة زلّة، ولم يؤخذ عليه خربة بحيث تكون أسباب التقى فيه موجودة، وأسباب التهم فيه مفقودة، فهذا الذي يجوز له أن يحكم بعلمه مطلقاً.

وقال الشوكاني في النيل: والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن يقال: إن كانت الأُمور التي جعلها الشارع أسباباً للحكم كالبينة واليمين ونحوهما أموراً تعَبَّدَنا الله بها لا يسوغ لنا الحكم إلاّ بها، وإن حصل لنا ما هو أقوى منها بيقين، فالواجب علينا الوقوف عندها والتقيّد بها وعدم العمل بغيرها في القضاء كائناً ما كان، وإن كانت أسباباً يتوصّل الحاكم بها إلى معرفة المحق من المبطل، والمصيب من المخطىء، غير مقصودة لذاتها، بل لأمر آخر وهو حصول ما يحصل للحاكم بها من علم أو ظنّ، وأنها أقل ما يحصل له ذلك في الواقع، فكان الذكر لها لكونها طرائق لتحصيل ما هو المعتبر، فلا شكّ ولا ريب أنه يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه لأن شهادة الشاهدين

والشهود لا تبلغ إلى مرتبة العلم الحاصل عن المشاهدة أو ما يجري مجراها، فإن الحاكم بعلمه غير الحاكم الذي يستند إلى شاهدين أو يمين.

وهذا كلام وجيه، وهو مذهب قوي سديد، فمن ذهب إليه فلا لوم عليه ولا عتاب.

❋ ❋ ❋

خلاصة أسباب القضاء

إن القاضي له أن يحكم بكل ما كشف له به الحق سواء كان شاهدان أو شاهد ويمين أو إقرار أو وجود قرائن أو شاهد واحد أو علمه اليقيني أو وجود كتاب وصَكٌ رسمي مصادق عليه خالٍ من التزوير وغير ذلك، فإن كل ما كشف به الحقّ فهو بيّنة، وانظر فتح الباري (١٦/٢٨٢).

❋ ❋ ❋

أنواع الشهادات كما ذكرها البغوي في شرح السنة

قال رحمه الله (١٠/١٠٤): والشهادات مختلفة المراتب، فالزنا لا يثبت بأقلّ من أربعة من الرجال العدول؛ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، والعقوبات بأجمعها لا تثبت بأقلّ من رجلين عدلين. أما غير العقوبات، فإن لم يكن المقصود المال وهو مما يطلع عليه الرجال غالباً، فلا يثبت أيضاً إلا برجلين عدلين، وذلك مثل النكاح، والرجعة، والطلاق، والعتاق، والكتابة، والوصاية، والوكالة ونحوها، وإن كان مما يطلع عليه النساء غالباً فيثبت بشهادة رجلين، ورجل وامرأتين، وأربع نسوة، وذلك مثل الولادة والرضاع، والثيابة، والبكارة، والحيض ونحوها، وإن كان المقصود منه المال كالبيع، والهبة، والرهن، والإجارة، والوصية، والقرض. والجنايات الموجبة للمال

ونحوها، فيثبت برجلين، ورجل وامرأتين، وبشاهد ويمين، ولا يثبت بشهادة النساء على الانفراد، وقال الله سبحانه وتعالى في رجل وامرأتين: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تنسى الشهادة.

* * *

مشروعية الحبس والسجن في التهمة ونحوها

{١٠٠} ـ عن بَهْزِ بن حَكِيم عن أبيه عن جدّه رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حَبَسَ رَجُلاً فِي تُهْمَةٍ ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ**».

رواه أبو داود (٣٦٣٠)، والترمذي (١٢٨٧) بتهذيبي، والنسائي في السارق (٨/٥٩، ٦٠)، والحاكم (٤/١٠٢)، وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

{١٠١} ـ وعن الشَّرِيد بن سُوَيْد الثَّقَفِيّ رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وعُقُوبَتَهُ**»، قال ابن المبارك: يحل عرضه يُغْلَظُ له، وعقوبته يُحْبَسُ.

رواه أحمد (٤/٢٢٢، ٣٨٩)، وأبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي في الكبرى (٤/٥٩)، وابن ماجه (٢٤٢٧) وسنده حسن.

في الحديث الأوّل دليل على مشروعية حبس المتّهم إن اقتضى الحال حبسه، لكنه لا يضرب ولا يعذّب؛ لأنه ربما كان بريئاً، كما أن الحديث الثاني يدلّ على أن من كان عليه حق للغير ثم مَطله مع وُجْده وسعته كان ذلك من موجبات الطعن فيه والشكاية به، ثم بالتالي عقوبته ومنها الحبس، كما فسرها بذلك ابن المبارك ووكيع وغيرهما.

قال الخطابي: الحبس على ضربين: حبس عقوبة، وحبس استظهار، فالعقوبة لا تكون إلاّ في واجب. وأما ما كان في تهمة، فإنما يستظهر بذلك ليستكشف به عما وراءه...

ولا يجوز حبس أحد بدون حق، ومتى حبس بحق يجب المسارعة بالنظر في أمره، فإن كان مجرماً أخذ بجريمته، وإن كان بريئاً أطلق سراحه، ولكنه أنّى يوجد هذا الحكم العادل وقد خَيَّم الظلمْ والاعتداء على العالم أجمع.

* * *

ربما كان في السجن مصالح

قال البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الاستقراض باب الربط والحبس في الحرم (ج ٤٧٣/٥): واشترى نافع بن عبدالحارث داراً للسجن بمكة من صفوان بن أمية... قال: وسجن ابن الزبير بمكّة، ثم ذكر حديث ربط ثمامة بن أُثال في المسجد النبوي الآتي في السيرة. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في النيل: إن الحبس وقع في زمن النبوّة وفي أيام الصحابة والتابعين فمن بعدهم إلى الآن في جميع الأعصار والأمصار من دون إنكار، وفيه من المصالح ما لا يخفى لو لم يكن منها إلا حفظ أهل الجرائم المنتهكين للمحارم الذين يسعون في الإضرار بالمسلمين ويعتادون ذلك ويعرف من أخلاقهم، ولم يرتكبوا ما يوجب حدّاً ولا قصاصاً، حتى يقام ذلك عليهم فيراح منهم العباد والبلاد، فهؤلاء إن تركوا وخلّي بينهم وبين المسلمين بلغوا من الإضرار بهم إلى كل غاية، وإن قتلوا كان سفك دمائهم بدون حقها، فلم يبق إلا حفظهم في السجن والحيلولة بينهم وبين الناس بذلك حتى تَصِحّ منهم التوبة، أو يقضي الله في شأنهم ما يختاره سبحانه.

* * *

خاتمة

ولنختم هذه الأبواب بكتاب سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه الذي كتبه في أصول القضاء وبعث به إلى عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه، وهو:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبدالله عُمَر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضةٌ مُحْكَمَةٌ، وسُنَّةٌ متَّبعة، فافهم إذا أُدْلِي إليك فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذَ له آيس بين الناس في وجْهِك وعَدْلِك ومجلِسِك، حتى لا يطمع شريفٌ في حَيْفِك ولا ييأس ضعيفٌ من عَدْلك، البيِّنةُ على من ادَّعَى، واليمين على من أنكر، والصلحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً، أو حرَّم حلالاً، لا يَمنعُك قضاءُ قضيتَه اليومَ فراجعتَ فيه عقلَك، وهُدِيتَ فيه لِرُشْدِكَ أن ترجعَ إلى الحقّ، فإن الحقَّ قديمٌ، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادِي في الباطل، الفَهْمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ في صدْرِك ممَّا ليس في كتاب ولا سُنَّةٍ، ثم اعْرِف الأَشْبَاهَ والأمثالَ فقِسْ الأمورَ عند ذلك، واعمِدْ إلى أَقْرَبِها إلى الله وأشبهِهَا بالحقّ، واجعل لمن ادّعى حقّاً غائباً، أو بيّنة أمراً ينتهي إليه، فإن أحضرَ بيّنَته أخذتَ له بحقّه، وإلا استحللتَ عليه القضية، فإنه أنْفَى للشك، وأجْلَى للعَمَى، المسلمون عدولٌ بعضُهم على بعض إلاَّ مجلوداً في حدٍّ أو مُجرَّباً عليه شهادةُ زورٍ أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولّى منكم السرائر، ودرأ بالبيّنات والأَيْمَان، وإيّاك والقلقَ والضجَر، والتأذي بالخصوم، والتنكُّر عند الخصومات، فإن الحق في مواطنِ الحقّ يُعَظِّمُ الله به الأجرَ ويحسن به الذُّخْر، فمن صحَّت نيّته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنّك بثواب غير الله عزّ وجلّ في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام.

رواه الدارقطني في السنن (٤/٢٠٦، ٢٠٧)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٤/٢٤٠، ٢٤١)، ونقله الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين وعزاه لأبي عبيد... وشرحه شرحاً وافياً وذكر فيه من الفوائد الغزيرة ما لا يوجد في غيره وخاصة فيما يتعلق بالقضاء وآداب القاضي.

ومن أمعن نظره في هذا الكتاب عرف قدر ومكانة سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وما أُوتيه من علم ودقائق علم القضاء، ولذلك اهتمّ به العلماء واعتمدوه، وإن كان سنده ضعيفاً.

وقوله: آيس بمدّ الهمزة أي: سَوٍّ بين الناس، وقوله: حيفك أي: ميلك معه لشرفه، وقوله: تلجلج بتاء ولامين مفتوحات بينهما جيم ساكنة أي: تردّد، وقوله: ظنّين ـ بكسر الظاء والنون المشدّدة ـ أي: متهم، وقوله: درأ أي: دفع، وقوله: القلق والضجر أي: ضيق الصدر وقلّة الصبر، وقوله: تخلّق ـ بفتحات مع تشديد اللام ـ أي: أظهر للناس في خُلُقِه خلاف باطنه.

هذا وقد ثبتت أحكام كثيرة قضى بها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في موضوعات شتّى وهي مفرّقة في الأحاديث النبويّة، تقدم بعضها ويأتي كثير منها لاحقاً، وقد جمع جملة منها ابن القيّم رحمه الله تعالى في كتابه القيّم زاد المعاد في هدي خير العباد، ووضع لها فصولاً خاصة في أكثر من ثمانمائة صفحة جزاه الله وأثابه.

كتاب الدماء والجنايات

عظم قتل النفس وأنه من أكبر الكبائر

{١٠٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الكبائر أو سُئِل عن الكبائر، فقال: «**الشرك بالله، وقتلُ النفس، وعقوقُ الوالدين**»، وقال: «**ألاَ أُنبِئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ**»، قال: «**قولُ الزور**»، أو قال: «**شهادة الزور**».

رواه البخاري في الديّات (١٥/٢١٢) والأدب وغيرهما، ومسلم في الإيمان (٢/٨٢) وغيرهما، وفي الباب عن أبي هريرة وأبي بكر وغيرهما، وسيأتي بعضها في الأدب وغيره.

{١٠٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَزَالُ المُؤمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً**».

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٠٥).

{١٠٤} ـ وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إنَّ مِنْ ورطَاتِ الأُمور التي لا مَخْرَجَ لمنْ أوْقَعَ نفسَه فيها سَفْكَ الدم الحرام بغير حلِّه.

رواه البخاري (١٥/٢٠٥، ٢٠٦).

{١٠٥} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لَزَوَالُ الدُّنْيا أَهْوَنُ على الله من قتلِ رَجُلٍ مُسلمٍ**».

رواه الترمذي (١٢٦٥) بتهذيبي موقوفاً ومرفوعاً وكلاهما سنده صحيح، ورواه النسائي في المجتبى (٧٦/٧) وفي الكبرى (٢٨٤/٢) وله شاهد رواه ابن ماجه (٢٦١٩) عن البراء بسند صحيح.

{١٠٦} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَوَّلُ ما يُقْضَى بين الناس في الدِّماءِ**».

رواه البخاري في الديات (٢٠٦/١٥)، ومسلم في القسامة (١١٦/١١، ١٦٧)، والطيالسي (١٤٦٢)، والنسائي (٧٧/٧)، والترمذي (١٢٦٦)، وابن ماجه (١٦١٥، ١٦١٧).

{١٠٧} ـ وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما ذكرًا عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو أنَّ أهلَ السَّماءِ وأهلَ الأَرضِ اشْتَرَكُوا في دمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمْ الله تعالى في النارِ**».

رواه الترمذي (١٢٦٧)، والحاكم (٣٥٢/٤) وفيه يزيد الرقاشي ضعيف، وله شاهد عن أبي بكرة رواه الطبراني في الصغير (٢٠٥/١)، والخطيب في التاريخ (٣٧٧/١١) فيحسن لذلك وقد صححه جماعة.

الدماء يراد بها هنا ذكر ما يتعلق بالقتل العدوان وسفك دماء الآخرين وإراقتها بغير حقّ، والجنايات هي الاعتداء على الناس في دمائهم وأطرافهم وأعراضهم وأموالهم ودينهم وتطلق على كل ما حذر منه الشارع وزجَرَ عنه بحدٍّ أو تعزير، والمحظور: إما إتيان منهي عنه أو ترك مأمور به، كما قال الماوردي في الأحكام السلطانية. وللأئمّة والعلماء تفاصيل فيما ذكرناه.

قوله في حديث ابن عباس: «في فسحة من دينه» هو بضم الفاء أي: في سَعَة، ومعناه: لا يزال موسعاً عليه في دينه فإذا أصاب دماً ضُيِّقَ عليه دينُه كما يضيق على الكافر، وفي رواية: فسحة من ذنبه ومعناه أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه فيكون العفو عنه مستبعداً لاستمراره في الضيق المذكور.

وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت، لأنها لا تفي بوزره. والفسحة في الذنب قبول الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، نقله الحافظ. وقوله: «من ورطات الأمور» بفتح الواو والراء جمع ورطة بسكون الراء، وهي الهلاك. وقوله: لأكبهم أي: ألقاهم وصرعهم فيها.

وفي هذه الأحاديث أمور تتعلق بالدماء نجملها في الآتي:

أولاً: إن قتل النفس المؤمنة من أكبر الكبائر، فالذنوب فيها كبائر وأكبر فأكبرها إطلاقاً الكفر بالله على أيّ نوع كان، ثم تأتي الذنوب الأخرى حسب ترتيبها في الفحش... وههنا في هذا الحديث جعل القتل يلي الشرك بالله تعالى.

وقد قال ابن حزم رحمه الله تعالى في كتاب الدماء من المُحلّى (٣٤٢/١٠): لا ذنب عند الله عزّ وجلّ بعد الشرك أعظم من شيئين، أحدُهما: تعمُّد ترك صلاة فرض حتى يخرجَ وقتها، والثاني: قتل مؤمن أو مؤمنة عمداً بغير حق إلخ.. وقد نهى الله تعالى في كتابه العزيز في عدة آيات عن قتل النفس وأوعد على ذلك بالوعيد الشديد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ في آيات أُخر، وتقدم، ويأتي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...»**.

ثانياً: من أصاب دماً حراماً فقد أصبح مضيقاً عليه بعد ما كان في سعة من دينه ووقع في هلاك لا مخرج له منه إلا إذا شاء الله تعالى العفو عنه.

ثالثاً: مما يدلّ على عظم جريمة القتل أن زوال الدنيا بما لَهَا وعليها أقلّ هوناً وأخف عند الله تعالى من سفك دم لا يَحِلُّ.

رابعاً: ولعظم ذلك وخطورته كان أول ما يفصل به يوم القيامة بين العباد في حقوقهم، حتى إذا ما فرغ من القضاء في الدماء حكم بينهم فيما

عداها من الحقوق، وهذا وحده كاف في فحش هذه الجريمة النكراء.

خامساً: لعظم قتل النفس بغير حق جاءت الشريعة بحفظها والقصاص لمن جنى عليها، وكانت من الأُمور الخمس الضروريّة التي لا بدّ منها لاستقامة حياة الناس بحيث إذا فُقِدَتْ اخْتَلَّتْ حياتُهم ولم تستقرّ مصالحُهم وعمّت فيهم الفوضى والمفاسد، كما هو حاصلٌ اليوم في واقِعِنا، وهذه الأُمور هي: الدِّين، والنَّفْسُ، والعقلُ، والعِرْضُ، والمال...

فحفظ كل واحدة منها ضروري لحياة الناس، ولذلك جعل الشارع لكل واحدة منها حدّاً لمن انتهكها، وهذه الحدود ستأتي مفصلة بإذن الله تعالى وعونه.

* * *

تحريم قتل من قال لا إله إلا الله

{١٠٨} ـ عن المقدادِ بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن اخْتَلَفْتُ أنا ورجلٌ من المشركين ضَرْبتين فقطَعَ يدي، فلما أهْوَيتُ إليه لأَضْرِبَهُ، قال: لا إله إلاّ الله أَفَتْلُهُ أم أدَعُه؟ قال: «**بل دَعْهُ**»، قال: قلت: وإن قَطَعَ يدي؟ قال: «**وإن فعلَ**»، فراجعتُه مرتين أو ثلاثاً، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن قَتَلْتَهُ بعدَ أن يقول لا إله إلاّ الله فأنتَ مثلُه قبل أن يقولَها وهو مثلُكَ قبل أن تَقْتُلَهُ**»، وفي رواية: «**فلاذَ مِنّي بشَجَرة فقال: أسلَمْتُ لله**» الخ.

رواه أحمد (٤/٦، ٥، ٦)، والبخاري في الديات (٢٠٦/١٥، ٢٠٧) وفي المغازي، ومسلم في الإيمان (٩٨/٢) وغيرهم.

{١٠٩} ـ وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: بعثَنا رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سرية فصبّحنا الحُرَقاتِ من جُهَيْنَة، فأدركتُ رجلاً فقال: لا إله إلاّ الله فطعنْتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أقال لا إلـه إلا الله وقتلتَه»**؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خَوْفاً من السّلاح، قال: **«أفلا شَقَقْتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالها أم لا»**، فما زال يُكرّرُها عليَّ حتى تمنَّيْتُ أني أسلمتُ يومئذٍ.

{١١٠} ـ وفي رواية من حديث جُندب بن عبدالله فقال: **«لِم قتلته»**. قال: يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفراً وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إلـه إلا الله، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أقَتَلْتَهُ»**؟ قال: نعم، قال: **«فكيف تصنعُ بلا إلـه إلا الله إذا جاءتْ يوم القيامة»**، قال: يا رسول الله اسْتَغْفِرْ لي، قال: **«وكيف تصنعُ بلا إلـه إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»**، قال: فجعل لا يزيدُ على أن يقول: **«كيف تصنع بلا إلـه إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»**.

رواهما مسلم بالروايتين في الإيمان (٢/٩٩، ١٠٠، ١٠١) وهما من إفراده.

{١١١} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناسَ حتى يَشْهَدُوا أن لا إلـه إلاّ الله وأنّي رسول الله ويُقِيمُوا الصلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا منّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحقّها وحِسابُهم على الله»**.

رواه البخاري في الإيمان (١/٨٢، ٨٣)، ومسلم في الإيمان (١/٢١٢) وغيرهما، وهو حديث متواتر وارد عن جماعة من الصحابة بألفاظ، وانظر تهذيبي للجامع من كتاب الإيمان (٢٤٢٥) وما تقدم في التفسير من سورة براءة.

في جملة هذه الأحاديث تحريم قتل من قال لا إلـه إلا الله ولو سبق منه قتل للمسلمين أو قطع لبعض أطرافهم قبل النطق بالشهادة، وأن من قتل قائلها كان دمه مباحاً يجب أن يقتصّ منه، وعلى هذا حمل قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للمقداد: **«إن قتلته بعد أن يقول لا إلـه إلا الله فأنت مثله»** الخ، يعني يكون قاتله حلال الدم إذا قتل مسلماً ويكون قائل لا إلـه إلا الله معصوم الدم مثل قاتله قبل أن يصدر منه القتل، وليس معناه يكون القاتل كافراً مثل المقتول قبل إسلامه، لأن القتل لا يخرج صاحبه من

الإسلام إذا لم يستحله، وفي حديثي أسامة وجندب دليل على أنه لا يبحث عمن نطق بالشهادة هل هو صادق أم كاذب، بل تقبل منه مطلقاً. وفي حديث جندب دليل على أن لا إله إلا الله ستدافع عن صاحبها يوم القيامة، وأن صاحبها له عهد من الله عزّ وجلّ بسببها.

أما حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، ففيه الأمر بقتال الناس، والمراد بهم من لا كتاب لهم حتى يقروا بلا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله ويصلوا ويزكوا، فإذا فعلوا ذلك حفظوا دماءهم من السفك، وأموالهم من الأخذ إلا بحق الإسلام كقصاص ورجم وقطع وأخذ حق من زكاة ونحوها، وتقدم شيء من هذا في كتاب الإيمان، وسيأتي مزيد في كتاب الجهاد إن شاء الله تعالى، وهنالك سنتكلم على أهل الكتاب وغيرهم.

* * *

ما يبيح القتلَ وإراقة دم المسلم

{١١٢} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وأَنِّي رَسُولُ الله إلا بإِحْدَى ثلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ للجَمَاعَةِ**».

رواه أحمد (٤٢٨/١)، والبخاري في الديات (٢٢٠/١٥، ٢٢١)، ومسلم في القسامة (١٦٤/١١، ١٦٥)، والأربعة وغيرهم وفي الباب عن جماعة سيأتي بعضها في الحدود وفي الحرابة.

في الحديث أن دم المسلم لا يحل سفكه إلا بإحدى هذه الثلاث وهي: الزنى لمن كان سبق له نكاح من ذكر وأنثى وأحصن، أو القتل العمد للمسلم ذكراً كان أم أنثى، أو الخروج عن الإسلام بالارتداد ومفارقة ما عليه المسلمون، وستأتي كل هذه الخصال وعقوباتها المشروعة لها، غير أن

قوله: «إلا بإحدى ثلاث» هذا العدد لا مفهوم له، فهناك أشخاص تباح دماؤهم كاللوطي، والساحر، والكاهن، والسّابّ لله ولرسوله... والطاعن في الدين وتارك الصلاة، ومانع الزكاة والصائل...

❋ ❋ ❋

جواز القتال دفاعاً عن النفس وغيرها

{١١٣} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ أُرِيدَ مالُهُ بِغَيرِ حَقٍّ فَقَاتَلَ فَقُتِلَ، فَهُوَ شَهِيدٌ**»، وفي رواية: «**مَنْ قُتِل دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

رواه أحمد (١٩٤/٢)، وأبو داود (٤٧٧١)، والترمذي (١٢٩٠) بالرواية الأولى وحسّنه وصححه، ورواه البخاري (٤٨/٦) في المظالم، ومسلم في الإيمان (١٦٤/٢) بالرواية الثانية، ويأتي في الجهاد أيضاً مع قصة في أوّله.

{١١٤} ـ وعن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دونَ دِمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دون دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دون أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**».

رواه أحمد (١٩٠/١) وفي مواضع، وأبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٢٩١، ١٢٨٨)، والنسائي (١٠٧/٧)، وفي الكبرى (٣١١/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وابن ماجه (٢٥٨٠).

{١١٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أرأيتَ إن جاء رجلٌ يُريدُ آخذ مالي، قال: «**فلا تُعْطِهِ مَالَك**»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «**قَاتِلْهُ**»، قال: أرأيتَ إن قَتَلَنِي؟ قال: «**فأنْتَ شَهِيدٌ**»، قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «**هو في النار**».

رواه مسلم في الإيمان (١٦٣/٢) وهو من أفراده عن البخاري، ورواه النسائي (١٠٤/٧).

قوله: دون ماله، أصل دون تأتي للظرفية بمعنى تحت، وتستعمل مجازاً للسببية، ومعناها هنا من قتل لأجل ماله... ودفاعاً عنه، والأحاديث الثلاثة تدلّ على أن من قُتلَ لأجل دينه أو نفسه أو ماله أو أهله كان شهيداً له حكم الشهداء في الآخرة، وسيأتي الكلام على أنواع الشهادة، كما تدلّ على مشروعية قتال الصائل المهاجم والمعتدي وأن دمه هدر، لا قصاص فيه ولا دية، وبهذا قال جمهور الأئمّة والعلماء، كما عند النووي في شرح مسلم والحافظ في الفتح.

وفي حديث أبي هريرة التصريح بقتال المُعْتَدِي الذي يريد أخذ مال الغير بلا موجب شرعي، وأن الإنسان له أن يقاتله ولا يدفع له ماله لقوله عليه الصلاة والسلام: «**فلا تعطه مالك**»، فالعجب من بعض المالكية الذين يمنعون قتال الصائل مع وضوح هذه الأحاديث، وسيأتي في الديات هدرُ أطرافِ المعتدين.

* * *

عظم جريمة الانتحار

{١١٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فقَتَلَ نَفْسَهُ فهو في نارِ جهَنَّم يَتَرَدَّى خالداً مُخَلَّداً فيها أبَداً، ومَنْ تَحَسَّى سُمّاً فقتل نَفْسه فسُمُّهُ في يدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نار جهنّم خالداً فيها أبداً، ومَنْ قتَلَ نفسه بحَدِيدَةٍ فحَدِيدَتُه في يده يَجَأُ بها في بَطْنه في نار جهنّم خالداً مُخَلَّداً فيها أبداً**»، وفي رواية: «**الذي يَخْنُق نفسَه يَخْنُقُهَا في النار، والذي يَطْعَنُهَا يَطْعَنُها في النار**».

رواه البخاري في الطب رقم (٥٧٧٨ ج ١٣/٣٦٠) وفي الجنائز، ومسلم في الإيمان (١١٨/٢)، وأبو داود رقم (٣٨٧٢)، والترمذي في الطب

(١٨٨٧) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦٣٨/١)، وابن ماجه (٣٤٦٠).

والرواية الثانية رواها البخاري في الجنائز (١٣٦٥).

{١١٧} ـ وعن الضحاك بن ثابت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

رواه البخاري في الأدب (٦٠٤٧)، ومسلم في الإيمان (١١٩/٢) وغيرهما ويأتي مطولاً في الأدب.

{١١٨} ـ وعن جُنْدُب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كَانَ فِيمَن كَانَ قَبْلَكُمْ رجلٌ به جُرْحٌ فجَزِعَ فَأَخَذَ سِكِّيناً فحَزَّ بها يَدَهُ فما رَقَأَ الدَّمُ حتَّى ماتَ، قال الله تعالى: بادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عليه الجنّة**».

رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٤) وفي الأنبياء (٣٤٦٣)، ومسلم في الإيمان (١٢٤/٢) وغيرهما.

وحديث الرجل الذي قتل نفسه وقال فيه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنّ الله يُؤَيِّدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجِر**»، يأتي في مواضع إن شاء الله تعالى.

قوله: تردّى ـ بفتحات مع تشديد الدال ـ أي: سقط، وقوله: يجأ ـ بفتح الياء والجيم ـ وفي رواية: يتوجأ أي: يطعن، وقوله: يخنق ـ بفتح الياء وضمّ النون ـ أي: يعصر حلقه بحبل أو نحوه حتى يموت، وقوله: فما رقأ الدم أي: فما جفّ وانقطع، وقوله: «بادرني» أي: أسرع وتعجّل إلى قتل نفسه.

وهذه الأحاديث تدلّ على عظم جريمة الانتحار وقتل الإنسان نفسه وأنها من كبار الذنوب والفواحش، فإن نفس الإنسان ليست ملكاً له فلا يجوز له التصرف فيها بقطع أطرافها والقضاء على حياتها لأنها ملك لله عزّ

وجلّ لا يجوز سفكها إلا بحقّ أذِنَ الله فيه عزّ وجلّ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

وقوله: «خالداً مخلّداً فيها» مع قوله: «حرمتُ عليه الجنّة» ظاهرهما أن قاتل نفسه مخلّد في النار، وأنه لا يدخل الجنّة أبداً، وأوّل ذلك العلماء لأدلة أخرى، وأحسن ما قالوا في ذلك: إن هذا الوعيد لمن استحلّ ذلك، فيكون به كافراً أو المراد بذلك طول المكث في جهنم، وأنه لا يدخل الجنّة مع الأوّلين، وعلى أيّ: فإن المعصية وإن عظمت لا تُخْرِجُ مرتكبها من الإيمان إلا إن كفر...

وفي حديثي أبي هريرة والضحاك أن الله عزّ وجلّ سيعذّب قاتل نفسه بما قتل به نفسه سواء كان تردّياً أم خنقاً أم طعناً أم شرب سمّ... فسيجازى من جنس عمله وذاك عدل الله عزّ وجلّ. نسأل الله عزّ وجلّ السلامة والعافية.

والانتحار لا يأتي إلا من الجهل بالله تعالى وغلبة الحجاب والغفلة على قلب متعاطيه فيظن أنه سيتخلص مما نزل به في هذه الحياة، وإذا به يفاجأ بما لم يكن له في الحسبان من أنواع العذاب عياذاً بالله.

❋ ❋ ❋

قد يغفر الله تعالى للمنتحر لعمل صالح سبق له

{١١٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن الطُّفَيْل بن عَمْرو الدَّوْسِي رضي الله تعالى عنه أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هل لك في حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنَعَةٍ، قال: حِصْنٌ كان لدَوْسٍ في الجاهلية فأبَى ذلك النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للذي ذَخَرَ الله للأنصار، فلما هاجرَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى المدينة هاجر إليه الطُّفيل بن عَمْرو وهاجر معه رجلٌ من قومه فاجْتَوُوا المدينة، فمَرِضَ فجزعَ فأخذ مشاقِصَ له فقطع بها بَرَاجِمَه فشَخَبَتْ يداه حتى مات، فرآه

الطفيل بن عمرو في منامه، فرآه وهيئته حسنةٌ، ورآه مُغَطّياً يديه، فقال له: ما صنع بك ربُّك؟ فقال: غفر لي لهجرتي إلى نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: ما لي أراك مُغَطّياً يديك؟ قال: قيل لي: لن نُصْلِح منك ما أفسدتَ، فقصَّها الطفيل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اللَّهُمَّ ولِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ**».

رواه مسلم في الإيمان (٢/١٣٠، ١٣١).

قوله: فاجتووا أي: لم يوافقهم هواؤها، وقوله: مشاقص جمع مشقص - بكسر الميم - وهو حديدة أو نصل عريض، وقوله: براجمه وهي مفاصل الأصابع واحدتها بُرْجُمَة، وقوله: فشخبت أي: سال دمها ولم يرقأ.

والحديث نصّ في أن قاتل نفسه قد يغفر الله تعالى له لعمل صالح عظيم سبق له في حياته، كهذا الرجل الذي قتل نفسه في حياة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فغفر الله عزّ وجلّ له بسبب هجرته من وطنه اليمن إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا شكّ أن للهجرة في الله شأناً عظيماً في الإسلام، وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعمرو بن العاص: «**وإن الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَها**»، رواه مسلم في الإيمان.

وفي الحديث دليل على أن قاتل نفسه لا يكفر، قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (٢/١٣١، ١٣٢): فيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنّة أن من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر ولا يقطع له بالنار، بل هو في حكم المشيئة، قال: وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار، إلخ.

* * *

تحريم قتل المعاهد

{١٢٠} - عن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ قَتَلَ مُعاهَداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عاماً**».

رواه البخاري في الجزية (٧٩/٧) وفي الديات (٢٨٤/١٥)، والنسائي في الكبرى (٢٢٦/٥)، وابن ماجه (٢٦٨٦)، وفي رواية عن أبي بكرة: «**من قتل نفساً مُعَاهَدةً بغير حِلْها حرَّم الله عليه الجنَّة**»، رواه أبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي في الكبرى (٢٢١/٤)، وابن الجارود (١٠٧٠) وسنده صحيح.

قوله: معاهداً أي: له عَهْدٌ وذِمَّةٌ من المسلمين في ترك الحرب ونحوه، وقوله: يرح - بفتح الياء والراء - وقوله: وإن ريحها... أربعين عاماً؛ هذا لا مفهوم له، وليس المراد به التحديد بدليل ما جاء في الموطأ وصحيح مسلم بالتقييد بخمسمائة سنة، وفي أخرى بسبعين، بل بألف.

وفي الحديث تحريم قتل المعاهد من الكفار وأن قاتله قد يحرم الجنة إذا استحلّ قتله أو يؤخر في النار فيحرم دخول الجنة بدون سابق عذاب.

والمعاهد، للوفاءِ بعَهْدِه وتحريم قتله شروطٌ في الإسلام، تأتي في الجهاد بإذن الله تعالى.

* * *

مشروعية القصاص والمماثلة في الدماء والأطراف

{١٣١} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان القصاص في بني إسرائيل، ولم يكن فيهم الديةُ، فقال الله تبارك وتعالى لهذه الأُمّة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال ابن عباس: فالعفو أن تقبل الدية في العمد، واتباع بالمعروف أن تتبع هذا بمعروف ويؤدى هذا بإحسان، فخفف عن هذه الأمّة، ذلك تخفيف من ربكم مما كتب على من كان قبلكم، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم: قتل بعد قبول الدية.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٤٣) وفي الديات (١٥/٢٢٨)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٦/٢٩٥)، وابن حبان في صحيحه (٧/٦٠١) بالإحسان، والبيهقي (٨/٥١، ٥٢) وغيرهم.

القصاص هو المساواة والمماثلة في القتل والجراح والدية.

وهذه العقوبة مشروعة في جميع الشرائع الإلهيّة زجراً للجناة ونكالاً لهم وعقاباً في الدنيا، إما بالإعدام أو بدفع الدية أو ما إلى ذلك، غير أن هذه العقوبة تختلف حسب الأمم، فقد كانت الديانة اليهودية تحكم القصاص بلا عفو، وكان عند النصارى عفو بلا دية، فجمع الله عزّ وجلّ لهذه الأمة الأنواع الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ أي: فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون أي عُدْوَانٍ، والقصاص لا خلاف فيه للآية الكريمة وللأحاديث المتواترة، وللإجماع المتيقّن ولا حظّ في الإسلام لمن أنكر ذلك. وقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ بينت السنّة أن الذكر يقتل بالأنثى، أما الحر بالعبد ففيه خلاف كما يأتي.

{١٣٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن الرُّبَيِّع عمّته كسرت ثنيّة جاريةٍ فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأبَوْا إلا القصاص، فأمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقِصاص، فقال أنس بن النَّضْر: يا رسول الله أتُكسر ثنيّة الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تُكْسَرُ ثنيتها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يا أنس كتاب الله القصاص»**، فرضي القوم فعفَوْا، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنَّ من عِبادِ الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ على الله لأبَرَّه»**.

رواه أحمد (٣/١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤)، والبخاري في التفسير (٩/٢٤٣) وفي الجهاد، ومسلم في القسامة (١١/١٦٢)، وأبو داود (٤٥٩٥)، والنسائي في القسامة، وابن ماجه (٢٦٤٩).

الأرش ـ بفتح الهمزة ـ الدية، والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿وَٱلسِّنَّ

بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كتاب الله القصاص**»، يشير إلى الآية المذكورة، وإلى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾، وإلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وفي الحديث وجوب القصاص في الأسنان كالأطراف كما فيه طلب العفو عن الجاني مع أداء الدية أو بدونها، وفيه فضل أنس بن النضر وأنه ممن يبرّ الله قسمهم، وسيأتي هذا في فضائله.

{١٢٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: عَدَا يَهُودِي في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على جاريةٍ فأخذ أوْضَاحاً كانت عليها ورَضَخَ رأسها فأتَى بها أهلها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهي في آخِرِ رَمَقٍ وقد أُصْمِتَتْ، فقال لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَن قتلكِ فلان**»؟ لغير الذي قتلها فأشارت برأسها أن لا، قال: فقال لرجل آخر غير الذي قتلها فأشارت أن لا، فقال: «**ففلان**» لقاتلها فأشارت أن نعم، فأمر به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرُضخَ رأسه بين حجرين. وفي رواية: فأُخِذ اليهودي فاعترفَ، وفي رواية: فأمَرَ به أن يُرْجَم حتى يموتَ فرُجِم حتى الموت.

رواه البخاري في الطلاق (٥٢٩٥) وفي الخصومات وفي الديات (٢١٧/١٥، ٢١٩)، ومسلم في القسامة (١٥٧/١١، ١٥٨) وغيرهما.

قوله: عَدَا أي: وثب عليها، وقوله: أوضاحاً جمع وضح بفتح الواو والضاد وهي حلي من الفضة، وقوله: ورضخ ـ بالضاد والخاء المعجمتين المفتوحتين ـ بمعنى رضّ ودقّ، وجاء في رواية للبخاري فرماها بحجر، والله أعلم. وقوله: وبها رمق ـ بفتح الراء والميم ـ أي: بقية من الروح، وقوله: أصمتت بالبناء للمجهول، أي: انقطع كلامها.

وفي الحديث أحكام، منها قتل الرجل بالمرأة وهو إجماع، ومنها أن الجاني عمداً يقتل قصاصاً على الصفة التي قَتل بها، فإن كان بسيف قُتل به، وإن بحجر فحجر، وإن بخشب فخشب، وهكذا إلا إذا قتل بمحرم كالحرق بالنار، أو اللواط ونحو ذلك، ومنها ثبوت القصاص بالمُثَقَّل غير

المُحَدَّدِ كحجر مثلاً أو حديدة أو خشبة... وهذا مذهب جماهير الأئمة والعلماء، واختلفوا فيما إذا كانت الجناية شبه عمد بأن قتل بما لا يقصد به القتل غالباً، فتعمّد القتل به، كالعصا، والسوط، واللطمة ونحو ذلك؛ فقال مالك والليث بالقصاص، وقال الشافعي وأحمد وأبو حنيفة والجمهور: لا قصاص في ذلك، وإنما فيه الدية، ومنها وجوب القصاص على الذمي يقتل المسلم ولا خلاف في ذلك، ومنها العمل على إقرار المجني عليه إذا كان في آخر رمق من حياته.

* * *

أولياء المقتول عمداً بخير النظرين

{١٢٤} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا فتح رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ومن قُتِلَ له قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيرِ النَّظَرَين: إما أن يَعفُوَ وإما أن يَقتُل**»، وفي رواية: «**إما يُودَى وإما يُقادُ**».

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٢٧)، ومسلم في الحج رقم (١٣٥٥)، وأبو داود (٤٥٠٥)، والترمذي (١٢٧٤)، والنسائي وابن ماجه (٢٦٢٤) مطولاً ومختصراً وسيأتي مع الآتي في الغزوات.

{١٢٥} ـ وعن أبي شُريح رضي الله تعالى مثله بلفظ: «**ثم إنكم معشر خُزَاعَة قتلتم هذا الرجل من هُذَيل وإنّي عاقِلُه فمن قُتِلَ له قتيلٌ بعد اليوم فأهلُه بين خِيرتَين إما أن يَقتُلُوا أو يأخذوا العَقْل**».

رواه البخاري ومسلم في الحجّ وأبو داود (٤٥٠٤)، والترمذي (١٢٧٥)، وابن ماجه (٢٦٢٣)، والدارمي (٧٧٤).

قوله: بخير النظرين أي: له أن يختار أحد النظرين إما القتل أو الدية. وقوله: يُودَى أي: يعطى ديته، وقوله: يقاد أي: يقتل من القود.

* * *

أنواع القتل ثلاثة

القتل إما أن يكون عن عمد، أو شبه عمد، أو خطإ، فالعمد هو الذي يكون عن قصد... وشبه العمد هو الذي يكون بما لا يقتل غالباً كالعصا ونحوها من غير قصد القتل، والخطأ ما عدا ذلك مما لم يقصد ضربه ولا قتله.

فقتل العمد يكون أولياء المقتول مخيّرين بين القصاص وبين الدية كما في الحديثين، ولهم أن يعفوا عن القود والدية معاً، وقد جاء ذلك في حديث أبي شريح عند أبي داود وابن ماجه (٢٦٢٣) بلفظ: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ أُصِيبَ بدم أو خَبْل** - والخبل الجرح - **فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإذا أراد الرابعة فخذوا على يديه: أن يقتل، أو يعفو، أو يأخذ الدية، فمن فعل شيئاً من ذلك فعاد فإن له نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**»، وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن العمل عليه، فإنه لا خلاف أن من عفى عن القصاص والدية معاً كان باراً محسناً، وسيأتي في حديث وائل قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لولي قتيل: «**أتعفو، أتأخذ الدية، أتقتل**»...، ويأتي بعد ثلاثة أحاديث وهو في مسلم.

* * *

قتل شبه العمد والخطأ لا قصاص فيه

{١٣٦} - عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قتيل الخطإ شبه العمد قتيل السوط والعصا، مائة من الإبل**»، الحديث يأتي.

رواه أبو داود (٤٥٤٧)، وابن ماجه (٢٦٢٨) بسند حسن، ويأتي في الديات قريباً.

{١٣٧} - وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قُتل رجلٌ على

عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرُفِعَ ذلك إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فدُفِع القاتل إلى وَلِيِّهِ، فقال القاتل: يا رسول الله والله ما أردتُ قتله، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أما إنه إن كان صادقاً ثم قتلته دخلتَ النار»**، قال: فخلّى سبيله، قال: وكان مكتوفاً بتِسْعَةٍ فخرج يجُرُّ بسَعته فسُمّي ذا النسعة.

رواه أبو داود (٤٤٩٨)، والترمذي (١٢٧٦)، وابن ماجه (٢١٧٨) بسند صحيح على شرط مسلم.

فالحديث الأول يدل على أن قتل شبه العمد هو من قتل بنحو عصا وسوط من غير قصد قتل فلا قصاص فيه، وإنما فيه الدية مغلظة كما يأتي إن شاء الله تعالى.

وهكذا قتل الخطأ لا قود فيه، بل فيه الدية عادية؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ**﴾ الآية.

والحديث الثاني يدلّ على أن من قتل قاتِلَ الخطإ دخل النّار، وقتلُ الخطأ فيه أنواع مستوفاة في كتب الفقه.

* * *

طلب الإمام العفو من أولياء المقتول

{١٢٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رُفِعَ إليه شيءٌ فيه قصاصٌ إلا أمَرَ فيه بالعَفْوِ.

رواه أبو داود (٤٤٩٧) بسند صحيح.

{١٢٩} ـ وعن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه قال: كنْت عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ جيءَ برجُلٍ قاتلٍ في عُنُقِهِ النِّسْعة، قال: فدعا ولي المقتول فقال: **«أتعفو»**؟ قال: لا، قال: **«أفَتأْخُذُ الدّية»**؟ قال: لا، قال: **«أفَتَقْتُلُ»**؟ قال؛ نعم، قال: اذهب به، فلما ولّى قال: **«أتعفو»**؟ قال: لا، قال: **«أفتأخذ الدية»**؟ قال: لا،

قال: **«أفتقتل»؟** قال: نعم، قال: اذهب به، فلما كان في الرابعة، قال: **«أما إنك إن عفوتَ عنه يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ صَاحِبِهِ»**، قال: فعفا عنه، قال: فأنا رأيته يجرّ النسعة.

رواه مسلم في القسامة (١١/١٧٢)، وأبو داود (٤٤٩٩)، والنسائي في القسامة (٨/١٣) وغيرهم.

النسعة ـ بكسر النون ـ زمام البعير من الجلد.

وفي الحديثين مشروعيّة طلب الإمام ومن في حكمه العفو من أولياء المقتول عن القاتل في القصاص ونحوه من الجنايات، وفي ذلك فضل وخير كبير للجانبين، وستأتي أحاديث في فضل العفو في الأدب. وفي حديث وائل تخيير ولي القتيل بين أن يعفو أو يأخذ الدية أو يقتص.

* * *

مشروعية الشفاعة في الجناة

{١٣٠} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ علَى لِسانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»**.

رواه أحمد (٤/٤٠٠، ٤١٣)، والبخاري (٤/٤٢)، ومسلم (١٦/١٧٧)، وأبو داود (٥١٣١)، والنسائي (٥/٤٨)، والترمذي في العلم (٢٤٨٦)، وأبو يعلى (٧٢٩٦)، والبيهقي (٨/١٦٧).

وفي الحديث الترغيب في الشفاعة والتوسّط في الخير والسعي في قضاء حوائج المحتاجين والتفريج عن المكروبين، غير أنه لا تجوز الشفاعة في حالتين، الأولى: إذا رفعت الجناية إلى الحاكم، ثانيهما: إذا كان الجاني متمرداً مفسداً في الأرض.

* * *

المسلمون تتكافؤ دماؤهم ولا يقتل مؤمن بكافر

{١٣١} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَؤُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَلَيهم أَقْصَاهُمْ، وهم يَدٌ على من سِواهم، لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بكافِرٍ ولا ذُو عَهْدٍ في عَهْدِهِ**».

رواه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي في القسامة (٢١/٨) وسنده صحيح، وروى ابن ماجه آخره عن ابن عباس.

{١٣٢} ـ وعن أبي جُحَيْفة قال: سألت عليّاً رضي الله تعالى عنهما: هل عندكم من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلقَ الحبَّة وبرأ النَّسَمَة إلا أن يُؤْتِيَ الله عَبْداً فهماً في القرآن وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: «**العقلُ، وفكاكُ الأسيرِ، ولا يُقتلُ مؤمن بكافر**».

رواه البخاري في العلم وفي الجهاد وفي الديات (١٥/٢٨٥، ٢٨٦)، وأبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٢١/٨)، والترمذي (١٢٨١)، والدارمي (٢٣٦١)، والبيهقي (٢٨/٨، ٢٩) وغيرهم.

قوله: تتكافؤ أي: تتساوى دماؤهم في القصاص خلاف ما كان عليه عرب الجاهلية واليهود.

وقوله: «ويسعى بذمّتهم أدناهم» معناه: أن المسلم إذا أمَّن الكافر أصبح له ذمة ويحرم على عامة المسلمين دمُه وإذايَتُه، ولو كان هذا المجير أدناهم كامرأة أو أجير أو خادم... وقوله: «ويُجير عليهم أقصاهم» معناه: أن المسلم إذا عقد للكافر عهداً أو أماناً لم يكن لأحدٍ نقضه، وإن كان العاقد بعيد الدار عن بلاد الكفار.

وحديث الإمام علي الأول يدلّ على أن المسلمين في القصاص سواء، فيقتل الشريف بالوضيع، والعالم بالجاهل، والرجل بالمرأة وهكذا، فلا عنصرية في الإسلام. كما فيه دليل على أن الكافر إذا أمَّنَه مسلم ولو كان

أدناهم مرتبة وقدراً كعسيف مثلاً أو خادم أو امرأة صارت ذمّته محترمة على جميع المسلمين، ولذلك جاء نهي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل المعاهد كما في هذا الحديث، وكما تقدم في حديث ابن عمرو: «**من قتل معاهداً لم يرَحْ رائحةَ الجنة**»، وفيه كالثاني عدم قتل المسلم بالكافر لأن دم الكافر غير مُساوٍ لدَم المسلم. وبهذا قال كل العلماء إلا أن أبا حنيفة قال: يقتل المسلم بالمعاهد، وحديث أبي جحيفة سيأتي أيضاً في الفضائل.

❊ ❊ ❊

۞ لا يُقتلُ الوالدُ بالوَلَدِ

{**١٣٣**} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا يُقادُ الوالد بالوَلدِ**».

رواه أحمد (١٦/١، ٢٢)، والترمذي (١٢٦٩)، وابن ماجه (٢٦٦٢)، وابن الجارود (٧٨٨)، والحاكم (٢١٦/٢) و(٣٦٨/٤)، والبيهقي (٣٨/٨) وسنده صحيح عند بعضهم وله شاهد صحيح عن ابن عَمْرو رواه أحمد والدارقطني.

قوله: لا يقاد أي: لا يقتصُّ منه بالقتل وغيره.

والحديث يدلّ على أن الوالد إذا قتل ولده أو جنى عليه في أطرافه لا يقتصّ منه، قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لا يُقتل به، وإذا قذفه لا يُحَدُّ.

❊ ❊ ❊

۞ إباحة أطراف المُعتَدِي وأنه لا قَوَد على جانيه

{**١٣٤**} ـ عن عِمران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: قاتَل يَعْلَى بن

أُمَيَّة رجلاً فعَضَّ أحدُهما صاحبَه فانتزع يدَه من فَمِهِ، فنَزَعَ ثَنِيَّته فاختصما إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «**أيَعَضُّ أحدُكم كما يعض الفحلُ لا دِيَة له**»، وفي رواية: إن رجلاً عضّ ذِرَاعَ رجل فجَذَبَه فسقطَتْ ثنيّته، فرُفع إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأبطله، وقال: «**أردتَ أن تأكل لحمهُ**»، وفي أخرى: «**أردت أن تَقْضِمَها كما يقْضِمُ الفحل**»، وفي رواية رابعة: «**ما تأمُرني؟ تأمُرني أن آمره أن يدعَ يدَه في فيك تقْضمُها كما يَقْضِمُ الفحلُ، ادفع يدَك حتى يعضَّها ثم انتزعها**».

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٤٠، ٢٤٢) وفي مواضع، ومسلم في القسامة (١١/٥٩، ١٦١) وغيرهما.

{١٣٥} ـ وفي رواية ليعلى بن أُميّة رضي الله تعالى عنه قال: غزوت مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غزوة تبوك قال: وكان يعلى يقول: تلك الغزوة أوثق عملي عندي، قال يعلى: كان لي أجير فقاتل إنساناً فعضّ أحدهما يد الآخر فانتزع المعضوض يده مِنْ في العاض فانتزع إحدى ثنيّتيه فأتيا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأهدر ثنيّته.

رواه أيضاً البخاري (١٥/٢٤٣)، ومسلم (١١/١٦١، ١٦٢).

قوله: يقضم ـ بفتح الياء وكسر الضاد ـ أي: يكسر بسنه، وقوله: قاتل يعلى رجلاً، الرجل هنا هو أجيره المذكور في الرواية الأخيرة، وقوله: «كان لي أجير فقاتل إنساناً» الإنسان هو يعلى المذكور، فالروايات يفسر بعضها بعضاً، والعاض هو يعلى كما في رواية عند النسائي، والنازع يده هو أجيره فكان كل منهما جانياً على الآخر، غير أن الأجير دافع عن نفسه فنزع يَدَهُ مِنْ فم يعلى العاض فأسقط سنّه، فأهدرها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفي الحديث دليل على أن من دفع عن نفسه جانياً عليه فأصاب منه جناية كانت هدراً لا دية فيها، ولو كان ذلك قتلاً، وبهذا قال جمهور العلماء.

{١٣٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطّلع في بعض

حُجَر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقام إليه بمشقص أو بمشاقص وجعل يَخْتِلُه لِيَطْعُنَه.

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٦٧، ٢٣٧).

{١٣٧} ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطَّلعَ في جُحْرٍ في باب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مِدْرَى يَحُكُّ به رأسه، فلما رآه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لو أعلم أن تنتظرني لطعنتُ به في عينيك»**، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنما جعل الإذْنُ من قِبَلِ البَصَر»**.

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٦٧) وفي مواضع، ومسلم (١٤/١٣٦، ١٣٧) في الأدب.

{١٣٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو القاسم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لو أن امرأً اطّلع عليك بغير إذن فحَذَفْتَهُ بحَصَاةٍ ففقأت عينه لم يكن عليك جُناحٌ»**، وفي رواية: **«فقد حل لهم أن يَفقَأُوا عينيه»**، وفي أخرى: **«فقد هُدِرَتْ عينُه»**.

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٦٨، ٢٣٧)، ومسلم (١٤/١٣٨)، وأحمد (٢/٤١٤، ٥٢٧)، وأبو داود (٥١٧٢)، وابن الجارود (٧٩٠).

قوله: حجر ـ بضم الحاء وفتح الجيم ـ جمع حجرة وهي الغرفة، وقوله: مشقص ـ بكسر الميم وسكون الشين وفتح القاف ـ نصلة طويلة حادة، «يختله» بكسر التاء أي: يخادعه ويطلبه من حيث لا يشعر، «مدرى» بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء بعدها ألف مقصورة شبه مشطة لها ثلاثة أسنان كان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يحكّ بها رأسه ويحلّ بها شعره، وكان النساء يمتشطن بها، «فحذفته» أي: رميته بِحَصَى ونحوها. «ففقأت» شققت عينه وأطفأتها، «هدرت» أي: بطلت فلا دية لها.

أفادت هذه الأحاديث أن من اطّلع على أحد في بيت مقفول عليه أو

مستور من غير أن يستأذنه فقد أتى ذنباً عظيماً وجناية كبيرة يستحق معها إهدار بعض أطرافه إن جُنِيَ عليه، لأنه قد أتى ما يستحقّ به العقاب، وكان الذي جنى عليه غير آثم ولا عليه دية ولا قود، وبهذا قال جمهور العلماء.

❋ ❋ ❋

لا يتحمل أحد جناية غيره

{١٣٩} ـ عن عَمْرو بن الأحوص رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول في حجة الوداع: «**ألاَ لاَ يَجْنِي جانٍ إلاَّ على نفسه، لا يَجْنِي والدٌ على ولده، ولا مولود على والده**».

رواه الترمذي في الفتن (١٩٩٠) مطولاً ويأتي فيه، وابن ماجه في الديات (٢٦٦٩) وحسنه الترمذي وصححه وله شواهد عن طارق المحاربي، والخشخاش العنبري، وأسامة بن شريك روى جميعها ابن ماجه (٢٦٧٠، ٢٦٧١، ٢٦٧٢) وأسانيدهم صحيحة، وانظر تهذيبي للجامع (١٩٩٠)، وسنن النسائي (٤٧/٨).

«لا يجني» الجناية الجريمة والذنب، وفيه دليل على أنه لا يؤاخذ أحد بجريمة وجناية غيره لا والد ولا ولد ولا غيرهما، فمن قتل شخصاً أو جنى عليه في أطرافه مثلاً أو أخذ له مالاً لا يطالب غيره بذلك أباً كان أم ولداً أم غيرهما من الأقارب... فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، فما يفعله اليوم بعض الدول من اعتقال الأب بجريمة ولده أو العكس هو ظلم وجور سافران.

❋ ❋ ❋

القَوَد في كل شيء حتى من الضَّربة بالسوط

{١٤٠} ـ عن أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله تعالى عنه بَيْنَمَا هو يُحَدِّثُ القوم يُضْحِكُهُم وكان فيه مُزاحٌ فطعنه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

في خاصِرَته بعُود، فقال: اصبرني، فقال: «اصْطَبِرْ»، فقال: إن عليك قميصاً، وليس عليّ قميص، فرفع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قميصه، فاحتضنه، وجعل يقبل كَشْحَهُ وقال: إنما أردت هذا يا رسول الله.

رواه أبو داود في الأدب باب قبلة الجسد (٥٢٢٤) وسنده حسن صحيح، وله شاهد عن أبي سعيد قال: بينما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَقْسِمُ قَسْماً أقبل رجل فأكبّ عليه فطعنه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعُرْجُونٍ كان معه فجرح وجهُه، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «تعال فاسْتَقِد»، فقال: بل قد عفوتُ يا رسول الله.

رواه النسائي في القسامة (٢٩/٨) وفي سنده رجل مجهول ولا يضرّ في الشواهد.

قوله: «اصبرني» أي: أقدني من نفسك، وقوله: فاحتضنه أي: ضمّه إليه، وقوله: «يقبل كشحه» بفتح وسكون هو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

وفي الحديث مشروعية القود والقصاص حتى في الضرب بالعود ونحوه، كاللطمة فضلاً عن اللكمة وكل ما يوجع المجني عليه، وفي صحيح البخاري من الديات (٢٥٠/١٥): وأقاد أبو بكر وابن الزبير وعلي وسويد بن مقرن من لطمة وأقاد عمر من ضربة بالدِّرّة، وأقاد عَلِيٌّ مِنْ ثلاثة أسواط أخرج جميعها ابن أبي شيبة في المصنف (٤٦٤/٥) غير أثر عمر فأخرجه مالك في الموطأ، والحديث تتجلّى فيه عدالة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإنصافُه مِن نفْسِهِ وتواضُعه وتنازُله، بل طاعته لله عزّ وجلّ وتسليمه نفسه لرجل من أُمّته ليأخذَ حقَّهُ منه، فهل يوجد في خلفاء الأُمة وأمرائها بعد الخلفاء الراشدين من يسلّم نفسه لأحد رعاياه ليقتصّ منه، فلا أدري.

وفي الحديث فضل هذا الصحابي الذي توصل بحيلته لتقبيل كشح النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع احتضانه إيّاه، فهنيئاً له بذلك.

* * *

مشروعية القصاص بالإقرار أو بشهادة رجلين

{١٤١} ـ عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه قال: إني لقاعد مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ جاء رجل يقود آخر بنِسْعَةٍ، فقال: يا رسول الله هذا قتل أخي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أقتلته**»؟ فقال: **إنه لو لم** يعترف أقمت عليه البيّنة، قال: **نعم قتلتُه**، قال: «**كيف قتلته**»؟ قال: كنت أنا وهو نَخْتبطُ من شجرة فسبَّني فأغضبني فضربتُه بالفأس على قرنه فقتلته، فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل لك من شيء تؤديه عن نفسك**»؟ قال: ما لي مالٌ إلا كسائي وفاسي، قال: «**فترى قومك يشترونك**»؟ قال: أنا أهون على قومي من ذاك، فرمى إليه بنسعته، وقال: «**دونك صاحبك**»، فانطلق به الرجل فلما ولّى قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن قتلهُ فهو مثلُه**»، فرجع فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك قلت: إن قتله فهو مثله وأخذته بأمرك، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما تُريدُ أن يبُوءَ بإثمك وإثم صاحبك**»، قال: يا نبيّ الله، ـ لعله قال: بلى ـ قال: «**فإن ذاك كذلك**»، فرمى بنسعته وخلّى سبيله، وفي رواية: ولم أُرِدْ قَتْلَه.

رواه مسلم في القسامة (١١/١٧٢/١٧٣)، والنسائي في القسامة (١٤/٨)، والجملة الأخيرة لأبي داود والحديث تقدم في طلب العفو بسياق آخر. وفي هذا الحديث بهذه الرواية إقرار الجاني بالقتل، واعتماد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على إقراره، فكان فيه دليل على إثبات القصاص بإقرار الجاني، ولعله لا خلاف فيه بين العلماء إذا كان المقرّ بالغاً عاقلاً، وتقدم حديث إقرار الجارية التي قتلها ذلك اليهودي، وعمل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بإقرارها وإقرار اليهودي الجاني، واختلف العلماء في المراد بهذا الحديث، فقيل: إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حكم لوليّ القتيل بالاقتصاص من القاتل، ولذلك دفعه إليه ليقتله، وإنما قال: «**إن قتله فهو مثله**»، أراد بذلك التعريض له بالعفو بدليل الرواية المتقدمة التي فيها طلب العفو منه عن القاتل، وقيل في معنى الحديث: إنه

قتل خطأ العمد بدليل رواية: ولم أرد قتله، مع رواية أبي هريرة المتقدمة رقم (١٢٧): والله ما أردت قتله، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أما إنه إن كان صادقاً فقتلتَه دخلتَ النار**»، فخلاّه، فما في حديث الباب يحمل على هذا فيقيد به، فيكون هذا القتل من باب شبه العمد، والله تعالى أعلم.

{١٤٣} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنّ ابنَ مُحَيِّصَة الأصغر أصبح قتيلاً على أبواب خيبر، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَقِمْ شاهِدَيْن على مَنْ قَتَلَهُ أَدْفَعْه إليكم بِرُمَّتِهِ**»، فقال: يا رسول الله، ومن أين أُصِيب شاهدين، وإنما أصبح قتيلاً على أبوابهم، قال: «**فتَحْلِفُ خَمْسِينَ قَسامَةً**»؟ فقال: يا رسول الله، فكيف أحلف على ما لم أعلم؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فاستَحْلِفْ مِنْهُم خَمْسِينَ قَسَامَةً**»، فقال: يا رسول الله كيف نَسْتَحْلِفُهم وهم اليهود، فقسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ديتَه عليهم وأعانهم بنصفها.

رواه النسائي في القسامة (١٢/٨) وسنده حسن.

{١٤٤} ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: أصبح رجل من الأنصار بخيبر مقتولاً، فانطلق أولياؤه إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فذكروا ذلك له فقال: «**لكُم شاهدان يَشْهَدَانِ على قَتْلِ صاحِبِكُمْ**»؟ فقالوا: يا رسول الله لم يكن ثَمَّ أحدٌ من المسلمين، وإنما هم يهود قد يجترئون على أعظمَ من هذا، قال: «**فاخْتَارُوا مِنهم خَمْسِين فاسْتَحْلِفُوهُمْ**»، فوداه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من عنده.

رواه أبو داود (٤٥٢٤) ورجاله رجال الصحيح، والحسن بن علي بن راشد وإن كان موصوفاً بالتدليس، فإن الحديث السابق يرفع احتمال تدليسه فيحسن أو يصحّح. والحديثان يدلان على ثبوت القتل بشهادةِ شاهدين، ولا خلاف في ذلك بين العلماء، بل ذلك جارٍ في كل الحقوق ما عدا الزّنا والقذف، فلا بدّ من أربعة شهود، وللعلماء في ذلك أنظار. أما حكم القسامة المذكورة في الحديثين، فسيأتي آخر هذه الفصول.

* * *

قتل الجماعة بالواحد

{١٤٤} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن غلاماً قُتِلَ غِيلَةً، فقال عمر رضي الله تعالى: «لو اشْتَرَكَ فيهَا أهلُ صَنْعَاءَ لقَتَلْتُهُمْ».

رواه البخاري في الديات من صحيحه (٢٤٩/١٥)، وأخرجه مالك في الموطأ (١٦٨٨)، وابن أبي شيبة (٤٢٩/٥) عن سعيد بن المسيّب أن عمر قتل خمسة أو ستّة برجل قتلوه غِيلَة، وقال: لو تمالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتُهم جميعاً، وسنده صحيح. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (٤٢٩/٥) عن نافع بلفظ: أن عمر قتل سبعة من أهل صنعاء برجل، وسنده صحيح أيضاً.

وقوله: غيلة ـ بكسر الغين ـ أي: سراً، وقوله: تمالأ عليه أي: اتّفقوا على قتله.

وقد أخرج الطحاوي في المعاني، والبيهقي في السنن الكبرى (٤١/٨) قصة عجيبة في ذلك من طريق ابن وهب حدّثني جرير بن حازم أن المغيرة بن حكيم الصنعاني حدّثه عن أبيه أن امرأة بصنعاء غاب عنها زوجها وترك في حجرها ابناً له من غيرها: غلاماً يقال له أصيل، فاتّخذت المرأة بَعد زوجها خليلاً فقالت له: إن هذا الغلام يفضحنا فاقتله، فأبى فامتنعت منه فطاوعها فاجتمع على قتل الغلام الرجل ورجل آخر والمرأة وخادمها فقتلوه، ثم قطعوه أعضاء، وجعلوه في عبية فطرحوه في ركية من ناحية القرية ليس فيها ماء... فأخذ خليلها فاعترف، ثم اعترف الباقون فكتب يعلى وهو يومئذ أمير بشأنهم إلى عمر، فكتب إليه عمر بقتلهم جميعاً، وقال: والله لو أن أهل صنعاء اشتركوا في قتله لقتلتهم أجمعين. وعلقه البخاري مختصراً (٢٤٩/١٥) من الديات، فقال: وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: إن أربعة قتلوا صبياً، فقال عمر مثله... وعلى أي: فالقصة ثابتة من طرق، وقد تكون متعدّدة، فالله تعالى أعلم. وانظر الفتح (٢٤٩/١٥).

وفي حكم سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه هذا، وقوله: لو أن أهل

صنعاء الخ، دليل على أن الجماعة إذا اشتركوا في قتل رجل واحدٍ قتلوا جميعهم، فإن هذا حكم أحد الخلفاء الراشدين، وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**»... وقال: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»، واختلف العلماء في هذا، والجمهور على أنهم يقتلون جميعاً، قال به مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة وغيرهم، وذهب الظاهرية إلى سقوط القود ووجوب الدية وهو غلط واضح، وما فعله وحكم به سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يدلّ أيضاً على أن كل من شارك في قتل رجل يُقتل، سواء كان ذلك بمباشرة القتل أو إمساك القتيل أو غير ذلك، كما هو مذهب مالك والليث وغيرهما. أما من قال بحبس الممسك مستدلّين بحديثي ابن عمر وعليّ رضي الله تعالى عنهما، فإن الحديثين لا يصحان.

* * *

لا يقتص من الجاني حتى يبرأ المجني عليه

{١٤٥} ـ عن عبدالله بن عمرو وجابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهم أنَّ رَجُلاً طَعَنَ رجُلاً بِقَرْنٍ في رُكْبَتِهِ، فَجاء إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: أَقِدْنِي، فقال: «**حتى تَبْرَأَ**»، ثم جاء إليه فقال: أَقِدْنِي، فأقاده ثم جاء إليه فقال: يا رسول الله عَرِجْتُ، قال: «**قد نَهَيْتُكَ فعَصَيْتَنِي، فأَبْعَدَكَ اللهُ وَبَطَلَ عَرْجُكَ**»، ثم نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يُقْتَصَّ مِنْ جُرْحٍ حتَّى يَبْرَأَ صَاحِبُه.

رواه أحمد (٢/٢١٧)، والدارقطني (٣/٨٩، ٩٠)، والبيهقي (٨/٦٦، ٦٧، ٦٨) وسنده حسن، وله شاهد عن جابر رواه ابن أبي شيبة، والدارقطني (٣/٨٩) وغيرهما من طرق ضعيفة، ومع ذلك فالحديث يتأيّد به فيدلّ على أنه لا يقتصّ ويقاد من الجاني في الأطراف حتى يبرأ المجني عليه؛ لأنه ربما برىء ناقص الأعضاء كعرج مثلاً أو عوراً وذهاب عقل أو نحو ذلك، فيكون القود حسب ذلك فإن طلب المجني عليه الاقتصاص قبل

البرء فاقتصّ له، ثم برىء وبه عيب كان ذلك هدراً لا دية له ولا شيء، كما حكم بذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. وقوله: ثم نهى... أن يقتص من جرح الخ، يدلّ على أن طلب الاقتصاص قبل البرء محرم لأن ذلك هو مقتضى حقيقة النهي، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

لا قصاص على المجانين ومن في حكمهم كالدواب مثلاً

{١١٤٦} ـ عن عليّ عليه السلام أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**رُفِعَ القلمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَن النّائم حتى يستيقظ، وعن الصبيّ حتى يَشِبَّ، وعن المَعْتُوهِ حتى يَعْقِلَ**».

رواه أحمد (٩٤٠، ٩٥٦)، والترمذي في أول الحدود (١٢٩٣)، والحاكم (٣٨٩/٤)، والدارقطني (١٣٩/٣) بسند صحيح، ورواه أيضاً أحمد (١٣٢٧، ١٣٦٢)، وأبو داود (٤٤٠٢) بسند صحيح مع قصة لعليّ مع عمر رضي الله تعالى عنهما، وللحديث شواهد عن عائشة رواه أبو داود (٤٣٩٨)، والدارمي (٢٣٠١)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وابن الجارود (٨٠٨)، وابن حبان (٤٩٦)، والحاكم (٥٩/٢) وصححه الحاكم والذهبي.

وعن ابن عباس رواه أبو داود (٤٤٠١)، وابن حبان (١٤٩٧)، والحاكم بالقصة وسنده صحيح وصححه الحاكم والذهبي، وأصل القصة علقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب الطلاق (٣٠٠/١١)، وفي الحدود (١٣١/١)، فقال: باب لا يرجم المجنون ولا المجنونة، وقال عليّ لعمر: أما علمت أن القلم رُفع عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك، وعن النائم حتى يستيقظ. وتكلم عليه الحافظ فأجاد وأفاد.

قوله: حتى يشبّ ـ بفتح الياء وكسر الشين وتشديد الباء المفتوحة ـ أي: حتى يحتلم ويبلغ، وقوله: المعتوه أي: المجنون كما في رواية.

والحديث يدلّ على أن هؤلاء الأصناف غير مكلّفين ولا يُقتصّ منهم على ما جنوه في هذه الأحوال، وهذا مما لا ينبغي أن يُختلفَ فيه، ويأتي مزيد لهذا في الرجم. نعم اختلفوا في وجوب الدية على عاقلة الصبي المميز، والظاهر أنها لا تجب كما قال بذلك جمع من العلماء.

{١٤٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**العَجْمَاءُ جَرْحُها جُبارٌ، والبِئْرُ جُبَارٌ، والمَعْدِنُ جُبارٌ**».

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٦٩، ٢٨٢)، ومسلم في الحدود (١١/٢٢٥، ٢٢٦)، وأبو داود (٤٥٩٣)، والترمذي (١٢٤٨)، والنسائي في الكبرى (٢/٣٣ و٣/٤٢٤)، وابن ماجه (٢٦٧٣).

العجماء هي كل دابّة، سمّيت بذلك لأنها لا تتكلم، وقوله: جبار ـ بضم الجيم وفتح الباء المخفّفة ـ أي: هدر لا شيء فيه.

وظاهر الحديث أن ما أصابته الدابّة من جنايات لا ضمان فيه على صاحبها مطلقاً، وكذا من سقط في بئر لشخص أو سقط عليه ردم معدن، فكل ذلك لا ضمان فيه على من حفر البئر أو من أجّر غيره في استخراج معدن فسقط عليه ردمه، أو وقع في حفرته فمات، فإن جنايات كل هؤلاء غير مضمونة، وإليه ذهب الظاهرية. وقال الترمذي في الجامع في شرح هذا الحديث: فسر بعض أهل العلم قالوا: العجماء الدابة المنفلتة من صاحبها فما أصابت في انفلاتها فلا غرم على صاحبها، والمعدن جبار يقول: إذا احتفر الرجل معدناً فوقع فيه إنسان فلا غرم عليه، وكذلك البئر إذا احتفرها الرجل للسبيل فوقع فيها إنسان فلا غرم على صاحبها... وقيد الجمهور عدم الضمان بحديث البراء الآتي. وقال النووي في شرح مسلم (١١/٢٢٥): فأما قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**العجماء جَرْحُها جُبار**»، فمحمول على ما إذا أتلفت شيئاً بالنهار، أو أتلفت بالليل بغير تفريط من مالكها، أو أتلفت شيئاً وليس معها أحد، فهذا غير مضمون وهو مراد الحديث.

قال: فأما إذا كان معها سائق أو قائد أو راكب، فأتلفت بيدها أو برجلها أو فمها ونحوه وجب ضمانه في مال الذي هو معها، سواء كان مالكاً، أو مستأجراً، أو مستعيراً، أو غاصباً، أو مودعاً، أو وكيلاً، أو غيره، إلا أن تتلف آدمياً فتجب ديته على عاقلة الذي معها، والكفارة في ماله... والمراد بجرح العجماء إتلافها سواء كان بجرح أو غيره.

قال: قال القاضي ـ يعني عياضاً ـ: أجمع العلماء على أن جناية البهائم بالنهار لا ضمان فيها إذا لم يكن معها أحد، فإن كان معها راكب، أو سائق، أو قائد؛ فجمهور العلماء على ضمان ما أتلفته، وقال داود وأهل الظاهر: لا ضمان بكل حال إلا أن يحملها الذي هو معها على ذلك أو يقصده، وجمهورهم على أن الضارية من الدواب كغيرها على ما ذكرنا، الخ.

{١٤٨} ـ وحجّة الجمهور في تقييد هذا الحديث أو تخصيصه حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه، قال: كانت له ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل المواشي ما أصابت ماشيتهم بالليل.

رواه أحمد (٢٩٥)، وأبو داود (٢٥٦٩، ٣٥٧٠)، والنسائي، وابن ماجه (٢٣٣٢) وسنده صحيح، ولا يضرّ من أرسله ولذا قال الشافعي رحمه الله تعالى: أخذنا بحديث البراء لثبوته ومعرفة رجاله، وقال ابن عبدالبرّ رحمه الله تعالى: هذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو مشهور حدّث به الثقات، وتلقّاه فقهاء الحجاز بالقبول.

وعلى أيّ: فالعمل عند الجمهور على التفصيل الذي أوردناه عن النووي... وقد ذكر البخاري في صحيحه (١٥/٢٨٠، ٢٨١) عن جماعة من السلف ما كانوا يضمنونه وما لا، فانظره.

{١٤٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**النَّارُ جُبَارٌ**».

رواه أبو داود (٤٥٩٤)، وابن ماجه (٢٦٧٦) بسند صحيح.

هذا مما لا ضمان فيه، وهو أن تندلع نار بلا قصد فيموت فيها شخص أو أشخاص أو تقع بسببها مفاسد في المواشي أو الأثاث... فلا ضمان على من اندلعت من عنده فهي كسوابقها، والله تعالى أعلم.

وهذا التشريع الإسلامي يخالف ما قَنَّنَتْهُ الدول الكافرة من ضمان كل ما ذكرناه وإحداثُهم لأجل ذلك شركاتِ التأمين المخالف لدينِ الله تعالى، والذي يَمْتَصُّون به أموال الناس ويأخذونها بدون أي مقابل غالباً، ففيه مخاطرة ومخادعة من الجانبين من الشركة، ومن روادها المؤمنين.

* * *

بيان العاقلة التي تؤدي الدية عن الجاني

{١٥٠} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى أن يَعْقِلَ عن المرأة عَصَبَتُهَا مَن كانوا، ولا يَرِثُوا منها إلا ما فَضَل عن ورثَتِهَا، وإن قتلَتْ فعقْلُها بين ورَثَتِهَا وهم يَقْتلون قاتِلها.

رواه أبو داود (٤٥٦٤)، والنسائي (٣٨/٨)، وابن ماجه (٢٦٣٠، ٢٦٤٧) بسند حسن، ويأتي في الديات مطولاً، وستأتي أحاديث في الديات تؤيّده وهي في الصحيحين وغيرهما.

قوله: عصبتها ـ بفتحات ـ هم الورثة يطلقون على من يرث عن كلالة، كما يطلقون على من يرث بلا فرضية، والمراد بهم هنا مطلق الورثة سواء كانوا يرثون بالفرضية أم بالتعصيب، وسواء كانوا يرثون بالنسب أم بالسبب، وقوله: «فعقلها» العقل هو الدية.

والحديث يدلّ على أن عصبة القتيل هم أحق بطلب دمه، وأنهم الذين يؤدّون الدية عمن جَنَى منهم، وهذا لا خلاف فيه كما يأتي إن شاء الله تعالى في موضعه في الديات.

* * *

{١٥١} ـ عن سهل بن أبي حثمة ورافع بن خَدِيج رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا: خرج عبدُالله بن سهل بن زيد ومُحَيِّصَة بن مسعود بن زيد حتى إذا كانا بخيبر تفرّقا في بعض ما هنالك، ثم إذا مُحَيِّصَة يجِدُ عبدَالله بن سهل قتيلاً فدفَنَه، ثم أقبل إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو وحُوَيّصة بن مسعود وعبدالرحمٰن بن سهل وكان أصغر القوم، فذهب عبدالرحمٰن ليتكلّم قبل صاحبيه، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«كبّر الكُبْر في السنّ»**، فصمت فتكلم صاحباه وتكلم معهما، فذكروا لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مقتل عبدالله بن سهل، فقال لهم: **«أتحلفون خمسين يميناً فتَسْتَحِقُّون صاحبكم أو قاتِلكم»**؟ قالوا: وكيف نحلف ولم نشهد، قال: **«فتبرئكم يهودُ بخمسين يميناً»**؟ قالوا: وكيف نقبل أيمان قوم كفار، فلما رأى ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطى عَقْلَه.

وفي رواية: فأُتِيَ مُحيِّصَة فأُخْبِرَ أن عبدالله بن سهل قد قتل وطرح في فقير أو عين، فأتى يهود فقال: أنتم والله قتلتموه، قالوا: والله ما قتلناه... وفيه: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إمّا أن يَدُوما صاحِبكم، وإما أن يُؤْذِنُوا بحرب»**، فكتب إليهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك، فكتبوا: إنا والله ما قتلناه... فوداهُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من عنده، فبعث إليهم ناقة حتى أدخلت عليهم في الدار، قال سهل: لقد ركضتني منها ناقة حمراء.

وفي رواية: فقال لهم: **«تأتون بالبيّنة على من قتله»**؟ قالوا: ما لنا بيّنة... وفيه: فوداه مائة من إبل الصدقة.

رواه أحمد (٣/٤)، ومالك (١٦٩٦)، والبخاري في الديات (٢٥٣/١٥، ٢٥٥، ٢٦٤) وفي مواضع، ومسلم في القسامة (١٤٣/١١، ١٥٣)، وأبو داود (٤٥٢٠، ٤٥٢٣)، والنسائي (٦/٨، ١٠)، والترمذي (١٢٩٢)، وابن ماجه (٢٦٧٧) غير أن بعضهم رواه عن سهل دون رافع.

قوله: وطرح في فقير أي: بئر، وفقير النخل حفرة تحفر للفسيلة حول النخل، وقوله: كبّر، كبر، فيه إرشاد إلى أن الأكبر أحقّ بالكلام من الصغير، وقوله: «فتبرئكم» أي: يحلفون لكم فيبرؤونكم من الحلف.

والقسامة هي: أن يوجد قتيل في محلّةٍ لا يُدْرَى من قتلَه ويكون هناك لوْثٌ، واللّوث هي علامات يغلِب معها على القلب صدقُ المدَّعِي كأن يُوجد القتيلُ فيما بين قوم أعداء له أو لأهله... لا يخالطهم غيرهم كما حصل لعبدالله بن سهل بخيبر مع اليهود، فإن عداوتهم للمسلمين ظاهرة، ومن اللّوث أن يكون هناك جماعة في بيت أو صحراء ثم تفرّقوا عن قتيل أو وُجِدَ في ناحية قتيلٌ وثم رجل مُخْتَضَبٌ بدمه، فهذه كلها علامات يقال لها لوث يغلب على الظنّ معها صدق المدعي، وقد ذكر القاضي عياض في الإكمال (٤٥٠/٥، ٤٥١)، ونقله النووي (١٤٥/١١) جملة من أنواع اللوث فانظر ذلك، فإذا وجد ذلك ولم تكن هناك للمُدَّعِي بينة، يُحْكَم عليه بخمسين يميناً إن كان وحده وإن كان معه غيره تُوزَّعُ عليهم، فيحلفون أن فلاناً أو بَنِي فلان هم الذين قتلوا صاحِبَنا، فإذا حَلَفُوا اسْتَحَقُّوا دمَ صاحبهم، فيُسَلَّمُ إليهم المتَّهَمُ فيُقْتَصُّ منه، فإن امتنعوا من اليمين حلف المدَّعَى عليه أو المدَّعَى عليهم خمسين يميناً كذلك على أنهم ما قتلوا وما علموا ذلك، هكذا حَكَم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين أهل القتيل الأنصاري وبين اليهود، لكن أولياء القتيل لم يقبلوا ذلك واعتذروا للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بما في الحديث بأنهم لم يشهدوا القتل، وبأنّ خصومهم يهود فلا يقبلون أيمانهم، فأدّى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ديته من إبل الزكاة، فانتهت المشكلة.

وقد عمل بهذه القسامة جمهور الأئمّة والعلماء، قال القاضي عياض في الإكمال (٤٤٨/٥): حديث القسامة المذكور أصل من أصول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام، وركنٌ من أركان مصالح العباد، وبه أخذ كافة الأئمّة والسلف من الصحابة والتابعين، وعلماء الأُمّة، وفقهاء الأمصار من الحجازيين والشاميين والكوفيّين وإن اختلفوا في صورة الأخذ به، الخ.

ثم اختلف الأئمّة فيمن يبدأ بالقسامة، فقال مالك والشافعي وأحمد

والجمهور يبدأ المدعون ورثة القتيل كما حكم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأن جانبهم صار قوياً باللّوث، قال مالك رحمه الله تعالى: الذي أجمعت عليه الأئمّة قديماً وحديثاً أن المدعين يبدؤون في القسامة... ثم إن الحكم بالقسامة والبداءة بيمين المدعين لا يعارض حديث: **«البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه»**، فكل من الحكمين أصل من أصول الحكم والقضاء، فيعمل بهما معاً، وحديث «البينة على المدعي» الخ، وإن كان عاماً فيخصص بحديث القسامة. يبقى الأمر في أداء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دية قتيل الأنصار من إبلِ الصدقة، ولم يقض بالبَتّ على أحد الطرفين، وأجاب النووي وغيره على ذلك: إنما وداه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قطعاً للنزاع، وإصلاحاً لذات البين، فإن أهل القتيل لا يستحقون إلا أن يحلفوا، أو يستحلفوا المدعى عليهم وقد امتنعوا من الأمرين وهم مكسورون بقتل صاحبهم، فأراد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جبرهم وقطع المنازعة وإصلاح ذات البين بدفع ديته من عنده، والله تعالى أعلم. وفي باب القسامة فروع للفقهاء، انظرها في كتب الفقه ومطولات شروح الحديث.

* * *

القسامة كانت معمولاً بها في الجاهلية

{١٥٢} ـ عن رجل من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من الأنصار أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«أَقَرَّ القَسَامَةَ على ما كَانَ عليه في الجاهِلِيَّة»**.

رواه مسلم (١٥٢/١١)، والنسائي (٥/٨) كلاهما في القسامة، وفي رواية للنسائي: إن القسامة كانت في الجاهلية فأقرها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على ما كانت عليه في الجاهلية، وقضى بها بين أناس من الأنصار في قتيل ادّعوه على يهود خيبر.

{١٥٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أول قسامة

كانت في الجاهلية كان رجل من بني هاشم استأجره رجلٌ من قريش من فخذ أحدهم، قال: فانطلق معه في إبله فمرّ به رجل من بني هاشم قد انقطعت عروة جُوالقه، فقال: أغِثْنِي بعِقال أشدُّ به عُرْوة جوالقي لا تَنْفِر الإبل، فأعطاه عقالاً يشدّ به عروة جوالقه، فلما نزلوا وعُقِلَتْ الإبلُ إلا بعيراً واحداً، فقال الذي استأجره: ما شأن هذا البعير لم يُعقلْ من بين الإبل؟ قال: ليس له عِقال، قال: فأين عقاله؟ قال: مرّ بي رجل من بني هاشم قد انقطعت عروة جوالقه فاستغاثني فقال: أغِثْني بعقال أشدّ به عروة جوالقي لا تنفر الإبل فأعطيته عقالاً، فحَذَفَه بعَصَا كان فيها أجله، فمرّ به رجل من أهل اليمن فقال: أتشهد الموسم؟ قال: ما أشهد وربما شهدتُ، قال: هل أنت مُبَلِّغٌ عني رسالةً مرة من الدهر؟ قال: نعم، قال: إذا شَهِدت الموسم فناد: يا آل قريش فإذا أجابوك فناد يا آل هاشم، فإذا أجابوك فسل عن أبي طالب فأخبره أن فلاناً قتلني في عقال، ومات المُسْتَأْجَر، فلما قدم الذي استأجره أتاه أبو طالب فقال: ما فعل صاحبنا؟ قال: مرض فأحْسَنْتُ القيام عليه ثم مات، فنزلت فدفنتُه، فقال: كان ذا أهل ذاك منك، فمكث حيناً ثم إن الرجل اليماني الذي كان أوصى إليه أن يبلغ عنه وافَى الموسم، قال: يا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هاشم، قالوا: هذه بنو هاشم، قال: أين أبو طالب؟ قال: هذا أبو طالب، قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة أن فلاناً قتله في عقال، فأتاه أبو طالب فقال: اختر مِنا إحدى ثلاثة: إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل، فإنك قتلتَ صاحبنا خطأً، وإن شئت يحلف خمسون من قومك أنك لم تقتلْه، فإن أبيتَ قتلناك به، فأتى قومه فذكر ذلك لهم فقالوا: نحلف، فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم قد ولدتْ له فقالت: يا أبا طالب أُحِبُّ أن تُجِيزَ ابني هذا برجل من الخمسين، ولا تُصْبِرْ يَمِينَه، ففعل، فأتاه رجل منهم، فقال: يا أبا طالب أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران، فهذان بعيران فاقبلْهُما عني ولا تصبر يميني حيث تُصْبَر الأيمان، فقبلهما، وجاء ثمانية وأربعون رجلاً حلفوا، قال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عينٌ تَطْرِفُ.

رواه البخاري في أيام الجاهلية (١٥٥/٨)، والنسائي في القسامة (٣/٨، ٤).

قوله: جوالقه ـ بضم الجيم وفتح الواو ـ الوعاء من جلود وثياب وغيرها، وقوله: عقال ـ بكسر العين ـ الحبل الذي يربط به المواشي، وقوله: ولا تصبر أصل الصبر الحبس، والمراد به هنا أي: لا تلزمه أن يحلف بأعظم الأيمان، وقوله: حيث تصبر الأيمان كانوا يحلفون بين الركن والمقام، وقوله: عين تطرف ـ بكسر الراء ـ كناية عن موت جميعهم.

الحديثان يدلان على أن القسامة كانت معمولاً بها في الجاهلية، فجاء الإسلام فأقرّها واعتبرها لما فيها من مصالح العباد، كما اعتبر النكاح الذي كان عندهم بخطبة وصداق وولي، واعتبر كثيراً من مناسك الحجّ، وكان لهم طلاق وظهار إلى غير ذلك، فأقرّ الإسلام ما فيه مصلحة العباد وأبطل ما سوى ذلك، وقد كانت لهم أخلاق كريمة اعتبرها الإسلام ورغب فيها وحضّ عليها.

وفي حديث ابن عباس وقصّته في الثمانية والأربعين رجلاً الذين حلفوا كذباً وموت جميعهم في ظرف سنة دليل على أن من حلف على يمين صبر لا بدّ وأن يعجل الله الانتقام منه، ولا سيما إن حلف عند حرمة من حرمات الله عزّ وجلّ كما وقع لهؤلاء، فإنهم حلفوا بين الركن والمقام فعجل الله تعالى بعقابهم؛ لأن الظلم عند الله عظيم، والمظلوم يأخذ الله تعالى حقّه وإن كان فاجراً أو كافراً، كما ورد في الصحيح كما يأتي ذلك مفصلاً في محله.

الديات

دية الخطأ وشبه العمد

{١٥٤} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«قضى أن من قُتِلَ خطأً فديتُه مائةٌ من الإبل ثلاثون بنتُ مخاضٍ، وثلاثون بنتُ لَبُون، وثلاثون جَذعةٌ، وعشرةٌ بنو لبون ذكر»**.

رواه أبو داود (٤٥٤١)، والنسائي (٣٨/٨)، وابن ماجه (٢٦٣٠) وسنده حسن.

{١٥٥} ـ وعنه رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ألا إن دِيةَ الخطإِ شِبْهِ العَمْدِ ما كان بالسَّوْط والعَصَا مائةٌ من الإبلِ، منها أربعون في بُطُونِها أولادُها»**.

رواه أبو داود (٤٥٤٧، ٤٥٨٨)، والنسائي (٣٦/٨)، وابن ماجه (٢٦٢٧)، وابن حبان (١٥٢٦)، وكذا أحمد (٦٥٣٣، ٦٥٥٢) وهو حديث صحيح لطرقه وشواهده.

{١٥٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من قُتِلَ في عِمِّيَا في رَمْي يكونُ بينهم بِحِجَارة، أو بالسِّياط، أو ضَرْبٍ بِعَصَا، فهُو خطأ وعَقْلُه عقْلُ الخطإِ، ومن**

قُتِلَ عَمْداً فهو قَوَدٌ، ومن حال دُونَه فعليه لعنةُ الله وغضَبُه، لا يُقبلُ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ».

رواه أبو داود (٤٥٣٩، ٤٥٤٠، ٤٥٩١)، والنسائي (٨/٨٥)، وابن ماجه (٢٦٣٥) بسند حسن صحيح.

قوله: عمياً ـ بكسر العين والميم المشددة المكسورة ثم ياء مفتوحة مشددة كذلك ـ وهي الأمر الذي لا يتبين وجهه أحقٌّ هو أم باطل.

قد قدمنا أن القتل ثلاثة أنواع: عمد، وشبه عمد، وخطأ؛ وبه قال الجمهور. وهذه الأحاديث تكشف عن ذلك حيث ذكر قتل الخطأ في الحديث الأول، وقتل الخطأ هو أن لا يقصد ضرب القتيل ولا قتله، فمن صدر منه ذلك وجبت عليه الدية وهي مائة من الإبل على نحو ما في الحديث تؤديها عاقلة القاتل كما يأتي، أو قيمتها كما يأتي. وقتل الخطأ وديته صرح به القرآن الكريم مع الكفارة حيث قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ الآية، وذكر خطأ شبه العمد في حديثي ابن عمرو وابن عباس وينشأ ذلك عن الضرب بعصا أو سوط، أو رمي بحجر ونحو ذلك مما لا يقتل عادة، ويكون الضرب مقصوداً، فهذا يعتبر شبه عمد؛ لأن القاتل تعمد ضرب القتيل بما لا يقتل ولم يقصد قتله، فكان من ناحية خطأ، ومن ناحية ثانية عمداً. وحكمه أن تدفع العاقلة ديته مُغَلَّظَةً لأولياء القتيل، وهي مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها أو قيمة ذلك كما سيأتي.

وفي سنن أبي داود (٤٥٥٤) عن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهما في المغلّظة؛ أربعون جذعةً خلِفَة، وثلاثون حقّة، وثلاثون بنات لبون، وفي الخطأ: ثلاثون حقّة، وثلاثون بنات لبون، وعشرون بني لبون ذكور، وعشرون بنات مخاض. وسنده صحيح، والدية المغلّظة تكون في القتل العمد، وشبه العمد. والأسنان المذكورة في الإبل تقدم معناها في الزكاة.

أما النوع الثالث وهو القتل العمد المقصود، ففيه القود والقصاص أو

الدية أو العفو على حسب اختيار أولياء القتيل وعصبته كما تقدم، وإن قبلوا الدية كانت مغلّظة كما في شبه العمد.

* * *

قيمة الدية على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فما بعده

{١٥٧} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كانت قيمَةُ الدِّية على عهدِ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثمانمائة دينارٍ، أو ثمانيةَ آلاف دِرْهَم، ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين، قال: فكان ذلك كذلك، حتى اسْتُخْلِفَ عُمر رضي الله تعالى عنه فقام خطيباً، فقال: ألا إن الإبل قد غَلَتْ، قال: فَفَرَضَها عُمر على أهل الذهب ألفَ دينارٍ، وعلى أهل الورق اثني عشر ألفاً، وعلى أهل البقرِ مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألْفَيْ شاة، وعلى أهل الحلل مائتي حلّة، قال: وترك دية أهل الذمّة لم يرفعها فيما رفع من الدية.

رواه أبو داود (٤٥٤٢)، ومن طريقه البيهقي (٧٧/٨) حديث حسن وله شواهد عن جابر وابن عباس عند أبي داود وغيره. وقال ابن شهاب ومكحول وعطاء: أدركنا الناس على أن دية الحر المسلم على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مائة من الإبل فقَوَّمَ عمرُ رضي الله تعالى عنه تلك الدية على أهل القرى ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، ودية الحرة المسلمة إذا كانت من أهل القرى خمسمائة دينار، أو ستة آلاف درهم، فإذا كان الذي أصابها من الأعراب فديتها خمسون من الإبل، ودية الأعرابية إذا أصابها الأعرابي خمسون من الإبل لا يكلف الأعرابي الذهب والفضّة. رواه الشافعي، ومن طريقه البيهقي (٧٦/٨) ورجاله ثقات غير مسلم بن خالد الزنجي، فقال فيه الحافظ: صدوق كثير الأوهام.

{١٥٨} ـ وعن ابن عُمر أيضاً قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم يُقَوِّمُ دية الخطأ على أهل القُرى: أربعمائة دينار أو عدلها من الورق يُقَوِّمُها على أثمان الإبل، فإذا غلت رفع في قيمتها وإذا هاجت رَخَصاً نقص من قيمتها، وبلغت على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما بين أربعمائة دينار إلى ثمانمائة دينار وعدلها من الورق ثمانية آلاف درهم، وقضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على أهل البقر مائتي بقرة، ومن كان دية عقله في الشاء فألفي شاة...

رواه أبو داود (٤٥٦٤)، والنسائي (٣٨/٨)، والبيهقي (٧٧/٨) وهو حسن لغيره.. حديث عبدالله المذكور يدلّ على أن الدية في الأصل مائة من الإبل، سواء كانت لقتل عمد أو شبه عمد أو خطأ، وهذا لا خلاف فيه وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقوّم ذلك بالذهب والفضة، وكان يجعل على أهل البقر مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، ثم لما كان زمن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وارتفع سعر الإبل قوّمها على أهل الذهب بألف دينار، وعلى أهل الفضّة اثني عشر ألف درهم، وعلى أهل البقر مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الثياب مائتي حلة، وبهذا قال كل الأئمّة أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم مع اختلاف يسير بينهم، وهٰهنا فروع وتفاصيل لا داعي لإيرادها، فلنكتف بهذا القدر الذي ذكرناه.

* * *

على من تجب تأدية الدية

{١٥٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قضى في جنين امرأة من بني لحيان بغُرَّةٍ عبدٍ أو أمةٍ، ثم إن المرأة التي قضى عليها بالغُرّة تُوفِّيَتْ، فقضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن ميراثَها لبنيها وزوجها وأن العقل على عصبتها.

وفي رواية: اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم، فقضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورثها ولدها ومن معهم.

رواه أحمد (٢/٢٣٦، ٢٧٤، ٤٣٨، ٥٣٩)، والبخاري (٦٩٠٩، ٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١)، وأبو داود (٤٥٧٦)، والترمذي (١٢٨٠)، والنسائي والدارمي (٢٣٨٧).

{١٦٠} ـ وعن المغيرة بن شعبة قال: ضربت امرأة ضرّتها بعمود فسطاط وهي حبلى فقتلتها، قال: فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دية المقتولة على عصبة القاتلة، وغرة لما في بطنها، وفي رواية: سأل عمر رضي الله تعالى عنه عن إملاص المرأة هي التي يضرب بطنها فتلقي جنيناً، فقال: أيكم سمع من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيه شيئاً؟ فقلت: أنا، فقال: ما هو؟ قلت: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**فيه غرة عبد أو أمة**» الخ.

رواه البخاري (٧٣١٧، ٦٩٠٥)، ومسلم (١٦٨٣)، وأبو داود (٤٥٦٨، ٤٥٦٩)، والترمذي (١٢٧٩)، والنسائي والدارمي (٢٣٨٥)، وابن الجارود (٧٧٨) وغيرهم.

قوله: عاقلتها هي جمع عاقل وهو دافع الدية وسمّيت الدية عقلاً لأن الإبل كانت تعقل وتربط بفناء ولي المقتول، ثم كثر استعمالها حتى أطلقت على الدية وإن لم تكن إبلاً، وعاقلة الرجل قرابته وعصبته من جهة الأب.

وهذه الأحاديث تدلّ على أن الدية حالة الخطأ يتحملها عصبة القاتل وأقاربه، وهو إجماع من العلماء لا خلاف فيه لثبوته في السنة المطهرة، وقد حكى الإجماع على ذلك ابن حزم في مراتب الإجماع، فقال: اتّفقوا على أن الديات تجب على من له عاقلة.

أما دية العمد، فعلى الجاني القاتل ولا يتحمّلها عصبته، وعليه أيضاً إجماع أهل العلم، قد يقال: إن تحمل العصبة للدية عن غيرها يخالفه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يجني جان إلا على نفسه**»، والجواب أن هذه الأحاديث مع الإجماع

خصص هذه الآية الكريمة لما في ذلك من المصلحة التي اعتبرها الشارع والله حكيم عليم يحكم ويفعل ما يريد، والكل من عنده تعالى.

وفي حديثي أبي هريرة والمغيرة فوائد زيادة على ما ذكرنا، ففيهما أن دية شبه العمد كدية الخطأ، وفيهما أن دية الجنين الذي سقط: عبد أو أمة.

* * *

دية جماعة قتلوا في زُبْيَةٍ

{١٦١} ـ عن حَنَش بن المُعْتَمِر عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى اليمن، فانتهينا إلى قوم قد بَنَوْا زُبْيَةً للأسَدِ، فبينما هم كذلك يتدافَعُون، إذ سقط رجلٌ فتعلَّق بآخَرَ، ثم تعلَّق الرَّجُلُ بآخَرَ، حتى صارُوا فيها أربعةً فجرَحَهُم الأسدُ، فانتدَبَ له رجلٌ بحربةٍ فقتله، وماتوا من جراحتهم كلُّهم، فقام أولياءُ الأول إلى أولياء الآخر فأخرجوا السلاح ليقتتلوا، فأتاهم عليّ رضي الله تعالى عنه على تَفِيئَةِ ذلك، فقال: تريدون أن تقتتلوا ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيٌّ إنّي أقْضِي قضاءً إن رضيتُم به فهو القضاءُ وإلا حجر بعضكم على بعض حتى تأتوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عَدَا بعد ذلك فلا حقّ له، اجْمَعُوا من قبائل الذين حفروا البئر رُبعَ الدية، وثُلُثَ الدِّية، ونِصْفَ الدية، والدِّيةَ كاملة، فللأول ربع الدية لأنه هلك من فوقه ثلاثة، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، وللرابع الدية كاملة، فأبوا أن يرضوا فأتوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو عند مقام إبراهيم فقصّوا عليه القصة، فأجازه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ وفي رواية: وجعل الدية على قبائل الذين ازدحموا.

رواه أحمد (١/٧٧، ١٢٨، ١٥٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/٤٤٨)، والبزار (١٥٣٢) مع كشف الأستار والبيهقي من طرق عن سماك عن حنش بن المعتمر عن عليّ به.

قال في المجمع (٢٨٧/٦): رواه أحمد وفيه حنش وثّقه أبو داود وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

قوله: زبية ـ بضم الزاي وسكون الباء بعدها ياء مفتوحة ـ هي حفرة تحفر ليقع فيها الأسد فيقتلونه، وقوله: تَفِيئَة ـ بفتح التاء وكسر الفاء ثم همزة مفتوحة ـ وهي الحِينُ والزمان.

وهذا الذي قضى به الإمام عليّ عليه السلام وصوّبه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأقرّه قضاء في غاية من العدالة استنبطه الإمام باجتهاده الصائب الذي هداه الله تعالى إليه، فجعل لكل من النفر الأربعة دية خاصة يأخذها أولياؤهم وعصبتهم، وللفقهاء تفاصيل في مثل هذه الحادثة في كتب الفقه فلا داعي للاشتغال بها.

* * *

دية الأطراف

{١٦٢} ـ عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كتب إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض، والسنن، والديات، وبعث به مع عمرو بن حزم فقرئت على أهل اليمن، هذه نسختها:

"من محمد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى شُرَحْبِيلَ بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال، والحارث بن عبد كلال، قَيْن ذِي رُعَيْن، ومَعافِر، وهَمْدَان.

أما بعد: وكان في كتابه أن من اعْتَبَطَ مُؤمناً قَتْلاً عن بيِّنَةٍ فإنه قَوَدٌ، إلا أن يَرْضى أولياءُ المقتول، وأنّ في النَّفْسِ الدِّيَة مائة من الإبل، وفي الأنف إذا أُوعِبَ جَدْعُه الديةُ، وفي اللسان الدية، وفي الشفتين الدية، وفي البيضتين الدية، وفي الذَّكَرِ الدية، وفي الصُّلْب الدية، وفي العينين الدية، وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمُومَة ثلث الدية، وفي الجائفة

ثلث الدية، وفي المُنَقِّلة خَمْسَ عشرة من الإبل، وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عَشْرٌ من الإبل، وفي السن خَمْسٌ من الإبل، وفي المُوضِحَة خمس من الإبل، وأن الرجل يُقتلُ بالمرأة، وعلى أهل الذهب ألفُ دينار.

وفي رواية: وفي العين الواحدة نصف الدية، وفي اليد الواحدة نصف الدية، وفي الرجل الواحدة نصف الدية».

رواه مالك في الموطأ (١٦٤٧)، وابن أبي شيبة (٣٩٦/٥)، والدارمي (٣٢٥٧)، وابن الجارود (٧٨٤)، والنسائي (٥١/٨، ٥٢، ٥٤)، وابن حبان (٧٩٣)، والحاكم (٣٩٥/١، ٣٩٧)، والدارقطني (٢٠٩/٣، ٢١٠)، والبيهقي (٢٨/٨، ٩٣) و(٨٩/٤) مطوّلاً ومختصراً بعضهم متصلاً وبعضهم مرسلاً، وهو حديث صحيح أشبه المتواتر كما قال الحافظ، وصححه جماعة من أهل الحديث منهم أحمد والحاكم وابن حبان والبيهقي، وقال الشافعي في الرسالة: لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم، واحتجّ به العلماء واعتمدوا ما فيه أنه كتاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقال ابن عبدالبرّ: هذا كتاب مشهور عند أهل السِّيَر معروف ما فيه عند أهل العلم يستغنى بشهرته عن الإسناد لأنه أشبه المتواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة.

قوله: شرحبيل.. ونعيم... والحارث كان هؤلاء من ملوك اليمن، وقوله: قين ـ بفتح القاف وسكون الياء آخره نون ـ هو الملك، وقوله: رعين ـ بضم الراء وفتح العين ـ ومعافر، وهمدان هي قبائل يمانية، قوله: اعتبط إلخ، يقال: مات فلان عبطة أي: صحيحاً وعبطته الداهية أي: نالته، ومعناه هنا القتل بلا سبب، وقوله: قود ـ بفتح القاف والواو ـ أي: قصاص، وقوله: إذا أوعى جدعه أي: قطع كلّه، وقوله: وفي البيضتين أي: الخصيتين، وقوله: وفي الصلب ـ بضم الصاد وسكون اللام ـ عظم في الظهر ذو فقار يمتد من أعلى الظهر إلى أسفله، ومنه ينحدر الدم الذي يتكوّن منه المني... وقوله: المأمومة هي الجرح الذي يصل إلى أم الدماغ، والجائفة الطعنة التي تصل إلى الجوف، والمنقلة ـ بضم الميم وفتح

النون وكسر القاف المشدّدة ـ هي الطعنة التي تنقل العظام عن أماكنها، والموضحة هي الشجّة التي تكشف العظم.

هذا الحديث الذي يتحدّث عن كتاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأهل اليمن قد اشتمل على فرائض وسنن وأحكام جنائية اقتصرنا منه على ما ذكر فيه من ديات الأطراف وما معها، وقد ذكر فيه نحو سبع عشرة دية كلها إلا قليلاً منها مجمع على العمل بها، وهي دية النفس مائة من الإبل، ومثلها الأنف إذا قطع كلّه، واللسان والشفتان، والخصيتان، والذكر، والصلب، والعينان، فالجناية على هذه الثمانية فيها الدية كاملة بالإجماع. أما ثلث الدية للمأمومة، والجائفة، ونصف الدية للعين الواحدة والرجل الواحدة واليد الواحدة، فمجمع عليه أيضاً يبقى المنقلة خمسة عشر جملاً، والموضحة خمسة أبعرة، وأصابع اليدين والرجلين عشرة أبعرة لكل أصبع، والأسنان خمسة لكل سن، فمذهب الجمهور عليه وهو الحقّ الذي دلّت عليه نصوص السنة النبوية. أما قتل الرجل بالمرأة، فنقل غير واحد الإجماع عليه لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، ولأدلة خاصة جاءت في السنة، وبهذا يعرف أن هذا الكتاب معتمد عليه ومعمول به إجماعاً، فصلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبارك على هذا النبيّ العظيم الذي أُوتِيَ الحكمة وجوامع الكَلِم وعلى آله وصحبه وذرّيته وزوجته.

{١٦٣} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال في المَوَاضِحِ: «خَمْسٌ، خَمْسٌ».

رواه أبو داود (٤٥٦٦)، والترمذي (١٢٦٠)، والنسائي (٥١/٨)، وابن ماجه (٢٦٥٥)، والدارمي (٢٣٧٧)، وابن الجارود (٧٨٦)، وحسنه الترمذي وصححه، وهو كما قال.

والمواضح جمع موضحة وهي الجراحة التي تكشف اللحم عن العظم، ففي ديتها خمس من الإبل.

{١٦٤} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**دِيةُ أصابعِ اليدين والرجلين سواءٌ، عشرةٌ من الإبل لكلِّ أصبُع**».

رواه أبو داود (٤٥٥٩، ٤٥٦٠، ٤٥٦١)، والترمذي (١٢٦١)، وابن حبان (٤٥٢٨) وحسّنه الترمذي وصححه وسنده عنده على شرط مسلم إلا يزيد النحوي وهو ثقة، ونحوه عن أبي موسى عند النسائي (٨/٥٠)، وأبي داود (٤٥٥٧)، وابن ماجه (٢٦٥٤).

{١٦٥} ـ وعنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**هذه وهذه سواء**»، يعني الخنصر والإبهام.

رواه البخاري في الديات (١٥/٢٤٧)، وأبو داود (٤٥٥٨)، والترمذي (١٢٦٢)، والنسائي (٨/٥٠).

الحديثان يدلاّن على أن دية الأصابع عشرة من الإبل لكل أصبع، سواء كانت الأصبع كبيرة أم صغيرة، وسواء كانت لليدين أم للرجلين، وبهذا قال جمهور الأئمّة.

{١٦٦} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الأصابعُ سواءٌ والأسنان سواءٌ الثَّنِيَّةُ، والضِّرْسُ سواءٌ، هذه وهذه سواءٌ**».

رواه أبو داود (٤٥٥٩)، وابن ماجه (٢٦٥٠)، وابن الجارود (٧٨٣) بسند صحيح.

{١٦٧} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**في الأَسْنَانِ خَمْسٌ خَمْسٌ**».

رواه أبو داود (٤٥٦٣)، والنسائي (٨/٤٩)، والدارمي (٢٣٨٠)، والبيهقي (٨/٨٩) وسنده حسن أو صحيح.

وما في هذين الحديثين من دية الأسنان خمسة من الإبل لكل سنة، هو قول عامة العلماء وجمهورهم، ولا عبرة بمن قال غير ذلك.

{١٦٨} ـ وعنه أيضاً قال: «**قضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في العَيْنِ القائِمَةِ السَّادَّةِ لِمَكانِهَا بِثُلُثِ الدِّيَة**».

رواه أبو داود (٤٥٦٧)، والنسائي (٤٩/٨) وزاد: وفي اليد الشَّلاَّء إذا قُطِعَتْ بثُلُثِ ديتها، وفي السِّنِّ السَّوْدَاءِ إذا نُزِعَتْ بثلثِ ديتها، وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

قوله: العين القائمة السادة لمكانها يعني العين القائمة صورتها ولكنها لا تبصر، وقوله: «اليد الشلاّء» يعني بها عاهة الشلل عياذاً بالله تعالى.

والحديث يدلّ على أن الجناية على أصحاب هذه العاهات توجب ثلث الدية.

* * *

دية أهل الذمّة

{١٦٩} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**عقلُ الكافر نصفُ ديةِ المسلم**»، وفي رواية: «**قضى أن عَقْل أهلِ الكتابين نصفُ عَقْلِ المسلمين وهم اليهود والنصارى**»، وفي رواية: «**ودية أهل الكتاب يومئذ النصفُ من دية المسلم**» الحديث.

رواه أبو داود (٤٥٨٣)، والنسائي (٤٠/٨)، والترمذي (١٢٨٣)، وابن ماجه (٢٦٤٤)، وحسنه الترمذي وصححه ابن الجارود، وكذا رواه أحمد (١٨٠/٢، ١٨٣، ٢٢٤) من طرق وألفاظ وسنده حسن وحسّنه الترمذي.

الحديث يدلّ على أن دية أهل الذمّة من أهل الكتاب على النصف من دية المسلم، فلا يجوز التسوية بين المسلم والكافر فيها، كما لا يجوز قتل المسلم بالكافر، وهذا مما لا ينبغي العمل بغيره.

* * *

خاتمة

قد وردت آثار عن الصحابة وغيرهم في دية أطراف أخرى لم يرد فيها شيء عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد ذكر جملة منها ابن أبي شيبة في المصنف والبغوي في شرح السنّة وغيرهما، وليس إيراد ذلك من شرطنا، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

الحدود

الترغيب في إقامة حدود الله تعالى

{١٧٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ «**إِقَامَةُ حَدٍّ في الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»، وفي رواية: «**خير من أن يُمطروا ثلاثين أو أربعين**».

رواه أحمد (٣٦٢/٢، ٤٠٢)، والنسائي (٦٨/٨)، وابن ماجه (٢٥٣٨)، وابن الجارود (٨٠١)، وأبو يعلى (٣٤٨/٥)، وابن حبان (١٥٠٧) من غير طريق بعضها صحيحة، وهي وإن كانت معلولة كما قيل، فإن للحديث شاهداً عن ابن عباس رواه الطبراني في الكبير والأوسط رقم (٤٧٦٢)، قال الحافظان المنذري والعراقي؛ بإسناد حسن، فالحديث حسن أو صحيح.

الحدّ: الأصل فيه ما يَفْصِلُ بين شيئين ليمنع اختلاطهما، وأطلق في الشرع على عقوبة من يأتي معاصي خاصة، كالزنا والقذف وشرب الخمر... ويطلق أيضاً على نفس المعاصي كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، والحدود التي وردت في الشريعة الإسلامية من المتفق عليه والمختلف فيه نحو سبعة عشر، وهي: الردّة، والحرابة، والزنا، والقذف به، وشرب الخمر، والسرقة، وجحد العارية، وشرب ما يسكر من غير الخمر، والقذف بغير

الزنا، والتعريض بالقذف، واللواط، وإتيان البهيمة، والسحاق، وتمكين المرأة القرد وغيره من الدواب من وطئها، والسحر، وترك الصلاة تكاسلاً، والفطر في رمضان. ذكرها الحافظ في الفتح (٦١/١٥)، وسيأتي هذا مفصلاً بإذن الله تعالى وعونه.

وحديث الباب يدلّ على بركة إقامة الحدود في الأرض وخيرها، وأن إقامة حدّ واحد منها خير للناس في دينهم ودنياهم من أن يمطرهم الله عزّ وجلّ لإقامة حياتهم أربعين يوماً، وذلك لما فيها من انتشار الأمن وصلاح المجتمع المسلم

* * *

استحباب التستر على من أتى حدّاً

{١٧١} ـ عن دُخَيْن كاتِب عقبة بن عامر قال: قلت لعقبة: إنّ لنا جيراناً يَشْرَبون الخمر وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذهم، فقال: لا تفعل ولكن عظهم، وتَهَدِّدهم، قال: ففعل فلم ينتهوا، قال: فجاءه دُخَيْنٌ فقال: إني نهيتُهم فلم ينتهوا وإنّي داعٍ لهم الشرط، فقال عقبة: ويْحَكَ لا تفعل، فإني سمعتُ رسول الله صَلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَا مَوْءُودَة من قَبْرِها»**، وفي لفظ: **«كانَ كَمَنْ أَحْيَا»**.

رواه أحمد (١٤٧/٤)، وأبو داود (٤٨٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٥٨)، والنسائي في الكبرى (٣٠٨/٤)، وابن حبان (٢٧٥/٢)، والحاكم (٣٨٤/٤)، والبيهقي (٣٣١/٨) وغيرهم، وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي وقال الحافظ المنذري: رجال أسانيدهم ثقات...

وسيأتي حديث أبي هريرة وابن عمر في ستر المسلم في الأدب إن شاء الله، وتقدم حديث أبي هريرة في العلم وكلاهما في الصحيح. وفي حديث الباب استحباب التستر على المسلم العاصي مع وعظه وتذكيره...

وهذا مشروط بما لم يكن فيه حق للغير وانتهاك للأموال والدماء والأعراض.

* * *

الغيرة على حرمات الله والانتقام لها

{١٧٢} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما خُيِّرَ النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بين أمرين إلا اختار أيْسَرَهُما ما لم يَأْثَمْ، فإذا كان الإثمُ كان أبعدَهُما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يُؤْتَى إليه قَطُّ، حتى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ الله فيَنْتَقِمُ لله تعالى، وفي رواية؛ ولا اقتصّ من رجل مظلمة إلا شيئاً من حدود الله تعالى، فليس يَتْرُكُ ذلك لأحدٍ.

رواه البخاري في الحدود (٩٢/١٥) وفي مواضع، وسيأتي في الشمائل مخرجاً مشروحاً.

قوله: ما خيّر الخ، المراد بالتخيير هنا في أمور الدنيا والدين، وكان يختار الأيسر تسهيلاً على الأُمّة لأنه قدوة لها، وفي الحديث مشروعية الانتقام لله تعالى إذا انتُهكت حرمة من حرماته، ومنها انتهاك ما يوجب الحدود فإنه من واجب ذوي السلطة أن ينتقموا لله عزّ وجلّ فيقيموا الحدود على منتهكي حرمات الله تعالى.

* * *

المنع من الشفاعة في الحدود والتساوي فيها بين الناس

{١٧٣} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن قريشاً أهمَّتْهُم المرأة المَخْزُوميّة التي سرَقت، فقالوا: من يُكلِّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومن يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فكلّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**أَتَشْفَعُ**

في حدٍّ من حدود الله»؟ ثم قام فخطب، فقال: «يا أيها الناس إنما ضَلَّ من كان قَبْلَكم أنهم كانوا إذا سَرَق الشريفُ تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحدّ، وأيْمُ الله لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سرقت لقطعَ محمدٌ يدَها»، وفي رواية: «لقطعت يدَها».

رواه البخاري في الحدود (١٥/٩٤، ١٠٢) والمناقب وغيرها، ومسلم في الحدود (١١/١٨٦، ١٨٧)، وأبو داود (٤٣٧٣)، والنسائي (٨/٦٥، ٦٧)، وابن ماجه (٢٥٤٧)، والترمذي (١٣٠٠) وغيرهم.

أهمّهم أي: أحزنهم وأقلقهم، «ومن يجترىء» أي: يتجاسر.

وفي الحديث مشروعية وجوب التساوي بين الناس في إقامة الحدود وتحريم المحاباة والمداهنة فيها والشفاعة في تركها، ووجوب العدالة والمساواة بين الشريف والوضيع، وبين العالم والجاهل والذكر والأنثى، وفيه أن عدم العدالة في إقامة الحدود من أسباب هلاك الأمم.

* * *

الحدود كفارات

{١٧٤} ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: كنّا عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مجلس، فقال: «بايعوني على أن لا تُشْرِكوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا» ـ وقرأ هذه الآية كلّها ـ فَمَنْ وَفَى مِنكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، «ومَن أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِب به فهو كَفَّارتُهُ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء غفرَ له، وإن شاء عذَّبه».

رواه البخاري في الحدود (١٥/٩٠) وغيره، ومسلم (١٧٠٩)، والترمذي (١٣٠٩) كلاهما في الحدود، والنسائي في البيعة وفي الإيمان وابن ماجه في الحدود والجهاد، وقد تقدم لنا في الإيمان.

قوله: فعوقب، يعني بحد من حدود الله يقام عليه.

وفي الحديث دليل على أن من أصاب شيئاً من الجنايات فأُقِيمَ عليه حدّ ذلك كان كفارة لتلك الجناية كائنة ما كانت، ومن ستره الله تعالى فلم يعلم به أحد غير الله فأمْرُه إليه تعالى في الآخرة إن شاء تجاوز عنه وغفر له بفضله، وإن شاء عذّبه وعاقبه بعدله.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: واجب لمن أصاب ذنباً فستره الله عليه أن يستر على نفسه ويتوب فيما بينه وبين ربّه، وكذلك روي عن أبي بكر وعمر أنهما أمرا رجلاً أن يستر على نفسه. ذكره الترمذي في الجامع، ويأتي ما ذكر عن أبي بكر وعمر في الأدب إن شاء الله تعالى.

{١٧٥} ـ وعن سيدنا عليّ عليه السلام عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: **«من أصابَ حدّاً فعُجِّلَ عُقوبَتَه في الدنيا فالله أعدلُ من أن يُثنِي على عبدِ العقُوبَة في الآخرة، ومن أصابَ حدّاً فسَتَرَه الله عليه وعفا عنه، فالله أكرمُ من أن يعود في شيء قد عفا عنه»**.

رواه الترمذي (٢٤٤٣)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والحاكم (٧/١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وسنده عند ابن ماجه صحيح على شرط مسلم ونحوه باختصار عن خزيمة بن ثابت عند أحمد (٢١٥/٥)، وسنده حسن صحيح لغيره.

قوله: أصاب حدّاً أي: ذنباً فيه عقوبة حدّ، وقوله: فعجل عقوبته أي: أقيم عليه الحدّ في الدنيا. والحديث كسابقه في أن الحدود كفارات لما يأتي صاحبها. كما فيه أن من ستره الله تعالى وغفر له إما لتوبة تابها أو لأعمال صالحة أتاها أو شمله عفو الله فضلاً منه تعالى، فهو تعالى أكرم من أن يعود في عفوه فيعذّبه في الآخرة.

* * *

جريمة الزنا والتنفير منها

{١٧٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم أنه قال: **«لاَ يَزْنِي الزَّانِي حينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يَشْرَبُها وهو مؤمن، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ»**.

رواه الحميدي (١١٢٨)، والبخاري في الحدود (٦٢/١٥) وفي المظالم والأشربة وغيرها، ومسلم في الإيمان (٥٤/١، ٥٥)، وأبو عوانة (١٩/١، ٢٠)، وأبو داود في الأشربة، والترمذي في الإيمان (٢٤٤٢) بتهذيبي وغيرهم.

قوله: لا يزني الزاني... وهو مؤمن، قال النووي: المحققون على أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان... لكن ما قال يخالفه ويعارضه حديث أبي هريرة نفسه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إذا زَنَى العبدُ خرَجَ منه الإيمانُ، فكان على رأسِهِ كالظُّلَّةِ، فإذا أَقْلَعَ رجَعَ إِلَيْهِ»**.

رواه أبو داود (٤٦٩٠)، والحاكم (٢٢/١) وسنده صحيح؛ فهذا نص في أن الإيمان يخرج منه ويكون فوق رأسه كشيء يظلّله، فإذا أَقْلَعَ عن ذلك الذنب عاد إليه إيمانُه، وأفضل ما فسّر القرآن والحديث بالوارد، وهذا لا يخالف ما جاء في حديث: «دخل الجنّة وإن زنى»... وحديث عبادة: «ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا» الخ، فإن هذه محمولة على ما بعد الزنا... والزاني قد يكون مقلعاً حالتئذ عن زناه ورجع إليه إيمانه... والله تعالى أعلم.

{١٧٧} ـ وعن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ **«مَا تَقُولُونَ في الزِّنا؟ قالوا: هُو حرامٌ، حرَّمهُ الله عزّ وجلّ ورسوله فهو حرامٌ إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٨/٦) بسند صحيح.

{١٧٨} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما ظَهَرَ في قَوْمٍ الرِّبَا والزِّنَا إلاَّ أَحَلُّوا بأنفُسِهِم عِقابَ الله عزّ وجلّ»**.

رواه أحمد (٤٠٢/١)، وأبو يعلى (٣١٤/٤) بسند صحيح.

{١٧٩} ـ وعن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن فَتَى شاباً أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله ائْذَن لي بالزِّنا، فأقبل القومُ عليه فزَجَرُوه وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: «ادْنُه»، فدنَا مِنه قريباً فقال: «اجْلِس»، فجلس فقال: «أَتُحِبُّهُ لأُمِّك»؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناسُ يُحِبُّونَه لأُمَّهَاتِهِم»، قال: «أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ»؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يُحبُّونه لِبَنَاتِهِمْ»، قال: «أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ»؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا النَّاس يُحِبُّونَهُ لأَخَواتِهِمْ»، قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ»؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا النَّاس يُحبُّونَه لعمّاتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك»؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم»، فوضع يده عليه وقال: «اللّهمّ اغفر ذنبه، وطَهِّر قلبه، وحصِّن فرْجَه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

رواه أحمد (٥/٢٥٦، ٢٥٧) وسنده صحيح على شرط مسلم.

جريمة الزنا من كبار الفواحش كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾، فهي من كبار الذنوب والمعاصي المحرّمة في جميع الشرائع الإلٰهيّة فلا تحل بحال، ومن أباحها كان مرتدّاً كافراً بإجماع المسلمين، وحديث ابن مسعود يدلّ على أن ظهور الزنا والرّبا في الناس من أسباب العقاب وهلاك الأُمم، وواقعنا أكبر شاهد على ذلك، فإن المسلمين، بل العالم اليوم لما تمالؤوا على التعامل بالربا وتعاطي الزنا جهاراً بدون حياء ولا مبالاة عمّهم الله عزّ وجلّ بأنواع من العقاب والعذاب والفتن والمشاكل التي لم يجدوا منها مخرجاً. أما قصة ذلك الفتى فعجيبة في وضعها، فإن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نفّره من الزنا وقبّحه في نفسه بمثال ضربه له لا يمكن له إنكاره، وهو أن الزنا الذي أراد الإذن فيه له من حضرة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يخرج عن وقوعه في أُمّهات الآخرين وبناتهم وأخواتهم وعمّاتهم وخالاتهم، وعلى هذا فكما أن الفتى يكره أن يفحش أحد بأهله وأقاربه ولا يحب أن تُنْتَهَكَ حرماتُه وعرضُه، فكذلك الناس، وبذلك أدرك الفتى قُبحَ الزنا وفُحْشَه، لكن حضرة

الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يكتفِ بهذا المثل في تنفير الشاب من هذه الجريمة، بل زاده دعواته المباركة، فاستجاب الله دعاءه فعاش حياته معصوماً من هذه الجريمة النكراء مع غفران ذنوبه.

وسيأتي لهذا الموضوع مزيد في البرّ والصلة والأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

حدّ الزاني البكر جلد مائة وتغريب عام

{١٨٠} ـ عن أبي هريرة وزيد بن خارجة رضي الله تعالى عنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أَنْشُدُكَ إلاَّ ما قَضَيْتَ لي بِكتابِ الله، فقال الخَصْمُ الآخَرُ، وهو أفقهُ منه: نعم، واقْضِ بيننا بكتاب الله وائْذَنْ لي، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«قُلْ»**، فقال: إنّ ابْنِي كان عَسِيفاً على هذا فزَنَى بامْرأتِهِ وإني أُخْبِرْتُ أنّ على ابني الرجمَ، فافْتَدَيْتُ منه بمائة شاةٍ ووليدةٍ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدَ مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجمَ، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«والذي نفسي بِيَدِهِ، لأَقْضِيَنَّ بينكُما بكتاب الله، الوليدُ والغنم ردٌّ، وعلى ابنِكَ جلدُ مائة وتغريبُ عام، اغْدُ يا أُنَيس على امرأة هذا فإن اعترفَتْ فارجُمْهَا»**، فغدا عليها فاعترفت فأمر بها فرُجِمَتْ.

رواه أحمد (١١٦/٤)، والبخاري رقم (٢٨٢٧، ٢٨٢٨، ٦٨٣١)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨)، وأبو داود (٤٤٤٥)، والترمذي (١٤٣٣)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٤١٤/٦)، وابن ماجه (٢٥٤٩)، ورواه البخاري في مواضع.

{١٨١} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم ضرب وغرّب، وأن أبا بكر ضرّب وغرّب، وأن عمرو ضرب وغرّب، رواه الترمذي (١٣٠٨)، والنسائي والحاكم بسند صحيح ولا يضرّ من أوقفه فإن الرافع ثقة فالحكم له.

العسيف هو الأجير، والوليدة الأَمَة، وقوله: «**لأقضينّ بينكما بكتاب الله**» يريد قوله تعالى في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، مع ما زاد على الآية من بيان في كون الإحصان يوجب الرجم.

والحديث يدلّ على وجوب إقامة حد الزنا على البكر الأعزب بجلد مائة جلدة، كالآية الكريمة مع تغريب الزاني عن بلدته عاماً كاملاً، وحديث ابن عمر يؤكد أن عمل الخلفاء كان على ذلك، وأنهم ضربوا وغرّبوا، وهذا لا خلاف فيه بين الأئمّة، بل هو إجماع من الصحابة فمن بعدهم، والمرأة كالرجل في ذلك، غير أن للعلماء تفاصيل في تغريب المرأة، كما أن الحديث يدلّ على أن الإحصان يوجب الرجم والقتل بالحجارة، وهذا أيضاً لا خلاف فيه إلاّ عن الخوارج، فإنهم ينكرونه ويأتي مزيد له قريباً.

وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «اغد يا أنيس.. فإن اعترفت فارجمها» مشروعية الوكالة في إقامة الحد، وفيه أن الرجم يثبت بالإقرار والاعتراف من الزاني.

* * *

حدّ الزاني الثيّب المحصن
الجلد والرجم

{١٨٢} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الله تعالى بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقَلْناها ووَعَيْنَاها، رجَم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورجمنا بعده، وأخْشَى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول

قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله تعالى، فيَضِلُّوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، والرجم في كتاب الله حقّ على من زنى إذا أَحْصَنَ من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة، أو كان الحَبَل أو الاعتراف، ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم).

رواه البخاري في الحدود (١٥/١٥٥)، ومسلم فيه أيضاً (١١/١٩١) وغيرهما.

قوله: فكان مما أنزل الله آية الرجم هي: «الشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارْجُمُوهُما البَتَّة»، والشيخ والشيخة: المحصن والمحصنة، وهذه الآية نسخ لفظها من القرآن، ولذلك لم يكتبها الصحابة فيه وبقي حكمها. والحديث يدلّ على ثبوت الرجم، وأنه كان قرآناً يتلى ورجم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ورجم خلفاؤه بعده إذا كان الزاني أو الزانية محصنين بأن تقدم لهما زواج صحيح مع البلوغ والعقل، ويثبت ذلك بالبيّنة أو الاعتراف أو حَبَل المرأة.

{١٨٣} ـ وعن عبادة بن الصمت رضي الله تعالى عنه قال: نزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ إلى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، قال: ففعل ذلك بهنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبينما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جالس ونحن حوله، وكان إذا نزل عليه الوحي أعرض عنّا وأعرضنا عنه، وتَرَبَّدَ وجهُه وكُرِبَ لذلك، فلما رُفِعَ عنه الوحي قال: «**خذوا عني، خذوا عني، خُذوا عني، قد جعل الله لهنّ سبيلاً، البِكرُ بالبكر جلدُ مائة، ونفيُ سنة، والثَّيِّبُ بالثَّيِّب جلدُ مائة ثم الرجمُ**».

رواه أحمد (٥/٣١٣، ٣٢٧) وفي مواضع، ومسلم في الحدود (١١/١٨٨)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٣٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٠)، وابن ماجه (٢٥٥٠)، والدارمي (٢٣٣٢) وغيرهم.

ترَبَّد وجهه أي: تغيّر حتى صار كلون الرماد، وقوله: كرب ـ بضم الكاف ـ أي: أصابه كرب وشدّة، والحديث يدلّ على أن الآية المذكورة منسوخة، فقد كان الحكم أولاً في المرأة إذا زنت أن تحبس في البيت حتى تموت أو يجعل الله لها السبيل في الخروج، فلما جاء الأمر بالحدّ رفع ذلك الحكم، وكان الواجب ما صرح به الحديث وهو جلد الزاني والزانية الأعزبين وهما البكر مائة جلدة لكل منهما مع تغريب عام، فإذا كانا ثيّبين أي: محصنين بأن كان قد سبق لهما أن تزوجا كان على كلٍّ منهما مائة جلدة ثم الرجم قتلاً بالحجارة.

هذا ظاهر الحديث، وقد ذهب إلى الجمع بين الجلد والرجم فيمن أحصن كثير من أهل العلم عملاً بهذا الحديث، والحديث التالي وهو:

{١٨٤} ـ وعن الشعبي رحمه الله تعالى قال: أُتِيَ عليٌّ عليه السلام بزَانٍ مُحْصن فجلَدَهُ يومَ الخَمِيس مائة جلدةٍ، ثم رَجَمَهُ يومَ الجُمعة، فقِيل له: جَمَعْتَ عليه حدَّيْن، فقال: جلدتُه بكتاب الله، ورجَمْتُه بسنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (١٢١/١)، والبخاري (١٢٨/١٥، ١٢٩)، والنسائي في الكبرى والحاكم (٢٦٤/٤).

فهذا الإمام عليّ جَمَعَ في الزاني المحصن بين الجلد والرجم وأخبر أنه جلده بالقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

ورجمه بسنّة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهي ما جاء في هذين الحديثين وغيرهما. ومع ثبوت الجمع بين الجلد والرجم، ذهب أكثر العلماء إلى أنه لا جلد على المحصن مع الرجم، وقالوا: إن الجلد منسوخ غير أن النسخ يحتاج إلى دليل. وأما الرجم بلا جلد، فأجمع عليه العلماء كافّة غير الخوارج وبعض المعتزلة. ويرجم الزاني المحصن إذا زنى عالماً بالتحريم مختاراً لا مكرهاً عاقلاً غير مجنون بالغاً غير صبي.

* * *

قصة رجم ماعز الأسلمي

{١٨٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في المسجد فناداه، فقال: يا رسولَ الله إني زنيتُ، فأعرضَ عنه، حتى ردَّدَ عليه أربعَ مرات، فلما شهِد على نفسه أربع شهادات دعاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**أبِكَ جُنُونٌ**»؟ قال: لا، قال: «**فهل أحْصَنْتَ؟**» قال: نعم، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اذْهَبُوا به فارْجُمُوهُ**».

رواه البخاري (١٤٨/١٥)، ومسلم (١٩٣/١١).

{١٨٦} ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت ماعز بن مالك جيء به إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو رجلٌ قصيرٌ أعضل ليس عليه رداءٌ، فشهد على نفسه أربع مرات أنه زنى، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فلعلك قبَّلْتَ**»؟ قال: لا والله إنه قد زنى الآخر، فرجمه ثم خطب فقال: «**ألا كلما نَفَرْنا غازين في سبيل الله خلفَ أحدُهم له نَبِيبٌ كَنبيب التَّيسِ يَمْنَحُ أحدُهم الكُثْبَة، أما والله أن يمكنني من أحدهم لأُنَكِّلَنَّهُ عنه**»، وفي رواية: «**تخلف رجل في عيالنا**» إلخ.

رواه مسلم (١٩٥/١١، ١٩٦)، وأبو داود.

{١٨٧} ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من أسلم يقال له ماعز بن مالك أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني أصبت فاحشةً فأَقِمْهُ عليَّ، فردَّه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مراراً، قال: ثم سأل قومه فقالوا: ما نعلم به بأساً إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يُقام فيه الحدّ، قال: فرجع إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأمرنا أن نرجمه، قال: فانطلقنا به إلى بَقِيعِ الغَرْقَد، قال: فما أوثقناه ولا حفرنا له، قال: فرميناه بالعظم، والمدر، والخزف، قال: فاشْتَدَّ واشْتَدَدْنَا خلفَه حتى أتى عرضَ الحَرَّةِ، فانتصَبَ لنا فرميناه بجلاميد الحرّة، يعني الحجارة حتى سكتَ، ثم قام رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم خطيباً من العشي، فقال: «**أوَ كلما انطلقنا غزاةً في سبيل الله تخلَّف رجلٌ في عيالنا له نَبِيبٌ كنبيبِ التِّنِسِ على أن لا أُوتَى برجلٍ فعل ذلك إلا نَكَّلْتُ به**»، قال: فما استغفر له ولا سَبَّه.

رواه مسلم (١١/١٩٧، ١٩٨).

{١٨٨} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: جاء ماعز بن مالك إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله طَهِّرني، فقال: «**ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه**»، قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهّرني، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه**»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهّرني، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مثل ذلك حتى إذا كان في الرابعة قال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فيم أُطَهِّرُكَ**»؟ فقال: من الزنا، فسأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أبه جنون**»؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «**أشَرِبَ خمراً**»؟ فقام رجل فاسْتَنْكَهَهُ فلم يجد منه ريحَ خمرٍ، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أزنيتَ**»؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهم جلوس فسلّم ثم جلس، فقال: «**استغفروا لماعز بن مالك**»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد تَابَ تَوْبةً لو قُسِمَتْ بين أُمَّةٍ لوسِعَتْهُمْ**».

رواه مسلم (١١/١٩٩، ٢٠١).

{١٨٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أتَى ماعز بن مالك النبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال له: «**لعلَّك قبَّلتَ، أو**

غَمَزْتَ، أو نَظَرْتَ»؟ قال: لا يا رسول الله، قال: «أنكتها لا يكْنِي»، قال: نعم، فعند ذلك أمر برجمه.

رواه أحمد (١/٢٧٠، ٢٨٩، ٣٢٥)، والبخاري في المحاربين (١٥/١٤٧).

قوله: «أحصنت» أي: تزوجت، «أبك جنون» أي: عاهة من أثر الجنّ، «الكئبة» ـ بضم الكاف وسكون الثاء ـ القليل من اللبن أو غيره، «له نبيب» هو صوت التيس عند سفاده لأنثاه، «بقيع الغرقد» ـ بفتح الغين والقاف ـ هو مقبرة المدينة، «فما أوثقناه» أي: ما ربطناه، «لأنكلنّه» أي: أجعله عظة وعبرة، «أنكتها» ـ بكسر النون وسكون الكاف وفتح التاء ـ أي: وطئتها.

في هذه الأحاديث عن قصة رجم ماعز الأسلميّ فوائد فقهية نجملها في الآتي:

أولاً: لا يرجم المعترف بالزنا حتى يتحقق منه فعل ذلك، فللقاضي أن يستفسره عما صدر منه، فلعلّه يكون جاهلاً بالزنا أو بحكمه أو يكون مجنوناً فلا يلزمه الحد، فإذا صرح له بالواقع واعترف بما فعل ولو مرة نفذ فيه حكم الله تعالى. أما ردّ ماعز حتى شهد على نفسه أربع مرات، فكان ذلك لشبهة داخَلَتْ النبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أمره، ولذلك سأله: أبك جنون؟ أزَنَيْتَ؟ أشَرِبَ خمراً؟ فعل ذلك به للكشف عن حاله، فلما تبين له صدقه أمر برجمه، هكذا قال الجمهور فلم يروا وجوب الإقرار أربع مرات.

ثانياً: لا بدّ أن يُسأل الجاني عن حالته أمُحْصنٌ هو أم أعزب.

ثالثاً: فيها أن المجنون أو الجاهل أو اللامس والمُقَبّل لا حد عليهم، وهذا لا خلاف فيه.

رابعاً: لا يشرع ربط المرجوم بل يحفر له حفرة إلى صدره يرجم فيها كما في رواية لبريدة، ويأتي مثل ذلك للغامدية.

خامساً: يرجم بالحجارة والمدر والخزف ونحو ذلك، ونقل بعضهم الاتفاق على عدم مشروعيّة قتله بغير ذلك.

سادساً: ينبغي للقاضي أن يردّ إقرار الجاني بالزنا إذا تراجع عن إقراره ويلقنه الرجوع عن ذلك واستغفار الله عزّ وجلّ.

سابعاً: في رواية عند الترمذي وابن ماجه: «**هلاّ تركتموه، لعله أن يتوب فيتوب الله عليه**»، فيه دليل على أن من رجع عن قوله يترك ولا يحدّ، فإذا تاب إلى الله وندم على ما فعل غفر الله تعالى له وسقط عنه الرجم.

ثامناً: الزنا والرجم لا يمنعان من الصلاة عليه، فقد جاء في رواية للبخاري فأمر به فرجم بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة فَرَّ فأدْرِكَ فَرُجِمَ حتى مات، فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خيراً وصلّى عليه.

تاسعاً: لقد تفضّل الله عزّ وجلّ على ماعز رضي الله تعالى عنه بتوبة خالصة عظيمة وعظيمة مع رجمه بالحجارة، وكل ذلك يدلّ على حسن مآله وغفران ذنوبه وسعادته.

عاشراً: قد يكون الذنب العظيم سبباً لسعادة المسلم ورضاء الله عنه، ولذلك قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بكم ولجاء بقوم آخرين فيُذْنِبُونَ فيستغفرونَ الله فيغفرُ لهم**»، رواه مسلم، ويأتي في البرّ والصلة، فالذنوب دواء للعجب والرعونات النفسانية، وفيها حكم بالغة لله تعالى.

❋ ❋ ❋

قصة الغامدية التي رجمها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{١٩٠} ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهّرني وأنه ردّها، فلما كان الغد

قالت: يا رسول الله لِمَ تَرُدُّنِي لعلَّك أن تردني كما رددت ماعزاً. فوالله إني لحُبْلَى. قال: «**إمالاَ فاذْهَبِي حتى تلِدي**»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «**اذْهَبِي فأَرْضِعيه حتى تفطميه**»، فلما فَطَمَتْهُ أتته بالصبي في يده كِسْرَةُ خُبْزٍ، فقالت: هذا يا نبيّ الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناسَ فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتَنَضَّح الدمُ على وجه خالد، فسبَّها فسمع نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سبّه إياها، فقال: «**مهْلاً يا خالدُ، فوالَّذِي نَفْسِي بيدِه لقَدْ تَابَتْ تَوبةً لو تابها صاحب مكس لغفر له**». ثم أَمَرَ فصلّى عليها ودفنت. وفي رواية: ثم جاءته امرأة من غامد من الأَزْدِ، فقالت: يا رسول الله طهّرني، فقال: «**وَيْحَك ارْجعي فاسْتغْفري الله تعالى وتُوبي إليه**»، فقالت: أراك تريد أن تردّني كما رددت ماعز بن مالك، قال: «**وما ذاك؟**» قالت: إنها حبلى من الزنا، فقال: «**آنت؟**» قالت: نعم، فقال لها: «**حتى تضعي ما في بَطْنك**»، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: «**إذاً لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يُرضعه**»، فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعُه يا نبيّ الله، قال: فرَجَمَها.

رواه مسلم في الحدود (١١/٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣).

{١٩٩} ـ وعن عِمْران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه أن امرأة من جُهَيْنَة أتت نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهي حبلى من الزنا، وفي رواية: اعترفت عنده النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالزنا، وقالت: أنا حُبْلَى، وقالت: يا نبيّ الله أصبتُ حدّاً فأقِمْهُ، فدعا نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وليّها، فقال: «**أحْسِنْ إليها، فإذا وضعتْ فائْتِني بها**»، ففعل فأمر بها نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فشدّت عليها ثيابُها ثم أمر بها فرُجِمَتْ، ثم صلّى عليها، فقال له عمر: تصلّي عليها يا نبيّ الله وقد زنت؟ فقال: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسمَتْ بين سبعين من**

أهل المدينة لوسعتهم، وهل وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بنفسها لله تعالى».

رواه مسلم في الحدود (١١/٢٠٤، ٢٠٥)، وأبو داود (٤٤٤٠)، والترمذي (١٣٠٥)، والنسائي وابن ماجه (٢٥٥٥)، والدارمي (٢٣٣٠)، وابن الجارود (٨١٥).

قوله: صاحب مكسٍ هو بفتح الميم وسكون الكاف هو الجزء من المال الذي يؤخذ من أموال المسلمين التجّار، والمكاسُ هو الذي يتولى تعاطي ذلك.

في الحديثين أن الرجم يثبت بالاعتراف والحَبَل، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، وفيهما أن الحبلى من الزنا لا ترجم حتى تضع حملها وترضعه وتفطمه، ويَكْتَفِي في غذائه بالطعام، وفيهما وجوب الإحسان إلى الزانية المعترفة بزناها النادمة على ما صدر منها، وأنه لا يجوز شتمها ولا الإساءة إليها؛ لأنها بشر معرّضة للذنوب كالرجل، وقد تثور عليها شهوتها فلا تستطيع قهرها، والعصمة من الذنوب مستحيلة في حق مطلق عامة الناس، وقد قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون**»، رواه الترمذي وغيره، وفيهما ذمّ سب المرجوم لأن ذلك يعتبر عوناً للشيطان على المسلم أو المسلمة، كما يأتي في الأدب، وفيهما حفر حفرة للمرأة إلى صدرها كالرجل مع جمع ثيابها وشدّها عليها عند الرجم لئلا تتكشف فتبدو سوأتاها وما يحرم ظهوره منها عند اضطرابها، وفيهما مشروعية الصلاة على المرجومة كالرجل وتولي المسلمين دفنها، وفيهما صدق هذه الغامدية في توبتها وندامتها على ما فعلت، فإنها مكثت قرابة ثلاث سنين بعد تسليمها نفسها للرجم ولم تتراجع عن ذلك طوال هذه المدّة، وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ لغُفر له**»، دليل على أن المكس من كبار الذنوب وفواحشها، وأن المكاس لو تاب من تعاطي أخذ المكوس تاب الله تعالى عليه، وفي الحديثين غير ذلك من الفقه.

❋ ❋ ❋

مشروعية رجم اليهود إذا تحاكموا إلينا

{١٩٢} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم**»؟ فقالوا: نَفْضَحُهُم ويُجْلدُون، فقال عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه: كذَبْتُم، إن فيها الرجم، فأتَوْا بالتوراة فنَشَرُوها، فوضع أحدُهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارْفَعْ يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرُجِما، قال عبدالله: فرأيت الرجل يَجْنَأُ على المرأة يقيها الحجارة، وفي رواية: قالوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، ونُحَمِّلُهُمَا، ونُخالِفُ بين وُجُوهِهما ويُطافُ بهما.

رواه البخاري (١٥/١٨٢، ١٨٤)، ومسلم (١١/٢٠٨، ٢٠٩)، وأبو داود (٤٤٤٦)، والترمذي (١٣٠٦)، وابن ماجه (٢٥٥٦)، والدارمي (٢٣٢٦) كلهم في الحدود.

{١٩٣} ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: مُرّ على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيهودي مُحَمَّم مجلودٍ فدعاهم، فقال: «**هكذا تَجِدُون حدّ الزاني في كِتابكم؟**» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «**أنْشُدك بالله الذي أنزلَ التوراة على موسى أهَكذا تَجِدُون حدَّ الزاني في كتابكم؟**» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أُخبرك، نجدُه الرجم، ولكنه كَثُرَ في أشرافِنا فكُنَّا إذا أَخَذْنَا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقمْنا عليه الحدّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقِيمُه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجَلْد مكان الرجم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنِّي أوّل مَنْ أَحْيا أَمْرَك إذ أَمَاتُوه**»، فأمر به فرجم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يقول: ائتُوا محمداً صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

رواه مسلم (١١/٢٠٩، ٢١٠).

{١٩٤} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رجم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجلاً من أسلم ورجلاً من اليهود وامرأته.

رواه مسلم (١١/١١٠) ونحوه عن جابر بن سمرة عند الترمذي (١٣٠٧)، وابن ماجه (٢٥٥٧) وحسّنه الترمذي.

في هذه الأحاديث مشروعية الحكم بين أهل الذمّة من اليهود والنصارى إذا ترافعوا إلى حاكمنا، وفي القرآن الكريم: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وبهذا قال عامّة العلماء. وفيها صحة أنكحة الكفار وأنها تحصن المتزوج منهم، ولذلك اعتبرها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرجم اليهوديين لإحصانهما، وفي حديث البراء دليل على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو أوّل من أحيا أمر الله تعالى في الرجم بعد أن أماته أهل الكتاب، كما في الحديثين تحريف اليهود حكم الله تعالى واستبدالهم بآرائهم الساقطة والسافلة، وما وقع من اليهود من الإعراض عن حكم الله تعالى الذي أتاهم في التوراة واستبدلوه بغيره حصل نفسه لهذه الأمة قديماً وحديثاً غير أنه قديماً كانوا يأخذون بآراء واجتهادات العلماء حسب ما استنبطوه من القرآن والسنة. أما أهل عصرنا، فنبذوا شريعة الإسلام وأحكامها جملة واحدة إلا نُتَفاً لا تُذكرُ، وأخذوا بديلها مَا شرعَه المُقَنّنونَ والمُشَرِّعُون من الأحكام الوضعية، فكانوا بذلك كاليهود، ولا فارق وينطبق عليهم قوله تعالى في اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

* * *

إقامة الحدّ على الإماء

{١٩٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا زنت أمةُ أحدِكُم فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عليها، ثم إن زنت فَلْيَجْلِدْهَا الحدّ ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثَّالِثة فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيبِعْها ولو بحبْلٍ من شَعَرٍ**».

رواه البخاري في المحاربين (١٥/١٧٩، ١٨٠) وفي مواضع، ومسلم (١١/٢١١)، والترمذي (١٣١١)، وباقي أهل السنن. وفي رواية للبخاري. سُئِل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: **إذا زنت فاجلدوها**، وقال في آخِرِهِ: ... ثم بيعوها ولو بضفير.

قوله: فتبيّن زناها أي: اتّضح وثبت **إما بإقرارها أو** ببيّنة أو رؤية السيد، وقوله: ولا يثرب ـ بضم الياء وفتح الثاء ثم راء مكسورة مشددة ـ أي: لا يعيرها.

وفي الحديث مشروعية حد الزنا على الإماء والعبيد، وأن للسيد أن يقيم الحدّ على عبده وأمَته، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء لصريح الحديث.

وفيه: أن حدّ العبيد والإماء الجلد سواء كانوا أبكاراً أم ثيبين ولا يرجمون، وبهذا قال سائر العلماء لا نعلم بينهم اختلافاً، وفيه أن من أتى حدّاً لا يعاتب ولا يُعنّف فلا يجمع فيه بين الحدّ والتعنيف، وفيه أن زنى الأمة أو العبد عيب أي عَيْب فلا يجمل بالمسلم أن يترك من كان كذلك تحت ملكه، وخاصة إذا تكرّر منه الزنا، بل عليه أن يبيعه ولو بأبخس ثمن كَحَبْلٍ من شعرٍ أو ضفيرٍ، وإذا كان زنى الرقيق عيباً فعليه أن يبيّنه للمشتري، ولا يكتم ذلك فإنه غش، ومن غش فليس منّا.

* * *

إقامة الحد على المريض وكيف ذلك

{١٩٦} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه خطب، فقال: يا أيها الناس أقِيمُوا الحُدُودَ على أَرِقَّائِكُمْ من أحْصَن منهم ومن لم يُحْصِنْ، وأن أَمَةً لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيتها فإذا هي حديثةُ عهدٍ بنِفاسٍ، فخشيت إن أنا جلدتُها أن أقتلها، أو قال: تموت، فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، فقال: «أَحْسَنْتَ اتْرُكْهَا حتى تَمائَلَ»، يعني حتى تبرأ.

رواه مسلم (٢١٤/١١)، وأبو داود (٤٤٧٣)، والترمذي (١٣١٠) وغيرهم.

في الحديث دلالة على أن العصمة من الذنوب من خصائص الأنبياء، وأن أقاربهم ومن يلوذ بهم من الخدم وغيرهم ليسوا كذلك، فقد تصدر منهم هفوات وزلأت ولا يضرّ ذلك الأنبياء ولا غضاضة فيه عليهم وهذا لا خلاف فيه، فليس في زنا أمَةِ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نقص له ولا طعن في عرضه، وهذان نوح ولوط عليهما السلام كان تحتهما زوجتان كافرتان وما ضرّهما ذلك. نعم اتّفق العلماء على أن زوجات الأنبياء لا يزنين، وفي الحديث عدم إقامة الحدّ على من كان مريضاً، بل يؤخر إلى أن يبرأ.

{١٩٧} ـ وعن رجل من الأنصار أنه اشتكى رجل منهم حتى أُضْنِيَ فصار جلدةً على عَظْم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهشّ لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجالٌ قومه يعودونه أخبرهم بذلك، وقال: استفتوا لي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإني قد وقعت على جارية دخلَتْ عليَّ، فذكروا ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضرّ مثل الذي هو به، لو حملناه إليك لتَفَسَّخَتْ عِظامُه، ما هو إلا جِلْدٌ على عظم.

وفي رواية عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: كان بين أبياتنا رُوَيْجِلٌ

ضعيف مُخَدَّج فلم يرع الحيَّ إلا وهو على أمة من إمائهم يَخْبُثُ بها، فذكر ذلك لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: **«اضربوه حدّه»**، قالوا: يا رسول الله إنه أضعف مما تحسِبُ، لو ضربناه مائة قتلناه، فقال: **«خذوا له عِثْكالاً فيه مائة شِمْراخٍ ثم اضربوه به ضربةً واحدةً»**، قال: ففعلوا.

رواه أبو داود (٤٤٧٣)، والنسائي (٨/٢١٢، ٢١٣) بنحوه، وابن ماجه (٢٥٧٤) سنده حسن صحيح.

قوله: فهش لها أي: ارتاح، وقوله: لتفسخت أي: تكسّرت، وقوله: مخدج أي: ناقص الخلق، وقوله: فلم يرع أي: لم يفزعهم، وقوله: يخبث أي: يزني بها، وقوله: عثكالاً - بكسر العين وسكون الثاء - هو العذق من النخلة فيه عدة شماريخ جمع شمراخ، وهو الغصن الذي يكون عليه الثمر... والحديث من طريقيه يدلّ على أن من كان ضعيفاً يخاف عليه الموت إذا حدّ يجعل بدل مائة جلدة أن يضرب بحزمة أعواد فيها مائة عود ضربة واحدة ولا يترك بدون إقامة الحد، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بعباده.

* * *

حَدُّ من أتى أَحَد مَحارِمه

{١٩٨} - عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: لقيت عمي ومعه راية فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى رجلٍ نكح امرأة أبيه، فأمرني أن أضرب عنقه وآخذ ماله. وفي رواية: قال: بينا أنا أطوف على إبل لي ضلّت إذ أقبل رَكْبٌ أو فوارسُ معهم لواء، فجعل الأعراب يطيفون بي لمنزلتي من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذ أتوا قبة فاستخرجوا منها رجلاً فضربوا عنقه، فسألت عنه فذكروا أنه أعرَسَ بامرأة أبيه.

رواه أحمد (٤/٢٩٠، ٢٩٥)، وأبو داود (٤٤٥٧، ٤٤٥٦)، والترمذي

(١٢٣٣)، وابن ماجه (٢٦٠٧)، وابن حبان (١٥١٦)، والحاكم (٣٥٦/٤، ٣٥٧) وغيرهم من طرق، وسندا أبي داود أحدهما حسن والآخر صحيح. وحسنه الترمذي وصححه الحاكم والذهبي، والاختلاف الواقع فيه لا يضر لأن العمل على ما ثبت من الطرق وباقيها تطرح.

قوله: أعرس أي: دخل بها، وفي الحديث مشروعية قتل من نكح زوجة أبيه، وقاس العلماء على هذا كل المحارم كالأم والبنت والأخت والخالة والعمّة، فمن واقع واحدة من هؤلاء كان حدُّهُ القتل كالزنا، وبه قال الثلاثة مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى، وقوله في الرواية الأولى: وأخذ ماله يدل على إباحة ماله مع قتله زيادة في العقوبة والتنكيل، والله تعالى أعلم.

* * *

حُكْمُ مَنْ أُكْرِهَتْ على الزِّنا

{١٩٩} ـ عن وائل بن حُجر رضي الله تعالى عنه أن امرأة خرجت على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تريد الصلاة فتلقَّاها رجلٌ فتَجلَّلَها فقضى حاجَتَه منها، فصَاحَتْ فانطلق ومرّ بها رجل، فقالت: إن ذاك الرجلَ فعل بي كذا وكذا، ومرّت بعصابةٍ من المهاجرين فقالت: إن ذاك الرجلَ فعل بي كذا وكذا، فانطلقوا فأخذوا الرجل الذي قالت إنه وقع عليها، فأتوها فقالت: نعم هو هذا، فأتوا به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلما أمَرَ به لِيُرْجمَ، قام صاحبُها الذي وقع عليها فقال: يا رسول الله أنا صاحِبُها، فقال لها: **«اذْهَبِي فقد غَفَرَ اللهُ لكِ»**، وقال للرجل قولاً حسناً، وقال للرجل الذي وقع عليها: **«ارْجُمُوه»**، وقال: **«لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقُبِل منهم»**. وفي رواية لأحمد والبيهقي (٢٨٥/٨): قال عمر: أرجم الذي اعترف بالزنا؟ قال: لا، لأنه قد تاب لله... وفي آخره: فأرسلهم، يعني الرجلين والمرأة.

رواه أحمد (٣٩٩/٦)، وأبو داود (٤٣٧٩)، والترمذي (١٣٢٣) في الحدود وسنده صحيح على شرط مسلم وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: فتجلّلها أي: غشيها بثوبه ثم واقعها، والحديث يدلّ على أن من أُكْرِه على الزنا واغْتُصِب من ذكر أو أنثى لا حدّ عليه وأنه معفوٌّ عنه. وفيه أن اتّهام البَرِيء غلطاً لا حرج فيه، وفيه فضل ذلك الجاني المغتصب المرأة وإخلاصُه في توبته لشهادة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم له بذلك، وفيه أن الذنب لا يضرّ مرتكبه إذا تاب منه، وأنه لا يحطّ من قدره ومنزلته عند الله تعالى، وفيه أن أكابر الأولياء ومنهم الصحابة قد تصدر منهم كبائر الذنوب وفيه غير ذلك من الفوائد. واختلف في الرجل المغتصب هل حُدَّ أم لا؟ في الحديث روايتان وكلاهما صحيح وقد رجح قوم كلاً من الروايتين.

وفي معنى هذا الحديث قال البخاري في الإكراه من صحيحه **(١٥/٣٥٣، ٣٥٤)** باب إذا استكرهت المرأة على الزّنا فلا حدّ عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الليث: حدّثني نافع أن صفية ابنةَ أبي عُبيد أخبرته أن عبداً من رقيق الإمارة وقع على وليدة من الخمس فاستكرهها حتى اقتضها فجلده عمر الحد ونفاه ولم يجلد الوليدة من أجل أنه استكرهها، قال الزهري في الأمة البكر يفترعها الحر يُقيم ذلك الحكم من الأمة العذراء بقدر ثمنها ويجلد، وليس في الأمة الثيّب في قضاء الأئمّة غرم، ولكن عليه الحد.

الوليدة: الأمة. اقتضها: بسكون القاف، ويقال بالفاء، بمعنى أزال بكارتها، وقوله: يفترعها ـ بالفاء ـ هو معنى يقتضها، والحكم ـ بفتحتين ـ هو الحاكم، وقوله: وليس في الأمة الثيب غرم ـ بضم الغين ـ فيه نظر، بل في ذلك مذاهب للفقهاء، وقالوا: عليه غرامة بما استحلّ من فرجها إضافة إلى حدّه.

❋ ❋ ❋

جلد القذف

{٢٠٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزل عُذْري قام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على المنبر، فذكر ذاك

وتلا ـ تعني القرآن ـ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدَّهم.

رواه أبو داود (٤٤٧٤)، وابن ماجه (٢٥٦٧) ومن طريق آخر... وفيه حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ وسنده حسن، ومعناه صحيح متواتر.

قول الصديقة رضي الله تعالى عنها: لما نزل عذري، تعني لما نزل القرآن بتبرئتها مما رماها به المنافقون، وقرأ الآيات العشر التي نزلت في شأنها، نزل فأمر بإقامة حدّ القذف على ثلاثة من الصحابة، وهم حسان بن ثابت، ومسطح وهو ابن خالة أبي بكر، وحَمْنَة بنت جحش أخت زينب أمّ المؤمنين، وكان هؤلاء انساقوا مع المنافقين فتكلّموا في شأنها واغترّوا بكلام الماكرين والطاعنين في عرض بيت النبوّة، فأقام عليهم الحد الذي نطق بشأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ الآية، وكان هذا تشريعاً عاماً مستمراً، فمن رمى وقذف رجلاً أو امرأة بالزّنا وجب عليه إحضار البيّنة وهي أربعة شهداء عدول أنهم شاهدوا العملية محقّقة، فإن لم يأت بذلك ضرب ثمانين جلدة، وهذا الحكم مقطوع به، وقصة السيدة رضي الله تعالى عنها قد تقدمت في تفسير سورة النور في حديثها الطويل، فارجع إليه ولعله يأتي مرة أخرى في الغزوات، وجاء في القذف حديث الصحيحين: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»...، وفيه: «**وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»، وحديث: «**من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة**» الخ، ويأتيان في البرّ والصلة.

* * *

من قذف امرأة بنفسه فأنكرت

{٢٠١} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن رجلاً أتاه فأقرَّ عنده أنه زنى بامرأة سماها، فبعث

رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى المرأة فسألها عن ذلك، فأنكرت أن تكون زنت فجلده الحدّ وتركها.

رواه أبو داود (٤٤٦٦) بسند صحيح.

في الحديث أن من قذف امرأة بأنه زنى بها فأنكرت وجب عليه الحدّ لأجل القذف، ثم يبقى الأمر في إقراره بالزنا هل يصدق أم لا؟ الظاهر الأول فيحدّ للقذف والزنا معاً، والله أعلم. أما المقذوفة فلا شيء عليها إن أنكرت، لأن القاذف لم يقم عليها الحجّة الشرعية في ذلك.

* * *

من أصاب ذنباً دون الحد فيتوب

{٢٠٢} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: إني عالَجْتُ من امرأة من أقصى المدينة، فأصبتُ منها ما دون أن أمَسَّها، فأنا هذا فأقم عليّ ما شئت، فقال عمر: قد ستر الله عليك لو سترت على نفسك، فلم يرد عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فقال رجل من القوم: يا رسول الله ألَهُ خاصة أم للناس كافّة، فقال: «للناس كافّة».

رواه البخاري (٤٢٦/٩)، ومسلم (٧٩/١٧، ٨٠)، وأبو داود (٤٤٦٨)، والترمذي (٢٩١١)، والنسائي (٢٦٦/٦) كلاهما في التفسير، وابن ماجه (١٣٩٨) وقد تقدم مع غيره في التفسير، ويأتي مرة أخرى في البرّ والصلة إن شاء الله تعالى.

في الحديث بيان أن من قَبّل امرأة أو باشرها دون أن يواقعها لا يحدّ، ولا سيما إذا تاب، وهل يؤدّب أو يُعَزَّرُ؟ ليس شيء من ذلك في الحديث، بل لم يزد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذلك على قراءة الآية

عليه التي فيها: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، لأن الرجل لم يطالبه أحد بحقّه في المرأة، فإذا وجد مثل هذه القصة وعَلِمَ وليُّ المرأة أو قريبٌ لها وطلب حقَّه أُدِّبَ الجاني ولا بُدّ.

وفي الآية والحديث دليل على أن الحسنات، ومنها الصلاة تكفّر السيئات، يعني الصغائر، ودلّ ذلك على أن مباشرة المرأة الأجنبية ومسّها وتقبيلها كل ذلك من صغار الذنوب التي تكفّر باجتناب الكبائر، وبمطلق الحسنات، وقد تقدم بعض ما يتعلق بالحديث في التفسير، ويأتي مزيد لذلك في البرّ والصلة.

* * *

حكم من أقر بحدّ عند الحاكم ولم يوضح أمره

{٢٠٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت عند النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله إنّي أصَبْتُ حداً فأقِمْه عليَّ، قال: ولم يسأله عنه، قال: وحضرت الصلاة فصلّى مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما قضى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الصلاة قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدّاً فأقم فيَّ كتاب الله تعالى، قال: **«أليس صلّيت معنا»**؟ قال: نعم، قال: **«فإن الله تعالى قد غفر لك ذنبك»**، أو قال: **«حدّك»**.

رواه البخاري في الحدود (١٤٥/١٥)، ومسلم في التوبة (٨١/١٧) وغيرهما.

اختلف العلماء في هذا الحديث على قولين، قيل؛ المراد بالحد هنا الذي طلب الرجل من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إقامته عليه هو الحد المعروف، وإنما لم يحده لأنه لم يفسّره، والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يستفسره أيضاً إيثاراً للستر عليه، بل استحبّ تلقين الرجوع عن الإقرار بموجب الحد صريحاً، فعلى هذا يسقط الحد إن لم يفسّر،

وكان المستفتي قد تاب من ذلك الحد، وبهذا قال جمع.

وقيل: المراد بالحدّ المعصية الموجبة للتعزير وهي من الصغائر تكفر بالصلاة ونحوها، قال النووي في شرح مسلم: فقد أجمع العلماء على أن المعاصي الموجبة للحدود لا تَسْقُطُ حدودُها بالصلاة.

❋ ❋ ❋

حكم من يقع على بهيمة

{٢٠٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من وجدتمُوه وَقَعَ على بَهِيمَةٍ فاقْتُلُوهُ واقتلُوا البهيمة**»، فقيل لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ فقال: ما سمعت من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيئاً لكن أرى رسولَ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كره أن يوكَل من لحمها أو يُنتفعَ بها، وقد عُمِل بها ذاك العمل.

رواه أحمد (٢٤٢٠، ٢٩١٥) وفي مواضع، وأبو داود (٤٤٦٤)، والنسائي في الكبرى (٧٣٤٠)، والترمذي (١٣٢٤)، وابن ماجه (٢٥٦٤)، والحاكم (٤/٣٥٥، ٣٥٦) رووه مرفوعاً وموقوفاً وكلاهما حسن أو صحيح، وصححه الحاكم والذهبي.

ظاهر الحديث يدلّ على وجوب قتل البهيمة والذي أتاها.

وقد اختلف أهل العلم في عقوبة من أتى بهيمة بعد إجماعهم على تحريم ذلك، فذهب مالك والثوري وأحمد والشافعي في أظهر قوليه والحنفية إلى أنه يعزر فقط، وذهب آخرون إلى أنه يقتل مطلقاً، وبه قال ابن راهويه، وذهب فريق ثالث إلى أنه كالزنا حدّه كحد الزنا، وبه قال الحسن البصري، وهناك قول رابع أنه يجلد مائة أحصن أو لم يحصن.

❋ ❋ ❋

حكم فاعل عمل قوم لوط

{٢٠٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفاعلَ والمفعولَ بِهِ**».

رواه أحمد (٢٧٢٧، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٣٢٥)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والحاكم (٣٥٥/٤)، والبيهقي (٢٣٢/٨) بسند حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وله شاهد عن أبي هريرة رواه ابن ماجه (٢٥٦٢)، والحاكم (٣٥٥/٤) والقرآن يشهد لمعناه.

أجمع العلماء على تحريم فعل قوم لوط، وهو إتيان الذكور في أدبارهم، وقد سمّاه الله فاحشة فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ الخ، وأهلك تعالى أمة بأَتَمِّها كانت تتعاطى هذه الجريمة النكراء التي هي من أكبر الكبائر، قال الحافظ في الفتح (١٢٦/١٥): لا خلاف بين الأمة أن اللّواط أعظمُ إثماً من الزّنا.

وقد اختلف العلماء والأئمّة في حكم اللّواط، فذهب مالك والشافعي في قولٍ له، وأحمد إلى أنه يقتل الفاعل والمفعول به مطلقاً كما جاء في الحديث، وقال أبو حنيفة وابن حزم: حكمه التعزير والتأديب، واختلفوا في كيفية قتلهما، فقال بعضهم: يرجمان، وقال آخرون: يهدم عليهما البناء، وقال فريق ثالث: يرميان من شاهق جبل كما فعل بقوم لوط... وعلى أيٍّ، فظاهر الحديث يدلّ على قتلهما، ولا يهمّنا بماذا يقتلان وعلى أيّ كيفية يكون قتلهما، وعمل الصحابة في ذلك مختلف. ومع قبح هذه الجريمة وشناعتها ونكارتها نرى انتشارها انتشاراً ذريعاً في العالم الإنساني اليوم، حتى أباحها بعضُ الدول الكافرة، وأصبح لمتعاطيها الرسمي حقوقٌ معترفٌ بها من طرف الدولة، بل أصبح عندهم تزوُّج الذكر بأخيه أمراً عادياً، فكان ذلك منتهى السقوط والنذالة.

* * *

حُكْمُ السَّارق وحدُّه

{٢٠٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَة، فتُقْطَعُ يدُه، ويَسْرِقُ الحَبْلَ فتُقْطَعُ يدُه**».

رواه البخاري (٨٨/١٥)، ومسلم (١٨٥/١١) كلاهما في الحدود.

السرقة من كبار الذنوب لأن فيها اعتداء على أموال الآخرين وأخذها بغير حق، وهذا الحديث الشريف فيه ذمّ السرقة وتهجين أمرها والتحذير من سوء مغبّتها فيما قلّ أو كثر من المال، كأنه قال: إن سرقة الشيء اليسير الذي لا قيمة له كالبيضة المذرة، والحبل الخلق الذي لا قيمة له، إذا تعاطاه فاستمرّت به العادة لم ييأس أنه يؤدّيه ذلك إلى سرقة ما فوقها حتى يبلغ قدر ما تقطع فيه يده، أفاده الحافظ.

وأخذ بعضهم من الحديث جواز لعن المعين، وفيه خلاف يأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

تقطع يد السارق في ربع دينار أو قيمته

{٢٠٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ في رُبُعِ دِينَارٍ**»، وفي رواية: «**فَصاعِداً**».

رواه الطيالسي (١٥٣٢)، والبخاري (١٠٧/١٥، ١٠٨)، ومسلم (١٨١/١١، ١٨٢)، وأبو داود (٤٣٨٣، ٤٣٨٤)، والترمذي (١٣١٥)، وابن ماجه (٢٥٨٥)، والدارمي (١٣٠٥) وغيرهم.

{٢٠٨} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قطع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مِجَن قِيمَتُها ثلاثةُ دراهم.

رواه البخاري (١١٢/١٥)، ومسلم (١٨٤/١١).

{٢٠٩} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم تقطع يد سارق على عهد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في أدْنَى من ثمَنِ المِجَن، تُرْس أو حَجَفَةٍ، وكان كل واحد منهما ذا ثمن.

رواه البخاري (١١٢/١٥)، ومسلم (١٨٣/١١) وغيرهما.

قوله: مجن ـ بكسر الميم وفتح الجيم ـ هو الترس الذي يتقى به السيوف والرماح والنبال في الحرب على عادة الأقدمين، وهو الحجف ـ بفتح الحاء والجيم ـ إذا كان من جلود، وهو أيضاً الدَّرَقة بفتحات.

السرقة من كبار الذنوب وقد تقدم حديث: «**ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»، ونص القرآن على وجوب قطع يد كل من السارق والسارقة، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: عقابا من الله.

وبيّن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم القدر الذي إذا أخذه السارق قُطِعَتْ يدُه فيه، وهو ربع دينار وهو خمسة دراهم فضية، ورواية المجن الذي كانت قيمته ثلاثة دراهم جاء ذلك لاختلاف في القيمة، فأحياناً كان ربع دينار ذهبياً قيمته بالفضة خمسة دراهم، وأحياناً كان ثلاثة دراهم كما هو حاصل اليوم فسِعْر الذهب ارتفع جداً بينما سعر الفضة انخفض.

وبالقطع في ربع دينار أو قيمته، قال مالك والشافعي وأحمد والأكثرون ولا قطع في أقلّ من ذلك.

واشترط الجمهور للقطع أن تكون السرقة من حرز مع تستّر وقصد، والحرز هو كل ما يحفظ فيه الأموال.

* * *

ما يدلّ على اشتراط الحرز للقطع وبيان ما لا قطع فيه

{٢١٠} ـ عن صَفْوان بن أُمَيَّة رضي الله تعالى عنه قال: كنت نائماً في

المسجد عليَّ خَمِيصَةٌ لي ثَمَنُها ثلاثين درهماً، فجاء رجل فاخْتَلَسَها مني فأُخذَ الرجل فأُتِي به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأمر به ليُقطَعَ، قال: فأتيتُه، فقلت: أتقْطَعُه من أجل ثلاثين درهماً؟ أنا أبيعُهُ وأُنْسِئُه ثمنها، قال: «**فهَلاَّ كان هذا قبل أن تأتيني به**». وفي رواية: أنا أهبُهَا له أو أبيعُها، وفي أخرى: هو عليه صدقة.

رواه أبو داود (٤٣٩٤)، والنسائي (٨/٦٠، ٦١، ٦٢)، وابن ماجه (٢٥٩٥)، والحاكم (٤/٣٨٠) وصححه، وهو حديث صحيح صححه غير واحد.

{٢١١} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سُئِلَ عن الثَّمرِ المُعَلَّق، فقال: «**من أصاب بفيه من ذي حاجَةٍ غير مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فلا شيء عليه، ومن خرج بشيء منه فعليه غرامةُ مِثْليه والعقُوبةُ، ومن سرق منه شيئاً بعد أن يُؤْوِيه الجرينُ فبلغ ثمن المجن فعليه القطعُ**».

رواه أبو داود (٤٣٩٠)، والنسائي (٨/٧٨، ٧٩)، وكذا أحمد رقم (٦٦٨٣، ٦٧٤٦) بسند حسن.

{٢١٢} ـ وعنه أن رجلاً من مزينة أتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله كيف ترى في حريسة الجبل؟ فقال: «**هي ومثْلها والنَّكالُ، وليس في شيء من الماشية قطعٌ، إلا فيما آواه المُراحُ فبلغ ثمن المجن ففيه قطع اليد، وما لم يبلغ المجن ففيه غرامة مِثْليه وجلداتُ نكالٍ**»، قال: يا رسول الله كيف ترى في الثَّمرِ المُعَلَّق؟ قال: «**هو ومثْله معه والنكالُ، وليس في شيء من الثَّمر المعلق قطع إلا فيما آواه الجرين، فما أخذ من الجرين فبلغ ثمن المجن ففيه القطع، وما لم يبلغ ثمن المجن ففيه غرامة مثليه وجلدات نكال**».

رواه النسائي (٨/٧٩) بسند حسن، ورواه مالك في الموطأ (١٦١٧) مختصراً مرسلاً صحيحاً.

{٢١٣} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم قطعَ يدَ رجلٍ سرق تُرْساً من صُفَّة النِّساءِ ثمنه ثلاثةُ دراهم.

رواه أبو داود (٤٣٨٦)، والنسائي (٦٩/٨) بسند صحيح.

{٢١٤} ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولا كَثر**».

رواه أحمد (٤٦٣/٣)، وأبو داود (٤٣٨٨)، والترمذي (١٣١٩)، والنسائي (٨٠/٨، ٨١)، وابن ماجه (٢٥٩٣) بسند صحيح.

{٢١٥} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: ليس على خائن ولا مُنْتَهِبٍ ولا مُخْتَلِسٍ قطعٌ.

رواه أبو داود (٤٣٩١، ٤٣٩٣)، والترمذي (١٣١٨)، والنسائي (٨١/٨، ٨٢)، وابن ماجه (٢٥٩١)، والدارمي (٢٣١٥)، وابن حبان (١٥٠٢، ١٥٠٤) وحسّنه الترمذي وصححه وسنده صحيح على شرط مسلم، وانظر تهذيبي للجامع (١٣١٨).

في هذه الأحاديث أمور نجملها في الآتي:

أولاً: اعتبار الحرز في قطع يد السارق، والحرز هو الموضع الذي تحفظ فيه الأموال... فالمسجد حرز كما في حديثي صفوان وابن عمر والجَرين ـ بفتح الجيم وكسر الراء ـ وهو الموضع الذي تجمع فيه الثمار لتصفيتها حرزٌ، ومثله الأَنْدَرُ المُعَدُّ لدَرْسِ القمح والشعير وغيرهما من الحبوب، والمُراحُ ـ بضم الميم ـ الذي تأوي إليه المواشي حِرزٌ، وهذه كلها مذكورة في أحاديث الفصل، وذكر العلماء القائلون باشتراط الحرز في القطع وهم الأكثر كل ما في معنى ما ذكر مما يحفظ فيه الناس أموالهم.

ثانياً: في حديث صفوان عدم قبول الشفاعة في الجاني إذا رفع أمره إلى الحاكم. وقد جاء في ذلك غير ما حديث. ويأتي ذلك في الأدب.

ثالثاً: في حديثي ابن عمر ورافع بن خديج أن الأخذ من الثمار التي لا زالت في أشجارها لا قطع فيه.

رابعاً: في حديث ابن عمرو أن من أخذ منها للحاجة بلا حمل شيء منها فلا شيء عليه، فإن حمل خُبنة - بضم الخاء وسكون الباء ثم نون - وهي ما يحمل من الثمار وغيرها في ثوب ونحوه كان عليه غرامة مثلي ما أخذ مع عقوبة ونكال.

خامساً: في حديثي ابن عمرو أن الثمر الذي أواه الجرين فإن سرق منه ما يوجب القطع قطع، وإن كان أقلّ من ذلك ففيه غرامة مثليه مع جلدات.

سادساً: لا تقطع الأيدي في نحو كثر - بفتحتين - وهو جمار النحل وما أشبهه.

سابعاً: لا قطع على الخائن الذي يؤتمن على الشيء كوديعة ودين وغيرهما، فيخون أو يدعي الضياع ولا على منتهب - بضم الميم وكسر الهاء - وهو الذي يأخذ مال غيره قهراً أو غصباً، ولا على مختلس وهو الذي يأخذ أموال الآخرين بطريق الخفاء والاختلاس... وإنما لم يشرع القطع لهؤلاء لأن شرط ذلك أن يكون المال في حرز المالك، وهؤلاء لم يأخذوها كذلك علماً بأن عليهم عقوبات مع ضمان ما أخذوه.

❋ ❋ ❋

قطع اليد في العارية إذا جُحِدَت

{٢١٦} - عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت امرأة مخزومية تَسْتَعِيرُ المتاع وتَجْحَدُه، فأمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقطع يَدِهَا.

رواه مسلم وأبو داود (٤٣٧٤)، وتقدم مطولاً وفيه شفاعة أسامة رضي الله تعالى عنه.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مثله، رواه أبو داود (٤٣٩٥)، وأحمد (١٥١/٢)، والنسائي بسند صحيح.

في الحديث مشروعية قطع يد مَن يأخذ العرية ثم يجحدها وينكرها إذا

قامت عليه البيّنة، ويكون هذا الحديث مخصصاً لأحاديث شرط الحرز، فإن آخذ العرية لم يأخذها على أنها سرقة.

* * *

لا يشرع القطع في الغزو

{٢١٧} ـ عن بُسْر بن أرطاة قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا تُقطَعُ الأيدِي في الغزوِ**».

رواه أحمد (١٨١/٤)، وأبو داود (٤٤٠٨)، والدارمي (٢٤٩٥)، والترمذي (١٣٢٠)، والنسائي (٨٤/٨) من طرق بعضها صحيحة.

ذكروا في حكمة ترك إقامة الحدود في الغزو الخوف من الارتداد والالتحاق بالكفار، فكان ذلك من السياسة الشرعية التي كان ينهجها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شفقةً على أصحابه.

* * *

العمل بإقرار السارق وتلقينه ما يسقط عنه الحد

{٢١٨} ـ عن أبي أُمَيّة المخزومي أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بلصٍّ فاعترف اعترافاً ولم يوجد معه المتاعُ، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَا أخالُك سرقْتَ**»؟ قال: بلى مرّتين أو ثلاثاً، قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اقْطَعُوه ثم جِيئُوا به**»، قال: فقطعوه ثم جاءوا به فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قُلْ أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيهِ**»، فقال: أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إليه، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اللّهمّ تُبْ عليه**».

رواه أحمد (٢٩٣/٥)، وأبو داود (٤٣٨٠)، والنسائي (٦٠/٨)، وابن ماجه (٢٥٩٧)، قال الحافظ: رجاله ثقات، وهو وإن كان فيه مقال، فإن له

شاهداً رواه الدارقطني، ثم إن له آثاراً كثيرة عن الصحابة تؤيّده.

ما أخالك ـ بفتح الهمزة وضمّ اللام ـ أي: ما أظنّك.

وفي الحديث مشروعية تلقين السارق ما يكون سبباً في إسقاط الحدّ عنه بعد اعترافه، وإن تكرّر ذلك منه كما فيه قطع يده بالإقرار. والجمهور على أنه يشترط تكرار الإقرار، وفيه وجوب التوبة والاستغفار من السرقة، وأنه ينبغي للحاكم أن يرشده إلى ذلك، ثم يدعو معه بأن يتوب الله تعالى عليه.

* * *

توبة السارق

{٢١٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قَطَعَ يدَ امرأةٍ، قالت عائشة: وكانت تأتي بعد ذلك فأرْفَعُ حاجَتَها إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فتابت وحسُنَت توبتُها.

رواه البخاري (١١٧/١٥)، ومسلم (١٨٧/١١) كلاهما في الحدود.

الحديث يدلّ على أن السارق حتى ولو قطعت يده ينبغي له أن يتوب، وهذا لا خلاف في استحبابه والترغيب فيه، وإن كانت الحدود كفارات لما سلف، وقد تقدم في قصتي ماعز والغامدية أنهما تابا ثم رجما.

* * *

هل يقتل السارق

{٢٢٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جيء بسارق إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**اقتلوه**»، فقالوا: يا رسول الله إنما سرق، فقال: «**اقْطَعُوه**»، قال: فقطع ثم جيء به الثانية فقال: «**اقتلوه**»، فقالوا: يا رسول الله إنما سرق، فقال: «**اقْطَعُوهُ**»، قال: فقطع، ثم جيء به

الثالثة فقال: «**اقتلوه**»، فقالوا: يا رسول الله إنما سرق، قال: «**اقْطَعُوهُ**»، ثم أُتي به الرابعة، فقال: «**اقتلوه**»، فقالوا: يا رسول الله إنما سرق، قال: «**اقْطعُوه**»، فأُتي به الخامسة، فقال: «**اقتلوه**»، قال جابر: فانطلقنا به فقتلناه، ثم اجتررناه فألقيناه في بئر ورمينا عليه الحجارة.

رواه أبو داود (٤٤١٠)، والنسائي (٨٣/٨)، والبيهقي (٢٧٢/٨) وغيرهم، وللحديث طرق يحسن بها، بل بعضها على شرط الصحيح، كما قال أستاذنا في هداية الرشد (٦١٥/٨).

الحديث يدلّ على أن من سرق فقطعت يده ثم تكرّرت منه السرقة تقطع يده الأخرى ثم رجلاه، فإذا لم تبق له يد ولا رجل قتل في الخامسة، هذا هو ظاهر الحديث.

لكن قال الخطابي رحمه الله: ولا أعلم أحداً من الفقهاء يبيح دم السارق، وإن تكرّرت منه السرقة مرة بعد أخرى، هكذا قال، مع أنه قد قال بقتله بعد الرابعة جمع من العلماء، وأيّده ابن حزم ورجحه وتبعه جماعة من العلماء. ثم إن الفقهاء اتفقوا على أن القطع يكون أولاً لليمنى ثم اليسرى، كما اتّفقوا على أن اليد تقطع من الكوع، وفي الباب فروع لا نصّ فيها ليست من شرطنا.

* * *

حدّ الشارب

{٢٢١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ضرب في الخمر بالجَرِيد، والنِّعال، وجَلدَ أبو بكر أربعين، فلما كان عمر ودَنا الناسُ من الرِّيف والقُرى، قال: ما ترون في جلد الخَمْر؟ فقال عبدالرحمٰن بن عوف: أرى أن تَجْعَلَها كأخفّ الحدود، فجلَد عمر ثمانين.

رواه البخاري (٦٧/١٥)، ومسلم (٢١٥/١١، ٢١٦) واللفظ لمسلم.

{٢٢٢} ـ وعن حُصَيْن بن المنذر قال: شهِدتُ عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وأُتي بالوليد قد صلّى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدُكم، فشهد عليه رجلان أحدُهما حُمرانُ أنه شرب الخمرَ، وشهد آخر أنه رآه يَتَقَيَّأ، فقال عثمان: إنه لم يَتقيأ حتى شَرِبها، فقال: يا علي قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسَن فاجلده، فقال الحسن: ولِّ حارَّها من تولى قارّها، فكأنه وجد عليه، فقال: يا عبدالله بن جعفر قم فاجلده، فجلده وعليّ يَعُدُّ حتى بلغ أربعين، فقال: أمْسِكْ، ثم قال: جلد النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أربعين، وجَلَد أبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكلٌّ سنة، وهذا أحب إليّ.

رواه مسلم (١١/٢١٦، ٢١٧)، وأبو داود (٤٤٨٠).

{٢٢٣} ـ وعن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: كنا نُؤتَى بالشارب على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإمْرَة أبي بكر، وصَدْراً من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرْدِيَتِنا حتى كان آخر إمْرَة عُمر فجلد أربعين حتى إذا عَتَوْا وفسقوا جلد ثمانين.

رواه البخاري (١٥/٧٢، ٧٣).

قوله: «ولّ حارها من تولّى قارها»، معناه: ولِّ العقوبة والضرب من تُولِّيه العمل والنفع، والقارّ البارد.

بيان الخمر وحكمها وأنواعها... كل ذلك تقدم لنا في التفسير وفي الأشربة. أما الأحاديث المذكورة هنا، ففيها بيان حدّ الشارب. وحاصل ما جاء في ذلك أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثبت عنه أنه جلد أربعين جلدة ولم تكن له آلة خاصة للجلد ولا جلّادٌ واحد، بل كان الصحابة يضربونه بما تيسّر لهم من جريد النخل ونعالهم، بل وثيابهم، وهكذا كان الأمر على عهد الصدّيق وصدراً من خلافة الفاروق رضي الله تعالى عنهما، ثم لما فشا شربها أيامه جمع الصحابة فاستشارهم فأشار إليه بعض المهاجرين بأن أقلّ الحدود حدّ القذف وهو ثمانون، فأمر به وأجمع

عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فكان الأمر عليه عند الجمهور كأبي حنيفة ومالك وأحمد والأوزاعي والثوري وابن راهويه، ويرى الإمام عليّ عليه السلام كلاًّ من الأربعين والثمانين سنّة خاصة وأنه جاء التصريح عنه في الصحيحين أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يسنّه، يعني لم يجعل للشارب حدّاً خاصاً لا يُتَعَدَّى، ولذلك يرى جمع من الأئمّة أن ذلك يرجع إلى اجتهاد الحاكم، والذي نراه والله أعلم أن الأمر على ما قال الإمام عليّ وما فعله عمر رضي الله تعالى عنهما.

* * *

لا يجوز لعن شارب الخمر

{٢٢٤} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان اسمه عبدالله وكان يُلَقَّبُ حِماراً، وكان يُضحك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد جلده في الشراب، فأُتِي به يوماً فأمرَ به فجُلِد فقال رجلٌ من القوم: اللّهمّ الْعَنْهُ ما أكثر ما يُؤْتَى به، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تَلْعَنُوهُ فوالله ما علمتُ إلاّ أنّه يُحِبُّ الله ورسولَه»**.

رواه البخاري (١٥/٨١، ٨٢، ٨٣).

{٢٢٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُتِي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بسكران فأمر بضربه، فمنّا من يضربه بيده، ومنّا من يضربه بنعله، ومنّا من يضربه بثوبه، فلمّا انصرف قال رجل: ما له أخزاه الله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تَكُونُوا عَوْنَ الشيطانِ على أخيكم»**.

وفي رواية: **«لا تقولوا هكذا: لا تعينوا عليه الشيطان»**، ثم قال: **«بكِّتُوه»**، فأقبلوا عليه يقولون ما اتّقيتَ الله، ما خشيتَ الله، وما استحييتَ

من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم أرسلوه وفي آخره: قولوا: «**اللّهمّ اغفر له اللّهمّ ارحمه**».

رواه البخاري (١٥/٨٦، ٨٧)، وأبو داود (٤٤٧٧، ٤٤٧٨) وغيرهم.

وقوله: «بكّتوه» أي: عنّفوه ولوموه.

في الحديثين النهي عن لعن الشارب، وكذا غيره من العصاة، وأن المفروض أن ندعو معه بالرحمة والمغفرة، وأن لا نكون عوناً للشيطان عليه لأنه الذي أوقعه في فخ المعصية، فإذا دعونا عليه بما يوجب سخط الله وغضبه كنّا مؤيّدين للشيطان وناصريه عليه.

نعم لنا أن نعنفه ونلومه على ما صنع من غير أن نجرحه بالسبّ والشتم، وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه دليل على أن المعصية ولو كبرت لا تخرج الإنسان عن اتّصافه بمحبة الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبالتالي لا تخرجه من الإيمان خلافاً للخوارج، ومن لفّ لفهم. وفي الحديثين دليل على أن الولي قد يغويه الشيطان فيشرب الخمر، فإن الصحابة هم أكابر الأولياء وقد صدرت منهم كبار الذنوب.

* * *

نسخ قتل الشارب

{٢٢٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، فإن عاد الرابعة فاقتلوه**».

رواه أبو داود (٤٤٨٤)، وابن ماجه بسند صحيح لشاهد له عن معاوية رواه أبو داود (٤٤٨٢)، والترمذي (١٣١٤)، وابن ماجه (٢٥٧٣) وغيرهم بسند صحيح ولـه شواهد أخرى كثيرة.

{٢٢٧} ـ وعن قبيصة بن ذُؤَيْب أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب**

فاجلدوه، ثم إن شرب فاقتلوه» لا يدري الزهري بعد الثالثة أو الرابعة، فأُتي برجل قد شرب فجلده، ثم أُتي به قد شرب فجلده، ثم أُتي به قد شرب فجلده، ووضع القتل وصارت رخصة. وفي رواية: إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جلد رجلاً في الخمر ثلاث مرات، ثم أُتي به في الرابعة فضربه أيضاً ولم يزد على ذلك.

رواه أبو داود (٤٤٨٥)، وعبدالرزاق (١٧٠٨٤)، وعلّقه الترمذي (١٣١٤) مستدلاً به على النسخ، ورجاله ثقات، وقبيصة قيل بصحبته وللحديث شاهد عن جابر رواه النسائي، وذكره الترمذي.

حديث أبي هريرة وما معه يدلّ على قتل شارب الخمر في الرابعة، وقد ذهب إلى ذلك فريق من الناس. وذهب الأكثر إلى أن ذلك منسوخ بدليل حديث قبيصة وغيره. قال الترمذي في الجامع: وإنما كان هذا في أوّل الأمر ثم نسخ بعدُ، ثم قال: والعمل على هذا عند عامّة أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافاً في ذلك في القديم والحديث، الخ. وحكى الحافظ المنذري عن بعض أهل العلم أنّه قال: أجمع المسلمون على وجوب الحدّ في الخمر، وأجمعوا على أنه لا يقتل إذا تكرّر منه إلا طائفة شاذّة قالت: يقتل بعد حدّه أربع مرات للحديث، وهو عند الكافة منسوخ.

* * *

التعزيرات

{٢٢٨} ـ عن أبي بُرْدة بن نيار رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لاَ يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ إلاَّ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ»**، وفي رواية: **«لاَ عُقُوبَةَ فَوْقَ عَشْرِ ضَرَبَاتٍ»**.

رواه البخاري (١٥/١٦٣، ١٩٣)، ومسلم (١١/٢٢١)، وأبو داود (٤٤٩١)، والترمذي (٢٢٣٢)، وابن ماجه (٢٦٠١) وغيرهم.

التعزير أصله الردّ والمنع، وفي الشرع هو التأديب على ما يأتيه الإنسان من الجنايات التي ليس فيها حد.

والحديث يدلّ على مشروعية التعزير والتأديب بالضرب والجلد حسب اجتهاد الحاكم، فله أن يضرب جلدة واحدة، أو اثنتين... إلى عشر جلدات، فإن زاد على العشر كان ظالماً يقتصّ منه يوم القيامة، هذا إذا كان بالجلد. ويكون التعزير بالحبس والسجن كما سبق، ويكون بالتوبيخ والزجر والوعظ، كما يكون بالنفي، كما نفى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المُخَنَّث إلى البقيع بعد ما كان يدخل على النساء، ويكون بالتشديد على المتنطعين، كما واصل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الصيام بالصحابة لما امتنعوا من ترك الوصال حتى رأوا الهلال.

وقد يعزر بالإحراق للأمتعة ونحوها، كما حرق سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه دكاكين الخمّارين والقرية التي كان يباع فيها الخمر، وحرَّق قصر سعد بن أبي وقاص بالكوفة لمَّا احتجب فيه عن رعيّته وكانت له دِرَّةٌ يؤدّب بها الناس؛ وعلى أيٍّ، فأمر التعزير في الجنايات يرجع إلى الحاكم الإسلامي، فكل معصية لا حدّ لها ولا كفارة فله أن يؤدّب فيها، كمن سرق أقلّ من ربع دينار أو باشر امرأة دون الجماع أو سبّ غيره من غير قذف، أو أتت المرأةُ المرأةَ ـ وهو المُسمّى بالسحاق ـ، فهي معصية كبيرة لكنها لا حدّ لها ولا كفارة، وهي شبيهة باللّواط. ومن أنواع التعزير تأديب الرجل ولده الصغير والسيد غلامه والرجل زوجته عند النشوز والأستاذ تلميذه لأجل التعليم، وهكذا، وليعلم المسلم أن ظهور الناس محرمة فلا يجوز ضرب أحد بلا موجب شرعي، ففي الصحيحين: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام...**»، وفي مسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

* * *

إقالة ذوي الهيئات عثراتهم

{٢٢٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إلاَّ الحُدُود**».

رواه أحمد (١٨١/٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٥)، وأبو داود (٤٣٧٥)، وابن حبان (١٥٢٠)، وأبو يعلى (٢٩٨/٤) وغيرهم من طرق وسنده حسن وهو صحيح لطرقه وشواهده بعضها حسنة.

ذوو الهيئات هم أهل المروءة والصلاح الذين لا يعرفون بالشرّ فيزل أحدهم الزلة فهؤلاء إذا صدرت منهم جنايةٌ مّا مِمّا لا حدَّ فيه ينبغي لذَوِي السلطة والحكم أن يغُضُّوا ويعفو عنهم، فإذا جَنَوْا على أنفسهم ما فيه حدّ وجب إقامته عليهم، وهذا هو مقتضى هذا الحديث الشريف.

❋ ❋ ❋

خاتمة

حسب الاستقراء والتتبّع لأبواب الحدود وجدنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نفّذ حكم الحد في الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف السيدة عائشة... رضي الله تعالى عنها.

وممّن عرف من الصحابة وغيرهم الذين أُقيمت الحدود عليهم: ماعز الأسلمي والغامدية، والرجل الذي غصب المرأة القاصدة للمسجد، والعسيف، والمرأة التي اعترفت لأُنَيْس، وأمة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرجل الذي وقع على امرأة أبيه، والرجل الأنصاري المريض، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة، وحمنة بنت جحش، والرجل الذي اعترف بامرأة فأنكرت، والسارق الذي سرق لصفوان خميصته، والمرأة المخزومية، والرجل الذي اعترف فقال له النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما أخَالُك**»، والرجل الذي قطعه مرّات فقتل في الخامسة، ونُعَيْمَان أو ابن نعيمان، والرجل في شرب الخمر، ورجم يهوديين رجلاً وامرأة.

وهذا العدد في ذلك المجتمع الذي كان قريب العهد بالجاهلية قليل جداً، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن إقامة الحدود لها دور عظيم

في صلاح المجمعات وتطهيرها من قاذورات المعاصي والفواحش وانتشارها، ولذلك لما أقصيت إقامتها وتطبيقها عمّت العالَم الإسلامي كل أنواع الفواحش...

* * *

المحاربون وقطاع الطريق والمرتدّون

{٢٣٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن ناساً من عُكْلٍ وعُرَيْنة قدموا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتكلّموا بالإسلام فاستوخموا المدينة، فأمر لهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يَخرجُوا فليَشْرَبُوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفَروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، واستاقوا الذَّوْدَ فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فبعث الطلب في آثارهم فأمر بهم فسمّروا أعينَهم وقطَعُوا أيديَهم وتُرِكوا في ناحية الحرّة حتى ماتوا على حالِهم.

وفي رواية: فلما صَحُوا قتلوا راعي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وفي أخرى: فأمر بمسامِير فأُحْمِيَتْ فكَحلَهم وقَطع أيديهم وأرجُلهم وما حسَمَهم، وفي أخرى: وتركهم بالحرّة يعضُّون الحجارة، وفي أخرى: إنما سَمَل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعيُن أولئك لأنهم سمَلوا أعين الرّعاء، وفي أخرى: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ الآية.

رواه البخاري في الحدود (١١٩/١٥، ١٢١) وفي مواضع وتقدم في التفسير، ومسلم في القسامة (١٥٤/١١، ١٥٧)، وأبو داود في الحدود (٤٣٦٤، ٤٤٣٦٦)، والترمذي في الطهارة (٦٣) وفي الأطعمة وفي الطب، والنسائي في الكبرى (٣٣٤/٦)، وفي المجتبى وغيرهم بألفاظ. قوله:

فاستوخموا أي: لم يوافقهم طعامها أو كرهوا هواءها وماءها، قوله: بذود أي: إبل، قوله: فسمروا ـ بفتحتين ـ أي: كحلوا أعينهم بمسامير محميّة، وفي رواية: سمل باللام ومعناه: فقئت بحديدة محماة، وقوله: وما حسمهم ـ بفتحات ـ الحسم هو كيّ موضع القطع من الإنسان لينقطع الدم وهؤلاء تركهم بلا حسم حتى نزفوا وماتوا.

وظاهر الحديث مع الآية الكريمة كلاهما يدلاّن على أن حكم المفسدين وقاطعي السبيل ومخيفي المسلمين ومن ينتمي إليهم أن يخيّر فيهم الإمام والحاكم الإسلامي بين أن يقتلهم، أو يصلبهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفيهم من الأرض إلى بلاد أخرى.

وهذا الحكم يجري في كل من أفسد في الأرض بالقتل، أو قطع الطريق أو اغتصاب النساء أو الأطفال أو نشر ما يفسد العقول، كأرباب المخدرات ونحو ذلك.

هذا ما يدل عليه ظاهر الحديث، والآية الكريمة، وللعلماء والأئمة تفاصيل حول هذا الموضوع، فلينظر ذلك في كتب الأحكام والفقه المطوّلة.

{٢٣١} ـ وعن عكرمة قال: أُتِي عليّ رضي الله تعالى عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أُحرِقْهُم لنَهْي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله»**، ولقتلتهم لقول رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوهُ»**، وفي رواية: فبلغ علياً فقال: صدق ابن عباس.

رواه البخاري في المرتدّين (١٥/٢٩٥، ٢٩٦)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٣٢٧)، والنسائي (٧/٩٦، ٩٧)، وابن ماجه (٢٥٣٥) وغيرهم.

قوله: أُتي بزنادقة، في رواية: أحرق ناساً ارتدّوا عن الإسلام، وهؤلاء الزنادقة قوم من غلاة الشيعة ادّعوا فيه الألوهية، والزنديق يطلق على المرتدّ وعلى المنافق، وعلى كل من لا دين له، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«من بدّل دينه فاقتلوه»** فيه وجوب قتل من ارتدّ عن الإسلام، سواء كان ذكراً أم أنثى، انتقل لدين آخر أم لا. والردّة تكون بأمور كثيرة

انظر بعضها في الشفا للقاضي عياض، وفي قوله أيضاً: «**لا تعذّبوا بعذاب الله**» تحريم التعذيب بالنار، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف في تحريمه، وسيأتي في الجهاد وفي الأدب شيء من هذا.

{٣٣٢} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعثه إلى اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل فلما قدم عليه ألْقَى له وسادة، وقال: انزل، فإذا رجلٌ عنده مُوثَقٌ، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد، قال: لا أجلس حتى يُقتل قضاء الله ورسوله ثلاث مرات، فأمر به فقُتِلَ.

رواه البخاري (١٥/٣٠٠، ٣٠١)، ومسلم (١٢/٢٠٨، ٢٠٩) وغيرهما، وقد تقدم أول الإمارة ويأتي آخر السيرة.

وفيه كالذي قبله وجوب قتل المرتدّ، وإنما اختلف العلماء في استتابته وإمهاله أياماً لعله يتراجع فيتوب.

{٣٣٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان عبدُالله بن أبي سَرْح يكتبُ لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأزلّه الشيطانُ، فلحِق بالكفار، فأمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يُقتلَ يومَ الفتح، فاستجار له عثمانُ بن عفان فأجَاره رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أبو داود (٤٣٥٨)، والنسائي (٧/٩٩) بسند حسن صحيح.

{٣٣٤} ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم فتح مكّة أمَّن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الناسَ إلا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتين، وقال: «**اقتلوهم وإن وجدتموهم مُتَعَلّقين بأسْتَارِ الكعبة**»، فذكرهم وقال: وأما عبدالله بن سعد بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: يا رسول الله بايع عبدالله، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أمَا كان فيكم رجلٌ رشيدٌ**

يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يَدِي عن بيعتهِ فيَقْتُله»، فقالوا: وما يُدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلاّ أومأت إلينا بعينك؟ قال: **«إنه لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُون لهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ»**.

رواه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٩٧/٧، ٩٨)، وأبو يعلى (٣٢٢/١)، والحاكم (٤٥/٣) وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ويأتي في فتح مكة.

قوله: فأزلّه الشيطان أي: حمله على الزلّة.

عبدالله بن سعد بن أبي سرح كان أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة ثم ارتدّ ولحق بمكّة، فأهدر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دمه، وكان ممن أمر بقتله يوم الفتح فاستجار بعثمان فأجاره، وأتى به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليبايعه فتأخر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن مبايعته، وكان يودّ أن يقوم إليه أحد فيقتله، فلما لم يفعل أحد بايعه، وذكروا في ترجمته أنه حَسُن إسلامُه، وكان عثمان ولاه على أهل مصر وهو الذي فتح إفريقية كان أميراً على الجيش الذي فتحها.

والحديثان يدلاّن على قتل المرتدين والطاعنين في الإسلام وفي نبيّ الإسلام، فإنه ورد أن ابن أبي سرح لما ارتدّ كان يقول لكفار قريش: إني كنت أُصَرِّف محمداً حيث أريد كان يُمْلي عليّ عزيز حكيم، فأقول: أو عليم حكيم، فيقول: نعم كل صواب، وهذا طعن خطير في القرآن، وفي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذي جاء به وهو يوجب القتل بلا توانٍ، ولذلك كان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تأخر وامتنع عن مبايعته بادىء بدء ثم بايعه إرضاءً لأخيه من الرضاع عثمان رضي الله تعالى عنه.

* * *

إهْدَارِ دَمِ مَنْ سَبَّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٣٣٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أعمى كان على

عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكانت له أمُّ ولد، وكان له منها ابنان وكانت تُكْثِر الوقيعة برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتَسُبُّه فيزجُرُهَا فلا تَنْزَجِر، وينْهاها فلا تَنْتهي، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فوقعتْ فيه، فلم أصْبِرْ أن قُمْتُ إلى المِغْوَل فوضعْتُه في بطنِها، فاتّكأْتُ عليه فقتلتُها فأصبحتْ قتيلاً، فذُكِر ذلك للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجمع الناس، وقال: أنشد الله رجلاً لي عليه حقٌّ فعل ما فعل إلا قام فأقبل الأعمى يتَدَلْدَلُ، فقال: يا رسول الله أنا صاحبُها كانت أمَّ ولدي، وكانت بي لطيفة رفيقة، ولي منها إبنان مثل اللؤلؤين، ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، فلما كانت البارحة ذكرتُك فوقعتْ فيك قمتُ إلى المغول فوضعته في بطنها، فاتّكأت عليها حتى قتلتها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ألا اشْهدُوا أنَّ دمَهَا هَدرٌ**».

رواه النسائي في الدم (٧/٩٩) بسند صحيح.

هذا الحديث نصّ في وجوب قتل شاتم الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والواقع في عرضه بالطعن... وهذا إجماع لا خلاف فيه بحمد الله تعالى، ولم يزل أهل العلم في كل العصور يحكمون بالردة والقتل على من شتم الرسول أو تنقصه أو طعن فيه، وقد كتب القاضي عياض فصلاً هاماً في هذا المعنى في كتابه الشفا يجب الوقوف عليه، كما كتب ابن تيمية كتابه العظيم: السيف المسلول على شاتم الرسول، وذكر فيه من الأدلّة، وأقوال أهل العلم ما لا يوجد في غيره، وهو أحسن كتاب ألّفه دفاعاً عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جزاه الله خيراً وأثابه، وسيأتي لهذا مزيد في الأدب.

❊ ❊ ❊

الخوارج والبغاة

{٢٣٦} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: بَيْنَا النبيُّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم يَقْسِمُ جاء عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرَة التَّمِيمِي، فقال: اعْدِلْ يا رسول الله، وفي رواية: اتّق الله يا محمد، وفي أخرى: اعْدِلْ يا محمّد، فقال: «**ويلك مَنْ يَعْدِلُ إذا لَمْ أَعْدِلْ**»، قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: دَعْنِي أضرِبْ عُنُقَه، قال: «**دَعْهُ فإنْ له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتِهِمْ، وصيامَه مع صيامِهِمْ، يمرُقون من الدين كما يمرُق السَّهمُ من الرَّمِيَّة... آيَتُهُمْ رجلٌ إحدَى يدَيه مثلُ ثَدْي المرأة**»، أو قال: «**مثل البَضْعَة تَدَرْدَرُ يخرجون على حين فُرقة من الناس**»، قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأشهد أن عليّاً قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: ونزلت فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

وفي رواية: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**».

وفي رواية: «**يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق**»، قال: «**هم شرّ الخلق أو من شرّ الخلق يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحقّ**».

وفي رواية: «**هم شر الخلق والخليقة طوبى لمن قتلهم وقتلوه**».

رواه أحمد (٣/٥٦، ٥٧)، والبخاري في استتابة المرتدين (١٥/٣٢٠، ٣٢٤) وفي مواضع، ومسلم في الزكاة (٧/١٦١، ١٦٧)، وأبو دود (٤٧٦٣) وغيرهم بألفاظ.

قوله: يَحْقِرُ أحدُكُم صلاتَه مع صلاتهم، زاد في رواية: يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم أي: حناجرهم، يمرقون من الدين أي: يخرجون منه، قوله: تَدَرْدَرُ ـ بفتح الدالين بينهما راء ساكنة ـ أي: تتحرك، قوله: التحليق أي: حلق رءوسهم، قوله: أدنى الطائفتين أي: أقربها.

الأصل في الخوارج هم الجماعة الذين يخرجون على إمام المسلمين ويناصبونه العداوة ويثورون ضدّه طلباً للحق في زعمهم لشبه يتعلقون بها وحكم الله فيهم أن خليفة المسلمين يجب عليه أولاً أن يدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى ما عليه جماعة المسلمين وإطاعة الإمام والالتفاف حوله، فإذا

رجعوا عفى عنهم وتركهم وإلاّ قاتلهم حتى يفنيهم أو يرجعوا، وأوّل من قام ضدّ إمام الحق وحاربه خوارج حروراء وهم قوم كانوا مع الإمام عليّ عليه السلام في معركتي الجمل وصفين، ولما وقع التحكيم بينه وبين معاوية ثاروا عليه وخرجوا عن طاعته وكفّروه كما كفّروا طلحةَ والزبير ومعاوية ومن كان معهم، فقاتلهم الإمامُ بعد أن بعث إليهم ابن عباس رضي الله تعالى عنه يدعوهم إلى التوبة فرجع منهم ألوف وتمرّد آخرون، ثم حاربهم وقتل منهم ألوفاً حتى كاد يفنيهم، وكان ينهى عن الإجهاز على جريحهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم، وكان يقول: هم إخواننا بغوا علينا فوجب علينا قتالهم، وهؤلاء الخوارج كان فيهم من صحب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأخبر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن صفاتهم بالتفصيل ككونهم يبالغون في التعبّد من صلاة وصيام وقراءة القرآن، لكنهم يخرجون من الدين خروج السهم من المرمى، وأخبر بأنهم سيخرجون على فرقة من الناس، وأن مقاتليهم أقربهم إلى الحق، وأنهم محلوقة رؤوسهم... وأن فيهم رجلاً له عضد لا ذراع له على رأس عضده مثل حلمة الثدي، فوجد هؤلاء كما أخبر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقد خرجوا على الإمام عليّ وهم أصحاب هذه الصفات، فلما قتل من قتل منهم نادى: اطلبوا فيهم المخدج، فالتمسوه فلم يجدوه فقام بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض.. فوجدوه مما يلي الأرض فكبّر ثم قال: صدق الله وبلّغ رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. رواه مسلم في الزكاة (١٦٩/٧، ١٧٣) عن الإمام عليه السلام.

والكلام على ذي الخويصرة، وقوله: اعدل يأتي في السيرة إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن أصل الخوارج هم هؤلاء ثم أصبحت لهم مبادىء وعقائد ونحلة تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، كاختصاصهم بتكفير أهل المعاصي الكبائر واعتقادهم خلود صاحب الكبيرة في النار، ووجوب القيام ضد الأمراء الظلمة... ونحو ذلك.

ومثل هؤلاء الخوارج البغاة الذين قاتلوا الإمام علياً عليه السلام مع معاوية من أهل الشام، فإن الإمام لمّا اتفق على خلافته ومبايعته أهل الحلّ والعقد بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه تخلّف معاوية ومن معه، فلم يدخلوا في بيعته فدعاهم للبيعة فامتنعوا وتعلّقوا بشبهة طلب دم عثمان فتقاتلوا بصفين وحصلت معارك ذهب ضحاياها نحو سبعين ألف مسلم، وهذه الفئة المحاربة للإمام نفسها أخبر بها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وسمّاها باغية.

{٢٣٧} ـ فعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه في قصة بناء المسجد، وفيه قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وَيْح عمارُ تقتله الفِئَةُ الباغيةُ، يدعُوهم إلى الجنة، ويَدعونه إلى النار**».

وفي رواية: «**بُؤسَ ابنُ سُمَيَّة تَقتُلُكَ فِئَةٌ باغيةٌ**».

رواه أحمد (٣/٥/٩١)، والبخاري في المساجد وفي الجهاد (٦/٣٧٠)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٩، ٤٠)، ورواه الترمذي (٣٥٧٢) عن أبي هريرة بلفظ: «**أبْشِرْ يا عَمار تقتلك الفئةُ الباغيةُ**»، وسنده صحيح عنده على شرط مسلم، ورواه مسلم أيضاً عن أمّ سلمة وأبي قتادة رضي الله تعالى عنهما، وهو حديث متواتر كحديث الخوارج.

قوله: ويح هي كلمة ترحّم، تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيُرثَى له بها، وقوله: بُؤسَ هو من البأساء والمكروه، ومعناه: يا بؤس ابن سمية ما أشدّه وأعظمه، وقوله: الفئة الباغية أي: الجماعة المعتدية الظالمة الساعية بالفساد.

فالحديث نصّ في أن جماعة معاوية الذين قاموا ضد الإمام عليّ عليه السلام وقاتلوه كانوا بغاة دعاة إلى النار؛ لأنهم الذين قتلوا عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه الذي كان في صف الإمام عليّ عليه السلام، وهذا لا خلاف فيه بين أهل الحق. قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (١١/٤٠): قال العلماء: هذا الحديث حجّة ظاهرة في أن عليّاً رضي الله

تعالى عنه كان محقّاً، والطائفة الأخرى بغاة لكنهم مجتهدون فلا إثم عليهم...

والأمر كذلك لكنهم لم يرجعوا بعد مقتل عمار واتّضاح الحق وبيان البغاة من غيرهم، وعلى أي: فهذا هو الأصل في الخوارج على إمام الحقّ وخليفة المسلمين والبغاة عليه، وستأتي أحاديث في هذا الموضوع في المناقب وفي السيرة النبويّة..

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وذريته وزوجه وصحبه وحزبه، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

كتاب الجهاد

الجهاد ـ بكسر الجيم ـ أصله في اللغة المشقّة، وفي الشرع: بذل الجهد والطاقة في قتال الكفار، وذكر علماؤنا رحمهم الله تعالى أنه على أقسام: جهاد النفس عن الشهوات المحرّمة وحملها على طاعة الله تعالى، وجهاد الشيطان وهو مخالفته فيما يوحي به من الوساوس وما يأمر به من المعاصي وترك المأمورات، وجهاد الفسّاق والظلمة ويكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبغضهم، وجهاد الكفار ويكون بقتالهم حتى يسلموا أو يؤدّوا الجزية...

ويكون جهادهم باليد والمال واللّسان والقلب، وكل هذه الأقسام جاءت بها شريعة الإسلام، وكان للجهاد في الإسلام ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: ـ وكانت بمكة المكرمة ـ كان مقتصراً فيه على الدعوة إلى توحيد الله تعالى وبيان دلائله وما يتبع ذلك من وجوب الإيمان برسل الله وكتبه، وملائكته، والإيمان بالبعث والحياة بعد الموت...

ورغم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم قاسوا الشدائد بمكّة المكرمة، وعانوا أنواعاً من إذايات الكفار وعذابهم حتى مات جماعة منهم تحت العذاب لم يؤمروا بقتال الكفار ولا بمقابلتهم بالمثل، بل كانوا مأمورين بالعفو والصبر إلى أن اضطروا إلى الهجرة من بلادهم.

المرحلة الثانية: لما هاجر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

وهاجر من هاجر من أصحابه، وكوّن أنصاراً بالمدينة أنزل الله عزّ وجلّ أول آية تأمرهم بالجهاد، وقتال الكفار الذين ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم، وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

فكان هذا إذناً في الجهاد والقتال الدفاعي، وردّ كل قوة بمثلها ويبقي على هذا مدة.

المرحلة الثالثة: قتال كل كافر وقف في طريق الدعوة إلى الله تعالى ولم يستسلم للدخول في دين الله الحق... وجاء تقسيم الكفار إلى قسمين: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى والمجوس، وغيرهم من الوثنيين واللادينيين، فكان حكم الأولين إما الإسلام أو أداء الجزية أو القتال، وهذا ما ذكره الله عزّ وجلّ في سورة التوبة، بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فأمر تعالى بقتالهم وجعل غاية ذلك أداء الجزية، وسيأتي الكلام عليها بتفصيل.

أما غير أهل الكتاب من سائر المشركين والكفار، فيجب قتالهم حتى يسلموا ولا يقبل منهم غير ذلك، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾.

ويقول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث المتواتر: **«أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله»** الحديث.

والناس في الحديث عام في كل كافر، وخصّ من ذلك أهل الكتاب، فلا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية.

وغاية الجهاد في سبيل الله: تكوين مجتمع طاهر صالح سالم من الفساد وفتنة الكفر والشرك بالله، وأن لا يعبد غير الله، ولذا قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

وعلى هذه المرحلة الثالثة الأخيرة استقر حكم الجهاد في الإسلام، وعمل عليه الأئمّة الأربعة وغيرهم وقرّروه في كتبهم المشهورة، ومن قال غير ذلك فهو ملحد ضال أو عميل للمستشرقين أعداء الإسلام أو جاهل بأحكام الله عزّ وجلّ...

* * *

فضل الجهاد والترغيب فيه

{٢٣٨} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سألتُ رسولَ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على مِيقاتِها**»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «**ثم برّ الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٣٤٤) وغيره، ومسلم في الإيمان (٢/٧٣) وغيرهما.

{٢٣٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سُئِل رسول الله أي: الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**حجّ مبرور**».

رواه البخاري في الإيمان (١/١٨٥) وفي الحج، ومسلم في الإيمان (٢/٧٢)، والترمذي (١٥٢١) وغيرهم.

في الحديثين أن الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله من أفضل الأعمال، فقد ذكر بعد الإيمان في حديث أبي هريرة وتقديمه على الحجّ، وتأخيره عن البرور ليس ذلك لكونه أفضل من الحجّ، أو مفضولاً عن البرور، بل ذكر كذلك حسب ما سمح له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم،

وقد يكون الجهاد أفضل من البرور أحياناً. أما الصلاة، فلا يفضلها إلا أن تكون نافلة، وعلى أيّ فالجهاد له فضل عظيم كما ستعلم من الآتي، بل من العلماء من قال: إنه أفضل الأعمال التي هي وسائل لأن الجهاد وسيلة لإعلاء الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه، نقله الحافظ عن ابن دقيق العيد.

{٢٤٠} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَثَلُ المُجَاهِد في سبيل الله كمثل الصائِم القائِم الدائم الذي لا يَفْتُر مِن صيام ولا صلاة حتى يرْجع**»، وقال: «**تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرِجُه مِن بيته إلا الجهادُ في سبيله، وتصديقُ كَلِمَتِهِ أن يُدْخله الجنّة، أو يُرْجِعَه إلى مَسْكَنِه الذي خرج منه مع ما نال من أجْر أو غَنِيمَة**»، وقال: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لوَدِدْتُ أن أقاتِل في سبيل الله، فأُقْتَل، ثم أُحيا فأُقْتَل، ثم أُحيا فأُقْتَل، ثم أُحيا فأُقْتَل**»، وقال: «**والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله والله أعلمُ بمن يُكلَم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحُه يَثْعَبُ دماً، اللَّوْنُ لونُ الدَّم، والرِّيحُ ريحُ المسْك**».

رواه مالك (٩٨٦، ٩٨٧)، والبخاري (٦/٣٤٧)، ومسلم في الإمارة (١٩/١٣، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣)، والحميدي (١٠٩٢)، والترمذي (١٥٢٠)، والنسائي (٦/٢٤)، وابن ماجه (٢٧٩٥) مطوّلاً ومختصراً ومفرّقاً.

قوله: يُكْلَم، الكلم ـ بفتح الكاف وسكون اللام ـ هو الجرح، وقوله: يثعب ـ بالياء والثاء ثم عين مفتوحة ـ ومعناه يتفجّر.

{٢٤١} ـ وعنه في رواية قيل: يا رسول الله ما يعْدِلُ الجهاد؟ قال: «**إنكم لا تستطيعونه**»، فردوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**»، فقال في الثالثة: «**مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**»، وفي رواية: «**كمثل الصائم القائم بآيات الله لا يفتر**».

رواه البخاري (٦/٣٤٥)، ومسلم (١٣/٣٤، ٣٥) واللفظ له، والترمذي (١٤٨٤) وغيرهم.

في الحديثين فضل عظيم للمجاهدين وأن لهم مزايا ليست لغيرهم وهي كالآتي:

أولاً: أن لهم من الفضل والأجر كالصائم الذي لا يفطر، والقائم للصلاة بآيات الله الذي لا يفتر، وهذا لا يطيقه أحد. ولا شكّ أن الصلاة والصيام والقيام بالقرآن ليلاً أفضل الأعمال مطلقاً فكيف بمن لا يفتر عن ذلك لحظة من لحظاته حتى يرجع المجاهد.

ثانياً: إن الله تعالى ضمن له الجنّة إذا قتل أو مات في سبيل الله.

ثالثاً: إذا رجع سالماً رجع مصحوباً بالأجر العظيم مع ما ينال من غنيمة.

رابعاً: أنه إذا مات أو قتل مجروحاً جاء جرحه يوم القيامة يسيل وريح دمه كريح المسك.

خامساً: مما يدلّ على عظمة الجهاد والشهادة تمني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يقتل ويحيا ثم يقتل ويحيا عدة مرات، ويأتي فضل الشهادة.

{٢٤٢} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله أي: الناس أفضل؟ قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ في سبيل الله بنَفْسِه وَمَالِهِ**»، قالوا: ثم من؟ قال: «**مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشِّعَابِ يتَّقِي الله ويدعُ الناسَ مِنْ شَرِّهِ**».

رواه البخاري (٣٤٦/٦)، ومسلم (٣٣/١٣، ٣٤) وغيرهم، ويأتي مع التالي في الفتن.

{٢٤٣} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ الناسِ لهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كلَّما سَمِعَ هَيْعَةً، أو فَزْعَةً طار عليه يَبْتَغِي القَتْل والموت مظانَّه، أو رجلٌ في غُنَيْمَةٍ في رأس شَعَفَةٍ من هذه**

الشَعَف أو بطن وادٍ من هذه الأَوْدِية يُقيم الصلاة ويُؤتي الزكاة ويَعبدُ ربَّه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلاّ في خير».

رواه مسلم (١٣/٣٤، ٣٥).

{٢٤٤} ـ وعن ابن عباس نحوه بلفظ: «أَلاَ أُخبِرُكُم بخَيرِ الناسِ: رجلٌ مُمْسِكٌ بعِنان فرسه في سبيل الله، ألا أخبركم بالذي يَتْلُوه رجلٌ معتزِلٌ في غُنَيمَة يُؤدّي حق الله فيها».

رواه أحمد (١/٢٣٧، ٣٢٢)، والترمذي (١٥١٥)، وابن حبان (١٥٩٣، ١٥٩٤)، ورواه مالك في الموطأ مرسلاً، والحديث صحيح لما تقدم.

الشِّعب ـ بكسر الشين وسكون العين ـ هو طريق بين الجبلين، وقوله: عِنان فرسه ـ بكسر العين ـ.

في هذه الأحاديث بيان أفضل الناس، فذكر منهم أولاً المجاهد في سبيل الله الذي لا يسمع بجهة فيها صوت مفزع إلا اتّجه إليها يطلب الشهادة في سبيل الله، فهذا خير الناس. ثم بعده رجل معتزل في محلة كرؤوس الجبال أو بطونها أو في أي محل بعيد عن الناس يشتغل بعبادة الله تعالى ويؤدّي حقه عليه ويعتزل شرور الناس وفتنهم ولا يؤذي أحداً حتى يأتيه الموت. والشَعف ـ بفتحتين ـ هو الأعلى من كل شيء.

وما ذكر من أن هذين أفضل الناس ليس على إطلاقه، فأفضل الناس بعد الأنبياء والصحابة هم الصدّيقون والعلماء الربانيون... والسابقون السابقون أولئك المقرّبون.

وفيها مع فضل الجهاد فضل الانفراد واعتزال الناس وخاصة عند فساد المجتمع وانتشار الفواحش وعموم الشرور، ويأتي مزيد لهذا في الرقاق وفي الفتن.

* * *

الروحة والغدوة في سبيل الله

{٢٤٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَغَدْوَةٌ في سَبِيلِ الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٣٥٣، ٣٥٤)، ومسلم في الإمارة (١٣/٢٦)، والترمذي (١٥١١)، وابن ماجه مطولاً ومختصراً ويأتي في الرقائق ونحوه عن سهل بن سعد وأبي هريرة كلاهما عند البخاري ومسلم في المصدرين.

الغدوة والروحة ـ بفتح أولهما ـ هي المرة الواحدة من أول النهار وهي الغدوة، ومن آخره وهي الروحة.

وفي الحديث فضل كبير لمن جاهد في سبيل الله ولو مقدار زمن ما من أول النهار أو من آخره، وأن ذلك يكون له أفضل من الدنيا وما فيها وعليها.

* * *

درجات المجاهدين في سبيل الله

{٢٤٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَن آمَنَ بالله وبرسُولِهِ وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقّاً على الله أن يُدخِلَه الجنّة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: «**إنّ في الجَنَّةِ مائةَ درَجَة أعَدَّها الله تعالى للمجاهدين في سبيلِ الله، ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّماءِ والأرض، فإذا سألتُم الله فاسألُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أَوْسطُ الجنَّةِ، وأعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمٰنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّة**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣)، ورواه الترمذي في

صفة الجنّة (٢٥٣٠)، وابن ماجه (٤٣٣١) وغيرهما بنحوه من حديث معاذ بن جبل ولا يضرّ انقطاعه.

{٢٤٧} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يا أبا سعيد مَنْ رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمّد نبياً وجبتْ له الجنّة**»، قال: فعجب بها أبو سعيد، فقال: أعِدْهَا عليّ يا رسول الله، ففعل، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنّة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»، فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله**».

رواه مسلم في الإمارة (٢٨/١٣).

في الحديثين أن من آمن راضياً بالله ربّاً له، وبالإسلام ديناً، وبرسوله محمد نبيّاً وقام بأداء الصلاة وصوم رمضان كان حقّاً واجباً على الله تفضّلاً منه أن يدخله الجنّة جاهد أم لم يجاهد، وفي ذلك بشارة لعامة المؤمنين كما فيهما ما هو أرقى من ذلك، وهو إعداد مائة درجة للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي ذلك فضل عظيم لهم. وهذه الدرجات هي على ظاهرها بمعنى المنازل بعضها أرفع من بعض، والكلام على الفردوس وما معه يأتي في الرقائق إن شاء الله تعالى.

* * *

لا يدخل النار من اغبرّت قدماه في سبيل الله

{٢٤٨} ـ عن يزيد بن أبي مريم قال: لَحِقَني عبايةُ بن رفاعة بن رافع وأنا ماشٍ إلى الجمعة، فقال: أبشر، فإن خُطاك هذه في سبيل الله، سمعت أبا عبْس يقول: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ اغْبرّتْ قَدماهُ في سَبيلِ الله فَهُمَا حَرامٌ على النّار**»، وفي رواية: «**ما اغْبرّتْ قدما عَبْدٍ في سَبيلِ الله فتَمَسَّهُ النّار**».

رواه أحمد (٤٧٩/٣)، والبخاري (٣٧٠/٦)، والترمذي (١٥٩٤) وغيرهم، وفي الباب عن جابر رواه ابن حبان (١٥٨٨) وعن مالك بن عبد الله الخَثْعَمِي رواه أحمد (٢٦٦/٥).

{٢٤٩} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَلِجُ النَّار رجلٌ بكى مِنْ خَشْيَةِ الله حتى يعودَ اللَّبَنُ في الضَرْع، ولاَ يَجْتَمِعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنّم**».

رواه الحميدي (١٠٩١)، والطيالسي (٢٠٤٠)، والترمذي (١٤٩٥)، والحاكم (٧٢/٢) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه ابن ماجه (٢٧٧٤)، وابنْ حبان (١٥٩٧)، والحاكم (٧٢/٢) بالشطر الثاني.

قوله: أبشر من البشارة، وقوله: خطاك ـ بضم الخاء ـ جمع خطوة ما بين القدمين في المشي. قوله: من اغبّرت أي: أصابها غبار الأرض من المشي، وقوله: لا يلج أي: لا يدخل.

وفي الحديثين بيان أن المشي والاغبرار في سبيل الله سواء كان في الجهاد أو غيره من الطاعات يوجب الحفظ من النار، وفي ذلك فضل عظيم للجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، وفي الحديث الثاني فضل البكاء من خوف الله وأن صاحبه لا يدخل النارَ أبداً. ويأتي هذا في الرقاق.

* * *

من جوامع فضل الجهاد في سبيل الله

{٢٥٠} ـ عن مالك بن يُخَامِر أن مُعَاذَ بن جبل رضي الله تعالى عنه حدَّثهم أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ قاتَل في سبيل الله من رجل مسلم فُوَاقَ ناقته وجَبَتْ له الجنّة، ومن سأل الله القتل من عِنْد نَفْسِهِ صادقاً ثم مات أو قُتِل فله أجرُ شَهِيد، ومن جُرِح جُرحاً في سبيل الله أو نُكِبَ نَكْبَةً فإنها تجيء يوم القيامة كأغَذِّ ما كانت، لونُها**

كالزعفران، وريحُها كالمسك، ومن جُرح جَرْحاً في سبيل الله فعليه طابَعُ الشهداء».

رواه أحمد (٥/٢٤٤)، وأبو داود (٢٥٤١)، والترمذي (١٥١٦، ١٥١٩)، والنسائي (٦/٢٢)، وابن ماجه (٢٧٩٢)، والدارمي (٢٣٩٩)، وابن حبان (١٦١٥)، والحاكم (٢/٧٧) وحسّنه الترمذي وصححه في الموضعين وصححه الحاكم.

فُواق ناقته ـ بضم الفاء ـ أي: قدر ما تدرّ لبنها لمن حلبها، ونكب ـ مبني للمجهول ـ أي: أصيب بنكبة ـ بفتح النون ـ واحدة النكبات وهي المصيبة، والمراد هنا ما يصيب المجاهد من الجراحات أو وقوع شيء عليه أو سقوطه أو نحو ذلك، وقوله: كأغذ، وفي رواية: كأغزر أي: أكثر دماً.

الحديث جامع لفضل الجهاد والشهادة وما يصاب به المجاهد من النكبات، وأن مآل المجاهد الجنّة والحفظ من النار بفضل الله تعالى ورحمته.

{٢٥١} ـ وعن عَمْرو بن عَبَسة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ في سبيل الله فبلَغَ فأصابَ أو أخطَأَ، كان كمن أعْتَقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إسماعِيل»**، وفي رواية: **«فَهُوَ لَهُ عَدْلُ مُحَرَّرٍ»**.

رواه أحمد (٤/١١٣، ٣٨٤)، وأبو داود (٣٩٦٥)، والترمذي (١٥٠١)، والنسائي (٦/٢٣)، وابن ماجه (٢٨١٢)، والحاكم (٢/١٩٥، ١٢١)، والبيهقي (٩/٦١) وسنده صحيح على شرط مسلم وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي. في الحديث فضل الرمي في سبيل الله ولو رمية واحدة أصابت أم أخطأت، وأن ذلك يقوم مقام عتق رقبة من أشرف بيت من نسل إسماعيل عليه السلام، وفضل عتق الرقبة معلوم، وأنه يكون فكاك صاحبه من النار.

{٢٥٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لاَ يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَداً»**.

رواه مسلم في الإمارة (٣٧/١٣)، وفي رواية: «**لاَ يَجْتَمِعَانِ في النَّارِ اجْتِمَاعاً يضرُّ أحدُهما الآخر**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**مؤمنٌ قَتَلَ كافراً ثم سَدَّد**».

قوله: ثم سدد أي: استقام، وفيه أن المسلم قاتل الكافر في سبيل الله لا يدخل النار ولا يجتمع مع الكافر فيها حتى يتضرّر، وفي الرواية الثانية كلام ذكره القاضي عياض ثم النووي.

❋ ❋ ❋

يضحك الله إلى رجلين ويعجب من رجلين

{٢٥٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يَضْحَكُ الله إلى رجلين يَقْتُل أحدُهما الآخَر كلاهما يدْخُل الجنَّة**»، فقالوا: كيفَ يا رسول الله؟ قال: «**يُقاتِلُ هذا في سبيل الله عزّ وجلّ فَيُسْتَشْهَدُ ثم يتوب الله على القاتل فيُسْلِمُ فيُقاتِلُ في سبيلِ الله عزّ وجلّ فَيُسْتَشْهَدُ**».

رواه أحمد (٣١٨/٢)، والبخاري في الجهاد (٣٨٠/٦)، ومسلم في الإمارة (٣٦/١٣)، والنسائي (٣٢/٦).

«يضحك» الضحك المتعارف عندنا لا يجوز على الله، فهو صفة لله تليق بعظمته وكبريائه فنؤمن به ونُمِرُّه كما جاء بلا تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل. وفي الحديث أن الله عزّ وجلّ يحب هذين الرجلين ويرضى عليهما حيث قتل الأول شهيداً على يد كافر، ثم أسلم الكافر، فقاتل في سبيل الله ثم استشهد كالأول، والكل خلق الله تعالى وفعله مع سابق علمه وقدره.

{٢٥٤} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**عجِبَ ربُّنا عزّ وجلّ من رجلين: رجل ثارَ عن وِطائِهِ ولِحَافِهِ بَيْنَ أهلِهِ وحَبِّه إلى صلاته، فيقول ربُّنا: يا ملائكتي انظُروا إلى عَبدي ثارَ من فراشه ووطائِهِ ومن بين حبه وأهلِه إلى صلاته رغبةً فيما عندي**

وشفقةً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله عزّ وجلّ فانْهَزَمُوا فعلم ما عليه من الفِرار وما له من الرُّجوع فرجع حتى أُهْرِيقَ دمُه رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، فيقول الله عزّ وجلّ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أُهريق دمه».

رواه أحمد (٤١٦/١)، وأبو داود (٢٥٣٦)، والحاكم (١١٢/٣) وسنده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«عجب ربّنا»: العجب ـ بفتحتين ـ المعهود عندنا محال في حقّ الله تعالى فهو أيضاً صفة له عزّ وجلّ تليق بجلاله وينشأ عنه الرّضا بذلك العمل ومحبّته لفاعله، ففي الحديث فضل هذين الرجلين القائم للتهجد في جوف الليل، وقد قام من فراشه وغطائه وترك أهله وذويه نائمين غافلين فناجى ربه وتعبد له فيباهي الله به ملائكته الكرام، والرجل الثاني الذي صمد في وجه العدو وقاتل حتى قُتل بعد أن انهزم زُملاؤه ورِفاقُه فعل ذلك طلباً لما عند الله من نعيم ورضاء وخوفاً من عقابه وغضبه فيباهي الله عزّ وجلّ به هو الآخر ملائكته الكرام كذلك، وفي ذلك فضل أي فضل للمجاهد المقاتل في سبيل الله حتى الموت.

* * *

فضل الجهاد في البحر

{٢٥٥} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يدخل على أُمّ حرام بنتِ مِلْحَان فتُطْعِمُه، وكانت أُمّ حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأطعمتْه وجعلت تَفْلِي رأسَه، فنام رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: **«ناس من أُمّتي عُرِضوا عليَّ غزاة في سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البَحْر مُلُوكاً على الأَسِرَّة أو مثل الملوك على الأَسِرَّة»**، قالت: فقلت: يا رسول الله ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ من أُمّتي عُرِضوا عليَّ غزاة في سبيل الله**» كما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**أنت من الأوّلين**»، فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فصُرِعَتْ عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.

رواه مالك في الموطأ (٣/٤١)، والبخاري في الجهاد (٩/٣٥٠، ٣٥١) وفي مواضع، ومسلم في الإمارة (١٣/٥٧)، وأبو داود (٢٤٩٠)، والترمذي (١٥٠٨)، والنسائي (٦/٣٤)، وابن ماجه (٢٧٧٦)، وكذا أحمد (٣/٢٤٠).

{٢٥٦} ـ وعن أُمّ حرام رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**أوّلُ جيش من أُمّتي يغزُونَ البحرَ قد أوْجَبُوا**»، قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «**أنتِ فيهم**»، ثم قال: «**أوّلُ جيش من أُمّتي يغزون مدينة قَيصَر مغفورٌ لهم**»، قلت: أنا فيهم؟ قال: «**لا**»...

رواه البخاري في باب قتال الروم من الجهاد (٦/٤٤٢، ٤٤٣) وهو من أفراده عن كل الجماعة.

قوله: تفلي رأسه، أي: تبحث فيه عما عسى أن يكون فيه من غبار ونحوه، وقوله: ثبج ـ بفتح الثاء والباء آخره جيم ـ أي: وسط، وقوله: الأسرّة جمع سرير، وقوله: فصرعت أي: سقطت عن دابّتها، وقوله: مدينة قيصر هي استنبول.

وفي الحديثين فضل الجهاد في البحر وركوبه لغزو الكفار. وفيه فضل ذينك الجيشين: الأول كان أيام سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه حيث ركب معاوية البحر في جيش فغزوا قبرص، وصالحوا أهلها فرجعوا، وفي هذا الجيش كانت أمّ حرام مع زوجها عبادة بن الصامت فسقطت عن دابّتها عند خروجهم من البحر فماتت. أما الجيش الثاني، فكان أيام يزيد بن معاوية حيث غزوا الترك وحاصروا القسطنطينية مدّة واستشهد هناك جماعة

كان منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه ولم يقدر لهم فتح المدينة.

وفي الحديثين فضل هذين الجيشين وأنهم مغفور لهم ومن أهل الجنّة غير أنه نقل الحافظ في الفتح عن ابن التين وابن المنير أنه لا يختلف أهل العلم أن قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مغفور لهم مشروط بأن يكونوا من أهل المغفرة حتى لو ارتدّ واحد ممن غزاها بعد ذلك لم يدخل في ذلك العموم اتّفاقاً، وعلى أي: ففيهما منقبة عظيمة لتلك الجيوش الإسلامية التي كانت مزيجاً من خيرة الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم. وفيهما أن الميت في رجوعه من الجهاد يعتبر شهيداً حتى ولو لم يقاتل أو لم يكن من أهل القتال، كأمّ حرام التي خرجت مع زوجها. وفيهما فضل أم حرام وأنها من أهل الجنّة... وقد استشكل بعضهم نوم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند أمّ حرام وتمكينه إياها من فلي رأسه وهي امرأة أجنبية، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة، كما في الفتح.

لكنْ قال النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أنها كانت محرماً له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم واختلفوا في كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجده لأن عبد المطلب كانت أمّه من بني النجار... وأم حرام نجارية رضي الله تعالى عنها.

* * *

فضل الرباط في سبيل الله تعالى

{٢٥٧} ـ عن فَضَالَة بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه أنه حدّث عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «**كُلُّ ميتٍ يُختمُ على عَمَلِهِ إلا الذي ماتَ مُرابطاً في سبيل الله، فإنه يُنَمَّى له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمَنُ فِتْنَة القبرِ**».

رواه أحمد (٢٠/٦)، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٤٨٦)، وابن حبان (١٦٢٤)، والحاكم (٧٩/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم وله شاهد عند أحمد (١٥٧/٤) عن عقبة بن عامر.

قوله: «يُخْتَمُ على عمله» أي: لا يكتب له ثواب عمل جديد، قوله: ويأمن فتنة القبر أي: يحفظ من سؤال ملكي القبر، وقوله: «يُنَمَّى له» أي: يجري عليه فلا ينقطع.

{٢٥٨} ـ وعن سلمان الخير رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«من رابط يوماً وليلةً في سبيل الله كان له كأجر صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً أُجْرِيَ له مثلُ ذلك من الأجر، وأجري عليه الرزقُ، وأمِن من الفتّان»**، وفي رواية: ووقي من فتّان القبر، وأمن من الفزع الأكبر.

رواه أحمد (٤٤٠/٥)، ومسلم في الإمارة (٦١/١٣)، والترمذي (١٥٢٧)، والنسائي (٣٣/٦)، والحاكم (٨٠/٢).

{٢٥٩} ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه قال على المنبر: إني كتمتكم حديثاً من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كراهية تفرّقكم عني، ثم بدا لي أن أُحَدِّثَكُمُوه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل»**.

رواه الترمذي (١٥٢٨)، والنسائي (٣٣/٦)، وابن ماجه (٢٧٦٦)، والحاكم (٨١/٢)، وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفي البخاري عن سهل بن سعد: **«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»**، والرباط: اسم من المرابطة وهو ملازمة ثغر العدو ومراقبته ليل نهار لئلا يهاجم المسلمين. وقوله: «وأمِنَ مِنَ الفُتّان» هو بضم الفاء جمع فاتن وهم الملائكة الذين يتولّون سؤال القبر.

وفي هذه الأحاديث فضائل ومزايا للمرابطين في سبيل الله لمراقبة العدو، وقد ذكر من ذلك نحواً من ستّ مزايا وفضائل:

أولاً: أن الله عزّ وجلّ يجري عليه عمله الذي كان يعمل من صلاة وصيام وصدقة وتلاوة وذكر ونسك... إلى يوم القيامة.

ثانياً: يقيه الله عزّ وجلّ من سؤال القبر وفتنة سيدنا نكير ومنكر عليهما السلام، ويا لها من فتنة فمن وقيها فقد لقي خيراً كثيراً.

ثالثاً: أجري عليه رزقه كالشهيد.

رابعاً: كان له بكل يوم يرابطه أجر شهر بصيامه وقيامه بل قد يعطى بكل يوم ألف يوم فيما سواه، بل رباط يوم خير من الدنيا وما فيها.

خامساً: كان في أمنٍ من الفزع الأكبر وهي النفخة في الصور، كما اختاره ابن جرير.

سادساً: أجري عليه عملُ رباطه إلى يوم القيامة.

فهذه مزايا رائقة يحرز عليه من رابط في سبيل الله ومات على ذلك أو مات فيما بعد.

❋ ❋ ❋

الحَرَسُ في سبيل الله تعالى

{٣٦٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**عَيْنانِ لا تَمَسُّهما النارُ: عينٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وعينٌ باتت تَحْرُسُ في سبيل الله**».

رواه الترمذي (١٥٠٢) وفيه عطاء الخراساني ضعيف لحفظه لكن الحديث صحيح لشواهده.

{٣٦١} ـ عن أبي ريحانة بلفظ: «**حَرُمت النار على عين سهرتْ في سبيل الله، وحرمت النار على عين دمِعتْ من خشية الله**».

رواه النسائي (١٤/٦)، والدارمي (٢٤٠٥)، والحاكم (٨٣/٢)، وكذا أحمد (١٣٤/٤، ١٣٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وعن أنس رواه

أبو يعلى (٤٦٥/٣)، قال النور في المجمع (٢٨٨/٥): ورجاله ثقات، وعن أبي هريرة رواه الحاكم (٨٣/٢).

{٣٦٢} ـ وعن سهل بن الحنظلية رضي الله تعالى عنه أنهم ساروا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم حنين فأطْنَبُوا السير حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهَوَازِن على بَكْرَةِ آبائهم بظُعُنهم، ونَعَمِهم، وشائِهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله**»، ثم قال: «**مَنْ يَحْرُسُنا اللّيلة**»، قال أنس بن أبي مِرْثَدٍ الغَنَوِي: أنا يا رسول الله، قال: فاركب فركب فرساً له، فجاء إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اسْتَقْبِل هذا الشّعب حتى تكون في أعلاه ولا نُغَرَّنَ من قِبَلِك اللّيلة**»، فلما أصبحنا خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: «**هل أحْسَسْتُمْ فارسَكُمْ**»؟ قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاة، فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلّي وهو يلتفت إلى الشّعب، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**»، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسلّم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما أصبحت اطّلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحداً، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هل نزلت اللّيلة**»؟ قال: لا إلا مصلّياً أو قاضياً حاجة، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد أوجبتَ، فلا عليك أن لا تعمل بعدها**».

رواه أبو داود (٢٥٠١)، والحاكم (٨٣/٢، ٨٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: فأطنبوا أي: بالغوا في السَّيْر، وقوله: ولا نغرن أي: نُؤتى من جهتك على غِرَّةٍ من طرَفِ العدوّ.

في الحديث الأول عينان لا تمسّ النار صاحبهما: من بكى من خوف الله وعقابه ومن بات يحرس المسلمين عن العدوّ في سبيل الله، وفي الحديث الثاني فضيلة لذلك الصحابي الحارس للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولأصحابه تلك الليلة، وأنه أوجب لنفسه الجنّة بسبب ذلك، ولا يختصّ هذا الصحابي بهذه الفضيلة بل هو حكم عام. نعم قوله: «فلا عليك أن لا تعمل بعدها» قد يكون خاصاً بهذا الصحابي، ومع ذلك فلحراسة المسلمين في سبيل الله فضل عظيم، وسيأتي مزيد لهذا في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى.

* * *

فضل الشهادة والشهداء

{٣٦٣} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما أَحَدٌ يَدْخلُ الجنَّة يُحِبُّ أن يَرْجِعَ إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيءٍ، إلا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنيا فيُقْتَلَ عَشْرَ مرَّات، لما يَرَى من الكَرَامَة»**، وفي رواية: **«مَا مِنْ أَهْلِ الجنَّة أحدٌ يَسُرُّهُ أن يَرْجعَ إلى الدنيا وله عَشْرُ أَمْثَالِها إلا الشهيدُ»**، وفي رواية ثالثة: **«مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ له عِنْدَ الله خَيْرٌ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا»** الخ.

رواه أحمد (٣/٢٥١، ٢٨٩)، والبخاري (٦/٣٧٣)، ومسلم في الإمارة (١٣/٢٣)، والترمذي (١٥٠٦، ١٥٢٥)، والدارمي (٢٤١٤) كلاهما في الجهاد.

في الحديث أن المؤمن إذا توفي وكان له خير عند الله عزّ وجلّ ورأى ما أعدّ الله تعالى له من نعيم وكرامة، وما لقي من حفاوة، يمقت الدنيا وما فيها، رغم أنه ترك وراءه فيها زوجة وأولاداً ومالاً ونعيماً ولا يودّ الرجوع إلا الشهيد القتيل في سبيل الله، فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا، لا ليتمتع بما

ترك فيها، بل ليقاتل في سبيل الله فيقتل مرّات لما يشاهد من فضل الشهادة والكرامة والخير.

قال ابن بطال: هذا الحديث أجلّ ما جاء في فضل الشهادة، وليس في أعمال البرّ ما تبذل فيه النفس غير الجهاد، فلذلك عظم فيه الثواب.

وقال النووي: هذا من صرائح الأدلة في عظم فضل الشهادة، والله المحمود المشكور. ثم ذكر سبب تسميته شهيداً، قيل: لأنه حيّ فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار السلام وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة، وقيل: إن الله وملائكته عليهم الصلاة والسلام يشهدون له بالجنّة، وقيل: لأنه شهد عند خروج روحه ما أعدّه الله تعالى له من الثواب والكرامة، وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه، وقيل وقيل، ولا دليل ينهض لأي قول من هذه الأقوال، فالله تعالى أعلم.

{٣٦٤} ـ وعن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك ـ يعني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ فقال: **«أرواحهم كَطَيرٍ خُضرٍ تَسْرَحُ في أيها شاءت، ثم تأوِي إلى قناديل مُعَلَّقةٍ بالعرش، فبينما هم كذلك إذْ اطَّلَعَ عليهم ربُّك اطّلاعَةً، فقال: سَلُوني ما شئتم، فقالوا: يا ربّ كيف نسألك ونحن نَسْرَحُ في الجنة في أيها شئنا، فلما رأوْا أن لا يُتْرَكُوا من أن يسألوا، قالوا: نسألك أن تَرُدَّ أرواحنا إلى أجسادِنا في الدنيا نُقتَلْ في سبيلك، قال: فلما رأى أنهم لا يَسألون إلاَّ هذا تُرِكُوا»**.

وفي رواية: **«أرْوَاحُهم في جَوْفِ طَيرٍ خُضرٍ لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش تَسْرَحُ في الجنّة حيثُ شاءت»**.

رواه مسلم في الإمارة (١٣/٣٠، ٣١)، والترمذي في التفسير (٢٨١٧)، وابن ماجه (٢٨٠١).

{٣٦٥} ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن أرواحَ الشُّهَدَاءِ في طَيرٍ خُضرٍ تَعلُق من ثَمَرِ الجنَّة، أو شَجرِ الجنّة**».

رواه أحمد (٣٨٦/٦)، والترمذي (١٥٠٣) بسند صحيح وحسّنه الترمذي وصححه، ولم يروه باقي الجماعة.

قوله: تعلق ـ بفتح التاء وسكون العين وضمّ اللام ـ أي: ترعى من ثمار الجنّة. وقوله: «أرواحهم في جوف طير» أو «كطير» هو يدلّ على أن الشهداء يجعل الله تعالى لأرواحهم هياكل على هيئة طيور تكون خلفاً عن أبدانهم المحفوظة في القبور وتتجوّل في الجنّة حيث شاءت منها تأكل وتشرب وتتنعم وتدخل الجنّة الآن دون سائر الناس إلا من استثنوا كالأنبياء ومن شاء الله تعالى من عباده الصالحين المقرّبين.

وفي ذلك فضل عظيم وميزة للشهداء، جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

ويكفي في فضلهم إشادة القرآن الكريم بذكر حياتهم بعد قتلهم في آيتين كريمتين إحداهما في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، وثانيتهما في سورة آل عمران وهي المذكورة في حديث ابن مسعود: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ الآية.

ففي الآيتين التصريح بحياتهم وأنهم ليسوا بأموات وأنهم يرزقون أكلاً وشرباً... منعّمون فرحون بما أعطاهم الله من فضله، ولكننا لا نشعر بحياتهم..

* * *

يُغفرُ للشهيد كلُّ شيء إلا الدَّين

{٣٦٦} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قُتلْتُ في

سبيل الله تُكَفِّر عَنِّي خطَايَاي، فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نعم، إن قُتِلْتَ في سبيل الله وأنت صابرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ**»، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كيفَ قلت**»؟ قال: أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله أتُكَفِّر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**نعم وأنت صابر، مُحتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدَّين، فإن جبريلَ عليه السلام قال لي ذلك**».

رواه مالك في الموطأ (٣/٣٦) بالزرقاني، ومسلم (١٣/٢٩، ٣٠)، والترمذي (١٥٧٠)، والنسائي (٦/٢٩)، ونحوه عنده (٦/٢٨، ٢٩)، عن أبي هريرة.

{٣٦٧} ـ وعن عبد الله بن عَمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يُغْفَرُ للشَّهيد كلُّ شيء إلا الدَّين**».

رواه مسلم (١٣/٣٠)، وأحمد (٢/٢٢٠).

قوله: محتسب، أي: طالب الأجر من الله.

في الحديثين أن الشهادة والقتل في سبيل الله يكفر الله بهما كل الذنوب المتعلقة بحقوق الله عزّ وجلّ وتكاليفه أمراً ونهياً إذا قتل الإنسان مع توفر الشروط المذكورة، وأن يكون صابراً في قتاله غير قلق ولا ضجر ولا كاره، طالباً الأجر من الله مقبلاً على القتال غير فارٍ من العدوّ، فإن قتل كذلك كفّرت خطاياه إلا الدين، فإنه لا يغفر حتى يؤدّى عنه، وهو يدلّ على أن الجهاد والشهادة إنما يكفران حقوق الله لا حقوق الآدميين، ولذلك أخذ العلماء من قوله: إلا الدَّيْن سائر المظالم من غصب وسرقة، وغشّ، واحتيال... وما إلى ذلك من حقوق العباد، اللّهمّ إلا أن يتفضل الله عزّ وجلّ بمغفرة شاملة.

* * *

للشهيد ستّ خصال

{٣٦٨} ـ عن المِقْدام بن مَعْديكرِب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**للشهيد ستُّ خصالٍ: يُغْفَرُ له مِنْ أوّل دُفعةٍ، ويرى مقعدَه من الجنّة، ويُجارُ من عذاب القبر، ويأمنُ من الفزَع الأكبر، ويُوضعُ على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُزَوَّجُ اثنتين وسبعين زوجة من الحُور العِين، ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه**»، وزاد بعضهم: «**ويُحَلّى حُلّة الإيمان**».

رواه أحمد (١٣١/٤)، والترمذي (١٥٢٤)، وابن ماجه (٢٧٩٩) وحسّنه الترمذي وصححه.

«ويجار من عذاب القبر» أي: يحفظ من فتنته، والفزع الأكبر النفخ في الصور.

في الحديث مزايا وعطايا سيكرم بها الشهيد، وهي تدلّ على خير كبير.

❋ ❋ ❋

من سأل الشهادة أُعطيها وإن مات على فراشه

{٣٦٩} ـ عن سهل بن حُنَيْف رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ سَأَلَ الله الشَّهادة مِنْ قَلْبِهِ صادقاً، بلَّغَهُ الله مَنازِلَ الشُّهَدَاءِ، وإن ماتَ على فِرَاشِهِ**».

رواه مسلم (٥٥/١٣، ٥٦)، وأبو داود (١٥٢٠)، والترمذي (١٥١٧)، والنسائي (٣١/٦)، وابن ماجه (٢٧٩٧)، والدارمي (٢٤١٢)، والحاكم (٧٧/٢) وصححه على شرطهما.

{٣٧٠} ـ وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ طَلَب الشَّهَادَة صادِقاً أُعْطِيَها ولَوْ لم تُصِبْه**».

رواه مسلم (١٣/٥٥).

{٢٧١} ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من سَأَل القتل في سبِيلهِ صادِقاً من قَلْبِه أعطاه الله أجْرَ الشهيد**».

رواه أبو داود (٢٥٤١)، والترمذي (١٥١٦)، وابن ماجه (٢٧٩٢)، والحاكم (٢/٧٧) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه، غير أن ابن ماجه قال: «**وجبت له الجَنّة**».

في هذه الأحاديث بيان أن من طلب منَ الله القتل شهيداً بصدق وإخلاص أعطاه الله تعالى ما تمنّى وسأل، وإن مات على فراشه، والظاهر من الرواية الأولى والثالثة أن الله تعالى سيعطيه أجر الشهيد ويكون له في الآخرة منزلة الشهداء، بينما الرواية الثانية ظاهرها يقتضي أنه سيعطى الشهادة في الآخرة، وسيأتي الفرق بين شهيد الدنيا والآخرة وبين شهيد الآخرة فقط.

❋ ❋ ❋

أنواع الشهادة

{٢٧٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما تَعُدُّون الشَّهيدَ فيكم**»؟ قالوا: يا رسول الله من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: «**إن شهداء أُمّتي إذاً لقليل**»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «**مَنْ قُتِلَ في سبيل اللهِ فهو شهيدٌ، ومن ماتَ في سبيل الله فهوَ شهيدٌ، ومن مات في الطاعُون فهو شهيدٌ، ومن مات في البَطْن فهو شهيد، والغَرقُ شهيدٌ**».

وفي رواية: «**وصاحِبُ الهَدْم شهيدٌ**».

رواه مسلم (١٣/٦٢، ٦٣)، وابن ماجه (٢٨٠٤).

{٢٧٣} ـ وعن جابر بن عتيك رضي الله تعالى عنه أنه مرض فأتاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعوده، فقال قائل من أهله: إن كُنَّا لَنرجُو أن تكونَ وفاتُه قتل شهادةٍ في سبيل الله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنَّ شُهداء أُمّتي إذاً لقليل: القتل في سبيل الله شهادةٌ، والمطعون شهادةٌ، والمرأة تموت بجُمْع شهادة**، ـ يعني: الحامل ـ **والغَرِقُ، والحرق، والمَجْنُوبُ** ـ يعني: ذات الجنْب ـ **شهادة**».

رواه مالك في الجنائز من الموطأ (٢/٧١، ٧٢)، وابن ماجه (٢٨٠٣) وسنده صحيح.

وفي الباب عن عبادة بن الصامت بنحوه وفيه: والنفساء شهادة، رواه أحمد (٥/٣١٧)، وعن راشد بن حبيش مثله أيضاً وفيه: والسل والنفساء يجرها ولدها بسَرَرِهِ إلى الجنّة، رواه أحمد (٣/٤٨٩) أيضاً وكلاهما حسن صحيح.

فهؤلاء أصناف من الناس يتفضّل الله عزّ وجلّ عليهم بالشهادة عند موتهم، وذكر في هذه الأحاديث نحواً من ثمانية أو تسعة، وهم: القتيل في سبيل الله، يعني من قتل في المعركة، والذي يموت في سبيل الله ذاهباً للجهاد أو راجعاً أو في بلاد العدوّ بلا قتل، والمطعون وهو الذي يموت بطعن الجن وضربه، والمبطون وهو الذي يموت بداء البطن كالإسهال والسل ونحو ذلك من أمراض البطن، والغريق الذي يموت غريقاً في بحر أو سيل أو بئر أو نحو ذلك إذا لم يتعمد ذلك... والحريق الذي يموت حريقاً بنار ونحوها، وصاحب الهدم الذي يموت تحت ردم وهدم ويرجى أن يكون الميّت في حادث السير من هذا القبيل، وصاحب ذات الجنب وهي قرحة تبدو داخل جنب الإنسان، فإذا تفجّرت من الداخل مات صاحبها وكان شهيداً، والمرأة تموت بجُمع ـ بضم الجيم وفتحها ـ وهي الحامل أو البكر العذراء، وفي رواية: والنفساء أي: التي تموت من النفاس.

فهؤلاء كلّهم شهداء عند الله تعالى لهم منازل الشهداء وثوابهم بفضل الله ورحمته، غير أنه يجب أن يعلم القارىء أن الشهادة نوعان:

شهادة في الدنيا والآخرة، بمعنى أن صاحبها لا يغسل ولا يصلّى عليه، ويدفن في دمائه ويكون بعد موته حيّاً وله منازل ما أعدّه الله تعالى للشهداء، وهذه الشهادة خاصة بمن قُتل في المعركة.

أما ما سوى هذا، فلهم شهادة الآخرة فقط أحياء يرزقون محفوظة أجسامهم كشهداء المعركة. أما في الدنيا، فيغسلون ويكفّنون ويصلّى عليهم..

وهناك أصناف آخرون كثيرون، قال الحافظ: اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة، وقد ذكر أستاذنا سيدي أحمد الصديق رحمه الله تعالى في «دَرْء الضعف» أنواعاً كثيرة تقارب الأربعين لكن أكثرها ضعيفة الأحاديث.

ومن أنواع الشهادة الصحيحة أحاديثها من قتل دون دينه، أو أهله، أو ماله، أو نفسه، ومن قتله أمير ظالم بعد أن أمره ونهاه، بل هذا سيد الشهداء بعد سيدنا حمزة بن عبد المطّلب رضي الله تعالى عنه كما تقدم في الإمارة.

* * *

من هو المجاهد والشهيد اللذان يحرزان على الشهادة

{٣٧٤} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الرجل يُقاتِلُ شجاعةً، ويُقاتلُ حَمِيَّةً، ويقاتل رِيَاءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ قاتَل لِتَكُونَ كلمةُ الله هي العُلْيا، فهو في سبيل الله»**، وفي رواية: **«الرجلُ يقاتل للمَغْنم، والرجل يقاتل للذِّكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانُه»**.

رواه الطيالسي (٢٠٣٥)، وأحمد (٣٩٢/٤، ٣٩٧)، والبخاري في الجهاد (٣٦٨/٦) وفي مواضع، ومسلم (٤٩/١٣)، وأبو داود (٢٥١٧)، والترمذي (١٥٠٩)، والنسائي (٢٠/٦)، وابن ماجه (٢٧٧٦).

قوله: حميّة أي: أنفة وغيرة، وقوله: ورياء أي: لأجل أن يرى مكانه فيمدح لذلك، وقوله: للمغنم أي: لأجل الحصول على الغنيمة.

الحديث يدلّ على أن الناس يقاتلون لمقاصد إما طلباً للغنيمة أو إظهاراً للشجاعة أو ليذكر فيحمده الناس، أو حمية وغضباً لأجل عشيرة أو حزب، أو صاحب... وكل ذلك لا أجر فيه بل بعضه فيه الوزر والإثم، وإنما يحصل على الأجر والشهادة من قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى ونصر دينه والدعوة إليه لا غير، فهذا هو سبيل الله ولأجل ذلك شرع الجهاد والقتال.

{٢٧٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يَبْتَغِي عَرَضاً من عَرَض الدُّنيا؟ فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لا أَجْرَ له»**، فأعظم ذلك الناس وقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلعلّك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا؟ فقال: **«لا أجْر له»**، ثم عاد ثالثاً فقال له: **«لا أجر له»**.

رواه أبو داود (٢٥١٦) بسند حسن.

{٢٧٦} ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: **«الغزوُ غزوان فأما مَن ابْتَغَى وجهَ الله وأطاعَ الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشَّريك واجْتَنَب الفساد، فإن نومَه، ونَبْهَه أجرٌ كلُّه. وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف»**.

رواه أبو داود (٢٥١٥)، والنسائي (٢٢٢/٥) في الكبرى، والحاكم (٨٥/٢)، وكذا أحمد (٢٣٤/٥) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «عرضاً من عرض الدنيا» ـ بفتح العين والراء ـ هو متاع الحياة، قوله: يبتغي أي: يطلب، وقوله: وأنفق الكريمة أي: أنفق ناقة صالحة

للركوب، وقوله: ويَاسَر الشَّريك أي: عامل شريكه باليسر والتسامح.

وفي الحديثين بيان أن من كان قصده من الجهاد هو الدُّنيا والذكر والمفاخرة مع تمرُّده على إمامه وإفساده في الأرض لم يكن له نصيب عند الله ورجع بالوِزْر والإثم. أما من كان بخلاف ذلك، فإن في كل تقلّباته وأحواله أجراً وثواباً.

* * *

وجوب الجهاد بالنفس والمال بعد الدعوة إلى الله

{٢٧٧} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**جَاهِدُوا المُشْرِكين بأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم وَأَلْسِنَتِكُمْ**»، وفي رواية: «**بأَمْوَالِكُم وَأَيْدِيكُمْ**».

رواه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٧/٦)، والدارمي (٣٤٣٦)، وابن حبان (١٦١٨)، والحاكم (٨١/٢)، وكذا أحمد (١٢٤/٣، ١٥٣، ٢٥١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وصححه جماعة وحقّ له ذلك.

{٢٧٨} ـ وعن سَلَمة بن نُفَيْل الكندي رضي الله تعالى عنه قال: كنت جالساً عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال رجل: يا رسول الله أذالَ الناسُ الخيلَ ووضعُوا السلاحَ، قالوا: لا جِهَادَ، قد وضَعَتْ الحربُ أوزارَها، فأقبل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بوجهه وقال: «**كَذَبُوا، الآن جاءَ القِتال، ولا تزالُ مِنْ أُمّتي أُمّةٌ يقاتِلون على الحقّ، ويُزِيغُ الله لهم قلوبَ أقوامٍ ويرزقهم منهم حتى تقومَ الساعة، وحتى يأتي وعدُ الله**».

رواه أحمد (٢١٤/٤، ٢١٥)، والنسائي في الخيل (١٧٨/٦، ١٧٩) بسند صحيح، وقد تقدم في التفسير.

قوله: أذال الناس الخيل أي: أهانوها، وقوله: يزيغ - بضم الياء - أي: يميل.

{٢٧٩} - وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يَشْهَدُوا أن لا إلـه إلاّ الله وأن مُحمّداً رسولُ الله ويُقيمُوا الصّلاة، ويؤْتُوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصمُوا مِنّي دِماءَهُمْ وأموالَهم إلا بحقّها وحسابُهم على الله**» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

{٢٨٠} - وعن أنس بنحوه وفيه: «**فإذا قالوها واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلّوا صلاتنا فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالُهم إلا بحقّها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**»، رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وتقدم أيضاً كسابقة في الإيمان، وفي التفسير وهو حديث متواتر.

{٢٨١} - وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اغْزُوا باسْم الله في سبيل الله قاتلُوا من كَفَرَ بالله... فإذا لَقِيتَ عدُوَّك من المشركين فادْعُهم إلى إحْدى ثلاث خِصالٍ فأيَّتَهُنَّ ما أجابُوكَ إليها فاقْبلْ منهم وكُفَّ عنهم، ادْعُهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم... فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم**».

رواه أحمد (٣٥٢/٥، ٣٥٨)، ومسلم في أول الجهاد (٣٧/١٢، ٤٠)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي في الديات (١٢٧٧)، والنسائي وابن ماجه (٢٨٥٨)، والدارمي (٢٤٤٧) وغيرهم وياتي مطوّلاً.

{٢٨٢} - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال يوم الفتح: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّةٌ، وإذا استُنْفِرْتُمْ فانْفِرُوا**».

رواه أحمد (٢٢٦/١)، والبخاري (٣٧٨/٦، ٣٧٩) وفي مواضع. ومسلم في الإمارة (٧/١٣، ٨)، وأبو داود (٢٤٨٠)، والترمذي (١٤٥٩) وغيرهم.

«استنفرتم» أي: طلب منكم النفار والخروج للجهاد.

{٢٨٣} ـ وعن مجاشع بن مسعود السُّلَمِي قال: أتيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُبَايِعُه على الهجرة، فقال: «**إن الهجرةَ قد مضتْ لأهلِها، ولكن على الإسلام، والجهاد، والخير**».

رواه مسلم (٧/١٣) وفي الباب عن عائشة في مسلم، وعن صفوان بن أُمية عند أحمد والنسائي.

في هذه الأحاديث أحكام فقهية نبوية نجمل بيانها في الآتي:

أولاً: الأمر النبوي بجهاد الكفار مطلقاً بالنفس، والمال، واللسان.

ثانياً: مشروعية وجوب قتال الكفار إلى أن يأتي وعد الله، وأنه لا تزال طائفة من الأُمّة تجاهد في سبيل الله حتى تضع الحرب أوزارها، وذلك يكون بعد عيسى عليه السلام.

ثالثاً: الأمر النبوي الخالد بقتال أهل الملل الكفرية حتى يؤمنوا ويلتزموا بكلّيات الشريعة.

رابعاً: لا يُغْزَى الكفارُ ويُقاتلُون حتى يُدْعَوْا إلى الإسلام أو أداء الجزية.

خامساً: قد انقطعت الهجرة إلى المدينة بفتح مكة المكرمة، لكن الجهاد والمبايعة عليه وعلى الإسلام مع النية الصالحة كل ذلك لا ينقطع.

سادساً: إذا استُنْفِرَ المسلمُون للخروج للجهاد وجب عليهم النفار ولا يجوز لهم التخلّف، هذه خلاصة ما في هذه الأحاديث.

وهي تدلّ على وجوب الجهاد وفرضيّته على المسلمين، ولا خلاف بين أهل العلم في ذلك في الجملة، فهو فرض من فروض الإسلام الكفائية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وقد يتعيّن على كل فرد إذا دَهَم العدوُّ بلاد المسلمين. وقد جاء مع هذه الأحاديث آيات قرآنية كثيرة تأمر المسلمين

بالجهاد وقتال الكفار، وتحضّ على ذلك وترغّب فيه وتنكر على المتثاقلين وتوعدهم بالعذاب الأليم، وهذه بعضها:

فمنها قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فأمر تعالى بالخروج للجهاد بالمال والنفس في جميع الأحوال مشاة وركباناً شباباً وشيباً في اليسر والعسر.

ومنها قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فهذا تهديد أكيد، ووعيد شديد لمن يتخلّف عن الجهاد في سبيل الله.

ومنها قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ الآية، فأمر بقتالهم حتى يسلموا.

ومنها قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾، فأمر بقتال الكفار حتى لا تبقى فتنة ويكون الدين كلّه لله لا يعبد معه غيره.

ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

ومنها: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ومنها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

ومنها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ في آي كثيرة.

ولما ذكرنا من الآيات والأحاديث النبوية قال كل العلماء بفرضية الجهاد على المسلمين دائماً وأبداً، وأجمعوا على ذلك كما يتضح من النقول الآتية.

قال ابن حزم في المحلى (٧/٢٩١): والجهاد فرض على المسلمين، فإذا قام به من يدفع العدوّ ويغزوهم في عُقْرِ دارهم ويَحْمِي ثُغورَ المسلمين سقط فرضُه عن الباقين، وإلاّ فلا. قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، ثم ذكر باقي الأدلّة التي قدمنا، وتأتي.

وقال الشيرازي في المهذب: والجهاد فرض، والدليل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وهو فرض على الكفاية إذا قام به من فيه كفاية سقط الفرض عن الباقين؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وتأتي. وقال البغوي في شرح السنة: واعلم أن الجهاد فرض في الجملة غير أنه ينقسم إلى فرض العين وإلى فرض الكفاية، ثم ذكر ذلك.

وقال الخرقي في مختصره الذي شرحه ابن قدامة بالمغني: والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين، ثم ذكر ابن قدامة أدلّة ذلك بتفصيل.

وقال خليل في المختصر في فقه المالكية: الجهاد في أهم جهة كلّ سنة فرض كفاية. قال الحطاب في شرحه نقلاً عن ابن عبد البر: فرض على الإمام إغزاء طائفة للعدو في كل سنة يخرج هو بها أو من يثق به وفرض على الناس في أموالهم وأنفسهم الخروج المذكور لا خروجهم كافة.

وقال ابن أبي زيد في الرسالة: والجهاد فريضة يحمله بعض الناس عن بعض.

قال شارحه ابن ناجي: ما ذكر أن حكمه الفرضية على الكفاية هو كذلك بإجماع نصّ عليه ابن العطار وابن رشد في المقدمات الخ.

وقال في الهداية في فقه الحنفية: الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به فريق من الناس سقط على الباقين. وانظر ما قاله عليه ابن الهمام في فتح القدير. وقال ابن رشد في البداية: فأما حكم هذه الوظيفة فأجمع العلماء على أنها فرض على الكفاية، الخ. وقال ابن القطان الفاسي في الإقناع في

مسائل الإجماع: وأجمع المسلمون جميعاً أن الله تعالى فرض الجهاد على الكافّة إذا قام به البعض سقط عن البعض.

وقال ابن حزم في مراتب الإجماع: واتّفقوا أن دفاع الكفار وأهل الشرك عن بيضة الإسلام وقراهم وحصونهم وحريمهم إذا نزلوا على المسلمين؛ فرض على الآحرار البالغين المطيقين.

فعلمنا من هذه النقول أن المذاهب الأربعة وغيرهم متّفقون على فرضية الجهاد، وأنه على الكفاية، بحيث يخرجون لقتال الكفار كل سنة بعد دعوتهم إلى الله تعالى كما يأتي. ويؤخذ من بعض الآيات والأحاديث المتقدمة أن الجهاد قد يصير فرض عين على كل مستطيع، وذلك في ثلاثة أحوال: أحدها: إذا دَهَم العدو بلاد المسلمين. ثانيها: إذا تقابل الصفّان والتقى زحف المسلمين بزحف الكفار، فيتعيّن القتال والصمود ويحرم الفرار، لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ الآية. ثالثها: إذا استنفر الإمام قوماً بالتعيين وجب عليهم ولزمهم النفير، كما يؤخذ منها قتال جميع أهل الملل الكفرية؛ لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله»، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ، فمن لا كتاب لهم وجب قتالهم أو يسلموا لا يقبل منهم غير ذلك. أما أهل الكتاب، فأمر الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية ولا يكرهون على الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وفي حديثَيْ سلمة بن نُفَيْل وابن عباس أن الجهاد لا ينقطع إلى أن يأتي وعد الله، وأنه لا تزال طائفة تقاتل في سبيل الله والدفاع عن الحقّ حتى يأتي أمر الله، وإنما الذي انقطع هي الهجرة إلى المدينة...

وفي حديث بريدة أن على المسلمين إذا غزوا الكفار أن يدعوهم إلى ثلاث خصال أيتها فعلوا قبل منهم وكف عنهم، يدعونهم أولاً إلى الدخول في الإسلام، فإن أبوا طلبوا منهم أداء الجزية، فإن أبوا قاتلوهم، وبهذا قال كل العلماء. نقل ابن حزم في المراتب الاتفاق عليه، وفي الرسالة لابن أبي

زيد في فقه الإمام مالك رحمه الله تعالى: وأحَبُّ إلينا أن لا يُقاتَل العدوُّ حتى يُدْعَوْا إلى دين الله إلا أن يعاجلونا، فإما أن يُسْلِموا أو يُؤَدُّوا الجزية وإلا قُوتِلوا. . وإنما اختلفوا هل الدعوة واجبة مطلقاً أو لمن لم تبلغهم الدعوة فقط؟ في ذلك مذاهب.

بقي هنا الجهاد بالمال واللسان، كما في حديث أنس. أما الجهاد باللّسان، فيكون بالتحريض على الجهاد والترغيب فيه والحضّ عليه. وأما الجهاد بالمال، فيكون بمساعدة المجاهدين بشراء الأسلحة وما يحتاجونه من الآلات الحربية والأكل والشرب واللباس وغير ذلك، والآيات الآمرة والحاضّة على الجهاد بالمال كثيرة تقدم بعضها، ومن أروعها في الجهاد بالنفس والمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية، قال بعض المفسّرين: ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن باع نفسه وماله فقاتل حتى قُتِل، والمشتري رب العزّة جلّ جلاله والثمن فيه الجنة والصك المكتوب فيه العقد الكتب الإلهيّة، والواسطة بين البائع والمشتري الحبيب المصطفى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وفي آية أخرى كريمة سمّى الله عزّ وجلّ الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تنجي من عذاب الله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢] الآية.

* * *

فضل من جهز غازياً أو أنفق في سبيل الله عزّ وجلّ

{٢٨٤} ـ عن زيد بن خالد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِياً في سَبِيلِ الله فقد غَزَا، ومن خَلَفَ غازِياً في سبيل الله بِخَيرٍ فقد غَزَا**».

رواه البخاري (٣٩٠/٦)، ومسلم (٤٠/١٣) كلاهما في الجهاد، والنسائي (٣٨/٦) فيه أيضاً.

قوله: جهّز ـ بتشديد الهاء ـ أي: هيّأ له وأعطاه ما يحتاجه في غزوه، وقوله: ومن خلف أي: جعل بدل الغازي خليفة على أهله.

في الحديث فضل من ساعد المجاهد في سبيل الله بما يحتاجه من نفقة أو سلاح أو مركوب أو نحو ذلك، أو خلفه في أهله فقام عليهم بما يحتاجونه أيضاً من نفقة أو قضاء حاجة فمن فعل ذلك كان كأنه غزا وخرج للقتال مع المجاهدين. قال ابن حبان: إنه مثله في الأجر، وإن لم يغز حقيقة.

{٢٨٥} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بَعَثَ إلى بَنِي لِحْيان «**لِيَخْرُج مِن كُلِّ رَجُلَيْن رجلٌ**»، ثم قال للقاعد: «**أيُكم خَلَفَ الخارجَ في أهلِهِ وماله بخَيْرٍ كان له مثلُ نصفِ أجر الخارج**»، وفي رواية: «**والأجر بينهما**».

رواه مسلم (٤٠/١٣، ٤١) في هذا الحديث أن من خلف غازياً في أهله وماله بخير كان له من الأجر نصفُ ما للمجاهد، فيكون هذا بياناً للحديث السابق، وقوله فيه: فقد غزا.

{٢٨٦} ـ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ بناقة مَخْطُومَةٍ فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لك بها يومَ القيامة سبعُمِائَةِ ناقةٍ كلُّها مخطومة**».

رواه مسلم (٣٨/١٣)، والنسائي (٤١/٦).

ناقة مخطومة أي: لها خطام في أنفها تقاد به. وفي الحديث الفضل العظيم في تجهيز الغزاة بما يحتاجونه من مركوب ونحوه، وأن ذلك يضاعف لصاحبه إلى سبعمائة ضعف، وما في هذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾،

وجاء في حديثٍ آخر لخزيم بن فاتك عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف**»، رواه أحمد والترمذي (١٤٩٠)، وابن حبان (١٦٤٧)، والحاكم (٢/٨٧) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده عند الترمذي حسن.

{٢٨٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خَزَنَةُ الجنّة كل خزنة باب أيْ فُلُ هَلُمَّ**»، قال أبو بكر: يا رسول الله ذاك الذي لاَ تَوَى عليه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إني لأرجو أن تكون منهم**».

رواه البخاري (٦/٣٨٨) ومسلم وغيرهما، وقد تقدم ويأتي مطوّلاً في فضائل الصدّيق.

قوله: «فُلُ» أي: يا فلان فهو مرخم، وقوله: لا تَوَى عليه أي: لا هلك عليه.

وفي الحديث أن من أنفق شيئين من أي نوع في سبيل الله دُعِي يوم القيامة من كل أبواب الجنّة، وقيل: إن المراد بسبيل الله ما هو أعمّ من الجهاد وغيره من سائر الأعمال الصالحة.

* * *

حرمة نساء المجاهدين

{٢٨٨} ـ عن بُرَيْدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حُرْمَةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كحرمة أُمّهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلُف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وُقِف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنّكم**».

وفي رواية فقال: «**فخذ من حسناته ما شئت**»، فالتفت إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**فما ظنّكم**».

رواه مسلم (١٣/٤١، ٤٢).

في الحديث وجوب احترام نساء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله وأنهم كأمهات القاعدين في البرور بهنّ واحترامهنّ وقضاء حوائجهن، كما فيه الإثم العظيم والوزر الكبير على من خان المجاهد في أهله... وأنه سوف يأخذ ما شاء من حسناته يوم القيامة، وفي ذلك خسارة أي خسارة لهذا الخائن إن لم يتب ولم يستحل ممن خانه في أهله.

❋ ❋ ❋

ذم من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو

{٢٨٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ مات ولمْ يغْزُ ولم يُحدِّثْ بِهِ نَفْسهُ، مات على شُعْبَةٍ مِنْ نِفاق**».

رواه أحمد (٢/٣٧٤)، ومسلم (١٣/٥٦)، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائي (٦/٧، ٨)، والحاكم (٢/٧٩).

فيه خطر عظيم على من لم يجاهد في سبيل الله يوماً ما من حياته أو لم يُحَدِّث نفسَه بذلك حتى مات، فإنه يموت وفيه خصلة من خصال المنافقين لأنهم لا يحبون القتال مع المسلمين ولا يتمنونه، وإذا خرجوا معهم خرجوا على كره، فمن تخلّف عن الجهاد مع الاستطاعة ولا نوى يوماً ما جهاداً في سبيل الله كان فيه شبه بأهل النفاق، وكفى بذلك ذمّاً، وقد جاء في حديث لأبي أُمامة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**من لم يَغْزُ أو يُجَهِّزْ غازياً، أو يخْلُف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة**».

رواه أبو داود (٢٥٠٣) وهو حسن، وفي هذا وعيد شديد وتهديد أكيد يدلّ على أن التخلّف عن الجهاد من كبار الذنوب. وقد تقدم قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

❋ ❋ ❋

{٢٩٠} ـ عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: **«ألا إنّ القُوَّة الرَّمْي ـ ثلاثاً ـ»**.

رواه أحمد (١٥٧/٤)، ومسلم (٦٤/١٣)، وأبو داود والترمذي وغيرهم، وزاد مسلم والترمذي: **«ألا إنّ الله سيفتح لكم الأرض وستَكْفَون المؤونة فلا يَعْجِزَنَّ أحدُكم أن يَلْهُو بأسْهُمِه»**، وأفردها مسلم حديثاً.

في الحديث كالآية الحضُّ على اتخاذ القوة والاستعداد لقتال الكفار والتدرّب على الأسلحة والرماية، وأن أعظم القوة الرمي، وقد كان في القديم الرمي بالنبال ثم تطوّر فأصبح بالبنادق ثم بالأسلحة الحالية من رشاشات ومدافع وصوارخ وطائرات وبوارج ودبابات، وفي قوله: **«ألا إن القوة الرمي»** وكرّرها ثلاثاً إشارة إلى الرمي الحالي بهذه المدمّرات، فهي القوة الحقيقية فلا ينفع معها كثرة الجنود ولا الرمي بالأسلحة الخفيفة، وقد قدمنا هذا في التفسير بأوسع مما هنا، فارجع إليه.

{٢٩١} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على قوم من أسلم وهُمْ يَتَنَاضَلُون في السُّوق، فقال: **«ارْمُوا يا بَنِي إسْمَاعِيل فإنّ أَبَاكُمْ كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان»**، لأحد الفريقين، فأمسكوا أيديهم، فقال: **«ارموا»**، قالوا: يا رسول الله كيف نرمي وأنت مع بني فلان، قال: **«ارموا، وأنا معكم كلّكم»**.

رواه أحمد (٥٠/٤)، والبخاري (٤٣١/٦، ٤٣٢).

قوله: يتناضلون أي: يترامون أيّهم يسبق.

{٢٩٢} ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّ الله عزّ وجلّ يدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنّة: صانِعَهُ الذي يَحْتَسِبُ في صنعته الخير، والذي يُجَهِّزُ به في**

سبيل الله، والذي يَرْمِي به في سبيل الله»، وقال: **«ارمُوا واركبُوا، فإن ترموا خيرٌ لكم من أن تركبوا»**، وقال: **«كل شيء يَلْهُو به ابنُ آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رميُه عن قوسه، وتأديبُه فرسه، وملاعبتُه أهله فإنهنّ من الحق»**، وفي رواية زيادة: **«ومن ترك الرمي بعدما علمه فإنها نعمة تركها»**، في رواية: **«كفرها»**. رواه أحمد (١٤٤/، ١٤٦، ١٤٨)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٥٠٠)، والنسائي وابن ماجه (٢٨١١)، والدارمي (٢٤١٠)، والحاكم (٩٥/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والحديث حسن لشاهدين له. وفي الحديثين الإرشاد إلى تعلّم الرماية والتدرّب على الركوب استعداداً لمحاربة الكفار وقتالهم، وفيهما أن الرمي خير من الركوب، وفي حديث ابن الأكوع الإرشاد إلى اتّباع الأجداد الصالحين في شؤونهم، وفي حديث عقبة فضل صناعة الأسلحة والرّماية بها، وأن الله عزّ وجلّ يدخل الجنّة بسببها ثلاثة أصناف: صانعها الذي يطلب بها الأجر من الله تعالى، والمجهّز بها غيره أو منبلها كما في رواية، والذي يرمي بها. كما فيه أن كل الملاهي باطلة لا خير فيها إلا ثلاثة: تعلم الرماية، والتدرب على الركوب استعداداً للحرب، وملاعبة الرجل زوجته، فإن هذه ملاهي محمودة ومطلوبة.

وقوله: فإنها نعمة كفرها أي: جحدها، ولم يشكرها بمراعاتها.

* * *

إعداد الخيل للحرب

{٢٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«الخَيْلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، الخيلُ لثلاثةٍ: هي لرجلٍ أجرٌ، وهي لرجل سِترٌ، وهي على رجل وِزْرٌ، فأمّا الذي هي له أجر فالذي يتخذها في سبيل الله فيُعدُّها له، هي له أجر، لا يغيب في بطونها شيئاً إلا كتب الله له أجراً»**.

رواه البخاري في الجهاد (٤٠٤/٦)، ومسلم في الزكاة (٦٦/٧).

{٢٩٤} ـ وعن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الخيلُ معقود في نواصِيهَا الخيرُ إلى يوم القيامةِ الأجْرُ والمَغْنَمُ**».

رواه البخاري (٦/٣٩٤)، ومسلم (١٣/١٧) كلاهما في الجهاد، ونحوه عندهما عن أنس وابن عمر وجرير. وفي رواية لأنس: «**البركةُ في نواصي الخيل**».

{٢٩٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنِ احْتَبَسَ فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعْدِهِ فإنَّ شِبعَه، ورِيّه، ورَوْثَه، وبَوْلَه، في ميزانه يوم القيامة**».

رواه البخاري (٦/٣٩٧) وهو من أفراده.

قوله: النواصي جمع ناصية، والمراد به: الشعر المتدلي على ناصية الخيل.

في هذه الأحاديث مشروعية اتخاذ الخيل وإعدادها واحتباسها للجهاد في سبيل الله تعالى، وأن فيها الخير والبركة، وأنَّ من اتّخذها للجهاد مع إيمانه وتصديق ما وعد الله به من الأجر كان كل تصرّفاتها حسنات في ميزانه يوم القيامة. وقوله: إلى يوم القيامة، هو يدلّ على أن الخيل لا غنى لنا عنها في الجهاد رغم ما ظهر من الآلات الحربية والمدرّعات... فإن الخيل قد يحتاج إليها في مناسبات حربية، ولذا ذكرها الله تعالى في العدة الحربية بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم.. وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ﴾. وفي قوله: إلى يوم القيامة إشارة إلى أن الجهاد باقٍ ومستمرّ إلى أن يأتي وعد الله تعالى.

* * *

استئذان الأبوين في الجهاد

{٢٩٦} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل

إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال «**ففيهِمَا فَجَاهِدْ**».

رواه البخاري (٦/٤٨٠)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٠٣، ١٠٤)، وأبو داود (**٢٥٢٩**)، والترمذي (**١٥٣٢**)، والنسائي (٦/١٠).

وفي رواية: أتى رجل فقال: يا رسول الله إني جئت أريد الجهاد معك، أبتغي وجه الله والدار الآخرة، ولقد أتيت وإن والديّ يبكيان، قال: «**فارْجِعْ إِلَيهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كما أَبْكَيتَهُمَا**»، رواه أحمد (٢/١٦٠، **١٩٤**، ١٩٨)، وأبو داود (**٢٥٢٨**)، وابن ماجه (**٢٧٨٢**).

وفي رواية: جئتُ لأُبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان الخ، وهي لأحمد وأبي داود.

{**٢٩٧**} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً هاجر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من اليمن، فقال: «**هل لك أحدٌ باليمن**»، قال: أبواي، قال: «**أَذِنَا لك**»؟ قال: لا، قال: «**ارجِعْ إليهما فاستَأْذِنْهُما، فإن أَذِنَا لك فجاهِد وإلا فَبِرَّهُمَا**».

رواه أبو داود (**٢٥٣٠**)، وأحمد (٣/٧٦) بسند صحيح.

قوله: ففيهما فجاهد معناه: جاهد نفسك في البرور بوالديك والإحسان إليهما، وخدمتهما. وفي هذا الحديث دليل على أن خدمة الوالدين والبرور بهما مقدّم على الجهاد، وأنه لا يجوز لمن له والدان أن يجاهد حتى يستأذنهما ويأذنان له، فإن لم يأذنا وجب عليه التخلّف، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء إن كان الجهاد فرض كفاية، واتفقوا أنه إذا تعيّن فلا إذن، كما إذا دهم العدوّ بلاد المسلمين أو عيّنه الإمام للخروج... وفيها إشارة إلى أن بُرُورَ الوالدين أفضل من الجهاد الكفائي أو التطوعي. وسيأتي مزيد لبيان البرور بالوالدين في البرّ والصلة إن شاء الله تعالى.

* * *

دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال ووصية الإمام قائد الجيش بوصايا هامة

{٢٩٨} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «**ما قاتَل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قَوْماً قَطُّ إلاّ دعاهُمْ**»، وفي رواية: «**حتى يَدْعُوهُمْ**».

رواه أحمد (١/٢٣١، ٢٣٦)، وأبو يعلى (٢٤٩٤)، والطبراني في الكبير (١١١٥٩، ١١٢٦٩)، والحاكم (١/١٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع (٥/٣٠٤) بعد أن عزاه للأولين بأسانيد: ورجال أحدها رجال الصحيح.

والحديث يدلّ على مشروعية تقديم دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال، والأحاديث بذلك كثيرة منها حديث ابن عباس عندما بعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم معاذاً إلى اليمن، وقال له: «**إنك تأتي قوماً أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إلـه إلاّ الله**» الخ، وقد تقدم لنا في الإيمان. ومنها حديث سهل بن سعد في قصة الإمام عليّ عليه السلام يوم خيبر، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**» الحديث، ويأتي في المغازي إن شاء الله تعالى، وكلا الحديثين في الصحيحين وقد اختلف العلماء في ذلك، والجمهور على وجوب الدعوة لمن لم تبلغهم واستحبابها لمن بلغتهم، وبذلك يجمع بين هذه الأحاديث وحديث إغارته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على بني المصطلق، كما يأتي في المغازي بإذن الله تعالى وعونه.

{٢٩٩} ـ وعن أبي البختري عن سلمان رضي الله تعالى عنه أنه انتهى إلى حِصْنٍ أو مَدِينَةٍ، فقال لأصحابه: دعُوني أدعُهم كما رأيتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَدْعُوهم، فقال: إنما كُنْتُ رجلاً منكم فهداني الله للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبَيْتُم فأدُّوا الجزية وأنتم صاغرُون، فإن أبيتُم نَابَذْناكُم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناسُ

إليها ففتحوها، وفي رواية: إن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي حاصروا قصراً من قصور فارس، فقالوا: يا أبا عبدالله ألا ننهد إليهم، قال: دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعوهم، فأتاهم سلمان فقال لهم: إنما أنا رجل منكم فارمي ترون العرب يطيعوني، فإن أسلمتم... وفيه: ورطن إليهم بالفارسية.

رواه أحمد (٥/٤٤٠)، والترمذي (١٤١٥) ورجاله رجال الصحيح غير أن عطاء بن السائب كان قد اختلط، كما فيه انقطاع، فقد قالوا: إنّ أبا البَخْتَري لم يُدْرِكْ سلمان، لكن معنى الحديث صحيح وعليه العمل، ويأتي نحوه عن المغيرة بن شعبة وخالد بن الوليد بعد الحديث الآتي.

وقوله: ننهد إليهم أي: نسرع في قتالهم، وقوله: رطن إليهم أي: كلّمهم بعجميتهم، وفيه أمر المجوس بهذه الخصال الثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، وأصرح منه الحديث التالي.

{٣٠٠} ـ عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: **«اغْزُوا باسْم الله قاتِلوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وَليداً، وإذا لقيتَ عَدُوَّك من المشركين فادعُهم إلى ثلاث خصال أو خِلال، فأيَّتُهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى التَّحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبِرْهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يَجْرِي عليهم حُكْمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ، إلاّ أن يُجاهِدُوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فَسَلْهُمْ الجزْية فإن هم أجابوك فاقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعِنْ بالله وقاتِلْهُم، وإذا حاصرتَ أهلَ حِصْن فأرادُوك أن تجعلَ لهم ذِمّة الله وذمّةَ رسولِه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمّة نبيه،**

ولكن اجعل لهم ذمّتك وذمّة أصحابك، فإنكم أن تُخفِروا ذِممكُم وذِمَم أصحابكم أهونُ من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله تعالى ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

رواه أحمد (٥/٣٥٢، ٣٥٨)، ومسلم أوّل الجهاد (١٢/٣٧، ٤٠)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذي في الديّات (١٢٧٧)، وابن ماجه (٢٨٥٨)، والدارمي (٢٤٤٧) وغيرهم.

السريّة: قطعة من الجيش تخرج منه تغير على الكفار ثم ترجع، قوله: «ولا تمثّلوا» ـ بفتح التاء وضمّ الثاء ـ والمثْلة هي التنكيل بالشخص وقطع أطرافه وبقر بطنه ونحو ذلك، وقوله: «تُخْفِروا» ـ بضم التاء وكسر الفاء ـ أي: تنقضوا.

في هذا الحديث أحكام وفوائد:

منها: وصية الإمام أمراء جيوشه بتقوى الله تعالى والرّفق بمن معه وتعريفهم ما يحتاجونه في غزوهم من واجبات وحلال وحرام وآداب، وفيه الأمر بغزو الكفار وقتالهم في سبيل الله تعالى وإعلاء دينه؛ لأن الهدف من الجهاد هو أن يعبد الله تعالى وحده وأن لا تكون فتنة في الدين. قال ابن رشد في بداية المجتهد: فأما لماذا يحاربون فاتّفق المسلمون على أن المقصود بالمحاربة لأهل الكتاب ـ ما عدا أهل الكتاب من قريش ونصارى العرب ـ هو أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، وإما إعطاء الجزية؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.. حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾. وفيه تحريم الغلول ـ وهو السرقة من الغنيمة قبل أن تقسم، ويأتي ـ كما فيه تحريم الغدر بالكفار إذا كان لهم عهد مثلاً، وتحريم المثلة ولو بالكفار، وتحريم قتل الأطفال، ويأتي من يحرم قتلهم من الكفار فيما بعد، كما فيه وجوب دعوة المشركين إلى ثلاث خصال، فإلى أيتها أجابوا قُبِل منهم: إما الإسلام أو أداء الجزية، فإن امتنعوا من ذينك قوتلوا، وهذه الدعوة إلى هذه الخلال

خاصة بأهل الكتاب والمجوس. أما أهل الكتاب، فالقرآن نصّ على ذلك كما تقدم. وأما المجوس، فلهذا الحديث وقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المجوس: «**سنّوا بهم سنة أهل الكتاب**». ويأتي. أما غيرهم من الوثنيين وممن لا كتاب لهم فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتال، كما قدمنا، وانظر المحلى لابن حزم (٣٤٥) فإن له في هذا الموضوع كلاماً مهماً مفصّلاً. وفيه وجوب تحوّل من أسلم إلى حيث يوجد المسلمون، فإن فعلوا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ومن تخلف في بلاده لم يكن له حظ في الفيء مع المسلمين، إلا أن يجاهد، ويأتي البحث في الهجرة من بلاد الكفار. وفيه أن من حاصر مدينة للكفار فأرادوا النزول على ذمّة الله وذمّة رسوله وحكمهما لا يجابون لذلك، بل ينزلون في ذمّة المسلمين وحكمهم فيهم حسب اجتهاد قائد الجيش.

{٣٠١} ـ وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى: «**أمرنا نبيُّنا رسولُ ربّنا عن رسالة رَبّنا أن نُقاتِلَكُمْ حتى تعْبُدوا الله وحْدهُ أو تُؤدُّوا الجزيةَ، وأخبرنا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن رسالة ربنا أنه من قُتِلَ منا صار إلى الجنّة في نعيم لم يُرَ مثلُها قطّ، ومن بقيَ منا ملك رِقابَكُم**».

رواه البخاري، ويأتي في الجزية.

{٣٠٢} ـ وعن أبي وائل رحمه الله تعالى قال: كتب خالد بن الوليد إلى أهل فارس: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى زُسْتُم ومهران في ملإ فارس: سلام على من اتّبع الهدى أما بعد: فإنا ندعوكم إلى الإسلام، فإن أبيتم فاعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم فإن معي قوماً يحبون القتل في سبيل الله كما تحب فارس الخمر، والسلام على من اتّبع الهدى. أورده أبو عبيد في الأموال (ص ٣٣، ٣٤) من طريق آخر عن الشعبي عنه. أوردت هذين الأثرين استشهاداً بهما كأثر سلمان المتقدم. والمقصود: أن عمل الصحابة والمسلمين على الدعوة إلى هذه الخصال وخاصة لمن لم تبلغهم الدعوة، وستأتي في السيرة النبوية الكتب والرسائل التي بعثها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للملوك.

تبييت الكفار والإغارة عليهم

{٣٠٣} ـ عن ابن عَوْنٍ قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، قال: فكتب إليَّ إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على بني المُصْطَلِق وهم غارّون وأنعامُهم تُسْقَى على الماء، فقتَل مقاتِلَتَهُم، وسَبَى ذَرارِيهم وأصاب يومئذ جُوَيْرِيَة ابنة الحارث، وحدّثني هذا الحديث عبد الله بن عمرو كان في ذلك الجيش.

رواه البخاري في العتق، ومسلم في الجهاد (١٢/٣٥، ٣٦)، وأبو داود (٢٦٣٣)، وكذا أحمد (٢/٣١، ٥١).

قوله: أغار أي: هجم عليهم وأوقع فيهم، وقوله: وهم غارّون ـ بضم الراء المشدّدة ـ أي: غافلون من الغرة ـ بكسر الغين ـ وهي الغفلة.

{٣٠٤} ـ وعن الصعب بن جثامة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن أهل الدار من المشركين يُبَيَّتُون فَيُصَاب من نسائهم وذرَارِيهم، ثم قال: «هم منهم»، وفي رواية: ثم نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل النساء والصبيان.

رواه البخاري (٦/٤٨٧)، ومسلم (١٢/٤٩)، وأبو داود (٢٦٧٢)، والترمذي (١٤٤١) وغيرهم، والرواية الثانية لأبي داود.

قوله: يبيتون أي: يُقاتَلُون ليلاً على غِرّة.

وفي الحديثين جواز قتال الكفار والإغارة عليهم في حال غفلتهم وبياتهم وقبل دعوتهم إذا كانت بلغتهم الدعوة، كما فيه جواز قتل نسائهم وذراريهم إذا كانوا بينهم بحيث لا يقصدون بالقتل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «هم منهم»، وهذا مذهب جمهور العلماء.

وفي حديث الصعب أن أولاد المشركين حكمهم في الدنيا حكم آبائهم بخلاف الآخرة.

* * *

تحريم قصد قتل نساء الكفار وصبيانهم

{٣٠٥} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: وُجدت امرأةٌ مقتولة في بعض تلك المغازي، فنهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتل النساء والصبيان، وفي رواية: أن امرأة وُجِدَتْ في بعض مغازي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مَقْتُولَةً، فأنكر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قتلَ النساء والصبيان.

رواه البخاري (٦/٤٨٩)، ومسلم (١٢/٤٨)، وأبو داود (٢٦٦٨)، والترمذي (١٤٤٠)، وابن ماجه (٢٨٤١)، والدارمي (٢٤٦٥) وغيرهم.

نقل النووي وابن الهمام الإجماع على تحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا أو يساعدوا المقاتلين... أما إذا قاتلوا فعامّة أهل العلم على جواز قتالهم، وكذا إذا لم يمكن قتال الرجال إلا بقتل النساء والأطفال. أما ما ذهب إليه مالك والأوزاعي من تحريم قتالهم حتى لو تترس أهل الحرب بالنساء والأطفال أو تحصّنوا في حصن أو سفينة لا يجوز قتالهم، فلا شكّ في غلطه.

وقد ذكر العلماء أصنافاً من الكفار لا يقتلون في الحرب كالرهبان والشيوخ الذين لا يقاتلون والمعتوه والأجير والأعمى وأصحاب الصوامع والأساقف، وفي بعضهم خلاف، وهذا كله إذا لم يساعدوا المقاتلة ولو بآرائهم.

* * *

لا يجوز تحريق الكفار بالنار

{٣٠٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في بعث فقال: «**إن وجدتم فلاناً وفلاناً** ـ لرجلين من قُريش ـ **فأحرِقُوهما بالنار**»، ثم قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين أردنا الخروج: «**إني كنت أمرتكم أن تُحرِقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وأن النار لا يُعَذِّبُ بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما**».

رواه أحمد (٣٣٨/٢، ٣٠٧)، والبخاري (٤٩٠/٦، ٤٩١)، وأبو داود (٢٦٧٤)، والترمذي (١٤٤٢)، والنسائي والدارمي (٢٤٦٤)، وابن الجارود (١٠٥٧) وغيرهم.

{٣٠٧} ـ وعن حمزة الأسلمي نحوه وفيه: «**فاقتلوه ولا تُحرِقُوه، فإنه لا يُعَذِّبُ بالنار إلا ربُّ النار**».

رواه أبو داود (٢٦٧٣) بسند صحيح، وتقدم حديث ابن عباس مع الإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما في قتل المرتد.

في الحديثين النهي عن التحريق بالنار والقتل بها لأن ذلك من خصائص الربّ سبحانه، ويبقى الأمر إذا كان الكفار يقاتلون بالنار كالقتال الحالي، فلنا أن نقابلهم أيضاً بالنار من باب المشاكلة، وجزاء سيّئة سيّئة مثلها، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، وقد سمر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعين أولئك المحاربين الذين قتلوا راعي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وسمّلوا عينيه بالنار وفرّوا...

* * *

جواز تحريق الأشجار والدور ونحو ذلك

{٣٠٨} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حرق النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَخْلَ بَني النَّضِير...

رواه البخاري (٤٩٥/٦) ومسلم، ويأتي مطولاً في المغازي.

{٣٠٩} ـ وعن جرير رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة**»، وكان بيتاً في خثعم يُسمّى كعبة اليمانية، قال: فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمَس وكانوا أصحاب خيل، قال: وكنت لا أثبت على الخيل فضرب في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري، وقال: «**اللّهمّ ثَبّته واجعلْه هادياً**

مَهْدِيّاً»، فانطلق إليها فكَسَرها وحَرَّقها ثم بعث إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يخبره، فقال رسول جرير: والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتُها كأنها جمل أجْوَفُ أو أجْرَبُ، قال: «**فبارك في خيل أحمس ورجالها**» خمس مرات.

رواه البخاري (٦/٤٩٥)، ومسلم ويأتي مستوفى في المغازي أيضاً وفي الفضائل والمناقب.

وفي الحديثين جواز تحريق أشجار الكفار وتخريب دورهم حالة الحرب تنكيلاً بهم وإغاظة لهم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن إغاظة الكفار مطلوبة، وأن فيها الأجر العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآية.

وقد تقدم أن أشرنا إلى أن سيدنا عمر حرّق دكاكين، والقرية التي كان يباع فيها الخمر، ويأتي مزيد لهذا في المغازي.

* * *

تحريم الفرار من المعركة

{٣٩٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، فذكرها وقال: «**والتولي يوم الزحف**».

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ويأتي في البرّ والصلة كاملاً إن شاء الله تعالى، وفي صحيح مسلم عن جابر قال: بايعنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على أن لا نَفِرَّ، ويأتي في المغازي. ويوم الزحف: هو عند التداني والالتقاء مع الكفار، فالفرار حينئذ من كبار الذنوب التي توبق

صاحبها النار، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

وهذا وعيد شديد وعظيم، فالفرار من المعركة محرم إذا لم يفرّ لأحد أمرين: إما مخادعة للكفار وتظاهراً بالانهزام، والمقصود: التحيّز إلى جماعة يَسْتَنْجِدُ بِهِم أو تحرّفاً للقتال بإظهار الفرار والنيّة الرجوع إلى العدوّ مع حيلة، وهذا ما لم يكن العدوّ أضعاف أضعاف المسلمين، أو كانت لهم قوّة لا يستطيع المسلمون مقاومتها، فإن الله عزّ وجلّ قال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

فإن كان العدد أكثر لم يكن على المسلمين حرج في الانصراف، والأَوْلى الثبات والصمود.

* * *

التكبير عند القتال والدعاء على المشركين بالانهزام

{٣١١} ـ فيه حديث أنس رضي الله تعالى عنه في غزوة خيبر قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الله أكبر خربت خيبر**».

{٣١٢} ـ ويأتي في المغازي وهو في الصحيح كما فيه حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه دعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم الأحزاب على المشركين، فقال: «**اللّهمّ مُنْزِلَ الكتاب سريعَ الحساب، اللّهمّ اهْزِمِ الأحزاب، اللّهمّ اهْزِمْهُم وزَلْزِلْهُمْ**»، وهو في الصحيح أيضاً، ويأتي في المغازي، ففي الحديثين مشروعية التكبير عند لقاء العدوّ والدعاء على الكفار بالهزيمة.

* * *

شعار المجاهدين فيما بينهم

{٣١٣} ـ عن المُهَلَّب بن أبي صفرة، قال: أخبرني من سمع النبيَّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنْ بَيَّتَكُمُ العَدُوُّ فَلْيَكُن شِعَارُكُم: حَم لا يُنْصَرُون**».

رواه أحمد (٤/٦٥ و٥/٣٧٧)، وأبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٥٤٣)، والحاكم (٢/١٠٧) وصححه الحاكم وأورده ابن كثير في التفسير، وقال: هذا إسناد صحيح، وانظر تهذيبي للمجمع (١٥٤٣).

قوله: بَيَّتَكُم أي: قصدوكم بالقتال ليلاً واختلطتم معهم.

{٣١٤} ـ وعن إيَاس بن سَلَمة عن أبيه قال: غزونا مع أبي بكر زمن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فكان شعارنا: أمِتْ أمِتْ.

رواه أبو داود (٢٥٩٦، ٢٦٣٨)، والحاكم (٢/١٠٧) وصححه، والحديث سنده حسن.

{٣١٥} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: بارزتُ رجلاً فقتلتُه فنفَّلني رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَلَبَه، فكان شعارنا مع خالد بن الوليد: أمِتْ، يعني: اقتل. رواه أحمد (٤/٤٥) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٦) وإسناده صحيح.

في هذه الأحاديث مشروعية اتخاذ المجاهدين شعاراً وعلامة فيما بينهم يقولونها ليعرف بعضهم بعضاً، وذلك إذا اختلطوا بالكفار ولم يتميّزوا عنهم، أو كان ذلك ليلاً. وقوله: حم لا ينصرون، اختلفوا في معناه، فقيل: إن حم اسم لله تعالى فكأنهم حلفوا بالله تعالى أنهم لا ينصرون أو كأن المعنى: اللّهمّ لا ينصرون، وقد ذكر المفسّرون مثله في حواميم القرآن، وقد رواه بعضهم بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة، بمعنى: قُضي وقُدِّر لا ينصرون، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

المخادعة في الحرب

{٣١٦} ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الحَرْبُ خُدْعَةٌ**».

رواه البخاري (٤٩٩/٦)، ومسلم (٤٥/١٢)، والترمذي (١٥٣٦)، وأبو داود (٢٦٣٦)، وكذا أحمد (٢٩٧/٣، ٣٠٨).

قوله: خدعة، مثلث الخاء وأفصحها الفتح مع سكون الدال، وفي الحديث مشروعية مخادعة الكفار بالكذب والتورية ونحو ذلك مما لا نقض فيه لعهد، وقد جاء في حديث كعب بن مالك في توبة الله عليه عن تخلّفه في غزوة تبوك حيث قال: كان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها، وكان يقول: «**الحرب خدعة**»، رواه أبو داود (٢٦٣٧) بسند صحيح وأصله في الصحيحين، وقد تقدم في الحديث في التفسير مطوّلاً ومخرجاً. وقوله: «وَرَّى» بفتح الواو والراء المشدّدة أي: ستر ووهّم غيره، ومعنى التورية: أن يظهر غير ما يريده، وذلك من قبيل المخادعة ويأتي حديث قتل كعب بن الأشرف، وكذب محمد بن مَسلمة عليه... في السيرة، إن شاء الله تعالى.

{٣١٧} ـ وعن أمّ كلثوم بنت عقبة رضي الله تعالى عنها قالت: لم أسمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يرخص في شيء من الكذب مما يقول الناس إلا في الحَرْبِ، والإصْلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجَها. رواه مسلم في الأدب، ويأتي في البرّ والصلة.

والكذب هنا يحتمل الكذب الصراح، ويحتمل التعريض والتلويح. وظاهر الحديث يدلّ على جوازه في هذه الأحوال صراحة لأجل المصلحة، فإن الكذب في الحرب قد يكون له آثار عظيمة في تقوية قلوب المجاهدين، وهزيمة الكفار وإضعاف معنوياتهم وإرهابهم، وفي ذلك خير كثير.

* * *

{٣١٨} ـ عن مُصْعَب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله تعالى عنه أن لهَ فضلاً على من دونه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هَلْ تُنْصَرُون وتُرْزَقُون إلا بِضُعَفَائِكُمْ**».

وفي رواية: «**إنما يَنْصُرُ الله هذه الأُمّة بِضَعِيفِها بدَعواتِهم وصلاتِهم وإخلاَصِهم**».

رواه البخاري بالرواية الأولى في الجهاد (٦/٤٢٩)، والنسائي (٦/٣٧، ٣٨) باللفظ الثاني.

{٣١٩} ـ وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**ابْغُونِي الضَّعِيفَ، فإنَّما تُرزقُون وتُنْصَرُون بِضُعَفَائِكُمْ**».

رواه أحمد (٥/١٩٨)، وأبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٥٦١)، والنسائي (٦/٣٨)، وابن حبان (١٦٢٠)، والحاكم (٢/١٠٦، ١٤٥) وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: ابغوني ـ بهمزة الوصل ـ أي: اطلبوا لي الضعفاء أي: الذي يستضعفهم الناس لفقرهم ورثاثة هيئتهم، فتقرّبوا إليّ بهم وبتفقد أحوالهم والإحسان إليهم، فإنما يأتيكم الله عزّ وجلّ بالمطر والنبات والزروع والثمار وينصركم على أعدائكم بسبب وجودهم بين أظهركم وببركة دعائهم وصلاتهم وإخلاصهم لله عزّ وجلّ في أعمالهم. ففي الحديثين فضل الضعفاء المنكسرة قلوبهم لبعدهم عن التكبّر والعلوّ على الناس والإعجاب بأنفسهم، فينبغي لذوي السلطة وقادات الجيوش أن يلتمسوا من المؤمنين الضعفاء الصالحين الدعاء بالنصر على الأعداء..

قال ابن بطال على حديث سعد: تأويل الحديث أن الضعيف أشد إخلاصاً في الدعاء، وأكثر خشوعاً في العبادة لخلاء قلوبهم عن التعلّق بزخرف الدنيا... وقال المهلب: أراد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

بذلك حضّ سعد على التواضع ونفي الزهو على غيره وترك احتقار المسلم في كل حالة. نقله الحافظ.

❋ ❋ ❋

الاستعانة بالمشركين

{٣٢٠} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قبل بدْر، فلما كان بِحَرَّةِ الوَبرة أدركه رجل قد كان يُذكرُ منه جُرأةٌ ونَجْدةٌ، ففرِحَ أصحابُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تُؤْمِنُ بالله ورسولِهِ**»، قال: لا، قال: «**فارْجَعْ فلنْ أستعين بمُشْرك**»، ثم أسلم بعدُ وقاتل معه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (٦٨/٦، ١٤٩)، ومسلم (١٩٨/١٢)، وأبو داود (٢٧٣٢)، وابن حبان (١٦٢١) كلّهم في الجهاد.

في الحديث منع الاستعانة في الحرب بالمشركين لأنهم أعداء لنا ولديننا، فلا نأمنُهُم من نحو خيانة، وهذا الذي امتنع منه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الاستعانة بالمشرك على المشركين، وفي هذا خلاف بين الفقهاء، فأجازه البعض للحاجة والضرورة، وهو مذهب الشافعي وغيره، واستدلّوا باستعانته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بصفوان بن أُميّة وهو كافر، وكان ذلك بعد الفتح، وامتناعه كان ببدر وذلك قديم، كما استعان صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بحماية المُطْعِم بن عَدِيٍّ وهو كافر في دخوله مكة المكرمة بعد رجوعه من الطائف. ومنع منه آخرون عملاً بحديث الباب، والصحيح ما ذهب إليه الأوّلون في جواز ذلك للضرورة والمنع في غيرها.

أما الاستعانة بالمشركين والكفار على قتال المسلمين كما كان الحال

في ملوك الطوائف بالأندلس وفي كثير من الأقطار الإسلامية عبر التاريخ، فلم يقل بذلك أحد من علماء الإسلام وأئمته وهو محرم أشدّ التحريم، بل هناك من العلماء من قال بكفر من فعل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

* * *

جواز التخلف عن الجهاد لعُذرٍ ما وأنه يُكتبُ للمُتخلّف أجرُ المُجاهِدِ

{٣٢١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رجعنا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**إن قوماً خَلْفَنا بالمدينة ما سَلَكْنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهُمْ معنا حَبَسَهُمْ العُذْرُ**»، وفي رواية: «**لقد تركتُم بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مَسِيراً، ولا أنفقْتُم من نَفقَةٍ، ولا قطعْتُم من وادٍ إلاّ وهم معكم فيه**»، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حَبَسَهُمْ العُذْرُ**»، وفي رواية: لمّا رجعَ من غَزْوَةِ تَبُوك.

رواه البخاري في المغازي (٩/١٩٠)، وأبو داود (٢٥٠٨)، وابن ماجه (٢٧٦٤) في الجهاد.

{٣٢٢} ـ وعن جابر مثله وقال: «**حَبَسَهُمْ المَرَضُ**»، وفي رواية: «**إلا شَرَكُوكُم في الأجْرِ**».

رواه مسلم (١٣/٥٧)، وابن ماجه (٢٧٦٥).

قوله: شعباً ـ بكسر الشين ـ هو الفرق بين الجبلين كوادٍ ونحوه.

وفي الحديثين فضيلة النية في عمل الخير، وأن كل من نوى عمل خير من صلاة أو صيام أو تلاوة أو جهاد ولم يُقدَّر له ذلك بأن عرض له عذر من مرض أو تمريض أو شيء قاهر منعه من ذلك، فإن الله عزّ وجلّ يتفضّل عليه بأجر ما نوى، وخاصة إذا كثر منه التأسّف.

وفيهما: أن المرض أو أيّ عذر يوجب التخلّف عن الجهاد يكون مانعاً من إثم التخلّف، ويوجب الأجر الجزيل والكون مع المجاهدين.

{٣٢٣} ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه كان يقول في هذه الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زيداً فجاء بكتف يكتبها، فشكا إليه ابنُ أُمّ مَكْتُوم ضَرارَته، فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ الخ.

رواه البخاري (٣٢٩/١)، ومسلم (٤٢/١٣)، والترمذي (٢٨٣٥)، والنسائي (٩/٦، ١٠).

{٣٢٤} ـ وعن زيد بن ثابت نحوه، رواه البخاري في الجهاد (٣٨٥/٦) وفي التفسير (٣٢٩/٩)، ومسلم (٤٢/١٣، ٤٣)، والترمذي (٢٨٣٧)، والنسائي (٨/٦، ٩)، وأبو داود (٢٥٠٧).

في الحديثين مع الآية الكريمة مشروعية الترخيص لأهل الأعذار في التخلّف عن الجهاد مع إحرازهم على أجر الجهاد ومساواتهم للمجاهدين في أجر خروجهم وجهادهم، وهذا من لطف الله عزّ وجلّ ورحمته بعباده حيث يجازي عباده حسب نيّاتهم مع عدم العمل، رغم أن كلاّ من المجاهدين والمتخلّفين لغير عذر من أهل الجنّة إن لم يكن الخروج فرض عين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، ومن أصحاب الأعذار الذين لهم فضل المجاهدين: العمي، والعَرْجَى، والمَرْضى، والهَرْمَى، والضعافُ أجساماً، والنساء...

* * *

وجوب طاعة قائد الجيش وأميره

{٣٢٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي

إذ بعثه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سرية.

رواه البخاري في التفسير ومسلم في الإمارة وغيرهما، وقد تقدم في التفسير ويأتي.

{٣٣٦} ـ وتقدم أيضاً فيه حديث الإمام عليّ في قصة عبدالله بن حذافة المذكور قبله، وما أمر به سريته، وقول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنما الطاعة في المعروف**» رواه.

ففي الحديثين مع الآية وجوب طاعة قائد الجيش؛ لأن سبب نزول الآية هو قصة عبدالله بن حذافة، وكان أمير السرية، فأمرهم بطاعته في دخول النار التي أضرموها امتثالاً لما أمرهم به رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من طاعته، ولكنه لما أمرهم بدخول النار وهي معصية نزلت الآية الكريمة تأمر بطاعة أُولي الأمر، ولكن فيما جاء في الكتاب والسنة والمعروف، ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية، وبيّن لهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الطاعة في المعروف.

* * *

مشروعية مشاورة القائد للجيش

فيه حديث أبي هريرة في مشاورته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الصحابة في الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين وهو في الصحيحين، وقد تقدم في التفسير كما فيه حديث قصة الإفك، وقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنُوا أهلي**»، وتقدم أيضاً في التفسير، وستأتي أحاديث في المغازي وغيره في الموضوع.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

* * *

لا يُتَمَنَّى لِقاءَ العدوّ

{٣٢٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العدُوّ، وإذا لَقِيتُمُوهُم فاصْبِرُوا**».

رواه البخاري في الجهاد (٣٩٨/٦) وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (٤٥/١٢) وغيرهما.

{٣٢٨} ـ وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يا أيُّها الناسُ لا تَتَمَنَّوا لقاءَ العدوّ وسلُوا الله العافِيَة، فإذا لَقِيتُمُوهُم فاصْبِروا واعلَمُوا أن الجنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**».

رواه البخاري (٣٩٧/٦)، ومسلم (٤٦/١٢، ٤٧) كلاهما في الجهاد، وأبو داود (٢٦٣١).

في الحديثين النهي عن تمني لقاء العدوّ الكافر لأنه ربما ودّ الإنسان ذلك إعجاباً بنفسه، ووثوقاً بقوّته، فإذا جاء العدوّ أو طرأ جهاد وخروج للغزو لَمْ يَفِ بما كان يتمناه ولم يصبر، وذلك عند الله عظيم، ولذلك كان الأَولى سؤال الله عزّ وجلّ العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، وهي أفضل ما أُعْطِيَهُ الإنسان، وهذا النهي في الحديثين لا ينافي طلب الشهادة وتمني الموت في سبيل الله، لأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والظروف. وقوله: «إن الجنّة تحت ظلال السيوف»؛ فيه الترغيب في الغزو والجهاد.

* * *

قتل الجاسوس

{٣٢٩} ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عينٌ من المشركين وهو في سفر، فجلس

عند أصحابه ثم انسلّ، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«اطْلُبوهُ فاقْتُلُوه»**، قال: فسبَقْتُهم إليه فقتلتُه وأخذتُ سلَبَه، فنفّلني إيَّاه.

رواه البخاري (٥٠٩/٦)، وأبو داود (٢٦٥٣) وغيرهما.

قوله: عَيْن؛ العين هو الجاسوس وسمّي عيناً لأن كل تجسّساته تكون بعينه، والحديث يدلّ على قتل من تجسّس على أحوال المسلمين. أما الحربي، فقتله مشروع بالاتفاق. وأما غيره من المعاهد والذمي ففيهما خلاف، والصحيح أنهما يقتلان. وأما الجاسوس المسلم، ففيه خلاف أيضاً وعدّه جماعة من العلماء مرتداً يجب قتله، وانظر ما سبق في سورة الممتحنة في قصة حاطب. وقول سلمة: وأخذت سلبه ـ بفتحات ـ أي: ما كان معه من الأسلحة ونحوها، وقوله: فنفلني إياه أي: أعطانيه نافلة، أي: زيادة على الغنيمة، ويأتي الكلام على النفل في الغنائم.

* * *

الفتك بأهل الحرب

{٣٣٠} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مَن لِكَعْبِ بن الأشْرَف، فإنه قد آذى الله ورسوله»**، قال محمد بن سلمة: أتُحِبُّ أن أقتلَه يا رسول الله؟ قال: **«نعم»**، قال: فأتاه فقال: إن هذا ـ يعني ـ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد عَنَّانا وسألنا الصدقة، قال: وأيضاً والله قال: فإنا قد اتّبعناه، فنكره أن ندعَه حتى ننظُرَ إلى ما يصير أمره، قال: فلم يزل يكلّمه حتى استمكن منه فقتله.

رواه البخاري (٤٩٩/٦، ٥٠٠) في الجهاد وفي المغازي ويأتي، ومسلم في الجهاد (١٦٠/١٢، ١٦١)، ويأتي في المغازي مطولاً. قوله: عنانا ـ بتشديد النون الأولى ـ أي: أتعبنا.

وفي الحديث مشروعية الفداء وقتل الكافر المحارب غيلة مع الحيلة

معه ومخادعته، ويأتي مزيد لهذا مع قصة قتل أبي رافع في المغازي إن شاء الله تعالى، وانظر شرح السنة (١١/٤٥، ٤٦).

* * *

مشروعية المبارزة

{٣٣١} ـ عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه يُقْسِم قَسَماً أن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعُبَيْدة بن الحارث، وعُتْبة، وشَيْبَة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما وتقدم في التفسير.

والمراد بالخصمين الفريقان: فريق أهل الإسلام وهم: عليّ وصاحباه، وفريق أهل الكفر وهم: شيبة وأخوه وابن أخيه، وخصامهم هو معاداة كل فريق منهما، الفريق الآخر ومحاربته إياه، ويأتي حديث عليّ مفصّلاً في المغازي. والحديث يدلّ على جواز المبارزة مع الكفار وهي أن يخرج شخص أو أكثر من أحد الفريقين فينادي: هل مِنْ مبارز؟ فيخرج إليه من يبارزه فيتقاتلان إما بالحراب أو بالسيوف... على العادة القديمة، واليوم قد تكون المبارزة إما بالمصارعة، أو بالخناجر أو نحو ذلك، ولم يختلف العلماء في جوازها إذا كانت بإذن من قائد الجيش، واختلفوا فيها إذا لم تكن عن إذن منه، فأجازها مالك والشافعي ومنعها آخرون.

* * *

خروج النساء مع الغزاة للخدمة ومداواة الجرحى ونقلهم

{٣٣٢} ـ عن الرُّبَيّع بنت مُعوِّذ رضي الله تعالى عنها قالت: كنا نغزو مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنُسْقِي القوم، ونَخدمُهم، ونَرُدُّ الجَرْحَى والقَتْلَى إلى المدينة.

رواه البخاري في الجهاد (٦/٤٢٠).

{٣٣٣} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَغْزو بأُمّ سُلَيْم ونسوة من الأنصار معه، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى.

رواه مسلم (١٢/١٨٨)، وأبو داود (٢٥٣١)، والترمذي (١٤٤٥).

{٣٣٤} ـ وعن أُمّ عطية رضي الله تعالى عنها قالت: غزوت مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سبع غزوات أخْلُفُهم في رحالهم فأصنعُ لهم الطعام، وأُداوِي الجَرْحَى وأقومُ على المرْضى.

رواه مسلم (١٢/١٩٤).

في هذه الأحاديث مشروعية خروج النساء مع المجاهدين في الغزوات، وذلك لخدمتهم من تهيئة الطعام، وسقي الماء، ومداواة الجرحى ونقل الأموات.

قال النووي: وهذه المداواة لمحارمهن وأزواجهنّ وما كان منها لغيرهم لا يكون فيه مس بشرة إلا في موضع الحاجة. وقال الحافظ: وفيه جواز معالجة المرأة الأجنبية الرجل الأجنبي للضرورة. قال ابن بطال: ويختصّ ذلك بذوات المحارم ثم بالمتجالات منهنّ، لأن موضع الجرح لا يلتذّ بلمسه بل يقشعرّ منه الجلد، فإن دعت الضرورة لغير المتجالات فليكن بغير مباشرة ولا مسّ.. والأصح أن المداواة ضرورة فيجوز لكل من الجنسين مسّ الآخر للعلاج عند الضرورة، ولا نشكّ أن خروج النساء في ذلك العصر كان لضرورة ولغير القتال ولكن يخرجن مع رجالهن، ولم يكن يشاركن في القتال ولا يلزمهن الخروج.

{٣٣٥} ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أُمّ سليم اتّخذت يوم حنين خنجراً فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما هذا الخنجر**»؟ قالت: اتّخذته إن دنا مني أحد من المشركين بَقَرْتُ به بَطْنه،

فجعل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يضحك...

رواه مسلم (١٨٧/١٢، ١٨٨).

ففي هذا الحديث فائدتان: أولاهما: أن أُمّ سليم خرجت مع زوجها أبي طلحة، ثانيهما: أن زوجها ورسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنكرا عليها اتّخاذ السلاح لأنها ليست من أهل القتال، ولذلك أبدت لهما العذر في اتّخاذها الخنجر بأنها حملته للدفاع عن نفسها.

{٣٣٦} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذنت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الجهاد، فقال: «**جهادكنّ الحجّ**»، وفي رواية: نرى الجهاد أفضل العمل، فقال: «**لكن أفضل الجهاد حج مبرور**»، وفي رواية ثالثة قالت: يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ قال: «**نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحجّ والعمرة**».

رواه أحمد من طرق، والبخاري (٤١٦/٦) في الجهاد وغيره، وابن ماجه (٢٩٩١) قال الحافظ في الفتح: وإنما لم يكن الجهاد واجباً عليهنّ لما فيه من مغايرة للمطلوب منهنّ من الستر ومجانبة الرجال، فلذلك كان الحجّ أفضل لهنّ من الجهاد.

والمقصود: أن خروجهنّ ليس مطلوباً، وإذا خرجن لا يكون كحالة نساء عصرنا الجنديات الإباحيات المقلّدات للنساء الكافرات.

* * *

إقامة المسلمين بعد الانتصار عند عرصات العدو

{٣٣٧} ـ عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، وفي رواية: إذا غلب قوماً أحب أن يقيم بعَرْصتِهم ثلاثاً.

رواه البخاري (٥٢١/٦)، ومسلم (٢٠٧/١٧)، وأبو داود (٢٦٩٥)، والترمذي (١٤١٨) وغيرهم.

قوله: ظهر على قوم، أي: تغلّب عليهم وهزمهم، وقوله: بعرصتهم ـ بفتح العين ـ وهي الأرض وسط الدار، والمراد بها هنا: موضع الحرب. والمقصود بهذه الإقامة بعد النصر: هو إظهار تأثير الغلبة وقلّة الاحتفال بالعدوّ.

* * *

تأييد الدين بالرجل الفاجر

{٣٣٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: شهدنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال لرجل ممن يدّعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**»، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذي قلت: إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إلى النار**»، قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكنّ به جراحاً شديداً، فلما كا من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخْبِر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «**الله أكبر، أَشْهَدُ أَنّي عبدُ الله ورسوله**»، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس «**أنه لا يدخل الجنّة إلا نفسٌ مسلمةٌ، وأن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٥٢٠)، ويأتي في المغازي، ورواه مسلم في الإيمان (٢/١٢٢).

في الحديث فوائد: أولاً: معجزة للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث أخبر بمآل ذلك الرجل المقاتل بأنه من أهل النار، فكانت خاتمته أن قتل نفسه. ثانياً: جواز الاستعانة بمن يتظاهر بالإسلام وهو كافر مآلاً. ثالثاً: لا يدخل الجنّة إلا المسلمون. رابعاً: إن الدين الإسلامي قد يتأيد بغير أهله كالكفار والفسقة. ويأتي مزيد لهذا في البرّ والصلة والمغازي.

* * *

لا يقتل البريد ولا السفير الكافران

{٣٣٩} ـ عن نُعَيْم بن مسعود الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول حين قرأ كتاب مُسَيْلِمة الكذّاب، قال للرسولين: «**فما تقولان أنتما**»؟ قال: نقول كما قال، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضربْتُ أعْناقَكُما**».

رواه أحمد (٤٨٨/٣)، وأبو داود (٢٧٦١) وسنده حسن صحيح، وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

{٣٤٠} ـ وعن حارثة بن مُضَرِّب أنه أتى عبد الله فقال: ما بيني وبين أحد من العرب جِنَةٌ وإني مررت بمسجد لبني حنيفة فإذا هم يؤمنون بمسيلمة، فأرسل إليهم عبد الله فجيء بهم فاستتابهم غير ابن النواحة قال له: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لولا أنك رسولٌ لضربتُ عُنقك**»، فأنت اليوم لست برسول، فأمر قَرَظة بن كعب فضرب عنقه في السوق، ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلاً بالسوق.

رواه أبو داود (٢٧٦٢) وأحمد وسنده جيد، وهو صحيح بسابقه.

قوله: حنة ـ بكسر الحاء وفتح النون المخففة ـ هي الإحنة وهو الحقد.

والحديثان يدلاّن على أن رسل الملوك والسفراء وغيرهم ممن يتوسّطون بين المسلمين والكفار لا يُقْتَلُون، وإن كانوا أهل حرب، وهذا من الأُمور المتفق عليها بين الدول قديماً وحديثاً. وقصّة مسيلمة الكذاب ستأتي في السيرة إن شاء الله عزّ وجلّ.

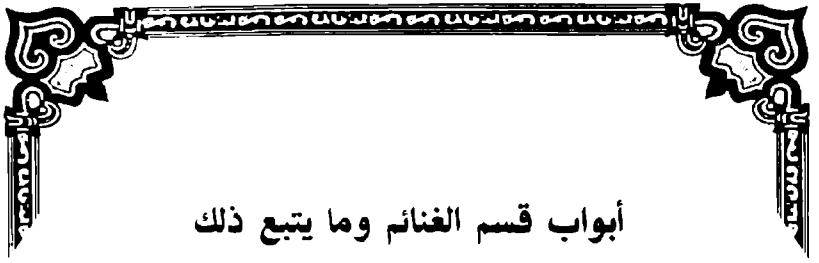

أبواب قسم الغنائم وما يتبع ذلك

تخصيص هذه الأُمّة بحلِّيّة الغنائم

{٣٤١} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله فضّلني على الأنبياء أو قال أمّتي على الأمم، وأحلّ لنا الغنائم**».

رواه الترمذي (١٤٢٠) بسند حسن وحسّنه الترمذي وصححه وذلك لشواهده.

{٣٤٢} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامع الكلم، ونُصِرتُ بالرُّعب، وأُحِلّت لي الغنائم**» الحديث.

رواه مسلم في المساجد (٥/٥)، والترمذي (١٤٢١) ويأتي في السيرة مع أحاديث أخرى، وانظر ما سبق أول التيمم.

{٣٤٣} ـ وتقدم حديثه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية، وفيه: «**لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نارٌ من السماء فتأكلها**»، رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

{٣٤٤} ـ كما تقدم أيضاً حديثه، وفيه: «**إن الله أطعمنا الغنائم رحمةً رحِمَنا بها وتخفيفاً، وخفّف عنا لِمَا عَلِم من ضُعفِنا**»، رواه النسائي في الكبرى وابن حبان بسند صحيح.

ففي هذه الأحاديث خصيصة للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأُمّته حيث أباح الله عزّ وجلّ لهم الغنائم التي يأخذونها من الكفار المحاربين، ولم يكن ذلك لأُمّة قَبْلَنَا والحمد لله.

* * *

تحريم الغلول

{٣٤٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، ثم قال: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيء يوم القيامة على رقبته بَعِيرٌ له رُغاءٌ فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك**» الحديث، تقدم في التفسير.

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الجهاد.

الغلول ـ بضم الغين ـ هو السرقة من الغنيمة قبل القسمة، وهو من كبار الذنوب، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ويأتي في المغازي مزيد لهذا.

* * *

سهم الصَّفِيّ يأخذُه الإمامُ قَبل الخُمُس والقِسمة

{٣٤٦} ـ عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد فجاء رجل أشْعَثَ الرأس بيده قطعةُ أديم أحمر، فقلنا: كأنك من أهل البادية، فقال: أجل، قلنا نَاوِلْنَا هذه القطعة الأديم التي في يدك، فناولناها فقرأناها فإذا فيها: «**من محمد رسول الله ـ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ إلى بني زُهَيْر بن أُقَيْشٍ إنكم إن شهدتم أن لا إلٰه إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وأتيتم الزكاة، وأدّيتم الخمس من المغنم، وسهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسهم الصَّفِيّ، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله**»، فقلنا: من كتب

لك هذا؟ قال: رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه أحمد (٧٧/٥، ٣٦٣)، وأبو داود (٢٩٩٩)، والنسائي (١٢١/٧)، وابن حبان (٤٩٧/١٤، ٤٩٨) بسند صحيح.

المربد ـ بكسر الميم وفتح الباء ـ موضع كان بالبصرة.

{٣٤٧} ـ وعن عامر الشعبي رحمه الله تعالى قال: كان للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَهْمٌ يُدْعَى الصَّفِيّ إن شاء عبداً، وإن شاء أَمَةً، وإن شاء فرساً يختاره من قبل الخُمُس، وفي رواية: سُئِل الشعبي عن سهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وصفيه، فقال: أما سهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فسهم رجل من المسلمين، وأما سهم الصفيّ فغرة تختار من أي شيء شاء.

رواه أبو داود (٢٩٩١) بالرواية الأولى، والنسائي (١٢١/٧) بالثانية، ورجالهما ثقات مع إرساله.

{٣٤٨} ـ وعن ابن عون قال: سألت محمداً عن سهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والصفي، قال: كان يضرب له بسهم مع المسلمين وإن لم يشهد، والصفي يؤخذ له رأس من الخمس قبل كل شيء.

رواه أبو داود أيضاً (٢٩٩٢) ورجاله ثقات أيضاً، وهو كالذي قبله وإن كانا مرسلين، فإن كلاً منهما يؤيّد الآخر وجاء مثلهما عن قتادة أيضاً رواه أبو داود (٢٩٩٣).

{٣٤٩} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت صفية من الصفي.

رواه أبو داود (٢٩٩٤)، وابن حبان (١٥٢/١١)، والحاكم (١٢٨/٢) و(٣٩/٣) ورجاله رجال الصحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

{٣٥٠} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا خيبر، فلما فتح الله تعالى الحصن ذكر له جمال صفية بنت حُيَيّ وقد قتل زوجها وكانت

عروساً، فاصطفاها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سُدّ الصهباء حلت فبنى بها.

رواه البخاري في البيوع رقم (٢٢٣٥)، وأبو داود (٢٩٩٥) وتأتي قصتها مفصّلة في السيرة.

سد الصَّهْباء: موضع بين المدينة وخيبر، وقوله: حلّت يعني: طَهُرت من حيضة استبرائها لأنها كانت متزوّجة وسُبِيَت، والمسبية تعتد بحيضة.

وفي هذه الأحاديث أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان مختصّاً بشيء يأخذه من الغنيمة يختاره لنفسه يقال له الصفي زيادة على ما كان يأخذه من الخمس وسهمه مع المجاهدين، وهذا الصفي كان يأخذه من الغنيمة التي أخذت بالقتال، وكان له صفي آخر وهو ما كان يأخذه من الفيء الذي لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، وقد تقدم ذلك في التفسير، ويأتي ذلك مفصّلاً مطولاً في المغازي.

وأخذ العلماء من هذه الأحاديث أن للخليفة الإسلامي أن يأخذ الصفي من الغنيمة كما كان يأخذه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، لأنه نائب عنه وعلى ذلك درج الخلفاء.

{٣٥١} ـ وقد جاء عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله عزّ وجلّ إذا أطعم نبياً طعمة فهي للذي يقوم من بعده**».

رواه أبو داود (٢٩٧٣) بسند حسن.

* * *

تخميس الغنيمة

{٣٥٢} ـ عن عَمْرو بن عَبَسَة رضي الله تعالى عنه قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى بعير من المغنم، فلما سلم

أخذ وبَرَة من جنب البعير، ثم قال: «**ولا يحلّ لي من غنائمكم مثلَ هذا إلا الخُمُس، والخمسُ مردودٌ فِيكُمْ**».

رواه أبو داود (٢٧٥٥) وسنده صحيح، وله شاهدان عن عبادة بن الصامت وعن عبد الله بن عمرو رواهما النسائي (٧/١١٩) وغيره وحسّنهما الحافظ.

{٣٥٣} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت المغانم تُجَزَّأُ خمسةَ أجزاء، ثم يُسْهَمُ عليها، فما كان لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو له بِتَخْيير.

رواه أحمد وهو وإن كان فيه ابن لهيعة، فهو حسن الحديث في الشواهد كما هنا.

قوله: وَبَرة ـ بفتحات ـ الوبر هو شعر البعير.

أجمع العلماء على أن ما أخذه المسلمون غنيمة من الكفار بعد القتال يخمس، أي: يقسم على خمسة أجزاء: خمس منها يفرق ويوزع على ما في الآية الكريمة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية.

والأربعة الأخماس توزّع على الغانمين المجاهدين حسب التفصيل الآتي في الأحاديث، وقوله في حديث عَمرو: «**الخمس مردود فيكم**»، يعني به أنه لا يستحقّه وحده بل هو موزّع على ما ذكر في الآية الكريمة، وهذا الخمس فرض لازم وقد جاءت أحاديث كثيرة تأمر به وبأدائه. وظاهر هذا الحديث يدلّ على معارضته لما تقدم من أخذه الصفيّ وسهمه مع المجاهدين، وقد أوّل ذلك العلماء وجمعوا بينهما.

* * *

خمس ذوي القربى

{٣٥٤} ـ عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: لما قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَهْمَ القربى من خيبر بين بني

هاشم وبني المطلب جئت أنا وعثمان بن عفان، فقلت: يا رسول الله هؤلاء بَنُو هَاشم لا يُنْكَرُ فضلُهم لمكانك الذي وضَعَكَ الله عزّ وجلّ به منهُم أرأيتَ إخواننا مِن بني المطلب أعطيتَهم وتركتنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة، قال: **«إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، وإنما هم بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»**، قال: ثم شبك بين أصابعه.

رواه البخاري في الجهاد (٨/٥٣) وفي المغازي، وأبو داود (٢٩٧٨)، والنسائي (٧/١١٨، ١١٩)، وابن ماجه (٢٨٨١).

في الحديث أن قرابة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذين يستحقون حظهم من خمس الغنيمة والفيء هم أقاربه من بني هاشم وبني المطلب دون غيرهم من بني أعمامهم، كبني نوفل الذين كان منهم جبير بن مطعم، وبني عبد شمس الذين كان منهم عثمان، فإن عبد شمس ونوفلاً وهاشماً والمطلب كلّهم بنو عبد مناف، فهم سواء في النسب، لكن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيَّن العلة في إعطائه الخُمس لبني هاشم وبني المطلب دون غيرهم من بني أعمامهم، وهي كونهم أيّدوه ونصروه في الجاهلية والإسلام، فعندما كتبت قريش الصحيفة الجائرة في مقاطعة بني هاشم ومحاصرتهم في الشعب... لامتناعهم من تسليم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل بنو المطلب مع بني هاشم للشعب بمؤمنهم وكافرهم، وانحاز بنو نوفل وعبد شمس عنهم وحاربوهم مع قريش... كما يأتي تفصيل ذلك في السيرة النبوية.

* * *

حكم الفيء

{٣٥٥} ـ عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال: بينما أنا جالسٌ في أهلي حين متع النهار إذا رسول عمر بن الخطاب يأتيني، فقال: أجب أمير المؤمنين، فانطلقت معه حتى أدخل على عمر بن الخطاب، فإذا هو جالس على رمال سرير ليس بينه وبينه فِراشٌ متكئٌ على وِسادةٍ من أُدمٍ، فسلّمت

عليه ثم جلستُ، فقال: يا مَالِك إنه قد قدم علينا من قومك أهل أبياتٍ، وقد أمرتُ فيهم برضخ فاقبضه، فاقسِمْه بينهم، قلت: يا أمير المؤمنين لو أمرتَ به غيري، قال: اقبضه أيها المرء، فبينما أنا جالس عنده أتاه حاجبه يَرْفأ، فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمٰن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص يستأذنون؟ قال: نعم، فأَذِنَ لهم فدخلوا فسلّموا وجلسوا، ثم جلس يرفأ يسيراً، ثم قال: هل لك في عليّ وعباس؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا فسلّما فجلسا، فقال عباس: يا أمير المؤمنين اقضِ بيني وبين هذا وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله من بني النضير، فقال الرهط عثمان وأصحابه: يا أمير المؤمنين اقضِ بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال عمر رضي الله تعالى عنه: تَيْدَكُم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا نُورَثُ ما تَرَكْنَا صدقةٌ**»، يريد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَفْسَه، قال الرهط: قد قال ذلك، فأقبل عمر على عليٍّ وعباس، فقال: أَنْشُدُكما الله أتعلمان أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قد قال ذلك؟ قالا: قد قال ذلك، قال عمر: فإني أحدثكم عن هذا الأمر: إن الله قد خصّ رسوله في هذا الفيء بشيء لم يعط أحداً غيره، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، فكانت هذه خالصة لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، قد أعطاكموه وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي، فيجعله مَجْعَلَ مال الله، فعمل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك حياته، أنشدكم بالله هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم قال لعليّ وعباس: أنشدكما الله هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم. قال عمر: ثم تَوَفّى الله نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال أبو بكر: أنا وليّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقبضها أبو بكر، فعمل فيها بما عمل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والله يعلم أنه لصادق فيها بارٌّ راشدٌ تابع للحق، ثم توفّى الله أبا بكر فكنت أنا وليّ أبي بكر فقبضتها

سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وما عمل فيها أبو بكر، والله يعلم أني لصادق، بارٌّ، راشد، تابع للحق، ثم جِئْتماني تُكَلِّماني وكَلِمَتُكما واحدةٌ، وأمْرُكما واحدٌ، جئتني يا عباس تسألني نصيبَك من ابن أخيك، وجاءني هذا يريد عليّاً - يريد نصيبَ امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا نُورثُ ما تركنا صدقةٌ**»، فلما بدا لي أن أدفعَه إليكُما قلت: إن شئتُما دفعتها إليكما على أن عليكم عهدَ الله وميثاقه لَتَعْمَلانِ فيها بما عمل فيها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبما عمل فيها أبو بكر، وبما عملت فيها منذ وَلِيتُها، فقلتُما: ادفعها إلينا، فبذلك دفعتها إليكما، فأنشدكم بالله هل دفعتها إليهما بذلك؟ قال الرهط: نعم، ثم أقبل على عليّ وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالا: نعم، قال: فتَلْتَمِسانِ مني قضاء غير ذلك، فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك، فإن عجزتما عنها فادفعاها إليَّ فأنا أكْفِيكماها.

رواه البخاري في فرض الخمس (٧/١٠، ١١، ١٥) وفي المغازي وفي الاعتصام، ومسلم (١٢/٧١، ٧٦)، وأبو داود في الخراج (٢٩٦٣)، والترمذي (١٤٧٦)، والنسائي في المجتبى وفي الكبرى (٦/٤٨٣).

{٣٥٦} - وعن مالك أيضاً قال: قرأ عمر رضي الله تعالى عنه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: هذه لهؤلاء ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ حتى بلغ: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامّة، فلئن عشت فليأتِيَنَّ الراعي وهو بِسَرْو حِمْيَر نَصِيبُه منها لم يَعْرقْ فيها جَبِينُه.

رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٠٤٠) ومن طريقه البغوي في شرح السنة (١١/١٣٨)، وأبو عبيد في الأموال رقم (٤١/٥٣٥) وسنده صحيح.

{٣٥٧} - وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: كانت أموال النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت

للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله.

رواه مسلم (١٢/٧٠).

{٣٥٨} ـ وعنه أيضاً قال: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانك.

رواه عبد الرزاق (٢٠٠٣٩)، والبغوي (١١/١٣٧)، وأبو عبيد (٥٢٤) بسند صحيح.

سرو حمير هي بلدة في اليمن، وقوله: ما احتازها أي: لم يستأثر بها.

جملة هذه الأحاديث تدلّ على أمرين اثنين: أولهما: أن ما تركه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من مالٍ لا يُورَثُ كباقي الناس، بل هو صدقة يصرف في أوجه الخير حسب ما يراه الخليفة بعد أخذ نفقة أهله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وذويه كما فعل الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. ثانيهما: أن الفيء وهو ما يؤخذ من مال الكفار بلا قتال كان خاصاً بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان ينفق منه على أهله وما بقي يجعله في الأسلحة والعدة في سبيل الله، ومجعل مال الله عزّ وجلّ والمصالح العامة.

وقد اختلف الأئمّة رحمهم الله تعالى هل يخمس الفيء الذي أخذ بدون قتال أم لا؟ فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه يخمس كَمَالِ الغنيمة، والأربعة الأخماس للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وذهب الجمهور إلى أنه لجميع المسلمين يصرفه الخليفة إلى مصالحهم كما فَصَّلهُ سيدُنا عمر، قال البغوي: وهو قول أكثر أهل الفتوى، وقال النووي في شرح مسلم: وقد أوجب الشافعي الخمس في الفيء كما أوجبوه كلهم في الغنيمة، وقال جميع العلماء سواه: لا خمس في الفيء، قال ابن المنذر: لا نعلم أحداً قبل الشافعي قال بالخمس في الفيء... وما ذكره عمر رضي الله تعالى عنه في حديثه الأخير، وحديث مالك الثاني الذي فصل فيه عُمَرُ

الأموالَ يدلاّن على أن مال الفيء يصرف لجميع المسلمين؛ لقوله في الآية الأخيرة: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الخ، هذه استوعبت المسلمين عامّة... ويأتي مزيد لهذا في موضع آخر.

❋ ❋ ❋

بيان قسمة الغنيمة

{٣٥٩} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهماً له، وسهمين لفرسه.

رواه البخاري (٤٠٨/٦)، ومسلم (٨٢/١٢، ٨٣)، وأبو داود (٢٧٣٣)، والترمذي (١٤٢٢)، وابن ماجه (٢٨٥٤)، وفي الباب أحاديث. وفي الحديث مشروعية إعطاء صاحب الفرس من الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان للفرس وسهماً لصاحبه، وبهذا قال عامّة الأئمّة مالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والثوري وصاحبي أبي حنيفة أبي يوسف، ومحمد بن الحسن.

قال العلماء: يستحق الغنيمة كل من حضر الوقعة أو الغنيمة قاتل أو لم يقاتل، وسواء كان قوياً أم ضعيفاً، وستأتي بقيّة في المغازي.

{٣٦٠} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: بلغنا مخرج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين أنا وأخَوَان لي أنا أصْغرهم أحدُهما أبو بردة، والآخر أبو رُهْم إمّا قال في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافَقْنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعثنا هٰهنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين افتتح خيبر فأسهم لنا، أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد

معه إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم...

رواه البخاري في المغازي وفي الجهاد (٤٩/٧) وفي الفضائل، ومسلم في فضائل الصحابة، ويأتي مطولاً في المغازي وفي الفضائل والمناقب.

في هذا الحديث أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أعطى هؤلاء من الغنيمة وأسهم لهم ولم يحضروا الحرب، وإنما جاءوا بعد فتح خيبر فقيل: كان ذلك خاصاً بهم، وقيل: إنما أعطاهم من الخمس الذي هو حقّه دون حقوق من شهد الوقعة.

قال البغوي: الغنيمة إنما يستحقّها من شهد الوقعة على قصد الجهاد سواء قاتل أو لم يقاتل، فأما من حضر بعد انقضاء الحرب فلا حقّ له فيها... وهذا قول مالك والشافعي وأحمد.

{٣٦١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعث أبان بن سعيد بن العاص على سرية من المدينة قبل نجد، فقدم أبان وأصحابه على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بخيبر بعد أن فتحها فلم يقسم لهم.

رواه البخاري في المغازي وسيأتي هنالك.

فهذا يشهد لهؤلاء الأئمّة الثلاثة وأن من جاء بعد انقضاء الحرب لا حقّ له في الغنيمة، فيكون ما أعطي لأهل السفينة خاصاً بهم والله تعالى أعلم، ويأتي في المغازي حديث ابن عمر في قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعثمان: «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه**»، وكان قد تخلّف لتمريض بنت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

* * *

من يُرضَخُ لهم ويُخذَونَ من الغنيمة بلا إسهام

{٣٦٢} ـ عن يزيد بن هُرْمُز أن نَجْدَة الحَرُورِيَّ كتب إلى ابن عباس يسأله: هل كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يغزو بالنساء،

وهل كان يضرب لهنّ بسهم، فكتب إليه ابن عباس: وكان يغزو بهنّ فيداوين المرضى، ويُحْذَيْن من الغنيمة، وأما يُسهم فلم يضرب لهن بسهم.

قوله: ويحذين ـ بالبناء للمجهول ـ أي: يعطين.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٩٠)، وأبو داود (٢٧٢٨)، والترمذي (١٤٢٤)، وابن الجارود (١٠٨٥).

وفي الحديث بيان أن النساء وإن حضرن الجهاد مع الرجال لمعالجة المرضى والجرحى فلا يسهم لهنّ من الغنيمة، بل يعطين منها حسب ما يراه قائد الجيش، وبهذا قال أكثر أهل العلم.

{٣٦٣} ـ وعن عُمَيْر مولى أبي اللحم قال: شهدت خيبر مع ساداتي، فكلموا فيّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكلموه أني مملوك، قال: فأمر بي فقلدت السيف، فإذا أنا أجرّه فأمر لي بشيء من خُرْثَى المتاع، وعَرضتُ عليه رُقْيةً كنت أرْقِي بها المجانين، فأمرني بطرح بعضها وحبس بعضها.

رواه أبو داود (٢٧٣٠)، والترمذي (١٤٢٥)، والدارمي (٢٤٧٨)، وابن الجارود (١٠٨٧)، وابن حبان (١٦٦٩) وسنده صحيح على شرط مسلم وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: خرثى ـ بضم الخاء وسكون الراء ـ سقط المتاع، وهو يدلّ على أن العبد إذا حضر مع المجاهدين كان حكمه في الغنيمة كالنساء يعطى من الغنيمة ما تيسّر ولا يسهم له، وفيه دليل على مشروعيّة الرقية بغير القرآن والسنّة مما لم يكن فيه محظور شرعاً، وفيه معالجة المجانين بالرقى وقد تقدم ذلك.

❋ ❋ ❋

السَّلَبُ يُعطَى للقاتل ولا يُخَمَّسُ

{٣٦٤} ـ عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً له عليه بيّنة فله سَلَبُه**».

رواه البخاري (٥٨/٧)، ومسلم (٥٧/١٢، ٦١)، وأبو داود (٢٧١٧) كلهم في الجهاد، ويأتي مطوّلاً في المغازي.

السَّلَب ـ بفتحتين ـ هو ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره.

وفي الحديث مشروعية أخذ القاتل ما على قتيله الكافر من سلب من ثوب وسلاح ومركوب وخاتم وحلي ومال، وأن ذلك يأخذه بلا تخميس، قلّ ذلك أو كثر، وأن ذلك يستحقه إذا أدلى ببينة على قتله، ثم يأخذ سهمه مع الغانمين.

{٣٦٥} ـ وعن عوف بن مالك وخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «**قضى بالسَّلَبِ لِلقاتِل، ولم يُخَمِّسِ السَّلَب**».

رواه مسلم (٦٤/١٢، ٦٥)، وأبو داود (٢٧١٩)، وكذا أحمد (٢٦/٦) ويأتي مطولاً في المغازي مع قصة لسلمة بن الأكوع في أخذه سلب من قتلهم، وحديث قصة قتل أبي جهل وإعطائه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سلب من قتله.

وفي هذا الحديث بيان أن السلب يعطى بلا تخميس، وفي ذلك ترغيب في قتال المحاربين والصمود لهم وبذل الجهد في قتالهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى.

* * *

مشروعية التنفيل زيادة على قسمة الغنيمة

{٣٦٦} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يُنَفِّلُ بعضَ من يَبْعَثُ من السرايا لأنفسهم خاصة، سوى قسم عامة الجيش والخمس في ذلك واجبٌ كله.

رواه البخاري (٤٨/٧)، ومسلم (٥٦/١٢، ٥٧)، وأبو داود (٢٧٤٦).

{٣٦٧} ـ وعنه قال: بَعَثَنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَرِيَّةً إلى نجد فخرجتُ فيها فأصبنا إبلاً وغنماً، فبلغت سُهْمانُنا اثْنَيْ عَشَر بعيراً، اثني عشر بعيراً، ونَفَّلنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعيراً بعيراً.

رواه البخاري (٤٧/٧) في الخمس، ومسلم (٥٤/١٢، ٥٥)، وأبو داود (٢٧٤١).

{٣٦٨} ـ وعن معن بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا نَفَل إلا بعد الخُمُس**».

رواه أحمد (٤٧٠/٣)، وأبو داود (٢٧٥٣) وسنده صحيح وهو عنده مطوّل.

في هذه الأحاديث مشروعيّة التنفيل لبعض الجيش وهو أن يخصص ببعض من الغنيمة بعد أن تخمس جزاء لما أبلوا في الحرب، وقد أجمع العلماء على مشروعيّته، والصحيح أنه يعطى من الأربعة أخماس ثم يقسم ما بقي بين الغانمين.

* * *

إعطاء الربع في البدأة، والثلث في الرجعة

{٣٦٩} ـ عن حبيب بن مسلمة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يُنَفِّلُ الربعَ بعد الخمس، والثلث بعد الخمس إذا قفل. وفي رواية: نفّل الربع في البدأة، والثلث في الرجعة.

رواه أحمد (١٥٩/٤، ١٦٠)، وأبو داود (٢٧٥٠، ٢٧٤٩)، وابن ماجه (٢٨٥١ ـ ٢٨٥٣)، وابن الجارود (١٠٧٨)، وابن حبان (١٥٧٢) بالموارد وسنده صحيح.

وله شاهد عن عبادة بن الصامت رواه الترمذي (١٤٣٠)، وابن ماجه (٢٨٥٢)، وأحمد (٥/٣١٩، ٣٢٠).

والحديث يدلّ على أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يعطي بعض الجيش في البدأة ربع الغنيمة وإذا رجعوا أعطاهم الثلث. قال الخطابي: إذا نهضت سرية من جملة العسكر فأوقعت بطائفة من العدو فما غنموا كان لهم منها الربع، ويشركهم سائر العسكر في ثلاثة أرباعه، فإن قفلوا من الغزو ثم رجعوا فأوقعوا بالعدو ثانية كان لهم مما غنموا الثلث، لأن نهوضهم بعد القفل أشدّ، والخطر فيه عظيم.

* * *

إيثار المؤلفة قلوبهم من الغنيمة

{٣٧٠} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما فتحت مكة قسم تلك الغنائم في قريش، فقالت الأنصار: إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجمعهم، فقال: **«ما الذي بلغَنِي عنكم»؟** قالوا: هو الذي بلغك، وكانوا لا يكذبون، فقال: **«أما تَرْضَوْنَ أن ترجعَ الناس بالدنيا إلى بيوتهم، وترجعون برسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى بيوتكم»؟** فقالوا: بلى، فقال: **«لو سَلَكَ الناسُ وادياً أو شِعْباً وسلكتْ الأنصارُ وادياً أو شِعباً لسلكت وادي الأنصار وشعب الأنصار»**.

وفي رواية قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما أفاء من أموال هوازن، فطفق يعطي رجالاً المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فحُدِّثَ بمقالتهم فجمعهم وقال: **«إني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفر أتألفُهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى**

رحالكم، فوالله لَمَا تَنْقَلِبُون به خيرٌ مما ينقلبون به»، قالوا: يا رسول الله رضينا.

رواه البخاري في الخمس (٦٢/٧، ٦٣)، ومسلم في الزكاة (١٥٠/٧، ١٥١، ١٥٤).

{٣٧١} ـ وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: أعطى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أُمَيّة، وعُيَيْنة بن حصن، والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك... قال: فأتمّ له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مائة.

رواه مسلم في الزكاة (١٥٧/٧) ونحوه عند الشيخين عن ابن مسعود، ويأتي ذلك في المغازي.

{٣٧٢} ـ وعن عمرو بن تَغْلِب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بمال، أو بسبي فقسَمه فأعطى قوماً ومنع آخرين، فكأنهم عَتَبُوا عليه، فقال: **«إني أُعطي قوماً أخاف ظَلَعَهُم وجزعهم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله تعالى في قلوبهم من الخير والغناء منهم عمرو بن تغلب»**، فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حُمر النَّعم.

رواه البخاري في الخمس (٦١/٧).

قوله: ظلعهم ـ بفتحات الظاء واللام والعين ـ أي: اعوجاجهم.

وفي هذه الأحاديث مشرعية إعطاء من كان حديث عهد بالإسلام أو ضعيف الإيمان أكثر من غيره من الغنيمة تأليفاً له وتحبيباً في الإسلام، واختلف العلماء هل كان ما أعطاه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأُولئك المؤلّفة قلوبهم من الأربعة أخماس أو من خمس النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ والصحيح أنه كان من أخماس الغنيمة بدليل اعتراض

الصحابة على ما فعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويأتي مزيد لهذا في المغازي بإذن الله تعالى.

❋ ❋ ❋

أموال المسلمين يأخذها الكفار ثم تؤخذ منهم

{٣٧٣} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه ذَهَبَ فرسٌ له فأخذَهُ العدُوُّ فظهَر عليهم المسلمون فرُدَّ عليه في زمن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأبَقَ عبدٌ له فلحِقَ بأرض الروم وظهر عليهم المسلمون فردّه خالد بن الوليد بعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري معلقاً في الجهاد (٦/٥٢٢، ٥٢٣)، وأبو داود (٢٦٩٨، ٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢٨٤٧)، وابن حبان (١٦٧٤) موصولاً بسند صحيح.

{٣٧٤} ـ وعن نافع أن عبداً لابن عمر أبق فلحق بالروم، فظهر عليه خالد بن الوليد فردّه على عبد الله، وأن فرساً لابن عمر عار فلحق بالروم فظهر عليه فردّه على عبد الله.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه كان على فرس يوم لقي المسلمون وأمير المسلمين يومئذ خالد بن الوليد بعثه أبو بكر، فأخذه العدوّ فلما هُزم العدوّ ردّ خالد فرسه.

رواه البخاري بروايتيه (٦/٥٢٣)، وفي الحديث برواياته الثلاثة كلام يراجع في الفتح، وقوله: عار أي: هرب.

والحديث يدلّ على أن من أخذ العدو ماله ثم ظفر به كان أحقّ به، ولا يخمس ولا يدخل في مطلق الغنيمة، وبه قال الشافعي وجمع من العلماء، وقال مالك وأحمد وغيرهما: إن وجده صاحبه قبل قسمة الغنيمة كان أحقّ به، وإن وجده بعد القسمة فلا يأخذه إلا بالقسمة، ونسبوا هذا

المذهب إلى فقهاء أهل المدينة السبعة، كما ذكره الحافظ في الفتح، وظاهر الحديث يشهد للشافعي ومن معه.

* * *

الرخصة في الانتفاع بالطعام ونحوه من الغنيمة للحاجة بلا قسم

{٣٧٥} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا نُصِيبُ في مغازينا العَسَل والعِنَبَ، فنأكُلُه ولا نَرْفَعُه. وفي رواية: إن جيشاً غنموا في زمان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم طعاماً وعسلاً، فلم يؤخذ منهم الخمس.

رواه البخاري (٦٦/٧) بالرواية الأولى، وأبو داود (٢٧٠١) بالرواية الثانية وسنده صحيح.

{٣٧٦} ـ وعن عبد الله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: دُلِّي جراب من شَحْم يوم خيبر قال: فأتيته فالتزمته، قال: ثم قلت: لا أعطي من هذا أحداً اليوم شيئاً، قال: فالتفتُّ فإذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يبتسم إليّ. وفي رواية: رُمِي إلينا جِرابٌ فيه طعامٌ وشَحْمٌ.

رواه البخاري (٦٥/٧)، ومسلم (١٠٢/١٢، ١٠٣)، وأبو داود (٢٧٠٢).

{٣٧٧} ـ وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: قلت: هل كنتم تخمسون ـ يعني الطعام ـ في عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ فقال: أصبنا طعاماً يوم خيبر فكان الرجل يجيء فيأخذ منه مقدار ما يكفيه ثم ينصرف.

رواه أبو داود (٢٧٠٤) بسند صحيح.

قوله: جراب ـ بكسر الجيم ـ هو وعاء من جلد.

في هذه الأحاديث مشروعية انتفاع المجاهدين بالغنيمة أكلاً وشرباً وغيره مما يحتاجونه من غير أن يخمسوه ولا يعتد به فيما يقسم، وهذا مذهب جماهير العلماء والأئمة، بل قال النووي في شرح مسلم (١٠٢/١٢) قال القاضي: أجمع العلماء على جواز أكل طعام الحربيين ما دام المسلمون في دار الحرب فيأكلون منه قدر حاجتهم، ويجوز بإذن الإمام وبغير إذنه، ولم يشترط أحد من العلماء استئذانه إلا الزهري، وجمهورهم على أنه لا يجوز أن يخرج معه شيئاً. قال: ويجوز أن يركب دوابهم، ويلبس ثيابهم، ويستعمل سلاحهم في حال الحرب بالإجماع، ولا يفتقر إلى إذن الإمام...

* * *

النهي عن أخذ شيء من الغنيمة لغير حاجة

{٣٧٨} ـ عن رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يركب دابّة من فيء المسلمين حتى إذا أعْجَفَها ردّها فيه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخْلَقه ردّه فيه.

رواه أحمد (١٠٨/٤، ١٠٩)، وأبو داود (٢٧٠٨)، والدارمي (٢٤٩١)، وابن حبان (١٦٧٥) وحسّنه الحافظ في الفتح، وقال في بلوغ المرام: رجاله ثقات لا بأس بهم.

قوله: أعجفها أي: أضعفها، وقوله: أخلقه أي: أبلاه.

وهذا الحديث محمول على الانتفاع بلبس ثوب الغنيمة أو ركوبها من غير حاجة، فهذا لا يجوز وهو داخل في الغلول كما تقدم. أما ما كان لحاجة، فالأحاديث المتقدمة دالّة على الجواز مع الإجماع.

* * *

{٣٧٩} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سَلْماً فأعتقهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

رواه أحمد ومسلم (١٨٧/١٢)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٠٤٩) والنسائي في الكبرى (٤٦٤/٦).

{٣٨٠} ـ ونحوه عن عبد الله بن مغفل رواه أحمد (٨٦/٤، ٨٧) وغيره بسند صحيح وتقدما في التفسير.

{٣٨١} ـ وعن جبير بن مطعم أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال في أسارى بدر: **«لو كان المُطْعِمُ بن عدي حياً ثم كلَّمَني في هؤلاء النَّتنَى لتركْتُهُم له»**.

رواه أحمد (٨٠/٤)، والبخاري في الخمس (٥٢/٧) باب ما من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على الأسارى من غير أن يخمس، وأبو داود (٢٦٨٩).

{٣٨٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أَسَرُوا الأسارَى يوم بدر قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر: **«ما ترون في هؤلاء الأسارى»**؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما ترى يا ابن الخطاب»**؟ فقال: لا والله ما أرى الذي رآه أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم... قال: فهوى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما قال أبو بكر... وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿مَا

﴿كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الخ.

رواه أحمد ومسلم وغيرهما مطولاً، وقد تقدم في التفسير أيضاً.

{٣٨٣} ـ وعن عَطِيَّة القُرَظيّ رضي الله تعالى عنه قال: عُرِضْنا على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوم قريظة فكان من أنْبَتَ قُتِلَ، ومن لم ينبت خلّى سبيلَه، فكنتُ ممن لم ينبت فخلى سبيلي.

رواه أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٤٥٥)، وابن ماجه (٢٥٤١)، والدارمي (٢٤٦٧)، وابن الجارود (١٠٤٥)، وابن حبان (١٤٩٩)، والحاكم (١٢٣/٢)، وحسنه الترمذي وصححه.

{٣٨٤} ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما أراد قتل عقبة بن أبي مُعَيْط فقال: من للصبية؟ قال: «**النار**».

رواه أبو داود (٢٦٨٦) بسند حسن.

في هذه الأحاديث أحكام مختلفة في الأسارى، فمنها ما يدلّ على العفو عنهم كحديثي أنس وجبير... ومنها ما يدلّ على الفداء والقتل كحديث ابن عباس، ومنها ما يدلّ على القتل كحديثي عطية وابن مسعود، وقد اختلف العلماء في الأسارى المسبيين فذهب أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الإمام مخيّر فيهم بين القتل، والعفو، والفداء، والاسترقاق، وكل ذلك ورد عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم متواتراً في وقائع مختلفة، وستأتي وقائع من ذلك في المغازي إن شاء الله تعالى.

نعم يجب أن يعلم أن القتل للأسارى خاص بالرجال المقاتلين. أما النساء والأطفال ونحوهم، فلا يجوز قتلهم بل هم من جملة الغنائم يخمّسون ويقسمون على الغانمين.

* * *

وجوب فكاك الأسير المسلم

{٣٨٥} ـ عن عمران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فَدَى رجلين من المسلمين برجل من المشركين.

رواه مسلم مطولاً، والترمذي (١٤٣٩)، والدارمي (٢٤٦٩).

{٣٨٦} ـ وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه بعث بامرأة إلى أهل مكّة، فَفَدَى بها ناساً من المسلمين كانوا أُسِرُوا بمكّة.

رواه مسلم (١٢/٦٧، ٦٨) مطولاً ويأتي في المغازي.

{٣٨٧} ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فُكُّوا العَانِيَ** ـ أي: الأسير ـ **وأَطْعِمُوا الجائِعَ، وعُودُوا المَرِيضَ**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٥٠٧) ويأتي في البرّ والصلة.

في هذه الأحاديث مشروعية فكاك أسارى المسلمين من أيدي الكفار إما بتبادل الأسرى وإما بفدائهم بالمال، وهو واجب إسلامي على جماعة المسلمين. وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة في ذلك.

* * *

هل يجوز استرقاق العرب

{٣٨٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتُهن من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها فيهم، سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**هم أشدّ أُمّتي على الدجال**»، قال: وجاءت صدقاتهم فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**هذه صدقات قومنا**»، قال: وكان سَبِيَّة منهم عند عائشة رضي الله تعالى عنها فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«**أعتقيها، فإنها من ولد إسماعيل**». وفي رواية: «**وهم أشدّ الناس قتالاً في الملاحم**».

رواه أحمد (٣٩٠/٢)، والبخاري في المغازي (١٤٦/٩) وفي العتق، ومسلم في الفضائل (٧٧/١٦، ٧٨)، والرواية الثانية له، ويأتي في السيرة النبويّة.

وقوله: سبيّة ـ بفتح السين وكسر الباء ثم ياء مفتوحة مشدّدة وتخفّف مع الهمزة ـ أي: جارية مسبيّة، فهي فعيلة بمعنى مفعولة.

{٣٨٩} ـ وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أحب الحديث إليّ أصدقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال**».. وفيه: فإنا نختار سبينا.. الحديث يأتي في المغازي.

رواه أحمد (٣٢٦/٤)، والبخاري في المغازي (٩٤/٩، ٩٥).

{٣٩٠} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السبي لثابت بن قيس فكاتَبَته عن نفسها، وكانت امرأة حُلْوةً مَلّاحةً، فأتت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إني جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «**فهل لك في خير من ذلك**»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**أقْضِي كتابتكِ وأتزوجكِ**»، قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**قد فعلت**..» الحديث يأتي في السيرة مطوّلاً.

رواه أحمد (٢٧٧/٦)، وأبو داود في العتق (٣٩٣١) وسنده حسن وأصله في الصحيحين ويأتي في المغازي.

قوله: ملاحة أي: مليحة جميلة، في رواية لأبي داود: تأخذها العيون.

وفي هذه الأحاديث دليل على جواز استرقاق العرب، وأن الرقّ ليس خاصاً بالعجم، فهذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يرشد السيدة عائشة إلى عتق جارية كانت لها من بني تميم وهم من بني إسماعيل عليه السلام، وسبى نساء هوازن وأطفالهم وهم عرب كما سبى بني المصطلق أيضاً وهم عرب كذلك، ويجوز استرقاق جميع الكفار عرباً كانوا أم عجماً، قال الجمهور: وعليه كان عمل الخلفاء والفاتحين من الصحابة فمن بعدهم فقد فتحوا الشام والعراق وأطراف بلاد العرب المتّصلة بالعجم، وكان فيهم عرب كثير فكانوا يَسْبُونَهُم ولم يكونوا يفرّقون بين العربي والعجمي.

* * *

إذا أسلم الكافر قبل القدرة عليه أحرز ماله

{٣٩١} ـ عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً في حجته؟ قال: «**وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً**»، ثم قال: «**نحن نازلون غداً بخيْفِ بني كنانة المحصب**» الحديث.

رواه البخاري في الحج وفي الجهاد (٥١٦/٦)، ومسلم في الحجّ (١٢٠/٩، ١٢١) باب نزول الحاج بمكة وتوريث دورها، ولمسلم في رواية قال: يا رسول الله أتنزل في دارك بمكّة؟ قال: «**وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع أو دُور**»، وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا عَلِي شيئاً لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين.

كان أبو طالب قد أخذ جميع أملاك عبدالمطّلب وحازها وحده لأنه كان أكبر أولاد عبدالمطلب، ولما توفّي ورثه عقيل وطالب دون عليّ وجعفر، فلم يبق للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا للإمام عليّ

وجعفر شيء ينزلون فيه، فنزل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمن معه بأعلى مكة بالأبطح...

وقيل: إن عقيلاً كان قد باع جميع أملاك عبدالمطّلب كما فعل أبو سفيان وغيره بدور من هاجر من المؤمنين، فباع عقيل جميع ما كان للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولمن هاجر من بني عبدالمطّلب. واستدلّ بالحديث على أن الكافر الحربي إذا أسلم أحرز ماله، لأن عقيلاً وغيره من مسلمة الفتح لم يسلبهم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أموالهم ولا غنمها، وبهذا قال جمهور أهل العلم. واستدلّ بظاهر الحديث على أن مكة فتحت صلحاً لا عنوة، وأن دورها مملوكة، وبهذا قال الشافعي وغيره، وقال مالك وأبو حنيفة: فُتِحت عنوة. وهو الحق كما يأتي في السيرة.

وفيه: أن المسلم لا يرث الكافر، وبه قال كافة العلماء إلا بعض أهل الشذوذ، كما قدمنا.

{٣٩٢} ـ وعن صخر بن عَيْلَة أن قوماً من بني سُلَيْم فرُّوا عن أرضهم حين جاء الإسلام، فأخذتها فأسلموا فخاصموني فيها إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فردها عليهم، وقال: **«إذا أسلم الرجل فهو أحقُّ بأرضه وماله»**... وفي رواية قال: **«يا صخر إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم»**.

رواه أحمد (٤/٣١٠)، وأبو داود قال الحافظ في بلوغ المرام: رجاله موثقون. وللحديث شواهد وهي وإن كانت مرسلة فيتأيّد الحديث بها مع ما سبق.

وفيه أن الكافر إذا أسلم كان أحقّ بماله وأرضه، وتقدم في الحديث المتواتر: «فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم» الخ.

* * *

الأرض المغنومة أمرها للإمام

{٣٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أيما قرية أتيتموها وأقمتم فيها فسَهمُكم فيها، وأيما قرية عَصَتْ الله ورسوله فإن خُمُسَها لله ولرسوله ثم هي لكم**».

رواه أحمد (٣١٧/٢)، ومسلم في الجهاد (٦٩/١٢).

{٣٩٤} ـ وعن بَشِير بن يَسار مولى الأنصار عن رجال من أصحاب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما ظهر على خيبر قسمها على ستّة وثلاثين سهماً، جمع كل سهم مائة سهم، فكان لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وللمسلمين النِّصْفُ من ذلك، وعَزَل النصف الباقي لِمَن نزل به من الوُفود والأُمور، ونوائب الناس.

رواه أحمد وأبو داود (٣٠١٢، ٣٠١٣، ٣٠١٤) من طرق بعضها سندها صحيح.

{٣٩٥} ـ وعن أسلم مولى عمر قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: أما والذي نَفْسِي بيده لولا أن أترُكَ آخِرَ الناس بَبَّانا ليس لهم من شيء ما فُتِحَتْ عليَّ قريةٌ إلا قسمتُها كما قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خيبر، ولكن أتركها خزانة لهم يقتسمونها. وفي رواية قال: لئن عشتُ إلى هذا العام المقبل لا تفتح للناس قرية إلا قسمتها بينهم كما قسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خيبر.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٢٣٥) وفي فرض الخمس (٣١٢٥)، وأبو داود (٣٠٢٠).

قول سيدنا عمر: بَبَّانا ـ بباءين مفتوحتين الثانية مشدّدة وبعد الألف نون ـ قال ابن مهدي: يعني: شيئاً واحداً، وقوله: يقتسمونها أي: يقتسمون خراجها وغلّتها.

وفي هذه الأحاديث دليل على أن أرض الكفار المغنومة حكمها حكم سائر الغنائم تقسم بين الغانمين بعد تخميسها، كما هو صريح حديث أبي هريرة، وللخليفة أن يأخذ منها نصفها للمصالح العامّة، والنصف الباقي له

وللمسلمين كما فعل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأرض خيبر، ويأتي مزيد لها في المغازي.

وما فعله عمر رضي الله تعالى عنه اجتهاد منه نظراً للمصلحة العامة، وقد اختلف العلماء في الأرض التي أبقاها عمر بلا قسم، فذهب الجمهور إلى أنه وقفها لنوائب المسلمين ومصالحهم العامّة وأجرى فيها الخراج من غلتها ومنع بيعها... وعلى هذا كان عمل الخلفاء الراشدين وجمهور الصحابة والأئمّة. والظاهر أن الأمر في ذلك للخليفة يفعل فيها ما هو الأصلح للمسلمين، فإن شاء وقفها عليهم يقتسمون خراجها، وإن شاء قسمها كلها أو بعضها بينهم يمتلكونها، والله أعلم.

* * *

مهادنة الكفار وعقد الصلح معهم

{٣٩٦} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن قريشاً صالحوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فاشترطوا عليه أن من جاء منكم لا نردّه عليكم، ومن جاء منّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله أتكتب هذا؟ قال: «**نعم إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعلُ الله له فَرَجاً ومَخْرَجاً**».

رواه مسلم في الجهاد (١٣٨/١٢، ١٣٩).

{٣٩٧} ـ وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه في حديثه الطويل في صلح الحديبية الذي تقدم في التفسير، وفيه: «**هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسُهَيْل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين يأمَنُ فيها الناسُ، ويكُفُّ بعضهم عن بعض**» الحديث، رواه أحمد بهذه الرواية، وهو في البخاري. وجاء من رواية البراء بن عازب، وعبدالله بن مغفل وغيرهما.

مهادنة الكفار أهل الحرب ومصالحتهم جائزة لأجل المصلحة مع

شروط يشترطها الطرفان، كما صدر من النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع قريش في الحديبية، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

* * *

مشروعية أخذ الجزية من الكفار

{٣٩٨} ـ عن بَجَالةَ بن عَبْدَةَ قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عمّ الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قبل موته بسنة: فَرِّقُوا بين كل ذي محرم من المجوس، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمٰن بن عوف أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أخذها من مَجُوسِ هَجَر. وفي رواية: «**انظر مجوس مَنْ قِبَلَك فخُذْ منهم الجزية**».

رواه البخاري في فرض الخمس (٦٩/٧)، وأبو داود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٤٥٧).

{٣٩٩} ـ وعن عمرو بن عوف رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي. الحديث يأتي في المغازي وفي الرقاق.

رواه البخاري في الجزية (٧١/٧)، ومسلم في الزهد (٩٥/١٨).

{٤٠٠} ـ وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى: نحن أُناسٌ من العَرَب كنّا في شَقاءٍ شديدٍ، وبَلاءٍ شديد، نمصُ الجِلْدَ والنَّوَى من الجُوع، ونَلْبَسُ الوَبَر والشعر، ونعبدُ الشَّجر والحَجَر، فبَيْنا نحن كذلك إذ بَعَثَ ربُّ السمٰواتِ وربُّ الأرضين تعالى ذكرُه، وجلَّتْ عظمتُه إلينا نَبِيّاً من أنفُسِنا

نعرفُ أباه وأمّه، فأمَرنا نبيّنا رسولُ ربّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن نُقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تُؤدُّوا الجزية وأخبرنا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن رسالة ربّنا أنه من قُتِلَ منا صار إلى الجنّة في نعيم لم يرَ مثلها قَطُّ، ومن بقي منا ملك رِقابَكُمْ.

رواه البخاري في الجزية (٧/٧٤، ٧٥).

الجزية - بكسر الجيم - هي في الشرع الإسلامي ضريبة ومبلغ من المال يضرب على من دخل في ذمّة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ومن ألحق بهم، وذلك في مقابل أمنهم وتمتّعهم مع المسلمين بجميع الحقوق وبقائهم على دينهم، كما ضربت الزكاة على المسلمين.

ويشرع أخذها من أهل الكتاب بنصّ القرآن العزيز؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين. أما غير أهل الكتاب، فأحاديث الباب تدلّ على مشروعيّة أخذها من المجوس عبدة النار، وكان أهل فارس وهجر وأغلب أهل البحرين مجوساً، وقد أخذها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أهل هجر والبحرين، وأمر بأخذها من أهل فارس. وقد جاء في أحاديث أن المجوس كان لهم كتاب فهم داخلون في الآية المتقدمة إضافة لما في أحاديث الباب، وقد وقع اتفاق عامّة العلماء والأئمّة على أخذها منهم كأهل الكتاب.

قال ابن حزم في المحلى (٧/٣٤٥): ولا يقبل من كافر إلا الإسلام أو السيف الرجال والنساء في ذلك سواء، حاشا أهل الكتاب خاصة، وهم اليهود والنصارى والمجوس فقط.

وإنما وقع الخلاف في غيرهم من سائر الكفار الذين لا كتاب لهم، وظاهر حديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس**» الخ، وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الخ مع آيات أخرى...

أقول: يدلّ على أنها لا تؤخذ منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتال، وحديث بريدة المتقدم يدلّ على عموم الجزية، والله تعالى أعلم.

* * *

مقدار الجزية

{٤٠١} ـ عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: بعثني النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى اليمن «**فأمرني أن آخُذَ من كلّ حالمٍ ديناراً، أو عِدْلَهُ معَافِر**».

رواه عبدالرزّاق (٣٣٠/١٠)، وأبو داود (١٥٧٦)، والترمذي (٥٥٥) بتهذيبي، والنسائي (١٧/٥، ١٨)، وابن ماجه (١٨٠٣، ١٨٠٤)، وابن حبان (١٨٠٣)، والحاكم (٣٩٨/١) وصححاه وحسنه وسنده صحيح عند الترمذي وغيره ولا يضر الاختلاف في وصله وإرساله، فإن الحكم لمن وصل، ولهذا قال ابن عبدالبرّ في التمهيد: إسناد متّصل صحيح ثابت، وصححه جماعة من آخرهم أستاذنا سيدي أحمد الصديق في الهداية.

وقوله: من كل حالِم، أي: كل بالغ، وقوله: أو عدله معافر أي: ما يعادل قيمة دينار من الثياب المعافرية.

{٤٠٢} ـ وعن ابن أبي نَجِيح قلت لمجاهد: ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير، وأهل اليمن عليهم دينار، قال: جعل ذلك من قبل اليسار.

رواه عبدالرزّاق (٣٣٠/١٠) وذكره البخاري في الجزية (٦٨/٧) معلقاً مجزوماً به.

ظاهر حديث معاذ أن الجزية لا تؤخذ إلا من البالغين، ولا تؤخذ من الأطفال، وهو قول جمهور العلماء.

وقال ابن رشد في البداية: اتفقوا على أنها إنّما تجب بثلاثة أوصاف: الذكورة، والبلوغ، والحرية، وأنها لا تجب على النساء، ولا على الصبيان... قال: وكذلك أجمعوا أنها لا تجب على العبيد، قال: واختلفوا

في أصناف من هؤلاء منها: في المجنون، وفي المُقْعَد، ومنها في الشيخ، ومنها في أهل الصوامع، ومنها في الفقير.

وقال الحافظ في الفتح: وكذا لا تؤخذ من شيخ فان، ولا زَمِن، ولا امرأة، ولا مجنون، ولا عاجز على الكسب، ولا أجير، ولا من أصحاب الصوامع والديارات في قول، والأصح عند الشافعي الوجوب على من ذكر آخراً... ونحو هذا عند البغوي في شرح السنّة (١١/١٧٣).

أما ابن حزم فخالف كل ما ذكرنا عن الجمهور، فقال في المحلى (٧/٣٤٧): والجزية لازمة للحر منهم والعبد، والذكر والأنثى، والفقير البات، والغني، الراهب وغير الراهب سواء؛ من البالغين خاصة الخ.

وفي حديث معاذ أيضاً مقدار الجزية وهي دينار ذهبي أو ما يعادله من البضائع وغيرها، أي: قيمته، وبهذا قال أحمد لا يزاد عليه ولا ينقص منه، وقال الشافعي: أقلّه دينار وأكثره غير محدود، وقال مالك: الواجب في ذلك ما فرضه عمر رضي الله تعالى عنه وذلك على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الوَرِق أربعون درهماً، ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام، لا يزاد غلى ذلك ولا ينقص، رواه في الموطأ في الزكاة رقم (٦٢٣) مع الزرقاني بسند صحيح، وهو عند عبدالرزّاق في المصنف أيضاً (١٠/٣٢٨، ٣٢٩).

أما أثر مجاهد، فيدلّ على أن العبرة في ذلك بيسار أهل البلاد أو عدمه.

وعلى أيّ، فالأمر في ذلك للخليفة، والله تعالى أعلم.

* * *

إخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب

{٤٠٣} ـ عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب،**

حتى لا أَدَعَ إلا مُسلماً»، وفي رواية: «لئن عِشتُ لأُخرجنَّ» الخ.

رواه أحمد (٢٩/١)، ومسلم (٩٢/١٢) من طرق، وأبو داود (٣٣٠)، والترمذي (١٤٧٤)، والحاكم (٣٧٤/٤)، والبيهقي (٢٠٧/٩).

{٤٠٤} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أوصى عند موته بثلاث: «**أخرِجُوا المشركين من جَزيرة العرب، وأجِيزُوا الوَفْدَ بنحو ما كنتُ أُجِيزُهُم**».

رواه البخاري في الجزية (٨١/٧) وفي مواضع، ومسلم في الوصية (٩٣/١١)، وأبو داود (٣٠٢٩).

{٤٠٥} ـ وعن أبي عُبَيْدة رضي الله تعالى عنه قال: آخر ما تكلم به النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أَخرِجُوا يَهُود أهل الحِجاز، وأهلَ نجران، من جزيرة العرب**».

رواه أحمد (١٩٥/١)، والدارمي (٢٥٠١)، وأبو يعلى (٣٥٩/١)، والبيهقي (٢٠٨/٩) بسند صحيح وله طرق عند أحمد. قال في المجمع (٣٢٥/٥): رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منها ثقات متّصل إسنادهما.

جزيرة العرب: حدّها ما بين البحر المحيط الهندي جنوباً، ودجلة والفرات شمالاً، والبحر الأحمر غرباً، والبحر العربي الخليجي شرقاً، وهي تشمل اليمن والحجاز والإمارات والبحرين. وقال مالك رحمه الله تعالى: هي مكة والمدينة واليمامة واليمن... وسمّيت جزيرة العرب لأنها كانت سكناهم في الجاهلية والإسلام، فهي بلادهم سواء فيهم العرب العاربة أو العرب المستعربة، ونجران تقع بين اليمن والحجاز، وهي الآن عند السعودية مليئة بالشيعة.

وبهذه الأحاديث أخذ عامّة العلماء والأئمّة، فأوجبوا إخراج اليهود والنصارى وجميع المشركين من جزيرة العرب، ولا يجوز تمكينهم من سكناها والإقامة بها، وأجازوا تردّدهم إليها للتجارة ونحوها إلا مكّة والمدينة، فهذا مذهب جماهير الأئمّة والفقهاء.

وقوله: «وأجيزوا الوفد» هو يدلّ على وجوب إكرام الوفود الذين يفدون على الخليفة والإحسان إليهم تأليفاً لهم على الإسلام كما كان يفعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بهم.

{٤٠٦} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر أَجْلَى اليهودَ والنصارَى من أرْضِ الحجاز في إمَارته إلى تَيْمَاء وأريحَا.

رواه البخاري في الجهاد (٦٤/٧)، ومسلم في المساقاة (٢١٢/١٠) ويأتي في المغازي وتقدم في البيوع.

قوله: تيماء هي بأطراف الشام وأريحا بفلسطين.

إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه اليهود والنصارى كان تنفيذاً للأمر النبوي بذلك، وذكر العلماء رحمهم الله تعالى في حكمة إجلاء الكفار من الجزيرة، وأن لا يُتْرَكَ بها إلا مسلم ليبقى الإسلام محفوظاً بها، لأنها مصدر الوحي ومقره ومنطلقه، وبسبب ذلك وحفظ الله عزّ وجلّ للحجاز من استيلاء الكفار عليه ظاهراً واستعماره بقي الدين به محفوظاً وظاهراً والحمد لله رغم ما حيك ويُحاك لتلك البلاد الطاهرة من طرف أعداء الإسلام الذين استولوا على العالم وأفسدوه.

* * *

الهجرة من ديار الكفار وحكم الإقامة بها

{٤٠٧} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يأتي السهم يُرمَى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً

وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٣١، ٣٣٢) وفي مواضع، والنسائي في الكبرى وابن جرير وتقدم في التفسير.

{٤٠٨} ـ وعن معاوية قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا تَنْقَطِعُ الهِجرةُ حتى تَنْقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها**».

رواه أحمد (٤/٩٩)، وأبو داود (٢٤٧٩)، والدارمي (٢٥٦٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٢١٧)، والبيهقي (٩/١٧) ورجاله ثقات غير أبي هند البجلي فمجهول، لكنه ورد من طريق آخر عند أحمد (١/١٩٢) عن عبدالله بن السعدي وعبدالرحمٰن بن عوف وعبدالله بن عمرو ومعاوية، فهو به صحيح، وجاء في رواية عن عبدالله بن السعدي: «**لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدوّ**»، رواه أحمد (٥/٢٧٠) وسنده حسن.

الهجرة: الخروج من أرض إلى أخرى، وهي في الإسلام مفارقة ديار الكفر إلى بلاد الإسلام وكانت قبل فتح مكة واجبة من كل جهة إلى المدينة المنورة، فلما فتحت مكة انقطع ذلك للحديث السابق والآتي في المغازي: «لا هجرة بعد الفتح» لكنها بقيت الهجرة العامة وهي التي جاءت في الحديث المذكور: «**لا تنقطع الهجرة**» إلخ، أي: ما دام الجهاد وقتال الكفار موجوداً والهجرة مشروعة من دار الكفر إلى بلاد الإسلام، وهو معنى قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ولكن جهاد ونيّة» مع ما يأتي من وعيد مساكنة الكفار وعدم مفارقتهم، وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن الهجرة ثلاثة أنواع:

الأول: من كان في بلاد الكفار لا يمكنه إظهار دينه، ولا أداء واجباته، فالهجرة واجبة عليه إلى حيث يقيم دينه، ويأمن عليه وعلى نفسه وأهله... وتكون الإقامة عندئذ مع الكفار محرمة، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة المذكورة وسببها عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ وكذا ما سيذكر قريباً من السنة.

النوع الثاني: إذا كان مع الكفار في بلادهم قادراً على إظهار شعائر دينه بكل حرية وآمناً على نفسه... فلا جناح عليه في الإقامة معهم ويستحب له الهجرة عنهم إذا لم يكن مضطهداً في بلاده لاجئاً عند الكفار فارّاً من ظلم الظالمين، ويدلّ لهذا إقامة الصحابة مع النجاشي والمسيحيّين بالحبشة حيث كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمرهم بالهجرة إليها حينما اشتدّت إذاية الكفار إيّاهم، وقال لهم: «**إن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده**»، فأقاموا هنالك آمنين على دينهم وأنفسهم وأهليهم حتى ظهر الإسلام. وممن تجوز لهم الإقامة في دار الكفر الأسارى والمرضى والعجزة وكل من لا يستطيع الهجرة، وبهذا جاء الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

النوع الثالث: الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، فمن أقام بين الكفار بقصد الدعوة وتعليم الإسلام بأصوله وفروعه وأخلاقه... فهو من المجاهدين وليس من هؤلاء من قصد بذلك الدنيا وجمع حطامها ككثير من المرتزقة الأدعياء، فإن إقامة هؤلاء بين الكفار لا مبرّر لها، ويلحق بهؤلاء التجارُ والسياحُ فلا مانع من الإقامة عندهم لذلك إقامة مؤقتة. قال العلماء: ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتَسَنَّى للمسلم فيه إقامةُ الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وأذان وجماعة... وغير ذلك من أحكامه الظاهرة، فلا يجوز للمسلم الإقامة بها، وألحق كثير من العلماء بذلك أيضاً البلاد التي فيها كثرة المناكير، وقالوا: تجب الهجرة منها إلى غيرها مما هي أخفّ، والله تعالى أعلم.

{٤٠٩} ـ وعن جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سرية إلى خَثْعَم فاعتصم ناسٌ منهم بالسجود فأسْرَعَ فيهم القتلُ، قال: فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأمَر لهم بنِصْفِ العَقْلِ، وقال: «أنا بريءٌ مِن كل مُسْلِم يُقِيمُ بين أظْهُر المشركين»، قالوا: يا رسول الله، ولِمَ؟ قال: «**لا تَرَاآىَ نَارَاهُمَا**».

رواه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٤٧٣) بتهذيبي وسنده صحيح وتعليله بالإرسال لا يؤثر فيه، فإن العمل على من وصل لا سيما ولمعناه شواهد وهي الآتية.

{٤١٠} ـ وعن سمرة بن جندب أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَنْ جامعَ المُشرِكَ وسَكَنَ معه فإنه مِثْلُه**».

رواه أبو داود (٢٧٨٧) بسند لين لكنه يتقوى بطريق آخر رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١٢٣/١) وله طريق آخر رواه الحاكم (١٤١/٢، ١٤٢) بلفظ: «**لا تُساكنُوا المشركين ولا تُجَامِعُوهم فمن ساكَنَهُم أو جامعهم فليس منّا**»، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي فوهما، وعلى أي: فالحديث أقل أحواله أن يكون حسناً.

{٤١١} ـ وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا يَقْبَلُ اللهُ عزّ وجلّ من مُشْرِكٍ بَعْدَما أسْلَم عَمَلاً أو يُفَارِقَ المشركين إلى المسلمين**».

رواه النسائي وابن ماجه (٢٥٣٦) وسنده حسن لترجمة بهز.

{٤١٢} ـ وعن أعرابيّ أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كتب له كتاباً... وفيه: «**إنكم إنْ أَقَمْتُمْ الصلاةَ وآتيتُم الزكاة وفارقتم المُشْرِكين، وأعْطَيتُم الخُمُس مِن المَغْنم ثم سَهْمَ النبيّ والصَّفِيّ فأنتم آمنون بأمان الله تبارك وتعالى وأمانِ رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم**».

رواه أحمد (٧٨/٥، ٣٦٣)، وأبو داود (٢٩٩٩)، والنسائي (١٢١/٧)، والبيهقي (٣٠٣/٦) و(١٣/٩) بسند صحيح.

قوله: «لا تتراآى ناراهما» أصله لا تتراآى ومعناه: لا يكون المسلم بموضع بحيث إذا أوقد ناره تظهر للمشركين، والعكس.

وجملة هذه الأحاديث تدلّ على أن مطلق إقامة المسلم في بلاد الكفار توجب أموراً وهي:

أولاً: براءة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم منه. ثانياً: هو مثل

الكفار. ثالثاً: ليس منّا. رابعاً: لا يقبل الله له عملاً ما دام بين الكفار. خامساً: ليس له أمان من الله ولا رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبذلك تعرف خطورة الإقامة بين أظهر الكفار ومساكنتهم، غير أن كل ذلك محمول على من لا مبرّر ولا ضرورة ولا عذر له كما قدّمنا، ومع ذلك فمن وجد إلى مفارقتهم سبيلاً كان أسلم لدينه ودين أولاده وأبعد من الشبهة.

* * *

فاعمل من وراء البحار

{٤١٣} ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً سأل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الهجرة، فقال: «**ويحك إنّ شأن الهجرة شديدٌ، فهل لك من إبلٍ**»؟ قال: نعم، قال: «**فهل تؤدّي صدقتها**»؟ قال: نعم، قال: «**فاعمَل مِن وراءِ البحار، فإن الله عزّ وجلّ لن يترك مِن عَمَلِكَ شَيئاً**»، وفي رواية قال: «**هل تمنح منها**»؟ قال: نعم، قال: «**هل تحلبها يوم وردها**»؟ قال: نعم، الخ.

رواه أحمد (١٤/٣)، والبخاري في هجرة النبيّ (٢٦١/٨) وفي الأدب وغيرهما، ومسلم في الجهاد (٩/١٣)، وأبو داود (٢٤٧٧).

قوله: لن يترك ـ بفتح الياء وكسر التاء ثم راء مفتوحة ـ أي: لن ينقصك.

والحديث يدلّ على أن المسلم إذا كان يؤدّي حقوق الله ولا ينسى المسكين والمحتاج، فله أن يقيم حيث شاء ويعبد الله أينما استقام له، غير أن قوله: «**فاعمل من وراء البحار**» يشير إلى أمر دقيق؛ ذلك أن العالم سيأتي عليه وقت تستوي فيه الأنظمة والقوانين والانحرافات والاختلاط بالكفار واللادينيين والوجوديين، سواء في ذلك بلاد الكفار وبلاد الإسلام، ففي ذلك الوقت لا تبقى بقعة نظيفة مسلمة صرفاً تجب الهجرة إليها،

فحينئذ يجب على المسلم أن يعبد الله حيثما تيسّر له، ولو كان في أمريكا لأنها جاءت وراء بحار المدينة المنوّرة التي أشار إليها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهذه البحار هي البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر المحيط؛ فقوله: «فاعمل وراء البحار» إشارة إلى ما ذكرنا، والله أعلم.

* * *

من فضل الهجرة

{٤١٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج ضَمْرَةُ بن جُنْدُب من بيته مهاجراً، فقال لأهله: احملوني فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فنزل الوحي: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

رواه أبو يعلى (٢٦٧٩)، والطبراني في الكبير (١١٧٠٩)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/٧): ورجاله ثقات.

وفي الآية الكريمة الترغيب في الهجرة ومفارقة ديار الكفار المحاربين وأشباهها، وفي الهجرة جاء الحديث الصحيح: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»** الخ. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تُشِيدُ بالمهاجرين وتمدحهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، في آيات كثيرة كلها مدح للمهاجرين وثناء عليهم، ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لذلك الأعرابي: **«إن شأن الهجرة شديد»**.

* * *

الخيل والسبق

{٤١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل سترٌ، وعلى رجل وِزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل لله، فأطال في مرج أو روضةٍ، فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طِيَلَها فاستَنَّت شَرَفاً أو شَرَفين كانت أرواثُها وآثارُها حسناتٍ له، ولو أنها مرّت بنهر فشربتْ منه، ولم يرد أن يُسْقِيَها كان ذلك حسنات له. وأما الرجل الذي هي عليه وزر فهو رجل ربطها فخراً ورياء ونِواءً لأهل الإسلام، فهي وزر على ذلك**»، وسُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الحُمُر فقال: «**ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذّة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**».

وفي رواية: «**وأما التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حقّ الله في ظهورها، ولا رقابها فهي له ستر**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٤٠٤) وغيره، ومسلم في الزكاة (٧/٦٦، ٦٧)، وأبو داود (١٦٥٨، ١٦٥٩)، والترمذي (١٤٩٨)، والنسائي (٦/١٧٩)، وابن ماجه (٢٧٨٨)، وكذا أحمد (٢/١٠١، ٢٦٢، ٢٧٦، ٤٢٣) وغيرهم ويأتي مرة أخرى.

قوله: مرج ـ بسكون الراء ـ هو الموضع المطمئن الموجود فيه الكلأ والروضة المرتفع من ذلك، وقوله: طيلها ـ بكسر الطاء وفتح الياء ـ هو الحبل الذي تربط به فيطول عند رعيها، وقوله: فخراً أي: تعاظماً، وقوله: ونواء ـ بكسر النون مع المد ـ أي: معاداة، وقوله: استنت أي: جرت، والشرف ما علا من الأرض.

والحديث يدلّ على أن اتخاذ المركوب قد يكون أجراً لصاحبه في جميع تحركاته، كمن اتّخذ الخيل أو نحوها إعداداً للجهاد أو أي طاعة، وتكون على صاحبها وزراً كمن اتخذها تعاظماً على الناس ورياء ومعاداة

للمسلمين، وتكون ستراً للإنسان إذا اتخذها تعففاً عن الناس واستعانة بها على مرافق حياته ولم ينس حقّ الله تعالى فيها.

* * *

يُمْنُ الخَيل

{٤١٦} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يُمْنُ الخيل في الشُّقْرِ**».

رواه أحمد (٢٤٥٤)، وأبو داود (٢٥٤٥)، والترمذي (١٥٥٥) بسند صحيح.

{٤١٧} ـ وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خير الخيل الأدْهَم الأقْرَحُ الأرْثَمُ، ثم الأقْرَحُ المُحَجَّلُ طُلْقُ اليمين، فإن لم يكن أدهم فكُمَيْتٌ على هذه الشِّيَةِ**».

رواه أحمد (٥/٣٠٠)، والترمذي (١٥٥٦)، وابن ماجه (٢٧٨٩)، والدارمي (٢٤٣٣)، وابن حبان (١٦٣٣)، والحاكم (٢/٩٢) وسنده صحيح في طريق، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: يمن الخيل أي: بركتها وخيرها في الشقر ـ بضم الشين ـ جمع أشقر وهو الأحمر، وقوله: الأدهم أي: يشتد سواده، والأقرح: الذي في وجهه بياض قليل، والأرثم: الذي في أنفه أو شفته العليا بياض، والمحجل ـ بضم الميم وفتح الحاء والجيم المشدّدة ـ الذي في قوائمه بياض، وطُلْق اليمين ـ بضم الطاء ـ الذي ليس في إحدى قوائمه تحجيل، فكميت بالتصغير الذي في أذنيه وعرفه سواد مع احمرار الباقي.

هذه صفات للخيل أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن يمنها وخيرها وجعل لها ترتيباً في المفاضلة، فجعل خيرها ما فيها حمرة، ثم شديدة السواد مع بياض قليل في وجهها وأنفها أو شفتها العليا، ثم ما

في وجهها بياض قليل مع بياض قوائمها وهي الغرّ المحجلة، ثم ما ليس في إحدى قوائمها تحجيل. ثم الحمراء الصرفة مع سواد أذنيها وشعر عرفها، فهذه الصفات خير ما يختار من الخيل عند العرب.

❋ ❋ ❋

ما يكره من الخيل

{٤١٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يكره الشِّكَالَ من الخيل.

رواه مسلم (١٨/١٣)، وأبو داود (٢٥٤٧)، والترمذي (١٥٥٧)، والنسائي (١٨٢/٦)، وابن ماجه (٢٧٩٠).

قوله: الشكال ـ بكسر الشين المشدّدة ـ قال جمهور أهل اللغة: هو ما كان قوائمه الثلاثة محجلة وواحدة مطلقة، وقيل: ما كان في رجله اليمنى وفي يده اليسرى بياض أو العكس، وقيل غير ذلك. قيل: الحكمة في كراهة ذلك الصنف لأنه على صورة المشكول، وقيل: جرب هذا الجنس فلم يكن فيه نجابة، والله أعلم بمراد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بذلك.

❋ ❋ ❋

الرهان والمسابقة

{٤١٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا سَبَقَ إلا في نَصْلٍ أو خُفٍّ أو حافِرٍ**».

رواه أحمد (٢٥٦/٢، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤)، وأبو داود (٢٥٧٤)، والترمذي (١٥٥٩)، والنسائي (١٨٨/٦)، وابن ماجه (٢٨٧٨)، وابن حبان (١٦٣٨) وسنده صحيح وزيادة حمام موضوعة.

قوله: لا سبق ـ بفتحتين ـ هو ما يجعل من المال للسابق على سبقه،

وبسكون الباء مصدر سبقت، والنصل السهم، والخفّ يكون للبعير، والحافر للخيل والحمير.

ومعنى الحديث: لا يحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاث، وهذا لا خلاف فيه إذا كان ما يأخذه السابق من العوض من غير المتسابقين، فإذا كان منهم كان قماراً، وألحق العلماء بهذه الثلاث غيرها كالمسابقة على الأقدام أوغيرها ويأتي مزيد في التالي.

{٤٢٠} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سابق بالخيل التي قد أُضْمِرَتْ من الحَفْياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زُرَيْق، وكان ابن عمر فيمن سابق بها.

رواه البخاري في الجهاد (٦/٤١١، ٤١٢، ٤١٣)، ومسلم فيه أيضاً (١٣، ١٤، ١٥)، وأبو داود (٢٥٧٥)، والترمذي (١٥٥٨)، والنسائي (٦/١٨٧)، وابن ماجه (٢٨٧٧)، والدارمي (٢٤٣٤).

قوله: أضمرت؛ الخيل المضمرة هي التي تعلف حتى تسمن وتقوى، ثم يقلل علفها بقدر القوت ثم تدخل بيتاً وتجلّل بشيء ويغطى جميع جسمها حتى تعرق، فإذا جفّ عرقها خفّ لحمها فتقوى على الجري، والحفياء بتقديم الحاء على الفاء وهو موضع بالمدينة لا يعرف الآن، وكذا ثنية الوداع وهو موضع بطريق أُحد.

في الحديث جواز المسابقة على الخيل، وقد أجمع العلماء على جوازها سواء كانت مضمرة أم لا، وسواء كانت بعوض من غير المتسابقين أم بدون عوض، وجوّز الجمهور أخذ العوض إذا كان من بعض المتسابقين. أما إذا كان من غير جانب واحد فحرام لأنه قمار وميسر.

وفيه مشروعية رياضة الخيل وغيرها استعداداً للجهاد، كما فيه جواز اللّهو بالخيل ونحوها، وأنه من اللّهو المباح بل المستحب، وليس كل لهو مذموماً، وسيأتي مزيد للموضوع في الأدب.

* * *

المسابقة بناقة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

{٤٢١} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ناقة تُسَمَّى العَضْبَاء لا تُسْبَقُ أو لا تكاد تسبق، فجاء أعرابي على قَعُودٍ فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حقّ على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه**».

رواه أحمد (٣/١٠٣، ٢٥٣)، والبخاري (٦/٤١٤)، وأبو داود (٤٨٠٣)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٢).

قوله: قعود ـ بفتح القاف ـ هو ما استحق الركوب من الإبل، والعضباء هي المقطوعة الأذن أو المشقوقة.

وفي الحديث جواز المسابقة بالإبل ولا خلاف في ذلك، وفيه التزهيد في الدنيا وأن كل شيء منها لا يرتفع إلا وضع وأُهين، وفيه عظيم تواضعه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحسن أخلاقه فإنه رغم أن الأعرابي سبق ناقته لم تأخذه الأنفة والحميّة ولا تغير لذلك كما صدر من الصحابة، ولذلك طمأنهم وزهدهم في الحياة بقوله: «**حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه**».

جامع أبواب الجهاد

يذكر هنا أشياء تتعلق بالجهاد، فاتتنا في مواضعها المناسبة لها.

وقت الخروج للجهاد

{٤٣٢} ـ عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس.

رواه البخاري في الجهاد (٦/٤٥٤) وقد تقدم في التفسير، ويأتي في المغازي.

فيه مشروعية الخروج في الأسفار، وخاصة الجهاد يوم الخميس لحكمة يعلمها الله عزّ وجلّ ثم نبيّه.

{٤٣٣} ـ وعن صخر الغامدي رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«اللّهمّ بارك لأُمّتي في بكورها»**، وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا بعث سريّة أو جيشاً بعثهم من أوّل النهار، وكان صخر رجلاً تاجراً، وكان يبعث تجارته من أوّل النهار فكثر ماله.

رواه أحمد (٣/٤١٦، ٤٣١) و(٤/٣٨٤، ٣٩١)، وأبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٠٩٤) في البيوع بتهذيبي، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وابن حبان

(٦٢/١١، ٦٣) مع الإحسان وهو حديث صحيح لشواهده الكثيرة حتى ذكروه في المتواتر، وقد قدّمناه في البيوع.

وفي الحديث بركة البكور طبقاً لدعاء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهي مشاهدة محسوسة، فالتبكير في كل شيء مبارك، فينبغي الخروج للجهاد في الصباح غدوة طلباً للبركة.

❋ ❋ ❋

فضل الصيام في سبيل الله

{٤٢٤} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من صام يوْماً في سبيل الله بَعَّد اللّهُ وجْهَه عن النار سَبْعينَ خريفاً**»، وفي رواية: «**سَبْعين عاماً**».

رواه أحمد (٤٥/٣، ٥٩، ٨٣). والبخاري (٣٨٨/٦)، ومسلم (٣٣/٨)، والترمذي (١٤٨٨)، والنسائي في الكبرى (٩٨/٢).

في الحديث فضل الصيام في سبيل الله، وذلك لجمعه بين العبادتين الجهاد والصيام، وهما من أفضل الأعمال وهو محمول على من لم يتضرّر به في الجهاد. وقوله: سبعين خريفاً؛ هذا العدد لا مفهوم له، فالمراد به مطلق التكثير، بدليل ما ورد عن عقبة بن عامر وعمرو بن عبسة ومعاذ بن أنس أنهم رووه وقالوا: مائة عام، وقوله: خريفاً، عبّر به عن العام، وخصّه دون سائر فصول السنة لأن فصل الخريف يمتاز عن غيره بمزايا ليست لغيره، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

أخذ الجعل على الجهاد

{٤٢٥} ـ عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ**»، وقال صلّى الله تعالى

عليه وآله وسلم: **«للغازي أجرُهُ وللجاعِل أجرُهُ، وأجرُ الغازي»**.

رواه أحمد (١٧٤/٢)، وأبو داود (٢٤٨٧، ٢٥٢٦) بسند صحيح، ورواه الحاكم (٧٣/٢) بالفقرة الأولى وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «قَفْلَةٌ» المراد بها: الرجوع من الغزو إلى الوطن، فأجر المجاهد في انصرافه إلى أهله كأجره في ذهابه إلى الجهاد. وقوله: «للجاعل أجره وأجر الغازي» الجُعل - بضم الجيم وسكون العين - هو أجر العامل على شيء ما، والجاعل هو الذي يدفع الجعل والأجرة للمجعول له.

فالحديث بطرفه الأول يدلّ على فضل الجهاد في سبيل الله في القفول منه كالخروج إليه. أما الطرف الثاني، ففيه جواز التأجير على الجهاد وأن الجاعل له أجران: أجرٌ على جُعْله وأجر على غزوه، ففيه الترغيب في الجعل في الجهاد كما فيه الرخصة للخارج للجهاد بجعل يأخذه، وبهذا قال مالك وأبو حنيفة وغيرهما، ومنع ذلك آخرون للحديث التالي:

{٤٣٦} - وعن عبد الله بن الديلمي أن يعلى بن مُنْيَة قال: آذَنَ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالغزو وأنا شيخ كبير ليس لي خادم، فالتمست أجيراً يكفيني، وأُجْرِي له سهمي فوجدت رجلاً فلما دنا الرحيل أتاني فقال: ما أدري ما السهمان؟ وما يَبْلُغُ سَهْمي؟ فسمّ لي شيئاً كان السَّهْم أو لم يَكُنْ، فسمّيت له ثلاثة دنانير، فلما حضرتْ غَنِيمَةٌ أردت أن أُجْرِي له سَهمه، فذكرتُ الدنانير فجئتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذكَرْتُ له أمْرَهُ، فقال: **«ما أَجِدُ له في غَزْوَتِهِ هذه في الدُّنيا والآخِرة إلاّ دنانيرَه التي سَمَّى»**.

رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٢٧) بسند صحيح.

فهذا يدلّ على أن من خرج للجهاد بأجرة لا يكون له ثواب، وهو معارض لسابقه. فيحمل هذا على من لم يخرج إلا لأجرته والأول على خلاف ذلك.

❋ ❋ ❋

متى يستحب القتال

{٤٢٧} ـ عن النعمان بن مُقَرِّن رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا لم يُقاتِل أوَّلَ النَّهارِ انْتَظَرَ حتى تَهُبَّ الأَرْوَاحُ وتَحْضُر الصلواتُ، وفي رواية: وتزولَ الشَّمْسُ وينزل النَّصْرُ.

رواه البخاري في الجزية مطولاً (١٧٥/٧)، ومسلم أول الجهاد (٣٧/١٢، ٣٩)، وأبو داود (٢٦١٢)، والترمذي (١٤٧٨)، والدارمي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٢٨٥٨) وغيرهم.

والرواية الثانية رواها ابن أبي شيبة في المصنف والترمذي.

وجاء في رواية الترمذي: غزوت مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فكان إذا طلعَ الفَجْر أمْسَك حتى تَطْلُعَ الشمس، فإذا طلعت قاتَل، فإذا انتصف النَّهارُ أمْسَك، حتى تَزُول الشمسُ، فإذا زالت الشمسُ قاتلَ حتّى العصر ثم أمْسك حتى يُصَلِّي العصر ثم يقاتلُ، وكان يقال: عند ذلك تهيج رياح النصر ويدعو المؤمنون بجيوشهم في صلواتهم.

وفي هذا الحديث برواياته بيان للأوقات التي يستحب فيها قتال الكفار والهجوم على جيوشهم، قال العلماء: إن فائدة الإمساك عند أوقات الصلاة لكون أوقاتها مظنّة إجابة الدعاء، وهبوب الريح قد وقع به النصر في الأحزاب، فصار مظنّة لذلك.

* * *

الأَسِيرُ يُسَلْسَلُ ويُوثَقُ

{٤٢٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «عَجِب ربُّنا مِنْ قَومٍ يُقَادُونَ إلى الجَنَّةِ في السَّلاَسِلِ».

رواه أحمد (٣٠٢/٢، ٤٠٦، ٤٤٨)، والبخاري في الجهاد باب الأسارى في السلاسل (٤٨٦/٦)، وأبو داود (٢٦٧٧).

ومعنى الحديث: أن الله عزّ وجلّ يرضى من حالة قوم يُؤْسَرُون في الحرب ويُسلسلون ويوثقون فيسلمون ويصيرون من أهل الجنّة، فكأنهم دخلوها مقيّدين مكرهين، وقيل في معنى الحديث غير هذا.

{٤٢٩} ـ وعنه قال: بعث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خيلاً قِبَلَ نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثُمَامَة بن أُثَال فربطوه في سارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «**ما عندك يا ثمامة**»؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنْعِمَ تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت... الحديث، وفيه أنه أسلم... ويأتي في المغازي بكماله.

رواه البخاري في المغازي في باب وفد بني حنيفة وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (١٢/٨٧، ٨٩).

ففي الحديثين مشروعية إيثاق الأسارى وربطهم، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين ولا غيرهم.

* * *

نزول الكفار على حكم بعض أفراد المسلمين

{٤٣٠} ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وكان قريباً منه، فجاء على حمار، فلما دنا منه قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قوموا إلى سيّدكم**»، فجاء فجلس إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال له: «**إن هؤلاء نزلوا على حكمك**»، قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبي الذرية، قال: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك**».

رواه البخاري في الجهاد (٥٠٥/٦) وفي مواضع، ومسلم في الجهاد (٩٢/١٢، ٩٣)، وأبو داود في الأدب (٥٢١٥).

فيه مشروعية نزول الكفار على حكم بعض المسلمين يحكم فيهم بما يراه كما وقع لسعد بن معاذ مع يهود بني قريظة حيث نزلوا على حكمه، وكانوا قد نقضوا عهد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فحاصرهم في ديارهم فاختاروا نزولهم على حكم سعد، فجيء به وهو جريح فحكم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وأطفالهم، كما يأتي ذلك مفصّلاً في السيرة والمغازي إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

استقبال الغزاة وأدب القدوم من السفر

{٤٣١} ـ عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: أَذْكُرُ أني خرجت مع الصبيان نَتَلَقَّى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى ثَنِيَّةَ الوداع مَقْدَمَه من غَزْوَةِ تَبُوك.

رواه البخاري في الجهاد (٥٣٢/٦) وفي المغازي، ويأتي.

{٤٣٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مِنْ مكة استقبله أُغَيْلِمَةُ بَنِي عَبْدِ المطّلب فحمَل واحِداً بَيْنَ يَدَيْهِ وآخر خلفه.

رواه البخاري في الحجّ وفي اللباس، ويأتي حديث ابن جعفر في الأدب وفي السيرة.

{٤٣٣} ـ وعن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا قَفَلَ كبَّرَ ثلاثاً، قال: «**آيِبُونَ إن شاء الله، تَائِبُون، عَابِدُون، حَامِدُون، ساجِدُون، صدَقَ اللهُ وعْدَهُ، ونَصر عَبْدَهُ، وهَزَمَ الأَحْزَاب وَحْدَه**».

رواه البخاري في الجهاد (٥٣٢/٦، ٥٣٣) وغيره وتقدم ويأتي.

{٤٣٤} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في سفر، فلما قدمنا المدينة قال لي: «**ادْخُل المَسْجِدَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْن**».

رواه البخاري في الجهاد (٦/٥٣٤).

{٤٣٥} ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان إذا قدم من سفر ضُحًى دخل المسجد، فصلّى ركعتين قبل أن يجلس.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، ويأتي في غزوة تبوك مطولاً.

{٤٣٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المدينة لعبت الحبشةُ بِحِرابِهِم فَرَحاً لِقُدُومِهِ.

رواه أحمد (٣/١٦١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٣) بسند صحيح.

في هذه الأحاديث عدة آداب تتعلق بقدوم المسافر من الغزو أو غيره:

منها: استقباله خارج المدينة بالأطفال، ومنها: ذكر الدعاء والذكر المذكور، ومنها: البدء بالصلاة في المسجد، ومنها: الاحتفال بقدومه واللعب بالمباح فرحاً برجوعه سالماً.

وبهذا انتهى كتاب الجهاد. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذرّيته وأزواجه وأصحابه وأتباعه ومحبّيه، كلما ذكرك وذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكرك وذكره الغافلون، وحسبنا الله ونِعم الوكيل.

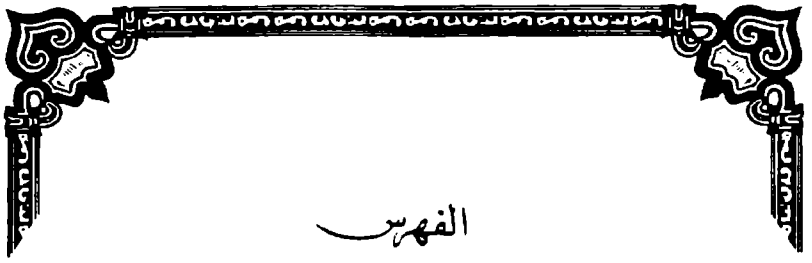

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
كتاب الإمارة والخلافة وما يتبعها	٧
كراهة طلب الإمارة	١٠
مسؤولية الراعي وتحذيره من الغش والغدر والشق على الناس واحتجابه عن ذوي الحاجات	١٤
فضل الإمام العادل	١٨
الأئمّة والخلفاء من قريش	٢٠
الخلافة الراشدة بعد النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	٢٢
الاستخلاف والبيعة	٢٥
البيعة مع الشورى	٢٨
لا تكون البيعة إلا لخليفة واحد وأن الثاني يجب قتاله	٣٣
وجوب طاعة الولاة في المعروف	٣٥
الصبر على ما يكره الإنسان من الأمير ولزوم الجماعة وأن لا يخرج عن الطاعة إلا مع الكفر	٣٨
خيار الأُمراء وشرارهم	٤٢
لا تصح ولاية المرأة بالإجماع	٤٢
بطانة الأمراء	٤٤
جواز اتخاذ الشُرَط للأمير	٤٦
وصية الأُمراء عمالهم بالتبشير والتيسير	٤٦

الموضوع	الصفحة
نصح الولاة والإنكار عليهم ما يأتون من مناكير وظلم	٤٨
التحذير من الدخول على الظلمة ومعاونتهم وتصديقهم في كذبهم	٥٢
تحذير الأُمراء من اتّهام رعاياهم وإساءة الظنّ بهم	٥٤
رزق الخليفة والحكام والعاملين معهم	٥٥
هدايا العمال والموظفين	٥٨
تحريم الرشوة ولعن أصحابها	٥٩
السلطة القضائية وتوابعها	٦٠
خطر ولاية القضاء	٦٢
القضاة ثلاثة	٦٣
الاجتهاد من صفات القاضي	٦٤
كيف يقضي القاضي	٦٤
القضاء بين الناس بالحكمة	٦٦
مشروعية مشاورة القاضي لأهل العلم	٦٩
لا يقضي القاضي حتى يسمع كلام الخصمين	٧٠
لا يقضي القاضي وهو غضبان	٧١
حكم القاضي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً	٧٢
الدعاوى والبينات البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر	٧٣
القضاء بشاهد ويمين	٧٥
تعارض البينتين	٧٦
القضاء بشاهد واحد إذا علم القاضي صدقه	٧٧
خير الشهود	٧٨
شهادة أهل الكتاب والكفار	٧٩
من لا تصح شهادته	٨٠
شهادة البدَوي على القَرَوي	٨١
القضاء بالإقرار	٨٢
القضاء بالقرائن	٨٣
هل يقضي الحاكم بعلمه	٨٤

الموضوع	الصفحة

خلاصة أسباب القضاء ٨٦
أنواع الشهادات كما ذكرها البغوي في شرح السنة ٨٦
مشروعية الحبس والسجن في التهمة ونحوها ٨٧
ربما كان في السجن مصالح ٨٨
خاتمة ٨٩
كتاب الدماء والجنايات ٩١
عظم قتل النفس وأنها من أكبر الكبائر ٩١
تحريم قتل من قال لا إله إلا الله ٩٤
ما يبيح القتلَ وإراقة دم المسلم ٩٦
جواز القتال دفاعاً عن النفس وغيرها ٩٧
عظم جريمة الانتحار ٩٨
قد يغفر الله تعالى للمنتحر لعمل صالح سبق له ١٠٠
تحريم قتل المعاهد ١٠١
مشروعية القصاص والمماثلة في الدماء والأطراف ١٠٢
أولياء المقتول عمداً بخير النظرين ١٠٥
أنواع القتل ثلاثة ١٠٦
قتل شبه العمد والخطأ لا قصاص فيه ١٠٦
طلب الإمام العفو من أولياء المقتول ١٠٧
مشروعية الشفاعة في الجناة ١٠٨
المسلمون تتكافؤ دماؤهم ولا يقتل مؤمن بكافر ١٠٩
لا يُقتلُ الوالدُ بالوَلَدِ ١١٠
إباحة أطراف المُعْتَدِي وأنه لا قَوَد على جانيه ١١٠
لا يتحمل أحد جناية غيره ١١٣
التَّوَدِ في كل شيء حتى من الضَّرْبة بالسوط ١١٣
مشروعية القصاص بالإقرار أو بشهادة رجلين ١١٥
قتل الجماعة بالواحد ١١٧
لا يقتص من المجانين حتى يبرأ المجني عليه ١١٨

الموضوع	الصفحة
لا قصاص على المجانين ومن في حكمهم كالدواب مثلاً	١١٩
بيان العاقلة التي تؤدي الدية عن الجاني	١٢٢
القسامة	١٢٣
القسامة كانت معمولاً بها في الجاهلية	١٢٥
الديات	١٢٨
دية الخطأ وشبه العمد	١٢٨
قيمة الدية على عهد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فما بعده	١٣٠
على من تجب تأدية الدية	١٣١
دية جماعة قتلوا في زُبْيَةٍ	١٣٣
دية الأطراف	١٣٤
دية أهل الذمّة	١٣٨
خاتمة	١٣٩
الحدود	١٤٠
الترغيب في إقامة حدود الله تعالى	١٤٠
استحباب التستر على من أتى حدّاً	١٤١
الغيرة على حرمات الله والانتقام لها	١٤٢
المنع من الشفاعة في الحدود والتساوي فيها بين الناس	١٤٢
الحدود كفارات	١٤٣
جريمة الزنا والتنفير منها	١٤٤
حدّ الزاني البكر جلد مائة وتغريب عام	١٤٧
حدّ الزاني الثيّب المحصن الجلد والرجم	١٤٨
قصة رجم ماعز الأسلمي	١٥١
قصة الغامدية التي رجمها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ..	١٥٤
مشروعية رجم اليهود إذا تحاكموا إلينا	١٥٧
إقامة الحدّ على الإماء	١٥٩
إقامة الحد على المريض وكيف ذلك	١٦٠
حَدُّ من أتى أَحَد مَحارِمِه	١٦١

الموضوع	الصفحة
حُكْمُ مَنْ أُكْرِهَتْ على الزِّنا	١٦٢
جلد القذف	١٦٣
من قذف امرأة بنفسه فأنكرت	١٦٤
من أصاب ذنباً دون الحد فيتوب	١٦٥
حكم من أقر بحدّ عند الحاكم ولم يوضح أمره	١٦٦
حكم من يقع على بهيمة	١٦٧
حكم فاعل عمل قوم لوط	١٦٨
حُكْمُ السَّارق وحدُّه	١٦٩
تقطع يد السارق في ربع دينار أو قيمته	١٦٩
ما يدلّ على اشتراط الحرز للقطع وبيان ما لا قطع فيه	١٧٠
قطع اليد في العارية إذا جُحِدَت	١٧٣
لا يشرع القطع في الغزو	١٧٤
العمل بإقرار السارق وتلقينه ما يسقط عنه الحد	١٧٤
توبة السارق	١٧٥
هل يقتل السارق	١٧٥
حدّ الشارب	١٧٦
لا يجوز لعن شارب الخمر	١٧٨
نسخ قتل الشارب	١٧٩
التعزيرات	١٨٠
إقالة ذوي الهيئات عثراتهم	١٨١
خاتمة	١٨٢
المحاربون وقطاع الطريق والمرتدّون	١٨٣
إهْدَارِ دَم مَنْ سَبَّ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	١٨٦
الخوارج والبغاة	١٨٧
كتاب الجهاد	١٩٢
فضل الجهاد والترغيب فيه	١٩٤
الروحة والغدوة في سبيل الله	١٩٨

الموضوع	الصفحة
درجات المجاهدين في سبيل الله	١٩٨
لا يدخل النار من اغبرّت قدماه في سبيل الله	١٩٩
من جوامع فضل الجهاد في سبيل الله	٢٠٠
يضحك الله إلى رجلين ويعجب من رجلين	٢٠٢
فضل الجهاد في البحر	٢٠٣
فضل الرباط في سبيل الله تعالى	٢٠٥
الحَرَسُ في سبيل الله تعالى	٢٠٧
فضل الشهادة والشهداء	٢٠٩
يُغفرُ للشهيد كلُّ شيء إلا الدَّين	٢١١
للشهيد ستّ خصال	٢١٣
من سأل الشهادة أُعطيها وإن مات على فراشه	٢١٣
أنواع الشهادة	٢١٤
من هو المجاهد والشهيد اللذان يحرزان على الشهادة	٢١٦
وجوب الجهاد بالنفس والمال بعد الدعوة إلى الله	٢١٨
فضل من جهز غازياً أو أنفق في سبيل الله عزّ وجلّ	٢٢٤
حرمة نساء المجاهدين	٢٢٦
ذم من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو	٢٢٧
إيجاب إعداد القُوَّة الحربية	٢٢٨
إعداد الخيل للحرب	٢٢٩
استئذان الأبوين في الجهاد	٢٣٠
دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال ووصية الإمام قائد الجيش بوصايا هامة	٢٣٢
تبييت الكفار والإغارة عليهم	٢٣٦
تحريم قصد قتل نساء الكفار وصبيانهم	٢٣٧
لا يجوز تحريق الكفار بالنار	٢٣٧
جواز تحريق الأشجار والدور ونحو ذلك	٢٣٨
تحريم الفرار من المعركة	٢٣٩

الموضوع	الصفحة
التكبير عند القتال والدعاء على المشركين بالانهزام	٢٤٠
شعار المجاهدين فيما بينهم	٢٤١
المخادعة في الحرب	٢٤٢
الاستعانة بدعاء الصالحين	٢٤٣
الاستعانة بالمشركين	٢٤٤
جواز التخلف عن الجهاد لعُذْرٍ ما وأنه يُكتبُ للمُتخَلِّف أجْرُ المُجاهِدِ	٢٤٥
وجوب طاعة قائد الجيش وأميره	٢٤٦
مشروعية مشاورة القائد للجيش	٢٤٧
لا يُتَمَنَّى لِقاءُ العدوّ	٢٤٨
قتل الجاسوس	٢٤٨
الفتك بأهل الحرب	٢٤٩
مشروعية المبارزة	٢٥٠
خروج النساء مع الغزاة للخدمة ومداواة الجرحى ونقلهم	٢٥٠
إقامة المسلمين بعد الانتصار عند عرصات العدوّ	٢٥٢
تأييد الدين بالرجل الفاجر	٢٥٣
لا يقتل البريد ولا السفير الكافران	٢٥٤
أبواب قسم الغنائم وما يتبع ذلك	٢٥٥
تخصيص هذه الأُمّة بحلّيّة الغنائم	٢٥٥
تحريم الغلول	٢٥٦
سهم الصَفِيّ يأخذُه الإمامُ قَبْل الخُمُس والقِسْمة	٢٥٦
تخميس الغنيمة	٢٥٨
خمس ذوي القربى	٢٥٩
حكم الفيء	٢٦٠
بيان قسمة الغنيمة	٢٦٤
من يُرْضَخُ لهم ويُحْذَوْنَ من الغنيمة بلا إسهام	٢٦٥
السَّلَبُ يُعْطَى للقاتل ولا يُخَمَّسُ	٢٦٦
مشروعية التنفيل زيادة على قسمة الغنيمة	٢٦٧

الموضوع	الصفحة
إعطاء الربع في البدأة، والثلث في الرجعة	٢٦٨
إيثار المؤلفة قلوبهم من الغنيمة	٢٦٩
أموال المسلمين يأخذها الكفار ثم تؤخذ منهم	٢٧١
الرخصة في الانتفاع بالطعام ونحوه من الغنيمة للحاجة بلا قسم	٢٧٢
النهي عن أخذ شيء من الغنيمة لغير حاجة	٢٧٣
حكم الأسرى	٢٧٤
وجوب فكاك الأسير المسلم	٢٧٦
هل يجوز استرقاق العرب	٢٧٦
إذا أسلم الكافر قبل القدرة عليه أحرز ماله	٢٧٨
الأرض المغنومة أمرها للإمام	٢٧٩
مهادنة الكفار وعقد الصلح معهم	٢٨١
مشروعية أخذ الجزية من الكفار	٢٨٢
مقدار الجزية	٢٨٤
إخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب	٢٨٥
الهجرة من ديار الكفار وحكم الإقامة بها	٢٨٧
فاعمل من وراء البحار	٢٩١
من فضل الهجرة	٢٩٢
الخيل والسبق	٢٩٣
يُمْنُ الخَيْل	٢٩٤
ما يكره من الخيل	٢٩٥
الرهان والمسابقة	٢٩٥
المسابقة بناقة النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	٢٩٧
جامع أبواب الجهاد	٢٩٨
وقت الخروج للجهاد	٢٩٨
فضل الصيام في سبيل الله	٢٩٩
أخذ الجعل على الجهاد	٢٩٩
متى يستحب القتال	٣٠١

الموضوع	الصفحة
الأَسِيرْ يُسَلْسَلُ ويُوثَقُ	٣٠١
نزول الكفار على حكم بعض أفراد المسلمين	٣٠٢
استقبال الغزاة وأدب القدوم من السفر	٣٠٣
الفهرس	1

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾

المجلد الثامن
كتاب التاريخ
بدء الخلق، والأنبياء

دار ابن حزم

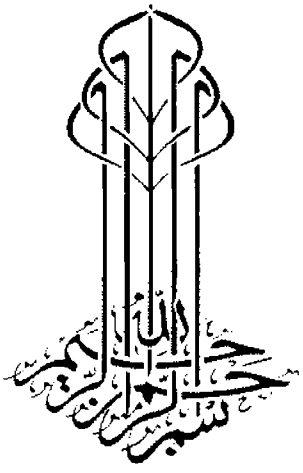
بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

ISBN 9953-81-269-1
9 789953 812694

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

كتاب التاريخ
ويشمل بَدءَ الخلقِ والأنبياء
والسيرة النبوية والمَناقب والفضائل

الله خالق كل شيء
خلق الماء والعرش والقلم والسماء والأرض...

{٤٣٧} ـ عن عِمران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: دخلتُ على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تميم، فقال: «**اقبَلُوا البُشْرَى يا بني تميم**»، قالوا: قد بشَّرتنا فأعْطِنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «**اقْبَلُوا البشرى يا أهل اليَمَن إذْ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسول الله، قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: «**كان الله ولم يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وكان عرشُه على الماء، وكتب في الذكر كُلّ شيء، وخلق السمٰواتِ والأرضَ**».

رواه أحمد (٤/٤٣٢، ٤٣٣)، والبخاري في بدء الخلق (٧/٩٧، ٩٨، ٩٩) وفي المغازي (٩/١٤٦) وفي التوحيد (١٧/١٨١)، والترمذي في المناقب (٣٦١٢) آخر الجامع.

قوله: «هذا الأمر» أي: شأن هذا العالم وما فيه.

في الحديث أمور أربعة:

أولاً: قوله: «كان الله ولم يكن شيء غيره» في رواية للبخاري في

التوحيد: «ولم يكن شيء قبله» وهما يدلاّن على أنه تعالى لم يكن معه سواه، فهو الأول وحده قبل كل شيء، وقد ضلّ من الفلاسفة ومقلّديهم من زعم أنه كانت حوادث مع الله لا أوّل لها، فمن المعتقدات الإسلامية القطعية في جانب الله عزّ وجلّ أنه الأول قبل كل شيء بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وما عداه كلّه مخلوق محدث لم يكن ثم أوجده الله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

ثانياً: قوله: «وكان عرشه على الماء»، فيه أن الماء خلق قبل العرش، والعرش أعظم خلق خلقه الله عزّ وجلّ، وهو سقف العالم خلق بعد الماء.

ثالثاً: قوله: «وكتب في الذكر كل شيء»، الذكر هو اللوح المحفوظ، ومعناه أن الله عزّ وجلّ كتب فيه كل ما وقع وسيقع مما لا نهاية له.

رابعاً: قوله: «وخلق السمٰوات والأرض»، فيه أن خلقهن كان بعد العرش واللوح والقلم، وكيفية خلقهن ذكرها الله تعالى في سورة فصلت وسورة عمّ يتساءلون، فقال في الأولى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ الآية.

فذكر أنه خلق الأرض في يومين أولاً ثم استوى إلى السماء أي: قصد فخلقهن سبع سمٰوات في يومين، ثم جعل على الأرض جبالها راسيات لها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين، فكان جملتها أربعة أيام. وقال في السورة الثانية مُفصلاً: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾...

وخلاصة ذلك أنه تعالى خلق أولاً الأرض جملة في يومين ودَحاها في يومين، فكان خلقها جملة وتفصيلاً في أربعة أيام، وخلق السمٰوات

جملة واحدة في يومين، فيكون الجميع ستة أيام، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

{٤٣٨} ـ وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنّ أول ما خلق الله القلمَ، فقال له: اكْتُبْ، قال: ما أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ القَدَرَ ما كان وما هُو كائنٌ إلى الأَبَد**».

رواه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود في السنّة (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (١٩٨٦) وحسنه وصححه، ورواه الحاكم (٤٩٨/٢) من حديث ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي.

القَدَر ـ بفتحتين ـ سبق الكلام عليه في باب القدر في الجزء الأول رقم (٢٢٠).

وقوله: «إن أول ما خلق الله القلم» ظاهره يقتضي أن القلم هو أول ما خلق إطلاقاً، وأنه قبل خلق العرش، وبه قال ابن جرير الطبري والجمهور على أن أول ما خلق الله الماء ثم العرش ثم القلم واللّوح المحفوظ ثم الأرض ثم السماء، ويؤول قوله هنا: «إن أول» يعني بعد الماء والعرش، فتكون الأولية نسبية، ويزيد هذا وضوحاً الحديث التالي، وهو:

{٤٣٩} ـ وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**كتبَ الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخْلُق السمٰواتِ والأرضَ بخمسين ألفَ سنة**»، قال: «**وعرشه على الماء**».

رواه أحمد (١٦٩/٢)، ومسلم (٢٠٣/١٦)، والترمذي (١٩٨٧) كلاهما في القدر.

فالحديث دالّ على أن الماء والعرش كانا موجودين قبل كتابة المقادير، كما أنه يدلّ على أن خلق السمٰوات والأرضين كان بعد كتابة

المقادير بآلاف السنين، وهي خمسون ألف سنة وهي مدة طويلة ولا ندري حكمة تأخيرها.

* * *

خلق الزمان والسنين والأشهُر والليل والنهار

{٤٤٠} ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ الزَّمانَ قد استدار كهَيْئَتِهِ يوم خلقَ السمٰواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، والمُحَرَّم، ورجَبُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشعبان**».

رواه أحمد (٣٧/٥، ٧٣)، والبخاري في بدء الخلق (١٠٤/٧) وفي التفسير (٣٩٤/٩)، ومسلم في القسامة (١٦٧/١١، ١٧٠) مطوّلاً في خطبته في حجة الوداع، ويأتي في السيرة بطوله.

في الحديث الشريف إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الآية.

والحديث كالآية يدلاّن على أن الله عزّ وجلّ خلق الزمان وهو الوقت قليله وكثيره مع السمٰوات والأرضين، وأنه جعل فيه السنين والشهور، فالسنة فيها اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، فالزمان مخلوق وينشأ عن سير الشمس والقمر اللذين خلقهما الله هما الآخران يوم خلق السماء، وقد تقدم معنى استدارة الزمان في التفسير، وتأتي بقيّة مباحثه في السيرة.

{٤٤١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قال الله عزّ وجلّ: يُؤْذِيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهر وَأَنا الدَّهر بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيل والنهار**».

رواه أحمد (٣٣٠/٢)، والبخاري في سورة الجاثية (١٩٦/١٠)، ومسلم بألفاظ في الأدب (٢/١٥، ٣)، وأبو داود (٥٢٧٤) آخر الكتاب.

الدهر: زمانٌ جُعِلَ ظرفاً لمواقع الأُمور، وكان العرب إذا أصابهم مكروه نسبوه للدهر وسبوه، فجاء الإسلام بالنهي عن سبّه، فإنه مخلوق لله عزّ وجلّ يدبره ويقلب ليله ونهاره، ومن سبّه فكأنما سبّ الله خالقه، وكان قد آذى الله تعالى، وانظر ما سبق في التفسير وما يأتي في الأدب.

* * *

خلق الجبال والحديد والنار والماء والريح

{٤٤٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لمّا خلق الله عزّ وجلّ الأرضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت، فتعجّبت الملائكةُ من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالت: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من الماء؟ قال: نعم الرّيح، قالت: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم يَتصدَّق بيمينه يُخْفِيها من شماله**».

رواه أحمد (٣/١٢٤)، والترمذي آخر التفسير (٣١٤٩) وسنده حسن على مذهب جماعة، ولذا حسّنه الحافظ ابن حجر.

الحديث يدلّ على أنَّ هذه الأشياء كلها مخلوقة لله عزَّ وجلَّ خلقها يوم خلق السموات والأرض، وفيه دليل على أن المخلوقات تتفاضل في الشدّة.

* * *

خلق الجنّة والنار

{٤٤٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في صُفُوفِنا في الصلاة، صلاةِ الظهر أو العصر، فإذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتناولُ شيئاً ثم تأخّر فتأخر الناس، فلما قضى الصلاة قال أُبَيُّ بن كَعْب: شيئاً صنعتَه في الصلاة لم تكن تصنعه؟ قال: «**عُرِضَتْ عليَّ الجنَّةُ بما فيها من الزهرة والنَّضرة، فتناولتُ منها قِطْفاً من عنب لآتِيَكُم به، فحِيل بيني وبينه، ولو أتيتكُم به لأكل منه مَن بين السماء والأرض لا ينقُصُونه شيئاً، ثم عُرِضَتْ عليَّ النار فلمّا وجدت سَفْعَها تأخّرتُ عنها، وأكثر من رأيت فيها النساء اللاتي إن ائتُمِنَّ أفْشَينَ، وأن يُسْأَلْنَ بَخِلْنَ، وإن يَسْأَلْنَ أَلْحَفْنَ، وإن أُعْطَينَ لم يَشْكُرْنَ، ورأيت فيها عَمْرو بن لُحَيّ، وأشبه ما رأيت به معبد بن أكثَم الكَعْبِيّ**»، قال: يا رسول الله أيُخْشَى عليَّ من شَبَهِهِ وهو والد؟ فقال: «**لا، أنت مؤمن وهو كافر، وكان أول من حمَل العرب على عبادة الأوثان**».

رواه أحمد (٣/٣٥٢، ٣٥٣) بسند حسن وهو صحيح لشواهده في الصحيحين وغيرهما.

قوله: «قِطْفاً» ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ هو العنقود، وقوله: «سفعَها» ـ بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين ـ وسفع النار هي علامة تغيّر اللّون إلى السواد، والمراد أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خشي سفعها لو أصابته، وقوله: أَلْحَفْنَ من الإلحاف وهو الإلحاح والمبالغة في السؤال، وقوله: عَمْرو بن لحي هو بضمّ اللام وفتح الحاء، وكان من رؤساء خزاعة الذين ولو البيت بعد جُرْهُم، وهو أول من غيّر دين إبراهيم وأدخل الأصنام للحجاز ودعا لعبادتها، ويأتي الكلام عليه في السيرة.

والحديث يدلّ على أن الجنّة والنار مخلوقتان مهيّأتان لأصحابهما، وفي ذلك أحاديث كثيرة تأتي في الرقائق، ويأتي بعضها هنا، ورغم ذلك فقد أنكر المعتزلة خلقهما، ولله في خلقه شؤون. وفي الحديث بيان الصفات السافلة التي توجب للنساء دخول النار، ويأتي موضع ذلك في الرقائق.

{٤٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تَحَاجَّتِ النَّارُ والجنَّةُ، فقالت النار:**

أُوثِرْتُ بالمتكبّرين والمُتَجَبِّرين، وقالت الجنّة: فما لي لا يدخلني إلا ضُعفاء الناس وسَقَطُهُم وعَجَزَهُم، فقال الله عزّ وجلّ للجنّة: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعَذِّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكلّ واحدةٍ منكما مِلْؤُهَا، فأما النار فلا تَمْتَلِىءُ حتى يضعَ الله تعالى قدمَهُ عليها، فتقول: قَطِ، قَطِ، فهنالك تمتلىء، وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنّة فإن الله تعالى ينشىء لها خلقاً».

رواه أحمد (٣١٤/٢)، والبخاري في التفسير (٢١٩/١٠)، ومسلم (١٨٢/١٧) ونحوه عن أنس عندهم باختصار، وقد سبق في التفسير.

وقوله: قط ـ بفتح القاف وسكون الطاء أو كسرها ـ أي: حسبي، وقوله: تحاجت أي: تخاصمت، وقوله: والمتجبرين هم المتكبّرون، وقوله: سقطهم ـ بفتحتين ـ أي: الساقطون من أعين الناس المحتقرون، وقوله: وينزوي أي: يجتمع.

والحديث يدلّ على أن الجنّة والنار موجودتان مخلوقتان كما سبق، فإن قوله: تحاجت الجنّة والنار، وقول النار: قط قط، لا يكون إلا من مخلوق موجود. أما كلامهما وهما من الجمادات فهذا من شؤون ربنا لا دخل لنا فيه، فَحَسْبُنَا الإيمان بما جاء عنه عزّ وجلّ أوجاء عن رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٤٤٥} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لما خلق الله الجنّة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعِزَّتك لا يسمع بها أحدٌ إلاّ دخلها، ثم حفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أيْ رب وعزّتك لقد خشيتُ أن لا يَدخلَها أحدٌ، فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزّتك لا يَسمعُ بها أحدٌ فيدخلها، فحفَّها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: أي ربّ وعزّتك لقد خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها»**.

رواه أحمد (٣٣٢/٢، ٣٣٣)، وأبو داود في السنّة (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٣٧٧)، والنسائي في الكبرى (١٢١/٣)، والحاكم (٣٧/١) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: وعزّتك أي: وحقّ قوتك وعظمتك، وقوله: «حفها بالمكاره» أي: أحاطها بما تكرهه النفوس من الأوامر والنواهي والتكاليف، وقوله: بالشهوات، أي: أحاطها بكل ما تشتهيه الأنفس وأغلب المشتهيات محرمات.

والحديث كسابقيه في خلق الجنّة والنار وأنهما مهيأتان بما فيهما لأصحابها. أما الكلام عليهما وعلى ما فيهما ودخولهما فيأتي في الرقائق التي هي خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

خلق الملائكة والجان وآدم

{٤٤٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«خُلِقَتْ الملائِكَةُ من نُور، وخُلِقَ الجانُّ مِن مَارِجٍ مِن نار، وخُلِقَ آدمُ عليه السلام مما وُصِف لكم»**.

رواه أحمد (١٥٣/٦، ١٦٨)، ومسلم في الزهد (١٢٣/١٨).

قوله: الجان يعني الجن ـ بكسر الجيم ـ قيل: هو جنس كان الشيطان إبليس منهم، وقيل: هو إبليس نفسه، والصحيح أن إبليس من الجنّ، وقوله: من مارج من نار، أي: من نار مُخْتَلِطَة بهواء مشتعل، فالمارج هو لهب النار المختلط بسواد النار، فمن هذا خلق الجان.

وفي الحديث بيان خَلْق الأجناس الثلاثة المكلّفة من قبل الله عزّ وجلّ وأصلها، وأنها مخلوقة محدثة.

أما الملائكة عليهم الصلاة والسلام فقد خلقهم الله عزّ وجلّ من النور، فهم أرواح نورانية خلقوا على صفات شتّى وأعطاهم الله عزّ وجلّ

التشكّل على أي صفة شاءوا، فقد يتمثّلون في صفات بني آدم أو على صور طيور... وهم خلق لا يوصفون لا بذكورة ولا أنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحدثون ولا يموتون حتى آخر الدنيا، مطهّرون مفطورون على الخير وعبادة الله تعالى وطاعته ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وهم جنود مجندة لا يحصون كثرة، فيهم الراكع وفيهم الساجد وفيهم القائم وفيهم المكلّفون بالجنّة والمكلّفون بالنار، وفيهم حملة العرش، وفيهم سكان السمٰوات، وفيهم المكلّفون بحفظ بني آدم، وفيهم كتبة أعمالهم، وفيهم ملائكة الأرحام، والملائكة السيّاحون يبتغون حلق الذكر، وفيهم ملك السحاب، وملك الجبال، وملك الريح، وفيهم ملك الموت وأعوانه، وفيهم فتّان القبر، وفيهم وفيهم ممّن تقدم ويأتي.

ولعظمتهم وعظمة ما يقومون به في هذا العالم وغيره كان الإيمان بهم من مقتضيات الإيمان وكلّياته الستّة، فمن أنكر وجودهم لم يكن مؤمناً، ولنذكر بعض من وردت بهم وبصفاتهم النصوص.

{٤٤٧} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «**أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام وله سِتُّمائةِ جَنَاحٍ كُلُّ مِنها قد سَدَّ الأُفُق يَسْقُطُ مِن جَنَاحِهِ من التَّهَاوِيلِ والدُّرُّ والياقُوتُ ما اللهُ أعلمُ به**».

رواه أحمد (٣٧٨٠) واللفظ له والبخاري في التفسير (١٠/٢٣٣، ٢٣٤)، ومسلم في الإيمان (١٧٤)، والترمذي (٣٠٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٢) كلاهما في التفسير.

قوله: سدّ الأفق أي: ملأ الجهة، وقوله: التهاويل أي: الأشياء المختلفة المزين بها، وفي الحديث عظمة هذا الملك الكريم الذي جعله الله عزّ وجلّ رئيس ملائكته والسفير بينه وبين رسله صلوات الله وسلامه عليهم، فعظمة خلقته مدهشة، وقد جاءت بذكره أحاديث جمّة مفرّقة في كثير من الكتب والأبواب.

{٤٤٨} ـ وعن سمرة قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«رأيت الليلة رجلين أتيَاني قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٢٥/٧) وفي الجنائز وفي التعبير مطولاً، وقد تقدم في الرؤيا مخرجاً مشروحاً والمراد هنا هو ذكر مالك خازن النار، وجبريل وميكائيل، والثلاثة مذكورون في القرآن الكريم.

{٤٤٩} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ مِن ملائِكة الله مِن حَمَلَةِ العَرش: إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعمِائة عام»**.

رواه أبو داود في السنة (٤٧٢٧)، والطبراني في الأوسط (٤٤١٨، ١٧٣٠) بسند صحيح، هذا خلق مدهش يدلّ على عظمة هذا الملك، وبالتالي عظمة العرش، فكيف بخالق العالم ومدبّره سبحانه عزّ وجلّ، وهذا ملك واحد من حملة العرش، وقد ورد أن حملته اليوم أربعة أملاك ويوم القيامة ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، وقوله: **«ما بين شَحْمَةِ أُذُنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»**، فإذا كان ما بين هذين الموضعين مسافة سبعمائة عام، فكيف تكون مسافة طول هذا الملك العظيم وعرضه يا ترى؟ سبحانك ربنا ما أعظم شأنك.

{٤٥٠} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنّي أرَى ما لا تَرَوْن، وَأَسْمَعُ ما لاَ تَسْمَعُون، أَطَّتْ السَّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، مَا فِيها مَوْضعُ أربع أصابعَ إلاَّ وملَكٌ واضعٌ جَبْهته لله ساجداً، والله لو تَعْلَمُون ما أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَليلاً ولَبَكَيتُمْ كثيراً، وما تَلَذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشِ ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى الله تعالى»**.

رواه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي في الزهد (٣١٣٤)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢) و(٥٤٤/٤، ٥٧٩) وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله شواهد ذكرت في غير هذا الموضع.

قوله: «أطّت» أي: صوّتت، «وحقّ لها أن تئطّ» أي: يحقّ لها أن

تصوّت كصوت بردعة البغال من الثقل، وقوله: «الصعدات» جمع صعد بضمّتين، والمراد بها البراري والقفار، وقوله: «تجأرون» أي: تتضرّعون. والحديث يدلّ على امتلاء السماء بالملائكة حتى ثقلت بهم بحيث صدر منها أطيط كأطيط أحمال البهائم من ثقلهم، وأنه ما من موضع أربع أصابع إلاّ وفيه ملك ساجد لله عزّ وجلّ، وهذا نهاية في الكثرة، ويُقال مثل ذلك في أرضنا، وفيما لا نعلمه من عوالم أخرى. وباقي أبحاث الحديث تأتي في الزهد إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم ذكر الملائكة في كثير من الأبواب، ويأتي لها ذكر في مواضع إن شاء الله تعالى.

* * *

ذكر الجنّ وإبليس

تقدم حديث: «**وخُلِقَ الجَانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ**».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾، وفيه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

{٤٥١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن إبليسَ يضعُ عَرْشَه على الماء ثم يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فأدناهُم منه منزلةً أعظمُهم فِتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتَّى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه منه، ويقول: نعم أنت فَيَلْتَزِمُه**».

رواه أحمد (٣/٣١٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٥٧).

إبليس من الإبلاس وهو اليأس، سمّي بذلك ليأسه من رحمة الله تعالى، وهو صاحب القصة مع سيدنا آدم عليه السلام والذي جعل عدواً للإنسانية مغوياً لها. قال البغوي: كان اسمه عزازيل بالسريانية، وبالعربية

الحارث، فلما عصَى غيّر اسمه وصورته، فقيل: إبليس لأنه أبلس من رحمة الله أي: يئس.

قوله: عرشه أي سرير ملكه إما ذلك حقيقة أو تمثيلاً، بمعنى أن مركزه البحر، فمنه يرسل سراياه الفاتنين، وقوله: فيدنيه أي: يقربه منه، وقوله: نعم أنت، معناه أنت الذي تستحق المدح والدنوّ مني، وقوله: يلتزمه أي: يضمّه إلى صدره فرحاً وسروراً بما فعله.

والحديث يدلّ على أن مركز الشيطان إبليس؛ هو البحر ففيه مسكنه وبه مقرّه، ولا يبعد أن يكون هو الموضع الذي اكتشف مؤخراً بجنوب أمريكا في الموضع المسمّى عندهم بمثلث «برمودا»، يعنون مثلّث الشيطان الذي عُرف بأن كل باخرة أو طائرة مرّت به فقدت ولا يعرف لها أثر، فيكون ذلك من فعل الشياطين الذين هم هنالك مجتمعون على إبليس، فالله أعلم.

كما أن الحديث يدلّ على أن إبليس اللعين يبعث جنوده وأعوانه وذرّيته إلى الآفاق لإغواء بني آدم وافتتانهم وإلقاء البغضاء والشرور بينهم، وقد ابتلى الإنسان بهذا الجنس المقيت، وسلّط عليه امتحاناً من الله عزّ وجلّ، فما من جريمة ومعصية وإفساد في الأرض إلا بإغواء الشيطان وجنوده وأعوانه، والله المستعان عليه.

{٤٥٢} ـ وعن جابر أيضاً قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إنّ الشَّيطانَ قَدْ أيِس أن يَعْبُدَه المُصَلُّون في جَزِيرَةِ العرب، ولٰكِنْ في التَّحرِيشِ بَيْنَهُم»**.

رواه أحمد (٣/٣٥٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٥٦)، والترمذي في البرّ والصلة (١٧٨٣).

أيس أي: قنط، ولكن في التحريش أي: الإغراء والتحريض على الخصومات...

وفي الحديث أن الشيطان أيس من أن يرجع الناس المسلمون إلى عبادة غير الله في جزيرة العرب، وهذه بشارة منه صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم لمسلمي الحجاز ونحوهم بأنهم لا يزالون على الإيمان ولا يعبدون إلا الله عزّ وجلّ، ولما أيس من هذا الجانب توجّه بخيله ورجله إلى إغرائهم وتحريضهم على الخصومات والتقاتل وتسليط بعضهم على بعض، فاكتفى عدوّ الله بذلك وقنع بما يوقعه بينهم.

{٤٥٣} ـ وعن أبي ثَعْلَبَة الخُشَنِي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولُ: «**الجِنُّ على ثلاثةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ كِلابٌ وحَيَّاتٌ، وصِنفٌ يَطِيرُون في الهَواء، وصِنْفٌ يَحُلُّون ويَظْعَنُون**».

رواه ابن حبان (٢٦/١٤)، والحاكم (٤٥٦/٢)، والطحاوي في المشكل (٩٥/٤، ٩٦)، والطبراني في الكبير (٥٧٣/٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٥) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث أن الجنّ خلقوا على أصناف: منهم من هو على صفات الكلاب، وخاصة السود منهم كما جاء به النص: «... **الأسود شيطان**»، وفيهم حيات، وجاءت بهم أحاديث منها حديث الرجل الذي قتل حيّة على فراشه ثم مات عقبها، وهو في سنن أبي داود وغيره، وسيأتي بعض ذلك في الأدب، وفيهم سكان السماء، وفيهم العفاريت والزوابع، وفيهم السباع والهوام والحشرات كما هو واقع، وفيهم سكان أجسام بني آدم، وفيهم عجائب العجائب، وأعطاهم الله قدرة عظيمة. واقرأ قصتهم مع نبيّ الله سليمان عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وبالجملة فهذا جنس مخلوق موجود يعيش معنا في هذا العالم يأكلون ويشربون ويتناسلون، وهم أرواح شريرة خبيثة يتشكّلون على صفات، وفيهم الكافر والمؤمن، مكلّفون كالإنس ويثابون ويعاقبون كما نطق بذلك القرآن الكريم، ولذلك كان الإيمان بوجودهم واجباً لأن وجودهم وخلقهم صريح القرآن والسنّة المتواترة، وقد سمّيت في القرآن سورة باسمهم وأخبرت عن مؤمنهم وكافرهم، والعجب ممن ينكر وجودهم ممن ينتمي للإسلام مغتراً بمذهب فلاسفة الكفار ومن يقول بقولهم من الأطباء، وذلك يدلّ على جهلهم وغباوتهم.

وحديث ابن عباس المتقدم في التفسير يدلّ على أن الجنّ نوع واحد، ومن أصل واحد، كما هو ظاهر القرآن أيضاً، غير أن العلماء فرّقوا بينهم باجتهاد منهم، فقالوا: من بقي على أصله كافراً سمّي شيطاناً، ومن أسلم قيل له: جِنّي. أفاده الحافظ في الفتح. وفيه نظر لأن القرآن أطلق الجنّ والجان عليهم مطلقاً، وبذلك جاءت الأحاديث النبويّة وتقدم الكثير منها، كما تأتي أحاديث في ذكرهم في موضوعات لاحقة، وقد ألّف الناس فيهم قديماً وحديثاً.

* * *

خلق آدم عليه السلام

{٤٥٤} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنّ الله تباركَ وتعالى خَلَق آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِن جَميع الأَرْضِ، فجاءَ بَنُو آدم على قَدْرِ الأرض، منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبَيْن ذلك، والسَّهْلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ والطَّيّبُ**».

رواه أحمد (٤٠٦/٤)، وأبو داود في السنّة (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير (٢٧٦٣) بتهذيبي، وابن حبان بالإحسان (٦١٦١، ٦١٨١)، والحاكم (٢٦١/٢، ٢٦٢) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: قبضةٍ هي ملىء الكف، وهي بالنسبة لله صفة له لا نعلمها، والحَزْن ـ بفتح الحاء وسكون الزاي ـ هو الغليظ الصعب.

والحديث يدلّ على أن الله عزّ وجلّ خلق أبانا آدم عليه الصلاة والسلام من جميع أنواع الأرض ومعادنها، ولذلك جاء أولاده على صفات الأرض فيهم أبيض اللون وفيهم أسوده، وفيهم أحمره وأصفره إلى غير ذلك من ألوانها، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، وفيه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴿٢٨﴾﴾.

وإجماع أهل الملل والكتب الإلٰهيّة أنه خلق من الأرض، وأنه أبو البشريّة وأنه الذي كان في الجنّة وسجدت له الملائكة وأبى من ذلك إبليس وكانت أطوار خلقته على مراحل، فكان من تراب ثم من حمإ مسنون، أي: متغيّر الريح، ثم من طين لازب أي: يلزق باليد، ثم من صلصال كالفخار، ثم ألقيت فيه الروح وكلّها في القرآن الكريم.

وفي الحديث أن طباع بني آدم وأخلاقهم جاءت طبق أصلهم من الأرض، فكما أن الأرض فيها الغليظ والصعب والقاسي كذلك بنو آدم، وكما أن فيها السهل والرخو واللين، كذلك الإنسان، كما أن فيها الخبيث المنتن القذر، كذا البشر فيه الخبيث أخلاقاً، والمنتن أجساماً وهكذا. فهذا أصل خلق هذا الأنواع الثلاثة الحيّة المُكَلَّفة: الملائكة، الجان، آدم... وستأتي أحاديث في آدم عليه السلام حيث يذكر في الأنبياء.

* * *

الخلق العام للمخلوقات الحية وغيرها

{٤٥٥} ـ عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مَقَاماً فأخْبَرَنا عن بَدْءِ الخَلْقِ حتى دخلَ أهلُ الجنّة منازلَهم، وأهلُ النار منازلَهم، حَفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَهُ، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ.

رواه البخاري في بدء الخلق (٧/١٠٠) باب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

في الحديث إخباره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه بكل ما خلق الله عزّ وجل وسيخلق من البداية إلى النهاية، وهذا طبعاً من جملة معجزاته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأن إخباره بكل ما خلق وسيخلق

يقتضي وقتاً طويلاً، ومعنى قوله: فأخبرنا... حتى دخل أهل الجنّة الخ، أي: أخبرنا عن مبتدأ الخلق شيئاً بعد شيء إلى أن انتهى الإخبار عن حال الاستقرار في الجنّة والنار.

{٤٥٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدي فقال: «**خلق الله التربةَ يومَ السَّبت، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المَكْروه يوم الثُلاثاء، وخلق النُّور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدّوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**».

رواه أحمد (٣٢٧/٢)، ومسلم في صفة القيامة (١٣٣/١٧)، والنسائي في التفسير من الكبرى (٢٩٣/٦)، وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم كما قاله غير واحد، وتكلّم فيه من القدامى البخاري وشيخه علي بن المديني رحمهما الله تعالى وأعَلَّهُ كثير من الحفاظ حتى قال ابن حزم: إنه موضوع، وذلك لمعارضته للقرآن الكريم الذي يخبر بأنه تعالى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام بينما الحديث فيه سبعة أيام في الأرض وحدها، وقد تقدم أن الله خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام وهو صريح القرآن. وقال من أعَلَّهُ إنه اشتبه على بعض الرواة حيث رفعه عن أبي هريرة والحالة أنه رواه عن كعب الأحبار، وصححه آخرون، ومنهم مسلم ومن تبعه وصححه من المتأخرين الشوكاني، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني، وأجابوا عن إشكاله بأن الحديث إنما بين أن الله عزّ وجلّ خلق ما في الأرض في سبعة أيام، وذلك خارج عما في الآية. قلت: وقد علمت أن الله خلق الأرض بما لها وعليها في أربعة أيام. وعلى أيٍّ فالحديث لا يجزم بصحة رفعه والله تعالى أعلم.

وهو على كل حال يدلّ على أن خلق الأرض وما فيها وما عليها كان مفصّلاً في سبعة أيام، وهذه المخلوقات هي الجبال، والأشجار، والمكروه وهو الشر، والنور والخير، ودواب الأرض وتشمل الأنعام، والخيل والبغال

والحمير والكلاب والقطط وكل الحيوانات المفترسة وغيرها من ذوات الأربع والرجلين، والزواحف والطيور والهوام إلى غير ذلك من المخلوقات، وكل هذه المخلوقات أنْشَأها الله عزّ وجلّ وأوجدها قبل أبينا سيدنا آدم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وكان آخر المخلوقات كلها خلقاً.

* * *

الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ

{٤٥٧} - عن أبي هُرَيرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الأَرْوَاح جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ مِنها ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنها اخْتَلَف**».

رواه أحمد (٢/٢٩٥، ٥٢٧)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠١)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤)، وعلّقه البخاري عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها في الأنبياء (٧/١٧٩) وغيرهم.

الأرواح جمع روح وهي ما به قوام الجسد الحيّ، ولا يعلم حقيقتها إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، وهي مخلوقة قبل الأجسام.

وقوله: «جنود مجنّدة» معناه جموع مجتمعة أو أنواع مختلفة، وقوله: «فما تعارف منها ائتلف» الخ، قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشرّ، والصلاح والفساد، وأن الخَيِّرَ من الناس يحنّ إلى شكله، والشرّير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا ائتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت، ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب على ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجسام، وكانت تلتقي فتتشاءم، فلما حلّت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول، فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق

من العهد القديم، وقيل غير هذا، وما ذكر هو الظاهر من معنى الحديث، والله أعلم.

{٤٥٨} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أخذ الله تبارك وتعالى الميثاقَ مِن ظَهرِ آدم بنَعْمان** ـ يعني عرفة ـ **فأخرج من صُلْبه كلّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين**» الآية.

رواه أحمد (٢٧٢/١، ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١)، والنسائي في الكبرى (٥٠٦/٦)، والحاكم (٢٧/١) و(٥٤٤/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ونحوه عن أُبيّ بن كعب رواه عبد الله في زوائد أبيه، كما في المجمع (٢٥/٧).

قوله: فمسح ظهره هذا مما يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف، وقوله: نسمة ذرأها أي: خلقها، وقوله: قُبُلاً ـ بضم القاف والباء ـ أي: كلّمهم مواجهة.

والحديث يدلّ على أن الله عزّ وجلّ كلّم جميع الأرواح المكلّفة وأخذ عليهم العهد في عالم الأرواح قبل أن تركب في الأجساد التي لم تكن خلقت بعد، وذلك بأن يوحّدوه ويعترفوا بربوبيّته وشهدوا على أنفسهم بذلك بعد أن أشهدهم الله على أنفسهم، فقالوا: «بلى أنت ربنا...» وانظر ما سبق في التفسير عند الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جمع نَبِيٌ من النبوّة، أي: الرفعة أو نَبِيء من النَّبَإِ أي: الخبر، وكلاهما صحيح، والنبيء هو إنسان أُوحِيَ إليه بشرع، فإنْ أُمِرَ بتبليغه كان نبيّاً رسولاً، فإن لم يُؤمَر بتبليغه كان نبيّاً فقط.

والأنبياء أفضل خلق الله وأشرفهم على الإطلاق كما هو الحقّ عند أهل السنّة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وعندما ذكر جملة منهم في الأنعام قال عزّ وجلّ: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهؤلاء هم أصول الأنبياء، ومنهم تناسل الباقون، وأفضل الأنبياء أولو العزم الخمسة الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الآية.

وفي قوله جلَّ عُلاهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وأفضل هؤلاء الخمسة هو خاتمهم حبيبنا وسيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم بإجماع علماء الإسلام، ولاعبرة بخلاف المعتزلة مع ابن حزم، كما أنه لا عبرة بالشيعة الإمامية الذين يفضلون أئمّتهم على الأنبياء، فإن ذلك عند العلماء كفر.

* * *

عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

{٤٥٩} ـ عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: يا نَبِيَّ الله كَمْ عَدَد الأنبياءِ؟ قال: «**مِائَةُ ألفٍ وأربعةٌ وعِشْرُونَ ألفاً، الرسُلُ من ذلك ثلاثمِائَةٍ وخَمْسَةَ عَشَرَ جَمّاً غَفِيراً**».

رواه أحمد (٢٦٥/٥، ٢٦٦، ١٧٨، ١٧٩)، والبزار (١٦٠)، وابن حبان (٦٩/١٤، ٧٠) من طرق مطوّلاً ومختصراً، وبعض طرقه صحيحة، وهو عند أحمد مطولاً تقدم بعضه في الصلاة، ويأتي لاحقاً.

الحديث نصّ في أن عدد الأنبياء الذين أوحي إليهم هو مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وأن الذين أرسل إليهم وأمروا بالتبليغ هم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً، ولم يذكر الله عزّ وجلّ من هذا العدد الهائل من الأنبياء في القرآن الكريم إلا نحواً من خمسة وعشرين نبيّاً بأسمائهم وأعيانهم وأكثرهم مذكورون في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآيات، والإيمان بجميعهم واجب إسلامي وهو أحد كلّيات الإيمان، ولا ندري الحكمة في عدم ذكر جميعهم بأسمائهم وأعيانهم في القرآن الكريم، فذلك من شؤون ربنا، وقد قال تعالى لنبيّه الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، واختلف العلماء هل كانت النبوّة في امرأة؟ الجمهور على أن الأنثى لم تكن نبيّة لأنها مأمورة بالتستّر، وذهب جماعة من العلماء إلى أن جماعة من النسوة كنّ نبيات كمريم وأم موسى وأُخريات، وبه قال القرطبي وابن حزم وجماعة.

ثم إن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي تبليغ رسالات الله إلى خلقه مبشّرين ومنذرين لإقامة الحجّة عليهم وَتَبْيِينِهِمْ دين الله وشرعه الذي خلقهم لأجله. وأبحاث ما يتعلق بالرسل والرسالة محلها العقائد، ولعلّه يأتي بحث لنا في ذلك في البعثة النبوية إن شاء الله تعالى.

* * *

دين الأنبياء واحد

{٤٦٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الأَنْبِياء إِخْوَةٌ مِن عَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهم شَتَّى، ودِينُهُم واحدٌ**».

رواه أحمد (٣١٩/٢، ٤٣٧، ٤٨٢، ٥٤١)، والبخاري في الأنبياء (٢٩٩/٧)، ومسلم في فضائل عيسى (١١٩/١٥) وغيرهم.

أولاد العلّات ـ بفتح العين وتشديد اللام ـ هم الإخوة للأب من أُمّهات شتّى، ومعنى الحديث أن أصل إيمانهم المعبّر عنه بالدين واحد لا يختلفون فيه، فكلهم جاءوا به ويدعون إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وقال عن دعوة هود وصالح وغيرهما لقومهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وهكذا اتّفقوا في أصل الطاعة ومكارم الأخلاق... أما شرائعهم فمختلفة، كما قال جلّ علاه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وهي المعبّر عنها في الحديث: «**أُمّهاتهم شتى**»، فالمراد بالأُمّهات الشرائع.

* * *

كان الأنبياء يبعثون بلغات أممهم

{٤٦١} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَمْ يَبْعَثْ الله نَبِيّاً إلاّ بِلُغَةِ قَوْمِهِ**».

رواه أحمد (١٥٨/٥) ورجاله رجال الصحيح، ولا يضرّ عدم سماع مجاهد من أبي ذرّ، فإن القرآن يؤيّده قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فالآية والحديث يدلاّن على أن أي رسول كان يبعث في قومه بلغتهم لتتمّ الدعوة ويصح المقصود، ولذلك كان الواجب على من يدعو غيره ممن هم على غير لغته أن يتعلّم لغتهم، ومن لا يعرف لغة العرب أن يكلمهم بحسب ما يفهمون.

وهٰهنا يأتي غلط بعض علماء المالكية في إيجابهم خطبة الجمعة باللغة العربية الفصحى، فإن هذا جمود بارد وغلط فاحش مخالِف لمقصود الخطبة.

❋ ❋ ❋

خَلْقُ آدم عليه السلام وما يَتَعَلَّقُ به

{٤٦٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خَيْرُ يومٍ طلعت عليه الشمسُ يومُ الجُمُعَة، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها**»، وفي رواية: «**فيه خُلق آدم، وفيه أُهبِطَ، وفيه تِيبَ عليه، وفيه قُبِض**».

رواه أحمد (٤٠١/٢، ٤١٨، ٤٨٦، ٥١٢)، ومسلم (١٤١/٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٣٩) بتهذيبي، والنسائي (٧٤/٣) وغيرهم.

كان خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام داخل الجنّة أو خارجها على خلاف في ذلك، والذي نعرفه من القرآن والسنّة هو أن الله عزّ وجلّ خلقه بيده من جميع عناصر الأرض وأنواعها، كما قدمنا قبل في حديث أبي موسى وأنه تعالى طور خلقته من تراب فطين لازب فحمإ مسنون ثم صوّره جسماً كاملاً بلا روح، ثم تركه حتى صار صلصالاً كالفخار له صوت إذا ضرب ثم نفخ فيه الروح.

{٤٦٣} ـ وجاء في حديث أبي هريرة: إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار، قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلِقْتَ لأمرٍ عظيم، ثم نفخ الله فيه الروح فكان أول شيء جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلَقَّاه الله حمد ربه، فقال الرب: يرحمك الله.

رواه أبو يعلى (٦٥٨٠)، قال في المجمع: رواه أبو يعلى وفيه

إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح...

وهذا كلّه جاء في القرآن الكريم في غير ما سورة من السور المكية على الخصوص، وكان خلقه يوم الجمعة غير أننا لا ندري كيفية خلقه ولا كيفيّة أخذ قبضة الأرض له ومن أخذها لأن كل ذلك من عالم الغيب، ولم يأتِ نص صحيح عن الشارع يبين كيفية ذلك، وإنما جاء ما سنذكره على سبيل الإجمال والإطلاق.

{٤٦٤} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لمّا خلقَ الله آدم عليه السلام جَعَلَ إبليسُ يُطِيفُ به، فلمّا رآه أجْوَفَ عَرَفَ أنّه خلقٌ لا يَتَمالكُ**»، وفي رواية: «**لمّا صَوَّرَ الله آدمَ في الجنّة تَرَكَهُ ما شاء الله أن يَتْرُكَه**»...

رواه أحمد (١٥٢/٣، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦٤/١٦)، وابن حبان (٣٥/١٤)، والحاكم (٣٧/١) وغيرهم.

قوله: يطيف به ـ بضم الياء ـ من أطاف بالشيء إذا استدار حواليه، وقوله: أجوف أي: صاحب الجوف وهو الذي داخله خال، وقوله: لا يتمالك أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، ومعنى الحديث أن الله لما جعل لآدم صورة تركه مدة بلا روح فرآه إبليس فجعل يدور حوله ويتعجّب من خلقته، فلما رأى داخله أجوف عرف بما علمه الله تعالى أن هذا الخلق لا يستطيع حبس نفسه عن الشهوات وغيرها، وهو يدلّ على أن إبليس كان في الجنّة، وأنه خلق قبل آدم عليه السلام، وأن اللعين كانت نيّته وقتئذ سيّئة.

وقوله في حديث أبي هريرة: «**وفيه أدخل الجنّة**» ظاهره يقتضي أنه خلق خارج الجنّة، وليس كذلك.

{٤٦٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خَلَقَ الله آدمَ على صُورَتِهِ، وطُولُه سِتُّون ذِراعاً، فلما خلقَه قال: اذْهَبْ فَسَلِّم على أُولئك النَّفَر وهُم مِن الملائكة**

جُلوسٌ، فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ فإنها تَحِيَّتُك وتحيَّة ذُرِّيَّتك، قال: فذهب فقال: السلام عليكم، فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يَدخل الجنّة على صورة آدم طولُه ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

رواه أحمد (٣١٥/٢)، والبخاري في الأنبياء (١٧٤/٧، ١٧٥) وفي الاستئذان وغيرهما، ومسلم في الجنّة (١٧٨/١٧) وغيرهم.

يدلّ الحديث على أن الله عزّ وجلّ خلق أبانا آدم عليه السلام على صورته التي كان عليها على الأرض وتوفّي عليها، وليس المراد صورة الله كما قيل.

وفيه أن طول خلقته كانت ستّين ذراعاً وهي ثلاثون متراً، وكانت صورته في الجنّة هي صورته في الأرض.

{٤٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لما نُفِخَ في آدَمَ فبلغ الروحُ رأسَه عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله ربّ العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يَرْحَمُكَ الله».**

رواه ابن حبان (٣٧/١٤)، والحاكم (٢٦٣/٤) بسند صحيح على شرط مسلم.

فيه أنه عليه السلام عندما نفخ فيه الروح عطس فحمد الله عزّ وجلّ إلهاماً منه تعالى فشمته ربّه بالدعاء معه بالرحمة، فكانت سنّة ولده.

{٤٦٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«احتجَّ آدمُ وموسى فقال موسى: أنت آدمُ الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأغويتَ الناس وأخرجْتهم من الجنّة»... وفي رواية: «احتجّ آدم وموسى عليهما السلام فقال له موسى: يا آدم خلقك الله بيده ثم نفخ فيك من روحه، ثم قال لك كن فكنت ثم أمر الملائكة فسجدوا لك، ثم قال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فنهاك عن شجرة واحدة**

فعصيت ربك، فقال آدم: يا موسى ألم تعلم أن الله تعالى قدّر هذا عليّ قبل أن يَخْلُقَني، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **لقد حجّ آدم موسى، لقد حجّ آدم موسى، لقد حجّ آدم موسى**».

رواه أحمد (٢٤٨/٢، ٢٦٤، ٣٩٨)، والبخاري (٣٠٨/١٤)، ومسلم (٢٠٠/١٦)، وأبو داود (٤٧٠١)، والترمذي (١٩٦٦) كلّهم في القدر، ورواه البخاري في الأنبياء وفي التفسير، وللحديث ألفاظ، وتقدم لنا في التفسير.

في الحديث أمور:

أولاً: تحاج آدم وموسى حول ما وقع من سيّدنا آدم، وهذه المحاججة يحتمل أن تكون وقعت في حياة موسى عليه السلام أراه الله آدم عليه السلام فتحاججا، ويحتمل أن يكون وقع ذلك في عالم الأرواح، فالله تعالى أعلم.

ثانياً: فيه أن الله عزّ وجلّ خلقه بيده ونفخ فيه من روحه بلا واسطة أحد ملائكته، وقد قدمنا أننا لا ندري كيفيّة ذلك، والله ليس كمثله شيء.

ثالثاً: فيه بيان سجود الملائكة لآدم عليه وعليهم السلام، وقد كان ذلك من الله عزّ وجلّ تكريماً لآدم وإظهاراً لشرفه وفضله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الآية.

وهذا من كمال شرف آدم عليه السلام الذي قال في شأنه الملائكة: بعد أن قال لهم الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

فلقد كرم الله عزّ وجلّ نبيّه آدم وأبان فضله لملائكته، فلما قالوا قولتهم: أتجعل فيها من يفسد فيها الخ، أجابهم بأنه الذي يعلم ما سيكون في المستقبل من هذا الخليقة فإنه سيعمر الأرض ويتناسل من صلبه الأنبياء والرسل والعلماء الربّانيون والشهداء والعباد والزهّاد والصالحون وسيكون له ولبنيه شأن في الأرض، وإظهاراً لفضله علمه تعالى كل اللغات والأسماء التي ستكون في بنيه وفي الأرض التي سيعيشون فيها، ثم عرض تعالى مسمّيات تلك الأسماء على الملائكة، فقال: أخبروني بأسماء هذه المسمّيات إن كنتم صادقين في ظنكم أنكم أعلم ممن أخلقه بعدكم، فلما عجزوا عن ذلك وهم علماء بأشياء من عالم الغيب نزّهوا الله تعالى، وقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم؛ فعند ذلك قال الله عزّ وجلّ لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ فلما أنبأهم بأسماء تلك المسميات: هذا حجر، وهذا شجر وهذا جمل وهذا كبش وهذا قمر وهذه شمس وهذه قصعة، وهذا قنفذ، وهذا سبع وهذه سيارة وهذا فاكس وهذا تلفزيون وهذه طائرة، وهكذا أخبرهم بكل مسمّيات الأسماء التي علّمه الله إياها؛ فكان سيدنا آدم عليه السلام بما علمه الله من العلوم وما كرمه بسجود الملائكة؛ له شرف وفضل ومنزلة سامية عنده عزّ وجلّ لم ينلها ملائكته وعباده المكرّمون.

رابعاً: سكنى أبينا آدم الجنة فلما خلقه الله ونفخ فيه الروح وأظهر فضله لملائكته، امتنّ عليه بسكنى الجنّة هو وزوجه وأمرهما أن يأكلا منها أكلاً واسعاً حيثما شاءا وأخبرهما أنهما لا يجوعان فيها، ولا يعريان من لباسهما، ولا يظمآن فيها ولا تصيبهما حرارة الشمس، وحذّرهُما من الشيطان كما قال في سورة طه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ الآية.

خامساً: عندما أسكنه ربّه الجنة هو وزوجته وأباح لهما التمتّع بما شاءا منها نهاهما عن قربان شجرة واحدة فلا يأكلان منها، وقبل ذلك كانت حوّاء قد خُلِقَتْ منه، ليسكن إليها، فاشتركا في المحنة معاً، ففي الحديث التالي:

{٤٦٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اسْتَوْصُوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أعلاه**» الحديث.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد تقدم في النكاح.

فالحديث نصّ في أن حواء زوج آدم خلقت من الضلع، ولم يكن هنالك في الجنّة غير ضلع آدم فهي مخلوقة من ضلعة من ضلعه، والقرآن أيضاً نصّ في أنها خلقت منه؛ كنا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، والنفس الواحدة التي خلق منها زوجها هي آدم عليه السلام. أما كيفية خلقها منه وما يذكرون في ذلك فلا يصح شيء فيه عن الشارع، وإنما هي مجرد إسرائيليات.

والمقصود أن كلاً من أبينا آدم وأمّنا حواء عليهما السلام اشتركا في الأكل من الشجرة رغم أن الله عزّ وجلّ حذّرهما من إبليس ونهاهما عن قربان تلك الشجرة، لكن إبليس اللّعين كانَ لهما بالمرصاد وقد سلّط عليهما وعلى بَنِيهِمَا كما سبق في علم الله وقضائه لأنه لما امتنع من السجود لآدم عليه السلام وطرده الله عزّ وجلّ أقسم بعزّة الله عزّ وجلّ أنه سيغوي جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين، فرأى عدوّ الله أن يبدأ بأبي البشرية وزوجه فخدعهما ووسوس وزيّن لهما الأكل منها، وحلف لهما أنه لمن الناصحين فانخدعا حتى أكلا منها فانكشفت سوآتهما وجعلا يلقيان عليهما من ورق الجنّة، وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، ويقول تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، خدعهما بالقسم بالله إنه لمن الناصحين لهما، وأن الله ما نهاهما عن الأكل إلا خشية أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين في الجنّة، وأن من أكل منهما حصل له ذلك وأخلد

هنالك، كما قال في آية أخرى عنه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾.

وقوله: فأزلّهما أي: حملهما على الزلّة بمكره ومخادعته ليسلبا ما هما فيه من النعمة، وقيل: فأزلهما أي: نحاهما وأزالهما عن الجنّة.

ولمّا أكلا من تلك الشجرة وخالفا نهي الله عزّ وجلّ انكشفت عورتهما وجعلا يغطيانهما بورق الجنّة.

سادساً: كيف عصى آدم ربّه وهو نبيّ وكيف كانت وسوسة الشيطان له ولزوجه وقد طرد عن الجنّة؟.

أما عن الأول، فإن معصيته لم تكن عن تعمّد ارتكاب ما نهاه الله تعالى عنه، وإن جاء في القرآن التصريح بذلك في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، فإنه جاء في آية أخرى أنه عصى ناسياً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾؛ فهذا صريح في أنه نسي ولم يأت ذلك متعمداً للمخالفة، والأنبياء منزّهون عن المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوّة وبعدها على القول الصحيح عند أهل السنّة، وقد أجاد في هذا الموضوع القاضي عياض في الشفا جزاه الله خيراً. وقال العلماء: إن زوجه حوّاء هي الحاملة له على ذلك، وأنها أكلت قبله وحملوا الحديث التالي على هذا، وهو:

{٤٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لَوْلاَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَها»**.

رواه أحمد (٣٠٤/٢، ٣١٥)، والبخاري في الأنبياء (١٧٧/٧، ٢٤١)، ومسلم في الوصية بالنساء من كتاب النكاح (٥٩/١٠).

قوله: لم يخنز ـ بفتح الياء والنون وكسرها ـ أي: لم ينتن، وفي رواية: لم يخبث ـ بفتح الياء وضم الياء ـ أي: لم يتغيّر ويفسد.

وقوله: حواء ـ بتشديد الواو مع فتح الحاء ـ.

قال علماء الأخبار: إن بني إسرائيل لما أنزل الله تعالى عليهم المنّ والسلوى نهوا عن ادّخارهما، فخالفوا وادّخروا فعاقبهم الله عزّ وجلّ فأفسدهما عليهم وأنتنهما فاستمرّ ذلك حتى اليوم، ولولا ذلك منهم لما تغيّر لحم ولا طعام أبداً، وهو ظاهر الحديث.

كما أن أُمّنا حواء عليها السلام لما قبلت ما زيّن لها إبليس من الأكل من الشجرة حتى زيّنته لآدم عليه السلام غدَ ذلك منها خيانةً له، وليس المراد بخيانتها ارتكاب الفواحش، بل أعاذها الله تعالى من ذلك، فكانت لذلك قدوة لبناتها، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها إما بالقول أو الفعل وكل واحدة منهنّ بحسبها، ولهذا قال في الحديث: «**ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»، ففيه إشارة إلى أنه حصل شيء من حواء مع آدم، ولم يذكر المؤرخون عنها غير ما ذكر من التزيين، والله تعالى أعلم.

أما عن الثاني: وهو كيف كانت وسوسة الشيطان، وقد طُرد وأُخرج من الجنّة وآدم داخلها، فهذا مما لم يأتِ في كيفيته نصّ عن الشارع، وقد تكلم في كيفية ذلك كثير من أهل العلم لكن كل ما قالوه ليس له أصل يعتمد عليه، على أن من عرف أن إبليس والشياطين أعطاهم الله عزّ وجلّ التشكّل والتسلّط على بني آدم، وجريان أرواحهم في مجاري دمائهم لا يشكل عليه ما حصل من الوسوسة، فقد يكون دخل بروحه وتسلّط على آدم. أما ما يذكرونه من الحيّة ودخوله فيها، فهذا من جملة خرافات بني إسرائيل والمؤرخين. والله تعالى أعلم.

سابعاً: لما حصل من آدم وحواء ما حصل عاتبهما الله عزّ وجلّ على ما فعلا وذكّرهما بما قال لهما من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

فعند ذلك تذكّرا وندما على ما صدر منهما، فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فكان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثامناً: لما قضى الله عزّ وجلّ ما سبق به علمه وقضاؤه على آدم وحواء وإبليس في الجنّة أمرهم بالهبوط جميعاً إلى الأرض التي خلقها لهم ليقضوا فيها ما خلقوا لأجله، وجعل بعضهم أعداء لبعض، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

ولا ندري كيف كان هبوطهم، ولا أين نزلوا؟ فذلك من علم الغيب ودع عنك الإسرائيليات وخرافات المؤرخين.

تاسعاً: في قول كليم الله موسى عليه السلام: «ثم أغويتنا» «أشقيتنا» معناه أنك بمخالفتك للنهي عن الأكل من الشجرة كنت السبب في أمرين اثنين، أولهما: أصبحنا تابعين لك في الغواية والمخالفة، فلا يخلو إنسان من ذنب ومخالفة ورائة من أبيهم وأمّهم إلا من استثني لمصالح. ثانيهما: تسببت في شقائنا في هذه الدنيا دار الأكدار والأحزان والهموم والغموم والمتاعب الجسدية والنفسية والروحية، ولولا ما صدر منك لبقينا في نعيم وتمتّع متوال... هذا معنى ما أشار إليه كليم الله عليه السلام بقوله: «أغويتنا... أشقيتنا»، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم العلماء رحمهم الله تعالى على أسرار وحكم نزول آدم إلى الأرض وأطالوا في ذلك، فراجع كتب التفسير المطولة.

{٤٧٠} ـ وعن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: **«نعم مكلم»**، قال: كم كان بينه وبين نوح؟ قال: **«عشرة قرون»**.

رواه ابن حبان (٦٩/١٤)، والطبراني في الكبير (٧٥٤٥)، وفي الأوسط والحاكم (٢٦٢/٢) من طرق وسنده صحيح، وتقدم لنا حديث أبي ذرّ في عدد الأنبياء، وفيه مما لم نورده هناك. قلت: يا نبيّ الله فأي الأنبياء كان أولاً؟ قال: **«آدم عليه السلام»**، قال: قلت: يا نبيّ الله أوَ نبيٌّ كان آدم؟ قال: **«نعم، نبيٌّ مُكَلَّمٌ خلقه الله بِيَدِهِ ثم نفخ فيه مِنْ روحه ثم قال له: يا آدم، قُبُلاً»**.

رواه أحمد. وغيره بسند صحيح، ولا يضرّ في سنده المسعودي، فإن وكيعاً روى عنه قبل اختلاطه، ولذا صححه ابن كثير والحافظ وغيرهما، وانظر ما سبق رقم (٤٦٧).

الحديث يدلّ على أن سيدنا آدم عليه السلام كان نبيّاً مكلّماً. أما نبوّته، فلا خلاف فيها، وهو أول الأنبياء، وقد بدأ الله عزّ وجلّ به لما ذكر عباده المصطفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، واقتصر الله على هؤلاء المصطفين لأن آدم أبو البشر، ونوحاً أبوهم الثاني، وإبراهيم جعل الله في ذرّيته النبوة والكتاب بواسطة ولديه إسماعيل وإسحٰق، وموسى أُوتي التوراة وأمته أكثر الأُمم من عهد آدم إلى نبينا، وأنبياء بني إسرائيل كلهم تابعون له، وقد ضلّ ضلالاً بعيداً من أنكر نبوّة سيدنا آدم عليه السلام من بعض الكتاب المعاصرين ممن كتب في قصص الأنبياء.

وهو ممن كلّمهم الله مقابلة عياناً كما في هذا الحديث، وكان مع ذلك رسولاً إلى بنيه كما يفهم من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، والإشارة بتلك إلى كل ما سبق في السورة من الأنبياء، ومنهم آدم فهو من جملة رسل السورة، ويؤيّد رسالته ما حصل في قصة ولديه هابيل وقابيل، فإن فيها أحكاماً لا تكون إلا بوحي من الله تعالى إلى رسول يبلغه وتلك الأحكام هي المذكورة في الآية الكريمة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

ففي الآية أحكام، منها: أنهما قرّبا إلى الله قرباناً، ومنها أن الله يتقبل من المتقين، ومنها أنه إن قتله سيبوء بإثمهما، ومنها أن قاتله سيكون من أصحاب النار، ومنها أن النار جزاء الظالمين، ومنها أن خوف الله منعه أن يقتل أخاه؛ فهذه أحكام عدة دينية شرعية لا تعرف إلا من طريق رسول، ولا رسول في ذلك الوقت إلا آدم عليه السلام، فكان هو الرسول إلى

أولاده وأهل بيته. أفاده الإمام المحدث سيدي عبد الله الصدّيق رحمه الله تعالى في «قصص الأنبياء».

{٤٧١} ـ وعن عُتَيْ قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أُبيُّ بن كعب رضي الله تعالى عنه فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه: أي: بَنيَّ إني أشتهي من ثمار الجنّة، فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون أو ما تريدون وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، قالوا: فاشتهى من ثمار الجنّة، قالوا لهم: ارجعوا فقد قضى قضاء أبيكم، فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عنّي، فإني إنما أُوتيتُ من قِبَلِك خَلِّ بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى فقبضوه وغسلوه وكفّنوه وحنّطوه وحفروا له وألحدوا له وصلّوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه التراث، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم.

رواه عبدالله في زوائد أبيه من المسند (١٣٦/٥) وسنده صحيح، قال الهيثمي في المجمع (١٣٧٥٦) رجاله رجال الصحيح غير عُتَيّ بن ضَمْرَة وهو ثقة، ورواه الحاكم (٥٤٥/٢) مختصراً وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: وحنوطه ـ بفتح الحاء ـ هو ما يخلط من الطيب لأكفان الميت وجسمه خاصة، وقوله: قضى قضاء أبيكم، معناه هذا اليوم آخر أيام حياة أبيكم، وقوله: إنما أُوتيت من قِبلِك، معناه أن الموت ما جاءني إلا بسببك حيث صدقت قسم إبليس عدوّ الله وعدوّنا وأكلت من الشجرة ثم زينت لي الأكل منها، فأكلتُ فطردنا من الجنّة التي لا موت فيها. ذكر معناه البغوي في تفسيره عن ابن عباس وفي هذا الأثر دليل على أن كل ما هو معروف عندنا في الإسلام من شؤون تجهيز الميت وإقباره هو مشروع منذ موت أبينا آدم عليه السلام بواسطة ملائكة الله عزّ وجلّ.

* * *

فوائد تتعلق بسيدنا آدم عليه السلام

أولاً: إن آدم عليه السلام خلق في الجنة، على خلاف في ذلك، ونفخ فيه الروح في الجنّة، وأكل من الشجرة في الجنّة، وتاب الله عليه في الجنّة، وكانت وسوسة الشيطان له ولزوجه في الجنّة، وكان إنزاله من الجنّة، وكل ذلك كان يوم الجمعة.

ثانياً: وقع خلاف في الجنّة التي كان فيها آدم وأهبط منها، فالجمهور ومعهم أهل السنّة أنها الجنّة المعهودة التي أعدّها الله سكناً لأوليائه ومن آمن به، وذهب البعض ومنهم المعتزلة وبعض أهل السنة إلى أنها كانت بستاناً في الدنيا، واستدلّ كل من الفريقين بأدلّة على مدعاه، والصحيح والصواب مع الأوّلين لظواهر نصوص القرآن والسنّة الصريحة.

ثالثاً: إن آدم عليه السلام هو أبو البشريّة بإجماع أهل الملل، وفي حديث الشفاعة: . . . أنت أبو البشر، وهو في الصحيحين وتقدم ويأتي حديث محاججة موسى وآدم وأنه قال له: أنت أبونا، وهو في الصحيحين وغيرهما من طرق وفي الموضوع أحاديث كثيرة، بل جاء في القرآن تصريحات بخطاب الله تعالى لبني آدم في عدة مواضع: يا بني آدم، يا بني آدم، مما يدلّ دلالة قطعية على أن آدم هو أبو البشرية الموجودة.

فدعوى وجود «أوادم» قبل أبينا آدم عليه السلام دعوى باطلة مخالفة لما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومع ذلك تجد من يغترّ بهذه الفكرة القذرة التي قلّدوا فيها علماء الجيولوجية الكفار وما اكتشفوه من عظام، قالوا: إنه يرجع تاريخها إلى مئات الألوف من السنين، وكانت قبل آدم، وهذا كله خرص وتخمين بل وساوس. . .

رابعاً: كان منذ عهد غير بعيد يعتقد كثير من المتفرنجين تبعاً للكفار فكرة النشوء والارتقاء، وأن الإنسان كان أصله قرداً ثم ترقّى عبر الأجيال حتى تحضر وأصبح على الصفة التي هو عليها الآن، ثم تراجع الكثيرون

عن هذه الفكرة الساقطة التي جاء بها الفيلسوف داروين اليهودي لعنه الله وأخزاه.

فالإنسان خلقه الله من تراب، وهو إنسان لا يتبدّل عن إنسانيّته، والقرد قرد هكذا خلقه الله يوم خلقه لا يتغيّر عن قرديته أبداً ولو مرّت عليه ملايين السنين، وهكذا كل مخلوق من حيّ وجماد...

خامساً: عاش سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ألف سنة كما سيأتي في قصة سيدنا داود عليه السلام، وأنه وهب له من عمره أربعين سنة وهو في الصحيحين مطولاً.

سادساً: إن الإنسان وإن بلغ ما بلغ في الخصوصية وسمت منزلته وعَظُمت رتبته لا يخلومن هفوة إما عن نسيان كما حصل لأبينا آدم عليه السلام كما نطق به القرآن أو عن تأويل أو عن تعمد كما يصدر من غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل ابن آدم خطّاء...**»، وهو مخصوص بغير الأنبياء.

سابعاً: إن المخالفة من العبد تُجْبَرُ وتُدَاوَى بالتوبة، وهي من خصائص هذه الأُمّة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾، وقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِر**»، وسيأتي هذا الموضوع في الرقائق إن شاء الله تعالى.

ثامناً: أول من عصى الله تعالى إبليس واشتمل عصيانه على عدّة فواحش، وهو أوّل من عصى الله بها وهي الكِبْرُ، والحَسَد، واحتقارُ الغير والعمل بالقياس في مقابلة النص الإلٰهيّ مع مخالفة أمر الله ومعاندته وجحوده.

تاسعاً: كان في أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة حكم كثيرة ترتّبت عليه، فقد سبق في علم الله عزّ وجلّ أنه سيعيش في هذه الأرض وسيتناسل من صلبه ملايين البلايين من بنيه وسيكون فيهم كبار أشرف

المخلوقات من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وستنزل عليهم كتب من الله وشرائع وأحكام سيكلف بها أولاده... ويكون فيهم العلماء الربانيون والعباد المخلصون والشهداء والصالحون وستقوم حروب طاحنة بين أولاده عبر العصور والأجيال، ثم عند انقضاء هذه الرحلة سيرجع آدم وأولاده المؤمنون إلى الجنّة التي نزل منها ويدخل بنوه الكفار النار التي أعدّها لهم كما سبق بذلك علمه وقضاؤه... وفي هذه القصة فوائد أخرى جمّة لا يسعها هذا الموضوع، وقد ذكر بعضها ابن القيّم في الفوائد وغيره، وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصة سيدنا آدم عليه السلام مع إبليس مبسوطة في خمس سور من القرآن الكريم في البقرة، وفي الأعراف، وفي الحجر، وفي طه، وفي صّ وهي قصة ذات عبر عجيبة.

* * *

قصة هابيل وقابيل ابني آدم

{٤٧٣} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاَّ كانَ على ابْنِ آدمَ الأوَّل كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأنَّه أوَّلُ مَن سَنَّ القتل**».

رواه أحمد (١/٣٨٣، ٤٣٠)، والبخاري في الأنبياء (٧/١٧٩) وفي مواضع، ومسلم في القسامة (١١/١٦٦)، والترمذي في العلم (٢٤٨٧) بتهذيبي، والنسائي في المحاربة وفي الكبرى (٦/٣٣٤)، وابن ماجه (٢٦١٦).

قوله: كفل ـ بكسر الكاف وسكون الفاء ـ أي: نصيب.

الحديث يدلّ على أن أحد ابني آدم عليه السلام قتل نفساً ظلماً، وأنه أوّل من سنّ وأحدث القتل بغياً وظلماً، وأن كل دم أُريق في الأرض لَهُ حظّ ونصيب منه عياذاً بالله.

والمشهور عند المؤرّخين أن سبب ذلك هو أن سيدنا آدم عليه السلام

كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأُنثى البطن الآخر، وأنه كان له ابنان أحدهما قابيل والآخر هابيل، وكانت أختُ قابيل أحسنَ من أختِ هابيل، فأراد قابيل أن يَسْتأثِرَ بأُختِهِ، فمنعه نبيّ الله آدم عليه السلام، فلما تمادى في ذلك أمرهما أن يتقرّبا إلى الله تعالى بقربان، فقرب قابيل حزمة من زرع، وكان صاحب زرع، وقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب مواشي فنزلت نار فأكلت قربان هابيل دون قابيل، فحسد هذا هابيل فكان سبب الشرّ بينهما.

والقصة جاءت مفصّلة مبسوطة في سورة المائدة من القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فالقصة واضحة ومبينة، فإنهما لما اختلفا وتقرّبا إلى الله عزّ وجلّ بالقربان، فقبل الله قربان هابيل دون قابيل تمادى هذا في الشرّ، فقتل أخاه حسداً منه وبغياً وظلماً، رغم أن هابيل لم يقاومه ويدافع عن نفسه، بل استسلم وقال له: إني أخاف الله رب العالمين، وتركه يحمل إثمه وإثم أخيه لكنه سرعان أن ندم على ما فعل؛ لأنه بقي متحيراً لا يدري ما يفعل بأخيه وقد قتله وسفك دمه، فبعث الله إليه غراباً فقتل غراباً آخر ثم حفر في الأرض فوارى أخاه فلما رآه قابيل عاد على نفسه باللوم ونادى قائلاً: يا ويلي أبلغ بي العجز والهداية أن أكون مثل هذا الغراب، فعندئذ حفر لأخيه وأقبره فكانت هذه النفس أول شيء سفكت دمها بلا حقّ. والقرآن الكريم لم يبين موقف سيدنا آدم عليه السلام مما حصل ولا جاء له ذكر في القصة لا في القرآن ولا في السنّة، ولا ندري هل وقع الحادث في حياة سيدنا آدم

أم بعد موته، ولم يأت شيء صحيح عن الشارع يكشف لنا عن ذلك، فالله أعلم.

{٤٧٣} ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال عند قَتْلِ عثمانَ رضي الله تعالى عنه: أَشْهَدُ أن رسولَ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنها ستكونُ فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي**»، قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يدَه إليّ ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُنْ كابْنَيْ آدم**» وتلا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾».

رواه أحمد (١/١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧). والترمذي في الفتن (٢٠٢٥) بسند صحيح على شرط مسلم، ونحوه عن أبي موسى الأشعري وفيه: «**فكسروا قِسِيَّكم وقَطِّعُوا أوتاركم واضْرِبُوا سُيوفكم بالحجارة، فإن دُخِل** ـ يعني على أحد منكم ـ **فَلْيَكُنْ كخير ابْنَيْ آدم**».

رواه أبو داود (٤٢٥٩)، والترمذي (٢٠٣٤)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وابن حبان (١٨٦٩) بسند صحيح.

ما في الحديثين من الاستسلام وعدم المقاومة كما فعل أحد ابني آدم هو محمول عندنا بزمن الفتنة وعدم تبيّن الحق من الباطل، هكذا قال علماؤنا رحمهم الله تعالى، ويأتي هذا في الفتن.

❊ ❊ ❊

إدريس عليه السلام

الجمهور من المؤرخين على أن إدريس عليه السلام جدّ نوح عليه السلام، وقالوا: إنه أول بني آدم أُعطي النبوّة بعد آدم عليه السلام.

{٤٧٤} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء: «**ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحّب بي ودعا لي بخير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾**».

رواه البخاري ومسلم في الإيمان (٢/٢٠٩، ٢٢٥)، وتقدم في التفسير ويأتي في السيرة والرقائق أيضاً.

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾، ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، وما عدا ما ذكرناه فمجرد أخبار وخرافات إسرائيلية لا يعتمد على شيء منها، فلذلك أضربنا عن ذكرها، فالمكان العلي الذي رفع إليه هو السماء الرابعة على أن الأنبياء الذين مرّ عليهم نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة الإسراء كلّهم مرفوعون عند الله في الأمكنة العليا، وتخصيص إدريس بذكره بذلك لا نعلم حكمته، فالله أعلم به.

{٤٧٥} ـ وعن معاوية بن الحكم رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ومِنَّا رجالٌ يخُطُّون، قال: «**كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فمن وافق خطَّه فَذَاكَ**».

رواه مسلم (١٤/٢٢٣) وتقدم في الطب.

فهذا النبيّ المشار إليه الذي كان يخطّ يقول الكثيرون إنه إدريس عليه السلام ويسمّونه هرمس الهرامسة وينسبون إليه كثيراً من الأكاذيب والأباطل، وجاء في حديث لأبي ذرّ صححه ابن حبان أنه كان نبيّاً رسولاً، وأنه أول من خطّ بالقلم، وذكر له ابن إسحٰق أوليات كثيرة ككونه أول من خاط الثياب... ويقال إنه إلياس عليه السلام كما ذكره البخاري عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما. وهذا الخط قد قدمنا الكلام عليه في بحث الكهانة والعرافة من الطب والمرض.

* * *

نوح عليه السلام

{٤٧٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في دعوة فرُفِعَتْ إليه الذراعُ، وكانت تُعْجِبُه

فنَهَسَ منها نَهْسَةً، وقال: «أنا سيّد الناس يومَ القيامة، وهل تَدْرُونَ ممّ ذلك يَجْمَعُ الله الأوّلين والآخرين في صعدٍ واحدٍ يُسْمِعُهم الدّاعي ويَنْفُذُهم البَصَرُ، وتَدْنُو الشمسُ منهم فَيَبْلُغُ الناسَ من الغمّ والكَرب مَا لاَ يُطِيقون ولا يَحْتَمِلُون، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم، ألا تنظرون إلى من يَشْفَعُ لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربّي غَضِب غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك» الحديث.

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، ويأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى بتمامه وشرحه.

{٤٧٧} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يجيء نوح وأُمّته»، وفي رواية: «يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبّيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمّته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يَشهدُ لك؟ فيقول: محمد وأُمّته، فيشهدون أنه قد بلّغهم (ويكون الرسول عليكم شهيداً)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾» الآية.

رواه أحمد (٣/٣٢، ٥٨)، والبخاري في الأنبياء وفي التفسير (٩/٢٣٨، ٢٣٩) وفي الاعتصام، والترمذي والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢) وغيرهم.

{٤٧٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سيد الأنبياء خمسة ومحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سيد الخمسة: نوح، وإبراهيم،

وموسى، وعيسى، ومحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه الحاكم (٥٤٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

{٤٧٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين.

أخرجه الحاكم (٥٤٦/٢) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي وتقدم في حديث أبي أُمامة: كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون، وهو صحيح على شرط مسلم.

{٤٨٠} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: جمع ربّنا لنوح علم الماضيين كلهم، وأيّده بروح منه فدعا قومه سراً وعلانية تسعمائة وخمسين سنة، كلما مضى قرن أتبعه قرن فزادهم كفراً وطغياناً.

رواه الحاكم (٥٤٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

{٤٨١} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنه زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو رَحِمَ الله من قوم نوح أحداً لرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيّ**»، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان نوحٌ عليه الصلاة والسلام مكثَ في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه وغَرَسَ شجرةً فعَظُمت وذهبت كلَّ مَذْهَب ثم قَطَعَها، وجعل يعملُها سفينة، ويمرُّون عليه فيسألونه فيقول: أعملُها سفينة، فيسخَرون منه، ويقولون: تعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها، وفار التنور وكثر الماء في السِّكَك خشيت أم الصبيّ عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثَه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت به على الجبل فلما بلغ الماء رقبتَها رفعَتْه بيديها حتى ذهب بهما الماء، فلو رحم الله منهم أحداً رحم أم الصبيّ**».

رواه الحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢) وصححه، وأورده النور في المجمع (٢٠٠/١) برواية أوسط الطبراني، وقال: فيه موسى بن يعقوب الزمعي: وثّقه ابن معين وغيره وضعّفه ابن المديني وبقية رجاله ثقات... ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم وله شاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

رواه الحاكم (٤٣٤/٢) مختصراً وأورده ابن كثير في التفسير عن ابن أبي حاتم وقال: رجاله ثقات غير أن رواية ابن وهب عن شبيب بن سعيد فيها كلام، فالحديث حسن بلا شك.

سيّدنا نوح هو نبيّ الله ورسوله ابن لَمْك - بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف - ابن مَتُوشَلَخ - بفتح الميم وضم التاء المشددة بعدها واو ساكنة وفتح الشين واللام آخره خاء معجمة - ابن خنوخ - بفتح الخاء وضم النون الخفيفة آخره خاء - ويقال: أخنوخ - بالهمزة - وهو إدريس عليه السلام كما يقال.

ونبيّ الله سيدنا نوح عليه السلام من الرسل العظام أولي العزم الخمسة الذين كانت لهم المواقف العظيمة والبلايا الشديدة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

* * *

السور التي ذكرت قصة سيدنا نوح عليه السلام

وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصته في عدة سور مطولة ومختصرة، فذكرها في الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والقمر، وسورة نوح بتمامها، وذكر في عدة سور مع الأنبياء.

فقال تعالى في الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ الآية.

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ الآيات، وقد استوعبت القصة غالبها.

وقال في الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال في قد أفلح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الآيات.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ الآية.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الآية.

وقال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ

مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الآية.

وقال في القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

وقال في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ السورة.

كان بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام عشرة قرون، كلهم كانوا على الإسلام ودين الله الذي نزل على سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ثم بعدُ حدثت أمور واختلف الناس وآل الحال بهم إلى عبادة الأصنام، واتخاذ الآلهة من دون الله، وكان السبب في ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١٠/٢٩٣، ٢٩٤) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعْبَدْ حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبِدَتْ، قال ابن عباس: ثم صارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: كانوا على دين واحد وملّة واحدة، فاختلفوا ما بين مؤمن وكافر، وقال في آية ثانية: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعد عبادة الأصنام نبيّ الله نوح عليه السلام، كما في الحديث السابق: «**يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى الأرض**»، فقام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وأنه لا إلٰه غيره وسلك معهم في دعوتهم إلى الله عزّ وجلّ كل أنواع وطرق الدعوة ترغيباً

وترهيباً، ليلاً ونهاراً، فلم تنجح كلها فيهم، بل لم يزدهم ذلك إلا نفوراً وطغياناً، فكذبوه ورموه بالجنون وهدّدوه بالرجم وعيّروه بأنه لم يتبعه إلا أراذل الناس وسقطهم، وطالت به المدة معهم، فلبث فيهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ تسعمائة وخمسين عاماً، فلما حصل اليأس من إيمانهم أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ الآية، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فعندئذ، وقد توالت إذايتهم له وعتوّهم وطغيانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

فكان كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

فأمره الله عزّ وجلّ أن يصنع سفينة استعداداً للطوفان، فقال له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فصنعها وكان قومه يمرُّون عليه وهو يصنعها فيسخرون منه ويضحكون عليه، ويقولون له: يا نوح كنت رسولاً فأصبحت نجاراً. وجعل الله له علامة يعرف بها وقوع الطوفان، كما قال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: خرج الماء من الأرض أو من المخبز، ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، فعمّ الطوفان الأرض كلّها وبلغ الماء قمم الجبال ورؤوس شوامخها، وقال تعالى: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، فسارت تمخر المياه وتجري بهم في الأمواج كالجبال، وكان نوح عليه السلام قد نادى ابنه كنعان: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولم ينج من الغرقان إلا ركاب السفينة، ولو رحم الله تعالى أحداً منهم لرحم تلك المرأة أم الصبي التي فدت ولدها بحياتها، فأغرقها الله ورضيعها، ولما قضى الله أمره وانتقم من المجرمين الجاحدين الظالمين وجاءت المعجزة الباهرة أمر تعالى السماء أن تحبس

ماءها والأرض أن تبتلع ما عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، والجودي جبل بالعراق، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية، ولما أغرق الله ولد نوح كنعان راجع ربه إنك قد وعدتني بإنجاء أهلي، وهذا ولَدِي قد غرق فأجابه الله تعالى: إنه ليس من أهلك الذين وعَدْتُك بإنجائهم إنما وعدتك بإنجاء المؤمنين، وولدك كنعان كافر، فلا تسألني ما لا علم لك به، فلا تكن ممن يجهل حكمتنا... وبهذا انتهت القصة.

* * *

بعض ما يؤخذ من القصة من الفوائد

فيها: أن سيدنا نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض بعد عبادة الأوثان. وفيها: أنه كان من المعمّرين، يقال: إنه عاش ألفاً وخمسين سنة أو أكثر، وبعث في قومه لأربعين سنة من عمره، وعاش بعد الطوفان خمسين سنة أو أزيد.

وفيها: إبطال تلك الخرافة التي يتناقلها الإخباريون من أن عوج بن عنق هو الذي ساعد سيدنا نوحاً عليه السلام في خشب السفينة حيث قلع عدة أشجار من الهند وجاءه بها في خرافات يذكرونها، وحديث عائشة الذي ذكرناه يردّ ذلك، ثم إن حديث الصحيحين من أن الله خلق آدم على صورته وطوله ستّون ذراعاً يبطل قصة عوج الذي قالوا فيه إنه كان يشوي السمك في الشمس لطوله، وأنه كان إذا نام ملأت جثته المشرق والمغرب في خرافات لم ينج من ذكرها حتى بعض المفسّرين.

وفي حديث أبي سعيد الخدري بيان أن الأُمّة المحمدية ستشهد لنوح يوم القيامة أنه بلغ قومه بعد إنكارهم ذلك، وسيأتي ذلك في فضل الأمة المحمدية من الفضائل.

وفي حديث أبي هريرة بيان سادات الرسل وهم أولو العزم الخمسة: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، خاتمهم رسولنا الكريم وهو سيدهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وفي القصة فوائد كثيرة لمن تتبعها، ومن أهمها أن الله قد يعذّب الأبرياء بذنوب أهل الإجرام، وذلك لشؤم الذنوب وخاصة الكفر والظلم والبغي وذلك لحكم لا ندري كنهها، فالواجب علينا التسليم لله الواحد الأحد الذي لا يُسأل عما يفعل، فإن ذلك الطفل الرضيع لم يكن كافراً، بل لم يكن مكلّفاً ولا مخاطباً بالإيمان بسيدنا نوح، وإنما أغرق بشؤم والدته الكافرة.

* * *

أولاد سيدنا نوح ووصيته لولده

{٤٨٢} ـ عن سمرة بن جندب عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**سامٌ أبو العَرَب، وحامٌ أبو الحَبَش، ويَافِثُ أبو الرُّوم**».

رواه أحمد (٥/٩، ١٠)، والترمذي (٣٠٢٠، ٣٦٩٥) بتهذيبي، والحاكم (٥٤٦/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وزيادة عمران عنده لا تضرّ، فإن سماع الحسن من سمرة ثابت عند البخاري وابن المديني والترمذي... قال العلماء بالأخبار: كل من على الأرض اليوم وقبله بقرون من سائر أجناس بني آدم هم من نسل أولاد نوح الثلاثة المذكورين، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، وهذا الحديث يبين ذلك، فالعرب تناسلوا من سام والحبشة من أولاد حام، أما الروم، فهم من نسل يافث.

وقد جاء في حديث آخر رواه البزار من حديث أبي .. رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب، وفارس، والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج، والترك، والسقالبة، ولا خير فيهم، وولد لحام القبط والبربر والسودان**»، وفي الحديث كلام.

{٤٨٣} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كنّا عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجاء رجل من أهل البادية عليه جُبّة سيحان مَزْرُورَة بالديباج، فقال: ألا إنّ صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بني فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس بن فارس، ورفع كل راع بن راع، قال: فأخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمجامع جبّته وقال: «**لا أرى عليك لباس من لا يعقل**»، ثم قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن نبيّ الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌ عليك الوصية آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إلـه إلا الله، فإن السمٰوات السبعَ، والأرضين السبع، لو وُضِعَتْ في كفةٍ، ووضعت لا إلـه إلاّ الله في كفَّة، رجَحتْ بهنّ لا إلـه إلاّ الله، ولو أن السمٰوات السبع والأرضين السبع كُنَّ حلقةً مُبْهَمَةً قَصَمتهن لا إلـه إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنّ بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكِبْر**»، قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان، قال: «**لا**»، قال: «هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**»، قلت: أو قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سَفَهُ الحَقّ، وغمْصُ الناسِ**»، وفي رواية: «**لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إني قاصٍ عليكما الوصية**» الخ.

رواه أحمد (٢/١٧٠، ٢٢٥) بسند صحيح، ورواه ابن ماجه، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه الطبراني مختصراً بلفظ: «كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين، وأنهاك عن خصلتين...».

قوله: «سفه الحق» في الصحيح «بَطَر الحق»، ومعناه دفع الحق وعدم قبوله، وقوله: غمص الناس أي: غمطهم واحتقارهم.

في الحديث بيان ما وصى به نوح عليه السلام ابنه أو ابنيه... وهي وصية الصالحين من الأنبياء وأتباعهم وصية الأولاد بما يهمّهم في دينهم وصّى بالمحافظة على كلمة التوحيد التي عليها قامت وتقوم السماء

والأرض... وتسبيح الله وتقديسه وتحميده، فإن لهاتين الكلمتين لشأناً، كيف وفيهما تقديس الله وتنزيهه عمّا لا يليق به، وحمده والثناء عليه وتمجيده، وكل ذلك مما يحبه الله عزّ وجلّ ويرضاه.

كانت هاتان الخصلتان من أوامر نوح عليه السلام الإيجابيتين. أما الأخريتان، فكانتا من قسم المنهيّات وما أعظمهما، هما الشرك بالله وهو قاصم الظهور الذي لا يغفر أبداً، ثم الكبر وهو من أمّهات الفواحش؛ إذ هو الحامل على عدم قبول الحقّ مع احتقار الآخرين، ولو كانوا سادات الخلق، فكانت هذه الوصية جامعة لكل خير وشرّ، وستأتي وصية إبراهيم ويعقوب لبنيهما.

❋ ❋ ❋

هود عليه السلام

{٤٨٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما مَرَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بوَادِي عُسْفَان حِينَ حَجَّ قال: «**يا أبا بكر أيُّ وادٍ هذا؟**» قال: وادِي عُسْفَان، قال: «**لقد مَرَّ به هُودٌ وصالحٌ على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهم العَبَاء، وأَرْدِيَتُهم النِّمارُ يَحُجُّونَ البيتَ العَتيق**».

رواه أحمد (٢٣٢/١) وقد حسّنه ابن كثير في البداية والنهاية.

عسفان ـ بضم العين وسكون السين ـ بينه وبين مكّة في طريق المدينة نحو من سبعين كيلو، قوله: بكرات ـ بفتحات ـ جمع بكرة ـ بفتح الباء وسكون الكاف ـ الفتاة من النوق، وقوله: خطمها ـ بضمات ـ جمع خطام وهو حبل يجعل في عنق البعير، وقوله: العباء ـ بفتحتين ـ لباس كان عند العرب يلبس فوق الثياب، وقوله: النمار ـ بكسر النون جمع نمرة بفتح وكسر ـ وهي شملة وبردة من صوف مخططة.

{٤٨٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نُصِرتُ بالصَّبَا وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ**».

رواه البخاري في المغازي (٨/٤٠٥)، ومسلم في الاستسقاء (٦/١٩٧).

الصبا ـ بفتح الصاد ـ ريح المشرق، والدّبور ـ بفتح الدال المشددة ـ ريح المغرب.

{٤٨٦} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: بَعَثَ عَلِيّ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بِذُهَيْبَةٍ فقسمها بين الأربعة... فذكر الحديث، وفيه في الخوارج: «**لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد أو ثمود**».

رواه البخاري في المغازي وغيرها، ومسلم في الزكاة (٧/١٦٢، ١٦٣) ويأتي في السيرة.

{٤٨٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا رأى غَيْماً أو رِيحاً عُرِف ذلك في وَجْهِهِ، فقلت له في ذلك، فقال: «**يَا عَائِشَةُ ما يُؤْمِنُني أن يكون فِيهِ عَذَابٌ قد عُذِّبَ قومٌ بالرِّيح وقد رَأى قومٌ العَذَابَ فقالوا هَذا عارِضٌ مُمْطِرُنا**».

رواه البخاري في سورة الأحقاف (١٠/١٩٩)، ومسلم في الاستسقاء (٦/١٩٦، ١٩٧).

{٤٨٨} ـ وعن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة فدخلت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذُكِرَتْ عنده وافدُ عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وَمَا وَافِدُ عادٍ**»؟ فقال: على الخَبِير بها سَقَطْتَ إنّ عاداً لمّا أُقْحِطَتْ بعثتْ قَيْلاً فنزل على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغَنَّتْه الجرَادَتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللّهمّ إني لم آتِك لمريضٍ فأُدَاويه ولا لأسيرٍ فأُفادِيه فاسقِ عبدَك ما كنتَ مُسْقِيهِ، واسق معه بكر بن معاوية يشكر له الخمر الذي سقاه، فَرُفِعَ له سحاباتٌ، فقيل له: اختر إحداهن، فاختار السوداء منهنّ، فقيل له: خذها رَماداً رِمْدِداً، لا تَذَرُ مِن عادٍ أحداً، وذكر أنه لم يرسل

عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة، يعني حلقة الخاتم ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٤٨١/٣، ٤٨٢)، والترمذي في تفسير الذاريات (٣٠٥٨)، وابن ماجه وسنده صحيح.

قوله: قيلاً ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ هو اسم وافد قوم عاد، الجرادتان: مغنيتان كانتا بمكة، رماداً ـ بفتح الراء ـ ورِمْدداً ـ بكسر الراء وسكون الميم وكسر الدال ـ أُريد به المبالغة في الاحتراق، الريح العقيم: التي هي شرّ محض لا خير فيها.

سيدنا هود عليه الصلاة والسلارم هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام كان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح كانوا عرباً يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمال كانت باليمن بين عُمان وحضرموت، كانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الطوال الضخام مرفوعة مزخرفة، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾، أي: لم يخلق الله تعالى مثلهم في قوّتهم وشدّتهم وضخامة أجسادهم، وكانوا مع ذلك أطول أعماراً، وهم عاد الأُولى. أما عاد الثانية، فكانوا من عقب عاد فهاجروا وتناسلوا بعد الأولين، وكانت عاد الأولى هم الذين بعث الله تعالى إليهم سيدنا هوداً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فكذبوه وخالفوه وكانوا عتاة متمردين جبارين، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ودمّرهم وجعلهم أحاديث وعبراً يذكرون دائماً في القرآن مع المهلكين القدامى قوم نوح، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّتهم مع سيدنا هود عليه السلام وما جرى له معهم، وما كان من عاقبة أمرهم بعد قصة قوم نوح عليه السلام في عدة

سور في الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، وحم السجدة، والأحقاف، والذاريات، والنجم، والقمر، والحاقة، والفجر...

فقال في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾... ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقال في هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾... ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلخ.

وقال في قد أفلح بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إلخ.

وقال في حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال في الأحقاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۘ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ﴾.

وقال في الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال في القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقال في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

وذكروا في غير هذه السور.

وقد سبق أن قلنا بأن سيدنا هوداً عليه السلام كان أرسل إلى قومه عاد

الأُولى وكانوا قوماً عرباً قساة غلاظاً شداداً أقوياء طويلي الأعمار، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبُعِثَ إليهم فأمرهم بعبادة الله تعالى وحده وأن يتقوه ويستغفروه ويتوبوا إليه وأخبرهم بأنهم إذا فعلوا ما أمرهم به أرسل الله تعالى عليهم السماء مدراراً وزادهم قوّة إلى قوّتهم، وذكّرهم بنعم الله المتوالية عليهم حيث جعلهم خلفاء من قبلهم، وزادهم بسطة في خلقتهم، وأنه عزّ وجلّ أمدّهم بأنعام وبنين وعيون وجنّات، وأرشدهم إلى ترك زخارف الحياة واتخاذ الأبنية الشامخة والقصور المشيدة المحكمة لمجرد اللّهو واللعب والمفاخرة، كأنهم سيخلدون في هذه الحياة. وكل هذه الإرشادات كان يلقيها عليهم حسبة لله عزّ وجلّ بدون أجر ولا أي مقابل، وهو مع ذلك رسولٌ من الله عزّ وجلّ إليهم أمين على ما يأتي به ويقول فماذا كان جوابهم؟ أجابوه بالآتي:

إنك رجل سفيه من الكاذبين والمفترين على الله، وأن ما أصابك من الخبل والجنون كان بسبب سبك وشتمك آلهتنا، فهي التي أصابتك بذلك. ثم إنك لم تأتنا بحجّة ولا بيّنة على مدعاك، فما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، فسواء وعظتنا وذكرتنا أم تركتنا فما هذا الذي جئتنا به من ترك الآلهة إلى إله واحد إلا خرافات الأوّلين وأكاذيبهم. فليس هنالك حياة بعد الموت، ولا ما تزعمونه من البعث والحساب وكل ما تدعونه من توحيد الآلهة خرافات وأساطير...

وهكذا أصرُّوا على كفرهم وضلالهم وجحدوا آيات ربّهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واستكبروا في الأرض وقالوا: من أشدّ منّا قوة وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد... فعندئذ توجّه رسول الله هود عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام إلى الله عزّ وجلّ قاصم ظهور الجبابرة، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وذكر الإخباريون أنهم لما تمادوا على كفرهم أصابهم الله تعالى بالسنين، فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى أجهدهم ذلك، وكان الناس إذا أجهدهم أمر في ذلك طلبوا من الله الفرج عند حرم الله ومكان بيته، وكان عندهم معروفاً فبعثوا وفداً منهم يستسقون لهم، وتقدم في حديث

الرجل الذي حدّث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن وافد عاد كان قيلاً واحداً مرّ على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، وأنه لما دعا الله تعالى رفعت له ثلاث سحابات، فقيل له: اختر إحداهن فاختار السوداء، لأنه ظنّها أكثر أخواتها ماء، فقيل له: «خذها رماداً رِمْدَداً، لا تَذَرْ من عاد أحداً»، ومعنى رماداً رمدداً أي: هلاكاً متناهياً ليس بعده هلاك.

وقد أخبر الله عزّ وجلّ بأنه لما أراد إهلاكهم بعث عليهم سحاباً، فلما رأوه قالوا: هذا عارض، أي: سحاب عارض ممطرنا، فقيل لهم: بل هو ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها، أي: تخرب وتهلك كل شيء مرّت عليه من رجال ومواشي وأموال بإذن الله عزّ وجلّ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، أي: هلكوا جميعاً ولم تبق إلا دورهم وآثارهم خاوية.

وقد كرّر الله عزّ وجلّ في كتابه إرسال الريح عليهم وأنه أرسلها عليهم ريحاً صرصراً، أي: ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب عقيمة لا خير فيها عاتية متجاوزة الحدّ في البرودة والهبوب والصوت سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، أي: متتابعة ما تذر من شيء أتت عليه ومرّت به إلا جعلته كالرميم، أي: كالهشيم المتفتّت البالي كالتراب... وأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية أي: صاروا كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف، فهل ترى لهم من باقية، أي: هل ترى أحداً من بقاياهم أو تجد لهم أثراً.

فهكذا لما قالوا: من أشد منا قوة وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، صبّ عليهم ربك سوط عذاب.

***

من فوائد قصة هود مع قومه

في حديث ابن عباس الأول دليل على أن الحجّ لبيت الله الحرام كان مشروعاً أيام هود عليه السلام، وأنه مرّ مع صالح على عسفان محرمين قاصدين بيت الله تعالى راكبين على نوق بكرات في ثياب متواضعة، وفي هذا إشكالٌ يأتي بيانُه في قصة الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وفي حديثه الثاني بيان أن قوم عاد أهلكهم الله بريح الغرب، وهي أشدّ الرياح بعد ريح الشرق التي نصر بها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الخوارج: «**لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد أو قتل ثمود**»، أي: قتل إبادة واستئصال، فلا يبقى منهم أحد، فهو يدلّ على أن قوم عاد وثمود أبادهم الله جميعاً ولم تبق إلا آثار ديارهم...

وحديث عائشة يدلّ على أنه ينبغي للمسلم إذا هبّت ريح وخاصة إذا كانت عاصفة أن يشفق على نفسه ويتخوّف منها، ويسأل الله خيرها ويستعيذ من شرّها، كما قدمنا ذلك في كتاب الكسوف والخسوف.

وفي حديث وافد عاد بيان أن الريح الذي أرسل إلى قوم عاد هو شيء بسيط جداً، وذلك كان مقدار حلقة الخاتم، ومع ذلك حصل ما حصل من التدمير، فكيف لو أرسل إليهم بأكثر من ذلك مما لا يعلم قدره إلا الله تعالى، فإن لله خزائن الشر كما له خزائن الخير، مما لا تدركه عقولنا، كما أن له جنوداً مجنّدة يرسلها على من شاء من خلقه لا ندريها...

خاتمة هامة

العرب قسمان: عرب العاربة، وهم العرب الأصليون. والعرب المستعربة، فالأولون هم عاد، وثمود، وجرهم، ومدين، وعملاق، وقحطان، وكان هود عليه السلام من قوم عاد، ويقال: إنه أول من تكلم بالعربية، وقيل: نوح، وقيل: آدم. أما العرب المستعربة، فهم أولاد إسماعيل عليه السلام، وكان إسماعيل أول من استعرب، وقد تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا عند أمّه هاجر بالحرم، كما يأتي إن شاء الله تعالى، وكان قد أتقنها ونطق بها في غاية الفصاحة والبيان، كما كان ينطق بها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يكن من الأنبياء العرب إلا هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، والله تعالى أعلم وأحكم.

* * *

{٤٨٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما مرَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالحِجْرِ، قال: «**لا تسألوا الآيات وقد سَأَلها قومُ صالح، فكانت تَرِدُ من هذا الفَجّ، وتَصْدُر من هذا الفجّ، فعَتَوْا عن أمر ربّهم فعقَروها، فكانت تَشْرَبُ ماءَهُم يَوْماً، ويَشْرَبُونَ لَبَنَها يَوْماً فَعَقَرُوهَا فأخَذَتْهم صَيْحَةٌ أهمدَ الله عزّ وجلّ مَن تحت أَدِيم السَّماءِ مِنهم إلا رجلاً واحداً كان في حَرَم الله عزّ وجلّ**»، قيل: مَن هو يا رسول الله؟ قال: «**أبو رغَال، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصابَ قومَه**».

رواه أحمد (٢٩٦/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

الحِجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ ديار ثمود، وهي بين المدينة وتبوك، والفج: الطريق، وقوله: ترد أي: تشرب، وقوله: تصدر أي: تنصرف، وعتوا أي: طغوا، فعقروها أي: قتلوها عقراً بسيف أو نحوه.

{٤٩٠} ـ وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له ولعليّ رضي الله تعالى عنهما: «**ألا أُحَدِّثُكُما بأَشْقَى الناس**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيمِرُ ثَمُود الذي عقر النّاقة، والذي يَضْرِبُك يا عليُّ على هذه**» يعني قرته «**حتّى تَبْتَلَّ هذه**» من الدم يعني لحيته.

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، والحاكم (١٤١/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

أحيمر تصغير أحمر.

{٤٩١} ـ وعن عبدالله بن زَمْعَة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَخْطُبُ، وذكر الناقة والذي عقَرَها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذ انْبَعَثَ أشْقَاها انبعث لها رجلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ مثلُ أبي زَمْعَة**».

رواه أحمد (١٧/٤)، والبخاري في التفسير (٣٣٣/١٠، ٣٣٤)، وفي أحاديث الأنبياء (١٨٨/٧)، ومسلم في الجنة (٢٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥١٥/٦).

قوله: إذ انبعث أي: انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط، وعاقر الناقة اسمه

قُدَارُ على وزن غراب بن سالف، وقوله: عزيز أي: قوي، عارم أي: صعب كثير الشهامة والشرّ، منيع ذو منعة أي: له رهط يمنعونه من كل ضَيْم.

{٤٩٢} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالناس عام تبوك نزل بهم الحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُود، فاسْتَقَى الناسُ من الآبار التي كان يَشْرَبُ منها ثمودُ، فعَجَنُوا منها، ونصَبُوا القُدُورَ باللَّحْم، فأمرَهُم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأهْرَاقُوا القُدُور، وعَلَفُوا العَجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تَشْربُ منها الناقة، ونهاهم أن يَدْخُلُوا على القوم الذين عُذِّبُوا، قال: **«إنّي أخشى أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابَهم فلا تدخلوا عليهم»**.

وفي رواية: أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما مَرَّ بالحجرِ قال: **«لا تدخُلوا أماكن الذين ظَلَمُوا إلا أن تكُونُوا باكِين أن يُصيبَكم ما أصابَهُم، وتَقَنَّع بردائِهِ وهو على الرحل»**، وفي رواية: **«فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم»**.

رواه أحمد (٩/٢، ٥٨، ٧٢، ٧٤، ١١٣، ١٣٧، ٦٦. ٩٦)، والبخاري في الأنبياء (١٨٩/٧، ١٩٠، ١٩١).

قوله: أن يصيبكم أي: خشية أن يصيبكم الخ، أو كراهية أن يصيبكم.

{٤٩٢م} ـ وعن محمد بن أبي كبشة عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنادى في الناس: **«الصلاة جامعة»**، قال: فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو مُمْسِكٌ بعيره، وهو يقول: **«مَا تَدْخُلون على قوم غضب الله تعالى عليهم»**، فناداه رجل منهم: نَعْجَبُ منهم يا رسول الله، قال: **«أفلا أنذركم بأعجبَ من ذلك؟ رجل من أنفُسِكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسدّدوا، فإن الله عزّ وجلّ لا يَعْبَأُ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء»**.

رواه أحمد (٢٣١/٤) حديث حسن لغيره.

وسددوا أي: اطلبوا بأعمالكم السّداد والاستقامة والقصد في الأمر، لا يعبأ أي: لا يبالي.

كان قوم ثمود قبيلة مشهورة نسبوا إلى جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا أيضاً عرباً عاربة يسكنون الحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ وهو موضع يقع بين المدينة المنوّرة وتبوك، وقد مرّ عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذهابه إلى تبوك، كما يأتي ذلك بإذن الله تعالى وآثارهم لا تزال موجودة حتى اليوم، وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام كسوابقهم، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم رجلاً منهم وهو عبدالله ورسوله سيدنا صالح عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فكان بينه وبينهم ما قصّه الله عزّ وجلّ علينا في كتابه الكريم، وقد ذكرت قصّتهم في أكثر من إحدى عشرة سورة من القرآن بداية من الأعراف، فهود، فالحجر، فالإسراء، فالشعراء، فالنمل، فحم السجدة، فالقمر، فالنجم، فالفجر، فالشمس، وذكروا في سور أُخر مع قوم عاد ونوح وشعيب ولوط وموسى...

فقال تعالى في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقال في هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ

تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تعالى في سبحان: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقال عز وجل في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إلخ.

وقال جل علاه في النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا

دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال جلّ جلاله في حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ الآية.

وقال تعالى في الفجر: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

وقال جلّ ثناؤه في الشمس وضحاها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وخلاصة ما في هذه الآيات أن الله عزّ وجل بعث عبده سيدنا صالحاً عليه السلام إلى قومه ثمود فأمرهم بعبادة الله وتوحيده والاستغفار من ذنوبهم والتوبة والرجوع إليه عزّ وجلّ، وذكّرهم بآلاء الله تعالى حيث أنشأهم من الأرض وجعلهم يعمرونها، وأنعم عليهم بالمساكن والقصور وسخّر لهم الصخور ينحتون فيها البيوت وأغدق عليهم الخيرات من جنّات وعيون وزروع ونخيل وجعلهم خلفاء من قبلهم، ثم نهاهم عن الفساد وإطاعة المفسدين، وبيّن لهم طريق الرشاد والهدى فآثروا الضلال والخذلان، فبدل أن يستجيبوا لدعوته كفروا

به وقالوا إنّا بالذي آمنتم به كافرون، وقالوا له إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا، بل كذاب أشِرٌ متكبر تريد العلوّ علينا أألقِي عليك الوحي دوننا، وقالوا تطيّرنا بك وبمن آمن معك، ولقد كنّا نرجو أن تكون سيداً فينا من قبل نرجع إلى رأيك ونستشيرك في أمورنا فكيف تأمرنا الآن أن نترك ما يعبد آباؤنا، فنحن في شكٍّ مريب مما تدعونا إليه فائتنا بآية تدلّ على صدقك إن كنت صادقاً في قولك، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام: إنا مرسلو الناقة فتنة لهم، فارتقب واصطبر فأخرج عزّ وجلّ ناقة عشراء من صخرة وأمرهم أن يتناوبوا معها في الشرب من البئر فيوم لهم ويوم لها، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يعني إذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم، وكما قال في آية ثانية: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وحذّرهم من التعرّض لها بسوء وأوعدهم على ذلك بالعذاب العظيم، لكنهم أبوا إلا أن يخالفوه فعقروا الناقة أولاً وباشر ذلك الأشقى الأحسر قُدَارُ بن سالف، ثم أرادوا بصالح كيداً ثانياً، فلقد اجتمع تسعة نفر من مفسديهم وتحالفوا فيما بينهم على قتله وقتل من معه من أهله ومكروا به مكراً، فكان مكر الله بهم أدهى وأمرّ، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ودمّرهم وأباد خضراءهم واستأصل جميعهم، فجاءتهم الصيحة والرجفة وعذاب الله يوم الظلة، فأصبحوا في دارهم جاثمين منبطحين على وجوههم صرعى هامدين كأن لم يغنوا فيها، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، وكانت العاقبة لنبيّ الله ورسوله صالح عليه السلام ولمن كان معه من المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

من فوائد قصة صالح عليه السلام

في حديث جابر المصدر به بيان ذمّ سؤال الآيات والكرامات، فإن قوم ثمود سألوها ولم يقوموا بواجبها، فأهلكهم الله تعالى. وفيه تفصيل ما أجمله القرآن من قصة الناقة، وفيه أن الله أهلكهم جميعاً إلا أبا رغال فتأخر هلاكه لأنه كان في حرم الله، فلما غادره أصابه ما أصابهم.

وفي حديث عمار رضي الله تعالى عنه بيان أن أشقى الأوّلين إطلاقاً هو قُدَار عاقر ناقة صالح عليه السلام، كما أنَّ أشقى الآخرين هو قاتل الإمام عَلِيٍّ عليه السلام وهو ابن ملجم الخارجي ألجمه الله بلجام من نار.

وزاد في حديث ابن زمعة بياناً لصفات ذلك الشقي وأنه كان عزيزاً في قومه ذا منعة شريراً، وقالوا: إنه كان أزرق أصهب أحمر لعنه الله وأخزاه.

وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما بجميع رواياته أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما مرّ بديار ثمود في طريقه لتبوك نزل هنالك، ونهى الصحابة أن يستعملوا مياه ثمود في عجينهم ولُحُومِهم بل أمَرَهُم أن يهريقوا كل ذلك ويعلفوا العجين الإبل ونهاهم عن الدخول إلى أماكن ثمود إلا مع البكاء لئلا يصيبهم من العذاب ما أصابهم، ثم تقنع صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بردائه وشدّ حتى جاوز ديارهم ونزل عند بئر الناقة التي كانت تشرب منها.

واستدلّ العلماء بهذا الحديث على ذمّ الدخول إلى دور الظلمة ومساكنهم، وأن من دخلها كان على خطر، وقد أجاد وأفاد الحافظ ابن القيم في الهدي عند ذكر هذا الحديث في غزوة تبوك، وسيأتي لنا مزيد في السيرة إن شاء الله تعالى.

سيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء

سيدنا إبراهيم عليه السلام هو ابن آزَرَ واسمه تارَح ـ بتاء وراء مفتوحة آخره حاء مهملة ـ ابن نَاحُور ـ بنون وحاء مهملة مضمومة ـ ابن شَارُوخ ـ بشين معجمة وراء مضمومة آخره خاء معجمة ـ ابن رَاغُوه ـ بغين معجمة ـ ابن فَالَخ ـ بفاء ولام مفتوحة آخره معجمة ـ ابن عَبِير، ويقال: عابِر ـ وهو بمهملة وموحدة ـ ابن شالخ ـ بمعجمتين ـ ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، قال الحافظ: لا يختلف جمهور أهل النسب ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء.

وقصة الخليل عليه الصلاة والسلام من أطول القصص القرآنية وأشهرها

وأروعها وهي مُمْتِعَةٌ رائعةٌ يتجلّى فيها توحيد الله والجهاد لأجله والدفاع عنه بأجلى مظهره، وقد تكرّر ذكره عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم نحواً من سبعين مرة، ولم يأتِ هذا العدد في القرآن لأحد من الأنبياء، إلا ما كان من كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه ورد ذكره فيه أكثر من مائة وثلاثين مرة كما يأتي في قصته.

والمقصود أن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام من أطول القصص وحقّ لها ذلك، فإنه أبو الأنبياء وشيخهم وإمامهم وقدوة الموحدين وأسوتهم وجدّ خاتمهم وسيدهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعاً.

ونحن سنورد بحول الله وعونه تعالى ما جاء من أحاديث عنه، ثم نتبع ذلك ببيان قصته، كما جاءت في القرآن الكريم بداية من مسقط رأسه حتى موته...

❋ ❋ ❋

إبراهيم أكرم الناس وأنه خليل الله

{٤٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: «**فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله**»، وفي رواية: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٨/٧، ٢٢٥، ٢٢٨) وفي التفسير وتقدم، ومسلم في الفضائل (١٣٤/١٥) بالرواية الأُولى، وأحمد (٢٣٢/٢، ٣٤٦، ٣٨٩)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي (٣٦٩/٦) كلاهما في التفسير، والحاكم (٣٤٦/٢، ٥٦١، ٥٧٠) بالرواية الثانية، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

أصل الكرم كثرة الخير، ولا شكّ أن التقوى والدين والنبوّة هي الكرم الحقيقي.

{٤٩٤} ـ وعن أبي هريرة أيضاً قال: أُتِيَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً بِلَحْم، فقال: «**إن الله يَجْمَعُ يوم القيامة الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فَيُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهُم البَصَرُ وتَدْنُو الشمس منهم**»، فذكر حديث الشفاعة «**فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيّ الله وخليله من الأرض اشفع لنا**» الحديث، يأتي بتمامه في الرقائق.

رواه الشيخان وغيرهما.

* * *

من صفاته وأنه أول من اختتن

{٤٩٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حديث الدجال: «**أما إبراهيم، فانظروا إلى صاحبكم**» الحديث، يأتي في الأشراط وفي قصة موسى.

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وغيره.

{٤٩٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين أُسري به: «**لقيت موسى**»... قال: «**ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» الحديث يأتي في السيرة وغيرها.

رواه البخاري في الأنبياء (٢٣٩/٧، ٢٤٠)، ومسلم في الإيمان (٢٣٢/٢، ٢٣٣).

{٤٩٧} ـ وعن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني الليلة آتيان فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وأنه إبراهيم**» صلّى الله عليه وعلى نبيّنا وآله وسلم.

رواه الشيخان وغيرهما وتقدم مطوّلاً في التعبير.

{٤٩٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اخْتَتَن إبراهيمُ عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وفي الاستئذان، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥) وغيرهما.

القدُوم وردت بتشديد الدال مع تخفيفها، فعلى الأول يكون اسم مكان، وعلى الثاني اسم لآلة القطع. والختان معروف وتقدم في كتاب الطهارة.

* * *

إبراهيم ووالده يوم القيامة

{٤٩٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يلْقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يوم القيامة وعلى وجه آزَر قَتَرَةٌ وغَبَرةٌ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تَعْصِنِي، فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٧/٧) وفي التفسير وتقدم، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦).

قوله: ذيخ ـ بكسر الذال المعجمة ثم ياء تحتانية آخره خاء معجمة ـ هو ذكر الضبع، وقد صحف من ذكره بذبح ـ بالباء الموحدة والحاء المهملة ـ.

* * *

إبراهيم وصورته داخل الكعبة يستقسم

{٥٠٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمَّا دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة

مريم، فقال: «**أمَا لَهُم فقد سَمِعُوا أن الملائكة لا تَدخُلُ بيتاً فيه صورةٌ، هذا إبراهيم مُصَوِّرٌ فَمَا له يَسْتَقْسِمُ**».

وفي رواية: لما رأى الصورة في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيَتْ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قطّ**».

رواه البخاري في الأنبياء (٧/١٩٧، ١٩٨) ويأتي في فتح مكة.

الأزلام سهام كانوا يستقسمون بها في أمورهم ويعتمدون على ما يخرج لهم منها، وهي من الشركيات والوثنيات، واستثني من جنسها القرعة وهي مشروعة في الإسلام، كما تقدم ويأتي.

❋ ❋ ❋

قصته مع الطاغية وشأن سارة وهاجر

{٥٠١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لم يكذِبْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام إلا ثلاثَ كَذَباتٍ: ثِنْتَين منهن في ذات الله عزّ وجلّ، قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتَى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرتُه أنكِ أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ، فقال: ادْعِي الله لي ولا أضُرك، فدعت الله فأُطْلِقَ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضُرّكِ، فدعت فأطلق فدعا بعض حَجَبَتِهِ، فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخْدَمَها هاجَر فأتَته وهو قائم يصلّي فأومأ بيده مَهْيَم قالت: ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر**»، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

وفي رواية: «**فلما دخلت إليه قام إليها قال: فأقبلت تتوضأ وتصلّي**

وتقول: اللّهمّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تُسَلّط عليّ الكافر، قال: فَغُطَّ حتى ركَضَ برجله، قالت: اللّهمّ إنه إن يمت يقل هي قتلته، قال: فأرسل ثم قام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي وتقول: اللّهمّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي فلا تسلّط عليّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله، قالت: اللّهمّ إنه إن يمت يقل هي قتلته، قال: فأرسل، فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر، قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشَعَرْتَ أن الله عزّ وجلّ ردّ كيدَ الكافر وأخدم وليدة».

رواه أحمد (٤/٤٠٣، ٤٠٤)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٠١، ٢٠٤) وفي النكاح وفي البيوع وفي الهبة، ومسلم في الفضائل (١٥/١٢٣)، وأبو داود (٢٢١٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٢) مختصراً.

قوله: «لم يكذب» الكذب ضد الصدق، وهو الإخبار بخلاف الواقع، وإطلاق الكذب هنا من باب المعاريض لأنه بالنسبة للسامعين كذب، وبالنسبة لاعتقاد إبراهيم وما قصده صدق. وقوله: في ذات الله أي: فيما يرجع إلى توحيد الله تعالى ودينه، وقوله: سقيم أي: مريض، وقوله: بل فعله كبيرهم، يعني صنمهم الأكبر، وقوله: أختي أي: في الدين، وقوله: فأخذ يعني قبضت يده قبضة، وقوله: غطّ حتى ركض برجله أي: اختنق حتى صار كأنه مصروع يتخبط ويضرب برجله، وقوله: مهيم أي: ما شأنك، وقوله: يا بني ماء السماء المراد بهم العرب، سمّوا بذلك لأنهم يعيشون على المرعى والكسب، وذلك ناشىء عن ماء السماء، أو المراد أنهم أولاد إسماعيل وهو ربي بماء زمزم وهو في الأصل من ماء السماء.

***

قصة إحياء الطيور طمأنة لقلبه

{٥٠٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾**».

رواه أحمد (٣٢٦/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٢٢/٧)، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥).

يأتي معناه وتوجيهه فيما بعد.

* * *

كل الحيوانات كن في صف إبراهيم إلا الوزغ

{٥٠٣} ـ عن سائبة مولاة للفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها، فرأت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقالت: يا أُمّ المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: نقتل به الأَوْزَاغَ، فإن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار لم تكن دابّةٌ إلا تُطْفِىء النار عنه غيرَ الوزَغ، فإنه كان ينفخ عليه فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله.

رواه أحمد (٨٣/٦، ١٠٩)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وأبو يعلى (٤٣٥٧) وسنده حسن صحيح.

{٥٠٤} ـ وعن عائشة أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: كانت الضفدع تطفىء النار عن إبراهيم، وكان الوزغ ينفخ فيه، فنهى عن قتل هذا، وأمر بقتل هذا.

رواه عبدالرزاق في المصنف (٨٣٩٢) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وسيأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

{٥٠٥} ـ وعن أُمّ شريك رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفُخُ على إبراهيم عليه السلام».

رواه البخاري في الأنبياء (٧/٢٠٤، ٢٠٥).

* * *

هجرته إلى مكة بهاجر وابنها إسماعيل عليهم الصلاة والسلام

{٥٠٦} ـ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَلِ أُمّ إسماعيل اتخذت منطقاً لِتُعَفِّي أثرَها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل عليهم السلام، وهي ترضعه حتى وَضَعَهُما عند البيت عند دَوْحَةٍ فوق الزمزم في أعلى المسجد، وليس بمكّة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماءٌ ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً فتبعتْه أُمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، وجعلت أمّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السّقاء عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى، أو قال: يتَلَبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطتْ من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ تريد نفسها، ثم تَسَمَّعَتْ فسمعت أيضاً فقالت: قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غَوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فَبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلتْ تُحَوْضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يَفُور بعد ما تَغْرِف، قال ابن عباس: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركتْ**» أو قال: «**لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً**»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعَة، فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكّة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر يدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جَرِيّاً أو جرِيَّيْنِ، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**»، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شَبَّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم، وماتت أُمّ إسماعيل هاجر فجاء إبراهيم بعدما تزوّج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدّة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدّة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرئك السلام ويقول غيّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك،

فطلّقها وتزوّج امرأة منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عزّ وجلّ، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللّهمّ بارك لهم في اللّحم والماء، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ولم يكن لهم يومئذ حبّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه»**، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلمّا رآه قام إليه فَصَنَعَا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هٰهنا بيتاً وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

رواه أحمد (٢٥٣/١، ٣٤٧، ٣١٠)، والبخاري في الأنبياء (٢٠٨/٧، ٢١٦، ٢١٨) وهو من أفراده، ورواه أحمد (١٢١/٥)، وابن حبان (٣٦/٩) عن ابن عباس عن أبي، مختصراً بلفظ: إن جبريل عليه السلام لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«رحم الله هاجر أمّ إسماعيل عليهما السلام لو تركتها لكانت ماء مَعِيناً»**.

وفي رواية عند البخاري قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله عليهم السلام ما كان خرج بإسماعيل وأمّ إسماعيل عليهم السلام ومعه شنة فيها ماء، فجعلت أمّ إسماعيل تشرب من الشَّنَّة فَيَدِرُّ لبنها على صبيها حتى قدم مكة... الحديث.

«المِنْطَق» بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء هو ما يشدّ على الوسط، ويدلى إلى الأسفل، وكان عادة للنساء قديماً، «لتُعَفِّي» أي: لتخفي أثرها وتستره، «دَوْحَة» أي: شجرة كبيرة، «جِراباً» أي: وعاء من جلد، «سقاء» هو قربة صغيرة، وفي رواية: شنّة، وهي القربة العتيقة، «قَفَّى» أي: ولّى راجعاً، «يَتَلَبَّطُ» أي: يتمرّغ ويضرب بنفسه الأرض، «ضَهْ» أي: اسكتي كأنها خاطبت نفسها، غَوَاثْ أي: إن كان عندك إغاثة فأغثني، وفي رواية للبخاري: فإذا هي بصوت فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا جبريل عليه السلام: «فإذا هي بالملك»، في رواية عند الطبري عن الإمام عليّ عليه السلام بسند حسن كما قال الحافظ: «فناداها جبريل عليه السلام، فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أمّ ولد إبراهيم، قال: فإلَى مَن وكَلَكُما؟ قالت: إلى الله تعالى، قال: وكَلكما إلى كاف». «تُحَوْضُه» أي: تجعل عليه مثل الحوض ليجتمع فيه الماء، «عيناً مَعِيناً» أي: ظاهراً ماؤها جارياً على ظهر الأرض، «الضَّيْعَة» أي: الهلاك «كالرَّابية» أي: الشيء المرتفع من الأرض، «جُرْهُم» بضم الجيم والهاء بينهما راء ساكنة هو ابن قحطان اليماني، «ظائراً عائفاً» هو الذي يحوم حول الماء، ويتردد ولا يمضي. جرياً ـ بفتح الجيم وكسر الراء ـ أي: رسولاً يأتيهم بالخبر، كما في رواية للبخاري، فبعثوا رسولهم فألْفَى أي: وجد، «يَبْتَغِي لنا» أي: يطلب لنا العيش، في رواية: «ذهب يَصِيدُ» عَتَبة بابك أي: زوجتك، «يَبْرِي نبلاً له» بفتح الياء وسكون الباء وكسر الراء، أي: ينحتها ويصلحها ويعمل لها ريشاً، «كما يصنع الوالد بالولد» يعني من المعانقة والالتزام والتقبيل وما إلى ذلك.

* * *

الكعبة أول مسجد وضع في الأرض

{٥٠٧} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سأله عن أول مَسْجِدٍ وُضِعَ للناس، قال: «**المَسْجِدُ الحرام**»، قلت: ثم أيُّ؟ قال: «**المسجدُ الأقصى**»، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون عاماً**»، ثم قال: «**حيثما أدركَتْكَ الصلاةُ فصلِّ والأرض مسجد لك**».

رواه أحمد (٥/١٥٠، ١٦٦)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٣)، ومسلم في المساجد (٥/٢، ٣) وغيرهم. وانظر ما سبق في التفسير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾.

* * *

إبراهيم عليه السلام خير البرية

{٥٠٨} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ، قال: «**ذاكَ إبراهيمُ**» عليه السلام.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/١٢١)، وأبو داود (٤٦٧٢)، والترمذي (٣١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠).

خير البريّة أي: أفضل المخلوقات، وهذا مخصوص بغير نبيّنا عليه السلام لأدلة أخرى، وإنما قال هذا تواضعاً منه مع جده.

* * *

بسط قصة الخليل عليه السلام

الصحيح المشهور عند أهل السير والتاريخ أن الخليل عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام أصله من العراق، وأنه وُلد ببابل بأرض الكوفة، وكانت

تلك البلاد تحت حكم الكلدانيين وبها نشأ إبراهيم عليه السلام، وتزوّج سارة وهاجر بها مع ابن أخيه لوط عليهم السلام إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حرّان ـ بفتح الحاء وتشديد الراء المفتوحة ـ وكان موقعها أقصى نهري دجلة والفرات غرباً على طريق الموصل والشام، ثم تركوها وهاجروا إلى الأرض المقدسة إلى فلسطين من الشام، وكان الله تعالى قد أعطى إبراهيم رشده وهداه إلى توحيده من صغره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾، وكان أهل الأرض كلهم كفاراً إلا إبراهيم وزوجته وابن أخيه لوط عليهم السلام، فقام الخليل عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك أصنامهم وآلهتهم المتعدّدة وبدأ بأبيه وأقرب الناس إليه، فكذّبوه وخذلوه وهدّده والده بالقتل رجماً وهو مع ذلك يلاطفه ويرد قوله بأدب واحترام ولين، وكان عاقبة الأمر أن كسر إبراهيم أصنامهم وجعلها قطعاً وجذاذاً فأخذوه وألقوه في النار بأمر طاغيتهم النمروذ، فنجّاه الله عزّ وجلّ وقال للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ثم تركهم وقال لهم: إني مهاجر إلى ربي فهجرهم وما يعبدون من دون الله فأنجاه تعالى ومن معه بالهجرة إلى الأرض المقدسة حيث كان مقرّه الأخير بلاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وفي جملة ذلك وتفصيله تأتي الآيات الكريمات التي تتحدّث عنه عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأخبر تعالى أنه أعطاه رشده وعرّفه به وبدينه، وأنه أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام والعكوف عليها دون الله، فأجابوه بحجّتهم الواهية وهي تقليدهم آباءهم في ذلك، وتوالت المحاورة بينه وبينهم فأجابهم بأنهم ومن سبقهم من الآباء كلّهم على ضلال وخلاف الحقّ، فاستفهموه هل أنت على جدّ وحق في قولك هذا أم أنت مازحاً تداعبنا؟ فأجابهم: بل أقول لكم

الحق المبين، فربكم هو رب هذه الأجرام التي تشاهدونها من السمٰوات والأرض التي خلقها وأنشأها وأنا شاهد على ذلك...

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية.

فأخبر عز وجل عن إنكار إبراهيم على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة دون الله تعالى، وأنه وقومه في ضلال مبين واضح، وأنه تعالى أرى رسوله الخليل عليه السلام أسرار ملكوت السمٰوات والأرض والملك العظيم وسلطان الله الباهر ليكون من الراسخين في اليقين بالله عزّ وجلّ، فلمّا جنّ عليه الليل وستر بظلمته كل شيء رأى كوكباً مضيئاً في السماء يقال هو الزهرة أو المشتري، قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ يعني على زعمهم، قاله على سبيل الردّ عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم ليعرّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله تعالى مما هو حادث متغيّر، قال المفسّرون: كان أبو إبراهيم آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبّههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألاّ يكون شيء من هذه الكواكب إلٰهاً، وأن وراءها مُحْدِثاً وخالقاً ومُدَبِّراً يُدَبِّر طلوعها وانتقالها ومسيرها، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: لما غاب الكوكب قال: لا أحب عبادة من كان كذلك لأن الرب لا يجوز عليه التغيّر والانتقال والغياب، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعاً منتشر الضوء. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ على الأسلوب المتقدم، لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدون وتسفيهاً لأحلامهم، فلما أفل وغاب القمر قال لهم: لئن لم يهدني ويثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين، وفيه تعريض بهم بأنهم ضالّون، فلما رأى

الشمس بازغة وطالعة وضياؤها أعظم وأشمل، قال: هذا ربّي لأنه أكبر وأعظم من الكوكب والقمر، فلما أفلت وغابت قال: يا قوم إني بريء من إشراككم وأصنامكم، إني وجهت وقصدت بعبادتي وتوحيدي وجه الله الذي ابتدع العالم وخلق السمٰوات والأرض حنيفاً ومائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ولست من المشركين، ولكنهم مع كل ذلك ووضوح الحق وضلالهم أصروا على كفرهم وشركهم فحاجوه وجادلوه في شأن توحيد الله وآلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم بقوله: أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته وقد هداني وبَصَّرَني بالحق، فأنا لا أخاف ما تشركون به شيئاً من هذه الأصنام المزعومة...

قال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيّارة، وأشدّهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلٰهيّة عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الخ.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

ذكر تعالى ما دار بين إبراهيم وبين أبيه من المحاورة، وكيف دعا أباه إلى الحقّ بألطفِ عبارةٍ وأحسنِ إشارةٍ، وبيّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ، ثم نبّهه على أن الله تعالى أتاه علماً نافعاً يجب عليه أن يتبعه ليهديه الطريق السويّ، ثم نهاه عن

اتباع الشيطان وحذره منه لأنه كان عاصياً لله تعالى، وبدل أن يهتدي بهدي الله ويستجيب لما دعاه إليه أنكر عليه رغبته عن عبادة آلهته ثم هدده إن لم ينته عما يدعو إليه بقتله رجماً بالحجارة، فلاطفه الخليل وتأدب معه وقابل خشونته وجفاءه بالكلام الطيب الرقيق: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: لطيفاً حيث هداني لعبادته والإخلاص له وسأعتزلكم وما تدعون من دون الله.

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

ومرة أخرى أنكر على أبيه وقومه عبادة أصنام لا تسمع إذا دعيت، ولا تنفع ولا تضرّ من تعلق بها واعتمد عليها، لكن القوم كانوا عمياً صمّاً بكماً بلهاً مجانين، فهم مع إقرارهم بأنها لا تسمع ولا يأتي من قبلها نفع ولا ضر أصروا على عبادتها اعتماداً منهم على التقليد الأعمى لآبائهم، فلما رأى الخليل عليه السلام القوم متناهين في الضلال أشهر عداوته لأصنامهم ومعبوداتهم ومعبودات آبائهم القدامى، وبيّن لهم بكل جلاء ووضوح أن الذي يجب أن يعبد هو خالق الكائنات ومدبّرها الذي خلقه ويهديه ويوالي عليه نعمه وإمداداته، فيطعمه ويسقيه وإذا مرض يعافيه ويشفيه، والذي يميته ويحييه، والذي يطمع ويرجو منه أن يغفر له خطيئته يوم الدين.

* * *

مناظرة الخليل مع الطاغية النمروذ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

كان الخليل عليه الصلاة والسلام يعيش في عصر النمروذ الذي يقال إنه من الأربعة الذين ملكوا الأرض، وثانيهما بُخْتُنَصَّر، والثالث ذو القرنين، والرابع سليمان عليه السلام، اثنان مؤمنان، واثنان كافران، وكان النمروذ يدّعي الربوبية والألوهية، فلما بلغته دعوة إبراهيم عليه السلام سأله عن صفات ربّه الذي يدعو إلى عبادته، فأجابه بأن ربّي هو الذي يحيي ويميت، فهو تعالى منشىء الحياة وموجدها وهو الذي يسلب الحياة من ذوات الأرواح، لكن الطاغية المغتر بقوّته وملكه أجاب إبراهيم بأنه أيضاً يحيي ويميت، فقال له إبراهيم: وكيف ذلك؟ فأُتِيَ برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، ولما رأى إبراهيم عليه السلام جنون هذا الطاغية ومغالطته المكشوفة وافتراءه على الحقيقة لم يسترسل معه في الجدال حول ما أدلى به من حجّته الواهية الساقطة، بل انتقل معه إلى حجّة أخرى لا يستطيع معارضتها أصلاً، وهي حجّة دامغة مفحمة فقال له: إن ربي الذي أعْبُده وأدعو إليه يأتي بالشمس من جهة المشرق، فخالفه وائت بها من قبل المغرب، فلما سمع الطاغية هذه الحجّة الدامغة بهت، أي: دهش وتحيّر ولم يجد جواباً، وبذلك انتهت المناظرة وانتصر الخليل وانهزم الكافر، قال تعالى في شأن دعوة إبراهيم ومحاججته قومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِـۧمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

* * *

تحطيم الخليل للأصنام وإلقاؤه في النار

قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ

جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الخ.

لقد مكث الخليل سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام بين قومه زمناً غير قليل يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وإفراده بالتوحيد والألوهية وحاورهم وردّ جدالهم وبيّن انحرافهم عن فطرة الله تعالى، وكشف لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها ويظلون عاكفين عليها، وأنها لا تستحق العبادة لأنها مخلوقة مثلهم منحوتة بأيديهم ولا يصح في العقل أن يعبد المخلوق

مخلوقاً مثله، لا سيما وأنها جماد لا حياة فيها، لا تضرّ ولا تنفع، ولا تسمع ولا تجيب ولا تعقل... وأطال معهم في ذلك وأبدى لهم من الحجج على توحيد الله عزّ وجلّ وإبطال ما عداه من الأوثان والأصنام ما لا يبقى معه شك وارتياب، ولما أيس منهم ومن استجابتهم لدعوته تحيّن الفرصة لتحطيم آلهتهم، فحلف وأقسم لهم بأنه سيكيدها بعد تولّيهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، يقال: إنه كان لهم عيد سنويٌّ يجتمعون فيه فاستدعوه لحضوره معهم، فنظر نظرة في النجوم على عادتهم في استخراج العلم من التنجيم فأراهم أنه علم من النجوم أنه سيمرض غداً، فقال: إني سقيم، أي: سأمرض كما ظهر لي في النجوم، فانصرفوا عنه معرضين، فخلا بآلهتهم ومال إليها وقد وضعوا بين أيديها أطعمة وأشربة، فناداها ساخراً منها ومستهزئاً بها: ألا تأكلون، ما لكم ساكتون لا تتكلمون؟ فمال إليهم بيمينه يضربها ويكسّرها فجعلها جذاذاً وقطعاً مفرقة ولم يترك منها إلا واحداً كان أكبرها، فلما جاء القوم ورأوا في آلهتهم ما هالهم وأفزعهم تساءلوا من فعل هذا بآلهتنا؟ إن فاعل ذلك لمن الظالمين المعتدين، فقال قائل منهم: إنا سمعنا فتى يذكر آلهتنا يقال له إبراهيم، قالوا فانظروا وأتوا به على مرأى من الناس حتى يروه ويشهدوا عقابه ويروا ما يصنع به، فأتي به فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا، يعني تمثالهم وصنمهم الأكبر الذي تركه بلا تحطيم، ثم سخر الخليل عليه السلام منهم قائلاً: فاسألوا أصنامكم عمّن حطمها إن كانوا يتكلمون، ولما عرفوا أنها لا تنطق رجعوا إلى أنفسهم وتفكّروا بقلوبهم، فقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون حيث عبدتم ما لا ينطق ولكنهم مع اعترافهم بأنهم لا ينطقون لجوا في طغيانهم وأصروا على عنادهم، وهنا وجد إبراهيم عليه السلام الفرصة في إقامة الحجّة عليهم، فأخذ يوبّخهم ويعنّفهم على عبادتهم من لا ينطق ولا يستجيب ولا يدفع عن نفسه ولا يضرّ ولا ينفع، ثم تأفّف منهم ومن أصنامهم فقال لهم بكل صراحة وشجاعة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قبحاً لكم ولأصنامكم التي عبدتموها من دون الله.

ولما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش واستعمال القوّة والتنكيل به، فأخذوه وحكموا عليه بالإحراق في النار، فقالوا: حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، وقالوا اقتلوه أو حرقوه، وقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾، فأنجاه الله من النار، وقال: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذا المشهد الجلل جاءه جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين قيل له: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، رواه البخاري وتقدم في التفسير ويأتي في السيرة.

فخرج من النار سالماً ولم تصب منه إلا الوثاق الذي كان موثقاً به، وسيأتي لهذا الموضوع مزيد في الفوائد والعبر.

❋ ❋ ❋

هجرة الخليل من العراق إلى فلسطين

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ

وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

كل ما جرى بين الخليل على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام وبين أبيه وقومه ومحاججتهم إياه ومناظرته طاغيتهم النمروذ وما آل إليه أمره معهم بعد إقامته الحجّة عليهم وتحطيمه أصنامهم مع إلقائه في النار، كل ذلك وقع بالعراق، ولما بلغ بهم الأمر المنتهى وأرادوا الانتقام منه وإحراقه ونجّاه الله تعالى منهم خرج من بين ظهرانيهم فاعتزلهم وهجر ديارهم وبلادهم وتوجه إلى بيت المقدس، ولم يكن معه مؤمناً في رحلته إلا زوجته سارة التي كان قد تزوجها ببابل أو بحرّان، وابن أخيه لوط عليهم السلام.

فوهبه الله عزّ وجلّ الأولاد الصالحين إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، وجعل تعالى في ذرّيته النبوة والكتاب، فكل نبيّ بعث بعده فهو من ذرّيته، وكل كتاب نزل من عند الله على نبيٍّ من الأنبياء من بعده فعلى أحد بنيه وعقبه إكراماً من الله عزّ وجلّ له وخلعة منه تعالى عليه حيث ترك بلاده وأهله وأقاربه وهاجر إلى بلد الغربة التي بارك الله فيها للعالمين، وهي أرض فلسطين من الشام، فكانت بعده دار الأنبياء ومحط القداسة ونزول أصل الديانتين اليهودية والنصرانية، وكوّنت للبشرية تاريخاً طويلاً، وستأتي أخبار بنيه الصالحين لاحقاً إن شاء الله تعالى.

قال أهل السّير والأخبار: إن الخليل سكن فلسطيناً مدة، ثم جاءت مجاعة حملته على الهجرة إلى مصر فدخلها وكان بها ملك جبار لا يسمع بامرأة حسناء إلا أخذها، وكانت سارة امرأة الخليل عليهما السلام قد أُوتيت حسناً وجمالاً، فكان ما تقدم في حديث أبي هريرة من أخذه إياها ومحاولته مسّها، فغطّ واختنق مراراً ثم تركها وأخْدَمَها هاجر، وردَّ الله كيدَه في نَحْرِهِ.

* * *

ولادة إسماعيل من هاجر عليهما السلام

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

رجع الخليل عليه السلام من مصر مصحوباً بزوجته سارة وخادمتها هاجر القبطيّة التي وهبها لها ذلك الجبار فرعون وقته، فاشتاق الخليل إلى ولد صالح يحنّ إليه ويساعده على دعوته، وكانت سارة عقيماً فوهبته هاجر فواقعها فبشّره الله عزّ وجلّ بأنه سيولد له غلام حليم، فحملت به هاجر ولما وضعته غارت منها سارة.

* * *

مهاجرة إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة

ولما اشتدّ الأمر بينهما على عادة الضرائر، وكادت سارة أن تبطش بهاجر أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يهاجر بهذه مع ابنها إلى جبال فاران، وهي مكة المكرمة.

فخرج بهما حتى أنزلهما عند شجرة قرب زمزم الحالي، فانقلب راجعاً وتركهما في أرض ليس بها أنيس ولا ماء ولا زرع ونادته: لمن تتركنا، فلم يلتفت إليها ولما علمت أن ذلك بأمر من الله قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم دعا الخليل ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الخ، فانصرف وبقيت هاجر ورضيعها، فنفد ما كان معهما من الزاد وجعلت تتطلع عند صخرات الصفا والمروة وتسعى بينهما علّها تجد من يُغيثها، فلم ترَ أحداً وبعد إتمامها سبعة أشواط جاءتها البشرى بنبع زمزم بجناح جبريل عليه السلام، فكان غذاءهم وشرابهم حتى ترعرع إسماعيل وماتت هاجر عليها السلام وتزوّج إسماعيل من الجراهمة الذين كانوا قد سكنوا معهم، وكان الخليل عليه السلام يتردّد إلى أهله ويتفقدهم المرة بعد المرّة ثم ينصرف، إلى آخر ما تقدم في حديث ابن عباس الطويل، وسيأتي في الفوائد بعض عبره إن شاء الله تعالى.

* * *

رؤيا إبراهيم ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

كان إسماعيل عليه السلام أول مولود لإبراهيم عليه السلام وبكره، ولما شبّ وصار يسعى في مصالحه أراد الله عزّ وجلّ أن يبتلي خليله بذبح ولده العزيز عليه فأمره بذبحه، فامتثل أمر الله وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده الضحية ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه، فبادر الغلام الحليم إلى موافقة ما أمر به والده، فقال له: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فلما استسلما لأمر الله عزّ وجلّ وعزما على ذلك وألقاه على وجهه ليذبحه من قفاه فلا يشاهده في ذبحه، فعند ذلك نودي من الله عزّ وجلّ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك لأمر الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، وأي بلاء أعظم من أن يؤمر الإنسان بذبح ولده، وفداه الله عزّ وجلّ بذبح وكبش عظيم، فذبحه بدلاً عن ولده، وبذلك انتهى هذا الامتحان الذي ليس وراءه امتحان إلا ما شاء الله عزّ وجلّ.

والقول بأن إسماعيل هو الذبيح هو قول أكثر العلماء، وهو ظاهر القرآن والتاريخ، فالقول بأنه إسحاق غلط.

* * *

بناء بيت الله الحرام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ الآية.

وقال جل علاه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

كان الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم بعد أن هاجر بإسماعيل وأمّه إلى مكّة، وهي جبال قاحلة لا ساكن بها ولا أنيس ورجع إلى بيت المقدس حيث كانت زوجته سارة، وكان يتفقد أهله بمكة فيأتيهم الآونة بعد الآونة، وتقلب الزمان، وكبر إسماعيل عليه السلام وتزوّج وتوفيت والدته هاجر، والخليل يأتيهم المرة بعد المرة من الشام على البراق، وفي إحدى زياراته لإسماعيل عليهما السلام بوّأه الله مكان البيت، أي: أرشده إلى موضعه، وكان ربوة من الأرض مرتفعة، كذلك خلقه الله منذ خلق السمٰوات والأرض، كما قدمنا في حديث الصحيحين: **«إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»**، فأمر الله عزّ وجلّ خليله ببناء بيت في تلك الربوة بمساعدة ولده إسماعيل عليه السلام، فرفعا قواعده وبنياه. واتفق جمهور العلماء على أن خليل الله إبراهيم عليه السلام هو أوّل من بنى هذا البيت، قال ابن كثير في البداية: ولم يجيء في خبر صحيح

عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسّك في هذا بقوله تعالى: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدّر في علم الله المقرّر في قدرته المُعَظّم عند الأنبياء موضِعُه من لدن آدم عليه السلام إلى زمن إبراهيم، فكان هذا البيت أوّل مسجد وضع في الأرض لعبادة الله تعالى، وكان أول من بناه الخليل وولده إسماعيل وهما يدعوان عند ذلك بما جاء في القرآن الكريم، وإخلاداً لأثر الخليل عليه السلام وإكراماً لهذا البيت العظيم أنزل الله عزّ وجلّ الحجر الأسود والمقام من الجنّة. أما المقام، فهو حجر مربّع كان يقوم عليه الخليل عندما ارتفع البناء، فكان له كالمصعد يرتفع وينزل به، وغاصت قدماه فيه معجزة وآية من آيات الله بقيت فيه كأثر لخليل الله عليه السلام ما بقيت الدنيا، وهو الموضوع الآن قبالة الكعبة داخل قبّة زجاجية شفافة يراها كل من يريدها من الطائفين بالبيت. أما الحجر الأسود، فوضع عند الركن اليماني الشرقي، وجعل هنالك كرمز لمصافحة الله، ولله المثل الأعلى تقدّس وتنزّه عن صفات المحدثات، ولما نزلا من الجنّة كانا ياقوتتين في الضياء، وتقدم في الحجّ حديث الحجر والمقام: «ياقوتتان من يواقيت الجنّة».

ولما بنى الخليل البيت أمره الله عزّ وجلّ بتطهيره من الأقذار الحسية والمعنوية للطائفين به والقائمين والراكعين الساجدين، كما أمره أن يؤذن في الناس بحجّه، وأن يأتوا من جميع الأقطار والجهات... وكان خطابه للأرواح إذ هي التي كانت موجودة، فأجابته: لبّيك اللّهمّ لبّيك... فكل من أجاب لا بدّ أن يأتي هذا البيت إما حاجّاً أو معتمراً.

* * *

وفاة الخليل وقبره عليه السلام

لا يعرف على التحقيق كم عاش الخليل عليه السلام ولا كيفية موته. نعم ظواهر نصوص القرآن الكريم تدلّ على أنه خلف بعده إسماعيل

وإسحٰق ويعقوب ولوطاً عليهم الصلاة والسلام، وجمهور المؤرخين على أنه أقبر في مدينة الخليل المعروفة اليوم. قال ابن كثير في البداية والنهاية: فقبره وقبر ولده إسحٰق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليهما السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم، وهذا تُلُقِّيَ بالتواتر أمة بعد أمّة، وجيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل، وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقاً، فأمّا تعيينه منها، فليس فيه خبر صحيح عن معصوم، فينبغي أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تُبَجَّل وأن تُجَلَّ أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحتها.

قلت: وقد زرت الخليل مرتين والحمد لله مرة عام (١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤)، ومرة ثانية عام (١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م)، ورأيت هنالك قبوراً عدة يقال إنها قبور الخليل وإسحٰق ويعقوب ويوسف وزوجاتهم، فالله أعلم بالواقع والأمر، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ثناء الله على الخليل والإشادة به

{٥٠٩} ـ عن جُنْدُب رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول قبل أن يموت بخمس: «**قد كان لي منكم إخوة وأصدقاء وإني أبرأ إلى كل خليل من خلّته، ولو كنت متخذاً خليلاً من أُمّتي لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن ربي اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً**».

رواه مسلم في المساجد (١٣/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٢٨/٦)، وفي الباب عن جماعة.

أبرأ أي: أمتنع، والخليل: الصديق والحبيب الخاص.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ﴾.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

لقد أشاد الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز وعلى لسان نبيّه المصطفى عليه الصلاة والسلام برسوله إبراهيم عليه السلام، وأثنى عليه الثناء الجميل في كثير من الآي إما مفرداً وإما مع من سبقه كنوح عليه السلام، ومن تناسل منه من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

فهو خليل الرحمٰن الذي ما حظي بهذه الصفة أحد غيره وغير نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليها وآلهما وسلم، وهو المصطفى في الدنيا ومن الصالحين في الآخرة، وهو الذي ابتلاه الله عزّ وجلّ بكلمات من تكاليفه الشاقة فوفى بها، وهو الذي جعله الله عزّ وجلّ إماماً للناس من جميع أهل الملل والديانات الإلٰهيّة، فالكل ينتمون إليه ويقتفون أثره ويفخرون باتّباعه... ويمدحونه ويثنون عليه ويؤمنون به، وهو الذي جعل الله

عزّ وجلّ في ذريته النبوّة والكتب والصحف، فكل من جاء بعده من الأنبياء ورسل الله عليهم السلام فمن نسله، وكل كتاب إلهيّ بعده نزل على أولاده وأعقابه.

وهو الذي أشاد الله به مع ولديه إسحٰق ويعقوب المبشّر بهما من قبل الله تعالى، الذين أخلصهم بخالصة ذكرى الدار وجعلهم من المصطفين الأخيار، فعليه وعلى نبيّنا وعليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليم.

❊ ❊ ❊

إسماعيل عليه الصلاة والسلام

{٥١٠} ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على قوم من أسلم وهم يَتَنَاضَلُون في السُّوقِ، فقال: «**ارْمُوا يَا بَنِي إسماعيلَ، فإنّ أَبَاكم كان رامياً**» الحديث.

رواه البخاري وغيره، وتقدم في الجهاد رقم (٢٩٢).

يتناضلون أي: يترامون أيهم يسبق. في الحديث أن إسماعيل أبٌ لبعض عرب اليمن.

{٥١١} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمّة ورَحِماً**». وفي رواية: «**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمّة ورحماً**» أو قال: «**ذمةً وصهراً**».

رواه أحمد (٥/١٧٣، ١٧٥)، ومسلم في الفضائل باب وصية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأهل مصر (١٦/٩٦، ٩٧)، ورواه الحاكم (٢/٥٥٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/١٣٤) عن كعب بن مالك بلفظ:

«إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمةً ورحماً» وسنده صحيح.

القيراط: جزء من الدينار أو الدرهم، واستوصوا أي: اقبلوا وصيّتي فيهم، أو ليوص بهم بعضكم بعضاً، والذمّة أي: ذمّة الإسلام وعهده، وهي التي دخلوا بها أيام عمر عندما فتحت فإنها فتحت صلحاً، والرحم هنا لكَوْن هاجر أمّ إسماعيل عليهما السلام من مصر، كما تقدم في قصة إبراهيم وسارة مع ذلك الجبار.

أما الصهر، فإن مارية التي كان أهداها المقوقس للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت مصرية قبطية.

قد قدمنا أن نبيّ الله سيدنا إسماعيل عليه السلام كان بكر أبيه وأول مولود له، وكان من هاجر التي وهبتها له زوجته سارة، وكانت ولادته ببيت المقدس، ومنه هاجر به مع أُمّه إلى مكة المكرمة، وبها عاش وتوفي ودُفن كوالدته، وكان من جملة المرسلين بعث إلى عرب الجزيرة، ولم يأتِ نبيّ لهم بعده، حتى جاء الخاتم حبيبنا المصطفى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم وحده مفرداً وأثنى عليه، كما ذكره مع والده في قصته في بناء البيت، وفي قصة ذبحه كما تقدم كما ذكره مع الأنبياء عموماً، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

فقد وصفه الله عزّ وجلّ في هذه الآية بأربع صفات كل واحدة منها لها شأن:

أولاها: صدق وعده وعدم خلفه لذلك، ولا أوفى من صبره على الذبح وتسليمه نفسه لوالده طاعة لله ليذبحه امتثالاً لأمر الله تعالى بذلك.

ثانيها: وصفه بالنبوّة والرسالة، ويا لها من صفة.

ثالثها: كان يحض ويحثّ أهله على أداء شعائر الدين، وخاصة أمهاتها؛ كالصلاة والزكاة.

رابعها: نيله رضاء الله عزّ وجلّ، وهذا نهاية المدح، فإن الغاية القصوى التي يتطلع إليها كل عبد مؤمن، هي أن يكون عند الله مرضيّاً، ومن كان كذلك كان من الفائزين.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

فذكره مع هذين النبيين العظيمين ووصف الثلاثة بأنهم من الأخيار، والمراد: من أكابر الأخيار، وهم صفوة الخلق من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

❊ ❊ ❊

من فوائد قصة إبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام

قصة الخليل عليه الصلاة والسلام من أروع القصص القرآنية، وفيها من العبر والذكريات والذكرى ما لا يخفى على من تدبّرها وأمعن النظر فيها، وإلى القارىء بعض ما يؤخذ منها؛ ففيها ما قام به من دعوة أبيه وقومه زمناً غير قليل يحاورهم في الله ويرشدهم إلى الإيمان به وترك التماثيل والأصنام، فردّوا دعوته وحاججوه وناظره طاغيتهم وهو في كل ذلك يقابلهم بالحكمة والنزاهة، إلى أن أيِسَ منهم، فضحى بحياته وقام بتحطيم أصنامهم وتكسيرها قطعاً قطعاً، فأخذوه وألقوه في النار، فأنجاه الله منها وجعلها عليه برداً وسلاماً.

وفيها مع معجزة عدم تأثير النار فيه: أن الحيوانات كلها كانت في صفه تدافع عنه بإطفاء النار حتى الضفدع، غير الوزغ، فإنها كانت في صف الكفار تنفخ النار، فلذلك أمرنا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقتلها، ورتّب على ذلك الأجر الجزيل، كما يأتي في الأدب.

وفيها هجرته من العراق مسقط رأسه إلى حران ثم الشام، وكان أول من هاجر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم توالت هجرة الأنبياء حتى خاتمهم سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفيها إنعام الله تعالى عليه بالأولاد عوض ما فقده من أهل وأقارب في بابل.

وفيها دخوله مصر ولا ندري السبب في ذلك، علماً بأن الإسرائيليين يزعمون أن السبب كانت المجاعة التي نزلت ببلاد كنعان من الشام، فالله تعالى أعلم.

وفي قصته عليه السلام مع ذلك الطاغية في شأن زوجته سارة عِبَر ومعجزات خاصة، ففيها جواز الكذب للمصلحة مع التعريض، وفيها حفظ الله عزّ وجلّ لأوليائه الصالحين وزوجاتهم من كيد الكائدين وغيرته عليهم وحمايتهم مما يخدش كرامتهم وأعراضهم، وفيها فضل سارة وانتقام الله تعالى لها من ذلك العدوّ واختناقه كلّما أراد مسّها، وهذا من عظيم عناية الله تعالى بها واستجابته لها كلما صلّت ودعت، وفيها أن السيدة هاجر عليها السلام أصلها مصرية قبطية، وهو الذي صرّح به حديث مسلم عن أبي ذرّ الذي ذكرناه قريباً، وفيه: «**فإن لهم رحماً**»، والمراد بالرحم هي هاجر، فالمصريون الأقباط أخوال العرب، فينبغي البرور بهم والإحسان إليهم والتواصي بهم، ولا سيّما المسلمين.

وفي قصة هاجر مع سارة عندما ولد إسماعيل من هاجر عِبَرٌ أيضاً وفوائِدُ هامّة، فمنها بيان أن النساء مجبولات على الغيرة بينهنّ، وأن الضرائر مهما بلغن في الصلاح والتقوى لا يخرجن عن ذلك، وفي حياة أُمّهات المؤمنين نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نماذج في ذلك، ولكنهن لم يصل بهنّ الأمر إلى ما بلغ من سارة مع هاجر، فإنها أرادت البطش بها، ولذلك أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يُهاجِرَ بها إلى جبال فاران بمكة، فلم يجتمعا بعد قط ولم يلتقيا.

ومنها ما كان عليه الأنبياء وذووهم من التوكّل والاعتماد على الله

تعالى والثقة به، وإلا فمن هذا الذي يترك امرأة في القفار بين جبال قاحلة ليس معها غير رضيعها، وأين توجد هذه التي تثِقُ وتصبر على الوحدة في تلك الأماكن، ولكنها الثقة بالله تعالى والتوكّل عليه مع العناية الإلٰهيّة والتوفيق الربّاني.

ومنها فضل السيدة هاجر وتمام يقينها ومعرفتها بالله وصبرها على الغربة وضيق العيش، ولذلك أكرمها الله تعالى بأن جعل آثارها شعائر للحجّ يَقْتَدِي بها فيها كلُّ من جاء بعدها من الأمم التي تدين بدين الإسلام، وخاصّة الأمّة المحمدية، فالسعي بين الصفا والمروة أثر من آثارها جُعل واجباً إسلامياً، وشَعِيرَةً من شعائر الحجّ والعمرة لا يصح واحد منهما إلا مع السعي بينهما إشادة بذلك البيت الطاهر وإخلاداً لذكراهم.

وقد اختلف العلماء في نبوّة هاجر كباقي النسوة الأُخريات، مثل حواء وآسية وأمّ موسى ومريم عليهنّ السلام، فذهب جماعة إلى نبوتهنّ، وبه قال أبو الحسن الأشعري وابن حزم وغيرهما، وذهب الجمهور إلى أن النبوّة خاصة بالرجال حتى قال سراج الدين الفرغاني في بدء الأمالي: وما كانَتْ نَبِيّاً قطّ أُنثى، ولا عَبْدٌ وشَخْصٌ ذُو افتِعَال.

ومنها أن الملائكة قد تكلم الصالحين وتتراءى لهم وتبشّرهم بما هم له أهل، وفي ذلك أحاديث تشهد له، جمعها الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبيّ والملك».

ومنها فضل زمزم وأن ماءها أثر ضربة جبريل عليه السلام، وهي آية من آيات الله الباهرة عند بيت الله الحرام، وماؤها أشرف ماء على وجه الأرض، وهي عين معين عبر الأجيال والأعصار منذ انفجارها.

ومنها أن هذا الماء يكفي للتغذية وحده، وقد عاشت به هاجر وولدها مدة طويلة.

{٥١٢} ـ ولذلك جاء في الحديث الذي قدّمناه في الحج عن رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شأن زمزم: «**هي طعامُ طُعْم، وشفاءُ سُقْمٍ**»، رواه الطيالسي ومسلم وغيرهما، وسيأتي في قصة إسلام أبي ذرّ أنه

بقي بمكة شهراً ليس له غذاء إلا زمزم، رواه البخاري في المناقب.

ومنها دعاء الخليل مع أهله وذرّيته وسؤاله ربّه أن يخرج منهم رسولاً يتلو عليهم آياته فاستجاب الله دعاءه في ذلك كله، وفيها غير ذلك.

وفي حديث ابن عباس في صور إبراهيم وإسماعيل ومريم داخل الكعبة الخ، وأمره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمحوها وامتناعه من دخول الكعبة: مشروعية محو آثار الصور وإزالتها وعدم الدخول لمحلات وجودها، وقد قدمنا بعض هذا في اللّباس والزينة، ويأتي بقيّته في الأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

سيدنا لوط عليه السلام

{٥١٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يَرْحَمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ، فما بَعث الله مِن بعده نبيّاً إلا في ذِروة من قومه»**، وفي رواية: **«إلا في ثروة من قومه»**، وفي رواية: **«إلا في مَنَعَة»**.

رواه أحمد (٣٢٦/٢، ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٨٩)، والبخاري في الأنبياء (٢٢٦/٧) وفي التفسير، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في الكبرى (٣٦٩/٦) وغيرهم بألفاظ مطولاً ومختصراً.

ركن شديد أي: قوة، والمراد بالركن هنا جانب الله عزّ وجلّ، والذّروة ـ بكسر الذال وضمّها ـ أعلى الشيء، والثروة ـ بفتح الثاء ـ الغنى والسعة، ومنعة ـ بفتحات ـ هي القوة.

{٥١٤} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ وَجَدْتُمُوه يَعْمَل عمَلَ قومِ لُوطٍ فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ بِهِ»**.

رواه أحمد رقم (٢٧٢٧، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٣٢٥)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والحاكم (٤/٣٥٥)، والبيهقي (٨/٢٣٢) بسند حسن صحيح وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي.

قد قدّمنا أن سيدنا لوطاً عليه السلام هو ابن أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهو ابن هَارَان بن آزَرَ، وكان قد آمن بعمّه الخليل عليهما السلام وهاجر معه إلى حاران ثم إلى بيت المقدس، ومن ثم أرسله الله تعالى إلى مدينة سَدُوم حيث البحر الميّت اليوم، وموقع ذلك جنوب الأردن لجهة الغرب، وكان أهل سدوم أفجر الناس وأرذلهم وأسقطهم حيث كانوا يأتون الرجال في أدبارهم، فنهاهم عن ذلك، فأصروا على فاحشتهم حتى أهلكهم الله عزّ وجلّ كما فصّل ذلك في كتابه الكريم، وقد جاءت قصتهم مبسوطة في عدة سور، وهي كالآتي:

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال في هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

وقال في النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال في الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام

عليم: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

قام نبيّ الله لوط عليه السلام يدعو قومه فخاطبهم أولاً بدعوة جميع الرسل عليهم السلام، فقال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٨﴾﴾، فأمرهم بتقوى الله من كفرهم وفجورهم وأخبرهم بأنه جاءهم رسولاً مبعوثاً إليهم من عند الله أميناً على ما حمّله الله، ثم أنكر عليهم ثانياً ما يأتونه من تلك الفاحشة النكراء من إتيان الذكور في أدبارهم دون النساء والأزواج التي خُلِقْنَ لهم، وقال لهم: إنكم قوم مسرفون قد تجاوزتم ما جعله الله تعالى لكم من النساء إلى ما لا يحلّ لكم من الذكور، ولا يجمل بالعاقل أن يأتيه فأنتم قوم معتدون حيث إنكم تفعلون فاحشة ما سبقكم بها أحدٌ من العالمين مع ما أنتم عليه من قطع الطريق بالذكور وإتيانكم المنكر في ناديكم من اللواط الجماعي، فما كان جوابهم بعد هذه النصائح والإرشادات إلا أن قالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون، فجعلوا المدح ذمّاً والقذارة والنجاسة طهارة وصارحوه قائلين: لئن لم تنته يا لوط عما تنهانا عنه وتدعونا إليه لتكوننّ من المخرجين من قريتنا ونطردك من بين ظهرانينا، وقالوا ساخرين به: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين.

فلما أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم لنبيّهم وتماديهم على ما جُبِلُوا عليه من إتيان الرجال، قال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾، فبعث الله تعالى ملائكته المقرّبين، فمروا على خليل الله إبراهيم

عليه السلام فظن أنهم ضيوف من البشر، فبشروه بالغلام العليم، ثم قالوا لـه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾، فقال لهم إبراهيم: إن فيها لوطاً قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فانصرفوا وأتوا لوطاً في صورة ذكور مُرْدٍ حِسَانِ الوُجُوه فأضافهم، فجاء القوم مسرعين فرحين يريدونهم فأحاطوا به وراودوه أن يسلّمهم إياهم، فحاورهم في شأن ضيوفه، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾، أي: ألم ننهك أن تضيف أحداً ممن جاءك من الذكور أو تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بما نريد منه.

قال: يا قوم اتركوا ضيوفي، وهؤلاء بناتي تزوّجوا بهنّ فإنهن أطهر لكم واتّقوا الله، أليس فيكم رجل رشيد عاقل يمنع القبيح، قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: ليس لنا فيهن رغبة ولا حاجة، وإنك لتعلم ما نريد، أي: أنك لتعلم غَرَضَنا وهَدَفَنا، كل هذا وهو يظنّ أن الملائكة رجال من البشر، ولما اشتدّ عليه الأمر وساءه ما رأى وضاق بذلك ذرعاً، وقال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾، أي: لو كانت لي قوة أستطيع أن أدافع أذاكم بها، أو كانت لي عشيرة وأنصار تنصرني عليكم لبطشت بكم، فلما رأى الملائكة تَحَرُّج لوط وقَلَقَه، قالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، فخرج لوط وأهله المؤمنون، ولم يكن فيهم بيت مسلم مؤمن غير بيته، فلما جاء أمر الله بعذابهم، وكان ذلك وقت الصبح أمَرَ الله تعالى أولئك الملائكة أن يرفعوا قرى أولئك الكَفَرة الفجرة إلى عنان السماء، ثم يقلبونها، فأصبح ما كان عاليها سافلها، وأتبعوها بحجارة من سجيل، أي: طين صَلْب مَشْوي بالنار متتابعة معلمة بعلامة من يرمي بها، فأهلكهم الله جميعاً ولم ينجِ منهم أحد غير لوط وأهل بيته المؤمنين. أما زوجه، فكانت من الهالكين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾،

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وهنا انتهى أمرهم، فكانت العاقبة للوط وأهله المؤمنين والدمار والعذاب والخزي للقوم الكافرين الفاسقين.

❊ ❊ ❊

من فوائد قصة لوط عليه السلام

في هذه القصة عدة فوائد وعبَر نجملها في الآتي:

فمنها: أن لوطاً عليه السلام لم يكن من نسب قومه أهل سدوم، وإنما هو من أهل العراق من نسب إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما تقدم.

ومنها: أن الأنبياء قد يتوافرون في وقتٍ واحد، وهذا لا يحتاج إلى استدلال، فإن ذلك من اليقينيات.

ومنها: أن الأنبياء بعد لوط كانوا يبعثون في قوّة ومنعة من قومهم ليؤيدوهم وينصروهم.

ومنها: شفقة الخليل عليه السلام على لوط ومن معه حيث تحاور مع الملائكة في إنزال العذاب بقوم لوط...

ومنها: أن اللّواط أول من أحدثه قوم لوط، كما هو نصّ القرآن الكريم.

ومنها: أن مدينتهم أصبحت بحيرة منتنة على مرّ العصور والأجيال حتى يومنا هذا، وفي ذلك عبرة لمن يتعاطى هذه الفاحشة.

ومنها: جفاء قوم لوط وقسوتهم الشديدة، وأنهم لم يؤمن منهم أحد غير بيت لوط.

ومنها: أن الملائكة قد تتشكل في صفات بني آدم، وفي هذا أدلّة كثيرة.

ومنها: أن من أحبّ شيئاً أعماه وأصمّه وتعلّق به، ودافَعَ عنه، ولو كان في مُنْتَهَى السقوط والنذالة والقذارة.

ومنها: أن الضيافة من سنن الأنبياء، وكان الخليل إمامهم فيها، وتبعه ابن أخيه لوط عليهما السلام.

ومنها: كفر زوجة لوط وانحيازها إلى قومها الكفرة حتى أهلكها الله مع الكافرين، ولم ينفعها إيمان زوجها لوط ونبوّته كما حصل ذلك قبلها من زوجة نوح عليه السلام، كما ضرب الله المثل بهما في القرآن للكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فخانتاهما، يعني: أنهما كفرتا وكانتا تبلغان قومهما أخبار زوجيهما... وفي ذلك عبرة أي عبرة.

ومنها: استدلّ جماعة من أهل السلف وغيرهم بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، بأن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ لأن المؤمنين المخرجين هم المسلمون الموجودون، وقد قدمنا البحث في هذا في الإيمان، فارجع إليه.

ومنها: اختلف العلماء في حدّ اللوطي، فالأئمّة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه يقتل مطلقاً كالمفعول به، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى في الحدود، فارجع إليه.

❊ ❊ ❊

إسحق، يعقوب، يوسف عليهم الصلاة والسلام

{٥١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن**

نبيّ الله ابن خليل الله»، وفي رواية: **«إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم»**.

رواه البخاري ومسلم بالرواية الأولى، وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهما بالرواية الثانية، وتقدم في قصة الخليل وفي الإيمان.

{٥١٦} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه أنه سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أول مسجد وضع للناس أول، قال: **«المسجد الحرام»**، قلت: ثم أيّ؟ قال: **«المسجد الأقصى»**، قلت: كم كان بينهما؟ قال: **«أربعون عاماً»**...

رواه أحمد والشيخان، وتقدم في التفسير وفي قصة إبراهيم.

إسحٰق ويعقوب جاء ذكرهما في القرآن الكريم في غير ما سورة، وبشر الله بهما خليل الرحمٰن بواسطة الملائكة في طريقهم إلى إهلاك قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال عزّ من قائل في شأن إسحاق وحده: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾، في صَرَّة: أي صيحة وضجة. فصكّت وجهها أي: لطمته بيدها تعجباً.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ الآية.

وقال تعالى فيهما أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾...

فهذه الآيات كلها سيقت لبشارة الخليل وسارة بابنيهما العظيمين إسحٰق ويعقوب، وأنهما هبة لهما من الله عزّ وجلّ، وقوله: نافلة أي: زيادة زاده الله تعالى إياه على إسحٰق.

فقد كان الخليل إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام قد تقدم في السن كزوجته سارة، ولم يولد لهما شيء، ولما أُهديت له هاجر دعا الله عزّ وجلّ أن يهب له ولداً صالحاً، فبشّره بغلام حليم، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فكان إسماعيل عليه السلام، ولما غارت سارة من هاجر وذهب بها وبابنها إبراهيم عليهم السلام إلى جبال فاران، ورجع بشرهما الله تعالى بغلام آخر من سارة وزادهما ولداً آخر حفيداً لهما، فجاء إسحٰق ثم عاش فتزوج وجاء ثانياً يعقوب وولدا معاً في حياة سيدنا إبراهيم وزوجه سارة عليهم السلام، وكان ذلك من آيات الله الباهرة ورحمته وبركاته على بيت النبوّة حيث وهب الله تعالى له إسماعيل وإسحٰق على كبر سنّه، كما قال جلّ ثناؤه عنه وهو يحمده على ما أعطاه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

وكان كل من إسحٰق ويعقوب وإسماعيل كالخليل ونوح قبله والخاتم بعده من كبار الأنبياء الصالحين الذين أكرمهم الله عزّ وجلّ بوحيه الإلٰهي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

وكانوا من جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم وبما نزل عليهم من الكتب والصحف، كما قال جلّ علاه: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

وأثنى عليهم سبحانه وتعالى الثناء الجميل بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

وجاء ذكر الجميع في وصية إبراهيم ويعقوب بنيهما، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾، وسيأتي ذكر يعقوب عليه السلام في قصة ابنه يوسف عليه السلام مراراً.

* * *

من فوائد وعبر قصتي إسحاق ويعقوب عليهما السلام

أولاً: إسحٰق ويعقوب من أكابر الكرماء أباً عن جد، والكرم هنا هو النبوّة والعلم والدين والشرف، ولا أكرم من ذلك عند الله عزّ وجلّ.

ثانياً: في حديث أبي ذرّ دليل على أن أول بيت أسّس في الأرض لعبادة الله تعالى هو بيت الله العتيق بمكة المكرمة، وأن أوّل من بناه الخليل كما قدمنا، ثم كان بعده المسجد الأقصى، وكان بينهما أربعون عاماً، وجمهور العلماء والمؤرخين أن بانيه الأول يعقوب عليه السلام، وليس سليمان عليه السلام كما قيل، فإن هذا كان جدّده فقط، كما يأتي في ترجمته.

ثالثاً: إن كلاً من إسحٰق ويعقوب عليهما السلام ولدا ببيت المقدس في حياة إبراهيم وسارة عليهما السلام.

رابعاً: من إكرام الله عزّ وجلّ للخليل وأولاده إسماعيل وإسحٰق ويعقوب عليهم السلام أن جعل عزّ وجلّ النبوّة والكتاب في أولادهم، فما من نبي جاء بعدهم وهم ألوف الآلاف إلاّ كان من ذرّيتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

خامساً: إسرائيل الذي تنتسب إليه اليهود هو يعقوب عليه السلام، وهو أبو الأسباط الذين تفرّعوا من أولاده الإثني عشر.

سادساً: لقد امتحن يعقوب امتحاناً عظيماً بفقدان ولده يوسف عليهما السلام، كما يأتي عقب هذا، فصبر وبكى حتى عمي.

سابعاً: في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ هو كالنص في أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه من المستحيل الذي ينزه الله تعالى عنه أن يبشّر خليله بولد وولد لهذا ثم يأمره أن يذبح الولد الأول، فهذا يجل عنه مولانا العظيم.

ثامناً: الجمهور أن قبر إسحٰق ويعقوب عليهما السلام مع إبراهيم في مدينة الخليل.

* * *

يوسف عليه السلام

{٥١٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرحمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لَبِثْتُ في السّجْنِ ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجَبْتُه**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٢٩/٧).

وتقدم حديث ابن عمر: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام**»، رواه البخاري وغيره.

{٥١٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لها: «**مري أبا بكر يصلّي بالناس**»، قالت: إنه رجل أسيف متى يقم مقامَك رقَّ، فعاد فعادت، فقال في الثالثة أو الرابعة: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٢٨/٧) وفي مواضع.

قد قدمنا أن أكرم الناس من الأقدمين هؤلاء الأربعة الذين منهم يوسف وكَرَمُهم هو النبوة والعلم والتقوى وشرَفُ النسب، وكانوا جميعاً من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

وسيدنا يوسف عليه السلام قصته عجيبة وغريبة من نوعها ليس لها مثيل في قصص القرآن لا في أسلوبها، ولا في معناها ولا في ذكرها.

وقد جرت عادة القرآن أن يذكر كل قصص الأنبياء مفرّقة في عدة سور بألفاظ وأساليب مطوّلة ومختصرة حسب الذكرى والعظة والعبرة وتسلية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتثبيت قلبه الشريف.

أما قصة يوسف عليه السلام فجاءت مفردة في موضع واحد، وسورة خاصة أطلق عليها سورة يوسف.

ويتجلّى فيها شدة البلاء الذي أصاب يوسف وأباه يعقوب عليهما السلام، فقد فَقَدَ يعقوب ولده العزيز وبكى عليه حتى عمي وذهبت عيناه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، وطال بلاؤه عدة عقود، لكنه لم ييأس من روح الله، فإنه كان متيقّناً بالفرج ورجوع ولده إليه واتّصاله به. أما يوسف عليه السلام، فتوالت عليه سلسلة من البلايا والنكبات والمحن: بلاء حسد إخوته وكيدهم، وبلاء إلقائه في الجبّ، وبلاء بيعه بثمن بخس، حتى أصبح عبداً وغلاماً لعزيز مصر وبلاء تعلق قلب امرأة العزيز به وعشقها إياه، وبلاء مراودتها عن نفسه بشتى طرق الإغراء، وبلاء اعتقاله وسجنه، فلقي كل ذلك بالثبات والصبر حتى جاءه الفرج والأنس والطمأنينة كوالده يعقوب عليهما السلام الذي قال الله تعالى عنه؛ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

* * *

بداية قصة يوسف عليه السلام

كان لنبيّ الله يعقوب عليه السلام اثنا عشر ذكراً عشرة منهم أشقّاء،

واثنان من الأب هما يوسف وبنيامين، وكان يوسف عليه السلام أحبّهم إلى أبيه فغاظ ذلك إخوته العشرة، فتآمروا عليه فيما بينهم وأرادوا إقصاؤه عن أبيه ولو بالقتل... وكان من العوامل التي زادتهم حسداً رؤيا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فحذّره والده من قصّها على إخوته، فيكيدوا له كيداً، وبيّن له بأنه سيكون له مستقبل زاهر، وأن الله سيصطفيه بالنبوّة ويعلّمه تفسير الرؤيا وسيتمّ نعمته عليه وعلى آل أبيه كما أتمّها على إبراهيم وإسحٰق، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله؛ ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

فتآمر الإخوة على يوسف عليه السلام وبيّتوا له ولأبيه كيداً، فأتوا أباهم وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى المراعي ليلعب ويمرح ويتمتّع بالأكل والشرب معهم، وأكّدوا له أنه لن يصيبه ما يكره في حقّه، فأجابهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾، فأجابوه بما طمأنوه من مكرهم وكيدهم، فلما سلمه لهم وغابوا عنه قال بعضهم: نقتله، وقال أعقلُهم: ألقُوه في أسفل الجبّ وغَوره، فلعلّ قافلة تلتقطه منه وتحمله معها فألقوه في الجبّ، فأوحى الله إليه وهو في الجب: لتخبرنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

ولما نفذوا مؤامرتهم عمدوا إلى قميص يوسف ولطّخوه بدم كذب، فأتوا أباهم مساء متظاهرين بالبكاء والحزن، وقالوا: يا أبانا إنا مضينا نستبق في الجري والرمي وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب... فأجابهم أبوهم قائلاً: بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً خطيراً فأنا صابر عليه الصبر الجميل، ومن الله تعالى وحده أطلب العون.

وفي هذه الجمل يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

اطمأنّ يوسف عليه السلام في غور الجبّ ترعاه عناية الله عزّ وجلّ، فكان من قدر الله أن مرّت قافلة تجارية قاصدة مصر فبعثوا واحدهم ليأتي لهم بالماء من البئر، فلما ألقى دلوه تعلق به يوسف عليه السلام حتى خرج من البئر، ففرح به الرجل الساقي وقال: يا بشراي هذا غلام، فأخفوه بين أمتعتهم وجعلوه من بضاعتهم، ولما وصلوا إلى مصر باعوه بدراهم قليلة، وكان الذي اشتراه عزيز مصر ووزير الملك، فأرسله إلى بيته وأوصى زوجته به خيراً، ومكث يوسف في بيت الوزير من طفولته إلى أن ترعرع وشبّ، فآتاه الله تعالى حكماً وعلماً، اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

كان نبي الله الكريم يوسف عليه السلام قد أعطي شطر الحسن، كما جاء في حديث الإسراء.

{٥١٩} ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أُوتيت بالبراق وهي دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه**... وفيه: **ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قال؛ ومن معك؟ قال؛ محمد، قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم، ثم ذكر السماء الثانية ثم الثالثة، قال: فإذا أنا بيوسف صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإذا هو قد أعطي شطر الحسن**» الحديث، رواه أحمد والشيخان وتقدم في تفسير الإسراء مطولاً.

هذا هو الذي حمل امرأة العزيز على الافتتان بيوسف عليه السلام إنه الحسن والجمال في عنفوان الشباب، فرأت وشاهدت ما لم تصبر عليه، فراودته وطلبت منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وغلّقت الأبواب ونَادَتْهُ: تعال وهلمّ، فعاذ بالله من ذلك ثم همّت به عازمةً على الفاحشة لطغيان حبّه وعشقه على قلبها، وهمّ بها، أي: مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وحدّثته نفسه بذلك دون عزم وقصد، فصرف الله تعالى عنه الفجور والمنكر لأنه من عباد الله

الذين أخلصهم لنفسه، ثم هرب منها يريد الباب فجرت وراءه وأخذته من ورائه وشقّت قميصه من دبر، ووجد العزيز عند باب القصر فجأة، فعاين ما راعه، ولمهارة فائقة من المرأة قلبت التهمة على يوسف، فشكته إلى زوجها بأنه يريد السوء بأهله، وما جزاء فاعل ذلك إلا السجن أو العذاب، فدافع الكريم عن نفسه مع وجود الشاهد والقرائن، ولكن بدون جدوى، حصل هذا الحادث في بيت الوزير، فبلغ ذلك نساء المدينة، فتكلّمن في امرأة العزيز ولُمْنَها على ذلك، فبعثت إليهنّ وهيّأت لهن موضعاً للجلوس وقدمت لهن الأطعمة والفواكه والسكاكين، فلما أكلن وجعلن يقطعن الفواكه قالت ليوسف: اخرج عليهنّ، فلم يشعرن إلا ويوسف يمرّ من بينهنّ، فلما شاهدنه رأين ما بَهَرَهُنَّ من كمال الجمال الذي ما رأينَ مثلَه، فأعظمْنَه ودهشن وبدل أن يُقَطِّعْنَ الفاكهة جعلن يُقطعن أيديَهن ولا يشعُرن بذلك، فقلن: حاش لله، أي: تنزّه الله عن صفات العجز وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله، ليس هذا بشراً وما هو إلا ملك من الملائكة، قالت امرأة العزيز: وهذا هو الذي لُمْتُنَّني وعاتَبْتُنَّني في حُبّه وعِشقه، فانظرن ما لقيتُنَّ منه من الافتتان والدهش والإعجاب.

ثم سأل يوسف الكريم عليه السلام دخول السجن الذي هدّد به مؤثراً له على الوقوع في الفاحشة، فاستجاب الله تعالى له فصرف عنه كيد النساء، وفيما ذكرناه جاءت الآيات من قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولما شاعت الفضيحة في أرجاء المدينة رأى الوزير أنه لا يخلصهم من هذا العار إلا إقصاء يوسف عن بيت الوزارة وإدخاله السجن إلصاقاً للتهمة به، رغم أنه ثبتت لديهم براءته وعفّته.

دخل يوسف عليه السلام السجن ظلماً ودخل معه فتيان من خدم الملك، وبعد زمن رأى كل منهما رؤيا كان يوسف عليه السلام هو معبرهما شاع بين المساجين فضل يوسف وعلمه وأنه من بيت عريق النسب، وجعل يدعوهم إلى الله تعالى ويبيّن لهم بطلان الإشراك بالله الذي لا يرتكز على برهان، اقرأوا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ

حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

خرج الفتيان من السجن وصدقت رؤياهما، فمكث يوسف بعدهما سنين عدة، ولما أراد الله عزّ وجلّ الفرج عنه وإظهار فضله للعموم، رأى الملك رؤيا هالته وأفزعته عرضها على الكهنة والحكماء، فلم يعرفوا لتعبيرها معنى، فنمي إلى الملك بأن في السجن رجلاً له علم بالتعبير، فبعث إليه بالرؤيا فعبّرها أحسن تعبير، وكانت الرؤيا كالتالي: رأى سبع بقرات سمان وسبع عجاف، والعجاف يأكلن السمان، وسبع سنبلات خضر وسبع يابسات، وهذه السبع أيضاً تأكل الأُخريات الخضر.

فقال له: تأتيكم سبع سنين خصبة، ثم تأتي بعدها سبع شداد، ثم يأتي بعد السنين المجدبة عام خصب يغاث فيه الناس بالمطر وتجود الأرض بالغلّات الوفيرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

لما بلغ الملك تفسير الرؤيا أمر بإخراج يوسف من السجن وأن يأتيه، فأبى أن يخرج حتى يعلم الملك سبب سجنه وترتفع عنه التهمة ويستدعي النسوة مع زليخا ويستفسرهن في شأنه، فأرسل الملك إلى النسوة واستوضحهن حقيقة ما يعلمن عن يوسف، وكان ذلك بحضور امرأة العزيز، فبرأن ساحته وقلن ما علمنا عليه من سوء، وقالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أي: اتّضح وتبيّن.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولما وقف الملك على براءة يوسف وتحقق فضله وأمانته وعلمه استخلصه لنفسه، وجعله أميناً على الخزائن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

خرج يوسف من السجن وأفرج عنه وأصبح ذا مكانة عند الملك، وصدق الله رؤيا الملك، وجاءت السنون المجدبة فأصابت المجاعة أهل كنعان الذين كان منهم يعقوب وأولاده، وسمعوا بوجود الخير والرزق في مصر، فطلب يعقوب من أولاده أن يذهبوا إليها ليأتوا بما يقتاتون به من قمح وشعير، دخلوا مصر وهم عشرة إخوة سلالة الكرام يملأون العيون، فدخلوا على يوسف فعرفهم وسألهم عن بلادهم وعائلتهم، فأكرم ضيافتهم وزوّدهم بالعطاء الوفير ووضع بضاعتهم في رحالهم، وطلب منهم أن يأتوه مرة أخرى بأخيهم الصغير، وأكّد عليهم بأنهم إن لم يأتوه بالأخ فلا حظّ لهم في الميرة وأن لا يقربوه، رجعوا إلى أبيهم وقصوا عليه خبر يوسف وما قابلهم به من حفاوة وإكرام، وأنه سألهم أن يأتوه بأخيهم وعرفوا والدهم بأنهم إن لم يصحبوه معهم فسيمنعون من الميرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في الرحلة الثانية، وبعد أخذ وردّ سلّمه لهم وأخذ عليهم العهد أن يعيدوه وأن لا يمنعهم عن ردّه مانع إلا أن يهلكوا، خرجوا ومعهم بنيامين وقد زوّدهم والدهم بوصايا هامّة، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه وعرفه بأنه أخوه، فأكرم ضيافة إخوته، وكالعادة أعطاهم الميرة بدون مقابل، لكنه في هذه المرة احتال عليهم ليبقي بنيامين عنده، فأمر بوضع المكيال في رحل أخيه، ثم نادى منادٍ بأن العير سرقوا صواع الملك، فكانت النهاية تفتيش الأمتعة وحكم الإخوة بأن من وجد عنده أخذ في مقابله، فجعل الخدم يفتّشون، وكان آخر الرحال تفتيشاً رحل بنيامين، فاتّهم بالسرقة فأخذه يوسف رغم أن إخوته حاولوا أن يعطوه واحداً منهم بدله فأبى، انصرف الإخوة وقد تركوا أخاهم بنيامين محبوساً في مكيال الملك، وأخاهم آخر وهو الأكبر منهم امتنع من الرجوع إلى والده بلا أخيه وأوصاهم بأن يبلغوا أباهم أن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا.

وفي كل ذلك جاءت الآيات: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

رجع الإخوة إلى أبيهم بدون أخيهم بنيامين، فهيج خبرُ ما وقع لولده

أحزانه وضاعف آلامه لفقد ابنه الثاني، ولم يصدّقهم لأنه عهد منهم الكذب والمكر، فقال مقالته الأُولى في يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

ثم أمرهم أن يرجعوا فيبحثوا عن يوسف وأخيه وأن لا ييأسوا من روح الله، استجابوا لأبيهم فعادوا إلى مصر للبحث عن الأخوين مع الحصول على القوت والميرة، فدخلوا على يوسف فشكوه ما أصابهم من الضرّ وطلبوا منه إيفاء كيلهم والتصدّق عليهم، ولكنهم في هذه المرة فوجئوا بأن العزيز صاحب الخزائن الذي أكرمهم وأحسن ضِيافَتَهم ورِفْدَهُم المرّة بعد المرّة هو أخوهم يوسف عليه السلام، فذكّرهم بما فعلوا به وبأخيه في حالة جهالتهم فاستفهموه متعجبين: أئنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يضيّع أجر المحسنين، قالوا: تالله لقد آثرك الله وفضلك علينا واعترفوا بالخطيئة بقولهم: وإن كنا لخاطئين قال: لا تثريب، أي: لا عتب عليكم ولا عقوبة اليوم يغفر الله لكم وهو منه زيادة تكريم لما فرط منهم في جانبه ثم أعطاهم قميصه وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه ليرجع بصره بإذن الله تعالى، وقبل مجيئهم إلى والدهم شمّ يعقوب عليه السلام ريح ولده يوسف، فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، أي: تنسبوني إلى الفند والخرف، فلما جاء البشير بالقميص ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً قال: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، وهنا توجّهوا إلى أبيهم يسألونه الاستغفار من الله لما فرط منهم واعترفوا له بالخطيئة، فأجابهم الوالد الرؤوف الحليم إلى ما سألوا، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

نهاية القصة

جمع يعقوب عليه السلام أولاده وحفدته وكل من يتعلق به من أهله، فغادروا بلاد كنعان فلسطين، وتوجّهوا إلى مصر حيث يوجد يوسف الكريم

عليه السلام الذي أصبح عزيزاً ذا سلطة ورئاسة قد مكّنه الله في أرض مصر بعد محنٍ وبلايا ورقٍ وسجن، فلمّا دخلوا عليه ضمّ إليه أبويه وآواهما وأحسن إليهما ووضعهما على العرش، فخرّ جميعهم له سجداً تصديقاً للرؤيا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾.

* * *

فوائد وعبر من قصة يوسف عليه السلام

لما كانت هذه القصة من أروع القصص القرآنية وأحسنها وأحلاها، كان لذلك فيها فوائد وعبر جمّة، ففيها ذكر الأنبياء والملائكة والصالحين والإنس والجنّ والرجال والنساء وكيدهن، وذكر الأنعام والطير، وذكر التوحيد والدعوة إليه والفقه والسير والسياسة والممالك والتجارة، وغير ذلك مما ذكر فيها.

وفيها عظيم صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام وتحمّلهما البلاء وتوكّلهما على الله وتفويض أمرهما إليه تعالى، وفيها وجوب الحذر من الحَسَدة، ولو كانوا أقارب وأحبّ الناس إلى الإنسان، وفيها أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما قيل؛ لأن الأنبياء لا يصدر منهم كبار الذنوب كما صدرت من هؤلاء، فهم عقّوا والدهم وكذبوا عليه وأقدموا على قتل أخيهم وألقوه في الجبّ وسعوا في الأرض بالفساد وحسدوا حبيب والدهم، وكلّ هذا من كبار الذنوب التي تنافي عصمة الأنبياء. نعم قد عفا عنهم يوسف واستغفر اللّهَ لهم والدُهم.

وفيها بيان أن يوسف لما أخذه إخوته كان لا يزال صغيراً يخاف

عليه من أكل الذئاب، وفيها وحي الله إلى أنبيائه في صغرهم كما حصل ليوسف وهو في الجبّ، وكما يأتي في قصة مريم وعيسى عليهم السلام، وفيها لطف الله تعالى بأحبائه وإكرامهم وعطف القلوب عليهم، وفيها بيان أن الله تعالى جرت عادته أن يمنح أنبياءه النبوّة والعلم والحكمة عند بلوغهم أشدّهم كالأربعين سنة ونحوها، وكذلك يفعل بالمحسنين من عباده، وفيها أنّ ما صدر من امرأة العزيز مع الكريم عليه السلام بيانٌ أن الشهوة الجنسية إذا هاجت، ولا سيما إذا كان لها مغريات لا يُستطاعُ مُقاومَتُها، وفيها ما وقع من النسوة من الافتتان بيوسف عندما رأينه وأنهن ذُهلن وذهبت عقولهنّ لحسنه وجماله حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن، ووافقن امرأة العزيز في الشغف به لمجرد نظرة واحدة، وفيها تلك المعجزة الباهرة في شهادة شاهد يوسف لبراءته، يقال: إنه كان طفلاً رضيعاً، وفيها مضار اختلاط الذكر بالأُنثى وأن له آثاراً خطيرة في الفتنة والوقوع في الفاحشة والفساد، ولذلك جاءت شريعتنا بالتشديد في ذلك وسدّ كل أبواب الفتنة بالنساء من تحريم الخلوة بهنّ، والدخول عليهنّ، والنظر إليهنّ والاختلاط بهنّ وسَفَرِهِنَّ وحْدَهُنَّ ووجوب احتجابهن وتحريم إمامَتِهِنّ في الصلاة أوفي الحكم إلى غير ذلك من الأحكام والاحتياطات المتعلقة بهنّ، وجاء الإنذار النبوي يقول: **«ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»**، ويقول محذّراً: **«اتقوا الدنيا واتّقوا النساء، فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء»**، وكِلاَ الحديثين في الصحيح.

وفيها درس أيُّ درس في عفّة يوسف وتغلّبه على شهوته العارمة وهو الشاب القوي أمام جميع المغريات. وفيها إيثار يوسف السجن والبلاء على معصية الله وإتيان الفاحشة، وفيها أنه أول من دخل السجن من الصالحين، فمن سجن فلْيتسلّ بيوسف الذي سجن مظلوماً مع ظهور براءته.

وفيها مشروعيةُ مواصلة الدّاعِية دَعْوَتَه إلى الله تعالى ولو في السجن، بل هو حري بذلك؛ لأن السجن يجمع الصالح والطالح، والمساجين أقرب الناس إلى قبول الدعوة والرجوع إلى الله تعالى، لأنهم في وقت محنة

وبلاء، ولذلك انتهز يوسف دعوة السجناء إلى الله تعالى، وفيها تعريف الإنسان بنفسه وأصله وعلمه وفضله إذا رأى في ذلك مصلحة دينية، وفيها علم يوسف بالتعبير وتفسير الرؤيا، وأن الله عزّ وجلّ خصَّه بذلك من بين سائر الأنبياء الأقدمين، وتعبيره لرؤيا الملك والفتيين أصبحت أصلاً من أصول التعبير في القرآن الكريم، وفيها حسن عاقبة الصابرين المحسنين، وفيها عفو يوسف وحلمه وحسن خلقه، كيف وهو الكريم ابن الكرام، وفيها هجرة إسرائيل وبنيه من فلسطين بلاد كنعان إلى مصر، وكان بذلك أول من سكن مصر مع بنيه حتى عَهْدِ موسى عليه السلام كما يأتي في قصة موسى، وفيها تصديق رؤيا يوسف التي كان قد رآها في صغره وامتحن من أجلها، فها هم الآن أبواه وإخوته يسجدون له كما سجدت له الكواكب والشمس والقمر، وأخيراً في قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لَوْ لَبِثْتُ في السجن ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته»**، هو من باب تواضعه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه قد أعطي من الصبر والجلد... ما لم يعطه نبي، خاصة وأنه سيّد أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعائشة: **«إنكن صواحب يوسف»** يعني بذلك: أن النساء يتشابهن في إخفاء ما لا يظهرن، فكانت عائشة تظهر رقّة أبي بكر وبكاءه إذا قام يصلّي مقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولكنها كانت تبطن تخوّفها من تشاؤم الناس بأبي بكر رضي الله تعالى عنه.

يبقى في الأخير أين توفي يعقوب ويوسف... لا يعرف في التاريخ أنهما رجعا إلى فلسطين، وقد شاع أن يعقوب مدفون مع والديه إبراهيم وإسحٰق، ويقال: إن يوسف دُفِن بمصر ونقله موسى إلى فلسطين، والله تعالى أعلم، فإنه ليس هنالك من الأخبار إلا الإسرائيليات، وعليها اعتمد المؤرخون كابن كثير وغيره.

* * *

خاتمة

لم يذكر الله تعالى عن يوسف رسالته إلى قومه إلا في آية واحدة ضمن كلام مؤمن آل فرعون مع قومه، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

فالظاهر أنه بُعث إلى المصريين ومن كان معه من آل يعقوب عليهما السلام.

❋ ❋ ❋

سيدنا شعيب عليه السلام

هذه القصة ليست من شرط كتابنا هذا لأنني لم أجد ذكراً لشعيب عليه السلام في حديث ما ثابت عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شأنه، غير أني أحببت أن لا يكون كتابي هذا عارياً عن ذكر نبيّ مشهور مثل سيدنا شعيب عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام.

وقد تضاربت أقاويل المؤرخين في نسب شعيب عليه السلام، وحتى ابن كثير في البداية والحافظ في الفتح... لم يجزما بشيء يعتمد عليه في نسبه. والمشهور بين عامّة أهل العلم أنه عربي وجاء في شأنه مع غيره حديث ضعيف رواه ابن حبان في صحيحه (ج١/ رقم حديث ٣٦١) مطولاً، وفيه في ذكر الأنبياء «**أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذرّ**»، كما جاء فيه حديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا ذُكر شعيباً قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**»، ذكره ابن إسحٰق، ومن طريقه الحاكم في المستدرك (٥٦٨/٢) ولا يصح أيضاً.

وشعيب عليه السلام مشهور ذكره في القرآن مع قومه أهل مدين المطففين، وجاءت قصّته معهم مفصّلة في مواضع من السور: في الأعراف، وفي هود، وفي الحجر، وفي الشعراء.

فقال تعالى في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

وقال عز وجل في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وقال جل علاه في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ إلخ.

وقال عز من قائل في سورة العنكبوت، وهي أطولهنّ ذكراً لقصته: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ إلخ.

فهذه جملة ما ذكره القرآن في تفصيل قصة شعيب عليه السلام مع قومه، ويلاحظ أنه تعالى ذكر قصته في هذه السور كلّها عقب قصة قوم لوط، وذلك لقرب زمنهما ومكانهما.

قال المؤرخون: كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، وهي قرية من أرض معان... ومعان الآن في حدود الأردن مع الحجاز بينها وبين تبوك أكثر من مائتي كيلو، وهي قريبة من بحيرة قوم لوط. قال المؤرخون: وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم قالوا: هم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارّة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيْك حولها غَيْضَةٌ مُلْتَفَّةٌ بها، وكانوا من أسوإ الناس مُعاملة يَبْخَسُون المِكْيال والميزان ويُطَفِّفُون فيها يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله عزّ وجلّ فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي أفاعيلهم القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم في سبلهم وطرقاتهم،

فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يردّ ولا يطاق، وكان عذابهم بأنواع من العذاب. قال العلماء: إنهم أصابهم حَرٌّ شديدٌ فخرجوا من البيوت فأظلَّتْهُم سحابةٌ، فاجتمعوا تحتَها يستظلّون بها فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وأخذتهم الصيحة من فوقهم، وفي عذابهم بهذه الأنواع الثلاثة، يقول تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾، ويقول: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾، ويقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾، هذه هي خلاصة القصة.

* * *

من فوائدها

جمهور المؤرخين أن قوم مدين والأيكة واحد خلافاً لمن قال غير ذلك، كما رجّحه ابن كثير والحافظ وغيرهما، وفي القصة أن المعصية أيّاً كانت تعتبر إفساداً في الأرض، ولذا كان الكفر والظلمُ وإظهار الفجور وكبار الذنوب إفساداً أيّ: إفساد، وأنّ مُغَيِّرِيهَا مصلحون، وفيها وجوب شكر نعمة الإيجاد والاستخلاف في الأرض وتكاثر البشرية، وفيها الاعتبار بمن سبق من الأمم المهلكين المعذّبين فمن لم يتّعظ بغيره فهو والبهيمة العجماء سواء، فالعاقل من وعظ بغيره.

وفيها وجوب عمل العالم الداعية بعلمه، وأن لا يأمر بشيء أو ينهى عنه، ثم يأتي خلافه، فإن ذلك يوجب المقت من الله تعالى، فالداعية يجب عليه أن يراعي في سلوكه أشدّ المراعاة كل كلمة أو تصرف يصدر منه، ولن يكون لدعوته أيّ أثر في نفوس قومه، إذا لم يكن أول العاملين بما يدعو إليه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾، وفيها وجوب أداء أمانات الناس وعدم خيانتهم وغشّهم بأيّ طريق من طرق الخداع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ يشمل

كل الأشياء الحسّية من كافّة المعاملات، والمعنوية من تقدير الناس واحترامهم والاعتراف بما حباهم الله من الشرف والعلم والفضل، والله وليّ التوفيق.

* * *

نبي الله أيوب عليه السلام

{٥٢٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «بَيْنَا أيوبُ يغتسلُ عُرياناً خَرَّ عليه رِجْلُ جرَادٍ مِن ذَهَبٍ فجَعَلَ يَحُثُّ في ثوبه فنادى ربُّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتُكَ عما تَرى؟ قال: بلى يا ربِّ ولكني لا غِنَى لي عن بَرَكَتِكَ».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٣٢/٧) وغيره، والنسائي.

{٥٢١} ـ وعنه في رواية عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لما عافَى الله أيوبَ أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعلَ يأخذُه بيده ويجعلُه في ثوبه، فقيل له: يا أيوب أما تَشْبَعُ؟ قال: ومن يشبع من رحمتك».

رواه الحاكم (٥٨٢/٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

{٥٢٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إنّ أيُّوبَ لَبِثَ به بلاؤه ثمَانَ عَشْرة سنة فرفضَه القريبُ والبعيدُ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخَصِّ إخْوَتِهِ، قد كانا يَغْدُوَانِ إليه ويَرُوحَانِ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: نعلمُ والله لقد أذْنَبَ أيوب ذنباً ما أذنبه أحدٌ، قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشر سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجلُ حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله تعالى يعلم أني كنتُ أمُرُّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكتْ امرأتُه بيدِهِ حتى يَبْلُغَ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليه فأوحى الله تعالى إلى أيوب في مكانه: أن

اركُضْ برجلك هذا مُغْتَسَلٌ بارد وشرابٌ، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيّ الله المُبْتَلَى، والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذْ كان صحيحاً، قال: فإنّي أنا هو، قال: وكان له أنْدَرَانِ: أنْدَرٌ للقمح، وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورقِ حتى فاض».

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان (١٥٧/٧، ١٥٩)، والحاكم (٥٨١/٢، ٥٨٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في الفتح: وهو أصحّ ما ورد في قصّته، وعزاه في المجمع (٢٠٨/٨) لأبي يعلى والبزار، وقال: ورجال البزار رجال الصحيح.

كان أيوب على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام من ذرّية عيص بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام، ولم يكن من ذرّية يعقوب عليه السلام، وكان من الأنبياء الذين أوحى الله تعالى إليهم وذكر في جملتهم في آيتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ الخ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾.

وفي هذه الآية نصّ في أنه من ذرّية إبراهيم؛ لأن الضمير في قوله: ومن ذرّيته عائد على إبراهيم في القول الصحيح من قولي المفسّرين.

وذكرت قصته في بلائه في سورتين من القرآن: في الأنبياء، وفي صٓ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ

وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ [الأنبياء: ٤١ ـ ٤٤].

لم يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام رسالة له، ولا ذكر له قوماً ولا دعوة، وإنما الذي ذكره في هذه الآيات هو أنه أُصيب بضرّ، وأن الشيطان مسّه بنصب وعذاب، وأنه التجأ إلى الله تعالى فدعاه في كشف ضرّه، فاستجاب الله دعاءه وأمره أن يركض برجله، وقال له: هذا مغتسل بارد وشراب، فشفاه الله تعالى ووهب له أهله ومثلهم معهم، ثم أمره أن يأخذ ضغثاً، أي: حزمة من قضبان ويضرب بها زوجته ولا يحنث، وأخبر تعالى أنه وجده عند هذا البلاء صابراً فنعم العبد إنه أواب كثير الرجوع إلى الله تعالى. هذا ظاهر ما جاء في القرآن من قصّته، وقد جاءت مفصّلة بعض التفصيل في حديث أنس الذي ذكرناه آنفاً، وجاء أكثرها عن الإسرائيليّات، وفيها الصحيح المقبول، وفيها الباطل المرفوض، وهذه خلاصة قصّته. قال المفسّرون وعلماء التاريخ: كان أيوب عليه السلام قد أعطاه الله عزّ وجلّ ثروة واسعة وأموالاً كثيرة من سائر الأنواع، وكان له أهلون كثر وأولاد، وسلب كل ذلك، وابتلي في جسمه ابتلاء شديداً فتلقّى كل ذلك بالصبر الجميل وطال ابتلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا زوجته، فكانت تخدمه وتقوم به وتصلح من شأنه، وأساءت مرة فحلف أن يجلدها، وكان له أخوان من أخصّ أصحابه، كانا يغدوان ويروحان إليه، فتذاكرا فيما بينهما بأن أيوب أذنب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فإنه منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فذكر ذلك أحدهما لأيوب، فعند ذلك توجّه إلى الله تعالى بالدعاء، فأمره عزّ وجلّ أن يضرب الأرض برجله، فضرب فنبعت عين بماء بارد حلو، فأمره أن يغتسل منها ويشرب، ففعل فشفاه الله فصار أحسن ما كان، فلما جاءته امرأته لم تعرفه، فسألته: هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى، فأجابها إني أنا هو، وكان له أندران إحداهما للقمح والأخرى للشعير، فجاءت سحابتان فأمطرت إحداهما ذهباً والأخرى فضّة، ثم ردّ الله تعالى عليه أهله وأولاده وما كان قد سلبه، ثم

أمره الله تعالى أن يبرّ بيمينه فيضرب امرأته العدد الذي حلف عليه، ولطفاً من الله تعالى بتلك الزوجة البارّة بزوجها والصابرة على خدمته أمره تعالى أن يضربها بضغث ضربة واحدة، والضغث ـ بكسر الضاد وسكون الغين ـ هو حزمة من قضبان وأعواد، ونهاه أن يحنث في يمينه.

هذه هي خلاصة القصة المعقولة في شأن أيوب عليه السلام. أمّا ما ذكره بعض المفسّرين والمؤرخين من أنه أنتن وأسابه الدود وأنه ألقي على مزبلة بعيداً عن العمران في أمثال هذه الخرافات والأكاذيب هو مما لا يليق نسبته للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولا وصفهم به، ولا يجوز ذكره والتحدّث به إلا لبيان بطلانه.

❋ ❋ ❋

من فوائد قصة أيوب عليه السلام

فيها أن أيوب عليه السلام لم يكن من أنبياء بني إسرائيل، بل هو جدّ الروم، وذلك أن نبيّ الله إسحٰق عليه السلام ولد له عيص ويعقوب، فيعقوب تناسل منه الأسباط: وهي قبائل بني إسرائيل، فاليهود ينسبون إلى جدّهم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام. أما عيص: فهو جدّ الروم وهم بنو الأصفر الذين كانوا في القديم يحكمون الشام وتركيا وغيرها من البلاد العربية، وهم الرومان المعروفون، فأيوب من ذرّية عيص.

وفيها أن أيوب عليه السلام كان ذا ثروة واسعة وغنًى عريض ويؤيّده حديث أبي هريرة المذكور في الباب، حيث إن أيوب كان يغتسل عرياناً فسقط عليه رجل جراد من ذهب، فأخذه وجعل يحثيه في ثوبه، فناداه الله تعالى: ألست قد أوسعت عليك وأغنيتك عن مثل هذا؟ فأجابه أيوب: إنه ليس لي غنى عن بركتك ورحمتك، وفي هذا الحديث مع تصريحه بغنى أيوب دليل على جواز التبرّك بالآثار المنسوبة إلى الله تعالى، ومثل هذا الحديث الصحيح في كشف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذراعه للمطر، فلما قيل له في ذلك قال: «**إنه حديث عهد بربه**»، ومعناه: أن فيه

بركة ورحمة لأنه حديث العهد بخلق الله تعالى إيّاه، والخلق ناشىء عن القدرة فأثرها فيه بركة، وهكذا الشأن في كل المخلوقات الجدد، وفيما ذكرناه ردٌّ على منكري التبرّك بالآثار الفاضلة

وفي حديث أبي هريرة الثاني دليل على أن سقوط ذلك الرجل على أيوب كان بعد شفائه، وأنه كان قد ردّ الله تعالى عليه ما كان له من مال وأهل وأولاد.

وفي قصة أيوب وما أصيب به من البلاء العظيم في جسمه وماله وأهله ومقابلته كل ذلك بالصبر الجميل والتحمّل مع مفارقة كل الناس له درسٌ بالغُ الأهمية للمؤمنين في الصبر وتحمّل البلاء، فإن البلاء لا ينجو منه أحد، فكلنا معرّضون له في كل آنٍ وساعة، وقد قدّمنا حديث: **«لا يزال البلاء في المؤمن في أهله وماله ونفسه»** إلخ.

وحديث: **«أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»** إلخ، وسيأتي ذلك مرة أخرى.

وفيها أن نزول البلاء والمحن والنكبات لا يدلّ على شقاء الإنسان، فإن البلاء كما يصاب به الكافر والعاصي يصاب به المؤمن المتّقي الطائع لربّه.

وفيها درس في وجوب الالتجاء إلى الله عند نزول الضرّ والشدّة، وأنه لا يكشف ذلك إلاّ الله. وفيها مشروعية التداوي والعلاج وخاصة بالماء غسلاً وشرباً، فإن سيدنا أيوب عليه السلام تعالج بالغسل بالماء البارد وشربه.

وفي هذا العلاج الذي أشار إليه القرآن بالماء إعجاز علمي للقرآن الكريم، فإن مثل هذا التداوي لم يكن يعرفه الناس حتى جاءت هذه العلوم التجريبية في هذا العصر، وتقدم علم الطب، فوجدوا أن الماء يعالج به كثير من الأمراض شرباً للأمراض الداخلية، كالمعدة والكلى والأمعاء.. كما

يعالج به الأمراض الخارجية الجلدية من حكّة وجرب وقروح... وبالأخصّ إذا كان الماء من معدن كبريتي كما هو موجود في كثير من الأقطار العربية والأجنبية.

وفي شأن أمر الله تعالى أيوب ضرب زوجته بالضغث موافَقَةٌ لما جاء في شرعنا، ففي حديث الأنصاري في المريض الذي وقع على جارية، فخيف عليه إن أُقيم عليه الحد، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه به ضربة واحدة»** ففعلوا، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وتقدم في الحدود.

وقوله تعالى: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بنصب ـ بضم النون وسكون الصاد وفتحهما ـ وغير ذلك، ومعناه: مسّني بإعياء وتعب وألم، وقد اختلف المفسّرون في معنى مسّ الشيطان هنا، ولم أجد في ذلك ما تطمئنّ إليه النفس من تلك الأقاويل، فالله أعلم بمراده بذلك.

* * *

يونس عليه السلام

{٥٢٣} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما ينبغي لعبدٍ أن يقول: إنّي خيرٌ من يُونُسَ بن مَتّى»**، ونسبه إلى أبيه. وفي رواية: **«أن يقول: أنا خيرٌ من يونس»**.

رواه البخاري في التفسير وفي الأنبياء (٧/٢٤٠، ٢٦٢)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٣٣، ١٣٤) ورورياه أيضاً عن أبي هريرة، ورواه البخاري أيضاً في التفسير وفي الأنبياء (٧/٢٦٢) عن ابن مسعود بلفظ: **«لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى»** وللحديث ألفاظ.

{٥٢٤} ـ وعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إذْ دَعَا وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّه**

لم يَدْعُ بها رجلٌ مُسْلِمٌ في شيء قطّ إلا استجاب الله له».

رواه أحمد رقم (١٤٦٢)، والترمذي في الدعوات (٣٢٧٦) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (١٦٨/٦)، والحاكم (٥٠٥/١) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

يونس عليه السلام بن متّى ـ بفتح الميم والتاء المشدّدة ـ من نسل الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولا يعرف نسبه إليه إلا من ذكره مع الأنبياء الذين تناسلوا منه كما يأتي، وكان من أهل نينوى من الموصل العراقية، ونينوى ـ بكسر النون الأولى ثم ياء ساكنة ثم نون مفتوحة آخره ألف مقصورة ـ.

قال المفسّرون والمؤرخون من السلف وغيرهم: بعث الله عزّ وجلّ يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ فكذّبوه وتمرّدوا، فلما طال ذلك عليه، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث، فخرج عنهم مغاضباً لهم، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا وتضرّعوا وآمنوا، فرحمهم الله تعالى فكشف عنهم العذاب وذهب يونس فركب سفينة فلَجَّجَتْ به فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثاً، فالتقمه الحوت فنادى الله تعالى في بطنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له ونجّاه من الغمّ والكرب فنبذه الحوت في العراء، ثم أرسله إلى قومه وكانوا أكثر من مائة ألف، فآمنوا به واتّبعوه، فمتّعهم الله تعالى إلى حين آجالهم. هذه خلاصة قصّته كما جاءت عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف، وهي معنى ما جاء في القرآن الكريم، فقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّته في ثلاث سور: في يونس وفي الأنبياء وفي الصافات.

فقال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ

يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾. أبق: هرب، الفلك: السفينة، المشحون: المملوء، المدحضين: المغلوبين، فالتقمه: ابتلعه، مُليم: أتى ما يلام عليه.

فأخبر تعالى عنه هنا بأنه أحد رسل الله المرسلين لهداية قومه، وأنه هرب من قومه إلى السفينة المملوءة بالرجال، فقارع أهل السفينة، أي: ضرب معهم القرعة أيهم يلقى في البحر، فكان من المدحضين المغلوبين بالقرعة، فألقوه في البحر فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخلّيه عن المهمة التي أرسله الله بها وتركه قومه مغاضباً لهم وخروجه بغير إذن من ربّه، فلولا أنه كان من الذاكرين لله عزّ وجلّ كثيراً في حياته لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولكنه سبّح الله واستغفره وناداه في بطن الحوت، فاستجاب الله نداءه فألقاه من بطن الحوت على الساحل بالأرض الفضاء التي لا شجر ولا ظلّ بها وهو سقيم مما ناله من الكرب، وأنبت عليه شجرة القرع تظلّه وأرسله بعد ذلك إلى قومه الذين فرّ منهم فصدّقوه، فمتّعهم الله تعالى في الدنيا إلى انقضاء آجالهم.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْٔجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فأخبر عنه تعالى هنا بأنه فرّ من قومه مغاضباً لهم ظنّاً منه أن الله عزّ وجلّ لن يضيق عليه، فنادى الله تعالى في الظلمات. قال العلماء: ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة بطن الحوت، فاستجاب الله له فأنجاه من الغمّ والكرب الذي كان فيه، وهكذا يفعل بالمؤمنين.

وقال في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

فأخبر تعالى عن القرى التي أهلكها أنها لو كانت تابت عن الكفر وأخلصت لله تعالى عند معاينة العذاب لنفعها إيمانها، لكنها لم تفعل إلا قوم

يونس فإنهم لما شاهدوا أثر نزول العذاب آمنوا، فرفع الله عزّ وجلّ عنهم عذاب الخزي في هذه الحياة وأخرهم إلى انتهاء آجالهم.

هذا جملة ما جاء في قصة هذا النبيّ الكريم المبتلى، وقد ذكره الله عزّ وجلّ في معرض تحذير النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أن يكون مثله في الفرار من قومه وتخلّيهم وما اختاروا، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

مكظوم أي: مملوء غيظاً وغضباً، وقوله: لنبذ بالعراء أي: لطرح بالفضاء، وهو مذموم أي: غير محمود على ما أتى من الفرار من قومه.

وذكره تعالى في جملة الأنبياء المُوحَى إليهم، فقال في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ﴾ إلخ، كما ذكره عزّ وجلّ في الأنبياء الذين تناسلوا من خليل الرحمٰن عليه السلام الذين فضلهم على سائر العالمين، فقال في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

من فوائد هذه القصة

في هذه القصة فوائد وعبر هامة نجملها في الآتي:

أولاً: في حديث ابن عباس وما معه دليل على أنه لا يفضل بين الأنبياء ولا بين غيرهم، لكن القرآن يعارض ذلك؛ فالله تعالى يقول؛ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ويقول؛ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. أما غيرهم فيقول تعالى؛ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا﴾، ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ في آي أُخر، وعلى هذا فما قاله النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جاء منه على سبيل التواضع، أو قال ذلك في شأن يونس لئلا يستهان بمقامه حيث فرّ من قومه مغاضباً لهم فيهضم حقّه ويقصر عما حَبَاهُ الله تعالى من الاصطفاء. أما تفضيل غير الأنبياء عليه، فهذا لا يحتاج إلى النهي عنه، وستأتي بقية في قصة موسى عليه السلام.

ثانياً: كان خروج يونس من بين قومه مغاضباً لهم من غير إذن من الله خلاف الأَولى، وليس معصية، وإنما جاء ابتلاؤه بالتقام الحوت إياه نظراً لمقامه، فإن الأكابر يؤدّبون من الله تعالى على خلاف الأولى، وفعل المباح من باب حسنات الأبرار سيئات المقرّبون كما يقولون، ومن هنا جاء اللوم فكان الأولى في حقه أن يصبر حتى يحكم الله تعالى بينه وبين قومه.

ثالثاً: في قصته جواز القرعة على الشيء المجهول، وجاءت أيضاً في قصة مريم كما يأتي في قصتها وقصة زكريا، ووردت في شريعتنا في عدة أحاديث تقدم بعضها، ويأتي بعضها في السيرة.

رابعاً: فيها فضل ذكر الله تعالى والدوام عليه في اليسر والعسر. وأنه سبب للنجاة من الغموم والنكبات وتفريج الكربات، فقد نصّ الله عزّ وجلّ على أن يونس إنما نجّاه تعالى لكونه كان من المسبّحين، ولولا ذلك لبقي في بطن الحوت إلى يوم البعث، وكفى بذلك فضلاً ومزية لتسبيح الله تعالى وذكره.

خامساً: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، معناه: أنه ظنّ أن لن يضيق الله تعالى عليه فيما فعل، ولا يجوز أن يفسّر بعدم القدرة عليه لأن ذلك يلزم منه جهل نبيّ من أنبياء الله تعالى بصفات الله عزّ وجلّ، وهذا مستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

سادساً: في قوله تعالى عن يونس: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جمع في هذا الدعاء ثلاثة آداب من أدب الدعاء: الاعتراف بالألوهية والتوحيد، ثم تنزيه الله عزّ وجلّ عما لا يليق به من النقائص وسمات الحدوث، ثم الاعتراف بالذنب والمخالفة، فهي آداب حريٌّ بمن دعا بها أن يُستجاب له، ولذلك قال تعالى عقب الآية: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وزاد ذلك

بياناً قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لم يَدعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له**»، لا يقال كم من واحد يدعو بهذه الآية، فلا يرى للاستجابة أثراً، والجواب أن للاستجابة شروطاً لا بدّ من توفّرها، وقد ذكرناها في المجلد الثاني في الأدعية... ثم لا يلزم من الاستجابة أن يقع تنفيذ المطالب، فإنه قد تقع الاستجابة من الله تعالى فيختار للداعي ما هو خير له إما أن يكفّر عنه سيئات سبقت له، وإما أن يدفع عنه بلاء... كان ينتظره، وإما أن يدّخر له أفضل ما يريده لآخرته، فالدعاء له أثره على كل الأحوال نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا.

سابعاً: في رفع العذاب عن قوم يونس خاصية لهم، فإنهم ما آمنوا حتى رأوا أثر العذاب، وفي هذه الحالة لا يقبل معها إيمان ولا توبة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾، والله أعلم.

ثامناً: لما نُبِذَ يونسُ بالعَراء من بطن الحوت أنبتَ الله عليه شَجَرةَ اليَقطين وهي القرع، قال المفسّرون: وذلك ليستظلّ بها من حرّ الشمس وليتحفّظ بها من الذباب، لأنه لا ينزل على القرع، وهو يدلّ على أنه لم يبق لثوبه أثر عليه، وأن جلده أصبح ضعيفاً مما يدلّ على أنه مكث مدة في بطن الحوت.

تاسعاً: في قوله تعالى خطاباً لنبيّه أبي القاسم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الخ، درسٌ له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وللدعاة والعلماء من أُمّته بأن يصبروا على الدعوة وما يَلْقَوْن من سوء آداب المَدْعُوّين وتتابع إذايتهم إياهم، وأن لا يضجروا ويتسخطوا ويفروا عنهم ويتركوهم لذئاب المنحرفين والشياطين يلعبون بهم.

عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، وقوله: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يدلاّن على أن الحوت يطلق على النون والعكس، والنون حيوان مائي طويل شبيه بالحيّة غير أنه عريض، وقد أضاف الله عزّ وجلّ نبيّه يونس إلى هذا الحيوان، وجعله صاحباً له لالتقامه إياه وسكناه في بطنه زمناً ما.

حادي عشر: في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، يدفع عنه ما قد يقع في بعض قلوب ضعاف الإيمان من النظر إلى يونس بعين الانتقاص، فجاءت الآية الكريمة تبيّن لنا أنه مع ما صدر منه وما ابتلي به هو من المصطفين عند الله عزّ وجلّ الصالحين، وأنه مفضّل على سائر العالمين كباقي إخوانه الأنبياء كما سبق في آية الأنعام: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

موسى وهرون عليهما السلام

{٥٢٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال؛ اسْتَبَّ رجلان رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، قال المُسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فَرَفَعَ المسلمُ يدَه عند ذلك فلطَم وجهَ اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره بما كان من أمْرِهِ وأمر المسلم، فدعا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المُسلمَ فسأله عن ذلك فأخبرَه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ **«لا تُخَيِّرُونِي على مُوسَى، فإن الناسَ يَصْعَقُون يوم القيامة فأُصْعَقُ معهم فأكون أوَّلَ من يَفيق، فإذا موسى باطشٌ جانِبَ العرش فلا أدْرِي أكان فِيمَن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو كان ممّن اسْتَثْنَى الله»**، وفي رواية: **«فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بُعِث قبلي»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٧/٢٥٤، ٢٥٥)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٣٠)، ويأتي في المناقب.

{٥٢٦} ـ ونحوه عن أبي سعيد وفيه: **«لا تُخَيِّروا بين الأنبياء... فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أكان في من صعق أم حُوسب بصعقته الأُولى»**.

روياه أيضاً.

{٥٢٧} ـ وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراةً ينظر بعضُهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحدَه، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فَفَرَّ الحجرُ بثوبه فخرج موسى في إثْرِه يقول: ثَوبي يا حجرُ، حتى نظرتْ بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بَأْس، وأخذ ثوبه فطفِقَ بالحجر ضرباً**»، فقال أبو هريرة: والله إنه لنَدَبٌ بالحجر ستة أو سبعة ضرباً بالحجر. وفي رواية: «**إن موسى كان رجلاً حيياً مستتراً ما يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل**».

رواه أحمد (٣١٥/٢)، والبخاري في الغسل وفي الأنبياء (٢٤٧/٧، ٢٤٨) وفي التفسير، ومسلم في الفضائل (١٢٦/١٥، ١٢٧)، وفي الحيض (٣٢/٤، ٣٣).

حيياً أي: متّصفاً بالحياء، آدار، الأُدْرَةُ انتفاخ الخصيتين، فجمع موسى بأثره أي: ذهب مسرعاً خلفه، لندب ـ بفتحات ـ أي: أثر الضرب.

{٥٢٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**جاء ملكُ الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربَّك، قال: فلطَمَ موسى عليه السلام عينَ ملك الموت ففقأها**»، وفي رواية: «**فلما جاء صكّه فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متْنِ ثور فله بكل ما غطّتْ به يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن فسأل الله أن يُدْنِيه من الأرض المقدسة رَمْيَة بحجر**»، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فلو كنتُ ثَمَّ لأَرَيتُكُم قبرَه إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٥٢/٧)، ومسلم (٢٣٧٢).

صكّه: ضربه في وجهه، الكثيب: الرمل.

{٥٢٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: **«رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة»**.

وفي رواية: **«وأما موسى فرجل آدم جَعْد على جمل أحمر مخطوم بِخُلْبَةٍ كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبّي»**، وفي رواية: أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّ بوادي الأزرق فقال: **«أيُّ وادٍ هذا»**؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: **«كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنيّة وله جؤار إلى الله بالتلبية»**، ثم أتى على ثنية هرشى قال: **«كأني أنظر إلى يونس بن مَتّى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبّة من صوف خطام ناقته خُلْبَةٌ وهو يلبّي»**.

رواه البخاري (٣٢٣٩، ٥٩١٣، ٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٨، ١٦٩، ٢٧٠).

خلبة ـ بضم الخاء وسكون اللام ثم باء مفتوحة ـ حبلٌ من ليف ونحوه.

{٥٣٠} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«مررتُ على موسى ليلةَ أُسْرِيَ بي عند الكَثِيبِ الأحمر وهو قائم يصلّي في قبره»**.

رواه مسلم رقم (٢٣٧٥).

{٥٣١} ـ وعنه أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى صعقاً.

رواه أحمد والترمذي (٢٨٧٦)، وابن جرير (٩/٥٣)، وابن أبي حاتم (٥/١٥٦٠)، والحاكم (٢/٣٢٠)، وحسّنه الترمذي وصححه هو والحاكم ووافقه الذهبي.

صَعِقَ أي: غُشِيَ وأُغمِي عليه، وساخ الجبل أي: غاص في الأرض.

{٥٣٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذات يوم فقال: **«عُرِضتْ عليَّ**

الأُمَمُ فجعل يمُرّ عليَّ النبيُّ معه الرجلُ، والنبيُّ معه الرجلان والنبيّ ليس معه أحدٌ، والنبيّ معه الرَّهْطُ، فرأيت سواداً كثيراً فرجوتُ أن تكون هذه أمّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سواداً كثيراً قد سدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً، فقيل لي: هذه أُمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب».

رواه أحمد (٢٧١/١)، والبخاري في الطب وفي الرقاق (١٩٨/١٤، ٢٠٤)، ومسلم في الإيمان (٩٣/٣، ٩٤) ويأتي في الرقاق مطولاً إن شاء الله تعالى.

عرضت عليّ أي: مرّ بهم بين يدي وأنا أنظر إليهم، سدّ الأفق أي: غطّى الجهة... والرهط: الجماعة من الناس ما دون العشرة.

وتقدم ويأتي حديث الإسراء وما فيه من الكلام على موسى وهارون عليهما السلام، وحديث قصّة الخضر تقدم في التفسير مطولاً.

سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ابن عمران من سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام، هو نبيّ الله ورسوله وكليمه وزعيم أنبياء بني إسرائيل وصاحب التوراة إحدى الكتب الأربعة العظيمة، وخامس الرسل أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم، أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، فقد ذكر مائة ونيفاً وثلاثين مرة.

وقصّته أطول قصص القرآن وأكثرها تكراراً في القرآن الكريم، وجاءت مفرّقة في السور المكية والمدنية معاً.

ولتشعّب هذه القصة العظيمة وطولها سنلخص منها مقاصدها مرتّبة حسب حياته بداية من ولادته حتى موته.

قد كان بنو إسرائيل يعيشون بين المصريّين مضطهدين، فكان المصريون يستخدمونهم في جميع الأشغال الشاقّة والمهن المستهجنة بذكورهم وإناثهم، وكان طاغيتهم وقتئذ فرعون الذي طغى وتمرّد على الله تعالى، فقال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

* * *

ابتلاء بني إسرائيل بذبح غلمانهم وإبقاء إناثهم

ويقال: إن الكهنة أخبروه بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني إسرائيل، فأصدر أمره بقتل كل ذكر من أولادهم حتى لا يكثر عددهم وأسرع الموت في الشيوخ منهم، فأمر أن يقتل الغلمان سنة، ويتركوا سنة، حتى يبقى منهم من يخدم فرعون وقومه. وكان من قدر الله تعالى أن ولد هارون عليه السلام في العام الذي ترك القتل فتربى في أحضان والديه عادياً. وأما موسى، فقد صادفت ولادته عام قتل الغلمان، فحفظه الله تعالى حملاً وولادة ولم يتسرّب خبره لفرعون وقومه.

وفي محنة ذبح الغلمان من بني إسرائيل يقول الله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾، طائفة منهم هم بنو إسرائيل.

ويقول ممتناً على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

ويقول عن موسى في تذكيره اليهود نعمة الله عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦].

يسومونكم أي: يذيقونكم، وقوله: يستحيون نساءكم أي: يتركونهنَّ أحياء...

* * *

موسى في رضاعه وإيوائه إلى قصر فرعون

ولد موسى عليه السلام، فخافت عليه والدته فأوحى الله إليها: (أرْضِعِيه فإذا خفت عليه فألقيه في البحر، ولا تخافي عليه ولا تحزني) عليه

إنا سنرده عليك وسنجعله من المرسلين، فهيّأت له صندوقاً وألقته فيه، ثم ألقته في بحر النيل، وكان الماء يمرّ وسط قصر فرعون، فأُخذ القِمَطْر ورُفع إلى آسية، فلما فُتح وجدوا فيه غلاماً لم يُرَ مثلُه جمالاً ونوراً، فألقى الله حبّه في قلب آسية فأراد فرعون قتله فدافعت عنه امرأته وقالت له: دعه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وأصبح قلب أم موسى فارغاً من كل شيء إلا من ولدها، حتى كادت أن تظهر أمرها في شأن الولد، لولا أن الله ربط على قلبها فأمرت ابنتها أن تسأل عن الولد وتتبع أثره فبصرت به، فأتت والدتها فأخبرتها عنه. أما الولد، فبحث له عمّن يرضعه، فأتي بكل امرأة مرضعة فلم يقبل أيَّ ثدي، فأتتهم أخته فقالت لهم: أنا أدلّكم على أهل بيت طيبين يقومون بكفالته وهم له ناصحون، فأُخذ ورُدّ إلى أمه وجعل فرعون ينفق عليها في مقابل كفالتها للولد، وفي جملة هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾، ويقول عزّ وجلّ ممتناً عليه السلام ليلة كلمه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

* * *

تربية موسى وبلوغه أشدّه وإيتاؤه الحكم والعلم وقصته مع الإسرائيلي والقبطي

ظلّ موسى عليه السلام في كفالة أمّه ثم ردّ إلى بيت فرعون فتربّى مع آسية بنت مزاحم التي عادت عليها بركة هذا الولد الميمون، فختم الله عليها بالشهادة، وكانت من النسوة الكاملات كما يأتي، ولما بلغ عليه السلام أشدّه واستوى في قوّته وعقله آتاه الله الحكم والعلم شأنه تعالى مع المحسنين.

وموسى عليه السلام كان عارفاً بأنه إسرائيلي وأنه تربّى في بيت أجنبي عنه، ومن الطبيعي أن يحبّ الإنسان أهل جنسه بل أقاربه، ويكون لهم عوناً ونصيراً، ولذا نرى سيدنا موسى عليه السلام خرج مرة من قصر فرعون ودخل المدينة فجأة دون أن يعلم أحد بذلك، فوجد رجلين يتقاتلان أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي من عدوّه، فاستغاثه الإسرائيلي فضرب موسى القبطي فسقط ميتاً من ساعته فندم على ما فعل وعدّ ذلك من عمل الشيطان واستغفر ربّه مما حصل منه وتضرع إليه أن يتوب عليه، وسأله بما أنعم عليه أن لا يكون معيناً للمجرمين، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

افتضاح أمر موسى والتآمر عليه وخروجه من المدينة خائفاً داعياً ربه

أصبح موسى بعد قتله القبطي في المدينة خائفاً مما فعل بالأمس، فإذا بذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يتقاتل مع قبطي آخر فاستغاثه أيضاً

على ذلك الفرعوني، فغضب موسى عليه السلام على الإسرائيلي من كثرة خصامه ومشاكسته، فلما أراد أن ينصره ويتدخل بينهما ظن الإسرائيلي أن موسى يريد قتله فخاطبه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾، فلم يكد القبطي يسمع هذا الإقرار الصريح حتى وافى قومه بخبر القتيل الذي كانوا في حيرة من قاتله، فتألب القوم وراحوا يبحثون عن موسى ليقتلوه، فسمع بذلك رجل مخلص وجاء من أقصى المدينة فأخبر موسى بأن القوم يتآمرون عليك ويدبّرون للفتك بك، فاخرج من المدينة وفرَّ بنفسك فإني لك ناصح، فامتثل موسى نصيحة الرجل وخرج متخوّفاً داعياً ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي: يستنصره ويستغيث به، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إنك لبيّن الغواية والضلال، قوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه.

* * *

هجرة موسى إلى أرض مدين وإقامته عند الشيخ يرعى له غنمه ليزوجه ابنته

خرج نبيّ الله موسى عليه السلام من مصر خائفاً على نفسه من فرعون وملائه، فتوجه إلى مدين فقطع قفاراً وفيافي من الصحاري والرمال داعياً ربّه

هدايته سواء السبيل، ووصل إلى مدين فصادف جماعة من الناس يسقون مواشيهم عند بئر وعلى مقربة من الماء فتاتان تكفان غنمهما عن الماء، سألهما موسى ما شأنكما؟ قالتا: إننا لا نسقي حتى ينصرف الرعاة وذلك لكثرة الزحام، ثم بينتا له الحامل لهما على الرعي دون الرجال بأن أبانا شيخ كبير لا يستطيع مزاولة هذا العمل، ولذلك احتجنا إلى مباشرته بأنفسنا، فتقدم وزاحم الرعاة وسقى لهما ثم اتّجه إلى الظل ليستريح من تعب السفر سائلاً ربه أني محتاج إلى فضلك وإحسانك وإلى الطعام الذي أسدّ به جوعي، فذهبت الفتاتان إلى أبيهما سريعتين فحدثتاه بما كان من أمر الرجل، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل، قالت له: إن أبي يدعوك ليعوّضك عن أجر السقاية لغنمنا، فأجابها وقام معها، فلما أتى الشيخ وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له الشيخ: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطة لفرعون عليه وقد نجّاك الله من القوم المجرمين، ثم تقدمت إحدى الفتاتين فقالت لوالدها: يا أبت اتخذ هذا الرجل أجيراً على غنمنا، فإن خير من تستأجره من كان قوياً أميناً، علمت قوّته وأمانته مما لمسته من تصرفاته عند السقي وعند المشي معها إلى البيت... عندئذ قال الشيخ: إني أريد أن أزوّجك إحدى ابنتي هاتين بشرط أن تكون لي أجيراً على غنمي ثمان سنين، فإن أكملت عشر سنين فذلك تفضّل منك، وما أُريد أن أوقعك في المشقّة باشتراط العشر، ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ليّن الجانب وفيّاً بالعهد، قال موسى: إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه، وأي: المدتين أدّيتها لك الثمان أو العشر فلا إثم ولا حرج عليّ، والله شاهد على ما تعاهدنا وتوافقنا عليه، وفي كل ذلك يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ

أَجَرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٢ ـ ٢٨].

* * *

رجوع موسى من مدين وتكلُّم الله معه بجانب الطور الأيمن

قضى نبيّ الله موسى عليه السلام عشر سنين في أرض مدين مع الشيخ يرعى له غنمه وزوّجه ابنته، بعد هذه المدة أراد الرجوع إلى مصر فخرج بزوجته فبلغ به سفره إلى جبل الطور وضلّ الطريق في ليلة مظلمة شاتية، فأبصر عن بعد ناراً، فقال لزوجته: امكثي فلقد أبصرت ناراً سآتيكم منها بشعلة من نار لعلكم تستدفئون من البرد، ولعلّي أجد عندها هادياً يدلّني على الطريق، فلما أتاها نُودِيَ من جانب الوادي الأيمن في المكان المبارك من ناحية الشجرة وقيل له: بورك وتقدّس من في النار ومن حولها فتقدس وتنزّه رب العزة، يا موسى إني أنا ربك الذي أكلّمك فاخلع نعليك وتأدّب، فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمّى طُوى، إنني أنا الله العزيز الحكيم ربّ العالمين، إني اصطفيتك للرسالة فاستمع لما أوحيه إليك، فلقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهّب له واجعل كل عقلك مصروفاً إليه إنني أنا الله لا إلٰه إلاّ أنا فاعبدني وحدي وأطعني وأقم الصلاة لتذكرني.

ولما قدم الكليم من مدين صحب معه عصا، فقال الله عزّ وجلّ له في ذلك المشهد: وما هذه التي بيمينك يا موسى، قال: هي عصاي أعتمد عليها في حال المشي وأهزّ بها الشجر وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي، ولي فيها مصالح ومنافع أُخر، قال الله عزّ وجلّ:

اطرحها من يدك، فألقاها فصارت في الحال بإذن الله تعالى حيّة عظيمة تنتقل وتتحرك بسرعة فولّى مدبراً منها لم يرجع ولم يلتفت لما هاله من الخوف والفزع منها، قال له ربّه عزّ وجلّ: خذها يا موسى ولا تخف منها فسنرجعها إلى ما كانت عصا لا حيّة، فأمسكها فانقلبت كما كانت، ثم ناداه تعالى: أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيّرة مضيئة من غير عيب ولا برص، وذلك لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة مع باقي الآيات التسع التي ستبعث بها إلى فرعون وملائه. وقد جاء الكلام على هذا المشهد الذي خصّ به سيدنا موسى عليه السلام في ثلاث سور، في طه في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ [طه: ٩ ـ ٢٣].

آنست: أبصرتُ، بقبس أي: شعلة، وقوله: وأهش بها أي: أضرب وأخبط بها على الشجر.

وفي النمل قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ۖ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ٧ ـ ١٢].

شهاب قبس أي: شعلة مقتبسة من النار، وقوله: تصطلون أي: تستدفئون، وقوله: تهتزّ أي: تتحرك، وقوله: ولم يعقب أي: لم يلتفت ولم يرجع.

وفي القصص في قوله جلّ علاه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٢]، وأشار تعالى إلى هذا الموضوع في قوله تعالى من سورة القصص أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية، وقال في النازعات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾.

قوله: جذوة من النار أي: جمرة ملتهبة، والشاطىء هو الجانب، وقوله: اسلك يدك في جيبك أي: أدخله في جيب قميصك واضممها إلى جناحك.

* * *

رسالة موسى وهرون عليهما السلام

بعد أن أبان الله عزّ وجلّ لنبيّه موسى عليه السلام معجزتي العصا واليد أمره أن يذهب بهما إلى فرعون ليبلغه الرسالة الإلهيّة لأنه قد جاوز الحدّ في الطغيان والجبروت، وبما أن فرعون كان جباراً شديد البطش ومواجهة مثله تحتاج إلى رباطة الجأش والشجاعة سأل موسى ربّه أن يوسع له صدره ليتمكّن من مواجهة فرعون وقومه، كما سأل ربّه أن يرزقه الفصاحة

والبيان، وأن يجعل له أخاه هـٰرون وزيراً مساعداً له في أداء رسالته، فأجاب الله دعاءه وأعطاه كل ما سأله.

ثم أمرهما معاً أن يذهبا بآياته تعالى إلى فرعون لأنه طغى، وتجاوز الحدّ في الكفر وظلم العباد واستعبادهم مع ادّعاء الربوبيّة والألُوهيّة، وتلكم هي النهاية في الطغيان، وقال لهما: لا تَنِيَا ولا تُقَصِّرَا في ذكري ولا تفترا واذهبا إلى فرعون إنه بالغ في الطغيان، وقولا له قولاً لطيفاً رفيقاً لعلّه يتَذَكَّرُ عظمة الله تعالى أو يخاف عقابه، فيرتدع عن طغيانه، يقول تعالى في ذلك:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

عَظُم على موسى وهارون مواجهة فرعون، فشكيا إلى الله تعالى خوفهما من طغيانه، فطمأنهما سبحانه وتعالى بأنه حاضر معهما يسمع ويرى فهو حافظهما، وقال لهما: فائتياه وعرفاه بأنكما رسولا الله إليه، فليبعث معكما بني إسرائيل ولا يُعذّبهم باستخدامهم في أشقّ الأعمال وإنّنا قد أَتَيْنَاكَ بآية من ربك.

وقال له موسى عليه السلام: يا فرعون إني رسول من رب العالمين جدير على أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وقد جئتكم ببيّنة من ربكم.

يقول تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

رِدْءاً أي: مُعيناً، قوله: سنشد عضدك الخ أي: سنقوّيك ونعينك بأخيك.

* * *

المحاورة التي دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الربوبية ورسالة موسى عليه السلام

نفّذ موسى وهارون أمر ربهما، فذهبا إلى فرعون وبلّغا له رسالة الله تعالى، فأجابهما بالآتي:

قال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قال له ممتناً عليه: ألسنا قد ربّيناك في بيتنا صغيراً وأقمت عندنا عدة سنين وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا، قال له موسى: فعلت ذلك قبل أن يوحى إليّ وقبل أن أعرف حكم إراقة الدم وفررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين، وهذه النعمة التي تمنّ بها علي من التربية والإحسان إليّ أنا وحدي وقد استخدمت شعب بني إسرائيل واستعبدتهم في أعمالك وأشغالك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، ثم جعل يحاور نبيّ الله عليه السلام في شأن

الربوبية وأظهر إنكار الخالق الصانع، فقال: وما رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما، فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾، فربّ العالمين هو خالق هذه الأجرام العلوية والسفلية وما بينهما من المخلوقات المتجدّدة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوان التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، وأنها لا بدّ لها من موجد وخالق، فكان جوابه عن هذا أن ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من الأمراء والوزراء والوجهاء متهكّماً على موسى متنقصاً له؛ ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقول هذا المجنون، قال موسى مخاطباً له: هو ربكم ورب آبائكم الأولين، أي: هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة، قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وصف نبيّ الله عليه السلام بالجنون تعمية على قومه خوفاً من ظهور أمره وكذبه في قوله الذي حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾، وبقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكل ذلك منه لعنه الله عناد وجحود، فقد كان يعلم كما يعلم كل عاقل أنه مخلوق لخالق عليم قدير مريد حكيم حي سميع بصير، ولكنه جحد واستكبر؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وذكر الله تعالى عنه في آية أخرى إنكاره الخالق بأسلوب آخر، فقال عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي تدعوان إليه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ربنا الذي نعبده وندعو إلى عبادته وحده هو الذي خلق هذا الخلق وقدّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتاب ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدّره له، قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: إذا كان ربك هو ما ذكرت فما شأن أهل القرون السابقة عبدوا غير الله وأشركوا به، فألّهوا الكواكب والأصنام والأنداد. قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ

رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ يعني: فهم وإن عبدوا غير الله فليس ذلك بحجّة لك لأنهم جهلة ضلال مثلك، وربّي لا يضلّ ولا ينسى، ثم ذكره بنعم الله تعالى التي لا يستغني عنها حيّ، فقال: ربّي هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

فهذه النعم والآيات هي آثار قدرة ربي العظيم خلق الأرض وجعل فيها طرقاً وسخّر السحاب والمطر والنبات والزروع والثمار رزقاً للإنسان والأنعام، فتلك آيات وعلامات دالّة على وحدانية الله تعالى يعرفها ويتحقّقها أهل العقول، ولما غُلِبَ فرعونُ بالحجج القواطع وانسدّت أمامَه كلُّ التّمويهات لم يجد ما يحاجج به موسى إلا الطعن فيه بأنه ساحر كذّاب، لا يكاد يبين كما وصفه بالجنون وقال: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، وهمّ بقتل موسى، وقال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الآية.

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾... ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ الآية.

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الآية.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ الآية.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، هذه خلاصة ما أجاب به فرعون وملأه وأشياعه رسول الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام.

* * *

ظهور معجزات موسى عليه السلام وإيمان السحرة

بعد أن عجز فرعون عن مقاومة حجج موسى عليه السلام عدل إلى التهديد واستعمال القوّة وسطوته، فقال لقومه تمويهاً عليهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ الخ، وخاطب موسى بقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

يقول لعنه الله: لئن جعلت إلهاً آخر تعبده دوني لأجعلنك من جملة السجناء، وهنا جاءت الفرصة لإظهار المعجزة الكبرى لموسى عليه السلام بإذنٍ من الله الواحد القدير، فقال له: أتسجنني ولو أتيتك ببرهان واضح بيّن، قال الطاغية اللّعين الجاهل: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه وطرحها على الأرض فإذا هي قد انقلبت ثعباناً مبيناً، أي: عظيم الشكل ذا هول فظيع باهر ونزع يده ووضعها في جيبه تحت إبطه، فإذا هي بيضاء تتلألأ للناظرين لها شعاع بهر الأبصار، فكان هذان برهانان من الله تعالى أيّده الله بهما، وهما العصا واليد، ومع ظهور هذين الخارقين العظيمين لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك، بل أصرّ على كفره وعناده وأظهر لقومه أنّ هذا كلّه سحر وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته، ومن في دولته، كما أشار إليه بذلك الملأ من قومه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾، قالت جماعته: إن موسى لساحر ماهر في السحر يحاول إخراجكم من أرضكم بسحره، قال لهم: بماذا تشيرون عليّ أن أفعل بهذا، قالوا: أخّره وأخاه وأرسل إلى أنحاء المملكة جامعين يجمعون لك كل ساحر ماهر في سحره، فأجمعوا مع موسى عليه السلام على موعد يجتمع فيه السحرة معه لِمُبَارَاتِهِ في سحره، فجاءوا واجتمعوا في يوم خاص، وذلك يوم الزينة وكان يوم عيد لهم، وذلك وقت ضحوة النهار ليظهر الحق أبلج، ووعد فرعون السحرة بمبالغ عظيمة من المال إن هم تفوّقوا على موسى وهزموه وغلبوه، فحضر الجميع في مشهد عام حضره فرعون وملؤه وأعوانه وخدمه وجيوشه وحشد من عامّة الناس، فتقدم السحرة وقالوا لموسى في إعجاب وكبرياء: إما أن تلقي أو نكون نحن الملقين، قال: ألقوا فألْقَوا حبالهم وعصيهم فانقلب الجميع أفاعي وثعابين وجاءوا بسحر عظيم أخافوا الناس بذلك وأرهبوهم حتى موسى أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله تعالى إليه: لا تخف، فألق ما في يمينك فألقى عصاه فإذا هي تبتلع كل ما افتروه من الشعوذة والباطل، فانتصر موسى عليه السلام وانقلب السحرة وأنصارهم أذلاّء منهزمين، فلما عرف السحرة أن هذا ليس سحراً وقعوا ساجدين، وقالوا: آمنّا برب العالمين ربّ موسى وهارون، فعاتبهم فرعون وهدّدهم بالقتل وقال لهم: إن هذا ـ يعني موسى ـ هو أستاذكم الكبير الذي علّمكم السحر... أجاب السحرة المؤمنون: لا ضرر علينا ولو صلبتنا إنّا إلى ربنا لمنقلبون، إننا نرجو أن يغفر لنا ربنا خطايانا حيث كنا أول المؤمنين.

وفي هذا المشهد العظيم والانتصار الباهر تأتي الآيات الآتية:

قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ الآية.

وقال في الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال في الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝١١٢﴾. إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥١﴾، وهي كآيات الأعراف تماماً إلا في بعض الألفاظ.

فهذه جملة ما جاء في القرآن من مشهد مباراة موسى عليه السلام مع السَّحرة وظهوره عليهم وانهزامهم وإيمانهم وما هدّدهم به فرعون وعذّبهم به...

إصرار فرعون وقومه على طغيانهم وإرسال أنواع من العذاب عليهم والانتقام منهم لعلهم يرجعون

لما انتصر الكليم عليه السلام على السَّحرة وانهزم فرعون وجنده وظهر الحقّ وزهق الباطل، رجع فرعون والأقباط إلى إذاية موسى وبني إسرائيل، وقال الملأ من قومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، فضجّ بنو إسرائيل بالشكوى إلى نبيّهم موسى عليه السلام مما أصابهم من الظلم قبله وحينه، طمأنهم وأمرهم بالصبر وضبط النفس والاستعانة بالله على احتمال هذا البلاء، ووعدهم بحسن العاقبة إن اتّقوا الله تعالى، وأنه تعالى عسى أن يهلك عدوّهم ويجعلهم خلفاء في الأرض، يقول تعالى في ذلك: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ۝١٢٩﴾ فأصيبوا بالجدب والسنين ونقص من الثمار، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً وطغياناً وكفراً ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢﴾ أي: فلسنا بمصدقين بك ولا بسحرك، فعند ذلك سلّط الله تعالى عليهم بعض جنوده التي يعذّب بها من

يشاء من عباده، يقول الله عزّ وجلّ في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أرسل عليهم طوفان الماء غمر مزارعهم وممتلكاتهم والجراد تأكل مزروعاتهم والقمل، وهو حشرة تفسد ثمارهم وتؤذي الإنسان والحيوان والضفادع التي انتشرت في كل مكان يسكنون فيه، فنغّصت حياتهم وأفسدت عليهم صَفاء عَيْشهم، كما بعث عليهم الدم يمتزج بمياه آبارهم وعيونهم، وربما سال من أنوفهم وأفواههم.

وكانوا كلما حلّ بهم العذاب يفزعون إلى موسى متضرّعين إليه أن يدعو ربّه بكشف العذاب عنهم ويعِدُونه بالإيمان إن هو كَشَف عنهم العذاب، فإذا رُفِعَ عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

* * *

خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه بالغرق في البحر

كان من المقاصد التي بعث بها موسى عليه السلام تحرير بني إسرائيل من أيدي الأقباط والذهاب بهم إلى بلاد أجدادهم فلسطين، ولما طالت إذاية الأقباط لهم مع عتوّ فرعون وطغيانه وتجبّره واستكباره وعدم تذكّره رغم ما أصابه وقومه من أنواع البلاء، دعا الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام عليه وعلى قومه وعلى أموالهم بالعذاب والدمار الشامل، فأجاب الله دعاءهما وأمرهما بالاستقامة وترك سبيل أولئك الكفرة الجَهَلة، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

مضت مدة غير قليلة على هذا الدعاء ثم جاء الأمر الإلٰهيّ بخروج

موسى وبني إسرائيل من مصر ليلتحقوا ببلاد أجدادهم إبراهيم وإسحٰق ويعقوب وهي فلسطين، فخرجوا متسترين ليلاً متّجهين إلى البحر الأحمر ليخرجوا إلى صحراء سيناء، ثم إلى فلسطين، بلغ فرعونَ خروجُهم فجمع جموعه وجنوده وأتبعوهم معجبين بقوّتهم وكثرة عددهم، فلما لحقوا موسى وقومه وتراءى الجمعان خاف بنو إسرائيل وقالوا لموسى: لقد أدركونا فها هم وراءنا، وهذا البحر أمامنا فأجابهم موسى الموقن: إنّ معي ربي سيدلّني على المخرج من هذا البلاء، فأوحى الله تعالى إليه: أن اضرب بعصاك البحر فضرب فصار البحر فلقتين وانفتحت الطريق وسطه فخرجوا للشاطىء سالمين، ثم اقتحم فرعون وقومه الطريق، فلما توسّطوا جميعهم البحر انطبق عليهم فأغرقوا جميعاً، وعندما عاين فرعون الموت قال: إني آمنت أنه لا إله إلاّ الذي أمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فقيل له: الآن تؤمن حيث لا ينفعك الإيمان وقد كنت قبل من المفسدين الجبّارين، وكان هذا هو الفاصل بين موسى وقومه وبين فرعون والأقباط، فتركوا وراءهم القصور المزخرفة والفروش الفارهة وأنواع الزروع والجنان والعيون والنعم التي كانوا فيها فاكهين، فاندحروا واندثر جمعهم، وما بكت عليهم السماء والأرض.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ مشهد هلاك فرعون وقومه ونجاة موسى وبني إسرائيل في عدّة سور وبأساليب مختلفة وألفاظ متباينة لتكون عبرة وذكرى للذاكرين.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٧].

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ

كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٣١].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

وهكذا دمّرهم الله عزّ وجلّ وحاق بهم سوء العذاب، فحينما أغضبوه تعالى أغرقهم جميعاً وجعلهم مَضْرِبَ الأمثال للآخرين، ولم يكن أمر فرعون برشيد، وسيأتي يوم القيامة أمام قومه موردهم النار، واتّبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين.

قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال جلّ علاه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩].

وقوله: شرذمة أي: جماعة قليلون منقطعون، وقوله: مشرقين أي: وقت شروق الشمس، وقوله: تراءى الجمعان أي: لحق فرعون موسى ورأى بعضهم بعضاً، وقوله: كالطود أي: كالجبل، قوله: وأزلفنا أي: قربناهم وقوله: فغشيهم أي: غطاهم من البحر ما غطاهم، وقوله: وحاق بآل فرعون أي: نزل وحلّ بهم.

❊ ❊ ❊

توجه موسى ببني إسرائيل إلى فلسطين وتمرّدهم عليه وما وقع له ولهم من عجائب في التيه بنو إسرائيل يسألون ربهم أن يجعل لهم صنماً

لما أنعم الله تعالى على موسى وقومه بإنجائهم من فرعون وملإه وإغراق هؤلاء عن آخرهم توجّه موسى سائراً ببني إسرائيل إلى البلاد المقدّسة فمرّوا في طريقهم على قوم عاكفين على أصنام لهم يعبدونها، فسأل بنو إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنماً يكون لهم إلهاً كما لأولئك الوثنيين، فأجابهم موسى: إنكم قوم جهلة أتريدون أن تكونوا مثل هؤلاء وهم قوم مُدَمَّرٌ هَالِكٌ ما هم فيه من الدّين الباطل! أأطلب لكم معبوداً غير الله؟ والحال أنه تعالى فضّلكم على غيركم من أهل زمانكم بالنعم الجليلة.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقد صدر من صحابة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حادثة شبيهة بما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام.

{٥٣٣} ـ فعن أبي واقد الليثيّ رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قِبَلَ حُنَيْنٍ فمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الله أكبر**»، وفي رواية: «**سبحان الله هذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لَتَرْكَبُنَّ سُنَّة من كان قبلكم**».

رواه أحمد (٢١٨/٥)، والحميدي (٨٤٨)، والترمذي في الفتن (٢٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٩٩/٦) وغيرهم بسند صحيح.

ذات أنواط: اسم شجرة كان المشركون يعلقون بها أسلحتهم، وقوله: لتركبُن أي: لتتبعن طريق من سبقكم من اليهود والنصارى.

وفي الآية كالحديث تحريم الاقتداء بالكفار والتشبّه بهم، وقد جهل المسلمون هذا الموضوع أو تجاهلوه اليوم،فأصبحوا يلهثون وراء الكفار في الائتساء بهم ولو في التوافه وشؤون المجانين.

❋ ❋ ❋

تيه بني إسرائيل في الصحراء
عقاباً لهم لعصيانهم نبيّهم

تابع كليم الله عليه السلام مسيرته ببني إسرائيل، ولما قارب بيت المقدس عَلِمَ أن فيها قوماً جبّارين، فأمر جماعة من قومه أن يذهبوا إليهم للتجسّس عن أحوالهم وشؤونهم، فذهبوا ثم رجعوا وقد رأوا من القوم ما هالهم وأخافهم، فحذروا القوم من الدخول عليهم فامتنع جميعهم من الذهاب لقتال الجبارين، إلاّ رَجُلَيْنِ ممن أنعم الله عليهما بالإيمان الصادق والإخلاص والاستسلام لله ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. أما

الباقي، فامتنعوا وأساءوا الأدب مع الله ومع رسوله، فقالوا كلمة تتفطّر منها السموات وتشقّق الأرض: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فعاقبهم الله تعالى فحرّم عليهم دخولَ بيت المقدس مدّة أربعين سنة، وتيّههم في الصحراء فكانوا لا يهتدون للخروج منها.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

قال المفسّرون: روي أنهم كانوا يسيرون الليل كلّه، فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه، ولنقارن بين مقالة هؤلاء اليهود لنبيّهم، وبين ما قاله الصحابة لرسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند غزوة بدر حينما استشارهم.

{٥٣٤} ـ فعن عبدالله قال: جاء المِقداد رضي الله تعالى عنهما يومَ بدر وهو على فَرَس له، فقال: يا رسول الله إنّا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكنه إمْضِهِ ونحنُ معك، فكأنّه سُرّي عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في التفسير (٣٤٢/٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٣/٦) وغيرهما.

{٥٣٥} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سار إلى بدر فاستشار المسلمين، فأشار عليه أبو بكر ثم

ملَلُ بني إسرائيل من أكل اللحم والعسل وطلبهم البقولات ونحوها

رغم أن الله عزّ وجلّ أتمّ على بني إسرائيل النعمة وأكرمهم بالغذاء الطيّب الفاخر، وهم في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا نبات، فها هم يطلبون من موسى استبدال ذلك بالمأكولات العادية، وهذا من سخافة عقولهم وسقوطهم وكفرهم نعمة الله تعالى عليهم.

قال تعالى في هذا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ الآية.

وهكذا استبدلوا الخسيس بالنفيس، فضّلوا البصل والثوم والبقول على المنّ والسلوى.

* * *

موعد لموسى مع ربّه ليعطيه التوراة وما صدر من بني إسرائيل من فتنتهم بعبادة العجل في غيبته

كان موسى عليه السلام قد أخبر بني إسرائيل وهم لا يزالون بمصر وبشّرهم بأن الله سيهلك فرعون، وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه التشريعات التي ينبغي أن يسيروا عليها، فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربّه ما وعده به من الكتاب، فأمره أن يذهب إلى جبل الطور ويمكث فيه ثلاثين يوماً صائماً متعبّداً لله عزّ وجلّ، فلما أتمّ الثلاثين أمره باستئناف صيام عشرة أخرى لتتمّ له أربعون يوماً ليكون مستعِدّاً أو مُؤَهَّلاً لتلقّي الكتاب وسماع كلام الله الكريم، وكان موسى عندما غادر بني إسرائيل جعل أخاه هارون خليفة عليهم وأمره بالإصلاح ونهاه عن اتّباع طريق المفسدين.

فلما أتمّ الأربعين يوماً كلّمه الله عزّ وجلّ بكلام لا ندري كيفيّته، وعندما سمع كلامه اشتاق لرؤيته، فسأل عزّ وجلّ أن يريه النظر إليه، فأجابه

تعالى بأنه لن يراه لأن بنيته البشرية لا تطيق رؤيته، ثم أخبره بأنه تعالى سيتجلى بنوره لما هو أشدّ وأقوى منه، فإذا استقرّ مكانه وأطاق التجلّي الإلهيّ له أمكنه رؤيته، وإلا فأحرى به أن لا يرى عظمة الله تعالى، فلما تظاهر سبحانه للجبل بشيء من نوره جعله دكاً مستوياً بالأرض، وعندئذٍ سقط موسى صعقاً مغشياً عليه لهول ما رآه، فلمّا أفاق قال: أنزّهك يا ربّ تنزيهاً يليق بجلالك وإني تائب إليك مما سألت، وأنا أول المؤمنين بعظمتك... فخاطبه الله عزّ وجلّ بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه وأمره أن يأخذ التوراة التي أُوتيها وليكن من الشاكرين على ذلك، وأخبر تعالى بأنه كتب في الألواح كل ما يحتاجون إليه من الأحكام والمواعظ وأمره أن يأخذها بجدّ واجتهاد، وأن يأمر قومه الأخذ بأحسنها، وفي هذا المشهد جاءت الآيات.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٥].

* * *

بنو إسرائيل يعبدون العجل

لما ذهب موسى لموعد ربّه طال عهده ببني إسرائيل وتأخر عنهم، فقام رجل منهم ماكر كافر يُدْعَى السَّامِرِيّ، فأخذ من بني إسرائيل ما كان عندهم من حلي فصاغ لهم منها عجلاً، فجعل يخور بما لا ندري كيفية ذلك، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى...

فنصحهم هارون ونهاهم عن عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع وأفهمهم أنهم فُتِنُوا وجهد وتعب في ردّهم عن عبادة العجل، فلم يُفلح، فأصَرُّوا على عبادته حتى يرجع إليهم موسى.

فعلم موسى بذلك بوحي من ربّه، فلما عاد إليهم وهو في أشدّ الغضب والحزن، ألقى الألواح من يده ووبّخهم وأنكر عليهم وأخذ بلحية أخيه هارون وناصيته وعاتبه على ما حصل، فاعتذر إليه أخوه بما يأتي في الآيات. ثم توجّه إلى عدوّ الله السامري الماكر قائلاً له: ما شأنك يا سامري؟ قال: عرفت ما لم يعرفه أحد من ضلالك، وكنت قبضت قبضة من أثر الرسول وطرحتها، كذلك زيّنت لي نفسي، قال له موسى: اذهب فإن الله تعالى عاقبك بأن تقول في حياتك لا مساس، فكان بعد ذلك يتألم من مَسّ أيّ إنسانٍ له، فمكث على ذلك وهام على وجهه حتى هلك، فأخذ موسى العجل وأحرقه وأذرى بقاياه في البحر.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ

فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

❋ ❋ ❋

اختيار موسى من قومه سبعين رجلاً ليذهب بهم لجبل الطور ليقدموا طاعة الله والتوبة مما فعلوا ثم سؤالهم رؤية الله تعالى وصعقهم وإحياؤهم

عرف بنو إسرائيل عِظَمَ الجريمة التي اقترفوا فندموا على ما فعلوا فتعلّقوا بموسى، فقال لهم: إنكم ظلمتم أنفسكم فتوبوا إلى خالقكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم هو خير لكم، وقد تاب الله عليكم إنه تواب رحيم، فاختار منهم سبعين رجلاً من خيارهم ليذهبوا معه إلى الجبل الذي اعتاد أن يكلّمه الله تعالى عنده ليعتذروا مما فعلوا ويتوبوا إليه، فلما ذهبوا مع نبيهم موسى عليه السلام وسمعوا كلام الله تعالى قال جماعة منهم: لن نؤمن لك أن هذا كلام الله حتى نراه جهرة فأخذتهم الزلزلة وصعقوا، فاعتذر موسى إلى الله مما طلبوا، وقال له: أتعذبنا بما فعل الجهلة منا، وتشفّع فيهم وسأل ربه مغفرتَه ورحمته...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ

هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

* * *

رفع جبل الطور فوقهم لامتناعهم من أخذ التوراة

تمرّد بنو إسرائيل على موسى عليه السلام وامتنعوا من الأخذ بما في التوراة، فهدّدهم الله عزّ وجلّ واقتلع جبل الطور ورفعه فوق رؤوسهم كأنه سقيفة أو ظلّة غمام حتى أيقنوا أنه ساقط عليهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوها وقع عليكم فخرّوا ساجدين خوفاً من سقوطه، وقال الله تعالى لهم خذوا ما أعطيناكم بجد وعزيمة واذكروا ما فيه بالعمل لتكونوا في سلك المتقين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

* * *

إذاية بني إسرائيل موسى ورميهم إياه بالأدرة

كان في بني إسرائيل جواز النظر إلى العورات والاستحمام الجماعي، فكانوا يغتسلون عراة غسلاً جماعياً، وكان نبيّ الله موسى عليه السلام يستحيي من الله عزّ وجلّ أن يراه مع الناس عرياناً مختلطاً بهم، فكان يغتسل منفرداً بعيداً عنهم، فطعنوا فيه ورموه بما هو بريء منه، فقالوا: إنه آدَرُ، يعنون: أن أُنثييه منتفختان، فلما أراد الله أن يبرئه، خلع ثيابه ووضعها على حجر فاستحمّ على عادته، فلما توجّه ليلبس ثيابه فر الحجر بملابسه حتى مرّ على بني إسرائيل وموسى وراءه يقول: أعطني ثوبي يا حجر، فرأى

بنو إسرائيل جسد موسى خالياً مما رموه به، وكان ذلك تبرئة له مما قالوا مع ظهور تلك المعجزة، والآية الخارقة؛ وفي ذلك يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

* * *

قصة بني إسرائيل في البقرة

قال المفسّرون من السلف وعلماء التاريخ: إنه كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً ولم يكن له وارث إلا أبناء أخ له وكانوا يتمنّون موته، فعمد أحدهم فقتله ليلاً، فلما أصبحوا رفعوا أمره إلى نبيّ الله موسى ليدلّهم على قاتله، فسأل الله تعالى في شأنه فأمره أن يأخذوا بقرة فيذبحوها ويضربوا الميت ببعضها، فلما أمرهم بذلك أنكروا عليه ما أمرهم به وقالوا له: أتسخر بنا وتضحك علينا؟ إنا نسألك أن تخبرنا بمن قتل صاحبنا وأنت تأمرنا بذبح بقرة، فأجابهم نبيّ الله عليه السلام: إني أعوذ بالله أن أكون من جملة الجاهلين السفهاء، ولما علموا أنه صادق وأن ما قاله هو أمر من الله عزّ وجلّ جعلوا يستفسرونه في شأن هذه البقرة، فسألوه عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنّها، فأجابهم عن الله عزّ وجلّ بما عزّ وجوده فقال لهم؛ هي لا كبيرة ولا صغيرة، بل وسط بين ذلك، وتكون صفراء فاقعة اللّون لا ذلول يحرث بها ويسقى الأرض عليها، ثم بعد ذلك تكون سليمة من العيوب، وهكذا شدّدوا فشدّد الله عليهم، كما جاء في حديث ضعيف.

وفي جملة هذه القصة يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

[البقرة: ٦٧ ـ ٧٣].

فلما ذبحوا البقرة أمروا أن يقطعوا منها قطعة فيضربوا الميت بها ففعلوا فأحياه الله تعالى، فقال: فلان ابن أخي قتلني، ثم رجع ميتاً، وكانت هذه أيضاً من أبهر المعجزات التي أظهرها الله على يد موسى عليه السلام على مرأى ومسمع من بني إسرائيل.

❋ ❋ ❋

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام

قام نبيّ الله موسى عليه السلام يوماً خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي: الناس أعلم؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: بلى عبدنا الخضر هو أعلم منك، فسأل الله السبيل إليه، فأمره أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مكتل فحيثما فقده هو ثم، فأخذ الحوت وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا صخرة ووضعا رؤوسهما فناما وأضرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله فيه سرباً فصار مثل الطاق، فلما استيقظا انطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت... قال: ذلك ما كنا نبتغي، فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجّى بثوب فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً

يا موسى، إني على علم من الله تعالى علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله تعالى علَّمك الله لا أعلمه، فقال موسى: ستجدني إن شاءَ الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، قال الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فحملوهما بغير أجر، فعمد الخضر إلى قدوم وجعل يقلع لوحاً من السفينة، فاعترض عليه موسى فقال له: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ رأسه بيده فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ ثم فسّر له ما فعل من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، كما في القرآن الكريم، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**»، رواه أحمد والبخاري في نحو عشرة مواضع ومسلم وغيرهما، وقد تقدم مستوفى في التفسير وهو مشروح في كتابنا «عجائب الأقدمين».

❋ ❋ ❋

من فوائد قصة موسى وهارون وعِبَرها

في هذه القصة، قصة نبيّ الله وكليمه سيدنا موسى وأخيه سيدنا هارون على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام فوائد وعِبَر جمّة سنأتي على أبرزها بحول الله تعالى وعونه:

فمنها: أن كل نبيّ له عدوّ من المجرمين يعاديه ويخالفه ويناضل ضدّ دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وكان لسيدنا موسى أعداء عدة من أبرزهم وأعتاهم: فرعون، وهامان، وقارون، وابن باعوراء، والسامري لعنهم الله تعالى وأخزاهم.

ومنها: ابتلاء بني إسرائيل وتسليط الأقباط عليهم واستعبادهم إيّاهم واستخدامهم كالرقيق، ومن أفحش وأعظم ما ابتلوا به قتل ذكورهم من الأطفال واستبقاء بناتهم.

ومنها: لطف الله عزّ وجلّ بِنَبِيَّيْهِ موسى وأخيه هارون عليهما السلام حيث أنجاهما الله تعالى من القتل عقب ولادتهما، رغم أنهما ولدا أيام الفتنة، وهكذا رحم عزّ وجلّ موسى فنشأ وتربّى وشبّ في بيت عدوّه فرعون حتى خرج عليه وهاجر لبلاد مدين.

ومنها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ الخ، استدلّ به جمع من العلماء كأبي الحسن الأشعري وابن حزم وغيرهما أنّ هنالك من النساء من نَبِيّين كحواء وسارة وأم موسى وهاجر، وآسية، ومريم. والجمهور على أن النبوّة خاصة بالرجال، والله تعالى أعلم.

ومنها: أن الأنبياء عليهم السلام كباقي البشر تطرأ عليهم الأعراض البشرية من فرح وحزن وغضب ورضا وخوف... فما صدر من موسى من الخوف على نفسه وخروجه من مصر فارّاً خائفاً من فرعون وملائه لا يقدح في نبوّته ومقامه.

ومنها: أن من خصائص المرأة الخُلُقيّة الاستحياء والحشمة كما تجلّى ذلك في فتاتي شيخ مدين والحياء في المرأة شيمة وزينة لها، وما أحوج نساء عصرنا إلى هذا الخُلُق الكريم الذي قضى عليه أعداء الدين وجنود إبليس، فالله المستعان على ذلك.

ومنها: قد اختلف المفسّرون والمؤرخون في الشيخ الذي أقام عنده موسى عليه السلام، فالمشهور الجاري على الألسنة أنه شعيب عليه السلام، والصحيح خلافه فإن شعيباً كان قديماً جاء عقب لوط بمدّة وجيزة، ولوط

كان ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وبين عصر إبراهيم وعصر موسى قرون وقرون.

ومنها: أن رعاية النبيّ الغنم لا يقدح في منزلته، بل في ذلك بالنسبة للأنبياء حكمة ورفعة وليست منقصة كغيرهم، وسيأتي في السيرة حديث في رعاية نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غنم قومه، وهنالك سنتكلم على الحكمة في ذلك.

ومنها: جواز عرض الرجل ابنته على غيره للتزوّج بها، وأنه لا غضاضة في ذلك، وقد تقدم هذا في النكاح والحمد لله.

ومنها: اختصاص الله تعالى موسى عليه السلام بالكلام مواجهة في الأرض بكلام سمعه موسى عليه السلام لا ندري كيفية ذلك. وتفصيل ما وقع بالتدقيق، فالله ليس كمثله شيء فذاته تعالى لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات، وحسبنا أن نؤمن بما جاء في القرآن مع تنزيهنا الله تعالى عن صفات خلقه.

ومنها: أن إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون وهامان وقارون كان بدايته من جبل الطور حيث كلّمه الله تعالى لأوّل مرة.

ومنها: تدريب الله عزّ وجلّ موسى على معجزتي العصا واليد، فها هو تعالى يريه خرق العادة في قلب العصا أفعى تسعى، ويده بيضاء تتلألأ حتى يكون مستعداً لإظهار حجّته وصحة رسالته عند الحاجة، وقد كان الأمر كذلك، فقد أيّده الله عزّ وجلّ بها في غير موطن، وخاصة العصا فقد انتصر بها على السحرة وفرعون وجنوده، وقد ضرب بها البحر فانفلق أمامه فاجتازه وقومه وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً... فكانت نعم المعين والنصير له.

ومنها: أن هارون كان وزيراً ومعيناً لأخيه موسى ورسولاً معه إلى فرعون وملائه نتيجة لما طلب موسى من الله عزّ وجلّ ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾...

ومنها: مشروعية الهجرة وأنها من سنن الأنبياء، وكان أوّل من هاجر منهم إمام الحنفاء سيّدنا إبراهيم، وابن أخيه لوط عليهما الصلاة والسلام، وقد قدمنا أحكام الهجرة في الجهاد والحمد لله.

ومنها: مشروعية الرفق والحكمة في الدعوة إلى الله تعالى وسلوك مسلك اللين في القول ومحاورة المدعويين أيّاً كانوا بالتي هي أحسن، وأن يبيّن للملحدين الذين ينكرون الصانع الخالق دلائل وجوده وآيات وحدانيّته وقدرته وعظمته، ودعوة موسى فرعون نموذج في ذلك.

ومنها: جهل فرعون بالله تعالى وغباوته في ادّعاء الربوبية والألُوهية وهو يعلم من نفسه أنه مخلوق لغيره، وأنه لم يخلق نفسه ولا أحداً سواه.

ومنها: تأييد الأنبياء بإظهار الآيات والخوارق وظهور صدقهم، وقد جاء في الحديث الصحيح المشهور عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما من الأنبياء من نبيّ إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن عليه البشر»** الحديث، ويأتي في السيرة بإذن الله تعالى ومشيئته.

ومنها: عناية الله عزّ وجلّ بمن سبقت له السعادة، فهؤلاء السَّحَرة كانوا أكفر خلق الله وأفجرهم وأغرقهم في الانحراف عن الحقّ أصبحوا بين عشيّة وضحاها من أكابر المؤمنين شهداء سعداء، وذلك يدلّ على أن من سبقت له السعادة لا تضرّه الجناية، فالسعيد سعيد وإن عمل ما عمل، كما أن الشقيّ كذلك، ومثل هؤلاء السحرة الشياطين الذين بعثوا من عظيمهم للبحث في الأرض عن سبب الحيلولة بينهم وبين خبر السماء، فلما وصل الجماعة الذين ذهبوا إلى جهة الشرق وجدوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ القرآن في صلاة الصبح، فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين، كما ذكره الله عزّ وجلّ في سورتي الأحقاف والجنّ، فالأعمال إذاً بالسوابق والخواتم.

ومنها: جريان سنّة الله تعالى في القوم المجرمين أنهم إذا أصرّوا على طغيانهم وعدوانهم وعدم رجوعهم إلى الله أنه تعالى ينتقم منهم بأنواع من العذاب والنكبات، كما فعل بفرعون وقومه، وكما صنع بمن قبله كعاد

وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم من السابقين واللاحقين، كما شرحت ذلك وأوضحته في كتاب «أسباب هلاك الأمم»، وهذه السنّة لا تتخلف أبداً فها نحن الآن لما كثر الانحلال والميوعة وانتشار الفجور وجميع أنواع الآثام وشيوع الظلم واعتداء القوي على الضعيف أصاب الله عزّ وجلّ العالم الحالي بمسلميهم وكافريهم بأنواع من النكبات والعقوبات، والحروب الطاحنة، والزلازل، والفيضانات، والرياح العاصفة المدمّرة، وكثرة الفتن، وأنواع الأمراض والعاهات المعضلة... ولا ندري ماذا يكون ويجري في الغد القريب.

ومنها: المعجزة العظمى التي لا مثيل لها في معجزات الأنبياء: انفلاق البحر لموسى حتى عبره هو وقومه، وإهلاك فرعون وجنوده المجرمين، وتلك آية فريدة يحق لكل مؤمن صادق أن يفاخر بها أهل الشرك والباطل من كل جنس كافر.

ومنها: هلاك فرعون وغرقه وأن ذلك محقّق، نطق به القرآن الكريم في غير ما آية، وأنه بقي على طغيانه حتى مات على كفره ولم ينفعه إيمانه عندما عاين الموت، حيث قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾، فأنكر الله تعالى عليه إيمانه وقت مشاهدة العذاب، وأنه كان عاصياً لله بكفره وطغيانه وجبروته مفسداً في الأرض، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، قال المفسّرون: إن الله تعالى ألقى جسمه بشاطىء البحر حتى رآه الناس وتحقّقوا موته، وحُفِظَ مُحَنَّطاً حتى يومِنا هذا، فهو بدار الآثار بالقاهرة مع فراعنة مصر.

وهو وقومه الآن يعرضون على النار صباحاً ومساء، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، وسيكون أمام قومه يقودهم إلى النار؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

ومنها: في سؤال بني إسرائيل نبيّ الله موسى عليه السلام أن يجعل لهم

إلـهاً كما شاهدوه عند غيرهم، وإنكاره ذلك عليهم مع حديث أبي واقد اللّيثي: اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، دليل على تحريم اتّباع الكفار والمشركين وخاصة في مظاهر شعائرهم، وأنه يجب تجنّب التشبّه بهم والتنزّه عن الاقتداء بهم فيما يختصّون به، وقد جهل المسلمون هذا اليوم فأغرقوا في التشبّه بالكفار حتى ذابت شخصيتهم في شخصية أعداء الله وأعداء دينه حتى لم يبق لهم شيء يميّزهم عن الكفار، والله المستعان على هذه البلية.

ومنها: تمرّد بني إسرائيل على موسى ورفضهم طاعته وعدم امتثالهم أمر الله تعالى في قتال الجبّارين ودخولهم الأرض المقدّسة التي كتبها الله لهم وإساءتهم الأدب مع الله ومع كليمه، حيث قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون.

ومنها: عقاب الله تعالى إياهم بالتيهان والضلال في الصحراء نتيجة عصيانهم، فمكثوا في الصحراء أربعين سنة حتى ماتوا وجاء من خَلَفهم من أبنائهم الذين وُعِظُوا بآبائهم، فدخلوا الأرض المقدّسة مع يوشع كما يأتي.

ومنها: توالي نِعم الله تعالى على بني إسرائيل في التيه مدة بقائهم فيه ومشاهدتهم عجائب المعجزات ووقوع عدة أحداث فيه.

فقد وقع في التيه تفجير المياه من الحجر وتظليلهم بالغمام والإنعام عليهم بالمنّ والسلوى تغذية لهم، وسماعهم كلام الله وصعقهم، ثم إحياؤهم ونزول التوراة بصائر لهم وتوبة الله تعالى عليهم بعد عبادتهم العجل، ورفع الجبل عليهم، وقصة البقرة وإحياء الميت بضرب بعضها، إلى غير ذلك مما وقع لهم، فكل ذلك وقع وهم في التّيه بعد عبورهم بحر السويس متجهين لبيت المقدس كما وقع وشاهدوه من المعجزات والأحداث في حياتهم أيام موسى، قصة الخضر معه وطغيان قارون والخسف به وبداره وانسلاخ ابن باعوراء من آيات الله وكفره بعد إيمانه...

ومنها: كثرة معجزات سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، كانقلاب العصا ثعباناً واليد بيضاء لها شعاع، وتسليط جند الله تعالى على الأقباط من الطوفان والدم والقمل والضفادع... وتلقف العصا حبال وعصي السحرة وانتصارها عليهم، وانفلاق البحر حتى عبره، وتظليل الغمام على

بني إسرائيل، وإنزال المنّ والسلوى عليهم، وتفجيره المياه من الحجر، وتكليم الله موسى عليه السلام، وإحياء بني إسرائيل بعد صعقهم، وفرار الحجر بثياب موسى، وصكّه وجه ملك الموت، وإحياء الميّت ببعض البقرة، ورفع الجبل فوق بني إسرائيل إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات التي أيّد الله تعالى بها موسى وشاهدها الإسرائيليون وغيرهم.

ومنها: استشكال بعض من لا تتّسع عقولهم للإيمان بكل ما جاء عن الله وعن رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فطعنوا في حديث صكّ موسى وجه ملك الموت حتى فقأ عينه؛ فإن هذا لا إشكال فيه لأن ملك الموت جاءه في صفة إنسان يريد اغتياله ولم يعرفه، ولذلك لما جاءه مرة أخرى معروفاً استسلم لله تعالى في قبض روحه.

وفي هذه الحادثة بيان أن الله عزّ وجلّ يتجاوز عن أكابر عباده ما لا يتجاوز عن غيرهم، فإنه تعالى لم يعنف نبيّه موسى على ما صنع ولا عاتبه، بل زاده تكريماً بالخيار بين قبض روحه وبين أن يعيش عدد ما تقع يده عليه من شعر الثور، وهذا يدلّ على أن الله عزّ وجلّ يراعي مواقف عباده في الإيمان به وطاعته والدعوة إليه والدفاع عن دينه ونصره، فيتجاوز لهم عن هفواتهم ولو كانت كبائر ومظالم.

ومنها: أن الله تعالى كلّم موسى عليه السلام تكليماً حقيقة لا مجازاً، وليست الشجرة هي المتكلّمة ولا الملائكة، وأنه تعالى كلّم موسى عند قدومه من مدين في طريقه إلى مصر، كما كلّمه أيام التّيه مرتين: مرة بعد موعده بصيام أربعين يوماً، ومرة عند ذهابه للجبل بالسبعين نفراً ليعتذروا عن عبادة بني إسرائيل العجل، وقد تقدم ذلك.

ومنها: جواز رؤية الله تعالى في الدنيا بدليل طلب موسى إياها غير أنها لم تقع لأحد؛ لأن البنية البشرية لا تطيقها، ولذلك أمر تعالى موسى عليه السلام أن ينظر إلى الجبل ليرى عظمة أثر التجلّي الإلهي فيه، وضرب له مثلاً بذلك حتى يعلم ويتحقّق أنه لا يطيق رؤيته عزّ وجلّ، ولذا لما تظاهر الله تعالى ببعض نوره للجبل اندكّ وساخ في الأرض، فخر موسى مغشياً عليه لِما رأى من هول عظمة الله تعالى.

وقد اختلف في رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ربّه ليلة الإسراء، وقد تقدم ذلك في التفسير.

ومنها: أن الأنبياء بعد انتقالهم من هذه الدار يصلون ويحجّون، ولا خلاف في هذا بين العلماء بدليل الحديثين المتقدمين في رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم موسى حاجّاً يلبّي ويصلّي في قبره، وتقدم ويأتي حديث الإسراء وأنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صلّى بالأنبياء ببيت المقدس.

ومنها: أن أمّة سيدنا موسى كثيرة تلي الأُمّة المحمدية، وأن بني إسرائيل على ما كان فيهم من تمرد وطغيان... قد كان فيهم العلماء الربانيّون والمؤمنون الصالحون والعباد والزهّاد المتعبّدون، والقرآن أكبر وأصدق شاهد على ذلك.

ومنها: أنه لا يجوز التخيير بين الأنبياء الذي يؤدي إلى احتقار بعضهم أو الاقتتال وإثارة الفتن لأجل ذلك كما حصل بين الصحابي واليهودي... وفي قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أو حوسب بصعقته الأُولى»**.

هو يدلّ على فضله وخصوصية له حيث إنه لم تصبه الصعقة العامة عند النفخة أو أصابته، ولكنه قام قبل كل أحد، حتى نبينا الذي يكون أوّل قائم وأول من يفيق، صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعظم ومجد وكرم.

ومنها: قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهم السلام، وفيها من العلوم والحقائق والآداب والعبر ما لا يخفى على اللبيب، وقد شرحتها وذكرت لها من الفوائد والعبر نحواً من ستّ وعشرين فائدة في كتاب «الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين»... فانظره ولا بدّ.

ومنها: أنه لم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا آسية بنت مزاحم زوجته، ومؤمن آل فرعون، وماشطةُ بنت فرعون.

أما آسية رضي الله تعالى عنها فعادت عليها بركة موسى عليه السلام

بحبّها إياه من صغره ودفعها عنه سوء فرعون، وتربيتها إياه وإحسانها إليه، فكان مآلها الإيمان به وبما جاء به، ثم الختم لها بالشهادة وقد أخبر عنها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنها من النساء الكاملات.

{٥٣٦} ـ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وقد تقدم في التفسير.

وقد ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين الذين يوجدون مع الكفار وفي بيوتهم، وأن ذلك لا يضرّهم إذا كانوا مضطرين مضطهدين أخفوا إيمانهم أو أظهروه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

فقد أخذها فرعون لعنه الله بعد أن علم بإيمانها، فجعل يعذّبها بأنواع من العذاب فصَمَدَتْ وثبتَتْ على إيمانها ودعت الله عزّ وجلّ بجواره في الجنّة، وأن ينجيها من فرعون وعمله السيّىء وينجيها من الأقباط الظالمين. فأعطاها الله ما سألت، وفي قصتها عبرة لكل مؤمن يعيش بين أقارب كفار أو منحرفين متفسخين، فهذه آسية من سيدات النساء كانت تحت أكفر أهل الدنيا ولم يضرّها ذلك.

وأما مؤمن آل فرعون، فقد ذكر الله تعالى إيمانه وإرشاداته لقومه في سورة غافر، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ

ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

وكان هذا المؤمن قبطياً ابن عم فرعون يُخْفِي إيمانه، فلمّا سمع توعّد فرعون موسى بالقتل... قام ينصح فرعون وقومه بما قصّه الله عزّ وجلّ علينا في تلك الآيات.

أما ماشطة بنت فرعون، فقصتها كالآتي:

{٥٣٧} ـ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لما أسري بي مَرَرْتُ بي رائحةٌ طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط مشطها من**

يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي، قالت: ربي هو ربك ورب أبيك، قالت؛ أوَ لك رب غير أبي؟ قالت: نعم، فدعاها فقال: ألك رب غيري، قالت: نعم ربّي وربك الله فأمر ببقرة من نحاس فأُحميت ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: قعي يا أمه ولا تَقَاعَسِي فإنك على الحق، قال: وتكلم أربعة وهم صغار، هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جُريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام».

رواه أحمد (٣٠٩/١، ٣١٠)، والبيهقي بسند صحيح، وعطاء بن السائب سمع منه حماد بن سلمة قبل الاختلاط.

ولا تقاعسي أي: لا تتأخري.

وفي قصة هذه السيدة نَمُوذَجٌ من الإيمان الصادق والثبات عليه مع التعذيب حتى الموت، وما فيها يدلّ على أن من طبع الله تعالى على قلبه وأهّلَه للكفر والعذاب لا تنجع فيه موعظة ولا تؤثر فيه آية، فها هم فرعون وملائه شاهدوا آية تكلّم الرضيع بحقّية أمه وصدقها وباطلهم وضلالهم، ورغم ذلك لم يتّعظوا ولم يرعووا.

ومنها: أن الله عزّ وجلّ جعل قصة فرعون مثلاً للطغاة والجبابرة والملوك الظلمة العتاة، وجعل هامان وزيره مثلاً لوزراء السوء وبطانات الظلم والاعتداء، كما جعل قارون مثلاً للأثرياء الفجرة والأغنياء المتكبّرين المعجبين بأموالهم المغرورين بمظاهر هذه الحياة الصاخبة الفانية.

وجعل ابن باعوراء مثلاً لعلماء السوء الفَجَرة الذين أخلدوا إلى الدنيا وخالطوا أهلها، وركنوا إلى الملوك والأُمراء الفاسقين، ونبذوا علمهم وراءهم ظهرياً... فليعتبر كل صنف بسلفه.

وقصة قارون ذكرها الله تعالى في سورة القصص، فقال تعالى عنه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٧٦، ٨١].

فكان من جملة قوم موسى، ويقال: إنه كان من أقاربه فأطغاه ماله وثراه وبغى وتكبّر وأعجب بنفسه وماله فخسف الله به وبماله...

أما ابن باعوراء، فذكره الله عز وجلّ في سورة الأعراف، فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [١٧٥ ـ ١٧٦].

ومنها: وهي خاتمة هذه الفوائد أن موسى عليه السلام توفي وهو لا يزال وقومه في التيه، وقد سأل الله عزّ وجلّ أن يُدنيه من بيت المقدس برمية حجر فقبره هنالك، كما أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم في صكّه وجه ملك الموت، غير أنه لا يُعرف قبره بالتعيين، وما يوجد من الضريح المنسوب إليه عند وادي الأردن لا يصح لأنه بعيد من بيت المقدس بأكثر من عشرين كيلو، وهو يخالف الحديث في قوله قريباً من بيت المقدس برمية حجر...

أما أخوه هارون عليه السلام: المشهور أنه توفي بالتيه قبله بزمان، وهنالك دُفن. وبهذا تمّت قصة الكليم سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وتركنا كثيراً من أخباره وأخبار قومه التي قصّها القرآن الكريم علينا.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

* * *

يوشع بن نون عليه السلام

يوشع بن نون عليه السلام من سلالة يعقوب عليه السلام، وكان فتى لموسى كما صرح به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾،

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾، وجاء مصرّحاً باسمه في الصحيحين في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، فإن في الحديث: وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، وكان نبيّاً رسولاً بعد موت موسى وهارون عليهم السلام، وهو الذي فتح بيت المقدس ووقفت له الشمس عند القتال بعد عصر يوم الجمعة، وفيما يلي من الأحاديث تفصيل ما وقع له مع بني إسرائيل في ذلك، وما أُوتي من آيات.

{٥٣٨} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«غزى نبيٌ من الأنبياء فقال لقومه؛ لا يتْبَعْني رجلٌ قد ملك بُضعَ امرأةٍ وهو يريد أن يَبْنِيَ بها ولمّا يبن ولا أحد بنى بُيُوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلِفَات وهو ينتظر ولادها، فغزى فدنا من القرية حين صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللّهمّ احبسها علينا فَحُبِسَتْ حتى فتح الله تعالى عليهم فجمع الغنائم فجاءت، يعني النار، لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً فليُبَايِعْني من كل قبيلة رجلٌ، فلزِقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلّ الله تعالى لنا الغنائم، ثم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا»**، وفي رواية: **«فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأنّ الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»**.

رواه عبدالرزاق (٩٤٩٢)، وأحمد (٣٨٨/٢)، والبخاري في الخمس (٢٩/٧، ٣٠، ٣١)، ومسلم في الجهاد (٥١/١٢، ٥٢)، وابن حبان في صحيحه (١٣٧/١١، ١٣٥).

{٥٣٩} ـ وعنه أيضاً قال؛ قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»**.

رواه أحمد (٣٢٥/٢) بسند صحيح على شرط البخاري.

قوله: غزى نبيّ الخ، هو يوشع كما في الحديث الثاني، وقوله: بضع ـ بضم الباء ـ وهو فرج المرأة، وقوله: خلفات ـ بفتح الخاء وكسر اللام ـ هي الحوامل.

لما توفّي موسى عليه السلام ومات عامة من كان معه في التيه ممن عُوقبوا لامتناعهم من دخول بيت المقدس وقتال الجبارين أمر الله تعالى يوشع عليه السلام أن يذهب بمن معه من شباب بني إسرائيل الذين ولدوا وتربّوا في التيه إلى قتال الجبارين وفتح بيت المقدس وأخذها من يد أعداء الدين، فتأهّب لذلك وقام في بني إسرائيل وحضّهم على الجهاد والثبات، وأن تكون قلوبهم فارغة من شؤون الحياة بحيث لا يكون أحد منهم يريد الدخول بزوجته، أو يكون قصده إكمال بيت قد شرع في بنائه، أو يكون منتظراً نتائج مواشي له.

فخرج بهم، فلما قربوا من القرية عند وقت العصر، وكان يوم جمعة، وقد حرّم الله تعالى عليهم العمل، ومنه الجهاد ليلة السبت ويومه، وكان يوشع عليه السلام خشي إن استمرّوا في القتال ربما غربت عليهم الشمس قبل الفتح، فيضطرون لوقف القتال فينتصر عليهم أعداؤهم الجبارون، فخاطب الشمس قائلاً: أنت مأمورة بالسير وأنا مأمور بقتال الجبارين قبل غروبك، فَقِفِي حتى أمضي إلى ما أمرت به، ثم سأل الله عزّ وجلّ أن يحبسها فوقفت حتى انتصروا وفتحوا المدينة وجمعوا الغنائم، وكانت سنّة الله تعالى فيها أن تنزل نارٌ من السماء فتأكلها، فلما جمعوها وانتظروا نزول النار لم تأتِ فعلم يوشع أن فيهم غلولاً وسرقة من الغنيمة، فجمع قبائل بني إسرائيل وأمرهم أن يبايعه من كل قبيلة رجل فبايعوه، فلزقت يده بيد رجل فقال: لتبايعني قبيلتك، فلزقت يده بيد رجلين أو ثلاثة فاعترفوا بأنهم أخذوا مثل رأس ثور ذهباً فأتوا به فجاءت نار فأكلت الغنيمة.

وكان في هذه القصة معجزاتٌ عِدّةٌ، إحداهما: حبس الشمس ووقوفها ليوشع عليه السلام، وهي من أبهر المعجزات وفرائدها، والحديث الثاني صريح في أن ذلك من خصائص يوشع وأنها لم تقف لغيره، غير أنه جاء

من حديث جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار»**، رواه الطبراني في الأوسط وحسَّنه الحافظ في الفتح. وعن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«دعا لما نام على ركبة علي ففاتته صلاة العصر فردّت الشمس حتى صلّى عليّ ثم غربت»**، رواه الطحاوي والطبراني وصححه غير واحد. قال الحافظ: وهذا أبلغ في المعجزة، وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في الموضوعات، وكذا ابن تيمية في كتاب الردّ على الروافض في زعم وضعه هي من الفتح (٢٩/٧).

ثانيها: تأخر النار عن نزولها لأكل الغنيمة، لما وقع من الغلول ثم نزولها بَعْدَ رَدّ ما غُلَّ.

ثالثها: لزوق يد يوشع بأيدي أولئك الرجال الذين كان الغلول عندهم، فهي آيات وخوارق لا تعطى إلا لمن اجتباه الله عزّ وجلّ لرسالته ولولايته.

{٥٤٠} ـ وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم، فدخلوا يزحفون على أستاهِهِمْ وبدلوا قالوا: حنطة، حبة في شَعْرَةٍ»**.

رواه أحمد (٣١٨/٢)، والبخاري في التفسير (٢٣١/٩، ٣٧٣، ٣٧٤) وفي الأنبياء، ومسلم آخر الكتاب (١٥٢/١٨)، والترمذي في التفسير (٢٧٦٤) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٢٨٦/٦).

قوله: حطة أي: طلبنا حطة أي: تحطّ عنا خطايانا، وقوله: يزحفون أي: يمشون على أدبارهم، وقوله: حبة في شعرة، في رواية: حبة في شعيرة، يعنون: حنطة حمراء قويّة فيها شعيرة سوداء، وهي معنى لغتهم «هطى سمقا».

لما فتح يوشع عليه السلام بيت المقدس أُمِرَ من قبل الله عزّ وجلّ أن يأمر بني إسرائيل الذين كانوا معه أن يدخلوا حرم الله تعالى خاضعين

متواضعين منحنين شكراً لله عزّ وجلّ على ما أولاهم من الظفر والنصر على عدوّهم، وأن يسألوا الله عزّ وجلّ حطّ ذنوبهم فبدلوا ما أمروا به تمرّداً على الله واستهزاء بأمره على عادتهم التي ورثوها من آبائهم، فعاجلهم الله تعالى بعقاب وعذاب من عنده، وهو كما قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الآتي.

{٥٤١} ـ فعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن هذا الطاعون رجزٌ وبقيةُ عذاب عُذّب به قومٌ»**، وفي رواية: **«الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل»**...

رواه مسلم (١٤/٢٠٣، ٢٠٧) وغيره وتقدم في الطب مطولاً.

فالحديث مبيّن للرجز الذي ذكره الله تعالى في هذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

فهذه الآيات الكريمات جاءت في قصتهم عند فتح بيت المقدس وتمرّدهم ونزول الطاعون بهم عقاباً لهم على ما بدّلوا من قول وعمل، فأمروا أن يدخلوا ساجدين متواضعين فدخلوا يزحفون على أدبارهم كالكلاب، وأمروا أن يقولوا اغفر لنا خطايانا فقالوا: حبّة في شعرة..

هذا ما عرفنا وبلغنا عن نبيّ الله يوشع بن نون عليه السلام من كتابنا، وحديث نبينا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والكلام على بني إسرائيل

كثير وطويل وقد كتب عنهم بعض المعاصرين كتاباً خاصّاً بهم، وبما جاء في القرآن عنهم.

* * *

قصة داود عليه السلام

لما فتح يوشع بن نون مع بني إسرائيل بيت المقدس وسكنوا الأرض المقدّسة وراح يوشع يسوسهم إلى أن توفي، فولي الأمر بعده قضاةٌ، حكموا فترةً من الزمن دون أن يكون لبني إسرائيل ملِكٌ ذو سَطْوَة وعِزَّة وكانوا عُرضةً لغزوات الأُمم المجاورة لهم وخاصة العمالقة، وكانت عادة بني إسرائيل إذا خاضوا حرباً مع أعدائهم قدموا تابوت العهد أمامهم يستنصرون به، فكان من قدر الله تعالى أن هزمتهم العمالقة في حرب لهم معهم، فقتلوا منهم بشراً كثيراً وسبوا نساءهم وذراريهم وأخذوا منهم التابوت، وذلك نتيجة جرائمهم وطغيانهم كما هي عادة الله تعالى.

فلما انهزموا وقهرهم الأعداء سألوا نبياً لهم وهو شمعون أو شمويل، وكان نبياً وقاضياً أن يختار لهم ملكاً يجتمعون تحت رايته ليقاتلوا أعداءهم، فأجابهم نبيهم: لعلكم إذا فرض عليكم القتال أن تجبُنُوا ولا تقاتلوا، فأجابوه: كيف ذلك وأعداؤنا قد أخرجونا من ديارنا وأبنائنا... فاختار لهم نبيهم ملكاً يسمى طالوت وذلك طبعاً بأمر من الله تعالى، فأنكروا أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وقالوا: إنهم أحق بالملك منه، لأنه ليس له سعة من المال فأجابهم نبيهم: هذا هو ملككم، فإن الله عزَّ وجلَّ اختاره عليكم بالعلم الغزير والقوة الجسمية، والله تعالى يعطي ملكه من يريد من عباده.

ثم طمأنهم نبيُّهم وأراد إقناعهم على استحقاق طالوت الملك، فأخبرهم بأن علامة صحة ملكه أن يأتيهم التابوت الذي كان قد أُخذ منهم، وفيه الطمأنينة والوقار، وفيه بقية من آثار موسى وهارون، وهي العصا وبعض ألواح التوراة، فجاءت الملائكة تحمله حتى وضع بين يدي طالوت والناس ينظرون، فكانت آية للمؤمنين.

وعندما خرج طالوت بالجنود وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه، وقد مروا على أرض قفرة فأصابهم حرٌّ وعطش شديد، فقال لهم: إن الله عزّ وجلّ سيختبركم بنهر فمن شرب منه فلا يصحبني، وأراد بذلك أن يمتحن إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوضوا غمار الحرب، ومن لم يشرب منه ولم يذق من مائه إلا غرفة قليلة ليبلَّ عطشه فإنه من جندي، فشرب جميعهم إلا فئة قليلة ـ وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر كما يأتي في حديث للبخاري في السيرة النبوية ـ صبرت وأطاعت أمر قائدها، فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش... ورأوا كثرة عدوّهم اعتراهم الخوف وقال فريق منهم: لا قدرة لنا على قتال هؤلاء مع قائدهم جالوت، فنحن قلّة وهم كثرة، فقال الذين يوقنون لقاء ربهم وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت: كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله تعالى ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله، فالله مع الصابرين بحفظه ورعايته وتأييده، ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله وقوّته، ولما ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار العرمرم جيش جالوت المدرب على الحروب دعوا الله عزَّ وجلَّ ضارعين إليه بثلاث دعوات، أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمّنا في جمعنا لنقوى على قتال أعدائك، ثانياً: ثبّتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، ثالثاً؛ انصرنا على من كفر بك وكذّب رسلك وهم جالوت وجنوده، فاستجاب الله دعاءهم فانتصروا عليهم وهزم جيش جالوت وجنوده وانكسروا رغم كثرتهم، وكان الذي قتل الطاغية جالوت: نبيُّ الله داود عليه السلام، وكان في جيش طالوت. يقول المؤرخون: إنه لما تواجه الجيشان خرج جالوت يطلب المبارزة فهابه جيش طالوت فخرج إليه داود عليه السلام وَبِيَدِه مِقْلاَعٌ فيه حَجَرٌ وتقدم فاستصغره جالوت واحتقره، فأخذ داود مقلاعه وضربه ضربة كان فيها حتفه ووقع صريعاً عن فرسه في الأرض، فانهزم جيشه وولوا هاربين.

وهنا ظهر أمر داود فأعطاه الله الملك والنبوَّة وعلَّمه مما يشاء.

ويُقَالُ: إن طالوت زوَّجه ابنته وأعطاه نصف ملكه، والله أعلم بذلك، فإنها إسرائيليات.

وفي هذه القصة التمهيدية لقصة داود جاءت الآيات الآتية، وهي:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

الملأ: هم الجماعة الذين يملأون العيون.

في هذه القصة الوجيزة عبر وفوائد نجملها في الآتي:

فيها: أن بني إسرائيل رغم أنهم كان فيهم الأنبياء والربانيون والملوك الصالحون كانوا هدفاً لاعتداء الأعداء عليهم ومحاربتهم إياهم حتى أنهكوهم وسبوا نساءهم وأبناءهم وأخرجوهم من ديارهم نتيجة ذنوبهم، وكثرة عصيانهم وتوالي آثامهم.

وفيها: أن الله عزَّ وجلَّ رحيم بعباده لطيف بهم إذا رجعوا إليه وتابوا مما صدر منهم، فبنو إسرائيل طالما تمرَّدوا على أنبيائهم وصالحيهم وعتوا وطغوا لكنهم كانوا إذا تذكروا وندموا على ما قدمت أيديهم قابلهم الله بألطافه وإحسانه.

وفيها: مشاهدة تلك المعجزة العظيمة وهي قدوم الملائكة بالتابوت المبارك حتى شاهده الناس.

وفيها: أن الخليفة الذي يسوس الناس لا بدَّ وأن يكون ذا علم واسع وصاحب قوة في الجسم.

وفيها: أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد، وإنما هو من عند الله تعالى، فمن كان مع الله بنصر دينه والدفاع عنه واحترامه وتعظيمه كان الله ناصره ومؤيّده، وإن اجتمعت عليه جيوش الدنيا وكفارها.

وفيها: ينبغي للمجاهدين أن يقدموا أمام قتالهم دعاء الله تعالى والتضرّع إليه بمثل ما دعا به أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

تفصيل أخبار داود عليه السلام

{٥٤٢} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سُدُسَه»**.

رواه البخاري في الصلاة (٢٥٨/٢) وفي الأنبياء (٢٦٦/٧) وفي مواضع، ومسلم في الصيام (٤٦/٨) وتقدم.

{٥٤٣} ـ وعنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له:

«فصم صوم داود نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه كان أعبد الناس كان يصوم يوماً ويفطر يوماً» الحديث، تقدم.

رواه مسلم (٤٢/٨) في الصيام.

{٥٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآنُ فكان يأمر بدوابه فتُسْرَجُ فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٦٥/٧).

{٥٤٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سجد في صٓ، وقال: «سجدها داود عليه السلام توبة ونسجدها شكراً».

رواه النسائي في الكبرى (٤٤٢/٦)، والبيهقي (٣١٩/٢) ورجاله ثقات.

وانظر ما سبق في التفسير من سورة صٓ.

{٥٤٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذرّيته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكَم جعلتَ عُمَره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة، قال: أوَ لم تُعْطِها لابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم ونسي ذرّيته، وخَطِأ آدم فخطِئت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود».

رواه الترمذي في سورة الأعراف (٢٨٧٨) وفي المعوذتين (٣١٤٨) بتهذيبي، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، وابن حبان (٤٠/١٤، ٤١)،

والحاكم (٦٤/١) و(٣٢٥/٣، ٥٨٥، ٥٨٦) و(٢٦٣/٤) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم في المواضع الثلاث وأقرّه الذهبي.

قوله: وبيصاً أي: بريقاً ولمعاناً، عرضهم أي: أظهرهُمْ لَهُ، فجحد أي: أنكر.

كان سيدنا داود عليه السلام من ذرية يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان في بني إسرائيل سبطان من أسباطهم: في أحدهما النبوّة، وفي الآخر الملك، فجمع الله عزَّ وجلَّ النبوّة والملك في داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، وجعله خليفة بِبَيْتِ المقدس وأمره أن يقضي بين الناس بالحق، وأن لا ينساق مع الهوى فيضلَّ عن سبيل الله، وقوى ملكه بالهيبة وكثرة الجنود وزاده مع الحكمة الفصل في الخصومات الواقعة بين المتخاصمين بتمييز الحق من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾، وكان داود عليه السلام من الأنبياء الأربعة أصحاب الكتب الكبيرة العظيمة وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فكان الزبور كتاباً لداود عليه السلام، وقد أشار القرآن إليه في موضعين: في سورة النساء (١٦٣)، وفي الإسراء (٥٥)، فقال تعالى؛ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، وجاء الحديث الشريف المتقدم يخبر بأنه عليه السلام كان يقرؤه كاملاً قبل أن تسرج له دوابه وتلك معجزة له في ذلك، وكان قد أعطي صوتاً جميلاً لا يسمعه حيّ إلا أنصت ووقف إليه حتى الطير في الهواء كان يقف يُرَجِّعُ بترجيعه ويُسَبِّحُ بتسبيحه، وكذا الجبال كانت تجيبه وتسبح معه كلما سبح بُكرةً وعشياً. صلوات الله وسلامه عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، معناه: جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح، قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، فكان إذا ترنم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويباً.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، قال المفسرون: الفضل الذي آتاه هو النبوّة والزبور وتسخير الجبال والطير وإلانة

الحديد وتعليمه صنع الدروع، وقوله: يا جبال أوبي الخ، أي: وقلنا يا جبال سبحي معه ورجعي التسبيح إذا سبح وكذلك أنت يا طيور، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: وكانوا إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾، معناه: سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه وكل من الجبال والطير رجاع إلى طاعة الله تعالى بالتسبيح والتقديس، وفي صوت نبيّ الله داود عليه السلام وحسنه جاء الحديث النبوي الذي سمَّاه مزماراً، وهو:

{٥٤٧} ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمع رسولُ الله صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلم صوت أبي موسى وهو يقرأ، فقال: «**لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود**».

رواه أحمد (٦/٣٧، ١٦٧)، وابن حبان (١١٤٩) موارد، وسنده صحيح على شرط الشيخين.

{٥٤٨} ـ وتقدم لنا في فضائل القرآن من حديثه بلفظ: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»، وهو في الصحيحين، وانظر ما سبق في الجزء الثاني رقم حديث (١٥٦٥).

وقوله: مزماراً أي: صوتاً حسناً جميلاً لذيذاً كصوت الزمارة، فإن صوتها جميل لذيذ.

وكان من خصائص داود عليه السلام أنْ ألان الله عزَّ وجلَّ له الحديد، وكان يصنع به الدروع والآلات الحربية بدون نار، وكان طوع يده كالشمع يتصرف فيه كما يشاء، فيعمل منه دروعاً محكمة النسج بحلقات متصلة بعضها ببعض بمقادير متساوية.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾، معناه: جعلنا له الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين والشمع، فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً أو

يضربه بمطرقة، وقوله: أن اعمل سابغات أي: اعمل الدروع السابغات التي تحفظ الإنسان شر الحرب، وقوله: وقدر في السرد أي: قدر في نسج الدروع وقسه على مقداره بحيث تتناسب حلقاتها فتكون كل حلقة مساوية أختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ولا تثقل حاملها، واجعل الكل بنسبة واحدة.

وقال تعالى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، أي: علمنا داود صنع الدروع وهي الملابس الحربية تقي وتحفظ في القتال شر المقاتلين. قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح، فهو أول من سردها وحلّقها، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ معناه: اشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم، فهو استفهام بمعنى الأمر، وهو كثير في القرآن الكريم.

ووصف الله عزَّ وجلَّ داود عليه السلام بالعبودية والقوة في الطاعة والنسك والقيام بما كلفه الله عزَّ وجلَّ به ومجاهدة النفس في دوام الصيام والقيام، فلا يعرف لأحد من الأنبياء ما كان يقوم به من الصيام والقيام، ولذا وصفه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنه كان أعبد الناس وأرشد ابن عمر إلى الاقتداء به عليه السلام كما وصفه الله تعالى بأنه أوّاب وكثير الرجوع إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، قوله: ذا الأيد أي: صاحب القوة، وقوله: أوّاب أي: كثير الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ.

* * *

فتنة داود عليه السلام

ذكر المحققون الربانيون من المفسرين وعلماء التاريخ عن سيدنا داود عليه السلام أنه كان خصَّص بعض وقته لتصريف شؤون الملك وللقضاء بين الناس والدعوة إلى الله، وخصَّص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور وتسبيح الله تعالى في محرابه، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل عليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجيء بشخصين

يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه ففزع منهما وخاف وارتعد وأضمر في نفسه أن يبطش بهما لأنهما دخلا عليه بغير إذن، ومن غير الباب وفي وقت خلوته، فبادرا يطمئنانه وقالا له: لا تخش منا فنحن رجلان تخاصمنا في شيء واعتدى بعضنا على بعض، فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ولا تظلم وأرشدنا إلى الطريق الحق الواضح، فقال أحد الخصمين: إن صاحبي هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة ـ وهي أنثى الضأن ـ وأملك أنا نعجة واحدة، فقال لي: ملكنها واجعلها تحت كفالتي وغلبني في الخصومة وشدّد عليّ وأغلظ في القول، فقال له داود عليه السلام قبل أن يسمع كلام خصمه: لقد اعتدى عليك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى المائة، وزاده قائلاً: إن الكثيرين من الشركاء ليتعدّى بعضهم على بعض إلا المؤمنين الصالحين فإنهم لا يبغون وهم قليل، فتفطن داود عليه السلام وأيقن أن الله عزّ وجلّ اختبره بهذه الحادثة وتلك الحكمة، فالتجأ إلى الله عزّ وجلّ وسأله المغفرة ووقع ساجداً لله تعالى ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط وصدر منه، وفي هذه القصة جاءت الآيات الكريمات، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٥].

هذا ظاهر القرآن الكريم وليس فيه شيء صريح يدلّ على موجب الاستغفار والإنابة، ولم يأتِ عن الصادق المصدوق رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيء في ذلك لا صحيح ولا ضعيف، وإنما الذي ذكره بعض المفسّرين والمؤرخين عن الإسرائيليات ما خلاصته: أن داود عليه السلام كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها وكانت زوجة أحد قواده يسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوجها فأرسله

في إحدى المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم، فانتصر فأرسله مراراً حتى قتل فتزوجها، فبعث الله إليه ملكين في صفة رجلين متخاصمين فحكم بينهما بما جاء في القرآن. وما ذكروه عن زوجة أوريا وما فعله داود كل ذلك كذب وافتراء يجلّ عنه مطلق المؤمنين الصالحين، فكيف بالأنبياء؟! ولا ينقضي عجبي من مثل القرطبي والخازن وأبي السعود والبيضاوي وابن جزي وغيرهم حيث ذكروا هذه الخرافة والفرية منسوبة إلى نبيٍّ كريم عظيم، وغاية الأمر إذا تنازلنا أن نقول كما قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد داود على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك واكفلنيها، وظاهر الآية يشير إلى ذلك، فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبَّهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا. قال القاضي عياض: وهذا الذي ينبغي أن يُعَوَّلَ عليه من أمره... وقيل: جاءت الفتنة والعتاب من كون داود ظنَّ السوء بالخصمين وأراد الفتك بهما، وقيل: من قضائه للمدعي من غير أن يسمع كلام الخصم الآخر، وقيل: عوتب لحجبه نفسه عن الناس. ويعجبني هنا ما قال أبو حيان في البحر: والذي يدلّ عليه ظاهر الآية من أن المتسوِّرين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنّاً منه أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتَّضح له أنهم جاءوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن وخرَّ ساجداً لله تعالى، قال: ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا؛ إذ لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله تعالى في كتابه يمرّ على ما أراده الله تعالى، وما حكى القصاص مما فيه غضّ من منصب النبوة طرحناه. وهذا الكلام وجيه سديد.

* * *

من عبر هذه القصة وفوائدها

من فوائد القصة أن الله عزَّ وجلَّ اختصَّ نبيَّه داود عليه السلام بخصائص كجمعه له بين النبوَّة والملك، كابْنِه سليمان، وإلانة الحديد له،

وصنعه الدروع، وانتصاره على جالوت، وإعزازه بني إسرائيل، واختصاصه بالنور بين عينيه كما رآه سيدنا آدم عليه السلام، وكونه كان أعبد البشر وأعطي الصوت الحسن الذي لم يسمع مثله، وأن الجبال والطير كانت تجيبه وتسبح معه، وذلك حقيقة لا مجازاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اقتدى به في سجود التلاوة، وأن الله تعالى لعن بني إسرائيل المعتدين على لسانه ولسان عيسى عليهما السلام، وفي قصته مع سيدنا آدم عليهما السلام في عالم الأرواح تكريم له من سيدنا آدم حيث زاده من عمره أربعين عاماً، فتمّت له مائة سنة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ دليل على أن الأكابر من الأنبياء والصالحين قد يستغفرون من المباحات، ومن خلاف الأولى ومن الخطرات وذلك لعلوّ مقاماتهم وعظيم منازلهم عند الله تعالى، ولذا قال في نبيّه داود عليه السلام: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾، أي: إن له لقربة وكرامة بعد المغفرة وحسن مرجع في الآخرة، وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوّته وعدله التامّ في ملكه.

❋ ❋ ❋

موت داود عليه السلام

{٥٤٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفتضحن بداود فجاء داود، فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، قال داود: أنت والله إذاً ملك الموت، مرحباً بأمر الله تعالى، ثم مكث حتى قبضت روحه،**

فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أظلّي على داود فأظلّته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحاً»، قال أبو هريرة: فطفق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية.

رواه أحمد (٤١٩/٢)، وقال ابن كثير: وإسناده جيد قوي رجاله ثقات.

والمضرحية: واحدها مضرحي وهو الصقر الطويل الجناح، ومعنى قوله: وغلبت عليه الخ، يعني أن الصقور الطوال الأجنحة غلبت على داود بالتظليل دون سائر الطيور.

وفي هذا الحديث بيان أن داود عليه السلام جاءه ملك الموت لقبض روحه عياناً في صفة رجل حتى شاهدته زوجة داود، وفيه ما كان عليه داود من الغيرة، وهي شيمة أهل الإيمان، وقد قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أتعجبون من غيرة سعد؟! أنا أغير منه، والله أغير مني»**، تقدم في التفسير وغيره، ويأتي. والغيرة بفتح الغين وسكون الياء الأنفة والحمية وثوران النفس على المحارم إذا اطّلع على ما لا يجوز وينبغي من الأجانب أو فعل بهنّ ما ينافي الآداب الإسلامية، والله تعالى أعلم.

* * *

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام من أنبياء بني إسرائيل العظام المشاهير الذي تفضل الله عزّ وجلّ عليه كأبيه، فجمع له بين النبوّة والملك، واختص عن سائر الأنبياء بتسخير الطير والوحوش والجنّ والإنس، وكان قد ورث والده في الحكمة والملك دون سائر أولاده، وقام في قومه وعرفهم نعمة الله تعالى عليه، وأنه علمه الله عزّ وجلّ لغة الحيوان والطير، بالإضافة

إلى ما أُوتي من كل ما يحتاجه وجمع يوماً سليمان جنوده من الإنس والجنّ أوّلهم وآخرهم ومضى بهم حتى وصل إلى وادٍ فيه نمل كثير، فسمع عليه السلام نملة تقول لأخواتها: يا أيها النمل هذا سليمان وجنوده مارُّون في اتجاهكم فاختبئوا في جحوركم حتى لا يبيدوكم بوطئهم من غير أن يشعروا بكم، فسمع سليمان ما قالته النملة فسرَّ بذلك واغتبط لإلهام النملة أن تذكر ما وهب الله تعالى له من النبوّة والعدل والرحمة وابتهج بما خصّه الله عزّ وجلَّ من الملك ومن إدراك كلام النملة الذي يخفى على البشر، فتبسّم ضاحكاً وقال مناجياً لربّه: ربّ اجعلني مداوماً على شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والدي ووفقني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه وأدخلني بفضلك ورحمتك في عداد الصالحين الذين نالوا رحمتك ورضاك، وفيما ذكرناه يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٩].

قوله: منطق الطير أي: فهم لغته، وقوله: وحشر أي: جمع، وقوله: يوزعون أي: يحبس أولهم حتى يلحقهم آخرهم، فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد. لا يحطمنّكم أي: لا يصيبونكم فيكسرونكم، لا يشعرون أي: لا يعلمون بكم، أوزعني أي: ألهمني ووفّقني.

وبمناسبة ذكر النمل في هذا المقطع نذكر بعض ما جاء من الأحاديث النبويَّة التي تتحدَّث عنهم.

{٥٥٠} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«نزل نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ فلدغَتْهُ نملةٌ،**

فأمر بِجِهازِهِ فأُخرِجَ من تحتها ثم أمر بها فأُحرِقَت فأوحى الله تعالى إليه فهلاَّ نَمْلَةً واحدةً؟ وفي رواية: **«فأوحى الله تعالى؛ أفي أن قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أُمةً من الأُمم تسبِّح»**.

رواه أحمد (٣١٣/٢)، والبخاري آخر بدء الخلق (١٦٨/٧) وفي الجهاد، ومسلم آخر الطب (٢٣٨/١٤)، وأبو داود آخر الأدب (٥٢٦٥، ٥٢٦٦)، والنسائي في الصيد من الكبرى (٤٦٠٥).

قوله: نبيٌّ قيل: هو عزير وجزم القرطبي وغيره بأنه موسى، وقيل: سليمان ذكر ذلك الحافظ، فلدغته أي: قرصته وعضَّته، نملة أي: واحدة من النمل، والمراد به إذا أطلق، السليماني الكبير لا الذَّرُّ الصغير، قوله: بجهازه أي: متاعه، قوله: فهلاَّ نملة أي: فهلا أحرقت نملة واحدة نظراً للقصاص.

{٥٥١} ـ وعن أبي هريرة أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«خرج سليمان عليه السلام يستسقي فرأى نملةً مستلقيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء تقول: إنَّا خلقٌ من خلقك ليس بنا غِنًى عن سُقياك فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»**.

رواه الحاكم (٣٢٥/١)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه عبدالرزاق (ج ٩٥/٣، ٩٦) موقوفاً على الزهري بسند صحيح.

{٥٥٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَهَى عن قَتْلِ أربعٍ من الدواب: **«النملةِ، والنحلةِ، والهُدْهُدِ، والصُّرَدِ»**.

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح، وتقدم في الأطعمة.

* * *

تسخير الريح والشياطين لنبيّ الله سليمان عليه السلام

كان نبيّ الله سيدنا سليمان عليه السلام قد دعا ربَّه أن يغفر له ويهب له ملكاً لا ينبغي أن يكون لأحدٍ بعده، فأجاب دعاءه وأعطاه سلطاناً على الريح وقدرة عليها، فجعلها تجري بأمر الله عزَّ وجلَّ إلى المكان الذي

يريده، فكان له بساط مركب من أخشاب يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجنّ وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أيّ بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت فرفعته فإذا استقلّ بين السماء والأرض أمر الرخاء وهي الريح اللّينة، فسارت به فإن أراد أسرعَ من ذلك أمر الريح العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أيّ مكانٍ شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح في المساء فترده إلى بيت المقدس، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، أي: تجري بأمره لينة طيبة حيث قصد وأراد. وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، أي: سخرنا له الريح العاصفة الشديدة الهبوب تسير بمشيئته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والثمار، وكانت مسكنه ومقرّ ملكه.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره مسافة شهر في غدوة ومثلها في روحة، فتقطع به مسافة شهرين في أقل من يوم، وهو تسخير من الله عزّ وجلّ وآية له تعالى أجراها على يد نبيّه سليمان عليه السلام، وكم لله من آيات في هذا الكون عبر العصور، وكما سخّر له الريح تحمله إلى حيث شاء كذلك سخر له الجنّ والشياطين عُمّالاً بين يديه يعملون له بإذن ربّه ما شاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم وعصى أمره عذّبه ونكّل به، وكان فيهم الغوّاصون في الماء لاستخراج الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لا يوجد إلاّ هناك، وفيهم من كان مُسَخّراً في بناء الأبنية الهائلة العجيبة والقصور الشامخة، وصنع الصور والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج ولم تكن محرّمة في شريعته، كما كانوا يصنعون له القصاع الضخمة تشبه

الحياض، ويعملون له القدور الكبيرة الثابتة في الأرض لا تتحرك لكبرها وفخامتها، ولا تتحوّل عن أماكنها، إلى غير ذلك من الأشياء التي لا يستطيع الإنسان صنعها.

وكان الله عزَّ وجلَّ قد أمدَّه بعين من النحاس أنبعها له ليستعين بها على ما يريد... وكان إلى جانب هؤلاء الجنّ والشياطين الطائعين له شياطينُ أُخَرُ مَرَدَةٌ مَقَرَّنون مُوثَقُون في الأغلال مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم على سليمان عليه السلام، وفي هؤلاء وأولئك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣].

ويقول جل ثناؤه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٩].

امتنَّ الله عزّ وجلَّ عليه بذكر ما أنعم عليه وخيَّره فيما أعطاه بأن يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا حساب عليه؛ لأنه مطلق اليد فيما وهب له من سلطة ونعمة، وبما أن هذه نعم جلائل تستحق عظيم الشكر قال الله تعالى له ولأبيه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وفي سؤال سليمان ربَّه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ بعده جاء الحديثان التاليان:

{٥٥٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ عِفْريتاً من الجنّ تفلَّت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذتُه فأردتُ أن أربطه على ساريةٍ من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلُّكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خاسِئاً**».

رواه البخاري في الصلاة وفي الأنبياء (٢٦٩/٧) وفي مواضع، ومسلم في الصلاة (٢٨/٥، ٢٩)، وتقدم في الصلاة (ج٣٨٨/١) وفي التفسير.

قوله: تفلت أي: تعرض لي فلتة وفجأة، وفيه تأدب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع سليمان.

{٥٥٤} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن سليمان عليه السلام لمّا بنى بيتَ المقدس سأل الله عزَّ وجلَّ خِلالاً: سأل الله حكماً يصادف حكمَه فأُوتيه، وسأل الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيه، وسأل الله حينَ فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهَزُه إلا الصلاة فيه أن يُخرِجَه من خطيئته كيوم ولدته أمُه، أما اثنتان فقد أُعطِيهُما وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة»**.

رواه أحمد (١٧٦/٢)، والنسائي في المساجد (٢٨/٢) وفي الكبرى (٢٥٦/١)، وابن ماجه (١٤٠٨)، والحاكم (٣٠/١، ٣١) و(٤٢٤/٢) وغيرهم وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو عند ابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (ج٥١١/٤، ٥١٢) أيضاً.

وقوله: حكماً يصادف أي: يوافق ويواطىء، وقوله: لا ينهزه أي: لا ينهضه ويدفعه إلى زيارته إلا الصلاة فيه.

وفي الحديثين فضل واضح ومزايا لنبيّ الله سليمان عليه السلام وخصائص خصَّه الله تعالى بها، والله يختصّ برحمته من يشاء وتأتي بقية في الفوائد.

* * *

سليمان عليه السلام والخيل الجياد

كان الله عزَّ وجلَّ قد أنعم على عبده سليمان بخيل كثير، فعُرضت عليه عشية يوم من الأيام بعد العصر، وكانت خيلاً صافنات تقف على أطراف حوافرها سَاكِنةً مطمئنة، وجياداً بحيث إذا جرت كانت سراعاً في جريها، قال المفسّرون: عرضت عليه آلاف من الخيل فأجريت بين يديه عشية فتشاغل بحُسْنِها وجَرْيِها ومَحَبَّتِها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس، واختفت عن الأنظار، فتنبّه وقال: آثرت حب الخيل حتى شغلتني

عن ذكر الله عزَّ وجلَّ ثم أمر بردّها عليه، فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقرُّباً إلى الله تعالى لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله تعالى.

قال الحسن البصري: لما ردَّت عليه قال: لا والله لا تشغليني عن طاعة ربّي ثم أمر بها فعقرت، وكذلك قال السدي، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لله وتكرمة، واختار هذا القول ابن جرير واستظهر آخرون القول الأول، ولذلك عوَّضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها، وهي الريح التي كانت له أسرع من الخيل، ويشهد لهذا القول حديث أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال: «**قطع سوقها وأعناقها**» رواه الطبراني في الأوسط (٦٩٩٣) بسند حسن فهو موافق لقول جمهور المفسّرين، والله تعالى أعلم.

* * *

سليمان وداود يحكمان

تخاصم رجلان إلى داود عليه السلام؛ دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته، فلم تبقِ منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان عليه السلام وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبيّ الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها فقال له داود: وفقت يا بنيَّ وقضى بينهما بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، أي: اذكر قصة داود وسليمان حينما حكما في شأن الزرع وقت إذ نفشت، أي: رعت فيه غنم القوم ليلاً، وكنّا لحكمهم شاهدين، أي: كنا مطّلعين على حكم كل منهما عالمين به، ففهمناها سليمان أي: علّمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية، وكلاًّ آتينا حكماً

وعلماً، أي: وكلاً من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوَّة.

وهذا الحكم الذي حكم به كل من النبيِّين الكريمين عليهما السلام يخالف قواعد شريعتنا؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾، وانظر ما سلف في الجنايات رقم حديث (١٤٧) فهُنالِك بَيانُ حُكْمِ شَرِيعَتِنا فِيهِ.

{٥٥٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأُخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال: إيتوني بالسكين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله تعالى هو ابنها، فقضى به للصغرى**».

رواه أحمد (٣٤٠/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٧٥/٧) وغيره، ومسلم في الأقضية (١٨/١٢) وغيرهما، وتقدم في التفسير وفي القضاء، وما جاء في هذا الحديث الشريف هو داخل في الآية الكريمة؛ لأن الله تعالى فهَّم الحكم والقضاء سليمان في هذه الحادثة. وسيأتي ما يؤخذ من هذا الحديث من فوائد.

* * *

فتنة سليمان عليه السلام

{٥٥٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله تعالى، فلم يقل إن شاء الله فلم تحمل منهنَّ إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل، والذي نفسُ محمد بيده لو**

قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

رواه أحمد (٢/٢٢٩، ٢٧٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٠) وفي مواضع، ومسلم في الأيمان والنذور (١١/١١٩) وغيرهم.

قوله: لأطوفنّ أي: عليهن بالجماع في ليلة واحدة، وقوله: على مائة امرأة جاء في روايات تسعين وسبعين وستّين، وانظر الجمع بينهما عند الحافظ في «الفتح» (٧/٢٧١).

وقوله: بفارس أي: رجل مقاتل، وقوله: قال له صاحبه أي: الملك، وقوله: بشقّ أي: بنصف رجل، واستدلّ المحقّقون بهذا الحديث على أنه المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ﴾ أي: امتحناه وابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال القاضي عياض: قال أصحاب المعاني: والشقّ هو الجسد الذي ألقي على كرسيه حين عرض عليه وهي عقوبته ومحنته، وقيل: مات فأُلقي على كرسيه ميتاً، وقيل: ذنبه: حرصه على ذلك وتمنيه، وقيل: لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني، وقيل غير ذلك. قال: ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبّه الشيطان به وتسلّطه على ملكه وتصرفه في أُمّته بالجور في حكمه لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا وقد عصم الأنبياء من مثله الخ، وكل ما ذكره المفسّرون والمؤرخون في ذلك خرافات وافتراءات تنافي مقام النبوة لا يجوز الالتفات إليها ولا اعتقادها ولا ذكرها إلاّ على سبيل الردّ عليها وإبطالها... والحديث تأتي فوائده.

* * *

سليمان عليه السلام والهدهد وملكة سبأ

قدّمنا أن الله عزّ وجلّ سخّر لنبيّه سليمن كلّ شيء ومنها الطير ومن جملته الهدهد، وهو طير معروف له أجنحة وريش ملوّنة جميلة.

وأن سليمان عليه السلام تفقد الطيور فلم ير الهدهد مع الطيور فسأل عنه، وقال: إن كان غاب عني بلا استئذان سأعذّبه عذاباً شديداً أو سأذبحه

أو يأتيني بحجَّة بيِّنة، فلما جاء بعد برهة وجيزة وسأله عن غيابه قال له: إنني قد اطَّلعت على ما لم تطلع عليه وعدت إليك من مملكة سبأ بخبرٍ صادق محقّق؛ لقد وجدت بها امرأة تحكم هذه المملكة وقد أعطيت كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم، ولها عرش وكرسي عظيم محلّى بالجوهر واللآلىء، غير أنها رغم ما أفاض الله تعالى عليها من نعم وما أعطاها من ملك، فهي مشركة كقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله عزّ وجلّ، فقد أغواهم الشيطان ومنعهم عن طريق الله فهم لا يهتدون إلى عبادة الله تعالى، ثم تابع الهدهد كلامه مع سليمان في شأن كفر القوم وعدم سجودهم لله الواحد الذي يخرج ويظهر ما تخبئه الأرض من النبات والسماء من المطر، وأنه يعلم السر والعلن من النوايا والظواهر، وأنه الله الذي لا إله إلا الله هو رب العرش العظيم، وهنا انتهى الهدهد من كلامه عن خبر سبإ، فأجابه سليمان عليه السلام: سوف نبحث فيما قلت لنتبين أأنت صادق في قولك أم كاذب، وعندئذ يكون الحكم بما يظهر لنا من الحقائق وفيما دار بين الهدهد وسليمان من كلام يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

* * *

رسالة من سليمان إلى بلقيس

أراد سليمان عليه السلام كشف حقيقة ما حدّثه به الهدهد، فكتب رسالة

ودفعها إليه وأمره أن يلقيها بين يدي بلقيس وأوصاه أن يراقبها وقومها ويستمع إلى ما يجيبون ويردُّون به على الرسالة، طار الهدهد من بيت المقدس بالرسالة إلى اليمن وألقاها بين يدي بلقيس ملكة سبإ فأخذتها وفتحتها وقرأت ما فيها، ثم جمعت أشراف قومها وقادتهم وقالت لهم: يا قوم إنه قد أتاني وألقي إليّ كتاب كريم من الملك سليمان، جاء فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم لا تتكبروا عليّ وائتوني منقادين خاضعين لله تعالى وحده، ولما قرأت الرسالة وجهت كلامها لمن حولها من رعيتها تستشيرهم في موضوع هذه الرسالة وقالت لهم: يا جماعة أشيروا عليَّ في هذا الأمر العظيم، فإني لا أنفِّذ أمراً ولا أبرم شيئاً إلا بمشورتكم وحضوركم، فأجابها القوَّاد والضباط وذوو سلطتها نحن أصحاب قوة وشجاعة شديدة، فالأمر أمرك فانظري ما تأمرين به فنحن تحت طاعتك، لمست بلقيس من قومها إرادة الحرب ومواجهة سليمان بالقوة لكنها كانت عاقلة مفكّرة تنظر إلى العواقب، فبيَّنت لهم أضرار الحرب وعاقبة المهزومين، وأن عادة الملوك إذا احتلوا قرية محاربين أفسدوا عمارتها وخرَّبوها وأتلفوا ما فيها وأهانوا أعزَّاءها، وهكذا سيفعلون بنا إن هم انتصروا علينا، ثم رأت بلقيس أن تبعث إلى سليمان بهدية عظيمة وستنظر بماذا يرجع المبعوثون، فلما جاء وفد بلقيس إلى بيت المقدس يحمل الهدايا وقد شاهدوا ملكاً عظيماً وجنوداً ليست مملكة سبإ إلى جانبه بشيء يذكر، وقدَّموا هداياهم أنكر ذلك سليمان عليهم لأنه لم يكتب إليها طمعاً في مال أو هدية، ولكنه طلب منها أن تأتي إليه لتؤمن بالله تعالى وحده وتتبع شريعته وتترك عبادة الشمس، فخاطب القوم منكراً عليهم: أتهدونني مالاً وقد أتاني الله خيراً مما آتاكم من النبوة والملك ولست مثلكم تفرحون بالهدايا لتعلقكم بالدنيا وحبّها والتمتع بها، ثم خاطب رئيس الوفد مهدداً له ولقومه: ارجع إلى قومك واردد عليهم هديتهم وأخبرهم بما شاهدت من ملكنا وقوَّتنا وعبادتنا لله تعالى، فإن آمنوا وأطاعوا نجوا، وإن أصرُّوا على شركهم وتمرُّدهم على الله، فوالله لنأتينهم بجنود من الجنّ والإنس لا طاقة لهم بمقاومتها، ولنخرجنهم من مدينة سبإ أسارى ذليلين.

وفي إرسال سليمان رسالته مع الهدهد إلى بلقيس وما أجابت به

وبعثت من الهدية وما أجابهم به سليمان عليه السلام من التهديد والغزو جاءت الآيات الكريمات، وهي قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٢٨ ـ ٣٧].

* * *

عرش بلقيس يُؤتَى به من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لمَّا رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد، فلما علم سليمان بقدومها أراد أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب والآيات الدالَّة على عظيم قدرة الله تعالى وصدقه في دعوة النبوّة.

فقال عليه السلام لأشراف من حضره من جنده من الجنّ والإنس: أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر قبل أن تصل إليّ مع قومها مسلمين، قال مارد عظيم من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس حكمك، وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم، وغرضه أنه يأتي به في أقل من نصف نهار، وقال له: إني على حمله لقادر وأمين على ما فيه من الجواهر والدرر وغير ذلك، فقال الرجل الصالح الربّاني آصف بن برخيا في قول جمهور المفسّرين:

وكان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب: أنا آتيك به بلمح البصر وقبل أن يرجع إليك طرفك، فأتى به كما قال، فلما نظر سليمان ورأى العرش حاضراً لديه قال: هذا من فضل الله وإحسانه إليّ ليختبرني أأشكر إنعامه أم أجحد إحسانه، فمن شكر فمنفعة ذلك لنفسه ومن جحد ولم يشكر فالله تعالى مستغنٍ عنه وعن شكره، كريم بالإنعام على من كفر نعمته.

وفي هذه الآية والكرامة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

❋ ❋ ❋

بلقيس حاضرة عند سليمان مسلمة تشاهد آيات الله. وعظيم قدرته

لما دنا وصول ملكة سبأ إلى فلسطين أمر سليمان عليه السلام أن يغير بعض معالم عرشها امتحاناً لها فقال: غيّروا بعض أوصاف عرشها وهيئتها لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا، فلما أتت ورأت العرش قيل لها: أمِثْلُ هذا عرشُك؟ قالت: يشبهه ويقاربه، قال سليمان عليه السلام ـ تحدثاً بنعم الله تعالى ـ لقد أُوتينا العلم من قبل هذه المرأة؛ بالله وقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً، ومنعها عن الإيمان بالله تعالى عبادتها القديمة للشمس بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين.

وكان لسليمان عليه السلام قصر فخم صُنِعَتْ أرضُه من زجاج شفَّاف مستوٍ أملس وأرسل الماء تحت الزجاج، فبَدَا البَهْوُ كأنه بركة ماء، ثم جلس سليمان في صدر البَهْو على سريره، وبعث إلى بلقيس لمقابلته في القصر، فقيل لها: ادخلي القصر العظيم الفخم، فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنَّت أرضه لجّة ماء وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه، قال لها سليمان: إنه قصر

مملس من الزجاج الصافي وليس ماء كما ظننتِ، ولما رأت بلقيس من إكرام سليمان الشديد لها ورأت الحقيقة الساطعة وشاهدت الآيات الباهرات أيقنت بأن سليمان نبيّ الله تعالى مؤيّد من عنده، فأشهرت إسلامها وقالت: ربي إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس وتابعت سليمان على دينه، فدخلت في الإسلام مؤمنة بربّ العالمن.

وفي هذا المشهد العظيم الغريب يقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٤].

❊ ❊ ❊

وفاة سليمان عليه السلام

قال المفسّرون: كانت الإنس تقول: إن الجنّ يعلمون الغيب الآتي في المستقبل، فوقف سليمان عليه السلام في محرابه يصلّي متوكّئاً على عصاه فمات ومكث على ذلك سنة، والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأَرَضة عصا سليمان فتكسّرت وسقط على الأرض، فعلموا موته وعلم الإنس أن الجنّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنّون أنه حيّ وهو عليه السلام ميّت. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

دابّة الأرض: هي سوسة الخشب، منسأته أي: عصاه، واختلفوا في سنّه يوم توفي ولا نصّ في ذلك يعتمد عليه، غير أن ابن جرير جزم بأن عمره كان نيفاً وخمسين سنة، وأقبرَ ببيت المقدس وهو غير معروف على التحقيق كأبيه داود عليهما السلام، بل وكثير من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

من فوائد قصة سليمان عليه السلام

في هذه القصة عبر وفوائد غَزيرة عظيمة:

فمنها: وهي من خصائص سيدنا سليمان عليه السلام، تسخير الإنس والجنّ والطير والوحوش له، وأن الجميع كان تحت أمره يحكم فيهم ويسخّرهم ويستخدمهم بإذن الله تعالى، وهذا لم يكن لأحد قبله، ولا يكون لأحد بعده، ولذلك لما خنق نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذلك العفريت وأراد وَثاقه أطلقه تأدّباً مع سليمان حيث دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾، فكان الحكم في الجن... خاصاً به عليه السلام.

ومنها: وهي من المعجزات وآيات الله الكونية معرفته بلغات الحيوان، فهذه النملة تتكلم مع زميلاتها بإفراغ الطريق لجيش سليمان وجنوده، ففهم كلامها وخطابها وأمرها وتحذيرها وما دار بينها وبين أخواتها، وهذا الهدهد يحاوره ويتكلم معه ويخاطبه ويفهم ما يقول كأنه بشر.

ومنها: أن الحيوانات لها لغاتها تتفاهم بها مع بعضها بعضاً، وأن لها مجتمعات تعيش فيها كمجتمع الإنس والجنّ، وقد ألف العلماء في الحيوان وحياته وذكروا له عجائب الغرائب وأنه كالإنسان في حياته إلا فيما خصّ به الإنسان.

ومنها: منع تحريق الحيوان بالنار ومنه النمل، بل لا يجوز قتله مطلقاً لنهي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتله، وفي حديث لدغ النملة سليمان أو غيره وتحريقه جميع قرية النمل وعتب الله عليه في ذلك دليل على وجوب العدالة، وأنه كان ينبغي له أن يقتل نملة واحدة لقوله في الحديث: «أهلكت أمة من الأُمم تسبّح».

وقد ذكر العلماء أنه يمنع قتل أيّ حيوان أو هوام... إلا المؤذيات، بل قالوا: لا يجوز قطع الأشجار والنبات بلا سبب، لأن الجميع يسبح الله ويذكره ويعبده ويسجد له.

ومنها: أن الحيوان يسأل الله ويدعوه مثلنا، فهذه النملة تطلب السقي من الله تعالى عندما تأخر المطر وتخضع لله وتخاطبه بأننا خلق من جملة خلقك، مفتقرون إلى سقيك ورزقك وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾، ويقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

ومنها: تلك المعجزة الباهرة التي خصَّ الله بها سليمان عليه السلام وهي تسخير الريح له تطير به وتسافر به وبجيوشه العرمرة إلى حيث يريد، وهذه الآيات ما سمع بها لأحد من الأنبياء. نعم كان لهم البراق يركبونه ويطير بهم وهو أمر غريب أيضاً ينكره الماديُّون والملحدون منذ القدم، لكن الله عزّ وجلّ أجرى على أَيْدِي إخوانهم في الكفر والجحود، هذه المخترعات الحديثة من طائرات وغيرها ليقيم عليهم الحجة بأن الذي أظهر هذه الآيات الحديثة، وكانت من قِبَلِ المستحيل عادةً، هو الذي سخَّر الريح لسليمان، والبراق للأنبياء يسيران بهم في الجوّ بلا أجهزة ولا أسباب، إلا قدرة الله العظيم الحكيم العليم.

ومنها: وهو من فضائل سليمان عليه السلام أنه لما بنى بيت المقدس، والمراد به تجديده دعا الله بثلاث دعوات: إحداها: أن يعطى ملكاً لا يكون لأحد بعده فأُعطيه، ثانيها: أن يُمْنَح حكماً يكون موافقاً لحكم الله تعالى فأُعطيه، ثالثها: أن كل من خرج قاصداً ذلك البيت ليصلّي فيه غفرت ذنوبه، وكان كأنما ولدته أمّه، ويأمل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يكون أُعطيها وهو المرجوّ من الله الكريم، وفي ذلك فضل وأيُّ فضل لزيارة بيت المقدس لا حرمنا الله تعالى من زيارته مرة ثالثة...

ومنها: ما فعله من قتل الخيل على قول الجمهور دليل على أن من شغله شيء من متاع الدنيا عن الله عزّ وجلّ ينبغي أن يتصدّق ويتقرّب به إلى الله، لأن كل من شغل المؤمن عن الله فهو مشؤوم عليه، ولا يقال كيف يتصدّق بلحوم الخيل على الفقراء... والجواب أن لحوم الخيل مباحة

حتى في شرعنا، كما جاء في حديثي جابر وأسماء كما قدمنا في الأطعمة، كما هو مذهب الجمهور.

ومنها: ما جاء في حديث طوافه على نسائه وتمنّيه أن يلدن جميعهن ذكوراً لِيُجَاهِدَ بهم في سبيل الله، وفي ذلك استحباب تمنّي الأولاد للتعاون بهم على طاعة الله تعالى من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله تعالى... وأن المباح من المشتهيات قد ينقلب مستحبّاً بالنيّة، وفيه بركة ذكر الله وتعليق اليمين والأعمال بمشيئة الله وأن الغفلة عن الله مشؤومة قد يحرم المَرْءُ بسببها خيراً كبيراً، كما فيه جواز السهو على الأنبياء، وأن ذلك لا يقدح في مقامهم وعصمتهم، لأن ذلك من جملة الأعراض البشرية الجائزة عليهم.

ومنها: ما تفضّل الله عزّ وجلّ به على سليمان من الحكم والقضاء وتفوّقه على والده رغم أن كليهما كانا من أهل العلم والحكمة وفصل الخطاب، وفي حكمهما على الماشية والزرع وأكل الذئب الطفل إشارة إلى أنه يجب على القاضي أن يكون ذكياً فطناً يستخرج الحق بالقرائن والعلامات، وقد قدمنا شروط القاضي في الإمارة...

ومنها: ما جاء من الآيات والعِبَر والأحكام... في قصة مَلِكَةِ سبإ وهي كالآتي:

أولاً: درس في تواضع العلماء وأنه يجب على أهل العلم أن لا يحتقروا غيرهم ممن هم دونهم ولو كانوا أُمّيين أو حيوانات، وأن يأخذوا العلم والحكمة من أيِّ كان، فهذا سليمان عليه السلام وهو نبي يُوحَى إليه خفيت عليه ملكة في الأرض تحكم أُمَّةً من الناس يعبدون الشمس حتى عرَّفَهُ بها طيرٌ من الحيوان، فيقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾...

ثانياً: آيات ومعجزات جمّة فيما حصل بين نبيّ الله سليمان عليه السلام والهدهد: مُحاوَرَاتٌ، إرسال الطير بريداً، استماعه لما صدر من ملكة سبإ وملإها، توصله بالجواب،...

ثالثاً: مشروعية نظام الشورى وذمّ الاستبداد بالرأي، فهذه ملكة سبإ لما جاءتها رسالة سليمان يدعوها فيها إلى الإيمان وينهاها عن العلوّ والاستكبار لم تستبدّ برأيها، بل جمعت أهل الحلّ والعقد من وزرائها وقاداتها واستشارتهم في أمر سليمان عليه السلام، وعندما فوّضوا أمرهم إليها وعرّفوها بأنهم رَهْنُ إشارتها وأنهم أهلُ قوّة وشجاعة فَلْتَأْمُرْهم بما شاءت اختارت ما رأته خيراً لها ولأمتها.

رابعاً: رأت أن تستميل سليمان إليها بهدية، فبعثت إليه بهدية مع وفدٍ لها وبما أن مهاداة الملوك مشروعة من قديم الزمان للتقارب والتحابب أو للصلح والمهادنة، حتى أن ذلك صدر من نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع كفار وقته كما يأتي في السيرة، فإن سليمان عليه السلام لم يعبأ بهدية الملكة ولا ألقى لها بالاً لأمرين: أولاً: رآها أمراً تافهاً بالنسبة لما أعطاه الله عزّ وجلّ من الملك والنبوّة وما سخّر له من كل شيء. ثانياً: عرف أن ما بعثت به ما هو إلا رشوة تُرْشِيهِ بها ليتركها وحالتها، ولذلك بعث إليها مع وفدها قائلاً: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فلما بلغها ذلك جمعت أمراءها وقاداتها وجنودها وأتته مذعنة منقادة.

خامساً: ظهور تلك الآية والكرامة على يد ذلك الرجل الصالح السيد «آصف بن برخيا» وهو إتيانه بسرير ملكة سبإ من اليمن إلى فلسطين، وهي مسافة شهر في العادة، وذلك في طرفة عين. وهذه من أصول الكرامات التي استدلّ بها علماؤنا رحمهم الله تعالى، فإن هذا أمر خارق من المستحيل عادة، وهذا من قبيل ما يسميه الصوفية بالتعْريف بالروح، فإن المؤمن إذا قويت روحه بأنواع الطاعات وذكر الله تعالى ومراقبته أصبح روحانياً كالملائكة والجنّ، فيستطيع بإذن الله تعالى أن يفعل أموراً مستحيلة عادة، كالطيران في الهواء والمشي على الماء والدخول في الجدار ورؤية ما في السماء وما في تخوم الأرض وقعر البحار، وسماع الأصوات البعيدة، والمشي بالخطوة، إلى غير ذلك من الخوارق والكرامات، ولا ينكر هذا وأمثاله إلا جاهل أو ملحدٌ أو معاند، ومن جهل شيئاً عاداه، فمن شكّ

فليجرب ولو هازلاً، فإن من خرج عن بشريته بالرياضة حصل له مثل ذلك سواء كان مؤمناً أم كافراً، غير أن الوسيلة والغاية تختلفان.

ومنها: أن عبادة الشمس كانت قديمة، وذلك يدلّ على أن التعبد والتنسك شيء فطري، غير أن الأُمم تختلف في ذلك، فلكل أمة إله تحنثت له ورأته إلهاً فتقرّبت إليه بالقرابين وسألته وخضعت له، وتعدّدت لذلك الآلهة من شمس وقمر وكواكب وبحار وأشجر وأصنام وحيوان وإنسان، وكلها مخلوقات لله عزّ وجلّ ومظاهر قدرته مسخرات له عزّ وجلّ لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، لكن الشياطين أضلّت الناس وحملتهم على عبادة الكائنات، ولذلك أرسل الله الرسل عليهم السلام وأنزل عليهم الكتب ليحاربوا هذه الظاهرة ويرجعوا الناس إلى فطرتهم، وهي توحيد الله عزّ وجلّ وعبادته وحده لا شريك له، وهذا ما حمل سيدنا سليمان عليه السلام على إرسال الهدهد إلى ملكة سبإ برسالته لدعوتها إلى الله تعالى.

ومنها: أن كل أُمّة جعلت أمرها العام للمرأة كان ذلك فيه دليلٌ على سقوطهم ونذالتهم وجهالتهم، وأنهم ستكون عاقبتهم الذل والخزي والتعاسة... وقد تقدم في التاريخ رئاسة النسوة حتى في عصرنا هذا الموبوء، وهو أخسّ العصور وأسقطها وأكفرها وأفجرها، إذ أنَّ المرأة أضحت تنافس الرجل وتزاحمه في كل شيء وأبانت عن وقاحتها وصفاقتها وخرجت عن أنوثتها وأصبحت غذاء للغادي والرائح وبضاعة بخساً رخيصة.

ومنها: جاء في الصحيح أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سأل الصحابة لما قتل كسرى: من ولي بعده؟ قالوا: ابنته، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»**، أي: لن يسعد قوم ولا تكون لهم قائمة إذا كانت المرأة وليّة أمورهم، صدق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو لا ينطق عن الهوى، وما هو إلا وحي يوحيه الله إليه، فليخض الملحدون ما شاؤوا، وليتصرف العلمانيون ما أرادوا وليتمتعوا بالنساء الفواجر في حياتهم، وليعطوهن حرياتهن المطلقة، فسوف يعلمون أيّ منقلب ينقلبون.

ومن عجيب أمر بعض من يدافع عن حقوق المرأة استدلاله على ولاية المرأة كرئيسة دولة ووزيرة وضابطة شرطة وقائدة وسفيرة وقاضية... بقصة ملكة سبإ وهي كافرة تعبد الشمس وديننا جاء بخلاف ذلك، والله المستعان على ما أصابنا في ديننا.

ومنها: وهي خاتمة هذه القصة، فمن هي هذه الملكة وأين كانت؟ اتفق المفسّرون وعلماء التاريخ على أن هذه المرأة كان يقال لها بلقيس، وذكر بعضهم أن أحد أبويها كان جنيّاً، وذهب بعضهم إلى أنها من سلالة تبع، وأنها ملكت أمة سبإ، وسبأ ـ بفتحتين آخره همزة ـ قبيلة من العرب العاربة كانت تسكن اليمن ومدينتها مأرب بينها وبين صنعاء أكثر من مائة وخمسين كيلو، وسمّيت سبأً باسم جدّهم سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان، وكان يسكن تلك المنازل وسمي سبأً لأنه كما يقال أول من سبى السبايا من ملوك العرب، وأدخل السبايا إلى اليمن، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في القرآن الكريم، وسميت سورة باسمهم.

يبقى ماذا كان آخر أمر هذه الملكة؟ تضاربت أقاويل المفسّرين والإخباريين في شأنها، فقال بعضهم: إنها لما أسلمت تزوجها سليمان عليه السلام وبقيت معه بالقدس، وذهب البعض الآخر إلى أنها رجعت إلى بلادها وأقرّها سليمان على مُلْكِها، ولا دليل في ذلك يُرجع إليه، وإنما هي من الأقاويل الإسرائيلية، وعلى كلٍّ فالعبرة من القصة حاصلة والحمد لله.

ومنها: في موتِ سُلَيْمانَ مدة دون أن يشعر به الجن دليل واضح على أنهم لا يعلمون الغيب، كما يقال وكما يظن جهلة بني آدم، فهذا القرآن الكريم ينفي عنهم ذلك صراحة، وإنما غاية علمهم أنهم كانوا يأخذون ما غاب عنهم من الملائكة باستراقهم السمع وكانوا يزيدون على ذلك مائة كذبة، كما قدمنا ذلك في الطب، والحمد لله وبهذا تمّت قصة سليمان عليه السلام.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

{٥٥٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان زكرياءُ نجّاراً**».

رواه مسلم (١٣٥/١٥)، والحاكم (٥٩٠/٢) وصححه على شرط مسلم، فاستدركه وهو فيه بلفظه.

{٥٥٨} ـ وفي حديث أنس عن مالك بن صعصعة في حديث الإسراء: «**حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فلمّا خلصت فإذا يحيىٰ وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيىٰ وعيسى فسلّم عليهما، فسلمتُ فردا، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح**»... رواه وتقدم ويأتي في السيرة.

{٥٥٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما من آدمي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة أو عَمِلَها إلا أن يكون يحيى بن زكرياء لم يَهُمَّ بخطيئةٍ ولم يَعْمَلْها**».

رواه أحمد (٢٥٤/١، ٢٩٢)، والحاكم (٥٩١/٢) وجوَّده الذهبي وعلي بن زيد توبع كما عند الحاكم من طريق آخر مرسلاً.

{٥٦٠} ـ وعن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله عزّ وجلّ أمَرَ يَحْيَىٰ بنَ زكرياء بخمس كلماتٍ أن يعملَ بهنّ وأن يأمُر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فكادَ أن يُبْطِيءَ، فقال له عيسى: إنك قد أُمِرتَ بخمس كلماتٍ أن تعمل بهنّ وأن تأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تُبَلِّغَهُن وإما أن أُبَلِّغَهُنّ، فقال له: يا أخي إني أخشَى إنْ سَبَقْتَني أن أُعَذَّبَ أو يُخْسَفَ بي، قال: فجمع يحيىٰ بني إسرائيل في بيت المقدس**

حتى امتلأ المسجد وقُعِدَ على الشُرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزّ وجلّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهن: أوَّلُهُنَّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل اشترى عبداً من خالِص مالهِ ورِقٍ أو ذهبٍ، فجعلَ يعملُ ويُؤَدّي عملَه إلى غير سيّده، فأيُكُمْ يَسُرُّهُ أن يكون عبدُه كذلك؟ وإن ربَّكُم عزّ وجلّ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وآمركم بالصلاة فإن الله عزّ وجلّ ينصبُ وَجْهَه بوجْه عبْدِهِ ما لم يلْتفتْ، فإذا صلّيْتُم فلا تَلْتَفِتُوا، وآمركم بالصيام فإن مثلَ ذلك كمثل رجلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ في عِصابةٍ، كلّهم يجد رِيحَ المِسك، وأنَّ خلوفَ فم الصَّائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أَسَرَهُ العدُوُّ فشدُّوا يدَيْه إلى عُنُقِهِ وقرّبُوه ليضْربُوا عُنُقَهُ، فقال: هل لكم أن أفْتَدِي نَفْسِي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسَه، وآمركم بذكر الله كثيراً، وأن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ سِراعاً في أثره، فأتى حِصْناً حَصِيناً فتحصّن فيه، وأن العبد أحصَنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ»، وقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهنّ: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قَيْد شِبْرٍ فقد خلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عُنُقِهِ إلا أن يُراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم**»، قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «**وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بما سمّاهم الله المسلمين المؤمنين عباد الله**»...

رواه أحمد (٢٠٢/٤)، والترمذي في الأمثال رقم (٢٦٧٤) بتهذيبي، وابن حبان (١٥٥٠) بالموارد، والحاكم (١١٧/١، ١١٨) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وتقدم قدر الخمس التي أمر بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في لزوم الجماعة من الجزء الأول رقم (٩٨).

❋ ❋ ❋

بسط القصة

زكرياء ويحيىٰ كانا من أواخر أنبياء بني إسرائيل من نسل سليمان عليه السلام، وبينه وبينهما قرون عدة وتقدمهما أنبياء كثيرون لا يُعرفون، وُلِدا وتَرَبَّيَا وَشَبَّا ببيت المقدس، وكان زكرياء عليه السلام عقيماً لا ينجب كزوجته، ومن قدر الله أن تُولَد مريم في حياته، ويكون كفيلها والقائم بتربيتها، فكان كلما دخل عليها حجرتها وجد عندها فاكهة وطعاماً فَسَأَلَها: مِنْ أين لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله فالله يرزق من يَشاءُ رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب، فلما رأى زكرياء أن قدرة الله عزّ وجلّ لا يتعاظمها شيء توجّه إلى الله تعالى يدعوه أن يرزقه ولداً صالحاً هبة منه له، رغم أنه شيخ كبير قد ضعف عظمه وشاب رأسه كزوجته، فأجاب الله تعالى السميع القريب دعاءه فخاطبته الملائكة وهو قائم يصلي في محل عبادته مبشّرة له بولد صالح يسمى يحيىٰ مؤمناً بعيسى ورسالته وأنه سيسود قومه ويكون حابساً نفسه عن الشهوات عفّة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وسيكون مع ذلك نبيّاً من جملة الصالحين، فلما جاءته البشرى من الله بالولد المذكور أخذه العجب، فقال: يا ربّ كيف يأتيني الولد وقد أدركتني الشيخوخة وبلغت من الكبر نهاية العمر كزوجتي العاقر، وكان له من العمر مائة وعشرون سنة ولامرأته ثمان وتسعون سنة، فأجابه الله، هكذا الأمر فخلقه وإيجاده سهل يسير عليّ كما قد خلقتك من العدم ولم تك شيئاً مذكوراً، ولما تحقق بوجود الولد سأل الله عزّ وجلّ ـ إتماماً لبشارته ـ أن يجعل له علامة على حمل زوجته فأجابه تعالى لذلك بأن آية حملها، ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويّ الخَلْق ليس بك خرس ولا علة، وإنما تكلم الناس بالرمز والإشارة، وأمره الله تعالى أن يسبّحه كثيراً بالعشي والإبكار، فأشرف على قومه من مصلاه وهو على تلك الصفة، فأشار إليهم أن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره، ولما ولد الولد يحيىٰ عليه السلام وكبِرَ وبلغ السن الذي يُؤمر فيه قال الله تعالى له: يا يحيىٰ خذ التوراة بجدّ واجتهاد، وكان قد أعطاه الله عزّ وجلّ الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره، فكان يفهم الكتاب في صباه قبل بلوغه سن الرجال، وفعل الله عزّ وجلّ به ذلك رحمة منه وعطفاً عليه وتزكية

له من الخصال الذميمة، وكان عند الله عزّ وجلّ عبداً صالحاً تقياً لم يهم بمعصية قط، وجعله تعالى باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربّه، وحيّاه الله تعالى في المواطن الثلاث التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة والافتقار إلى الله عزّ وجلّ وهي حين مولده ويوم موته ويوم يبعث من قبره حياً.

هذه جملة ما جاء في قصة زكرياء وابنه يحيىٰ في القرآن الكريم، جاءت مفصّلة في سور ثلاث في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، وفي سورة الأنبياء:

قال الله تعالى في الأولى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٧ ـ ٤١].

وقال في مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ٢ ـ ١٥].

وقال في الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

ولا ذكر لقصتهما في غير هذه السور غير أنهما ذكرا في جملة الأنبياء المتناسلين من إبراهيم حيث قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

موت زكرياء ويحيى عليهما السلام

من المشهور عند المفسّرين والمؤرخين أن زكرياء عليه السلام أراد قومه الإسرائيليون قتله فهرب منهم، فانشقّت له شجرة فدخل فيها فدلّهم عليه الشيطان، فجاءوا بالمنشار ونشروا الشجر، وزكرياء عليه السلام، فقتل.

أما يحيىٰ عليه السلام فذكروا في موته أن بعض ملوك دمشق أراد أن يتزوج ببعض محارمه فنهاه يحيىٰ عن ذلك، فلما تزوّجها استوهبت دم يحيىٰ منه فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إليها فهلكت من فورها، وقيل غير ذلك، وكل ذلك من الإسرائيليات التي لا نركن إليها، علماً بأنهما قتلا كغيرهما من الأنبياء وما يوجد من الضَّريحَيْن في دمشق وحلب ينسبان إلى زكرياء ويحيىٰ لا يصح شيء من ذلك تاريخياً.

* * *

من فوائد هذه القصة وعبرها

من فوائد هذه القصة: أن سيدنا زكرياء عليه السلام كان من أقران ومعاصري عمران والد مريم عليهم السلام، وأن عمران كان من سادات بني إسرائيل، ولذلك لما ولدت مريم اختلفوا أيهم يكفُلُها حتى اقترعوا عليها، كما يأتي، فكفلها زكرياء عليه السلام.

ومنها: أن زكرياء عليه السلام كان يأكل من كسب يده، فقد كان نجاراً كما كان داود حداداً، وكان إدريس خياطاً، وكان نبينا تاجراً... صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

ومنها: أن مشاهدة الخوارق من المعجزات والكرامات تُقَوِّي الإيمان واليقين في الله تعالى وتحمل المؤمن على الالتجاء إلى الله والتعلق به وسؤاله، وإن كانت في غاية البعد والشدّة، فإن الله لا يتعاظمه شيء، فهذا نبيّ الله زكرياء عليه السلام لما شاهد من مريم تلك الآية من وجود الطعام عندها في غير أوانه تيقّن أن الذي جاءها به بلا وقت ولا سبب قادر على أن يعطيه الولد الذي كان قد أشرف على اليأس منه، فسأل الله عزّ وجلّ أن يهبه ولداً يرث منه النبوّة والحكمة لأنه رأى بني إسرائيل قومه قد ظهر فيهم الفساد وليس فيهم من يستحق القيام بأعبائهم وسياستهم غير أهل بيته.

ومنها: منع زكرياء من الكلام إلا بذكر الله مع سلامة لسانه، وهي من آيات الله تعالى ومعجزاته الخارقة.

ومنها: فضل يحيىٰ عليه السلام وتكريمه فهو النبيّ التقي الصالح الحصور السيد البار بوالديه الذي سلّم الله تعالى عليه وحيّاه في مواطن الضعف والافتقار إلى الله، وآتاه الحكم صبياً ورحمةً وعطفاً وزكاةً.

ومنها: حفظه وعصمته من المعاصي حتى من الهمّ، وإن كان ذلك عاماً في صفات الأنبياء، غير أنه خصّ بشيء من ذلك لم يشاركه فيه أحد.

ومنها: أن العلماء ذكروا في قوله تعالى في شأن يحيىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ

يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، أن هذه الأوقات الثلاثة هي أشدّ ما تكون على الإنسان، قالوا: إنه ينتقل في كل منها من عَالم إلى عالَم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان أَلِفَه وعرفه ويصير إلى عالم آخر لا يدري ما بين يديه وما سيلاقيه، ولذلك يستهل الطفل صارخاً بعد خروجه من بين الأحشاء ومفارقة لينها وضمّها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وأكدارها ومشاكلها، وهكذا إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ وصار بعد الدور والقصور إلى عرصات الأموات سكان القبور، لينتظر النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، ولقد أحسن وأجاد من قال:

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِياً مُسْتَصْرِخاً ... والناسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُوراً
فَاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوْا ... فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكاً مَسْرُوراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشقّ ما تكون على ابن آدم سلم الله تعالى على يحيىٰ في كل موطن منها، فقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

ومنها: قد ورد أن الله عزّ وجلّ انتصر ليحيىٰ عليه السلام وانتقم من بني إسرائيل لقتله.

{٥٦١} ـ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «**أوحى الله إلى محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إني قتلت بيحيىٰ سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن بِنْتِكَ سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً**».

رواه الحاكم (١٧٨/٣) وصححه على شرط مسلم، كما قال الذهبي.

ولذلك سلّط الله عزّ وجلّ بُخْتُنَصَّر على بني إسرائيل بعد يحيىٰ عليه السلام، فغزاهم وقتل منهم سبعين ألفاً وسبى نساءهم وأطفالهم وفرّقهم شذر مذر كما ذكر ذلك المؤرخون، وقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: قدم بختنصّر دمشق فإذا هو بدم يحيىٰ بن زكرياء يغلي فسأل عنه فأخبروه

فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيّب.

ومنها: أن يحيىٰ عليه السلام كان نبيّاً رسولاً كوالده لقول زكرياء في دعائه: يرثني ويرث من آل يعقوب، فالإرث هنا المراد به النبوّة والرسالة... ويؤيّد ذلك ما جاء في حديث الحارث الأشعري في أن الله أوحى إليه بخمس كلمات أن يعمل بهنّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ... الخ، وهذه هي الرسالة، وقد خفي هذا على بعض المشتغلين بالحديث في هذا العصر، فشك في رسالته عليه السلام.

ومنها: ما جاء من الوصايا والإرشادات والتوجيهات في حديث الحارث المذكور، فإن فيه خمس كلمات مما أمر به يحيىٰ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق فهو وحده المستحق للعبادة، ثم الصلاة لأن فيها مناجاة الله تعالى والاقتراب منه، ثم الصيام وريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، ثم الصدقة وهي فدية للإنسان من النار، ثم ذكر الله عزّ وجلّ بكثرة وهو حصن حصين من الشيطان.

وفيه خمس أُخَرُ أمَرَ بها نبيُّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمّته، وهي: السمع والطاعة للخلفاء والأمراء في المعروف، ثم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ثم الهجرة من بلاد العدو إلى بلاد إسلامية يقيم فيها المؤمن دينه، ثم لزوم جماعة المسلمين أهل الحق...

وهذه العشر الخصال أهم دعائم الدين وأصوله وقواعده والكلام في تفصيلها يطول، فلنكتف بهذه الإشارة، ولعلنا نتوسع في شرح ذلك في موطن آخر إن شاء الله تعالى، وبهذا تمّت قصة زكرياء وولده يحيىٰ عليهما السلام.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام

جاءت قصة مريم وعيسى مقرونة بقصة زكرياء ويحيىٰ لأمرين:

أولاً: لشبه قصتيهما في الغرابة والكرامة حيث إن كلاً من زكرياء وامرأته، وعمران وامرأته أنجبوا مع الكبر والعَقْر، وكانت ولادة عيسى أعجب وأغرب.

ثانياً: للقرابة التي كانت بين البيتين، فإن زكرياء كان متزوجاً بأشياع أخت مريم على قول الجمهور، ولذلك جاء في الصحيحين أن يحيىٰ وعيسى ابنا الخالة.

ومريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكان والدها عمران من سادات أهل زمانه، كما كانت أمها وهي حَنَّةُ بنت فاقود من العابدات الصالحات، وكانت عاقراً عجوزاً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذْ رأت طائراً يطعم فرخه فحنَّت إلى الولد وتمنته، فسألت الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ونذرت لله تعالى أن يكون محرّراً من سدنة بيت المقدس، ثم توفي عمران وهي حامل بمريم، فلما وضعتها أنثى والبنات عادة لا يصلحن لخدمة المساجد كالذكور، فشكرت الله عزّ وجلّ وسمّتها مريم، تعني العابدة، ودعت الله عزّ وجلّ أن يحصنها ونسلها من غواية الشيطان الرجيم، فقبل الله سبحانه هبتها وأنشأها على الصلاح والعفة، وعندما قدمتها والدتها إلى رعاة بيت المقدس اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، لأنها يتيمة بنت أحد سادتهم وعبّادهم، فاقترعوا عليها فجاءت القرعة في زكرياء وهو زوج أختها أو خالتها، فاتخذ لها معبداً لا يدخل عليها أحد سواه، فكان إذا جاءها وجد عندها رزقاً لم يأتها به ولا يوجد مثله عند الناس في ذلك الوقت، فتعجّب من ذلك وسألها: من أين لك هذا الرزق؟ فتجيبه أنه من عند الله عزّ وجلّ الذي يرزق من يريد رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب، وفي هذا جاءت الآيات الكريمات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

فأخبر تعالى في هذه الآيات أنه اختار للنبوة صفوة خلقه كآدم أبي البشرية، ونوح شيخ الأنبياء، وآل إبراهم وهم ذوو قرباه وعشيرته، وهم إسماعيل وإسحٰق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتمهم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وآل عمران ومنهم عيسى ووالدته مريم... ثم ذكر قصة ولادة مريم ونشأتها وما تفضّل الله تعالى به عليها من الكرامة والعناية والحفظ من الشيطان.

{٥٦٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ والشَّيْطَانُ يَمَسُّه حينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِن مَسِّ الشَّيْطَانِ إيَّاه إلاَّ مريمَ وابنَها**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم والحميدي وابن جرير وتقدم في التفسير.

وفي الحديث خصوصية لمريم وابنها عيسى حيث إن الله عزّ وجلّ حفظهما من مسّ الشيطان عند ولادتهما استجابة لدعوة امرأة عمران في قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

* * *

الملائكة تبشّر مريم بالاصطفاء

أنبت الله عزّ وجلّ مريم نباتاً حسناً ونشأت في عبادة الله عزّ وجلّ والانقطاع إليه، ولم يكن لها نظير في زمانها عفّة ونزاهة ونسكاً وصلاحاً، ولذا خاطبتها الملائكة بالبشارة بأن الله اختارها على نساء العالمين، وأنه

ينبغي لها أن تقنت لله وتركع وتسجد له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارك وطهرك من الأدناس والأقذار ومما اتهمك به اليهود واختارك على سائر نساء العالمين، ﴿ٱقْنُتِى﴾ أي: الزمي عبادة الله وطاعته بالصلاة له شكراً له تعالى على ما أولاك وتفضل به عليك.

{٥٦٣} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**خَيْرُ نِسَائِهَا مريمُ بنتُ عِمْرَان، وخيرُ نِسائِهَا خَدِيجةُ بنتُ خُوَيلد**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وتقدم أيضاً في التفسير.

وقوله: خير نسائها مريم أي: هي أفضل نساء أُمتها وعالمها، والحديث مخصص لقوله تعالى: ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن المراد نساء عالمها.

والحديث يدلّ على أن أفضل نساء العالمين هما مريم وخديجة، لكن جاء في الصحيح ما يدلّ على أن مولاتنا فاطمة عليها السلام سيدة نساء أهل الجنّة، غير أنه جاء في:

{٥٦٤} ـ حديث لأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أهلِ الجنَّةِ إلا مريمَ بنتَ عِمْران**».

رواه أحمد (٣/٨٠)، والحاكم (٣/١٥٤) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر للمفاضلة بين النساء المذكورات «الأنوار الباهرة» لكاتبه (ص ٨٩).

{٥٦٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خَطَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الأرض أربعة خُطُوطٍ، قال: «**أتَدْرُونَ ما هذا**»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد،**

وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، عليهنّ من الله السلام والرضوان».

رواه أحمد (٢٩٣/١)، والحاكم (٥٩٤/٢ و١٦٠/٣، ١٨٥) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية: «**سيدات نساء أهل الجنّة**» الحديث، رواه الطبراني بسند صحيح.

{٥٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حَسْبُكَ مِنْ نساءِ العالمين: مريمُ بنتُ عمران، وخديجةُ بنت خُوَيلِد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**».

رواه أحمد (١٣٥/٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، وابن حبان (٢٢٢٣)، وحسنه الترمذي وصححه.

حسبك أي: كافيك هؤلاء النسوة في الاقتداء بهنّ، وذكر مناقبهنّ وزهدهنّ وفضلهن وإقبالهن على الله، عن غيرهن من سائر النساء.

ففي هذه الأحاديث فضل هؤلاء النسوة ومنهن مريم، فهنّ أكرم نساء الدنيا والآخرة على الله وخيرهن وأشرفهن، ولا شكّ أن مريم لها زيادة فضل عليهنّ، حتى قال جماعة من العلماء بأنها نبيّة لظواهر القرآن الكريم.

* * *

بشارة مريم بعيسى الوجيه المقرب الصالح المتكلم في المهد

وكما بشرت الملائكة مريم باصطفائها وطهارتها، كذلك حملت إليها البشارة بأن الله سيهب لها ولداً من غير الطريق المعتاد يسمى المسيح عيسى ابن مريم، وستكون له وجاهة ومنزلة رفيعة في الدنيا والآخرة، وأنه من جملة المقرّبين عند الله تعالى، وأنه ميّزه عن غيره بالتكلّم في طفولته، وهو

لا يزال في مهده كما سيتكلم في كهولته، وأنه مع ذلك من الصالحين في ظاهرهم وباطنهم.

فوجئت مريم بهذه البشارة وأخذها العجب إذ كيف ألد وأنا العذراء التي لم يمسني بشر لا بزواج ولا بغيره، أجابتها الملائكة: كذلك هو أمر الله فلا يعجزه شيء يخلق ما يشاء بسبب تلقيح الرجل وبغير سبب، فإذا أراد شيئاً حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب، وفي هذه البشارة جاء قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

قوله: بكلمة منه أي: بمولود يحصل بكلمة من الله تعالى بلا واسطة أب، وقوله: وجيهاً أي: ذا جاه وسيادة وعظمة ومنزلة، وقوله: في المهد وكهلاً أي: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة.

* * *

جبريل يزور مريم في خلوتها ويبشرها بالغلام الزكي وينفخ في جيب درعها

كانت مريم عليها السلام وقفا من والدتها على خدمة البيت والعبادة فيه، وبينما هي في خلوة لها شرقي المعبد في عبادتها أو في غسل من حيضها، إذ فاجأها جبريل عليه السلام في صورة رجل كاملاً سوياً، فلما رأته ظنته آدمياً يريد منها سوءاً، فاستعاذت بالله من شرّه وقالت له: ابتعد عني إن كنت تقياً، فأجابها جبريل عليه السلام: إني لست بشراً كما تحسبين، وإنما أنا ملك مرسل من عند الله لأهب لك ولداً صالحاً نامياً على الخير والبركة، تعجبت مريم لذلك إذ كيف يوجد مني ولد ولم يقربني

زوج ولم أكن يوماً ما زانية، قال لها جبريل: الأمر كما قلت لكِ، وقد قال ربك إنَّ خلق الولد بلا أب هو عليّ يسير وسيجعله آية للناس ورحمة منه، وكان خلقه أمراً مقدّراً لا بدّ من تنفيذه.

وفي هذا المشهد الغريب يقول تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: انتبذت أي: تنحّت واعتزلت، قوله: روحنا هو جبريل عليه السلام، فتمثل أي: تصوّر لها في صورة البشر التام الخلقة.

وقوله: أحصنت فرجها أي: حفظته وأعفّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال لقولها: لم يمسسني بشر ولم أك بغياً، وقوله: وصدقت بكلمات ربها أي: آمنت بشرائع الله وكتبه المنزّلة.

قال المفسرون: إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إليها في صورة رجل فنفخ في فتحة جيب درعها فوصل أثر ذلك إلى فرجها، فحملت بعيسى عليه السلام. وهذه المعجزة والآية الباهرة يتجلّى فيها عظيم قدرة الله تعالى الذي لا يتقيّد في خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي يسير نظام العالم عليها، وقد انخدع المغفلون بهذه الآية في عيسى في كونه خلق بدون أب؛ أنه الله أو ابن الله، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على غباوتهم، فإنه لو كان الأمر كما ظنّوا لكان آدم أولى بالألوهية أو النبوّة من عيسى لأنه وجد من تراب جامد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ

كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

معناه: إن شأنَ عيسى إذ خلقه بلا أب وهو في بابه غريب كشأن آدم حيث خلقه بلا أب ولا أم، إذاً فخلق آدم أغرب وأعجب من خلق عيسى عليهما السلام.

* * *

حمل مريم بعيسى وولادته

عقب نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم حملت بعيسى عليه السلام، وشعرت بما سَيَرْمِيهَا به الناسُ وأصبحتْ قلِقَةً خائفةً تحب العُزلة، فاعتزلت مكاناً بعيداً عن الناس، فاضطرّها الطَّلْقُ وشدَّةُ الولادة وألمُها إلى الالتجاء إلى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد عليه، وتمنَّت أن لو كانت ماتت أو لم تكن شيئاً في هذه الدنيا يعرف، غير أن أحباب الله تعالى وأولياءَهُ سرعان ما يُدركُهم لطفُ الله وتُحيط بهم عنايتُه سبحانه وتعالى، فقد بعث الله إليها جبريل عليه السلام ليطمئنها ويوجّهها إلى ما فيه خيرها وذهابُ غَمِّها وانشراحُ صدرها، فناداها من تحت مكانها: لا تحزَنِي على ما نزل بكِ ولا تفكري في ذلك، فهذا جَدولُ ماءٍ، وذاك رُطَبٌ في جِذعِ النخلة فهُزِّي بجذع النخلة يسقطْ عليك رُطَبٌ جَنِي لم يَجِفَّ ولم ييبس بعدُ، فكلي منه واشربي عليه الماء وطيبي نفساً وهَدِّئي خاطركِ، وإذا ما قابلتِ أحداً ممن يلومك فقولي له: إني نذرتُ لله إمساكاً عن الكلام فلا أكلم اليوم بشراً، يقول تعالى في ذلك:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٦].

قوله: فأَجاءها أي: أَلْجَأها واضطرها ألم الولادة إلى ساق نخلة يابسة، وقوله: سرياً أي: جدولاً من الماء، وقوله: رطباً جنيّاً أي: شهيّاً طرياً، وقوله: وقري عيناً أي: طيبي نفساً وافرحي بهذا المولود ولا تحزني.

* * *

اليهود يرمون مريم بالزنا
وعيسى يتكلم في المهد صبياً بلسان فصيح

لما ولدت مريم البتول عيسى عليهما السلام جاءت قومها حاملة له ففوجىء قومها بهذا الأمر الغريب، وقالوا لها: لقد أتيتِ بشيء عظيم منكر وأعظَمُوا ذلك واستنكروه ثم عَيَّروها ونادوها: يا شبيهة هارون في العبادة والصلاح ما كان أبوك عِمرانُ رجلاً فاجراً وما كانت أُمُكِ زانية، فكيف صَدَرَ منكِ هذا المنكرُ وأتيتِ بهذه الداهية وأنتِ من بيت طاهرٍ معروفٍ بالصلاح والعبادة والعفّة، فأصغت مريم إلى ما رموها به ولم تكلّمهم، عملاً بوصية جبريل ولم تجبهم، وأشارت إلى عيسى ليكلّموه ويسألوه، فاشتدّ غضبهم لاعتقادهم أنها تسخر منهم وتهزأ بهم، لأنهم لم يعهدوا طفلاً رضيعاً يتكلّم في مهده، فأجابوها متعجبين مما أشارت إليه: كيف نكلّم طفلاً رضيعاً في مهده، ولكن عيسى عليه السلام أجابهم بإذن الله تعالى الجواب الشافي الدالّ على براءة والدته الطاهرة، فقال بلسان فصيح: إني عبد الله سيؤتيني الإنجيل ويختارني نبياً ورسولاً لبني إسرائيل ويجعلني مباركاً معلّماً للخير حيثما أقمت وارتحلت ويأمرني بإقامة الصلاة وأداء الزكاة مدة حياتي، كما يأمرني أن أكون براً بوالدتي، ولم يجعلني متجبّراً في الناس ولا شقياً بمعصيته، وأَمانُ الله عليَّ يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي مع الأموات حياً، وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٤].

قوله: فرياً أي: شيئاً منكراً عظيماً، وقوله: بغياً أي: زانية.

{٥٦٧} ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه قال: كنت بأرض نَجْران فسألوني: أرأيتُم شيئاً تقرءونَه: «يا أخت هـٰرون»، وبين موسى وعيسى ما قد علمتم من السنين، قال: فلم أدرِ ما أُجيبهم به، فلما قدِمْتُ على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذكرتُ ذلك له فقال: «**ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين**».

رواه أحمد (٤/٢٥٢)، ومسلم في الأدب (١٤/١١٦)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي (٦/٣٩٣) كلاهما في التفسير.

أفادنا هذا الحديث ثلاثة أمور:

أحدُها: أن المراد بقول اليهود لمريم: «يا أخت هارون» أنه ليس هارون النبيّ وإنما هو رجل صالح عابد كان أيام مريم تشبهه في النسك والتعبد.

ثانيها: بيان أن بني إسرائيل كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم.

ثالثها: أن بين موسى وعيسى زمناً طويلاً، ذكر المؤرخون أن بينهما ألف سنة، وفي هذه القرون الطويلة بدَّلوا وغيَّروا وفسقوا وفجروا وتمرّدوا وعتوا وطغوا كما قصّ الله تعالى ذلك عنهم في كتابه العزيز.

{٥٦٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُريج**» الحديث، وفيه: «**الصبي الذي ترك الثدي وقال: اللّهمّ لا تجعلني مثله**»، وقال: «**اللّهمّ اجعلني مثلها**».

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٧/٢٨٧، ٢٩٢) وغيره، ومسلم في البرّ (١٦/١٠٥، ١٠٨) ويأتي مطولاً، وتقدم أيضاً مختصراً في التفسير.

في الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ وأن عيسى تكلم وهو في المهد كباقي من ذكر في الحديث، وستأتي بقية للحديث لاحقاً في القريب إن شاء الله تعالى. وهنا انتهت قصة مريم عليها السلام بميلادها وحياتها وحملها بعيسى وميلاده، وقصتها ذكرت تمهيداً لقصة عيسى عليه السلام.

❊ ❊ ❊

قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

{٥٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«كُلُّ بَنِي آدم يَطعن الشيطان بأصْبُعِهِ في جَنْبِهِ حِينَ يُولَدُ إلاَّ عِيسَى ابنُ مريم ذهبَ يَطْعُن فطعن في الحجاب»**.

رواه أحمد (٢/٥٢٣)، والبخاري في بدء الخلق (٧/١٥٠).

يطعن ـ بضم العين ـ بمعنى يمسّ، وقوله: الحجاب هو الجلدة التي فيها الجنين التي يقال لها: المشيمة.

{٥٧٠} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»**، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«الأنبياء إخوة من علاتٍ وأمّهاتُهُم شتّى ودينُهم واحد، فليس بيننا نبيٌّ»**، وفي رواية: **«ليس بيني وبينه نبي والأنبياء أولاد علات»**.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهما، وتقدم في أول الأنبياء رقم (٤٦٨).

{٥٧١} ـ وعنه أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«رأى عيسى رجلاً يسرق فقال له أسرقتَ؟ قال: كلاَّ واللهِ الذي لا إلـه إلا الله، فقال عيسى: آمنت بالله وكذَّبْتُ عيني»**.

رواه أحمد (٢/٣١٤، ٣٨٣)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٩٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٢١).

{٥٧٣} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تُحشرون حفاةً عراةً غُرْلاً ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، فأوّل من يُكسى إبراهيمُ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾**».

رواه البخاري (٧/٣٠١) في الأنبياء وفي التفسير ـ وتقدم فيه ـ وفي الرقاق، ومسلم في الجنة (١٧/١٩٣)، والترمذي في صفة القيامة وفي التفسير، والنسائي في الكبرى، وانظر ما سبق في التفسير.

كان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد بعد نزول التوراة فضلوا وبدلوا واختلفوا وتفرّقوا، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم عيسى ابن مريم رسولاً مجدّداً بكتاب مستقل فيه هدى ونور، ومصدّقاً لما سبقه من التوراة، وجاء به خاتماً لأنبياء بني إسرائيل، وجعله تعالى من أولي العزم الخمسة وأيّده بالمعجزات الباهرات، فكفر به اليهود وحاربوه وأرادوا قتله فحفظه الله منهم ورفعه إليه وفعلوا معه تلك الأفاعيل، رغم ما شاهدوا من آياته في ميلاده وكلامه وخوارق العادات التي أجراها الله على يديه؛ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى... وغير ذلك مما يأتي.

* * *

رسالة عيسى وإيتاؤه الإنجيل

قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يخبر تعالى بأنه علّمه الكتاب أي: الكتابة والحكمة وهي

السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء، وجعله يحفظ التوراة والإنجيل وأرسله إلى بني إسرائيل، وقال جلّ علاه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

ومعنى الآيتين أن الله تعالى اتبع على آثار الأنبياء والرسل بعيسى وأرسله عقيبهم مصدقاً لما تقدمه من التوراة، وأنه تعالى أنزل عليه كتابه الإنجيل فيه هدى إلى الحقّ ونور يستضاء به في إزالة الشبهات، ومعترفاً بأن ما سبق من التوراة أنها من عند الله وهي موعظة وذكرى وهدى للمتقين، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧١]، فهو ابن مريم ورسول من الله لبني إسرائيل، وليس ابناً لله عزّ وجلّ كما يفتريه الكافرون من النصارى.

* * *

عيسى من أولي العزم ومن جملة الأنبياء الذين أوحي إليهم

سيدنا عيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ومن أُولي العزم الخمسة الذين نوّه الله تعالى بهم، وجعلهم أكابر رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد ذكرهم الله عزّ وجلّ مجتمعين في موضعين من كتابه الكريم.

فقال تعالى في الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال جلّ ذكره: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

فهؤلاء الأنبياء الخمسة وهم ساداتنا نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتمهم رسولنا صلوات الله وسلامه عليهم هُم أئمّة الرسل وقاداتهم وأُولو العزم منهم ومشاهير أرباب الشرائع، أخذ عليهم العهد والميثاق المغلّظ في الآية الأُولى بأن يفوا بما التزموا به، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يؤمنوا برسالات بعضهم بعضاً، ومنها رسالة نبيّنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما أخبر في الآية الثانية بأنه سنّ وبيّن للمؤمنين من هذه الأمّة من الشريعة السَّمحة، والدين الحنيف ما وصّى به الرسل وأرباب الشرائع من مشاهير الرسل وأكابرهم كنوح وحبيبنا محمد عليهما السلام، وما أمر ووصّى به إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام ووصاهم بأن يقيموا الدين الحق ولا يختلفوا فيه، والمراد بذلك الشرائع المتفق عليها بين كل الأنبياء، وهي توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر والصلاة والصيام والصدقة والحجّ والعدل والصدق وجميع مكارم الأخلاق... فهذه لا يجوز الاختلاف فيها. أمّا ما عَدَاها من فروع الأحكام، فلكل واحد من هؤلاء شرعه وأحكامه. أما من عداهم من الأنبياء، فكانوا يبعثون بشرع من قبلهم، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة حتى ختمها الله عزّ وجلّ بخير الملل ملة أكرم الرسل نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه جميعاً، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ﴾، فعيسى من جملة الأنبياء الذين أوحى الله عزّ وجلّ إليهم، كما أنه من جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم وبما أُنزل عليهم بدون تفرقة بينهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

فالإيمان بعيسى وبما جاء به واجب كباقي من ذكر معه في الآية الكريمة، وهو من سلالة داود عليه السلام، وقد ذكر في جملة الأنبياء الذين هم من أولاد الخليل عليه السلام، فقال تعالى في الأنعام [٨٥]: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

❋ ❋ ❋

عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل بأنه رسول الله إليهم ويبشر برسولنا أحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

بعث عيسى عليه السلام في بني إسرائيل برسالته يدعوهم إلى الرجوع إلى دينهم الذي زاغوا عنه ويصدهم عن ضلالهم ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه، ويأمرهم بتقوى الله وطاعته، وأن الله هو ربّه وربهم وأنه الذي تجب عبادته، فذاك هو الطريق السويّ، ويقوم فيهم مصرّحاً لهم بأنه رسول من الله إليهم مصدّقاً لما تقدمه من التوراة المنزل على موسى ومخبراً ببشارة عظيمة ألا وهي مجيء رسول عظيم يأتي بعده يسمى أحمد، يقول تعالى في ذلك:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

البيّنات: هي المعجزات، والشرائع الواضحات.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

{٥٧٣} ـ وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إني عند الله خاتم النبيّين، وأن آدم لمُنْجَدِلٌ في طينته وسأُخبركم عن ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أُمّهات النبيّين يَرَيْنَ وأن أمّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام»**.

رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم من طرق حسنة صحيحة، وله شاهد قوي.

{٥٧٤} ـ فَعَن أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «**نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى**»...

رواه ابن إسحٰق في السيرة والحاكم وغيرهما وصححه، وقد تقدم كسابقه في التفسير ويأتيان أيضاً في السيرة.

والحديثان مطابقان للآية الكريمة في بشارة عيسى عليه السلام بمجيء نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتي الكلام على البشارة به في التوراة أيضاً في السيرة بإذن الله تعالى.

* * *

الحواريون أنصار عيسى عليه السلام

اصطدم عيسى عليه السلام في دعوته بجدال اليهود ورميهم روح الله عليه السلام وأمه البتول بالعظائم وانقسموا إلى قسمين: آمنت فرقة منهم وأخلصوا دينهم لله عزّ وجلّ، وكفرت طائفة أخرى، ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى وبوادر الكفر تطغى وقف في قومه قائلاً: من أنصاري إلى الله؟ فأجابه تلامذته الذين آمنوا به، وأعلنوا إيمانهم بجرأة وشجاعة وسط جموع غفيرة من الكافرين: نحنُ أنصارُ الله، وهذا ما يقول فيه القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

الحواريون: هم الخُلَّصُ من تلامذة عيسى المؤمنين، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقوله: فلما أحس أي: عرف وتحقق.

قال المفسّرون: لما بلّغ عيسى ابن مريم رسالةَ ربه اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة فجحدوا نبوّته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتوالية، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله تعالى من النبوّة وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومنهم من قال: إنه الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فنصر الله تعالى المؤمنين على من عداهم من فرق النصارى بالحجّة والبرهان، فأصبحوا ظاهرين عليهم في كل العصور...

* * *

تذكير الله تعالى عيسى بنعم الله وبيان معجزاته

لقد أنعم الله تعالى على عبده وكلمته عيسى ابن مريم عليه السلام بنعم جمّة تستحق الشكر والتحدّث بها، ولذلك ذكّره الله تعالى بها وعدّدها عليه ليزداد شكراً لله عزّ وجلّ على ما أولاه، وذكر في ضمن ذلك المعجزات التي أيّده بها يقول تعالى في ذلك: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال جلّ علاه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥١].

عدَّد عليه نعمه ومعجزاته فذكر منها نحواً من اثنتي عشرة وهي: تأييده بروح القدس جبريل عليه السلام، تكلّمه في المهد رضيعاً، وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويا لها من نعمة، وخلق الطير ونفخ الروح فيه فيطير بإذن الله تعالى، وإبراء الأكمه وهو الذي يولد أعمى، والأبرص، والبرص: داء أبيض يسري في الجسم، وإحياء الموتى؛ كل ذلك بإذن الله تعالى وقدرته، وإخبار الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم، ومصدّقاً لما تقدمه من التوراة وتحليله بعض ما حرّم عليهم في التوراة، وإتيانه بآية من الله، ورسول من الله عزّ جلّ إلى بني إسرائيل، وكفّه تعالى عنه اليهود عندما أرادوا قتله.

* * *

معجزة نزول المائدة من السماء

كان الحواريون مؤمنين مخلصين، فأرادوا أن يزدادوا إيماناً بعظمة قدرة الله تعالى بمشاهدة آياته وما يجريه على يد نبيّه وكلمته عيسى عليه السلام، فسألوا روح الله سؤال تثبّت واطمئنان، فقالوا: يا عيسى هل يقدر ربك أن يأتينا بمائدة طعام من السماء؟ أجابهم عيسى: اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدّقين بكمال قدرته، قال الحواريون: إننا نريد بسؤالنا ذلك أن نأكل منها تبرّكاً بها وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين، ونعلم علم اليقين لا يشوبه شكّ أنك صادق في دعوى النبوّة ونشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، فلما علم عيسى صدق الحواريين في سؤالهم ذلك توجّه إلى الله عزّ وجلّ ودعاه قائلاً: اللّهمّ أنزل علينا مائدة من السماء يكون

يومها يوم عيد وفرح لنا ولمن يأتي بعدنا، كما تكون دلالة وحجّة شاهدة على صدقي، وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق، فأجابه الله تعالى: إني سأنزل عليكم المائدة من السماء فمن كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذّبه عذاباً شديداً لا أعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من العالمين، وفي شأن المائدة يقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

هذه معجزة وأي معجزة أيّد الله تعالى بها نبيّه وعبده عيسى إجابة لمن سألها من تلامذته الخاصّين، وقد نزلت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فإن الله لا يخلف وعده، خلافاً لمن نفى نزولها، وقد جاء في نزولها وصفة ما نزل حديث وهو:

{٥٧٥} ـ عن عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أُنزِلَتْ المائدةُ من السماء خُبْزاً ولَحْماً، وأُمِرُوا أن لاَ يَخُونُوا ولا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ فخانُوا وادَّخَرُوا ورفَعُوا لِغَدٍ فمسخوا قردة وخنازير**».

رواه الترمذي في التفسير (٢٨٦٣)، وابن جرير (١٣٤/٧)، وابن أبي حاتم (١٢٤٥/٤) مرفوعاً وموقوفاً وكلاهما سنده حسن وفيه عنعنة قتادة.

والمائدة طبق يكون عليه طعام، وقد سمّيت السورة باسمها إخلاداً لهذه الآية الباهرة.

* * *

التنديد بالنصارى في ادعائهم ألوهية عيسى والتثليث وبيان أن الله تعالى واحد وأن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته

جاء في القرآن الكريم الردّ على النصارى الذين افترقوا في شأن عيسى عليه السلام، فإنّ فِرَقاً منهم عظّموه وتغالوا فيه ورفعوه فوق قدره عندما رأوا أنه وُلد بدون أب، فبعض فرقهم قالوا فيه: إنه الله، وقالت فرقة ثانية: إنه ابن الله بينما ذهبت فرقة ثالثة: إلى أنه ثالث الآلهة، فجاء القرآن الكريم يفنّد مزاعمهم ويسفّه أحلامهم ويعرّفهم بأن عيسى هو ابن مريم خلقه الله بقوله: كن بلا أب وأنه عبد الله عزّ وجلّ من جملة البشر، وأنه بُعِث للدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة، وأن من قال غير ذلك كان كافراً.

قال الله تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧٠ ـ ١٧١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال عزّ علاه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ

أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

فهذا القرآن الكريم يخبر عن سيدنا عيسى أنه ابن مريم، وليس ابناً لله عزّ وجلّ بل ولد من مريم بكلمة الله «كن»، وفيه نهي عيسى بني إسرائيل عن الغلوّ في الدين، وأمره إياهم بالإيمان بالله ورسله، وأن لا يقولوا بأن الآلهة ثلاثة، بل الله إله واحد، فتنزّه وتقدّس أن يكون له ولد أو شريك معه، وقد أعلن عيسى في بني إسرائيل الدعوة إلى الله وحده، وأن من أشرك معه أحداً من خلقه فقد حرم الله عليه الجنّة ومثواه نار جهنم، كما أعلن فيهم بأن من قال: إنّ الله ثالث ثلاثة كان كافراً، فما من إله إلاّ إله واحد.

ويسجل القرآن الكريم على بني إسرائيل فضيحتهم يوم القيامة حيث ستجري محاورة بين الله تعالى وبين عيسى فيسأله عزّ وجلّ: أأنت أمرت بني إسرائيل أن يتخذوك وأمك إلهين من دوني، فيجيب المسيح الله عزّ وجلّ: تنزيهاً لك أن أقول عليك ما ليس لي بحق، فإن كنت قلته فأنت أعلم بذلك لأنك علاّم الغيوب، فأنت تعلم أني ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك لأنك ربّي وربّهم، وقد كنتُ شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، فلما قبضتَني إليك بالرفع إلى السماء كنتَ الحفيظ لأعمالهم، فإنْ تعذّبهم فأنت مالكهم وهم عبيدك تتصرف فيهم كيف شئت، وإنْ تغفر لهم ممن تاب وآمن منهم فإنك أنت الغالب على أمرك الحكيم في صنعك.

* * *

نهاية أمر عيسى ورفعه والردّ على اليهود والنصارى في قتله وصلبه

منذ ولد عيسى واليهود الفجرة يطعنون فيه وينظرون إليه كولد بغي، وعندما أعلن فيهم رسالة الله تعالى والدعوة إلى توحيده وطاعته والإيمان بما جاء به من الإنجيل والشرع الجديد ناوأوه وحاكوا المؤامرات ضدّه، ولما فشلوا في التخلّص منه ورأوا الفقراء والضعفاء يستجيبون لدعوته ويَلْتَفُّون حولَه أخذوا يُحَرِّضون الرومان عليه ويوهمونهم أنَّ في دعوته زوالاً لملك قيصر وتقويضاً لسلطانه، فطلبه ملك ذلك الوقت الكافر، وأصدر الأمر بالقبض عليه والحكم بإعدامه صلباً، فلم يسلط عليه.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شَبَهِي فيُقْتَل مكاني، فيكون معي في درجتي، فقام شاب من أحدثهم سِنّاً، فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت ذاك، فأُلقي عليه شَبَهُ عيسى ورُفع عيسى من رَوْزَنَةٍ في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، قال: وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبيّة، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

رواه ابن جرير (٩٢/٢٨)، وابن أبي حاتم، والنسائي (٤٨٩/٦) كلهم في التفسير، قال ابن كثير في البداية، إسناده صحيح على شرط مسلم إلى ابن عباس قال: وهكذا ذكر غير واحد من السلف... والأقاويل في ذلك مختلفة، وكلها إسرائيليات، والقرآن الكريم نصّ على أن اليهود مكروا به

فمكر الله بهم، وأنهم أرادوا قتله فشبّه عليهم وحفظه الله منهم وكفهم عنه ورفعه إليه ولم يسلطوا على قتله ولا صلبه. وكل ما يزعمونه من القتل والصلب ليسوا بمتيقنين فيه، بل هم في شك منه، وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّة رفعه مع رد مزاعمهم وتفنيدها، فقال تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

فأخبر تعالى هنا عن فضائح اليهود التي استحقوا بها اللعن والخزي والذلة والمسكنة وغضب الله عزّ وجلّ عليهم، فذكر منها ما رموا به مريم البتول من البهتان، وزعمهم قتل المسيح ابن مريم، فردّ عليهم بأنهم ما قتلوه أبداً وما صلبوه ولكنهم قتلوا وصلبوا من ألقي عليه شبهه، وأن الذين اختلفوا في شأنه لفي شكٍّ من قتله ولا علم لهم بقتله علم يقين، ولكنهم يتبعون الظن الذي تخيّلوه، فما قتلوه متيقّنين أنه هو، بل رفعه الله إليه بجسمه وروحه.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

أخبر عزّ وجلّ أن اليهود الملاعن تآمروا على المسيح وأرادوا به شراً ومكروا به ومكر الله بهم فرفعه الله تعالى إليه وردّهم خائبين خاسرين، فها هو الله عزّ وجلّ يخبر بأنه نادى عيسى قائلاً له: إني متوفيك ورافعك إليّ ومخلّصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك وجاعل من آمن بك واتّبعك فوق من كفر بك إلى يوم البعث، والفوقية هنا بالحجّة والبرهان.

هذا، ورفع عيسى حياً بجسمه وروحه مقطوع به؛ نصّ عليه القرآن وجاءت به الأحاديث المتواترة، حيث أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم بأنه سينزل آخر الزمان ليقتل الدجال وينفذ أحكام الله تعالى التي عطلت. ونزوله من أشراط الساعة.

{٥٧٦} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده ليُوشِكَنَّ أن يَنْزِلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عَدْلاً فيَكْسِرَ الصليبَ ويقتلَ الخنزير ويضعَ الجزية ويفيض المال حتى لا يقبلَه أحدٌ وحتى تكون السجدةُ خيراً له من الدنيا وما فيها**».

رواه البخاري في الأنبياء (٣٠٢/٧، ٣٠٣)، ومسلم في الإيمان (١٨٩/٢، ١٩٠) وغيرهما، ويأتي في الفتن وأشراط الساعة إن شاء الله تعالى مع أحاديث أخرى.

قوله: حَكَماً ـ بفتحتين ـ أي: حاكماً، وقوله: ويضع الجزية معناه: لا يقبلها، بل لا يكون في وقته إلا الإسلام، ولا يبقى على الأرض أيُّ دين ولا ملّة.

* * *

من فوائد قصة مريم وعيسى وعبرها

في هذه القصة فوائد غزيرة وعبر عزيزة نجملها في الآتي:

فمنها: مشروعية تمني الولد ونذره لعبادة الله تعالى، وهذا لا خلاف فيه عندنا.

ومنها: أن مريم عليها السلام من المصطفين الأخيار اختارها الله وفضّلها على سائر نساء الدنيا والآخرة، وهي نموذج فريد للنساء لا مثيل لها في نِشْأَتِها ولا في حياتها.

ومنها: وهي من خصائصها في النساء، أن الملائكة بشّرتها وخاطبتها مرتين: مرة بالاصطفاء، ومرة بالولد، يضاف إلى ذلك مجيء جبريل إليها مبشّراً لها بالحمل أولاً، ثم مجيئه ثانياً مطمئناً ومؤنساً ومثبتاً وموصياً لها.

ومنها: تخصيصها وولدها بالحفظ من مسّ الشيطان عند ولادتها.

ومنها: اختلفوا في نبوّتها، ذهب جماعة من العلماء إلى نبوّتها لأدلّة ذكروها تدلّ على ذلك، وهي قوية. وذهب آخرون إلى أنها كانت صديقة كما وصفها بذلك القرآن الكريم: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء، فإن ما حصل لمريم من مكالمة الملائكة والحمل بدون تلقيح، وما كان يأتيها من طعام... كل ذلك من الخوارق وآيات الله تعالى.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: عفّت وحفظت فرجها من مسّ الرجال من الحلال والحرام، فلم يقربها ذكرٌ قط، ومن بدع التفاسير قول بعضهم: أحصنت فرجها أي: جيب درعها وأنها طاهرة الأثواب، وهذا تفسير باطل.

ومنها: في أمر جبريل عليه السلام مريم أن تأكل من الرطب وتشرب الماء عند نفاسها معجزة علمية، وهي ما ذكروا من ملاءمة ذلك للنفساء والحامل، وهذا لم يعرفه الناس إلا اليوم، وقد أشار إليه القرآن منذ قرون.

ومنها: أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم، وليس بينه وبين نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نبيّ، كما صرح به الحديث النبويّ الشريف.

ومنها: أنه جاء بشرع جديد وكتاب مستقل متمّم لما جاءت به التوراة، ولذلك حاربه اليهود حتى رجال الدين منهم ورموه بالعظائم.

ومنها: كثرة معجزاته من مهده إلى رفعه وأنَّ له معجزات خاصة صريحة كنفخه في طير من تراب ثم يَحْيَى ويطير بإذن الله عزّ وجلّ وإبرائه العاهات التي لا دواء لها مادياً، فإن الأكمه الذي ولد بلا حاسة العين لا دواء له أصلاً معروفاً، وكذا علاج البرص لا يوجد، وإنما يوقف فقط، أما إزالته من الجسم فلا دواء له يعرفه الناس، وكذا إحياء الأموات من قبورهم

هي معجزة وآية باهرة، وكل ذلك كان بإذن الله عزّ وجلّ، لا قدرة له على شيء منها بذاته كغيره من سائر المخلوقات أيّاً كانوا.

ومنها: أن الله عزّ وجلّ أظهر هذه المعجزات على هذا الشكل على يد المسيح تحدّياً لليهود وغيرهم من أهل عصره الذين كانوا قد بلغوا الغاية في الطب، فأتاهم بذلك من جنس ما عندهم مما لا يطيقون الإتيان به، كما جاء موسى الأقباط بالعصا التي أبادت سحرهم وشعوذتهم ولم يستطيعوا مباراتها، وهكذا الشأن في نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث بعث في العرب الفصحاء البلغاء فأتاهم بما لم يستطيعوا الإتيان بسورة مثله، فتحدّاهم عقوداً من الزمان بذلك، فعجزوا ورضوا بالذلّ والهوان والتقتيل والسبي...

ومنها: ما جاء في حديث عن عيسى: «آمنت بالله وكذبت عيني»، معناه: صدقت من حلف بالله تعالى وكذبت ما ظهر لي من ظاهر سرقته، فلعله أخذ شيئاً كان له فيه حقّ، أو أخذه بإذن صاحبه أو نحو ذلك من الاحتمالات، وهذا من ورع عيسى عليه السلام.

ومنها: ما حصل من نزول المائدة وقد وقع مثلها لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٥٧٧} ـ فعن سمرة بن جندُب أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بقَصْعَةٍ من ثَرِيدٍ فوُضِعَتْ بين يَدَيّ القوم، فَتَعَاقَبُوها إلى الظهر من غُدْوَةٍ يقوم قومٌ ويجلسُ آخرون، فقال رجل لسمرة: أمَا كانت تُمَدُّ؟ فقال سمرة: من أيّ شيء تَعْجَبُ؟ ما كانت تُمَدُّ إلا هٰهنا، وأشار بيده إلى السماء.

رواه الدارمي (٥٧)، والترمذي (٣٣٩٤)، والحاكم (٢/٢١٨) وصححاه وهو كما قالا؛ فإمداد القصعة من السماء هو نزول البركة فيها حتى أشبعت ذلك الجمّ الغفير، وسيأتي في السيرة معجزة تكثير الطعام لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مواطن.

ومنها: ظاهر حديث عمار في نزول المائدة حيث أمروا أن لا يدّخروا

ولا يخونوا، فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير؛ أن المسخ وقع لهم مرتين: عند المائدة وعند تعدّيهم في السبت، وهو اصطيادهم الحيتان يومه بحيلة شيطانية، كما جاء مفصّلاً في سورة الأعراف.

ومنها: أن الإيمان بكون عيسى عبد الله ورسوله وكلمته... من موجبات الجنّة.

{٥٧٨} ـ فعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من شهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأن محمداً عبدُه ورسوله وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌّ، والنار حقٌ، أدخله الله الجنّة على ما كان من العمل**».

رواه أحمد (٥/٢١٣، ٣١٤)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٨٥). ومسلم في الإيمان (١/٢٢٦، ٢٢٧).

هذا الحديث الشريف قد احتوى على مهمات الدين وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه جمع فيه ما أنكرته جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدها، حيث رد على النصارى في طعنهم في نبوّة عيسى عليه السلام، ورميهم والدته بالزنا، وعلى الفرق المنكرة رسالة سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما فيه ردّ على المعتزلة والخوارج القائلين بخلود العصاة في النار، وفيه إثبات المعاد والجنّة والنار، وأن من اعترف بما فيه دخل الجنّة قطعاً، ولو عمل ما عمل من الذنوب والآثام عدا الشرك.

ومنها: اختلف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ على أقوال أصحها قول من قال: إنه من المقدم والمؤخر، ومعناه: إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك. علماً بأن التوفي له أكثر من معنى، أما قول من قال بأنه توفي ومات، ثم رفع، هو قول باطل، وكذا قول من قال: المراد بالوفاة وفاة النوم هو ضعيف، ردَّه المحققون؛ فالمسيح عليه السلام مرفوع بجسمه وروحه وهو حيٌّ في السماء الثانية حيث وجده

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة الإسراء مع ابن خالته يحيىٰ عليه السلام.

ومنها: اختلفوا في سنّه حين رُفِع، فقيل: ثلاثون سنة، وقيل غير ذلك. كما اختلفوا كم يعيش بعد نزوله، فقيل: أربعون سنة، وقيل: تسع سنين، وقيل غير ذلك. غير أنه جاء في سنن الترمذي أنه آخر حياته سيحج ويموت بالمدينة، ويدفن بجوار النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتي لنا مزيد لهذا الموضوع في الفتن وأشراط الساعة إن شاء الله تعالى.

ومنها: اختلف المفسّرون لماذا سُمّي كلمة الله وروح الله، فقيل: سُمّي كلمة الله إشارة إلى أنه حجّة الله على عباده أبدعه من غير أب، وأنطقه في غير أوانه، وأحيى الموتى على يده، وقيل: سمي كلمة الله لأنه تعالى أوجده بقوله: «كن»، فلما كان بكلامه سمّي به كما يقال: سيف الله، وأسد الله، وقيل: لما قال في صغره: إني عبد الله، وكل هذه الأقاويل محتملة. وأما تسميته بروح منه، أي: كائن منه تعالى وموجود بقدرته وحكمته، فهو كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ أي: سخرها كائنة منه تعالى لا من غيره.

ومنها: انقسام اليهود في شأن عيسى فرقتين: فرقة رمته بالعظائم وكفرت به وحاربته، وهم الأكثرية من اليهود، وفرقة آمنت به وصدّقته، ثم افترقت هذه الفرقة أيضاً فرقتين: فرقة آمنت به وأطاعته في اعتدال وهم المؤمنون الصادقون الخلص من أتباعه وأنصاره، وفرقة غلت فيه ورفعته فوق منزلته البشرية، ثم هؤلاء تفرّقوا فيه منهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من ادّعى أن الله حلّ فيه فهو الله، ومنهم من قال: إنه ثالث الآلهة بزيادة أمّه عليهم لعائن الله.

وقد ردّ الله عزّ وجلّ على هذه الفرق الكافرة بأبلغ رد كما تقدم، فكان هؤلاء واليهود سواء في الشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]، وكانوا جميعاً شرّ خلق الله كما قال عزّ وجلّ في سورة البيّنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

ومنها: أن سيدنا عيسى عليه السلام يضرب المثل بزهده، فكان أزهد البرية في هذه الحياة الصاخبة، كشأن باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن عيسى نقل عنه عجائب الغرائب في ذلك، وكتب الزهد والرقائق مليئة بكلامه وأقواله وحكاياته في ذلك، ولنكتف بما ذكرنا. والحمد لله، وسيأتي مزيد لذكره في الفتن وأشراط الساعة، حيث سيذكر هناك إن شاء الله تعالى.

وبهذا تمّ الكلام على كتاب الأنبياء، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذرّيته وزوجاته وصحابته وأتباعه وحزبه إلى يوم الدين.

* * *

ذكر بعض أخبار بني إسرائيل وغيرهم ممن جاءوا بعد المسيح عليه السلام

{٥٧٩} ـ عن عِمرانَ بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: «**كان رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحَدِّثُنَا عامَّةَ لَيْلِهِ عن بَنِي إسْرَائِيل**، وفي رواية: **حتَّى يُصْبِحَ لا يَقُومُ إلاَّ إلى عُظْمِ صلاةٍ**».

رواه أحمد (٤/٤٤٤) بسند صحيح.

عُظْم ـ بضم العين وسكون الظاء ـ وعظم الشيء أكثره ومعظمه، كأنه أراد أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يقوم إلا لصلاة الفريضة.

والحديث يدلّ على جواز التحديث عن بني إسرائيل، وقد تقدم في العلم حديث ابن عمرو: «**حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، قال الخطابي: ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل، ورفع الحرج عمّن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ،

وإن لم يتحقّق صحةُ ذلك، وذلك لأنه أمر قد تعذّر في أخبارهم لبعد المسافة وطول المدّة ووقوع الفترة بين زماني النبوّة.

وحالتنا مع الإسرائيليات أن ما وافق شريعتنا كان مقبولاً، وما خالفها كان مرفوضاً، وما لم يخالف ولا يوافق كان مأذوناً فيه أخذاً وتحديثاً، ولا سيما ما يتعلق بالمواعظ والرقائق والعجائب، فإن تاريخ بني إسرائيل طويل، وكان فيهم عجائب الغرائب. وما سنذكره عنهم وعن غيرهم إنما نورد منه ما حدّثنا به نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مما صحّ سنده.

* * *

رجل يغفر الله تعالى له لخوفه عند موته

{٥٨٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان رجلٌ يُسْرِفُ على نفسه، فلما حضرهُ الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأخرِقُوني ثم اطْحَنُوني ثم ذرُّوني في الريح، فوالله لئن قدَرَ الله عليَّ لَيُعَذِّبَنِي عذاباً ما عَذَّبَه أحداً، فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجْمَعِي ما فيك منه ففعلتْ، فإذا هو قائم فقال: ما حمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ قال: يا ربّ خَشْيَتُكَ**»، وفي رواية: «**مخافتُكَ، فغفر له**»، وفي رواية: «**ثم اذروا نصفه في البرّ ونصفه في البحر**»، وفيه: «**فأمر الله البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه**».

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل (٧/٣٣٢، ٣٣٣)، ومسلم (١٧/٧٠، ٧١، ٧٢) وغيرهما.

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: «**أن رجلاً كان قبلكم رَغَسَهُ الله مالاً، فقال لبنيه لما حُضِر أيُّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمَل خيراً قطُّ فإذا متُّ فأَخْرِقُونِي ثم اسْحَقُوني ثم ذَرُّوني في يوم عاصفٍ، ففعلوا فجمعه الله عزّ وجلّ فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال:**

مخافَتُك فتلقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»، رواه البخاري في بني إسرائيل وفي الرقاق وفي التوحيد، ومسلم في التوبة ونحوه عن حذيفة وعقبة بن عمرو. رواهما البخاري وغيره.

«كان رجل» كان إسرائيلياً يُسرف ـ بضم الياء ـ أي: يبالغ في الآثام ويتجاوز الحدّ في ارتكابها، وكانت جريمة هذا الرجل الغالبة عليه نبش القبور، وقوله: رغسه، في رواية: راشه... ومعناهما: أعطاه الله مالاً وبارك له فيه، في يوم عاصف أي: شديد الريح، ذرُّوني ـ بفتح الذال وتشديد الرَّاءِ المضمومة ـ أي: انثروني وفرّقوني، وقوله: لئن قدر الله عليّ ـ بفتح القاف والدال المخففة ـ أي: ضيق الله عليّ، وتحتمل أن تكون الدال مشدّداً أيضاً من القضاء والقدر، أي: لئن قضى الله عليّ العذاب وقدره، ويحتمل حمله على ظاهره وهو بعيد لأنه يؤدي إلى نفي قدرة الله تعالى وإنكار البعث، وذلك كفر والكافر لا يغفر الله له، وقيل: إنه قال ذلك غلطاً لدهشته وخوفه، والظاهر قول من قال: لئن قضى الله تعالى عليّ العذاب ليعذبني... الخ.

كان هذا الرجل قد جاوز الحد في المعاصي، وخاصة أنه كان قد أثرى، والمال يطغي صاحبه ويُنْسِيه ربَّه ومَآلَه لكنه سرعان أن فاق من سكرته فندم على حالته وما قضى في حياته وعمره من سيّئات وموبقات، فإنه لما شاهد بوادر الموت قد جاءت أراد أن يتخلّص من عذاب الله، وكان كما يبدو جاهلاً بشمول قدرة الله تعالى لكل شيء، فأمر أولاده أن يحرقوه وينثروا رماد جسمه في البرّ والبحر ظنّاً منه أن جمعه بعيد، لكن الله عزّ وجلّ سيجمع ذلك بقدرته العظيمة ويُكَوّنه عبداً قائماً بين يديه، فيسأله عن سبب ما فعل فيخبره بأنه فعل ذلك خوفاً من عذابه، فيرحمه الله تعالى ويغفر له. وهذا الحديث على ما قيل، وقالوا في معناه يدلّ على أن من تاب عند موته وندم وتألّم على ما اقترف في غابر حياته؛ غفر الله تعالى له وسامحه على ما مضى من سيئاته، وبهذا جاءت شريعتنا كتاباً وسنّة وإجماعاً، فالحمد لله على إحسانه وشمول رحمته.

* * *

الكفل المذنب والمرأة المضطرة

{٥٨١} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحَدّثُ حديثاً لو لم أسمعْه إلا مرةً أو مرتين حتى عدّ سبع مراتٍ، ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يَتَوَرَّعُ من ذَنبٍ عَمِلَهُ فأتَتْهُ امرأةٌ فأعطاها سِتّين ديناراً على أن يَطَأها، فلما قعد مَقْعَدَ الرجلِ من امرأتِهِ أُرْعِدَتْ وبكَتْ، فقال: ما يُبْكِيكِ أكْرَهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عمَلٌ ما عَمِلتُه قطُ وما حَمَلَني عليه إلا الحاجة، فقال: تَفعلينَ أنت هذا وما فَعَلْتِيهِ، اذْهَبِي فهي لكِ، وقال: لا والله لا أعْصِي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوبٌ على بابه: إن الله قد غَفرَ لِلْكِفْلِ**».

رواه أحمد رقم (٤٧٤٧)، والترمذي (٢٣١٦) في صفة القيامة بتهذيبي، وابن حبان (٢٤٥٣)، والحاكم (٢٥٤/٤) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الكِفْل ـ بكسر الكاف وسكون الفاء ـ هو اسم رجل إسرائيلي كان مسرفاً على نفسه، فتاب الله عليه وغفر له، وهو غير الكفل النبيّ المذكور مع الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، ولا ندري لماذا سمّي هذا الرجل بالكفل، فإن هذه الكلمة تطلق على عدة معان.

وقوله: فأتته امرأة، في رواية ابن حبان: فهَوِيَ امرأةً أي: أحَبَّها فراودها عن نفسها... وقوله: أُرْعِدَتْ مبني للمجهول أي: اضطربت.

ومن فوائد هذا الحديث أن المرأة قد تكون أعف من الرجل وأفضل وأتقى لله تعالى منه، رغم أن النساء يغلب عليهن اتباع الهوى والشهوات وأنهنّ حبائل الشيطان...

ومنها بَرَكَةُ مخافةِ الله تعالى، فإن المرأة لما عفت وخافت الله عزّ جلّ

أكرمها الله تعالى بالحفاظ على كرامتها وحصولها على الستين ديناراً بدون أيّ مقابل، اللّهمّ إلا خوف الله عزّ وجلّ.

ومنها: غفران الذنوب كبيرها وصغيرها بالتوبة النصوح، ولا خلاف في هذا في شرعنا.

ومنها: أنه ينبغي للمسلم إذا أخرج ميزانية ليصرفها في معاصي الله تعالى أن يتصدق بها أو يمثلها على المحتاجين، وأنه ينبغي للتائب أن يتصدّق عند توبته بما تيسّر.

ومنها: جواز تمكين المرأة نفسها من الغير إذا اضطرّت ولم تجد ما تسدُّ به رمقها، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، فإن الضرورات تبيح المحظورات، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه... فإن الله غفور رحيم، وقد ذكر علماؤنا شروطاً لذلك مذكورة في مواضعها، وربما يأتي ذلك في البرّ والآداب، ودعوى العواهر اللواتي يُتَاجِرْنَ ويكْتَسِبْنَ بفروجهن.

* * *

رجل يغفر الله له ويسامحه لإنظاره المُوسِر وتجاوزه عن المعسر

{٥٨٢} ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إن رجلاً كان فيمن كان قَبْلَكم أتاه الملكُ لِيَقْبِضَ روحَه، فقيل له: هل عمِلت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئاً غير أنّي كنتُ أبايعُ الناس في الدنيا وأُجازِيهم فأنْظِرُ المُوسرَ وأَتَجَاوَزُ عن المُعْسِر، فأدخَله الله الجنّة»**.

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣٠٥/٧) كما رواه هو ومسلم في البيوع، ورواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ: **«كان الرجل يداين الناس فكان يقول لفتاه أو لفتيانه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز، قال: فلقي الله فتجاوز عنه»**.

وفي رواية لمسلم عن ابن مسعود: **«حُوسب رجلٌ ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيءٌ إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً»** الخ.

قوله: كنت أبايع الناس، يعني: كان تاجراً كما في رواية عند البخاري عن أبي هريرة، «يداين الناس» أي: يقرضهم إلى أجل، وأجازيهم أي: أقاضيهم، فأنظر الموسر أي: أمهل من كان ذا يسر في ماله وأُأخره، وأتجاوز عن المعسر أي: أسامحه وأضع عنه أو أحسن قضاءه.

كان هذا الإنسان غافلاً مقبلاً على الدنيا لا يعرج على خير، فلما توفي وحوسب عما قدَّمت يداه وجد نفسه فقيراً صفر اليدين من الأعمال الصالحة، غير أنه كان يعتاد في معاملته التسامح، فكان مسامحاً ويتعامل مع الناس المعاملة الحسنة، فرحمه الله عزّ وجلّ بذلك، وعامله بما كان يعامل به الناس وأدخله الجنة.

وقد جاء في هذا الخلق ومدحه والحضّ عليه والترغيب فيه أحاديث تقدم بعضها في أوائل البيوع، وسيأتي مزيد لها في البر والصلة والأدب.

❊ ❊ ❊

زانية يغفر الله لها لإحسانها إلى كلب

{٥٨٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كادَ يَقْتُلُه العَطَشُ إذا رأتْهُ بَغِيٌّ مِن بغايا بني إسرائيل، فنَزَعَتْ مُوقَها فسَقَتْه فَغُفِرَ لها به»**.

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل، ومسلم في الحيوان.

وفي رواية: **«بينما رجل بطريق فاشتدّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيه فشَرِب ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكلُ الثَّرَى من العَطَش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماء فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: **«في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجْرٌ»**.

رواه مالك في الجامع من الموطأ (١٧٩٣)، والبخاري في الطهارة (٢٨٩/١) وفي المظالم وفي الأدب، ومسلم في الحيوان (٢٤٢/١٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٥٠).

يطيف ـ بضمّ أوله ـ أي: يدور حوله، ركية ـ بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء المفتوحة ـ بئر البئر كما في النهاية، بغي ـ بفتح الباء وكسر الغين ـ هي الزانية العاهرة، مُوقَها ـ بضم الميم وفتح القاف ـ هو الخفّ، وقيل: ما يلبس فوقه.

يلهث، اللَّهث ـ بالفتح ـ هو ارتفاع النفس من الإعياء، ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش، الثرى ـ بفتحتين ـ هي الأرض التي فيها ندى وبلل من الماء، فشكر الله له أي: أثنى عليه وقبل عمله أو جازاه بفعله، وفي رواية عند ابن حبان: «فغفر له فأدخله الجنّة»، في كل ذات كبد رطبة أي: في كل حيوان له كبد رطبة أي: حيّة، لأنه إذا مات يبست كبده، وهذا الحديث يحتمل أن يكون لقصة واحدة وقع فيها تصرف من بعض الرواة، ويحتمل تعددها بأن وقعت للبغي والرجل معاً.

وعلى أيٍّ، ففيه مشروعية الإحسان إلى الحيوان بالإطعام والسقي ونحو ذلك، وأن في ذلك أجراً لفاعله، وأنه من موجبات غفران الذنوب الكبار، فإن الزنا والإصرار عليه من الفواحش العظام في جميع الملل، ومع ذلك غفر الله لتلك البغي برحمتها الكلب وسقيها إياه.

غير أن هذا الإحسان إلى الحيوان مقيّد في شريعتنا بالمحترم منها والمأذون في اتّخاذه، أمّا ما سوى ذلك فلا يجوز إطعامه ولا سقيه كالفواسق الخمس مثلاً والخنزير ونحو ذلك.

* * *

رجل قتل نفسه فحرم الله عليه الجنّة

{٥٨٤} ـ عن جندب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان فِيمَن كان قبلكم رجل**

جُرِحَ فجَزِعَ فأخذ سكيناً فحَزَّ بها يده، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حتَّى مات، قال الله عزّ وجلّ: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حرَّمْتُ عليه الجنّة».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٧/٣١٠، ٣١١) وفي الجنائز، ومسلم في الإيمان (٢/١٢٤، ١٢٥).

جُرِح - بضم الجيم - وفي رواية: جراح، وفي أخرى: قرحة، وفي ثالثة له: جراح، ويجمع بين ذلك بأنه جرح ثم صار قرحة وخراجاً، فجزع أي: حصل له هلع وعدم الصبر، فحزّ بالحاء أي: قطع بها يده، وفي رواية لمسلم: فلما آذته انتزع سهماً من كنانته فنكاها أي: خرقها، فما رقأ الدم: لم ينقطع، بادرني أي: سارعني إلى قبض روحه.

إن قتل النفس محرم في جميع الأديان سواء كانت نفس الإنسان أو نفس غيره، وقد جاء في القرآن والسنّة من القوارع والزواجر في ذلك ما هو معروف، وقد تقدم ذلك في الجنايات، وظاهر هذا الحديث أن قاتل نفسه لا يدخل الجنّة، وفي شرعنا لا يمنع من دخول الجنّة إلا الكفرُ والشِّرْكُ، وكل ما جاء يخالف ذلك فمؤوّل، وانظر ما سبق في الجنايات وما يأتي في الأدب والزهد.

* * *

رجل يسامحه الله وقد قتل مائة نفس

{٥٨٥} - عن أبي سعد الخدريّ رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كان فيمن كان قبلكُم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انْطَلِق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أُناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا**

ترجع إلى أرضِك، فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق آتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّتِهما كان أدْنَى فهو له، فقاسُوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣٢٤/٧، ٣٢٥)، ومسلم في التوبة (٨٢/١٧، ٨٤).

ومن يحول، أي: من يمنع. حتى إذا نصف أي: بلغ نصف الطريق، فجعلوه بينهم أي: جعلوه حاكماً يفصل فيما بينهم، قيسوا أي: قدّروا، أدنى أي: أقرب، رغم أن قتل النفس من كبار الذنوب التي تلي الشرك في الجرم فهو غير مانع من قبول توبة مرتكبها إذا أناب ورجع إلى الله بصدق وإخلاص، ولا أدلّ على ذلك من هذا الحديث الذي يحدّثنا بأن هذا الرجل قتل مائة نفس فتاب الله تعالى عليه حينما علم صحة قصد وصلاح سريرته، وجمهور أهل العلم والأئمّة على ذلك، وليس قاتل النفس بأكبر وأعظم جرماً من الكافر... وقد قال الله تعالى عن الكفار مخاطباً نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ويأتي لهذا مزيد في الزهد والرقاق، ويؤخذ من الحديث فضل العالم فإن الرجل السفّاك ما هداه إلى التوبة إلا إرشاد العالم، كما يؤخذ منه هجران مواقع المعاصي وأهلها وصحبة الصالحين وأهل النسك، وفيه أن السعي في سكنى بلاد الخير مطلوب لما في ذلك من التعاون على الخير والأمن على النفس من الوقوع في الزّلل والآثام، فعلى المسلم المعاصر المقيم في بلاد الكفر أو ديار الإسلام التي عمّتها الجاهلية واختلّت فيها نظم الإسلام أن يسعى في الهجرة إلى حيث يوجد أهل الخير والدين ولو في الجملة، فإن الفتن اليوم قد عمّت العالم الكافر والمسلم نسأل الله اللطف.

***

العابد والعاصي المتآخيان

{٥٨٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان رجلان من بني إسرائيل مُتَآخِيَيْن، وكان أحدُهما مذنباً والآخر مجتهداً في العبادة، وكان لا يزال المُجتهد يرى الآخَرَ على الذنب، فيقول: أقْصِرْ، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقْصِرْ، فقال: خَلِّني وربّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنّة، فقبض روحهما فاجتمعا عند ربّ العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنتَ بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنّة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠١) بسند صحيح.

أقصِر أي: كفّ وأمسك، خلِّني أي: اتركني مع ربّي، رقيباً أي: حارساً عليَّ.

في الحديث خطورة إعجاب المرء بصالح أعماله وعبادته واحتقاره غيره من المذنبين أو المقصّرين، وأن ذلك قد يؤدّي إلى الخسارة الأبديّة كما فيه ذمّ وصف الآخرين بدخولهم النار... كما هو دأب الكثيرين اليوم ممن يحكمون على الناس بالكفر والشقاء والنظر إلى غيرهم بعين الازدراء، ولو كانوا أتقى لله تعالى منهم.

فالواجب على المؤمن الذي يخاف الله أن ينصح غيره من المقصرين ثم يفوض أمره إلى مولاه، ولا يحكم عليه بشيء، أو يتأفّف منه ويحتقره ويتعاظم عليه معجباً بنفسه، فإن في ذلك هلاكه المحقّق كما وقع لهذا العابد مع صاحبه المذنب.

وفي الحديث دليل على أنه لا يقطع لأحد بالجنّة أو النار، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء، بل أمر العباد إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذّب.

نعم، يرجى للطائع دخول الجنّة برحمة الله تعالى كما يخاف ويخشى

على المذنب المصرّ من دخول النار بدون جزم وقطع بذلك، والله الموفق الهادي.

* * *

الأمانة وحسن المعاملة والتخلق بالورع

{٥٨٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «اشترى رجلٌ من رجل عَقَاراً له، فوجد الرجلُ الذي اشترى العقار في عقاره جَرَّةً فيها ذهبٌ، فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مِنّي إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولدٌ؟ قال أحدهما: لي غلامٌ، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسِهما منه وتصدقا».

رواه البخاري في نزول عيسى من الأنبياء (٣٢٧/٧)، ومسلم في الأقضية (١٩/١٢، ٢١).

العقار ـ بالفتح ـ الضيعة، والأرض والنخل. الجرة ـ بفتح الجيم ـ إناء من حديد أو خزف. ولم أبتع أي: لم أشتر.

في الحديث فضيلة هذين الرجلين وأمانتهما وصدقهما وأنهما بلغا النهاية في الورع والإيثار، وهما نموذج رائع في الورع وترك الشبهات.

وهذه القصة تدلّ على أن بني إسرائيل كان فيهم صالحون أتقياء أوفياء، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾، وفيه غير ذلك من الثناء على سابقيهم ولاحقيهم...

* * *

دخلت امرأة النار في هرة

{٥٨٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**دخلتْ امرأة النار في هِرّة ربَطَتْها فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت هزلاً**».

رواه البخاري في بدء الخلق وفي الرقاق، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٧٣).

وعن ابن عمر نحوه رواه البخاري في بني إسرائيل وفي بدء الخلق ومسلم في البرّ (١٦/١٧٢): دخلت امرأة كانت حِمْيَرِيَّة وكانت طائفة من حمير تَهَوَّدُوا فنُسِبُوا إلى بني إسرائيل، وقد جاء في صفة الصلاة من صحيح البخاري عن أسماء، وفي الكسوف من صحيح مسلم عن جابر في خطبة الكسوف عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «. . . **وعُرِضَتْ عليَّ النارُ فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذّب في هرة**».

الهرّة أنثى السنور والقطط، والذكر هِرٌّ، وقوله في هرة أي: لأجلها وسببها، ربطتها أي: حبستها، كما في البخاري وفي مسلم: سجنتها، وفي أخرى له: وثقتها، وفي رواية: من جراء ـ بفتح الجيم والراء المشدّدة ـ أي: من أجل، خشاش الأرض ـ بفتح الخاء على الأشهر ـ واحدتها خشاشة والمراد بها هوام الأرض وحشراتها، هزلاً أي: نحيلة ضعيفة، وفي رواية للبخاري: ماتت جوعاً.

في الحديث تحريم الاعتداء والظلم ولو للوحوش والحيوانات، إلا ما كان بقصد اصطياده للأكل والانتفاع به أو كان مأذوناً في قتله، وما عدا ذلك فلا يجوز قتله ولا ضربه ولا حبسه بحال، لأنه ظلم واعتداء على كرامته وحريته.

فما هو موجود اليوم من حبس أنواع الحيوانات في الحدائق محرّم شرعاً، لأن في ذلك اعتداء عليها ومنعها من حريتها، وفيها ما يجب قتله، ولا يجوز إطعامه ولا تربيته كالسباع مثلاً والنمار والأفاعي والخنازير

ونحوهم. وفي الحديث تعظيم الذنب وعدم احتقاره لأنه مَوْقِعُ سخطِ الله تعالى، فهذا عمل بسيط في نظر هذه المرأة كان سبباً في دخولها النار مع أنه ذنب عظيم؛ لأن فيه ظلماً لتلك الهرّة واعتداء عليها بالحبس بدون إطعام حتى ماتت، وهي جريمة لا يُستهان بها. فليتّعظ بهذه القصة من يستهين بالاعتداء على الغير أيّاً كان، وفي الحديث فوائد تراجع في كتابنا: «عجائب الأقدمين» كباقيها.

* * *

الملهمون والمحدّثون

{٥٨٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد كان يكون في الأُمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يك في أُمّتي منهم أحدٌ فإن عمر بن الخطاب منهم**».

رواه مسلم (١٥/١٦٦)، والترمذي (٣٤٥٩) كلاهما في الفضائل.

ورواه البخاري في المناقب (٨/٤٩، ٥٠) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بنحوه، وذكره معلّقاً بلفظ: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر**».

محدّثون ـ بفتح الدال المهملة المشدّدة ـ جمع محدث، قال مسلم في صحيحه: قال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون، وقال الترمذي: قال ابن عيينة: محدثون أي: مفهمون. وقال الحافظ في الفتح: المحدّث ـ بالفتح ـ هو الرجل الصادق الظن، وهو من أُلقي في رُوعه شيء من قبل الملإ الأعلى، فيكون كالذي حدّثه غيره.

فالمحدثون هم أولياء الله تعالى الذين تكلّمهم الملائكة قبلاً، أو تلقي في قلوبهم ما لا يعلمه غيرهم من المعارف والأخبار.

وفي الحديث بيان أن الأقدمين كان فيهم رجال يكاشفون من قبل الله تعالى بأُمور غيبية، وأن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه كان منهم، وقد

تواتر هذا التحديث في هذه الأُمّة من رجال ونساء لا يحصون كثرة، وعدّ ذلك من أنواع الكرامات.

ويعجبني هنا كلام لأبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذا الموضوع، فقد قال في كتابه «مجموعة الرسائل والمسائل» في قاعدة من المعجزات والكرامات ما نصّه: فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يَسمعَ العبدُ ما لا يَسمعُه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظةً ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة ويسمّى كشفاً ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفات، ويسمى ذلك كلّه كشفاً أو مكاشفة، أي: كشف له عنه...

وقال أيضاً: وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم، فمثل قول عمر رضي الله تعالى عنه في قصة سارية، وإخبار أبي بكر رضي الله تعالى عنه بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى عليهما السلام في علمه بحال الغلام...

وقال أيضاً: وهو يتكلم على كلمات الله: وأما القسم الثاني: فمثل من يعلم بما جاء به الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خبراً وأمراً، ويعمل به ويأمر به الناس، ويعلم بوقت نزول المطر، وتغيُّر السعر، وشفاء المريض، وقدوم الغائب، ولقاء العدوّ...

ثم قال: وأما الثالث: فمن يجتمع له الأمران بأن يؤتى من الكشف والتأثير الكوني ما يؤيّد به الكشف، والتأثير الشرعي الخ.

وإنما آثرت كلام هذا الحافظ على الخصوص، لأن أعداء الصوفية ومنكري الكرامات منهم بإطلاق يعتمدون عليه فيما يطيب لهم ويتركون كلامه فيما يخالف أهواءهم، وها هو ذا يصرح بالكشف والاطّلاع على الغيوب ووقوع التصريف والتأثير الكوني، ومن الجهل الفادح والإغراق في

اتّباع الهوى ولو بمخالفة الحقّ والنصوص الشرعية أن نرى بعض محدثي عصرنا الذين يَتَشَدقُون بالسَّلَفية ينكر الكشف صراحة، والله الموفق الهادي.

* * *

أصحاب الغار الذين انطبق عليهم بصخرة

{٥٩٠} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللّهمّ كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغْبُقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرُحْ عليهما حتى ناما فحلبتُ لهما غَبُوقَهما فوجدتهما نائمين، فكرهتُ أن أغبق قبلها أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبيان يَتَضاغَوْن عند قدمي، فاستيقظا فشربا غَبُوقهما، اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها**». قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قال آخر: اللّهمّ كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليّ فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخَلّي بيني وبين نفسها، ففعلتْ حتى إذا قدَرتُ عليها قالت: لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقّه، فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها. اللّهمّ إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها**»، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وقال الثالث: اللّهمّ إني استأجرتُ أُجراء وأعطيتهم أجْرَهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثَمَّرتُ أجرَه حتى كثرتْ منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال لي: يا عبدالله أدّ إليّ أجري،**

فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبدالله لا تستهزىء بي، فقلت: إني لا أستهزىء بك، فأخذه كله فساقه فلم يترك منه شيئاً. اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣١٧/٧، ٣٢٠) وفي البيوع وفي المزارعة، ومسلم في الرقاق (٥٥/١٧، ٥٨).

وفي الباب عن أنس رواه الطبراني في الدعاء بسند صحيح، وعن أبي هريرة رواه ابن حبان بسند حسن، وعن النعمان بن بشير رواه أحمد والبزار والطبراني من أوجه حسان، وعن عليّ عند البزار، وعن عقبة بن عامر رواه الطبراني في الدعاء، وعن عبدالله بن عمرو وابن أبي أوفى عند الطبراني، وهذه الأربعة أسانيدها ضعيفة. أفاده الحافظ في الفتح.

«النفر» ـ بفتحتين ـ عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة، «الغار» ثقب في الجبل شبه مغارة، فإذا اتّسع قيل له كهف، «انحدرت» أي: هبطت، «لا أغبق» بضم الباء قبلها غين معجمة أي: لا أشرب، والغبوق ـ بفتح الغين المعجمة ـ ما يشرب بالعشي، «يتضاغون» أي: يصيحون من الجوع، «فنأى بي» أي: بعد، «ألمّت» أي: نزلت، «السنة» العام المجدب الذي لم تنبت فيه الأرض شيئاً، «لا تفض الخاتم» أي: لا تكسر، والخاتم كناية عن عذريتها، فكنت عن الإفضاء إليها بالكسر وعن الفرج بالخاتم.

في هذا الحديث فوائد: ففيه فضل الإخلاص والصدق في النيّة والقول والعمل... وفيه مجازاة الله عبده على أعماله الصالحة في الدنيا، وفي ذلك أدلّة كثيرة تأتي في موضعها. وفيه فضل البرور بالوالدين والإحسان إليهما وخدمتهما وتقديمهما على الأهل والأولاد، وفيه فضل التعفّف عن الزّنا والانكفاف عن الحرام مع التمكّن منه، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجبُّ ما قبلها.

وفيه فضل الأمانة والمحافظة عليها وتثميرها لصاحبها حتى تؤدى له، وفيه إثبات الكرامات باستجابة الدعاء، ولا خلاف في ذلك حتى ممن

ينكرها، وفيه الالتجاء إلى الله تعالى وحده عند نزول الشدائد وغيرها.

وفيه مشروعية التوسّل بالأعمال الصالحة التي يرجو صاحبها إخلاصه فيها، ويغلب على ظنّه قبولها، ليكون ذلك أنجع في الاستجابة وكشف الكربات ودفع الطوارىء، واختلفوا من كان أفضل هؤلاء الثلاثة مع فضلهم جميعاً، والصحيح أن أفضلهم صاحب المرأة لأمور: أولاً: كان في قلبه خشية الله، ثانياً: عفّته عن الزّنا مع القدرة عليه وحبّه الشديد لذلك. ثالثاً: إعطاؤه ذلك الذهب المرأة صدقة أو هدية لها بلا مقابل. رابعاً: في تصرفه ذلك صلة الرحم لأنها بنت عمّه. خامساً: دفع لها ذلك الذهب وهي مضطرة في سنة قحط، وبذلك كان أفضلهم، والعلم عند الله تعالى.

* * *

جريج الراهب وقصته مع المومسة، والمتكلمون في المهد

{٥٩١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لم يتكلّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتّخذ صومعةً فكان فيها فأتته أُمُّهُ وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللّهمّ لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه المُومِسات، فتذاكر بنو إسرائيل جُرَيْجاً وعبادتَه، وكانت امرأةٌ يُغي يُتَمَثَّلُ بحسنها، فقالت: إن شئتم لأَفْتِنَنَّه لكم، قال: فتعرضتْ له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدّموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال:

دعوني حتى أصلي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبي فطعنه في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا، وبينما صبي يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهَةٍ وشارَةٍ حسنة، فقالت أُمه: اللّهمّ اجعل ابني مثلَ هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع»، قال: فكأني أنظر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها.

قالوا: «ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللّهمّ اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث... فقالت: حَلْقَى.».

مرّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللّهمّ اجعل ابني مثله، فقلت: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقتِ، فقلت: اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللّهمّ اجعلني مثلها، قال: إن ذلك الرجل كان جباراً فقلتُ: اللّهمّ لا تجعلني مثله، وأن هذه يقولون لها: زنيتِ ولم تزن، وسرقتِ ولم تسرق، فقلت: اللّهمّ اجعلني مثلها».

رواه البخاري أواخر الصلاة وفي المظالم وفي الأنبياء (٢٨٧/٧، ٢٩٢)، ومسلم في البرّ (١٠٥/١٦، ١٠٨).

المهد مصدر سمّي به ما يمهد للصبي من مضجعه، قوله: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» هذا الحصر لا مفهوم له، فقد تكلّم في المهد نحو ستة جاءت بهم صحاح السنّة، وهناك آخرون يبلغون العشرة جاءت بهم أحاديث ضعيفة.

«جريج» - بجيمين مصغر - وهو من مشاهير أعلام ورهبان بني إسرائيل المخلصين كان ولا يزال يُضْرَبُ بعبادته المثل. «يا رب أمي وصلاتي» أي: اجتمع عليّ إجابة أمي وإتمام صلاتي، فوفّقني أفضلهما. «المومسات» أي:

البغايا الزواني المجاهرات بذلك، وهو جمع مومسة. «يتمثل بحسنها» أي: يضرب المثل بجمالها لانفرادها بذلك. «فتعرضت له» أي: عرضت نفسها عليه ليواقعها. «ما شأنكم» أي: ما حالكم معي. «دابة فارهة» أي: قوية نشيطة. «وشارة» أي: هيئة حسنة جميلة. «فهناك تراجعا الحديث»، أي: أقبلت الأُمّ على الرضيع تحدّثه وتراجعه في الحادث الحاصل. «حلقى» أي: أصابها الله برجع في حلقها.

وهذا حديث عظيم الشأن فيه آيات وعِبَر وعِظات وفوائد:

فمنها: عظم برّ الوالدين وعلى الأخص الأمّ منهما، وأن دعاءها على ولدها مجاب، وأنه إذا تعارضت الأُمور قدّم أهمها، وكان الأجدر بجريج تقديم إجابة أمّه على صلاته التي كانت تطوّعاً، ولكنه لم يكن فقيهاً كما جاء في حديث متكلم فيه: **«لو كان جريج فقيهاً لأجاب أمه»**.

ومنها: أن الله عزّ وجلّ قد يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم كما حصل لجريج مع الزانية وقومها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقد يجري عليهم الشدائد في بعض الأحيان زيادة في رفع درجاتهم أو تربية لهم أو تهذيباً لما عسى أن يصدر منهم.

ومنها: استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات.

ومنها: أن الوضوء كان معروفاً ومشروعاً عند الأقدمين، وقد جاء في رواية لهذا الحديث عند البخاري «فتوضّأ وصلى»، ولم يصب من زعم بأن الوضوء مختصّ بهذه الأُمّة، فإن المختصّ بها: الغرة والتحجيل والتيمّم.

ومنها: أن صاحب الصدق مع الله تعالى لا تضرّه النوائب والفتن وتقلّبات الزمان.

ومنها: قوة يقين جريج وصحة رجائه في الله عزّ وجلّ، لأنه استنطق المولود، مع كون العادة أنه لا ينطق.

ومنها: الحذر من فتنة النساء، وهي من الفتن العظيمة التي لا ينجو منها إلا

من حصَّنه الله تعالى بالتقوى والحفظ منهنّ، وانظر كتابي «المرأة المتبرجة».

ومنها: إثبات الكرامات للأولياء وهو مذهب أهل السنّة خلافاً لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم، والصحيح كما قال النووي وغيره أن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها، لا كما قال بعضهم بأنها تختصّ بمثل إجابة دعاء ونحوه؛ فإن ذلك إنكار للمحسوسات، فالصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحو ذلك. وقد تكلّمت على هذا المعنى في كتاب «المطرب بمشاهير أولياء المغرب».

وفي الحديث بيان من تكلم في المهد من الصبيان، وذلك من الآيات العظام والخوارق الكبار، فسيّدنا عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام جاء بتكلمه في المهد القرآن الكريم كما تقدم في ترجمته قريباً، وأمّا من ذكر معه هنا فصبي جريج، والصبي الآخر الذي تكلّم مع والدته، وباقي الستة الذين أشرنا إليهم هم شاهد يوسف وابن ماشطة فرعون كما تقدم، والصبي الآتي في قصة الراهب والغلام.

وفي الحديث ذمّ الكبر والإعجاب بالنفس وذم الجبارين والظالمين والتشبّه بهم والتزيّي بزيّهم، وأن الواجب على المؤمن الملتزم أن يبتعد عنهم، وأن لا يعبأ بما هم فيه من تَرَفٍ ورفاهية وسلطة وجاه ورئاسة.

وفيه دليل على أن المظلوم له فضل كبير ومزية عند الله تعالى، ولولا ذلك لما حسن أن يسأل الرضيع أن يكون مثل تلك الجارية المظلومة. والحمد لله على إحسانه وإنعامه وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وأصحابه.

* * *

قصة الساحر والراهب والغلام

{٥٩٢} ـ عن صُهيب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبِرَ قال للملِك: إني كبِرْتُ، فابعث إليَّ غلاماً أُعلِّمه السحر، فبعث**

إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبَه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشِيتَ الساحر فقل: حَبَسَني أهلِي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحرُ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبَستْ الناس، فقال: اليوم أعلم الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضلُ، فأخذَ حجراً فقال: اللّهمّ إن كان أمرُ الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتُل هذه الدابّة حتى يَمْضِيَ الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي: بُنَيَّ أنت اليوم أفضلُ مني قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك سَتُبْتَلى فإن ابْتُلِيت فلا تدلّ عليَّ».

«وكان الغلامُ يُبْرِىءُ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليسٌ للملِك كان قد عَمِي فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هناك أجمعُ إن أنت شفيتَني، فقال: إني لا أشْفِي أحداً إنما يَشْفِي الله، فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له: من ردّ عليك بصرَك؟ قال: ربّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربّي وربُّك الله فأخذه فلم يزل يُعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملِك: أي: بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوُضِع المنشار على مفرِق رأسه فشقّه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذِرْوَتَه فإن رجع عن دينه وإلا فاطْرَحُوه فذهبوا به فصعِدُوا به الجبل فقال: اللّهمّ اكْفِينهمْ بما شِئت، فرجَفَ بهم الجبلُ فسقَطُوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانِيهم الله، فدَفَعَه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحْمِلُوهُ في قُرْقُور، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذِفُوه، فذهبوا به، فقال: اللّهمّ اكفنيهم بما شئتَ،

فانكفأتْ بهم السفينةُ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى، فقال للملك: إنك لستَ بقاتِلي حتى تفعلَ ما آمُرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحد وتُصَلِّبُني على جِذعٍ ثم خذ سهماً من كِنانَتي ثم ضع السهم في كَبِدِ القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام ثم ارْمِني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتَني، فجمع الناس في صعيدٍ واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله ربّ الغلام ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام، آمنا بربّ الغلام، فأُتِي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذَرُ؟ قد والله نزل بك حَذَرُك قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدَّتْ وأُضرِمَ النّيرانُ، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقْحِمُوه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعَسَتْ أن تقَعَ فيه، فقال لها الغلام: يا أُمّهْ اصْبِري فإنكِ على الحق».

رواه أحمد (١٦/٦، ١٨)، ومسلم آخر الصحيح (١٣٠/١٨، ١٣٣). والترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٥١/٦)، زاد الترمذي: فأما الغلام فإنه دفن، قال: فيذكر أنه أخرج في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل.

«ستبتلى» أي: ستمتحن بالعذاب والبلاء، «الأكمه» الذي خلق أعمى، «الأبرص» من فيه داء البرص وهو داء جلدي يسري في بشرة الإنسان وهو من الأدواء المعضلة كسابقه، «الأدواء» جمع داء: الأمراض، «مفرق رأسه» أي: وسطه، «ذروته» ـ بكسر الذال وضمّها ـ أعلاه، «فرجف بهم الجبل» أي: اضطرب وتحرّك حركة شديدة، «قرقور» بضم القافين هو الزورق والسفينة الصغيرة، «الأُخدود» ـ بضم الهمزة ـ شق مستطيل في الأرض، «أضرم النيران» أي: أوقدها، «اقتحم» أي: أدخل، «فتقاعست» أي: تأخرت.

كانت هذه المحنة بعد المسيح عليه السلام بِبِلادِ نَجْرانَ، وكثيراً ما يبتلى المؤمنون إذا تغرب الدين وقلّ أهله وكثر الطغيان وعمّ الظلم والفساد بالمجتمعات، وأصبح أهل الحق مضطهدين، وقد قصّ علينا القرآن من هذا

النوع كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآية، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، وقال جلّ علاه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية. وإلى ما وقع في هذا الحديث أشار القرآن الكريم في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٤ ـ ٩] الآية.

ولا يخفى ما نزل بنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه من البلاء وما قاسوه في مرحلة مكة، كما يأتي ذلك مبسوطاً في السيرة النبويّة إن شاء الله.

وفي هذا الحديث بيان بعض سنن الملوك، وهي اتخاذهم السحرة والكهنة والمنجّمين ليستخدموهم ويستعينوا بهم على ممالكهم، ومن قرأ التاريخ رأى من ذلك العجائب، وحتى عصرنا هذا يوجد فيه عند بعض الدول سحرة وكهنة في المخابرات، ورغم ما يفعلون من الاحتياطات تنزل بهم نكسات ونكبات من غير أن يشعروا، وفيه فضل ذلك الراهب والغلام وأنهما كانا أفضل أهل زمانهما علماً وديناً، وفيه استجابة دعاء المؤمن المخلص الصالح حيث إن الغلام استجاب الله دعواته بتكرار في دعائه على الدابّة فأهلكها الله، ثم في دعائه على رفاقه في الجبل فكفاه الله شرّهم، ثم دعائه على الجماعة الذين صحبوه في الزورق فأغرقهم الله تعالى، وكان يدعو للمرضى وأهل العاهات فيشفون بإذن الله تعالى، وكل ذلك من الكرامات، وفيه فضل تسليم المؤمن نفسه للكافر والعدو ليقتله إذا كان في ذلك مصلحة عامّة للإسلام، فإن الغلام كان بإمكانه الفرار من ذلك الجبار، ولكنه آثر الموت وقدّم روحه ليبقى دين الله ظاهراً، وهذا ما حصل فإنه لما قتل آمن الناس وظهر دين الله تعالى، رغم ما وقع من الفتنة والامتحان، وكان في ذلك خير كبير.

وفي الحديث تكلم ذلك الصبي مع أمّه ولولاه لهلكت مع الهالكين ورجعت عن دينها، لكن الله عزّ وجلّ أيّدها وأراد بها السعادة فثبتها بكلام ولدها، ولله في خلقه شؤون، فنسأله عزّ وجلّ أن يثبّتنا على ديننا القويم ويختم علينا بالسعادة والشهادة، آمين.

❊ ❊ ❊

ابتلاء الأبرص والأقرع والأعمى

{٥٩٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إن ثلاثةً من بني إسرائيل أبرصَ، وأقرعَ، وأعمَى، أراد الله تعالى أن يَبتليَهم، فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حَسَنٌ، وجِلْدٌ حسن، ويَذهب عني الذي قذرني الناس، قال: فمَسحه فذهب عنه قذَره، وأُعطِي لوناً حسناً، وجلداً حسناً، قال: فأيُّ المال أحب إليك؟ قال: الإبلُ، أو قال: البقر، فأُعطِي ناقة عُشَراء، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي: شيء أحبُّ إليك، قال: شعرٌ حسن، ويذهب هذا الذي قد قَذِرَني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه وأُعطي شعراً حسناً، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر، فأُعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأعمى فقال: أي: شيء أحب إليك؟ قال: أن يردَّ الله تعالى إليَّ بصري، فأُبصِر به الناس، قال: فمسحه فرُدَّ إليه بَصرُه قال: فأيّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاةً والداً فأَنْتَج هذان وولّد هذا قال: فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعتْ بي الحبالُ في سفري فلا بَلاغ لي اليوم إلا بالله ثُمَّ بِكَ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله، فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت

كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت».

«قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أُجْهِدُكَ اليومَ شيئاً أخَذْتَه لله تعالى، قال: أمسك عليك مالك، فإنما ابتُلِيتُم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣١٢/٧، ٣١٤)، ومسلم في الزهد آخر الكتاب (٩٧/١٨، ١٠٠).

«قذرني الناس» ـ بكسر الذال ـ أي: كرهوني واشمأزوا من رؤيتي، «ناقة عشراء» ـ بضم العين وفتح الشين المعجمة مع المدّ ـ هي الحامل التي مرّ عليها في حملها عشرة أشهر، وهي من أنفس الأموال. «شاة والداً» أي: ذات ولد، «فأُنْتِجَ» بفتح الهمزة إذا كان للإنسان إبل حوامل تُنْتِجُ، ويصح أن يكون بضم الهمزة وكسر التاء، ومعناه: تولى النتج والإنتاج والمشهور في اللغة نتج بضم النون، «ووُلِّد هذا» بتشديد اللام هو بمعنى الإنتاج، «الحبال» بكسر الحاء المهملة بعدها باء موحدة جمع حبل أي: الأسباب، «أتبلّغ به» أي: أتوصل به إلى مرادي، «لا أُجْهِدُك» بضم الهمزة وكسر الهاء أي: لا أشقّ عليك بردّ شيء تأخذه أو تطلبه من مال، والجهد بضم الجيم وفتحها الوسع والطاقة، والمشقّة، وفي رواية للبخاري: لا أحمدك من الحمد، ومعناه: لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه أو تريده.

هؤلاء النفر الثلاثة ابتلاهم الله عزّ وجلّ أولاً بعاهات مع فقر ثم امتحنهم بنعمة العافية والصحة وكثرة المال ثانياً، فكان منهم كافر النعمة، وهما الأبرص والأقرع، ومنهم الشاكر وهو الأعمى، فكان عاقبة الجاحدين البطرين المستكبرين ردهم إلى ما كانوا فيه من بؤس وفقر ومرض. أما

الشاكر وهو الأعمى، فقد أكرمه الله وأدام عليه نعمته مع ما ادّخر له من أجر ونعيم في الآخرة.

ومن فوائد الحديث وعبره ابتلاء الله عباده في هذه الحياة بالخير والشر ليظهر الشاكر من الكافر، والمطيع من العاصي، وفي القرآن الكريم: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ومنها وجوب شكر النعمة وأن من شكرها أدامها الله عليه وزاده منها، وأن من كفرها فيوشك أن يسلبها ويفقدها سريعاً.

وفيه الحثّ على الرفق بالضعيف والمسكين ومساعدته بما يحتاج إليه من مرافق حياته، وفيه جواز قول الرجل: أنا بالله ثم بك، وما عليّ إلا فضل الله ثم فضلك ونحو ذلك، وأنه ليس من الشرك كما جاء في الحديث الصحيح: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»، رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن حذيفة، ويأتي في الأدب. وقال رجل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندّاً؟ قل: ما شاء الله وحده**»، ويأتي أيضاً، وفي الحديث غير ذلك من الفوائد.

* * *

ذكر أخبار العرب وأعلام بعض أهل الجاهلية: خَبَر سبأ

{٥٩٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن سبَإٍ ما هو أرجُل أم امرأةٌ أم أرضٌ؟ فقال: «**بل هو رجل، ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستةٌ، وبالشام منهم أربعةٌ، فأما اليمانيون فمَذْحِجٌ، وكِندةٌ، والأزدُ، والأشْعَرِيُون، وأنمارٌ، وحِمْيَرٌ، عرباً كلها. وأما الشامية، فلخمٌ، وجُذامٌ، وعاملة، وغسّان**».

رواه أحمد (٢٩٠٠) والحاكم (٤٢٣/٢، ٤٢٤) وصححه ووافقه

الذهبي والحديث حسن لشاهد له عن فروة بن مسيك رواه أبو داود (٣٩٧٨)، والحاكم (٤٢٤/٢).

الحديث يدلّ على أن سبأ رجل كان باليمن، فأنجب عشرة رجال أربعة هاجروا للشام، وستّة مكثوا باليمن، وأن هؤلاء هم أصول القبائل العربية، وكان سبأ ملوكَ اليمن قديماً، وكان تُبَّع وبِلْقِيسُ صاحبةُ سليمان عليه السلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تعالى إليهم الرسل فآمنوا بهم وأطاعوهم ما شاء الله ثم أعرضوا عَمَّا أُمروا به وبَطِرُوا نعمة الله تعالى عليهم فعوقبوا بإرسال السيل فخرّب ديارهم وأهلك أموالهم وتعطّلت زروعهم ويبست أشجارهم، فتفرّقوا في البلاد، وكان منهم الأوس والخزرج الذين نزلوا بيثرب ـ المدينة ـ وخزاعة الذين نزلوا ظاهر مكة المكرمة، ونزل آخرون الشام وغيرها، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

* * *

خَبَرُ تُبَّع

{٥٩٥} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«لا تَسُبُّوا تُبَّعاً، فإنه كان قَدْ أَسْلَمَ»**.

رواه أحمد (٣٤٠/٥) وهو وإن كان فيه ابن لهيعة، فإن له شاهدين **أحدهما**: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً، ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّهُ»، ورواه الحاكم (٤٥٠/٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو وإن كان موقوفاً فإنه مرفوع حكماً.

ثانيهما: عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الناس عن سبّ أسعد وهو تبع، قلنا: يا أبا عبدالله وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. رواه عبدالرزاق بسند لا بأس به إلى وهب، فهو مرسل حسن، وقال السهيلي: وروى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تسُبُّوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة**»... لكنه لم يذكر له مخرجاً ولا عزاه لكتاب.

تبع ـ بضم التاء والباء المفتوحة المشدّدة آخره عين ـ قالوا: اسمه تبان أسعد أبو كَرِب، وكان من سلالة حِمْير بن سبإ القَحْطَاني، وكان من عظام الملوك الصالحين، ويقال: إنه عمر البيت الحرام وأول من كساه وبشّره بعض أحبار اليهود بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال:

شَهِدتُ على أحْمَدَ أنَّهُ ... رَسولٌ مِن اللهِ بارِي النَّسَمْ
فلَوْ مُدَّ عُمْرِي إلى عُمْرِهِ ... لكُنتُ وَزِيراً لهُ وابْنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيْفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمْ

قال السهيلي: وذكر ابن أبي الدنيا في «كتاب القبور» أن قبراً حفر بصنعاء، فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضّة مكتوب بالذهب، وفيه: هذا قبر لَمِيس، وحُبَّى ابنتي تبع ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وكل هذا يدلُّ على أن تبعاً كان مؤمناً صالحاً، قال الزمخشي: هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمّ الله تعالى قومه ولم يذمّه، وهو الذي سار بالجيوش وحَيَّر الحِيرَة وبنى سمرقند، وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعونه.

وتبع وقومه هم المشار إليهم في سورة الدخان، بقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

والآية الكريمة فيها إنذار لكفار قريش وإخبار بأن قوم تبع كانوا مجرمين، فأهلكهم الله تعالى كما أهلك من كان قبلهم من الكفرة... ثم تداول اليمن بعد التبابعة الحبشة والفرس... إلى أن جاء الإسلام.

* * *

خزاعة
عَمْرو بن عامر الخُزَاعي

{٥٩٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رأيت عَمْرو بنَ عامِر الخزاعي يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، كان أولَ من سَيَّبَ السَّوائب**».

رواه البخاري في التفسير (٣٥٣/٩)، ومسلم في الجنّة (١٨٨/١٧، ١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨/٦)، وفي رواية لأحمد ومسلم (١٨٨/١٧) «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة بن خِنْدَف أخا بني كعب هؤلاء يجرّ قصبه في النار».

لُحَي ـ بضم اللام وفتح الحاء ـ قمعة: فيه روايات أكثرها بفتحات، وخندف بكسر الخاء ثم نون ساكنة ودال مفتوحة، وقصبه ـ بضم القاف وسكون الصاد ـ هي الأمعاء، كان بيت الله تعالى ومكة المكرمة يلي أمورهما بنو إسماعيل، فتغلب عليهم جرهم فحكموا مكة وما والاها، ومكثوا على ذلك مدة طويلة ثم بغوا بمكّة وأكثروا فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكروا أن رجلاً منهم يقال له إسَافٌ ابن بغي وامرأة يقال لها نَائِلَةٌ بنت وائل زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما، فلما طال على ذلك المطال عبداً من دون الله في زمن خزاعة، فكانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة.

ولما أكثرت جرهم البغي بالبلد الأمين تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا حول مكّة المكرمة فاقتتلوا، فانتصر خزاعة وانهزم جرهم، فوليت

خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، يقال: إنهم ملكوا البيت خمسمائة سنة، وكانوا على دين إبراهيم عليه السلام في تعظيم البيت والطواف به والحجّ والعمرة والوقوف على عرفات، ولكنهم غيّروا دين الله وعوجوا ملّة إبراهيم فأدخلوا فيها ما ليس منها، وكان أوّل من عبد الأصنام وأمر بعبادتها أبو خزاعة عمرو بن لحي فإنه ذهب في بعض أسفاره إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فطلب منهم أن يعطوه صنماً فأعطوه صنماً يقال له: هُبَلُ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين العرب.

ولذا قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عنه: «**رأيته يَجُرُّ قُصْبَهُ**»، يعني: أمعاءه في النار، لأنه أوّل من سيّب السوائب للطواغيت وأول من عبد الأصنام وأمر بعبادتها.

فكان ملك خزاعة للبلد الأمين مشؤوماً على العرب كلهم، وأصبحت الأصنام والأوثان وعبادتها سائدة وتفنّنوا في اتخاذ الآلهة والشركاء حتى عبدوا الأحجار والتراب والأشجار وبعض الأطعمة، وأباحوا وحرّموا أشياء من عنديتهم حتى جاء دين الإسلام ونورُه، فأبطل كل ذلك وأباده وأشرق نور التوحيد على المعمورة وذهب الشرك والشركاء من بلاد العرب، وقد أخبر الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم عنهم بعدة مخازي وَجهَالاَتٍ وضَلاَلاَتٍ حتى قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إذا سَرَّكَ أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾، ذكره البخاري في التفسير.

* * *

عبدالله بن جُدْعَان

{٥٩٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله ابنُ جُدْعَان كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المَسَاكِين، فهل ذلك

نافعُه؟ قال: «لا يَا عَائِشَةُ إنَّهُ لم يقلْ يوماً رَبِّ اغفر لي خَطِيئَتِي يومَ الدِّين».

رواه أحمد (٩٣/٦)، ومسلم في الإيمان من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٨٦/٣).

ابن جدعان ـ بضم الجيم وإسكان الدال ـ اسمه عبدالله من بني تَيْم من أقرباء الصدّيق، وكان من رؤساء قريش، والكرماء الأجواد في الجاهلية، وكانت له جفنة عظيمة يأكل الناس منها وهم راكبون على جمالهم، وكان في بدء أمره فقيراً مُمْلِقاً شِرّيراً يُكْثِرُ الجناياتِ وسفكَ الدماء حتى أبغضه قومه وقبيلته وعشيرته وأهله حتى أبوه، فخرجَ ذات يوم في شعاب مكة هائماً حائراً، فرأى شقاً في جبل فظنّ أن يكون به ثعبان يلدغه فيموت فيستريح مما هو فيه، فقصده فإذا به يجد ثعباناً يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب، فلما دنا منه إذا هو من ذهب له عينان من اليواقيت، فكسّره وأخذه ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدة ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضّة شيء كثير، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلَّمَ باب الغار، ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم وجعل يطعم الناس وكلّما قلَّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ منه حاجته ثم رجع، لكنه كان مشركاً وثنياً لم يعترف لله عزّ وجلّ بالواحدانية، ولا سأله يوماً ما من حياته أن يغفر خطاياه يوم القيامة، لأنه لم يكن يعتقد ذلك ولا يؤمن به رغم أنه كان يصل الرحم ويطعم الطعام المساكين، وكلا الخصلتين من مكارم الأخلاق العظيمة، فلو كان آمن لكان له شأن عند الله عزّ وجلّ، ولكن الجنّة لا يدخلها إلا المؤمنون الصادقون.

* * *

حاتم الطائي أحد أجواد العرب

{٥٩٨} ـ عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم، ويَقْرِي الضَّيْف، ويفعل كذا، قال:

«إن أباك أراد شيئاً فأدْرَكه»، وفي رواية: «طلب شيئاً فأصابَهُ».

رواه أحمد (٤/٢٥٨) وسنده لا بأس به.

يقري الضيف، القِرى ـ بكسر القاف ـ ما يقدم أولاً للضيف، قوله: أراد شيئاً فأدركه أو أصابه معناه: أنه قصد بذلك الذكر والمدح والشهرة، فأدرك ذلك.

كان حاتم الطائي جواداً ممدوحاً بذلك في الجاهلية، وله في ذلك مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه، وأصبح مضْرِبَ المثل في الجود والكرم.

ومن أخباره العجيبة في ذلك أنه وفد على النعمان بن المنذر أحد الملوك، فأكرمه وأدناه ثم زوَّده عند انصرافه جَمَلَيْن ذهباً وفضّة... فرحل فلمّا أشرف على أهله تلقّته أعاريب طيء، فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك، وأتينا من عند أهالينا بالفقر، فقال لهم حاتم: فخذوا ما على الجملين من ذهب وفضّة ووزّعوه، فأخذوا ذلك واقتسموه فيما بينهم.

لكن كل ذلك لا ينفعه ولا يغني عنه شيئاً لأنه لم يرد بذلك وجه الله تعالى، ولم يكن يؤمن بالبعث كعامة العرب، وكان قصده بالإطعام الذكر الجميل والمفاخرة والرئاسة... توفي والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طفولته، ووفد ولده عدي على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحدّث عنه، وهو مشهور بالكرم أيضاً كوالده ويأتي خبره في السيرة.

* * *

زيد بن عَمرو بن نُفَيل وتَحنُّثُهُ في الجاهليّة

{٥٩٩} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لَقِي زيدَ بن عمرو بن نُفَيْل بأسْفَلِ بَلْدَحَ قبل أن ينزل

على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الوحيُ، فقُدِّمَتْ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُفْرَةٌ فأبَى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله تعالى عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاةُ خلقَها الله تعالى وأنْزَل لها من السَّمَاءِ الماءَ وأنْبَت لها من الأرض، ثم تدعونها تذبحونها على غير اسم الله تعالى، إنكاراً لذلك، وإعظاماً له.

قال موسى - يعني ابن عقبة -: حدّثني سالم بن عبدالله ولا أعلمه إلا تُحدِّثُ به عن ابن عمران زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعُه، فلقي عالماً من اليهود فسألهم عن دينهم، فقال: إني لعلّي أن أدِين دِينَكُم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفِرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله تعالى شيئاً أبداً وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانيّاً ولا يعبد إلاّ الله، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بِنَصِيبك من لعنة الله، قال: ما أفِرُّ إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنّى أستطيع، فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديّاً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللّهمّ إني أشهد أني على دين إبراهيم عليه السلام.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٤٢، ١٤٥).

{٦٠٠} - وعن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: رأيت زيدَ بن عَمْرو بن نُفَيْل قائماً مُسْنِداً ظَهْره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يُحْيِي المَوْءُودة يقول للرجل: إذا أراد أن يقتل ابنتَه لا تَقْتُلْها أنا أكْفِيكَ مَؤُونَتَها فيأخذُها فإذا تَرَعْرَعَتْ قال لأبيها: إن شِئْتَ دَفَعْتُها إليك، وإن شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَؤُونَتَها.

رواه البخاري في المناقب أيضاً (١٤٥/٨) معلقاً عن الليث مجزوماً به، وذكر الحافظ من وصله في الفتح، فانظر ذلك إن شئت آخر المناقب.

زيد بن عمرو هذا هو والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وكان زيد ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وكان ممن اعتزل المجتمع الجاهلي في عباداته وعوائده وطلب التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك، وكان يقول: إني خالفت قومي واتّبعت ملّة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصلّيان إلى هذه القبلة وأنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل يُبْعَثُ ولا أُراني أُدرِكُه، وأنا أُومِن به وأُصَدِّقُه، وأشهد أنه نَبِيٌّ، قال عامر بن ربيعة: قال لي زيد بن عمرو: وإن طالت بك حياة فأقرأه مني السلام، قال عامر: فلما أسلمتُ أعلمتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بخبره، قال: فردّ عليه السلام وترحم عليه قال: ولقد رأيته في الجنّة يَسْحَبُ ذيولاً، رواه ابن سعد في طبقاته.

وروى البزار والطبراني من حديث سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهما، قال: خرج زيد بن عمرو وورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى أتيا الشام، فتنصّر ورقة وامتنع زيد فأتى الموصل، فلقي راهباً فعرض عليه النصرانية فامتنع، وذكر الحديث نحو الحديث المذكور لابن عمر، وفيه: قال سعيد بن زيد: فسألت أنا وعمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن زيد فقال: **«غفر الله تعالى له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم عليه السلام»**.

وذكر ابن إسحٰق أن نفراً من قريش زيد بن عمرو، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وعبدالله بن جحش، حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: تصادقوا ولْيَكْتُمْ بعضكم على بعض، فقال أحدهم: تعلَمُنَّ والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ما وَثَنٌ يُعْبَدُ؟ لا يضرّ ولا ينفع؟! فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها الحنيفية دين

إبراهيم. فأمّا ورقة بن نوفل فتنصّر واستحكم في النصرانية وابتغى الكتب من أهلها، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلّها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه، فأذاهم بالفراق لما هم عليه، قال: وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء منهم، فقال: لا تتركوه يدخل فكان لا يدخل مكة إلا سراً وأخرجوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه. وقوله في حديث ابن عمر: فقُدّمت إلى النَّبيّ سفرةٌ؛ هذه رواية الأكثر. وفي رواية: فقدم إليه النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُفرةً، فعلى الرواية الأُولى لا إشكال في الحديث، وعلى الثانية يأتي إشكال عظيم وهو كيف يقدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سفرة لحم لزيد بن عمرو فيجيبه بأني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، فإن ذلك يقتضي أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يأكل مما يذبح على الأنصاب، ويأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وقد أجاب عن هذا الإشكال القاضي عياض وابن بطال والخطابي رحمهم الله تعالى وأثابهم فرجح القاضي عياض رواية الأكثر لأنها خالية من الإشكال، وجمع ابن بطال بين الروايتين فقال: كانت السفرة لقريش قدّموها للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأبى أن يأكل منها فقدمها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها، وقال مخاطباً لقريش أصحاب السفرة: إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم. أما الخطابي ففصّل، فقال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه لأن الشرع لم يكن نزل بعدُ، بل لم ينزل الشرع بمنع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلا بعد المبعث بمدة طويلة.

وفي الحديث أيضاً بيان أن من تنصّر أو تهوّد لا بدّ وأن يأخذ نصيباً من لعنة الله تعالى وغضبه لما وقع فيهما من التحريف والتزوير...

وفيه لطف كبير بزيد هذا حيث وفّقه الله تعالى في أيام الجاهلية الجهلاء لترك الأوثان والشركيات، وهداه تعالى لطلب الدين الحق حتى وُفِّقَ لاعتناق مِلّة أبينا إبراهيم، وهو الدين الحنيفي المائل عن جميع الأديان الباطلة، فلا هو يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا وثنيّة، بل هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لخليله إبراهيم وسار عليه جميع أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبذلك يعرف فضل الله العظيم ومنّته على زيد بن عمرو، وبالتالي منّته وفضله علينا معشر المسلمين من أمّة خير العباد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحبّ ويرضى.

وفيه ما كان عليه زيد من إنقاذ البنات من الوأد الذي كان سائداً في الجاهلية، وَوَأْدُ البنات مشهور معروف، ويأتي الكلام عليه في موضع خاص إن شاء الله تعالى.

والحديث يدلّ على أن زيداً أدرك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولقيه، لكن ذلك قبل مبعثه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه توفّي وللنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خمس وثلاثون سنة، وجاء أنه يبعث أمة وحده، انظر مجمع الزوائد (٤١٦/٩)، فإن فيه حديثاً بذلك عن جابر سنده حسن.

* * *

ورقة بن نوفل

{٦٠١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن خديجة سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ورقةَ بن نوفل، فقال: «**قد رأيتُه في المَنَامِ فرأيتُ عليه ثيابَ بيَاضٍ، فأحسِبُه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثيابُ بياضٍ**».

رواه أحمد (٦٥/٦) بسند حسن صحيح.

{٦٠٢} ـ وعن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن ورقة بن نوفل، فقال: «**يبعث يوم القيامة أمّة واحدَه**».

أورده الهيثمي في المجمع (٤١٦/٩)، وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

ورقة هذا هو ابن نوفل بن أسد القرشي ابن عمّ خديجة وهو الذي تنصّر في الجاهلية، وقرأ كتبهم وتعبّد لله على دين عيسى عليه السلام، وترك عبادة الأوثان، وهاجر الشركيات، وهو الذي جاء ذكره في حديث بدء الوحي الذي قال لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد ما حدّثه بما حصل له ورأى بغار حراء: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك... الحديث تقدم في التفسير ويأتي في السيرة. وهذا يدلّ على أنه آمن به وصدّقه لأنه عرف أنه نبيّ هذه الأُمّة بما كان عنده من البشارة الموجودة في الإنجيل، ولذلك أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنه من أهل الجنّة، واستدلّ بذلك على رؤيته إياه في المنام بلباس بياض، وهذا اللباس لا يكون لغير أهل الجنّة.

وقوله في حديث أسماء إنه يبعث أمّة وحده لأنه لم يكن أحد في الجاهلية عالماً بدين النصرانية متمسّكاً بها على الحقيقة سواه، توفي بعد البعثة بقليل؛ لما جاء في حديث بدء الوحي: فلم يلبث أن توفي.

* * *

نادرة غريبة فيها عبرة

نختم هذه الأخبار بنادرة عجيبة وقعت أيام الجاهلية:

{٦٠٣} ـ أخرج البخاري في أيام الجاهلية من صحيحه (١٦٠/٨) عن عَمْرو بن ميمون رحمه الله تعالى قال: رأيت في الجاهلية قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَةٌ قد زَنَتْ فرجمُوها فرجمْتُها معهم، وذكر الحافظ في الفتح أن

الإسماعيلي أخرجه في مستخرجه على صحيح البخاري عنه قال: كنت في اليمن في غنم لأهلي وأنا على شَرَف، فجاء قِرْدٌ مع قِرْدَةٍ فتوسَّد يدها فجاء قِردٌ أصغرُ منه فغمَزَها فسلَّت يدَها من تحتِ رأس القرد الأول سلاًّ رفيقاً وتبعتْه فوقع عليها وأنا أنظر، ثم رجعتْ فجعلت تُدْخِل يدَها تحتَ خدِّ الأول برفْقٍ فاستيقظ فزِعاً فشمَّها فصاح، فاجتمعت القرود فجعل يصيحُ ويُومِىءُ إليها بيده، فذهب القرود يُمْنَةً ويُسْرَةً، فجاءوا بذلك القرد أعْرِفُه فحَفَروا لهما حُفرة فرجموهما، فلقد رأيت الرجم في غير بني آدم. هذه أُعجوبة يجب أن يعتبر بها حكام المسلمين الذين رفضوا تنفيذ أحكام الله عزّ وجلّ وعطّلوها بين عباده وأصبحوا أخسّ وأسقط من القرود، فالقرود يرجمون الزناة والزواني ويغارون على إناثهم، وهم حيوان ليس عليهم تكليف، ونحن معشر بني آدم وخاصة الأُمّة المحمدية أصبحت القردة أحسن حالاً منّا وأغير على إناثها وأحفظ لكرامتها وأصلح لمجتمعها، ممن كرَّمهم الله تعالى بالعقل والإدراك والبيان، وجعلهم في أحسن تقويم وأجمل صور.

فهذا من عجائب النوادر التي يجب أن نعتبر بها، لكن لا حياة لمن تنادي، فالقوم صمٌّ بكمٌ عمي، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وزوجه وصحبه وحزبه.

* * *

في هذه الكتب: الإمارة والخلافة والقضاء والدماء والجنايات والحدود والديات والمحاربون والجهاد والتاريخ والأنبياء من الأحاديث الزائدة على الصحيحين ٢٤٥ حديثاً والباقي في الصحيحين أو في أحدهما.

ويليه السيرة النبوية العطرة.

انتهى والحمد لله

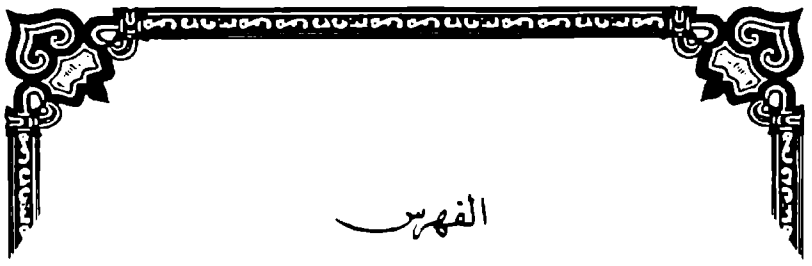

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كتاب التاريخ ويشمل بَدْءَ الخلقِ والأنبياء والسِّيرة النبوية والمَناقب والفضائل	٣٠٥
الله خالق كل شيء خلق الماء والعرش والقلم والسماء والأرض...	٣٠٥
خلق الزمان والسنين والأشْهُر والليل والنهار	٣٠٨
خلق الجبال والحديد والنار والماء والريح	٣٠٩
خلق الجنّة والنار	٣٠٩
خلق الملائكة والجان وآدم	٣١٢
ذكرُ الجنّ وإبليس	٣١٥
خلق آدم عليه السلام	٣١٨
الخلق العام للمخلوقات الحية وغيرها	٣١٩
الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ	٣٢١
كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٣٢٣
عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام	٣٢٤
دين الأنبياء واحد	٣٢٥
كان الأنبياء يبعثون بلغات أممهم	٣٢٥
خَلْقُ آدم عليه السلام وما يَتَعَلَّقُ به	٣٢٦
فوائد تتعلق بسيدنا آدم عليه السلام	٣٣٧
قصة هابيل وقابيل ابني آدم	٣٣٩
إدريس عليه السلام	٣٤١

الموضوع	الصفحة
نوح عليه السلام	٣٤٢
السور التي ذكرت قصة سيدنا نوح عليه السلام	٣٤٥
بعض ما يؤخذ من القصة من الفوائد	٣٤٩
أولادنا سيدنا نوح ووصيته لولده	٣٥٠
هود عليه السلام	٣٥٢
من فوائد قصة هود مع قومه	٣٥٨
خاتمة هامة	٣٥٩
سيدنا صالح عليه السلام	٣٦٠
من فوائد قصة صالح عليه السلام	٣٦٥
سيدنا إبراهيم خليل الرحمٰن صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء	٣٦٦
إبراهيم أكرم الناس وأنه خليل الله	٣٦٧
من صفاته وأنه أول من اختتن	٣٦٨
إبراهيم ووالده يوم القيامة	٣٦٩
إبراهيم وصورته داخل الكعبة يستقسم	٣٦٩
قصته مع الطاغية وشأن سارة وهاجر	٣٧٠
قصة إحياء الطيور طمأنة لقلبه	٣٧١
كل الحيوانات كن في صف إبراهيم إلا الوزغ	٣٧٢
هجرته إلى مكة بهاجر وابنها إسماعيل عليهم الصلاة والسلام	٣٧٣
الكعبة أول مسجد وضع في الأرض	٣٧٧
إبراهيم عليه السلام خير البرية	٣٧٧
بسط قصة الخليل عليه السلام	٣٧٧
مناظرة الخليل مع الطاغية النمروذ	٣٨٢
تحطيم الخليل للأصنام وإلقاؤه في النار	٣٨٢
هجرة الخليل من العراق إلى فلسطين	٣٨٥
ولادة إسماعيل من هاجر عليهما السلام	٣٨٦
مهاجرة إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة	٣٨٧

الموضوع	الصفحة
رؤيا إبراهيم ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام	٣٨٨
بناء بيت الله الحرام	٣٨٨
وفاة الخليل وقبره عليه السلام	٣٩٠
ثناء الله على الخليل والإشادة به	٣٩١
إسماعيل عليه الصلاة والسلام	٣٩٣
من فوائد قصة إبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام ..	٣٩٥
سيدنا لوط عليه السلام	٣٩٨
من فوائد قصة لوط عليه السلام	٤٠٤
إسحٰق يعقوب يوسف عليهم الصلاة والسلام	٤٠٥
من فوائد وعبر قصتي إسحاق ويعقوب عليهما السلام	٤٠٨
يوسف عليه السلام	٤٠٩
بداية قصة يوسف عليه السلام	٤١٠
نهاية القصة	٤١٦
فوائد وعبر من قصة يوسف عليه السلام	٤١٧
خاتمة	٤٢٠
سيدنا شعيب عليه السلام	٤٢٠
من فوائدها	٤٢٢
نبي الله أيوب عليه السلام	٤٢٣
من فوائد قصة أيوب عليه السلام	٤٢٦
يونس عليه السلام	٤٢٨
من فوائد هذه القصة	٤٣١
موسى وهٰرون عليهما السلام	٤٣٤
ابتلاء بني إسرائيل بذبح غلمانهم وإبقاء إناثهم	٤٣٨
موسى في رضاعه وإيوائه إلى قصر فرعون	٤٣٨
تربية موسى وبلوغه أشدّه وإيتاؤه الحكم والعلم وقصته مع الإسرائيلي والقبطي	٤٤٠
افتضاح أمر موسى والتآمر عليه وخروجه من المدينة خائفاً داعياً ربه ...	٤٤٠
هجرة موسى إلى أرض مدين وإقامته عند الشيخ يرعى له غنمه ليزوجه ابنته	٤٤١

الموضوع	الصفحة
رجوع موسى من مدين وتَكَلُّم الله معه بجانب الطور الأيمن	٤٤٣
رسالة موسى وهٰرون عليهما السلام	٤٤٥
المحاورة التي دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الربوبية ورسالة موسى عليه السلام	٤٤٧
ظهور معجزات موسى عليه السلام وإيمان السَّحرة	٤٥٠
إصرار فرعون وقومه على طغيانهم وإرسال أنواع من العذاب عليهم والانتقام منهم لعلهم يرجعون	٤٥٣
خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه بالغرق في البحر	٤٥٤
توجه موسى ببني إسرائيل إلى فلسطين وتمرّدهم عليه وما وقع له ولهم من عجائب في التيه «بنو إسرائيل يسألون ربهم أن يجعل لهم صنماً»	٤٥٧
تيهان بني إسرائيل في الصحراء عقاباً لهم لعصيانهم نبيّهم	٤٥٨
تفجير العيون لبني إسرائيل باستسقاء موسى	٤٦٠
تظليلهم بالغمام والإنعام عليهم بالمنّ والسلوى	٤٦١
مَلَلُ بني إسرائيل من أكل اللحم والعسل وطلبهم البقولات ونحوها	٤٦٢
موعد لموسى مع ربّه ليعطيه التوراة وما صدر من بني إسرائيل من فتنتهم بعبادة العجل في غيبته	٤٦٢
بنو إسرائيل يعبدون العجل	٤٦٣
اختيار موسى من قومه سبعين رجلاً ليذهب بهم لجبل الطور ليقدموا طاعة الله والتوبة مما فعلوا ثم سؤالهم رؤية الله تعالى وصعقهم وإحياؤهم	٤٦٥
رفع جبل الطور فوقهم لامتناعهم من أخذ التوراة	٤٦٦
إذاية بني إسرائيل موسى ورميهم إياه بالأدرة	٤٦٦
قصة بني إسرائيل في البقرة	٤٦٧
قصة موسى مع الخضر عليهما السلام	٤٦٨
من فوائد قصة موسى وهارون وعِبَرها	٤٦٩

الموضوع	الصفحة
يوشع بن نون عليه السلام	٤٨٠
قصة داود عليه السلام	٤٨٥
تفصيل أخبار داود عليه السلام	٤٨٨
فتنة داود عليه السلام	٤٩٢
من عبر هذه القصة وفوائدها	٤٩٤
موت داود عليه السلام	٤٩٥
قصة سليمان بن داود عليهما السلام	٤٩٦
تسخير الريح والشياطين لنبيّ الله سليمان عليه السلام	٤٩٨
سليمان عليه السلام والخيل الجياد	٥٠١
سليمان وداود يحكمان	٥٠٢
فتنة سليمان عليه السلام	٥٠٣
سليمان عليه السلام والهدهد وملكة سبأ	٥٠٤
رسالة من سليمان إلى بلقيس	٥٠٥
عرش بلقيس يُؤتَى به من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين	٥٠٧
بلقيس حاضرة عند سليمان مسلمة تشاهد آيات الله وعظيم قدرته	٥٠٨
وفاة سليمان عليه السلام	٥٠٩
من فوائد قصة سليمان عليه السلام	٥١٠
قصة زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام	٥١٦
بسط القصة	٥١٨
موت زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام	٥٢٠
من فوائد هذه القصة وعبرها	٥٢١
قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام	٥٢٤
الملائكة تبشّر مريم بالاصطفاء	٥٢٥
بشارة مريم بعيسى الوجيه المقرب الصالح المتكلم في المهد	٥٢٧
جبريل يأتي مريم في خلوتها ويبشرها بالغلام الزكي وينفخ في جيب درعها	٥٢٨
حمل مريم بعيسى وولادته	٥٣٠

الموضوع	الصفحة
اليهود يرمون مريم بالزنا وعيسى يتكلم في المهد صبياً بلسان فصيح ...	٥٣١
قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام	٥٣٣
رسالة عيسى وإيتاؤه الإنجيل	٥٣٤
عيسى من أولي العزم ومن جملة الأنبياء الذين أوحى إليهم	٥٣٥
عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل بأنه رسول الله إليهم ويبشر برسولنا أحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	٥٣٧
الحواريون أنصار عيسى عليه السلام	٥٣٨
تذكير الله تعالى عيسى بنعم الله وبيان معجزاته	٥٣٩
معجزة نزول المائدة من السماء	٥٤٠
التنديد بالنصارى في ادعائهم ألوهية عيسى والتثليث وبيان أن الله تعالى واحد وأن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته	٥٤٢
نهاية أمر عيسى ورفعه والرد على اليهود والنصارى في قتله وصلبه	٥٤٤
من فوائد قصة مريم وعيسى وعبرها	٥٤٦
ذكر بعض أخبار بني إسرائيل وغيرهم ممن جاءوا بعد المسيح عليه السلام	٥٥١
رجل يغفر الله تعالى له لخوفه عند موته	٥٥٢
الكفل المذنب والمرأة المضطرة	٥٥٤
رجل يغفر الله له ويسامحه لإنظاره المُوسِر وتجاوزه عن المعسر	٥٥٥
زانية يغفر الله لها لإحسانها إلى كلب	٥٥٦
رجل قتل نفسه فحرم الله عليه الجنة	٥٥٧
رجل يسامحه الله وقد قتل مائة نفس	٥٥٨
العابد والعاصي المتآخيان	٥٦٠
الأمانة وحسن المعاملة والتخلق بالورع	٥٦١
دخلت امرأة النار في هرة	٥٦٢
الملهمون والمحدَّثون	٥٦٣
أصحاب الغار الذين انطبق عليهم بصخرة	٥٦٥
جريج الراهب وقصته مع المومسة والمتكلمون في المهد	٥٦٧
قصة الساحر والراهب والغلام	٥٧٠

الموضوع	الصفحة
ابتلاء الأبرص والأقرع والأعمى	٥٧٤
ذكر أخبار العرب وأعلام بعض أهل الجاهلية خبر سبإ	٥٧٦
خَبَرُ تُبَّع	٥٧٧
خزاعة عَمْرو بن عامر الخُزَاعي	٥٧٩
عبدالله بن جُدْعَان	٥٨٠
حاتم الطائي أحد أجواد العرب	٥٨١
زيد بن عَمْرو بن نُفَيْل وتَحنُّثُهُ في الجاهليّة	٥٨٢
ورقة بن نوفل	٥٨٦
نادرة غريبة فيها عبرة	٥٨٨
الفهرس	٥٩٩

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾.

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»، حديث نبوي صحيح.

المجلد التاسع

قسم السيرة النبوية العطرة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

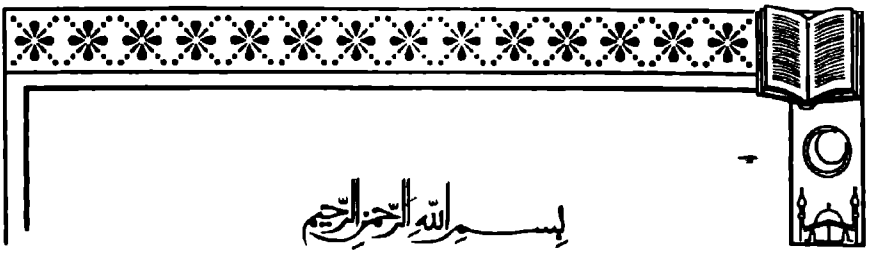

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

وبعد؛ فهذا هو قسم السيرة النبويّة من بداية الوصول نقدّمه لقرائنا الميامن على شرطنا المتقدم، وهو أن لا نورد فيه إلاَّ ما صح أو حسن من الحديث... وهذا عزيز جداً في كتب السيرة النبوية على الرغم مما كتب فيها من المجلّدات والأسفار في كل العصور، فإن الأحداث النبويّة والمغازي التي ذكرها علماء السيرة من حياة النبيّ ﷺ؛ لا تعدو ما ذكره ابن إسحاق أو موسى بن عقبة أو ابن سعد أو غيرهم من السلف الذين اعتنوا بذلك، وهم في الأكثر يذكرونها بلاغات ومعضلات ومراسيل، وكثير منها لا سند له أصلاً ويقرؤها الناس ويتلقّونها من المسلّمات.

ولذلك، فإني بإذن الله تعالى وإرادته وتوفيقه تتبّعت حياة النبيّ ﷺ وغزواته والأحداث التي حصلت له من كتب السنّة المشرفة على اختلافها، مع رجوعي إلى ما ذكره ابن إسحاق الذي كان إماماً في هذا الشأن، فإن كل من جاء بعده أو كان قبله عيال عليه في ذلك.

ولذلك، فقد جاءت بحمد الله وتوفيقه سيرة نقيّة معزوّة للأُمّهات والأُصول الحديثية، مبيّنة مراتبها، مع شرح ملائم وذكر فوائد الأحداث على عادتنا في الكتاب، وهذا العمل على هذه الطريقة في السيرة النبويّة لا نعلم أحداً سلكه، نعم كان لابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ الفضل الأول في عزو

أحداث السيرة إلى كتب السنة وأصولها في تاريخه «البداية والنهاية»، لكنه لم يتحرّ الصحة والحسن بل ذكر ما هبّ ودبّ، ثم وجدنا العلاّمة الأستاذ إبراهيم العلي سلك هذا المسلك، وله الفضل الكبير أيضاً في عزو السيرة للأمهات في كتابه القيم: «صحيح السيرة النبوية» فقد استفدنا منه كثيراً كسابقه جزاهما الله خيراً وأثابهما على علمهما، ونسأل الله عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل ما كتبناه ونكتبه خالصاً لوجهه الكريم عارياً عن كل شائبة من رياء أو سمعة أو اعجاب أو افتخار، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على أشرف خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.

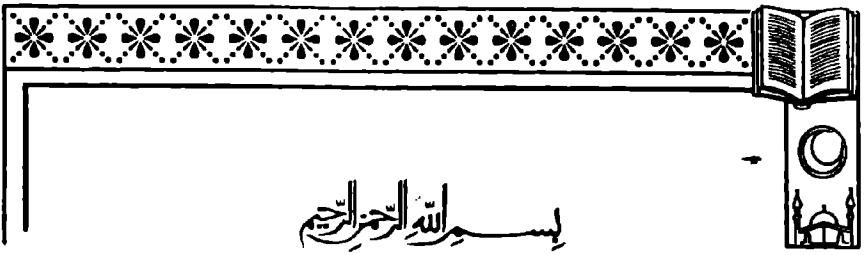

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب السيرة النبويّة

السيرة هي الطريقة والحالة التي يكون عليها الإنسان في حياته، والسيرة النبوية العطرة هي عبارة عن حياة النبيّ ﷺ وظروفه التي عاشها بداية من نسبه، فمولده، فمراحل حياته من الطفولة فالصبوة فالشباب، إلى بعثته وظاهرة الوحي، فدعوته، وما لاقى بمكّة المكرّمة في مرحلته الأُولى من أنواع الإذايات من طرف قومه، ثم هجرته، ومرحلته الثانية فغزواته وجهاده... وتعامله مع أصحابه وحسن عشرته مع زوجاته وبرّه بأهله... وشمائله وأخلاقه وفضائله ومعجزاته... إلى التحاقه بالرفيق الأعلى وجوار ربّه؛ هذه مضامن السيرة النبويّة الخالدة.

ثم إن قراءة السيرة النبوية ليس الغرض منها مجرد الاطّلاع على حياته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم، والتعرّف على الأحداث التي مرّت به كتاريخ مثلاً، بل أهدافها أبعد من ذلك؛ فالسيرة في الحقيقة بيان لأحكام الإسلام وأخلاقه... التي ظهرت متمثّلة في شخصية هذا الرسول العظيم ﷺ؛ فحياته ﷺ نسخة عملية من القرآن الكريم، إذ هو كان أخلاقه كما قالت حبيبته عائشة رضي الله تعالى عنها حينما سألها سعد بن هشام: «كيف كان خُلُق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خُلُقُه القرآن»، رواه

مسلم ويأتي، ولذلك كانت دراسة السيرة النبويّة والتعمّق فيها أكبر مُعين على فهم القرآن الكريم؛ إذ أن كثيراً من الأحداث التي مرّت بالنبيّ ﷺ مع قومه كفار قريش بمكّة، ومع اليهود والمنافقين بالمدينة، أضِفْ إلى ذلك غزواته وحروبه، كل ذلك جاء مفصّلاً في القرآن الكريم في غير ما سورة المكيّ منها والمدني.

وأكبر غزواته: بدر، وأُحد، والخندق، وقريظة، والحديبية، والنضير، والفتح الأكبر، وحنين، وتبوك، وكلّها مستوفاة مفرّقة في سور من القرآن الكريم.

إذن، فالسيرة النبوية هي مزيج من القرآن الكريم، والسنّة النبوية القولية والعملية والتقريرية وذلكم هو الوحي الإلٰهي؛ ولذا كان قارىء السيرة المتعمّق فيها المتدبّر لها يخرج بإذن الله تعالى من قراءتها بعلوم غزيرة، يأخذها مباشرة من معدنها الأصيل الصافي. هذا وقد تناولت هذه السيرة الفذّة أقلام العلماء عبر العصور والأجيال، فكتبوا فيها المجلّدات والأسفار، وجمعوا كل ما طاب لهم أن يجمعوه في هذا الشأن، فلهذه الأقلام فضل على اللاحقين فجزى الله أصحابها خير الجزاء وأوْفاه.

وقد ذكرت جملة وافرة ممن كتبوا في هذا الجانب الطاهر في مقدمتي كتابي «تهذيب الخصائص»، و«تهذيب الشفا» فليرجع إليهما، والله المستعان وعليه التّكلان وهو حسبي ونِعْم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وحزبه عدد خلقه ورضاء نفسه وزِنَة عرشه ومِداد كلماته.

* * *

❁ نسبه الشريف وطهارة أصله ﷺ

[٩] عن الأَشْعَثِ بن قَيْس رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ في وَفْدٍ لا يَرَوْن أني أفضلُهم، فقلت: يا رسول الله إنا

نزعم أنكم منّا؟ قال: «**نحن بنُو النَّضر بن كِنانة، لا نَقْفُو أُمّنا ولا ننتفِي مِنْ أَبينا**»، قال: فكان الأشعث يقول: لا أُوتَى برجل نفَى قُريشاً من النَّضر بن كِنانة إلاّ جَلَدتُه الحدَّ. (١)

رواه أحمد (٥/٢١١، ٢١٢٠)، وابن ماجه في الحدود (٢٦١٢). قال البوصيري: هذا الإسناد صحيح رجاله ثقات. أمّا ابن كثير فقال: وهذا إسناد جيّد قوي... لا نقفو أُمّنا أي لا نقذفها ونتّهمها.

[٢] وعن كُلَيْب بن وائِل ـ رحمه الله تعالى ـ قال: حدَّثَتْني ربيبة النبيّ ﷺ زَيْنبُ ابنةُ أبي سَلَمة رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لها: أرأيتِ النبيّ ﷺ، أكانَ مِن مُضَرَ؟ قالت: مِمَّن كانَ إلاّ مِنْ مُضَرَ؛ وفي رواية: أَخْبِريني النبيّ ﷺ مِمَّن كانَ؟ مِنْ مُضَرَ كانَ؟ قالت: فَمِمَّنْ كانَ إلاّ مِنْ مُضَر، كان من ولد النَّضر بْنِ كِنانة...

رواه البخاري في مناقب قريش (٧/٣٣٨، ٣٣٩).

مُضَر ـ بضم الميم وفتح الضاد ـ أحد أجداد رسول الله ﷺ كما يأتي.

[٣] وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله اصْطَفَى كِنانة مِن وَلدِ إسماعيل، واصْطَفى قُرَيشاً مِن كِنانة، واصْطَفى هاشِماً من قُرَيش، واصْطفاني مِن بَني هاشم**».

رواه أحمد (٤/١٠٧)، ومسلم في الفضائل (١٥/٣٦)، والترمذي في المناقب (٣٣٧٤، ٣٣٧٦) بتهذيبي، والبخاري في التاريخ الكبير (١/٤)، والخطيب في التاريخ (١٣/٦٤) وحسّنه الترمذي وصححه.

[٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرونِ بَنِي آدمَ قَرْناً فَقَرْناً، حتّى كنتُ مِن القرنِ الذي كُنْتُ مِنْهُ**».

رواه أحمد (٢/٣٧٣، ٤١٧)، والبخاري في صفة النبيّ ﷺ (٧/٣٨٤).

[٥] وعن المُطَّلِبِ بن أبي وَدَاعَةَ رضي الله تعالى عنه قال: جاء العباس رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله ﷺ وكأنه سَمِعَ شيئاً، فقام النبيّ ﷺ على المنبر فقال: «مَنْ أنا؟» قالوا: أنت رسولُ الله عليك السلام، قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبدِ المطّلب، إنَّ الله خلقَ الخلقَ فجعَلَني في خَيرِهم، ثم جعلهم فِرْقَتين فجعلني في خَيرِهم، ثم جعلهُم قبائِلَ، فجعلني في خَيرِهم قبيلةً، ثم جعلهم بُيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نَفْساً**».

رواه أحمد (٢١٠/١)، والطيالسي (٢٤٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٣٧٥) وحسّنه وصححه، وعن العباس نحوه، رواه أحمد (١٦٥/٤، ١٦٦)، والترمذي قال الهيثمي (٢١٥/٨) رجاله رجال الصحيح.

[٦] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**خرجتُ مِن نِكاحٍ ولَمْ أَخرُج من سِفاحٍ، مِن لَدُن آدم إلى أن ولدَنِي أبِي وأُمي، لم يُصِبْنِي مِن سِفاحِ الجاهليَّة شيءٌ**».

رواه العدَني في مسنده مُسَلْسلاً بآل البيت، وفيه إرسالٌ.

ورواه عبدالرزّاق عن محمد الباقر رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، قال: لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ: «**إني خرجت من نكاح ولم أخرُج مِن سِفاح**».

ورواه أيضاً البيهقي في السنن (١٩٠/٧) وله شواهد عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة، وقال فيه ابن كثير في البداية: وهذا مرسل جيّد وأورده النور في المجمع (٢١٤/٨) برواية أوسط الطبراني (٣٦٦/٥) قال: وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صحّح له الحاكم، وقد تكلّم فيه وبقية رجاله ثقات؛ فالحديث على كل حال ثابت سنداً ومعنىً، وقد استوعب الكلام عليه الشيخ ناصر الألباني رحمه الله تعالى في الإرواء، فأجاد وأفاد وجعله من قسم الحسن لغيره، وهو كما قال.

«اصطفى» بمعنى اختار، وقوله: «بعثت» إلخ... يريد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم أنه كان يَتَقَلَّبُ في أصلاب آبائه وأرحام أُمّهاته الذين كانوا

يعيشون في خَيْرِ طبَقاتِ أجيالِهم طبقةً طبقةً وجيلاً جيلاً إلى أن وُجِد عليه السلام في عصره الذي كان بيتُه أشرفَ البيوت وأطْهَرَها. . . والقَرْنُ: الجيل من الناس إذا انقرضوا.

وقولُه: «سفاح» هو الزنا والنكاحِ اللاشرعي.

في هذه الأحاديث فوائد وأُمور:

أولاً: ثبوت انتساب النبيّ ﷺ إلى عدنان، فهو هاشمي قرشي كناني مُضَري عَدْنانيّ مختارٌ من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهذا نسبه وأسماء أجداده إلى عدنان:

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في باب مبعث النبيّ ﷺ (١٦٢/٨، ١٦٣، ١٦٤): محمدُ بن عبدالله بن عبد المُطّلب، بن هاشم، بن عَبْدِ مَنافٍ، بن قُصَيٍّ، بن كِلاب، بن مُرَّةَ، بن كَعْب، بن لُؤَيّ، بن غالِب، بن فِهْر، بن مالِك، بن النَّضْر، بن كِنانة، بن خُزَيْمَة، بن مُدْرِكَة، بن إلياس، بن مُضَرَ، بن نِزَار، بن مَعَدٍّ، بن عَدْنان. . .

فهذا النَّسب الشريف هو المتّفق عليه بين المحدثين وعلماء السيرة وغيرهم، ولا يصح بعد عدنان شيءٌ، مع اتّفاق العلماء على أن عدنان من بني إسماعيل عليه السلام، قال ابن عبدالبرّ رحمه الله تعالى في «الاستيعاب»: هذا ما لم يختلِفْ فيه أحدٌ من الناس، ثم صرّح بأن رفعه إلى عدنان إجماعُ أهل السِّيَر والعلم بالأثر. ونقل النووي رحمه الله تعالى في أوائل تهذيب الأسماء إجماعَ الأُمّة عليه. وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى في الهدي النبويّ: إلى هنا ـ يعني عدنان ـ معلوم الصحة متفقٌ عليه بين النسّابين ولا خلاف ألبتّة، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، قال: ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وقال الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه السيرة النبويّة: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء، وانظر: شرح السنة للبغوي (١٩٣/١٣)، والفتح (٣٣٨/٦)، والطبقات لابن سعد (١٥٨/١) وغيرها.

ثانياً: في هذه الأحاديث أن آباء النبيّ ﷺ وأجداده كانوا أشرفَ أهل زمانهم وساداتهم وخيارهم، وأن الله عزّ وجلّ اختارهم على غيرهم؛ نظراً لما كان يتقلّب في أصلابهم... من نور هذا النبيّ الكريم ونَسَمَتِه ﷺ، وهذا مما لا مجال للتشكّك فيه، فهو كما قال ابن القيّم في الهدي: خير أهل الأرض نسباً، فأشرف القوم قومه وأشرفُ الأفخاذ فخذه...

ولذلك لما طعن الكفار في نسبه ﷺ وشبّهُوه بنَخْلَة نَبَتَتْ في زُبالة وكَبْوَة، قام خطيباً مبيّناً اختيار نسبه في كل العصور وأنه أشرف بني آدم فرقة، وقبيلة، وبيتاً، ونسباً. وقد اعترف بذلك عدوّه إذ ذاك أبو سفيان أمامَ هِرَقْل، فقال له: إنه ذو نسب فينا...

ثالثاً: الذي ندين الله تعالى به ونعتقده في أجداد النبيّ ﷺ وآبائه أنهم كانوا كلّهم مسلمين على دين إبراهيم عليه السلام، وكل ما ورد بضدّ ذلك فهو مؤوّل كما قال كثير من أهل العلم. وقد روى ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: مات عَدْنان وأبوه وابنه معد وربيعة ومضر وقيس وتميم وأسد وضبّة على الإسلام على ملّة إبراهيم، وروى الزبير بن بكار من وجه آخر عن ابن عباس: لا تسبّوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين؛ نقلهما الحافظ في الفتح (٣٣٩/٦).

رابعاً: الطعن في نسب النبيّ ﷺ كُفْرٌ يُوجب لصاحبه القتل واللَّعْنَة؛ لأن فيه الجمع بين القذف والإذاية له ﷺ وقذفه عليه الصلاة والسلام كفرٌ باتفاق، وهكذا إذايتُه عليه الصّلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾، وانظر لهذا «الصارم المسلول» لأبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وهذا بخلاف غيره، فإن من أخرج شخصاً من نسبه وطعن فيه وجب عليه حَدُّ القذف إنْ لم يأتِ ببيّنة تُثْبِتُ له ذلك، فليتّق الله أولئك الذين يتكلّمون في نسب نبيّنا الكريم ويؤذونه بالطعن في بعض آبائه وأجداده، فإن ذلك أمرٌ خطير.

خامساً: إن الله عزّ وجلّ نزّه أجداده عن سفاح الجاهلية وأنهم كانوا

يَلْتَقُون على نكاح صحيح؛ كنكاح ملّة الإسلام، وهذا مما أجمع عليه العلماء، ومن قال خلاف ذلك لم يكن من المسلمين.

سادساً : إن معرفة علم الأنساب قد تكون واجبة كمعرفة نسب النبيّ ﷺ بأنه هاشميّ قرشي مضري إبراهيمي، وكمعرفة من يلتقي معه في النسب من الرجال والنساء لِيَتَجَنَّب من تحرُم عليه من النساء، وليتعرّف على من يَتوارثُ معه، إضافة إلى معرفة أقاربه ليصل الرحم معهم[1].

* * *

❋ البشارة بالنبيّ ﷺ على لسان إبراهيم وعيسى عليهما السلام

[٧] عن العِرْباضِ بْن سَارِيَةَ رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إني عِند الله في أُمّ الكتاب لَخاتمُ النبيّين، وإنّ آدم لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ، وسأُنَبِّئُكم بتأويل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى قومَه، ورُؤيَا أُمي التي رأتْ أنه خرج منها نورٌ أضاءَتْ له قصورُ الشام، وكذلك ترى أُمّهات النبيّين صلوات الله عليهم**».

رواه أحمد (٤/١٢٧، ١٢٨)، وابن حبان (٢٠٩٣) بالموارد، والحاكم (٢/٦٠٠)، والبيهقي في دلائل النبوّة (١/٨٠) وغيرهم، وسنده صحيح عند أحمد وابن حبان، وانظر مجمع الزوائد (٨/٢٢٣)، وله شاهد حسن عن أبي أُمامة رواه أحمد (٥/٢٦٢)، وابن سعد (١/١٠٢)، والبيهقي في الدلائل (١/٨٤) وغيرهم.

قوله: «المنجدل» ـ بضم الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر الدال ـ أي؛ ملقى على الجدالة، وهي الأرض، ومعناه: الإخبار بثبوت نُبُوّته لِرُوحه الطاهرة الموجودة قبل الأرواح، وأن الله عزّ وجلّ أفاض عليها وَصْفَ النبوّة في وقت كان آدمُ لا يزال طريحاً في الأرض لَمْ يُنْفَخْ فيه الروحُ بعدُ، وهذا مما اختصّ به ﷺ عن سائر الخلق.

---

(١) أفاده ابن حزم رحمه الله تعالى.

وقوله: «دعوة أبي إبراهيم» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾، فخليل الرحمٰن عليه السلام كان قد دعا بدعوات عند بيت الله الحرام، كان من جملتها أن دعا الله عزّ وجلّ مع بَنِيهِ وأن يُخرِجَ من نسلهم رَسُولاً يقرأ عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فأجاب الله تعالى دعاءه، فكان المَدْعُوُّ به هو هذا النبيّ الكريم ﷺ.

وقوله: «وبشارة عيسى» يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، وهو نصّ في أن عيسى بَشَّر قومَه الإسرائيليّين بهذا النبيّ العظيم ﷺ.

وقوله: «ورؤيا أمي» الخ... يأتي الكلام على هذه القطعة في ميلاده ورضاعه ﷺ.

* * *

❋ البشارة به ﷺ في التوراة والإنجيل

[٨] عن عطاء بن يَسَار رحمه الله تعالى قال: لقيتُ عبدَالله بن عَمْرو بْنِ العاص رضي الله تعالى عنه قلت: أخبرْني عن صِفةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوْرَاةِ فقال: أجَلْ واللهِ إنَّه لمَوْصُوفٌ في التوراة ببعضِ صِفتِه في القرآن: «يا أيُّها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشّراً ونَذِيراً وحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ أنتَ عبدي ورسُولي سمَّيتُك المُتوَكِّل، ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظ ولا صخّاب في الأسْواق، ولا يَجْزِي السَّيِّئةَ بالسيّئة، ولكن يَعْفُو ويَصْفَح، ولن يقبضهُ الله حتى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله، ويَفْتَح به أعْيُناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً».

رواه أحمد (١٧٤/٢)، والبخاري في البيوع (٢٤٦/٥) وفي تفسير سورة الفتح (٢٠٧/١٠، ٢٠٨) وفي الأدب المفرد (٢٤٦)، وابن سعد في الطبقات، والبيهقي في الدلائل (٣٧٤/١، ٣٧٥).

«أجل» بمعنى: نعم. «شاهداً» أي: على الأُمّة يوم القيامة، «ومبشراً» أي: مُخبراً من آمن بك واتّبعك بما يَسُرُّهم من نعيم خالدٍ. «ونذيراً» أي: مُخبِراً ومُخوِّفاً من كَفَر بك بالعذاب الأليم الدائم، «وحرزاً» أي: أنت حِصْنٌ للعرب الأُمّيين المبعوث فيهم من الزّيغ والضلال وحجابٌ لهم من النار إذا آمنوا بك وأيّدوك ونصروك واتّبعوك. «ليس بفظٍّ ولا غليظ» الفظاظة والغلظة هي الخشونة والشدّة فمؤداهما واحد. «ولا صخاب» بالصاد والسين هو الذي يرفع صوته بكلامه، وخصّه بالسوق لأن رفع الصوت عنده من صفات الهَمَج والرّعاع. «الملّة العوجاء» الملة هي الدين ووصفها بالعوج لأن العرب كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسلام لكنهم أحدثوا فيها ما ليس منها ومَسَخُوها مَسْخاً وعوَّجُوها بالبِدَع والخُرافات الشِّرْكِيّة، فبعث الله تعالى إليهم الرسول الكريم ﷺ ليُقيم لهم هذه الملّة ويُرْجِعَهم إلى التوحيد الخالص والعقيدة السّالِمَة، فتُفْتح به الأعيُن العُمْيُ، والأذانُ الصُّمُّ، والقُلوب الغُلْفُ.

[٩] وعن كعب الأحبار رحمه الله تعالى قال: «نَجِدُه مكتوباً: مُحمّد رسولُ الله ﷺ لا فَظٌّ ولا غَلِيظٌ ولا صخّابٌ بالأسواق، ولا يَجْزِي بالسيّئةِ السيّئة، ولكن يَعْفو ويَغْفِر، وأُمّتُه الحَمّادُون ويُكَبِّرُون الله عزّ وجلّ على كلّ نَجْدٍ، ويَحمدُونه في كل مَنْزِلَة، ويأتزِرُون على أنصافِهم، ويَتَوَضّؤُون على أطْرافِهم، مُنادِيهم يُنادي في جَوّ السَّماء، صَفُّهُم في القتال وصَفُّهم في الصلاة سواءٌ، لهم باللّيل دَوِيٌّ كَدَوِيّ النَّحْلِ، ومولِدُه بمكّة، ومُهاجرُه بطَيْبَة، ومُلْكُه بالشام».

رواه الدارمي في أوائل سننه رقم (٥) بسند صحيح، ورواه من طريقين آخرين (٨/٧) بنحوه وأحدهما سنده حسن.

«الحمّادون» الذين يحمدون الله تعالى كثيراً في كل أحوالهم. «نَجْد» النَّجْد كل ما ارتفع من الأرض... ويأتزِرُون أي: يشدُّون أُزُرَهم على أوساطهم. «أطرافُهم» الأطراف من الإنسان هي يداه، ورجلاه، ورأسه... «الدَّوِيّ» هو الصوت الخفي الذي لا يُفهم.

وفي هذين الحديثين التصريح بصفات النبيّ ﷺ في التوراة والبشارة به، وقد كان اليهود والنصارى يعرفون ذلك حقّ المعرفة، ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا كفروا به بغياً وحسداً منهم، كما يأتي قريباً.

وقد جاء في القرآن الإخبار عن صفته ﷺ في التوراة والإنجيل؛ ففي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

بل جاء في آية أخرى في سورة الفتح مع ذكره في التوراة والإنجيل ذكر صفات أصحابه، حيث قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

* * *

❋ تبشير اليهود والأحبار والرهبان به ﷺ

[١٠] وعن سَلَمَة بن سَلاَمَة بن وَقْش رضي الله تعالى عنه، وكان من أصحاب بدر، قال: كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشْهَل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مَبْعَث النبيّ ﷺ بيَسِير فوقف على مَجْلِس عبد الأشْهَل قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدثُ مَنْ فيه سِنّاً علَيَّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعاً فيها بفِناءِ أهْلِي، فذكر البَعْثَ، والقيامة، والحسابَ، والميزان، والجنةَ، والنارَ، فقال ذلك لقوم أهلِ شركٍ أصحاب أوثانٍ لا يرون أنّ بَعْثاً كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: وَيْحَكَ يا فُلانٌ ترى هذا كائناً؛ أن الناس يُبْعَثُون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جَنَّةٌ ونارٌ يُجْزَون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به لَوَدَّ أن له بِحَظِّه من تلك النار أعْظَمَ تَنُّورٍ في الدنيا يُحْمُونَه، ثم يُدْخلونه إياه، فيطبق به عليه وأن ينجو من تلك النار غداً، قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟

قال: نبيٌّ يُبعثُ من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكّة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قالوا: فنظر إليَّ وأنا من أحْدَثِهم سِنّاً، فقال: إن يَسْتَنفِذْ هذا الغلامُ عُمرَه يدرِكْه، قال سَلَمَةُ: فوالله ما ذهب الليلُ والنهار حتى بعثَ الله محمّداً ﷺ وهو حيٌّ بين أظْهُرِنا فآمَنّا به وكفَرَ به بَغْياً وحسَداً، قال: فقلنا له: ويحك يا فلان ألستَ الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكن ليس به.

رواه ابن إسحاق (١٤١/١) بتهذيب ابن هشام مع الروض، ومن طريقه أحمد (٤٦٧/٣)، والحاكم (٤١٧/٣، ٤١٨)، والبخاري في التاريخ (٦٨/٤، ٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٧٨/٢، ٧٩)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن إسحاق صرّح بالتحديث، وانظر: مجمع الزوائد (٢٣٠/٨).

«وقش» بفتح الواو وسكون القاف بعده شين من الأوس، «وبنو عبد الأشهل» حيّ من الأنصار، والأشهل اسم صنم كان لهم في الجاهلية. «أحْدَثُ» أي: أصغر. «بفناء» بكسر الفاء، هو ما امتدَّ من جوانب الدار. «وَيْحَكَ» أي: ويلك، وقد تأتي للترحم ولك أن ترفعها على الابتداء، أو تنصبها على إضمار فعل محذوف. «لَوَدَّ» أي: لتمنّى وأحبَّ. «التنور» بفتح التاء ثم نون مشدّدة مضمومة هو الفرن. «فيطبق» أي: يغلق عليه ويغطى. «وما آية» أي: وما علامة ذلك. «ومتى تراه» أي: متى تظنّه خارجاً. «يستنفذ» أي: يفني عمره ويتمّه.

[١٩] وعن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: إن الله تعالى لمّا أراد هَدْيَ زيد بن سُعْنَة، قال زيد بن سُعْنة: إنه لم يبق من علامات النبوّة شيء إلاّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلاّ اثنين لم أخْبُرْهُمَا منه: يَسبق حِلمُه جَهْلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلاّ حلماً، فكنت أتلطّف له لأن أخالِطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعتُ منه تمراً معلوماً إلى أجلٍ وأعطيتُه الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجهٍ غليظ، ثم قلت: ألا

تقضي يا محمد حقّي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمَطْلٌ، ولقد كان لي بمخالطتكم عِلْمٌ. فقال ابن الخطّاب: أي عدوّ الله، تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكون وتُؤَدَّةٍ وتَبَسُّم، ثم قال: **«أنا وهو كنا أحوجُ إلى غيرِ هذا مِنْكَ يا عُمَر، أن تأْمُرَنِي بحُسْنِ الأداء، وتأمُرَه بحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَب به يا عمرُ فاقْضِهِ حقَّه وزِدْه عِشْرين صاعاً مكان ما روَّعتَه»**، ففعل فقلت: يا عمر كل علامات النبوّة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلاّ اثنين لم أَخْبُرْهُما منه: يَسْبِق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حِلماً، فقد خَبَرْتُهما، فأُشْهِدُكَ أني قد رَضِيتُ بالله رَبّاً وبالإسلام دِيناً ومحمد نَبِيّاً.

رواه ابن حبان (٢١٠٥) مع الموارد، والحاكم (٣/٦٠٤، ٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل، وصححه الحاكم. والوليد بن مسلم صرّح بالتحديث، ومحمد بن المتوكّل مختلف فيه وللحديث شاهد عند ابن سعد وغيره، والحديث أورده النور في المجمع (٨/٢٣٩، ٢٤٠) برواية الطبراني، وقال: رجاله ثقات، فالحديث حسن.

زيد بن سُعْنَة هو بضمّ السين وسكون العين ثم نون مفتوحة كان يهودياً. «لم أَخْبُرْهُما» مضارع خبَر بفتح الباء يخبُر بضمّها أي: لم أعلمهما. «حِلْمُه» الحلم بكسر الحاء هو الأناة وعدم الاستعجال عند الغضب وضبط النفس. «أتلطف» التلطف: الترفّق للأمر. «فابتعت» أي: اشتريت منه. «ألا تقضي» أي: ألا تؤدي لي حقي. «المطل» بفتح الميم وسكون الطاء أي: أصحاب تسويف وتأخير في قضاء الدَّيْن وأداء الحقوق من مَطَلَه حقّه سوَّفه بوعد الوفاء المرة بعد المرّة. وفي الحديث الصحيح: «مطل الغني ظلم» وقد تقدم. «أُحاذِرُ» أي: أخاف فوته. «وتُؤَدة» بضم التاء ثم همزة مفتوحة، فدال مهملة، هي التأنّي والرّزانة. «بحُسْن التِّباعة» أي: بحسن المطالبة والمتابعة. «روَّعتَه» أي: أفزَعْتَه.

[١٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدَّثَنِي سلمانُ الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: كنتُ من أهل فارس وكان أبي دُهْقانَ

أرْضِه، فكان يُحِبُّني حُباً شديداً حتى حَبَسني في بيته كما تُحْبَسُ الجارية، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار الذي يُوقِدها، فكنتُ كذلك لا أعْرِفُ من أمر الناس شيئاً إلاَّ ما أنا فيه، وكان لأبي ضَيْعَةٌ فيها بعضُ العمل فدَعاني فقال لي: أيْ بُنَيّ، إني قد شُغِلْتُ عن ضيعتي هذه ولا بُدَّ لي من إصْلاَحِها فانطلق إليها فمُرْهم بكذا وَكذا، ولا تَحْتَبِسْ عني، فإنك إن احتبستَ عني شَغَلْتَنِي عن كل شيء، فخرجت أُريد ضَيْعَتَهُ فمررت بكنيسة النصارى فسمعتُ أصواتَهم فيها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: هؤلاء النصارى يُصَلُّون، فدخلتُ أنظر، فأعجبني ما رأيت من حالهم فوالله ما زلت جالساً عندهم حتى غربت الشمس، وبعث أبي، فطلبني في كل وجه حتى جئت حين أمسيت ولم أذهب إلى ضيعته، فقال أبي: أين كنت؟ ألم أَكُنْ قلت لك؟ فقلت: يا أبتاه مررت بناس يقال لهم النصارى فأعجبَتْنِي صلاتُهم ودعاؤهم فجلستُ أنظر كيف يفعلون، فقال لي: أيْ بُني دينُك ودينُ آبائك خيرٌ من دينهم، فقلت: لا والله ما هو بخير مِن دينهم، هؤلاء قوم يعبدون الله ويدعونه ويُصَلُّون له، ونحن إنما نعبد ناراً نُوقِدُها بأيدينا إذا تركناها ماتتْ، فخافني فجعل في رجلي حَدِيداً وحَبَسني في بيت عنده، فبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: أين أجد هذا الدِّين الذي أراكم عليه؟ فقالوا: بالشام، فقلت: فإذا قدِم عليكم مِن هناك ناسٌ فآذِنُوني، فقالوا: نفعلُ، فقدم عليهم ناسٌ من تُجَّارهم، فبعثوا إليَّ أنه قد قدم علينا تُجَّارٌ من تجارنا، فبعثت إليهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الخروج فآذنوني، فقالوا: نفعل، فلما قضوا حوائجهم وأرادوا الرَّحِيل بعثُوا إليَّ بذلك، فطرحْت الحديد الذي في رجلي ولحِقْتُ بهم، فانطلقت معهم حتى قدمت الشام، فلما قَدِمْتُها قلت: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدِّين؟ فقالوا: الأُسْقُف صاحب الكَنِيسَةِ، فجئتُه فقلت له: إني أحْبَبْتُ أن أكونَ معك في كنيستك وأعبدَ الله معك فيها وأتعلَّم منك الخير، قال: فكُنْ معي، قال: فكنتُ معه وكان رجلَ سَوْء، كان يأمرهم بالصدقة ويُرَغِّبُهم فيها فإذا جمعها إليه اكْتَنَزَها ولم يُعْطِها المساكين، فأبغضْتُه بُغْضاً شديداً لِمَا رأيْتُ من حاله، فلم يلبثْ أن مات، فلما جاءوا ليدْفِنُوه قلت لهم: إنّ هذا رجلُ سوء، كان يأمركم

بالصدقة ويُرَغِّبُكم فيها حتى إذا جَمَعْتُمُوهَا إليه اكْتَنَزَها ولم يُعْطِها المساكين، فقالوا: وما علامة ذلك؟ فقلت: أنا أُخْرِجُ لكم كنزَهُ، فقالوا: هاته، فأخرجت لهم سبع قِلالٍ مملوءة ذهباً وورِقاً، فلما رأوا ذلك قالوا: والله لا يُدْفَنُ أبداً فصلبوه على خشبة ورموه بالحجارة... وجاءوا برجلٍ آخر فجعلوه مكانه، فلا والله ما رأيت رجلاً قطّ لا يُصلّي الخمس أرى أنه أفضل منه وأشدّ اجتهاداً، ولا زَهادة في الدّنيا، ولا أدْأبَ ليلاً ونهاراً منه ما أعلمني أحببت شيئاً قبله حُبَّه فلم أزل معه حتى حَضَرَتْه الوفاة، فقلت: يا فلان قد حضرك ما ترى من الله وإني والله ما أحببت شيئاً قطُّ حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى مَنْ تُوصِيني؟ فقال لي: أيْ بُنَيّ، والله ما أعلمه إلاَّ رجلاً بالموصل، فائته فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغُيِّبَ لحقتُ بالموصل، فأتيت صاحبها فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهادة في الدنيا، فقلت له: إنّ فلاناً أوصى بي إليك أن آتيك وأكون معك، قال: فأقم أيْ بنيّ، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من تُوصيني؟ قال: والله ما أعلمه أي بنيّ إلا رجلاً بنصِيبِين، وهو على مثل ما نحن عليه فالحق به، فلما دفنّاه لحقت بالآخر، فقلت له: يا فلان إنّ فلاناً أوصى بي إلَى فلان، وفلان أوصى بي إليك، قال: فأقم يا بني، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إنه قد حضرك من الله ما ترى، وقد كان فلان أوصى بي إلى فلان، . وفلان أوصى بي إلى فلان، . وأوصى بي فلان إليك، فإلى من تُوصِيني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلم أحداً على مثل ما نحن عليه إلا رجلاً بعَمُورِية من أرض الروم فائتِه فإنك ستجده على مثل ما كنّا عليه، فلما وَارَيْتُه خرجت حتى قدمتُ على صاحب عمورية فوجدته على مثل حالهم، فأقمت عنده واكتسبت حتى كانت لي غُنَيْمَة وبَقَراتٌ، ثم حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى بي فلان، وفلان إليك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى مَن تُوصيني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلم بقي أحد على مثل ما كنّا عليه

آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلّك زمان نبيّ يُبْعث من الحرم، مُهاجرُه بين حرَّتَيْنِ إلى أرض سَبِخَةٍ ذات نخيل، وأن فيه علامات لا تخفى بين كتفيه خاتم النبوّة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تَخْلُصَ إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلّك زمانه...

فلمّا واريناه أقمتُ حتى مَرَّ بنا رجالٌ من تجّار العرب من كَلْب، فقلت لهم: تحملوني معكم حتى تقدموا بي في أرض العرب، وأعطيكُم غُنَيْمَتِي وبقراتي، قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، فوالله لقد رأيتُ النخل وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لها صاحبي، وما حَقَّتْ عندي حتى قدم رجل من قُرَيْظَة من يهود وادي القرى فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده فخرج بي حتى قدم بي المدينة، فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها فعرفت نعتها، فأقمت في رقّي مع صاحبي، وبعث الله رسوله ﷺ بمكّةَ لا يُذْكَرُ لي شيءٌ من أمره مع ما أنا فيه من الرِّقّ، حتى قدم رسول الله ﷺ قُبَاء، وأنا أعملُ لصاحبي في نخلةٍ له، فوالله إني لفيها إذ جاء ابنُ عمّ له فقال: يا فلان قاتل الله بني قَيْلَة، ووالله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل من مكّة يزعمون أنه نبيّ، فوالله ما هو إلا أن سمعتُها فأخذَتْني العُرَوَاءُ - يقول الرِّعْدَة - حتى ظننتُ لأَسْقُطَنَّ على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبرُ؟ ما هو؟ فرفع مولاي يداه فلَكَمَنِي لَكْمَةً شديدةً، وقال: ما لك ولهذا؟ أقْبِلْ على عملك، فقلت: لا شيء، إنّما سمعت خبراً فأحببتُ أن أعلمه)فخرجت وسألت، فلقيت امرأة من أهل بلادي فسألْتُها، فإذا أهل بيتها قد أسلموا، فدلَّتْني على رسول الله ﷺ، فلما أمسيتُ وكان عندي شيء من طعام فحملتُه وذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة، فرأيتكم أحقّ مَن بِهَذِهِ البلاد به، فها هوذا، فكُلْ منه، فأمْسَك رسولُ الله ﷺ يدَه، وقال لأصحابه: «كُلُوا» ولم يأكل، فقلت في نفسي: هذه خَلَّةٌ مما وصف لي صاحبي، ثم رجعت، وتحوّل رسولُ الله ﷺ إلى المدينة فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئت به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هديةٌ

وكرامةٌ ليست بالصدقة، فأكل رسولُ الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلّتانِ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعليه شَمْلَتَانِ وهو في أصحابه فاسْتَدَرْتُ لأنظرَ إلى الخاتم في ظهره، فلما رآني رسول الله ﷺ استدرْتُه عرف أني أسْتَثْبِتُ شيئاً قد وُصِفَ لي، فوضع رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم بين كتفيه كما وصف لي صاحبي، فأكببتُ عليه أُقَبِّلُه وأبْكِي، فقال: تحوّل يا سلمان هكذا، فتحوَّلْتُ، فجلستُ بين يديه وأَحَبَّ أن يُسْمِعَ أصحابه حديثي عنه، فحدَّثْتُه فلما فرغت قال: كاتِبْ يا سلمان، فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحْيِيهَا، وأربعين أُوقية، وأعانني أصحاب رسول الله ﷺ بالنخل ثلاثين وديَّةً وعشرين وديَّة وعَشْرٍ، كل رجل منهم على قدر ما عنده، فقال لي رسول الله ﷺ: **«فَقِرْها فإذا فرغت فآذِنّي حتى أكون أنا الذي أضعها بيدي»**، ففقَّرْتُها وأعانني أصحابي، يقول: حفرت لها حيث توضع حتى فرغنا منها، فجاء رسول الله ﷺ، فكنّا نحمل إليه الودى ويضعه ويسوي عليها، فوالذي بعثه بالحقّ ما ماتت منها ودية واحدة، وبقيت عليَّ الدراهم فأتاه رجل من بعض المعادن بمثل بيضة من الذهب، فقال رسول الله ﷺ: **«أين الفارسي المسلم المكاتب»**؟ فدُعِيتُ له، فقال: **«خذ هذه يا سلمان فأدِّها مما عليك»**، فقلت: يا رسول الله وأين تقع هذه مما عليّ؟ قال: **«فإن الله سيؤدّي بها عنك»**، فوالذي نفس سلمان بيده لوَزَنْتُ لهم منها أربعين أُوقيّة فأدّيتها إليهم وبقي عنده مثل ما أعطيتهم، وعُتِقَ سلمان، وكان الرِّقُّ قد حَبَسَني حتى فاتَني مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُدٌ، ثم عتقت، فشهدت الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد...

رواه ابن إسحاق في السيرة ومن طريقه أحمد (٥/٤٤١، ٤٤٤)، وابن سعد في الطبقات (٤/٧٥، ٨٠)، والبيهقي (٢/٩٢، ٩٧)، وأبو نعيم (١٩٩) كلاهما في الدلائل، والخطيب في التاريخ (١/١٦٤، ١٦٩)، والطبراني في الكبير رقم (٦٠٦٥) وسنده صحيح على شرط مسلم، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث ولذا قوّاه ابن كثير في السيرة، وللحديث طرق وروايات هو بها صحيح، وقد أورده النور في المجمع (٩/٣٣٦، ٣٣٧) برواية أحمد وكبير الطبراني بأسانيد، وقال: إسناد الرواية الأُولى عند أحمد والطبراني رجالها

رجال الصحيح غير عمرو ابن أبي قرّة الكندي وهو ثقة، ثم ذكره مختصراً برواية أحمد والبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح.

«دهقان» بضم الدال وكسرها كلمة فارسية ومعناها الرئيس. «قَطَن النار» أي: خادمها والقيّم عليها وهو بفتح القاف وكسر الطّاء وفتحها. «ضيعة» بفتح الضاد وسكون الياء بعدها عين مهملة مفتوحة، هي العقار والأراضي المُغِلّة، وتُطلق على صناعة الرجل وحرفته. «فآذِنُوني» أي: اعلموني. «الأُسْقُفّ» بضم الهمزة وسكون السين بعده قاف مضمومة ثم فاء مشدّدة هو الرئيس الديني عند النصارى فوق القسيس. «فلم يلبث» أي: لم ينشب كما في رواية ولم يمكث. «ويرغبكم» الترغيب في الشيء التحبيب فيه والحضّ عليه. «قلال» بكسر القاف جمع قلّة وهي الجرة الكبيرة. «وورق» بكسر الراء الفضة. «فصلبوه» أي: أقاموه مربوطاً على خشبة. «بالموصل» بلدة بالعراق، ومنها كان خليل الرحمٰن عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام. «نصيبين» بفتح النون وكسر الصاد بعدها ياء ثم باء مكسورة؛ بلدة من بلاد الجزيرة بينها وبين الموصل نحو ٣٠٠ كيلو ومنها كان الجنّ الذين استمعوا إلى قراءة النبيّ ﷺ وهو ببطن نخلة يصلّي الصبح بأصحابه كما يأتي في محلّه. «أذأب» أي: أتعب وأشدّ عبادة. «أظلّك» أي: دنا وقرب منك وقته. «حرتين» تثنية حرّة وهي الحجارة السود والمدينة المنوّرة كانت تكتنفها حرّتان شرقية وغربيّة، وقد بنيت عليهما العمارات الآن. «سبخة» بفتح السين وكسر الباء الأرض ذات الملح. «خاتم النبوّة» هو غُدَّةٌ لحم كانت بين كتفيه مثل بيض الحمامة أو الحجلة عليها شعرات وتآليل. «تخلص» بضم اللام أي: تصل إليها. «وارياه» أي: دفناه وسترناه بالتراب. «وادي القرى» موضع بين تبوك وخيبر كان يسكنه في القديم اليهود. «فابْتَاعَنِي» أي: اشتراني. «في رقّي» أي: في عبوديتي مملوكاً. «قباء» بضم القاف هي قرية بني عمرو بن عوف منزل رسول الله ﷺ الأول عند قدومه في هجرته وبها مسجده العظيم التاريخي الذي أسّس على التقوى من أول يوم. «بني قيلة» بفتح القاف وسكون الياء هم الأنصار من الأَوس والخزرج، وقيلة كانت أُمّهم الأولى. «فلكمني» أي: ضربني بكفّه مجموعة. «امرأة من

أهل بلادي» يعني: من أصبهان الإيرانية إذ كان سلمان رضي الله تعالى عنه من هنالك. «خلّة» أي: خصلة وهي بفتح الخاء. «شملتان» تثنية شملة وهي كساء كان العرب يلتحفون به. «فأكببت عليه» أي: أقبلت عليه والتزمته. «أقبّله وأبكي» يعني: شوقاً ومحبة وفرحاً حيث بلغه الله تعالى مرادهُ بعد بلايا وشدائد مرّت عليه. «كاتب» معناه اطلب من سيّدك اليهودي الكتابة واشتر نفسك منه لتنقلب حُرّاً. «ودية» بفتح الواو وكسر الدال المهملة ثم ياء مشدّدة مفتوحة هي واحدة الودي وهي صغار النخل ونقلتها. «فَقُرْها» أي: احفر لها مواضعها.

* * *

❊ فوائد هذه الأحاديث

وفي هذه القصص الثلاث: قصة اليهودي الأشهلي، وقصة زيد بن سُعْنة، وقصة سلمان الفارسي عِبَر وفوائد نجملها في الآتي:

ففي جملتها: أن اليهود والنصارى كان لهم علم بالنبيّ ﷺ وخاصّة علماءهم ورهبانهم حسبما كانوا يعرفونه من صفاته ﷺ والبشارة به، والأمر بالإيمان به واتّبَاعه مما كان عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا أمرٌ واضح بحمد الله تعالى.

ومنها: أن اليهود من يوم كانوا وهم يجحدون الحقّ ويخالفونه مع معرفتهم إيّاه بغياً وحسداً منهم، فذلك اليهودي الأشهلي مع إيمانه بالله واليوم الآخر... ومعرفته بخروج النبيّ ﷺ من ناحية مكّة لما عرفه من التوراة كفر به وجحده عندما بعث وظهر فأضلّه الله تعالى على علمه، وفرق كبير بينه وبين زيد بن سُعْنَة اليهودي هو الآخر الذي أشهر إسلامه والإيمان بالنبيّ ﷺ بمجرّد تحقّقه بوجود الصّفات التي عرفها في النبيّ ﷺ مما علمها عنه في التوراة، فكان ممن أراد الله به خيراً وأعطاه الله الأجر مرّتين كعبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه وغيره ممن آمَنَ مِنَ اليهود.

ومنها: وهي في قصة سلمان رضي الله تعالى أن من سبقت له السعادة لا تضرّه الجناية، فلقد كان قطن النار التي كانوا يعبدونها ووالده رئيس قومه المجوس، ولما أراد الله به خيراً لما سبق له في الأزل أنقذه الله تعالى من المجوسيّة إلى دين الله الحقّ.

ومنها: أن دين النصارى كان منتشراً قبل بعثة النبيّ ﷺ حتى في بلاد فارس ولا ندري كيف كانت ديانتهم، والظاهر أنهم كانوا ضالّين عن دين عيسى عليه السلام بدليل ما يأتي عن أُولئك القساوسة.

ومنها: أن دين النصرانية كانت قاعدته بالشام، والشام تشمل فلسطين والأردن وسوريا ولبنان؛ فهذه البلاد كلها يُطلق عليها الشام ولم تزل مواطن للنصارى بمدنها وقراها إلى الآن لكنهم ضلّوا وأضلّوا...

ومنها: أن دين عيسى الصحيح كان قد تغرّب بدليل القساوسة الذين صحبهم سلمان، فإنهم كانوا غرباء وكان الأخير منهم هو خاتمهم، ولذلك أوصى سلمان بالذهاب إلى بلاد العرب حيث سيبعث منها نبيّ في القريب العاجل، فلو كان أحد ممن يقتدى به من النصارى موجوداً وقته لأرشده إليه ودلّه عليه، ولكنه قال له: «والله ما أعلم بقي أحد على مثل ما كنّا عليه آمرك أن تأتيه».

ومنها: معرفة ذلك الأسقف بصفات النبيّ ﷺ ككونه يبعث من مكّة ويهاجر إلى المدينة، وأن بين كتفيه خاتم النبوّة وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة مع معرفته بوقت خروجه، كل ذلك عرفه من الإنجيل الذي تحدّث عنه ﷺ وبشّر به.

ومنها: هداية سلمان لطلب الدِّين الحقّ ومهاجرته والديه وأسرته وبلاده إلى حيث يوجد دين الله، وتجشّمه السفر الطويل من بلاد فارس إلى الشام وهي مسافة طويلة تتطلّب زاداً وأياماً كثيرة، فقطعها وبلغ مراده.

ومنها: فطنته حيث سأل عن أفضل أهل دين النصارى ليتمكّن من أخذه مباشرة عن علمائه الأفاضل.

ومنها: صبره على خدمة أولئك القسَاوِسَة واحداً تلو الآخر حتى مات آخرهم.

ومنها: تسهيل الله عزّ وجلّ له السبيل إلى الدخول لبلاد العرب حتى وصل إلى المدينة حيث سيسعد بالاجتماع بالحبيب المصطفى ﷺ.

ومنها: وهي من الأهمية بمكان، معاونة النبيّ ﷺ وأصحابه إيّاه، ومساعدته في فكّ رقّه والحصول على حريته وإنقاذه من عبوديته لغير الله تعالى، ولا سيما وقد كان عبداً ليهودي، وما فعله رسول الله ﷺ وأصحابه مع سلمان ينبغي أن يكون نموذجاً للمسلمين في كل العصور؛ لأن الإسلام يأمر بذلك ويحضّ عليه ويرغّب فيه هدانا الله وجميع المسلمين إلى ما فيه رضاه.

* * *

❁ إخبار الكهّان ببعثته ﷺ

[١٣] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما سمعت عُمَر بشيءٍ قطُّ يقول: إني لأظُنُّه كذا إلاَّ كان كما يَظُنُّ.بَيْنَمَا عُمَرُ جالس إذ مَرَّ به رجلٌ جميلٌ، فقال عمر: لقد أخطأ ظنّي، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنَهم، عليَّ الرجل، فدُعِيَ له، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم، أستقبل به رجل مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلاَّ ما أخْبَرْتَنِي، قال: كنت كاهنَهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَتُك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتْني أعرف منها الفَزَعَ، فقالت:

أَلَـمْ تَـرَ الـجِـنّ وإبْـلاَسَـهَـا ... ويَأْسَـهـا مِـنْ بَـعْـدِ إنْـكَـاسِـهَـا
ولُـحُـوقَـهـا بِـالـقِـلاَصِ وأحْـلاَسِـهـا

قال: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قطّ أشدّ صوتاً منه يقول: يا جَلِيحُ أمْرٌ نَجِيحٌ، رجلٌ فَصِيحٌ يقول: لا إله إلاَّ الله، فوثب القوم قلت: لا أبرح حتى

أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح يقول لا إله إلاَّ الله، فقمت فما نَشَبْنَا أن قيل: هذا نبيّ.

رواه البخاري في إسلام عمر من مبعث النبيّ ﷺ (١٧٨/٨، ١٨٠)، والبيهقي في الدلائل (٢٤٨/٢) وغيرهما.

[١٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ أولَ خبر قدم علينا عن رسول الله ﷺ أن امرأة كان لها تابع، قال: فأتاها في صورة طَيْرٍ فوقع على جِذْعٍ لهم، قال: فقالت: ألا تنزل فنخبرك وتخبرنا، قال: إنه قد خرج رجل بمكّة حرّم علينا الزِّنا ومنع منا القرار.

رواه أحمد (٣٥٦/٣)، وابن سعد في الطبقات (١٨٩/١، ١٩٠)، وسنده حسن.

في الحديثين أن الجنّ كان لهم علم ببعثة النبيّ ﷺ لما كانوا يسمعونه من الملائكة عند استراق السمع، وكانوا يخبرون أصحابهم من الكهنة بذلك، وقد جاء في ذلك أخبار عديدة أضربنا عنها اكتفاء بما ذكرنا.

* * *

❋ مولده ﷺ

[١٥] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً قال: يا رسول الله ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: **«ذاكَ يومٌ وُلِدتُ فِيهِ، وأُنزِلَ عليَّ فيهِ»**.

رواه أحمد (٢٩٧/٥)، ومسلم (٥١/٨، ٥٢)، وأبو داود (٢٤٢٦) كلاهما في الصوم.

[١٦] وعن ابن عباس وجابر رضي الله تعالى عنهم أنّهما قالا: وُلِد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل يومَ الاثنين الثاني عَشر من شهر ربيع الأول، وفيه بُعِث، وفيه عُرِجَ به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

رواه ابن أبي شيبة في المصنّف، والحاكم (٦٠٣/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، لكن الحاكم اقتصر على عام الفيل وولادته يوم الاثنين.

[١٧] وعن قيس بن مَخْرَمة رضي الله تعالى عنه قال: وُلِدْتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل فنحن لِدَّانِ، وُلِدْنا مَوْلداً واحداً. قال: وسأل عثمانُ بنُ عفّان رضي الله تعالى عنه قَباثَ بن أشْيَم أخا بَني يَعْمَر بن ليث: أنت أكبر أم رسولُ الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبرُ مِنّي، وأنا أقدَمُ منه في الميلادِ، قال: ورأيتُ خَذَق الطير أخضر مُحِيلاً.

رواه أحمد (٢١٥/٤)، والترمذي في المناقب (٣٣٨٨) بتهذيبي، والحاكم (٦٠٣/٢) من طريق ابن إسحاق (١٠٢/١) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

قوله: «قباث» بفتح القاف والباء. «أشيم» على وزن أحمد. «خَذَق» بفتح المعجمتين ثم قاف هو الرّوث. «محيلاً» بضمّ الميم من الإحالة أي متغيّراً.

وجملة هذه الأحاديث تدلّ على أن النبيّ ﷺ وُلد يوم الاثنين من ربيع الأول عام الفيل، وهذا متفقٌ عليه بين علماء السيرة والمؤرخين والعلماء، وإنما وقع الخلاف في تعيين اليوم، فالجمهور على أنه اليوم الثاني عشر، وعليه يدلّ حديث ابن عباس وجابر، وقيل: الثامن، ورجحه ابن حزم وابن دحية، ونقل ابن عبد البرّ تصحيحه عن المؤرخين، وهو قول للمحدثين وهو الصحيح من جهة الحساب وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ من فوائد هذه الأحاديث

في هذه الأحاديث فوائد:

منها: قصة الفيل وخلاصتها: أن أبْرَهَة الأشْرَم ملك اليمن كان قد بنى

كنيسة بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحجيج فجاء رجل من كنانة وتغوّط فيها ليلاً، ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب أبْرَهَةُ وحلف أن يُهَدِّمَ الكعبة، وجاء مكة المكرمة بجيش كبير على أفيال يتقدَّمُهم فيلٌ هو أعظم الفِيَلَةِ، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلُها إلى الجبال خوفاً من جنده وجبروته، فلما دخل مكّة وأراد هدم الكعبة بفيله أرسل الله عزّ وجلّ عليهم طيوراً سوداً جاءت من قبل البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر في منقره وحجران في رجليه، فرمتهم الطيور بتلك الحجارة، فكان الحجر يقع على رأس أحدهم فيخرج من دبره فيرمى جثة هامدة حتى أهلكهم الله عن آخرهم، فكان هذا الحادث إرهاصاً للنبي ﷺ ومعجزة مُقدَّمةً له لأنه كان حملاً في بطن أمّه السيدة آمنة العزيزة، وهو بالتالي عبرة للمعتبرين وإلى هذا الحادث العظيم أشار الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [سورة الفيل].

قوله: «في تضليل» أي جعل تعالى مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار، وقوله: «طيراً أبابيل» أي بعث إليهم طيوراً أتتهم جماعات بعضها في إثر بعض ترميهم وتقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجّر كأنّها رَصاصة ثاقبة، فجعلهم كورَق الشجر الذي عصَفَتْ به الريح وأكلَتْه الدوابُّ، ثم راثته فأهلكهم عن بكرة أبيهم.

وهذه الطيور كانت حقيقة فهي على ظاهرها ولم يقل أحد من المسلمين غيرها، حتى جاء بعض العقلانيين الملحدين الذين لا يقبلون من الدين والقرآن والسنّة إلاّ ما تقبله عقولهم المنكوسة، فأوّلوا الطيور بميكروب ومرض سلّط عليهم... وهذا زيغ وضلال.

ومنها: في قوله: ولد عام الفيل يعنون في العام الذي حصل فيه هجوم أبرهة بفيله العظيم على الكعبة، وكان ميلاده بعد هذا الحادث بخمسين يوماً كما قال الجمهور.

ومنها: عظم حرمة الكعبة عند الله عزّ وجلّ حيث أهلك ذلك الجيش العرمرم الذي أراد انتهاك حرم الله عزّ وجلّ، وأنه تعالى يغار على حرماته وينتقم ممن لا يحترمها فليتّق الله المسلمون وليعظموا حرمات الله تعالى وليعتبروا بهذا الحادث.

ومنها: أن لله جنوداً في هذا الكون يبعثهم على من شاء؛ قد يكونون وحوشاً وحشرات وأفاعي وريحاً ومياهاً وما إلى ذلك من الجنود الإلٰهيّة، ولله جنود السمٰوات والأرض.

ومنها: فضل يوم الاثنين وأن له مزايا هامّة حيث وقع فيه ميلاد النبيّ ﷺ وبدايةُ بعثته ونزول الوحي عليه، ووقوعُ الإسراء به، وحصولُ هجرته وبالتالي موته ﷺ، وهذه مزايا ونِعَم وأحداث هامّة ينبغي أن يكون يومها عيداً وذكرى للمسلمين أسبوعياً يشكرون الله فيه على هذه النِّعم والأحداث الجليلة، ولذلك كان النبيّ ﷺ يصوم هذا اليوم بخصوصه شكراً لله تعالى على ما حصل له فيه، ولذلك قال للسائل عنه: «ذاك يومٌ ولدتُ فيه وأنزل عليّ فيه».

ومنها: أدب قَبَاث بن أَشْيَمَ مع الحضرة النبويّة حيث قال لسائله سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه وقد سأله من أكبر أنت ورسول الله؟ فأجابه: هو أكبر مني، يعني قدراً وأنا أقدم، يعني في الميلاد.

[١٨] وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني عند الله خاتم النبيّين**» فذكر الحديث، وفي آخِرِهِ: «**ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أُمّهات النبيّين**».

رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم وقد تقدم مطولاً رقم (٧).

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ عند ولادته، فخروج النُّور العظيم من والدته حتى أضاءت له قصور الشام؛ هو آية عظيمة وخارق من الخوارق أجراه الله على ذات والدته مولاتنا آمنة، فهي بالتالي لهذا الخارق امرأة صالحة لأن هذا لا يصدر من الكافر، فهو أهون على الله من ذلك.

* * *

❋ خاتمة

الإجماع على أن النبيّ ﷺ وُلد بمكّة المكرمة من أبويه الكريمين: عبدالله بن عبد المطلب، وكان من أحبّ ولد أبيه إليه، وآمنة بنت وهب الزهرية، زوّجه بها والدُه عبد المطلب وعمره إذ ذاك نحو ثماني عشرة سنة، وكانت آمنة من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولمّا حملت به لم يلبث والده إلاّ قليلاً فتوفي بالمدينة وهو راجع من الشام في تجارة له والنبيّ ﷺ حمل في بطن أُمّه من شهرين كما رجحه ابن سعد والواقدي والبلاذري والذهبي وابن كثير، وورد فيه حديث رواه الحاكم وصححه.

ثم يجب أن يعلم أن ما ذكره أصحاب السير والمواليد من أحاديث عند مولده ﷺ؛ كولادته ساجداً مقطوع السرّة مختوناً، وحضور مريم وآسية ولادته، وأن الملائكة أخذته من آمنة وطافت به الأرض تبشّر به، وأن نارَ بلاد فارِس خمَدَتْ بعد إيقادِها ألفَ سنةٍ وارتجاس إيوان كسرى وسقوط شُرُفاتِه إلى غير ذلك من الأخبار، كلّها ساقطة موضوعة أو منكرة أو شديدة الضعف، وليس فيها ما يحسن فضلاً عن التصحيح ولذلك أعرضنا عنها، وأنا أتعجّب كثيراً من أمثال البيهقي وابن كثير وغيرهما من الكبار! حيث ذكروا هذه الموضوعات والواهيات والمناكر في كتبهم، وفي الصحاح والحسان ما يُغْني عنها.

❋ ❋ ❋

❋ ذكر رضاعه ﷺ وما حصل له أيامه

[١٩] عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: لما وُلِد رسول الله ﷺ قَدِمَتْ حَليمةُ بنتُ الحارث في نِسْوَةٍ من بني سَعْد بن بَكْر يَلْتَمِسُون الرُّضَعَاء بمكّة، قالت حليمة: فخرجتُ في أوائل النّسوة على أتان لي قَمْراء، ومعي زوجي الحارثُ بن عبدالعُزّى أحدُ بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة قد أذَمَّتْ أتانُنا، ومعي بالركب شارِفٌ والله ما تبِض بقطرة لبن في سنة شهْباء قد جاع الناس حتى خلَص إليهم الجهد، ومعي ابْنٌ لي،

والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئاً أُعَلِّلُهُ به، إلاَّ أنّا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكّة فما بقي منّا أحد إلاَّ عُرِضَ عليها رسولُ الله ﷺ فكَرِهَتْهُ فقلنا: إنه يتيم، وإنما يُكْرِمُ الظِّئْرَ ويُحْسِنُ إليها الوالدُ، فقلنا: ما عسى أن تَصنعَ بنا أُمُّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكل صواحبي أخذ رضيعاً، فلما لم أجد غيره رجعتُ إليه وأخذتُه، والله ما أخذتُه إلاَّ أني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لآخذنّ هذا اليتيم من بني عبدالمطّلب فعسى الله أن ينفعَنَا به، ولا أرجعُ من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبتِ، قالت: فأخذتُه فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلاَّ أن أتيتُ به الرَّحْلَ فأمسيتُ أقبّل ثَدْيايَ باللَّبَنِ، حتى أَرْوَيْتُه وأَرْوَيْتُ أخاه، وقام أبوه إلى شارِفِنا تلك يَلْمَسُها فإذا هي حافِلٌ، فحلبَها فأرواني وروى، فقال: يا حليمة تَعْلَمِين والله لقد أَصَبْنا نسمَةً مباركةً، ولقد أعطى الله تعالى عليها ما لم نَتَمَنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شِباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبيّنا، ثم اغْتَدَيْنا راجعين إلى بلادِنا أنا وصاحبي، فركبتُ أتاني القَمْراء، فحملتُه معي، فوالذي نفسُ حليمةَ بيده لقطعتُ الركبَ حتى إن النّسوة ليَقُلْن: امْسِكِي علينا، أهذه أتانُك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أذَمَّت حين أقبلنا فما شأنُها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليها غلاماً مباركاً، قالت: فخرجنا فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيراً، حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رُعَاتُنا يَسْرَحُون ثم يُرِيحُون، فتروح أغنامُ بَني سعد جِياعاً، وتروحُ غَنَمِي شِباعاً، بِطاناً، حفلاً، فنَحْتَلِبُ، ونشرَب، فيقولون: ما شأن غنمِ الحارث بن عبدالعُزى، وغنم حليمة تَرُوح شباعاً حفلاً، وتروح غنمكم جياعاً؟ ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً كما كانت وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يَشِبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبّ في اليوم شباب الغلام في الشهر، ويشبّ في الشهر شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقْدَمْناه مكّة أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أُمّه قلنا: أي ظِئْر والله ما رأينا صبياً قطّ أعظمَ بركةً منه، وإنّا نتخوّف عليه وباء مكّة وأسقامها فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى

أذنت، فرجعنا به فأقمنا أشهراً ثلاثة أو أربعة، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بهم له، إذ أتى أخوه يشتدُّ وأنا وأبوه في البُدْن، فقال: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض فأخذاه وأضجعاه فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتدّ، فوجدناه قائماً قد انتقع لونه فلما رآنا أجهش إلينا وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه فضممناه إلينا، فقلنا: ما لك بأبي أنت؟ فقال: أتاني رجلان فأضجعاني فشقّا بطني، وصنعا بي شيئاً ثم ردّاه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلاّ وقد أصيب، الحقي بأهله فردّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أُمّه، فلما رأتنا أنكرت شأننا وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكُمَاه وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلاّ أن قد قضى الله الرضاعة وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره إني حملت به فوالله ما حملت حملاً قطّ كان أخفّ عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى، أو قالت: قصور بصرى، ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما فقبضَتْه وانطلقنا...

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١/١٨٧، ١٩٠)، وابن سعد في الطبقات (١/١١١، ١١٢)، وابن حبان (٢٠٩٤) بالموارد، وأبو يعلى رقم (٧١٢٧)، والطبراني في الكبير (٢٤/٢١٢، ٢١٥)، والبيهقي في الدلائل (١/١٣٣، ١٣٦)، وللحديث طرق وشواهد يحسن أو يصحح بها، وقد أورده النور في المجمع (٨/٢٢٧) برواية أبي يعلى والطبراني، وقال: ورجالهما ثقات، وقال الذهبي في السيرة: هذا حديث جيّد الإسناد. وقال ابن كثير في البداية: وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السِّيَر والمغازي.

[٢٠] وعن عُتْبَةَ بن عَبْدٍ السُّلَمِيّ رضي الله تعالى عنه أنه حدَّثهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال له رجل: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «**كانت حاضِنَتِي من بني سعد بن بكر،**

فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فأْتِنَا بزادٍ من عند أُمّنا فانطلق أخي ومكثتُ عند البهم فأقبل طائِران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال الآخر: نعم، فأقبلا يَبْتَدِرَانِي، فأخذاني فبطَحاني إلى القفا، فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقّاه فأخرجا منه عَلَقَتَين سوداوَين، فقال أحدهما لصاحبه: ائْتني بماء ثَلْج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فدرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْهُ فخاطه وختم عليه بخاتم النبوّة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفّةٍ واجعل ألْفاً من أُمّته في كفّةٍ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أُشْفِقُ أن يَخِرَّ عليَّ بعضُهم، فقال: لو أن أُمّته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني وفَرِقْتُ فَرَقاً شديداً، ثم انطلقتُ إلى أُمّي فأخبرتُها بالذي لقيتُه فأشفقتْ عليَّ أن يكون أُلْبِسَ بي، قالت: أُعِيذُك بالله، فرحَلتْ بعيراً لها فجعلتْنِي أو فحَمَلَتْني على الرحل وركبتْ خَلْفِي حتى بلغنا إلى أُمّي فقالت: أذيتُ أمانتي وذمّتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يَرُعْها ذلك، فقالت لي: رأيتُ خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

رواه أحمد (١٨٤/٤، ١٨٥)، والدارمي (١٣)، والطبراني في الكبير (١٣١/١٧)، والحاكم (٦١٦/٢، ٦١٧) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأورده النور (٢٢٢/٨) وقال: إسناد أحمد حسن، وبقية بن الوليد صرّح بالتحديث وشيخه ثقة شامي بلديه.

[٢١] ونحوه عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم، أنا دعوة إبراهيم» فذكر الحديث وفيه: «واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طَسْتٌ من ذهب مملوء ثلجاً فأضْجعاني فشقّا قلبي وبَطْنِي وغسَلاه بذلك الثلج حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرة من أُمّته، فوزنني فوزنتهم، ثم قال: زِنْه بمائة من أُمّته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زِنْهُ بألف من أُمّته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأُمّته لوزنهم».

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١٩١/١)، والحاكم (٦٠٠/٢)، والبيهقي في الدلائل (١٤٦/١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ونحوه عن أبي ذرّ، رواه الدارمي رقم (١٤) بسند حسن في الشواهد.

[٢٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقةً سوداء، فقال: «**هذا حظّ الشيطان**»، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَهُ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه يعني ظئره، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللونِ. قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المَخِيط في صَدْرِه.

رواه أحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٢٨)، ومسلم في الإسراء من كتاب الإيمان (٢١٦/٢، ٢١٧)، والحاكم (١١٦/٢، ١١٧)، والبيهقي في الدلائل (٧/٢، ٨).

ذكر غريب هذه الأحاديث:

«الأتان» أُنثى الحمير. «قمراء» أي شديدة البياض. «أذَمَّت» بالذال المعجمة وتشديد الميم أي أبطأتْ حتى حَبَسَتْهُم. «شارف» ناقة مُسِنَّةٌ. «ما تَبِضُّ» بضّ الماء يبض بكسر الباء إذا سال وقطر. «شهباء» أي سنة ذات قحط وجدب. «أُعَلِّلُهُ» أي ما أجد شيئاً أُسكته به. «الظِّئر» هي المُرْضِعَةُ وَلَدَ غَيْرِها. «حافِلٌ» أي: ضرعها مليء لبناً. «حاضنتي» الحاضنة هي المربية القائمة بشؤون الأطفال. «بهم لنا» بفتح الباء وسكون الهاء ولد الضأن والمعز. «وفرقت» بكسر الراء أي: خفت. «واسترضعت» أي: طلب لي الإرضاع أو المرضعة في قبيلة بني سعد. «ثم لأَمه» بفتحات أي ضمّ اللحم إلى بعضه وسدّه. «منتقع اللون» أي متغيّر أصفر.

في جملة هذه الأحاديث فوائد وفضائل وآيات:

منها: أن العرب كانت عادتهم أن يسترضعوا أولادهم في البادية لمنافع ترجع إلى تربية الأولاد وعقليتهم وقوتهم وفصاحتهم.

ومنها: أن رضاع النبيّ ﷺ كان في بني سعد، وكانت مرضعته

حليمة السعدية التي حَظِيَتْ بأخذه وإرضاعه وإغداق الخير والبركة عليها وعلى أهلها وبقي عندها حتى حصل له حادثُ شَقّ صدره، وكان عمره أكثر من سنتين فأرجعته إلى أُمّه آمنة. وهذا الرضاع عند حليمة لا خلاف فيه بين المسلمين، فهو إجماع من أهل السِّيَر والحديث والتاريخ.

علماً بأنه كان له مرضعات أُخر فقد أرْضَعَتْه ثُوَيْبَةُ جارية أبي لهب، أرضعته قبل حليمة كما أرضعت معه حمزة عمّه، وأبا سلمة، وعبدالله بن جحش فكان هؤلاء الثلاثة إخوة له ﷺ من الرّضاعة، وأرضعته أيضاً أم أيْمَنَ بَرَكَة الحبشية الفاضلة الصالحة كان ﷺ ورثها من أبيه وزوجها من حبّه زيد بن حارثة، فولدت له أُسامة رضي الله تعالى عنهم وستأتي في المناقب؛ فهؤلاء المرضعات كلهن تشرفن بإرضاع هذا النبيّ الكريم وحظين بفضل عظيم ومزية لا يستهان بها، فكُنّ بذلك من فاضلات النساء.

ولم يكن ليُدْخِلَ الله عزّ وجلّ في جوف نبيّه العظيم ﷺ إلاّ لبن النساء المختارات... وأصبحن أُمّهات له عليه الصلاة والسلام، وقد كان بارّاً بهنّ يسأل عنهنّ ويتَفَقَّدُهُنّ ويُكْرِمُهُنّ ويُرسل إليهنّ الهدايا وبالأخصّ أمّ أيمن حتى كان يتنازل معها ويصبر على رفع صوتها عليه وتعامله معاملةَ الأُمّ لولدها، وستأتي قصة لها معه في الغزوات إن شاء الله تعالى في ذلك.

ومنها: وقوع ذلك الحادث العظيم والمعجزة الكبرى والخصيصة التي خصّه الله تعالى بها، وهو شقّ صدره الشريف واستخراج حظّ الشيطان منه وغسله بماء زمزم، فإن مثل هذا لم يقع لنبيّ قبله ﷺ، وهذا الشقّ قد تكرّر له غير ما مرّة كما سيأتي في الإسراء إن شاء الله تعالى.

ومنها: أن هذا الشقّ واستخراج القلب واستخراج حظّ الشيطان منه وإرجاعه كما كان؛ كل ذلك على الحقيقة وليس مجازاً وتمثيلياً كما يقال، فإن التأويل يخالف ظواهر النصوص الصحيحة الصريحة فلا يَرُدُّها إلاّ ضعيفُ الإيمان عَقْلاَنِي التَّفْكِير يؤمن بما يقبلُه عقله وينكرُ ما سوى ذلك من الخوارق والآيات، وفي هذه الأحاديث غير ذلك من الفضائل والمزايا.

* * *

❋ وفاة أُمّه آمنة بنت وهب وكفالة جده ﷺ وموته وكفالة عمّه أبي طالب

أجمع أهل السير على أن النبيّ ﷺ لما رُدَّ من بني سعد إلى أُمّه آمنة بقي عندها في كفالتها وحضانتها، وما أن بلغ ست سنين حتى توفيت ثم كفله جدّه عبد المطلب، وما أن تحوّل إلى كفالته حتى فوجىء ﷺ بوفاته وقد تمّ له عليه الصلاة والسلام ثمان سنوات، ثم كفله عمّه أبو طالب حتى شبّ... فهذا القدر لا خلاف فيه بين أهل السِّيَر إلاّ في سنّه ﷺ عند موت أمّه وجدّه.

غير أنني بعد البحث الشديد لم أجد لهذه الجمل أثراً ثابت السند، غير حديث كنديز بن سعيد في احتباسه ﷺ عن جدّه في طلبه الإبل، وإنما هي معضلات ومراسل، وإلى القارىء أشهر ما ورد في ذلك:

[٢٣] قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع أمّه آمنة بنت وهب، وجدّه عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله تعالى وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أُمّه آمنة بنت وهب. قال ابن إسحاق: حدّثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أمّ رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ستّ سنين بالأبواء بين مكّة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزِيرُه إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكّة.

رواه ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (١٩٣/١) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١٨٨/١) وهو مرسل حسن.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبدالمطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْرٌ حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن

له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويَسُرُّه ما يراه يصنع. انظر: سيرة ابن هشام (١٩٤/١)، وسيرة ابن كثير (٢٣٩/١، ٢٤٠).

[٢٤] قال ابن إسحاق: وحدّثني العباس بن عبد الله بن معبد بن عباس عن بعض أهله أن عبد المطلب توفي ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين.

ابن هشام (١٩٤/١).

[٢٥] وعن كِنْدِير بن سعيدٍ عن أبيه قال: حججتُ في الجاهلية فإذا رجل يطوف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رَبِّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّداً رُدَّهُ لي واصْطَنِعْ عِنْدِي يَدا

قلت: من هذا يعني؟ قال: عبد المطلب بن هاشم ذهبَتْ إبل له فأرسل ابن ابنه في طَلَبَتِها، فاحْتُبِسَ عليه، ولم يُرْسِلْه في حاجة قطّ إلاّ جاء بها، قال: فما بَرِحْتُ حتى جاء النبيّ ﷺ وجاء بالإبل، فقال: يا بني لقد حَزِنْتُ عليك كالمرأة حُزناً لا يُفارقُني أبداً.

رواه ابن سعد (١١٢/١)، والطبراني في الكبير والحاكم (٦٠٣/٢، ٦٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٢٠/٢، ٢١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٢٢٤/٨) لأبي يعلى والطبراني وحسّنه.

[٢٦] وأخرج ابن سعد (ح ١١٦/١) من طريق الواقدي عن جماعة دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب فلما بلغ ستّ سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعه أمّ أيمن تحضنه وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهراً، فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أُطُم بني عَدِيّ بن النجار عرفه وقال: كنت أُلاعِبُ أُنَيْسَة جارية من الأنصار على هذا الأُطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نُطَيِّرُ طائراً كان يقع عليه، ونظر إلى الدار فقال: هٰهنا نزلتْ بي أُمّي، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب، وأحسنتُ العومَ في بئر بني عَدِي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون

إليه، فقالت أمّ أيمن: فسمعت أحدهم يقول: "هو نبيّ هذه الأُمّة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كلّه من كلامه، ثم رجعت به أمّه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللّذين قدموا عليهما مكّة، وكانت تحضنه مع أمّه ثم بعد أن ماتت، فلما مرّ رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء، قال: «إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمّه»، فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فقيل له، فقال: «أدركتني رحمتها فبكيت».

[٢٧] وأخرج أيضاً (١/١١٧، ١١٨) من طرق عن جماعة قالوا: كان رسول الله ﷺ يكون معه أمّه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضَه إلَيْه جدُّه عبدُ المطّلب وضمَّه ورقَّ عليه رِقّةً لم يرقّها على ولده، وكان يقرّبه منه ويُدْنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً إلخ...

وأخرج (١/١١٩) عن الواقدي أيضاً من طرق، قالوا: لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ إليه، فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبّه حباً شديداً لا يحبّه ولده، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه ويخرج فيخرج معه، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، إلخ...

فهذه الأخبار وأمثالها وإن لم تصح سنداً على طريقة المحدثين، فمؤدّاها صحيح متفقٌ عليه بين علماء السيرة.

والذي نستخلصه من هذه الأخبار وما أجمع عليه أهل السيرة؛ هو أن النبيّ ﷺ تربّى ونشأ يتيماً، فَقَدَ أباه وهو لا يزال حِمْلاً في بطن أُمّه، ثم فقد أُمّه وهو في سِنّه السادسة وأصبح بلا أبٍ ولا أمٍّ، فعطف الله تعالى عليه جدّه عبد المطلب فضمّه وآواه وجعله كأحد أولاده، ثم لما فقده أيضاً وهو لا يزال في سِنّه الثامنة أخذه عمّه أبو طالب وكان به رحيماً وعليه عطوفاً وفي بيته ورحابه شبَّ وقضى آخر طُفُولتِه وصَبْوَتِهِ وأوائل شبابه، وهو

الذي كان يدافع ويكافح عنه أيام دعوته الأُولى وبقي متّصلاً به موالياً له إلى أن توفي، وللنبيّ ﷺ أكثر من خمسين سنة، هذا مما لا نعلم فيه خلافاً.

* * *

❋ نشاته على مجانبة أمور الجاهلية وحفظه من آفات الشباب

[٢٨] عن جارٍ لخديجة رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول لخديجة: **«أي خديجة والله لا أعبد اللات أبداً، والله لا أعبُد العُزّى أبداً»**.

رواه أحمد (٢٢٢/٤) و(٣٦٢/٥) بسند صحيح.

[٢٩] وعن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف أو نائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررتُ مَسَحْتُ به، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تَمَسُّه»**، قال زيد: فطفنا به، ثم قلت في نفسي: لأَمَسُّهُ حتى أنظر ما يكون، فمسَحْتُه فقال رسول الله ﷺ: **«ألم تُنْهَ؟»** قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنماً حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

رواه أبو نعيم والبيهقي (٣٤/٢) كلاهما في الدلائل وصححه الحاكم وعزاه النور في المجمع (٢٢٦/٨) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

[٣٠] وعن عليّ عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما هَمَمْتُ بشيء مما كان أهلُ الجاهلية يَهُمُّون به من النِّساء إلا ليلتين كلتاهما عَصَمَني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فِتْيان مكة ونحن في رِعاية غنم أهْلِنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخلَ مكة فأَسْمُرَ بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عَزفاً بالغرابيل والمزامير، قلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست**

أنظر وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكّة، ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرتُهُ الخبر، فوالله ما همَمْتُ ولا عُذْت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوّته».

رواه ابن إسحاق والبزار (٢٤٠٣)، وابن حبان (٥٦/٨)، والحاكم (٢٢٥/٤)، وأبو نعيم (١٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣٤/٢، ٣٥) بسند حسن، وأورده النور (٢٢٦/٨) برواية البزار وقال: رجاله ثقات، وحسّنه الحافظ وصححه السيوطي في مناهل الصفا، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما بُنِيَتْ الكعبةُ ذهبَ رسول الله ﷺ والعباس يَنْقُلانِ الحجارة، فقال العباس للنبيّ ﷺ: اجْعَلْ إزارَك على عاتِقك يَقِيك مِن الحجارة، ففعل فخرَّ إلى الأرض وطَمَحَتْ عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: **إزاري»**، فشدّ عليه إزاره فما رُؤِي بعد ذلك عُرْياناً.

رواه أحمد (٢٩٥/٣، ٣٨٠)، والبخاري في الحج وفي المناقب (١٤٦/٨)، ومسلم في الطهارة (٣٣/٤، ٣٤).

اللات والعُزّى: صنمان كانا لقريش؛ اللات أخذوه من الله، والعزّى من العزة تعالى الله تعالى عن شركياتهم ووثنياتهم علوّاً كبيراً.

إساف ونائلة: قد قدّمنا في خبر خزاعة أنهما كانا رجلاً وامرأة ففجرا وزنيا في الكعبة فمسخا حجرين فوضعهما الناس عند الكعبة للاعتبار بهما، فلما طال الأمد عُبدا من دون الله تعالى. قوله: «ما هممت» الهمّ بالشيء؛ إرادته ويُطلق على العزم عليه، وعلى مجرّد حديث النفس به كما هنا وكما وقع من الكريم يوسف عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾... «فخر

إلى الأرض» أي: سقط. «وطمحت عيناه» بفتحات أي: ارتفعت.

وفي هذه الأحاديث بيان عناية الله تعالى بنبيّه ﷺ وما أكرمه به من العصمة والحفظ منذ صغره من القبائح وأخلاق الجاهلية وشركياتها وفجورها وانحرافها وسقطاتها.

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فشبّ رسول الله ﷺ ويكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقاً، وأكرمَهم حَسَباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزّهاً وتكرّماً، حتى ما اسْمُه في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله فيه من الأُمور الصالحة.

ويؤخذ من حديثي جار خديجة، وزيد بن حارثة أنه ﷺ كان منزّهاً عن عبادة الأصنام والتمسّح بها، بعيداً عنها، فما جاء في بعض الأخبار بأنه كان يحضر مشاهد المشركين ويستلم أصنامهم كما رواه أبو يعلى وابن عدي وغيرهما هو منكر أنكره العلماء على عثمان بن أبي شيبة كما قال الحافظ في المطالب العالية، بل هو ﷺ كباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُنَزَّهون ومعصومون من مطلق الآثام كبيرها وصغيرها قبل النبوّة وبعدها، كما هو قول المحقّقين من أهل السنّة، فكيف بالشركيات... كمايؤخذ من حديث عليّ عليه السلام والرّضا من الله أنه ﷺ كان قد حفظه الله عزّ وجلّ من انحرافات الشباب، فإنه كما يحكي عن نفسه رغم أنه أراد السمر مع شباب مكّة وعزم على ذلك مرّتين، فإن الله تعالى صرفه عن ذلك وحالَ بينه وبين ما أراد بالنوم حتى طلعت الشمس ثم عُصِم عن إرادة ذلك نهائياً، فلم يعد يحدّث نفسه بذلك.

وفي حديث جابر عناية أخرى برسول الله ﷺ؛ وهي حفظ عورته من التكشّف خلاف ما كان عليه أهل الجاهلية من كشف عوراتهم وعدم اهتمامهم بسترها.

فقد قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يحدّث عما

كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليّته أنه قال: «**لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لَكَمَنِي لاَكِمٌ ما أراه لَكَمَةً وجيعة، ثم قال: شدّ عليك إزارك...**» ولا شكّ أن ستر العورات من محاسن الأخلاق الواجبة في الإسلام، وقد جاء في الصحيح: «**لا تمشوا عراة**»، بل في القرآن: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ الآية.

* * *

❊ رعيه الغنم في صغره ﷺ

[٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**ما بَعَثَ الله نبيّاً إلا رعَى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**نعم، كنتُ أرْعَاهَا على قَرَارِيطَ لأهل مكّة**».

رواه البخاري في الإجارة (٣٤٨/٥)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩)، وابن سعد في الطبقات (١٤٥/١).

[٣٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ نَجْتَنِي الكَبَاثَ، فقال: «**عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبُه**»، قال: قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «**نعم، وهل من نبيّ إلا قد رعاها**».

رواه البخاري في الأنبياء وفي الأطعمة (٥٠٩/١١)، ومسلم كذلك (٥/١٤، ٦) وغيرهما.

«القراريط» جمع قيراط وهو جزء من الدينار أو الدرهم، وقوله: «الكباث» بفتح الكاف وفتح الباء المخفّفة وهو ثمر الأراك وقد تقدم بيانه في الأطعمة.

وفي الحديثين دليل على أن كل الأنبياء كانوا يرعون الأغنام لما في ذلك من الحكم الإلٰهية. قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي

الغنم قبل النبوّة أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما يُكَلَّفُونَه من القيام بأمْرِ أُمَمِهِم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرّقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوّها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحمّلهم لمشقّة ذلك أسهل مما لو كلّفوا القيام بذلك من أوّل وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة... ذكره الحافظ في الفتح.

وفي قوله: «على قراريط» هو يدلّ على أنه كان يأخذ الأجر على رعايته لتلك الأغنام ولا غضاضة في ذلك كما لا غضاضة في رعيه الغنم، فلا يحط ذلك من عظيم منزلته وقدره ﷺ، فإن مثل هذا العمل كسب وكل الناس مطالبون باكتساب العيش، وذلك من الأعراض البشريّة التي يستوي فيها الأنبياء وغيرهم.

* * *

❁ سفره ﷺ مع عمّه أبي طالب إلى الشام وقصة بَحِيرَا الراهب

[٣٤] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبيّ ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشْرَفُوا على الراهب هَبَط فحَلُّوا رِحالَهم، فخرج إليهم الراهبُ، وكانوا قبل ذلك يَمُرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفتُ، قال: فهم يحملون رِحالَهم فجعل يَتَخَلَّلُهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيّدُ العالمين، هذا رسولُ ربّ العالمين، يَبْعَثُه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما عِلمُك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقَ حجرٌ ولا شَجَرٌ إلاّ خرَّ ساجداً، ولا يَسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوّة أسفل من غُضْرُوفِ

كتفِهِ مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به فكان هو في رعية الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظِلُّه، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيءُ الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فَيْء الشجرة مالَ عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يُناشِدُهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبيّ خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد أُخْبِرْنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس ردّه؟ قالوا: لا، قال: فبَايَعُوهُ وأقاموا معه. قال: أنشُدُكم بالله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى ردّه أبو طالب وبعث معه أبا بكر وبلالاً وزوّده الراهبُ من الكَعْكِ والزيت.

رواه ابن أبي شيبة في أول المغازي من مصنّفه رقم (٣٦٥٤١) والترمذي في المناقب (٣٣٨٩) بتهذيبي والحاكم (٦١٥/٢) وأبو نعيم (٥١، ٥٤)، والبيهقي (٣٠٧/١، ٣١٢) كلاهما في الدلائل وصححه الحاكم، وسنده صحيح على شرط البخاري عند الترمذي وله شواهد عند ابن سعد (١٢٠/١، ١٢١)، وعند ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام (٢٠٤/١) غير أن فيه ألفاظاً منكرة كذكر أبي بكر وبلال وقدوم الروم لقتله ﷺ، وقولهم إنه خارج في هذا الشهر وغير ذلك، ولذلك أنكره الذهبي وابن كثير وابن سيد الناس وأبطله من عدة وجوه أستاذنا الحافظ سيدي أحمد الصديق رحمه الله تعالى في الجزئة.

ومع ذلك، فإن ما ذكروه لا ينافي صحة أصل الحديث.

قوله: «يتخلّلهم» أي: يمشي وسطهم. «غُضْرُوف» بضم العين المعجمة ثم ضاد ساكنة هو؛ نُغَض الكتف وهو ما يجيء ويذهب من الكتف عند التحرّك. «في الشجرة» أي: ظلها. «يناشدهم» أي يسألهم بالله تعالى.

كان النبيّ ﷺ بحكم يُتْمه وفقدانه والده وأمّه قد ألف عمّه أبا طالب واتّخذه كأب له لما كان يعامله كأحد أولاده، فكان ﷺ لا يصبر على مفارقته، ولما بلغ ﷺ من العمر اثني عشر عاماً عرضت لأبي طالب رحلة تجارية للشام وهي رحلة تَسْتَغْرِقُ أكثر من أربعين يوماً فشقّ على النبيّ ﷺ مفارقة عمّه، فما كان إلا أن صحبه معه في تلك الرحلة الشاقّة الطويلة، وهو لا يزال لم يحتلم بعد، فكانت هذه الرحلة هي أول رحلة يخرج فيها من مكّة المكرمة.

وفي هذه القصة بيان أن أهل الكتاب من النصارى وغيرهم كان لهم علم بالنبيّ ﷺ وصفاته بما كانوا يعرفونه من كتبهم كما تقدم، ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وفيها تلك المعجزة من تظليل فيء الشجرة إياه وانتقاله إليه ﷺ، كما فيها سجود الحجر والشجر له وهما خلق لله تعالى مسخران ليس لهما حول ولا قوّة إلاّ بالله تعالى، فسجودهما كان بإذن الله عزّ وجلّ تعظيماً لهذا النبيّ الكريم وإعلاماً لمن شاهد ذلك بأنه سيكون له شأن في مستقبل حياته.

فيا سعادة من آمن به واتّبع دينه، ويا بشرى من أحبّه واقتفى أثره ﷺ حتى الموت.

وفي هذا الحديث أيضاً أنه ﷺ دخل الشام لأول مرة وكانت رحلات العرب التجارية للشام تارة لبُصْرَى - بضم الباء - وهي قريبة من دمشق، ومرة لغَزَّة وهي بفلسطين، وكلاهما دخلهما النبيّ ﷺ في أسفاره التجارية.

* * *

❁ حضور النبيّ ﷺ حلف الفضول

[٣٥] عن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَيِّبِينَ مع عُمُوَتِي وأنا غلامٌ، فما أُحِبُّ أن لي حُمْرَ النَّعَم، وأني أنكُثُه**».

رواه أحمد (١/١٩٠، ١٩٣)، وأبو يعلى (٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢)، والبزار (١٩١٤، ٣٣٠٨)، والبيهقي في السنن (٦/٣٦٦) وسنده صحيح وله شواهد، عن أبي هريرة رواه البيهقي في السنن (٩/٣٦٦) وفي الدلائل (٢/٣٨)، وعن طلحة بن عبدالله بن عوف رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في السنن (٦/٣٦٧) وهو مرسل صحيح، وزاد فيه: «ولو دُعيتُ به في الإسلام لأجَبْتُ».

حلف الفضول؛ هو تحالف وقع بين بطون من أهل مكّة على أن ينصروا المظلوم ويأخذوا على يد المعتدي، ووقع ذلك بدار عبدالله بن جدعان وحضره النبيّ ﷺ مع أعمامه، وله عشرون سنة.

وكان سببه كما ذكره أهل السير أن رجلاً من زبيد قدم مكّة ببضاعة فاشتراها العاص بن وائل، فحبس عنه حقّه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً، وجمحاً، وسهماً، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه، أي انتهروه، فلما رأى الزبيدي الشَّرّ، أَوْفَى على أبي قُبَيْسٍ عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يا آلَ فِهْر لِمَظْلُوم بِضاعَتُهُ، بِبَطْن مكّة نائِي الدَّارِ والنَّفَرِ،

ومُحْرِمٍ أشْعَثَ لم يَقْضِ عُمْرَتَهُ، يا للرِّجالِ وبين الحِجْرِ والحَجَر،

إنَّ الحرامَ لمَن تَمَّت كرامَتُه، ولا حرامَ لثَوْبِ الفاجر الغَدِرِ،

فقام الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لِهَذَا مَتْرَكٌ،

فاجتمعت هاشم، وزهرة، وتَيْم بن مرّة في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقّه ما بَلَّ بَحْرٌ صوفة، وما رَسَى ثبيرُ وحراءُ مكانَهما، وعلى التآسي في المعاش.

فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه، فقال الزبير في ذلك:

حلفْتُ لنَعْقِدَنَّ حِلْفاً عَلَيْهِمْ وإن كُنَّا جميعاً أهل دارِ
نُسَمِّيهِ الْفُضُول إذا عَقَدْنَا يَعِزُّ به الغريبُ لِذي الجِوارِ
ويَعلمُ مَن حَوالَي البيت أنّا أُباةُ الضَّيْمِ نَمْنعُ كلَّ عارِ

وقال:

إنّ الفضولَ تعاقَدُوا وتحالفوا ألاَّ يُقيمَ بِبَطْنِ مكّة ظالِمُ
أمْرٌ عليه تعاقدُوا وتواثَقُوا فالجار والمُعْتر فيهم سالِمُ

فكان هذا الحلف من أفضل وأحسن ما تعاقدت عليه قبائل قريش وبطونها، وأثنى عليه النبيّ ﷺ وحمد حضوره وتمنّى أن لو دُعِيَ لمثله في الإسلام لأجاب إليه لأنه من محاسن الأخلاق ومكارمها.

* * *

❋ تزوّج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله تعالى عنها

[٣٦] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة رضي الله تعالى عنها، وكان أبوها يَرْغَبُ عنْ أن يُزَوِّجَه، فصَنَعَتْ طعاماً وشراباً، فدعَتْ أباها وزُمَراً من قريش، فطعِمُوا وشَربوا حتى ثَمِلُوا، فقالت خديجة لأبيها: إن محمد بن عبدالله يخطبُني فزَوِّجْني إياه، فزوّجها إياه، فخلَّقَتْه، وألْبَسَتْه حُلّة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سُرِّي عنه سُكْرُه نظر، فإذا هو مُخلَّق، وعليه حلة، فقال: ما شأني؟ ما هذا؟ فقالت: زوّجتني محمد بن عبدالله، قال: أزوّج يتيم أبي طالب، لا لَعَمْرِي، فقالت خديجة: أما تستحي!؟ تريد أن تُسَفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي.

رواه أحمد (٣١٢/١)، والطبراني في الكبير وعنهما أورده الهيثمي (٢٢٠/٩) وقال: رجالهما رجال الصحيح، وعن جابر بن سمرة نحوه عزاه في المجمع (٢٢٢/٩) للطبراني والبزار بسند صحيح. قال أهل السيرة:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها امرأة حازمة لبيبة أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأجملهنّ صورة وأحسنهنّ جسماً، كل قومها كان حريصاً على التزوّج بها، وكانت ثريّةً ذات مال تاجرةً تستأجر الرجال على مالها مُضاربةً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرَم أخلاقه بعثَتْ إليه، فعرضَتْ عليه أن يَخْرُجَ لها في مال تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجّار مع غلام لها يقال له مَيْسَرةُ، فقَبِلَ رسول الله ﷺ ما عرَضَتْ عليه، فخرج ومعه غلامُها ميسرة حتى نزل الشام، فباع سلعته واشترى ما أراد أن يشتري وجاء بربح عظيم، فلما قدم مكّة على خديجة وقد رأت ما جاء به من الربح وحدَّثها ميسرة ما شاهد منه من الأخلاق الكريمة والخوارق التي رآها في رحلته منه ﷺ بعثَتْ إليه ﷺ أنها راغِبَةٌ في التزوُّج بك لقرابتك ووسطك في قومك وأمانتك وحُسْن خلقك وصدق حديثك، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة فخطبها من أبيها، فتزوّجها عليه الصلاة والسلام وأصدقها عشرين بكرة، وحضر أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب، فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرّية إبراهيم وذرية إسماعيل وضِئضِي معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه... إلى آخر الخطبة، وكانت أول امرأة تزوّجها ولم يتزوّج عليها غيرها حتى ماتت، وكان عُمرها أربعين سنة، وعمره ﷺ خمساً وعشرين سنة، وظلّت معه حتى توفيت عن خمس وستين سنة، وقد ناهز النبيّ ﷺ الخمسين من عمره، وفي أيامها وحياتها المباركة معه أكرمه الله عزّ وجلّ بالوحي والرسالة.

وأنجبت له كل أولاده، وهم القاسم وبه كان يكنى بعد النبوّة ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وكان يلقّب بالطيب والطاهر، ومات القاسم بعد أن بلغ ركوب الدابّة ومات عبدالله وهو طفل.

وعاش بناته الأربع وتزوّجن ومات سائرهنّ في حياته رضوان الله عليهنّ إلا فاطمة عليها السلام، فماتت بعده بستّة أشهر.

أما ولده إبراهيم، فكان من مارية القبطية كما يأتي في الغزوات...

ولخديجة رضي الله تعالى عنها فضائل جمّة، فهي من النساء الكاملات اللاتي تحدّث عنهنّ النبيّ ﷺ وبشّرها الله بالجنّة كما يأتي ذلك في مناقبها كبناتها في الفضائل والمناقب إن شاء الله تعالى.

ملحوظة: قد وقع اختلاف في كيفية تزوّجه ﷺ بسيّدتنا خديجة رضي الله تعالى عنها وسببه، كما اختلف فيمن زوّجها هل كان أبوها أم عمّها؟ وعلى أيٍّ فكلّ ذلك غير ضائر. والإجماع على أنه ﷺ تزوّجها وأنها والدة بناته وأولادها، فمن أنكر ذلك لم يكن من المسلمين؛ لأن ذلك معلوم من الدين ضرورة.

* * *

❁ مشاركة النبيّ ﷺ في بناء الكعبة مع قريش

[٣٧] عن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: كانت الكعبة في الجاهلية مبنيةً بالرضم، وكانت قدر ما يفتحها العناقة، وكانت غير مسقوفة، وإنما توضع ثيابها عليها ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها تأدباً، وكانت ذات ركنين كهيئة الحلقة، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة تكسّرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها فأخذوا الخشب أعطاهم إياه، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب من السفينة بيت ربّنا، فلما أرادوا هدمه، إذا هم بحيّة على سور البيت مثل قطعة الحائر، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد إلى البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته سعَتْ إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عند المقام فعجوا إلى الله تعالى، فقالوا: ربنا لم ترع، أردنا تشريف بيتك، فإن كنت ترضى بذلك، وإلاّ فافعل ما بدا لك، فسمعوا خواراً في السماء، فإذا بطائر أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، أعظم من البشر، فغرز مخاليبه في رأس الحيّة، حتى انطلق بها يجرّ ذنبها أعظم من كذا وكذا ساقطاً، فانطلق نحو أجياد، فهدمتها قريش،

وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعاً.

فبينما النبيّ ﷺ يحمل حجارة من أجياد، وعليه نمرة، فضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه فترى عورته من صغر النمرة، فنودي: يا محمد خَمِّر عورتك، فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك، وكان يرى بين بناء الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين، وبين مخرجه وبنيانها خمس عشرة سنة.

رواه أحمد (٤٥٥/٥) مختصراً، والطبراني مطولاً كما عزاه إلى النور في المجمع (٢٨٩/٣) وقال: رجالهما رجال الصحيح.

[٣٨] وعن عليّ عليه السلام قال: لما أرادوا أن يرفعوا الحجر ـ يعني قريشاً ـ اختصموا فيه، فقالوا: يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكّة، وكان رسول الله ﷺ أوّل من خرج عليهم، فجعلوه في مِرْطٍ، ثم رفعه جميعُ القبائل كلّها ورسول الله ﷺ يومئذ رجلٌ شابٌّ ـ يعني قبل البعثة ـ وفي رواية: لما رأوا النبيّ ﷺ قد دخل قالوا: قد جاء الأمين. وفي رواية: لما انهدم البيت بعد جرهم فبنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا مَنْ يَضعه، إلخ...

رواه الطيالسي (٢٣١٦) مع المنحة بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٢٢٩/٨) لأوسط الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح. وعمير بن حفص بن عمر الضرير، وخالد بن عرعرة كلاهما ثقة، وله شاهد عن السائب بن عبد الله رواه أحمد (٤٢٥/٣) بسند حسن بنحوه.

قوله مبنية «بالرضم» أي: بالصخور، وقوله: «العناقة» أي: الطويل العنق. وقوله: «فعجوا» أي: رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله تعالى.

الكعبة المكرمة: هي أول بيت وُضع للناس في الأرض لعبادته عزّ وجلّ وحده كما في القرآن الكريم وكما في حديث أبي ذرّ في الصحيحين وقد تقدم في المساجد من كتاب الصلاة رقم (٥٤٥) من الجزء الأول، وكان أول من بناها لأول مرة الخليل؛ سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام على القول الصحيح كما قدّمناه في قصته من الأنبياء.

وبناها ثانيةً جرهم ثم تعرّضت بعد ممرّ الزمان للعوادي التي أوْهَتْ بنيانها وصدعت جدرانها، وكان من بين ذلك سيل عرم جرف مكة المكرمة قبل بعثة النبيّ ﷺ بخمس سنوات، فأرادت قريش تجديدها وتشييدها حرصاً منهم على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة، وقد كان احترامهم لهذا البيت وتعظيمهم له بقية ممّا ظل محفوظاً من شرعة الخليل بينهم، ولكن قريشاً كانوا متهيبين لتهديم البيت ثم تجديده، وقد زادهم مهابة وخوفاً تلك الحيّة التي كانت تثب عليهم كلما حاولوا هدم البيت أو إحداث شيء فيه، حتى أراحهم الله تعالى منها فأرسل إليها طائراً فأبعدها عن الكعبة، فكان ذلك كالإذن لهم في تشييدها.

فشرعوا في تهديمها وتجديدها واتّفقوا أن لا ينفقوا فيها مالاً نتج عن خمر أو قمار أو زنا، فبنوها وجعلوا طولها في السماء عشرين ذراعاً، وجعلوا لها باباً مرتفعاً من ناحية الشرق لئلاّ يدخل إليها كل أحد، وأرادوا أن يجعلوا البيت على قواعد إبراهيم لكن النفقة قصرت بهم فلم يتمكّنوا من ذلك، فأخرجوا منه الحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ وهو نصف دائرة من ناحية الشمال قدر ثلاثة أمتار ونحوها.

ولما فرغوا من بنائها وقع بينهم نزاع أيّهم يضع الحجر الأسود في موضعه حتى همّوا بالقتال ثم اتّفقوا على أن يُحَكِّمُوا بينهم أول داخل من باب بني شيبة، فكان أوّل داخل الصادق الأمين ﷺ فحكّموه في ذلك؛ فأمرهم بثوب فأُتِي به فوضع الحجر فيه ثم أمر المتنازعين فأمسكوا بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الركن، فحمل ﷺ الحجر ووضعه في مكانه، فانتهت المشكلة وكان للنبي ﷺ مشاركة في هذا البناء المقدّس الخالد، وعمره إذ ذاك خمسة وثلاثون عاماً، وكان ينقل مع أعمامه الحجارة على عاتقه من أجياد، وفي إحدى المرات سقط عنه ثوبه حتى عري تماماً وسقط إلى الأرض ورفع عينيه إلى السماء، فقال: إزاري إزاري، فلم يُرَ بعد مكشوفاً قطّ، وقد تقدم هذا في حفظ الله تعالى إياه من سقطات الجاهلية.

[٣٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عائشة لولا أن قومَكِ حديثُو عَهدٍ بشِرْكٍ لهدَّمتُ الكعبة فالزَقْتُها بالأرض وجعلتُ لها بابين باباً شرقياً وباباً غربِياً، وزدتُ فيها ستَّة أذرُع من الحِجْرِ، فإن قُرَيْشاً اقتصرتْها حيث بنت الكعبة».

وفي رواية: **«لولا حداثة عهد قومِك بالكفْر لنَقَضْتُ الكعبة ولجعلتُها على أساسِ إبراهيم، فإنّ قريشاً حين بنت البيت استقْصَرَتْ».**

وفي أخرى: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: **«نعم»**، قلت: فلِمَ لمْ يُدخلوه في البيت؟ قال: **«إن قومكِ قصُرت بهم النفقة».**

وفي أخرى: **«لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها من الحجْر...».**

رواه البخاري (٥/١٨٣، ١٨٩)، ومسلم (٩/٨٨، ٩٧) كلاهما في الحجّ.

في هذا الحديث الشريف زيادة على ما تقدم من بناء كفار قريش البيت في الجاهلية؛ أن النبيّ ﷺ بعد أن فتح مكّة المكرّمة وأصبحت دار إسلام تمنّى أن لو هدم البيت وأنشأه من جديد على قواعد وأُسس إبراهيم عليه الصّلاة والسلام، وأن يدخل فيه الحجر الذي أخرجه كفّار قريش، وأن يجعل له بابين ملتصقين بالأرض؛ باباً للدخول وباباً للخروج، ولكنه ترك ذلك خشية مما عسى أن يصدر من أهل مكّة من استنكارهم ذلك، حيث إنهم كانوا قريبي عهدهم بكفر وجاهلية فترك ذلك نظراً للمصلحة التي رآها أرجح من غيرها.

وقد أخذ العلماء رحمهم الله تعالى من هذا الحديث وغيره قاعدة عظيمة، وهي: «إذا تعارضت المصالح»، أو «تعارضت مصلحة ومفسدة»، وتعذّر الجمع قدم الأهم مصلحة أو الأكثر مفسدة، فإن النبيّ ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردّها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً، وذلك لما

كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة وقداستها فيرون تغييرها على ما كانت عليه عظيماً.

وقد تقدم أن قلنا بأن أول من بنى البيت خليل الله عليه الصلاة والسلام، وبناه ثانياً الجراهمة ثم ثالثاً كفار قريش ثم بناه رابعاً عبدالله بن الزبير بعد استيلائه على الحرمين أيامَ عبدالملك بن مروان اعتماداً منه على ما حدّثته به خالته مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها فهدمه وبناه على قواعد إبراهيم وعلى ما تمنّاه النبيّ ﷺ، ولكنه لما قتل واستولى عبدالملك المرواني على الحرم الشريف هدمه وأرجعه إلى ما كان عليه رغم أنه علم ما حدثت به سيّدنا عائشة رضي الله تعالى عنها، فكان هذا هو بناء البيت الخامس وهو الموجود الآن، فلا يعرف أن أحداً من ملوك المسلمين عبر العصور هدمه وبناه من جديد بعد البناء المرواني. نعم وقع إصلاحه وترميم بعض جدرانه كثيراً في عصور مختلفة، وذكروا أن أبا جعفر العباسي أراد إرجاعه إلى ما كان عليه بناءُ ابنِ الزبير، فاستشار مالك بن أنس رحمه الله تعالى فنهاه عن ذلك خشية أن يظلّ لُعْبةً بأيدي الملوك، والله المستعان وله البقاء.

* * *

❁ تسليم الحَجَرِ على النبيّ ﷺ قبل المبعث

[٤٠] عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنّي لأَعْرِفُ حَجَراً بمكّة كان يُسلّم عليّ قبل أن أُبْعَثَ إني لأعرفه الآن»**.

رواه أحمد (٨٩/٥)، والطيالسي (٢٤٥٠)، ومسلم في الفضائل (٣٦/١٥)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٣) بتهذيبي.

قيل: هذا الحجر هو الأسود الموجود في الركن وقيل غيره، وعلى أيٍّ فذلك آية من آيات الله الباهرة، فإن الحجر جماد لا روح فيه ولا حياة، ومع ذلك قد أعطاه الله عزّ وجلّ شعوراً عرف به النبيّ ﷺ وما سيراد به

في المستقبل، فكان يؤانسه ﷺ بسلامه عليه ويُشعره بأنه سيكون له شأن.

ومثل هذا الخارق قد وقع لبعض أفراد أُمته ﷺ وأتباعه الصالحين، فكان إذا خرج سمع السلام عليه من الأشجار والأعشاب والأحجار. والله يختصّ بفضله من يشاء، فلا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه.

❊ ❊ ❊

❊ خاتمة

جاء في الأبواب السابقة إلى هنا عدّة أحداث تتعلّق بالحبيب سيّدنا رسول الله ﷺ، وهذه خلاصتها:

افتتحنا بنسبه الشريف الطاهر، ثم بالبشارة على لسان خليل الرحمٰن، وعيسى ابن مريم به عليه وعليهما الصّلاة والسلام، ثم بالبشارة به في التوراة والإنجيل، ثم تبشير اليهود والأحبار والرهبان ببعثته وفي ذلك ذكر قصة سلمان رضي الله تعالى عنه وطلبه الدين الحقّ حتى اتّصل بالنبيّ ﷺ وقصّته ممتعة فيها عِبَر، ثم مولده الشريف وذكر ما قيل في وقته المتفق عليه والمختلف فيه، ووفاة والده وهو جنين من شهرين في رحم والدته، ثم رضاعه ومرضعاته وما حدث له تلك الأيام من شقّ صدره الشريف، ثم وفاة أُمّه وجدّه وكفالتهما إياه، ثم نشأته على مجانبة أمور الجاهلية وحفظه أيام شبابه مما يدنّس كرامته وعرضه، ثم سفره إلى الشام للمرة الأولى مع عمّه أبي طالب وعمره اثنا عشر عاماً، ثم حضوره مع أعمامه حِلْف الفضول والتعاقد على نصر المظلوم، ثم تزوّجه بالسيّدة الجليلة مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها وعمره خمسة وعشرون عاماً وعمرها هي الأخرى أربعون سنة، ثم مشاركته في بناء الكعبة قبل البعثة بخمس سنوات وعمره خمس وثلاثون سنة، ثم تسليم الحجر عليه ﷺ.

وولد ﷺ يتيماً وتربّى وشبّ كذلك، لكنه كان تحت رعاية الله تعالى وعنايته وحفظه، فقد كان كما قال تعالى ممتناً عليه في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ

﴿يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾، أي كنت يتيماً فآواك الله إلى جدّك ثم إلى عمّك فشملاك بالرعاية والمحبة، وكنت تائهاً عن معرفة الشريعة والدّين الحق فهداك إليها كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، وكنت عائلاً أي فقيراً لا مال لك فأغناك عن الخلق بتجارتك في مال خديجة.

بعثة النبيّ ﷺ وبدء الوحي
والمرحلة الأُولى المكية
عمره ﷺ يوم بُعِث

[٤١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأربعين سنةً، فمكث بمكّة ثلاثَ عشرةَ سنة يُوحَى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عَشْرَ سنين ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستّين.

رواه أحمد (٢/٢٣٦، ٢٤٩)، والبخاري في المبعث باب هجرة النبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٩/٢٣٠)، ومسلم في الفضائل باب قدر عمره ﷺ وإقامته بمكّة والمدينة (١٥/١١٢) وغيرهم.

في الحديث بيان عمره ﷺ عند بعثته وأنه كان ابن أربعين سنة؛ وهي سنّ الكمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية، جاءت الآية في قصة كليم الله موسى ومثلها في يوسف عليهما الصلاة والسلام، والحديث يدلّ على أنه أقام بمكّة يوحى إليه ثلاث عشرة وبالمدينة بعد الهجرة عشراً وتوفي وهو ابن ثلاث وستين، وهذا أصح ما ورد كما اتّفق عليه العلماء، وما جاء بخلاف ذلك فمؤوّل أو غلط من بعض الرواة كما قال النووي، وقول ابن عباس: فهاجر عشر سنين، أي أقام مهاجراً عشر سنين، قاله الحافظ.

* * *

[٤٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقام ﷺ بمكّة خمس عشرة سنة، يَسْمعُ الصَّوْتَ ويرَى الضَّوْء سَبْعَ سِنِينَ ولا يَرَى شيئاً، وثَمانِي سِنين يُوحَى إليه، وأقام بالمدينة عَشْراً. وفي رواية: ثمان سنين أو سبعاً يرى الضوء ويسمع الصوت، وثمانياً أو سبعاً يوحى إليه.

رواه أحمد بالرواية الثانية (٢٦٦/١)، ومسلم بالأولى في الفضائل (١٠٣/١٥، ١٠٤).

قال القاضي عياض على قوله: «يسمع الصوت ويرى الضوء»، أي صوت الهاتف به من الملائكة، ويرى الضوء أي: نور الملائكة ونور آيات الله تعالى حتى رأى الملك بعينه وشافهه بوحي الله تعالى.

[٤٣] وعنه أيضاً أن النبيّ ﷺ قال لخديجة رضي الله تعالى عنها: **«إني أرَى ضَوءاً، وأسْمَعُ صوتاً، وإني أخشَى أن يكونَ بي جنونٌ»**، قالت: لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبدالله، ثم أتت به وَرَقة بن نَوْفَل فذكرت ذلك له، فقال: إن يكن صادقاً فإن هذا ناموسٌ مِثْلُ ناموس موسى، فإن بُعِثَ وأنا حَيٌّ فسأعَزِّرُه، وأنصُرُه، وأُومِنُ به.

رواه أحمد (٣١٢/١) بسند صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٥٥/٨) وعزاه لأحمد متّصلاً ومرسلاً وللطبراني بنحوه، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح وهو عند ابن سعد (١٩٥/١) من هذا الطريق.

[٤٤] وعن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: أولُ ما بُدِيءَ به رسولُ الله ﷺ من الوَحْيِ؛ الرُّؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يَخْلُو بغار حِراء فيَتَحَنَّثُ فيه وهو التعبُّد الليالي ذواتِ العَدد قبل أن ينزِعَ إلى أهْلِه، ويَتَزَوَّد لذلك، ثم يَرجعُ إلى خديجة فيَتزوَّدُ لمِثْلِها، حتى جاءَهُ الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملكُ فقال: **«إقرأ»، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغَطَّنِي حتى بلغَ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: إقرأ، قال: ما أنا**

بقارىء، قال: فأخذني فغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤادُه فدخل على خديجة بنت خُوَيْلد رضي الله تعالى عنها، فقال: «زمِّلُوني زمِّلُوني»، فزمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خَشيتُ على نفسي»، فقالت خديجة: كلاَّ والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المَعدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائِبِ الحقّ، فانطلقتْ به خديجةُ حتى أتَتْ به ورقةَ بنَ نوفل بن أسدِ بن عبد العزّى ابن عمّ خديجة، وكان امرأً تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العِبْرانِيَّ فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتُبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: يا ابن عمّ اسْمَعْ من ابن أخيكَ، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خَبَرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعاً، ليتني أكونُ حياً إذ يُخْرِجُكَ قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْنِي يومُك أنصُرْك نَصْراً مُؤَزَّراً، ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّي وفَتَرَ الوَحْيُ.

رواه أحمد (٦/٢٣٢، ٢٣٣)، والبخاري في بدء الوحي (١/٢٥، ٣٠) وفي التفسير (١٠/٣٤٤، ٣٥٠) وفي التعبير وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان (٢/١٩٧، ٢٠٥).

وزاد أحمد: وفتر الوحي حتى حَزِنَ رسولُ الله ﷺ فيما بلغنا حُزْناً غَدَا مِنه مِراراً كَيْ يَتَرَدَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذِرْوَة جبل لِكي يُلْقي نَفْسَه تَبَدَّى له جبريل عليه السلام، فقال له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيَسْكُنُ ذلك جَأْشُه، وتَقَرُّ نفسُه عليه الصلاة والسلام فيَرجعُ، فإذا طالتْ عليه وفَتَر الوَحْيُ غَدَا لِمِثْل ذلك، فإذا أَوْفَى بذِرْوَةِ جَبَلٍ تبدّى له جبريل عليه السلام فقال له مثل ذلك.

ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (١٠٨٤، ١٠٨٥) بالموارد، والحاكم (٤/٢ ج ٣٢٥/٤) وغيرهم من حديث جابر وهو حديث صحيح لشواهده.

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثّل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً ـ كما في حديث جبريل المعروف ـ.

الرابعة: إنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه فيتلبّس به الملك حتى إن جَبِينَه لتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقُلَتْ عليه حتى كادت تَرُضَّها.

الخامسة: إنه يرى الملك في صورته التي خُلِق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يُوحيه، وهذا وقع له مرّتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السمٰوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلّم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنصّ القرآن، وثبوتها لنبيّنا ﷺ هو في حديث الإسراء، وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تَكْليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربّه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف...

ثانياً: قولها: الرؤيا الصالحة، اتّفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ، وقد قال تعالى عن سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، والجمهور على أنه مكث يوحى إليه بالرؤيا ستّة أشهر، ولذلك قال في الحديث الصحيح: «**رُؤيا المُؤمِن جُزْءٌ من سِتّةٍ وأربعين جُزْءاً من النُّبُوّةِ**»، وقد تقدم مع معناه في الرؤيا والتعبير.

ثالثاً: في الحديث مشروعيّة الخلوة للتفرّغ للعبادة والتعرض لنفحات الله تعالى ومعرفته، وهي طبعاً ناشئة عن العزلة، فهما متلازمان، وقد ورد فيهما أحاديث وسنن ستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

رابعاً: فيه أن أول ما نزل من القرآن وأكرم الله تعالى به نبيّه ﷺ سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ إلى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وهذا قول جمهور العلماء للأدلّة المتضافرة على ذلك.

فكانت أول رحمة رحم الله تعالى بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم...

قال ابن كثير: وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن مِنْ كَرَمِهِ تعالى أنْ عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم، فشَرَّفَه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبُو البرية آدم على الملائكة، الخ.

خامساً: فيه فضل مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها ورجاحة عقلها، ويؤخذ من ذلك أنها أوّل من آمن به ﷺ وبما جاء به على الإطلاق.

سادساً: فيه أن النبيّ ﷺ كان متّصفاً بمكارم الأخلاق والشّيَم الحميدة قبل نبوّته، وقد عرفت ذلك خديجة منه كما كان ذلك معروفاً عند كل من عرفه، ولذلك لما قال لها: «**لقد خشيت على نفسي**» يعني من الشياطين، وقوله: «**إني أخشى أن يكون بي جنون**» طمأنَته، وقالت له: «كلاَّ والله لا يخزيك الله أبداً» الخ.

وعرفت عنه أنه ليس ممن تسلّط عليهم الشياطين كالكهّان... وذلك لما هو متّصف به من الأخلاق الحسنة والشمائل الكريمة.

سابعاً: فيه الفزع إلى أهل العلم والدين عند نزول الأحداث والمهمات بالإنسان مما لا يدري المخرج منها.

ثامناً: فيه فضل ورقة بن نوفل وأنه آمن بالنبيّ ﷺ وتمنّى نصره

وتأييده عندما يدعو قومه ويُخرجونه من بلدته، وقد جاء في رؤيا له ﷺ ما يدلّ على أنه من أهل الجنّة، ولا ينبغي أن يشكّ في ذلك.

تاسعاً: قال القاضي عياض والعيني وغيرهما ما معناه: إنما بدىء ﷺ بالرؤيا الصالحة في الوحي مع ما كان يشاهده من الضوء وما يسمعه من الصوت وسلام الحجر والشجر عليه وغير ذلك من التباشير، كان ذلك إرهاصاً له فيستشعر ما يُراد به ويستعد لما سيفاجأ به من مجيء الملك.

عاشراً: في قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أقام بمكّة خمس عشرة سنة يسمع الصوتَ ويرى الضوء سبع سنين... وثمان سنين يُوحَى إليه، هو مخالف للأحاديث الأخرى بالنسبة لإقامته بمكّة خمس عشرة سنة كما تقدّم ويأتي، كما أن قوله: يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، وقوله: ثمان سنين يوحى إليه هو شاذّ ومخالف لما عليه الجمهور، ووجهه الخازن بأن يحمل قوله: على سنتين قبل النبوّة فيما كان يراه من الضوء والتباشير، وثلاث سنين بعدها قبل إظهار الدعوة، وعشر سنين معلناً بالدعوة بمكّة، ومع ذلك فلا يزال الإشكال قائماً، فإن قوله: وثمان سنين يوحى إليه ينافي ما قاله، فالله أعلم كيف حصل ذلك، رغم أنه في صحيح مسلم، ولم يعرج القاضي عياض ولا النووي على توجيه ذلك.

حادي عشر: إن خلوته ﷺ بغار حراء البعيد عن العمران كان إلهاماً من الله تعالى، فإنه لما رأى قومه وما هم عليه من أعمال الجاهلية وفشوّ الشرك بالله وعبادة الأوثان من أحجار وأشجار مضافة إلى كثرة فجورهم وارتكابهم الفواحش ومظاهر تنافي الفطرة، فعند ذلك اعتزل مجتمعهم وصعد إلى قمّة ذلك الجبل الوعر فجعل يتعبّد ويتفكّر في عظمة الله التي تتجلّى في هذا الكون الفسيح حتى أكرمه الله تعالى بما أكرمه.

وقد ضلّ هنا أقوام، فقالوا: إن النبوّة قد تُدرك بالعبادة والانقطاع عن المخلوقات، وأنها مكتسبة وهذا جهل وضلال، فإن النبوّة منّة وفضل من الله تعالى يضعها حيث شاء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾. نعم؛ التي تُكتسب هي: الولاية وأنواع مقاماتها إلى مقام الصدّيقية.

ثاني عشر: قولها: «**وفتر الوحي**»، أي احتبس جبريل عليه السلام عن مجيئه إليه، وقد اختلفوا كم بقي احتباسه عنه؟ فقيل: ثلاث سنين، وقيل: سنتان ونصف وقيل غير ذلك، وفي هذه المدة كان يحزن ويأتي رؤوس شواهق الجبال ليلقي نفسه، فكان كلما أوفى بذروة جبل تظاهر له جبريل عليه السلام فيطمئنه ويقول له: يا محمد إنك رسول الله فيسكن ذلك جأشه، وهكذا حتى رآه على كرسي بين السماء والأرض، كما في الحديث التالي.

[٤٥] فعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن رضي الله تعالى عنهما، أن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله تعالى عنهما قال وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرة الوَحْي، فقال في حديثه: «**بَيْنَا أنا أمْشِي إذ سمعتُ صوتاً من السَّماء، فرفعتُ بصَرِي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء الأرض فرُعِبْتُ منه فرجعْتُ، فقلت: زمّلوني**»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، فحَمِي الوَحي وتَواتَر.

رواه البخاري في بدء الوحي (٣١/١) وفي بدء الخلق وفي الأدب وفي التفسير (٣٠٥/١٠، ٣٠٦)، ومسلم في الإيمان رقم (١٦١، ٢٥٥، ٢٥٦)، والترمذي في التفسير (٣١٠٨)، والنسائي في الكبرى (٥٠٢/٦، ٥٠٣) وغيرهم.

وفي رواية عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: سألت أبا سلَمةَ: أيُّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، فقلت: أُنبِئْتُ أنه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، فقلت: نُبِّئْتُ أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ فقال: لا أخبرك إلاَّ بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**جاورْتُ في حراء فلما قضيتُ جواري هبطت فاستَبْطَنْتُ الوادِي فنُودِيتُ فنظرت أمامِي، وخَلْفِي، وعن يَميني، وعن شمالي، فإذا هو على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دثّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، وأنزل عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾**».

رواه البخاري بهذه الرواية في التفسير، ومسلم رقم (٢٥٧) في الإيمان.

قوله: «فرُعِبْتُ» في رواية: «فَجُئِثْتُ منه فَرَقاً» أي: فزعت منه خوفاً وهو معنى فرعبت، وقوله: «فحمي الوحي» أي تتابع بلا انقطاع، وقوله: «جاورت في حراء» أي: جلست واعتكفت فيه، وقوله: «فاستبطنت» أي: نزلت إلى وسط الوادي.

وفي هذا الحديث بروايتيه أمرانِ:

أولاً: فيه أنه ﷺ كان يتردّد إلى حراء بعد فترة الوحي لتشوّقه إلى جبريل.

ثانياً: كان جابر يعتقد أن أول ما نزل من القرآن هو سورة المدّثر، وهو خلاف حديث عائشة المتقدم وخلاف قول جمهور العلماء إن لم يكونوا كلّهم، وقد جمع بعضهم بينهما بأن أوّل ما نزل من الوحي: سورة ﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وأوّل ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، وفيها أمر ﷺ بالتبليغ والإنذار، وهذا جمع حسن بل هو الواجب إن شاء الله تعالى، وما كان يفعله ﷺ من إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال كان ذلك قبل مجيء الشرع، فلا إشكال فيه كما قد يتوهَّم.

* * *

❁ صفة الوحي وكيف كان يتلقاه النبيّ ﷺ؟

[٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحياناً يأتِيني في مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أشدُّه عليَّ فيَفْصِمُ عنّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رجلاً، فيُكَلِّمُني فأعِي ما يقول»**، قالت عائشة: ولقد رأيتُه ينزل عليه في اليوم الشَّاتِي الشديد البَرْدِ فيَفْصِمُ عنه وإنّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً.

رواه البخاري في بدء الوحي (١/٢٠، ٢٤)، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٨)، وكذا أحمد (٦/١٥٨، ٢٥٧)، والترمذي في المناقب (٣٤٠٩)، والنسائي في الصلاة.

«صلصة الجرس»، الصلصلة بفتح الصادين بينهما لام ساكنة أطلق على كل صوت له طنين، والجرس بضمتين ناقوس صغير. قوله: «فيفصم عني» بفتح الياء وكسر الصاد وجاء مبنياً للمجهول بضم الياء وفتح الصاد، ومعناه يقلع ويتجلّى ما يغشاني. وقوله: «لَيَتَفَصَّدُ» أي ليسيل.

[٤٧] وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا أُنزِلَ عليه الوَحْيُ نَكَّسَ رأسَه، ونكَسَّ أصحابُه رُؤوسَهم، فلما انْجَلَى عنه رفع رأسَه.

وفي رواية: كان إذا أُنزِلَ عليه كُرِبَ لذلك وتَرَبَّدَ وجهُهُ.

رواه أحمد (٥/٣١٣، ٣٢٧، ٣٢٠)، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٩) وفي الحدود (١١/١٨٨)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٣٠٤) وغيرهم مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في التفسير من سورة النساء.

قوله: «نَكَس رأسه» أي طأطأه، وقوله: «تربّد وجهه» أي تغيّر حتى صار كلون الرماد، وقوله: «كرب» بضم الكاف أي أصابه كرب وشدّة.

[٤٨] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أمْلَى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾... قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فَخِذِي، فثقُلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أن تُرَضَّ فَخِذِي، ثم سُرِّي عنه...

رواه البخاري (٩/٣٢٨) في التفسير وفي الجهاد وفي فضائل القرآن، والترمذي في التفسير (٢٨٣٧)، وابن جرير (٤/٢٢٨، ٢٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/١٠٤٣) وغيرهم وقد تقدم مطوّلاً في التفسير.

[٤٩] وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقته وضعتْ جِرَانَها فلم تَسْتَطِعْ أن تَتَحَرَّك.

رواه أحمد (١١٨/٦)، والحاكم (٥٠٥/٢) وصححه ووافقه الذهبي وقال النور في المجمع (٢٥٧/٨): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ومع ذلك فله شواهد أخرى.

قوله: «حتى خفت أن ترضّ فخذي» أي تَتَكَسَّر، وقوله: سُرّي عنه بضم السين وكسر الراء المشدّدة أي ذهب ما كان نزل به.

وفي هذه الأحاديث بيان أحوال الوحي التي كانت تتعاقب على النبيّ ﷺ وما كان يحدث له عندها، فالوحي له شأن عظيم لا يستطيع تلقّيه إلاّ من قوّى الله تعالى روحانيّته وجسمه، فهو أمر ثقيل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾، ولذلك كان النبيّ ﷺ يعاني منه شدائد ومشاقاً، فكان تارة يسمع عنده طنيناً كصوت الجرس، وكان ذلك أشدّه عليه، وكان إذا نزل به تغيّر وجهه الشريف حتى يصير كالرماد وسال جَبِينُه وجَبْهتُه عرقاً في اليوم الشديد البرد، هذا بالنسبة له ﷺ مع قوّة روحانيّته وجسمه. أما غيره ممن يتّصل به وقت نزول الوحي عليه، فكان كما قال زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه حيث إن فخذ النبيّ ﷺ كانت على فخذه فثقلت عليه حتى خاف أن ترضّ وتكسر، وكما حصل لناقته العظيمة الضخمة حيث إنها لمّا نزل عليها من ثِقَلِ الوحي الذي أصابه ﷺ كادت أن تَبْرُكَ فوضعت مُقَدَّم عُنُقِها على الأرض. والمقصود أن الوحي له شأن عظيم، وكيف لا وهو يأتي من قِبَل ربّ الأرض والسماء العزيز الجبّار المتكبّر العليّ العظيم. هذا وإن أقسام الوحي ومراتبه قد تقدَّمت في حديث عائشة في بدْء الوحي.

[٥٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾، قال: كان رسول الله ﷺ يُعالِجُ مِن التَّنْزِيل شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فقال ابن عباس: فأنا أُحَرِّكُهُما لكم كما كان رسول الله ﷺ يُحَرِّكُهُما، وقال سعيد: أنا أحرّكهما كما رأيت ابن عباس يحرّكهما، فحرّك شَفَتَيْه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، قال: جمعُه له في صدرك وتَقْرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ

قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾، قال: فاستَمِعْ له وأنصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ ثم إن علينا أن تَقْرَأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبيّ ﷺ كما قرأه.

رواه البخاري في بدء الوحي (٣٢/١، ٣٣) وفي التفسير (٣٠٩/١٠، ٣١٠) وفي فضائل القرآن. ومسلم في الصلاة رقم (٤٤٨)، والترمذي في التفسير (٣١١٢)، والنسائي في الكبرى (٥٠٣/٦).

قوله: «كان يعالج» أي: يحاول حفظه بمشقّة.

كان النبيّ ﷺ في ابتداء الوحي إذا جاءه جبريل وألقى عليه القرآن تعجّل، فجعل يحفظه مباشرة عند التلقّي فأرشده الله عزّ وجلّ إلى ما هو أسهل وأوْلى له، فأمره أن يستمع له أولاً وينصت، وتكفّل له أن يجمعه له في صدره، وثانياً بعد إلقائه أن يقرأه ثم ثالثاً على الله تعالى بيانه وإيضاحه.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾﴾ أي: علينا أن نقرأه عليك ونجمعه في صدرك بدون معاناة ولا معالجة، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَهُ﴾ أي: قراءته، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ أي: علينا أن نبيّنه ونوضحه لك، وهذا من لطف الله تعالى ورفقه بنبيّه ورحمته به ﷺ. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة طٰه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، يعني: إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل بالقراءة معه بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته.

* * *

❋ بداية الدعوة

قد تقدم حديث جابر في نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ رواه الشيخان، فكان هذا أول خطاب وجه للنبيّ ﷺ من قِبَل الله عزّ وجلّ آمراً له أن يبلّغ الدعوة وينذر كل من ردّ دعوته من الكافرين، فقام يدعو في ابتداء أمره كل من يتّصل به ويعرف أمانته من الأقارب والمعارف، وذلك عن طريق السرّ والتكتّم حذراً من أن يفاجيء متعصّبة قريش الذين كانوا

غرقى في الوثنيّات والشركيات، وبقي على دعوته سرّاً، كما قال علماء السيرة ثلاث سنين حتى دخل في الإسلام عدد لا بأس به وانتشرت الدعوة بين أوساط بيوتات كثيرة من قريش، فحينئذ أمر بالجهر بالدعوة، كما يأتي.

* * *

❋ مراحل الدعوة في حياة النبيّ ﷺ

ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن الدعوة الإسلامية مرّت في حياة النبيّ ﷺ منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل:

المرحلة الأُولى: دعوته سرّاً، واستمرّت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً وباللسان فقط، واستمرّت إلى الهجرة إلى المدينة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال للمعتدين والبادئين بالقتال أو الشرّ، واستمرّت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع من الدخول في الإسلام بعد فترة الدعوة والإعلام من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيّين. أما أهل الكتاب فلهم حكم خاص تقدم في الجهاد.

وهذه المرحلة عليها استقرّ أمر الشريعة الإسلامية وقام عليها حكم الجهاد في الإسلام، وهي المقرّرة عند سائر المذاهب في كتبهم.

* * *

❋ السابقون إلى الإسلام وأول من أسلم منهم

[٥٩] عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: أوّلُ من صَلّى، وفي لفظ: أوّلُ من أسلم مع رسول الله ﷺ عَلِيٌّ عليه السلام.

رواه أحمد (٣٦٨/٤، ٣٧١)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٥)، والحاكم (١٣٦/٣) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٥٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أوّل من صلّى مع النبيّ ﷺ بعد خديجة عليّ رضي الله تعالى عنهما.

روه أحمد (٣٣٠/١، ٣٣١)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٤) وسنده حسن.

[٥٣] وعن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها ﷺ أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

رواه الطبراني (٦١٧٤)، والحاكم (١٣٦/٣)، قال الهيثمي (١٠٢/٩): ورجاله ثقات.

[٥٤] وعن عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسُ أعْبُدٍ، وامرأتان، وأبو بكر رضي الله تعالى عنهم.

رواه البخاري في الفضائل (٢٠/٩).

[٥٥] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَق، وواسَاني بنَفْسه وماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟»**.

رواه البخاري في المناقب أيضاً (٢١/٩)، ويأتي في مناقبه إن شاء الله تعالى مطوّلاً.

في هذه الأحاديث بيان من سبق إلى اعتناق الإسلام، فأحاديث زيد وابن ياسر وسلمان رضي الله تعالى عنهم تدلّ على أن أوّل من أسلم الإمام عليّ عليه السلام، ولا شكّ في ذلك غير أنه كان إسلامه بعد مولاتنا خديجة كما في حديث ابن عباس، وكما يؤخذ من حديث عائشة المتقدم في بدء الوحي.

وحديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه يدلّ ظاهره على أن الصديق هو أوّل من آمن وصدق النبيّ ﷺ.

والصحيح الذي مشى عليه المحقّقون من المحدثين وأهل السِّيَر وغيرهم أن أوّل من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصدّيق، ومن الصّبيان الإمام علي، ومن النساء خديجة، ومن العبيد بلال، ومن الموالي زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم.

ومن السابقين إلى الإسلام عمار بن ياسر كما في حديثه السابق، فإنه أسلم ومع النبيّ ﷺ خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر.

والأعبد هم: بلال، وزيد بن حارثة، وعامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر، وأبو فُكَيهة، والخامس شقران مولى النبيّ ﷺ، والمرأتان خديجةُ وأمّ أيْمَن رضي الله تعالى عنهم جميعاً، وإنما لم يعد هنا عليّاً لأنه كان لا يزال طفلاً لم يجاوز العشرة من عمره.

[٥٦] وعن عَمْرو بن عَبَسَة رضي الله تعالى عنه قال: كنت وأنا في الجاهلية أظنّ أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكّة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرَآءُ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكّة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «**أنا نبيّ**»، فقلت: وما نبيّ، قال: «**أرسلني الله**»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوحَّدَ الله لا يُشْرَك به شيءٌ**»، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «**حُرٌّ وعبدٌ**»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متّبعك، قال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**».

رواه أحمد (١١٢/٤)، ومسلم في الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها (١١٤/٦، ١١٥).

قوله: «جُرآءُ» جمع جريء من الجرأة أي هم متسلّطون عليه، ويريدون الإقدام على إذايته. وقوله: تلطفت أي ترفّقت.

وفي هذا الحديث بيان أن عمراً هذا كان من الأوّلين إسلاماً بدليل قوله: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، والظاهر أنه لم يطلع على غيرهما ممن كان أسلم، وعلى كلٍّ فهو من الرعيل الأول، ولكنه رجع إلى قبيلته وأخفى إسلامه حتى ظهر النبيّ ﷺ ولم يفتن عن دينه كما فتن وابتلي من كان بمكّة مع النبيّ ﷺ.

[٥٧] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: ما أسلم أحد إلاّ في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثتُ سبعة أيام وإني لثلث الإسلام.

رواه البخاري في المناقب (٨٥/٩).

وهذا أيضاً يدلّ على أن سعداً هذا كان من الأوائل، وما قاله من أنه لم يسلم أحد إلاّ في اليوم الذي أسلم فيه، ظاهره مشكل، فإنه قد أسلم قبله جماعة. وقوله: ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام، هذا على حسب ما علمه وبلغه، فإن الناس كانوا يخفون إسلامهم خوفاً من إذاية الكفار.

هذا وممن سبق إلى الإسلام بالاتفاق عثمان، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمٰن بن عوف وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ الجهر بالدعوة إلى الله تعالى

[٥٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قال: **«يا مَعْشَرَ قُرَيْش** ـ أو كلمة نحوها ـ **اشتروا أنفُسَكم لا أُغْنِي عنكم من الله شيئاً، يا بَني عبدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عنكم من الله شيئاً، يا عباسُ بنَ عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيةُ عمَّةُ رسول الله ﷺ لا أغني عنكِ من الله شيئاً،**

ويا فاطمةُ بنتُ محمد ﷺ سَلِيني ما شِئْتِ من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً».

رواه البخاري في التفسير (١٠/١٢٠) وفي الوصايا رقم (٢٧٥٣) وفي المناقب (٣٥٢٧)، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٤/٢٠٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٣).

وفي رواية لمسلم قال: دعا رسولُ الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي أنقِذُوا أنفُسَكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدِ المُطَّلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمةُ أنقِذِي نفسَك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غَيْرَ أَنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبِلالَهَا**».

[٥٩] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ورهطَك منهم المُخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِدَ الصَّفا فهَتَفَ: «**يا صَبَاحَاهْ**»، فقالوا: مَنْ هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: «**أرأيتُم إن أخبَرْتُكُم أن خَيلاً تخرج من سَفْحِ هذا الجبل أكُنتُم مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: ما جرَّبنا عليك كَذِباً، قال: «**فإني نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذاب شديدٍ**»، قالَ أبو لهب: تبّاً لك ما جمَعْتَنا إلاَّ لهذا؟ ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾، وقد تَبَّ هكذا قرأها الأعمش يومئذ.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٣٦٨)، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠٨)، والترمذي في التفسير (٣١٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٦)، وفي الباب عن عائشة في مسلم وعن قبيصة بن المخارق وزُهَيْر بن عمر، وفيه أيضاً قوله: «**غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببلالها**» البلال الماء، ومعناه سأصلها، يعني بالشفاعة، وقوله: «سَفْحَ الجبل» أي وَجْهَه.

كان قد دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء أيام دعوته ﷺ سرّاً حتى فشي بمكّة وتُحُدِّثَ به، فأمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ

أن يَصْدَعَ ويَجْهَرَ بما جاءه وأُمِرَ به، وأن يظهر ذلك لعموم الناس ويدعو إليه، فقال له عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الآية.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما زال النبيّ ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه، رواه ابن جرير (٦٨/١٤).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذا أمْرٌ مِن الله تعالى لنبيّه ﷺ بتبليغ رسالته قومه وجميع من أُرْسِلَ إليهم، رواه ابن جرير أيضاً (٦٧/١٤)، فكان الأمر في هذه الآية بتبليغ الدعوة لكافّة الناس.

وقوله: «وأعرض عن المشركين» إلخ، أي: بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ولا تَلْتَفِتْ إلى هؤلاء المشركين ولا تخفهم، فإن الله كافيك إيّاهم وحافظك منهم، وقد فعل سبحانه كما يأتي.

وفيما ذكرنا من حديثي أبي هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم بيان أنه ﷺ أمر أولاً بالتبليغ لأقاربه وعشيرته؛ لأنها مسؤولية أولية، فالأقربون أولى بالمعروف كما يقولون، ولذلك فقد امتثل ﷺ أمر ربّه في ذلك، فجمع بطون أقاربه وبيوتات عشيرته فعمّم وخصّص ثم ناداهم جميعاً وأعلمهم جهاراً بأنه رسول من الله تعالى ونذير لهم بين يديّ عذاب شديد، وأمرهم أن ينقذوا أنفسهم من عذاب الله تعالى، وذلك يكون بالإيمان به وبما جاء به واتّباعه في ذلك.

وفي الحديثين دليل على أن من مات كافراً لا تنفعه قرابة ولو كانت من بيوت النبوّة، ولذلك قال النبيّ ﷺ لأقاربه: **«لا أغني عنكم من الله شيئاً»**، وفي قوله: **«غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها»** يخصّص قوله: **«لا أغني عنكم»** إلخ، فإنه سيشفع لمن مات منهم مؤمناً، وذلك بإذن من الله تعالى، ويلاحظ أن ذكر فاطمة في هذا النداء وَهْمٌ بلا شك، فإنها في ذلك الوقت كانت لا تزال صغيرة لا تجاوز الخمس سنوات، فالله أعلم كيف وقع في الحديث.

* * *

[٦٠] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان يصلّي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوسٌ؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيّكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعُه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبيّ ﷺ وضعه على ظهره بين كَتِفَيْه، وأنا أنظر لا أُغيّر شيئاً، لو كان لِي مَنَعَةٌ قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره فرفع رأسه، وفي رواية: فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جُوَيْرِيَةٌ فأقبلت تَسْعَى وثَبَتَ النبيّ ﷺ ساجداً حتى ألْقَتْه عنه فأقبلتْ عليهم تسُبُّهم، فلما قضَى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «**اللّهمّ عليك بقُرَيْش** ـ ثلاثاً ـ **اللّهمّ عليك بعَمْرو بن هِشام، وعُتْبة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة، وأُمَيّة بن خَلَفٍ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وعُمارة بن الوليد**»، قال عبدالله: فوالله لقد رأيْتهُم صَرْعَى يوم بدرٍ، ثم سُحِبوا إلى القَلِيبِ قليبِ بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأتبع أصحاب القليب لعنةً**».

رواه البخاري في الطهارة وفي الصلاة وفي الجهاد وفي المغازي وفي الفضائل (١٦٦/٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٥١/١٢، ١٥٤) وغيرهما.

قوله: سَلَى جزور، السَّلى هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، والجزور هو الإبل. وقوله: «فانبعث أشقى القوم» الذي فعل به ذلك هو عقبة بن أبي مُعَيط كما في رواية عند مسلم وغيره قوله: عمرو بن هشام هو أبو جهل كما صرّحت به رواية أخرى.

[٦١] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدّ ما صنعَه المشركون برسول الله ﷺ قال: بَيْنَا رسولُ الله ﷺ يُصَلّي بفِناءِ الكعبة إذْ أقْبَلَ عُقبة بن أبي مُعَيْط فأخَذَ بمنكبِ رسول الله ﷺ ولَوى ثوبَه في عُنُقِه فخَنَقَه به خَنْقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكَبَيْهِ ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: أتَقْتُلُون رجُلاً أن يَقُول ربّي الله، وقد جاءَكُم بالبيّنات.

رواه البخاري في أوائل السيرة النبويّة (١٦٨/٨) وفي التفسير (١٧٥/١٠)، وكذا أحمد (٢٠٤/٢)، ورواه أحمد (٢١٨/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٥٠/٦) من طريق أبي إسحاق مطوّلاً بسند صحيح بلفظ: قال: حَضَرْتُهُم وقد اجتمع أشرافُهم يوماً في الحِجْر فذكروا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صَبَرْنا عليه من هذا الرجل قطّ سفَّه أحلامنا، وشَتَم آباءنا، وعابَ دِينَنا، وفرّق جمَاعَتَنا، وسَبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ، قال: فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فلمّا أن مرّ بهم غمزوه ببعض ما يقال، قال: فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، فلما مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: **«تَسْمَعُون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكُم بالذبح»**، فأخذت القوم كلمتُه، حتى ما منهم رجلاً إلا كأنما على رأسه طائر واقعٌ، حتى إن أشدّهم فيه وصاة من قبل ذلك لَيَرْفأهُ بأحسنِ ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثَبُوا إليه وثْبَةَ رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، كما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: **«نَعَمْ أنا الذِي أقُولُ ذلك»**، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشاً بلغت منه.

قوله: «سفّه أحلامنا» أي: نسب عقولنا للحمق والجهالة والطيش. وقوله: «غمزوه» أي: طعنوا فيه. قوله: «لقد جئتكم بالذبح» أي: بالقتل والإبادة أو أتيتكم بما يكون كالذبح من الآيات والحجج. وقوله: «كأنما على رؤوسهم طائر» هو عبارة عن هُدُوئِهم وسكوتهم. وقوله: «وَصاة» بفتح الواو توصية. وقوله: «لَيَرْفَأهُ» بفتح الياء من رَفَأ كمنع أي: يسكنه. قوله:

«جهولاً» أي سفيهاً. قوله: «فوثبوا» أي: انقضّوا عليه. وقوله: «فأحاطوا» أي: داروا به.

[٦٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهَه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللاّتِ والعُزّى لئن رأيتُه يَفعلُ ذلك لأَطَأَنَّ على رَقَبَتِهِ أو لأُعَفِّرَنَّ وجهه في التراب، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يُصلّي لِيَطأ على رقبته، فما فجَأهم منه إلا وهو يَنْكِصُ على عَقِبَيْه يَتَقِي بيديه، فقيل له: ما لك؟ قال: إنّ بيني وبينه خَنْدَقاً من نار وهولاً وأجْنِحَة، فقال رسول الله ﷺ: **«لَوْ دَنا مِنّي لاَخْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عُضواً عُضواً»**، وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ إلى آخر السورة.

رواه أحمد (٢/٣٧٠)، ومسلم في صفة المنافقين (١٧/١٣٩، ١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٦)، ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٥٠).

[٦٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ ﷺ يصلّي فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهَك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبيّ ﷺ فزَبَرَهُ، فقال أبو جهل: إنك لَتعلمُ ما بها نادٍ أكثرَ مني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، قال ابن عباس: والله لو دَعَا نَادِيَهُ لأخذته زبانية الله.

رواه أحمد (١/٢٥٦، ٣٢٩، ٣٦٨)، والترمذي في التفسير (٣١٣١)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٦) وسنده صحيح على شرط مسلم.

[٦٤] وعنه في رواية: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلّي عند الكعبة لأَطَأَنَّ على عُنُقِهِ، فبلغ النبيّ ﷺ ذلك، فقال: **«لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً»**.

رواه عبدالرزّاق (٢/٣٨٤)، وأحمد رقم (٣٤٨٣)، والبخاري (١٠/٣٥٣، ٣٥٤)، والترمذي (٣١٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٦، ٢٥٧) كلّهم في التفسير.

قوله: «فزَبَره» بفتح الزاي والباء أي: نهره وأغلظ له. وقوله: «لأخذته زبانية الله» الزبانية هم الملائكة المكلّفون بالنار وبأهلها. وقوله: «لأعفرن» أي لأُلصِقَنَّ وجهه بالتراب وأُمَرِّغه. وقوله: «يَنْكُصُ» أي: يرجع إلى الوراء.

[٦٥] وعنه أيضاً قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ونائِلةَ وإساف، لو قد رأينا محمداً - ﷺ - لقد قمنا إليه قيامَ رجُل واحدٍ فلم نُفارِقْه حتى نَقْتُله، فأقبلتْ ابنتُه فاطمةُ - عليها السلام والرضا من الله - تبكي حتى دخلتْ على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، فقال: **«يا بنيّة أرِيني وَضُوءاً»**، فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه قالوا: هَا هُوذا، وخفَضُوا أبصارهم، وسقطتْ أذقانُهم في صُدورهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يَقُمْ إليه رجلٌ، فأقبلَ رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: **«شاهَتْ الوُجوه»**، ثم حَصَبهم بها فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قُتِل يوم بدر كافراً.

رواه أحمد (٣٠٣/١، ٣٦٨)، وابن حبان في صحيحه (١٦٩١) مع الموارد بسند صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٨/٨): أخرجه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح.

[٦٦] وعن رَبِيعَة بن عبَّاد الدُّؤلي وكان جاهلياً أسلم، قال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: **«يا أيها الناس قولوا: لا إله إلاّ الله تُفْلِحُوا»**، ويدخل في فِجاجِها والناس مُتَقَصِّفُون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: **«يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**، إلا أن وراءه رجلاً أحولَ، وضِيءَ الوجه ذي غَدِيرَتَيْنِ يقول: إنه صابىء كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبدالله، وهو يذكر النبوّة، قلت: ومن هذا الذي يكذّبه؟ قالوا: عمّه أبو لهب.

وفي رواية قال: إني لمع أبي رجل شابّ أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجلٌ أحولُ وَضِيءٌ ذو جُمَّةٍ يقف رسول الله ﷺ على

القبيلة ويقول: «**يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تُصَدِّقُوني حتى أُنَفِّذَ عن الله ما بعثني به**»، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مَقالتِهِ قال الآخر مِن خَلْفِهِ: يا بني فلان، إن هذا يريد منكم أن تَسْلُخُوا اللات والعزّى، وحلفاءكم من الجنّ بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمّه أبو لهب.

رواه أحمد (٣/٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣ و٤/٣٤١) من طرق هو بها صحيح. وله شاهد عن طارق بن عبدالله المحاربي رواه ابن حبان (١٦٨٣) بالموارد، والحاكم (٢/٦١٢) وصححه ووافقه الذهبي وعزاه البوصيري في الإتحاف (٤٧٨٨) لابن أبي شيبة بسند صحيح وأبي يعلى وابن حبان والحاكم قال: ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً... وقوله: «مُتَقَصِّفون» أي مجتمعون ومزدحمون عليه.

[٦٧] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن عائشة رضي الله تعالى عنها حدَّثَتْه أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ فقال: «**لقد لقيتُ من قومِكِ وكان أشدُّ ما لقيت منهم يومَ العقبة إذ عرضْت نفسي على ابن عَبْدِ ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أَسْتَفِقْ إلا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أَظَلَّتْنِي فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني، فقال: إن الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَه بما شِئْت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمُرني بأمْرك فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأخشَبَيْنِ، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشْرك به شيئاً**».

رواه البخاري في بدء الخلق في ذكر الملائكة (٧/١٢٣)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٥٤).

ابن عبد ياليل كان من سادات الطائف. قوله: «مهموم» أي: أصابني

همّ وغمّ. «فلم أستفق» أي: لم أشعر بنفسي وحالتي لعظيم ما أصابني حتى وصلت لقرن الثعالب ويقال له قرن المنازل اسم جبل وهو موقت إحرام أهل نجد. قوله: «أطبق» بضمّ الهمزة وكسر الباء أي أضمّهما عليهم، «والأخشبان» الجبلان الغليظان والمراد بهما هنا جبل أبي قُبيس المشرف على البيت من جهة الشروق، والجبل المقابل له المشرف على قُعَيْقِعَان.

في هذه الأحاديث الثمانية نماذج وأمثلة من إيذاء كفار قريش للنبيّ ﷺ واعتدائهم عليه، وتلك هي سنّة الله تعالى في رسله عليهم الصلاة والسلام مع أممهم يبتلون من طرف قومهم، ثم تكون لهم العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

[٦٨] وقد قال ﷺ: **«أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبْتَلى الرجلُ على حسَب دينه فإن كان في دينه صُلْباً اشتدّ بلاؤُه، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابتلي على قدر دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يَمْشي على الأرض وما عليه خطيئة»**.

رواه أحمد (١/١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٣٣)، وابن حبان (٦٩٩)، والحاكم (١/٤٠، ٤١) وحسّنه الترمذي وصححه.

فلا عجب إذاً مما أُصيب به نبيّنا ﷺ من أنواع تلك الإذايات البالغة المتناهية من طرف قومه فله أسوة بإخوانه الأنبياء الذين سبقوه إلى ذلك، وما ذكرت قصصهم في القرآن الكريم بأساليب متنوّعة إلا تذكرة له ﷺ وتثبيتاً لفؤاده، وتسلية له كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

ولذلك أمره تعالى أن يأتَسِيَ بأُولي العزم من الرسل في الصبر على ما يصيبه من بلاء، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، ونهاه تعالى عن الضجر من الدعوة فيفرّ من قومه كما فعل ذو النون، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الآية، والقرآن ملآن بأمثال هذه التأييدات.

هذا وقد مضت على النبيّ ﷺ مدة لم يكن يُظهر فيها دعوته في مجامع قريش العمومية، بل كانت دعوته مقصورة على أقاربه ومعارفه مع كامل التستّر حذراً من تعصّب قريش، لكنه لمّا نزلت عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أظهر الدعوة ونادى الجميع بما أمره الله تعالى من عبادة الله تعالى وحده وترك الأنداد والأصنام وعبادة غيره، فتنكروا لدعوته وقابلوه بالجحود ورموه بالعظائم ولَمَزُوه بالجنون والكهانة والسحر كما صرّح به القرآن في غير ما آية، واستدلّوا عليه بتقليد الأباء ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، وتعجّبوا من توحيد الألوهية فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾، ثم لما لم يستجيبوا له ﷺ وتمسّكوا بحجّة التقليد سفّه أحلامهم، وشتم آباءهم وعابَ آلهتهم، وقال لهم: إنكم خالفتم دين أبيكم إبراهيم عليه السلام، فعند ذلك ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة منهم على تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها ويعبدها آباؤهم من قبل وهاجت أضغانهم وأضمروا له ﷺ العداوة وجعلوا يسخرون منه ﷺ ويهزءون به في مجالسهم، فيقولون إذا مرّ بهم: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء.

❁ الكفار يأمرون أبا طالب بكف النبيّ عن سبهم وسب آلهتهم

ثم لما تزايد أمره ﷺ في الطعن فيهم وفي آلهتهم بما كان ينزل عليه من القرآن ضاقوا ذرعاً وعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا به شيئاً مع وجود عمّه أبي طالب الذي كان يحميه ـ وهو من سادات بني هاشم ـ قرّروا أن يرفعوا أمره إليه ليكفّ عنهم وعن آلهتهم، فذهبوا إليه ودار بينهم وبينه ما في الحديث التالي:

[٦٩] فعن عَقِيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا فانهه عن أذانا، فقال: يا عقيل ائتني بمحمد ـ ﷺ ـ فذهبت فأتيت به، فقال: يا ابن أخي إن بَنِي عمّك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، قال: فحَلّق رسول الله ﷺ بصَرَه إلى السماء،

فقال: **«أترَوْن هذه الشّمس»؟** قالوا: نعم، قال: **«ما أنا بأقْدَر على أن أدعَ لكم ذلك إلا أن تُشعِلُوا لي منها شُعْلَة»**، قال: فقال أبو طالب: ما كذَبنا ابن أخي فارجعوا.

رواه أبو يعلى (ج ٣٩/٦) بسند صحيح، وعزاه الهيثمي (١٥/٦) لكبير الطبراني وأوسطه وأبي يعلى وقال: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح وأورده الحافظ في المطالب العالية رقم (٤٢٧٨)، وعزاه لأبي يعلى وقال: هذا إسناد صحيح، أما الحافظ البوصيري فعزاه في الإتحاف رقم (٧٠٩٣) لأبي يعلى أيضاً وقال: بسند رواته ثقات.

هذا ما صح فيما دار بين قريش وبين أبي طالب في شأن النبيّ ﷺ عندما شكوه إليه.

نعم ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل السير قصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب مرّة أو مرتين، وكان فيما قالوا له: يا أبا طالب إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد اسْتَنْهَيْناكَ من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا، من شَتْم آبائِنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم يَطِبْ نَفْساً بإسلام رسول الله ﷺ ولا خِذْلانِه ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له، فأبْقِ عليّ وعلى نفسِك، ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أُطيق، قال: فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بَدَاءٌ أنه خاذلُه ومُسَلِّمُه، وأنه قد ضعُف عن نُصْرَتِهِ والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمّ، واللهِ لو وَضَعُوا الشمسَ في يَمِيني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِرَه الله أو أهلك فيه ما تَرَكْتُه»**، قال: ثم اسْتُعِير رسولُ الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقْبِلْ يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسَلِّمُك لشيء أبداً.

فهذه الرواية مشهورة بل متواترة عند أهل السِّيَر لكنها لا تصحّ سنداً، فهي معضلة ككثير من نصوص السيرة.

وعلى أيٍّ فلنرجع للأحاديث التي أوردناها في إذاية الكفار للنبيّ ﷺ لنستخرج بعض ما فيها من العِبَر والفوائد.

ففي حديث ابن مسعود بيان ما فعله ذلك الأشقى عقبة بن أبي معيط من وضعه سَلَى الجزور على ظهر النبيّ ﷺ وفرح الكفار بذلك وتضاحكهم عليه.

وفيه شجاعة مولاتنا فاطمة عليها السلام على صغرها حيث ألقت عن أبيها السلى وواجهت أولئك الملأ بالسّباب، كما فيه دعاؤه ﷺ على أولئك الصناديد وأساطين الكفر واستجابة دعائه فيهم حيث قتلوا جميعهم بغزوة بدر، وفيه جواز الدعاء على الكفار وأعداء الإسلام بالهلاك.

أما حديث ابن عَمْرو ففيه إذاية ذلك الأشقى للحبيب ﷺ وتلويته ثوبه في عنقه وخنقه به خنقاً شديداً، وفيه قوّة إيمان الصدّيق رضي الله تعالى عنه وشجاعته حيث أنقذ النبيّ ﷺ من يد ذلك الخاسر اللعين ودفعه عنه، وأنكر عليه قتل من يوحّد الله الذي جاء بالآيات الواضحات مستدلاً على ذلك بالآية التي تتحدث عن مؤمن آل فرعون، وفيه دليل على أن النبيّ ﷺ كان يواجههم بتسفيه أحلامهم، وشتم آبائهم، وعَيْب دينهم، وسبّ آلهتهم، وتفريق جماعتهم حتى تحدّثوا في ذلك فيما بينهم ولم يبق لهم صبر على ما يسمعون أو يبلغهم عنه ﷺ، فلذلك قرّروا أن ينالوا منه، ولكنه ﷺ أوعدهم بالهلاك فدخلهم الرعب والفزع مما أوعدهم به، فجعلوا يسكتونهُ ويرفقون به ولكنهم من الغد وثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحدقوا به وآذوه عليهم لعائن الله المتوالية.

وفي حديث أبي هريرة معجزة ظاهرة وحماية لنبيّنا ﷺ حيث حماه الله عزّ وجلّ من ذلك الخاسر الهالك أبي جهل لعنه الله، فها هو يقسم بآلهته العفنة القذرة لَيَطَأَنَّ على رقبة نبيّ الله ﷺ ويعفّر وجهه في التراب، فيفاجيء إخوانه صناديد الكفر الملاعين بنكوصه إلى الوراء مرعوباً يتّقي بيديه ما شاهد من الهول الذي حِيل بينه وبين ما أراد ويعود مرّة أخرى فينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة عند البيت ويهدّده بكثرة الأتباع والأنصار

فيقابله الله تعالى بقوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾، وهل يستطيع أبو جهل وكل كفار أهل الأرض مقاومة ملك واحد من زبانية جهنّم؟ كلا.

وفي حديث ابن عباس رقم (٦٤) إخبار بتعاقد جماعة قريش بآلهتهم الخمس المنتنة أنهم سيقومون إلى رسول الله ﷺ جميعهم فلا يفارقونه حتى يقتلوه، لكنّ عناية الله وحمايته لنبيّه فوق ما عزموا عليه، فها هم خافضو أبصارهم ساقطو أذقانهم على صدورهم مبهوتون لا يستطيعون فعل أي شيء به، وكيف وقد دعا عليهم الحبيب ﷺ بخيبة وجوههم ثم رماهم بالتراب والحصباء، وكانت عاقبتهم القتل ببدر.

أما حديث ربيعة الدُّؤلي فيدلّ على أمرين اثنين:

أحدهما: ما كان يقوم به النبيّ ﷺ من الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ رسالة ربه بين عموم الناس وتتبّع القبائل العربية في أسواقها ومجامعها العامة ودعوتهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده وأن يصدّقوه بأنه رسول الله من عند الله عزّ وجلّ.

ثانيهما: ما كان يقوم به ذلك الشقيّ الخاسر أبو لهب حيث كان يخذل النبيّ ﷺ ويحذّر الناس منه ويكذّبه ولا يعرف لأحد من الكفار صنع صنيعه هذا، باستثناء أبي جهل كما يأتي لاحقاً، وقد كان أبو لهب عدوّ الله شديد الإذاية لرسول الله ﷺ هو وزوجته اللعينة وقد نزلت فيهما سورة من القرآن تسجل عليهما التباب والخسارة تُقرأ على ألسنة المؤمنين على ممرّ العصور والأجيال، فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾، والتباب الخسران والجِيد العنق والمَسَد الصوف، يقال: إنه كان في عنقها حبل من صوف فخنقها به جبريل عليه السلام.

أمّا حديث عائشة الأخير فسيأتي الكلام عليه في ذهابه ﷺ إلى الطائف.

* * *

❁ إيذاء صحابة رسول الله ﷺ وعدوان المشركين عليهم

[٧٠] عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمّه سُمَيّة، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب، وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلاّ وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكّة، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ.

رواه ابن ماجه في المقدمة رقم (١٥٠)، قال البوصيري: إسناده ثقات، ورواه ابن حبان والحاكم (٣٨٤/٣)، وكذا ابن سعد في الطبقات، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «وصهروهم في الشمس» يعني: أحموهم فيها وأحرقوهم بها.

[٧١] وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نَتَمَشّى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمّار بن ياسرٍ، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدّهر هكذا؟ فقال له النبيّ ﷺ: **«اصبر»**، ثم قال: **«اللّهمّ اغفر لآلَ ياسِرٍ وقد فعلت»**، وفي رواية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبي عمّار، وأمّ عمّار، وعمّار: **«اصْبِرُوا آلَ ياسِرٍ، فإنَّ مَوْعِدكُم الجنّةُ»**.

رواه بالرواية الأُولى أحمد (٦٢/١)، وابن سعد في الطبقات بسند صحيح.

ورواه بالرواية الثانية الطبراني، قال النور في المجمع (٢٩٣/٩): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

[٧٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ مرّ بعمّارِ بنِ ياسرٍ وبأهلِهِ يُعَذَّبُون في الله عزّ وجلّ، فقال: **«أبْشِرُوا آلَ ياسِرٍ مَوْعِدُكُم الجنّة»**.

رواه الحاكم (٣٨٨/٣)، والطبراني في الأوسط (١٥٣١) وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وعزاه النور في المجمع (٢٩٣/٩) لأوسط الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقدم وهو ثقة.

[٧٣] وعن خبّاب بن الأرتّ رضي الله تعالى عنه قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو في ظلّ الكعبة مُتَوَسِّداً بُرْدَةً له، فقلنا: يا رسول الله ادْعُ الله تبارك وتعالى لنا واسْتَنْصِرْه، قال: فاحمرّ لونه أو تغيّر، فقال: «**لقَدْ كانَ مَن كان قَبْلَكم يُحْفَرُ له حُفرةً ويُجاء بالمِنْشارِ فيُوضعُ على رأسه فيُشَقّ، ما يَصْرِفُه عن دينه، ويُمشط بأمْشاطٍ مِن الحديد ما دون عظمه من لحم أو عَصَب، ما يَصرفُه عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ الله تبارك وتعالى هذا الأَمْرَ حتى يسيرَ الراكبُ ما بين صنعاء إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخافُ إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تَعْجَلُون**».

رواه أحمد (١١١/٥)، والبخاري في المبعث (١٦٥/٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٩).

وكما أُوذي رسول الله ﷺ أُوذي أصحابه لإيمانهم به واتّباعهم له، وخاصة من لم تكن له عشيرة تَحْميه، فثبّتهم الله عزّ وجلّ ولم يفتنوا فيرتدوا عن دينهم. وحديث ابن مسعود يدلّ على أن المذكورين فيه هم أوّل من تظاهروا بالإسلام وأعلنوه، رغم ما كانوا يلاقونه من طرف الكفار، وصنيعهم ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على قوّة إيمانهم وفنائهم في محبّة الله ورسوله ﷺ وانقلاب البلاء والعذاب حلاوة، وظاهر الحديث يدلّ على أن المعذبين منهم قد قاموا بما كان الكفارُ يطالبونه، ومنهم من مدح الأصنام مثلاً وسبّ النبيّ ﷺ، بل والنطق بالكفر كما صدر من عمار الذي نزلت فيه آية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وفي الحديث أن بلالاً وحده ثبت وصمد ولم يجبهم إلى ما كانوا يريدونه منه، ولذلك أذاقُوه أنواعاً وألواناً من العذاب، وهو صابر موحّد لله تعالى لا يزيد على قوله: أحد، أحد.

أما عمّار وأبوه ياسر وأمّه سُمَيّة فلم يَلْقَ أحدٌ من التعذيب ما لقوا، بل

ياسر وزوجته سمّية ماتا تحت العذاب وعمار فكَّ نفسه بالتفوّه بكلمة الكفر، فتركوه وقد بشّر النبيّ ﷺ جميع آل ياسر بالجنّة، وأنها الموعد إن شاء الله تعالى.

وفي قول النبيّ ﷺ لخباب ومن كان معه؛ «**لقد كان من كان قبلكم يحفر له**» الخ، تثبيت وتسلية لهم. وقد قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ الآية.

وقال تعالى في هذا الصدد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

فهذه سنّة إلٰهيّة ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، فلا بدّ للمؤمن من امتحانه وابتلائه، وفي ذلك حكم وأسرار لله عزّ وجلّ وإن كنّا لا نعلم الكثير منها.

وفي قوله ﷺ: «**وليُتِمَنَّ الله تعالى هذا الأمر**» الخ، معجزة لرسوله الكريم عليه الصّلاة والسّلام حيث تنبّأ بشيء كان من المستحيل عادة أن يقع، فلم تمض إلا بضعة عقود فوقع ذلك كما أخبر ﷺ، وسيأتي لهذا مزيد في معجزاته ﷺ.

[٧٤] وعن سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل رضي الله تعالى عنه، قال: والله لقد رأيتُني، وأنّ عُمَر لمُوثِقي على الإسلام قبل أن يُسْلم عمر... وفي رواية: أنا وأُختُه...

رواه البخاري في المبعث (٩/١٧٦، ١٨١).

كان سعيد هذا من السابقين وهو زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله تعالى عنهم، فلما أسلم هو وزوجته كان عمر يؤذيهما ويربطهما إهانة لهما، وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام، فيؤخذ من هذا الحديث أن سعيداً

هذا وزوجته كانا ممّن أُوذي في الله عزّ وجلّ وصمدا ولم يرتدّا عن دينهما، وكانا السبب في إسلام عمر رضي الله تعالى عنه كما يأتي.

* * *

❁ الوليد بن المغيرة وقوله في القرآن

[٧٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومَك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال: لِيُعْطُوكَهُ، فإنك أتيت محمداً تَتَعَرَّضُ لِمَا قِبَلَهُ، قال: قد علمتْ قريشٌ أنّي مِن أكْثَرِها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلُغُ قومَك أنك مُنْكِرٌ لَهُ، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزِهِ ولا بقَصِيده مني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول: حلاوةً، وأن عليه لطلاوةً، وأنه لمُثْمِرٌ أعْلاهُ مُغْدِقٌ أسْفَلُه، وأنه ليعلو وما يُعْلى، وأنه ليُحَطِّمُ ما تحته، قال: لا يَرْضَى عنك قومُك حتى تقول فيه، قال: فدَعْني حتى أُفَكِّرَ فيه، فلما فكَّر قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يُؤْثِرُهُ عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إلخ.

رواه الحاكم (٥٠٦/٢، ٥٠٧) من طريق ابن راهويه وعنه البيهقي في الدلائل (٥٥٦/١) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو كما قالا وذكر ابن إسحاق نحوه.

قوله: «لطلاوة» بضم الطاء وفتحها أي: رونقاً وحسناً. قوله: «وإنه لمُثْمِرٌ أعلاه» إلخ شبّه القرآن بالشجرة المثمرة أعلاها الكثيرة السقي أسفلها. قوله: «ليُحطِّم» أي: يكسر ما تحته. قوله: «سحر يُؤثَر» أي: ينقل عن الغير. قوله: «ذرني» أي: اتركني، وهذا العدوّ الذي من صفته ما ذكر وهذا الشقي مع اعترافه بحسن القرآن ورونقه، وأنه لا يشبه كلام أحد من الإنس والجنّ وأنه في غاية من الفصاحة والبيان يعلو ولا يُعْلى عليه مع كل ذلك أعرض عنه وعاند واستكبر وقال: إنه سحر ينقله محمد عن غيره، وهذا نهاية ما يكون من الخذلان والضلال عياذاً بالله، وفي هذا الشقي نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ الآية.

فوصفه المولى عزّ وجلّ بتسع صفات كلّها سافلات ساقطات لم تجمع في القرآن لغيره.

* * *

❋ تفاوض قريش مع نبيّ الله ﷺ

[٧٦] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: اجتمعت قريش للنبيّ ﷺ يوماً، فقالوا: انظُروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فَرّق جَماعتنا وشتّت أمْرَنا، وعابَ ديننا، فَلْيُكَلِّمْه ولينظر ما يَرُدُّ عليه.

قالوا: ما نعلم أحداً غيرَ عُتْبة بن ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خيرٌ أم عبدُالله؟ فسكت النبيّ ﷺ قال: أنت خَيْرٌ أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك قد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخطة أشأمَ على قومِهم منكَ، فرّقتَ جماعتنا، وشتّتَ أمْرنا، وعِبْتَ ديننا، وفضحْتَنا في العرب، حتى طار

فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما ينتظر إلا مثل صيحة الحُبْلَى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف نَتَفَانَى. أيها الرجل إن كان إنّما بِكَ الحاجةُ جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أيّ نساء قريش فنزوّجك عشراً.

وفي رواية: وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نَقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد**»؟ قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «**فاسمع مني**»، ثم قال:

﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم، تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦**﴾ إلى قوله: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣**﴾ فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكفّ عن القراءة، فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ فقال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلّمونه به إلا كلمته، قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم، قال: والذي نصبها بُنيَةً ما فهِمْتُ شيئاً مما قال غير أنه قال: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، قالوا: ويلك يكلّمك بالعربية فلا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت مما قال غير ذكر الصاعقة.

وفي رواية: والله قد سمعتُ قولاً ما سمعتُ بمِثْلِهِ قطّ، والله ما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ منه نَبأ، فإن تُصِبْه العربُ فقد كُفِيتُمُوه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب فمُلْكُه مُلْكُكم، وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسْعَد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي فيكم، فاصْنَعُوا ما بدَا لكُمْ.

رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٦٥٦٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (١١٢٣)، وأبو يعلى رقم (١٨١٢)، والحاكم (٢/٢٥٣)، وصححه ووافقه الذهبي وفي سنده الأجلح الكندي مختلف فيه كما فيه الذيال بن حرملة مجهول الحال، ورواه ابن إسحاق (١/١٨٥، ١٨٦) مع الروض مرسلاً بسند حسن، فالحديث حسن أو صحيح بطريقيه.

الحديث يدلّ على أُمور، **أولاً**: إن كفار قريش كانوا مقرّين ومعترفين بأن ما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن لا يشبه كلام البشر، وأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله كما يأتي في المعجزات.

ثانياً: اعترف عتبة بن ربيعة أمام ملئه القرشيّين أن ما سمعه من النبيّ ﷺ ليس بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة وهذه شهادة عالمهم بهذه الأشياء، وفيه ردّ لقول الوليد السابق: إنه سحر يُؤثر.

ثالثاً: عرض عتبة على النبيّ ﷺ تلك الخلال الثلاث يدلّ على أن أهل الدنيا أيّاً كانوا ليس لهم هَمٌّ إلا التمتّع بالحياة من كثرة الأموال والتلذّذ بالنساء والزّعامة والرياسة، ولذلك خصّ هذه الأشياء بالعرض عليه ﷺ وغاب عنه أن الرسول الكريم عليه الصّلاة والسلام لم يكن هدفه ذلك، ولذا قال كما في بعض الروايات: **«ما جِئْتُ بما جئتُكُم به أطلبُ أموالَكم ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فإن تَقْبَلُوا مِنّي ما جِئْتُكُمْ به، فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة وإن تَرُدُّوه علي أصْبِرْ لأمر الله تعالى حتى يحكمَ الله بيني وبينكم»**.

رابعاً: إنه كان في إمكانه ﷺ أن ينتهز الفرصة في الزعامة أو الملك عليهم ويتّخذ ذلك وسيلة للدّعوة كما يفعل ذلك أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الاستيلاء على الحكم ليستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس، لكن النبيّ ﷺ لم يرض سلوك هذه السياسة إلى دعوته لأن ذلك ينافي مبادىء دعوته التي أمره الله بها، وقد كان ﷺ أزهد الناس في هذه الحياة وكان كثيراً ما يحذّر منها ومن مفاتنها التي منها الزعامة والرياسة والأموال والنساء، فكيف يستجيب لهم إليها؟

اقتراح كفار قريش على النبي ﷺ الآيات

انشقاق القمر

[٧٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهل مكّة سألوا رسول الله ﷺ أن يُرِيَهم آية، فأراهم انْشِقاق القمر مرّتين.

رواه البخاري في التفسير (٢٤١/١٠) وفي المناقب، ومسلم في صفة القيامة (١٤٥/١٧).

[٧٨] وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: انْشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ حتى صارَ فرقَتَيْن على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سَحرنا محمدٌ، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يَسْتَطِيعُ أن يَسْحَرَ الناس كلّهم.

رواه أحمد (٨١/٤، ٨٢)، والترمذي (٣٠٧٢)، والحاكم (٤٧٢/٢) بسند صحيح على شرط مسلم.

معجزة انشقاق القمر نطق بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ وأحاديثه وردت من طرق صحيحة شتّى لا يمترى فيها، ومع مشاهدة الكفار لذلك أعرضوا وعاندوا، وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

* * *

❁ اقتراحهم عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً

[٧٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قالت قريش للنبيّ ﷺ: ادْعُ لنا ربّك أن يجعل لنا الصّفا ذهباً ونؤمن بك، قال: «وتفعلون»؟ قالوا: نعم.

قال: فدعا فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: «**إن ربّك عزّ وجلّ يَقْرَأ عليك السلام ويقول: إن شِئْتَ أصبحَ لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عَذَّبْتُه عذاباً لا أُعَذِّبُه أحداً من العالمين، وإن شِئْتَ فتحتُ لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: بل باب التوبة والرحمة**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٥٨/١)، والنسائي في الكبرى (٣٨٠/٦)، والحاكم (٣٦٢/٢)، والبيهقي في الدلائل (٢٧١/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال في المجمع (٥٠/٧): ورجال الروايتين رجال الصحيح.

إن كفار قريش لما رأوا أن تلك المطالب التي عرضوها على النبيّ ﷺ لم يقبلها منهم أرادوا أن يدخلوا مِن باب آخر وهو تعجيزه بطلب الآيات، فطلبوا منه انشقاق القمر فأراهموه فأعرضوا عنه وكذّبوه فسألوه أن يجعل لهم الصّفا ذهباً، فأجابهم لذلك لكن الله عزّ وجلّ خيّره بين فتح باب التوبة والرحمة وبين تعذيبهم العذاب الشديد إن كفروا بعد مشاهدتهم الصفا ذهباً، فاختار ﷺ فتح باب التوبة، وأخبر تعالى بأن المَانِعَ مِن إرْسالِ الآيات تكذيبُ من سَبَقهم من الأُمم حيث اقترحوا ثم كذبوا، فأهلكهم الله ودمّرهم، وهكذا هؤلاء فإنهم لو أُجيبوا إلى ما اقترحوا ثم كذبوا لاستأصلهم الله وأبادَهم... ومن تعنّتهم وعنادهم ما قصّه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

فلم يجبهم الله عزّ وجلّ لِمَا اقترحوا؛ لأنه تعالى علم ما تكنّه صدورهم من التعصّب والعناد والكفر والتكذيب والتعجيز كما هو ظاهر أيضاً من مقترحاتهم.

* * *

❁ إسلام حمزة عمّ النبيّ ﷺ

[٨٠] عن محمد بن كعب القرظيّ قال: كان إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه حَمِيَّةً وكان يخرج من الحرم فإذا رجع مرّ بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصّفا والمروة فيمرّ بهم، فيقول: رميتُ كذا وكذا، وصنعتُ كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله فأقبل من رميه ذاتَ يوم فلقيته امرأةٌ، فقالت: يا أبا عمارة ماذا لَقِيَ ابنُ أخِيكَ من أبي جهل بن هشام شَتَمه وتَناوله وعمِل وفعَلَ، فقال: هل رآه أحدٌ؟ قالت: إي والله لقد رآه ناسٌ، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصّفا والمروة، فإذا هم جلوسٌ وأبو جهل فيهم، فاتّكأ على قَوْسه وقال: رمَيتُ كذا وكذا، وفعلتُ كذا وكذا، ثم جمع يدَيْه بالقوس فضَرَب بها بين أُذُنَيْ أبي جَهْلٍ فوق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف واشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة، إنه سبّ آلهتنا وإن كنتَ أنت وأنت أفضل منه ما أقررناك وذاك وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً.

رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح كذا في المجمع (٢٦٧/٩)، وله طرق أخرى مرسلة تؤيّده، وانظر سيرة ابن هشام (٣٢١/١)، وسيرة ابن كثير.

كان إسلام حمزة رضي الله تعالى عنه فتحاً ونصراً للإسلام والمسلمين لأنه كان ذا شجاعة وشكيمة وقوّة، وكان يسمّى أسد الله وهو عمّ

رسول الله ﷺ وأخوه من الرّضاعة، ويأتي بقية كلام عليه في غزوة أحد إن شاء الله تعالى.

* * *

إسلام أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه

[٨٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: لمّا بلغ أبا ذرّ مَبْعَث النبيّ ﷺ قال لأخيه: إركب إلى هذا الوادي فاعلم لي عِلم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ، يأتِيهِ الخبرُ من السماء، واسمعْ من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخُ حتى قَدِمه، وسمِع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذرّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شَفَيْتَنِي مما أردتُ فتزوّد وحمل شَنَّةً له فيها ماءٌ حتى قدم مكّة، فأتى المسجد فالتمس النبيّ ﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه حتى أدركَه بعضُ الليل، فرآه عَلِيٌّ عليه السلام فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظلّ ذلك اليوم ولا يراه النبيّ ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمرّ به عليّ، فقال: أمَا نال للرجل أن يعلم منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث، فعاد على مثل ذلك فأقام معه، ثم قال: ألاَ تُحَدِّثُني ما الذي أقْدمك؟ قال: إن أعْطَيْتَني عَهْداً أو ميثاقاً لتُرْشِدَنّني فعلتُ ففعل فأخبره، قال: فإنه حَقٌّ وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحتَ فاتْبَعْنِي، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أُرِيقُ الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخلَ مَدْخَلِي ففعل، فانطلق يَقفُوه حتى دخل على النبيّ ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبيّ ﷺ: **«ارجع إلى قومِك فأخبِرهم حتى يأتيك أمْرِي»**، قال: والذي نفسي بيده لأَصْرُخَنَّ بها بين ظَهْرَانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أضْجَعُوه، وأتى العباسُ فأكبَّ عليه قال: وَيْلكم ألَسْتُم تعلمون أنه من غِفار،

وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم فأنقَذَهُ منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباسُ عليه.

رواه البخاري في المبعث (٨/١٧٣، ١٧٤) وفي المناقب (٣٥٢٢)، ومسلم في الفضائل (١٦/٢٧، ٣١، ٣٤) بسياق آخر، ويأتي في المناقب إن شاء الله تعالى.

كان أبو ذرّ رضي الله تعالى موفقاً قبل اتّصاله بالنبيّ ﷺ، فكان موحداً يصلّي لله تعالى ولما سمع برسول الله ﷺ بعث إليه أخاه ليأتيه بخبره ثم شدّ الرحلة إليه بنفسه حتى لَقِيه وأشهر إسلامه وأظهره بين ظهراني الكفار ونال نصيباً من إذايتهم، ولولا أن العباس أنقذه منهم لَقَتَلُوه، وذلك يدلّ على متانة إيمانه وقوّته وأبو ذرّ رضي الله تعالى عنه يعدّ من نوادر الصحابة الزهّاد، وتأتي فضائله في المناقب.

* * *

❁ إسْلامُ ضِماد الأزْدِي

[٨٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ضِماداً قدم مكّة، وكان من أَزْد شَنُوءَة، وكان يَرْقي من هذه الريح فسمع سُفهاءَ من أهل مكّة يقولون: إن محمداً لمجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعلّ الله يَشْفيه على يديَّ، قال: فلقيته، فقال: يا محمد إني أرقِي من هذه الريح، وأن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أمّا بعد»**، قال: فقال: أعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنّ عليه رسول الله ﷺ ثلاثَ مراتٍ، قال: فقال: لقد سمعتُ قول الكَهَنَة وقول السَّحَرة وقول الشُعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن قَامُوس البحر، قال: فقال: هات يدك أُبَايِعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ:

«**وعلى قومك**»، قال: وعلى قومي، قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهرةً، فقال: ردّوها فإن هؤلاء قوم ضماد.

رواه أحمد (٣٠٣/١)، ومسلم في الجمعة (١٥٦/٦، ١٥٧).

قوله: أزد شنوءة هي من اليمن. قوله من الريح يعني الجنون، قوله: «قاموس البحر» أي بطنه ووسطه.

وفي الحديث دليل على أن النبيّ ﷺ كان قد أُوتي من الفصاحة والبيان ما فاق به أهل زمانه من العرب البلغاء وأنه كان يؤثر في قلب كل من سمعه كما حصل لضماد، فإنه جاء بقصد علاج النبيّ ﷺ الذي كان يشاع عنه أنه مجنون، فلما سمع كلامه لم يتوان عن تصديقه والإيمان به لما دهمه من نور الحقّ وسحر كلامه ﷺ.

* * *

❋ إسلام الجنّ

[٨٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ ولا رآهم، انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامِدين إلى سُوق عُكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حَدَث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا... فانطلق الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تَسَمَّعُوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، وأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾، وإنما أوحى الله قول الجنّ.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى وتقدم في التفسير، انظر سورتي الأحقاف والجنّ.

وفي الحديث دليل على أن الجنّ مخاطبون بالتكاليف الشرعيّة كالإنس، ولا فارق وأنه يوجد فيهم مؤمنون وكافرون وأنهم عالم يعيشون معنا ولا نراهم وأخبارهم كثيرة ولهم عجائب وغرائب ونوادر، وتقدّم الكلام عليهم في التفسير في الأحقاف، وفي سورة الجنّ. وفي الحديث بيان أن بعثة نبيّنا ﷺ كانت حائلة بين الشياطين وبين خبر السماء، فمن أراد استراق السمع منهم أرسلت عليه الشُّهب بواسطة ملائكة الله المكلّفين بحراسة السماء، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ الآية. وفي الحديث بيان عناية الله وسابق فضله، وأن أولئك الشياطين كانوا من جند إبليس صباحاً، فلما كان المساء أصبحوا من جند الله تعالى، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* * *

❋ تحطيم رسول الله والإمام عليّ وأسامة بن زيد الأصنام وتلطيخها بالعذرة

[٨٤] عن الإمام عليّ عليه السلام قال: كنت أنطَلِقُ أنا وأُسامةُ بن زَيْد إلى أصْنام قُريش التي حولَ الكعبة، فنأتي بالعَذِراتِ، فنأخذُ حَريراق بأيدينا، فننطلق به إلى أصنام قريش فنُلَطِّخُها فيصبحون يقولون: من فعل بآلهتنا؟ فينطلقون إليها ويغسلونها باللّبن والماء...

عزاه الحافظ في المطالب العالية رقم (٤٢٧٥) لإسحاق بن راهويه وقال: إسناده صحيح.

في هذا الأثر مشروعية إهانة معابد الكفار والنَّيل منها بإلقاء القاذورات عليها ونحو ذلك، وهذا طبعاً إذا لم يؤدّ إلى إهانة مقدّساتنا وسبّ الله أو رسوله مثلاً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وما فعله الإمام علي وأسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهم كان في ظروف خاصّة.

[٨٥] وعن عليّ أيضاً رضي الله تعالى عنه قال: انطلقتُ أنا والنبيّ ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: «اجلس» وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس لي رسول الله ﷺ فقال: «اصعد على منكبي»، قال: فنهض بي قال: فإنّه يُخيل إليّ أني لو شئت لنلتُ أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تِمْثالُ صُفْر أو نُحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى استمكنتُ منه، فقال لي رسول الله ﷺ: «اقْذِفْ»، فقذفتُ به فتكسّر كما تتكسّر القوارير ثم نزلت، فانطلقتُ أنا ورسولُ الله ﷺ نَسْتَبِقُ حتى توارَيْنا بالبيوت، خشيةَ أن يلقانا أحدٌ من الناس. وفي رواية: كان على الكعبة أصنام، فذهبت أحمل النبيّ ﷺ فلم أستطع، فحملني فجعلت أقطّعها ولو شئت لنلت السماء.

رواه أحمد (٨٤/١) وابنه في زوائد أبيه (١٥١/١)، وأبو يعلى، وقال النور في المجمع (٢٣/٦) ورجال الجميع ثقات.

كان هذا التحطيم للأصنام قريباً من وقت الجهر بالدعوة، وذلك يُعتبر تغييراً لأعظم منكر يوجد عند الكعبة، وفي ذلك منه ﷺ اقتداء بأبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسلام مع ما في ذلك من ردود فعل، فإن المشركين كانوا في ذلك الحين أشدّ ما يكون من إذاية النبيّ ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❁ الهجرة إلى الحبشة

[٨٦] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين[1] رجلاً، فيهم عبدالله بن مسعود،

(١) كانت هذه الهجرة الثانية.

وجعفر وعبدالله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى؛ فأتوا النجاشي وبعثتْ قريشٌ عَمْرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دَخَلا على النجاشيّ سجَدَا له ثم ابتدرَاه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنّا وعن ملّتنا، قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنّا لا نسجد إلاّ لله عزّ وجلّ، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله عزّ وجلّ بعث إلينا رسوله ﷺ وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمّه؟ قالوا: نقول كما قال الله عزّ وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقِسّيسين والرُهْبان والله ما يزيدون عن الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيته حتى أكون أنا أحمِلُ نعليه وأُوَضّئُه، وأمر بهدِيَّةِ الآخَرِين فردّت إليهما، ثم تعجّل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بَدْراً وزعم أن النبيّ ﷺ استغفر له حين بلغه موتُه.

رواه بهذا السياق أحمد (٤٦١/١) وسنده حسن وجوّده ابن كثير وقوّاه وحسّنه ورواه بنحوه الطبراني عن أبي موسى، قال الهيثمي في المجمع (٣٠/٦، ٣١) ورجاله رجال الصحيح.

[٨٧] وعن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لمّا نزلنا أرض الحبشة جَاوَرْنا بها خَيْرَ جارٍ النجاشي أمِنّا على ديننا، وعَبَدْنا الله وحده لا نُؤْذَى، ولا نَسْمَعُ شيئاً نكرهُه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جَلْدَيْن، وأن يُهْدُوا النجاشي هدايا ما يُسْتَطْرفُ من متاع مكّة، وكان أعْجَب ما يأتيه منها الأَدَمُ، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتِه بِطْرِيقاً إلا أهدوا له هدية، وبعثوا بذلك مع

عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كُلِّ بِطْرِيق هديَّته قبل أن تكلّموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا النجاشي هداياه ثم اسألُوه أن يسلّمهم إليكم قبل أن يُكلّمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشيّ ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمانٌ سُفهاءُ فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليَردَّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملِك فيهم فأشِيرُوا عليه أن يُسلّمهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلم بهم عَيْباً، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نِعمًا، ثم قرّبوا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم، ثم كلّماه فقالوا له: أيها الملك قد صبأ إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائِهم وأبنائهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم عَيْباً وأعلم بما عابوا وعايبوهم فيه. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلم بهم عيباً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسْلِمْهم إليهم فليردّهم إلى بلادهم وقومهم؛ فغضب النجاشي وقال: لا هيم الله إذ لا أسلّمهم إليهما، ولا أكاد، قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلّمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحتسب جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا فقالوا بعضهم لبعض: ما تقولون في الرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبيّنا ﷺ كائِن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه وقد دعا النجاشيّ أساقِفَتَهُ فنشَرُوا مصاحِفهم حولَه سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: وكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيءُ الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنّا نَعْرِفُ نسبَه وصِدْقَه،

وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عزّ وجلّ لنُوَحِّدَه ونَعبدَه ونَخلعَ ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام فصدّقناه وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عزّ وجلّ، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك. قال: فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، قالت: فقال له النجاشي: فاقرأه، فقرأ عليه صدراً من «كهيعص»، قالت: فبكى النجاشي حتى أخضَبَ لِحْيَتَه، وبكتْ أساقِفَتُه حتى أخضَبُوا مصاحِفَهم حين سمعوا ما تُلِيَ عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلّمهم إليكم ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينهم غداً أعِيبُهم عنده بما استأصِل به خَضْراءَهم. فقال له عبدالله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عليه السلام عبدٌ. قالت: ثم غدا عليه، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، واجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله سبحانه وتعالى وما جاء به نبيّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ونقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده

على الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فناخَرْت بطارِقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله إذهبوا فأنتم سيوح بأرضي، والسيوح الآمنون من سَبَّكُم غرِم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبَّكم غرم، فما أحبّ أن لي دير ذهب، وإني آذيت رجلاً منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه وما أطاع في الناس فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت: فوالله إنّا على ذلك إذ نزل به ـ يعني من ينازعه في ملكه ـ قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشدّ من حزن حزناه عند ذلك تخوّفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقّنا ما كان النجاشي يعرف منه. قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سنّاً، قالت: فنَفَّخُوا له قِرْبَة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوّه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكّة.

رواه أحمد (٥/٢٩٠، ٢٩٢) من طريق ابن إسحاق، وأبو نعيم في الحلية (١/١١٥) بسند صحيح، قال الهيثمي (٦/٢٤، ٢٧): ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث وهو عند ابن هشام (١/٣٦٠، ٣٦٤).

عندما اشتدّ البلاء بالصحابة من طرف قريش ولم يكن للنبيّ ﷺ وقته ما يحميهم به، قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ حتى يجعل الله تعالى لكم فرجاً مما أنتم فيه»**، فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله تعالى بدينهم، وكانت أول هجرة في الإسلام.

فخرجوا متسلّلين مختفين وكان عددهم في هذه الهجرة عشرة رجال، وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة وزوجه أمّ سلمة، وأخوه لأمّه أبو سبرة بن أبي رهم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبدالرحمٰن بن عوف وعثمان بن مظعُون ومُصعب بن عُمير وسهل بن البيضاء والزبير بن العوام وجلّهم من قريش، وكان عليهم عثمان بن مظعون، فساروا ولمّا انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة، فأقاموا بها آمنين لكنهم سرعان أن أُشيع بأن مشركي مكّة أسلموا فرجع هؤلاء المهاجرون إلى مكّة فوجدوا الأمر على خلاف ما أشيع ولم يتمكّنوا من الدخول إليها إلا بمجير يحميهم، ومن لم يجد منهم مجيراً اشتدّ عليه البلاء واستُأنِفَتْ فِتْنَتُهُ من جديدٍ.

* * *

❁ الهجرة الثانية

ثم لما تألّب الكفار على الصحابة وتكالبوا عليهم بالعداوة وألوان الإذاية والتعذيب أمر رسول الله ﷺ أصحابه جميعاً ممن قدر أن يهاجر إلى أرض الحبشة، فهاجر معظمهم، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، ثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عُمَيْس، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود، وعبيدالله بن جحش[1] وامرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان...

ولما رأت قريش ذلك أرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ليسلّمهم إليهما مرتين: مرّة كان فيهما عمرو وعمارة، ومرة كان مع عمرو عبدالله بن أبي ربيعة، وقد رأينا كيف انتصر المسلمون على وفد

(١) وكان من قدر الله أن ارتد هذا ومات بالحبشة كافراً وفارقه أم حبيبة فتزوجها النبي ﷺ كما يأتي.

قريش ورجوعهم مخذولين مخزيين، حيث إن النجاشي أجار المسلمين وحماهم ورحّب بهم وأمّنهم في بلاده لمَّا عَلِمَ صِدْقهم وافتراءَ أعدائهم.

* * *

❋ من فوائد حادث الهجرة إلى الحبشة وعِبَره

يؤخذ من حادث الهجرة إلى الحبشة أمور:

أولاً: مشروعية الهجرة فراراً بالدين من الفتن، ولا خلاف في وجوبها أو استحبابها عند المقتضي لها وهي سنّة من سُنن الأنبياء.

ثانياً: يشترك فيها الرجال والنساء، فالنساء شقائق الرجال في الأحكام والتكاليف الشرعية بدون أي فارق، ولذلك نرى بنات سادات قريش يهاجرن بدينهن مع أزواجهنّ كرقية بنت رسول الله ﷺ وأمّ سلمة المخزوميّة، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان... رضي الله تعالى عنهنّ.

ثالثاً: فيه ما كان عليه ملوك النصارى من استعباد شعوبهم بالسجود لهم بينما جاء الإسلام بتحريم السجود لغير الله تعالى.

رابعاً: فيه جواز الإقامة بدار الكفر لأجل اللجوء... إذا كان المسلم مأموناً على إقامة دينه ونفسه وأهله، وقد فصّلت القول في هذا في الجهاد، فارجع إليه.

خامساً: فيه ما كان عليه عمرو بن العاص من العداوة للمسلمين حتى افترى عليهم أمام النجاشي وأساقفته لِيُرْغِمَهُم على الرجوع إلى مكّة ليتشفّى منهم.

سادساً: يبدو أن النجاشي كان عاقلاً حكيماً، فإنه لم يقض لعمرو بمجرّد ما قال له عن الصحابة، بل تروّى حتى بعث إليهم وسمع كلامهم، فعندئذ قضى بما ظهر له من الحقّ، فردّ المبعوثين خائبين خاسئين.

سابعاً: يظهر من سياق الحادث أن النجاشي كان موحّداً ولم يكن من

أهل التثليث والشرك، وكان ذلك الحامل له على الإسلام، فآمن بالنبيّ ﷺ وبقي ملكاً على النصارى إلى أن توفي في السنة التاسعة للهجرة، وصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب كما تقدّم في الجنائز، وسيأتي مزيد لهذا في المناقب، وانظر صحيح البخاري (٨/١٩١) من المبعث.

ثامناً: في هؤلاء المهاجرين مَن كان هاجر الهجرتين للحبشة، وكان منهم سيّدنا عثمان ذو النورين رضي الله تعالى عنه كما يأتي في المناقب.

تاسعاً: فيه بيان عظمة سيدنا جعفر رضي الله تعالى عنه وفضله وشجاعته وقوّة عارضته، وفصاحته وبيانه، واقتداره على المحاورة وملاقاة الملوك، وإفحام الخصم.

عاشراً: استحضاره لكثير من أصول الدين وقواعده وإلقاؤها على الملك والقساوسة بدون تلعثم... فرضي الله تعالى عنه.

حادي عشر: بقي المسلمون مهاجرو الحبشة بها إلى زمن خيبر.

[٨٨] فعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: بلغنا مخرج النبيّ ﷺ ونحن باليمن، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافقنا النبيّ ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ: **«لكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان»**.

رواه البخاري في المبعث (٨/١٩٠)، ويأتي في الغزوات وفي المناقب.

* * *

❁ أحداث وقعت بين الهجرة إلى الحبشة وبين الإسراء

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

[٨٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«اللّهمّ أعِزَّ الإسلام بأحَبِّ هذَين الرَّجُلين إليك: بأبي جَهل، أو بعُمَر بن الخطّاب»**، قال: وكان أحبَّهما إليه عُمر.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٤٧) بتهذيبي، وابن حبان (٢١٧٩) بالموارد وحسّنه الترمذي وصححه وله شواهد ذكرتها في تهذيب الترمذي.

[٩٠] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ما زِلْنا أعِزَّةً منذُ أسلمَ عُمَرُ.

رواه البخاري في المبعث (٨/١٧٦) رقم (٣٦٨٤).

[٩١] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا أسلم عمر اجتمع الناس عند داره، وقالوا: صَبَأ عُمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي فجاء رجل عليه قباءٌ من ديباج فقال: قد صبأ عمر! فما ذاك؟ فأنالَهُ جارٌ، قال: فرأيت الناس تَصَدَّعُوا عنه، فقلت: من هذا؟ قالوا: العاص بن وائل.

رواه البخاري في المبعث (٨/١٧٧).

كان إسلام عمر نصراً وعِزّاً للإسلام لما كان له من الشجاعة والقوّة والشهامة بعد أن كان أقسى الناس على المسلمين وأشدّهم كراهة للإسلام وأبعدهم منه، فاستجاب الله تعالى دعاء النبيّ ﷺ فيه، كما قال: **«اللّهمّ أعِزّ الإسلام بأحبِّ الرجُلَين إليك»**، فكان أحبّهما إليه تعالى عمر رضي الله تعالى عنه، وكان سبب إسلامه كما ذكره أهل السيرة إذايته لأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، فبعد أن آذاهما خرج قاصداً دار الأرقم بن الأرقم حيث كان يجتمع النبيّ ﷺ بأصحابه، فطرق الباب وأذنوا له، فأخذ النبيّ ﷺ بتَلابِيبِهِ وقال له: **«ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنْزِلَ الله تعالى بك قارعةً»**، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فكَبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. هكذا ذكره ابن هشام في السيرة.

[٩٢] وعندما أسلم قال للنبيّ ﷺ: يا رسول الله إني لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش مُتحلّقة فجعل يُعلنُ الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله،

فثار المشركون فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا عليه خلَّصه العاص بن وائل.

أورده في المجمع (٦٥/٩) وعزاه لأوسط الطبراني، وقال: رجاله ثقات وتأتي أحاديث أخرى في مناقبه إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

❊ حصار النبيّ ﷺ ومن كان معه من بني هاشم وبني المطلب في الشِّعْبِ

[٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أراد حُنَيْناً: **«منزلُنا غداً إن شاء الله بخَيف بَنِي كِنانة حيثُ تقاسَمُوا على الكفر»**، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ، وفي رواية: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: **«نحن نازلون غداً»** إلخ.

رواه البخاري في المبعث (١٩٢/٨) وفي الحج، ومسلم في الحج أيضاً رقم (١٣١٤).

خيف بني كنانة: هو الأبطح ويقال له المحصب. «تقاسموا على الكفر» تعاهدوا وتحالفوا.

[٩٤] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ في حجته، قال: **«وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟»** ثم قال: **«نحن نازلون غداً إن شاء الله تعالى بخيف بني كنانة** ـ يعني المحصب ـ **حيث قاسمت قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم، أن لا يُناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤوهم»**.

رواه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤)، ومسلم فيه (١٦١٤)، وأبو داود (٢٩٠٩)، وأحمد (٥/٢٠٠، ٢٠٩) وغيرهم.

«تقاسموا» أي: تحالفوا وتعاقدوا على مقاطعة النبيّ ﷺ ومن كان معه.

ذكر أهل السِّيَر كابن إسحاق وابن عقبة وغيرهما أن قريشاً لمّا رأت الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً، وأن عمر قد أسلم، وأن الإسلام فشا في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعب أبي طالب ومنعوه ممن أراد قتله فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أن يكتبوا صحيفة على منابذة بني هاشم وبني المطلب والتضييق عليهم بأن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم... حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ، ففعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلّهم إلاّ أبا لهب، فكان مع قريش فأقاموا على ذلك نحواً من ثلاث سنين حتى جهدوا ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية حتى كانوا يؤذون من اطلعوا عليه أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصّلات إلى أن قام نفر منهم بنقض الصحيفة وكانوا خمسة من أشراف قريش، وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء، وزهير بن أبي أُمية المخزومي ابن عمّة الرسول عاتكة، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو البختري بن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي، واتّفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلّة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكّة أنأكُلُ الطعام ونَلْبسُ الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون، والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك وصدق على ما قيل هشام بن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدي فشقّها، وكانت الأرَضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلاّ ما

فيه اسم الله تعالى، فخرج القوم إلى أماكنهم بعد هذه الشدّة. هذا ما ذكره علماء السير والمغازي وهو شرح لقوله ﷺ... «حيث تقاسموا على الكفر» إلخ.

هذا الحصار الظالم الذي وقع على النبيّ ﷺ ومن كان معه، الذي دام ثلاث سنوات يدلّ على أن أولئك الكفار كانوا منسلخين من الإنسانية قد بلغوا من قساوة القلوب وصلابتها ما لا يمكن التعبير عنه، وفعلهم ذلك أشبه شيء بقُساةِ وقتِنا الكفرة الذين يضربون الحصار على ضعفاء الدول، فيحولون بينهم وبين اقتصاد العالم كما يُحاصَرُ الدعاة إلى الله تعالى وعلماء الإسلام والمصلحون، فالتاريخ يُعيد نفسه.

والذي يلفت الأنظار من هذا الحادث هو انحياز كفار بني هاشم وبني المطلب إلى صفّ النبيّ ﷺ، مع العلم بأنه لم يكن ذلك منهم تديّناً وتصديقاً لما جاء به النبيّ ﷺ كما كان حال المسلمين منهم، وإنما فعلوا ذلك حمية منهم وخوفاً من أن تعيّرهم العرب إذا ما قتل النبيّ ﷺ كفارُ قريش ولم يحمه وينصره أقاربه، وحيث إنهم قاسوا شدائد الجوع والعُرْي ومقاطعة قومهم إيّاهم حماية للنبيّ ﷺ ودفاعاً عنه جعل لهم ﷺ حظّاً من خمس الفَيْء والغنيمة دون بني عمّهم من بني عبد شمس ونوفل، ولما قيل له في ذلك قال: إن بني هاشم والمطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام، وكم كنّا نتمنّى أن يُسلم الذين ماتوا على الكفر منهم وفي طليعتهم أبو طالب كما كَمْ كُنّا نتمنّى أن يُسلم جميع أولئك الخمسة الذين نقضوا الصحيفة الظالمة لما أسدوا للنبيّ ﷺ من خير ومعروف، ونرجو الله أن يخفّف عنهم العذاب كما يخفّفه على أبي طالب وأبي لهب.

* * *

❋ الانتقام من المستهزئين برسول الله ﷺ

[٩٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا

﴿كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الآية، قال: المستهزئون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن المطلب من بني أسد، والحارث بن عيطل السَّهْمي، والعاص بن وائل، فأتاه جبريل عليه السلام فشكاهم النبيّ ﷺ إليه، فأراه الوليد وأومأ جبريل إلى أبجله، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفِيتَه، ثم أراه الأسود فأومأ جبريل إلى عينه فقال: ما صنعتَ؟ قال: كُفيتَه، ثم أراه أبا زمعة فأومأ إلى رأسه فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه، ثم أراه الحارث فأومأ إلى رأسه أو بطنه وقال: كفيته، ومرّ به العاص فأومأ إلى أخْمَصِه وقال: كُفيتَه، فأمّا الوليد فمرّ برجل من خزاعة وهو يريش نبالاً، فأصاب أبجله فقطعها، وأما الأسود فعمي، وأما ابن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها، وأمّا الحارث فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرؤه من فيه فمات منها، وأما العاص فدخل في رأسه شُبْرُقَة حتى امتلأت فمات منها، وقال غيره: إنه ركب إلى الطائف حماراً فربض به على شوكة فدخلت في أخْمَصِه فمات منها.

رواه البيهقي في السنن (٨/٩) والدلائل (٣١٦/٢) وسنده صحيح وصححه الذهبي في السيرة.

«الأبْجَل» هو عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل بين العصب والعظم. «شُبْرقة» بضم الشين والراء بينهما باء ساكنة؛ نبت له شوك.

وفي هذا الأثر بيان المستهزئين الذين كانوا يسخرون من النبيّ ﷺ ويضحكون عليه ويتهكّمون، وأن الله عزّ وجلّ كفاه إيّاهم فأهلكهم جميعاً.

ومن أنواع استهزاء العاص به ﷺ ما جاء في الحديث التالي:

[٩٦] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء فَفَتَّهُ بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيُحْيِي الله هذا بَعْدَ ما أرم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يُمِيتك الله ثم يُحْيِيك ثم يُدْخِلُك جهنّم»، قال: ونزلت الآيات من آخر سورة يَس.

رواه ابن جرير (٢٣/٣٠، ٣١)، وابن أبي حات (١٠/٣٢٠٢)، والحاكم (٢/٤٢٩)، وصححه على شرط الشيخين، والآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية. وقوله: «رميم» أي بالٍ، وقوله: «بعدما أرم» أي بَلِيَ، كان العرب لا يعترفون بالحياة بعد الموت ولذلك كَثُر الكلام في القرآن الكريم على البعث، وضرب الله لذلك أمثالاً كثيرة، وهذا الشقيّ العاص كان ممن يُنكر البعث واستبعد ذلك فقال: من يُحيي العظام وهي رميم.

فالإنسان رغم أنه ضعيف خُلِق من نطفة ثم علقة ثم مضغة... إلى آخر أطواره العجيبة يتعاظم على الله خالقه، ويعترض عليه ويَنْسُبُه للعجز، ويُحَكِّمُ عقلَه ويُكَذِّب ما جاءت به رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم من عنده عزّ وجلّ، فيا عجباً للإنسان.

* * *

❊ قصة ابن أم مكتوم الأعمى مع النبيّ ﷺ

[٩٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أنزل «عبس وتولى» في ابن مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعْرِض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقولُ بأساً»؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزل.

رواه الترمذي (٣١١٤)، وابن جرير (٣٠/٥٠) كلاهما في التفسير، وابن حبان (١٧٦٩) بالموارد، والحاكم (٢/٥١٤) وسنده صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ولا يضرّ من أرسله.

قوله: عبس أي: كلح وجهه وتولّى أي: أعرض عنه، ولم يكن ذلك منه ﷺ احتقاراً له واستخفافاً به، بل حاشاه من ذلك، وإنما كان ذلك حرصاً منه ﷺ على إسلام ذلك الكافر، فجاءت الآيات الكريمات

تُرْشِدُهُ ﷺ إلى ما كان الأَوْلى له أن يسلكه، وهو تذكير للأعمى وإرشاده رضي الله تعالى عنه لعلّه يزكّى.

* * *

❊ دعاء النبيّ ﷺ على قريش لما استعصوا

[٩٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، وفي رواية: أبطأوا على الإسلام، فدعا عليهم النبيّ ﷺ فقال: «**اللّهمّ أعِنّي عليهم بسبعٍ كسبع يُوسف**»، فأخذَتْهم سَنةٌ حتى هلكوا فيها، وأكلوا الجِيفَة والعِظامَ، ويرى الرجلُ ما بين السماء والأرض كهيئة الدُّخان، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وأن قومك قد هلكوا، فادع الله، فقرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾، أفيُكْشَفُ عنهم عذاب الآخرة إذا جاء ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يوم بدر ولِزَاماً يوم بدر. وفي رواية: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم.

رواه البخاري في التفسير (١١٣/١٠) وغيره، ومسلم آخر الكتاب (٢٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦) وتقدّم في التفسير.

قوله: أبطأوا أي: تأخروا فلم يسلموا. وقوله: «كسبع يوسف» أي: كالسبع السنين المجدبة التي أصابت الناس أيام نبيّ الله يوسف عليه السلام.

وفي الحديث دعاء النبيّ ﷺ على كفار قريش بالجدب والجوع، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فيهم، فبعث عليهم سنة مجدبة هلكوا فيها جوعاً حتى أكلوا الجيفة والعظام، فبالأمس القريب كانوا ضاربين الحصار على النبيّ ﷺ وذويه حتى هلكوا جوعاً، فها هم اليوم يأكلون الجيفة والعظام ويفزعون إلى النبيّ ﷺ مطأطئي رؤوسهم له يستعطفونه بأن يَدْعُو الله لهم بكشف ما حلّ بهم، معترفين له بأنه جاء يدعو إلى مكارم الأخلاق فيدعو الله

فيكشف ما نزل ثم يعودون لكفرهم وطغيانهم وعنادهم، ولكنه تعالى أوعدهم بالانتقام منهم وقد فعل جلّ علاه.

* * *

❋ قصة غلبة الروم والرهان بين الصديق وبين قريش

[٩٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، قال: غُلِبَتْ، وغَلَبَتْ قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: «**أما إنهم سيغلبون**»، فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**ألا جعلته إلى دون**»، قال: أُراه العشر، قال: قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر.

رواه أحمد (٢٧٦/١، ٣٠٣)، والترمذي (٢٩٨٥)، والنسائي في الكبرى (٤٢٦/٦) كلاهما في التفسير، والحاكم (٤١٠/٢) وصححه الترمذي والحاكم وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

في الحديث بيان لقصة الروم مع فارس وانتصار الثانية على الأُولى وإخبار القرآن بأن الروم ستنتصر على فارس في بضع سنين، فكان الأمر كما أخبر، فكان ذلك من أعظم معجزات القرآن الغيبيّة، ومع ظهور ذلك وتحقق الكفار بصحة ما نطق به القرآن وما حدثهم به النبيّ ﷺ تمادوا في طغيانهم وضلالهم واعتبروا ذلك سحراً وكهانة.

والرهان الذي وقع بين الصدّيق والكفار كان قبل أن يحرمه الله تعالى، وقد قدمنا حكمه في المعاملات.

وفي الحديث دليل على أن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من الوثنيّين والمجوس، وأنه قد يكون بينهما تحابب في انتصارهم على اللادينيين، ولا يعدّ ذلك من الموالاة المنهيّ عنها.

* * *

❁ أبو طالب: وفاته وترجمته ومآله

[١٠٠] عن المُسَيّب حَزْنِ بن أبي وَهْب رضي الله تعالى عنه قال: لما حَضرتْ أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أُمَيّة، فقال رسول الله ﷺ: «**أي عم، قل لا إله إلاّ الله كلمةً أُحَاجُّ لك بها عند الله**»، وفي رواية: «**كلمة أشهَدُ لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل، وعبدالله بن أبي أُمَيّة: يا أبا طالب تَرْغَبُ عن مِلّةِ عبدالمطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملّة عبدالمطلب، وأبَى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «**والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك**»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآية، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

رواه أحمد (٤٣٣/٥)، والبخاري في الجنائز وفي الأيمان والنذور وفي التفسير (٤١١/٩) وفي المبعث (١٩٤/٩)، ومسلم في الإيمان (٢١٤/١، ٢١٥، ٢١٦)، والنسائي في الكبرى (٣٥٩/٦)، وفي المجتبى وغيرهم.

[١٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمّه: «**قل لا إله إلاّ الله أشهَد لك بها يومَ القيامة**»، قال: لولا أن تُعَيِّرَني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجَزَعُ لأقْرَرْتُ بها عينَك، فأنزل الله

تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

رواه أحمد (٤٤١/٢)، ومسلم في الإيمان (٢١٦/١)، والترمذي في التفسير (٢٩٨١) بتهذيبي وغيرهم.

[١٠٢] وعن عليّ عليه السلام أنه أتى النبيّ ﷺ لما مات أبو طالب، فقال: يا رسول الله إن عمّك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهَب فوَارِه»، قلتُ: إنه مات مشركاً، فقال: «اذهب فواره»، فلما واريتُه رجعت إلى النبيّ ﷺ فقال لي: «اغتسل».

رواه أحمد (٩٥/١، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١)، وأبو داود في الجنائز (٣٢١٤)، والنسائي في الطهارة وفي الجنائز (٦٥/٤) بسند صحيح.

أبو طالب اسمه عبد مناف وكان شَقِيقاً لعبدالله والد رسول الله ﷺ، ولما حضرت الموت عبد المطلب أوصى به إليه فكفله إلى أن كبر وكان به رحيماً وعليه عطوفاً، ولما بعث ﷺ نصره وآزره وحماه من كَيْد الكفار ودافع عنه وكان يذبّ عنه ويردّ كل من يُؤذيه، ويفعل هذا وهو مقيم على دين قومه! وأخباره في نصرته ﷺ والذبّ عنه معروفة متواترة، ولاميّته المشهورة تدلّ على إيمانه بالنبيّ ﷺ وتصديقه بقلبه ومحبّته له ودفاعه عنه وعدم تسليمه ومعاداة من عاداه ومدحه إياه، وهكذا بقي إلى جانبه إلى أن وقع حصارهم في الشعب وبعد خروجهم منه توفي، وذلك آخر السنة العاشرة من المبعث.

وأحاديث الباب مع ظاهر القرآن تدلّ على أنه مات على غير الإسلام، مقدماً عليه ملّة عبد المطلب ولم يقدر له أن ينطق بالشهادة وهي شرط صحة للإيمان، فهو وإن كان معترفاً بقلبه بصحة ما جاء به النبيّ ﷺ مؤمناً به امتنع من النطق بالشهادة خوفاً من العار الذي يصيبه بعد موته من طرف الكفار.

وهكذا شاء الله عزّ وجلّ فله شؤون في خلقه، وأكثر الشرائع والأحكام تحار العقول في حِكَمِهَا وأسرارها، فلْنَكِلْ أمر أبي طالب إلى الله تعالى. وكم كنا نتمنّى أن يقر عين ابن أخيه ﷺ بالتلفّظ بكلمة الإخلاص

ليكون رفيقه في دار النعيم جزاء ما فعله معه من معروف طوال حياته من الطفولة إلى الكهولة، ومع ذلك فالله عزّ وجلّ لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فقد نفعت أبا طالب حمايته للنبيّ ﷺ ونصرته إيّاه ودفاعه عنه، فشفع له ﷺ إلى الله فقبل شفاعته فخفّف عنه العذاب كما سنذكر.

[١٠٣] فعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يَحُوطكَ ويغضَبُ لك؟ قال: «**نعم، هو في ضَحْضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار**».

وفي رواية: «**نعم وجدته في غمرات من النار، فأخرجتُه إلى ضحضاح**».

رواه البخاري في المبعث (٨/١٩٣) وفي الأدب رقم (٦٢٠٨)، ومسلم في الإيمان (٣/٨٤).

[١٠٤] وعن أبي سعيدٍ رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ ﷺ وذكر عنده عمّه أبو طالب، فقال: «**لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يَغْلِي منه دِماغُه**».

رواه البخاري في المبعث (٨/١٩٥)، ومسلم في الإيمان (٣/٨٥)، ويأتي في الرقاق بسياقٍ آخر.

[١٠٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**».

رواه مسلم (٣/٨٥).

«الضحضاح» ما رَقّ من الماء على وجه الأرض. وقوله: «يحوطك» الحياطة هي الصيانة والحفظ والذبّ.

وهذه الأحاديث نصّ في أن أبا طالب في النار وأنه سيخفّف عنه العذاب بشفاعة رسول الله ﷺ وهو أقل أهل النار عذاباً، ولولا شفاعة رسول الله ﷺ لكان في الدَّرك الأسفل من النار عياذاً بالله تعالى.

وهذه الأحاديث ترد على الروافض ومن نحا نحوهم في قولهم بنجاة أبي طالب وأنه مات مؤمناً، حتى إن بعض أهل السنّة كتب رسالة في ذلك أسماها «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب».

ويؤخذ من هذه الأحاديث أن عذاب الكفار متفاوت كأهل الإيمان، غير أن الشفاعة في الكفار لا تُقبل، وما حصل لأبي طالب من خصائص النبيّ ﷺ.

* * *

❁ وفاة خديجة وتزوج الرسول ﷺ بعائشة وسودة

[١٠٦] عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: **«تُوُفِّيَتْ خديجة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قبل مَخْرَج النبيّ ﷺ إلى المدينة بثلاثِ سِنين، فلبِث سَنتين أو قريباً من ذلك، ونكَح عائشة وهي بنتُ ستّ سنين، ثم بَنَى بها وهي بنت تسع سنين»**.

رواه البخاري في المبعث (٨/٢٢٥).

[١٠٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قال: لمّا توفيت خديجة قالت خَوْلة بنت حكيم امرأةُ عثمان بن مظعون: يا رسول الله ألا تَزَوَّجُ؟ قال: **«نعم، فما عِندكِ؟»** قالت: بِكْرٌ وثَيِّبٌ، البكر بنت أحبّ خلق الله إليك عائشة، والثيّب سودة بنتُ زَمْعَة، فدخلت على أبي بكر فقال: إنما هي ابنة أخيه، قال: **«قولي له: أنت أخي في الإسلام، وابنتك تَصْلح لي»**، فجاءه فأنكحه ثم دخلت على سودة فقالت لها: أخْبِري أبي، فذكرت له فزوّجه.

رواه أحمد (٦/٢١٠، ٢١١)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٣) مختصراً ومطوّلاً، قال النور في المجمع (٩/٢٢٥): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وكذا حسّنه الذهبي والحافظ.

ذُكِرَ في الحديثين ثلاثُ نسوة من أُمّهات المؤمنين الأوائل رضي الله تعالى عنهنّ:

خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية الطاهرة حبيبة رسول الله ﷺ الأولى تزوّجها قبل البعثة بخمسة عشر عاماً، وهي ثيب من رجلين سابقين وعمرها أربعون سنة، وكانت أجمل أهل زمانها وأشرفهم حسباً ونسباً وجاهاً وعاشت تحت عصمة النبيّ ﷺ ربع قرن، وكانت أوّل من آمن به، وتُثَبِّتُه وتُهَوِّن عليه ما يَنْزِلُ به، وقد سبق في حديث بدء الوحي ماذا قالت له في هذا الصدد، ولما قالت عائشة للنبيّ ﷺ: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب ثم قال: **«لا واللهِ ما أبْدَلَنِي الله خيراً مِنْها آمَنَتْ إذ كَفَرَ الناسُ، وصدَّقَتْنِي إذ كذَّبَنِي النَّاس، وَوَاسَتْنِي بِما لها إذ حَرمَنِي النَّاسُ، ورَزَقَنِي منها الله الوَلَدَ دُونَ غيرِها من النساء»**.

وهي أم جميع أولاده غير إبراهيم عليهم السلام والرضوان.

كان له ﷺ منها رضي الله تعالى عنها أربع بنات، وذكران:

زينب وهي أكبرهن تزوّجها أبو العاص بن الربيع، ورقيّة وأم كلثوم تزوّجهما عثمان رضي الله تعالى عنه تزوج رقية بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت أيام بدر ثم تزوّج بأم كلثوم، وفاطمة وهي أصغرهن تزوّجها الإمام عليّ، ثم القاسم وبه كان يُكنى، وعبدالله الملقّب بالطيّب والطاهر والجميع ماتوا في حياة النبيّ ﷺ ولم يعش بعده إلا فاطمة ثم لحقته بعد ستّة أشهر من وفاته ﷺ.

وتوفيت خديجة رضي الله تعالى عنها في شهر واحد مع أبي طالب بعد خروجهم من الحصار سنة عشر من البعثة، ولها من العمر خمس وستون سنة، وللنبيّ ﷺ خمسون سنة ودُفنت بالحجون وقبرها معروف بالمعلاة يؤمّه الزوّار من الحجاج والمعتمرين طوال السنة، وستأتي فضائلها في المناقب.

وفي الشهر الذي توفيت فيه خديجة تزوّج سودة بنت زمعة العامرية القرشية، وكانت قد آمنت بالله وبرسوله ﷺ وخالفت أقاربها وهاجرت مع زوجها ابن عمها السكران بن عمرو إلى الحبشة وعقب رجوعه من المهجر توفي فتزوجها الرسول الكريم ﷺ، وهي أول امرأة تزوجها بعد خديجة وبقيت تحته إلى أن توفي فمكثت بعده إلى آخر زمان عمر رضي الله تعالى

عنهما، وتقدم في التفسير وفي النكاح الكلام على إرادة النبيّ ﷺ تطليقها وما حصل في ذلك، ويأتي مزيد لهذا في المناقب.

وبعد زواجه بسودة بشهر عقد على مولاتنا عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ولم يتزوّج بكراً غيرها وتزوجها بإذن من الله تعالى وكانت أحبّ نسائه إليه بعد خديجة، ولها مناقب كثيرة تأتي في المناقب، وفي سنن الترمذي عن عمرو بن غالب رحمه الله أن رجلاً نال من عائشة عند عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم فقال[1]: أغْزُبْ مقبوحاً، أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ، وأخرجه ابن سعد بنحوه وزاد: إنها لزوجته في الجنّة. توفيت سنة ثمان وخمسين للهجرة، وكانت ولادتها بعد المبعث بأربع سنين أو خمس رضي الله تعالى عنها. وقبرها بالبقيع مع سائر نساء النبيّ ﷺ، غير خديجة وميمونة فإنهما بمكّة المكرمة رضي الله تعالى عنهما.

* * *

❋ خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف

[١٠٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ أنها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحُدٍ؟ قال: **«لقد لقيتُ من قومِكِ ما لقيتُ، وكان أشدّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة، إذْ عَرَضْتُ نَفْسي على ابنِ عبدِ ياليل بن عَبْدِ كُلال، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال، لتأمُرَه بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال، فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ؟ فقال**

---

(١) يعني عماراً.

النبيّ ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وَحدَه لا يُشرِكُ به شيئاً».**

رواه البخاري ومسلم وغيرهما وتقدّم في الإيذاء لرسول الله ﷺ رقم (٦٧) وأحلت الكلام عليه إلى هنا.

كانت خديجة رضي الله تعالى عنها وأبو طالب أعظم حائل بين النبيّ ﷺ وبين كفار قريش لما كان لهما من المكانة والسيادة والجاه عندهم، فكانوا يحترمونه ﷺ لأجلهما في الجملة، فلما توفّيا نالوا منه ﷺ ما لم يكونوا ينالونه في حياتهما، ولذلك جاء عنه ﷺ أنه قال: «**ما نالت مني قريش شيئاً أكرهُه حتى مات أبو طالب**» رواه ابن إسحاق عن عروة مرسلاً بسند صحيح.

فاشتدّ الأمر عليه من طرف قريش وأصيب بنكبات حتى سمّى ذلك العام عام الحزن لشدّة ما كابد فيه من الشدائد ووفاة حبيبته خديجة وعمّه أبي طالب، وهما من هما، ثم تألُّبِ قريش وتَكالُبِها عليه ﷺ، فكان العام بحق عام الحزن.

فلما رأى استهانة قريش به وما قابلوه به من شدّة الأذى خرج من مكّة وتوجه إلى:

[١٠٩] الطائف يرجو منهم نصرته ومساعدته حتى يتمّم أمر ربّه لكنّه ﷺ، فقد عمد إلى نفر من سادات ثقيف يومه وهم عَبْدُ ياليل، ومسعود، وحَبيب أولاد عمرو بن عُمَيْر الثَّقَفِيّ فعَرَض عليهم نُصْرَتَه حتى يُؤَدّيَ دعوتَه فردوا عليه ردّاً قبيحاً وأغْرَوْا به سُفهاءَهم يرمُونه بالحجارة ويطاردونه حتى أدْمَوْا عقبه ﷺ وزيدُ بن حارثةَ رضي الله تعالى عنه يَدْرَأُ عنه، إلى أن انتهى إلى شجرة كَرَم واستظلّ بها، وكانت بجوار بستان لعُتْبة وشَيْبَة ابْنَيْ ربيعة، وهما من أعدائه وكانا في البستان، فلما رأياه رقّا له وأرْسَلا إليه بقِطْفٍ من العِنَب مع مَوْلَى لهما نَصْرَانيّ اسمه عدّاس، فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم**»، فقال عداس: هذا الكلام ما يقولُهُ أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: «**مِن أي**

البلاد أنتَ وما دينُك؟» فقال: نصراني من نِينَوى، فقال عليه الصّلاة والسلام: **«من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى»**، قال: وما علمك بيونس، **فقرأ** عليه من القرآن ما فيه قصة يونس، فلمّا سمع ذلك عداس **أشْهَرَ** إسلامه **وأكبَّ** على يَدَيْ رسول الله ﷺ ورجليه يقبّلهما، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غُلامُك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل.

روى هذه القصة ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٦٧/٢، ٦٩) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٣٥/٦) إلى الطبراني.

[١١٠] وعن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: لما توفّي أبو طالب خرج النبيّ ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف فأتى ظلّ شجرة فصلّى ركعتين، ثم قال: **«اللّهُمّ إنّي أشْكُو إلَيكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وهَوَانِي على النّاس، أنتَ أرْحَمُ الراحمين، إلَى مَن تَكِلُني إلى عَدُوٍ يَتَجَهَّمُني أمْ إلى قريبٍ ملّكْتَه أمْري، إن لم تكن غضبان عليّ فلا أُبالي، غيرَ أن عافِيتَك أوْسَعُ لي، أعوذُ بِوَجْهِكَ الذي أشْرَقَتْ له الظلماتُ وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن يَنْزِل بِي غَضَبُك، أو يحلّ بي سخطُك، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى ولا قُوّة إلا بالله»**.

أورده الهيثمي (٣٥/٦) برجال ثقات، وفيه ابن إسحاق لم يصرح فيه بالسماع... ولا يضرّ هنا.

وكل ما ذكرناه هو شرح لحديث عائشة رضي الله تعالى عنها الذي يخبر فيه النبيّ ﷺ بأشدّ ما لقي من الأذى، فأشدّ ما لقي ما قابَلَه به أهلُ الطائف من الثقفيّين، وفي هذا الحديث عناية كبيرة من الله لنبيّه ﷺ حيث سخر له ملك الجبال أن يأمره بما يشاء في أهل مكّة الذين بالغوا في إذايته حتى ألجأوه إلى الذهاب إلى الطائف على قدميه، وبينها وبين مكّة نحو من ستين كيلو أو أكثر، فخيّره في أمره بهم بأن يهلكهم بإطباق الجبلين عليهم... فاختار ﷺ تَرْكَهُم والعَفْوَ عنهم عسى الله عزّ وجلّ أن يُخرج من أصلابهم من يُوحّدُ الله ويعبدُه، فكان الأمرُ كما رَجَا، فقد حقّق الله عزّ

وجلّ مُبتغاه، فكان كثير من أبناء أولئك الصناديد أبطالَ الإسلام وأنصاره والداعين إليه، بل والفاتحين للأقطار الكُفرِيّة؛ كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وجُبَيْر بن مطعم، وأبي عُبَيْدة بن الجراح، وعَمْرو بن العاص... كل هذا حصل بمعاملته الطيبة وعفوه وصفحه عن أولئك الأعداء، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وجزاه الله عنّا وعن الإسلام خيراً.

واتّفق أهل السِّيَر على أن النبيّ ﷺ لما أراد الرجوع إلى مكّة دخل إليها في جوار المطعم بن عدي وبقي مدة ثم ردّ إليه جواره.

[١١١] وهذا مع اتّفاق أهل السيرة عليه لم يوجد له سند غير أن حديث جبير بن مطعم الذي رواه البخاري في الخمس (٢/٧) الذي يقول فيه النبيّ ﷺ في أسارى بدر: «**لو كان المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ حيّاً ثم كلَّمَني في هؤلاء النَّتْنى لتركتُهم له**»، هو يدل على صحة أصل القصة فإنه ﷺ تمنّى أن يكون المطعم في غزوة بدرٍ حيّاً فيكلمه ﷺ في أسارى بدر مستشفعاً فيهم فيتركُهُم له، وما ذلك إلا لما سبق له من جواره ﷺ، وإلا فإنه كان من جملة أعدائه. والله تعالى أعلم.

* * *

❋ خروج الصدّيق مهاجراً إلى الحبشة ورجوعه في جوار ابنِ الدَّغِنَّةِ

[١١٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم أعقل أبَوَيَّ قطّ إلا وهما يَدِينان الدِّينَ، ولم يمُرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسولُ الله ﷺ طرفي النهار بُكرةً وعشيّةً، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ الغِماد، لقيه ابن الدَّغِنَّة وهو سيّدُ القارَةِ، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسِيحَ في الأرض وأعبد ربّي، قال ابن الدّغنة: فإنَّ مِثلك يا أبا بكر لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ، إنك تُكْسِبُ المعدوم، وتَصِلُ الرَّحم، وتَحْمِلُ الكلَّ، وتَقْرِي الضَّيْف، وتُعِين

على نوائب الحقّ، فأنا لك جارٌ، ارجع واعبد ربّك بِبَلدِكَ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشيّةً في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثلُه ولا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويَحْمل الكَلّ، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق، فلم تُكَذِّبْ قريش بجوار ابن الدّغنة وقالوا لابن الدّغنة: مُرْ أبا بكر فليَعبد ربّه في داره فليصلّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يَفتِن نساءَنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدّغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيَتَقَذَّفُ عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يَمْلِك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفْزَعَ ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدّغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانْهَهُ، فإن أحَبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يُعلن بذلك فسَلْه أن يرد إليك ذمّتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك، ولسنا بمُقِرّين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابنُ الدّغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليَّ ذمّتي، فإني لا أحبّ أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عزّ وجلّ، والنبيّ ﷺ يومئذ بمكّة.

رواه أحمد (٣٤٦/٦)، والبخاري في المبعث (٢٣١/٨، ٢٣٤)، وابن سعد في الطبقات والبيهقي في الدلائل (٤٧١/٢، ٤٧٢).

قوله: «برك الغماد» هو بفتح الباء وسكون الراء، والغماد بكسر الغين وفتح الميم المخفّفة موضع من خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن. قوله: أنا لك جار، أي مُجير وحَام. وقوله: نُخْفِرك بضم النون أي نغدر بك. وفي هذا الحديث أمور، ففيه فضل الصدّيق رضي الله تعالى عنه وأنه كان

متّصفاً بمكارم الأخلاق التي كان معروفاً ومشهوراً بها، وفيه قوّة إيمانه وتوكّله على الله تعالى حيث ردّ جوار ابن الدّغنة اعتماداً على الله تعالى، وفيه أن إرادته الهجرة إلى الحبشة كانت بسبب تكالب الكفار عليه وإذايتهم إياه الإذاية الشديدة، وفيه دليل على أن النساء والصبيان أقرب إلى قبول الحقّ وأنهم يتأثّرون سريعاً بالمواعظ والرقائق، ولذلك خشي الكفار على نسائهم وأطفالهم من تأثرهم بقراءة الصدّيق وبكائه ودخولهم في الإسلام، وفيه غير ذلك.

الإسراء والمعراج

[١١٣] عن أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعَة رضي الله تعالى عنهما أن نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أسري به، قال: «**بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فقدَّ**، قال: **وسمعته يقول: فشقّ ما بين هذه إلى هذه**»، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغْرةِ نَحْرِهِ إلى شِعْرَتِهِ، وسمعته يقول من قَصّه إلى شعرته، «**فاستخرج قلبي، ثم أُتِيتُ بطَسْتٍ من ذهب مملوءةٍ إيماناً فغُسل قلبي، ثم حُشِي ثم أُعيد ثم أُتِيتُ بدابّة دون البغل وفوق الحمار أبيضَ**»، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة، قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه، «**فحُمِلْتُ عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فَنِعْمَ المَجِيءُ جاء، ففُتِح فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم ـ عليه السلام ـ فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه فردّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء ففُتح، فلما خلَصْتُ إذا يحيىٰ وعيسى ـ عليهما السلام ـ وهما ابنا الخالة؟ قال: هذا يحيىٰ وعيسى فسلّم عليهما، فسلّمت فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد**

أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فَنِعم المجيء جاء، فَفُتِح فلما خلَصتُ إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلّم عليه فسلّمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعم المجيء جاء، ففتح فلما خلَصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلّم عليه، فسلّمتُ عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاسفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ـ ﷺ ـ قيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعم المجيء جاء، فلما خلَصت فإذا هُرون، قال: هذا هُرون فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلّمتُ عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، فلما تَجَاوَزْتُ بكى، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكِي لأنَّ غلاماً بُعِثَ بعدي يَدخل الجنّة من أُمّته أكثرُ من يَدخُلها من أُمّتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فَنِعْمَ المجيء جاء، فلما خلَصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلّم عليه، قال: فسلّمت عليه فردّ السلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح ثم رُفِعتْ لي سِدْرَةُ المُنتهى، فإذا نَبِقُها مثل قِلالِ هجر، وإذا ورَقُها مثل آذانِ الفِيَلةِ، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنّة وأما الظاهران فالنيل والفرات[1]، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتِيتُ بإناء من خمر وإناء من

(١) يأتي الكلام على أنهار الجنة في الرقاق.

لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة أنت عليها وأُمتك ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاةً كلَّ يوم، فرجعتُ فمررتُ على موسى فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال: أُمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جَرَّبتُ الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجةِ، فارْجعْ إلى ربّك فاسْأله التخفيفَ لأُمّتك، فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعتُ فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى، فقال: بِم أمرتَ؟ قلتُ: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أُمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأُمّتك، قال: سألت ربّي حتى استحييت ولكن أرضى وأُسَلِّمُ، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيتُ فَرِيضَتِي، وخفّفْتُ عن عبادي».

رواه البخاري في بدء الخلق وفي أحاديث الأنبياء وفي المبعث (٣٨٨٧) ج (١٩٦/٨، ٢١٦)، ومسلم في الإيمان رقم (١٦٤) ح (٢٢٣/٢، ٢٢٥).

حادث الإسراء جاء مطوّلاً ومختصراً عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة متواترة.

وقد ذكرت جملة منها في سورتي الإسراء والنجم من التفسير، فارجع إليه.

وخلاصتها: أن النبيّ ﷺ كان في الحجر فأتاه ملكان فشقّا صدره ثم أخرجا منه حظّ الشيطان ثم غسلاه بماء زمزم وملآه حكمة وإيماناً ثم أُتِي بالبراق فركبه ثم أُسري به إلى بيت المقدس صحبة جبريل ومرّ على موسى وهو قائم يصلّي في قبره، ولما وصل إلى بيت المقدس ربط البراق بالصخرة ثم صلّى ركعتين ثم صعد به جبريل عليه السلام إلى السمٰوات فجعل كلما وصلا إلى سماء استفتح فيسأل من؟ فيقول: جبريل، فيقال: من

معك، فيقول: محمد، فيقال: أأُرسل إليه؟ فيقول: نعم، فوجد في كل سماء نبياً فيسلّم عليه فيردّ عليه ويرحّب به، فوجدا في السماء الأُولى آدم عليه السلام وعن يمينه أسودة، وعن يساره مثلها، فإذا نظر إلى جهة يمينه ضحك وإذا نظر إلى جهة يساره بكى، فقيل له: إن الأسودة التي عن يمينه المؤمنون أهل الجنّة من بنيه، والأسودة التي عن يساره الكفار أهل النار من بنيه، ووجدا في السماء الثانية ابني الخالة عيسى ويحيىٰ، وفي الثالثة يوسف، وقد أُعطي شطر الحسن، وفي الرابعة إدريس ثم قرأ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، وفي الخامسة هٰرون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، ولما رفع إلى البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون، ورأى جبريل وذهب به إلى سدرة المنتهى وهي شجرة قد غشيها من أمر الله ما غشي، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها وإذا ثمارها مثل قلة من قلال هجر في الكبر، وإلى هذه الشجرة ينتهي عِلْمُ المخلوقات ورأى النار، فرأى فيها أقواماً يأكلون الجيف فقيل له: إنهم الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى فيها عاقر الناقة كما رأى خطباء أُمّته تقرض شفاههم بمقاريض من نار، ومرّ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تُرى من خارج بطونهم فأخبرهُ جبريل بأنهم أكلة الربا ورأى شبه فرن يشتعل ناراً فيه نساء ورجال عرايا وعراة، فقيل له: هؤلاء الزناة والزواني، ورأى في الجنّة قصراً وحوراء تتوضأ عنده فقيل له: إن ذلك لعمر بن الخطاب وسمع خشخشة فقيل له: إنه بلال بن رباح، ومرّت به رائحة طيّبة فقيل له: إنها ماشطة بنت فرعون التي أحرقها وأولادها فرعون، ورأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح عليه، وشاهد من آيات الله الكبرى وأوحى الله تعالى إليه ما أوحى وما كذب الفؤاد ما رأى، وعندما نزل وجد الأنبياء بالمسجد الأقصى فحانت الصلاة فأمّهم ثم أصبح بمكّة المكرمة فاشتدّ عليه الأمر وعرف أن الناس سيكذّبونه فقعد معتزلاً حزيناً، فمرّ به أبو جهل فقال له مستهزئاً به: هل كان من شيء؟ قال: «نعم، إنّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيت المقدس»، قال: ثم أصبحت بين ظَهْرَانِينا، قال: «نعم»، فنادى: يا معشر بني كعب بن

لؤي فجاءوا، فقال أبو جهل: حَدِّثْ قومك بما حدَّثتني، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيتِ المقدس**»، فكانوا ما بين مُصَفِّقٍ، وما بين واضع يَدَه على رأسِه مُتَعَجِّباً.

فأرادوا أن يعجزوه فسألوه عن صفة المسجد الأقصى وفيهم من سافر إليه فجلاه الله تعالى له بين يديه وجعل يصفه لهم فصدّقوه في النعت، ولكنهم تمادوا في كفرهم وضلالهم. هذا خلاصة ما وقع في الإسراء والمعراج. وكلامنا عليه هنا باختصار من وجوه:

أما أولاً، فإن هذا الحادث من أبهر المعجزات وأعظم الأحداث التاريخية في الإسلام، وهو من الآيات الظاهرة المتواترة التي وصلت إلينا من طريق القرآن الكريم والسنّة المتواترة التي رواها الجمّ الغفير والعدد الكثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ثانياً: اختلفوا في تاريخ وقوعه والجمهور على أنه كان في رجب، وجزم النووي بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وادّعى ابن حزم فيه الإجماع، والأصح أنه حصل بجسمه وروحه ﷺ يقظة مرّة واحدة والأدلّة على ذلك كثيرة.

ثالثاً: اختلف السلف والخلف هل رأى نبيّنا ﷺ ليلة الإسراء ربّه بعينيه، فكانت عائشة وابن مسعود وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وجمهور المحدّثين والمتكلّمين وغيرهم يذهبون إلى عدم ذلك، وذهب آخرون إلى وقوعها، ومن هؤلاء ابن عباس وأبو ذرّ وكعب والحسن البصري وأبو هريرة في رواية عنه رضي الله تعالى عنهم، وهو قول الإمام أحمد وأبو الحسن الأشعَري. قال النووي في شرح مسلم: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربّه بعينيّ رأسه ليلة الإسراء... قال: هذا مما لا ينبغي أن يُتشكّك فيه... وهذا الخلاف إنما هو في وقوعها. أما جوازها فمتّفق عليه بين أهل السنّة؛ لأن كل ما هو موجود يمكن أن يُرَى. ولذا اتّفقوا وأجمعوا على رؤيته تعالى يوم القيامة...

رابعاً: فرضية الصلاة ليلة الإسراء فوق السمٰوات يدلّ على عظمتها في الإسلام، وأنها لا مثيل لها في الشرائع والأحكام ولا يعرف لفريضة من فرائض الإسلام غيرها أنها فرضت على النبيّ ﷺ في السماء، فالصلاة لها أهمية ليست لغيرها من فروع الشريعة، وقد تقدم الكلام عليها في كتاب الصلاة فارجع إلى ذلك.

خامساً: جاءت هذه المعجزة العجيبة الغريبة إثر تلك الشدائد التي أصيب بها نبيّنا ﷺ والنكبات التي حلّت به من طرف أعدائه الألدّاء من كفار قريش وأهل الطائف، فأكرمه الله عزّ وجلّ بإسرائه إلى بيت المقدس وعروجه إلى العالم العلويّ ليجتمع بإخوانه الأنبياء ويرى سكان السمٰوات ويشاهد عجائب الملكوت ويطّلع على الجنّة والنار وأصحابهما ويُطلعه الله عزّ وجلّ على آياته الكبرى ويوحي إليه ما يوحي، فكان ذلك تقوية لجأشه وتَسْلِيَة له وتثبيتاً وتخفيفاً لما نزل به ﷺ.

* * *

❋ عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل العربية في الأسواق ومواسم الحجّ ووفود الأنصار عليه ﷺ

[١١٤] عن رجل من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المَجاز يَتَخَلَّلُها يقول: «**يا أيُها الناس قولوا لا إلٰه إلا الله تُفْلِحُوا**»، قال: وأبو جهل يَحْثِي عليه التراب ويقول: لا يَغْوِيَنَّكُم هذا عن دينكم، فإنما يريد لِتَتْرُكُوا آلِهتكم، وتتركوا اللات والعزى، وما يَلْتَفِتُ إليه رسول الله ﷺ، قلت: انْعَتْ لنا رسول الله ﷺ، قال: بين بُرْدَيْن أحمرين، مَربوعٌ، كثيرُ اللَّحْمِ، حسَنُ الوجه، شديدُ سَوادِ الشَّعر، أبيضُ، شديدُ البياضِ، سابغُ الشعر.

رواه أحمد (٦٣/٤)، قال الهيثمي في المجمع (٢٢/٦) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

[١١٥] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَه على الناس بالمَوْقِفِ، فيقول: «**هل مِن رجل يَحمِلُني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أُبَلِّغَ كلام ربِّي عزَّ وجلَّ**»، فأتاه رجلٌ من هَمذان، فقال: «**مِمَّن أنتَ؟**» فقال الرجل: من همذان، فقال: «**هل عند قومك مِن مَنَعَةٍ؟**» قال: نعم، ثم إن الرجل خَشِي أن يُخْفِرَهُ قومُه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم أُخبِرهم، ثم آتيك من قابل، قال: «**نعم**»، فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب. وفي رواية: مكث رسولُ الله ﷺ بمكّة عشر سنين يتبع الناسَ في منازِلهم بعُكاظ، ومِجَنَّة، وفي المواسم بمِنًى، يقول: «**مَنْ يُؤْوِيني، مَن يَنْصُرُني حتى أُبَلِّغ رسالةَ ربِّي وله الجنّة**»، حتى إن الرجل لَيَخْرُج من اليَمَن أو من مُضَرَ فيأتيه قومُه فيقولون: احذَر غُلام قريش لا يَفْتِنك، ويَمْشي بين رجالهم وهم يُشيرون إليه بالأصابع حتى بَعَثَنا الله إليه من يَثْرِبَ، فآوَيْناه وصدَّقْناه، فيَخْرُجُ الرجل فيؤمن به ويُقرئُه القرآن، فيَنْقَلِبُ إلى أهله فيُسلمون بإسلامه، حتى لم يَبْقَ دارٌ من دورِ الأنصار إلا وفيها رَهْطٌ من المسلمين يُظْهِرُون الإسلام، ثم ائْتَمَرُوا جميعاً، فقلنا: حتَّى مَتَى نَتْرُكُ رسول الله ﷺ يُطْردُ في جبال مكّة ويُخافُ، فرحل إليه منّا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعَدْناه شِعْبَ العَقَبةِ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله نُبايِعُك، قال: «**تُبايعوني على السمع والطاعة، في النَّشاط والكسل، والنَّفقةِ في العُسْر واليُسْر، وعلى الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافُون في الله لَوْمَة لائم، وعلى أن تَنْصُروني فتَمْنَعُوني إذا قَدِمْتُ عليكم مما تمنعون منه أنفُسَكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنّة**»، قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسْعدُ بن زُرارة وهو من أصغرهم فقال: رُوَيْداً يا أهل يثرب، فإنا لم نَضْرِب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسولُ الله ﷺ وأن إخْراجَه اليوم مُفارقةُ العرب كافَّةً وقتلُ خياركم، وأن تَعَضَّكُم السيوفُ فإمّا أنتم قوم تَصبرُون على ذلك وأجْرُكم على الله، وإما أنْتُم قومٌ تخافون مِنْ أنفسكم جُبَيْنَةً، فبيِّنُوا ذلك، فهو عُذْرٌ لكم عند الله، قالوا: أمِطْ عنا يا أسعد، فوالله لا ندعُ هذه البيعة أبداً، ولا

نُسْلِبُها أبداً، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنّة.

رواه أحمد (٣/٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٩٠)، وأبو داود (٤٧٣٤) في السنة، والترمذي آخر فضائل القرآن (٢٧٣٢) بتهذيبي، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١)، والدارمي وابن حبان (١٦٨٦) بالموارد، والحاكم (٢/١١٣) بعضهم مطولاً كأحمد وابن حبان، وبعضهم مختصراً وسنده صحيح عند أحمد وغيره على شرط مسلم، وعند الترمذي وغيره على شرط البخاري.

في الحديثين بيان ما كان يلاقيه رسول الله ﷺ من سفهاء الكفّار في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وخاصّة من أبي جهل كما في الحديث الأول وكما تقدم عن أبي لهب وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، كما فيهما إخبار عن عَرْضِه ﷺ نَفْسَه على القبائل في أيام الحجّ بعرفات ومنى... وفي أسواق العرب المشهورة كعكاظ ومجنة وذي المجاز، فكان يحضرها ويدعو الناس إلى الله تعالى ويقول لهم: «**هل فيكم من يأخذني إلى قومه فيحموني ويؤمنوا بي وينصروني، فإن قومي قريشاً حالوا بيني وبين تبليغي كلام الله عزّ وجلّ**».

وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه بيانُ ما فعله الأنصار بالنبيّ ﷺ من الإيمان به ومبايعته ونصرته وإيوائه إليهم، أمّا ما قالَهُ من رحلة سبعين منهم إليه... إلخ، كان هذا في بيعة العقبة الثانية وسنذكرها فيما بعد.

* * *

❋ قدوم الأنصار لأول مرة يلقون فيها رسول الله ﷺ وذكر بيعة العقبة الأُولى

[١١٦] عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قدم أبو الحَيْسَرِ أنس بن رافع مكّة ومعه فِتْيَةٌ من بني

عبد الأشهل، منهم إياسُ بن مُعاذ يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسولُ الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «**هل لكم إلى خير مما جئتم إليه؟**» قالوا: وما ذاك؟ قال: «**أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدْعُوهُم إلى أن يَعْبُدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنْزَلَ عليَّ كتاباً**»، ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن قال: فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حَدَثاً ـ: أيْ قومي هذا واللهِ خَيْرٌ مما جئتُم إليه، قال: فأخذ أبو الحيسر أنسُ بن رافع حُفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة، فكانت وقعة بُعاثٍ بين الأوْس والخزرج، قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله ويكبّره ويحمده ويسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

رواه أحمد (٤٢٧/٥)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٧٦/٢)، والبيهقي في الدلائل (٤٢٠/٢، ٤٢١) وهو من صحيح حديث ابن إسحاق إذ صرّحَ بالتحديث، وأورده النور في المجمع (٣٦/٦) برواية أحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات وسنده حسن.

هذا الحديث يدلّ على أن اجتماع النبيّ ﷺ بأولئك النفر الأشهليّين كان أول لقاء مع الأنصار وقد دعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه لذلك إلا إياس بن معاذ، فإن كلامه معهم وحالته بعده يدلان على إسلامه، وبعد هؤلاء كانت بيعة العقبة الأولى كما يأتي.

وقوله: وكانت وقعة بُعاث... إلخ، كانت الحرب دائمة طاحنة بين الأوس والخزرج، وكانت آخر وَقْعة بينهما؛ وقعةُ بُعاث وكان قد قُتِلَ فيها كثير من ساداتهم.

[١١٧] كما قالت سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: كان يومُ بُعاثٍ يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِم رسولُ الله ﷺ وقد افْتَرَقَ ملأُهم وقُتِلَتْ

سَرَواتُهم وجُرّحوا فقدَّمه الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في دخولِهم في الإسلام.

رواه البخاري في أوّل مناقب الأنصار (٣٧٧٧) (ج ٨/١١١).

سرواتهم: جمع سراة أي شرفاؤهم وخيارهم. وبُعاث؛ مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة.

* * *

بدء إسلام الأنصار رضي الله تعالى عنهم

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ وإنْجَاز مَوْعِدِه لَهُ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيراً.

[١١٨] قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لمّا لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**مَنْ أنتم؟**» قالوا: نَفَرٌ من الخزرج، قال: «**أمِنْ مَوَالِي اليَهود؟**» قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون أُكَلِّمُكم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعَرَض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان ممّا صنع الله بهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك وأصحابَ أوْثانٍ، وكانوا قد غَزُوهُم بِبِلادِهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ، قالوا لهم: إن نبيّاً مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانُه نَتَّبِعُه فنَقْتُلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَم، فلما كلّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا تَسْبِقَنَّكُمْ إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة

والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعَزُّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٧٧)، وابن سعد في الطبقات (١/٢١٧، ٢١٨)، والبيهقي في (٢/٤٣٣، ٤٣٥) وسنده حسن، وانظر المجمع (٦/٤٠، ٤٢).

قوله: «وكانوا قد عَزُّوهم» أي: غلبوهم.

كان هؤلاء النفر من الخزرج أوّل من أسلم من أهل المدينة بعد إياس بن معاذ الأوسي المتقدم، وكان عدد هؤلاء الرهط الذين أسلموا ستّة، وهم أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبدالله كما عند ابن هشام.

* * *

❊ بيعة العقبة الأُولى

[١١٩] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: لما كان العام المقبل من العام الذي لقي فيه رسول الله ﷺ النفر السِّتَّة لقيَهُ اثنا عشر رجلاً بعد ذلك بعام، وهي العقبة الأُولى... فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال: «**فإن وفيتم فلكم الجنّة، ومن غشِيَ من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه**»، ولم يُفرَضْ يومئذ القتال ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام.

وفي رواية قال: كنت فيمن حضر العقبة الأُولى وكنّا اثني عشر رجلاً... إلخ.

وفي رواية: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ... إلخ.

رواه ابن سعد (٣١٩/١، ٢٢٠)، وأحمد (٣٢٣/٥)، والبخاري في وفود الأنصار (٢٢٢/٨، ٢٢٣)، ومسلم في الحدود رقم (١٧٠٩)، وابن هشام عن ابن إسحاق (٨١/٢) بألفاظ.

هذه هي مبايعة العقبة الأولى وكان المبايعون اثني عشر رجلاً عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر من الأوس وأبو الهَيْثَم بن التَّيْهَان، وعُوَيْم بن ساعدة.

وقوله: على بيعة النساء، أي على ما بايع عليه النساء فيما بعد بالمدينة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقد تقدم شرح الحديث في الجزء الأول من كتاب الإيمان.

وقوله: من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، سيأتي الكلام على النقباء لاحقاً.

* * *

❁ إرسال الرسول ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَيْر إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها بسببه

[١٢٠] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، وكانا يقرئان الناس... ويأتي كاملاً.

رواه البخاري في الهجرة النبوية (٢٦٢/٨).

[١٢١] وقال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ إنما بعث مُصْعَباً حين كتبوا إليه أن يبعث إليهم وكان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض. رضي الله تعالى عنهم، وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير مع النفر

الإثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى إلى المدينة يفقّه أهلها ويقرئهم القرآن.

رواه ابن سَعْدٍ (١/٢٢٠)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٨٢)، والبيهقي في الدلائل (٢/٤٣٨) وهو حسن لطرقه.

بَعْثُ مُصْعَبٍ إلى المدينة داعياً ومقرئاً ومعلّماً عقب البيعة الأولى وقبل هجرة رسول الله ﷺ وأصحابه مُتَّفَقٌ عليه بين أهل السيرة، وقد رأيت أن قدومه لذلك جاء في صحيح البخاري عن البراء، ويأتي مطوّلاً.

[١٢٢] قال ابن إسحاق: حدّثني عبيدالله بن المغيرة بن مُعَيْقِيب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعدَ بن زُرارة خرج بمُصعب بن عُمَيْر يريدُ به دارَ بني عبدِ الأشْهَلِ، ودارَ بَني ظُفَر، وكان سعدُ بنُ مُعاذ بن النعمان ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعدُ بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل[1]، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا لِيُسَفِّهَ ضُعَفاءَنا، فازْجُرْهُما وانْهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعدَ بن زرارة مني حيث قد علمتَ كَفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أُسَيْدُ بن حُضَيْر حَرْبَتَه ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عُمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله تعالى فيه، قال مصعب: إن يَجْلِسْ أُكَلِّمْه، قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهانِ ضُعَفاءَنا؟ اعْتَزِلانا إن كانت لكما بأنْفُسِكُما حاجةٌ، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قَبِلْتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره، قال: أنْصَفْتَ، ثم رَكَزَ حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشْراقِهِ وتَسَهُّلِهِ، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأجْمَله كيف تَصْنَعُون

---

(١) من الأوس.

إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتَطَهَّر وتُطَهِّر ثَوْبَيْك، ثم تَشَهَّدُ شهادة الحق، ثم تصلّي، قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتَّبعكما لم يتخلّف عنه أحدٌ من قومه، وسَأُرْسِلُه إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخْفِرُوك، قال: فقام سعد مُغْضباً مُبادراً، تَخَوُّفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أَغْنَيْتَ شيئاً، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعداً أن أُسَيْداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما مُتَشَتِّماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أمَا والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني أتَغْشانا في دارَيْنا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيّد مَن وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كَرِهْتَه عزَلْنا منك ما تكره. قال سعد: أنصفتَ، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وطهّر ثوبيك وتشهد شهادة الحقّ، ثم تصلّي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير قال: فلمّا رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدُنا وأوصَلُنا وأفضَلُنا رأياً وأيْمَنُنا نَقِيبَةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده

يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يَتَبَقَّ دارٌ من دور الأنصار إلاَّ وفيها رجال ونساء مسلمون...

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٨٣/٢) من طريقين مرسلين والحديث حسن قوي لوروده من طريق آخر مرسلاً أيضاً عن عروة بن الزبير، رواه الطبراني كما عند النور في المجمع (٤٠/٦، ٤١) ولا يضرّ وجود ابن لهيعة هنا.

وهكذا انتشر الإسلام بالمدينة ببركة دعوة مصعب بن عمير وعمّ جميع دورها، وخاصة عندما أسلم سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير سَيِّدا بني عبد الأشهل من الأَوْس، وقد كانت السابقة للخزرج فلهم الفضل في الأسبقية للإسلام وإدخاله المدينة وأكثرهم كان من أهل العقبة الأُولى.

وهؤلاء الأصحاب والأنصار الأُوَلُ وغيرهم ستأتي تراجمهم في المناقب إن شاء الله تعالى.

* * *

بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم إن مصعب بن عُمَير رجع إلى مكة وخرج مَن خرج مِن الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكّة، فوَاعَدُوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله تعالى من كرامته، والنصر لنبيّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

ثم أسند عن كَعْبِ بن مالكٍ وكان مِمَّن شهد العقَبة وبايع رسول الله ﷺ قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلّينا وفَقِهْنا، معنا البراء بن مَعْرُور كبيرُنا وسيّدُنا، فلما قدمنا مكة خرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكّة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباسَ بن عبد المطلب عَمَّهُ؟ قال: قلنا: نعم، وقد كنّا نعرف

العباس كان لا يزال يَقْدَم علينا تاجِراً، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالسٌ معه، فسلَّمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تَعْرِفُ هذين الرجلين يا أبا الفَضْلِ؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيّد قومه، وهذا كعب بن مالك، قال: فوالله ما أنْسَى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر»؟ قال: نعم، قال: وخرجنا إلى الحجّ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوساط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ومعنا عبدالله بن عَمْرو بن حَرام أبو جابر سَيِّدٌ من ساداتنا، وشريفٌ من أشْرافِنا أخذناه معنا وكنا نكتُمُ مَنْ مَعَنا من قومِنا من المشركين أمْرَنا فكلَّمْناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغبُ بك عمّا أنت فيه أن تكونَ حَطباً للنار غَداً، ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضَى ثلثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مستخفين، حتى إذا اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيْبَة بنت كعب أمّ عمارة؛ إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي؛ إحدى نساء بني سَلِمَة وهي أمّ منيع.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبّ أن يَحْضُر أمْرَ ابن أخيه ويَتَوَثَّقَ له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمّون هذا الحيّ من الأنصار الخزرج خَزْرَجِها وأوْسِها. إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد مَنَعْناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومَنَعَةٍ في بَلَدِهِ، وإنه قد أبَى إلا الانحيازَ إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافُون له بما دَعَوْتُمُوه إليه ومَانِعُوه ممن خالفه فأنتم وما تَحَمَّلْتُم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في

عزٌ ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عزّ وجلّ ورغب في الإسلام، ثم قال: «**أُبايِعُكم على أن تَمْنَعُوني مِمَّا تَمْنَعُون مِنه نساءَكم وأبناءَكم**»، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لنَمْنَعَنَّك مما نمنع منه أُزرنا، فبايعنا يا رسول الله ﷺ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلَقة ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض للقول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهَيْثَم بن التَّيْهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حِبالاً وإنا قَاطِعُوها ـ يعني العهود ـ فهل عَسِيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «**الدَّمُ الدَّم والهَدْمُ الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أُحَارِبُ مَنْ حاربتُم، وأُسالِمُ مَنْ سالمتُم**».

وقال رسول الله ﷺ: «**أَخرِجُوا لي اثني عشر نقيباً منكم يكونون على قومهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأَوْس.

وفي رواية قال: كان أوّل من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع بعدُ القومُ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صَرخَ الشَّيطان، من رأس العقبةِ بأنْفَذِ صوتٍ سَمِعْتَهُ قطُّ: يا أهل الخَباحِب ـ المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم والصُّباةُ معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا إزب العقبة، هذا ابن أزبيب، أتسمع أي عدوّ الله أما والله لأفرغن لك**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ارفضوا إلى رِحالكم**»، قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحقّ إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنِمْنا عليها حتى أصبحنا. قال: فلما أصبحنا غَدَتْ علينا جِلَّةُ قريش جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّا والله ما من حيٍّ من أحياء العرب

أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمنا، قال: وقد صدقوا لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض...

رواه أحمد (٤٦٠/٣، ٤٦٢)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٨٦/٢، ٨٧، ٨٨)، والحاكم (٦٢٤/٢، ٦٢٥)، والبيهقي في الدلائل (٤٤٥/٥، ٤٤٩) وفي السنن (٩/٩) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، فقال: صحيح وعزاه النور لأحمد والطبراني (٤٢/٦، ٤٥) قال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث.

قوله: «العقبة» كانت عند الجمرة الكبرى عقبة كؤود، ووقعت هذه البيعة قريباً منها ولا يزال أثر موضعها للساعة.

وقوله: «الهَدْم» أي: دمي دمكم، وهدمي أي: نقضي للعهد هذمكم. وقوله: «النقباء» جمع نقيب وهو الذي يتعرف على شؤون القوم، وهو العريف. وقوله: بالشِّعب بكسر الشين وسكون العين يُطلق على انفراج بين الجبلين أو الطريق في الجبل.

وفي هذا الحديث تفصيل ما وقع للأنصار من بيع العقبة الثانية وأنهم خرجوا حاجّين وتواعدوا مع رسول الله ﷺ للاجتماع عند العقبة، فتسلّلوا ليلاً رجلاً ورجلين... حتى تمّ عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، وكان أكثرهم من الخزرج إذ لم يكن من الأوس إلا أحد عشر رجلاً، فبايعوا النبيّ ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يقولوا لله لا يخافون لومة لائم، وعلى أن ينصروه ﷺ ويمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، فمن فعل ذلك منهم كانت له الجنّة وقد تقدم هذا في حديث جابر رقم (١١٥)، وقد تجلّى في هذا الحديث فضل الأنصار وإخلاصهم لله ولرسوله ﷺ وأخذهم العهد على أن ينصروا رسول الله ﷺ ويمنعوه من كل ما يمنعون منه نفوسهم وذويهم من أهلٍ وولد... وقد وفوا بذلك فآووه

إليهم ونصروه وقدّموا أرواحهم ومُهَجَهُم بين يديه ﷺ وستأتي مواقفهم في غزواته ﷺ وحروبه كما ستأتي فضائلهم في المناقب.

[١٢٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: حملني خالي جد بن قيس والسبعين راكباً الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من قبل الأنصار ليلة العقبة، فخرج علينا رسول الله ﷺ ومعه عمّه العباس بن عبدالمطلب، فقال: **«يا عمّ خذ على أخوالك»**، فقال له السبعون: يا محمد سَلْ لربك ولنفسك ما شئت، فقال: **«أمّا الذي أسألكم لربّي، فتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما الذي أسألكم لنفسي فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»**، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنّة»**.

قال النور في المجمع (٤٨/٦، ٤٩): رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات، وأوله في صحيح البخاري (٢٢١/٨) قبل هجرة النبيّ ﷺ.

[١٢٤] وعنه قال: لما لقي النبيّ ﷺ النقباء من الأنصار قال لهم: **«تؤويني وتمنعوني»**، قالوا: فما لنا؟ قال: **«الجنّة»**.

رواه أحمد ((٣٢٢/٣، ٣٣٩، ٣٤٠)، وأبو يعلى (١٨٨٧)، والبزار (١٧٥٥)، قال النور (٤٨/٦): ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

جابر كان ممن حضر هذه البيعة وهو صغير أما أبوه فقدم مكّة كافراً، ولكنه أسلم وحضر البيعة مع قومه وجعله النبيّ ﷺ نقيباً على قومه.

والنقباء الذين كلّفهم النبيّ ﷺ بشؤون قومهم هم الآتون:

أبو الهيثم بن التّيهان، أسعد بن زرارة، أُسَيْد بن حُضَيْر، البَراءُ بن معرور، رافع بن مالك، سعد بن أبي خيثمة، سعد بن الربيع، سعد بن عبادة، عبدالله بن رواحة، عبدالله بن عمرو بن حرَام، عبادة بن الصامت، المنذر بن عمرو، رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❁ الهجرة إلى المدينة: رؤيا الرسول ﷺ دار هجرته في منامه

[١٢٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلِي إلى أنها اليَمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينةُ يَثْرِبُ»**.

رواه البخاري في باب هجرة النبيّ ﷺ (٢٢٧/٨)، ومسلم في الرؤيا (٣١/١٥).

قوله: «وهلي» بفتح الهاء أي: وهمي واعتقادي. اليمامة بلدة مسيلمة الكذاب، وهجر كانت عاصمة البحرين.

[١٢٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«قد رأيت دار هجرتكم، أُرِيتُ سَبِخَةً ذاتَ نَخْلٍ، بين لابَتَيْنِ وهما حَرَّتانِ»** فخرج مَنْ كان مُهاجِراً قِبَل المَدِينةِ حِينَ ذكر رسول الله ﷺ ذلك، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين.

رواه البخاري في الكفالة (٣٨٢/٥) ضمن حديث الهجرة، وأحمد (١٩٨/٦)، والحاكم (٣/٢، ٤) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

أرض سَبِخَةٌ بكسر الباء وسكونها أي ملحة، والحرّتان تثنية حرة هي حجارة سود.

تأثّر كفار قريش بما بلغهم عن الخزرج من مبايعة النبيّ ﷺ عندما صرخ بذلك الشيطان، وعلموا بَعْدُ أن ذلك حق فضيّقوا الخناق على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم واشتدّ عليهم الأمر، فجعل النبيّ ﷺ يفكّر في الهجرة إلى حيث تُسْمَعُ دعوتُه ويُؤَيَّد ويُنْصَرُ، فرأى في منامه أولاً: أنه سيهاجر إلى أرض بها نخل ولم تتبين له أيّ أرض، فذهب وهمه إلى اليمامة وهَجَر وهما من الأراضي التي يكثر فيها النخل، لكنه رأى مرة ثانية دار الهجرة؛ رآها أرضاً سبخةً ذات حرّتين فعرف أنها المدينة

التي كانت تسمّى في الجاهلية يثرب، فعند ذلك أمر أصحابه بالهجرة إليها.

❋ ❋ ❋

❋ أوّل من هاجر إلى المدينة من الصحابة

[١٢٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أوّل من قدم علينا من أصحاب النبيّ ﷺ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر، وابنُ أُمّ مَكْتُوم، فجعلا يُقْرِئَانِنا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر[1] بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبيّ ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء.

رواه البخاري في هجرة النبيّ ﷺ وأصحابه (٢٦٢/٨، ٢٦٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٤/٧)، وأحمد (٢٨٤/٤)، والطيالسي رقم (٢٣٣٤)، وابن سعد (٢٣٤/١)، والحاكم (٦٣٤/٣).

الحديث يدلّ على أن هؤلاء الخمسة والعشرين هم أوّل من هاجر، فمصعب وابن أمّ مكتوم قدما عقب البيعة الأولى كما تقدم. أمّا الآخرون، فهاجروا بعد البيعة الثانية، وسعد المذكور هو ابن أبي وقاص، وممن قيل بأنه أول من هاجر أبو سلمة زوج أمّ سلمة، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة وهي أول ظعينة قدمت المدينة رضي الله تعالى عنهم جميعاً، ذكره ابن سعد في الطبقات (٢٢٦/١).

❋ ❋ ❋

❋ ما أصاب أبا سلمة وزوجته من البلاء

[١٢٨] عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لمّا أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لِي بَعِيره ثم حَمَلَنِي عليه، وحمل

(١) ذكر أهل السيرة أنه لما أراد الهجرة مرّ على مجلس قريش فقال لهم: ها أنا ذا سأهاجر فمن أراد أن يُتيّم امرأته، أو يُتيّم أولاده فليتبعني فما تبعه أحدٌ.

معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحِبَتك هذه؟ علام نَتْرُكك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرّق بيني وبين زوجي وبين ابني، قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها حتى مرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أُمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي في المدينة، قال: أوَ ما معكِ أحد؟ قالت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله ما لك من مَتْرَكِ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب قطّ أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر بعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيره فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة نازلاً، فادْخُلِيها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكّة، قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم

ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/١١٠) وسنده صحيح وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

لقد اسْتَوْقَفَتْني هذه القصة النادرة الغريبة لما فيها من العبرة والعَجَب، وذلك لأمرين اثنين:

أولاً: شدّة ما أُصيب به أبو سلمة وزوجته أمّ سلمة من البلاء حيث فرّق الكفار بينهما، فتركوا أبا سلمة أن يهاجر وحده مسلوباً من زوجته وابنه وهذا بلاءٌ عظيم، لا يكاد يطاق، وأشدّ منه حبسهم أمّ سلمة المسكينة وحيلولتهم بينها وبين الذهاب مع زوجها وتلك فتنة ومحنة لها تُضاف إليها مصيبة أخرى لا تقلّ عن سابقتها تلك هي قطع يد ولدها سلمة وغيابه عنها عند بني عمّه، فهذه محن وبلايا لا يتحمّلها إلا من شملته عناية الله كأبي سلمة وزوجته الطاهرة التي كاد عقلها أن يعزب عنها لما نزل بها، ولولا أنها كانت تفرج عما أصيبت به بكثرة بكائها المستمر بالأبطح لذهب عقلها فرضي الله تعالى عنها وعن زوجها.

ثانياً: كرم عثمان بن طلحة رضي الله تعالى عنه وعفّته وأخلاقه الطيبة ومعاملته الجميلة مع أمّ سلمة والحالة هذه وهو كافرٌ، والشيء الذي يتعجّب منه هو مرافقته لهذه السيدة مدة من عشر مراحل وكانت من أجمل نساء عصرها وفي مستقبل شبابها، ولم تحدثه نفسه بمراودتها عن نفسها وقضاء شهوته منها، وقد باتا معاً في الفيافي والقفار عشر ليال، فهذا شيء عظيم إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عفّته وكريم أخلاقه ووفائه، فمثل هذا لا يصدر إلا من أكابر الرجال أهل الدين والتقى، وقد أكرم الله عزّ وجلّ هذا الرجل العظيم بالإسلام فيما بعد، وختم الله تعالى عليه حياته بالشهادة فرضي الله تعالى عنه وجازاه خير الجزاء على ما فعل مع تلك السيدة أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

* * *

❋ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة

[١٢٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأُمِرَ بالهِجْرَةِ وأُنْزِلَ عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

رواه أحمد (٢٢٣/١)، والترمذي (٢٩٣٧) بتهذيبي، وابن جرير (١٤٨/١٥) وحسنه الترمذي وصححه، وقابوس بن أبي ظبيان حجّة عند الترمذي صحح وحسن له غير ما حديث.

والمدخل في الآية هو دخوله المدينة، والمخرج خروجه من مكّة المكرمة؛ ففي الآية الكريمة أمر من الله عزّ وجلّ بأن يدعوه أن يخرجه مخرج صدق ويدخله مدخل صدق... وأن يجعل له من عنده سلطاناً نصيراً، وقد فعل سبحانه به كل ذلك.

❋ ❋ ❋

❋ مؤامرة كفار قريش على قتل النبيّ ﷺ وخروجه من بين أظهرهم ولحوقه والصديق بالغار

[١٣٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلخ، قال: تشاورت قريش ليلة بمكّة، فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبيّ ﷺ؛ وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات عليّ رضي الله تعالى عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبيّ ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليّاً ردّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هٰهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

رواه أحمد (٣٤٨/١) بسند حسن وله طرق وشواهد عند ابن إسحاق كما عند ابن هشام في السيرة (١٢١/٢، ١٢٢، ١٢٣)، وابن سعد في الطبقات (٢٢٧/١).

وحسّن الحديث ابن كثير في السيرة، وقال: وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذكره الحافظ في الفتح (٢٣٧/٨) وقال: سنده حسن وعلى أيٍّ فهذه القصة جاءت مرويّة من طرق مختلفة مرسلة ومتّصلة، ورواها عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن جرير والبزار والبيهقي وغيرهم.

لما هاجر إلى المدينة من هاجر من الصحابة بعد الإذن من النبيّ ﷺ لم يبق بمكّة إلا رسول الله ﷺ والإمام عليّ وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما أو من حُبِس أو فتِن من طرف الكفار، وكان رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من الله عزّ وجلّ له في الهجرة، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: **«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً»**.

ولمّا رأى كفار قريش أنه قد صار لرسول الله ﷺ شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه إليهم عرفوا أنه ﷺ قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار ندوتهم وتآمروا على ما يفعلونه به ﷺ، فقال بعضهم: نطرده عنّا، وقال فريق: نوثقه حتى يموت، وقال آخرون: بل نقتله بحيث نأخذ من كل قبيلة غلاماً نهداً جليداً ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد فيفرّق دمه على القبائل، فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع، فتفرّقوا على ذلك، وأجمعوا عليه، فأتى جبريل النبيّ ﷺ فأخبره بذلك وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، فجاء رسول الله ﷺ أبا بكر فخرجا حتى وصلا الغار وأقاما به ثلاث ليال، إلى أن خرجا كما سيفصّل في الآتي، وجاءت هذه الآية المدنيّة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾، تذكّره ﷺ بنعمته تعالى عليه حيث أبطل مكر أولئك الكفرة وفضح أمرهم وخيّب سعيهم، ونجّى نبيّه ونصره عليهم وظفّره بهم.

* * *

❋ تعمية الكفار عن إبصار رسول الله وأبي بكر في الغار

[١٣١] وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدميه رآنا، قال: «**ما ظنّك باثْنَين الله ثالِثُهما**».

رواه أحمد (٤/١)، والبخاري في المناقب (١١/٨) وفي التفسير (٣٩٥/٩)، ومسلم في الفضائل (١٤٩/١٥)، والترمذي (٢٨٩٦)، وابن جرير (١٣٦/١٠)، وابن حبان (٦٢٧٨) وغيرهم.

قال النووي على قوله: ما ظنّك الخ، معناه: الله ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وفي هذا المشهد جاءت الآية الكريمة وهي: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

والمراد بالصاحب في الآية أبو بكر الصديق بالإجماع، وهذه منقبة للصدّيق ليست لغيره وقد استوعبت فضائله رضي الله تعالى عنه في «فضائل الصحابة».

❋ ❋ ❋

❋ حديث هجرة النبيّ ﷺ

[١٣٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ ﷺ قالت: لم أعْقِلْ أبَوَيّ قطُّ إلاّ وهُمَا يَدِينَان الدِّينَ، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَيْ النهار بُكرةً وعشيةً، فذكرت قصة أبيها مع ابن الدغنة التي تقدمت، فقالت: فقال النبيّ ﷺ: «**إني أُريتُ دارَ هجرتكم ذاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ وهي الحرتان**»، فهاجر مَن هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامّةُ مَن كان هاجر بأرض الحَبَشَة إلى المدينة، وتجهّز أبو بكر قِبل المدينة، فقال له

رسول الله ﷺ: «**على رِسْلِكَ فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي**»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحَبَس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ لِيَصْحَبَه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمَر - وهو الخَبْطُ - أربعة أشهُرٍ قالت: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر في نَحْرِ الظَّهِيرةِ، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدًى لك أبي وأُمّي، والله ما جاء بك في هذه الساعة إلا أمْرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ واستأذن فأذن له فدخل، فقال النبيّ ﷺ لأبي بكر: «**أخرِجْ مَنْ عندك**»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «**فإني قد أذن لي في الخروج**»، قال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله ﷺ: «**بالثَّمَنِ**»، قالت: فجَهَّزْنَاهُما أحَثَّ الجهاز وصنعنا لهما سُفْرَةً في جِراب فقَطَعَتْ أسماءُ بنت أبي بكر قِطْعةً من نِطاقِها فرَبَطَتْ به على فمِ الجراب، فبذلك سُمِّيَتْ ذاتَ النطاقين.

* * *

❋ رسول الله ﷺ والصديق في الغار ثلاث ليال

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يَبِيتُ عندهما عبدُالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيَدْلِجُ من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ، فلا يَسمعُ أمراً يُكادانِ به إلا وعَاهُ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر مِنْحَة من غنم فيُرِيحُها عليهما حين يذهبُ ساعةٌ من العشاء، فيَبِيتَان في رِسْلٍ وهو لبن منحتهما ورَضِيفُهُما حتى يَنعِقُ بهما عامرُ بن فُهيرة بغلَس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاثة، واستأجر رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرِّيتاً، والخرّيت؛ الماهر بالهداية قد غَمَس حلفاً

في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش، فأمِنَاه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، فانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل.

* * *

❁ قصة سراقة مع رسول الله ﷺ والصديق

قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمٰن بن مالك المُدْلِجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشم، يقول: جاءنا رُسُلُ كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دِيَةَ كل واحدٍ منهما لِمن قتله أو أسَرَه، فبينما أنا جالسٌ في مجلس من مجالس قومي بني مُدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقةُ إني قد رأيت آنفاً أسْوِدةً بالساحل أُراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعْيُننا، ثم لبثْتُ في المجلس ساعة ثم قمتُ فدخلتُ فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُج بفَرسي وهي مِن وراء أكَمَةٍ فتحْبِسُها عليَّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخطَطْتُ بزُجِّه الأرض وخَفَضْتُ عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تُقَرِّبُ بي حتى دنوتُ منهم، فعثَرَتْ بي فَرسي فخَرَرْتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانَتِي فاستخرجْت منها الأزلام، فاسْتَقْسَمْتُ بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبتُ فرسي وعصيتُ الأزلام تُقَرِّب بي حتى إذا سمعتُ قراءةَ رسول الله ﷺ وهو لا يَلْتَفِتُ وأبو بكر يُكثر الالتفات ساخَتْ يدا فرسِي في الأرض حتى بلغتَا الركبتين فخررتُ عنها ثم زجرْتُها فنهَضَتْ فلم تكد تُخْرِجُ يديها، فلما استوتْ قائمةً إذا لِأثَرِ يديها غبارٌ ساطع في السماء مثلَ الدخان، فاستقسمتُ بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيت من الحبس عنهم أن سَيَظْهَرَ أمرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتُهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم

يرزآني، ولم يسألاني إلا أنه قال: أخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رُقعة من أَدَم ثم مضى رسول الله ﷺ.
قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ، وأبا بكر ثياب بياض.

* * *

أهل المدينة ينتظرون رسول الله ﷺ

ويسمعُ المسلمون بالمدينةِ مَخْرجَ رسول الله ﷺ من مكّة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يَردَّهم حَرُّ الظهيرة، فانطلقوا أيضاً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بُيُوتهم أَوْفَى رجلٌ مِن اليهود على أُطُم من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه، فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضِين، يزولُ بهم السَّرابُ، فلم يملك اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون، فَثارَ المسلمون إلى السلاح.

* * *

وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وتاريخ ذلك

فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة، فعدَل بهم ذاتَ اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطَفِقَ مَن جاء من الأنصار ممن لم يرَ النبيّ ﷺ يُحَيِّي أبا بكر حتى أصابتْ الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه، فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بِضْع عَشْرَةَ ليلةً، وأسّسَ المسجد الذي أُسّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلتَه فسار يمشي معه الناس حتى بَرَكَتْ عند مسجد الرسول ﷺ

بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَداً للتَّمْر لسُهَيْل وسَهْل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بَرَكَتْ به راحلتُه: «**هذا إن شاء الله المنزلُ**»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن:

هذا الحِمال لا حِمالَ خَيْبر هـذا أبَـرُّ رَبّنـا وأطْـهَـرْ

ويقول:

اللّهُمَّ إنَّ الأَجْرَ أجْرُ الآخِرَة فَارْحَمْ الأنصارَ والمُهَاجِرَةْ

فتمثّل ببيت رجل من المسلمين لم يسمّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أنّ رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تامّ غير هذه الأبيات.

رواه أحمد (٣٤٦/٦)، والبخاري في المبعث باب هجرة النبيّ ﷺ (٢٣١/٨، ٢٣٤) وفي مواضع كالمساجد والبيوع وفي الكفالة وفي المغازي... وابن سعد في الطبقات (٢٣٩/١، ٢٣٢، ٢٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٤٧١/٢، ٤٧٢) وغيرهم.

* * *

غريب الحديث

«على رسلك» بكسر الراء وسكون السين أي: على هيئتك فلا تعجل. «متقنعاً» أي: لابساً القناع في رأسه. «سُفْرة» بضم السين وسكون الفاء هي؛ طعام يُصنع ويهيؤ للمسافر وسمّي ما يوضع فيه أو عليه الطعام سفرة مجازاً. «جراب» بكسر الجيم هو وعاء من جلد أو غيره. «نطاقها» النطاق بكسر النون أن تلبس المرأة ثوباً طويلاً تتّزر به وتشدّ وسطها وترسل ثوبها الأعلى على الأسفل. «جبل ثور» هو جبل وعر مرتفع على قمّته غارٌ يقع شمال مكّة المكرمة صعدنا إليه في ظرف ساعة، يعتاد الحجاج والمعتمرون زيارَته

أو الوقوف في أسفله. «ثَقِفٌ» أي: ذو فطنة. «لقن» بكسر القاف كسابقه أي: حسن التلقين لما يسمعه، واللقن الفهم. «فيدلج» يقال أدلج إذا سار الليل كلّه وادَّلَج يَدَّلِجُ إذا سارَ سَحَراً. «رضيفهما» الرضيف اللبن المرضوف وهو الذي يطرح فيه الحجارة المحماة لتذهب وخامته. «خرّيتاً» الخرّيت الدليل الحاذق. «غمس حلفاً» تعني أنه كان حليفاً لهم. «أسودة» جمع سواد وهو شخص الإنسان ونحوه. «أكمة» بفتحات هو ما اجتمع من الحجارة في مكانٍ واحد. «فخررت» أي سقطت على الأرض. «يرزآني» أي لم يسألاني. «أوفى رجل» أي أشرف. «أطم» بضمتين هو الحصن. «هذا جَدُكم» يعني حظكم ودولتكم «المربد» بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء الموضع الذي يحبس فيه الإبل والغنم، وقد يكون للتمر كالأندر للحبوب.

[١٣٣] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جاء أبو بكر إلى أبي في منزله فاشترى منه رَحْلاً فقال للعازب: ابعث ابنك يحمله معي، قال: فحملته معه، وخرج أبي ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر حدّثني كيف صنعتما حين سريتَ مع رسول الله ﷺ؟

* * *

❊ استراحته عند صخرة في القائلة وشربه اللبن

قال: نعم أسْرَيْنا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائِم الظهيرة وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد، فرُفِعتْ لنا صخرةٌ طويلةٌ لها ظِلٌّ لم تأتِ عليه الشمسُ، فنزلنا عنده وسوَّيت للنبيّ ﷺ مكاناً بِيدي يَنامُ عليه، وبسَطْتُ عليه فَرْوَةً، وقلت: نَمْ يا رسول الله، وأنا أنفُض ما حَوْلَه، فنام وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعٍ مقبلٍ بغنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت: لِمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من أهل المدينة أو مكة، قلت: أفي غنمك لبنٌ؟ قال: نعم، قلت: أفَتَحْلُبُ؟ قال: نعم، فأخذ شاة، فقلت: انفُضْ الضَّرْعَ من التُّراب والشَّعر والقَذَى، قال: فحلب في قَعْبٍ كُثْبةً من لبن، ومعي إداوةٌ حملتُها للنبيّ ﷺ يرتوي فيها، يشرب ويتوضأ، فأتيت

النبيّ ﷺ فكرهتُ أن أُوقِظَه، فوافقتُه حين استيقظ فَصَبَبْتُ من الماء على اللبن حتى برد أسفلُه، فقلت: اشْرَبْ يا رسول الله، قال: فشرب حتى رضيتُ، ثم قال: **«ألم يأنِ الرحيل»؟** قلتُ: بلى، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس وأتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أُتِينا يا رسول الله، فقال: **«لا تحزن إن الله معنا»**، فدعا عليه النبيّ ﷺ، فارْتَطَمَتْ به فرسه إلى بطنها أُرَى في جَلْدٍ من الأرض، فقال: إني أراكما قد دَعَوْتُما عليَّ، فادْعُوا لي فالله لكما أن أردَّ عنكما الطَّلَب، فدعا له النبيّ ﷺ فنجا، فجعل لا يَلْقَى أحداً إلا قال: كفَيْتُكُم ما هنا، فلا يلقى أحداً إلا ردّه، قال: ووفى لنا.

رواه البخاري في فضائل الصحابة (٩/٨، ١٠) وفي علامات النبوّة (٤٣٥/٧، ٤٣٦)، ومسلم في الزهد في حديث الهجرة رقم (٢٠٠٩)، وهو أيضاً في المسند (٣٠٢/١).

«قائم الظهيرة» أي: وسط النهار. «أنْفُضُ ما حولك» أي: أحرس وأطوف حولك. «والقَعْب» الإناء الصغير. «كثبة من لبن» أي: قليل منه. «ارْتَطَمَتْ» أي: ساخت به في الأرض. «جَلَد» بفتحتين الأرض الغليظة الصُّلبةُ.

* * *

❁ حَدِيث أمّ مَعْبَدٍ الخزاعيّة

[١٣٤] عن حُبَيْشِ بن خالد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ خرج من مكّة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضي الله تعالى عنه ومولى أبي بكر عامر بن فُهَيْرة ودليلهما الليثي عبدالله بن أُرَيْقِط مرّوا على خيمة أمّ مَعْبَد الخزاعية، وكانت امرأة بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بفِناء الخَيْمة، ثم تَسْقِي وتُطْعِم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتِينَ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: **«ما هذه الشاة يا أم معبد»؟** قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: **«هل بها من لبن»؟** قالت: هي أجْهَد من ذلك، فقال: **«أتأذَنِين لي أن**

أحلُبَها؟» قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسَح بيده ضَرْعَها، وسمَّى الله تعالى ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه ودرَّت فاجْتَرَّتْ فدعا بإناءٍ يَرْبِضُ الرَّهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخِرُهم حتى أراضُوا ثم حلب فيه الثانية على يده حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها - يعني على الإسلام - ثم ارتحلوا عنها، فقلَّ ما لبثت حتى جاءها زوجُها أبو مَعْبَد يسوقُ أعْنُزاً عِجافاً، يَتساوَكُنَّ هِزالاً مُخُّهن قليلٌ، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه، قال: من أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب حائل ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صِفِيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبْلَجَ الوجه حسن الخَلْقِ لم تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ ولم تُزْرِبه صَعْلَةٌ، وسيم قسيم، في عينيه دعج وفي أشفاره وطَفٌ وفي صوته صهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، أزجّ، أقرن إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلاً، لا نزر ولا هذر كأنَّ منطِقَه خرزات نظم يتحدون ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قِصَر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إن قال سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصاحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. وأصبح صوت بمكّة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون صاحبه وهو يقول:

جَزَى الله رَبُّ الناس خيرَ جَزائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَلاَّ خَيْمَتَيْ أمِّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلاها بالهُدَى واهْتَدَتْ بِهِ ... فقَدْ فاز من أمْسَى رفيقَ مُحَمَّدِ

فِيالَقُصَي ما زَوَى الله عنكُم ... به مِن فِعال لا تجازى وسُؤْدَدِ

لِيهن أبا بكر سعادةُ جَدِّهِ ... بصحبته مَن يُسْعد الله يَسْعَدِ

وليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلُوا أُختكُم عن شاتِها وإنائِها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلّبتْ عليه صَريماً ضَرّة الشاةِ مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب يُرَدِّدُها في مَصْدر بعد مَوْرِدِ

رواه الحاكم (١٠٩/٣)، والطبراني في الكبير (٣٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل (٢٨٣، ٢٨٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي فقال: صحيح وللحديث شواهد عن أبي معبد رواه ابن سعد في الطبقات (٢٣٠/١)، وعن أبي بكر عند البيهقي في الدلائل (٤٩١/٢) وحسّنه ابن كثير في السيرة، فالحديث حسن أو صحيح.

«مُرمَلِين» أي: ليس لهم ما يتقوّتون به. «مُسْنِتِين» أي أصابتهم المجاعة والقحط والجدب. «تفاجت» فتحت رجليها لتحلب. «أراضوا» كرّروا الشرب. وصفات النبيّ ﷺ تأتي في الشمائل.

في هذه الأحاديث الثلاثة استقصاء ما حصل للنبيّ ﷺ في طريق هجرته من يوم أن خرج من بيته والتحق بالغار إلى أن وصل إلى المدينة... ويمكن لنا أن نلخّص ما فيها من الفوائد والعِبَر... في الآتي:

أولاً: إن الهجرة من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأوّل من هاجر منهم إمام الموحدين سيدنا إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام هاجرا الكفار، وبلاد الكفر من العراق إلى فلسطين ثم تلاهما يعقوب وأولاده حيث هاجروا بلاد الكنعانيّين إلى مصر حيث كان يوسف ممكناً فيها عليه السلام، وهاجر كليم الله موسى عليه السلام من مصر إلى بلاد مدين، وهاجر خاتم أنبياء بني إسرائيل عيسى روح الله وكلمته عليه السلام ثم ختم هجرة الأنبياء الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

ثانياً: إن الهجرة قد تكون فرضاً لازماً إذا كان المؤمن مضطهداً في بلد كفر أو ظلم لا يمكنه إقامة شعائر دينه ولا الدعوة إليه بكل حرية فيه؛ لأن المحافظة على العقيدة والدين الحقّ يجب أن يضحّي الإنسان في سبيلها بكل ما يحبه أو يملكه في هذه الحياة من وطن، ومال، وأهل، ولا عِبْرة بالحياة مهما كان للإنسان من رغد في العيش مع ضياع الدين، فضياع الدين مع توفر أسباب الحياه خسارة أبدية. ولنا العبرة في هجرة نبيّنا ﷺ

وأصحابه رضي الله تعالى عنهم؛ فإنهم لم يهاجروا فراراً من الفقر والحاجة، وطلباً للمال والثراء، ولو إلى بلاد الكفر مع ضياع الدين كما يفعله مسلمو عصرنا، بل هاجروا؛ كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

فقد خرجوا من مكة المكرمة وتركوا فيها الأموال والأزواج والأولاد والآباء والعشائر فراراً بدينهم ومحافظة على عقيدتهم ليس إلا. رضي الله تعالى عنهم.

ثالثاً: إن للهجرة في الله فضائل ومزايا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، والقرآن الكريم ملآن بالكلام على فضل الهجرة والمهاجرين ولعظم شأن الهجرة جاء الحديث التالي:

[١٣٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة، فقال: «**ويحك إن شأنها شديدٌ، فهل لك من إبل تؤدي صدقتها**»، قال: نعم. قال: «**فاعْمَلْ مِن وراءِ البحار، فإنّ الله لن يَترك مِن عملِك شيئاً**».

رواه البخاري في الزكاة وفي الهبة وفي الهجرة النبوية رقم (٣٩٢٣) (ج ٢٦١/٨) وفي الأدب، ومسلم رقم (١٨٦٥).

لن يترك أي: لن ينقصك. وهذا الحديث جاء بعد فتح مكة، فإذا كان للمسلم حرّية في دينه فليعبد الله عزّ وجلّ أينما كان ولو كان خلف البحار، وفيه إشارة إلى الإقامة في أمريكا لأنها وراء البحر الأحمر والأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، فلو وجد المسلم حرّيته هنالك آمناً على دينه ونفسه وأهله فليقم وليعبد الله تعالى.

وفي مقابل هذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ الآية.

فالآية نزلت تهدّد المقيمين مع الكفار فاقدين حريتهم في دينهم، ولم يهاجروا مع استطاعتهم ذلك، ثم استثنى الله المستضعفين الذين لا حِيلة لهم في الخروج.

رابعاً: هذا في الهجرة الجسمية وهناك هجرة أخرى وهي أهمّ من المذكورة، تلك هي هجرة المحرمات، وهذه تعمّ بلاد الكفار وبلاد الإسلام، وجاء فيها الحديث التالي:

[١٣٦] عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المُسلم مَن سَلِم المسلمون من لِسانِهِ ويدِهِ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**.

رواه الشيخان وغيرهما وقد تقدم في الإيمان (ج ١ رقم ١٨٧)، فهجران المحرمات والذنوب هي الهجرة الحقيقية التي يطالب بها المسلم في كل مكان وزمان ومهاجرة الذنوب تقتضي هجران قرناء السوء ومواقع المعاصي، والله الموفق الهادي لأقوم طريق.

خامساً: في فراره ﷺ من المشركين متسللاً واختفاؤه بالغار ثلاث ليالٍ وخروجه متستّراً حذراً، كل ذلك فعله سلوكاً منه ﷺ لطريق الأسباب، ولكي تقتدي به أُمّته وخلفاؤه والدعاة إلى الله تعالى إذا اقتضى الحال ذلك، واستعمال الأسباب المادية لا ينافي الإيمان ولا التوكّل على الله والنبيّ ﷺ كان مُوقِناً بنصر الله تعالى وحفظه من المشركين، وفعلُه ﷺ هذا لا يعارض بما صنعه عمر رضي الله تعالى عنه من خروجه علانية؛ لأن عمر فرد من الأُمّة وليس مشرّعاً ففعله ليس بحجّة، بخلاف النبيّ ﷺ فإنه قدوة لكل الأجيال إلى يوم القيامة.

سادساً: في استخلافه ﷺ الإمام عليّاً عليه السلام يبيت على فراشه نيابة عنه؛ مغامرة محفوفة بالأخطار، فلو كان هناك أشجع من الإمام عليّ، واعتماداً منه على الله عزّ وجلّ لخلفه على فراشه، وفيه فضل الإمام عليّ؛

وكيف لا وهو وليّ كل مؤمن ولم يَرِد من الفضائل لأحد ما ورد له، كما يأتي في الفضائل إن شاء الله تعالى.

سابعاً: هجرة الصدّيق مع الرسول الكريم ﷺ وصحبته إياه كانت ولا شكّ بإذن من الله عزّ وجلّ، وفي ذلك منقبة له عظيمة وفضيلة ومزية لم يحظ بها أحد دونه، وكانت صحبة خاصة سَخَّرَ فيها الصدّيقُ مالَه وأهلَه ونفسَه لخِدْمَةِ النبيّ ﷺ في طريق هجرته، فأنفق عليه ماله وأخدمه ولده وخادمه، فكان ولده عبدالله يأتيهما بأخبار المشركين ليلاً، وكان مولاه يبيت عندهما بالغنم فيشربان من لبنها ما يكفيهما، وابنته أسماء هيّأت لهما سفرة وشدّتها بقطعة من نطاقها، ولهذه المزايا التي حظي بها الصدّيق ذكره الله تعالى مقروناً بنبيّه ﷺ حينما أخرجه الكفار ونزلا الغار، وقال له: «**لا تحزن إنّ الله معنا**»، فأنزل الله السكينة على رسوله وأيّده بجنود من الملائكة لم يرَها أحد وحصل له كل ذلك والصديق بجانبه وسمّاه الله صاحباً له، فسبحان من خصّ من شاء بما شاء. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ثامناً: فيما ذكر من قصة الهجرة، جواز استخدام الكافر إذا كان أميناً، فإنه ﷺ استأجر ذلك الديلي ليدلّهما على الطريق، والحال أنه على دين قومه وهو يدلّ على أن ذلك الرجل كان أميناً لم يَصْدُرْ منه غَدْرٌ ولا خيانةٌ وهذا خُلُقٌ كريم عري جمهور المسلمين اليوم، بل أكثرهم من التخلّق به.

تاسعاً: في خصوص حديث البراء بن عازب شدّة اهتمام الصدّيق رضي الله تعالى عنه بالنبيّ ﷺ وشفقته عليه وإيثاره نفسه وتأدّبه معه.

عاشراً: في هذه الأحاديث عدة معجزات للنبيّ ﷺ وآيات باهرة:

منها: تعمية المشركين عنه ﷺ عند خروجه من منزله وهم محيطون

به، فخرج عليهم ورماهم بالحصى والتراب وهو يقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾، فأعماهم الله عزّ وجلّ ولم يشعروا بخروجه.

ومنها: تعميتهم أيضاً في الغار رغم أنهم كانوا واقفين على بابه، ولو كانوا نظروا فيه لرأوا النبيّ ﷺ وصاحبه، ولكن الله عزّ وجلّ أعمى أبصارهم وألهَم العنكبوت أن تَنْسُجَ خيوطَها على باب الغار زيادةً في صَرْفهم عن البحث في الغار.

ومنها: ما حصل لسُراقة وارتطام أرجُلِ فرسه في الأرض وسقوط سُراقة وصعود غبار من الأرض كالدخان حصل له ذلك مرّتين، وفي الثانية منهما اعتبر، فأمّنهما وطلب منهما الوقوف.

ومنها: ثجّ اللبن من شاة أمّ معبد العجفاء الحائل ببركة حلب النبيّ ﷺ إياها حتى سقى أم معبد ورفاقه وشرب هو الآخر وأبقى لأم معبد إناء ملآن لبناً، فهذه كلّها آيات وقعت له ﷺ في طريق هجرته.

* * *

❊ رسول الله ﷺ بقباء وتاسيسه مسجده

حادي عشر: قد رأينا أن الأنصار لما سمعوا بقدوم النبيّ ﷺ كانوا يخرجون لانتظاره حتى يردّهم حرّ الظهيرة، وعندما وصلهم قدومه أخذوا سلاحهم وخرجوا للقائه، فنزل بني عمرو بن عوف بقباء، ومكث بها بضعة عشر يوماً أسّس خلالها مسجدها التاريخي الذي أشاد به القرآن الكريم وبأهله في قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ إلخ.

وكان ذلك يوم الاثنين من ربيع الأول ثاني عشر منه، وهو الذي ذكره ابن سعد في الطبقات (٣٣٣/١)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (١٣٣/٢) وجزم به النووي وهو الراجح وقول الجمهور، وقيل غير ذلك. أما خروجه

من مكّة المكرمة، فقال الحاكم: تواترت الأخبار بأن خروجه كان يوم الاثنين، يعني من شهر ربيع الأول، وخروجه يوم الاثنين كان من بيته وبقي بالغار ثلاث ليال وخرج منه يوم الخميس وبقي بالطريق اثني عشر يوماً ووصل يوم الاثنين ثاني عشر من الشهر، والله أعلم، ففي ذلك خلاف.

* * *

❋ دخول رسول الله ﷺ المدينة وفرح أهلها بقدومه ونزوله على أبي أيوب الأنصاري

ثاني عشر: عندما نزل رسول الله ﷺ المدينة كان كلما مرّ على حيّ من أحياء الأنصار سألوه النزول عندهم، فيقول لهم: «**دعوها ـ يعني الناقة ـ فإنها مأمورة**»، وأضاءت المدينة لقدومه وتلقّاه الناس وخرجوا في الطرقات الرجال والخدم والصبيان وصعدوا على السطوح حتى أن العواتق والبنات فوق البيوت يَتَرَاءَيْنَه وقد علا جميعهم الفرح والسرور، واحتفلوا به فنحروا جزوراً ولعبت الحبشة بحرابهم، وفيما ذكرناه أحاديث، وهي:

[١٣٧] عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: فقدمنا المدينة ليلاً فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «**أنزِلُ على بني النجار أخوال عبد المطلب أُكْرِمُهم بذلك**»، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرّق الغلمان والخدم في الطريق ينادون: يا محمد يا رسول الله، وفي رواية يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد ﷺ.

رواه البخاري في مواضع وتقدم مطولاً بغير هذا السياق، ورواه مسلم في الزهد (١٨/١٥١) وأحمد بنحوه.

[١٣٨] وفي حديث البراء المتقدم في هجرة أوائل الصحابة، قال: ثم قدم النبيّ ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ... وفي رواية: حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء ﷺ.

رواه البخاري في تفسير (سبّح اسم ربك) وفي فضائل القرآن وفي الهجرة النبويّة (٨/٢٦٢، ٢٦٣).

[١٣٩] وقال أنس رضي الله تعالى عنه: ما رأيت يوماً قطّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة. وفي رواية: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ أضاء منها كلُّ شيء.

رواه أحمد (٣/٢٢١، ٢٦٨)، وابن ماجه (١٦٣١) بسند صحيح على شرط مسلم.

[١٤٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم النبيّ ﷺ المدينة نحروا جزوراً أو بقرة.

رواه أحمد (٣/٣٠١) بسند صحيح.

[١٤١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لَعِبَت الحبشة بحرابهم فرحاً لقدومه ﷺ.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٢٣) بسند صحيح.

وفي هذا دليل على جواز اللعب بالمباح عند حدوث الأفراح وعلى الأخصّ الأفراح الدينية وقد استدلّ أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الإحياء» بهذا وغيره على جواز رقص الصوفية، وتبعه في ذلك السهروردي في «عوارف المعارف».

* * *

❁ سكناه ﷺ بدار أبي أيّوب الأنصاري وتأدّبه معه وتبرّكه بآثاره

ثالث عشر: قد حظي أبو أيّوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه بسكنى رسول الله ﷺ بداره، وتلك مزية وإكرام من الله ورسوله ﷺ له، وقد حدّثنا بنفسه عن حالته مع النبيّ ﷺ في جواره.

[١٤٢] فعنه قال: إن النبيّ ﷺ نزل عليه، فنزل النبيّ ﷺ في السُّفْلِ وأبو أيوب في العُلْوِ، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة، فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ، فَتَنَحَّوْا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «**السُّفْل أرْفَقُ**»، فقال: لا أعلو سَفِينة أنت تحتها، فتحوّل النبيّ ﷺ في العُلْوِ وأبو أيوب في السفل، فكان يَصْنَعُ للنبيّ ﷺ طعاماً، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثُومٌ، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيّ ، فقيل له: لم يأكل، فَفَزِعَ وصعد إليه فقال: أحرامٌ هو؟ فقال النبيّ ﷺ: «**لا، ولكني أكْرَهُه**»، قال: وإني أكره ما تكره أو ما كرهتَ، قال: وكان النبيّ ﷺ يُؤْتى.

رواه مسلم رقم (٢٠٥٣) في الأشربة (٩/١٤، ١٠)، وأحمد (٤١٥/٥) وغيرهما.

وقوله: «وكان النبيّ يُؤتى» مبني للمجهول، يعني: تأتيه الملائكة وهم لا يحبون الروائح الكريهة كما جاء في رواية: «**فإني أُناجي مَنْ لا تُناجي، وأن الملائكة تَتَأَذَّى مِمَّا يتأذَّى منه بَنُو آدَم**»، ففي هذا الحديث فائدتان اثنتان، أحدهما: تأدّب أبي أيوب مع رسول الله ﷺ واحترامه وتوقيره إياه حيث امتنع من السُّكنى فوق النبيّ ﷺ، وذلك عنوان منه يدلّ على تعظيم الجانب النبويّ... وثانيهما: تبرّكه بالآثار النبوية وابتغاؤه البركة من آثار أصابعه ﷺ، وهذا لم يختصّ به أبو أيوب فالصحابة كلهم كانوا يتبرّكون بآثاره ﷺ كما يأتي في موضعه.

* * *

❁ خلاصة ما تقدم من المبعث إلى نهاية الهجرة من الأعمال النبويّة والأحداث

جاء في الأبواب السابقة من المبعث إلى هنا عدة أعمال نبويّة وأحداث مختلفة أهمّها وأبرزها وأجلّها: تفضّل الله عزّ وجلّ على حبيبه سيّدنا

محمد ﷺ بنعمته الكبرى عليه وعلى أُمّته وهي بدء الوحي، وأول ما نزل عليه من القرآن الكريم، ثم صفة الوحي، وكيف كان يتلقّاه ﷺ ثم بداية الدعوة ومراحلها في حياته ﷺ ثم بيان السابقين للإسلام وأول من أسلم منهم، ثم الجهر بالدعوة والصدع بها للأقارب والأباعد، ثم إيذاء الكفار له ﷺ بشتّى الأنواع ثم طلب الكفار من أبي طالب أن يتدخّل في كفّ النبيّ ﷺ عن سبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم... ثم إيذاؤهم للصحابة وعدوان المشركين عليهم، وخاصّة الضعفاء والخدم منهم، ثم ذكر قول الوليد بن المغيرة في القرآن وأنه سحر... ثم تفاوض قريش مع النبيّ ﷺ وعرضهم عليه المال والنساء والمُلْك وأن يدع ما هو بصدده، ثم اقتراحهم عليه الإتيان بالآيات كانشقاق القمر وانقلاب الصفا ذهباً... ثم بدأت بشائر عزّ الإسلام تظهر؛ فأسلم حمزة بن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ وأسَدُ هذه الأُمّة، ثم إسلام أبي ذرّ الغفاري وضماد الأزدي... ثم تأتي قصة إسلام الجنّ بعد أن مُنِعُوا من استراق السمع ثم بيان ما كان يفعله النبيّ ﷺ والإمام عليّ عليه السلام من تحطيم الأصنام التي كانت منصوبة على الكعبة وتلطيخها بالعذرة بواسطة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه والإمام عليّ كرّم الله وجهه، ثم جاءت الهجرة إلى الحبشة الأُولى والثانية وما صدر فيها من عزّ وانتصار للمهاجرين على عمرو بن العاص ورفيقه، ثم تقوّى الإسلام وازداد عزّاً بإسلام بطل الإسلام وعبقريه عمر الفارق رضي الله تعالى عنه، ثم جاءت المحنة النكراء حصار النبيّ ﷺ في الشِّعب ومعه بنو هاشم وبنو المطلب بمؤمنهم وكافرهم، ثم الانتقام من المستهزئين، ثم قصة ابن أمّ مكتوم مع النبيّ ﷺ، ثم دعاؤه ﷺ على كفار قريش لما استعصوا بالقحط والجدب حتى أكلوا الجيفة والعظام، ثم تأتي المعجزة الإخبارية للقرآن الكريم وهي قصّة انتصار الروم على فارس بعد هزيمتها، ثم جاء عام الحزن حيث توفي عمّ النبيّ ﷺ أبو طالب، ثم وفاة خديجة وكان ذلك في سنة واحدة وشهر واحد.

ثم تزوّجه ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله تعالى عنها وعقده على عائشة حبيبته رضي الله تعالى عنها وهي بنت ستّ سنين، ثم خروج

النبيّ ﷺ إلى الطائف بعد أن تكالب عليه الكفار وتفاقم عليه البلاء واشتدّ أمره، ثم خروج الصدّيق رضي الله تعالى عنه مهاجراً ورجوعه في جوار ابن الدّغنة.

ثم تأتي الآية الكبرى والمعجزة العظمى، وهو حادث الإسراء والمعراج الذي كان أعظم مُسَلٍّ للنبيّ ﷺ ومُثَبِّتٍ، ثم عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحجّ، ثم بداية وفود الأنصار عليه ﷺ وقدومهم عليه لأول مرة يلقونه فيها، ثم بدء إسلام الأنصار، ثم بيان بيعة العقبة الأُولى، ثم الثانية، ثم إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو إلى الله ويفقه من أسلم منهم، ثم انتشار الإسلام بالمدينة وقَلَّت دارٌ من دورها ليس فيها إسلامٌ.

ثم جاءت بوادر هجرة النبيّ ﷺ فرأى في منامه دار هجرته، ثم ذكر أوّل من هاجر إليها من الصحابة، ثم ذكر قصة هجرة أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، ثم مؤامرة كفار قريش على قتله ﷺ ثم خروجه من بين أظهرهم وتعميتهم عنه، ثم لحوقه بالغار ثم جاءت الهجرة وخروجه مصحوباً بالصدّيق، فقطعا مسافة ما بين مكّة والمدينة تحت رعاية الله تعالى وحمايته، ثم وصوله إلى المدينة ونزوله بقباء أربعة عشر يوماً أسّس خلالها مسجده التاريخي، ثم نزل إلى المدينة ونزل على أبي أيّوب الأنصاري ثم فرح الصحابة به واحتفالهم بقدومه ﷺ.

هذه مضامين المرحلة الأُولى من حياته ﷺ بمكّة المكرمة من المبعث إلى الهجرة، وكانت إقامته بها بعد بداية الوحي ثلاثة عشر عاماً كانت كلّها بلايا وفتناً ونكبات في سبيل تبليغ رسالته والدعوة إلى الله تعالى.

وها هو الآن بالمدينة بين أنصاره ومؤيّديه من المؤمنين به ﷺ مؤزراً منصوراً عزيزاً منيعاً.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن دعوته بمكّة طوال هذه السنين كانت خاصّة بأُصول الدين والعقيدة؛ كالدعوة إلى التوحيد وبيان دلائله من هذا الكون والدعوة إلى ترك عبادة غير الله عزّ وجلّ والأمر بالإيمان

بالملائكة والرُّسل والكتب الإلٰهيّة ثم الإيمان بالبعث والقيامة وما فيها... ثم الدعوة إلى مكارم الأخلاق وبيان قصص الأنبياء وغيرهم.

وكانت أكثر السور نزلت بمكّة في هذه الفترة تهتم بهذا الجانب، ولم يَبق من القرآن إلاّ ثلاث وعشرون سورة وهي السور المدنية التي تُعْنَى بالأحكام والحلال والحرام والتشريع الإسلامي العام، وتلك السور هي:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحجّ، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصفّ، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، على خلاف في بعض لم تذكر.

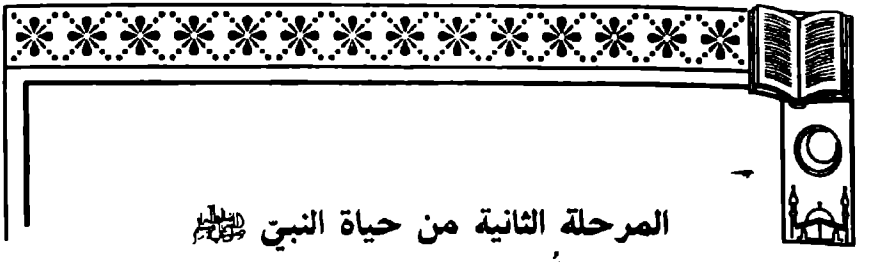

المرحلة الثانية من حياة النبيّ ﷺ
السنة الأُولى من الهجرة وحوادثها
التأريخ

[١٤٣] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: ما عَدُّوا مِن مَبْعَثِ النبيّ ﷺ ولا مِنْ وفاتِهِ، ما عَدُّوا إلا من مَقْدَمِهِ المدينة.

رواه البخاري قبيل المغازي (٨/٢٦٩، ٢٧٠).

[١٤٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان التاريخ في السنة التي قدم فيها رسول الله ﷺ المدينة، وفيها وُلد عبدالله بن الزبير.

رواه الحاكم (٣/١٣، ١٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[١٤٥] وعن سعيد بن المسيّب رضي الله تعالى عنهما قال: جمع عمر رضي الله تعالى عنه الناس فسألهم: من أيّ يوم يكتب التاريخ؟ فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك، ففعله عمر رضي الله تعالى عنه.

رواه الحاكم أيضاً (٣/١٤) وصححه ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

كان العرب كغيرهم من الأُمم يؤرّخون بالأحداث الظاهرة، فلما توفي النبيّ ﷺ وخلفه الصديق ثم عمر رضي الله تعالى عنهما وتكوّنت الدولة الإسلامية وفتحت الأقطار والأمصار احتاجوا إلى وقت يؤرّخون منه تاريخ الإسلام، فاستشار سيّدنا عمر الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فأشار كلٌّ بما

بدا له، فاختار عمر قول عليّ رضي الله تعالى عنهما، فجعل التاريخ من هجرة النبيّ ﷺ، وإنما قدَّموه لأول السنة من المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم؛ إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجّة وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهلّ بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم، فناسب أن يجعل مبتدأ. قال الحافظ: وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم.

وما ذكرناه هو مؤدّى ما ذكر من أقوال سهل وابن عباس وعليّ وسعيد رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❊ مجيء عبدالله بن سلام إلى النبيّ ﷺ وإسلامه

[١٤٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمع عبدالله بن سَلام رضي الله تعالى عنه بمَقْدَم رسول الله ﷺ وهو في أرض يَخْتَرِف، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعْلَمُهُنَّ إلا نبيّ، فما أوّل أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنّة؟ وما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه؟ قال: **«أخبرني بهن جبريل آنِفاً»**، قال: جبريل، قال: نعم، قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

«أمّا أول أشراط الساعة فنارٌ تَحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كَبِدِ حُوتٍ، وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولدَ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعتْ»، قال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهْتٌ، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبْهَتُوني، فجاءت اليهود فقال: **«أي رجل عبدالله فيكم»**؟ قالوا: خَيْرُنا وابن خَيْرنا، وسيِّدُنا وابن سيدنا، قال: **«أرأيتُم إن أسلم عبدالله بن سلام»**؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، قالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

وفي رواية: «**يا معشر اليهود ويلكم اتّقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق أسلموا**»، فقالوا: ما نعلمه.

رواه أحمد والبخاري في التفسير وفي الأنبياء وفي الهجرة (٨/٢٧٤، ٢٧٥).

قوله: «يخترف» أي: يجني رطباً لأهله. قوله: «ينزع الولدَ» أي: جذبه إليه، وفي رواية لمسلم من حديث عائشة: «**إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه أعمامه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه أخواله**»، والمراد بالعلوّ هنا سبق الماء، وقد تقدم بعض هذا في الطهارة.

وقوله: قوم بهت - بضم الباء والهاء وتسكن - أي: يبهتون السامع بما يفترونه من الكذب.

وفي الحديث فضل عبدالله بن سلام وإنصافه وأن الله تفضّل عليه من بين اليهود وأسعده كما فيه تلك المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بما كان غائباً عنه من أشراط الساعة وما يقدم أول لأهل الجنّة من الطعام، وكيف يكون الشَّبه في الأولاد للأب أو الأم... ولقصة عبدالله هذا طرق سيأتي بعضها في الأدب.

* * *

❋ بناء المسجد النبوي الشريف

[١٤٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ نزل في أعلى المدينة في حيّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم إنه أرسل إلى ملإٍ من بني النجار، قال: فجاءوا مُتَقَلِّدين سيوفَهم، قال: فكأنّي أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته، وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقي بفناء أبي أيوب، قال: فكان يصلّي حيث أدركته الصلاة ويصلّي في مرابض الغنم، ثم أمر بالمسجد فأرسل إلى

ملإٍ من بني النجار فجاءوا، فقال: «**يا بني النجار ثامنوني حائطكم هذا**»، فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال: وكان فيه قبور المشركين وكان فيه خرب وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ، وبالخرب فسوّيت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل إلى قبلة المسجد، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً، قال: وجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول: «**اللّهمّ لا خير إلا خيرَ الآخرة، فانصر الأنصارَ والمهاجرة**».

رواه البخاري ومسلم وقد تقدم قسم المسجد منه في الصلاة رقم (٥٥١)، وقسم نزوله ﷺ بقباء وبدار أبي أيوب تقدم أيضاً في حديث عائشة في سياق حديثها في الهجرة.

كان النبيّ ﷺ لما نزل بالمدينة كان من أوّل ما اهتمّ به بناء مسجده الشريف، ورأينا أن موضعه كان مربداً ليتيمين لأسعد بن زرارة فوهباه له بلا مقابل، وكان أسعد بن زُرارة قد اتّخذه مصلّى يصلّي فيه بأصحابه قبل مقدم النبيّ ﷺ، ولما شرعوا في بنائه شارك في بنائه النبيّ ﷺ وأصحابه، ومنهم الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم.

[١٤٨] فعن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه رضي الله تعالى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هؤلاء ولاةُ الأمر مِنْ بَعْدِي**».

رواه الحاكم (٣/١٣) وصححه وقال الذهبي: صحيح، وكان منهم أيضاً عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه.

[١٤٩] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنا نحمل لَبِنَةً لَبِنَةً، وعمارُ لبنتين لبنتين، فرآه النبّي ﷺ فينفض التراب عنه ويقول: «**وَيح عمّارٍ تَقْتُلُه الفِئَةُ الباغِيَة، يَدعوهم إلى الجنّة ويَدعونَه إلى النار**»، قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

رواه البخاري في مواضع ومسلم في الفتن وغيرهما ويأتي في الفضائل

وغيرها، وتقدم في المحاربين. الفئة الباغية: هي الجماعة التي كانت تقاتل الإمام عليًا وهم معاوية وأهل الشام. وكان من صفة المسجد أيام النبيّ ﷺ وتجديده أيام الخلفاء الراشدين ما جاء في الحديث التالي:

[١٥٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنيّاً باللّبِن، وسَقْفُه الجريدُ، وعُمُدُه خَشَبُ النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللّبن والجريد وأعاد عمده خَشَباً ثم غيّره عثمان، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج.

رواه البخاري في المساجد (٨٦/٢).

قوله: «القصة» بفتح القاف الجص. وقوله: «الساج» هو نوع من الخشب.

فهكذا كان المسجد النبويّ الأصلي بناءً بسيطاً مبنياً بالحجارة ولَبِنِ التراب وأعمِدتُه من خشَبِ النخل، وسَقْفُه بالجريد وعِضَادَتَاه، أي جانبا بابِهِ بالحجارة ثم تفنّن الناس في تشييده وزخرفته إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

وكانَ المسجدُ النبويّ من يوم أُسّس مسجداً ثانياً في الفضل تشدّ إليه الرحال، وكان إضافة إلى إقامة الصلوات الخمس فيه، جامعةً إسلاميّةً يُلْقِي فيه النبيّ ﷺ دروسه ومواعظه ونصائحه لأصحابه، وكان جبريل عليه السلام يتردّد إليه من عند الله عزّ وجلّ في كل وقتٍ وحين، وهو موضع التشريع الإسلامي، وفيه كانت تُبرم الأمور التي يُراد تنفيذها، ومنه كانت تُبعث السرايا والجيوش لقتال الكفار، وفيه كان ﷺ يستقبل الوفود، وفيه كان يفصل بين المتخاصمين ويصدر أحكامه العادلة... وللمسجد النبوي تاريخ رائع، وله فضائل كالمدينة تقدم بعض ذلك في الحجّ، وكان ﷺ بنى حجر نسائه متّصلات بمسجده. وللمَسْجد أهميّةٌ كبرى في الإسلام، ففيه يتعارف المسلمون ويتوحّدون فيقفون بين يدي الله تعالى متحدين في جوٍّ

روحاني خمس مرات في كل يوم، وعنده تَبْدُو أُبّهة الإسلام وتؤدّى أعظم شعائره، ومنه يَسْتقي عامّة المسلمين النصائح والمواعظ والتوجيه بما يتلقّونه من العلماء في دروسهم ومَوَاعِظهم وخُطَبهم. . .

* * *

❊ فرضية الصلاة أربعاً بالمدينة وإبْقاءُ صلاة السفر على أصلها

[١٥١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: فُرِضَت الصلاةُ ركعتين، ثم هاجر رسول الله ﷺ فَفُرِضَتْ أربعاً وتُرِكَتْ صلاةُ السفر على الأَوَّل.

رواه البخاري في الصلاة وفي آخر الهجرة (٢٧١/٨)، ومسلم كذلك وقد تقدم بسياق آخر في الجزء الثاني رقم (١٠٣١).

الحديث يدلّ على أن الصلاة مفروضة ركعتين غير المغرب، ولما قدم ﷺ زِيد في الحضر ركعتان أُخريتان، وبقيت صلاة السفر على أصلها تؤدّى ركعتين، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع في صلاة السفر من كتاب الصلاة في الجزء الثاني.

* * *

❊ إسْلامُ سَلْمان الفارِسِيّ

[١٥٢] عن سلمان رضي الله تعالى عنه أنه تداوله بضعة عشر من رَبٍّ إلى رب.

رواه البخاري قبيل المغازي (٢٧٩/٨).

قصة إسلام سلمان رضي الله تعالى عنه ومجيئه إلى النبيّ ﷺ بعد أن عانى شدائد في حصوله على الدين الحقّ قد تقدمت في تبشير اليهود والأحبار والرهبان به ﷺ.

* * *

❁ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

[١٥٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٤) وفي الأدب (٦٠٨٣) وفي الاعتصام (٧٣٤٠)، ومسلم في الفضائل (٢٥٢٩) (٨٢/١٦) وغيرهما.

[١٥٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾، قال: ورثة. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبيّ ﷺ المدينة وَرِثَ المهاجريّ الأنصاريَّ دُون ذَوِي رَحِمِهِ للأخوّة التي آخى النبيّ ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾ الآية نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ إلا النُّصر والرِّفادَة والنصيحةَ وقد ذهب الميراث ويُوصَى له.

رواه البخاري في مواضع منها التفسير رقم (٤٥٨٠) وقد تقدم فيه.

[١٥٥] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: قالت المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثلَ قوم قَدِمْنَا عليهم أحْسَنَ بَذْلاً من كَثِير، ولا أحسنَ مُواساةً في قليل، قد كَفَوْنا المَؤُونَةَ، وأشركونا في المَهْنَإِ، فقد خَشِينا أن يَذْهَبُوا بالأَجْرِ كُلِّه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «كلَّا، ما أَثْنَيْتُمْ عليهم بِهِ ودَعَوْتُمُ الله عزّ وجلّ لهمْ».

رواه أحمد (٢٠٤/٣)، وأبو داود في الأدب (٤٨١٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٧) وسنده صحيح على شرط الشيخين وحسَّنه الترمذي وصححه.

[١٥٦] وعنه أيضاً قال: قدم عبدالرحمٰن بن عوف فآخى النبيّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع فعَرض عليه أن يُناصِفَه أهْلَه ومالَه، فقال عبدُالرحمٰن: بارك الله لك في أهلك ومالك.

الحديث تقدم في النكاح وغيره مطولاً رواه البخاري في المغازي (٢٧٤/٨) وفي مواضع، ومسلم وأبو داود في النكاح والترمذي في البرّ والصلة والنسائي وابن ماجه في النكاح.

[١٥٧] وعنه أيضاً قال: آخى النبيّ ﷺ بين أبي عُبَيْدة وبين أبي طلحة.

رواه أحمد (١٥٢/٣)، ومسلم في الفضائل (٢٥٢٨)، وأبو يعلى (٣٣٢٠).

[١٥٨] وعن أبي جُحَيْفة رضي الله تعالى عنه قال: آخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء.

رواه البخاري في الصيام وفي الأدب والترمذي في الزهد (٢٤١٥) وتقدم في الاعتصام.

قَدِم المهاجرون من مكة المكرمة غرباء لا مال لهم ولا أهل، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يؤاخى فيما بينهم كأُخُوَّةِ النَّسَبِ يَتَوَارَثُون ويَتَنَاصَرُون إلى وقتٍ ما ثُمّ نُسِخ التوارثُ وبَقِيَ التَّناصُرُ والرِّفادةُ والتَّناصُحُ والوَصِيَّةُ، وقد أبان الأنصار رضي الله تعالى عنهم عن كرمهم وشدّة إحسانهم إلى المهاجرين وإيثارهم إيَّاهم على أنفُسهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وكيف لا وقد قاسموا إخوانهم المهاجرين الأموال والنساء، فكان الأنصاري إذا كانت له زوجتان تنازل عن إحداهما لأخيه المهاجري، وهكذا يفعل في ماله، ولذلك كان النبيّ ﷺ يحبهم كثيراً ويدعو معهم ومع أولادهم وقال: «**لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار**»، وقال لهم: «**المَحْيَا مَحْيَاكم والمَمَاتُ مَماتُكم**»، وستأتي مناقبهم في الفضائل.

وفي الأحاديث المذكورة التنصيصُ على بعض من آخى بينهم النبيّ ﷺ وقد سرد الكثير منهم ابنُ إسحاق كما عند ابن هشام (١٤٦/٢، ١٤٧، ١٤٨)، وذكر ابن سعد (٢٣٨/١) أنّ الذين آخى بينهم النبيّ ﷺ

كانوا تسعين أو مائة رجل نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، قال السهيلي رحمه الله تعالى: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغُربة ويتآنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ بعضهم أُزر بعض، فلما عزّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلّهم إخوة، وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يعني في التوادد وشمول الدعوة...

ملحوظة: ذكر ابن سعد وغيره أن رسول الله ﷺ لمّا استقرَّ بالمدينة بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكّة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ وسودة بن زمعة زوجته وأسامة بن زيد وكانت رقية بنت رسول الله ﷺ قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك، وحبس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول الله ﷺ وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد، وخرج عبدالله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة الخ.

* * *

❁ مبايعة النبيّ ﷺ نساء الأنصار

[١٥٩] عن أمّ عطية رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيتٍ ثم بعث إليهنّ عُمرَ بن الخطاب، فقام على الباب فسلّم فردَدْنَ عليه السلام فقال: أنا رسولُ رسول الله إليكُنَّ، قُلْنَ: مرحباً برسول الله وبرسولِ رسولِ الله ﷺ، وقال: **«تُبايِعْن على أن لا تُشرِكْنَ بالله شيئاً، ولا تَزْنِين، ولا تَقْتُلْنَ أولادكُنَّ، ولا تأتِين ببُهتان تَفْتَرِينَه بين أيْدِيكُنَّ وأرْجُلكُنَّ، ولا تَعْصِينَه في معروف»**، قلنا: نَعَمْ، فمَدَدْنا أيدينا من داخل البيت، ومدّ يده من خارج البيت، ثم قال: **«اللّهمّ اشْهَدْ...»**.

رواه أحمد (٦/٤٠٨، ٤٠٩)، وأصله في الصحيحين.

[١٦٠] وعن أُمَيْمَة بنت رُقَيْقَة رضي الله تعالى عنهما قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نِسْوَةٍ من الأنصار، فقلنا: نُبايِعُكَ على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني... الحديث.

رواه أحمد ومالك والترمذي والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة، وقد تقدم في الإيمان رقم (١٦٦) في الجزء الأول.

الحديثان يدلاّن على أن النبيّ ﷺ بايع نساء الأنصار عقب قدومه على هذه الشرائع، وقد تكرّرت مبايعته للرجال والنساء على شرائع الدين مرّات، وستأتي مبايعته للنساء المهاجرات بعد الحديبية.

* * *

❁ مرض بعض الصحابة مَقْدَمَهُم المدينة ودعاء النبيّ ﷺ في ذلك

[١٦١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلالٌ، فكان أبو بكر إذا أَخَذَتْهُ الحُمَى يقول:

كُلُّ امْرِىءٍ مُصَبَّحٌ في أهْلِهِ ... والموتُ أَدْنَى مِن شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلالٌ إذا أُقْلِعَ عنه الحُمَّى يرفع عَقِيرَته يقول:

ألا لَيْتَ شِعْري هل أبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بوادٍ وحَوْلِي إذْخِرٌ وجَلِيلُ
وهل أُرِدَنَ يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ ... وهل يَبْدُو لي شامَةٌ وَطَفِيلُ

وقال: اللهمّ العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأُميَّة بن خَلَف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: **«اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كَحُبِّنا مكّة أو أشدَّ، اللّهمّ بارك لنا في صاعنا وفي مُدّنا، وصَحِّحها لنا، وانْقُل حُمَّاها إلى الجُحْفة»**، قالت: وقدمنا المدينة وهي أَوْبَأُ أرْضِ اللهِ، قالت: فكان بُطْحانُ يجري نَجْلاً، تعني ماءً آجِناً.

رواه البخاري آخر الهجرة (١/٢٦٤، ٢٦٥) وفي المرضى وفي الدعاء، ومسلم رقم (١٣٧٦) في كتاب الحجّ.

[١٦٢] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت كأن امرأةً سوداء ثائِرَةَ الرأس خرجَتْ من المدينة حتى قدمَتْ مَهْيَعَة وهي الجحفة فأوّلْتُ أنّ وَباءَ المدينة نُقل إليها»**.

رواه البخاري والترمذي كلاهما في التعبير والرؤيا وتقدم.

«وعك» بضم الواو وكسر العين أي: أصابه الوعك وهي الحمّى. «شراك نعله» بكسر الشين هو السير الذي يكون على وجه النعل. «يرفع عقيرته» أي صوته. «بِوادِ» أي بوادي مكّة. «إذخر وجليل» هما نباتان. «مياه مجنة» كان من أسواق العرب. «شامة وطفيل» هما جبلان بِقُرْبِ مكّة. «ثائرة الرأس» أي: منتفشاً غير ممشوط. «ومهيعة» بفتح الميم والياء والعين وسكون الهاء.

في حديث عائشة بيان ما نزل بهم من الحُمَّى، ودعاء النبيّ ﷺ بإبدالهم محبة مكّة بمحبة المدينة وأشدّ مع البركة في مكيالهم وإبدال وباء المدينة بصحتها، وإخراج ما فيها إلى الجحفة، فأجاب الله دعاءه في كل ما دعا به، فحبّب الله إليهم المدينة وألفوها وأنزل لهم البركة في طعامهم ورزقهم ونقل وباءها إلى مهيعة حتى مثّل له وباءها وحماها امرأة سوداء منتفشة الشعر، فخرجت حتى نزلت بالجحفة، والحديث يدلّ على أن الإنسان مجبول على حبّ مسقط رأسه والوطن الذي نشأ فيه، وأنه دائماً يحنّ إليه ويتفكر في ذكرياته، وهذا شيء لا نزاع فيه لا سيما مثل مكة المكرّمة حرم الله عزّ وجلّ.

* * *

❊ أوّل مولود في الإسلام في المدينة للمهاجرين

[١٦٣] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها أنها حملت بعبدالله بن الزبير بمكّة المكرمة، قالت: فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة

فنزلت قباء فولدت بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تَفَل في فِيهِ، فكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ثم حنَّكَهُ بالتمرة ثم دعا له وبَرَّكَ عليه، وكان أولَ مولود وُلد في الإسلام، ففَرِحُوا به فَرَحاً شديداً، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سَحَرَتْكم فلا يُولَد لكم.

رواه البخاري في الهجرة النبويّة (٨/٢٤٩، ٢٥٠) وفي العقيقة رقم (٥٤٦٩)، ومسلم في الأدب (٢١٤٦) زاد مسلم، قالت أسماء: ثم مسحه وصلّى عليه وسمّاه عبدالله، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايعَ رسولَ الله ﷺ وأمره بذلك الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه.

ورواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها مختصراً.

قولها: «وأنا متمّ» أي: مقاربة للولادة. قولها: فمضغها، وفي رواية عائشة: فلاكها، وقولها: ثم «حنّكه» «ثم تَفَلَ في فِيهِ»، ومعناه وضع في فيه التمرة، ودلك وحنّكه بها. «وبرك عليه» أي: قال بارك الله فيه.

وفي الحديث بيان أن عبدالله هذا هو أول مولود وُلد للمهاجرين بعد الهجرة، وأن الصحابة فرحوا بولادته، وفيه أن ولادته كانت بقباء لنزول أسماء به ثم نزلت به إلى المدينة فوضعته في حجر رسول الله ﷺ، وليس المراد أنها أتت به رسول الله بقباء كما يفيده ظاهر قول أسماء، بل أتت به إلى المدينة. وتحنيك الأطفال تقدم في العقيقة.

وفيه مشروعية مبايعة الأطفال على الإسلام وشرائعه، ولا ينبغي أن يُختلف فيه.

* * *

❋ بناؤه ﷺ بعائشة رضي الله تعالى عنها

[١٦٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«رأيتكِ في المنام يجيءُ بِكِ المَلك في سَرَقَةٍ من حَريرٍ، فقال لي: هذه**

امرأتك، فكشفتُ عن وجهك الثَّوبَ فإذا هي أنتِ، فقلت: إن يك هذا من عند الله يُمْضِهِ» وفي رواية: «رأيتك في المنام ثلاث ليال»، وفي أخرى: «أُريتك في المنام مرتين».

رواه البخاري آخر المبعث (٨/٢٢٥) وفي مواضع، ومسلم (٢٤٣٨) في النكاح.

[١٦٥] وعنها قالت: تزوّجني النبيّ ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج فوُعِكتُ فتمزَّق شَعَري فوَفَى جُمَيْمَةً، فأتتني أمي أمُّ رُومان وإني لفي أُرْجُوحَةٍ ومَعِي صواحِبُ لي فصَرَخَتْ بي فأتيتُها لا أدري ما تريد بي، فأخذَتْ بيدي حتى أوْقَفَتْني على باب الدار، وإني لأُبْهِجُ حتى سكَن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحتْ به وجهي ورأسي ثم أدخلَتْني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسْلَمَتْني إليهنّ فأصْلَحْنَ من شأني، فلم يَرُعْنِي إلا رسولُ الله ﷺ ضحًى فأسْلَمْنَنِي إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين. وفي رواية: ومكثت عنده تسعاً. وفي أخرى: ومات عنها وهي بنت ثمان عشْرَةَ.

رواه البخاري آخر المبعث (٨/٢٢٤)، ومسلم (١٤٢٢) في النكاح.

«سَرَقة» بفتحات هي القطعة. «فتمزّق شعري» أي: تقطع. «فوفى» أي: تربّى فكثر. «جميمة» تصغير جمّة هو مجتمع شعر الناصية، ويقال للشعر إذا بلغ المنكبين. «أنهج» بضم الهمزة أي: أتنفس تنفساً عالياً، وقولهن: «على خير طائر» أي: خير حظّ ونصيب. وقولها: «فلم يَرُعْني» بضم الراء وسكون العين أي: لم يفزعني شيء إلا دخول رسول الله ﷺ عليّ.

الحديث الأوّل يدل على أن تزوّجه ﷺ بهذه السيدة كان بإذن من الله عزّ وجلّ، لأن رؤيا الأنبياء حقّ، وقد أُرِيَ ذلك مرّات متكرّرة تأكيداً له أنها زوجته.

أما الحديث الثاني، فيدلّ على أُمور: أولاً: إن عائشة ممن أصيبت بوباء المدينة فمرضت حتى سقط شعر رأسها. ثانياً: جواز تزويج البنت الصغيرة بدون استئذان لها، وهو إجماع كما تقدم في النكاح. ثالثاً:

مشروعيّة الدعاء مع الزوج بالخير والبركة وقد تقدم شيء من هذا في النكاح. رابعاً: يدلّ الحديث على أن الدخول بالزوجة ليس له وقت خاص، فهذا النبيّ ﷺ دخل بعائشة ضحى، والأمر في ذلك واسع، وكان قد بنى بها في شهر شوال كما تقدم عنها في النكاح، فيكون دخل بها بعد قدومه المدينة بستة أشهر أو سبعة. خامساً: فيه أن النبيّ ﷺ توفي ولعائشة ثمان عشرة سنة وأقامت عنده تسع سنين، وسيأتي بقية للموضوع في الفضائل إن شاء الله تعالى.

* * *

❁ بَدْءُ الأذَانِ بالمدينة

[١٦٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فَيَتَحَيَّنُون الصلوات وليس ينادي بها أحدٌ، فتكلّموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتّخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: اتّخذوا قَرناً مثل قرن اليهود، قال: فقال عُمَرُ: أوَ لاَ تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**يا بلال قم فنادِ بالصلاة**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، وتقدم في الأذان.

«يتحيّنون» أي: يُقَدِّرون أحيانَها وأوقاتها ليأتوا إليها.

وظاهر هذا الحديث أن عمر هو الذي أمر بالنّداء مِن عِندِيتِهِ، والأمرُ ليس كذلك، بل هذا مُجْمَلٌ جاء مفصّلاً في حديث عبدالله بن زيد الذي أُرِيَ الأذان في منامه، فلما قصّه على النبيّ ﷺ وأمر بلالاً أن ينادي به سمعه عمر، فجاء يسعى وأخبر أنه رأى مثل ما رأى عبدالله بن زيد، وقد تقدم ذلك مفصّلاً في الجزء الأول رقم (٥٢٧) من كتاب الأذان.

والصحيح من قولي العلماء أن الأذان كانت مشروعيّته في السنة الأُولى للهجرة، وانظر أحكامه فيما سبق من كتاب الأذان.

* * *

[١٦٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم إنَّا نَسألُك عن خمسةِ أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبيّ واتّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيلُ على بَنِيهِ، إذ قال: «**الله على ما نقولُ وكيلٌ**»، قال: «**هاتوا**»، قالوا: أخبرنا عن علامة النبيّ؟ قال: «**تنام عينَاهُ ولا ينامُ قلبُه**»، قالوا: أخبرنا كيف تُؤَنِّثُ المرأة وكيف تُذْكِرُ؟ قال: «**يَلْتَقِي المَاءَان فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرتْ، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أنَّثَتْ**»، قالوا: أخبرنا عما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسِه، قال: «**كان يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا فلم يجد شيئاً يُلائِمُه إلا ألبانَ الإبلِ فحرَّم لحومها**»، قالوا: صدقت، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعْدُ؟ قال: «**ملكٌ من ملائِكة الله عزّ وجلّ مُوكَّل بالسحاب بيده أو في يده مِخْرَاقٌ من نار يَزْجُرُ به السحابَ يَسُوقُه حيث أمر الله عزّ وجلّ**»، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسْمعُ؟ قال: «**صوتُه**»، قالوا: صدقتَ، إنما بقِيَتْ واحدةٌ وهي التي نُبايِعُك إن أخْبَرْتنا بها، فإنه ليس من نبيّ إلا له ملكٌ يأتيه بالخَيْرِ، فأخْبِرْنا مَن صاحِبك؟ قال: «**جبريل عليه السلام**»، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحَرْبِ والقتال والعذاب عدوُّنا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْرِ لكان، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

رواه أحمد (١/٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨)، والترمذي في التفسير (٢٩١٥) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٥/٣٣٦) وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدم في تفسيري البقرة وآل عمران مقطعاً.

[١٦٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**لو آمن بِي عَشرةٌ من اليهود لآمَنَ بي اليَهُود**»، وفي رواية: «**لو تابَعَني عَشَرةٌ من اليهود لم يَبْقَ على ظهرها يَهُودِيّ إلا أسْلَم**».

رواه البخاري آخر المبعث (٨/٢٧٧)، ومسلم رقم (٢٧٩٣).

[١٦٩] وعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ

ركب على حمار على قطيفة فَدَكِيَّةٍ، وأَرْدَفَ أُسامَةَ بن زيد وراءَهُ يعودُ سعدَ بن عبادةَ في بني الحارث بن الخزرج قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قال: حتى مرَّ بمَجْلِسٍ فيه عبدُالله بنُ أُبَي ابنُ سَلُولٍ، وذلك قبل أن يُسلم عبدالله بن أُبي - يعني المنافق - فإذا في المجلس أَخْلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رَوَاحَةَ، فلما غَشِيَتْ المجلسَ عَجَاجَةُ الدابّة خَمَّرَ عبدالله بنُ أُبي أنفَه بردائه، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدُالله بن أبي ابن سلول: أيها المرءُ إنه لا أحسنَ ممَّا تقولُ إن كان حقّاً فلا تُؤْذِنا به في مجالسنا، ارجع إلى رَحْلِك فمن جاءك فاقْصُصْ عليه، فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسِنا، فإنا نُحِبُّ ذلك، فاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهودُ حتى كادوا يَتثاوَرُون، فلم يزل النبيّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكنوا، ثم ركب النبيّ ﷺ دابَّتَهُ فسار حتى دخل على سَعْدِ بنِ عُبادة، فقال له النبيّ ﷺ: «**يا سَعْدُ ألم تسمع ما قال أبو حُبابٍ** - يريد عبدالله بن أبيّ - **قال**: كذا وكذا»، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعْفُ عنه واصْفَحْ عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البُحْرَةِ على أن يُتَوِّجُوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أَبَى الله ذلك بالحقّ الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله ﷺ.

فذكر الحديث وفيه: فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمرٌ قد توجّه فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٨/٩) وغيره، ومسلم في السِّيَر (١٥٧/١٢، ١٥٨، ١٥٩)، ورواه مسلم أيضاً عن أنس بسياق آخر.

قوله: «قطيفة» هي دثار وفراش يكون على السَّرْج للخيل أو على الإكَافِ للحمير. والفَدَكيَّة منسوبة إلى فدك بلدة على مرحلتين من المدينة. «عجاجة» هو ما ارتفع من غبار حوافرها. «خمّر أنفه» أي غطّاه. «يخفضهم» أي: يسكنهم ويسهل الأمر بينهم. «البحرة» في رواية البحيرة والمراد بها

القرية. «أن يتوّجوه فيعصبونه بالعصابة» معناه اتّفقوا أن يجعلوه ملكاً عليهم، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنساناً ألبسوه تاجاً وعمامة. «شرق» بكسر الراء أي غَصٌّ وحسد النبيّ ﷺ.

لما تخلّص رسولُ الله ﷺ وأصحابُه من أذى المشركين بمكّة وصاروا إلى المدينة وجدوا بها عدوّاً آخر ظهر جديداً ذلكم هم اليهود والمنافقون من الأوس والخزرج، فسلك النبيّ ﷺ مع الفئتين مسلك الحكمة، فقبل من المنافقين ظواهرهم في إسلامهم، وأوكل بواطنهم إلى الله تعالى العليم بالخفيّات.

وكان المنافقون كثيرين يعدون بالمئين كما يأتي في غزوة أُحد، وكان رئيسهم وحامل لواء خبثهم هو عبدُالله بن أبي ابن سلول المذكور في حديث أُسامة، وسيأتي الكلام عليه عند موته...

أما اليهود وكانوا ثلاثة أحياء يسكنون بضواحي المدينة، وهم: بنو قُرَيْظَة، وبنو النَّضِير وبنو قَيْنُقاع، فعقد معهم عهداً مقتضاه أن لا يحاربوه ولا يكونوا عوناً عليه مع أعدائه وأن ينصروه ويقاتلوا معه عدوّه إن دهمه. في شروط ذكرها أهل السيرة في وثيقة طويلة لا تصح من حيث السند، وهي مشهورة.

لكن اليهود عليهم لعائن الله المتوالية سرعان ما نقضوا العهود وتظاهروا للإسلام والمسلمين بما كانت تكنّه ضمائرهم الخبيثة من الحسد والحقد والبغضاء وحاربوا المسلمين مع الكفار وساعدوهم فعاملهم النبيّ ﷺ بما كانوا يستحقونه كما يأتي إن شاء الله مفصّلاً في المغازي، ومخازي اليهود ومكرهم للإسلام والمسلمين وعنادهم وإنكارهم الحق وكتمهم إيّاه كل ذلك معروف في القرآن الكريم والسنّة النبويّة، وتقدم لنا حديث مسلمة بن سلامة رقم (١٠) في بعض ذلك، كما تقدم في التفسير الكثير من أخبارهم، وما ذكر في حديث أبي هريرة من أنه لو أسلم عشرة من اليهود لأسلم كلُّ اليهود أراد بالعشرة والله تعالى أعلم رؤساءهم وقتئذاك وهم كما ذكرهم الحافظ في الفتح ١٧٧/١ حيث قال: والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كان تبعاً لهم، فلم يسلم منهم إلا قليل؛ كعبدالله بن سلام، وكان من

المشهورين بالرئاسة في اليهود عند قدوم النبيّ ﷺ، قال: ومن بني النضير أبو ياسر بن أخطب، وأخوه حُيَيّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي الحُقَيْق، ومن بني قينقاع عبدالله بن حنيف، وفنحاص، ورفاعة بن زيد، ومن بني قريظة الزبير بن باطيا، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت إسلام واحد منهم وكان كل منهم رئيساً في اليهود، ولو أسلم لاتَّبَعَهُ جماعَتُهُ منهم، فيحتمل أن يكونوا المراد... أما حديث أسامة فتقدم معناه في التفسير مفرقاً.

* * *

❋ نزول الإذن من الله بالقتال

[١٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أوّل آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الآية، ثم أذن بالقتال في آي كثيرة من القرآن.

رواه النسائي في الكبرى (٤١١/٦) بسندٍ صحيح.

[١٧١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أُخْرِجَ النبيّ ﷺ من مكّة، قال أبو بكر: أخرجُوا نبيّهم لَيَهْلِكُنَّ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

رواه أحمد (١٨٦٥)، والترمذي (٩٦٦)، والنسائي (٤١١/٦)، والحاكم (٣٩٠/٢) ثلاثتهم في التفسير وسنده صحيح وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

ظاهر الحديثين يدلّ على أن هذه الآية هي أول آية نزلت تأذَنُ بالقتال بعد مَقْدَم النبيّ ﷺ المدينة، وهذا قول الجمهور؛ وكان ذلك في السنة الأُولى للهجرة. وبيّنت الآية سبب هذا القتال، وأنه ظلم الكفار للمؤمنين حيث كانوا يؤذونهم بمكّة ويسومونهم أشدّ العذاب، ثم أخرجوهم من

ديارهم لكونهم وحّدوا ربّهم، وكان النبيّ ﷺ وأصحابه بمكّة مأمورين بالعفو والصبر، ولمّا هاجروا وانتشر الإسلام وقَوِيت شوكة المسلمين وكَثر بالمدينة ناصروه أمَر الله تعالى بقتال الكفار وردّ عدوانهم، وخاصة كفار قريش ثم تَوالَى نزولُ الآيات الآمرة بقتال كل الكفار على حسب المراحل التي سبق ذكرها في بداية الدعوة، وانظر بعض ذلك في كتاب الجهاد أيضاً.

* * *

❊ المغازي وعدد غزوات النبيّ ﷺ

[١٧٢] عن أبي إسحاق السَّبِيعي رحمه الله تعالى قال: قلت لزيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه: كم غزا رسولُ الله ﷺ قال: تِسْعَ عَشْرَة، فقلت: كم غزوتُ أنت معه؟ قال: سبعَ عشرةَ، قال: فقلت: فما أولُ غزوة غزاها؟ قال: العُشَيْرُ أو العُسَيْرَةُ قال: فذكر ذلك لقتادة، فقال: العُشَيْرَةُ، وفي رواية: وسبقني بغَزَاتَيْنِ.

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٨٢، ٢٨٣) وانظر رقم (٤٤٧١)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/١٩٥).

الغَزوات جمع غزوة، وأصل الغزو هو القصد، والمراد بها هنا ما وقع من قصد النبيّ ﷺ الكفار بنفسه أو بجيش من قِبَلِه سواءٌ كان إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلّوها، وفرّق علماء السيرة بين الغزوة والسَّرِيَّة، فالأُولى ما خرج فيها النبيّ ﷺ بنفسه، والثانية ما بعثه من الجيش مُؤمّراً عليهم رجلاً منهم.

واختلف أهل المغازي في عدد غزواته ﷺ وسراياه، فذكر ابن سعد وغيره عددهن مُفَصّلاتٍ على تَرْتيبِهِنّ فبلغت سبعاً وعشرين غزاةً، وستّاً وخمسين سرية، وقاتل في تسع من غزواته وهي: بدر، وأُحُد، والمُرَيْسِعُ، والخندق، وقريظة، وخيبر، والفتح، وحُنَيْن، والطائف... جاء ذلك في حديث لبريدة في صحيح مسلم والبخاري، غير أنه قال: قاتل في ثمان

منهنّ، وما ذكروه من عدد غزواته يخالف ما في الصحيحين الذي ذكرناه من أنها تسع عشرة، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ أول غزواته ﷺ

قال البخاري في صحيحه (٨/٢٨١) قال ابن إسحاق: أول ما غزا النبيّ ﷺ الأَبْوَاء، ثم بُواطَ، ثم العُشَيْرَة.

* * *

❋ غزوة الأبـواء

الأبواء: قرية بين مكّة والمدينة وهي إلى الجحفة أقرب، وهي وَدَّانُ بفتح الواو وتشديد الدال، فهذه هي أول غزوة غزاها، وكانت في صفر آخر السنة الأولى للهجرة، خرج يريد عيراً لقريش فوادع بني ضمرة ورجع بغير قتال.

* * *

❋ سرية حمزة

وذكر موسى بن عقبة والواقدي وغيرهما أن النبيّ ﷺ بعث سرية مكوّنة من ثلاثين رجلاً قبل غزوة الأبواء، وأمّر عليهم عمّه حمزة رضي الله تعالى عنه لِيَعْتَرِضُوا عِيراً لقريش، وكان أوّل من عُقِدَ له رايةٌ في الإسلام، فخرجوا في شهر رمضان من السنة الأُولى، فلقوا أبا جهل في جمعٍ كثير، فحجز بينهم مُجْدِي ولم يلقوا قتالاً.

* * *

❊ أحداث السنة الأُولى

[١٧٣] وهي مجيء عبدالله بن سلام إلى النبيّ ﷺ، بناء المسجد النبويّ الشريف، فرضية الصلاة الحضرية أربعاً، إسلام سلمان الفارسي، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مبايعة النبيّ ﷺ نساء الأنصار، مرض الصحابة بالمدينة، أوّل مولود وُلد في الإسلام في المدينة، بناء النبيّ ﷺ بعائشة رضي الله تعالى عنها، بدء الأذان، مناوأة اليهود والمنافقين للنبيّ ﷺ، نزول الإذْن من الله بالقتال، المغازي وعدد غزوات النبيّ ﷺ، أوّل غزواته، غزوة الأبواء، سرية حمزة.

❊ ❊ ❊

❊ السنة الثانية
غزوة بواط

[١٧٤] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سِرْنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بُواط، وهو يطلب المَجْدِي بن عمرو الجُهني، وكان الناضح يعقبه منّا الخمسة والستّة والسبعة، فدار عُقبةُ رجُلٍ من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه، فتَلَدَّنَ عليه بعض التَّلَدّي، فقال له: شأ لعنك الله، فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا اللاعنُ بعيرَه»**، فقال: أنا يا رسول الله، فقال: **«انزل عنه فلا تصحبنا بملعون»** الحديث يأتي في الأدب بقيّته.

رواه مسلم في الزهد والرقائق رقم (٣٠٠٩).

«بطن بواط» بضم الواو وهو جبل من جبال جهينة من ناحية رَضْوَى. «والناضح» البعير الذي يُسْتَقَى عليه. «يعقبه» أي: يركبه. «فتَلَدَّنَ» التلدّن التَّلَكُّأ والتوقّف. «شأ» هي كلمة زجر للبعير.

والحديث نصّ في أن النبيّ ﷺ أتى بواطاً يريد المَجْدِي بن عَمرو

الجهني. وقال ابن إسحاق: ثم غزا رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى أتى بُواطاً من ناحية رَضْوى ورجع ولم يلقَ أحداً، ورضوى بفتح الراء وسكون الضاد مقصوراً: هو جبل مشهور بينبع.

* * *

غزوة العُشَيْرَة (٢)

وأما العُشَيْرَةُ فمصغر آخرها هاء. قال ابن إسحاق: هي بطن بينبع، وخرج إليها ﷺ في جمادى الأولى يريد قريشاً أيضاً، فوادع فيها بني مُدْلِج من كنانة. قال الواقدي وغيره: إن هذه السفرات الثلاث كان يخرج فيها ليلقى تجار قريش حين يمرّون إلى الشام ذهاباً وإياباً.

هذا بيان ما ذكره البخاري نقلاً عن ابن إسحاق في هذه الغزوات، وبناءً على ذلك فقول ابن أرقم فيما سبق من أن أول الغزوات: العشيرة يعني بذلك ما حضرها معه، ولذلك قال: وسبقني بغزاتين، ويعني بهما الأبواء وبواطاً والله تعالى أعلم.

* * *

غزوة بدر الأُولى

وذكر علماء السيرة هنا غزوة بدر الأُولى، فقال ابن إسحاق: ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، يعني من غزوة العشيرة لم يُقِمْ إلا ليالي حتى أغار كرز بن جابر الفِهْرِي على سَرْحِ المدينة، فخرج النبيّ ﷺ في طلبه حتى بلغ سفران ـ بفتح السين والفاء ـ من ناحية بدر ففاته كرز. والمراد بسرح المدينة أي: الإبل والمواشي الي تسرح للرّعي بالغداة.

* * *

[١٧٥] عن جندُب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ أنه بعث رَهْطاً وبعث عليهم أبا عبيدة، فلما ذهب لينطلق بكى صَبابَةً إلى رسول الله ﷺ، فجلس فبعث عليهم عبدالله بن جحش مكانه وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: «**لا تُكْرِهَنَّ أحداً من أصحابك على المَسِيرِ معك**»، فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخبَّرهم الخبرَ وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحَضْرَمِيّ فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

رواه ابن جرير (٣٤٩/٢، ٣٥٠)، وأبو يعلى (١٥٣٤)، والبيهقي في السنن (١١/٩، ١٢)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٩٨/٦) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

قال علماء السيرة: إن النبيّ ﷺ كان بعث هذه السرية بإمارة عبدالله بن جحش إلى نخلة بين مكّة والطائف، وكانوا ثمانية أشخاص من المهاجرين يتجسسون أخبار قريش، فلما وصلوا إلى نخلة مرّت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي مع ثلاثة آخرين، فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا رجلين منهم، وأخذوا ما كان معهم من التجارة غنيمة، وكان ذلك آخر يوم من رجب، ولم يدروا ذلك، فلما قدموا على النبيّ ﷺ عاتبهم على القتال وشهّر الكفارُ واليهودُ بهم وأشاعوا بأنهم قتلوا وأسروا وأخذوا الأموال في الشهر الحرام، فلما أكثروا من ذلك أنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾،

فأخبرهم تعالى بأن القتال في الشهر الحرام هو شيء كبير، لكن الكفار فعلوا ما هو أعظم من ذلك وهو صدّ الناس عن دين الله مع الكفر به تعالى وبالمسجد الحرام وإخراج أهله من المؤمنين منه، فذلكم أعظم جُرْماً وأكْبَرُ ذنباً من مجرد القتل، إلى آخر ما ذكروا.

ولم يكن من هديه ﷺ البداءة بالقتال في الشهر الحرام، إلا أن يبدأه الكفار فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية.

[١٧٦] وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَغْزُو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى ويَغْزُوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ.

رواه أحمد (٣/٣٣٤، ٣٤٥) بسندٍ صحيح، فهذا كان هديه ﷺ عملاً بالآية الكريمة، ولقوله فيها: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

* * *

❋ تحويل القبلة

[١٧٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان أوّل ما قدِم المدينةَ نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى قِبَلَ بيتِ المقدس ستّةَ عشرَ أو سبعةَ عشر شهراً، وكان ﷺ يحبّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فتوجّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فصلّى مع النبيّ ﷺ رجلٌ ثم خرج بعدما صلّى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر يصلّون نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلّى مع النبيّ ﷺ وأنه توجّه نحو الكعبة، فتحرَّفَ القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة.

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير وفي مواضع، ومسلم في

المساجد والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وقد تقدم مع أحاديث أخرى في الصلاة من الجزء الأول رقم (٥٨٧)، وفي التفسير من البقرة، وانظر الكلام على الحديث وفقهه في المصدرين المذكورين.

وكان هذا أول نسخ وقع في الإسلام بالإجماع، وللنسخ مصالح وفوائد، وهو من أسرار التشريع الإلٰهيّ، فلا دخل للعقل فيه، وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، لكن اليهود ومن لَفَّ لفَّهم ينكرونه بعقولهم السخيفة القَذِرة.

* * *

❁ فرضية صوم رمضان

[١٧٨] عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان يومُ عاشوراء يوماً تَصُومُه قريشٌ في الجاهلية، وكان رسولُ الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة صامَه وأمر الناس بصيامه، فلما فُرِض رمضان كان هو الفريضة، وتُرِك يومُ عاشوراء، فمن شاء صامَه ومن شاءَ تركه.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهما وتقدم في الصيام من الجزء الثاني رقم (١٢٨٥).

[١٧٩] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: أُحِيلَتْ الصلاةُ ثلاثة أحوال، وأُحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأمّا أحوال الصلاة، فإن النبيّ ﷺ قدم المدينة وهو يصلّي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس فذكر الحديث، فقال: وأما أحوال الصيام، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فصام سبعة عشر شهراً من ربيع الأول إلى رمضان من كل شهر ثلاثة أيام، وصيام يوم عاشوراء، ثم إن الله عزّ وجلّ فرض عليه الصيام، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، الحديث.

رواه أحمد (١٤٦/٥، ١٤٧)، وأبو داود (٥٠٨)، والبيهقي (٣٩١/١، ٤٢٠) وسنده صحيح غير أنهم قالوا: إن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ،

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٢٥٠) وسنده صحيح، وابن إسحاق صرّح بالتحديث.

«عير قريش» العير - بكسر العين - عبارة عن الإبل التي تحمل التجارة. قوله: «ينفّلكموها» أي يُعْطِيكُمُوهَا غنيمة لكم. وقوله: «فانتدبَ الناسُ» أي: أجابوه لما دعاهم وندبهم إليه.

هذا يدلّ على أن خروج النبيّ ﷺ لم يكن بقصد القتال والحرب، وإنما خرج ليعترض قافلة أبي سفيان الذي كان قد رجع من الشام بتجارة عظيمة شارك فيها كلُّ أهلِ مكّة، وكان يريد بصنيعه هذا تضعيفَ اقتصادِ كفار قريش، وتَعْوِيض أصحابه عن أموالهم ومُمْتَلكاتهم التي خلّفوها بمكّة المكرمة واستولى المشركون عليها.

وهو يدلّ أيضاً على أن ممتلكات الكفار الحربيّين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدّت إليه أيديهم منها وما وقع تحت أيديهم من ذلك اعتبر ملكاً لهم، وهذا متفق عليه بين فقهاء الإسلام وأهل العلم.

* * *

❋ مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في المدينة قبل الخروج

[١٨٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلّم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نَضْرِب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ فانطلقوا حتى نزلوا بدراً.

رواه أحمد (٣/١٨٨، ج ٤/٢٢٨، ج ٦/٢٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/١٢٤) مطولاً، ويأتي بقيته رقم (١٩٢).

قوله: «نُخِيضُها» يعني بذلك الخيل. و«برك الغماد» تقدم أنه موضع لجهة اليمن.

وفي الحديث مشروعية استشارة الخليفة أو نائبه أهل الحلّ والعقد من العلماء وأهل الرأي... وهذه كانت سيرة النبيّ ﷺ مع أصحابه، وقد تقدم في التفسير أمثلة من ذلك انظر قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. قال العلماء: إنما قصد النبيّ ﷺ اختبار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدوّ، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده، فلما عرض الخروج لعِير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك، فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامّة في هذه المرّة وغيرها.

* * *

❁ عدد أصحاب بدر وقلّة مراكبهم

[١٨٤] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما، قال: كنّا أصحاب محمد ﷺ نَتَحَدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يُجاوزْ معه إلا مؤمنٌ بِضْعَةَ عشرَ وثلاثمائة.

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٩٣، ٢٩٤)، وابن جرير (٢/٦٢١)، والترمذي في السير (١٥٩٨).

في الحديث بيان عدد ما كان من المسلمين في غزوة بدر، وأنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر كما يأتي في حديث ابن عباس، أو خمسة عشر كما جاء في رواية لعبد الله بن عمرو عند أبي داود (٢٧٤٧)، والحاكم (٢/١٤٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي أو ثلاثمائة وسبعة عشر كما في رواية لأبي موسى الأشعري عند البزار قال الهيثمي (٦/٩٣) ورجاله ثقات، ولا منافاة بين هذه الأعداد إذ يمكن الجمع بينها أو ترجيح ما في الصحيح.

وعلى أيٍّ، فهذا العدد بالنسبة لكثرة الكفار وكان عددهم يتراوح ما

بين ألف وتسعمائة شيء قليل، لكن الله عزّ وجلّ نصرهم عليهم وأيّدهم بمدد من عنده، وقد قال تعالى في قصة طالوت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

[١٨٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى قال: كنّا يومَ بدر كُلّ ثلاثةٍ على بعير، كان أبو لُبابَةَ وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما زميلَيْ رسول الله ﷺ قال: وكانت عُقْبَةُ رسول الله ﷺ، قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «**ما أنتما بأقوَى مِني ولا أنا بأغْنَى عنِ الأَجْرِ مِنكُمَا**».

رواه أحمد (٤١١/١)، وابن حبان (١٦٨٨) بالموارد، والحاكم (٢٠/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٦٩/٦) لأحمد والبزار، وقال: فيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وعاصم هذا هو المقرىء المشهور شيخ حفص رحمهما الله تعالى وإيانا آمين.

[١٨٦] وعن الإمام عليّ كرّم الله وجهه قال: لقد أتينا ليلة بدر وما فينا إلا نائم إلا النبيّ ﷺ، فإنه كان يصلّي إلى شجرة ويدعو، وما كان فينا فارس إلا المقداد.

رواه الطيالسي (٢٣٤٢)، وأحمد (١٢٥/١، ١٠٢٣)، وأبو يعلى (٢٧٥)، والنسائي في الكبرى (٧٣٤) بسند صحيح. وفي رواية: ما كان معنا إلا فرسان، فرسٌ للزبير، وفرس للمِقْداد - يعني يوم بدر - رواه الحاكم (٢٠/٣) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

«زَمِيلَيْ رسول الله» أي: كان لهم بعير يتعاقبه ثلاثتهم. وقوله: «وكانت عُقْبَةُ رسول الله... فقالا: نحن نمشي عنك» يعنيان يظلّ راكباً ولا ينزل فامتنع من ذلك. قوله: «وما كان فينا فارس» أي صاحب فرس.

وفي الحديثين بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه يوم بدر من ضعف مادي في العدة والعدد، فرغم ما كانوا عليه من قلّة العدد لم يكن معهم من المراكب إلا سبعون جملاً يتعاقبونها وفرس واحد، كما في حديث عليّ هذا، أو فرسان كما في رواية الحاكم، وهي زيادة صحيحة، بينما كان

المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً أو ألف رجل مُدَجَّجِين بالأسْلِحَة ومعهم مائةُ فرس وسبعُمِائة بعير، ورغم ذلك لم تُغنهم شيئاً لمّا جاء نصر الله ومدده كما يأتي مفصّلاً.

* * *

❋ ردّه ﷺ عن الخروج من لم يحتلم

[١٨٧] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: اسْتُصْغِرْتُ أنا وابنُ عُمر يوم بدر، وكان المهاجرون يومَ بدر نَيِّفاً على ستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين.

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٩٢، ٢٩٣).

«النيف» بفتح النون وكسر الياء المشدّدة هو ما بين العقدين.

[١٨٨] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ نظر إلى عُمَيْر بن أبي وقاص فاسْتَصْغَرَهُ حين خرج إلى بدر، ثم أجازه. قال سعد: فيقال إنه خانه سيفه. قال عبدالله بن جعفر: قُتل يوم بدر...

رواه البزار (١٧٧٠) مع الكشف، قال الهيثمي في المجمع (٦/٦٩) ورجاله ثقات.

كان من عادة النبيّ ﷺ ردّ صغار الأطفال عن الخروج للجهاد لضعفهم عن مقاومة الرجال والأبطال، وقد رد في بدر البراء وابن عمر وعُمَيْر بن أبي وقاص، ثم قبل الثالث وأذن له في الخروج، كما ردّ ابن عمر أيضاً في غزوة أحد، ولكنه قبل خروجه معه في الخندق كما يأتي إن شاء الله تعالى، وهذا من كمال سياسة النبيّ ﷺ وشفقته على الصغار الضعاف.

* * *

❁ عدم استعانته ﷺ بالمشرك

[١٨٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلمّا كان بِحَرّة الوَبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جُرأةٌ ونَجْدةٌ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «**تؤمن بالله ورسوله**»، قال: لا، قال: «**فارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قالت: ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرّة، فقال له النبيّ ﷺ كما قال أول مرة، قال: «**فارجع فلن أستعين بمشرك**»، قال: ثم رجع فأدركه بالبَيْداء، فقال له كما قال أوّل مرة: «**تؤمن بالله ورسوله**»، قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «**فانطلق**».

رواه أحمد (٦/٦٧، ٤٩)، ومسلم في الجهاد والسِّير (١٢/١٩٨، ١٩٩)، وأبو داود (٢٧٣٢)، والترمذي في السِّيَر (١٥٥٨).

ظاهر الحديث أنه لا تجوز الاستعانة بالمشرك على المشرك، وأحرى غيره، وبذلك قال جمع من العلماء وأجاز ذلك آخرون للحاجة لحديث استعانته بصفوان بن أمية قبل إسلامه كما يأتي في موضعه، وهذا الخلاف في الاستعانة بالمشرك على المشرك. أما الاستعانة بالمشرك على المسلم، فهذا لا يجوز بالإجماع. وقد جهل المسلمون هذا أو تجاهلوه ورفضوا العمل بمقتضاه، فقاتلوا إخوانهم المسلمين واستعانوا عليهم بالكفار أعداء الله ورسوله ﷺ، والأمثلة على هذا كثيرة في القديم والحديث.

* * *

❁ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإنذار ضمضم لقريش

[١٩٠] قال ابن إسحاق: وحدّثني يَزِيدُ بن رُومَان عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: وقد رأت عاتكةُ بنتُ عبد المطلب رضي الله

تعالى عنها قبل قدوم ضمضم الغفاري مكّة بثلاث ليال رؤيا أفزَعَتْها، فبعثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرٌ ومصيبةٌ فاكْتُمْ عنّي ما أُحَدِّثُكَ به، فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ له، حتى وقف بالأبْطَح، ثم صَرَخَ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا لغُدَر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قُبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكّة، ولا دار إلا دخلتْها منها فلقةٌ. قال العباس: والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشى الحديث بمكّة حتى تحدّثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبيَّةُ؟ قال: قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرُّؤيا التي رأت عاتكة، قال: فقلتُ: وما رأتْ؟ قال: يا بني عبد المطلب أمَا رَضِيتُم أن يَتَنَبَّأَ رجالُكم حتى تَتَنَبَّأَ نِساؤُكم قد زعمتْ عاتكةُ في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربّص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ حقّاً ما تقول فسيكون، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب. قال العباس: فوالله ما كان مني إليه لكبير، إلا أني جحدت ذلك وأنكرتُ أن تكون رأتْ شيئاً، قال: ثم تفرّقنا.

فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت

رواه أحمد (١/٤٠٠)، والبخاري في المغازي باب ذكر النبيّ ﷺ من يُقتل ببدر (٨/٢٨٤، ٢٨٧).

في هذا الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بقتل أُمية بن خلف، فكان كما قال، وفيه أن أمية لم يُكَذِّبْ ما حدّثه به سعد لتيقّنه صدق النبيّ ﷺ، ولذلك قال كما في رواية: فوالله ما يَكْذِبُ محمد إذا حَدَّثَ، ولتيقّنه بوقوع ذلك فزع فزعاً شديداً. وفيه أن الحذر لا يُغني من القدر، فما قدّره الله عزّ وجلّ لا بدّ وأن يقع، وستأتي صفة قتل أُميّة ومن قتله بإذن الله تعالى.

* * *

كم كان عدد المشركين في بدر وبيان بعض من خرج من صناديدهم

[١٩٢] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتْبَة وشَيْبَةُ وأُمَيَّةُ بنُ خَلَف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم هذا أبو سفيان، فإن تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشَيْبة وأُميّة بن خلف في أُناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلّي، فلما رأى ذلك انصرف وقال: «**والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدَقكم وتتركوه إذا كذَبكم**».

أخرجه أحمد (٣/١٨٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/١٢٤)، وتقدم طرق المشاورة رقم (١٨٣).

قوله: «روايا» يعني الإبل التي يستقى عليها.

في الحديث جواز ضرب الرقيق الكافر المحارب للاستعلام. ولا

يجوز ذلك بالنسبة للمسلم لأن دمه وماله وعرضه كلّها حرام، وفيه اعتراف ذلك الغلام بأن في جيش المشركين بعض أساطين الكفر وصناديده جاءت بهم منيتهم لقليب بدر.

[١٩٣] وعن سيّدنا علي رضي الله تعالى عنه أنّه قال: لما قدمنا المدينة أصَبْنَا من ثِمارِها فاجْتَوَيْنَاها، فأصابنا فيها وعَكٌ، فكان النبيّ ﷺ يَتَخَبَّرُ عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله ﷺ إلى بدر، وبدر بِئْرٌ، فسبقَنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم رجل من قريش، ومولى لعقبة بن أبي مُعَيْط، فأما القرشي فانْفَلَتَ، وأمّا مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القومُ؟ فيقول: هم والله كثيرٌ عدَدُهم، شديدٌ بأسُهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: **«كم القوم؟»** فقال: هم والله كثيرٌ عددُهم، شديدٌ بأسهم، فجهد رسول الله ﷺ أن يخبره فأبَى، ثم إن النبيّ ﷺ سأله كم يَنْحَرُون من الجُزُر؟ قال: عشر لكل يوم، فقال رسول الله ﷺ: **«القوم ألف، كل جزور لمائة ونيفها»**.

رواه أحمد (١١٧/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٥) بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع (٧٦/٦) لأحمد والبزار وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة.

في الحديث بيان عدد جيش المشركين في غزوة بدر وأنهم كانوا ألف مقاتل، وسيأتي في دعائه ﷺ ليلة الغزوة عن سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه قوله: نظر نبيّ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً... وكان النبيّ ﷺ يهتمّ بإطلاعه على عددهم وقد أراهموه الله عزّ وجلّ في منامه قليلاً في رؤيا له، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

وعندما تواجهوا للقتال أراهموه سبحانه كذلك لئلا يَجْبُنَ المسلمون

ويَفْشَلُوا ويَنْهَزِمُوا، ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

* * *

❋ إخبار النبيّ ﷺ بمصارع القوم

[١٩٤] عن أنس رضي الله عنه قال: كنّا مع عمر رضي الله تعالى عنه بين مكّة والمدينة، ثم أنشأ يُحَدِّثُنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرِينا مصارعَ أهل بدر بالأمس، يقول: «**هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله تعالى**»، قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحقّ ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ. وفي رواية: «**هذا مصرع فلان غداً**»، ووضع يده على الأرض، «**وهذا مصرع فلان غداً**» ووضع يده على الأرض، فكان ذلك كذلك، الحديث.

رواه أحمد (٢٦/١)، والبخاري في المغازي (٣٠٢/٨، ٣٠٤)، ومسلم في كتاب الجنّة رقم (٢٨٧٣) وفي الجهاد (١٢٤/٢، ١٢٦)، والنسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين.

«مَصْرَع» أي: موضع صرعه وقتله.

ففي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر أصحابه بمصارع الكفار قبل الوقعة، وكان ذلك كالتثبيت لهم وتبشيرهم بالنصر على عدوّهم.

* * *

❋ استشارته ﷺ الصحابة مرة ثانية

[١٩٥] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: شهدت من المِقْداد بن الأسود مَشْهَداً لأَنْ أكونَ صاحبَه أحبُّ إليّ مما عُدِلَ به، أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ

أَنتَ وَرَبُّكَ﴾، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشْرَقَ وَجْهُه وسَرَّهُ، يعني قوله.

رواه أحمد (٣٩٠، ٣٢٨)، والبخاري في غزوة بدر (٢٨٩/٨، ٢٩٠)، والحاكم (٣٤٩/٣)، فاستدركه وهو في الصحيح.

[١٩٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أتى النبيّ ﷺ الخبرُ عن قريش بمَسِيرِهِمْ ليمنعوا عِيرَهُمْ، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحْسَنَ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحْسَنَ، ثم قام المقداد بن عمر وقال: يا رسول الله امْضِ لما أراكَ الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سِرْتَ بنا إلى بِرْكِ الغِماد لجَالَدْنا معك من دُونِهِ حتى تَبْلُغَه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«أَشِيرُوا عليَّ أيُّها الناس»**، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عددُ الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء مِنْ ذِمامِكَ حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَهُ إلا مِمّن دَهَمَهُ بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ في بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: **«أجل»**، قال: فقد آمَنّا بك وصدّقناك وشهِدْنا أن ما جِئْت به هو الحقُّ، وأعْطَيْنَاكَ على ذلك عُهُودَنا ومواثِيقَنا على السَّمْع والطاعة، فامْضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لَخُضْناهُ معك، ما تَخَلَّفَ منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عَيْنُك، فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك، ثم قال: **«سِيرُوا وأَبْشِرُوا، فإن الله**

تعالى قد وعَدَني إحدَى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٥٨/٢) بسند صحيح، وكذا رواه الطبراني كما في المجمع (٧٣/٦)، والبيهقي في الدلائل (٣٢/٣) وله شواهد في الصحيح وغيره.

لقد أبان الأنصار رضي الله تعالى عنهم عن وفائهم لرسول الله ﷺ وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فسَعِدُوا وفازُوا.

* * *

رسول الله ﷺ يدعو الله عزّ وجلّ ويتضرّع إليه ليلة بدر

[١٩٧] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيّ الله ﷺ القبلة ثم مدّ يدَيْهِ، فجعل يَهْتِف بربّه: «**اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتني، اللّهمّ آتِ ما وعدتني، اللّهمّ إنْ تَهْلِك هذه العصابةُ من أهلِ الإسلام لا تُعْبَدُ في الأرض**»، فما زال يهتف بربّه ماداً يديه مستقبلَ القبلة حتى سَقط رِداؤُه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه على منكبيه ثم التزمه مِن ورائِه، وقال: يا نبيّ الله كفاك مُناشَدَتُك ربّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾، فأمدّه الله بالملائكة.

رواه أحمد (٣٠/١، ٣١)، والبخاري في المغازي (٢٩٠/٨، ٢٩١)، ومسلم في الجهاد والسِّير (٨٤/١٢، ٨٥)، والترمذي في التفسير (٢٨٨١) وغيرهم.

«يهتف» أي: يصيح. «ومناشدتك» أي: سؤالك. و«العصابة» الجماعة. و«الاستغاثة» طلب الغوث.

[١٩٨] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ ﷺ

في قُبَّتِهِ يوم بدر: «اللّهمّ إني أنشدُك عهدك ووعدك، اللّهمّ إن شِئْتَ لم تُعْبَد»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج وهو يقول: «سَيُهْزم الجمعُ ويُولُّون الدُّبُر».

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٩٠، ٢٩١)، وكذا أحمد (١/٣٢٩).

[١٩٩] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر - يعني الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظلّ تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربّه، ويقول: «اللّهمّ إن تهلك هذه الفِئة لا تُعْبد»، قال: فلمّا تَطَلَّعَ الفجرُ نادى: «الصلاة عبادَ الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلّى بنا رسول الله ﷺ وحضّ على القتال.

رواه أحمد وأبو داود وغيرهما بسند صحيح، وانظر ما سبق (١٩٣).

[٢٠٠] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «اللّهمّ إنهم جياع فأشبعهم اللّهم إنهم حُفاةٌ فاحْمِلْهم، اللّهمّ إنهم عُراةٌ فاكسُهم»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما مِنْهُم رجلٌ إلا وقد رجع بجَمَلٍ أو جملين واكتسوا وشبعوا.

رواه أبو داود والحاكم وغيرهما بسند صحيح، وانظر ما سبق (١٨٤).

قوله: الحَجَف - بفتحتين - هي الدرق والأتراس التي يتّقى بها في الحرب. «والطش» نوع من المطر. وفي هذه الأحاديث بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ من الالتجاء إلى الله والاستغاثة به وإلْحَاحِهِ في الدعاء للإسلام والمسلمين، فرغم أنه كان متيقّناً جازماً بأن الله ناصره، وأن جَمْعَ الكفار سَيُهْزَمُ، بات ليلَهُ يدعو لأن ذلك هو مقتضى العبودية لله عزّ وجلّ. وفي حديث عمر دليل على أن الله عزّ وجلّ وعدهم بالإمداد بملائكته كما نطقت بذلك الآية الكريمة، وسيأتي ذلك عندما نورد الأحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين في القتال.

وحديث الإمام عليّ كرّم الله وجهه يدلّ على ما أنعم الله تعالى به على المسلمين ليلة الوقعة من إنزال المطر تثبيتاً لأقدامهم في تلك الرمال وتطهيراً لهم مع إلقاء النوم عليهم أمنةً لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ الآية، كل ذلك وقع لهم لطفاً بهم ورحمة من الله عزّ وجلّ.

* * *

❁ بداية المعركة والأمر في البداية بالرمي

[٢٠١] عن أبي أُسَيْدٍ الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «**إذا أَكْثَبُوكُمْ فارْمُوهُم واسْتَبْقُوا نَبْلَكم**».

وفي رواية: «**إذا أَكْثَبُوكُمْ فارْمُوهم بالنَّبْل، ولا تَسُلُّوا السُّيُوفَ حتى يَغْشَوكُمْ**».

رواه أحمد (٤٩٨/٣)، والبخاري في المغازي (٣٠٨/٨) بالرواية الأُولى، وأبو داود بالرواية الثانية.

«أكثبوكم» أي: قربوا منكم وغشوكم. والحديث غير واضح، ففي معناه إشكال، فانظر فتح الباري (٣٠٨/٨).

* * *

❁ المبارزة

[٢٠٢] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: أنا أول من يَجْثُو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة. قال قيس بن عبادة: وفيهم أُنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة، وعلي، وعُبَيْدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

رواه البخاري في المغازي (٢٩٨/٨) وغيره، وقد تقدم في التفسير.

والمراد بالخصمين أي: الفريقين: فريق أهل الإيمان وفريق أهل الكفر، وخصامهم هو معاداة كل فريق منهما للآخر، وقيّدوا هذه الأوّلية بالمجاهدين لأن المبارزة المذكورة هي أول مبارزة وقعت في الإسلام.

[٢٠٣] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يُبارز؟ فانتدب له شبابٌ من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمّنا، فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا حمزة، قم يا عَلِيّ، قم يا عبيدة بن الحارث»، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شَيْبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم مِلْنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة.

رواه أحمد (١١٧/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٥) بسند صحيح، ورواه الحاكم (١٨٧/٣، ١٨٨) عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي.

خرج من جيش الكفار ثلاثة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة يطلبون من يُبارزهم من صفّ المسلمين، فخرج إليهم بأمر من النبيّ ﷺ ثلاثة أبْطالٍ من المهاجرين: حمزة أسد هذه الأُمّة، والإمام عليّ سيّد الشجعان، والشهيد عبيدة بن الحارث فتبارزوا، فقتل كل من حمزة وعليّ مبارزيهما، وأما عبيدة والوليد فأثخن كل منهما الآخر ثم وثب حمزة وعليّ على الوليد فقتلاه، واحتملا عبيدة ومخّ ساقه يسيل فقال: يا رسول الله ألستُ شهيداً؟ قال: «بلى»، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حيّاً لعلم أنّا أحقُّ بما قال منه، حيث يقول:

ونُسْلِمُه حتى نُصْرعَ حولَه ونَذْهَلُ عن أبْنَائِنا والحَلاَئِلِ

ذكره الحاكم في معرفة الصحابة (١٨٨/٣) في ترجمة عبيدة هذا، وهو ابن الحارث ابن عمّ النبيّ ﷺ، وكانت وفاته من تلك الضربة بالطريق، والنبيّ ﷺ راجع إلى المدينة.

* * *

❋ رمي النبيّ ﷺ كفّاً من الحصى في وجوه الكفار فانهزموا

[٢٠٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «ناوِلْني كفّاً من حَصَى»، فناوله فرمى بها وُجُوهَ القوم فما بقي أحدٌ من القوم إلا امتلأتْ عيناه من الحصباء، فنزلت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

رواه الطبراني، قال النور في المجمع (٨٤/٦): رجاله رجال الصحيح.

[٢٠٥] وعن حكيم بن حِزام رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفّاً من الحصى، فاستقبلنا به ورمى بها، وقال: «شاهَتْ الوجوهُ»، فانهزمنا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال الهيثمي (٨٤/٦): رواه الطبراني وسنده حسن.

«شاهت الوجوه» أي قَبُحَتْ.

في الحديثين معجزتان للنبيّ ﷺ، الأُولى: إيصالُ الحصى إلى وجوه جميع الكفار وامتلاء أعينهم بالحصباء. ثانيهما: انهزامهم بسبب ذلك.

وفي الآية الكريمة دليل على أن أفعال العباد كلّها مخلوقة لله وليس لهم منها إلاّ الكسب.

* * *

❋ مشاهد وأحداث من وقعة بدر: صنيع عمير بن الحُمام وقتاله

[٢٠٦] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال

رسول الله ﷺ: «لا يَقْدَمَنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دُونَهُ»، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنّة عرضُها السمٰواتُ والأرضُ». قال: يقول عُمَيْر بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنّةٌ عَرْضُها السمٰواتُ والأرضُ؟ قال: «نَعم»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ»؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكونَ من أهلها، قال: «فإنك من أهلِها»، فأخرج تَمَراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنّ ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل.

رواه أحمد (١٣٦/٣، ١٣٧)، ومسلم في الإمارة (٤٥/١٣)، وكذا ابن سعد (٢٥/٢)، والحاكم (٤٢٦/٣)، والبيهقي في الكبرى (٤٣/٩).

قوله: «بخ بخ» تقدم معناها غير ما مرة، وهي تُطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

ففي الحديث الترغيب في الجهاد، وأنه يوجب دخول الجنّة، وفيه فضل ذلك الصحابي عُمَيْر بن الحمام، وأن الله عزّ وجلّ صدق ما وعده به النبيّ ﷺ من أنه من أهل الجنّة، وفيه الترغيب في المبادرة إلى فعل ما يُوجب الجنّة، كما فيه الإقدام إلى القتال بنيّة عدم الرجوع كما يفعله منفّذو العمليات المسلمون اليوم. وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: فيه جواز الانغمار في الكفار والتعرّض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء.

* * *

❁ الزُّبَيْرُ بن العوام وعُبَيْدةُ بن سعيد

[٢٠٧] عن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: لقيت يوم بدر عُبَيْدة بن سعيد بن العاص، وهو مُدَجَّجٌ لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يُكْنَى أبا ذاتِ الكَرْشِ، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنتُه في عينه فمات، قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رِجْليَّ عليه ثم

تَمَطَّأْتُ فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إيَّاها رسولُ الله ﷺ فأعطاه. الحديث.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣١٦).

«مدجَّجٌ» أي: مغطّى بالسلاح لا يظهر منه شيء. فيه شجاعة الزبير وقوّته رضي الله تعالى عنه، وله مواقف في الحروب معروفة.

* * *

❋ استشهاد حارثة بن سراقة

[٢٠٨] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمّه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنّة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع؟ فقال: «**ويحك أوَ هَبِلْتِ؟ أوَ جَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جِنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنّة الفردوس**».

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٠٦).

قوله: «هَبِلْتِ» بضم الهاء وتُفتح بمعنى ثَكِلتِ.

وفي الحديث فضل حارثة هذا، وأنه في جنّة الفردوس وما أعظمها من بشارة، ولأُمّه أيضاً أجرٌ عظيم لصبرها واحتسابها الثواب من الله لفقدها ولدها وهو في بداية شبابه، وأمّه هي الرُبَيِّع - بضم الراء المشدّدة وفتح الباء ثم ياء مكسورة مشددة - بنت النضر عمّة أنس بن مالك.

* * *

❋ شجاعة رسول الله ﷺ يوم بدر

[٢٠٩] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نَلُوذُ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بَأساً.

رواه أحمد (٨٦/١) بسند صحيح وسيأتي حديث البراء في غزوة حنين الذي رواه مسلم في هذا المعنى.

وقوله: «نلوذ» أي: نلتجىء وننضمّ إليه. وقوله: «بأساً»: أي شجاعة وقوّة. شجاعة النبيّ ﷺ ونجدته وعدم مبالاته بالأعداء كل ذلك مشهور عنه مِنْ سيرته ﷺ وسيمرّ علينا من ذلك الكثير في مواطن عديدة.

* * *

❁ قتال سعد بن أبي وقاص

[٣١٠] عن ابْنِ مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان سعد يُقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قِتال الفارس والرَّاجِلِ.

رواه البزار من طريقين أحدهما متّصل والآخر مرسل. قال الهيثمي (٨٢/٦): ورجالهما ثقات. سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه من السابقين وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وكان أول من رمى وأراق الدم في سبيل الله وهو لا يزال بمكّة وله مواقف يُشكَر عليها منها هذا المشهد في بَدْرٍ، وأنه كان يُقاتل قتال صاحب الخيل والراجل معاً.

* * *

❁ استفتاح أبي جهل يوم بدر ثم مصرعه

[٣١١] عن عبدالله بن ثعلبة بن صُعَيْر رضي الله تعالى عنه قال: كان المُسْتَفْتِحُ يوم بدر أبو جهل، وأنه قال حين التقى القوم: اللّهمّ أيُّنا كان أقطعَ للرحم وآتى لما لا نَعْرِف فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۖ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

رواه أحمد (٤٣١/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٥٠/٦)، والحاكم وصححه وتقدم في التفسير.

من أعماه الله وأضلّه رأى الشرّ خيراً، والهلاك نجاة، والشقاوة سعادة، فهذا الخاسر اللّعين مع إغراقه في الضلال والطغيان وإمامته في الشرك والوثنية كان قد زيّن له الشيطان أعماله وصدّه عن السبيل، فطلب من الله عزّ وجلّ أن يفتح عليه وعلى إخوانه بالنصر في بدر، فانقلبت دعوته عليه، ففتح على المؤمنين وقضي لهم بالنصر والظفر، وهزم المشركون وفتح لهم بالقتل والأسر والذلّ والخزي؛ فقوله تعالى: ﴿إن تَسْتَفْتِحُوا﴾ إلخ، أي: إن تطلبوا الفتح والنصر لأحد الحزبين وهما حزب الله وحزب الشيطان، فقد جاءكم الفتح والنصر.

[٣١٢] وعن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا واقف في الصفّ يوم بدر نظرتُ عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حَديثةٍ أسنانُهما، تمنّيتُ لو كنت بين أضلُع منهما، فغَمَزَنِي أحدُهما فقال: يا عَمّ هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتُك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرتُ أنه يَسبُّ رسولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيتُه لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجلُ منّا، قال: فتعجّبتُ لذلك، فغمزني الآخر فقال مثلَها. قال: فلم أنشَبْ أن نظرتُ إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تَرَياه؟ هذا صاحبُكُما الذي تَسْألانِ عنه، قال: فابْتَدَراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: **«أيُّكما قتله»؟** فقال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه، فقال: **«هل مسحتُما سَيفَيكُما؟»** قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: **«كلاكما قتله»**، وقضى بِسَلَبِهِ لمعاذ بن عَمْرو بن الجَمُوح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣١٠)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٦١، ٦٢)، وكذا ذكره الحاكم (٣/٤٢٥).

قوله: «سوادي سواده» أي شخصي شخصه. «حتى يموت الأعجل» أي: لا أفارقه حتى يموت أحدنا وهو الأقرب أجلاً. «لم أنشب» أي لم ألبث. «يزول في الناس» أي يتحرك ويضطرب ولا يستقرّ على حاله للهول والخوف الذي حلّ به.

وفي الحديث شجاعة ذينك الغلامين وشهامتهما وغضبهما لله تعالى وشدّة محبّتهما لرسول الله ﷺ، فإنها الحامل لهما على البحث عن ذلك العدوّ وقتله، ولذلك لما أخبرهما عبدالرحمٰن بن عوف به ورأياه شدًا عليه مثل الصَّقْرَيْن كما في رواية البخاري.

[٢١٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من ينظر ما صنع أبو جهل**»؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال قتلتموه. وفي رواية: فلو غير أكّار قتلني.

رواه البخاري في المغازي (٨/٢٩٥، ٢٩٦)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٥٩، ١٦٠).

ابنا عفراء هكذا في هذه الرواية وهو من باب التغليب، وإلاّ فعفراء ليست أمّاً لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

وقوله: «حتى برد» أي: صار في حالة من مات. قوله: «وهل فوق رجل قتله قومه» أي: لا عار عليَّ في قتلكم إيّاي. قوله: «فلو غير أكار» الأكار هو الفلاّح، وقال ذلك لأن الغلامين من الأنصار وهم أهل زراعة وفلاحة فلا قيمة لهم.

[٢١٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أيْ عدوّ الله قد أخزاك الله، قال: وبما أخزاني من رجل قتلتموه ومعي سيف لي فجعلت أضربه ولا يحتكّ فيه شيء ومعه سيف له جيّد، فضربت يده فوقع السيف من يده، فأخذته ثم كشفتُ المِغفر عن رأسه، فضربتُ عنقه، ثم أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته، فقال: «**الله الذي لا إله إلا هو**»، قلت: الله الذي لا إله إلا هو قال: فانْطَلِقْ فاسْتَثْبِتْ، فانطلقتُ وأنا أسْعَى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ: «**انطلق**»، فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «**هذا فرعونُ هذه الأُمّة**».

رواه أحمد (٣٨٢٤، ٣٨٥٦، ٤٢٤٦، ٤٢٤٧). والبزار (١/٢٨٨) مع

الكشف، وعزاه الهيثمي (٧٩/٦) للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة، وهو ثقة.

هذه نهاية الجبابرة الطغاة المعتدين، فقد كان أبو جهل لعنه الله تعالى يُدعى سيد أهل مكّة، وكان هلاكه وقتله على يد أضعف الناس غلامان من غلمان الأنصار، وابن مسعود الذي كان أقصر الصحابة فلم يكن يتجاوز طوله متراً أو نحوه، فهؤلاء الثلاثة هم الذين اشتركوا في قتله وأهانه الله وأذلّه وأخزاه على أيديهم، وذلك جزاء الجبارين.

* * *

❋ مصرع أمية بن خلف

[٣١٥] عن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: كاتبت أُميّة بن خَلَف كتاباً بأن يَحْفَظَنِي في صِياغَتِي بمكّة، وأحفَظُه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمٰن قال: لا أعرف الرحمٰن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عَبْدَ عَمْرٍو، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأُحرِزَهُ حين نام الناس فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار، فقال: أُميّة بن خلف، لا نجوتُ إن نجا أُمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فَجَلَّلُوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبدالرحمٰن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه.

رواه البخاري في الوكالة (٢٣٠١) (ج ٣٨٥/٥)، ومسلم (١٧٥٢) وهو عند ابن هشام.

وفي رواية: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإلٰه، فأجَبْتُه فأتَحَدَّثُ معه حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ

بيده قال: ومعي أذراعٌ لي قد استلبْتُها، فأنا أحْمِلُها، فلما رآني قال: يا عَبْدَ عَمْرو فلم أُجِبْه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك، قال: قلت: نعم، هالله، قال: فطَرحتُ الأدْراع من يدي وأخذتُ بيده وبيدِ ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، أمَا لكم حاجة في اللَّبَنِ؟ ثم خرجت أمْشِي بِهِمَا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٢٧٣) وسنده حسن، وقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث.

هذا هو أُمية بن خلف أحد سادات أهل الوادي الذي طالما أذاق بلالاً سوء العذاب على ترك الإسلام، فكان عدوّ الله يخرجه إلى رمضاء مكّة إذا حميت فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ﷺ، فها هو الآن يقتل في صحاري بدر مع ولده بعيداً عن أهله وداره ذليلاً حقيراً مدحوراً قد صدق الله تعالى فيه وعد رسوله ﷺ، وظهرت فيه معجزته الخالدة حيث أخبر بأنه سيقتله، وكان هذا الشقيّ أحد الملأ الذين تعاقدوا باللات والعزى ومناة... أن لو رأوا النبيّ ﷺ لقاموا إليه قومة رجل واحد... فحصبهم النبيّ ﷺ فقتلوا جميعهم ببدر، وكان من السبعة الذين عيّنهم النبيّ ﷺ بالدعاء عليهم. انظر ما سبق في فصل الإيذاء، حديث رقم (٦٠).

* * *

❁ شهود الملائكة غزوة بدر وقتالهم مع المسلمين

[٣١٦] عن رفاعة بن رافع الزُرَقي رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريلُ إلى النبيّ ﷺ فقال: ما **«تَعُدُّون أهل بدر فيكم؟»** قال: مِنْ أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: **«وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»**.

رواه البخاري في غزوة بدر (٨/٣١٤).

[٢١٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخِذٌ برأس فرَسِهِ عليه أداةُ الحَرْبِ**».

رواه البخاري أيضاً (٨/٣١٥).

[٢١٨] وعنه قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يَشْتَدُّ في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: «**أقْدِمْ حَيزُوم**»، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُه وشُقَّ وَجْهُه كضَرْبَةِ السَّوْطِ فاخْضَرَّ ذلك أجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثة**»، ويأتي بقيّته.

رواه مسلم في الجهاد باب الإمداد بالملائكة (١٢/٨٥، ٨٦).

«الخطم» الأثر في الأنف. «أقدم» كلمة زجر للفرس. «وحيزوم» اسم فرس الملك.

[٢١٩] وعن أبي داود المازني رضي الله تعالى عنه قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربَه إذ وقع رأسُه قبل أن يَصِلَ إليه سَيْفي، فعرفتُ أنّه قَتَلَهُ غيري.

رواه أحمد (٥/٤٥٠)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٢/٢٧٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/٥٦) بسندٍ حسن.

[٢٢٠] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: كنت على بئر فكنت يوم بدر أُمِيحُ وأمْتَحُ منه، فجاءت ريح شديدة، ثم جاءت ريح شديدة، فلم أجد ريحاً أشدَّ منها إلا التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الأولى ميكائيل في ألفٍ من الملائكة عن يمين النبيّ ﷺ، والثانية إسرافيل في ألف من الملائكة عن يسار النبيّ ﷺ، والثالثة جبريل في ألفٍ من الملائكة، وكان أبو بكر عن يمينه وكنت عن يساره، فلما هزم الله الكفار حملني رسول الله ﷺ على فرسه، فلما استويتُ عليه حمل بي فصرت على عُنُقِهِ، فدعوتُ الله فثبّتني عليه فطَعَنْتُ برمحي حتى بلغ الدم إبطي.

رواه أبو يعلى (٤٨٥)، قال الهيثمي (٧٧/٦): ورجاله ثقات.

قوله: «أمِيحُ وأمْتَحُ» معناه يجذب الدلو مستقياً لها ثم يُمِيحُها أي يَمْلأُهَا.

جملة هذه الأحاديث تدلّ دلالة قاطعة على أن الله عزّ وجلّ أعان أهل بدر وأيّدهم بالملائكة، وأنّ من شهد بدراً من الملائكة هم من أفضلهم كمن شهدها من الصحابة أيضاً، وكان في طليعة الملائكة سلاطينهم الثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقد أخبر القرآن الكريم بإمداد أهل بدر بالملائكة في موضعين في آل عمران وفي الأنفال، فقد قال تعالى كما تقدم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ [illegible] مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ [illegible] رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن [illegible] هـ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ [illegible] ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ [illegible] عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ [illegible] ﴿١٢٦﴾﴾ الآية

فأمدّهم تعالى أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف ثم [illegible]، وكان ذلك لطفاً من الله ورحمة بهم ليَسْتَبْشِرُوا وتَطْمَئِنَّ قلوبُهم، وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ مفتتحاً بالقسم تذكيراً لهم بما أنعم عليهم في ذلك المشهد مع ضعفهم وقلّتهم عدّةً وعدداً، فلذلك قال لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: فعل ذلك بكم لتشكروه على تلك النعمة العظمى، وأيّ نعمة أعظم من نزول الملائكة من السموات وقتالهم المشركين مع المسلمين، وقد حضر الملائكة مع المسلمين من الصحابة في غير معركة كالأحزاب وحنين وغيرها أيضاً. ومع وضوح الأدلّة على نزول الملائكة وقتالهم بجنب الصحابة نرى بعض العقلانيين ممن تكلّم في السيرة ينفي ذلك، فيخالف القرآن والسنّة وإجماع المسلمين نعوذ بالله من العمة والضلال.

* * *

❊ عدد القتلى والأسارى من المشركين يوم بدر

[٢٢١] عن البراء بن عازب رَضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيّ ﷺ وأصحابُه أصابُوا مِن المشركين يومَ بَدْر أربعينَ ومِائَةً، سَبْعين أسِيراً، وسبعين قتيلاً.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٣٠٣٩) وفي المغازي (٣٩٨٦ ج ٣٠٩/٨) ويأتي مطوّلاً في غزوة أُحد.

هذا هو الصحيح في عدد القتلى والأسرى يوم بدر، وهو ظاهر في قوله تعالى في أهل أُحد: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ الآية، واتّفقوا على أن شهداء أُحد كانوا سبعين، فيكون المسلمون أصابوا من المشركين سبعين في سبعين وهو المراد، وسيأتي تعيين بعض أشخاصهم.

❊ ❊ ❊

❊ قذف القتلى في القليب ووقوف النبيّ ﷺ عليهم ونداؤه إياهم بأسمائهم

[٢٢٢] عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذِفُوا في طَوِيٍّ من أطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رَحْلُها ثم مَشَى واتَّبعه أصحابُه، وقالوا: ما نُرَى يَنْطَلِقُ إلاّ لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **«يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيَسُرُّكم أنكم أطَعْتُم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعَدَنا رَبُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقّاً»**، قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تُكَلِّمُ مِن أجْسادٍ لا أرْواحَ لها؟ فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نَفْسُ مُحمّدٍ بيدِهِ ما أنتم بأسْمَعَ لما أقول منهم»**.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٠٣)، ومسلم في كتاب الجنة (١٧/٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧)، وكذا رواه عن عمر (٢٨٧٣)، وفيه: «غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً».

[٢٢٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال: «يا أبا جهلِ بنَ هِشام، يا أميةَ بن خَلف، يا عتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبةَ بن ربيعة، أليس قد وجَدتم ما وعَدَ ربُكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربّي حقاً»، فسمع عمر قول النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنّى يُجيبوا وقد جَيَّفُوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يَقْدِرُون أن يُجيبُوا»، ثم أمر بهم فسُحِبُوا فأُلقُوا في قَلِيبِ بَدْرٍ.

رواه مسلم (٢٨٧٤) في كتاب الجنة.

قوله: «العرصة» بوزن الضربة هي كل بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء. قوله: «صناديد» جمع صنديد ـ بكسر الصاد ـ وهو السيد الشجاع. قوله: «طَوِيّ» هي البئر التي طويت وبنيت بالحجارة، و«الركيّ» البئر قبل أن تُطوى، و«شفتها» طرفها. وقوله: «جيفوا» أي: صاروا جيفاً منتنة. وقوله: «فسُحِبوا» أي: جرروهم وألقوهم في القليب، وهي الطوي المتقدمة.

في الحديثين عزّ لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وخزي ومقت وإهلاك للمشركين، فقد كان هؤلاء الصناديد بالأمس يجولون ويصولون ويرون أنهم الناس والأبطال والأعزّة، ويلمزون النبيّ ﷺ بالكلمات الجارحة والأقوال البذيئة، ويؤذونه وأصحابه بما شاءوا وطابت لهم به نفوسهم من أنواع الإذايات، فها هم الآن صرعى قد جيفُوا وهَمَدَتْ أجسادُهم وأصبحوا في عذاب أليم لا يُطاقُ يسمعون التَّقْرِيعَ والتَّوْبِيخَ ويتحسَّرون ولا يُجيبون...

والحديثان يدلان على أن الموتى يشعرون ويسمعون كلام الأحياء، ولكنهم لا يقدرون على إجابة الأحياء وإسماعهم... وهذا أمرٌ مقطوعٌ به لا يخالف فيه إلا من لا يعقل، وما ذهبت إليه سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى

عنها في هذا الموضوع خالفت فيه الصواب. وفي حديث أبي طلحة مشروعيّة إقامة جيش المسلمين بعرصة الكفار بعد انهزامهم ثلاثة أيام إظهاراً لعزّتهم وإذلالاً للكفار...

* * *

❋ هزيمة الكفار واختلاف الصحابة في الغنائم

[٢٢٤] عن عُبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ، فشهدتُ معه بدراً، فالتقى الناسُ فهَزمَ الله تبارك وتعالى العَدُوّ، فانطلقتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمُون ويَقْتُلُون، فأَكَبَّت طائفةٌ على المُعَسْكَر يَحْوُونَهُ ويَجْمَعُونَه، وأحْدَقَتْ طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يُصِيب العدوُ منه غِرّةً حتى إذا كان الليل وفاء الناسُ بعضه إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين أحْدَقُوا برسول الله ﷺ: لستم بأحقّ بها منّا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخِفْنا أن يصيب العدوّ منه غرّة واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ على فَواقٍ بين المسلمين.

وفي رواية قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله تعالى من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على فواق، يقول: على السواء.

رواه أحمد (٥/٣٢٢، ٣٢٤)، وابن حبان (١٦٩٣) بالموارد، والحاكم (٢/١٣٥، ١٣٦، ٣٢٦)، والبيهقي في الكبرى (٦/٢٩٢)، وأورده الهيثمي (٧/٩٨ و٦/٩٢) من طريقين، وقال: رجال الطريقين ثقات.

[٢٢٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبيّ ﷺ قال: **«من أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا»**، فأسرع إليه الشُّبَّانُ وثبت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله تعالى لهم جاء الشباب يطلُبون ما جعل

لهم، فقال الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فإنما كنا رِدْءاً لكم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

رواه أبو داود (٢٧٣٧، ٢٧٣٨، ٢٧٣٩) بألفاظ، والنسائي في الكبرى (٣٤٩/٦)، وابن حبان (١٧٤٣) بالموارد، والحاكم (١٣١/٢، ١٣٢، ٢٢١، ٣٢٧)، والبيهقي في الكبرى (٢٩٢/٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٢٢٦] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم بدر جئتُ بسيفٍ فقلت: يا رسول الله ﷺ إن الله قد شَفَى صَدْرِي من المشركين أو نحو هذا، هَبْ لي هذا السيف، فقال: «**هذا ليس لي ولا لك**»، فقلت: عَسَى أن يُعْطَى هذا من لم يُبْلِ بَلاَئي، فجاءني رسول الله ﷺ فقال: «**سألْتَنِي وليس لي، وإنه قد صار لي وهو لك**»، قال: فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية.

رواه أحمد (١٨١/١، ١٨٦)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (٥٣/١٢، ٥٤) وغيرهما، ويأتي مطوّلاً في الفضائل.

الحديثان الأوّلان يدلان على أن آية الأنفال نزلت بسبب اختلاف الشبّان والشيوخ في الغنائم، بينما حديث سعد يدلّ على أنها نزلت بسببه، وكل ذلك كان ببدر، وليس في ذلك ما يستنكر، فإن الجميع أخبر بما شاهد أو حصل له في هذه الغزوة والأسباب قد تتعدّد كما هو معلوم في علوم القرآن.

والآية الكريمة تدلّ على أن أمر الغنائم حكمها لله ولرسوله ﷺ لا حاكمية لأحد فيها، وأن الواجب على المختلفين في ذلك وفي غيرها أن يُسَلِّمُوا الأمر لله ولرسوله ﷺ، وأن يُصْلِحوا ما وقع بينهم من النزاع.

ويدلّ حديث عبادة على أن الشيوخ كانوا يحرسون رسول الله ﷺ من الكفّار، وهو في العريش الذي هيّىء له، وأن الشبان هم الذين تولّوا القتال وهزموا الكفار، فجعلهم الله عزّ وجلّ كلّهم مجاهدين، ولذلك قسم النبيّ ﷺ الغنائم بينهم على السّواء.

وفي هذه الأحاديث بيان طبيعة الإنسان في حبّه للمال سواء الصالح منه أو غيره، فهو من الشهوات التي حُبِّبَتْ إليه؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾.

* * *

❋ الأُسارَى والاختلافُ في شانهم

[٢٢٧] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: فلما أَسَرُوا الأسارى قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا بكر وعليّ وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»** فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّةً على الكفار، فعسَى الله أن يَهْدِيَهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قال: لا والله يا رسول الله ما أرَى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكِّنَّا فنضرب أعناقهم، فتُمَكِّن عليّاً من عَقِيل فيضرب عنقه، وتمكّني من فلان نَسِيباً لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدُها. فهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغدِ جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: **«أبكي للذي عُرِض على أصحابك من أخذِهم الفِداء، لقد عُرِض عليّ عذابُهم أدنَى من هذه الشجرة»** شجرة قريبة من النبيّ ﷺ وأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾، فأحلّ الله تعالى الغنيمة لهم، فلما كان يوم أُحد من العام

المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفرّ أصحاب النبيّ عليه الصّلاة والسلام عنه وكسرت رباعيّته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ بأخذكم الفداء.

رواه أحمد (١/٣٠، ٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/٨٤، ٨٥)، ويأتي أيضاً في غزوة أُحد.

[٢٢٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**لم تحلّ الغنائم لأحد سُودِ الرُّؤُوسِ من قبلِكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكُلُها، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحلَّ لهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾**» الآية.

رواه أحمد والترمذي والنسائي في الكبرى وغيرهم بسند صحيح على شرط مسلم، وتقدم كسابقه في التفسير.

قوله: «حتى يثخن في الأرض» أي: حتى يبالغ في قتل الكفار.

[٢٢٩] والعتاب الذي حصل في الآية عن الأسرى وأخذ الفداء إنما هو عتاب على خلاف الأولى؛ لأن الله عزّ وجلّ قد سبق كتابه بإحلال الغنائم لهذه الأُمّة.

وفي حديث عمر فضيلة ظاهرة له حيث جاء القرآن موافقاً لرأيه في عدم أخذ الفداء من الكفار، وفيه مشروعية مشاورة الخليفة العلماء والصالحين ذوي الرأي في شؤون السياسة، ثم يختار ما ظهر له من الآراء. وفيه دليل على جواز اجتهاد الرسول ﷺ فيمن لم ينزل فيه وحي، وأن الله عزّ وجلّ لا يقرّه على خلاف ما شرعه الله عزّ وجلّ.

وفي الحديثين إحلال الغنائم لهذه الأُمّة دون غيرها، وقد تقدم الكلام على ذلك في الجهاد.

* * *

❁ قدوم زيد بن حارثة المدينة مبشّراً بالنصر

[٢٣٠] عن أُسامَة بن زَيْدٍ رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ النبيّ ﷺ خَلَّفَ عثمان بن عفان وأُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهم على بنتِ رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن حارثة على العَضْباءِ ناقةِ رسول الله ﷺ بالبِشارة، قال أُسامة: فسمعتُ الهَيْعَة، فخرجتُ فإذا زيدٌ قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدَّقتُ حتى رأينا الأسارى، وضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسَهْمِهِ.

رواه الحاكم (٣/٢١٧، ٢١٨)، والبيهقي في السِّير من الكبرى (٩/١٧٤) وفي الدلائل (٣/١٣٠، ١٣١)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

في الحديث مشروعية بعث المبشّرين بانتصار المسلمين على الكفار، وفيه أن النبيّ ﷺ ضرب لعثمان حظّه من غنيمة بدر؛ لأنه تخلّف مُمَرّضاً لزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ التي توفيت ورسول الله ﷺ في الطريق مرجعَه من بدر.

[٢٣١] وعن عبدالرحمٰن بن أسْعَد بن زُرَارة رضي الله تعالى عنهما قال: قدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسَوْدَة بنتُ زَمْعَة زوجُ النبيّ ﷺ عند آل عَفْراء في مَناحَتِهِم على عَوْف ومُعَوِّذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يُضرب الحجابُ، قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذْ أُتِينَا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أُتِيَ بهم، فرجعتُ إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيدَ سُهَيْل بنُ عَمْرو في ناحية الحُجرة ويداه مجموعتان إلى عُنُقِهِ بحَبْل، فوالله ما مَلكتُ حين رأيتُ أبا يزيد كذلك أن قلتُ: أبا يزيد أعطيتُم بأيديكم ألا متم كِراماً. فما انتبهتُ إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «**يا سودة على الله وعلى رسوله؟!**» ﷺ، فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ ما ملكتُ حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عُنُقِهِ بالحبل أن قلتُ ما قلتُ.

رواه الحاكم (٢٢/٣)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٨٦/٢) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قولها: «في مناحتهم»، تعني: كانت عندهم في وقت نياحتهم على قتل ابني عفراء الذين استشهدا ببدر. قوله: «على الله ورسوله» يريد والله أعلم أتقولين له ذلك تحريضاً منك على الله وعلى رسوله ﷺ، وفيما قالته سودة رضي الله تعالى عنها لذلك الأسير شيء عظيم لولا أنها لم تشعر، ولذلك لم يؤاخذها النبيّ ﷺ.

وكان في قدوم هؤلاء الأسارى بشارة ثانية بالنصر وانهزام المشركين.

* * *

❁ فداءُ الأسارى وقَتْل عُقْبة بن ابي مُعَيْط في الطريق إلى المدينة

[٢٣٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: فادى ﷺ أُسارى بدر، وكان فداءُ كل رجل منهم أرْبَعَةَ آلافٍ.

رواه الطبراني في الكبير (١٢١٥٢) والأوسط ورجاله رجال الصحيح، قاله نور الدين في المجمع (٩٠/٦).

[٢٣٣] وعن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كانت قريشٌ ناحتْ قتلاَها ثم ندِمتْ، وقالوا: لا تَنُوحُوا عليهم، فيَبْلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشْمَتُوا بكم وكان في الأسرى أبو وَداعة بن صَبْرَة السَّهْمي، فقال رسول الله ﷺ: **«إن له بمكّة ابناً تاجراً كيّساً ذا مال كأنكم قد جاءكم في فداء أبيه»**، فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم، والله لَئِن صدقتم ليُثارَبَنَّ عليكم ثم انسلّ في الليل فقدم المدينة ففدَى أباهُ بأربعة آلاف درهم.

أورده الهيثمي (٩٠/٦) برواية الطبراني وقال: رجاله ثقات.

لا تنوحوا أي: لا تبكوا على قتلاكم بالنياحة المصحوبة بالندب واللّطم والخرق على عادتهم في ذلك، فيشمتوا بكم أي: يفرحوا. وقوله: لَيُثارَبَنَّ عليكم أي: ستقبح أفعالهم.

والحديثان يدلاّن على أن ثمن الفداء كان أربعة آلاف درهم لكل شخص ومن لم يكن له ما يفدي به نفسه، وكان كاتباً كان يُؤمَر بتعليم أولاد الأنصار الكتابة كما في الحديث التالي.

[٢٣٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّمُوا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء يوماً غلام يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضَرَبَني مُعَلِّمي، قال: الخبيثُ يطلب بِذَحْلِ بدر والله لا تأتيه أبداً.

رواه أحمد (٢٤٧/١) بسند حسن أو صحيح.

قوله: «ذَحْل» أي: ثاره وأصل الذحل الحقد والعداوة.

* * *

❁ قتل عقبة بن أبي معيط في الطريق

[٢٣٥] وعنه قال: قتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء، قام إليه عليّ رضي الله تعالى عنه فقتله صبراً، قال: مَنْ للصِّبْيَةِ يا رسول الله؟ قال: **«النار»**.

رواه الطبراني قال في المجمع (٨٩/٦) ورجاله رجال الصحيح، وهو عند عبدالرزاق في المصنّف رقم (٩٣٩٤) في الجهاد.

الآن حان وقت مصرع هذا العدّ اللّدود الذي كان بالأمس مع صناديده بمكّة، فقام إلى سلا جزور فوضعها على ظهر النبيّ ﷺ وجعلوا يضحكون، وهو الذي أخذ مرّة بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه وخنقه به خنقاً شديداً حتى دفعه عنه الصدّيق رضي الله تعالى عنه.

فها هو الآن في الفيافي بعيداً عن الأهل والولد والدار تضرب عنقه صبراً بين بدر والمدينة ولا ناصر له ولا مغيث، وذلك جزاء الجبابرة المتكبّرين.

* * *

❁ قصة العباس في أسره وفدائه

[٢٣٦] عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ من الأنصار بالعبّاس قد أسَرَه، فقال العباس: يا رسولَ الله ليس هذا مَنْ أسَرَنِي، أسَرَنِي رجلٌ من القوم أنزع مِن هيئته كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «قد آزَرَكَ الله بِمَلَكٍ كَرِيمٍ».

رواه أحمد رقم (٦٧٦)، قال النور (٨٥/٦): رجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد (٣٥٣/١) عن ابن عباس أيضاً لكن فيه رجل مجهول.

العباس عمّ النبيّ ﷺ كان قد أسلم بمكّة وكان يكتم إسلامه، ثم خرج مع المشركين إلى بدر، فوقع أسِيراً في أيْدِي المسلمين فكُتِّفَ وأُوثِقَ في جملة الأسارى.

[٢٣٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر، قيل له: عليك العير ليس دونها شيءٌ، قال: فناداه العباس وهو في وَثاقِهِ: لا يَصْلُحُ لك ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «ولِمَ»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحْدَى الطائفتين وقد أعطاك ما وعَدَك؟ قال: «صدَقْتَ».

رواه أحمد والترمذي بسند صحيح، وقد تقدم في التفسير في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الآية.

فكان العباس رضي الله تعالى عنه مِمَّن أُوثِق في جملة الأسارى، رغم أنه عَمُّ النبيّ ﷺ، فإن الحقّ لا يحترم أحداً ولم يقبل منه كتم إسلامه لأنه

خرج مكثراً لسواد الكفار فعامله النبيّ ﷺ معاملة الأسارى المشركين، فأوثقه حتى قدم به المدينة وطلب منه فداء نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفه عتبة بن عمرو.

[٢٣٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنَتْرُكْ لابْن أُخْتِنا عباسٍ فِداءَه، قال: «والله لا تَذَرُون منه دِرْهماً».

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٢٣، ٣٢٤).

استشفع رجال من الأنصار البدريّين للعباس عند النبيّ ﷺ أن يعفوه من الفداء، فأكد لهم أخذ الفداء منه بالنهي عن تركهم شيئاً من ذلك ولو درهماً، وذلك خشية أن يكون في ذلك مُحاباةٌ له لكونه عمّه، وقول الأنصاريّين: «لابن أختنا» لأن جدّة العباس سَلْمَى بنتِ عَمْرو بن زَيْد النجارية الخزرجية كانت أُمّاً لعبدالمطلب، فأطلقوا عليها أختاً لهم لكونها من الأنصار والعباس حفيدها، فهو ابن أختهم، كما أنهم أخوال النبيّ ﷺ، هذا وذكر علماء السيرة ومنهم أبو نعيم في الدلائل (١٧١) عن ابن عباس بإسناد حسن، قال: كان فداء كل واحد أربعين أُوقية، فجعل على العباس مائة أُوقيّة، وعلى عقيل ثمانين وفيه قصة العباس في ماله الذي تركه لأُم الفضل، ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وانظر المجمع (٧/٢٨)، وهناك أخبار عن العباس لا أسانيد لها أو هي مجرّد بلاغات ومراسيل.

* * *

❁ العفو عن أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ

[٢٣٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما بعث أهلُ مكة في فِداءِ أسْراهُم بعثتْ زينبُ بنتُ رسول الله ﷺ في فِداء أبِي العاص بن

الرَّبيع بمالٍ، وبعثَتْ فيه قِلادةً لها كانت لخديجة أدخلتْها بها على أبي العاص حين بَنَى عليها، قال: فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّةً شديدةً، وقال: «**إنْ رأيتُم أن تُطْلِقُوا لها أسِيرَها، وترُدّوا عليها الذي لها فافْعَلُوا**»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها. وفي رواية: وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه أو وعَدَه أن يُخَلِّي سبيل زينب إليه، وبعثَ رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتى تَمُرَّ بكما زينبُ فتَصحباها حتى تأتيا بها.

رواه أحمد (٣٧٦/٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٢)، وابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢٩٤/٢، ٢٩٥)، والحاكم (٢٣٦/٣، ٢٣) وسنده حسن صحيح وابن إسحاق صرّح بالتحديث وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقد ذكر ابن إسحاق خبراً طويلاً في قصة خروجها من مكّة ولحوقها بالمدينة، فانظره عند ابن هشام (٢٩٦/٢)، وكان رسول الله ﷺ زوج عُتْبَة بن أبي لهب ابنتَه رُقيَّة أمّ كلثوم كما زوج زينب من أبي العاص بن الربيع، فلما بادَى رسولُ الله ﷺ قريشاً بأمر الله تعالى وبالعداوة مَشَوْا إلى عُتْبة بن أبي لهب فأمروه بفراق بنت النبيّ ﷺ وأن يزوّجوه أي امرأة شاء من قريش ففارقها ولم يكن دخل بها بعدُ، ثم ذهبوا إلى أبي العاص فأمروه بمفارقة زينب فقال لهم: والله إني لا أُفارق صاحِبَتِي وما أُحِبّ أن لي بامرأتي امرأةً من قريش، ولذلك كان رسول الله ﷺ يُثْني عليه خيراً في مصاهرته، وعندما وقع أسيراً مع أسارى بدر عفا عنه ﷺ وردّ عليه فداءه، وشرط عليه أن يأذن لزينب ابنته باللحوق به، ففعل ووفى بذلك ثم بعدُ مَنَّ الله تعالى عليه فأسْلم فردّ عليه زوجته.

* * *

❁ كيف تَلَقَّت قريشٌ خبر هَزِيمَتهم ببدر

[٢٤٠] قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وكان أوّل من قدم مكّة

بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبدالله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة، وشيبةُ بن ربيعة، وأبُو الحكم بن هشام، وأُمَيَّةُ بن خلف، وزمعةُ بن الأسود، ونَبيه ومُنَبّه ابنا الحجاج، وأبُو البَخْتَرِي بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أُمية: والله إن يعقل هذا فسلُوه عليَّ؟ فقالوا: ما فعل صفوان بن أُمية؟ قال: هو ذاك جالس في الحجر قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٢٨٨) وهو تابع لسنده الأوّل الصحيح الذي بدأ به غزوة بدر، والله تعالى أعلم.

[٣٤١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يَهابُ قومَه ويَكْرَهُ خلافَهم، وكان يكتُمُ إسلامه وكان ذا مال متفرّق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام... فلما جاءه الخبر عن مُصابِ أصحاب بدر من قريش كَبَتَه الله وأخزاه، ووجدْنَا في أنفسُنا قوّةً وعِزّاً، قال: فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هَلُمَّ إليَّ، فعندك لَعَمْري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمْرُ الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لَقينا القومَ فمَنَحْناهم أكتافَنا يَقُودُونَنا كيف شاءوا، ويأسِرُوننا كيف شاءوا، وأيْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس لَقِينا رجالاً بِيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُبَ الحُجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يَدَه فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً، قال: وثاوَرْتُه فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليَّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أمّ الفضل إلى عَمُودٍ من عُمُد الحجرة، فأخذته فضربته فلعت في رأسه شجّة منكرةً، وقالت: اسْتَضْعَفْتَه أنْ غاب عنه سَيِّدُه؟ فقام مُوَلْياً ذَلِيلاً، فوالله ما عاش إلا سَبْعَ ليالٍ حتى رماه الله بالعَدْسَةِ فقَتَلَتْهُ.

رواه ابن إسحاق كما في ابن هشام (٢/٢٨٨)، وتاريخ ابن جرير (٢/٤٦٣) غير أن في سنده حسين بن عبدالله بن عباس وهو ضعيف، والقصة ذكرتها لحسن سياقتها وفكهاتها على أنه ليس فيها ما ينكر، فهي موافقة للواقع. ـ

قوله: «تليق» أي: لا تبقي شيئاً. قوله: «طُنُب الحجرة» بضمّتين حَبْلُها. قوله: «وثاورته» أي: وثبت عليه. وقوله: «فلعت» أي: فلقت رأسه، واستفدنا من هذه القصة إسلام العباس وأهله قبل بدر، كما استفدنا منها شجاعة أمّ الفضل حيث ضربت أبا لهب بعمود الحجرة حتى فلقت رأسه، وأنه لم يعش بعد ذلك إلا أسبوعاً فأُصيب بالعدسة وهي بثرة خضِرة كالطاعون فهلك وتبع إخوانه لجهنم.

* * *

❊ أهل بدر لن يدخلوا النار وإن فعلوا ما فعلوا إلا أن يُشْرِكُوا

[٢٤٢] عن عليّ رضي الله تعالى عنه في قصة حاطب بن أبي بلتعة قال فيه رسول الله ﷺ: **«لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكم الجنّةُ، أو فقد غفرتُ لكم»**، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

رواه البخاري في المغازي باب فضل من شهد بدراً (٨/٣٠٧)، ورواه مسلم عن ابن عباس ويأتي مفصّلاً في غزوة الفتح إن شاء الله عزّ وجلّ.

[٢٤٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن يَدْخُلَ النارَ رجلٌ شهد بدراً والحُدَيْبِية»**.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٥٧)، والترمذي في المناقب وابن ماجه ويأتي في الفضائل.

في الحديثين بشارة عظيمة لأهل بدر وأنهم مغفورٌ لهم ولن يدخلوا

النار والله لا يخلف وعده، وهذه الفضيلة ليست لغيرهم ولغير أهل الحديبية كما يأتي إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

❋ أسمَاءُ مَنْ شهد بدراً من المهاجرين والأنصار

قال البخاري في صحيحه (٣٢٩/٨) باب تسمية من سمي من أهل بدر في الجامع الذي وضعه أبو عبدالله على حروف المعجم: النبيّ سيّدنا محمد بن عبدالله الهاشمي ﷺ، أبو بكر الصدّيق، عُمر، عثمان، عليّ بن أبي طالب، إياس بن البُكَيْر، بلال بن رباح، مولى أبي بكر الصدّيق، حمزة بن عبد المطلب الهاشمي، حاطب بن أبي بلتعة حليف لقريش، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي، حارثة بن الربيع الأنصاري قتل يوم بدر وهو حارثة بن سراقة كان في النظارة، خُبَيْب بن عدي الأنصاري، خُنَيْس بن حذافة السهمي، رفاعة بن رافع الأنصاري، رفاعة بن عبدالمنذر، أبو لبابة الأنصاري، الزبير بن العوام القرشي، زيد بن سهل، أبو طلحة الأنصاري، أبو زيد الأنصاري، سعد بن مالك الزهري، سعد بن خولة القرشي، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، سهل بن حُنيف الأنصاري، ظهير بن رافع الأنصاري، عبدالله بن مسعود الهذلي، عتبة بن مسعود الهذلي، عبدالرحمٰن بن عوف الزهري، عُبَيْدة بن الحارث القرشي، عبادة بن الصامت الأنصاري، عمرو بن عوف، عقبة بن عمرو الأنصاري، عامر بن ربيعة الأنصاري العنزي، عاصم بن ثابت الأنصاري، عويم بن ساعدة الأنصاري، عتبان بن مالك، قدامة بن مظعون، قتادة بن النعمان الأنصاري، معاذ بن عمرو بن الجموع، مُعَوِّذُ بن عَفْراء وأخوه، مالك بن ربيعة، أو أُسَيْد الأنصاري، مرارة بن الربيع الأنصاري، معن بن عدي الأنصاري، مِسْطَح بن أُثاثَة، المقداد بن عمرو الكِنْدي، هلال بن أُمية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم.

فجملة ما ذُكِرَ هنا أربعةٌ وأربعون رجلاً، وقد اقتصر على ما وقع عنده منهم في الصحيح وفاته الكثير منهم من المشاهير كسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وزيد بن حارثة وغيرهم، وأوردهم نورالدين في المجمع (٦/٩٣، ٩٦) فبلغ عددهم (٢٣٥) رجلاً، كما ذكر الكثير منهم ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٢/٣٢١) فما بعدها، وقد استوعبهم الحافظ ابن كثير رحمه الله في سيرته (ج ٢/٤٩٠ ـ ٥٠٧) ورتّبهم على حروف المعجم أحسن ترتيب فأوصلهم إلى أكثر من ثلاثمائة وأربعة عشر رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بمحبّتهم وجعلنا في زمرتهم، آمين.

* * *

❁ خلاصة ما اشتملت عليه غزوة بدر

إن غزوة بدر كانت أول غزوة خاضَها النبيُّ ﷺ وأصحابُه مع المشركين، وكانت الفاصلَ بين الحقّ والباطل، وكان للمسلمين فيها النصر المبين الذي لم يقع في تاريخ الإسلام مثلُه، فقد كوَّنَ أصحابُها الأبطالُ تاريخاً ومَجْداً وظَفَراً ونَصْراً لكل من جاء بعدهم من الأجيال، وإتماماً للفائدة نذكر هنا خلاصة ما سبق في الغزوة تذكيراً للقارىء بما مرّ عليه من أحداثها، فنقول:

كان تاريخ الغزوة يوم الجمعة سبعة عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وكان سببها الخروج لعير قريش التي قدم بها أبو سفيان من الشام، فأرسل النبيّ ﷺ بعضَ العيون ليأتي بأخبار العِير وندَب الصحابة للخروج بعد أن استشارهم ثم انطلق وهم ثلاثمائة وبِضعَة عشر رجلاً ومعهم سبعون جملاً يتعاقبونها وليس معهم إلا فرسان وتبعه بعض الأطفال، فردّهم كما تبعه مشرك يريد إعانته، فقال له: «**لن نستعين بمشرك**»، وفي هذه الأثناء رأت عاتكة بنت عبد المطلب عمّةُ رسول الله ﷺ وهي بمكّة رؤيا هائلة أفزعتها وأزعجت كل من سمعها مَفادُها إنذارُ قريش بهلاكهم، وصادفت الرؤيا مَجِيء ضمضم من طرف أبي سفيان مستغيثاً بقريش لإنقاذ العير الذي

خرج يتعرّض له محمد وأصحابه، رغم أنه ـ أعني أبا سفيان ـ لما سمع بخروج النبيّ ﷺ حوّل طريقه إلى الساحل فأنجَى عِيره، ولما جاء كفارَ قريش النذيرُ مع الرؤيا خرجوا في جيش عَرَمْرَم ليُغِيثوا أبا سفيان وعِيرَه ومن معه، وعندما غادروا مكّة وقطعوا أشواطاً في سَفرهم علموا أن أبا سفيان قد نجا بالعير، فأرادوا الرجوع لكن أبا جهل عارض، وقال: لا بدّ وأن نَذهبَ فننزل ببدر ونَنْحَر الجُزُرَ ونَشْرب الخمر وتُغَنّينا القَيناتُ فيسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا، فتابعوا السير إلى أن وصلوا بدراً وسبقوا المسلمين إلى الموضع المناسب، ولما وصل النبيّ ﷺ نزل بالضفة الشمالية لجهة المدينة، وهو المعبّر عنه في الآية الكريمة بالعدوة الدنيا في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

ومعناه أنتم كنتم بالشاطىء والجانب الأدنى أي الأقرب لجهة المدينة والكفار بالشاطىء، والجانب الأقصى أي البعيد من جهتكم وركب أبي سفيان كان أسفل منكم لجهة البحر، وهٰهنا قال الحُباب بن المنذر للنبيّ ﷺ: يا رسول الله أرأيتَ هذا المنزلَ أمنزلاً أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدّم ولا أن نتأخّر عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمَكِيدة؟ قال: «**بل هو الحربُ والرأيُ والمكيدةُ**»، فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهَضْ بالناس حتى نأتيَ أدْنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من الآبار ثم نَبْنِي عليه حَوْضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فنهض رسول الله ﷺ وتحوّل إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب.

رواه ابن إسحاق مرسلاً بسند صحيح ولم نذكره في صلب القصة لإرساله، ثم هيّأوا للنبيّ ﷺ عريشاً ينزل فيه، ثم شاور الصحابة مرّة ثانية، وأشار إليه المقداد وسعد بن معاذ بما سَرّه ثم بشّرهم بالنصر وجعل يخبرهم بمصارع القوم، وكان قد قال لهم قبل ذلك: «**هذه مكة قد أخرجت لكم أفلاذ كبدها**»، وبات النبيّ ﷺ ليلة الغزوة يدعو الله عزّ وجلّ ويبكي، ويقول: «**يا ربّ إن تُهلك هذه العصابة فلن تُعبدَ بعدُ...**»، هذا مع تَيَقُّنِهِ بوقوع النصر، لكن هذا مشهَدٌ من مشاهد عبوديّته لله تعالى... وفي الصباح اصطفّ الجيشان وبدأتْ المعركة بالمبارزة، وكان أوّلَ شهيد عُبَيدةُ بن

الحارث وأوّل قتلى المشركين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ثم التحم القتال وحَمِي الوطيسُ واختلط الجيشان، وجاء النصر من عند الله ونزلت الملائكة فلم تمض إلا ساعة من نهار حتى انهزم المشركون وظهر الحقّ وزَهق الباطل، فجعل المسلمون يقتلون ويأسرون فقتلوا منهم سبعين كان فيهم صناديدهم الجبّارون المغرورون الذين سبق ذكرهم وأسروا سَبْعِينَ وباقيهم فروا هاربين ناجين بأنفسهم، وقد سرد ابن هشام أسماء القتلى والأسارى من المشركين (ج ٢/٣٤٧، ٣٥٤) نقلاً عن ابن إسحاق. واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً وهم أول شهداء الإسلام بعد فرضية الجهاد والأمر بالقتال، فهم أئمّة الشهداء وكان في جملتهم عُبَيدةُ بن الحارث بن المطّلب، وعُمَير بن أبي وقاص، وعُمَيْر بن الحمام، وحارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا عفراء... ولما اشتدَّت المعركة جعل النبيّ ﷺ يتطلّع إلى ما آل إليه أمر أبي جهل، وإذا بابن مسعود قد أتاه يبشره بقتله، ورأى بلالٌ أُميّة بن خلف الذي طالما سامَه سوءَ العذاب يريد الفرار فتبِعَه في جماعة فقتلوه قتلاً جماعياً، ثم لمّا انتهت المعركة أقام ﷺ بعَرْصَةِ بدر ثلاثة أيام، ثم أمر بجماعة من قتلى المشركين، فأُلقوا في بئر ثم جعل النبيّ ﷺ يناديهم بأسمائهم توبيخاً وتبكيتاً وتقريعاً لهم قائلاً: «**يا فلان ابن فلان... هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً**»، ثم لما وقعت الهزيمة واستولى الشبان على الغنائم أرادوا الاستئثار بها دون الشيوخ الذين كانوا في حراسة النبي ﷺ، فقال الشيوخ: إنّا كنا في حراسة النبيّ ﷺ كما كنا ردءاً لكم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، ففصل النبيّ ﷺ بينهم وقسم الغنائم بين الجميع بعد أن أخرج منها الخمس، ثم جاء الاختلاف في فداء الأسارى... بعد أن استشار النبيّ ﷺ أبا بكر وعمر وعليّ رضي الله تعالى عنهم وعمل على ما أشار إليه الصديق من أخذ الفداء، فجاء العتاب الإلٰهي على ذلك، وكان ذلك على خلاف الأولى، ولذلك جاء آخر الآية يُبيحُ لهم ذلك ويُخبر بأنه قد سبق بذلك كتاب من الله، وبعث النبيّ ﷺ إلى المدينة قبل قدومه زيد بن حارثة يبشرهم بالنصر، وفي الطريق أمر ﷺ الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه أن

يضرب عنق ابن أبي مُعَيْط الذي كان شديد الإذاية لرسول الله ﷺ، فقتله صبراً مهيناً ذليلاً مدحوراً، ولما وصل إلى المدينة أصدر حكمه ﷺ بفداء الأسارى لكل رجل أربعة آلاف درهم وعفى عن أبي العاص زوج ابنته الطاهرة سيّدتنا زينب رضي الله تعالى عنها.

أما الكفار الذين لم يحضروا بدراً من أهل مكّة، وكان منهم أبو لهب عندما بلغهم خبر هزيمة جيشهم وانتصار المسلمين فقد كُبِتُوا وأُخزُوا وذهبت نَخْوَتُهم وأنانيتُهم وعَضُّوا على أيديهم وماتوا بغيظهم، بل أبو لهب هلك داخل الأسبوع ولحق إخوانه إلى سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾، وبهذا انتهت غزوة بدر، وقد نزلت في شأنها آيات من كتاب الله عزّ وجلّ.

كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى آخر ما سبق.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ الآية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله جلّ ثناؤه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وقوله جلّ علاه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وقد سبقت كغيرها.

هذا وقد تركت كثيراً من الأخبار والأحداث جاءت في هذه الغزوة ذكرها علماء السيرة لكونها بلاغات أو مراسيل أو أسانيدها ضعيفة فلم نذكرها لذلك، والله تعالى أعلم.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات والحمد لله على إحسانه وإنعامه وتوفيقه.

* * *

❁ أحداث وقعت بين بدر وأُحد
غزوة قَيْنُقَاع

[٢٤٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا أصاب رسولُ الله ﷺ قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهودَ في سُوق بني قَيْنُقاع، فقال: **«يا معشرَ اليهود أسْلِمُوا قبل أن يُصيبَكم ما أصاب قريشاً»**، قالوا: يا محمد لا يَغُرَّنَّك مِن نفسك أن قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً

لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

رواه أبو داود في الخراج باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٩/٣)، وابن جرير (١٩٢/٣) ورجاله ثقات غير مولى زيد بن ثابت فلم يوثّقه غير ابن حبان، لكن رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (٦٠٤/٢) من طريق آخر مرسلاً فيتأيّد به، ولذلك حسّنه الحافظ في الفتح (٣٣٢/٧).

[٢٤٥] وقال ابن إسحاق: حدّثني أبي إسحاقُ بنُ يسار عن عبادةَ بن الوَليد بن عُبادة بنِ الصامت، قال: لما حاربتْ بَنُو قَينُقاع رسولَ الله ﷺ تَشَبَّثَ بأمْرهم عبدالله بنُ أُبَيّ وقام دونَهم، فمشَى عبادةُ بن الصامت إلى رسولِ الله ﷺ وكان أحَدَ بني عوف بن الخزرج لهم من حلفهم مثل الذي لهم من حلف عبدالله بن أبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، فقال: يا رسول الله أتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حِلف الكفّار وولايتهم، ففيه وفي عبدالله بن أُبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

رواه ابن إسحاق في السيرة (١٢١/٢) مع الروض الأنف، ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٥٥/٤)، وابن جرير (٢٧٥/٦) وهو مرسل حسن صحيح وله عدّة شواهد مراسيل عن عطية بن سعد والزهري رواهما ابن جرير (٢٧٥/٦) وعن عاصم بن عمر بن قتادة رواه ابن إسحاق (١٢١/٢)، وانظر ابن سعد (٣٦/٢)، وهذه وإن كانت مراسيل فإنها تتأيّد كما هو معروف في علوم الحديث.

قال علماء السيرة والمغازي: قد كان الكفار بعد الهجرة مع النبيّ ﷺ على ثلاثة أقسام: قسمٌ وادَعَهُمْ على أن لا يُحارِبُوه ولا يُؤَلِّبُوا عليه عَدُوَّه، وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وبنو قينُقاع.

وقسم حاربوه وناصبوه العداوة كقريش، وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب، فمنهم من كان يحبّ ظهوره، ومنهم من كان معه ظاهراً، ومع عدوّه باطناً، وهم المنافقون، وكان أوّل من نقض العهد من اليهود بنو قينُقاع فحاربهم النبيّ ﷺ في شوّال بعد وقعة بدر، فحاصرهم أشدّ الحصار خمسة عشر يوماً، فألقى الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ...

وذكر ابن هشام وغيره أن أول خيانة ونقض للعهد بدَا منهم، أن امرأةً عربيّةً كانت لها بِضاعةٌ تَبِيعُها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعل اليهود يُرِيدُونَها عن كَشْفِ وَجْهِها فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقدَه إلى ظهرها، فلما قامت انكشفتْ سَوْءَتُها، فضحِكُوا بها فصاحت فوثبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً وشدَّتْ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود فغضِبَ المسلمون، فكان ذلك أول شرّ ظهر منهم، فخرج إليهم النبيّ ﷺ وقال لهم ما في حديث ابن عباس، فأجابوه بما تُكِنُّه صُدورُهم من العداوة والبغضاء للإسلام وللمسلمين، فكان ذلك من أسباب محاصرتهم، ونزل

القرآن يخبر عنهم بأنهم سَيُغْلَبون ويُحْشَرُون إلى جهنّم، ولم يعتبروا بما حصل لإخوانهم في الكفر ببدر رغم أنه قال لهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي عِبْرة ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ وهما جماعة المسلمين وجماعة كفار قريش.

وقد ظهرت معجزة القرآن الكريم بإخباره عمّا يؤول إليه أمر اليهود، فبعد أن حاصرهم النبيّ ﷺ حصاراً شديداً وعلموا أنهم لا طاقة لهم بمحاربته وألقى الله في قلوبهم الرعب نزلوا على حكم رسول الله ﷺ بأن له أموالهم وأن لهم النساء والذرّية، فأمر بهم فكُتِّفُوا وكلّف بتكتيفهم المُنذر بن قُدامة السُّلَمِي، فجاء ابنُ أُبَيّ ابن سلول لعنه الله، فكلّم فيهم رسول الله ﷺ وألحّ عليه في ذلك لأنهم كانوا حلفاءه، فترك قتلهم وأمر بهم أن يُجْلَوْا عن المدينة فلَحِقُوا بأذرعات من الشام، وأخذ النبيّ ﷺ مِن حِصْنِهِم سلاحاً وآلة كثيرة، فأخذ ﷺ من أموالهم صَفِيَّه والخُمُس، وقسم أربعة أخماس على أصحابه، فكان أوّل خُمُسٍ خُمِّسَ بعد بدر. انظر طبقات ابن سعد (٢٨/٢، ٢٩)، والطبري (٤٨٠/٢)، وابن هشام (٩/٣، ١٠، ١١).

ويؤخذ من حديث عبادة قوةُ إيمان عبادة بن الصامت وغيرتُه لله ولرسوله ﷺ وبغضه ليهود بني قينقاع حيث قام جهاراً بين يديّ رسول الله ﷺ فتبرّأ من اليهود وما كان له معهم من الحلف، وتولّى الله ورسوله والمؤمنين وهذا بخلاف ما فعله ابن أُبيّ المنافق من تشبّثه بحلفه معهم وقيامه بالسعاية في التشفّع لهم عند رسول الله ﷺ حتى ترك قتلهم من أجله.

* * *

❋ غزوة سويق

[٢٤٦] عن عبدالله بن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنهما، وكان من أعلم الأنصار قال: كان أبو سفيان حين رجع إلى مكّة ورجع فَلُّ قريش من بدر، نذر أن لا يمَسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يَغْزُوَ محمداً ﷺ،

فخرج في مائتي راكب من قريش لِيَبُرَّ قَسَمَه، فسلك الجندية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: ثيب من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حُيَيَّ بن أَخْطَبَ فضرب عليه بابَه فأبَى أن يَفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلاَّم بن مِشْكَم وكان سيّد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقَراهُ وسَقاهُ، وبطن له من خبر الناس ثم خرج في عقب ليلة حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها فحرقوا في أصوار من نخل بها ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قَرْقَرَةَ الكُدْر ثم انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخفّفون منها للنجاء، وأكثر ما طرحوا من أزوادهم السويق، فهجم المسلمون على سويق كثير فسمّيت غزوة السويق.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام (٦/٣، ٧)، وابن سعد (٣٠/٢)، والطبري (٤٨٣/٢، ٤٨٥)، والبيهقي في الدلائل (٤٣٣/٢) وسنده حسن صحيح مع إرساله ولا يضرّ، فإن عبد الله بن كعب يروي عن والده، وخاصة وأنه ثقة من أعلم الأنصار وأولاد الصحابة.

وقوله: «فَلُّ قريش» بفتح الفاء أي: المنهزمون. قوله: «فقراه» أي: أضافه. وقوله: «وبطن له» أي: أطلعه على خبر الناس. وقوله: «أصوار» من نخل أي: جماعة النخل الصغار. وقوله: «ونذر بهم» أي: علم بهم الناس.

* * *

❁ زواج عليّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما

[٢٤٧] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: خُطِبَتْ فاطمةُ إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاةٌ لي: هَلْ عَلِمت أن فاطمةَ قد خُطِبَتْ إلى

رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خُطبتْ فما يَمنعُك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوّجك؟ فقلت: وعندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوّجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدتُ بين يديه أُفحِمْتُ، فوالله ما استطعتُ أن أتكلم جلالةً وهيبةً، فقال رسول الله ﷺ: **«ما جاء بك؟ ألك حاجة؟»** فسكتُ فقال: «لعلك جئت تخطبُ فاطمة؟» فقلت: نعم. فقال: «وهل **عندك من شيء تَستحلُّها به؟»** فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلتْ دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفسُ عليّ بيده إنها لحُطَمِيَّة ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت: عندي، فقال: **«قد زوَّجْتُكَها، فابعثْ إليها بها فاسْتَحِلَّها بها»**، فإن كانت لصداقَ فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣/١٦٠) وسنده حسن صحيح.

ورواه أحمد (١/٨٠) مختصراً بلفظ: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابْنَتَه فاطمة رضي الله تعالى عنها فقال: ما لي من شيء فكيف؟ ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه، فقال: **«هل لك من شيء؟»** قلت: لا، فقال: فأين دِرعُك الحُطَمِيَّةُ التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟ قال: هي عندي، قال: **«فأعْطِها إياها»**، وفي سنده رجل مبهم ولا يضرّ هنا.

[٢٤٨] وعنه كرّم الله وجهه قال: جَهَّزَ رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام في خَمِيلٍ، وقِرْبَةٍ، ووسادَةِ أدَمٍ حَشْوُها إذْخِرٌ.

رواه أحمد (١/١٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٦١) وسنده صحيح، وعطاء بن السائب لا يضرّ هنا؛ لأن حماد بن سلمة الراوي عنه هذا الحديث روى عنه قبل اختلاطه، وهو في نفسه ثقة.

[٢٤٩] وعنه أيضاً عليه السلام قال: كانت لي شارف من نَصِيبي من المغنم يومَ بدر، وكان النبيّ ﷺ أعطاني مِمَّا أفاءَ الله عليه من الخُمُس يومئذ، فلمّا أردت أن أبْتَنِي بفاطمة عليها السلام بنتِ النبيّ ﷺ واعَدتُ

رجلاً صَوّاغاً من بني قينُقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسي، فبينما أنا أجمع لشارفي من الأقتاب، والغرائر، والحبال، وشارفاي مُناخَتَانِ إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارِفَيَّ قد أُجِبَّتْ أسْنِمَتُهما وبُقِرَتْ خَواصِرُهما، وأُخِذَ من أكبادِهِما فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، فقلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت، وهو في شِرْب من الأنصار، وعنده قَيْنَتُه وأصحابه، فقالت في غنائها: «ألا يا حمزة للشُّرُف النواءِ». فوثب حمزة إلى السيف فأجَبَّ أسنمتهما، وبَقَرَ خواصرهما وأخذ من أكبادهما. قال عليّ: فانطلقت حتى أدخل على النبيّ ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف النبيّ ﷺ الذي لقيتُ، فقال: «ما لك؟» فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم عَدا حمزةُ على ناقتي، فأجَبَّ أسْنِمَتَهما وبَقَر خواصرهما وها هوذا في البيت معه شِرْبٌ، فدعا النبيّ ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه فأذن له فطفق النبيّ ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثَمِلٌ مُحْمَرَّةٌ عيناه، فنظر حمزةُ إلى النبيّ ﷺ ثم صَعَّد النظر، فنظر إلى ركبتيه ثم صعَّد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال حمزة: وهل أنتُم إلا عبيدٌ لأبي، فعرف النبيّ ﷺ أنه ثَمِلٌ، فنَكَصَ رسولُ الله ﷺ على عقِبَيْه القَهْقَرَى فخرج وخرجنا معه.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٠٠٣) (ج ٣١٨/٨، ٣١٩) وفي مواضع، ومسلم في الأشربة رقم (١٩٧٩) (ج ١٤٣/١٣، ١٤٤).

قوله: «أفحمت» أي: سكت. وقوله: «جهز» أي: هيّأ لها وبعثها في هذه الأشياء المذكورة. وقوله: «خميلة» أي: حصير. وقوله: «وسادة أدم» أي: جلد. وقوله: «دِرعُك الحُطَمِيَّة» هي الدّرع العريضة الثقيلة التي تَكْسِرُ السيوف. قوله: «الشارف» هو الجمل. قوله: «أُجِبَّتْ أسنمتهما» أي: قطعت. وقوله: «في شرب» بكسر الشين أي: في قوم مجتمعين على الشراب. وقوله: «قينته» أي مغنيته. وقوله: «ثَمِلٌ» أي: أثر فيه الشراب.

كان زواج الإمام علي بمولاتنا فاطمة عليهما السلام بعد غزوة بدر،

وكان عمرها نحواً من ستة عشر أو سبعة عشر عاماً إذ ولادتها كانت قبل البعثة بقليل بنحو سنة أو أكثر، وكانت أسنّ من مولاتنا عائشة بنحو خمس سنين.

أما الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه، فكان عمره عند الزواج نحواً من أربع وعشرين سنة وأشهر، وكانت ولادته قبل بعثة النبيّ ﷺ بعشر سنوات.

وفي هذه الأحاديث فوائد وأحكام نجملها في الآتي:

منها: أن مولاتنا فاطمة عليها السلام كانت مرغوباً فيها قد خُطِبت من النبيّ ﷺ قبل الإمام عليّ عليه السلام، ومنها جواز خطبة الرجل البنت من أبيها مباشرة، وأنه لا غضاضة في ذلك ولا لوم على الجانبين، وفيها أن النبيّ ﷺ زوّج السيدة فاطمة بدون استئذان، وقد قدمنا في النكاح أن للأب أن يزوّج ابنته الصغيرة بدون أن يستشيرها، وأن ذلك هو قول عامّة العلماء. وفيها أن الصداق ليس له حدّ، وأنه يصحّ بكل ما ينتفع به سواء كان نقداً أم أثاثاً أم بضاعة... وفيها أن الصداق شرط في البناء وأن الزوجة لا تحلّ للزوج إلا إذا دفع إليها مهرها؛ لقوله ﷺ للإمام عليّ: «**قد زوّجتكها فابعث بها** ـ أي الدّرع ـ **إليها بها فاستحلها**»... وفي المسألة خلاف بين الفقهاء.

وفيها جواز تزويج الفقير ولا خلاف في ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، والعِبْرة في ذلك بالدين. وفيها بيان ما كان عليه النبيّ ﷺ وأهل بيته من الزهد في الحياة وعدم الاهتمام بالدنيا وزينتها وزخارفها ومتاعها يدلّ على ذلك تجهيزه لابنته العروس في أُمور بسيطة جداً: حصير عادي نباتي يَجْلِسان ويَنامان عليه، وقِرْبَة مُعدَّة للماء لشربهما... ووسادة يَتوسَّدانِها عند النوم، وهي من الجلد المدبوغ محشُوَّة بأوراق شجر الإذْخِر، هذا هو جهاز عرس سيدة نساء أهل الجنّة وابنة سيد العالمين ﷺ، فلنعتبر وليعتبر نساؤنا بذلك، ولنعلم أننا بعيدون عن هدي

النبيّ ﷺ وهدي أهل بيته، وأن من ادّعى السلفية منّا فهو مدّعي مغرور.

وفي حديث عليّ الأخير في قصة الشارفين دليل واضح على أن الصحابة رغم إسلامهم ومهاجرتهم وحضورهم أعظم غزوة في الإسلام كانوا لا تزال فيهم بقيّة من بقايا الجاهلية لم تحرم بعد، وهي الاجتماع على شرب الخمر وسماع أغاني القينات، فهذا سيّدنا حمزة وهو سيّد الشهداء وأسَدُ هذه الأُمّة يجتمع في بيت مع الأنصار على شرب الخمر ومعهم قَيْنَةٌ تُغَنّيهم، الله أكبر، البشر هو البشر طبيعته واحدة، مجبولٌ على حبّ الشهوات وسماع الأغاني والتمتّع بالنساء وشرب الكؤوس... غفرانك ربّنا وعفوك.

وما فعله سيدنا حمزة من قطع أسنمة الشارفين وبقر خواصرهما كان في حالة غيبوبة من السكر ولم يرد شيء يدلّ على أن النبيّ ﷺ ضمّنه الشارفين ولا أمَرَه بشيء، وقد يقال: إن هذا كان قبل أن تأتي الأحكام، وقد أجمع العلماء على أن ما أتلفه السكران من الأموال يلزمُه ضمانُه كالمجنون مثلاً؛ لأن الضمان كما قال العلماء لا يُشترط فيه التكليفُ، ولذلك أوجب الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم في قتل الخطأ الدّية والكفّارة، وقد قال بعض فقهاء المالكية:

لاَ يَلْزَمُ السَّكْرانَ إقْرارُ عُقُودْ بَلْ مَا جَنَى عِتْق طَلاَقٌ وحُدُودْ

* * *

❋ أحداث السنة الثانية

كان فيها غزوة بُواط، والعُشَيْرَة، وغزوة بدر الأُولى، وسرية عبدالله بن جَحْش، وتحويل القبلة، وفرضية صوم رمضان، ثم غزوة بدر الكبرى وأحداثها ووقائعها وما يتبعها، ثم غزوة بني قينقاع، وغزوة السويق، وزواج الإمام عليّ بمولاتنا فاطمة عليهما السلام... وفيها شُرِعَتْ زكاةُ الأموال وزكاة الفطر، وصلاة العيد.

* * *

السنة الثالثة
مقتل كَعْب بن الأشْرَف

[٢٥٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لِكَعْبِ بن الأشْرَف؟ فإنَّه قَدْ آذَى اللهَ ورسولَه»، فقام مُحمّد بن مَسْلَمة فقال: يا رسول الله أتُحِبُّ أن أقْتُلَه؟ قال: «نعم»، قال: فأذَنْ لي يا رسولَ الله أن أقول شيئاً، قال: «قل»، فأتاه محمد بن مسلمة قال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أيّ شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، فقال: نعم، ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: ارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدُهم، فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقين هذا عارٌ علينا، ولكنا نرهنك اللأْمَة، قال سفيان: يعني السلاح، فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب بن الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرجُ هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة. وفي رواية: قالت: أسْمَعُ صوتاً كأنه يَقْطُر منه الدَّمُ، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريمَ لو دُعِيَ إلى طَعْنَةٍ بليل لأجاب. قال: ويُدْخِل محمد بن مسلمة معه رجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائلٌ بشعره فأشُمه ثم أُشِمُكُم، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم مُتَوشِّحاً وهو ينفُح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً، أي: أطيب، قال: عندي أعطر نساء العرب وأكملُ العرب، فقال: أتأذنُ لي أن أشمّ رأسك؟ قال: نعم، فشمّه ثم أشَمَّ أصحابَه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم، فلمّا استمكن منه قال: دونكم فقتلوه ثم أتوا النبيّ ﷺ فأخبروه.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٣٩، ٣٤٢) وفي الجهاد، ومسلم في

الجهاد والسِّيَر (١٢/١٦٠، ١٦١)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٦٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/١٩٥، ١٩٦)، وانظر ابن سعد (٢/٣١، ٣٤)، وابن هشام (٣/١٢، ١٣).

[٢٥١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مشى رسول الله ﷺ إلى بَقيع الغَرْقَد ثم وجَّههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله»، وقال: «اللَّهمّ أعِنْهم»، يعني النَّفَر الذين وجَّههم إلى كعب بن الأشرف.

رواه أحمد (١/٢٦٦) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (٦/١٩٦) برواية أحمد والبزار والطبراني، والحديث حسّنه الحافظ.

[٢٥٢] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يَهْجُو رسولَ الله ﷺ ويُحَرِّضُ عليه كفارَ قريش في شِعْره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلُها أخلاطٌ منهم المسلمون الذين تجمعهُم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود وهم أهل الحَلْقة والحُصُون، وهم حُلفاء لِلْحَيَّيْنِ الأَوْس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحَهم كلَّهم، وكان الرجل يكون مسلماً، وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذُون رسول الله ﷺ وأصحابَه أشدَّ الأذَى، فأمر الله تعالى رسولَه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾.

وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

فلما أبَى كعب بن الأشرف أن ينزعَ عن أذَى رسول الله ﷺ وأذَى المسلمين وأمر رسولُ الله ﷺ سعدَ بن معاذ أن يبعثَ رَهْطاً ليقتلوه، فبعث إليه سَعْد... الحديث بنحو ما سبق عن جابر.

رواه أبو داود في الخراج (٣٠٠٠)، قال الهيثمي (١٩٥/٦، ١٩٦) بعد أن عزاه لأحمد: ورجاله رجال الصحيح، ولم نجده في مسند كعب من (ج ٣ وج ٦) من المسند.

قوله: «مَن لكعب» أي: من الذي ينتدب لقتله ويريحنا منه، وقوله: «عنّاناً» بتشديد النون الأُولى أي: أتعبنا. قوله: «لتَمَلُّنَّه» بفتح التاء والميم وضم اللام المشددة بعدها نون توكيد أي: لتسأمُنَّ منه. قوله: «ارهنوني» أي: ادفعوا إليّ شيئاً في مقابلة ما تريدون من التمر رهناً. وقوله: «وأنت أجمل العرب» يريد بذلك أن النساء يفتتن بك إذا أبصرنك. قوله: «اللأْمَة» بتشديد اللام وسكون الهمزة يعني آلة الحرب. قوله: «استمكنت» أي: تمكّنت من أخذ رأسه. قوله: «فدونكم» أي: فخذوه. قوله: «متوشّحاً» أي: ملتحفاً ومتغشياً في ثوبه أو متوشّحاً بسيفه حاملاً له. قوله عندي «أعطر» أي: أكثر نساء العرب استعمالاً للعطورات وأجمعهن لها. قوله: «بقيع الغرقد» بفتح الغين ثم راء ساكنة وهي المَقْبَرةُ المعروفة بالمدينة المنوّرة.

كان كعب بن الأشرف مزيجاً في نسبه؛ كان أبوه عربياً من طيء، وكانت أمّه يهودية من بني النضير، وكان يهجو النبيّ ﷺ بشعره ويُؤذيه أشدّ الإذاية كما كان يُشَبِّبُ بنساء المسلمين، ويُحَرِّضُ كفار قريش على محاربة النبيّ ﷺ، وخاصة بعد وقعة بدر، فندَبَ النبيّ ﷺ من يقتله فانتدب إليه رجال من الأنصار يرأسهم البَطَلُ محمد بن مَسْلَمة رضي الله تعالى عنه، فذهبوا إليه واحتالوا عليه حتى خرج إليهم في ظلام الليل فقتلوه، كما فصّل في الحديث.

وفي هذه الأحاديث من الفوائد والأحكام: مشروعية قَتْل المحاربين والطاعنين في الدّين ومقدّساته ولو غيلة كما يفعله الفدائيّون اليوم، كما فيها جواز التظاهر بالكفر والطّعْن في الإسلام إذا كان ذلك يعود على الإسلام والمسلمين بمصلحة أكيدة، فإن محمد بن مسلمة تكلّم في النبيّ ﷺ بالسوء، وكان ذلك بإذن منه عليه الصّلاة والسّلام.

وفي حديث جابر مغامرة رائعة من محمد بن مسلمة ومن كان معه

تدلّ على شجاعتهم وبطولتهم، وبالتالي فناؤهم في محبّة الله ومحبّة رسوله ﷺ، وشدّة غيرتهم على مقدّسات الدين.

وفي حديث ابن عباس مشروعيّة تشييع المجاهدين والخروج معهم والدعاء لهم بالعون من الله عزّ وجلّ، وفي حديث أُبيّ بن كعب بيان منه لما كان عليه المجتمع بالمدينة بعد قدوم رسول الله ﷺ، وأنه كان خليطاً من المسلمين واليهود والوثنيّين مع ما كان بينهم من التحالف.

* * *

❁ تزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما

[٢٥٣] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: حين تأيّمَتْ حفصةُ بنت عُمر من خُنَيْس بن حُذافة السَّهْمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر، فتوفي في المدينة، فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعَرَضْتُ عليه حفصةَ بنتَ عُمر، قال: فقلتُ: إن شئتَ أنكحتُك حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثتُ ليال ثم لقيَنِي، فقال: قد بَدا لي أن لا أتزوّج يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصدّيق فقلت: إن شئتَ زوّجتُك حفصة بنت عمر، فصمتَ أبو بكر رضي الله تعالى عنه فلم يرجع إلي شيئاً، فكنتُ عليه أوجدَ مني على عثمان.

فلبثت ليالي ثم خطبها رسولُ الله ﷺ فأنكحْتُها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلّك وجدتَ عليّ حين عرضْتَ عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم، قال: فإنه لم يَمْنَعْنِي أن أرْجِعْ إليك فيما عرضتَ عليّ إلاّ أنّي كنت علمتُ أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأُفْشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتُها.

رواه أحمد رقم (٧٤) (ج ١/١٢)، والبخاري في النكاح (١١/٨٠، ٨١، ٨٢)، وتقدم فيه رقم (٧٨٤).

كانت سيّدتنا حفصة رضي الله تعالى عنها تحت خُنَيْس بن حذافة فتوفي عنها بعد وقعة بدر بالمدينة، كما رجحه جماعة كابن سعد وابن سيّد الناس ورجحه الحافظ أيضاً في الفتح، أما في الإصابة فرجح أن خنيساً قُتل بأُحد، وعلى أيٍّ فإنها تأيّمَتْ فتزوَّجَها النبيُّ ﷺ أوائِلَ السنة الثالثة وقَضَتْ معه حياته إلى أن تُوفي عنها كباقي نسائه، وقد قدمنا في الطلاق أنه ﷺ كان قد طلّقها، فأمره الله بإرجاعها، وقال له: إنها صوَّامةٌ قوَّامةٌ، وزوجتك في الجنّة، وسيأتي بقية كلام عليها وعلى أُمّهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ، وفي الحديث فوائد وآداب تأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ تزوّج سيدنا عثمان بن عفان بأم كلثوم بنت النبيّ ﷺ

تواترت الأخبار بأن سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه تزوّج رُقيّة بنتَ النبيّ ﷺ، فلما تُوُفّيَتْ أيامَ بَدْرٍ زوَّجَه النبيُّ ﷺ أُخْتَها أمّ كلثُوم في ربيع الأول سنة ثلاث وماتت عنده في شعبان سنة تسع، وجاء في صحيح البخاري عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ على قبرها فرأيت عينيه تدمعان، الحديث تقدم في الجنائز.

* * *

❋ غزوة أُحد
تاريخ الوقعة وسببها

اتّفق علماء السيرة على أن هذه الغزوة كانت في شوال من السنة الثالثة، واختلفوا في اليوم، فذهب ابن سعد وآخرون إلى أنها كانت يوم السبت لسبع ليالٍ خلون من شوّال، وقال ابن إسحاق: كانت في النصف منه.

وذكروا في سببها أنّه لما أُصيب مَن أُصيب من المشركين ببدر ورجع منهمزموهم مشى بعض أشراف قريش ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان ومَنْ كانت له في تلك العير من قريش تجارة، وكانت قيمتها خمسين ألف دينار، فقالوا: يا معشر قريش، إنّ محمداً قد وَتَرَكُمْ وقَتَل خِياركُم فأعينُونا بهذا المالِ على حَرْبه لعلّنا نُدْرك منه ثأراً، ففعلوا.

فخرجوا في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بني المُصْطَلِق وبني الهَوْن بن خزيمة، وخرج معهم أعراب كِنانة وتِهامة... ومعهم مائتا فرس، وثلاثةُ آلاف بعير، ومعهم القِيَان والدُّفُوف والمَعازِفُ والخمورُ، واصْطَحب أشرافُهم نساءَهم كَيْلا يَنْهَزِمُوا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا غَرْبيَّ جَبل أُحد مقابلَ المدينة عند شمالها الغَرْبيّ.

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ خبرُهم صلّى الجمعة واستشار الصحابة في الخروج إليهم أو البقاء بالمدينة، فأشار إليه الشيوخ بالبقاء، فإذا جاءوهم قاتلوهم، بينما الشبانُ أشاروا إليه بالخروج، فاختارَ رأيَ الشبان ثم حضَّهم على القتال ورغَّبهم في الجهاد والشهادة وأمَرَهُم بالصَّبر وبشَّرهم بالنصر إن هم صبروا، ثم خرج مساء يوم الجمعة وبات بالطريق ثم صلّى الصبح بأُحد قبالة جيش المشركين لجهة الشروق، وكان حاملَ لواء المهاجرين مُصْعَب بنُ عُمَيْر، ولواءَ الخزرج الحُبابُ بن المنذر، ولواء الأَوْس أُسَيْد بن الحُضَيْر، وكان عدد جيشه ألفَ رجل رجع منهم ثلاثمائة من المنافقين وضعفاء الإيمان، وإلى القرّاء الميامن تفصيلَ الغزوة وأحداثها كما جاءت في الأحاديث الشريفة.

* * *

❋ رؤياه ﷺ في شان أُحد وما سيحصل فيها ومشاورته أصحابه في الخروج وعدمه

[٢٥٤] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: «رأيتُ في رؤيايَ أني هَزَزْتُ سيفاً فانقطع صَدْرُه، فإذا هو ما أُصِيبَ من

المؤمنين يومَ أُحد، ثم هَزَزْتُه أُخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً تُذْبَحُ والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أُحد».

رواه البخاري في المغازي باب من قتل من المسلمين يوم أُحد (٣٧٩/٨) وفي مواضع، ومسلم (٢٢٧٢)، وابن ماجه (٣٩٢١) كلاهما في الرؤيا، والدارمي (٢١٦٤) وغيرهم.

[٢٥٥] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيت كأني في دِرْعٍ حصينةٍ ورأيت بقراً منحرة، فأوّلت أن الدّرع الحصينة المدينة، وأن البقَر هو والله خير»**، قال: فقال لأصحابه: **«لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»؟** فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدْخَلُ علينا فيها في الإسلام، فقال: **«شأنكم إذاً»**، فلبس لأمَتَهُ، قال: فقالت الأنصار: رَدَدْنا على رسول الله ﷺ رَأْيَهُ، فجاءوا فقالوا: يا نبيّ الله شأنَك إذاً، فقال: **«إنّه لا ينبغي لنبيّ إذا لَبِس لأمَته أن يضعها حتى يُقاتل»**.

رواه أحمد (٣٥١/٣)، والدارمي (٢١٦٥) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (١٠٧/٦) برواية أحمد وقال: رجاله رجال الصحيح وصححه الحافظ في الفتح أيضاً.

وعلّق البخاري بعضه في الاعتصام (١٠٣/١٧، ١٠٤) فقال: وشاور النبيّ ﷺ أصحابه يوم أُحد في المُقام والخُرُوج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم وقال: **«لا ينبغي لنبيّ يَلْبَسُ لأمَتَه فيضعُها حتى يحكمَ الله بينه وبين عدوّه»**.

[٢٥٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تَنَفَّلَ رسولُ الله ﷺ سَيْفَه ذا الفِقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحد، فقال: **«رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً، فأوّلتُه فَلاً يكونُ فيكم، أي انهزاماً، ورأيت أني مُرْدِفٌ كَبْشاً فأوّلته كبش الكَتِيبَة، ورأيت أني في دِرْعٍ**

حَصِينةٍ فأوّلتُها المدينةَ، ورأيت بقراً تُذْبَح فبقَرٌ والله خيرٌ فبقر والله خير»، فكان الذي قال رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٢٧١/١)، والترمذي في السِّيَر رقم (١٤٣١) بتهذيبي، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٨)، والحاكم (١٢٨/٢، ٢٢١) وصححه ووافقه الذهبي وحسّنه الترمذي والحافظ في الفتح.

قوله: «لأمَتَه» بفتح اللام وسكون الهمزة وفتح الميم هي آلة الحرب من درع ومغفر... وقوله: «ذا الفقار» بكسر الفاء سمّي بذلك لأنه كانت فيه حُفَرٌ جِسانٌ صغار. وقوله: «فَلّاً» بفتح الفاء أي: ثلماً.

في هذه الأحاديث فوائد وأحكام:

منها: مشروعية مشاورة الخليفة أو نائبه... ذوي الرأي والخبرة والعلم في الشؤون السياسية وغيرها، ثم يختار ما يراه. ومنها: أنه كان من رأي النبيّ ﷺ البقاء بالمدينة، فإذا هاجمهم الكفار قاتلوهم ولكنه وافق رأيَ من رأى الخروج من الشباب، فخرج.

ومنها: أنه كان ﷺ إذا لبس آلته الحربية لا يرجع حتى يقضي الله أمره بينه وبين عدوّه. ومنها: تأدّب الصحابة معه ﷺ وندمهم على ما حَمَلُوه عليه من الخروج ونزولهم عن رأيهم الذي رأوه واعتذارهم إليه، ومنها: بيان أن سيفه الذي كان عنده بعد بدر كان قد أخذه من نصيبه بغنائم بدر، ومنها: وهي من الأهمية بمكان رؤياه تلك الرؤيا التي أطلعه الله فيها على ما سيؤول أمر أصحابه إليه في هذه الغزوة، فرأى أنه في دِرْع حصينة بمعنى أن صاحبها لا يوصل إليه، فعبّر ذلك بالمدينة وأنها محفوظةٌ بحفظ الله لا يصل إليها أعداؤه، كما رأى بقراً تُنْحَرُ وتُذْبَحُ فعبّر ذلك بما سيقتل من أصحابه، ورأى في سيفه ذي الفِقار فَلّاً وثَلْماً أي انكسر منه شيء، فأوّل ذلك بهزيمة تقع منهم، كما رأى أنه هزّ سيفاً فانقطع صدره فأوّل ذلك بما حصل من الهزيمة ثم هزّه فعاد أحسن ما كان، فأوّله بما وقع من الفتح أخيراً واجتماع المؤمنين. ورأى أنه مُرْدِفٌ كبشاً، فأوّل

ذلك بأنه سيقتل كَبْش الكَتِيبَة وهو طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين، فهذه الرؤيا العظيمة كانت إخباراً من الله عزّ وجلّ بما سيحصل في تلك الغزوة، ورؤيا الأنبياء من أنواع الوحي وقد صدق الله هذه الرؤيا، فوقع كل ذلك كما رأى ﷺ، وفي تعبيره ﷺ لهذه الرؤيا إرشاد لمعرفة بعض أصول التعبير وقواعده، وقد قدّمنا ما يتعلق بذلك فيما سبق.

* * *

❋ استعداده ﷺ بلبس درعين من حديد

[٢٥٧] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: إن النبيّ ﷺ يومَ أُحُدٍ أَخَذَ دِرْعَيْنِ كأنه ظاهَر بَيْنَهُما.

رواه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، قال البوصيري: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[٢٥٨] وعن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين ذهب لِيَنْهَضَ إلى الصخرة، وكان رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين فلم يستطع أن ينهض...

رواه الحاكم (٣/٢٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

ونحوه عن رجل من بني تَيْم وطلحة بن عبدالله وسعد بن أبي وقاص، وعن النعمان بن بشير، انظرها معزوّة مبيّنة رُتَبُها في المجمع (٦/١٠٩).

وفي هذه الأحاديث مشروعيّة الأخذ بالأسباب والتحفّظ من الأعداء، وإن كان الإنسان متيقّناً بالنصر والحفظ من الأعداء، واتّخاذ الأسباب لا ينافي التوكّل على الله عزّ وجلّ: «إعقلها وتوكل».

* * *

❋ من ردَّه النبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ مِن الأطفال

[٢٥٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن رسول الله ﷺ عَرَضَنِي يوم أُحُدٍ وأنا ابنُ أربَعَ عَشْرَة سَنة فلم يُجِزْني، وعَرَضَنِي يومَ الخندق وأنا ابن خَمْسَ عَشْرَة سنة فأجازني.

رواه أحمد (١٧/٢)، والبخاري في المغازي (٣٩٦/٨)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود (٢٩٥٧، ٤٤٠٦)، والترمذي (١٢٣٢، ١٥٦٩)، وابن ماجه (٢٥٤٣) وغيرهم.

وفي الحديث مشروعية عرض الجيش على قائِدِهِ ليطّلع على من يلزمه الخروج ومن لا، وأن الأطفال لا يُسمح لهم بالخروج إلى الغزو لصغرهم وضعفهم، فإذا بلغوا الحُلم وظهرت منهم بوادر القوّة... أُذِنَ لهم في ذلك، وقد ردَّ في هذه الغزوة جماعة من الأطفال مع عبدالله بن عمر كالبراء بن عازب، وأبي سعيد الخدري، وسعد بن خيثمة، وزيد بن جارية وزيد بن أرقم، انظر مجمع الزوائد (١٠٨/٦).

❋ ❋ ❋

❋ خذلان عبدالله بن أبي رسول الله ﷺ، ورجوعه من الطَّريق بنحو من ثلاثمائة نفر من المنافقين

[٢٦٠] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحُد رجع ناسٌ ممن خرج معه، وكان أصحاب رسول الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فرقةٌ تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾، وقال ﷺ: «إنّها طَيْبَةُ تَنْفِي الخَبَثَ كما تَنْفِي النارُ خَبَثَ الفضّة».

رواه أحمد (١٨٤/٥، ١٨٧)، والبخاري آخر الحجّ وفي التفسير (٣٢٥/٩)، ومسلم في الحجّ وفي صفات المنافقين (١٢٣/١٧)، والترمذي

(٢٨٣٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٥) كلاهما في التفسير.

قوله تعالى: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي: قلبهم وردّهم إلى الكفر، والركس نكس الشيء مقلوباً.

لمّا خرج ﷺ إلى أُحد، وكانت من أخطر الغزوات على المسلمين، خرج معه ألف من أصحابه، فلمّا كانوا بين المدينة وأُحد انخذل ابنُ أُبَيّ ابنُ سَلول، فرجع بثلث الناس من أصحابه المنافقين ومَنْ أطاعه أو اغترّ به من ضعفاء الإيمان، وقال: أطاعهم وعصاني ما نَدْرِي علامَ نَقْتُلُ أنفُسَنا هٰهُنا، واتّبعهم عبدالله بن حرام يقول: يا قوم لا تَخْذُلوا قومَكُم ونبيّكم عند من حضر من عدوّهم، فقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية، فاختلف المسلمون في شأنهم ماذا يفعل بهم وقد خذلوا النبيّ ﷺ في وقتٍ كان في أشدّ الحاجة إلى من يؤازِرُه ويقاتلُ معه، فقال بعض الصحابة: اقتلهم يا رسول الله، وقال آخرون بالعكس، فأنزل الله تعالى الآية في شأنهم، فقال لهم عزّ وجلّ: ما شأنكم أيها المؤمنون أصبحتم في شأن هؤلاء المنافقين فرقتين، والحال أنهم منافقون وقد نكسهم الله وردّهم إلى كفرهم رأساً على عقب، أتريدون هِدَايَةَ من خذله الله وأضلّه.

وكان إلى جانب هؤلاء المنافقين طائفتان من المؤمنين هَمَّتا بالفشل فثبّتهما الله عزّ وجلّ.

[٢٦١] فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سَلِمة وما يَسُرُّني أنّها لم تَنْزِلْ لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٦٠) وفي التفسير (٩/٣٩٣)، ومسلم في الفضائل ويأتي.

فلما رجع ابن سلول ومَن معه من المنافقين افترق بنو حارثة وبنو سَلمة وكادوا أن يلحقوا بالمنافقين ويجبُنُوا، فثبّتَهُما الله عزّ وجلّ وهداهما، فلم يرجع منهم أحد لصدقهم وإخلاصهم.

* * *

[٣٦٢] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل للنبيّ ﷺ يوم أُحد: أرأيتَ إن قُتِلْتُ فأين أنا؟ قال: «**في الجنة**»، فألقَى تَمَراتٍ في يدِهِ ثم قاتل حتى قُتِلَ.

رواه البخاري رقم (٤٠٤٦)، ومسلم رقم (١٨٩٩).

[٣٦٣] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسولَ الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحد، فقال: «**من يأخذ مني هذا؟**» فبسَطوا أيديَهم كلُّ إنسانٍ منهم يقول: أنا، أنا، قال: «**فمَن يأخذه بحقّه؟**» قال: فأحْجَمَ القومُ، فقال سِماكُ بن خَرَشَة أبو دُجانَة: أنا آخُذُه بحقّه، قال: فأخذه فَفَلَقَ به هامَ المشركين.

رواه مسلم رقم (٢٤٧٠) في الفضائل (ج ٢٤/١٦)، وهو عند أحمد (١٢٣/٣).

قوله: «فأحجم القوم» أي: كفّوا عمّا قالوا. وقوله: «هام المشركين» أي: رؤوسهم.

وجاء عن الزُّبير بأبسط من هذا.

[٣٦٤] فعنه رضي الله تعالى عنه قال: عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أُحدٍ فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقّه**»، فقمت فقلت: أنا يا رسول الله، فأعرض عني، ثم قال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقمت فقلت: أنا يا رسول الله ثم قال الثالثة، فقام أبو دُجانَة سِماكُ بن خَرَشَة فقال: أنا آخُذُه يا رسول الله بحقّه، قال: «**أَلاَّ تَقْتُل به مسلماً ولا تُغَرِّبْه عن كافر**»، قال: فدفعه إليه وكان إذا أراد القتال أعلم بعصابة قال: لأنظرن إليه اليوم كيف يصنع؟ قال: فجعل لا يرتفع له شيءٌ إلا هتكه وأفْراهُ حتى انتهى إلى نِسْوَةٍ في سَفْح جبل معهن دفُوفٌ لهنّ فيهن امرأةٌ وهي تقول:

نحنُ بنات طارِقْ نَمْشِي على النَّمارِقْ

إن تُقْبِلُوا نُعَانِقْ ونَبْسُطُ النِّمَارِقْ
إن تُدْبِرُوا نُفَارِقْ فِراقَ غَيْرِ وامِقْ

قال: فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربَها ثم كفَّ عنها، فلما انكشف القتال قلت له: كل عملِك قد رأيتُ ما خلا رَفْعَكَ السيفَ على المرأة، ثم لم تضربها، قال: إني والله أكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أقتل به امرأة.

رواه البزار (١٧٨٧)، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٣٣) واللفظ له، وأورده النور في المجمع (٦/١٠٩) برواية البزار قال: ورجاله ثقات.

قولها: «وامق» أي: غير مُحبّ. وقصّة أبي دجانة تدلّ على شجاعته وشهامته وأنه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث وفّى بما شرط عليه النبيّ ﷺ عند أخذه سيفَه فلم يقتلْ به مسلماً، وإنما فلق به رؤوس المشركين وأفْرَى دِماءَهم ونزَّهَه عن قتل امرأة...

[٣٦٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول يوم أُحد: **«اللّهمّ إنك إن تشأ لا تُعْبَدُ في الأرض»**.

رواه مسلم رقم (١٧٤٣) وتقدم نحوه في بدر.

* * *

❊ كيف هيّا النبيّ ﷺ الجيش وسواه، وبداية المعركة وما حصل أولها من النصر ثم الهزيمة، وما وقع وقيل في ذلك

[٣٦٦] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: جعل رسول الله ﷺ على الرُّماةِ يومَ أُحُدٍ وكانوا خمسين رجلاً عبدَالله بن جُبَيْر، قال: ووضعهم مكاناً وقال لهم: **«إن رأيتمُونا تخطِفُنا الطير فلا تَبْرَحُوا من مكانكم هذا حتى أُرسِلَ إليكم، فإن رأيتُمونا هَزَمْنا القَوْمَ وأوْطَأْناهم فلا تَبْرَحوا حتى أُرسِل إليكم»**، قال: وسار رسول الله ﷺ ومَن معه، قال:

فهزمهم، قال: فأنا والله رأيتُ النساء يَشْدُدْنَ على الجبل بَدَتْ خلاخلُهنَّ وأسْوُقُهُنَّ رافعات ثيابهنّ، فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، قد ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ قال عبدالله بن جبير: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لنأتِيَنَّ الناس فنصيبنَّ مِن الغنيمة، فلما أتَوْهم صُرفتْ وجوهُهم فأقبلوا منهزمين، فذاك حيث يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غيرُ اثْنَيْ عَشَرَ رجُلاً فأصابوا منّا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً.

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمّد؟ ثلاث مرات، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يُجِيبُوه، ثم قال: أفي القوم ابنُ أبي قُحافة؟ ثلاث مرات، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قُتِلُوا فما مَلَك عمر نفسه فقال: كذبتَ والله يا عدوَّ الله إن الذين عددتَ لأحياءٌ كلّهم، وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يوم بيوم بدر والحربُ سِجالٌ، إنكم سترون في القوم مُثْلةً لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني، ثم أخذ يرتجز: اعْلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: **«ألاَ تُجِيبُوه»**؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجلّ»**، قال: إن لنا العزّى ولا عزّى لكم، قال رسول الله ﷺ: **«ألا تُجيبُوه؟»** قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**.

رواه أحمد (٢٩٣/٤، ٢٩٤)، والبخاري في الجهاد وفي المغازي (٣٦٧/٨) وفي التفسير (٢٩٥/٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٥/٦)، ونحوه عن ابن عباس رواه أحمد (٢٨٧/١، ٢٨٨)، والحاكم (٢٩٦/٢، ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبي.

[٣٦٧] وعن الزبير رضي الله تعالى عنه نحوه بزيادات، ولفظه قال: والله إني لأنظر يومئذ إلى خَدَم النساء مُشَمِّراتٍ يَسْعَيْنَ حين انهزم القوم، وما أرى دون أخذهنّ شيئاً وإنّا لنحسِبُهم قتلى ما يرجعُ إلينا منهم أحدٌ، ولقد أصِيبَ أصحابُ اللواء وصبروا عنده حتى صار إلى عَبْدٍ لهم حَبَشِيّ

يقال له صواب، ثم قتل صواب فطرح اللواء فلم يقربه أحد من خلق الله حتى وثبتْ إليه عمرةُ بنت علقمة الحارثية فرفعتْه لهم وثاب إليه الناس، قال الزبير: فوالله إنا لكذلك قد علوناهم وظهرنا عليهم إذ خالفتْ الرماةُ عن أمر رسول الله ﷺ فجعلوا يأخذون الأمتعة، فأتَتْنا الخيل فحطَّمتنا وكَرَّ الناسُ منهزمين، فصَرَخَ صارخٌ يَرَوْنَ أنه الشيطانُ ألاَ إن محمداً قد قتل فأعْظَمَ الناسُ وركبَ بعضُهم بعضاً، فصاروا أثلاثاً: ثلثاً جريحاً، وثلثاً قتيلاً، وثلثاً منهزماً قد بلغت الحرب، وقد كانت الرماة اختلفوا فيما بينهم، فقالت طائفةٌ - ورأوا الناس وقعوا في الغنائم وقد هزم الله المشركين وأخذ المسلمون الغنائم -: فماذا تنتظرون؟ وقالت طائفة: قد تقدم إليكم رسول الله ﷺ ونهاكم أن تفارقوا مكانكم إن كانت عليه أوله، فتنازعوا في ذلك، ثم إن الطائفة الأُولى من الرماة أبت أن تلحق بالعسكر فتفرّق القوم وتركوا مكانهم، فعند ذلك حملت خيل المشركين.

أورده الحافظ في المطالب العالية برواية إسحاق بن راهويه في مسنده، وقال: هذا إسناد صحيح انظر رقم (٤٣١٣)، ورواه ابن إسحاق باختصار كما عند ابن هشام وسنده صحيح.

[٣٦٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: هُزِمَ المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أيْ عبادَ الله أُخْراكُم، فرجعتْ أولاهم فاجْتَلَدَتْ هي وأُخْراهُم، فنظر حذيفة بن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي أبي، قالت: فوالله ما انحجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وفي رواية: وقد كان انهزم منهم قوم حتى لحقوا بالطائف.

رواه البخاري في المغازي باب إذ همّت طائفتان منكما... إلخ، وفي بدء الخلق وفي الفضائل.

في هذه الأحاديث بيان وتفصيل لما وقع في هذه المعركة ويتّضح ذلك في الآتي:

أولاً: كان النبيّ ﷺ قد رتّب أمور الجيش وأنزل كلاً ما يناسبه وصَفَّهم وجعل فيهم مَيْمَنةً ومَيْسَرة، وجعل أُحُداً خلفه، واستقبل المدينة

وجعل على جبل الرماة خمسين رامياً وأمّر عليهم عبدَالله بن جُبَيْر لِيَحْمُوا ظَهْرَهُم عند الاشتباك وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء انتصر الصحابة أم هُزِموا.

ثانياً: كان قد وقع الانتصار للصحابة في البداية وانهزم المشركون وقتل أصحاب لوائهم واحداً تلو الآخر حتى بقي لا يقدر أحد على تناوله، وحملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنّبال فيتقهقرون، ورغم أن نساءهم كنّ يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف رجالهم انهزم الجميع وولّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويولولن حتى صعدن الجبل كاشفات ثيابهن عن أسوقهنّ، وجعل المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب.

ثالثاً: وفي هذا المشهد وقد رآى الرماة الصحابة يجمعون الغنائم تركوا مركزهم ونزلوا ليشاركوا في أخذ الغنيمة الصحابة ولم يبقَ على الجبل إلا عشرة نفر، فلما رأى ذلك خيّالة المشركين وكان فيهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل جاءوا إلى البقية من الرماة من الوراء فقتلوهم ثم هبطوا للميدان وأتوا الصحابة المشتغلين بالغنائم، فصاروا يقتلون ويضربون فيهم ووقع لهم ارتباك ودهش فوقعت الهزيمة وجعلوا يفرّون، وفي هذه الأثناء قُتِل سبعونَ رجلاً أكثرُهم من الأنصار.

رابعاً: كان الذي نبّه الكفار والخيّالة بعد هزيمتهم هو الشيطان حيث صرخ بأعْلَى صوته وقال لهم: أي عباد الله أُخراكم، فنظروا فرأوا الجبل خالياً من الرماة، فأتوهم من الوراء.

خامساً: فيما قاله أبو سفيان بعد أن نادى بأسماء النبيّ ﷺ وصاحبيه إعجاب وزهو بما حصل لهم، وكان ذلك من نخوة جاهليّتهم وكبريائها، وفيما أجابوه بما لقّنهم النبيّ ﷺ اعتزاز بالله عزّ وجلّ بأنه نِعْم المولى لهم ونِعْم النصير، فهو الأجلّ الأعلى الأعظم، وما اغترّ به أبو سفيان وجماعته من الأصنام والأوثان هي الأدنى والأذلّ والأخزى.

سادساً: بعد تلك المحنة التي وقعت للصحابة أصبحوا فرقاً ثلاثة:

فرقة قتلى وكانوا سبعين رجلاً وكان فيهم حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جبير في آخرين. وفرقة جرحى، وفرقة منهزمون وفيهم من فرّ إلى المدينة ولم يبقَ صامداً أمام العدوّ إلا النبيّ ﷺ واثنا عشر رجلاً كان منهم الخلفاء الثلاثة: الصدّيق والفاروق والإمام عليّ في آخرين رضي الله تعالى عنهم، وهٰهنا جعل الرسول يدعو المنهزمين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ الآية، كما يأتي.

* * *

مشاهد مختلفة من المعركة
رجلان يدعوان فيستجاب لهما

[٣٦٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أن عبدَالله بن جَحْش قال له يوم أُحد: أَلاَ تَدْعُو الله تعالى، فَخَلَوا في ناحيةٍ فدعا سعد فقال: يا ربّ إذا لقيتُ العدُوَّ فلقّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَرْدُه، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزُقْني الظَّفَرَ عليه حتى أقتلَه وآخذَ سلبَه، فأمن عبدُ الله بن جحش. ثم قال: اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده شديداً بأسُه أُقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيَجْدَعُ أنفي وأُذُني، فإذا لقيتك غداً قلتَ: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: يا بني كانت دعوة عبدالله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلّقان في خيط.

رواه ابن سعد (٦٣/٣)، والحاكم (١٩٩/٣) وصححه على شرطهما لولا إرساله، ووافقه الذهبي، وأورده النور في المجمع (٣٠١/٩، ٣٠٢) برواية الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح ورواه البيهقي في الكبرى (٣٠٧/٦، ٣٠٨) متّصلاً.

لقد دعا هذان الصحابيان الجليلان بدعوتيهما بصدق وإخلاص

فاستجاب الله لهما، وكانت دعوة عبدالله بن جحش أجلّ وأفضل، وفي كلٌ خير رضي الله تعالى عنهما.

* * *

أنس بن النضر وشجاعته وشهادته

[٢٧٠] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: غاب عَمّي أنسُ بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لَئِن الله أشهَدَني قتالَ المشركين ليَرَيَنَّ الله ما أصنع، فلما كان يومُ أحد وانكشفَ المسلمون فقال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبْرَأُ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعدُ بنُ معاذ فقال: يا سعدُ بن معاذ الجنّة وربّ النضر إني أجد ريحها مِن دُونِ أُحُدٍ، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بِضْعَةً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أُختُه وهي الرُبَيّع بنت النضر بشامَةٍ أو ببَنانِهِ، قال أنس: كنا نَرى أو نظنّ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

رواه البخاري في التفسير (١٣٦/١٠)، ومسلم في الإمارة (٤٧/١٣، ٤٨)، والترمذي (٢٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٤٣٠/٦)، وابن جرير (١٤٦/٢١، ١٤٧)، ورواه البخاري أيضاً في المغازي وفي الجهاد.

في الحديث شجاعة هذا الصحابي وصدقُه وقوّةُ إيمانه وشدّة بأسه وتجلُّده وصبرُه على ضربات السيوف وطعَناتِ الرماح وآلام النّبال، بِضعٌ وثمانون ضربة وطعنة وهو صامدٌ يقاتل لم يسقط للأرض حتى استشهد رضي الله تعالى عنه، ومن هو هذا الصحابي!؟ هذا هو الرجل الذي جاء فيه قوله ﷺ: «إنَّ مِنْ عبادِ الله مَنْ لو أقْسَم على اللهِ لأبَرّه»، كما يأتي في الفضائل.

* * *

❋ استشهاد سعد بن الربيع وبه سبعون ضربة

[٢٧١] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: «**إن رأيته فأقرئه مني السلامَ وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تَجِدُكَ؟**» قال: فجعلتُ أطوف بين القتلى فأصَبْتُه وهو في آخر رَمَقٍ وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تَجِدُكَ؟ قال: على رسول الله ﷺ وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عُذْرَ لكم عند الله تعالى إنْ خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم شُفْرٌ يَطْرُفُ وفاضت نفسُه رحمه الله تعالى.

رواه الحاكم (٢٠١/٣) وصححه ووافقه الذهبي وله شواهد عن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة، رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والطبري (٥٢٨/٢)، والحاكم (٢٠١/٣)، والبيهقي في الدلائل بسند صحيح مع إرساله، وعن عمرو بن يحيىٰ المازني رواه إسحاق بن راهويه كما في المطالب العالية وسنده صحيح أيضاً، وعن يحيىٰ بن سعيد رواه مالك في الموطأ وابن سعد (٥٢٣/٣) وهو صحيح أيضاً، فالحديث صحيح خلافاً لمن ضعّفه.

قوله: «شُفْرٌ تطرف» هو بضم الشين وسكون الفاء واحد أشفار العين ونص حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر.

هذا بطل آخر من الصحابة الأنصار أحد النقباء الاثني عشر استشهد بعد صبر جميل وصمود أمام أبطال الشِّرك وعَبَدة الأوثان لم يشخنوه ويسقطوه إلى الأرض حتى أصيب بسبعين ضربة من ضربات السيوف والرماح والنبال، وقد افتقده النبيّ ﷺ وبعث من يبحث عنه ويبلغه سلامه فيوجد في آخر رمق من حياته، فيردّ السلام على النبيّ ﷺ ويوصي قومه به ﷺ.

❋ ❋ ❋

❋ قتيل شهيد تغسله الملائكة

[٢٧٢] عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ عند قتل حَنْظَلة بن أبي عامِر بعد أن التقى هو وأبو سفيان حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ صَاحِبَكُمْ تُغَسِّلُهُ الملائكةُ فاسألوا صاحِبَتَهُ»، فقالت: إنه خرج لما سمع الهائِعَة وهو جُنُبٌ، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غَسَّلَتْه الملائكة».

رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٢٠٤/٣، ٢٠٥)، والبيهقي في الجنائز من الكبرى (١٥/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٣/٣) برواية الطبراني وقال: إسناده حسن.

هذه مَزِيَّةٌ وخصيصة لهذا الصحابي لا تُعْرف لغيره حيث إنه استشهد وهو جُنُب، فتولّت الملائكة غسله ليلقى الله طاهراً ظاهراً وباطناً فهنيئاً له ولأصحابه الشهداء.

❋ ❋ ❋

❋ رجل استشهد ودخل الجنّة ولم يصلِّ قطّ

[٢٧٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ عَمْرو بن أُقَيْش كان له رِبًا في الجاهلية، فكره أن يُسْلِمَ حتى يأخذَه فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قال: بأُحد، فلبس لأْمَتَه وركب فرسه ثم توجّه قِبَلَهُمْ، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنّا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً، فجاء سعد بن معاذ فقال لأُخته: سليه حَمِيَّةً لقومك أو غضباً لهم أم غضباً لله عزّ وجلّ؟ قال: بل غضباً لله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، فمات فدخل الجنّة وما صلّى لله صلاة.

رواه أحمد (٤٢٨/٥، ٤٢٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٧) باب من

يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله، والبيهقي في الدلائل (٢٤٧/٣) بسند حسن، ورواه ابن إسحاق من طريق آخر ومن طريقه البيهقي (٢٤٧/٣) وسنده حسن كما قال الحافظ.

من سبقت له العناية لا تضرّه الجناية، فالأعمالُ بالخواتم؛ فهذا رجل تأخر إسلامه عن أهل عمومته، فلما جاء من سفره وسأل عن بني عمّه وأهل بيته أخبر بأنهم ذهبوا لأحُد مع النبيّ ﷺ لقتال المشركين، فأخذته الغيرة على الإسلام فوفقه الله للإيمان، فآمن بينه وبين ربّه والتحق بالمسلمين، فقاتل معهم حتى قتل، فأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بأنه دخل الجنّة.

وهذا يدلّ على إخلاصه وصدقه في إيمانه، ويدلّ على أن الإسلام يهدم كل ما كان للكافر من عقائد وأعمال سيّئة، وأنه يصبح بدخوله في الإسلام طاهراً من كل الذنوب، وهذا لا خلاف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ولقوله ﷺ لعمرو بن العاص: «**أمَا علِمْتَ أن الإسلام يَهْدِمُ ما قبله**»... رواه مسلم في الإيمان.

* * *

❋ عمرو بن الجموح وبشارته بالجنّة، وصحة رجله العرجاء

[٣٧٤] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: أتى عَمْرو بن الجَمُوح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيتَ إن قاتلت في سبيل الله حتى أُقْتَلَ أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنّة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمَرَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «**لكأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة**»، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبرٍ واحد.

رواه أحمد (٢٩٩/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٣١٥/٩): رجاله رجال الصحيح غير يحيىٰ بن نصر الأنصاري وهو ثقة. أما الحافظ فاقتصر على تحسينه في الفتح.

هذا الصحابي كان له أربعة بنون مثل الأُسُد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أُحُد أرادوا حَبْسَ والدهم عن الخروج فأبَى وخرج، وقال للنبيّ ﷺ: إني لأرجو أن أطَأ بِعَرْجَتِي هذه في الجنّة، وكان شديد العرج، فقتل شهيداً، وقال له النبيّ ﷺ وهو قتيل: «**كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة**»، فقد صدقه الله ما رجا وتمنّى.

* * *

❋ عبدالله بن حرام والد جابر تظلّله الملائكة ويكلّمه الله عزّ وجلّ كفاحاً

[٢٧٥] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: لما قُتِل أَبِي يوم أُحد جعلتُ أكْشِفُ عن وجهه وأبكي، وجعل أصحابُ رسول الله ﷺ يَنْهَوْنَنِي وهو لا ينهاني، وجعلتْ عَمَّتِي تبكيه، فقال النبيّ ﷺ: «**تَبْكِيهِ أو لا تَبْكيه ما زالت الملائكة تُظَلِّلُه بأَجْنِحَتِهَا حتى رفعتموه**».

رواه البخاري في الجنائز (٤٠٥/٣، ٤٠٦)، وفي المغازي (٤٠٨٠)، ومسلم في الفضائل (٢٤٧١) وغيرهما، ويأتي في الفضائل.

[٢٧٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أُخبِرُك أن الله عزّ وجلّ كلَّم أباك كِفاحاً، فقال: يا عبدي سَلْنِي أُعطِك، قال: أسألك أن تَرُدَّنِي إلى الدنيا فأُقْتَل فيك ثانياً، فقال: إنه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنّهم إليها لا يُرْجعُون، قال: يا ربّ فأبلِغْ مَنْ وراءي**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨١٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)

وفي الجهاد (٢٨٠٠)، والحاكم (٢٠٤/٣)، وابن جرير (١٧٣/٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو أيضاً في المسند (٣٦١/٣) من طريق ابن عقيل.

[٢٧٧] وعنه أيضاً قال: قال أبي: أرجو أن أكون في أوّل من يُصاب غداً، فأُوصيك بِبَناتِي خَيْراً، فأصيب فدفنتُه مع آخر فلم تَدَعْني نَفْسِي حتى استخرجْتُه ودفنتُه وحدَه بعد ستّة أشهر، فإذا الأرضُ لم تأكلْ منه شيئاً إلا بعضَ شحمَةِ أُذُنِهِ.

رواه البخاري في الجنائز (١٣٥١، ١٣٥٢)، وابن سعد (١٠٦/٢/٣)، والحاكم (٢٠٣/٣) وصححه.

في هذه الأحاديث الثلاثة فضائل ومزايا وكرامات لهذا الصحابي الجليل، منها: أن الملائكة ظلّلته من الشمس بأجنحتها فَوْرَ قَتْلِهِ، وهذه كرامة ظاهرة. ومنها: أن الله عزّ وجلّ كلّمه بعد موته كفاحاً بدون واسطة إكراماً له، وأنه عزّ وجلّ قال له: «سلني أعطك»، فلم يجد عبدالله شيئاً يسأله من الله تعالى أحبّ إليه من الرجوع إلى الدنيا ليُقتل في الله عزّ وجلّ لما رأى من الكرامة التي يحرز عليها الشهيد.

أما الحديث الآخر، فهو يصدق قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فها هو قد أخرج من قبره بعد ستّة أشهر فوجد كما دفن؛ لأن الحيّ لا تأكل الأرض جسده، فهذه إحدى كرامات الشهداء ومزاياهم جعلنا الله عزّ وجلّ من أشرفهم وأكرمهم على الله تعالى.

* * *

❋ قصة مقتل حمزة سيّد الشهداء رضي الله تعالى عنه

[٢٧٨] عن جعفر بن عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرِي قال: خرجتُ مع عُبَيْدالله بن عَدِي بن الخِيار، فلما قدمنا حِمْصَ قال لي عُبَيْدالله بن عَدِيّ: هل لك في وحشيّ نسأله عن قتله حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشيّ يَسْكُنُ

حِمْص فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظلّ قصره كأنّهُ حَمِيتٌ، قال: فجئنا حتى وقفنا عليه يسيراً فسَلَّمنا فردّ السلام، قال: وعبيدالله مُعْتَجِرٌ بعِمامَتِهِ ما يَرَى وحشي إلا عَيْنَيْهِ ورجليه، فقال عبيدالله: يا وحشي أتَعْرِفُني؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله، إلا أني أعلم أن عَدِيّ بن الخيار تزوّج امرأة يقال لها أمُّ قتال بنت أبي العِيصِ فولدت له غلاماً بمكّة فكنت أسترضع له، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتُها إيّاه، فَلَكَأَنّي نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيدالله عن وجهه ثم قال: ألا تُخْبِرْنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طُعَيْمَة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إن قتلتَ حمزة بعمي فأنت حُرٌّ. قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْنِ - وعينين جبل بجبال أُحد بينه وبينه وادٍ - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفّوا للقتال خرج سِباعٌ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أمّ أنْمَارٍ مُقَطِّعَة البظور أتُحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحَرْبَتِي فأضعُها في ثُنَّتِه، حتى خرجتْ من بين وِرْكَيْهِ، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكّة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً فقيل لي: إنه لا يَهِيجُ الرُّسُل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني، قال: **«أنت وحشي؟»** قلت: نعم، قال: **«أنت قتلت حمزة»**؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: **«فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَكَ عنّي؟»** قال: فخرجت، فلما قُبِض رسول الله فخرج مُسَيْلمةُ الكذّابُ، قلت: لأخرجَنَّ إلى مُسَيْلمة لعلّي أقتله فأكافىء به حمزة، قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثَلْمةِ جدارٍ كأنه جَمَلٌ أوْرَقُ ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعُها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، قال: قال عبدالله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وأمير المؤمنين قتله العبد الأسود.

رواه أحمد (٥٠١/٣)، والبخاري في المغازي باب قتل حمزة رقم (٤٠٧٢) (ج ٣٧٠/٨، ٣٧٣).

[٢٧٩] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم أُحد: «**من رأى مقتل حمزة؟**» فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال: «**فانْطَلِقْ أَرِنَاهُ**»، فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شَقّ بطنُه، وقد مُثّل به، فقال: يا رسول الله مثّل به والله فكرِهَ رسولُ الله ﷺ أن ينظر إليه، ووقف بين ظهراني القتلى، فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، كفّنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدْمِي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك قدموا أكثرهم قرآناً فاجعلوه في اللّحد**».

رواه ابن أبي شيبة رقم (٣٦٧٨٧) (٣٧٢/٧) قال البوصيري: رواته ثقات، وأورده النور في المجمع (١١٩/٦) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح. وقوله: «أنا شَهيد على هؤلاء» رواه البخاري وغيره وياتي.

[٢٨٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا بلغ النبيَّ ﷺ قَتْلُ حمزة بكَى، فلما نظر إليه شَهَقَ.

أورده النور في المجمع (١١٨/٦)، وابن البزار (١٧٩٤) وقال: فيه عبدالله بن أبي عقيل وهو حسن الحديث على ضعفه.

قوله: «كأنه كميت» بفتح الكاف وكسر الميم أي: زِقٌّ كبير وهو السِّقاء. وقوله: «معتجر» بضم الميم اسم فاعل اعتجر ومعناه مُلَفِّفٌ عمامته على وجهه. قوله: «عام عينين» أي: عام أُحد لأن عينين جبل هنالك. قوله: «مقطعة البظور» وكانت تختن النساء والبظور جمع بظر وهي قطعة لحم تكون في أعلى وسط شفة فرج المرأة. قوله: «وكَمَنْتُ له» أي: اختفيت. وقوله: «لا يهيج» بفتح الياء أي: لا ينالهم منه إزعاج. وقوله: «شهق» بفتحتين أي: ردّد نفسه من البكاء.

شاء الله عزّ وجلّ أن يُقْتَل سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب أسَدُ

هذه الأُمّة بغزوة أُحد على يد وحشيّ العبد الأسود، فيفقد النبيّ ﷺ والمسلمون أحد أبطال الإسلام الذي كانت له يد طولى في إعزاز الإسلام وتقوية المسلمين.

فها هو الآن يُقتل برمية رمح ثم يمثّل به المشركون ويجدّعون أطرافه ويبقرون بطنه ويُخرجون كبده، فيحزن عليه ابن أخيه الرسول الكريم ﷺ ويبكي ويشهق على فقدانه، وهو سيّد الشهداء كما قال ﷺ: **«سيّد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ثم رجل قام إلى أمير جائر فأمره ونهاه فقتله»** رواه الحاكم وصححه، هذا وفي قوله ﷺ لقاتله وحشي: **«فَهَلْ تَسْتَطِيع أن تُغَيِّبَ وَجْهَك عَنِّي»**، دليل على ما في طبيعة الإنسان وفطرته من كراهية من يسيء إليه أو إلى أحبّته، فإن وحشيّاً وإن أسلم والإسلام يهدم ما قبله، فقد كان مكروهاً للنبيّ ﷺ حتى إنه حَرَمَهُ من مواجهته والنظر إلى طلعته ﷺ، ولهذا كان كثير من أكابر الصحابة الأوّلين يكرهون أمثال أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وأضرابهم ممن حاربوا النبيّ ﷺ والمسلمين وأسرفوا في الإساءة والإذاية للمسلمين، هذا مع إسلامهم وغفران ما سبق لهم؛ لأن الإساءة لا تُنْسَى فما فعله النبيّ ﷺ مع وحشي... هو من الأعراض البشرية التي لا تتخلف إلا نادراً.

* * *

❋ قتل مصعب بن عمير أوّل مهاجر في الإسلام

[٢٨١] عن خباب بن الأرتّ رضي الله تعالى عنه قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نَبْتَغِي وجهَ الله تعالى، فوقع أجْرُنا على الله، فمِنّا من مَضَى بِسَبِيلِهِ لم يأكل من أجره شيئاً منهم مُصْعَب بن عمير قُتل يوم أُحد ولم يترك إلا نَمِرَةً، كنا إذا غطّينا رأسه بدَتْ رجلاه، وإذا غطّينا رجليه بَدَا رَأْسُه، فقال رسول الله ﷺ: **«غَطُّوا رأسَه واجعلوا على رجليه من الإذخر»**، ومنّا من أيْنَعَتْ له ثمَرتُه فهو يَهْدِبُها.

رواه أحمد (١١٢/٥)، والبخاري في المغازي (٣٥٨/٨، ٣٧٩) في غزوة أُحد وفي مواضع كالجنائز والرقاق، ومسلم (٩٤٠)، وأبو داود (٣١٥٥) كلاهما في الجنائز، والترمذي في المناقب (٣٦٢١) والنسائي في الجنائز.

قوله: «أينعت» أي: نضجت، وقوله: «يَهْدِبُها» أي: يجنيها.

[٢٨٣] وعن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: قُتِل مُصْعَب بن عمير وهو خير مني كُفِّن في بردة إن غُطِّي رأسُه بدتْ رجلاه، وإن غطّى رجلاه بدا رأسه، وأُراه قال: وقتل حمزة وهو خير منّي، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا، أو قال: أُعْطِينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَتْ لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

رواه أحمد (٤٠٤٥)، والبخاري في المغازي (٣٥٦/٨) وفي الجنائز.

مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه فتى مكّة شباباً وجمالاً، وكان أبواه يحبّانه، وكانت أمّه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكّة، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**ما رأيت بمكّة أحسن لِمّة ولا أرَقَّ حُلّة ولا أنعَم نِعْمةً من مصعب بن عمير**» ذكره الحاكم (٢٠٠/٣)، ثم هداه الله للإسلام وترك كل ذلك، فكان من السابقين الأوّلين، وكان أوّل مهاجر إلى المدينة داعية ومعلّماً... ولما قدم النبيّ ﷺ حضر معه بدراً ثم أُحداً، فاستشهد بها، قتله عَمْرو بن قميئة الليثيّ، وكان لفقره وقلّة يده لم يكن له سوى بردة، ولذلك لما أرادوا تكفينه لم تكفه بردته.

وفي الحديثين فضل خباب وعبدالرحمٰن بن عوف وتواضعهما وهضمهما أنفسهما حيث إن كلاّ منهما فضّل مصعباً على نفسه، وحديث ابن عوف يأتي في الرقاق.

* * *

❁ ما حلّ برسول الله ﷺ في هذه الغزوة من النكبات

[٢٨٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رَباعِيتُه يوم أُحد وشُجَّ رأسُه، فجعل يسلُت الدم عنه ويقول: «**كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم وكسَرُوا رَباعيته وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ**»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

رواه أحمد (٣/٢٥٣، ٢٨٨)، ومسلم في السِّيَر (١٣/١٤٩)، والترمذي (٢٨١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٤) كلاهما في التفسير، وابن جرير (٤/٨٦، ٨٧)، وابن أبي حاتم (٣/٧٥٦)، وعلّقه البخاري في المغازي (٨/٣٦٨).

[٢٨٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: اشتدّ غضب الله على من قتله النبيّ ﷺ اشتدّ غضب الله على قوم دمَوْا وجه نبيّ الله ﷺ.

وعن أبي هريرة نحوه رواهما البخاري (٨/٣٧٥)، والثاني عند مسلم أيضاً (١٢/١٥٠).

[٢٨٥] وعن عمر رضي الله تعالى عنه في قصة بدر، قال: فلمّا كان يوم أُحد قتل منهم سبعون وفرّوا وكُسِرَت رباعيّةُ رسول الله ﷺ وهُشِمَتْ البَيْضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ الآية.

رواه أحمد (١/٣٠، ٣١) وغيره، وانظر ما سبق في غزوة بدر رقم (٢٢١).

[٢٨٦] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه وسُئِل عن جرح رسول الله ﷺ قال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكُب الماء وبما دُووِيَ، قال: كانت فاطمةُ عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله وعليّ بن أبي طالب يَسْكُبُ الماء بالمِجَنّ، فلما رأتْ فاطمةُ أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرةً أخذت قطعة من

حصير وأحرقَتْها وألْصَقَتْها فاستمسك الدمُ، وكُسِرَتْ رباعيتُه يومئذٍ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه.

رواه أحمد (٥/٣٣٠، ٥٣٤)، والبخاري في المغازي (٨/٣٧٥)، ومسلم في السِّيَر (١٧٩٠ ج ١٢/١٤٨)، وابن ماجه (٣٤٦٤).

قوله: «رباعيته» هو بفتح الراء السنّ التي بين الثنية والناب. و«شجّ رأسه» أي: جُرِحَ. قوله: «وهُشِّمَتْ البيضة» أي: كُسِرت. وقوله: «يسكب الماء» أي: يصبّه.

في هذه الأحاديث بيان ما أصاب النبيّ ﷺ في أثناء هذه الغزوة من النكبات والشدائد فكُسِرت سنّه الشريفة، وجُرِح رأسه حتى سال الدم على وجهه المقدّس، وذلك يدلّ على أن شؤم المعصية لا يختصّ بأصحابها، بل تعمّ المباشر لها والبريء، فإن سبب هذه المحنة التي نزلت بالصحابة وشملت حتى قائدهم حبيب الله ورسوله ﷺ كان مخالفة الرماة أصحاب الجبل لأوامر رسول الله ﷺ، ومخالفته تُوجب الفتنة والعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولذلك لما حصل ما حصل تعجّبوا من ذلك وقالوا: كيف وقع لنا هذا ومعنا رسول الله ﷺ... فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، أي: من أين جاءنا هذا وكيف وقع لنا. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم تسبّبتم فيه بمخالفتكم، فكان ما كان وما أصيب به النبيّ ﷺ في هذه الغزوة هو سنّة من السنن الإلٰهيّة في خلقه وليست مختصّة به ﷺ، فهذا القرآن يقصّ علينا من خبر الأنبياء فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، ويقول عن اليهود: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، إذاً فنزول هذا البلاء بالنبيّ ﷺ ليس بغريب، فإن هنالك من إخوانه الأنبياء من قتل. وحديث ابن عباس يدلّ على أن من آذى نبيّاً من الأنبياء اشتدّ عليه غضب الله عزّ وجلّ، وفي حديث سهل بن سعد بيان أن مولاتنا فاطمة كانت مشاركة لأبيها في المحنة، فكانت حاضرة معه وهي ممّن عالجت جرحه بالماء والحصير

المحروق بالنار، وسيأتي فصل خاص في بيان مواقف النساء في هذه الغزوة.

* * *

❋ دعاء رسول الله ﷺ على كفار أُحد ولعنه إياهم

[٢٨٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أُحد: «**اللّهمّ الْعنْ أبا سُفيان، اللّهمّ العن الحارثَ بن هِشام، اللّهمّ العن سُهَيل بن عَمْرو، اللّهم العن صَفْوان بن أُمَيّة**»، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، فتِيبَ عليهم كلهم. وفي رواية: فهداهم الله تعالى للإسلام.

رواه أحمد (٥٦٧٤، ٥٨١٢، ٥٩٩٧)، والبخاري في المغازي وفي التفسير (٣٩٣/٩)، والترمذي في التفسير (٢٨١١)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦) وغيرهم.

في الحديث جواز الدعاء على الكفار ولعنهم بأعيانهم، وهذا من أدلّة جواز لعن المُعَين، وخاصة إذا كان كافراً خلافاً لمن منع ذلك مطلقاً. وفي قوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي لا تملك لهم نفعاً فتصلحهم، ولا ضرّاً فتهلكهم، فالإيجاد والإعدام والنفع والضرّ والهداية والخذلان كلٌ بيده تعالى.

* * *

❋ دفاع الأبطال عن رسول الله ﷺ: الأنصار السبعة

[٢٨٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أُفرِد رسول الله ﷺ يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قال: «**من يَرُدُّهم**

عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة»، فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رهِقوه أيضاً فقال: **«من يردُّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة»**، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أنصَفْنا أصحابَنا»**.

رواه مسلم في غزوة أُحد من السِّير رقم (١٧٨٩ ج ١٣/١٤٧).

«رهقوه» بكسر الهاء أي: غشوه ودنوا منه.

لمّا انهزم المسلمون في أُحد انكشفوا عن النبيّ ﷺ وفرّوا وولّوا مدبرين، وبقي النبيّ ﷺ في هؤلاء السبعة الأنصاريّين مع رجلين من المهاجرين، فقاتل الأنصار السبعة دفاعاً عنه ﷺ حتى قُتِلوا جميعاً واحداً تلو الآخر، ولم يبق معه إلا الرجلان ثم بعد ذلك التفّ حوله جماعة يبلغون الاثني عشر وجعلوا يدافعون عنه ويحمونه ويقاتلون دونه، وممن كان لهم الحظّ الأوفر في ذلك اليوم الجماعة الآتون...

* * *

❋ دفاع طلحة بن عبيدالله بين يدي رسول الله ﷺ

[٢٨٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركهم المشركون، فقال النبيّ ﷺ: **«من للقوم؟»** قال طلحة: أنا، قال: **«كما أنت»**، فقال رجل: أنا، قال: **«أنت»**، فقاتل حتى قتل، ثم التفت فإذا المشركون فقال: **«من لهم؟»** قال طلحة: أنا قال: **«كما أنت»** فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: **«أنت»**، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبيّ الله طلحة، فقال: **«من للقوم»**؟ قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قُطِعَتْ أصابُعه، فقال: حسّ، فقال رسول الله ﷺ: **«لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناسُ ينظرون»**، ثم ردّ الله المشركين.

رواه النسائي في الجهاد باب ما يقول من يطعنه العدوّ وهو في «الكبرى» (ج ٣/٢١ ج ٦/١٥٩) بسند حسن صحيح.

هؤلاء أبطال آخرون قتلوا بين يديّ رسول الله ﷺ دفاعاً عنه، ثم يخلفهم طلحة فيُقاتل قتال عددهم حتى تُقطع يده.

[٢٩٠] بل قال قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى: رأيت يد طلحة شلاّء وقَى بها النبيّ ﷺ يوم أُحُدٍ.

رواه أحمد (١/١٦١)، والبخاري في المغازي (٨/٣٦٤)، وابن ماجه (١٢٨).

قوله: «شلاّء» بفتح الشين واللام المشدّدة الممدودة أي: أصابها شَلَلٌ وهو إبطال عملها.

وعن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: كان على النبيّ ﷺ يوم أُحد درعان، فنهض إلى الصخرة، فلم يستطع فقعد طلحةُ تحتَهُ حتى اسْتَوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبيّ ﷺ يقول: «**أوجبَ طلحةُ**».

رواه أحمد (١/١٦٥)، والترمذي في الجهاد (١٥٥٢) بتهذيبي وفي المناقب (٣٥٠٩)، والحاكم (٣/٣٧٤) وصححه ووافقه الذهبي.

«أوجب طلحة» أي: أوجب لنفسه الجنّة بثباته واستماتته في القتال والصمود للعدوّ، فطلحة بن عبيدالله كان من الذين ثبتوا وحموا رسول الله ﷺ وقاتلوا المشركين دونه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان أبو بكر إذا ذُكِر يوم أُحد قال: كان ذلك اليوم كلّه لطلحة، قال: كنت أول من فاء فرأيت رجلاً يقاتل عن رسول الله ﷺ قال: فقلت: كُنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي وبيني وبينه رجل من المشركين، فإذا هو أبو عبيدة فانتهينا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**دونكما صاحبكما**» يريد طلحة، قال: فإذا به بضع وسبعون أو أقلّ أو أكثر بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه، ذكره الطيالسي (٢٣٤٦ منحة) مطوّلاً.

* * *

❁ دفاع سعد بن أبي وقاص

[٢٩١] عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع النبيّ ﷺ في تلك الأيام التي كان يقاتل فيهن غيرُ طلحةَ وسَعْد.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٦٢) وفي المناقب، ومسلم في الفضائل.

وقوله: «لم يبق» الخ، هذا محمول على بعض الأحوال في تلك المشاهد لما سبق من السبعة الذين قاتلوا دونه حتى قُتِلوا، ومن الأحد عشر الذين قتلوا وطلحة حاضر ومما سبق ويأتي بأنه لم يبق مع النبيّ ﷺ إلا اثنا عشر، فهذا كلّه يدلّ على أنه كانت في ذلك اليوم مشاهد عدّة.

[٢٩٢] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت النبيّ ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك فإني سمعته يقول يوم أُحد: **«يا سَعْدُ إِرْمِ فِداكَ أَبِي وأُمّي»**.

رواه أحمد (١/٢٩، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٧)، والبخاري في المغازي (٨/٣٦٢)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٨٢، ١٨٣)، والترمذي (٣٥٢٥)، وابن ماجه (١٢٩).

[٢٩٣] وعن سعد نفسه قال: جمع لي رسول الله ﷺ يوم أُحد أبويه كلاهما، يريد حين قال: **«فداك أبي وأمي»** وهو يقاتل...

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٦٢) وغيره.

[٢٩٤] وعنه في رواية: نَثَلَ لِي النبيُّ ﷺ كِنانَتَه يوم أُحد، فقال: **«إرمِ فِداك أبي وأمّي»**. وفي رواية: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبيّ ﷺ: **«ارم فداكَ أبي وأُمي»**، قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسَقط فانكشفت عورته، فضحك لي رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه.

رواه البخاري (٣٦٢/٨)، ومسلم في الفضائل (١٨٤/١٥، ١٨٥) والرواية الأخيرة له.

«نَثَلَ» أي: استخرج ما فيها. و«الكِنانة» جعبة السهام والنشاب. «أحرق المسلمين» أي: بالغ في قتالهم.

سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه من الذين كانت لهم اليد الطُّولى في حماية رسول الله ﷺ في هذا اليوم ولشدّة دفاعه وقتاله دون النبيّ ﷺ واستماتته جمع له النبيّ ﷺ أبويه فداءً له، وهذه مَزِيَّةٌ لم ينلها غيره في هذا اليوم.

* * *

❁ أبو طلحة الأنصاري وشهامته

[٢٩٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد انهزم ناسٌ عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يديه مُجَوِّبٌ عليه بِحَجَفَةٍ له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسَّر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمُرُّ معه بِجَعْبَةٍ من النَّبل، فيقول رسول الله ﷺ: **«انثُرها لأبي طلحة»**، ويُشْرف النبيّ ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصبْك سهمٌ من سهام القوم نحري دون نحرك.

رواه أحمد (١٠٥/٣، ٢٥٦، ٢٨٦)، والبخاري في المغازي (٣٦٥/٨)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٨٩/١٢).

قوله: «مجوب عليه» أي: مترس عنه. «بحجفة» بفتحات وهو التّرس والدرقة من الجلد. وقوله: «شديد النَّزع» أي: شديد الرمي.

أبو طلحة هذا هو زوج أمّ سليم والدة أنس وهو صاحب بيرحاء رضي الله تعالى عنه، وكان ممن أبلى بلاءً شديداً في يوم أُحد دفاعاً عن الرسول الأعظم وحمايةً له ﷺ من المشركين عليهم لعائن الله.

* * *

❁ نزول الملائكة وقتالهم دون النبيّ ﷺ

[٢٩٦] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: رأيت عَلى يَمينِ رسولِ الله ﷺ وعلى شمالِهِ يومَ أُحُدٍ رجُلين عليهما ثيابُ بياضٍ يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام.

رواه البخاري في المغازي (٣٦١/٨) وغيره، ومسلم في الفضائل (٦٦/١٥، ٦٧).

الدفاع عن الرسول ﷺ لم يكن خاصّاً بالأبطال من أصحابه الذين قدّموا أرواحهم بين يديه واستماتوا دونه، بل شارك في ذلك ملائكة الله الكرام عليهم سلام الله، فهذان جبريل وميكائيل قد نزلا ليشاركا في حماية رسول الله ﷺ، وماذا يغني بضعة عشر رجلاً أو العشرات والمئين مع ثلاثة آلاف مقاتل من المشركين كلّهم هدفهم الأعظم هو قتل النبيّ ﷺ وكبار أصحابه وأنصاره، وقد انكشف عنه أصحابه وفرّوا؛ ولذا فقد شاء الله عزّ وجلّ أن يُمِدّ رسوله ﷺ ببعض كبار سلاطين الملائكة للقتال دونه حتى لا يصل إليه أحد من الكفار، ولذا بقي محمياً حتى انصرف المشركون.

* * *

❁ دور النساء الصحابيات في أُحد

[٢٩٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأمّ سليم، وإنهما لمُشَمِّرتانِ أرى خَدَم سوقهما تَنْقُزان القِرَبَ على مُتُونِهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم...

رواه البخاري رقم (٢٨٨٠، ٤٠٦٤) في المغازي، ومسلم رقم (١٨١١) وقد تقدم بعضه رقم (٢٩٥).

قوله: «خدم سوقهما» بفتحتين جمع خدمة وهي الخلاخل أو أصل السوق، والسوق جمع ساق. وقوله: «تَنْقُزان القرب»... إلخ أي: تسرعان المشي، وفي رواية عند البخاري: تزفران أي تحملان القرب الثقال على ظهورهما، وفي رواية: تنقلان القرب...

[٢٩٨] وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قسم مُرُوطاً بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرْطٌ جيّد، فقال له بعضُ مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين اعْطِ هذا بنتَ رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم - بنت عليّ رضي الله تعالى عنهما، فقال عمر: أمُّ سَلِيطٍ أحقّ منها، وأمّ سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد...

رواه البخاري في المغازي (٣٦٩/٨).

وتقدم حديث سهل بن سعد وأن مولاتنا فاطمة عليها السلام كانت تداوي النبيّ ﷺ من جراحته مع زوجها الإمام عليّ عليه السلام، انظر رقم (٢٨٦).

في هذه الأحاديث بيان موقف بعض النساء المؤمنات من هذه الغزوة وأنهن كنّ يتولين سقي الماء لشرب المقاتلين، كمولاتنا عائشة وأمّ سليم والدة أنس بن مالك وأمّ سَلِيط والدة أبي سعيد الخدريّ رضي الله تعالى عنهن، كما أن سيّدتنا فاطمة عليها السلام كانت تداوي رسول الله ﷺ وتغسل عنه الدم، ولم يكُنّ يشاركن الرجال في القتال، كما جاء في أحاديث أُخرى أنهنّ كنّ يداوين الجرحى ويسقين الماء، كما تقدم بعض ذلك في الجهاد. وقوله: إنهما لمشمرتان، هذا كان قبل نزول الحجاب اتّفاقاً.

* * *

❊ امرأة أصيب أبوها وأخوها وزوجها ولم تبال بذلك وتسال عن رسول الله ﷺ

[٢٩٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها مع

رسول الله ﷺ بأُحد، فلمّا نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمّ فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرُونِيهِ حتى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ، تريد صغيرة.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والطبري في التاريخ (٢/٥٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٠٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق وسنده حسن صحيح.

هذا فناء في محبّة الرسول الكريم ﷺ من هذه السيّدة الصالحة؛ تفقد زوجها وأخاها وأباها، وهؤلاء هم أحبّة المرء، وقد علمت بإصابتهم فلم يهدأ لها بال حتى عرفت نجاة رسول الله ﷺ، وأنه لم يُصَبْ بما يسوءها، فقالت عندئذ: كل ما يصاب به المرء مع سلامتك هو شيء صغير، وهذه نهاية المحبّة التي تدلّ على كمال الإيمان؛ لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين**»، وتقدم في الإيمان (ج ١ رقم ١٨٢).

* * *

❋ طريقة دفن الشهداء والصلاة عليهم وعددهم وأسماؤهم: الأمر بدفنهم في مضاجعهم

[٣٠٠] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن قتلى أُحد حُمِلوا من مكانهم، فنادى منادي رسول الله ﷺ: أن رُدُّوا القَتْلَى إلى مَضَاجِعها. وفي رواية: لما كان يوم أحد جاءتني عمّتي بأبي لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: «**ردّوا القتلى إلى مضاجعها**».

رواه أحمد (٣/٣٠٨)، وأبو داود (٣١٦٥)، والنسائي كلاهما في الجنائز، والترمذي في الجهاد (١٥٧٥) بتهذيبي، وابن ماجه (١٥١٦)، وابن حبان (١٩٦) بالموارد وحسّنه الترمذي وصححه.

ففيه دليل على أن القتلى في المعركة يدفنون في مضاجعهم التي صرعوا فيها ولا ينقلون لغيرها.

* * *

❋ كيفية دفن الشهداء وهل يصلّى عليهم وكيف يُكَفَّنُون؟

[٣٠١] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذاً للقرآن**»؟ فإذا أشير له إلى أحد قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُصلَّ عليهم ولم يُغَسَّلُوا.

رواه أحمد (٤٣١/٥)، والبخاري في المغازي (٣٧٨/٨) وفي الجنائز، والترمذي (٩٢٢)، وأبو داود (٣١٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦٣٥/١)، وابن ماجه (١٥١٤) أربعتهم في الجنائز.

[٣٠٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بحمزة يوم أُحد، وقد مُثِّلَ به فوقف عليه، فقال: لولا أني أخشى أن تجد صفيّة في نفسها لتركته حتى تأكله العافية فيُحْشَر من بطونها، ثم دعا بنَمِرَة فكانت إذا مدّت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدّت على رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «**مدّوها على رأسه، واجعلوا على رجليه الحرمل**»، وقلت الثياب وكثرت القتلى، فكان الرجل والرجلان والثلاثة يُكَفَّنُون في الثوب، وكان ﷺ يسأل أيّهم أكثر قرآناً فيقدّمه.

وفي رواية: أن شهداء أحد لم يُغَسَّلُوا ودُفِنُوا بدمائهم ولم يُصَلَّ عليهم.

وفي رواية: أن النبيّ ﷺ مرّ بحمزة وقد مُثِّل به ولم يُصلّ على أحدٍ من الشهداء غيرَه وهي رواية شاذة!

رواه أحمد (١٢٨/٣)، وابن أبي شيبة (٣٦٧٥٢) في المغازي، وأبو داود (٣١٣٥، ٣١٣٦، ٣١٣٧)، والترمذي في الجنائز (٩٠١) بتهذيبي، والطحاوي في معاني الآثار (٥٠٢/١، ٥٠٣)، والحاكم (٣٦٥/١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٤، ١١) بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣٠٣] وعن عُقْبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثماني سنين كالمُوَدِّع للأحياء والأموات... وفي رواية: فصلّى على أهل أُحد صلاته على الميّت.

رواه أحمد (١٤٩/٤، ١٥٣، ١٥٤)، والبخاري في الجنائز (٤٥٤/٣) وفي المغازي (٣٥٢/٨)، ومسلم في الفضائل في إثبات حوض نبيّنا ﷺ (٥٧/١٥) وغيرهم ويأتي في الرقائق.

قوله: «تأكله العافية» أي: السباع والطير... وقوله: «أن تجد صفية في نفسها» صفية هذه أخت حمزة وعمّة النبيّ ﷺ.

في حديثي جابر وأنس أحكام تتعلق بالشهيد نجملها في الآتي:

أولاً: إن كثر القتلى وقلّت الثياب جمعوا وأدرجوا في ثوب واحد الاثنان والثلاثة...

ثانياً: إن كان للواحد منهم ثوب أدرج فيه، فإن قَصُر عن تمام جسمه غُطّي رأسُه وما بقي من بدنه، فإن بدا شيء من رجليه أُلْقِي عليهما أوراق الأشجار والنبات.

ثالثاً: يدفن الشهيد بدمه فلا يُغَسَّلُ لأنه سيبعث كذلك، فيكون الدم كصفته لكن ريحه ريح المسك.

رابعاً: لا يُصلّى على الشهيد إذا قُتل في المعركة، وهذا مذهب الجمهور وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وذهب أبو حنيفة إلى مشروعية الصلاة عليه مستدلاً بأحاديث، لكنها كلها ضعيفة. قال النووي في شرح

المهذب (٢٢٤/٥): فاتفق أهل الحديث على ضعفها كلّها إلا حديث عقبة بن عامر... وانظر البدر المنير للحافظ ابن الملقن (٢٤٣/٥) إلى (ص ٢٥٠)، فقد أفاض في بيان ضعف ذلك، وذكر نقولاً في الموضوع عن العلماء.

أمّا ما جاء في بعض ألفاظ حديث أنس... ولم يصلّ على أحدٍ من الشهداء غيره - يعني حمزة - فهذه الرواية شاذّة غير محفوظة، كما قال البخاري والترمذي والبيهقي وغيرهم. انظر علل الترمذي وسنن البيهقي وفتح الباري (٤٥٣/٣، ٤٥٤).

خامساً: قد نقل البيهقي في معرفة السنن (١٤٣/٣، ١٤٧) عن الشافعي أن الأحاديث جاءت متواترة بأن النبيّ ﷺ لم يصلّ على الشهداء.

وقال في الخلافيات: لا يصحّ عنه ﷺ أنه صلّى على أحدٍ من شهداء أُحد لا على حمزة ولا على غيره.

سادساً: أما حديث عقبة، فقال في البدر المنير (٢٤٨/٥) أجاب الحفّاظ عنه بأن المراد بالصلاة الدعاء، وقوله: صلاته على الميّت دعا لهم كدعاء صلاة الميت، قال: وهذا التأويل متعيّن وليس المراد صلاة الجنازة المعروفة بالإجماع، فإنه ﷺ إنما فعله بعد موتهم بثمان سنين، ولو كان صلاة الجنازة لما أخّرها ثمان سنين... وأصله للنووي في المجموع (٢٢٤/٥، ٢٢٥) وهو أيضاً في الفتح للحافظ في الجنائز (٤٥٤/٣).

سابعاً: في الحديث مشروعيّة دفن الشهداء دفناً جماعياً ثلاثاً وأكثر... في قبرٍ واحد إذا كَثُرت القتلى.

ثامناً: في ذلك سنّية تقديم الأقرأ للقرآن على غيره في اللّحد لجهة القبلة، وذلك يُعدّ من فضائل حَمَلَةِ القرآن، وكم لهم من فضائل جعلنا الله تعالى من أكرمهم عنده وأحبّهم لديه، آمين.

* * *

❋ ثناء النبيّ ﷺ على ربّه ودعاؤه بعد انتهاء المعركة

[٣٠٤] عن عُبَيْدالله بن رِفاعَة الزُّرَقي رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحُد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَوُوا حتى أُثْنِي على ربّي**»، فصاروا خَلْفَه صُفُوفاً، فقال: «**اللّهمّ لك الحمدُ كلّه، اللّهمّ لا قابِضَ لما بسطتَ، ولا باسِط لما قبضتَ، ولا هادِيَ لما أضللتَ، ولا مُضِلَّ لِمن هَدَيتَ، ولا مُعْطِي لما مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مُقَرِّبَ لما باعدت، ولا مُبْعِدَ لما قَرَّبتَ، اللّهمّ ابسُط علينا من بركاتِك، ورحمتِك، وفضلِك، ورِزقِك، اللّهمّ إنّي أسألك النعيمَ المُقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللّهمّ إني أسألك النعيم يوم القيامة، والأَمْنَ يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذٌ بك من شَرّ ما أعطيتَنا، وشرّ ما منعتَ منّا، اللّهمّ حَبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفّنا مسلمين وأحْيِنا مسلمين وألْحِقْنا بالصالحين، غيرَ خزايا ولا مَفْتونين، اللّهمّ قاتِل الكفرة الذين يكذّبون رُسُلك ويصُدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رِجْزَك وعذابك، اللّهمّ قاتِل الكفرة الذين أُوتوا الكتاب، إلٰهَ الحقّ**».

رواه أحمد (٤١٤/٣)، والحاكم (٥٠٧/١) (ج ٢٣/٣، ٢٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي في الوضع الثاني، وأورده النور (١٢١/٦، ١٢٢) برواية أحمد، والبزار (١٨٠٠) وقال: رجاله رجال الصحيح.

هذا دعاء عظيم كلّه توحيد وتمجيد لله عزّ وجلّ وثناء عليه والتجاء إليه وإلحاح في الدعاء وتكرار فيه، وتنوّع من الأسئلة والمطالب، وهو من الجوامع في ذلك.

ففيه مشروعية الدعاء عقب الفراغ من المعارك مع الكفار، وبالأخصّ إذا وقعت للمسلمين هزيمة.

❋ ❋ ❋

[٣٠٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أُصِيبَ إخوانُكم بأُحد جعل الله عزّ وجلّ أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضرٍ تَرِدُ أنهار الجنة تأكُل من ثمارها وتأوِي إلى قناديلَ من ذهبٍ في ظلّ العرش، فلما وَجَدُوا طِيبَ مَشرَبِهِم ومأكَلِهم وحُسْن مُنقَلَبِهم قالوا: يا ليتَ إخوانَنا يعلمُون بما صنع الله لنا، لئلاّ يَزْهَدُوا في الجهاد ولا ينكُلُوا عن الحرب، فقال الله عزّ وجلّ: أنا أُبَلِّغُهم عنكُم»**، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات على رسوله الله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ الآية.

رواه أحمد (٢٦٥/١)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٠)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/٥)، والحاكم (٨٨/٢، ٢٩٧) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

[٣٠٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: أما إنا سألنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: **«أرواحُهم في جوف طير خُضر لها قناديل معلّقةٌ في العرش تَسْرَحُ من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلَعَ عليهم ربُّهم اطِّلاعَةً، فقال: هل تَشْتَهُونَ شيئاً؟ فقالوا: أيَّ شيء نشتهي ونحن نَسرحُ من الجنّة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركُوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربّ نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»**.

رواه ابن أبي شيبة ومسلم في الإمارة (٣٠/١٣، ٣١)، والترمذي في التفسير (٢٨١٧)، وابن ماجه (٢٨٠١) والدارمي وغيرهم.

الحديثان يدلاّن على أن الشهداء يدخلون الجنّة الآن ويتنعّمون فيها ويسرحون منها حيث شاءوا، وأن أرواحهم في جوف طير خضر خلقها الله

عزّ وجلّ لهم، وأنها عندما تنتهي من سرحها في الجنّة تأتي فتأوي إلى قناديل معلّقة بالعرش. أما أجسادهم فهي في مضاجعها من الأرض لا تتغيّر ولا يأكلها التراب.

والقرآن الكريم نصّ في هذه الآية من آل عمران، وفي سورة البقرة بأنهم أحياء يُرزقون، وقد تقدّمت أحكام الشهداء في الجهاد.

* * *

❋ عدد شهداء أُحد وبعض أسمائهم

[٣٠٧] عن أُبَيّ بن كَعْب رضي الله تعالى عنه قال: إنه أُصيب من الأنصار يوم أُحد أربعة وستون، وأُصيب من المهاجرين ستّة، فيهم حمزة فمثّلوا بقتلاهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر لنُرْبِيَنَّ عليهم، فلمّا كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم مرّتين، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، فقال النبيّ ﷺ: **«كُفُّوا عن القَوْم»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٢٧)، وأحمد (١٣٥/٥)، وابن حبان (١٦٩٥)، والحاكم (٣٥٩/٢، ٤٤٦) وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً النسائي في الكبرى (٣٧٦/٦) وحسّنه الترمذي أيضاً وصححه.

وتقدم حديث البراء... فأصابوا منّا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، رواه البخاري.

في الحديثين أن شهداء أُحد كانوا سبعين شهيداً أكثرهم من الأنصار؛ إذ لم يقتل من المهاجرين إلا ستّة نفر، منهم: حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وربيعة بن أكْثَم. وأشهر من قُتِل من الأنصار: عبدالله بن حرام والد جابر بن عبدالله، وسعد بن الربيع،

وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، وعمرو بن الجموح، وأنس بن النضر... رضي الله تعالى عنهم جميعاً، والحديث يأتي مرّة أخرى في فتح مكّة.

* * *

خلاصة هذه الغزوة بصفة عامة

أولاً: إن هذه الغزوة تعتبر من أخطر الغزوات على النبيّ ﷺ وعلى المسلمين حيث هاجمهم الكفار في عُقْر دارهم، وجاءوا بجيش كثيف عرمرم مؤلّف من ثلاثة آلاف مدجّج، ومعهم مائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، ولولا لُطف الله وعنايته لهاجموا المدينة وفعلوا بها الأفاعيل.

ثانياً: خروج النبيّ ﷺ إلى الكفار، كان أحسن وأسَدّ رأياً من القعود بالمدينة حتى يُهَاجِمَهُمْ الكفارُ.

ثالثاً: كان في رجوع المنافقين وخذلانهم للنبيّ ﷺ حكمة بالغة؛ إذ بذلك مَحَّصَ الله عزّ وجلّ المؤمنين ومَيَّزَ بينهم وبين المنافقين الكذّابين.

رابعاً: ما فعله ﷺ من وضع خمسين رامياً على الجبل يحرسون المسلمين فيه من براعته العسكرية وعبقريته ما لا يخفى.

خامساً: كانت وصيّته للرماة بأن لا يبرحوا مكانهم، وإن حصل ما حصل من النصر أو الهزيمة وصيّة عالم بارع بالشؤون الحربية.

سادساً: كانت المرحلة الأُولى من المعركة حليفة المسلمين؛ إذ انتصروا على الكفار الكثير عددهم انتصاراً باهراً من أوّل وَهْلةٍ، فانهزَمَ المشركون أمامَهم هاربين برجالهم ونسائهم والمسلمون وراءَهم يضربون ويقتلون ويَغْنَمون، وكان ذلك نتيجة طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهذه المرحلة هي التي تحدّثت عنها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، تحسونهم أي تقتلونهم، فكان الله

﴿تصعدون﴾ قُرِئت بفتح التاء من الصعود وبضمّها بمعنى تبعدون في الأرض فارّين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تُعَرِّجُون ولا تقيمون مع أحد.

ثاني عشر: وتأتي هنا أيضاً معجزة أخرى، وهي ما في الحديث التالي:

[٣٠٨] عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: غَشِينا ونحن في مصافّنا يومَ أُحُدٍ النُّعاس، قال: فجعل سيفي يَسقُط من يدي وآخذُه، ويسقط من يدي فآخذه، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَمٌّ إلا أنفُسُهم أجْبَنُ قوم وأرْعَبُه وأخْذَلُه للحق. وفي رواية: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه، ويسقط وآخذه. وفي رواية: رفعت رأسي يوم أُحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يَمِيدُ تحت حَجفَتِه من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.

رواه أحمد (٤/٢٩)، والبخاري في المغازي (٨/٣٦٧)، والترمذي في التفسير (٢٨١٣، ٢٨١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٣١٦) ونحوه عن الزبير أشار إليه الترمذي ورواه ابن راهويه كما في المطالب العالية (٤٣١٥) وسنده جيد كما قال البوصيري، وقال الترمذي: حسن صحيح...

فالآية والحديث يشيران إلى ما وقع للصحابة من النِّعمة والرِّفق واللُّطف بهم حيث أخذهم النعاس والأمان بعد الغمّ الذي أصابهم، وأن ذلك كان خاصّاً بالمؤمنين الصادقين. أما غيرهم من أهل الريب، فكانوا خائفين مرعوبين لا يَهمُّهم شيء إلا نجاة أنفسهم دون النبيّ ﷺ وأصحابه، ولذلك لم يصبهم نعاس.

فهذه معجزة ظاهرة إذ الوقت كان وقت خوف من هجوم المشركين، ورغم ذلك ألقى الله عليهم النعاس لطفاً بهم من الله تعالى وإكراماً للنبيّ ﷺ.

ثالث عشر: وقد ظهرت في هذه المحنة شهامة جمع من أبطال

الصحابة واستماتتهم في الدفاع عن النبيّ ﷺ وحمايته من الأعداء، وكان أشدّهم بلاء في ذلك سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وهما من المهاجرين والسابقين ومن العشرة المبشّرين بالجنّة ثم السبعة الأنصاريون الذين أُفرِدُوا مع رسول الله ﷺ ورجلين من قريش، فقُتِل الأنصار السبعة دون رسول الله ﷺ ثم الأحد عشر الذين قُتِلُوا بعد دفاع وقتال حمايةً لرسول الله ﷺ، وكان من أشدّهم قتالاً ودفاعاً عن رسول الله ﷺ في ذلك اليوم طلحة بن عبيدالله وأبو طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنهما وعن جميع الصحابة.

رابع عشر: وكان نزول الملائكة في هذه الغزوة من تأييد الله عزّ وجلّ ونصره لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وإمداداً لهم. وسلك الله تعالى معهم في ذلك طريق الأسباب، وإلاّ فكان في قدرة الله وإرادته أن ينصرهم ويدفع عنهم الأعداء بلا قتال ولا لجوء لنزول الملائكة، لكن الله عزّ وجلّ له سنن في كونه لا تتخلّف، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

خامس عشر: كان من نتائج هزيمة الصحابة في هذه الغزوة إعجاب الكفار وزهوهم بما حصل لهم من النصر وانهزام الصحابة، كما يتجلّى ذلك في كلمة أبي سفيان التي نادى بها النبيّ ﷺ وصاحبيه الصدّيق والفارق رضي الله تعالى عنهما، حيث اعتزّ بأصنامه القذرة وقال: «اعْلُ هُبَل»، وقوله: «إنَّ لنا العُزّى ولا عُزّى لكم»، وقوله مُتَبَجِّحاً مع غرور: «يومٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ والحَرْبُ سِجالٌ».

وكان إلى جانب هؤلاء المشركين شماتة جماعة من المنافقين بالمسلمين وما نزل بهم وجعلوا يعيرون من خرج إلى أُحد ورجع فارّاً، وقالوا: ﴿لَوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾...

سادس عشر: فيما فعله أنس بن النضر، وسعد بن الربيع من الصمود واقحام جيش الكفار وقتالهما وصبرهما حتى أُثخنا وأُجْهِزَ عليهما، رغم ما

عزّ وجلّ ذكره: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣١٧)، وابن أبي حاتم (٣/٣١٦)، وابن جرير (٤/١٨٠) كلّهم في التفسير وسنده صحيح، ورواه الطبراني في الكبير (١٦٣٢) كما أورده الهيثمي (٦/١٢١)، وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة، والحديث صححه الحافظ والسيوطي وغيرهما ولا يعلّ بإرساله.

لما رجع النبيّ ﷺ مساء يوم السبت إلى المدينة، وبات الصحابة يداوون جراحاتهم بلغهم من الغد يوم الأحد أن المشركين يريدون الرجوع إلى المدينة ليتمّموا انتصارهم، فندب ﷺ الصحابة إلى الخروج إليهم، وأمر أن لا يخرج إلا من حضر الغزوة، فأجابوه إلى ذلك، وكان ممن تقدم بين يديّ النبيّ ﷺ الصدّيق والزبير في سبعين راكباً كما في الحديث الأول، ثم تبعهم ﷺ بباقي الجيش وصار حتى بلغ حمراء الأسد، وهي من المدينة على بضعة أميال، فبلغ ذلك أبا سفيان فألقى الله في قلبه وقلوب أصحابه الرعب، فانصرفوا ثم رجع إلى المدينة سالماً، وهنالك ظفر بأبي عِزّة الشاعر الذي كان منّ عليه ببدر بعد أن تعهّد أن لا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد أَقِلْني وامْنُنْ عليّ ودَعْنِي لبناتي وأُعْطِيكَ عَهْداً أن لا أعُودَ لمِثْل ما فعلتُ، فقال ﷺ: **«لا والله لا تمسحُ عارضيك بمكّة وتقول: خدعت محمداً مرتين: لا يُلْدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين»**، ثم أمر بقتله فضُرِبت عنقه.

* * *

❋ بعض حوادث هذه السنة غير ما سبق: تَزَوُّجه ﷺ بزَيْنَب بنتِ خُزَيْمَة

ذكر المؤرخون في ترجمة زينب بنت خزيمة أنها كانت تحت عبدالله بن جحش الذي استشهد بأُحد، وقيل: كانت تحت الطفيل بن الحارث بن المطلّب ثم خلف عليها أخاه عبيدة بن الحارث، فقُتل ببدر.

فخطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها، فجعلت أمرها إليه ﷺ، فتزوّجها في رمضان سنة ثلاث وأقامت عنده بضعة أشهر فماتت رضي الله تعالى عنها، وكانت يقال لها أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدّق عليهم، وكانت أخت أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأُمّها رضي الله تعالى عنهما.

* * *

❋ ولادة الحسن بن عليّ وفاطمة عليهم السلام

ذكر ابن سعد في طبقاته وابن جرير في تاريخه وغير واحد من المؤرخين وأهل السيرة أن الإمام سيدنا الحسن بن الإمام سيدنا عليّ المطلبي الهاشمي سبط رسول الله ﷺ وريحانته وأحد سيدي شباب أهل الجنة وُلِد رضي الله تعالى عنه في نصف شهر رمضان من السنة الثالثة، وقيل غير ذلك. قال الحافظ في الإصابة: والأول أثبت. قال ابن جرير: وفيها عَلِقَتْ ـ يعني مولاتنا فاطمة ـ بالحسين عليهما السلام، وتأتي فضائلهم إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ تحريم الخمر

وفي هذه السنة حرّم الله تعالى الخمر، وكان ذلك تدريجياً لما كان عليه العرب من محبّتهم الشديدة لها، وكان تحريمها تابعاً لحوادث تُنَفِّر عنها وتُقَبِّحُها في نفوس مُتَعَاطِيها، فأوّل ما جاء فيها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ فمنفعة الميسر وهو القمار التصدّق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجِسْم وقلبُ الجبان شُجاعاً وغير ذلك، وبعد هذه الآية تركها البعض وأصَرَّ آخرون على شربها، فصلّى بعض الصحابة المغرب إماماً بالناس، وكان متأثّراً بالشراب فخلَط في القرآن،

فنهى الله تعالى عن قرب الصلاة مع السكر، فقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾، فكان الرجل يشربُها في الأوقات التي لا صلاة فيها؛ كبَعْد العشاء أو بعد صلاة الصبح.

ولما وقع اعتداء من بعض السكارى حيث ضرب آخر بعظم حتى شجّه نزل تحريمها بتاتاً، فجاءت الآية الكريمة من سورة المائدة تنهى عنها وتبيّن مضارها ومفاسدها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾، فكانت هذه الآية هي الفاصل النهائي لتحريمها تحريماً أبدياً. وقد ذكرت ما جاء في تحريمها من الأحاديث وبيان ما في هذه الآية من الدلائل على تحريمها في التفسير وفي كتاب الأشربة، فمن شاء التوسّع في ذلك فليرجع إليها وبالله التوفيق.

* * *

❊ السنة الرابعة
اغتيال خالد بن سُفيان الهُذَليّ على يد عبدالله بن أُنَيْس

[٣١٢] عن عبدالله بن أُنَيْس رضي الله تعالى عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: **«إنه قد بلغني أن خالِدَ بن سُفيان بن نَبِيح يَجْمَعُ لي الناسَ لِيغْزُوَني وهو بعُرَنَة فأْتِه فاقْتُلْه»**، قال: يا رسول الله انْعَتْه لي حتى أعْرِفَه، قال: **«إذا رأيتَه وجدتَ له قُشَعْرِيرَة»**، قال: فخرجت مُتَوَشِّحاً بسيفي حتى وقعتُ عليه وهو بعُرَنَة مع ظُعُنٍ يرتاد لهنّ منزلاً، وحين كان وقت العصر، فلما رأيتُه وجَدتُ ما وصفَ لي رسول الله ﷺ من القُشَعْرِيرَةِ، فأقبلتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تَشغَلُنِي عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أُومِئُ برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: مَن الرجل؟ قلتُ: رجل من العرب سَمِع بك وبِجَمْعِكَ لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا

أمْكَنَني حملت عليه بالسيف حتى قتلْته ثم خرجت وتركت ظَعَائِنَه مُكِبّات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني فقال: «**أفْلَحَ الوَجْهُ**»، قال: قلتُ: قتلتُه يا رسول الله، قال: «**صدقتَ**»، قال: ثم قام معي رسولُ الله ﷺ فدخل بَيْتَه فأعطاني عصا، فقال: «**أمْسِكْ هذه عندك يا عبدالله بن أنيس**»، قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أُمْسِكَها، قالوا: أوَلاَ تَرْجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لِمَ أعْطَيْتَنِي هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقلّ الناس المُتَخَصّرُون يومئذ يوم القيامة**»، فقرنها عبدالله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فصُبَّتْ معه في كفنه ثم دُفِنا جميعاً.

رواه أحمد (٤٩٦/٣)، وأبو داود في باب صلاة الطالب (١٢٤٩)، والبيهقي في الكبرى (٢٥٦/٣) من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبدالله بن أنيس عن أبيه به، واللفظ لأحمد ورجاله ثقات غير ابن عبدالله ذكره ابن أبي حاتم وسكت عن حاله. أما ابن حبان فذكره في الثقات رغم أنه لم يَرْوِ عنه إلا محمد بن جعفر، وهو وإن كان ثقة من رجال الصحيحين فإنه لا يرفع عنه الجهالة، ومع ذلك فقد سكت عنه أبو داود والمنذري وجوّده ابن كثير في تفسيره وحسّنه الحافظ في الفتح، وأورده النور في المجمع (٢٠٣/٦، ٢٠٤) برواية أحمد والطبراني، وقال: رجاله ثقات ـ يعني رجال الطبراني ـ.

«أُنَيْس» هو مصغر أنس. «بعُرنة» ـ بضم العين ثم راء ونون مفتوحتين ـ وادٍ بحذاء عرفات. «قُشَعْرِيرَة» ـ بضم القاف وفتح الشين وسكون العين بعدها راء مكسورة فياء ثم راء مفتوحة ـ هي رعدة تصيب الإنسان من الخوف... «ظُعُن» ـ بضم الظاء والعين ـ جمع ظعينة، والمراد نساؤه. «يَرْتادُ» أي يطلب لهنّ منزلاً أو يتحرى لهم مكاناً ليّناً. «المتخصرون» أو المختصرون أي: المتّكؤون على المخاصر جمع مخصرة وهي ما يُمْسِكُهُ الإنسان بيده من عصا وغيرها، والمراد به هنا الذين يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحة يتكؤون عليها.

كان من آثار ما أُصيب به المسلمون بأُحد أن تجرّأت عليهم القبائل العربية وحاولت الإغارة على المدينة لانتهاب خيرها، وحَسِبوا أن ما فيها أصبح غنيمة باردة لهم، وجعل خالد بن سفيان الهذلي يجمع الجموع من القبائل لحرب المسلمين والهجوم على المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إليه أحد أبطاله الشجعان ليقتله، فخرج حتى وصل إليه بعد مراحل تربو على العشر، فخدعه بمعسول كلامه حتى وثق به، فلما تمكّن منه علاه بسيفه فقتله، ثم كرّ راجعاً ليبشّر النبيّ ﷺ بقتله.

وفي هذه القصة لاغتيال ذلك العدوّ فوائد تتجلّى في الآتي:

أولاً: في ذلك مغامرة رائقة وفداء رائع من هذا الصحابي الجليل في اغتيال ذلك العدوّ الذي كان يكيد للنبيّ ﷺ وللإسلام والمسلمين.

ثانياً: فيها مشروعية قتل من تظاهر بالعداوة للإسلام والمسلمين على غرّة وخدعة، وهذا لا خلاف فيه بين أئمّة الإسلام وعلمائه.

ثالثاً: فيما فعله هذا الصحابي من الصلاة ماشياً مع استدبار الكعبة صحة تلك الصلاة، وأن الصلاة قد تسقط بعض شروطها وفرائضها للحاجة والضرورة كهذه الحادثة، وقد سمّى الفقهاء هذه الصلاة على هذه الحالة صلاة الطالب...

رابعاً: كان من مكافأة رسول الله ﷺ لعبدالله بن أنيس على هذا الفداء أن أعطاه عصا يأتي بها يوم القيامة كعلامة بينه وبينه ﷺ حتى يخصّه بشفاعة ونفع في ذلك اليوم العظيم.

* * *

❁ قصة أصحاب الرجيع

[٣١٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عَشْرَةَ رَهْطٍ سريةً عَيْناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جدّ عاصم بن عمر، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأة، وهو بين عُسْفان ومكّةَ، ذُكِرُوا لِحَيّ

من هُذَيْل يقال لهم بنو لِحْيان، فنفَرُوا لهم قريباً من مائتي رجل كلُّهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هٰذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لَجَأُوا إلى فَدْفَدٍ، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعْطُونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً.

قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أمّا أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر، اللّهم أخبر عنّا نبيّك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خُبَيْب الأنصاري، وابن دَثِنَة ورجلٌ آخر، فلما اسْتَمْكَنُوا منهم أطلقوا أوتار قِسِيِّهِم فأوْثَقُوهُمْ، فقال الرجل الثالث: هذا أوّل الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأُسوة ـ يريد القتلى ـ فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخُبَيْب، وابن دَثِنَة حتى باعوهما بمكّة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، فأخبرني عبيدالله بن عياض أن بنت الحارث أخبرتْه أنهم حين أجمعوا قتله فاستعار من بعض بنات الحارث مُوسًى يَسْتَحِدُّ بها فأعارتْه، فدرج بنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه فوجدتْه مُجْلِسَه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعةً عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك.

قالت: والله ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد وما بمكّة من ثمرة.

وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ، قال لهم خبيب: دعوني أصلّي ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللّهمّ أحْصِهم عدداً، واقتلْهم بَدَداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

فَلَسْتُ أُبالِي حِين أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كان لله مَصْرَعِي
وذلِكَ في ذاتِ الإلٰهِ وإنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ علَى أوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه أبو سَرْوَعَة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب سنّ لكل مسلم قتل صبراً الصلاة، فاستجاب الله تعالى لعاصم بن ثابت يوم أُصيب فأخبر النبيّ ﷺ أصحابه خبرهم وما أُصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حُدِّثُوا أنه قُتِل لِيُؤْتُوا بشيء منه يُعْرَفُ، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبُعِثَ على عاصم مثلُ الظُّلَّة من الدَّبْر فحَمَتْه من رسولهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً.

رواه أحمد (٢/٢٩٥، ٣١٥)، والبخاري في المغازي (٨/٣٨٢، ٣٨٧) وفي مواضع، وأبو داود رقم (٢٦٦٠، ٢٦٦١) في الجهاد، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٢٣، ٣٢٥) وغيرهم.

قوله: «فدفد» بفتح الفاءين بينهما دال ساكنة هي الرابية المشرفة. وقوله: «قطفاً من عنب» أي: عنقوداً. وقوله: «بدداً» بفتحات أي: متفرّقين. وقوله: «أوصال» جمع وصل وهو العضو و«الشلو» بكسر الشين الجسد و«الممزع» أي: المقطّع، ومعناه: وإن يشأ الله تعالى يبارك على أعضاء جسد يقطع. وقوله: «مثل الظلة» ـ بضم الظاء ـ السحابة. و«الدبر» ـ بفتح الدال وسكون الباء ـ هي الزنابير.

في قصة هؤلاء الشهداء العشرة فوائد، وهي كما يلي:

أولاً: فيها مشروعية إرسال الجواسيس يتجسّسون على أحوال الكفار وما يريدون... وهذا لا خلاف فيه بين سائر الدول المسلمة والكافرة القديمة والحديثة.

ثانياً: الصحيح أن هذه السرية كانت في شهر صفر أول السنة الرابعة...

ثالثاً: لا ينبغي للمؤمن أن ينزل على عهد كافر وأن يثق به، بل يجب عليه أن يصمد ويقاتل حتى يُقتل، وأن لا يستأسِرَ، وفي القضية خلاف بين الفقهاء.

رابعاً: مشروعية صلاة ركعتين لمن يقتل صبراً، ولا خلاف في ذلك يُعْرف.

خامساً: إثبات كرامات الأولياء حيث إن الله عزّ وجلّ أكرم عاصماً باستجاب دعوته فأبلغ نبيه ﷺ ما حلّ بهم من طرف الأعداء؛ هذه كرامة، وكرامة ثانية حماية الله عزّ وجلّ لجسده من الكفار بإرسال سحابة من الزنابير ظلّلت عليه حتى لم يقدروا من الدنوّ منه، ثم كرامة ثالثة؛ وقعت لخبيب حيث إن الله عزّ وجلّ كان يرزقه العنب وهو مقيّد في أسره وليس للعنب وجود بمكّة في ذلك الإبان، فهذه كرامات أكرم الله بها أولئك الكرام وما عند الله أكرم وأبقى.

* * *

❁ قصة القراء السبعين ببئر معونة

[٣١٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء ناس إلى النبيّ ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يُعلّمونا القرآن والسُّنّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القرّاء فيهم خالي حرام، يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبيّ ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللّهمّ بلّغ عنّا نبيّنا أنّا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنّا، قال: وأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت وربّ الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«إن إخوانكم قد قُتِلوا، وإنهم قالوا: اللّهم بلّغ عنّا نبيّنا أنّا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنّا»**.

رواه مسلم في الإمارة (٤٦/١٣، ٤٧) بهذا السياق.

وفي رواية: أن رِعْلاً وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ وبَنِي لِحْيان اسْتَمَدُّوا رسولَ الله ﷺ على عدوٍّ فأمدَّهم بسبعين من الأنصار كنا نسمّيهم القراء في زمانهم، كانوا يَحْتَطِبُون بالنهار ويُصلّون بالليل حتى إذا كانوا ببئر معونة قَتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبيّ ﷺ فقنت شهراً يدعو في الصبح على

أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً ثم إن ذلك رفع: «**بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا**».

رواه أحمد (١٦٧/٣، ٢٥٥)، والبخاري في المغازي (٣٨٩/٨) وفي مواضع، ومسلم في المساجد (١٧٨/٥)، وابن سعد في الطبقات (٥٣/٢، ٥٤).

بئر معونة موضع شرقي المدينة بين أرض بني عامر وبني سليم ناحية نجد كانت به هذه الوقعة في شهر صفر من هذه السنة عقب وقعة الرجيع، وقوله: ابعث معنا رجالاً يُعلّمونا القرآن والسنّة، وقوله في الرواية الأخرى: استمدّوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ إلخ، وقوله في رواية أخرى للبخاري: بعث النبيّ ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، وقوله في رواية لكعب بن مالك التي رواها عبدالرزاق رقم (٩٧٤/١)، والطبراني برجال الصحيح كما في المجمع (١٢٦/٦، ١٢٧): جاء ملاعب الأسِنّة إلى النبيّ ﷺ فقال: فابعث إلى أهل نجد من شئت، فأنا لهم جارٌ. في هذا اختلاف وتعارض، وقد حاول الحافظ الجمع بين بعض ذلك فلم يفد شيئاً، وعلى أيٍّ فالمقصود هو أن النبيّ ﷺ بعث سبعين رجلاً من خيار المسلمين وقرّائهم للدعوة إلى الله تعالى فغدر بهم الكفار فقتلوا جميعهم إلا رجلاً أو رجلين، وحزن عليهم النبيّ ﷺ حزناً شديداً وجعل يقنت ويدعو على تلك القبائل شهراً كاملاً في جميع الصلوات الخمس بعدما يرفع رأسه من الركعة الأخيرة وأشرك معهم في القنوت بني لحيان الذين قتلوا عاصماً وأصحابه في سرية الرجيع، هذا مما لا ينبغي أن يُخْتَلف فيه، وما عدا ذلك فالروايات فيه مختلفة وارجع إلى كتب السيرة. وفي هذه القصة فوائد:

منها: ما كان عليه الصحابة من دراستهم للقرآن وقيام الليل ومساعدتهم الفقراء أهل الصفة.

ومنها: مشروعية إرسال البعوث للدعوة إلى الله تعالى بشرط أن يكونوا من أهل العلم والدين وتزكية النفوس.

ومنها: أن من كان في طريق الدعوة وقُتِل لذلك كان فائزاً سعيداً، ولذلك جاء في الرواية أن حَرَاماً ابن ملحان أخا أمّ سُلَيْم خالَ أنسٍ لمّا قتلوه وهو يحدّثهم عن الإسلام قال: الله أكبر فزت وربّ الكعبة، ونضح الدم على وجهه ورأسه فرحاً بما ناله من الشهادة.

ومنها: إكرام الله عزّ وجلّ لأولئك القرّاء حيث لقوا الله فرضي عنهم ورضوا عنه، وسألوه أن يبلّغ نبيّه ﷺ عنهم ما نالوه من حفاوة ورضوان.

ومنها: أن الله تعالى لمّا أوحى إلى نبيّه ما نزل بهم كان ذلك قرآناً يُتلى ثم نُسخ ورُفع.

ومنها: مشروعية القنوت في سائر الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة، وبهذا قال كل الأئمّة مالك والشافعي وأحمد والظاهرية وأهل الحديث إلا أبا حنيفة رحم الله الجميع. أما مشروعيته لغير ذلك، فقال به مالك والشافعي في الصبح، وابن حزم في جميع الصلوات.

[٣١٥] وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قُتِل الذين ببئر معونة وأُسِرَ عَمْرُو بن أُمَيّة الضَّمْرِي قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل فقال له عمرو بن أُمية: هذا عامر بن فُهَيْرة، فقال: لقد رأيته بعدما قُتِل رُفِع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وُضِع...

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٩٣، ٣٩٤) وهو وإن كان مرسلاً فالقصة واردة من طرق أخرى متّصلة.

فهذه كرامة حصلت لعامر بن فهيرة رضي الله تعالى عنه بعد موته وهو مولى لأبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه، وكان ممّن صحبهم في الهجرة. وقوله في هذه الرواية: وأُسِرَ عَمْرو بنُ أُمَيّة الضَّمْرِي جاء في كتب السّيرة عند ابن إسحاق وغيره أن عمرواً هذا كان ورجلاً آخر في سرح القوم، فلما قُتل إخوانهم جاءوا وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة. أما الرجل

الأنصاري، فقاتل حتى قُتِل، وأما عمرو بن أُمية فأسَرُوه، ولما علم عامرُ بن الطفيل رئيسُ القوم أنه من مضر أطلقه بعد أن جَزَّ ناصيته واعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم. ذكره ابن إسحاق في قصة طويلة مرسلة.

وبالجملة، فهذه الحادثة والتي قبلها كان لهما الأثر الشديد في نفس النبيّ ﷺ ونفوس أصحابه، وتألَّمُوا لذلك أشدّ الألم، ولذلك دعا النبيّ ﷺ على أولئك القبائل شهراً كاملاً في جميع الصلوات الخمس: **«اللّهمّ عليك بِرِعْلٍ وذكوان وعُصَيّة عصت الله ورسوله ﷺ»**.

[٣١٦] وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قنتَ رسولُ الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعِشاء وصلاة الصبح في دُبُرِ كلِّ صلاة إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياءٍ من بني سليم على رعل وذكوان وعُصية ويؤمّن مَنْ خلفه...

رواه أحمد (٣٠١/١)، وأبو داود (١٤٤٣)، والحاكم (٢٢٥/١) وصححه ووافقه الذهبي.

* * *

❁ غزوة بني النضير

[٣١٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل حتى ظنّوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قيل له: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قيل: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير.

رواه البخاري في المغازي (٣٣٩/٨)، ومسلم في التفسير (١٦٥/١٨).

[٣١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: حَرَّقَ رسولُ الله ﷺ نَخلَ بني النّضير وقَطَع، وهي البُوَيْرةُ فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم

مِن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفي رواية: أن النبيّ ﷺ حرّق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

رواه البخاري (٨/٣٣٥، ٣٣٦)، ومسلم (١٧٤٦)، والترمذي (١٤١٩)، وأبو داود (٢٦١٥) كلّهم في الجهاد، ورواه الترمذي أيضاً في التفسير (٣٠٨٥)، وأبو داود (٢٦١٥)، وابن ماجه (٢٨٤٤).

[٣١٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت غزوة بني النضير ـ وهم طائفة من اليهود ـ على رأس ستّة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجَلاَءِ، وعلى أنّ لهم ما أقلّت الإبلُ والأمْتِعَة والأموالُ إلا الحلقةَ ـ يعني السلاح ـ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الآية، فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

رواه الحاكم (٢/٤٨٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/٤٤٤) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

[٣٢٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير، وأقرّ قريظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فآمَنوا وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلّهم: بني قينُقاع، وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٣٣، ٣٣٤).

[٣٢١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية، قال: «اللينة» النخلة، ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: «استنزلوهم من حصونهم»، قال: وأمروا بقطع النخل فحكّ في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلَنَسْأَلَنَّ رسولَ الله ﷺ هل

لنا فيما قطعنا مِن أجْر، وهل علينا فيما تركنا من وِزر، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾ الآية.

رواه الترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٨٣/٦) بسند صحيح.

بنو النضير من القبائل اليهودية الثلاث التي كانت بضواحي المدينة، وأصلهم من نسل نبيّ الله هارون عليه السلام، وكان عبدالله بن سلام الصحابي منهم، وكذا صفية أمّ المؤمنين كانت منهم. وسكن أهلها خيبر بعد جلائهم.

وقد قدمنا أن الكفار بعد هجرة النبيّ ﷺ كانوا ثلاثة أقسام: قسم وادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يمالؤا عليه عدوّه، وهم طوائف اليهود: قينُقاع، والنضير، وقريظة؛ وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش ومَن حالفهم، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف العرب، فمنهم من كان يحبّ ظهوره في الباطن كخزاعة، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوّه باطناً وهم المنافقون.

فكان أوّل من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوّال بعد وقعة بدر وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات كما تقدم.

ثم نقض العهد ثانياً بنو النضير، وكان رئيسهم حُيَيّ بن أخطب، وكان سبب ذلك انهزام المسلمين بأُحد، فإنه عقب ذلك نكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكّة وحالفوا أبا سفيان، فندب رسول الله ﷺ إلى من يقتل كعباً، فكان محمد بن مسلمة وأصحابه كما تقدم، واتّفق أن قتل عمرو بن أُمية الضَّمري رجلين من بني عامر خطأً، فقال له النبيّ ﷺ: **«لقد قتلت قتيلين لأُدِيَنَّهما»**، فخرج في جماعة من أصحابه لبني النضير ليُكَلِّمهم في إعانته على دية الرجلين، فلما أتاهم وكلّمهم في ذلك قالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، فأرادوا الغدر به بإلقاء صخرة عليه من فوق سطح بيت، فجاء رسولَ الله الخبرُ من الله تعالى بما همّوا به، فنهض سريعاً وتوجّه إلى المدينة ولحقه أصحابه فأخبرهم بما أراد اليهود، ثم أرسل إليهم

رسول الله ﷺ: «**أن اخرجوا من بلدي وقد أجّلتكم عشراً**»، فلما أرادوا التهيّؤ للخروج بعث إليهم عبدالله بن أبي المنافق: لا تخرجوا فإنكم إن قوتلتم لننصرنّكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، فعند ذلك تربّصوا وتحصّنوا في حصونهم، وظنّوا أنها مانعتهم من الله، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم ستّ ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من ابن أُبَيّ مناصرة بل خذلهم كما خذل من قبلهم بني قينقاع، فتنازلوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفّ عن دمائهم ويجليهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم وأمتعتهم إلا آلة الحرب، ففعل ﷺ فجعلوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ولما خرجوا نزل بعضهم بخيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان رئيسهم حُيَيّ بن أخطب ممّن نزل بخيبر.

وأسلم منهم: يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب.

* * *

❁ فوائد القصة وأحكامها

اختلف أهل السّير في وقت هذه الغزوة وتاريخها، فذهب الزهري نقلاً عن عروة بن الزبير وهو الذي روته عائشة أنها كانت قبل أُحد، وذهب ابن إسحاق وأكثر أهل المغازي أنها كانت بعد أُحُد وبئر معونة، وأيّد هذا الرأي ابن حزم في جوامع السِّير وابن القيم في زاد المعاد. قال ابن القيم: بل الذي لا شكّ فيه أنها كانت بعد أُحُد، والتي كانت بعد بدر بستّة أشهر هي غزوة بني قينُقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية.

وفي القصة مشروعيّة قطع الأشجار وتحريق المزارع... عند الجهاد لإغاظتهم، وليكون ذلك أدعى لاستسلامهم، كما فيها أن أراضي النضير ومزارعهم ونخيلهم تركوها نفلاً لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصّة لم يخمسها لأنها لم يُوجَفْ عليها بخيل ولا ركاب، فكان يأخذ منها

نفقة سنة لأهله والباقي يجعله مجعل الله عزّ وجلّ والمصالح العامّة.

وقد نزلت في هذه القصة وغزوة النضير عدة آيات، فنزل في شأن اليهود قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

وقال في الفيء: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال في شأن المنافقين في زعمهم مناصرة اليهود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ الآية.

قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أول مرة حشروا فيها للشام وأخرجوا من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذلّ والخزي قبلُ. وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾، يعني: لولا أن الله قضى عليهم بالخروج من أوطانهم بالأهل والأولاد لعذّبهم في الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم قريظة، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، أي: سبب ذلك مخالفتهم لله ولرسوله وارتكابهم ما ارتكبوا من جرائم ونقض للعهود. وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، الفَيْء ما يؤخذ من الكفار من غير قتال كما وقع من بني النضير، فإن أموالهم أخذت بدون حمل الإبل وغيرها على السير ولا ركوب عليها لقطع شقّة، وما كان كذلك كان خاصّاً لله ولرسوله ﷺ لا يخمّس ولا حظّ فيه للحاضرين على العموم، وقد قدّمنا الكلام على هذا في التفسير وفي الجهاد.

* * *

❋ غزوة بدر الثانية

[٣٢٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد وبلغوا الرَّوْحاء، قال أبو سفيان: لا محمد قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر بني عُيَيْنة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، وذلك أن أبا سفيان قال للنبيّ ﷺ: مَوْعِدُك موسمُ بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجَع. وأما الشُّجاعُ فأخذ أُهبة القتال والتجارة فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوّقوا، فأنزل الله عزّ وجلّ ذكره: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

رواه النسائي في الكبرى (٦/٣١٧)، وابن جرير (٤/١٨٠) بسند صحيح وقد تقدم في غزوة حمراء الأسد، «الكواعب» الفتيات اللاتي برزت ونهدت ثديهن.

كانت بدر يعقد فيها سوق تجاري في شعبان من كل سنة، ولما حلّ الأجل الذي جعله أبو سفيان موعداً في بدر ولم يتيسّر له الخروج أراد أن يخذل المسلمين عن الخروج ويُرْعبهم، فاسْتأْجَر نُعَيْم بن مَسْعُود الأشجعي ليأتي المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة، فقدم نعيمُ المدينة فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فلم يلتفت عليه السلام لهذا الإرجاف اتكالاً على ربّه، بل قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فخرج ﷺ بألف وخمسمائة من أصحابه ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً، فأقاموا ببدر لا يشاركُهم في تجارته أحد، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية.

[٣٢٣] وعن ابن عباس أيضاً قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِي في النار، وقالها مُحمد ﷺ حين قالوا: إن النّاس قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهُم فزادَهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

رواه البخاري في التفسير (٢٩٧/٩)، والنسائي في الكبرى (٣١٦/٦)، وابن جرير (١٨٢/٤).

فالآية الأولى وهي: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلخ، جاءت في غزوة حمراء الأسد. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ جاءت في شأن بدر والخروج لها.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ المراد به نعيم بن مسعود، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ هو أبو سفيان وأصحابه، فزادهم ذلك القول إيماناً ويقيناً بالله عزّ وجلّ، ولذلك قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا أمرهم ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ المفوّض إليه الأمر هو سبحانه.

وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي: رجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ بسلامة وربح في تجارتهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾ لم يصبهم سوء لا قتل ولا جراحة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أي: القائل لكم إن الناس قد جمعوا ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ وهم الكفار ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الآية، بمعنى أن الشيطان هو الذي حملهم على تلك المقالة فلا تخشوهم وخافون في ترك أمري إن كنتم مؤمنين.

* * *

❁ زواجه ﷺ بأمّ سلمة رضي الله تعالى عنها

[٣٢٤] عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما توفي أبو سلمة وانقضت عدّتها خطبها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن فِي ثلاثَ خصال: أنا امرأةٌ كبيرةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أكبرُ منك»، وأنا امرأةٌ غيورٌ، قال: «أدْعُو الله عزّ وجلّ فيُذْهِبُ غيرَتك»، قالت: يا رسول الله وإني امرأة مَصْبِيَّةٌ، قال: «هم إلى الله ورسوله»، فتزوّجها فجعل يأتيها فوجدَها تُرْضِع فانصرف ثم أتاها فوجدها تُرضع فانصرف، قال: فبلغ ذلك عمّار بن

ياسر فأتاها[1] فقال: خُلْتِ بَيْنَ رسولِ الله ﷺ وبينَ حاجَتِهِ هلمّ الصبية، قال: فأخذها فاسترضع لها فأتاها رسول الله ﷺ فقال: «أين زَنَابٌ»، يعني زينب، قالت: يا رسول الله أخذها عمار، فدخل بها. وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «إني آتيكم الليلة»، قالت: فقمت فأخرجتُ حبّاتٍ من شعير كانت في جِرابٍ وأخرجتُ شحماً فعَصَرْتُه له، قالت: فبات النبيّ ﷺ ثم أصبح، فقال حين أصبح: «إنْ لكِ على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعتُ لكِ وإن أَسبَع أسبّع لنسائي».

رواه أحمد (٣٠٧/٦، ٣١٣، ٣١٤) مطوّلاً، ورواه مسلم (٢٢٠/٦، ٢٢٢)، وأبو داود، وابن ماجه بعضه، وأخرجه ابن سعد (٩٠/٨)، والبيهقي في الدلائل (٤٦٤/٣)، وللحديث طرق وألفاظ وقد قدّمنا بعض طرقه وألفاظه في التفسير وفي النكاح.

أم سلمة هي هند بنت أبي أُمَيّة بن المغيرة المخزومية القرشيّة أسْلَمَتْ قديماً وهاجرتْ مع زوجها وابن عمّها أبي سلمة إلى الحبشة فوُلدتْ لهما بها سَلَمةُ ثم قَدِمَا مكّة وهاجرا إلى المدينة كما تقدّم، ووُلد لها بالمدينة عُمَرُ ودرّة وزينبُ، وتوفي عنها أبو سلمة رضي الله تعالى عنه من جراحات أصابته بأُحد، فلما انقضت عدّتها من نفاس زينب تزوّجها رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع، كذا في الإصابة وغيرها. وقيل: توفي أبو سلمة في جمادى الآخرة وتزوّجها رسول الله ﷺ في شوّال كما عند ابن سعد (٨٧/١) وغيره، وذكره الحاكم أيضاً وسكت عنه الذهبي.

وتوفيت سنة إحدى وستين وهي آخر نساء النبيّ ﷺ موتاً، بعد أن جاءها نعي قتل الحُسين عليه السلام، وسيأتي شيء من هذا في فضائلها إن شاء الله تعالى.

وفيما أجاب النبيّ ﷺ أمّ سلمة عمّا اعتذرت به وما فعله معها وتحمله، غايةٌ في حُسْن الخلق والملاطفة والمجاملة والمعاملة الطيّبة، وكيف لا والله عزّ وجلّ يقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

---

(١) كان عمار أخاها لأمها.

❋ ولادة الإمام الحُسَيْن عليه السلام

قدَّمنا أن الحسن عليه السلام وُلد في السنة الثالثة في رمضان منها، ثم علِقَتْ سيدتنا فاطمة بالحسين عليه السلام عقب طهرها.

فوُلد في السنة الرابعة على الصحيح في شعبان منها.

والحسين هو أحد ريحانتي رسول الله ﷺ وأحد سادات شباب أهل الجنّة قُتِل شهيداً بكربلاء أيام يزيد بن معاوية على يد عامله على الكوفة والبصرة عبيدالله بن زياد، وستأتي ترجمته كأخيه الحسن في الفضائل إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة أحداث السنة الرابعة

وهي كالآتي: اغتيال خالد بن سفيان الهذلي، قصة أصحاب الرجيع، قصة القرّاء ببئر معونة، غزوة بني النضير، فوائد القصة، غزوة بدر الثانية، زواج النبيّ ﷺ بأمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، ولادة الحسين عليه السلام.

❋ ❋ ❋

❋ السنة الخامسة
غزوةُ بني المُصْطَلِق أو غزوة المُرَيْسِيع

[٣٢٥] عن محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى عن جماعة من شيوخه كلٌ قد حدّثه ببعض حديث بني المصطلق، قال: بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم

حتى لَقِيهم على ماءٍ لهم يقال له المريسيع من ناحية قُدَيْد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقُتِل الحارث بن أبي ضِرار أبو جُوَيْرِية وقُتِل مَن قتل منهم، ونفَّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالَهم، وكان رسولُ الله ﷺ أصاب منهم سبياً كثيراً قسمه بين المسلمين، وكان فيما أصاب يومئذ جويرية بنت أبي ضِرار سيّدة قومها...

ذكره ابن هشام (٣/٢٣٥) وسنده صحيح غير أنه مرسل، وقال النور (٦/١٤٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

[٣٢٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تُسْقَى على الماء فقتل مُقاتِلَتَهم، وسَبَى ذَرَارِيهم وأصاب يومئذ جويرية.

رواه أحمد (٢/٣١، ٣٢، ٥١)، والبخاري في العتق رقم (٢٥٤١ ج ٦/٩٧)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٠ ج ١٢/٣٥، ٣٦)، وأبو داود فيه أيضاً (٢٦٣٢)، والبيهقي في الكبرى (٩/٥٤، ١٠٧) وقد تقدّم في الجهاد.

[٣٢٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعتْ جويريةُ بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمٍّ له، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلْوَة مَلَّاحَة، لا يراها أحدٌ إلا أخذتْ بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حُجْرَتي فكرِهْتُها وعرفتُ أنه سيرى منها ما رأيتُ، فدخلتْ عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار سيّد قومه، وقد أصابني ما لم يخف عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: **«فهل لك خير من ذلك»**؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«أقضي كتابتك وأتزوَّجُكِ»**، قالت: نعم يا رسول الله، قال: **«قد فعلت»**.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوّج جويرية بنت

الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بيدهم. قالت: فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومِها منها.

رواه أحمد (٦/٢٧٧)، وأبو داود في العتق (٣٩٣١)، والحاكم (٤/٢٦)، والطبراني في الكبير (٢٤/٦١)، وسنده حسن أو صحيح.

«بنو المُصْطَلق» بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء بعدها لام مكسورة آخرها قاف؛ هم بطن من بني خزاعة. أما «المُرَيْسِيعُ» فبضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين هو اسم ماء لبني خزاعة من ناحية قُدَيْد بضم القاف مصغّر موضع قريب من عسفان ومرّ الظهران. وقوله: «أغار عليهم» أي: هاجمهم وهم غارون غافلون. وقولها: «حلوة ملاحة» أي: جميلة مليحة.

اختلف علماء السيرة والغزوات متى كانت هذه الغزوة على ثلاثة أقوال، فقيل: كانت سنة ستّ، قاله ابن إسحاق وتبعه جماعة؛ كابن جرير وابن عبدالبرّ وابن حزم وابن الأثير وغيرهم. وقيل: كانت في سنة أربع، ورجحه موسى بن عقبة والإمام مالك والبخاري والنووي وغيرهم. وقالت طائفة ثالثة: إنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، وقال بهذا القول ابن سعد وابن قتيبة والبلاذري وابن القيّم والذهبي وابن كثير والحافظ في آخرين، وهذا القول هو الأصح والأظهر لأدلّة ظاهرة تؤيّده، وقد ذكر بعضها في الفتح (٨/٤٣٤) من كتاب المغازي، وكان لهذه الغزوة أسباب، منها: أن هذه القبيلة ساعدت قريشاً على حرب المسلمين في أُحد. ومنها: أنهم كانوا يجمعون الجموع استعداداً لمحاربة النبيّ ﷺ، فخرج إليهم ﷺ في جمعٍ كثيف وولّى على المدينة زيد بن حارثة وخرج معه من نسائه سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، فسار ﷺ فقاتلهم وهزمهم وسبى نساءهم وذراريهم واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف، فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه.

* * *

❋ زواجه ﷺ بجويرية

وكان في جملة السبي جويرية بنت الحارث سيّد القوم، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته فأتت النبيّ ﷺ تستعينه على ذلك، فأدّى عنها كتابتها وتزوّجها ﷺ، فكانت أعظم الناس بركةً على قومها؛ إذ عُتِقَ بسببها مائة أهل بيت من قبيلتها، ثم أسلمت القبيلة عن بكرة أبيها، فأصبحوا عوناً للمسلمين بعد أن كانوا عليهم، وهٰهنا يظهر أثر الكرم والعفو والمعاملة الجميلة مع السياسة النبيلة من النبيّ ﷺ، فإنه كان ينظر بعيداً، فلم يكن همّه التمتّع بجويرية المليحة فحسب، بل كان يرى والله تعالى أعلم أنها بنت سيّد قومها وقبيلتها كانت من القبائل العربية المشهورة التي لها بال، فأراد بزواجه ببنت سيد قومها استمالتهم إليه إذ أصبحوا أصهاره ﷺ.

❋ ❋ ❋

❋ محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين

[٣٢٨] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في غزوة، قال: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لَلأنصار، وقال المهاجري: يا لَلْمُهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دَعْوَى الجاهلية**»؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها مُنْتِنَة**»، فسمع بذلك عبدُالله بن أُبَيّ فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيّ ﷺ: «**دَعْهُ لا يتحدَّثُ الناسُ أن مُحمداً يَقتلُ أصحابه**»، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٧٤، ٢٧٥)، ومسلم في البرّ والصلة

رقم (٢٥٨٤)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٧) بتهذيبي.

[٣٢٩] وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع عمّي، فسمعت عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول يقول لأصحابه: لا تُنْفِقُوا على مَن عِند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا... ولئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذلَّ.

فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك عمّي للنبيّ ﷺ، فدعاني النبيّ ﷺ فحدَّثْتُه، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أُبَيّ وأصحابه فحلَفُوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني شيء لم يصبني شيءٌ قطّ مثله، فجلستُ في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَّ إلا أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقَتَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فبعث إليَّ رسولُ الله ﷺ فقرأها ثم قال: «**إن الله قد صدقك**».

رواه البخاري في التفسير ومسلم في صفات المنافقين والترمذي وغيرهم، وقد تقدم في التفسير.

قوله: «فكسع» ـ بفتحتين ـ أي: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه. وقوله: «دعوها» أي: دعوى الجاهلية وهي الاستغاثة للانتصار. وقوله: «مُنتنة» أي: هذه الدعوى قذرة خبيثة. وفي الحديثين بيان بعض فضائح المنافقين ومكرهم وكَيْدهم للمسلمين وإرادتهم الشرّ لهم، وهكذا كان شأنهم وتصرّفاتهم في جميع مواقفهم مع المسلمين أيّاً كانوا حضراً أم سفراً، وقد بلغ من حقد عدوّ الله ابن سلول على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين أنه فاه بأنه إذا رجع إلى المدينة ليخرجنّ منها الأذلّ ـ يقصد النبيّ عليه السلام وأصحابه ـ وزاد عدوّ الله نهي الأنصار عن النفقة على المهاجرين حتى ينفضوا ويرجعوا إلى ديارهم بمكّة. هذه بعض مشاهد المنافقين ومواقفهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وقد أنزل الله عزّ وجلّ سورة سمّيت باسمهم تسجل عليهم فضائحهم وكذبهم ومكرهم تُتلى على ألسنة المؤمنين على مدى العصور والأجيال.

وفي حديث جابر بيان سياسة النبيّ ﷺ وحكمته في صرفه عمر عن

قتل ابن أُبيّ المنافق؛ لأن السياسة تقتضي عدم قتله، لأن الإسلام كان لا يزال لم ينتشر في القبائل العربية، التي لا تزال كافرة، فإذا قتل أحداً ممن يتظاهر بالإسلام وهو منافق، أُشيع بين الناس بأن محمداً يقتل أصحابه، فيكون ذلك من أسباب عدم إسلامهم.

وقوله ﷺ: «دعوها فإنها مُنتنة» كان علاجاً لما قد كان يقع من حمية الجاهلية بين المهاجرين والأنصار كما حصل مرّات، فكان ﷺ نِعْم الطبيب ونِعْم المُصلح المرشد.

هذه حادثة أولى وقعت في هذه الغزوة وهم قافلون إلى المدينة كانت من إثارة عدوّ الله رأس المنافقين ابن سلول، ثم تأتي حادثة أخرى تعتبر من أعظم الأحداث في تاريخ الإسلام، كانت أيضاً من إثارة وإشاعة ذلك العدو تلك هي:

* * *

❋ حادث الإفك

[٣٣٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها خرج بها رسولُ الله ﷺ معه، قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فكنت أُحْمَلُ في هَوْدَجِي، وأنزِلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل دنَوْنَا من المدينة قافِلينَ آذن ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلت إلى رَحْلِي فلمسْتُ صدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظِفارٍ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي فحبَسَنِي ابتغاؤُه، قالت: وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يُرَحِّلُوني، فاحتملوا هودجي فرحَّلوه على بعيري الذي كنت أركبُ عليه، وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يهبلن، ولم يغشَهُنَّ اللحم إنما يأكلن العُلْقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية

حديثة السنّ، فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدي بعد ما استمرّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها منهم داعٍ ولا مُجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنتُ به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعونَ إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوانُ بن المُعَطّل السُّلَمِي ثم الذَّكْوَانِي من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم فعَرَفَني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلّمنا بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمةً، غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلتَه، فوطِئَ على يدها فقمتُ إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش مُوغِرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولّى كبر الإفك عبدالله بن أُبيّ ابن سلول. فذكرت الحديث بطوله.

رواه أحمد والبخاري في مواضع، ومسلم في التوبة، والنسائي في الكبرى وفي المجتبى، وقد تقدم بطوله مع شرحه والكلام عليه مبسوطاً في التفسير، فلا داعي لإيراده بطوله، فارجع إليه تستفد.

فهذه الحادثة النكراء كانت من جملة أحداث غزوة بني المصطلق خلافاً لمن جعلها في غزوة أخرى.

***

❁ ريح شديدة تهب لموت عظيم من المنافقين

[٣٣١] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريحٌ شديدةٌ تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله ﷺ: **«بُعِثت هذه الريحُ لموت منافق»**، فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيمٌ من المنافقين قد مات.

أخرجه أحمد (٣/٣١٥، ٣٤١، ٣٤٦)، ومسلم في صفات المنافقين (١٧/١٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٠٣).

«هاجت» أي: تحرّكت ريح شديدة الهبوب. وقوله: «قدم من سفر» كان ذلك في هذه الغزوة كما رواه ابن إسحاق، ولما هبَّت تأذّى بها الصحابة وتخوّفوها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لا تخافوها...**». وقوله: «فإذا منافق عظيم» بيَّنه ابن إسحاق بأنه كان رفاعة بن زيد بن التابوت أحد مَن كان أسلم نفاقاً من يهود بني قينُقاع.

والحديث يدلّ على أن ما ينزل بهذا الكون من الكوارث والشدائد كشدة الأرياح، وكثرة الأمطار الخارجة عن العادة والسيول والفيضانات والزلازل... وغير ذلك، كل ذلك يقع من الله تعالى بإذنه يدلّ على غضب منه على عباده إما لإصرارهم على الكفر إنْ كانوا كفاراً، وإما لإسرافهم في المعاصي وتمالُئِهم عليها وعدم رجوعهم إلى الله عزّ وجلّ إن كانوا مسلمين، وإما لهلاك أحد أساطين الكفر والظلم والنفاق، فيغضب الله عزّ وجلّ لذلك، فيظهر أثر غضبه في هذا الكون، وهذه سنّة إلٰهيّة في عباده، والقرآن مليء بالكلام على ذلك؛ كقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾... وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل أن الله عزّ وجلّ سيغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده، وما ذلك إلا لحضور جميع الكفرة والظَّلمة والجبابرة من يوم بداية ظهورهم إلى يوم القيامة، فيكون غاضباً عليهم حتى إن أكابر عباده المختارين يخشونه ولا يتجرّؤون على مكالمته. جنّبنا الله مواقع سخطه وغضبه، آمين.

* * *

❋ غزوة الخندق ويقال لها الأحزاب: حفر الخندق

[٣٣٢] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم

عَبِيدٌ يَعْمَلُون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجُوع قال: «**اللَّهمَ إن العَيْشَ عيشُ الآخره، فاغفر للأنصارِ والمُهاجره**»، فقالوا مجيبين له: **نحنُ الذين بايعوا محمداً، على الجهاد ما بَقِينا أبدا**.

وفي رواية قال: جعل المهاجرون يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهُمْ يقولون: **نحن الذين بايعوا محمداً، على الإسلام ما بقينا أبَداً**، قال: يقول النبيّ ﷺ وهو يُجيبهم: «**اللَّهمّ إنه لا خَيْرَ إلا خَيْرَ الآخِره، فبارك في الأنصار والمهاجره**»، قال: يؤتون بمِلْيء كَفَّيْ من الشعير فيصنع لهم بإهالة سَنِخَةٍ، تُوضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بَشِعَةٌ في الحلق، ولها ريحٌ مُنْتِنٌ.

رواه البخاري في المغازي (٨/٣٩٨)، ومسلم في الجهاد والسِّير (١٨٠٥ ج ١٢/١٧٣).

[٣٣٣] ونحوه عن سهل بن سعد بلفظ: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهمّ لا عيش إلا عيش**» الحديث.

رواه البخاري (٨/٣٩٦، ٣٩٧)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٤).

[٣٣٤] وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ ينقل التراب يوم الخندق وقد وَارَى التُّرابُ بياضَ بطنِهِ، وكان كثيرَ الشعر، فسمعتُه يَرْتَجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

والله لـولا الله مـا اهـتَـدَيْـنَـا ولا تَـصَـدَّقْـنـا وَلاَ صَـلَّـيْـنَـا
فـأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيـنَـةً عَـلَـيْـنَـا
وَثَـبِّـتْ الأقْـدامَ إنْ لاقَـيْـنَـا إنَّ الأُولى قَـدْ بَـغَـوْا عَـلَـيْـنـا
إذا أرادُوا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَـا

ورفع بها صوته: «**أَبَيْنا، أَبَيْنَا**».

رواه البخاري (٨/٤٠٤، ٤٠٥)، ومسلم رقم (١٨٠٣).

«الإهالة» الشحم أو مطلق الدهن. وقوله: «سنخة» - بفتح السين وكسر النون ثم خاء مفتوحة - أي متغيّرة الطعم واللون.

غزوة الخندق أو الأحزاب كانت من أخطر الغزوات على النبيّ ﷺ والمسلمين كأُحد، وكانت في السنة الخامسة في شوّال على أصحّ القولين. قال ابن القيم في الهدي النبويّ: إذ لا خلاف أن أُحداً كانت في شوّال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه، لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه، هذا قول أهل السِّير والمغازي، وهو قول ابن سعد وابن إسحاق وعروة وقطع به الذهبي واعتمده الحافظ في الفتح، وكان من أسباب الغزوة أيضاً أن أشراف يهود بني النضير بعد أن أجلاهم النبيّ ﷺ أرادوا الانتقام منه، فذهب وفدٌ منهم لمكّة المكرمة فاتّصلوا بكفار قريش وحرّضوهم على محاربة النبيّ ﷺ والمسلمين، فتحزّبوا وجمعوا القبائل العربية من غطفان، وبني مرّة، وبني سليم، وبني أسد، وساندتهم أيضاً يهود قريظة ومن تَبِعهم، وكان القائد العام للكل أبو سفيان فزحفوا تجاه المدينة بجيش قوي عظيم مكوّن من عشرة آلاف مقاتل.

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ ما أرادوه استشارَ الصحابة في ذلك، فأشار إليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه بحفر الخندق حول المدينة، فاستحسن ذلك منه، فشرعوا يحفرون، وكانت الخندق خاصّة بشرق شمال المدينة إلى غربيّها لأنها التي كانت عارية. أما الجهة الشرقية والجنوبية، فكانت مشتبكة بالنخيل والمنازل والدور. وقد قاسى المسلمون صعوبات وشدائد جسيمة في حفر الخندق، وشارك في ذلك معهم النبيّ ﷺ، فكان ينقل التراب ويتمثّل بشعر ابن رواحة: والله ولا الله ما اهتدينا الخ، وأصابهم نصب ومخمصة حتى أنهم أكلوا الشحم المتغيّر بشيع المساغ.

* * *

معجزتان في حفر الخندق

[٣٣٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إنّا يوم الخندق نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ، فجاءوا النبيّ ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: **«أنا نازل»**، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبيّ ﷺ المِعْوَل فضرب في الكدية فعاد كَثِيباً أهْيَل أو أهْيَم.

فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبيّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناقٌ، فذبحتُ العَناق وطحَنتْ الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت رسول الله ﷺ والعجين قد انكسر، والبُرْمة بين الأثافِي قد كادت تَنْضَجُ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: **«كم هو»**؟ فذكرت له، قال: **«كثيرٌ طيّبٌ»**، قال: قل لها: لا تنزع البُرْمة ولا الخبز من التَّنُّور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: **«ادْخُلُوا ولا تَضَاغَطُوا»**، فجعل يَكْسِرُ الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخَمِّرُ البُرْمة والتَّنُّور إذا أخذ منه، ويُقَرِّب إلى أصحابه ثم يُنْزِعُ، فلم يزل يَكْسِرُ الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقيت بقيّةٌ، قال: **«كُلِي هذا وأهْدِي، فإن الناس أصابتهم مجاعة»**.

وفي رواية قال: لما حفر الخندق رأيت بالنبيّ ﷺ خَمَصاً شديداً... وفيه: فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بُهَيْمَةً وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: **«يا أهل الخندق إنّ جابراً قد صنع سُؤراً فحَيَّ هلاً بكم»**، قال: فاجريتُ له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى بُرمتنا فبصق وبارك ثم قال: **«ادْعُ خابزةً فلتَخْبِزْ معِك واقدَحِي من برمتك ولا تُنْزِلُوها»**، وهم ألف، فأُقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه، وانحرفوا وإنّ بُرمتنا لتَغِطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

رواه البخاري في المغازي (٣٩٩/٨، ٤٠٢) بالروايتين، ومسلم في الأشربة (٢١٥/١٣) بالرواية الثانية.

«كدية» بضم الكاف وسكون الدال قطعة من الأرض غليظة لا تؤثر فيها الفؤوس. «معصوب» أي: مربوط عليه بعصابة. «لا نذوق ذواقاً» أي: لا نأكل طعاماً. «المعول» بكسر الميم هو الفأس. «كثيباً» أي: صار رملاً. «أهْيَل» بفتح الهمزة وسكون الهاء أي: سائلاً لا يتماسك. «عناق» بفتح العين هي الأنثى من أولاد المعز قبل أن يتمّ لها سنة. «التنّور» المخبز. «ويحك» كلمة حنان وإشفاق. «ولا تضاغطوا» أي: لا تتزاحموا. «ويخمّر البرمة» أي: يغطّيها. «مجاعة» بفتح الميم أي: جوعاً، ويقال مخمصة. «فانكفَأْتُ» أي: ملْتُ. «جراب» بكسر الجيم وعاء من جلد ونحوه. «فسررته» أي: كلّمته سِرّاً. «لتغط» أي لتصوت بغليانها.

في هذا الحديث الشريف معجزتان هامّتان من جملة معجزات النبيّ ﷺ أظهرهما الله عزّ وجلّ على يده الشريفة آية على عظيم قدرته وبياناً بأنه عزّ وجلّ لا يعجزه شيء أراده كائناً ما كان، إذ هو الفعّال لما يريد.

وكانت المعجزة الأُولى في تفتيت تلك الكدية التي أغيَت المعاول وأقوياء الرجال حتى صارت رملاً سائلاً بضربة النبيّ ﷺ التي كانت مؤيّدة بقدرة الله عزّ وجلّ، وقد جاء في رواية لابن عباس أنها كانت صخرة، فقال: **«بسم الله»** فضربها فوقعت فلقة ثلثها، فقال: **«الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة»** ، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة، فقال: **«الله أكبر قصور فارس والروم وربّ الكعبة»**، فقال عندها المنافقون: نحن نخندق وهو يَعِدنا قصور فارس والروم... رواه الطبراني وسنده صحيح، انظر مجمع الزوائد (١٣١/٦، ١٣٢)، فدلّت هذه الرواية على معجزتين أخريتين ثالثة ورابعة، وهما رؤيته ﷺ قصور ملوك فارس والروم وأنها سيملكها المسلمون في مستقبل الزمان، كما جاء في أحاديث أخرى التي أخبرت بذلك صراحة.

أما المعجزة الثانية في حديث جابر، فهي البركة في تكثير الطعام ولحم عناق وصاع من شعير أشبعا ألف رجل حتى تركوا ذلك، إن هذا شيء خارق

للعادة وقد وقع مثل هذا غير ما مرّة كما يأتي في المعجزات إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

❊ موقع المشركين في غزوة الخندق من المسلمين

[٣٣٦] عن سيّدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، قالت: كان ذاك يوم الخندق.

رواه البخاري (٤٠٣/٨)، ومسلم (٣٠٢٠) في التفسير (١٥٧/١٨).

هذا بيان من الله عزّ وجلّ عن مواقع الكفار ومنازلهم عند غزوة الخندق، وما نزل بالمسلمين من الشدّة والخوف، وقد أوضح ذلك ابن إسحاق وغيره، فقال: نزلت قريش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة، ونزل عيينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أُحد بباب نعمان.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف، والخندق بينه وبين القوم، وجعل النساء والذراري في الآطام.

❊ ❊ ❊

❊ من مشاهد المعركة

[٣٣٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اشتدّ الأَمْرُ يومَ الخندق، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ألاَ رجلٌ يأتينا بخبر بَني قُرَيظة؟**» فانطلق الزبير فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً فذكر ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبيّ حواري والزبير حواريّ**».

رواه أحمد (٣٠٧/٣، ٣١٤، ٣٦٥)، والبخاري (٨٢/٨)، ومسلم (١٨٨/١٥) كلاهما في الفضائل، وابن ماجه (١٢٢) ويأتي حديث ابن الزبير في الفضائل إن شاء الله تعالى.

حاصر الكفارُ المسلمين بضعةَ عشر يوماً، واشتدّ الحال على المسلمين وزادهم شدّة ما بلغهم عن يهود قريظة من نقضهم العهد ودعمهم لكفار قريش، فأرسل رسول الله ﷺ نحو خمسمائة رجل يحرسون المدينة خوفاً على النساء والذراري من اليهود وغيرهم، ثم أرسل ﷺ الزبير يَسْتَجْلي له الخبر، فلما جاءهم وجدهم حانِقين أثرُ الشرّ بادٍ على وجوههم، ونالُوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامَه، فرجع وأخبر الرسول بذلك، وهنالك اشتدّ وجَلُ المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً كما يأتي في الآيات في ذلك؛ فأراد النبيّ ﷺ أن يعطي عُيينة بن حصن ومن معه ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا، فقال له سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة: كنّا نحن وهم على الشرك لا يطمعون منّا في شيء من ذلك، فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عزّ وجلّ بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا، ما لنا بهذا من حاجة، ولا نعطيهم إلا السيف[1]. ولما اشتدّ عليهم الحصار تكلّم بعض المنافقين وأظهروا نفاقهم، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ الآيات ستأتي. وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان، ولم يقع في هذه الغزوة حربٌ ومواجهة إلا مراماة بالنبل لكن عَمْرو بن عبد وَدٍّ العامري اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيّقة من الخندق، فبارزه الإمام عليّ عليه السلام فقتله، وبرز نوفل بن عبدالله المخزومي فبارزه الزبير فقتله، ورجعت بقية الخيول منهزمة، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره.

* * *

❋ محاولة بعض الكفار إذاية النساء والذراري

[٣٣٨] عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن حصن

(١) قصة هذه المفاوضة رواها البزار والطبراني بسند حسن كما قال النور في مجمع الزوائد (١٣٢/٦).

أحصن من حصن بني حارثة، فجعل النبيّ ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه، وقال: «**إن ألمَّ بكُنَّ أحدٌ فألمِعْنَ بالسيف**»، فجاءهنّ رجل من بني ثعلبة يقال له نجدان على فرس حتى كان في أصل الحصن، ثم جعل يقول للنساء: انْزِلْنَ إلى خيرٍ لكُنَّ، فحَرَّكْنَ السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له ظُهَيْرُ بنُ رافع، فقال: يا نجدان أبرز، فبرز إليه فحمل على رأسه فقتله، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبيّ ﷺ.

عزاه الهيثمي في المجمع (١٣٣/٦) للطبراني وقال: رجاله ثقات.

إن الإنسان من حيث هو في كل العصور والأجيال يحبّ أهله وأولاده بطبيعته، ولذلك تجده يفديهم بماله ونفسه ويُدافع ويقاتل دونهم.

ولذلك حصّن النبيّ ﷺ النساء والصبيان... في حصن مانع قبل مجيء الكفار، ومع ذلك فقد كان المسلمون يحرسونهن من الخارج ويراقبونهن، وقد أرشدهنّ النبيّ ﷺ إلى إظهار علامة إن رأين شرّاً، فلمّا جاء ذلك الثعلبيّ يريد بهنّ سوءاً بادر من جاءه فبرز له وقتله...

وقد ذكر ابن إسحاق كما عند ابن هشام قصة اليهودي الذي جعل يطيف بالحصن، فنزلت صفية عمّة رسول الله ﷺ بعمود فضربته به حتى قتلته، وفيها ما حصل بينها وبين حسان لكن سندها ضعيف.

* * *

❁ انشغال المسلمين عن الصلاة حتى غابت الشمس

[٣٣٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إن عمر جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله ما كِدْتُ أن أُصَلّي حتى كادت الشمسُ أن تغرُبَ، قال النبيّ ﷺ: «**والله ما صلّيتُها**»، فنزلنا مع النبيّ ﷺ بُطْحَانَ فتوضّأنا لها فصلّى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلّى بعدها المغرب.

رواه البخاري في المغازي (٤٠٩/٨)، ومسلم في المساجد من كتاب

الصلاة (١٣١/٥، ١٣٢)، والترمذي وابن ماجه (٦٨٦) كلاهما في الصلاة أيضاً، ورواه أحمد أيضاً (٤٠٤/١، ٤٥٦).

[٣٤٠] وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم**»، أو قال: «**قبورهم وبطونهم ناراً**».

رواه البخاري (٤٠٩/٨)، ومسلم (١٢٧/٥، ١٢٨) وتقدّم في الصلاة.

[٣٤١] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: حُبِسْنا يوم الخندق عن الصلاة حتى كان بعد المغرب، وذلك قبل أن ينزل في القتال ما نزل. وفي رواية: قبل أن ينزل صلاة الخوف «**فرجالاً أو ركباناً**»، فلما كُفينا القتال وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أمر النبيّ ﷺ بلالاً فأقام الظهر فصلاّها كما يصلّيها في وقتها.

رواه أحمد (٢٥/٣، ٤٩، ٦٧)، وابن خزيمة (٩٩٦)، وابن حبان (٢٨٥)، والطحاوي في المعاني (٣٣١/١)، والبيهقي (٤٠٢/١) بسند صحيح.

«بطحان» ـ بضم الباء ـ وادٍ وراء جبل سلع بالمدينة.

وهذه الأحاديث الثلاث تدلّ على أن النبي ﷺ والمسلمين في بعض أيام الخندق شغلوا بمقاومة الكفار وحصارهم عن أداء عدّة صلوات في أوقاتها كالظهرين مثلاً، فإنهم لم يصلّوهما حتى غابت الشمس فصلّوهما مع المغرب، وكان هذا التفويت عن الوقت قبل أن تنزل صلاة الخوف، كما في حديث أبي سعيد. وهو يردّ على طائفتين من العلماء، فيردّ على من يستدلّ بهذه الأحاديث على جواز إخراج الصلاة عن وقتها للضرورة كالقتال مثلاً. كما يردّ على من يقول بأن غزوة الرقاع كانت قبل الخندق، فإن النبيّ ﷺ صلّى فيها صلاة الخوف كما يأتي، ويؤخذ من هذا التفويت للظهر والعصر معاً أن الحصار من الكفار كان شديداً على المسلمين، بحيث اشتدّ عليهم الأمر على طول خطّ الخندق حتى لم يتمكّنوا من أداء الصلاة، وهذا واضح من الآية الآتية: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

* * *

❋ دعاء النبيّ ﷺ على الكفار واستجابة دعوته

[٣٤٢] عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللّهمّ مُنزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسابِ، اهزِمِ الأَحزابَ، اللّهُمَّ اهزِمْهُم وزَلْزِلْهُمْ**».

رواه البخاري (٨/٤١٠) في الغزوات وفي الجهاد، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٤٧)، وأبو داود (٢٦٣١) كذلك.

[٣٤٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله وحدَه أعَزّ جُندَه، ونَصَر عَبْدَه، وغَلَبَ الأحزابَ وحدَه فلا شيء بعده**».

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١٠)، ومسلم في الذِّكر والدعاء باب التعوّذ من شرّ ما عمل (١٧/٤٣).

قوله: «وزلزلهم» أي: حرّك قلوبهم بالخوف والرعب وأزعجهم وحرّكهم بالشدائد.

لما اشتدّ الحصار على المسلمين وطوّقهم الكفار على طول خطّ الخندق من شرق الحرّة الشرقية فشمال المدينة إلى غربيها قبالة سلع، وبلغت القلوب الحناجر من الهول والخوف التجأ النبيّ ﷺ إلى بارئه يدعوه ويستغيثه ويستنصره، فأجاب الله عزّ وجلّ دعاءه فنصره وكفى الله المؤمنين القتال، وكان ذلك بأسباب ثلاثة:

أولاً: جاء رجل اسمه نُعَيْمُ بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وقد أسلم فعرض عليه تنفيذ أي أمر يريده ﷺ، فقال له: «**خَذِّلْ عنا إن استطعتَ، فإن الحرب خدعة**»، فخرج نعيم فأتى بني قريظة وهم يحسبونه لا يزال مشركاً، فأقنعهم أن لا يتورّطوا مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن كي لا ينصرفوا، فيبقون وحدهم في المدينة دون أي نصير لهم على محمد وأصحابه فحسّنوا رأيه، ثم خرج حتى أتى قريشاً فأنبأهم بأن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا، وأنهم قد اتّفقوا خفية مع رسول الله ﷺ على أن

يختطفوا عدداً من أشراف قريش وغطفان فيسلّموهم له ليقتلهم، فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فإيّاكم أن تسلّموهم رجلاً منكم، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش، فتألّب بعضهم على بعض وساءت الظنون وارتفعت الثقة فيما بينهم، وأصبح كل فريق منهم يتّهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة، ذكره ابن سعد (٦٩/٢)، وابن هشام (١٧٩/٣، ١٨١) مطوّلاً.

ثانياً: جاءت الكفارَ ريحٌ صَرْصَرٌ مُخِيفةٌ في ليلة مظلمةٍ حالِكةٍ باردةٍ، فقلبتْ قُدورَهم واقتلعت خِيامَهم، وقطّعتْ أوتادهم، وكان هذا مصداقاً لقوله ﷺ:

[٣٤٤] «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

رواه البخاري (١٧٤/٣)، ومسلم (١٩٧/٦) كلاهما في الاستسقاء من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ورواه البخاري في المغازي أيضاً.

«الصّبا» ـ بفتح الصاد المشدّدة ـ الريح الشرقية، و«الدبور» الريح الغربية.

فنصر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ والمسلمين في هذه الغزوة بالريح الشرقية بعثها إليهم فأفزَعَتْهُم وأرْعَبَتْهُم وزلزلت قلوبهم، وصارت تلقي الرجل على أمّ رأسه.

ثالثاً: أرسل الله عزّ وجلّ كذلك عليهم جنداً من ملائكته، فزلزلت قلوبهم وألقت فيها الرعب والخوف، فانسحبوا منهزمين. وفي إرسال الملائكة والريح عليهم يقول عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، ويوضح هذا الفزع والرعب الذي أصاب الكفار وانهزامهم حديث حذيفة الآتي، وهو:

[٣٤٥] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلّى رسول الله ﷺ من الليل هوياً، ثم التفت إلينا فقال: **«مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم»**، يشترط له

رسول الله ﷺ أنه يرجع؛ أدخله الله الجنّة، فما قام رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً، ثم التفت إلينا فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع** ـ يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ **أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنّة**»، فما قام رجل من القوم من شدّة الخوف وشدّة الفزع، وشدّة البرد، فلما لم يقم أحدٌ دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد في القيام حين دعاني فقال: «**يا حذيفةُ فاذهَبْ فادخُلْ في القوم فانظُر ما يفعلون ولا تُحدِثَنَّ شيئاً حتّى تأتِينَا**»، قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل، لا تَقِرُّ لهم قِدْرٌ، ولا نارٌ، ولا بناءٌ، فقام أبو سُفيانُ بن حرب فقال: يا معشرَ قريش لينظر امرؤٌ إلى جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي جنبي، فقلت: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ: «**لا تُحدِثْ شيئاً حتى تأتيني**» ثم شئت لقتلته بسَهْم، قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي في مِرْط لبعض نسائه مرجل، فلما رآني أدخلني إلى رحله، وطرح عليَّ طرف المرط ثم ركع وسجد وإنه لفيه فلما سلّم أخبرته الخبر، وسمعتْ غطفانُ بما فعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم.

وفي رواية: فمضيت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهره بالنار، فوضعت سهمي في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «**لا تَذْعَرْهُم عليَّ**»، ولو رميته لأصبته... الحديث.

رواه ابن أبي شيبة وأحمد (٣٩٢/٥، ٣٩٣)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٤٥/١٢)، والحاكم (٣١/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٥٩/٩) وفي الدلائل (٤٤٩/٣، ٤٥٤) والسياق لأحمد وغيره، وعزاه النور (١٣٦/٦) للبزار وقال: رجال ثقات.

قوله: «الكراع» ـ بضم الكاف ـ اسم لجميع الخيل. و«المرط» ـ بكسر الميم ـ تقدَّم أنه كساء من صوف أو نحوه. «مرجل» أي: فيه أرقام وخطوط. «كأنما أمشي في حمام» يعني أنه لم يجد البرد الذي أصاب الناس. «لا تَذْعَرهم» أي: لا تحرّكهم.

فهذا الحديث بيَّن ما نزل بالأحزاب من الشدّة والرعب والفزع وما أصابهم من الفتنة والانهزام بداية من قائدهم أبي سفيان الذي كان أوّل من ركب جمله، وقام به منهزماً خائفاً لا يلوي على أحد، ثم انسحبوا من ليلتهم وكانوا كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾، وبذلك أزاح الله عزّ وجلّ عن المسلمين هذه الغمّة التي تحزّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين والحمد لله ربّ العالمين.

[٣٤٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها في حديثٍ لها عن يوم الخندق، قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العَرِقَة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العَرِقَةُ، فأصاب أَكْحَلَهُ فقطعه، فدعا الله سعْد فقال: لا تُمِتْنِي حتى تَقَرَّ عَيْنِي مِن بني قريظة، قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرَقَى كَلْمَه، وبعث الله عزّ وجلّ الريح على المشركين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، فلحق أبو سفيان ومَنْ معه بتهامة، ولحق عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ ومن معه بنَجْدٍ ورجعتْ بنو قريظة فتحصَّنوا في صَيَاصِيهِم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبّة من أدم فضُرِبت على سعد في المسجد.

الحديث رواه أحمد (١٤١/٦، ١٤٣) بسند حسن وجوّده ابن كثير في السيرة، ويأتي كاملاً في غزوة بني قريظة مع أحاديث أخرى في شأن سعد رضي الله تعالى عنه.

وهذا الحديث من تمام الكلام على انهزام الكفار وانسحابهم والتفريج على المسلمين وكشف ما نزل بهم من الشدّة والغمّة بضعة عشر يوماً.

* * *

❋ تبشير النبيّ ﷺ أصحابه بأن الكفار لا يغزونهم بعد الأحزاب

[٣٤٧] فعن سليمان بن صُرَد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول حين جَلى الأحزابُ عنه: «الآن نَغْزُوهُمْ ولا يَغْزُونَنا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيهم».

رواه أحمد (٤/٢٦٢)، والبخاري في المغازي (٨/٤٠٨، ٤٠٩).

في هذا الحديث معجزة ظاهرة للنبيّ ﷺ حيث أخبر الصحابة بأن الكفار قد انتهى أمرهم من شنّ الغارة عليهم، وأن المسلمين هم الذين سيسيرون إليهم، فكان الأمر كما أخبر، فلم تمضِ إلا سنتان وأشهر ففاجؤوهم بفتح مكّة المكرمة، واستُؤصل الكفر فلم يَبْقَ له أثر بمكّة التي كانت محطّ نظر العرب.

❋ ❋ ❋

❋ وضع النبيّ ﷺ سلاحه بعد رحيل الكفار واغتساله واستجماره

[٣٤٨] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: لمّا رجع النبيّ ﷺ من طلب الأحزاب فنزل المدينة، وضَعَ لأْمَته، واغتسَل، واسْتَجْمَر.

عزاه النور في المجمع (٦/١٤٠) لأوسط الطبراني وقال: رجاله ثقات، وعزاه الحافظ في المطالب رقم (٤٣٢٨) لإسحاق بن راهويه وحسّنه.

«لأمته» آلات الحرب من دروع ومغفر... واستجمر أي بَخَّر بنحو عود ونحوه.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة غزوة الأحزاب وبعض ما يؤخذ منها

كانت هذه الغزوة امتداداً من غزوة بدر، فإن كفار قريش بعد أن انهزموا ببدر تلك الهزيمة النُّكراء لم يتحمّلوها ولم يهدأ لهم بال، ولا قرَّ لهم قرار من يومها، ولم يزالوا جادّين في أخذهم الثأر من النبيّ ﷺ والمسلمين حتى مرّ حول عليهم وهم يعدّون العدَّة لحربهم، فهاجموا المدينة، فكانت وقعة أُحد، ولما أصاب المسلمين ما أصابهم بها وانصرف المشركون تجرّأ على المسلمين بعض القبائل العربية ونقض بنو النضير عهدهم مع النبيّ ﷺ، فحاصرهم ﷺ ثم أجلاهم، وكان منهم رئيسهم حُيَيّ بن أخطب الذي نزل بخيبر، فذهب في جماعة من قومه إلى مكّة فقابلوا رؤساء قريش وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ ومَنَّوْهُم المُساعدة على ذلك ليأخذوا ثأرهم ويستردّوا بلادهم، فوجدوا من كفار قريش القبول لِما طلبوا ليتمّموا هم الآخرون نصرهم الذي انتصروه في غزوة أُحد، فإنهم ندموا على ذلك كما تقدم، ثم ذهب اليهود إلى قبيلة غطفان وحرّضوا رجالها أيضاً وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً.

فتجهّز الجميع واجتمعوا وتوجّهوا نحو المدينة بجيش جَرَّارٍ عَرَمْرَم يتكوّن من أكثر من عشرة آلاف مقاتل، مُدَعَّمِين بثلاثمائة فرس، وألفٍ بعير، وكان جميعهم في هذه المرّة يريدون استئصال النبيّ ﷺ ومَنْ معه من المسلمين والقضاء عليهم وأخذ أموالهم وسَبْي نسائهم وذراريهم، ولكن الله عزّ وجلّ خيّب سعيهم وردّ مكرهم في نحورهم، فما كان عزّ وجلّ ليسلّطهم على نبيّه وأصحابه البَرَرة، فلقد فوجؤوا بحفر الخندق من الحرّة الشرقية فشمال المدينة إلى الحرَّة الغربية، فعلموا أن هذه مكيدة لم يكن للعرب بها معرفة، وبذلك حصّن الله عزّ وجلّ المسلمين ومدينتهم من كَيْد الأعداء، ولم يكن كبير قتال غير مناوشات وبعض المبارزات بَيْدَ أنه اشتدّ الأمر على المسلمين لأنهم حوصروا بضعة عشر يوماً في قول أو بضعاً وعشرين يوماً في قولٍ آخر، حكاهما أهل السيرة والمغازي، انظر ابن سعد

(٦٩/٢، ٧٣)، وابن هشام (٢٧٤/٣). وازداد الأمر عليهم شدّة عندما علموا نقض قريظة عهدهم ومساعدتهم كفار قريش، ثم جاء نصر الله عزّ وجلّ وهزيمة الكفار فانسحبوا مخزيّين مدحورين، وقد نأخذ من أحداث هذه الغزوة أموراً:

منها: أن السبب فيها وإثارتها كان من يهود بني النضير، فإنهم الذين حرّكوا ما كان كامناً في قلوب قريش من حرب النبيّ ﷺ وتتميمهم النصر الذي حظوا به في أُحد.

ومنها: ما شاهدنا من مشاركة النبيّ ﷺ أصحابه في حفر الخندق حتى غطّى الترابُ بياضَ بطنه الشريف، وهذا من تمام تواضعه وحُسن أخلاقه.

ومنها: صبره على الجوع كأصحابه حتى ربط بطنه بعصابة من شدّة الجوع، ولما جاءه جابر وساره في أن يذهب معه هو ونفر من أصحابه لم يكن ليذهب في نفر قليل فيتناولوا ما يشبعهم دون غيرهم، بل نادى في الجيش بأعلى صوته: «**ألا إن جابراً صنع لنا طعاماً، فحيَّ هلاً**»، فذهب بألفٍ من أصحابه، فأكل جميعهم حتى شبعوا وهذا من كمال شفقته ورحمته بأصحابه ﷺ.

ومنها: ما ظهر من تينك المعجزتين، وهما كما تقدم تفتيت تلك الصخرة التي لم تؤثر فيها المعاول بضرب النبيّ ﷺ، ثم البركة في الطعام حتى شبعَ من خُبْزِ صاعِ شَعِيرٍ، ولَحْمِ عَناقٍ ألفُ رجلٍ.

ومنها: شجاعة الزبير وشهامته حيث انتدب فذهب إلى بني قريظة ليأتي النبيّ ﷺ بخبرهم والناس في أشدّ ما يكونون من الخوف والجزع والجوع والبرد.

ومنها: جواز مصالحة الكفار على ضريبة يؤدّيها المسلمون لهم إذا اقتضت الحاجة ذلك، وكانت فيها مصلحة عامّة للمسلمين، وهذا وإن كان النبيّ ﷺ لمْ يفعله، لكنه هَمَّ به.

ومنها: أن الأمر في هذه الغزوة كان شديداً على المسلمين جداً كما

في القرآن الكريم، حتى إنهم في بعض الأيام لم يتمكّنوا من أداء الصلاة في وقتها، ففاتتهم صلاتا الظهر والعصر حتى غربت الشمس، وهذا كان قبل فرضية صلاة الخوف، ومن قال خلاف هذا فهو غالط.

ومنها: مشروعية الدعاء عند نزول الشدائد؛ لأن المؤمن ليس له ملجأ إلا إلى الله، وبذلك يكون عبداً خالصاً لله عزّ وجلّ.

ومنها: أن لله عزّ وجلّ جنوداً ينصر بها عباده المؤمنين كالريح والأمطار والزلازل والفيضانات والحيوانات وغيرها من خَلْقِهِ تعالى، فضلاً عن ملائكته المقرّبين الذين جعلهم قائمين على هذه الكائنات.

* * *

❋ شهداء الخندق

واستشهد في هذه الغزوة: أنسُ بن أوس بن عَتِيك، وعبدُالله بن سهل، والطُّفَيْلُ بن النُّعمان، وثَعْلَبة بن غَنَمة، وكعبُ بن زيد.

ورُمِي سعْدَ بن مُعاذ بسهم في أكْحَلِه فمات منه بعد حكمه في بني قريظة كما يأتي، وكل هؤلاء من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وقد نزل في هذه الغزوة من القرآن نحو من عشرين آية بدايةً من قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

* * *

❋ غزوة بني قريظة

[٣٤٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أُصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له حِبَّانُ بنِ العَرِقَةِ رماه في الأَكْحَلِ،

فضرب النبيّ ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسولُ الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام، وهو يَنْفُضُ رأسَه من الغُبار، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعته اخرُج إليهم، قال النبيّ ﷺ: **«فأين؟»** فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردّ الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن يُقتلَ المُقاتِلَةُ، وأن تُسْبَى النساءُ والذريّةُ، وأن تُقسمَ أموالُهم، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ»**.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١١، ٤١٦، ٤١٧)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٢/٩٤، ٩٥).

[٣٥٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زُقاق بني غَنْمٍ موكِبِ جبريل عليه السلام حيث سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١١) وفي بدء الخلق.

[٣٥١] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبيّ ﷺ لما رجع من الأحزاب: **«لا يُصَلِّيَنَّ أحدُ العصر إلا في بني قريظة»**، فأدرك بعضَهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلّي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فلم يعنّف واحداً منهم.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤١٢)، ومسلم في الجهاد (١٢/٩٧).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ للأنصار: **«قوموا إلى سيّدكم أو خيركم»**، ثم قال: **«إن هؤلاء نزلوا على حكمك»**، قال: تُقتل مقاتِلتُهم، وتُسْبَى ذريّتُهم، قال: فقال النبيّ ﷺ: **«قضيت بحكم الله»**.

رواه البخاري (٨/٤١٥)، ومسلم (١٢/٩٣، ٩٤).

«الأكحل» عرق في الذراع.

كان السبب في غزو هؤلاء النَّتنى هو نقضهم عهد النبيّ ﷺ كما تقدم في حديث الزبير الذي ذهب إليهم ليأتي بخبرهم، ولذلك لمّا رجع النبيّ ﷺ من الأحزاب ووضع سلاحه واغتسل جاءه جبريل عليه السلام مغبرّاً رأسه وهو ينفضه، فأمره بالخروج إلى قريظة، فخرج ﷺ راكباً على حمار وأمر أصحابه أن يُسرعوا السير بحيث لا يصلّون العصر إلاّ في بني قريظة، وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم ستّة وثلاثون فرساً، ولواؤه ﷺ بيد الإمام عليّ عليه السلام، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه، ولما وصل المسلمون إلى قريظة ورآهم اليهود تحصّنوا في حصونهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أنْ لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمرّوا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من النبيّ ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل منهم ذلك، بل قال: لا بدّ من النزول والرّضا بما يحكم عليهم، فنزلوا على حكمه ففعلوا ثم أمر برجالهم فقيدوا، فجاءه رجال من حلفائهم الأوس وسألوه ﷺ أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم: **«ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟»** فقالوا: نعم، فاختار سيّدهم سعد بن معاذ فأرسل إليه، فأتي به على حمار والتفّ حوله جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك، فقال رضي الله تعالى عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم، فلما نزل قال له النبيّ ﷺ: **«إن هؤلاء نزلوا على حكمك»**، فقال: إني أحكُمُ أن تَقْتُلوا الرجالَ، وتَسْبُوا النساء والذريّة، فقال عليه الصّلاة والسلام: **«لقد حكمتَ فيهم بحكم الله يا سعد»**، ثم أمر بتنفيذ الحكم، فقُتل جميع رجالهم وكانوا نحواً من سبعمائة رجل، وقيل: ثمانمائة أو تسعمائة، وقيل: أربعمائة، وهذا الأخير هو الذي جاء به حديث جابر الآتي، ومن كان يشكّ فيه هل هو بالغ أم لا كشف عن عانته، فإن وجده أنبت قتله وإلا تركه، كما في الحديث التالي:

[٣٥٢] فعن عطية القُرَظي قال: كنت من سَبْي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قُتِل، ومن لم يُنْبِت لم يُقتلْ، فكنتُ فيمن لم

يُنبت. وفي رواية: فكشفوا عانتي فوجدوها لم تُنبت فجعلوني في السبي...

رواه أحمد ((٤/٣١٠، ٣٨٣) و(ج ٥/٣١١، ٣١٢)، وأبو داود في الحدود (٤٤٠٤، ٤٤٠٥)، والترمذي في الجهاد والسير (١٤٥٥)، والنسائي في الطلاق، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤١) وحسّنه الترمذي وصححه.

ثم جُمِعَتْ غنائمُهم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وحجفة، ووجد عندهم أثاث كثير وأواني وجمال نواضح وشياه، فخمس ذلك كلّه، وبعد تمام هذا الحكم وتنفيذه انفجر جرح سعد فمات كما يوضحه الآتي:

* * *

❋ موت سعد بن معاذ

[٣٥٣] فعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: رُمِي يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده، فحسمه أخرى فانتفخت يده فنزقه، فلما رأى ذلك قال: اللّهمّ لا تُخرج نفسي حتى تقرّ عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فنما قطرةً قطرةً، حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل إليه فحكم أن تُقتل رجالهم ويستحي نساؤهم وذراريهم، يستعين بهم المسلمون، قال رسول الله ﷺ: «**أصبت حكم الله فيهم**»، وكانوا أربعمائة، فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات.

رواه أحمد (٣/٣٥٠)، والترمذي (١٤٥٣)، والدارمي (٢٥١٢) وغيرهم وحسّنه الترمذي وصححه وهو في الطب من مسلم (١٤/١٩٤) مختصراً.

وقوله: «فحسمه» أي: كواه بالنار لينقطع الدم.

[٣٥٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن سعداً قال: اللّهمّ إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحبّ إليّ أن أُجاهِدَهم فيك من قوم كذّبوا رسولك ﷺ

وأخرجوه، اللّهمّ فإنّي أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيءٌ فأبقني له، حتى أُجاهِدَهم فيك، وإن كنت وضعتَ الحرب فافْجُرْها واجعل موتتي فيها، فانفجر من لَبَّتِه، فلم يَرُعْهُم، وفي المسجد خَيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قِبَلِكم، فإذا سعدٌ يغذُو جُرحُه دماً، فمات منها رضي الله تعالى عنه.

رواه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) وهو بعض حديث عائشة السابق أول الفصل.

* * *

❊ نهاية اليهود من المدينة وما نزل بهم

[٣٥٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حاربت قريظة والنضير فأجْلَى بَني النَّضِير، وأقَرَّ قُريظة ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم وقسم نساءهم، وأولادهم، وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فأمّنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلّهم بني قينقاع وهم رهط عبدالله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة.

رواه البخاري في حديث بني النضير من المغازي (٨/٣٣٣)، ومسلم في الجهاد (١٢/٩١)، وأبو داود (٣٠٠٥).

* * *

❊ قتل يهودية واحدة من قريظة

[٣٥٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله إنها لعندي تَتَحَدَّثُ معي تَضحكُ ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هَتَفَ هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟

قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أُقْتَلُ، قالت: قلتُ: ولم؟ قالت: حَدَثاً أحْدَثْتُه، قالت: فانطُلِقَ بها فضُرِبَتْ عُنقُها، وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: والله ما أنْسَى عَجَبِي من طِيبِ نفسها، وكثرةِ ضَحِكِها، وقد عَرفتْ أنها تُقْتلُ.

رواه أحمد (٦/٢٧٧)، وأبو داود (٢٦٧١)، والحاكم (٣/٣٥، ٣٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/٨٢) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

* * *

❋ فوائد أحاديث هذه الغزوة

في حديث عائشة الأول مع حديث أنس دليل على أن الملائكة لم يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة قطّ، فقد حضروا معه بدراً وأُحداً والأحزاب، وبعد أن زلزلوا كفار قريش في الخندق وأرعبوهم حتى انسحبوا منهزمين، ها هم الآن يلتحقون بالنبيّ ﷺ ويمرّون بزقاق المدينة في موكب خاصّ بهم حتى يرتفع الغبار ساطعاً من أثر خيولهم، فيأتي جبريل النبيّ ﷺ فيأمره بأمرٍ من الله عزّ وجلّ بالخروج لقريظة الغادرين.

وفي حديث ابن عمر دليل على أن المجتهد المخطىء لا يُعنَّف ولا يُلام، فإن الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين سمعوا رسول الله ﷺ يقول لهم: **«لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»** حمل ذلك بعضهم على ظاهره، فاجتهدوا ولم يصلّوا حتى خرج الوقت، وبلغوا إلى قريظة والبعض الآخر حملوه على المعنى؛ بأن المراد بذلك هو الإسراع في السير، وليس المراد بذلك الصلاة في قريظة، ولو خرج الوقت؛ فكان الصواب هنا مع من صلّوا بالطريق. أما الآخرون فأخطأوا في اجتهادهم لكن النبيّ ﷺ لم يلمهم على ما فعلوا، وهكذا يجب أن يُعامل المجتهدون المخطئون، فلا يعنّفون ولا يشتمون كما يفعله من لا دين له ولا أدب.

وفي حديث أبي سعيد دليل على مشروعيّة القيام لأهل الفضل والعلم والدين، وليس هذا من القيام المذموم. قال القاضي عياض: وليس هذا من القيام المنهيّ عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثّلون قياماً طول جلوسه. قال النووي في شرح مسلم (٩٣/١٢): القيام للقادم من أهل الفضل مستحبّ، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصحّ في النهي شيء صريح إلخ.

وأحاديث عائشة وأبي سعيد وجابر تدلّ على مشروعية نزول الكفار على حكم بعض أفراد المسلمين إذا كان أهلاً لذلك، وأنه إذا حكم فيهم ينفذ حكمه كما حصل من سعد بن معاذ بأمرٍ من النبيّ ﷺ.

وفي حديث عطية القرظي دليل على جواز النظر إلى العورة لأجل الحاجة والمصلحة، ولا ينبغي أن يختلف في مثل هذا، كما فيه دليل على أن إنبات شعر العانة يدلّ على بلوغ الغلام، وأنه يعتبر رجلاً يعامل معاملة الرجال في الأحكام الشرعية...

وحديث جابر يدلّ على أن قتلى قريظة كانوا أربعمائة، بينما ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا سبعمائة. وقال غيره: إنهم كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة، وقد جمع الحافظ في الفتح بين ذلك، فانظره (٤١٨/٨).

وحديثا عائشة وجابر يدلاّن على أن سعداً كان قد رمي في أكحله بالخندق، وأنه سأل الله عزّ وجلّ أن لا يقبض نفسه حتى تقرّ عينه من بني قريظة، رغم أنهم كانوا مواليه في الجاهلية، فلما حكم فيهم ونفّذ حكمه انفجر الجرح فمات منه رضي الله تعالى عنه عقب رجوعه إلى المدينة من قريظة، وستأتي أحاديث تتعلّق به في الفضائل.

وحديث عائشة الأخير يدلّ على أن النبيّ ﷺ لم يقتل النساء إلا امرأة واحدة كانت قد سبق لها أن ألقتْ رَحَى على رجل مسلم فقتلته فقتلها النبيّ ﷺ لذلك. أما غيرها من سائر الرجال، فهم كما قال ابن إسحاق: خندقوا لهم خنادق، فضُربت أعناقهم فيها فجرى الدم في الخنادق، وقسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم بين المسلمين... وبقتل هؤلاء اليهود أراح الله

المسلمين من شرّ مجاورة اليهود الذين طالما غدروا وخانوا ومكروا وأفسدوا، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وستأتي نوبتهم بإذن الله تعالى وفي هذه الغزوة جاءت الآيتان من سورة الأحزاب وهما قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ومعناه: وأنزل الله عزّ وجلّ اليهود من بني قريظة الذين ظاهروا كفار قريش وأعانوهم ونقضوا العهد أنزلهم من صياصيهم أي: حصونهم، وألقى في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا، فكنتم أيها المسلمون فريقاً منهم تقتلون، وهم الرجال وفريقاً تأسرونهم وهم النساء والذّرية، وأورثكم الله أرضهم وعقارهم وخيلهم وأموالهم التي تركوها وأرضاً أخرى لم تطؤها بعد وهي خيبر، وستأتي.

* * *

❋ من نتائج وراثة أرضُ قُرَيْظَة والنَّضِير

[٣٥٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل يجعل للنبيّ ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، وأن أهلي أمروني أن آتي النبيّ ﷺ فأسأله الذين كانوا أعْطَوْه أو بَعْضَه، وكان النبيّ ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلاّ والذي لا إله إلا هو لا يُعْطِيكَهُم وقد أعطانيها، أو كما قالت، والنبيّ ﷺ يقول: «**لك كذا**»، وتقول: كلا والله حتى أعطاها، حسبتُ أنه قال: عشرة أمثاله، أو كما قال.

رواه البخاري في المغازي (٤١٤/٨) وفي الخمس وفي غير ذلك، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٠١/١٢)، ويأتي من طريقٍ آخر ولفظ آخر في

غزوة خيبر، وفي رواية للبخاري (٨/٣٣٥) قال: كان الرجل يجعل للنبيّ ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، فكان بعد ذلك يردّ عليهم.

كان من ثمرات غزوة قريظة والنضير أن توسّع النبيّ ﷺ وملك أرضاً ونخيلاً مما جاء في نصيبه من مغانمها، فجعل يردّ النخلات التي كان الصحابة أعطوها إياه، ومنها نَخْلُ أمّ سُلَيم أم أنس، وكان النبيّ ﷺ قد أعطى ذلك لحاضنته أم أيمن رضي الله تعالى عنها، فامتنعت من ردّها لأهلها، وصارت تحلف وتقول: كلاّ والذي لا إله إلاّ هو، فجعل النبيّ ﷺ يلاطفها ويعرض عليها بدل النخلات حتى أعطاها في مقابلتها عشرة أمثالها، وهذا منه تبرّع وإكرام لها، لما لها من حقّ الحضانة، وسيأتي مزيد للكلام على أمّ أيمن في الفضائل.

* * *

❁ زواجه ﷺ بزينب بنت جحش
إرسال زيد بن حارثة لخطبتها للرسول عليه السلام

[٣٥٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «**فاذْكُرْهَا عليَّ**»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تُخَمِّرُ عَجِينَها، قال: فلما رأيتها عظُمَتْ في صَدْري حتى ما أستطيعُ أن أنظرَ إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فولَّيْتُها ظَهْري ونكَصْتُ على عَقِبي، فقلت: يا زينبُ أرسل رسولُ الله ﷺ يَذْكُرُكِ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوامِرَ رَبّي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطْعَمَنا الخُبْزَ واللَّحْمَ حين امْتدَّ النهار، فخرج الناسُ وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسولُ الله ﷺ واتّبعتُه فجعل يتتبع حُجُر نسائه يُسلّم عليهنّ ويَقلنَ: يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرتُه أن القوم خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وعظوا به.

وفي رواية: أصبح رسول الله ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، قال: وكان تزوّجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلس معه رجالٌ بعد ما قام القوم، حتى قام رسول الله ﷺ فمشى، فمشيت معه حتى بلغ باب حُجْرَةِ عائشة ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع فرجعتُ الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة، فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا، فضرب بيني وبينه الستر، وأنزل الله آية الحجاب.

وفي رواية: أن أمّ سليم أهدتْ إلى رسول الله ﷺ طعاماً يوم زواج زينب، قال: تزوّج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعتْ أمّي أمّ سُلَيم حَيْساً فجعلته في تَوْرٍ، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بَعثتْ بهذا إليك أمي، وهي تُقْرِئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنّ أمّي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله، فقال: **«ضعه»**، ثم قال: **«اذْهَب فادْعُ فلاناً وفلاناً وفلاناً، ومن لقيتَ»**، وسمّى رجالاً، قال: فدعوتُ من سمّى ومن لقيت، قيل لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

قال: وقال لي رسول الله ﷺ: يا أنس **«هات التَّوْر»**، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: **«لِيَتَحَلَّقْ عشرةٌ عشرةٌ، ولْيأكلْ كلُّ إنسانٍ مِمَّا يَلِيه»**، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلّهم، فقال لي: **«يا أنس ارفع»**، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائفُ منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ ورسولُ الله ﷺ جالس وزوجتُه مُوَلِّيةٌ وجهَها إلى الحائط، فثَقُلُوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فسلّم على نسائه ثم رجع، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنّوا أنهم قد ثَقُلوا عليه، قال: فابتدروا الباب، فخرجوا كلّهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة فلم يلبَثْ إلا يسيراً حتى خرج عليّ وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأهنّ

على الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ الآية، قال أنس: أنا أحدثُ الناس عَهْداً بهذه الآيات، وحُجِبْنَ نساءُ النبيّ ﷺ.

الحديث برواياته رواه البخاري في التفسير (١٤٨/١٠) وفي التوحيد رقم (٧٤٢١) وغيرهما، ومسلم في النكاح (٢٢٧/٩، ٢٣٣)، والنسائي في الكبرى (٤٣٤/٦، ٤٣٦) بألفاظ مطوّلاً ومختصراً.

قوله: «فاذْكُرْها عليَّ» أي: احظُبْها لي. «عظُمت في صدري» يعني هابَها واسْتَجَلَّها من أجل إرادة النبيّ ﷺ تزوّجها، ولذلك تأدّب فأعطاها ظهره وكَلَّمَها. «حتى أؤامر ربّي» أي: حتى أستخير الله. قوله: «حيساً» ـ بفتح الحاء وسكون الياء ـ هو تمر يُنزع نواه ويخلط مع الأقط والسمن ويُعجن ذلك فيكون كالثريد. وقوله: «في تور» ـ بفتح التاء وسكون الواو ـ هو الآنية.

زينت بنت جحش هي بنت عمةِ رسول الله ﷺ أُمَيْمَة تزوّجها النبيّ ﷺ سنةَ خمسٍ على الصحيح زوَّجَها الله عزّ وجلّ إياهُ بدون وَلِيٍّ ولا شهود ولا صداقٍ خصيصةً من الله تعالى له ولها، وكانت قبله تحت زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، وكانت تتعاظم عليه لكونها قرشية ذات حسب وزيد مولى فطلّقها زيد، فلمّا انقضت عدّتها بعثه إليها يخطبها له ﷺ، فأرادت أن تستخير الله في ذلك، فأنزل الله تعالى القرآن على نبيّه ﷺ يزوّجه بها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ الآية، زيد هو ابن حارثة، والوطر الحاجة.

[٣٥٩] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبيّ ﷺ يقول: **«اتّقِ الله وأمْسِكْ عليك زوجُك»**، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكُنّ وزوَّجَنِي الله تعالى من فوق سبع سمٰوات.

وفي رواية: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ في شأن زينب بنت جحش، جاء زيد يشكو فهمّ بطلاقها، فاستأذن النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «أمسِكْ عليك زوجَك واتّقِ الله».

رواه البخاري في التفسير (١٤٢/١٠) وفي التوحيد (١٨٣/١٨، ١٨٤)، والترمذي (٣٠٠٣، ٣٠٠٥)، والحاكم (٤١٧/٢) وانظر ما سبق في التفسير.

لما ضاق صدر زيد بن حارثة مما كانت تعامله به السيدة زينب من التعالي عليه... همّ بطلاقها، فأتى النبيّ ﷺ يشكوها إليه، وكان الذي زوّجه إياها، فقال له: «اتّق الله وأمسك عليك زوجك ولا تطلّقها»، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

فكان الذي أخفاه في نفسه هو ما أوحاه الله تعالى إليه بأنه سيتزوّجها إذا طلّقها زيد، وكان يخاف إن تزوّجها أن يُعَيِّره الناسُ بأنه تزوّج زوجةَ ابنِهِ زيد حيث إنه كان ينسب إليه حتى نزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾.

[٣٦٠] وعن أنسٍ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال عمر: قلتُ: يا رسول الله يَدخلُ عليكَ البرُّ والفاجرُ، فلو حجبتَ أُمّهاتِ المؤمنين، فأنزل الله عزّ وجلّ آية الحجاب.

رواه أحمد والبخاري في التفسير (٣٣٥/٩ ج ١٤٦/١٠، ٢٨٦)، والنسائي في الكبرى (٤٣٥/٦).

[٣٦١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت آكل مع النبيّ ﷺ حَيْساً مِن قَعْنَب، فمَرَّ عُمرُ رضي الله تعالى عنه فدعاه فأكل فأصاب أُصبُعُه أصبُعِي، فقال: «حَسٌ أو أوْه، لو أُطاعُ فِيكُنَّ ما رأَتْكُنَّ عينٌ»، فنزل الحجاب.

رواه النسائي في الكبرى (٤٣٥/٦) وعزاه في المجمع (٩٣/٧) لأوسط الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة.

«قعنب» بفتح القاف وسكون العين قدح ضخم. وقوله: «حس» كلمة تقال إذا أصيب الإنسان بضربة أو بشيء ما عن غفلة، و«أوّه» كلمة تُقال عند التوجّع والشكاية.

الحديثان يدلّان على أن آية حجاب نساء النبيّ ﷺ كان نزولها بسبب سيّدنا عمر، بينما حديث أنس المتقدم يذكر أنه كان بسبب زينب، وقد جمع بين ذلك إما بتعدّد النزول، أو يكون نزل بأحد السببين، ثم صادف الثاني النزول فأخبر كلٌّ بما علم، والله تعالى أعلم.

وفي حديث أنس في قصة زواج زينب بجميع رواياته أحكامٌ وآداب وفوائد:

فمنها: جواز خطبة المرأة بواسطة زوج سابق لها وقد طلّقها، وليس في ذلك غضاضة إن أطاق ذلك.

ومنها: خصيصة للنبيّ ﷺ ولزينب حيث تزوّجها بأمر الله تعالى بلا وليّ ولا شهود ولا صداق، بل بمجرّد نزول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وهذا شيء لم يكن ولا يكون لأحدٍ غيرهما.

ومنها: مشروعية الوليمة في العرس وأن يكون طعامها اللحم وغيره من الفواكه ونحوها، وقد تقدم حديث: «**أولم ولو بشاة**»، فانظر ذلك فيما سبق من النكاح.

ومنها: ظهور تلك المعجزة النبويّة في تكثير الطعام وبركته حتى أكل منه ثلاثمائة رجل حتى شبعوا وبقي الطعام على حالته لم ينقص منه شيء.

ومنها: مشروعية الإهداء للعروس بعض ما يحتاجه في وليمته من الطعام ونحوه.

ومنها: إرشاد المسلم إلى أنه ينبغي له أن ينصرف من الوليمة فور فراغه من تناول الطعام، وأن لا يمكث ويطيل على أهل الدار فيثقل عليهم، فإن ذلك قد يُؤذيهم أشدّ الإذاية كما صدر من أولئك النفر مع النبيّ ﷺ، حيث مكثوا بالمنزل بعد أكلهم وهو يريد أهله، وجعل يخرج ويدخل وهم جالسون حتى نزل القرآن يؤنّبهم: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

ومنها: أن حجاب نساء النبيّ ﷺ هو حجاب خاص، وذلك لأشخاصهنّ وجميع أجسامهنّ، فلا يُرى منهنّ شيء أصلاً، كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، وهذا بخلاف غيرهنّ، فإن حجابهن مقيّد بغير ما ظهر منهنّ.

ومنها: فضل زينب رضي الله تعالى عنها، وأن لها خصيصة ليست لغيرها؛ حيث تولّى الله تعالى تزويجها بدون واسطة أحد، وستأتي فضائلها في موضعه إن شاء الله تعالى.

* * *

خلاصة ما وقع في السنة الخامسة من الأحداث

كان في هذه السنة من الأحداث الآتي: غزوة بني المصطلق، زواجه ﷺ بجُوَيْرِيَة بنت الحارث، إثارة المنافقين الفتنة بين المهاجرين والأنصار، حادث الإفك، ريح شديدة هبّت لموت منافق عظيم، غزوة الخندق، المعجزات التي وقعت فيها...، انشغال المسلمين عن صلاتي الظهر والعصر حتى غربت الشمس، دعاء النبيّ ﷺ على الأحزاب واستجابة دعائه، انهزام الأحزاب بزلزلة الملائكة قلوبهم وهبوب ريح شديدة عاصفة، خلاصة غزوة الأحزاب وفوائدها، شهداء الخندق، غزوة بني قريظة، نهاية اليهود من المدينة، فوائد غزوة قريظة، من نتائج وراثة أرض النضير وقريظة، زواجه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها.

* * *

السنة السادسة
مقتل أبي رافع بن أبي الحُقَيْقِ اليهودي لعنه الله تعالى

[٣٦٢] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمّر عليهم

عبدَ الله بن عَتِيكٍ، وكان أبو رافع يُؤْذي رسول الله ﷺ ويُعِينُ عليه، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناسُ بِسَرْحِهم، فقال عبدالله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلقٌ ومُتَلَطِّفٌ للبوَّاب لعلّي أن أدخلَ، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تَقَنَّع بثوبه كأنه يَقضي حاجةً وقد دخل الناس، فهتَف به البوابُ: يا عبدالله إن كنتَ تريد أن تدخلَ فادخُل، فإني أريد أن أُغْلِقَ البابَ، فدخلتُ فكمَنتُ، فلما دخل الناس أغلق البابَ ثم علّق الأغَالِيقَ على وَتَدٍ، قال: فقمتُ إلى الأقاليدِ فأخذتُها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده، وكان في عَلالِيَ له، فلما ذهب عنه أهلُ سَمَرِه صعِدتُ إليه فجعلتُ كلما فتحتُ باباً أغلقتُ عليَّ من داخل، قلت: إنْ القوم نَذِرُوا بي لم يخلُصوا إليَّ حتى أقْتُلَه، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مُظْلِم وسَطَ عِيالِه، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هَذا؟ فأهْويتُ نحوَ الصوت، فأضربه ضربةً بالسيف، وأنا دَهِشٌ، فما أغنيتُ شيئاً، وصاح، فخرجتُ من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلتُ إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويلُ، إنَّ رَجُلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف، قال: فأضربُه ضربةً أثْخَنْتُه، ولم أقتُلْه، ثم وضعتُ ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفتُ أنّي قتلتُه، فجعلتُ أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيتُ إلى درجة له فوضعتُ رجلي وأنا أرى أني انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مُقْمِرةٍ، فانكسرتْ ساقي فعَصَبْتُها بعمامة، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب، فقلتُ: لا أخرج الليلة حتى أعلمَ أقتلْتُه أم لا، فلما صاح الدِّيكُ قام الناعي على السُّور فقال: أنعِي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبيّ ﷺ فحدّثتُه فقال لي: «ابسُط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحَها فكأنها لم أشتكها قطّ.

رواه البخاري في الجهاد (٤٩٦/٦) وفي المغازي (٣٤٤/٨، ٣٤٨) من طرق.

«سرحهم» ـ بفتح السين وسكون الراء ـ أي: مواشيهم. «تقنّع» أي: غطّى رأسه بثوب. «هتف» أي: ناداه وصاح به. «فكمنت» أي:

اختبأت. «الأغاليق» المفاتيح وهِيَ الأقاليد واحدها إقليد. «يسمر عنده» أي: يتحدّث الناس عنده ليلاً. «علالي» واحدها عليَّة أي: غرفة. «نَزِرَ بي» ـ بكسر الذال ـ أي: علموا بي. «لم يخلصوا» أي: لم يصلوا إليّ. «فأهويت» أي: قصدت جهته. «أثخنته» أي: أوهنته. «ضبيب سيفي» ـ بالضاد ـ على وزن رغيف، وقيل: هو بالظاء وهو طرف حدّ السيف. «صاح» أي: صرخ. كان أبو رافع من كبار تجّار الجزيرة ومن أشراف اليهود وكان يسكن في حصنٍ له بخيبر أو قريب منها، وكان يُعادي رسول الله ﷺ ويؤذيه ويُؤَلِّب عليه الناس، وقد كان ممّن أعان غطفانَ وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ في الأحزاب، فبعث إليه رسول الله ﷺ مَن يقتله، وكانوا جماعة من الأنصار منهم عبدُالله بن أُنَيس الأنصاري، وعبدالله بن عتبة، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة، وخزاعي بن أسود، وأميرهم عبدالله بن عَتِيك وهو الذي تولّى قتله.

وكان هذا الحادث في رمضان سنة ستّ على المشهور، وقيل: سنة خمس وقيل غير ذلك، وهذه هي العملية الفدائية الثالثة التي صدرت من الصحابة بإذن النبيّ ﷺ ضدّ الكفار المحاربين.

وفي الحديث جواز قتل مؤذي النبيّ ﷺ والطاعن فيه، ولا خلاف في ذلك بين العلماء. وفيه مشروعيّة هجوم القليل من المسلمين على الكثير من الكفار، وفيه جواز قتل الكافر المحارب غيلة مُبَيِّتاً بين أهله، وفيه شجاعة عبدالله بن عَتِيك ومغامرته وذكاؤه وفطنته، وفيه ما كان عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من المسارعة إلى امتثال أمر رسول الله ﷺ ولو كان فيه هلاكهم، وفيه فضل الأنصار رضي الله تعالى عنهم، فإن الذين نفَّذُوا العمليات في قتل كعب بن الأشرف، وخالد الهُذَلي، وأبي رافع بن أبي الحُقَيْق، كُلُّهم كانوا من الأنصار رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم وجعل الفردوس مثواهم وإيّانا معهم.

* * *

❁ قصَّة ثُمامَة بْنِ أُثالٍ الحَنَفِيّ

[٣٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجلٍ من بني حَنِيفة يقال له ثُمامَة بن أُثال سيِّد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسولُ الله ﷺ فقال: «**ماذا عِنْدَك يا ثُمامَة؟**» فقال: عندي يا محمد خَيْرٌ، إن تَقْتُل تقتلْ ذا دم، وإن تُنْعِمْ تُنْعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت؛ فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ما عندك يا ثُمامة؟**» قال: ما قلت لك، إن تُنْعِم تُنْعم على شاكرٍ، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنتَ تريد المال فسَلْ تُعْطَ منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلت لك، إن تُنْعِم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسَلْ تُعْطَ منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ: «**أطْلِقُوا ثُمامة**»، فانطلق إلى نخيل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلّها إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدِك، فأصبح بلَدُك أحبّ البلاد كُلّها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكّة قال له قائل: أصَبَوْتَ؟ فقال: لا ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةٌ حِنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في المساجد (١٠٢/٢، ١٠٦) وفي المغازي (١٥٠/٩، ١٥١) في وفد بني حنيفة، ومسلم في الجهاد (٨٧/١٢، ٨٩)، وأبو داود (٢٦٧٩)، والنسائي في الطهارة (٩١/١)، وقد تقدّم في المساجد مختصراً.

كان رسول الله ﷺ قد بعث محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشنّ الغارة على بني بكر بن كلاب بناحية ضَرِيّة وهو موضع يبعد عن المدينة لجهة نجد بسبعِ ليالٍ، فساروا يكمُنُون النهار، ويَسِيرُون الليل حتى دهَمُوهم

فقتلوا منهم عشرة وهرب باقيهم، فاستاقوا النَّعَم والشَّيَاهَ وعادوا راجعين، وفي طريقهم التقوا ثمامة بن أثال وكان من عظماء بني حنيفة، فأسَرُوه وهم لا يعرفونه، فلما أتوا به رسول الله ﷺ وعرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق وهو موثق بالمسجد، وأطلق سراحه بعد ثلاث، فهداه الله عزّ وجلّ فذهب واغتسل وأشهر إسلامه واعترف للنبيّ ﷺ بما كان يكنّه قلبه له ولبلده من البغضاء، وما انقلب إليه من المحبّة، وما ذلك إلا لما عامله به النبيّ ﷺ من المعاملة الحسنة والعفو عنه.

وفي هذا الحديث من الفوائد والفقه: أن للمسلمين أن يأسروا أي كافر محارب وجدوه في بلاد الكفر، وأنه يجوز إدخال الكافر المسجد للمصلحة والحاجة والضرورة، وأن الكافر يشرع له الاغتسال عند إسلامه، وأن الإمام له الخيار في معاملة الأسير بين العفو وغيره، وأن الأسير ينبغي أن يُعامل المعاملة الحسنة ولا سيّما إذا كان سيداً في قومه، فإنه من السنّة إنزال الناس منازلهم، وخاصّة إذا كان يرجى من إسلامه اتّباع غيره له، وفيه ما صار إليه ثمامة من حبّه للنبيّ ﷺ بعد فترة وجيزة من بغضه إيّاه، وفيه صدق إيمانه ووفاؤه للنبيّ ﷺ يتجلّى ذلك في قوله لكفار مكة: والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، وثمامة هذا كان له القدم الراسخ في تثبيت قومه بني حنيفة عندما ظهر مسيلمة الكذاب وارتدّوا واتّبعوه، وكان له شأن في قتالهم.

* * *

❋ غزوة بني لحيان

[٣٦٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: إن لهم صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهي العصر، فأجْمَعُوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وأن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بعضهم، وتقوم الطائفة الأخرى وراءهم ليأخذوا حذرهم وأسلحتهم،

ثم تأتي الأخرى فيصلّون معه، ويأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم لتكون لهم ركعة ركعة مع رسول الله ﷺ، ولرسول الله ﷺ ركعتان.

رواه أحمد (٥٢٢/٢) والترمذي في التفسير (٢٨٣٩) والنسائي في صلاة الخوف (١٤٢/٣) وحسنه الترمذي وصححه.

[٣٦٥] وعن أبي عيّاش الزُّرَقِي رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بعُسْفان فاستقبلَنا المشركون عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلّى رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غِرّتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأنفسِهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخ، قال: فحضرت الصلاة، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا صفّين، قال: ثم ركع، فركعنا جميعاً، ثم رفع، فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبيّ ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلمّا سجدوا وقاموا جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبيّ ﷺ والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس جلس الآخرون، فسجدوا فسلّم عليهم ثم انصرف، قال: فصلاّها رسول الله ﷺ مرّتين، مرّة بعُسْفان ومرة بأرض بني سُلَيم.

رواه أحمد (٥٩/٤، ٦٠)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي في صلاة الخوف (١٤٥٨)، والحاكم (٣٣٧/١، ٣٣٨) وصححه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

«عسفان» ـ بضم العين وسكون السين ـ موضع بينه وبين مكّة نحو من سبعين كيلو. و«ضجنان» ـ بفتحتين ويسكن الجيم ـ جبل قريب من مكّة، قالوا: بينه وبين مكّة خمسة وعشرون ميلاً.

في الحديثين بيان بداية تشريع صلاة الخوف، وأن النبيّ ﷺ أوّل ما صلاّها كان بعسفان، في غزوة بني لحيان وبها نزلت آية صلاة الخوف.

وكان سببها كما قال علماء السيرة والمغازي: أنه لما أُصيب خبيب وعاصم وأصحابهما في سرية الرجيع خرج رسول الله ﷺ طالباً بدمائهم في السنة السادسة ليصيب في بني لحيان غرة، فسلك طريق الشام ليري أنه لا يريد لحيان حتى نزل بأرضهم، فوجدوا وقد حُذِرُوا وتَمَنَّعُوا في رُؤوس الجبال، فقال رسول الله ﷺ: «**لو أنّا هبطنا عسفان لرأت قريش أنّا قد جئنا مكّة**»، فخرج في مائتي راكب حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين، حتى جاءا كراع الغميم ثم انصرفا، فكان ما حدَّثَ به أبو عيَّاش الزرقي وأبو هريرة من صلاة الخوف.

وقد قدمنا في صلاة الخوف ـ الجزء الثاني ـ أن النبيّ ﷺ صلاّها مرات متعدّدة، وقد ذكرت هناك حديثي جابر وصالح بن خوات أنه ﷺ صلاّها بذات الرقاع، كما ذكرت حديث ابن عباس أنه صلاها أيضاً بغزوة ذي قُرد، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك، وراجع الجزء الثاني ص (٤٨٠، ٤٨٢).

* * *

❋ قصة عُكْل وعُرَيْنَة

[٣٦٦] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: إن ناساً من عُكْل وعُرَيْنَة قدموا المدينة على رسول الله ﷺ وتكلّموا بالإسلام، فقالوا: يا نبيّ الله إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة، فأمرهم رسول الله ﷺ بذَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ ﷺ واستاقوا الذَّوْدَ، فبلغ النبيّ ﷺ، فبعث الطلبَ في آثارهم فأمر بهم فسمِّروا أعْيُنَهم، وقطعوا أيديهم، وتُرِكُوا في ناحية الحرّة حتى ماتوا على حالهم.

رواه البخاري في التفسير (٣٤٣/٩) وفي مواضع، ومسلم في القسامة،

وأبو داود (٤٣٦٤)، والنسائي والترمذي وغيرهم، وقد تقدم في التفسير وفي المرتدين.

و«استوخموا» هو معنى رواية مسلم، «فاجتووا المدينة» أي: لم يوافقهم هواؤها فمرضوا. وقوله: «فسمّروا أعينهم» أي: كحلها، وفي رواية: وسمل أي: فقأها. وللحديث فوائد كثيرة ويدخل في أبواب عديدة وراجع ما تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ الخ. من التفسير وكتاب المحاربين وقطاع الطريق...

* * *

❊ غزوة الحديبية وبيعة الرضوان ومصالحة المشركين: وقت الحديبية

[٣٦٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربعَ عُمَر كلُّهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجّته، عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجّته.

رواه أحمد (٣/١٣٤، ٢٥٦)، والبخاري في الحجّ وفي المغازي (٨/٤٤٥)، ومسلم في الحجّ رقم (١٢٥٣)، وأبو داود والترمذي كلاهما في الحج وقد تقدم في الحجّ.

الحديبية موضع بينه وبين مكّة نحو عشرين كيلو وهي نهاية الحرم من ناحية الغروب، وكان هذا الحادث في ذي القعدة من السنة السادسة، والسبب في ذلك أنه ﷺ رأى رؤيا مُؤدَّاها أنه دخل هو وأصحابه مكّة المكرمة معتمرين مُحَلِّقين ومُقَصِّرين، فنادى في الصحابة بذلك، فخرج قاصداً مكّة للاعتمار، وأحرموا من ذي الحليفة فلما وافوا الحديبية خرج المشركون فصدوهم عن الدخول إلى مكّة، وبعد مفاوضات وقع الصلح على أن يرجعوا، وأن يأتوا العام المقبل.

* * *

❋ عدد أصحاب الحديبية وبيعة الرضوان

[٣٦٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: **«أنتُم خيرُ أهلِ الأرض»**، وكنّا ألفاً وأربَعمائةٍ، ولو كنتُ أُبصِر اليوم لأَرَيْتُكُمْ مكانَ الشجرة.

رواه أحمد (٣٩٦/٣)، والبخاري في غزوة الحديبية (٤٤٨/٨، ٤٤٩)، ومسلم في الإمارة (٣/١٣)، وفي رواية لهما: كنّا ألفاً وخمسمائة.

[٣٦٩] وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة، وكانت أسْلَمُ ثمن المهاجرين.

رواه البخاري (٤٤٩/١)، ومسلم (٣/١٣).

حديث جابر بروايته الأولى يدلّ على أن عدد أهل بيعة الرّضوان كانوا ألفاً وأربعمائة، بينما الرواية الثانية تدلّ على أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة.

أمّا رواية ابن أبي أوفى، فتدلّ على أنهم كانوا ألفاً وثلاثمائة، وأكثر الروايات أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، ولذلك رجّحها البيهقي وغيره، أما غير ذلك فجمع بينها النووي ثم الحافظ بما فيه نظر.

❋ ❋ ❋

❋ سياق قصة الحديبية والصلح والبيعة وما يتبع ذلك

[٣٧٠] عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهَدْي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إنّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك ومانعوك، فقال: **«أشيروا أيها الناس عليّ أترَوْنَ أن أَميلَ على عِيالهم وذَرارِي هؤلاء الذين يُريدون أن يَصُدُّونا عن البيت، أم ترون أن نَؤُمَّ البيت، فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟»** فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قَتْلَ

أحد ولا حرباً، فتوجّه له فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ قال النبيّ ﷺ: «**فامضوا على اسم الله**».

حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبيّ ﷺ: «**إن خالد بن الوليد في خَيلٍ لقريش طليعةً، فخُذوا ذات اليمين**»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبيّ ﷺ حتى إذا كان بالثَّنِيَّةِ التي يَهْبِطُ عليهم منها بَرَكَتْ به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ فألحّتْ، فقالوا: خَلأَتْ القَصْواء، فقال النبيّ ﷺ: «**ما خَلأَتْ القصواءُ وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبَسها حابِسُ الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يَسْألوني خُطَّةً يعظمون فيها حُرماتِ الله إلا أعطيتُهم إيّاها**»، ثم زجرها فوثبتْ فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ قليل الماء يَتَبَرَّضُه الناسُ تَبَرُّضاً، فلم يَلْبَث الناس حتى نزحوه وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتى صَدَروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن ورقاء الخُزاعي في نَفرٍ من قومه، فقال: إني تركتُ كعبَ بن لؤي، وعامرَ بن لُؤي، نزلوا أعدادَ مياه الحديبية معهم العُوذ المَطافِيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال النبيّ ﷺ: «**إنا لم نجىء لقتال أحدٍ، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأُقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لَيُنَفِّذَنَّ الله أمرَه**»، قال بديل: سأبْلُغُهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نَعرضَه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤُهم: لا حاجة لنا أن تُخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم أوَلستُم بالوالِد؟ قالوا: بلى، قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لا، قال: ألستُم تعلمون أني اسْتَنْفَرْتُ أهل عُكاظٍ فما بَلَّحُوا عليَّ، جئتكم بأهلي وولدي ومن

أطاعني، قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: إيته، فأتاه فجعل يكلّم النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصلَه قبلك، وإن تكن الأخرى فإنّي والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امْصَصْ بَظْرَ اللاَّتِ نحن نفرّ وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجبتُك، قال: وجعل يكلّم النبيّ ﷺ فكلما كلّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يدَه بنصل السيف، وقال: أخّر يدك عن لحية النبيّ ﷺ، فرفع عروة رأسَه، وقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غُدَرُ ألستُ أسْعَى في غَدْرَتِك؟ وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**»، ثم إن عروة جعل يَرْمُقُ أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخامةً إلا وقعت في كَفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلْدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضُوئه، وإذا تكلّم خَفَضُوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أيْ قوم والله لقد وفدت على الملوك كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يُعَظِّمُه أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمد محمّداً، وأنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من كنانة: دعوني آته، فقالوا: إيته، فلما أشرف على النبيّ ﷺ وأصحابه قالوا: هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البُدْن فابعثوها له، فبعث له واستقبله الناس يلبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلمّا رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلّدت وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال

له مكرز بن حفص، فقال: دَعُوني آته، فقالوا: إيته، فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلّم النبيّ ﷺ، فبينما هو يكلّمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبيّ ﷺ الكاتب، فقال له النبيّ ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فقال سُهَيْل بن عمرو: أما الرحمٰن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللّهمّ كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقال النبيّ ﷺ: «اكتب باسمك اللّهمّ».

ثم قال: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﷺ»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، اكتب محمد بن عبدالله، فقال النبيّ ﷺ: «إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبدالله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، فقال له النبي ﷺ: «على أن تُخَلُّوا بيني وبين البيت، فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا يتحدّث العرب أنا أُخِذْنَا ضُغْطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منّا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يردّ إلى المشركين، وقد جاء مسلماً...

فبينما هم على ذلك إذ جاء أبو جُندل بن سهيل بن عمرو يرسُف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكّة حتى رمَى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبيّ ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذاً لا أُصالحك على شيء أبداً، فقال النبيّ ﷺ: «فأجزه»، قال: ما أنا بِمُجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيتُ، وكان قد عذّب عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: فأتيت نبيّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيّ الله حقّاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدَّنية في ديننا إذن؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو

ناصري»، قلت: أوَ لست كنت تحدّثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: **«بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام»**، قلت: لا، قال: **«فإنك آتيه ومطوف به»**.

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّة في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يَعْصِي ربَّه وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِه، فوالله إنه على الحقّ، قلت: أوَ ليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيتَ ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به. قال عمر رضي الله تعالى عنه: فعملتُ لذلك أعمالاً.

قال: فلمّا فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«قوموا فانْحَرُوا ثم احْلِقُوا»**، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرّات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها: يا نبيّ الله أتحبّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتَدْعُو حالِقَك فيَحْلِقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعى حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غَمّاً، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فطلّق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أُميّة.

ثم رجع النبيّ ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بَصِير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيّداً، فاسْتَلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جرّبتُ منه ثم جربت، فقال أبو بَصِير: أرِني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى

المدينة، فدخل المسجد يَعْدُو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعراً**»، فلمّا انتهى إلى النبيّ ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بَصِير فقال: يا رسول الله قد والله أوفَى الله ذِمَّتك قد رددْتَني إليهم ثم نجّاني الله تعالى منهم، فقال النبيّ ﷺ: «**وَيْل أُمّه مِسْعر حَرْب لو كان معه أحد**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، قال: وتَفَلَّتَ منهم أبُو جندل بن سهيل فلحَق بأبي بَصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحِقَ بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عِصابةٌ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبيّ ﷺ تناشده الله والرَّحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبيّ ﷺ إليهم وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، حتى بلغ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

وكانت حميتُهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ﷺ، ولم يقروا ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

رواه البخاري في الشروط مطوّلاً (٦/٢٥٧، ٢٨٠) ورواه في المغازي (٨/٤٥٠، ٤٥٩، ٤٦٠) مختصراً، ورواه أحمد (٤/٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥)، وابن حبان (١١/٢١٦، ٢٢٦) وغيرهم مطوّلاً ومختصراً.

[٣٧١] وعن عبدالله بن معقل رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة، فذكر أمر الكتابة ثم قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعى عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله عزّ وجلّ بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هل جِئْتُم في عهد أحدٍ، وهل جعل لكم أحد أماناً**»؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلَهم فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

رواه أحمد (٨٦/٤، ٨٧)، والحاكم وسنده صحيح على شرط مسلم.

[٣٧٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين، يريدون غِرّةَ النبيّ ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

رواه أحمد (١٢٢/٣، ١٢٥)، ومسلم في الجهاد (١٨٧/١٢)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي في تفسير الفتح (٣٠٤٩).

[٣٧٤] وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر النبيّ ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكّة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نُقِرُّ بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، قال ﷺ: **«أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبدالله»**، ثم قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: **«امْحُ رسول الله»**، قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فقال رسول الله ﷺ: **«أرني مكانه حتى أمْحُوَهُ»**، فمحاه وكتب مكان رسول الله ﷺ محمداً، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله أن لا يدخل مكّة بالسلاح إلا السيف في القرب ولا يخرج منها بأحد يتبعه، ولا يمنع أحداً من أصحابه أراد أن يقيم بها... الحديث يأتي كاملاً في عمرة القضاء.

رواه أحمد والبخاري في الحجّ وفي الصلح وفي المغازي، ومسلم في صلح الحديبية (١٣٦/١٢، ١٣٧).

* * *

❋ شرح غريب حديث المسور وغيره

«الأحابيش» جمع أحبوش ـ بضم الهمزة والياء ـ هم قبائل من العرب كانوا تحالفوا مع قريش. «يركض» أي: يضرب الفرس عَدْواً. «خلأت» أي: حرنت. «حَلْ حَلْ» بفتح الحاء يقال ذلك للناقة إذا وقفت ولم تسر.

«حبسها حابس الفيل» أي: حبسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكّة كما حبس الفيل عن دخولها. «خطة» ـ بضم الخاء ـ أي: خصلة. «ثَمَد» ـ بفتحتين ـ أي: حفيرة فيها ماء مثمود أي: قليل. «يتبرضه» أي: يأخذونه قليلاً قليلاً. «يَجِيش» بفتح الياء وكسر الجيم أي: يفور. «العوذ» ـ بضم العين ـ جمع عائذ هي الناقة ذات اللبن. «المطافيل» هي الأُمّهات التي معها أولادها، والمراد أنهم أتوا بنوقهم ذوات الألبان والأولاد، وبنسائهم وأطفالهم لإرادة طول المقام، وليكون ذلك أدعى إلى عدم الفرار. «جَمُّوا» أي: استراحوا وهو بفتح الجيم وضم الميم المشدّدة. «حتى تنفرد سالفتي» السالفة هي صفحة العنق وكنى بذلك عن القتل أي: حتى أُقتل. «استنفرت» أي: طلبت منهم النفار للقتال. «فلما بلّجوا» بفتح الباء وتشديد اللام أي: امتنعوا. «اجتاح» أي: أهلك أصله بالكلية. «أشواباً» أي: أخلاطاً. «خليقاً» أي: حقيقاً. «امصَص بظر اللات» امصص بألف وصل وصادين الأُولى مفتوحة أمر من المصّ وهو الرضاعة والبظر بفتح الباء وسكون الظاء المعجمة هي قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات اسم صنم لقريش وثقيف، وأراد أبو بكر بهذا سبّ عروة بإقامة من كان يعبد من الأصنام مقام أمّه، وكان العرب يسبّون بذلك فيقولون: امصص بظر أمك، فأقام أبو بكر اللات مقام أم عروة. «غدر» بضم الغين وفتح الدال هو معدول عن غادر مبالغة في الغدر. «جعل يرمق» بفتح الياء وضمّ الميم أي: يلحظ. «وما يجدون» بضمّ الياء أي: لا ينظرون إليه متأمّلين بل يغضون أبصارهم احتراماً له. «رجل فاجر» لأنه كان غدّاراً. «ضغطة» بضم الضاد وسكون الغين أي: قهراً. «يرسف» أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب قيده. «فلِمَ نُعْطِي الدنية» أي: الخصلة الخسيسة. «فاستمسك بغَرْزه» بفتح الغين هو للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد بذلك التمسك بأمره ﷺ وترك مخالفته كالذي يركب الفرس فلا يفارقه. «حتى برد» بفتحتين أي: حتى خمدت حواسه وهو كناية عن الموت. «ذُعْراً» بضم الذال وسكون العين أي: خوفاً. وقوله في حديث أنس: «غرة» بكسر الغين أي: في غفلته. وقوله: «سلماً» بفتحتين على الصحيح أي: منقادين. «فاستحياهم» أي: لم يقتلهم.

حديث المسور حديث عظيم فيه فوائد وأحكام وآداب وقواعد تستحقّ الإفراد بالشرح، وأهمّ ما جاء فيه وما في الفصل الأمور الآتية:

أولاً: خروجه ﷺ قاصداً مكّة للاعتمار تصديقاً للرؤيا التي رآها، والتي سيُصَدِّقُها الله تعالى له في السنة السابعة، وفيها يقول عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾...

ثانياً: صَدُّ الكفارِ النبيّ ﷺ وأصحابه عن الدخول إلى مكّة لأداء العمرة، وكان ذلك منهم ظلماً سافراً كان من المفروض أن يُقاتلوا على ذلك، لكن حكمة الله اقتضت غير ذلك، وفي هذا المشهد يقول الله تعالى عن كفار قريش: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

فأخبر تعالى بأن قريشاً منعوا المسلمين عن الدخول إلى مكّة، والحالة أن هديهم كان معكوفاً أي محبوساً عن أن يصل محلّه ومكانه الذي يُذبَحُ فيه وهو الحرم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الخ، يعني: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بهلاكهم مكروه لما كفّ أيديكم عنهم ولأذن لكم في فتح مكّة وقتال المشركين بها، ولو تزيلوا وتميّز بعضهم عن بعض وانفصل المؤمنون عن الكفار لعذّبنا الكافرين منهم أشدّ العذاب.

ثالثاً: ما حصل من التفاوض ومصالحة الكفار، وذلك وإن لم يُرْضِ المسلمين وصدر من بعضهم انتقاد له، فقد كان في ذلك خير كبيرٌ وفتح مبينٌ، وقد جاء ذلك مبيّناً واضحاً في الحديث التالي.

[٣٧٤] عن مُجَمِّع بن جارية رضي الله تعالى عنه قال: شهدْنَا الحديبيةَ، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كُراع الغميم، وقد

جمع الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآية، فقال رجل: يا رسول الله أوَ فتحٌ هو؟ قال: «**إي والذي نفسي بيده إنه لفتح**».

رواه أبو داود (٢٧٣٦)، وابن جرير (٧١/٢٦)، والحاكم (٤٥٩/٢) وصححه على شرط مسلم، قال الذهبي: ولم يخرج مسلم لمجمع ولا لأبيه شيئاً، وهما صحابيان.

[٣٧٥] وعن البراء قال: أتعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

رواه البخاري في المغازي رقم (٤١٥٠، ٤١٥١).

قال الحافظ في الفتح: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، المراد بالفتح هنا الحديبية لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين لما ترتّب على الصلح الذي وقع منه الأَمْنُ ورفعُ الحرب وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك إلخ.

ومن الخير العظيم الذي نشأ عن هذا الصلح أنه دخل في الإسلام في هذه السنة والسنة السابعة ما لم يدخل في السنين الأوائل الطوال، فقد كان ﷺ في هذه الغزوة في ألف وأربعمائة، وكان في غزوة الخندق في ثلاثة آلاف، ودخل مكّة في الفتح في عشرة آلاف.

رابعاً: كانت المصالحة على الشروط التالية: أولاً: أن تُوضع الحرب بين المسلمين وبين كفار قريش عشر سنين، وأن يَأْمَن الناسُ بعضهم من بعض. ثانياً: أن يرجع المسلمون عامهم ذلك وأن يأتوا العام المقبل وأن يدخلوا مكّة بلا سلاح إلا السيوف في القرب، ولا يزيدوا على إقامة ثلاثة أيام. ثالثاً: من أتى المدينة من مسلمي مكّة رُدَّ، ومن أتى مكّة من مسلمي المدينة لا يُرَدّ، وعند هذا الشرط التفت الصحابة إلى رسول الله ﷺ يسألونه: أنكتب هذا يا رسول الله؟ قال: «**إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً**»، رواه مسلم.

خامساً: كان كاتبُ الصلح الإمام عليّ عليه السلام، وعندما أنِفَ الكفارُ من كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم... ورسول الله، حَمية منهم

لجاهليتهم، وأمر النبيّ ﷺ بمَحْو ذلك امتنع وحلف على ذلك، فيؤخذ من هذا أن الأدب قد يقدم على الأمر، فعليّ عليه السلام لم يمتنع من مَحو اسم الله واسم رسوله ﷺ تكبّراً ومحادة لله ولرسوله، بل امتنع من ذلك تأدّباً مع اسم الله واسم رسوله عليه الصلاة والسلام، فأقرّه النبيّ ﷺ على ذلك فتولّى محوه بيده الشريفة نظراً لمصلحة الصلح.

سادساً: في قوله ﷺ لعليّ: «**أرني مكانه حتى أمحُوَه**»، مع قول البراء: وليس يُحْسِن يكتبُ، دليل على أنه عليه الصّلاة والسلام لم يتعلّم الكتابة وأنه بقي على أُمّيّته التي وصفه الله بها، والتي كانت كمالاً ومعجزة في حقّه، خلافاً لمن قال بأنه كان يكتب حتى وقع بسبب ذلك شتائم وسباب وتكفير وتضليل بين بعض العلماء.

سابعاً: ما صدر من الصحابة من كراهية الصلح وعدم امتثالهم لما أمرهم به ﷺ من نحر البدن وحلق الرؤوس والاستحلال من العمرة هو شيءٌ عظيم جداً، لكن الله عزّ وجلّ عفا عنهم وسامحهم وغفر لهم ورضي عنهم؛ لأن ذلك كان فوق طاقتهم فلم يتحمّلوه.

ويؤخذ من هذه الحادثة أن في النساء من لهنّ رأيٌ صائبٌ ونَظَرٌ سديدٌ، فإن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أشارتْ إلى النبيّ ﷺ بأمرٍ كان ناجحاً، فسَلِم الصحابة بسببه من المخالفة فنحَرُوا وحَلَقُوا...

ثامناً: قوله: ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلخ، يقتضي أن ذلك وقع في الحديبية وليس كذلك، بل جِئْنَهُ بالمدينة داخل مدةِ الصلح.

تاسعاً: جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية، حديث أنس في هبوط أناس من جبل التنعيم على رسول الله ﷺ يريدون غرّته فأسرهم المسلمون، ثم عفا عنهم ﷺ، بينما جاء في حديث ابن معقل نزولها في قصة أخرى، فمن المحتمل أن تكون نزلت عند مصادفة القصّتين، فالله تعالى أعلم.

* * *

[٣٧٦] عن المِسْور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه في حديث الحديبية أن رسول الله ﷺ بعث عثمان إلى قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، فخرج عثمان حتى أتى مكّة ولقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابّته، وحمله بين يديه وردف خلفه وأجاره حتى بلّغ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فطُفْ به، فقال: ما كنت لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، فاحتبسَتْهُ قريشٌ عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ عثمان قد قُتِل...

رواه أحمد (٤/٣٢٣، ٣٢٦)، وابن إسحاق كما في ابن هشام (٣/٢٦٣)، وابن سعد (٢/٩٧) وسنده صحيح.

[٣٧٧] عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبيّ ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غُصْناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه أن لا نَفِرّ.

رواه أحمد (٥/٢٥)، ومسلم في الإمارة (١٣/٥).

[٣٧٨] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنّا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، فبايعناه وعمر آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه غَيْرَ الجَدِّ بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره.

رواه مسلم أيضاً (١٣/٢، ٣)، وفي رواية: بايعناه على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت.

[٣٧٩] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: على أيّ شيءٍ بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

رواه البخاري في غزوة الحديبية (٤٥٥/٨)، ومسلم في الإمارة (٦/١٣).

[٣٨٠] وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أنه أتاه آتٍ، فقال: هذاك ابن حنظلة يبايع الناس، فقال: على ماذا؟ قال: على الموت، قال: لا أبايع على هذا أحداً بعد رسول الله ﷺ، وكان شهد معه الحديبية.

رواه البخاري (٤٥٤/٨)، ومسلم (٦/١٣).

ابن حنظلة: هو عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري، كان أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية، فبعث إليهم جيشاً، فقام عبدالله بن حنظلة يطالب أهل المدينة أن يبايعوه على قتال جيش يزيد حتى الموت...

كان احتباس سيدنا عثمان بمكّة من طرف كفارها وإشاعة قتله سبباً في حمل النبيّ ﷺ على مبايعة الصحابة على قتال الكفار والصمود وعدم الفرار.

وقد اختلفت الأحاديث كما نرى على ماذا كان يبايعهم ﷺ.

فحديثا معقل وجابر يدلاّن على أنه بايعهم على أن لا يفرّوا من العدوّ عند القتال، وأنه يجب عليهم الصبر والصمود. أمّا حديثا سلمة بن الأكوع وعبدالله بن زيد فيدلاّن على أنه بايعهم على الموت، وقد جمع بين هذه الأحاديث جماعة من العلماء كلٌّ بما ظهر له. وحملها الترمذي على أنه بايع قوماً على الموت، وبايع آخرين على عدم الفرار، والأمر في ذلك سهل وواضح.

وأهل بيعة الرّضوان يعتبرون أفضل أهل الأرض بعد أهل بدر، فكلاهما من أهل الجنّة كما تقدم، ويأتي في الفضائل، وفي أهل بيعة الحديبية جاءت الإشادة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ الخ، فهم مَرْضِيُّون عند الله عزّ وجلّ ومن رضي عنه فلا يسخط عليه أبداً.

* * *

❁ نزول سورة الفتح

[٣٨١] عن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عُمر عن شيء فلم يُجبْه، فذكر الحديث وفيه: وجئت رسول الله ﷺ فسلَّمتُ فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلةَ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

رواه أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم، وتقدم في التفسير.

[٣٨٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية، مَرْجِعَه من الحديبية، فقال النبيّ ﷺ: «**لقد نزلت عليَّ آيةٌ هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها**». فتلاها رسول الله ﷺ.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد تقدم أيضاً في التفسير.

الحديثان يدلاّن على أن سورة الفتح نزلت في الطريق مرجع النبيّ ﷺ من الحديبية، خلاف ما يُفْهم من بعض الروايات أنها نزلت بالحديبية، والله تعالى أعلم.

* * *

❁ تفجير البئر التي نضبت بالحديبية ببركة النبيّ ﷺ

[٣٨٣] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: تعُدّون أنتُم الفتح فتح مكّة، وقد كان فتح مكّة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان يوم الحديبية كنّا مع النبيّ ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئرٌ فنَزَحْنَاهَا فلم نترك فيها قَطْرَةً، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتى فجلس على شَفِيرِها، ثم دعا بإناء من ماء منها فتوضّأ ثم مضمض ودعا ثم صبّه فيها، فتركها غير بعيد، ثم إنها أصدرتْنَا نحن وركائِبَنا، وفي رواية: «**إيتوني بدلوٍ من مائها**».

رواه البخاري (٨/٤٤٥، ٤٤٧).

«نزحناها» أي: أخذنا ماءها حتى لم يبق منه شيء. «أصْدَرَتْنَا» أي: أنهم رجعوا عنها، وقد رووا هم وإبلهم.

[٣٨٤] وتقدم في حديث المسور الطويل قوله: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتى صدروا عنه.

رواه البخاري وغيره وتقدم.

[٣٨٥] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله ﷺ على جَبَا الركية، فإما دعا وإما بزق فيها، فجاشت فسقينا واستقينا.

رواه أحمد (٤/٥٢، ٥٤)، ومسلم في غزوة ذي قرد (١٢/١٧٤، ١٧٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٥٢) وغيرهم.

«جبا الركية» الجبا ما حول البئر، والركية هي البئر. «وجاشت» أي: فاضت وارتفعت.

في هذه الأحاديث الثلاثة بيان ما حصل في بئر الحديبية من بركة النبيّ ﷺ في مائها بعد أن نزحوها، ففاضت ماء حتى رووا جميعهم وملأوا أسقيتهم وسقوا إبلهم وركائبهم، فهذه أول معجزة صدرت من النبيّ ﷺ في هذه الغزوة، والخلاف الواقع في كونه وضع سهماً فيها أو صبّ فيها من فضل وضوئه أو دعا أو بزق، كلّ ذلك يحتمل وقوعه فحدث كلٌ بما شاهد ولا يكون ذلك طعناً في أصل المعجزة.

* * *

❁ فوران الماء من بين أصابعه ﷺ

[٣٨٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: عطش الناسُ يوم الحديبية ورسولُ الله ﷺ بين يديه رَكْوَةٌ فتوضّأ منها ثم أقبل الناس نحوه، فقال

رسول الله ﷺ: «ما لكم»؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك، قال: فوضع النبيّ ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأ، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

رواه البخاري في الحديبية (٤٤٧/٨، ٤٤٨)، ومسلم في الإمارة (٣/١٣، ٤).

«ركوة» بفتح الراء وسكون الكاف إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء. «يفور» أي: يخرج بتدفّق. وهذه معجزة ثانية وقعت له ﷺ غير ما سبق من جريان البئر وفيضانها؛ لأن هذه المرة فار الماء مثل فوران العيون، والينابيع من بين أصابعه الشريفة حتى شرب جميع الجيش، وصرّح جابر بأنهم لو كانوا مائة ألف لكفاهم ذلك.

* * *

❁ نموّ الطعام والماء ببركة النبيّ ﷺ

[٣٨٧] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جَهْدٌ حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا النبيّ ﷺ فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحزر كم هو فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، فأكلنا حتى شبعنا، ثم حشونا جُرُبَنا، ثم قال رسول الله ﷺ: «هل من وَضُوء»؟ فجاء رجل بإداوة له فيها فأفرغها في قدح، فتوضّأنا كلنا نُدَغْفِقُه دَغْفَقَةً أربع عشرة مائة.

رواه مسلم في اللقطة (٣٣/١٢، ٣٤) قبل الجهاد.

«جهد» بفتح الجيم أي: مشقّة، أما بالضم فالمراد به الوسع والطاقة. «بعض ظهرنا» أي: جمالنا التي نَرْكَبُها. «نطعاً» بفتح النون والطاء مع سكونها هو بساط من جلد. «لأَحْزُرَ» بضم الزاي أي أُقَدِّر. «كربضة العنز» بضم الراء

وكسرها أي: جثة العنز إذا بركت، والعنز أنثى المعز. «حشونا» أي: ملأنا. «جربنا» بضم الجيم والراء جمع جراب أي: مزاودنا وأوعيتنا. «ندغفقه» بضم النون وفتح الدال وسكون الغين مع كسر الفاء أي: نصبه صبّاً.

ففي هذا الحديث معجزتان، الأُولى: تكثير الطعام ونموّه حتى شبع منه ألف وأربعمائة نفر وملأوا أوعيتهم بينما لم يكن مما جمعوه من مزاودهم إلا مثل موضع بروك الشاة من التمر. المعجزة الثانية: نموّ الماء في الإداوة حتى توضّؤوا عن آخرهم، وكلهم يصبّ الماء صبّاً، فهذه المعجزات كلّها وقعت وصدرت من النبيّ ﷺ في هذه الغزوة؛ الحديبية، وكم له من أمثالها، وسيأتي لها موضع إن شاء الله تعالى.

* * *

❁ في أعقاب الحديبية وامتحان النساء المهاجرات

[٣٨٨] عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنهما قال: كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبيّ ﷺ أن لا يأتيك منّا أحدٌ وإن كان على دينك إلا رددْته إلينا، وخلّيْتَ بيننا وبينه؛ فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبيّ ﷺ على ذلك فردّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدة وإن كان مسلماً.

وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلُها يسألون النبيّ ﷺ أن يُرْجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله تعالى فيهن؛ ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

رواه البخاري وتقدم مطوّلاً.

[٣٨٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من يهاجر إليه بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾

إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قالت: فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها: «قد بايعتك».

رواه البخاري في التفسير (٢٦١/١٠)، ومسلم في الإمارة (١٠/١٣) وغيرها، وانظر ما سبق في الإيمان (ج ١/١١٤، ١١٧).

بعد رجوعه ﷺ من الحديبية ونزوله المدينة جعل يأتيه رجال ونساء من مسلمي مكّة فارّين مهاجرين، فكان ﷺ من جاء منهم من الرجال ردّهم وفاءً بالعهد، أمّا النساء فكان لا يردّهنّ لأنهن لم يكنّ في جملة الصلح والعهد، وأمره الله عزّ وجلّ أن يمتحنهنّ بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الخ، فمن أقرّت بذلك واعترفت بأنها ما خرجت إلا رغبةً في الله وفي رسوله ﷺ تركها ولم يردّها إلى الكفار.

وكان في جملة النّسوة المهاجرات أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت عاتِقاً، أي: قاربت الحلم واستحقت الزواج، أو التي عتقت عن الامتهان في الخروج للخدمة أو الكريمة على أهلها، فهذه المعاني كلها تحتملها العاتق، وهذه السيدة كانت قد أسلمت قديماً، ولمّا هاجرت تبعها أخواها فلم يردّها النبيّ ﷺ إليهما، وكانت لم تتزوج بعدُ فتزوجها زيدُ بن حارثة ولما قُتل تزوّجها الزبيرُ بن العوام ثم فارقها فتزوجها عبدالرحمٰن بن عوف، ولما توفي تزوجها عمرو بن العاص، فماتت عنده بعد شهر رضي الله تعالى عنها، وليكن هذا آخر الكلام على غزوة أو عمرة الحديبية، وقد تركنا أشياء وقعت فيها آثرنا تركها اختصاراً. وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

❁ خلاصة ما وقع من الأحداث في السنة السادسة

وقع فيها مقتل أبي رافع اليهودي، قصة ثمامة بن أثال سيّد أهل اليمامة، غزوة بني لحيان، قصة عُكْل وعُرَيْنة، غزوة الحديبية وبيعة الرضوان، وما حصل فيها من الأحداث والمعجزات، في أعقاب الحديبية.

* * *

السنة السابعة
غزوة ذي قَرَد وهي غزوة الغَابَةِ

[٣٩٠] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجتُ قبل أن يُؤَذَّنَ بالأُولَى، وكانت لِقاحُ رسول الله ﷺ تَرْعَى بذي قَرَدٍ، قال: فلقيني غلامٌ لعبدالرحمٰن بن عوف فقال: أُخِذتْ لِقاحُ رسول الله ﷺ، قلت: مَنْ أخذها؟ قال: غَطَفانُ، قال: فصَرَخْتُ ثلاث صَرخَاتٍ: يا صَباحَاهُ، قال: فأسمعتُ ما بين لابَتَيْ المدينة، ثم اندفعتُ على وجهي حتى أدركتُهم وقد أخذوا يَستقُون من الماء، فجعلت أرْميهم بنَبلي، وكنت رامياً، وأقول: أنا ابنُ الأكْوع، اليومُ يومُ الرُّضَّعُ، وأرْتَجِزُ حتى استنقذتُ اللِّقاحَ منهم، واستلبْتُ منهم ثلاثين بُردةً، قال: وجاء النبيّ ﷺ والناسُ فقلت: يا نبيّ الله قد حميتُ القومَ الماءَ وهم عِطاشٌ، فابعثْ إليهم الساعةَ، فقال: «**يا ابن الأكوع، ملكت فأسْجِحْ**»، قال: ثم رجعنا ويُرْدِفُني رسولُ الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.

رواه البخاري (٨/٤٦٦، ٤٦٩)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٧٢٧)، وكذا أحمد (٤/٤٨)، وأبو داود (٢٧٥٢).

«قَرَد» بفتحتين وبضمّتين وبضمّ أوله وفتح ثانيه وبالأول ضبطه أهل الحديث وهو ماء نحو بريد مما يلي غطفان. قوله: «قبل أن يؤذن بالأُولى» أي: بصلاة الصبح. قوله: «لقاح» بكسر اللام جمع لقحة بالكسر والفتح وهي النُّوق والإبل ذوات الدرّ واللبن. «فصرخت» أي ناديت بأعلى صوتي. وقوله: «الرضَّع» بضم الراء مع شديدها وفتح الضاد المشدّدة جمع راضع وهو اللئيم، أي: هذا اليوم يوم هلاك اللّئام، وقيل فيه غير ذلك كما يعلم من الفتح (٨/٤٦٧). قوله: «**فأسْجِحْ**» بهمزة قطع وسكون السين وكسر الجيم آخره حاء، ومعناه: فأحسن وأرفق فقد حصلت النكاية.

غزوة قرد ويقال لها غزوة الغابة وهو موضع قرب المدينة من ناحية الشمال فيه أموال لأهل المدينة، قال البخاري: وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النبيّ ﷺ قبل خيبر بثلاث، وكانت في السنة السابعة بعد الحديبية.

وحديث سلمة هذا يبيّن سبب ذلك، وهو أن غطفان أغاروا على إبل رسول الله ﷺ وكانت عشرين لقحة، فقتلوا راعيها وأسروا امرأة وفرّوا، فتبعهم سلمة بن الأكوع وكان يسبق الخيل بعدوه فلحقهم وجعل يرميهم حتى تركوا اللقاح كلها، ثم رموا له ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون أو لعله يتركهم، وجاءت الأمداد والخيل ورسول الله ﷺ، فلحقوا سلمة عند العشاء، فأمره رسول الله ﷺ بتركهم ثم رجعوا، والحديث التالي مع طوله يفصل ما حصل في هذا الحادث.

[٣٩١] فعن سلمة أيضاً قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فذكر ما يتعلق بها، ثم قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة فنزلنا منزلاً بيننا وبين بني لحيان جبل وهم المشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقي هذا الجبل الليلة كأنه طليعة للنبيّ ﷺ وأصحابه، قال سلمة: فرَقِيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً، ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أُنَدِّيه مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبدالرحمٰن الفَزارِي قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاسْتَاقَهُ أجْمَعَ وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح خُذْ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبدالله وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قمت على أكَمَةٍ فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز أقول:

أنـــا ابـــنُ الأكْـــوَعْ والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـعْ

فألحق رجلاً منهم فأصكّ سهماً في رحله حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها

وأنـــا ابـــنُ الأكْـــوع والـيـومُ يـوم الـرُّضَّـعُ

قال: والله ما زلت أرميهم وأعْقِر بهم، فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايُقِهِ علوت الجبل، فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة، قال: فما زلت

كذلك أتْبعُهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلاّ خَلَّفْتُه وراء ظهري، وخلّوا بيني وبينه، ثم اتَّبَعْتُهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً، يستخفّون ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنية، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يَتَفَحَّوْنَ - يعني يتغدون - وجلستُ على رأس قرة، قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرْحَ، والله ما فارقنا منذ غَلَس يَرْمِينَا، حتى انتزع كُلّ شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعِدَ إليّ منهم أربعةٌ في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذي كرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركتُه، ولا يطلبني رجل منكم فيُدْرِكني، قال أحدهم: أنا أظنّ، قال: فرجعوا فما برحت مكاني حتى رأيت فوارسَ رسولِ الله ﷺ يتخلّلون الشجر، قال: فإذا أوّلهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المِقداد بن الأسود الكِنْديّ، قال: فأخذت بعِنَان الأخرم قال: فولّوا مدبرين، قلت: يا أخرم احْذَرْهُم لا يَقْتَطِعُون حتى يَلحقَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنّة حقّ، والنار حقّ، فلا تحل بيني وبين الشهادة، قال: فخلّيْتُه فالتقى هو وعبدالرحمٰن، قال: فعقر عبدالرحمٰن فرسه وطعنه عبدالرحمٰن فقتله، وتحوّل على فرسه ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبدالرحمٰن فطعنه فقتله، فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شِعْبٍ فيه ماءٌ يقال له ذو قرد ليشربوا منه وهم عِطاشٌ، قال: فنظروا إليّ أعْدُو وراءهم فخَلّيْتُهُم عنه - يعني أجْلَيْتُهم عنه - فما ذاقوا منه قطْرةً، قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، قال: فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصُكُّه بسهم في نُغْضِ كتفه، قال: قلت: خذها

وأنـــا ابـــنُ الأكـــوع والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـع

قال: يا ثَكِلَتْه أُمُّه أكْوَعُه بكرة، قال: قلت: نعم يا عدوَّ نفسه أكوعُك بكرة، قال: وأزدَوْا فرسين على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ قال: ولحقني عامر بِسُطيحة فيها مَذْقة من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربْت ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي خلَّيتُهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نَحَرَنا ناقةً من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كَبِدِها وسَنامِها، قال: قلت: يا رسول الله خلني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتَّبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلتُه، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: «يا سلمة أتُراك كنت فاعلاً؟» قلت: نعم، والذي أكرمك، فقال: «إنهم الآن ليُقْرَون في أرض غطفان»، قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً، فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجَّالَتِنا سلمةُ»، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الرَّاجل، فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير قال: وكان رجل من الأنصار لا يُسْبَق شَدّاً، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، قال: فلما سمعت كلامه قلت: أما تُكْرِمُ كريماً، ولا تهاب شريفاً، قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي ذَرْني فلأسابق الرجل، قال: «إن شئت»، قال: قلت: أذهب إليك، وثَنَيْتُ رجليَّ فطَفَرْتُ فعدوتُ، قال: فربطتُ عليه شرفاً أو شَرَفين، ثم إني رفعت حتى ألحقَه قال: فأصُكُّه بين كتفيه، قال: قلت: قد سُبِقْتَ والله، قال: أنا أظنّ، قال: فسَبَقْتُه إلى المدينة، قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ...

رواه أحمد (٤/٥٢، ٥٤)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٧٧، ١٨٣)، وأبو داود (٢٧٥٢) وغيرهم.

«طليعة» أي: عين يتجسّس الأخبار. «أنديه» بضم الهمزة ثم نون

مفتوحة ثم دال مكسورة مشدّدة أي: أسقيه قليلاً ثم أُرسله للمرعى ثم أسقيه... «أصك ظهره» أي: أضربه. «أرديهم بالحجارة» أي: ألقيها عليهم من فوق لتسقطهم. «فحليتهم» بالحاء أي: طردتهم عن الماء. «نغض كتفه» بضم النون وسكون الغين آخره ضاد هو العظم الرقيق على طرف الكتف. «يا ثكلته أمّه» أي: يا من فقدته أمّه. «أكوعه بكرة» معناه أنت الأكوع التي كنت بكرة هذا النهار. «فطفرت» أي: وثبت وقفزت. «فربطت عليه» أي: حبست نفسي من الجري الشديد. «والشرف» ما ارتفع من الأرض.

والحديث الشريف بيّن بتفصيل ما حصل في هذه الغزوة من البداية إلى النهاية، وقد فاز فيها سلمة بن الأكوع الذي يحدّثنا عنها فهو الذي سبق الصحابة إلى الخروج خلف أولئك الذين أغاروا على لقاح الرسول ﷺ، وهو الذي قاتلهم وطردهم وهزمهم بمفرده، وهو الذي استنقذ اللقاح كاملة، وهو الذي تسبّب في تلك الغَنِيمَة من البُرُود والثياب والرماح والفرسين... وهو الذي أرْعَبَهُم وأعطاهم درساً لم ينسوه طوال حياتهم... وكل ذلك يدلّ على فضله وشجاعته وشهامته وقوّته. ومن غريب أمره الذي انفرد به عن أهل زمانه شدّةُ عدوه وجريه، فإنه كان؛ يسبِق الخيل والفرسان ولا يلحقه طالب مهما كان سواء كان راكباً أم راجلاً.

ولما صدر منه من النكاية في العدوّ واستعادة اللقاح والحصول على الغنيمة أعطاه رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل، ولذلك فقد يقال إن هذه الغزوة كانت مركّزة على سلمة هذا رضي الله تعالى عنه.

* * *

❁ قصة المرأة المسلمة التي أُسِرَتْ مع العضباء ناقة رسول الله ﷺ

[٣٩٢] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عُقَيْل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ،

وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد فأتاه، فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: بِمَ أَخَذْتَني وبِمَ أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «**إعظاماً لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**»، ثم انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً فرجع إليه، فقال: «**ما شأنك**»؟ قال: إني مسلم، قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**»، ثم انصرف فناداه فقال: يا محمد يا محمد، فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**» قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: «**هذه حاجتك**»، ففُدِيَ بالرجلين، قال: وأسرت امرأة من الأنصار وأُصيبت العضباء، فكانت المرأة في الوَثاق، وكان القوم يُرِيحون نَعَمهم بين يديْ بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهي إلى العضباء فلم تَرْغُ، قال: وناقة مُنَوَّقة، فقعدت في عَجُزِها ثم زجرتها فانطلقت، ونَذِرُوا بها فطلبوها فأعجزَتْهم، قال: ونذَرَت لله إن نجّاها الله تعالى عليها لتنحرنّها، فلما قدمت المدينة رآها الناس، فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ، فقالت: إنها نذرت إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «**سبحان الله بئسما جَزَتْها نذرت لله إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها، لا وفاءَ لنِذرٍ في معصية، ولا فيما لا يَمْلِكُ العبدُ**».

رواه أحمد (٤/٤٣٣، ٤٣٤)، ومسلم في النذور (١١/٩٩، ١٠١)، والدارمي (٢٥٠٨) في السِّيَر.

«أخذتك بجريرة» أي: بجنايتهم حيث أسروا رجلين من المسلمين. «لو قلتها وأنت تملك أمرك» يعني لو أسلمت قبل أسرك لما أُسرت. «ناقة منوقة» بضمّ الميم وفتح النون والواو المشدّدة ثم قاف أي: مذلّلة. «ونذروا» بكسر الذال أي: علموا.

وفي الحديث إباحة مال الكافر المحارب أو المُوالي له، وأنه لا يستحقّه وإن أسلم، وأن الأسير الكافر إذا أسلم أحرز دمه وماله ولا تسقط عنه الرِّقِّيَّة، وللإمام أن يَمُنَّ عليه أو يَفدِيَ به أسيراً مسلماً. وفيه أن النذر

في معصية باطل لا يصح ولا كفارة فيه عند الجمهور... وفيه أن النذر لا يصح فيما لا يملكه الإنسان، ولا ينبغي أن يختلف في هذا، وقد تقدم الكلام على النذر وأحكامه.

* * *

❋ غزوة خيبر تاريخ وقتها

[٣٩٣] عن المِسْور بن مخرمة رضي الله تعالى عنهما قال: انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكّة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، يعني خيبر، فقدم المدينة في ذي الحجّة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١٩٧/٤)، وكذا أورده ابن كثير في السيرة (٣٤٤/٣)، وابن القيم في الهدي (٣١٧/٣) وسنده حسن صحيح.

خيبر مدينة شمال المدينة بينهما مائتا كيلو كانت ذات مزارع وعيون وحصون، وكان يسكنها اليهود منذ قرون فغزاها النبيّ ﷺ عقب قدومه من الحديبية بعد أن أقام بالمدينة ثلاثة أيام، كما تقدم في حديث ابن الأكوع الذي أخرجه مسلم، وكان السبب في غزو يهود خيبر هو ما كان من تهييجهم للأحزاب ضدّ رسول الله ﷺ، وممّن كان له القدَمُ الأعلى في ذلك حُيَيّ بن أخطب سيّدُ بني النضير وقريظة الذي كان أُجْلِيَ من بني النضير وسكن خيبر، فخرج إليهم ﷺ وحاصرهم بضع عشرة ليلة، وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن فتحها عنوةً ووجد عندهم غنائم كثيرة متنوّعة، فقسمها بين أصحابه كما أمره الله تعالى كما يأتي.

* * *

❋ استخلافه ﷺ على المدينة سِباع بن عُرْفُطة

[٣٩٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قدم المدينة في رهط من قومه والنبيّ ﷺ بخيبر، وقد استخلف سِباع بن عُرْفُطَة على المدينة، قال: فانتهيت إليه وهو يقرأ في صلاة الصبح في الركعة الأُولى: بـ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، قال: فقلت لنفسي: ويل لفلان إذا اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص، قال: فلما صلّى زوّدنا شيئاً حتى أتينا خيبر، قال: فكلّم رسول الله ﷺ المسلمين فأشركونا في سِهَامِهِم.

رواه أحمد (٢/٣٤٥، ٣٤٦)، والطيالسي (٢٣٦٣) مع المنحة، والحاكم (٣/٣٦، ٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٤/١٩٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. الحديث يأتي فقهه في قسمة غنائم خيبر وفي الفضائل.

* * *

❋ خروجه ﷺ ليلاً وحُداء عامر بن الأكوع وفتحهم خيبر...

[٣٩٥] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تُسْمِعُنا من هُنَيْهاتِك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يَحْدُو بالقوم يقول: اللّهمّ لولا أنتَ ما اهْتَدَيْنا، ولا تصدّقْنا ولا صلّينا، فاغفِرْ فداءً لكَ ما اتَّقَيْنا، وثَبِّتْ الأقدامَ إن لاقَيْنَا، وألْقِين سَكِينَةً عَلَيْنا، إنا إذا صِيحَ بِنا أَبَيْنا، وبالصِّياحِ عَوَّلُوا عَلَيْنا، فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا السائق؟»** قالوا: عامر بنُ الأكوع، قال: **«يرحمُه الله»**، قال رجل من القوم: وجبَتْ يا نبيَّ الله، لولا أمْتَعْتَنَا به فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مَخْمَصةٌ شَدِيدَةٌ، قال: إنّ الله فتحها عليكم، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبيّ ﷺ: **«ما هذه النيران؟ على أيّ شيءٍ توقدون؟»** قالوا: على لحم، قال: **«على أيّ لحم؟»** قالوا: لحم

حُمُر الإنسيَّة، قال النبيّ ﷺ: **«اهريقُوها واكسروها»**، فقال رجل: يا رسول الله أوَ نهريقها ونغسلها، قال: **«أو ذاك»**، فلما تصافَّ القوم كان سيف عامر قصيراً، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال: فلمّا قفلوا، قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ يدي، قال: ما لك؟ قلت له: فداك أبي وأمّي، زعموا أن عامراً حَبِط عملُه، قال النبيّ ﷺ: **«كَذب مَن قاله إن له أجرين وجمع بين أصبعيه، إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها مثله»**...

وفي رواية: فلما قدمنا خيبر خرج مَلِكُهم مَرْحَبٌ يَخْطِر بسيفه، ويقول:

قد علمتْ خيبرُ أنّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بطَلٌ مُجَرّبُ
إذا الحُرُوبُ أقبلتْ تَلَهَّبُ

قال: وبَرَزَ عمّي عامرٌ، قال:

قد عَلِمَتْ خيبرُ أنّي عامرُ شاكِي السلاح بَطَلٌ مُغامِرُ

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يَسْفُلُ له، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه، قال سلمة: فخرجت فإذا نَفَرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه، قال: فأتيت النبيّ ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر، قال رسول الله ﷺ: **«من قال ذلك؟»** قال: قلت: ناس من أصحابك، قال: **«كذب من قال ذلك بل له أجره مرتين»**، ثم أرسلني إلى عليّ وهو أرْمَدُ، فقال: **«لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله أو يحبّه الله ورسوله»**، قال: فأتيت عليّاً فجئت به أقوده وهو أرْمَدُ حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ وأعطاه الراية وخرج مرحب، فقال:

قد علمت خيبر أني مَرْحَبُ شاكي السِّلاح بطلٌ مُجَرّبُ
إذا الحروب أقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فقال علي:

أنا الذي سمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غاباتٍ كَرِيهَ المَنْظَرَهْ
أُوفِيهِم بالصَّاع كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

رواه البخاري (٩/٣، ٤، ٥، ٦)، ومسلم (١٢/١٨٤، ١٨٦، ١٦٥)، واللفظ الأول للبخاري والثاني لمسلم.

«هُنَيْهَاتِك» جمع هُنَيْهةٍ تصغير هَنَةٍ وهو اسم جنس وقصدهم: أسمعنا من شعرك الذي تحدو وتترنّم به، والحُداء الترنّم والغناء للإبل لتسرع. «مخمصة» أي: مجاعة. «ذباب سيفه» أي: طرفه الأعلى أو حَدُّه. «ترس عامر» الترس هو الدرقة التي يلقى بها السيوف ونحوها. «أرْمَدُ» الرمد بفتحتين مرض يصيب العين فتهيج. وقول علي «حيدرة» هو اسم للأسد. «والسندرة» مكيال واسع.

وفي هذا الحديث بيان بعض أحداث غزوة خيبر، ففيه أنهم خرجوا من المدينة ليلاً، وفيه أن عامر بن الأكوع كان يحدو بهم وسيأتي حكم الحداء مع الأغاني في كتاب الأدب، وفيه أنهم حاصروا خيبر ونزلت بهم حينذاك مجاعة شديدة، وفيه تحريم الحُمُر الأهلية، وبالتالي نجاستها. وفيه أن قاتل نفسه خطأ لا حرج عليه، وأن من قتل نفسه كذلك في الجهاد كان شهيداً، وفيه فضل الإمام عليّ عليه السلام، وأنه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كما فيه شجاعته وشهامته وأن له مزية عظمى في هذه الغزوة، حيث قتل ملك يهود خيبر مرحب، وكان الفتح على يديه رضي الله تعالى عنه.

* * *

❁ طعامهم في طريقهم إلى خيبر

[٣٩٦] عن سويد بن النعمان رضي الله تعالى عنه أخبر أنه خرج مع النبيّ ﷺ عام خيبر حتى إذا كنّا بالصهباء، وهي من أدنى خيبر صلّى

العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يُؤتَ إلا بالسويق، فأمَرَ به فثُرِيَّ، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلّى ولم يتوضّأ...

رواه البخاري في غزوة خيبر (٣/٩) وفي الطهارة وفي مواضع، وكذا أحمد (٤٦٢/٣)، وابن ماجه (٤٩٢).

هذا طعام الصحابة وهم قاصدون محاربة اليهود إنه السويق، وهو دقيق الشعير المقلي، فليس هناك لحم ولا خبز مرقق ولا فواكه ولا مشروبات ولا مرطّبات.

* * *

❁ مفاجاة المسلمين يهود خيبر في الصباح

[٣٩٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليلٍ لم يُغِرْ عليهم حتى يُصْبِح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله محمد والخميس، فقال النبيّ ﷺ: **«خَرِبَت خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذرين»**.

وفي رواية: صبحنا خيبر بكرةً، فخرج أهلها بالمساحي، فلما بصروا بالنبيّ ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس، فقال النبيّ ﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**، فأصبنا من لحوم الحمر فنادى منادي النبيّ ﷺ: **«إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحُمُر، فإنها رِجْسٌ»**.

وفي رواية: فخرجوا يسعون في السِّكَك، فقتَلَ النبيّ ﷺ المُقاتِلة وسَبَى الذّرية وكان في السبي صفيّة، فصارت إلى دِحْيَة الكلبي، ثم صارت إلى النبيّ ﷺ فجعل عِتْقَها صَداقَها. وفي رواية: إن رسول الله ﷺ غزا خيبر قال: فصلّينا عندها صلاة الغداة بغَلَس فركب نبيّ الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نَبِيُّ الله ﷺ في زُقاقِ خيبر، وإن

ركبتي لَتَمَسُّ فَخِذ نبيّ الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: «**الله أكبر**» إلخ...

رواه أحمد (٣/١٠٢، ١٦١، ١٦٨، ٢٠٦)، والبخاري (٩/٧، ٨)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٦٤)، والترمذي في السِّيَر رقم (١٤١٧) بألفاظ مطوّلاً ومختصراً.

«مساحيهم» جمع مسحاة وهي آلة من آلات الحرث. «ومكاتلهم» جمع مكتل وهو القفة الكبيرة. «محمد والخميس» يعنون محمداً والجيش. «بغلس» بفتحتين وهو اختلاط بياض الصبح بالظلام.

وفي هذا الحديث أمور، أولاً: أنه ﷺ أتى خيبر ليلاً ولم يُغِرْ عليهم حتى صلّى الصبح ثم صبحهم وهم خارجون لمزارعهم. ثانياً: إنه ﷺ تفاءل بما رأى من آلات التخريب، فأخذ من ذلك خراب خيبر، ولذلك بشّرهم بقوله: «**إن الله فتحها عليكم**»، كما تقدم في رواية سلمة. ثالثاً: في هذه الغزوة حرّم حمر الأهلية ويأتي ما فيها. رابعاً: في قوله: فقتل المقاتلة وسبى الذرية وكان في السبي صفية؛ في هذا اختصار، وسيأتي مطوّلاً مفصلاً.

* * *

❋ حملة راية النبيّ ﷺ

[٣٩٨] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعْطِيَنَّ هذه الراية غداً رجلاً يَفْتَح الله على يديه، يُحبُّ الله ورسولَه، ويُحبُّه الله ورسوله**»، قال: فبات الناس يدُوكُون ليلتَهم: أيُّهم يُعْطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعْطاها، فقال: «**أين عليّ بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتِي به فبصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه ودعا له خيراً، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال عليّ: يا رسول الله أُقاتِلُهم حتى يكونوا مِثْلَنا، فقال: «**انْفُذْ على رسلِك حتى تنزل بساحتهم ثم**

ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ أن يكون لك حُمْرُ النَعَم».

رواه أحمد (٣٣٣/٥)، والبخاري في غزوة خيبر (١٧/٩)، ومسلم في الفضائل (١٧٧/١٥) وفي الباب عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كلاهما عند مسلم، وعن عليّ عند البخاري وعن سلمة بن الأكوع عند البخاري ومسلم، وسيأتي بعضها في الفضائل.

«يدُوكُون» أي: يخوضون. والحديث يدلّ على أن الراية كانت عند الإمام عليّ بمفرده، وقد جاء أنه ﷺ كان قد أعطاها لأبي بكر فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، وأنه أعطاها بعده عمر فقاتلهم في نفر من الصحابة فرجعوا مهزومين، رواهما الحاكم (٣٧/٣) الأول من حديث بريدة، والثاني من حديث عليّ، وصححهما ووافقه الذهبي.

ثم بعد ذلك قال: وفعل ما جاء في هذا الحديث، وكان ذلك آخر أيام خيبر، وعلى يدي الإمام عليّ وقع الفتح كما تقدم، وفي الحديث دليل على مشروعية الدعوة مطلقها ولو كانوا ممن بلغتهم، وفيه فضل الدعوة إلى الله تعالى وأن من هدى الله على يديه ولو رجلاً واحداً كان خيراً له من اكتساب أنفس الإبل وهي الحُمْر.

* * *

❁ الأعرابي الشهيد

[٣٩٩] عن شداد بن الهاد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبيّ ﷺ فآمن به واتّبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبيّ ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر أو حنين غنم النبيّ ﷺ سَبْياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبيّ ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبيّ ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: **«قسمته لك»**، قال: ما على

هذا اتّبعتك، ولكني اتّبعتك على أن أُرْمَى إلى هٰهنا ـ وأشار إلى حلقه بسهم ـ فأموت فأدخل الجنّة، فقال: («إن تَصْدُق الله يَصْدُقْك»)، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبيّ ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبيّ ﷺ: «أهو هو؟» قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه»، ثم كفّنه النبيّ ﷺ في جبّة النبيّ ﷺ، ثم قدمه فصلّى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللّهمّ هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً أنا شهيد على ذلك».

رواه النسائي في الجنائز في الصلاة على الشهداء (٤/٤٩)، والطحاوي في المعاني (١/٢٩١)، والحاكم (٣/٥٩٥، ٥٩٦)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٥، ١٦) وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على صدق ذلك الأعرابي في إيمانه وهجرته وخروجه مع النبيّ ﷺ، وأنه صدق الله فصدقه فختم له بالشهادة ودخول الجنّة كما تمنّى.

* * *

❁ رجل شجاع يقاتل مع المسلمين يموت ومآله النار

[٤٠٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار»، فلما حضر القتال قاتَل الرجل أشدّ القتال حتى كَثُرَتْ به الجراحةُ، فكادَ بعضُ الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسْهُماً فنحر بها نفسه، فاشتدّ رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله، صدّق الله حديثك انتحر فلان فقتل نفسه، فقال: «قم يا فلان فأذّن إنه لا يَدخُل الجنّة إلا مؤمنٌ، إن الله يؤيّد الدين بالرجل الفاجر».

رواه البخاري في غزوة خيبر (٩/١٠)، ومسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٢/١٢٢).

[٤٠٩] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره مال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذّة إلا اتّبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه من أهل النار»**، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجُرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت فوضع نصل السيف بالأرض وذُبابه بين ثَدْيَيْه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: **«وما ذاك؟»** قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً إنه من أهل النار فأعظم الناسُ ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جُرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض، وذبابه بين ثديَيه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«إن الرجلَ ليعملُ عمَلَ أهلِ الجنّة فيما يَبْدُو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمَلَ أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنّة»**.

رواه البخاري (١٢/٩، ١٣)، ومسلم في الإيمان (١٢٣/٢، ١٢٤).

قوله: «لا يدع شاذة» الشاذّ والشاذة الخارج والخارجة عن الجماعة، ويعبّرون به عن الشجاع إذا كان لا يلقاه أحد إلا قتله. وقوله: «ذباب السيف» أي: طرفه الأسفل الحادّ، وأما طرفه الأعلى فمقبضه.

بين الحديثين تغاير، فإن في الأول: فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، بينما جاء في الثاني: فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، الخ. فيحتمل أن تكون القصة وقعت لرجلين، ويحتمل أن يكون ذلك وقع من تصرّف الرواة، والله تعالى أعلم.

غير أن من تكلّم على الحديثين جعلهما لرجلٍ واحد كان منافقاً يقال له قزمان الظفري، قاله الخطيب البغدادي. وقوله في الحديث الأول: «إن الله يؤيّد الدين» الخ، يدلّ على أن الدين قد يتأيّد ويتقوّى وينتشر بسبب الكافر

والمنافق والعالم الفاجر... وهذا باب واسع، فإن التأييد يكون بأمور شتّى، وليس خاصّاً بالقتال.

وفي قوله في الحديث الثاني: إن الرجل ليعمل إلخ، دليل على أن الأعمال بالخواتيم وأن الظواهر لا تدلّ على الشقاوة ولا السعادة، غير أن من خُتِم له بالشقاوة ممن كان ظاهره الإيمان والالتزام يكون غالباً في إيمانه دخن وفي قلبه دغل، وقد تقدم شيء من هذا في القدر.

وفي الحديثين معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بمآل الرجل، فوقع كما أخبر فصدّقه الله تعالى فيما قال.

* * *

❁ رجل يغل من الغنيمة فيموت فلا يصلّي عليه النبيّ ﷺ

[٤٠٢] عن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صلُّوا على صاحِبِكم**»، فتغيَّرتْ وجوهُ الناس لذلك، فقال: «**إنَّ صاحبَكم غَلَّ في سبيل الله**»، ففتَّشنا متاعَه فوجدنا خَرَزاً من خَرَزِ يهودٍ لا يُساوِي درهمين.

رواه أحمد (١١٤/٤ ج ١٩٢/٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٠)، والنسائي في الجنائز (٥٢/٤)، وابن ماجه (٢٨٤٨)، والحاكم (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠١/٩) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث عظم وزر الغلول من الغنيمة وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقد تقدَّم حكم الغلول في التفسير وفي الجهاد.

* * *

❋ تحريم المتعة والحمر الأهلية بخيبر

[٤٠٣] عن عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية.

رواه البخاري (٢١/٩) و(ج ٧١/١١)، ومسلم (١٨٩/٩)، والترمذي (١٠٠٣)، وابن ماجه (١٩٦١).

وفي رواية لمسلم عن عليّ أنه سمع ابن عباس يُلَيِّنُ في مُتعةِ النساء، فقال: مَهْلاً يا ابن عباس، فإن رسولَ الله ﷺ نهى عنها يومَ خيبر، وعن لحوم الحُمُر الإنسيّة...

[٤٠٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخّص في الخيل.

رواه البخاري (٢٢/٩)، ومسلم (٩٥/١٣) كلاهما في الصيد.

وفي الباب عن أنسٍ وابن أبي أوفى والبراء وابن عمر وابن عباس وزاهر الأسلمي، وكلها في الصحيح.

متعة النساء تقدَّم الكلام عليها مستوفًى في كتاب النكاح، وقلنا باتّفاق تحريمها بين العلماء والأئمّة إلا الشيعة. أما الحمر الإنسية، فالإجماع على تحريمها. وأما الخيل، فمذهب الشافعي وأحمد وأهل الحديث على إباحتها، وقد تقدم ذلك في الأطعمة بما أغنى عن إعادته.

❋ ❋ ❋

❋ إباحة شحم أهل الكتاب، وجواز أكل المجاهد ما يحتاجه من طعام الكفار

[٤٠٥] عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: أصبتُ جِراباً من شحمٍ يومَ خيبر، قال: فالتزمتُه، فقلت: لا أعطي اليوم أحداً من هذا

شيئاً، قال: فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مُبْتَسِماً. وفي رواية: رُمِي إلينا جرابٌ فيه طعام وشحمٌ يومَ خيبر، فوثبتُ لآخذه فالتفتُّ، فإذا رسول الله ﷺ فاستحييتُ منه.

رواه البخاري (٢١/٩) في خيبر، ومسلم (١٠٢/١٢)، وأبو داود (٢٧٠٢) كلّهم في الجهاد.

في الحديث إباحة أكل طعام الغنيمة في دار الحرب، وقد حكى القاضي عياض الإجماع على ذلك ما دام المسلمون في دار الحرب، فيأكلون قدر حاجتهم.

* * *

❊ شان اليهود بعد انهزامهم وما آل إليه أمرهم

[٤٠٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألْجَأَهُم إلى قَصْرِهِم، فغلَبَ على الأرض والنخل والزَّرع، فصالحوه على أن يُجْلَوْا منها، ولهم ما حَمَلَتْ رِكابُهم ولرسول الله ﷺ الصفراءُ والبيضاءُ والحلَقَة ويخرجوا منها، فاشترط عليهم أن لا يَكْتُمُوا شيئاً، ولا يُغَيِّرُوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذِمَّةَ لهم ولا عِصْمَة، فغَيَّبُوا مسكاً فيه مالٌ وحليٌّ لِحُيَيّ بن أخطب، كان احتَمَلَه معه إلى خيبر حين أُجْلِيَتْ النَّضِيرُ، فقال رسولُ الله ﷺ لعمّ حُيَيّ سعية: **«ما فَعَلَ مِسْكُ حُيَيّ الذي جاء به مِنَ النَّضِير؟»** فقال: أذهبتْه النفقاتُ والحروبُ، فقال رسول الله ﷺ: **«العهدُ قريبٌ، والمالُ أكثرُ من ذلك»**، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمَسَّهُ بعذاب، وكان حُيَيّ قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حُيَيّاً يطوف في خربةٍ هٰهُنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابْنَيْ أبي الحُقَيْق وأحدُهما زوج صفيّة بنت حُيَي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريَهم وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوا، وأراد أن يُجْلِيَهُم منها، فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نُصْلِحُها، ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه

غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يتفرّغون أن يقوموا عليها؛ فأعطاهم خيبر على أن لهم الشَّطْر من كل نخل وزرع وشيءٍ ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام يَخْرُصُها عليهم ويُضَمِّنُهم الشطر، قالوا: فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدّة خَرْصِهِ وأرادوا أن يَرْشُوه، فقال: يا أعداء الله أتُطْعِمُونِي السُّحْتَ؟ والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ، ولأنتم أبغض الناس إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بُغْضي إياكم وحبّي إياه على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السمٰوات والأرض.

قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: **«يا صفية ما هذه الخضرة»؟**، فقالت: كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا نائمة فرأيت كأن قمراً وقع في حجري فأخبرتُه بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب؟ قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إليَّ قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليَّ ويقول: إن أباك ألَّب عليَّ العرب، وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي. وكان رسول الله ﷺ يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقاً من تمر كل عام، وعشرين وسقاً من شعير، فلما كان زمن عمر بن الخطاب غَشُّوا المسلمين وألقوا ابن عمر من فوق بيت فَفَدَغُوا يديه، فقال عمر بن الخطاب: من كان له سهم من خيبر فليحضر حتى نقسمها بينهم، فقسمها بينهم، وقال رئيسُهم: لا تُخْرِجنا دعنا نكون فيها كما أقرّنا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراه سقط عني قول رسول الله ﷺ: **«كيف بك إذا أفضَتْ بك راحلتُك نَحْوَ الشام يوماً ثم يوماً»**، وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية...

رواه ابن حبان (١٦٩٧) بالموارد، والبيهقي في الدلائل (٤/٢٢٩، ٢٣٠) كاملاً وسنده صحيح، وروى أطرافاً منه أحمد (٢/٢٢، ٢٧)، والبخاري في مواضع، ومسلم (١٥٥١)، وأبو داود (٣٤٠٨)، والترمذي (١٣٨٣)، وابن ماجه (٢٤٦٧) وتقدّم بعضه في المساقاة.

«الصفراء والبيضاء» هما الذهب والفضّة. «والحلقة» بفتحات وتسكن اللام هي السلاح. «فغيّبوا مسكاً» المسك بفتح الميم الجلد، ومعناه: أخفوا

جلداً مملوءاً بالمال. قوله: «فمسّه عذاب» أي: جعل يعذّبه ليعترف بما أخفوه. قوله: «فَقَدَغُوا» أي: كسروا يديه.

في هذا الحديث فوائد، وهي كالآتي:

أولاً: جواز تعذيب الأسير الكافر لأجل المصلحة العامة إذا أنكر ما هو معلوم لقائد الجيش، وأراد منه الاعتراف.

ثانياً: من نكث العهد من الكفار للمسلمين قتالهم وسبيهم.

ثالثاً: فيه مشروعية المزارعة والمساقاة، وقد تقدم ذلك في موضعه.

رابعاً: في قوله: وكان يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين، في رواية لأحمد وغيره: مائة وثمانين.

خامساً: قوله: فقال عمر: من كان له سهم من خيبر إلخ، في رواية عند أحمد وغيره: فلمّا قام عمر قسم خيبر فخيّر أزواج النبيّ ﷺ أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن الوسوق كل عام، فاختلفوا؛ فمنهنّ من اختارت أن يقطع لها الأرض، ومنهن من اختارت الوسوق، وكانت حفصة وعائشة ممن اخترن الوسوق، وفي ذلك من عدالة الفاروق وأدبه مع أمّهات المؤمنين ما لا يخفى رضي الله تعالى عنه وعنهنّ وعنّا معهم، آمين.

سادساً: وفيه تنفيذ عمر وصية رسول الله ﷺ بإجلاء اليهود من الحجاز؛ لأن إقرارهم بخيبر من النبيّ ﷺ كان مؤقتاً لكنهم لما اعتدوا على عبدالله بن عمر رأى عمر من المصلحة تعجيل إجلائهم.

* * *

❁ قصة صفية بنت حُيَيّ وسبيها وتزوّج النبيّ ﷺ بها

[٤٠٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فذكر الحديث كما سبق، فقال: وأصبناها عَنْوَةً، وجمع السَّبي، فجاءه دِحْيَةُ فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حُيَيّ، فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ الله أعطيت دحية صفية بنت حُيَيّ سيد قريظة والنضير ما تصلح إلا لك، قال: **«ادعوه بها»**، قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبيّ ﷺ قال: **«خذ جارية من السبي غيرها»**، قال: وأعتقها وتزوّجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها وتزوجها حتى إذا كان بالطريق جَهَّزَتْها له أمُّ سُلَيْم فأهدتها له من الليل فأصبح النبيّ ﷺ عروساً، فقال: **«من كان عنده شيء فليجيء به»**، قال: وبسط نِطْعاً قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حَيْساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: وهزمهم الله عزّ وجلّ ووقعت في سهم دحية جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أمّ سليم تصنعها له وتهيّؤها، قال: وأحسبه قال: وتعتدّ في بيتها، وهي صفيّة بنت حُيَيّ، قال: وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فُحِصَتْ الأرض أفاحِيصَ، وجيء بالأنطاع فوُضِعَتْ فيها، وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس، وقال الناس: لا ندري أتزوّجها أم اتّخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أمّ ولد، فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عَجُز البعير فعرفوا أنه قد تزوّجها، فلما دنوا من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا فعثرت الناقة العضباء ونَدَرَ رسولُ الله ﷺ وندرتْ، فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فَقُلْنَ: أبعد الله اليهودية، قال: قلت: يا أبا حمزة أوَقَع رسولُ الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع.

وفي رواية: صارت صفية لدحية في مقسمه وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ، قال: ويقولون: ما رأينا في السبي مثلها، قال: فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد، ثم دفعها إلى أمي، فقال: **«أصلحيها»**، قال: ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره نزل ثم ضرب عليها القبّة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: **«من كان عنده فضل زاد فليأتنا به»**، قال: فانطلقنا حتى إذا رأينا جُدُرَ المدينة هَشِشْنا إليها فرفعنا مَطِيَّنا، ورفع رسول الله ﷺ قال: فعثَرَتْ مَطِيَّتُه، قال: وصفية خلفه قد

أردفها رسول الله ﷺ، قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصُرِعَ وصُرِعَتْ، قال: فليس أحدٌ من الناس ينظر إليه ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، قال: فأتيناه فقال: «لم تُضَرّ»، قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يَتَرَاءَيْنَها، ويَشْمَتْن بِصَرْعَتِها.

رواه مسلم في النكاح (٩/٢١٩، ٢٢٧) بجميع هذه الروايات، ورواه البخاري في المغازي (٩/١٩، ٢٠) مختصراً بلفظ: قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن ذُكِر له جمال صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، وقد قُتِل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبيّ ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا الصهباء حلّت، فبنى بها رسول الله ﷺ...

وفي رواية: قام النبيّ ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته وما كان فيها من خبزٍ ولحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبُسِطت، فألقى عليها التمر والأقط والسمن...

قوله: «عنوة» أي: قهراً. «جهّزَتْها له» أي: أصلحت من أمرها وهيّأتها له ﷺ. قوله: «وتعتدّ في بيتها» المراد بالعدّة هنا الاستبراء بحيضة. وقوله: «فحصت الأرض» بضم الفاء وكسر الحاء أي: كشف التراب من أعلى الأرض وحفرت يسيراً ليضعوا عليها الأنطاع. «وندر» بفتحتين أي: سقط. وقوله: «في مقسمه» أي: قسمته من الغنيمة. قوله: «هَشَشْنا» أي: نشطنا وانبعثت نفوسنا إليها.

في هذا الحديث الشريف بيان لقصة صفية وزواج النبيّ ﷺ بها، وفي ذلك أمور:

أولاً: كانت صفية هذه بنت سيّد قومها حُيَيّ بن أخطب، وكانت من أجمل النساء وأظرفهنّ يضرب بجمالها المثل.

ثانياً: لما وقعت في السبي أخذها دحية الكلبي بإذن من النبيّ ﷺ، ثم لما أُخبر بأنها سيّدة شريفة في قومها أمره بالتنازل عنها وعوّضه عنها سبعة رؤوس من المغنم فيهم جارية غيرها، وإنما فعل ذلك إكراماً لها لأن

أمثالها لا تكون إلا لسيّد القوم وأشرفهم، ولا أشرف وأكرم منه ﷺ، ثم إنها مع شرفها كانت قد أُصيبت في والدها وزوجها الذي كان لا يزال عروساً بها، فأراد ﷺ أن يجبر خاطرها ويسلّيها ويكرمها بتزوّجها بها، وقد كان الأمر كذلك، فقد انقلب بغضها له ﷺ حبّاً وحزنها فرحاً وأصبحت أُمّاً للمؤمنين وزوجاً لسيد العالمين.

ثالثاً: فيه مشروعية البناء بالزوجة في السفر، ولا يعرف في ذلك خلاف بين العلماء.

رابعاً: فيه بيان عدم وجوب الذبح في الوليمة، وأنه قد يكتفى فيها بأي طعام خلافاً لابن حزم الذي يوجب الوليمة بالذبح ولو بشاة.

خامساً: فيه أن الأنبياء بشر كسائر البشر في جواز طروء الأعراض البشرية عليهم كما وقع للنبيّ ﷺ من الصرع والسقوط عن ناقته مع صفية زوجته، وأن مثل ذلك لا يخدش في نبوّته ومقامه.

سادساً: فيه ما عليه النساء وخاصة الضرائر، لا سيما الشواب من شدة الغيرة والحسد... فأولئك النسوة لما سمعن بصفية وجمالها وأن النبيّ ﷺ تزوجها غرْن منها وحسدنها، ولذلك لما بلغهنّ صرعها عن الناقة شمتن بها وفرحن بذلك، وفي الحديث غير ذلك من الفوائد.

* * *

❋ وضع اليهود السم للنبيّ ﷺ في الشاة

[٤٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما فُتِحَت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: **«اجمعوا لي مَنْ هٰهنا مِنَ اليهود»**، فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ: **«إني سائِلكم عن شيء، فهل أنتم صادِقُوني عنه؟»** فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«مَن أبوكم؟»** قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: **«كذبتم، بل أبوكم فلان»**، قالوا: صدقت وبررت، فقال: **«هل أنتم**

صادقوني عن شيء إن أنا سألتكم عنه»؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْناكَ عرفت كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم أبداً»، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حَمَلكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرّك.

رواه أحمد (٤٥١/٢)، والبخاري في الهدية وفي الطبّ وفي الجزية وفي المغازي (٣٧/٩، ٣٨) مطوّلاً ومختصراً، ورواه أيضاً أبو داود في الديات (٤٥٠٩)، والدارمي في المقدمة (٧٠).

[٤٠٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، قالت: أردت لأقتلك، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ على ذلك أو عليّ»، قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في الهبة (٢٦١٧) (ج ١٥٩/٥)، ومسلم في الطب (١٧٨/١٤)، وأبو داود (٤٥٠٨).

ونحوه عند أبي داود والدارمي (٦٩) من حديث جابر، وفيه: فأخذ النبيّ ﷺ منها الذراع فأكل منها وأكل الرهطُ من أصحابه معه، ثم قال لهم النبيّ ﷺ: «ارفعوا أيديكم»، وفيه: فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم النبيّ ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة... وهو وإن كان فيه انقطاع فإنه يتأيّد بسابقيه.

[٤١٠] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَرِي من ذلك السم».

رواه أحمد (١٨/٦)، وذكره البخاري في وفاة النبيّ ﷺ معلقاً (١٩٥/٩)، والدارمي في المقدمة (٦٨)، وكذا رواه البزار والحاكم والإسماعيلي، كما ذكره الحافظ في الفتح.

قوله: «لهَوَات» جمع لهاة وهي اللحمة الحمراء المعلّقة في أصل الحنك كان السم بقي سواداً يُعرف في لهواته. «كاهِله» الكاهل أعلى الظهر. وقوله: «فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري» الأبهر عرق في الظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

وفي هذه الأحاديث بيان مكر اليهود بالنبيّ ﷺ وإرادتهم قتله، وكان ذلك باتّفاق رؤسائهم بعثوا إليه امرأة بشاة مملوءة سمّاً كهدية له ﷺ، لكنّ الله عزّ وجلّ أطلعه على ذلك بعدما تناول منها لقمة ومات بعض أصحابه من ذلك، فلما جمع اليهود وسألهم عن ذلك صارحوه بما أرادوا من قتله.

واختلف العلماء رحمهم الله تعالى هل قتل النبيّ ﷺ تلك اليهودية أم لا؟، الذي ذكرناه عن صحيح مسلم أنه لم يقتلها، وكذا ما جاء في حديث جابر أنه عفا عنها، وورد في بعض الآثار أنه قتلها لما توفي بشر بن البراء والصحيح الأول، وانظر شرح مسلم للنووي (١٧٩/١٤)، والشفا للقاضي عياض بتهذيبي (١١٩)، وشرح الزرقاني على المواهب (٢٤٢/٢)، وفي قوله ﷺ: «ما أزال أجد ألم الطعام... انقطاع أبهري» هو يدلّ على أنه توفي بسبب تلك اللقمة المسمومة، وأنها كانت تؤلمه المرّة بعد المرّة حتى مات بها ﷺ، وسيأتي مزيد لهذا في وفاته.

* * *

❁ كيف قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر

[٤١١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهماً. قال: فسره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم.

رواه أحمد (٦٢/٢/٢، ٧٢، ٨٠)، والبخاري (٢٤/٩)، ومسلم (٨٣/١٢)، وأبو داود (٢٧٣٣)، والترمذي (١٤٢٢).

ففيه أن الفارس يأخذ ثلاثة أسهم والراجل يأخذ سهماً واحداً، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد والجمهور عملاً بهذا الحديث.

[٤١٢] وعن بشير بن أبي حثمة رضي الله تعالى عنه قال: قسم رسول الله ﷺ خيبر نصفين نصفاً لنوائبه وحاجته، ونصفاً بين المسلمين، قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً.

رواه أبو داود في الخراج من سننه (٣٠١٠) بسند حسن.

الحديث ظاهر في أنه ﷺ أخذ من مغانم خيبر نصفها والنصف الآخر قسمه بين الصحابة.

وقوله: قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً، لأنها كانت خاصة بمن حضر الحديبية، وهم كانوا أربع عشرة مائة وكان معهم مائة فرس، فإذا قسم عليهم كانت ألفاً وثمانمائة سهم كل سهم يقسم على مائة، فثمانية عشر سهماً تأتي ثمانمائة سهم؛ للراجل سهم وللفارس سهمان، وكان معهم مائتا فرس وحظهم أربعمائة سهم.

* * *

سهم ذوي القربى

[٤١٣] عن جُبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه جاء هو وعثمان بن عفان يكلّمان رسول الله ﷺ فيما قسم الخمس بين بني هاشم وبني المطلب، فقلت: يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً، وقرابتنا وقرابتهم منك واحدة، فقال النبيّ ﷺ: «**إنما بنو هاشم وبنو المطلب واحد**»، قال جُبير: ولم يقسم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل من ذلك الخمس، كما قسمت لبني هاشم وبني المطلب، قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول الله ﷺ غير أنه لم يكن يعطي قربى

رسول الله ﷺ ما كان النبيّ ﷺ يعطيهم، قال: وكان عمر بن الخطاب يعطيهم منه، وعثمان بعده.

رواه أحمد (٤/٨١، ٨٣، ٨٥)، والبخاري في غزوة خيبر (٤٢٢٩)، وأبو داود في الخراج (٢٩٧٨، ٢٩٨٠)، والنسائي وابن ماجه (٢٨٨١) وغيرهم.

في الحديث دليل على أن خمس ذوي القربى من الغنيمة خاص بقرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، أمّا غيرهم من بني عبد شمس وبني نوفل الذين كان منهم عثمان وجبير بن مطعم فلا حظّ لهم في ذلك، وعلّل النبيّ ذلك بأن بني هاشم وبني المطلب كانوا شيئاً واحداً في الجاهلية والإسلام، حتى إنهم دخلوا مع النبيّ ﷺ الشعب وقاسوا معه ما قاسى، وهذا بخلاف بني عمهم بني نوفل وبني عبد شمس، فإنهم كانوا مع الكفار.

* * *

❁ حديث الحجاج بن علاط مع العباس وأهل مكّة

[٤١٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا فتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حلٍّ إن أنا نِلْتُ منك؟ وقلت شيئاً، فأذِن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندكِ، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد اسْتُبِيحُوا، أو أُصِيبتْ أموالُهم، قال: ففشا ذلك في مكّة فانقمع المسلمون وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رضي الله تعالى عنه فغُقِر وجعل لا يستطيع أن يقوم، قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له قثم فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول: حِبِّي قُثم، شَبِيهُ ذي الأنفِ الأشمّ، نَبِيّ ربِّ ذِي النِّعَم، بِرَغْمِ أنفِ من رغم، قال ثابت عن أنس: ثم

أرسل غلاماً له إلى الحجاج: ويلك ما جئت به وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوت لآتيه فإن الخبر على ما يَسُرُّه، فجاءه غلامُه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثَبَ العباسُ فَرِحاً، حتى قبَّل بين عينيه فأخبره بما قال الحجاج فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّةَ بنتَ حُيَيّ فأخذها لنفسه وخيّرها أن يُعتقها وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لما كان لي هٰهنا أردت أن أجمعَه فأذهب به، فاستأذنتُ رسولَ الله ﷺ فأذِنَ لي أن أقول ما شئتُ، فاخْفِ عني ثلاثاً ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأتُه ما كان عندها من متاع وحلي فجمعته، فدفعتْه إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرتْه أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل لقد شقَّ علينا الذي بلغك، قال: أجل لا يخزيني الله ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لكِ حاجة في زوجكِ فالحَقِي به، قالت: أظنّك واللهِ صادقاً، قال: فإني صادق الأمر على ما أخبرتُكِ، قال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبْنِي إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاجُ بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى صفيّة لنفسه، وقد سألني أن أُخْفِي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هٰهنا ثم يذهب، قال: فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين وخرج المسلمون ومَنْ كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر، وسُرَّ المسلمون وردّ الله تبارك وتعالى ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين.

رواه عبدالرزاق في المصنف رقم (٩٧٧١)، وأحمد (٣/١٣٨، ١٣٩)،

وأبو يعلى (٣٤٧٩)، وابن حبان (١٦٩٨) بالموارد وغيرهم بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (١٥٤/٦، ١٥٥) برواية أحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني، قال: ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في سند أحمد: على شرط الشيخين.

هذه قصة عجيبة من هذا الصحابي تدلّ على دهاء عظيم منه ومكر بكفار قريش وما فعله وقاله من كذب وطعن في رسول الله ﷺ يدلّ على جواز مثله إن كانت فيه مصلحة عامّة للمسلمين، بل يجوز للإنسان أن يتظاهر بالكفر للمصلحة كما قال العلماء.

وكان فيما أخفاه وأبداه العباس بشارة عظيمة للمسلمين وفرح وسرور لهم بفتح خيبر وانتصار رسول الله ﷺ على اليهود.

* * *

❋ رجوع رسول الله ﷺ من خيبر وقصة الغالّ من الغنيمة

[٤١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهباً ولا فضّة إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضُّبَيْب يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له: مدعم، فوجه رسولُ الله ﷺ إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القُرى بينما مِدْعَم يحطّ رحلاً لرسول الله ﷺ إذا سهمٌ عائر فقتلَه، فقال الناس: هنيئاً له الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: **«كلا والذي نفسي بيده إن الشَّمْلَةَ التي أخذها يومَ خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتَشْتَعِلُ عليه ناراً»**، فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبيّ ﷺ، فقال: **«شراك من نار أو شراكان من نار»**.

رواه البخاري في الأَيمان والنذور وفي المغازي (٢٩/٩، ٣٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٨/٣)، وأبو داود (٢٧١١) وغيرهم.

في الحديث عظم جرم الغلول من الغنيمة، وأن الغال يعذّب ولو كان

صحابياً وقد قدمنا حكم هذا في الجهاد. وقصّة هذا الغال هنا غير ما تقدم من الغال الذي لم يصلّ عليه، والله تعالى أعلم.

* * *

❁ نوم الصحابة عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس

[٤١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركَه الكَرَى عرَّسَ، وقال لبلال: **«اكْلأ لنا الليل»**، فصلّى بلال ما قُدِّرَ له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مُواجِهَ الفجر فغلبتْه عيناه وهو مُسْتَنِدٌ إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسولُ الله ﷺ أوّلَهم اسْتِيقاظاً، ففزع رسولُ الله ﷺ فقال: **«أي بلال»**، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخذ بنفسك، قال: **«اقتادوا»**، فاقتادوا رواحلهم شيئاً ثم توضّأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: **«من نسي الصلاة فليُصَلِّها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾»**.

رواه مسلم (٥/١٨١، ١٨٣، ١٩٣)، وأبو داود (٤٣٥، ٤٣٦)، والترمذي (٢٩٥٩)، وابن ماجه (٦٩٧).

ورواه البخاري في الصلاة (٢/٢١١) عن أنس، وقد قدمنا في الصلاة أن هذه القصة رواها أبو قتادة وعمران بن حصين وغيرهما.

قوله: «الكَرَى» بفتحتين النّعاس. «فعَرَّس» بفتحات مع تشديد الراء أي: نزل آخر الليل للنوم. «اكْلأ» احفظ. «اقْتادُوا» سوقوا رواحلكم.

كان في نوم النبيّ ﷺ كالصحابة حتى طلعت الشمس تشريع من الله عزّ وجلّ لهذه الحالة، علماً بأن النبيّ ﷺ كان تنام عيناه ولا ينام قلبه، ولكنه في هذه الحالة نام قلبه ليشرع لنا حكم من نام عن صلاته غلبة.

وقوله: «اقتادوا» في رواية لمسلم: «فإن بهذا الوادي شيطاناً»، والحديث يدلّ على أنه لا تفريط في النوم إذا عمل النائم الاحتياط للقيام في الوقت، كأن كلف من يوقظه أو هيّأ لذلك جهازاً ينبّهه. أما إذا لم يحتط وينام حتى يخرج الوقت كان آثماً أشدّ الإثم، ويزيد هذا تفصيلاً حديث أبي قتادة الآتي، هو:

[٤١٧] عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**إنكم تَسِيرُون عَشِيَّتَكُمْ وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً**»، فانطلق الناس لا يَلْوِي أحدٌ على أحد، قال: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابْهارَّ الليلُ وأنا إلى جَنْبِهِ، قال: فنعَسَ رسولُ الله ﷺ فمالَ عن راحلته فأتيته فدَعَّمْتُه من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، قال: ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مالَ ميلة هي أشدّ من الميلتين الأولتين حتى كاد ينجفل فأتيته فدعَّمته فرَفَعَ رأسَه، فقال: «**من هذا؟**» قلت: أبو قتادة، قال: «**متى كان هذا مَسِيرُك مِنّي؟**» قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة، قال: «**حَفِظَك الله بما حَفِظتَ به نبيّه**»، ثم قال: «**هل ترانا نخفى على الناس**»، قال: «**هل ترى من أحد**»؟، قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر حتى اجتمعنا فكنّا سبعة ركب، فمالَ رسولُ الله ﷺ عن الطريق، فوضع رأسه ثم قال: «**احفظوا علينا صلاتنا**»، فكان أوّل من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، قال: ففمنا فزعين ثم قال: «**اركبوا**»، فركبنا فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، قال: فتوضّأ منها وضوءاً دون وضوء، قال: وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: «**احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ**»، ثم أذن بلال بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلّى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم، قال: وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه، قال: فجعل بعضنا يهمس إلى بعض: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: «**ما لكم فيّ أسوة**»، ثم قال: «**أما إنه ليس في النوم تفريطٌ، إنما التفريط على من لم يُصَلِّ حتى يَجيءَ وقتُ الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليُصَلِّها حين ينتبه لها، فإذا كان من الغد فليصلّها عند**

وقتها» ثم قال: «ما ترون الناس صنعوا»؟ قال ثم قال: **«أصبح الناس فقدوا نبيّهم»**، فقال أبو بكر وعمر: رسول الله بعدكم لم يكن لِيُخَلِّفكُم، وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا، قال: فانتهينا إلى الناس حين امتدّ النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا، فقال: **«لا هلك عليكم»**، ثم قال: **«أطْلِقُوا لي غُمَرِي»**، قال: ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: **«أحسنوا الملأ كلكم سيروى»**، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصبّ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، قال: ثم صبّ رسول الله ﷺ فقال لي: **«اشرب»**، فقلت: لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول الله، قال: **«إنّ ساقي القوم آخرُهُم شرباً»**، قال: فشربت وشرب رسولُ الله ﷺ، قال: فأتى الناس الماءَ جامّين رواء.

رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٢/٢٠٦، ٢٠٧) مختصراً، ومسلم قبيل صلاة المسافرين (٥/١٨٣، ١٨٩)، وأبو داود رقم (٤٣٧، ٤٣٨)، ورواه مسلم من حديث عمران بن حصين بنحوه مطوّلاً.

قوله: «لا يَلْوِي أحدٌ على أحد» أي: لا يعطف. «ابْهارُّ الليل» أي: انتصف. «فدغَّمته» أي: أقمت ميله وصرت تَحته كالدعامة للبناء. «ينجفل» أي: يسقط. «دون وضوء» أي: خفيفاً. «يهمس» بفتح الياء وكسر الميم هو الكلام الخفيّ. «لا هلك» بضم الهاء وسكون اللام من الهلاك. «أطلقوا لي غُمَري» بضم الغين وفتح الميم هو القدح الصغير. «أحسنوا المَلأَ» الملأ بفتح الميم واللام آخره همزة الملأ هو الخُلُق والعشرة. «جامّين رواء» أي: نشاطاً مستريحين.

في هذا الحديث الشريف معجزات للنبيّ ﷺ وأحكام وفوائد:

ففيه إخباره ﷺ بأن الميضأة سيكون لها نبأ، وكان الأمر كذلك، وهذه معجزة، كما فيه تكثير الماء القليل ببركته ﷺ، وهذه معجزة ثانية، ومعجزة ثالثة في قوله ﷺ: **«كلكم سيُرْوى»**، ومعجزة رابعة في قوله: قال

أبو بكر وعمر كذا وقال الناس كذا، ولم يكونوا معهم. ومعجزة خامسة في قوله ﷺ: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء**»، وكان كذلك ولم يكن أحد من الصحابة يعلم ذلك.

وفيه أنه ﷺ لما ناموا عن صلاة الصبح ارتحلوا وذهبوا حتى ارتفعت الشمس ثم نزلوا، فأذّن بلال وصلّى النبيّ ﷺ الفجر ثم صلّى بهم الغداة، كما كان يصنع كل يوم، وبهذا قال جمهور أهل العلم، وفيه أن وقت الصلاة يمتدّ حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى، وهو عام في كل الصلوات إلا الصبح، فيخرج بطلوع الشمس، وفيه أن ساقي القوم يشرب آخرهم، وفيه غير ذلك.

* * *

❁ عودة مهاجري الحبشة وقسمة الرسول لهم من المغانم وما جاء في فضلهم رضي الله تعالى عنهم

[٤١٨] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: بلغنا مَخْرَج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرُهما أحدهما أبو بُردة، والآخر أبو رُهْم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، قال: فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هٰهنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسْهم لنا ـ أو قال: أعطانا منها ـ وما قسَم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم، قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة، قال: فدخلت أسماءُ بنت عُمَيْس وهي ممن قَدِم معنا على حفصةَ زوجِ النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرتْ إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخَل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من

هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه، فقالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضِبَتْ وقالت كلمة: كذبتَ يا عمر كلاَّ والله كنتم مع رسول الله ﷺ يُطْعِم جائعكم، ويَعِظُ جاهلكم، وكنّا في دار أو في أرض البُعَداء البُغَضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيْم الله لا أطْعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ ونحن كنا نُؤذَى ونخافُ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك، قال: فلما جاء رسول الله ﷺ قالت: يا نبيّ الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ليس بأحقّ بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**»، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هُمْ به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ، قال أبو بردة: فقالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليَسْتَعِيدُ هذا الحديثَ مِنّي.

«كذبت» أرادت أخطأتَ. «أرض البُعَداء» تعني في النسب. «البغضاء» تعني الحبشة لأنهم كانوا مسيحيين، وكان النجاشي مسلماً يخفي إسلامه ويُوَرّي.

في هذا الحديث دليل على أن النبيّ ﷺ أسهم لأهل السفينة ولم يُسْهم لغيرهم ممن لم يحضر غزوة خيبر، هكذا قال أبو موسى، وقد قدَّمنا في حديث أبي هريرة رقم (٣٩٤) أنه قدم هو وأصحابه من اليمن على رسول الله ﷺ وهو بخيبر فأشركهم في الغنيمة.

وفي الحديث فضل هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا في السفينة وأن لهم فضلاً على الصحابة الذين هاجروا مع النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة حيث إنه كانت لهم هجرتان، فكانوا بذلك أحقّ وأولى بالنبيّ ﷺ من غيرهم، ومن أبرز هؤلاء جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأبو موسى الأشعري وأخوه أبو بردة رضي الله تعالى عنهم، وستأتي فضائلهم في الفضائل.

* * *

❋ رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير عند قفولهم ونهي النبيّ عن ذلك

[٤١٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ـ أو قال: لما توجّه رسول الله ﷺ ـ أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «**إربَعُوا على أنفسكم إنكم لا تدعُون أصَمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم**»، قال: وأنا خلف دابّة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، فقال لي: «**يا عبدالله بن قيس**»، قلت: لبّيك رسول الله، قال: «**ألا أدلّك على كلمة من كنوز الجنّة؟**» قلت: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمّي، قال: «**لا حول ولا قوّة إلا بالله**».

رواه أحمد (٤/٤٠٢)، والبخاري في المغازي وفي الدعوات، ومسلم في الذكر وغيرهم وقد تقدم في الأذكار والدعوات من الجزء الثاني حديث رقم (١٦٠٠)، وانظر تهذيبي للجامع (٣٢٣٥).

الحديث يدلّ على أنه لا ينبغي للمسلم أن يتعب نفسه في رفع صوته بذكر الله وندائه، فإنه عزّ وجلّ قريب سميع بصير معنا أينما كنّا، ولذلك لما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: أقريبٌ ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

وفي الحديث فضل لا حول ولا قوّة إلا بالله، لأن فيها تبرّي العبد من حوله وقوّته، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً إلا بالله، وأنه متّصف بالضعف والعجز... وقد تقدم شيء من هذا في الأدعية.

* * *

❋ ردّ المهاجرين المنائح التي أعطاهم الأنصار إيّاها

[٤٢٠] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم المهاجرون من مكّة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار،

فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تُدْعى أمّ سُلَيْم، وكانت أمّ عبدالله بن أبي طلحة كان أخاً لأنس لأُمّه، وكانت أعطتْ أمُّ أنس رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمّ أيْمَن مَولاتَه أم أُسامة بن زيد، قال: لمّا فرغ رسول الله ﷺ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، قال: فردّ رسول الله ﷺ إلى أمّي عِذاقَها وأعطى رسولُ الله ﷺ أمّ أيمن مكانَهنّ من حائطه.

قال ابن شهاب: وكان من شأن أمّ أيمن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبدالله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعد ما توفي أبوه فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر.

رواه البخاري في الهبة (٢٦٣٠)، ومسلم في الجهاد (٩٩/١٢).

قوله: «العذاق» بكسر العين جمع عذق والمراد بذلك النخيل. «والمنائح» جمع منيحة وهي المنحة والعطيّة.

وفي الحديث فضل الأنصار وكرمهم وإيثارهم المهاجرين على أنفسهم، وقد مدحهم الله على ذلك في كتابه الكريم، حيث قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وتأتي فضائلهم ومناقبهم.

وفي الحديث ما كان عليه النبيّ ﷺ من إكرام ذويه ومَنْ أحْسَنَ إليه، فهذه أمّ أيمن وصيفَةُ والده وحاضنَتُه كان يبالغ في البُرُورِ بها والإحسان إليها ويعاملُها معاملة أمّه، وكان يصبر على أذاها وسوء أدبها معه، وكانت تجعله في المعاملة كولدها رضي الله تعالى عنها، وصلّى الله وسلم وبارك على نبيّه وعلى آله وصحبه، والحديث قد تقدم في غزوة بني النضير بنحوه.

* * *

❋ شبع الصحابة من التمر بعد فتح خيبر

[٤٣١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر.

رواه البخاري في غزوة خيبر (٣٦/٩)، ونحوه عنده عن ابن عمر بلفظ: ما شَبِعْنا حتى فَتَحْنَا خَيْبَر، إنما قالاً ذلك لأنهم كانوا قد أحرزوا على نخيل كثير وخيبر كانت معروفة بكثرة التمر، فوسّع الله عزّ وجلّ على الصحابة بعد أن كانوا في ضيقٍ وقلّة.

❋ ❋ ❋

❋ تأمير النبيّ ﷺ على أهل خيبر أحد الأنصار

[٤٣٢] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا: إن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي من الأنصار إلى خيبر فأمّره عليها.

رواه البخاري في المغازي (٣٧/٩) مُعلّقاً، ووصله أبو عوانة والدارقطني كما في الفتح.

والحديث يدلّ على أن اليهود بخيبر كانوا قد أصبحوا تحت حكم رسول الله ﷺ ونفوذه يأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه... ولذلك بعث إليهم أميراً من الأنصار.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة ما جاء في غزوة خيبر بإيجاز

كان يهود خيبر أشجع قوم وأعظمهم شكيمة وأكثرهم قوّة وأغنى يهود الجزيرة، وكل ذلك لم يُغنهم شيئاً بعد أن عثوا في الأرض فساداً وألّبُوا العرب على النبيّ ﷺ، وخاصة في غزوة الأحزاب، فغزاهم النبيّ ﷺ وحاصرهم أياماً ولياليَ متوالية حتى استسلموا رغم عدّتهم وقوّتهم وشجاعتهم لأنهم رأوا ما لا طاقة لهم به، فقد فتحت حصونهم الكثيرة واحدة إثر الأخرى، وكلما فتح

حصن انتقلوا إلى الذي يليه، فنزلوا على شروط شرطها عليهم النبيّ ﷺ، وأراد أن يُجليهم كما أجلى مَنْ قبلهم من بني النضير... لكنهم استعطفوا النبيّ ﷺ وطلبوا منه البقاء بخيبر على أن يعملوا بها وللنبيّ ﷺ وللمسلمين نصف دخلها ومحصولاتها، فأبقاهم حتى غدروا أيام الفاروق رضي الله تعالى عنه فأجلاهم وأخرجهم من الجزيرة كباقي اليهود الآخرين.

وبفتح خيبر وانهزام يهودها انكسرت شوكة اليهود، وخاف العرب المجاورون للمدينة سطوة النبيّ ﷺ وأصبحوا حذرين، وخاصة قبيلة غطفان تلك القبيلة العدوّة اللدودة التي طالما حاربت النبيّ ﷺ وأعانَتْ عليه... وفاز النبيّ ﷺ بالنصر المبين ورجع بمغانم كثيرة، ووسّع الله تعالى على المسلمين بما غنموه في هذه الغزوة وأنجز الله وعده ونصر عبده وهزم عدوّه والحمد لله وحده.

وأبرز ما في هذه الغزوة من الأحداث زواج النبيّ ﷺ بصفية رضي الله تعالى عنها، وتحريم زواج المتعة، وتحريم الحمر الإنسية، ورجوع مهاجري الحبشة وكان فيهم ابن عمّ الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وفرح النبيّ ﷺ بقدومه حتى قال مبتهجاً: «**والله ما أدري بأيّهما أفرحُ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**» رواه الحاكم (٢١١/٤)، والطبراني كما في المجمع (٢٧٢/٩) وصححه الحاكم، وللحديث طرق يحسن بها. ومن أظهر أحداثها تلك المعجزات النبويّة المتوالية، ونومهم عن صلاة الصبح حتى أشرقت الشمس. وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّه ومصطفاه وعلى آله وزوجه وصحبه أبد الآبدين.

* * *

❋ فتح وادي القرى وصلح أهل فدك وتيماء[1]

ذكر أهل المغازي أن النبيّ ﷺ لما رجع من فتح خيبر مرّ على

(١) وادي القرى وفدك مساكن لليهود، كانت بين تبوك وخيبر. وتيماء بفتح التاء وسكون الياء بلدة بين وادي القرى والشام كذا في معجم البلدان.

وادي القرى، وكان يسكنه اليهود، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى الاستسلام فأبَوْا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها رسول الله ﷺ وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يخرج منها، وأرسل عليه الصّلاة والسلام من يطلب من يهود فدك الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال، وكانت أرض فدك هذه لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بني هاشم ويزوّج منها أيّمَهُم، ولما بلغ يهود تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على أداء الجزية وأن يمكثوا في بلادهم مطمئنين. هذا خلاصة ما ذكره الطبري وابن سيّد الناس وابن كثير وصاحب المواهب وشارحها وابن القيم والبيهقي، ولم يصح شيء من ذلك على طريقة المحدثين، وإن صح ذكر هذه الثلاث وادي القرى، وفدك، وتيماء في الأحاديث الصحيحة. وذكرها على هذا النهج ليس من شرط كتابنا، وإنما ذكرناها لورود مصاريف متوجاتها ودخلها في الأحاديث الصحيحة والله تعالى أعلم.

* * *

❋ سَرِيَّةُ ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى نَجْد قِبَل بَنِي فَزارة

[٤٢٣] عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر أمَّرَهُ رسولُ الله ﷺ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعةٌ، أمَرنا أبو بكر فعرَّسنا ثم شنَّ الغارة، فورد الماء فقتل من قتل عليه، وسبى، وأنظر إلى عنُقٍ من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم، معها ابنة من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «يا

سلمة هب لي المرأة»، فقلت: يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: «**يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك**»، فقلت: هي لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوباً» فبعث بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أُسِرُوا بمكّة.

رواه أحمد (٤٦/٤)، ومسلم في الجهاد (٦٧/١٢، ٦٨)، وأبو داود (٢٦٩٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٩٠/٤).

«فعرّسنا» أي: نزلنا آخر الليل للاستراحة والنوم. «شن الغارة» أي: هاجمهم في حالة غفلتهم. «عنق من الناس» أي: جماعة. «الذراري» هم النساء والأطفال. «عليها قِشْعٌ» أي: نِطْعٌ من الجلد. «فنفّلني» أي: أعطانيها نافلة. «وما كشفت لها ثوباً» هو كناية عن عدم جماعها.

في الحديث ما فُطِرَ عليه الرجال من إعجابهم بالجمال والحسن، وفيه صبر ابن الأكوع وحبس نفسه عن البنت مع حسنها وجمالها وصغرها، وفيه جواز تبادل الأسرى وفداء الرجال المسلمين بالنساء الكافرات، ولا يجوز فداؤهم بالنساء المسلمات إطلاقاً.

* * *

❋ سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى الحُرُقاتِ من جُهَيْنة

[٤٣٤] عن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحُرُقاتِ من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أقال لا إله إلا الله وقتلته؟**» قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «**أفلا كشفت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا**»، فما زال يكرّرها عليّ حتى تمنّيت أني أسلمت يومئذ.

رواه أحمد (٢٠٧/٥)، والبخاري في المغازي (٥٨/٩)، ومسلم في الإيمان (٩٩/٢، ١٠٠، ١٠١)، وأبو داود (٢٦٤٣).

«الحرقات» بضم الحاء والراء.

في الحديث تحريم قتل الكافر إذا قال لا إله إلاّ الله، وإن قالها تعوّذاً فإننا لا ندري ما ينطوي عليه قلبه، ولذلك عاتب النبيّ ﷺ أسامة على قتله الرجل الذي قال لا إله إلاّ الله بعد أن قتل جماعة من المسلمين كما في رواية عند مسلم، وقال له: «**أفلا كشفت على قلبه**» الخ.

وزاد أهل المغازي: أنهم غنموا في هذه السرية الشاء والنَّعم والذرية، وكانت سهمانهم عشرة أبعرة لكل رجل أو عدلها من النعم.

* * *

❁ سرية أخرى لغالب الليثي لبني الملوّح بالكَدِيد

[٤٢٥] عن جندب بن مكيث الجهني قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبدالله الكلبي ـ كلب ليث ـ إلى بني المُلَوَّح بالكَدِيدِ، وأمره أن يُغِيرَ عليهم فخرج فكنت في سريته، فمضينا حتى إذا كنا بقديد لقينا بها الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء اللّيثي، فأخذناه فقال: إني جئت لأُسلم، فقال غالب بن عبدالله: إن كنت إنما جئت مسلماً، فلن يضرّك رباط يوم وليلة، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك، قال: فأوثقه رباطاً، ثم خلف عليه رجلاً أسود كان معنا، فقال: امكث معه حتى نمرّ عليك، فإن نازعك فاحتزّ رأسه، قال: ثم مضينا حتى أتينا بطن الكديد، فنزلنا عشيشيه بعد العصر، فبعثني أصحابي في ربيئة، فعمدت إلى تلّ يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه، وذلك المغرب، فخرج رجل منهم فنظر فرآني منبطحاً على التل، فقال لامرأته: والله إني لأرى على التل سواداً ما رأيته أوّل النهار، فانظري لا تكون الكلاب اجترّت بعض أوعيتك، قال: فنظرت فقالت: لا والله ما أفقد شيئاً، قال: فناوليني قوسي وسهمين من كنانتي، قال: فناولته فرماني بسهم فوضعه في جنبي، قال: فنزعته فوضعته ولم أتحرك، ثم رماني بآخر فوضعه في رأس منكبي، فنزعته ووضعته ولم أتحرك، فقال لامرأته:

والله لقد خالطه سهامي، ولو كان دابّة لتحرك، فإذا أصبحت فابتغي سهميَّ فخذيها لا تمضغهما عليَّ الكلاب، قال: وأمهلناهم حتى راحت رائحتهم حتى إذا احتلبوا وعطنوا أو سكنوا وذهبت عتمة من الليل شننا عليهم الغارة فقتلنا من قتلنا منهم واستقنا النعم، فوجهنا قافلين، وخرج صريخ القوم إلى قومهم مغوثاً، وخرجنا سراعاً حتى نمرّ بالحارث بن البرصاء وصاحبه فانطلقنا به معنا، وأتانا صريخ الناس فجاءنا ما لا قِبَل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي أقبل سيل حال بيننا وبينهم، بعثه الله تعالى من حيث شاء، ما رأينا قبل ذلك مطراً ولا حالاً، فجاء بما لا يقدر أحد أن يقوم عليه، فلقد رأيناهم وقوفاً ينظرون إلينا ما يقدر أحد منهم أن يتقدم، ونحن نحوزها سراعاً حتى أسندناها في المشلل، ثم حددناها عنا فأعجزنا القوم بما في أيدينا.

رواه أحمد (٤٦٧/٣، ٤٦٨) مطوّلاً، وأبو داود (٢٦٧٨) مختصراً، وعزاه الهيثمي (٢٠٢/٦) لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات، فقد صرّح ابن إسحاق بالسماع في رواية الطبراني، وهو عند ابن سعد أيضاً (١٢٤/٢) من طريقه.

«الكديد» بفح الكاف وكسر الدال بينه وبين مكّة تسعون كيلو وهو من ديار بني الملوّح. «قُدَيْد» بضم القاف وفتح الدال وسكون الياء هو وادٍ فيه عيون وقرى لبني سُلَيْم وغيرهم بينه وبين مكّة نحو من مائة وعشرين كيلو. «ربيئَةٌ» هو العين والطليعة يتجسّس الأخبار للقوم. «احتلبوا» أي: حلبوا مواشيهم. «عتمة من الليل» أي: ذهبت مدة من ظلمة الليل. «قافلين» أي: راجعين. «مغوثاً» أي: طالباً الإغاثة. «المشلل» اسم جبل يهبط منه إلى قديد.

وفي هذا الحديث ما كان عليه الصحابة من التجلّد والصبر في سبيل الله وتحمّل المتاعب... وفيه تحيّن الأوقات للهجوم على الكفار، وذلك في أوقات غفلتهم أو نومهم، وفيه تلك الكرامة التي أكرم الله بها هذا الجيش حيث بعث الله تعالى إليهم سيلاً عارماً حالَ بينهم وبين عدوّهم، ولولا

لطف الله تعالى بهم بذلك السَّيْل لأفناهم الكفار وأبادوهم لكثرتهم وقلّة المسلمين، لكن لله جنود السمٰوات والأرض.

* * *

سريَّةُ بَطْنِ إضَمٍ

[٤٣٦] عن عبدالله بن أبي حَدْرَد رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ إلى إضَم، فخرجت في نفرٍ من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعيّ ومُحَلِّم بن جَثَّامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنّا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعُود له مع مُتَيِّع له ووَطْبٍ من لبن، فسلَّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر، فنزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

رواه أحمد (١١/٦)، وابن سعد (١٣٣/٢)، وابن جرير (٢٢٢/٥)، وابن أبي حاتم (ج ٣/١٠٤٠)، والبيهقي في الدلائل (٣٠٥/٤)، وعزاه النور في المجمع (٨/٧) لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات.

«إضم» ـ بكسر الهمزة وفتح الضاد ـ موضع بينه وبين المدينة ثلاثة بُرُد. «قعود» بفتح القاف البعير المتّخذ للركوب. «متيع» تصغير متاع. «وطب» بفتح الواو وسكون الطاء وعاء اللبن.

والحديث كالآية يدلأن على عدم قتل من تظاهر بما يدلّ على إسلامه، وأن الواجب في ذلك أن نتثبّت ولا نقول إنه ليس بمسلم من أول وهلة، وقد جاءت الآية الكريمة تعاتب من قتل من ألقى إليهم السلم، وأن من قتله كان قصده أخذ ما كان معه من الجمل والمتاع.

* * *

❋ سرية عبدالله بن حذافة السهمي

[٤٢٧] عن عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: نزلت في عبدالله بن حذافة السهمي إذْ بعَثَهُ النبيُّ ﷺ في سرية.

رواه أحمد رقم (٣١٢٤)، والبخاري في التفسير (٣٢٢/٩)، ومسلم في الإمارة (٢٣٣/١٢)، وأبو داود (٢٦٢٤)، والترمذي... كلاهما في الجهاد والنسائي في البيعة.

[٤٢٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: إنّ رسولَ الله ﷺ بعث علقمة بن مُجَزِّز على بَعْثٍ وأنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس غزاته أو كان ببعض الطريق استأذن منه طائفةٌ من الجيش، فأذن لهم وأمّر عليهم عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان بعض الطريق أوقد ناراً ليَصْطَلُوا أو ليَصْنَعُوا عليها صنيعاً، فقال عبدالله وكانت فيه دعابَةٌ: أليس لي عليكم السمعُ والطاعةُ؟ قالوا: بلى، قال: فما أنا بآمِرِكُم بشيء إلا صَنَعْتُمُوه؟ قالوا: نعم، قال: فإني أعْزِمُ عليكم إلا تواثَبْتُم في هذه النار، فقام ناس فَتَحَجَّزُوا فلما ظنّ أنهم واثبون قال: أمْسِكُوا على أنفسكم، فإنما كنت أمزح معكم، فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أمَرَكُمْ منهم بمعصية الله فلا تطيعوه»**.

رواه أحمد (٦٧/٣)، وابن ماجه (٢٨٦٣)، وابن حبان (١٥٥٢) بالموارد، والحاكم (٦٣٠/٣، ٦٣١)، وأبو يعلى (١٣٤٩)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وكذا صححه البوصيري في الزوائد.

«فتحجزوا» أي: ربطوا أُزرهم في أوساطهم تأهّباً للدخول في النار. «ليَصْطَلُوا» أي: ليستدفئوا من البرد. «فيه دعابة» أي: مزاح.

سرية عبدالله بن حذافة هذه جاءت في البخاري (٣٢٢/٩)، ومسلم في الإمارة (٢٢٣/١٢).

[٤٢٩] عن ابن عباس وعند أحمد (٨٢/١)، والبخاري ومسلم (٢٢٦/١٢، ٢٢٧) في الإمارة عن الإمام عليّ عليه السلام بلفظ آخر مغاير لحديث أبي سعيد وسياقه كما عند مسلم، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتُطِيعُوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه وطَفِئَتْ النارُ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: **«لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»**، وفي رواية: **«لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»**، فالقصة واحدة وقعت لعبدالله بن حذافة، فتصرف الرواة في نقلها كما يقع كثيراً في الأحاديث؛ إذ قد يروون الحديث بالمعنى فيقع فيه التصرف، وقد يحدث الراوي بالحديث من حفظه، فيطول عليه العهد فيأتي به بلفظ آخر بزيادة ونقصان، وإذا صحّت الأسانيد فلا بدّ من قبول الجميع ويجب الجمع بين ما تعارض ولا يجوز طرح بعضها أو الطعن في الرواة الثقات، وقد تقدم الكلام على طاعة الإمام في الجهاد، كما تقدم الكلام على الآية في التفسير.

* * *

❁ غزوة ذات الرقاع

وهي غزوة مُحارِب خصفة من بني ثعلبة من غطفان، قال البخاري (٤٢١/٨) وهي التي صلّى فيها النبيّ ﷺ صلاة الخوف، وتسمّى أيضاً «غزوة نجد».

[٤٣٠] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ في غزاة ونَحْنُ في تسعة نَفَر بَيْنَنا بعيرٌ نَعْتَقِبُه، فنَقِبَتْ أقدامُنا، ونَقِبَتْ قدَمَايَ، وسقطت أظفاري، فكنّا نَلُفُّ على أرْجُلِنا الخِرقَ، فسُمِّيت

غزوة ذاتِ الرِّقاع، لما كنا نَعْصِبُ من الخِرَق على أرجلنا.

رواه البخاري في المغازي (٨/٤٢٥)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٩٧).

محارب: هو ابن خَصَفَة بن قيس غيلان، وغطفان قبيلة عظيمة من القبائل المجاورة للمدينة، وكانت لهم يد كبرى في مساعدة كفار قريش في الخندق، ولهم مع النبيّ ﷺ أحداث.

وقوله: «نعتقبه» أي: نركبه مناوبة. «نقبت» بكسر القاف أي: قرح من الحفى وتَنَفَّطَتْ.

الحديث يدلّ على أن هذه الغزوة كانت بعد خيبر، لأن أبا موسى لم يأتِ مع أصحاب السفينة إلا أيام خيبر، وهذا القول هو الراجح كما قال البخاري وأيّده ابن كثير في السيرة والحافظ في الفتح، وقبله ابن القيم في الهدي، ويؤيّده أيضاً حديث أبي هريرة، وهو:

[٤٣١] ما رواه أحمد (٢/٣٢٠)، والنسائي، وابن حبان (٥٨٥) عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة: هل صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم، فقال له: متى؟ قال: عام غزوة نَجْدٍ قام رسول الله ﷺ لصلاة العصر وقامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابلة العدوّ، فذكر الحديث في صفة صلاة الخوف، وسنده صحيح.

وأبو هريرة إنما جاء زمن خيبر، وقد قدمنا حديث قدومه سابقاً، وخالف أهل المغازي هذا التاريخ، وقالوا: إنها كانت قبل خيبر. قال الحافظ: والأولى الاعتماد على ما ثبت في الصحيح. وقول أبي موسى: فسمّيت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا، هذا هو القول الصحيح في تسميتها بذلك، وقيل غير ذلك، كما أن قوله: «ونحن في سبعة نفر» لا يدلّ على أن رجال الغزوة كانوا مجرد هذا العدد، بل مراده أن السبعة كانوا متصاحبين يتعاقبون البعير.

* * *

❋ من أحداث هذه الغزوة:
صلاة الخوف

[٤٣٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد فَوازَيْنا العدو فصاففنا لهم. وفي رواية: إن رسول الله ﷺ صلّى بإحدى الطائفتين والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أصحابهم، فجاء أولئك فصلّى بهم ركعة ثم سلّم عليهم، ثم قام هؤلاء فقضوا ركعتهم، وقام هؤلاء فقضوا ركعتهم.

رواه البخاري في المغازي (٨/ ٤٣٠).

وقد تقدم في صلاة الخوف أحاديث في الموضوع؛ كحديث جابر قال: كنّا مع النبيّ ﷺ بذات الرقاع وأقيمت الصلاة فصلّى بطائفة ركعتين الخ، رواه البخاري ومسلم، وحديث صالح بن خوات عمّن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرّقاع صلاة الخوف الخ، روياه أيضاً. وحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلّى بذي قرد وصفّ الناس خلفه صفّين الخ، رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه. وهنالك الكلام على صلاة الخوف بتفصيل، فارجع إلى ذلك في الجزء الثاني ص (٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢).

قوله: «فوازَينا» أي: قاتلنا.

❋ ❋ ❋

❋ محاولة غورث اغتيال النبيّ ﷺ

[٤٣٣] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أخبر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فلما قَفَل رسولُ الله ﷺ قفل معه، فأدركتْهُم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّقَ الناسُ في العِضاةِ يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرةٍ فعلّق بها سيفه، قال جابر: فنِمْنا نَوْمَةً ثم إذا رسولُ الله ﷺ يَدْعُونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي

جالسٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ هذا اخْتَرَطَ سَيفي وأنا نائمٌ فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، فقال لي**»: من يمنعك مني؟ «**قلت**: الله، **فها هوذا جالس**»، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.

وفي رواية: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرقاع قال: كنّا إذا أتينا على شجرة ظَلِيلةٍ تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسولِ الله ﷺ مُعَلَّقٌ بشجرةٍ، فأخذ سيف نبيّ الله ﷺ فاخْتَرَطَهُ، فقال لرسول الله ﷺ: أَتَخَافُنِي؟ قال: «**لا**»، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «**الله يَمْنَعُنِي منك**»، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلّقه، ثم ذكر صلاة الخوف.

رواه البخاري باللفظ الأول في المغازي (٤٣١/٨)، وأحمد (٣٦٤/٣)، ومسلم في صلاة الخوف (١٢٩/٦) باللفظ الثاني وعلّقه البخاري (٤٣٢/٨).

قوله: «قِبَل نجد»؛ لأن غطفان من نجد. «القائلة» هي وسط النهار وقت القيلولة والاستراحة. «كثير العضاة» قيل: هو ما عظم من السمر؛ وهي الشجرة الكثيرة الورق، وقيل: العضاة كل شجر يعظم له شوك.

وقوله: «ظليلة» أي: كثيرة الظلّ.

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث حفظ من ذلك الأعرابي بعد أن تمكّن من أخذ سيفه وإشهاره في وجهه، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ.

[٤٣٤] فعن جابر قال: قاتل رسول الله ﷺ محاربَ خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غِرَّةً، فجاء رجل منهم يقال له غَوْرَثُ بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «**الله**»، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ، قال: «**أتشهد أن لا إله إلاّ الله**»؟ قال: لا، ولكني أُعاهدك أن لا أُقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلوك، فخلّى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه قال: قد جئتكم من عند خير الناس...

رواه أحمد (٣/٣٦٥) بسند صحيح.

قوله: «غورث» بفتح الغين وسكون الواو ثم راء مفتوحة آخره ثاء، وهذا الحديث بين الأعرابي الذي أبهم في الرواية الأولى.

وفي الحديث ما كان عليه النبيّ ﷺ من التسامح والعفو ومقابلة الجاهلين بالصفح الجميل، وبذلك ملك القلوب، وأحبّه ألدّ أعدائه ﷺ.

* * *

❋ قصة الحارسين مع المشرك

[٤٣٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً وجاء زوجها وكان غائباً، فحلف أن لا يَنْتَهِي حتى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبيّ ﷺ، فنزل النبيّ ﷺ منزلاً فقال: «**من رجل يَكْلَؤُنا؟**» فانتدَبَ رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «**فَكُونا بِفَم الشِّعْبِ**»، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فَم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ اللّيل أحبُّ إليك أن أكْفِيكَهُ أوّلَه أو آخِرَهُ؟ قال: اكفني أوّله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلّي، وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه رَبِيئَةُ القوم فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائماً، ثم عاد له بثالث فوضعه فيه فنزعه ووضعه ثم ركع وسجد ثم أهَبَّ صاحِبَه، فقال: اجلس فقد أُوتيتُ، فوثب فلما رآهماالرجل عرف أن قد نَذِرُوا به، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله ألا أهْبَبْتَني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أُحِبَّ أن أقطعَها حتى أُنفِذَها، فلما تابع الرمي ركعت فآذنتُك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها وأُنفِذَها.

رواه أحمد (٣/٣٤٤، ٣٥٩)، وأبو داود (١٩٨)، والبيهقي في الكبرى (٩/١٥٠) وفي الدلائل (٣/٣٧٩) بسند حسن.

«يكلؤنا» يحفظنا. «ربيئة القوم» أي: طليعتهم التي تحرسهم. «نذروا به» علموا به وفطنوا له.

وفي الحديث مشروعية حراسة الجيش وأخذ الحذر من العدو، وفيه فضل ذلك الأنصاري وعظم محبّته لله عز وجلّ وتعظيمه لكتابه، وبالتالي صبره على ألم السهام الثلاث وصموده قائماً يتلذّذ بتلاوة كتاب الله تعالى، ولم يقطع قراءته إعظاماً لصلاته وتقديراً لتلك السورة، ويزيد فيحلف فيقول: لولا أن رسول الله ﷺ أمره بالحراسة، وخشي إن استرسل في صلاته أن يضيع ما أمر به لما ركع وسجد وسلّم، فهكذا كان يقين الصحابة وهكذا كانت عزائمهم رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ قصة جمل جابر مع النبيّ ﷺ

[٤٣٦] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة فأبطأ بي جملي، فأتى عليّ رسول الله ﷺ فقال لي: **«يا جابر»**، قلت: نعم، قال: **«ما شأنك؟»** قلت: أبطأ بي جملي وأعْيَا فتخلّفتُ فنزل فحَجَنَه بمِحْجَنَة، ثم قال: **«اركب»**، فركبتُ فلقد رأيتني أكفه عن رسول الله ﷺ، فقال: **«أتزوّجتَ؟»** فقلت: نعم، فقال: **«بكراً أم ثيباً»**؟ فقلت: بل ثيبٌ، قال: **«فهلاّ جارية تلاعِبُها وتلاعبُك»**، فقلت: إن لي أخواتٍ فأحببت أن أتزوّج امرأة تَجْمَعُهُنّ وتَمْشِطُهُنّ وتقوم عليهنّ، قال: **«أما إنك قادم، فإذا قدمت فالكَيْسَ الكَيْسَ»**، ثم قال: **«أتبيع جملك؟»** قلت: نعم، فاشتراه مني بأُوقية، ثم قدم رسول الله ﷺ وقدمت بالغداة، فجئت المسجد فوجدته على باب المسجد فقال: **«الآن حيث قدِمتَ؟»** قلت: نعم، قال: **«فدع جملك وادخل فصلّ ركعتين»**، قال: فدخلت فصليت ثم

رجعت، فأمر بلالاً أن يزن لي أوقية، فوزن لي بلال، فأرجح في الميزان قال: فانطلقت فلما وليت قال: «**ادْعُ لي جابراً**» فدُعِيتُ فقلتُ: الآن يردّ عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه، فقال: «خذ جمَلَك **ولك** ثَمنُه».

رواه أحمد (٣/٢٩٩، ٣٠٣، ٣١٤)، والبخاري في البيوع (٥/٢٢٤) وفي مواضع، ومسلم في النكاح وفي المساقاة (١١/٣٠، ٣١، ٣٦)، وأبو داود (٢٥٠٥) وباقي أهل السنن وغيرهم بألفاظ مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في البيوع، في بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى موضعٍ ما.

قوله: «في غزاة» جاء التصريح ببيان أنها غزوة ذات الرقاع، كما رواه ابن إسحاق بسند حسن صحيح. «أبطأ جملي» أي: تأخّر. «وأعيا» أي: عجز عن السير. «بمحجنة» المحجنة هي عصا معكوفة. وقوله: «الكيس الكيس» هو بفتح الكاف وسكون الياء؛ هو العقل والفطنة والظرافة، كأنه قال له: كن فطناً عاقلاً.

وفي الحديث فوائد: منها: جواز بيع المركوب واشتراط ركوبه إلى وقت ما، ومنها: استحباب واستحسان التزوّج بالأبكار وبالثيبات إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، ومنها: سنة البداءة بصلاة ركعتين في المسجد لمن قدم من سفر، ومنها: كرم النبيّ ﷺ وسخاؤه الذي لا مثيل له، ومنها: معجزته ﷺ في سير الجمل ونشاطه ببركته ﷺ وأثر عصاه التي حجنه بها، فكان بعد ذلك لا يُسْبق، وفيه غير ذلك.

* * *

عمرة القضاء
وما حصل فيها من أحداث

[٤٣٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابُه فقال المشركون: إنه يَقدم عليكم وقد وهَنَتْهُم حُمَّى يثرب، فأمرهم

رسول الله ﷺ أن يرموا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلّها إلا الإبقاء عليهم.

وفي رواية: لما قدم النبيّ ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «**ارملوا ليرى المشركون قوّتكم**»، والمشركون من قِبل قعيقعان.

وفي رواية: إن قريشاً قالت: إن محمداً وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ لعامه الذي اعتمر فيه قال لأصحابه: «**ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوّتكم**»، فلما رملوا قالت قريش. ما وهنتهم؟

وفي رواية: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجْلدُ من كذا وكذا.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٥٠، ٥١) وفي الحجّ، ومسلم في الحج رقم (١٢٦٦)، وأبو داود (١٨٨٦)، والنسائي كلاهما في الحجّ أيضاً، وأخرجه أحمد (١/٣٠٦) بالرواية الثالثة وسنده صحيح.

«وهنتهم» بتخفيف الهاء وتشديدها أي: أضعفتهم. «ويثرب» اسم للمدينة في الجاهلية. «الإبقاء عليهم» أي: الرفق بهم والإشفاق عليهم.

قد تقدّم أن النبيّ ﷺ لما صدّه الكفار عام الحديبية تصالحوا على أن يرجع ويأتي العام المقبل، وشرطوا عليه شروطاً في ذلك كما في الحديث التالي وما بعده.

[٤٣٨] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبّوا، فاعتمر من العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج، فخرج.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٤٩).

[٤٣٩] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: لمّا اعتمر

النبيّ ﷺ في ذي القعدة فأبَى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكّة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فذكر الكتاب قال: فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله، لا يدخل مكّة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل أتَوْا عليّاً، فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنّا، فقد مضى الأجل، فخرج النبيّ ﷺ فتبعتْه ابنةُ حمزة تنادي: يا عمّ، يا عمّ، فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونكِ ابنةَ عمكِ احمليها، فاختصم فيها عليّ، وزيد، وجعفر، قال علي: أنا أخذتها، وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبيّ ﷺ لخالتها، وقال: **«الخالة بمنزلة الأم»**، وقال لعليّ: **«أنت مني وأنا منك»**، وقال لجعفر: **«أشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي»**، وقال لزيد: **«أنت أخونا ومولانا»**، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: **«إنها ابنة أخي من الرضاعة»**.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٤٢، ٤٩)، ومسلم في الجهاد في صلح الحديبية (١٢/١٣٥، ١٣٨).

فهذان الحديثان يبيّنان ما شرطوا عليه ﷺ إذا أتى معتمراً في العام المقبل وقد وفّى لهم بذلك، فقد جاء في هذه السنة السابعة في ذي القعدة منها ودخل مكّة هو وأصحابه وطافوا وسعوا بين الصفا والمروة وحلقوا وقصروا تصديقاً للرؤيا التي رآها ﷺ في السنة الماضية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الآية، وبعد أن مضى الأجل المضروب، أمروه بالخروج، فخرج ﷺ.

وفي حديث البراء اختصام الإمام عليّ وأخيه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم في بنت حمزة رضي الله تعالى عنهما أيّهم يكفُلُها، فأعطاها النبيّ ﷺ جعفر؛ لأن خالتها أسماءَ بنتَ عُمَيْس كانت عنده، وقال: **«إن الخالة بمنزلة الأم»**، فهي أحقّ بالحضانة من غيرها، ثم طيّبَ ﷺ خواطِرَ جميعهم بما يليق بهم، قال للإمام عليّ: **«أنت مني وأنا**

منك» يعني في النَّسب والصهر والمحبّة والسابقة في الإسلام، وقال لجعفر: **«أشبهت خلقي وخُلُقي»**، وهي منقبة لجعفر، أما قوله لزيد: **«أنت أخونا»** أي: في الإيمان، **«ومولانا»** أي: حيث إنه أعتقه، وقد جاء في الحديث الصحيح: **«إن مولى القوم منهم»**، وتقدم في الزكاة.

وقد جاء في رواية عند أحمد عن عليّ ومرسل محمد الباقر أن جعفر قام فحَجِل حول رسول الله ﷺ دار عليه، فقال النبيّ ﷺ: **«ما هذا؟»** قال: شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم، ذكره الحافظ في الفتح قال: وحجِل ـ بفتح المهملة وكسر الجيم ـ أي: وقف على رجل واحدة وهو الرقص بهيئة مخصوصة.

[٤٤٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ دخَلَ مكّة في عُمْرة القضاء، وعبدُالله بن رواحة بين يَدَيْه يَمْشي، وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ ... اليَوْم نَضْرِبْكُم عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِل الخَلِيل عن خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسولُ الله ﷺ: **«خَلِّ عنه يا عمرُ، فهي أسرعُ فيهم من نَضْحة النَّبل»**.

رواه الترمذي آخر الأدب رقم (٢٦٥٦) بتهذيبي، والنسائي في الحجّ باب إنشاد الشعر في الحرم، وابن حبان (٢٢٠، ٢٢١)، والترمذي في الشمائل رقم (٢٤٥)، وأبو يعلى (٣٤٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٨/١٠) وحسّنه الترمذي وصححه.

«الهام» جمع هامة وهو أعلى الرأس. «عن مقيله» أي: موضعه. «ويُذْهِلُ» أي: يُنسي.

وفي الحديث إباحة إنشاد الشعر في الحرم، وهجو الكفار به، وأنه يُعتبر من جهاد اللّسان، كما أنه قد يكون أشدّ على الكفار من رَمْيهم وضربهم بالأسلحة.

[٤٤١] وعن ابن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: لما اعتمر رسولُ الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٩/٥٠)، وأبو داود (١٩٠٣)، وابن ماجه (٢٩٩٠) كلاهما في الحجّ.

كانوا يسترونه خوفاً عليه من السفهاء والصبيان أن يرموه بِشَيْءٍ فيؤذوه، وقد حفظه الله تعالى فلم يصب بسوء ﷺ.

* * *

❊ تزوّجه ﷺ بميمونة

[٤٤٢] عن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوّجني النبيّ ﷺ ونحن حلالان بِسَرِف.

رواه مسلم (٩/١٩٧)، وأبو داود (١٨٤٣)، والترمذي (٧٥١)، وابن ماجه (١٩٦٤) كلّهم في الحجّ، وأحمد (٦/٣٣٣، ٣٣٥).

وفي رواية للترمذي وغيره: تزوّجها وهو حلال، وبنى بها حلالاً، وماتت بسرف ودفنّاها في الظلّة التي بنى بها فيها.

«سرف» بفتح السين وكسر الراء؛ موضع خارج مكّة بنحو من خمسة عشر كيلو في طريق المدينة، وهنالك قبرها، والحديث يدلّ على أن النبيّ ﷺ تزوّجها ودخل بها وهو حلال، ويؤيّده حديث أبي رافع، وهو:

[٤٤٣] عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه قال: تزوّج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حَلالٌ، وبَنَى بها وهو حلال، وكنتُ أنا الرسولَ فيما بينهما.

رواه أحمد (٦/٣٩٢، ٣٩٣)، والترمذي في الحجّ (٧٤٩) وحسّنه، وهو كما قال.

فالحديث صريح كسابقه في أنه تزوّجها وبنى بها وهو حلال، وكان

ذلك في هذه العمرة، وخالف هذا ابن عباس في الحديث الآتي:

[٤٤٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تزوّج النبيّ ﷺ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، وماتت بسرف. وفي رواية: في عمرة القضاء.

رواه البخاري في عمرة القضاء (٥١/٩)، ومسلم في النكاح (١٩٦/٩، ١٩٧)، وأبو داود (١٨٤٤)، والترمذي (٧٥٠)، والنسائي وابن ماجه (١٩٦٥) وغيرهم، ولم يُوافق ابن عباس على ما قال، والجمهور من العلماء على خلافه.

* * *

❋ تزوّجه ﷺ بأمّ حبيبة

وفي هذه السنة تزوّج النبيّ ﷺ أمّ حبيبة رَمْلَة بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنها، وكان من خبرها أنها أسلمتْ قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عُبَيْدالله بن جَحْش فتنصَّر زوجُها وارتدَّ ففارقَتْه وكانت رأت كأن آتٍ أتاها في نومها، فقال: يا أمّ المؤمنين، ففزعت لذلك فما هو إلا أن انقضت عدّتها، فبعث النبيّ ﷺ يخطبها، فزوّجه إيّاها النجاشي وأصدقها أربعمائة دينار ثم جهَّزها وبعث بها في جماعة إلى رسول الله ﷺ ومعها ابنتها حبيبة التي وُلدت لها بالحبشة، وكان ذلك في السنة السابعة، وقيل: السادسة، والأول أشهر، وسيأتي بعض كلام عليها في ذكر أُمّهات المؤمنين إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ خلاصة ما وقع من أحداث في السنة السابعة

حصل في هذه السنة أحداث، وهي:

غزوة ذي قَرَد ويقال لها غزوة الغابة، وقصة المرأة التي أُسِرَتْ مع

ناقة النبيّ ﷺ العضباء وفرَّت بها، وغزوة خيبر وفيها أحداث عدّة كقصص الأعرابي الشهيد، والرجل البطل الذي كان مآله النار، والغالّ من الغنيمة الذي مات ولم يصلّ عليه النبيّ ﷺ، وتحريم المتعة والحُمر الإنسية، ومآل اليهود بعد انهزامهم، وتزوّج النبيّ ﷺ بصفية بنت حُيَيّ، ووضع السمّ للنبيّ ﷺ في الشاة، وكيف قسم النبيّ ﷺ مغانم خيبر، وقصة الحجاج بن علاط مع أهل مكّة، ونوم الصحابة عن صلاة الصبح في قفولهم، وعودة مهاجري الحبشة، وردّ المهاجرين منائحهم إلى الأنصار، وفتح وادي القرى ومصالحة أهل فدك وتيماء، ثم سرية أبي بكر إلى بني فزارة، وسرية غالب بن عبدالله الليثي إلى الحرقات، ثم سريّته إلى بني الملوّح بالكدِيد، ثم سرية بطن إضَم، ثم سرية عبدالله بن حذافة، ثم غزوة ذات الرقاع وأحداثها، كصلاة الخوف، وقصة غورث الذي أراد الفتك بالنبيّ ﷺ، وقصة الحارسين مع ذلك المشرك الذي أُسِرَتْ زوجته، وقصة جابر في الجمل، ثم عمرة القضاء، ثم تزوّجه ﷺ بميمونة، وتزوّجه ﷺ بأُمّ حبيبة رضي الله تعالى عنها وعن سابقتها.

* * *

السنة الثامنة
مكاتبته ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام

[٤٤٥] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله ﷺ كَتَبَ إلى كِسْرَى، وإلى قَيْصَر، وإلى النَّجاشيّ، وإلى كُلِّ جبارٍ، يَدْعُوهُمْ إلى الله تعالى، وليس النجاشي الذي صلّى عليه النبيّ ﷺ.

رواه مسلم في الجهاد (١١٢/١٢)، والترمذي في الأدب (٢٥٣١)، والنسائي في الكبرى وغيرهم.

«كسرى» بفتح الكاف وكسرها لقب من ملك الفرس، و«قيصر» لقب لمن ملك الروم، و«النجاشي» لقب من ملك الحبشة، و«العزيز» لكل من

ملك مصر، و«فرعون» لكل من ملك القبط وهي ألقاب قديمة.

والحديث يدلّ على أن النبيّ ﷺ كاتب المشركين من المجوس والنصارى يدعوهم إلى الله تعالى والتديّن بالدين الحقّ، وهذه السنة ينبغي أن ينهجها أمراء المسلمين في كل العصور، فيراسلون رؤساء الكفار وزعماءهم يدعونهم إلى الإسلام ويبيّنون لهم محاسنه...

* * *

❁ رسالته عليه السلام إلى هرقل ملك الروم

[٤٤٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدّثني أبو سفيان من فيه إلى فيّ، قال: انطلقت في المُدّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبيّ ﷺ إلى هرقل، قال: وكان دِحْيَةُ الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فذكر الحديث وفيه: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرىء فإذا فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى هِرَقْل عظيم الروم سلامٌ على من اتّبَعَ الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام أسْلِم تَسْلَمْ، وأسلم يُؤتك الله أجرك مرّتين، فإن توليتَ فإن عليك إثم الأريسيّين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال: فلمّا فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأُخْرِجْنَا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أُمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملِكُ بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

رواه أحمد (٢٦٣/١)، والبخاري في بدء الخلق وفي الجهاد وفي

التفسير (٢٨١/٩، ٢٩٠)، ومسلم في الجهاد (١٠٣/١٢، ١١١)، والترمذي في الأدب (٢٥٣٢) مطوّلاً ومختصراً، وقد تقدم في التفسير مطوّلاً.

وكان ردّ هرقل على الكتاب ردّاً جميلاً، وكاد أن يُسلم لكنه آثر المُلْك والرئاسة على الإسلام، فبقي كافراً حتى مات على كفره فخسر دنياه وآخرته.

* * *

❁ رسالته ﷺ إلى كسرى ملك الفرس

[٤٤٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبدالله بن حُذافة السَّهْمِيّ فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ أن يُمَزَّقُوا كل مُمَزَّق.

رواه أحمد (٢٤٣/١، ٣٠٥)، والبخاري في آخر المغازي (١٩١/٩).

وكسرى هذا هو ابن هرمز بن أنوشَرْوان. قوله: «مزّقه» أي: قطّعه. قوله: «أن يمزّقوا كل ممزّق» أي: يتفرّقوا ويتقطّعوا، وكان الأمر كذلك فقد استجاب الله دعاء نبيّه ﷺ فاغتيل كسرى هذا قتله ولده زربان ثم تقطع ملكهم ومزّق على أيدي الجيوش الإسلامية أيام الصدّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما.

* * *

❁ رسالته ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر

[٤٤٨] عن عبدالرحمٰن بن عبدِ القاري رحمه الله أن رسولَ الله ﷺ بعث حاطبَ بن أبِي بَلْتَعَةَ إلى المُقَوْقِسِ صاحب الإسكندرية، فمضى بكتاب

رسول الله ﷺ إلى المقوقس فقبّل الكتاب وأكرم حاطباً، وأحسَن نُزُلَه وسرَّحه إلى النبيّ ﷺ، وأهدى له مع حاطب كسوةً وبغلةً بسَرْجِهَا، وخادمتين، إحداهما أمّ إبراهيم، وأمّا الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لجهم بن قيس العبْدي.

رواه ابن إسحاق كما عند ابن هشام والبيهقي في الدلائل (٣٩٥/٤) وسنده حسن صحيح مع إرساله، بيد أن له شاهداً يتأيّد به رواه البيهقي في الدلائل (٣٩٥/٤، ٣٩٦) من حديث حاطب وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وإن كان ضعيفاً فإنه لم يُتّهم بكذب وليس ضعفه بشديد.

وكتابه ﷺ إلى المقوقس وما أجابه به وصالحه عليه مشهور قد يُقارب التواتر.

[٤٤٩] وقد جاء عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم سَتَفْتَحُون أرْضاً يُذْكَرُ فيها القِيرَاطُ فاسْتَوْصُوا بأهْلِهَا خَيراً، فإن لهم ذِمّةً ورَحِماً»**.

رواه مسلم (٩٦/١٦، ٩٧).

فهذه الأرض المُشار إلى فتحها هي مصر، وقوله: «فإن لهم ذمّة» أي: عهداً بما عاقده ﷺ مع المقوقس. وقوله: «ورحماً» لأن هاجر عليها السلام كانت مصرية وهي أمّ نبيّ الله إسماعيل عليه السلام. وفي رواية «فإن لهم صهراً» ومعناه: أن مارية أم إبراهيم عليه السلام منهم أيضاً، فهم أصهار النبيّ ﷺ، وهذه أُمور كلّها معلومة ضرورة عند علماء السيرة والمغازي.

* * *

❁ إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

[٤٥٠] عن عمرو بن العاص قال: لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأُمور علوّاً كبيراً منكراً، وإني

قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ألحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف فلن يأتينا منهم إلا خيرٌ، فقالوا: إن هذا الرأي، قال: فقلت لهم: فاجْمِعُوا له ما نُهْدِي له، وكان أحبّ ما يُهْدى إليه من أرضنا الأُدُم، فجمعنا له أُدُماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء عَمرو بن أُميَّة الضَّمْري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأتْ قريشٌ أني قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد ﷺ، قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، قال: ثم قدّمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيّها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب ثم مدّ يده فضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقّت الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألْتُكَهُ، فقال له: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عَمْرو أطعني واتَّبِعْه، فإنه والله لعلى الحقّ وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: فبايعني له على الإسلام، قال: نعم فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عمّا كان عليه وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأُسلم، فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكّة، فقلت: إيه يا أبا سليمان، قال: والله لقد استقام المنسم، وأن الرجل لنبيّ اذهب إليه والله أسلم فحَتَّى مَتَى؟ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأُسلم، قال: فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم

خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ـ ولا أذكر وما تأخر ـ، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبّ ما كان قبله، وأن الهجرة تجبّ ما كان قبلها»**، قال: فبايعته ثم انصرفت. قال ابن إسحاق: وقد حدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما أسلم حين أسلما.

رواه أحمد (٤/١٩٨، ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥)، والحاكم (٣/٤٥٤) وسنده صحيح على شرط مسلم في رواية لأحمد، وآخره وهو: **«فإن الإسلام يجبّ ما قبله»** إلخ في الإيمان من صحيح مسلم رقم (١٢١).

في الحديث أن إسلام هؤلاء كان في هذه السنة قبل الفتح، وفيه أن إسلام عمرو بن العاص كان سببه إرشاد النجاشي، والله تعالى إذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه وهٰهنا كلام طويل لأهل المغازي في إسلام عمرو وخالد أضربنا عنه لأنه ليس على شرطنا.

* * *

❁ غزوة مؤتة

[٤٥١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن قُتِل زيدٌ فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر فعبدُالله بن رواحة»**، قال عبدالله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا فيه بضعاً وتسعين من طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ، وفي رواية: ليس منها شيء في دبره - يعني في ظهره -.

رواه البخاري في المغازي (٩/٥٢، ٥٣).

[٤٥٢] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خطب رسولُ الله ﷺ

فقال: **«أخذ الراية زيدٌ فأُصيبَ، ثم أخذها جعفر فأُصيبَ، ثم أخذها عبدُالله بن رواحة فأُصيب، ثم أخذها خالدُ بن الوليد عن غير إمْرَةٍ ففُتِح عليه، وما يسرُّني ـ أو قال ـ ما يسرهم أنهم عندنا»**، قال: وأن عَيْنَيْهِ لتَذْرِفان، وفي رواية: إن النبيّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتي خبرهم، وفيه: **«حتى أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»**.

رواه البخاري في المغازي (٩/٥٤) وفي علامات النبوّة.

[٤٥٣] وعن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية.

رواه البخاري في المغازي (٩/٥٧).

[٤٥٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم جلس رسول الله ﷺ يُعْرف فيه الحُزْنُ، قالت: وأنا أطلع من صائر الباب ـ تعني من شقّ الباب ـ فأتاه رجل فقال: أي رسول الله إن نساء جعفر، قال: فذكر بكاءهنّ فأمره أن ينهاهنّ...

رواه البخاري (٩/٥٥، ٥٦).

[٤٥٥] وعن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال: **«عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة»**، فذكره بنحو ما تقدم في حديث أنس، وفيه: **«ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمّر نفسه»**، فوضع رسول الله ﷺ أصبعه وقال: **«اللّهمّ هو سيفٌ من سيوفك فانصره»**، فيومئذ سمّي خالد سيف الله، ثم قال النبيّ ﷺ: **«انفِرُوا فأمِدُّوا إخوانكم ولا يَتَخَلَّفَنَّ أحدٌ»**، فنفر الناسُ في حرٍّ شديدٍ مُشاةً ورُكْباناً.

رواه أحمد (٥/٢٩١، ٣٠٠، ٣٠١)، والنسائي في الكبرى (٥/٦٩) بسند صحيح.

[٤٥٦] وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة من المسلمين في غزوة مؤتة، ووافقني مددي من اليمن ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جزوراً، فسأله المددي طابقة من جلده، فأعطاه إياه فاتّخذه كهيئة الدرقة ومَضَينا فلقينا جموعَ الروم، وفيهم رجلٌ على فرسٍ له أشْقَر عليه سرجٌ مُذَهَّبٌ، وسلاح مذهبٌ، فجعل الرُّوميُّ يُغْرِي بالمسلمين، وقعد له المَدَدِي خَلْفَ صَخْرَةٍ، فمرّ به الرومي فعَرْقَب فرسَه فخرَّ وعلاهُ فقتله، وحاز فرسَه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه السَّلَبَ. قال عوف: فأتيته فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكني استكثرته، فقلت: لَتَرُدَّنَّه إليه ولأُعَرِّفَنَّكَهَا عند رسول الله ﷺ، فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسول الله ﷺ: **«يا خالد رُدّ عليه ما أخذتَ منه»**، قال عوف: فقلت: دونك يا خالد ألم أفِ لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» فأخبرته فغضب رسول الله ﷺ وقال: **«يا خالد لا تَرُدّ عليه، هل أنتم تاركو أمرائي؟ لكم صَفْوَةُ أمْرِهِم وعليهم كَدْرُه»**.

رواه أحمد (٢٦/٦، ٢٧، ٢٨)، ومسلم في الجهاد باب استحقاق القاتل سلب القتيل (٦٤/١٢، ٦٥)، وأبو داود في الجهاد كذلك (٢٧١٩).

«مؤتة» بضم الميم وسكون الواو وتهمز هي بالقرب من البلقان من الأُردن.

وكانت هذه الغزوة في جمادى الأُولى من السنة الثامنة باتّفاق أهل المغازي إلا من لا يعتدّ به، وكان السبب فيها أن شرحبيل بن عمرو الغسّاني وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولاً أرسله النبيّ ﷺ إلى صاحب بصرى، فجهّز إليهم النبيّ ﷺ جيشاً مكوّناً من ثلاثة آلاف مقاتل وأمّر عليهم في البداية زيد بن حارثة، وأمَرهم إن قُتل أن يُؤمّروا جعفر، فإن قُتل أُمّروا ابن رواحة، فساروا حتى وصلوا لمؤتة بأطراف الشام، فوجدوا هنالك

جموعاً من الروم تقدّر بمائة وخمسين ألفاً، فالتحم القتال وقاتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتال الأبطال، فأُصيب زيد وكانت الراية بيده، فأخذها جعفر فأُصيب بعد صبرٍ عظيم، ثم أخذها ابن رواحة فأُصيب وهؤلاء الثلاثة هم أمراء النبيّ ﷺ، ثم أخذ الراية بدون أمر من النبيّ ﷺ خالد بن الوليد فكان الفتح على يديه، يقال: إنه غير الجيش فالمقدمة جعلها مؤخرة والعكس، والميمنة جعلها ميسرة، فلما أصبحوا ورأى الروم ذلك دخلهم الرعب فظنّوا أن المسلمين قد جاءهم المدد، فانهزموا وجعلوا يولّون الأدبار، فكان ذلك فتحاً على المسلمين ونصراً لهم ثم دفنوا من قُتِل من المسلمين هنالك، وجعلوا الأمراء الثلاثة في حفرة واحدة ثم رجعوا قافلين.

وقد أوحي إلى النبيّ ﷺ ما نزل بالجيش وقتل أمرائه الثلاثة، فأخبر أصحابه بذلك قبل أن يصل الجيش وعيناه تذرفان بالدموع وحَزِن لذلك حزناً شديداً ﷺ، وفي جملة هذه الأحاديث التي ذكرناها فوائد، وهي:

أولاً: مشروعية قتال الكفار ومهاجمتهم إذا صدر منهم قتل لبعض المسلمين واعتداء عليهم، كسفير مثلاً أو بريد أو داعية ونحو ذلك.

ثانياً: في ذلك مشروعية تأمير شخص أو أشخاص على الجيش من طرف الخليفة.

ثالثاً: في ذلك صبر جعفر وصموده أمام الجيوش الكافرة وعدم انهزامه ولم يولّهم ظهره قطّ حتى سقط مقبلاً، وفيه بضع وتسعون ما بين طعنة وضربة ورمية، وذلك يدلّ على شجاعته رضي الله تعالى عنه.

رابعاً: فيها جواز الائتمار على الجيش بدون إذن الخليفة إذا اقتضت المصلحة ذلك، وكان المؤتمر كفؤاً في ذلك عالماً بشؤون الحرب وخداعها.

خامساً: فيها منقبة لخالد بن الوليد حيث سمّاه النبيّ ﷺ سيف الله.

سادساً: كان لخالد في تلك الغزوة الفضل والمنّة على ذلك الجيش؛

لأنه بمهارته وفطنته ومعرفته بالشؤون الحربية أنقذ ذلك الجيش المسلم القليل من الجيش الكافر العرمرم السيّال، وأين تقع ثلاثة آلاف من مائة ألف وخمسين ألفاً فقد لطف الله بالمسلمين ونصرهم في ذلك المشهد نصراً عزيزاً، ولولا لطفُ الله ورحمته ثم مهارة خالد لأُفْنِيَ جيشُ المسلمين وقُتِلَ جميعُهم.

سابعاً: كان لخالد مواقف عظيمة في الفتوحات الإسلامية كما كان ذلك له أيام كفره.

ثامناً: في حديث عوف دليل على أن المسلمين كانت لهم مغانم في هذه الغزوة، وذلك يدل على نصرهم في الجملة.

تاسعاً: في حديث عائشة دليل على النهي عن البكاء على الميّت، وهو محمول على النياحة ورفع الصوت على عادات الجاهلية، وذلك معلوم تحريمه ضرورة.

وستأتي بعض فضائل هؤلاء الأصحاب الأمراء في الفضائل إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ غزوة ذات السلاسل

[٤٥٧] عن عَمْرو بن العاص قال: بعث إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: **«خذ عليك ثيابَك وسِلاحَك ثم ائتِني»**، فأتيتُه وهو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأ فقال: **«إني أُريد أن أبْعَثك على جيشٍ فيُسَلِّمُك الله ويُغْنيك، وأرغب لك من المال رغبةً صالحة»**، قال: قلت: يا رسول الله ما أسْلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبةً في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال: **«يا عَمْرو، نِعْم المالُ الصالحُ للمرء الصالحِ»**.

رواه أحمد (١٩٧/٤، ٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، وابن حبان (٢٢٧٧) بالموارد، والحاكم (٢٣٦/٢) وصححه الحاكم والذهبي

وعزاه النور في المجمع (٣٥٢/٨) لأحمد وكبير الطبراني وأوسطه وأبي يعلى قال: ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

[٤٥٨] وعنه رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ بعثه في ذات السلاسل، فسأله أصحابه أن يُوقِدُوا ناراً فمنعَهم، فكلَّمو أبا بكر فكلَّمه في ذلك، فقال: لا يُوقِدُ أحدٌ منهم ناراً إلا قذفتُهُ فيها، قال: فلَقَوْا العَدُوَّ فهَزَمَهم فأرادوا أن يَتْبَعُوهم فمَنَعَهُم، فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فسأله، فقال: كرهتُ أن آذنَ لهم أن يُوقدوا ناراً فيرى عدُوُّهم قِلَّتَهُم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مَدَدٌ فحمِدَ أمْرَه، فقال: يا رسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «**عائشة**»، قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثمّ مَنْ؟ قال: «**عمر**»، فعدّ رجالاً فسكت مخافة أن يَجْعَلَنِي في آخرهم.

رواه الترمذي في المناقب في فضل عائشة (٣٦٤٧)، وابن حبان (١٦٦٥) بالموارد.

وآخره رواه أحمد (٢٠٣/٤)، والبخاري في فضل أبي بكر (٢٢/٨، ٢٣) وفي المغازي (١٣٧/٩)، ومسلم رقم (٢٣٨٤) بلفظ: إن النبيّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**ثم عمر بن الخطاب**»، فعدّ رجالاً، فسكتُّ مخافةَ أن يجعلني في آخرهم.

[٤٥٩] وعنه قال: احْتَلَمْتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشْفَقْتُ إن اغتسلتُ أن أهْلِكَ، فتيمّمتُ، ثم صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**يا عمرو صلّيت بأصحابك وأنتَ جُنُبٌ؟**» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً...

وفي رواية عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص: أن عَمْراً كان على سريّة فأصابهم بردٌ شديدٌ لم يروا مِثْلَه، فخرج لصلاة الصبح، فقال:

احتلمت البارحة، ولكني والله ما رأيتُ برداً مثل هذا، فغسل مغابنه وتوضأ للصلاة ثم صلّى بهم، فلما قدم على رسول الله ﷺ سأل رسول الله ﷺ أصحابَه: «كَيف وجَدْتُم عَمْراً وصُحبَتَه؟» فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: يا رسول الله صلّى بنا وهو جنب، فأرسل إلى عمرو فسأله، فأخبره بذلك وبالذي لقي من البرد وقال: إن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾...

رواه أحمد (٤/٢٠٣، ٢٠٤)، وأبو داود (٣٣٤، ٣٣٥)، وابن حبان (٢٠٢) بالموارد، والحاكم (١/١٧٧)، والبيهقي (١/٢٢٥، ٢٢٦) كلّهم في الطهارة وسنده صحيح وصححه الحاكم وافقه الذهبي وصححه جماعة وهو في البخاري معلقاً في التيمّم باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت إلخ (١/٤٧١)، وتكلّم عليه الحافظ وقوّاه (١/٤٧٢).

«فصعّد في النظر» أي: تأمّل فيه ناظراً إلى أعلاه وأسفله. «فغسل مغابنه» هي: بواطن الفخذين.

قوله: «ذات السلاسل» هو موضع وراء وادي القرى بينه وبين المدينة عشرة أيام وسمّي بذلك إما لارتباط المشركين بعضهم إلى بعض كالسلسلة لئلاً يفروا، وإما لرمال هنالك كالسلسلة، وإما لماء يقال له السلسل، أقوال، وهي من بلاد بَلْي، وعُذْرة، وبني القَيْن وهي قبائل وبطون من قضاعة، ويقال لها أيضاً: غزوة لَخْم وجُذام، وكان سبب هذه الغزوة على ما ذكره ابن سعد (ج ٢/١٣١)، أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن يمرّ به من بَلِيّ وعُذْرة وبُلْقَيْن، فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مُكِيث الجُهَني إلى رسول الله ﷺ يَسْتَمِدُّه فبعث إليه أبا عُبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن

يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو قال: وسار حتى وطيء بلاد بَلِيّ ودوّخها، حتى أتى إلى أقصى بلادهم، وبلاد عذرة وبَلقِين، ولقي في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا، فلم يتبعهم، فجمعوا غنائمهم ورجعوا سالمين ظافرين، وكانت هذه الغزوة عند الجمهور في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة.

وفي جملة ما ذكرناه من الأحاديث أحكام وفوائد:

فمنها: جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا كان في المفضول صفة تتعلق بالولاية ليست في الفاضل، فإن تأمير النبيّ ﷺ عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر كان لما فيه من العلم والمعرفة بالشؤون الحربية.

ومنها: منقبة لعمرو بن العاص؛ حيث أمّره النبيّ ﷺ على أكابر المهاجرين والأنصار وساداتهم، غير أن ذلك لا يدلّ على أفضليته عليهم، ولكنه يقتضي أن له فضلاً في الجملة.

ومنها: مدح المال الحلال للرجل الطيّب الروح، وأنه يكون له بلغة وعوناً على دينه، وهذا بخلاف الرجل الخبيث النفس، فإن المال يزيده طغياناً وفساداً، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: فضل الصدّيق وعائشة رضي الله تعالى عنهما وأنهما كانا أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وهذا قد يحمل على الناس الأجانب. أما الأقارب، فأحبّ الناس إليه بضعته مولاتُنا فاطمة، وريحانتاه سيّدنا الحسن وسيّدنا الحسين، وأبوهما الإمام عليّ عليهم السلام، وهم أصحاب الكساء الذين جلّلَهُم به، وقال: **«اللّهمّ هؤلاء أهلُ بَيتِي فأذهِبْ عَنهم الرّجْسَ وطَهّرْهُم تطهيراً»**.

ومنها: أن عمرو بن العاص لما رأى ما فعله معه رسول الله ﷺ من تقديمه في الإمارة واختياره على غيره، ظنّ أن له فضلاً على غيره، وأنه أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، فسأل النبيّ ﷺ عن أحبّ الناس إليه،

فذكر له ما في الحديث، فسكت خشية أن يجعله آخر الناس، ومع ذلك فإن له فضلاً ومزية.

ومنها: جواز التيمّم خوفاً من التضرّر بالماء البارد، وهذا قد تقدم في الطهارة.

ومنها: وقوع الاجتهاد أيام النبوّة وجواز العمل بعموم النصوص، وهذا مما لا ينبغي أن يُختلف فيه لتضافر الأدلة على ذلك.

* * *

❊ غزوة سيف البحر وهي غزوة جيش الخَبَط

[٤٦٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر، فأصابنا جوع شديد، حتى أكلنا الخبط، فسمّي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لنا البحر دابّة يقال لها العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا من وَدَكِهِ حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضِلَعاً من أضلاعه فنصبه، فعمَد إلى أطول رجل معه. وفي رواية: وأخذ رجلاً وبعيراً فمرّ تحته، قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جَزائر، ثم نحر ثلاث جزائِر، ثم نحر ثلاث جزائِر، ثم إن أبا عبيدة نهاه.

وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَل الساحل، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فَنِي الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجُمِعَ فكان مِزْوَدَ تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرةٌ تمرةٌ، فقلت: وما تُغني عنكم تمرةٌ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنِيَت، ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظَّرِب، فأكل منه القوم ثمان عشرة ليلة.

وفي رواية: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «كلوا

رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم»، فأتاهُ بعضهم بعضو فأكله.

وفي رواية: بعثنا رسول الله ﷺ **وأمّر** علينا أبا عبيدة نتلقّى عيراً لقريش، وزوّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نَمصُّها كما يَمَصُّ الصبيُّ، ثم نشرب عليها من الماء فتَكْفِينا يومَنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط، ثم نَبُلُّه بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ، ثم قال: لا بل نحن رُسُل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضْطُرِرْتُم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سَمِنَّا، قال: ولقد رأيتُنا نغترف من وَقْب عينه بالقِلال الدُّهنَ، ونقتطع منه القِدَر كالثَّوْر أو كَقَدْر الثور، فلقد أخذ منّا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقْبِ عينه، وأخذ ضِلَعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحَلَ أعظمَ بعير معنا فمرّ من تحتها وتزوّدنا من لحمه وشائِقَ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: **«هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتُطْعِمُونا»**، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

وفي رواية: بعث رسول الله ﷺ بعثاً إلى جهينة واستعمل عليهم رجلاً.

رواه البخاري في الشركة (٢٤٨٣) وفي الجهاد (٢٩٨٣) وفي المغازي (٤٣٦٠، ٤٣٦١) (ج ٩/١٤٠، ١٤٤) وفي الذبائح (٥٤٩٣، ٥٤٩٤)، ومسلم في الصيد والذبائح باب إباحة ميتات البحر (١٣/٨٤، ٨٩)، واختصّ بالروايتين الأخيرتين.

«سِيف البحر» بكسر السين هو ساحله. قوله: «نرصد» بضم الصاد في رواية: «نتلقّى عيراً لقريش»، وفي رواية لمسلم: «بعثنا إلى أرض جهينة»، ويأتي الجمع بين ذلك. قوله: «نأكل الخبط» بفتح الخاء والباء هو ورق السلم. «فأكلنا منه نصف شهر» في رواية للبخاري في الجهاد: «ثمانية عشر

يوماً»، وفي رواية لمسلم: «فأقمنا عليه شهراً» وقد جمع بين هذه الروايات القاضي عياض في إكمال المعلم (٣٧٧/٦)، والنووي في شرح مسلم (٨٨/١٣)، والحافظ في الفتح (١٤١/٩) ورجح النووي رواية الشهر لأنها زيادة.

«بِوَدَكِهِ» الودك بفتحتين هو دسم اللحم. «جزائر» جمع جزور وهو الجمل. «وقب عينه» بفتح الواو هي القِطَع. «وشائق اللحم» هي أن تغلى غلاء قبل نضجها ثم تحمل في الأسفار لئلا تنتن.

كانت هذه الغزوة في رجب من السنة الثامنة، بعث النبيّ ﷺ ثلاثمائة مقاتل إلى بلاد جُهَيْنَة لِتَرْقُبَ عِيرَ قريش وتَرْصُده، غير أن في ذلك إشكالاً من ناحيتين: من ناحية كون ذلك الوقت كان النبيّ ﷺ لا يزال مهادناً لكفار قريش وهو لا يتصوّر منه نقض العهد أبداً. ومن ناحية أخرى كان ذلك في شهر رجب وهو من أشهر الحرم، وقد يُجاب عن الأول بأنه يحتمل أن يكون وقع ذلك بعد ما نقض كفار قريش العهد بمساعدتهم لبني بكر على خزاعة، وما وقع فتح مكة إلا بسبب ذلك، وقد كان الفتح في رمضان وهو قريب من رجب، أفاده ولي الدين العراقي في «شرح التقريب». أما الثاني، فقد يكون بعد نسخ النهي عن القتال في الأشهر الحرم أو يكون في أواخر رجب بحيث لا يصلون إلى مقصدهم إلا في شعبان... ولا مناص من هذا التأويل.

وفي الحديث مشروعية المواساة عند اشتداد المجاعة، وفيه حصول البركة في طعامهم القليل واكتفاؤهم في يومهم بتمرة واحدة يمصّونها ويشربون عليها الماء، وتلك كرامة أكرمهم الله تعالى بها، وفيه لطف الله ورفقه بهم، حيث أخرج لهم من البحر تلك الدابّة العظيمة حتى أكلوا منها شهراً حتى سمنوا وصحّوا، وهي كرامة أخرى تفضّل الله بها عليهم.

وفيه إباحة ما يرميه البحر من حيوانه ولا ينبغي أن يُختلف في شيء من ذلك كيفما كان نوعه أو شكله؛ لعموم قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، وللفقهاء أنظار في ذلك لا ينبغي أن يشتغل بها ويُعتمد

عليها بعد هذه الآية، وبعد قول النبيّ ﷺ: «**هو الطهُور ماؤه الحِلُّ مِيتَتُه**»، رواه أحمد وأهل السنن وتقدم في الطهارة.

* * *

❋ الفتح الأكبر فتح مكة المكرمة وقت هذه الغزوة

[٤٦١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومَن معه من المسلمين إلى مكّة يصوم ويصومون حتى بلغ الكَدِيد، وهو ماء بين عسفان وقُدَيْدٍ أفطر وأفطروا.

رواه البخاري في المغازي (٩/٦٣، ٦٥) وفي الصيام رقم (١٩٤٨، ١٩٤٤)، ومسلم في الصيام (٧/٢٣١، ٢٣٢) وتقدم في الصيام، وفيه: أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر.

«الكديد» بفتح الكاف وكسر الدال، وقديد بضم القاف مصغراً، وقد تقدم بيان موضعهما كعسفان.

الحديث يدلّ على أن الفتح كان في رمضان وهو إجماع، وإنما اختلفوا في اليوم؛ فعند ابن إسحاق عن مشايخه أنه كان في عَشْرٍ بقين من رمضان في يوم الجمعة، وعلى هذا الجمهور وقيل غير ذلك، وفيه أن الصحابة الذين رافقوا النبيّ ﷺ في هذا الفتح كانوا عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار وأقوام من أسلم وغِفار، ومزينة وجُهينة وسُليم.

وقوله: «على رأس ثمان سنين ونصف» قال الحافظ وغيره: وهو وهم، والصواب على رأس سبع سنين ونصف، وهذا متّفق عليه بين علماء السيرة وغيرهم، وفيه أن النبيّ ﷺ وأصحابه خرجوا من المدينة صائمين حتى وصلوا الكديد، فأفطر ﷺ وأمر أصحابه أن يُفْطروا ودخلوا مكّة مُفطرين ومكثوا فيها بقية رمضان مفطرين.

[٤٦٢] وكان لهذه الغزوة سبب باتّفاق علماء السيرة وهو ما رواه ابن إسحاق بسند صحيح كما نقله ابن هشام (٤/٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٥/٥، ٧)، وابن كثير في السيرة (٣/٥٢٦) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه ومروانَ بن الحكم أنهما حدّثا قالا: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أنه من شاء يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عقد محمد ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة والثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماءٍ لهم يقال له الوتير قريب من مكّة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معه للطعن على رسول الله ﷺ، فركب عمرو بن سالم إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما حصل وأنشده أبياتاً من شعره، منها قوله:

يا ربّ إنّي ناشدٌ محمداً ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا
قد كنتم ولداً وكنّا والدا ... ثُمَّةَ أسْلَمْنا فلم نَنْزِعْ يدَا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

إلى آخر ما قال. فقال رسول الله ﷺ: **«نُصِرتَ يا عمرو بن سالم»**، فما برح رسول الله ﷺ أن مرّت عَنانَةٌ في السماء، فقال ﷺ: **«إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»**، ولهذه القصة شواهد.

فكان سبب هذه الغزوة إذاً؛ نَكْثُ كفار قريش عهد النبيّ ﷺ بقتالهم حلفاءه خزاعة.

* * *

❁ رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش

[٤٦٣] عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: **«انْطَلِقُوا حتى تأتُوا رَوْضَةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظَعينَةً معها**

كِتابٌ فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تَعَادَى بنا خَيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرِجي الكتاب فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخرِجنَّ الكتاب أو لنُلْقِيَنَّ الثياب، فأخرجته من عِقاصِها. وفي رواية: فأنخناها فالتَمَسْنا فلم نرَ كتاباً، فقلنا: ما كذَب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنُجَرِّدَنَّكِ، فلما رأت الجدَّ أهْوَتْ إلى حُجزَتِها وهي محتجزة بكِساءٍ، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس بمكّة من المشركين يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«يا حاطب ما هذا؟»** قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنفُسِها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يَحْمُون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يَحْمُون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنه قد صَدَقَكُمْ»**، فقال عمر: يا رسول الله دَعْنِي أضربْ عُنُقَ هذا المنافق. فقال: **«إنه قد شهد بدراً، ما يدريك لعلّ الله اطّلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾.

رواه أحمد (٨٠/١)، والبخاري في الجهاد وفي المغازي وفي غزوة بدر (٣٠٧/٨) وفي التفسير (٢٥٨/١٠، ٢٥٩)، ومسلم في الفضائل (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠، ٢٦٥١)، والترمذي في التفسير (٣٠٨٨) وقد تقدم في التفسير وما فيه فأغنى عن إعادة ذلك، وسيأتي أيضاً في الفضائل.

والشاهد منه هو كتابة حاطب الرسالة إلى قريش يُخبرهم بسرّ من أسرار رسول الله ﷺ، وتلك خيانة عظمى وجريمة شنعاء، ولولا أنه بدري وأهل بدر مغفور لهم لكان له وللنبيّ ﷺ شأن.

* * *

❋ سياقة قصة الفتح وما حصل قبله وعنده وبعده من أحداث: كتمان الرسول وجهته عن أصحابه

[٤٦٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل عليها وهي تُغَرْبِلُ حنطة، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم فتَجَهَّزْ، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمّى لنا شيئاً غير أنه قد أمَرَنا بالجِهَازِ.

رواه ابن إسحاق ـ ابن هشام (٣٨/٤) بسند صحيح، وأورده الهيثمي (١٦١/٦) من طريقٍ آخر، وعزاه لأبي يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش، وقد وثّقهما ابن حبان.

في الحديث مشروعية تعمية الأخبار عن الأعداء وكتمان سرّ وِجْهة الجيوش، وقد كان ذلك من هديه ﷺ، كما في هذا الحديث، فإنه أمر أهله بالجهاز للسفر وما بيَّن لهم وِجهة اتجاهه، وهكذا جاء في حديث كعب بن مالك الطويل الآتي في غزوة تبوك، حيث قال: «كان إذا سافر ورَّى بجهته»... يعني عمل التورية.

❋ ❋ ❋

❋ إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن أبي أمية وأبي سفيان بن صخر قبل الفتح

[٤٦٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن الحصين بن عتبة الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كانوا بالكَدِيد بين عسفان وأميح أفطر ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظَّهْران في عشرة آلاف من المسلمين، فسبَّعَتْ سُلَيْمٌ، وألَّفَتْ مُزَيْنَةُ وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عَمِيَتْ الأخبارُ على قريش، فلا

يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع، وكان أبو سفيان بن الحارث، وعبدالله بن أبي أُمَيَّة بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكّة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلّمته أمُّ سلمة رضي الله تعالى عنها فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمّتك، وصهرك، فقال: «**لا حاجة لي فيهما، أمّا ابنُ عَمّي فهتك عِرْضِي، وأما ابن عمّتي وصِهْري فهو الذي قال لي بمكّة ما قال**»، فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له، فقال: والله لَيَأْذَنَنَّ رسول الله ﷺ أو لآخُذَنَّ بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عَطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقّ لهما فدخلا عليه، فأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه، فقال: لَعَمْرُكَ إني يوم أحمل راية، لِتُغْلِب خيل اللات خيل محمد، لَكَالْمُدْلِجِ الحَيْران أظْلَمَ ليلُه، فهذا أوانُ الحقّ أهدي وأهتدي، فقُل لثقيف لا أريد قتالَكم، وقل لثقيف تلك عندي، فأوعدي، إلى آخر ما قال.

فلما أنشد رسول الله ﷺ إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «**أنتَ طردْتَني كُلَّ مُطَرَدٍ**»، قال:

فلما نزل رسول الله ﷺ بمرّ الظهران قال العباس: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوَةً قبل أن يستأْمِنُوه إنه لهلاك قريش آخر الدهر. قال العباس: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلّي ألْقَى بعض الحطّابة، أو صاحبَ لبَنٍ، أو ذا حاجةٍ، يأتي مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيَسْتَأْمِنُوهُ قبل أن يدخلَها عَنوةً، قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمِسُ ما خرجتُ له، إذ سمعت كلام أبي سفيان، وبُدَيْل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قطّ نيراناً ولا عسكراً، قال: يقول بُدَيْل: هذه والله نيران خزاعة قد حمشها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة والله أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقلت: يا أبا حنظلة تعرفُ صوتي؟ فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: هذا والله رسول الله ﷺ في الناس، واصَبَاحَ قريش، قال: فما

الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب عجز هذه البغلة، فركب ورجع صاحباه، فخرجت به فكلّما مررت بنار من نيران المسلمين، فقالوا: ما هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمّه العباس قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمّه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوّ الله الحمد لله الذي أمكن منك، فخرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ ودخل، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابّة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر، فقال: هذا عدوّ الله أبو سفيان قد أمكن الله منه في غير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: قد أجرته يا رسول الله، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني، فلما أكثر عمر قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان رجلاً من بني عدي ما قلت هذا، ولكنه من بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، لا تقل هذا فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عباس، اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به**»، فذهبت به إلى الرحل فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلاّ الله؟**» فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، فقال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله**»، فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، أما هذا فكان في النفس منها حتى الآن شيء، قال العباس: فقلت: ويلك أسلم واشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يُضرب عُنُقك، فشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً، فقال: «**نعم، من دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن أغْلَقَ بابَه فهو آمن**»، فلما انصرف إلى مكة لِيُخْبِرَهُم قال

رسول الله ﷺ: «**احبسه بمضيق من الوادي عند حطم الخيل حتى تمرّ به جنود الله تعالى**»، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ فمرّت القبائل على ركابها، فكلما مرت قبيلة قال: من هذه؟ فأقول: بنو سُلَيْم، فيقول: ما لي ولبني سُليم، ثم تمرّ أخرى فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، فلم يزل يقول ذلك حتى مرّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، والله لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليومَ لعظيمٌ، فقلت: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوّة، قال: فنعم إذاً، فقلت: النجاء إلى قومك، فخرج حتى أتاهم بمكّة فجعل يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمّد قد أتاكم بما لا قِبَل لكم به، فقامت امرأتُه هند بنت عتبة وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوه الحَمِيت، الدَّسِم، فبئس طليعة قوم، فقال أبو سفيان: لا يغرنّكم هذه من أنفُسِكم، من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ، فقالوا: ويحك ما تغني عنّا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

رواه الحاكم (٤٣/٣، ٤٤) مختصراً وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وأورده النور برواية الطبراني مطوّلاً (١٦٤/٦، ١٦٧)، وقال: رجاله رجال الصحيح، وجاء بسياق آخر وهو الآتي:

* * *

❁ دخول النبيّ ﷺ من كَدَاءٍ باعْلى مكة ورُكزت الراية بالحجُون

[٤٦٦] عن عروة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً خرج أبو سُفيان بن حَرب، وحَكِيم بن حِزام، وبُدَيْل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما

هذه؟ لكأنها نيران عرفة؟ فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: «**احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين**»، فحبسه فجعلت القبائل تمرّ مع النبيّ ﷺ تمر كتيبة كَتِيبة على أبي سفيان، فمرّت كتيبة قال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار، فذكر مثل ما تقدم من الكتائب، ثم قال: حتى أقبلت كتيبة لم يَرَ مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبّذا يومُ الذِّمارِ، ثم جاء كتيبةٌ وهي أقلّ الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه وراية النبيّ ﷺ مع الزبير بن العوّام، فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «**ما قال؟**»، قال: كذا وكذا، فقال: «**كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يُعَظِّمُ الله فيه الكعبة، ويوم تُكْسَى فيه الكعبة**»، قاله وأمر رسول الله ﷺ أن تُركّز رايته بالحَجُون.

رواه البخاري في فتح مكّة من المغازي (٩/٦٥، ٦٩)، والحديث وإن كان ظاهره الإرسال فإنه متّصل عن نافع بن جبير عن العباس كما في آخر الحديث.

[٤٦٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبيّ ﷺ دخل عام الفتح من كَداء بأعلى مكّة.

رواه البخاري (٩/٧٩) ومثله عنده عن الزبير رضي الله تعالى عنه.

* * *

❊ كيف رتب النبيّ ﷺ الجيش عند دخوله مكّة وماذا قال لهم وما صدر من الأنصار بعد الفتح وماذا قال لهم النبيّ ﷺ وطوافه بالبيت

[٤٦٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه ذكر فتح مكّة، فقال: أقبل رسولُ الله ﷺ حتى قدم مكّة، فبعث الزبير على إحْدَى المُجَنِّبَتَيْن،

وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبة، قال: فنظر فرآني فقال: «**أبو هريرة!**» قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: «**اهتف لي بالأنصار**»، وفي رواية: «**لا يأتيني إلا أنصاري**»، قال: فأطافوا به، ووبَّشَتْ قريشٌ أوباشاً لها وأتباعاً، فقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنّا معهم، وإن أصيبوا أُعطينا الذي سُئِلنا، فقال رسول الله ﷺ: «**تَرَوْنَ إلى أوْباش قريش وأتباعهم**»، ثم قال بيده إحداهما على الأخرى، ثم قال: «**حتى توافوني بالصفا**»، قال: فانطلقنا، فما شاء أحدٌ منا أن يقتل أحداً إلا قتله، وما أحدٌ منهم يوجّه إلينا شيئاً، قال: فجاء أبو سفيان، فقال: يا رسولَ الله أُبِيحَتْ خَضراءُ قريش لا قريشَ بعد اليوم، ثم قال ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته ورأفةٌ بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طَرْفَه إلى رسولِ الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار**»، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: «**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبةٌ في قريته**»، قالوا: قد كان ذاك، قال: «**كلا، إني عبدُ الله ورسولُه هاجرتُ إلى الله وإليكم، والمَحْيَا مَحْيَاكم، والمَماتُ مَمَاتُكُم**»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ورسولَه يُصَدِّقَانِكُم ويَعْذِرانِكُمْ**»، قال: فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق الناس أبوابهم، قال: وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل إلى الحَجَر فاسْتَلَمَه ثم طاف بالبيت، قال: فأتى على صَنَم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يَدِ رسول الله ﷺ قوسٌ وهوَ آخذ بِسِيَةِ القوس، فلما أتى على الصنم جعل يَطْعُنُهُ في عينه، ويقول: «**جاء الحقّ وزهق الباطل**»، فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعَلاَ عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه، فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو. وفي رواية: «**يا معشر الأنصار هل ترون أوباش قريش؟**» قالوا: نعم، قال: «**انْظُرُوا إذا لَقِيتُمُوهُم غداً أن تَحْصُدُوهُم حَصْداً**»، وأخْفَى بيده ووضع يمينه على شماله،

وقال: «**موعدكم الصفا**»، قال: فما أشرف يومئذ لهم أحدٌ إلا أناموهُمْ، وفيه... ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٢٦، ١٢٣)، وأبو داود في الخراج (٣٠٢٤)، وكذا أحمد (٢/٥٣٨).

قوله: «المجنِّبتين» بضم الميم وفتح الجيم وكسر النون المشدّدة تثنية مجنبة، المجنبة من الجيش هي الميمنة، فإن للجيش ميمنة، وميسرة ومقدمة، ومؤخرة، والوسط يكون فيه القائد. وقوله: «الحسر» بضم الحاء وفتح السين المشددة هم الرجالة الذين لا دروع عليهم. قوله: «ووبشت» بفتحات مع تشديد الباء أي: جمعت أوباشاً وجموعاً من قبائل شتّى. وقوله: «احصدوهم حصداً» بضم الصاد وكسرها أي: اقتلوهم قتلاً وأبيدوهم. وقوله: «المحيا محياكم» إلخ، معناه محل حياتي وموتي معكم بالمدينة. وقوله: «فما أشرف يومئذ لهم أحد إلا أناموه» أي: فما ظهر أحد يريد القتال إلا قتلوه وطرحوه على الأرض كالنائم.

* * *

❊ الإذن لرسول الله ﷺ بالقتال بمكّة وتحطيمه الأصنام ودخوله الكعبة وصلاته بها

[٤٦٩] عن أبي شُرَيْح العدوي رضي الله تعالى عنه أنّه قال لعَمْرو بن سعيد وهو يَبْعَثُ البُعُوثَ إلى مكّة: ائذن لي أيُّها الأميرُ أُحَدِّثْك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغدَ من الفتح سمعَتْه أُذُنايَ، ووعَاهُ قَلْبي، وأبصرتْه عَيْنايَ حين تكلّم به، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إن مكّة حرّمها الله تعالى ولم يُحرّمها الناسُ، لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفكَ بها دماً، ولا يَعْضِد بها شجراً، فإن أحدٌ تَرَخَّص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أَذِنَ لرسول الله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلِّغ الشاهد الغائب**».

رواه البخاري في المغازي (٩/٨١)، ومسلم في الحج (٩/١٢٧، ١٢٨)، والترمذي وغيرهم.

[٤٧٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما فتح الله عزّ وجلّ على رسول الله ﷺ مكّة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إن الله حبس عن مكّة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحلّ لأحدٍ كان قبلي وأنها أُحلّت لي ساعة من نهار، وأنها لن تحلّ لأحد بعدي**» الحديث.

رواه البخاري في العلم وفي الحجّ، ومسلم فيه (٩/١٢٨، ١٢٩) وتقدم كسابقه ولاحقه في الحجّ.

[٤٧١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة: «**إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لا يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار**».

رواه البخاري (٤/٤٠٨، ٤٢٠)، ومسلم (٩/١٢٣، ١٢٦) كلاهما في الحجّ.

«أن يسفك» أي: يُريق بها دم مسلم ظلماً و«لا يعضد» أي: لا يقطع. «حبس عن مكّة» أي: منعه من هدم الكعبة واستحلال الحرم.

[٤٧٢] وعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخل النبيّ ﷺ مكّة يوم الفتح وحول البيت ستّون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يَطْعُنُهما بعود في يده، ويقول: «**جاء الحق وزُهِق الباطل**»، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

رواه البخاري في المغازي (٩/٧٧) وفي التفسير، ومسلم في الجهاد (١٢/١٣٣)، والترمذي في تفسير بني إسرائيل (٢٩٣٦).

[٤٧٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دَخَلَ النبيّ ﷺ البيت، وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم، فقال ﷺ: «**أما لهم فقد**

سَمِعُوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم».

وفي رواية: لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيَتْ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: **«قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قطّ»**.

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥١، ٣٣٥٢)، وأبو داود (٢٠٢٧) والروايتان للبخاري.

[٤٧٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دخلنا مع النبيّ ﷺ مكّة في البيت، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله، قال: فأمر بها رسول الله ﷺ فكُبَّتْ كلّها لوجوهها، ثم قال: **«جاء الحقّ وزَهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»**، ثم دخل رسول الله ﷺ البيت، فصلّى ركعتين فرأى فيه تمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد جَعَلوا في يد إبراهيم الأزلام يستقسم بها، فقال رسول الله ﷺ: **«قاتَلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام»**، ثم دعا رسول الله ﷺ بزعفران فلطخه بتلك التماثيل.

رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٣/٧) رقم (٣٦٩٠٥) في المغازي وحسّنه الحافظ في المطالب العالية والبوصيري في الإتحاف.

[٤٧٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسولَ الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكّة على راحلته مردفاً أُسامة بن زيد ومعه بلال ومعه عثمان بن طلحة من الحَجَبَة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أُسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فمكث فيه نهاراً طويلاً ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبدالله بن عمر أوّل من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً فسأله: أين صلّى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلّى فيه، قال عبدالله: نسيت أن أسأله كم صلّى سجدة؟

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٨٨) وفي الصلاة وفي المغازي باب

حجة الوداع رقم (٤٤٠٠) وغيرها، ومسلم (٨٣/٩)، وأبو داود (٣٠٢٣)، والنسائي (١٧١/٥)، وابن ماجه (٣٠٦٣) كلّهم في الحجّ.

* * *

❋ إسلام والد أبي بكر الصديق، ومن أهدر رسول الله دماءهم وإجارة أم هانيء رجلين من أقاربها واغتسال النبيّ بعد الفتح وصلاته ثمان ركعات

[٤٧٦] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لمّا وقف رسول الله ﷺ بذِي طُوَى قال أبو قحافة لابنةٍ له من أصغر ولده: أي بنيّة أظْهِرِي بي على أبي قبيس، قالت: وقد كُفَّ بصَرُه، قالت: فأشرفت به عليه، قال: يا بنيّة ماذا تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً، قال: يا بنيّة ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ـ ثم قالت: قد والله انتشر السواد، فقال: قد والله إذا دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي فأغطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوق لها من ورقٍ، فتلقّاها رجل فاقتطعه من عنقها، قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكّة ودخل المسجد آتاه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه**»، قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدرَه، ثم قال له: «**أسْلِمْ**» فأسلمَ ودخل به أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثَغَامَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**غَيِّرُوا هذا من شَعْرِهِ**»، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، فقال: أنْشُدُ بالله وبالإسلام طوق أختي فلم يجبه أحدٌ، فقال: يا أُخَيَّةُ احتسبي طوقك.

رواه أحمد وابن حبان (١٧٠٠) بالموارد، والحاكم (٤٦/٣، ٤٧)، والبيهقي في الدلائل (٩٥/٥، ٩٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه

الذهبي، وأورده الهيثمي (١٧٣/٦، ١٧٤) برواية أحمد والطبراني وقال: رجالهما ثقات.

قوله: «أُظْهِرِي» أي: إصْعَدِي بي على الجبل. «طَوْقٌ من ورِق» عقد من حلي يُعلّق في العنق. «ثغامة» بفتح الثاء هو شجر أبيض الزهر طيّب الرائحة.

[٤٧٧] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكّة وعلى رأسه المغفر، فلما وضعه عن رأسه، قيل: هذا ابن خَطَل متعلّق بأستار الكعبة، قال: «اقْتُلُوه».

رواه البخاري في الجهاد وفي المغازي (٧٦/٩) وفي اللباس، ومسلم في الحجّ (١٣١/٩) كالبخاري أيضاً، والترمذي في الجهاد (١٥٥٢) وباقي الجماعة.

«المغفر» بكسر الميم وسكون الغين ثم فاء مفتوحة وراء، هو غطاء من حديد للرأس كان يُلبس قديماً.

[٤٧٨] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم فتح مكّة أمّنَ رسول الله ﷺ الناس إلا أربعةَ نَفَرٍ وامْرأتين، وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خَطَل، ومَقِيس بن صُبابَةَ، وعبدالله بن أبي سَرْحٍ»، فأمّا عبدالله بن خطل فأُدْرِك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر فسَبَقَ سَعِيدٌ عمّاراً وكان أشبَّ الرجلين فقتَلَهُ، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصِفٌ فقال أصحاب السفينة: أخْلِصُوا فإن آلهتكم لا تُغْنِي شيئاً هٰهنا، فقال عكرمة: والله لئن لم يُنَجِّنِي من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البرّ غيره: اللّهمّ إن لكَ عليَّ عَهْداً، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجِدَنَّه عَفُوّاً كريماً، فجاء فأسلم، وأما عبدالله بن أبي سرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسولُ الله ﷺ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبيّ ﷺ، قال: يا

رسول الله بايع عبدالله، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يَأْبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيَقْتُلَه؟**» فقالوا: وما يُدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلاَّ أَوْمَأْتَ إلينا بعينك؟ قال: «**إنه لا ينبغي لنبيّ أن يكون له خائِنَةُ أعْيُنٍ**».

رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٨٣) وفي الحدود (٤٣٥٩)، والنسائي في تحريم الدم (٩٧/٧، ٩٨)، وأبو يعلى (٧٥٧)، والطحاوي في المعاني (٣٣٠/٣)، والحاكم (٤٥/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأورده النور في المجمع مطوّلاً (١٦٨/٦، ١٦٩) برواية أبي يعلى والبزار قال: ورجالهما ثقات.

[٤٧٩] وعن أمّ هانئ رضي الله تعالى عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدْتُه يغتسل وفاطمة ابنتُه تستُرُه، قالت: فسلّمتُ عليه فقال: «**من هذه؟**» فقُلْتُ: أنا أُمُّ هانئ بنتُ أبي طالب، فقال: «**مرحباً بأمّ هانئ**»، فلمّا فرغ من غسله قام فصلّى ثمانِي رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفاً في ثوبٍ واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابنُ أُمّي عليٌّ أنه قاتِلٌ رجلاً قد أجَرْتُه فلان بن هُبَيْرة، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجَرْنَا مَنْ أجَرْتِ يا أمّ هانئ**»، قالت أم هانئ: وذاك ضحى.

رواه البخاري في الصلاة رقم (٣٥٧) وفي الجزية والموادعة (٣١٧١) وغيرهما، ومسلم في الصلاة (٢٢٩/٥، ٢٣١، ٢٣٣)، وأبو داود في أمان المرأة من الجهاد (٣٧٦٣)، والترمذي في السِّيَر (١٤٥٠) بتهذيبي، وابن ماجه في الطهارة (٤٦٥) وغيرهم.

* * *

❁ مبايعة النبيّ ﷺ الناس يوم الفتح

[٤٨٠] عن مُجَاشِع بن مَسْعود رضي الله تعالى عنه قال: أتيتُ النبيّ ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله جئتك بأخي لتبايِعَه على

الهجرة، قال: «**ذَهَبَ أهلُ الهجرة بما فيها**»، فقلت: على أيّ شيء تبايعه؟ قال: «**أُبايِعُه على الإسلام، والإيمان، والجهاد**».

رواه أحمد (٤٦٨/٣)، والبخاري في المغازي (٨٦/٩)، ومسلم في الإمارة (٧/١٣) وقد تقدم في الإيمان.

[٤٨١] وعن الأسود بن خلف رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبيّ ﷺ يبايع الناس يوم الفتح، قال: فجلس عند قرب دار سمرة، قال الأسود: فرأيت النبيّ ﷺ جلس فجاءه الناس؛ الصغار والكبار والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة، فقلت: فما الإسلام؟ قال: الإيمان بالله، فقلت: وما الشهادة؟ قال: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

رواه أحمد (٤١٥/٣ ج ١٦٨/٤)، والحاكم (٢٩٦/٣) وسنده حسن أو صحيح.

* * *

❊ لا تُغْزى مكة بعد فتحها، ولا يُقتل قرشي صبراً بعد ذلك

[٤٨٢] عن الحارث بن مالك اللّيثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكّة: «**لا تُغْزَى هذه بعد هذا اليوم أبداً إلى يوم القيامة**».

رواه أحمد (٤١٢/٣) (ج ٣٤٣/٤)، والترمذي في السير (١٤٧٦)، وابن حبان والحاكم (٦٢٧/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

[٤٨٣] وعن مُطِيع بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكّة: «**لا يُقْتَلُ قُرشيّ صَبْراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة**».

رواه أحمد (٤١٢/٣)، ومسلم في الجهاد (١٣٤/١٢).

قوله: «صَبْراً» أي: يقتل حبساً.

* * *

❁ مدة إقامته ﷺ بمكّة بعد الفتح

[٤٨٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أقام النبيّ ﷺ بمكّة تِسْعَةَ عَشَرَ يوماً يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ.

رواه أحمد (٢٢٣/١)، والبخاري في المغازي (٨٢/٩)، وأبو داود (١٢٣٠)، والترمذي في قصر الصلاة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٠٧٥).

❁ ❁ ❁

❁ خلاصة ما جاء في أحاديث الفتح وما فيها من فوائد

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى في الهدي النبوي: الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه، ورسوله، وجُنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضُرِبَتْ أطْنابُ عزّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجهُ الأرض ضياءً وابتهاجاً...

أقول: لما بلغ النبيّ ﷺ معاونةُ قريش حلفاءَهم بني بكر على حلفاء النبيّ ﷺ خُزاعة جعل ذلك نكثاً للعهد ونقضاً لما صالحهم عليه، فاستحقّوا لذلك القتال، فأمر أصحابه بالجهاز للسفر وأخفى وجهته وعمّى ذلك على العيون والأعداء، فجمع الجموع والجيوش من المهاجرين والأنصار وممن أسلم من القبائل العربية؛ كغفار وبني سُليم وجُهَيْنة... وأمَّرَ على المدينة أبا رُهْم كُلْثوم بن حُصَيْن الغِفارِيّ وخرج سنة ثمان لعشر مضين من رمضان في عشرة آلاف مقاتل، ولم يتخلّف عنه أحد من المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم، فساروا وهم صيام ولا يعلم كفار قريش عنهم شيئاً حتى وصلوا الكَدِيد، فأفطر رسول الله ﷺ وأفطر أصحابه.

[٤٨٥] وجاء في رواية لم تتقدم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أنّه قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: **«إنكم قد دَنَوْتُم مِن عَدُوّكم والفِطْر أقْوَى لكم»**، فكانت رخصة؛ منّا مَنْ صام ومنّا مَن أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال: **«إنكم مُصَبِّحُوا عَدُوّكُم والفِطْر أقْوَى لكم فأفْطِرُوا»**، فكانت عزمة فأفطرنا...

رواه أحمد (٣/٣٥)، والبيهقي في السنن (٤/٢٤٢)، وعزاه لمسلم وهو عنده مختصر.

وعندما نزل ﷺ بمرّ الظهران أوقدوا النيران، وكان أبو سفيان قد خرج هو ورجلان يتجسّسون الأخبار فأُسِر أبو سفيان، وأُتِيَ به النبيُّ ﷺ فأسلم وأمر النبيّ ﷺ عمّه العباس أن يحبسه في موضع لتعرض عليه جيوش المسلمين، فجعلت تمرّ عليه الكتائب كَتِيبَةً كَتِيبَةً، فلما مرّت عليه كتيبة النبيّ ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، فسبق الجيوش إلى مكة يُنْذر أهلها بمجيء النبيّ ﷺ ومن معه من الجيوش العرمرة الجرّارة، وقال لهم: يا معشر قريش هذا محمد قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكم به، وكان النبيّ ﷺ قد أمّنه وأمّن كل من دخل داره، وكل من ألقى السلاح أو دخل بيته، ولما وصل النبيّ ﷺ إلى أطراف مكّة قسم الجيش، فأرسل بعضه ليدخل من أسفل مكّة وكان فيهم خالد بن الوليد، ودخل ﷺ من كداء ـ بفتح الكاف والمدّ ـ من أعلى مكّة في جماعة، وركّز رايته بالحجون قرب المعلاة مقبرة أهل مكّة وأمر أصحابه بقتال كل من تعرّض لهم، وقال لهم: **«اللقاء عند الصفا»**، فانتشروا ووقع قتال في طريق خالد بأسفل مكّة، ودخل النبيّ ﷺ وسار حتى جاء البيت فحطّم ما كان عنده من نُصُب وكانت ستّين وثلاثمائة، فجعل يطعنُها ويتلو قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾، ثم طاف بالبيت وأمر بالصور التي كانت داخل الكعبة فأُزيلت ثم دخلها وصلّى فيها ما شاء الله، ثم خرج وأتى الصفا حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد الله تعالى ويدعوه، وأمر بقتل

أشخاص من الناس كان منهم من يهجو النبيّ ﷺ، ومنهم من كان أسلم فارتدّ فقُتِل من قُتِل منهم، وأسلم من أسلم كابن أبي سَرْح، وعكرمة بن أبي جهل، ودخل النبيّ ﷺ دار أمّ هانيء أو غيرها، فاغتسل وفاطمة تستره، ثم صلّى ثمان ركعات وكان وقت الضحى شكراً لله تعالى على هذا الفتح العظيم.

وخطب ﷺ الناس ثاني يوم الفتح عند الكعبة خطبة بليغة ذكر فيها كثيراً من شرائع الدين وأحكامه، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وقال: «**لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»، ذكر حُرْمة مكة، وأن الله أحلّ له منها ساعة من نهار، وقال: إن أعتى الناس على الله عزّ وجلّ ثلاثةٌ: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية، وقال: «**يا أيها الناس إنه ما كان من حِلْفٍ في الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدّة، ولا حِلْف في الإسلام ولا هجرة بعد الفتح، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم، تتكافؤ دماؤهم، يُجِيرُ عليهم أدناهم ويَرُدُّ عليهم أقصاهم، لا يُقتل مؤمنٌ بكافر، وديةُ الكافر نصفُ دية المسلم**»، وقال: «**إن كل مأثرةٍ كانت في الجاهلية ودمٍ ومالٍ تحت قدمَيَّ هاتين إلا ما كان من سِقاية الحجّ وسَدانة البيت، فإني أمضِيها لأهلها على ما كانت**»، وقال: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقي أو فاجر شقيّ**»، وقال: «**كلُّكم من آدم وآدم من تراب**» إلى غير ذلك مما قاله في ذلك اليوم العظيم.

وبايع الناس يومه رجالهم ونساءهم وأطفالهم على أصول الدين وقواعده وشرائعه، وجمع قريشاً وقال لهم: «**ما تظنّون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيراً أخٌ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، فلما عفا عنهم أسلم جميعهم، وكان ممن أسلم في هذا اليوم أبو قحافة والد أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنهما، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما.

وبعد هذا اليوم أقام بمكّة المكرّمة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويتمّ

من خلفه من أهل مكّة، وكان نازلاً بالأبطح بأعلى مكّة، بخيف بني كِنانة حيث تقاسم الكفار على مقاطعته ﷺ وتعاهدوا على الكفر.

* * *

من فوائد أحاديث الفتح

في قصة حاطب مع الظعينة معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بما فعل حاطب وبالمرأة الحاملة رسالته لقريش، وفيها فضل أهل بدر، وأن من سبقت له من الله العناية لا تضرّه الجناية، وفيها جواز تفتيش المرأة المتّهمة ولو بالاطّلاع على زينتها وعورتها الداخلية، وفيها ما كان عليه العرب من احترام المرأة وعدم التعرّض لها... وفي قصة إسلام أبي سفيان ابن عمّ النبيّ ﷺ وأبي سفيان بن حرب ظهور عفوه وصفحه ﷺ عن ألدّ أعدائه وحلمه معهم، وهم الذين كانوا بالأمس يؤذونه ويحاربونه ويهاجمونه في عقر داره ويؤلّبون عليه الجموع والجيوش وفيما فعل النبيّ ﷺ بإيقاف أبي سفيان لعرض جيوش المسلمين عليه إرهاب له وتعريفه بكثرة ما جاء به ﷺ من الكتائب، ولذلك لما شاهد تلك الجيوش أرعب وقال مفصحاً: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، وذهب مُسْرعاً يُنذر قومه.

وفيما ذكرناه أن النبيّ ﷺ دخل مكّة في رمضان، وكان ذلك يوم الجمعة في عشرين خلت منه على المشهور، وأنه دخلها مُحِلاً غير محرم على رأسه المغفر، ولما وضعه كانت على رأسه عمامة سوداء كما في الصحيح ويأتي في الشمائل، وفيها: أنه دخلها من أعلاها فسلك طريق الحجون ثم المعلاة ثم نزل حتى أتى البيت ولم يَلْق حرباً في طريقه، وفيها: أن الجيوش فرقها ﷺ وأمرهم أن يقاتلوا من تعرّض لهم، وفيها: أنه ﷺ فتح مكّة عنوةً لا صلحاً، وهو قول جمهور العلماء والأئمّة، ويدلّ لذلك قوله لأم هانيء: «**قد أجرنا مَن أجرتِ**»، وقوله: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن... ، ومن ألقى السلاح فهو آمن**»، فلو كانوا كلهم آمنين لم يحتج إلى هذا، ولو كان صلحاً لما وقع قتال ولما قال ﷺ: «**أحْصُدُوهم**

حَصْداً»، وفيها: تطهير الكعبة من النصب التي كانت منصوبة عليها ومن صور الأنبياء داخلها، وفيها: اجتناب مواضع الصور وأنه لا يدخل إليها، وخاصة لمن يريد الصلاة، وفيها: مشروعية قتل المرتدّ ومن يسبّ النبيّ ﷺ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين، فإن ابن خطل كان يهجو النبيّ ﷺ مع مغنيته، وابن أبي سرح كان أسلم ثم ارتدّ، وتكلّم في النبيّ ﷺ وهكذا غيرهم، وفيها جواز الصلاة داخل الكعبة ولا خلاف فيها بالنسبة للنافلة، واختلف في صلاة الفريضة داخلها أو في الحجر، فمنعها الجمهور وأجازها البعض، وهو مقتضى القياس، وفيها غير ذلك من الفوائد والأحكام الواضحة.

وفي هذه الغزوة حرّم النبيّ ﷺ زواج المتعة تحريماً أبدياً كما قدّمنا في النكاح.

* * *

❊ بَعْثُ النبيّ ﷺ خالداً إلى بني جَذِيمَة

[٤٨٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منّا أسيره حتى إذا كان يوم، أمر خالد أن يقتل كل رجل منّا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قَدِمنا على النبيّ ﷺ، فذكرناه فرفع النبيّ ﷺ يديه فقال: «**اللّهمّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» مرّتين.

رواه أحمد (١٥١/٢)، والبخاري في المغازي (١١٨/٩، ١١٩)، والنسائي في القضاء (٢٠٨/٨، ٢٠٩) وغيرهم.

«جَذِيمَة» بفتح الجيم وكسر الذال من بني عامر كانوا بأسفل مكّة من ناحية يَلَمْلَم، وهذا البعث كان في شوّال عقب فتح مكّة قبل الخروج إلى

حنين، فأتاهم خالد في ثلاثمائة نفر وفيهم عبدُالله بن عمر، فلما رأوْهُم قالوا لهم: صَبَأْنا صَبأنا - يعنون أسلمنا - فلم يُحْسِنُوا التَّعْبِير فأمر خالد أصحابَه بأسْرهم وتوثيقهم، ودفع لكل رجل واحداً منهم ثم سار مسافة، فأمر كل رجل بقتل أسيره، فامتنع ابن عمر ومنع أصحابه من ذلك وقتل خالد بعضهم، فلما أُخبر النبيّ ﷺ بذلك تبرّأ مما صنع خالد لأنه قتل ناساً قد أسلموا، وكان ذلك خطأً منه.

❋ ❋ ❋

❋ غزوة حُنَيْن
مشاهدُ من الغزوة وانهزامُ بعضِ الصَّحابةِ ثُمَّ وُقُوع النَّصْرِ

[٤٨٧] عن العباس رضي الله تعالى عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلَزِمْتُ أنا وأبُو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء أهداها له فَرْوَةُ بن نَفاثَة الجُذامِي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلَتَه قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخِذٌ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةَ أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخِذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أي عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة»**، فقال العباس: وكان رجلاً صَيِّتاً، فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة، قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطفةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبَّيْك، يا لبّيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوةُ في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا حينُ حَمِي الوَطيسُ»**، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار، ثم قال: **«انهزموا وربّ محمد»**، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته

فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدَّهم كَلِيلاً وأمْرَهُمْ مُدْبِراً...

رواه مسلم في الجهاد (١١٣/١٢، ١١٧)، والنسائي في الكبرى (١٩٥/٥).

«أصحاب السَّمرة» هم أهل بيعة الرضوان. «حَمِي الوَطِيسُ» الوطيس هو التَّنور ويعبّرون بذلك عن اشتداد القتال. «حدُّهُم» بفتح الحاء وفتح الدال المشدّدة أي: قوّته ضعيفة.

[٤٨٨] وعن أبي إسحاق السَّبِيعي رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتُم ولَّيتُم يوم حنين يا أبا عُمارة، فقال: أشهد على نبيّ الله ﷺ ما ولّى، ولكنه انطلق أخِفَّاءُ من الناس وحُسَّرٌ إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرموا برَشْقٍ من نبل كأنها رجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث يقود بغلته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول:

«أنـا الـنَّـبِـيُّ لا كَـذِبْ أنـا ابـنُ عَـبْـد الـمُـطَّـلِـبْ»

«اللّهمّ نصرك». قال البراء: كنّا والله إذا احمرّ البَأس نتّقي به، وأن الشجاع منّا للذي يُحاذِي به - يعني النبيّ ﷺ -.

رواه مسلم في الجهاد أيضاً (١١٧/١٢، ١١٨، ١٢٠، ١٢١).

وفي رواية: وأنّا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبَبْنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام.

«أخِفَّاءُ» جمع خِفّ أي: ليس معهم سلاح يثقلهم. «والحسر» بضم الحاء وفتح السين المشدّدة جمع حاسِر وهو الذي لا درع له. «والرشق» الرَّمْي. «رجل من جراد» أي: جماعة منها.

[٤٨٩] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: لما غشّوا رسول الله ﷺ يوم حُنين نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من

الأرض ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوّا مدبرين.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٢١، ١٢٢) مطوّلاً.

«حُنَيْن» موضع بين مكّة والطائف وراء عرفات كانت به هذه الوقعة، وكان ذلك في أوائل شوّال بعد فتح مكة المكرمة، وسبب ذلك أنه لما فتح النبيّ ﷺ مكة المكرمة وأسلم منهم مَنْ أسلم سمعت بذلك هوازن، فاجتمعوا وأجمعوا على محاربة النبيّ ﷺ وكان رئيسهم مالك بن عوف النضري، فجمع القبائل من هوازن ومَن وافقه من ثقيف، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف ممن جاء معه من المدينة ثم من أسلم من أهل مكّة، ولمّا وصل إلى حُنَيْن وجد مالك بن عوف قد خرج ومَنْ معه بكل ما يملكون من إبل وشِياه ونساء وأطفال، ثم التحم القتال فوقع ما وقع من الهزيمة.

[٤٩٠] قال أنس رضي الله تعالى عنه: افتتحنا مكّة ثم إننا غزونا حنيناً فجَلَّى المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصُفَّت الخيل، ثم صُفَّت المُقاتلةُ، ثم صُفَّت النساءُ من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغنمُ، ثم صُفّت النَّعَمُ... وفي رواية: أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بذراريهم ونَعمهم ومع النبيّ ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده...

رواه مسلم في الزكاة في إعطاء المؤلّفة قلوبهم (٧/١٥٣، ١٥٤).

[٤٩١] وفي حديث لابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ يوم حُنين، قال: فولّى الناس وثَبَت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فنكصنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولّهم الدُبر...

رواه أحمد (١/٤٥٤)، والحاكم (٢/١١٧) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، فهو يدلّ على أنه بقي مع النبيّ عليه الصلاة والسلام ثمانون رجلاً.

وفي حديث البراء أن هوازن انكشفوا في البداية، فلما اشتغل الصحابة بالغنائم استقبلوهم بالسِّهام، فانهزموا وولّوا مدبرين، ولم يَبْق مع النبيّ ﷺ إلا القليل، ثم أمر العباس أن ينادي بالأنصار، فنادى فاجتمعوا واجتمع باقي الجيش ونزل النبيّ ﷺ عن بغلته وأخذ حصيات فرمى بها القوم، وقال: **«شاهت الوجوه»**، فلم يبقَ أحد من جيش المشركين إلا أُصيب من تلك الحصيات، وقال ﷺ: **«انهزموا وربّ محمد»**، فضَعُفَتْ قُوَّتُهم وانهزموا وولّوا مدبرين.

* * *

❋ بشارة النبيّ ﷺ أصحابه بغنائم هوازن

[٤٩٢] عن سَهْلِ بن الحَنْظَلِيَّة رضي الله تعالى عنه قال: إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فأطنبوا السير حتى كانت عشيةً، فحضرتُ الصلاةَ عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلٌ فارسٌ، فقال: يا رسول الله إنّي انطلقتُ بين أيديكم حتى طلعتُ على جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بِكْرَة أبيهم بظُعُنِهم، ونَعَمهم، وشاتهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: **«تِلك غَنِيمَةُ المسلمين غداً إن شاء الله تعالى»**...

قوله: «فأطْنَبُوا السير» أي: بالغوا وأسرعوا. قوله: «بكرة أبيهم» بكسر الباء وسكون الكاف أي: جميعهم ولم يتخلّف منهم أحد.

فهذه كانت بشارة من النبيّ ﷺ بانهزام المشركين وانتصار المسلمين وأخذهم غنائمهم، فكان الأمر كذلك، لقد صدق الله وَعْد رسوله ﷺ، فبعد أن انهزم المشركون تركوا وراءهم كل ما جاءوا به من مال وأهل، فأمر النبيّ ﷺ بجمع ذلك السَّبي والغنائم، وكانت كما قال أهل المغازي أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية من الفضّة، والشيء الكثير من النساء والأطفال فأخذ الجميع وأنزله بالجعرّانة.

وكان المشركون بعد انهزامهم تفرّقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس.

* * *

غزوة أوطاس

[٤٩٣] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: لمّا فرغ النبيّ ﷺ من حُنين بعث أبا عامر - يعني الأشعري على جيش إلى أوطاس، فلقي دُرَيْد بن الصِّمَّة، فقُتِل دُريد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرُمي أبو عامر في ركبته؛ رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، وانتهيت إليه، فقلت: يا عمّ، من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدتُ له فلحقتُه، فلما رآني ولّى، فاتّبعتُه وجعلت أقول له: ألاَ تَسْتَحِي؟ ألا تثبُت؟ فكفَّ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتُه، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبَك، قال: فانزع هذا السَّهم، فنزعته فنَزَى منه الماءُ فقال: يا ابن أخي أقرىء النبيّ ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبيّ ﷺ في بيته على سرير مُرَمَّلٍ وعليه فراش قد أثّر رمال السرير بظهره وجَنْبَيْه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقلت له: قال لي: قل له يستغفر لي، فدعا بماء فتوضّأ ثم رفع يديه، وقال: **«اللّهمّ اغفر لعُبَيْدٍ أبي عامر»**، حتى رأيتُ بياض إبطيه، ثم قال: **«اللّهمّ اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس»**، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: **«اللّهمّ اغفر لعبدالله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»**، قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.

رواه البخاري في المغازي (٩/١٠٣، ١٠٤) وفي الجهاد، ومسلم في الفضائل (١٦/٥٩، ٦٠).

«أوطاس» قال العلماء: هو وادٍ في ديار هوازن وبه كانوا عسكروا هم وثقيف، ثم التقوا بحُنين، ولما انهزموا ذهبت طائفة منهم إلى هذا الوادي

الثانية، فانصرف ﷺ بالمسلمين فسألوه أن يدعو على ثقيف من أهل الطائف، فقال كما في الحديث التالي:

[٤٩٩] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله أحرقَتْنا نبالُ ثَقِيف فادْعُ الله عليهم، فقال: «اللّهمّ اهْدِ ثَقيفاً».

رواه أحمد (٣/٣٤٣)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٥) وحسَّنه وصححه. فاستجاب الله دعاءه فبعد انصرافه ﷺ وذهابه إلى المدينة أسلموا وبعثوا وفداً لهم إليه كما يأتي في مبحث الوفود، ولما كان محاصراً للطائف نزل إليه جماعة من الرقيق فأسلموا وأعتقهم ولم يردَّهم إلى ساداتهم بعد إتيانهم مسلمين، وكان منهم أبو بكرة كما في حديث البخاري المتقدم.

[٥٠٠] فعن رجل من ثقيف أن رسول الله ﷺ كان يطلق من يأتيه من العبيد، قال: فسألنا رسول الله ﷺ أن يردّ علينا أبا بكرة وكان عبداً لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيف فأسلم فأبى أن يردّه علينا، فقال: «هو طليق الله ثم طليق رسوله ﷺ».

رواه أحمد (٤/١٦٨) بسند صحيح.

* * *

❁ تقسيم غنائم حُنين وإعطاء المؤلّفة قلوبهم ومقولة الأنصار في ذلك وقول النبيّ ﷺ لهم

[٥٠١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال وهو يتحدّث عن غزوة حُنين: فانهزم المشركون وأصاب يومئذ غنائم كثيرة، فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدةٌ فنحن نُدعَى ويُعْطَى الغنيمة غيرُنا، فبلغه ذلك فجمعهم في قُبّةٍ، فقال: «يا معشر الأنصار ما حديثٌ بَلَغَنِي عنكم؟» فسكتوا، فقال: «يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يَذهبَ الناسُ بالدنيا، وتَذهَبُون برسول الله ﷺ تَحُوزُونَه إلى

بُيوتِكم»؟ قالوا: بلى، فقال النبيّ ﷺ: «**لو سَلَكَ الناس وادِياً وسلكتْ الأنصارُ شِعْباً لأخذتُ شِعْبَ الأنصارِ**».

رواه البخاري في المغازي (٩/١١٥، ١١٦، ١١٧)، ومسلم في الزكاة (٧/١٥٠، ١٥٣).

[٥٠٢] وعن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله تعالى عنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قَسَمَ في الناس في المؤلّفة قلوبُهم، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً، فكأنّهم وجدوا إذ لم يُصِبْهُم ما أصاب الناس فخطبهم، فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وكنتم عالةً فأغناكم الله بي**»؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنُّ، ثمّ قال: «**ألاَ ترضون أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير، وتَذهبون بالنبيّ ﷺ إلى رِحالِكُم، لولا الهجرة لكنتُ امْرءاً من الأنصار، ولو سلك الناسُ وادياً وشِعْباً لسلكتُ وادِيَ الأنصار وشِعْبَها، الأنصارُ شِعارٌ، والناس دِثارٌ، إنكم ستلقون بعدي أثَرَةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

رواه البخاري في المغازي (٩/١٠٩، ١١٤) وفي المناقب، ومسلم في الزكاة (٧/١٥٧)، وابن ماجه (١٦٤).

[٥٠٣] وعن رافع بن خَدِيج رضي الله تعالى عنه قال: أَعْطَى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حربٍ، وصَفْوانَ بن أُمَيَّة، وعُيَيْنَة بن حِصْنٍ، والأقرعَ بن حابِسٍ، كل إنسانٍ منهم مائةً من الإبل، وأعطى عباسَ بن مِرْداسٍ دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـ ... ـدِ بـن عُـيَـيْـنَـةَ والأقـرعِ
فـمـا كـان بَـدْرٌ ولا حَـابِـسٌ ... يَفُوقانِ مِرداسَ في المَجْمَعِ
وما كنتُ دون امْرِىءٍ مِنْهُمَا ... ومَن تَخْفِضِ اليومَ لا يُرْفَعِ

قال: فأتمّ له رسول الله ﷺ مائةً.

رواه مسلم في الزكاة (٧/١٥٥، ١٥٦).

[٥٠٤] وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم حُنَيْن آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عُيَيْنة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمةٌ ما عُدِلَ فيها، وما أُريدَ فيها وجهُ الله، قال: فقلت: والله لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: فأتيتُه فأخبرته بما قال، فتغيّر وجهُهُ حتى كان كالصُّرفِ، ثم قال: «**فمن يَعْدِل إن لم يعدل الله ورسولُه ﷺ**»، ثم قال: «**يَرْحَمُ الله موسى قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر**»، قال: قلت: لا جَرَمَ ولا أرفع إليه بعدها حديثاً.

رواه البخاري (٦٣/٧) في فرض الخُمُس وفي المغازي (١١٦/٩، ١١٧)، ومسلم في الزكاة (١٥٧/٧، ١٥٨).

«الطُّلقاء» هم الذين منَّ عليهم النبيّ ﷺ وأطلقهم يوم الفتح، فأسلموا. «المؤلّفة قلوبهم» هم الذين كانوا حديثي عهدهم بالإسلام. «الأنصار شعار والناس دثار» الشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدِّثار الذي يكون فوقه، ومعناه: أن الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء... وستأتي لهذا بقيّة في الفضائل.

وفي هذه الأحاديث مشروعيّة إعطاء المؤلّفة قلوبهم من الفَيْء والغنيمة وإيثارهم على غيرهم، وذلك لتحبيبهم في الإسلام وتعريفهم بأن الإسلام دين المواساة والرحمة والصفح والعفو، وفيها أنه يقدم في ذلك أشرافهم ورؤساؤهم، فإن أبا سفيان كان من كبار أشراف أهل مكّة، وكذا صفوان بن أُميّة والأقرع وعيينة وعباس بن مرداس كانوا من رؤساء القبائل العربية وأشرافها، فأراد ﷺ بما أعطاهم استمالة قلوبهم وقلوب ذويهم للإسلام وتحبيبهم في الله ورسوله ﷺ، ولذلك لما عتب الأنصار على ما صنع قال لهم: «**إن قريشاً حديثُ عهدٍ بجاهلية ومُصِيبة، وإني أردت أن أجْبُرَهُم وأتألّفَهم**».

رواه مسلم عن أنسٍ في الزكاة (١٥٢/٧)، فكان ما فعله مع أولئك المؤلّفة قلوبهم الطلقاء من جملة حِكَمِهِ ﷺ وسِياسَتِهِ الشرعيّة.

أمّا ما قاله ذلك الرجل في شأن قسمة النبيّ ﷺ وعدم مؤاخذته بما قال فيه، ونسبته إلى الظلم والجور، فقد تقدم حكمه في الكلام على الخوارج، ويأتي شيء من هذا لاحقاً.

* * *

❋ مجيء هوازن مسلمين وردّ السَّبي عليهم

[٥٠٥] عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفدُ هوازن مُسْلِمِين، فسألوه أن يَرُدَّ إليهم أموالَهم وسَبْيَهُم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**معي من ترون، وأَحبُّ الحديث إليَّ أصْدَقُهُ، فاختاروا إحْدَى الطائفتين: إما السَّبي، وإما المال، وقد كنت اسْتَأْنَيتُ بكم**»، وكان أنْظَرَهُم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبيَّن لهم أن رسول الله ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهْلُه، ثم قال: «**أما بعد، فإن إخْوَانَكُم قد جاءُونا تَائِبِينَ، وإني قد رأيت أن أرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فمن أحَبَّ منكم أن يُطَيِّب ذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكونَ على حَظِّه حتى نُعْطِيَه إياه من أوّل ما يُفِيءُ الله علينا فليفعل**»، فقال الناس: قد طيّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ في ذلك مِمَّن لَمْ يَأْذَنْ، فارجعوا حتى يَرفعَ إلينا عُرفاؤُكم أمْرَكم**»، فرجع الناس فكلَّمَهُم عُرفاؤُهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبُوا وأذِنُوا.

رواه البخاري في المغازي (٩/٩٤، ٩٥) وفي الوكالة وفي مواضع.

«عرفاؤكم» جمع عريف بفتح العين وكسر الراء المخفّفة هو الذي يتعرّف شؤون القوم. وقوله: «اسْتَأْنَيْتُ» أي استنظرت وأخّرت قسم السبي لِتَحْضُرُوا فأبْطَأْتُمْ.

لما فرغ النبيّ ﷺ من غزوة حُنين أخذ الغنائم وذهب إلى الجعرّانة

ولم يقسمها، فبعث أبا عامر إلى أوطاس ثم خرج في جيشه إلى الطائف وحاصرها أربعين يوماً ثم قفل، فرجع إلى الجعرانة وتأخّر مدة ثم قسم الغنائم، ثم بعد ذلك جاءه وفد هوازن مسلمين تائبين يطلبون منه ﷺ ردّ سبيهم وما أخذه منهم، وكان في هذا الوفد تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا ثم كلّموه، فقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأُمّهات، والأَخوات، والعمّات، والخالات، وهنّ مخازي الأقوام، فقال ﷺ: **«سأطلب لكم وقد وقعت المقاسم، فأي الأمرين أحبّ إليكم السبي أم المال؟»**، فاختاروا الأهل والأولاد، فمنّ عليهم النبيّ ﷺ بما كان عنده... وخيّر أصحابه بين تنازلهم عمّا عندهم وبين أن يكونوا على نصيبهم حتى يكافئهم مما يفيء الله عليه، فلبّى كُلّ المسلمين ما دعاهم إليه ﷺ إلا بعض جفاة الأعْرابِ فامتنعوا من ردّ ما عندهم. وقول أولئك النفر: إن فيما أصبتم الأُمّهات والأخوات: يعنون بذلك ما سباه من بني سعد، وقد كان مسترضعاً عند حليمة السعدية وهم أهل قبيلتها، ويقال: إنه كان في السبي أخوه وأخته من الرضاعة، ولا يصح في ذلك شيء وإن ذكره أهل المغازي والسِّيَر.

* * *

❁ فوائد غزوة حنين وما يتبعها وما في ذلك من عِبَر وحكم ودروس

أولاً: كان النبيّ ﷺ استعار من صفوان بن أُميّة وهو على شِرْكِهِ آلاتٍ من الآلات الحربية كما في الحديث التالي:

[٥٠٦] فعنه أن رسول الله ﷺ استعار منه أدراعاً يوم حُنين، فقال: أغَصْبٌ يا محمد؟ فقال: **«لا بل عارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»**.

رواه أحمد (٤٠١/٣ و٤٦٥/٦)، وأبو داود (٣٥٦٢)، والحاكم (٤٢/٢)، والبيهقي في السنن (٨٩/٦) وهو صحيح لغيره، وقد تقدّم في البيوع.

واستدلّ بهذا الحديث من أجاز الاستعانة بالكافر على الكافر، وفي ذلك خلاف بين الفقهاء، وقد جازاه النبيّ ﷺ جزاء وافياً بعد نصره بحُنين حتى أصبح أحبّ الناس إليه.

[٥٠٧] فعن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح فتح مكّة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحُنَين، فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوانَ بن أُمية مائة من النَّعم، ثم مائة، ثم مائة، قال: والله لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما بَرِحَ يُعْطِيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ.

رواه أحمد (٤٦٥/٦)، ومسلم في الفضائل (٧٣/١٥)، والترمذي في الزكاة في المؤلّفة قلوبهم (٥٨٩).

قوله: «وإنه لأبغض الناس إليّ» لأن والده أُميّة بن خلف وولداً له كانا قُتِلا ببدر، فكان ذلك حاملاً له على بغضه ﷺ، لكن هذا البغض سرعان ما انقلب محبّة لإحسانه ﷺ ومعاملته الجميلة معه.

ثانياً: كان من أسباب هزيمة المسلمين بحُنين إعجابهم بكثرتهم وغفلتهم عن نصر الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

[٥٠٨] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا اجتمع يوم حنين أهلُ مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتُهم، فقال القوم: اليوم والله لا نُقاتَلُ حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا، ما أعجبهم من كثرتهم.

رواه الحاكم وصححه، فالإعجاب بالقوة والكثرة من أسباب الهزيمة، وهذا درس بليغ لكل الأجيال من المسلمين، وأنهم يجب عليهم أن يتعلقوا بالله عزّ وجلّ وأن يعتمدوا عليه في جميع أُمورهم ولا يعتمدوا على قوّتهم أو عدد جيوشهم مهما كانت، فإن النصر ليس في ذلك، وإنما هو من عند الله، فقد ينصر القليل على الكثير كما فعل بهم ببدر، وقد يهزم الكثير

بالقليل كما حصل بحُنين، فإن عددهم بهذه الغزوة لم يتقدم له مثيل قبلها، ومع ذلك انهزموا لإعجابهم واعتمادهم على قوّتهم.

ثالثاً: في ذلك شجاعة النبيّ ﷺ وصموده أمام جيوش المشركين وثباته وعدم تزعزعه عن مكانه، رغم أن أكثر المسلمين انهزموا وتفرّقوا ولم يبق معه ثابتاً إلا القليل من نحو ثمانين نفراً، وهو يقول: **«أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**.

رابعاً: معجزة له ﷺ، بل معجزتان: إيصال الحصى والتراب إلى أعين الكفار كافّة وانهزامهم بقوله: **«انهزموا ورب محمد»**، مع دعائه ﷺ بالنصر.

خامساً: معجزة له قبل المعركة بإخباره ﷺ بأن كل ما جاء به المشركون سيكون غداً غنيمة للمسلمين، فكان كما قال.

سادساً: كان الطُّلقاء والأعراب الذين جاءوا معه ﷺ هم الذين انهزموا أولاً، وتبعهم غيرهم، ولذلك لما نادى العباس بأصحاب السمرة التفوا حوله بِسُرْعَةٍ وهم يُجيبون: يا لبيك يا لبيك، وفي هذا تنبيه للمسلمين في أن لا يصحبوا معهم في مهمة أو مشهد إلا من كان مؤمناً موثوقاً به، وإلا أفسد عليهم ما يريدون.

سابعاً: كان عقب تلك الهزيمة من المسلمين نصر الله لرسوله ﷺ ونزول السكينة عليه وعلى مَن حوله من المؤمنين، وأنزل جنوداً من عنده عزّ وجلّ تحمي رسوله وتدعمه، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الآية.

ثامناً: ثبت في هذه الغزوة أن أمّ سليم كان معها خنجر فشكاها زوجها إلى النبيّ ﷺ فدار بينهما ما في الحديث التالي:

[٥٠٩] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن أمّ سُلَيم اتّخذت يوم حُنين خنجراً، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أمّ سليم

معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتّخذته إن دنا مني أحدٌ من المشركين بقَرْتُ به بطنَه، فجعل رسول الله ﷺ يَضحكُ، قالت: يا رسول الله أقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أمّ سُليم إن الله قد كفى وأحسَن**».

رواه أحمد (٣/١٩٠)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٨٧، ١٨٨).

«خنجر» بكسر الخاء وفتحها وهو: سكين كبيرة ذات حدّين.

وفيه جواز الغزو بالنساء ولا خلاف في ذلك، فقد كان نساء النبيّ ﷺ ونساء الصحابة يخرجن مع الرجال، قالت أم سليم: فيسقين الماء ويداوين الجرحى، رواه مسلم وغيره. ولم يثبت في حديث ما أن امرأة قاتلت مع النبيّ ﷺ في صفّ الرجال ودخولها المعارك وما ورد في ذلك فباطل كما قدمنا في غزوة أُحد، ولذلك لما استأذنته عائشة في الجهاد قال لها: «**عليكن جهاد لا قتال فيه: الحجّ والعمرة**».

أمّا اتّخاذ أم سليم للخنجر، فكان منها احتياطاً للدفع عن نفسها، وهذا لا خلاف في جوازه.

تاسعاً: في حديث بَعْثِ أبي عامرٍ إلى أوطاس، فضلُه وفضلُ ابن أخيه أبي موسى الأشعري، حيث إن النبيّ ﷺ دعا لهما بتينك الدعوتين العظيمتين، ودعاؤه ﷺ مستجاب.

عاشراً: لمّا لم يتمكن المسلمون من فتح الطائف وطالت المحاصرة ورأى النبيّ ﷺ المصلحة في الانصراف دعا معهم بالهداية فهداهم الله وجاءوه إلى المدينة مسلمين، كما يأتي.

حادي عشر: كان في تقسيمه ﷺ الغنائم وإيثاره أشراف الطلقاء ورؤساء العرب على غيرهم من المهاجرين والأنصار سياسة دينية؛ لأنه كان في ذلك مصلحة عظيمة رجعت على الإسلام بخير كبير، على أن المؤلّفة قلوبهم قد جعل الله عزّ وجلّ لهم حصّة خاصة تعطى لهم من الزكاة، فهم

من مصاريفها الثمانية المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية.

ثاني عشر: فضل الأنصار على غيرهم وعِظَمُ محبّةِ الرسول ﷺ لهم، وأنهم خواصُّه وشِعارُه، وأن الناس سيرجعون إلى ديارهم بالمال والشاه، وهم سيرجعون إلى ديارهم وبلادهم برسول الله ﷺ وحبيبه، وأنه سَيَبْقى معهم حتى يُدفنَ بين أظهرهم، وقد أزال عنهم تلك الوساوس التي خطرت لهم حتى فاه بها بعض أحداثهم، بالمَزِيَّة العُظمى التي نالوها بوجوده ﷺ عندهم، فنَدِموا على ما قالوا وفاضت دموعهم ورضوا بما قال لهم نبيّ الله ﷺ.

* * *

❁ عمرته ﷺ مِن الجِعْرانة

[٥١٠] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَر كلّهنّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجّته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة، حيث قسم غنائم حُنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته.

رواه أحمد (٣/١٣٤، ٢٥٦)، والبخاري في الحجّ وفي المغازي (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣)، وأبو داود (١٩٩٤) كلّهم في الحجّ، ورواه الترمذي عن ابن عباس.

[٥١١] وعن مُخَرِّش الكعبي الخزاعي أن النبيّ ﷺ خرج ليلاً من الجعرانة حين أمسى معتمراً، فدخل مكّة ليلاً فقضى عمرته ثم خرج من تحت ليلته، فأصبح بالجعرانة كبائت حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف حتى جاء الطريق طريق المدينة بسرف، قال: فلذلك خفيت عمرته على كثير من الناس. وفي رواية: فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضّة.

رواه أحمد (٤٢٦/٣، ٤٢٧)، وأبو داود (١٩٩٦)، والترمذي (٨٣٢)، والنسائي (١٥٧/٥) وسنده حسن.

«الجعرانة» بكسر الجيم والعين وفتح الراء المشدّدة وتسكن العين مع تخفيف الراء هو: موضع شرق شمال مكّة المكرمة بينه وبينها نحو من عشرين كيلو، نزلها النبيّ ﷺ بغنائم حنين وبها قسمها، ثم لما جاءه هوازن تائبين وردّ عليهم سبيهم أحرم هو وأصحابه بعمرة من هذا الموضع ونزلوا مكّة فقضوا عمرتهم، ثم رجع ﷺ إلى الجعرانة من ليلته وأصبح بها، فلما زالت الشمس خرج حتى نزل بسرف ثم اتّجه قافلاً إلى المدينة. وذكر علماء المغازي أنه ﷺ جعل عتاب بن أسيد عاملاً على مكّة وخلف بها معاذ بن جبل يعلّمهم شرائع الدين، وجعل على من أسلم من أهل الطائف مالك بن عوف النضري بعدما أسلم.

ملحوظة: تضافرت الأحاديث الصحاح بأن النبيّ ﷺ اعتمر من الجعرانة وقد خفي ذلك على ابن عمر ونافع مولاه وغيرهما فنفوا ذلك. قال ابن كثير: وقد أطبق النقلة ممن عداهما على رواية ذلك من أصحاب الصحاح والسنن كلهم.

* * *

❁ سرايا ذكرها علماء المغازي هاهنا في هذه السنة ليست لها أسانيد معتمدة

منها: سرية خالد بن الوليد بعثه النبيّ ﷺ إلى هدم العُزّى وهو صنم كان بنخلة تعظّمه قريش وكنانة ومضر، فانتهى إليها خالد فهدمها، وكان هنالك بيت فخرجت منه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فعلاها بالسيف حتى قتلها، وكان ذلك في خمس بقين من رمضان من هذه السنة بعد الفتح.

ومنها: سرية عمرو بن العاص، بعثه النبيّ ﷺ إلى سواع وهو صنم

كان على ثلاثة أميال من مكّة، فذهب إليه فهدمه وكسره، وكان ذلك أيضاً آخر رمضان.

ومنها: سرية سعد بن زيد الأشهلي بعثه النبيّ ﷺ إلى تهديم مناة وهو صنم للأوس والخزرج كان بالمُشَلَّل، فخرج بعد الفتح في عشرين فارساً حتى انتهى إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد بن زيد فقتلها وأقبل على الصنم ومعه أصحابه فهدموه.

أورد هذه السرايا كل من ابن إسحاق وابن سعد.

* * *

❋ خلاصة ما وقع في السنة الثامنة من أحداث

في هذه السنة من الأحداث: مكاتبته ﷺ للملوك، رسالته إلى هرقل، رسالته إلى كسرى، رسالته إلى المقوقس، إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، غزوة مؤته، غزوة ذات السلاسل، غزوة سيف البحر، الفتح الأكبر فتح مكة المكرمة، رسالة حاطب إلى أهل مكّة، كتمان الرسول وِجهته، خروجه من المدينة متوجّهاً إلى مكة، نزوله الكديد وإفطاره، نزوله بمرّ الظهران، إسلام أبي سفيان بن حرب، دخول النبيّ ﷺ مكة من كَداء بأعلاها، كيف رتّب الجيش عند دخوله مكة، الإذن من الله لرسوله بالقتال في مكّة ساعة من نهار، تحطيمه الأصنام ودخول الكعبة، إسلام أبي قُحافة والد أبي بكر، اغتساله عليه السلام وصلاته ثمان ركعات بعد الفتح، إهداره دماء جماعة من الكفار، مبايعته الناس على شرائع الدين، إخباره بأن مكّة لا تُغزى، مدة إقامته بمكّة بعد الفتح، بعث النبيّ ﷺ إلى بني جَذِيمة، غزوة حُنين، بشارة النبي بالنصر وأخذ الغنيمة، غزوة أوطاس، غزوة الطائف، تقسيم الغنائم، مجيء هوازن مسلمين تائبين، عمرته ﷺ من الجعرانة، سرايا ذكرها أهل المغازي ليست على شرطنا.

* * *

السنة التاسعة
جمع الصدقات

[٥١٢] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتْبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**ما بالُ عامِلٍ أبْعَثُه فيقول: هذا لكم، وهذا أُهدِيَ لي، أفَلاَ قعدَ في بيت أبيه أو بَيْتِ أُمّه حتى يَنظُرَ أيُهْدَى إليه أم لا؟ والذي نفسُ محمد بيده، لا ينالُ أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يَحْمِلُه على عُنُقِهِ إن كان بعيراً له رُعاءة، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شاة تَيْعَرُ**»، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَي إبْطَيْه ثم قال: «**اللّهمّ هَلْ بَلَّغْتُ**» مرّتين.

رواه أحمد (٤٢٣/٥)، والحميدي (٨٤٠)، والبخاري في مواضع في الجمعة وفي الأيمان والنذور رقم (٦٦٣٦) وفي الحيل (٦٩٧٩) وفي الأحكام (٧١٧٤) باب هدايا العمال، ومسلم في الإمارة (٢١٨/١٢، ٢١٩)، وأبو داود في الخراج (٦٩٤٦) وغيرهم.

«اللُّتْبية» بضم اللام المشدّدة وسكون التاء. و«الأزد» بفتح الهمزة؛ أزد شنوءة اليمنية. «تَيْعَرُ» بفتح التاء وسكون الياء ثم عين مكسورة ومفتوحة أي: شاة تصيح.

لما قدم النبيّ ﷺ المدينة بعد فراغه من الفتح وحُنين وأوطاس والطائف، وقَسْم الغنائم واعتماره ودخلت السنة التاسعة بعث رسول الله ﷺ رجالاً جباة يجمعون الزكوات من الأعراب الذين أسلموا، وكان ابن اللُّتبية من بينهم، فلما جاء بالصدقة وقد أهدي إليه شيء، بين ذلك للنبيّ ﷺ، فلم يقبل ذلك منه بل أنكر عليه وأخبر بأن من فعل مثل فعله جاء يوم القيامة حاملاً ذلك على عنقه، وفي هذا دليل على أن ما يأخذه الموظف مع الدولة من هدايا لأجل عمله يعدّ غلولاً أو رشوة، فلا يجوز له أخذ ذلك

وليضعه في حساب الدولة الإسلامية، وقد قدّمنا شيئاً من هذا سابقاً في الإمارة في باب هدايا العمال والموظفين.

* * *

❁ إسلام عدي بن حاتم الطائي

[٥٩٣] عن عَدِيِّ بْنِ حاتِم رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث الله عزّ وجلّ النبيّ ﷺ فَرَرْتُ منه حتّى كنت في أقْصَى أرْضِ المسلمين مما يَلِي الرُّومَ، قال: فكرهتُ مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشدَّ كراهيةً له مني من حيث جئت، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرجُلَ فوالله إنْ كان صادقاً فلأسمعنّ منه، وإن كان كاذباً ما هو بِضائري، قال: فأتيتُه واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم، قال: فقال لي: «**يا عدي بن حاتم أسْلِمْ تَسْلَمْ**»، قال: قلت: إني من أهلِ دين، قال: «**يا عدي بن حاتم أسلم تسلم**»، قال: قلت: إني من أهل دين قالها ثلاثاً، قال: «**أنا أعلم بدينك منك**»، قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «**نعم**»، قال: أليسَ تَرْأسُ قَوْمَك؟ قال: قلت: بلى، قال: «**فإنّه لا يَحِلُّ في دينك المِرْباعُ**»، قال: فلما قالها تواضعت لها، قال: «**وإني قد أرى أنَّ مِما يَمْنَعُك خصاصة تراها مِمَّن حولي، وأن الناس علينا إلْباً واحداً هل تعرف مكان الحيرة؟**» قال: قلت: قد سمعت بها ولم آتها، قال: «**لَتُوشِكَنَّ الظَّعِينَةُ أن تخرج منها بغير جِوَارٍ حتى تطوفَ بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هُرْمُز تُفْتَحُ**»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز**» ـ ثلاث مرات ـ «**وليوشكن أن يَبْتَغِي من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد**»، قال: فلقد رأيت اثنتين؛ قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل التي أغارت على المدائن، وأيْم الله لتكونَنَّ الثالثةُ إنه لحديث رسول الله ﷺ حدّثنيه...

رواه أحمد (٤/٣٧٧، ٣٧٨)، وابن حبان (٢٢٨٠) بالموارد، والحاكم (٤/٥١٨، ٥١٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/٣٤٣) بسند حسن وهو صحيح

لطريق آخر له رواه أحمد (٣٧٨/٤)، والطبراني قال الهيثمي (٢٠٨/٦) ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حُبَيْش وهو ثقة.

وقوله: «لتوشكن الظعينة»... «ولتوشكن كنوز كسرى» الخ، هو في الصحيح ويأتي في التنبوآت النبوية من المعجزات.

وعدي بن حاتم مشهور كوالده بالكرم والجود.

* * *

❋ غزوة تبوك وهي غزوة العسرة وهي آخر غزواته ﷺ إخباره ﷺ عن وجهة خروجه لتبوك

[٥١٤] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، استقبل سَفراً بعيداً، ومَفازاً، استقبل غزو عَدَدٍ كبيرٍ، فجلّا للمسلمين ليتأهّبوا أُهْبَةَ عَدُوّهم، أخبرهم بوجهه الذي يريده.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٤٨) هكذا مختصراً، ورواه مسلم في التوبة (٢٧٦٩) ويأتي مطوّلاً.

تبوك مدينة مشهورة وكانت في القديم أرضاً قاحلة وموقعها شمال المدينة بينهما نحو من سبعمائة كيلو، وهي إلى الأردن أقرب.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبيّ ﷺ بلغه أن الروم جمعوا له جموعاً وجيوشاً ليغزوه فجهّز لهم جيشاً جرّاراً مكوّناً من ثلاثين ألف مسلم، وكان من عاداته إذا أراد غزو قوم ورّى وأوْهَم بغير جِهَتِهِ، ولما كانت هذه الغزوة أظهر شأنها للناس ليتأهّبُوا ويَسْتَعِدُّوا لسفر طويل وعدو كثير.

* * *

❋ أمر النبيّ ﷺ بالصدقة والإنفاق استعداداً للغزوة ولإعداد الجيش

[٥١٥] عن عبدالرحمٰن بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء عثمان إلى النبيّ ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبيّ ﷺ جيش العسرة، قال: فصَبَّها في حجر النبيّ ﷺ، فجعل النبيّ ﷺ يُقَلِّبُها بِيَدِهِ ويقول: **«ما ضَرَّ ابنَ عفَّانَ ما عَمِلَ بعدَ اليوم»**، يردّدها مراراً.

رواه أحمد (٦٣/٥)، والترمذي في مناقب عثمان (٣٤٧٣) وحسّنه، والحاكم (١٠٢/٣) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث صحيح لشواهده ويأتي بعضها في الفضائل.

لما حضّ النبيّ ﷺ على الإنفاق لتجهيز الجيش، تسابق المسلمون إلى الإنفاق وتنافسوا في ذلك، وكان أكثرهم نفقةً وتجهيزاً على الإطلاق عثمان رضي الله تعالى عنه، فأتى بألف دينار فوضَعَها في حجر النبيّ ﷺ حتى بَشَّرَه بأنه لا يَضرُّه أيُّ عملٍ عَمِلَه بعد هذا الإنفاق.

[٥١٦] بل قد جاء عن عبدالرحمٰن بن خبّاب السُّلَمِي رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فحثَّ على جيش العُسْرة، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة بعير بأحْلاسِها وأقْتَابِها، قال: ثم حثّ، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حثّ فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت النبيّ ﷺ يقول بيده هكذا يحرّكها كالمتعجب: **«ما على عُثمانَ ما عَمِلَ بَعْدَ هذا»**.

رواه أحمد (٧٥/٤)، وأصله في البخاري في الوقف (٣٣٦/٦) وفي الفضائل (٥٤/٨) معلّقاً ووصله الإسماعيلي بسند صحيح بلفظ: «... ألستم تعلمون أنه قال: من جهّز جيش العسرة فله الجنّة فجهَّزته...»، ويأتي في الفضائل كاملاً.

❋ ❋ ❋

❁ البَكَّاءُون الذين اسْتَحْمَلُوا النبيّ ﷺ فلم يَجِد ما يَحْمِلُهم عليه

[٥١٧] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبيّ الله إنّ أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «**والله لا أحْمِلُكُم على شيء**»، ووافقته وهو غضبانُ ولا أشْعُرُ، ورجعت حَزِيناً من منع النبيّ ﷺ ومِن مخافةِ أن يكون النبيّ ﷺ وجد في نفسه عليَّ، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال النبيّ ﷺ، فلم ألْبَثْ إلا سُوَيْعَةً إذ سمعتُ بلالاً ينادي: أيْ عبد الله بن قيس، فأجبته فقال: أجِبْ رسول الله ﷺ يدعوك، فلمّا أتيته قال: «**خذ هذين القَرِينَيْنِ، وهذين القَرِينَيْن لِستَّةِ أبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حينئذ من سعد، فانطلِقْ بهنّ إلى أصحابك، فقل: إن الله أو قال: إن رسول الله ﷺ يَحْمِلُكم على هؤلاء فاركبوهن**»، فانطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء ولكني والله لا أدَعْكُم حى يَنْطَلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لا تظنّوا أني حدّثتكم شيئاً لم يَقُلْه رسول الله ﷺ، فقالوا لي: والله إنكَ عندنا لمُصَدَّقٌ ولنَفعلنَّ ما أحببْت، فانطلق أبو موسى بنَفَرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ منعه إيّاهم ثم إعطاءهم بعدُ فحدّثوهم بمثل ما حدّثهم به أبو موسى.

رواه البخاري في غزوة تبوك (٩/١٧٥) وفي فرض الخمس رقم (٣١٣٣)، ومسلم (١١/١٠٨، ١١١)، وأبو داود والنسائي ثلاثتهم في الأيمان والنذور وقد تقدم في التفسير بلفظ آخر.

الحديث يوضح لنا حالة الصحابة عند هذه الغزوة، وأنهم كانوا مُعْسِرين في المركوب كما كانوا معسرين في النفقة، بل وفي الماء أيضاً مع القَيْظ والحرّ الشديد، ولذلك سمّيت الغزوة بغزوة العسرة. وهؤلاء الأصحاب الذين أتوا النبيّ ﷺ يستحملونه فلم يجدوا عنده شيئاً يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون، ثم بعد بعث إليهم فحملهم على أبعرة اشتراها،

وقد ذكر علماء المغازي وغيرهم أنّ من البكّائيين هؤلاء الأشعريّين، وأبناء مُقَرِّن وهم سُويد، ومَعْقِل، والنُّعمان، ومنهم جماعة من الأنصار.

* * *

❁ تاريخ خروجه ﷺ إلى تبوك

[٥١٨] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحبّ أن يخرج يوم الخميس.

رواه البخاري في الجهاد رقم (٢٩٥٠) مختصراً هكذا، ويأتي مطوّلاً مع بيان تخريجه.

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة قبل حجّة الوداع بلا خلاف، وكان خروجه ﷺ يوم الخميس، وكان يحبّ خروجه في أسفاره يومه.

* * *

❁ تشييع الإمام عليّ النبيّ ﷺ واستخلافه على أهل البيت

[٥١٩] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن علياً رضي الله تعالى عنه خرج مع النبيّ ﷺ حتى جاء ثنيّة الوداع، وعَلِيّ رضي الله تعالى يبكي ويقول: تُخَلِّفُني مع الخوالف، فقال: **«أوَ ما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوّة»**.

رواه أحمد (١/١٧٠) بسندٍ صحيح.

[٥٢٠] وعنه قال: خلّف رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أتُخَلِّفُني في النساء والصبيان؟

فقال: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيّ بعدي**»...

رواه أحمد (١/١٨٢، ١٨٥) وفي مواضع، والبخاري في غزوة تبوك (٩/١٧٦) وفي الفضائل، ومسلم في الفضائل (١٥/١٧٥، ١٧٦) وغيرهما، وهو حديث متواتر ويأتي في الفضائل كاملاً.

في الحديثين دليل على أن الإمام عليّاً لم يخرج مع النبيّ ﷺ إلى تبوك، بل جعله خليفة بعده على أهله وعلى المدينة وبشّره بأنه وزيره وخليفته في حياته كما كان هارون مع أخيه موسى عليهما السلام. وفي الحديث الأول بيان أن الإمام خرج مع النبيّ ﷺ مودعاً له حتى وصل معه إلى ثنيّة الوداع، وهو موضع قريب من الحرم الشريف يبعد عنه بأقلّ من ميلين.

* * *

❋ مروره ﷺ على الحجر؛ بلاد ثمود وأمره بالبكاء عند الدخول إليها ونهيه عن الشرب... من مائها

[٥٢١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ لما مرّ بالحجر قال: «**لا تَدْخُلوا على هؤلاء المُعَذَّبين**». وفي رواية: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم**»، ثم تَقَنَّع بردائه وهو على الرحل، وفي رواية: ثم زجر فأسرع حتى خلّفها.

رواه أحمد (٢/٦٦، ٧٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٧/١٩٠) وفي المغازي (٩/١٨٩)، ومسلم في الزهد (١٨/١١١)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٣) وقد تقدّم في التفسير.

[٥٢٢] وعنه أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر

فاستقوا من بئرها واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهرِيقوا ما استقوا من بئرها، وأن يَعْلِفُوا الإبل العجينَ وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردُها الناقةُ.

رواه البخاري في الأنبياء رقم (٣٣٧٩)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٠) وغيرهما.

«أصحاب الحجر» هم ثمود قوم صالح عليه السلام، وقد تقدمت قصته معهم، وأن الله عزّ وجلّ عذّبهم وأهلكهم بعد أن عقروا الناقة. والحديثان يدلاّن على وجوب الابتعاد عن دور المغضوب عليهم ومساكن المعذَّبين والمرور عليها بسرعة، وأنّ مَن دخلها ينبغي له أن يعتبر بأهلها ويبكي خشية أن يصيبَه مثلُ ما أصابهم، والعاقل من وُعِظ بغيره، وفيهما عدم تناول مياههم لأنها من آثار المغضوب عليهم، وقد أخذ العلماء من حديث ابن عمر هذا، تحريم الدخول إلى دور الكفار والظلمة وأهل الطغيان والفجور، وانظر ما تقدم في تفسير سورة إبراهيم، وراجع لهذا المعنى زاد المعاد لابن القيّم... عند تكلمه على هذه الغزوة.

* * *

❋ بعض ما أصاب الصحابة في طريقهم لتبوك من الشدّة والفرج

[٥٢٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل لعمر رضي الله تعالى عنه: حدّثنا من شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابَنا فيه عَطَشٌ حتى ظننّا أن رِقابَنا سَتَنْقَطِعُ، حتى إن كان الرجلُ ليذهبُ يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظنّ أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيَعْصِر فرثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله إن الله عزّ وجلّ قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: «أتحبّ ذلك؟» قال:

نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

رواه ابن حبان (١٧٠٧) بالموارد، والحاكم (١٥٩/١) بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (١٩٤/٦، ١٩٥) برواية البزار وأوسط الطبراني وقال: رجال البزار ثقات، وهو في دلائل النبوّة للبيهقي (٢٣١/٥).

«العُسرة» بضم العين الشدّة. «قيظ» بفتح القاف وسكون الياء هو الحرّ. «يلتمس» أي: يطلب. «سكبت» أي: صبّت. في الحديث بيان ما نال الصحابة من الشدّة العظيمة والعُسرة في هذه الغزوة، كما فيه معجزة للنبيّ ﷺ حيث أمطرهم الله عزّ وجلّ الماء الغزير ولم يتعدّ الجيش.

[٥٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا، فقال عمر: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهرُ ولكن ادْعُهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة، لعلّ الله أن يجعل في ذلك بلاغاً، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فدعا بِنَطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكف ذُرَة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: «**خذوا في أوعيتكم**»، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه فأكلوا حتى شَبِعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحْجَبُ عن الجنّة**».

رواه مسلم في الإيمان (٢٢١/١، ٢٢٦).

«نواضحنا» أي جمالنا وهي الإبل التي يُستقى عليها. «أزوادهم» واحدها زاد وهو ما يتزوّده المسافر من مأكل «نطع» بفتح النون والطاء وبكسر النون وسكون الطاء وغيرها لغات، وهي جلد الإبل أو غيره المدبوغ المسبوت شعره أو وبره. «وفضلت فضلة» أي: بقيت بقيّة. «غير شاكّ» أي: غير مرتاب بل مستيقناً من قلبه.

هذا لون آخر من العسرة حصل للصحابة رضي الله تعالى عنهم في طريقهم لتبوك؛ ذلك هو الجوع وقلّة الزاد حتى همّوا بنحر جمالهم ليقتاتوا بها، لكن الرسول ﷺ نَدَبَهُمْ إلى جمعِ ما بقي عندهم من أزواد فجمعوه فوضعه على جلد، فدعا الله عزّ وجلّ وبرك عليه فأمرهم أن يملؤوا أوعيتهم ففعلوا حتى ما بقي وعاء في الجيش إلا ملؤوه، فكانت هذه معجزة أخرى تضاف إلى سابقتها.

* * *

❁ مروره ﷺ على حديقة امرأة بوادي القرى، وإخباره بهبوب ريح عاصفة بتبوك، ونهيه أصحابه عن القيام

[٥٢٥] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأةٍ، فقال: **«اخْرُصُوها»**، فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عَشرة أوْسُق، وقال: **«احصِيها حتى نَرجَع إليك إن شاء الله»**، فانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: **«سَتَهُبُّ عليكم الليلةَ ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم فيها أحدٌ منكم، ومن كان له بعير فليشدّ عِقاله»**، فهبّت ريحٌ شديدةٌ فقام رجل فحمله الريح حتى أَلْقَتْه بجبل طَيِّءٍ، ثم أقبلنا حتى قَدِمنا وادي القرى فسأل رسول الله ﷺ المرأة عن حديقتها: **«كم بلغ تمرها؟»** فقالت: بلغ عشرة أوسق.

رواه أحمد (٤٢٤/٥)، والبخاري في الزكاة (١٤٨١)، ومسلم في الفضائل في معجزاته ﷺ (٤١/١٥، ٤٣)، وأبو داود (٣٠٧٩) وغيرهم.

«وادي القرى» موضع كان يسكنه اليهود بين خيبر وتبوك. «اخرصوها» أي: قدروا كم فيها من تمر، وأصل الخرص التخمين والظنّ.

وفي هذا الحديث معجزتان للنبيّ ﷺ، أولاهما: مطابقة الواقع لخرصه الحديقة، فإنّه خرصها عشرة أوسق، فخرج كذلك. ثانيهما: إخباره

بهبوب تلك الريح الشديدة فهبّت كما أخبر، وفيه عقاب مخالف نهيه ﷺ، فإنه نهى عن القيام عند ما تأتي الريح، فخالف رجل ذلك، فقام فطارت به وألقته بجبل فهلك.

* * *

❊ قصة عين تبوك وما وقع فيها من بركة النبيّ ﷺ وإخباره عن تبوك بانها ستصبح جناناً

[٥٣٦] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فقال: «**إنكم سَتَأْتون غداً إن شاء الله عينَ تَبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضْحِيَ النهار، فمن جاءها فلا يَمَسَّ من مائها شيئاً**»، فأتاها والعينُ مثلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشيء من ماء، فغرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فخرجت العين فاستقى الناسُ، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يُوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن تَرَى ما هاهُنا قد مُلِيءَ جناناً**».

رواه مسلم (٥/٢٣٧، ٢٣٨) و(ج ١٥/١٥، ٤٠، ٤١) في الفضائل.

«حتى يُضْحِي» أي: حتى يرتفع النهار إلى وقت الضحى. «تَبِض» بكسر الباء أي: تسيل. «يوشك» أي: يقرب أو يسرع. «ملىء جناناً» أي: بساتين.

في هذا الحديث أربع معجزات: إخباره ﷺ الصحابة بأنهم سيدخلون تبوك غداً، وأنهم سيصلون إليها وقت الضحى، ثم بركته في الماء القليل حتى جرت العين ونبعت، ثم إخباره بأن تبوكاً ستصبح في المستقبل ذات بساتين وقد صدق هذا الواقع، فتبوك اليوم مدينة ذات مياه وبساتين وسكان... فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبيّ العظيم الزكيّ الطاهر وعلى آله وأصحابه.

* * *

❋ مدة إقامته ﷺ بتبوك

[٥٢٧] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: أقام رسول الله ﷺ بتَبُوك عِشرين يوماً يقصر الصلاة.

رواه عبدالرزاق (٤٣٣٥)، وأحمد (٢٩٥/٣)، وأبو داود (١٢٣٥)، وابن حبان رقم (٥٤٦) بالموارد، والبيهقي في الكبرى (١٥٢/٣) بسند صحيح وصححه جماعة كابن حزم والنووي وغيرهما.

لما نزل ﷺ بتبوك جعل ينتظر الكفار الذين كانوا يريدون غزوه، فمكث ينتظرهم عشرين يوماً، فألقى الله في قلوبهم الرعب وجَبُنُوا فانصرفوا وتفرّقوا فرجع ﷺ سالماً غانماً ظافراً، وقول جابر هنا: يقصر الصلاة، هذا قد تقدم في كتاب الصلاة فارجع إليه تستفد.

وقد حصل للنبيّ ﷺ في هذه الغزوة انتصار وفتح كما في الآتي.

❋ ❋ ❋

❋ إهداء ملك ايْلَة للنبيّ ﷺ بغلةً

[٥٢٨] عن أبي حُمَيْد السَّاعِدي رضي الله تعالى عنه قال في حديثه السابق قبل حديثين: وأهدى ملك أيلة للنبيّ ﷺ بغلة بيضاء، وكَسَاهُ بُرْداً، وكتب له بِبَحْرِهِم.

رواه البخاري في الزكاة (١٤٨١) وغيره.

«أَيْلَةُ» بهمزة مفتوحة ثم ياء ساكنة فلام مفتوحة؛ مدينة في أطراف الحجاز على ساحل البحر الأحمر وسط بين المدينة المنوّرة ودمشق.

قال علماء المغازي: لما كان رسول الله ﷺ نازلاً بتبوك أتاه يُوحَنَّا بن رُؤْبَة صاحب أيْلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأهدى للنبيّ ﷺ بغلةً بيضاء، وأثابه النبيّ ﷺ فكساه برداً وكتب له كتاباً جاء فيه: «بسم الله

الرحمٰن الرحيم، هذه أَمَنَةٌ من الله ومُحمّدٍ النبيِّ رسولِ الله ﷺ لِيُحَنَّة بن رُؤْبة وأهل أيْلة سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر، لهم ذمّة الله ومحمّد النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من برّ أو بحر».

* * *

❁ قصة أُكَيْدِر صاحِب دُومَة الجَنْدَل وإهداؤه للنبيّ ﷺ حُلَّةَ من سُنْدُسٍ

[٥٢٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن أُكَيْدِر دُومَة الجَنْدَل أهْدَى لرسول الله ﷺ حُلَّةً من سُنْدُس فعَجِب الناس منها، فقال: «**والذي نفسُ محمد بيدِهِ إنَّ مناديلَ سَعْد بن معاذ في الجنة أحْسَنُ من هذا**».

رواه أحمد (١١١/٣، ١٢٢، ٢٠٧، ٢٢٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣/١٥)، ورواه البخاري ومسلم (٢٢/١٥)، والنسائي في الكبرى (٦٢/٥)، والترمذي في المناقب عن البراء.

«أُكَيْدر» بضم الهمزة وفتح الكاف ثم ياء ساكنة فدال مكسورة. «ودومة» بضمّ الدال وفتحها ثم واو ساكنة فميم مفتوحة. «والجندل» بفتح الجيم وسكون النون ثم دال مفتوحة.

أُكيدر كان ملكاً عظيماً من طرف هرقل بدُومة الجندل، وهو حصن وقرى من أطراف الشام، فبعث إليه النبيّ ﷺ خالد بن الوليد في جيش، قيل: كانوا أربعمائة فارس، فأُخِذَ وبِمَنْ وُجِدَ معه فأُتِيَ به النبيّ ﷺ فأهدى له حُلّة سُندسٍ وصالحه على أداء الجزية، وقد ذكر علماء المغازي قصّته في ذلك، وهي مع شهرتها ليست على شرطنا إلا ما ذكرناه من إهدائه الحلّة إلى النبيّ ﷺ، وفي الحديث فضل سعد بن معاذ وتأتي مناقبه.

* * *

❁ استهزاء المنافقين بآيات الله وبرسوله وبقرّاء المؤمنين

[٥٣٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً، ولا أكْذب ألْسِنَةً، ولا أجْبَنَ عند اللّقاء، فقال رجل في المجلس: كذبتَ ولكنك منافقٌ، لأُخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله: فأنا رأيته متعلّقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكيه، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب، والنبيّ ﷺ يقول: «**أبِالله وآياته ورسُولِهِ كُنتُم تَسْتَهزِءُون**».

رواه ابن جرير (١٠/١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/١٨٣٩) في تفسيريهما وسنده صحيح.

«بِحَقَب» بفتحتين الحزام الذي يلي حقو البعير. «تَنْكِيه» أي: تجرحه.

إن المنافقين قد مكروا مكرهم في هذه الغزوة وعاثوا فساداً بطعنهم في مقدّسات الإسلام واستهزائهم بالله وبرسوله وبالمؤمنين، بل بلغ بهم الحال أنْ أرادُوا الفَتْك برسول الله ﷺ كما يأتي قريباً. وهذا الطاعن هنا واحد منهم وقد رماه الصحابة بالحجارة، وهو مستجير بناقة رسول الله ﷺ عندما علموا باستهزائه.

[٥٣١] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال محشي بن حمير: لوددْتُ أنّي أُقاضَى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن، فقال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: «**أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسَلْهم عمّا قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا**» فأدركهم، فقال لهم، فجاءوا يعتذرون فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه محشي بن حمير فتسمّى عبدالرحمٰن، وسأل الله تعالى أن يُقتل شهيداً، وألا يعلم بمقتله، فقتل في اليمامة لا يُعلم مقتله ولا من قتله ولا يُرى له أثرٌ ولا عين.

رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٣١/٦) بسند حسن صحيح لحال ابن إسحاق وقد صرّح بالتحديث.

[٥٣٢] وعنه أيضاً قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين، وما قال رسول الله ﷺ قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن أشرّ من الحمير، قال: فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليَّ أحسنُهم عندي أثراً أو أعزُّهم على أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتَفْضَحَنَّكَ، ولئن سكتُّ عنها لَتهْلِكَنّي، ولأحدهما أشَرُّ عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له مقال الجلاس، فحلف بالله ما قال ولقد كذب عليَّ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ الآية.

رواه ابن إسحاق، ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦) وسنده حسن وهو صحيح لشاهدين عن زيد بن أرقم وابن عباس رواهما ابن أبي حاتم (١٨٤٣/٦)، وانظر ابن جرير (١٨٥/١٠).

في المنافقين من تخلّف عن هذه الغزوة واعتذر كذباً، ومنهم من خرج طمعاً في الغنيمة، وكان الخارجون يعيثون خبالاً الآونة بعد الآونة، ويتكلّمون في الإسلام ويشتمون رسول الله ﷺ وينتقصونه ويسخرون من المؤمنين، ففضح الله الطائفتين وأنزل فيهم قرآناً يُتلى، بيَّن مكرهم وخداعهم وأبان عوارهم وأظهر كفرهم وسجّل عليهم الخزي والهوان واللعنة والطرد من رحمة الله تعالى.

وسورة التوبة مليئة بالكلام عليهم، وقد تقدم بعض هذا في التفسير.

* * *

❋ محاولة المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ

[٥٣٣] عن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: لمّا أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك أمَر منادياً فنادى: إنَّ رسولَ الله ﷺ آخِذٌ

بالعَقَبةِ فلا يأخُذْها أحدٌ، فبينما رسولُ الله ﷺ يَقودُه حُذيفة، ويسوقُه عمّار، إذ أقبل رهطٌ مُتَلَثِّمُون على الرواحل، فغَشَوْا عماراً، وهو يَسُوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي فلما هبط ورجع عمار، قال: «يا عمار هل عرفتَ القوم؟» قال: قد عرفت عامّة الرواحل والقوم متلثّمون، فقال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن يُنَفِّرُوا برسولِ الله فيَطْرَحُوه».

قال: فسأل عمّار رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الإثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله ﷺ في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

رواه أحمد (٤٥٣/٥) بسندٍ صحيح، قال النور (١٩٥/٦): ورجاله رجال الصحيح.

ورواه مسلم في صفات المنافقين (١٢٥/١٧) مختصراً.

هذا اللون من المكر الذي صدر من هؤلاء المنافقين خطير، فهو أقبح وأشنع ما أرادوا فعله به ﷺ، فلم يكفهم لعنهم الله ما كانوا يؤذون به رسول الله ﷺ من وقتٍ لآخر من الشتائم والكلام البَذِيء، وما كانوا يُوقدونه من الفتن والعداوة بين المسلمين حتى أرادوا هٰهنا الفتك بالنبيّ ﷺ وإلقاءه عن راحلته في الجبل، لكن الله عزّ جلّ كان حافظاً نبيّه، لم يَكِلْه إلى أعدائه منذ أن اصطفاه واختاره لرسالته.

* * *

❁ معجزة النبيّ ﷺ في طريقه إلى المدينة من غزوة تبوك

[٥٣٤] عن فَضالة بن عبيدٍ الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: غزونا

مع النبيّ ﷺ غزوة تبوك فجهد بالظهر جهداً شديداً، فشكوا إلى النبيّ ﷺ ما بظهرهم من الجهد، فتَحَيَّنَ بهم مَضْيقاً، فسار النبيّ ﷺ فيه، فقال: «**مُرُوا باسْمِ الله**»، فمرّ الناس عليه بظهورهم، فجعل ينفخ بظهرهم «**اللّهمّ احملهم عَليها في سبيلك إنك تَحْمِلُ على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البرّ والبحر**»، قال: فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزِمَّتها.

رواه أحمد (٢٠/٦) بسند حسن وله طريق آخر رواه البزار والطبراني بسند ضعيف، كما في المجمع (١٩٣/٦).

«جهد بالظهر» بلغت المشقّة والتعب بالإبل أقصاها. «فتحيّن» أي: قصد أن يسير بهم في موضع ضيّق. «ينفخ بظهرهم» أي: ينفخ في الإبل ويدعو الله تعالى.

ففي الحديث معجزة له ﷺ، ولولا دعاؤه مع الإبل لهلك الجيش ورواحلهم لأنها جهدت وأعيت وكادت أن تسقط إلى الأرض، ولذلك لما دعا الله عزّ وجلّ بالحمل عليها قوّاها الله تعالى فأسرعت السَّيْر ونشطت...

* * *

❋ ما قاله ﷺ حين أشرف على المدينة مرجعه من تبوك

[٥٢٥] عن أبي حُمَيْد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: أقبلنا مع النبيّ ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال: «**هذه طابة وهذا أُحُدٌ جبل يحبّنا ونحبّه**».

رواه البخاري في المغازي رقم (٤٤٢٢) وهو عنده في الزكاة، ومسلم في الفضائل وغيرهما مطوّلاً وتقدم بعضه برقم (٥٢٥).

كان النبيّ ﷺ يحبّ المدينة كثيراً، وكان إذا قدم من سفر فرآها أسرع في السَّيْر، وهٰهنا قال: هذه طابة ـ يعني طيبة ـ وهذا جبل أُحد يحبّنا

ونحبّه، كل ذلك قاله فرحاً بقدومه إلى مدينته الحبيبة التي ألفها وأحبّها وأحبّ أهلها الأنصار.

* * *

❋ استقبال الناس النبيّ عليه السلام عند قدومه عند ثنيّة الوداع

[٥٣٦] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قدم النبيّ ﷺ من غزوة تبوك تلقّاه الناس، فلقيته مع الصبيان على ثنيّة الوداع.

رواه أحمد (٤٤٩/٣)، والبخاري (٥٣٢/٦)، وأبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٧٦) كلّهم في الجهاد في تلقّي الغزاة والغائب.

هكذا تلقّى المسلمون رجالاً ونساء وأطفالاً النبيّ ﷺ فرحاً بقدومه سالماً من هذه الغزوة الشاقّة والسفر الطويل الذي غاب فيه هو وأصحابه أكثر من خمسين يوماً، ولا تسأل عن فرح المسلمين بقدومه ﷺ شأنهم في كل مشاهده وأسفاره التي كان يغيب فيها عنهم رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❋ حديث كعب بن مالك في توبته وتوبة صاحبيه وما فيه من عِبَر وفوائد

[٥٣٧] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: وهو يحدث حين تَخَلَّفَ عن قصة تبوك لم أتخلَّفْ عن رسول الله في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفْتُ في غزوة بدر، ولم يُعاتِبْ أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسولُ الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة،

حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدوّاً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبُوا أُهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يَجمعُهم كتابٌ حافظٌ ـ يريد الدِّيوانَ ـ قال: فما رجلٌ يريد أن يَتَغَيَّبَ إلا ظنّ أن سَيَخْفَى له ما لم ينزل فيه وحيُ الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظِّلالُ، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّز معهم، فأرجع ولم أقْضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يَتَمادَى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدُّ فأصبح رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقْضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوتُ بَعْدَ أن فَصَلُوا لأتَجهَّز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُم، وليتني فعلتُ، فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحْزَنَنِي أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يَذْكُرْني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فَعَلَ كَعْبٌ؟**» فقال رجل مِن بَني سَلِمَة: يا رسول الله حبسه بُرْدَاهُ ونَظَرُهُ في عِطْفَيْهِ، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسولُ الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجُلاً مُبَيِّضاً يزول به السَّرابُ، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خَيْثَمة**»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدّق بصاع التمر حين لَمَزَهُ المنافقون.

قال كعب: فلمّا بلغني أنه توجّه قافلاً حضرني همّي وطفقت أتذكّر

الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِهِ غداً، واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاحَ عني الباطلُ، وعرفت أنّي لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذبٌ، فأجمعتُ صِدْقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووَكَل سرائرهم إلى الله تعالى، فجئته فلما سلَّمت عليه تبسَّم تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: **«تعالَ»**، فجئت أمْشِي حتى جلست بين يديه، فقال لي: **«ما خلَّفَك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»** فقلت: بلى إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنْ سأخرجُ من سخطه بعُذْر، ولقد أعطيت جَدَلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثْتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنّي لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَك عليَّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عُذْرٍ، والله ما كنت قطّ أقوى، ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، قال رسول الله ﷺ: **«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يَقْضِيَ الله فيك»**، فقمتُ وثار رجال من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزْتَ أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المُتَخَلِّفُون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يُؤَنِّبونَنِي حتى أردت أن أرجعَ فأُكَذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الرَّبيع العَمْري، وهلالُ بن أُميّة الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكَّرَتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحِبايَ فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج

فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلّمني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسَلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه فأُسارقُه النَّظَرَ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تَسَوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمّي وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحِبَك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَةٍ فالحَقْ بنا نُواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت بها التنور فسَجَرْتُه بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أُميّة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أُميّة شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا، ولكن لا يَقْربكِ»، قالت: إنه والله ما به حركةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يُدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجل شابٌّ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا؛ فلما صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا،

فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت، سمعت صوت صارخ أَوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعبُ بنَ مالك أَبْشِر، قال: فخررْتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فَرَجٌ.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشّروننا، وذهب قِبَل صاحبيَّ مُبشّرون، وركَضَ إليّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلمّا جاءنيَ الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت له ثوبي فكسوْته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يُهَنِّئُونني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس فقام إليَّ طلحةُ بن عُبيدالله يُهَرْوِل حتى صافحني وهَنَّاني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيرهُ ولا أنساها لطلحة، قال: فلما سلَّمْتُ على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: **«أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك»**، قال: قلت: أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: **«لا بل من عند الله»**، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنّه قِطعةُ قمَر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ مِن توبتي أن أنْخَلِعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسولِ الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **«أمْسِكْ عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك»**، قلت: فإني مُمْسِك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجّاني بالصّدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلا صِدقاً ما بَقِيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكر ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، إني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمةٍ قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ

أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قال: وكنا تخلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذين ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

وفي رواية: فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر وما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت فلا يصلّي عليّ النبيّ ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يُكلّمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ، فأنزل الله تبارك وتعالى توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أمّ سلمة وكانت أمّ سلمة مُحْسِنَةً في شأني مَعْنِيةً في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أمّ سلمة تِيبَ على كعب**»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره؟ قال: «**إذاً يَحطِمُكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة**»، حتى إذا صلّى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا، قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خُلِّفُوا عن الأمر الذي قُبِل من هؤلاء الذين اعتذروا حين أنزل الله لنا التوبة، فلما ذكر بشرّ ما ذكر به أحد، قال الله سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

رواه البخاري في المغازي وفي التفسير (٤١٢/٩، ٤١٣) وفي أكثر من ستّة مواضع، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧، ٩٧)، وأبو داود والترمذي والنسائي مطوّلاً ومختصراً وقد تقدم في التفسير بأخصر من هذا.

* * *

❋ بيان غريب ما في الحديث

«تواثقنا على الإسلام» أي: تعاهدنا. «فجَلَّى للمسلمين» أي: أظهر لهم جهة سفره. «ليتأهّبوا» أي: ليستعدوا. «مغموصاً عليه» مطعوناً عليه. «السراب» هو ما يظهر للإنسان في البرية كأنه ماء. «ابتعت ظهرك» أي: اشتريت راحلة تركبها. «فسجرته» أي: أحرقته. «أبلاه الله» أي: أنعم عليه.

❋ ❋ ❋

❋ خلاصة غزوة تبوك وما فيها من فوائد وعِبَر

كانت هذه الغزوة أكبر غزواته وأشقّها على الصحابة وأبعدها مسافة وآخرها غزاة، كان الروم قد جمعوا جموعاً كثيرة وأرادوا غزو النبيّ ﷺ، فآذن ﷺ بالخروج إليهم وحثّ الصحابة على الانفاق وأمرهم بالاستعداد وجلى لهم الأمر، وكانوا في وقت عُسْرٍ شَديدٍ، فخرج ﷺ في ثلاثين ألفاً ولم يتخلف عنه إلا المنافقون وأصحاب الأعذار والثلاثة الذين تاب الله عليهم، وكان خروجه يوم الخميس في رجب من السنة التاسعة، وخلّف على أهله وعلى أهل المدينة الإمام علياً عليه السلام، فسار ومرّ في طريقه على الحجر وديار ثمود، كما مرّ على وادي القرى ثم تابع السير إلى أن بلغ تبوك، وقد قطع هذه المسافة في أربع عشرة مرحلة، فنزل تبوك وجعل ينتظر الروم عشرين يوماً فألقى الله في قلوبهم الرُّعْبَ وتفرّقوا، وفي أيام نزوله ﷺ بتبوك أتاه ملك أيْلَة وأهدى إليه ﷺ بغلة وصالحه على أداء الجزية، وكتب له ﷺ كتاباً في ذلك بيَّن له فيه بعض ما أعطاه وما شرط عليه، ثم بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر دُومَة الجَندل فأُتِي به وأهدى إلى النبيّ ﷺ حلّة حرير وصالحه أيضاً على أداء الجزية، ثم رجع ﷺ قافلاً وحدثت في مقدمه أحداث كإرادة المنافقين الفتك به ﷺ فحفظه الله عزّ وجلّ، ووقوع البركة في الظهور والرواحل بعد أن جهدوا جهداً شديداً، كما وقعت له معجزات أخرى في ذهابهم من إمطارهم منفردين دون غيرهم

وإمدادهم بالبركة في الطعام وجري عين تبوك بالماء وإخباره ﷺ بأنها ستكون بها جنان إلى غير ذلك مما حصل من الأحداث.

وفي الغزوة من الفوائد مشروعية التعمية على الأعداء والتورية في الأُمور، كما فيها إظهار قائد الجيش الجهة التي يريدها إذا اقتضى الأمر ذلك، وكان فيه مصلحة أكيدة، وفيها التنافس في الصدقة في سبيل الله وتجهيز المجاهدين، وفيها فضل سيّدنا عثمان، وأنه مغفور له لا يضرّه ما عمل بعد أن جهّز المسلمين تجهيزاً لا مثيل له.

وفيها وجوب الخروج للجهاد إذا تعيّن كهذه الغزوة، وأنه لا يجوز التخلّف عنه إلا لعذر كمرض مثلاً أو ضعف... وفيها: فضل الإمام عليّ عليه السلام حيث جعله النبيّ ﷺ عنده بمثابة هارون من موسى، وفيها: أن أرض الغضب أو العذاب لا يجوز الإقامة بها ولا سكناها ولا الشرب من مائها، وأن داخلها يجب عليه أن يدخلها وهو باكٍ مع إسراعه فيها، كما وقع منه ﷺ في ديار ثمود. وفيها: مشروعية خرص الثمار وغيرها لأجل الزكاة أو الجزية كما خرص النبيّ ﷺ حديقة تلك المرأة بوادي القرى، كما في ذلك معجزة له ﷺ حيث خرج العدد الذي خرصه ﷺ. وفيها: هبوب تلك الريح العاصفة التي أخبر بها ﷺ قبل وقوعها وأخذت رجلاً فألقته في جبال طيء لمخالفته للنهي النبويّ. وفيها: مشروعية مصالحة أهل الكتاب على أداء الجزية وقبول هداياهم، فإن ملك أيلة، وأُكَيْدِراً كلاهما كانا نصرانيّين. وفيها كفر من استهزأ بآيات الله أو بالله أو برسوله، ولو كان هازلاً كما يحصل اليوم من الممثّلين والممثلات فقد قال الله تعالى لأُولئك المنافقين: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وقد كانوا قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

أما حديث كعب، فقد أخذ منه العلماء أحكاماً وفوائد وعبراً، وهذه خلاصتها:

ففيه: جواز طلب أموال الكفار من الحربيّين، وجواز الغزو في الشهر الحرام، وأن الذين تخلّفوا عن هذه الغزوة بدون عذر كانوا آثمين قد أتوا

كبيرة. وفيه: عظم المعصية، وأنها موقع غضب الله، فإن أولئك الثلاثة ما أمر النبيّ ﷺ بمقاطعتهم إلا لما أتوا من الذنب العظيم تأديباً لهم وزجراً لغيرهم، وفي ذلك: مشروعيّة هجران العاصي المجاهر بقدر الحاجة إذا كان في هجره مصلحة وزجر له، وفي ذلك عبرة لنا ولكل الأجيال المنحرفة المدّعية للإسلام، والإسلامُ بريء منها؛ فهؤلاء الصحابة ما تعاملوا بالرّبا وأكلوا الحرام، ولا سفكوا دماء الأبرار، ولا أظهروا الفساد في الأرض، ولا كانت لهم مراقص يرقص فيها رجالهم ونساؤهم عرايا، ولا كانت لهم دور مفروشة مهيّأة للزّنا والفجور، ولا كانت لهم أندية وحانات يجتمع فيه العراة والعرايا وشربة الخمر، وإنما صدر منهم أمرٌ واحد لا يعبؤ به الناس وهو التخلّف عن الغزو مع الرسول ﷺ، ومع ذلك فانظر ماذا فعل معهم النبيّ ﷺ والمسلمون.

فماذا نقول نحن مسلمي اليوم، وقد ارتكبنا كل أنواع الجرائم والفواحش وانحللنا من قيود الشريعة، فلم يَبْق لنا من الإسلام إلا الأسامي والدعاوى والشعارات... وفيه فضل هؤلاء الثلاثة حيث تاب الله تعالى عليهم وغفر لهم ورحمهم وأثنى لأحدنا بما تفضّل عليهم، وفيه خسارة أولئك المنافقين الذين اعتذروا لرسول الله ﷺ كذباً وزوراً ومخادعة، ففضحهم الله عزّ وجلّ وأخبر عنهم بأنهم رجس ومأواهم جهنم، وفيه مشروعية بداية المسافر بالمسجد عند قدومه وصلاته فيه ركعتين، وفيه الخروج لملاقاة الغزاة والمسافرين، وفيه عِظَم مكانة الصِّدْقِ في القول والفعل، وأن مآله الفرجُ والسعادةُ، وفيه صحة صلاة المنفرد، خلافاً لابن حزم الذي يشترط الجماعة، وفيه غير ذلك مما يدرك بالإمعان فيه.

* * *

❊ قدوم وفد ثقيف على النبيّ ﷺ بالمدينة

[٥٣٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن شأن ثَقِيف إذْ بايَعَتْ، قال: اشْتَرَطَتْ على النبيّ ﷺ أنْ لا صدَقَةَ عليها ولا جِهادَ، وأنَّهُ

سمعَ النبي ﷺ بعد ذلك يقول: «**سَيَتَصَدَّقُون ويُجاهِدُون إذا أسْلَمُوا**».

رواه أبو داود في الخراج والإمارة والفَيْء (**٣٠٢٥**) وسنده حسن صحيح.

[**٥٣٩**] وعن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد ليكونَ أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا على النبيّ ﷺ أن لا يُحْشَرُوا، ولا يُعْشَروا، ولا يُجَبُّوا ولا يُستعمل عليهم غيرهم، فقال: «**إنّ لكم أن لا تُحْشَروا ولا تُعْشَروا ولا يُسْتَعمل عليكم غيركم**»، وقال النبيّ ﷺ: «**لا خير في دين لا ركوع فيه**»، قال: وقال عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله علّمني القرآن واجعلني إمام قومي.

رواه أحمد (٤/٢١٨)، وأبو داود (**٣٠٢٠**) في الإمارة والخراج وسنده صحيح إلاّ ما قيل في عدم سماع الحسن البصري من عثمان بن أبي العاص، غير أن معنى الحديث ثابت.

قوله: «لا يحشروا» بضمّ الياء وسكون الحاء وفتح الشين أي: لا يجمعون إلى الغزو، ولا تضرب عليهم البعوث، وقيل: لا يجمعون إلى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم، بل يأخذها في أماكنهم. وقوله: «ولا يُعْشَروا» هو في الشكل كسابقه، أي: لا يؤخذ عشر أموالهم. وقوله: «ولا يُجَبُّوا» بضم الياء وفتح الجيم ثم باء مضمومة مشدّدة. والتجبية أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: هو السجود ومرادهم بذلك أن لا يصلّوا.

لما أسلم مالك بن عوف النضري الذي كان يرأس هوازن أنعم عليه النبيّ ﷺ وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزوا ثقيفاً ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول في الإسلام فأسلموا مصداقاً لقوله ﷺ: «**اللّهمّ اهد ثقيفاً**»، فبعثوا وفداً منهم إلى رسول الله ﷺ مكوّناً من بضعة عشر رجلاً، وكان فيهم رئيسهم كنانة بن عبد ياليل وعثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، فقدموا على النبيّ ﷺ في رمضان فور مقدمه من تبوك، فأنزلهم بالمسجد وأكرم نزلهم، فبايعوه ﷺ على الإسلام وشرط لهم رسول الله ﷺ شروطاً... فقالوا له: لا تضرب علينا البعوث للغزو، ولا

تأخذ منّا عشر أموالنا، ولا تأمرنا بالصلاة، ولا تستعمل علينا غيرنا، فأجابهم إلى ما قالوا، غير أنه قال لهم: لا خير في دين لا ركوع فيه، يعني: ليس فيه صلاة، وأخبر ﷺ بأنهم إذا تمكّن الإسلام من قلوبهم سيتصدّقون ويجاهدون... وفي هذه القصة إشارة إلى أنه ينبغي أن يُتَسامَح مع من يريد الدخول في الإسلام، وأن لا يكثر عليه من بيان التكاليف، فإنه إذا خالط الإيمان قلبه فسوف يأتي بجميع التكاليف بدون كبير كلفة ولا إكراه.

* * *

❁ تامير النبيّ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف

[٥٤٠] عن عثمان بن أبي العاص قال: لمّا استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أُصلّي، فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ابن أبي العاص؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**ما جاء بك**»؟ قلت: يا رسول الله عرض لي شيء في صَلاتي حتى ما أدري ما أصلي، قال: «**ذاك الشيطان أُذنُه**»، فدنوت منه فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي، وقال: «**أخرُجْ عدُوَّ الله**»، ففعل ذلك ثلاث مرات ثم قال: «**الْحَقْ بِعَمَلِك**»، قال: فلَعَمْري ما أحسبه خالطني بعد.

رواه ابن ماجه في الطب رقم (٣٥٤٨)، قال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

[٥٤١] في الحديث أن عثمان هذا كان عاملاً على الطائف وإماماً لقومه، وقد جاء في حديث له، قلت: يا رسول الله اجعلني إمام قومي، فقال: «**أنتَ إمامُهم واقتدِ بأضعفِهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**».

رواه أحمد (٤/٢١٧)، وأبو داود (٥٣١)، والنسائي وابن ماجه (٩٨٧) بسند صحيح، وتقدم في الصلاة بالاقتصار على الأذان، انظر (ج ١/٢٩٦) رقم حديث (٥٣٨).

وفيه أن الشيطان قد يحول بين الإنسان وبين صلاته، وقد تقدم في الأذان ما يدلّ على ذلك، وهذا الشيطان الذي كان يوسوس عثمان هذا كان جنيّاً طارئاً وليس قرينه، ولذلك أخرجه النبيّ ﷺ برقياه وتفله، بل هو شيطان خاص بالصلاة للحديث التالي:

[٥٤٢] عن عثمان بن أبي العاص رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، قال: فقال ﷺ: **«ذاك شيطان يقال له: خِنْزَبٌ، فإذا أحْسَسْتَه فتَعَوَّذْ بالله منه واتْفِلْ عن يَسارِك ثلاثاً»**، قال: ففعلت، فأذهبه الله عني.

رواه أحمد (٤/٢١٦)، ومسلم في السلام رقم (٢٢٠٣).

فهذا الحديث مطابق للحديث السابق، ذكر هناك مطوّلاً وهنا مختصراً، وبيّن فيه هنا أن اسم هذا الشيطان خِنْزَبٌ ـ بكسر الخاء وسكون النون وفتح الزاي ـ وأنه شيطان الصلاة، وفيه دليل على أن التَّفْلَ في الصلاة لا يُبْطلها.

* * *

❋ حجّ أبي بكر بالناس في السنة التاسعة وإردافه بالإمام علي رضي الله تعالى عنهما

[٥٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجّة في مؤذّنين يوم النحر بمنى أن لا يحجّ بعدَ العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عُريان. ثم أرْدف رسولُ الله ﷺ بِعَلِيّ بن أبي طالب، وأمره أن يُؤَذّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا عليٌّ يومَ النّحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان إلا الذين عاهدتم من المشركين.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٨٨، ٣٩٠) وفي مواضع، ومسلم في الحج (٩/١١٥، ١١٦) وغيرهما.

[٥٤٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعث النبيّ ﷺ

أبا بكر وأمَرَهُ أن يُنادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتْبَعَه عليّاً، فبَيْنا أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رُغَاءَ ناقةِ رسول الله ﷺ القَصْواء، فخرج أبو بكر فَزِعاً فظنّ أنه رسول الله ﷺ، فإذا عليّ فدفع إليه كتابَ رسول الله ﷺ وأمر علياً أن يُنادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجّا فقام عليٌّ أيام التشريق، فنادى: ذمّة الله ورسوله ﷺ بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يَحُجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يَطوفنَّ بالبيت عُريان، ولا يدخل الجنّة إلا مؤمن، وكان عليّ ينادي فإذا عيي قام أبو بكر فنادى.

رواه الترمذي في التفسير (٣٨٩١) بتهذيبي بسند صحيح.

[٥٤٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بعث النبيّ ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا يَنْبَغِي لأحدٍ أن يُبَلِّغَ هذا إلا رجلٌ مِن أهلي، فدعا عليّاً فأعطاه إيّاه.

رواه الترمذي أيضاً (٢٨٩٠) بسند صحيح على شرط مسلم.

بعد أن فتحت مكّة المكرمة أصبحت دار إسلام والسلطة فيها للإسلام والمسلمين، ولمّا حضر موسم الحجّ في السنة التاسعة بعث النبيّ ﷺ الصدّيق رضي الله تعالى عنه أميراً على الحجّ، وأمَرَه أن يُنادي في الموسم بأن لا يحجّ بعد ذلك العام أحد من المشركين، ولا يطوف ببيت الله عريان كما كان الحال في الجاهلية، ولما خرج وكان في بعض الطريق لحقهُ الإمام عليّ عليه السلام وإذا به قد بعثه النبيّ ﷺ مردفاً لأبي بكر بنفس ما بعثه به، فتعاونا على ذلك مع جماعة من مساعديهم كما قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، وقد تقدم لنا شيء من هذا في التفسير.

* * *

❋ وفود القبائل العربية على النبيّ ﷺ في السنة التاسعة

كانت القبائل العربية تنتظر سكان الحرم من أهل مكّة إلى ماذا سيؤول أمرهم تجاه النبيّ ﷺ، فلما فتحت مكّة وأسلم أهلها علمت هذه القبائل

أن النبي ﷺ قد انتصر على أهل الحرم، وأن أمره في انتشار، وازدادوا هلعاً بعد انهزام هوازن ومن شايعها أمام جيوش الإسلام، فلم يجدوا عند ذلك بدّاً من إشهارهم إسلامهم ومبايعتهم النبيّ ﷺ عليه، ودخولهم معه فيما دخل فيه أشراف العرب وهم سكان الحرم، فجعلوا يبعثون إليه ﷺ الوفود تبايعه نيابةً عنهم، وكان أوّل وفد قدم عليه وفد ثقيف من أهل الطائف كما تقدم، وبعد حجّة الصدّيق والإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما وأذانهما في الحرم بأنه لا يَقْرَبُ البَيْتَ بعدَ هذا العام مشركٌ ولا يطوفُ به عريانٌ، توالت الوفود على النبيّ ﷺ... وهم بضعة عشر وفداً، وسنذكرها وفداً وفداً بإذن الله تعالى وعونه.

* * *

❋ وفد بني تميم

[٥٤٦] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على النبيّ ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «**اقْبَلُوا البُشْرى يا بَنِي تَمِيم**»، قالوا: قد بشّرتنا فأعطِنا مرّتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «**اقْبَلُوا البُشْرى يا أهل اليمن إن لم يَقْبَلْها بنو تميم**»، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: قد جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء** وخلق **السمٰوات والأرض**».

رواه البخاري والترمذي والنسائي في الكبرى، وقد تقدم في التفسير وغيره.

قوله: «نسألك عن هذا الأمر» يعنون هذا العالم، وما فيه، ومن خلقه، وكيف كان الشأن قبله، لذلك أجابهم النبيّ ﷺ بأنه كان الله وحده ولم يكن شيء معه ولا أحدٌ سواه، ثم خلق هذا العالم. وانظر ما سبق في بدء الخلق.

[٥٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لا أزال أحبّ بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: **«هم أشدُّ أمّتي على الدجّال»**، وكانت فيهم سَبِيَّةٌ عند عائشة فقال: **«أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل»**، وجاءت صدقاتهم فقال: **«وهذه صدقات قومي»**.

رواه البخاري في المغازي (١٤٦/٩)، ومسلم في الفضائل ويأتي هنالك.

«سبية» بفتح السين وكسر الباء ثم ياء مشدّدة وتُخفّف أي: جارية مسبية.

وفي الحديث جواز استرقاق العرب، وقد تقدم ذلك في الجهاد، وفيه فضل هذه القبيلة وقد قدّمنا في التفسير أنه تخاصم الصديق والفاروق رضي الله تعالى عنهما في تأمير القعقاع بن معبد، والأقرع بن حابس وكانا من بَني تميم.

* * *

❋ وفد بني عامر

[٥٤٨] عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله تعالى عنه أنه وَفَد إلى النبيِّ ﷺ في رَهْطٍ من بَنِي عامر، قال: فأتيناه فسلّمنا عليه، فقلنا: أنت وليّنا، وأنت سيّدنا، وأنت أطول علينا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت الجَفْنَة الغراءُ، فقال: **«قولوا قولتكم ولا يَسْتَجرَنَّكُمْ الشيطانُ»**، وربما قال: **«ولا يَسْتَهوِيَنَّكُمْ»**.

رواه أحمد (٢٥/٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٧٠/٦).

ما قاله هؤلاء في النبيّ ﷺ كلّه حقّ، ولكنّه تواضع فحذّرهم من ذلك لئلا يقيسوا غيره عليه ﷺ فيمدحوه بما لا يجوز بما ليس فيه. وبنو

عامر هؤلاء هم الذين كان منهم عامر بن الطُّفيل رئيسهم الذي غدر بالقرّاء السبعين حتى قُتِلوا عن آخرهم، كما تقدم في غزوة بئر معونة.

* * *

وفد ضمام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر

[٥٤٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعث بنو سعد بن بكر ضِمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد، ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جَلداً أشْعَر ذا غَدِيرَتَيْنِ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**، قال: محمد، قال: **«نعم»**، فقال: ابنَ عبدِ المطلب إني سائلك ومُغْلِظٌ في المسألة، فلا تجِدَنَّ في نفسك، قال: **«لا أجِدُ في نفسي فَسَلْ ما بَدا لك»**، قال: أنشدك الله إلٰهَك وإلٰه مَن كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: **«نعم»**، قال: أَنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك، وإلٰه مَن هو كائنٌ بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نُشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**، قال: فأنشدك الله إلٰهك وإلٰه من كان قبلك وإلٰه من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلّي هذه الصلوات الخمس؟ قال: **«اللّهمّ نعم»**.

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة، والصيام، والحجّ، وشرائع الإسلام كلها يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولّى: **«إن يَصْدُقْ ذو العَقِيصَتَيْنِ يدخل الجنّة»**، قال: فأتى إلى بعيره فأطلق عِقاله

ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلّم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضمام اتّق البَرَص والجُذامَ، اتّق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يَضُرّان، ولا يَنْفَعان، إن الله عزّ وجلّ قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضلَ من ضمام بن ثَعلبة.

رواه أحمد (٢٦٤/١)، وأبو داود في الصلاة (٤٨٧)، وابن سعد (٢٩٩/١)، والحاكم (٥٤/٣، ٥٥) وصححه ووافقه الذهبي، وتقدَّم نحوه من حديث أنس في كتاب الإيمان وهو في الصحيحين وغيرهما.

قوله: «رجلاً جلداً» بفتح الجيم وسكون اللام أي: قوياً. «أشعر» أي: كثير الشعر. «غديرتين» أي: ضفيرتين وهما العقيصتان. قوله: «أنشدك بالله» أي: أسألك بالله رافعاً صوتي بطلب ذلك.

كان ضمام هذا جافياً لا يعرف كيف يخاطب الرسول الكريم ﷺ على عادات سكان البادية الذين يغلب عليهم الغلظة والقساوة والجفاء، ومع ذلك فقد كان سؤاله سؤال الحكماء، وكان خير وافد لقومه، فقد أسلموا بدعوته عن آخرهم، والحديث يدلّ على أن الحجّ كان مفروضاً في هذه السنة، وقد قدَّمنا ما في ذلك في الحجّ وغيره.

* * *

❁ وفد عبد القيس

[٥٥٠] عن مزيدة العصري رضي الله تعالى عنه قال: بينا النبيّ ﷺ يحدّث أصحابه إذ قال لهم: «**سيطلعُ عليكم من هٰهنا ركبٌ هم خَيرُ أهل المشرق**»، فقام عمر فتوجّه نحوهم فلقي ثلاثة عشر راكباً فقال: مَن القوم؟ قالوا: من بني عبد القيس، قال: فما أقدمكم هذه البلاد أتجارة؟ قالوا: لا،

قال: أما إن النبيّ ﷺ قد ذكركم آنفاً فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتوا النبيّ ﷺ، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدونه، فرمى القوم بأنفسهم من ركائبهم، فمنهم من مشى إليه، ومنهم من هَرْول، ومنهم من سعى حتى أتوا النبيّ ﷺ، فأخذوا بيده فقبّلُوها، وتخلّف الأشجُّ في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد الرسول ﷺ فقبّلها، فقال له النبيّ ﷺ: «**إن فيك خلّتَين يحبهما الله ورسولُه**»، فقال: جُبِلْتُ جُبِلْتُ عليه أم تخلّقاً مني؟ قال: «**بل جبلٌ**»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبّ الله ورسوله.

رواه أبو يعلى (٦٨١٥)، والبيهقي في الدلائل (٣٢٧/٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٥) عن الوازع بن عامر مختصراً، وأورده النور (٣٨٨/٩) برواية الطبراني وأبي يعلى قال: ورجالهما ثقات وفي بعضهم اختلاف، فالحديث حسن جيد.

تقدم لنا حديث ابن عباس في مجيء وفد عبد القيس إلى النبيّ ﷺ في كتاب الإيمان بأبسط وأحسن من هذا، وهو في الصحيحين وغيرهما.

غير أن حديث الباب فيه أن الوفد قبّلوا يد النبيّ ﷺ، وهي فائدة وزائدة عزيزة تدلّ على جواز تقبيل يد الأكابر والصالحين، وقد جمع العلماء الأحاديث والآثار في ذلك من آخرهم المحدث السيد عبدالله بن الصديق رحمه الله تعالى له كتاب «إعلام النبيل بجواز التقبيل» ويأتي لهذا موضوع في الأدب.

* * *

❋ شغل وفد عبد القيس النبيّ ﷺ عن راتبة الظهر

[٥٥٩] عن كُرَيْب رحمه الله تعالى أن ابن عباس والمسور بن مخرمة وعبدالرحمٰن بن أزهر رضي الله تعالى عنهم أرسلوه إلى عائشة رضي الله

تعالى عنها، فقالوا: اقرأ عليها السلام منا جميعاً وسلها عن الركعتين بعد صلاة العصر، وقل لها: إنا أُخْبِرْنا أنك تصلّيهما، وقد بلغنا أن النبيّ ﷺ نهى عنهما، وقال ابن عباس: وكنت أضرب الناس مع عمر بن الخطاب عنهما، قال كُرَيْب: فدخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها فبلّغْتُها ما أرسلوني، فقالت: سَلْ أمّ سلمة، فخرجت إليهم فأخبرتهم بقولها، فردّوني إلى أمّ سلمة بمثل ما أرسلوني إلى عائشة، فقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها: سمعت النبيّ ﷺ ينهى عنهما، وأنه صلّى العصر ثم دخل عليّ وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار فصلّاهما، فأرسلنا إليه الخادم فقلت: قُومي إلى جنبه فقولي: تقول أم سلمة: يا رسول الله ألم أسمعْك تنهى عن هاتين الركعتين فأراك تصلّيهما، فإن أشار بيده فاسْتَأْخِري، ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: يا بنت أبي أُمَيّة سألت عن الركعتين بعد العصر، إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان.

رواه البخاري في الصلاة رقم (١٢٢٣) وفي المغازي (١٤٨/٩، ١٤٩)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٨٣٤)، وأبو داود في الصلاة (١٢٧٣).

كان النبيّ ﷺ يحافظ على الرواتب، كالصلاة قبل الظهر وبعدها كما تقدم في النوافل من الصلاة، فلما قدم عليه وفد عبد القيس انشغل معهم في شأن إسلامهم... حتى حضرت العصر، فصلّى العصر ثم قضى الركعتين اللتين فاتتاه بعد الظهر ثم داوم عليهما؛ لأنه ﷺ كان إذا صلّى صلاة أثبتها وحافظ عليها، ويعدُّ ذلك من خصائصه كما قالوا.

وفي الحديث جواز الإشارة في الصلاة لإفهام الغير، وفيه اهتمام النبيّ ﷺ بالمسلمين الجُدُد، وأنه قدَّم كلامَه معهم في شؤون الإسلام على صلاة النافلة، لأن ذلك كان أهمّ وأعمّ منفعة من تلك الصلاة.

* * *

❋ وفد بني حنيفة وخبر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي

[٥٥٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قدم مُسَيْلِمَةُ الكذّاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جَعل لي مُحمّد الأمرَ مِن بعده تبعْتُه، وقدِمَها في بَشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابِتُ بنُ قيس بن شمّاس، وفي يد رسول الله ﷺ قِطْعَةُ جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتَنِي هذه القطعة ما أعْطَيْتُكَها، ولن تَعْدُوَ أمْرَ الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعْقِرَنَّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت وهذا ثابت يُجيبك عني ثم انصرف عنه. قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: **«وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيت»**، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمّني شأنُهما، فأوحى إليَّ في المنام أن انفُخْهُما، فنفختُهما فطارا، فأوّلتُهما كذابين يخرجان من بعدي؛ أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»**.

وفي رواية: **«بينما أنا نائمٌ أُتِيتُ بخزائن الأرض فوضع في كفّي سواران من ذهب فكَبرا عليّ، فأوحي إليَّ أن أنفخهما فنفخْتُهما فذهبا فأوّلتهما الكذّابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»**.

رواه البخاري في المغازي (٩/١٥١، ١٥٢)، ومسلم في الرؤيا وغيرهما، وقَدْرُ الرؤيا منه تقدم في الرؤيا.

«مُسَيْلمة» بضم الميم وفتح السين وسكون الياء ثم لام مكسورة هو الكذاب الذي ادّعى النبوّة أيام النبيّ ﷺ باليمامة، وتبعه قومه بنو حنيفة، ولما توفي النبيّ ﷺ ارتدَّ كثير من الأعراب والتحقوا به واتّبعوه فبعث إليه الصدّيق رضي الله تعالى عنه جنود الله، فوقعت معارك طاحنة بينه وبينهم أودت بقتله وانهزام جنده، وكان وفد على النبيّ ﷺ وطلب منه أن يجعل الخلافة له بعده، فقال له النبيّ ﷺ: **«لو سألتني هذه القطعة** ـ يعني من جريد النخل ـ **لما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك...»** إلى آخره، فكان كما أخبر.

أما «العنسيّ»، فكان ادّعى النبوّة باليمن بمدينة صنعاء فقتل أيضاً على يد جنود الله تعالى، قتله فيروز بمساعدة المرزبان زوجة العنسي، وكان ذلك آخر حياة النبيّ ﷺ، وسيأتي مزيد لقصة مسيلمة في فضائل الصدّيق رضي الله تعالى عنه.

* * *

وفد الأشعريّين

[٥٥٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَقْدم عليكم أقوامٌ هم أرَقُّ منكم قلوباً»**، قال: فقدم الأشعريّون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون يقولون: غداً نَلْقَى الأَحِبّة مُحمداً وحِزْبَهْ.

رواه أحمد (٣/١٠٥، ١٨٢، ٢١٢، ٢٦٢) وفي مواضع، وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل (٥/٣٥١) وإسناده صحيح.

[٥٥٤] وعن جُبَيْر بن مُطْعم رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بطريق مكّة؛ إذ قال: **«يطلُع عليكم أهلُ اليمن كأنهم السَّحابُ هم خِيارُ مَنْ في الأرض»**، فقال رجل من الأنصار: ولا نحن يا رسول الله؟ فسكت، قال: ولا نحن يا رسول الله ﷺ فسكت قال: ولا نحن يا رسول الله ﷺ فقال في الثالثة كلمة ضعيفة: **«إلا أنتم»**.

رواه أحمد (٤/٨٤)، والطبراني وأبو يعلى (٧٣٦٤)، قال النور في المجمع (١٠/٥٥): وإسناده حسن.

في الحديثين فضل أهل اليمن من الأشعريّين وغيرهم، وأنهم من خيار أهل الأرض، وذلك لقوّة إيمانهم ورقّة قلوبهم وشدّة محبّتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وسيأتي مزيد لهذا في الفضائل، وقول أنس: فيهم أبو موسى الأشعري يحتمل أن يكون وهماً، ويحتمل أن يكون أبو موسى بعدما جاء أيام خيبر رجع إلى بلاده فجاء مع الوفد.

* * *

❋ وفد مُزَيْنَة

[٥٥٥] عن النُّعْمان بن مُقَرِّن رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، فأمرنا رسول الله ﷺ بأمره، فقال بعض القوم: يا رسول الله ما لنا طعام نتزوّده؟ فقال النبيّ ﷺ لعمر: «زَوِّدْهُمْ»، فقال: ما عندي إلا فاضلةٌ من تَمْر وما أراها تُغني عنهم شيئاً، فقال: «انطلق فزوّدهم»، فانطلق بنا إلى عُلَيَّةٍ له، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق، فقال: خذوا، فأخذ القومُ حاجتَهم قال: وكنتُ أنا في آخر القوم، قال: فالتفتُّ وما أفْقِدُ موضعَ تمرة، وقد احتمل منه أربعُمِائة رجلٍ...

رواه أحمد (٤٤٥/٥) بسند صحيح، إن صح سماع سالم بن أبي الجعد من النعمان، لكنه له شاهد عن دكين بن سعد، قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن أربعون وأربعمائة نسأله الطعام فذكره بنحوه. رواه أحمد (١٧٤/٤) من طرق بعضها صحيحة، وعزاه النور (٣٠٤/٨، ٣٠٥) كسابقه لأحمد والطبراني وقال: رجالهما رجال الصحيح...

قوله: «فاضلة» أي: الباقي منه. «وما أراها» بضم الهمزة أي: ما أظنها. «تُغني» أي: تُجزي. «عُلَيَّة» بضمّ العين وكسرها بعدها لام مشدّدة مكسورة ثم ياء مشدّدة مفتوحة هو بيت منفصل عن الأرض. «البكر» بفتح الباء الفتي من الإبل. «الأورق» هو ما فيه بياض إلى سواد، ومراده بهذا التشبيه أن ذلك التمر قليل.

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ ظهرت في طعام عمر وتمره بنمائه وبركته حتى تزوّد منه أربعمائة نفر، وبقي كما كان لم ينقص منه شيء.

❋ ❋ ❋

❋ وفد دَوْسٍ قوم أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

[٥٥٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء الطُّفيل بن عمرو

إلى النبيّ ﷺ فقال: إن دوساً قد هلكت عَصَتْ وأبَتْ، فادْعُ الله عليهم، فقال ﷺ: «اللّهمّ اهْدِ دَوْساً وائْتِ بِهِم».

رواه البخاري في المغازي (١٦٤/٩) وفي الجهاد وفي الدعوات، ومسلم في الفضائل (٧٧/١٦).

«دوس» بفتح الدال وسكون الواو بلدة باليمن كان منهم أبو هريرة، والطُفيل بن عمرو . أما الطفيل، فكان قد أسلم قديماً، والنبيّ ﷺ لا يزال بمكّة لم يهاجر بعد، ثم وفد إليه بالمدينة أيام الوفود وأخبره عن عصيان دوس، فدعا معهم ﷺ بالهداية فوفقهم الله فأسلموا.

* * *

❁ وفد نَجْرَان

[٥٥٧] عن حُذَيْفة رضي الله تعالى عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قال: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حَقَّ أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عُبَيْدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمِينُ هذه الأُمّة».

رواه أحمد (٣٩٨/٥، ٤٠٠)، والبخاري في المغازي (١٥٦/٩، ١٥٧) وفي الفضائل، ومسلم في الفضائل (١٩٢/١٥)، والترمذي في المناقب أيضاً. . . وابن ماجه (١٣٥) وغيرهم، ونحوه عن ابن مسعود رواه أحمد (٤١٤/١)، والحاكم (٢٦٧/٣) بسندٍ صحيح.

«نجران» بلد كبير بين الحجاز واليمن وهو إلى اليمن أقرب، وهو في حدود المملكة العربية الآن كان يسكنه قديماً النصارى والآن يسكنه الشيعة بكثرة.

وكان قد وفد منه إلى النبيّ ﷺ هذان الرجلان من كِبار المسيحيّين، وأرادا ملاعنته ﷺ كما أمره الله تعالى بذلك فخافا من ذلك على أنفسهما وعلى عقبهما من الهلاك، فصالحا النبيّ ﷺ على أداء الجزية، وكان ذلك ألفي حلّة: ألفاً في رجب، وألفاً في صفر، ومع كل حلّة أُوقية من فضّة، وفي سنن أبي داود (٣٠٣٦) عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام صالحهم على ألفي حلّة وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردّوها عليهم... على أن لا تهدم لهم بيعةٌ ولا يخرج لهم قَسٌّ ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الرّبا، ويقال: إن هذين العاقب والسيد أسلما بعد ذلك كما ذكره ابن سعد.

والمباهلة قدمنا معناها في التفسير عند قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية، والكلام على أبي عبيدة يأتي في الفضائل.

* * *

❋ وفد كندة والأشعث بن قيس

[٥٥٨] عن الأشعث بن قيس رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفْضَلَهم، فقلت: يا رسول الله ألستم منا؟ فقال: **«نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمّنا ولا ننتفي من أبينا»**.

قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: «لا أُوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ».

رواه أحمد (٥/٢١١، ٢١٢)، وابن ماجه وغيرهما وسنده صحيح وتقدم في نسب النبيّ ﷺ رقم (١).

الأشعث بن قيس سيد كندة وأميرها في الجاهلية والإسلام وفد على

النبيّ ﷺ في جمع من قومه وأسلم، ولما كانت أيام الصديق امتنع كقومه من أداء الزكاة، فبعث إليهم مَن قاتلهم وأتي بالأشعث موثقاً إلى أبي بكر، فراجع شأنه وحَسُن إسلامه فزوّجه الصدّيق أُخته وحضر المشاهد والفتوحات وأبلى البلاء الحسن، ثم كان مع الإمام عليّ عليه السلام، فشهد معه صفّين والنهروان وتوفي بعد مصالحة الحسن عليه السلام معاوية عام ٤٠، وله أخبار كثيرة مشهورة في كتب التاريخ.

* * *

❋ قُدُومُ جَرِيرِ بنِ عبدِالله البَجَليّ

[٥٥٩] عن جرير بن عبدالله البجليّ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا دنوت من المدينة أنَخْت راحلتي ثم حللت عيبتي، ثم لبست حلّتي، ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ذكرك بأحسن الذِّكر بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: **«يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفجّ من خير ذي يمن ألا إن على جبهته مسحة ملك»**، قال جرير: فحمدت الله عزّ وجلّ على ما أبلاني.

رواه أحمد (٣٥٦/٤، ٣٦٠، ٣٦٤)، والحميدي (٨٠٠) وغيرهما بسند صحيح.

[٥٦٠] وعنه قال: ما حجبني عنه رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسّم.

رواه أحمد (٣٥٨/٤، ٣٦٥)، والبخاري في المناقب (١٣٢/٨)، ومسلم في الفضائل (٣٤/١٦، ٣٥)، والترمذي (٣٥٩١)، وابن ماجه (١٥٩).

جرير بن عبدالله البجلي كان من خثعم اليمنية أسلم في هذه السنة مؤخراً، وكان من أشراف قومه جميل الصورة طويلاً، كانت قامته ثلاثة

أمتار، ولذلك لمّا قدم على النبيّ ﷺ ودخل المسجد رماه الناس بأبصارهم ينظرون إليه تعجّباً من طوله وجمال صورته، وفي الحديثين فضيلة له حيث أثنى النبيّ ﷺ عليه وأنه كان لا يحجبه عنه، كما كان لا يراه إلا تبسّم ﷺ.

* * *

❋ بعث النبيّ ﷺ جريراً لِتَخْرِيب ذي الخَلَصةِ

[٥٦١] عن جرير رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألاَ تُرِيحُنِي من ذي الخَلَصة»**، فقلت: بلى، فانطلق في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثْبُتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فَضَرَبَ يدَهُ على صَدْرِي وقال: **«اللّهمّ ثَبِّتْه، واجعله هادياً مهدياً»**، قال: فما وقعت عن فرس بعد، قال: وكانت ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة في نُصُبٍ تُعْبَدُ يقال لها الكعبة ـ يعني اليمانية ـ قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لَتُكَسِّرنَّها ولتشهدَنَّ أن لا إله إلا الله أو لأضربنّ عنقك، قال: فكسّرها وشَهِدَ. ثم بعث جريرٌ رجلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبيّ ﷺ يبشره بذلك، فلما أتى النبيّ ﷺ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ ما جئت حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ، قال: فبرك النبيّ ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

رواه أحمد (٣٦٢/٤، ٣٦٥)، والحميدي (٨٠١)، والبخاري في المغازي (١٣٢/٩، ١٣٥)، ومسلم في الفضائل (٣٥/١٦، ٣٦)، وأبو داود والترمذي في المناقب وابن ماجه.

«ذو الخلصة» ـ بفتحات ـ هو اسم صنم كان ببيت في أرض خثعم، وكانوا يسمّونها الكعبة اليمانية. وقوله: «كأنها جمل أجرب» هو عبارة عن

تهديمها وتفريق حجارتها ونزع زينتها وإذهاب بهجتها، وأصبحت كأنها سوداء لما وقع فيها من التحريق.

وفي الحديث وجوب تهديم أثر الشّرك وإزالة علاماته وتحريق ذلك، وفيه فضل جرير وقومه الأحمسيين حيث دعا معهم النبيّ ﷺ خمس مرات، وفيه تخصيص جرير بالدعاء معه بالثّبات على الخيل، وأن يكون هادياً لغيره مهديّاً في نفسه.

* * *

❊ بعثُ النبيّ ﷺ بُعُوثاً إلى اليَمَن للدَّعْوَةِ إلى الله تعالى إرسال عليّ وخالد إلى هَمْدان

[٥٦٢] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث عليّاً بعد ذلك مكانه، فقال: «**مُرْ أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعَقِّب معك فليعقّب، ومن شاء فليُقْبِل**»، فكنتُ فيمن عقّب معه قال: فغنِمْتُ أواقي ذوات عدد. زاد في رواية: فكنت ممن عقب معه، فلما دَنَوْنا من القوم خرجوا إلينا فصلّى بنا عليّ وصفّنا صفّاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدانُ جميعاً، فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال: «**السلام على همدان**».

رواه البخاري في المغازي (١٢٧/٩) بالرواية الأُولى، والإسماعيلي في المستخرج على البخاري بالزيادة الثانية كما أفاده الحافظ.

قوله: «من شاء أن يُعَقِّب» أي: يرجع إلى اليمن ليصيب غزوة أخرى، وقيل: يرجع إلى بلده ليخلفه غيره... وكلاهما محتمل. وفي الحديث مشروعيّة إرسال الدُّعاة إلى الله تعالى والقتال على الإسلام، وفيه مشروعية سجود الشكر وقد تقدم ذلك في الصلاة، وقد جاءت أحاديث أخرى تتعلّق

ببعث الإمام عليّ إلى اليمن تقدَّم بعضها في الجهاد وفي الحجّ، وتأتي أخرى في الفضائل.

* * *

❋ إرسال معاذ وأبي موسى إلى اليمن

[٥٦٣] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت إلى النبيّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريّين أحدهما عن يميني، والآخر عن شمالي، وكلاهما سأل العمل والنبيّ ﷺ يستاك، فقال: «**ما تقول يا أبا موسى؟ أو يا عبدالله بن قيس**»؟ قلت: والذي بعثك بالحقّ ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته، فلهث وقال: «**لن نستعمل أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبدالله بن قيس**»، فبعثه على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل، قال: فلما قدم عليه معاذ قال: انزل، وألقى له وسادة، وإذا رجل عنده مُوثَقٌ، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلم ثم رجع إلى دينه دين السوء قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله، قال: نعم اجلس، قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء الله ورسوله ـ ثلاث مرات ـ فأمر به فقُتِل ثم تذاكروا قيام الليل فقال معاذ: أما أنا فأنام وأقوم، أو أقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي.

وفي رواية: بعث النبيّ ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «**يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وَتَطاوَعا**»، فقال أبو موسى: يا نبيّ الله إن أرضنا فيها شراب من الشعير المِزْرُ، وشرابٌ من العسل البِتْعُ، فقال: «**كل مسكر حرام**»، فانطلقا فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً وقاعداً، وعلى راحلتي وأنَفَوُّقُه تفَوُّقاً. قال: أما أنا فأنام وأقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.

وضرب فسطاطاً فجعلا يتزاوران فزار معاذ أبا موسى، فإذا رجل موثق فقال: ما هذا؟ فقال أبو موسى: يهودي أسلم ثم ارتدّ، قال معاذ: لأضربنّ عنقه.

رواه أحمد (٤/٤١٠، ٤١٦، ٤١٧)، والبخاري في المغازي (٩/١٢٢، ١٢٣، ١٢٥) وفي الأدب وفي الأحكام، ومسلم في الأشربة وابن ماجه فيه (٣٣٩١).

في الحديث بروايتيه أمور، أولاً: عدم توظيف أحد في شؤون الدولة ممن يطلبها، وقد تقدّم ذلك في الخلافة. ثانياً: قتل المرتدّ، وهذا لا خلاف فيه. ثالثاً: الاقتصاد في العبادة. رابعاً: مشروعية التيسير على الناس وتبشيرهم بدل التشديد والتيئيس، وذلك يختلف باختلاف المدعوّين والزّمانِ والمكان. خامساً: تحريم كل شراب يسكر من أيّ نوع كان، وقد تقدم هذا في الأشربة مبسوطاً.

* * *

❊ وصية النبيّ ﷺ معاذاً عند إرساله إلى اليمن

[٥٦٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حيث بعثه إلى اليمن: **«إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليه صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»**.

رواه أحمد (١/٢٣٣)، والبخاري في الزكاة وفي المغازي (٩/١٢٦)، ومسلم في الإيمان (١/١٩٦)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٥٥٦)، والنسائي في الكبرى (٢/٥) وفي المجتبى (٥/٣)، وابن ماجه (١٧٨٣) كلّهم في الزكاة، وتقدم مختصراً في أول الزكاة من الجزء الثاني ص (٥٢٨).

وفي الحديث بيان ما يُدْعَى إليه أهل الكتاب من الشرائع، وفيه

وجوب تجنّب كرائم أموال الناس في أخذ الزكاة، وفيه التحفّظ من الظلم خشية دعوة المظلوم، فإنها مقبولة عند الله لا تُرَدّ وإن كان فاسقاً.

* * *

❊ خروج النبيّ ﷺ مع معاذ يودّعه ويخبره بأنه لن يراه بعدُ

[٥٦٥] عن عاصم بن حُمَيْد السكوني رضي الله تعالى عنه أن معاذ بن جبل لمَّا بعثه النبيّ ﷺ إلى اليمن، فخرج النبيّ ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: **«يا معاذ إنَّكَ عَسَى أنْ لا تَلْقاني بعدَ عامي هذا، ولعلَّك أن تَمُرَّ بمسجدي وقبري»**، فبكى معاذ خاشعاً لفراق النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: **«لا تَبْكِ يا معاذ، البكاء ـ أو إن البكاء ـ من الشيطان»**.

رواه أحمد (٥/٢٣٥)، وابن حبان (٢/٤١٤) مع الإحسان، والبيهقي في السنن (١٠/٨٦) وفي الدلائل (٥/٤٠٤، ٤٠٥)، وعزاه النور (١٠/١٣١، ١٣٢) للطبراني وقال: إسناده جيّد وأورده أيضاً (٩/٢٢) وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد وهما ثقتان، فالحديث صحيح، وللحديث زيادة ستأتي في موضع آخر.

في الحديث عَلَمٌ من علامات النبوّة حيث أخبر ﷺ معاذاً، وقد بعثه إلى اليمن بأنه سوف لا يلقاه بعد عامه ذاك، وأنه سوف يأتي فيجده قد توفي ﷺ فيأتي مسجده وقبره الشريف، فكان الأمر كذلك، فكانت تلك آخر رؤية رآه فيها، فتوفي ﷺ ومعاذ باليمن.

وفيه: البكاء من فراق الأحبّة، وقوله عليه السلام: **«لا تبك إن البكاء من الشيطان»** ليس هذا على إطلاقه، فإن البكاء المذموم هو ما كان فيه شقّ الثياب، ولطم الخدود وسلق اللّسان، وما عدا ذلك فمحمود، لا سيما

البكاء شوقاً إلى الله وإلى رسوله ﷺ، بل ذلك يعدّ من أشرف الأحوال جعلنا الله تعالى من أهله، آمين. ولعل معاذاً ظهر مع بكائه ما يذم عليه.

* * *

❋ من أحداث هذه السنة (٩)
هلاك ابن أُبيّ المنافق

[٥٦٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لما تُوُفِّي عبدُالله بن أُبَيّ ابن سلول جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه إيّه فأعطاه، ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما خيّرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، وسأزيده على سبعين**»، قال: إنه منافق، فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الآية.

رواه البخاري في التفسير (٩/٤٠٣، ٤٠٨)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٦٧) وفي صفات المنافقين (١٧/١٢١) وغيرهما.

وقد تقدم في التفسير مع حديثٍ آخر لعمر رضي الله تعالى عنه.

كان عبدالله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين شريراً خبيثاً له مواقف شهيرة في الطعن في الإسلام وعداوة النبي ﷺ ومصادقته لليهود ضدّ الإسلام، وهو الذي أثار قصة الإفك وقذف السيدة عائشة بصفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنهما، وكان له ولد اسمه عبدالله صادقاً في إسلامه تأسّف على والده بعد موته منافقاً، وأراد أن تلحقه بركة النبيّ ﷺ، وهيهات هيهات، فسأل النبيّ ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفّنه فيه فأعطاه إيّاه ثم طلب منه أن يصلّي عليه عسى الله أن يرحمه فصلّى عليه فنزل القرآن

ينهاه عن الصلاة على المنافقين وعن القيام على قبورهم، وذلك لكفرهم وفسقهم، وكان ذلك من موافقات عمر الذي أراد أن يمنع النبيّ ﷺ من الصلاة على ذلك الخبيث.

أمّا القميص الذي أعطاه النبيّ ﷺ عبدالله، فكان بسبب يدٍ له عند النبيّ ﷺ كما في الحديث التالي:

[٥٦٧] فعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا كان العباس بن عبد المطلب بالمدينة طلبت الأنصار ثوباً يكسونه فلم يجدوا قميصاً يصلح عليه إلا قميص عبدالله بن أُبيّ فكسوه إياه. وفي رواية: لما كانوا يوم بدر أُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبيّ ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبدالله بن أُبي يقدر عليه، فكساه النبيّ ﷺ إيّاه، فلذلك نزع النبيّ ﷺ قميصه الذي ألبسه.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: كانت له عند النبيّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أن يكافئه...

رواه البخاري في الجهاد باب الكسوة للأسارى رقم (٣٠٠٨).

* * *

❁ خلاصة ما وقع في السنة التاسعة من أحداث

وقع فيها بدايةً جمع الصدقات، وإسلام عدي بن حاتم الطائي، وغزوة تبوك وفيها أحداث: كإخباره بوجهة خروجه، وأمره بالصدقة استعداداً للغزوة، وذكر البكّائين، واستخلافه الإمام عليّاً على المدينة، ومروره ﷺ على بلاد ثمود، وما أصاب الصحابة في طريقهم من الشدّة، ومرورهم على حديقة امرأة بوادي القرى وإخباره ﷺ بهبوب ريح عاصفة وما حصل في عين تبوك من بركة النبيّ ﷺ، ومدة إقامته بتبوك، وإهداء ملك أيلة للنبيّ ﷺ بغلة بيضاء، وقصة أُكيدر دومة الجندل، واستهزاء المنافقين بالله وبآياته ورسوله، ومحاولتهم الفتك برسول الله ﷺ، وبركته ﷺ في الإبل

والرواحل بعد جهدها، ثم دخوله ﷺ المدينة واستقبال الناس إياه بثنيّة الوداع، ثم ذكر حديث كعب بن مالك الطويل في توبة الله على الثلاثة الذين خلّفوا، ثم قدوم وفد ثقيف على النبيّ ﷺ مسلمين، ثم تأمير النبيّ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف، ثم حجّ أبي بكر بالناس، ثم وفود القبائل العربية على النبيّ ﷺ كوفد بني تميم، ووفد بني عامر، ووفد ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد الأشعريين ووفد مزينة، ووفد دوس، ووفد نجران، ووفد كندة، وقدوم جرير بن عبدالله البجلي، ثم بعثه لتخريب ذي الخلصة، ثم بعث النبيّ ﷺ الإمام عليّاً وخالد بن الوليد وأبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن، ثم وصيّة النبيّ ﷺ معاذ بن جبل وخروجه معه مشيّعاً له، ثم هلاك ابن أُبيّ المنافق.

* * *

❋ السنة العاشرة
حجّة الوداع

أهم أحداث السنة العاشرة حجّة النبيّ ﷺ التي سُمّيت حجة الوداع، وقد تقدّمت بما فيها في كتاب الحجّ.

* * *

❋ بعض خطبه ﷺ في هذه الحجّة غير ما تقدم

[٥٦٨] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننّا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: «**أليس ذو الحجة؟**»

قلنا: بلى، قال: «**فأي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فمكث حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه فقال: «**أليس**» قلنا بلى، قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فمكث حتى ظننا أنه سيسمه بغير اسمه، فقال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربّكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه**»، ثم قال: «**ألا هل بلّغت**» مرتين.

رواه أحمد (٣٧/٥، ٧٣)، والبخاري في العلم وفي الحجّ وفي بدء الخلق وفي التفسير (٣٩٤/٩)، ومسلم (١٦٧/١١).

[٥٦٩] وعن عمرو بن الأحوص رضي الله تعالى عنه أنه شهد حجّة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: «**أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟ أي يوم أحرم؟**» فقال الناس: يوم الحج الأكبر يا رسول الله، قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا لا يَجْنِي جانٍ إلا على نفسه، ولا يَجْنِي والِدٌ على ولدِهِ، ولا وَلَدٌ على والِدِهِ، ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحلّ لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحلّ من نفسه، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم، لا تَظْلِمُون ولا تُظْلِمُون، غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم وُضِع من دماء الجاهلية دم الحارث بن عبدالمطلب، كان مُسْتَرْضعاً في بني ليث فقَتَلَتْه هُذَيل، ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عَوانٌ عندكم ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنةٍ، فإن فعلن فاهجروهنّ في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئن من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وإن حقهنّ عليكم أن تُحسنوا إليهنّ في كسوتهن وطعامهن**».

رواه أحمد (٤٩٩/٣)، والترمذي في الفتن (٢٩٩٠) وفي التفسير (٢٨٨٨)، وابن ماجه في الحجّ (٣٠٥٥)، والبيهقي في السنن (٢٧/٨)، وحسّنه الترمذي وصححه في الموضعين. وزاد في الموضع الأول: «**ألا وإن الشيطان قد أيِسَ أن يُعبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فيرضى به**»، وهذه الزيادة جاءت في مسلم...

[٥٧٠] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو على ناقته المُخَضْرَمَة بعرفات، فقال: «**أتدرون أيّ يوم هذا؟ وأيّ شهر هذا؟ وأيّ بلدٍ هذا؟**» قالوا: هذا بلدٌ حرام، وشهر حرام، ويومٌ حرام، قال: «**ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمة شهركم هذا، في يومكم هذا، ألا وإني فرطكم على الحوض، وأكاثرُ بكم الأمم، فلا تُسَوِّدوا وجهي، ألا وإني مستنقذ أناساً، ومستنقَذٌ مني أناسٌ فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**». رواه ابن ماجه (٣٠٥٧) وسنده صحيح.

[٥٧١] وفي الباب عن ابن عمر في البخاري وفيه: «**ألا هل بلّغت**» ثلاثاً، كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال: «**ويحكم ـ أو ـ ويلكم لا تَرْجِعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**».

[٥٧٢] وعن أبي أُمامة رواه أحمد (٢٥١/٥)، والترمذي في الصلاة، وابن حبان (٧٩٥)، والحاكم (٩/١، ٣٨٩) وصححه ووافقه الذهبي وفيه: «**اتّقوا الله ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنّة ربكم**»... «**إن الله قد أعطى كل ذي حقّ حقّه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله التابعة إلى يوم القيامة، لا تنفق المرأة شيئاً من بيتها إلا بإذن زوجها**»، فقيل: يا رسول الله ولا الطعام؟ قال: «**ذلك أفضل أموالنا**»، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**العارية مؤدّاة، والمنحة مردودة، والدَّين مقضيّ، والزعيم غارم**»، ومن أشهر خطبه في حجة الوداع خطبته الواردة في حديث جابر في صفة حجّته ﷺ وهي كنحو حديث ابن الأحوص، وفيها زيادة: «**وقد**

تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده، إنِ اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيْت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها: «**اللّهمّ اشهد، اللّهمّ اشهد...**» ثلاث مرات... رواه مسلم في الحج (٨/١٧٠، ١٩٤) في صفة حجّة النبيّ ﷺ.

خطبه ﷺ في حجّة الوداع كانت يوم سابع الحجّة قبل يوم التروية ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم ثانيه بمنى، وكانت أجمعهنّ خطبة يوم عرفة، ويلاحظ في هذه الخطب أنه جاء فيها كثير من الأحكام والوصايا والمواعظ، وقد تقدم الكثير من أجزائها مفرّقاً في الكتب والأبواب فيما سلف، وسيأتي الكلام على بعضها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الخطب دليل على أن الخطيب أو الداعية ينبغي له أن يُذَكّرَ الناس بالكلام الجامع المشتمل على سائر جوانب أُمور الديانة من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق والشؤون الزوجية والجنائية وما إلى ذلك، وخاصة إذا كانت المجامع عامّة كموسم الحجّ وأيام العيد والجُمَع... اقتداءً بالنبيّ ﷺ كما في هذه الخطب وغيرها.

* * *

السنة الحادية عشرة
بعث النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد إلى فلسطين

[٥٧٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما فطعن الناس في إمْرَتِهِ، فقام رسول الله ﷺ - يعني على المنبر - فقال: «**إن تطعنوا في إمْرَتِهِ فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبلُ، وايم الله إن كان لخليقاً للإمْرَةِ، وإن كان لَمِنْ أحبِّ الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**»، وفي رواية: «**أُوصِيكُم به، فإنّه من صالحيكم**».

رواه أحمد (٢/٢٠، ٨٩، ١٠٦، ١١٠)، والبخاري في المغازي (٩/٢١٨) وفي المناقب وفي الأحكام، ومسلم في الفضائل (١٥/١٩٥، ١٩٦)، والترمذي في المناقب (٣٥٨٧) بتهذيبي.

«بعث بعثاً» أي: أرسل جيشاً. «وأمّر» بتشديد الميم مع فتحها أي: جعله عليهم أميراً.

لمّا حجّ النبيّ ﷺ قدم المدينة آخر ذي الحجّة ومكث المحرم، ولما كان آخر صفر ندب الصحابة لغزو الروم، وكان ابتداء ذلك قبل مرضه ﷺ ودعا أُسامة فقال: «**سِرْ إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتُك هذا الجيش وأَغِرْ صباحاً على أبْنَى وحَرِّق عليهم وأسرِعْ المَسِير تسبق الخير، فإن ظفَّرك الله بهم فأقِلَّ اللَّبثَ فيهم**»، وفي رواية عند ابن إسحاق: وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناسُ، إلخ... فبدأ برسول الله ﷺ وجعُه في اليوم الثالث، فعقد لأُسامة لواءً بيده فأخذه أُسامة فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف، وكان الجيش مكوّناً من ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل أكثر من ذلك، وكان ممن انتدب مع أُسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، وسعد، وسعيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، فتكلّم في ذلك قوم فردّ عليهم عمر وأخبر النبيّ ﷺ، فخطب ﷺ بما ذكر في الحديث، ثم اشتدّ الوجع برسول الله ﷺ فتأخّر الجيش وانتظر حتى توفي رسول الله ﷺ واستخلف الصدّيق رضي الله تعالى عنه فجهّزه وساروا عشرين ليلة إلى الجهة التي أمروا بها فقاتلوا وغَنِمُوا ورجعوا سالمين، وكان الصدّيق وعمر رضي الله تعالى عنهما تخلّفا لمصلحة المسلمين وللمصيبة العظمى التي أصابتهم بموت النبيّ ﷺ.

* * *

❋ بداية مرضه ﷺ ووفاته

[٥٧٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أوّل ما اشتكى

رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، وفي رواية: لما ثَقُل رسولُ الله ﷺ واشتدّ به وجعه استأذن أزواجه أن يُمَرَّضَ في بيتي فأَذِنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تخطّ رجلاه في الأرض بين عباس بن عبدالمطلب، وبين رجل آخر، قال ابن عباس: هو عليّ.

قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتدّ به وجعه قال: **«اهريقوا عليّ من سبع قِرَبٍ لم تُحلَلْ أوكيتُهن لعلّي أعهَدُ إلى الناس»**، فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبيّ ﷺ، ثم طفقنا نصبّ عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أنْ قد فعلتُنَّ، قالت: ثم خرج إلى الناس فصلّى بهم وخطبهم.

رواه أحمد (١١٧/٦)، والحميدي (٢٣٣)، والبخاري في مرض النبيّ ﷺ ووفاته (٢٠٦/٩، ٢٠٧)، ومسلم في الاستخلاف في الصلاة...

«المخضب» جفنة يُغسل فيها الثياب.

[٥٧٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَك فمسسْته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك لتُوعك وعكاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: **«أجل إني أُوعَك كما يوعك رجلان منكم»**، قال: فقلت ذلك أن لك أجرين، فقال رسول الله ﷺ: **«أجل»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يصيبه أذى من مرضٍ فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاتِهِ كما تَحُطُّ الشجرةُ وَرَقَها»**.

رواه أحمد (٤٥٥/١)، والبخاري في المرض وغيره، ومسلم في البرّ والصّلة وقد تقدم.

«الوَعَك» ـ بفتحتين ـ شدّة الحمّى ووجعها.

[٥٧٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيتُ رجُلاً اشتدَّ عليه الوجعُ من رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (١٨١/٦)، والبخاري في المرض (١٤/١٢)، ومسلم في البرّ والصلة رقم (٢٥٧٠)، والترمذي في الزّهد (٢٢١٧)، وابن ماجه (١٦٢٢) في الجنائز وقد تقدم أيضاً.

[٥٧٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خطب النبيّ ﷺ فقال: **إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله»**، فبكى أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فقلت في نفسي: ما يُبْكِي هذا الشيخ إن يكن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعْلَمَنا، قال: **«يا أبا بكر لا تَبْكِ إن من أمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متّخذاً خليلاً من أمّتي لاتّخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودّته، لا يَبْقينَّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»**.

رواه البخاري في الصلاة وفي المناقب (١٢/٨، ١٤)، ومسلم في الفضائل (١٤٩/١٥، ١٥١)، والترمذي في المناقب (٣٤٣٣).

[٥٧٨] وفي رواية: خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه ونحن في المسجد عاصباً رأسه بخرقة حتى أهوى نحو المنبر، فاستوى عليه وابتغاه قال: **«والذي نفسي بيده إني لأنظر إلى الحوض مِن مَقامي هذا»**، ثم قال: **«إن عبداً عُرِضَتْ عليه الدنيا وزينتُها فاختار الآخرة»**، قال: فلم يفطن لها غيرُ أبي بكر فذرفت عيناه فبكى، ثم قال: بل نفديك بآبائنا وأمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا يا رسول الله، قال: ثم هبط فما قام عليه حتى الساعة.

رواه الدارمي في المقدمة باب وفاة النبيّ ﷺ رقم (٧٨) وسنده عنده حسن.

* * *

❊ اهتمامه ﷺ بالصلاة وأمره أبا بكر أن يصلّي بالناس

[٥٧٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ثقل النبيّ ﷺ فقال: **«أصلّى الناس؟»** قلنا: لا هم ينتظرونك، قال: **«ضعوا لي ماء في المِخْضَب»**، قالت: ففعلنا فاغتسل فذهب لِيَنُوءَ فأُغْمِيَ عليه ثم أفاق، فقال ﷺ: **«أصلّى الناس»**؟ قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس

عكوف في المسجد ينتظرون النبيّ ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبيّ ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرُك أن تصلّي بالناس، فقال أبو بكر: وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر صلِّ بالناس، فقال عمر: أنت أحقُّ بذلك، فصلّى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبيّ ﷺ وجَدَ من نفسه خِفَّةً فخرج بين رجلين أحدُهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلّي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخّر فأومأ إليه النبيُّ ﷺ بأن لا يتأخّر، فقال: «أجلِساني إلى جَنْبِهِ»، فأجلساه إلى جَنْبِ أبي بكر قال: فجعل أبو بكر يصلّي وهو يأتمّ بصلاة النبيّ ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبيّ ﷺ قاعدٌ...

رواه البخاري في الجماعة من الصلاة (٢/٢٩٢، ٢٩٥) وفي الوفاة النبوية (٩/٢٠٦)، ومسلم (٤/١٣٦، ١٣٨)، والنسائي (٢/٧٨) كلاهما في الصلاة.

[٥٨٠] وعنها في رواية قالت: لما ثَقُل رسولُ الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: «مُرُوا أبا بكر فلْيصَلِّ بالنّاس»، قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسِيف وإنه متى يَقُمْ مقامَك لا يُسْمِع الناس فلو أمرتَ عُمر، فقلت له، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّكُنّ لأنتن صواحبُ يوسفَ، مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس»، قالت: فأمروا أبا بكر يصلّي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خِفَّة فقام يُهادَى بين رجلين ورجلاه تَخُطَّانِ في الأرض، قالت: فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حِسَّه ذهب يتأخّر فأومأ إليه رسولُ الله ﷺ: قِمْ مكانك، فجاء رسولُ الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلّي بالناس جالساً، وأبو بكر قائماً يقتدي أبو بكر بصلاة النبيّ ﷺ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر...

رواه أحمد (٦/٢١٠، ٢٢٤)، والبخاري ومسلم (٤/١٤٠).

قوله: «رجل أسِيف» أي: سريع الحزن والبكاء رقيق القلب.

* * *

❋ اجتماع نسائه عنده ﷺ ومساررته لمولاتنا فاطمة ابنته عليها السلام

[٥٨١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: اجتمع نساء النبيّ ﷺ فلم يغادر منهنّ امرأةً، فجاءت فاطمةُ تمشي كأنَّ مشيتَها مشيةُ رسولِ الله ﷺ، فقال: **«مرحباً بابنتي»**، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسَرَّ إليها حديثاً فبكت فاطمة، ثم إنه سارَّها فضحكت أيضاً، فقلت لها: ما يُبكيكِ؟ فقلت: ما كنت لأُفْشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصَّكِ رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين. وسألتها عمّا قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ حتى إذا قُبِض سألتها فقالت: إنه كان حدّثني **«أنّ جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرّة، وأنه عارضه به في العام مرّتين، ولا أُراني إلا قد حضر أجلي وأنكِ أوّلُ أهلي لحوقاً بي، ونعم السلفُ أنا لك»**، فبكيت لذلك، ثم إنه سارّني فقال: **«ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأُمّة»**، فضحكت لذلك.

رواه البخاري في علامات النبوّة وفي الوفاة النبوية (٩/٢٠٠، ٢٠١) وفي المناقب، ومسلم في الفضائل (١٦/٥/٦، ٧).

❋ ❋ ❋

❋ محاورة عليّ والعباس في شان الولاية

[٥٨٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ عليّ بنَ أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجَعِهِ الذي تُوفّي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا، وإني والله لأرَى رسول الله ﷺ سوف يتوفّى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ

فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ **إن كان فينا علمنا ذلك**، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال عليّ عليه السلام: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمَنَعَنَاها لا يُعْطِينَاها الناسُ بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

رواه عبدالرزاق في المصنّف رقم (٩٧٥٤)، وابن سعد في الطبقات (٢/٢٤٥) وهو في البخاري في الاستئذان وفي الوفاة النبويّة (٩/٢٠٨).

* * *

❁ إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي

[٥٨٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّه قال: يومُ الخميس وما يَوْمُ الخميس، ثم بكى حتى بلَّ دمعُه الحَصَى، فقيل: يا ابن عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «**إيتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي**»، فتنازعوا وما ينبغي عند نبيّ تنازع، وقالوا: ما شأنه؟ أَهَجَر؟ استفهموه، قال: «**دعوني فالذي أنا فيه خير، أوصيكم بثلاث: أخرِجُوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**»، قال: وسكت عن الثالثة أو قالها فنسيتها. وفي رواية: لما حُضِرَ رسولُ الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبيّ ﷺ: «**هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده**»، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللّغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال: «**قوموا**».

رواه أحمد (١/٢٢٢، ٣٢٤، ٣٥٥)، والحميدي (٥٢٦)، والبخاري في الوفاة النبويّة (٩/١٩٧، ٢٠٠) وفي العلم وفي الجهاد وفي الاعتصام، ومسلم في الوصية (١١/٨٩، ٩٠)، وأبو داود (٣٠٢٩).

* * *

❋ اشتداد المرض عليه ﷺ وما حصل له بعد ذلك وما كان يقول

[٥٨٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا ثَقُل النبيّ ﷺ جعل يَتَغَشَّاهُ، فقالت فاطمةُ عليها السلام: واكَرْبَ أباهُ، فقال: **«ليس على أبيكِ كربٌ بعد اليوم»**، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل نَنْعاه، فلما دُفِن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب.

رواه أحمد (١٤١/٣، ١٩٧)، والبخاري في الوفاة النبويّة (٢١٥/٩)، والترمذي في الشمائل (٣٧٩)، والنسائي في الجنائز وابن ماجه (١٦٢٩، ١٦٣٠)، والدارمي في المقدمة (٨٨).

[٥٨٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: **«إنه لم يُقْبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يَرَى مقعده من الجنّة، ثم يُحيا أو يُخَيَّر»**، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غُشي عليه، فلما أفاق شَخَصَ بصَرُه نحو سقف البيت، ثم قال: **«اللّهمّ في الرفيق الأعلى»**، فقلت: إذاً لا يُجَاوِرُنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدّثنا وهو صحيح.

رواه البخاري في الوفاة النبويّة (٢٠٣/٩)، ومسلم في الفضائل (٢٠٩/١٥) وغيرهما.

[٥٨٦] وعنها قالت: كنت أسمع أنه لن يموت نبيّ حتى يخيّر بين الدنيا والآخرة، قالت: فسمعت النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه وأخذته بُحَّةٌ يقول: **«مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»**، قالت: فظننته خُيِّر حينئذٍ.

رواه أحمد (٤٨/٦، ١٧٦، ٢٠٠، ٢٧٤)، والبخاري (٢٠٢/٩)، ومسلم في الفضائل وابن ماجه (١٦٢٠).

❋ ❋ ❋

❋ من آخر وصاياه

[٥٨٧] عن عليّ عليه السلام قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**».

رواه أحمد (١/٧٨، ٣٨٨)، وأبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨) وسنده صحيح لغيره، فإن له شواهد، وانظر تهذيبي للخصائص رقم (٦٨٢).

❋ ❋ ❋

❋ خروجه على الصحابة وابتسامه ثم دخوله فلم يخرج إلى يوم القيامة

[٥٨٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أبا بكر كان يصلّي لهم في وجَعِ رسولِ الله ﷺ الذي تُوُفِّيَ فيه حتى إذا كان يومُ الاثنين، وهم صفوفٌ في الصلاة كَشَفَ رسولُ الله ﷺ ستر الحُجْرة فنظر إلينا وهو قائم كأنَّ وَجْهَه ورقةُ مُصْحَف ثم تبسَّم رسول الله ﷺ ضاحكاً، قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول الله ﷺ، ونَكَصَ أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنَّ أن رسول الله ﷺ خارجٌ للصلاة، فأشار إليهم رسولُ الله ﷺ بيده «**أن أتِمُّوا صلاتكم**»، قال: ثم دخل رسول الله ﷺ وأرخى السِّتر قال: فتوفي من يومه ذلك.

رواه أحمد (٣/١١٠، ١٦٣، ١٩٦، ٢١١)، والبخاري في الوفاة النبوية (٩/٢٠٩) وفي الصلاة وفي مواضع، ومسلم في الاستخلاف في الصلاة (٤/١٤٣) والنسائي والترمذي وغيرهما.

❋ ❋ ❋

❋ آخر لحظاته من الحياة وموته عند سيّدتنا عائشة

[٥٨٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تقول: إن من نِعَم الله

تعالى عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْرِي ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقي وريقِه عند موته، ودخل عليَّ عبدُالرحمٰن وبيده السواكُ وأنا مُسْنِدَةٌ رسولَ الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحبّ السواك، فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولتُه فاشتدّ عليه وقلت: أُلَيِّنُه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليَّنته فأمرّه وبين يديه ركوة أو عُلْبة، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه يقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**»، ثم نصب يده فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**» حتى قُبِض ومالت يده.

رواه أحمد (٤٨/٦، ١٢١، ٢٠٠)، والبخاري في الوفاة النبوية (٢١٠/٩) وفي مواضع، والنسائي في الجنائز باب شدّة الموت.

* * *

❁ خلاصة هذه الأحاديث في مرضه وموته ﷺ

أحاديث هذا الفصل تشتمل على أُمور:

أولاً: كان ابتداء مرضه ﷺ وهو في بيت ميمونة رضي الله تعالى عنها وجعل يسأل أين أنا غداً... فعرف نساؤه أنه يريد بيت عائشة، فأذنَّ له أن يُمَرَّض عندها لما كان يجد منها من البرور والإحسان.

ثانياً: اختلف علماء السيرة وغيرهم متى ابتدأ به المرض، وكم كانت مدّته؟ فقيل: ابتدأه يوم الاثنين أو السبت والأكثر على أنه مرض ثلاثة عشر يوماً وتوفي يوم الاثنين بلا خلاف، والجمهور على أن ذلك كان في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، وأنه عاش بعد حجّته ﷺ ثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

ثالثاً: كان في مرضه يوعك وَعْكاً شديداً خلاف غيره ﷺ، حتى إنه كان توضع له ركوة فيها فيضع فيها يده ويمسح بها وجهه الشريف، ويقول: «**إن للموت سكرات**» أي: غشياناً.

وأمر نساءه أن يفرغن عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، فالله أعلم ماذا كان يريد بذلك، هل كان يبتغي بها تخفيف الألم؟ وهو الظاهر أم غير ذلك...

رابعاً: من خصائص الأنبياء أن الله عزّ وجلّ كان يخيّرهم بين الدنيا والآخرة، وهكذا فعل بنبيّنا ﷺ، فخيّره الله تعالى بين الدنيا وزينتها... وبين الآخرة، فاختار ما عند الله وأخبر أصحابه بذلك وأبهم عليهم المخيَّر، فلم يفطن لذلك إلا الصدّيق ولذلك بكى، وقال له: نفديك بآبائنا وأمّهاتنا.

خامساً: في أمره ﷺ الصدّيق رضي الله تعالى عنه بالصلاة بالناس دليل على ترشيحه للخلافة بعده، وأنه كان أهلاً للإمامة في الدّين والدنيا قبل غيره، ولذلك أدلّة كثيرة بعضها كالصريحة في ذلك، كما ذكرت ذلك مفصّلاً في «فضائل الصحابة».

سادساً: استدلّ جماعة من الأئمّة كمالك وغيره بصلاته ﷺ في مرضه قاعداً والصحابة وراءه قياماً على نسخ صلاته من قعود وأمره ﷺ من صلّى خلفه بالقعود، وقد اختلف الأئمّة في ذلك والذي نختاره وجوب اتّباع الإمام في القيام والقعود وصلاته ﷺ هذه في مرضه لم تكن عادية، وهي قضية عين وصلاة طارئة...

سابعاً: في اجتماع أزواجه وابنته رضوان الله تعالى عليهن عنده ﷺ ومساررته لابنته دليل على فضلها عليهنّ، وذلك لا خلاف فيه، وسيأتي مزيد لهذا في الفضائل.

ثامناً: كان آخر خروجه وآخر نظرة نظر إليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم عندما قام وكشف ستارة البيت ونظر إليهم وهم صفوف يصلّون بإمامة الصدّيق وهو عاصبٌ رأسه ووجهه يتلألأ نوراً يميل إلى صفة ورق المصحف، فكاد الصحابة يفتنون فرحاً ببروزه وخروجه ثم تبسّم ابتسامته الشريفة فرحاً باجتماع الصحابة صفوفاً في أداء صلاتهم خلف الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أرخى الستر ودخل.

تاسعاً: عندما اشتدّ عليه المرض أخذته بحّة في حلقه وهو مستند إلى

حبيبته مولاتنا عائشة رأسه عند نحرها وسحرها، ويرفع بصره إلى السماء ويقول: «**اللَّهمَّ الرفيق الأعلى**» ويقول: «**إن للموت سكرات**»، وكان آخر ما صنع أن تسوَّك بسواك عبدالرحمٰن بن أبي بكر ثم نطق قائلاً: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين**». ففاضت روحه الشريفة ولم تشعر عائشة بموته، بل ظنته مغشيّاً عليه، فكان أوّل مَنْ دخل عليها عمر والمغيرة بن شعبة، فاستأذنا فأذِنَتْ لهما فاحتجبتْ فنظر إليه عمر وقال: ما أشدَّ غشيَ رسول الله ﷺ، ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسولُ الله ﷺ، فقال له: كذبتَ، ثم جاء أبو بكر فنظر إليه وقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ، فقبَّله وخرج إلى المسجد فخطب الناس، كما يأتي.

عاشراً: في شأن قوله ﷺ: «**إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً**» إلخ، اختلف العلماء في الكتاب الذي همَّ النبيّ ﷺ به، والظاهر أنه الذي جاء في الحديث التالي:

[٥٩٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادعُ لي أبا بكر وأخاكِ حتى أكتبَ كتاباً، فإني أخاف أن يتَمَنَّى مُتَمَنٍّ، ويقول قائل: أنا أوْلَى ويأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر...**».

رواه أحمد (٦/٣٤، ١٤٤)، والبخاري في الأحكام (٧٢١٧) وفي المرض (٥٦٦٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٥٥).

فهذا الذي أمر به عائشة هنا هو الذي أراده بقوله فيما سبق: «**إيتوني بكتاب**» إلخ، وكل ما يقال سوى هذا فبعيد عن الحقّ، وبهذا يعرف صواب ما قاله عمر رضي الله تعالى عنه: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله... فكان ذلك من فقهه وفضائله ودقيق نظره، كما قال النووي رحمه الله تعالى وغيره وما جاء في الحديث من قول بعضهم: أهَجَر رسول الله، كان على وجه الاستفهام؛ لأن الرسول ﷺ لا يصدر منه الهَجَر وهو الهذي والكلام الساقط. وعلى أيٍّ، فالأولى بالمسلم أن يغضّ الطرف عن مثل هذه الحادثة ولا يتعرّض للطعن في كبار أصحاب

رسول الله ﷺ كما هو شأن الروافض عافانا الله تعالى مما ابتلوا به، وانظر لهذا الموضوع النووي على مسلم (١٥/١٥٥).

حادي عشر: لم يثبت عنه ﷺ أنه أوصى بالخلافة نصّاً لأحد لا للإمام عليّ عليه السلام ولا لغيره، وإنما أوصى بكتاب الله عزّ وجلّ وبالصلاة وبالممالك وما يدّعيه الإمامية الروافض وغيرهم من الوصاية بالخلافة للإمام عليّ كل ذلك باطل لا يصح منه شيء عند أهل العلم بالحديث، ولا يوجد ذلك إلا في كتبهم الخرافية، وها هما عليّ والعباس رضي الله تعالى عنهما يتحاوران في شأن الخلافة فيمتنع الإمام عليّ عليه السلام من سؤال النبيّ ﷺ إيّاها وهو في آخر اللحظات من حياته.

* * *

❋ ما بعد موته ﷺ

[٥٩١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضي لله تعالى عنه أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة، فتيَمَّمَ رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوب حِبَرةٍ فكشف عن وجهه، ثم أكَبَّ عليه فقبّلَه وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّهَا.

وفي رواية: إن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنح ـ تعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنّه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله، فقال: بأبي أنت وأمّي طِبْت حياً وميتاً، والله الذي نفسي بيده لا يُذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألاَ من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾،

وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال: فَنَشَجَ الناس يبكون... ثم ذكرت قصة الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

رواه البخاري في الفضائل وفي المغازي (٩/٢١١، ٢١٢)، والنسائي وابن ماجه (١٦٢٧) كلاهما في الجنائز.

[٥٩٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أبا بكر خرج وعمر يكلّم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبَى عُمر أن يَجْلِس فأقبل الناسُ على أبي بكر وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، مَن كان يعبد منكم محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقّاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. قال عُمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعُقِرْت حتى ما تُقِلُّني رجلايَ وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبيّ ﷺ قد مات.

رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٢) وفي المغازي (٤٤٥٤).

«السُّنح» بضم السين مع تشديدها ثم نون ساكنة آخره حاء مهملة، هو من عوالي المدينة، وكانت سكنى الصدّيق رضي الله تعالى عنه ولمّا توفي النبيّ ﷺ لم يحضره، ولما جاء على فرس له وجد المسجد غاصّاً بالصحابة وعمر يخطبهم وينكر موت النبيّ ﷺ، فدخل أبو بكر بيت عائشة حيث يوجد النبيّ ﷺ ولم يكلّم أحداً حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ، فعلم أنه توفي فاسترجع وفداه بأبيه وأُمّه وقبّله وخاطبه قائلاً: طِبْت حياً وميتاً، ثم خرج إلى الناس وأسكت عمر فخطبهم وثبّتهم وطمأنهم وعرّفهم بأن من كان عبداً لله عزّ وجلّ فالله لا يزال حيّاً لا يموت، ومن كان عبداً

للرسول فالرسول قد جاءه أجله، وذهب إلى رضوان الله تعالى، ثم ذكّرهم بالآيتين الكريمتين آية الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وآية آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، فصحا الناس ورجعوا إلى أنفسهم وتيقّنوا وفاة النبيّ ﷺ ولم يعودوا يتردّدون في ذلك حتى عمر الذي كان شديداً في إنكار موته ﷺ رجع عندما سمع ما تلاه الصدّيق من القرآن الكريم، ونزل به من الأسى والحزن ما كاد يسقط معه على الأرض، وهنا تظهر قوة الصدّيق وعظيم يقينه وشدّة ثباته، فقد كان لخطبته إثر الوفاة النبويّة الأثرُ العظيم في تثبيت الصحابة وإرجاعهم إلى رشدهم.

وعقب هذه الخطبة والنبيّ ﷺ لا يزال مُسَجّى في بيته اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون تأمير سعد بن عبادة، فذهب إليهم أبو بكر وعُمر في جماعة المهاجرين، وبعد مراجعات وأخذ وردّ بايعوا الصدّيق خليفةً للمسلمين عن رسول الله ﷺ، وقد قدّمنا ما في ذلك في كتاب الخلافة.

* * *

❊ كيف غسل رسول الله ومن تولّى ذلك

[٥٩٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما أرادوا غسل النبيّ ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عزّ وجلّ النوم عليهم حتى ما فيهم رجل إلا وذَقَنُه في صدره، ثم كلّمَهم مُكَلِّمٌ من ناحية البيت لا يدرون من هو أن اغسلوا النبيّ ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصُه، يَصُبُّون الماء فوق القميص ويَدلُكُونَه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة تقول: لو اسْتَقْبَلْتُ من أمري ما اسْتَدْبَرْتُ ما غسّله إلا نساؤه.

رواه أحمد (٦/٢٦٧)، وأبو داود (٣١٤١)، وابن ماجه (١٤٦٤)،

وابن حبان (٦٥٩٣، ٦٥٩٤) بالإحسان، وبالموارد (٢١٥٦)، والحاكم (٥٩/٣)، والبيهقي (٣٩٨/٣) كلّهم في الجنائز، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

[٥٩٤] وعن عليّ عليه السلام قال: غسّلت رسول الله ﷺ فذهبتُ أنظر ما يكون من الميت فلم أرَ شيئاً، وكان ﷺ طيّباً حياً وميتاً.

رواه ابن ماجه (١٤٦٧)، والحاكم (٣٦٢/١)، والبيهقي (٥٣/٤) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الحديث الأول يدلّ على أن النبيّ ﷺ غسّلوه في قميصه ولم يُجرّدوه، وكان ذلك بإرشاد من مُتكلّم لم يعرفوا من هو، وتلك خصيصة خصّ بها ﷺ من قبل الله تعالى، بينما الحديث الثاني يدلّ على أن الذي تولّى تغسيله هو الإمام عليّ عليه السلام مع بعض أهل بيته، كما جاء في حديث سالم بن عبيد عند ابن ماجه وغيره: غسله بنو أبيه، وفيه أنه لم يُرَ منه شيءٌ مما يخرج من الميت، بل كان طيّباً مطيّباً.

* * *

❋ كيف كفّن وكيف صُلّي عليه وأين دُفِن؟

[٥٩٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بِيض سَحُولية من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة.

أما الحلّة، فإنما شبّه على الناس فيها أنها اشتريت له لِيُكَفَّنَ فيها، فتركت الحلة، كُفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبدالله بن أبي بكر فقال: لأحبسنّها حتى أُكَفِّن فيها نفسي، ثم قال: لو رضيها الله عزّ وجلّ لنبيّه لكفّنه فيها فباعها وتصدّق بثمنها.

رواه أحمد (٤٠/٦، ٩٣، ١١٨، ١٣٢، ٢١٤، ٢٦٤)، والبخاري (٣٧٨/٣)، ومسلم (٧/٧، ١٠) والأربعة وغيرهم.

قوله: سحولية ـ بفح السين ـ والكرسف ـ بضم الكاف والسين بينهما راء ساكنة ـ هو القطن، وجاء في رواية لأحمد: «جُدُدٌ أدرج فيها إدراجاً»، الحديث يدلّ على أن نبيّنا ﷺ أُدرج ولُفّ في ثلاثة أثواب ولم يكن فيها قميص ولا إزار ولا رداء ولا عمامة، بل لُفّ في الثلاثة لَفّاً.

وفي قول عائشة في شأن الحلة ردّ على من يقول بأنه كفّن في حلة من إزار ورداء، بل ذلك باطل.

[٥٩٦] وعن سالم بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال الصحابة لأبي بكر: يا صاحب رسول الله ﷺ أيُصَلّى على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخل قوم فيكبّرون ويصلّون ويدعون ثم يخرجون، ثم يدخل قوم فيكبّرون ويصلون ويدعون ثم يخرجون حتى يدخل الناسُ، قالوا: يا صاحب رسول الله، يُدْفَنُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: أين؟ قال: في المكان الذي قَبَض الله فيه روحه، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيّب، فعلموا أنْ قد صدق.

رواه الترمذي في الشمائل (٣٧٨) مطوّلاً، وابن ماجه في الصلاة (١٢٣٤) مختصراً، والطبراني في الكبير (٦٣٦٧) كاملاً وسنده صحيح.

الحديث يدلّ على أن الصحابة كانوا يصلّون عليه ﷺ أفراداً، فيدخلون أرسالاً فيدعون وينصرفون ولم يؤمّهم أحد، كما أنه يدلّ على أنه عليه الصلاة والسلام دُفن في المكان الذي قُبِضت فيه روحه، وهو بيت مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

[٥٩٧] وجاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قُبِض رسولُ الله ﷺ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيتُه، قال: **«ما قَبَضَ الله نبيّاً إلا في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدْفَنَ فيه»**، ادفنوه في موضع فراشه.

رواه الترمذي (٩٠٣) بتهذيبي بسند ضعيف، لكنه صحيح لشواهده عند أحمد (١/٧، ١٦٠)، وابن ماجه (١٦٢٨)، والترمذي في الشمائل (٣٧١).

* * *

❁ كيف حُفِر قبرُه ومن تَوَلّى دفنَه ومتى دُفِنَ

[٥٩٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما مات رسول الله ﷺ اختلفوا في اللّحد والشقّ حتى تكلّموا في ذلك وارتفعت أصواتهم، فقال عمر: لا تَصْخَبُوا عند رسول الله ﷺ حيّاً ولا ميتاً ـ أو كلمة نحوها ـ فأرسلوا إلى الشقاق واللاحد فجاء اللاحد فلحد لرسول الله ﷺ ثم دُفِن ﷺ.

رواه ابن ماجه (١٥٥٨)، قال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

[٥٩٩] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال في مرضه الذي هلك فيه: الحدوا لي لَحْداً وانصبوا عليَّ اللَّبِن نصْباً كما صُنِع برسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٩٦٦)، والنسائي (٦٦/٤)، وابن ماجه (١٥٥٦) ثلاثتهم في الجنائز.

[٦٠٠] وعن عليّ عليه السلام قال: ولي دفنه وإجْنانَه دون الناس أربعةٌ: عليّ والعباس والفضل وصالح مولى رسول الله ﷺ، ولحد رسول الله ﷺ لحداً، ونصب عليه اللبن نصباً.

رواه ابن ماجه (١٤٦٧)، والحاكم (٣٦٢)، والبيهقي (٥٣/٤) وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٦٠١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: دخل قبر رسول الله ﷺ العباسُ وعليّ والفضلُ وشقّ لحده رجلٌ من الأنصار...

رواه ابن الجارود (٥٤٧)، وابن حبان (٢١٦١) بالموارد، والبيهقي في الدلائل (٢٥٤/٧) وسنده صحيح.

[٦٠٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ودُفن ليلة الأربعاء.

رواه أحمد (٦/١١٠) رجاله ثقات وله شاهد مرسل صحيح، رواه الترمذي في الشمائل (٣٧٦).

[٦٠٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جُعِل في قبر رسول الله ﷺ قطِيفةٌ حمراءُ.

رواه أحمد (١/٢٢٨، ٣٥٥)، ومسلم (٩٦١)، والترمذي (٩٣٤)، والنسائي (٤/٦٧) كلّهم في الجنائز.

جملة هذه الأحاديث تدلّ على أن قبر النبيّ ﷺ كان لحداً، وقد تقدم بيانه في الجنائز، وأنه فرشت له قطيفة حمراء، فرشها مولاه شقران كما رواه الترمذي (٩٣٣)، وأن الذي تولّى دفنه وإدخاله قبره عليّ والعباس والفضل بن العباس وصالح مولاه رضي الله تعالى عنهم، وأن دفنه كان ليلة الأربعاء، وعلى هذا جمهور أهل العلم، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة كما تقدم ويأتي.

* * *

❋ من آثار وفاته ﷺ على الصحابة

[٦٠٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نَفَضْنا عن النبيّ ﷺ الأَيْدِي حتى أنكرنا قلوبنا.

رواه أحمد (٣/٢٦٨، ٢٨٧)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٣) وفي الشمائل (٣٧٤)، والدارمي (٨٩)، وابن ماجه (١٦٣١)، وابن حبان (١٦٢) بالموارد، والحاكم (٣/٥٧) بسند صحيح.

«أضاء» أي: أشرق. «أنكرنا قلوبنا» يعني فقدواما كانوا يجدونه من الصفاء ونور النبوّة، والإضاءة هنا والظلمة معنويّتان، وليس معناه ظهور الأنوار والظلام حسياً؛ فمعنى الحديث أنه لما قدم عليهم النبيّ ﷺ المدينة حصلت الأنوار في القلوب واطمأنّت واتّحدت وتحابت وصارت المدينة

كأنها مضيئة بوجوده ﷺ بينهم، وبالعكس من ذلك عند موته، فما كانوا يجدونه من النور العظيم في قلوبهم والمحبة التامّة والإلفة... فقدوا بعضه ولذلك أنكروا قلوبهم لتغيّرها عمّا كانت عليه، وحقّ لهم ذلك فإن موته ﷺ كانت أعظم مصيبة أُصيب بها المسلمون إلى يوم القيامة.

وقد قالت الحبيبة الطاهرة بضعة الحبيب مولاتنا فاطمة عليها السلام عندما دُفِن عليه الصّلاة والسّلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟! وهذا ما حمل الصحابة على دفنه ﷺ ليلاً بعد أن نام الناس خشية من أن يحصل نزاع في دفنه وعدمه، فإن فراقه كان شديداً على المسلمين، ولا سيما أهل بيته. فصلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأزواجه في الأوّلين والآخرين أبد الآبدين.

* * *

❊ ميراث النبيّ ﷺ

[٦٠٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث ما تركنا صَدَقة»**، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال، وإنّي والله لا أُغَيّر شيئاً من صدقةِ رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأَعْمَلَنَّ فيها بما عمل به رسولُ الله ﷺ، فأبَى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً، فوجدتْ فاطمةُ على أبي بكر في ذلك، قال: فهجرته فلم تكلّمه حتى تُوفّيت، وعاشتْ بعد رسول الله ﷺ ستّة أشْهُر، فلما توفيت دفنها زوجها ابن أبي طالب ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلّى عليها عَلِيٌّ، وكان لعليٍّ من الناس وِجْهَةٌ حياةَ فاطمة، فلما تُوفّيت استنكر وجوهَ الناس فالتمس مصالحةَ أبي بكر ومبايعتَه، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحدٌ، فقال عمر: والله لا تدخل

عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بي إني والله لآتينَّهم، فدخل عليهم أبو بكر فتشهّد عليّ بن أبي طالب ثم قال: إنّا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولم نَنفَسْ عليك خيراً ساقهُ الله إليك، ولكنك استَبْدَدْتَ علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ، فلم يزل يكلّم عليٌّ أبا بكر حتى فاضت عينا أبي بكر، فلمّا تكلّم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينك من هذه الأموال فإني لم آلُ فيها عن الحقّ، ولم أترك أمْراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعُه فيها إلا صنعتُه، فقال عليّ لأبي بكر: مَوعدُك العشية للبيعة، وعَذَرَه بالذي اعتذر إليه ثم استغفر وتشهّد عليٌّ بن أبي طالب، فعظم حقّ أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسةً على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضّله الله به، ولكنّا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً، فاستبِدَّ علينا به، فوجدنا في أنفسنا، فسرّ المسلمون وقالوا: أصبتَ، فكان المسلمون إلى عليّ قريباً حين راجع الأمر المعروف.

رواه أحمد (٦/١، ٩)، والبخاري في المناقب (٣٧١١) وفي فرض الخُمُس (٣٠٩٢) (ج ٧/٦، ١٠) وفي المغازي غزوة خيبر (٤٢٤٠)، ومسلم في الجهاد في قول النبيّ: لا نورث (٧٦/١٢، ٨١).

[٦٠٦] وعن مالك بن أوْس رضي الله تعالى عنه قال: أرسل إليّ عُمَرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فجئته حين تعالى النهار، قال: فوجدته في بيته جالساً على سرير مُفْضِياً إلى رماله، متّكئاً على وسادة من أدم، فقال: يا مال إنه قد دفّ أهل أبيات من قومك، وقد أمرتُ فيهم بِرَضْخٍ فخذه فاقسمه بينهم، قال: قلت: لو أمرتَ بهذا غيري؟ قال: خذه يا مال. قال: فجاء يَرْفَأ، فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان، وعبدالرحمٰن بن عوف، والزبير، وسعد؟ فقال عمر: نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعليّ؟ قال: نعم، فأذن لهما. فقال عباس: يا أمير المؤمنين اقضِ بيني وبين هذا الكذاب الآثم الغادر الخائن، فقال القوم: أجل يا أمير المؤمنين، فاقضِ بينهم وأرِحْهُم. قال مالك بن أوس: يُخَيَّل إليَّ أنهم قد كانوا قدموا لذلك. فقال عمر: اتَّئِدَا

أنشدُكُم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورث ما تركنا صدقةٌ**»، قالوا: نعم، ثم أقبل على العباس وعليّ فقال: أُنشدُكُما بالله الذي بإذنه تقوم السماءُ والأرضُ أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورثُ ما تركناه صدقة**»؟ قالا: نعم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الله عزّ وجلّ كان خصّ رسوله ﷺ بخاصّته لم يُخَصِّصْ بها أحدٌ، قال: ﴿مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا؟ قال: فقسَمَ رسولُ الله ﷺ بينكم أموالَ بني النضير، فوالله من اسْتَأْثَرَ عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقةَ سنةٍ، ثم يجعلُ ما بقي أسوةَ المالِ، ثم قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد به القوم أتعلمان ذلك؟ قالا: نعم، قال: فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا وليُّ رسولِ الله ﷺ فجِئْتُما، تطلب ميراثاً من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبوبكر: قال رسول الله ﷺ: «**ما نورث ما تركنا صدقة**»، فرأيتُماه كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أنه لصادق بارّ راشد تابع للحق. ثم توفي أبو بكر وأنا وليُّ رسول الله ﷺ ووليّ أبي بكر فرأيتُماني كاذباً آثماً غادراً خائناً، والله يعلم أني لصادق، بارّ، راشد، تابع للحقّ، فوليتها ثم جئتني أنت وهذا وأنتما جميعٌ وأمْرُكُما واحد، فقلتما: ادفعها إلينا، فقلت: إن شئت دفعتها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالذي كان يعمل رسول الله ﷺ فأخذتماها بذلك، قال: أكذلك؟ قالا: نعم، قال: ثم جئتماني لأقضي بينكما، ولا والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتُما عنها فردّاها إليّ.

رواه أحمد (١/٤٧، ٤٩، ٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٩١، ٢٠٨)، والحميدي (٢٢)، والبخاري في الخمس (٧/١٠، ١٥) وفي الفرائض، ومسلم في الجهاد في حكم الفَيْء (١٢/٧١، ٧٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٦٣، ٢٩٦٤، ٢٩٦٥)، والترمذي في السِّير (١٤٧٦)، والنسائي في الفيء وغيرهم.

قوله: «تَعَالَى النَّهار» أي: ارتفع. «مفضياً» بضم الميم وسكون الفاء أي: ليس بينه وبين رماله شيء. «يا مال» بكسر اللام مرخم يا مالك. «دفّ أهل أبيات» أي: جاءوا لما نزل بهم من الفاقة. «رضخ» أي: عطية قليلة. «يرفأ» بفتح الياء وسكون الراء وفتح الفاء هو حاجب سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه. «ائتدا» هو أمر من ائْتَدَ أي: تمهّلا وتأنّيا. «أنتما جميع» أي: متّحدان. «وأمرُكُما واحد» أي: مطلوبكما وهو طلبهما دفع الفَيْء إليهما.

دلّ حديثا عائشة ومالك بن أوس على أُمور:

أولاً: وعليه مدار الحديثين شأنُ ميراث النبيّ ﷺ ومجيء مولاتنا فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه تطلب منه ميراث أبيها.

[٦٠٧] وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر، فقالت: من يرثك؟ قال: أهلي وولدي، قالت: فما لي لا أرث أبي؟ قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نورث**» ولكن أعولُ مَنْ كان رسولُ الله ﷺ يَعولُه، وأُنفِقُ على من كان رسول الله ﷺ يُنفِقُ عليه.

رواه الترمذي (١٤٧٥) بتهذيبي بسند حسن وهو صحيح لغيره.

ثانياً: إن الصدّيق رضي الله تعالى عنه لم يكن ظالماً لمولاتنا فاطمة عليها السلام في امتناعه من دفع نصيبها من تركة النبيّ ﷺ، بل كان عادلاً في ذلك بازاً تابعاً للحقّ، ولذلك استدلّ عليها بأنه ﷺ لا يورث، وأن ما تركه صدقة، وذلك هو شأن سائر الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام كما قال ﷺ في حديث أبي الدرداء الذي تقدَّم في العلم: «**إن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثُوا العلم**»... رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وبهذا قال أكثر العلماء. ولذلك فنبيّنا عليه السلام لا يورث بالإجماع، والحديث الذي استدلّ به الصدّيق متواتر، رواه جمع غفير من الصحابة منهم الصدّيق والفاروق وعليّ وعثمان والزبير وعبدالرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والعباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم.

ثالثاً: هجران مولاتنا فاطمة عليها السلام الصدّيق كان اجتهاداً منها لشدّة موجدتها على الصدّيق، كما أن الصدّيق لم يكن ظالماً لها ولا داخلاً في وعيد حديث: «**يُغْضِبُها ما يغضبني**»، لأنه كان محقّاً بارّاً عاملاً بما سمع وشاهد من النبيّ ﷺ.

رابعاً: بالنسبة للإمام عليّ عليه السلام كان قد تأخّر عن بَيْعة الصدّيق في جماعة من بني هاشم وغيرهم لعدم مشاورتهم في ذلك، واستبداد الشيخين وغيرهما بالأمر دون قرابة النبيّ ﷺ، وكانوا يرون أن لهم حقاً في الخلافة، لكن الإمام عليّ عليه السلام أدرك الأمر وتصالح مع الصدّيق ووافق جمهور الصحابة فبايع ودخل فيما دخل فيه الناس وتبعه كل من كان تأخّر، ووقع الإجماع بعد ذلك على خلافة الصدّيق رضي الله تعالى عنه وعرفوا له فضله وأنه كان أحقّ الناس وأولاهم بالأمر.

خامساً: التركة النبويّة التي وقع فيها التنازع هي صدقة المدينة التي أفاء الله تعالى على نبيّه ﷺ من بَنِي النَّضِير، وأراضي فَدَك بفتح الفاء والدّال، وكانت لليهود صالحهم النبيّ ﷺ فحقن دماءهم وأمْنَهُم وأجلاهم، وبقيت الأراضي له ﷺ، ثم سهمه من خيبر.

وكان النبيّ ﷺ يأخذ من ذلك لأهله نفقة سنة، وما عدا ذلك يجعله في المصالح العامّة والسلاح والكراع عدة في سبيل الله.

فكان الصدّيق يعمل على ذلك، فكان يُنفق على نساء النبيّ ﷺ وأهل بيته والباقي يجعله في المصالح العامّة، ثم كان الأمر كذلك سنتين من خلافة عمر يعمل في ذلك ما كان يفعله رسول الله ﷺ والصدّيق بعده، ثم جاءه العباس والإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما يسألانه حظّهما من ذلك فدفع إليهما مال بني النضير وأخذ عليهما عهد الله أن يعملا فيها بما كان يعمل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر بعده، ثم حصل نزاع بين العباس وعليّ رضي الله تعالى عنهما في ذلك، فأتيا عمر ليفصل بينهما، فقال لهما ما ذكر في الحديث.

أما فدك وسهم خيبر، فتركهما تحت تصرّفه رضي الله تعالى عنه كما

في رواية لعائشة عند البخاري في الخمس (٩/٧). وأما خيبر وفدك، فأمسكهما عمر وقال: هما صدقة رسول الله ﷺ كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر، وقد تقدم نحو ما ذكرناه هنا في الجهاد وغيره.

سادساً: ما جاء في قول العباس لعليّ في بعض الروايات: الكذاب الآثم الغادر الخائن، وقول عمر لهما أيضاً: فرأيتماه كاذباً آثماً غادراً خائناً.

كل ذلك يجب حمله على غير ظاهره، فلم يكن عليّ كذّاباً ولا آثماً ولا غادراً ولا خائناً، كما أن الخليفتين لم يكونا كذلك، بل كلّهم بارُون صادقون صالحون من كبار أهل الجنّة رضي الله تعالى عنهم.

سابعاً: قصة مولاتنا فاطمة والإمام عليّ والعباس رضي الله تعالى عنهم في شأن ميراث النبيّ ﷺ تدلّ على أن البشر لا يخرج عن طبيعته التي خُلِق عليها وغرائزه التي جُبِل عليها، وهي حبّ المال والرياسة... فهؤلاء سادات الأُمّة ومعدن الشرف، وأهل بيت النبوّة يتنازعون على الدنيا ويتخاصمون على متاعها... فما بالك بغيرهم وصدق الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾.

ثامناً: كان ما حصل من إقصاء الإمام عليّ عن الخلافة، ومنع الصدّيق فاطمة إرثها أصلاً ومرجعاً لغلوّ الشيعة وتطاولهم على الصحابة، وخاصة الخلفاء الثلاثة وباقي العشرة، وأصبح الشّيعة وخاصة أهل الرفض منهم لا يخرج مذهبهم عن الكلام على انتزاع الخلافة من عليّ مع ظلم فاطمة في زعمهم فضلّوا بذلك ضلالاً كبيراً، وكتبوا في ذلك مئات المجلّدات، كلّها خرافات، وأكاذيب، وأباطيل، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وأتباعه ومحبيه أبد الآبدين.

وبهذا تمّ الكلام على السيرة النبويّة العَطِرة ويليها شمائل النبيّ ﷺ.

* * *

❁ جملة من صفات النبيّ ﷺ وشمائله وأخلاقه

جرت عادة علمائنا الذين ألّفوا في السيرة النبويّة أن يذكروا ضمن ذلك شمائله ﷺ وأخلاقه، إمّا سابقاً أو لاحقاً.

فكما اهتمّوا رحمهم الله تعالى بحياته ﷺ وغزواته حتى التحاقه بالرفيق الأعلى، كذلك وجّهوا عنايتهم لشمائله وصفاته....

وكان لذلك لا يخلو كتاب من كتب السنّة المشرّفة على اختلاف أنواعها ومناهج مؤلّفيها من ذكر شمائله ﷺ، إما مفرّقة فيها أو مفردة على حِدة في أبواب خاصة بها، لا سيما الجوامع منها كصحيح البخاري مثلاً في المناقب وصحيح مسلم في الفضائل، وجامع الترمذي في المناقب، والنسائي في الكبرى... زيادة على ما ذكروه في مختلف الكتب والأبواب، كما أفردوها بالتأليف، وجمعوا فيها ما وصلهم منها بأسانيدهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ. وكان ممن كتب في ذلك أبو العباس المستغفري، وأبو بكر المقري، وأبو الشيخ الأصبهاني، وأبو عيسى الترمذي وكتابه أشهر ما أُلّف في ذلك بل وأحسنها وأحلاها، ولذلك اعتنى العلماء عبر العصور بشرحه والتعليق عليه واختصاره، واهتمّوا بقراءته وسماعه وإسماعه، وطُبع عدة طبعات مفرداً ومع شروحه... «وأخلاق النبيّ» ﷺ لأبي الشيخ ابن حيّان الأصبهاني وإن كان أكبر منه وأوسع، وقد طُبع عام (١٣٧٨) لم يهتمّ به الناس كاهتمامهم بشمائل إمامنا أبي عيسى الترمذي طيّب الله ثراه.

وها نحن بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه نذكر في هذا الجامع عيون ذلك، ونلخّص ما جاء في الموضوع من صحيح وحسن من غير إخلال ولا إملال، والله الموفّق الهادي.

هذا والشمائل: جمع شمال وهي في الأصل الطبائع والسجايا. وأطلقها العلماء على صفات النبيّ ﷺ الخَلْقِيّة ـ بفتح الخاء وسكون اللام ـ من طوله وقصره، وبياضه وشعره، وصفة عينيه وأنفه، ويديه، ورجليه، وأصابعه، ورأسه ووجهه... كما أطلقوها على خُلُقِهِ ـ بضم الخاء واللام ـ

وهي سجيّته وطبيعته، وذلك كحلمه وتحمّله الأذى وصبره وكرمه وتواضعه وعفّته وزهده وشجاعته إلى غير ذلك من أخلاقه الكريمة، ثم توسّعوا فأضافوا إلى ذلك كل ما له تعلّق به ﷺ كأكله وشربه ولباسه وضحكه ومزاحه وكلامه ونومه وحجامته وتعطّره واتّكائه وجلوسه إلى غير ذلك مما ذكروه وأدرجوه في شمائله.

وقد تقدم لنا كثير منها في كتب وأبواب سابقة، كأنواع عبادته من صلاة وصيام وقيام وتلاوة وذكر ودعاء، وكأكله وما كان يأكله من أنواع الأطعمة، وشرابه وما كان يشربه، وأنواع الألبسة التي كان يلبسها إلى غير ذلك مما تقدم، فهذه لا نوردها هٰهنا ولا نُعيدها.

ثم إن المقصود من ذكر شمائله ﷺ والاطّلاع عليها أمران اثنان: أولاً: التعرّف على صفة هذا النبيّ العظيم ظاهراً وباطناً وخَلْقاً وخُلُقاً، ثانياً: الائتساء به ﷺ في أخلاقه الكريمة واتّباع أثره، وتلك هي السعادة العظمى؛ لأن اتّباعه والاقتداء به ﷺ من مُوجبات محبّة الله عزّ وجلّ وغفران الذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فالرسول الأكرم ﷺ هو القدوة لكل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر ويذكر الله كثيراً؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ الآية.

* * *

❁ صفة خَلْقِ رسولِ الله ﷺ الظاهرةُ

[٦٠٨] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبْيَض الأمْهَق، ولا بالجَعْدِ القَطِط، ولا بالسَّبِطِ. بعَثَه الله تعالى على رأس أربعين سنةً، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفّاه الله على رأس ستّين سنة، وليس في رأسه

ولِحْيَتِهِ عِشرون شَعرةً بَيْضاء... وفي رواية: كان رسولُ الله ﷺ رَبْعَةً ليس بالطويل ولا بالقصير، حَسَنَ الجسْم وكان شَعَرُه ليس بجَعْدٍ ولا سَبِطٍ (أسمرَ اللون)، إذا مشى يتكفّأ. وفي رواية: كان أزهر اللون ليس بأبْيَض أمْهَقَ ولا آدم، وفي أخرى: كان أزهر اللون كأنَّ عرقَه اللؤلؤ إذا مشى تَكَفَّأَ.

رواه أحمد (٣/٢٤٠)، ومالك في الجامع من الموطأ (١٧٧٢)، والبخاري في المناقب (٧/٣٧٧، ٣٧٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/٩٩، ١٠٠)، والترمذي في اللّباس (١٦١٠) وفي المناقب وفي الشمائل (١/٢) بألفاظ.

«الطويل البائن» أي: الظاهر. «الأمهق» أي: الشديد البياض كالجصّ مثلاً. «ولا آدم» أي: ليس أسمر. «الجعد» بفتح وسكون. «القطط» بفتح القاف والطاء وتكسر الطاء وهو الكثير الجعودة والانقباض كشعر الحبشة. «ولا بالسبط» بفتح السين وكسر الياء هو الشعر المسترسل كشعر الروم. «ربعة» بفتح الراء وسكون الباء أي: متوسّطاً بين الطول والقصر. «أسمر اللون» هي رواية شاذّة، ففي الصحيحين: «أزهر اللون» أي: لونه كلون الزهر. «إذا مشى يتكفّأ» أي: يتمايل.

[٦٠٩] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ رجلاً مربوعاً بَعيد ما بين المنكبين، عَظِيمَ الجُمَّةِ إلى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ عليه حُلَّةٌ حمراءُ ما رأيتُ شيئاً قطّ أحسنَ منه.

وفي رواية: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حُلَّة حمراءَ أحسنَ من رسول الله ﷺ له شَعْرٌ يَضربُ مَنكبَيْه بَعِيد ما بين المنكبين لم يكن بالقصير ولا بالطويل.

وفي رواية ثالثة: كان رسول الله ﷺ أحْسَنَ الناسِ وَجْهاً وأحْسَنهم خَلْقاً.

رواه أحمد (٤/٢٨١، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٣)، والبخاري في المناقب (٨/٣٨١)، ومسلم في الفضائل (١٥/٩١، ٩٢)، وأبو داود (٤٠٧٢)، والترمذي (١٥٨١) في اللباس، ورواه أيضاً في المناقب (٣٤١٠) بتهذيبي وفي الشمائل (٣/٢٥).

«بعيد» ورد بضم الباء وفتح العين، وفتح وكسر. «عظيم الجمّة» أي: شعر رأسه ﷺ يصل إلى شحمة أذنيه. «حلة حمراء» الحلّة عند العرب ما كان فيه إزار ورداء. «ذي لمّة» بكسر اللام صفة لنوع من الشعر الطويل. «وأحسنهم خَلْقاً» بفتح الخاء وسكون اللام هي الصورة الظاهرة للجسم.

[٦١٠] وعن عليّ عليه السلام قال: لم يكن النبيُّ ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شَثْنَ الكفَّيْن والقدمين، ضَخْمَ الرأس، ضَخْمَ الكَراديس، طويل المَسْرُبة، إذا مشى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤاً كأنما يَنْحَطُ من صَبَبٍ، لم أرَ قبلَه ولا بَعْدَه مِثْلَه ﷺ.

رواه الطيالسي (٢٤٠٩)، وأحمد (٩٦/١، ١٠١، ١٢٧، ١٥١)، وعبدالله في زوائد المسند (١٦٦/١، ١٦٧)، والترمذي في المناقب (٣٤١٢) بتهذيبي وفي الشمائل (٥)، وابن سعد (٤١١/١)، والحاكم (٦٠٦/٢) من طرق بعضها صحيحة أو حسنة وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم والذهبي.

«شَثْن الكفّين» بفتح الشين وسكون الثاء أي: غليظهما. «فخم الكراديس» جمع كردوس بضم الكاف هي رؤوس العظام، ومعناه أنه كان عظيم الأعضاء والعظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين. «المسربة» بفتح الميم وسكون السين وضمّ الراء ثم باء مفتوحة هو الشعر الدقيق الممتد من الصدر إلى السرّة. «إذا مشى تكفّأ تكفؤاً» أي: تمايل تمايلاً. «كأنما ينحط من صبب» أي: كأنما ينزل من أعلى إلى أسفل، والانحطاط هو الانحدار والنزول.

[٦١١] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ ضَلِيعَ الفَمِ أشْكَلَ العَيْنِ مَنْهُوسَ العَقِب.

قال شعبة: قلت لسماك: ما ضليع الفم؟ قال: عظيم الفم. قلت: ما أشكل العين؟ قال: طويل شقّ العين. قلت: ما منهوس العقب؟ قال: قليل اللحم.

رواه أحمد (٨٦/٥، ٨٨، ٩٧، ١٠٣)، ومسلم في الفضائل

(٩٣/١٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٢١) بتهذيبي وفي الشمائل (٨).

[٦١٢] وعنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضْحَيَانٍ وعليه حُلَّةٌ حمراءُ، فجعلتُ أنظر إليه وإلى القمر فلهُو عِنْدِي أحسنُ مِن القمر.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٦١٥) وفي الشمائل (٩)، والدارمي (٥٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (١٠٧)، والخطيب في التاريخ (٣٥٤/٢)، والحاكم (١٨٦/٤) وحسّنه الترمذي وصححه البخاري والحاكم ووافقه الذهبي.

«إضحيان» بكسر الهمزة وسكون الضاد أي: ليلة مُقْمِرة.

[٦١٣] وعن البراء بن عازب أنه سُئِل: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مِثْلَ السَّيف؟ قال: لا، بَلْ مِثْلَ القَمَرِ.

رواه أحمد (٢٨١/٤)، والطيالسي (٢٤١١) والبخاري في صفة النبيّ ﷺ (٣٨١/٧)، والترمذي في المناقب (٣٤١١) وفي الشمائل (١٠) وحسّنه وصحّحه.

[٦١٤] ونحوه عن جابر بن سمرة قال له رجل: أكان رسول الله ﷺ وجهُه مثل السّيف؟ قال: لا، بل مِثْلَ الشَّمْسِ والقمر مُسْتَدِيراً.

رواه مسلم (٩٧/١٥).

[٦١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أبْيَضَ كأنّما صِيغَ من فِضَّةٍ رجِلَ الشَّعْرِ.

رواه الترمذي في الشمائل (١١) ورجاله ثقات غير صالح بن الأخضر فضعيف، لكن الحديث صحيح لشواهده في الباب.

«كأنما صيغ من فضة» أي: كأنه أخذ منها لصفائه وجودة لونه ﷺ.

[٦١٦] وعن مُجَزِّشٍ الكَعْبِي رضي الله تعالى عنه قال: اعتمر النبيّ ﷺ من الجعرانة ليلاً، فنظرتُ إلى ظَهْرِهِ كأنه سَبِيكَةُ فِضَّةٍ.

رواه أحمد (٤٢٦/٣، ٤٢٧) من طرق صحيحة.

«سبيكة» أي: قطعة من فضة أُذيبت وأُفرغت في قالبها، وذلك غاية في الصفاء.

[٦١٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيتُ شيئاً أحْسن من رسول الله ﷺ كأنَّ الشَّمْسَ تجري في وجْهِهِ.

رواه الترمذي (٣٤١١) في المناقب وفي الشمائل (١١٥)، وابن سعد (٣٧٩/١، ٣٨٠)، وابن حبان (٢١١٨) وسنده صحيح عند بعضهم، وابن لهيعة قد تُوبع.

[٦١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما رأيت أحداً أنْجَدَ ولا أجْوَدَ ولا أشْجَعَ ولا أضْوَأ ولا أوْضَأ من رسول الله ﷺ.

رواه الدارمي (٦٠) بسند صحيح.

«أنجد» أي: أعْظمُ نَجْدَةً وعوناً. و«أجود» أي: أكثر جوداً. و«أضوأ» أي: أشدّ نوراً. و«أوضأ» من الوضاءة وهي اللّمعان.

[٦١٩] وعن أبي الطُّفَيْل رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ وما بقي على وجه الأرض أحدٌ رآه غيري، قلت له: صفه لي، قال: كان أبيضَ مَلِيحاً مُقَصَّداً.

رواه أحمد (٤٥٥/٥)، ومسلم في الفضائل (٩٣/١٥)، وابن سعد(٤١٧/١)، والترمذي في الشمائل (١٣).

«مَليحاً» أي: حسناً من الملاحة وهي الحُسْن والصباحة. «ومقصداً» بضم الميم وفتح القاف والصاد المشدّدة أي: وسطاً في جسمه.

[٦٢٠] وعن عليّ عليه السلام: كان رسول الله ﷺ أبْيَضَ مُشَرَّباً بحُمرة ضخم الهامة أهدب الأشفار، وفي رواية: كان أبيض مشرباً بياضه بحمرة وكان أسودَ الحَدقةِ أهْدَبَ الأشْفار. وفي رواية: أدعج العينين.

رواه ابن سعد (٤١٠/١، ٤١٢)، والبيهقي في الدلائل (٢١٢/١، ٢١٣)، ورواه أحمد (٩٦/١، ١١٦، ١٢٧، ١٣٤) مفرّقاً وهو بطرقه حسن

صحيح، وجاء في رواية لعبدالله بن أحمد (١٥١/١)، وابن سعد (٤١١/١) أغرّ أبْلَجَ أهْدَبَ الأشْفار.

«مشرّباً بحمرة» بضم الميم وفتح الشين والراء المشدّدة أي بياضه ممزوج بحمرة وهو الأزهر الوارد في الصحيحين أزهر اللون. «ضخم الهامة» أي: عظيم الرأس. «أهدب الأشفار» أي: طويل شعر أجفان العينين. «أسود الحَدَقة» بفتحات حدقة العين هي سوادها الداخلي، فكانت له ﷺ شديدة السواد. «أدعج العينين» الدعَج بفتحتين شدّة سواد العين مع سَعَتِهَا وطول شقها كما تقدم أنه أشكل العين. «أغرّ» أي: أبيض. «أبْلَج» أي: مُشرِقٌ مُضِيءٌ.

[٦٢٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ شَبْحَ الذِّرَاعَيْن، بَعِيد ما بَيْن المَنْكِبَيْن، أهْدَب أشْفارِ العَيْنين، لم يكن سخّاباً في الأسواق ولا فَحّاشاً ولا مُتَفَحْشاً، كان يُقْبِلُ جميعاً ويُدْبِرُ جميعاً.

رواه الطيالسي (٢١٣)، وأحمد (٣٢٨/٢) بسند صحيح وصالح مولى التوأمة روى عنه ابن أبي ذئب قبل اختلاطه.

«شبح الذراعين» بفتح الشين وسكون الباء آخره حاء أي: طويلهما أو عريضهما. «سخاب» بفتح السين ويقال بالصاد ثم خاء مشدّدة أي: لم يكن ممن يرفع صوته في الأسواق كعادة الرّعاع وعامّة الناس والتجار. «فحاش» أي: لم يكن ينطق بالسفاهة والفحش. «متفحش» أي: ليس ممن يتكلّف ذلك فكان بريئاً ومنزّهاً من الأمرين. «يقبل جميعاً» معناه: إذا أقبل أقبل بجميع جسده وإذا أدبر كذلك.

فهذه الأحاديث استوعبت أغلب صفة خلقته ﷺ الظاهرة، ففيها أنه كان مربوع القامة لا طويلاً ولا قصيراً حسن الوجه، بل أحسن الناس وجهاً أبيض ممزوجاً بحمرة أزهر اللّون مليحاً مضيئاً مشرقاً مثل الشمس والقمر، كأنّ الشّمس تجري في وجهه وكأنه صِيغَ من فِضّة وضيئاً واسعَ الفم عَظِيمَه ضخم الرأس، عظيم الركبتين، والقدمين، والمرفقين، ورؤوس أصابعه، وجميع مفاصله، طويل الذراعين، واسع ما بين المنكبين، ظهره في الصفاء

كأنه قطعة سُبِكَتْ من فضّة، قليل لحم عَقِبَيْه، كان شعَرُه وسطاً؛ لا جعد كشعر الحبشة، ولا سبطاً كشعر الروم له جُمّة ولمّة تصل إلى شحمة أذنيه وطرفيهما، وله شعر متّصل من صدره إلى سرّته كالقضيب أدعج العينين، أي: شديد سواد حدقتي عينيه مع سعتها، طويل شعر أجفانهما أي: أهدب أشعارهما.

وجاء في حديث أمّ معبد المتقدم في الهجرة النبويّة أنها وصفته ﷺ بصفات هذه خلاصتها، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه ـ مضيئاً مشرقاً ـ حسن الخَلْق، لم تَعِبْه ثَجْلَةٌ ـ أي: ضخامة البطن ـ ولم تُزْرِ به ـ أي: لم تنقصه وتعبه ـ صُعْلَةٌ ـ أي: رقّة ونحول وصغر في الرأس ـ وَسِيمٌ، قَسيمٌ، في عينيه دَعَجٌ ـ شديد سوادها مع سعتها ـ وفي أشفاره وَطَفٌ ـ أي: طول ـ وفي صوته صَهَلٌ ـ أي: حدّة وصلابة ـ وفي عنقه سطع ـ أي: ارتفاع وطول ـ وفي لحيته كثافة، أزَجُّ ـ تعني أن حاجبيه فيهما تقوّس مع طول وامتداد في طرفيهما ـ أقرنُ ـ تعني أن شعرهما مقرون ببعضه ـ وهذا أصح مما ورد: «سوابغ في غير قرن»، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلّم سَمَاهُ وعلاَه البَهاءُ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلاً، لا نَزْر ولا هَذَر ـ أي: لا قليل ولا كثير ـ كأن مَنطِقَه خرزات نظم يتّحدون، ربعة لا تشنؤُه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غُصْنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً... وقد قدّمنا أن حديث قصة أم معبد صحيح فاعلم ذلك، وقد جاءت صفات له ﷺ كثيرة في حديث هند بن أبي هالة الطويل الذي رواه الترمذي في الشمائل رقم (٧)، والبيهقي في الدلائل (٢٥٨/١) وغيرهما، ولولا أنه ضعيف جداً لأوردته.

هذا وقد أجمع العلماء على أن الله عزّ وجلّ لم يخلق خلقاً أحسن وأجمل وأكمل ظاهراً وباطناً من هذا الرسول الأكرم ﷺ، حتى قال القسطلاني في المواهب: من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلقُ آدَمِي مِثلُه.

ورحم الله تعالى القائل:

وأجْمَل مِنكَ لم تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وأكْمَلَ مِنكَ لم تَلِد النِّساءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّءاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كأنَّك قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشاءُ

ويرحم الله البوصيري حيث يقول في بردته:

فَهُوَ الذي تَمَّ مَعْناهُ وصُورَتُه ... ثمَّ اصْطَفاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شَريك في محاسنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ
كالشَّمْسِ تَظْهَر لِلعَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وتَكِلُّ الطَّرْفَ مِن أمَامِ
وكَيْفَ يُدْرِكُ في الدُّنْيا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بالحُلُمِ

يبقى الأمر في قول أنس في الحديث الأول: فأقام بمكّة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفّاه الله على رأس ستّين سنة.

والصحيح المتفق عليه بين العلماء أنه أقام بمكّة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشراً كما قدّمنا، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة، رواه أنس نفسه وعائشة وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم كما في صحيح مسلم في الفضائل (١٠١/١٥، ١٠٢، ١٠٣)، فكلّهم قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكّة ثلاث عشرة وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستّين سنة، وما عدا ذلك فغلط أو مؤوّل كما قال العلماء.

* * *

❋ صفة خاتم النبوة

[٦٢٢] عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنهما قال: ذهبت بي خالتي إلى النبيّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله إنَّ ابْنَ أُخْتِي وجعٌ فمسح ﷺ رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ فشربتُ من وَضوئِهِ، وقمتُ خلف ظهره فنظرتُ إلى الخاتم بين كَتِفَيْهِ فإذا هو مِثْلُ زِرّ الحَجَلةِ.

رواه البخاري في الطهارة وفي المرض وفي صفة النبيّ ﷺ (٣٧٣/٧)، ومسلم في الفضائل (٩٧/١٥، ٩٨)، والترمذي في المناقب (٣٤/٨) وفي الشمائل (١٥).

«زر» بكسر الزاي والراء المشدّدة. و«الحَجَلةُ» بفتحات إما بيت كالقبة له أزرار يعد للعروس يكون أعلاه مثل البيضة أو المراد بالزِّرّ والحَجَلة بيض الطير المعروف.

[٦٢٣] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت الخاتم بين كَتِفَيْ رسولِ الله ﷺ غُدَّةً حمراءُ مثل بيضة الحمامة.

رواه أحمد (٩٥/٥، ٩٨، ١٠٧)، ومسلم (٩٧/١٥)، والترمذي (٣٤١٩) وفي الشمائل (١٦)، وابن سعد (٤٢٥/١)، والحاكم (٩٥/٢).

«غدّة» بضم الغين وفتح الدال المشدّدة؛ قطعة لحم ناتئة تتحرك بتحرك الإنسان.

[٦٢٤] وعن عبدالله بن سَرْجِسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيّ ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال ثريداً، قال: فقلت: استغفر لك النبيّ ﷺ؟ قال: نعم ولكم، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قال: ثم دُرْتُ خلفه فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه عند ناغِضِ كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خِيلاَنٌ كأمثال الثآليل. وفي رواية: فدُرْتُ هكذا من خلفه فعرف النبيّ ﷺ الذي أريد، فألقى الرداء عن ظهره، فرأيت موضع الخاتم على كتفيه.

رواه أحمد (٨٢/٥)، ومسلم (٩٨/١٥، ٩٩)، والترمذي في الشمائل (٢٢).

«ناغض كتفه» أي: عند أعلاه. «جُمْعاً» بضم الجيم وسكون الميم يريد مثل جمع الكفّ. «خيلان» بكسر الخاء جمع خال وهي الشامة في الجسم. «الثآليل» بفتح الثاء المشدّدة بعدها همزة ممدودة جمع ثؤلول وهو خراج صغير يظهر على الجسد له نتوء.

[٦٢٥] وعن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أبا زيد، ادْنُ مني فامسح ظهري»، فمسحت ظهره فوقعتْ أصابعي على الخاتم، قلت: وما الخاتم؟ قال: شعراتٌ مجتمعات. في رواية: شعر مجتمع على كتفه.

رواه أحمد (٥/٧٧، ٣٤١)، وابن سعد (١/٤٢٦)، وابن حبان (٢٠٩٦)، والحاكم (٢/٦٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.

[٦٢٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل عن خاتم رسول الله ﷺ - يعني خاتم النبوّة - فقال: كان في ظهره بَضْعَةً ناشِزَةً.

رواه أحمد (٣/٦٩)، والترمذي في الشمائل (٢١) من طريقين وهو بهما حسن صحيح.

«بَضْعَة» بفتح الباء أي: قطعة لحم. «ناشزة» أي: مرتفعة.

هذا جملة ما صحّ في خاتم النبوّة التي كانت للنبيّ ﷺ في أعلى ظهره، وحاصلها أنها كانت شبه غُدَّةٍ شاخصة مرتفعة في أعلى كتفه الأيسر الشريف قدر بيضة الحجلة أو الحمامة أو جمع كف اليد عليها ثآليل وشعيرات.

وقد أخبر كلٌّ بما شاهد وظهر له، وهذا الخاتم كان من خصائصه ﷺ، وكان أهل الكتاب يعرفونه من كتبهم التي جاءت صفته ﷺ فيها، وانظر ما سبق في قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه.

* * *

❁ شَعره ﷺ وشيبه وخضابه وترجّله

[٦٢٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان شعر رسول الله ﷺ إلى أنصاف أُذُنَيْهِ. وفي رواية: كان يَضربُ شعرُه منكبَيْه. وفي أخرى: بين أُذُنَيْه وعاتِقِهِ.

رواه مسلم في الفضائل (٩٢/١٥) بجميع رواياته، ورواه أحمد (١١٣/٣، ١٢٥، ١٤٢، ١٥٧، ١٦٥، ٢٠٣) من طرق وألفاظ، ورواه الترمذي في الشمائل (٢٣)، وأبو داود في الترجّل (٤١٨٦)، وابن ماجه (٣٦٣٤) ببعضها.

[٦٢٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناءٍ واحد، وكان له شَعَرٌ فوقَ الجُمَّةِ ودُون الوَفْرَةِ.

رواه أحمد (١٠٨/٦، ١١٨)، والترمذي في اللّباس (١٩١٢) وفي الشمائل (٢٤)، وأبو داود (٤١٨٧/٧٧) بسند صحيح، وجملة الغسل رواه الشيخان كما تقدم في الطهارة.

[٦٢٩] وعن أُمّ هانيء رضي الله تعالى عنها قالت: قدم رسولُ الله ﷺ مكّة قِدْمةً، وله أربعُ غَدائِر، وفي رواية: ضَفائِر.

رواه أحمد (٣٤١/٦)، وأبو داود (٤١٩١)، والترمذي في اللباس (١٦٣٤) وفي الشمائل (٢٥)، وابن ماجه (٣٦٣١) بسندٍ صحيح.

اختلفت الأحاديث في صفة شعره ﷺ طولاً وقصراً، ويرجع ذلك لاختلاف أحواله، فكان في وقتٍ جُمةً يصل إلى منكبيه ويضرب عاتقه، وفي وقتٍ كان وفرةً يبلغ شحمة أُذنيه، وفي وقتٍ آخر كان يتركه حتى يطول فيتّخذه ضفائر أربعاً كما كان عند فتح مكّة، وتقدم أنه كان عظيم الجمّة وأن شعره كان وسطاً لا جَعْداً ولا سَبِطاً.

[٦٣٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يَسْدِلُ شَعرهُ، وكان المشركون يَفْرُقُون رُؤُوسَهم، وكان أهل الكتاب يسدِلُون رؤوسهم، وكان يُحِبُّ موافقةَ أهلَ الكتاب فيما لم يُؤْمَر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ رأسَه.

رواه أحمد (٢٨٧/١، ٣٢٠، ٢٦١)، والبخاري في المناقب (٣٨٤/٧)، ومسلم في الفضائل (٩٠/١٥)، وأبو داود (٤١٨٨)، والترمذي في الشمائل (٢٩)، والنسائي في الزينة (١٨٤/٨)، وابن ماجه (٣٦٣٢).

«يفرقون» بكسر الراء وضمّها. «يسدلون» وسدل الشعر هو إرساله على الناصية أو إلى القفا، والفرق هو جعله فرقتين إلى جانبَيْ الرأس.

والحديث يدلّ على أنه ﷺ كان يسدل شعر رأسه أولاً موافقة لأهل الكتاب، ثم خالفهم ففرق وهو الذي استقرّ عليه عمله إلى انتقاله ﷺ.

[٦٣١] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّما كان شَيْبُ رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شَعْرَةً بَيْضاءَ.

رواه أحمد (٢/٩٠)، والترمذي في الشمائل (٣٩)، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال البوصيري: إسناده صحيح.

[٦٣٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبْتَ، قال: «**شَيَّبَتْني هُودٌ والواقعةُ والمُرسلاتُ وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرت**».

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٨٠) وفي الشمائل (٤٠)، وأبو يعلى (٦٥/١)، والحاكم (٣٤٣/٢، ٣٧٦) وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي جُحَيْفة رواه الترمذي في الشمائل (٤١)، وأبو يعلى (٣٦٣/١) بلفظ: «**شَيَّبَتْني هُودٌ وأخَوَاتُها**»، إنما خصّ هذه السور بأنها شيّبته لما فيها من القوارع، وذكر أهوال يوم القيامة، وتغيّر هذا العالم، واضمحلاله وقيام الناس للبعث... وفي هود قوله عزّ وجلّ خطاباً له ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخ، فبتَفَكُّرِهِ ﷺ في هذه السور ظهر فيه الشَّيب.

[٦٣٣] وعن جابر بن سمرة أنه سُئِل عن شَيْب رسول الله ﷺ فقال: كان إذا دَهَنَ رأسَه لم يُرَ منه شَيْبٌ، وإذا لم يَدْهن رُؤِيَ منه شيءٌ.

وفي رواية: كان قد شَمِط مُقَدَّم رأسه ولحيته، وكان إذا ادَّهَن لم يتَبَيَّنْ وإذا شَعِثَ رأسُه تَبَيَّن، وكان كثيرَ شَعْرِ اللِّحية. وفي رواية: لم يكن في رأس رسول الله ﷺ شَيْبٌ إلا شَعَراتٌ في مَفْرِقِ رأسِهِ إذا ادَّهن وارَاهُنَّ الدُّهنُ.

رواه مسلم (٩٧/١٥)، والترمذي في الشمائل (٤٣/٣٨).

قوله: «شَمِط» بفتح الشين وكسر الميم أي: ابْيَضَّ شعرُ مقدَّم رأسه.

[٦٣٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إنما كان البياض في عَنْفَقَتِهِ، وفي الصُّدْغَيْن، وقال: ما شانَهُ الله ببيضاء، وفي رواية: لو شئت أن أعدّ شَمَطاتِ كُنَّ في رأسه فعلتُ.

رواه مسلم (١٥/٩٥، ٩٦).

قوله: «عنفقته» بفتح العين وسكون النون ثم فاء وقاف مفتوحتين هو الشعر النابت بين الشفة السفلى والذقن. وقوله: «الصدغين» تثنية صدغ بضم الصاد وسكون الدال هو ما بين الأذن والعين ويسمى الشعر النابت عليه أيضاً صدغاً. «ما شانه» أي: ما عابه. «شمطات» بفتحات والمراد بها شعرات بيض خالَطْن سوادَ شعر رأسِه.

الأحاديث الصحيحة تدلّ على أنه ﷺ لم يشب من شعر رأسه ولحيته إلا شعيرات لم تبلغ عشرين شعرة، كما قال أنس: وتوفي وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وهكذا قال ابن عمر. وكان ذلك في مفرق ومقدم رأسه، وفي عَنْفَقته وفي صُدْغَيْهِ، وكان إذا دَهَن شعره خَفِي الشَّيْب وصار أحمر، وإذا تَرَكَه بَدا وظَهَر.

[٦٣٥] ولذلك قال أبو رِمْثَة رضي الله تعالى عنه: وله شعرٌ قد علاه الشَّيْبُ وشَيْبُه أحمرُ.

رواه أبو داود (٤٠٦٥)، والترمذي في الشمائل (٤٢)، والحاكم (٢/١٠٧) وغيرهم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقد تكون تلك الحمرة من الخضاب بالحناء، فقد صحّ ذلك عنه ﷺ.

[٦٣٦] فعن عثمان بن موهب قال: دخلت على أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها فأخرجت إليّ شعراً من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً بالحنّاء والكَتَم.

رواه البخاري في اللّباس (١٢/٤٧٣، ٤٧٤)، وابن ماجه (٣٦٢٣).

«الكتم» بفتحتين ورق شجر يصبغ به يجعل الشعر مائلاً إلى الحمرة الشديدة.

[٦٣٧] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: رأيت شعر رسول الله ﷺ مخضوباً.

رواه الترمذي في الشمائل (٤٧) بسند صحيح.

وتقدم لنا في اللباس حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه ﷺ كان يصبغ بالصفرة ثيابه ولحيته.

فهذه الأحاديث تدلّ على أنه ﷺ خضب بالحناء وبالصفرة غير أنه جاء ما يعارضها وهو ما رواه مسلم وغيره:

[٦٣٨] فعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أنه سُئِل: هل خَضَبَ رسولُ الله ﷺ؟ قال: لم يبلغ ذلك إنما كان شيباً في صدغيه. وفي رواية: ولم يختضب رسول الله ﷺ إنما كان البياض في عَنْفَقَتِهِ وفي الصُدْغَيْنِ.

رواه مسلم (١٥/٩٤، ٩٦)، وأبو داود والترمذي في الشمائل (٣٦).

ولما اختلفت الأحاديث كما ترى في خضابه ﷺ وعدمه ذهب فريق من العلماء إلى الترجيح، وذهب آخرون إلى الجمع بينهما بأنه ﷺ صحّ عنه الأمران: خضب وترك، واختار هذا القول كثيرون منهم النووي في شرح مسلم (١٥/٩٥)، فقال: والمختار أنه ﷺ صبغ في وقت، وتركه في معظم الأوقات فأخبر كلٌّ بما رأى وهو صادق.

[٦٣٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أُرَجِّلُ رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض.

رواه البخاري في اللباس (١٢/٤٩٠) وغيره، ومسلم في الطهارة (٣/٢٠٩)، وعند أبي داود (٤١٨٩): كنت إذا أردت أن أفرقَ رأس رسول الله ﷺ صَدَعْتُ الفَرْق مِن يافُوخِهِ وأُرْسِلُ ناصيَتَه بين عَيْنَيْه.

قولها: «أُرجل» ترجيل الشعر تسريحه ومشطه. وقولها: «صدعت

الفرق» أي: شققت فرق الشعر. و«اليافوخ» هو وسط الرأس.

ففي الحديث مشروعية ترجيل الشعر وتسريحه وجواز مباشرة الحائض ذلك، والترجيل مطلوب لأنه من النظافة غير أنه يكره الإكثار منه بالنسبة للرجال؛ لحديث:

[٦٤٠] عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الترجّل إلا غِبّاً.

رواه أبو داود (٤١٥٩)، والترمذي في اللباس (١٦١٣) وفي الشمائل (٣٤)، والنسائي (١١٤/٨)، وابن حبان (١٤٨٠) بسند صحيح، ودعوى انقطاعه مدفوعة، انظر تهذيبي للجامع (١٦١٣).

«إلا غِبّاً» بكسر الغين وتشديد الباء أي يفعل يوماً ويترك يوماً. ففي الحديث النهي عن الإكثار من تسريح الشعر والمواظبة عليه كل يوم لأن ذلك نوع من التّرف والرفاهية، وقد جاء في حديث لفضالة بن عبيد كان رسول الله ﷺ ينهانا عن كثيرٍ من الإرفاه، فالاهتمام بتزيين الهيئة كل حين من شأن النساء والمخنّثين.

* * *

❁ طِيب عَرَقه ﷺ وتعطّره

[٦٤١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون كأنّ عَرَقه اللُّؤْلُؤ إذا مشى تَكَفَّأ، ولا مسِسْتُ دِيبَاجَةً ولا حَرِيراً ألْيَن من كفّ رسول الله ﷺ ولا شَمِمْتُ مِسْكَةً، ولا عنبراً، أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٨٥/١٥، ٨٦)، والدارمي (٥٢)، والترمذي في البرّ والصلة (١٨٥٨) وفي الشمائل (٣٣٨)، وكذا أحمد (٢٠٠/٣، ٢٢٢) وفي مواضع، وأبو داود.

«أزهر اللون» أي: أبيض مشرّب بحمرة وهو أحسن الألوان. «كأن عرقه اللؤلؤ» يعني في البياض والصفاء. «تَكفُّأ» أي: مال. «دِيباجَة» هو الثَّوب الذي يكون سداه ولحمه حريراً.

في الحديث أربع صفات للنبيّ ﷺ لونه ومشيه وليونة كفّه ﷺ، وأنها كانت ألين من الدِّيباج والحرير، وطيب رائحته وأنه كان أطيب من المسك والعنبر ولا أطيب منهما في الدنيا.

[٦٤٢] وعنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقَالَ عندنا، فعَرق وجاءت أُمّي بقارورة فجعلت تَسلُتُ العَرَق، فاستيقظ النبيّ ﷺ فقال: «**يا أمّ سليم ما هذا الذين تَصنَعِين؟**» قالت: عَرَقٌ نَجعلُه لطِيبنا وهو أطيبُ الطِّيب.

وفي رواية: إن النبيّ ﷺ كان يأتي أمّ سليم فيقيل عندها فتبسُطُ له نَطْعاً فيقيل عليه، وكان كثير العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطِّيب والقوارير، فقال: «**يا أم سليم ما هذا**»؟ قالت: عرقك أَدُوفُ به طيبي.

رواه مسلم (٨٦/١٥، ٨٧) بلفظَيْه.

«فقال عندنا» أي: نام بمنزلنا في وقت القيلولة وهو وسط النهار. «قارورة» أي: زجاجة. «تَسْلُت» أي: تمسح العرق بأصبعها. «فاستيقظ» أي: قام من النوم. «نَطْعاً» بفتح النون بساط من جلد. «أدوف» بفتح الهمزة وضمّ الدال أي: أخلطه به.

وفي الحديث بروايتيه بيان طيب رائحة عرقه ﷺ، وأنه كان أطيب الطِّيب حتى كانت أمّ سليم تتطيّب به وتجمعه في قارورة طيبها.

[٦٤٣] وعن جابر بن سمرة قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ الصلاة الأُولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدانٌ، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدِهم واحداً واحداً، قال: وأمّا أنا فمسح خدي قال: فوجدت ليده بَرْداً أو رِيحاً كأنما أخرجها من جُؤنَةِ عطّار.

رواه مسلم (٨٥/١٥).

«جؤنة عطار» بضم الجيم بعدها همزة ساكنة هي سُلَيلة مُغَشَّاةٌ بالأُدم تكون عند بائعي العطورات والرياحين.

[٦٤٤] وعن أبي جُحَيفة رضي الله تعالى عنه قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثَّلج، وأطيبُ رائحةً من المسك.

رواه البخاري في المناقب (٣٨٢/٧).

فهكذا كان ﷺ كلّه طيباً، بل عرقه وأثر يده أطيب من ريح المسك، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وزوجه وصحابته وعنّا معهم آمين.

وكان مع رائحته الطيبة في جسمه الطاهر يُكثر من استعمال الطِّيب.

[٦٤٥] فعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان لرسول الله ﷺ سُكَّةٌ يتطيّب منها.

رواه أبو داود (٤١٦٢)، وابن سعد (٣٩٩/١)، وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ (٩٨) بسندٍ صحيح على شرط مسلم.

«سكة» بضم السين والكاف المشدّدة المفتوحة وعاء يوضع فيه الطِّيب.

وقد تقدمت أحاديث في كتاب اللباس تتعلّق بالطِّيب.

والطِّيب محبوب للنفوس، منعش، تحبّه الملائكة والأرواح الطيّبة، وتكرهه وتنفر منه الأرواح الخبيثة الشرّيرة.

ولذلك استحبّ العلماء تبعاً للسنة استعماله في المجامع العامّة والمحافل، ويوم الجمعة وأيام العيد، وعند قراءة القرآن وذكر الله تعالى، ويتأكّد استعماله لأهل القرآن والعلم إكراماً لما يحملونه من كتاب الله تعالى والحكمة.

* * *

❋ كلامه ﷺ في الشِّعر وغيره

[٦٤٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيءٍ من الشعر؟ قالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة ويتمثّل بقوله: ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ...

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٧)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٧) وفي الشمائل (٢٤١) وحسّنه وصححه وذلك لطريقين له.

«من لم تزوّد» بضم التاء وكسر الواو المشددة من التزويد وهو إعطاء الزّاد. ومعناه: أنه قد يأتيك بالأخبار من لم تعطه شيئاً من الزاد، وأوّل البيت:

ستُبْدِي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهِلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوّد

وهو صادق في ذلك، والبيت من جنس ما ورد فيه: «إنَّ من الشّعر لحِكْمَةً».

[٦٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ قال: **«أشْعَرُ كَلِمَةٍ تكلمتْ بها العربُ»**، وفي رواية: **«أصْدَقُ كلِمَةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لَبِيدٍ، قوله: ألاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خلا الله باطِلٌ. وكاد أُمية بن أبي الصَّلْتِ أن يُسْلِمَ»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٥٩)، ومسلم فيه (١٥/١٣)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٨) وفي الشمائل (٢٤٢)، وابن ماجه (٣٧٥٧).

لبيد: هو ابن أبي ربيعة العامريّ كان من فصحاء العرب في الجاهلية وشعرائهم قدم على النبيّ ﷺ ثم سكن الكوفة وتوفى سنة (٤١) وله من العمر (١٤٠) سنة، وقد أخبر النبيّ ﷺ عن قوله هذا: ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ، بأنه أصدق ما قاله العرب والشعراء وهو من الحِكَم الشعريّة، وإنما قال ذلك فيه لغلبة الكذب، والخنا، والفحش، والأُمور الخيالية الباطلة على كلامهم، فكان أصدق ما قالوه كلمة لبيد هذه؛ لأن كل ما سوى الله أيّاً كان هو هالك فانٍ باطل لا ثبات له. وقوله: «كاد أُمية» الخ أُمَيّةُ هذا كان في الجاهلية يتكلم في التوحيد، ويذكر البعث والآخرة... ولما جاء نور الإسلام خذله الله فكفر.

[٦٤٨] وعن جُنْدُب بن سفيان البَجَلي رضي الله تعالى عنه قال: أصاب حَجَرٌ إصبعَ النبيّ ﷺ فدَمِيَتْ، فقال:

هَـلْ أَنْـتِ إِلاَّ إِصْـبَـعٌ دَمِـيـتْ وفـي سَـبِـيـلِ الله مـا لَـقِـيـتِ

رواه البخاري ومسلم في الجهاد، وتقدَّم.

[٦٤٩] وعن جابر بن سمرة قال: جالستُ النبيّ ﷺ أكثر من مِائةِ مرّة، وكان أصحابه يتناشدون الشّعر، ويَتذاكَرُون أشياء من أمْرِ الجاهلية وهو ساكتٌ، وربما تبسَّم معهم.

رواه أحمد (٥/١٠٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٩) وفي الشمائل (٢٤٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي بسياق آخر كلّهم في الصلاة.

[٦٥٠] وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: كنت رِدْفَ النبيّ ﷺ فأنشدتُه مائةَ قافيةٍ من قول أُميّة بن أبي الصّلت الثقفي كلما أنشدته بيتاً قال لي النبيّ ﷺ: **«هِيه»**، حتى أنْشَدتُهُ مائة ـ يعني بيتاً ـ فقال النبيّ ﷺ: **«إن كادَ لَيُسْلِمُ»**.

رواه أحمد (٤/٣٨٨، ٣٨٩)، ومسلم (٢٢٥٥)، والترمذي في الشمائل (٢٤٨) وابن ماجه...

«ردف» بكسر الراء وسكون الدال أي: راكباً خلفه. «هيه» بكسر الهاء الأُولى أي: زِدْني... كان النبيّ ﷺ أفصح العرب على الإطلاق لكن الله عزّ وجلّ نزّهه عن قول الشعر وإنشاده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، لأن الشعر أكثره سفاهة وأعذبه أكذبه. والنبيّ ﷺ يُجَلّ عن ذلك. نعم كان ينشد بعض أبيات غيره ويتمثّل بها، وما جاء من كلامه الموزون ليس من الشعر، وفي حديثي جابر والشريد جواز سماع أشعار الجاهلية إذا كانت خالية من السقطات والكلام الفاحش... وسيأتي في الأدب الكلام على الشعر. أما صفة كلامه ﷺ في تحديثه... فقد تقدمت في الجزء الأول من كتاب العلم.

* * *

[٦٥٩] عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت أحداً أكثرَ تَبَسُّماً من رسول الله ﷺ. وفي رواية: ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تَبَسُّماً.

رواه أحمد (٤/١٩٠، ١٩١)، والترمذي في المناقب (٣٤١٦) وفي الشمائل (٢٢٧) وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (ص ٩٠) بسند صحيح.

[٦٦٠] وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إني لأعلمُ أولَ رجلٍ يَدخلُ الجنة وآخِرَ رجلٍ يَخْرُجُ من النار يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فيُقال: اعْرِضُوا عليه صغار ذنوبه، وأخِّبُوا عنه كِبارَها، فيقال له: عَمِلْتَ يوم كذا كذا وكذا وهو مُقِرٌّ لا يُنكِر، وهو مُشْفِقٌ من كبارِها، فيقول: أعطوه مكان كلّ سيئةٍ حسَنَةً، فيقول: إن لي ذنوباً لا أراها هٰهُنا»**، قال أبو ذرّ: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضَحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه...

رواه أحمد (٥/١٥٧، ١٧٠)، ومسلم في الإيمان رقم (١٩٠)، والترمذي في صفة جهنّم (٢٤١٥) بتهذيبي وفي الشمائل (١٢٩).

كان الحبيب ﷺ بشراً يطرأ عليه ما يَعْرِضُ لسائر البشرية من الغرائز والأعراض، فكان يحزن ويبكي، ويفرح ويضحك، وكان أكثر ضحكه التبسُّم، وصحّ في أحاديث تناهز العشرين أنه ضحك حتى ظهرت نواجذه الشريفة، وقد جمعها في رسالة لطيفة أستاذنا الحافظ سيدي أحمد الصدّيق رحمه الله تعالى أسماها «شوارق الأنوار المُنيفَة، بظهور النواجذ الشريفة»، طُبِعت عدّة مرات، وتقدّم لنا في التفسير والأذكار حديث الإمام عليّ عليه السلام في ركوبه وقوله في ذلك وضحكه، وقوله: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أيِّ شيءٍ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: **«إن ربّك ليعجب من عبده إذا قال ربّ اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب أحدٌ غيرُهُ»**، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم بسندٍ صحيح. ويأتي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في الرقاق، والذي

فيه التحدّث عن آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنّة، وأن الله عزّ وجلّ سيدخله الجنّة ويعطيه ما تمنّى وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول لله عزّ وجلّ: أتسخر بي وأنت الملك أو ربّ العالمين، فضحك النبيّ ﷺ حتى بدَتْ نواجذه وهو في الصحيحين.

«النواجذ» الأضراس.

[٦٥٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن كان رسول الله ﷺ لَيُخَالِطُنا حتى يقول لأخٍ لي صَغِير: **«يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغَيْرُ»**.

رواه البخاري (١٣/٢٠٤، ٢٠٥) ومسلم (١٤/١٢٨) كلاهما في الأدب، والترمذي في البرّ (١٨٣٤) وفي الشمائل (٢٣٦)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والنسائي في اليوم والليلة.

«النُّغَيْر» تصغير النُّغَر بضم النون وفتح الغين طائر صغير.

كان لأنس أخٌ صغير وكان له طائر يلعب به فمات فحزن عليه، فمازحه النبيّ ﷺ بقوله: **«يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغَيْر»**.

[٦٥٤] وعنه قال: إن رجلاً اسْتَحْمَلَ رسول الله ﷺ فقال: **«إنّي حامِلُك على ولدِ النّاقة»**، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: **«وهَلْ تَلِدُ الإبلُ إلا النُّوقَ»**.

رواه أحمد (٣/٢٦٧)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٨)، والترمذي في البرّ (١٨٣٧) وفي الشمائل (٢٣٨) وحسّنه وصححه وهو صحيح عنده على شرطهما.

«استحمله» أي: طلب منه أن يحمله على جَمل.

مازح النبيّ ﷺ هذا الرجل وأوهمه أنه سيحمله على صغير من النوق، فتوهم الرجل أن الولد لا يطلق إلا على الصغير الذي لا يُركب، فبيَّن له ﷺ أنه إنما أراد مداعبته وأن كل أنواع الإبل صغارها وكبارها هنّ أولاد النّوق.

فكان ﷺ يمازح ولا يقول إلا حقاً، كما صحّ عنه.

[٦٥٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنّك تُدَاعِبُنا، قال: **«نعم، غيرَ أنّي لا أقول إلا حقاً»**.

رواه الترمذي في البرّ (١٨٣٥) وفي الشمائل (٢٣٧)، وأحمد (٣٦٠/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥) وحسّنه الترمذي وصححه.

«تداعبنا» أي: تمازحنا.

[٦٥٦] وعن أنس أن رجلاً من أهلِ البادية كان اسمه زاهراً، وكان يُهْدِي إلى النبيّ ﷺ هَدِيَّةً من البادية فيُجَهِّزُه النبيّ ﷺ إذا أراد أن يَخْرُجَ، فقال النبيّ ﷺ: **«إن زاهراً بادِيَتُنا ونحن حاضِرُوه»**، وكان ﷺ يحبّه، وكان رجلاً دَمِيماً، فأتاه النبيّ ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه مِن خلفه وهو لا يُبْصِرُه، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت فعرف النبيّ ﷺ فجعل لا يألو ما ألْصَق ظَهْره بِصَدْرِ النبيّ ﷺ حين عرفه، فجعل النبيّ ﷺ يقول: **«من يشتري هذا العبد؟»** فقال: يا رسول الله إذاً والله تجدني كاسداً، فقال النبيّ ﷺ: **«لكن عند الله لستَ بكاسدٍ»**، أو قال: **«أنت عند الله غالٍ»**.

رواه أحمد (١٦١/٣)، والترمذي في الشمائل (٢٣٩)، وابن حبان (٢٢٧٦) بالموارد بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

«باديتنا» أي: نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته، والبادي المقيم بالبادية. «حاضروه» أي: يستفيد منا إذا جاءنا. «دميماً» بفتح الدال أي: قبيح الصورة مع كونه مليح السيرة محبوباً عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ. قوله: «لا يألو» أي: لا يقصر، في رواية ابن حبان: جعل يلزق ظهره بصدره.

فما صدر منه ﷺ مع هذا الأعرابي الجليل غاية في المداعبة والمباسطة والتواضع والمعاملة الجميلة، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وزوجه.

* * *

[٦٥٧] عن قَيْلَة بنت مَخْرَمة أنها رأتْ رسولَ الله ﷺ في المسجد وهو قاعدٌ القُرْفُصاء، قالت: فلما رأيتُ رسولَ الله ﷺ المُتَخَشِّع في الجِلْسةِ فأُرْعِدْتُ من الفَرَق. زاد في رواية: يا مِسْكِينَةُ عَلَيْكِ السَّكِينَة.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٧٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٤٧)، والترمذي في الشمائل (١١٩) بسندٍ حسن، وقال الحافظ في الأدب من الفتح: سنده لا بأس به، ورواه الطبراني مطوّلاً وفيه: يا مسكينة، قال النور في المجمع (١٢/٦): رجاله ثقات.

«القرفصاء» بضم القاف والفاء بينهما راء ساكنة هي؛ أن يجلس الإنسان على إليتيه ويلصق فخذه ببطنه ويضع يديه على ساقيه قابضاً إحداهما بالأخرى ومنها الحَبْوَةُ؛ بأن يجمع بين ظهره وساقيه بثوبٍ فيعتمد على ذلك، وقد صحّ في أحاديث أنه كان يحتبي ﷺ في جلوسه بيده وغيرها. «فأرعدت» مبني للمجهول أي: حصلت لي رعدة من الفرق ـ بفتحتين ـ أي: الخوف والفزع.

[٦٥٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبياً بيده هكذا.

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (٣٠٦/١٣).

[٦٥٩] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس احتبى بيديه.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٦) بسندٍ صحيح ونحوه عنده (٤٠٧٥) عن جابر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ بشملة قد وَقَع هَدبُها على قدميه، وتقدّم في اللباس بل جاء نحوه في البخاري عن ابن عمر وفي مسلم عن ابن عباس، فالاحتباء كما يكون بالثوب يكون باليدين وهو القرفصاء.

فكان ذلك من صفات جلوسه ﷺ وتقدم في الأطعمة أنه قال:

«**أجلس كما يجلس العبد**»، يعني بذلك جلسة المتواضعين.

[٦٦٠] وعن عبدالله بن زيد رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبيّ ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

رواه الشيخان، ويأتي في الأدب.

ففيه جواز الاستلقاء على القفا ولو في المسجد، وما جاء من النهي عن ذلك محمول على من يخشى انكشاف عورته، وانظر تهذيبي للجامع (٢٥٧٧، ٢٥٧٨).

[٦٦١] وعن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ متّكئاً على وسادة على يساره.

رواه أحمد (٨٦/٥، ٨٧)، وأبو داود (٣١٤٣)، والترمذي في الأدب (٢٥٨١) وفي الشمائل (١٢٢) بسند صحيح على شرط مسلم، ويأتي في الزهد وغيره أحاديث في هذا المعنى.

وقد صحّ في غير ما حديث اتّكاؤه؛ كحديث: «**ألا أُحدّثكم بأكبر الكبائر**»، وفيه: وكان متّكئاً، وهو في الصحيحين ويأتي في الأدب مطوّلاً كاملاً إن شاء الله تعالى.

لكنه لم يكن يأكل متّكئاً كما قدمنا في الأطعمة: «**أما أنا فلا آكل متّكئاً**»، وهو في البخاري.

* * *

❁ خفّه ونعله ﷺ

[٦٦٢] عن بُرَيْدة رضي الله تعالى عنه أن النجاشيّ أهْدَى النبيَّ ﷺ خُفَّيْنِ أسْوَدَيْن سَاذِجَيْنِ، ثم توضّأ ومسح عليهما.

رواه أبو داود (١٥٥)، والترمذي في السنن (٢٦٣٠) وفي الشمائل (٦٩)، وابن ماجه (٥٤٩، ٣٦٢٠) وفيه دلهم بن صالح فيه ضعف لكنه

تابَعَه يَحْيَى بنُ كثير كما في أخلاق النبيّ ﷺ لأبي الشيخ (ص ١٣٣) فيتأيّد به، ولذا حسّنه الترمذي.

قوله: «ساذجين» بفتحات وتكسر الذال أيضاً تثنية ساذج أي: خالصين في السواد، والنجاشي هذا ملك الحبشة التي أكرم الصحابة المهاجرين إليه وحماهم، وكان قد أسلم وتوفي في السنة التاسعة وصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب، وتأتي ترجمته في الفضائل.

[٦٦٣] وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبيّ ﷺ خفّين فلبسهما.

رواه الترمذي في السنن (١٦٢٤) وفي الشمائل (٧٠) بسندٍ صحيح، ورواه أبو الشيخ (١٠٥) من طريقٍ آخر.

الخفّ غِشاءٌ للرجل يُغَطّي الكعب يكون من الجلد مخروزاً ومُبَطّناً بِقُطن أو كِتّانٍ أو نحو ذلك.

والحديثان يدلاّن على أن النبيّ ﷺ كان يلبس الخفّين ويمسح عليهما في الوضوء، ولا خلاف في ذلك بين الأئمّة والعلماء، كما أن فيهما قبول الهدايا، وقد جاء في ذلك غير ما حديث تقدَّم بعضها، ويأتي البعض الآخر.

[٦٦٤] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ كان نَعْلاهُ لَهُما قِبالاَنِ.

رواه البخاري (١٢/٤٣٠)، وأبو داود (٤١٣٤)، والترمذي (١٦٢٧)، والنسائي (٨/١٩٢)، وابن ماجه (٣٦١٥) كلهم في اللباس وهو في الشمائل للترمذي (٧١).

[٦٦٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان مَثْنِيٌّ شِرَاكُهُما.

رواه الترمذي في الشمائل (٧٢)، وابن ماجه (٣٦١٤) بسند صحيح.

القِبال ـ بكسر القاف ـ ويسمّى شِسْعاً وهو السير والزمام الذي يكون للنعل بين أُصْبُعَيْ الرجلين أحدهما بين الإبهام والتي تليها، والآخر بين الوسطى وأختها. والشِّراك ـ بكسر الشين ـ سير يكون على وجه النعل، فكان لنعله ﷺ قبالان وشراكان.

* * *

صفة مشيه ﷺ

[٦٦٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت شيئاً أَحْسَنَ من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ، كأنّما الأرضُ تُطْوَى له، إنا لنُجْهِدُ أنفسنا وإنه لغير مكترث.

رواه أحمد (٢/٣٥٠)، والترمذي (٣٤١١) وفي الشمائل (١١٥)، وابن حبان (٢١١٨)، وابن سعد (١/٣٧٩، ٣٨٠) وسنده صحيح عند بعضهم وابن لهيعة قد تُوبع.

«لنجهد» بضم النون وكسر الهاء أي: لنكلف أنفسنا ونحمّلها فوق طاقتنا لنساويه في المشي. «غير مكترث» بضم الميم وكسر الراء أي: غير مُبالٍ.

في الحديث صفتان للنبيّ ﷺ إحداهما حسن صورة وجهه الشريف، وأنه كان كالشمس تجري فيه لتلألؤه ولمعانه واستنارته، ثانيهما: صفة مشيه ﷺ وأنه كان يسرع في ذلك لا يُدرك، رغم أن الصحابة الذين كانوا يماشونه كانوا يبالغون جهدهم في السير معه وهو غير مُبالٍ، بل كان يمشي مشياً عادياً، وتلك معجزة له ﷺ في طيّ الطريق... وقد قدمنا سابقاً في صفته أنه كان إذا مشى تكفّأ تكفّؤاً كأنما ينحط من صبب.

* * *

[٦٦٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: ألستُم في طعامٍ وشرابٍ ما شِئْتُم؟ لقَدْ رأيتُ نَبِيَّكُم ﷺ وما يجدُ من الدَّقَل ما يَمْلأُ بطنَه.

رواه أحمد (٤/٢٦٨)، ومسلم في الزهد (١٨/١٠٩)، والترمذي فيه (٢١٩٠) وفي الشمائل (١٣١).

«الدقل» ـ بفتحتين ـ التمر الرديء اليابس.

[٦٦٨] وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن النبيّ ﷺ لم يَجْتَمِعْ عِنْده غداءٌ ولا عَشاءٌ من خبز ولحم إلا على ضَفَفٍ، وفي رواية: ما شبع من خبز قطّ ولا لحم إلا على ضَفَفٍ. قال مالك بن دينار: سألت رجلاً من أهل البادية ما الضفف؟ قال: أن يتناول مع الناس.

رواه أحمد (٣/٢٧٠)، والترمذي في الشمائل (١٣٨)، وابن سعد (١/٤٠٤)، وأبو الشيخ في الأخلاق (ص ٢٧٨) بسندٍ صحيح على شرط الشيخين، والرواية الثانية رواها الترمذي في الشمائل عن مالك بن دينار مرسلاً وسنده صحيح.

«الضفف» ـ بفتحتين مع تشديد الضاد ـ هو الطعام الذي كثُرت عليه الأيدي.

ومعنى الحديث أنه ﷺ لم يكن يجتمع عنده غَداءٌ ولا عَشاءٌ من خبز ولحم إلا إذا كان عنده ضيوف أو غيرهم، فكان لذلك يشبع من خبز ولحم مما كان يُهْدى إليه، وما عدا ذلك فكان لا يجد أحياناً ما يملأ بطنه ويشبعه حتى التّمر الرديء.

[٦٦٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إن كان آل محمد ﷺ نمكُث شهراً ما نستوقد بنار، إنْ هُوَ إلا التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيَسْقِينَاهُ.

رواه البخاري في الهِبة وفي الرقاق، ومسلم في الزهد (١٠٦/١٨، ١٠٧)، والترمذي في الشمائل (١٣٢)، وأبو الشيخ (٢٧٤).

«المنائح» جمع منيحة وهي الناقة أو الشاة الحلوب يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها، ثم يردها إلى صاحبها عند نفاد لبنها.

فهكذا كان عيش رسولنا الأكرم ﷺ لا يجد ما يُشبعه من رديء التمر، ولا تُوقد النار في بيت من بيوت نسائه لتهيئة الطعام وطبخه شهراً كاملاً، وما كان طعامه مع أهله إلا التمر والماء، ولم يجتمع عنده ما يتناوله في الغداء أو في العشاء من خبزٍ ولحم إلا إذا أكل مع ضيف أو نحوه. وسيأتي بقايا في الزهد والرقائق وغيرها.

* * *

❋ خبز رسول الله ﷺ

[٦٧٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ.

رواه مسلم (١٠٦/٨)، والترمذي (٢١٧٧)، وابن ماجه، ثلاثتهم في الزهد وهو في الشمائل (١٤٥).

[٦٧١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهلُه ثلاثاً تباعاً من خبز البرّ حتى فارق الدنيا.

رواه البخاري في الأطعمة، ومسلم (١٠٨/١٨، ١٠٩)، والترمذي (٢١٧٨) كلاهما في الزهد، وابن ماجه (٣٣٤٣).

[٦٧٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثرُ خِبزِهم خبزَ الشعير.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٨٠) وفي الشمائل (١٤٧)، وابن ماجه في الأطعمة (٢٣٤٧) وحسّنه الترمذي وصححه.

«طاوياً» أي: جائعاً.

[٦٧٣] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: أكَلَ رسولُ الله ﷺ النَّقِيَّ - يعني الحُوَّارَى - فقال: ما رأى رسول الله ﷺ النقيّ حتى لقي الله عزّ وجلّ، فقيل له: هل كانت لكم مناخلُ على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: ما كانت لنا مناخل، قيل: كيف كنتم تصنعون بالشعير؟ قال: كنا نَنْفُخُه فيَطِيرُ منه ما طار ثم نُثَرِّيه ثم نَعْجِنُه.

رواه أحمد (٣٧٢/٥)، والبخاري في الأطعمة (٤٨١/١١)، والترمذي في الزهد (٢١٨٤) وفي الشمائل (١٤٨)، وابن ماجه (٣٣٧٥)، وابن سعد (٤٠٨/١).

الحُوارى - بضم الحاء وفتح الواو المشدّدة آخره راء ثم ألف مقصورة - هو الدقيق المنخول المرقّق الأبيض.

فهذه الأحاديث تدلّ بجملتها على أن أكثر خبز رسول الله ﷺ كان من الشعير، ومع ذلك فلم يكن يشبع منه ولا من غيره كالبرّ يومين أو ثلاثاً متواليين. أما الخبز النقيّ المعمول من الدقيق المنخول الرقيق فلم يرَه قطّ فضلاً عن أن يأكله، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وزوجه وصحبه وعنّا معهم، آمين.

* * *

❁ فراش رسول الله ﷺ

[٦٧٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنما كان فِراشُ رسول الله ﷺ الذي يَنامُ عليه من أَدَمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ.

رواه البخاري في الرقاق (٧٣/١٤)، ومسلم في اللباس (٥٨/١٤)،

والترمذي (١٦١٨)، وأبو داود (٤١٤٧)، والترمذي في الشمائل أيضاً (٣٢١).

«أدم» بفتحتين جمع أديم وهو الجلد المدبوغ. «والليف» ليف النخل والجمار.

فراش رسولنا الأعظم الذي كان ينام عليه من الجلد محشوّ بليف النخل، فلم يكن له فراش من كتّان أو قطن أو صوف بل جلد مدبوغ، فكيف لو رأى فرشنا ووسائدنا وأغطيتنا، فاللّهمّ عفوك وغفرانك.

[٦٧٥] وعن أبي بردة رضي الله تعالى عنه في قصة أبي عامر وأبي موسى الأشعري في غزوة أوطاس، وقول أبي موسى: فلما رجعت إلى النبيّ ﷺ دخلت عليه وهو في بيت على سرير مُرْمَلٍ وعليه فراش وقد أثّر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبه.

رواه البخاري (٩/١٠٤)، ومسلم في الفضائل (١٦/٦٠)، وقد تقدم في المغازي.

[٦٧٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في سؤاله عُمَرَ عن قوله تعالى؛ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فذكر الحديث وفيه عن عمر: فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل أذن لك، قال: فدخلت فإذا رسول الله ﷺ مُتَّكِئٌ على رَمْلِ حَصِيرٍ، فرأيت أثره في جنبيه... الحديث يأتي مطوّلاً في الزهد، وتقدم مختصراً في التفسير، وهو في الصحيحين. والسرير المرمل المنسوج بشريط وحبل.

فهكذا كان فراش رسول الله ﷺ إما جِلْدٌ مَحْشُوٌّ بليف النخل، أو سريرٌ منسُوجٌ بحِبال حتى تؤثر في ظهره وجنبه الشريف؛ فراشٌ بسيطٌ للغاية لا ينام أو يجلس عليه في العادة إلا من بلغ بهم الفقر والحاجة النهاية، فلنقارن نحن معاشر أُمّته وأتْباع سنّته حالتَنَا بما كان عليه ﷺ من الإعراض عن الدنيا وزينتها ومستلذّاتها... ويأتي مزيد لهذا في الرّقاق والزهد.

* * *

[٦٧٧] عن سعد بن هشام رحمه الله تعالى قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: أمَا تَقْرَأُ القُرْآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خُلُقُه القرآن.

رواه أحمد (٦/٩١، ٩٣)، ومسلم في صلاة الليل (٦/٢٥، ٢٦).

«خُلُق» بضمّتين هو السجية والطبيعة.

فقول السيدة هنا: كان خُلُقه القرآن، تعني أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً وخبراً سجية وصفة له تَطْبَعَهُ، وترك طَبْعَه الجِبلِيّ، فمهما أمره القرآن بشيء امتثله، ومهما نهاه عن شيءٍ تركه وابتعد عنه مع ما كان مجبولاً عليه من قبل الله عزّ وجلّ من التخلّق بكل خلق سَنِيّ، كما يأتي.

ولذلك أثنى الله عزّ وجلّ عليه ونوّه به بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، فلا أعظم في الدنيا من الخلق الذي أشاد الله تعالى به ووصف به نبيّه وحبيبه الخاتم ﷺ.

[٦٧٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالحَ الأَخلاق»**، وفي رواية: **«مكارم الأخلاق»**.

رواه أحمد (٢/٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وابن سعد (١/١٩٢)، والحاكم (٢/٦١٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، قال ابن عبدالبرّ: هو حديث صحيح متّصل من وجوه صحاح.

ومعنى الحديث أنه بُعِث إلى الناس لِيُكَمِّلَ تَخَلُّقاً وتبليغاً ما كان قد تَبَقَّى من الأخلاق الصالحة الكريمة التي لم يكن مُتَّصِفاً بها أحدٌ من الأنبياء أو غيرهم من العرب أو سائر الأجناس والأُمم قبله ﷺ، فقد أتمّ ذلك بأخلاقه وأقواله عليه السلام.

* * *

❋ حُسن عشرته ومعاملته الطيّبة

[٦٧٩] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أُفٍّ قط، وما قال لي، لشيء صنعتُه لِمَ صنعتَه، ولا لشيء تركتُه لِمَ تركْتَه، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً.

رواه البخاري ومسلم والدارمي والترمذي مطوّلاً، وقد تقدم بسياقٍ آخر في طيب جسمه ﷺ.

هذا غاية في حسن المعاشرة ومعاملة الخادم، فعَشَرةُ أعوام من خدمة أنس له ﷺ لم يَرَ منه فيها عِتاباً أو تَعْنِيفاً لشيء فعله أو تركه وما تأفّفَ منه طوال هذه المدة، وكيف لا وهو أحسن الناس خلقاً بشهادة الله عزّ وجلّ.

[٦٨٠] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: «**بئس أخو العشيرة**»، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنتَ له القول فقال: «**يا عائشة إن مِنْ شرِّ الناس مَنْ تَرَكَهُ الناس أو وَدَعَه الناس اتّقاءَ فُحْشِهِ**».

رواه أحمد (٣٨/٦، ٨٠، ١٥٨، ١٧٣)، والبخاري (١٤٤/١٣)، ومسلم (١٤٤/١٦)، والترمذي (١٨٤١)، وأبو داود (٤٧٩١) كلّهم في الأدب وهو في شمائل الترمذي (٣٤٣).

ما فعله ﷺ مع ذلك المنافق هي مجاملة مشروعة في معاملة الآخرين ولو كانوا كافرين أو فاسقين، وهي من تمام حسن الأخلاق وليست من النّفاق، كما قد يتوهّم. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين وهي: خفض الجناح للناس ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول... ويأتي مزيد لهذا في الأدب.

❋ ❋ ❋

❋ حلمه ﷺ وعفوه مع المقدرة

[٦٨١] عن عائشة رضي الله تعالى عنه قالت: ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ في أمرين قطّ إلا اختار أيْسَرهُما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتَهَك حُرْمَةُ الله تعالى، فَيَنْتَقِمُ لله بها.

وفي رواية: ما رأيت رسول الله ﷺ مُنْتَصِراً من مَظْلِمَةٍ ظُلِمَها قطّ ما لم تكن حُرْمةٌ من محارم الله، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادماً ولا امرأة.

رواه أحمد (٣٢/٦)، والبخاري في المناقب (٣٨٥/٧، ٣٨٦) وفي الأدب، ومسلم في الفضائل (٨٤/١٥)، والترمذي في الشمائل (١٩٩) بألفاظ وزيادة ونقصان.

«أيسرهما» أي: أسهلهما. «مظلمة» بكسر اللام وفتحها.

هكذا كان خلقه مع الآخرين لا ينتقم لنفسه ممن ظلمه أو اعتدى عليه، ولم يعرف عنه أنه ضرب أحداً لا زوجة من زوجاته، ولا بنتاً من بناته، ولا خادماً ولا عبداً ولا أمة فضلاً عن غيرهم، وإنما كان ينتقم ويغضب لله إذا رأى حرمة من حرمات الله انْتُهِكت.

[٦٨٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فَجَبَذَهُ أعرابيّ بردائه جَبْذةً شديدة، حتى أثّرت حاشيةُ البرد في صَفْحَةِ عُنُقِهِ، ثم قال: يا محمد مُرْ بي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه النبيُّ ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

رواه البخاري في اللباس (٣٩٠/١٢)، ومسلم في الزكاة (١٤٦/٧) وغيرهما.

هذا سوء أدب كبير من هذا الأعرابي، وإذاية شديدة منه للنبيّ ﷺ، ومع ذلك قابله بالضحك والعطاء ولم يصنع معه شيئاً يَسُوءُه.

[٦٨٣] وعن جَعْدَةَ قال: أُتِيَ النبيّ ﷺ برجل فقيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال له النبيّ ﷺ: «لم تُرَعْ ولو أرَدْتَ ذلك لم يُسَلِّطْكَ الله عليَّ».

رواه أحمد (٤٧١/٣) بسندٍ صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٧/٨) برواية أحمد والطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي إسرائيل الجشمي وهو ثقة.

«لم ترع» مبنيّ للمجهول أي: لا تفزع لمكروه ولا تخف. وهذا نهاية ما يكون من الحلم والعفو، وقد تقدّمت أحاديث في حلْمه وعفوه ﷺ في غضون السِّيرة؛ كحديث ابن عمرو عن التوراة: ولا يجزىء السيّئة بالسيّئة، ولكن يعفو ويصفح، وحديث ابن السعنة اليهودي وفيه: يسبق حلمه جهله. وحديث عفوه عن غورث الذي اخترط سيفه وأراد قتله، وحديث عفوه عن اليهودية التي سمّته، وحديث عفوه عن ابن أُبيّ المنافق، وحديث عفوه عمّن قال له: اعدل يا محمد، فإنّ هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرةً.

* * *

❋ جوده وسخاؤه وكرمه ﷺ

[٦٨٤] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: ما سُئِل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا.

رواه البخاري في الأدب (٦٥/١٣)، ومسلم في الفضائل (٧١/١٥)، والدارمي (٧١).

[٦٨٥] وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان النبيّ ﷺ أجْوَد الناسِ بالخير، وأجودَ ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيَهُ جبريلُ عليه السلام أجودَ بالخير من الريح المُرْسلة.

رواه أحمد (٣٦٣/١، ٢٨٨)، والبخاري في بدء الوحي (٣٤/١، ٣٥) وفي الإيمان وفي الصيام... ومسلم في الفضائل (٦٨/١٥، ٦٩).

[٦٨٦] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسْلِمُوا فإن محمداً يُعْطِي عطاءَ من لا يَخْشَى فاقة.

رواه مسلم في الفضائل (٧٢/١٥).

الفاقة: الفقر.

هكذا كان كرمه ﷺ، فكانت الدنيا عنده أحقر شيء وأصغره في عينيه، فلم يكن يعبأ بها ولا بما سيق له منها، فلذلك كان يعطي منها أعْطِية خياليّة، وقد قدمنا في غزوة حنين أنه أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصن وصَفوان بن أُميّة مائة مائة من الإبل، وردّ على هوازن ألوف الأنعام، وكان ذلك عادة له حتى قبل النبوّة صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه.

* * *

❊ شجاعته ﷺ

[٦٨٧] قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت أشجعَ ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ.

رواه الدارمي في مقدمة سننه (٦٠) بسندٍ صحيح.

[٦٨٨] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: كنّا والله إذا احْمَرّ البأس نتّقي به، وأما الشجاع منّا الذي يحاذى به ـ يعني النبيّ ﷺ ـ.

رواه مسلم (١٢٠/١٢).

[٦٨٩] وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بَأْساً.

رواه أحمد (٨٦/١) بسندٍ صحيح.

[٦٩٠] وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: فلما التقى المسلمون

والكفار ولَّى المسلمون مُدْبِرين، فطفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ نحوَ الكفار، وأنا آخِذٌ بلجامها أَكُفُّهَا إرادةَ أن لا تُسْرِع، وأبو سفيان - يعني ابن الحارث ابن عمِّ الرسول - آخِذٌ بركابه ثم نادى بالمُسْلِمِين...

رواه مسلم في السِّير (١١٧/١٣، ١١٨) وفي رواية للبراء: والنبيّ ﷺ يقول: «**أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، رواه البخاري ومسلم وقد تقدم في غزوة حُنين.

[٦٩١] وقال أنس رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فَزِعَ أهلُ المدينة ليلةً فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت فتلقَّاهم رسولُ الله ﷺ راجعا قد سَبَقَهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبرَ على فرسٍ لأبي طلحة عُرْي والسيف في عُنقه، وهو يقول: «**لن تُراعُوا**».

رواه أحمد (١٤٧/٣، ١٨٥، ٢٧١)، والبخاري في الجهاد (٤٦٣/٦) وفي مواضع، ومسلم في الفضائل (٦٧/١٥، ٦٨).

«لن تراعوا» أي: لا تفزعون ولا تخافون.

هذه نماذج من شجاعته ﷺ ونجدته، وأنه كان لا يُجارَى في ذلك، وحَسْبُك أن الصحابة كانوا إذا اشتدّ القتال اتّقوا به ﷺ، وأيّ شجاعة أعظم من صموده أمام جيوش هوازن... وركوضه نحوهم وقد انهزم عنه الصحابة وهو على بغلته يقول بكل شجاعة: «**أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»، فلم يكن ولا يكون أشجع منه ﷺ.

* * *

❁ حياؤه ﷺ

[٦٩٢] عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها، وكان إذا كره شيئاً عُرِفَ في وَجْهِهِ.

روا أحمد (٣/٧١، ٧٩، ٩٢) وفي مواضع، والبخاري في المناقب (٧/٣٨٧، ٣٨٨)، ومسلم في الفضائل (١٥/٧٨)، والترمذي في الشمائل (٣٥١)، وأبو الشيخ في الأخلاق (٣٩/٤٠).

«العذراء» هي البنت البكر. و«الخدر» بكسر الخاء محل تسترها.

فالعذراء في خدرها إذا فاجأها أحد فيه احمرّت وخَجِلَتْ وحصل لها تغيُّرٌ، وهذا الخلق خاصّ بالبنت العفيفة البعيدة عن مخالطة الرجال المَصُونَة. أما البنت التي تعتاد الخروج ومزاحمة الرجال، فلا يكون لها هذا خلقاً، بل تكون صفيقة الوجه وقحة، وعلى أيّ فالنبيّ ﷺ كان من خُلُقِهِ هذا الحياء الشديد، ولذلك كان لا يواجه أحداً بما يكره كما في الحديث التالي.

[٦٩٣] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أنه دخل عليه رجل به أثر صُفْرَةٍ، فلم يَقُلْ له شيئاً، وكان لا يواجه أحداً بما يكره، فلما خرج قال: **«لو قلتم له: يغسل هذا أو ينزعها»**.

رواه أحمد (٣/١٣٣، ١٥٤، ١٦٠)، وأبو داود في الأدب (٤١٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٣٦)، وأبو الشيخ (٧٠) وسنده صحيح لولا سلم العلوي فمُختلف فيه.

وكان إذا بلغه شيء عن قوم خطب فقال: **«ما بال أقوام يقولون كذا وكذا أو يفعلون كذا»**، ولا يسمّي أحداً، وهذا من عظيم حيائه ﷺ، وذلك وارد في الصحيحين وغيرهما، فالحياء خُلُقٌ كريم، وهو من أعظم شعب الإيمان وكله خير، وانظر ما سبق في كتاب الإيمان من الجزء الأول ص (٩٧).

* * *

❊ وفاؤه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه

[٦٩٤] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا أُتِيَ

بهديّة قال: **«اذْهَبُوا بها إلى بَيْتِ فلانة، فإنها كانت صَدِيقةً لخديجة، إنها كانت تُحِبُّ خديجة»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد **(٢٣٢)**، وابن حبان (١٥/٤٦٧) مع الإحسان، والحاكم (٤/١٧٥) وصححه ووافقه الذهبي.

[٦٩٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة لِما كنتُ أسْمَعُه يذكرُها، وإن كان لَيَذْبَحُ الشاة فيُهْدِيها إلى خَلائِلِها.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٣٥، ١٣٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/٢٠٠، ٢٠١)، والترمذي في المناقب **(٣٦٥٢)** وفي البرّ والصلة.

[٦٩٦] وعنها قالت: استأذنت **هالة** بنت خُوَيْلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرفها استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: **«اللّهمّ هالةُ بنتُ خويلد»**.

رواه البخاري (٨/١٤٠)، ومسلم (١٥/٢٠١، ٢٠٢) كلاهما في فضائل الصحابة.

قوله: «فارتاح» أي: هَشَّ وسُرَّ بها لأنه تذكر بها حبيبته الأُولى خديجة.

[٦٩٧] وعنها أيضاً قالت: جاءت عجوز إلى النبيّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: **«من أنت؟»** قالت: أنا جَثّامة المُزَنِيَّةُ، قال: **«بل أنتِ حسّانَةُ المُزَنِيّة، كَيْفَ أنتُم؟ كيف حالُكُم؟ كيف كنتم بَعْدَنا؟»** قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال، قال: **«إنها كانت تأتينا زمنَ خديجة وإن حُسْنَ العَهْدِ مِن الإيمان»**.

رواه الحاكم (١/١٦) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/١٠٢)، والبيهقي في الشعب (٦/٥١٧) من طرق هو بها صحيح.

«حسن العهد» أي: العهد الحسن وهو الوفاء به ورعاية الحُرْمة، فهكذا كان ﷺ وفيّاً بصحبته لخديجة، فلم ينسها طوال حياته رغم أن الله عزّ وجلّ أبدله نساء كريمات حساناً؛ لأن خديجة آزرته ونصرته وقطعت معه أشواطاً صَعْبَةً من حياته، وكانت نعمت الناصر المؤيّد له ﷺ، يُضاف إلى ذلك ما رزق له معها من الأولاد لذلك كان يكرم صديقاتها وأقاربها ويُحْسن إليهنّ...

[٦٩٨] وعن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ آلَ بني فلان ليسُوا لي بأولياء، غيرَ أن لهم رَحِماً سأبُلُّها بِبِلاَلِها**».

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (١٣/٢٤، ٢٥، ٢٦)، ومسلم في الإيمان (٣/٨٧).

«سأبلّها ببِلالها» والمراد بالبِلال هنا صلة الرحم، ومنها الشفاعة يوم القيامة، واختلف في المراد بآل فلان هنا من هم؟ فقيل: آل العاص، وقيل: آل أبي طالب الكفار كما جاء مصرّحاً به في مستخرج أبي نعيم على البخاري بسندٍ صحيح بلفظ: «**إن لبني طالب رحماً أبلّها ببلالها**»، والله تعالى أعلم.

[٦٩٩] وعن عمر بن السائب رحمه الله تعالى: أن رسول الله ﷺ كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمّه فوضع لها شقّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام ﷺ فأجلسه بين يديه.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٤٥) وهو مرسل صحيح وهو مشهور في كتب السيرة. وهذا هو اللائق بأخلاقه ﷺ مع الأباعد، فكيف بأبيه وأمّه وأخيه من الرضاعة... وقد تقدم ما كان يعامل به أمّ أيمن حاضنته من الملاطفة والتذلّل لها والتواضع البالغ معها.

* * *

❋ تواضعه ﷺ

التواضع ضدّ التكبّر وهو بالنسبة للنبيّ ﷺ باب واسع جاءت فيه أخبار عدّة في مناسبات وأحوال، فلنقرأها بإمعان وتبصّر، فما أحوجنا إلى التخلّق بها والائتساء به ﷺ فيها، فإن التواضع من صفات العبودية لله عزّ وجلّ.

[٧٠٠] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُطْرُوني كما أطْرَتْ النَّصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدُ الله ورسوله**».

رواه أحمد (١/٢٣، ٢٤، ٥٥)، والبخاري في ذكر عيسى من أحاديث الأنبياء (٧/٣٠٠) وغيرها.

«الإطراء» المبالغة في المدح والتجاوز فيه بالباطل والتغالي في ذلك، فنهيه عن الغلوّ في مدحه، وقوله: «إنما أنا عبد» إلخ، من تواضعه وتنازله عن مقامه السامي، وفي قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى» إلخ، إشارة إلى جواز مدحه ما لم يبلغ إلى حدّ الشرك والكفر مثل ما فعل النصارى في عيسى عليه السلام.

[٧٠١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن امرأة كانَ في عقلها شيءٌ، فقالت: يا رسول الله إنَّ لي إليك حاجةً، فقال: «**يا أمَّ فلان انظُري أيَّ السِّكك شئتِ حتى أقضي لك حاجتك**»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغتْ من حاجتها.

رواه أحمد (٣/١١٩، ١٧٤، ٢١٤)، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٢، ٨٣)، وأبو داود (٤٨١٨، ٤٨١٩)، والترمذي في الشمائل (٢٨٥)، وذكره البخاري معلّقاً في الأدب، ورواه في النكاح (١١/٢٤٦) مختصراً.

«السكك» جمع سكة وهي الطريق، وقوله: فخلا معها، هذا ليس من الخلوة المنهيّ عنها، لأنه كان في الطريق بعيداً من سماع الناس كلامها، وكانوا يرونه واقفاً معها.

وما صنعه مع هذه المرأة نهاية في تواضعه ﷺ، فلا يفعل مثل ذلك ويتنازل له إلا المتواضعون. أما الأنانيون والمتعاظمون فلا يتصوّر صدور ذلك منهم.

[٧٠٢] وعن أنسٍ أيضاً قال: كان النبيّ ﷺ يُدْعَى إلى خُبز الشَّعيرِ والإهَالةِ السَّنِخَةِ فيُجيبُ، ولقد كان له دِرْعٌ عند يهودي فما وجد ما يَفُكُّها حتى مات.

رواه البخاري (٥٠٦/٥)، والنسائي (٢٥٤/٧)، والترمذي في السنن (١٠٩٧) وفي الشمائل (٣٢٦)، وابن ماجه (٢٤٣٧) وغيرهم.

«الإهالة السَّنخة» هو الشحم المتغيّر.

ففي الحديث تنازله وإجابته داعيه لتناول خبز الشعير والشحم المتغيّر وعدم تأففه من ذلك وتأخّره عن الإجابة، وذلك من كمال تواضعه، والدّرع التي دفعها رهناً لليهودي كانت في مقابل ثلاثين صاعاً من الشعير، وتوفي والدّرع مرهونة، ويأتي هذا في الرقائق إن شاء الله تعالى.

[٧٠٣] وعن أنسٍ أيضاً قال: حجّ رسول الله ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قطفةٌ لا تُساوِي أربعةَ دراهم، فقال: **«اللّهمّ اجعله حجّاً لا رِياءَ فيه ولا سُمْعة»**.

وفي رواية: كنّا نرى ثمنها أربعة دراهم، فلما استوت به راحلتُه قال: **«لبّيك بحجّة لا سُمْعَة فيها ولا رياء»**.

رواه الترمذي في الشمائل (٣٢٧)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٠)، وابن سعد (١٧٧/٢) وهو وإن كان ضعيفاً فإنه صحيح لطرقه ولشاهدين له عن ابن عباس رواه الطبراني في الأوسط، وعن بشر بن قدامة رواه النسائي في الكبرى (٣٣٢/٤، ٣٣٣).

ورواه البخاري في الحجّ بسياقٍ آخر، وفيه: حجّ على رحل إلخ.

«الرحل» هو للبعير كالسرج للفرس. و«الرث» البالي.

وأي تواضع أعظم من هذا، رحله رثّ وفراشه عليه لا يساوي أربعة دراهم، وهو يخاف أن يكون حجّه غير مقبول، فيدعو الله عزّ وجلّ أن يجعله خالصاً لوجهه لا يخالطه رياءٌ ولا سمعة، فكيف يا ترى يكون حال مترفي زماننا وذوي السلطة منهم في أيام حجّهم مما يستحيي الشيطان أن يكون عليه.

[٧٠٤] وعنه قال: لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأَوْه لم يَقُومُوا لِما يَعْلَمُون من كراهَتِهِ لذلك.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٣)، والترمذي في الأدب (٢٥٦٧) وفي الشمائل (٣٢٨)، وأبو الشيخ في الأخلاق (٦٣) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي وغيره، ولذلك قال فيه: حسن صحيح.

كان يكره القيام له لأن ذلك من عادات الجبابرة والظَّلمة، فكان يبتعد عن التشبّه بهم تواضعاً منه ﷺ، وقد ثبت عنه الأمر بالقيام لسعد بن معاذ كما تقدم في غزوة بني قريظة، وصحّ في الصحيحين أن طلحة بن عبيدالله قام لكعب بن مالك ولم يُنكر عليه النبيّ ﷺ، وقد ألّف العلماء في مشروعيّة القيام لأهل الفضل وتحريمه لغير ذلك.

وقوله: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ» هذا شيء متواتر عنهم رضي الله تعالى عنهم وصارت به الركبان، ولذلك كانوا يؤثرونه على أنفسهم... وهاجروا في رضاه أوطانهم وقدّموا بين يديه أرواحهم وقاتلوا معه آباءهم وأبناءهم وعشائرهم، حتى إن أبا عبيدة قتل أباه ومصعب بن عمير أخاه، وعمر خاله فضلاً عن أعمامهم وبنيهم وأخوالهم... ولذلك كانوا أفضل الناس بعد الأنبياء، وكان جميعهم في الجنّة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

[٧٠٥] وعن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أُهْدِيَ إليَّ كُراعٌ لقبلتُ، ولو دُعيتُ عليه لأجبتُ»**.

رواه أحمد (٢٠٩/٣)، والترمذي في الأحكام (١٢١٢) وفي الشمائل

(٣٣٠) وقال: حسن صحيح، ورواه البخاري في الهبة (١٢٧/٦) وفي النكاح، وأحمد (٤٢٤/٢، ٥١٢) عن أبي هريرة.

«الكراع» بضم الكاف ما رقَّ من الرجل وهو مرغوب عنه في العادة، ومع ذلك يقول الحبيب الأكرم ﷺ: «**لو أهدي إليّ لقبلت، ولو دُعيت عليه لأجبتُ**»، وهل لهذا مثيل في التواضع؟ لا والله.

[٧٠٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: جاءني رسولُ الله ﷺ ليس بِراكِبٍ بَغْلٍ ولا بِرْذَوْن، وفي رواية: أتاني رسولُ الله ﷺ يَعُودُني وأبو بكر وهما ماشيان.

رواه أحمد (٣٧٣/٣)، والبخاري في المرضى (٢١٨/١٢)، وأبو داود (٣٠٩٦)، والترمذي وفي الشمائل (٣٣١).

«برذون» بكسر الباء وسكون الراء والواو بينهما ذال مفتوحة هو نوع من الدَّوابِّ يشبه الحمير عظيم الخلقة. وفي الحديث بيان تواضعه ﷺ من جهة زيارته لأصحابه ماشياً لم يتكلّف ركوب الخيل أو البغال بل ولا الحمير، وهذا بخلاف المتعاظمين، فإنهم يستنكفون المشي على الأقدام لمثل ذلك، ولا سيما إذا كان المزور بعيد الدار كجابر هنا، فإن منزله كان في بني سلمة وبينها وبين بيوت النبيّ ﷺ أكثر من ثلاثة أميال.

[٧٠٧] وعن عائشة رضي الله تعالى عنه أنها سُئِلت: هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: نعم، كان رسولُ الله ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخِيطُ ثَوْبَه، ويَعْمَلُ في بَيْتِهِ كما يَعْمَلُ أحدُكم في بَيْتِهِ.

رواه أبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (ص ٦٢)، وعبدالرزّاق في المصنّف (٢٠٤٩٢) ومن طريقه البغوي في شرح السنّة (٣٦٧٥) وسنده صحيح على شرطهما.

«يخصف نعله» أي: يخرزها وهذا غاية في تواضعه ﷺ، فإن مثل هذه الأشياء لا يباشرها العظماء والكبراء لتكبّرهم وأنانيتهم وتعاظمهم.

[٧٠٨] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ

يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضَّيف.

رواه أبو الشيخ في أخلاق النبيّ (ص ١٢٩)، والحاكم (٦١/١) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وللحديث طرق وشواهد.

فهذه الخصال لا يتّصف بها إلا الطبقة الفقيرة ذات الفاقة، أما طبقة الأغنياء أو العظماء من ذوي السلطة، فمن المستحيل عادة أن يتخلّقوا بذلك. ومن عظيم تواضعه ﷺ أنه كان يتأخّر في الطريق عن أصحابه ويقدّمهم أمامه، ولا يتقَدَّمهم كعادة عظماء أهل الدنيا، وحضرني الآن في هذا ثلاثة أحاديث، وهي:

[٧٠٩] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى مَشَى أصحابُه أمامه، وتركُوا ظَهْره للملائكة.

رواه ابن ماجه (٢٤٦)، والحاكم (٢٨١/٤) وصححه على شرط الشيخين، وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات.

[٧١٠] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه قال: ما رُئِيَ رسول لله ﷺ يأكُل مُتّكِئاً قَطُّ، ولا يَطأُ عقِبَه رجُلان.

رواه أحمد (١٦٥/٢، ١٦٧)، وأبو داود (٣٧٧٠)، وابن ماجه (٢٤٤)، وابن سعد (٣٨٠/١)، وأبو الشيخ (٢١٣) وسنده حسن صحيح.

[٧١١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه حدّث: أنّ رسولَ الله ﷺ كان يتخلّف في المسير، فيُزْجِي الضعيف ويُرْدِفُ ويدعو لهم.

رواه أبو داود (٢٦٣٩)، والحاكم (١١٥/٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

«فيزجي» أي: يسوق. و«يردف» أي: يجعله راكباً خلفه ردفه.

فهذه الأحاديث دالّة على أنه ﷺ كان لا يتقدم أصحابه في المسير ابتعاداً من التشبّه بالجبابرة والمتكبّرين والمعجبين بأنفسهم، وتخلّقاً بأخلاق عباد الله المتواضعين.

وبهذا تمّ ما أردنا كتابته من شمائل نبيّنا وأخلاقه ﷺ، وقد تقدم كثير منها في غضون الكتاب كما سبق أن أشرنا إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وأتباعه ومحبيه.

* * *

❋ خاتمة هامة

إتماماً للفائدة واقتداء بعلمائنا الذين كتبوا في السيرة رأينا أن نتبع الشمائل بذكر زوجات النبيّ ﷺ وسراريه وأولاده، ومواليه، وخدمه، وكتّابه، كما ذكره علماء السيرة والمحدّثون والمؤرخون.

أما زوجاته، فاللائي دخل بهن إحدى عشرة امرأة وهنّ سيداتنا وأُمهاتنا:

خديجة بنت خويلد، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم زينب بنت خزيمة، وتوفيت في حياته، ثم أمّ سلمة، ثم زينب بنت جحش، ثم جُوَيْرِية بنت الحارث، ثم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، ثم صفية بنت حيي الإسرائيلية، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر من تزوّج بها، تزوّجها في عمرة القضاء.

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللائي دخل بهنّ بدون خلاف.

وأمّا من خطبها ولم يتزوّجها أو وهبت نفسها له ولم يتزوجها فأبلغهن بعضهم إلى ثلاثين، والمعروف الصحيح أنه بعث إلى الجونية ليتزوجها فدخل عليها فاستعاذت منه فأعاذها ولم يتزوّجها، وكذلك التي دخل عليها ورأى بكشحها بياضاً فأمرها بالانصراف ولم يدخل بها، وما عدا ذلك فلا يُعرف.

واتّفقوا أنه توفي عن تسع نسوة باستثناء خديجة وزينب بنت خزيمة اللتين توفيتا في حياته ﷺ، وكان أوّل زوجاته لحوقاً به زينب بنت جحش توفيت سنة عشرين، وآخرهنّ موتاً أمّ سلمة توفيت سنة اثنتين وستين رضي الله تعالى عنهنّ، ويأتي لهنّ مزيد في الفضائل.

وأما سراريه اللاتي كان ينكحهنّ بملك اليمين، فأربع: مارية القبطية أمّ ولده إبراهيم، وريحانة النضرية أو القرظية، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي.

وأما مواليه، فأوصلهم بعضهم كابن عساكر في تاريخ دمشق (ج ١٧٢/٤، ٢٠٤) إلى تسع وثلاثين، وأشهرهم: زيد بن حارثة، وأبو رافع، وثوبان، وصالح، وشُقران، وأبو كبشة، وسفينة، وأنجشة، وأفلح، وريحانة، ورضوى، وسلمى أمّ رافع، ومارية. ومولاته وحضينته أمّ أيمن رضي الله تعالى عنهم.

وأما خدّامه، فمنهم أنس بن مالك، وعبدالله بن مسعود كان صاحب نعليه وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته، وبلال بن رباح، وأبو ذرّ الغفاري، وأيمن ابن أمّ أيمن حاضنته كان على مطهرته... رضي الله تعالى عنهم.

وأما كتابه، فمنهم الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيرة، وأُبي بن كعب، وعبدالله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وزيد بن ثابت وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصّهم به رضي الله تعالى عنهم.

وكل من ذكرنا موجودة تراجمهم وأخبارهم في «الإصابة» و«الاستيعاب» و«أسد الغابة».

وأما أعمامه، فكانوا اثني عشر، أشهرهم: حمزة، والعباس، وأبو طالب، وأبو لهب، وقثم، ولم يُسْلم منهم إلا حمزة والعباس رضي الله تعالى عنهما.

وأما عمّاته، فكنّ ستّاً، أسلم منهنّ صفية أم الزبير بن العوام، واختلف في إسلام عاتكة وأروى.

وأما أولاده، فأوّلهم القاسم، وبه كان يكنى، مات طفلاً.

وزينب، قيل: هي أكبر **أولاده**، ثم رقية وأم كلثوم ثم فاطمة وهي أصغرهن، وقيل غير ذلك. ثم وُلد له **عبدالله** وكان يقال له الطيّب والطاهر، وكلّهم من خديجة، ثم وُلد له إبراهيم من مارية القبطية، وكلّهم توفوا في حياته إلا فاطمة، فعاشت بعده **ستّة أشهر**، وكل هذا لا خلاف فيه.

وبهذا تمّ قسم السيرة والشمائل، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وأتباعه أبد الآبدين.

في كتاب السيرة العطرة من الأحاديث الزائدة على الصحيحين مائتان وبضعة عشر حديثاً، ويليه المناقب والفضائل.

فهرس الأحداث العامة

الموضوع	الصفحة
نسبه الشريف	٨
مولده	٢٧
رضاعه	٣١
وفاة أمه	٣٧
تزوجه بخديجة	٤٨
بعثه وبدء الوحي	٥٧
وفاة خديجة	١١٩
بيعة العقبة	١٣٧
الهجرة إلى المدينة	١٤٦
حديث الهجرة	١٥٢
السنة الأولى	١٧١
بناؤه بعائشة	١٨٢
نزول الإذن بالقتال	١٨٨
المغازي وعددها	١٨٩
السنة الثانية	١٩١
غزوة بدر الكبرى	١٩٦
السنة الثالثة	٢٥٢
غزوة أحد	٢٥٦
السنة الرابعة	٣٠٤

الموضوع	الصفحة

السنة الخامسة ٣٢٠
حادث الإفك ٣٢٥
غزوة الخندق ٣٢٧
السنة السادسة ٣٥٦
غزوة الحديبية وبيعة الرضوان ٣٦٣
السنة السابعة ٣٨٢
غزوة خيبر ٣٨٨
عمرة القضاء ٤٣٢
السنة الثامنة ٤٣٨
مكاتبته إلى الملوك ٤٣٩
غزوة مؤته ٤٤٣
فتح مكة المكرمة ٤٥٤
فتح مكة المكرمة ٤٥٧
غزوة حنين ٤٧٥
السنة التاسعة ٤٩٣
غزوة تبوك ٤٩٥
عام الوفود ٥٢٢
السنة العاشرة ٥٤٢
حجة الوداع ٥٤٢
السنة الحادية عشرة ٥٤٥
بداية مرض نبيّ الله ﷺ ٥٤٦
آخر لحظاته من الدنيا ٥٥٣
شمائله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ومجّد وكرّم وشرّف وعظّم ٥٧٠

الفهرس المفصل

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
كتاب السيرة النبوية	٧
نسبه الشريف وطهارة أصله ﷺ	٨
البشارة بالنبيّ ﷺ على لسان إبراهيم وعيسى عليهما السلام	١٣
البشارة به ﷺ في التوراة والإنجيل	١٤
تبشير اليهود والأحبار والرهبان به ﷺ	١٦
فوائد هذه الأحاديث	٢٤
إخبار الكهّان ببعثته ﷺ	٢٦
مولده ﷺ	٢٧
من فوائد هذه الأحاديث	٢٨
خاتمة	٣١
ذكر رضاعه ﷺ وما حصل له أيامه	٣١
وفاة أُمّه آمنة بنت وهب وكفالة جده ﷺ وموته وكفالة عمّه أبي طالب	٣٧
نشأته على مجانبة أمور الجاهلية وحفظه من آفات الشباب	٤٠
رعيه الغنم في صغره ﷺ	٤٣
سفره ﷺ مع عمّه أبي طالب إلى الشام وقصة بَحِيرَا الراهب	٤٤
حضور النبيّ ﷺ حلف الفضول	٤٦
تزوّج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله تعالى عنها	٤٨
مشاركة النبيّ ﷺ في بناء الكعبة مع قريش	٥٠

الموضوع	الصفحة

تسليم الحَجَرِ على النبيّ ﷺ قبل المبعث ٥٤
خاتمة ٥٥
بعثة النبيّ ﷺ وبدء الوحي والمرحلة الأُولى المكية، عمره ﷺ يوم بُعِث .. ٥٧
بداية الوحي وصفته ٥٨
صفة الوحي وكيف كان يتلقاه النبيّ ﷺ؟ ٦٦
بداية الدعوة ٦٩
مراحل الدعوة في حياة النبيّ ﷺ ٧٠
السابقون إلى الإسلام وأول من أسلم منهم ٧٠
الجهر بالدعوة إلى الله تعالى ٧٣
الإيذاء لرسول الله ﷺ ٧٦
إيذاء صحابة رسول الله ﷺ وعدوان المشركين عليهم ٨٦
الوليد بن المغيرة وقوله في القرآن ٨٩
تفاوض قريش مع نبيّ الله ﷺ ٩٠
اقتراح كفار قريش على النبيّ ﷺ الآيات ٩٣
انشقاق القمر ٩٣
اقتراحهم عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ٩٤
إسلام حمزة عمّ النبيّ ﷺ ٩٥
إسلام أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه ٩٦
إسْلامُ ضِماد الأزْدِي ٩٧
إسلام الجنّ ٩٨
تحطيم رسول الله والإمام عليّ الأصنام وتلطيخها بالعذرة ٩٩
الهجرة إلى الحبشة ١٠٠
الهجرة الثانية ١٠٥
من فوائد حادث الهجرة إلى الحبشة وعِبَره ١٠٦
أحداث وقعت بين الهجرة إلى الحبشة وبين الإسراء: إسلام عمر بن
الخطاب رضي الله تعالى عنه ١٠٧
حصار النبيّ ﷺ ومن كان معه من بني هاشم وبني المطلب في الشِّعْبِ ١٠٩

الموضوع	الصفحة
الانتقام من المستهزئين برسول الله ﷺ	١١١
قصة ابن أم مكتوم الأعمى مع النبيّ ﷺ	١١٣
دعاء النبيّ ﷺ على قريش لما استعصوا	١١٤
قصة غلبة الروم والرهان بين الصديق وبين قريش	١١٥
أبو طالب: وفاته وترجمته ومآله	١١٦
وفاة خديجة وتزوج الرسول ﷺ بعائشة وسودة	١١٩
خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف	١٢١
خروج الصدّيق مهاجراً إلى الحبشة ورجوعه في جوار ابنِ الدَّغِنَّةِ	١٢٤
الإسراء والمعراج	
عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل العربية في الأسواق ومواسم الحجّ ووفود الأنصار عليه ﷺ	١٣٢
قدوم الأنصار لأول مرة يلقون فيها رسول الله ﷺ وذكر بيعة العقبة الأُولى	١٣٤
بدء إسلام الأنصار رضي الله تعالى عنهم	١٣٦
بيعة العقبة الأُولى	١٣٧
إرسال الرسول ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَيْر إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها بسببه	١٣٨
بيعة العقبة الثانية	١٤١
الهجرة إلى المدينة: رؤيا الرسول ﷺ دار هجرته في منامه	١٤٦
أوّل من هاجر إلى المدينة من الصحابة	١٤٧
ما أصاب أبا سلمة وزوجته من البلاء	١٤٧
هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة	١٥٠
مؤامرة كفار قريش على قتل النبيّ ﷺ وخروجه من بين أظهرهم ولحوقه والصديق بالغار	١٥٠
تعمية الكفار عن إبصار رسول الله وأبي بكر في الغار	١٥٢
حديث هجرة النبيّ ﷺ	١٥٢
رسول الله ﷺ والصديق في الغار ثلاث ليال	١٥٣

الموضوع	الصفحة
قصة سراقة مع رسول الله ﷺ والصديق	١٥٤
أهل المدينة ينظرون رسول الله ﷺ	١٥٥
وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وتاريخ ذلك	١٥٥
غريب الحديث	١٥٦
استراحته عند صخرة في القائلة وشربه اللبن	١٥٧
حَدِيث أمّ مَعْبَدٍ الخزاعيّة	١٥٨
رسول الله ﷺ بقباء وتأسيسه مسجده	١٦٤
دخول رسول الله ﷺ المدينة وفرح أهلها بقدومه ونزوله على أبي أيوب الأنصاري	١٦٥
سكناه ﷺ بدار أبي أيّوب الأنصاري وتأدّبه معه وتبرّكه بآثاره	١٦٦
خلاصة ما تقدم من المبعث إلى نهاية الهجرة من الأعمال النبويّة والأحداث	١٦٧
المرحلة الثانية من حياة النبيّ ﷺ: السنة الأُولى من الهجرة وحوادثها؛	
التأريخ	١٧١
مجيء عبدالله بن سلام إلى النبيّ ﷺ وإسلامه	١٧٢
بناء المسجد النبوي الشريف	١٧٣
فرضية الصلاة أربعاً بالمدينة وإبْقاءُ صلاة السفر على أصلها	١٧٦
إسْلامُ سَلْمان الفارسِيّ	١٧٦
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	١٧٧
مبايعة النبيّ ﷺ نساء الأنصار	١٧٩
مرض بعض الصحابة مَقْدَمَهُم المدينة ودعاء النبيّ ﷺ في ذلك	١٨٠
أوّل مولود في الإسلام في المدينة للمهاجرين	١٨١
بناؤه ﷺ بعائشة رضي الله تعالى عنها	١٨٢
بَدْءُ الأذَانِ بالمدينة	١٨٤
مَنَاوَأَةُ اليهود والمنافقين للنبيّ ﷺ	١٨٥
نزول الإذن من الله بالقتال	١٨٨
المغازي وعدد غزوات النبيّ ﷺ	١٨٩

الموضوع	الصفحة

أُولىٰ غزواته ﷺ ١٩٠
غزوة الأبواء ١٩٠
سرية حمزة ١٩٠
أحداث السنة الأُولى ١٩١
السنة الثانية غزوة بواط ١٩١
غزوة العُشَيْرَة (٢) ١٩٢
غزوة بدر الأُولى ١٩٢
سرية عبدالله بن جحش ١٩٣
تحويل القبلة ١٩٤
فرضية صوم رمضان ١٩٥
غزوة بدر الكبرى وما يتعلق بها، تاريخ الغزوة ١٩٦
بعثه ﷺ من يتجسّس على قافلة قريش ١٩٦
سبب الغزوة وندب الرسول المسلمين إلى الخروج من غير إلزام ١٩٧
مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في المدينة قبل الخروج ١٩٨
عدد أصحاب بدر وقلّة مراكبهم ١٩٩
ردّه ﷺ عن الخروج من لم يحتلم ٢٠١
عدم استعانته ﷺ بالمشرك ٢٠٢
رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإنذار ضمضم لقريش ٢٠٢
خوف أُمَيَّةُ بن خَلَفٍ من الخروج لبدر وقصته مع سعد بن معاذ ٢٠٥
كم كان عدد المشركين في بدر وبيان بعض من خرج من صناديدهم ... ٢٠٦
إخبار النبيّ ﷺ بمصارع القوم ٢٠٨
استشارته ﷺ الصحابة مرة ثانية ٢٠٨
رسول الله ﷺ يدعو الله عزّ وجلّ ويتضرّع إليه ليلة بدر ٢١٠
بداية المعركة والأمر في البداية بالرمي ٢١٢
المبارزة ٢١٢
رمي النبيّ ﷺ كفّاً من الحصى في وجوه الكفار فانهزموا ٢١٤
مشاهد وأحداث من وقعة بدر، صنيع عمير بن الحُمام وقتاله ٢١٤

الموضوع	الصفحة
الزُّبَيْرُ بن العوام وعُبَيْدةُ بن سعيد	٢١٥
استشهاد حارثة بن سراقة	٢١٦
شجاعة رسول الله ﷺ يوم بدر	٢١٦
قتال سعد بن أبي وقاص	٢١٧
استفتاح أبي جهل يوم بدر ثم مصرعه	٢١٧
مصرع أمية بن خلف	٢٢٠
شهود الملائكة غزوة بدر وقتالهم مع المسلمين	٢٢١
عدد القتلى والأسارى من المشركين يوم بدر	٢٢٤
قذف القتلى في القليب ووقوف النبيّ ﷺ عليهم ونداؤه إياهم بأسمائهم	٢٢٤
هزيمة الكفار واختلاف الصحابة في الغنائم	٢٢٦
الأُسارَى والاختلافُ في شأنهم	٢٢٨
قدوم زيد بن حارثة المدينة مبشّراً بالنصر	٢٣٠
فداءُ الأسارى وقَتْل عُقْبة بن أبي مُعَيْط في الطريق إلى المدينة	٢٣١
قتل عقبة بن أبي معيط في الطريق	٢٣٢
قصة العباس في أسره وفدائه	٢٣٣
العفو عن أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ	٢٣٤
كيف تَلَقَّى قريشٌ خبر هَزِيمَتهم ببدر	٢٣٥
أهل بدر لن يدخلوا النار وإن فعلوا ما فعلوا إلا أن يُشْرِكُوا	٢٣٧
أَسْمَاءُ مَنْ شهد بدراً من المهاجرين والأنصار	٢٣٨
خلاصة ما اشتملت عليه غزوة بدر	٢٣٩
أحداث وقعت بين بدر وأُحد: غزوة بني قَيْنُقَاع	٢٤٣
غزوة السويق	٢٤٦
زواج عليّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما	٢٤٧
أحداث السنة الثانية	٢٥١
السنة الثالثة مقتل كَعْب بن الأشْرَف	٢٥٢
تزوّج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما	٢٥٥
تزوّج سيدنا عثمان بن عفان بأم كلثوم بنت النبيّ ﷺ	٢٥٦

الموضوع	الصفحة
غزوة أُحد تاريخ الوقعة وسببها	٢٥٦
رؤياه ﷺ في شأن أُحد وما سيحصل فيها ومشاورته أصحابه في الخروج وعدمه	٢٥٧
استعداده ﷺ بلبس درعين من حديد	٢٦٠
من ردَّه النبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ مِن الأطفال	٢٦١
خذلان عبدالله بن أبي رسول الله ﷺ، ورجوعه من الطَّريق بنحو من ثلاثمائة نفر من المنافقين	٢٦١
ما قبل المعركة ودعاء النبيّ ﷺ عندها	٢٦٣
كيف هيّأ النبيّ ﷺ الجيش وسوَّاه، وبداية المعركة وما حصل أولها من النصر ثم الهزيمة، وما وقع وقيل في ذلك	٢٦٤
مشاهد مختلفة من المعركة: رجلان يدعوان فيستجاب لهما	٢٦٨
أنس بن النضر وشجاعته وشهادته	٢٦٩
استشهاد سعد بن الربيع وبه سبعون ضربة	٢٧٠
قتيل شهيد تغسله الملائكة	٢٧١
رجل استشهد ودخل الجنّة ولم يصلِّ قطّ	٢٧١
عمرو بن الجموح وبشارته بالجنّة، وصحة رجله العرجاء	٢٧٢
عبدالله بن حرام والد جابر تظلّله الملائكة ويكلّمه الله عزّ وجلّ كفاحاً	٢٧٣
قصة مقتل حمزة سيّد الشهداء رضي الله تعالى عنه	٢٧٤
قتل مصعب بن عمير أوّل مهاجر في الإسلام	٢٧٧
ما حلّ برسول الله ﷺ في هذه الغزوة من النكبات	٢٧٩
دعاء رسول الله ﷺ على كفار أُحد ولعنه إياهم	٢٨١
دفاع الأبطال عن رسول الله ﷺ، الأنصار السبعة	٢٨١
دفاع طلحة بن عبيدالله بعد قتل جماعة	٢٨٢
دفاع سعد بن أبي وقاص	٢٨٤
أبو طلحة الأنصاري وشهامته	٢٨٥
نزول الملائكة وقتالها دون النبيّ ﷺ	٢٨٦
دور النساء الصحابيات في أُحد	٢٨٦

الموضوع	الصفحة
امرأة أصيب أبوها وأخوها وزوجها ولم تبال بذلك وتسأل عن رسول الله ﷺ	٢٨٧
طريقة دفن الشهداء والصلاة عليهم وعددهم وأسماؤهم، الأمر بدفنهم في مضاجعهم	٢٨٨
كيفية دفن الشهداء وهل يصلّى عليهم وكيف يُكَفَّنُون؟	٢٨٩
ثناء النبيّ ﷺ على ربّه ودعاؤه بعد انتهاء المعركة	٢٩٢
الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون	٢٩٣
عدد شهداء أُحد وبعض أسمائهم	٢٩٤
خلاصة هذه الغزوة	٢٩٥
غزوة حمراء الأسد	٣٠١
بعض حوادث هذه السنة غير ما سبق: تَزَوُّجه ﷺ بزَيْنَب بنتِ خُزَيْمَة ..	٣٠٢
ولادة الحسن بن عليّ وفاطمة عليهم السلام	٣٠٣
تحريم الخمر	٣٠٣
السنة الرابعة اغتيال خالد بن سُفيان الهُذَليّ على يد عبدالله بن أُنَيْس ...	٣٠٤
قصة أصحاب الرجيع	٣٠٦
قصة القراء السبعين ببئر معونة	٣٠٩
غزوة بني النضير	٣١٢
فوائد القصة وأحكامها	٣١٥
غزوة بدر الثانية	٣١٧
زواجه ﷺ بأمّ سلمة رضي الله تعالى عنها	٣١٨
ولادة الإمام الحُسَيْن عليه السلام	٣٢٠
خلاصة أحداث السنة الرابعة	٣٢٠
السنة الخامسة غزوةُ بني المُصْطَلِق أو غزوة المُرَيْسِيع	٣٢٠
زواجه ﷺ بجويرية	٣٢٣
محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين	٣٢٣
حادث الإفك	٣٢٥
ريح شديدة تهب لموت عظيم من المنافقين	٣٢٦

الموضوع	الصفحة
غزوة الخندق ويقال لها الأحزاب، حفر الخندق	٣٢٧
معجزتان في حفر الخندق	٣٣٠
موقع المشركين في غزوة الخندق من المسلمين	٣٣٢
من مشاهد المعركة	٣٣٢
محاولة بعض الكفار إذاية النساء والذراري	٣٣٣
انشغال المسلمين عن الصلاة حتى غابت الشمس	٣٣٤
دعاء النبيّ ﷺ على الكفار واستجابة دعوته	٣٣٦
تبشير النبيّ ﷺ أصحابه بأن الكفار لا يغزونهم بعد الأحزاب	٣٤٠
وضع النبيّ ﷺ سلاحه بعد رحيل الكفار واغتساله واستجماره	٣٤٠
خلاصة غزوة الأحزاب وبعض ما يؤخذ منها	٣٤١
شهداء الخندق	٣٤٣
غزوة بني قريظة	٣٤٣
موت سعد بن معاذ	٣٤٦
نهاية اليهود من المدينة وما نزل بهم	٣٤٧
قتل يهودية واحدة من قريظة	٣٤٧
فوائد أحاديث هذه الغزوة	٣٤٨
من نتائج وراثة أرض قُرَيْظَة والنَّضِير	٣٥٠
زواجه ﷺ بزينب بنت جحش، إرسال زيد بن حارثة لخطبتها للرسول عليه السلام	٣٥١
خلاصة ما وقع في السنة الخامسة من الأحداث	٣٥٦
السنة السادسة مقتل أبي رافع بن أبي الحُقَيْق اليهودي لعنه الله تعالى	٣٥٦
قصَّة ثُمامَة بْنِ أُثالٍ الحَنَفِيّ	٣٥٩
غزوة بني لحيان	٣٦٠
قصة عُكْل وعُرَيْنَة	٣٦٢
غزوة الحديبية وبيعة الرضوان ومصالحة المشركين، وقت الحديبية	٣٦٣
عدد أصحاب الحديبية وبيعة الرضوان	٣٦٤
سياق قصة الحديبية والصلح والبيعة وما يتبع ذلك	٣٦٤

الموضوع	الصفحة
شرح غريب حديث المسور وغيره	٣٧٠
بيعة الرضوان	٣٧٥
نزول سورة الفتح	٣٧٧
تفجير البئر التي نضبت بالحديبية ببركة النبيّ ﷺ	٣٧٧
فوران الماء من بين أصابعه ﷺ	٣٧٨
نموّ الطعام والماء ببركة النبيّ ﷺ	٣٧٩
في أعقاب الحديبية وامتحان النساء المهاجرات	٣٨٠
خلاصة ما وقع من الأحداث في السنة السادسة	٣٨١
السنة السابعة غزوة ذي قَرَد وهي غزوة الغَابَةِ	٣٨٢
قصة المرأة المسلمة التي أُسِرَتْ مع العضباء ناقة رسول الله ﷺ	٣٨٦
غزوة خيبر: تاريخ وقوعها	٣٨٨
استخلافه ﷺ على المدينة سِباع بن عُرْفُطة	٣٨٩
خروجه ﷺ ليلاً وحُداء عامر بن الأكوع وفتحهم خيبر...	٣٨٩
طعامهم في طريقهم إلى خيبر	٣٩١
مفاجأة المسلمين يهود خيبر في الصباح	٣٩٢
حملة راية النبيّ ﷺ	٣٩٣
الأعرابي الشهيد	٣٩٤
رجل شجاع يقاتل مع المسلمين يموت ومآله النار	٣٩٥
رجل يغل من الغنيمة فيموت فلا يصلّي عليه النبيّ ﷺ	٣٩٧
تحريم المتعة والحمر الأهلية بخيبر	٣٩٨
إباحة شحم أهل الكتاب، وجواز أكل المجاهد ما يحتاجه من طعام الكفار	٣٩٨
شأن اليهود بعد انهزامهم وما آل إليه أمرهم	٣٩٩
قصة صفية بنت حُيَيّ وسبيها وتزوّج النبيّ ﷺ بها	٤٠١
وضع اليهود السم للنبيّ ﷺ في الشاة	٤٠٤
كيف قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر	٤٠٦
سهم ذوي القربى	٤٠٧

الموضوع	الصفحة
حديث الحجاج بن علاط مع العباس وأهل مكّة	٤٠٨
رجوع رسول الله ﷺ من خيبر وقصة الغالّ من الغنيمة	٤١٠
نوم الصحابة عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس	٤١١
عودة مهاجري الحبشة وقسمة الرسول لهم من المغانم وما جاء في فضلهم رضي الله تعالى عنهم	٤١٤
رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير عند قفولهم ونهي النبيّ عن ذلك	٤١٦
ردّ المهاجرين المنائح التي أعطاهم الأنصار إيّاها	٤١٦
شبع الصحابة من التمر بعد فتح خيبر	٤١٨
تأمير النبيّ ﷺ على أهل خيبر أحد الأنصار	٤١٨
خلاصة ما جاء في غزوة خيبر بإيجاز	٤١٨
فتح وادي القرى وصلح أهل فدك وتيماء	٤١٩
سَرِيَّةُ أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى نَجْد قِبَل بَني فَزارة	٤٢٠
سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى الحُرُقاتِ من جُهَيْنة	٤٢١
سرية أخرى لغالب الليثي لبني الملوّح بالكَدِيد	٤٢٢
سريَّةُ بَطْنِ إضَم	٤٢٤
سرية عبدالله بن حذافة السهمي	٤٢٥
غزوة ذات الرقاع	٤٢٦
من أحداث هذه الغزوة: صلاة الخوف	٤٢٨
محاولة غورث اغتيال النبيّ ﷺ	٤٢٨
قصة الحارسين مع المشرك	٤٣٠
قصة جمل جابر مع النبيّ ﷺ	٤٣١
عمرة القضاء وما حصل فيها من أحداث	٤٣٢
تزوّجه ﷺ بميمونة	٤٣٦
تزوّجه ﷺ بأمّ حبيبة	٤٣٧
خلاصة ما وقع من أحداث في السنة السابعة	٤٣٧
السنة الثامنة: مكاتبته ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ..	٤٣٨
رسالته عليه السلام إلى هرقل ملك الروم	٤٣٩

الموضوع	الصفحة
رسالته ﷺ إلى كسرى ملك الفرس	٤٤٠
رسالته ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر	٤٤٠
إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد	٤٤١
غزوة مؤتة	٤٤٣
غزوة ذات السلاسل	٤٤٧
غزوة سِيف البحر وهي غزوة جيش الخَبَط	٤٥١
الفتح الأكبر فتح مكة المكرمة: وقت هذه الغزوة	٤٥٤
رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش	٤٥٥
سياقة قصة الفتح وما حصل قبله وعنده وبعده من أحداث، كتمان الرسول وجهته عن أصحابه	٤٥٧
إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن أبي أمية وأبي سفيان بن صخر قبل الفتح	٤٥٧
دخول النبيّ ﷺ من كَدَاءٍ بأعْلى مكة ورُكزت الراية بالحجُون	٤٦٠
كيف رتب النبيّ ﷺ الجيش عند دخوله مكّة وماذا قال لهم وما صدر من الأنصار بعد الفتح وماذا قال لهم النبيّ ﷺ وطوافه بالبيت	٤٦١
الإذن لرسول الله ﷺ بالقتال بمكّة وتحطيمه الأصنام ودخوله الكعبة وصلاته بها	٤٦٣
إسلام والد أبي بكر الصديق، ومن أهدر رسول الله دماءهم وإجارة أم هانيء رجلين من أقاربها واغتسال النبيّ بعد الفتح وصلاته ثمان ركعات	٤٦٦
مبايعة النبيّ ﷺ الناس يوم الفتح	٤٦٨
لا تُغْزى مكة بعد فتحها، ولا يُقتل قرشي صبراً بعد ذلك	٤٦٩
مدة إقامته ﷺ بمكّة بعد الفتح	٤٧٠
خلاصة ما جاء في أحاديث الفتح وما فيها من فوائد	٤٧٠
من فوائد أحاديث الفتح	٤٧٣
بَعْثُ النبيّ ﷺ خالداً إلى بني جَذِيمَة	٤٧٤
غزوة حُنَيْن: مشاهدُ من الغزوة وانهزامُ بعضِ الصَّحابةِ ثُمَّ وُقُوع النَّصْرِ .	٤٧٥

بشارة النبيّ ﷺ أصحابه بغنائم هوازن ٤٧٨
غزوة أوطاس ٤٧٩
غزوة الطائف ٤٨٠
تقسيم غنائم حُنين وإعطاء المؤلّفة قلوبهم ومقالة الأنصار في ذلك وقول
النبيّ ﷺ لهم ٤٨٢
مجيء هوازن مسلمين وردّ السَّبي عليهم ٤٨٥
فوائد غزوة حنين وما يتبعها وما في ذلك من عِبَر وحكم ودروس ٤٨٦
عمرته ﷺ مِن الجِعْرانة ٤٩٠
سرايا ذكرها علماء المغازي هاهنا في هذه السنة ليست لها أسانيد معتمدة ٤٩١
خلاصة ما وقع في السنة الثامنة من أحداث ٤٩٢
السنة التاسعة: جمع الصدقات ٤٩٣
إسلام عدي بن حاتم الطائي ٤٩٤
غزوة تبوك وهي غزوة العسرة وهي آخر غزواته ﷺ، إخباره ﷺ عن
وجهة خروجه لتبوك ٤٩٥
أمر النبيّ ﷺ بالصدقة والإنفاق استعداداً للغزوة ولإعداد الجيش ٤٩٦
البَكَّاءون الذين اسْتَحْمَلُوا النبيّ ﷺ فلم يَجِد ما يَحْمِلُهم عليه ٤٩٧
تاريخ خروجه ﷺ إلى تبوك ٤٩٨
تشييع الإمام عليّ النبيّ ﷺ واستخلافه على أهل البيت ٤٩٨
مروره ﷺ على الحجر؛ بلاد ثمود وأمره بالبكاء عند الدخول إليها
ونهيهم عن الشرب... من مائها ٤٩٩
بعض ما أصاب الصحابة في طريقهم لتبوك من الشدّة والفرج ٥٠٠
مروره ﷺ على حديقة امرأة بوادي القرى، وإخباره بهبوب ريح عاصفة
بتبوك، ونهيه أصحابه عن القيام ٥٠٢
قصة عين تبوك وما وقع فيها من بركة النبيّ ﷺ وإخباره عن تبوك بأنها
ستصبح جناناً ٥٠٣
مدة إقامته ﷺ بتبوك ٥٠٤
إهداء ملك أيْلَة للنبيّ ﷺ بغلةً ٥٠٤

الموضوع	الصفحة
قصة أُكَيْدِر صاحِب دُومَة الجَنْدَل وإهداؤه للنبيّ ﷺ حُلَّةً من سُنْدُسٍ ...	٥٠٥
استهزاء المنافقين بآيات الله وبرسوله وبقرّاء المؤمنين	٥٠٦
محاولة المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ	٥٠٧
معجزة النبيّ ﷺ في طريقه إلى المدينة من غزوة تبوك	٥٠٨
ما قاله ﷺ حين أشرف على المدينة مرجعه من تبوك	٥٠٩
استقبال الناس النبيّ عليه السلام عند قدومه عند ثنيّة الوداع	٥١٠
حديث كعب بن مالك في توبته وتوبة صاحبيه وما فيه من عِبَر وفوائد ..	٥١٠
بيان غريب ما في الحديث	٥١٦
خلاصة غزوة تبوك وما فيها من فوائد وعِبَر	٥١٦
قدوم وفد ثقيف على النبيّ ﷺ بالمدينة	٥١٨
تأمير النبيّ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف	٥٢٠
حجّ أبي بكر بالناس في السنة التاسعة وإردافه بالإمام علي رضي الله تعالى عنهما	٥٢١
وفود القبائل العربية على النبيّ ﷺ في السنة التاسعة	٥٢٢
وفد بني تميم	٥٢٣
وفد بني عامر	٥٢٤
وفد ضمام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر	٥٢٥
وفد عبد القيس	٥٢٦
شغل وفد عبد القيس النبيّ ﷺ عن راتبة الظهر	٥٢٧
وفد بني حنيفة وخبر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي	٥٢٩
وفد الأشعريّين	٥٣٠
وفد مُزَيْنَة	٥٣١
وفد دَوْسٍ قوم أبي هريرة رضي الله تعالى عنه	٥٣١
وفد نَجْرَان	٥٣٢
وفد كندة والأشعث بن قيس	٥٣٣
قُدُومُ جَرِيرِ بنِ عبدِالله البَجَليّ	٥٣٤
بعث النبيّ ﷺ جريراً لِتَخْرِيب ذي الخَلَصةِ	٥٣٥

الموضوع	الصفحة
بعثُ النبيّ ﷺ بُعُوثاً إلى اليَمَن للدَّعْوَةِ إلى الله تعالى، إرسال عليّ وخالد إلى هَمْدان	٥٣٦
إرسال معاذ وأبي موسى إلى اليمن	٥٣٧
وصية النبيّ ﷺ معاذاً عند إرساله إلى اليمن	٥٣٨
خروج النبيّ ﷺ مع معاذ يودّعه ويخبره بأنه لن يراه بعدُ	٥٣٩
من أحداث هذه السنة (٩) هلاك ابن أُبيّ المنافق	٥٤٠
خلاصة ما وقع في السنة التاسعة من أحداث	٥٤١
السنة العاشرة حجّة الوداع	٥٤٢
بعض خطبه ﷺ في هذه الحجّة غير ما تقدم	٥٤٢
السنة الحادية عشرة: بعث النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد إلى فلسطين	٥٤٥
بداية مرضه ﷺ ووفاته	٥٤٦
اهتمامه ﷺ بالصلاة وأمره أبا بكر أن يصلّي بالناس	٥٤٨
اجتماع نسائه عنده ﷺ ومسارّته لمولاتنا فاطمة ابنته عليها السلام	٥٥٠
محاورة عليّ والعباس في شأن الولاية	٥٥٠
إيتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي	٥٥١
اشتداد المرض عليه ﷺ وما حصل له بعد ذلك وما كان يقول	٥٥٢
من آخر وصاياه	٥٥٣
خروجه على الصحابة وابتسامه ثم دخوله فلم يخرج إلى يوم القيامة	٥٥٣
آخر لحظاته من الحياة وموته عند سيّدتنا عائشة	٥٥٣
خلاصة هذه الأحاديث في مرضه وموته ﷺ	٥٥٤
ما بعد موته ﷺ	٥٥٧
كيف غسل رسول الله ومن تولّى ذلك	٥٥٩
كيف كفّن وكيف صُلِّي عليه وأين دُفِن؟	٥٦٠
كيف حُفِر قبرُه ومن تَوَلَّى دفنَه ومتى دُفِنَ	٥٦٢
من آثار وفاته ﷺ على الصحابة	٥٦٣
ميراث النبيّ ﷺ	٥٦٤
جملة من صفات النبيّ ﷺ وشمائله وأخلاقه	٥٧٠

الموضوع	الصفحة

صفة خَلْقِ رسولِ الله ﷺ الظاهرةُ ٥٧١
صفة خاتم النبوة ٥٧٨
شَعره ﷺ وشيبه وخضابه وترجّله ٥٨٠
طِيب عَرَقه ﷺ وتعطّره ٥٨٥
كلامه ﷺ في الشعر وغيره ٥٨٧
ضحك رسول الله ومزاحه ﷺ ٥٩٠
جُلُوسُه واتّكاؤه ﷺ ٥٩٣
خفّه ونعله ﷺ ٥٩٤
صفة مشيه ﷺ ٥٩٦
عيشه ﷺ ٥٩٧
خبز رسول الله ﷺ ٥٩٨
فراش رسول الله ﷺ ٥٩٩
أخلاقه ﷺ ٦٠١
حُسْن عشرته ومعاملته الطيّبة ٦٠٢
حلمه ﷺ وعفوه مع المقدرة ٦٠٣
جوده وسخاؤه وكرمه ﷺ ٦٠٤
شجاعته ﷺ ٦٠٥
حياؤه ﷺ ٦٠٦
وفاؤه ﷺ وحسن عهده وصلة رحمه ٦٠٧
تواضعه ﷺ ٦١٠
خاتمة هامة تتضمن أسماء زوجاته ـ ﷺ ـ مواليه، وخدّامه، وكتّابه، وأعمامه، وعمّاته، وأولاده ٦١٥
فهرس الأحداث العامة ٦١٩
الفهرس المفصّل ٦٢١

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

المجلد العاشر

أبواب الفضائل والمناقب
وهو من بقية قسم السيرة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

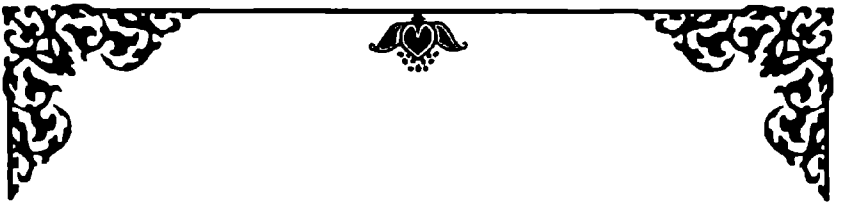

من
فضائل النبيّ صلّى الله تعالىٰ عليه وآله وسلّم

أسماؤه الشريفة

١ ـ عن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنّ لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحْمَد، وأنا المَاحِي الذي يَمْحُو الله بي الكُفْر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمَي، وأنا العاقِب الذي ليس بعدَه نَبِيٌّ**».

رواه الطيالسي (٢٣١٣)، وأحمد (٤/٨٠/٨٣/٨٤)، والبخاري في صفة النبيّ ﷺ (٧/٣٦٦/٣٦٨)، **ومالك (١٩٥٥)**، والترمذي في الاستئذان (٣٦٤٨)، والدارمي في الرقاق.

٢ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمّى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، فذكره بنحو ما تقدّم وزاد: «**ونَبِيُّ التَّوبةِ، ونَبِيُّ المَلْحَمَةِ، ونَبِيُّ الرَّحمةِ**».

رواه الطيالسي (٢٣١٢)، وأحمد (٤/٣٩٥/٤٠٤/٤٠٧)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٠٥).

٣ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه نحوه بزيادة: «**وأنا المُقَفّى**».

رواه الترمذي في الشمائل (٣٦٠) بسند حسن.

«**الملحمة**» بفتحات مع سكون اللام: هي الحرب، سمّيت بذلك لاشتباك لحوم الناس فيها بعضهم ببعض.

وفي هذه الأحاديث أمور:

أولاً: في قوله: «**إنّ لي أسماء**»، ذكر في هذه الأحاديث تسعة أسماء وهي: محمد، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفّى، ونبيّ التوبة، ونبيّ الملحمة، ونبيّ الرحمة. وذكر من أسمائه في القرآن: الشاهد، المبشّر، النذير، المبين، الداعي إلى الله، النور، السراج المنير، المذكر، الرحمة، النعمة، الهادي، الشهيد، الأمين، المزّمّل، المدّثّر، الرؤوف، الرحيم، ومن أسمائه المشهورة: المختار، المصطفى، الشفيع، المُشَفَّع، الصادق، المصدوق ﷺ. وقد ذكر القاضي أبو بكر ابن العربي في عارضته نقلاً عن بعض الصوفية أنّ لله عزّ وجلّ ألف اسم، وللنبيّ ﷺ ألف اسم. وذكر له عليه السلام جماعة من العلماء أكثر من أربعمائة اسم لكن أغلبها صفات له ﷺ. وعلى أيّ فكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى كما يقولون، وانظر لزيادة الفائدة «الشفا» للقاضي عياض، و«القول البديع» للسخاوي، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«منتهى السول على وسائل الوصول» للشيخ عبدالله اللحجي.

ثانياً: في قوله: «**محمد وأحمد**» فمحمد سمّي به لكثرة خصاله الحميدة، ولأنه يحمده الأوّلون والآخرون عند المقام المحمود حينما يشفع للخلائق الشفاعة العظمى. وأما أحمد فمعناه أنه أكثر الناس حمداً لله عزّ وجلّ، فهو أحمد الحامدين لربّهم.

ثالثاً: أنّ الله عزّ وجلّ سيقضي بسببه على الكفر ويمحوه من الأرض مطلقاً أيام عيسى، أو من الجزيرة وغيرها قبل ذلك وأنه ﷺ سَيُحْشَرُ أول الناس وأنه الآخر خاتم الأنبياء، فليس بعده نبيّ وأنه التابع للأنبياء المتبوع لأمّته.

رابعاً: كيف يجمع بين كونه ﷺ نبيّ الرحمة ونبيّ الملاحم؟ فالحروب تنافي الرحمة! والجمع بين ذلك، كما قال العلماء: أنّ الله تعالى

بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باستئصال أممهم وتعذيبهم إن لم يؤمنوا، وبعث نبيّنا ﷺ بالقتال ليرتدع الكفار عن كفرهم ولا يجتاحون بالسيف ومَن بقي منهم دخل في الإسلام أو أدّى الجزية إن كان كتابياً؛ فكان بذلك رحمةً لهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾، وقال ﷺ: «**إنما بُعِثْتُ رحمةً ولم أُبْعَثْ لعّاناً**». وقال. «**إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ**».

خامساً: في قوله: «**نبي التوبة**» دليل على أنّ التوبة من خصائصه ﷺ وخصائص أمّته، فما على المذنب إلا أن يرجع إلى الله تعالى نادماً على ما فعل، مقلعاً عمّا أتى، مستغفراً ناوياً عدم الرجوع إلى الذنب، وقد غفر الله له وسامحه، وهذا لم يكن عند الأقدمين.

* * *

❀ ما خلق اللّه تعالى خلْقاً أكرم عليه من النبيِّ ﷺ

٤ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ ﷺ أُتِي بالبراق ليلة أُسْرِي به مُلْجَماً مُسْرَجاً، فاسْتَصْعَبَ عليه، فقال له جبريل عليه السلام: **أَبِمُحَمَّدٍ تفعل هذا؟ فوالله ما ركبك أحدٌ أكرمُ على الله منه**. قال: فارفَضَّ عَرَقاً.

رواه أحمد (١٦٤/٣)، والترمذي في تفسير سورة الإسراء (٢٩٢٩)، وابن حبان (٤٦) بالإحسان، وابن جرير (١٥/٦/١٥) بسند صحيح على شرط الشيخين.

البراق تقدّم بيانه في الإسراء وغيره وكذا باقي الألفاظ.

والشاهد من الحديث هو قول جبريل عليه السلام: **فوالله ما ركبك أحدٌ أكرمُ على الله تعالى منه**. وراكبو البراق قبل النبيّ ﷺ هم الأنبياء وكلهم كانوا كرماء أفاضل صالحين لكنه ﷺ أكرمهم وأشرفهم وأفضلهم، وهذا لا يُرتابُ فيه.

* * *

❀ إقسام الله تعالى بحياة النبيّ ﷺ

٥ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفْساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سَمِعتُ الله أقْسَمَ بِحَيَاةِ أحدٍ غيرِه.

رواه ابن جرير (١٤/٤٤) عن طريقين أحدهما سنده صحيح، ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٧٥٤)، وأبو نعيم (١٢/١٣) والبيهقي كلاهما في الدلائل، وجوّده النور في المجمع (٧/٤٦).

قال القاضي عياض في الشفا: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله تعالى بمدة حياة نبيّنا محمد ﷺ. ومعناه: وبقائك يا محمد وعيشك وحياتك. وكذا نقل هذا الإجماع القاضي أبو بكر ابن العربي والقرطبي، ولم يذكر ابن جرير غيره. ومعنى الآية: وحياتك يا محمد إن قومك من قريش لَفي شركهم وضلالهم وجهلهم يعمهون، أي: يترددون تحيُّراً، والعَمَهُ للقلب مثل العمى للبصر.

* * *

❀ نبيُّنا محمد عليه السلام
أكرمُ الأوّلين والآخرين وأفضل الخلائق أجمعين

٦ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ ﷺ قال: **«أنا أكرمُ الأوّلين والآخِرين ولا فَخْرَ»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٣٩١)، والدارمي (٤٨)، وهو حسن لشواهده، ويأتي قريباً حديث أنس وفيه: **«أنا أكرم ولد آدم على ربّي ولا فخر»**. رواه الترمذي.

٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبيّ ﷺ قال: **«أتاني جبريل عليه السلام فقال: قَلَّبتُ مشارِقَ الأرض ومغارِبَها فلم أرَ رَجُلاً أفضلَ من محمّد ولم أرَ بني أبٍ أفضل مِن بني هَاشِم»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٦٢٨١)، والبيهقي (١/١٧٦) وأبو نعيم

كلاهما في الدلائل، ومُوسى بن عُبَيْد لا يضر هنا لورود معناه في أحاديث ولذا قال الحافظ: لوائح الصحة لائحة على صفحات هذا المتن.

٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ الله فضَّل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إنَّ الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ الآية. قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾. وقال لمحمد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

رواه الدارمي في مقدمة سننه (٤٧) بسند صحيح وأورده النور في المجمع (٢٥٤/٨) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة.

وما قاله الحبر ابن عباس في فضله ﷺ على أهل السماء وأهل الأرض ظاهر، وقد تقدَّم في أول السيرة أحاديث في فضائله ﷺ كحديث واثلة: «**إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل... واصطفاني من بني هاشم**». وحديث أبي هريرة: «**بُعثت من خير قرون بني آدم**» ...إلخ. وحديث المطلب بن أبي وداعة: «**إنَّ الله خَلق الخلقَ فجعلني في خيره**» ...إلخ. وحديث شقّ صدره الشريف ووزنه بأمّته...

وفضائله ﷺ وكثرتها لا يعدّها عادٌّ ولا يحصيها مُحص، كما أنَّ تفضيله على سائر الخلق هو إطباق وإجماع إلا مَن لا يُعتدُّ به في ذلك. ويَرحمُ الله تعالى القائلَ: نَبِيُّنا أفضلُ بالإطباقِ، مِن كُلِّ مخلوقٍ على الإطلاقِ. وقد أجاد البوصيري رحمه الله تعالى في بردته حيث قال:

فإنَّ فَضلَ رسولِ الله لَيسَ لهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنهُ ناطِقٌ بِفَمِ
وكيف يُدركُ في الدُّنيا حَقيقَتَهُ ... قومٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عنه بالحُلُمِ
فَمَبْلَغُ العِلمِ فِيهِ أنَّه بَشَرٌ ... وأنَّه خَيرُ خَلقِ الله كُلِّهِمِ

* * *

٩ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «**أُعطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلي: نُصرتُ بالرُعب مَسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مَسجداً وطهُوراً، فأيُما رجلٍ مِن أُمّتي أدركته الصلاةُ فَليُصَلّ. وأُحِلّت لي الغنائم، ولم تَحِلّ لأحدٍ قَبلي، وأُعطِيتُ الشفاعة، وكان النبيُ يُبعثُ إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامّةً**».

رواه البخاري في التيمم وفي الصلاة وفي الجهاد، ومسلم في الصلاة (٤/٣/٥) بالنووي.

هذه خمس خصائص خُصّ بها ﷺ من بين سائر الأنبياء، وهي: نصره على أعدائه بإلقاء الخوف في قلوبهم مسيرة شهر وهي أطراف الجزيرة، وجعلت له ولأمّته الأرض كلّها طاهرة يتيمّم بها ويصلّي عليها، وإباحة الغنائم المأخوذة من جهاد الكفّار، والشفاعة العظمى ـ وستأتي ـ، وعموم بعثته ﷺ. وهذا العدد ليس له مفهوم فخصائصه تفوق الحصر، وقد ذكر منها الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في خصائصه ثلاثمائة خصيصة...

١٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نُصرتُ بالرُعب، وأُوتيتُ جوامَع الكَلم، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، وبينا أنا نائمٌ أُتيتُ بِمفاتيحِ خزائنِ الأرض فَنُلْتُ في يَدي**»، فذهب رسول الله ﷺ وأنتُم تَنْتَثِلُونَها.

رواه البخاري في التعبير (١٦/٥٨) وفي الاعتصام، ومسلم في الصلاة، (٥/٥) مع النووي، وفي رواية لمسلم: «**وخُتِمَ بي النبيُون**».

«**جوامع الكلم**»: ما كان ألفاظه قليلة ومعانيه كثيرة، وذلك يتجلّى في القرآن الكريم وفي كثير من كلامه ﷺ وخاصة في خطبه وأدعيته ﷺ. وقوله: «**فنُلْتُ**»، أي: وُضِعتْ.

والمراد بـ«**مفاتيح خزائن الأرض**»: ما فتح به على أمّته من خزائن

كسرى والروم وغيرهما، ويدخل في ذلك المعادن التي استخرجها المسلمون من البلاد التي فتحوها. وقول أبي هريرة: وأنتُم تَنْتَثِلُونَها، معناه: ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تستخرجونها وتتمتعون بها وتستغلونها.

١١ ـ وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُعطيتُ مكان التوراةِ السبعَ الطوال، ومكان الزَّبور المئين، ومكان الإنجيل المثانيَ، وفُضلتُ بالمُفَصَّل»**...

رواه الطيالسي (١٩١٨) ومن طريقه أحمد (١٠٧/٤) بسند حسن، وهو صحيح لغيره.

«السبع الطوال» أي: السور الطوال، وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال... والسور **«المئين»** ما كان فيها مائة آية كسورة الحِجْر مثلاً وما شابهها. و**«المثاني»** قيل: هي ما عدا السبع الطوال، و**«المفصَّل»** أوله سورة الحجرات وآخره سورة الناس، وفيه الطوال والوسط والقصار. وفي هذا إشعار بأنه ﷺ أُعطي مثل ما أُعطيه الأنبياء أصحاب الكتب، وهم ساداتنا: موسى صاحب التوراة، وداود صاحب الزَّبور، وعيسى صاحب الإنجيل، عليهم الصلاة والسلام. فالقرآن الكريم قد احتوى على جميع ما في هذه الكتب وزاد عليها ما ليس فيها ثم جُعِلَ مُهَيْمِناً عليها.

١٢ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لم يُصَدِّق نبيٌّ من الأنبياء ما صُدِّقتُ، إنَّ من الأنبياء مَن لم يُصدِّقه من أمَّته إلا الرجلُ الواحدُ»**.

رواه مسلم في الإيمان (٧٣/٣) بالنووي.

١٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: **«عُرِضتْ عليَّ الأمَمُ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمَّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق. فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر. فإذا سواد**

عظيم، فقيل لي: هذه أمّتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، هم الذي لا يَرْقُون، ولا يَسْتَرقُون، ولا يَتَطيّرون، ولا يكتَوُون، وعلى ربِّهم يَتوكّلُون».

رواه أحمد (٢٧١/١)، والبخاري في الطب وفي الرقاق (٣٠٤/١٩٨/١٤)، ومسلم في الإيمان (٩٤/٩٣/٣)، وغيرهم. الحديث تقدَّم في الطب ويأتي في الرقاق.

والشاهد منه هنا اختصاصه ﷺ بكثرة أمّته وكثرة مَن آمن به واتّبعه بينما الأنبياء قبله كان فيهم مَن لم يؤمن به أحد أو آمن به الرهط أو الرجل والرجلان، وأكثر الأنبياء أمّةً كليم الله موسى عليه السلام، ورغم ذلك لم تصِل أمّته إلى عدد هذه الأمّة ولم تقاربها، وكل ذلك يدلُّ على فضله ﷺ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

* * *

❀ هو أوّلُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرضُ وأوّلُ شافِعٍ مُشَفَّعٍ

١٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مَن تنشقُّ عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفَّع».**

رواه مسلم في الفضائل (٣٧/١٥) بالنووي.

١٥ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول مَن تنشقُّ عنه الأرض، فَأُكْسَى الحُلّة من حُلَل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري».**

رواه الترمذي في المناقب (٣٣٧٩) بتهذيبي وحسَّنه وصححه.

«الحلّة»: هي عند العرب إزار ورداء، وفي الحديث كالذي قبله خصائص وفضائل له ﷺ، وهي كونه سيد الناس يوم القيامة كحالته في الدنيا، بل هناك أكثر وأعظم، وأنه أول مَن يفيق ويقوم من القبر، وأنه أول

مَن يتقدَّم للشفاعة عند الله لأمَّته وسائر الخلق، وأنه أول مَن يقبل الله شفاعته، وأنه سيقوم مقاماً عن يمين العرش لم يقُم فيه أحد سواه.

* * *

❀ هو إمامُ الأنبياء يوم القيامة وسيِّدُهم وخطيبُهم وصاحبُ المقام المحمود

١٦ ـ عن أُبَيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة كنتُ إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غيرَ فَخْر»**.

رواه أحمد (٥/١٣٧/١٣٨)، والترمذي (٣٣٨٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٣/٤)، والحاكم (٧٨/٤)، وسنده صحيح، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي.

١٧ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبِيَدي لِواء الحَمْدِ ولا فخر، وما مِن نبيٍّ يومئذ آدمُ فمَن سواه إلا تحتَ لِوائي، وأنا أولُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرضُ ولا فَخْر»**.

رواه أحمد (٣/٢)، والترمذي (٣٣٨٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) بسند حسن لغيره، وهو صحيح لشاهدين له عن عبدالله بن سلام بنحوه، رواه ابن حبان (٢١٢٧) بالموارد بسند صحيح، وعن أنس رواه أحمد (٣/١٤٤)، والدارمي في المقدمة (٥٣) ولفظه: **«إنِّي لأول الناس تَنشَقُّ الأرضُ عن جُمْجُمَتِي يوم القيامة ولا فَخْر، وأُعطَى لواء الحمد ولا فَخْر، وأنا سيدُ الناس يوم القيامة ولا فَخْر، وأنا أول مَن يدخلُ الجنة يوم القيامة ولا فَخْر، وإنِّي آتي باب الجنة فآخُذُ بِحَلْقَتِها فيقولون: مَن هذا؟ فأقول: أنا محمد. فيفتحون لي فأدخل»**... الحديث بطوله في الشفاعة ويأتي، وسنده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس نحوه أيضاً، رواه الدارمي (٤٨) والترمذي (٣٣٩١) بتهذيبي بسند حسن لغيره.

١٨ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ الناس يَصيرُون يوم القيامة جُثَى كُلُّ أمَّةٍ تَتْبعُ نبيَّها يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا. حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ ﷺ فذلك يوم يبعثه مقاماً محموداً.

رواه البخاري في التفسير (١٤/١٠). قوله: جثى، بضمّ الجيم ثم ثاء بعدها ألف مقصورة جمع جثوة، وهي الجماعة.

١٩ ـ وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الشمس تدنو يوم القيامة حتى يَبلُغَ العَرَقُ نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ فيشفع ليُقْضَى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يَحْمَدُه أهلُ الجَمْعِ كلُّهم**».

رواه البخاري في الزكاة (٨٣/٨١/٤).

«**استغاثوا**» أي: طلبوا مَن يغيثهم بالشفاعة، وفيه دليل على صحة وجواز إطلاق الاستغاثة على الشفاعة.

٢٠ ـ وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمّتي على تَلٍّ ويَكْسُوني ربّي حُلَّة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود**».

رواه أحمد (٣٥٦/٣)، وابن حبان (٦٤٤٥)، والحاكم (٣٦٣/٢) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

«**على تَلٍّ**» التل بفتح التاء: قطعة من الأرض مرتفعة عمّا حولها.

ففي هذه الأحاديث بيان خصوصيته ﷺ يوم القيامة بفضائل جمّة لا توجد لأحد سواه؛ فهو إمامهم وسيدهم وخطيبهم وصاحب لوائهم آدم فمَن سواه تحته، وله الأوليّة في القيام من القبر، وفي الشفاعة، وفي دخول

الجنة، وفي حساب أمّته، وفي مرورهم على الصراط، وفي دخول الجنة كما يأتي، وله الشفاعة العظمى لإراحة كل الخلائق من هول الموقف.

وذلك هو المقام المحمود الذي يحمده فيه الأوّلون والآخرون حتى الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وبهذه الخصائص وغيرها من المزايا كان أفضل العالمين على الإطلاق.

* * *

❀ خصوصيته بدخول الجنة قبل غيره ﷺ وأول مَن يَمُرُّ على الصراط

٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُضربُ جسر جَهنَّم فأكونُ أولَ مَن يُجيزُ»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥)، والبخاري في الرقاق (١٤/٢٥٩/٢٤١)، ومسلم في الإيمان مطولاً، ويأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى مع أحاديث الشفاعة.

٢٢ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتي باب الجنة فأستَفتِح فيقول الخازن: مَن أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أُمرتُ أن لا أفتح لأحد قبلك»**.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٧٣) بالنووي.

«فأستفتح» أي: أطلب فتح الباب، و**«الخازن»**: هو الحافظ للجنة والمؤتمن عليها، وخزنتها كثيرون ورئيسهم رضوان.

٢٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أوّلُ مَن يأخذُ بِحَلْقةِ باب الجنة فَأُقَعْقِعُها»**.

رواه الدارمي (٥١)، ورواه أحمد (١/٢٨١/٢٨٢/٢٩٥/٢٩٦) من طريق آخر عن ابن عباس بلفظ: **«ثم آتي باب الجنة فآخذ بحلْقة باب الجنة فأقرع**

الباب»، ورواه أيضاً الدارمي (٥٣) من طريق آخر، بل جاء في صحيح مسلم في الإيمان (٧٣/٣٨) بلفظ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول مَن يقرع باب الجنة**» وهو من حديث أنس، فالحديث صحيح.

«**فأقعقعها**» أي: أحركها وأستفتح كما تقدَّم.

ففي هذه الأحاديث خصائص أخرى له ﷺ فهو أول مَن يقطع الصراط مروراً عليه، وأول مَن يطرق باب الجنة ويأخذ بحلقة بابها فيدخلها قبل غيره من سائر المصطفين من عباد الله تعالى، وهذه هي نهاية الفضائل والمزايا.

* * *

❀ خصوصيته ﷺ بالوسيلة والكوثر

٢٤ ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، ثم سَلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تَنْبَغِي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا، فمَن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة**».

رواه مسلم في الأذان (٨٥/٤) مع النووي، وقد تقدَّم في الأذان مبسوطاً مع غيره.

«**الوسيلة**»: منزلة خاصة لا يعلم عظمتها وصفتها إلا الله تعالى، وهي من منازل حبيبنا ﷺ التي خصَّه الله تعالى بها. وقوله: «**حلَّت له الشفاعة**» أي: وجبت له شفاعته ﷺ كما في رواية أخرى، وفي هذا فضل أيُّ فضل لمَن حكى ألفاظ الأذان وختم ذلك بسؤاله الوسيلة للنبيِّ ﷺ.

٢٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهُرِنا في المسجد إذ أغْفَى إغْفَاءةً ثم رَفعَ رأسَه مُتَبَسِّماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**لقد أُنزِلتْ عليَّ آنفاً سورة**» فقرأ: «**بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ**

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾». قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربّي عزّ وجلّ، عليه خير كثير، وهو حوض ترِد عليه أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم».

رواه أحمد (٣/١٠٢/١٦٤/٢٣٦)، ومسلم (٤/١١٢) وأبو داود (٧٨٤) كلاهما في الصلاة، والنسائي في التفسير (٦/٥٢٣).

(أغفى إغفاءة) الإغفاء: النوم القليل.

٢٦ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أسيرُ في الجنة إذ عرض لي نهرٌ حافتاه قِبابُ اللؤلؤ، قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله». قال: «ثم ضرب بيده إلى طِينَتِه فاستخرج مِسْكاً».

رواه البخاري (١/٣٦٢) والترمذي (٣١٤١) كلاهما في التفسير وقد تقدّم كسابقه.

قوله: «حافتاه»: هو شاطئاه.

٢٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قالت: هو نهر أُعْطِيَه نبيُّكم ﷺ شاطئاه عليه دُرّ مُجَوّف آنيته كعدد النجوم.

رواه البخاري (١٠/٣٦٢) والنسائي (٦/٢٣) كلاهما في التفسير.

٢٨ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومَجْرَاهُ على الدُّرّ والياقوت، تُربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أحلَى من العسل، وأبيضُ من الثلج».

رواه أحمد (٥٣٥٥/٥٩١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٤٢)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٤٧٠)، وحسّنه الترمذي وصححه ورجاله رجال الصحيح.

أحاديث الكوثر متواترة وقد نطق به القرآن الكريم؛ فالإيمان به من

المعتقدات الإسلامية كالحوض، غير أنَّ الحوض خارج الجنة قبل الصراط على الصحيح والكوثر داخل الجنة وسطها ومنه تتفجر أنهار الجنة، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، عدد كيزانه على عدد نجوم السماء، ونجومها تعدُّ بالبلايين وأكثرها لا تُرى، وحافتا الكوثر من الذهب واللؤلؤ والدرّ، ومجراه من الدرّ والياقوت.

أكرم الله به نبيَّه ﷺ ترِده أمّته معه ﷺ، لا حرمنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأحبّتنا وجميع المؤمنين من الشرب منه وورروده، آمين.

* * *

❀ سيعطيه ربُّه حتى يرضى

٢٩ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمّته كَفْراً كَفْراً، فَسُرَّ بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾، فأعطاه في الجنة ألفَ قصر من لُؤلُؤ، تُرابُه المِسْكُ، في كلّ قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم.

رواه ابن جرير (٢٣٢/٣٠)، وابن أبي حاتم (٣٤٤٣/١٠)، والطبراني في الكبير (٣٣٧/١٠)، والحاكم (٥٢٦/٢) وصححه، وقال الذهبي: تفرد به عصام، يعني ابن رواد عن أبيه وقد ضعف.

لكن سند ابن جرير والطبراني حسن أو صحيح ليس فيهما عصام، والحديث حسّنه أيضاً النور في المجمع (١٣٩/١٣٨/٧) من رواية الطبراني في الكبير.

قوله: «كفراً كفراً» بفتح الكاف وسكون الفاء، أي: قريةً قريةً.

في الحديث أنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرم نبيَّه ﷺ في الجنة بما لا يبلغه إنسان فأعطاه ألف قصر مما وُصف في الحديث، ولا يعلم عظمة تلك القصور وما فيها إلا الله عزَّ وجلَّ.

٣٠ ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ

تلا قول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فرفع يديه ﷺ وقال: «أمتي، أمتي»، ثم بكى، فقال الله تعالى: «اذهب إلى مُحَمَّدٍ فقل له: إنّا سَنُرْضِيكَ في أمّتِك ولا نسُوءُك».

رواه مسلم في الإيمان (٧٨/٧٧/٣)، وابن جرير (٢٢٩/١٣)، وابن أبي حاتم (١٢٥٤/٤)، وغيرهم.

في هذا الحديث أنّ الله عزّ وجلّ سيُرضِي نبيَّه ﷺ حتى في أمّته وأنه لا يسوءه فيها ولذلك أعطاه شفاعة عامة في إخراج عصاة أمّته من النار حتى لا يبقى فيها أحد ممّن مات على «لا إله إلا الله» ولو لم يعمل خيراً معها قط، وذلك غاية رضاه ﷺ.

هذا وتتبُّع فضائله وخصائصه ﷺ يحتاج إلى أسفار، إذ كيف يُمدح مَن أثنى الله تعالى عليه في كتابه الكريم في غيرما آية وكتب العلماء في فضائله وخصائصه ﷺ المجلدات والأسفار؟ فلنكتفِ بما أوردنا ولنُتبع ذلك ببعض ما تبقى من معجزاته ﷺ.

* * *

❀ معجزات النبيّ ﷺ

المعجزة: الأمر الخارق للعادة الذي يأتي به نبيٌّ من الأنبياء ويتحدّى مَن يكذبه أن يأتي بمثله فيعجز عن الإتيان به.

وهي على ضربين:

ضرب: من نوع قدرة البشر، فعجزوا عنه، وذلك كالإتيان بمثل القرآن، فإنّ الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ تحدّيا العرب بأن يأتوا بسورة مثله فلم يستطيعوا وعجزوا عن ذلك كما يأتي.

الضرب الثاني: هو خارج عن قدرة البشر فلا يقدرون عن الإتيان بمثله مطلقاً كإحياء الموتى مثلاً، وقلب العصا ثعباناً، وكلام حجر، ونبع

الماء من بين الأصابع... فيأتي ذلك على يد نبيٍّ ويتحدّى مكذبيه بالإتيان بذلك فيعجزون...

والمعجزات التي ظهرت على يد نبيّنا ﷺ هي من هذين النوعين، وهو أكثر الرسل معجزةً وأظهرهم برهاناً وأبهرهم آيةً، وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط، وأعظم معجزاته ﷺ وأعلاها وأبقاها القرآن الكريم؛ ولذلك سنبدأ به.

* * *

❀ معجزة القرآن

٣١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِن الأنبياء من نبيٍّ إلا وقد أُعطِيَ مِن الآيات مَا مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحْياً أوحاه الله إليَّ فأرْجُو أن أكونَ أكثرهم تَبَعاً يومَ القيامة»**.

رواه أحمد، والبخاري في فضائل القرآن (١٠/٣٨٠/٣٨١)، ومسلم في الإيمان (٢/١٨٦) «الآيات» الخوارق والمعجزات.

وقوله: **«ما مثله»** أي: أعطيَ من المعجزات ما كان سبباً في إيمان قومه به، ثم انقرضت تلك الآيات بموته بخلاف معجزة القرآن فإنها آية خالدة إلى قرب قيام الساعة حيث يرفعه الله عند انقراض المؤمنين به.

فمعجزة القرآن لا مثيل لها في معجزات الأنبياء ولو في كتبهم، وهو في نفسه لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر لأن النبيَّ ﷺ قد تحدّى بسورة منه فعُجِزَ عنها. قال العلماء: وأقصر سورة منه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾. قالوا: فكلُّ آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات.

وإعجاز القرآن قطعي متواتر، فلا مرية في أنه جاء به النبيّ ﷺ وتحدّى به العرب في أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا وأخفقوا.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية، فتحدّاهم وأصنامهم وأعوانهم بالإتيان بسورة واحدة تشبهه، ثم أخبر عنهم بأنهم لا يستطيعون ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

فهذا القرآن الكريم يصرح فيه الله عزّ وجلّ بأنه لو اجتمعت المخلوقات بإنسهم وجنّهم على أن يجيئوا بمثل هذا الكتاب لا يستطيعون ولو تعاون بعضهم مع بعض على ذلك.

وقد ذكر العلماء للقرآن أنواعاً من الإعجاز:

أولاً: حسن تأليفه والتئام كَلمه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانياً: أسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على ذلك.

ثالثاً: ما اشتمل عليه من الأخبار عمّا مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعاً: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبويّ وبعضها بعده.

خامساً: الروعة التي تحصل لسامعه ولو لم يفهمه.

سادساً: إنّ قارئه لا يملّه مع ترداده، وسامعه لا يمجّه ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذة.

سابعاً: إنه آية باقية محفوظ بحفظ الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثامناً: جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها.

تاسعاً: إعجازه العلمي، فقد أشار إلى حقائق وأشياء صدقها العلم الحديث، وقد كتب الناس في ذلك وأجادوا.

وبذلك يُعرف أنَّ القرآن هو المعجزة العظمى للنبيِّ ﷺ التي تتضاءل دونها كل المعجزات وأنها باقية بين أظهرنا ما بقي المسلمون. ولنتبع هذه المعجزة الفريدة بباقي أمهات معجزاته ﷺ.

* * *

❀ معجزة انشقاق القمر

٢٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين؛ فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشْهَدُوا**».

رواه أحمد (٣٥٨٣)، والبخاري في التفسير (١٠/٢٤٠) وفي المناقب (٨/١٨٣/١٨٥)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٤٤)، والترمذي (٣٠٦٩)، وتقدَّم في أوائل السيرة رواية أنس وجبير بن مطعم وابن عمر.

قال ابن السبكي: الصحيح عندي أنَّ انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى، لا يمترى في تواتره. وكذا قال ابن كثير في التفسير أنه ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أنَّ انشقاق القمر قد وقع في زمن النبيِّ ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. وقال عياض: وأجمع المفسرون وأهل السنَّة على وقوعه. وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء؛ وذلك أنه ظهر في ملكوت السماوات خارجاً عن جلِّ طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع...

كان انشقاق القمر باقتراح الكفار، فلما وقع قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

وكذبوا وعاندوا، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

* * *

❀ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته صلَّى اللَّه عليه وآله وسلَّم

٣٣ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء يَنبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم. وفي رواية: قيل: كم كنتم؟ قال: زُهاء ثلاثمائة...

رواه أحمد (١٦٥/٣)، والبخاري في الطهارة (٢٨٢/٢٨١/١) وفي علامات النبوّة (٣٩٨/٣٩٧/٣٩٦/٧)، ومسلم في الفضائل (٣٩/٣٨/١٥)، والترمذي (٣٤٠٦).

(الوضوء) بفتح الواو: يطلق على الماء الذي يتوضأ به وعلى الآنية التي فيها ماء الوضوء. وقوله: (زُهاء) بضمّ الزاي، أي: قدر.

٣٤ ـ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اطلبوا مَن معه فضلُ ماءٍ**». فأُتي بماء فصبَّه في إناءٍ، ثم وضع كفَّه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٤٠٦/٤٠٢/١)، والبخاري في علامات النبوّة (٤٠٣/٤٠٢/٧)، والترمذي (٣٤٠٨)، والدارمي في المقدمة (٢٩).

وتقدَّم في هذا حديثا البراء وجابر في قصة الحديبية.

وفي حديث جابر: فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

وفيه: لو كنا مائة ألف لَكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وهو في البخاري وغيره.

وهذه المعجزة لم يُنقل مثلها عن أحد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال القرطبي: لم يُسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

وقد نقل ابن عبدالبر عن المزني أنه قال: نبعُ الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ من في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسىٰ عليه السلام بالعصا فتفجّرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. نقله الحافظ في الفتح.

فنبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكرر منه في عدة مواطن وفي عدة مشاهد عظيمة، حضراً وسفراً، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي.

* * *

تفجير الماء ببركته وبمسّه ودعوته ﷺ

٣٥ ـ عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تبضُ بشيء من ماء مثل الشِّراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير، فاستقى الناس، وفيه قوله ﷺ: **«يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملىء جناناً»**.

رواه أحمد (٢٣٨/٢٣٧) ومسلم في الفضائل (٤١/٤٠/١٥) مطوّلاً، وتقدّم مبسوطاً في غزوة تبوك.

(تبضُّ) بفتح التاء وكسر الباء ثم ضاد معجمة، أي: تسيل وتقطر. وفي رواية: بالصاد المهملة، أي: تدمع. و(الشُّراك): هو سير رقيق يُجعل في النعل.

٣٦ ـ وعن البراء وسلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنهما في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جبا. قال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها فجاشَتْ فأرْوَوْا أنفسَهم ورِكابَهم.

حديث البراء رواه البخاري في علامات النبوَّة (٣٩٨/٧) وفي المغازي (٤٤٨/٤٤٧/٨)، وأما حديث سلمة فهو في السير من صحيح مسلم (١٧٥/١٢) مطوّلاً، وتقدّما في غزوة الحديبية مبسوطين.

٣٧ ـ وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: أصاب النبيَّ ﷺ وأصحابه عَطَشٌ في بعض أسفارهم، فوجَّه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان... وفيه: فوجداها وأتيا بها إلى النبيِّ ﷺ، فجعل في إناء من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين وأمر الناس فملأوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملأوه، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها وقال: «**اذهبي، فإنا لم نأخذ من مائك شيئاً ولكن الله سقانا**» الحديث.

رواه أحمد (٤٣٥/٤٣٤/٤)، والبخاري في علامات النبوَّة (٣٩٥/٣٩٢/٧) وفي التيمم (٤٧٠/٤٦٤/١)، ومسلم في المساجد (١٩٢/١٨٩/٥) مطوّلاً في نومهم عن الصلاة.

فهذه كلها آيات وخوارق ومعجزات له ﷺ في تفجير الماء وإيجاده بإذن الله تعالى ثم ببركته ﷺ.

* * *

٣٨ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ فأطْعَمَهُ شَطْرَ وَسقِ شعير، فما زال يأكلُ منه وامرأتُه وضيفُه حتى كاله، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبَرَهُ فقال: «**لو لم تكِله لأكَلْتُم منه ولَقامَ بكم**».

رواه مسلم في أول الفضائل (١٥/٤٠).

في الحديث معجزة ظاهرة وآية باهرة.

٣٩ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو طلحة لأمِّ سُلَيْم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم. فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أرسلك أبو طلحة؟**» قلت: نعم. فقال لمَن معه: «**قوموا**». فجئت أبا طلحة فأخبرتُه، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ والناس، وليس عندنا ما نطعمه. قالت: الله ورسوله أعلم. فدخل رسول الله ﷺ فقال: «**هَلُمّي ما عندك يا أم سليم**». فأتيت بذلك الخبز فأمر به فَفُتَّ وعُصِرَ عليه عُكَّةُ لها فأدَمَتْه، ثم قال فيه النبيُّ ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «**ائذَنْ لعشرة**». فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**». حتى أكل القوم كلهم وشَبعوا، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون.

رواه البخاري في علامات النبوَّة (٧/٣٩٩/٤٠٢) وفي الأطعمة، ومسلم في الأشربة (١٣/٢١٧/٢٢٠) رواه من طرق وألفاظ وفي بعضها: ثم أكل رسول الله ﷺ وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم. وفي بعضها: فقال: «**بسم الله، اللّهم عظِّم فيه البركة**». ورواه أيضاً الترمذي في المناقب، والنسائي في الوليمة، والدارمي في المقدمة (٤٤) بنحوه.

قوله: (ففُتَّ) أي: كُسِرَ. وقوله: (عكة) بضمّ العين وتشديد الكاف،

إناء من جلد مستدير يُجعل فيه السمن غالباً والعسل. (فأذمَثه) أي: صيَّرت ما خرج من العكة إداماً له.

هذه المعجزة كانت في غزوة الأحزاب وجاء نحوها عن جابر أيضاً كما تقدَّم في الغزوات.

٤٠ ـ وعن عبدالرحمٰن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا مع النبيِّ ﷺ ثلاثين ومائة فقال: «**هل مع أحد منكم طعام؟**» فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن، ثم جاء بغنم يسوقها فاشترى منه شاة فأمر بها فصنعت، فأمر رسول الله ﷺ بسواد البطن أن يُشوَى. قال: وأيْمُ الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حَزَّ له رسول الله ﷺ من بطنها؛ إن كان شاهداً أعطاه وإن كان غائباً خَبَأ له. قال: وجعل منها قطعتين فأكلنا منها وشَبعنا وفضل في القصعتين فحملنا على البعير.

رواه أحمد (١/١٩٧/١٩٨)، والبخاري في البيوع وفي الهبة (٦/١٦٠)، ومسلم في الأطعمة (١٤/١٦/١٧).

وقوله: (سواد البطن) يعني: الكبد. وقوله: (وحزَّ له) أي: قطع له.

٤١ ـ وعن سمرة بن جندب أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ من ثَرِيدٍ فوُضِعت بين يَدَي القوم، فتعاقَبُوها من غدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد آخرون. وفي رواية: فتعاقبوها إلى الظهر. وفي أخرى: تقوم عشرة وتقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمدُّ؟ قال: من أيِّ شيء تعجب؟ ما كانت تُمَدُّ إلا من ها هنا. وأشار بيده إلى السماء.

رواه الدارمي في المقدمة (٥٧)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٤)، والحاكم (٢/٢١٨)، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وهو على شرط الشيخين.

وتقدَّمت أحاديث في هذا المعنى في المغازي في غيرما وقت وموضع، ومجموعها يفيد التواتر المعنوي فيقطع بوقوعها لأن ذلك صدر منه ﷺ في أوقات متباينة في جموع متكاثرة في مناسبات وقصص

مختلفة، ورواها الجمُّ الغفير من الصحابة فمَن بعدهم رضي الله تعالى عنهم، فهي من المعجزات والآيات النبويّة التي لا يشكك فيها أو ينكرها إلا مخذوش الإيمان. وانظر للمزيد من ذلك «الشفا» لعياض، و«تهذيب الخصائص» لكاتب هذه السطور، و«المواهب اللدنية والدلائل» للبيهقي...

* * *

❀ معجزة كلام الشجر وشهادتها له وطاعتها إيّاه ﷺ

٤٢ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي فقال: «**يا أعرابي، أين تريد؟**» قال: إلى أهلي. قال: «**هل لك إلى خير؟**» قال: وما هو؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ﷺ؟**» قال: مَن يشهد لك على ما تقول؟ قال: «**هذه الشجرة السَّمُرة**». وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

رواه الدارمي (١٦)، وابن حبان (٢١١٠) بالموارد وسنده صحيح على شرط مسلم عند الأول، وعزاه النور في المجمع (٢٩٢/٨) للطبراني وأبي يعلى والبزار وقال: إنّ رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في الإتحاف: رواه أبو يعلى بسند صحيح.

(فاستشهدها) أي: أمرها أن تشهد لله بالوحدانية وله بالرسالة، فشهدت بذلك. وقوله: (تخدُّ الأرض) أي: تشقُّها.

وفي هذا معجزتان:

أولاهما: شعور الشجرة بأمر النبيّ ﷺ وهي جماد.

ثانيهما: طاعتها إيّاه وشهادتها لله بالوحدانية وله بالرسالة.

٤٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريل عليه السلام

إلى النبيِّ ﷺ وهو خارج من مكة قد خَضَبَه أهلُ مكة بالدِّماء، قال: ما لكَ؟ قال: «**خضبني هؤلاء بالدماء، فعلوا وفعلوا**». قال: تُريدُ أن أُرِيَكَ آيةً؟ قال: «**نعم**». قال: ادْعُ تلك الشجرةَ. فدعاها فجاءت تَحُطُّ الأرضَ حتى قامت بين يديه، قال: مُرْها فَلْترجع. قال: «**ارجعي إلى مكانك**». فرجعت إلى مكانها، قال: «**حسْبي**».

رواه الدارمي (٢٣) وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٨) وسنده صحيح، ولا يضرّه الاختلاف في وصله وانقطاعه فإنَّ له شاهداً عن عمر رواه أبو يعلى والبزار. قال الهيثمي في المجمع (١٠/٩): وإسناد أبي يعلى حسن.

هذه آية أخرى أيَّد الله عزَّ وجلَّ بها نبيَّه ﷺ وعزاه وسلاه مما كان قد أُصيب به من طرف الكفار فأراه هذه المعجزة تثبيتاً له.

٤٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل من بني عامر إلى النبيِّ ﷺ كأنه يداوي ويعالج فقال: يا محمد، إنك تقول أشياء، هل لك أن أداويك؟ قال: فدعاه رسول الله ﷺ ثم قال له: «**هل لك أن أُريكَ آيةً؟**». وعنده نخل وشجر، فدعا رسول الله ﷺ عذقاً منها، فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه، ويسجد ويرفع رأسه، حتى انتهى إليه ﷺ فقام بين يديه، ثم قال له رسول الله ﷺ: «**ارجع إلى مكانك**». فرجع إلى مكانه، فقال العامري: والله لا أُكَذِّبُكَ بشيء تقوله أبداً. ثم قال: يا آل عامر بن صعصعة، والله لا أُكذبه بشيء يقوله.

رواه الدارمي (٢٤)، والترمذي في المناقب (٣٣٩٧)، وابن حبان (٢١١١) بالموارد، والحاكم (٦٢٠/٢) من طرق بعضها صحيحة ولذا حسَّنه الترمذي وصححه، كما صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(عذق) بكسر العين وسكون الذال، هو عرجون النخل، وهو كالعنقود من العنب. (يسجد) أي: يخرُّ ويقفز وينحني.

٤٥ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه في حديث له طويل وفيه أنَّ رسول الله ﷺ ذهب يقضي حاجته، فلم يرَ شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من

أغصانها فقال: «انقادي عليّ بإذن الله». فانقادت معه كالبعير المَخْشُوشِ الذي يُصانِع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: «التئما عليّ بإذن الله» فَالْتَأمَتا.

وفي رواية: فقال: «يا جابر، قل لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما». فزحفت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما، فخرجت أُحْضِرُ وجلَسْتُ أُحَدِّثُ نفْسِي فالْتَفَتُّ فإذا رسول الله ﷺ مقبلاً والشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة فقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً.

روى مسلم بعضه آخر الكتاب (١٨/١٤٢/١٤٣) وروى بعضه الدارمي (١٧) بسند صحيح.

وقوله: (أحضر) بضمّ الهمزة وسكون الحاء وكسر الضاد، أي: أجْرِي وأغدُو. و(البعير المخشوش) الذي يوضع في أنفه عود لينقاد. وقوله: «التئما» أي: اجتمعا.

فيه معجزة إطاعة الشجرتين له ﷺ، فجاءتا استجابةً له حتى استتر بهما لقضاء حاجته، ثم لمّا فرغ افترقتا وذهبت كل واحدة منهما لمنبتها.

وفي أحاديث هذا الفصل مع ما فيها من عجائب المعجزات، فيها دليل على أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل شعوراً وتمييزاً في الجمادات وأنها تدرك الأشياء وتفهم، ومثل هذا لا ينكره إلا ضعيف الإيمان أو زنديق، وقد قال الله تعالى في الجمادات: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وقال عزّ علاه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

فالجبال والصخور والأشجار وجميع ما خلق الله يدرك ويسبِّح الله تعالى ويخافه ويخشع له. والواجب علينا الإيمان بكلِّ ما نطق به القرآن وجاءت به الرسالة النبوِّية من غير اعتراض أو انتقاد أو تأويل، والله يفعل ما يشاء.

* * *

معجزة حنين الجذع

٤٦ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان جذع يقوم إليه النبيُّ ﷺ، فلمّا وُضِعَ له المِنبرُ سمعنا للجذع مِثلَ أصوات العِشارِ، حتى نزل النبيّ ﷺ فَوضعَ يدَه عليه فسكتَ. وفي رواية: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يقوم إلى نخلة فجعلوا له المنبر، فلمّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فَصَاحَتْ النخلة صِياحَ الصبي، فنزل فضمَّها إليه فجعلتْ تَئِنُّ أنِينَ الصبي الذي يُسَكَّتُ. قال ﷺ: **«كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»**.

رواه أحمد (٣/٣٠٠)، والبخاري في الجمعة، وفي البيوع، وفي علامات النبوَّة (٧/٤١٥/٤١٦)، والدارمي في المقدمة (٣٤) بألفاظ.

(جذع) بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة، ساق النخلة. (العشار) بكسر العين، جمع عُشَراء بضمِّ العين وفتح الشين، هي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر. (فضمَّها)، وفي رواية: (فاحتضنها)، أي: التزمها. (تئن) بفتح التاء وكسر الهمزة، أي: تصوت بالأنين وتبكي مثل الطفل الصغير الذي تسكته أمه.

٤٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ خطب إلى لِزْقِ جِذْعٍ واتخذوا له منبراً فخطب عليه، فحنَّ الجذع حنين الناقة، فنزل النبيُّ ﷺ فمسَّه فسكت.

رواه الدارمي (٤٢) والترمذي (٣٤٠٢) وحسَّنه وصححه.

٤٨ ـ وعن ابن عباس نحوه، وفيه: **«لو لم أحتضنه لَحَنَّ إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (١/٢٤٩/٢٦٦/٢٦٣) بأسانيد صحيحة.

قوله: (لزق) بكسر اللام وسكون الزاي، أي: إلى جنبه. وقوله: (فحنَّ الجذع حنين الناقة) أي: صوَّت مع اشتياق إليه ﷺ.

حديث حنين الجذع متواتر رواه عن النبيِّ ﷺ بضعة عشر صحابياً منهم: أُبيّ بن كعب، وابن عمر، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم. واقتصرنا منهم على جابر وأنس وابن عباس تحرجاً من التطويل الممل.

وهذه المعجزة من الآيات العظيمة للنبيِّ ﷺ لم تقع لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فحنين عود من النخل جماد وبكاؤه واشتياقه إلى الحبيب عليه السلام مع شعور بما كان يجده عند اعتماده ﷺ إليه من الذكر هو خارق عجيب في حدِّ ذاته، ولذا ورد عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه كان إذا حدَّث بهذا الحديث بكى وقال: يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه ﷺ. ولقد صدق والله فيما قال.

ومع تواتر هذه المعجزة وغيرها أنكرها المستغربون من أبناء المسلمين الذين تربّوا بين أحضان أساتذتهم الكفار وأُشربوا في قلوبهم كل ما تلقوه عن أولئك الماكرين من حق وباطل وغث وسمين.

ويعجبني هنا ما قاله العلاّمة المحدِّث أحمد شاكر رحمه الله في شرح المسند حيث قال: وحنين الجذع من المعجزات الكونية الثابتة لرسول الله ﷺ بالتواتر القطعي خلافاً لما يتوهمه الجاهلون أتباع أوروبا الذين يؤمنون أو يتظاهرون بمعجزات الأنبياء السابقين، يزعمون أنهم يؤمنون بها لثبوتها في القرآن وما أظنهم يؤمنون إن آمنوا بها إلا تقليداً لسادتهم، دَرْبُوهُم وعلّموهم أنها ثابتة في التوراة ثم هم ينكرون كل معجزة لرسول الله ﷺ، يزعمون أن لا معجزة له إلا القرآن.

* * *

❀ تسليم الحجر عليه ﷺ

٤٩ ـ عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبْعَث، إني لأعْرِفُه الآن»**.

رواه الطيالسي (٢٤٥٠)، وأحمد (٨٩/٥)، ومسلم (٣٦/١٥) والترمذي (٣٣٩٩) كلاهما في المناقب والفضائل.

وهذا أيضاً من دلائل نبوَّته ومعجزاته في الجماد. وهو يدل على أنَّ كل الكائنات والإنسان والجن كانت على علم بنبوَّته ﷺ وأنه سيكون له شأن. وقد جاء بذلك حديث لا يحضرني الآن لفظه ولا تخريجه.

وهذا الحجر الذي كان يسلِّم عليه يقال إنه الحجر الأسود، فالله تعالى أعلم بذلك.

* * *

❀ تحرُّك جبل أُحد أو حِرَاء

٥٠ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: صعد النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ أُحداً فَرَجَفَ بهم فقال: **«اثْبُت، فإنما عليك نَبِيٌّ، وصِدِّيقٌ، وشهِيدَان»**.

رواه أحمد (١١٢/٢)، والبخاري في المناقب (٥٨/٣٨/٨)، وأبو داود في السنّة (٤٦٥١)، والترمذي (٣٤٦٨) في المناقب.

٥١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حِرَاء فتحرك فقال رسول الله ﷺ: **«اسْكُن حِراءُ، فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيدٌ»**. وعليه النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهم.

رواه أحمد (٤١٩/٢)، ومسلم (١٩١/١٩٠/١٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٦٩).

وسيأتي في فضائل الصحابة حديث سعيد بن زيد في ذلك وأنهم كانوا على حراء عشرة.

قوله: «اسكن» و«اثبت»، وفي رواية: «اهدأ»، كلها معناها واحد.

جاءت الروايات مختلفة بأُحد أو حراء، وذلك لا يؤثر في صحة الأحاديث، فإنَّ الكل صحيح فيُحمل ذلك على التعدد، وأنَّ ذلك حصل بأُحد وهو جبل عظيم شمال المدينة كانت الوقعة المشهورة بأسفله، ووقع ذلك أيضاً بحراء وهو جبل بضواحي مكة المكرمة كان النبيُّ ﷺ يتعبَّد فيه قبل النبوَّة.

وعلى أيِّ حال فهذان الجبلان شعرا بوجود النبيِّ ﷺ وأصحابه الكرام فوقهما فتحركا ورجفا بهم طرباً وفرحاً، مما يدل دلالة لا يبقى معها شك في أنَّ الجمادات لها شعور وعلم وتغيرات كالعقلاء؛ ولذلك لمّا ضرب النبيُّ ﷺ الجبلين برجله الشريفة سكنا تأدُّباً مع الحضرة النبويَّة. وفي هذين الحديثين مع هذه المعجزة العظيمة فضل الخلفاء الأربعة ومَن معهم رضي الله تعالى عنهم، وستأتي فضائلهم مفصَّلة إن شاء الله تعالى ويستنبط من الحديثين أنَّ المؤمن إذا حصل له فرح بالله أو برسوله وما إلى ذلك له أن يتحرك ويرقص ولا غضاضة في ذلك.

* * *

معجزة تسبيح الطعام

٥٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إنكم تعدُّون الآيات عذاباً، وإنّا كنا نعدُّها على عهد رسول الله ﷺ بركة، لقد كنا نأكل الطعام مع النبيِّ ﷺ ونحن نسمع تسبيح الطعام.

وأُتيَ النبيُّ ﷺ بإناء فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فقال النبيُّ ﷺ: «**حيَّ على الوضوء المبارك، والبركة من السماء**» حتى توضأنا كُلّنا.

رواه أحمد (٤٠٦/٤٠٢/١)، والبخاري في علامات النبوَّة (٤٠٣/٤٠٢/٧)، والدارمي (٣٩)، والترمذي في المناقب (٣٤٠٨).

وخبر نبع الماء تقدَّم برقم ٣٤ بسياق آخر.

(الآيات) هي الخوارق.

وفي الحديث تسبيح الطعام وسماع الصحابة له، وتلك معجزة للنبيِّ ﷺ باهرة وكرامة للصحابة. والحديث من المؤيدات لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. فما من شيء في هذه الكائنات إلا وهو ينزِّه الله عزَّ وجلَّ بالحال والمقال ولكننا نجهل تسبيحها.

* * *

❀ معجزاته في ضروب الحيوانات
معجزته في الداجن

٥٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قرَّ وثبت مكانه فلم يجىء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب.

رواه أحمد (٢٠٩/١٥٠/١١٣/١١٢/٦)، وأبو يعلى (٤٤٢٤)، والطبراني في الأوسط (٦٥٨٧)، والبزار. قال النور في المجمع (٤/٩): رجال أحمد رجال الصحيح. وقال ابن كثير في الشمائل: على شرط الصحيح. ولم يخرجوه، وهو حديث مشهور.

و(الداجن) كل ما يألف البيوت من الشياه وغيرها. وقوله: (قرَّ) هو معنى ثبت ولم يتحرك.

هذا حيوان كان يشعر بوجود النبيِّ ﷺ في المنزل فيسكن ولا يلعب ولا يتحرك تأدُّباً مع النبيِّ ﷺ، فإذا خرج عرف ذلك فتحرك وذهب وجاء ولعب، وهذه آية في داجن أعجم.

* * *

❀ معجزة في ذئب يتكلم مع الراعي

٥٤ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما راعٍ يرعى غنماً له بالحرة إذ عرض ذئب لشاة من شياهه، فحال الراعي بين الذئب وبين الشاة، فَأَقْعَى الذئب ثم قال: ألا تتقي الله تعالى؟ تَحُول بيني وبين رِزقٍ سَاقه الله تعالى إليَّ؟ فقال الراعي: العَجَبُ من الذئب يتكلم بكلام الإنس. فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: رسول الله ﷺ يُحدِّثُ الناسَ بأنباء ما قَد سَبَق. فساق الرَّاعي غَنَمَهُ حتى قدم المدينة، فدخل على النبيِّ ﷺ، فحدَّثَ بحديث الذئب، فقال رسول الله ﷺ: «صدق، ألا إنه من أشراط الساعة كلامُ السباعِ الإنسَ، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تُكلِّم السباعُ الإنسَ ويُكلِّم الرجلَ شِراكُ نعله، وعَذَبَةُ سَوطِه، ويخبره فخِذُه بما أحْدَثَ أهْلُه مِن بَعْدِه».

رواه أحمد (٣/٨٣/٨٤/٨٨/٨٩)، والبزار والحاكم (٤/٤٦٧) من طرق بعضها صحيحة، وصححه الحاكم، وقال الهيثمي (٨/٢٩١): ورجال إسناد أحمد رجال الصحيح. وآخره في أشراط الساعة، رواه الترمذي في الفتن (٢٠٠٩) وحسَّنه وصححه.

(فَحَالَ) أي: حجز. (فَأَقْعَى) أي: جلس على أسته وبسط يديه. (شِراك): سير النعل. (عَذَبَة) بفتحات، أي: طرف سوطه.

وفي الحديث آية عظيمة وخارق معجز وهو تكلُّم الذئب مع الراعي وإخباره بصدق النبيِّ ﷺ وأنه يخبر الناس بما قد سبق، كما فيه تنبؤه ﷺ بما سيقع في المستقبل قبيل الساعة من تكليم السباع وغيرها الإنسانَ كما هو حاصل الآن من بعض الحيوانات المدربة ومن الجمادات كالراديو والتلفاز وأشرطة التسجيل والحاسوب وغير ذلك، فهذه كلها من علامات الساعة، وسوف يُظهر الله أموراً أخرى لا نعرفها، وكل ذلك يُعَدُّ من معجزاته ﷺ التي أخبر بها أو أشار إليها، وسيأتي ذلك في الفتن.

* * *

٥٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نستن عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل. فقال رسول الله ﷺ لصاحبه: **«قوموا»**. فقاموا فدخلوا الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبيُّ ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، قد صار مثل الكلب الكَلِب، وإنّا نخاف عليك صولته. فقال: **«ليس عليَّ منه بأسٌ»**. فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خَرَّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذلَّ ما كان قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحقُّ أن نسجدَ لك. قال: **«لا يصح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، لِعظم حقِّه عليها، لو كان من قدمه إلى مَفرِق رأسه قرحة تَنْبَجِسُ بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدّت حَقَّه»**.

رواه أحمد (١٥٩/١٥٨/٣)، والبزار، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس، وهو ثقة. وآخره ورد من طرق، ونحوه باختصار عن أبي هريرة رواه البزار بسند حسن.

قوله: (يسنون) أي: يسقون. و(الحائط): البستان ذو النخيل والأشجار. و(الكلب الكلب) الثاني مضبوط بكسر اللام، وهو مرض خطير يعتري الكلاب فتهاجم وتعض كل مَن واجهها، وقلَّما يَسلم مَن تعضه.

٥٦ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دفعنا مع رسول الله ﷺ إلى حائط بني النجار، فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شدَّ عليه، فأتاه النبيُّ ﷺ فدعاه فجاء واضعاً مِشْفَرَهُ في الأرض حتى برك بين يديه، فقال: **«هاتوا خطاماً»**. فخطمه فدفعه إلى صاحبه ثم التفت فقال: **«ما بين السماء إلى الأرض إلا يعلم أني رسول الله ﷺ إلا عاصي الجن والإنس»**.

رواه أحمد (١٠٤/٤) والدارمي (٥٦) وسنده صحيح لغيره.

(مِشْفَره) أي: شفته.

٥٧ ـ وعنه أيضاً في حديث له عن حجة الوداع قال: ثم سرنا ورسول الله ﷺ بيننا، فجاء جمل نادٍ، فلما كان بين السماطين خرَّ ساجداً فقال: **«مَن صاحب الجمل؟»** فقال فتية من الأنصار: هو لنا. قال: **«فما شأنه؟»** قالوا: سنونا عليه عشرين سنة فلما كبرت سنه أردنا نحره لنقسمه بين غلماننا. فقال: **«تبيعونه؟»** قالوا: هو لك. قال: **«فأحْسِنُوا إليه حتى يأتِيَه أجلُه»**.

رواه الدارمي في المقدمة (١٧) بسند صحيح، وجوَّده الحافظان المنذريّ وابن كثير.

٥٨ ـ وعن يعلى بن مرة رضي الله تعالى عنه قال: سافرت مع النبيِّ ﷺ إلى مكة فرأيت منه شيئاً عجيباً. فذكر الحديث وفيه: ثم أتاه بعير فقام بين يديه، فرأى عينيه تدمعان، فبعث إلى أصحابه فقال: **«ما لبعيركم هذا يشكوكم؟»** فقالوا: كنا نعمل عليه فلما كبر ذهب عمله، تواعدنا لننحره غداً. قال: **«فلا تنحروه واجعلوه في الإبل»**.

رواه أحمد (١٧٣/١٧٢/١٧٠/٤)، والحاكم (٢١٧/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي (٦/٥/٩): رواه أحمد بإسنادين وأحدهما رجاله رجال الصحيح.

(جمل نادٍ) أي: هائج. (السماطين) أي: بين جماعة من النخل. (سنونا) أي: استقينا عليه.

وفي هذه الأحاديث معجزات للنبيِّ ﷺ في إطاعة الإبل له، وسجودها بين يديه، وشكايتها له أصحابها من الاعتداء عليها، وشعورها بالخير والشر. ويؤخذ من حديث جابر الأول أنَّ كل الكائنات من العالَمَيْن العلوي والسفلي وما بينهما كانت تعلم رسالة نبيِّنا ﷺ وأنه مبعوث إلى الإنس والجن. ولله في خلْقه تعالى شؤون وأسرار.

وفي حديث أنس بيان عظم حقوق الزوج على زوجته، كما فيه تحريم السجود لغير الله تعالى مهما عظم بل ذلك يُعَدُّ شركاً أكبر لمَن يعلم.

* * *

❀ معجزته ﷺ في سير الجمل بعد إعيائه

٥٩ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ فتلاحق بي وتحتي ناضح قد أعْيا ولا يكاد يسير، فقال لي: «**ما لبعيرك؟**» قلت: عليل. فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قدامها يسير، فقال لي: «**كيف ترى بعيرك؟**» قلت: بخير، قد أصابته بركتك.

رواه أحمد (٣/٣١٤)، ومسلم في النكاح وفي المساقاة (١١/٣٠/٣٦) من طرق، وأصل القصة في الصحيحين، وقد تقدَّم في البيوع.

وفي الحديث معجزة ظاهرة في انقلاب إعياء الجمل إلى قوته ونشاطه وسيره الحثيث وسبقه زملاءه من الإبل. وهذا قد تكرر منه ﷺ غيرما مرة، وقد تقدَّم نحوه في قفول الصحابة من غزوة تبوك.

* * *

❀ معجزتان له ﷺ في أثر يده الشريفة

٦٠ ـ عن أبي زيد بن أخطب رضي الله تعالى عنه قال: مسح رسول الله ﷺ على وجهي ودعا لي. قال عزرة: إنه عاش مائة وعشرين سنة وليس في رأسه إلا شُعَيْرَاتٌ بِيضٌ.

رواه الترمذي في المناقب (٣٣٩٨) والحاكم (٢/٦٠٦) بسند صحيح على شرط مسلم.

هذا أمر خارق للعادة، فإنَّ مثل هذا السن لا يبقى لصاحبه معه ولو شعرة سوداء، ولكنها بركة النبوَّة.

٦١ ـ وعن حنظلة بن خديم رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ مسح رأسه بيده وقال له: «**بورك فيك**». قال الذيال: فرأيت حنظلة يؤتى بالشاة الوارم ضرعها، والبعير، والإنسان به الورم فيتفل في يده ويمسح بصلعته، ويقول: بسم الله، على أثر يد رسول الله ﷺ، فيمسحه ثم يمسح موضع الورم فيذهبُ الورَمُ.

رواه أحمد (٦٨/٦٧/٥)، والبخاري في التاريخ، وابن سعد، وأبو يعلى، وسنده صحيح عند أحمد، وقال الهيثمي (٤٠٨/٨): رجاله ثقات.

(الورم) بالفتح، الانتفاخ من مرض ونحوه. وفي ذلك آية أيضاً لأثر يده الشريفة وبركتها.

* * *

❀ معجزته ﷺ في عصمته من الناس

٦٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ يُحرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «**يا أيُّها الناس، انصرِفوا عني فقد عَصَمَنِي الله**».

رواه الترمذي (٢٨٤٤) والحاكم (٣١٣/٢) كلاهما في التفسير، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسَّنه الحافظ في الفتح.

٦٣ ـ وعن جَعْدَة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبيُّ ﷺ يومىء إلى بطنه بيده ويقول: «**لو كان هذا في غير هذا المكان لكان خيراً له**». قال: وأُتيَ النبيُّ ﷺ برجل فقالوا:

هذا أراد أن يقتُلك. فقال له النبيُّ ﷺ: «لم تُرَع، ولو أردتَ ذلك لم يُسَلِّطْك الله عليّ».

رواه أحمد (٣/٧١) بسند صحيح.

(يومىء) أي: يشير. «لم ترع» بضمّ التاء وفتح الراء، أي: لا فزع عليك ولا خوف.

في الحديثين الشريفين بيان ما خصَّه الله تعالى وأحاطه به من عصمته وحفظه من تسلُّط الأعداء عليه بالقتل والفتك به. وقد مكث بين أظهر كفار قريش ثلاث عشرة سنة يقرعهم ويسفِّه أحلامهم ويسبّ آلهتهم، وكادوه مرات فأخفقوا ولم يصلوا إلى النيل منه. وتقدَّم ما حصل لأبي جهل وغورث وغيرهما ممَّن أرادوا قتله.

* * *

❀ آية في ستره عن أعين الكفار

٦٤ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ جاءت امرأة أبي لهب للنبيِّ ﷺ ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، إنها امرأة بذيئة، وأخاف أن تؤذيك، فلو قمت. قال: «إنها لن تراني». فجاءت فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبُك؟ هجاني. قال: ما يقول الشعر. قالت: أنت عندي مُصَدَّقٌ. وانصرفت، قلت: يا رسول الله، لم تَرَك. قال: «ما زال ملكٌ يَستُرني مِنها بِجَنَاحَيْه».

رواه أبو يعلى (١/٣٣) والبزار وقال: إنه حسن الإسناد وفيه عطاء بن السائب وكان قد تغير. كذا في المجمع (٧/١٤٤) وله شاهد عن أسماء بنت أبي بكر بنحوه، رواه أبو يعلى أيضاً.

قولها: (هجاني) أي: شتمني بالشعر. وقوله: (بذيئة) أي: فاحشة اللسان.

وفي الحديث آية له ﷺ حيث جاءت تلك المقيتة تريد النبيَّ ﷺ فستره الله تعالى عنها وهو حاضر وهي سليمة البصر فلم ترَه. وحصل مثل هذا لكفار قريش عندما خرج من بيته ورمى بتراب على مَن كان محيطاً بالدار يريدون قتله، فخرج من بين أيديهم وهو يقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

وتقدَّم في الهجرة النبويَّة أنَّ كفار قريش صعدوا إلى جبل ثور والنبيُّ ﷺ وصاحبه الصدِّيق رضي الله تعالى عنه فيه، فأعمى الله أبصارهم فلم يروهما، ونسجت العنكبوت خيوطها على باب الغار.

رواه أحمد وله طرق، وفي كل ذلك تأييد لحديث ابن عباس.

* * *

❀ معجزة فيمَن مات ولم تقبله الأرض

٦٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فكان يملي عليه: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيقول: أكتبها ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾؟ فيقول: «اكتب كيف شئت». ويملي عليه ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيكتب ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. فارتدَّ ذلك الرجل ولحق بالمشركين وقال: أنا أعلم بمحمد إن كنتُ لأكتب ما شئتُ. فمات ذلك الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأرض لا تقبله». فدفن فلم تقبله الأرضُ. قال أبو طلحة: فقدمت الأرض التي مات فيها فوجدته منبوذاً فقلت: ما شأن هذا؟ فقالوا: دفناه فلم تقبله الأرض.

رواه أحمد (٢٢٢/٣) والبخاري في علامات النبوَّة (٤٣٧/٧) وهو عنده بسياق مبسوط.

ففي الحديث معجزة باهرة حيث إن الأرض شاركت بإذن الله في الانتقام من ذلك الكذاب على الله وعلى رسوله ﷺ، فدُفِن مِراراً فَلَفَظَتْه الأرضُ، ثم تُرِكَ منبوذاً فوقها تنكيلاً به وعبرةً لغيره ممَّن هو على شاكلته.

* * *

❀ المعجزات في إجابة دعواته ﷺ

هذا باب واسع جداً، فدعواته واستجابتها كانت متوالية في حياته الزاخرة، وقد تقدَّم في غضون الكتاب الكثير منها، وسنورد هنا بعض ما نراه لائقاً بالموضوع.

* * *

❀ دعاؤه لأنس بن مالك

٦٦ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ أم سليم قالت: يا رسول الله، أنس بن مالك خادمك ادْعُ الله له. قال: «**اللَّهم أكْثِر مالَه وولَده وبارك له فِيما أعطيتَه**». قال: فوالله إنَّ مالي لَكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي ليتعادّون اليوم على نحو المائة.

رواه الطيالسي (٢٥٢٤)، والبخاري في الدعوات (٣٩٤/١٣) وفي مواضع، ومسلم في الفضائل (٤٠/٣٩/١٦)، والترمذي في المناقب (٣٥٩٨/٣٥٩٧).

قد استجاب الله دعاءه ﷺ في أنس فأكثر الله ماله وقالوا: إنه كان له بستان يُغِلُّ مرتين في السنة، وبلغ له من الأولاد والحفدة المائة، وأطال الله حياته، فإنه جاء في رواية زيادة: «**وأطِل حياته واغفر له**» كما في الأدب المفرد. وقد كان جاوز المائة من عمره.

* * *

❀ دعاؤه لأمِّ ابي هريرة

٦٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنت أدعو أُمّي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسْمعتْنِي في رسول الله ﷺ ما أكْرَه، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إني كنت

أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني ما أكره، فادعُ الله أن يهدي أمّ أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهم اهدِ أمّ أبي هريرة**». فخرجت مستبشراً فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة. وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله. قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك، وهذه أم أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً. قال: قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهم حبّب عبيدك هذا** - يعني أبا هريرة - **إلى عبادك المؤمنين، وحبّب إليهم المؤمنين**». فما خُلِق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٥١/٥٢).

وفي هذا الحديث معجزتان:

الأولى: استجابة دعائه ﷺ في هداية أم هريرة وإسلامها.

الثانية: استجابة دعائه ﷺ في حبّ المؤمنين لأبي هريرة وأمه، وقد صدق الله ذلك، فكل المؤمنين الذي يسمعون بأبي هريرة يحبونه رضي الله تعالى عنه إلا ما كان من الشيعة الروافض فإنهم يبغضونه ويحتقرونه ولا يقيمون له وزناً، وهذا الحديث يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين لخروجهم عن دعوة رسول الله ﷺ.

* * *

دعاؤه لأبي طلحة الأنصاري

٦٨ - عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: اشتكى ابنٌ لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونَحّته في

جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: هدأتْ نفسُه وأرجو أن يكون قد استراح. وظنَّ أبو طلحة أنها صادقة. قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلّى مع النبيِّ ﷺ ثم أخبر النبيَّ ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: **«لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما»**. قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

وفي رواية: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدّثه. قال: فجاء فقرّبت إليه عشاءَ فأكل وشرب. فقال: ثم تَصنَّعتْ له أحسنَ ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنَّ قوماً أعاروا عاريتَهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، أَلَهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتني حتى تلَطختُ ثم أخبرتِني بابني. فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان... الحديث.

رواه البخاري في الجنائز (٣/٤١٢/٤١٤) وغيرها، ومسلم في الفضائل (١٦/١١/١٢/١٣)، واللفظ الأول للبخاري والثاني لمسلم.

(هدأت نفسه) أي: سكنت. قوله: (تلطخت) هو عبارة عن تلبُّسه بالجنابة.

أبو طلحة هو الأنصاري زوج أم سُلَيم والدة أنس، والولد الذي كان قد مات هو أبو عمير صاحب النغير. وقوله في الحديث: **«لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما»** في رواية: **«اللّهم بارك لهما»** ...إلخ. ولا تعارض في ذلك، فقد يكون ذلك من تصرف الرواة.

وعلى أيٍّ ففي هذا الحديث معجزة للنبيِّ ﷺ حيث دعا معهما ببركة ليلتهما فاستجاب الله عزَّ وجلَّ له، فكان من بركة ذلك أن ولدت ولداً وهو عبدالله بن أبي طلحة وكان لعقبه أولاد كلهم من حفظة القرآن، وفي

ذلك خير كبير يقدر له قدره أهل الدين والإيمان لا سيما في ذلك الوقت فإنَّ حافظ القرآن كان يُعَدُّ من العلماء الربانيين.

وفي الحديث ثبات هذه المرأة وشدة يقينها وصبرها الكامل وعدم فزعها وهلعها على خلاف عادات النساء، وكيف وهي الغميصاء التي بَشَّرَهَا النبيُّ ﷺ بالجنة، وتأتي بقية لمعنى الحديث في الفضائل.

* * *

❀ دعاؤه لعبدالله بن هشام

٦٩ ـ عن أبي عقيل رحمه الله تعالى أنه كان يخرج به جده عبدالله بن هشام إلى السوق ليشتري الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر رضي الله تعالى عنهم فيقولان له: أَشْرِكْنا فإنَّ رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة. فَيُشْرِكُهُما، فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل.

رواه البخاري في الشركة (٦١/٦) ومسلم في الخراج.

فيه علم من أعلام النبوة، فكان لدعائه ﷺ مع هذا الرجل بالبركة في تجارته معجزة بحيث كان يربح الشيء الكثير، وقالوا عنه: لو اتجر في التراب لربح. ولذلك نرى أمثال ابني عمر والزبير يطلبان منه المشاركة معه في تجارته لينالهما أثر دعوة النبيِّ ﷺ.

* * *

❀ دعاؤه مع الإمام علي عليه السلام

٧٠ ـ عن علي رضي الله تعالى عنه قال: كنت شاكياً فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللَّهم إن كان أجلي قد حضر فارحمني، وإن كنت متأخراً فارفعني، وإن كان بلاءً فصبِّرني. فقال رسول الله ﷺ: **«كيف قلت؟»** فأعاد عليه ما قال. قال: فضربه برجله فقال: **«اللَّهم عافِه ـ أو: اشفِه»**. قال: فما اشْتَكَيْتُ ذلك الوجع بعد.

رواه أحمد (١/٨٣/١٠٧/١٢٨)، والترمذي في الدعوات (٣٣٣٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٨)، وابن حبان (٢٢٠٩)، والحاكم (٢/٦٢١)، وحسّنه الترمذي، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

هذه آية أخرى في الاستجابة في شأن الإمام علي، وتقدّم في القضاء أنّ النبيّ ﷺ قال له: «**إنّ الله سيهدي قلبك**». قال: فما زلتُ قاضياً - أو: ما شككتُ في قضاء بعد. كما تقدّم في غزوة خيبر مسحه ﷺ عينَيْ علي وكان أرمد فبرىء من ساعته، ففتح الله على يديه. وهذه كلها معجزات وقعت منه ﷺ في شأن علي.

* * *

❀ دعاؤه مع ابن عباس بالعلم والحكمة

٧١ - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً من الليل، فقالت له ميمونة: وضع لك هذا عبدالله بن عباس. فقال: «**اللّهم فَقِّهْهُ في الدين وعلّمه التأويل**».

رواه بهذا اللفظ أحمد (١/٣٣٥)، وهو عند البخاري في العلم وفي الطهارة وفي المناقب ومسلم وغيرهما بلفظ: «**اللّهم علّمه الحكمة**». وفي رواية: «**علّمه الكتاب**». وقد تقدّم تخريجه في قيام الليل.

ولقد ظهر أثر هذا الدعاء على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فكان بحراً في التفسير حتى أُطلق عليه حبر الأمّة.

* * *

❀ دعاؤه مع سعد بن أبي وقاص باستجابة الدعاء

٧٢ - عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اللّهم استَجِبْ لِسَعْدٍ إذا دَعَاك**».

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٢١)، وابن حبان (٢٢١٥)، والحاكم (٤٩٩/٣)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١٣١/١) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وقد ظهرت هذه المعجزة في حياة سعد فكان مستجاب الدعوة لا يدعو لأحد أو على أحد إلا استجيب له، وستأتي قصته مع أهل الكوفة في المناقب ودعاؤه على الرجل الذي طعن فيه حيث قال فيه: اللّهم إن كان كاذباً فأطِل عمره، وأطِل فقره، وعرِّضه للفتن. قال ابن عمير: فرأيته شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وقد افتقر، يتعرَّض للجواري في الطريق ويغمزهن، فإذا قيل له في ذلك قال: أصابتني دعوة سعد.

* * *

دعاؤه مع المرأة السوداء

٧٣ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ امرأة سوداء أتت النبيَّ ﷺ فقالت: إني أُصْرَعُ، فادعُ الله لي. قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك**». فقالت: أصبر. قالت: فإني أتكشف، فادعُ الله أن لا أتكشف. فدعا لها.

رواه البخاري في المرضى، ومسلم في البر (١٣١/١٦)، وكذا أحمد (٣٤٧/٣٤٦/١).

هذه المرأة كان بها مسٌّ من الجن فكان يصرعها ويكشفها، فشكت ذلك إلى الحبيب ﷺ فبشَّرها بالجنة إن هي صبرت على ذلك البلاء ففعلت، ثم دعا معها بعدم التكشف فجاءت المعجزة بالاستجابة.

* * *

دعاؤه مع الضرير

٧٤ ـ عن عثمان بن حُنَيْف رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً ضرير البصر أتى النبيَّ ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيني. قال: «**إن شئتَ دعوتُ لك،**

وإن شئتَ أخَّرت ذاك فهو خير». فقال: ادْعُه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: **«اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة. يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتُقْضَى لي. اللّهم شفّعه فِيَّ. وفي رواية: وتشفّعني فيه وتشفّعه فِيَّ»**. قال: ففعل الرجل فبرأ.

رواه أحمد (١٣٨/٤) من طرق، والترمذي في الدعوات (٣٤٧/١٣)، وابن ماجه (١٣٨٥)، والحاكم (٥٣٦/٥١٩/١)، والطبراني في الصغير (١٨٤/١٨٣/١)، وغيرهم وسنده صحيح، والحديث صححه غير واحد من الحفّاظ والمحدّثين، ويعرف عندهم بحديث الضرير وبحديث التوسل، وقد أورده المحدّثون في أبواب الأدعية وتكلموا عليه في مؤلفات خاصة. وانظر لبيان معناه ما حققه العلاّمة الشوكاني في «رسالة» خاصة وفي «تحفة الذاكرين».

قوله: (ضرير البصر) أي: ضعيفه أو ذاهبه. وقوله: (أتوجه) أي: أستشفع بك.

والحديث مع ما فيه من تلك المعجزة في ردّ بصر الضرير يدل على جواز التوسل والاستشفاع إلى الله بالنبيّ ﷺ، وإلى ذلك ذهب كل أهل العلم غير أنهم انقسموا؛ فالبعض - وهم الجمهور - عمّموا التوسل بالنبيّ ﷺ مطلقاً بذاته ومحبته وحقه وجاهه، والبعض الآخر خصّصوا ذلك بدعائه ﷺ.

* * *

❀ دعاؤه على مَن كذب عليه

٧٥ - عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً أكل بشماله عند النبيّ ﷺ فقال: **«كُلْ بيمينك»**. قال: لا أستطيع. قال: **«لا استطعتَ، ما مَنَعَه إلا الكِبْرُ»**. قال: فمَا رَفَعَها إلى فِيهِ بَعْدُ.

رواه أحمد (٤٦/٤) ومسلم في الأشربة (١٩٢/١٣).

في الحديث آية للنبيّ ﷺ في هذا الرجل الذي خالف رسول الله ﷺ وكذب عليه فأمره بالأكل بيمينه فاستنكف فدعا عليه بما نطق به حيث قال: لا أستطيع ـ يعني: الأكل باليمين ـ فقال له: «لا استطعت». فجاء فيه قضاء الله بعدم استطاعته الأكل بيمينه طوال حياته عقاباً له على كذبه. وفيه دليل على جواز الدعاء بالشر على مَن خالف حكم الله وعاند وتكبَّر.

* * *

دعاؤه على معاوية بعدم الشبع

٧٦ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «ادعُ لي مُعاوية». فقال: إنه يأكل. فقال في الثالثة: «لا أشبعَ الله بطْنه».

رواه مسلم في البرِّ والصلة باب مَن لعنه النبيُّ ﷺ (١٦/١٥٥/١٥٦).

معاوية بن أبي سفيان كان من جملة كتَّاب الوحيّ فاحتاجه النبيُّ ﷺ لذلك فبعث إليه ابن عمِّه ابن عباس فوجده يأكل فلم يجب ثلاث مرات، فدعا عليه النبيُّ ﷺ عقوبةً له، فظهرت فيه معجزة النبيّ ﷺ فكان يأكل ولا يشبع كما هو معروف عنه، وكان يقول: إني لا أشبع ولكني أُغَيَّى.

* * *

دعاؤه مع قريش بالنوال

٧٧ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم أذَقْتَ أول قريش نكالاً، فأذِق آخِرَهُم نَوالاً».

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٧٢) من طريقين وأحدهما على شرط الشيخين ولذا حسَّنه وصححه.

«نكالاً» بفتح النون، أي: عقاباً. «نوالاً» أي: عطاء.

في الحديث آية له ﷺ حيث دعا مع قريش بالعطايا والفتوحات في الدنيا فإنهم ذاقوا في أوائلهم عذاباً بالقحط والتقتيل والقهر والإذلال فرحمهم ﷺ فدعا لآخرهم بالخير، فكان الأمر كذلك، فقد ظهرت فيهم معجزته فأصبح رجال قريش بعد إسلامهم قادات العالم وحكّامه وفاضت عليهم الحياة وسكنوا القصور، وأكلوا لذائذ الأطعمة، ولبسوا رفيع الأقمشة، وركبوا أفخر المركوبات وأهنأها، ونكحوا المنعمات والفتيات الحسان مصداقاً لدعوته ﷺ.

وقد سبق حديث دعائه على قريش بالقحط والسنين، فأصابهم قحط وجدْب حتى أكلوا العظام. انظر ما تقدَّم في التفسير في الفرقان وفي الدخان. كما تقدَّم دعاؤه على كسرى بالتمزيق، فمزَّق الله ملكه، رواه الشيخان. وتقدَّم دعاؤه في الاستسقاء يوم الجمعة على المنبر فمطروا أسبوعاً. كما تقدَّم استسقاؤه في طريقهم لتبوك فسقوا ولم يتعدّ ذلك الجيش. وقصارى الأمر أنَّ هذا باب واسع يحتاج إلى مجلد متوسط.

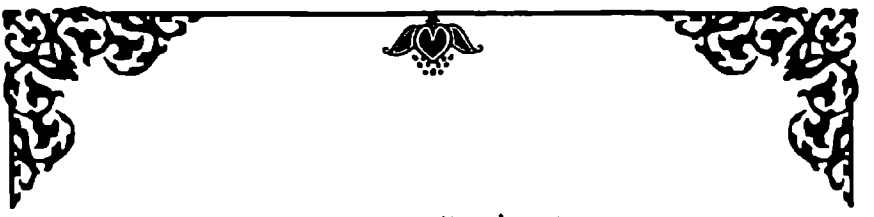

معجزاته في الإخبار بالمغيبات

إخباره بما هو كائن إلى يوم القيامة

٧٨ ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، حفظه مَن حفظه، ونسيه مَن نسيه، وإنه لَيكون منه الشيء قد كنتُ نَسِيتُه فأراه كما يذكر الرجلُ وجْهَ الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عَرَفَهُ.

رواه البخاري في القدر (٢٩٧/١٤)، ومسلم (١٥/١٨) وأبو داود (٤٢٣٧) كلاهما في الفتن.

٧٩ ـ وعن أبي زيد رضي الله تعالى عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم صعِد المِنبرَ فخطبنا حتى حضَرت الظهرُ، ثم نزل فصلّى، ثم صعد ﷺ المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمسُ، فأخبرنا بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فأحفظنا أعلمنا.

رواه مسلم في الفتن (١٦/١٨) مع النووي.

اطلاعه ﷺ على المغيبات وإخباره بها ليس اطلاعاً ذاتياً، ولا اطلاعاً عاماً، بحيث لا يغيب عنه شيء كما قد يخيل إلى البعض في شأنه ﷺ وشأن أولياء الله والصالحين من أمّته، بل هو عبد الله عزّ وجلّ كغيره لا يعلم إلا ما علّمه الله من الكائنات وما من شأنه أن يعلمه البشر من

العلوم والمعارف وما سوى ذلك فهو من خصائص الربوبية، وعلى هذا فما جاء في حديث الترمذي الذي تقدَّم في تفسيره: «**فوضع يده بين كتفي... فعلمتُ ما في السمٰوات وما في الأرض**» ـ وفي رواية: «**فَتَجَلّى لِي كل شيء وعرفت**» ـ هو محمول على ما ذكرنا.

فما أخبر به ﷺ من المغيبات القديمة ومنها ما في القرآن أو ما حدثت بعده، الكل بوحيٍ من الله عزَّ وجلَّ وإخبار منه تعالى وليس له ﷺ ولا لغيره من الأنبياء فضلاً عن غيرهم قلامة ظفر من ذلك بذواتهم، ومَن اعتقد غير ذلك فقد أشرك وأعطى ما هو من خصائص الألوهية لغيره من خلْقِه وعباده، وإذا كان هذا في أشرف الخليقة على الإطلاق فكيف بغيره من أئمة آل بيته وآحاد الصالحين من أمّته كما يعتقده الشيعة الإمامية في أئمتهم وبعض جهلة المتصوفة في مشايخهم فيجعلونهم لا يعزب عنهم شيء في الأرض ولا في السماء، تعالى الله عن معتقداتهم علواً كبيراً.

وبناءً على ما ذكرنا فما نقوله بأنَّ النبيَّ ﷺ كان يعلم الغيب فمرادنا ما قررناه، وبالله التوفيق.

والحديثان يدلان على أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر بكل الأحداث والوقائع والفتن التي تقع في الأمّة وتنزل بها.

٨٠ ـ وعن سمرة بن جندب قال: كَسَفَتْ الشمسُ فصلّى النبيُّ ﷺ ثم قال: «**إنّي والله لقَد رأيت منذ قمتُ أصلّي ما أنتم لاقوه من أمْرِ دُنياكُم وآخِرَتِكُم**».

رواه أحمد (١٦/٥) في حديث طويل وأصله في السنن وسنده حسن.

إنَّ شأن النبوّة لَعظيم، فقد يُطلع الله عزَّ وجلَّ أنبياءَهُ على ما لا يُطلع عليه غيرهم، فهذا نبيُّ الله ﷺ يخبر بأنَّ الله أراه كل ما ستلقاه الأمّة من أحداث الدنيا والآخرة، وهذا شيء مدهش لم يُعطِه الله لغير هذا النبيِّ العظيم ﷺ.

* * *

❀ إخباره برجال من أهل الجنة

٨١ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ زائراً لسعد بن الربيع، فجلس وجلسنا معه فقال ﷺ: **«يَطلُع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة»** فطلع أبو بكر، ثم قال: **«يَطلُع عليكم رجل من أهل الجنة»** فطلع عمر، ثم قال: **«يطلُع عليكم رجل من أهل الجنة»** فطلع عثمان، ثم قال: **«يطلُع عليكم رجل من أهل الجنة، اللّهم إن شئتَ جَعلتَه عليًا»** فطلع.

رواه أحمد (٣/٣٥٦/٣٨٠) من طرق، والطبراني والبزار، قال النور في المجمع (٩/٥٧/٥٨): ورجال أسانيد أحمد موثقون. ورواه الحاكم (٣/١٣٦) بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي.

هؤلاء الأربعة هم سادات الصحابة وأفاضلهم على الإطلاق، وهم من أهل الجنة قطعاً لتضافر الأحاديث الصحاح بذلك، فالطعن فيهم أو في أحدهم ضلال وزندقة.

* * *

❀ إخباره عن المنافقين وما صدر منهم

٨٢ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ في ظل حُجْرةٍ من حُجَرِهِ وعنده نفر من المسلمين قد كاد يَقْلُصُ عنهم الظلُّ. قال: فقال: **«إنه سَيَأتِيكم إنسانٌ ينظر إليكم بعينَي شيطان، فإذا أتاكم فلا تُكَلِّمُوه»**. قال: فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فكلَّمه فقال: **«عَلامَ تَشْتُمُنِي أنت وفلان وفلان؟»** ـ تَفَرَّدَ عاصم بأسمائهم ـ قال: فذهب الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الآية.

رواه أحمد (١/٢٤٠/٢٦٧/٣٥٠)، وأبو داود في الأدب من طرق صحيحة، والحاكم (٢/٤٨٢) وصححه.

(يقلص) بفتح الياء وضم اللام، أي: يزول. «**تشتمني**» أي: تسبُّني.

وفي الحديث إخباره ﷺ بمجيء ذلك المنافق وما صدر منه ومن زملائه المنافقين من شتم النبيِّ ﷺ، وتلك آية له.

* * *

❀ إخباره عن شاة ذُبحت بغير حق

٨٣ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه مرُّوا بامرأة فذبحت لهم شاة واتخذت لهم طعاماً، فلما رجع قالت: يا رسول الله، إنّا اتخذنا لكم طعاماً فادخلوا فكلوا. فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا لا يبدأون حتى يبتدىء النبيُّ ﷺ، فأخذ النبيُّ ﷺ لقمة فلم يستطع أن يُسِيغَها، فقال النبيُّ ﷺ: «**هذه شاةٌ ذُبِحَتْ بغير إذن أهْلِها**». فقالت المرأة: يا نبيَّ الله، إنّا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ، ولا يحتشمون منا، نأخذ منهم، ويأخذون منا.

رواه أحمد (٣/٣٥١)، والنسائي في الوليمة من الكبرى، والحاكم (٤/٢٣٥) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: (يسيغها) بضمّ الياء، أي: يبتلعها. (نحتشم) أي: نستحيي.

في الحديث مع هذه الآية والمعجزة أدبٌ من آداب الأكل مع الأكابر بحيث لا يبدأ أحد بالأكل بحضرة كبير في العلم والدين والشرف حتى يكون هو البادىء، كما أنَّ فيه التحفظ من أكل ما علم تحريمه وهو يرد قولة مَن يقول: إنَّ الحرام لا يتعلق بذمتين. وما ورد عن كثير من السلف من أخذ عطايا الظلمة وأكل أطعمتهم كل ذلك اجتهاد منهم ورخصة أخذوا بها، فالحق الذي لا مرية فيه هو أنَّ كل مَن علم أن ماله حرام صرفاً لا يجوز تناوله...

وقد تقدَّم في غضون الكتاب كثيرٌ من التنبؤات التي وقعت في

حياته ﷺ كإخباره بسحره ومَن سحره وأين هو، وبموت النجاشي، وبرسالة حاطب إلى كفار قريش، وبالمرأة صاحبة المزادتين، وبموت منافق عندما هبَّت ريح شديدة، وبموت أمية بن خلف، وبمصارع كفار قريش ببدر، وبموت جعفر وزيد بن حارثة وابن رواحة بمؤته قبل مجيء الجيش، إلى غير ذلك مما تقدَّم وهو كثير.

* * *

❀ إخباره ﷺ بأول أزواجه لحوقاً به

٨٤ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرَعُكُنَّ لحَاقاً بي أطولُكُنَّ يَداً»**. فكُنَّ يَتطاوَلْن أيَّتُهُنَّ أطولُ يداً، فكانت زينب أطول يداً، لأنها كانت تعملُ بِيديها وتَتَصَدَّقُ.

رواه مسلم في الفضائل (٨/١٦).

«أسرعكن» أي: أولكنَّ موتاً بعدي. (يتطاولن): كنَّ يرين أنَّ المراد بالطول في الجارحة، والواقع خلافه، فإنَّ سودة كانت أطولهنَّ جارحةً والتي توفيت قبل سائر نسائه ﷺ اللواتي توفي عنهنَّ هي زينب، فظهر أنَّ طول اليد هنا بالجود والصدقة وذلك كان صفة زينب. ووقع في المسند وفي الزكاة من البخاري غلط في هذا الحديث حيث جاء عندهما أنَّ سودة هي التي كانت أطولهنَّ يداً فكانت أولهنَّ لحوقاً به، قال النووي: وهذا الوهم باطل بالإجماع.

وعلى أيٍّ ففي الحديث معجزة باهرة له ﷺ.

* * *

❀ إخباره بموت كل مَن كان معه بعد مائة سنة

٨٥ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العشاء ليلةً في آخر حياته فلما سلَّم قام فقال: **«أرأيتَكُم**

لَيلَتكم هذه فإنَّ رأسَ مائةِ سنةٍ منها لا يَبْقَى مِمَّن هُو اليومَ على ظهر الأرض أحد» يريد بذلك انخرام القرن.

رواه البخاري آخر المواقيت (٢/٢١٤/٢١٥) ومسلم في الفضائل (١٦/٨٩/٩٠).

«أرأيتكم» أي: أخبروني. قوله: (انخرام القرن) أي: انقضاؤه.

في الحديث معجزة له ﷺ بموت كل الصحابة في المائة الأولى مثل ما أخبر فإنَّ آخر الصحابة موتاً على الإطلاق أبو الطفيل، وقد مات على رأس المائة من الهجرة، ولم يبقَ بعده أحد على المشهور الصحيح.

* * *

إخباره ﷺ بجماعة آخرهم موتاً في النار

٨٦ ـ عن أبي أُوَيْس رحمه الله تعالى قال: كنت تاجراً بالمدينة فكنت أقدَمُ فإذا قدِمتُ المدينة لقيني أبو هريرة فسألته عن سمرة بن جندب، وإذا قدمتُ البصرة سألني سمرة عن أبي هريرة. فقال أبو هريرة: كنا سبعة في بيتٍ فدخل علينا رسول الله ﷺ فقال: **«آخِرُكُم مَوْتاً في النَّارِ»** فلم يَبْقَ إلا أنا وسَمُرَةُ.

رواه الطبراني في الأوسط (٦٢٠٢) والبيهقي في الدلائل (٦/٤٥٨/٤٥٩/٤٦٠) من طرق موصولة ومرسلة وبمجموعها يرتقي الحديث لدرجة الحسن.

في هذا عَلَمٌ من أعلام النبوَّة ومعجزة من معجزاته ﷺ حيث أخبر عن جماعة من الصحابة من غير تَعْيينٍ لأحَدِهم بأنَّ آخر مَن يموت منهم في النار، فكان آخرهم موتاً سمرة بن جندب. قال ابن عبدالبرِّ رحمه الله تعالى: سقط سمرة في قدر مملوء ماءً حاراً فمات. وقيل غير ذلك، ولا يصح شيء مما قيل في موته غير أنَّ ما جاء في ترجمته من كثرة سفكه دماء

المسلمين يُخشى عليه ما جاء في الحديث، فعن عامر بن أبي عامر قال: كنا في مجلس يونس بن عبيد فقالوا: ما في الأرض بقعة نَثِفَتْ من الدَّم ما نثفت هذه - يعنون دار الإمارة - قُتِل بها سبعون ألفاً. فسألت يونس فقال: نعم من بين قتيل وقطيع. قيل: مَن فعل ذلك؟ قال: زياد وابنه وسمرة.

ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨٥/٣) قال: وقتل سمرة بشراً كثيراً. قال البيهقي: نرجو له بصحبته.

* * *

❀ إخباره ﷺ بِردّة بعض من صحبه

٨٧ - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنه يجاء برجال من أمّتي، ويؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾. فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم»**.

رواه أحمد (٢٥٣/٢٣٥/١)، والبخاري في التفسير (٣٥٥/٩) وفي مواضع، ومسلم في الجنة (١٩٤/١٧) وفي الطهارة، وغيرهم.

فيه الإخبار بأنَّ هنالك مَن يرتدُّ من الصحابة، وقد وقع ذلك؛ فقد ارتدَّ وكفر جماعة من أجلاف العرب وجفاتهم. قال الخطابي: ولم يقع من أحد من الصحابة المشهورين. والواقع أكبر شاهد على ذلك خلافاً للشيعة الروافض الذين يزعمون أنَّ كل الصحابة ارتدُّوا غير نحو من بضعة عشر منهم.

* * *

❀ إخباره بقتل عثمان وفتنته

٨٨ - عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمان، إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً فأراد المنافقون أن تخلع قميصك**

الذي قمصك الله فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاث مرات. قال النعمان: قلت لعائشة: ما منعك أن تُعلمي الناس بها؟ قالت: نسيته.

رواه أحمد (٦/٧٥/١٤٩)، والترمذي (٣٤٧١)، وابن ماجه (١١٢)، والحاكم (٣/٩٩/١٠٠) وصححه ووافقه الذهبي.

«قميصك»: كنّى بذلك عن الخلافة، وهو يفيد أنَّ معارضيه كان فيهم منافقون خاطئون، وفيه علم من أعلام نبوَّته.

٨٩ ـ وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: **«وددت أن عندي بعض أصحابي»**. قلنا: يا رسول الله، ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: «نعم». فجاء فخلا به، فجعل النبيُّ ﷺ يكلّمه ووجه عثمان يتغير. قال قيس: فحدثني أبو سهلة مولى عثمان أنَّ عثمان بن عفان قال يوم الدار: إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً فأنا صائر إليه. فكانوا يرونه ذلك يوم الدار.

رواه أحمد (٦/٥١/٥٢) وابن ماجه (١١٣) بسند صحيح.

عهد إليَّ، أي: أوصاني أو أمرني. وفيه كسابقه معجزة للنبيّ ﷺ في الإخبار بما سيقع لعثمان، وهو يدل على أنه كان محقاً وأنَّ معارضيه كانوا ظالمين.

وسنذكر حديث أبي موسى في الفضائل الذي جاء فيه: **«ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه»** وهو في الصحيحين. فالبلوى التي بشّر بها هي قتله رضي الله تعالى عنه ظلماً.

* * *

❀ إخباره ﷺ بوقعة الجمل وصفّين وقتل عمّار بن ياسر وقتال الخوارج وقتل الإمام عليّ عليه السلام

٩٠ ـ عن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: لما بلغت عائشة مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: أيُّ ماء هذا؟ قالوا: الحوْأَبُ.

قالت: ما أظُنُّني إلا راجعةً. قال الزبير: لا بعد تقدمين فيراكِ الناس فيُصلِح الله ذات بينهم. قالت: ما أظنُّني إلا راجعةً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كيف بإحْدَاكُنَّ إذا نَبَحَتْها كِلاب الحَوْأَبِ**».

رواه أحمد (٩٧/٥٢/٦)، وابن حبان (٦٧٣٢)، والحاكم (١٢٠/٣)، وأبو يعلى (٣٦٤/٤)، وسنده صحيح.

«**الحوأب**»: موضع بقبيلة بني عامر.

٩١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال لنسائه: «**أيتكنَّ صاحبة الجمل الأدبب؟ تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة وتنجو بعدما كادت**».

أورده النور في المجمع (٢٣٤/٧) برواية البزار وقال: رجاله ثقات.

«**الجمل الأدْبَب**»، هو بهمزة مفتوحة ودال ساكنة ثم موحدتين أولاهما مفتوحة: هو الكثير الشعر، وكان مركوب السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها.

ففي الحديثين آية له ﷺ حيث أخبر بما سيقع لعائشة رضي الله تعالى عنها في خروجها للبصرة، فوقع كما أخبر، فخرجت مع طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما بقصد الصلح بين الناس والاقتصاص من قتلة عثمان الذين كان أكثرهم من الكوفة فحصلت وقعة الجمل وذهب ضحيتها ألوف من الفريقين، وكان أنصار طلحة والزبير محدقين بجمل عائشة في قتالهم لأصحاب الإمام علي، وقد أخبر ﷺ الإمام عليّاً بما سيكون بينه وبين عائشة في ذلك.

٩٢ ـ فعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالب: «**إنه سيكون بينك وبين عائشة أمْرٌ**». قال: أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: أنا؟ قال: «**نعم**». قال: فأنا أشْقاهُم يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكن إذا كان ذلك فاردُدْها إلى مأمَنِها**».

رواه أحمد (٣٩٣/٦)، والبزار، قال النور (٢٣٤/٧): رجاله ثقات. وقال الحافظ في الفتن من الفتح (١٦٥/١٦) بسند حسن.

فهذه معجزة أخرى تتعلق بوقعة الجمل وأنَّ السيدة عائشة ستكون ضد الإمام علي وأنَّ النبيَّ ﷺ أمره أن يَرُدَّها إلى دارها وقد فعل رضي الله تعالى عنه.

٩٣ ـ بل قد جاء في حديث آخر لأمِّ سلمة رضي الله تعالى عنها أنه ﷺ قال له: **«إن وليتَ من أمرها شيئاً فارفقْ بها»**.

رواه الحاكم (١١٩/٣) وصححه على شرط الشيخين. وسيأتي مزيد لهذه الوقعة في الفضائل وفي الفتن.

٩٤ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً نَنْتَظِرُ رسول الله ﷺ فخرج من بعض بُيوت نسائه. قال: فقمنا معه فانقطعت نعله، فتخلَّف عليها عليٌّ يَخْصِفُها، ومضى رسول الله ﷺ ومَضَيْنا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: **«إنَّ منكم مَن يُقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله»**. قال: فاستشرفنا، وفينا أبو بكر وعمر، فقال: **«لا، ولكنه خاصِفُ النعل»**. قال: فجئنا نبشِّره. قال: فكأنه قد سمعه.

رواه أحمد (٨٢/٣٣/٣)، والحاكم بسند صحيح، وقال النور في المجمع (١٣٤/٩): ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة، وهو ثقة.

في الحديث إشارة إلى ما وقع للإمام علي عليه السلام من قتال البغاة الذين قاموا ضده ولم يبايعوه كأهل الشام أو خرجوا عليه وكفَّروه كالخوارج.

٩٥ ـ وعن أبي سعيد أيضاً في قصة بناء المسجد، وفيه قوله ﷺ: **«ويحَ عمّار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»**.

رواه أحمد (٩١/٥/٣)، والبخاري في المساجد وفي الجهاد وغيره، ومسلم في الفتن (٤٠/٣٩/١٨)، وغيرهم، وتقدَّم ويأتي في الفتن وفي الفضائل.

وعمّار قُتل في وقعة صفِّين مع الإمام علي؛ قتله أهل الشام البغاة، ويأتي مزيد لهذا في الفتن.

٩٦ ـ وعنه أيضاً قال: بينا نحن عند النبيِّ ﷺ وهو يقسم قسماً إذ

أتاه ذو الخويصرة فقال: يا رسول الله، اعدل. قال: «**ويلك، ومَن يعدل إن لم أعدل. خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل**». قال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «**دعه فإنَّ له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم، وصيامَه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوزُ تراقيَهم، يَمرُقون من الدين كما يمرُق السهم من الرَّمِيَة، آيتهم رجل أسود إحدى عَضُدَيه مثلَ ثَدْي المرأة، أو مثل البَضعة تَدَرْدَرُ، يخرجون على حين فرقة من الناس**». قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أنَّ علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتُمِسَ فَوُجِد، فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ.

رواه البخاري في مواضع ومسلم في الزكاة وغيرها وقد تقدَّم ويأتي. وأحاديث قتال الخوارج متواترة، وفيها معجزة له ﷺ بل معجزات عدة.

٩٧ ـ وعن عمَّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال له ولعليٍّ: «**ألا أحدِّثكما بأشقى الناس؟**» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «**أُحَيمِرُ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه** ـ يعني قرنه ـ **حتى تَبتَلَّ هذه من الدم** ـ يعني لحيته ـ».

رواه أحمد (٢٦٣/٤) والحاكم (١٤١/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وله مع ذلك شواهد.

«**أُحَيمِر**»: تصغير أحمر، وكان اسمه قُدَار على وزن غراب.

في الحديث إخباره ﷺ بقاتل الإمام عليٍّ عليه السلام، وأنه سيضربه على رأسه حتى يسيل الدم على لحيته، وأنه ثاني الأشقيين؛ فالأشقى الأول عاقر ناقة صالح عليه السلام، والأشقى الثاني قاتل عليٍّ وهو عبدالرحمٰن بن ملجم الخارجي لعنه الله فهو أشقى الأشقياء بنصِّ هذا الحديث، وقصة ذلك ستأتي في الفتن إن شاء الله تعالى.

* * *

❀ إخباره ﷺ بإصلاح الحَسن بين المتقاتلين

٩٨ ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن ابني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**.

رواه البخاري في المناقب (٩٦/٨) ويأتي فيه.

(السيِّد): هو مَن فاق أهل زمانه في المكارم والشَّرف والعلم والدين.

وفي الحديث تنبؤ بما وقع للإمام الحسن عليه السلام من الإصلاح بين جماعته وبين جماعة معاوية، فحقن دماء المسلمين بعد أن كادت الحرب تسعر رغم أنه قوبل من أنصاره الشيعة بالتأنيب والتثريب.

فكانت هذه من جملة معجزاته ﷺ الغيبية التي أخبر بها ووقعت بعد حوالي أربعين سنة، وسيأتي مزيد لهذا كالآتي في الفضائل.

* * *

❀ إخباره ﷺ
بما سيلقى الأنصار من الأثرة دونهم

٩٩ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنكم ستلقون بعدي أَثَرةً فاصبروا حتى تَلْقَوْني غداً على الحوض»**.

رواه أحمد (١٦٦/٣) وفي مواضع، والبخاري في المناقب (١١٨/٨) وفي مواضع، ومسلم في الزكاة، ورواه الشيخان وغيرهما عن أسيد بن حضير، ويأتي في المناقب.

«الأثرة» بفتحات، هي: الاستبداد. وقد حصل للأنصار ما أخبرهم به ﷺ، فإنهم أُقْصُوا عن الولايات والإمارة واستبدَّت بذلك قريش ومَن والاهم، فظهرت بذلك المعجزة النبويَّة.

* * *

❀ إخباره ﷺ بفتح اليمن، والشام، والعراق، وبيت المقدس، ومصر

١٠٠ ـ عن سفيان بن أبي زُهَيْر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول. «**تُفتحُ اليمنُ فيأتي قوم يَبسُون فيتحمَّلون بأهلهم ومَن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم تُفتح الشامُ فيأتي قوم يبسُون فيتحمَّلون بأهلهم ومَن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراقُ فيأتي قوم يبسُون فيتحمَّلون بأهلهم ومَن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**».

رواه مالك في الجامع، والبخاري ومسلم والنسائي في الحج. وتقدم في فضائل المدينة من الحج.

«**يبسُون**» بضمّ الباء وكسرها، معناه: يزجرون إبلهم فيساقون لهذه البلاد لما فيها من الخصب والعيش الرغد وكثرة الخيرات، لكن المدينة خير لهم في دينهم لبركة المجاورة النبويَّة.

وفي الحديث معجزة له ﷺ حيث أخبر بفتح هذه الأقطار وتداعي الناس لسكناها والارتحال عن المدينة، فوقع كما أخبر؛ فإنَّ المسلمين لما فتحوا اليمن والشام وغيرهما... ورأوا ما فيها من الخيرات وبركات الأرض، هاجروا إليها وتركوا المدينة مع أنَّ سكناها خير لهم لو كانوا يعلمون حقيقة الأمر...

١٠١ ـ وعن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعُدُدْ ستّاً بين يدَي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتَانٌ يأخذ فيكم كَقُعَاص الغنم، ثم استفاضة المال فيكم حتى يُعطَى الرجلُ مائة دينار فَيَظَلُّ ساخطاً، ثم فتنة لا يَبْقَى بيتٌ من بيوت العرب إلا دخلتْه، ثم هُدْنَة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيَغْدِرُون فيأتونكم تحت ثمانين غايَة، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً**».

رواه البخاري في الجزية (٨٧/٧)، وأبو داود في الأدب، وابن ماجه في الفتن.

«**كقُعَاص**» بضمّ القاف وتخفيف العين: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن

تموت. «استفاضة» أي: انتشار المال وفيضانه. «غاية» أي: راية.

وفي هذا الحديث عدة معجزات وتنبؤات بعدة أحداث مضى بعضها كموته ﷺ، وفتح بيت المقدس أيام سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، (وموتان) قد يكون طاعون عمواس وقد يكون غيره، واستفاضة المال واقع، وما ذكر في الحديث من التسخط بعد الحصول على المائة دينار حاصل نعيشه، والفتنة التي تعمُّ كل البيوت قد تكون فتنة التلفزيون الذي فتن العالم بعجره وبجره، أما قضية بني الأصفر وهم الروم فالتاريخ مليء بمثل ما ذكر.

١٠٢ ـ وعن أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم ستفتحون أرضاً يُذكرُ فيها القيراطُ فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنَّ لهم ذِمَّة ورَحِماً، فإذا رأيتُم رجلين يَقْتَتِلان على موضع لَبِنَةٍ فاخْرُجْ منها»**.

قال: فمرَّ بربيعة وعبدالرحمٰن بن شرحبيل بن حسنة يتنازعان في موضع لبنة، فخرج منها.

رواه مسلم آخر الفضائل (٩٧/٩٦/١٦).

«فاستوصوا» أي: ليوصِ بعضكم بعضاً بهم وبالإحسان إليهم. «فإنَّ لهم ذمَّة» أي: عهداً؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان قد عقد عهداً مع المقوقس. وقوله: «ورَحِماً» لأنَّ هاجر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وكذا مارية أم إبراهيم ابن النبيِّ ﷺ.

والشاهد من الحديث هو إخباره ﷺ بفتح مصر فكان كما أخبر.

* * *

❀ إخباره ﷺ بفتح فارس والروم

١٠٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرَ بعده، والذي نفسي بيده لتُنْفَقُنَّ كنوزُهما في سبيل الله»**.

رواه البخاري في علامات النبوّة (٤٣٨/٧) ومسلم في الفتن (٤٢/٤١/١٨).

١٠٤ ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَتُفْتَحَنَّ عصابةٌ من المسلمين كنوز كسرى التي في القصر الأبيض»**. فكنتُ أنا وأبي فيهم فأصابنا من ذلك ألفُ درهم.

رواه مسلم في الفتن (٤٣/١٨) ورواه في الإمارة بسياق آخر.

هذان العملاقان فُتحا وكُسرا زمن الخليفتين العظيمين الصدِّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما وظهرت بفتحهما معجزة النبيّ ﷺ.

* * *

❀ إخباره ﷺ بغزاة البحر

١٠٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ دخل على أمّ حَرَام فنام عندها فاستيقظ وهو يضحك ﷺ، قالت: ما يضحكك يا رسولَ الله؟ قال: **«ناس من أمّتي عُرِضُوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسِرَّة»**. قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال: **«ناس من أمّتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسِرَّة»**. قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: **«أنت من الأوّلين»**. فركبت أم حرام البحر غازية مع زوجها عبادة بن الصامت في زمن معاوية، فلما انصرفوا من غزاتهم قافلين قربوا إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت.

رواه أحمد (٢٤٠/٣)، والبخاري في الجهاد (٣٥١/٣٥٠/٩) وغيره، ومسلم في الإمارة، والترمذي في الجهاد، وغيرهم، وتقدَّم في الجهاد.

«ثبج» بفتح الثاء والباء، أي: وسطه. **«على الأسِرَّة»**: جمع سرير. (قافلين) أي: راجعين. (فصرعتها) أي: أسقطتها.

١٠٦ ـ وعن أم حرام رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أول جيش من أمتي يغزُون البحر قد أوْجَبُوا»**. قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: **«أنت فيهم»**. ثم قال: **«أول جيش من أمتي يَغزُون مدينة قيصَر مغفورٌ لهم»**. قلت: أنا فيهم؟ قال: **«لا»**.

رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه كلهم في الجهاد. **«قد أوجبوا»** أي: أوجبوا لأنفسهم الجنة بغزوهم ذلك. **«مدينة قيصر»**: هي قسطنطينية، واليوم تدعى إستنبول التركية.

وقد حصل ما تنبّأ به ﷺ؛ فالغزاة الأوّلون كانوا زمن معاوية حيث غزوا قبرص وركبوا إليها البحر فصالحوهم ثم رجعوا، أما الآخرون فكانوا زمن يزيد فغزوا القسطنطينية وحاصروها ولم يستطيعوا فتحها، وفي هذه الغزوة قُتل أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه ودُفن هنالك.

وفي الحديثين مع معجزة التنبؤ فضل ذينك الجيشين اللذين غزوا قبرص وإستنبول، فهم مغفور لهم ومن أهل الجنة، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

❀ إخباره ﷺ بالخلافة الراشدة

١٠٧ ـ عن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخلافة في أمّتي ثَلاثُونَ سنة، ثم ملك بعد ذلك»**.

ثم قال سفينة: أمسك خلافة أبي بكر. ثم قال: وخلافة عمر وخلافة عثمان. ثم قال: امسك خلافة علي، فوجدناها ثَلاثين سنة.

قال سعيد: فقلت له: إنَّ بني أميَّة يزعمون أنَّ الخلافة فيهم. قال: كذبوا بنو الزرقاء، هم ملوك من شرّ الملوك.

رواه أحمد (٥/٢٢٠)، وأبو داود (٤٦٤٦/٤٦٤٧)، والترمذي في الفتن (٢٠٥٣)، وغيرهم، وسنده حسن ومعناه صحيح.

«ثم ملك»: هذا يدل على أنَّ الملوك ليسوا من الخلفاء.

وفي الحديث علم من أعلام نبوّته ﷺ حيث أخبر ﷺ بأنَّ الخلافة النبوية المتوالية ستمكث بعده ثلاثين سنة، فكان الأمر كذلك، فقد انقضت بالخلفاء الأربعة الراشدين يضاف إليهم خلافة الحسن بن علي وكانت ستة أشهر وبذلك تتمُّ الثلاثون سنة كما قدَّمته في كتاب الخلافة.

وفي الحديث دليل على أنَّ بني أميَّة لم تكن فيهم خلافة بعد عثمان وعمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنهما وإنما كانوا ملوكاً لأنه ظهر فيهم الظلم والبغي والاعتداء وتضييع الشريعة...

١٠٨ ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يَزالُ الدِّينُ قائماً حتى تقومَ الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفةً كلهم من قريش»**.

رواه أحمد (٨٩/٨٦/٥)، والبخاري في الأحكام، ومسلم في الإمارة (٢٠٣/١٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٥١).

هؤلاء الخلفاء لا بدَّ وأن يكونوا، وقد تقدَّم بعضهم ويأتي الباقون إن شاء الله تعالى، وآخرهم المهدي الذي يحثو المال حثياً ولا يعدّه عدًّا والذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. وقد قدَّمنا الكلام على هذا الحديث في الخلافة، وتأتي أحاديث في الفتن بهذا المعنى.

١٠٩ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم في النبوَّة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوَّة تكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم يكون ملك عَضُوضٌ، ثم تكون جَبْرِيَّة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوَّة»**.

رواه الطيالسي (٢٥٩٣)، وأحمد (٢٧٣/٤)، وأورده النور في المجمع (١٨٩/٥) برواية أحمد والبزار والطبراني وقال: رجاله ثقات، وصححه العراقي...

«على منهاج النبوّة» أي: على طريقها. «ملك عضوض» بفتح العين، أي: يصيب الرعية فيه ظلم وعسف كأنهم يعضّون فيه عضًا، وفي رواية: «عضوض» بضمّ العين: جمع عض بالكسر، وهو الخبيث الشرير. «جبرية» أي: يأخذون الملك بالقهر والقسوة والجبر. وهذا أيضاً من أبهر معجزاته ﷺ؛ فقد أخبر بجميع مراحل الولاية في تاريخ الإسلام وأنها ستكون أولاً خلافة نبوية وقد مضت بالخلفاء الراشدين، ثم تكون عضوضاً، ثم جبرية، وها نحن أولاء الآن نعيش فيها، ثم ستكون إن شاء الله تعالى خلافة على منهاج النبوّة ونحن في انتظارها، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

* * *

❀ إخباره ﷺ بكثرة الخلفاء والملوك

١١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسُوسُهُم الأنبياء، كلما هلك نبيٌ خلَفَه نبيٌ، وإنه لا نبيَّ بعدي وستكون خلفاء ويكثرون**». قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**فُوا ببيعة الأول فالأول واعطُوهم حَقَّهم فإنَّ الله سائلُهم عمّا اسْتَرْعَاهُم**».

رواه مسلم في الإمارة (١٢/٢٣٠/٢٣١).

«تسوسهم» أي: تتولّى أمورهم. «فوا» بضمّ الفاء: أمر من الوفاء.

في الحديث تنبُّؤ منه ﷺ بوجود كثرة الخلفاء والولاة، وقد وقع ذلك منذ زمان وقرون، وأصبح كل قطر له خليفة أو ملك مستقل بنفسه، وحصل بسبب ذلك تفرُّق الأمّة وتمزُّقها وضعفها، وأصبحت طعمة بأيدي الكفار يأخذون منها ما يشاؤون، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

❀ إخباره ﷺ بأنَّ الخلافة في قريش وأنَّ الأتراك سياخذونها منهم

١١١ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزالُ هذا الأمرُ في قريش ما بَقِي من الناسِ اثنان»**.

رواه البخاري في المناقب (٣٤٥/٧) وفي الأحكام، ومسلم في الإمارة (٢٠١/١٢).

١١٢ ـ وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ هذا الأمرَ في قريش لا يُعادِيهم أحدٌ إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقامُوا الدِّين»**.

رواه البخاري في المناقب (٣٤٥/٧).

١١٣ ـ وعن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قريش وُلاةُ الناسِ في الخيرِ والشرِّ إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٢٠٣/٤) والترمذي في الفتن (٢٠٥٥) بسند صحيح.

١١٤ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: **«إنَّ أمَّتي يَسُوقُها قومٌ عِراضُ الوجوهِ، صغارُ الأعْيُن، كأنَّ وُجُوهَهم الحَجَف ثلاث مرات، حتى يُلحِقُوهم بجزيرة العرب؛ أما الأولى فينجو مَن هرب منهم، وأما الثانية فيهلك بعض، وأما الثالثة فيصطلمون كلهم مَن بقي منهم»**. قالوا: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: **«الترك. والذي نفسي بيده ليَرْبطُنَّ خُيولَهم إلى سَواري مَساجِد المُسلمين»**.

رواه أحمد (٢٦٣/٤) بسند صحيح.

قوله: **«هذا الأمر»** المراد به السلطة والحكم. وقوله: **«الحجف»** بفتح الحاء وسكون الجيم: هو الترس والمجن. وقوله: **«فيصطلمون»** أي: يقطعون ويستأصلون، وهو من الاصطلام الذي هو القطع.

في هذه الأحاديث آيات باهرات للنبيِّ ﷺ حيث أخبر بأنَّ السلطة

لا تزال بأيدي قريش وأنهم ولاة الناس في ذلك خيرها وشرها، وأنَّ كل مَن عاداهم خذله الله وأخزاه ما أقاموا الدين، فإذا انحرفوا سُلبوا ذلك كما حصل؛ فإنهم لما عتوا وطغوا واختلفوا وتقاتلوا سلَّط الله عليهم الأتراك فقاتلوهم واستولوا على بلادهم وحكموا العرب قروناً حتى جاءت الحرب العالمية الأولى فانسحبوا إلى بلادهم وخلفهم الاستعمار الكافر.

* * *

❀ إخباره ﷺ بالقتال على الملك

١١٥ ـ عن عمَّار بن ياسر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يكونُ بعْدِي قومٌ يأخذون المُلْكَ يَقتُل بعضُهم بعْضاً»**.

رواه أحمد (٤/٢٦٣) بسند صحيح.

هذا هو واقع ملوك المسلمين ورؤسائهم في كل زمان ومكان فلا يحصى كم أريقت من دماء في سبيل ذلك، وهذا من باهر معجزاته ﷺ.

* * *

❀ إخباره ﷺ بقتل الحسين عليه السلام

١١٦ ـ عن عبدالله بن نجي عن أبيه أنه سار مع عليٍّ وكان صاحب مطهرته، فلما حَاذَى نِينَوَى وهو منطلق إلى صِفِّين فنادى علي: اصبر أبا عبدالله، اصبر أبا عبدالله بشطِّ الفُرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبيِّ ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبيَّ الله، أغضبك أحدٌ؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: **«بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدَّثني أنَّ الحُسَينَ يُقتل بِشَطِّ الفُرات»**. قال: **«فقال: هل لك إلى أن أشمَّك من**

تُربته؟». قال: «قلت: نعم. فمدَّ يدَه فقبض قبضةً من تراب فأعطانيها، فلم أملك عينيَّ أن فاضتا».

رواه أحمد (٨٥/١) بسند صحيح، وأورده النور (١٨٧/٩) برواية أحمد والبزار والطبراني، وقال: رجاله ثقات.

(نينوى) بكسر النون الأولى وفتح الثانية: بلدة بالعراق، كان منها نبيُّ الله يونس عليه السلام. (صفين) بكسر الصاد والفاء المشددة: موضع بالعراق، كانت به الوقعة المشهورة بين الإمام علي ومعاوية. «شط» بفتح الشين: جانب. «الفرات» بضمّ الفاء: اسم للنهر العظيم المشهور بالعراق بمياهه العذبة الغزيرة.

وفي الحديث علم من أعلام نبوَّته ﷺ حيث أخبر بقتل ولده الحسين عليه السلام بعد مرور أكثر من خمسين سنة. وفيه أنَّ الإمام عليّاً عليه السلام كان على علمٍ بمقتل ولده هناك.

١١٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام بنصف النهار أَشْعَثَ أغْبَرَ معه قارُورةٌ فيها دم يَلْتَقِطُهُ ويَتَتَبَّعُ فيها شيئاً. قال: قلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه. لم أزل أتتبَّعه منذ اليوم. قال عمّار: فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قُتل ذلك اليوم.

رواه أحمد (٢٨٣/٢٤٢/١) بإسنادين صحيحين، وقال النور (١٩٣/٩): رجال أحمد رجال الصحيح.

(أشعث) أي: شعره منتشر غير مسرَّح.

وهذه رؤيا حق وفيها دليل على أنَّ روحانية النبيِّ ﷺ تشهد مواقف بعض أفراد أمَّته.

والكلام على قصة الحسين وأهل بيته وقتلهم سيأتي في الفضائل وفي الفتن.

* * *

❀ إخباره ﷺ بفتنة ابن الزبير وبالحَجَّاج والكذاب الثقفي

١١٨ ـ عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أنه أتى النبيَّ ﷺ وهو يحتجم، فلمّا فرغ قال: «**يا عبدالله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحدٌ**». فلمّا برزت عن رسول الله ﷺ حسوته ورجعت فقال: «**ما صنعت؟**» قلت: جعلته في مكان ظننت أنه خافٍ على الناس. قال: «**فلعلَّك شَربتَهُ؟**» قلت: نعم. قال: «**ومَن أمرك أن تشرَب الدَّمَ؟ ويلٌ لَكَ مِن الناس، وويلٌ للناسِ مِنكَ**».

رواه البزار (١٤٥/٣)، والطبراني، والحاكم (٥٥٤/٣)، قال الهيثمي في المجمع (٢٧٠/١): رجاله رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم، وهو ثقة. وسكت عليه الحاكم والذهبي.

في الحديث معجزة للنبيِّ ﷺ حيث أخبر بما سيلقى الناس من عبدالله هذا وما سيصاب به من القتل والصلب فكان كذلك؛ فإنه لمّا قام ضد المروانيين حاربوه حتى أودوا بقتله كما يأتي في الفضائل.

١١٩ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذَّابُ فرأيناه، وأما المُبِيرُ فلا إخَالُكَ إلا إياه. فقام عنها ولم يراجعها.

رواه مسلم (١٠٠/١٦) والحاكم (٥٥٣/٣) ويأتي مطولاً في الفتن وفي الفضائل.

(مبير) بضمّ الميم، أي: مُهلك يسرف في إهلاك الناس، وهو من البوار، أي: الهلاك. (لا إخالك) هو بفتح الهمزة وكسرها، ومعناه: أظنك.

وهذه معجزة أخرى تظهر في وجود المُبير السفّاك الحجاج بن يوسف الثقفي، والكذاب الفشار المختار بن عبيد الثقفي الذي أسرف في الكذب حتى زعم أنَّ جبريل عليه السلام يأتيه. فقد أخبر النبيُّ ﷺ بهما معاً،

وكانا في عصر واحد ومن بلدة واحدة. وقد نقل النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم اتفاق العلماء على أنهما المراد في الحديث، وتأتي بعض أخبارهما في الفتن.

* * *

❀ إخباره ﷺ بهلاك الأمَّة على ايدي أُغَيْلِمة من قريش

١٢٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هَلاك أمّتي على يد أُغَيلِمَة من قريش**». قال أبو هريرة: إن شئت سميتهم ببني فلان.

رواه البخاري (١٦/١١٥/١١٦) ومسلم (١٨/٤١) كلاهما في الفتن.

«**أغيلمة**»: تصغير أغلمة، بمعنى غلمان، ومعناه أنَّ هلاك الأمّة سيكون بواسطة أمراء من قريش أحداث الأسنان ليست لهم عقول ناضجة، وكان أبو هريرة يراهم بني أميّة. والحديث عامّ، فإنَّ المتأخرين ليسوا بأقل إفساداً وإهلاكاً من السابقين بل الأمر بالعكس، فإنَّ في الأمراء اللاحقين مَن كفَروا شعوبهم مضافاً إلى ما أكثروا في البلاد من الفساد ممّا لم يتقدَّم له مثيل.

* * *

❀ إخباره ﷺ بما سيفتح على الأمَّة من الخيرات وبركة الدنيا واتساع الملك

١٢١ ـ عن عَمْرو بن عوف رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**والله ما أخشَى عليكم الفقْرَ ولكنّي أخشَى عليكم أن تُبسطَ عليكم الدنيا كما بُسِطتْ على مَن كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تنافسوها، فتُهلِكَكُم كما أهلكَتْهُم**».

رواه البخاري في المغازي وفي الرقاق، ومسلم والترمذي كلاهما في الزهد، وابن ماجه في الفتن، ويأتي مرة ثانية في الرقاق.

هذا تنبّؤ من حضرة النبيّ ﷺ بفتح بركة الدنيا وبسطها على الأمّة وتنافسهم عليها وهلاكهم بسبب ذلك حتى تقاتلوا عليها وتقاطعوا وتدابروا واستحلُّوا لذلك ما حرَّم الله تعالى عليهم.

١٢٢ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل لكم من أنماطٍ؟**» قلت: يا رسول الله، وأنّى لنا أنماط؟ قال: «**إنها ستكون لكم أنماطٌ**». فأنا أقول اليوم لامرأتي: نَحِّي عني أنماطَكِ. فتقول: ألم يقل رسول الله ﷺ: «**إنها ستكون لكم أنماطٌ بَعْدي**»؟

رواه أحمد (٣/٢٩٤)، والبخاري في المناقب وفي النكاح، ومسلم في اللباس، وأبو داود فيه، والترمذي في الاستئذان.

«**أنماط**»: جمع نمط، هو نوع من البُسط كان يفترشه المترفون، وقد أصبحت للناس اليوم فرش وبسط وزرابي ما رآها الصحابة والسلف بل لم يسمعوا بها، وكل ذلك من فتن الدنيا التي فُتن بها الناس.

والشاهد من الحديث إخباره ﷺ بوجود الأنماط والفرش التي لم تكن أيام النبوَّة فوُجدت بعده كما أخبر.

١٢٣ ـ وعن طلحة النضري رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عسى أن تُدرِكُوا زماناً حتى يُغْدَى على أحدِكم بِجَفْنَةٍ ويُراح عليه بأُخرى، وتلبسون أمثال أستار الكعبة**». قالوا: يا رسول الله، أنحنُ اليومَ خيرٌ أم ذاك اليومَ؟ قال: «**بل أنتم اليوم متحابُّون، وأنتم يومئذ متباغضون يضرب بعضكم رقاب بعض**».

رواه أحمد (٣/٣٨٧) بسند صحيح، ورواه الحاكم أيضاً وصححه.

«**يغدى**» أي: يؤتى عليه في وقت الغداء. «**ويراح**» أي: يؤتى عليه في الرواح وهو المساء. «**بجفنة**» أي: قصعة. «**أمثال أستار الكعبة**» أي: تتخذون ملابس رفيعة رائعة أو يكون معناه ستتخذون أستاراً لبيوتكم وجدرانها كما يتخذ ذلك للكعبة.

وما في هذا الحديث هو واقع الأمّة منذ زمان؛ فقد وسع عليهم في المطاعم والألبسة المتنوعة، وتوسعوا في ذلك وأسرفوا وتنافسوا في الدنيا وتقاتلوا عليها.

* * *

❀ إخباره ﷺ بتفرُّق الأمّة

١٢٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«تفرَّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»**.

رواه أحمد (٣٣٢/٢)، وأبو داود في السنّة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، وابن حبان (١٨٣٤)، والحاكم (٢٨/٦/١)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وفي الباب عن جماعة وتقدَّم بعضها في الإيمان.

هذا من عظيم معجزاته ﷺ؛ فقد تفرَّقت الأمّة تفرُّقاً أفضى إلى تمزُّقها وتدهورها، وقد ظهر هذا العدد الذي ذكره ﷺ لتفرُّقها، وفي هؤلاء الرافضة وفيهم فرق، والمعتزلة كذلك، والخوارج والنواصب والمعطِّلة والمشبِّهة والمرجئة... وارجع إلى كتاب الإيمان.

* * *

❀ إخباره ﷺ بالكذّابين دعاة جهنم

١٢٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«سيكون في آخر أمّتي ناسٌ يُحَدِّثونكم بما لم تسْمَعُوا أنتم ولا آباؤكُم، فإيّاكُم وإيّاهُم»**.

رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

الحديث صريح في أنَّ هؤلاء الكذابين سيكونون آخر الأمّة، ولا شك أنهم معاصرونا أصحاب الأفكار والنظريات الهدامة المخالفة لدين الله تعالى وشَرعه.

وقوله: «**فإيّاكم وإيّاهم**» أي: احذروهم لئلا يفتنوكم ويضلُّوكم.

وسيأتي في الفتن حديث حذيفة في هذا المعنى.

* * *

إخباره ﷺ
باعوان الظلمة والنساء العاريات

١٢٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك إن طالتْ بك المُدَّةُ أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر، يَغْدُون في غَضَبِ الله، ويَرُوحُون في سَخَطِه**».

رواه أحمد (٢/٣٠٨)، ومسلم في جهنم (١٧/١٩٠).

١٢٧ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مُمِيلات مائلات، رُؤوسُهُنَّ كأسْنِمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها ليُوجَدُ مِن مَسِيرة كذا وكذا**».

رواه أحمد (٢/٣٥٥/٣٥٦/٤٤٠) ومسلم في اللباس (١٤/١٠٩/١١٠) وفي جهنم (١٧/١٩٠).

قوله: «**أذناب البقر**»: يعني أنَّ عصيهم مثلها. وقوله: «**مميلات**» ... إلخ. أي: يُمِلْن الرجال إلى الافتتان بهنَّ أو يُمِلْن النساء العفيفات إلى فجورهنَّ. «**كأسنمة**»: جمع سنام، بفتح السين. «**البخت**» بضمّ الباء وسكون الخاء: هي جمال طوال الأعناق.

وفي الحديثين معجزة للنبيِّ ﷺ حيث أخبر بهذين الصنفين من الناس فوُجدا كما أخبر:

أحدهما: الشرط أعوان الظلمة الذين يضربون الناس عدواناً وظلماً، فهم مغضوب عليهم.

أما الصنف الثاني: فهنَّ النساء الفواجر الكاسيات العاريات، وهذا يشمل الكاسيات المتبرجات ولابسات الألبسة الضيقة والشفافة، والعاريات أجسامهنَّ كنساء عصرنا. وكِلا الصنفين من أهل النار لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها، وإنَّ ريحها ليُوجد من مسافة خمسمائة عام. وهذا الوعيد يتجلَّى في نساء عصرنا المتفرنجات والمتبرجات وشرط الحكَّام المرتدِّين، فكِلا الصنفين كافر لأن الجنة لا يُحرم منها إلا الكافرون. ولا شك أنَّ أكثر نساء العصر المثقفات ثقافة إفرنجية لا يقبلن تعاليم الإسلام ولا يُؤمِنَّ بها...

* * *

❀ إخباره ﷺ بذهاب الصالحين

١٢٨ ـ عن مِرْدَاسٍ الأَسْلَمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يذهب الصالحون الأوَّلُ فالأوَّل ويَبْقَى حُثَالةٌ ـ أو: حفالةٌ ـ كحفالة الشعير أو التمر، لا يُبَالِيهِم الله بالةً»**.

رواه أحمد (١٩٣/٤)، والبخاري في الرقاق (٢٨/٢٧/١٤)، والدارمي (٢٧/٢٢).

«حثالة» أو «حفالة»: هي الرديء والأرذل من كل شيء. **«لا يباليهم الله»** أي: لا يعبأ بهم.

في الحديث تنبُّؤ من حضرة النبيِّ ﷺ بذهاب الصالحين في كل وقت وبقاء الأراذل والأنذال، وهذا هو الواقع، ففي كل وقت يذهب صالحوه والأفاضل منه ولا يبقى إلا مَن لا خير فيه غالباً.

* * *

❀ إخباره ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة

١٢٩ ـ عن المغيرة بن شعبة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ حتى يأتي أمرُ الله»**.

رواه البخاري في الاعتصام (٥٦/١٧) ومسلم في المغازي (٦٦/١٣) وغيرهما.

١٣٠ ـ وعن جابر بن سمرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لا يزال هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»**.

رواه أحمد (٩٨/٩٤/٥)، والطيالسي (٢٩٨)، ومسلم (٦٦/١٣).

والحديث متواتر له طرق كثيرة، وهو بجملته يدل على أنَّ هناك طائفة مؤمنة لا تزال قائمة بأمر هذا الدين لا يضرُّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله. وهذه الطائفة هي التي تمثِّل الأمَّة، ولا تختصُّ بفرقة ولا بجماعة بل فيها القراء والمفسِّرون والمحدِّثون والفقهاء والعبَّاد والعوام، وفيها مَن يقاتل في سبيل الله، فكل مَن يقوم بشَرع الله ويلتزم به أو يدعو إليه وينصره هو من هذه الطائفة.

* * *

❀ إخباره ﷺ بالمجدِّدين

١٣١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله تعالى يَبعثُ لهذه الأمَّة على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دِينَهَا»**.

رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والحاكم في الفتن (٥٢٢/٤)، والخطيب في التاريخ (٦١/٢) من طرق، وسنده صحيح وصححه العراقي والسخاوي والمناوي وغيرهم.

«مَن يجدِّد»: التجديد يكون بإظهار ما اندثر من الدِّين والسُّنن ونشر ذلك بين الناس بالتأليف والدعوة والعمل... وهذا حاصل بإذن الله تعالى في كل زمان. وليس المراد بالتجديد إحداث شيء لم يأذن به الله وإقصاء ما جاء به نبيُّ الإسلام ﷺ كما يزعمه المفترون الملحدون.

* * *

إخباره ﷺ باتِّباع المسلمين الكفار

١٣٢ ـ عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ الذين مَن قَبْلكُم شِبراً بشبرٍ، وذِرَاعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهم**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فَمَنْ؟**».

رواه أحمد والطيالسي (٨٠٧)، والبخاري في الاعتصام (١٧/٦٣/٦٤)، ومسلم في العلم (١٦/٢١٩/٢٢٠) وفي الباب عن جماعة.

«**سنن**» بفتحتين، أي: طريقة. «**جحر**» بضمّ الجيم وسكون الحاء.

والحديث فيه معجزة للنبيِّ ﷺ حيث أخبر باتِّباع المسلمين اليهود والنصارى، وأقسم على ذلك فوقع كما أخبر؛ فقد قلَّدوهم في كل شيء حتى ذابت شخصيتهم فيهم ولم يبقَ لهم من عروبتهم ومظاهر إسلامهم إلا الأسامي.

* * *

إخباره ﷺ بقتال الكفار المسلمين وتداعيهم عليهم

١٣٣ ـ عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أن يملأ الله**

أيْدِيَكُم من العجم، ثم يجعلهم أسْداً لا يَفرُّون فيقتلون مُقاتِلَتَكُم ويأكلون فَيئَكُم».

رواه أحمد (٢١/١٧/١١/٥) وسنده صحيح. ورواه الحاكم (٥١٩/٤)، رواه من طريق آخر عن حذيفة بسند ضعيف

١٣٤ ـ وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُوشِكُ الأُمَمُ أن تَدَاعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قَصْعتها»**. فقال قائل: ومِن قِلّةٍ نحن يومئذ؟ قال: **«بل أنتم كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغثاء السيل، ولَيَنزِعَنَّ الله من صدُور عدوّكم المهابَة منكم، ولَيَقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْن»**. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهْنُ؟ قال: **«حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ»**.

رواه أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١) بسند صحيح، ورواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧) من طريق آخر وفيه رجل مجهول وله شاهد عن أبي هريرة رواه أحمد (٣٥٩/٢) بسند ضعيف.

«تداعى» أي: تجتمع عليكم ويدعو بعضهم بعضاً. **«الأكلة»** بفتحات: جمع آكل. **«غثاء»** بضمّ الغين: ما يحمله السيل من القمامة ورديء النبات.

والحديثان منطبقان على واقع المسلمين؛ فقد اجتمعت عليهم الأُمم والدول الكافرة وقاتلوهم واستعمروا بلادهم وأخذوا ثرواتهم وأذلُّوا المسلمين وأهانوهم وذلك لأمرين اثنين: حب الحياة والتمتع بها، وترك الجهاد في سبيل الله وكراهية الموت في سبيل ذلك.

وهذه من المعجزات الباهرات، فالأمّة الإسلامية تعدُّ بأكثر من مليار نسمة ولهم من القوة إذا اجتمعوا ما يهزمون بها كل الدول الكافرة إذا استقاموا ولكنهم كما وصفهم الحبيب ﷺ: **«غثاء كغثاء السيل»** أي: هُم كالقمامة والحشائش التي يحملها السيل، لا قيمة لهم ولا تقوم لهم قائمة.

* * *

❀ إخباره ﷺ بإخوانه ومحبّيه الذين لم ياتوا بعد يودُّون لو رأوه فدوه باهلهم ومالهم

١٣٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَدِدْتُ أَنّي رأيتُ إخواني**». قالوا: أوَ لسْنَا إخوانَكَ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم أصْحَابِي وإخوَاني الذين لم يَأْتُوا بعدُ**».

رواه أحمد (٢/٣٠٠/٤٠٨)، ومسلم في الطهارة (٣/١٣٧)، والنسائي فيها (٧٩٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٦).

١٣٦ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِن أشَدّ أمّتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بَعْدِي يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله**».

رواه مسلم في كتاب الجنة (١٧/١٧٠).

وفي الحديثين معجزة له ﷺ، حيث أخبر بأقوام يأتون بعده يؤمنون به غيباً ولم يروه، يكونون أشد الناس حبّاً له ﷺ، يتمنّى أحدهم أن لو رآه يفديه بأهله وماله، وأخبر عنهم بأنهم إخوانه، ويا لها من بشارة لكلّ مَن جاء بعده من المؤمنين به الصادقين المخلصين.

* * *

❀ إخباره ﷺ بكنز الفرات

١٣٧ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الفراتُ أن يحسر عن كنز من ذهب، فمَن حضره فلا يأخذ منه شيئاً**».

رواه البخاري ومسلم (١٨/١٩) كلاهما في الفتن ويأتي.

١٣٨ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه فيُقتل من كل**

مائة تسعة وتسعون، ويقول كلُّ رجلٍ منهم: لَعَلِّي أكونُ أنا الذي أنجُو».

رواه مسلم في الفتن (١٨/١٨).

«الفرات» نهر عظيم بالعراق، **وحسره عن كنز أو جبل من ذهب** إشارة ـ والله تعالى أعلم ـ إلى البترول الموجود بالعراق ويسمُّونه الذهب الأسود، فالظاهر أنه المراد. وقد أخبر ﷺ بحصول الاقتتال عليه وأنه سيموت في سبيله تسعة وتسعون في المائة، ونهى مَن حضره أن يأخذ منه شيئاً. وجاء في حديث آخر: **«يحضره شرار الخلق»** وهم الكفار من الأمريكيين والإنجليزيين وحلفائهم، فهم الذين يقاتلون لأجله ويتولون استخراجه. وهذا من باهر معجزاته ﷺ. ويأتي مزيد لهذا في كتاب الفتن.

ولنكتفِ بهذا القدر من معجزاته ﷺ فإنَّ تتبُّعها لا يأتي عليه الحصر، وهذا الإمام البيهقي رحمه الله تعالى قد كتب في دلائل النبوَّة وآياتِه ﷺ ومعجزاته... كتاباً طُبع في عدة مجلدات.

وقد تقدَّم لنا من المعجزات الشيء الكثير في غضون السيرة والمغازي. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

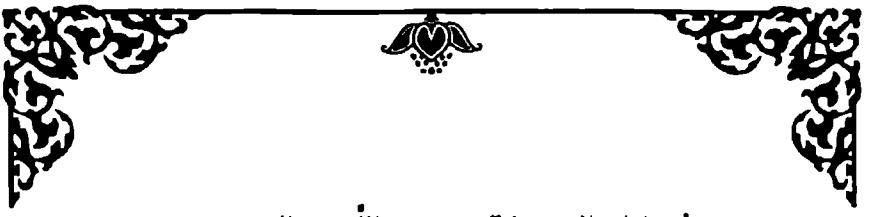

فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم

فضائلهم إجمالاً

اختلفت مذاهب العلماء في حقيقة الصحابي:

فذهب الإمام أحمد إلى أنه مَن صحب النبيَّ ﷺ سنةً أو شهراً أو يوماً أو ساعةً أو رآه.

وقال البخاري في صحيحه: مَن صحب النبيَّ ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه. وبهذا قال شيخه علي بن المديني وجمهور المحدِّثين.

وقال ابن حزم في الإحكام: هو كل مَن جالَس النبيَّ ﷺ ولو ساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها، أو شاهد منه عليه الصلاة والسلام أمراً يعيه، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نفاقهم واشتهر حتى ماتوا على ذلك، ولا مثل مَن نفاه عليه الصلاة والسلام باستخفافه كصيت المخنث، ومَن جرى مجراه.

وقال الحافظ العراقي ثم تلميذه الحافظ ابن حجر: العبارة السالمة من الاعتراض أن يقال: الصحابي مَن لقي النبيَّ ﷺ مسلماً ثم مات على الإسلام.

١٣٩ ـ عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «**خَيرُ أمّتي قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم**». قال عمران: فلا أدري أَذَكَرَ بعدَ قرنه مرتين أو ثلاثة.

رواه أحمد (٤/٤٢٦/٤٤٠)، والبخاري في المناقب (٨/٥/٧) وغيره كالشهادات والرقاق والنذور، ومسلم في الفضائل (١٦/٨٧/٨٨/٨٩)، وأبو داود في السنّة (٤٦٥٧)، والترمذي في الفتن، والنسائي في الوفاء بالنذر.

وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلفظ: «**خَيرُ الناس قرني**».

رواه أحمد (١/٣٧٨/٤١٧)، والشيخان، والترمذي.

وفي رواية لمسلم: سئل: أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «**قرني**».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ: «**خَيرُ أمّتي القرنُ الذي بُعِثتُ فيهم**».

رواه أحمد (٢/٢٢٨/٤٠٠/٤٧٩)، ومسلم (١٦/٨٦/٨٧).

وفي رواية لأحمد (٢/٢٩٧/٣٤٠): قيل للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «**أنا ومَن معي**». قيل له: ثم مَن يا رسول الله؟ قال: «**الذي على الأثر**». وسند هذه الرواية حسن.

١٤٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها بلفظ: سأل رجل النبيَّ ﷺ: أيُّ الناس خَيرٌ؟ قال: «**القرن الذي أنا فيه**».

رواه أحمد (٦/١٥٦) ومسلم (١٦/٧٩).

وعن بريدة رواه أحمد (٥/٣٥٠)، وعن النعمان بن بشير رواه أحمد أيضاً (٤/٢٦٧/٢٧٦/٤٤٠).

«**القرن**»: هو جيل من الناس إذا انقرضوا، وأكثره مائة سنة.

وهذا الحديث بجميع طرقه وألفاظه يدل على أنَّ الجيل الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ وعاش فيه أصحابه رضي الله تعالى عنهم هو خير الأجيال

والقرون من هذه الأمّة إطلاقاً لأنه وُجد فيه رسول الإسلام، وهو أشرف المخلوقات وسيدهم ﷺ، وعاش فيه أصحابه البررة فكانوا أفضل هذه الأمّة وأكرمها على الله عزّ وجلّ، وأنهم لا يلحقهم لاحق ممَّن جاء بعدهم، ولا يبلغ أحد شأوهم ولا مقامهم مهما بلغ من الفضيلة والاستقامة، لأن مقام صحبة هذه الرسول الأعظم ﷺ والنظر إليه والاجتماع به والجلوس معه... كلها فضائل ومزايا هامة لهم لا يصلها أحد، لا سيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

فما نقله الحافظ ابن عبدالبرّ رحمه الله تعالى عن البعض بأنه يوجد في آخر الزمان مَن يفضل الصحابة مستدلاً ببعض الأحاديث جاءت في ذلك ليس على الإطلاق كما بيَّنه غير واحد كالحافظ في الفتح (٦/٨) والأبي في شرح مسلم حيث قال هذا (٣٦٢/٦): ففضلهم رضي الله تعالى عنهم بفضيلة الصحبة ولو لمحة لا يعدلها عملٌ، ولا تُنال درجتها، والفضائل جعلية لا تؤخذ بالقياس، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء. وأصله للقاضي عياض كما نقله النووي في شرح مسلم أيضاً (٩٣/١٦). ويأتي مزيد لهذا، في الفتن، إن شاء الله تعالى.

١٤١ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمانٌ فَيَغزُو فِئامٌ مِن الناس فيقولُون: فِيكُم مَن صَحِب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمانٌ فَيَغزُو فِئامٌ من الناس فيقال: هل فيكم مَن صاحَبَ أصحابَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيُفتحُ لهم، ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزو فِئامٌ من الناس فيُقال: هل فيكم مَن صاحَب مَن صاحَب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيُفتحُ لهم»**.

رواه أحمد (٧/٣)، والبخاري في المناقب (٥/٤/٨)، ومسلم في الفضائل (٨٤/٨٣/١٦).

(الفئام): الجماعة.

والحديث ظاهر في فضل الصحابة كلهم رضي الله تعالى عنهم، فإنه

لولا فضلهم ومنزلتهم عند الله ما كان النصر للجيش الذي وُجدوا فيه ولو فرد منهم كما في رواية لمسلم: «**فيقال: انظروا هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيوجد الرجل، فيُفتح لهم به**».

بل هذه البركة شملت حتى مَن صحب الصحابة أو صحب مَن صاحبهم كالتابعين وأتباع التابعين. وقد جاء في حديثِ لواثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تَزالُون بخير ما دام فيكُم مَن رآني وصاحَبَني**».

أورده في المجمع (٢٠/١٠) برواية الطبراني من طرق، وقال: رجال أحدها رجال الصحيح.

وحديث الباب قد صدقه الواقع، فإنَّ الغزوات التي وقعت أيام الصحابة وما قاربهم كلها كانت انتصارات وفتحاً وظفراً، وذلك ببركة الصحابة أو مَن صاحبهم أو صاحب مَن صاحبهم، وكل ذلك يدل على علوّ شأنهم وكرامتهم على الله تعالى.

١٤٢ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتْ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدُون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمَّتي فإذا ذهب أصحابي أتى أُمَّتي ما يُوعَدُون**».

رواه أحمد (٣٩٩/٤) ومسلم في الفضائل (٨٣/٨٢/١٦).

«**أمنة**» بفتحات: جمع أمين، وهو الحافظ. «**أتى السماءَ ما تُوعد**»: إشارة إلى انشقاقها وذهابها. «**أتى أصحابي... أمَّتي ما يُوعدون**»: إشارة إلى وقوع الفتن.

وهذا الحديث أيضاً من فضائلهم، فإنَّ وجودهم ولو أفراداً منهم أمان للأمَّة من نزول البلاء، وانقلاب أوضاع الدين، وظهور الفتن، وانتشار المناكير وفشوِّها، فجيل الصحابة على ما كان في وسطه وآخره من فتن

وظلم من بني أميَّة فقد كان فيه خير كبير وبركة ظاهرة، وذلك لوجود الأنوار التي كانت تتجلَّى في أصحاب سيد الخلْق ﷺ.

١٤٣ ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمٰن بن عوف شيء، فَسَبَّهُ خالدٌ، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أحداً من أصحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما أدْرَكَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»**.

رواه البخاري في المناقب (٨/٣٣) ومسلم في الفضائل (١٦/٩٢/٩٣) واللفظ له.

١٤٤ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمٰن بن عوف كلام، فقال خالد لعبدالرحمٰن: تَسْتَطِيلُون علينا بأيام سَبَقْتُمُونا بها. فبلغنا أنَّ ذلك ذُكر للنبيِّ ﷺ فقال: **«دَعُوا لِي أصْحَابِي، فوالذي نَفْسِي بِيَدِه لو أنفَقْتُم مِثْلَ أُحُدٍ أو مِثْلَ الجِبال ذهباً ما بَلَغْتُم أعْمالَهُم»**.

رواه أحمد (٣/٢٦٦) بسند صحيح على شرط البخاري.

١٤٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبُّوا أصحابِي، لا تسبُّوا أصحابِي، فوالذي نفْسِي بيده»** الحديث مثل لفظ أبي سعيد بدون القصة.

رواه مسلم (١٦/٩٢).

(السبّ): الشتم، ويُطلق على التنقيص ووصف الإنسان بما ليس فيه.

وجاء في الحديث الصحيح القدسي: **«قال الله تعالى: كذبني ابن آدم... وشتمني... وأما شتمه إيايَّ فقوله: اتخذ الله ولداً»**. رواه البخاري في التفسير.

فجعل الله عزَّ وجلّ وصفه بما ليس فيه شتماً.

وجاء هذا النهي النبويُّ عن سبِّ الصحابة الأوَّلين السابقين من الصحابة اللاحقين، فإنَّ عبدالرحمٰن بن عوف من السابقين والمهاجرين

الأوّلين وأحد العشرة المبشّرين بالجنة، أما خالد الذي سبّه فهو من مسلمة ما بعد الحديبية، فنهاه النبيُّ ﷺ عن انتقاص مَن سبقه بالصحبة وبيّن له أنه لا يدرك مَن سبقه بأيِّ عمل، وإذا كان هذا في الصحابة فكيف بمَن جاء بعدهم ممّن لا قيمة له ولا وزن بالنسبة إليهم فيسيء إلى نفسه قبل غيره فينال من أكابر الصحابة ويسبُّهم وينتقصهم ويحاسبهم على ما قدّموا وصدر منهم من التصرفات وبينه وبينهم قرون وأجيال، والحال أنه غير مسؤول عنهم وعن أعمالهم... ففي هذه الأحاديث بالإضافة إلى فضل الصحابة على غيرهم وأنَّ الواحد منا لو أنفق من الذهب مثل الجبل العظيم لما بلغ مقدار ملىء كف أحدكم أو نصفه، قلت: في هذه الأحاديث تحريم سبهم أو شتمهم أو انتقاصهم.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (٩٣/١٦): واعلم أنَّ سبَّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم حرام من فواحش المحرمات. وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وسبُّ أحدهم من المعاصي الكبائر. وقال الحافظ أبو زرعة الرازي رحمه الله تعالى: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق. ذكره الخطيب في الكفاية. وانظر ما كتبته في كتابَي: «السنّة والشيعة» و«فضائل الصحابة».

١٤٦ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تمَسُّ النارُ مُسلماً رآني أو رأى مَن رآني»**. قال طلحة: فقد رأيت جابر بن عبدالله. وقال موسى: وقد رأيت طلحة. قال يحيى: وقال لي موسى: وقد رأيتني، ونحن نرجو الله تعالى.

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٦) بتهذيبي، وسنده حسن، وصححه الضياء.

١٤٧ ـ وعن عبدالله بن بسر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«طُوبَى لِمَن رآني، وطُوبَى لِمَن رأى مَن رآني، طُوبَى لهم وحُسْنُ مَآبٍ»**.

أورده النور في المجمع (٢٠/١٠) برواية الطبراني وقال: رجاله ثقات، وبقيةُ بن الوليد صرح بالتحديث.

ففي الحديثين بشارة هامة غالية لكلّ مَن رأى النبيَّ ﷺ وهو مسلم، وأنَّ جميعهم مبشَّرون بالجنة والحفظ من النار، بل ذلك واقع حتى لِمَن رآهم من المسلمين، وما ذلك إلا لمكانتهم العظيمة عند الله تعالى.

وقد أفردت فضائلهم في كتاب خاص ولله الحمد، وذكرت نحواً من سبع عشرة آية جاءت في القرآن تنوّه بفضلهم... فانظره ولا بُدَّ، هذا وسأقدّمُ في فضائل الصحابة أهل مكة من المهاجرين وغيرهم ممّن أسلم قبل الفتح أو بعده، ثم أفرد الأنصار على حدة، ثم أُتبعهم بغيرهم.

* * *

❀ فضائل أهل بدر وبيعة الرضوان

١٤٨ ـ عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قال: **«مِن أفضل المسلمين»** ـ أو كلمة نحوها ـ. قال: كذلك مَن شَهِد بَدْراً مِن الملائكة.

رواه البخاري في غزوة بدر (٣١٤/٨).

١٤٩ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه في قصة حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنه قد شهِد بَدْراً، وما يُدْرِيكَ لعلَّ الله اطَّلَع على مَن شهِد بَدْراً فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُم فقد غَفرتُ لكُم»**.

رواه أحمد (٨١/١)، والبخاري في الجهاد، وفي المغازي، وفي التفسير (٢٥٩/٢٥٨/١٠)، ومسلم في الفضائل (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير، وغيرهم، وقد تقدَّم مطوَّلاً في السيرة.

١٥٠ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: **«لَيَدْخُلَنَّ الجنةَ مَن بَايَع تحت الشجرةِ إلا صاحبَ الجمل الأحمر»**.

رواه الترمذي (٣٦٣١) ورجاله رجال الصحيح إلا خداش بن عياش

فمجهول الحال، والحديث في صحيح مسلم مطوّلاً، وفي آخره: «**كُلُّكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر**».

١٥١ ـ وعن جابر أيضاً أنّ عبداً لحاطب جاء إلى النبيّ ﷺ يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله، لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار. فقال: «**كذبتَ، لا يَدخلُها فإنه شهِد بدْراً والحديبية**».

رواه مسلم (١٦/٥٧) والترمذي (٣٦٣٢) كلاهما في المناقب.

١٥٢ ـ وعن أمّ مُبَشِّر رضي الله تعالى عنها أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول عند حفصة: «**لا يدخلُ النارَ إن شاءَ الله تعالى من أصحابِ الشجرةِ أحَدٌ من الذين بايعُوا تحتَها**». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. فقال النبيُّ ﷺ: «**قد قال الله عزَّ وجلَّ**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾».

رواه مسلم (١٦/٥٧/٥٨).

في هذه الأحاديث فضل ظاهر لِمَن شهِد بدراً والحديبية مسلماً مع النبيّ ﷺ، وأنهم مغفور لهم، مرضي عنهم، مقطوع لهم بدخول الجنة، وهذا وإن كان كل الصحابة من أهل الجنة حسب مراتبهم فإنّ لهؤلاء من المزايا والفضائل ما ليس لغيرهم.

* * *

❀ فضائل العشرة

١٥٣ ـ عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: أَشْهَدُ على التسعة أنهم في الجنة، ولو شهِدت على العاشر لم آثم. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بِحِراء فقال: «**اثْبُتْ حِراءُ فإنه ليس عليك إلا نبيٌّ، أو صِدِّيقٌ، أو شَهِيدٌ**». قيل: ومَن هم؟ قال: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعُمر، وعُثمانُ، وعَلِيٌّ، وطلحةُ، والزُّبَيْرُ، وسَعدٌ، وعبدُالرحمٰن بن عوف. قيل: فمَن العاشر؟ قال: أنا.

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٢٧) بتهذيبي، ورواه مسلم (١٩١/١٩٠/١٥)، والترمذي أيضاً (٣٤٦٩) مختصراً بذكر السبعة الأول وهو من حديث أبي هريرة.

١٥٤ ـ وعن سعيد أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**عشرة في الجنة: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي وعثمان في الجنة، والزبير، وطلحة، وعبدالرحمٰن، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص**». قال: فعدَّ هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر، فقال القوم: نَنْشُدُكَ الله يا أبا الأعور، مَن العاشر؟ قال: نَشَدْتُمُوني بالله، «**أبو الأعور في الجنة**».

رواه أحمد (١٦٢٩)، والطيالسي (٢٥٢١)، والترمذي (٣٥١٩)، والنسائي في الكبرى (٥٦/٥)، وأبو داود (٤٦٥٠/٤٦٤٩)، وابن ماجه (١٣٣) بأسانيد صحيحة، ومثله عن عبدالرحمٰن بن عوف. رواه أحمد (٩٣/١) والترمذي (٣٥١٨) بسند صحيح.

فهؤلاء المذكورون هم العشرة المشهورون عند الكافة بأنهم المبشَّرون بالجنة، وقد وقع الإجماع على ذلك من أهل السنَّة.

ويُعتبر هؤلاء سادات الصحابة على الإطلاق إلا مَن استُثنيَ من أهل البيت.

* * *

فضائل الخلفاء الأربعة

١٥٥ ـ عن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة، فذكر الحديث وفيه: «**فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» الحديث.

رواه أحمد (١٢٧/١٢٦/٤)، والدارمي (٩٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٤٩٠) وحسَّنه الترمذي وصححه، وتقدَّم في العلم.

فقوله: «**وسنّة الخلفاء**» المراد بهم الخلفاء الأربعة باتفاق علماء الأمّة.

فأثبت ﷺ لهم الخلافة وشهد لهم بالرشاد والهداية.

١٥٦ ـ وعن سفينة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلافة النبوّة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله المُلك مَن يشاء**».

ثم قال سفينة: امسك خلافة أبي بكر. ثم قال: وخلافة عمر، وخلافة عثمان. ثم قال: امسك خلافة علي.

قال سعيد بن جمهان: فوجدناها ثلاثين سنة. قال: فقلت له: إنَّ بني أميَّة يزعمون أنَّ الخلافة فيهم. قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شرِّ الملوك.

رواه أحمد (٥/٢٢٠)، وأبو داود (٤٦٤٦/٤٦٤٧)، والترمذي في الفتن (٢٠٥٣) وسنده حسن.

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: قال العلماء: لم يكن في الثلاثين بعده عليه الصلاة والسلام إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن.

١٥٧ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّكم في النُّبُوّةِ ما شاء الله أن تكونَ ثم يَرفعُها الله إذا شاء، ثم تكونُ خلافةٌ على منهاج النبوّة تكون ما شاء الله أن تكونَ ثم يَرفعُها إذا شاء، ثم يكون مُلكٌ عَضُودٌ، ثم تكون جَبْرِية ما شاء الله أن تكون ثم يَرفعُها إذا شاء، ثم تكون خلافةٌ على النبوّة**».

رواه الطيالسي (٢٥٩٣)، وأحمد (٤/٢٧٣)، والبزار، والطبراني. قال الهيثمي (٥/١٨٩): رجاله ثقات. وصححه العراقي وغيره، وقد تقدَّم في الخلافة ويأتي.

فأثبت ﷺ الخلافة بعده مباشرة على نهج النبوّة، وليس ذلك إلا خلافة هؤلاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم، فخلافتهم صحيحة راشدة، ثم بعدهم جاء المُلك العضود والجبري الذي يصيب فيه الرعايا الظلم والعسف ويكون الاستيلاء على الحكم فيه بالقوة والقهر. وهؤلاء الأربعة هم سادات

الصحابة ونخبتهم، وكلهم كانوا أصهار رسول الله ﷺ ووزراءه الذين لم يفارقوه سفراً ولا حضراً.

* * *

ما اشترك فيه الخلفاء الثلاثة من الفضائل

١٥٨ ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال: لأَلْزَمَنَّ رسول الله ﷺ ولأَكُونَنَّ معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبيِّ ﷺ، فقالوا: خرج وجه هاهنا. قال: فخرجت في إثره أسأل عنه، حتى دخل بئر أريس. قال: فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر أريس، وتوسَّط قُفَّهَا، وكشف عن ساقَيْه ودلاَهُما في البئر. قال: فسلَّمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلست عند الباب، فقلت: لأكونَنَّ بوَّابَ رسول الله ﷺ اليوم. فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: مَن هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رِسْلِك. قال: ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن. فقال: **«ائذن له وبَشِّرْه بالجنة»**. فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشِّرك بالجنة. قال: فدخل فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ ودلَّى رجليه في ا لبئر وكشف عن ساقَيه، ثم رجعت فإذا إنسان يحرِّك الباب فقلت: مَن هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب. فقلت: على رِسْلِك. ثم جئت إلى رسول الله ﷺ وقلت: هذا عمر يستأذن. فقال: **«ائذن له وبشِّره بالجنة»**. فجئت عمر فقلت: ادخل، ويبشِّرك رسول الله ﷺ بالجنة. قال: فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يساره ودلَّى رجلَيه في البئر، ثم رجعت فجلست فجاء إنسان فحرَّك الباب فقلت: مَن هذا؟ فقال: عثمان بن عفان. فقلت: على رِسلِك. قال: وجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: **«ائذن له وبشِّره بالجنة مع بلوى تصيبه»**. قال: فجئته فقلت: ادخل، ويبشِّرك رسول الله ﷺ بالجنة بعد بَلْوَى تُصِيبك. فقال: اللَّهم صَبْراً ـ أو: الله المستعانُ ـ. فدخل فوجد القُفَّ قد مُلِئَ فجلس وجَاهَهُم من الشِّقِّ الآخر.

وفي رواية: إنَّ رسول الله ﷺ كان قد كشف عن ركبتيه فلمَّا دخل عثمان غطاهما.

رواه البخاري في الأدب، وفي الوقت، وفي المناقب (٨/٣٥/٣٨)، ومسلم (١٥/١٧٠/١٧١/١٧٣) والترمذي (٣٤٨٢) كلاهما في المناقب، وحسَّنه الترمذي وصححه.

(القُفّ) بضمِّ القاف وتشديد الفاء: ما ارتفع من الأرض، وهو هنا جدار مبني حول البئر كالدكة. وقوله: (على رسلك) بكسر الراء وسكون السين، أي: على هينتك وتأنيك ولا تستعجل.

وفي الحديث بشارة خاصة لهؤلاء الخلفاء الثلاثة، ويا لها من بشارة.

وأين يجد هذه المنقبة مَن ينتقص هؤلاء الأجلَّة من الروافض وأذنابهم الملاعن. وفي الحديث أيضاً معجزة للنبيِّ ﷺ حيث أخبر بمآل هؤلاء وأحوالهم في المستقبل، وفيه إشارة إلى فتنة عثمان التي أصابته وأودت بحياته شهيداً رضي الله تعالى عنه.

* * *

❀ فضائل أبي بكر الصدِّيق رضي اللَّه تعالى عنه

١٥٩ ـ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: كنت جالساً عند النبيِّ ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبيُّ ﷺ: **«أمَّا صَاحِبُكم فقدْ غامَر»**. فسلَّم وقال: يا رسول الله، إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ فأسرعتُ إليه ثم ندِمتُ، فسألتُه أن يَغفِر لي فأبَى عليَّ، فأقبلتُ إليك. فقال: **«يغفر الله لك يا أبا بكر»** ثلاثاً. ثم إنَّ عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبيِّ ﷺ، فجعل وجه رسول الله ﷺ يَتَمَعَّرُ حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، أنا كنتُ أظلمَ مرتين. فقال النبيُّ ﷺ **«إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم: كَذَبْتَ، وقال أبو بكر: صَدَقْتَ، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟» مرتين فما أوذيَ بعدها.**

رواه البخاري في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ من صحيحه (٨/٢٠/٢١/٢٢).

«غامر» معناه: خاصم، والمغامرة اقتحام المهالك.

أبو بكر الصدِّيق، هو عبدالله بن أبي قحافة القرشي صاحب رسول الله ﷺ، ووزيره، وثانيه في الغار، ورفيقه في الهجرة، وصهره على بنته عائشة حبيبة رسول الله ﷺ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأول الخلفاء الراشدين الذين كان لهم الأثر العظيم في تثبيت قوائم الدين والفتوحات الإسلامية العظيمة، وضجيع رسول الله ﷺ في روضته المقدسة.

وُلد رضي الله تعالى عنه بعد حادث الفيل بسنتين وستة أشهر، وصحبَ النبيَّ ﷺ قبل البعثة، وكان أول مَن أسلم من الرجال بالإجماع، واستمرَّ معه ﷺ طوال إقامته بمكة، ثم هاجر معه وشهد كل المشاهد والغزوات معه ﷺ، ولم يفارقه قط حضراً ولا سفراً إلى أن توفي ﷺ والتحق بالرفيق الأعلى، وحجَّ بالناس أميراً عليهم في حياة النبيِّ ﷺ سنة تسع، وكانت الراية يوم تبوك معه، واستخلفه النبيُّ ﷺ إماماً للصلاة مراراً آخرها في مرض موته، واستقرَّ خليفة على المسلمين في الأرض بعده ﷺ بإجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعد تخلُّف بعضهم بادىء الأمر، ولقُب بخليفة رسول الله ﷺ.

وكان رضي الله تعالى عنه في الجاهلية معروفاً بالتجارة، ذا أخلاق كريمة ومعروف وألفة. أسلم وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ كما رواه ابن حبان (١٥/٢٧٤/٢٧٥) بسند صحيح عن عائشة، وأعتق سبعة أعبد ممَّن كانوا يُعذَّبون في الله، منهم: بلال، وعامر بن فُهَيْرة، وكان يعول ضعفاء المسلمين.

ولكرم أخلاقه وثقة الناس به أسلم على يديه خمسة أشخاص كلهم من المبشَّرين بالجنة: عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمٰن بن عوف، رضي الله تعالى عنهم.

١٦٠ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غيرَ ربِّي لاتَّخَذْتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته»**.

رواه البخاري (٨/١٣) ومسلم (١٥/١٥٠/١٥١) كلاهما في الفضائل. وفي رواية للبخاري عن ابن عباس: **«ولكن أخي وصاحبي»**. وفي رواية: **«ولكن أخوة الإسلام أفضل»**. وفي رواية عند الترمذي: **«ولكن ودُّ وإخاءُ إيمَانٍ»**.

١٦١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نَفَعَني مالٌ قطُّ ما نفعَني مال أبي بكر»**. فبكى أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقال: ما أنا ومالي إلا لك.

رواه أحمد (٢/٢٥٣/٣٦٦)، والترمذي في المناقب (٣٤٣٤) بتهذيبي، وابن حبان (١٥/٢٧٣/٢٧٤) وسنده صحيح عند بعضهم. وعند الترمذي في رواية: **«ما لأحَدٍ عندنا يَدٌ إلا وقد كافَيْنَاهُ ما خلا أبا بكر فإنَّ له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة»**.

١٦٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن أنفَق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دُعِي من أبواب** ـ يعني الجنة ـ: **يا عبد الله، هذا خيرٌ. فمَن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومَن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومَن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريَّان»**. فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعَى مِن تلك الأبواب من ضرورة؟ وقال: هل يُدْعَى منها كُلِّها أحد، يا رسول الله؟ فقال: **«نَعَم وأرجو أن تكونَ منهم»**.

رواه البخاري في المناقب (٨/٢٥/٢٦) وغيره، ومسلم في الزكاة (٧٥/١١٥/١١٧).

١٦٣ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أصبح منكم اليوم صائماً؟»** قال أبو بكر: أنا. قال: **«فمَن تَبِع منكم اليوم جنازة؟»** «...

أبو بكر: أنا. قال: «**فمَن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟**» قال: أنا. قال: «**فمَن عادَ منكم اليوم مريضاً؟**» قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجْتَمعتْ في امْرِىءٍ إلا دَخل الجنّة**».

رواه مسلم في الزكاة (١١٨/١١٧/٧) وفي الفضائل (١٥٦/١٥).

١٦٤ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: كان أبو بكر أحبّنا إلى رسول الله ﷺ، وكان خيرنا وسيِّدنا.

رواه البخاري ضمن حديث قصة السقيفة (٣٠/٨)، والترمذي (٣٦٥٦)، وابن حبان (٢٧٨/١٥)، والحاكم (٦٦/٣).

١٦٥ ـ وعن محمد ابن الحنفية رضي الله تعالى عنه قال: قلت لأبي ـ يعني: عليًا رضي الله تعالى عنه ـ: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم مَن؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين.

رواه البخاري في المناقب (٣٢/٣١/٨).

١٦٦ ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: أمَرَنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق ووافق ذلك عندي مالاً فقلت: اليوم أسْبِقُ أبا بكر إن سَبَقْتُه يوماً، فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبْقيتَ لأهلِك؟**» قلت: مِثلَه. وأتى أبو بكر بكلّ ما عنده فقال: «**يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهلِك؟**» فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً.

رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨) والترمذي في المناقب (٣٤٤٧) وحسّنه وصححه.

في هذه الأحاديث التي ذكرناها عدة مزايا وفضائل وخصائص للصدِّيق رضي الله تعالى عنه، وهي كالآتي:

أولاً: غَضَبُ النبيِّ ﷺ على ما صدَر من عُمر رغم أنّ الحق كان في جانبه.

ثانياً: إخباره ﷺ بمزية للصدّيق لم يشاركه فيها غيره من سائر رجال[1] الصحابة، وهي كونه صدّق النبيَّ ﷺ وآمن به إذ كفر به الناس، وواساه بماله وأيّده بنفسه إذ حَرَمَه غيرُه وعادَوْه.

ثالثاً: إنفاقه ماله كله على النبيّ ﷺ حتى قال فيه: «**إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر**». وقوله: «**ما نَفَعَني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكر**». فيا لها من شهادة ويا له من ثناء ومدح له من حضرة الحبيب ﷺ.

رابعاً: تمنّيه ﷺ أن يكون الصدّيق خليله لولا أنه خليل الله عزَّ وجلّ، لكنه أخوه وصاحبه الخاص.

خامساً: شهادة الخليفتَين الراشدين عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما بأنه خير الناس وسيدهم.

سادساً: اتصافه بصفات من خصال الخير لم تجتمع في أحد سواه، وهي كونه صائماً، وتبع جنازة، وعاد مريضاً، وأطعم مسكيناً. وقد أخبر ﷺ بأنها ما اجتمعت في امرئٍ إلا دخل الجنة.

قال القاضي عياض: معناه: دخل الجنة بلا محاسبة ولا مجازاة على قبيح الأعمال، وإلا فمجرد الإيمان يقتضي دخول الجنة بفضل الله.

سابعاً: أنه سَيُدْعَى يوم القيامة من أربعة أبواب الجنة: من باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الصدقة، وباب الصيام.

وهذه مزية لم تُعرف لغيرِه.

وبالاختصار ففضائل الصدّيق ومناقبه تحتاج إلى مجلد خاص. وقد استخرج العلماء من مجرد آية الغار نحواً من إحدى عشرة فضيلة له رضي الله تعالى عنه، انظر تفسير الفخر الرازي.

وفي أواخر جمادى الأخرى من السنة الثالثة عشر أجاب داعي ربه

---

(١) قلت: الرجال، لأن الإمام عليّاً شاركه في ذلك وكان صبيّاً.

وعمره ثلاث وستون سنة، ودفن مع النبيّ ﷺ في روضته المباركة. وترك من الأولاد: عبدالله، وعبدالرحمٰن، ومحمداً، وعائشة، وأسماء، وأم كلثوم رضي الله تعالى عنه وعنهم وعنا معهم، آمين.

* * *

فضائل عمر بن الخطاب رضي اللّٰه تعالى عنه

هو أبو حفص عمر بن الخطاب الفاروق القرشي العدوي أمير المؤمنين، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار رسول الله ﷺ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهّادهم وعبّادهم وأبطالهم، وأحد وزراء رسول الله ﷺ، وثالثه في مضجعه وروضته الخالدة، صاحب الحق والحزم، الذي يُضرب بعدله المثل، والمُحَدَّث المُلْهَم.

ولد رضي الله تعالى عنه بعد ميلاد النبيّ ﷺ بثلاث عشرة سنة. وكان في الجاهلية من أشراف قريش وأبطالهم، ولمّا بُعث رسول الله ﷺ كان شديداً عليه وعلى المسلمين ثم هداه الله عزّ وجلّ فأسلم بدعاء النبيّ ﷺ كما يأتي. ولمّا أَشْهَرَ إسلامَه كَبّر المسلمون فرحاً بإسلامه، ولم يكن أحد ممّن أسلم يتجاسر فيتظاهر بإسلامه، فخرج عمر إلى مجامع قريش فنادى بإسلامه فقاموا إليه وتضارب معهم حتى أنقذه منهم وأجاره خاله عثمان بن أبي العاص فكفُّوا عنه.

ثم كان من المهاجرين الأوّلين للمدينة، ولم يفارق النبيَّ ﷺ حضراً ولا سفراً، وشهد معه كل الغزوات والمشاهد: بدراً، وأُحداً، والخندق، وبني النضير، وبني قينقاع، وقريظة، وبيعة الرضوان، وخيبر، وفتح مكة، وحنيناً، والطائف، وتبوك، وسائر المشاهد. وكان شديداً على الكفار والمنافقين، ذا صلابة وقوة في الدين، لا يخاف في الله لومة لائم، كله جد لا يُعرف منه لَهْوٌ ولا باطل، توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ كما يأتي، له مواقف عظيمة أيام النبوَّة وبعدها.

قال النووي رحمه الله تعالى في تهذيب الأسماء واللغات: وأجمعوا على كثرة علمه، ووفور فهمه، وزهده، وتواضعه، ورفقه بالمسلمين، وإنصافه ووقوفه مع الحق، وتعظيمه آثار رسول الله ﷺ وشدة متابعته له، واهتمامه بمصالح المسلمين، وإكرامه أهل الفضل والخير، ومحاسنه أكثر من أن تُستقصى.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمامته رحمةً، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلّي في البيت حتى أسلم عمر...

ولّي الخلافة بعد الصدّيق وأجمع عليه الصحابة. وتوفي شهيداً على يد اللعين أبي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة، وذلك أواخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وعمره ثلاث وستون سنة، ودفن مع النبيّ ﷺ كالصدّيق رضي الله تعالى عنهما. وكان له من الأولاد: عبدالله، وحفصة أم المؤمنين ـ وهما أشهر أولاده ـ وله عبيدالله، وعاصم، وزيد، وفاطمة ـ وكان الأخيران من أم كلثوم بنت الإمام علي وفاطمة عليهم السلام.

١٦٧ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: **«اللّهم أَعِزَّ الإسلام بِأَحَبِّ هذين الرجلين إليك: بأبي جَهل أو بِعُمَر بن الخطاب»**. قال: وكان أحبَّهما إليه عُمر.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٥٣) بتهذيبي، وابن حبان (٢١٧٩) بالموارد، وحسّنه الترمذي وصححه، وذلك لشواهده عن ابن مسعود. رواه أحمد (٤٣٦٢)، والحاكم (٨٣/٣) بسند حسن بلفظ: **«اللّهم أيّد الإسلام بعُمر»**. وعن ابن عباس رواه الترمذي (٣٤٥٥)، والحاكم (٨٣/٣)، وصححه ووافقه الذهبي. وعن عائشة رواه ابن حبان (٢١٨٠)، والحاكم (٨٣/٣)، وصححه أيضاً ووافقه الذهبي، وكذا صححه الحافظ في الفتح (٤٧/٨).

فكان إسلامه بدعاء النبيّ ﷺ، وكان أحب الرجلين إلى الله عزّ وجلّ.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٦٨ ـ وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما زِلْنا أعِزَّةً مُنذُ أسْلَمَ عُمر.

رواه البخاري في المناقب (١٧٦/٤٦/٨).

قال الحافظ: لِمَا كان فيه من الجلد والقوة في أمر الله تعالى.

١٦٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد كان فيما قَبْلَكُم من الأمم مُحَدَّثُون، فإن يكُ في أمّتي أحدٌ فإنه عُمر»**.

وفي رواية: **«لقد كان فِيمَن كان قَبْلَكم من بني إسرائيل رجالٌ يُكَلَّمُون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكُن في أمّتي أحدٌ فعُمر»**.

رواه البخاري في المناقب (٥٠/٤٩/٨) بالروايتين، ورواه أحمد (٥٥/٦)، ومسلم (١٦٦/١٥) والترمذي (٣٤٦٥) في المناقب عن عائشة، وعند مسلم قال ابن وهب: مُحَدَّثُون مُلْهَمُون.

«مُحدَّثون»: جمع مُحدَّث، بضمّ الميم وفتح الحاء والدال المشددة. قال الحافظ في الفتح: وهو ما أُلقي في روعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى، فيكون كالذي حدّثه غيره به. وقيل: (مُكَلَّمٌ) أي: تكلّمه الملائكة بغير نبوّة.

وفي الحديث فضل عمر رضي الله تعالى عنه وأنه كان من المُلْهَمِين المُكلَّمين في بواطنهم من قِبل الله تعالى. وفي الحديث إشارة إلى وجود الملهمين في أمّته كما كان في الأمم قبلنا، وقد تواتر هذا الأمر عن كثير من الربانيين والصالحين، وعدّ ذلك من جملة كرامات الأولياء.

١٧٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الله جعل الحقّ على لسانِ عُمر وقَلْبِه»**. قال ابن عمر: ما نزل بالناس أمْرٌ قط فقالوا فيه وقال فيه عمر ـ أو ابن الخطاب ـ إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال.

رواه أحمد (٥١٤٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة، والترمذي في المناقب (٣٤٥٤)، وابن حبان (٢١٨٥)، وحسّنه الترمذي وصححه. وله شواهد عن أبي ذر، رواه أحمد، وابن ماجه (١٠٨)، والحاكم. وعن أبي هريرة رواه ابن حبان (٢١٨٤)، وعن بلال رواه الطبراني.

والحديث كسابقه في إلهام عمر وجريان الحقّ على لسانه وقلبه.

١٧١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: وافقتُ ربّي في ثلاث ـ أو: وافَقَني ربّي في ثلاث ـ. قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى. فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن قلت: إن انْتَهَيْتُنَّ أو لَيُبَدِلَنَّ اللّٰهُ رسولَه خيراً منكن. حتى أتيتُ إحدى نسائه قالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تَعِظَهُنَّ أنت؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية.

رواه أحمد (١/٢٣/٣٦/٢٤)، والبخاري في الصلاة (٥١/٢)، وفي تفسير البقرة (٢٣٥/٩)، وفي الأحزاب (١٤٦/١٠)، وفي التحريم (٢٨٦/١٠)، والترمذي في التفسير (٢٧٧٠) مطوّلاً ومختصراً.

هذا من أعظم فضائله، وهو موافقاته لنزول عدة آيات وأحكام. وقد صحّ له من ذلك ستّ: هذه الثلاث، ونزول تحريم الخمر، والنهي عن الصلاة على موتى المنافقين، وقصة أسارى بدر. وقد تقدّم جميعها في مواضعها. وله موافقات أُخر وقد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين، كما قال السيوطي في تاريخ الخلفاء، لكن الصحيح منها ما أشَرْنا إليه، وأفردها جماعة بالتأليف. وللسيوطي منظومة في ذلك سمّاها: قطف الثمر في موافقات عمر، هي من ضمن كتابه «الحاوي».

١٧٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يُكلِّمْنه ويستكثرنه عالية

أصواتُهن على صوته، فذكر الحديث وفيه قال رسول الله ﷺ: «**إيهاً يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقِيك الشيطانُ سالكاً فَجًا إلا سلك فَجًا غيرَ فَجِّك**».

رواه البخاري في الفضائل (٤٦/٤٥/٨) وفي الأدب، ومسلم في الفضائل (١٦٥/١٦٤/١٥). قال الحافظ في الفتح: فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أنَّ الشيطان لا سبيل له عليه. قال: وهذا دالٌّ على صلابته في الدين واستمرار حاله على الجد الصرف والحق المحض (٤٦/٨). ويأتي في الأدب حديثا السوداء والحبشية، إن شاء الله تعالى.

١٧٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَينا أنا نائمٌ رأيتُني في الجنة، فإذا امرأةٌ تتوضأ إلى جانِبِ قصر، فقلت: لِمَن هذا القصر؟ قالوا: لِعمر. فذكرتُ غَيرَتَه فولَّيتُ مُدبراً**». فبكى عُمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟

رواه البخاري في الفضائل (٤٢/٤١/٨)، ومسلم (١٦٣/١٥) عن جابر، وأحمد والترمذي وابن حبان عن أنس، وحسَّنه وصححه الترمذي.

١٧٤ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأى النبيُّ ﷺ على عمر ثوباً أبيض فقال: «**أجَدِيدٌ ثَوبُك أم غَسِيلٌ؟**» قال: فلا أدري ما ردَّ عليه، فقال النبيُّ ﷺ: «**الْبَسْ جديداً ومُتْ شهيداً، ويَرْزُقك الله قُرَّةَ عينٍ في الدنيا والآخرة**».

رواه أحمد (٨٩/٢) بسند صحيح على شرط الشيخين.

وقد حقق الله عزَّ وجلّ ما بشَّره به رسول الله ﷺ، فقد عاش حميد السيرة، وختم الله له بالشهادة التي طالما كان يطلبها ويتعرض لها ويدعو بها بقوله: اللَّهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد نبيِّك. رواه الترمذي.

وسيحقق له تعالى ما رآه له ﷺ من القصر والحوراء في الجنة.

١٧٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال لعمر لمّا طُعِن وجعل يألم: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك لقد صحبتَ رسول الله ﷺ

فأحْسَنْتَ صُحبتَه ثم فارقت وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ثم فارقت وهو عنك راضٍ، ثم صحبتهم فأحسنت صحبتهم ولئن فارقتهم لَتُفارِقَنَّهم وهم عنك راضُون.

رواه البخاري في المناقب (٥٢/٨).

وهذه مزية وبشارة يُحسب لها حسابها، فإنَّ رضاءه ﷺ في رضاء الله عزَّ وجلَّ. وقد تقدَّمت أحاديث في كتاب التعبير تدل على فضله رضي الله تعالى عنه، فارجع إليها.

* * *

❀ ما اشترك فيه الشيخان من الفضائل

١٧٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجلٌ يَسُوقُ بقرة إذ ركبها فضربها فقالت: إنّا لم نُخلَقْ لهذا، إنَّما خُلِقْنا للحرث»**. فقال الناس: سبحان الله بَقرةٌ تتكلَّم! فقال: **«فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»** وما هما ثَمَّ. **«وبينما رجل في غَنَمِه إذ عَدَا الذِّئبُ فَذَهَبَ منها بشاةٍ فطلب حتى كأنه اسْتَنْقَذَها منه، فقال له الذِّئبُ: هذا استنقذتها مني، فمَن لها يوم السَّبُعُ؟ يوم لا راعي لها غيري؟»** فقال الناس: سبحان الله ذئبٌ يتكلم. قال: **«فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»** وما هما ثَمَّ.

رواه أحمد (٥٠٢/٢٤٥/٢)، والبخاري في المزارعة (٤٠٥/٥)، وفي بني إسرائيل (٣٢٦/٧)، وفي المناقب (٣٣/٨)، ومسلم في الفضائل (١٥٦/١٥)، وغيرهم.

وفي الحديث بيان كمال إيمان الشيخين وقوة يقينهما وتصديقهما النبيَّ ﷺ في كل ما يأتي به أو يخبر عنه بحيث لا يَخْتَلِجُهُما أيّ تردد.

ولذلك لمّا تعجب الصحابة من تكلُّم البقرة والذئب أخبر النبيُّ ﷺ أنه يؤمن بذلك هو والشيخان جازماً بإيمانهما لما عرف من كمال يقينهما.

١٧٧ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لا أدري ما بَقائي فِيكُم فاقْتَدُوا باللذَينِ مِن بَعْدِي: أبي بكر وعُمَر»**.

رواه أحمد (٣٨٥/٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٣٥)، وابن ماجه (٩٧)، وابن حبان (٢١٩٣)، وسنده حسن صحيح.

هذه مفخرة لهما رضي الله تعالى عنهما حيث أُمِر المسلمون بالاهتداء بهديهما، واتباع سنّتهما، واقتفاء آثارهما، واتباع محاسنهما. وعلى هذا درج المسلمون من لدن الصحابة فاعتبروا ما اتفق عليه الشيخان أو الخلفاء الأربعة سنّة متبعة مأموراً بها إذا لم يوجد نصٌّ من الشارع.

١٧٨ ـ وعن عبدالله بن حُنطُب رضي الله تعالى عنه قال: رأى رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر فقال: **«هذان السَّمْعُ والبَصَرُ»**.

رواه الترمذي (٣٤٤٣)، والحاكم (٦٩/٣)، وصححه وتعقبه الذهبي فقال: حسن. وهو كما قال وذلك لشاهدين له عن ابن عباس عند أبي نعيم في الحلية (٧٣/٤) وعن جابر عند الخطيب في التاريخ (٤١٠/٨١).

ويا لها من منقبة أنَّ الشيخين من النبيِّ ﷺ كسمعه وبصره.

١٧٩ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ أهل الدرجات العُلَى لَيراهم مَن تحتهم كما ترَوْن النجم الطالِع في أُفُقِ السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»**.

رواه أحمد (٩٣/٧٢/٢٧/٣)، وأبو داود في الحروف (٣٩٨٧)، والترمذي في المناقب (٣٤٣١)، وحسّنه الترمذي، بل هو صحيح لشواهده وأصله في الصحيحين بدون ذكر الشيخين.

وقوله: **«وأنعما»** أي: زادا في هذا الأمر وتناهيا فيه إلى غايته.

وفي الحديث بشارة لهما بأنهما من أهل الدرجات العلى الذين يراهم مَن تحتهم كالنجم الطالع في أفق السماء من عظم ارتفاع مقامهما.

١٨٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: وُضِعَ عمرُ على

سريره فَتَكَنَّفَه الناس يدعون ويصلُّون قبل أن يُرفع وأنا فيهم، فلم يَرُعْنِي إلا رجلٌ آخذٌ منكبي فإذا علي بن أبي طالب يترحم على عمر وقال: ما خلّفت أحداً أحَبَّ إليَّ أن ألقى الله بِمثلِ عملِه منك، وأيمُ الله إن كُنتُ لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحِبَيك، وحسِبْتُ أني كنت كثيراً ما أسمع النبيَّ ﷺ يقول: «**ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر**».

رواه البخاري (٨/٤٧/٤٨) ومسلم (١٥/١٥٨) كلاهما في الفضائل.

قال النووي رحمه الله تعالى: وفي هذا الحديث فضيلة أبي بكر وعمر وشهادة علي عليه السلام لهما وحسن ثنائه عليهما وصدق ما كان يظنه بعمر قبل وفاته، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

هذا وفي أيام خلافة الصدِّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما جُهِّزتْ الجيوش لقتال الفُرس والروم وتمَّ فَتْحُ: العراق، والجزيرة، وإيران، وبلاد فارس، وأرمينية، وأذربيجان، وخوزستان، ودمشق، وباقي بلاد الشام، والقدس، وفلسطين، ومصر، وغيرها. وكان أكثر هذه الفتوحات أيام عمر رضي الله تعالى عنه.

* * *

❀ فضائل عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه

هو عثمان بن عفان أبي العاص القرشي الأموي أمير المؤمنين ذو النورين، أحد العشرة، وأحد الخلفاء الأربعة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد المهاجرين الهجرتين، وأحد المنفقين في سبيل الله الإنفاق الفائق، والمجهز جيش العسرة، وأحد أصهار رسول الله ﷺ، وأحد عبّاد الصحابة وقرّائهم وعلمائهم.

ولد رضي الله تعالى عنه بعد حادث الفيل بست سنين، وأسلم قديماً

بعد الإمام علي والصدِّيق وسنُّه فوق الثلاثين، وأسلم يوم إسلامه أبو عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبو سلمة، والأرقم بن الأرقم، وعثمان بن مظعون، رضي الله تعالى عنهم.

وكان أول مهاجر في سبيل الله، فهاجر إلى الحبشة بزوجته سيدتنا رقية بنت رسول الله ﷺ، ثم هاجر إلى المدينة، وبشَّره النبيُّ ﷺ بالجنة، وبايع عنه بيعة الرضوان، وكان النبيُّ ﷺ يحبه ويدنيه ويكرمه لحيائه ودمائة أخلاقه وحسن عشرته. ومن أعظم مواقفه وفضائله تجهيزه جيش غزوة تبوك، فقد أنفق في ذلك تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً. ومن فضائله العظيمة أنه اشترى بئر رومة بعشرين ألف درهم وبذلها في سبيل الله للمسلمين إجابةً لقول رسول الله ﷺ: «**مَن حفر بئر رومة فله الجنة**».

وكان رضي الله تعالى عنه أعلم الصحابة بالمناسك ومن أعبدهم حتى أنه كان أحياناً يختم القرآن كله في ليلة، حتى قالت زوجته رضي الله تعالى عنها: لقد قتلتموه وإنه يحيي الليل كله بالقرآن في ركعة.

بويع بالخلافة عقب قتل عمر سنة أربع وعشرين باتفاق من الصحابة، وسار فيهم بالسيرة الحسنة كصاحبَيه، واتسعت المملكة الإسلامية أيامه، وفتح الله على يديه كثيراً من الأقاليم والأمصار كالمغرب العربي، وقبرص، وطبرستان، وكرمان، ومرو، وسجستان، وغيرها. وبقي على حالته إلى أن نقم عليه بعض الغوغاء والخوارج من أهل القبائل العربية والمصريين والشوام بعض ما كان له من التصرفات آخر حياته كان فيها مجتهداً فقاموا عليه وحاصروه بداره وقتلوه مظلوماً، وذلك سنة خمس وثلاثين عن سنٍّ يناهز ثنتين وثمانين وأشهراً رضي الله تعالى عنه، ودفن بأقصى البقيع، وقبره معروف يزار.

١٨١ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على ذلك الحال فتحدَّث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدَّث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه فدخل فتحدَّث، فلمَّا

خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تهْتَشَّ له ولم تُبالِه، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك. فقال: **«ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟»**.

وفي رواية: **«إنَّ عثمان رجل حيي وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته»**.

رواه أحمد (٦/٦٢/١٥٥/٢٨٨) ومسلم في الفضائل (١٥/١٦٨/١٦٩).

قوله: «تَهْتَشَّ» وفي رواية: «تَهُشَّ» هي بمعنى طلاقة الوجه وحسن اللقاء وقوله: «ولم تُبَاله» أي لم تعبأ به.

وتلك منقبة هامة! بلغ من فضله وجلالته أن يستحيي منه رسول الإسلام وملائكة الرحمٰن. قال النووي في شرح مسلم: وفيه فضيلة ظاهرة لعثمان وجلالته عند الملائكة وأنَّ الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة.

١٨٢ ـ وعن أبي عبدالرحمٰن السلمي رحمه الله تعالى أنَّ عثمان رضي الله تعالى عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله، ولا أنشدكم إلا أصحاب النبيِّ ﷺ، تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَن حَفَرَ بئر رُومَةَ فله الجنَّة»** فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال: **«مَن جَهَّزَ جيشَ العُسْرة فله الجنَّة»** فجهَّزته. قال: فصدَّقوه بما قال.

رواه البخاري في الوقف (٦/٣٣٦) وفي المناقب (٨/٥٤) معلقاً، ووصله الإسماعيلي بسند صحيح.

وفي رواية: قال: لمّا حصر عثمان أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكِّرُكم بالله، هل تعلمون أنَّ حراء حين انتفض قال رسول الله ﷺ: **«اثبت حراء، فليس عليك إلا نبيّ، أو صدّيق، أو شهيد»**؟ قالوا: نعم. قال: أذكُركم بالله، هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: **«مَن ينفق نفقةً متقبَّلةً والناس مُجْهِدُون مُعْسرون؟»** فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكِّركم بالله، هل تعلمون أنَّ رومة لم يكن يشْرَبُ منها أحدٌ إلا بثمن، فابتعتُها فجعلتُها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: نعم، اللّهم نعم. وأشياء عددها.

رواه أحمد (١/٥٩)، والترمذي في المناقب (٣٤٧١) وحسَّنه

وصححه، والنسائي في الأحباس، وابن حبان (٣٤١/١٥) بالإحسان، وسنده صحيح على شرط مسلم عند بعضهم.

١٨٣ ـ وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال: ائتوني بصاحِبَيْكُم اللذيْن ألَّبَاكُم عليَّ. قال: فجيء بهما كأنهما جملان أو كأنهما حماران. قال: فأشرف عليهم عثمان فقال: أنشدكم بالله وبالإسلام، هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قدِم المدينة وليس ماء يُستعذب غير بئر رومة فقال رسول الله ﷺ: **«مَن يَشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟»** فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتى أشرب من ماء البحر؟ قالوا: اللَّهم نعم. فقال: أنشدكم بالله وبالإسلام، إنَّ المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: **«مَن يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟»** فاشتريتها من صُلْب مالي وأنتم اليوم تمنعوني أن أصلِّي فيها ركعتين؟ قالوا: اللَّهم نعم. قال: أنشدكم بالله وبالإسلام، هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ كان على ثبير ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض. قال: فركضه برجله فقال: **«اسكت ثبير، فإنما عليك نبيّ وصدِّيق وشهيدان»**؟ قالوا: اللَّهم نعم. قال: الله أكبر، شهدوا لي وربّ الكعبة!! إني شهيد.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٧٥) وحسَّنه وهو كما قال. غير أنَّ قوله: **«ثبير»** شاذٌّ والمحفوظ أُحُد أو حراء. وقوله: (أنشدكم) أي: أسألكم. وقوله: (يستعذب) أي: حلو صالح للشرب. وقوله: (بالحضيض) أي: بأسفل الجبل.

فهذه فضائل ومزايا اختصَّ بها سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه عن غيره من الأصحاب: شراؤه بئر رومة ووقفها على المسلمين وهي صدقة جارية، وتجهيزه جيش العسرة بما لم يشاركه فيه أحد، وشراء أرض زيدت في المسجد فهي صدقة جارية أيضاً، فلا زال ولا يزال ثوابها يصله إلى أن يرِث الله الأرض ويتعطل المسجد النبويُّ عن الصلاة فيه.

١٨٤ ـ وعن عبدالرحمٰن بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء عثمان إلى النبيِّ ﷺ بألف دينار في كُمّه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره. قال عبدالرحمٰن: فرأيت النبيَّ ﷺ يقلبها في حجره ويقول: **«ما ضَرَّ عثمان ما عَمِلَ بعد اليوم» مرتين.**

رواه أحمد (٦٣/٥)، والترمذي (٣٤٧٣)، والحاكم (٤٦٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

فهذه شهادة عادلة صادقة من نبيِّ الإسلام صلوات الله وسلامه عليه لسيدنا عثمان بأنه لا يضرّه أيّ عمل سيىء بعد تجهيزه جيش العسرة.

فهل أحرز الناقمون عليه ومنتقدوه من معاصرينا فمَن قبلهم على مثل هذه الشهادة؟ وأين الثرى من الثريا، والحدادون من الملائكة! فاتقوا الله يا مهبولون ومغفلون.

١٨٥ ـ وعن فاطمة بنت عبدالرحمٰن عن أمها أنها انطلقت إلى البيت حاجّة. قالت: فلما قضيت طوافي دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها. قالت: يا أم المؤمنين، إنَّ بعض بنيك يقرئك السلام وإنَّ الناس قد أكثروا في عثمان، فما تقولين فيه؟ قالت: لعن الله مَن لعنه ـ لا أحسبها إلا قالت ثلاث مرار ـ لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو مسند فخذه إلى عثمان وإني لأمسح العرق عن جَبين رسول الله ﷺ وإنَّ الوحي ينزل عليه، ولقد زوَّجه ابنتيه إحداهما إثر الأخرى، وإنه ليقول: **«اكتب عثمان»**. قالت: ما كان الله لِيُنزل عبداً مِن نبيِّه بتلك المنزلة إلا عبداً عليه كريماً.

رواه أحمد (٢٦١/٦) ورجاله ثقات إلا المرأة فغير معروفة ولا تضرّ هنا. فإنَّ تزوُّج عثمان بابنتَي النبيِّ ﷺ رقية وأم كلثوم أمر متواتر، وكونه من كتّاب الوحي مشهور أيضاً.

١٨٦ ـ وعن عثمان بن عبدالله بن موهب أنَّ رجلاً من أهل مصر حجَّ البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: مَن هؤلاء؟ قالوا: قريش. قال: فمَن هذا الشيخ؟ قالوا: ابن عمر. فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء، فحدِّثني أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أنَّ عثمان فَرَّ يوم أُحُد؟ قال: نعم. قال: أتعلم أنه

تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: أتعلم أنه تغيَّب يوم بدر فلم يشهده؟ قال: نعم. فقال: الله أكبر. فقال له ابن عمر: تعالَ حتى أُبَيِّنَ لك ما سألتَ عنه: أمّا فراره يوم أُحد فأشهد أنَّ الله تعالى قد عفا عنه وغفر له، وأمّا تَغَيُّبه يوم بدر فإنه كانت عنده ـ أو تحته ـ ابنة رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه**»، وأمّا تغيُّبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لَبعثه رسول الله ﷺ مكان عثمان، بعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. قال: فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**» وضرب بها على يده وقال: «**هذه لعثمان**». قال له: اذهب بهذا الآن معك.

رواه أحمد (١٠١/٢)، والبخاري في مناقب الإمام علي ومناقب عثمان (٥٩/٨/٦٠)، والترمذي في المناقب (٣٤٨٠) بتهذيبي.

١٨٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى أهل مكة. قال: فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله ﷺ**» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٧٤) وحسَّنه وصححه.

ففي الحديثين فضل لعثمان وليس تنقيصاً له كما فهمه الرجل المصري: فإنَّ الحديث الأول نصٌّ في أنه من أهل بدر في الأجر والغنيمة لأنه كان قد خلفه النبيّ ﷺ لتمريض ابنته رقية التي توفيت والنبيُّ ﷺ ببدر، فجهزها عثمان ودفنها. كما أنه من أهل بيعة الرضوان بنيابة رسول الله ﷺعنه، لأنه كان سفيراً لرسول الله ﷺ في حاجة الله وحاجة رسوله ﷺ عند كفار قريش. كما أنه معفوٌّ عنه ومغفور له ما صدر منه ومن غيره ممَّن فرُّوا يوم أُحد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

لكن الأعداء يبحثون عن المساوىء ويغضُّون الطرف عن المحاسن خاصة وأنَّ عثمان من أكابر المبشَّرين المرضي عنهم.

١٨٨ ـ وعن أبي الأشعث الصنعاني أنَّ خطباء قامت بالشام فيهم رجال من أصحاب النبيِّ ﷺ، فقام آخرهم رجل يقال له: مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت. وذكر الفتن يُقَرِّبُهَا، فمرَّ رجل متقنع في ثوب فقال: هذا يومئذ على الهدى. فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان فأقبلت إليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم.

رواه أحمد (٤/٢٣٥/٢٣٦)، والترمذي في المناقب (٣٤٧٦)، والحاكم (٣/١٠٢)، وحسَّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، ورواه ابن ماجه في المقدمة (رقم: ١١١) عن كعب بن عجرة.

فهذه شهادة صادقة من حضرة النبيِّ ﷺ لعثمان رضي الله تعالى عنه بأنه على الحقِّ وطريق الهدى يوم تكون الفتنة، وأول فتنة وقعت بين الصحابة كانت آخر أيام عثمان رضي الله تعالى عنه التي انتهت بسفك دمه وقتله ظلماً.

١٨٩ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: **«وددت أن عندي بعض أصحابي»**. قلنا: يا رسول الله، ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: **«نعم»**. فجاء فخلا به، فجعل النبيُّ ﷺ يكلِّمه ووجه عثمان يتغير. قال قيس: فحدَّثني أبو سهلة مولى عثمان بن عفان قال: قال يوم الدار: إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً فأنا صائر إليه. وفي رواية: وأنا صابر عليه. قال: فكانوا يرونه ذلك اليوم.

رواه ابن ماجه (١١٣). قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وروى الترمذي (٣٤٧٣) آخره عن أبي سهلة وحسَّنه وصححه، ورواه الحاكم (٣/٩٩) بلفظ: فلمّا كان يوم الدار قلنا: ألا تقاتل؟ قال: لا، إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً فأنا صابر بنفسي عليه. وصححه هو والذهبي.

١٩٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمان، إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاث مرات.** قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعكِ أن تُعْلِمي الناس بهذا؟ قالت: أُنْسِيتُه.

رواه أحمد (٦/١٤٩/٧٥)، والترمذي (٣٤٧٧)، وابن ماجه (١١٣)، والحاكم (٣/٩٩/١٠٠) بسند صحيح.

وفي رواية للترمذي: **«يا عثمان، إنه لعلَّ الله يقمّصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»**. فهذا القميص الذي قمَّصه الله عزَّ وجلّ هو الخلافة التي ابتلي بها. وفي حديث عائشة الأخير دليل صريح على نفاق أولئك الخوارج الذين كانوا يطلبون منه التخلي عن الخلافة.

١٩١ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: **«يُقتل هذا فيها مظلوماً»** لعثمان بن عفان.

رواه أحمد (٥٩٥٣)، والترمذي في المناقب (٣٤٧٩)، قال الحافظ: إسناده صحيح. ورواه الحاكم (٣/١٠٢) من حديث مرة بن كعب بنحوه وصححه.

فهذا نصٌّ بأنَّ قتله كان ظلماً لأنه لم يكن يستحقُّ القتل، فغايته أنه عمل أعمالاً اجتهد فيها فأخطأ، وخطأ المجتهد مغفور بل هو فيه مأجور.

١٩٢ ـ وعن ابن عمر أيضاً أنَّ عثمان أصبح فحدَّث فقال: إني رأيت النبيَّ ﷺ الليلة في المنام فقال: يا عثمان، أفطِر عندنا. فأصبح عثمان صائماً، فقُتل من يومه.

رواه الحاكم (٣/١٠٣) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية لكثير بن الصلت أنه قال لهم: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا فقال: إنك شاهد معنا الجمعة.

رواه الحاكم (٣/٩٩) وصححه هو والذهبي أيضاً.

ولذلك لم يقاوم مَن قتلوه بل استسلم واقتفى أثر هابيل ابن آدم عليه السلام، فباء قاتلوه بالإثم والخزي وبقيت أعمالهم السافلة يتحدَّث بها الناس على صفحات التاريخ إلى يوم البعث.

١٩٣ ـ وعن عبدالله بن عدي بن الخيار في قصة الوليد: قال عثمان رضي الله تعالى عنه: أمّا بعد، فإنَّ الله بعث محمداً ﷺ بالحقّ، فكنت ممَّن استجاب لله ولرسوله ﷺ وآمنت بما بُعث به، وهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ وبايعتُه، فوالله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله، ثم استخلفت...

رواه البخاري في المناقب (١٥٧/٨).

فهذا سيدنا عثمان وهذه فضائله وهذه حياته الزاخرة بجلائل الأعمال الطيبة، فماذا عسى أن يقول بعد هذا أعداء الصحابة، وأعداء الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❀ فضائل أبي الحسنين سيدنا علي رضي اللَّه تعالى عنه

الإمام علي هو أبو الحسن وأبو تُرَاب، سيدنا علي بن أبي طالب الهاشمي المكي ثم المدني الكوفي، أمير المؤمنين ابن عمّ الرسول ﷺ، وأخوه، ووليُّه، وصهره على بنته الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وأبو السبطين الحسن والحسين، وجدُّ الأشراف والذرية الطاهرة، أول هاشمي وُلد بين هاشميين، وأول خليفة من بني هاشم، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد البدريين المغفور لهم المرضيين، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد السابقين إلى الإسلام، بل هو أوّلهم، وأحد الخلفاء الراشدين المهديين، وأحد كبار العلماء الربانيين، وأبطال الصحابة والشجعان، وأحد كبار الزهّاد المذكورين.

رُبّي في حجر النبيّ ﷺ وشبّ وترعرع في بيت النبوّة، وكان أول مَن أسلم مع خديجة والصدّيق رضي الله تعالى عنهم. وأجمع أهل السّير والتواريخ على أنه شهد مع النبيّ ﷺ كل غزواته ومشاهده غير تبوك فإنه استخلفه فيها النبيّ ﷺ على الأهل والذرية كما يأتي، وكان له في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبيّ ﷺ اللواء في مواطن كثيرة، وراية المهاجرين كانت معه في سائر المشاهد، وأحواله في الشجاعة وآثاره في الحروب معلومة مشهورة.

وُلد رضي الله تعالى عنه قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وولي الخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه باتفاق من المهاجرين والأنصار، ثم قام بعض الصحابة يطالبون بالقبض على قتلة عثمان فتريّث الإمام علي عليه السلام تحفُّظاً من الفتنة، فقام عليه طلحة والزبير وغيرهما فقاتلهم في وقعة الجمل، وقام ضده معاوية بالشام غير معتدٍّ ببيعته فقاتله أيضاً هو الآخر فكانت وقعة صفّين إلى أن وقع التحكيم، فنقم عليه ذلك بعض مَن كان معه فخرجوا عليه فكفّروه وكفّروا معاوية وطلحة والزبير... فقاتلهم أيضاً وكانت وقعة النهروان، ثم كانت نهايته أن قتله الشقي اللعين عبدالرحمٰن بن ملجم الخارجي عام أربعين، فمات شهيداً رضي الله تعالى عنه ونوّر ضريحه وعمره ثلاث وستون سنة.

أنجب ثلاثة وثلاثين ولداً: أربعة عشر ذكراً، وتسع عشرة أنثى، ولم ينسل منهم إلا الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر رضي الله تعالى عنهم. ومن أولاده: عثمان، وأبو بكر، وأم كلثوم التي تزوجها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

والذرية الطاهرة كانت من ولدَيه الحسن والحسين ابنَي فاطمة عليهم السلام خاصة.

* * *

● كان الإمام علي أكثر الصحابة فضائل

قال الحافظ في المناقب (ج ٧١/٨): قال أحمد، وإسماعيل القاضي، والنسائي، وأبو علي النيسابوري: لم يرِد في حقِّ أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي.

قال الحافظ: وكان السبب في ذلك أنه تأخر ووقع الاختلاف في زمانه وخروج مَن خرج عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة مَن كان بينهما من الصحابة ردًّا على مَن خالفه، فكان الناس طائفتين لكن المبتدعة قليلة جداً، ثم كان من أمر علي ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتدَّ الخطب فتنقَّصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنَّة ـ يعني بهم بغاة بني أميَّة ومَن شايعهم ـ، ووافق الخوارج على بغضه وزادوا حتى كفَّروه مضموماً ذلك منهم إلى عثمان، فصار الناس في حقه على ثلاثة: أهل السنَّة ـ يعني الذين بايعوه ووفوا ببيعته وبقوا تحت طاعته ـ، والمبتدعة من الخوارج، والمحاربين له من بني أميَّة وأتباعهم. فاحتاج أهل السنَّة إلى بثِّ فضائله، فكثر الناقل لذلك لكثرة مَن يخالف ذلك. اهـ كلام الحافظ.

١٩٤ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»**. قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها. قال: فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: **«أين علي بن أبي طالب؟»** فقالوا: يا رسول الله، يشتكي عينيه. قال: **«فأرسلوا إليه»**. فأُتِيَ به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن معه وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»**.

رواه البخاري في المناقب وفي مواضع، ومسلم في الفضائل

(١٧٧/١٥)، ورورياه عن ابن الأكوع، ورواه مسلم عن أبي هريرة، وعن سعد بن أبي وقاص، وانظر ما سبق في غزوة خيبر.

ففي الحديث فضيلة هامة للإمام علي وخصيصة له عليه السلام لم تعرف لغيره، وهذا الموقف البطولي حيث شهد له رسول الله ﷺ بمقام المحبوبية وهو مقام خاص لا يناله إلا أكابر الرجال والنساء. ويا لها من شهادة في ذلك الموطن.

١٩٥ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبيّ الأمّي ﷺ إليّ أن لا يُحِبّني إلا مؤمنٌ ولا يُبغضني إلا منافقٌ.

رواه أحمد (٩٥/٨٤/١)، والحميدي (٥٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤/٢)، والترمذي في المناقب (٣٧٣٦)، والنسائي في الإيمان من المجتبى (١١٦/١١٥/٨)، وفي الفضائل (٨١٥٣)، وفي الخصائص (٨٤٨٧/٨٤٨٦/٨٤٨٥) من السنن الكبرى، وابن ماجه (١١٤)، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: (فلق الحبة) أي: شقها وأنبتها. و(برأ النسمة) أي: خلق الروح أو كل دابة فيها روح. (إنه لعهد) العهد: هو الوصية، وقد يراد به الأمر بالشيء.

وفي الحديث فضيلة هامة للإمام رضي الله تعالى عنه وميزان شرعي نبويّ يُعرف به المؤمن من المنافق؛ فمَن أحبه لقرابته من رسول الله ﷺ، وحبّ النبيّ ﷺ له، واختصاصه به، وما كان منه من نصر الإسلام وهجرته، وجهاده، وسوابقه، ومصاهرته للنبيّ ﷺ كان ذلك علامة على إيمانه وصدقه وإخلاصه فيه، بينما مَن كان بعكس ذلك يبغضه ويعاديه... كان مدخول الإيمان، معلول الإسلام، خبيث السريرة، وهذا بخلاف مَن انحرف عنه وأبغضه لأمور شخصية وأغراض دنيوية كما يقع عادة بين الأقارب وعامة الناس حسب الطبيعة البشرية، أو كان ذلك مع تأويل واجتهاد كما وقع من طلحة والزبير وعائشة معه رضي الله تعالى عنهم؛ فإنّ هؤلاء لم يكونوا يبغضونه أو يحاربونه لدينه وقرابته من رسول الله ﷺ ولسابقته،

كلا وحاشا من ذلك وهم المرضي عنهم والمبشَّرون بالجنة، بل كانوا رأوا رأياً فاجتهدوا وأخطأوا، فغفر الله تعالى لهم خطأهم لصدقهم ونيتهم الصالحة، وهذا ما أجمع عليه أهل السنّة. ودعك من الروافض الذين يحكمون على أكابر الصحابة بالنفاق تعلقاً بهذا الحديث.

١٩٦ ـ وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تَسُبَّ أبا تراب؟ فقال: أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبَّه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليَّ من حُمْر النَّعَم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له، وقد خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي»**. وسمعته يقول يوم خيبر: **«لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسولَه، ويحبّه الله ورسوله»**. قال: فتطاولنا لها فقال: **«ادعوا لي عليًا»**. فأُتيَ به أرْمَد، فبصق في عينيه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه. ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحَسَناً وحُسَيناً فقال: **«اللّهم هؤلاء أهلي»**.

رواه أحمد (١/١٨٥)، ومسلم (١٥/١٧٥/١٧٦) والترمذي (٣٧٢٤) كلاهما في المناقب هكذا مطوَّلاً، ورواه النسائي في الكبرى (٨١٤٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٩) بالاقتصار على آخره، ورواه الحاكم (٣/١٠٨/١٠٩) بتمامه مع تقديم وتأخير، وهو صحيح على شرط مسلم كما قال الذهبي، وأوله رواه البخاري، ورواه ابن ماجه (١٢١) من طريق آخر بلفظ قال: قدم معاوية المدينة في بعض حجّاته فدخل عليه سعد، فذكروا عليًا فنال منه، فغضب سعد وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول... الحديث.

قوله: (ما منعك) أي: ما الذي جعلك تمتنع من شتم علي والنيل منه. وقوله: (حمر النعم): هي أحب أموال العرب من الإبل إليهم. قوله:

(بعض مغازيه): هي تبوك. قوله: (فتطاولنا) أي: جعلنا ننظر ونتمدد من بعيد لمَن سيعطيها ومَن المراد بها.

كان معاوية وعمّاله ومَن جاء بعدهم من بني أميَّة في الأقاليم والأمصار يسبُّون الإمام عليًا ويلعنونه على المنابر في الجُمَع والأعياد والمجامع والمناسبات ويأمرون الناس بذلك، وينكرون على مَن لم يلعنه، بل ربما عاقبوه حتى بالقتل، وقد صحَّت الأخبار بما ذكرنا في دواوين السنَّة.

ولا أصرح من حديث الباب فالعجيب ممَّن ينكر ذلك.

١٩٧ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: استُعمل على المدينة رجل من آل مروان. قال: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليًا رضي الله تعالى عنه، فأبى سهل، فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا تراب. فقال سهل: ما كان لعليٍّ اسم أحب إليه من أبي التراب... الحديث في سبب تسميته بذلك.

رواه البخاري (٧٣/٨) ومسلم (١٨٣/١٥) كلاهما في المناقب واللفظ لمسلم.

١٩٨ ـ وفي الباب عن شداد أبي عمار أنه دخل على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا عليًا ـ يعني نالوا منه ـ الحديث.

رواه أحمد (١٠٧/٤) والحاكم (٤١٦/٢ و١٤٧/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

١٩٩ ـ وعن قطبة بن مالك قال: نال المغيرة بن شعبة من علي، فقال زيد بن أرقم: فلمَ تسبُّ عليًا، قد مات.

رواه أحمد (٣٦٩/٤) ورواه الحاكم من طريق آخر هو بها حسن.

والمقصود أنَّ بني أميَّة ومَن شابههم كانوا يسبُّون عليًا ويلعنونه ويأمرون الناس بذلك، وهو أمر ثابت مستفيض عنهم لا يمكن إنكاره. قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: كان في بني أميَّة أكثر من سبعين ألف منبر يُلعن عليها علي بن أبي طالب.

قال الأبي في شرح مسلم: إنَّ التصريح بالسبِّ وقبيح القول إنما كان يفعله جهّال بني أميَّة وسفلتهم.

ونحن نبرأ إلى الله تعالى مما كانوا يفعلونه ونكِلُ أمرهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ سبَّ هذا الإمام هو سبٌّ لرسول الله ﷺ.

٢٠٠ ـ قال أبو على الجَدلِي: دخلت على أم سلمة رضي الله تعالى عنها فقالت: أيُسَبُّ رسول الله ﷺ فيكُم؟ فقلت: سبحان الله ـ أو معاذ الله ـ. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن سَبَّ عليًا فقد سَبَّني**».

رواه أحمد (٣٢٣/٦)، والنسائي في الكبرى (٨٤٧٦)، والحاكم (١٢١/٣) ورجاله ثقات، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وعزاه النور في المجمع (١٣٠/٩) لأحمد وقال: رجاله رجال الصحيح غير الجدلي وهو ثقة.

وقول سعد: أما ما ذكرت ...إلخ. بيان منه لما خصَّ الله عزَّ وجلَّ به عليًا من المناقب وأنه لا يستحق السبَّ واللعن والعداء. وقوله: «**أما ترضى**»، هذا القدر من الحديث يقال له: حديث المنزلة، وهو متواتر وارد عن قريب من عشرين نفساً من الصحابة، واتفق على إخراجه الشيخان، ومعناه: إنك متصل بي ومنزَل مني منزلة هارون من أخيه موسى، فأنت وزيري وخليفتي في حياتي. يشبه حمله ويشبه عيه السلام بالله عليه وسلم

وتقدَّم في حديث البراء في عمرة القضاء أنه ﷺ قال للإمام علي عليه السلام: «**أنت مني وأنا منك**». يعني في النسب والمصاهرة والمحبة والأسبقية في الإسلام. اى يحمله و يحمله النبي صلى الله عليه وسلم

٢٠١ ـ وعن أبي الطفيل رضي الله تعالى عنه قال: جمع علي رضي الله تعالى عنه الناس في الرحبة ثم قال لهم: أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غَدِيرِ خُمٍّ ما سمع لَمّا قام. فقام ثلاثون من الناس. وفي رواية: فقام ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس: «**أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**» قالوا: نعم، يا رسول الله،

قال: «**مَن كنت مولاه فعلي مولاه، اللَّهم والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه**». قال: فخرجت وكان في نفسي شيء، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت عليًا يقول كذا وكذا. قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك.

رواه أحمد (٤/٤٧٠)، وابن حبان (٢٢٠٥) بسند صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٩/١٠٤): رجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة. ورواه النسائي في الكبرى (٨/٤٨) مطوَّلاً، كما رواه أحمد (١/١١٨)، والنسائي في الكبرى (٨٤٦٤)، والحاكم (٣/١٠٩) بسياق آخر، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ورواه الترمذي (٣٤٨٥) بتهذيبي مختصراً بسند صحيح.

وللحديث شواهد وطرق كثيرة؛ قال الذهبي في تذكرة الحفَّاظ (٢/١٠٤٣): له طرق جيدة. وقال الحافظ ابن حجر: حديث كثير الطرق جداً، استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، منها صحاح ومنها حسان. وقال الحافظ السيوطي: متواتر.

وقوله: «**اللَّهم والِ مَن والاه...**» إلخ. ورد أيضاً من طرق أخرى صحيحة، وقد أورد له الهيثمي في المجمع (٩/١٠٣/١٠٨) طرقاً كثيرة، فالعجب من ابن العربي وابن تيمية في تضعيفه. (وابن تيمية وقع في الإمام علي)

وفي هذا الحديث فضل ظاهر ومنقبة هامة للإمام علي عليه السلام لا توجد لغيره حيث جعله النبيُّ ﷺ وليّ كل مؤمن، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يوالي مَن والاه ويعادي مَن عاداه.

٢٠٢ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا علي، ألا أُعَلِّمُك كلماتٍ إذا قلتَهُن غفرَ الله لك مع أنه مغفورٌ لك: لا إله إلا الله العليّ العظيم، لا إله إلا الله الحليمُ الكريمُ، سبحان الله ربّ السماواتِ السبع ورب العرشِ العظيم، والحمد لله ربّ العالمين**».

رواه أحمد (١/٩٣/١٥٨)، والنسائي في الكبرى (٤/٨٤)، وابن حبان

(٢٢٠٦) بالموارد، والحاكم (١٣٨/٣) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وهذه منقبة وبشارة خاصة لهذا الإمام بأنه مغفور له رضي الله تعالى عنه.

٢٠٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا مَدِينةُ العلمِ وعليٌ بَابُها، فمَن أرادَ المدينة فليأتِ البابَ»**.

رواه ابن جرير في تهذيب الآثار (٩٠/١)، والطبراني في الكبير (٦٦/٦٥/١١)، والحاكم (١٢٦/٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣٤٨/٤ و١٧٣/١٧٢/٧ و٤٩/٤٨/١١) أربعتهم من طريق عبدالسلام بن صالح الهروي عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس به، ورجاله ثقات. والهروي قال فيه ابن معين: ثقة صدوق. وقال مرة: لم يكن أبو الصلت عندنا من أهل الكذب. وانظر المستدرك (١٢٧/١٢٦/٣) وتاريخ الخطيب (٤٩/٤٨/١١) وإنما لمزوه بالتشيُّع على أنه لم ينفرد بالحديث فإنَّ له متابعَين أحدهما وهو محمد بن جعفر الفيدي من رجال البخاري، كما أنَّ للحديث شاهدَين عن علي نفسه رواه الترمذي (٣٤٩٥) وابن جرير في التهذيب (٨٩/١) وصححه، وعن جابر رواه الحاكم (١٢٧/٣) والخطيب (٣٧٧/٢) وصححه الحاكم أيضاً.

فالحديث حسن صحيح. ونظراً للقواعد الحديثية حسَّنه جماعة من الحفَّاظ كصلاح الدين العلائي، وابن حجر في الفتاوى وفي لسان الميزان، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، والسخاوي في المقاصد الحسنة، والمناوي في التيسير، كما صححه آخرون كابن معين، وابن جرير، والسمرقندي، والزركشي، والسيوطي في الجامع الكبير. وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة: إنه من قسم الحسن لا يرتقي إلى الصحة، ولا ينحطّ إلى الكذب.

أما ابن الجوزي فأورده في الموضوعات، ولأستاذنا الحافظ سيدي

أحمد الصديق كتاب في تصحيحه أجاد فيه وأفاد، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

إذا علمت هذا فالواقع يصدق هذا الحديث، فقد كان رضي الله تعالى عنه أعلم الصحابة، يسيل علماً موفَّقاً مهدياً، وقد شهد له أكابر الصحابة بذلك؛ فقد ورد عن عمر كلام كثير في علم علي كقوله: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن إلى جنبي. وقوله: لولا علي لَهلك عُمر. وقوله: لا يفتي أحد في المسجد وعلي حاضر. وقوله: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب. وقال: أقرأنا أُبَيّ وأقضانا علي.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٣٣).

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا نتحدث أنَّ أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب.

رواه الحاكم وصححه، وانظر الفتح (٩/٢٣٤)، وفي صحيح مسلم (٣/١٧٥) عن شريح بن هانىء قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفَّين فقالت: عليك بابن أبي طالب. وقالت: أما إنه أعلم الناس بالسنَّة. رواه ابن أبي خيثمة.

وسئل عطاء بن أبي رباح: أكان في أصحاب محمد ﷺ أحد أعلم من علي بن أبي طالب؟ قال: لا والله ما أعلمه. رواه ابن أبي خيثمة.

ومن أشهر قضاياه الدالَّة على فقهه ووفور علمه:

٢٠٤ ـ ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أُتِيَ عُمر بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أُناساً فأمر بها عُمر أن تُرْجَمَ، فَمَرَّ بها علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر أن تُرجَم. قال: فقال: ارجعوا بها. ثم أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أما علمتَ أنَّ القلم قد رُفِع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يَبرأ، وعن النائم حتى يَستَيقِظ، وعن الصبي حتى يعقِل؟

قال: بلى. قال: فما بال هذه تُرجَم؟ قال: لا شيء. قال: فأرسِلْها. قال: فأرْسَلَها. قال: فجعل يُكَبِّر.

رواه أحمد (١/١٥٤/١٥٥)، وأبو داود (٤٣٩٩/٤٤٠٠/٤٤٠١)، وغيرهما، وسنده صحيح، وعلَّقه البخاري في الطلاق (١١/٣٠٠) وفي الحدود (١٥/١٣١) بصيغة الجزم.

فلولا سيدنا علي عليه السلام وفقهه لَذهبت المجنونة المسكينة ضحية خطأ؛ ولذا كبَّر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه.

٢٠٥ ـ وعن أبي عبدالرحمٰن السلمي رحمه الله تعالى قال: أُتِي عمر بن الخطاب بامرأة جَهدَها العَطشُ فمرَّت على راعٍ فاستسقت، فأبى أن يسقيها إلا أن تُمَكِّنَه من نفْسِها ففعلت، فشاور الناسَ في رجمها، فقال علي: هذه مضطرة، أرى أن تُخلِّي سبيلها. ففعل.

رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣٦) وسنده صحيح.

٢٠٦ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند النبيِّ ﷺ في نفرٍ من المهاجرين والأنصار فقال: **«ألا أخبركم بخياركم؟»** قالوا: بلى. قال: **«الموفُون المُطَيَّبُون، إنَّ الله يحب الخَفِيَّ التقي»**. قال: ومرَّ علي بن أبي طالب فقال ﷺ: **«الحقُّ مَعَ ذا، الحقُّ مَعَ ذا»**.

رواه أبو يعلى ج١/٤٥١، قال الهيثمي (٧/٢٣٥): ورجاله ثقات.

فهذا يدل صراحة على أنَّ الحق كان دائماً حليف الإمام علي في جميع تصرفاته، وأنَّ مقاتليه كانوا بغاة معتدين عليه، وأنه كان مصيباً في جميع حروبه سواء في وقعة الجمل أو صفِّين أو النهروان، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل السنَّة.

والكلام على هذه الوقائع يأتي في الفتن، وتقدَّم بعض ذلك في الخلافة والإمارة.

* * *

● استشهاده رضي اللّه تعالى عنه

٢٠٧ ـ عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال له ولعلي: **«ألا أحدِّثكما بأشقى الناس؟»** قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: **«أُحَيْمِرُ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يَضربك يا علي على هذه** ـ يعني قرْنَه ـ **حتى تَبتلَّ هذه من الدم»** يعني لحيته.

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، والحاكم (١٤١/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وكذا صححه السيوطي في تاريخ الخلفاء. وللحديث شاهدان عن جابر بن سمرة وصهيب.

«أُحَيْمِرُ»: تصغير أحمر، وهو لقب لعاقر ناقة نبيّ الله صالح عليه السلام، وكان يقال له: قدَار بن سالف، قدار كغراب، فهو أشقى الأوّلين.

وقاتل الإمام علي عليه السلام أشقى الآخرين، وهو عبدالرحمٰن بن ملجم الخارجي، فباء هذا الشقي بالخزي والطرد، وفاز وسعد الإمام علي بالشهادة كصاحبَيه الفاروق وذي النورين.

وكان قتله رضي الله تعالى عنه سنة أربعين للهجرة بمدينة الكوفة وبها دُفن، وفيها قبره على المشهور.

وبه تمَّت تراجم الخلفاء الأربعة الراشدين الهداة المهديين رضي الله تعالى عنهم، وجاء ترتيبهم حسب خلافتهم، أما التفاضل فيما بينهم ففيه آراء وأنظار، وهم عندي كأصابع اليدين كلهم فاضل تقي نقي خيِّر راشد ناصح، والحمد لله ربِّ العالمين وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

* * *

❀ فضائل طلحة بن عبيداللّه رضي اللّه تعالى عنه

هو طلحة بن عبيدالله القرشي التيمي، أحد السابقين وأحد العشرة، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد الصدِّيق، وأحد الستة الذين مات عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وهم الذين رشحهم عمر للخلافة عند مقتله فجعلها شورى بينهم.

شهد مع رسول الله ﷺ كل المشاهد إلا بدراً فإنه كان في الشام، وكان ممَّن ثبت مع النبيِّ ﷺ في وقعة أُحد وأبلى فيها بلاءً شديداً حتى شلّت يده.

٢٠٨ ـ عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى قال: لم يبقَ مع النبيِّ ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غير طلحة وسعد.

رواه البخاري (٨/٨٤) ومسلم (١٥/٨٨) كلاهما في الفضائل.

فكان رضي الله تعالى عنه في غزوة أُحد من الذين ثبتوا ولم ينهزم، وكان يقي النبيَّ ﷺ بنفسه حتى شُلَّت يده وجُرح جراحات بالغة وهو صامد.

٢٠٩ ـ فعن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: رأيت يد طلحة التي وَقَى بها النبيَّ ﷺ قد شُلَّتْ.

رواه ابن أبي شيبة (٣٢١٥٦) والبخاري في الفضائل (٨/٨٤) وفي المغازي (٨/٣٦٤).

و(الشلل): بطلان عمل العضو.

٢١٠ ـ وعن موسى بن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيت بطلحة أربعة وعشرين جرحاً جُرحها مع رسول الله ﷺ.

رواه ابن أبي شيبة (٣٢١٥٧).

٢١١ ـ وعن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: كان على النبيِّ ﷺ يوم أُحد درعان، فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، فأقعد تحته طلحة فصعد ﷺ حتى استوى على الصخرة. قال الزبير: فسمعت النبيَّ ﷺ يقول: **«أوجب طلحة»**.

رواه أحمد (١٤١٧)، وابن أبي شيبة (٣٣١٦٠)، والترمذي في الجهاد (١٥٥٢) وفي المناقب (٣٥٠٩)، وابن حبان (٢٢١٢) بالموارد، والحاكم

(٣٧٤/٣)، وحسّنه الترمذي وصححه، وراجع ما تقدَّم في غزوة أُحد.

٢١٢ ـ وعن طلحة رضي الله تعالى عنه أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سَلْه عمَّن قضى نحبه ومَن هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته، يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه ثلاثاً، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعليَّ ثياب خضر، فلمّا رآني النبيُّ ﷺ قال: «**هذا ممَّن قضى نحبه**».

رواه ابن أبي شيبة (٣٢١٥٩)، والترمذي (٢٩٩٥ و٣٥١٣)، وسنده حسن وهو صحيح لشاهد له عن موسى بن طلحة، رواه الترمذي أيضاً وابن ماجه (١٢٧/١٢٦).

فكان طلحة من الرجال الصادقين الذين عاهدوا الله لئن أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ليثبتن ويقاتلوا حتى الموت، وفيهم نزل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٢١٣ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن سَرَّه أن يَنظرَ إلى شهيدٍ يَمْشي على وجْه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عُبَيْدِالله**».

رواه الترمذي (٣٥١٠) وابن ماجه (١٢٥) وهو حسن لشواهده.

قُتِل طلحةُ رضي الله تعالى عنه مظلوماً أوائل جمادى الأولى سنة ست وثلاثين في وقعة الجمل، وسنّه أربع وستون سنة، قتله مروان بن الحكم، رماه بسهم في ركبته فكان فيه حتفه.

٢١٤ ـ فعن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم فوقع في عين ركبته، فما زال يسيل إلى أن مات.

رواه الطبراني، قال في المجمع (١٥٠/٩): ورجاله رجال الصحيح. قال الحافظ في الفتح: جاء من طرق كثيرة أنَّ مروان بن الحكم رماه

فأصاب ركبته، فلم يزل ينزف الدم منها حتى مات، وكان يومئذ أول قتيل. وقال في الإصابة: وأخرج أبو القاسم البغوي بسند صحيح عن الجارود بن أبي سبرة قال: لمّا كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال: لا أطالب ثأري بعد اليوم. فنزع له بسهم فقتله. وكان يتهمه بأنه شارك في قتل عثمان وهو اتهام باطل، فطلحة لم يشارك في ذلك ولم يشارك أحد من الصحابة، كما قال النووي وغيره.

* * *

❀ فضائل الزبير بن العوَّام رضي اللَّه تعالى عنه

هو الزبير بن العوَّام بن خويلد القرشي الأسدي، حواري رسول الله ﷺ وابن عمّته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة، وأحد الستة أهل الشورى المرضي عنهم. أسلم قديماً وله اثنتا عشرة سنة، ولمّا أسلم كان كفيله عمّه نوفل يعلّقه في حصير ويدخن عليه ليرجع إلى الكفر فيقول: لا أكفر أبداً. وكان ممَّن هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وشهد مع النبيّ ﷺ كل المشاهد، وكان أشجع الصحابة بعد الإمام عليّ رضي الله تعالى عنهما.

٢١٥ ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: **«مَن يأتينا بخبر القوم؟»** فقال الزبير: أنا. ثم قال: **«مَن يأتينا بخبر القوم؟»** ثم قال الزبير: أنا. ثم قال في الثالثة: **«إنَّ لكلّ نبيٍّ حوارياً، وإنَّ حَوَارِيَّ الزبير»**.

رواه أحمد (٣/٣١٤/٣٤٥)، والبخاري في المناقب (٨/٨٢) وفي المغازي، ومسلم في الفضائل (١٥/١٨٨).

(الحواري): هو الصاحب الصادق الخالص. وهذه منقبة لا توجد لغيره.

٢١٦ ـ وعن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، عن أبيه قال:

كان رسول الله ﷺ قال ـ يعني يوم الأحزاب ـ: «**مَن يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟**» فانطلقت، فلمّا رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه قال: «**فداك أبي وأمي**».

رواه البخاري في المناقب (٨/٨٢/٨٣) وفي المغازي (٨/٤٠٩/٤١٠)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٨٩)، والترمذي (٣٥١٤). وهذه أيضاً منقبة أخرى قلّما وقعت لغيره.

٢١٧ ـ وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: أوصى الزبير إلى ابنه عبدالله صبيحة يوم الجمل فقال: ما مني عضو إلا وقد جُرح مع رسول الله ﷺ، حتى انتهى ذلك إلى فرجه.

رواه الترمذي (٣٥١٧) وسنده صحيح.

وهذه فضيلة عظيمة، فإنَّ جرحاً واحداً في سبيل الله يستحق به المؤمن الجنة، فكيف بجراحة كل أعضاء الجسم مع رسول الله ﷺ؟!

٢١٨ ـ وعنه أيضاً قال: كانت على الزبير عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الملائكة نزلت على سيماء الزبير**».

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/١٠٣) بسند صحيح إلى عروة.

وهذه منقبة له حيث إنَّ الملائكة جاءت لشهود هذه المعركة بسيماء الزبير رضي الله تعالى عنه.

٢١٩ ـ وقال فيه عثمان رضي الله تعالى عنه: أما والذي نفسي بيده إنه لخيرهم ما علمت، وإن كان لأحبهم إلى رسول الله ﷺ.

رواه البخاري (٨/٨١/٨٢).

٢٢٠ ـ وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كان في الزبير ثلاث ضربات: إحداهن في عاتقه إن كنت لأُدخل أصابعي فيها ألعب بها وأنا صغير. وقال له أصحاب النبيِّ ﷺ يوم اليرموك: ألا تشد فنشد معك؟ فحمل عليهم حتى شقَّ صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع

مقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر.

رواه البخاري في المناقب (٨٣/٨) وفي المغازي (٣٠١/٨).

قوله: (اليرموك): هو اسم موضع بالشام كانت به وقعة عظيمة بين جيوش المسلمين وجيوش الروم أيام سيدنا عمر، وكانت الغلبة للمسلمين وأبلى فيها الزبير بلاءً حسناً. وقوله: (ألا تشد) أي: ألا تحمل على الكفار؟ فلمّا حمل تأخروا وجبنوا، فشقَّ صفوف الكفار بمفرده يضرب يميناً وشمالاً، مما يدلُّ على شجاعته وبطولته رضي الله تعالى عنه.

قُتل رضي الله تعالى عنه يوم الجمل، قتله ابن جرموز سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة.

٢٢١ ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال للزبير يوم الجمل: أجئت تقاتل ابن عبد المطلب؟ قال: فرجع الزبير، فلقيه ابن جرموز فقتله. قال: فجاء ابن عباس إلى عليٍّ فقال: إلى أين يدخل قاتل ابن صفية؟ قال: النار.

رواه ابن سعد (١١٠/٣) بسند صحيح.

٢٢٢ ـ وعن زر بن حبيش رحمه الله تعالى قال: استأذن ابن جرموز على عليٍّ رضي الله تعالى عنه، فقال: مَن هذا؟ قالوا: ابن جرموز يستأذن. قال: ائذنوا له ليدخل قاتل الزبير النار. وفي رواية: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار.

رواه أحمد (١٠٢/٨٩/١) بسند صحيح على شرط مسلم.

وقصته في تركته وماله وديونه وما حصل في ذلك من البركة مبسوطة في الخُمُس من صحيح البخاري، فليراجع ذلك مَن شاء. ويأتي في الفتن بقية لخبره وخبر طلحة وعائشة مع الإمام عليّ رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❀ فضائل سعد بن أبي وقاص رضي اللّه تعالى عنه

هو سعد بن مالك القرشي الزهري، أحد العشرة، خال رسول الله ﷺ، وأحد الستة المرضي عنهم، وأحد الأبطال الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، وأحد الفرسان. كان رأس مَن فتح العراق، وهو الذي بنى الكوفة ووليها لعمر ثم لعثمان، وكان مستجاب الدعوة، لا يدعو على أحد إلا استجيب له.

ولمّا قُتل عثمان اعتزل الناس بالعقيق إلى أن توفي، ودفن بالبقيع، وصلّي عليه بالمسجد النبويّ بأمر من عائشة وباقي أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن ليصلّين مع المسلمين عليه. وكانت وفاته سنة خمس وخمسين رضي الله تعالى عنه.

٢٢٣ ـ وعنه: ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لَثلث الإسلام.

رواه البخاري في الفضائل (٨/٨٥).

يَقصدُ بثلث الإسلام: خديجة والصدّيق، وذلك حسب اطلاعه، وإلا فقد أسلم قبله الإمام علي وزيد بن حارثة. وعلى أيٍّ فله الأسبقية.

٢٢٤ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أقبل سعد فقال النبيُّ ﷺ: «**هذا خالي، فليُرِني امرؤٌ خالَه**».

رواه الترمذي (٣٥٢٢) وحسّنه، والحاكم (٤٩٨/٣)، وصححه ووافقه الذهبي. قال الترمذي رحمه الله تعالى: كان سعد من بني زهرة، وكانت أمُّ النبيِّ ﷺ من بني زهرة؛ لذلك قال ﷺ: «**هذا خالي...**». وعلى كلٍّ فهي منقبة له رضي الله تعالى عنه.

٢٢٥ ـ وعن سعد قال: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبيِّ ﷺ وما لنا طعام إلا وَرَق الشجر حتى إنَّ أحدنا لَيَضعُ كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط، ثم أصبحت بنو أسد تُعَزِّرُني

على الإسلام، لقد خبت إذاً وضلَّ عملي. وكانوا وَشوا به إلى عمر قالوا: لا يُحسِن أن يُصلِّي.

رواه ابن أبي شيبة (٢٢١٤٧)، والبخاري في المناقب (٨/٨٥/٨٦)، والنسائي في الكبرى (٨٢١٨).

قوله: (تعزرني) معناه: تعيّرني بأني لا أُحسن أن أصلّي، أو تعلّمني الصلاة.

وفيه فضل سعد وأنه كان أول مَن رمى في سبيل الله، وكان ذلك في سرية خرجوا فيها ليلقوا عيراً لقريش فترامَوا بالنبال وكان سعد أول مَن رمى.

٢٢٦ ـ وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه قال: ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك فإنه جعل يقول له يوم أُحد: **«ارمِ فداكَ أبي وأمي»**.

رواه أحمد (١/١٣٧)، والبخاري في المغازي (٨/٣٦٢) وفي الجهاد وفي الأدب، ومسلم في الفضائل (١٥/١٨٣/١٨٤).

٢٢٧ ـ وعن سعد أنَّ النبيَّ ﷺ جمع له أبويه يوم أُحد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبيُّ ﷺ: **«ارمِ فداكَ أبي وأمي»**. قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه، فسقط فانكشفت عورته فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه.

رواه مسلم (١٥/١٨٤/١٨٥) بهذا السياق، ورواه البخاري مختصراً.

وفي هذا أيضاً منقبة له حيث فداه بأبيه وأمه، وحقَّ له ذلك فإنه كان قد أبلى في ذلك اليوم البلاء الحسن ودافع عن رسول الله ﷺ دفاع الأبطال.

٢٢٨ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: **«ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»**. قالت:

وسمعنا صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا؟» قال: سعد بن أبي وقاص، يا رسول الله، جئت أحرسك.

رواه أحمد (١٤١/٦)، والبخاري في الجهاد (٤٣١/٦) وفي التمني، ومسلم (١٨٣/١٨٢/١٥)، والترمذي (٣٥٣٦)، والنسائي في الكبرى (٨٣١٧).

فسعد رجل صالح وكفاه بذلك تزكية وشهادة من رسول الله ﷺ.

٢٢٩ ـ وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهم استَجِبْ لِسَعْدٍ إذا دَعَاك**».

رواه الترمذي (٣٥٢١)، وابن حبان (٢٢١٥) مع الموارد، والحاكم (٤٩٩/٣) وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه البزار بسند صحيح كما في المجمع (١٥٣/٩).

فكان رضي الله تعالى عنه مخصوصاً دون الكثيرين باستجابة دعوته حتى عُرف بذلك بين الناس وذلك استجابةً لدعاء النبيِّ ﷺ: «**اللَّهم استجِب لِسعد**».

٢٣٠ ـ وعن عامر الشعبي رحمه الله تعالى قال: قيل لِسعد بن أبي وقاص: متى أُجِبْتَ الدعوة؟ قال: يوم بدر؛ كنت أرمي بين يديْ النبيِّ ﷺ فأضع السهم في كبد القوس ثم أقول: اللَّهم زلزل أقدامهم، وأرْعِبْ قلوبَهم، وافعلْ بهم وافعلْ. فيقول النبيُّ ﷺ: «**اللَّهم استجِب لِسعد**».

رواه الطبراني، قال الهيثمي (١٥٣/٩): وإسناده حسن.

٢٣١ ـ وعن جابر بن سمرة قال: شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر فعزله... فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدَع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون عليه معروفاً حتى دخل مسجداً لبني عبس فقام رجل منهم فقال: أما إذ نشدتنا، فإنَّ سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله، لأدعون

بثلاث: اللّهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياءً وسمعةً، فأطِل عمره، وأطِل فقره، وعرّضه للفتن. فكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد. قال عبدالملك بن عمير: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرّض للجواري في الطريق فيغمزهن. رواه البخاري في صفة الصلاة.

٢٣٢ ـ وعن عامر بن سعد قال: بينما سعد يمشي إذ مرَّ برجلٍ وهو يشتم علياً وطلحة والزبير، فقال له سعد: إنك تشتم أقواماً قد سبق لهم من الله ما سبق، والله لَتَكُفَّنَّ عن شتمهم أو لأدعونَّ الله عزَّ وجلَّ عليك. قال: يخوفني كأنه نبيّ. فقال سعد: اللّهم إن كان يشتم أقواماً قد سبق لهم منك ما سبق فاجعلْه اليوم نكالاً. فجاءت بختية ـ الأنثى من الإبل ـ فأفرج الناس لها فتخبطته، فرأيت الناس يتبعون سعداً يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق.

أورده الهيثمي في المجمع (١٥٤/٩) برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح. وهو عند ابن أبي شيبة (٣٢١٤٩) مختصراً.

وله رضي الله تعالى عنه نوادر وأخبار في دعواته المستجابات.

وقد تقدَّم أنه نزلت فيه أربع آيات، انظر: سورة العنكبوت، وسورة الأنفال، وسورة النساء، وسورة المائدة من التفسير، فقد ذكرت الحديث مفرقاً في هذه السور.

* * *

❀ فضائل سعيد بن زيد رضي اللّه تعالى عنه

هو سعيد بن زيد بن عمرو العدوي، أحد العشرة السابقين. أسلم هو وأمه وزوجته قديماً وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيّ ﷺ كل المشاهد إلا بدراً، وكان ممّن شهد معركة اليرموك وفتح دمشق. توفي بالمدينة سنة خمسين أو إحدى وخمسين وعمره بضع وسبعون سنة.

٢٣٣ ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: والله لقد رأيتُني وإنَّ عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يُسلم عمر.

رواه البخاري في المناقب (١٨١/١٧٦/٨).

كان سعيد هذا ممَّن أوذي في الله عزَّ وجلَّ على إسلامه، فقد كانت أخت عمر رضي الله تعالى عنه فاطمة بنت الخطاب تحته، فلمّا أشهرا إسلامهما بين يدَي رسول الله ﷺ وبلغ ذلك عمر ذهب إليهما وضرب أخته وأوثق صهره سعيداً رضي الله تعالى عنه وأساء إليه ربطاً إهانةً له وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام، فصبر على ذلك ولم يتزلزل، وكان ذلك من أسباب إسلام عمر.

٢٣٤ ـ وعن سعيد أيضاً أنَّ أروى ـ صحابية ـ خاصمته في بعض داره فقال: دعُوها وإياها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن أخذ شبراً من الأرض بغير حقِّه طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة»**، اللَّهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واجعل قبرها في دارها. قال: فرأيتها عمياء تلتمس الجُدُر تقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد. فبينما هي تمشي في الدار مرَّت على بئر في الدار فوقعت فيها، فكانت قبرها.

رواه البخاري في المظالم (٢٩/٢٨/٦) وفي بدء الخلق (١٠٤/٧) ومسلم في البيوع (٤٩/١١).

وقد تقدَّم حديثه في المبشَّرين بالجنة وأنه عاشِرُهم رضي الله تعالى عنه.

* * *

فضائل عبدالرحمٰن بن عوف رضي اللَّه تعالى عنه

هو عبدالرحمٰن بن عوف القرشي الزهري، أحد السابقين، وأحد العشرة، وأحد الستة المرضي عنهم، وأحد المهاجرين الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة. وُلد بعد حادث الفيل بعشر سنين، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وسنّه ثلاث وسبعون سنة، ودفن بالبقيع.

هاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيّ ﷺ بدراً وجميع المشاهد، وكان تاجراً غنياً كثير الصدقات رضي الله تعالى عنه.

٢٣٥ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: **«إنَّ أمْرَكُنَّ لَمِمَّا يُهِمُّني بَعْدِي، ولَن يَصبِرَ عليكُنَّ إلا الصابرون»**.

ثم تقول عائشة: فسقى الله أباك من سلسبيل الجنة ـ تريد عبدالرحمٰن بن عوف. وقد كان وصل أزواج النبيّ ﷺ بمال بِيعَتْ بأربعين ألفاً.

رواه الترمذي (٣٥٢٠)، وابن حبان (٢٢١٦)، والحاكم (٣/٣١١)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

٢٣٦ ـ ورواه الحاكم أيضاً عن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه: **«إنَّ الذي يَحْنُو عليكُنَّ بعدي هو الصادق البارّ»**، اللّهم اسقِ عبدالرحمٰن بن عوف من سلسبيل الجنة.

وهذا من عظيم فضائله ومناقبه، فكان تاجراً بارّاً صادقاً، وتوفر له من الأموال الشيء الكثير فكان لذلك ينفق في سبيل الله وأبواب الخير نفقة خيالية، ويتصدَّق بما لا يجود به إلا الأفراد كالصدّيق وذي النورين، فها هو يتصدَّق على أمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربعين ألف درهم فضية.

فهو الصادق البارُّ الصابر كما شهد له بذلك رسول الله ﷺ.

٢٣٧ ـ وعن المغيرة بن شعبة في حديث له طويل عن غزوة تبوك... وأنَّ النبيّ ﷺ تبرَّز وتوضأ فتأخر. قال: ثم أقبل فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدَّموا عبدالرحمٰن بن عوف فصلّى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلّى مع الناس الركعة الأخيرة، فلمّا سلَّم عبدالرحمٰن بن عوف قام رسول الله ﷺ يُتِمُّ صلاته، فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح، فلمّا قضى النبيُّ ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: **«أحسنتم ـ أو قال: قد أصبتم»**.

رواه مسلم في الصلاة (٤/١٤٧).

وهذه منقبة هامة له، فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يصلِّ خلف أحد في حياته غيره وغير أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، ثم تقديم الصحابة إيّاه في ذلك الجمع العظيم يدلُّ على إكبارهم إيّاه وأنه عندهم في منزلة عالية.

٢٣٨ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن عبدالرحمٰن بن عوف أُتي بطعام وكان صائماً فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفِّن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقُتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ـ وقد خَشِيتُ أن تكون حسناتنا عجلت لنا.

وفي رواية: لقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

رواهُ البخاري في الجنائز (٣/٣٨٤) وفي المغازي.

٢٣٩ ـ وعن نوفل بن إياس الهذلي قال: كان عبدالرحمٰن بن عوف لنا جليساً، ونِعم الجليس، فانقلب بنا ذات يوم إلى منزله، فدخل فاغتسل ثم خرج فأتانا بقَصعة فيها خبز ولحم، ثم بكى، فقلنا: ما يبكيك يا أبا محمد؟ فقال: مات رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهله من خبز الشعير، ولا أُرَانا أُخِّرْنا لما هو خير لنا.

رواه الترمذي في الشمائل (١٩١/١٩٢) في باب عيش رسول الله ﷺ ويؤيده ما قبله في أحاديث أخرى تأتي في الزهد.

فهو مع كثرة جوده وإنفاقه ونفعه المسلمين كان يتأسَّف على ما أنعم الله تعالى عليه من خيرات الدنيا ويبكي لذلك ويترك الأكل خشية أن يكون ممَّن أُخِّر لشرٍّ، ويغبط إخوانه الفقراء السابقين الذين ذهبوا ولم يحظوا بمتاع الدنيا.

هذا وهو من المبشَّرين بالجنة وله مواقف وسوابق في الإسلام عظيمة ومع ذلك يتخوَّف أن لا يكون له حظ في الآخرة ويخشى أن يكون ممَّن عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.

٢٤٠ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا خرج عمر إلى الشام فلقيه أمراء الأجناد وأخبروه بوقوع الوباء بالشام، فاستشار المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح في الرجوع والقدوم، فاختلفوا فجاء عبدالرحمٰن بن عوف وكان متغيباً فقال: إنَّ عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**». قال: فحمد الله تعالى عمر ثم انصرف.

رواه البخاري (١٢/٢٩٠/٢٩٤) ومسلم (١٤/٢٠١/٢١١) كلاهما في الطب، وقد تقدَّم مختصراً من طريق أخرى في المرض والطب.

فهذه سنَّة عظيمة خفيت على الخليفة سيدنا عمر وعلى المهاجرين والأنصار... واستفادوها من ابن عوف، فهي منقبة له. وتقدَّم أيضاً في كتاب الجهاد أنه أفاد عمر أنَّ النبيَّ ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر. رواه البخاري وغيره.

* * *

❀ فضائل أبي عبيدة بن الجرَّاح رضي اللَّه تعالى عنه

هو أبو عبيدة عامر بن الجراح، أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة، وأحد مَن هاجر الهجرتين، وشهد بدراً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان فتح أكثر بلاد الشام على يده إذ كان من أمراء تلك الجيوش، واتفق المؤرخون على أنه توفي شهيداً في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة وعمره ثمان وخمسون سنة.

٢٤١ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لِكُلِّ أمّةٍ أميناً، وإنَّ أمينَنَا أيَّتُها الأمّة أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرّاح**».

رواه البخاري (٨/٩٤) ومسلم (١٥/١٩١) كلاهما في الفضائل والمناقب.

(الأمين): هو الثقة المرضي. فشهادة النبيّ ﷺ له بهذه الصفة وتخصيصه بأنه أمين هذه الأمّة يُشعر بأنّ له مزيد فضل على غيره في ذلك.

٢٤٢ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يُريدان أن يُلاعِناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيّاً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً حق أمين. فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قُمْ يا أبا عبيدة بن الجراح**». فلمّا قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمّة**». وفي رواية: «**لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين**».

رواه البخاري (٨/٩٥) و(٩/١٥٦/١٥٧) ومسلم (١٥/١٩٢)، وقد تقدّم مختصراً في تفسير آل عمران.

وفي رواية عن أنس أنّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلّمنا السنّة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «**هذا أمين هذه الأمّة**». رواه مسلم.

وهذه الرواية تدل على أنّ هؤلاء كانوا مسلمين بينما رواية حذيفة تدل على أنّ الذين وفدوا عليه ﷺ كانوا نصارى، فالله تعالى أعلم، فلعلّ القصة تعددت أو وقع وهم من بعض الرواة.

وعلى أيٍّ فأبو عبيدة أمين حق أمين.

وتقدّم حديث جابر في تأميره ﷺ على السرية التي وجّهها لساحل البحر، وكانوا ثلاثمائة رجل، وفيه قصة العنبر، فانظر ذلك مبسوطاً في السيرة. وله غير ما ذكرنا من المناقب رضي الله تعالى عنه.

وبه تمّت تراجم ومناقب العشرة رضي الله تعالى عنهم، رأينا أن نفردهم واحداً تلو الواحد.

فضائل أهل البيت النبويّ وقرابة رسول الله ﷺ

٢٤٣ ـ عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدْعَى خُمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعَظ وذكّر، ثم قال: **«أمّا بعدُ، ألا أيُها الناسُ، فإنما أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أن يأتِيَنِي رسولُ رَبّي عزَّ وجلَّ فأُجِيب، وإني تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ: أوّلُهما كتابُ الله عزَّ وجلّ فيه الهُدى والنُّور فخُذُوا بكتابِ الله واسْتَمْسِكُوا به»**. فحثَّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: **«وأهْلُ بيتي، أُذَكِّرُكُم الله في أهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُم الله في أهْلِ بَيْتي، أُذَكِّرُكُم الله في أهْلِ بَيْتي»**. فقال له حصين ـ أحد الرواة ـ: ومَن أهل بيته، يا زيد؟ أليس نساؤه مِن أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَن حُرِم الصدقةَ بعده. قال: ومَن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عَقِيل، وآل جَعْفَر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم.

رواه أحمد (٣٦٧/٤)، ومسلم في الفضائل (١٨٠/١٧٩/١٥)، ورواه النسائي في الكبرى (٨١٤٨)، والترمذي في المناقب (٣٧٨٨)، والحاكم (١٤٨/٣) من طريق آخر مختصراً، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وفي آخره: **«ولَن يَتَفَرّقا حَتى يَرِدَا على الحوض، فانظُرُوا كيف تَخلُفوني فيهما»**. وللحديث طرق كثيرة.

قوله: (خم) بضمّ الخاء وتشديد الميم: هو اسم لغيضة قريبة من الجحفة كان عندها غدير ماء، فكان يقال له: غديرُ خُمٍّ، خطب عنده النبيُّ ﷺ مقدمه من حجة الوداع فذكر ما في هذا الحديث، ويُعرف

بحديث غَدِير خُمٌ. قوله: «**ثقلين**» بفتحات تثنية: ثقل، وسمَّاهما بذلك لعظيم قدرهما وفخامة شأنهما ولمشقة القيام بهما على النفوس. «**أُذَكِّرُكُم الله**» أي: أذكِّركم مراقبة الله في الوصية باحترام أهل بيتي والإحسان إليهم والبرور بهم ورفع الأذى عنهم وعدم الإساءة إليهم.

٢٤٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرج النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحُسَين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

رواه مسلم في الفضائل (١٥/١٩٤/١٩٥)، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٢)، والحاكم (٣/١٤٧) وصححه.

٢٤٥ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لمّا نزلت: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحَسَناً وحُسَيناً عليهم السلام فقال: «**اللَّهُم هؤلاء أَهلِي**».

رواه أحمد (١/١٨٥)، ومسلم (١٥/١٧٥/١٧٦) والترمذي (٣٧٢٤) كلاهما في الفضائل، والنسائي في الكبرى (٨١٤٩)، ورواه الترمذي أيضاً في التفسير ويأتي مطوّلاً.

٢٤٦ ـ وعن أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها أنَّ النبيَّ ﷺ جلل على الحسن والحُسين وعلي وفاطمة رضي الله تعالى عنهم كساءً ثم قال: «**اللّهم هؤلاء أهل بيتي وحَامتِي، أذهِب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً**». فقالت أمُّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «**إنكِ على خير**». وفي رواية قالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عليٍّ وفاطمة وابنيهما فقال: «**هؤلاء أهل بيتي**».

رواه أحمد (٦/٣٠٤)، والترمذي في المناقب (٣٨٧١) وحسَّنه، وقال: هو أحسن شيء روي في هذا الباب. ورواه أحمد (٦/٢٩٢)، والحاكم

(١٤٦/٣) بالرواية الثانية، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وللحديث طرق وشواهد.

أهل البيت يطلقون ويراد بهم آله ﷺ ممَّن تحرم عليهم الصدقة وهم المذكورون في حديث زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه.

ويطلقون على أصحاب الكساء، وهم: الإمام علي، ومولاتنا فاطمة، والحسنان عليهم السلام، كما في الأحاديث الثلاثة، كما يطلقون على الذرية الطاهرة وهم كل مَن تناسل من الإمام والزهراء عليهما السلام.

ويطلق أهل البيت أيضاً على أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن، لأن سياق الآية يدل على أنها نزلت فيهن، فالجميع يشملهم أهل البيت، غير أنه استقر في العُرف إطلاق هذا الاسم على الأشراف الحَسَنيين والحُسَينيين.

وعلى أيٍّ فأهل البيت لهم شرف عظيم ومزايا لا يبلغها غيرهم.

* * *

ما اشترك فيه الحَسنان من المناقب

٢٤٧ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رجلاً من أهل العراق سأله عن دم البعوض يصيب الثوب، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الحَسَن والحُسَين هُمَا رَيحانَتَايَ مِن الدُّنيا»**.

رواه أحمد (١٥٣/١١٤/٩٣/٨٥/٢)، والطيالسي (٢٦٨٢)، والحميدي (٣٣٤)، والبخاري في الفضائل (١٠٠/٩٨/٨) وفي الأدب (٣٣/١٣)، والترمذي، وابن ماجه.

(دم البعوض) جاء في رواية لأحمد (١٥٣/٢): سأله رجل عن محرم قتل ذباباً فيحمل على أنه وقع السؤال عن الأمرين، والبعوض هو البق. وقوله: (وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ) هو الحسين، كما يأتي.

وفي الحديث منقبة هامة للحسنين حيث كانا ريحانتَي جدّهما في الدنيا وعطره.

٢٤٨ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثُران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: «**صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**».

رواه أحمد (٣٥٤/٥)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٥٤٦)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن حبان (٢٢٢٠) بأسانيد حسنة صحيحة.

في الحديث من رحمته ﷺ بولديه ما لا يَخفى.

٢٤٩ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحسن والحسين سَيِّدَا شبابِ أهل الجنة**».

رواه أحمد (١٦٧/١٦٦/٦٤/٣)، والترمذي (٣٥٤٠)، والنسائي في الكبرى (٨١٦٩)، وابن حبان (٢٢٣٨)، والحاكم (١٥٤/٣)، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم والذهبي، وللحديث شواهد كثيرة حتى ذكر في المتواتر.

حسبهما هذا فضلاً ومنقبةً حيث أنهما سيدا شباب أهل الجنة. وهذا عام مخصوص بغير الأنبياء، والسيد مَن فاق الناس في الفضائل والمكارم.

٢٥٠ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله ﷺ أبصر حَسناً وحُسيناً فقال: «**اللّهم إني أحبُهما فأحِبّهما**».

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٥٤) وحسّنه وصححه.

إنها لَمنقبة عظيمة، فإنّ مَن أحبّه الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً قطعاً، فهنيئاً لهما بذلك.

٢٥١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحبَّهما فقد أحَبَّني، ومَن أبغضهما فقد أبْغضَني**».

رواه أحمد (٢/٢٨٨)، والنسائي في الكبرى (٨١٦٢)، وابن ماجه (١٤٣)، والطبراني في الكبير (٣/٤٠/٤١)، والحاكم (٣/١٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

في الحديث فضل ظاهر لهما حيث جعلت محبة رسول الله ﷺ منوطة بمحبة الحسنَين، فيكون ذلك من لوازم الإيمان، كما أنَّ مَن أضمر لهما الحقد والبغضاء كان ممقوتاً مبغضاً لرسول الله ﷺ وإن ادَّعى محبته. ويا لها من خيبة وخسارة، وهنيئاً ثم هنيئاً لمَن أحبهما فإنَّ ذلك عنوان محبة رسول الله ﷺ.

* * *

مناقب الحَسَن رضي اللَّه تعالى عنه

هو سبط رسول الله ﷺ وحِبُّه، وريحانته، وحِبُّ المؤمنين وأميرهم، ابن الإمام والزهراء، وجدُّ الأشراف والذرية الطاهرة، العالم المصلح الطيب الطاهر.

وُلد في رمضان بالمدينة في السنة الثالثة من الهجرة، وتربّى ونشأ في بيت النبوَّة، وولي الخلافة بعد مقتل أبيه، وبايعه أربعون ألفاً على القتال، ثم زهد في الخلافة وسلَّمها لمعاوية زهداً في الدنيا وحقناً لدماء المسلمين. توفي سنة ٤٩ بالمدينة مسموماً من طرف أيدي الآثمين من بني أميَّة.

ومن مناقبه العظيمة التي امتاز بها وخصَّه الله تعالى على غيره بها: حقن دماء المسلمين، وأصلح به عزَّ وجلّ ما كان بينهم من الحروب تصديقاً لما أخبر به جدّه ﷺ عنه.

٢٥٢ ـ فعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، ويقول: **«إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بَين فِئَتَين مِن المسلمِين»**.

رواه أحمد (٥/٣٨/٤٤/٥١)، والطيالسي (٢٦٨٤)، والبخاري في المناقب (٨/٩٦) وفي الفتن (١٦/١٧٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٦٢)، والترمذي في المناقب (٣٥٤٥)، والنسائي في الكبرى (٨١٦٦)، وغيرهم.

(السَّيِّدُ): مَن فاق أهل زمانه وأقرانه في خصال الخير والفضائل والمكارم. «**فئتين**»: تثنية فئة، وهي الجماعة، والمراد بهما جماعة الحسن وجماعة معاوية.

وقد حقَّق الله عزَّ وجلّ هذه المعجزة بالحسن رضي الله تعالى عنه، فقد تنازل عن الخلافة وتركها لمعاوية لا لِذلّة، ولا من قلّة، بل زهداً في المُلك والحياة، ورغبةً فيها عند الله عزَّ وجلَّ، وحقناً لدماء المسلمين الذين كانوا على استعداد لخوض حرب أخرى جديدة، وكان قد بايعه على الموت أربعون ألفاً، وبهذا الصلح أمِن الناس واجتمعوا على معاوية، وسمّوا ذلك العام عام الجماعة، وكل ذلك وقع ببركة هذا السيِّد العظيم.

ومن مناقبه أنه محبوب لله ولرسوله، وأنَّ الله يحبُّ مَن أحبَّه، ويا لها من منقبة.

٢٥٣ ـ فعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه كان يأخذه والحسن ويقول: «**اللَّهم إنِّي أُحِبُّهما فأَحِبَّهُما**».

رواه أحمد (٥/٢١٠)، وابن أبي شيبة (٣٢١٨٣)، والبخاري في المناقب (٨/٨٩/٩٠/٩٦) وفي الأدب (١٣/٤٠/٤١)، والنسائي في الكبرى (٨١٧١).

أسامة حبّ رسول الله ﷺ وابن حبّه زيد، ويأتي الكلام عنهما.

٢٥٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سوق من أسواق المدينة، فانصرف وانصرفت معه فقال: «**ادعُ الحسن بن علي**». فجاء الحسن يمشي وفي عنقه السخاب، فقال النبيُّ ﷺ بيده هكذا، فقال الحسن بيده هكذا، فأخذه النبيُّ ﷺ وقال:

«**اللهم إنّي أُحِبُّه فأَحِبَّه، وأَحِبَّ مَن يُحِبُّه**». قال أبو هريرة: فما كان أحد أحبَّ إليَّ من الحسن بن علي بعد ما قال رسول الله ﷺ ما قال.

رواه أحمد (٢/٣٣١/٣٢٩)، والحميدي (١٠٤٣)، والبخاري في البيوع (٥/٢٤٤) وفي اللباس (١٢/٤٥١)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٩٢/١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٦٤)، وابن ماجه (١٤٢)، وابن حبان (٦٩٦٣) مع الإحسان.

قوله: «**ادعُ الحسن...**» إلخ. في رواية البخاري وغيره: فجلس بفناء بيت فاطمة فقال: «**أثَمَّ لكعٌ، أثَمَّ لكَعٌ؟**» والمراد به هنا الصغير. وقوله: (السخاب) بالسين والخاء: هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري. قوله: (فقال بيده) أي: مدَّها، ثم التزمه وعانقه وقبَّله كما في رواية البخاري.

ففي الحديثين منقبة للحسن حيث أنَّ الله ورسوله يحبانه، مع زيادة تكريم بأنَّ الله يحب مَن يحبه. وفي الحديث الثاني ردٌّ على الشيعة الروافض الذين يطعنون في راوية الإسلام أبي هريرة ويضللونه ويجعلونه عدواً لأهل البيت، فها هو ذا يصرِّح بأنَّ الحسن كان أحب الناس إليه، وهو الذي جاء عنه الحديث التالي.

٢٥٥ ـ فعن عمير بن إسحاق قال: كنت مع الحسن بن علي ولقينا أبو هريرة فقال: أرِني أقبِّل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ يقبِّل. قال: فقال بقميصه. قال: فقبَّل سُرَّتَه.

رواه أحمد (٢/٤٩٣) والحاكم (٣/١٦٨) بسند صحيح. فهل مثل هذا يقال فيه إنه ناصبي وعدو لأهل البيت رضي الله تعالى عنهم؟!

٢٥٦ ـ وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر رضي الله تعالى عنه وحمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبيِّ ليس شبيهاً بعليّ. وعليٌّ يضحك.

رواه البخاري في المناقب (٨/٩٧).

٢٥٧ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لم يكُن أحد أشبه بالنبيّ ﷺ من الحسن بن علي.

رواه البخاري أيضاً (٩٧/٨).

وفي هذا منقبة له حيث أكرمه الله عزَّ وجلَّ بشبهه بجدّه أشرف الخلق ﷺ، غير أنه كان شبيهاً به ما بين الرأس إلى الصدر كما يأتي.

* * *

❀ مناقب الحُسين الشهيد عليه السلام

هو أيضاً سبط رسول الله ﷺ وريحانته، السيّد الطاهر، ابن الزهراء، وجدُّ الذرية الطاهرة بأكثر الديار الشرقية،* شقيق الحسن، الشهيد المظلوم.

وُلد في شعبان سنة أربع، بعد الحسن بسنة.

كان سيِّد أهل زمانه، وأحب أهل الأرض إلى أهل السماء كما قال عبدالله بن عمر. وُلد ونشأ كأخيه بالمدينة في بيت النبوّة، وخرج مع والده إلى الكوفة فشهد معه الجمل وصفّين، ثم قتال الخوارج. ولمّا قُتل والده كان مع الحسن، فلمّا سلّم الأمر إلى معاوية قصد المدينة واستقرَّ بها إلى أن توفي معاوية، فخرج إلى مكة، ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه، فأرسل إليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب فأخذ له بيعتهم، ثم توجه إليهم حتى كان من قتله ما كان.

٢٥٨ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ("مَن سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي،" فإني سمعت رسول الله ﷺ يقوله.)

رواه ابن حبان (٦٩٦٦) بالإحسان بسند صحيح، وأورده النور في المجمع (٢١٨٧/٩) برواية أبي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير الربيع بن سعد. وقيل: ابن سعيد، وهو ثقة.

* باندونيسيا ٦ مليون حسيني

وهذه من جملة مناقبه العظيمة وأنه من المبشَّرين بالجنة، وكيف لا وهو سبط الحبيب الذي تفرَّع من نسله أقوام وأمم وشعوب، وأنه لا توجد بقعة من العالم الإسلامي إلا وفيها من ذريته وذرية أخيه الحسن الشيء الكثير، وبالأخص البلاد العربية فإنها تزخر بأهل البيت والذرية الطاهرة، وقد اختصَّت البلاد الشرقية بأكثرية أولاد الحُسَين بينما اختصَّ المغرب وخصوصاً الأقصى منه بأولاد الحسن فهم منتشرون بكل مدنه وقبائله وقراه، بل هنالك قبائل وقرى وأحياء خاصة بهم، وليس في المغرب من الحُسَيْنِيين إلا القليل رضي الله تعالى عنهم جميعاً.

٢٥٩ ـ وعن عبدالله بن نُجَيّ عن أبيه أنه سار مع علي، وكان صاحب مطهرته، فلمّا حاذى نِينَوَى وهو منطلق إلى صفّين، فنادى علي: اصبر أبا عبدالله، اصبر أبا عبدالله بشطِّ الفرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلت على النبيّ ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبيَّ الله، أغضبك أحد؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: **«بل قام من عندي جبريل قبلُ، فحدَّثني أنَّ الحُسَين يُقتَل بشَطِّ الفُرات»**. قال: **«فقال: هل لك إلى أن أشِمَّكَ من تربته؟»**. قال: **«قلت: نعم. فمدَّ يده فقبض قبْضة من تراب فأعطانِيها، فلم أملِك عينَي أن فَاضَتا»**.

رواه أحمد (٨٥/١) بسند صحيح وأورده النور (١٨٧/٩) برواية أحمد والبزار والطبراني وقال: رجاله ثقات.

(نينوى) بكسر النون الأولى وفتح الثانية آخره ألف مقصورة: بلدة بالعراق كان منها نبيّ الله يونس عليه السلام. **«شط»** بفتح الشين: جانب الوادي. **«الفرات»** بضمّ الفاء: نهر عظيم بالعراق ينحدر من جبال تركيا كدجلة ويشق العراق، ثم يصب في الخليج العربي. (تفيضان) بضمّ التاء، أي: تنسكبان بالدموع.

وفي الحديث معجزة للنبيّ ﷺ وعلم من أعلام النبوَّة حيث أخبر بقتل ولده قبل وقوعه بعشرات السنين مع تعيين القطر والموضع بالضبط، فصدق الله تعالى ذلك ووقع كما قال، وفيه اختصاص الإمام علي بعلم ذلك من بين سائر الصحابة.

٢٦٠ ـ قال الشعبي: بلغ ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وهو بمالٍ له أنَّ الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة يومين أو ثلاثة فقال: إلى أين؟ فقال: هذه كتب أهل العراق وبيعتهم. فقال: لا تفعل. فأبي، فقال له ابن عمر: إنَّ جبريل عليه السلام أتي النبيَّ ﷺ فخيَّره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يُرِد الدنيا، وإنك بضْعَةٌ من رسول الله ﷺ، كذلك يريد منكم. فأبى، فاعتنقه ابن عمر وقال: أستودعك الله والسلام.

رواه ابن حبان (٦٩٦٨) بسند حسن، وقال النور (١٩٢/٩): رواه البزار والطبراني، ورجال البزار ثقات. وجاء أيضاً عن ابن عباس.

كان معاوية عهد بالإمارة إلى ابنه يزيد في حياته، فلمّا مات لم يبايعه الحسين وابن الزبير في جماعة آخرين نظراً لكونه لا يستحق الخلافة، لفقدان شروطها المعتبرة شرعاً فيه، فجاءت الحسين عدة كتب من أهل العراق بالقدوم إليهم ليبايعوه، فبعث إليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل، فذهب ونزل الكوفة فاجتمع إليه وبايعه على إمرة الحسين نحو من ثمانية عشر ألفاً وحلفوا له لَينصرنه بأنفسهم وأموالهم، فبلغ ذلك عبيدالله بن زياد، وكان بالبصرة من قِبل يزيد، فأتى الكوفة وجمع أشراف الناس وأمراء القبائل فخطبهم ورغَّبهم ورهَّبهم وخذل الناس وأفسد كل مَن كاتب الحسين، فتفرَّق الجميع عن مسلم بن عقيل وبقي وحده، فهام على وجهه واختفى عند امرأة، ثم دل عليه فألقي عليه القبض وأتي به ابن زياد فقتله.

وخرج الحسين متوجهاً إلى العراق في أهل بيته وأقاربه وذويه، ولمّا وصل العراق وجد الأمر على خلاف ما كان يظن، فبعث إليه ابن زياد عُمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف مقاتل أكثرهم من الخونة الذين كانوا يكاتبونه وبايعوه بواسطة ابن عمّه، فطلبوا منه النزول على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد، فأبى الاستسلام لذلك، فقاتلوه وقاتلهم هو وأصحابه وأهل بيته قتال الأبطال حتى قُتل بين يديه جميع مَن كان معه، وكانوا نحواً من سبعين رجلاً، وبقي يقاتل وحده حتى قتلوه، ثم حزُّوا رأسه إلى ابن زياد، ثم بعث به مع النساء إلى يزيد بالشام وفيهن بناته الطيبات: زينب،

وسكينة، وفاطمة، ومعهن عمّتهن الطاهرة أخت الحسين الكبرى زينب بنت فاطمة رضي الله تعالى عنهن، وكان معهن علي بن الحسين زين العابدين، فأدخلن على يزيد ووضع رأس الحسين بين يديه.

٣٦١ ـ قال منذر الثوري: كنا إذا ذكرنا حسيناً ومَن قُتل معه قال محمد ابن الحنفية رضي الله تعالى عنه: قُتل معه سبعة عشر كلهم ارتكض في رحم فاطمة رضي الله تعالى عنها وعنهم.

رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح. قاله النور في المجمع (١٩٨/٩).

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: قُتل مع الحسين بن علي ستة عشر رجلاً من أهل بيته، والله ما على ظهر الأرض يومئذ أهل بيت يشبهونهم. قال سفيان: ومَن يشك في هذا؟ وكان قد قُتل معه في هذه المعركة من أهله وأقاربه أولاده الأربعة: علي الأكبر، وعبدالله، وأبو بكر، والقاسم، وإخوته الخمسة: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، وأبو بكر أولاد الإمام علي، وولدا عمّه: جعفر بن عقيل، وقبله مسلم بن عقيل، وابن عمّه محمد بن جعفر، وابن ابن عمّه عون بن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم.

ولم يتقدم في تاريخ الإسلام فجيعة ولا رزية أفظع ولا أقبح من هذه النكبة على كثرة ما وقع في الإسلام من نكبات عِظام، ولذلك مقت يزيد وابن زياد كلُّ مسلم على وجه الأرض يحب الله ورسوله وأهل بيته من ذلك الحين إلى ما شاء الله.

وقد انتقم الله عزَّ وجلّ من كل مَن شارك في قتله، فما مكثوا إلا قليلاً حتى سلّط الله عليهم مَن قتلهم، ومَن لم يُقتل منهم أُصيب بشرّ مصيبة في نفسه وأهله وماله ولم يخرج من الدنيا حتى انتقم الله تعالى منه. قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٢/٢٠/٨): وأما ما روي من الآثار والفتن التي أصابت مَن قتله فأكثرها صحيح، فإنه قلَّ مَن نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا. قال: وأكثرهم أصابهم الجنون.

٢٦٢ ـ قال الشعبي: رأيت في النوم كأن رجالاً من السماء نزلوا معهم حراب يتتبعون قتلة الحسين، فما لبث أن نزل المختار فقتلهم. قال الهيثمي (١٩٦/٩): رواه الطبراني وإسناده حسن.

٢٦٣ ـ قال عبدالملك بن عُمَير: دخلت على عبيدالله بن زياد وإذا رأس الحسين قدّامه على ترس، فوالله ما لبثت إلا قليلاً حتى دخلت على المختار فإذا رأس عبيدالله بن زياد على ترس، فوالله ما لبثت إلا قليلاً حتى دخلت على مصعب بن الزبير وإذا رأس المختار على ترس، فوالله ما لبثت إلا قليلاً حتى دخلت على عبدالله وإذا رأس مصعب بن الزبير على ترس.

رواه الطبراني وأبو يعلى، قال النور (١٩٦/٩): ورجال الطبراني ثقات. والمقصود أنّ الله انتقم للحسين وأصحابه من كل مَن شارك في قتلهم.

٢٦٤ ـ وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوحى الله إلى محمد ﷺ: **«إني قتلت بيحيى سبعين ألفاً وإني قاتلٌ بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً»**.

رواه الحاكم (١٧٨/٣) وصححه على شرط مسلم كما قال الذهبي.

٢٦٥ ـ وقال عمارة بن عُمَير: لمّا جيء برأس عبيدالله بن زياد وأصحابه، نظرت في المسجد في الرحبة فانتهيت إليهم وهم يقولون: قد جاءت، قد جاءت. فإذا حية قد جاءت تخلل الرؤوس حتى دخلت في منخرَي عبيدالله بن زياد، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت، ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت. ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً.

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٥٢) بتهذيبي، وحسّنه وصححه وهو على شرط مسلم.

وستأتي بقية في الفتن إن شاء الله تعالى.

وكان تاريخ هذه الوقعة[1] الأليمة سنة إحدى وستين للهجرة يوم عاشوراء بكربلاء.

* * *

مناقب العبّاس عمّ النبيّ ﷺ

العباس هو ابن عبد المطلب الهاشمي، عمُّ النبيّ ﷺ، أبو الفضل، أحد كبار قريش وساداتهم في الجاهلية والإسلام، والد حبر الأمّة عبدالله، وجدُّ الخلفاء العباسيين. أسلم قبل الهجرة وكان يكتم إسلامه، ثم هاجر وشهد فتح مكة ووقعة حُنين، وكان ممَّن ثبت عند انهزام الناس، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

وُلد قبل الهجرة بأحد وخمسين عاماً، وتوفي عام ثنتين وثلاثين.

٢٦٦ ـ عن عبد المطلب بن ربيعة أنَّ العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﷺ مُغْضَباً وأنا عنده، فقال: **«ما أغْضَبَكَ؟»** قال: يا رسول الله، ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مُبْشِرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك. قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّ وجهه ثم قال: **«والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمانُ حتى يُحبَّكم لله ولرسوله»**. ثم قال: **«يا أيها الناس، مَن آذى عمّي فقد آذاني، فإنما عمّ الرجل صنو أبيه»**.

رواه أحمد (١٦٥/٤)، والطيالسي (٢٥٥٠)، والترمذي في المناقب (٣٥٣١)، والحاكم (٣٣٣/٣) وحسَّنه الترمذي وصححه، وانظر تهذيبي للجامع.

ففي الحديث أنَّ محبة العباس وآل البيت من الإيمان، فمَن كان عارياً عن محبتهم لله ولرسوله ﷺ فليس لدخول الإيمان قلبه سبيلٌ.

---

(١) وانظر تفصيل هذه الحادثة في تاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.

٢٦٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«العَبّاسُ مِنّي وأنَا مِنه»**.

رواه أحمد (٢٧٣٤)، والترمذي (٣٥٣٢)، والحاكم (٣/٣٢٥/٣٢٩) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفي هذا فضيلة هامة للعباس حيث جعله النبيُّ ﷺ معه شيئاً واحداً.

٢٦٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«العباس عمُّ رسول الله ﷺ، وإنَّ عمَّ الرجل صنو أبيه** ـ أو: **من صنو أبيه»**.

رواه الترمذي (٣٥٣٣) بسند صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح البخاري (٥/٧٥) ومسلم (٧/٥٦) في كتاب الزكاة مطوّلاً ضمن حديث، ومثله عن الإمام علي رواه الترمذي أيضاً (٣٥٣٤) بسند صحيح.

(الصنو): هو المثل، ومعناه أنَّ العباس وأبي شيء واحد، لأنهما خرجا من صلب واحد ورحم واحد.

٢٦٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: **«إذا كان غداة الإثنين فائتِني أنت وولدك حتى أدعو لهم بدعوة ينفعك الله بها وولدك»**. فغدا ـ أو: غدونا معه ـ وألبسنا كساءً ثم قال: **«اللّهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللّهم احفظه في ولده»**.

رواه الترمذي (٣٥٢٥) بتهذيبي وسنده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وثور بن يزيد وإن كان مرمياً بالقَدَر والنَّصْب فهو من رجال البخاري.

وعلى أيٍّ فالحديث يدل على فضل العباس وولده وأنهم مغفور لهم ومحفوظون لأن دعاء النبيِّ ﷺ مستجاب. يبقى: هل دعاؤه هذا يشمل كل مَن تناسل منه أم هو خاص بأولاده الموجودين حالتئذ؟ لا ندري.

* * *

❀ مناقب جعفر بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه

هو جعفر بن أبي طالب المطلبي الهاشمي، ابن عمّ الرسول الله ﷺ، وشقيق الإمام علي عليه السلام، وأحد السابقين إلى الإسلام. وهاجر إلى الحبشة، وأسلم النجاشي على يديه، وأقام هنالك حتى قدم في السفينة مع الأشعريين زمن خيبر، وكان رئيس مهاجري الحبشة وزعيمهم في محاورة النجاشي عندما بعث كفار قريش عمرو بن العاص وغيره إلى النجاشي في شأن المهاجرين إليه، وقد قدّمنا ذلك في كتاب السيرة.

قُتل شهيداً رضي الله تعالى عنه سنة ثمانٍ في غزوة مؤته مقبلاً غير مدبر، ووُجد فيه بضع وتسعون بين طعنة ورمية، وأخبر النبيُّ ﷺ بموته وموت أصحابه قبل مجيء الجيش وهو يبكي، وقد قدّمنا ذلك في الغزوة المذكورة في المغازي.

٢٧٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيتُ جَعفراً يَطيرُ في الجنة معَ الملائكة»**.

رواه الترمذي (٢٥٣٦)، وأبو يعلى (٤٧٠/٥)، والحاكم (٣٠٩/٣)، وصححه وردّه الذهبي بأنّ والد ابن المديني واهٍ لكن الحديث صحيح لشواهده:

٢٧١ ـ عن ابن عباس بلفظ: **«دخلت البارحة الجنة فرأيت فيها جعفراً يطير مع الملائكة»**. وفي رواية: **«له جناحان عوّضه الله عن يديه»**.

رواه الحاكم (٢١٠/٢٠٩/٣) والطبراني وغيرهما وصححه الحاكم.

٢٧٢ ـ وعن أبي هريرة من طريق آخر أنّ رسول الله ﷺ قال: **«مرّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة وهو مخضب الجناحين بالدم أبيض الفؤاد»**.

رواه الحاكم (٣١٢/٣) بسند صحيح على شرط مسلم وصححه وأقرّه الذهبي.

٢٧٣ ـ وعن الشعبي أنَّ ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان إذ سلَّم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين.

رواه البخاري في المناقب (٧٨/٨)، وانظر «الفتح».

وهذه منقبة عظيمة وخصيصة خصَّه الله تعالى بها وهي طيرانه في الجنة مع الملائكة بجناحين عوَّضه الله تعالى بهما عن يديه اللتين قُطعتا وهو ملتزم الراية.

٢٧٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا ركب الكور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر.

رواه الترمذي (٣٥٣٧) والحاكم (٢٠٩/٣) وحسَّنه الترمذي وصححه هو والحاكم ووافقه الذهبي.

(احتذى) أي: انتعل. و(المطايا): جمع مطية، الدابة تُركب. و(الكور) بضمِّ الكاف: رجل الناقة.

٢٧٥ ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجعفر بن أبي طالب: «**أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقي**».

رواه البخاري في عمرة القضاء (٤٩/٤٠/٩) وفي الحج وفي الجزية وفي الصلح، ومسلم في المغازي، وأبو داود في الحج، والترمذي في البرِّ والصلة وفي المناقب (٣٥٣٨)، وتقدَّم في عمرة القضاء مطوَّلاً فارجع إليه.

«**خلقي**» الأولى، بفتح الخاء وسكون اللام: الخلقة الظاهرة، والثانية، بضمَّتين: السجية والأخلاق الكريمة. وفي الحديث فضل ظاهر لجعفر حيث شهد له رسول الله ﷺ بشبهه في خلقته وصورته ومكارم أخلاقه.

* * *

مناقب عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما

هو عبدالله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عمِّ رسول الله ﷺ، حبر هذه الأمَّة وترجمان القرآن، دعا له رسول الله ﷺ

بالتفقه في الدين وعِلم التأويل، كان ابن عمر يقول: ابن عباس أعلم أمّة محمد بما أُنزِل على محمد.

وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين ورسول الله ﷺ مُحاصَرٌ مع بني هاشم والمطلب في الشِّعْب. أمه أمُّ الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهما، وتوفي رسول الله ﷺ وسنه خمس عشرة على الصحيح. توفي بالطائف سنة ثمان وستين بعدما ذهب بصره.

قال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فشهدنا جنازته، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خلقته مثله حتى دخل في نعشه ثم لم يُرَ خارجاً منه، فلمّا دُفن تُليت هذه الآية على شفير القبر لم يُدرَ مَن تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

رواه الطبراني في الكبير (١٠٥٨١) بسند صحيح.

٢٧٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ أتى الخلاء فَوَضعْتُ له وَضُوءاً، فلمّا خرج قال: «**مَن وضع هذا؟**» قالوا: ابن عباس. قال: «**اللَّهم فقهه**».

رواه مسلم بهذا اللفظ في الفضائل (٣٧/١٦). وفي رواية عند البخاري في العلم وفي المناقب (١٠١/٨): ضمَّني رسول الله ﷺ إلى صدره وقال: «**اللَّهم عَلِّمْه الكتاب**». ورواه أيضاً الترمذي (٩٥٩٤) بلفظه، والنسائي في الكبرى (٥٢/٥) بلفظ: «**الحكمة**». وفي رواية عند أحمد (٣٣٥/٣٢٨/٣١٤/٢٦٦/١): «**اللَّهم فَقِّهْهُ في الدِّين وعَلِّمه التأويل**» من طرق صحيحة، وفيه عنده بيان أنه كان عند خالته ميمونة وأنها القائلة: وضعه ابن عباس.

وعلى كل الروايات ففيه منقبة عظيمة لابن عباس حيث دعا معه النبيُّ ﷺ بالتفقه في الدين وتعلُّم الكتاب والحكمة، فكان كما دعا له بحراً في التفسير وإماماً في السنَّة. وقد قال أبو بكرة: قدم علينا ابن عباس البصرة وما فيها من العرب مثله حشماً، وعلماً، وثياباً، وجمالاً، وكمالاً.

أورده الحافظ في الإصابة وعزاه للمدائني.

وله أخبار ومنزلة عند الأمّة بعلمائها وعوامها رضي الله تعالى عنه، وكان من الصحابة الذين فتحوا إفريقية ـ تونس اليوم ـ رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❀ مناقب زيد بن حارثة رضي اللَّه تعالى عنه

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرىء القيس الكلبي، حِبُّ رسول الله ﷺ ووالد حِبِّه ومولاه، سُبي في الجاهلية وهو غلام فأتي به عكاظ فبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمَّته خديجة أم المؤمنين بأربعمائة درهم، فلمّا تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، ولمّا سمع به والده أتى النبيَّ ﷺ هو وأخ له يريد فداءه، فخيَّره النبيُّ ﷺ بينه وبين والده، فقال زيد رضي الله تعالى عنه للنبيِّ ﷺ: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت منّي بمكان الأب والعم.

وكان من أول مَن أسلم وصحب النبيَّ ﷺ وخدمه ولازمه وهاجر معه إلى المدينة وشهد معه كل المشاهد.

وكان من أحبِّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوَّجه بحاضنته أم أيمن رضي الله تعالى عنها وأنجبت له أسامة، ثم تزوج زينب بنت جحش بنت عمَّة رسول الله ﷺ، ثم أمره الله بفراقها ليتزوجها النبيُّ ﷺ كما قدَّمنا في السيرة.

ومن مناقبه العظيمة أنَّ الله تعالى خصَّه بذكر اسمه في القرآن دون سائر الصحابة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ الآية.

٢٧٧ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ما كنا نَدْعُو زيدَ بن حارثة إلا زيدَ بن محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

رواه البخاري ومسلم والترمذي (٣٥٨٥) وتقدَّم في التفسير.

لأن النبيَّ ﷺ كان أعتقه وتبنّاه، فكانوا ينسبونه للنبيِّ ﷺ.

٢٧٨ ـ وعنه أيضاً قال: بَعث رسولُ الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال رسول الله ﷺ: «**إن تَطعَنُوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لَخَلِيقاً للإمارة، وإن كان لَمِن أحَبِّ الناس إليَّ، وإنَّ هذا لَمِن أحبِّ الناسِ إليَّ بعدَهُ**».

رواه أحمد (٢/٢٠/٨٩/١١٠)، والبخاري آخر المغازي (٩/٢١٨ و٨/٨٨) ومسلم (١٥/١٩٥/١٩٦) والترمذي (٣٥٨٧) ثلاثتهم في المناقب والفضائل.

قوله: «**لخليقاً**» أي: كان أهلاً للإمارة حقيقاً بها.

وفي الحديث منقبة لزيد وابنه أسامة وأنهما من أحبِّ الناسِ إلى رسول الله ﷺ، كما كانا مؤهلَين للإمارة. وطَعْنُ مَن طعن في إمارتهما كان لسبب أنَّ زيداً مولى وولده أسامة كان صغيراً، ثم هو أسود، فبيَّن لهم النبيُّ ﷺ فضلهما ومنزلتهما عنده.

٢٧٩ ـ وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمّره عليهم، ولو بقي لاستخلفه.

أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٣٠٧). قال الحافظ في الإصابة: بإسناد قوي. ورواه النسائي في الكبرى (٥/٥٢).

٢٨٠ ـ وقال سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه: غزوت مع النبيِّ ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يُؤمِّرُهُ علينا.

رواه البخاري في المغازي (٩/٦٠).

وهذه السبع التي كان فيها أميراً، هي: القردة، والجموم، والعيص، والمطرف، وجشمى، وأم قرفة، ثم غزوة مؤته التي استُشهد فيها وهو ابن خمس وخمسين سنة. قاله الواقدي.

وتقدَّم حديث البراء في عمرة القضاء وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لزيد بن حارثة: «**أنت أخونا ومولانا**». رواه الشيخان. فيا لها من فضيلة ومنقبة، فبشَّره النبيُّ ﷺ بأنه أخوه ومولاه وأنه ذو مكانة عنده.

٢٨١ ـ بل جاء عن أسامة رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «**يا زيد، أنت مولاي ومني وإليَّ، وأحب الناس إليَّ**».

رواه ابن سعد (٤٤/٤٣/٣) وأحمد. قال الحافظ: بإسناد حسن.

وبالجملة فهذا الرجل كان من أعزِّ الناس وأحبِّهم وأقربهم إلى رسول الله ﷺ.

* * *

❀ مناقب أسامة بن زيد رضي اللَّه تعالى عنهما

هو حِبُّ النبيِّ ﷺ وابن حِبِّه أسامة بن زيد بن حارثة. وُلد في الإسلام بمكة المكرمة قبل الهجرة بعشر سنين، وتربَّى ونشأ في بيت النبوَّة، ووالدته أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ وإحدى أمهاته من الرضاعة. وكان أسامة أسود خلاف والده، لذلك كان المنافقون يطعنون فيه. وأمَّره النبيُّ ﷺ على جيش عظيم لغزو الروم فمات النبيُّ ﷺ قبل أن يتوجه فأنفذه أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يجلُّه ويكرمه ويفضله في العطاء على ابنه عبدالله. وكان أسامة ممَّن اعتزل الفتن بعد قتل عثمان رضي الله تعالى عنه إلى أن توفي سنة أربع وخمسين بنواحي المدينة.

٢٨٢ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أراد النبيُّ ﷺ أن يُنَحِّيَ مُخاطَ أسامة. قالت عائشة: دَعْنِي حَتى أكونَ أنا الذي أفعلُ. قال: «**يا عائشة، أحِبِّيه فإني أُحِبُّه**».

رواه الترمذي (٣٥٨٩) في المناقب وحسَّنه وهو كما قال.

فقوله: «أحبِّيه فإني أحبُّه» فيه منقبة هامة له رضي الله تعالى عنه.

وقد تقدَّم في مناقب الحسن أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأخذه وأسامة ويقول: «اللَّهم إني أحبُّهما فأحِبَّهما». وهو في البخاري.

٢٨٣ ـ وعن أسامة قال: لمّا ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُضْمِتَ فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يديه عليَّ ويَرفعُهما فأعرف أنه يَدعُو لي.

رواه أحمد (٥/٢٠١) والترمذي (٣٥٨٨) بتهذيبي بسند صحيح، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث عند أحمد.

وهذه خصيصة خصَّه بها دون الحاضرين وما ذلك إلا لمكانته عنده.

٢٨٤ ـ وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنَّ عمر فرض لأسامة في ثلاثة آلاف وخمسمائة وفرض لعبدالله بن عمر في ثلاثة آلاف، فقال عبدالله بن عمر لأبيه: لمَ فضَّلت أسامة عليَّ؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد. قال: لأن زيداً كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فآثرت حِبَّ رسول الله ﷺ على حِبِّي.

رواه الترمذي (٣٥٨٤) ورجاله رجال الصحيح غير سفيان بن وكيع ففيه لين، ومع ذلك فحسَّنه الترمذي.

فهذا عمر رضي الله تعالى عنه يفضِّل زيداً على نفسه وأسامة على ابنه ويؤثره عليه لأنه كان وأبوه حِبَّيْن لرسول الله ﷺ، وكان يفضِّله في العطاء على ولده.

٢٨٥ ـ وعن عبدالله بن دينار رحمه الله تعالى قال: نظر ابنُ عمر يوماً وهو في المسجد إلى رَجُلٍ يَسْحَبُ ثِيابَه في ناحية من المسجد، فقال: انظروا مَن هذا. فقال له إنسان: أمَا تَعرفُ هذا يا أبا عبدالرحمٰن؟ هذا محمد بن أسامة. قال: فطأطأ ابن عمر رأسه ثم قال: لو رآه رسول الله ﷺ لأحَبَّه.

رواه البخاري في المناقب (٨/٨٩).

فقول ابن عمر: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبّه. لأنه ولد أسامة حِبّه فهو ابنُ حِبّه.

وتقدّم لنا حديث المخزومية في الحدود، وقولهم: ومَن يجترىء أن يكلّمه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ؟ وهو في الصحيح.

* * *

❀ مناقب عمّار بن ياسر رضي اللّه تعالى عنهما

هو عمار بن ياسر العنسي، الطيب المطيب، المملوء إيماناً إلى مشاشه. أسلم قديماً وعُذّب في الله ونزل فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيّ ﷺ كل المشاهد، ثم كان من أصحاب الإمام علي المخلصين، وقُتل معه شهيداً بصفّين سنة سبع وثلاثين وله ثلاث وتسعون سنة.

٢٨٦ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما خُيّر عَمّارٌ بَيْنَ أمْرَيْن إلاّ اخْتار أرْشَدَهُما»**.

رواه الترمذي (٣٥٧٠)، وابن ماجه (١٤٨)، والحاكم (٣/٣٨٨) بسند صحيح على شرط مسلم، ورواه الحاكم أيضاً (٣/٣٧٩) عن ابن مسعود وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

«أرشدهما» أي: أصوبهما وأقربهما إلى الحق، وفيه دليل على أنه كان منوّر البصيرة راشداً.

٢٨٧ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه أنّ عمار بن ياسر جاء يستأذن على النبيّ ﷺ فقال: **«ائذنوا له، مرحباً بالطّيّبِ المُطَيّبِ»**.

رواه أحمد (١/١٢٦/١٣٠)، والترمذي (٣٥٦٩)، وابن ماجه (١٤٦)، والحاكم (٣/٣٨٨)، وحسّنه الترمذي وصححه هو والحاكم ووافقه الذهبي.

«**الطيب المطيب**» أي: الطاهِر المُطَهَّر، وهذه منقبة له عظيمة.

٢٨٨ ـ وعن عكرمة: قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه. فانطلقنا فإذا هو في حائط يُصلحُه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدّثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد فقال: كنا نحمل لبِنةً لبِنةً، وعمار لبِنَتَيْن لبِنَتَيْن، فرآه النبيُّ ﷺ فَيَنفُضُ الترابَ عنه ويقول: «**ويحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُه الفئةُ البَاغِية، يدعُوهم إلى الجَنَّةِ ويَدعُونه إلى النار**». قال: يقول عمار: أعوذُ بالله من الفتن.

رواه أحمد (٣/٥/٩١)، والبخاري في المساجد (٢/٨٧/٨٨) وفي الجهاد (٩/٣٧٠) وغيره، ورواه مسلم في الفتن (١٨/٣٩/٤٠) بلفظ: «**بؤس ابن سمية، تقتلك فئة باغية**». ورواه أيضاً عن أمّ سلمة وأبي قتادة رضي الله تعالى عنهما، ورواه الترمذي في مناقب عمار عن أبي هريرة (٣٥٧٢) بلفظ: «**أبْشِر عمار، تقْتلك الفئةُ الباغية**». وحسّنه وصححه، وهو على شرط مسلم.

والحديث متواتر، قال الحافظ: إنها أحاديث متواترة. وقال: غالب طرقه صحيحة أو حسنة. وأورده السيوطي في الأزهار، ورواته من الصحابة يفوقون الثلاثين.

وقوله: «**ويح**»: هي كلمة ترحُّم تقال لمَن وقع في هلكة لا يستحقها، ويُرثى له بها. وقوله: «**بؤس**»: هو من البأساء والمكروه، ومعناه: يا بؤس ابن سمية ما أشده وأعظمه. وقوله: «**الفئة الباغية**» أي: الجماعة الطاغية المعتدية، ولم تكن بذلك كافرة.

وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوّة حيث أخبر ﷺ بقتل عمار على أيدي الجماعة الباغية، وهم جماعة أهل الشام الذين خرجوا على الإمام علي وحاربوه ولم يرضوه إماماً، فكان عمار مع الإمام علي فقُتل في صفِّه، وصدق الله نبيَّه وما أخبر به ﷺ. قال النووي في شرح مسلم (١٨/٤٠): قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أنَّ علياً رضي الله تعالى عنه كان محقًّا، والطائفة الأخرى بُغاة.

وفي الحديث منقبة لعمار والإمام علي رضي الله تعالى عنهما.

٢٨٩ ـ وعن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مُلِيء عَمارٌ إيماناً إلى مُشَاشِه»**.

رواه النسائي في الإيمان (٥٣٢/٦) وفي المناقب (٧٤/٥) كلاهما في الكبرى، وسنده صحيح، ومثله عن عائشة عند البزار.

(المُشاش): جمع مشاشة، رؤوس العظام اللينة. وفي الحديث شهادة من النبيِّ ﷺ لعمار بأنه مليءٌ بالإيمان، وكفاه بذلك فضلاً.

٢٩٠ ـ وعن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نمشي بالبطحاء حتى أتى على أبيه وأمه وعليه ـ يعني عماراً ـ يُعذَّبون، فقال أبو عمار: يا رسول الله، الدهر هكذا؟ فقال له النبيُّ ﷺ: **«اصبر»**. ثم قال: **«اللَّهم اغفر لآلِ ياسر، وقد فعلتَ»**.

رواه أحمد (٤٣٩). قال النور (٢٩٣/٩): ورجاله رجال الصحيح.

٢٩١ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بعمار بن ياسر وبأهله يُعذَّبون في الله عزَّ وجلَّ فقال: **«أبْشِرُوا آلَ ياسِرٍ، موعدُكم الجنَّة»**.

رواه الطبراني في الأوسط (١٥٣١) ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز المُقَوِّم، وهو ثقة. قاله النور في المجمع (٢٩٣/٩)، ومثله عن عمار نفسه رواه الطبراني ورجاله ثقات.

كان عمار وأبوه ياسر وأمه سمية ممَّن سامهم الكفار سوء العذاب وأشده حتى مات ياسر وسمية تحت العذاب ونطق عمار بالكفر ونزل فيه قرآن يعذره: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ الآية.

فمرَّ عليهم النبيُّ ﷺ وهم يُعذَّبون ولا يستطيع تخليصهم، فأمرهم بالصبر ودعا لهم بالمغفرة ووعدهم بالجنة، وتلك هي السعادة الأبدية والحياة الطيبة.

٢٩٢ ـ وعن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه قال: كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظتُ له في القول، فانطلق عمار يشكوني إلى رسول الله ﷺ، فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبيِّ ﷺ. قال: فجعل يغلظ له، ولا يزيده إلا غلظة، والنبيُّ ﷺ ساكت، فبكى عمار وقال: يا رسول الله، ألا تراه؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «**مَن عادَى عمّاراً عادَاه الله، ومَن أبغض عمّاراً أبغضه الله**». قال خالد: فخرجت فما كان شيء أحبَّ إليَّ من رضا عمار، فلقيته فرضي.

رواه أحمد (٨٩/٤) والطبراني في الكبير (٣٨٣١) وسنده صحيح، رجاله رجال الصحيح.

هذه منقبة عظيمة وفضيلة هامة قلَّ مَن أحرز عليها من الصحابة حيث جُعلت معاداته معاداة لله تعالى وأنَّ مَن أبغضه أبغضه الله.

وأخباره وفضائله كثيرة، وذكر كثيراً منها نور الدين الهيثمي في المجمع، وسيأتي له ذكر في الفتن أيضاً.

* * *

❀ مناقب أبي ذرٍّ الغفاري رضي اللّه تعالى عنه

هو أبو ذر جُندُب بن جنادة الغِفاري، الزاهد الصادق اللهجة، العالم الرباني الثائر على الأغنياء... كان من السابقين إلى الإسلام، وعندما أسلم صرخ بالشهادتين بين ظهراني المشركين، وضربوه حتى أضجعوه، وأمره النبيُّ ﷺ أن يذهب إلى بلاده حتى يظهر، فذهب فأقام في غفار حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ومضت بدر وأُحد ولم يتهيأ له القدوم إلا بعد ذلك، ثم شهد معه باقي المشاهد والمغازي. وكان طويلاً أسمر اللون نحيفاً، وكان أزهد الصحابة. توفي بالربذة سنة اثنتين وثلاثين، وكان قد سكنها بأمر من سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهما.

٢٩٣ ـ عن عبدالله بن الصامت قال: قال أبو ذر رضي الله تعالى عنه: خرجنا من قومنا غفار وكانوا يُحلُّون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أُنَيسٌ

وأمُنا فنزلنا على خَالٍ لنا، فأكرمنا خالُنا وأحسن إلينا، فحسَدَنا قومُه، فقالوا: إنك إذا خرجتَ عن أهلك خالف إليهم أُنَيْسٌ. فجاء خالنا فَنَثَا علينا الذي قيل له، فقلتُ: أما ما مضى من معروفك فقد كدَّرتَه، ولا جماع لك فيما بعدُ. فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فاحتملنا عليها وتَغَطَّى خالُنا ثَوبَه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر أُنيس عن صرمتنا وعن مثلها، فأتيا الكاهن فخير أُنيساً، فأتانا أُنيس بصرمتنا ومثلها معها. قال: وقد صلَّيت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين. قلت: لِمَن؟ قال: لله. قلتُ: فأين تَتَوَجَّهُ؟ قال: أتوجه حيث يُوَجِّهُنِي ربِّي، أصلِّي عشَاءً حتى إذا كان من آخر الليل ألقيتُ كأني خِفاءٌ حتى تعلوني الشمس. فقال أُنَيس: إنَّ لي حاجة بمكة، فاكفني. فانطلق أُنيس حتى أتى مكة فراث عليَّ، ثم جاء فقلت: ما صنعتَ؟ قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أنَّ الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أُنيس: لقد سمعت قول الكَهَنَة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شِعْر، والله إنه لَصادقٌ، وإنهم لَكاذبون. قال: قلت: فاكْفِنِي حتى أذهب فأنظر. فأتيت مكة فَتَضَعْفْتُ رجلاً منهم فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟ فأشار إليَّ فقال: الصابىء. فمال عليَّ أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى فررت مغشياً عليَّ. قال: فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمرُ. قال: فأتيت زمزم فغسلتُ عني الدماء وشربت من مائها، ولقد لبثت يا ابن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لي طعام إلا ماءُ زَمْزَمَ، فسَمِنْتُ حتى تَكَسَّرَتْ عُطَنُ بَطْنِي، وما وجدت على كبدي سُخْفَةَ جوع. قال: فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إضْحِيَان، إذ ضُرب على أسْمِخَتِهم فما يطوف بالبيت أحدٌ، وامرأتان منهم تدعوان إسافاً ونائلة. قال: فأتتا عليَّ في طوافهما فقلت: أنكحا أحدهما الأخرى. قال: فما تناهتا عن قولهما. قال: فأتتا عليَّ فقلت: هَنٌ مثل الخشبة غير أني لا أكني. فانطلقتا تُوَلْوِلانِ وتقولان: لو كان ها هنا أحدٌ من أنفارنا. قال: فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان، قال: «ما بكما؟» قالتا: الصابىء بين الكعبة

وأستارها. قال: **«ما قال لكما؟»** قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأ الفم. وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر وطاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلّى، فلما قضى صلاته قال أبو ذر: فكنت أنا أول مَن حيّاه بتحية الإسلام. قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. قال: **«وعليك ورحمة الله»**. ثم قال: **«مَن أنت؟»**. قال: قلت: من غفار. قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار، فذهبت آخذ بيده، فَفَدَعَنِي صاحبُه وكان أعلم به مني، ثم رفع رأسه ثم قال: **«متى كنت ها هنا؟»**. قال: قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: **«مَن كان يطعمك؟»**. قال: قلت: ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم فسَمِنت حتى تكسَّرت عُطَنُ بطني، وما أجد على كبدي سُخْفَةَ جوع. قال: **«إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْم»**. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ائذن لي في طعامه الليلة. فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، وكان ذلك أول طعام أكلتُه بها، ثم غَبَرْتُ ما غبرتُ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال: **«إنه قد وُجِّهتْ لي أرضٌ ذاتُ نخلٍ لا أُراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغٌ عني قومَك عسى الله أن ينفَعَهم بك ويأجُرُك فيهم؟»** فأتيت أُنيساً فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدَّقتُ. قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإني قد أسلمتُ وصدَّقتُ. فأتينا أمنا فقالت: ما بي رغبةٌ عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدَّقتُ. فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم إيمَاءُ ابن رَحَضَةَ الغفاري، وكان سيدهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي، وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله، إخْوَتُنا نسلم على الذي أسلموا عليه. فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: **«غفارٌ غفر الله لها، وأسْلم سالَمَها الله»**.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٢٧/٣١/٣٢) وهو مخالف لحديث ابن عباس المتقدم أوائل السيرة في إسلام أبي ذر مخالفة واضحة، فالله أعلم بحقيقة الأمر، فكِلا الحديثَين في الصحيح، فحديث ابن عباس المتقدم في الصحيحين وحديث الباب عند مسلم.

قوله: (فنثا) بالثاء المثلثة، أي: أشاعه و أفشاه. وقوله: (صرمتنا) بكسر الصاد: القطعة من الإبل أو الغنم. قوله: (فنافر أُنيس عن صرمتنا وعن مثلها فأتيا الكاهن فخير أُنيساً) معناه: تراهن هو وآخر بإبلها فأيها كان أفضل أخذ الإبل، فتحاكما إلى الكاهن فحكم بأنَّ أُنيساً أفضل، وهو معنى قوله: (فخير أُنيساً): جعله الخيار والأفضل، وكانت هذه المراهنة على أيهما أشعر. قوله: (فراث عليَّ) أي: أبطأ. قوله: (أقراء الشعر) أي: طرقه وأنواعه. قوله: (فتضعفت) أي: نظرت إلى أضعفهم فسألته. قوله: (كأني نصب أحمر) يعني من كثرة ما أصيب به من الدماء. قوله: (حتى تكسرت عكن بطني) أي: انثنت وانطوت لكثرة السمن. وقوله: (سخفة) بفتح السين وضمِّها، أي: رقة الجوع وهزاله. وقوله: (إضحيان) أي: قمراء مضيئة. وقوله: (أسمختهم) جمع سماخ، ويقال: صماخ، أي: آذانهم، ومراده ناموا. قوله: (هن) أي: الهن، المراد به هنا الفرج. قوله: (ففدعني) أي: كفَّني ومنعني. وقوله: (غبرت) أي: بقيت. قوله: (ما بي رغبة عن دينكما) أي: لا أكرهه بل أدخل فيه. وقوله: «**طعام طعم**» بضمِّ الطاء، أي: تشبع شاربها كما يشبع الطعام. زاد في رواية عند الطيالسي وغيره: «**وشفاء سقم**».

في هذا الحديث فوائد، منها: فضل أبي ذر وأخيه وأمهما وأنهم من السابقين، وفيه منقبة خاصة لأبي ذر حيث وحَّد الله تعالى وعَبَدَه قبل أن يتصل بالنبيِّ ﷺ إلهاماً من الله، وفيه بركة زمزم وأنها طعام لشاربها قد تكفي عن الطعام، وذلك من آيات الله تعالى الخاصة بها، وفيه غير ذلك من الفوائد.

٢٩٤ ـ وعن أبي ذر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أظلَّت الخضراء وأقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبه عيسى ابن مريم**». فقال عمر كالحاسد: يا رسول الله، أفنعرف ذلك له؟ قال: «**نعم، فاعزفوه**».

رواه الترمذي (٣٥٧٤)، والحاكم (٣٤٢/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وله شاهد عن أبي الدرداء رواه الحاكم (٣٤٢/٣)، وآخر

عن ابن مسعود رواه الترمذي (٣٥٧٣)، وأحمد (١٦٣/٢)، وابن ماجه (١٥٦)، والحاكم (٣٤٢/٣).

«الخضراء»: هي السماء، و**«الغبراء»**: الأرض. **«أصدق لهجة»**: مبالغة في الصدق وليس معناه أنه أصدق لساناً من جميع الناس، فإنه ليس أصدق من رسول الله ﷺ ولا من الخلفاء الأربعة.

وفي الحديث منقبة لأبي ذر حيث شهد له رسول الله ﷺ بصدق الحديث، وفي الحديث الصحيح: **«لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً»**.

٢٩٥ ـ وعن الأحنف بن قيس قال: كنت في نفر من قريش فمرَّ أبو ذر وهو يقول: بشِّر الكانزين بِكَيٍّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبِكَيٍّ من قِبَل أقفائهم يخرج من جباههم. قال: ثم تنحى فقعد. قال: قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا أبو ذر. قال: فقمت إليه فقلت: ما شيء سمعتك تقول قبيلُ؟ قال: ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيِّهم ﷺ. قال: قلت: ما تقول في هذا العطاء؟ قال: خذه، فإنَّ فيه اليوم معونة، فإذا كان ثمناً لدينك فدعه. وفي رواية: وإنَّ هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا، لا والله لا أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين، حتى ألقى الله.

رواه البخاري ومسلم واللفظ الأول لمسلم، وقد تقدَّم في تفسير سورة براءة بلفظ آخر.

وفي الحديث ماكان عليه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من الزهد الكامل في الدنيا حتى أنه كان لا يرى إمساك المال الفاضل، وكان يرى الوعيد الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على العموم، ولم يوافقه أحد على ذلك لأنه مخالف لنصوص الكتاب والسنَّة، فإنَّ الواجب في مال المسلم هو الزكاة وما يلزمه من نفقة مَن يعوله...

٢٩٦ ـ وعن زيد بن وهب قال: مررت بالرَّبَذَةِ فإذا أنا بأبي ذر رضي الله تعالى عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان رضي الله تعالى عنه يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقْدَم المدينة، فقدمتها فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان فقال لي: إن شئتَ تنحيت فكنتَ قريباً. فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليَّ حبشياً ما عصيته، ولا أرجع عن قولي، لسمعتُ وأطعتُ.

رواه البخاري في الزكاة وفي التفسير، والنسائي في الكبرى، وتقدَّم في التفسير وفي الحديث تفوق أبي ذر في العلم على معاوية، كما فيه طاعته لأولي الأمر إذا كانت في المعروف، وفيه صلابته في الدين وقول الحق، وفيه أنَّ العبرة في نصوص القرآن والسنَّة بالعموم لا بخصوص السبب، وهذا مما لا ينبغي فيه الخلاف إلا ما ورد به النص مخصوصاً.

* * *

❀ مناقب عبداللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه

هو عبدالله بنُ مسعود الهُذَلِي، ابنُ أمِّ عَبدٍ، العالم الرباني، أحد السابقين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة، وشهد مع النبيِّ ﷺ جميع المشاهد، وهو الذي ذبح أبا جهل بعد أن أثخنه ابنا عفراء، وكان أحد العلماء الربانيين والقرّاء المشاهير، ومن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأكثرهم دخولاً عليه وأشبههم دَلاً وسَمْتاً وهدياً به ﷺ، وكان ممَّن شهد فتوح الشام، وبعثه عُمر إلى الكوفة ليعلِّمهم أمور دينهم فكوَّن فيها علماء كباراً ونشر علماً كثيراً جماً بها، وكان مع ذلك قصيراً جداً لا يتجاوز الذراعين إلا قليلاً. توفي رضي الله تعالى عنه بالمدينة قبل مقتل عمر، قاله البخاري.

٢٩٧ ـ عن عبدالرحمٰن بن يزيد قال: أتينا حذيفة فقلنا: حدِّثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هَدْياً ودلاً وسَمْتاً فَنَأخُذُ عنه ونَسْمَعُ منه. قال: كان أقربَ الناس هَدْياً ودَلاً وسَمْتاً برسول الله ﷺ ابن مسعود حتى

يَتَوارَى منا في بيته، ولقد علم المحفُوظون من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ ابن أمّ عبدٍ هو من أقربهم إلى الله زُلْفَى.

رواه البخاري (٨/١٠٤) والترمذي (٣٥٧٩) كلاهما في المناقب، وكذا رواه الحاكم (٣/٣١٥) وصححه على شرطهما.

(دلاً) بفتح الدال واللام المشددة: السيرة والحالة. (سَمْتاً) بفتح وسكون: هي الهيئة الحسنة. وقوله: (المحفوظون) أي: الذين حفظهم الله من التحريف في القول والفعل. وقوله: (ابن أمّ عبدٍ): هي كنية أم عبدالله، أسلمت وصحبت النبيَّ ﷺ. وقوله: (زلفى) أي: قربة.

وفي هذا الحديث مناقب ظاهرة لهذا الرجل العظيم، وكيف لا وحذيفة صاحب سرّ رسول الله ﷺ يشهد فيه بأنه أقرب الناس سيرة وهدياً برسول الله ﷺ.

٢٩٨ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حِيناً ما نُرَى إلا أنَّ عبدالله بن مسعود رجلٌ من أهل بيتِ النبيِّ ﷺ، لِما نَرى من دخوله ودخول أمّه على النبيِّ ﷺ. وفي رواية: من كثرة دخولهم ولزومهم له.

رواه البخاري (٨/١٠٤)، ومسلم (١٦/١٤/١٥)، والترمذي (٣٥٧٨) بتهذيبي، وكذا الحاكم (٣/٣١٤/٣١٥) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وقال: لم يخرجاه. وهو وهم منه ومن إقرار الذهبي.

وقوله: (حِيناً) أي: زماناً. (ما نُرى) بضمّ النون، أي: ما نظن.

وهذا أيضاً كسابقه، فيه منقبة له ولوالدته أمّ عبد حيث أنهما كانا لكثرة لزومهما له ﷺ ودخولهما عليه بيته كأنهما من أهل البيت.

٢٩٩ ـ وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ إلى آخر الآية، قال لي رسول الله ﷺ: **«قيل لي أنتَ مِنهم»**.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/١٤).

وهذا أيضاً، فهو من المؤمنين الصالحين المتقين بنصٍّ من الله ورسوله ﷺ.

٣٠٠ ـ وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: أَمَرَ النبيُّ ﷺ ابن مسعود فصعد شجرة فأمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصْحابُه إلى سَاقِ عبدالله حين صعد فضحكوا من حُمُوشَة ساقيه، فقال النبيُّ ﷺ: «**ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحد**».

رواه أحمد (٩٢٠)، وأبو يعلى (٥٣٩)، وابن سعد في الطبقات (١٠٩/١/٣)، والطبراني في الكبير (٨٥١٦) بسند صحيح، وصححه ابن جرير في تهذيبه، وقال النور في المجمع (٢٨٩/٩): رجالهم رجال الصحيح غير أمّ موسى، وهي ثقة. وللحديث شواهد عن ابن مسعود نفسه رواه أحمد (٣٩٩١) وأبو يعلى (٥٣١٠) بسند حسن وفيه: «**مِمَّ تضحكون؟**» قالوا: يا رسول الله، من دقة ساقَيه. فقال: «**والذي نفسي بيده لَساقا ابن مسعود يوم القيامة أشد وأعظم من أُحد**». وعن قرة بن إياس رواه البزار (٢٦٧٧) والطبراني في الكبير (٢٨/١٩) ورجالهما رجال الصحيح، كذا في المجمع، وعن أبي الطفيل رواه الطبراني.

قوله: (من حموشة ساقيه) الحموشة: دقة الساق ورقته.

وفي هذا الحديث بشارة لابن مسعود بثقل ميزانه يوم القيامة بسبب رقة ساقيه، فهو إذاً من المبشَّرين بالجنة.

٣٠١ ـ وعن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبدالله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبيِّ ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادًّا يقول غير ذلك.

رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٢٣/١٠) ومسلم في الفضائل (١٦/١٦).

وهذا دالٌ على أنه كان أعلم الصحابة بكتاب الله عزَّ وجلّ، وقد تكلم بذلك بين الصحابة ولم يردَّ كلامه أحد، ويؤيده التالي، وهو:

٣٠٢ ـ عن مسروق عن عبدالله قال: والذي لا إلٰه غيره، ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أُنزلت، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله تعالى مني تبلُغُه الإبل لَركبتُ إليه.

رواه البخاري في فضائل القرآن (١٠/٤٢٥/٤٢٦) ومسلم في الفضائل (١٦/١٧).

فهذا يدلُّ على أنه كان من الأفراد في علم القرآن، ولذلك:

٣٠٣ ـ جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يَسمُر عند أبي بكر الليلة كذلك لأمر من أمر المسلمين، وأنه سَمَر عنده ذات ليلة وأنا معه، ثم خرج رسول الله ﷺ يمشي ونحن نمشي معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلمّا كدنا نعرف الرجل قال رسول الله ﷺ: **«مَن سَرَّه أن يقرأ القرآن رطْباً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبدٍ»**. قال: ثم جلس الرجل يدعو فجلس رسول الله ﷺ يقول: **«سلْ تُعْطَه»**. قال عمر: فقلت: والله لأغدون إليه فلأبَشِّرنَّه. قال: فغدوت إليه لأبشِّره فوجدت أبا بكر قد سبقني فبشَّره، فلا والله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه.

رواه عبدالله في زوائد أبيه (١/٢٥/٢٦)، وأبو يعلى (١٩٤/١٩٥)، والطبراني في الكبير (٨٤٢٢)، وسنده صحيح. وللحديث طرق وشواهد منها عن ابن مسعود عند أحمد (٣٦٦٢/٤٢٥٥)، وفي مواضع بسند صحيح بلفظ: **«مَن سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**. ومثله عن عمار، رواه الطبراني وغيره. وتقدَّم في التفسير: **«خذوا القرآن من أربعة»** فذكر منهم ابن مسعود.

٣٠٤ ـ وقال عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه، وقد ذُكِرَ عنده ابنُ

مسعود: ذاك رجل لا أزال أحبه بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: **«استقرئوا القرآن من أربعة، من: ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل»**.

رواه البخاري (١٠٣/٨) ومسلم (١٨/١٦) كلاهما في الفضائل، والترمذي في المناقب (٣٥٨١) أيضاً.

وبالجملة فهذا الرجل من كبار القرّاء والعلماء الربانيين الصالحين رضي الله تعالى عنه.

* * *

مناقب عَبْدِاللَّه بن عُمَر رضي اللَّه تعالى عنهما

هو عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبدالرحمٰن، أحد أكابر الصحابة وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم. وُلد بعد البعثة النبويّة بقليل، وأسلم صغيراً مع أبيه، وهاجر وهو ابن إحدى عشرة سنة، وعُرض على النبيّ ﷺ يوم بدر فاستصغره، وكذا بأُحد، ثم أجازه في الخندق، وكان ابن خمس عشرة سنة، ثم شهد مع النبيّ ﷺ سائر المشاهد، وكان أحد المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ، وأحد العبادلة الأربعة، له مناقب وفضائل جمّة.

٣٠٥ ـ فعنه رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل في حياة النبيّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصّها على النبيّ ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصُّها على النبيّ ﷺ، وكنت غلاماً أعزب وكنت أنام في المسجد على عهد النبيّ ﷺ، فرأيت في المنام كأن ملكَين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كطيّ البئر، وإذا لها قَرْنانِ كقرنَي البئر، وإذا فيها أناسٌ قد عرفتُهم، فجعلتُ أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار. فلقيهما مَلَكٌ آخَرُ فقال لي: لن تُرَع. فقصصتها على حفصة، فقصّتها على النبيّ ﷺ فقال: **«نِعْمَ الرجلُ عبدُالله لو كان يصلّي بالليل»**. قال سالم ـ يعني ولده ـ: فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً.

رواه أحمد (١٤٦/٢)، والبخاري في التعبير وفي المناقب (٩١/٨) وغيرهما، ومسلم في الفضائل (٣٨/١٦)، والترمذي (٣٥٩٥). والحديث تقدَّم في التعبير بسياق آخر فراجعه.

وقوله: (لها قرنان) قرون البئر: جوانبها. وقوله: (لن تُرعْ) أي: لا فزع ولا روعة عليك. وفي رواية: (لم ترع). وجزم الفعل بِلن لغة قليلة.

والحديث فيه منقبة لابن عمر حيث شهد له النبيُّ ﷺ بالصلاح أخذاً من الرؤيا.

٣٠٦ ـ وعن نافع أنَّ ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: كان يُحيي الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع، أسحرنا؟ فيقول: لا. فيعاود الصلاة ثم يقول: يا نافع، أسحرنا؟ فأقول: نعم. فيقعد فيستغفر ويدعو حتى يُصبحَ.

رواه الطبراني في الكبير (١٣٠٤٣) ورجاله رجال الصحيح غير أسد بن موسى وهو ثقة، كذا في المجمع (٣٤٧/٩).

٣٠٧ ـ وعن نافع أيضاً أنَّ ابن عمر اشتكى ـ أي: مرض ـ فاشترى له عنقود عنب بدرهم، فجاء مسكين فقال: اعطوه إياه. ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فجاءه مسكين يسأل فقال: اعطوه إياه. ثم خالف إنسان فاشتراه منه بدرهم، فأراد أن يرجع حتى منع، ولو علم بذلك العنقود ما ذاقه.

وعزاه النور إلى الطبراني (١٣٠٦٧) وقال: رجاله رجال الصحيح غير نعيم بن حماد، وهو ثقة.

فما فعله ابن عمر بالعنقود من الإيثار الذي مدح الله تعالى به الأنصار ومن الإنفاق مما يحبه الإنسان الذي يريد أن ينال البِرَّ.

٣٠٨ ـ وذكر الحافظ في الإصابة: عن جابر قال: ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبدالله بن عمر. عزاه لابن الأعرابي والغيلانيات والمحامليات بسند صحيح.

٣٠٩ ـ وذكر عن البيهقي في الزهد بسند صحيح عن زيد بن عبدالله

قال: ما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ إلا بكى، ولا مرَّ على ربعهم إلا غمض عينيه.

٣١٠ ـ وذكر عن ابن سعد بسند صحيح: قيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما.

توفي رضي الله تعالى عنه سنة ثلاث وسبعين بمكة المكرمة، ودفن بالمعلاة. وتقدَّم في الحج ما قال له الحجاج في شأن جراحته في رِجله وما أجابه به.

* * *

❀ مناقب بلال بن رباح رضي اللَّه تعالى عنه

هو بلال بن رباح الحبشي، مؤذن رسول الله ﷺ بالمدينة، كان من السابقين الأوَّلين إلى الإسلام، وكان من المعذَّبين في الله. كان عبداً مملوكاً لأميَّة بن خلف، وكان لعنه الله تعالى يُخرجه إذا حَمِيَتْ الظهيرة فيَطرحُه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول: لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد. فيقول وهو في ذلك: أحَدٌ أحَدٌ. فمرَّ به أبو بكر رضي الله تعالى عنهما فاشتراه منه بعبد له أسود جلد، ثم أعتقه ولزم النبيَّ ﷺ، وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيِّ ﷺ جميع غزواته ومشاهده، وكان ممَّن شارك في قتل أميَّة بن خلف في غزوة بدر، كما عند البخاري ومسلم وقد تقدَّم ذلك، ثم بعد موت النبيِّ ﷺ خرج مجاهداً إلى أن مات بالشام عام عشرين ودفن بدمشق. وذكر ابن عساكر وغيره أنه كان قد رأى النبيَّ ﷺ في منامه يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال؟ فلمَّا أصبح رحَل راحلته وأتى المدينة، فلمَّا وصلها أذَّن، فلمَّا سمع الناس أذانه ذكرهم بأيام النبيِّ ﷺ فخرجوا تذرف عيونهم بالدموع شوقاً إلى الحبيب ﷺ، رضي الله تعالى عنه وعنهم.

٣١١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال لبلال

عند صلاة الفجر: «**يا بلال، حَدِّثْنِي بأرْجَى عَمَلٍ عَمِلتَه في الإسلام، فإني سمعتُ دَفَّ نعليك بين يَدَيَّ في الجنة**». قال: ما عملت عَمَلاً أرْجَى عِندِي أنّي لمْ أتَطَهَّرْ طُهُوراً في ساعةِ لَيلٍ أو نهارٍ إلا صلّيتُ بذلك الطُّهور ما كُتِبَ لي أن أُصلّي.

رواه البخاري في صلاة الليل (٢/٢٧٦)، ومسلم في الفضائل (١٦/١٣)، وجاء نحوه عن بريدة عند الترمذي، وعن أبي هريرة رواه الشيخان في فضائل عمر.

قوله: «**دَفَّ نعليك**» أي: صوت نعليك وأثرهما، وفي رواية مسلم: «خَشْفَ» وهو بمعناه.

وفي الحديث منقبة لبلال وبشارة له بالجنة، فكان من المبشَّرين بالتخصيص، ويا لها من بشارة. كما في الحديث فضل صلاة الطهور وأنه من موجبات الجنة، وأنَّ صلاته جائزة في جميع الأوقات حتى في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها لظاهر قوله: في ساعة ليل أو نهار.

٣١٢ ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: أبو بكر سيِّدُنا، وأعتقَ سيِّدَنا ـ يعني بلالاً.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٠٠).

فهذه شهادة عادلة من عمر بأنَّ بلالاً سيِّدهم، ومعناه أنه متَفَوِّق على الكثيرين بالفضائل والمكارم كالصدِّيق رضي الله تعالى عنهما، وليس معناه أفضل من عمر بل ذلك يعدُّ تواضعاً من عمر، والسيادة لا تقتضي الأفضلية.

٣١٣ ـ وعن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى أنَّ بلالاً قال لأبي بكر: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمْسِكْنِي، وإن كنت إنما اشتريتني لله تعالى فدعني وعملي لله عزَّ وجلَّ.

رواه البخاري في المناقب أيضاً (٨/١٠٠/١٠١).

كان بلال قال ذلك للصدِّيق لأنه أراد الجهاد في سبيل الله، وقال له: إني رأيت أفضل عمل المؤمن الجهاد فأردت أن أرابط في سبيل الله. لكن

الصدِّيق رضي الله تعالى عنه ناشده الله بحقّه عليه، فأقام معه حتى توفي، فلمّا مات أذن له عمر فتوجه إلى الشام. ذكره ابن سعد.

* * *

❀ مناقب صهيب الرومي رضي اللّه تعالى عنه

هو صهيب بن سنان بن مالك النمري الرومي، أبو يحيى. سباه الروم صغيراً فنشأ عند الروم، ثم اشتراه بعض العرب وباعوه بمكة فاشتراه ابن جُدعان، فأسلم هو وعمار قديماً، وكان من جملة المعذَّبين في الله عزَّ وجلّ المستضعَفين، ثم كان من آخر مَن هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، وأخرج الحاكم (٣/٤٠٠) بسند صحيح قال: صحبت رسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه.

٣١٤ ـ ولمّا هاجر تبعه نفر من المشركين فقال: يا معشر قريش، إني من أرماكم، ولا تصلون إليَّ حتى أرْمِيكم بكلّ سهم معي ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه. فرضوا، فعاهدهم ودلَّهم، فرجعوا فأخذوا ماله، فلمّا جاء إلى النبيّ ﷺ قال له: «**ربحَ البيعُ**». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. رواه ابن سعد، وابن أبي خيثمة، والحاكم (٣/٣٩٨/٤٠٠) وسنده صحيح في طريق له. توفي سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة.

٣١٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**السُّبّاقُ أربعةٌ: أنا سَابِق العَرب، وصُهَيبٌ سابقُ الروم، وسلمانُ سابقُ الفُرْس، وبلال سابقُ الحَبَش**».

رواه الطبراني في الكبير (٧٢٨٨)، قال النور في المجمع (٩/٣٠٥): ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان، وهو ثقة وفيه خلاف.

ورواه الطبراني أيضاً في الكبير (٧٥٢٦)، والصغير (٢٨٩) عن أبي أمامة، وحسَّنه الهيثمي (٩/٣٠٥)، ورواه الطبراني أيضاً عن أم هانىء لكنه ضعيف جداً.

قوله: «**أنا سابق...**» إلخ. في رواية أبي أمامة زيادة «**إلى الجنة**» فيكون صهيب ومَن معه من المبشَّرين المنصوص عليهم.

٣١٦ ـ وعن عائذ بن عَمرو أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيب وبلال في نَفَرٍ فقالوا: والله ما أخذتْ سيوفُ الله من عُنُق عَدُوّ الله مَأْخَذَها. قال: فقال أبو بكر: أتَقُولون هذا لِشَيخ قريش وسيِّدِهم؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «**يا أبا بكر، لعلَّك أغضبتَهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضَبتَ ربَّكَ**».

رواه مسلم في الفضائل (٦٦/١٦).

وفي هذا منقبة وفضل لهؤلاء الكرام: سلمان، وبلال، وصُهَيب، حيث إن النبيَّ ﷺ أنكر على الصدِّيق ما قاله لهم وجعل إغضابهم إغضاباً لله عزَّ وجلَّ، وفيه مراعاة قلوب ضعفاء المؤمنين وأهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم. قاله النووي.

* * *

❀ مناقب خباب بن الأرتّ رضي اللَّه تعالى عنه

هو خباب بن الأرتّ، بتشديد التاء، ابن جندلة بن سعد، سُبي في الجاهلية، ثم بيع بمكة، ثم حالف بني زهرة. وأسلم قديماً مع الأوَّلين، وكان من المستضعَفين، وهو أول مَن أظهر إسلامه وعذِّب لذلك عذاباً شديداً فصبر، وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبيِّ ﷺ كل المشاهد، وكان مع الإمام علي بصفِّين، وتوفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين.

٣١٧ ـ وعنه رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبيَّ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلت: ألا تدعو الله؟ ـ وفي رواية: ألا تستنصر لنا؟ ـ فقعد وهو مُحمَرٌّ وجهه فقال: «**لقد كان مَن قَبْلكُم لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ ما دُون عِظامِه من لحْم أو عَصَبٍ**

ما يَصرفُه ذلك عن دينه، ويُوضَعُ المِنشارُ على مفرق رأسه فيُشَقُّ باثنين ما يَصرفُه ذلك عن دينه، والله لَيتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضْرَمَوْتَ ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه» وفي رواية: **«ولكنكم تستعجلون»**.

رواه البخاري في علامات النبوَّة (٤٣١/٧) وفي المبعث (١٦٥/٨).

وفي هذا الحديث الشريف بيان ما كان يلاقيه الصحابة من التعذيب حتى شكى ذلك خباب إلى رسول الله ﷺ وسأله الدعاء معهم لذلك والاستنصار فأخبره بأنَّ مَن كان قبلكم من المؤمنين كانوا أشد عذاباً منكم وصمدوا وصبروا حتى أتاهم نصر الله، فكونوا أنتم مثلهم فسوف ينصركم الله وينتشر الإسلام ويأتي الأمْنُ حتى يسافر الرجل المسافة الطويلة لا يخاف على نفسه أحداً إلا الله تعالى أو الذئب على شياهه.

٣١٨ ـ وعنه قال: كنت قَيْناً بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً فجئت أتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك. قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولدٌ ـ وفي رواية: وإني لميت ثم مبعوث؟ ـ قلت: نعم. قال: إنَّ لي هناك مالاً وولداً فأعطيك ـ وفي أخرى: فذرني حتى أموت ثم أُبعث فسوف أُوتى مالاً وولداً فأقضيك ـ. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

رواه أحمد (١١١/٥)، والبخاري في التفسير (٤٦/٤٥/١٠) وغيره، ومسلم في صفة القيامة (١٣٨/١٦)، وغيرهم.

(القين): الحداد. (أتقاضاه) أي: أطلب منه قضاء حقّي.

وفي الحديث فضل خباب وعظيم يقينه في الله وفي رسوله ﷺ، وإلقامه ذلك اللعين الشقي حجراً كسر به أسنانه وقمعه بجواب مسكت.

* * *

❀ مناقب عثمان بن مظعون رضي اللّه تعالى عنه

هو عثمان بن مظعون، بالظاء المعجمة، ابن حبيب بن وهب الجمحي. من السابقين الأوّلين، أسلم بعد ثلاثين رجلاً، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى ثم رجع ودخل في جوار الوليد بن المغيرة، ثم ردَّ عليه جواره.

وذكر ابن إسحاق أنَّ لبيد بن ربيعة أنشد: ألا كُلُّ شيءٍ مَا خَلا الله بَاطِلٌ. فقال عثمان بن مظعون: صدقت. فقال لبيد: وَكُلُّ نَعِيم لا مَحالَةَ زائلُ. فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. فقام سفيه منهم إلى عثمان فلطم عينه فاخضرَّت.

هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، ثم توفي عقب ذلك في السنة الثانية، وهو أول مَن مات بالمدينة من المهاجرين، وأول مَن دفن بالبقيع منهم.

٣١٩ ـ وعن أم العلاء، وهي امرأة من نساء الأنصار، رضي الله تعالى عنها قالت: صار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى، فمرَّضناه حتى توفي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى. قال: **«وما يُدريكِ؟»** قالت: لا أدري والله. قال: **«أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله تعالى، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم»**. قالت أم العلاء: فوالله لا أزكّي أحداً بعده. قالت: ورأيت لعثمان في النوم عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: **«ذاك عملُه يَجْرِي له»**.

رواه البخاري في التعبير وفي الجنائز، وهو من أفراده. وقد تقدَّم مع الكلام عليه في التعبير.

والشاهد من الحديث هو رجاء النبيِّ ﷺ لابن مظعون الخير وأنَّ

عمله جارٍ له دائماً. أما قوله ﷺ: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم». هذا قاله قبل أن يخبره الله بحاله وبمآله وبحال أصحابه.

٣٢٠ ـ وقد جاء في سنن الترمذي (٨٧٩) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قَبَّل النبيُّ ﷺ عثمانَ بن مَظْعُون وهو مَيِّتٌ، وهو يَبْكي وعيناه تَذْرِفان. وحسَّنه وصححه.

ولما توفي ولده إبراهيم عليه السلام قال: «إلحق سلفنا الصالح عثمان بن مظعون».

* * *

❀ مناقب ابن أمِّ مكتوم الأعمى رضي اللَّه تعالى عنه

هو عمرو أو عبدالله ابن أمِّ مكتوم القرشي، والده قيس بن زائدة، وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين. كان من السابقين الأوَّلين ومن المهاجرين القدامى فكان أول مَن قدِم المدينة مع مصعب بن عمير كما تقدَّم في السيرة.

وهو ثاني مؤذِّني رسول الله ﷺ بالمدينة، ونزل في شأنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ كما تقدَّم في التفسير، كما نزلت فيه سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، رواه الترمذي وغيره بسند صحيح، وقد تقدَّم أيضاً في التفسير.

وكان النبيُّ ﷺ يستخلفه على المدينة؛ فقد استخلفه ثلاثَ عشرة مرة، وكان يتناوب في أذان صبح رمضان مع بلال، فكان بلال يؤذن الأول وابن مكتوم الثاني، وكان لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت أصبحت. كما تقدَّم في الصيام.

حضر غزوة القادسية وكان معه اللواء، وبها استشهد، وقيل: رجع إلى المدينة وتوفي بها.

* * *

❀ مناقب خالد بن سعيد بن العاص رضي اللّه تعالى عنه

هو خالد بن سعيد بن العاص بن أميّة الأموي، كان من السابقين الأوّلين. كان قد رأى في المنام وهو كافر كأنه على شعب نار، فأراد أبوه أن يرميه فيها فإذا النبيُّ ﷺ قد أخذ بِحُجْزَتِه، فلمّا أصبح أتى أبا بكر رضي الله تعالى عنه فقال له: اتبع محمداً، فإنه رسول الله ﷺ. فجاءه فأسلم، فبلغ ذلك أباه فعاقبه ومنعه القوت ومنع إخوته من كلامه، فتغيَّب حتى خرج بعد ذلك مهاجراً إلى الحبشة، فكان ممَّن هاجر إليها بزوجته أميّة بنت خالد الخزاعية، وكان معه عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عُميس رضي الله تعالى عنهم.

وولدت لخالد في الحبشة جارية وتحركت وتكلمت، وكان قد هاجر إلى المدينة وشهد عمرة القضاء وباقي المشاهد، واستعمله النبيُّ ﷺ على صدقات مذحج، ثم أمَّره أبو بكر الصدّيق على مشارف الشام في الردة، وتوفي شهيداً يوم مرج الصفر، وقيل: يوم أجنادين أيام عمر رضي الله تعالى عنهما.

* * *

❀ مناقب هشام بن العاص رضي اللّه تعالى عنه

هو هشام بن العاص بن وائل السهمي، أخو عمرو بن العاص، كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. توفي شهيداً بأجنادين بعد أن أبلى بلاءً حسناً في قتال الروم.

فشهد له ولأخيه عمرو النبيُّ ﷺ بالإيمان.

٣٢١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابْنَا العَاصِ مُؤْمِنَان: هِشام وعَمْرٌو**».

رواه أحمد (٢/٣٠٤/٣٥٤/٣٢٧/٣٥٣)، وابن سعد في الطبقات

(١٩١/٤)، والحاكم (٣٥٢/٣) من طرق، وسنده صحيح على شرط مسلم.

ففي الحديث فضيلة لهشام وأخيه عمرو حيث شهد لهما النبيُّ ﷺ على الخصوص بأنهما مؤمنان، وهي شهادة عادلة صادقة.

٣٢٢ ـ وأخرج ابن المبارك في الزهد عن جرير بن حازم، عن عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير قال: مرَّ عمرو بن العاص بنَفَرٍ من قريش فذكروا هشاماً فقالوا: أيهما أفضل؟ فقال عمرو: شهدت أنا وهشام اليُرْمُوك، فكلُنا نسأل الله الشهادة، فلمّا أصبحنا حُرِمْتُها ورُزِقها.

ورواه أيضاً ابن سعد بسنده.

وذكر الواقدي عن أم بكر بنت المسور قالت: كان هشام رجلاً صالحاً، فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص، فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدَّم في نحر العدو ويصيح: يا معشر المسلمين، إليَّ إليَّ، أنا هشام بن العاص، أمِن الجنة تفرُّون؟ حتى قُتل.

* * *

❀ مناقب المقداد بن الأسود رضي اللَّه تعالى عنه

المقداد بن الأسود الكندي هو ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك الحضرمي. كان والده عمرو بن ثعلبة أصاب دماً في قومه فلحق بحضرموت فحالف كندة وتزوج هنالك امرأة فولدت له المقداد، فلمّا كبر المقداد ضرب أبا شمر بن حجر الكندي في رجله بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن يغوث الزهري وكتب إلى أبيه فقدم عليه، فتبنّى الأسودُ المقداد فصار يقال له: المقداد بن الأسود، واشتهر بذلك حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾.

وكان قد أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين: إلى الحبشة وإلى المدينة، وشهد مع النبيِّ ﷺ بدراً وسائر المشاهد بعدها، وكان فارساً يوم بدر ولم يثبت أنه كان في الغزوة أحد على فرس غيره، وذكر يعقوب بن سليمان

عن ثابت البناني قال: كان المقداد وعبدالرحمٰن بن عوف جالسين فقال له ابن عوف: ما لك لا تتزوج؟ قال: زوِّجني ابنتك. فغضب عبدالرحمٰن وأغلظ له، فشكاه للنبيِّ ﷺ فقال: «أنا أزوِّجك». فزوَّجه بنت عَمِّه ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ عنه بأنه ممَّن يحبهم الله عزَّ وجلّ.

٣٢٣ ـ فعن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله عزَّ وجلّ أمَرَنِي بِحُبِّ أربعةٍ، وأخبرني أنه يُحِبُّهم: عَلي، والمقدادُ، وأبو ذر، وسلمانُ**».

رواه أحمد (٥/٣٣٣/٣٥١)، والترمذي (٣٤٩٠) بتهذيبي، وابن ماجه (١٤٩)، والحاكم (٣/١٣٠)، وحسَّنه الترمذي والحافظ في الإصابة، وصححه الحاكم وردَّ عليه الذهبي.

وذكر ابن عبدالبر في ترجمة الإمام علي أنَّ المقداد هذا كان من الصحابة الذين يفضِّلون علياً على غيره. والباقون: أبو ذر، وسلمان، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري، وخباب بن الأرت، وزيد بن أرقم فكلهم كان يفضل علياً رضي الله عنهم.

* * *

❀ مناقب سيف اللَّه خالد بن الوليد رضي اللَّه تعالى عنه

هو خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي، سيف الله، أمه لبابة بنت الحارث أخت ميمونة أم المؤمنين. كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وشهد مع كفار قريش حروبهم ضد رسول الله ﷺ كبدر وأُحد والخندق، وكان ممَّن هزم المسلمين يوم أُحد، وكان في عمرة الحديبية على خيل قريش طليعة لهم، ثم هداه الله للإسلام فأسلم قبل الفتح هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة في يوم واحد، قدموا على النبيِّ ﷺ فأسلموا، ذكره أحمد (٤/١٩٨) والطبراني برجال ثقات.

ثم كانت له مواقف في الإسلام، فشهد غزوة مؤته، ولمَّا قُتل زيد بن

حارثة وجعفر وابن رواحة أخذ الراية فانحاز بالجيش وأخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بذلك.

٣٢٤ ـ فقال: **«أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذ جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»**.

رواه البخاري في المناقب وقد تقدَّم في السيرة، وفي صحيح البخاري عنه قال: لقد اندقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما صبرتْ معي إلا صفيحة يمانية.

وشهد فتح مكة فأبلى فيها، وشهد حُنيناً والطائف ثم باقي المشاهد، ثم شهد قتال أهل الردة أيام الصدّيق فأبلى في قتالهم بلاءً عظيماً، فكان ممَّن هزم جيش مسيلمة الكذاب وطليحة الدجال ومَن معه، ثم ولاَّه أبو بكر حرب فارس والروم فأثَّر فيهم تأثيراً شديداً، وهزم الروم وافتتح دمشق وغيرها من بلاد الشام، وهكذا إلى أن توفي بحمص سنة إحدى وعشرين.

وقد قال عند موته: لقد طلبت القتل، فلم يُقَدَّرْ لي إلا أن أموتَ على فِراشي، وما من عَملٍ أرْجى من لا إله إلا الله، وأنا مُتَتَرِّسٌ بها. ثم قال: إذا أنا مت فانظروا سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله.

رواه الطبراني، وقال النور في المجمع (٩/٣٥٠): وإسناده حسن.

وحسبه منقبة ثناء النبيِّ ﷺ عليه وتسميته إياه سيف الله كما تقدَّم.

٣٢٥ ـ وكما قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نِعْمَ عبدُ الله وأخُو العَشِيرة خَالِدُ بن الوليد، سَيْفٌ من سيوف الله، سَلَّه الله على الكفار والمنافقين»**.

رواه أحمد (١/٨) رقم (٤٣) والطبراني في الكبير (٣٧٩٨) ورجالهما ثقات.

٣٢٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً فجعل الناس يَمُرُّونَ فيقول رسول الله ﷺ: **«مَن**

هذا يا أبا هريرة؟» فأقول: فلان. فيقول: **«نِعْمَ عبدُ الله هذا»**. يقول: **«مَن هذا؟»** فأقول: فلان. فيقول: **«بِئسَ عبدُ الله»**. حتى مَرَّ خالِدُ بنُ الوليد فقال: **«مَن هذا؟»** قلت: هذا خالد بن الوليد. قال: **«نِعْمَ عبدُ الله خالدُ بن الوليد، سيفٌ من سُيوف الله»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٦/٤) بتهذيبي، وسنده صحيح مع انقطاعه، ويؤيده الحديث السابق.

٣٢٧ ـ بل جاء من طريق آخر صحيح عند أحمد باختصار، وانظر المسند (٩٠/٤)، وعند أبي يعلى (٧١٨٨) عن قيس بن أبي حازم مرسلاً قال: أُخبِرْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لا تَسُبُّوا خالداً، فإنه سَيفٌ من سيوف الله، سلَّه الله على الكفار»**.

ورجاله رجال الصحيح، كذا في المجمع (٣٤٩/٩).

٣٢٨ ـ ومن كراماته ما أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن خيثمة قال: أَتَى خالدَ بن الوليد رجلٌ معه زِقُّ خَمْرٍ فقال: اللَّهم اجعلْه عَسلاً. فصار عسلاً. ذكره الحافظ في الإصابة.

٣٢٩ ـ ومن غريب أمره ما رواه جعفر بن عبدالله بن الحكم أنَّ خالد بن الوليد فقد قَلَنْسُوَةً له يوم اليَرمُوك فقال: اطلبوها. فلم يجدوها، فقال: اطلبوها. فوجدوها فإذا هي قلنسوة خَلِقَةٌ فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس جَوَانِبَ شَعرِه، فسَبقتُهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رُزقتُ النُّصرَة.

رواه الطبراني في الكبير (٣٨٠٤) وأبو يعلى (٧١٨٣) ورجالهما رجال الصحيح، قاله النور (٣٤٩/٩).

وفي هذا الأثر دليل على جواز التوسل إلى الله والاستنصار بآثار الصالحين، وللعلماء في هذا الموضوع مجالٌ واسع.

وله أخبار كثيرة وأحداث.

* * *

هو عمران بن حصين بن عُبَيد بن خلف... الخزاعي. أسلم عام خيبر، وشهد فتح مكة فما بعدها. كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم. ولمّا قُبض النبيُّ ﷺ نزل البصرة، بعثه عمر إليها ليفقّه الناس، فمكث بها حتى توفي بها سنة ثنتين وخمسين.

ومن مناقبه العظيمة أنَّ الملائكة كانت تسلّم عليه حتى اكتوى ثم ترك الكي فعادت.

٣٣٠ ـ فعن مُطَرِّفٍ قال: قال لي عمران بن حُصَين: قد كان يُسلمُ عليَّ حتى اكتويت فتُرِكَ، ثم تركتُ الكَيَّ فعاد. وفي رواية عنه قال: بعثَ إليَّ عمرانُ بن حُصَين في مرضه الذي توفي فيه فقال: إني مُحَدِّثُكَ فإن عشتُ فاكتُم عنّي، وإن متُّ فَحدِّث بها إن شئت، إنه قد يُسلّم عليَّ.

رواه مسلم من الوجهين في كتاب الحج باب جواز التمتع (٢٠٦/٨).

وأخرجه الحاكم عنه بلفظ: اعلم يا مطرِّف، إنه كانت تسلّم عليَّ الملائكة عند رأسي، وعند البيت، وعند باب الحجرة، فلمّا اكتويتُ ذهب ذاك. قال: فلمّا برأ كلّمه قال: اعلم يا مُطَرِّف، إنه عاد إليَّ الذي كنت عليه، اكتُم عليَّ حتى أموت.

فهذه منقبة هامة، بل هي خصيصة له، فلا يُعرف هذا لغيره نصاً من الصحابة، وإن كان صحَّ سلام جبريل عليه السلام على عائشة وغيرها رضي الله تعالى عنها. وفي هذا الحديث ثبوت كرامات الأولياء.

وعمران أدرك هذه المنقبة لتوكله على الله تعالى وصبره على ما كان يقاسيه من ألم البواسير، فلمّا اكتوى وعدل عن الصبر والتوكل الكامل على الله وأخذ بالرخصة اختفت الملائكة وتركت تأنيسه بالسلام عليه لنزوله عن رتبته التي نال بها تلك الكرامة.

وما حصل لعمران ليس بغريب ولا بمستبعد، فإنَّ المؤمن إذا استقام مع الله عزَّ وجلّ ولزم الذكر والحضور مع الله والتوجه إليه الكامل نال أكثر

من ذلك، بل قد تصافحه الملائكة وتكلمه قبلاً وتأتيه بعلوم ومعارف لا يعلمها إلا الله تعالى ومَن شاء من عباده، وسيأتي في الرقائق والزهد حديث في هذا الموضوع. وقوله ﷺ لحنظلة: «ولكن ساعة وساعة».

وهنا انتهى الكلام على المهاجرين السابقين ومَن التحق بهم ممَّن أسلم قبل الفتح، فلنتبعهم بالأنصار وغيرهم ممَّن ليس منهم ولا من أهل مكة.

* * *

❀ مناقب أُسَيْد بن حُضَيْر رضي اللَّه تعالى عنه

هو أُسَيد بن حُضير بن سماك بن عتيك بن امرىء القيس الأنصاري الأشهلي الأوسي، أحد سادات بني عبد الأشهل. كان من السابقين الأوّلين من الأنصار، أسلم على يد مصعب بن عمير قبل سعد بن معاذ، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وكان شريفاً كاملاً آخى النبيُّ ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وشهد مع النبيّ ﷺ كل المشاهد، واختلفوا في شهوده بدراً. توفي في خلافة عمر سنة عشرين.

٣٣١ ـ ذكر ابن إسحاق بسنده عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يُلحق في الفضل، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وعباد بن بشر.

٣٣٢ ـ وعنها أيضاً قالت: كان أسيد بن الحضير من أفاضل الناس، وكان يقول: لو أني أكون كما أكون على أحوال ثلاث لكنتُ حين أسمع القرآن أو أقرأه، وحين أسمع خطبة النبيّ ﷺ، وإذا شهدت جنازة.

رواه أحمد (٤/٣٥١/٣٥٢) وسنده قد يحسن.

وذكر الحافظ عن الواقدي أنَّ أبا بكر لم يكن يقدّم أحداً من الأنصار على أُسيد بن حُضير.

٣٣٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلين خرجا من عند النبيِّ ﷺ في ليلة مظلمة وإذا نورٌ بين أيديهما حتى تفرَّقا، فتفرَّق النور معهما.

وفي رواية: إنَّ أُسيد بن حُضير ورجلاً من الأنصار. وفي رواية: كان أُسيد بن حُضير وعباد بن بشر عند النبيِّ ﷺ ...إلخ.

رواه البخاري في المناقب (١٢٦/١٢٥/٨) بالرواية الأولى مسندة وعلَّق الأخيرتين، ووصلهما عبدالرزاق وأحمد والحاكم كما في الفتح.

فأخرجه عبدالرزاق في مصنفه عنه به، وفيه: ثم خرجا وبيد كلٍّ منهما عُصَيَّةٌ فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر، فمشى كلٌّ منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله.

وانظر الفتح (١٢٥/٨) للرواية الثالثة.

وفي هذا الحديث منقبة لأُسيد بن حُضير ومَن معه، بل هي كرامة أكرمهما الله بها، وذلك يدلُّ على فضل أُسيد وشرفه وعلوّ منزلته عند الله عزَّ وجلّ وأنه من كبار الأولياء المبشَّرين في الدنيا.

* * *

❀ مناقب سعد بن معاذ رضي اللَّه تعالى عنه

هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس الأنصاري الأشهلي، سيد الأوس. كان من السابقين، أسلم على يد مصعب بن عمير بعد إسلام أُسَيد بن حُضَير، وكان سيد الأوس، ولمّا أسلم وقف على قومه فقال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً وأيمننا نقيبة. قال: فإنَّ كلامكم عليَّ حرام، رجالكم ونساؤكم، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ. فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وأسلموا، ذكره ابن إسحاق.

شهد سعد بدراً وأُحداً والخندق ورُمي فيها في أكحله، فعاش بعد

ذلك شهراً حتى حكم في بني قريظة أن تُقتل مقاتلتهم وتسبى نساؤهم وذراريهم، ثم تفجرت الضربة فمات رضي الله تعالى عنه، وحملتْ الملائكة جنازته، واهتزَّ لموته عرش الرحمٰن، ودفن بالبقيع، وحزن عليه النبيُّ ﷺ. وكانت وفاته سنة خمس.

له مناقب وبشارات وفضائل:

٣٣٤ ـ فعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أُهْدِيَ لرسول الله ﷺ ثوبُ حَرِير فجعلوا يَعْجَبون من لِينِه، فقال رسول الله ﷺ: **«أتَعجبُون من هذا؟ لَمَنَادِيلُ سَعدٍ في الجنَّة أحسنُ من هذا»**.

رواه أحمد (٤/٢٨٩)، والبخاري في المناقب (٨/١٢٣) وفي الهبة وفي اللباس، ومسلم (١٦/٢٢/٢٣) والترمذي (٣٦١٥) كلاهما في المناقب والفضائل.

هذا يدل على أنه من المبشَّرين بالجنة، ويا لها من بشارة.

٣٣٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا حُمِلتْ جنازةُ سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخفَّ جَنَازَته، وذلك لحكمه في بني قريظة. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: **«إنَّ الملائكة كانت تحمله»**.

رواه الترمذي (٣٦١٧) بتهذيبي وحسَّنه وصححه، ورجاله رجال الصحيح.

وهذه خصيصة لا تُعرف لغيره من الصحابة، وما ذلك إلا لفضله ومكانته عند الله وعند ملائكته.

٣٣٦ ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد نزل لِموت سعد بن مُعاذ رضي الله تعالى عنه سَبعُون ألفَ ملَكٍ ما وطئوا الأرْضَ قَبْلَها»**.

رواه البزار (٢٦٩٨/٢٦٩٩) بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، قاله في المجمع (٩/٣٠٨).

نزول هذا العدد الهائل من الملائكة إلى الأرض لحضور جنازة هذا الرجل يدلُّ على فضل عظيم له وأنه عند الملأ الأعلى بمكان.

٣٣٧ ـ وعن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا توفي سعد بن معاذ صاحتْ أمُّه، فقال لها النبيُّ ﷺ: **«لِيَرْقَأْ دَمْعُكِ، ويَذهبْ حُزنُكِ، فإنَّ ابنك أولُ مَن ضحك الله له، واهتزَّ له العرش»**.

رواه أحمد (٤٥٦/٦)، قال الهيثمي (٣٠٩/٩): ورجاله رجال الصحيح.

قوله: **«لِيرقأ دمعك»** أي: لينحبس دمعك وانتهي عن البكاء، ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ فرح بقدوم سعد ورضي عنه، كما تحرك العرش فرحاً بقدومه أيضاً.

٣٣٨ ـ وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: **«اهْتَزَّ لَهُ عرشُ الرَّحمٰنِ»**.

رواه البخاري (١٢٣/٨)، ومسلم (٣٢/٣١/١٦)، والترمذي (٣٦١٦) كلهم في المناقب.

قوله: **«اهتز»** أي: تحرك فرحاً بقدومه.

وهذه منقبة لسعد لا تُعرف لغيره، وقد ورد حديث اهتزاز العرش لسعد هذا من رواية عشرة أصحاب أو أكثر.

* * *

❀ مناقب سعد بن عبادة رضي اللّه تعالى عنه

هو سعد بن عُبادة بن دُلَيْم، السيد الكبير الشريف، أبو قيس الأنصاري الخزرجي الساعدي المدني، سيد الخزرج. أسلم قديماً في العقبة، وكان أحد النقباء، معروفاً بالسخاء والكرم، ولمّا قدم النبيُّ ﷺ المدينة كان

يبعث إليه سعدٌ هذا جفنة من الطعام كل يوم تدور معه ﷺ في بيوت أزواجه. ذكره ابن سعد.

وكان في الجاهلية يحسن الكتابة والسباحة والرمي، فكان يقال له: الكامل. شهد مع النبيّ ﷺ كل المشاهد حتى بدراً. قاله البخاري.

ولمّا توفي النبيُّ ﷺ أراد الأنصار ترشيحه للخلافة، ولمّا بويع الصدّيق تخلّف عن مبايعته وسافر إلى الشام، فتوفي بحوران عام خمسة عشر.

يقال إنه بال قائماً فأصاب ببوله جنياً فقتله، فَسُمع قائلٌ يقول: قد قَتَلْنا سَيدَ الخزرجِ سعدَ بن عُبادة، ورمَيْناه بِسَهْمَيْنِ فلم نُخْطِىء فُؤادَه.

وله مواقف في الإسلام ومناقب وفضائل.

٣٣٩ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أمَسَّه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». قال: كلا، والذي بعثك بالحقّ، إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**اسْمعُوا إلى ما يَقولُ سَيدُكم، إنه لغَيورٌ، وأنا أغيَرُ منه، والله أغيَر مني**».

رواه مسلم في اللعان رقم (١٤٩٨).

فشهد له ﷺ بسيادته على قومه بني الخزرج، كما شهد له بقوة الغيرة، وهي صفة من صفات الكمال، ولذلك قال ﷺ: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغيَر منه، والله أغيَر مني**». رواه البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة، وتقدّم ويأتي.

وأصل الغيرة المنع، فأخبر عليه الصلاة والسلام بأنّ سعداً غيور، أي: مانع لحرمته، تأخذه الأنفة والحمية عليهم، وأنّ ذلك خلق أهل الإيمان والكمال، وكانت من أخلاقه وصفاته ﷺ.

ولهذا السيد مواقف حسنة.

وقد تقدَّم لنا في السيرة عندما استشار النبيُّ ﷺ أصحابه قول سعد: والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِمادِ لفعلنا. رواه مسلم وغيره.

* * *

❀ مناقب معاذ بن جبل رضي اللَّه تعالى عنه

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، السيد الإمام، أبو عبدالرحمٰن الأنصاري الخزرجي المُقدَّم في علم الحلال والحرام. شهد العقبة شاباً أمرد، وأسلم وله ثمان عشرة سنة، وكان جميلاً سمحاً، من خيرة شباب قومه. شهد مع النبيّ ﷺ بدراً وجميع المشاهد، وله مناقب جمَّة.

٣٤٠ ـ فعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: **«استقرئوا القرآن من أربعة، من: ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبَيّ، ومعاذ بن جبل»**.

رواه البخاري (١٢٦/٨) ومسلم (١٨/١٦) كلاهما في المناقب.

٣٤١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار. فذكر منهم معاذ بن جبل.

رواه مسلم (٢٠/١٩/١٦) وغيره، ويأتي كاملاً.

٣٤٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«نِعم الرجل معاذ بن جبل»**.

رواه الترمذي (٣٥٦٦) وابن حبان (٢٢١٧) بسند صحيح، ويأتي مطوَّلاً.

٣٤٣ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»**. وفيه: **«وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»**.

رواه أحمد (٣/١٨٤/٣٨١)، والترمذي (٣٥٩٣)، وابن ماجه (١٥٤)، وابن حبان (٢٢١٨/٢٢١٩) من طرق وأسانيد بعضها صحيحة، ويأتي مطوّلاً.

فمدحه النبيُّ ﷺ في الحديث السابق وأثبت له هنا العلم بالحلال والحرام، وأنه متفوق في ذلك على غيره، كما أمر بأخذ القرآن عنه وعمَّن ذُكروا معه، وفي ذلك فضائل له.

وكان قد أمّره النبيُّ ﷺ على اليمن، ولمّا بعثه خرج معه يشيّعه ويوصيه، فكان مما قال له: «**يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري**». فبكى معاذ خاشعاً لفراق النبيِّ ﷺ.

رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، وقد تقدَّم في السيرة في آخر السنة التاسعة.

وتقدَّم حديث معاذ في القضاء: أقضي بكتاب الله، فبسنَّة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في سنَّة رسول الله ﷺ أجتهد رأيي. فقال النبيُّ ﷺ: «**الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يرضي رسول الله**».

وهو في المسند، وسنن أبي داود، والترمذي، وغيرهم، وقد صححه جماعة من الأعلام، وتلقاه العلماء بالقبول، وراجعه فيما سبق من كتاب القضاء.

٣٤٤ ـ وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كان معاذ أمَّةً قانتاً لله حنيفاً مسلماً، ولم يكن من المشركين، أتدرون ما الأمَّة؟ قالوا: لا. قال: الذي يعلم الناس الخير، هل تدرون ما القانت؟ قالوا: لا. قال: المطيع لله عزَّ وجلّ.

رواه الطبراني في الكبير (٢٠/٣٤) بسند صحيح.

وكان قد قدِم من اليمن أيام الصدّيق بعد موت رسول الله ﷺ، ثم توفي بالشام في طاعون عمواس سنة سبع عشرة وهو ابن أربع وثلاثين سنة.

* * *

❀ مناقب أُبَيّ بن كَعْب -رضي اللّه تعالى عنه-

هو أُبَيّ بن كعب بن قيس الأنصاري النجاري، أبو المنذر، سيد القرّاء، وأحد الستة أصحاب الفتوى. أسلم قديماً، وهو من أهل العقبة الثانية، وشهد مع النبيّ ﷺ بدراً فما بعدها من المشاهد، وهو أول مَن كتب للنبيّ ﷺ.

ومن مناقبه العظيمة التي اختصّ بها أنّ الله عزّ وجلّ أمر نبيَّه ﷺ أن يقرأ عليه سورة البيّنة.

٣٤٥ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَيّ بن كعب حين نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: **«إنّ الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾»**. قال: وسمّاني الله؟ قال: **«نعم»**. فبكى.

رواه الشيخان وغيرهما، وتقدّم في التفسير.

ففي هذا فضيلة وخصيصة لا تُعرف لغيره، وهي قراءة النبيّ ﷺ عليه بالخصوص بأمر من الله عزّ وجلّ تشريفاً له وتكريماً، ولذلك بكى فرحاً أو خشوعاً.

ومن مناقبه تنويه النبيّ ﷺ به لعلمه بأعظم آية في القرآن الكريم.

٣٤٦ ـ فعنه رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟»** قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟»** قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري وقال: **«والله لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المُنْذِر»**.

رواه مسلم في فضائل القرآن رقم (٨١٠).

وفي الحديث مع فضل أُبيّ دليل على أنَّ آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن إطلاقاً، كما أنَّ الفاتحة أعظم سورة أيضاً في القرآن على الإطلاق، كما تقدَّم في سورة الأنفال من التفسير.

ومن مناقبه أنه سأل الله تعالى أن لا يفارقه وغَكٌ حتى يموت، فاستُجيب له في ذلك.

٣٤٧ ـ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً من المسلمين قال: يا رسول الله، أرأيت هذه الأمراض التي تُصِيبُنَا، ما لنا فيها؟ قال: «**كفَّارات**». فقال أُبَيُّ بن كعب: يا رسول الله، وإن قلت. قال: «**وإن شَوْكَة فما فوقَها**». فدعا أُبيّ أن لا يفارقه الوعك حتى يموت، وأن لا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صلاة مكتوبة في جماعة. قال: فما مسَّ إنسان جسده إلا وجد حره حتى مات.

رواه أحمد (٢٣/٣)، وأبو يعلى (٩٩١)، قال النور في المجمع (٣٠١/٢): ورجاله ثقات. وله شاهد عن أُبيّ عند الطبراني، وحسَّنه الحافظ.

وفيما فعله من الدعاء وصَاحَبهُ من المرض حتى الموت فضل أيُّ فضل.

وبالجملة فهذا الصحابي من نوادر الأنصار رضي الله تعالى عنه وعنهم. توفي على الأصح سنة ثلاثين أيام عثمان رضي الله تعالى عنه، ولمّا توفي قال عمر رضي الله تعالى عنه: اليوم مات سيد المسلمين.

* * *

❀ مناقب زيد بن ثابت رضي اللَّه تعالى عنه

هو زيد بن ثابت بن الضحاك النجاري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، أحد علماء الصحابة وفقهائهم وقرّائهم، كتب الوحي للنبيِّ ﷺ، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله

تعالى عنه كما في الصحيح، وقد تقدَّم في التفسير. وقال له الصدِّيق: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ... إلخ. وكما جمعه أيام الصدِّيق شارك في جمعه وكتابته أيام عثمان.

وشهد مع النبيِّ ﷺ الخندق فما بعدها، واستُصغر يوم بدر، ويقال إنه شهد أُحداً، وكان أعلم الصحابة بالفرائض، وقد شهد له النبيُّ ﷺ بذلك، كما في الحديث التالي:

٣٤٨ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمَّتي بأمَّتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرَضُهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبَيُّ بن كعب، ولكلِّ أمَّةٍ أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرَّاح»**.

رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وقد تقدَّم رقم (٣٤٣) تخريجه.

٣٤٩ ـ وعن أنس أيضاً: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أُبَيٌّ، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت. قيل لأنس: مَن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي.

رواه البخاري في المناقب (١٢٨/٨).

قوله: (جمع القرآن) أي: استظهره وحفظه عن ظهر قلب.

فها هو ذا زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه يُعَدُّ ممَّن حفظ القرآن أيام النبوَّة، واقتصار أنس على هذا العدد من حفَظة القرآن لا ينافي حفظه من غيرهم للاتفاق على أنه كان يحفظه غيرهم، وقد جاء في الصحيح قتل سبعين من القرّاء في حادث بئر معونة، كما جاء فيه أيضاً أنَّ جمهرة كبيرة قُتلت منهم في مقاتلة مسيلمة الكذاب، وكان الخلفاء الأربعة ممَّن يحفظه، وغيرهم كثير.

ومن مناقبه، بل وخصائصه، أنه تعلَّم لغة اليهود بأمر من النبيِّ ﷺ، وكان يترجم له.

٣٥٠ ـ فعنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، وقال: «**إني والله ما آمن يهود على كتابي**». قال: فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته له. قال: فلمّا تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم.

رواه أبو داود والترمذي وحسّنه وصححه، وعلقه البخاري في العلم والأحكام. وتقدَّم في كتاب العلم رقم (٥٩).

فهذه خصيصة لزيد هذا لا تُعرف لغيره.

وذكر ابن سعد بسند صحيح قال: كان زيد بن ثابت أحد أصحاب الفتوى، وهم ستة: عُمرُ، وعليٌّ، وابنُ مسعود، وأبو موسى، وزيدُ بن ثابت، وأُبَيُّ.

ومما يدل على فضله وسيادته ما أخرجه يعقوب بن سفيان بسند صحيح عن الشعبي قال: ذهب زيد بن ثابت ليركب فأمسك ابن عباس بالركاب فقال: تَنَحَّ يا ابن عمّ رسول الله ﷺ. قال: لا، هكذا نفعل بالعلماء والكُبراء. وزاد بعضهم: فقبَّل زيد يد ابن عباس وقال له: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل البيت.

توفي زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه سنة خمس وأربعين في قول الأكثر.

ولمّا مات قال أبو هريرة: مات اليوم حبر هذه الأمّة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً.

* * *

❀ مناقب أبي طلحة الأنصاري رضي اللّه تعالى عنه

هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصاري الخزرجي النجاري، مشهور بكنيته، من أفاضل الصحابة ومن السابقين، شهد مع النبيّ ﷺ بدراً وباقي المشاهد، وأبلى بلاءً شديداً في غزوة أُحُد دفاعاً عن رسول الله ﷺ وحمايةً له من الكفار.

٣٥١ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان يوم أُحد انهزم ناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يديه مُجَوِّباً عليه بحجَفَة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع، كسَر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ معه بِجَعْبَة من النُّبل فيقول رسول الله ﷺ: **«انثرها لأبي طلحة»**. ويشرف النبيُّ ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرفْ يُصبْك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد تقدَّم في غزوة أُحد رقم (٢٩١).

فهذه فضيلة هامة له رضي الله تعالى عنه، فحسبه نبلاً وفضلاً دفاعه عن النبيِّ ﷺ في أخطر المواقف التي مرَّت على النبيِّ ﷺ وأشدها وأفظعها.

وأبو طلحة هذا هو صاحب بستان بيرحاء الذي تصدَّق به لمّا نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ كما تقدَّم في التفسير (٣٥٨).

ومن مناقبه ما رواه أبو هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى... وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«مَن يضيفه يرحمه الله؟»** فقام أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندكِ شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلِّليهم بشيء ونوِّميهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنّا نأكل، فإذا أهوى بيده ليأكل فقومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه. ففعلت، فقعدوا فأكل الضيف وباتا طاويين، فلمّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد عجب الله ـ أو: ضحك الله ـ من فلان وفلانة»**. فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

رواه البخاري في الفضائل وفي التفسير، ومسلم في الأشربة (٢٠٥٤).

(علِّليهم) أي: شغليهم بما يصرفهم عن الأكل. (الخصاصة): الفاقة. (طاوين): جائعين، لم يتناولا طعاماً.

وأبو طلحة هذا هو زوج أم سليم والدة أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما، وتقدَّم له ذكر في المغازي. توفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين، وقيل غير ذلك.

* * *

مناقب جابر بن عبداللَّه وأبيه عبداللَّه بن حرام رضي اللَّه تعالى عنهما

هو جابر بن عبدالله بن عَمْرو بن حَرام، بفتح الحاء، الأنصاري السلمي، أحد السابقين، حضر العقبة وهو صغير وشهد بدراً يسقي الصحابة الماء ومنعه والده شهود بدر وأُحد للقتال لصغره، ثم شهد مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد.

وكان آخر الصحابة موتاً بالمدينة، كذا قيل، وتوفي سنة ثمان وسبعين، وقيل غير ذلك، بعد أن أُصيب بصره. وعمُر أربعاً وتسعين سنة، وأوصى أن لا يُصلِّي عليه الحجاج الثقفي.

٣٥٢ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: شهد بي خَالايَ في العقبة. قال ابن عيينة: أحدهما البراء بن معرور. وفي رواية: أنا وأبي وخالايَ من أصحاب العقبة.

رواه البخاري في الفضائل (٨/٢٢١).

قد قدَّمت في السيرة الكلام على بيعة العقبة ومَن حضرها من الأنصار، فكان منهم جابر بن عبدالله ووالده عبدالله بن عمرو بن حرام.

٣٥٣ ـ وعنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، لم أشهد بدراً ولا أُحداً، منعني أبي، فلمّا قُتل عبدالله يوم أحد لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ.

رواه مسلم في الجهاد في عدد غزوات النبيّ ﷺ (١٢/١٩٦).

عدد غزواته ﷺ نحو من سبع وعشرين غزوة، وذكر جابر هنا أنها إحدى وعشرون، حضر منها للقتال تسع عشرة غزوة. وفي ذلك منقبة عظيمة له رضي الله تعالى عنه.

٣٥٤ ـ وعنه قال: لقد استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمساً وعشرين مرة.

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٠) وحسَّنه وصححه، ورجاله رجال الصحيح، وأصله في الصحيحين مطوَّلاً في بيعه البعير للنبيِّ ﷺ، وقد تقدَّم في البيوع وفي السيرة.

وهذا هو مراد جابر بليلة البعير، وفيه منقبة له حيث خصَّه النبيُّ ﷺ بالاستغفار معه خمساً وعشرين مرة. ولجابر هذا تفوق على كثير من الصحابة، فهو يُعَدُّ من المكثرين ومن كبار علماء الصحابة، فقد كانت له حلقة في المسجد النبويِّ يؤخذ عنه فيها العلم.

أما والده فهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري، فكان من أهل العقبة أيضاً كما تقدَّم، فأسلم يومها ورشَّحه النبيُّ ﷺ نقيباً على قومه، وشهد مع النبيِّ ﷺ بدراً وأُحداً وبه استشهد رضي الله تعالى عنه ودُفن هنالك، وأُخرج بعد ست وأربعين سنة فوُجد لم يتغير كأنه دفن بالأمس.

---

٣٥٥ ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لقيني رسول الله ﷺ وأنا مهتم، فقال: «**ما لي أراك منكسراً؟**» قلت: استشهد أبي يوم أُحد وترك عيالاً ودَيناً. فقال: «**ألا أبشِّرك بما لقي الله به أباك؟**» قلت: بلى. قال: «**ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيَى أباك فكلَّمه كفاحاً، فقال: يا عبدي، تَمَنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب، تحييني فأُقتل ثانيةً. قال سبحانه: قد سبق مِنِّي أنهم إليها لا يرجعون**». فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨١٦)، وابن ماجه (٢٨٠٠)، وأحمد (٣٦١/٣) وسنده حسن.

قوله: «منكسراً» أي: مهتماً. وقوله: «كفاحاً» أي: مواجهةً.

وفي الحديث فضل عظيم لوالد جابر حيث اختصَّه الله تعالى من بين سائر الشهداء فكلَّمه بعد استشهاده وإحيائه مواجهةً، وخاطبه بقوله: «تمنَّ عليَّ أُعطِك». فيا لها من سعادة.

٣٥٦ ـ وعن ابن المنكدر قال: سمعت جابراً قال: لمّا قُتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبيّ ﷺ ينهوني، والنبيُّ ﷺ لم ينه، وقال النبيُّ ﷺ: «لا تبكه ـ أو: ما تَبْكِيه ـ ما زالتْ الملائكةُ تُظِلُّه بأجْنِحَتِها حتى رُفع».

رواه البخاري في الجنائز وفي المغازي (٣٧٩/٨) ومسلم.

وفيه منقبة له أيضاً وهي تظليل الملائكة إياه بأجنحتها من الشمس، وذلك تكريم له وحفاوة به، وهذا قد يكون عامّاً لكل الشهداء فإنَّ لهم مزايا اختصُّوا بها عن سائر الأموات كما تقدم في الجهاد.

٣٥٧ ـ وعن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة أنه بلغه أنَّ عمرو بن الجموح وعبدالله بن عمرو بن حرام كان قد حفَرَ السيلُ عن قبريهما، وكانا في قبر واحد مما يَلِي السيلَ، فحفر عنهما فوُجِدا لم يَتَغَيَّرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدُهما وضَعَ يدَه على جُرحه فدُفِن وهو كذلك، فأُمِيطت يدُه عن جُرحه ثم أُرسِلَتْ فرجعت كما كانت، وكان بين الوقعتين ست وأربعون سنة. رواه مالك في الموطأ.

* * *

❀ مناقب عبادة بن الصامت رضي اللّه تعالى عنه

هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم من بني عمرو بن عوف الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد. كان أحد النقباء، من الذين أسلموا بالعقبة الأولى، وشهد مع النبيّ ﷺ بدراً وجميع المشاهد، وشهد فتح مصر، وكان ممَّن بعثه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه إلى الشام يفقِّه الناس، وله

أخبار مع معاوية وإنكار عليه يدلُّ على قوة إيمانه ومتانة دينه، ومات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وقيل: مات في بيت المقدس، وقيل: مات عام خمسة وأربعين، والله تعالى أعلم.

٣٥٨ ـ عنه رضي الله تعالى عنه قال: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ. وقال: بايعناه على أن لا نُشْرِك بالله شيئاً، ولا نَسْرِق، ولا نَزْنِي، ولا نَقتل النفس التي حَرَّم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نقضي بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غَشِينا من ذلك شيئاً كان قضاء ذلك إلى الله.

رواه البخاري بهذا السياق في المناقب (٨/٢٢٣).

وفي رواية للبخاري وغيره عن أبي إدريس الخولاني قال: إنَّ عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ ومن أصحابه ليلة العقبة. فذكر الحديث في البيعة وقد تقدَّم في الإيمان رقم (١٦٢) مطوَّلاً.

وفي رواية: كنت فيمَن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً ... إلخ.

وانظر ما تقدَّم في السيرة رقم (١١٨) فهذا يدلُّ على أنه كانت له السابقة في الإيمان وحضور البيعة الأولى للأنصار رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❀ مناقب عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه

هو ابن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس الأنصاري الخزرجي، أحد السابقين منهم، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد مع النبيِّ ﷺ بدراً وأُحُداً والخندق وبيعة الرضوان وخيبر وغيرها، وكان أحد الأمراء الذين قُتلوا بغزوة مؤتة، وكان ذلك في السنة الثامنة.

وهو أحد كتَّاب النبيِّ ﷺ وشعرائه الذين كانوا يذبُّون عنه ويهجون المشركين.

٣٥٩ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل النبيُّ ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خَلُّوا بَني الكفّارِ عن سَبِيلِهِ اليومَ نَضرِبْكُم على تَأوِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عن مَقِيلِهِ ويُذهِلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: يا ابن رواحة، أفِي حرم الله وبين يدَيْ رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال: «**خلِّ عنه يا عُمر، فوالذي نَفْسي بِيَدِه لَكلامُه أشدُّ عليهم من وقْع النَّبل**».

رواه الترمذي في الأدب، والنسائي في الحج، وابن حبان، وغيرهم، وحسَّنه الترمذي وصححه، وقد تقدَّم في عمرة القضاء رقم حديث (٤٣٦).

٣٦٠ ـ وعن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى قال: تزوَّج رجلٌ امرأة عبدالله بن رواحة فسألها عن صنيعه، فقالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلَّى ركعتين، وإذا دخل بيته صلَّى ركعتين، لا يدع ذلك.

رواه عبدالله بن المبارك في الزهد بسند صحيح.

* * *

❀ مناقب أبي الهيثم بن التيهان رضي اللَّه تعالى عنه

أبو الهيثم هو ابن التيهان، بفتح التاء وكسرها، ابن مالك الأنصاري الأوسي، مشهور بكنيته، ويقال: اسمه مالك، أسلم قديماً فكان من أهل العقبة، ورشَّحه النبيُّ ﷺ نقيباً على بني عبد الأشهل مع أُسَيد بن حُضَير رضي الله تعالى عنهما، وكان من أول مَن بايع في العقبة، وشهد مع النبيِّ ﷺ بدراً وسائر المشاهد، ثم كان مع الإمام بصفِّين وبها قُتل عند الأكثر سنة سبع وثلاثين.

ومن مناقبه إضافة إلى ما له من السوابق العظيمة والمشاهد الجليلة ما جاء في الحديث التالي:

٣٦١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج النبيُّ ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحدٌ، فأتاه أبو بكر فقال: **«ما جاء بك يا أبا بكر؟»** قال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه. فلم يلبث أن جاء عمر فقال: **«ما جاء بك يا عمر؟»** قال: الجوع يا رسول الله. قال: **«وأنا قد وجدت بعض ذلك»**. فانطَلَقُوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خَدَمٌ، فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلقَ يستعذب لنا الماء. ولم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يَزْعَبُها فوضعها ثم جاء يلتزم النبيَّ ﷺ ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقِنو فوضعه، فقال النبيُّ ﷺ: **«أفلا تَنَقَّيتَ لنا من رُطَبِه»**. فقال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا. وقال: تخيَّروا من رطَبه وبُسْره. فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا والذي نَفْسِي بِيَدِه من النعيم الذي تُسألُون عنه يوم القيامة، ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ باردٌ»**. فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبيُّ ﷺ: **«لا تَذْبَحَنَّ ذات دَرٍّ»**. فذبح لهم عناقاً أو جدياً، فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبيُّ ﷺ: **«هل لك خادم؟»** قال: لا. قال: **«فإذا أتانا سبيٌ فائتنا»**. فأُتِي النبيُّ ﷺ برَأسَيْنِ ليس معهما ثالثٌ، فأتاه أبو الهيثم فقال النبيُّ ﷺ: **«اختر منهما»**. فقال: يا نبيَّ الله، اختر لي. فقال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ المُسْتَشَارَ مؤتَمَنٌ، خذ هذا فإني رأيته يصلِّي، واستوصِ به معروفاً»**. فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأتُه: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبيُّ ﷺ إلا أن تُعْتِقَهُ. قال: هو عتيق. فقال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ الله لم يَبْعَثْ نبيًا ولا خليفةً إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومَن يوقَ بطانة السوء فقد وُقِي»**.

رواه مسلم (٢٠٣٨)، وأبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢١٨٨)، وغيرهم. وسيأتي في الرقاق وتقدَّم مختصراً في تفسير التكاثر.

وقوله: (يستعذب) أي: يأتي بماء عذب. (يزعَبُها) كيمنعها، أي:

يحملها ممتلئة. (بِقِنْو) بكسر القاف، أي: عذق النخلة الحامل للتمر. «ذات در» أي: ذات لبن. (عناقاً) بفتح العين: هي الأنثى من المعز. «بطانة» بكسر الباء، أي: الصاحب الذي يُوثق به. «لا تألو خبالاً» أي: لا تقصر في الإفساد.

والشاهد من الحديث هو إكرام أبي الهيثم النبيَّ ﷺ وصاحبَيه وإطعامهم وفرحه بهم.

* * *

❀ مناقب أبي أيوب الأنصاري رضي اللَّه تعالى عنه

هو خالد بن زيد، أبو أيوب الأنصاري النجاري الخزرجي، معروف بكنيته. كان من السابقين، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد مع النبيِّ ﷺ، ونزل عليه رسول الله ﷺ لمّا قدم المدينة وبقي معه في منزله حتى بنى ﷺ مسجده وبيوت أزواجه، ثم لازم الجهاد وفتوح الأمصار، فلم يتخلف عن غزاة إلى أن توفي شهيداً في غزوة القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين، وبها قبره يزار لحدّ الساعة.

وكان الإمام علي عليه السلام استخلفه على المدينة لمّا توجه إلى العراق، ثم لحقه وشهد معه قتال الخوارج.

٣٦٢ ـ وعنه قال: إنَّ النبيَّ ﷺ نزل عليه، فنزل النبيُّ ﷺ في السُّفْلِ، وأبو أيوب في العُلوِ. قال: فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ؟ فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «السُّفْلُ أرفقُ». فقال: لا أعلو سَقِيفَةً أنت تحتها. فتحول النبيُّ ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل، فكان يصنع للنبيِّ ﷺ طعاماً فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثومٌ، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبيِّ ﷺ، فقيل له: لم يأكل. ففزع وصعد إليه فقال: أحرام هو؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا،

ولكني أكرهه. قال: فإني أكره ما تكره ـ أو: ما كرهت ـ. قال: وكان النبيُّ ﷺ يُؤتى.

رواه مسلم في الأشربة (١٠/٩/١٤)، وقد تقدَّم في السيرة عند مقدم النبيِّ ﷺ المدينة.

وفي هذا الحديث منقبة هامة لأبي أيوب حيث اختصَّه النبيُّ ﷺ بالنزول عنده دون سائر بيوتات الأنصار، وهذه مزية عظيمة، كما فيه تأدُّب أبي أيوب مع النبيِّ ﷺ حيث أسكنه فوقه وسكن هو بالأسفل احتراماً له ﷺ وتعظيماً، وهذا بالإضافة إلى ما كان يكرمه بالإطعام طيلة المدة التي قضاها عنده رضي الله تعالى عنه وجزاه أفضل الجزاء وأوفاه.

٣٦٣ ـ وعن أبي رهم أنَّ أبا أيوب حدَّثهم أنَّ النبيَّ ﷺ نزل في بيته: وكنت في الغرفة فهريق ماء في الغرفة، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء شَفَقاً أن يَخلُص إلى رسول الله ﷺ، فنزلت إلى رسول الله ﷺ وأنا مشفق فسألته فانتقل إلى الغرفة. ثم ذكر قصة الطعام كسابقه.

رواه أحمد (٥/٤٢٠) بسند صحيح ورواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٤٦٠/٤٦١) وصححه ووافقه الذهبي لكنه من حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه وابن أبي عاصم.

وفي هذا الحديث بيان سبب عرض أبي أيوب على النبيِّ ﷺ الانتقال إلى الغرفة الأعلى.

* * *

❀ مناقب سهل بن حُنَيف رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن حُنَيْف مصغراً بن واصب بن الحكيم، من بني عمرو بن عوف الأنصاري الأوسي. معدود من السابقين، وشهد بدراً وسائر المشاهد، وكان ممَّن ثبت يوم أُحد مع النبيِّ ﷺ حيث انكشف الناس وكان يدافع عن

النبيّ ﷺ بالنُّبل فيقول: «نبّلوا سهلاً فإنه سهل». وكان قد شهد مع الإمام علي عليه السلام صفّين واستخلفه على البصرة بعد الجمل، وتوفي بالكوفة سنة ثمان وثلاثين وصلّى عليه الإمام علي وكبّر عليه ست تكبيرات، وفي رواية: خمساً، وقال: إنه بدري.

وهو أخو عثمان بن حُنَيف الذي يروي حديث الضرير في التوسل الذي أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم من طرق صحيحة، انظر تخريجه في تهذيبي لجامع الترمذي رقم (٢٣٤٧).

* * *

❀ مناقب عَبَّاد بن بشر الأنصاري رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل الأنصاري.

من مُسْلِمي أهل المدينة الأوائل الأفاضل، وكان من الأشراف الثلاثة الأشهليين، وثانيهم أُسيد بن حُضَير، وثالثهم سعد بن معاذ. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ثلاثة من الأنصار، كلهم من بني عبد الأشهل، لم يكن أحد يعتدُّ عليهم فضلاً بعد رسول الله ﷺ: سعد بن معاذ، وأُسَيد بن حُضَير، وعبّاد بن بشر. شهد مع النبيّ ﷺ بدراً وباقي المشاهد. وكان ممَّن حضر وقعة اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب وجنده، وفيها استشهد.

وكان ممَّن شارك في قتل عدو الله كعب بن الأشرف اليهودي في جماعة من الأنصار.

وهو أحد مَن أضاءت له عصاه في الليل المظلم، كما تقدَّم في ترجمة أُسيد بن حُضير رقم (٣٣٨) وحديثه في الصحيح. وهذه كرامة أكرمه الله بها مع صاحبه أُسَيْد.

رواه أبو يعلى (٤٣٧٢) ورجاله ثقات.

٣٦٤ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ النبيّ ﷺ سمع رجلاً

يقرأ في المسجد فقال: «رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية أَسْقَطْتُهُنَّ من سورة كذا وكذا».

رواه البخاري في الشهادات (١٩٣/٦).

وذكر معلقاً عن عباد بن عبدالله، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تهجد النبيُّ ﷺ في بيتي، فسمع صوت عَبَّادٍ يصلِّي في المسجد فقال: «يا عائشة، أَصوتُ عبَّاد هذا؟» قلت: نعم. قال: «اللَّهم ارحم عبَّاداً».

ورواه أبو يعلى في مسنده رقم (٤٣٧١) موصولاً، وسنده صحيح مع عنعنة ابن إسحاق.

* * *

❀ مناقب حارثة بن النعمان رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن النعمان بن نفيع بن زيد البخاري الأنصاري، شهد بدراً وغيرها، وبُشِّر بالجنة، وكان من الثمانين الذين ثبتوا مع النبيِّ ﷺ يوم حنين، وكان بارًّا بأمِّه، وسلَّم على جبريل عليه السلام فردَّ عليه السلام. توفي في أيام معاوية بعد أن كُفَّ بصرُه.

٣٦٥ ـ وعنه قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبرائيل عليه السلام جالس في المقاعد فسلَّمت عليه، فلمَّا رجعت قال: «هل رأيت الذي كان معي؟» قلت: نعم. قال: «فإنه جبريل، وقد ردَّ عليك السلام».

رواه أحمد (٤٣٣/٥) بسند صحيح، وله شاهدان صحيحان أوردهما النور في المجمع (٣١٤/٩).

٣٦٦ ـ وعن ابن عباس أيضاً بنحوه مطوَّلاً، وفيه قول جبريل عليه السلام للنبيِّ ﷺ: أما إنه من الثمانين. فقال رسول الله ﷺ: «وما الثمانون؟» قال: يفرُّ الناس عنك غير ثمانين فيصبرون معك، رزقهم ورزق أولادهم على الله في الجنة.

رواه الطبراني في الكبير (٣٢٢٥) والبزار (٢٧١١/٢٧١٠) وإسناده حسن، كما قال النور في المجمع (٣١٤/٩).

٣٦٧ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبيِّ ﷺ قال: «**دخلت الجنة، فسمعتُ فيها قراءة، قلت: مَن هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذاكم البر، كذاكم البر**» وكان برًّا بأمِّه.

رواه أحمد (١٥٢/١٥١/٣٦/٦) من طريقين، والحاكم (٢٠٨/٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفيما ذكرناه مناقب هامة لحارثة هذا رضي الله تعالى عنه.

* * *

❀ مناقب أبي دُجَانة رضي اللَّه تعالى عنه

هو سِمَاكُ بن خَرَشَة الأنصاري، شهد بدراً فما بعدها، وكان ممَّن ذبَّ عن النبيِّ ﷺ يوم أُحد حتى كثرت فيه الجراحة، وكان ممَّن شارك في قتل مسيلمة، واستشهد في تلك الوقعة.

ومن مناقبه العظيمة أنه أخذ السيف من النبيِّ ﷺ على أن يقوم بحقِّه ففلق به رؤوس المشركين.

٣٦٨ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحد فقال: «**مَن يأخذ مني هذا؟**» فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: «**فمَن يأخذه بحقِّه؟**». قال: فأحْجَمَ القومُ، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقِّه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين.

رواه مسلم في الفضائل (٢٤/١٦).

قوله: (فأحجم القوم) أي: تأخروا وكفُّوا. وقوله: (ففلق به هام المشركين) أي: شقَّ رؤوسهم.

* * *

❀ مناقب ثابت بن قَيْس رضي اللّه تعالى عنه

هو ابن شَمَّاس الأنصاري الخزرجي خطيبهم، من أكابر الصحابة، أول مشاهده أُحد، ثم شهد ما بعدها، وكان من الشجعان، حضر وقعة اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب، فلمّا انكشف الناس وانهزموا قال: اللّهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وما صنع هؤلاء. ثم قاتل حتى قُتل رضي الله تعالى عنه، وكان ممّن أُجيزت وصيتُه بعد موته.

٣٦٩ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت بن قيس: ألا ترى يا عم؟ ووجدته يتحنط فقال: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عوّدتم أقرانكم، اللّهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ومما صنع هؤلاء. ثم قاتل حتى قُتل، وكان عليه درعٌ نَفِيسَةٌ فمرَّ به رجل مسلم فأخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال: إني أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حُلُمٌ فتضيعه، إني لمّا قُتلتُ أخذ درعي فلان، ومنزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس تستن، وقد كفى على الدرعة برمة وفوقها رحل، فائت خالداً فمُره فليأخذها وليقُل لأبي بكر إنَّ عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان عتيق. فاستيقظ الرجل فأتى خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع فأُتي بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته.

رواه البخاري مختصراً والطبراني مطوّلاً في الكبير (١٣٠٧) ورجاله رجال الصحيح، ورواه أيضاً عن بنت ثابت (١٣٢٠)، وانظر مستدرك الحاكم (٣/٣٣٤/٣٣٥) ودلائل النبوّة (٨/٣٥٦).

ومن مناقبه أنَّ النبيَّ ﷺ بشّره بالجنة.

٣٧٠ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبيِّ ﷺ، فسأل النبيُّ ﷺ سعد بن معاذ فقال: إنه لجاري وما علمتُ له شكوى. قال:

فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**».

رواه أحمد (٣/١٣٧/١٤٥/٢٨٧)، ومسلم في الإيمان (٢/١٣٣/١٣٤/١٣٥)، ورواه البخاري في علامات النبوّة (٧/٤٣٤) وفي التفسير (١٠/٢١٤) بسياق آخر بنحوه.

* * *

❀ مناقب أبي قتادة رضي اللّه تعالى عنه

هو ابن رِبْعِي الأنصاري الخزرجي السَّلَمِي، فارس رسول الله ﷺ، شهد أُحداً وسائر المشاهد، واختلفوا في شهوده بدراً، وشهد مع الإمام علي عليه السلام حروبه كالجمل وصفّين والنهراوان، وتوفي بالكوفة وصلّى عليه عليٌّ عليه السلام، وذلك سنة أربعين، وقيل: مات بالمدينة سنة أربع وخمسين... وقيل غير ذلك.

ودعا معه النبيّ ﷺ في سفر وكان قد حفظه ﷺ في مسيره.

٣٧١ ـ فعنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً**». فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد. قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه. قال: فنعس رسول الله ﷺ فمال عن راحلته، فأتيته فدَعَمْتُه من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته. قال: ثم صار حتى تهور الليل مال عن راحلته فدَعَمْتُه... قال: ثم مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل فأتيته فدعَمْتُه فرفع رأسه فقال: «**مَن هذا؟**» قلت: أبو قتادة. قال: «**متى كان هذا مسيرك مني؟**» قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة. قال: «**حفظك الله بما حفظت به نبيّه**». الحديث بطوله في صلاتهم عند النوم، وفيه تلك المعجزة في البركة في الماء.

رواه مسلم في صلاة المسافرين مطوّلاً (٥/١٨٤/١٨٩)، وقد تقدّم في السيرة وغيرها. وجاء في حديث سلمة بن الأكوع عندما أخِذتْ لِقاحُ رسول الله ﷺ وأدركوها، وكان من فرسانهم أبو قتادة، فقال ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وقد تقدّم مطوّلاً في السيرة رقم (٣٨٧).

* * *

مناقب البراء بن عازب رضي اللّه تعالى عنه

هو ابن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي، شهد مع النبيّ ﷺ أُحداً وباقي المشاهد، واستصغر هو وابن عمر في غزوة بدر، وحضر مع النبيّ ﷺ أربع عشرة غزوة. رواه السراج بسند صحيح كما في الإصابة.

وحضر مع الإمام علي عليه السلام الجمل وصفّين وقتال الخوارج، وكان الذي فتح الري سنة عشرين، وحضر غزوة تُسْتَر مع أبي موسى، وسكن الكوفة، ومات في إمارة مصعب بن الزبير سنة ثنتين وسبعين.

* * *

مناقب خزيمة بن ثابت رضي اللّه تعالى عنه

هو ابن ثابت بن الفَاكِه بن ثعلبة الأنصاري الأوسي. من السابقين الأولين، شهد بدراً مع النبيّ ﷺ وباقي المشاهد، وقيل: أول مشاهده أُحد، وكان يكسر أصنام قومه بني خَطْمة، وكانت راية بني خطمة يوم الفتح معه.

وكان اعتزل القتال في صفّين، فلمّا قُتِل عمّارٌ سلّ سيفه وقال: قد بانت لي الضلالة. فقاتل مع الإمام علي حتى قُتل بصفّين.

ومن مناقبه العظيمة بعد المشاهد والشهادة أن جعل النبيُّ ﷺ شهادته تعدل شهادة رجلين.

٣٧٢ ـ فعن عُمارة بن خزيمة أنَّ عمَّه حدَّثه، وهو من أصحاب النبيِّ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبيُّ ﷺ لِيَقضِيَه ثَمَنَ فرسه، وأسرع النبيُّ ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أنَّ النبيَّ ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس، وإلا بعته. فقام النبيُّ ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أوَ ليس قد ابتعتُه منك؟**» قال الأعرابي: لا والله، ما بِعْتُكَهُ. فقال النبيُّ ﷺ: «**بلى، قد ابتعتُه منك**». فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً. فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعتَه. فأقبل النبيُّ ﷺ على خزيمة فقال: «**بمَ تَشهدُ؟**» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل النبيُّ ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

رواه أبو داود رقم (٣٦٠٢) بسند صحيح.

٣٧٣ ـ وله شاهد عن خزيمة نفسه بنحوه وفيه: «**مَن شَهِد له خزيمةُ أو شَهِد عليه فحَسْبُه**».

رواه الطبراني في الكبير (٣٧٣٠)، قال النور: ورجاله كلهم ثقات.

وفي الصحيح من حديث زيد بن ثابت قال: فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الذي جعل النبيُّ ﷺ شهادته بشهادتين. وتقدَّم في التفسير.

* * *

❀ مناقب زيد بن أرقم رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان الأنصاري الخزرجي، من الصحابة الأفاضل، أحد شيعة الإمام علي عليه السلام، أول مشاهده الخندق، واستصغر يوم أُحد، ثم شهد كل المشاهد.

٣٧٤ ـ غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة.

رواه البخاري في أول المغازي (٨/٢٨٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١٣/١٩٥)، وانظر ما سبق في السيرة رقم حديث (١٧١).

وتقدَّم في تفسير المنافقين قصته معهم ونزول القرآن يصدِّقه بما قال للنبيِّ ﷺ في شأنهم وقوله له: «**إنَّ الله قد صدقك يا زيد**».

ثم كان بعد مع الإمام علي، وشهد معه صفِّين، ومات بالكوفة أيام المختار سنة ست وستين، وقيل: ثمان وستين.

* * *

❀ مناقب البراء بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن مالك أخو أنس بن مالك، قيل: شقيق له، وقيل: لأبيه، وقيل: لأمه، أقوال. وكان قد شهد مع النبيِّ ﷺ كل المشاهد إلا بدراً، وكان أكبر من أنس، وكانت له مواقف في وقعة اليمامة.

٣٧٥ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: استلقى البراء بن مالك على ظهره ثم ترنم، فقال له أنس: اذكر الله أي أخي. فاستوى جالساً وقال: أي أنس، أتُراني أموت على فراشي وقد قتلت مائة من المشركين مبارزةً سوى مَن شاركت في قتله؟

رواه الطبراني في الكبير (١١٧٨)، قال النور (٩/٣٢٤): رجاله رجال الصحيح.

هذا يدل على بطولته وشهامته؛ قتل مائة من المشركين مبارزةً، وما أدراك ما المبارزة.

٣٧٦ ـ وذكر الحافظ عن بقي بن مخلد في مسنده بسنده عن أبي إسحاق قال: زحف المسلمون إلى المشركين يوم اليمامة حتى ألجأوهم إلى حديقة فيها عدو الله مسيلمة، فقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين،

ألقوني إليهم. فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على حديقة حتى فتحها على المسلمين، ودخل عليهم المسلمون فقتل الله مسيلمة. وفي رواية: رمى البراء بنفسه عليهم فقاتلهم حتى فتح الباب وبه بضع وثمانون جراحة من بين رمية بسهم وضربة، فحُمل إلى رحله يُداوى، وأقام عليه خالد شهراً.

ومن مظاهر بطولته وشهامته:

٣٧٧ ـ ما رواه الطبراني في الكبير رقم (١١٨٢) من طريق إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة قال: بينما أنس بن مالك وأخوه ـ يعني البراء هذا ـ عند حصن من حصون العدو ـ يعني بالحريق بالعراق ـ فكانوا يلقون كلاليب في سلاسل محماة فتعلق بالإنسان فيرفعونه إليهم، فعلق بعض الكلاليب بأنس بن مالك فرفعوه حتى أقلُوه من الأرض، فأتى أخوه البراء فقيل له: أدرك أخاك، وهو يقاتل الناس، فأقبل يسعى حتى نزا في الجدار، ثم قبض بيده على السلسلة وهي تدار، فما برح يجرهم ويداه تدخنان حتى قطع الحبل، ثم نظر إلى يديه فإذا عظامه تلوح قد ذهب ما عليها من اللحم، وأنجى الله عزَّ وجلّ أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه بذاك.

قال الهيثمي في المجمع (٩/٣٢٥): وإسناده حسن.

فما فعله البراء هنا بأخيه أنس لا يقتحمه إلا الأبطال والشجعان، ويُعَدُّ هذا الحدث من عجائب الدهر.

٣٧٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كم من أشعث أغبَر ذي طمرين لا يُؤبَه له، لو أقسم على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٢) بتهذيبي وحسَّنه، وسنده حسن أو صحيح، وفي الصحيحين عنه: **«إنَّ من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه»**.

«طمرين»: ثوبين خَلِقَيْن. «لا يؤبَه» أي: لا يُبالَى به. «لأبرّه» أي: لأمضى حلفه وقضى له ما حلف عليه وجعله بارًا فيه.

وهذه شهادة من النبيِّ ﷺ للبراء هذا بأنه من أكابر أولياء الله تعالى الذين يُجَابُون إلى ما أرادوا. قال الحافظ: فلمّا كان يوم تُستَر من بلاد فارس انكشف الناس، فقال المسلمون: يا براء، أقسم على ربِّك. فقال: أقسم عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم، وألحقني بنبيِّك. فحمل وحمل الناس معه، فقتل مرزبان الزاره، من عظماء الفرس، وأخذ سلبه، فانهزم الفرس وقُتل البراء، وذلك سنة عشرين.

* * *

❀ مناقب أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه

هو ابن مالك بن النضر بن ضمضم، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، وأحد المكثرين. قدم النبيَّ ﷺ المدينة وهو ابن عشر سنين، وخدمه عشر سنين، ودعا له بالبركة في ماله وولده، ووعده بالشفاعة له يوم القيامة، وغزى معه ﷺ ثمان غزوات، وحضر بدراً يخدم النبيَّ ﷺ، وكان له بستان يحمل الفاكهة مرتين في السنة، أقام بالمدينة ثم شهد الفتوحات الإسلامية، وسكن البصرة وبها توفي سنة تسعين أو غير ذلك وسنّه مائة ونيف.

٣٧٩ ـ فعنه رضي الله تعالى عنه قال: إنَّ أم سُلَيم قالت: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله تعالى له. فقال: **«اللّهم أكثر مالَه وولدَه، وبارك له فيما أعطيته»**.

وفي رواية: فدعا لي رسول الله ﷺ ثلاث دعوات، قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة.

وفي رواية: فوالله إن مالي لَكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي لَيتعادُّون على نحو المائة اليوم.

رواه البخاري ومسلم بالرواية الأولى، وروى مسلم في الفضائل باقيها (٤٠/٣٩/١٦).

٣٨٠ ـ وعنه قال: سألت النبيَّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «**أنا فاعل**». قلت: يا رسول الله، فأين أطلبك؟ قال: «**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**». قلت: فإن لم ألقَك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**». قال: فإن لم ألقَك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطىء هذه المواطن الثلاث**».

رواه أحمد (١٧٨/٣) والترمذي في الزهد بسند صحيح.

٣٨١ ـ وعن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنساً يُخبرُ بمكاني فأدخل عليه فآخذ بيديه فأقبِّلهما وأقول: بأبي هاتين اليدين اللتين مسَّتا رسول الله ﷺ. وأقبِّل عينيه وأقول: بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ.

رواه أبو يعلى (٣٤٩١) وسنده حسن.

في هذا الأثر تبرُّك ثابت البناني بآثار مشاهدة رسول الله ﷺ، وذلك بتقبيله يدَي أنس وعينيه.

* * *

❀ مناقب حسان بن ثابت رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن ثابت بن المنذر بن حَرام الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، شاعر رسول الله ﷺ. قدم النبيُّ ﷺ المدينة وله ستون سنة فأسلم وعاش في الإسلام أيضاً ستين سنة أخرى، وتوفي وله مائة وعشرون سنة، ولا يُعرف له حضور في غزوة لأنه ـ كما قالوا ـ كان جباناً. وكان رضي الله تعالى عنه ممَّن تكلم في شأن قذف السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها اغتراراً بإشاعات المنافقين وانسياقاً معهم غلطاً، ولمّا نزلت براءتها رضي الله تعالى عنها كان ممَّن حدَّهم النبيُّ ﷺ ثم تاب من ذلك، ومدح السيدة بعد ذلك، وكان يزورها رضي الله تعالى عنهما، وكان ينافح عن

رسول الله ﷺ وهو يدعو معه ويقول: «**اللّهم أيّده بروح القدس**». وقال له مرة: «**اهجهم، وجبريل معك**».

٣٨٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ عمر مرَّ بحسان وهو يُنشِد الشعر في المسجد فَلَحَظ إليه فقال: قد كنت أُنشِدُ وفيه مَن هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشُدُك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أجب عني، اللّهم أيّده بروح القدس**»؟ قال: اللّهم نعم.

رواه البخاري رقم (٢٣١٢) ومسلم في الفضائل (٤٥/١٦).

٣٨٣ ـ وعن البراء رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيُّ ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: «**اهج المشركين، فإنَّ جبريل معك**».

رواه البخاري (٣٢١٣) ومسلم (٤٦/١٦).

٣٨٤ ـ وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أنَّ حسان بن ثابت كان ممَّن كثَّر على عائشة، قال: فَسَبَبْتُه، فقالت: يا ابن أختي، دعه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ.

رواه مسلم (٤٦/١٦).

٣٨٥ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشقٍ بالنبل**». فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «**اهجهم**». فهجاهم، فلم يُرض فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه. ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينهم بلساني فري الأديم. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تعجل، فإنَّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً حتى يُلَخِّصَ لك نسبي**». فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق، لأسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «**إنَّ روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله ﷺ**». وقالت: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى». قال حسان:

هَجَوْتُ محمداً فأجبتُ عنه ... وعِندَ اللَّه في ذاكَ الجزاءُ
هجوت محمداً بَرًّا حَنِيفا ... رسول اللَّه شَيْمَتُه الوفاءُ
فإنَّ أبِي ووالدَه وعِرْضِي ... لعِرض محمَّدٍ منكُم وِقاءُ

إلى آخر الأبيات.

رواه البخاري (٤١٤٥/٣٥٣١) ومسلم (٥١/٤٨/١٦) والسياق له.

قوله: (أذلع لسانه) أي: أخرجه. وقوله: (لأفرينهم) أي: لأمزقن أعراضهم تمزيق الجلد.

وفيما ذكرناه مناقب وفضائل لحسان، وحسبه فضلاً أن يكون معه جبريل يؤيده، وأنه كان يدافع عن رسول الله ﷺ ويجاهد الكفار بلسانه بدل جهاده بسيفه.

* * *

❀ مناقب حذيفة بن اليمان رضي اللَّه تعالى عنه

هو ابن اليمان حُسَيْلُ[1] بن جابر بن ربيعة العبسي، بفتح العين وسكون الباء. كان أبوه قد أصاب دماً في بلاده فهرب إلى المدينة، فحالف بني عبد الأشهل فَنُسِبَ إليهم وتزوج منهم، فوُلِدَ لهُ حذيفةُ بالمدينة وأسلم هو وأبوه وأرادا حضور بدر فصدَّهما المشركون. جاء ذلك في صحيح مسلم.

وشهد حذيفة أُحداً وغيرها من المشاهد، وقتل والده بأُحد، وتقدَّم في غزوة الخندق إرسال النبيِّ ﷺ حذيفة إلى كفار قريش ليأتيه بخبرهم ففعل، فانظر ما سبق رقم حديث (٣٤٠).

---

(١) هكذا ضبطه الحافظ في الإصابة بالتصغير، وقال في الفتح: حِسْل، بمهملتين وكسر أوله وسكون ثانيه ثم لام، يعني مكبراً.

ثم كان عاملاً لعمر على المدائن، وبقي بها حتى توفي بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنهما، وكان ممَّن شهد فتوح العراق وله فيها آثار شهيرة. ولحذيفة مناقب جمَّة، وحسبه أنه كان صاحب أسرار رسول الله ﷺ وأعلم الصحابة بالفتن والأحداث المرتقبة.

٣٨٦ ـ فعنه رضي الله تعالى عنه قال: سألتني أمّي: متى عهدُك؟ ـ تعني بالنبيّ ﷺ ـ فقلت: ما لي به عهد منذ كذا وكذا. فنالت مني فقلت لها: دعيني آتي النبيَّ ﷺ فأصلّي المغرب وأسأله أن يستغفر لي ولكِ، فأتيت النبيَّ ﷺ فصلّيت معه المغرب، فصلّى حتى صلّى العشاء، ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: **«مَن هذا؟ حُذيفة؟»** قلت: نعم. قال: **«ما حاجتك؟ غفر الله لك ولأمّك»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٥٣) وحسَّنه، وهو كما قال أو أعلى، ورواه أيضاً أحمد (٣٩١/٥)، وابن حبان (٢٢٢٩) بالموارد.

فهذه منقبة له حيث خصَّه النبيُّ ﷺ وأمَّه بالاستغفار لهما.

٣٨٧ ـ وعن خيثمة بن أبي سبرة قال: أتيت المدينة فسألت الله تعالى أن ييسّر لي جليساً صالحاً، فيسّر لي أبا هريرة، فجلست إليه فقلت له: إني سألت الله تعالى أن ييسّر لي جليساً صالحاً فوفّقت لي. فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة جئت ألتمس الخير وأطلبه. فقال: أليس فيكم سعد بن مالك مجاب الدعوة، وابن مسعود صاحب طهور رسول الله ﷺ ونعليه، وحذيفة صاحب سرّ رسول الله ﷺ، وعمّار الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيِّه، وسلمان صاحب الكتابَين ـ والكتابان: الإنجيل والقرآن ـ؟

رواه الترمذي (٥٥٨٢) بهذا السياق وحسَّنه وصححه.

ورواه البخاري (٩٣/٩٢/٨) ومسلم كلاهما في الفضائل مختصراً بدون ذكر سعد وسلمان، وقالا بدل خيثمة وأبي هريرة: علقمة وأبا الدرداء.

وفيه: أوَ ليس فيكم صاحب سرّ رسول الله ﷺ الذي لا يعلمه أحد غيره؟

والمراد بالسرّ ما كان يعلمه من أحوال المنافقين والفتن الآتية.

٣٨٨ ـ وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: لقد حدّثني رسول الله ﷺ بما يكون حتى تقوم الساعة. رواه مسلم في الفتن (١٦/١٦).

٣٨٩ ـ وعنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، حفظه مَن حفظه، ونسيه مَن نسيه، وإنه لَيكون منه الشيء قد كنت نسيته فأراه كما يذكر الرجل وجهَ الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه.

رواه البخاري في القدر (٢٩٧/١٤) ومسلم (١٥/١٦) في الفتن.

ومعنى الحديثين أنه ﷺ أخبرهم بالوقائع والأحداث والفتن المرتقبة إلى قيام الساعة كما جاء مفصّلاً في أحاديث أخرى. وكان لحذيفة العلم الواسع بذلك، وأخباره في ذلك كثيرة، يأتي بعضها في الفتن إن شاء الله تعالى.

* * *

❀ مناقب عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه

هو ابن سلام، بتخفيف اللام، الإسرائيلي الأنصاري، من ذرية نبيّ الله يوسف عليه السلام، حبر اليهود وعالمهم وابن عالمهم، كان من يهود بني قينقاع حليفاً للخزرج فهداه الله تعالى فأسلم فور قدوم النبيّ ﷺ المدينة، بشّره النبيُّ ﷺ بالجنة وأنه سيبقى معتصماً بالإسلام حتى الموت. له مناقب ومواقف في الإسلام.

٣٩٠ ـ فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لِحَيٍّ يمشي بين الناس إنه في الجنة إلا لعبدالله بن سلام. قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

رواه أحمد (١٦٩/١)، والبخاري (١٢٩/٨) ومسلم (٤٢/٤١/١٦) كلاهما في المناقب والفضائل.

فهو من المبشَّرين بالجنة المنصوص عليهم بأعيانهم، فيا لها من بشارة وسعادة.

٣٩١ ـ وعن يزيد بن عميرة قال: لمّا حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبدالرحمٰن، أوصِنا. قال: أجلسوني. فقال: إنَّ العلم والإيمان مكانهما مَن ابتغاهما وجدهما ـ يقول ذلك ثلاث مرات ـ والتمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عُوَيْمِر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبدالله بن مسعود، وعند عبدالله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنه عاشر عشرة في الجنة»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٧٦) بتهذيبي وسنده صحيح.

وفي الحديث إضافة إلى بشارته بالجنة أنه كان من أوعية العلم الذين كانوا يؤخذ عنهم أيام الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

٣٩٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ أُتِي بقَصعةٍ فأكل منها ففضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: **«يجيءُ رجُل من هذا الفَجّ من أهل الجنة يأكل من هذه الفضلة»**. قال سعد: وكنت تركت أخي عُمَيْراً يتوضأ. قال: فقلت: هو عُمَيْر. فجاء عبدالله بن سلام فأكلها.

رواه أحمد رقم (١٤٥٨)، وأبو يعلى رقم (٧٢١)، والبزار رقم (٢٧١٢) بسند حسن صحيح.

الحديث كسابقيه في كونه من المبشَّرين بالجنة بأعيانهم.

وقد قدَّمنا في التعبير رؤياه التي رآها وعبرها له النبيُّ ﷺ وأنها تدل على صلاحه واعتصامه بالعروة الوثقى حتى الموت، انظر ما سبق في التعبير رقم حديث (٧٥١). كما قدَّمنا أيضاً سبب إسلامه ونزول فيه قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ في التفسير من سورة الأحقاف، وغير ذلك مما تقدَّم فيه.

وجاء في المسند والسنن عنه رضي الله تعالى عنه قال: لمّا قدم

النبيُّ ﷺ المدينة كنت ممَّن انجفل، فلمّا تبيَّنت وجهه عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذاب. الحديث.

وتقدَّم حديث أنس أنَّ عبدالله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة فقال: إني سائلك عن ثلاث خصال لا يعلمها إلا نبيّ... وفيه قصة اليهود معه في إسلامه وهو في الصحيحين، وانظر فيما سبق من السيرة رقم حديث (١٤٦) مطوَّلاً.

توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين رضي الله تعالى عنه.

* * *

❀ مناقب سلمان رضي اللَّه تعالى عنه

سلمان أبو عبدالله الفارسي، أصله من أصبهان فَرَّ مِنْ، والده عابد النار، وعانق المسيحية، ودخل الشام وخدم عدة قساوسة، وكان القس الأخير أخبره بظهور نبيٍّ عن قرب، يُبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخيل، فيه علامات لا تخفى... فاستأجر بعض تجار العرب من قبيلة كلب أن يوصلوه إلى أرض العرب، فأخذوا منه الأجرة ثم باعوه ليهود وادي القرى، وبقي عندهم مدة رقّاً، ثم قدم يهودي من يهود المدينة فأعطوه إياه فأخذه معه ومكث خادماً له، والنبيُّ ﷺ موجود بمكة ولا علم له به، ثم لم يلبث أن قدم ﷺ فسمع به فذهب إليه، ولمّا تحققه وعرف صفاته أشهر إسلامه، وأخبر النبيَّ ﷺ بتاريخه وحالته، فأمر ﷺ أصحابه بشرائه من اليهودي وعتقه، ففعلوا. وقد تقدَّمت قصته مستوفاة أول السيرة فانظر ذلك رقم حديث (١٢).

ويقال إنه أدرك عيسى ابن مريم عليهما السلام، والجمهور على أنه عاش ثلاثمائة وخمسين سنة، وقالوا: مائتان وخمسون سنة لا يشكُون فيها.

٣٩٣ ـ وعنه رضي الله تعالى عنه أنه تداوله بضعة عشر من ربٍّ إلى ربٍّ.

رواه البخاري في الفضائل (٢٧٩/٨).

وقوله: (من ربٍّ إلى ربٍّ) أي: من سيد إلى سيد.

وكان أول مشاهده مع النبيِّ ﷺ في غزواته: الخندق، ثم شهد ما بعدها، ثم شهد فتوح العراق، وولي المدائن، وتوفي سنة ست وثلاثين.

وكان عالماً عابداً زاهداً، وكان النبيُّ ﷺ قد آخى بينه وبين أبي الدرداء، وقد جرى بينهما ما في الحديث التالي:

٣٩٤ ـ عن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: زار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَة فقال: ما شأنكِ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعاماً، قال له: كُل. فقال: إني صائم. فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل، فلمّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال: نعم، فنام، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قُم الآن. فصلّيا، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً، وإنَّ لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**صدق سلمان**».

رواه البخاري والترمذي، وقد تقدَّم في الاقتصاد في الأعمال رقم (١٣٣) من الجزء الأول.

ففي هذا الحديث بيان فقه سلمان وتفوقه على أخيه أبي الدرداء في ذلك. ومن دلائل فقهه ما سبق في ترجمة حذيفة وقول أبي هريرة لخيثمة: أليس فيكم سلمان صاحب الكتابين. وما تقدَّم في ترجمة ابن سلام عن معاذ: التمسوا العلم عند أربعة رهط. فذكر منهم سلمان.

ومن مناقبه وفضله ما تقدَّم في ترجمة صُهَيب رقم حديث (٣١٦) قوله ﷺ لأبي بكر: «**لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربَّك**». وكان من أولئك سلمان.

٣٩٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قالوا: ومَن

يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: **«هذا وقومه»**. وفي رواية: **«والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لَتناوله رجال من فارس»**.

رواه الترمذي والحاكم، وسنده صحيح على شرط مسلم، وقد تقدَّم في التفسير، وتقدَّم أيضاً في نزول قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ حديث أبي هريرة في ذلك وهو في الصحيحين.

وكل ذلك يدل على فضله ومتانة إيمانه وقوة دينه، ويأتي كاملاً أيضاً في فضل العجم، إن شاء الله تعالى.

* * *

❀ مناقب أبي موسى الأشعري رضي اللَّه تعالى عنه

هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حصار، أبو موسى الأشعري، مشهور باسمه وكنيته. أسلم قديماً بمكة، ورجع إلى بلاده اليمن، ثم خرج قاصداً المدينة لمّا هاجر رسول الله ﷺ في نيف وخمسين من قومه، فركبوا سفينة فألقتهم إلى الحبشة، فأقاموا بها مع مَن كان فيها من المسلمين حتى قدموا في سفينة مع جعفر وأصحابه، فوجدوا النبيَّ ﷺ قد فتح خيبر فأسهم لهم من الغنيمة، وقد تقدَّم حديث قدومهم في السيرة رقم (٤١٥).

ثم شهد أبو موسى مع النبيِّ ﷺ باقي مشاهده كفتح مكة وغزوة حنين وتبوك، ثم استعمله على بعض جهات اليمن كزبيد وعدن، واستعمله عمر على البصرة، وكان ممَّن افتتح الأهواز وأصبهان والشام، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحَكَمَيْن بصفِّين، ثم اعتزل الفريقين، وتفقَّه به أهل الكوفة، وتوفي بها أو بمكة سنة اثنتين أو أربع وأربعين عن عمر فوق الستين.

له مناقب وفضائل وأخبار، إلى القارىء بعضها:

٣٩٦ ـ فعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كنت عند

النبيّ ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة[1] والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله ﷺ رجل أعرابي فقال: ألا تُنْجِزُ لي يا محمد ما وعدتني؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أبْشِر». فقال له الأعرابي: أكثرتَ عليَّ من أبْشِر. فأقبل رسول الله ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: «إنَّ هذا قد رَدَّ البُشرى فاقْبَلا أنتُما». فقالا: قبلنا يا رسول الله. ثم دعا رسول الله ﷺ بقَدَحٍ فيه ماءٌ فغسل يديه ووجهه فيه ومَجَّ فيه ثم قال: «اشْربا منه وأفْرِغا على وجوهِكما ونُحُورِكما وأبْشِرا». فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ، فنادتهما أمُّ سلمة من وراء الستر: أفضلا لأمكما مما في إنائكما. فأفضلا لها منه طائفة.

رواه البخاري في الطهارة ومسلم في الفضائل (١٦/٥٨/٥٩).

ففي هذا الحديث منقبة لأبي موسى وبلال حيث خصَّهما النبيُّ ﷺ بالتبرك بأثر فضلة غسل وجهه ويديه ومجته فيه، فيا لها من بركة ويا له من خير ناله أبو موسى وبلال من شربهما ذلك الماء الطاهر الأطهر، وإفراغهما على وجوههما ونحورهما. واستدلَّ الفقهاء بالحديث على طهارة الماء الفاضل خلافاً لمَن قال بكراهة استعماله.

٣٩٧ ـ وعنه قال: لمّا فرغ النبيُّ ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس. فذكر الحديث بطوله في قتل أبي عامر عمّ أبي موسى وقوله له: يا ابن أخي، انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقرئه مني السلام، وقُل له: يقول لك أبو عامر: استغفر لي. ومكث يسيراً ثم مات، فلمّا رجعت إلى النبيّ ﷺ دخلت عليه... فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له يستغفر لي. فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ثم رفع يديه ثم قال: «**اللّهم اغفر لعبيد أبي عامر**». حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: «**اللّهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك** ـ أو: **من**

---

(١) الجعرانة: شرق شمال مكة، تبعد عن مكة بنحو من عشرين كيلو، نزلها النبيُّ ﷺ بعد حنين وقسم بها مغانمها وأحرم منها بعمرة، وكان ذلك في السنة الثامنة بعد الفتح.

الناس ـ». فقلت: ولي يا رسول الله ﷺ. فاستغفر فقال النبيُّ ﷺ: «**اللّهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً**». قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى.

رواه البخاري في الجهاد وفي المغازي ومسلم في الفضائل، وتقدَّم مطوَّلاً في غزوة حنين من السيرة برقم (٤٨٦) فدعاؤه ﷺ مع أبي موسى وعمِّه أبي عامر بتلك الأدعية النبويَّة المستجابة يدلُّ على أنهما من المبشَّرين بالجنة نصاً، وذلك من مناقبهما وفضلهما.

٣٩٧م ـ ومن مناقبه، بل وخصائصه، أنَّ النبيَّ ﷺ شبَّه صوته بالقرآن بمزمار آل داود، فعنه عن النبيِّ ﷺ قال له: «**يا أبا موسى، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**». وفي رواية: «**لو رأيتني البارحة وأنا أسمع لقراءتك لقد أُعطيت مزماراً...**».

رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٧٠/١٠)، ومسلم في فضائل القرآن من كتاب الصلاة (٨٠/٦)، والترمذي في المناقب (٣٦٢٣) بتهذيبي. وقد تقدَّم في تحسين الصوت بالقرآن رقم (١٥٦٥) من الجزء الثاني.

٣٩٨ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ أبا موسى قام ليلة يصلِّي فسمع أزواج النبيِّ ﷺ صوته، وكان حلو الصوت، فقمن يستمعن، فلمّا أصبح قيل له، فقال: لو علمت لَحَبَّرتُه لهنَّ تحبيراً.

رواه ابن سعد في الطبقات (١٠٨/٤) بسند صحيح على شرط مسلم.

وفي الباب عن أبي هريرة رواه النسائي في افتتاح الصلاة بسند صحيح، وعن بريدة رواه مسلم في الصلاة رقم (٧٩٣).

وقوله: «**مزماراً**» المراد به: الصوت الحسن، وأصله آلة الطرب، فشبَّه بها لحسن صوتها. وقوله: (لحبَّرته) التحبِّير: هو التزيين.

وفي الحديث خصيصة لأبي موسى في حسن صوته، فإنه لا يُعرف لأحد من الصحابة مثل صوته الجميل والذي كان يأخذ بالقلوب.

* * *

❀ مناقب أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

هو عبدالرحمٰن[1] ابن صخر الدوسي اليماني، أبو هريرة، حافظ الصحابة على الإطلاق، وراوية الأمّة، وحامل لواء المحدّثين عن النبيّ ﷺ، وبركة رسول الله ﷺ، وحبيب المؤمنين. أصله من قبيلة دوس اليمانية، أسلم وهاجر إلى المدينة في رهط من قومه، فَوَجَدُوا النبيَّ ﷺ في خيبر وأشركهم في الغنيمة، كما تقدَّم في أول غزوة خيبر رقم حديث (٣٩٠)، ثم لازم النبيَّ ﷺ حضراً وسفراً فأخذ عنه علماً كثيراً، وكان قد استعملهُ عمر رضي الله تعالى عنه على البحرين، وكان ممَّن نصر عثمان بن عفان يوم الدار، ثم ولي المدينة أيام بني مروان، وتوفي بقصره بالعقيق سنة سبع وخمسين، وحمل إلى المدينة فدفن بالبقيع.

وله مناقب وفضائل جمَّة، فمن ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ دعا معه ومع أمّه بتحبيبهما إلى المؤمنين.

٣٩٩ ـ فعنه قال: كنت أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتُها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادعُ الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهم اهدِ أمَّ أبي هريرة**». فخرجت مستبشراً بدعوة نبيِّ الله ﷺ، فلمّا جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مُجافٌ، فسمعتْ أمّي خشْفَ قدَميَّ فقالت: مكانك يا أبا هريرة. وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلت ولبست دِرْعها وعَجِلتْ عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة.

---

(١) اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً، والصحيح أنه عبدالرحمٰن سمّاه به النبيُّ ﷺ، وكان يسمّى في الجاهلية عبد شمس.

فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً. قال: قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يحببني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهم حبب عُبَيدك هذا** - يعني أبا هريرة - **وأمّه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**». فما خُلِق مؤمن يَسمعُ بي ولا يراني إلا أحبني.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٥١/٥٢).

والحديث يدل على أمرين اثنين:

أحدهما: في استجابة دعوة النبيّ ﷺ، وفي ذلك معجزة له عليه الصلاة والسلام.

ثانيهما: منقبة لأبي هريرة وأمّه رضي الله عنهما، حيث إن الله عزَّ وجلّ جعلهما محبوبين لكلّ مَن سمعهما من المؤمنين، وقد صدق ذلك الواقع، فلا يوجد مؤمن لا يحب أبا هريرة إلا ما كان من الشيعة الروافض فإنهم يبغضونه ويضلّلونه ولا يقيمون له وزناً، وذلك يدلُّ ضمنياً على أنهم ليسوا بالمؤمنين حقيقةً.

ومن مناقبه أنه كان يتعاقب هو وامرأته وخادمه الليل بالصلاة.

٤٠٠ - فعن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى قال: تَضَيَّفْتُ أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً: يصلّي هذا، ثم يوقظ هذا.

رواه البخاري رقم (٥٤٤١).

وهذا يدلُّ على فضله، فإنَّ قيام الليل من دأب الصالحين الممدوحين في القرآن والسنّة.

٤٠٠م - ومن مناقبه أنَّ الله عزَّ وجلّ اختاره من قبيلة دوس التي كانت معروفة بشرِّ أهلها. فعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ممَّن أنت؟**» قلت: مِن دَوْسٍ. قال: «**ما كنت أُرَى أنَّ في دَوْسٍ أحداً فيه خَيرٌ**».

رواه الترمذي (٣٦٠٦) وحسَّنه وصححه.

ومن أظهر مناقبه وأعلاها وأشهرها كثرة روايته للسنّة المشرّفة وحفظه الواسع ببركة النبيّ ﷺ، فكان أحفظ الصحابة وأكثرهم حديثاً، فلا يقاربه أحد منهم في ذلك، فقد روى لنا من الأحاديث النبويّة كما أخذها عنه تلامذته الذين يعدون بالمئين خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً. ولا يوجد في الصحابة مَن روى هذا العدد أو قاربه، فأكثر الصحابة رواية سَبْعَةٌ: أبو هريرة، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري، وأمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنهم. وأكثر هؤلاء عبدالله بن عمر، فقد روى ألفين وستمائة وثلاثين حديثاً، ولم يصِل إلى ثُلُثَي ما روى أبو هريرة. والمقصود أنه لا ثاني له في الرواية وحفظ السنّة عن رسول الله ﷺ، ولذلك جعله الحافظ الذهبي في تذكرة الحفّاظ في طليعتهم.

٤٠١ ـ فعنه قال: ما من أصحاب النبيّ ﷺ أحد أكثر حديثاً عَنْهُ منّي إلا ما كان من عبدالله بن عَمرو فإنه كان يكتُبُ ولا أكتُبُ.

رواه البخاري والترمذي في العلم، وتقدَّم في الجزء الأول رقم (٥٤). ومع كتابة ابن عَمرو للحديث فلم يقارب أبا هريرة بل ولا غيره من المكثرين.

٤٠٢ ـ وعنه: يقولون: إنَّ أبا هريرة يُكثِر الحديثَ؟ والله الموعد. ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدِّثون مثل أحاديثه؟ وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإنَّ إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً ألزم رسول الله ﷺ على ملىء بطني، فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون، وقال النبيُّ ﷺ يوماً: **«لن يَبْسُط أحدٌ منكم ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمعَه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئاً أبداً»**. فبسطت نمرة ليس عليَّ ثوبٌ غيرها حتى قضى النبيُّ ﷺ مقالته، ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا، والله لولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتكم شيئاً أبداً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

رواه البخاري في العلم (١/٢٢٤/٢٢٥) ومسلم في الفضائل (١٦/٥٣/٥٤) والسياق له.

وفي رواية للبخاري (١/٢٢٥) قال: قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه. قال: «**ابسط رداءك**». فبسطته. قال: فغرف بيديه ثم قال: «**ضمّه**». فضممته فما نسيت شيئاً بعده.

فما في هذا الحديث من معجزة النبيّ ﷺ غرفه ﷺ بيديه في ثوب أبي هريرة هو الذي جعل أبا هريرة أحفظ الصحابة وأوعاهم وأقواهم ذاكرةً، فتلك معجزة من معجزات الرسول الكريم ﷺ.

٤٠٣ ـ وعن مالك بن أبي عامر رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى طلحة بن عبيدالله فقال: يا أبا محمد، أرأيت هذا اليماني ـ يعني أبا هريرة ـ، أهو أعلم بحديث رسول الله ﷺ منكم؟ نسمع منه ما لا نسمع منكم، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقُل؟ قال: أما أن يكون سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع منه، وذلك أنه كان مسكيناً لا شيء له ضيفاً لرسول الله ﷺ، يده مع يد رسول الله ﷺ، وكنا نحن أهل بيوتات وغنى، وكنا نأتي رسول الله ﷺ طرفَي النهار، لا أشك إلا أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، ولا تجد أحداً فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقُل.

رواه الترمذي (٣٦٠٥) وحسّنه، وهو كما قال، وكذا حسّنه الحافظ في الفتح أيضاً.

والحديث معناه كسابقه في حضور أبي هريرة مجالس النبيّ ﷺ وسماعه منه ما لم يسمعه غيره.

٤٠٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم.

رواه البخاري في العلم (١/٢٢٧).

(البلعوم): مجرى الطعام. وقوله: (وعاءين) أي: نوعين من العلم.

والنوع الذي لم يبثّه ولم يحدّث به محمول على ما لا احتياج إليه أو ما كان في بثّه ضرر عليه أو على الناس. وقد حمل العلماء ذلك على كل ما يتعلق بأمراء السوء وأحوالهم أو ما كان من أسرار التوحيد والقدر مما لا تبلغه أكثر العقول، والله تعالى أعلم.

هذا وقد أصابت هذا الصحابيَّ الجليل راوية الإسلام وحافظ حديث رسول الله ﷺ سهامُ مطاعن أعداء الصحابة من الروافض فقد سلَقُوه بألسنتهم الحداد وكتبوا في سبابه وشتائمه الدفاتر الطوال، وممَّن كان له الحظ الأوفر في ذلك من معاصرينا شيخ الرافضة بمصر المسمَّى بعبد الحسين، فله رسالة سمَّاها: «أبو هريرة» ملأها تضليلاً وتنقيصاً لهذا الرجل المحبوب عند المؤمنين، ومنهم ذلك النذل المسمَّى أبو رية، أورده في كتابه: «ظلمات أبي رية» ونال منه بما طابت له نفسه الخبيثة، وغير هذين كثير هنا وهناك، وسيلقون جزاءهم ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾. راشت الوزير الهمامي ان اصرد ر
[illegible] صدقها والباقي كله * * * رواه غيره من الصحابة

❀ مناقب جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه

هو ابن عبدالله بن جابر بن مالك البَجَلِي، يكنى أبا عمرو. أصله من خثعم اليمنية، أسلم مؤخراً في السنة التاسعة، وقدم على النبيِّ ﷺ أيام الوفود العربية، وكان من أشراف قومه، جميل الصورة، غاية في الحسن، طويلاً جداً، كانت قامته ثلاثة أمتار.

شهد مع النبيِّ ﷺ حجة الوداع، وبعثه النبيُّ ﷺ إلى هدم ذي الخلصة الكعبة اليمانية، ولم يكن يحجبه رسول الله ﷺ منذ أسلم، ولا رآه إلا تبسَّم، وكان ممَّن شهد حروب العراق، وكان له الأثر العظيم في

فتح القادسية، ثم سكن الكوفة، وأرسله الإمام علي عليه السلام رسولاً إلى معاوية، ثم اعتزل الفريقين وسكن قرقيسيا حتى توفي سنة إحدى وخمسين رضي الله تعالى عنه ورحمه.

فمن مناقبه ما سَيُذْكَرُ في الآتي:

٤٠٥ ـ فعنه رضي الله تعالى عنه قال: لمّا دنوت من المدينة أنَخْتُ راحلتي، ثم حَلَلْتُ عيبتي ثم لبستُ حُلّتي، ثم دخلت، فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله، هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ذكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض له في خُطبَتِه وقال: «**يَدخلُ عليكم من هذا الباب ـ أو: من هذا الفَجُ ـ مِن خَير ذي يَمَن إلا أنَّ على وجهه مسحة ملك**». قال جرير: فحمدت الله عزَّ وجلّ على ما أبلاني.

رواه أحمد (٤/٣٥٦/٣٦٠/٣٦٤) والحميدي (٨٠٠) بسند صحيح.

في الحديث معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بقدوم جرير قبل مجيئه، كما فيه منقبة وفضيلة له حيث مدحه النبيُّ ﷺ وأثنى عليه بأنه من خير أهل اليمن.

وما صدر من الصحابة برميهم بأعينهم إياه كان ذلك منهم تعجباً مما خُصَّ به من جمال الصورة مع طول القامة المتناهي، وكِلا الأمرين مما يُتعجب منه.

٤٠٦ ـ وعنه قال: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تَبَسَّم. وفي رواية: إلا ضحك.

رواه البخاري (٨/٣٢)، ومسلم (١٦/٣٤/٣٥)، والترمذي (٣٥٩١) في المناقب والفضائل، والنسائي في الكبرى (٥/٨٢/١٨٣/٢٠٤) و(٦/١٣٤)، وابن ماجه في المقدمة (١٥٩).

هذا من مناقبه، فلم يكُن يَحْجُبُه النبيُّ ﷺ عن الدخول عليه أيَّ وقت مناسب، وهذا لا يدل على أنه كان يدخل عليه ونساؤه أمهات

المؤمنين معه لأن ذلك لا يجوز أبداً، والنبيُّ ﷺ أتقى الناس وأخشاهم لله. يضاف إلى عدم حجبه عنه أنه ﷺ كان يلاطفه ويضحك في وجهه كلما رآه ولقيه.

٤٠٧ ـ وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا جرير، ألا تريحني من ذي الخَلَصةِ»**. بيتٍ لِخَثْعَمَ كان يُدعَى كعبة اليمانية، فنفرت في خمسين ومائة فارس، وكنت لا أثْبُتُ على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضرب يده في صدري فقال: **«اللّهم ثَبِّتْهُ واجْعلهُ هادياً مَهْدياً»**. فانطلق فحرقها بالنار، ثم بعث جرير إلى رسول الله ﷺ رجلاً يبشّره منا، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: ما جئتك حتى تركناها كأنها جمل أجرب، فبرَّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات. وفي رواية: كان في الجاهلية بيت يقال له: ذو الخَلَصَة، وكان يقال له: الكعبة اليمانية والكعبة الشامية، فقال رسول الله ﷺ: **«هل أنت مريحي من ذي الخلصة؟»** . . . إلخ.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وتقدَّم في السيرة في بحث الوفود رقم حديث (٥٥٢) وله هنالك زيادات فلينظر.

وقوله: (كأنها جمل أجرب) يعني: إذا طلي بالقطران لما فيه من الجرب فيصير أسود. وهكذا فعلوا بذي الخلصة هدموها وحرقوها حتى صارت سوداء بعد أن كانت ذات بهجة وزينة.

وفي الحديث منقبة لأحمس على العموم حيث بَرَّكَ ﷺ على خيلهم خمس مرات، ولجرير على الخصوص حيث دعا معه بالتثبيت على الخيل، وأن يكون هادياً لغيره بإرشاداته ودعوته، مَهدياً في نفسه. ودعاؤه ﷺ مستجاب لا يُرَدّ.

وبهذا تمَّ ما أردنا ذكره من المهاجرين والأنصار ومَن التحق بهم كهؤلاء الثلاثة الأخيرين، ويليهم قسم النساء من المهاجرات والأنصار رضي الله تعالى عنهن. ونقدِّم في طليعتهنَّ أمهات المؤمنين نساء النبيِّ ﷺ وبناته الطاهرات رضي الله تعالى عنهن جميعاً، وسنذكر أمهات المؤمنين حسب ترتيبهن في الزواج، أما بناته فحسب ميلادهن.

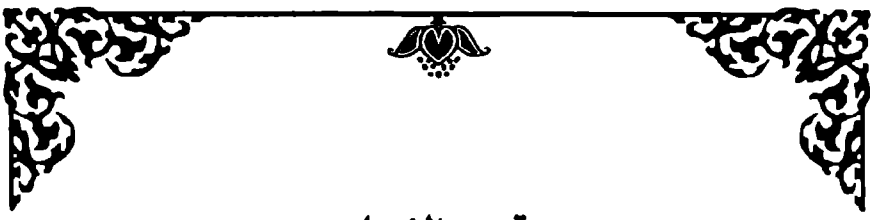

قسم النساء

أمهات المؤمنين

نساء رسول الله ﷺ الطاهرات، لهن مكان عظيم في الإسلام، ومقام كريم عند الله عزّ وجلّ، ومنزلة رفيعة لدى الأمّة، ولقد اختارهن الله عزّ وجلّ نساءً لأشرف خلقه ﷺ، وجعلهن زوجات له في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين إلى يوم القيامة، فمقامهن لا تدركه امرأة من هذه الأمّة مهما بلغت من الصلاح والفضيلة والتقوى إلا ما كان من بناته الطاهرات، وخاصة بضعته الطيبة الطاهرة مولاتنا فاطمة عليه وعليها وعلى باقي بناته وزوجاته أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وقد أكرم الله عزّ وجلّ هؤلاء الزوجات بذكرهن في القرآن الكريم في عدة آيات، فذكرهن في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ وهي نحو سبع آيات. كما ذكرهن في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وهن نحو خمس آيات أيضاً.

وذكرهن في السورة أيضاً مع بناته ونساء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾. ثم ذكرهن في سورة

التحريم بداية من أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

وفي كل موضع من هذه الآيات ذِكر أحكامٍ لهن أو لهن مع غيرهن كما يعرف من مضامنهن ومن كتب التفسير.

والذي يهمنا هنا هو آية التخيير وما ترتب عليها من فضائل ومناقب ومزايا لهن، وقد جاءت مبينة السبب ومشروحة في الجملة في الحديث التالي:

٤٠٨ ـ فعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم. قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً. قال: فقال: لأقولن شيئاً أُضحك النبيَّ ﷺ. فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأتُ عُنُقَها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «**هُنَّ حَولي كما ترى يَسْأَلْنَنِي النفقة**». فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قال: فبدأ بعائشة فقال: «**يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك**». قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيكَ يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: «**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إنَّ الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً، ولكن بعثني معلماً مُيَسِّراً**».

رواه مسلم في النكاح (١٠/٨٠/٨١) مع النووي. هكذا رواه بالاقتصار على قصة شأن النفقة ونزول آية التخيير.

(واجماً) أي: ساكتاً حزيناً. (فوجأتُ) بفتح الواو والجيم، أي: طعنتُ. «معنتاً متعنتاً» معناه: لم يبعثني الله تعالى إليكم معسراً ومشدداً عليكم وجالباً لما يشق على الناس.

٤٠٩ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبيِّ ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حجَّ عمر وحججت معه، فلمّا كنا ببعض الطريق عدل عُمرُ وعدلتُ معه بالإداوة فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين، مَن المرأتان من أزواج النبيِّ ﷺ اللتان قال الله عزَّ وجلَّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ قال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، هي حفصة وعائشة. ثم أخذ يسوق الحديث قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم. قال: وكان منزلي في بني أميَّة بن زيد بالعوالي، فتغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك، فوالله إنْ أزواج النبيِّ ﷺ لَيراجعنه وتهجرُهُ إحداهن اليوم إلى الليل. فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ فقالت: نعم. فقلت: أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب مَن فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمَنُ إحداكُن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكتْ، لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لكِ، ولا يَغُرَّنَّكِ أن كانت جارتك هي أوْسَمُ وأحَبُّ إلى رسول الله ﷺ منك ـ يريد عائشة رضي الله تعالى عنها ـ. قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ؛ فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أنَّ غسان تُنْعِلُ الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي ثم أتاني عِشاءً فضرب بابي ثم ناداني، فخرجت إليه فقال: حدث أمرٌ عظيم. قلت: ماذا؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلَّق النبيُّ ﷺ. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً.

حتى إذا صلّيت الصبح شَددت عليَّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في هذه الغرفة. فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتك له فصمت. فانطلقت حتى أتيتُ إلى المنبر، فجلست فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد، ثم أتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتك له فصمت. فولّيت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، فقد أذن لك. فدخلت فسلّمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكىء على رمل حصير قد أثّر في جنبه فقلت: أطلّقتَ يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ وقال: «لا». فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إنَّ أزواج النبيِّ ﷺ لَيراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب مَن فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذاً هي قد هلكت. فتبسَّم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرّنكِ أن كانت جارتك هي أوسم منك وأحب إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسَّم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم». فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُباً ثلاثة، فقلت: ادعُ الله يا رسول الله أن يوسع على أمّتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً ثم قال: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**». فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقْسَمَ أن لا يدخل عليهم شهراً من شدة موجِدَتِه عليهن حتى عاتَبهُ الله عزَّ وجلّ. قالت عائشة: لمّا مضى تسع وعشرون يوماً وليلة دخل عليَّ رسول الله ﷺ، بدأ بي، فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنك دخلت من

تسع وعشرين أعدُّهُنَّ. فقال: «**إنَّ الشهر تسع وعشرون**». ثم قال: «**يا عائشة، إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك**». ثم قرأ عليَّ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قالت عائشة، فذكرت مثل ما سبق.

رواه البخاري في التفسير (٢٨٣/١٠)، ومسلم في الطلاق (٩٤/٨٢/١٠)، والترمذي في التفسير (٣١٠٠) مطوَّلاً هكذا.

﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: مالت. قوله: (جارتك) أي: ضرتك وهي عائشة. (هي أوسم): أجمل منك. وقوله: (أُهُباً) بضمّتين: جمع إهاب، وهو الجلد.

ويلاحظ أنَّ هذه الرواية المطولة اشتملت على ثلاثة أحداث: **الأول**: قصة المتظاهرتين على النبيِّ ﷺ، **الثاني**: قصة مراجعة أمهات المؤمنين للنبيِّ ﷺ وما قاله عمر في شأن نساء قريش ونساء الأنصار في ذلك، **الثالث**: قصة التخيير ونزول الآية في ذلك، وفيها مهاجرته ﷺ لنسائه شهراً.

والمقصود هنا هو قصة التخيير وبيان ذلك في الآتي:

ذكر علماء التفسير والحديث أنَّ النبيَّ ﷺ لمّا أفاء الله تعالى عليه من مال بني النضير ما أفاء، وكانت له خاصة، كان ينفق منها على أهله نفقة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة للمسلمين، ولمّا جاءت الغنائم العامة كغنائم قريظة وغيرها وتوسع الصحابة وكان للنبيِّ ﷺ منها خمسه ورأى نساؤه وفرة المال حَسِبْنَ أنَّهُ يُوَسِّعُ في الإنفاق، فصار بعضهن يستكثرنه من النفقة كما يُفهم من قول عمر رضي الله تعالى عنه عن ابنته حفصة أم المؤمنين: لا تستكثري النبيَّ، ولا تراجعينه في شيء، وسليني ما بدا لك. مع قوله ﷺ: «**هنَّ حولي كما تَرَى يسألْنَنِي النفقة**». فلمّا صدر منهن ذلك انتصر الله تعالى لنبيِّه ﷺ الذي اختار له الآخرة على الدنيا، ونهاه عن النظر إلى زهرتها وبهجتها، فكان من المفروض أن يكون أزواجه

مثله في ذلك، ولذلك أنزل الله تعالى الآية الكريمة تخييراً لهن بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترن الله ورسوله ﷺ وما عند الله في الآخرة، فكنَّ بذلك أشرف نساء الأمّة وأكرمهن على الله، وجعلهن عزَّ وجلَّ زوجاتٍ له ﷺ في الدنيا والآخرة، ولمّا آثرن الله ورسوله والدار الآخرة على هذه الدنيا الزائفة أكرمهن الله تعالى بعدم تزوجه ﷺ عليهن بعد هذا التخيير حيث قال عزَّ وجلّ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ الآية.

وذلك؛ تشريفاً لهن وجزاءً منه عزَّ وجلَّ لهن مقدماً على ما تركن من الحياة والزهد فيما يطمح إليه غيرهن من النساء تبعاً له ﷺ وائتساء به في الصبر على مرارة الفقر وترك التوسع في الدنيا، كما سيأتي في الزهد إن شاء الله تعالى، وكما تقدَّم في الشمائل في حالة عيش النبيّ ﷺ وصفته.

٤١٠ ـ وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال: قيل لابن عباس بعد صلاة الصبح: ماتت فلانة. لبعض أزواج النبيّ ﷺ، فسجد، قيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: **«إذا رأيتم آية فاسجدوا»** فأيُّ آية أعظم من ذهاب أزواج النبيّ ﷺ.

رواه أبو داود في آخر صلاة الكسوف (١١٩٧) والترمذي في المناقب (٣٦٥٦) بتهذيبي بسند صحيح.

ماتت فلانة: كانت حفصة أو صفية، وفي الحديث بيان أنَّ موت الصالحين ومَن ترجى بركاتهم من الآيات التي يخوِّف الله بها عباده فينبغي عندئذ الالتجاء إلى الله بالصلاة والدعاء. ولا شكَّ أنَّ وجود نساء النبيّ ﷺ بين الناس كان فيه خير كثير وبركة عظيمة لأنهن بقايا من آثار النبوَّة، ولذلك سجد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لفقدان بركة تلك السيدة وحلول المصيبة بها. وقد تقدَّم ويأتي كثير من الأحاديث والقضايا المتعلقة بالنبيّ ﷺ ونسائه.

* * *

❀ مناقب خديجة بنت خُوَيْلِدٍ رضي اللّه تعالى عنها

هي خديجة بنت خُوَيلد القرشية الأسدية، زوج النبيّ ﷺ الأولى، السيدة الطاهرة، وأمها فاطمة بنت زائدة القرشية العامرية. كانت السيدة خديجة أيّماً قبل النبيّ ﷺ من زوجين؛ أولهما أبو هالة، ثم عتيق بن عائد، ثم خلف عليها رسول الله ﷺ برغبة منها، وكان أشراف أهل مكة يتمنون التزوج بها فتأبى، ولمّا تعرفت على أخلاق النبيّ ﷺ وأمانته وبركته وما نال من ربح وافر في تجارة له إلى الشام بمالها، رغبت في زواجه وعرضت نفسها عليه، فتزوجها ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي ابنة أربعين سنة، فقضى معها خمساً وعشرين سنة، ورزق منها كل بناته وولديه القاسم وعبدالله، وهو الطيب والطاهر.

وكانت أكمل أهل زمانها حسباً وشرفاً وأكثرهم مالاً وأحسنهم جمالاً، وكانت أول مَن آمن بالنبيّ ﷺ وصدقته وواسته بمالها وجاهها، ولمّا نزل الوحي على النبيّ ﷺ وجاءه جبريل عليه السلام وخاف على نفسه كانت تثبته وتهون عليه الأمر، وقالت له كما تقدَّم في حديث عائشة: والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصِلُ الرَّحِمَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق. وذكَّرَتْه بما عرفتْه منه من الخصال الحميدة، والأخلاق الكريمة، وكانت نِعْم المعين والمؤيد والناصر له ﷺ. وكان يحبها كثيراً ويحب أصدقاءها ويبرّهم ويهدي إليهم. ولمّا توفيت، وكان ذلك سنة عشر من البعثة وقبل الهجرة بثلاثة سنين، حزن عليها كثيراً وسمّى ذلك العام عام الحزن لأنه ﷺ فقدها وفقد معها عمّه أبا طالب الذي كان هو الآخر يدافع ويناضل عنه ويؤيده ويدفع عنه ما تريده قريش من المكر به ﷺ.

ولهذه السيدة الجليلة الطاهرة التي لها منزلة خاصة عندنا كما كانت عند النبيّ ﷺ مناقب وفضائل كما يتجلّى بعضها في الآتي:

٤١١ ـ فعن الإمام علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَيرُ نِسَائها مريمُ بنتُ عِمران، وخَيرُ نِسائها خَديجةُ بنتُ خُوَيلد**».

رواه البخاري (١٣٤/٨) ومسلم (١٩٨/١٥) كلاهما في المناقب والفضائل.

فالحديث يقتضي أنَّ خديجة خير نساء هذه الأمّة إطلاقاً، كما أنَّ مريم خير نساء بني إسرائيل.

٤١٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أتى جبريل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

رواه البخاري (١٣٨/٨) ومسلم (١٩٩/١٥) كلاهما في المصدرين السابقين.

والمراد بـ(القصب): اللؤلؤ والجوهر. و(البيت): القصر. و(الصخب) بفتحتين: الصوت المختلط المرتفع. و(النصب) بفتحتين: المشقة والتعب.

وفي هذا الحديث كسابقه منقبة وفضيلة لخديجة، ففيه **أولاً**: قراءة السلام عليها من الله تعالى ومن جبريل عليه السلام، وفيه **ثانياً**: بشارتها بالجنة وأن لها فيها بيتاً وقصراً خاصاً من اللؤلؤ والجوهر، وأنه ليس فيه أصوات مرتفعة ولا ضوضاء ولا فيه ما يدعو إلى التعب والإعياء.

٤١٣ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما غرت على امرأة للنبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشّرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيُهدِي في خلائلها منها ما يَسَعُهُنَّ.

وفي رواية: فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول: **«إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»**.

وفي رواية أخرى قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: **«أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»**. قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة! فقال رسول الله ﷺ: **«إني قد رُزِقْتُ حُبَّها»**.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٣٥/١٣٩)، ومسلم في الفضائل أيضاً (١٥/٢٠٠/٢٠١) بالرواية الأولى والثالثة، وشاركه البخاري في الأولى واختصّ بالثانية.

(خلائلها): جمع خليلة، أي: صواحبتها.

هذا من مناقبها ومن تمام محبة النبيّ ﷺ لها حيث كان يتعاهد أصدقاءها وصواحباتها بالهدايا، ولذلك قال لعائشة لمّا أكثرت عليه في شأنها: «**إني قد رُزقت حبها**».

ومن مناقبها أنه ﷺ لم يتزوج عليها قط حتى توفيت.

٤١٤ ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لم يتزوج النبيُّ ﷺ على خديجة حتى ماتت.

رواه مسلم (١٥/٢٠١).

٤١٥ ـ وعنها أيضاً قالت: استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك فقال: «**اللّهم هالة بنت خويلد**». فغِرتُ فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها.

رواه البخاري (٨/١٤٠) ومسلم (١٥/٢٠١/٢٠٢).

هكذا كان ﷺ يرتاح ويُسَرُّ بتَذَكُّرِ حَبيبته خديجة، وفي ذلك دليل لحسن عهده ﷺ وحفظ الودّ ورعاية حرمة الصاحب في حياته ووفاته.

وما صدر من عائشة في شأن خديجة من الغيرة ووصفها إياها بما لا يليق هو مِمَّا يُسَامَحُ فيه النساءُ لما جُبِلْنَ عليه من ذلك.

وقد جاء ما يدل على أنَّ النبيَّ ﷺ ردَّ على عائشة قولها هذا: فأبدله الله خيراً منها. فقال ﷺ: «**لا والله ما أبدلني خيراً منها، آمنتْ بي إذ كَفَر الناسُ، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حَرَمَني الناسُ، ورَزَقَنِي منها الله الولدَ دون غيرها من النساء**». قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسبة أبداً.

رواه أحمد (٦/١١٧/١١٨) والطبراني في الكبير (٢٣/١٣) بنحوه وسنده حسن.

وهذه فضائل ومزايا لا تُعرف لغير خديجة رضي الله تعالى عنها، ولذلك كانت أفضل نساء هذه الأمّة، بل هي إحدى النساء الأربع اللائي هنَّ أفضل نساء أهل الجنة، كما في الحديث التالي:

٤١٦ ـ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل نساءِ أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**».

رواه أحمد رقم (٢٦٦٨/٢٩٠٣/٢٩٦٠)، وأبو يعلى (٢٧٢٢)، والطبراني في الكبير (١١٩٢٨) وسنده صحيح، وتقدّم.

واختلف العلماء في المفاضلة بين مولاتنا خديجة وسيدتنا فاطمة عليهما السلام، فالجمهور على أنَّ فاطمة أفضل. قال السبكي: الذي نختاره وندين الله تعالى به أنَّ فاطمة عليها السلام أفضل، ثم خديجة أفضل، ثم عائشة... وذلك لما جاء في حديث آخر أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر بأنها سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم.

* * *

❀ مناقب سودة بنت زمعة رضي اللّه تعالى عنها

هي بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية أمها الشموس بنت قيس الأنصارية النجارية. كانت تحت السكران بن عمرو ابن عمّها، فآمنت بالنبيّ ﷺ هي وزوجها، وكانا من السابقين فهاجرا إلى الحبشة، ولمّا قدما من المَهْجَر تُوفي زوجُها فتزوجها النبيُّ ﷺ، وكانت أول امرأة تزوجها وبنى بها بعد موت خديجة بشهر، وبقيت تحت عصمته وهاجرت معه، وفي آخر أيامها أعطت نوبتها لعائشة، وتوفيت آخر خلافة عمر رضي الله تعالى عنهما، ودفنت في البقيع، وقد تقدَّم في السيرة بعض كلام

عليها وعلى تزوجها بالنبيِّ ﷺ تحت رقم (١٠٦). لها آثار وفضل وذكر في السنّة.

٤١٧ ـ وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما من الناس أحد أحبُّ إليَّ أن أكون في مِسْلاخِهِ من سودة، إنْ بها إلاَّ حِدَّةٌ فيها. قالت: فلمّا كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلت يومي منك لعائشة. فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين، يومها ويوم سودة.

رواه مسلم في الرضاع (٤٩/٤٨/١٠).

وقولها: (مسلاخه) أي: جلده.

٤١٨ ـ وعنها قالت: استأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة أن تدفع قبله، وكانت ثبطة ـ تعني ثقيلة ـ فأذن لها.

رواه البخاري (٢٧٧/٤) ومسلم (٣٩/٣٨/٩) كلاهما في الحج، وتقدَّم فيه.

ففي الحديث تشريع النزول إلى منى ليلة المزدلفة للضعفة... وكان ذلك بسبب سودة رضي الله تعالى عنها كما قيل.

وكانت أيضاً السبب في خروج النساء لحاجتهن.

٤١٩ ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: خرجت سودة رضي الله تعالى عنها بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على مَن يعرفها، فرآها عمر رضي الله تعالى عنه فقال: يا سودة إنك والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين. فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه لَيتعشى وفي يده عِرقٌ، فدخلتْ وقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا. فأُوحي إليه، ثم رُفِع عنه وإنَّ العِرْقَ في يده، فقال: **«إنه قد أُذِنَ لَكُنَّ أن تَخرجْن لحاجتكن»**.

رواه البخاري في التفسير (١٥٠/١٠) ومسلم في السلام (١٥٢/١٥٠/١٤)، وانظر ما سبق في التفسير من سورة الأحزاب تحت آية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الآية.

فكان خروجها وقول عمر لها ورجوعها مباركاً على النساء حيث أذن لهن بالخروج لحوائجهن. ومن فضلها تنازلها عن حقها للسيدة عائشة بعد أن أسنّت.

٤٣٠ ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يُفَضِّلُ بعضاً على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قَلَّ يومٌ إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة مِن غير مسيسٍ حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيبيت عندها، ولقد قالت سودةُ بنتُ زمعة حين أسَنَّتْ وفَرِقَتْ أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة. فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها. قالت: نقول: في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها أُراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ الآية.

رواه أبو داود (٢١٣٥)، والحاكم (١٨٦/٢)، والبيهقي (٧٤/٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأصله في الصحيحين.

٤٣١ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خشيت سودة أن يطلّقها النبيُّ ﷺ فقالت: لا تطلّقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة. ففعل، فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

رواه الطيالسي (٢٦٨٣)، والترمذي (٢٨٤٤)، والبيهقي (٢٩٧/٧) وحسّنه الترمذي وصححه وهو عنده على شرط مسلم.

فهذا من بركتها وفي ذلك فضل لها. وانظر حكم الآية فيما سبق في الطلاق.

ولها أخبار مع النبيِّ ﷺ، ذكر بعضها الحافظ في الإصابة.

* * *

❀ مناقب عائشة بنت الصدِّيق رضي اللَّه تعالى عنها

هي عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر التيمي القرشية الصدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبة رسول الله ﷺ، وسيدة أمهات المؤمنين بعد خديجة. ولدت في الإسلام بعد مبعث النبيِّ ﷺ بأربع سنين أو خمس، تزوجها النبيُّ ﷺ وعقد عليها بعد موت خديجة وبنائه بسودة بشهر وسنّها ست سنوات، ودخل بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين، وتوفي عنها النبيُّ ﷺ وعمرها ثمان عشرة سنة، وقد تقدَّم في السيرة رقم (١٠٦) مَن كان السبب في تزوجه بها مع قضاء الله تعالى.

وكانت أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة، كما قال عطاء بن أبي رباح، وقال ابن أختها عروة بن الزبير: ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر من عائشة. وقال مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض. وكان مسروق إذا حدَّث عنها قال: حدثتني الصادقة ابنة الصدِّيق، حبيبة حبيب الله تعالى. وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً.

رواه الترمذي (٣٦٤٥) في المناقب بسند صحيح.

وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل. كذا في الإصابة. روت عن النبيِّ ﷺ ألفين ومائتي حديث وعشرة أحاديث، فهي تعدُّ في الدرجة الرابعة من مكثري الصحابة من الرواية.

ولها فضائل ومناقب جمَّة قلَّ نظيرها في أمهات المؤمنين غير خديجة رضي الله تعالى عنها، ونجمل ذلك في الآتي:

٤٢٢ ـ فعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أُريتك في المنام ثلاث ليالٍ جاءني بكِ الملَكُ في سَرَقَةٍ من حرير فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنتِ هي، فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يُمْضِه»**. وفي رواية

إنَّ جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبيِّ ﷺ فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

رواه البخاري (٢٢٥/٨) ومسلم (٢٠٢/١٥) كلاهما في الفضائل بالرواية الأولى، ورواه الترمذي في المناقب (٣٦٤٣) بالرواية الثانية وسنده حسن صحيح.

ففي الحديث منقبة لها حيث إنَّ الله عزَّ وجلَّ أراها إياه وأخبره على لسان جبريل بأنها زوجته في الدنيا والآخرة، وهذه خصيصة لا تُعرف لغيرها على هذا النمط.

وقوله: «**في سرقة من حرير**» هي بفتح السين والراء: هي الشقق البيض من الحرير، ولا تنافي بينها وبين رواية: «**في خرقة**»، فهي هي.

٤٢٣ ـ وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، هذا جبريل وهو يقرأ عليكِ السلام**». قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، ترى ما لا نرى.

رواه البخاري (١٠٣/٨)، ومسلم (٢١٢/٢١١/١٥)، والترمذي (٣٦٤٤) كلهم في المناقب.

وهذه منقبة أخرى، فجبريل عليه السلام يأتي النبيَّ ﷺ وعائشة عنده فيحييها بالسلام بواسطة النبيِّ ﷺ، فتردّ عليه السلام هي الأخرى من غير أن تراه، فقد شاركت خديجة في سلام جبريل عليها، لكن خديجة اختصت عنها بسلام الله عليها.

٤٢٤ ـ وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُل من النساء إلا مريمُ بنتُ عِمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

رواه البخاري (١٠٧/٨) ومسلم (١٩٩/١٩٨/١٥) كلاهما في المناقب والفضائل.

قوله: «**كمل من الرجال**»: المراد بالكمال المتناهي في جميع الفضائل وخصال البرّ والتقوى والدين، وهو يدلُّ على أنَّ الكمال في النساء قليل، ومن الكاملات ما ذكر في الحديث مثل مريم وآسية. وقوله: «**وفضل عائشة على النساء...**» إلخ. يقتضي أنها أفضل النساء على الإطلاق، وليس كذلك، فالجمهور على أنها بعد خديجة في التفضيل.

قال الحافظ في الفتح: قال السبكي الكبير: الذي ندين الله تعالى به أنَّ فاطمة أفضل، ثم خديجة، ثم عائشة، والخلاف شهير، ولكن الحق أحق أن يُتَّبع. وقال ابن تيمية: جهات الفضل بين خديجة وعائشة متقاربة. وكأنه رأى التوقف. وقال ابن القيم: إن أُريدَ بالتفضيل كثرة الثواب عند الله تعالى فذاك أمر لا يطلع عليه، فإنَّ عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح، وإن أريدَ كثرة العلم فعائشة لا محالة، وإن أريدَ شرف الأصل ففاطمة لا محالة، وهي فضيلة لا يشاركها فيها غير أخواتها، وإن أريدَ شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها. قلت: وهو تفصيل حسن وجيه. قال الحافظ: امتازت فاطمة على أخواتها بأنهن مُتْنَ في حياة النبيِّ ﷺ، وأما ما امتازت به عائشة من فضل العلم فإنَّ لخديجة ما يقابله وهي أنها أول مَن أجاب إلى الإسلام ودعا إليه وأعان على ثبوته بالنفس والمال والتوجه التام، فلها مثل أجر مَن جاء بعدها ولا يقدر قدر ذلك إلا الله. وقيل: انعقد الإجماع على أفضلية فاطمة وبقي الخلاف بين عائشة وخديجة.

ومن مناقبها العظيمة زيادة محبة من النبيِّ ﷺ لها كما يتضح في الآتي:

٤٢٥ ـ فعن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ استعمله على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**». قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**».

رواه البخاري (٢٢/٨)، ومسلم (١٥٣/١٥)، والترمذي (٣٦٤٧) كلهم في المناقب.

عمرو بن العاص لمّا استعمله النبيُّ ﷺ ظنَّ أنه أحب الناس إلى

رسول الله ﷺ، فلمّا سأل النبيّ ﷺ عن ذلك أمسك وعرف أنه ليس كما ظن، كما جاء في رواية أخرى مفسّرة عنه.

والحديث يقتضي أنَّ لهذه السيدة محبة خاصة عند النبيّ ﷺ كأبيها رضي الله تعالى عنهما.

٤٢٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بها أو يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: إنَّ نساء رسول الله ﷺ كنَّ حزبين: فحزب فيه عائشة، وحفصة، وصفية، وسودة. والحزب الآخر: أمُّ سلمة، وسائر نساء[1] رسول الله ﷺ. وكان المسلمون قد علموا حبَّ رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أم سلمة فَقُلْن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلّم الناس فيقول: مَن أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية فلْيُهْدِها إليه حيث كان من بيوت نسائه. فكلمته أم سلمة بما قُلنَ لها فلم يقُل لها شيئاً، فسألْنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: فكلميه. قالت: فكلمته حين دار إليها أيضاً فلم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلميه حتى يكلمك. فدار إليها فكلمته فقال لها: **«لا تؤذيني في عائشة، فإنَّ الوحي لم يأتِني وأنا في ثوب امرأةٍ إلا عائشة»**. قالت: فقالت: أتوب إلى الله تعالى من أذاك يا رسول الله. ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إنَّ نساءك يَنْشُدْنَكَ الله العدل في بنت أبي بكر. فكلمته فقال: **«يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟»** قالت: بلى. فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه. فأبت أن ترجع، فأرسلن زينب بنت جحش، فأتته فأغلظت وقالت: إنَّ نساءك يَنْشُدنك الله العَدْلَ في بنت ابن أبي قحافة.

---

(١) وهن أم حبيبة، وزينب بنت جحش، وجويرية، وميمونة، رضي الله تعالى عنهن جميعاً.

فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسَبَّتْها حتى إن رسول الله ﷺ لَينظر إلى عائشة هل تَكَلَّمُ؟ قال: فتكلمت عائشة تردُّ على زينب حتى أسكتتْها. قالت: فنظر النبيُّ ﷺ إلى عائشة وقال: «**إنها بنت أبي بكر**».

وفي رواية قالت: أرسل أزواج النبيِّ ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطِي فأذن لها فقالت: يا رسول الله، إنَّ أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدلَ في ابنة أبي قحافة. وأنا ساكتةٌ. قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: «**أي بُنَيَّة، ألستِ تحبين ما أحب؟**» فقالت: بلى. قال: «**فأحبي هذه**». قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبيِّ ﷺ فأخبرتْهُن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ فقُلْنَ لها: ما تُراكِ أغنيتِ عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إنَّ أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً. قالت عائشة: فأرسل أزواج النبيِّ ﷺ زينب بنت جحش زوج النبيِّ ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها تسرع منها الفيئة. قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مِرْطِها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. قالت: ثم وقعت بي فاستطالت عليَّ وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها. قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أنَّ رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر. قالت: فلمّا وقعتُ بها لم أنشَبْها حتى أنْحَيْتُ عليها. قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسّم: «**إنها ابنة أبي بكر**». وفي رواية: فلمّا وقعت بها لم أنشبها أن أثْخَنْتُهَا غلبةً.

رواه بالرواية الأولى البخاري في الهبة (١٣٠/٦) ومسلم (٢٠٥/١٥) في المناقب والفضائل. ورواه بالثانية البخاري في الهبة أيضاً (١٣٣/٦). وبالثالثة مسلم (٨٥/٢٠٥/٢٠٦/٢٠٧). وهناك رواية أخرى رواها البخاري في الفضائل (١١٠/٨).

وقولها: (لم أنشبها) أي: لم أمهلها. وقولها: (أنحيت) أي: قصدتها بالمعارضة. وقولها: (أثخنتها) أي: قمعتها وقهرتها. وقولها: (استطالت عليّ) أي: وقعت بي ونالت مني بالوقيعة.

وفي هذا الحديث بجميع رواياته فوائد وأحكام:

منها: عدم الحرج في ميل الرجل لبعض نسائه أكثر من الباقي لأن المحبة ليست من طاقة الإنسان فلا يجب فيها العدل بالإجماع.

ثانياً: فيه ما جُبل عليه النساء من الغيرة حتى يصدر منهن ما هو منكر في الشرع لكن الله عزَّ وجلّ يسامحهن في ذلك.

ثالثاً: فيه ما كان عليه نساء النبيّ ﷺ من التحزب والافتراق.

رابعا: فيه ما كان عليه الأنصار رضي الله تعالى عنهم من الهدايا إلى رسول الله ﷺ وكان المعروفون بذلك: السَّعْدَيْن؛ سعد بن عبادة وسعد بن مُعاذ، وعمارة بن حزم، وأبا أيوب، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله ﷺ.

خامساً: كانوا يتحرون ليلة عائشة رضي الله تعالى عنها لأنهم كانوا يعلمون شدة محبته لها، فكانوا يتقربون إلى رضاه بذلك.

سادساً: ما فعله أمهات المؤمنين من إرسال أم سلمة وفاطمة وزينب يسألن النبيّ ﷺ العدل في عائشة دليل على أنَّ رأي النساء ليس بسديد وإلا كيف يتصور من النبيّ ﷺ أو غيره أن يملك محبة شخص أو بغضه، لأن ذلك ليس في ملكه ولا قدرته، كما أنه ليس من الأخلاق الكريمة أن يقول النبيُّ ﷺ لأصحابه: سؤوا في الهدية بين نسائي ولا تخصُّوا بيتَ عائشة دون باقي البيوتات.

سابعاً: فيه منقبة عظيمة لعائشة رضي الله تعالى عنها حيث كان النبيُّ ﷺ يحبها محبة خاصة حتى شعر بذلك نساؤه بل الصحابة خارج بيوته، ويؤكد هذه المحبة قوله لأم سلمة رضي الله تعالى عنها: «**لا تؤذيني في عائشة**». فجعل ﷺ مطلق ما طلبه منه نساؤه إذاية له لأن فيه مَسّاً بحبيبته الخاصة. وكذلك قوله لبضعته الطاهرة عليها السلام: «**ألستِ تُحِبّين ما أحِبُّ... فأحِبّي هذه**».

٤٢٧ ـ وعن عَمْرو بن غالب أنَّ رجلاً نال من عائشة عند عمار بن ياسر، قال: أُغرب مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ.

رواه الترمذي (٣٦٤٩) وحسّنه وصححه.

فهذا عمار يسبُّ مَن نال من عائشة وتكلم فيها، مع أنَّ عماراً كان في صفِّ الإمام علي ضد مَن كان في صفِّ عائشة.

فكل ذلك يدلُّ على عظيم منزلة عائشة عنده ﷺ، ولذلك كان في مرضه الذي توفي فيه يسأل: «**أين أنا غداً؟**» فلمّا عرف نساؤه أنه يريد ليلة عائشة حملنه إليها فارتاح لذلك فتوفي عندها بين سحرها ونحرها، كما تقدَّم آخر السيرة.

ولمحبته لها كان يوافقها على ما تهواه من المباح كإذنه لها في رؤية الحبشة وهم يلعبون في المسجد، وإذنه لها في رؤية السوداء التي كانت تضرب بالدف وتغني، كما يأتي ذلك في الأدب، ومن ذلك الحديث التالي:

٤٢٨ ـ فعنها قالت أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، قالت: وكانت تأتيني صواحبي، فكن يَنْقَمِعْنَ من رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إليَّ.

رواه مسلم (٢٠٤/١٥) ويأتي في الأدب.

(ينقمعن) أي: يتغيبن حياءً منه. (يُسَرِّبُهُنَّ) أي: يرسلهن.

وهذا من تلطفه بها وحسن معاشرته ﷺ.

ومن مناقبها في ذلك ما جاء في حديث أم زرع وقوله ﷺ لها: «**كنت لكِ كأبي زرع لأم زرع**». غير أنه طلّق وهو ﷺ لم يطلّق، وسيأتي حديث أم زرع في الأدب، إن شاء الله تعالى.

ومن مناقبها ما قاله عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عند وقعة الجمل.

٤٢٩ ـ فعن أبي وائل قال: لمّا بعث عليٌّ عماراً والحسن إلى الكوفة لِيَسْتَنْفِرَهُم خطب عمارٌ فقال: إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله تعالى ابتلاكم لتتبعوه أو إياها.

رواه البخاري في الفضائل (٨/١٠٨)، وأحمد (٤/٢٦٥)، والترمذي (٣٦٥٠) في المناقب.

(ليستنفرهم) أي: يطلب منهم النفار لقتال معارضي الإمام علي.

فالحديث نص في أنَّ عائشة زوجة النبيِّ ﷺ في الدنيا والآخرة، وقد تقدَّم مثله عنها رقم (٤٢٢).

وقول عمار: (ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها) معناه أنَّ الله امتحنكم بهذه المصيبة في كون عائشة حبيبة رسول الله ﷺ وزوجته في الدنيا والآخرة أصبحت من رؤساء الجيش لينظر تعالى هل تتبعوه في طاعة إمام الحق، وهو الإمام علي، أو تتبعوا عائشة ومَن معها فتقاتلوا معها.

وهذا من إنصاف عمار رضي الله تعالى عنه وفضله وورعه، فلم يحمله محاربة جيش عائشة على الطعن فيها والنيل منها كما كان يفعل بعض الخوارج وغلاة الشيعة.

وقصة وقعة الجمل لعلها تأتي مبسوطة في حديث أبي بكرة: «**لن يُفلِح قوم ولّوا أمرهم امرأة**» من كتاب الفتن، مع بيان ما حصل في ذلك لعائشة وأنها كانت في خروجها متأولة هي وطلحة والزبير، فكان مرادهم إيقاع الصلح بين الناس وأخذ القصاص من قتلة عثمان، وكان رأيُ عليٌّ

الاجتماع على الطاعة وطلب أولياء المقتول القصاص ممَّن يثبت عليه القتل، فوقع ما وقع كما يأتي في الكتاب المشار إليه. وكما تقدم في المعجزات.

ومن مناقبها ما حصل لها مع ابن الزبير، وما أعتقت من الرقاب، وما بكت على ما صدر منها.

٤٣٠ ـ فعنها رضي الله تعالى عنها قالت: إنَّ عبدالله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها. فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم. قالت: فوالله عليَّ نَذْرٌ أن لا أكلم ابن الزبير أبداً. فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة فقالت: لا والله، لا أُشَفِّع فيه أبداً، ولا أتحنَّث إلى نذري. فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مَخْرمَة وعبدالرحمٰن بن الأسود بن عَبْد يَغُوثَ، وهما من بني زُهْرة، وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتُماني على عائشة، فإنها لا يَحلُّ لها أن تَنذُرَ قطيعتي. فأقبل به المسور وعبدالرحمٰن مُشْتَمِلَين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلُّنا؟ قالت: نعم، ادخلوا كلكم. ولا تعلم أنَّ معهما ابن الزبير، فلمّا دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة وطفق يُناشِدُها، وطفق المسور وعبدالرحمٰن يناشدانها إلا ما كلَّمته وقبلت منه ويقولان: إنَّ النبيَّ ﷺ نهى عمّا قد علمتِ من الهجرة: «**فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ**». فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتَّحْرِيج طفقت تذكرهما وتبكي وتقول: إني نذَرتُ والنذرُ شديدٌ. فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تَبُلَّ دموعها خِمارَها.

وفي رواية: فأرسل إليها بعشر رقاب فأعتقتهم، ثم لم تزل تعتقهم حتى بلغت أربعين فقالت: وددت أني جعلت حين حلفت عملاً أعمله فأفرغ منه. قال عروة بن الزبير: كان عبدالله بن الزبير أحب البشر إلى عائشة بعد النبيِّ ﷺ وأبي بكر، وكان أبرَّ الناس بها، وكانت لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله تصدقت، فقال ابن الزبير: ينبغي أن يؤخذ على يديها . . . إلخ.

رواه البخاري بالرواية الأولى في الأدب باب الهجرة رقم (٦٠٧٣) وبالرواية الثانية في مناقب قريش رقم (٣٥٠٥).

عبدالله بن الزبير بن العوام، أمه أسماء بنت أبي بكر، كان أول مولود ولد بالمدينة وفرح المسلمون بميلاده، وتوفي النبيُّ ﷺ وله عشر سنوات، وكان صوّاماً قوّاماً، كما قال عبدالله بن عمر، وقام ضد مروان فاستولى على الحرمين، ثم لمّا ولي عبدالملك وقعت له معه معارك ووقائع، ثم بعث إليه الحجاج فحاربه إلى أن ألجأه إلى الحرم، فكان يقاتل ويتقي به إلى أن انهزم فأُخِذَ وصُلِبَ وقُطِع رأسُه، وكان ذلك سنة (٧٣). وسيأتي ما حصل لوالدته أسماء مع الحجاج في ترجمتها.

وفي أيام خلافته نال من خالته السيدة عائشة وهَدَّدها بالتحجير عليها فنذرت أن لا تكلمه أبداً حتى وقع ما ذكر في الحديث من استشفاع ابن الزبير بأولئك الأقارب وهجومه عليها وهي في حجابها، فرضيت عليه وكلمته لكنها لورعها وخشيتها من الله تعالى كانت قلّما تذكّرتْ نذرها إلا بكت، وذلك من فضلها وخوفها من انتهاك حدود الله.

واستُشْكِل هِجرانُها لابن أختها ابن الزبير، وكان أحبَّ الناس إليها وأبرُّهم بها مع تحريم الهجران والمقاطعة فوق ثلاثة أيام، فلعلها والله تعالى أعلم رأتْ تجرؤه على ما قال فيها من انتهاك حرمة من حرمات رسول الله ﷺ لأنها زوجته وحرمته وحبيبته، وذلك في حقها مما يؤذي الله ورسوله، وفاعل ذلك يستحق التأديب ومنه الهجران كما فعل النبيُّ ﷺ بكعب بن مالك وصاحبَيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فقاطعهم وأمر الصحابة بمقاطعتهم تأديباً لهم حتى تابوا وندموا، فأنزل الله توبتهم بعد خمسين يوماً من هجرانهم، فهذا والله أعلم كان مستندها ويحتمل أمرُها غير ذلك من اجتهادها، ولا يُظَنُّ بها أنها خالفت أمر الله وعصت الرسول في النهي عن الهجران مع علمها بذلك، ولذلك كانت مصرَّة على الوفاء بنذرها، ولكنها لمّا رأت ابن الزبير تاب وندم وبكى على ما قال كلمته.

هذا وكما كان النبيُّ ﷺ يحبها ويؤثرها على سائر نسائه في ذلك،

كذلك كانت هي الأخرى تبادله الحب، والحديثان التاليان يدلان على ذلك.

٤٣١ ـ فعنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غَضْبَى»**. قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: **«أمّا إذا كنتِ عني راضيةً فإنك تقولين: لا ورَبّ محمد. وإذا كنتِ غَضْبى قلتِ: لا ورَبّ إبراهيم»**. قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهْجُرُ إلا اسْمَك.

رواه البخاري في النكاح باب غَيْرَةِ النساء رقم (٥٢٢٨) ومسلم في الفضائل (٢٠٣/١٥).

هذه المغاضبة هي من جملة الغيرة التي يسامح فيها النساء، وذلك من فرط محبة الزوجة لزوجها، ولذلك قالت السيدة هنا: لا أهجر إلا اسمك. ومعناه أنَّ قلبها ملآن بحبِّه ﷺ وإن هجرت اسمه وغضبت عليه.

٤٣٢ ـ وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتَنْظُرِينَ وأنْظُرُ؟ قالت: بلى. فركبت عائشة على بعير حفصة وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلَّم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدتْه عائشة فغارت، فلمّا نزلوا جعلتْ تَجْعَل رِجلها بين الإذخر وتقول: يا ربّ، سلّط عليَّ عقرباً أو حية تَلْدَغُني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً.

رواه البخاري في النكاح باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً (٥٢١١) ومسلم في الفضائل (٢١٠/١٥).

فالذي حمل السيدة على طلبها من الله عقرباً أو حية تلدغها ـ وذلك محرّم ولا يجوز ـ هو الغيرة وعظيم محبتها للنبيِّ ﷺ لأنها فقدته، ولذلك قالت: رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً.

ولهذه السيدة خصائص امتازت بها عن باقي أمهات المؤمنين: خطبها رسول الله ﷺ وهي بنت ست أو سبع، وأتاه الملَك بصورتها لينظر إليها، وبنى بها لتسع سنين، ورأت جبريل وسلَّم عليها، وكانت أحب أمهات المؤمنين إلى رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكراً غيرها، ولا امرأة أبويها مهاجرين غيرها، وكان الوحي ينزل على النبيّ ﷺ وهو معها في لحافها، وكان يصلّي وهي معترضة بين يديه، ومرَّضَتْهُ ومات عندها بين سحرها ونحرها وفي ليلتها، ودفن في بيتها. ولعل في طليعة هذه الخصائص نزولَ القرآن ببراءتها مما رُميت به.

وجاء في صحيح البخاري عنها أنها أوصت عبدالله بن الزبير فقالت له: لا تدفني معهم ـ تعني النبيَّ ﷺ، وأبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ـ وادفني مع صواحبي بالبقيع.

توفيت رضي الله تعالى عنها في رمضان سنة ثمان وخمسين، ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن.

* * *

❀ مناقب حفصة بنت عمر رضي اللَّه تعالى عنهما

هي حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية، أم المؤمنين، إحدى صواحب عائشة رضي الله تعالى عنها، أمها زينب بنت مظعون. كانت تحت خُنَيْس بن حذافة، شهد بدراً فتوفي عقب قدومه منها بالمدينة فتأيَّمَتْ منه، فلمّا انقضت عدتها عَرَضَها عمر على عثمان بعد موت زوجته رقية فلم يفعل، ثم عرضها على أبي بكر فسكت ولم يُجِبه، ثم خطبها منه النبيُّ ﷺ فتزوجها في السنة الثالثة وبنى لها بيتاً بجوار بيت عائشة لجهة القبلة، وراجع السيرة رقم (٢٤٨).

وكانت أسنّ من عائشة بنحو من تسع سنوات، وكانت كثيرة الصيام والقيام، وهي إحدى المتظاهرتين على النبيّ ﷺ المذكورتين في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ الآية.

وقد قدّمنا في كتاب النكاح رقم (٩٣٩) من حديث عمر أنَّ النبيّ ﷺ طلّق حفصة ثم راجعها، وهو حديث صحيح رواه أهل السنن غير الترمذي.

والحديث ورد عن جماعة، عن: قيس بن زيد، وعمار بن ياسر، وأنس بن مالك، وفيه عندهم زيادة.

٤٣٣ ـ فحديث قيس رواه الطبراني في الكبير (٣٦٥/١٨) والحاكم (١٥/٤) بلفظ: إنَّ رسول الله ﷺ طلّق حفصة تطليقة فأتاها خالاها عثمان وقدامة ابنا مظعون، فقالت: والله ما طلّقني عن شبع. فجاء النبيُّ ﷺ فدخل فتجلببت، فقال النبيُّ ﷺ: «**أتاني جبريل عليه السلام فقال: راجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وإنها زوجتك في الجنة**».

قال النور في المجمع (٢٤٥/٩): ورجاله رجال الصحيح غير أنَّ في سنده إرسالاً ووهماً، فإنَّ عثمان بن مظعون توفي قبل تزوج حفصة، لكن معنى الحديث بجميع جمله صحيح. أما حديث عمار فرواه البزار (٢٦٦٨) والطبراني في الكبير (١٨٨/٢٣)، وحديث أنس رواه الطبراني في الأوسط (١٥١) وأبو يعلى (١٠٦٠) ولفظهما بنحو حديث قيس، فقد اتفقوا كلهم على رجعتها، وأنها صوّامة قوّامة، وأنها زوجته في الجنة، وفي ذلك منقبة لها رضي الله تعالى عنها.

ومن خصائصها كعائشة أنها بنت ثاني الخلفاء الراشدين، وأنها عاشت مع النبيّ ﷺ حتى توفي. ومن خصائصها أنَّ أباها عُمَر وعمَّها زيد بن الخطاب، وأخوالها عثمان وقدامة وعبدالله، وابن خالها السائب بن عثمان، كلهم شهدوا بدراً.

ومن مناقبها أنها كانت من السابقات إلى الإسلام ومن المهاجرات مع مَن هاجر.

ومن مناقبها أنَّ القرآن الذي جمعه الصدّيق في الصحف كان أوصى به إلى عمر، وعمر أوصى به إلى حفصة، فكان عندها حتى استعاره منها

الخليفة الثالث عثمان رضي الله تعالى عنه عند إرادته جمع القرآن أيام خلافته.

توفيت رضي الله تعالى عنها بالمدينة ودفنت مع نساء النبيّ ﷺ بالبقيع عام خمسة وأربعين أيام ولاية معاوية.

* * *

❀ مناقب زينب بنت خزيمة رضي اللّه تعالى عنها

هي بنت خزيمة بن عبدالله الهلالية، أم المؤمنين، زوج النبيّ ﷺ، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، كانت تحت الطفيل بن الحارث بن المطلب، ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث، وقيل: كانت تحت عبدالله بن جحش أحد السابقين، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد بدراً ثم استشهد بأُحد، فخطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها في رمضان سنة ثلاث، وبَنَى بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر، وبنى لها بيتاً ملصقاً ببيت عائشة لجهة الشرق.

ولم تُقِم مع رسول الله ﷺ إلا بضعة أشهر فماتت في حياته، وهي أول نسائه موتاً بعد خديجة رضي الله تعالى عنهما.

ومن مناقبها أنها كانت تتصدق كثيراً وتطعم المساكين حتى إنها كان يقال لها: أم المساكين.

٤٣٤ ـ قال الزهري رحمه الله تعالى: تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية وهي أم المساكين، سمِّيت بذلك لكثرة إطعامها المساكين.

رواه الطبراني في الكبير (٢٤/٥٧)، قال النور في المجمع (٩/٢٤٨): ورجاله ثقات. ونحوه عن ابن إسحاق، ورواه الطبراني أيضاً (٢٤/٥٨) ورجاله ثقات.

توفيت في ربيع الأخير سنة أربع.

* * *

❀ مناقب أم سلمة رضي اللّه تعالى عنها

هي هند بنت أبي أميّة بن المغيرة القرشية المخزومية، أم المؤمنين، أم سلمة. كان أبوها يلقب: زاد الراكب، لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل كان يكفي رفقته من الزاد. وأمها عاتكة بنت عامر الكنانية.

وكانت تحت ابن عمّها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فأسلمت معه قديماً، فكانا من السابقين، وهاجرا إلى الحبشة، وولد لهما بها سَلَمَةُ، ثم رجعا إلى مكة فهاجر أبو سلمة إلى المدينة ومنع أمّ سلمة أهلُها بنو مخزوم، ووقعت لها بسبب ذلك محنةٌ، ثم سمحوا لها بالخروج فهاجرت وحدها مع ولدها سلمة ورافقها في سفرها الرجل الصالح النادر الوجود عثمان بن طلحة، وكان لا يزال كافراً ثم أكرمه الله بالإسلام والموت شهيداً رضي الله تعالى عنه، وانظر قصة هجرتها مطولة مبسوطة فيما سبق في السيرة رقم (١٢٨). وكانت أول امرأة هاجرت إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة، ويقال: شاركتها في هذه الأولية ليلى امرأة عامر بن ربيعة.

ولمّا قدمت المدينة على زوجها ولد لهما بها: عُمَر، ودُرَّة، وزينب. وتوفي زوجها مِنْ جراء جراحات أصابته بأُحد، ولمّا انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردّته، ثم خطبها النبيُّ ﷺ فاعتذرت له لكبرها وغيرتها وصبيانها، فأجابها عن كل ذلك فتزوجته، وكان ذلك في جمادى الأخرىٰ سنة أربع. كذا في الإصابة وعند ابن سعد في طبقاته (٨٧/١) والحاكم أنّ أبا سلمة توفي في جمادى الأخرى وتزوجها رسول الله ﷺ في شوال. وقد جاء في خطبة النبيِّ ﷺ لها روايات.

فمنها ما جاء عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللّهم أجُرْني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها. إلا أخلف الله له خيراً منها»**. قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها فأخلف الله لي

رسول الله ﷺ. قالت: أرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت: إنَّ لي بنتاً وأنا غيور. فقال: «**أما بنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة**».

رواه مسلم (٦/٢٢٠/٢٢١)، وأبو داود، وابن ماجه، وانظر ما سبق في التفسير للآية.

وفي رواية عنها قالت: لمّا انقضت عدة أم سلمة خطبها أبو بكر فلم تتزوجه، فبعث النبيُّ ﷺ يخطبها عليه فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيرى، وإني امرأة مصبية وليس أحد من أوليائي شاهداً. فقال: «**قل لها: أما قولك: غيرى، فسأدعو الله فتذهب غيرتك، وأما قولك: إني امرأة مَصْبِيَة، فسلي صبيانك، وأما قولك: ليس أحد من أوليائي شاهداً، فليس أحد من أوليائك شاهداً أو غائباً يكره ذلك**». فقالت لابنها عمر: قُمْ، فزوِّج رسول الله ﷺ. فزوَّجه.

رواه النسائي بسند صحيح، كذا عزاه إليه الحافظ.

والذي رأيته في السنن الكبرى ج(٥/٢٩٣) قالت: لمّا وضعت زينب جاءني النبيُّ ﷺ فخطبني فقلت: ما مثلي يُنْكَحُ، أما أنا فلا ولد في، وأنا غيور ذات عيال. قال: «**أنا أكبر منكِ، وأما الغَيْرَة فيذهبها الله، وأما العيال فإلى الله ورسوله**». فتزوجها فجعل يأتيها ويقول: «**أين زُنَابُ؟**» حتى جاء عمار يوماً فاختلجها فقال: هذه تمنع رسول الله ﷺ. وكانت ترضعها، فجاء إليَّ فقال: «**أين زُناب؟**» قالت: قريبة. ووافقها عندما أخذها عمار، فقال النبيُّ ﷺ: «**أنا أجيئكم الليلة**». فبات النبيُّ ﷺ ثم أصبح فقال حين أصبح: «**إنْ بكِ على أهلك كرامةً، فإن شئت سبَّعت لكِ وإن أسبِّع أسبِّع لنسائي**».

رواه النسائي في الكبرى ج(٥/٢٩٣/٢٩٤) بسند صحيح، وهو في المسند (٦/٣٠٧/٣١٣/٣١٤) بنحوه، وتقدَّم في النكاح قسم التزوج وقوله: «**إن شئت سبعت لك...**» إلخ. انظر ما سبق في النكاح (٨٨٣)، وهو في النكاح من صحيح مسلم.

وعلى أيٍّ فقد تزوج ﷺ هذه السيدة وتكفّل بأولادها وكانوا كأولاده، ودعا الله عزَّ وجلّ لها فأذهب عنها غيرتها، وأسكنها في بيت زينب بنت خزيمة.

وقد امتازت هذه السيدة بجمالها وحسنها الفائق الباهر، كما كانت موصوفة بالعقل البالغ والرأي السديد الصائب، وقد تقدَّم في صلح الحديبية ما أشارت به على النبيِّ ﷺ مما يدل على وفور عقلها وصواب رأيها، حيث أنَّ النبيَّ ﷺ لمّا صالح كفار قريش أمر الصحابة أن ينحروا هداياهم ويحلقوا ويقصروا رؤوسهم ويحلُّون من العمرة، فلم يأتمر منهم أحد، فدخل على أمِّ سلمة غضبان فسألته عن ذلك فأجابها بما وقع فقالت له: اخرج وانحر هديك واحلق رأسك ولا تكلم أحداً. فامتثل ما أشارت به إليه، فقام الصحابة وقتئذ فنحروا هداياهم وحلقوا رؤوسهم، فكان ذلك من وفور عقلها وسديد رأيها، ويَندُرُ مثلها في النساء.

وهي التي كانت نادت أبا موسى وبلالاً: أفضلا لأمكما مما في إنائكما. رواه البخاري كما تقدَّم في مناقب أبي موسى.

٤٣٥ ـ وهي التي كانت قالت للإمام علي وقد جاء يودعها ذاهباً إلى البصرة وراء طلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم: سِرْ في حفظ الله وفي كنفه، فوالله إنك لعلى الحق، والحق معك، ولولا أني أكره أن أعصي الله ورسوله فإنه أمرنا أن نقرَّ في بيوتنا لسرت معك، ولكن والله لأُرسلن معك مَن هو أفضل عندي وأعز عليَّ من نفسي، ابني عمر.

رواه الحاكم (١١٩/٣) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

توفيت أم سلمة رضي الله تعالى عنها لمّا جاءها نعي الحسين آخر سنة إحدى وستين، وقيل: توفيت سنة ثلاث وستين، وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً.

* * *

❀ مناقب جويرية بنت الحارث رضي اللّه تعالى عنها

هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المصطلقية، أم المؤمنين. كانت بنت سيد قومها بني المصطلق، وكانت في جملة ما سبي من قومها، فوقعت في سهم بعض الصحابة فكاتبته فجاءت تستعين النبيَّ ﷺ، فأدّى عنها كتابتها وتزوجها، وكانت أعظم نسائه بركة على قومها إذ عُتِق من قومها بسببها مائة بيت، وهذه وحدها منقبة لها عظيمة مضافة إلى تزوج النبيِّ ﷺ بها وإصداقه إياها ما لم يعط امرأة من نسائه، ويتجلّى ما ذكرناه في الحديث التالي:

٤٣٦ ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو: لابن عمٍّ له ـ وكاتبته على نفسها، وكانت امرأةً حُلْوَةً مَلاحَةً، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلتْ عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار سيد قومه، وقد أصابني ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو: لابن عمٍّ له ـ فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: **«فهل لكِ خيرٌ من ذلك؟»** قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«أقْضِي كتابتك وأتزوجك؟»** قالت: نعم، يا رسول الله. قال: **«قد فعلتُ»**.

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أنَّ رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما بيدهم. قالت: فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وغيرهم بسند حسن صحيح، وتقدَّم في غزوة بني المصطلق من السيرة برقم (٣٢٣)، كما تقدَّم شرحه وما يتعلق بالغزوة.

والشاهد من الحديث عتقه ﷺ إياها وتزوجه بها وعتق قومها ببركة تزوجها بالنبيِّ ﷺ، فكانت مباركة عليهم. فهذه منقبة وخصيصة لها لا تُعرف لغيرها من أمهات المؤمنين. وكان تزوجه ﷺ بها في السنة الخامسة على الصحيح بعد أم سلمة. ويؤخذ من الحديث أنَّ الجمال محبوب للرجال وللنساء، وأنَّ النبيَّ ﷺ كان كأحدنا مجبولاً على حبِّ الحسن لأن ذلك من الأعراض البشرية، ولذلك نرى أمهات المؤمنين كلهن كنَّ جميلات، بعضهن أجمل من بعض، فهذه سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها لمّا رأت جمال جويرية بَهَرَهَا جمالُها وعلمت أنَّ النبيَّ ﷺ ستأخذ بنفسه ويتزوجها، ووصفتها بأنها حلوة في العيون مليحة لكل مَن رآها، فلا يراها أحد إلا مال إليها وأعجبته، فلذلك كرهت وقوفها بباب بيتها.

ومما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان في ذلك كباقي البشر قول الله تعالى له: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. فاللَّهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وزوجه وصحبه.

٤٣٧ ـ ومن فضلها وبركتها ما رواه ابن عباس عنها أنَّ النبيَّ ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلَّى الصبح وهي في مسجدها ثمَّ رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: **«ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها؟»** قالت: نعم. قال النبيُّ ﷺ: **«لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مراتٍ لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوَزَنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمدِه عدَدَ خَلْقِه، ورِضَا نفسِه، وزِنَةَ عَرشِه، ومِدادَ كَلِماتِه»**.

رواه مسلم في الذكر (١٧/٤٤/٤٥) وأهل السنن، وتقدَّم في الأذكار ما فيه.

ومن فضلها أنها كانت تصوم كثيراً حتى أنها صامت مرة يوم الجمعة فنهاها النبيُّ ﷺ عن إفراده بالصيام وأمرها بالفطر.

٤٣٨ ـ فعنها أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها يوم جمعة وهي صائمة فقال: **«أَصُمْتِ أمس؟»** قالت: لا. قال: **«فتصومين غداً؟»** قالت: لا. قال: **«فأفطِري»**.

رواه البخاري في الصيام (١٣٧/٥) مع الفتح.

توفيت رضي الله تعالى عنها سنة خمسين، وقيل: ست وخمسين، ودفنت بالبقيع مع صواحباتها.

* * *

❀ مناقب زينب بنت جحش رضي اللَّه تعالى عنها

هي بنت جحش الأسدية، أم المؤمنين، وزوج النبيِّ ﷺ. أمها أُمَيْمَةَ عمَّة رسول الله ﷺ، تزوجها النبيُّ ﷺ سنة خمس بعد أم سلمة، وكانت تحت زيد بن حارثة، زوَّجه بها النبيُّ ﷺ، وكانت تتعاظم عليه ولا تعامله بالحسنى فشكاها إلى النبيِّ ﷺ، فأمره بإمساكها وأن يتقي الله، وأخفى في نفسه ما كان الله أوحى به إليه أنه سيتزوجها، ثم طلَّقها زيد، فلمّا انقضت عدتها بعثه يخطبها له، فقالت له: حتى أستأمر ربِّي. تعني تستخير الله تعالى، فزوَّجه الله تعالى بها بدون وليٍّ ولا شهود ولا صداق، فدخل عليها ثم أولم عليها وأشبع الصحابة خبزاً ولحماً، وفيها نزلت آية الحجاب، وقد تقدَّم ما في شأنها وشأن زواجها ونزول الحجاب في السيرة رقم (٣٥٤) فما بعده.

ولها مناقب وخصائص نجملها في الآتي:

٤٣٩ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. قال: فكانت تفتخر على أزواج النبيِّ ﷺ تقول: زوَّجكن أهَالِيكُنَّ وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات.

رواه البخاري والترمذي في التفسير (٣٠٠٣) بتهذيبي.

فهذه خصيصة لها ومنقبة حيث زوَّجها الله تعالى بنبيِّه ﷺ بغير واسطة أحد ولا بحضور شهود ولا صداق، فكانت من جملة خصائصه ﷺ أيضاً.

٤٤٠ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرعكُنَّ لَحَاقاً بي أطولُكُنَّ يداً»**. قالت: فكُنَّ يتطاولن أيَّتُهُنَّ أطول يداً. قالت: فكانت أطولنا يداً زينبُ، لأنها كانت تعمل بِيَدِهَا وتَتصدَّق.

رواه مسلم في الفضائل بهذا السياق (٨/١٦).

٤٤١ ـ وجاء في صحيح البخاري (٢٨/٤) من كتاب الزكاة عنها أنَّ بعض أزواج النبيِّ ﷺ قُلْنَ للنبيِّ ﷺ: أيُنا أسرع بك لحوقاً؟ قال: **«أطولكنَّ يداً»**. فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهنَّ يداً، فعلمنا بعد إنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به، وكانت تحب الصدقة.

هكذا جاء عند البخاري بإعادة الضمائر على سودة المذكورة، والأمر بخلاف الظاهر، فإنَّ التي كانت يدها طويلة بالصدقة وكانت أسرعَهُنَّ لُحوقاً بالنبيِّ ﷺ هي زينبُ بِنتُ جحش بإجماع أهل الحديث والسير. وما وقع في بعض الروايات من التصريح بسودة فغلط واضح لأن سودة رضي الله تعالى عنها توفيت آخر خلافة عمر بينما التي توفيت من أول نسائه بعده هي زينب المذكورة، ويزيد هذا وضوحاً رواية عند الحاكم: قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: **«أسْرَعُكُنَّ لحوقاً بي أطولكنَّ يداً»**. قالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت امرأة صناعة باليد، وكانت تدبغ وتخرز وتصدَّق في سبيل الله. قال الحاكم: على شرط مسلم. فهذا صريح في أنها زينب كرواية مسلم، وجاءت مبيَّنة من طرق أخرى عن ميمونة وعن أبي برزة وعن عمر وبعضها صحيحة، انظر تخريجها في المجمع (٢٤٨/٩/٢٤٩). وقد تكلم الحافظ على الغلط الذي وقع في رواية البخاري فأجاد وأفاد.

وعلى أيٍّ ففي الحديث كما قال النووي معجزة باهرة لرسول الله ﷺ ومنقبة ظاهرة لزينب.

ومن مناقبها ما تقدَّم من قول عائشة وهي تمدحها ـ وهي تعني

زينب ـ: التي كانت تساميني منهن المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّق به وتقرب به إلى الله تعالى.

فهذه خصال عظيمة عالية كانت متخلقة بها وتصفها بها عائشة رغم أنها ضرّتها. ومن فضلها أيضاً إنصافُهَا وشَهادتُها ببراءة عائشة مما رماها به المنافقون.

٤٤٢ ـ قالت عائشة عنها في حديث الإفك: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: «**يا زينب، ماذا علمتِ أو رأيتِ؟**» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع.

وتقدَّم ضمن حديثها الطويل في تفسير سورة النور، وانظر بعضه في السيرة رقم (٣٢٦).

وعلى كلٍّ حال فهذه السيدة كانت من فواضل أمهات المؤمنين وأتقاهن مع جمالها صورة وخلْقاً رضي الله تعالى عنها.

* * *

❀ مناقب صفية بنت حيي رضي اللَّه تعالى عنها

هي صفية بنت حُيَي بن أخطب النَضَرية الإسرائيلية، أم المؤمنين. كانت من ولد هارون نبيّ الله أخي موسى عليهما السلام، وكانت بنت سيد قومها بني النضير وقريظة. سكن والدها حيي خيبر بعد إجلاء بني النضير، وكان ممّن له القدم الأعلى في تهييج كفار قريش على حرب النبيّ ﷺ، وبذلك وقعت غزوة الأحزاب، ولمّا قدم ﷺ من الحديبية لم يمكث بالمدينة إلا نحو ثلاثة أيام، فخرج لغزو خيبر، ولمّا فتحها وسبى ذراريها ونساءها كانت صفية من جملة السبي، وقد قتل أبوها وأخوها وزوجها

كنانة بن أبي الحُقَيْق الذي كان عروساً بها، فصارت صفية في سهم دحية، ثم استعادها النبيُّ ﷺ فأعتقها وتزوجها.

٤٤٣ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ غزا خيبر فذكر الحديث فقال: وجمع السبي فجاءه دحية فقال: يا رسول الله، أعطني جارية من السبي. فقال: **«اذهب فخذ جارية»**. فأخذ صفيةَ بنتَ حُيي، فجاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك. قال: **«ادعوه بها»**. قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبيُّ ﷺ قال: **«خذ جارية من السبي غيرها»**. قال: وأعتقها وتزوجها. قال: وأصدقها نفسها حتى إذا كان بالطريق جَهَّزَتْها له أمُّ سليم فأعدتها له من الليل، فأصبح النبيُّ ﷺ عروساً فقال: **«مَن كان عنده شيءٌ فلْيجِئ به»**. قال: وبسط نِطَعاً. قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيسة، فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

وفي رواية له: ووقعت في سهم دحية جارية جميلة فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، ثم دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها وتعتد في بيتها، وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، وقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد. فلمّا أراد أن يركب حجبها.

وفي رواية: وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ ويقولون: ما رأينا في السبي مثلها. قال: فانطلقنا حتى إذا رأينا جُدُر المدينة هششنا إليها، فرفعنا مُطِيَّنا ورفع رسول الله ﷺ، فعثرتْ مَطِيَّته. قال: وصفية خلفه قد أردفها رسول الله ﷺ. قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فَصُرِعَ وصُرِعتْ. قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها. قال: فأتيناه فقال: **«لم تُضَرْ»**. قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يتراءينها ويَتَشَمَّتْنَ بِصَرْعتِها.

رواه مسلم في النكاح (٢٢٧/٢١٩/٩) بهذه الروايات.

ورواه البخاري في المغازي (٢٠/١٩/٩) مختصراً بلفظ: قدمنا خيبر، فلمّا فتح الله عليه الحصن ذُكِر له جمال صفية بنت حُيَي وقد قتل زوجها وكانت عروساً، فاصطفاها النبيُّ ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا الصهباء حَلَّتْ، فبنى بها رسول الله ﷺ.

وفي رواية له: قام النبيُّ ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبني بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبسطت فألقى عليها التمر والأقط والسمن.

فهذه قصة تزوج النبيِّ ﷺ بصفية، وقد أجاد أنس في سياقتها، وقد تقدمت في غزوة خيبر من السيرة مع فوائد هذا الحديث وأحكامه، انظر رقم (٤٠٣) من السيرة.

ومن مناقب هذه السيدة وفضلها ما سأذكره:

٤٤٤ ـ فعن كنانة مولى صفية أنها حدَّثته قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام، فذكرت ذلك له فقال: **«ألا قُلتِ: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمّي موسى عليهم السلام؟»** وكان بلغها أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، نحن أزواجه وبنات عمّه.

رواه الترمذي (٣٦٥٦) بتهذيبي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٤٤٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بلغ صفية أنَّ حفصة قالت: بنت يهودي. فبكت، فدخل عليها النبيُّ ﷺ وهي تبكي فقال: **«ما يبكيك؟»** قالت: قالت لي حفصة إني ابنة يهودي. فقال النبيُّ ﷺ: **«وإنك لابنة نبيٍّ، وإنَّ عمّك لَنبيّ، وإنكِ لتحت نبيٍّ، ففيمَ تفخر عليك؟»** ثم قال: **«اتقِ الله يا حفصة»**.

رواه أحمد (٣/١٣٥/١٣٦) والترمذي (٣٦٥٨) وحسَّنه وصححه.

وهذه منقبة وخصيصة لصفية لا توجد لغيرها.

٤٤٦ ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان في سفرٍ فاعتلَّ بعير لصفية وفي إبل زينب بنت جحش فضلٌ، فقال لها: «**إنَّ بعيراً لصفية اعتلَّ فلو أعطيتها بعيراً؟**» فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها، قالت زينب: حتى يئست منه. وفي رواية: فغضب عليها رسول الله ﷺ وهجرها بقية ذي الحجة، ومحرم، وصفر، وأياماً من شهر ربيع الأول حتى رفعت متاعها وسريرها فظنت أنه لا حاجة له فيها، فبينا هي ذات يوم قاعدة بنصف النهار إذ رأت ظله قد أقبل فأعادت سريرها ومتاعها.

رواه ابن سعد في الطبقات (٨/٩٠) وأحمد (٦/٢٦١) وسنده صحيح غير سمية فلم يجرحها أحدٌ وروى لها أبو داود وغيره، كذا في المجمع (٤/٣٢٣).

فهذا من فضل صفية، إذ النبيُّ ﷺ انتصر لها من زينب وقاطعها شهوراً تأديباً لها على ما فاهت به في حق صفية، هذا وزينب بنت عمته وقريبته.

والحديث استدل به العلماء على جواز هجران العاصي، ولذلك شروط ليس هذا موضع ذكرها وتفصيلها.

ومن فضلها ومناقبها أنها بشُرت بالإسلام وهي لا تزال يهودية:

٤٤٧ ـ فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان بِعَيْنَيْ صفية خضرةٌ، فقال لها النبيُّ ﷺ: «**ما هذه الخُضْرةُ بعينيكِ؟**» قالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأنَّ قَمَراً وقع في حجري. فلطمني وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ، قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليَّ وقال: «**يا صفية، إنَّ أباكِ ألَّبَ عليَّ العرب وفعل وفعل**». حتى ذهب ذلك من نفسي.

رواه الطبراني في الكبير (٢٤/٦٧)، قال النور (٩/٢٥١): ورجاله رجال الصحيح.

فهذه الرؤيا تبشّرها بأنها ستسلم وتصبح إحدى أمهات المؤمنين، تحت القمر المنير، زوج سيد الكائنات ﷺ.

٤٤٨ ـ ومن أخبار صفية مع النساء وبالأخص أمهات المؤمنين ما ذكره ابن سعد من طريق عطاء بن يسار قال: لمّا قدمت صفية من خيبر أنزلت في بيت لحارثة بن النعمان، فسمع نساء الأنصار فجئن يَنظُرنَ إلى جمالها، وجاءت عائشة متنقبة، فلمّا خرجت خرج النبيُّ ﷺ على أثرها فقال: «**كيف رأيتِ يا عائشة؟**» قالت: رأيت يهودية. فقال: «**لا تقولي ذلك فإنما أسلمت وحسن إسلامها**».

٤٤٩ ـ وأخرج أيضاً بسند صحيح من مرسل سعيد بن المسيب قال: قدمت صفية وفي أذنها خوصة من ذهب، فوهبت منه لفاطمة ولنساء معها.

٤٥٠ ـ وأخرج أيضاً بسند حسن عن زيد بن أسلم قال: اجتمع نساء النبيِّ ﷺ في مرضه الذي توفي فيه واجتمع إليه نساؤه، فقالت صفية بنت حُيَي: والله يا نبيَّ الله، وددت أنَّ الذي بكَ بي. فغمزن أزواجه ببصرهن، فقال: «**مَضْمِضْنَ**». فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال: «**من تَغامُزِكُن بها، والله إنها لَصادقة**»... ذكر ذلك الحافظ في الإصابة.

٤٥١ ـ وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب: وكانت صفية حليمة عاقلة فاضلة، وروينا أنَّ جارية لها أتت عمر بن الخطاب فقالت: إنَّ صفية تحب السبت، وتصل اليهود. فبعث إليها عمر فسألها فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً وأنا أصلهم. قال: ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان. قالت: اذهبي فأنت حرة.

توفيت صفية رضي الله تعالى عنها في شهر رمضان سنة خمسين، وقيل غير ذلك، وكان سنّها قريباً من سنِّ عائشة رضي الله تعالى عنها، ودفنت في البقيع أيضاً مع باقي أمهات المؤمنين.

* * *

❀ مناقب أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي اللّه تعالى عنها

هي رَمْلَةُ بنت أبي سفيان صخر بن حرب الأموية، زوج النبيِّ ﷺ، مشهورة بكنيتها. ولدت قبل البعثة النبوّية بتسعة عشر عاماً، وتزوجها حليف بني أميّة عبيدالله بن جحش الأسدي، وكانا من السابقين للإسلام، وهاجرا إلى الحبشة، ولمّا استقرا بها فتن زوجها فتنصّر بعد أن وُلد له من رملة حبيبة التي كانت تكنى بها.

٤٥٢ ـ أخرج ابن سعد عن عمرو بن سعيد الأموي قال: قالت أم حبيبة: رأيت في المنام كأن زوجي عُبَيْدالله بن جحش بأسوأ صورة ففزعت، فأصبحت فإذا به قد تنصّر، فأخبرته بالمنام فلم يحفلْ به وأكبَّ على الخمر حتى مات، فأتاني آتٍ في نومي فقال: يا أم المؤمنين. ففزعت، فما هو إلا أن انقضت عدتي فما شعرت إلا برسول النجاشي يستأذن، فإذا هي جارية له يقال لها: أبرهة، فقالت: إنَّ الملك يقول لك: وكِّلي مَن يُزوِّجُكِ، ثم ذكر أنها وكلت مَن زوّجها، وأصدقها النجاشي عن النبيِّ ﷺ أربعمائة ديناراً، ثم بعث بها إلى النبيِّ ﷺ مع شرحبيل بن حسنة.

رواه الطبراني في الكبير (٢١٩/٢٣) بسند حسن.

وكان ذلك سنة سبع على الأشهر وعمرها سبع وثلاثون سنة. وهكذا قضاء الله تعالى وقدره، فهذه أم حبيبة امرأة وبنت سيد قريش أبي سفيان خالفته في دينه فأسلمت وهاجرت بدينها تاركة أهلها وأقاربها كفاراً وتغربت مع زوجها في بلاد النصارى، فينقلب زوجها رأساً على عقب فيعتنق دين النصرانية بدلاً عن الإسلام الذي هاجر لأجله فيموت كافراً شقياً فَيَجْبُرُ الله عزَّ وجلّ قلبَ أم حبيبة التي أصبحتْ لا هي بوالِدَيْهَا وأقارِبها في بلادها ومسقط رأسها، ولا هي بزوجها الذي هاجر بها لدار الغربة، فحرك الله عزَّ وجلّ قلب نبيِّه لإنقاذها من هذه الغمة وألهمه التزوج بها لحِكم وأسرار

يعلمها الله تعالى، وكأن لسان الحال يقول لها: فإذا فقدت أقاربك وزوجك وتغربت فها هو ذلكم الله عزَّ وجلّ قد عوَّضك ما هو خير لك من الدنيا وما فيها.

٤٥٣ ـ ومن فضل أم حبيبة ما قالته عائشة رضي الله تعالى عنها: دعتني أم حبيبة عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فتحلليني من ذلك. فحللتها واستغفرت لها فقالت لي: سررتني سرَّك الله. وأرسلت إلى أم سلمة بمثل ذلك. رواه ابن سعد.

توفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين.

٤٥٤ ـ وما جاء في صحيح مسلم في الفضائل (٦٢/١٦) عن ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه فقال للنبيِّ ﷺ: يا نبيَّ الله، ثلاث أعطِيكهن؟ قال: «نعم». قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوِّجكها؟ قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك؟ قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين؟ قال: «نعم».

فهذا الحديث وقع فيه وهم من بعض الرواة لأنه يخالف الواقع، فأم حبيبة تزوجها النبيُّ ﷺ قبل أن يسلم أبو سفيان، ولذلك بالغ ابن حزم فقال: إنه موضوع وأجيب عنه بما لا طائل تحته. فانظر شرح مسلم للنووي (٦٣/١٦).

* * *

مناقب ميمونة بنت الحارث رضي اللّه تعالى عنها

هي بنت الحارث الهلالية، أم المؤمنين، وآخر مَن تزوج النبيُّ ﷺ. كان اسمها برة فسمَّاها النبيُّ ﷺ ميمونة، وكانت تحت أبي رهم بن عبد العزى القرشي العامري فتزوجها النبيُّ ﷺ بعد فراغه من عمرة القضاء وتحلله منها، وذلك في ذي القعدة سنة سبع، بعث جعفر بن أبي طالب يخطبها له

فأذنت للعباس فزوّجها منه. وقد جاء بيان تزوجها بالنبيّ ﷺ في التالي:

٤٥٥ ـ فعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حلال، وبنى بها وهو حلال، وكنت أنا الرسول فيما بينهما.

رواه أحمد والترمذي بسند حسن، وتقدّم كتاليه في السيرة.

٤٥٦ ـ وعن ميمونة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوجني النبيُّ ﷺ ونحن حلالان بسرف.

رواه مسلم وأحمد وأهل السنن في الحج.

وفي رواية للترمذي: تزوجها وهو حلال، وبنى بها حلالاً، وماتت بِسَرِفَ، ودفناها في الظلة التي بَنَى بها فيها.

(سرف) بفتح وكسر: موضع خارج مكة يبعد عنها بنحو خمسة عشر كيلومتراً في طريق المدينة، وهنالك قبرها للآن.

والحديثان يدلان على أنه ﷺ عقد عليها وبنى بها وهما حلالان، فما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، لم يوافقه أحدٌ عليه لأنه مخالف لما سبق، وللحديث الصحيح في النهي عن التزوج عند الإحرام خطبةً وبناءً كما تقدَّم في الحج: **«لا يَنكِحُ المحرمُ ولا يُنكح»**.

٤٥٧ ـ ومن مناقبها ما قالته عائشة رضي الله تعالى عنها فيها: أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم. رواه ابن سعد بسند صحيح.

٤٥٨ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«الأخوات مؤمنات: ميمونة، وأم الفضل، وأسماء** ـ يعني بنت عميس ـ**»**. رواه ابن سعد أيضاً بسند صحيح.

توفيت ميمونة رضي الله تعالى عنها سنة إحدى وخمسين، ودفنت في الموضع الذي بنى بها فيه النبيُّ ﷺ.

٤٥٩ ـ فعن يزيد بن الأصم قال: ثقلت ميمونة زوج النبيّ ﷺ بمكة وليس عندها أحد من بني أخيها فقالت: أخرجوني من مكة فإني لا أموت بها، إنَّ رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بمكة. قال: فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القبة.

رواه أبو يعلى، قال النور (٢٤٩/٩): ورجاله رجال الصحيح.

وبها تمَّ ذكر أمهات المؤمنين اللائي دخل بهن النبيُّ ﷺ وعاش معهن.

* * *

خلاصة ذكر أمَّهاتِ المؤمنين

تزوج ﷺ وبنى بإحدى عشرة امرأة.

الأولى خديجة، تزوجها قبل البعثة بخمسة عشر عاماً، وتوفيت قبل الهجرة وله خمسون سنة، ثم تزوج سودة في الشهر الذي توفيت فيه خديجة، ثم عقد على عائشة وهي بنت ست أو سبع سنين، ثم دخل عليها بالمدينة وهي بنت تسع سنين، وتوفي عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة، ثم تزوج حفصة بنت عمر، ثم زينب بنت خزيمة في السنة الثالثة، وتوفيت هذه بعد أشهر، ثم تزوج أم سلمة في السنة الرابعة، ثم زينب بنت جحش في السنة الخامسة، ثم جويرية في نفس السنة، ثم تزوج صفية الإسرائيلية في السنة السابعة، ثم تزوج بأم حبيبة، ثم ميمونة في نفس السنة السابعة.

فيكون ترتيبهن هكذا:

خديجة، فسودة، فعائشة، فحفصة، فزينب بنت خزيمة، فأم سلمة، فزينب بنت جحش، فجويرية، فصفية، فأم حبيبة، فميمونة وهي آخرهن.

وتوفي عن تسع منهن باستثناء خديجة وزينب بنت خزيمة رضي الله تعالى عنهن.

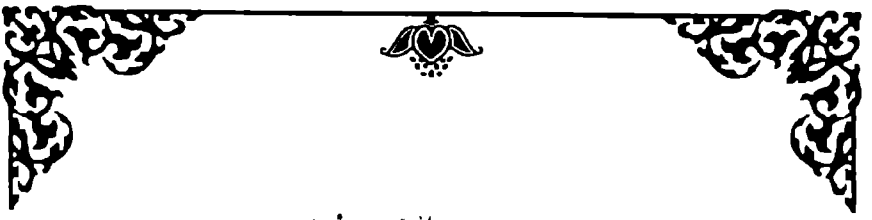

بنات النبيّ ﷺ وأولاده

بنات النبيّ ﷺ وأولاده جميعهم من خديجة إلا إبراهيم فمن مارية. وكان أكبرهم وأولهم القاسم، وبه كان يُكَنّى، توفي صغيراً وكذا عبدالله وهو الطيب الطاهر، وأكبر بناته: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، وآخرهن فاطمة الزهراء عليهن وعلى أبيهن الصلاة والسلام.

* * *

مناقب زينب عليها السلام

هي زينب بنت سيد العالمين سيدنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب القرشية الهاشمية، أكبر بناته ﷺ وأول مَن تزوج منهن، كانت ولادتها قبل البعثة بنحو من عشر سنين، واختلفوا هل القاسم قبلها أم بعدها، وكان قد تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة، وأسلمت قديماً وأبى زوجها أن يسلم، وكان قد أُسر مع الأسارى ببدر وبعثت زينب لفدائه قلادة من جزع كانت خديجة أدخلتها بها على زوجها، فلمّا رآها رسول الله ﷺ عرفها ورقّ لها وذكر خديجة فترحم عليها، وكلّم الناس فأطلقوه وردّ عليها القلادة وأخذ على أبي العاص أن يخلي سبيلها ففعل، ثم بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار إلى مكة فتلطفا حتى أتيا بها، رواه أحمد وغيره بسند حسن صحيح وقد تقدّم في السيرة رقم (٢٣٤).

ثم بعدها أسلم أبو العاص وحسن إسلامه، وكان النبيُّ ﷺ يثني عليه خيراً في مصاهرته فإنه عندما تزوج زينب وخالف النبيُّ ﷺ قومه في جاهليتهم أتى كفار قريش إلى أبي العاص فأمروه بتطليق زينب وأن يزوجوه مَن شاء من البنات، فقال لهم: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

ومن مناقبها بعد بنوتها لسيد العالمين ولا فضيلة ولا منقبة أفضل منها:

٤٦٠ ـ ما روته عائشة رضي الله تعالى عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال في حق زينب ابنته لمّا أوذيتْ عند خروجها من مكة: «**هي أفضل بناتي، أصيبتْ بي**».

رواه الطحاوي والحاكم، قال الحافظ: بسند جيد.

ولمّا أسلم زوجها وهاجر ولحق بها ردّها عليه النبيُّ ﷺ بعقد جديد، ثم لم يلبث معها إلا نحو سنة فتوفيت عنه سنة ثمان وغسلتها أم عطية، كما في الحديث التالي:

٤٦١ ـ فعنها رضي الله تعالى عنها قالت: لمّا ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال: «**اغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً واجعلن في الآخرة كافوراً**».

رواه البخاري ومسلم، وتقدَّم في الجزء الثاني من كتاب الجنائز (١٠٩٠).

وزينب هذه هي والدة أمامة التي كان النبيُّ ﷺ يحملها في صلاته وهي صغيرة، كما في الصحيح، وكانت قد تزوجها الإمام علي بعد وفاة فاطمة عليها السلام.

* * *

مناقب رقية عليها السلام

هي رقية بنت سيد البشر ﷺ محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمية. كانت رقية أولاً عند عتبة بن أبي لهب فلمّا بُعث النبيُّ ﷺ أمره أبو لهب ابنه بطلاقها فطلقها قبل أن يبني بها، فتزوجها عثمان بن عفان وكانت من السابقات كأخواتها، فهاجرت مع عثمان إلى الحبشة، ولما رجع إلى مكة فيمَن رجع هاجر إلى المدينة، ولمّا كانت غزوة بدر مرضت عند عثمان يمرضها فتوفيت ورسول الله ﷺ ببدر، وجاء زيد بن حارثة بشير بدر وقد دفنت رضي الله تعالى عنها. وهذا كله لا خلاف فيه بين أهل السير وغيرهم.

فهي مع عثمان يعدّان من أهل الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة، وهذه منقبة عظيمة.

* * *

مناقب أم كلثوم عليها السلام

هي بنت سيد العالمين رسول الله ﷺ. تزوجها عثمان بعد أختها رقية. قال ابن سعد: خرجت أم كلثوم إلى المدينة فلحقت بالنبيِّ ﷺ مع فاطمة وغيرها من عيال النبيِّ ﷺ فتزوجها عثمان بعد موت أختها رقية في ربيع الأول سنة ثلاث وماتت عنده في شعبان سنة تسع، وبها وبأختها رقية كان يقال له: ذو النورين.

٤٦٢ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبيَّ ﷺ على قبرها فرأيت عينيه تدمعان فقال: **«فيكم أحدٌ لم يُقارِفْ الليلة؟»**، فقال أبو طلحة: أنا. فقال: **«انزل في قبرها»**. فنزل في قبرها فقبرها.

رواه البخاري في الجنائز (٤٥٢/٣).

«لم يقارف» أي: لم يذنب أو لم يجامع.

* * *

هي فاطمة الزهراء بنت سيد العالمين، السيدة الطاهرة، سيدة نساء أهل الجنة، وأحب الناس إلى رسول الله ﷺ، بضعته الطاهرة التي يؤذيه ما يؤذيها، أم الحسنين ريحانتَي رسول الله ﷺ، وجدة الأشراف والذرية الطاهرة، وزوجة الإمام علي بأمرٍ من الله عزَّ وجلَّ، بنت حبيبة رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد وزوجته الأولى.

ولدت فاطمة قبل البعثة، بقليل وهي أصغر بنات النبيّ ﷺ، وتزوجها الإمام علي بالمدينة في السنة الثانية بعد وقعة بدر، وتوفيت بعد أبيها بستة أشهر وعمرها على الصحيح سبع وعشرون سنة، ودفنت بالبقيع مع ولدها الحسن وأحفادها: زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق عليهم السلام.

٤٦٣ ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: اجتمع نساء النبيّ ﷺ فلم تغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتَها مشيةُ رسول الله ﷺ فقال: **«مرحباً بابنتي»**. فذكرت الحديث وفيه: **«ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟»** وفي رواية: **«نساء أهل الجنة»**.

رواه أحمد والبخاري ومسلم، وتقدَّم كاملاً في الوفاة النبويَّة من السيرة.

٤٦٤ ـ وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه أنَّ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فلمّا سمعت بذلك فاطمة أتت النبيَّ ﷺ فقالت له: إنَّ قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل. قالَ المسور فقام النبيُّ ﷺ فسمعته حين تشهد قال: **«أما بعد، فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدَّثني فصَدَقني، وإنَّ فاطمة بنت محمد مُضغةٌ مني، وإني أكره أن يفتنوها، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً»**. فترك علي الخِطبةَ. وفي رواية: **«فإنما ابنتي بضْعَةٌ يُريبُنِي ما رابَها، ويؤذيني ما آذاها»**. وفي رواية: **«فمَن أغضبها**

أغضبني». وفي رواية: **«إنَّ بني هشام استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنها بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»**.

رواه أحمد (٣٢٨/٤)، والبخاري (١٠٦/٨٧/٨)، ومسلم (٤/٣/٢/١٦)، والترمذي (٣٦٣٥) كلهم في المناقب، ورواه البخاري في مواضع.

«مضغة» بضمّ الميم، و**«بضعة»** بفتح الباء: هي القطعة من اللحم. **«يريبني»**: راب الإنسان من شيء خاف عقباه.

وفي الحديث خصيصة لفاطمة في عدم جواز التزوج عليها لأن في ذلك إذاية لها وإذايتها إذاية لرسول الله ﷺ.

٤٦٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط قال: **«أتدرون ما هذه؟»** فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: **«أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم، ومريم ابنة عمران»**. وفي رواية: **«سيدات نساء أهل الجنة»**.

رواه أحمد (١٩٣/١) والحاكم (٥٩٤/٢ و١٨٥/١٦٠/٣) وصححه ووافقه الذهبي، ورجاله رجال الصحيح.

هؤلاء النسوة هن الكاملات في الدنيا وسيدات أهل الجنة في الآخرة، وكفى مولاتنا فاطمة فخراً وفضلاً ونبلاً أن تكون منهن رضوان الله تعالى عليهن.

٤٦٦ ـ وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة، ومن الرجال علي.

رواه الترمذي (٣٦٣٦) والحاكم (١٥٥/٣) وصححه ووافقه الذهبي،

ورجاله عند الترمذي رجال الصحيح غير جعفر الأحمر، وهو صدوق كما في التقريب.

وللحديث شاهد عند الترمذي (٣٦٤١) عن عائشة وزادت: إن كان ما علمت صواماً قواماً. وحسَّنه الترمذي.

وهذا لا يعارض ما تقدَّم من أنَّ أحب النساء إلى رسول الله ﷺ عائشة ومن الرجال أبوها، فإنها محبة خاصة.

ومناقب هذه السيدة الطاهرة كثيرة، وقد قدَّمنا عن الجمهور أنها أفضل نساء العالمين إلا ما كان من مريم، والله تعالى أعلم.

وبهذا تمَّ الكلام على بنات النبيّ ﷺ.

أما أولاده من الذكور فقدَّمنا أنَّ القاسم وعبدالله الذي كان يقال له: الطاهر والطيب كانا من خديجة أيضاً، وتوفيا صغيرين بمكة المكرمة.

* * *

❀ إبراهيم ابن نبيِّ اللَّه ﷺ

أما إبراهيم ابن نبيِّ الله عليهما السلام فكان من مارية القبطية التي كان أهداها المقوقس إلى النبيِّ ﷺ فتسرَّى بها وأنجبت له إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان بالاتفاق.

وكان أشبه الناس بالنبيِّ ﷺ، توفي وهو ابن سبعة عشر شهراً، قال ابن حزم: مات قبل النبيِّ ﷺ بثلاثة أشهر.

وله مناقب وجاءت في شأنه أخبار، وهي كالآتي:

٤٦٧ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولد لي الليلة غلام فسمَّيته باسم أبي إبراهيم»**. ثم دفعه إلى أمِّ سَيفٍ امرأة قَيْن يقال له: أبو سيف، فانطلق يأتيه واتَّبعته فانتهينا إلى أبي سيف، وهو يَنفُخ بِكِيرِهِ قد امتلأ البيتُ دخاناً، فأسرعت المشي بين يدي

رسول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف، أمسك، جاء رسول الله ﷺ. فأمسك فدعا النبيُّ ﷺ بالصبي فضمَّه إليه وقال ما شاء الله أن يقول. فقال أنس: لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدَمَعَت عينا رسول الله ﷺ فقال: «**تدمَع العينُ ويحزن القلبُ، ولا نقول إلا ما يُرضِي ربَّنا، والله يا إبراهيم، إنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**». وفي رواية: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. قال: كان إبراهيم مُسْتَرْضَعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وإنه ليُدَّخَنُ، وكان ظِئره قيناً، فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع، فلمّا توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإنَّ له لظئرين تُكَمِّلان رضاعه في الجنة**».

وفي رواية: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظئراً لإبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفْسِه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذْرِفان، فقال له عبدالرحمٰن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة**». ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «**إنَّ العين تدمَع، والقلبَ يحزنُ، ولا نقول إلا ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لَمَحْزُونون**».

رواه البخاري في الجنائز (٣/٤١٥/٤١٦) باللفظ الأخير، ورواه مسلم في الفضائل (٥/٧٤/٧٦) بباقي الروايات.

قوله: (قين) بفتح القاف وسكون الياء: هو الحداد. قوله: (يَكِيدُ بنفسه) أي: يجود بها ويدفعها. وقوله: (ظئره) هو بكسر الظاء وسكون الهمزة: هي المرضعة ولد غيرها وزوجها ظئر لذلك الرضيع، والظئر يقع على الذكر والأنثى. وقوله: «**وإنَّ له لظئرين**» معناه: له في الجنة مرضعتان تتمّان بقية السنتين من رضاعه لأنه توفي أيام رضاعه، وهو معنى «**مات في الثدي**».

وفي هذ الحديث بجميع رواياته فوائد:

منها: مشروعية تسمية المولود عقب ولادته وقبل يوم العقيقة، خلاف

ما عليه عرف الناس. ومنها: جواز التسمي بأسماء الأنبياء، ولا ينبغي أن يختلف في ذلك. ومنها: تواضع النبيّ ﷺ وتنازله وتبذله حيث كان يدخل بيت الحداد وهو مليء دخاناً. ومنها: ما كان عليه من رحمته بالأطفال حيث كان يقبّل ولده ويشمّه. ومنها: جواز البكاء رحمةً للأطفال وغيرهم. ومنها: جواز الحزن بالقلب على فقدان الأحبة، وأنّ ذلك لا ينافي الرضا بقدر الله وقضائه إذا كان الحازن صابراً محتسباً لا ينطق إلا بما فيه رضا الله. ومنها: وهي من كبار مناقب سيدنا إبراهيم ابن نبيّنا ﷺ أنه فور موته دخل الجنة ليتمم رضاعه عند ظئرين كانتا تنتظرانه في الجنة.

٤٦٨ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: لمّا توفي إبراهيم عليه السلام قال رسول الله ﷺ: **«إنّ له مُرْضِعاً في الجنة»**.

رواه البخاري آخر الجنائز (٣/٤٨٨).

وهو نص كسابقه بأنّ سيدنا إبراهيم ابن نبيّنا عليهما الصلاة والسلام في الجنة كسائر الأطفال.

٤٦٩ ـ وعن ابن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه قال: ولو قضي أن يكون بعد محمد ﷺ نبيٌّ عاش ابنه إبراهيم، ولكنه لا نبيَّ بعده.

رواه البخاري وأخرجه أحمد بلفظ: لو كان بعد النبيّ ﷺ نبيٌّ ما مات ابنه إبراهيم.

٤٧٠ ـ وقد ورد نحو هذا عن ابن عباس أيضاً كما قال: مات إبراهيم ابن النبيّ ﷺ قال: **«إنّ له مرضعاً في الجنة، فلو عاش لكان صدّيقاً نبيًا، ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط وما استرقَّ قبطي»**. رواه ابن ماجه بسند ضعيف.

وهذا كله يعدُّ من مناقبه عليه السلام. ولمّا توفي صلّى عليه النبيُّ ﷺ وكبّر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالبقيع.

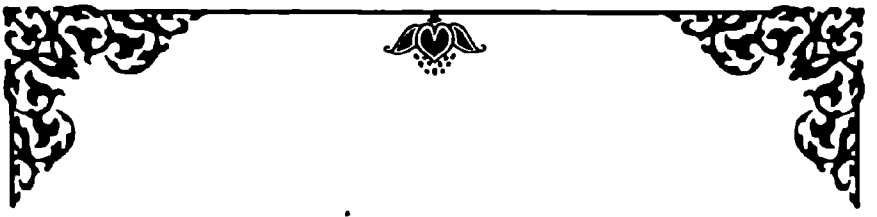

النساء المهاجرات والأنصاريات
غير ما تقدَّم

مناقب أم أيمن حاضنة رسول اللَّه ﷺ

هي أم أيمن مولاة النبيّ ﷺ وحاضنته، بَرَكَة الحبشية، كانت وصيفة لعبدالله بن عبد المطلب والد النبيّ ﷺ فلمّا ولدت آمنةُ رسول الله ﷺ بعدما توفي أبوه كانت أم أيمن تحضنه حتى كبر فأعتقها، ثم تزوجت عُبَيدَ بن زيد من بني الحارث فولدت له أيمن، ولمّا توفي عنها أنكحها النبيُّ ﷺ زيد بن حارثة فولدت له أسامة، رواه البخاري في الهبة (٢٦٣٠) ومسلم في الجهاد (٩٩/١٢) بنحوه.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**أم أيمن أمي بعد أمي**». وكان يقول لها: «**يا أمه**». وكان إذا نظر إليها يقول: «**هذه بقية أهل بيتي**». آمنت بالنبيّ ﷺ مع الأولين، وشاهدت منه ﷺ ما قاساه من كفار قريش، وكانت في جملة أهل بيته، ثم هاجرت إلى المدينة مفردة، قالت: خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد، فلمّا غابت الشمس إذ أنا بإناء معلق عند رأسي. قالت: ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحار ثم أطوف في الشمس كي أعطش فما عطشت بعد. ذكره ابن السكن وذكر أيضاً بسنده عن سفيان بن عيينة قال: كانت أم أيمن تُلَطِّفُ النبيَّ ﷺ وتقدم عليه، فقال: «**مَن سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن**». فتزوجها زيد بن حارثة، ذكر ذلك الحافظ وغيره.

وحسبها فضلاً ومنقبةً أن تكون مرضعة رسول الله ﷺ وحاضنته ومربيته ومولاته وزوجة حبِّه زيد بن حارثة.

٤٧١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلمّا انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيكِ؟ أما تعلمين أنَّ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي، إني لأعلم أنَّ ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أنَّ الوحي قد انقطع من السماء. فَهَيَّجَتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

رواه مسلم في الفضائل (١٠/٩/١٦).

وهذا من مناقبها حيث كانت تبكي لانقطاع الوحي ويزورها الخليفتان الجليلان رضي الله تعالى عنها وعنهما. ومن فضلها وجلالتها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يحترمها ويبالغ في الإحسان إليها.

٤٧٢ ـ كما تقدَّم في السيرة، فعن أنس أنَّ رجلاً كان يجعل للنبيِّ ﷺ النَّخَلاَتِ حتى فتحت عليه قريظة والنضير فجعل يرد بعد ذلك، فكلمني أهلي أن أسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان أعطاه لأم أيمن، فسألته فأعطانيه، فجاءت أم أيمن فجعلت تلوح بالثوب وتقول: كلا والله لا يعطيكهن وقد أعطانيهن. فقال النبيُّ ﷺ: «**لك كذا وكذا**». وتقول: كلا. حتى أعطاها ـ حسبته قال ـ عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله.

رواه البخاري وغيره، وانظر ما سبق في السيرة (٤١٧).

٤٧٣ ـ وعن أنس أيضاً قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن فانطلقت معه، فناولَتْه إناءً فيه شراب. قال: فلا أدري أصادَفَتْه صائماً أو لم يُرده، فجعلت تصخب عليه وتَذَمَّرُ عليه.

رواه مسلم في الفضائل (٩/١٦).

(تصخب عليه) أي: تصيح وترفع صوتها إنكاراً عليه. وقوله: (وتذمر) بالتاء والذال المعجمة ثم ميم مشددة، أي: تتكلم بالغضب.

فهذا من البرور بها وإحسانه ﷺ إليها والصبر على أذاها وسوء معاملتها معه، فهاهنا سقته شراباً فردّه ولم يرده فأنكرت عليه ورفعت سوطها مغضبة على ردّه ذلك عليها. وكانت تفعل به ذلك لكونها حضنته وربته فكانت تعتبره كأنه ولدها، فكان يصبر على ما تقابله به. وكل ذلك يدل على فضلها وجلالة قدرها، والحالة هذه وهي حبشية سوداء كانت رقيقة وخادمة لأبيه، ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

توفيت رضي الله تعالى عنها بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أشهر. رواه البخاري ومسلم.

* * *

❀ مناقب فاطمة بنت أسد رضي اللّه تعالى عنها والدة الإمام علي

هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية، والدة الإمام علي وإخوته: جعفر، وعقيل، وأم هانىء رضي الله تعالى عنهم. أسلمت بمكة المكرمة دون زوجها أبي طالب، وهاجرت إلى الله وإلى رسوله فحسن وبها توفيت. وكانت امرأة صالحة، كان النبيُّ ﷺ يزورها ويقيل عندها. وكانت بارّة بالنبيّ ﷺ محسنة إليه؛ تطعمه وتسقيه وتؤويه إليها. فكانت للنبيّ ﷺ أماً بعد أمه. وهي أول هاشمية ولدت خليفة.

٤٧٤ ـ وأخرج ابن عبدالبر في الاستيعاب وابن أبي عاصم كما في الإصابة من طريق عبدالله بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه: أن النبيَّ ﷺ كفّن فاطمة بنت أسد في قميصه وقال: **«لم نلقَ بعد أبي طالب أبرَّ بي منها»**.

٤٧٥ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لمّا ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعنها دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: **«رحمكِ الله يا أُمّي، كنت أمي**

بعدَ أمّي، تَجُوعين وتُشبِعينِي، وتَعْرَيْنَ وتَكْسِينِي، وتَمْنَعِينَ نفْسَكِ طَيِّباً وتُطْعِمِينِي، تُرِيدِينَ بذلك وجهَ الله والدار الآخرة». ثم أمر أن تغسل ثلاثاً، فلمّا بلغ الماء الذي فيه الكافورُ سكبَهُ رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبَسَها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها فلمّا بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، فقال: «**الله الذي يُحيي ويُميت، وهو حيٌّ لا يموت، اغفر لأمّي فاطمة بنت أسد ولقِّنها حجتها، ووسِّع عليها مدخلها بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين**». وكبَّر عليها أربعاً، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنهم.

رواه الطبراني في الكبير (٣٥١/٢٤) والأوسط (١٥١) ورجاله رجال الصحيح غير روح بن صلاح ووثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، قاله النور في المجمع (٢٥٦/٩).

ففي الحديث مناقب لهذه السيدة وفضائل من عدة جهات كما لا يخفى.

وكانت بالمدينة تعيش مع ولدها الإمام علي وتساعد فاطمة على الأشغال كما في الحديث التالي:

٤٧٦ ـ فعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قلت لأمي فاطمة بنت أسد بن هاشم: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيكِ خدمة الداخل والطَّحْن والعَجِين.

رواه الطبراني في الكبير (٣٥٣/٢٤) ورجاله رجال الصحيح، كذا في المجمع (٢٥٦/٩).

فرضي الله تعالى عنها وجزاها الله تعالى عن نبيِّنا خير الجزاء وجعلها معه في جملة أهله وأقاربه.

* * *

❀ مناقب أم رومان رضي اللّه تعالى عنها

هي زينب بنت عامر بن عويمر، أم رومان الكنانية، امرأة أبي بكر الصدّيق، ووالدة عائشة أم المؤمنين وعبدالرحمٰن، كانت تحت عبدالله بن الحارث الأزدي، وقدم مكة بها فحالف أبا بكر قبل الإسلام ثم توفي عن أم رومان فتزوجها أبو بكر قديماً، وأسلمت معه وبايعت رسول الله ﷺ وهاجرت، فهي من جملة السابقين والمهاجرين الأولين.

٤٧٧ ـ وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لمّا هاجر رسول الله ﷺ خلّفنا وخلّف بناته، فلمّا استقر بعث زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع، وبعث أبو بكر عبدالله بن أريقط، وكتب إلى عبدالله بن أبي بكر أن يحمل أم رومان وأسماء، فصادفوا طلحة يريد الهجرة فخرجوا جميعاً. رواه ابن زبالة.

ومن مناقبها العظيمة أنها كانت تؤازر النبيَّ ﷺ وتنصره كزوجها الصدّيق من يوم بعث، وكانت لها ولولديها أسماء وعبدالله اليد البيضاء ليالي اختفاء رسول الله ﷺ في الغار.

وهي التي هيأت بنتها عائشة للنبيِّ ﷺ عند بنائه بها في المدينة مع أولئك النسوة اللاتي أسلمتها إليهن.

وقاست المحن الكثيرة مع زوجها بمكة المكرمة في سبيل نصر الإسلام كما قاست المحنة العظيمة التي نزلت بعائشة من طرف أهل الإفك، فقد شاركت النبيَّ ﷺ في حزنه وابتلائه كما شاركت حزن زوجها وبنتها مولاتنا عائشة وجميع أهل بيتها، وخبرها مع الضيوف وقَسَمُ أبي بكر أن لا يأكل وبركةُ الطعام مبسوط في الصحيح، ويأتي في الأدب إن شاء الله تعالى.

٤٧٨ ـ توفيت في السنة السادسة، ودفنت بالبقيع، ولمّا دليت في قبرها قال النبيُّ ﷺ: **«مَن سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى هذه»**. ذكره الحافظ عن ابن منده وأبي نعيم وابن سعد. وذكر ابن

عبدالبر أنَّ النبيَّ ﷺ نزل قبرها واستغفر لها وقال: «**اللَّهم لم يخفَ عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك**».

وعلى أيِّ فحسبها منقبة وفضلاً أن تكون زوجة الصدِّيق ووالدة أم المؤمنين عائشة.

* * *

❀ مناقب صفية عمَّة رسول اللَّه ﷺ رضي اللَّه تعالى عنها

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية، عمَّة رسول الله ﷺ، ووالدة الزبير بن العوام أحد العشرة، وهي شقيقة حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ أسد الله وأسد رسوله الذي استشهد بأُحد ومثَّل به الكفار.

كان أول مَن تزوج صفية الحارث بن حرب بن أميَّة، ثم هلك فخلف عليها العوام بن خويلد فولدت له الزبير والسائب. أسلمت قديماً، وهاجرت مع ولدها الزبير، وتوفيت أيام خلافة عمر، ودفنت بالبقيع آخر شماله الغربي.

وكانت قوية شجاعة.

٤٧٩ ـ فعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه في أطم حسان لأنه كان من أحصن الآطام، فتخلَّف حسان في الخندق فجاء يهودي فلصق بالأطم ليسمع، فقالت صفية لحسان: انزل إليه فاقتله. فكأنه هاب ذلك، فأخذت عموداً فنزلت إليه حتى فتحت الباب قليلاً قليلاً، فحملت إليه فضربته بالعمود فقتلته.

رواه ابن سعد (٤١/٨).

٤٨٠ ـ وعنه أيضاً قال: إنَّ صفية جاءت يوم أُحد وقد انهزم الناس

وبيدها رمح تضرب في وجوههم، فقال النبيُّ ﷺ: «**يا زبيرُ المرأة**».

(٤١/٨) وكلاهما سنده صحيح مع إرسالهما.

وعندما قُتل حمزة ومثِّل به ورآه النبيُّ ﷺ قال ما معناه: لولا ما أخشى على صفية لتركته تأكله الطيور والسباع حتى يُحشر من بطونها.

* * *

❀ مناقب أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق رضي اللَّه تعالى عنها

هي أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق التيمية، والدة عبدالله بن الزبير، وزوجة الزبير أحد العشرة، أمها قَتْلة أو قُتَيْلَة بنت عبد العزى القرشية العامرية.

كانت في جملة السابقين، أسلمت مع والدها ووالدتها في الأوَّلين، وعاشت في محنة المسلمين، وشاهدت ما قاسى رسول الله ﷺ من إذاية المشركين، وتزوجت الزبير بن العوام، وهاجرت وهي حامل منه بولده عبدالله فوضعته بقباء وأتت به النبيَّ ﷺ فحنكه وسمَّاه عبدالله وبرَّك عليه، وكان أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة.

ومن مناقبها أنها بنت الصدِّيق، وزوجة الشهيد أحد العشرة الزبير، وأخت أم المؤمنين عائشة، ووالدة الخليفة الشهيد عبدالله بن الزبير.

وكانت تسمَّى ذات النطاقين، وسبب ذلك تقدَّم في حديث الهجرة وهو ما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: وضعنا سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سمِّيت ذات النطاق.

رواه البخاري في الهجرة النبويَّة، وانظر ما سبق في السيرة رقم (١٣٢)، وقال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: سمَّاها رسول الله ﷺ لأنها هيأت له لمَّا أراد الهجرة سفرة، فاحتاجت إلى ما تشدها به فشقَّت خمارها

نصفين، فشدت بنصفه السفرة، واتخذت النصف الآخر منطقاً. نقله عن ابن إسحاق.

٤٨١ ـ وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن أسماء قالت: صنعت للنبيّ ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا سقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: ما أجد إلا نطاقي. قال: شقّيه باثنين، فاربطي بواحد منهما السقاء، وبالآخر السفرة.

٤٨٢ ـ وعن أبي نوفل قال: رأيت عبدالله بن الزبير على عقبة المدينة فجعلت قريش تمر عليه والناس حتى مرَّ عليه عبدالله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أما والله كنت أنهاك عن هذا، أما والله كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوَّاماً قوَّاماً وصولاً للرحم، أما والله لأمَّة أنت أشرّها لأمَّة خير. ثم نفذ عبدالله بن عمر، فبلغ الحجاج موقف عبدالله وقوله فأرسل إليه فأنزل عن جذعه فألقي في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: لتأتينّي أو لأبعثن إليكِ مَن يسحبك بقرونك. قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ مَن يسحبني بقروني. قال: فقال: أروني سبتيْ. فأخذ نعليه ثم انطلق يَتَوذَّف حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتِني صنعتُ بعدو الله؟ قالت: رأيتُك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول له: يا ابن ذاتِ النطاقين. أنا والله ذاتُ النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر من الدواب، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه، أما إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومُبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه. قالت: فقام عنها ولم يراجعها.

رواه مسلم (١٦/١٠٠)، والترمذي في الفتن (٢٠٤٩) وأحمد (٢/٢٦) وفي مواضع، ويأتي مختصراً في الفتن، إن شاء الله تعالى.

قوله: (بقرونك) يعني: بضفائر شعرك. (يوذف) أي: يسرع. (أخالك) بفتح الهمزة وكسرها، أي: أظنك. و(المبير) بضمِّ الميم: المهلك.

وفي هذا الحديث فوائد نجملها في الآتي:

أولاً: فيه معجزة للنبيِّ ﷺ حيث أخبر بأنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً، فكان كما قال. أما الكذاب فهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان يكذب كثيراً حتى بلغ به الكذب أنَّ جبريل عليه السلام يأتيه، وأما المبير - أي: مهلك الناس - فهو الحجاج الذي قتل مائة وعشرين ألف نسمة ظلماً، كما أخرجه الترمذي بسند صحيح، كما يأتي في الفتن.

ثانياً: اتفق أهل الحق على أنَّ ابن الزبير قُتل مظلوماً لأنه كان الإمام الحق وأنَّ الحجاج ورفقته كانوا خوارج عليه.

ثالثاً: فيه فضل ابن الزبير وأنه كما شهد له بذلك ابن عمر كان صواماً قواماً وصولاً لرحمه. ومن مناقبه أنه أول مولود في الإسلام بالمدينة للمهاجرين، وأنَّ أباه الزبير أحد العشرة، وجدّه الصدِّيق الخليفة الأول الراشد، وأمه أسماء ذات النطاقين، وخالته عائشة أم المؤمنين، وجدَّته صفية عمَّة رسول الله ﷺ، وخديجة عمة والده الزبير.

رابعاً: فيه قوة إيمان ابن عمر وعدم مبالاته بالحجاج وظلمه حيث وصف ابن الزبير بما وصفه بالخير وذلك مما يغيظ الحجاج فلم يعبأ به.

خامساً: وفيه فضل السيدة أسماء من ناحيتين: الأولى: أنها أغاظتْ الحجاجَ وأهانتْه بعدم مجيئها إليه وقد استدعاها، ثم تنقيصها إياه وذمّه وتهديده بما أخبرت به عنه عن النبيِّ ﷺ ولم تخشَه. ثانيهما: كونها ذات النطاقين حيث شقت ثوبها فربطت بقطعة منه سفرة النبيِّ ﷺ.

سادساً: قول أسماء: وأفسد عليك آخرتك. دليل على أنها كانت تعتبره ظالماً خاسراً في آخرته. ولا خلاف في ذلك بين أئمة الإسلام وعلمائه.

وذكر مؤرخوها أنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وعاشت

إلى ما بعد قتل ولدها بعشرين يوماً، وقالوا: إنها عاشت مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل.

* * *

❀ مناقب أسماء بنت عميس رضي اللّه تعالى عنها

هي أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبيّ ﷺ لأمها، وكانت أختاً لجماعة من الصحابيات ستاً لأب وأم وعشراً لأم.

كانت من السابقات والمهاجرات الهجرتين، كانت في الإسلام زوجة لجعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم هاجرا إلى المدينة مع أصحاب السفينة الآتي ذكرهم، ولمّا قُتل جعفر بمؤته تزوجها أبو بكر الصدّيق فولدت له محمد بن أبي بكر المشهور، ولمّا توفي أبو بكر تزوجها الإمام علي عليه السلام وولدت له يحيى وعوناً، وتوفيت بعد قتل علي سنة أربعين.

ومن مناقبها ما قدّمناه في غزوة خيبر في شأن قدوم جعفر وأبي موسى ومَن معهم من الحبشة.

٤٨٣ ـ وفيه قال أبو موسى: فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة. قال: فدخلتْ أسماء بنت عُمَيْس وهي ممّن قدم معنا على حفصة زوج النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمَن هاجر إليه، فدخل عُمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: مَن هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت كلمة: كذبتَ يا عمر، كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار ـ أو: في أرض ـ البُعَداء البُغَضَاء، في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشرب

شراباً حتى أذْكُرَ ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونخافُ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وأسأله والله لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيد على ذلك. قال: فلمّا جاء رسول الله ﷺ قالت: يا نبيَّ الله، إنَّ عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: «**ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونِي أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ. قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٦٤/٦٥)، وانظر الخبر كاملاً في السيرة رقم (٤١٥).

* * *

❀ مناقب أم عطية الأنصارية رضي اللّه تعالى عنها

هي نُسَيْبَةُ بنت الحارث الأنصارية، مشهورة بروايتها عن النبيّ ﷺ أمره بغسل ابنته: «**اغسلنها ثلاثاً أو خمساً... إن رأيتن ذلك**». وهو في الصحيح، وتقدَّم في الجنائز.

كما عُرِفتْ برواية حديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نُخرجَ في العيدين العواتِق وذواتِ الخُدُور. وهو في الصحيح أيضاً، وتقدَّم في العيدين، وعُرفت بحديث: نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعزَم علينا. وهو في الصحيح وتقدَّم في الجنائز أيضاً.

٤٨٤ ـ وفي صحيح مسلم (١٢/١٩٤) من كتاب الجهاد عنها قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنت أخْلُفُهم في رحالهم فأصنَعُ لهمُ الطعامَ، وأُداوي الجَرْحَى وأقومُ على المَرْضَى.

وهذه من مناقبها رضي الله تعالى عنه حيث إنها كانت من النسوة

اللائي كن يخرجن مع النبيّ ﷺ في غزواته يساعدنه في تهيئة الطعام للمجاهدين ومداواة الجرحى والقيام بشؤون المرضى المجاهدين، ويأتي عقب هذا عن أنس نحو ذلك.

سكنت أم عطية البصرة وكانوا يأخذون عنها حديث تغسيل بنت النبيّ ﷺ وغيره. روى عنها أنس، وابن سيرين، وبنته حفصة، ولم نقف لها على وفاة.

* * *

❀ مناقب أم سُلَيْم الأنصارية رضي اللّه تعالى عنها

هي أم سُلَيم بنت ملحان بن خالد بن حرام الأنصارية، أم أنس بن مالك، وزوجة أبي طلحة الأنصاري، وأخت حرام بن ملحان الشهيد مع القراء، وأخت أم حرام الشهيدة الآتية. كانت في الجاهلية تحت مالك بن النضر فولدت له أنساً، ثم أسلمت مع السابقين من الأنصار، فغضب زوجها مالك فخرج إلى الشام فمات بها، فتزوجها بعده أبو طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنهما.

٤٨٥ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ أبا طلحة خطب أم سليم قبل أن يسلم فقالت: يا أبا طلحة، ألست تعلم أنَّ إلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟ قال: بلى. قالت: أفلا تستحي تعبد شجرة، إن أسلمتَ فإني لا أريد منك صداقاً غيره. قال: حتى أنظر في أمري. فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله. فقالت: يا أنس، زوِّج أبا طلحة. فزوَّجها.

رواه أحمد وله طرق متعددة وهذه منقبة لهذه السيدة حيث جعلت صداقها من أبي طلحة إسلامه، وذلك من تمام محبتها للإسلام وادخار أجرها عند الله تعالى وزهدها في حطام الدنيا.

ولهذه السيدة مواقف في الإسلام وفضائل وأخبار عن الجهاد، كما يبدو في التالي:

٤٨٦ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأتي أم سليم فيقيل عندها، فتبسط له نطعاً فيقيل عليه، وكان كثير العرق، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير، فقال: **«يا أم سليم، ما هذا؟»** قالت: عرقك، أدوف به طيبي.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/٨٦/٨٧).

(فيقيل) أي: ينام عندها وقت القيلولة. و(القارورة): الزجاجة. (أدوف) أي: أخلطه فيه. (نطعاً): والنطع بساط يتخذ من جلد.

كان النبيُّ ﷺ يعتاد الدخول على أم سليم وأختها أم حرام كما يأتي قريباً أيضاً، وفي ذلك فضل لهما حيث إنه ﷺ كان يخصهما بالزيارة والقيلولة عندهما.

٤٨٧ ـ وعنه قال: كان النبيُّ ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا أم سليم فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك فقال: **«إني أرحمها قتل أخوها معي»**.

رواه مسلم (١٦/١٠).

وأخوها هو أنس بن النضر الذي قُتل مع القرّاء في بئر معونة، كما تقدَّم في السيرة، ويأتي مزيد لهذا قريباً.

٤٨٨ ـ وعن أنس أيضاً قال: جاءت بي أمي أم أنس إلى رسول الله ﷺ وقد أزَرْتْنِي بنصف خمارها ورَدَّتْنِي بنصفه فقالت: يا رسول الله، هذا أُنَيْسٌ ابْنِي، أتيتك به يخدُمك، فادعُ الله له. فقال: **«اللَّهم أكثِر ماله وولده»**. قال أنس: فوالله إنَّ مالي لكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي لَيَتَعَادُّون على نحو المائة اليوم. وفي رواية: ...فدعا لي رسول الله ﷺ ثلاثَ دعوات، قد رأيت منها اثنتين في الدنيا وأنا أرجو الثالثة في الآخرة.

رواه البخاري ومسلم (١٦/٤٠)، وانظر ما سبق في مناقب أنس رقم (٣٨٤).

(أزرتني) أي: جعلته إزاراً لي. (وردتني) أي: جعلته لي رداء.

وهذا أيضاً من مناقب أم سليم حيث أهدت ولدها للنبيّ ﷺ يخدمه، فكان نِعْم الخادم، فقد خدمه ﷺ عشر سنين إلى أن توفي، وتقدّم في الشمائل ما حكاه عنه من خُلُقِه معه.

٤٨٩ ـ ومن مناقبها ما حدَّث به أنس أيضاً قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدّثه. قال: فجاء فقرّبت إليه عشاءً فأكل وشرب. فقال: ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنَّ قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني. فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: **«بارك الله لكما في غابر ليلتكما»**. قال: فحملت. قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً، فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق رسول الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحة: إنك لَتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك ﷺ إذا خرج وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى. قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، انطلق. فانطلقنا. قال: وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً فقالت لي أمي: يا أنس، لا يُرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ. فلمّا أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادفته ومعه مِيسَمٌ، فلمّا رآني قال: **«لعل أم سليم ولدت»**. قلت: نعم. فوضع الميسم. قال: وجئت به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه حتى ذابت ثم قذفها في في الصبي، فجعل الصبي يَتَلَمَّظُهَا. قال: فقال رسول الله ﷺ: **«انظروا إلى حب الأنصارِ التمر»**. قال: فمسح وجهه وسمّاه عبدالله.

رواه أحمد (٣/١٠٥/١٠٦) ومسلم في الفضائل (١٦/١١/١٢/١٣).

(المخاض): هو الطلق ووجع الولادة.

وفي هذا الحديث كرامة لأبي طلحة وفضائل لأم سليم، كما فيه استجابة دعوة النبيِّ ﷺ لأم سليم وزوجها. قال المؤرخون: إنَّ هذا الولد عبدالله الذي ولد لهما في هذه الليلة أنجب عشرة رجال كلهم حفظة للقرآن علماء أخيار.

٤٩٠ ـ وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى.

رواه مسلم في الجهاد (١٢/١٨٨).

وهذا أيضاً من مناقبها، فكانت تخرج مع رسول الله ﷺ صحبة زوجها مع نساء أخريات يساعدن المجاهدين في سقي الماء وتهيئة الطعام ومداواة الجرحى، ولم يكن يقاتلن إلا دفاعاً عن النفس، كما تقدَّم في غزوة حنين أنَّ أبا طلحة قال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك.

رواه مسلم (١٢/١٨٨).

فأنكر عليها رسول الله ﷺ حمل السلاح ولكنه لم ينكر عليها الدفاع به عن نفسها.

ومن مناقبها العظيمة أنها مُبَشَّرةٌ بالجنة.

٤٩١ ـ فعن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «**دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت: مَن هذا؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك**».

رواه مسلم (١٦/١١).

وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُريت الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة ثم سمعت خَشْخَشَةً أمامي فإذا بلال**».

رواه مسلم (١٦/١١) أيضاً.

«**الغميصاء**» بضمّ الغين: مصغرة، ويقال: الرميصاء أيضاً، من أسماء أم سليم. وهذه منقبة لها عظيمة.

وبالجملة فهذه السيدة من كبار سيدات نساء الأنصار وأفاضلهن رضي الله تعالى عنها. لها أحاديث عن النبيِّ ﷺ وروى عنها أنس ولدها، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبو سلمة بن عبدالرحمٰن، وآخرون.

* * *

❀ مناقب أم حَرَام الأنصارية رضي اللّه تعالى عنها

هي بنت ملحان، أخت أم سليم، وزوجة عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنهما، وخالة أنس. كان النبيُّ ﷺ يتردد إليها وينام عندها في القيلولة، وكانت هي وأختها أم سليم خالتين له ﷺ، وهو الجواب الصحيح عن دخوله عليهما وخلوته بهما، قال النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أنها ـ يعني أم حرام ـ كانت مَحْرَماً له ﷺ، واختلفوا في كيفية ذلك. فقال ابن عبدالبر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة. وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو جدّه لأن عبد المطلب، كانت أمه من بني النجار.

ذكره في الإمارة (٥٧/١٣). وقال في الفضائل (١٠/١٦): إنهما كانتا خالتين لرسول الله ﷺ مَحْرَمَتَين إما من الرضاعة وإما من النسب، فتحل له الخلوة بهما، وكان يدخل عليهما خاصة لا يدخل على غيرهما من النساء إلا أزواجه.

٤٩٢ ـ ومن مناقب أم حرام أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا ذهب إلى قباء دخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، فدخل عليها فأطعمته وجلست تَفْلي رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك. الحديث في غزاة البحر وقولها: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**إنك منهم**». فتزوجها عبادة بن الصامت فغزا في البحر مع معاوية أيام عثمان فحملها معه، فلمّا أن جاءت قرّبت لها

بغلة فركبتها فصرعتها فاندقت عنقها فماتت. وانظر ما تقدَّم في المعجزات رقم (١٠٦).

وكان ذلك سنة سبع وعشرين، وكان في هذه الغزوة: أبو ذر وأبو الدرداء رضي الله تعالى عنهما.

روى عن أم حرام زوجها عبادة بن الصامت، وعُمَير بن الأسود، وعطاء بن سيار، ويعلى بن شداد بن أوس.

* * *

❀ مناقب أسماء بنت يزيد

هي أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرىء القيس الأنصارية الأوسية الأشهلية، هي بنت عمِّ معاذ بن جبل، كان يقال لها: خطيبة النساء، وقالوا: إنها شهدت غزوة اليرموك في قتال الروم بالشام، فقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً. قال ابن عبدالبر في الاستيعاب: كانت من ذوات العقل والدين، روي عنها أنها جاءت النبيَّ ﷺ فقالت: إني رسول مَن ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي، إنَّ الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، وموضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإنَّ الرجال فضلوا بالجماعات، وشهود الجنائز، والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم، أفنشاركهم في الأمر يا رسول الله؟ فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال: **«هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟»** فقالوا: بلى والله يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: **«انصرفي يا أسماء، وأعلمي مَن وراءك من النساء أنَّ حسن تبعُّل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال»**. فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ.

هكذا ذكره بلا سند ولا عَزْو لأحَدٍ.

وكانت من المبايعات في جملة من النسوة، كما يتضح من الحديث التالي:

٤٩٣ ـ فعن أم سلمة الأنصارية رضي الله تعالى عنها قالت: قالت امرأة من النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: «**لا تنُحن**». قلت: يا رسول الله، إنَّ بني فلان أسعدوني على عمي ولا بدَّ لي من قضائهم. فأبى عليَّ فعاتَبْتُه مراراً، فأذن لي في قضائهم، فلم أنُح بعد قضائي ولا على غيره حتى الساعة ولم يبقَ من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٠) بسند صحيح، وكذا رواه ابن ماجه.

(أسعدوني) أي: ساعدوني على النياحة. (فعاتبته) أي: راجعته.

وأم سلمة الأنصارية هذه هي أسماء بنت يزيد كما نقله الحافظ عن عَبْدِ بن حُمَيد.

٤٩٤ ـ ومن غرائب حديثها ما أخرجه أبو داود بسند حسن عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تَقْتُلنَ أولادكُن سرًا**». قال: «**الغِيل يدرك الفارِسَ فَيُدَعْثِرُهُ عن فَرَسِه**».

روى عنها ابن أخيها محمود بن عمرو الأنصاري، ومهاجر بن أبي مسلم مولاها، وشهر بن حوشب وهو أكثر الناس رواية عنها.

* * *

❀ مناقب الرُّبَيِّع بنت النَّضْر الأنصارية رضي اللَّه تعالى عنها

هي بنت النضر الأنصارية النجارية، أخت أنس بن النضر الذي استشهد بأحد، وعمة أنس بن مالك، ووالدة حارثة بن سراقة الذي جاء في شأنه حديثها التالي:

٤٩٥ ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ الربيع بنت النضر أتت النبيَّ ﷺ وكان ابنها حارثة بن سراقة أصيب يوم بدر فقالت: يا نبيَّ الله، ألا تحدِّثني عن حارثة، إن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة، إنها جِنان في الجنة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها**».

رواه أحمد (٣/٢١٠)، والبخاري في الجهاد (٦/٣٦٦/٣٦٧)، والترمذي في تفسير سورة المؤمنين.

وهي التي كانت أصابت سناً لجارية فأمر رسول الله ﷺ بالاقتصاص منها.

٤٩٦ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ الرُّبَيِّع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله، أتكسر ثنية الرُّبَيِّع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أنس، كتاب الله القصاص**». فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من عباد الله مَن لو أقسَمَ على الله لأبَرَّه**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وأهل السنن، وقد تقدَّم في تفسير سورة البقرة رقم (٨٦) غير أنه وقع عند مسلم ما يخالف رواية البخاري، وما ظاهره الغلط، وانظر توجيه ذلك عند النووي (١١/١٦٣).

(الأرش) بفتح الهمزة وسكون الراء: الدية.

وفي الحديث فضل الرُّبَيِّع حيث نجاها الله تعالى من القصاص بإكرام الله أخاها أنس بن النضر بإبرار قسمه، وما يستشكله بعض الناس من إقسام أنس هنا قد بيَّنته في التفسير فارجع إليه. وهي التي عرفت أخاها في أحُد، وكان قد قُتل ومثِّل به، فعرفته ببنانه، وقد تقدَّم حديثه في السيرة وما فعل بالكفار وما وجد فيه من الجراحات من أثر السيوف والرماح والنبال، فانظر ما سبق (٢٦٥) فإنَّ قصته في ذلك ممتعة.

* * *

❀ مناقب الرُّبَيِّع بنت معوذ رضي اللَّه تعالى عنها

هي بنت مُعَوِّذ بن عقبة الأنصارية النجارية أيضاً، كانت من المبايعات، وربما غزت مع رسول الله ﷺ تداوي الجرحى وترد القتلى وتسقي الماء للمجاهدين، وهي من الصحابة الذين رووا لنا صفة الوضوء، وممَّن روت لنا الضرب بالدف والغناء في العرس، روى عنها: سليمان بن يسار، وأبو سلمة بن عبدالرحمٰن، ونافع مولى ابن عمر، وغيرهم.

٤٩٧ ـ فعنها رضي الله تعالى عنها قالت: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنسقي القوم ونخدُمُهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

رواه البخاري في الجهاد (٦/٢٢٠).

قال الحافظ في الفتح: وفيه جواز معالجة المرأة الأجنبية الرجل الأجنبي للضرورة. قال ابن بطال: ويختص ذلك بذوات المحارم، ثم بالمتجلالات منهن ـ يعني: كبيرات السن ـ لأن موضع الجرح لا يلتذ بلمسه بل يقشعر منه الجلد، فإن دعت الضرورة لغير المتجالات فليكن بغير مباشرة ولا مس، ويدل على ذلك اتفاقهم ـ يعني: الفقهاء ـ على أنَّ المرأة إذا ماتت ولم توجد امرأة تغسلها أنَّ الرجل لا يباشر غسلها بالمس بل من وراء حائل في قول بعضهم، وفي قول الأكثر تُيَمَّمُ.

قال ابن المُنَيِّرُ: الفرق بين حال المداواة وتغسيل الميت أنَّ الغسل عبادة والمداواة ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات. أقول: وهو الحق والصواب، إن شاء الله تعالى، وقد قدَّمنا شيئاً من هذا في الجهاد.

٤٩٨ ـ وعنها قالت: أتانا رسول الله ﷺ فوضعنا له الميضأة، فتوضأ ثلاثاً، ومسح برأسه مرتين، بدأ بمؤخره وأدخل إصبعيه في أذنيه. وفي رواية: ومسح صُدْغَيْه وأُذُنَيه ظاهِرَهما وباطِنَهما.

رواه أحمد في مسنده (٦/٣٥٩) من طريقين وسنده حسن، ورواه ابن

ماجه (٤٤٠)، والحاكم (١٥٢/١) بلفظ: فأدخل أصبعيه في حجري أذنيه. أي: ثقبيهما.

فهذا الحديث بلفظ: مسح الصدغين وأذنيه ظاهرهما وباطنهما؛ مما اختصَّت بروايته.

٤٩٩ ـ وعنها قالت: جاء النبيُّ ﷺ فدخل عليَّ غداة بُني بي، فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جوَيْريات لنا يضربن بالدف ويندبن مَن قُتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد. فقال لها: «**دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين**».

رواه البخاري وغيره، وتقدَّم الكلام عليه في النكاح، والجواب عن دخوله ﷺ عليها وهي عروس.

وكانت تحت إياس بن البكير فاختلعت منه بجميع ما تملك وتخاصما إلى عثمان، وكان ذلك سنة خمس وثلاثين، وعثمان في الحصار. ولا يُعرف وقت وفاتها.

وبهذه تمَّ الكلام على ما أردنا إيراده من أفراد المهاجرين والأنصار بذكورهم وإناثهم.

وسنتبع ذلك بفضائل القبائل وبعض الأمصار والأمم.

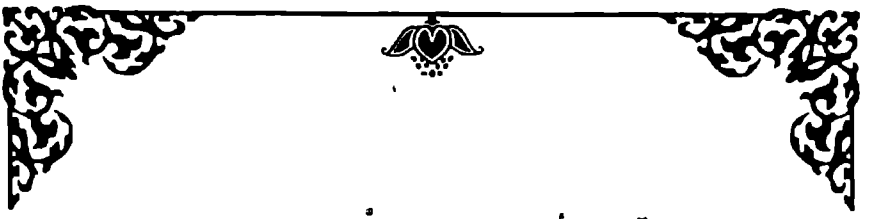

مناقب الأنصار رضي الله تعالى عنهم

٥٠٠ ـ عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمنٌ، ولا يبغضهم إلا منافقٌ، فمَن أحبهم أحبه الله، ومَن أبغضهم أبغضه الله**».

رواه البخاري في المناقب (١١٤/٨)، ومسلم في الإيمان (٦٣/٢)، والترمذي (٣٦٦٤) والنسائي في الكبرى (٨٨/٥) كلاهما في المناقب، وابن ماجه في السنّة (١٦٣).

٥٠١ ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**».

رواه البخاري (٦٩/١) ومسلم (٦٣/٢) كلاهما في الإيمان.

«**آية المنافق**»: الآية هنا العلامة.

٥٠٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر**».

رواه مسلم (٦٤/٢) وعن أبي سعيد عنده مثله.

هذه الأحاديث تدل على أنَّ حب الأنصار علامة على الإيمان وبغضهم دال على النفاق. فإنَّ مَن عرف مرتبتهم وما قاموا به من نصرة النبيِّ ﷺ وإيوائه إلى ديارهم، ونصر الإسلام والسعي في إظهاره والقتال لأجله، وبذلهم أموالهم ونفوسهم في سبيل ذلك، وحبهم النبيَّ ﷺ الحب

الكامل، وإيثاره على أموالهم وأنفسهم وأولادهم. أقول مَن عرف ذلك منهم أحبهم لله ولرسوله ﷺ، وكان ذلك علامة على إيمانه. أما مَن أبغضهم لذلك كان منافقاً وكافراً. ولذلك كان النبيُّ ﷺ يحبهم ويحب نساءهم وأولادهم.

٥٠٣ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أنَّ امرأة من الأنصار أتت النبيَّ ﷺ معها أولادها، فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، إنكم لأحب الناس إليَّ**» قالها ثلاث مرار.

رواه البخاري في المناقب (١١٥/٨) وفي الأيمان والنذور (٦٦٤٥) ومسلم في الفضائل (٦٨/١٦).

وتقدَّم لنا حديث أنس أيضاً في النكاح أنَّ النبيَّ ﷺ رأى النساء والصبيان مقبلين من عرس فقام فقال: «**اللَّهم أنتم من أحب الناس إليَّ**» قالها ثلاث مرار.

وهو في المناقب للبخاري (١١٤/٨).

فكان ﷺ يحب الأنصار برجالهم وأطفالهم.

ولذلك كان يدعو معهم ويستغفر لهم ولأبنائهم، وتمنى أن يكون منهم.

٥٠٤ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: حزنت على مَن أصيب بالحَرَّةِ[1]، فكتب إليَّ زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع

---

(١) الحَرَّة: قصة الحرة مشهورة، وذلك أنَّ أهل المدينة كانوا امتنعوا من مبايعة يزيد بن معاوية فبعث إليهم جيشاً من الشوام لقتالهم، فخرج أهل المدينة إليهم فالتقوا في الحرة الشرقية، فكانت المعركة فانتصر جيش يزيد على أهل المدينة. وقتلوا منهم المئات من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين من سكان المدينة، واستباحوها وارتكبوا الفواحش والعظائم بها، ولمّا بلغ ذلك أنساً وكان بالبصرة وهو أنصاري حزن لذلك حزناً شديداً، فبعث إليه زيد بن أرقم يبشّره بما قال فيهم رسول الله ﷺ. وهذا الحدث الأليم كان سنة ٦٣ للهجرة، وهو من أشنع ما حصل أيام ولاية يزيد، فلا مثيل له إلا قتل الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم من ربّنا الرضوان والسلام.

رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار**».

رواه البخاري في تفسير سورة المنافقين (٢٧٦/١٠)، ومسلم في الفضائل (٦٧/١٦)، والترمذي (٣٦٦٦) بتهذيبي. وفي رواية لمسلم: «**وللذراري الأنصار، ولموالي الأنصار**».

٥٠٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سَلك الناس وادياً وسلكتْ الأنصارُ وادياً** ـ أو: شِعْباً ـ **لسلكت وادي الأنصار** ـ أو: **شعب الأنصار** ـ».

رواه البخاري في التمني رقم (٧٢٤٤) وفي المناقب (١١٣/٨).

وقد تقدَّم في قَسْم غنائم حنين حديث أنس وأنه ﷺ جمع الأنصار وقال لهم فيما قال: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى. وفي رواية لعبدالله بن زيد: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبيّ ﷺ إلى رحالكم؟**». وجاء في بعض الروايات: «**المحيا محياكم والممات مماتكم**».

وانظر ما سبق في السيرة (٤٩٤/٤٩٥).

وهذا غاية ما يكون من محبته ﷺ للأنصار، فتمنى أن يكون واحداً منهم لولا منعه من سمة الهجرة، ثم زادهم بشارة تطييباً لخواطرهم وتثبيتاً لهم بأنه معهم دائماً في حياته وبعد موته.

ولمزيد عنايته بهم واهتمامه بشأنهم بعد موته أوصى بهم أصحابه من المهاجرين وأمرهم هم الآخرين بالصبر على الأثرة التي سيلقونها حتى يلقوه على الحوض.

٥٠٦ ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله تعالى عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبيّ ﷺ منا. فدخل على النبيّ ﷺ

فأخبره بذلك. قال: فخرج النبيُّ ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرْدٍ. قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشِي وعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**».

وفي رواية: «**والناس سيكثرون ويقلُّون**». رواه البخاري في المناقب (١٢١/٨) بالرواية الأولى، ورواه مسلم في الفضائل (٦٨/١٦) والترمذي (٣٦٦٩) بالرواية الثانية.

«**كرشي**» بفتح الكاف وكسر الراء: هو مستقر الغذاء. و(العيبة) بفتح العين وسكون الياء: وعاء توضع فيه الحوائج وفاخر الثياب.

ومعناه: الأنصار جماعتي وخاصتي وأصحاب سري الذين أثق بهم، فهم بمثابة مستقر الطعام من الحيوان الذي هو غاية في الخفاء، ومنزلة الوعاء الذي يوضع فيه أنفسُ الثياب وفاخرها.

وفي الحديث الوصاية بالأنصار، والأمر بقبول محاسنهم والعفو عن مساوئهم.

٥٠٧ ـ وعن أُسَيْد بن حكيم رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعمِلُني كما استعملت فلاناً؟ قال: «**ستلقون بعدي أثَرَة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

رواه البخاري (١١٨/٨) ومسلم في الإمارة (٢٣٥/١٢).

(الأثرة) بفتحات: أشار ﷺ بأنَّ الناس سيستأثرون بالولايات وشؤون الحياة دونهم، وأنهم سَيُهَمَّشُون ولا يُعتَبرون، فأمرهم ﷺ بالصبر على ذلك حتى يموتوا ويلقوه عند حوضه وهنالك سيلقون ما يستحقونه. وهكذا حصل لهم فإنهم أُبعدوا عن الخلافة والولايات وأُهملوا رضي الله تعالى عنهم. والأنصار مع كونهم مختارين مرضيين عند الله ورسوله ﷺ، وقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه الكريم على الخصوص حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

كما أثنى عليهم نبيُّ الله ﷺ، كما رأيت، فهم متفاضلون فليسوا سواء، فبعض بيوتاتهم أفضل من بعض، وقد فاضل بينهم نبيُّ الله ﷺ وقال عن الجميع: «**وفي كل دور الأنصار خير**».

٥٠٨ ـ فعن أبي حُمَيد رضي الله تعالى عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ خَير دُورِ الأنصار دارُ بني النجَّارِ، ثُم بَني عبد الأشْهَل، ثم دَارُ بني الحارِث، ثُم بني سَاعِدة، وفي كل دُور الأنصار خيرٌ**». فلحِقْنَا سَعدَ بن عُبَادة فقال أبو أسيد: ألم ترَ أنَّ نبيَّ الله ﷺ خيَّر الأنصار فجعلنا أخيراً. فأدرك سعدٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، خُيِّرَ دور الأنصار فَجُعلنا أخيراً. فقال: «**أوَ ليس بِحَسْبِكُم أن تكونوا من الخيار**».

رواه البخاري في المناقب (١١٧/٨) وفي الزكاة رقم (١٤٨١) ومسلم رقم (١٣٩٢).

ورواه أيضاً البخاري ومسلم (٧٠/١٦)، والنسائي في الكبرى (٩٠/٨٩/٥)، والترمذي (٣٦٧٥) عن أبي أُسَيد، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة وكلاهما عند مسلم وغيره.

فرغم أنَّ الأنصار كلهم بخير أفاضل فهم متفاوتون فأفضلهم بنو النجار أخوال النبيِّ ﷺ، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث، فبنو ساعدة.

ووقعت هذه المفاضلة كما قال العلماء بحسب السبق إلى الإسلام وبحسب مساعيهم في إعلاء كلمة الله، وما جاء في مواقفهم العظيمة، ولذلك نلاحظ أنَّ أبا أيوب الأنصاري، وأبا طلحة، وأُبيّ بن كعب... كلهم من بني النجَّار، ولا يخفى ما لهم من التفوق على غيرهم، وهكذا يقال فيما تلاهم من المفاضلة من بني عبد الأشهل، فإنَّ أسَيد بن الحضير وسعد بن معاذ كانا من ساداتهم وأفاضلهم لا يلحقهم من تلاهم من بني الحارث وبني ساعدة، وعلى أيٍّ فكلهم خيار سادات مرضي عنهم، وحسب الأنصار فضلاً وشرفاً أنَّ أكثر شهداء الصحابة في غزوات النبيِّ ﷺ كانوا من الأنصار.

٥٠٩ ـ قال قتادة رحمه الله تعالى: ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعَز يومَ القيامة من الأنصار. قال: وحدَّثنا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قتل منهم يوم أُحُد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب.

رواه البخاري في غزوة أُحد من كتاب المغازي رقم (٤٠٧٨).

❊ ❊ ❊

❀ مناقب قريش والأنصار وغفار وأسلم وجهينة

٥١٠ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قريش، والأنصار، وجُهَينة، ومُزَينة، وأسلم، وأشجع، وغِفار مَوالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله**».

رواه البخاري في المناقب (٣٥٠٤/٣٥٥٢) ومسلم في الفضائل (٧٤/١٦).

(الموالي) أي: أنصار، فهؤلاء أنصار الله، والله وحده وليهم ونصيرهم.

والمراد بقريش هنا الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وهاجروا وجاهدوا في سبيله. وقد تقدَّم الكلام على قريش في الخلافة.

٥١١ ـ وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ائت قومك فقل لهم: إنَّ رسول الله ﷺ قال: أسلم سَالَمها الله، وغِفار غَفَر الله لها**».

رواه مسلم في الفضائل (٢٢/١٦) ونحوه عن أبي هريرة، وابن عمر، وجابر، وعن خُفاف بن إيماء، وعن أبي أيوب، وكلها في صحيح مسلم إلا حديثَي أبي هريرة وابن عمر ففي الصحيحين.

وإنما مدح ﷺ هاتين القبيلتين لأن أهلها انقادوا وأسلموا بدون حرب ولا قتال.

* * *

مناقب الشام واليمن[1]

٥١٢ ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهم بارك لنا في شامنا، اللَّهم بارك لنا في يمننا**». قالوا: وفي نجدنا. فقال: «**اللَّهم بارك لنا في شامنا، وبارك لنا في يمننا**». قالوا: وفي نجدنا. قال: «**هنالك الزلازل والفتن وبها** ـ أو قال: **منها** ـ **يخرج قرن الشيطان**».

رواه البخاري في الاستسقاء وفي الفتن (١٦/١٥٦) والترمذي في المناقب (٣٧١٤) بتهذيبي.

(نجدنا) نجد: كل ما ارتفع من الأرض، والمراد هنا شرق المدينة الذي كان أهله لم يسلموا بعد. «**هنالك الزلازل**» يعني: تزلزل القلوب وتحركها، ومن تلك الناحية كالبصرة والكوفة وغيرها ظهرت الفتن من الحروب كوقعة الجمل، والنهراوين، وصفين، ومنها ظهرت قرون المبتدعة كالروافض، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم من أهل البدع. و«**قرن الشيطان**»: حزبُه وأعوانه.

٥١٣ ـ وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع فقال رسول الله ﷺ: «**طوبى للشام**». فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأن ملائكة الرحمٰن باسطة أجنحتها عليها**».

رواه أحمد (٥/١٨٤)، والترمذي (٣٦١٥) في المناقب، والحاكم (٢/٢٢٩) وصححه على شرطهما وأقره الذهبي وسنده صحيح.

---

(١) ملحوظة: فضائل مكة والمدينة تقدَّمت آخر كتاب الحج فارجع إليها في المجلد الثاني.

للشام فضائل قد أُفردت بالتأليف وحسبها فضلاً أن ينزل فيها عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان ليقتل الدجال ويحكم شرع الله الضائع.

٥١٤ ـ وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه قال: قلت: يا رسول الله، أين تأمرني؟ قال: **«هنا»** ونحا بيده نحو الشام.

رواه أحمد (٣/٥) والترمذي في الفتن (٢٠٢٣) وحسّنه وصححه.

وهذا بلا شك إنما كان في زمن السلف أو في أيام عيسى، أما اليوم فالشام كباقي البلاد الإسلامية تزخر بالفساد والمفسدين، ولذلك جاء في الحديث التالي:

٥١٥ ـ عن قرة بن إياس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا فسد الشام فلا خير فيكم»**.

رواه أحمد (٤٣٦/٣)، والترمذي (٢٠٢٢)، وابن حبان (١٨٥١) وسنده صحيح على شرط مسلم.

فالشام الآن فاسدة بشعبها وسلطاتها إلا مَن رحم الله، والشام إذا أطلقت تشمل سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، والذي جعلها دويلات ممزقة هو الاستعمار.

٥١٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاكم أهلُ اليمن أضعفُ قلوباً وأرقُّ أفئدةً، الإيمان يمان، والحكمةُ يمَانية»**.

رواه البخاري آخر المغازي (١٦٣/٩/١٦٧) والترمذي (٣٦٩٩) بتهذيبي.

قوله: **«أضعف قلوباً»** أي: ألينها. وفيه فضل أهل اليمن وأنهم أرق قلوباً وأخشعها من غيرهم.

* * *

❀ من فضائل الأشعريين اليمنيين

٥١٧ ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«إنَّ الأشعريّين إذا أرْمَلُوا في الغزو أو قلَّ طعامُ عيالِهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم»**.

رواه البخاري في الشركة رقم (٢٤٨٦) ومسلم في الفضائل (٦٢/٦١/١٦).

«أرملوا» أي: فَنِيَ طعامهم، ففي الحديث فضيلة لهؤلاء الأشعريين حيث إنهم كانوا متصفين بالإيثار والمواساة، ولذلك جعلهم النبيُّ ﷺ كنفسه فقال: **«فهم مني وأنا منهم»**.

٥١٨ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار»**.

رواه البخاري في غزوات خيبر رقم (٤٢٣٢) ومسلم في الفضائل (٦١/١٦).

وفيه أيضاً فضل لهؤلاء، وقد تقدَّم حديث قدومهم على النبيِّ ﷺ في غزوة خيبر، كما تقدَّم حديث أسماء بنت عميس في قصتها مع سيدنا عمر في قضية الهجرة وقول النبيِّ ﷺ لها: **«لكم هجرتان»**.

* * *

❀ من مناقب أهل عُمَان

٥١٩ ـ عن أبي برزة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً إلى حيٍّ من أحياء العرب، فسبُّوه وضربوه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ: **«لو أن أهل عُمَان أتيتَ ما سبُّوك ولا ضربوك»**.

رواه مسلم في الفضائل (٩٨/١٦).

«عُمَان» بضمّ العين وتخفيف الميم: هي من دول الخليج العربي، أما عمّان عاصمة الأردن فبفتح العين والميم المشددة. وفي الحديث فضل أهل عُمَان لكنهم الآن خوارج أباضيون.

* * *

من مناقب أهل مصر

٥٢٠ ـ عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورحِماً»**.

وفي رواية: **«إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمة ورحماً** ـ أو قال: **ذمة وصهراً** ـ**»**.

رواه مسلم في الفضائل (١٦/٩٦/٩٧).

في الحديث معجزة له ﷺ حيث إنه أخبر بفتح مصر، فوقع كما أخبر، وفيه الوصاية بأهل مصر لأن لهم ذمة وهي التي وقعت بينه عليه السلام وبين المقوقس، كما أنَّ لهم رحماً وصهراً، فالرحم لكون هاجر أم إسماعيل كانت منهم وأما الصهر فلأن مارية أم إبراهيم منهم. وقد تقدَّم شيء من هذا في السنة الثانية من كتاب السيرة وفي المعجزات.

* * *

من مناقب العجم

٥٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلمّا قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قال رجل: مَن هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبيُّ ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً. قال: وفينا سلمان الفارسي. قال: فوضع

النبيُّ ﷺ يده على سلمان ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثُّريا لنَالَه رجالٌ مِن هؤلاء**».

وفي رواية: «**لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس** ـ أو قال: **من أبناء فارس** ـ **حتى يَتَنَاوَلَه**».

رواه البخاري في التفسير (٢٦٧/١٠)، ومسلم (١٠١/١٠٠/١٦) في الفضائل، والترمذي في المناقب (٣٦٩٧) وفي التفسير، والنسائي في الكبرى (٧٦/٥)، والرواية الثانية لمسلم.

وقد قدَّمنا في التفسير ما يتعلق بالحديث، وذكرنا هنالك بأنَّ للعجم أيادي في خدمة دين الإسلام وعلومه، وقلنا بأنَّ أكثر حفَّاظ الحديث وأصحاب الأمهات المشهورة كانوا من العجم مثل: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، كلهم كانوا عجماً، وهكذا كان شأنهم في التفسير واللغة والأدب والتصوف، فالعجم لهم شأن عظيم في خدمة الإسلام والتمسك به.

* * *

من مناقب بني تميم

٥٢٢ ـ قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لا أزال أحب بني تميم من ثلاث سمعتُهن من رسول الله ﷺ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هم أشدُّ أمَّتي على الدجال**». قال: وجاءت صدقاتُهم فقال النبيُّ ﷺ: «**هذه صَدَقَاتُ قَوْمِنا**». قال: وكانت سَبِيَّةٌ منهم عند عائشة فقال رسول الله ﷺ: «**أعْتِقِيهَا فإنها من ولد إسماعيل**».

رواه مسلم في الفضائل (٧٨/٧٧/١٦).

في الحديث فضيلة لهذه القبيلة ومنقبة لهم حيث أخبر النبيُّ ﷺ عنهم بأنهم سيكونون أقوى الناس على محاربة الدجال رغم ما سيكون عليه من القوة والسحر، واستخدام الشياطين، وأنه ﷺ نسبهم إليه فقال: «**هذه**

صدقات قومنا». ثم ختم فضلهم بالمزية الثالثة وهي كونهم من سلالة نبيِّ الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

* * *

❀ من فضائل أُوَيْس القَرَنِي رضي اللَّه تعالى عنه

٥٢٣ ـ عن أُسَير بن جابر رحمه الله تعالى قال: كان ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمن سألهم: أفيكم أُوَيْسُ بن عامر؟ حتى أتى على أُوَيْس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مراد ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يأتي عليكم أُوَيس بن عامر مع أمْدَاد أهل اليمن من مراد ثم من قرَن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»** فاستغفر لي. فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إليَّ. قال: فلمّا كان من العام المُقبل حج رجلٌ من أشرافهم فوافق عمرَ فسأله عن أويس، قال: تركتُه رَثَّ البيتِ، قليلَ المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرَن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم منه، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»**. فأتى أويساً فقال: استغفر لي. قال: لقيت عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له، ففطن له الناس فانطلق على وجهه. قال أُسَيْرٌ: وكسوته بردة، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البردة.

وفي رواية: **«إنَّ خير التابعين رجل يقال له: أويس»**. وفي رواية: إنَّ أهل الكوفة وفدوا إلى عمر وفيهم رجل ممَّن كان يسخر بأويس ... إلخ.

الحديث رواه مسلم في الفضائل (١٦/٩٤/٩٦).

قوله: «أمداد»: هم الجماعة الغزاة الذين يمدُّون الجيوش. (غبراء الناس) أي: أخلاطهم وضعافهم. (رثّ الثياب) أي: زاهداً راغباً عن الدنيا.

في هذا الحديث فوائد منها: أنَّ فيه معجزة للنبيّ ﷺ حيث أخبر بهذا الرجل الذي سيأتي بعده وأنه سيتصل بالصحابة وبالأخص عمر. ومنها أيضاً هذا الرجل العظيم وأنه بلغ في الكرامة عند الله تعالى أنه لو حلف على الله في شيء أعطاه ما أراد وأبرَّ قسمه ولم يحنثه ويخيبه فيما سأل. وفيه ثبوت كرامات الأولياء. وفيه استحباب الخمول والخفاء والفرار من الظهور طلباً للسلامة والأمن من الإعجاب. وفيه أنَّ أويساً هذا سيد التابعين بنصّ الحديث رغم أنَّ في التابعين مَن هم أشهر من أويس وأفضل علماً وشرفاً كزين العابدين بن علي بن الحسين، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وسالم بن عبدالله البر، وغيرهم من الأكابر، غير أنَّ هؤلاء وإن كانوا أفاضل وذوي علم فأويس تفوّق عليهم وسادهم بزهده وعبادته وخموله... وما إلى ذلك مما كان متصفاً به واختصَّ به دونهم. ثم كان مآله صحبة الإمام علي وانضمامه إلى صفّه وقتاله معه واستشهاده بصفّين رحمه الله تعالى وإيانا ورضي عنه وعنا معه.

وبهذا نجز الكلام على الفضائل والمناقب والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

في الفضائل والمناقب من الزوائد على البخاري ومسلم نحو من مائتي حديث ونيف.

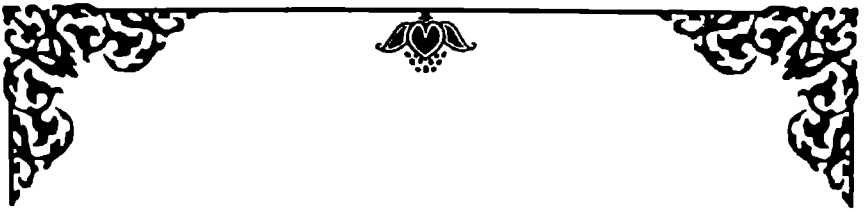

الفهرس

الموضوع	الصفحة
من فضائل النبيّ ﷺ	٥
أسماؤه الشريفة	٥
ما خلق الله تعالى خلْقاً أكرم عليه من النبيّ ﷺ	٧
إقسام الله تعالى بحياة النبيّ ﷺ	٨
نبيُّنا محمد عليه السلام أكرمُ الأوّلين والآخرين وأفضل الخلائق أجمعين	٨
من خصائصه ﷺ	١٠
هو أوّلُ مَن تَنْشَقُّ عنه الأرضُ وأوّلُ شافعٍ مُشَفَّع	١٢
هو إمامُ الأنبياء يوم القيامة وسيّدُهم وخطيبُهم وصاحبُ المقام المحمود	١٣
خصوصيته بدخول الجنة قبل غيره ﷺ وأول مَن يَمُرُّ على الصراط	١٥
خصوصيته ﷺ بالوسيلة والكوثر	١٦
سيعطيه ربُّه حتى يرضى	١٨
معجزات النبيّ ﷺ	١٩
معجزة القرآن	٢٠
معجزة انشقاق القمر	٢٢
نبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته صلّى الله عليه وآله وسلّم	٢٣
تفجير الماء ببركته وبمسّه ودعوته ﷺ	٢٤
معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ	٢٦
معجزة كلام الشجر وشهادتها له وطاعتها إيّاه ﷺ	٢٨
معجزة حنين الجذع	٣١

الموضوع	الصفحة

تسليم الحجر عليه ﷺ ٣٣
تحرُّك جبل أُحد أو حِرَاء ٣٣
معجزة تسبيح الطعام ٣٤
معجزاته في ضروب الحيوانات معجزته في الداجن ٣٥
معجزة في ذئب يتكلم مع الراعي ٣٦
معجزته ﷺ في الجمل ٣٧
معجزته ﷺ في سير الجمل بعد إعيائه ٣٩
معجزتان له ﷺ في أثر يده الشريفة ٣٩
معجزته ﷺ في عصمته من الناس ٤٠
آية في ستره عن أعين الكفار ٤١
معجزة فيمَن مات ولم تقبله الأرض ٤٢
المعجزات في إجابة دعواته ﷺ ٤٣
دعاؤه لأنس بن مالك ٤٣
دعاؤه لأمّ أبي هريرة ٤٣
دعاؤه لأبي طلحة الأنصاري ٤٤
دعاؤه لعبدالله بن هشام ٤٦
دعاؤه مع الإمام علي عليه السلام ٤٦
دعاؤه مع ابن عباس بالعلم والحكمة ٤٧
دعاؤه مع سعد بن أبي وقاص باستجابة الدعاء ٤٧
دعاؤه مع المرأة السوداء ٤٨
دعاؤه مع الضرير ٤٨
دعاؤه على مَن كذب عليه ٤٩
دعاؤه على معاوية بعدم الشبع ٥٠
دعاؤه مع قريش بالنوال ٥٠
معجزاته في الإخبار بالمغيبات ٥٢
إخباره بما هو كائن إلى يوم القيامة ٥٢
إخباره برجال من أهل الجنة ٥٤

الموضوع	الصفحة
إخباره عن المنافقين وما صدر منهم	٥٤
إخباره عن شاة ذُبحت بغير حق	٥٥
إخباره ﷺ بأول أزواجه لحوقاً به	٥٦
إخباره بموت كل مَن كان معه بعد مائة سنة	٥٦
إخباره ﷺ بجماعة آخرهم موتاً في النار	٥٧
إخباره ﷺ بِردّة بعض من صحبه	٥٨
إخباره بقتل عثمان وفتنته	٥٨
إخباره ﷺ بوقعة الجمل وصفّين وقتل عمّار بن ياسر وقتال الخوارج وقتل الإمام عليّ عليه السلام	٥٩
إخباره ﷺ بإصلاح الحَسن بين المتقاتلين	٦٣
إخباره ﷺ بما سيلقى الأنصار من الأثرة دونهم	٦٣
إخباره ﷺ بفتح اليمن، والشام، والعراق، وبيت المقدس، ومصر ...	٦٤
إخباره ﷺ بفتح فارس والروم	٦٥
إخباره ﷺ بغزاة البحر	٦٦
إخباره ﷺ بالخلافة الراشدة	٦٧
إخباره ﷺ بكثرة الخلفاء والملوك	٦٩
إخباره ﷺ بأنّ الخلافة في قريش وأنّ الأتراك سيأخذونها منهم	٧٠
إخباره ﷺ بالقتال على الملك	٧١
إخباره ﷺ بقتل الحسين عليه السلام	٧١
إخباره ﷺ بفتنة ابن الزبير وبالحجاج والكذاب الثقفي	٧٣
إخباره ﷺ بهلاك الأمّة على أيدي أُغَيلِمة من قريش	٧٤
إخباره ﷺ بما سيفتح على الأمّة من الخيرات وبركة الدنيا واتساع الملك	٧٤
إخباره ﷺ بتفرّق الأمّة	٧٦
إخباره ﷺ بالكذّابين دعاة جهنم	٧٦
إخباره ﷺ بأعوان الظلمة والنساء العاريات	٧٧
إخباره ﷺ بذهاب الصالحين	٧٨

الموضوع	الصفحة

إخباره ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة ٧٩
إخباره ﷺ بالمجدِّدين ٧٩
إخباره ﷺ باتِّباع المسلمين الكفار ٨٠
إخباره ﷺ بقتال الكفار المسلمين وتداعيهم عليهم ٨٠
إخباره ﷺ بإخوانه ومحبِّيه الذين لم يأتوا بعد يودُّون لو رأوه فدوه بأهلهم ومالهم ٨٢
إخباره ﷺ بكنز الفرات ٨٢
فضائل الصحابة رضي اللّٰه تعالى عنهم ٨٤
فضائلهم إجمالاً ٨٤
فضائل أهل بدر وبيعة الرضوان ٩٠
فضائل العشرة ٩١
فضائل الخلفاء الأربعة ٩٢
ما اشترك فيه الخلفاء الثلاثة من الفضائل ٩٤
فضائل أبي بكر الصدّيق رضي اللّٰه تعالى عنه ٩٥
فضائل عمر بن الخطاب رضي اللّٰه تعالى عنه ١٠٠
ما اشترك فيه الشيخان من الفضائل ١٠٥
فضائل عثمان بن عفان رضي اللّٰه تعالى عنه ١٠٧
فضائل أبي الحسنين سيدنا علي رضي اللّٰه تعالى عنه ١١٥
فضائل طلحة بن عبيداللّٰه رضي اللّٰه تعالى عنه ١٢٦
فضائل الزبير بن العوّام رضي اللّٰه تعالى عنه ١٢٩
فضائل سعد بن أبي وقاص رضي اللّٰه تعالى عنه ١٣٢
فضائل سعيد بن زيد رضي اللّٰه تعالى عنه ١٣٥
فضائل عبدالرحمٰن بن عوف رضي اللّٰه تعالى عنه ١٣٦
فضائل أبي عبيدة بن الجرّاح رضي اللّٰه تعالى عنه ١٣٩
فضائل أهل البيت النبويّ وقرابة رسول اللّٰه ﷺ ١٤١
ما اشترك فيه الحَسنان من المناقب ١٤٣
مناقب الحَسَن رضي اللّٰه تعالى عنه ١٤٥

الموضوع	الصفحة

مناقب الحُسين الشهيد عليه السلام ١٤٨
مناقب العبّاس عمّ النبيّ ﷺ ١٥٣
مناقب جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ١٥٥
مناقب عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ١٥٦
مناقب زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ١٥٨
مناقب أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما ١٦٠
مناقب عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما ١٦٢
مناقب أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله تعالى عنه ١٦٥
مناقب عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ١٧٠
مناقب عَبْدِالله بن عُمَر رضي الله تعالى عنهما ١٧٤
مناقب بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه ١٧٦
مناقب صهيب الرومي رضي الله تعالى عنه ١٧٨
مناقب خباب بن الأرتّ رضي الله تعالى عنه ١٧٩
مناقب عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ١٨١
مناقب ابن أمّ مكتوم الأعمى رضي الله تعالى عنه ١٨٢
مناقب خالد بن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه ١٨٣
مناقب هشام بن العاص رضي الله تعالى عنه ١٨٣
مناقب المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه ١٨٤
مناقب سيف الله خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ١٨٥
مناقب عِمْرَان بنِ حُصَيْن رضي الله تعالى عنه ١٨٨
مناقب أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله تعالى عنه ١٨٩
مناقب سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ١٩٠
مناقب سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه ١٩٢
مناقب معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ١٩٤
مناقب أُبَيّ بن كَعْب رضي الله تعالى عنه ١٩٦
مناقب زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه ١٩٧
مناقب أبي طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنه ١٩٩

الموضوع	الصفحة
مناقب جابر بن عبدالله وأبيه عبدالله بن حرام رضي الله تعالى عنهما ..	٢٠١
مناقب عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه	٢٠٣
مناقب عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه	٢٠٤
مناقب أبي الهيثم بن التيهان رضي الله تعالى عنه	٢٠٥
مناقب أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه	٢٠٧
مناقب سهل بن حُنَيف رضي الله تعالى عنه	٢٠٨
مناقب عَبّاد بن بشر الأنصاري رضي الله تعالى عنه	٢٠٩
مناقب حارثة بن النعمان رضي الله تعالى عنه	٢١٠
مناقب أبي دُجَانة رضي الله تعالى عنه	٢١١
مناقب ثابت بن قَيس رضي الله تعالى عنه	٢١٢
مناقب أبي قتادة رضي الله تعالى عنه	٢١٣
مناقب البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه	٢١٤
مناقب خزيمة بن ثابت رضي الله تعالى عنه	٢١٤
مناقب زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه	٢١٥
مناقب البراء بن مالك رضي الله تعالى عنه	٢١٦
مناقب أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه	٢١٨
مناقب حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه	٢١٩
مناقب حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه	٢٢١
مناقب عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه	٢٢٣
مناقب سلمان رضي الله تعالى عنه	٢٢٥
مناقب أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه	٢٢٧
مناقب أبي هريرة رضي الله تعالى عنه	٢٣٠
مناقب جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه	٢٣٤
قسم النساء	٢٣٧
أمهات المؤمنين	٢٣٧
مناقب خديجة بنت خُوَيْلِد رضي الله تعالى عنها	٢٤٣
مناقب سودة بنت زمعة رضي الله تعالى عنها	٢٤٦

الموضوع	الصفحة
مناقب عائشة بنت الصدّيق رضي الله تعالى عنها	٢٤٩
مناقب حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما	٢٦٠
مناقب زينب بنت خزيمة رضي الله تعالى عنها	٢٦٢
مناقب أم سلمة رضي الله تعالى عنها	٢٦٣
مناقب جويرية بنت الحارث رضي الله تعالى عنها	٢٦٦
مناقب زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها	٢٦٨
مناقب صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها	٢٧٠
مناقب أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنها	٢٧٥
مناقب ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها	٢٧٦
خلاصة ذكر أمّهاتِ المؤمنين	٢٧٨
بنات النبيّ ﷺ وأولاده	٢٧٩
مناقب زينب عليها السلام	٢٧٩
مناقب رقية عليها السلام	٢٨١
مناقب أم كلثوم عليها السلام	٢٨١
مناقب فاطمة عليها السلام	٢٨٢
إبراهيم ابن نبيّ الله ﷺ	٢٨٤
النساء المهاجرات والأنصاريات غير ما تقدّم	٢٨٧
مناقب أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ	٢٨٧
مناقب فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها والدة الإمام علي	٢٨٩
مناقب أم رومان رضي الله تعالى عنها	٢٩١
مناقب صفية عمّة رسول الله ﷺ رضي الله تعالى عنها	٢٩٢
مناقب أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنها	٢٩٣
مناقب أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها	٢٩٦
مناقب أم عطية الأنصارية رضي الله تعالى عنها	٢٩٧
مناقب أم سُلَيم الأنصارية رضي الله تعالى عنها	٢٩٨
مناقب أم حَرَام الأنصارية رضي الله تعالى عنها	٣٠٢
مناقب أسماء بنت يزيد	٣٠٣

الموضوع	الصفحة

مناقب الرُبَيِّع بنت النَّضر الأنصارية رضي اللّه تعالى عنها ٣٠٤
مناقب الرُبَيِّع بنت معوذ رضي اللّه تعالى عنها ٣٠٦
مناقب الأنصار رضي اللّه تعالى عنهم ٣٠٨
مناقب قريش والأنصار وغفار وأسلم وجهينة ٣١٣
مناقب الشام واليمن ٣١٤
من فضائل الأشعريين اليمنيين ٣١٦
من مناقب أهل عُمَان ٣١٦
من مناقب أهل مصر ٣١٧
من مناقب العجم ٣١٧
من مناقب بني تميم ٣١٨
من فضائل أُوَيْس القَرَنِي رضي اللّه تعالى عنه ٣١٩
الفهرس ٣٢١

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

المجلد الحادي عشر

ويشتمل على الآداب والأخلاق،
والبر والصلة والزهد والرقائق

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

كتاب الأدب والأخلاق

الحمد لله الكبير المتعال صاحب الفضل والإحسان، خلق خلقه فجعل منهم الكافر والمؤمن، والصالح والطالح، واختار من عباده أقواماً فضلهم على من سواهم بمكارم الأخلاق، ونزّههم عن المساوىء وهنات الأمور، نحمده ونشكره على آلائه المتوالية ليل نهار دائماً أبداً سرمداً، حمداً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه كما يحب تعالى ويرضى.

ونصلي ونسلّم على الرحمة المهداة صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد بن عبدالله المطلبي الهاشمي، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى صحابته الأبرار الميامين ومن تبعهم بإحسان وعنا معهم أبد الآبدين.

وبعد، فهذا قسم الآداب والأخلاق والبر والصلة والاستئذان، وما يتبع ذلك نقدمه لقرائنا الميامين راجياً منهم أن لا ينسوني من دعواتهم الصالحة.

* * *

❋ ما معنى الأدب

الأدب يطلق على أمرين:

الأمر الأول: يُطلق على الأسلوب الفني الجميل المكتسب من تعلُّم الشعر واللغة العربية وأساليبها نثراً وشعراً حتى يكتسب متعاطيه ملكة تمكنه

من الفصاحة في الكلام والكتابة، وتمنعه من الخلل في الكلام العربي لفظاً وكتابة.

ويقال لهذا: علمُ الأدب وصاحبه الأديب.

أما الأمر الثاني: وهو أعلى الأمرين وأحسنهما وأرقاهما فهو تهذيب النفس ورياضتها على التخلُّق بالمحاسن والمكارم في كل شيء مع الله ومع كتابه ومع رسوله ﷺ ومع سنّته... وفي جميع تصرفاته وأحواله النهارية والليلية... وفي عباداته، وفي قيامه وقعوده، ونومه ويقظته، وسفره وحضره، وأكله وشربه، ولباسه ومعاشرته أهله... وفي معاملاته مع الآخرين... وهو الذي يعبر عنه بمكارم الأخلاق والتهذيب والتزكية. وقد اتفقت جميع الشرائع والأمم والحكماء على حسنه وفضله ومدحه، وقد اهتم بهذا الجانب أئمتنا وعلماؤنا وأفردوه بالتآليف العديدة وجعلوا له أجنحة خاصة في مؤلفاتهم الجوامع؛ كالبخاري ومسلم مثلاً وأبي داود والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، والدارمي وغيرهم رحمهم الله تعالى عنهم، وجعل الجنة مثواهم.

وذكروا في ذلك أخلاقاً وآداباً تعد بالمئين، منهم المكثر، ومنهم المقل، ومنهم من جمعها في أبواب خاصة، ومنهم من فرقها حسب موضوعاتها كأدب العلم مثلاً وأدب الطهارة وأدب الصلاة وأدب الصيام... وأدب النكاح وأدب الجهاد، وأدب المعاملات.

وهكذا فلا يخلو لهم كتاب ولا باب من الآداب مضافاً إلى ما أفردوه من ذلك.

وسيمر بالقارىء ما يزيد على أربعمائة حديث تتعلق بالأدب والأخلاق، فلنعاهد الله جميعاً على التخلُّق والتأدُّب بها حسب طاقتنا البشرية، والله الهادي إلى طريقه القويم.

* * *

❁ البر والصلة
من فضل البرور بالوالدين

[١] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزّ وجل؟ قال: «**الصلاةُ على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم بِر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله**»، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني.

رواه البخاري في المواقيت (٢/١٤٨/١٥٠)، ومسلم في الإيمان (٢/٧٣/٧٤).

في الحديث أن هذه الأعمال هي أحب إلى الله تعالى وأفضلها وأقربها إليه كما في روايتين لمسلم وغيره، وأن الأفضلية والأحبية في ذلك حسب هذا الترتيب: الصلاة على وقتها، وفي رواية: في أول وقتها، ثم البرور بالوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله.

وجاء في رواية لأبي هريرة وأبي ذر رضي الله تعالى عنهما عند مسلم وغيره: سئل رسول الله ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ فذكر الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله.

ولا شك أن الإيمان بالله هو أفضل الأعمال على الإطلاق، ثم بعده الصلاة، فلا أفضل منهما بالإجماع، ثم بعدهما يأتي التفاضل بين البرور وبين الجهاد فيكون البرور أفضل من الجهاد على الإطلاق فإذا تعين الجهاد كان الواجب المقدّم والأفضل.

وعلى أيٍّ، فالبرور بالوالدين من أشرف الأعمال وأحبها إلى الله تعالى وأقربها عنده.

[٢] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**رِضا الله في رِضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٧٤٦) بتهذيبي، وابن حبان بالموارد (٢٠٢٦)، والحاكم (٤/١٥١/١٥٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن رضا الله تابع لرضا الوالدين، وأن سخطه تعالى تابع لسخطهما، ففي الحديث ترغيب عظيم، ووعيد شديد.

[٣] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: إن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب، أو احفظه**»، وربما قال سفيان: إن أمّي، وربما قال: أبي.

رواه أحمد (٤٤٥/١/٤٤٨/٤٥١)، والترمذي (١٧٤٥)، وابن ماجه (٢٠٨٩)، وابن حبان (٣٢٣٠)، والحاكم (١٩٧/٢) و(١٥٢/٤) ورجاله رجال الصحيح، ولذا صححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وعطاء بن السائب روى عنه ابن عيينة قبل اختلاطه.

وأحسن ما قيل في معنى الحديث: إن البرور بالوالد أو الوالدة سبب لدخول الجنة من أوسط أبوابها، وفيه إشارة إلى طاعة الوالدين في تطليق الزوجة، إذا كان أمرهما ناشئاً عن سبب ديني، أو كان لمصلحة راجحة.

* * *

❊ الوالدان أحق الناس بحسن الصحبة وأن الأم مقدمة على الوالد

[٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَن أحقُّ الناس بحُسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أبوك**» وفي رواية: «**ثم أدناك، أدناك**».

رواه البخاري في الأدب (٦/٤/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٠٣/١٠٢/١٦).

ونحوه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. رواه البخاري في الأدب

المفرد (٣)، وأبو داود (٥١٣٩) في الأدب، والترمذي في البر (١٧٤٣)، والحاكم (١٥٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي وزاد: «**ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب**».

قوله: «**بحسن صحابتي**» يقال: صُحْبَتِي، وصَحَابَتِي، وهما بمعنى المصاحبة، والحديثان يدلان على تقديم الأم على الأب في البرور وأنها أحق منه وأولى بالبرور والإحسان. قال العلماء: وسبب تقديمها معاناتها المشاق في سبيله كحمله ووضعه وإرضاعه وتربيته وتمريضه والقيام بجميع شؤونه، وقوله: «ثم الأقرب...» إلخ. يدل على أنه يقدم في البرور بعد الوالدين الأدنى فالأدنى كالأولاد مثلاً، والأجداد، والجدّات، والإخوة، والأخوات، والخالات، والأخوال، ثم سائر المحارم...

[٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌ والداك**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**».

رواه البخاري في الأدب (٦/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٠٤/١٠٣/١٦).

وفي رواية لمسلم قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «**فتبتغي الأجر من الله**» قال: نعم، قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**».

وفي الحديث وجوب تقديم البرور بالوالدين والقيام بشؤونهما على الجهاد في سبيل الله، وأن الإحسان إليهما والقيام بهما يقوم مقام الجهاد، ولذلك قال ﷺ للرجل: «**ففيهما فجاهد**» أي: ففي الإحسان إليهما والبرور بهما جاهد نفسك، وهذا محمول على ما إذا لم يتعين الجهاد كمداهمة العدو بلاد المسلمين، أو عين للخروج من طرف إمام المسلمين.

[٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «مَن أدرك والديه عند الكِبَر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة».

رواه مسلم في البر (١٠٩/١٠٨/١٦).

قوله: «رغم أنفه» الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها أصله لصق أنفه بالرغام، وهو تراب مختلط برمل. ومعناه: ذل وخزي، وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه، وأن برهما أو أحدهما يوجب دخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله تعالى أنفه وأخزاه، وقد تقدم نحو حديث الباب مطولاً في الصيام وفي الأذكار.

* * *

❊ إكرام صديق الوالد

[٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أبر البر، أن يصل الرجل ود أبيه».

رواه مسلم في البر (١٠٩/١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٤١)، وأبو داود (٥١٤٣)، والترمذي (١٧٤٩).

قوله: «أبر البر» أي: أفضلُهُ. وقوله: «وُدَّ أبيه» بضم الواو، أي: أصحاب مودته ومحبته. وفيه فضل برور أصدقاء الوالدين ومواصلتهم والإحسان إليهم، وذلك من إكرام الوالدين.

* * *

❊ فضل بر الخالة

[٨] عن ابن عمر أيضاً، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أم؟»، قال: لا، قال: «هل لك من خالة؟»، قال: نعم، قال: «فبِرَّها».

رواه الترمذي (١٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٢)، والحاكم (١٥٥/٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن البرور بالوالدين وكذا الخالة من مكفرات كبار الذنوب، وقد ذكر العلماء أن البرور من الأعمال التي تكفر الذنوب الكبائر كالتوبة والحج...

* * *

❊ هل يجزي ولد والديه

[٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه».

رواه مسلم في كتاب العتق، والبخاري في الأدب المفرد (١٠)، وأبو داود (٥١٣٧)، والترمذي في البر (١٧٥٣)، وابن ماجه (٣٦٥٩) وغيرهم.

في الحديث عظم حقوق الوالدين وأن الإنسان لا يستطيع مجازاتهما بحال إلا أن يجدهما مملوكين فيشتريهما فيعتقهما.

[١٠] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد رقم (١١) عن أبي بردة أنه شهد ابن عمر ورجل يماني يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لَهَا بَعِيرُهَا المُذلَّلْ ... إنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لم أُذْعَرْ

ثم قال: يا ابن عمر أتُراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزَفرة واحدة. ثم طاف ابن عمر فأتى للمقام فصلّى ركعتين ثم قال: يا ابن أبي موسى إن كل ركعتين تكفران ما أمامهما.

سنده صحيح.

قوله: «ولا بزفرة» يعني لم تقم بحقها ولو بتردد نَفَس واحد منها عند وضعها بك.

* * *

❋ البرور بالوالدين ولو كانا مشركين غير أنهما لا يطاعان في معصية الله

[١١] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: أُنزلت فيّ أربع آيات، فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

رواه أحمد (١٥٦٧/١٦١٤)، ومسلم (١٨٥/١٥) في الفضائل، والترمذي (٢٩٨٢) في تفسير العنكبوت.

قوله: «شَجَروا فاها» أي: فتحوا فمها، واقتضت الآية الكريمة مع الحديث الوصية بالوالدين والبرور بهما وطاعتهما ولو كانا كافرين إلا إذا أمرا بمعصية فلا يطاعان، بل يعصيان في ذلك.

[١٢] وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلُ أمي؟ قال: «نعم، صِلِي أمك»، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

رواه البخاري في الهبة وفي الأدب (١٧/١٣)، ومسلم في الزكاة.

قولها: «راغبة» أي: جاءت راغبة في صلتي أو في الإسلام.

والحديث يدل على جواز صلة الأم الكافرة والإحسان إليها، وذلك لما لها من حقوق على ولدها. لأنها مع الوالد كانا سببين في إيجاده، ولذلك أوصى الله عزّ وجل بهما وأمر بالإحسان إليهما والبرور بهما، وقرن ذلك بالأمر بعبادته والنهي عن الشرك به كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقوله جل ثناؤه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ إلى غير ذلك من الوصايا بهما والإحسان إليهما.

* * *

❊ تحريم عقوق الوالدين وعظم ذلك وأنه من أكبر كبائر الذنوب

[١٣] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وجلس وكان متكئاً: «**ألا وقول الزور**» ما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٣/١٦)، ومسلم في الإيمان (٣/٨١).

[١٤] ونحوه عن أنس، وزاد فيه: «**وقتل النفس**».

رواه مسلم (٣/٨٣).

في الحديثين أن ما ذكر فيهما هي من أكبر كبائر المعاصي ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم، وقد ذكر فيها عقوق الوالدين والإساءة إليهما وعدم البرور بهما، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، فأقل العقوق التأفف منهما فكيف بسبهما أو ضربهما... كما هو شائع اليوم في مجتمعنا الموبوء.

[١٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**».

رواه البخاري في الأدب (٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨٣/٢) واللفظ للأول.

ولفظ مسلم: «**يشتم الرجل...**» إلخ.

رواه أبو داود (٥١٤١)، والترمذي (١٧٤٨)، فيه أن سَبَّ الوالدين من أكبر الكبائر سواء كان من الولد مباشرة أو بسببه، كما إذا وقع تبادل الشتائم مع الغير فإن ذلك يعتبر شتماً منه لوالديه.

* * *

❊ استجابة دعاء البار بوالديه

[١٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها.**

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صِبْيَةٌ صغارٌ، كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبتُ بدأت بوالديَّ أسقيهما قبل ولدي، وإنه نأى به الشجر، فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فُرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فُرجة حتى يرون منها السماء.

وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال

النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتقِ الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها فجاءني فقال: اتقِ الله ولا تظلمني واعطني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعيها، فقال: اتقِ الله ولا تهزأ بي، فقلت: إني لا أهزأ بك فخذ تلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي، ففرج الله عنهم».

رواه البخاري في البيوع (٢٢١٥)، وفي الإجارة (٢٢٧٢)، وفي المزارعة (٢٣٣٣)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، وفي كتاب الأدب (٥٩٧٤) (ج١٣/٧/٨)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (ج١٧/٥٥/٥٨) مع النووي.

الغار: النقب في الجبل. وقوله: «نأى» أي: بعد. و«الحلاب» بكسر الحاء: اللبن المحلوب. وقوله: «والصبية يتضاغون» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع. وقوله: «الخاتم» عبرت بذلك عن بكارتها. وقوله: «بحقه» أي: بنكاح صحيح لا بزنا. وقوله: «لا أغبُق» بفتح الهمزة وضم الباء، والغبوق شرب العشاء، كما أن الصبوح شرب أول النهار.

وفي الحديث مشروعية التوسل بالأعمال الصالحة الخالصة، وفيه فضل بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما على سواهما من الزوجة والأولاد... وفيه فضل العفاف عن المحرمات والانكفاف عن الزنا مع القدرة عليه، وأن يترك ذلك لله عزّ وجل خوفاً منه. وفيه فضل أداء الأمانة والسماحة في المعاملة، وفيه إثبات الكرامات وهو مذهب أهل الحق.

* * *

❊ استجابة دعوة الوالدين

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالدين على ولدهما»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٦)، والترمذي في البر والصلة (١٧٥٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٦٢) ورجاله رجال الصحيح، غير أبي جعفر المؤذن فمقبول وله شاهد يحسن به.

رواه أحمد (١٥٤/٤) عن عقبة بن عامر.

وفي الحديث بيان أن دعاء الوالد وكذا الوالدة على الولد مستجاب فليحذر المسلم تعرضه لعقوق والديه فيدعوان عليه بدعوة تجتاح حياته.

❊ ❊ ❊

❊ رحمة الأولاد والإحسان إلى البنات

[١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي عليهما السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: **«مَن لا يَرحم لا يُرحم»**.

رواه البخاري في الأدب (٣٥/١٣)، ومسلم في فضائل النبي ﷺ (٧٧/٧٦/١٥)، والترمذي (١٧٥٨) وعنده: إن لي من الولد عشرة ما قبّلتُ أحداً منهم.

[١٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا

والله ما نقبّل، فقال رسول الله ﷺ: «**وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة**».

رواه البخاري ومسلم في المصدرين السابقين.

وفي الحديثين مشروعية تقبيل الصبيان ورحمتهم والشفقة عليهم، وأن ذلك من جملة الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوب عباده الرحماء، وفيهما إشارة إلى أن تقبيلهم كالمحارم إنما هو للشفقة والرحمة لا للذة والشهوة.

وفي الحديثين أيضاً، ذم القسوة وأن من لا يرحم العباد وخاصة الأطفال والمؤمنين لا يرحمه الله تعالى ويأتي بقية لهذا في الرقاق.

[٣٠] وعن عائشة أيضاً قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة**» أو «**أعتقها بها من النار**» وفي رواية: «**مَن ابتُلِيَ من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كُنَّ له سِتراً من النار**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٣٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٩) بالروايتين.

[٣١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضمّ أصابعه**».

رواه مسلم (١٦/١٨٠)، والترمذي (١٧٦٢) كلاهما في البر والصلة.

قولها: «ثلاث تمرات» في رواية «تمرة» فقسمتها بين ابنتيها... فيحتمل تعدد القصة. قوله: «مَن ابتلي» معناه: مَن امتحنه الله بوجودهن وما يصدر منهن فصبر على ذلك. وقوله: «فأحسن إليهن» هذا يشمل كل أنواع الإحسان، ولذا جاء في رواية عند ابن ماجه: «**وأطعمهن وسقاهن وكساهن**»، وفي رواية عند الطبراني: «**فأنفق عليهن وزوّجهن وأحسن**

أدبهن»، وفي أخرى عند أحمد ومفرد البخاري: **«يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن»**، وفي رواية عند الترمذي: **«فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن»**.

وهذه الروايات جاءت عن جماعة من الصحابة، وهي كما ترى فيها الوصاية بالبنات والحض على الإحسان إليهن وتقوى الله فيهن والصبر على ما يصدر منهن حتى يتزوجن، وأن دخول الجنة والستر من النار مشروط بالإحسان إليهن والصبر عليهن.

وإنما جاء هذا الحض والثواب على ما ذكر لإبطال ما كان سائداً في الجاهلية من بغض البنات وكراهيتهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وعلى أيٍّ، ففي الحديثين بشارة عظيمة لمن ابتلاه الله بالبنات فأدبهن وأحسن إليهن وصبر على ما يصدر منهن حتى يزوجهن، وأن جزاءه الستر من النار وأنه سيحظى بالكون مع رسول الله ﷺ في الجنان، ويا لها من بشارة.

* * *

❊ صلة الرحم
فضل ذلك

[٢٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن سرَّه»**، وفي رواية: **«مَن أحبّ أن يبسط له في رزقه أو يُنسأ له في أجله فليصِل رحمه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٠)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١١٤).

[٢٣] ومثله عندهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وقد ذكر العيني آثاراً كثيرة في فضل صلة الرحم فانظرها في عمدة القاري (ج٢٢/٩٢) وذكر بعضها أيضاً الحافظ في الفتح (١٣/٢٠).

«يُنسأ»: بضم الياء وفتح السين، أي: يؤخر. وبسط الرزق: توسيعه وتكثيره.

وفي الحديثين فضل صلة الرحم وأن ذلك يوجب التوسُّع في الرزق والزيادة في الأجل، وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في توجيههم لمعنى ذلك مع الاتفاق والإجماع القاطع على أن الله عزّ وجل قدّر الأرزاق والآجال... فلا يزاد فيها ولا ينقص منها.

وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة ذكر النووي، ثم الحافظ منها جوابين:

أحدهما: أن هذه الزيادة تكون بالبركة في الرزق والعمر والتوفيق للطاعات وعمارة الأوقات بما ينفع في الآخرة، وأن الواصل يدرك من أنواع القربات وجزيل الأجر في عشرين سنة مثلاً مما لا يدركه غيره في ستين سنة، وكذا يقال في الرزق، فقد تقع للواصل البركة في مائة درهم مثلاً فتكفيه في يومه وليلته مع عائلته ولا يكفي غيره من أمثاله ذلك...

الجواب الثاني: أن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة، وفي اللوح المحفوظ... فيظهر في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ فهي بالنسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره لا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة.. وهكذا يقال في زيادة الرزق. وهذا أظهرُ ما قيل في ذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ وجوب صلة الرحم وتحريم قطعها

[٢٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصِل من وصلك وأقطع من قطعك؟**

قالت: بلى، قال: فذاك لكِ» ثم قال رسول الله ﷺ: **«اقرأوا إن شئتم:** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٠١/٢٠٢)، وفي الأدب (١٣/٢١/٢٢)، وفي التوحيد رقم (٧٥٠٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١١٢) والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١).

قوله: «خلق الخلق» ظاهره خلق جميعهم وتخصيصه ببعضهم يخالف عمومه. وقوله: «قامت الرحم» هو على ظاهره، فإن الله قادر على أن يجعل المعاني والأعراض أجساماً وذواتاً فتتكلم، ولهذا أمثلة كثيرة في السنة، وفي رواية: **«فأخذت بحقوي الرحمٰن»** وهي صفة للّه تعالى لا نعلم كيفيتها ولا تشبه حقونا، وهو الإزار أو معقده بالنسبة إلينا. وقوله: «هذا مقام العائذ» أي: قيامي في هذا مقام العائذ والمستجير بك من القطيعة.

وفي الحديث بيان أن من وصل رحمه وصله الله برحمته وألطافه وإحسانه، ومن قطعها قطع الله تعالى عنه ما يستحق الواصل من شمول رحمته تعالى وإنعامه.

والآية المستدل بها، تدل على وعيد شديد للقاطع، وأنه من جملة الملاعن بلعنة الله عزّ وجل، وكفى بذلك جرماً.

[٢٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله».**

رواه مسلم في البر (١٦/١١٣).

الرحم: يطلق على الأقارب، وهم كل من بينه وبين الآخر نسب سواء كانوا ورثة أم لا، وسواء كانوا ذوي محرم أم لا. وقوله: «معلقة بالعرش» قد قدّمنا أن المعاني والأعراض قد تجسد ويخلق الله فيها كلاماً وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أو يرد ويؤول ويتشكك فيه.

[٢٦] وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٩)، ومسلم في البر (١٦/١١٣)، والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٦٤)، وأبو داود (١٦٩٦)، والترمذي (١٧٥٦).

قوله: «لا يدخل الجنة» أي: لا يدخلها مع الأولين أو لا يدخلها بحال إذا استحلّ المقاطعة بلا تأويل واجتهاد، وعلى أيٍّ ففي ذلك وعيد شديد.

[٢٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الرَّحِمَ شَجْنَةٌ من الرحمٰن، فقال الله: مَن وصلكِ وصلْتُه، ومَن قطعكِ قطعتُه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٣).

قوله: «شجنة» مثلث الشين، وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة، ومنه قولهم: الحديث ذو شجون، أي: يدخل بعضه في بعض. وقوله: «من الرحمٰن» أي: أخذ اسمها من هذا الاسم، والمعنى أن الرحم أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها.

[٢٨] وقد جاء في سنن الترمذي (١٧٥٤)، والأدب المفرد (٥٣)، وسنن أبي داود (١٦٩٤)، وابن ماجه (١٠٣٣) من حديث عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا الله وأنا الرحمٰنُ، خلقتُ الرحم وشقَقْتُ لها من اسمي، فمَن وصلها وصلتُه ومَن قطعها قطعتُه»** وحسّنه الترمذي وصححه، فهذا الحديث مبين لحديث الشجنة.

فالرحم خلقها الله تعالى وجعلها مشتقة ومأخوذة من صفته الرحمٰن فلها به علاقة، وليس معناه: أنها من ذات الله، تعالى الله عن ذلك.

قال ابن أبي جمرة قدّس الله سره: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، قال: وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجّاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخليهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظاهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى. اهـ. نقله الحافظ. وما قاله من عدم مواصلة الرحم الكافرة يرده ما تقدم في حديث أسماء وما يأتي وتقدم في صلة عمر أخاه وهو بمكة مشرك.

وقال النووي: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، ولكن للصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، لو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً.

* * *

❊ الواصل الحقيقي هو الذي يصل مَن آذاه أو قطعه

[٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابةً أصِلُهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويُسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «**لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمتَ على ذلك**».

رواه مسلم في البر والصلة (١١٥/١٦).

قوله: «تُسِفُّهم» أي: تطعمهم. «المَل»: بفتح الميم، الرماد الحار.

و«الظهير»: المعين والدافع لأذاهم. وقوله: «ويجهلون عليّ» أي: يعاملوني بالقبيح من القول والفعل.

وفي الحديث وعيد شديد لقاطع الرحم والمسيء لأقاربه مع إحسانهم إليه وتحملهم أذاه، فمَن يصل رحمه وأقاربه مع إذايتهم له ومقاطعتهم إياه نمثله معهم كمثل من يطعم غيره الرماد الحار وذلك لما يلحقهم من الألم والإثم العظيم في قطيعته. وفيه بشارة للواصل مع الإساءة إليه وقطيعته، وأن الله تعالى سيقيض له من الملائكة أو غيرهم من يعينه ويدافع عنه.

[٣٠] وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعت رحمه وصلها**».

رواه البخاري في الأدب (٢٩/١٣)، وأبو داود وغيرهما.

معناه: أن الواصل الكامل الحقيقي هو الذي يصل من قطعه، وليس معناه أن الذي يصل من وصله ليس بواصل، لأن هذين مستويان فلا فضل لأحدهما على الآخر بخلاف الأول. وهذا كقوله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض**»، وقوله: «**ليس الشديد بالصرعة**»، وقوله: «**ولكن المفلس** مَن...» يأتي في أحاديث أخرى.

[٣١] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يُعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يُدَّخَر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٧)، والترمذي في القيامة (٢٣٢٩) بتهذيبي، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٣١١) بسند صحيح، وصححه الترمذي.

قوله: «أجدر» أي: أحق وأولى، وفي الحديث عظم جرم البغي على العباد والاعتداء عليهم، وقطيعة الرحم؛ وأن صاحبهما معرّض للعقوبة والعذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

* * *

❋ صلة ذي الرحم المشرك

[٣٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأى عمر حُلة سِيَراء فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفود إذا أتوك، فقال: «**يا عمر إنما يلبس هذه مَن لا خلاقَ له**» ثم أُهديت للنبي ﷺ منها حُللٌ فأهدى إلى عمر منها حلة، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بعثت إليّ هذه وقد سمعتك قلت فيها ما قلت، قال: «**إني لم أُهدِها لك لتلبسها، إنما أهديتُها إليك لتبيعها أو لتكسوها**» فأهداها عمر لأخ له من أمه مشرك.

رواه البخاري في الجمعة، ومسلم في اللباس، وتقدم فيه.

قوله: «سيراء» بكسر السين وفتح الياء، هي نوع من البرود يخالطها حرير.

والحديث يدل على جواز صلة الرحم المشرك بالهدية وخاصة إذا كان يرجى منه الدخول في الإسلام ولم يكن محارباً.

❋ ❋ ❋

❋ الوصية بالجار والإحسان إليه

[٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورِّثه**».

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (٤٨/١٣)، وفي الأدب المفرد (١٠٦/١٠١)، ومسلم (١٧٦/١٦)، والترمذي (١٧٨٩) كلاهما في البر والصلة.

قوله: «سيورثه»، أي: سيجعله وارثاً.

[٣٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني

«إذا طبخت مَرَقاً فأكْثِر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصِبْهم منها بمعروف».

رواه مسلم في البر (١٦/١٧٦/١٧٧).

[٣٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**.

رواه أحمد (٢/١٦٨)، والدارمي (٢٤٤٢)، والترمذي (١٧٩٠)، وابن حبان (٢٠٥١)، والحاكم (٤/١٦٤) وغيرهم بسند صحيح على شرط مسلم.

[٣٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن لي جارَيْن فإلى أيهما أُهدي؟ قال: **«إلى أقربهما منك باباً»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٥٤).

المراد بالجار في هذه الأحاديث المجاور في السكن، وفي هذه الأحاديث الوصية بالجار والإحسان إليه وتعاهده الآونة بعد الآونة بالهدية، ويقدم الأقرب في الجوار فالأقرب، والبرور بالجار من كمال الإيمان وحقوق المسلم على أخيه. وقد أخبر النبي ﷺ بأن جبريل عليه السلام لم يزل يوصيه به حتى ظنّ أنه سيجعله من جملة الأقارب الورثة لما له من عظيم الحقوق. وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالإحسان إليه فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ...﴾ الآية.

وقدّم الجار ذا الرحم، ثم الجار الأجنبي لما للأول من الحقوق الزائدة على غيره.

ومن حقوق الجار مساعدته ومعاونته ولقاؤه بوجه طلق مع الابتسامة ومعاملته بالمعروف ورفع الأذى عنه وحفظ حرمته وحرمة أهله.

[٣٧] فعن أبي شريح رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«والله**

لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: **«الذي لا يأمنُ جاره بوائقه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٥٠)، ورواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: **«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»**.

«بوائقه»: جمع بائقة، وهي الغائلة والفتك.

فقوله: **«والله لا يؤمن...»** إلخ، مكررة ثلاثاً ومؤكدة باليمين، يدل على عظيم جريمة مؤذي جاره، وأن ذلك ينفي عنه كمال إيمانه، لأن الإحسان إلى الجار من شعب الإيمان وعلامته، لقوله ﷺ: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره»**.

رواه الشيخان، ويأتي كاملاً في الضيافة.

ومن إكرامه رفع الضرر والإذاية عنه، وهذا أقل ما يمكن أن يعامل به الجار.

* * *

❊ الإحسان إلى اليتامى والأرملة والمسكين

[٣٨] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»** وقال بأصبَعَيْه السَّبَّابة والوسطى.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٤٣)، وفي الأدب المفرد (١٣٥)، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٧٦٤)، ورواه مسلم في الزهد (١٨/١١٣) بنحوه، ونحوه عن عائشة رواه أبو يعلى (٤/٢٦٣).

[٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»**، وفي رواية: **«كالقائم لا يَفتُر، وكالصائم لا يفطر»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٤٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (١٨/١١٢).

«اليتيم» من الآدمي: من فقد أباه وهو صغير قبل الحلم، وكافل اليتيم القائم بكسوته سكناً وملبساً وأكلاً وشرباً. و«الأرملة» بفتح الهمزة والميم، التي مات عنها زوجها أو طُلّقت وبقيت أيّماً بلا زواج. و«الساعي»: هو الكاسب والقائم بمؤنتهما.

وفي الحديثين فضل عظيم وثواب فائق لمن يقوم باليتيم والأرملة والمسكين، فكفالة اليتيم تستوجب الكون مع رسول الله ﷺ في الجنة سوياً وهذه أمنية كل مسلم، أما القيام بشؤون الأرملة والمسكين فصاحبه يحرز على ثواب المجاهد في سبيل الله والصائم النهار القائم الليل، ولا يخفى ما جاء في فضل الصيام والقيام من الثواب الجزيل والأجر العظيم، وفّقنا الله للعمل بذلك، آمين.

* * *

❊ الأخلاق والآداب العامة
حقوق المسلم على أخيه وما جاء في ذلك

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حقُّ المسلم على المسلم سِتٌّ»**، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: **«إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجِبْه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعُدْه، وإذا مات فاتّبِعْه»**.

رواه مسلم في الأدب (١٤/١٤٣)، وفي الباب غير هذا.

هذه بعض حقوق المسلم على أخيه، السلام عليه عند لقائه، ويأتي حكم ذلك، وإجابته إذا دعاك لنحو وليمة إذا توفرت شروط الدعوة، والنصح له إذا طلب منك النصيحة، وتشميته إذا عطس فحمد الله بأن تقول له: يرحمك الله، وعيادته إذا مرض، واتباع جنازته إذا توفي.

* * *

❋ التعاون الاجتماعي بين المسلمين

[٤١] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر»**.

رواه البخاري في الأدب (٤٦/١٣)، ومسلم في البر (١٤٠/١٦). وفي رواية لمسلم: **«المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد...»** إلخ.

وفي رواية: **«المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»**.

قوله: «تداعى»، أي: يدعو بعضه بعضاً إلى المشاركة فيما نزل به من الألم.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للمؤمنين من أمته وأنه يجب عليهم أن يكونوا متعاطفين متراحمين متحابّين مع بعضهم بعضاً كالجسد الواحد، وهذا خلق عظيم تخلى المسلمون عنه وأصبحوا متباغضين متقاطعين شعوباً ودولاً جماعات وأفراداً غفر الله لنا وتولى أمرنا.

[٤٢] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»** ثم شبك بين أصابعه.

رواه البخاري في المساجد وفي المظالم وفي الأدب (٥٨/٥٧/١٣)، ومسلم في البر (١٣٩/١٦) والترمذي (١٧٧٤).

ففي الحديث بيان أن المؤمنين مثلهم كالبنيان في التعاضد والتعاون والتناصر، غير أن ذلك خاص في أمور الآخرة من البر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾.

* * *

❋ رحمة الناس والبهائم

[٤٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**.

رواه أحمد (١٦٠/٢)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٧٧٠)، والحاكم (٢٤٨/٤) وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وهو صحيح لطرقه وشواهده.

وفي الحديث فضل الرحماء من عباد الله، وأن من يرحم أهل الأرض يرحمه الله عزّ وجل.

والحديث يشمل كل خلق الله من مؤمن وكافر وحر وعبد وحيوان، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام، والسقي، والتخفيف في الحمل بالنسبة للبهائم وترك ضربهم.

[٤٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل إليه فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: **«في كل ذات كبد رطبة أجر»**.

رواه البخاري في الأدب (٤٥/١٣) وفي الطهارة، وفي المظالم، ومسلم في كتاب الحيوان (٢٤١/١٤)، وأبو داود في الجهاد.

الثرى بفتح الثاء المشددة: وهي الأرض التي فيها الندى. قوله: «فشكر الله له» أي: أثنى عليه وقبل جازاه عليه. وقوله: «في كل ذات كبد رطبة» أي: في كل حيوان له كبد رطبة، أي: حية، ومعنى رطبة أي: رطوبة الحياة لأن الميت يجف جسمه وتيبس كبده.

وفي الحديث فضل رحمة خلق الله حتى الحيوانات، وأن من رحم خلقاً فيه حياة رحمه الله تعالى وغفر له ولم يحرمه من ثواب ذلك.

غير أن إطعام الخلق وسقيهم إذا كانوا محترمين وأذِنَ الشارع في الإحسان إليهم كمطلق المؤمنين والحيوانات المأذون فيها والكافر المعاهد أو الأسير مثلاً، أما غير هؤلاء كالكافر المحارب أو الحيوانات المأذون في قتلها كالفواسق الخمس أو الست من الحية، والعقرب، والحُدَيا، والغراب، والفأرة، والكلب العقور مثل الأسد، والنمر، والذئب، والثعلب، فهؤلاء لا يجوز إطعامهم ولا سقيهم بل ولا تربيتهم.

* * *

❊ ذم المنزوع منهم الرحمة

[٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول: **«لا تُنزَعُ الرحمة إلا من شقي»**.

رواه أحمد، رقم (٧٩٨٨) وفي مواضع أخرى، والطيالسي (٢٠٧٢)، وأبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٧٦٩) بتهذيبي، وابن حبان (٢٠٦٥)، والحاكم (٤/٢٤٨/٢٤٩) وسنده صحيح.

وقد قدّمنا حديث: **«مَن لا يَرحم لا يُرحم»**، كما قدّمنا حديث: **«لقد حجَّرت واسعاً»** تقدم في الطهارة.

ففي الحديث ذم شديد لمن لا يرحمون خلق الله وأنهم من جملة الأشقياء عياذاً بالله تعالى.

❊ التنفيس على المسلمين وستر عوراتهم ومساعدتهم وقضاء حوائجهم

[٤٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن نفَّس عن مسلم كرْبة من كُرَب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَن يسّر على مُعْسِرٍ في الدنيا يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبدُ في عَوْن أخيه»**.

رواه مسلم (٢١/١٧) في الذكر والدعاء، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٦)، والترمذي (١٧٧٦)، وابن ماجه وغيرهم، وزاد مسلم: «**ومَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نَسَبُهُ**».

قوله: «مَن نفّس» أي: أزال عنه تلك وكشفها.

والحديث جامع لأنواع من الأخلاق والآداب، ففيه فضل قضاء حوائج المسلمين، وتفريج كربهم، والتيسير عليهم ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو مساعدة أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة، وفيه الستر على المسلمين، والغض عن عوراتهم وعدم كشفها وبثها بين الناس.

[٤٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**».

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (١٣٥/١٣٤/١٦)، وأبو داود (٤٨٩٣)، والترمذي (١٢٩٦) وفيه أن أُخوة الإسلام تقتضي عدم ظلم المسلم وسبه والطعن فيه، كما فيه أن من كان ساعياً في مساعدة أخيه وقضاء حاجته كان الله تعالى معيناً له على قضاء حوائجه، فالجزاء من جنس العمل كما فيه فضل تفريج كرب المسلمين، وبالتالي فضل ستر المسلم وعدم كشف ما صدر منه من الزلاّت إذا كان من ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك ولا سيما إذا كانت زلّته تتعلق بحق مسلم من مال أو انتهاك عرض وكرامة فإنه لا يجوز الستر عليه في ذلك، بل ينكر عليه ويرفع أمره إلى ذوي السلطة.

* * *

❋ احترام الكبير وتوقيره ورحمة الصغير

[٤٨] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٥٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي (١٧٦٦) وصححه وذلك لشواهده.

قوله: «ولم يعرف شرف كبيرنا» في رواية: **«ويعرف حق كبيرنا»**، وهي رواية للبخاري وأبي داود، وفي رواية للبخاري: **«ويجل كبيرنا»**.

الحديث بجميع ألفاظه يدل على مشروعية احترام الكبير من الرجال والنساء وخاصة إذا اجتمع كبر السن وكبر القدر كالعلم مثلاً، والاستقامة، والشرف، والتوقير والاحترام يكون بأشياء كثيرة كالتقديم مثلاً في الصلاة، والكلام، والأكل، وخفض الصوت عند مكالمتهم، ومساعدتهم في الجلوس والقيام والمشي، ونحو ذلك. كما في الحديث رحمة الصغير والعطف عليه وملاطفته وتعليمه وتأديبه بالليونة والرفق.

❋ ❋ ❋

❋ أحاديث جامعة للخير والمعروف

[٤٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُدْه؟ أما علمتَ أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمني، فقال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك**

وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

رواه مسلم في البر والصلة (١٢٦/١٢٥/١٦).

قوله: «مرضت فلم تعدني» أي: مرض عبدي، ونسبه تعالى إلى نفسه تشريفاً للعبد وتقريباً له، قال عياض ثم النووي: ومعنى وجدتني عنده، أي: وجدت ثوابي وكرامتي، ويدل عليه قوله في باقي الحديث: «**لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**» «**لو أسقيته لوجدت ذلك عندي**»، أي: ثوابه، وقد يحمله بعضهم على ظاهره فيفوض كيفيته ومعناه ولا يؤوله لا بمعية الذات ولا العلم.

[٥٠] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله، وجهادٌ في سبيله**»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها**»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تُعين صانعاً أو تصنع لأخرق**»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «**تدعُ الناس من الشر، فإنها صدقة تصدَّق بها على نفسك**».

رواه البخاري في العتق (٢٥١٨)، ومسلم في الإيمان رقم (٨٥).

الأخرق: هو الذي لا صنعة له.

وفي الحديث بيان بعض أفضل الأعمال التي منها الإيمان والجهاد في سبيل الله، وبيان أفضل ما يعتقه الإنسان من الرقاب وهي ما كانت أغلا ثمناً وأفضلها عند أهلها، وفيه فضل معاونة الصانع أو العمل لجاهل صنعة مثلاً ومساعدته، كما أن فيه رفع الشر والإذاية عن الناس، وأن ذلك يُعتبر صدقة وهو عمل سلبي ليس فيه كبير كلفة.

[٥١] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدّق**»، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «**فيُعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيأمر بالخير أو يأمر بالمعروف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فلْيُمْسِك عن الشر فإنه له صدقة**».

رواه البخاري في الأدب (٥٥/١٣)، ومسلم في الزكاة (٩٤/٧).

المعروف: اسم كل فعل يُعرف حُسْنُه بالشرع والعقل معاً كما قال العلماء. و«الملهوف»: هو المضطر أو المظلوم.

والحديث يدل على أن الصدقة لا تنحصر في التصدُّق بالمال مثلاً بل كل فعل خير يعتبر صدقة. وقوله: «على كل مسلم صدقة» تقدم في الصلاة أنها ثلاثمائة وستون وأنه تقوم مقامها ركعتا الضحى.

[٥٢] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الهلاك صدقة، وبصرُك للرجل الرديء البصر صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي (١٨٠٢)، وابن حبان (١٠٧٦/٨٦٤) وهو حسن أو صحيح لشواهده.

وهذا كسابقه يقتضي أن كل ما فيه نفع للغير جلباً أو دفعاً يعتبر صدقة، وسيأتي مزيد لهذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

[٥٣] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المُقْسم.

ونهى عن الشرب في الفضة، ونهى عن تختُّم الذهب، وعن ركوب المياثير، وعن لبس الحرير والديباج، والقسي والإستبرق.

رواه البخاري في الأدب (٢٥٥/٢٥٤/١٣)، ومسلم في اللباس (٣١/١٤) مع النووي.

وقد تقدم معنى أكثر هذه الألفاظ ويأتي بعضها كنصر المظلوم، وإفشاء السلام، أما إبرار المقسم فمعناه: أن من حلف له على شيء فلا يحنثه بل يوافقه على ما حلف عليه، وليبرّه إذا لم يكن المحلوف عليه معصية.

[٥٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلّق، في المساجد** وفي رواية: ـ **إذا خرج منه حتى يعود إليه ـ ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، وفي انتظار الصلاة (٦٦٠)، وفي الرقاق (٦٤٧٩)، ومسلم في إخفاء الصدقة من كتاب الزكاة (٧/١٢٠/١٢٢)، ومالك في الجامع، والترمذي في الزهد (٢٢٠٩)، وكذا أحمد (٢/٤٣٩)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٦١).

في الحديث فضل هؤلاء الأصناف السبعة وأنهم ممن لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يصيبهم هول الموقف، بل سيكونون مظللين تحت ظل الله، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين آمين آمين، ويأتي الحديث مرة أخرى في الرقائق.

[٥٥] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطُهُور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك ـ أو عليك ـ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

رواه مسلم في أول الطهارة (٣/٩٩/١٠٠)، وأحمد (٥/٣٤٢/٣٤٣/٣٤٤)، والترمذي في الدعوات رقم (٣٢٨٦) بتهذيبي، والدارمي في الطهارة، والبيهقي (١/١٠/٤٢) وعند بعضهم كالترمذي: «الوضوء شطر...» إلخ.

وقوله: «شطر الإيمان» أي: نصفه، وأصح ما قيل في هذا: أن الإيمان المراد به الصلاة، والطهور الوضوء، وهو شرط صحة لها فهو

كالنصف لها والصلاة يطلق عليها الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم. وقيل: إن الأجر فيه ينتهي تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان. وقوله: «تملآن» معناه: لو قدر ثواب ذلك أجساماً لملأت ما بين السماوات والأرض. وقوله: «والصلاة نور» لأنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به، وقيل: إن أجرها سيكون نوراً لصاحبها يوم القيامة، وقيل: لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانشراح الصدر... وللصلاة شأن في الإسلام ومزايا ليست لغيرها. وقوله: «والصدقة برهان» أي: تكون حجة على إيمانه، وقيل: يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين فتكون يوم القيامة برهاناً لصاحبها، وقيل غير ذلك. وقوله: «والصبر ضياء» فمعناه: الصبر المحبوب في الشرع وهو الصبر على طاعة الله تعالى وعن المعاصي وعلى النائبات وأنواع المكاره، فلا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب. وقوله: «حجة لك» أي: من عمل به كان حجة له يدافع عنه ومن خالفه كان حجة عليه ضده يخاصمه. وقوله: «كل الناس يغدو» معناه: كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيهلكها. أفاده النووي رحمه الله تعالى وغيره.

* * *

❊ التحابب في الله وما يتبع ذلك

[٥٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي، اليوم أُظِلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي»**.

رواه مالك في الجامع من الموطأ (١٨٤٠)، ومسلم في البر والصلة (١٢٣/١٦).

قوله: «بجلالي» أي: بعظمتي وطاعتي.

ومعناه: أن المؤمنين الذين كانوا في الدنيا يتبادلون الحب فيما بينهم لله تعالى كاجتماع على الدعوة إلى الله أو تعلم علم شرعي أو تلاوة القرآن أو ذكر الله تعالى وغير ذلك، سيناديهم الله عزّ وجل: أين المتحابون لأجلي، اليوم أجعلهم تحت ظل عرشي من حر الشمس ووهج الموقف وأنفاس الخلق وهول ذلك المشهد.

[٥٧] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عزّ وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»**.

رواه الترمذي (٢٢٠٨) وحسّنه وصححه، وابن حبان (٢٥١٠) وسنده صحيح.

[٥٨] وعن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب، برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجّرتُ فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه فسلّمت عليه ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه وقال: أبشِر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»**.

رواه أحمد (٥/٢٢٩/٢٣٣)، ومالك في الموطأ (١٨٤٣)، وابن حبان بالإحسان (٢/٥٧٥)، والحاكم (٤/١٦٩) وصححه على شرط الشيخين. قال ابن عبدالبر: هذا إسناد صحيح.

وتقدم حديث السبعة وفيه: **«ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»**.

قوله في الحديث الأول: يغبطهم أي: يستحسن حالهم أكابر أهل الجنة من الأنبياء والشهداء، وذلك لما أعدّ الله لهم من منازل ودرجات.

والحديثان يدلان على فضل التحابب والتجالس والتزاور والتباذل لله عزّ وجل لا لشيء من حظوظ الدنيا والنفس، وأن ذلك يوجب محبة الله لهم.

[٥٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مَدْرَجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا غير أني أحبه في الله عزّ وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٢٣/١٢٤).

قوله: «فأرصد» أي: أقعده يرقبه. قوله: «مدرجته» أي: طريقه. قوله: «تربها» بفتح التاء وضم الراء والباء المشددة، أي: تقوم بإصلاحها.

وفيه كسابقَيْه أن الحب في الله يوجب محبة الله لعبده. قال العلماء رحمهم الله: محبة الله عبده هي رحمته له ورضاه عنه وإرادته له الخير.

وفي الحديث فضيلة زيارة الإخوان والأصحاب وخاصة إذا كانوا صالحين.

وفيه حجة لمن يقول بصحة رؤية الملائكة، والأحاديث بذلك كثيرة تقدم بعضها، ويأتي حديث حنظلة الأسيدي في الرقائق في ذلك.

* * *

❋ إذا أحبّ اللّه عبداً حَبَّبَه إلى الناس

[٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحِبّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبّوه فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً

دعا جبريل عليه السلام فيقول: إني أُبغض فلاناً فأبْغِضْه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

رواه مالك (١٨٤٢)، والبخاري في الأدب (٧١/١٣)، وفي التوحيد باب كلام الرب عزّ وجل، ومسلم في البر والصلة (١٨٤/١٨٣/١٦) والترمذي في التفسير (٢٩٥٧) وكذا أحمد (٥١٤/٣٤١/٢).

الحديث يدل على أن العبد المؤمن إذا عمل بطاعة الله واتقاه أيضاً، أحبّه تعالى وأحبّه جبريل وملائكة الله، ثم يوضع له الحب في قلوب عباده المؤمنين فتميل إليه القلوب وترضى عنه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ أي: حباً في قلوب المؤمنين. ويا بشرى لمن أحبّه الله عزّ وجل، فإن من أحبّه كان سمعه وبصره ويده... يسمع بالله ويبصر به ويبطش به، وسيأتي حديث: «كنت سمعه...» إلخ، في الرقائق.

أما من عمل بمعصية الله وتمرّد عليه وجاهره بالكفر أو الفسوق والفجور فإن الله عزّ وجل يبغضه ويبغِّض فيه ملائكته وعباده المؤمنين من أهل الأرض، ويا خيبتاه، وقد تكلم الناس في محبة الله تعالى وبغضه، والذي نراه الإمساك عن ذلك واعتقاد أنهما صفتان للّه عزّ وجل لا ندري كيفيتهما ولا معناهما، وليستا كمحبة العباد وبغضهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

المرء مع من أحب

[٦١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقام النبي ﷺ إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال: «أين السائل عن قيام الساعة؟» قال الرجل: أنا ذا يا رسول الله،

قال: **«ما أعددت لها؟»** قال: يا رسول الله والله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صوم، ولكن أحب الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: **«المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»**، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

رواه البخاري في الأدب (٦١٩٧) (ح١٣/١٧٣/١٧٤)، وفي فضائل الصدّيق (٣٦٨٨)، وفي الأحكام (٧١٥٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٥/١٨٨) والترمذي (٢٢٠٤) في الزهد، وغيرهم.

[٦٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبّ قوماً ولما يلحق بهم؟ قال رسول الله ﷺ: **«المرء مع من أحب»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٧٨)، ومسلم في البر (١٦/١٨٨).

والحديث ذكر في المتواتر، وقد رواه نحو عشرين صحابياً.

قوله: «ولما يلحق بهم» يعني: لم يلحقهم بعمله. وفي الحديثين بشارة عظيمة للمحبين للصالحين من الأنبياء والصحابة والأئمة والعلماء الربانيين والزهّاد والعباد وكل صالح تقدم أو تأخر، فإن من يحب هؤلاء سيكون معهم في الجنة إن شاء الله، ولا يلزم من قوله: **«أنت مع من أحببت»**، وقوله: **«المرء مع من أحب»** أن يكون في منازل من يحبهم، بل يكفي أن تجمعه وإياهم الجنة.

وهذا من فضل الله على عبده المؤمن ولطفه به حيث جعله بمحبته للصالحين محبة صادقة ونية خالصة معهم في الجنة ولو بدون كبير عمل، اللهم إنا نشهدك وكفى بك شهيداً، ونشهد ملائكتك الحافظين على أني أحبك وأحب جميع أنبيائك ورسلك وخاصة خاتمهم صلواتك وسلامك عليه وعليهم، وأحب آل بيت نبيك الأطهار وزوجاته الطاهرات، وأصحابه من المهاجرين والأنصار وكل صادق منهم، وأحب كل الأئمة والعلماء الربانيين والصوفية العارفين والزهّاد والنسّاك والعباد المخلصين، وأحب كل صالح من

المؤمنين، فأسألك يا رب سؤال الذليل الحقير المضطر الفقير أن تحشرني معهم وتُدخلني الجنة في زمرتهم بدون سابقة عتاب ولا حساب ولا عقاب فإنه لا يتعاظمك شيء، وفضلك واسع ورحمتك شاملة.

* * *

❊ مَن أحبّ شخصاً في اللّه فليعلمه

[٦٣] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلمْه إيّاه».

رواه أحمد (٤/١٣٠)، وأبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٢١٠)، وابن حبان (٢٥١٤) وحسنه الترمذي وصححه، وسنده صحيح.

[٦٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ رجل بالنبي ﷺ وعنده ناسٌ، فقال رجل ممن عنده: إني لأحب هذا للّه، فقال النبي ﷺ: «أعْلَمْتَه؟» قال: لا، قال: «قم إليه فأعْلِمْهُ»، فقام إليه فأعلمه فقال: أحبَّك الذي أحببتني له.

رواه أحمد (٣/١٥٠)، وأبو داود (٥١٢٥)، والحاكم (٤/١٧١) وصححه ووافقه الذهبي، ونحوه عن أبي ذر رواه أحمد (٥/١٤٥/١٤٧) بسند صحيح.

في الحديثين مشروعية إعلام المرء أخاه حبه إياه ليقع تبادل الحب من الجانبين. قال البغوي: فيه الحث على التودد والتآلف، وذلك أنه إذا أخبره استمال بذلك قلبه واجتلب به وُدَّه.

* * *

❊ الجليس الصالح والأمر بصحبة الصالحين

[٦٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل

المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة».

رواه أحمد (٤/٤٠٤/٤٠٥/٤٠٨)، والبخاري في البيوع (٢١٠١)، وفي الذبائح (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٨)، ومثله عن أنس رواه أبو داود (٤٠٤٢) بسند صحيح.

قوله: «يحذيك» بضم الياء، أي: يعطيك.

في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ كير الحداد، لأن الجليس الصالح قد تنتفع به في دينك كأخذ علم عنه مثلاً أو اقتداءً به في هديه وسمته ونحو ذلك، أما جليس السوء فلا يصيبك منه إلا ما يخدش دينك من مشاركته فيما يصدر منه من فجور كغيبة وكذب ونحوهما من الأمور المذمومة. وفي الحديث الحض على مجالسة الصالحين وأهل الخير ومكارم الأخلاق والعلم والأدب، والتنفير من مجالسة أهل الشر ومن شأنهم المعاصي.

[٦٦] وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».**

رواه أحمد (٣/٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٢١٤) والدارمي، وابن حبان (٢٠٤٩/٢٥٠). والحاكم (٤/١٢٨) وصححه ووافقه الذهبي، وسند الحديث حسن.

في الحديث النهي عن مصاحبة غير المؤمن، يعني المستقيم، لأن الطباع تسرق بعضها، فمصاحبة قرناء السوء خطر على الملتزم وبالأحرى الساذج الفطري.

قال الخطابي: وإنما حذّر من صحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب.

فلا ينبغي للإنسان أن يطعم طعامه غير المؤمنين الأتقياء ومن قاربهم.

[٦٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٣/٤٣٤) وأبو داود (٤٨٣٣) والترمذي في الزهد (٢١٩٦) بتهذيبي والحاكم (١٧١/٤) والحديث حسن لغيره، ولذا حسّنه الترمذي وصححه النووي.

الحديث ظاهر في أن الإنسان يستقي أخلاقه ويكتسبها من أصدقائه وأخلائه، وعلى ذلك يكون دينه، فلذلك كان من واجبه أن يختار الأصدقاء والأصحاب، فإن للصحبة لشأناً في تهذيب الأخلاق وإفسادها.

* * *

❊ البر وحُسن الخُلُق

[٦٨] عن النوَّاس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **«البِرُّ حسن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»**.

رواه أحمد (١٨٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٥/٣٠٢)، ومسلم في البر والصلة (١١١/١١٠/١٦)، والترمذي في الزهد (٣٣٠٧) بتهذيبي، والدارمي (٢٧٩٣) وغيرهم.

قوله: «حاك في صدرك» أي: تحرك وتردد ولم ينشرح له الصدر وخيف كونه ذنباً.

قال النووي: قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف والمبرة، وحُسْن الصحبة والعِشرة، وبمعنى الطاعة، قال: وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق. وقال الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: حُسْن الخُلُق هو بَسْطُ الوجه، وبَذْلُ المعروف، وكَفُّ الأذى.

وفي الحديث بيان ما يعرف به الإثم من غيره، وأن كل ما لم تطمئن

إليه النفس وينشرح له الصدر ووقع فيه تردد وكره الإنسان أن يطلع عليه غيره وهو مرتكبه فهو الإثم أو قريب منه، غير أن هذا لا يكون إلا من قلب المؤمن المتقي المنوَّر القلب، أما غيره فقد ينشرح صدره للإثم ولا يحصل له فيه تردد.

[٦٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أكملَ المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً، وخياركم خياركم لنسائكم»**.

رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١٠٤٥)، والدارمي (٢٧٩٥)، وابن حبان (١٣١١)، والحاكم (٣/١) وحسنه الترمذي وصححه، وفي الأدب من صحيح البخاري (٦٦/١٣) عن ابن عمر مرفوعاً: **«إن خياركم أحسنكم أخلاقاً»** وانظر الفتح على ذلك.

الحديث يدل على أن الخُلُق الحسن من كمال الإيمان، وأن السيئ الخُلُق إيمانه ناقص مبتور، وقد جاءت أحاديث في فضل صاحب الخُلُق الحسن.

[٧٠] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين»** قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: **«المتكبرون»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٦١) بسند صحيح، ومبارك بن فضالة صرّح بالتحديث، وللحديث شواهد أشرت إليها في تهذيب الجامع في الرقم المذكور.

وفي الحديث بشارة للأحسنين أخلاقاً، وكفاهم فخراً محبة الرسول ﷺ وقربهم منه يوم القيامة.

كما فيه ذم المتشدقين بالكلام والمتعاظمين الأنانيين وأنهم من أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ وأبعدهم منه يوم القيامة، وأي خسارة فوق ذلك؟

[٧١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحُسن خلقه درجة القائم الصائم**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٨)، وابن حبان (١٩٢٧)، والحاكم (٦٠/١) ورجاله ثقات مع اختلاف في وصله ولكنه صحيح لشاهد له رواه البغوي في شرح السنة (٣٤٩٩) من حديث أبي أمامة، وشاهد آخر عن أبي الدرداء رواه الترمذي (١٨٤٧) بسند حسن.

وفي الحديث فضل عظيم لحسن الخلق وأن صاحبه ليصل به إلى درجة القائم الليل، الصائم النهار، وأي فضل أعظم من هذا؟ وما ذلك إلا لحسن معاشرة الناس وتحمُّل أذاهم، وما أثقل ذلك على النفوس.

[٧٢] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، والترمذي (١٨٤٦)، وابن حبان (١٩٢٠)، وحسّنه الترمذي وصححه، وهذا أيضاً من فضائل الخلق الحسن وأنه من أثقل شيء في ميزان صاحبه يوم القيامة، ومَن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون وهم في عيشة راضية، بل حسن الخلق من أكثر أسباب دخول الجنة يوم القيامة.

[٧٣] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة قال: «**تقوى الله وحُسن الخُلُق**» وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار قال: «**الفم والفرج**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٨)، وابن حبان (١٩٢٣) وحسّنه الترمذي وصححه.

ففي الحديث بيان ما يوجب دخول الجنة والنار في الأكثر، فذكر من أكثر ما يُدخل الجنة حسن الخلق مع تقوى الله، أما أكثر ما يُدخل النار فذكر منها الأخطرين على الإنسان وهما: الفم والفرج، لأنهما العضوان

الخطيران، ولذلك جاء عن النبي ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لِحْيَيْه ورجليه أضمن له الجنة**».

رواه البخاري ويأتي في الرقائق.

والخلق الحسن كما رغب فيه النبي ﷺ كذلك أمر به وأرشد أبا ذر ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما إلى التخلق به.

[٧٤] فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتّقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخُلُق حسن**».

رواه أحمد (٥/١٥٣)، والدارمي (٣٧٩٤)، والترمذي (١٨٣١) في البر والصلة، والحاكم في الإيمان (١/٥٤) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما، وليس كذلك بل هو صحيح فقط.

وعن معاذ نحوه، رواه أحمد (٥/٢٣٦)، والترمذي (١٨٣٢).

فهذه وصية جامعة من النبي ﷺ لأبي ذر ومعاذ خاصة ولسائر الأمة عامة، وإرشاد منه ﷺ لنا بتقوى الله في كل الأمكنة وسائر الأزمنة والأحوال، وناهيك بتقوى الله ثم إرشاده لنا بأن نتبع ما نقترفه ونأتيه من سيئات بالحسنات لتُمْحى بذلك ويُغفر لنا، ثم ختم وصيته بالأمر بمعاملة الناس بالخلق الحسن، وهو كما قدّمنا بسط الوجه للناس وملاقاتهم بالابتسام، ثم بذل المعروف لهم وما ينفعهم، ثم كف الأذى ورفع الشر عنهم، ويزاد على ذلك تحمُّل أذاهم والصبر على ذلك.

* * *

❁ مشروعية معاملة الناس بالرفق واللين وطلاقة الوجه

[٧٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة إن الله رفيقٌ يحب الرِّفق، ويعطي على الرِّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٦). وفي رواية: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» رواه البخاري في الأدب، ومسلم في السلام (٢١٦٥).

[٧٦] وعنها في رواية عن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

وفي رواية: ركبت عائشة بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده فقال لها رسول الله ﷺ: «**عليك بالرفق...**» إلخ.

رواه مسلم بالروايتين (١٦/١٤٦/١٤٧).

[٧٧] وعن جرير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن يُحرَم الرِّفق يُحرَم الخير**».

رواه مسلم (١٦/١٤٥/١٤٦) مع النووي.

[٧٨] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرِم حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير**».

رواه أحمد (٦/٤١٥) والترمذي (١٨٥٦) بتهذيبي، وحسنه وصححه وذلك لشواهده.

الرفق: بكسر الراء، لين الجانب واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه، وهو ضد العنف، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها جواز إطلاق الرفيق على الله، وقد منعه جماعة وأجازه آخرون وهو الصحيح. وهو بالنسبة لله تعالى اللطيف بعباده الذي يعاملهم بإحسانه وإمداداته الجمالية ويشملهم برحمته العامة سواء منهم المؤمن والكافر، والطائع والعاصي...

وفي هذه الأحاديث إرشاد من النبي ﷺ لأمته بأن يتعاملوا بالرفق واللينونة ويدعوا العنف والخشونة فإن الله تعالى يعطي من الخير ويسهل من المطالب بالرفق ما لا يتأتى بغيره من الخشونة والشدة، وهذا بحمد الله مشاهد.

[٧٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، ومن تَحْرُمُ عليه النار؟ على كل قريب هين سهل»**.

رواه أحمد (٣٩٣٨)، والترمذي (٢٣٠٨) في أبواب صفة القيامة، وابن حبان (١٠٩٦) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده، انظرها في المجمع (٧٥/٤).

[٨٠] وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون فذكر الحديث المتقدم في الاعتصام وفيه: **«فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد»**.

رواه أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم (٩٦/١) بهذه الزيادة وسنده صحيح.

وله شاهد عن مكحول مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ»**.

رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧).

قوله: «الأنف» هو الذي عقره الخطام، أو الذلول الذي لا يمتنع على قائده فمتى قاده انقاد.

وفي الحديثين بيان صفة المؤمن وأنه هين لين ليس بفظ ولا غليظ.

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ مؤدباً له: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ وقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

[٨١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن غِرٌّ كريمٌ، والفاجر خَبٌّ لئيم»**.

رواه أحمد (٣٩٤/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤١٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨١٠) بتهذيبي، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٠)،

والطحاوي في المشكل (٢٠٢/٤)، والحاكم (٤٣/١) وهو حديث حسن الطريقين له، بل قد يصحح على مذهب جماعة.

«غِرٌّ»: بكسر الغين و«خَبٌّ»: بفتح الخاء وكسرها، والغِر: الذي من شأنه الاغترار وقلة الفطنة، والخب: الخداع المفسد.

ومعنى الحديث، أن المؤمن من شيمته وطبعه قلة الفطنة للشر واغتراره بظواهر الأمور، ولا يكون ذلك منه جهلاً ولكن لشرف نفس وحسن خلق وترك البحث عن أحوال الناس وتغاضيه عن الشرور، أما غيره من الفجرة فعادته وطبعه الدهاء والبحث عن الشر مع خبث ولؤم.

[٨٢] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق**».

رواه أحمد (١٧٣/٥)، ومسلم في البر والصلة (١٧٧/١٦)، وتقدم مطولاً بمعناه رقم (٥٢).

وقوله: «بوجه طَلْق» أي: سهل منبسط.

[٨٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تَلْقى أخاك بوجه طلق، وأن تُفرغ من دلوك في إناء أخيك**».

رواه أحمد (٣٦٠/٣٤٤/٣) والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي في البر (١٨١٥) والحاكم.

وأوله في الصحيحين: «**كلُّ معروف صدقة**» وحسّنه الترمذي وصححه لشواهده.

[٨٤] وعن أبي جرَي جابر الهجيمي عن النبي ﷺ قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وأن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط**». الحديث يأتي بتمامه في السلام.

رواه أحمد (٦٤/٦٣/٥) و(٤٨٣/٤٨٢/٣)، وأبو داود في اللباس

(٤٠٨٤)، وفي الأدب (٥٢٠٩) والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٦) وحسنه وصححه، وسنده صحيح كما ذكرته في التهذيب.

وفي هذه الأحاديث بيان أن لقاء الإخوان المؤمنين مع الابتسامة ووجه طلق منبسط من المعروف الذي يعتبر صدقة، ومن خصال الإيمان وشعبه وعلامات حسن خلق صاحبه، والله الموفق الهادي لأقوم طريق.

* * *

❊ مداراة من يُتَّقى فُحْشُه وجواز اغتيابه

[٨٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة**، ـ أو: **بئس ـ أخو العشرة**» فلما دخل ألان له الكلام فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنتَ له في القول؟ فقال: «**أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه** أو: **ودعه الناس اتقاء فُحشه**»، وفي رواية: «**يا عائشة متى عهدتني فحاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**».

رواه أحمد (١٥٨/٦)، والبخاري في الأدب (١٤٤/١٣) (٦٣/٦٢/٨١)، ومسلم في البر والصلة (١٤٤/١٤٣/١٦)، والترمذي في البر كذلك (١٨٤١) وهو عند أحمد بزيادة.

«بئس» أي: قبح هذا الرجل من هذه العشيرة، والرجل هو عيينة بن حصن، وكان ذلك قبل إسلامه لكنه ارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ وجيء به إلى الصديق.

وقوله: «**اتقاء فحشه**» أي: تحفُّظاً من شره.

وفي الحديث مشروعية المداراة ومجاملة الناس وحسن صحبتهم ولو كانوا كفاراً أو فسقة تحفُّظاً من شرهم وهذا إذا لم يؤد إلى مداهنتهم وإقرارهم على منكر، وتحسين حالتهم. وذكر البخاري عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: وإنّا لَنَكْشُرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: خالط الناس ودينك لا تَكْلِمَنَّهُ. والكشر:

هو إظهار الأسنان عند الضحك، والكَلْمُ: هو الجرح. وذكر العلماء أن المجاملة مع الناس مطلقاً من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة الرفق بالفاسق والجاهل والإنكار عليه برفق ولطف ومجاملته، والمداهنة معاشرة الفاسق بذلك مع إظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. وفي الحديث جواز اغتياب المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم.

[٨٦] وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه قال: قسم رسول الله ﷺ أقبيةً، ولم يُعطِ مخرمة منها شيئاً، فقال مخرمة: يا بُنيَّ انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقتُ معه فقال: ادخل فادْعُه لي، قال: فدعوته له فخرج إليه وعليه قباءٌ منها فقال: «**خَبَأْنا هذا لك**»، قال: فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. قال: وكان في خُلُقِه شدة، وفي رواية: وكان في خلقه شيء.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٤)، وتقدم في اللباس والزينة.

وقوله: «وكان في خلقه شدة» يعني: كانت أخلاقه غير كريمة فكان لذلك في لسانه بذاءة، ولذلك جامله النبي ﷺ وعامله باللطف والإحسان.

* * *

❊ الحذر من الناس وقلة الصديق الخالص

[٨٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين**».

رواه أحمد (٣/١١٥/٣٧٩)، والبخاري في الأدب (١٣/١٤٦)، ومسلم في الزهد (١٨/١٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٢).

الرواية الصحيحة «يُلدغُ»: بضم الياء والغين. قال عياض في الإكمال:

ومعناه المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى وهو لا يفطن لذلك.

ففي الحديث التحذير من الغفلة وأن يكون الإنسان فطناً حذراً فلا يخدع مرتين، وللحديث سبب ذكره علماء السيرة، وهو أن النبي ﷺ أسر أبا عِزَّة الشاعر يوم بدر فمنّ عليه وعاهده أن لا يحرض عليه ولا يهجوه، وأطلقه فلحق بقومه ثم رجع إلى التحريض والهجاء، ثم أسره يوم أُحد فسأله المن، فقال النبي ﷺ: «**المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين**» ثم قتله. قال النووي: وفيه أنه ينبغي لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها لئلا يقع فيها ثانية.

[٨٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الناسُ كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة**».

رواه البخاري في الرقاق (١١٨/١٤)، ومسلم آخر الفضائل (١٠١/١٦).

ومعنى الحديث: الناس كثير، والمرضي منهم الذي يصلح للمعاشرة والصحبة مع الأمانة والصدق قليل كقلة الراحلة التي تصلح للأحمال والأسفار والركوب في كثرة الإبل فهي كثيرة والصالح منها قليل. وبناءً على هذا فليغض الإنسان الطرف عن أخلاق الناس فإنه قلما يوجد من يصلح، والله الموفق.

* * *

❋ إنزال الناس منازلهم

[٨٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله عزّ وجل إكرام ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقْسط**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٠/٧) (١٠٩٨٦)، بسند حسن، وذكر له البيهقي شواهد.

قوله: «الغالي فيه» أي: المتشدد المجاوز الحد في تلاوته أو رسمه وما إلى ذلك. وقوله: «والجافي عنه» أي: الذي يهجر القرآن ويترك تلاوته ولا يتعاهده. وقوله: «ذي السلطان المقسط» أي: صاحب السلطة والحكم العادل.

فالحديث يدل على أن إكرام هؤلاء الثلاثة واحترامهم وتعظيمهم من إجلال الله وتعظيمه وتبجيله، غير أن ذلك مقيّد باستقامة أولئك الثلاثة، فصاحب الشيبة له حق الاحترام ما دام ملتزماً مستقيماً، وحامل القرآن له حق التعظيم والتبجيل إذا كان واقفاً عند حدوده بلا تفريط فيه ولا إفراط، غير متغال فيه ولا مهاجراً له ومعرضاً عنه، أما صاحب السلطة فاحترامه وتكريمه وطاعته، كل ذلك منوط بعدله فإن خرج الثلاثة عما ذكرنا فلا إكرام ولا كرامة.

وهذا من باب تنزيل الناس منازلهم.

[٩٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أراني في المنام أتسوّك بسواك فجذبني رجلان، أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما فقيل لي: كبّر، فدفعته إلى الأكبر»**.

رواه مسلم في الزهد (١٢٩/١٨).

ففي الحديث تقديم الأكبر في تناول الأشياء والإعطاء، وسواء كان الكبير في السن أم في القدر كعلم مثلاً وشرف وفضل وصلاح، وفي الموضوع أحاديث تقدم بعضها، كحديث ابن عمر في ورق شجر البادية، وحديث حويصة في قتيل خيبر، وذلك من إجلال الكبير.

* * *

❋ التيسير على الناس

[٩١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: **«يَسّرا ولا تُعسّرا وتطاوعا»**.

وفي رواية: «**يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تُنفّروا، وتطاوعا ولا تختلفا**».

رواه أحمد (٤/٤١٧)، والبخاري في الأدب (١٣/١٤٠)، ومسلم في الجهاد (١٢/٤٠/٤١) ومثله عن أنس عند الثلاثة أيضاً.

في الحديث الإرشاد إلى التيسير على الناس وتبشيرهم بفضل الله وعظم ثوابه وعدم التشديد عليهم وأن لا ينفرهم بإفراد ذِكْرِ التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير أن يذكر لهم فضل الله ورحمته، لا سيما من كان قريب عهد بالإسلام أو بالتوبة من عصاة المسلمين، فينبغي أن يتلطف معهم ويُدَرِّجَهم في أنواع القربات شيئاً فشيئاً كما كانت أمور الإسلام في بدايته بالتدريج.

كما في الحديث الإرشاد إلى التآلف والتطاوع وعدم الاختلاف وخاصة بين ذوي السلطة.

[٩٢] وعن الأزرق بن قيس قال: كنا على شاطىء نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلّى وخلّى فرسه فانطلقت الفرس فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها ثم جاء فقضى صلاته، وفينا رجل له رأيٌ فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل فقال: ما عنّفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي مُتَراخٍ، فلو صلّيت وتركت لم آتِ أهلي إلى الليل. وذكر أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤١).

في الأحاديث بيان أن دين الإسلام ليس فيه تشديد بل هو بعيد من التنطُّع مبني على التخفيف والتيسير، وقد تقدم في الاعتصام حديث: «**إن الدين يُسرٌ...**» إلخ.

وما فعله أبو برزة مع فرسه قد ذكره الفقهاء في كتاب الصلاة وأجازوه وخاصة المالكية.

* * *

❊ الانبساط إلى الناس

[٩٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمَّعْنَ منه فيُسَرِّبُهُنَّ إليّ يلعبن معي.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٣).

قوله: «يتقمعن» أي: يتغيَّبْن ويدخلن من وراء الستر. وقوله: «فيُسَرِّبُهُنَّ» بضم الياء وسين مهملة ثم راء مشددة مكسورة، أي: يرسلهن.

وفي الحديث الانبساط إلى الناس وعدم الغبن وأن ذلك لا ينافي التقوى والصلاح، وفيه موافقة الزوجة والبنات على اتخاذ اللعب والصور، وقد أجاز ذلك العلماء واستثنوه من الصور الممنوعة، وقد قدّمنا ذلك في اللباس والزينة، وقد قدّمنا في شمائل النبي ﷺ عدة أحاديث في مزاحه مع أصحابه ومداعبته إياهم وذلك يعد من انبساطه الواسع مع الناس ﷺ.

❊ ❊ ❊

❊ التَّأنِّي والعجلة

[٩٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»**.

رواه مسلم في الإيمان (١/١٨٩) مع النووي، والترمذي في البر والصلة (١٨٥٤) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٨)، وكذا أبو داود (٥٢٢٥).

أشَجُّ عبد القيس كان من سادات أهل البحرين جاء في وفدهم إلى رسول الله ﷺ، ولما نزلوا المدينة بادر أصحابه إلى لقاء النبي ﷺ وتأخر هو حتى تنظف ولبس أحسن ثيابه وحسن هيئته، ثم أتى النبي ﷺ فقال

له: «**إن فيك...**» إلخ. والحلم: بكسر الحاء وسكون اللام، هو العفو عن المسيء بعد القدرة على الانتصار والانتقام منه. والأناة: عدم الاستعجال، فهما مما يحبه الله عزّ وجل لأنهما من مكارم الأخلاق ومحاسنها.

[٩٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما من أحد أكثرُ معاذير من الله تعالى، وما من شيء أحبُّ إلى الله من الحمد**».

رواه أبو يعلى في مسنده (٤٤٣/٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠٤/١٠)، وفي الشعب بسند حسن. وانظر مجمع الزوائد (١٩/٨) فإن له وهماً في الحكم على الحديث. العجلة بفتحات ضد التأني.

[٩٦] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة**».

رواه أبو داود (٤٨١٠)، والحاكم (٦٢/١) وسنده صحيح على شرط مسلم.

التؤدة: بضم التاء المشددة ثم همزة مفتوحة، التأني وترك العجلة، وهذه الأحاديث تفيد أن الاستعجال في الأشياء عملاً وتركاً وعدم التأني والتروي في الشيء من عمل الشيطان ووحيه. فالواجب على المسلم أن يتأنى في الأمور وينظر إلى العواقب وما ينشأ عما يأتيه من مفاسد.

نعم الاستعجال والمبادرة والمسارعة لأمور الآخرة مطلوبة ومرغّب فيها: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾.

* * *

❁ الاقتصاد في الحب والبغض

[٩٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رفعه قال: «**أحبِبْ حبيبك هَوْناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغِض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٢) بتهذيبي بسند صحيح على شرط مسلم، وله شواهد عن عبدالله بن عمرو وعلي وغيرهما، ولا يضره من أوقفه.

الهون: بفتح الهاء وسكون الواو، اللين والرفق. وقوله: «حبيبك» و«بغيضك» أي: محبوبك، ومبغوضك.

وفي الحديث الإرشاد إلى الاقتصاد والوسطية في الحب والبغض، فمن أحبّ شخصاً أو أبغضه فلا يتغالى في ذلك، فإن القلوب بيد الله فلربما انقلب الحب بغضاً أو البغض حباً كما هو الجاري الواقع بين الناس في كل العصور فيندم المرء في كلتا الحالتين ويخجل، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

* * *

❊ إماطة الأذى عن الطريق

[٩٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في الطريق إذ وجد غصن شوك فأخره فشكر الله له فغفر له**».

رواه البخاري في المظالم، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٠)، والترمذي في البر (١٨٠٤).

وفي رواية لمسلم مرّ رجل... فقال: «**والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة**» وفي أخرى: «**لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس**».

في الحديث فضل إزالة ما يؤذي المار في الطريق سواء كان شجرة أو شوكاً أو حجراً أو نجاسة أو غير ذلك مما يؤذي الناس.

ومنها إماطة الصحف والجرائد والأوراق الملقاة في الطرق بل والمزابل وفيها آيات من القرآن الكريم أو حديث للنبي عليه السلام أو اسم من

أسماء الله عزّ وجل، فترك هذه الصحف في الطريق مما يؤذي الناس في دينهم لأن وطأها محرّم بل قد يكون كفراً والعياذ بالله تعالى.

* * *

❋ فضل المنيحة

[٩٩] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن منح منيحة لَبن، أو وَرِق، أو هدى زقاقاً، كان له مثلُ رقبة»**.

رواه أحمد (٤/٢٧٢/٢٩٦/٣٠٠)، والترمذي في البر (١٨٠٣)، وابن حبان (٨٦١) وحسنه الترمذي وصححه، ورجاله رجال الصحيح.

«مَنِيحة»: هو أن يعطي الرجل أخاه المسلم ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ثم يعيدها إليه بعد انقضاء لبنها، وهذا كان من عادات العرب ومحاسنهم، ومنيحة الورق: أن يسلف أخاه ما يحتاجه من مال. وقوله: «أو هدى زقاقاً» بضم الزاي، معناه أن يدل أخاه على الطريق ويرشده السبيل.

فالعمل بهذه الخصال الثلاثة من الأخلاق الكريمة والآداب الحسنة يستحق صاحبها أجر عتق رقبة، وناهيك بأجر ذلك إنه عتق من النار.

* * *

❋ الإحسان إلى الخادم

[١٠٠] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إخوانكم خوَلُكم، جعلهم الله فِتْية تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه، وليُلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعِنه»**.

رواه أحمد (٥/١٦١)، والبخاري في الإيمان (١/٩٤) وفي الأدب،

ومسلم في الأيمان والنذور (١١/١٣٣)، وأبو داود (٥١٥٨)، والترمذي في البر (١٧٩١)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٠).

وقوله: «إخوانكم خَوَلكم» بفتح الخاء والواو، أي: خدمكم أعطاكموهم الله عزّ وجل.

وفي الحديث إرشاد إلى الإحسان بالخدم سواء كانوا مملوكين أم أحراراً، وأنه يجب إطعامهم وكسوتهم وعونهم إذا كُلّفوا فوق ما يطيقون، وتستحب مساواتهم معهم في المأكل والملبس، كما فعل أبو ذر بخادمه كما يعرف من أصل الحديث، فإنه كان له خادم أمه سوداء فعيّره أبو ذر بأمه فقال له: يا ابن السوداء، فسمعه النبي ﷺ فقال له: **«أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»** يعني: فيك خصلة من خصال أهل الجاهلية، فكان أبو ذر بعد ذلك يُحسن إلى خادمه، فكان يُلبسه مما يلبس ويطعمه مما يطعم.

* * *

❊ شكر النعمة والمكافاة على الخير

[١٠١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يشكر اللّهَ مَن لا يشكر الناسَ»** وفي رواية: **«مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله»**.

رواه أحمد (٢/٢٥٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٨٠٠) بتهذيبي، وابن حبان (٢٠٧٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وسنده عنده صحيح على شرط مسلم.

ومثله عند أحمد والترمذي أيضاً عن أبي سعيد الخدري بسند حسن.

في الحديث وجوب شكر الوسائط في إسداء النعم وعمل الخير، وأن من قصر في ذلك فبالأحرى لا يشكر الله عزّ وجل.

[١٠٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله

ذهبت الأنصار بالأجر كله، قال: «**لا ما دعوتم اللّهَ لهم وأثنيتم عليهم**».

رواه أحمد (٣/٢٠٠)، وأبو داود (٤٨١٢)، والترمذي في أبواب صفة القيامة (٢٣٠٦) وحسّنه وصححه وهو صحيح على شرط الشيخين.

وأوله عند أحمد والترمذي: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: . . . فذكره.

«المهنأ»: بفتح الميم والنون في آخره همزة: هو ما يقوم بإصلاح المعيشة، وقيل ما يأتي الإنسان من غير تعب.

فلما واسى الأنصار المهاجرين وقاسموهم الأموال والنساء وبالغوا في الإحسان إليهم خاف المهاجرون أن يذهب الأنصار بالأجر دونهم فأرشدهم النبي ﷺ إلى أن لهم ما يدركون به أجر الأنصار وهو أن يشكروهم على ما أسدوا إليهم وذلك بالدعاء معهم والثناء على صنيعهم بهم.

[١٠٣] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أُعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٣)، والترمذي آخر البر والصلة، وابن حبان (٢٠٧٣) وسنده حسن صحيح. قوله: «فليجز به» بسكون الجيم، أي: فليكافىء به.

والحديث يدل على مشروعية مقابلة العطية بمثلها، فإن تعذر ذلك قوبلت بالثناء على صاحبها فإن ذلك يُعد شكراً.

[١٠٤] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن صُنِع إليه معروفٌ فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٧٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢/٦)، وابن حبان (٢٠٧١) وسنده صحيح.

قوله: «فقد أبلغ» يعني: أن من دعا مع من صنع إليه خيراً أو أسدى إليه معروفاً أياً كان، فدعا معه وقال له مثلاً: جزاك الله خيراً، فقد بالغ في شكره وجازاه على خيره.

[١٠٥] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»**.

رواه أحمد (٩٩/٢)، وأبو داود (١٩٧٢) و(٥١٠٩)، والنسائي في الزكاة من المجتبى، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم (٤١٣/٤١٢/١) وسنده صحيح.

والحديث كسابقيه، فالمحسن يجب أن يقابل بإحسانه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فإن لم يوجد ما يكافأ به فليُدْعَ له وكفى به إحساناً.

* * *

النصيحة

[١٠٦] عن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم، وفي رواية: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

رواه البخاري في الشروط (٢٤٠/٦)، ومسلم في الإيمان (٤٠/٣٩/٢)، والترمذي، وكذا النسائي والحميدي وغيرهم، وانظر ما تقدم في الإيمان رقم (١٦٨).

[١٠٧] وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة»**، قالوا: لمَن يا رسول الله؟ قال: **«للّه، ولكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم»**.

رواه أحمد (١٠٢/٤)، ومسلم في الإيمان (٣٧/٢)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة من المجتبى، ومثله عن أبي هريرة. رواه الترمذي (١٧٧١) وغيره بسند حسن صحيح، وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

قوله: «بايعت» أي: عاهدت. وقوله: «إنما الدين النصيحة» قال العلماء: أي: قوام الدين وعماده هو النصيحة، قالوا: والنصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، وأصل النصح الخلوص، والنصيحة للّه اعتقاد وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتابه التصديق به والعمل بما فيه والدعوة إليه، ونصيحة رسوله التصديق بنبوته ورسالته وكل ما جاء به، والانقياد لما أمر به ونهى عنه مع تعظيمه وتوقيره ونصيحة الأئمة، والمراد بهم ولاة الأمر طاعتهم في المعروف وإرشادهم برفق وعدم الخروج عليهم لجور صدر منهم، وإذا أريد بأئمة المسلمين علماؤهم فنصيحتهم هي احترامهم وطاعتهم فيما رووه وجاؤوا به من أحكام وحلال وحرام... ونصيحة عامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم وما يهمهم في دينهم وتعليم جاهلهم والصبر على جفاهم... هذا ما قيل في ذلك باختصار، وراجع للمزيد شرح مسلم لعياض والنووي وشرح السنة للبغوي ومعالم السنن للخطابي.

[١٠٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يَكُفُّ عليه ضَيْعَتَه، ويحوطه من ورائه»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٨) وسنده حسن، كما حسّنه جماعة من أهل الحديث، وله طريق آخر

عند البخاري في الأدب المفرد (٢٣٨) بسند حسن بلفظ: «**المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيباً أصلحه**»، ورواه أيضاً الترمذي في البر والصلة (١٧٧٥) بنحوه، وانظر ما قلته هنالك.

ومعنى الحديث: أن المؤمن مع أخيه كالمرآة يرى فيها كل ما يقابلها فإذا رأى في أخيه خيراً أثنى عليه وزيّنه له ليزداد إقبالاً عليه، وإن رأى عيباً أصلحه بأن ينبهه عليه برفق ولين ليرعوي عنه. وقوله: «يكف عليه ضيعته» أي: يمنع هلاكه وضياعه ويجمع عليه معيشته ويضمها له، وضيعة الرجل ما يكون منه معاشه من زراعة أو تجارة أو حرفة... وقوله: «ويحوطه» أي: يحفظه ويذب عنه ويدفع من ينتهك حرمته ويطعن في عرضه.

* * *

❊ وجوب تناصر المسلمين فيما بينهم

[١٠٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، قيل: يا رسول الله نصَرْتُه مظلوماً فكيف أنصُره ظالماً؟ قال: «**تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**».

رواه أحمد (٣/٩٩)، والبخاري في المظالم (٢٤٤٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٣)، وابن حبان وغيرهم.

[١١٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا؟ أدعوى الجاهلية؟**» قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر فقال: «**لا بأس فلينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فَلْينهه فإنه له نصرته، وإن كان مظلوماً فلينصره**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٣٧).

قوله: «اقتتلا» أي: تضاربا. وقوله: «يا للمهاجرين...» إلخ، كانت هذه منهما استغاثة، وتلك من عادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام وهي العصبيات القبلية.

والحديثان يدلان على وجوب نصر المظلوم لمن كان له استطاعة بأن يكف الظالم عن ظلمه ويمنعه من ظلم أخيه بأي طريقة استطاعها.

* * *

❊ الذب عن المسلم والدفاع عنه

[١١١] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن ردّ عن عِرْض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**».

رواه أحمد (٦/٤٤٩/٤٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٧٧٧) بتهذيبي، وسنده حسن صحيح مع ما قيل فيه. وانظر تهذيبي للجامع.

«العِرض»: بكسر العين، هو محل المدح والذم من الإنسان.

وفي الحديث فضل الذب عن عرض المسلم إذا انتهك ونيل منه وتكلم فيه بغير حق وما أكثر ذلك، فمن ردّ عنه ما قيل فيه انتصاراً له بإخلاص وصدق طلباً للأجر من الله عزّ وجل كان حقاً على الله تفضلاً منه أن يدفع عنه نار جهنم ويحفظه منها.

[١١٢] وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن حمى مؤمناً من منافق**» أراه قال: «**بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شَيْنه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٨٣)، وأحمد (٣/٤٤١) ورجاله ثقات، وإسماعيل بن يحيى المعافري المصري ذكره ابن حبان في الثقات، وروى

عنه بلدياه: عبدالله بن سليمان الطويل ويحيى بن أيوب وهذا ثقة من رجال السنة فالحديث حسن على مذهب جماعة من المحدثين.

قوله: «من حَمَى» أي: منع. وقوله: «يريد شَيْنَه» الشين بفتح الشين: العيب، ففي الحديث بشارة للمؤمن المدافع عن أخيه الحامي له من الفجرة والمنافقين بأن يحميه من نار جهنم كما فيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن يرمي أخاه بذم ما في عرضه أو دينه أو ما يؤول إليه يريد بذلك عيبه والحط من قدره وتنقيصه، فالله عزّ وجل وهو حكم عدل سيحبسه على جسر جهنم وهو الصراط حتى يدلي بحجته وماذا أراد بذلك وما أراه ينجو إلا أن يشاء الله عزّ وجل.

* * *

❊ الإصلاح بين الناس

[١١٣] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»**، قالوا: بلى، قال: **«إصلاح ذات البَين، وفساد ذات البَين الحالقة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٢٧)، وابن حبان (١٩٨٢)، وكذا أحمد (٤٤٤/٦) وسنده صحيح على شرط مسلم، ولذا صححه الترمذي.

في الحديث أن إصلاح ما بين الناس من العداوة والبغضاء له فضل عظيم بحيث يفوق درجة الصيام والصلاة والصدقة، وهذه تعد في الإسلام من الأعمال العظيمة التي لا يساويها من الأعمال إلا القليل كالجهاد مثلاً والبرور.

والإصلاح بين المسلمين مأمور به في الشرع، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأخبر تعالى في آية أخرى بأن ذلك خير وأن من فعله طلب

مرضاة الله فسوف يؤتيه أجراً عظيماً، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وقد كان من هديه ﷺ إصلاحه بين الصحابة كما تقدم في السيرة وغيرها.

و«فساد ذات البين الحالقة» يأتي الكلام عليه لاحقاً في المساوىء.

* * *

❊ فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس

[١١٤] عن معاذ بن أنس الجُهَني رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**من كظم غيظاً وهو يَقْدِرُ على أن يُنَفِّذَه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيّره في أي الحور شاء**».

رواه أحمد (٣/٤٣٨/٤٤٠)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (١٨٦٤)، وفي صفة القيامة (٢٣١٣)، وابن ماجه (٤١٨٦) من طرق هو بها حسن.

وصحّ عنه عليه الصلاة والسلام: «**ما من جُرْعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله**».

رواه ابن ماجه (٤١٨٩) بسند صحيح.

«الغيظ»: هو الغضب الشديد. و«كظمه»: هو حبسه في النفس وعدم العمل بمقتضى غيظه. قال تعالى في معرض صفات أهل الجنة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، جاء عن بعض السلف أن مملوكاً له أساء معه فهمّ بضربه فقال له الخادم: يا سيدي قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال له: قد كظمت، فقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فقال: قد عفوت، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال له: اذهب فأنت حر.

فهكذا كانت أخلاق السلف، كانوا وقّافين عند كتاب الله تعالى وشرعه.

وفي الحديث فضل عظيم وبشارة هامة للكاظمين الغيظ.

[١١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نقصتْ صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٥/٣٨٦)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٤١)، والترمذي فيه (١٨٧٢) وغيرهم.

في الحديث أن من تصدّق بشيء من ماله بارك الله له فيه وازداد نمواً، وأن من أُسيء إليه فعفى وصفح زاده الله عزاً ومحبة في القلوب، وأن من تواضع مع الله ومع عباده رفعه الله وأعزّه في الدنيا والآخرة. وهذه كلها مكارم وأخلاق طيبة.

[١١٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ قال: **«كل يوم سبعين مرة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٦٤)، والترمذي في البر والصلة (١٧٩٦) وسنده صحيح في طريق للترمذي. وذكر المنذري رحمه الله تعالى أن أبا يعلى رواه بإسناد جيد.

وفي الحديث مشروعية العفو عن المسيء ولو تكررت منه الإساءة وذلك أن الله عزّ وجل عفو يحب العفو فلا إله إلا الله ما أحسن شريعتنا وما أعظم ديننا. قال عزّ وجل: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾، الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه الذي كان ينفق على ابن خالته مسطح، فلما تكلم في السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في قضية الإفك حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟...﴾ الآية، قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف، فقال الصدِّيق: بلى يا رب إني أحب أن يغفر لي، فرجع إلى إنفاقه على مسطح، وفي ذلك من فضل العفو ما لا يخفى وكيف وهو مخالف لطبع الإنسان وهواه.

* * *

❋ الصبر على أذى الناس والإغضاء عن إساءتهم

[١١٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**»، وفي رواية: «**المؤمن**».

رواه أحمد (٤٣/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٠٣٢) وسنده صحيح، وفي رواية لبعضهم: «**أعظم أجراً**» بدل «**أفضل**»، أو «**خير**».

وفي الحديث فضل مخالطة الناس وتحمُّل إذاياتهم ومجاهدة النفس على الصبر على ذلك، وأن ذلك أفضل وأعظم أجراً من مفارقتهم. وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه لكنه مشروط بما إذا كان يسلَم دين المخالط مما يخدشه، أما إذا عمّ الفساد وانتشرت الشرور وقلّ في المجتمعات الخير، فالواجب على المسلم أن يقلل من المخالطة إلا بقدر الضرورة.

[١١٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً سبّ أبا بكر عند النبي ﷺ والنبي ﷺ جالس لا يقول شيئاً، فلما سكت ذهب أبو بكر يتكلم فقام رسول الله ﷺ واتّبعه أبو بكر فقال: يا رسول الله كان يَسُبني وأنت جالس فلما ذهبت أتكلم قمتَ؟ قال: «**إن الملك كان يردُّ عنك، فلما تكلمتَ ذهب الملك ووقع الشيطان، وكرهت أن أجلس يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ليس عبدٌ يُظلم بمظلمة فيغضي عنها إلا أعزّ الله بها نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يبتغي بها كثرة إلا زاده الله بها قلة، وليس عبد**

يفتح باب عطية يبتغي بها وجه الله أو صلة إلا زاده الله به كثرة»، وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام... إلخ.

رواه أحمد (٤٣٦/٢) كاملاً، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٦) مختصراً بنحوه، وفيه عنده **«نزل ملك من السماء يُكَذِّبه بما قال له فلما انتصرتَ وقع الشيطان»** وسنده حسن.

وفي الحديث فضل عدم الانتصار لمن أُسيء إليه وأنه ينبغي له أن يتحمل ذلك ولا يجيب من جهل عليه، وهذا من الأمور العظيمة وأخلاق كبار الرجال.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، علماً بأنه يجوز له الانتصار كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُستذَلُّوا فإذا قدروا عفوا.

كما أن فيه: مَن انتصر لنفسه كان فيه حظ للشيطان لأن حضوره عند ذلك لا يكون إلا للتحريش والإغراء على الشتم... ولذا قام النبي ﷺ وانصرف.

* * *

❊ حق على اللّه أن لا يرفع شيئاً إلا وضعه

[١١٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت العَضْبَاءُ لا تُسْبق، فجاء أعرابي على قَعُودٍ له فسابقها فسبقها الأعرابي فكأن ذلك شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: **«إن حقاً على الله عزّ وجل أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»**، وفي رواية: فشقّ ذلك على المسلمين فقالوا: سبقت العضباء.

رواه أحمد (٣/١٠٣/٢٥٣) والبخاري في الرقائق (١٤/١٢٥) وفي الجهاد، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٢).

قوله: «القعود» بفتح القاف: هو الشاب من الإبل.

وفي الحديث دليل على أن الله لا يرفع شيئاً من أمور الدنيا في هذه الحياة إلا كان آخر الوضع والهوان وهذه كلية عامة في أمور الدنيا.

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه.

وفي الحديث تواضعه ﷺ حيث رضي بمسابقة الأعرابي ولم يستنكف من ذلك ولم يحزن أو يتغير قلبه لسبق الأعرابي إياه.

* * *

❊ من فضل البلايا والمصائب

[١٣٠] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: **«ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نصَب، ولا سقم، ولا حَزَنٍ، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته»** وفي رواية: **«ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٣/٣٣٥)، والبخاري في الطب والمرضى (١٢/٢٠٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٠) وقد تقدم مع أحاديث أخرى في الجنائز وفي الطب.

«وصب» بفتحتين: الوجع اللازم. و«نصب»: التعب. «سقم»: بضم السين والكاف وفتحها. و«حزن»: بالضم والفتح في الحاء والزاي. وقوله: «حتى الهم يهمه» بفتح الياء وضمها، أي: يَغُمُّه.

وفي الحديث فضل عظيم لنزول المصائب بالإنسان وأنه ما من شيء

يصيبه فيؤلمه ويسوؤه حتى الشوكة والحزن والغم إلا غفر الله له خطاياه ورفع به درجته، وفيه أن التكفير وحصول الثواب والأجر كل ذلك حاصل بمجرد نزول المصيبة، فإن اقترن بذلك الصبر والرضا تضاعف الأجر. أفاده الحافظ متعقباً على ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى.

قال القرافي رحمه الله تعالى: المصائب كفارات جزماً سواء اقترن بها الرضا أم لا.

وتعقبه الحافظ بقوله: والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها، وبالرضا يؤجر على ذلك.

[١٣١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بأشد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة، فيقول: اصبغوه صِبْغةً في الجنة، فيصبغونه فيها صِبْغة، فيقول الله عزّ وجل: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط، ثم يؤتى بأنعَم الناس كان في الدنيا من أهل النار، فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط**».

رواه أحمد (٣/٢٥٣/٢٥٤)، ومسلم في الجنة والنار (١٧/١٤٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢١) والسياق لأحمد.

قوله: «بلاءً» في مسلم بؤساً. «صبغة» في ابن ماجه: اغمسوه غمسة فهي مفسرة للصبغة بأنها الغمسة، والبؤس: هو الشدة.

وفي الحديث بيان عدل الله تعالى في عباده وفضله بهم، وسيأتي الحديث في الرقائق وهنالك بيان معناه كاملاً. الشاهد منه هنا هو أن أعظم الناس بلاءً وأشدهم ضراً في الدنيا سيغمس في الجنة غمسة واحدة ثم يخرج منها فيذكره الله تعالى بما مرّ عليه في الدنيا من بلايا ومحن ومصائب فينسى كل ذلك بمجرد غمسه في الجنة لما يشاهد فيها من خير ونعيم مما لا تتصوره عقولنا.

* * *

❋ الشفاعة بين الناس

[١٢٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: «**اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٦٠/٥٨)، ومسلم في البر (١٦/١٣٩) وغيرهم.

لام فلتؤجروا جعلوها مكسورة على أنها لام كي وجعلوها لام الأمر وكلاهما محتمل.

وفي الحديث مشروعية الشفاعة لقضاء حاجة من لا يستطيع قضاءها وخاصة عند ذوي السلطة الذين لا يتمكن كل أحد من الدخول عليهم أو يتمكن، ولكنه لا يبلغ حاجته بنفسه فيطلب الوساطة، ولذلك كان النبي ﷺ يرشدهم إلى الاستشفاع عنده ويحضهم على ذلك لما فيه من الأجر والثواب، وقد قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

والشفاعة جائزة عند ذوي السلطة إلا في الحدود أو في المصرين على الفساد المشتهرين بذلك فهؤلاء لا يشفع فيهم، وقد قدّمنا شيئاً من هذا في الحدود.

❋ ❋ ❋

❋ ستر اللّه على عبده

[١٢٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٣)، ورواه أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله تعالى عنها. وستر الله على عبده يوم القيامة عدم كشف

عيوبه ومعاصيه في ذلك الموقف الرهيب فلا يفضحه أمام الخلائق وقد ستره في الدنيا، وسيأتي في الرقائق بقية لهذا، فإنه بذلك الباب أليق ولكنني تبعت مسلماً في إيراده في البر والصلة.

* * *

❊ ستر المؤمن على نفسه

[١٢٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٩٧/٩٨)، ومسلم في الزهد (١٨/١١٩).

قوله: «من المجاهرة» هكذا في رواية، وفي رواية: **«وإن من الإجهار»** وفي أخرى: **«وإن من الإهجار»** بتقديم الهاء وكلها صحيحة.

فالمجاهرة والإجهار الإعلان بالمعصية، والإهجار بتقديم الهاء معناه: الفحش والخناء وكثرة الكلام.

والحديث يدل على أن كل من أذنب ذنباً وستر على نفسه كان قريباً من عفو الله وستره عليه، إلا المجاهرين الذين يُظهرون معاصيهم أمام الخاص والعام وهم أهل المجون الذين لا يبالون بأحد، وهكذا من أتى شيئاً بليل وحده وقد ستره الله فيصبح يحكي للناس ما فعل في ليلته، فهذا بعيد من عفو الله ومغفرته، فالواجب على من ابتلاه الله بشيء من ذلك أن يتستر ولا يفضح نفسه فإن الله عزّ وجل ستير يحب الستر.

وقد جاء في حديث مرسل: **«اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها فمن ألمّ بشيء منها فليستتر بستر الله»**.

رواه الحاكم (٤/٢٤٤)، ومالك في الموطأ، وصححه الحاكم.

ويأتي في الرقائق قول عمر لمن أذنب: «لقد سترك الله لو سترتَ على نفسك».

* * *

العبرة بالقلوب والأعمال

[١٣٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

رواه أحمد (٢/٢٨٥/٥٣٩)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣).

الحديث ظاهر في أن الله عزّ وجل لا يعتبر الصور الظاهرة وجمالها، ولا كثرة الأموال وجمعها، وإنما ينظر إلى القلوب وما فيها من إيمان وتقوى وإلى الأعمال الظاهرة التي توافق ما في البواطن، وسيأتي في المساوىء حديث: **«التقوى ههنا»** ويشير إلى صدره الشريف.

* * *

أمانة الحديث

[١٣٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨٠٥) بتهذيبي بسند حسن لاختلاف في عبدالرحمٰن بن عطاء، وقد أشار المنذري إلى تحسينه.

الأمانة: كل ما ائتُمن عليه الإنسان بداية من الإيمان والتكاليف الشرعية جملة وتفصيلاً، ثم ودائع الناس، وديونهم... ومنها كلام السر الذي يُسِرُّه إليك شخص فهو أمانة لا يجوز لك إفشاؤه فإن فعلت كنت خائناً والله لا يحب الخائنين، ويعرف الكلام بأنه أمانة بالقرائن مثل ما جاء في الحديث أن صاحبك يحدثك وهو يلتفت يميناً وشمالاً فأحرى إذا أوصاك وأكد عليك، وسيأتي بقية للأمانة في الفتن.

❊ ❊ ❊

❊ حفظ اللسان وذم كثرة الكلام وخطره على الإنسان

[١٢٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

رواه أحمد (٢/٣٧٨/٣٧٩)، والبخاري في الرقائق (١٤/٩٢)، ومسلم في الزهد (١٨/١١٧).

قوله: «ما يتبين ما فيها» أي: لا يتدبرها ويفكر في عاقبتها وما يؤول إليه أمرها وذلك كالكلام في الله تعالى وفي صفاته وفي القرآن وفي جانب رسول الله ﷺ أو في كلامه مع الناس حيث لا يلقي بالاً مما فاه به فتجب له النار بذلك وهو لا يدري، وفي ذلك حث على حفظ اللسان.

[١٢٨] وعنه عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً، يرفع الله له بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**» وفي رواية: «**يهوي بها في النار سبعين خريفاً**».

رواه البخاري في الرقائق (١٤/٩٣) بالرواية الأولى، ورواه الترمذي في الزهد (٤/٢٣) بالثانية، ورواه أحمد (٢/٢٣٦/٢٩٧)، وابن حبان (٥٧٠٦)، والحاكم (٤/٥٩٧) وغيرهم.

[١٢٩] وعن بلال بن الحارث المزني رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤٦٩/٣)، والترمذي في الزهد (٢١٣٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، والحاكم.

وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

الحديثان معناهما واحد لا يختلفان إلا في قوله، في الأول: **«يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً»**. وقوله في الثاني: **«فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة»** وكلا الأمرين مراد، فمَن تكلم بكلمة من سخط الله يكتب الله عليه سخطه إلى يوم القيامة ثم يكون مآله الهوي في جهنم سبعين خريفاً.

ففي الحديثين الحث على التكلم بما يرضي الله والتحذير مما فيه سخط الله وأن الواجب على الإنسان أن يحفظ لسانه وأن لا ينطق بشيء حتى يتدبره قبل النطق به، فإن كانت فيه مصلحة تكلم وإلا كفّ لسانه.

[١٣٠] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«ويلٌ للذي يُحدّث بالحديث ليُضحِك القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له»**.

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦) والدارمي والحاكم (٤٦/١) وسنده حسن لترجمة بهز.

وفي الحديث ذم المازحين الذين يعتادون المزاح بكثرة بحق وباطل فيُضحكون الناس بالأكاذيب والأباطيل، وذلك كما ترى من كبار الذنوب لأن

الوعيد بالويل لا يكون إلا على كبيرة عياذاً بالله، وفيه كسابقيه حث على حفظ اللسان ويأتي لذلك بقية في الرقائق.

* * *

❁ مَن لم يواجه الناس بما يكرهون

[١٣١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزّه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بالُ أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٢٧/١٢٨) وغيره، ومسلم.

قوله: «فتنزه» أي: تركوه كراهة منهم له.

وفي الحديث ما كان عليه ﷺ من عدم مواجهة الناس بما يسوءهم ويكرهون، وذلك من عظيم مكارم أخلاقه ﷺ وشدة حيائه ومراعاة جوانب أصحابه، وهذا كان هديه دائماً، فقد تكرر عنه ما صدر منه هنا.

وقوله: «فوالله إني لأعلمهم بالله...» إلخ، أشار بذلك إلى أنه مع أعلمه بالله منهم وأكثرهم خوفاً من الله عزّ وجل يترخص في الشيء أحياناً فكيف يتنزه عن ذلك من ليس مثله ولا يقاربه.

* * *

❁ المستشار مؤتمن

[١٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٦)، وأبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٣٣)، وابن ماجه في

الأدب (٣٧٤٥) وغيرهم، وسنده صحيح على شرطهما، وفي الباب عن أبي مسعود رواه ابن ماجه (٣٧٤٦) بسند صحيح، وعن أم سلمة رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما، والحديث وارد من طرق حتى عدّ في المتواتر.

والحديث يدل على أن من استشير في شيء فعليه أن ينصح مستشيره لأنه مؤتمن على ذلك، فلا بد وأن يشير إلى صاحبه بما يراه خيراً له وإلا كان خائناً وغاشًّا لأخيه.

* * *

❊ المتشبِّع بما لم يُعْطَ

[١٣٣] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي جارة - تعني ضَرَّة - هل عليّ جناح إن تشبَّعتُ لها بما لم يُعْط زوجي؟ قال ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زور**» وفي رواية أقولُ: إن زوجي أعطاني ما لم يُعطني، فقال... إلخ.

رواه أحمد (٦/٣٤٦/٣٥٣) والبخاري في النكاح، ومسلم آخر اللباس (١١/١٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٧) وغيرهم، والرواية الثانية رواها مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

وعن جابر نحوه ضمن حديث رواه الترمذي آخر البر والصلة.

قوله: «المتشبع بما لم يعط» معناه: الذي يتظاهر بما ليس عنده أو له كمن يتظاهر بالزهد والصلاح أو العلم وهو عار عن ذلك، أو ينسب شيئاً لنفسه وهو لغيره، أو يصبغ شيبه بالسواد ليظهر أنه شاب، فكل ذلك داخل في قوله: «**كلابس ثوبَيْ زور**» لأن لابس ثوبَي غيره يوهم أنها له وهي ليست كذلك، وفعل مثل ذلك مذموم.

* * *

❁ الضيافة وحق الضيف

[١٣٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحْسِن إلى جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»** وفي رواية: **«فليصمت»**.

رواه أحمد والبخاري في الأدب (١٣/٥٣/١٥٠)، ومسلم في الإيمان (٢/١٨)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤) والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٩) بتهذيبي.

[١٣٥] وعن أبي شُرَيْح الخُزاعي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»**، وفي رواية: **«جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يُحرِجه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٩)، ومسلم في اللقطة (١٢/٣٠/٣١).

[١٣٦] وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليلة الضيف حقٌ على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْنٌ، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك»**.

رواه أحمد (٤/١٣٠)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٥٠)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٧) وسنده صحيح. قال الحافظ: على شرط الصحيح.

[١٣٧] وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أنه قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فما يقروننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: **«إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٥٠)، ومسلم في اللقطة (١٢/٣٢)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٥٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٦).

الضيف هو من ينزل على الإنسان من مسافر ونحوه. وقوله: «جائزته» المراد بها إتحافه بما يمكن من بر وألطاف ومزيد في إكرامه. وقوله: «فما يقروننا» بفتح الياء، أي: لا يضيفونا. وقوله: «فخذوا منهم حق الضيف» أي: خذوا ما تحتاجون إليه. وقوله: «يَثْوي عنده» بفتح الياء وكسر الواو وفتحها وبكسرها في المضارع أي: يقيم ويمكث عنده. وقوله: «حتى يُحْرِجَه» بضم الياء وسكون الحاء ثم جيم مفتوحة من الحرج وهو الضيق، وفي رواية «حتى يؤثمه» أي: يوقعه في الإثم بالكلام فيه مثلاً إن تأخر عنده، والضيافة كانت من محاسن أخلاق الجاهلية ومكارمها، فقد كان العرب مشهورين بذلك وأشهرهم بالإطعام والضيافة حاتم الطائي، ولما جاء الإسلام أقرّها وأمر بها ورغّب فيها وحثّ عليها وجعلها حقاً على المسلمين، للضيف الحق في المطالبة بها وأخذه من المضيف ما يكفيه، وقد أجمع المسلمون كما قال العلماء على أنها من متأكدات الإسلام ومقتضيات الإيمان وشعبه العظيمة، ثم اختلفوا فقال الجمهور ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله: إنها سنّة، وقال الليث وأحمد وغيرهما رحمهم الله: هي واجبة يوماً وليلة.

وقوله ﷺ: **«فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»** مع قوله: **«فمَن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْن»** وقوله: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»** كل ذلك يدل ظاهره على الوجوب وأن للضيف حقاً، وهذه الأحاديث مخصصة للآيات والأحاديث التي جاءت بتحريم أموال المسلمين.

وعلى أيّ، فالمسألة خلافية مع الاتفاق على أنها من أعظم وأفضل مكارم الأخلاق، فينبغي للمسلم إذا نزل به ضَيف أن يهتم به ويبالغ في إكرامه وإتحافه يوماً وليلة وهي جائزته، ثم يضيفه ثلاثة أيام ويقدم له ما تيسر ولا يزيد على عادته، وما زاد على الثلاث فهو صدقة له إن شاء فعل وإن شاء ترك.

نعم يحرم على الضيف الإطالة على المضيف حتى يضيق ويحرج ويصير به الحال إلى أن يتكلم فيه.

وقوله ﷺ هنا: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر**» يعني الإيمان الكامل المنجي من عذاب الله الموصل إلى رضوانه ويؤمن بيوم القيامة بأن استعد له واجتهد في فعل وقول ما يدفع به أهواله ومكارهه فيأتمر بما أمر به وينتهي عما نهى عنه، ومن جملة ذلك ما أمر به من إكرام الضيف.

* * *

❊ تأخُّر المضيف عن ضيفه

[١٣٨] عن عبدالرحمٰن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء أبو بكر بضيف له ـ أو بأضياف له ـ فأمسى عند النبي ﷺ فلما جاء قالت أمّي: احتبستَ عن ضيفك ـ أو أضيافك ـ الليلة؟ قال: وما عشّيتهم؟ فقالت: عرضنا عليه ـ أو عليهم ـ فأبوا ـ أو فأبى ـ، فغضب أبو بكر فسبّ وجدّع وحلف لا يَطعَمُه، فاختبأت أنا، فقال: يا غُنثر، فحلفت المرأة لا تطعَمُه حتى يَطعمَه، فحلف الضيف ـ أو الأضياف ـ أن لا يطعمه أو ـ لا يطعموه ـ حتى يَطعمه، فقال أبو بكر: كأن هذه من الشيطان، فدعا بالطعام فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمةً إلا ربا من أسفلها أكثر منها فقال: يا أخت بني فراس ما هذا؟ فقالت: وقرة عيني إنها الآن لأكثر قبل أن نأكل. فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ فذكر أنه أكل منها.

رواه البخاري في علامات النبوة وفي الأدب (١٣/١٥٢).

في الحديث فوائد، منها: التأخُّر عن الضيف إذا كان في المنزل من يقوم به، ومنها: الوصية بإطعام الضيف وإن لم يكن صاحب المنزل حاضراً، ومنها: أن الرجل الصالح قد يغضب ويُسلَّط عليه الشيطان ويصدر منه شتمٌ ونحوه وأن ذلك لا يقدح في صلاحه، فأبو بكر رضي الله تعالى عنه غضب وشتم أهل الدار وعرف أن ذلك من الشيطان، وفيه: أن الحلف

في مثل ما صنع أبو بكر وزوجته والأضياف غير مشروع، وأن ذلك كان من الشيطان فلذلك ندم الصدّيق على ما فعل فأكل وتبعه الأضياف وأهل الدار.

[١٣٩] وعن مالك بن نضلة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله الرجل أمُرُّ به فلا يقريني، ولا يضيفني، فيمر بي أفأجزيه؟ قال: «لا، أقره»، ورآني رث الثياب فقال: «هل لك من مال؟»، قال: قلت: من كل المال قد أعطاني الله من الإبل والغنم، قال: «فليُرَ عليك».

رواه أحمد وأبو داود (٤٠٩٣) والنسائي في الزينة، وابن حبان (٢٠٦٧) مختصراً، ورواه الترمذي في البر والصلة (٤٠٦٢) بسند صحيح على شرط مسلم.

رث الثياب أي: خلقة بالية، وفي الحديث: عدم مجازاة المسيء على إساءته والعفو والصفح عنه، وذلك من أشرف الأخلاق الكريمة كما فيه مشروعية التظاهر بنعم الله تعالى من أكل طيب ولباس جميل ومركوب أنيق في غير إسراف ولا مخيلة، وذلك من شكر النعمة.

* * *

❊ المواساة بفضول الأموال

[١٤٠] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له قال: فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «مَن كان معه فضل ظهر فليَعُد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

رواه مسلم في اللقطة (١٢/٣٣)، وأبو داود في الزكاة (١١٦٣).

فيه مواساة الغني للفقير، ومساعدة الواجد سواه من المحتاجين.

* * *

❋ الاستئذان ثلاثاً

[١٤١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعت، قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»**، فقال: والله لتُقيمن عليه بينةً، أمِنكُم أحدٌ سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك.

وفي رواية فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: واحدة، ثم سكت ساعة ثم قال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان، ثم سكت ساعة فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثلاث، ثم رجع فقال عمر للبواب: ما صنع؟ قال: رجع، قال: عليّ به، فلما جاءه قال: ما هذا الذي صنعت؟ قال: السنة، قال: السنة والله لتأتيني على هذا ببرهان وبينة أو لأفعلن بك، قال: فأتانا ونحن رفقة من الأنصار فقال: يا معشر الأنصار ألستم أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: **«الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع»** فجعل القوم يمازحونه، قال أبو سعيد: ثم رفعت رأسي إليه فقلت: ما أصابك في هذا من العقوبة فأنا شريكك، قال: فأتى عمر فأخبره بذلك فقال عمر: ما كنت علمت بهذا. وفي رواية: ألهاني عنه الصفق بالأسواق.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٢٦٤/٢٦٥) وفي مواضع، ومسلم في الأدب (١٤/١٣٠/١٣٥)، وأبو داود (٥١٨٠)، والترمذي (٢٥٠٤)، وابن ماجه (٣٧٠٦) وغيرهم، وزاد مسلم في رواية: فقال عمر: إن وجد بينة تجدوه عند المنبر عشية، وإن لم يجد بينة فلن تجدوه، فلما أن جاء بالعشي وجده، قال: يا أبا موسى ما تقول؟ أقد وجدت؟ قال: نعم أُبي بن كعب، قال: عدل، قال: يا أبا الطفيل، وفي لفظ: يا أبا المنذر ما يقول هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، يا ابن الخطاب فلا تكونن عذاباً

على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: سبحان الله أنا سمعت شيئاً فأحببت أن أثبت.

الاستئذان في الأصل: طلب الإذن في الدخول، وقد جعله المحدثون عنواناً لأبواب وآداب كثيرة يذكرونها تحته كما فعل البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم، وسنذكر كثيراً منها ههنا تبعاً لهم.

والاستئذان الذي هو طلب الإذن في الدخول إلى منزل ما، له أحكام وآداب، منها: ما ذكر في هذا الحديث من الاستئذان ثلاثاً، فإن أذن له دخل وإلا رجع، وما فعله عمر مع أبي سعيد رضي الله تعالى عنهما لم يفعله اتهاماً له، وإنما كان ذلك منه تثبتاً كما قال، ولم يكن بلغه هذا الأدب كما صرح بذلك لاشتغاله بالتجارة وطلب المعاش ففاته سماع هذا الحديث من النبي ﷺ.

* * *

❊ ومن آداب الاستئذان

[١٤٢] عن هَزِيل قال: جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب مستقبل الباب فقال له النبي ﷺ: **«هكذا عنك، فإنما الاستئذان من النظر»**.

رواه أبو داود (٥١٧٤).

[١٤٣] وعن عبدالله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: **«السلام عليكم»**، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٨٦) بسند صحيح.

هذا من آداب الاستئذان، وهو أن يقف الإنسان على أحد جانبَي الباب ولا يقف قبالته، فإن الاستئذان إنما شرع خشية من أن يرى الإنسان عورة داخل المنزل، ولذلك جاء التهديد الشديد في ذلك كما في الآتي:

[١٤٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطّلع من بعض حُجَر النبي ﷺ فقام إليه بمِشقص - أو مشاقص - فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يختِلُه ليطعنه.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٦٢)، ومسلم (١٤/١٣٧/١٣٨)، وأبو داود في الأدب (٥١٧١)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٢٣).

«مشقص»: بكسر الميم وسكون الشين وفتح القاف، نصل عريض من حديد. وقوله: «يختله» بفتح الياء وكسر التاء، أي: يراوغه ويستغفله ليطعنه بها في عينه. ففيه تحريم النظر إلى عورات الناس في بيوتهم، وأن ذلك يُعد من كبار الذنوب لأن إباحة فقئ أعين الغير لا يكون إلا لأمر يوجب الحد.

[١٤٥] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطلع من جُحْرٍ في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مِدْرَى يُرَجِّل بها رأسه، فقال له رسول الله ﷺ: **«لو أعلم أنك تنظر طعنتُ به في عينك، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر»**.

رواه البخاري في الديات، ومسلم في الأدب (١٤/١٣٦/١٣٧)، والترمذي (٢٥٢٤)، والدارمي (٢٣٨٩).

«المدرى»: بكسر الميم، حديدة تشبه المشط يحك أو يسرح بها الشعر. وقوله: «يرجل» أي: يسرح بها شعر رأسه.

[١٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَن اطّلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه»**، وفي رواية: **«لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن فخذفْتَه بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح»**.

رواه البخاري بالرواية الثانية في الديات، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٥١٧٢) كلاهما في الأدب.

فالحديثان يدلان على تحريم النظر في بيت الغير بلا استئذان، وأن من

اطلع ببصره على عورة قوم ففقأوا عينه كان ذلك هدراً لا دية فيها ولا حرج على الفاقىء، وذلك يدل على عظم هذا الجرم.

* * *

كيف الاستئذان

[١٤٧] عن رِبْعِيٍّ قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألِجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «**أخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟**»، فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٧٧) بسند صحيح.

[١٤٨] ونحوه عن كَلْدَة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه بلبن وجداية وضغابيس إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه ولم أستأذن ولم أُسلِّم، فقال النبي ﷺ: «**إرجع فقل السلام عليكم أأدخل**» وذلك بعدما أسلم صفوان.

رواه أحمد (٤١٤/٦)، وأبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٥٢٥) كلاهما في الاستئذان من طرق صحيحة غير ما عند الترمذي.

[١٤٩] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: استأذنت على النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فقال: «**مَن هذا؟**» فقلت: أنا، فقال: «**أنا، أنا**» كأنه كره ذلك.

رواه البخاري (٢٧٢/١٣)، ومسلم في الأدب (١٣٦/١٣٥/١٤)، وأبو داود (٥١٨٧)، والترمذي (٢٥٢٦)، وابن ماجه (٣٧٠٩).

قوله: «**أألج**» أي: أأدخل. قوله: «وجداية» هو ولد الظبية إذا بلغ ستة أو سبعة أشهر. و«الضغابيس»: جمع ضغبوس، بضم الضاد، هو صغار القثاء.

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الاستئذان وأنه بعدما يطرق الباب فيُقال له: مَن يجيب بقوله: أنا فلان مبيناً اسمه المعروف به، ثم يقول: السلام عليكم أأدخل أو هناك فلان، ونحو ذلك، ولا يقول: أنا أنا ولا يفتح الباب ويدخل بدون استئذان ولا سلام، وفي القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

«تستأنسوا» أي: تستأذنوا، فهذا تفصيل من القرآن للاستئذان.

* * *

❊ الاستئذان في العورات الثلاث

[١٥٠] عن عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس كيف ترى في هذه الآية التي أُمِرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها أحد: قول الله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن عباس: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم، أو الولد، أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله عزّ وجل بالستور والخير، فلم أرَ أحداً يعمل بذلك بعدُ.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٩٢) وسنده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

[١٥١] وعنه قال: لم يؤمر بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليّ.

رواه أبو داود أيضاً (٥١٩١) بسند صحيح أيضاً.

الآية الكريمة تأمر باستئذان الممالك والأطفال على أهل الدار في أوقات ثلاث سمّاها الله عورات، وهي آخر الليل ما قبل صلاة الفجر، وعند القيلولة وسط النهار، وبعد صلاة العشاء.

لأن هذه الأوقات يختلي فيها الرجل وأهله ويضعان فيها ثيابهما، وربما يكشفان عما يكرهان رؤيته من الغير ولو من الأطفال والخدم.

فأوجب الله تعالى فيها الاستئذان عموماً، ولا حرج في عدم الاستئذان من الخدم والأطفال في غير هذه الأوقات.

نعم إذا بلغ الأطفال الحُلُمَ وجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات ولو على الأم والأب كما قال تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقد ذكر الحافظ في الفتح (٢٦٢/١٣) آثاراً صحيحة عن الصحابة فيها الأمر بالاستئذان على الأبوين والإخوة والأخوات.

* * *

❊ أبواب السلام

بدايته

[١٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يُحَيُّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل مَن يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»**.

رواه أحمد (٣١٥/٢)، والبخاري في الاستئذان (٢٤٢/٢٣٩/١٣) وغيره، ومسلم في الجنة ونعيمها (١٧٨/١٧).

في الحديث بيان أن بداية السلام كانت من سيدنا آدم أبي البشرية عليه الصلاة والسلام، وأنه سلّم على الملائكة بأمر من الله فردوا عليه وزادوه: ورحمة الله، وأخبره تعالى بأن هذه هي تحيته وتحية بنيه فيما بينهم، كما أنها تحية الملائكة لأهل الجنة.

وقوله: «خلق الله آدم على صورته» الضمير في صورته يعود على آدم كما هو قول جمهور العلماء وهو ظاهر الحديث، فإن قوله آخر الحديث: «**فكل من يدخل الجنة على صورة آدم**» فهو كالنص على أن الضمير له عليه السلام فهو مخلوق بهذه الصورة التي استمر عليها حتى نزل إلى الدنيا ثم مات عليها وسيعيده الله تعالى على صورته التي خلقه عليها وعلى صورته سيكون أهل الجنة، فصورته التي خلق عليها لم تتبدل وتتحول إلى صورة أخرى، ثم الحديث فيه رد على فكرة دارون اللعين في قوله بالنشوء والارتقاء، وأن الإنسان أصله قرد وليس من آدم عليه السلام، وهي فكرة خاطئة مخالفة لجميع أهل الأديان الإلٰهية ومعتقدها كافر ملعون.

* * *

❊ إفشاء السلام

[١٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**».

رواه مسلم في الإيمان (٣٥/٢) بالنووي، وأبو داود في الاستئذان (٥١٩٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨) والأحاديث في الأمر بإفشاء السلام كثيرة، إفشاء السلام إظهاره وتعميمه.

في الحديث أن التحابب من خصال الإيمان وكماله، كما فيه أن إفشاء السلام بين المسلمين يوجب التحابب بينهم ويُذهب الشحناء والضغينة.

وإفشاء السلام من حقوق المسلم على أخيه كما تقدم، ومظهر من

مظاهره وأسباب الألفة والأخوة الإسلامية، فهو من أظهر شعار المسلمين المميز لهم عن غيرهم من أهل الملل الأخرى.

قال العلماء: هذا مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين.

وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه أنه قال: «**ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار**» ورواه بعضهم مرفوعاً.

[١٥٤] وعن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف**».

رواه البخاري في الإيمان وفي الاستئذان (١٣/٢٥٧)، ومسلم في الإيمان (٦٣).

وفي الحديث مشروعية تعميم السلام على المعارف وغيرهم، لكنه مقيد بغير الكافر والفاسق كما يأتي لاحقاً.

ثم إن العلماء اتفقوا على أن البداية بالسلام سُنَّةٌ، والرد واجب، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا﴾، بل نقل القرطبي الإجماع على ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ...﴾ إلخ، معناه أن من سلّم فقال: السلام عليكم، فردُّوا عليه بمثل ذلك أو بأحسن منها وهي عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وإفشاء السلام عام بين ذكور المسلمين وإناثهم، فالرجل كما يسلّم على الذكر مثله له أن يسلّم على الأنثى ما لم تخش فتنة، ولذلك فرق بعض الأئمة بين الشابة والمتجالة، فمنعوا السلام على الشابة وأجازوها على المتجالة.

وعمل النبي ﷺ على العموم فقد كان يسلّم على النساء كما يسلّم على الرجال والأطفال لكن الرسول ﷺ معصوم من الفتنة...

* * *

❋ فضل الزيادة في ألفاظ التحية وكلماتها

[١٥٥] عن عمران بن حُصَين رضي الله تعالى عنه أن رجلاً جاء النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فقال النبي ﷺ: «عَشْرٌ» وجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبي ﷺ: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبي ﷺ: «ثلاثون».

رواه أحمد (٤/٤٣٩/٤٤٠)، وأبو داود (٥١٩٥)، والترمذي (٢٥٠٣) كلاهما في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٩١/٦) بسند صحيح على شرط مسلم، وله شاهد عن أبي هريرة رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان (١٩٣١) بسند صحيح.

وفي الحديث فضل السلام وأن كل جملة منه بعشر حسنات، وقد اشتهر بين العلماء أن نهاية السلام ورده هو وبركاته، وقد جاء ما يدل على زيادة: «ومغفرته».

[١٥٦] فعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا سلّم النبي ﷺ علينا، قلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/١/٣٣٠) بإسناد جيد رجاله ثقات، غير إبراهيم بن المختار الرازي فقال أبو حاتم: صالح الحديث، أفاده الشيخ ناصر الألباني رحمه الله تعالى في الصحيحة. فهذه الزيادة يعمل بها فإنها زيادة ثقة وسنّة تقريرية.

❋ ❋ ❋

❋ فضل البادىء بالسلام

[١٥٧] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام».

رواه أبو داود (٥١٩٧)، والترمذي (٢٥٠٨) كلاهما في الاستئذان، وسنده صحيح عند أبي داود.

وقوله: «أولى الناس» أي: أقرب الناس إلى رحمة الله تعالى، ففيه فضل من يبدأ الناس بالسلام.

* * *

❋ السلام قبل الكلام

[١٥٨] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»**.

رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (٢١٣) بسند حسن، وبقية صرح بالتحديث، فالحديث يدل على أن من تكلم قبل السلام لا يُجاب ولا يُتكلم معه حتى يُسلّم وهذه سنة غريبة قلّ من يفعلها.

* * *

❋ من حق الجلوس في الطريق رد السلام

[١٥٩] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إياكم والجلوس بالطرقات»**، فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها، فقال: **«فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه»**، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: **«غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر»**.

رواه أحمد (٣/٣٦/٤٧/٦١)، والبخاري في الاستئذان (١٣/٢٤٦/٢٤٧)، ومسلم (١٤/١٤٢)، وأبو داود في الأدب (٤٨١٥) وفي الباب عن أبي هريرة ما عند أبي داود (٤٨١٦) وزاد: **«وإرشاد السبيل»**. وعن عمر عنده أيضاً (٤٨١٧) وزاد: **«وتغيثوا الملهوف وتُهدُوا الضالَّ»**

وسندهما صحيح. وقوله: «ما لنا بُدٌّ» أي: لا محيد لنا عن الجلوس فيها.

[١٦٠] وعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: كنا قعوداً بالأفنية نتحدث، فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا فقال: «**ما لكم ولمجالس الصُعُدات اجتنبوا مجالس الصُعُدات**» فقلنا: إنما قعدنا لغير ما بأس، قعدنا نتذاكر ونتحدث، قال: «**إما لا، فأدُّوا حقها غضُّ البصر، وردُّ السلام، وحُسْنُ الكلام**».

رواه مسلم في الأدب (١٤/١٤١).

«الأفنية»: جمع فِناء بكسر الفاء وهو ما كان من الأرض في جوانب الدار ونحوها. «الصُعدات»: بضم الصاد والعين، جمع صعيد وهي الطرقات. وقوله: «إمّا لا» أي: إن لم تتركوها فأدُّوا حقها.

وفي الحديثين بيان حقوق الجلوس في الطرقات العامة وهي كما ذكرناه تسعة حقوق: غض البصر عن محاسن النساء المحرمات، والكف عن إذاية المارّة من ترك غيبتهم وظن السوء بهم، ورد السلام على من يسلّم على الجلوس، والأمر بالمعروف، والدعوة إلى الخير، والنهي عن المنكر الذي يُرى في الطريق، ثم إرشاد الضال عن الطريق وهداية المنحرف عن السبيل، ثم نصر المظلوم ومساعدة المضطر، ثم حُسن الكلام مع المارّين.

وجاءت حقوق أخرى في أحاديث بعضها لا تثبت وقد أبلغها الحافظ في الفتح إلى أربعة عشر أدباً وحقاً ونظمها في قوله:

جمعتُ آدابَ من رامَ الجلوسَ على الطريق ... من قول خَيْرِ الخلقِ إنسانا
أفْشِ السلامَ وأحسنِ في الكلامِ وشمِّتْ ... عاطِساً وسلاماً رد إحسانا
في الحَمْلِ عاوِنْ ومظلوماً أعِنْ وأغِثْ ... لهفانَ إهْدِ سَبيلاً واهد حَيْرَانا
بالعُرفِ مُر وانْهَ عن نُكْرٍ وكُفَّ أذى ... وغُضَّ طرفاً وأكْثِر ذِكْرَ مولانا

قال النووي رحمه الله تعالى: وقد أشار النبي ﷺ إلى علة النهي من التعرض للفتن والإثم بمرور النساء وغيرهن، وقد يمتد نظر إليهن، أو فكر فيهن، أو ظن سوء فيهن، أو في غيرهن من المارين، ومن أذى الناس

باحتقار من يمر أو غيبة أو غيرها، أو إهمال رد السلام في بعض الأوقات، أو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من الأسباب التي لو خلا في بيته سلم منها، ويدخل في الأذى أن يضيّق الطريق على المارّين أو يمتنع النساء ونحوهن من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق أو يجلس بباب دار إنسان يتأذى بذلك أو حيث يكشف من أحوال الناس شيئاً يكرهونه... وهذه الآداب والحقوق قد تعذّر القيام بها اليوم فلا يقدر أحد على مراعاتها لغلبة الشر وانتشاره وقلة الخير وأهله.

وعلى أيٍّ، فمن حقوق الجلوس في الطرقات رد السلام على كل من مرّ وسلّم.

* * *

❊ مَن أولى بالبداءة بالسلام

[١٦١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُسلِّمُ الراكبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليلُ على الكثير**».

رواه البخاري (٢٥١/١٣)، ومسلم (١٤٠/١٤)، وأبو داود (٥١٩٩)، والترمذي (٢٥١٨) كلهم في الاستئذان، وفي رواية للبخاري (٢٥٠/١٣)، وأبي داود (٥١٩٨)، والترمذي (٢٥٢٠): «**يسلّم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير**».

في هذا الحديث أدب من آداب التحية والسلام، وأن السنة أن يسلّم الراكب على الراجل الماشي، والماشي على الجالس، والواحد على الاثنين، والاثنان على الثلاثة، فمن فوقهم وهكذا. والصغير على الكبير سناً أو قدراً حتى ولو كان العالم صغيراً والعامي كبيراً، فالعامي الكبير سناً يعتبر صغيراً والعالم الصغير سناً يعتبر كبيراً قدراً.

* * *

❋ مشروعية السلام لمن قام من المجلس

[١٦٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتى أحدُكم إلى المجلس فليسلّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»**، وفي رواية: **«فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلّم»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٠/٤٣٩)، وأبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٥٢١) كلاهما في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٦/١٠٠)، وابن حبان (١٩٣١) وسنده حسن صحيح.

في الحديث مشروعية السلام عند إتيان مجلس ما وعند قيامه وانصرافه، فالسلام في الآخر كالأول ولا فارق.

❋ ❋ ❋

❋ مشروعية السلام عند افتراق الرجلين

[١٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا لقي أحدكم أخاه فليسلّم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر، ثم لقيه فليسلّم عليه»**.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٠) بسند صحيح، ورواه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٠١٠)، وأبو يعلى موقوفاً.

[١٦٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يكونون فتستقبلهم الشجرة، فتنطلق طائفة منهم عن يمينها وطائفة عن شمالها فإذا التقوا سلّم بعضهم على بعض، وفي رواية: كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ فتفرق بيننا شجرة فإذا التقينا يسلّم بعضنا على بعض.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠١١) والطبراني في الأوسط، وحسنه الحافظان المنذري، والهيثمي (٨/٣٤) رحمهما الله تعالى.

وفي الحديثين مشروعية السلام ولو تكرر اللقي عن قرب إذا حالت بين الرجلين شجرة أو جدار أو نحو ذلك، بل ولو لم يحل بينهما شيء إذا كان اللقي عن قرب كما تقدم في حديث المسيء صلاته، فإنه أتى النبي ﷺ فسلّم عليه وردّ عليه، فقال له: «**ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ**» فعل معه ذلك ثلاث مرات، وفي كلها يسلّم ويرد عليه وهو في الصحيحين.

* * *

❊ السلام على أهل حلقة الذكر والعلم

[١٦٥] عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على رسول الله ﷺ سلّما، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الآخر: فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله إليه، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**».

رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، وتقدم في العلم من الجزء الأول رقم (١٢).

ففي الحديث مشروعية السلام على أهل الحلقة للذكر والعلم وفضل الجلوس معهم.

* * *

❊ رد الواحد عن الجماعة

[١٦٦] عن علي عليه السلام رفعه قال: «**يُجزىء عن الجماعة إذا مرُّوا أن يسلّم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم**».

رواه أبو داود (٥٢١٠) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شواهد يصح بها.

انظر الصحيحة للشيخ ناصر (١٤١٢/١١٤٨).

* * *

❊ لا يقال في التحية بداية: عليك السلام

[١٦٧] عن رجل قال: طلبت النبي ﷺ فلم أقدر عليه، فجلست فإذا نفر هو فيهم ولا أعرفه وهو يُصلح بينهم، فلما فرغ قام معه بعضهم فقالوا: يا رسول الله، فلما رأيت ذلك قلت: عليك السلام يا رسول الله، عليك السلام يا رسول الله، عليك السلام يا رسول الله، قال: «**إن عليك السلام تحية الميت**» ثم أقبل عليّ فقال: «**إذا لقي الرجل أخاه المسلم فليقل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**» ثم ردّ عليَّ النبي ﷺ وقال: «**وعليك ورحمة الله، وعليك ورحمة الله، وعليك ورحمة الله**».

وفي رواية عن جابر بن سليم قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: عليك السلام، قال: «**لا تقل عليك السلام، ولكن قل السلام عليكم**».

رواه الترمذي في الاستئذان من طريقيه وكلاهما صحيح، وحسّنه وصححه.

ورواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٨/٦)، وابن حبان، والحاكم من طريق أبي تميمة الهجيمي، ورواه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤) مطولاً، ويأتي إن شاء الله كاملاً في اللواحق.

دلّ الحديث على أن المشروع في التحية أن تكون بلفظ: «**السلام عليكم**» نعم يكون ذلك في الرد، كعليه السلام أيضاً.

ففي حديث المسيء صلاته: أنه لما سلّم على النبي ﷺ ردّ عليه بقوله: «**وعليك السلام ارجع فصلِّ...**» إلخ.

وتقدم في فضائل عائشة حديثها أن النبي ﷺ قال لها: «**إن جبريل عليه السلام يقرأ عليكِ السلام**» قالت: وعليه السلام ورحمة الله، وهو في الصحيح.

* * *

السلام على من في المنزل من نائم ويقظان

[١٦٨] عن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت أنا وصاحبان لي قد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجلعنا نعرض أنفسنا على أصحاب النبي ﷺ فليس أحد يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ فأتى بنا أهله، فإذا ثلاثة أعنُزٍ فقال النبي ﷺ: «**احتلبوا هذا اللبن**» وكنا نحتلبه فيشرب كل إنسان نصيبه ونرفع لرسول الله ﷺ نصيبه فيجيء رسول الله ﷺ من الليل فيسلّم تسليماً لا يوقظ النائم، ويُسمع اليقظان، ثم يأتي المسجد فيصلي ثم يأتي شرابه فيشربه.

رواه مسلم في الأطعمة باب إكرام الضيف (١٦/١٣/١٤) مطولاً، والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٤) وهذا سياقه.

ففي الحديث أدب من آداب السلام وهو أن يكون بانخفاض، إذا كان بالمنزل أخلاط ما بين يقظان ونائم، فما كان يفعله ﷺ هو من جملة أخلاقه الكريمة، فكان لا يجهر بالسلام حتى لا يزعج النائمين.

* * *

السلام على المصلي وكيف يرُدّ

[١٦٩] عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي فسلّمتُ، فردّ إليّ إشارة بأصبعه.

رواه أحمد (٣٣٢)، وأبو داود (٩٢٥)، والترمذي (٣٢٧)، وابن ماجه (١٠١٧)، وكذا ابن خزيمة (٨٨٨) وسنده صحيح عند بعضهم.

[١٧٠] وقيل لبلال رضي الله تعالى عنه: كيف كان النبي ﷺ يرد عليهم حين كانوا يسلّمون عليه وهو في الصلاة؟ قال: كان يشير بيده.

رواه أحمد (١٢/٦)، وأبو داود (٩٢٧)، والترمذي (٣٢٨) وحسنه وصححه.

فالحديثان صريحان في مشروعية السلام على المصلي وأن له أن يرد بالإشارة بيده بإصبع ونحوه، ولا يؤثر ذلك في صحة الصلاة.

* * *

السلام على النساء والأطفال

[١٧١] عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: مرّ علينا النبي ﷺ في نسوة فسلّم علينا، وفي رواية: مرّ في المسجد يوماً وعصبة من النساء قُعود فألوى بيده بالتسليم، وأشار عبدالحميد بيده.

رواه أبو داود (٥٢٠٤)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠١)، والترمذي في الاستئذان (٢٥١١)، والدارمي (٢٦٤٠) وسنده حسن.

[١٧٢] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: كنا نفرح يوم الجمعة، كانت لنا عجوزٌ ترسل إلى بُضاعة فتأخذ من أصول السِّلْق فتطرحه في قدر وتُكركر حبات من شعير، فإذا صلّينا الجمعة انصرفنا ونسلّم عليها فتقدمه إلينا فنفرح من أجله، وما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة.

رواه البخاري في الجمعة وفي الاستئذان (٢٧١/١٣).

قوله: «تكركر» أي: تطحن.

وفي الحديثين مشروعية السلام على النساء، وقيد العلماء ذلك إذا أمنت الفتنة ولم يؤد ذلك إلى التعارف والمحظور، فإن السلام على النساء قد يجر إلى الكلام والكلام يجر إلى ما يمنع شرعاً، فالأولى الاقتصار على السلام على من لا يخشى منهن فتنة كجماعة من النسوة مثلاً أو كن

عجائز... أو أمن الإنسان على نفسه كالنبي ﷺ، وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (١٤/١٤٩).

أما تسليم النساء على الرجال فقد جاء في صحيح مسلم أن أم هانئ أتت النبي ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل فسلّمت عليه فقال: «مَن هذه؟» فقالت: أم هانىء، فقال: «مرحباً بأم هانىء».

[١٧٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله.

وفي رواية: أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلّم عليهم.

وفي أخرى: انتهى إلينا رسول الله ﷺ وأنا غلامٌ في الغلمان فسلّم علينا ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة...

رواه البخاري (١٣/٢٦٩)، ومسلم، وأبو داود (٥٢٠٢/٥٢٠٣)، والترمذي (٢٥١٠)، والنسائي، وابن ماجه في الأدب (٢٧٠٠).

قال العلماء: في السلام على الأطفال والصغار، تدريبهم على أدب الشريعة وتمرينهم على القيام بالتكاليف الشرعية، وطرح رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب، حتى إذا احتلموا رسخ ذلك في أخلاقهم وأعماق قلوبهم.

* * *

السلام على مجلس يضم المسلمين وغيرهم

[١٧٤] عن أسامة بن يزيد رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلّم عليهم.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٧٦) ومسلم مطولاً، ورواه الترمذي (٢٥١٧) مختصراً، وقد تقدم في السيرة وغيرها بطوله.

في الحديث مشروعية السلام على أهل مجلس يضم المسلمين وغيرهم

من المشركين والكفار، لأن السلام ينصرف إلى المسلمين ولا حظ فيه للكافرين والملحدين.

* * *

❊ أشخاص لا يسلم عليهم
لا يسلم على قاضي الحاجة

[١٧٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سلّم على النبي ﷺ وهو يبول، فلم يرد عليه النبي ﷺ السلام.

رواه مسلم وأبو داود (١٦)، والنسائي (٣٤/١)، والترمذي (٧٨)، وابن ماجه (٣٥٣) وغيرهم.

في الحديث عدم رد السلام ممن كان على قضاء حاجة من بول أو غائط، وفي ضمنه عدم مشروعيته وقتئذ.

وذكر العلماء عدم مشروعيته على من كان في الحمام، أو كان مكشوف عورته، أو كان على معصية، ونحو ذلك.

* * *

❊ عدم مشروعيته على الكفار

[١٧٦] عن سُهَيل بن أبي صالح قال: خرجت مع أبي إلى الشام، فجعلوا يَمُرُّون بصوامع فيها نصارى، فيُسلِّمون عليهم، فقال أبي: لا تبدأوهم بالسلام فإن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه حدثنا عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تبدأوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطريق»**.

رواه أحمد (٣٤٦/٢/٤٤٤/٤٥٩)، ومسلم في السلام (١٤٨/١٤)، وأبو داود (٥٢٠٥/٥٢٠٦/٥٢٠٧) والترمذي (١٤٧١/٣٥١٥) وغيرهم.

قوله «فاضطروهم» أي ألجئوهم إلى الطريق الضيق ولا تتركوا لهم الطريق الواسع وتسلكوا الطريق الضيق، هذا ظاهر الحديث، قال النووي: قال أصحابنا: لا يُترك للذمي صدر الطريق بل يضطر إلى أضيقه.

وقال القرطبي: لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق إكراماً لهم واحتراماً.

والحديث يدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يبدأ الكافر بالسلام، فإذا بدأ الكافر فماذا يفعل معه؟ وجوابه هو الآتي:

[١٧٧] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن اليهود إذا سلّم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم، فقولوا: وعليكم»**.

رواه البخاري في الاستئذان (٢٨١/١٣)، ومسلم في السلام (١٤٦/١٤)، وأبو داود (٥٢٠٦)، والترمذي وغيرهم.

[١٧٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: إن أهل الكتاب يسلّمون علينا فكيف نرد عليهم؟ قال: **«قولوا: وعليكم»**.

رواه البخاري ومسلم في المصدرين السابقين، وأبو داود (٥٢٠٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٧).

[١٧٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة إن الله يحب الرّفق في الأمر كله»**، قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«قد قلتُ: وعليكم»**.

وفي رواية: **ففطنت بهم عائشة فسبّتهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة، فإن الله لا يحب الفُحْشَ والتفحُّش»** فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ...﴾ الآية.

وفي رواية أخرى فقالوا: السام عليكم يا أبا القاسم، فقال: **«وعليكم»** فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«بلى قد سمعتُ فرددت**

عليهم، وإنا نجاب عليهم، ولا يُجابون علينا»، وفي رواية: **«يُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيّ»**.

رواه البخاري في الأدب (٥٧/١٣)، وفي الاستئذان (٢٧٩/١٣/٢٨٠)، وفي الدعوات وفي الجهاد، ومسلم في السلام (١٤٦/١٤/١٤٧/١٤٨)، والترمذي (٢٥١٦) في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٤٨٢/٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٨)، والروايات لمسلم.

السام: هو الموت. ففي هذه الأحاديث بيان بعض فضائح اليهود وقبائحهم التي يعاملون بها غيرهم، فها هم يتظاهرون بأنهم يسلّمون على النبي ﷺ وعلى أصحابه وهم يدعون عليه وعليهم بالموت، وقد فطن لهم النبي ﷺ فردّ عليهم بقوله: **«وعليكم»** فكان ذلك هو المشروع، ولا يقال: وعليكم السلام، وكان جوابه ﷺ ورده عليهم فيما قالوه وغض الطرف عن سفههم عملاً بأخلاقه الكريمة، أما مولاتنا عائشة فلعنتهم وسبّتهم وقابلتهم على فحشهم بالمثل، لكن النبي ﷺ كان لا يرضيه كلام الفحش ولو كان انتصاراً، وبيّن للسيدة عائشة بأننا عندما نجيبهم بقولنا: **«وعليكم»**، سيجيبنا الله تعالى في دعائنا عليهم دونهم، ولذا قال لها: **«وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا»**، وقد فضحهم الله عزّ وجل فيما فاهوا به وأنزل في شأنهم قرآناً يُتلى على مدى العصور، وفيما فعلته عائشة كان انتصاراً للنبي ﷺ من الظلم الذي أصابه من طرف أصحاب القردة والخنازير.

* * *

❋ ترك السلام على الفاسق والعاصي

قال البخاري في الاستئذان: باب مَن لم يسلّم على من اقترف ذنباً ومَن لم يرد سلامه حتى تتبين توبته وإلى متى تتبين توبة العاصي.

وقال عبدالله بن عمرو: لا تُسلّموا على شَرَبَةِ الخمر.

[١٨٠] ثم أخرج عن عبدالله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلّف عن تبوك ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، حتى كملت خمسون ليلة وآذن النبي ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى الفجر.

رواه البخاري في الاستئذان هكذا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وغيرهما مطولاً، وقد تقدم في التفسير وفي السيرة.

والحديث استدل به العلماء، ومنهم البخاري على ترك السلام وعدم رده على العاصي والمبتدع. قال الحافظ: وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يسلّم على الفاسق والمبتدع.

قال النووي: فإن اضطر إلى السلام بأن خاف ترتب مفسدة في دين أو دنيا إن لم يسلّم سلّم، وكذا قال ابن العربي وزاد: وينوي أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، فكأنه قال: والله رقيب عليكم. وقال المهلب: ترك السلام على أهل المعاصي سنّة ماضية، وبه قال كثير من أهل العلم في أهل البدع. قال: وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي من يتعاطى خوارم المروءة ككثرة المزاح واللهو وفحش القول والجلوس في الأسواق لرؤية من يمر من النساء ونحو ذلك.

وقال النووي: وأما المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه، فلا يسلّم عليهم ولا يرد عليهم السلام كما قال جماعة من أهل العلم.

وحكمة ذلك تأديب العاصي والمبتدع وزجرهما عما هما فيه، فإن تابا ويعرف ذلك بالقرائن سلّم عليهما كما حصل لكعب بن مالك وصاحبَيْه.

وستأتي بقية للموضوع في الهجران الجائز والممنوع إن شاء الله تعالى.

* * *

❊ السلام في الكتابة إلى أهل الكتاب

[١٨١] تقدم حديث ابن عباس في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل وفيه: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هِرَقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى**».

رواه الشيخان وغيرهما، وتقدم في تفسير آل عمران وفي السيرة النبوية.

وهو يدل على أنه لا يُسلَّم عليهم على الخصوص في الكتابة إليهم لأنهم ليسوا من أهل السلام، بل يخصص السلام بعلى من اتبع الهدى، وهم المؤمنون أيًا كانوا.

* * *

❊ أدب التثاؤب

[١٨٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب العُطَاسَ ويكره التثاؤب، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، ولا يقل هاه، هاه، فإنما ذلكم من الشيطان يضحك منه**»، وفي رواية: «**التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع**».

رواه البخاري في الاستئذان (٢٣١/١٣)، ومسلم في الزهد (١٢٢/١٨)، وأبو داود (٥٠٢٨)، والترمذي (٢٥٦١) كلاهما في الاستئذان.

[١٨٣] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تثاءب أحدكم في الصلاة فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل**»، وفي رواية: «**فليمسك بيده**».

رواه مسلم في الزهد (١٢٣/١٢٢/١٨)، وأبو داود (٥٠٢٦).

العطاس يكون من خفة البدن وانفتاح المسام وينشأ عن الزكام ويدل على النشاط بخلاف التثاؤب وهو فتح الفم مع تكاسل ويكون غالباً مع ثقل

البدن وامتلائه، وقوله: «**إن الله يحب العطاس**» لأنه يدل على الخفة والنشاط للعبادة وإضافة التثاؤب إلى الشيطان لأنه الذي يدعو إلى الشهوات التي منها كثرة الأكل، وذلك مما يكرهه الله تعالى.

وفي الحديثين بيان ما ينبغي للمتثائب فعله، وهو أن يرد التثاؤب ويمسكه ما استطاع ويضع يده على فيه ولا يفتح فيه ويقول: هاه فإن الشيطان يضحك عليه لأن فتح فمه ورفع صوته بـ«هاه» يشوّه خلقته ولذلك أمر بوضع يده على فمه.

* * *

❊ العطاس وآدابه

[**١٨٤**] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض أو غضّ بها صوته.

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٢٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٧٩)، والحاكم في الأدب (٤/٢٦٤) وسنده صحيح، وحسّنه وصححه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«غضّ وخفض»: معناهما واحد.

الحديث يدل على أن العاطس ينبغي له أن يخفض صوته بعطاسه لئلا يزعج غيره من الحاضرين كما هو الواقع، ثم يضع يده على فمه خشية أن يخرج مع عطاسه مخاطٌ أو نحوه فيؤذي جلساءه.

[**١٨٥**] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلين عطسا عند النبي ﷺ فشمّت أحدهما ولم يشمّت الآخر، فقال الذي لم يشمّته: يا رسول الله شمّتَّ هذا ولم تشمّتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه حمد الله، وإنك لم تحمده**».

رواه البخاري (١٣/٢٣٤)، ومسلم في الزهد (١٨/١٢٠)، وأبو داود (٥٠٣٩)، والترمذي (٢٥٥٧)، وابن ماجه (٣٧١٣).

[١٨٦] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمّتوه**».

رواه مسلم (١٢١/١٨).

[١٨٧] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ وقد عطس رجل عنده فقال له: «**يرحمك الله**»، ثم عطس آخر، فقال له رسول الله ﷺ: «**الرجل مزكوم**»، وفي رواية: قال في الثالثة: «**وأنت مزكوم**».

رواه مسلم أيضاً (١٢٢/١٨)، وأبو داود (٥٠٣٧)، وابن ماجه (٣٧١٤)، والترمذي (٢٥٥٨) والرواية الثانية له، وحسّنه وصححه.

[١٨٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله على كل حال، وليقل أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، ويقول هو: يهديكم الله ويُصلح بالكم**».

رواه البخاري (٢٣٢/١٣٣/١٣)، وأبو داود (٥٠٣٣) ونحوه عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٤٢٢/٤١٩/٥) والترمذي (٢٥٥٥).

«التشميت»: بالشين المعجمة وبالسين وبالمعجمة أفصح، ومعناه: أبعد الله عنك شماتة الأعداء.

وفي هذه الأحاديث أحكام العطاس وآدابه:

فمنها: أن تشميت العاطس مأمور به، وقد اختلف الأئمة في حكمه بعد إجماعهم على مشروعيته، فقال بوجوبه الظاهرية وبعض المالكية للأحاديث الآمرة بذلك ولقوله ﷺ كما تقدم: «**وإذا عطس فحمد الله فشمّته**» وجعل ذلك من حقوق المسلم.

وقال مالك رحمه الله تعالى: إنه فرض كفاية كرد السلام وبه قال جماعة من أهل العلم، وقال الجمهور: إنه سنّة.

ومنها: أن العاطس يشرع له أن يحمد الله تعالى عقب عطاسه ويرفع صوته بذلك.

ومنها: أن من سمعه وكان قد حمد الله أن يجيبه بقوله: يرحمك الله، فإن تكرر منه العطاس والحمد كرر التشميت، وفي الثالثة يقول له: الرجل مزكوم، أي: أصابه ريح فحصل له زكام.

ومنها: أن العاطس يرد على من شمّته داعياً معه بقوله: يهديكم الله ويُصلح بالكم، أي: حالكم، أو يقول: يغفر الله لنا ولكم.

[١٨٩] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «**إذا عطس الرجل فليقل: الحمد لله رب العالمين، وليقل من يرد عليه: يرحمك الله، وليقل هو: يغفر الله لي ولكم**» وسنده صحيح.

[١٩٠] وأخرج مالك في الموطأ رقم (١٨٦٦) بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، أنه كان إذا عطس فقيل له: يرحمك الله، يقول: يرحمنا الله وإياكم، ويغفر لنا ولكم.

ومن آداب العطاس أن من لم يحمد الله تعالى لا يُشَمَّت ولا يُدعى معه.

* * *

❁ ما يقال في تشميت أهل الكتاب

[١٩١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كانت اليهود تعاطس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله، فكان يقول: «**يهديكم الله ويُصلح بالكم**».

رواه أبو داود (٥٠٣٨)، والترمذي (٢٥٥٣) كلاهما في الأدب،

والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٠)، والحاكم (٢٦٨/٤) وحسّنه الترمذي وصححه هو والحاكم، وسنده صحيح.

في الحديث مشروعية تشميت أهل الكتاب تأليفاً لهم، غير أنهم ليسوا كالمسلمين بل يُدعى لهم بالهداية وصلاح الحال.

* * *

❊ القيام للرجل الصالح إجلالاً له

[١٩٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد فأرسل النبي ﷺ إليه فجاء فقال: **«قوموا إلى سيدكم»** أو قال: **«خيركم»**.

رواه البخاري في المغازي وفي الاستئذان (٢٨٨/١٣)، ومسلم في الجهاد والسير وجواز قتال من نقض العهد (٩٤/٩٣/٩٢/١٢)، وأبو داود (٥٢١٥) وغيرهم، وقد تقدم مطولاً مبسوطاً في السيرة.

في الحديث مشروعية القيام للرجل الصالح وسيد القوم إكراماً وإجلالاً له، وقد قدّمنا في حديث كعب بن مالك أن طلحة بن عبيدالله قام إليه يهرول يهنئه بتوبة الله عليه، ويأتي قريباً حديث عائشة في قيام النبي ﷺ لابنته فاطمة وقيامها له عليه وعليها الصلاة والسلام.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم على حديث الباب: فيه إكرام أهل الفضل وتلقّيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام. قال القاضي ـ يعني عياضاً ـ: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس، ويمثلون قياماً طوال جلوسه.

قال النووي: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح، وقد جمعت كل ذلك مع

كلام العلماء عليه في جزء وأجبت فيه عما توهم النهي عنه، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ في الفتح (٢٨٨/١٣) كلام العلماء في الموضوع وما استدلوا به، وأطال في ذلك، فليراجعه من شاء.

* * *

❊ القيام المنهي عنه

[١٩٣] عن أبي مِجْلَزٍ قال: خرج معاوية على ابن الزبير، وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: إجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن أحبّ أن يتمثّل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»**، وفي رواية: **«مَن سرّه»** - أي: أحبّ أو أعجبه -.

«يتمثل» أي: ينتصب له رجال قائمين.

رواه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٥٩٨)، وأحمد (٩١/٤) بسند حسن صحيح.

[١٩٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٦)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٧)، وفي الشمائل (٣٢٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٦٣) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه.

استدل بالحديثين من منع القيام للقادمين مطلقاً لكن الحديث الأول فيه: **«مَن أحب وأعجبه قيام الناس له»**، فهذا هو الممنوع لأنه يدل على التعاظم والتكبر، وهو صريح في القيام على القاعدين على عادات ملوك الروم والفرس وغيرهم، حيث كانوا يقعدون والجند والحواشي قائمون، وهو الموجود اليوم عند بعض الملوك والرؤساء، فهذا محرّم أشد التحريم، ومَن أحبّ ذلك كان من أهل النار إن لم يتب.

أما الحديث الثاني: فكان النبي ﷺ يكره قيامهم له تواضعاً منه وابتعاداً من التشبُّه بالكفار والجبابرة، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ المصافحة والمعانقة والقبلة

[١٩٥] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ما من مسْلِمَين يلتقيان فيتصافحان، إلا غُفِر لهما قبل أن يتفرّقا**».

رواه أحمد (٤/٢٨٩/٣٠٣)، وأبو داود (٥٢١٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٤٥)، وابن ماجه (٣٧٠٣).

وفي رواية لأحمد: «**فيسلّم أحدهما على صاحبه ويأخذ بيده لا يأخذ بيده إلا للّه**». وحسّنه الترمذي وهو كما قال، وأبو إسحاق توبع.

في الحديث الترغيب في المصافحة والحث عليها لأنها من تمام السلام وذلك مما يزيد في الألفة والتحابب.

[١٩٦] وعن قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٩٤) والترمذي (٢٥٤٢) وحسّنه وصححه.

قال النووي رحمه الله تعالى: المصافحة سنّة مجمع عليها عند التلاقي، واستثنوا المرأة الأجنبية والأمرد لأنهما مما يشتهيان فمسّهما محرّم.

[١٩٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: وجّه رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب إلى بلاد الحبشة، فلما قدم منها اعتنقه النبي ﷺ وقبّل بين عينيه.

رواه الحاكم وقال: إسناده صحيح لا غبار عليه، ووافقه الذهبي.

[١٩٨] وعن الشعبي أن النبي ﷺ تلقى جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبّل ما بين عينيه.

رواه أبو داود (٥٢٢٠)، والطبراني بسند رجاله رجال الصحيح لكنه مرسل وقد وصله جماعة كالدارقطني، والحاكم، والطبراني، والبزار وغيرهم عن عائشة وجابر وعبدالله بن جعفر، وأبي جحيفة.

وجاء في بعض رواياته: فتلقاني رسول الله ﷺ فاعتنقني ثم قال: «**ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر**»، ووافق ذلك فتح خيبر.

رواه الطبراني في الأوسط (٧) والصغير، وسنده ضعيف.

فالحديث بهذه الطرق والشواهد ثابت بلا ريب.

[١٩٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه: «كانوا إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا».

أورده الهيثمي في المجمع (٣٦/٨) برواية الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح.

[٢٠٠] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبدالله بن أُنَيْس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته.

رواه أحمد (٤٩٥/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاكم (٤٣٨/٤٣٧/٣) وسنده حسن صحيح، وعلقه البخاري في كتاب العلم، وصححه الحاكم والذهبي.

[٢٠١] وفي الباب عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قدم زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاه فقرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ عرياناً يجر ثوبه، والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبّله.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٥٤٦) بتهذيبي، وحسّنه، وفيه ضعف.

وتقدم لنا حديث معانقة أبي الهيثم النبي ﷺ في الشمائل، وهو حديث صحيح أصله في صحيح مسلم.

وعلى أيٍّ، فالمعانقة ثابتة عن النبي ﷺ من فعله وتقريره، وعليها كان عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

وانظر شرح السنة للبغوي (١٣/٢٩٠/٢٩٢/٢٩٣).

[٢٠٢] وعن زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبّل يد النبي ﷺ ورِجله، وتقدم في الوفود من السيرة.

رواه أبو داود (٥٢٢٥) بسند حسن، وجوّده الحافظ، كما حسّنه ابن عبدالبر.

[٢٠٣] وعن صفوان بن عسال رضي الله تعالى عنه قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال صاحبه: لا تقل نبي، إنه لو سمعك كان له أربعة أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بيّنات، فقال لهم: **«لا تُشرِكوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصَنة، ولا تتولّوا يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت»**.

قال: فقبّلوا يديه ورِجليه وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: **«فما يمنعكم أن تتّبِعوني؟»** قال: إن داود دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك يقتلنا اليهود.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٥٤٧) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٢/٣٠٦ و٥/١٩٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، والحاكم (١/٩) وصححه الترمذي والحاكم، وسنده عند الترمذي صحيح رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن سلمة وهو ثقة.

[٢٠٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة عليها السلام برسول الله ﷺ، وكان إذا دخلت عليه رحّب بها وقام إليها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبّلت يده.

رواه أبو داود (٥٢١٧)، والترمذي في المناقب (٣٦٤٠)، والنسائي في الكبرى، والحاكم وابن حبان (٢٢٢٣) وحسّنه الترمذي وصححه وسنده صحيح، وما قيل في المنهال بن عمرو لا يضر وهو من رجال البخاري.

[٢٠٥] وعن أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله تعالى عنه قال: بينما هو يحدّث القوم وكان فيه مزاحٌ بيّناً يُضحكهم فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود فقال: أصْبِرْني، فقال: «اصْطَبِر» قال: إن عليك قميصاً وليس عليّ قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه فاحتضنه وجعل يقبّل كَشْحَهُ، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله.

رواه أبو داود (٥٢٢٤) وسنده صحيح على شرط الشيخين.

«أصبرني» أي: مكّنّي من الاقتصاص. وقوله: «اصطبر» أي: اقتص وخذ حقك.

وفي هذه الأحاديث جواز تقبيل يد الصالح والعالم ورجليه وبطنه إجلالاً له واحتراماً ومحبة، فهؤلاء وفد عبد القيس واليهود يقبّلون يد النبي ﷺ ورِجله، وأُسيد بن حضير يقبّل كشحه وجنبه الشريف ولا ينكر عليهم، وهكذا حصل منه ﷺ أنه كان يقبّل ابنته فاطمة عليها السلام وتقبّله هي أيضاً.

وإذا ثبت تقبيل يد النبي ﷺ من الصحابة وغيرهم فما يقوله بعض الناس اليوم من أن تقبيل أيدي أولي الفضل السجدة الصغرى، وقول آخرين: إنها شرك: هو تنطّع وخلاف للسنة.

مع أن تقبيل الأيدي وغيرها ثبت عن الصحابة وغيرهم، ففي صحيح

البخاري وغيره أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل على عائشة وهي مريضة فقبّل خدّها.

[٢٠٦] وأخرج البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: رأيت علياً يقبّل يد العباس ورجليه رضي الله تعالى عنهما.

[٢٠٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه لقي الحسن بن علي عليهما السلام فقال: رأيت رسول الله ﷺ قبّل بطنك فاكشف الموضع الذي قبّله حتى أقبّله، فكشف له الحسن فقبّله.

رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

[٢٠٨] وعن الشعبي أن زيد بن ثابت قُرّبت له دابة ليركبها فأخذ ابن عباس بركابه فقال زيد: تنحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا وعلمائنا، فقال زيد: أرني يدك، فأخرج يده فقبّلها فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

رواه الدينوري في المجالسة، وإسناده على شرط مسلم، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق آخر.

[٢٠٩] وعن ثابت البناني قال: كنت إذا أتيت أنساً يُخْبَرُ بمكاني فأدخل عليه فآخذ بيديه فأقبلهما فأقول: بأبي هاتين اليدين مسّتا رسول الله ﷺ، وأقبّل عينيه وأقول: بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ.

أورده الهيثمي في المجمع برواية أبي يعلى، وقال: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أبي بكر المقدمي، وهو ثقة، وله طريق آخر.

رواه البخاري في الأدب المفرد.

[٢١٠] وعن عبدالرحمٰن بن رزين قال: مررنا بالرَّبَذَة فقيل لنا: ههنا سلمة بن الأكوع، فأتيناه فسلّمنا عليه، فأخرج يديه فقال: بايعت بهاتين نبي الله ﷺ، فأخرج كفًا له ضخمة كأنها كفُّ بعير، فقمنا إليها فقبّلناها.

رواه البخاري في الأدب المفرد.

[٢١١] وعن أبي نضرة أنه قبّل خد الحسن بن علي عليهما السلام.

رواه أبو داود. قال النووي: إسناد صحيح مليح.

وذكر النووي رحمه الله تعالى في الأذكار، عن سهل بن عبدالله التُسْتَرِي السيد الجليل أحد أفراد زهّاد الأمة وعبادها رضي الله تعالى عنه، أنه كان يأتي أبا داود السجستاني صاحب السنن ويقول: أخرِج لسانك الذي تحدّث به حديث رسول الله ﷺ لأقبّله، فيقبّله.

فهذه سنّة رسول الله ﷺ، وهذا عمل الصحابة فمَن بعدهم على جواز التقبيل، وماذا بعد هذا إلا التزمُّت والتنطُّع، وقد قال ﷺ: «**هلك المتنطّعون**».

رواه مسلم.

و«المتنطّعون»: هم المتشددون في غير محل التشديد.

نعم، قال العلماء رحمهم الله تعالى: تقبيل اليد وغيرها كالرأس والخد والرِجل وغيرها يستحب أو يباح في حالتين:

إحداهما: إذا كان تعظيماً واحتراماً للشخص لأجل مصلحة دينية كعلم أو شرف أو زهد وصلاح أو غير ذلك كالوالدين وشيوخ الطالب.

ثانيهما: إذا كان على وجه العطف والشفقة والملاطفة كتقبيل الأولاد والأقارب والمحارم، وكذا إذا كان عند وداع لسفر أو قدوم منه، ويحرم أو يُكره إذا كان لذي جاه أو حاكم ظالم، كما يحرم بالإجماع التقبيل للمرأة الأجنبية أو لذكَرٍ أمرد لأن ذلك ذريعة للشهوة المحرّمة.

فما هو سائد اليوم بين العلمانيين والمتفرنجين من تبادل القبل بين الرجال والنساء من الخدود وغيرها، هو من الإباحية القذرة التي حرّمها الإسلام أشد التحريم.

خاتمة: لا يجوز للإنسان أن يمكّن يده أو غيرها للتقبيل تكبُّراً ونخوة ورؤية للنفس بل ينبغي له أن يتحاشى ذلك ما وجد إليه سبيلاً.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

❋ من أدب المجالس

❋ التفسُّح في المجالس

[٢١٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُقيمَنَّ أحدكم الرجل من مجلسه، ثم يَخلُفه فيه ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا»**.

رواه البخاري في الاستئذان (٣٠٣/١٣)، ومسلم في الأدب (١٦٠/١٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٣).

الحديث يدل على أن الجالس لا يُقام من مجلسه ليجلس فيه غيره لأن ذلك ينافي الأدب ويمس بحرمة المؤمن ويُحرجه، والواجب في الأدب الإسلامي أن يوسّع المسلم لأخيه ويتفسّح فيجلسا معاً كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: توسّعوا يوسّع الله تعالى عليكم برحمته.

قال النووي: هذا النهي للتحريم فمَن سبق إلى موضع مباح في المسجد وغيره يوم الجمعة أو غيره لصلاة أو غيرها فهو أحق به، ويحرم على غيره إقامته لهذا الحديث.

ونقل الحافظ عن ابن أبي جمرة رحمه الله كلاماً هاماً مفصّلاً في الموضوع، ثم قال: والحكمة في هذا النهي منع انتقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للموادة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء فمَن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصب والغصب حرام.

❋ ❋ ❋

❋ الرجل أحق بمجلسه إذا قام ورجع إليه

[٢١٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قام أحدكم»**، وفي رواية: **«من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»**.

رواه مسلم في الأدب (١٦١/١٤).

[٢١٤] وعن وهب بن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «**الرجل أحق بمجلسه وإن خرج لحاجة ثم عاد فهو أحق بمجلسه**».

رواه أحمد (٤٢٢/٣)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٤) وحسّنه وصححه، وهو عنده صحيح.

قوله: «أحق» أي: أولى. والحديثان يدلان على أن من اتخذ مجلساً في موضع مباح فهو أولى به إن قام منه لحاجة ثم رجع. قال النووي رحمه الله تعالى: فإن كان قد قعد فيه غيره فله أن يُقيمه، وعلى القاعد أن يفارقه.

* * *

❊ لا يحل للرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما

[٢١٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل للرجل أن يفرّق بين اثنين إلا بإذنهما**».

رواه أحمد (٢١٣/٢)، وأبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٥٦٥) بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عند أبي داود (٤٨٤٤) بسند حسن.

والحديث يدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يفرّق بين الجالسين وأن يجلس بينهما بدون إذنهما، بل عليه أن يستأذنهما ليتفسحا ويوسعا له لئلا يؤدي ذلك إلى الخصام كما يقع كثيراً في الحرمين الشريفين وغيرهما.

* * *

❊ ملعون من جلس وسط الحلقة

[٢١٦] عن أبي مِجْلَز أن رجلاً قعد وسط الحلقة فقال حذيفة رضي الله تعالى عنه: «ملعونٌ على لسان محمد ﷺ، أو: لعن الله على لسان محمد مَن قعد وسط الحلقة».

رواه أبو داود (٤٨٢٦)، والترمذي (٢٥٦٦) كلاهما في الأدب، والحاكم، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي. وقال النووي: إسناده حسن.

فيه: أن الجلوس وسط الحلقة محرّم ملعون صاحبه.

وقد فسّر العلماء هذا القعود على وجهين: إما أن يأتي الإنسان حلقة قوم فيتخطى رقابهم ويقعد وسطها ولا يقعد حيث ينتهي به المجلس، وإما أن يقعد في الوسط فيحول بين الوجوه ويحجب بعضهم عن بعض فيتضررون ويتأذون بذلك، وذلك حرام.

* * *

❊ الجلوس بين الظل والشمس

[٢١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: **«إذا كان أحدكم في الشمس فقلص عنه الظل وصار بعضُه في الشمس وبعضُه في الظل فليَقُم»**.

رواه أحمد (٣٨٣/٢)، وأبو داود (٤٨٢١) بسند صحيح، وله شاهد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بلفظ: نهى أن يجلس بين الضَّحِّ والظل، وقال: **«مجلس الشيطان»**.

رواه أحمد (٤١٣/٣) بسند صحيح، ورواه الحاكم (٢٧١/٤) وسمّى الرجل أبا هريرة وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد آخر عن بريدة رواه ابن ماجه (٣٧٢٢) وحسّنه البوصيري في الزوائد، فالحديث صحيح.

والحديث يدل على كراهة الجلوس بين الظل والشمس بحيث يكون بعضه في الشمس والبعض الآخر في الظل، ولا يعرف السر والحكمة في ذلك، غير أن الحديث مصرح بأنه مجلس الشيطان، فكان من واجب المسلم الابتعاد عن مجالس الشيطان.

* * *

❋ الجلسة المكروهة

[٢١٨] عن الشَّريد بن سُوَيْد رضي الله تعالى عنه قال: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا وقد وضعتُ يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على إلْيَة يدي فقال: «**أتقعد قِعدة المغضوب عليهم؟**».

رواه أحمد (٣٨٨/٤)، وأبو داود (٤٨٤٨)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

«إلية»: بكسر الهمزة وسكون اللام، وإلية اليد: ما غلظ منها.

وفي الحديث النهي عن التشبُّه بالكفار حتى في هيئة جلوسهم لأنهم مغضوب عليهم ولا يليق بالمسلم أن يأتسي بمن غضب الله عليهم.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مضطجعاً على بطنه فقال: «**إنَّ هذه ضِجْعَةٌ لا يُحبُّها الله**».

رواه أحمد (٣٠٤/٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٧٩)، وابن حبان (١٩٥٩) بسند حسن وهو صحيح، وللحديث عن يعيش بن طخفة أو قيس بن طخفة عن أبيه قال: أصابني رسول الله ﷺ نائماً في المسجد على بطني فركضني برجله وقال: «**ما لك ولهذا النوم؟ هذه نومة يكرهها الله - أو - يبغضها الله**».

رواه أبو داود (٥٠٤٠)، وابن ماجه (٣٧٢٣)، وابن حبان (١٩٦٠) وفي اسم صحابيه اضطراب.

وشاهد آخر عن أبي أمامة رواه ابن ماجه (٣٧٢٥) وثالث عن أبي ذر رواه ابن ماجه أيضاً (٣٧٢٤) وسنده حسن، وشاهد رابع عن عمرو بن الشريد رواه أحمد (٣٩٠/٤) فالحديث لذلك صحيح.

وهو يدل على أن هذه الضجعة مبغوضة ومكروهة لله لأنها نومة الكفار من جهة، وهيئة لفعل قوم لوط من جهة أخرى فلا ينبغي للمسلم أن ينام منبطحاً على بطنه.

* * *

❋ الاستلقاء على القفا في المسجد

[٢٢٠] عن عَبَّاد بن تميم عن عمه عبدالله بن يزيد رضي الله تعالى عنه أنه رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

رواه البخاري في المساجد وفي اللباس وفي الأدب (٣٢٣/١٣)، ومسلم في اللباس (٧٧/١٤)، وأبو داود (٤٨٦٦)، والترمذي (٢٥٧٧) وغيرهم.

قوله: «مستلقياً» أي: مضطجعاً على قفاه، وهو يدل على جواز الاستلقاء على القفا في المسجد وإطلاق الرجلين ووضع إحداهما على الأخرى، وهذا محمول على ما إذا كان المستلقي في أمن من كشف عورته والنهي في الحديث التالي حيث يخشى ظهور العورة.

[٢٢١] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يرفع الرجل إحدى رجليه على الأخرى وهو مستلقٍ على ظهره.

رواه مسلم في اللباس (٧٧/١٤)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٧٨) مطولاً، فهذا النهي محمول على من خاف كشف سوءته، هكذا جمع بينهما الخطابي كما نقله في الفتح، ونحوه عند النووي في شرح مسلم، ونقل عن عياض أن استلقاءه ﷺ لعله كان فعله لضرورة أو حاجة من تعب أو طلب راحة لأنه قد علم أن جلوسه ﷺ في المجامع على خلاف هذا، بل كان يجلس متربِّعاً أو محتبياً ـ وهو كان أكثر جلوسه ـ أو القرفصاء أو مقعياً وشبهها من جلسات الوقار والتواضع. قال النووي: ويحتمل أنه ﷺ فعله لبيان الجواز.

وصفة جلسات النبي ﷺ تقدمت مستوفاة في الشمائل.

* * *

❋ ذم المجالس الخالية من ذكر الله تعالى

[٢٢٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا على مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة»**.

رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم وسنده صحيح، وتقدم في الدعوات (ج٢/١٥٨٥)، وفي رواية: **«ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلّوا فيه على النبي ﷺ، إلا كان عليهم تِرة يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم بها»**.

قوله: «تِرَة» بكسر التاء على وزن عِدَة، ومعناها: النقص، وهي هنا معناها: التبعة.

والحديث بلفظَيْه يدل على ذم الغافلين عن الله في مجالسهم وأنهم إن لم يذكروا الله عزّ وجل كان عليهم حسرة وندامة يوم القيامة وقاموا من مجالسهم وهي قذرة منتنة أنتن وأقذر من جيفة حمار، وكفاهم بذلك خسارة.

وحديث كفارة المجلس تقدم في الأذكار فارجع إليه في الجزء الثاني.

❋ ❋ ❋

❋ أبواب الأسماء[١] والكنى[١] وما يتبع ذلك
تحسين الاسم

[٢٢٣] عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أبردتم إليّ بريداً فابعثوه حسَنَ الوجه حسَنَ الاسم»**.

(١) الاسم كل ما جعل علامة على مسماه من حيوان وغيره، ويكون كنية ولقباً أيضاً ويطلق على الجميع: العَلَمُ.

رواه البزار في مسنده (١٩٨٥) بسند صحيح، وللحديث شاهد عن أبي هريرة رواه البزار، والطبراني وسنده حسن عند الطبراني، وفي الباب عن ابن عباس رواه أحمد، وعن عبدالله بن الشخير رواه الطبراني في الكبير والأوسط بسند حسن.

«البريد»: هو حامل الرسائل.

والحديث يدل على سنية تحسين الاسم وأنه لا يبعث السفير إلا حسن الوجه والاسم ليُتفاءل بذلك، وقد كان النبي ﷺ يعجبه الفألُ الحسن.

* * *

❊ التسمِّي بأسماء الأنبياء

[٢٢٤] عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: **«إنهم كان يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»**.

رواه أحمد (٤/٢٥٢)، ومسلم في الأدب (١٤/١١٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٣).

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة، وكان هارون رجلاً عابداً صالحاً أيام مريم، فشبّهوها به.

والحديث يدل على جواز التسمية بأسماء الأنبياء. قال النووي: وأجمع عليه العلماء، وقد قدّمنا أن النبي ﷺ قال: **«ولد لي الليلة ولد فسمّيته باسم أبي إبراهيم»**.

قال النووي رحمه الله تعالى: وقد كان في أصحابه خلائق مسمون بأسماء الأنبياء.

* * *

❁ التسمّي باسم النبي ﷺ وعدم التكني بكنيته

[٢٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**تسمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٩٣)، ومسلم في الأدب (١٤/١١٦)، وأبو داود (٤٩٦٥) ورواه البخاري في الأدب المفرد (٨٤٤)، وأبو داود (٤٩٦٦)، والترمذي (٢٦٤٩) عنه بلفظ: نهى أن يُجْمَع بين اسمه وكنيته ويسمى محمداً أبا القاسم وسنده صحيح.

[٢٢٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأنصار ولد له غلامٌ فأراد أن يسمّيه محمداً فأتى النبي ﷺ فسأله فقال: «**أحسنت الأنصار، سَمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**» وفي رواية: فسمّاه محمداً.

وفي رواية: فسمّاه القاسم فقالوا: لا نكنّيه حتى نسأل النبي ﷺ. فقال: «**سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

وفي رواية: لا نكنيك بأبا القاسم ولا ننعمك عيناً. وفيه: فقال ﷺ: «**سمِّ ابنك عبدالرحمٰن**».

رواه البخاري بالروايتين الأخيرتين (١٣/١٩٢/١٩٣)، ومسلم بالأوليتين (١٤/١١٤/١١٥).

[٢٢٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: نادى رجل بالبقيع يا أبا القاسم فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لم أعْنِكَ إنما عنَيْتُ فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «**سمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

رواه البخاري في البيوع، وعلقه في الأدب، ورواه مسلم في الأدب (١٤/١١٢)، والترمذي (٢٦٥١)، والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٨٣٧/٨٤٥)، وابن ماجه، وغيرهم.

في هذه الأحاديث الإذن بالتسمّي باسم النبي ﷺ وهذا لا خلاف فيه، كما فيها النهي عن التكني بكنيته: أبي القاسم. واختلف العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى في ذلك؛ فذهب الشافعي والظاهرية إلى المنع مطلقاً سواء كان اسمه محمداً أو أحمد أم لم يكن لظاهر الأحاديث، وذهب آخرون إلى أن ذلك كان خاصاً بحياته ﷺ، أما ما بعده فيجوز، وهذا مذهب مالك. قال القاضي عياض وبه قال جمهور السلف وفقهاء الأمصار وجمهور العلماء. ورجح ابن أبي جمرة الجواز لمن ليس اسمه محمداً، وقال: الأولى الأخذ بمذهب المنع فإنه أبرأ للذمة وأعظم للحرمة، وكان جماعة من السلف يسمون محمداً ويكنون بأبي القاسم، منهم: محمد بن الحنفية، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن الأشعث. انظر الفتح (١٣/١٩٢/١٩٣/١٩٤)، والنووي (١٤/١١٢)، وشرح السنة (١٣/٣٣١/٣٣٤).

* * *

❋ الرخصة في ذلك بعده ﷺ

[٢٢٨] عن علي عليه السلام قال: يا رسول الله أرأيت إن ولد لي بعدك ولد أسمّيه محمداً وأكنّيه بكنيتك؟ قال: «نعم»، قال: فكانت رخصة لي.

رواه أبو داود (٤٩٦٧)، والترمذي (٣٦٥٢) وحسّنه وصححه وسنده عنده على شرط البخاري.

في الحديث الترخيص بعده ﷺ في الجمع بين اسمه وكنيته فيكون ذلك دليلاً للجمهور، أما قول الإمام: «فكانت رخصة لي» هو فهم فهمه، واجتهاد منه رضي الله تعالى عنه، والحديث ليس فيه تخصيصه بذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ جواز التكني لمن لا ولد له

[٢٢٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله كل صواحبي لهن كُنَى، قال: «**فاكتني بابنك عبدالله**» يعني ابن أختها عبدالله بن الزبير، فكانت تكنى بأم عبدالله. وفي رواية: كل نسائك لها كنية غيري، فقال...

رواه أحمد (٦/١٠٧/١٥١/١٨٦/٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٧٠)، وأبو يعلى (٤/٩٩) بسند صحيح.

ففيه جواز التكني لمن ليس له ولد بأن يكنى باسم الغير، وبهذا قال كل العلماء إلا من لا عبرة به. والكنية كما هو معلوم كل ما صُدِّر بأبٍ أو أُمٍّ.

* * *

❋ أحَب الأسماء إلى اللّه

[٢٣٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبَّ أسمائكم إلى الله عزّ وجل عبدالله وعبدالرحمٰن**».

رواه مسلم في الأدب (١٤/١١٣).

في الحديث أن هذين الاسمين هما أحب الأسماء إلى الله وأن للتسمّي بهما فضلاً على غيرهما لنسبة العبودية فيهما إلى الله عزّ وجل.

* * *

❋ أسماء يُكره التسمّي بها

[٢٣١] عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُسمِّ غلامك رَبَاحاً، ولا يَسَاراً، ولا أفْلَحَ، ولا نافعاً**».

وفي رواية: «**ولا تسَمِّيَنَّ غلامك يساراً، ولا رباحاً، ولا نجيحاً، ولا أفلح، فإنك تقول: أثَمَّ هو فلا يكون، فيقول: لا، إنما هن أربع فلا تزيدُنَّ عليَّ**».

رواه مسلم في الأدب (١٤/١١٧/١١٨) بالروايتين، وأبو داود (٤٩٥٨/٤٩٥٩)، وابن ماجه (٣٦٣٠).

[٢٣٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عشتُ إن شاء الله أنهى أمتي أن يُسَمُّوا نافعاً، وأفلح، وبركة**» قال: «**فإن الرجل يقول: إذا جاء أثَمَّ بركةٌ؟ فيقولون: لا**».

رواه مسلم (١٤/١١٨)، وأبو داود (٤٩٦٠) والسياق له، وزاد مسلم: «**يَعْلَى**».

وفي الحديثين كرامة التسمّي بهذه الأسماء وهي: رباح، ويسار، وأفلح، ونافع، ونجيح، وبركة، ويعلى. والحكمة في ذلك هي ما بيّنه ﷺ بقوله: «**فإنك تقول: أثمّ هو؟ فيقول: لا، أثَمّ بركة؟ فيقولون: لا**».

لأن في الجواب بلا نفياً لليسار وللفلاح وللنفع والنجاح والبركة، وذلك مما يستبشع، ولأن ذلك ربما أدّى بصاحبه للطيرة، والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره التشاؤم وقد نص العلماء على أنه يكره التسمّي بكل ما في معنى ما ذكر.

* * *

❋ مشروعية تغيير الأسماء
تغيير حَزْن إلى سَهل

[٢٣٣] عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده حَزْن أنه أتى النبي ﷺ فقال: «**ما اسمك؟**» قال: حَزْنٌ، قال: «**أنت سَهْلٌ**» قال: لا أغيّر اسماً سمّاني أبي، قال ابن المسيب: فما زالت الحُزُونة فينا بعد، وفي رواية: قال: لا السَّهْلُ يوطأ ويمتهن. قال سعيد: فظننت أنه سيصيبنا بعده حزونة.

رواه أحمد (٤٣٣/٥)، والبخاري (١٩٥/١٣)، وأبو داود (٤٩٥٦)، والرواية الأولى للبخاري والثانية لأبي داود.

«حَزْنٌ»: بفتح الحاء وسكون الزاي، هي الشدة والصعوبة وفيه نوع من التشاؤم ولذلك غيّره النبي ﷺ وقال له: **«أنت سهل»** فلم يقبل ذلك ولم يغير اسمه فكانت الصعوبة والشدة في أخلاق أولاده خُلُقاً موروثاً فيهم أباً عن جد، حتى ذكر أهل النسب أنه كان في ولد حَزْنٍ سوء خلق معروف فيهم، وقد صرّح بذلك حفيد حزن سعيد بن المسيب حيث قال في رواية البخاري: «فما زالت الحزونة فينا بعدُ».

* * *

❊ تغيير عاصية إلى جميلة

[٢٣٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن ابنة لعمر كانت يقال لها: عاصية، فسمّاها رسول الله ﷺ جميلة. وفي رواية: غيّر اسم عاصية وقال: **«أنتِ جميلة»**.

رواه مسلم (١١٩/١٤)، وأبو داود (٤٩٥٢)، والترمذي (٢٦٤٦) في الاستئذان، وكذا أحمد (١٨/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٠)، وابن ماجه (٣٧٣٣).

«عاصية» هذا، لا يليق بأن يكون اسماً لامرأة مسلمة لبشاعته وقبحه.

* * *

❊ تغيير برة إلى جويرية

[٢٣٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت جُويرية اسمها بَرّة فحوّل رسول الله ﷺ اسمها جُويرية، وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة.

رواه أحمد (٣٥٣/٢٥٨/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٣١)، ومسلم في الأدب (١١٩/١٤).

* * *

❁ تحويل برة إلى زينب

[٢٣٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن زينب رضي الله تعالى عنها كان اسمها برة فقيل: تزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

وفي رواية عن زينب بنت أم سلمة رضي الله تعالى عنهما قالت: كان اسمي برة فسمّاني رسول الله ﷺ زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة فسماها زينب.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم**» فقالوا: بمَ نسمّيها؟ قال: «**سمُّوها زينب**».

رواه أحمد (٤٥٩/٤٣٠/٢)، والبخاري في الأدب (١٩٧/١٣)، ومسلم (١٢٠/١٤)، وأبو داود (٤٩٥٣) بعضهم عن أبي هريرة والبعض عن زينب.

فتغييره ﷺ برة إلى زينب لأن في برة نوعاً من تزكية النفس ومدحها ولذلك قال: «**لا تزكُوا أنفسكم فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة**» كما في رواية عند البخاري في الأدب المفرد (٨٢١) وأبو داود...

* * *

❁ تحويل أصرم إلى زرعة

[٢٣٧] عن أسامة بن أخدري أن رجلاً يقال له: أصْرَمُ، كان في النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**ما اسمك؟**» قال: أنا أصرم، قال: «**بل أنت زُرْعَةُ**».

رواه أبو داود (٤٩٥٤) بسند صحيح، فكره الأصرم لأن من معانيه القطع فأبدله بزرعة تفاؤلاً بالزراعة.

* * *

❋ تبديل أبي الحكم بأبي شريح

[٢٣٨] عن هانىء أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله هو الحكَم، وإليه الحكم، فلمَ تُكَنَّى أبا الحكم؟**».

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟**» قال: لي: شريح، ومسلم، وعبدالله، قال: «**فمَن أكبر؟**» قلت: شريح، قال: «**فأنت أبو شُرَيح**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨١١)، وأبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي في الكبرى (٤٦٦/٣)، والحاكم (٢٤/١)، وابن حبان (٢٥٧/٢) بالإحسان وسنده صحيح.

هذا من الأسماء التي لا تليق بالعبد لأن الحاكمية لا تكون إلا للّه عزّ وجل فكره ﷺ إسناد ذلك لغيره تعالى.

* * *

❋ إبدال شهاب بهشام

[٢٣٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ذُكِر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أنت هشام**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥)، وأحمد (٧٥/٦)، ورجاله رجال الصحيح غير عمران القطان وهو حسن الحديث.

لم يعجبه شهاب لأنه قد يطلق على قطعة من نار بخلاف هشام، فإن من معانيه هشم الطَّعام.

* * *

❋ تحويل عزيز إلى عبدالرحمٰن

[٢٤٠] عن خيثمة بن عبدالرحمٰن عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ مع أبي وأنا غلام فقال له النبي ﷺ: **«ما اسم ابنك هذا؟»** قال: اسمه عزيز، فقال له رسول الله ﷺ: **«لا تسمّه عزيزاً ولكن سمّه عبدالرحمٰن، فإن أحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمٰن»**.

أورده نور الدين في المجمع برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

فعزيز من أسماء الله تعالى فلا يجوز التسمّي به، ولذلك أمره بأن يسمّيه عبدالرحمٰن، وأخبره بأنه أحب الأسماء إلى الله تعالى لوصفه بالعبودية للّه تعالى.

* * *

❋ إبدال شيطان بعبداللّه

[٢٤١] عن عبدالله بن قرط أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: **«ما اسمك؟»** قال: شيطان بن قُرْطٍ، قال: **«أنت عبدالله بن قرط»**.

رواه أحمد (٤/٣٥٠) والطبراني وسنده صحيح.

عجباً لأهل الجاهلية كيف كان الشيطان يلعب بعقولهم ويتفانون في طاعته فهل يرضى عاقل لابنه أن يجعل اسم شيطان علامة عليه، ولذا غيّر النبي ﷺ اسمه وجعل عبوديته للّه علامة عليه لأن ذلك هو الأليَق به.

* * *

❊ تحويل اسم حرام إلى حلال

[٢٤٢] عن رجل من جهينة قال: سمعه النبي ﷺ وهو يقول: يا حرامٌ، فقال: **«يا حلالُ»**.

رواه أحمد (٢٧١/٣) بسند صحيح رجاله رجال الصحيح فلا معنى لحرام يسمى به الرجل ويجعل علامة عليه، فإنه اسم بشع كباقي أسماء الجاهلية.

❊ ❊ ❊

❊ إبدال جَثَّامة بحَسَانة

[٢٤٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: **«مَن أنتِ؟»** قالت: أنا جثامةُ المزنية، فقال: **«بل أنتِ حسَّانةُ المُزَنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟»** قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: **«إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حُسْن العهد من الإيمان»**.

رواه الحاكم (١٦/١٥/١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٧٢/٩٧١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وتعقب بأن صالح بن رستم لم يخرج له البخاري إلا تعليقاً. وعلى أيٍّ، فالحديث صحيح.

وقوله: «إن حسن العهد» أي: إن الوفاء بالعهد من شعب الإيمان، ومن الوفاء للزوجة الإحسان إلى صديقاتها فضلاً عن أهلها وأقاربها وهذا كان هدى النبي ﷺ.

فهذا ما وقفنا عليه في السنة الصحيحة مما غيّره النبي ﷺ من الأسماء المكروهة وهو أحد عشر اسماً، ووردت أسامي أخرى حوّلها ﷺ إلى غيرها، لكن أحاديثها ضعيفة فأعرضنا عنها.

فائدة: نقل الحافظ في الفتح (١٣/١٩٧/١٩٨) عن الطبري قال: لا ينبغي التسمية باسم قبيح المعنى، ولا باسم يقتضي التزكية له، ولا باسم معناه السب، ولو كانت الأسماء إنما هي أعلام للأشخاص، لا يقصد بها حقيقة الصفة، لكن وجه الكراهة أن يسمع سامع بالاسم فيظن أنه صفة للمسمى، فلذلك كان ﷺ يحول الاسم إلى ما إذا دُعِيَ به صاحبه كان صدقاً، قال: وقد غيّر رسول الله ﷺ عدة أسماء

* * *

❊ أبغض الأسماء إلى الله تعالى

[٢٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخنَعُ الأسماء عند الله رجلٌ تسمّى بملك الأملاك**»، وفي رواية: «**أخنَى الأسماء**»، وفي رواية: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا لله تعالى**».

رواه البخاري (١٣/٢١١/٢١٢)، ومسلم (١٤/١٢١/١٢٢)، وأبو داود (٤٩٦١)، والترمذي (٢٦٤٥) كلهم في الأدب، والرواية الثالثة لأحمد (٢/٢٤٤)، ومسلم (٤/١٢٢).

وقوله: «أخنع الأسماء» أي: أفجر من الفجور، وهو بمعنى أخبث أي: أكذب الأسماء، وقيل: أقبح أو أوضع، ورواية «أخنى الأسماء» أي: أفحش، والخنا الفحش، وقوله: «أغيظ» أي: أشد غيظاً وغضباً.

وعلى أيٍّ، فالتسمّي بهذا الاسم محرّم أشد التحريم، وقد فسّره سفيان بمثل شاه شاهان، ومعناه: ملك الملوك.

قال العلماء: ويلتحق به: خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء، وقيل: يلتحق به أيضاً من تسمّى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمة والقدوس والجبار. وهل يلتحق به من تسمّى قاضي القضاة أو حاكم الحكام.

اختلف العلماء في ذلك، وقد ذكر الحافظ أقوالهم، ثم ختم ذلك بكلام للإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى في الموضوع واختار المنع مطلقاً وسوّى بين ملك الأملاك وبين قاضي القضاة.

ومن الأسماء المحظورة التي تدل على الكذب والتزكية: عز الدين، ومحيي الدين، وناصر الدين، وزكية، وشمس الضحى، وحورية، ونهاد، ومن أقبحها التسمّي بأسامي الفنانين والفنانات والراقصات والعواهر الساقطات، أو أسامي الكفار والكافرات كما هو شائع اليوم بين المتفرنجين والمستعربين والجهلة من العوام، فلا ينبغي للمسلم أن ينساق مع العوائد الجاهلية.

* * *

❊ ما يباح ويُكره من الألفاظ والكلمات
ما جاء في يا بُنَيَّ

[٢٤٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا بُنَيّ»**.

رواه مسلم (١٢٩/١٤)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والترمذي (٢٦٤٠) وحسّنه وصححه.

[٢٤٦] وعن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل رسول الله ﷺ أحدٌ عن الدجال أكثر مما سألته عنه فقال لي: **«أيْ بُنَيّ وما يُنْصِبُكَ منه؟ إنه لن يَضُرَّك»**.

رواه مسلم (١٣٠/١٤) ويأتي.

قوله: «وما ينصبك» من النصب وهو التعب، أي: ما يشق عليك ويتعبك منه. وقوله: «يا بني» بفتح الياء المشددة وكسرها.

وفي الحديثين جواز قول الإنسان لغير ابنه ممن هو أصغر سناً منه: يا ابني أو يا بنيّ مصغراً، وكذا يا ولدي، وفيه معنى التلطُّف كأنه يقول له:

إنك عندي بمنزلة ولدي في الشفقة، أما إذا كان قريناً له فيقول له: يا أخي، وإذا كان أكبر منه يناديه يا عم.

* * *

قول الرجل مرحباً

[٢٤٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ قال: «**مرحباً بالوفد الذين جاؤوا غير خزايا ولا ندامى**...» الحديث.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما مطولاً، وقد تقدم ذكره وتخريجه وشرحه في الإيمان (ج١/١٥٤).

ومعنى قوله: «مرحباً» أي: لقيت رحباً وسعة.

[٢٤٨] وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال النبي ﷺ لبنته فاطمة عليها السلام: «**مرحباً يا بُنَيَّتي**...» الحديث تقدم في السيرة وغيرها وهو في الصحيح.

[٢٤٩] وقالت أم هانىء رضي الله تعالى عنها: جئت النبي ﷺ فقال: «**مرحباً بأم هانىء**» وهو في الصحيح، وتقدم في السيرة أيضاً وسنذكره بتمامه قريباً.

وفي هذه الأحاديث وغيرها جواز الترحيب بالقادم على الإنسان، وذلك من حسن الأدب والمعاملة الطيبة.

* * *

قولهم فداك أبي وأمي

[٢٥٠] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد غير سعد بن أبي وقاص. وفي رواية: ما جمع رسول الله ﷺ

أباه وأمه لأحد إلا سعد بن أبي وقاص، قال له يوم أُحد: «**ارمِ فداك أبي وأمي**».

وقال له: «**ارم أيها الغلام الحَزَوَّرُ**».

رواه البخاري (١٣/١٨٨)، ومسلم في المناقب، والترمذي في الاستئذان (٢٦٣٨)، وتقدم في غزوة أُحد من السيرة، وتقدم فيها قوله ﷺ للزبير ذلك في غزوة الخندق.

«الحزور»: بفتح الحاء والزاي والواو المفتوحة المشددة، هو الغلام القوي.

وفي الحديث جواز قول الرجل للآخر: فداك أبي وأبي، أي: أفديك بهما. وقد تكرر ذلك كثيراً على لسان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

* * *

❊ قول الرجل لآخر ويلك أو ويحك

[٢٥١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال له: «**اركبها**» قال: يا رسول الله إنها بدنة، قال: «**اركبها ويلك**» في الثانية أو في الثالثة.

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الحج وتقدم.

[٢٥٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفر وكان معه غلام له أسود يقال له: أنجشة يحدو، فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك يا أنجشة رويدك بالقوارير**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٧٠) وغيره، ويأتي لاحقاً في الحداء.

«ويلك»: أصله وَيْ وهي كلمة تأوُّه، فلما كثر استعمالهم لها وقولهم: وي فلان وصلوها باللام، وقدروها أنها منها فأعربوها، وتستعمل للتقبيح

على المخاطب فعله، وتستعمل بمعنى التحسُّر وجعلت في الشرع بمعنى الهلاك أو بواد في جهنم.

أما ويح، فقالوا: إنها كلمة ترحُّم، ومنه قوله ﷺ: «**ويح عمار، تقتله الفئة الباغية**» وقالوا: إن أكثر أهل اللغة على أن ويل كلمة عذاب، وويح كلمة رحمة، وقد استعمل إحداهما موضع الأخرى، وقد تكررتا في الأحاديث.

* * *

❊ سب الدهر

[٢٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عزّ وجل: يَسُبُّ ابنُ آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار**»، وفي رواية: «**يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتُهما**»، وفي رواية: «**لا تسبُّوا الدهر فإن الله عزّ وجل قال: أنا الدهر الأيام والليالي لي، أجددها وأُبليها وآتي بملوك بعد ملوك**».

رواه أحمد (٢/١٣٨/٢٧٢/٢٧٥)، والبخاري في تفسير الجاثية (١٠/١٩٥/١٩٦)، وفي التوحيد، ومسلم في الأدب (١٥/٢/٣/٤)، وأبو داود (٥٢٧٤). والروايتان الأوليتان لمسلم، والأخيرة لأحمد (٢/٤٩٦) بسند صحيح على شرط مسلم.

قوله: «يؤذيني» معناه: يعاملني معاملة توجب الأذى في حقكم، فهو من باب المجاز فإن الله عزّ وجل لا يصله أذًى منا فهو منزَّه عن ذلك.

وقوله: «الدهر» هو الزمان من الأيام والليالي وهو على حذف مضاف، أي: أنا رب الدهر وخالقه ومُقَلِّبُه، فمَن سبّ الدهر كأنما سبّ خالقه، والقيام عليه وهو الله عزّ وجل وقد حاد عن الصواب من جعل الدهر اسماً من أسماء الله عزّ وجل. قال العلماء: وهذا مجاز وسببه أن

العرب كانوا إذا نزلت بهم حوادث ومصائب من موت أو هرم مثلاً أو تلف مال أو قحط، نسبوا كل ذلك للزمان فيسبُّونه قيقولون: يا خيبة الدهر، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك، وبيان أن الدهر بأيامه ولياليه خلق الله وأنه مسخّر من قبل الله عزّ وجل لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة من نفع أو ضر.

وليراجع الفتح (١٣/١٨٤/١٨٥) (ج١٠/١٩٦) وشرح مسلم للنووي (١٥/٢/٣).

* * *

❊ ما قيل في تسمية العنب كَرْماً

[٢٥٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسَمُّوا العنب الكَرْم، فإن الكَرْم الرجلُ المسلمُ»، وفي رواية: «فإن الكَرْمَ قلبُ المؤمن»، وفي رواية: «ولكن قولوا: العنب والحَبَلَة».

رواه البخاري (١٣/١٨٤) ومسلم (١٥/٤/٥) وغيرهما.

«الحبلة»: بفتح الحاء والباء وتسكن الباء، هي شجرة العنب.

وفي الحديث كراهة تسمية العنب كرماً، وسبب النهي عن ذلك الابتعاد عن التشبُّه بالجاهلية الذين كانوا يطلقون ذلك على العنب والخمر معاً حتى سموا الخمر بمفردها كرماً لأنها في زعمهم كانت تحملهم على الكرم والسخاء، فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره، لأنهم إذا سمعوا الكرم تذكروا بها الخمر وحنت نفوسهم إليها فرجعوا إليها أو قاربوا ذلك، وأخبرهم بأن الذي يستحق هذا الاسم هو الرجل المسلم أو قلب المؤمن لما فيه من الإيمان والنور والتقوى.

أفاده النووي رحمه الله تعالى.

* * *

❋ ما جاء في العبد والأمة والمولى والسيد وإطلاقها على الموالي

[٢٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقولَنَّ أحدُكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن لِيَقُلْ: غلامي وجاريتي، وفتايَ وفتاتي**». وفي رواية: «**فإن مولاكم الله عزّ وجل**»، وفي رواية أخرى: «**لا يقل أحدكم: إسقِ ربك، أطعِم ربك، وضِّىء ربك، ولا يقل أحدكم: ربي وليقل: سيدي، مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي، فتاتي، غلامي**»، وفي رواية: «**لا يقولن أحدكم: عبدي أو أمتي، ولا يقولن: المملوك ربي وربتي، وليقل: المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله عزّ وجل**».

رواه أحمد (٢/٣١٦/٤٩٦)، والبخاري في العتق (٦/١٠٥)، ومسلم (١٥/٥/٦)، وأبو داود (٤٩٧٥) كلاهما في الأدب بألفاظ.

الحديث بجميع رواياته وألفاظه يدل على أن السيد لا يقول لمملوكه: عبدي وللأنثى أمتي، ذلك أن الكل عبيد الله وكل النساء إماء الله، فهم جميعهم مربوبون لله تعالى فلا ربوبية لأحد من خلق الله على آخر، فإذا نادى السيد مملوكه، قال: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، والمراد بالنهي عن ذلك من استعمله على جهة التعاظم لا مَن أراد التعريف. قاله النووي رحمه الله تعالى.

أما المملوك فحسبه أن يقول: سيدي وسيدتي ومولاي. وهذا من الآداب مع الله عزّ وجل، ثم إن هذا النهي الأكثر على أنه للكراهة وسلوك مسلك الأدب، علماً بأنه ورد ما يدل على الجواز.

❋ ❋ ❋

❁ كراهة قول الإنسان: تعِس الشيطان

[٢٥٦] عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرَتْ دابتُه فقلت: تعِس الشيطان، فقال: «**لا تقل تعِس الشيطان فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي صرعْتُه، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب**».

رواه أحمد (٥/٥٩/٧١)، وأبو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في الكبرى (٦/١٤٢)، والحاكم (٤/٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده صحيح، وجاء عند بعضهم تسمية الرجل وهو عن أبي المليح عن أبيه.

«تعس»: بكسر العين، أصل التعاسة السقوط على الوجه.

وفي الحديث النهي عن ذكر الشيطان عند حدوث ما يسوء الإنسان، فإن ذكره عندئذ مما يرضيه ويعجب به ويتعاظم بسببه فيسند الفعل له ويقول: بقوتي صرعته وأسقطته على الأرض، ولكنه إذا ذُكر الله عزّ وجل خنس وأهين وذل وتصاغر حتى يصير مثل الذباب. وهذا من الآداب العظيمة، فالواجب على المسلم أن يكون دائم الذكر للّه عند كل شيء يصيبه من خير أو شر ليخزي الشيطان ويذلّه، وليرضي ربه عزّ وجل.

* * *

❁ كراهة قول الإنسان خَبُثَتْ نفسي

[٢٥٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**لا يقولَنّ أحدكم: خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقل: لقِسَت نفسي**».

رواه البخاري (١٣/١٨٣)، ومسلم (١٥/٧)، وأبو داود (٤٩٧٩) كلهم في الأدب.

[٢٥٨] وعن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنه مثله رواه الثلاثة المذكورون.

قوله: «خبثت» بضم الباء. «ولقِست»: بكسر القاف. قال جميع أهل اللغة والغريب وغيرهم: إن معناهما واحد. قال النووي رحمه الله تعالى: وإنما كره لفظ الخبث لبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب في الألفاظ واستعمال حسنها وهجران خبيثها.

وانظر الفتح (١٣/١٨٣) للمزيد.

* * *

❊ كراهة الجمع بين اسم اللّه وغيره بلا فصل

[٢٥٩] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: خطب رجل عند النبي ﷺ فقال: مَن يُطِع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال النبي ﷺ: **«أسكت فبئسَ الخطيب أنت»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«مَن يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصِ الله ورسوله فقد غوى، ولا تقل: مَن يعصهما»**.

رواه مسلم في كتاب الجمعة.

ففي الحديث تعليم الأدب في المنطق وكراهية الجمع بين اسم الله تعالى واسم غيره تحت حرفَيْ الكناية، لأنه يتضمن نوعاً من التسوية بين الخالق والمخلوق وذلك ينافي الأدب مع الله عزّ وجل وأسمائه.

* * *

❊ كراهة قولهم: ما شاء اللّه وشئت

[٢٦٠] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»**.

رواه أحمد (٥/٣٨٤/٣٩٤/٣٩٨)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٠)، والطحاوي في المشكل (١/٩٠)، والبيهقي في السنن (٣/٢١٦) بسند صحيح.

وفي رواية قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني رأيت في المنام أني لقيتُ بعض أهل الكتاب، فقال: نِعْمَ القوم أنتم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فقال النبي ﷺ: **«قد كنت أكرهها منكم فقولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»**.

رواه أحمد (٣٩٣/٥)، وابن ماجه (٢١١٨) بسند صحيح، وفيه اختلاف لا يضر، بيّنه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى في الصحيحة رقم (١٣٧).

فهذا قريب مما سبق، فإن الواو تقتضي الجمع في العطف في قوله: «ما شاء الله وشاء فلان»، فلا يجوز العطف بها في مثل ما ذكر لأنه يقتضي مشاركة مشيئة الغير لمشيئة الله والواقع خلافه، فإن المشيئة هي إرادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فأخبر تعالى بأن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، ولذلك أمر ﷺ أصحابه أن يتأدبوا مع الله عزّ وجل ومع رسوله وأن لا يجعلوه شريكاً له عزّ وجل كما جاء في رواية: **«أجعلتني لله ندًا»** فلذلك علّمهم أن يعطفوا في مثل ما ذكر بحرف «ثم» الموضوعة للتراخي وعدم التشريك، فيقول الإنسان: ما شاء الله ثم شاء فلان، كما يجوز له أن يقول: ما عليَّ إلا فضل الله ثم فضلُك، أو: ما لي بلاغٌ إلا بالله ثم بك، كما جاء في الصحيحين في قصة الأعمى، والأبرص، والأقرع، وقد تقدمت في الأنبياء.

* * *

❁ قولهم: زعموا

[٣٦١] عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في زعموا: **«بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجُلِ زعموا»**.

رواه أحمد (٤٠١/٥)، وأبو داود (٤٩٧٣) في الأدب، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، والطحاوي في المشكل (٦٨/١) وسنده صحيح.

«المطية»: هي مركوب الإنسان التي يتوصل بها إلى مقصوده، فشبه ﷺ لفظة: «زعموا» بالمطية حيث إن هذه الكلمة يقدمها الإنسان أمام كلامه ليتوصل بها إلى حاجته أيضاً، وذمها بقوله: «بئس» لأنها تستعمل غالباً في حديث لا ثبت فيه، وقد تستعمل بمعنى قال، ولم تأتِ في القرآن إلا في الإخبار عن المذمومين كما قال في الكفار: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾، وتأتي في مطلق الكذب أو ما فيه ريبة، ولذلك ذمّها النبي ﷺ، وفي ضمن ذلك النهي عنها وإبدالها بما لا ريبة فيه من الكلمات الأدبية.

* * *

❊ لا يقال للمنافق: سيد

[٢٦٢] عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكُ سيداً فقد أسخطتم ربكم عزّ وجل**».

رواه أحمد (٥/٣٤٦/٣٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو داود (٤٩٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٧٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٩٣) وسنده صحيح.

الحديث يدل على أنه لا يجوز نداء أو مخاطبة المنافق ومن في معناه من الفسقة فضلاً عن الكفار بلفظ السيادة، لأن السيادة تدل على تفوق المسيد على غيره بفضائل التي منها مع الإيمان التقوى والشرف والعلم ومحاسن الأخلاق.

فمَن وصف بالسيادة من لا يستحقها فقد تعرض لسخط الله بل وغضبه كما جاء في رواية لهذا الحديث، رواها الحاكم (٤/٤١١)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/١٩٨) وصححه الحاكم.

ومن هنا نعلم ضلال المتفرنجين والمستعربين الذين يسيدون الكفرة والكافرات والعلمانيين واللادينيين في مخاطباتهم ومحاوراتهم وأخبارهم وفي كل المجالات.

وقوله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق سيد**» يؤخذ منه بطريق المفهوم أن ذلك مشروع بالنسبة للمؤمن، وذلك يرد على بعض المتزمتين الذين يمتنعون من سيادة من يستحق السيادة من العلماء والأشراف والصالحين. ويأتي قوله ﷺ في الحسن عليه السلام: «**إن ابني هذا سيد**» في أحاديث أخرى.

* * *

❊ كراهة قول الإنسان: هلك الناس

[٢٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكُهُم**».

رواه أحمد (٣٤٢/٢)، ومسلم في البر والصلة (١٧٥/١٦)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٣).

وقوله: «أهلكهم» بضم الكاف على المشهور، أي: هو أشدهم هلاكاً، وفيه كراهة قول الرجل: «**هلك الناس**»، لكن قال أبو داود: قال مالك: إذا قال ذلك تحزُّناً لما يرى في الناس، يعني في أمر دينهم، فلا أرى به بأساً، وإذا قال ذلك عُجباً بنفسه وتصاغراً للناس فهو المكروه الذي نهى عنه.

وقال النووي في شرح مسلم: واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزُّناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه... هكذا فسره الإمام مالك وتابعه الناس عليه.

وقال الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساوئهم ويقول: فسد الناس وهلكوا، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم، أي: أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في غيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم.

* * *

❋ ما جاء في الشِّعْر

❋ ما يجوز منه

[٢٦٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللّهَ باطلٌ وكاد أمية بن أبي الصّلت أن يُسْلِم**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٥٩) وغيره، ومسلم (١٥/١٢/١٣)، والترمذي (٢٦٥٨) في الاستئذان وفي الشمائل (٢٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧).

وفي رواية لمسلم والترمذي: «**أشعر كلمة تكلمت بها العرب**».

قوله: «كلمة» المراد بها هنا القطعة من الكلام. والمراد بقوله: «باطل» أي: فان مضمحل هالك لا يبقى له أثر إلا الله عزّ وجل فإنه باق حي لا يموت.

[٢٦٥] وعن الشريد رضي الله تعالى عنه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم، قال: «**هيه**»، فأنشدته بيتاً فقال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتاً فقال: «**هيه**»، حتى أنشدته مائة بيت.

وفي رواية: «**فلقد كاد يسلم في شعره**».

رواه مسلم في الأدب (١٥/١١)، وابن ماجه (٣٧٥٨).

قوله: «كاد يسلم شعره» وذلك لما فيه من كلامه على التوحيد والبعث وغير ذلك، ولكنه كفر ولم يسلم. وقوله: «هيه» أي: زد، ويروى: إيهٍ.

[٢٦٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبدالله بن رواحة، قالت: وربما قال: «**ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ**».

رواه أحمد (٦/٢٢٢)، والترمذي (٢٦٥٧)، وفي الشمائل (٢٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٦٧) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «تزود» بضم التاء وكسر الواو المشددة، من التزويد وهو إعطاء الزاد.

[٢٦٧] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكتٌ، فربما يتبسم معهم.

رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٩)، وفي الشمائل (٢٤٦) وحسّنه وصححه.

[٢٦٨] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة».

رواه أحمد (١٢٥/٥)، والبخاري في الأدب (١٥٦/١٣).

[٢٦٩] ومثله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بلفظ: «إن من الشعر حِكَماً».

رواه أبو داود (٥٠١١)، والترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٠١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٢٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وصححه ابن حبان (٢٠١٧).

[٢٧٠] وآخر مثله عن ابن مسعود رواه الترمذي (٢٦٥٣) بسند صحيح.

قوله: «حكمة أو حكماً» معناه: فيه ما هو حِذقٌ نافع.

وتقدمت أحاديث أخرى في الموضوع في الجهاد وفي الفضائل وغيرهما، وجملة هذه الأحاديث تدل على أمور:

أولاً: جواز إنشاد الشعر وسماعه إذا كان خالياً من الخنا والفحش والكذب، والإكثار منه، والتغزُّل بالنساء والمردان وذكر الخمر، وقد نقل ابن عبدالبر الإجماع على جوازه إذا كان خالياً مما ذكر.

[٢٧١] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد (٨٦٦) بسند حسن، كما

قال الحافظ عن عائشة رضي الله تعالى عنها إنها كانت تقول: الشعر منه حسن، ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً.

وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد (٨٩٥) عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً: «**الشعر بمنزلة الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام**» وسنده حسن وهو صحيح لشواهده كسابقه. ونسب كثير من العلماء هذا الكلام إلى الشافعي.

ثانياً: ثبوت سماع النبي ﷺ الشعر وإنشاده واستنشاده، وهذا مما لا خلاف فيه، كما ذكر هنا، وكما تقدم في غير موضع كالسيرة والمناقب، لكنه لم يكن شاعراً ينشيء الشعر من عنديته بل أعاذه الله تعالى منه كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، لأن الشعر مبني أصالة على الكذب واللغو وأحلاه أكذبه، وأكثر الشعراء فسقة منحرفون، والحالة أنهم مسلمون فكيف بغيرهم، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، والصالحون فيهم قليلون، ولذا نزّه الله تعالى نبيه ﷺ عن الشعر وتعاطيه.

ثالثاً: جواز سماع أشعار الكفار من أهل الجاهلية وإنشادها واستنشادها إذا لم يكن فيها محذور.

رابعاً: إن في بعض الأشعار حكماً من نصائح ومواعظ وكلام صدق نافع وغير ذلك كما في كلمة لبيد: «**ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل، وكل نعيم لا محالة زائل**».

فهذا كلام صدق صحيح، فإن كل ما سوى الله هالك، فانٍ ميت مضمحل، وكل نعيم هذه الحياة منقطع.

وكما في أبيات أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه ﷺ: «**كاد أن يسلم**» وذلك لما كان في كلامه من الإقرار بالوحدانية والبعث...

وكذا ما يوجد في كثير من كلام الشعراء الإسلاميين ولا سيما الملتزمين منهم والتائبين فإن أشعارهم كلها حِكم ومديح وثناء على الله تعالى.

وخلاصة القول في الشعر: إن ما كان في الحق والنصح والإرشاد والدلالة على الله وعلى الخير والمواعظ والثناء على المولى جلّ علاه ومدحه ومدح رسوله ﷺ وآل بيته وأصحابه والإسلام والدعوة إلى الجهاد والتحريض عليه وهجو الكفار والدفاع عن الإسلام، كل ذلك محمود ومطلوب، وقد فعله الصحابة والتابعون فمن بعدهم عبر العصور، أما ما كان خلاف ذلك فمذموم وهو المراد بالآتي.

* * *

❊ الشعر المذموم

[٢٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأنْ يمتلىء جوفُ أحدِكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلىء شعراً»**.

رواه البخاري في (١٦٧/١٣)، ومسلم (١٤/١٥)، وأبو داود (٥٠٠٩)، والترمذي (٢٦٦١)، وابن ماجه (٣٧٥٩) كلهم في الأدب، وهو في الأدب المفرد للبخاري أيضاً (٨٦٠).

[٢٧٣] ونحوه عن سعد بن أبي وقاص.

رواه مسلم (١٥/١٥)، والترمذي (٢٦٦٠)، وابن ماجه (٣٧٦٠).

قوله: «يريه» بفتح الياء وكسر الراء، أي: حتى يُفْسِده.

[٢٧٤] وعن ابن عمر مثله أيضاً.

رواه البخاري في (١٦٦/١٣).

هذه الأحاديث ظاهرها يدل على ذم الشعر مطلقاً والتنفير من حفظه، وأن امتلاء الجوف بالقيح حتى يفسده خير للمرء من أن يمتلئ شعراً، وهذا

ذم بالغ يقتضي تحريم حفظ الشعر والاشتغال به غير أن هذا عام مخصوص، قال العلماء: الصواب في معنى الحديث أن يكون الشعر غالباً عليه مستولياً عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً، ولهذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه بقوله: باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن.

قال النووي: قال العلماء كافة: هو مباح ما لم يكن فيه فحش، ونحوه، قالوا: وهو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، قال: وهذا هو الصواب.

والحاصل أن الحديث مخصوص بالشعر المذموم كالأشعار التي يصف أصحابها فيها الخدود والنهود والعيون والقدود والخمر وما إلى ذلك من الفحش والفجور وذم من لا يستحق الذم وهجو الأبرياء وقذف المحصنات كما كانت ولا تزال عادة الشعراء، كما يحكى أنه اجتمع جماعة من الشعراء فقال بعض منهم: لمَ اجتمعتم؟ فأجابه آخر: لنقذف المحصنات، فقال ثالث منهم: وهل توجد في الدنيا محصنة؟ فشعر أمثال هؤلاء هو المحرّم سماعه وحفظه وهو الذي يكون جوف المرء ممتلئاً قيحاً خير من أن يمتلىء به، والله أعلم.

وألحق العلماء بالشعر المذموم كل علم يبعد الإنسان عن الله ويقسّي قلبه ويشغله عن القيام بالواجبات والمستحبات والعلوم النافعة.

* * *

❊ الحُدَاء والغِنَاء

[٢٧٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان للنبي ﷺ حَادٍ يقال له: أَنْجَشَةُ، وكان حسَن الصوت، فقال له النبي ﷺ: **«رويدك يا أنجشةُ لا تكسر القوارير»** قال قتادة: يعني ضعفة النساء.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وغلام له أسود يقال له أنجشة يَحْدُو، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير»**.

وفي رواية ثالثة: كانت أم سُلَيم مع نساء النبي ﷺ وهُنّ يسوق بهن سواق، فقال نبي الله ﷺ: **«أي أنجشة رويدك سوقك بالقوارير»**.

رواه أحمد (٣/١٠٧/١١٧/١٧٦/٢٠٦/٢٥٤)، والبخاري في الأدب (١٣/٢١٦/٢١٧)، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/١٣٥).

[٣٧٦] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسْمِعُنَا من هنَيْهاتك؟ قال: وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يَحْدُو بالقوم يقول: اللهم لولا أنتَ ما اهتدينَا، ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا، فاغفر فداء لك ما اقتفينا، وثبِّت الأقدام إن لاقينا، وألقين سكينة علينا، إنا إذا أُصِيحَ بنا أتينا، وبالصياح عولوا علينا.

فقال رسول الله ﷺ: **«مَن هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع، فقال: **«رحمه الله»**، فقال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله لولا أمْتَعتنا به، ثم ذكر محاصرتهم لخيبر واستشهاد عامر هذا.

رواه البخاري في المغازي وفي الأدب (١٣/١٦٠)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٦٥/١٦٧/١٨٤/١٨٦)، وقد تقدم في السيرة من غزوة خيبر رقم (٣٩١).

قوله: «أنجشة» بسكون النون وفتح الجيم والشين هو غلام أسود كان للنبي ﷺ. وقوله: «رويدك» أي: سق سوقاً رويداً، أي: ارفق بهن، فمعناه الأمر بالرفق. و«القوارير» يعني بهن النساء فهن لضعفهن كالزجاج يسرع إليهن كسر أجسادهن، وقيل شبّههن بالقوارير لضعف عزائمهن فإنهن يفتتن بسرعة إذا سمعن الحداء والنشيد والرجز من صاحب الصوت الحسن كما كان ذلك في أنجشة، والمعنى الأول هو الظاهر من الحديث.

وقوله ﷺ: «هُنَيْهاتك» مفرد هنيهة تصغير هنة وهو اسم جنس يشمل أموراً، والمراد به هنا أسمعنا من شعرك وحدائك الذي تترنم به.

وقوله: «يحدو» الحداء بضم الحاء وفتح الدال والمد آخره همزة، هو الترنُّم والغناء للإبل لتسرع في السير وليتسلى المسافر بسماع ذلك عن عناء السفر وشدة تعبه.

وفي الحديثين جواز الترنم والغناء بالرجز ونحوه على عادة العرب، وأن سماعه لا حرج فيه، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، فهذا النبي ﷺ قد سمعه وأقرَّ الحادي عليه واستحسنه من عامر ودعا معه بالرحمة فقتل شهيداً. وقد نقل ابن عبدالبر الاتفاق على إباحته، وكان السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم يترنمون ويغنون بالحداء ونحوه. وقال الحافظ في الفتح (١٣/١٥٤): ويلتحق بالحداء هنا الحجيج المشتمل على التشوق إلى الحج بذكر الكعبة وغيرها من المشاهد، ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال ومنه غناء المرأة لتسكيت الولد في المهد.

وفي حديث أنس جواز سماع المرأة ترنُّم الرجل برجز ونحوه، إذا لم يؤدِّ إلى افتتانها بصوته.

كما فيه الرفق بالنساء في السير ونحوه وأن يعاملن حسب ضعفهن لأنهن كما يقال: الجنس الضعيف.

والحديث قد يستدل به على جواز الأغاني الحسنة وسماعها من ذي الصوت الحسن لأن الحُداء كلام موزون رقيق يستلذه سامعه ويطرب له، ولأجل ذلك كانوا يحدون به للإبل في أسفارها ومسافاتها البعيدة، فكانت إذا سمعت ذلك استلذته وانزجعت فتسرع في سيرها ولا تشعر بما تلاقيه من التعب. والصوت الحسن محبوب للنفوس من كبير وصغير حتى الطفل الصغير يشعر بلذة ونشوة إذا غنّته أمه عند بكائه فيسكت، وقد أخبر الله عزّ وجل عن نبيه داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه أمر الجبال والطير أن ترجع مع قراءته، وكان الجميع يطرب لها، وأخبر ﷺ أن داود كان له مزامير وهي قراءته الزبور بصوته الجميل المطرب، وقال ﷺ لأبي

موسى: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»، وقال ﷺ: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**» وقال: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن**». فقوله: «يتغنى» أي: يحسّن صوته بالقرآن، وهو معنى «زيّنوا...» إلخ.

وجاء في حديث آخر: «**لَلّه أشد إذناً** ـ أي: استماعاً ـ **للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته**».

فالصوت الحسن محبوب ومرغوب فيه ومطلوب في قراءة القرآن وفي الحداء.

* * *

❋ بسط القول في الغناء وإحقاق الحق فيه

الغناء من الجزئيات الفرعية المختلف فيها، وهو أصالة ينقسم القول فيه إلى ثلاثة أقسام: قسم متفق على جوازه وإباحته، وقسم متفق على تحريمه، وقسم مختلف فيه اختلافاً كثيراً، ثم هناك قسم رابع قد يكون مستحباً كما يأتي، فالمتفق على إباحته ما سمعه النبي ﷺ وحضره وشاهده من الحداء والأراجيز وأغاني الجواري، وما حضّ عليه مولاتنا عائشة في الأعراس... والمتفق على تحريمه ما كان محتفًا بالمحرمات كاختلاط النساء بالرجال مثل الحالة المشاهدة اليوم على شاشة التلفزيون، أو كان من المرأة الأجنبية الفاتنة، أو كان غناءً ماجناً يشتمل على وصف الخدود والعيون والنهود... مع آلة الطرب وشرب الخمر على عادة الفسقة وذوي المجون، فهذان القسمان لا خلاف فيهما ولا ينبغي أن يختلف فيهما، وما عداهما فمختلف فيه، منهم المبيح ومنهم المحرم ومنهم المفصل، ونحن بإذن الله تعالى سنورد أولاً أدلة الجواز والمنع معاً من الأحاديث النبوية ثم نذكر خلاصة ما تدل عليه من الإباحة أو المنع.

* * *

ذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء

[٢٧٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان مما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: **«إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا»**.

وفي رواية: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، وجاء أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: **«دعهما»** فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

وفي رواية: إن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تُدَفِّفَانِ وتَضْرِبان والنبي ﷺ متغشٍّ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: **«دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»** وتلك الأيام أيام منى.

وفي رواية: وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان بالدفّ.

وفي رواية: وفيه جاريتان تلعبان بدُفّ.

رواه أحمد (٦/١٣٤)، والبخاري (١٣/٩٢/٩٤/١٢٨)، ومسلم (٦/١٨٢/١٨٤) كلاهما في العيدين.

قوله: «بُعاث» بضم الباء، هو موضع وقعت فيه وقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية أودت بأشرافهم وسراتهم. و«ليستا بمغنيتين» أي: لم تكونا تحسنان الغناء أو لم تكونا تتعاطينه. قوله: «بمزامير» في رواية بمزمار وفي أخرى بمزمور. قوله: «تدففان» أي: تضربان بالدف.

[٢٧٨] وعن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ رضي الله تعالى عنهما قالت: جاء رسول الله ﷺ فدخل عليّ صبيحة عرسي فجلس على فراشي كمجلسك

مني، فجعلت جُوَيْرياتٌ يضربن بدفٍّ لهن ويندُبن مَن قُتل من آبائي يوم بدر، إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد.

فقال رسول الله ﷺ: «**دعي هذا، وقولي ما كنتِ تقولين**».

رواه البخاري في المغازي غزوة بدر، وفي النكاح باب ضرب الدف في النكاح (١٠٨/١١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٢)، والترمذي في النكاح (٩٧٣) بتهذيبي، وابن ماجه (١٨٩٧)، والبيهقي (٢٨٩/٢٨٨/٧).

و«يَنْدُبْن»: النُّدبة بضم النون وسكون الدال، هي تعداد محاسن الميت.

[**٢٧٩**] وعن محمد بن حاطب الجُمحي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَصْلُ ما بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصَّوْتُ**».

رواه أحمد (٢٥٩/٤)، والترمذي (٩٧١)، والنسائي (١٠٤/٦)، وابن ماجه (١٨٩٦)، والحاكم (١٨٤/٣)، والبيهقي (٢٨٩/٧) بسند حسن، أما الحاكم فصححه ووافقه الذهبي.

[**٢٨٠**] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها زفّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يُعجبهم اللهو**».

رواه البخاري في النكاح (١٣٣/١١)، والحاكم (١٨٤/١٨٣/٢)، والبيهقي (١٨٨/٧).

المراد باللهو هنا الغناء ونحوه.

[**٢٨١**] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أنكحتْ عائشةُ رضي الله تعالى عنها ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أهديتم الفتاة؟**» قالوا: نعم، قال: «**أرسلتم معها من يُغنّي؟**» قلت: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم**».

رواه ابن ماجه في النكاح (١٩٠٠)، ورواه أحمد (٣/٣٩١)، والبيهقي (٧/٢٨٩) عن جابر عن عائشة رضي الله تعالى عنهما وهو حديث حسن لطريقين له.

قوله: «غَزَل» بفتحتين، هو محادثة الفتيان والنساء.

[٢٨٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ سمع ناساً يُغنُّون في عرس وهم يقولون: وأهدى لها أكْبُش يُبَخبِخنَ في المِرْبَد، وحِبُّك في النادي، ويعلم ما في غد، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**لا يعلم ما في غد إلا الله سبحانه**».

رواه الحاكم (٢/١٨٤/١٨٥)، والبيهقي (٧/٢٨٩) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «أكبش» جمع كبش. وقوله: «يبحبحن» بضم الياء وسكون الحاءين وفتح الباء الأولى وكسر الثانية، أي يتوسعن في مكانهن.

[٢٨٣] وعن عمرو بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنهما في عُرس وإذا جَوَارٍ يُغنّين فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يُفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس.

رواه النسائي (٦/١٠٩)، والحاكم (٢/١٨٤) وسنده صحيح.

[٢٨٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ مرّ ببعض المدينة فإذا هو بجوارٍ يضربن بدُفّهنّ ويتغنّينَ ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ من بني النجّار يا حبّذا مُحمدٌ مِن جَارِ

فقال النبي ﷺ: «**الله يعلمُ أني لأحِبُّكن**».

رواه ابن ماجه (١٨٩٩) بسند صحيح.

[٢٨٥] وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ

في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردّك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدُّفّ وأُغنّي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**إن كنتِ نذرتِ فاضربي، وإلا فلا**» فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يخاف منك يا عمر، إني كنت جالساً وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف**».

رواه أحمد (٣٥٣/٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٦٢) بتهذيبي وحسنه وصححه.

فهذه تسعة أحاديث ما بين صحيح وحسن كلها تدور حول الغناء والضرب بالدف وهي بجملتها تدل على أمور:

أولاً: فيها ثبوت سماع النبي ﷺ الأغاني بإطلاق.

ثانياً: سماعه ذلك من الجواري سواء قلنا: كُنَّ صغاراً أم كباراً فالأحاديث فيها إطلاق.

ثالثاً: سماعه الضرب بالدف ووقوع ذلك في بيته وبمحضره.

رابعاً: إقراره على ذلك.

خامساً: حضه عليه وعلى اللهو.

سادساً: إنكاره على من نهى عنه.

سابعاً: جواز الغناء واللهو والضرب بالدفوف في المناسبات كأيام العيد، وفي الأعراس، وعند قدوم عالم أو صالح من سفر، أو عند إرادة الترويح عن النفس بلا سبب.

فهذه كلها تؤخذ من ظواهر الأحاديث المذكورة لا ينبغي التنازع والاختلاف فيها.

يبقى بعد هذا ملاحظات قيلت على هذه الأحاديث ولا بد من الإجابة عليها وتقييد ما ينبغي تقييده منها.

أولاً: في سماعه ﷺ الغناء والدف من الجواري، وقد تعدد ذلك منه فسمعه من الجاريتين اللتين أنكر عليهما أبو بكر، وسمعه من الجُوَيْرِيَات في بيت الرُّبَيِّع، وسمعه من الجواري اللاتي مرّ عليهن من بني النجار كما سمعه من الجارية السوداء.

والسؤال المطروح هنا هو: هل يجوز لنا سماع الأغاني والدفوف من الجواري مطلقاً اتباعاً منا لرسول الله ﷺ واقتداءً به أم لا؟

أجاز ذلك طائفة من العلماء ومنع آخرون، والحق التفصيل في ذلك، فإن كانت المغنيات جوارٍ صغاراً لا يُشْتَهَيْن ولا يؤدِّي غناؤهن للافتتان بهن، فهذا لا مانع من سماعه منهن، وعلى هذا يحمل سماع النبي ﷺ إذا قلنا: بأن الجواري كنّ صغاراً كما ذهب إليه البعض فإن فرضنا بأنهن كنّ كباراً بالغات حمل ذلك على أنه كان مأموناً من الفتنة معصوماً من التلذُّذ بصوت الأجنبيات، أما غيره فلا بد من تقييد السماع منهن بالأمن من الفتنة والتلذذ بأصواتهن لأن للأذن حظاً من الزنا وهو السماع من المرأة الأجنبية التي يتلذذ بصوتها كما جاء في الحديث الصحيح، وبهذا قال جمهور العلماء وهو الصواب الذي لا ينبغي العدول عنه، وقد مرّ بك حديث الجارية السوداء وقد شاهد وسمع غناءها كل من النبي ﷺ والصدِّيق وعلي وعثمان وهي سوداء لا تشتهى ولا يتلذذ بصوتها ولا بغنائها، ومثله ما أخرجه الترمذي أيضاً في فضائل عمر ٣٤٦٣ بتهذيبي عن عائشة في قصة الحبشية التي كانت تزف وتغني والنبي وعائشة والناس ينظرون إليها، وهو حديث صحيح.

ثانياً: ما جاء في هذه الأحاديث من الضرب بالدف والغناء، هل ذلك يدخل فيه الرجال أم هو خاص بالنساء؟ الظاهر عدم الفرق بين الرجال والنساء لأنه لا دليل يدل على اختصاص ذلك بالنساء إلا الرأي والاجتهاد.

ثالثاً: اختلف العلماء هل الغناء والضرب بالدفوف واللهو مقصور على الأعياد، والأعراس، والقدوم من السفر كما جاء التنصيص على ذلك فيما تقدم من الأحاديث أم ذلك عام في كل مناسبة وغيرها.

الظاهر، أن ذلك لا يختص بالعيد والعرس... بل للمسلم أن يتغنى ويضرب ويسمع ذلك متى شاء فلا حرج عليه لأنه لم يأتِ ما يمنع من ذلك، فتخصيص الغناء وضرب الدفوف بأيام الأعياد والأعراس تخصيص بدون مخصص.

رابعاً: يؤخذ من هذه الأحاديث أن الأغاني تجوز بالنثر والشعر بجميع أنواعه، وقد مرّ بك أن النبي ﷺ سمع كل ذلك، فكان يسمع الحداء والرجز، وكان يتمثل به، وسمع أغاني الجواري وغيرهن، فتخصيصه بنوع خاص مجرد رأي لا يشهد له دليل.

خامساً: ما تقدم من قوله ﷺ لمولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: **«ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»**. وقوله لها: **«أرسلتم معها من يغني؟»** **«إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ»** وغير ذلك.

كل ذلك يدل على أن كلاً من اللهو والغزل مأذون فيهما، على أي لون كانا ما داما خاليين من الخنا والفحش ولم يخرجا عن الآداب الإسلامية.

سادساً: ذكر العلماء أن الأغاني إذا كانت مشتملة على ذكر الله تعالى والثناء عليه ومدح رسول الله ﷺ وذكر المواعظ والرقائق والدعوة إلى الزهد في الدنيا والتأهُّب للآخرة، أو الترويح على النفس ونحو ذلك، لا بأس بها بل قد تكون مستحبة كما يأتي.

وستأتي الخلاصة في الجائز والممنوع من الغناء بعد الفصل الآتي.

* * *

❋ الأحاديث الدالة على الغناء المحرّم

[٢٨٦] عن عبدالرحمٰن بن غَنْم الأشعري قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني سمع النبي ﷺ يقول: **«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلَنَّ أقوام إلى جنب علَم يروح عليهم بسَارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً**

فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قِردة وخنازير إلى يوم القيامة».

رواه البخاري معلقاً في الأشربة (١٢/١٥٠/١٥٥) باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسمّيه بغير اسمه، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٠)، وابن حبان (٦٧٥٤)، والبيهقي (٣/٢٧٢) و(١٠/٢٢١).

رووه مسنداً متصلاً بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً.

ولابن ماجه: **«يُعْزفُ على رؤوسهم بالمعازف والقَيْنَات يخسف الله بهم الأرض».**

والحديث صحيح لا غبار عليه خلافاً لمن ضعّفه بالانقطاع كابن حزم وغيره، وقد ردّ عليه العلماء في ذلك ردوداً كثيرة منهم ابن الصلاح والقرافي والحافظ وغيرهم.

«الحر»: بالحاء والراء هو الفرج والمراد به الزنا. و«المعازف»: جمع معزفة وهي آلات العزف والطرب. قوله: «علم» بفتحتين أي: جبلٌ. «يروح عليهم» أي: يأتيهم الراعي في المساء. «بسارحة» أي: بماشية يقال لها سارحة لأنه تسرح بالغداة إلى مرعاها وتروح في المساء إلى مأواها. «فيبيتهم الله» أي: يهلكهم ليلاً. «ويضع العلم» أي: يوقعه عليهم.

[٢٨٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمارٌ عند نعمة، ورِنَّةٌ عند مصيبة».**

رواه البزار في مسنده رقم (٧٩٥) بكشف الأستار، وقال المنذري ثم الهيثمي في المجمع (٣/١٣) رجاله ثقات وله شاهد.

[٢٨٨] عن جابر بن عبدالله عن عبدالرحمٰن رضي الله تعالى عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لم أنهَ عن البكاء، ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، ولطم وجوه وشق جيوب، ورنّة شيطان».**

رواه الطيالسي في الجنائز بترتيب البنا رحمه الله تعالى (٧٦٠)، وابن

سعد (١٣٨/١)، والحاكم (٤٠/٤)، والبيهقي (٦٩/٤) وغيرهم، وفي سنده محمد بن أبي ليلى ضعيف، وهو عند الترمذي في الجنائز (٨٩٤) بتهذيبي، عن جابر مختصراً مع قصة في أوله وحسنه وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: «نغمة لهو» أي: صوت حسن يلهو. قوله: «ومزامير» هو جمع مزمار وهو آلة الزمر والغناء ومنه الزمارة. «وصوت عند مصيبة»: هو صوت النائحة على عادة الجاهلية فكانوا إذا مات لهم ميت ونزلت بهم مصيبة لطموا خدودهم وشقوا جيوب ملابسهم وتكلموا بكلام سافل. وقوله: «ورنة شيطان» أي: صوت شيطان له رنين وهو داخل فيما تقدم.

[٢٨٩] وعن عمران بن حُصين رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في أمتي قَذْفٌ ومَسْخٌ وخَسْفٌ»** قيل: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: **«إذا ظهرتْ المعازِفُ، وكثُرت القِيانُ، وشُرِبت الخمور»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٤٢) بتهذيبي، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عبدالقدوس وهو صدوق يخطىء، فحديثه هذا حسن لذاته ويصحح لطرقه وشواهده.

وقوله: «القيان» جمع قينة، وهي المغنية.

[٢٩٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله حرَّم عليَّ - أو حرَّم عليهم - الخمر والميسر والكُوبَة وكل مسكر حرام»**.

رواه أحمد (٢٨٩/٢٧٤/١)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٩٦)، وأبو يعلى (٢٧٢٩)، وابن حبان بالموارد (٥٣٤١)، والبيهقي (٢٢٢/٢١٣/١٠) وسنده صحيح، وللحديث مع ذلك شواهد وطرق.

و«الكوبة»: هي الطبل الصغير والنرد عند أهل اليمن.

[٢٩١] وعن نافع رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما سمع صوت زَمّارة راعٍ، فوضع أصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق

وهو يقول: يا نافع أتسمع؟ فأقول: نعم، فيمضي، حتى قلت: لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ وسمع زمارة راع فصنع مثل هذا.

رواه أحمد (٣٨/٨/٢)، وابن سعد في الطبقات (١٦٣/٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٤/٤٩٢٥/٤٩٢٦)، وابن حبان بالموارد (٢٠١٣)، والبيهقي (٢٢٢/١٠) وغيرهم من طرق بعضها صحيحة.

فهذه الأحاديث الخمسة هي أصح وأظهر ما يستدل به على تحريم الأغاني وهي كما ترى كلها مقيّدة بآلات الطرب والمعازف، وما كان كذلك لا ينبغي أن يختلف في تحريمه إذا كان الغناء مشتملاً على ذكر النساء والخدود والنهود والخمر والخنا والكلام الماجن، ولا سيما إذا كان من النساء الفاجرات العواهر أو مع الاختلاط الفاحش كالأغاني المشاهدة اليوم على شاشة التلفزيون وفي الأعراس والمناسبات الجاهلية المعاصرة، فمثل هذه الأغاني لا يقول بإباحتها إلا منحل من الدين فاسق... بل قد يكفره البعض وعلى هذه الأغاني يحمل ما جاء من التحريم عن الأئمة الأربعة وغيرهم، وهذا لا يرتاب فيه مسلم ولذلك كان تحريمها كذلك محل اتفاق إلا من لا يعتبر ولا يوثق بدينه كبعض المعاصرين، وقد عدّ ذلك ابن حجر الهيثمي في الزواجر من الكبائر، والكلام في ذلك وجيه ومعقول وذلك لما جاء في حديثَي أبي مالك وعمران بن حصين من الوعيد في ذلك وما ينزل بأولئك اللاهين المتهتكين من المسخ والخسف والقذف وذلك لا يكون إلا على ارتكاب أمر فاحش عظيم.

نعم، اختلف الناس قديماً وحديثاً في الأغاني مع الآلات إذا كانت عارية عن الأغاني الماجنة ومن المحرمات العارضة.

فأباحها البعض قديماً وحديثاً ومنعها آخرون كذلك.

استدلّ المانعون بالأحاديث الخمسة التي أوردناها آنفاً ولم يقيدوها كالمجيزين، وقد نوقشوا في استدلالهم بها، وقال المجيزون: إن هذه الأحاديث المذكورة ليست صريحة في التحريم على الإطلاق وإنما ذكرت

المعازف مقرونة بالخمر والقيان والزنا... وقالوا: إن اقتران المعازف بما ذكر يدل دلالة واضحة على أنها ليست مقصودة بالتحريم لذاتها وإنما شملها التحريم لاقترانها بشرب الخمر وبروز المغنيات الفاجرات أمام الرجال مع حليتهم الزنا والفجور، ولم تأتِ المعازف مفردة وحدها في حديث ما مع النهي عنها صراحة.

وعلى هذا، فإذا كانت آلة العزف والطرب مصحوبة بالقيان الفواجر العواهر وشرب الخمر والفجور كما جاء في نص حديثي أبي مالك وعمران بن حصين كان ذلك محرماً أشد التحريم ومنكراً يجب إنكاره ويحرم حضوره ومشاهدته وتجب التوبة منه.

فإذا خلت الأغاني من النساء اللاتي يعتبر النظر إليهن والاستماع إلى أغانيهن زنا النظر والأذن، وكانت أغاني نظيفة خالية مما ينافي الآداب الإسلامية سواء كانت بآلة أم لا فذلك مما يراه الكثيرون مباحاً.

وقد استدلّ من أباح ذلك بالأحاديث المتقدمة في الفصل الأول وهي أكثر وأصح وأصرح من أحاديث المنع كما ذكروا عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن جاء بعدهم عبر العصور إباحة ذلك وسماعهم لها بآلة وبدونها وفيهم أئمة كبار، وذكروا منهم:

من الصحابة: عمر، وعثمان، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبا عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبا مسعود الأنصاري، وأسامة بن زيد، وحمزة، وابن عمر، والبراء بن مالك، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن الزبير، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

ومن التابعين: سالم بن عبدالله، وسعيد بن المسيب، وخارجة بن زيد، وسعيد بن جبير، وشريح القاضي، وعطاء بن أبي رباح، وعامر الشعبي، وابن شهاب الزهري، وعمر بن عبدالعزيز، في خلق آخرين ممن جاء بعدهم لا يحصون منهم الأئمة الأربعة وابن عيينة وجمهور الشافعية. ذكر ذلك الإمام الشوكاني في نيل الأوطار.

وذكر غيره من التابعين طاوساً، وابن سيرين، وغيرهم كالجنيد

والقشيري والروياني، والقفال الكبير، وإمام الحرمين، والماوردي، وأبا إسحاق الشيرازي، وأبا حامد الغزالي، وأبا طالب المكي، والقاضي أبا بكر ابن العربي، وابن حزم، والسهروردي، وأبا المظفر السمعاني، والعز بن عبدالسلام وغيرهم، فهؤلاء وأضعاف أضعافهم كلهم كانوا يقولون بالأغاني المجردة أو مع آلات الطرب.

وهذا يرد ما نقله بعضهم من الإجماع على المنع والتحريم، فإن الموضوع مختلف فيه وليس من القطعيات ولكلّ رأي مُستنده، فلا ينبغي التشهير بمن قال بالإباحة على الشرط المتقدم، ولا سبُّه ولا تجهيله أو تضليله ورميه بكلمات نابية فاحشة كما فعل بعض المتزمتين من المتقدمين والمتأخرين، فإن المختلف فيه لا يجوز ولا يجب إنكاره كما نصّ عليه النووي والماوردي، بل وابن تيمية وابن القيم اللذان أشهرا الحرب على من أباح الغناء مطلقاً لا سيما غناء الصوفية.

* * *

السماع والغناء الصوفي

هناك سماع آخر يستعمله الصوفية في مناسباتهم ويتقربون به إلى الله عزّ وجل بآلة وبدونها، فماذا قال فيه علماؤنا وأئمتنا الربانيون رحمهم الله تعالى؟

أما أغانيهم التي اعتادوها في مجالسهم إذا كانت خالية من آلات الطرب[1] ومن الكلام الفاحش والمحرم فجائزة اتفاقاً، ولا ينبغي أن يختلف فيها كما تقدم، فإذا كانت تدعو إلى محبة الله عزّ وجل والشوق إليه ومدحه والثناء عليه وذكر شمائل رسول الله ﷺ ومدحه والدعوة إلى الزهد في الحياة وما يرقق القلوب من المواعظ وذكر الموت والآخرة وما كان من هذا القبيل فهذا لا يرتاب في جوازه بل استحبابه.

(١) أما المقرونة بالآلات ففيها الخلاف السابق كما ذكرنا.

ومثل هذا أجازه حتى خصوم الصوفية كابن الجوزي، فقد قال في تلبيس إبليس: ومن ذلك ـ يعني الأغاني الجائزة ـ أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب إلى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات كقول بعضهم:

يَـا غـادِيـاً فـي غَـفْـلَـةٍ ورَايِـحَـا ... إلـى مَـتَـى تَـسْـتَـحْـسِـنُ الـقـبـائـحَـا
وكَـم إلَـى كَـم لا تـخـافُ مـوْقِـفَـا ... يَـسْـتَـنـطِـقُ الـلّـهُ بـه الـجَـوَارِحَـا
يَـا عَـجَـبـاً مِـنـكَ وأنـتَ مُـبْـصِـرٌ ... كيفَ تجنَّبْتَ الطريق الواضحَا

قال: فهذا مباح وإلى مثله أشار أحمد في الإباحة، ثم ذكر بسنده عن أبي حامد الخُلْقَاني أنه قال: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذَا مَـــا قـــال لـــي رَبـــي ... أمَـا اسْـتَـحْـيَـيْـتَ تَـعْـصِـيـنـي
وتـخـفـي الـذّنـبَ مِـن خَـلْـقِـي ... وبـالـعـصـيـانِ تـأتِـيـنـي

فقال: أعِد عليّ، فأعدتُ عليه، فقام ودخل بيته وردّ الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول: فذكر البيتين.

ونقل هذا الكلام الشيخ ناصر الألباني في كتابه «تحريم آلات الطرب» وأقرّه، بل قال قبله بعد أن ذكر أحاديث وآثاراً عن الصحابة وغيرهم تبيح الغناء ما نصه: فأقول: وفي هذه الأحاديث والآثار دلالة ظاهرة على جواز الغناء بدون آلة في بعض المناسبات كالتذكير بالموت أو الشوق إلى الأهل والوطن أو الترويح عن النفس والالتهاء عن وعثاء السفر ومشاقه... فهكذا يقول، ثم يحمل كغيره من خصوم الصوفية عليهم حملة عشواء بلا قيد ولا زمام فيجهلونهم ويضللونهم ويبدعونهم ويجعلون اجتماعهم على السماع منكراً وبدعة ضلالة مع أن أشعارهم وأغانيهم لا تخرج عن ذكر الله وما يقرب ويشوق إليه و...

ولذلك قال بعض المحققين من أهل البصائر: فمن الناس وبخاصة الصوفية من قال: إن الغناء يرقق القلب، ويبعث الحزن والندم على المعصية، ويهيّجُ الشوق إلى الله تعالى، ولهذا اتخذوه وسيلة لتجديد نفوسهم، وتثبيط عزائمهم، وإثارة أشواقهم، قالوا: وهذا أمر لا يُعرف إلا بالذوق والتجربة والممارسة، ومن ذاق عرف وليس الخبر كالعيان.

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء معقباً على أحاديث النهي عن الغناء... فهو منزل على بعض أنواع الغناء الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد، أو حدوث الولد، أو قدوم الغائب، فهذا كله يضاد مراد الشيطان...

فذكر من ذلك ما يحرك الشوق إلى الله وذلك أكثر ما يتغنى به الصوفية، كما ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى في رسالته عن أحمد بن مقاتل العكي قال: لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوّال - يعني صاحب سماع وغناء صوفي - فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً، فأذن، فابتدأ يقول:

صغيرُ هواكَ عذَّبَني ... فكيفَ به إذا احتنكا
وأنتَ جمعتَ من قَلْبِي ... هوى قد كان مُشْتَرَكا
أما تَرْثِي لِمُكْتَئِب ... إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَا

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض.

وذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ما ينشأ عند الصوفية من السماع وآثاره، فقال في الإحياء وهو يذكر أنواعه: السابع سماع من أحبّ الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه صحيح لشوقه، ومؤكد لعشقه وحبه، ومُور زناد قلبه، ومستخرجٌ منه أحوالاً من المكاشفات

والملاطفات، لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها وينكرها من كَلَّ حِسُّه عن ذوقها، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجداً مأخوذ من الوجود والمصادفة، أي: صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدرات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخشب ثم يتبع العطاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات، وهي غاية مطالب المحبين للّه تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها، فالمفضي إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي، والمباحات، وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً، ومعرفة السبب في تأثير الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات، والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج، وتعجب العنين من لذة المباشرة، إلى آخر ما قال.

وقال الإمام أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِي في عوارف المعارف وهو يتكلم على أقسام السماع والغناء الصوفي: وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعيم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار.

وقال: وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصَّدِّ ممّا يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين، فمَن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدّد عنده عزمٌ لما هو آتٍ فكيف يُنكر سماعه؟... إلخ.

وقد أفاض في ذكر سماع الصوفية الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته المشهورة، ومما قال في ذلك قوله: واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والنغم المستلذة، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً،

ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم يشجر في زمام هواه، ولم ينخرط في سلك لهوه مباح في الجملة.

قال: ولا خلاف أن سماع الأشعار أُنشدت بين يدَي رسول الله ﷺ وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان.

قال: هذا ظاهر من الأمر ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات وتذكر ما أعدّ الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرُّز من الزلاّت، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحب في الدين ومختار في الشرع... إلخ.

وممن تكلم على سماع الصوفية الإمام أبو طالب المكي، ومن ذلك قوله في قوت القلوب: مَن أنكر السماع فقد أنكر على سبعين صديقاً - يعني من الصوفية العارفين - والإمام أبو نصر السراج الطوسي فصّل هذا الموضوع تفصيلاً في كتابه القيّم (اللمع) فليراجعه مَن شاء المزيد.

وعلى أيٍّ، فسماع الصوفية كله يدور حول حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ وما يقرب إليه عزّ وجل وما يبعد منه أو ما يدل على أحوالهم معه تعالى وما كان كذلك فهو مستحب لا مباح فقط.

ولا معنى للإنكار عليهم وتجهيلهم وتبديعهم ووصفهم بصفات غير لائقة.

وخلاصة هذا الباب أن الغناء من حيث هو مباح ومحرّم ومختلف فيه ومستحب فالمباح هو ما كان خالياً عن المحرمات، والمحرم الممنوع ما كان بالأغاني الفاحشة من القيان والمعازف المضروبة عليهن مع شرب الخمر، والمختلف فيه ما كان خالياً من المحرمات مع آلة الطرب، والمستحب ما كان دالاً على الله وعلى محبته والثناء عليه ومحبة رسوله ﷺ ومدحه والدعوة إلى الزهد والعمل للآخرة ونحو ذلك.

وقد تقدم تفصيل كل ما ذكرنا وبالله التوفيق، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.

❋ مساوىء الأخلاق

وإذ فرغنا من إيراد مكارم الأخلاق ومحاسنها وما يتبع ذلك فلنردفها بالمساوىء التي نهى الشارع عنها وحذّر منها وذمّها.

❋ ❋ ❋

❋ تكفير المسلم بلا تاويل

[٢٩٢] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**».

وفي رواية: «**إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما**».

رواه البخاري (١٢٩/١٣)، في الأدب، ومسلم في الإيمان (٤٩/٢)، وأبو داود (٤٦٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥٣).

[٢٩٣] وعن أبي هريرة نحوها.

رواه البخاري (١٢٩/١٣).

[٢٩٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**».

وفي رواية: «**ومَن دعا رجلاً بالكفر ـ أو قال: عدواً للّه ـ وليس كذلك إلا حار عليه**».

رواه البخاري (٧٤/١٣) ومسلم (٤٩/٢).

قوله: «**فقد باء**» أي: رجع، وهو معنى حار عليه. وكذا قوله: «**ارتدت عليه**».

في هذه الأحاديث تحريم رمي المسلم بالكفر أو بعداوته للّه تعالى، وأن في إطلاق ذلك على المسلم خطراً عظيماً لأنه إذا لم يكن المَرْمي كافراً

أو عدواً لله رجع ذلك للرامي. فتكفير المسلم عظيم لأن معناه أنه إذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث ماله، وأنه مخلّد في النار يوم القيامة، وهذه أمور عظيمة لا تثبت إلا بالنص كالشمس لا شبهة فيها ولا تأويل، فليتّق الله أولئك الأقوام الذين يكفّرون المسلمين بأدنى شبهة، وليعلموا أن ذلك راجع عليهم، وأن يتأنّوا في الحكم على الناس ولا يطلقون اسم الكفر أو نحوه إلا على من أنكر شيئاً معلوماً من الدين ضرورة أو اعتقد خلافه.

أما ما جاء في أحاديث إطلاق الكفر على أقوام، فذلك مؤول بالإجماع كما تقدم في الإيمان.

وانظر لهذا الموضوع فتح الباري (٧٥/١٣)، والنووي على مسلم (٥١/٥٠/٢).

* * *

❊ لعن المسلم أو دابّة أو غيرها

[٢٩٥] عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: **«لا تَلاعَنُوا بلعنة الله، ولا بغضب الله، ولا بالنار»**.

رواه أحمد (١٥/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٦)، والترمذي في البر والصلة (١٨٢٠) بتهذيبي، والحاكم (٤٧/١) وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«لا تلاعنوا»: أي لا يلعن بعضكم بعضاً.

في الحديث تحريم دعاء المسلمين بعضهم على بعض باللعنة أو بالغضب أو بالنار، كأن يقول أحدهم للآخر: لعنك الله، أو غضب عليك، أو مثواك النار، ونحو ذلك، وهذا مختص بالمعين لأنه لا يدري بماذا يختم له، فقد يختم له بالسعادة وأنت دعوت عليه بالطرد والإبعاد من رحمة الله وغضبه عليه وأن مصيره النار، نعم إذا كان ذلك مع الوصف مثل لعنة الله

على الظالمين، غضب الله على الكاذبين... فهذا جائز لا مانع منه جاء به القرآن والسنة.

[٢٩٦] وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللَّعَّان، ولا الفاحش، ولا البذيء»**.

رواه أحمد (٤٠٥/١)، والترمذي (١٨٢١)، وابن حبان بالموارد (٤٨)، والحاكم (١٢/١) وصححه على شرطهما، وسنده عند الترمذي صحيح رجاله رجال الشيخين غير شيخه محمد بن يحيى الأزدي، وهو ثقة.

«الطعان» و«اللعان» أي: الذي يكثر منه الطعن واللعن للآخرين. و«البذيء»: من البذاءة وهو الفحش في القول، فهو عطف تفسير على الفاحش.

وفي الحديث ترهيب المسلم من الاتصاف بما ذكر، فإن المؤمن ليس من شأنه أن يكون عيّاباً للناس طعّاناً في أعراضهم كثير اللعن لهم بذيء اللسان فاحشاً في كلامه سفيهاً.

[٢٩٧] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يكونُ اللَّعَّانُون شفعاء ولا شهداء»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٥٠/١٤٩/١٦)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٧).

[٢٩٨] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعّاناً»**.

رواه أحمد (٣٦٦/٣٣٧/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣١٩/٣١٧)، ومسلم في البر (١٤٨/١٦).

في الحديثين الزجر عن كثرة اللعن وأن ذلك ليس من صفات الصالحين والصدِّيقين الذين سيكرمهم الله عزّ وجل يوم القيامة بالشفاعة في إخوانهم العصاة والشهادة على الأمم السابقة. فمَن كان في الدنيا كثير اللعن

لإخوانه المسلمين لا يكون من الصدِّيقين ولا من الشفعاء والشهداء يوم القيامة.

وقوله في الأحاديث المتقدمة «الطعان اللعان»، «اللعانون لعاناً» بصيغ المبالغة تدل على أن ذلك لمن كثر منه اللعن، أما من قلّ منه ذلك أو كان اللعن مباحاً، فذلك غير داخل في هذا الذم، فإن النبي ﷺ لعن المصورين، والمتشبهين بالنساء... والواصلة ومن معها، وآكل الربا وموكله... ومن انتمى إلى غير أبيه وغير ذلك مما هو كثير.

[٢٩٩] وعن ثابت بن الضحاك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن حلف على ملّة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملكه، ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة، ومَن لعن مؤمناً فهو كقتله، ومَن قذف مؤمناً بكفره فهو كقتله**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٧٤/٧٥)، وفي الأيمان والنذور (١٤/٣٤٤/٣٤٥)، ومسلم في الإيمان (٢/١١٨/١١٩)، وأبو داود (٣٠٥)، والترمذي (١٣٩٥/١٤١٠/٢٤٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/١٢٣/١٢٤/١٣٦)، وابن ماجه (٢٠٩٨) رووه مطولاً ومختصراً.

وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد للاعن المسلم وأن إثمه في ذلك يعادل قتله وذلك عظيم، فهو من أكبر الكبائر، فليتّق الله المسلم في إخوانه المؤمنين.

وباقي أطراف الحديث تقدمت معانيها وأحكامها في مواضعها.

[٣٠٠] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**» قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

رواه مسلم في البر (١٦/١٤٧)، ونحوه عن أبي برزة الأسلمي رواه مسلم (١٦/١٤٨).

في هذا الحديث بيان أن الملعون لا تجوز مصاحبته، فهذه دابة لعنتها صاحبتها فأمرها النبي ﷺ بإرسالها وتركها وأخذ ما عليها من الرحل والمتاع، وإنما فعل ذلك بها زجراً لأمثال هذه المرأة التي لعنت دابة لا تعقل، وفي ذلك إشارة إلى تحريم لعن الحيوان.

وإذا كانت مصاحبة الدابة الملعونة ممنوعة وهي غير مكلفة ولا لها عقل فكيف يكون الأمر في مرافقة ومصاحبة الملاعن من النساء والرجال؟ فلا شك أن مجانبتهم واجبة ومصاحبتهم ممنوعة.

[٣٠١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «**لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه مَن لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨٢٢)، وابن حبان (١٩٨٨) وسنده صحيح على شرط الشيخين.

في الحديث منع لعن الريح ونحوها من الكائنات الضارة وغيرها كالمطر الغزير مثلاً، والحر الشديد والبرد والنبات والرعد وغير ذلك من الأشياء فإنها مأمورة ومسيَّرة من قِبَل الله تعالى لا تملك لنفسها ولا لغيرها من النفع أو الضر مثقال ذرة أو دونها، فلعنها عبث بل سفاهة، فمَن لعن شيئاً لا يستحق اللعنة رجعت على صاحبها اللاعن كما فصّله الحديث التالي وهو:

[٣٠٢] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتُغلَق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعِن، فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٥) بسند فيه رجل مجهول لكن الحديث حسن، لشاهد له عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٤٢٥/٤٠٨/١) وجود هذا الشاهد المنذري في الترغيب.

فالحديث كالذي قبله يدلان على أن اللاعن لشيء ما على خطر عظيم فقد يوشك أن ترجع عليه لعنته من حيث لا يشعر.

* * *

❊ تحريم السباب والشتائم بغير حق

[٣٠٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سِبابُ المسلم فسوقٌ، وقتالُه كفرٌ»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٧٤)، ومسلم (١/٥٧/٥٨)، والترمذي (٢٤٥١) كلاهما في الإيمان، والنسائي في تحريم الدم (٧/١١١/١١٢)، وابن ماجه (٣٩٣٩) ورواه الترمذي أيضاً في البر والصلة (٨٢٧) بتهذيبي.

«السباب»: بكسر السين، الشتم والكلام في العرض. وقوله: «قتاله كفر» هذا مؤول باتفاق العلماء، فمَن استحلّ قتل المسلم بلا موجب ولا تأويل كان كافراً كفراً بواحاً، ومن قتله معتقداً معصيته كان معناه كفر النعمة أو كفراً دون كفر كما جاء في أصناف أطلق عليهم اسم الكفر كما تقدم في فصل سابق.

وعلى أيٍّ: فسب المسلم وشتمه فسق وذنب عظيم، كما أن قتله كذلك من أكبر الكبائر كما هو معلوم.

[٣٠٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شرب الخمر قال: **«اضربوه»** قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: **«لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان»**. وفي رواية: **«لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**. وفي رواية: **«ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه»**.

رواه البخاري (١٥/٧١/٧٦)، وأبو داود (٤٤٧٧/٤٤٧٨) كلاهما في الحدود.

في الحديث النهي عن الدعاء على العاصي بالخزي ونحوه من الشتم لأن في ذلك عوناً للشيطان عليه، فإن وقوع المسلم في المعصية كانت بتزيين من الشيطان ليقع في الخزي وغضب الله فإذا دعى عليه وسبّ كان في ذلك تحصيل لمقصود الشيطان، ولذلك كان من الواجب الدعاء معه بالمغفرة والرحمة ليغتاظ الشيطان.

[٣٠٥] وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«المُسْتَبَّانِ ما قالا: فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٠/١٤١)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٤)، والترمذي (١٨٢٥)، وابن حبان بالموارد (١٩٧٦).

المستبّان: اللذان يتبادلان السباب فيما بينهما.

وفي الحديث أن من بدأ غيره بالشتم والسب كان حاملاً لوزر صاحبه ما لم يتجاوز الثاني الحد، وإلا أصبح هو الظالم والبادي مظلوماً.

[٣٠٦] وعن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه أنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يشتمني وهو أنقص مني نسباً؟ فقال رسول الله ﷺ: **«المستبّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان»**.

رواه أحمد (٤/١٦٢/٢٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد بسند صحيح.

قوله: «يتهاتران» أي: يقول كل واحد في صاحبه كذباً وباطلاً والسقط من القول.

وفي الحديث ذم تبادل السباب، وأن المتسابّين شيطانان يكذب كل واحد منهما على صاحبه ويرميه بسقط من القول. وفي ذلك زجر بالغ للمتسابّين.

* * *

❋ الغِيبة وخطرها

[٣٠٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتدرون ما الغِيبة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذِكرُكَ أخاك بما يكره»** قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **«إن كان فيه ما تقول: فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٠/٣٨٤/٤٥٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٤٢)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي في البر (١٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٧).

«الغيبة»: بكسر الغين، الاغتياب، وهو أن تذكر أخاك المسلم في غيبته بما يكرهه لو كان حاضراً. وقوله: «بهته» بفتحات مع تشديد التاء من البهتان وهو ما لا أصل له، أو معناه أدهشته وحيّرته بما قلت ما ليس فيه.

[٣٠٨] وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا معشرَ مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبَه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن اتّبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»**.

رواه أحمد (٤/٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠)، والبيهقي (١٠/٢٤٧) بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عن ابن عمر رواه الترمذي في البر (١٨٧٥)، وابن حبان (٥٧٦٣) ويأتي، وآخر عن البراء رواه أبو يعلى بسند حسن.

[٣٠٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»** .

رواه أحمد (٣/٢٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٨) وسنده صحيح.

«يخمشون»: بكسر الميم أي: يجرحون وجوههم... إلخ.
«أعراضهم»: جمع عرض بكسر العين وسكون الراء وهو محل المدح والذم من الإنسان.

[٣١٠] وعن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن مِن أربى الربا الاستطالة في عِرض المسلم بغير حق»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٦)، وأحمد (١/١٩٠) بسند صحيح.

قوله: «من أرْبَى الرِّبا» جعل الربا نوعين:

أولهما: مادي وهو في المعاملات المالية وفوائد الديون وغيرها.

وثانيهما: معنوي وهو الاعتداء على المسلم في عرضه بالتنقيص والتحقير والتشهير والعيب، وجعل ﷺ هذا النوع أعظم جرماً من الأول لأن العرض أعز على الإنسان من المال.

[٣١١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حَسْبُك من صفية كذا وكذا» تعني قصيرة، فقال ﷺ: **«لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجَتْه»**.

قالت: وحكيت له إنساناً فقال ﷺ: **«ما أحب أني حكيتُ إنساناً وأن لي كذا وكذا»**.

رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي في أبواب صفة القيامة (٢٣٢٥) بتهذيبي، والطحاوي في المشكل وكذا أحمد (٦/١٢٨/١٣٦/١٨٩/٢٠٦) وسنده صحيح.

قوله: «لو مُزِجَت» أي: خُلطت. قوله: «حكيت إنساناً» أي: قلّدته في أقواله وأفعاله وهيئاته.

فهذه الأحاديث وغيرها كلها تدل على تحريم غيبة المسلم بلا موجب

شرعي، وأن ذلك من أعظم الذنوب وحقوق العباد، وسنجمل الكلام في ذلك في الآتي:

أولاً: ما قاله العلماء رحمهم الله تعالى في الغيبة ومعناها تفسيراً وتفصيلاً لظاهر حديث: «**ذكرك أخاك بما يكره**» فاتفقت كلمتهم على أنها ذكر الإنسان في غيبته بما يكرهه لو سمعه وكان ذلك فيه صدقاً، فإن لم يكن فيه كان كذباً وزوراً باطلاً.

ثانياً: في الأشياء التي تُعد غيبة. قال النووي في الأذكار تبعاً لأبي حامد الغزالي في الإحياء رحمهما الله: هي ذكر المرء بما يكرهه سواء كان ذلك في بدن الشخص، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلْقِه، أو خُلُقِه، أو ماله، أو والده، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو ثوبه، أو حركته، أو طلاقته، أو عبوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة والرمز.

قال النووي رحمه الله تعالى: وممن يستعمل التعريض في ذلك كثير من الفقهاء في التصانيف وغيرها كقولهم: قال بعض من يدّعي العلم، أو بعض من ينسب إلى الصلاح، أو نحو ذلك مما يفهم السامع المراد به، ومنه قولهم عند ذكره: الله يعافينا، الله يتوب علينا، نسأل الله السلامة، ونحو ذلك، فكل ذلك من الغيبة.

ثالثاً: الغيبة محرّمة بإجماع المسلمين، بل نقل القرطبي الإجماع على أنها من الكبائر لما جاء فيها من الوعيد، وذكر غير واحد منهم الغزالي أنها من الصغائر وفيه نظر لأنها تختلف باختلاف المتكلم فيهم، فالعلماء والصالحون ليسوا في ذلك كغيرهم.

رابعاً: مما يشهد لمن قال بأنها من الكبائر نفيه ﷺ عن المغتاب الإيمان بقلبه وأنه لا يعدو لسانه ثم نهيه ﷺ عن ذلك ثم الوعيد المعد للمعتدين على أعراض الناس وأنهم سيتولون تعذيب أنفسهم بأظافر من نحاس نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها، ثم لا أدل على عظمها من أنها أعظم من الربا، ومعلوم ما جاء في الربا والمرابي من القوارع واللعنات،

أضف إلى ذلك قوله ﷺ لمولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: «**لقد قلت كلمة لو مُزِجَت بماء البحر...** إلخ». فالغيبة لقذارتها وخبثها لو فرض أنها تجسّمت وأُلقيت في المحيطات لغيّرتها وأفسدتها وذلك لنتنها وقبحها، ويكفي في كل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فمَن اغتاب أخاه المسلم كان بمثابة من يأكل لحمه وهو ميت، مع أن ذلك مكروه له لا يحبه ولا يستسيغه بحال، وفي ذلك تنفير عظيم من الاغتياب، عافانا الله من هذه البلية التي عَمَّت بها البلوى وأصبحت فاكهة المجالس لكل طبقات الناس.

* * *

❊ الغيبة قد تباح لأسباب

منها: التظلُّم كأن يقول الإنسان المظلوم لصاحب السلطة: ظلمني فلان أو فعل بي كذا وكذا، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وقد قال ﷺ: «**لَيُّ الواجد يُحِلُّ عقوبتَه وعِرضَه**»، وقد تقدم في المعاملات.

ومنها: الاستعانة على تغيير المنكر وذكر المجرم بجريمته.

ومنها: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أبي أو زوجي لحديث هند التي شكت زوجها أبا سفيان وقالت فيه: إن أبا سفيان رجل شحيح.

ومنها: الطعن في رواة الأحاديث والشهود بما فيهم، وذلك جائز بالإجماع صوناً للشريعة والحقوق.

ومنها: الإخبار عند المشاورة في معاملة أو زواج أو نحو ذلك، فيقول مثلاً فلان ضرّاب للنساء أو فقير أو معاملته غير حسنة، ونحو ذلك.

ومنها: نصح المشتري مثلاً إذا أراد أن يشتري شيئاً ما فتنصحه بأن تقول له: سلعة فلان معيبة، أو فلان خدعك ونحو ذلك.

ومنها: إذا رأى الإنسان شخصاً ساذجاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ليأخذ عنه العلم مثلاً فله أن يذكر له ذلك ويحذّره منه إذا كان قصده النصيحة.

ومنها: أن يكون الشخص مجاهراً بالمعاصي غير مكترث ولا متستر، أو كان ظالماً حاكماً أو جابياً أو مكّاساً، فيجوز ذكرهم بما فيهم لا بغير ذلك.

وقد عنون الإمام البخاري رحمه الله تعالى على هذا المعنى بقوله في كتاب الأدب (٨١/١٣) باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، ثم ذكر حديث عائشة وقول نبي الله ﷺ وذلك المنافق: «**بئس أخو العشيرة**».

ومنها: التعريف بالشخص كالأعمش، والأعرج، والأزرق، والأعمى، والقصير، والطويل، ونحو ذلك، فيجوز ذكره تعريفاً به لا تنقيصه، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

هذا ملخص ما ذكر العلماء من الغيبة الجائزة، وقد ذكروا لذلك أدلة كثيرة واردة في القرآن والسنّة.

وانظر الفتح (٨٢/١٣)، والنووي على مسلم (١٤٣/١٤٢/١٦).

* * *

❊ تحريم النميمة وأنها من الكبائر

[٣١٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذّبان في قبورهما فقال: «**يُعذّبان وما يُعذّبان في كبير وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة**» ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين أو ثنتين فجعل كسرة في قبر هذا وكسرة في قبر هذا فقال: «**لعله يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا**».

رواه البخاري في الطهارة وفي الأدب (٨٢/١٣)، ومسلم في الإيمان وفي الطهارة وغيرهما، وتقدم في الطهارة وهناك كمال تخريجه (٣١٨/١).

قوله: «لا يستتر». وفي رواية: «لا يستنزه». وفي أخرى: «لا يستبرىء» ومؤدّاها واحد غير أن الأول أوسع.

[٣١٣] وعن همام بن الحارث قال: مرّ رجلٌ على حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه فقيل له: هذا يُبَلِّغُ الأمراء الحديث عن الناس، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ». قال سفيان: والقتّات النمّام.

رواه البخاري في الأدب (٨٣/١٣)، ومسلم في الإيمان (١١٣/١١٢/٢)، وأبو داود (٤٨٧١)، والترمذي في البر (١٨٦٩) بتهذيبي.

[٣١٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن محمداً ﷺ قال: «ألا أُنبئكم ما العَضه، هي النميمة القالَةُ بين الناسِ» وفي رواية: نقل الحديث من بعض الناس إلى بعض ليفسدوا بينهم.

رواه مسلم في البر والصلة (١٥٩/١٦)، وأحمد (٤٣٧/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٥)، والدارمي وغيرهم.

«العضه»: جاءت في الرواية بكسر العين وفتح الضاد وبفتح العين وسكون الضاد وهي الأشهر، وعلى الكسر شجر فيه شوك، وعلى الثاني الشتم وقول الزور والكلام القبيح، وهذا هو المناسب هنا.

وقال تعالى في الوليد الشقي: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ بعد ذلك ﴿زَنِيمٍ﴾ أي: دعي ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ قال العلماء: النمّام لا يكون إلا ولد زنا وبغي.

فهذه الأحاديث تدل على أن النميمة حرام وأنها من الكبائر وأن صاحبها لا يسعد بدخول الجنة مع الأولين الناجين، وأن عذابه سيبدأ به في قبره وفي البرزخ قبل يوم القيامة عياذاً بالله.

والنميمة قد بيّنها النبي ﷺ وهي نقل الكلام من بعض الناس إلى

آخرين ليفسد ما بينهم، وبيّن أن ذلك هو الشر والشتم... ولا شك أن النمام رجل سوء لأنه يسعى بالفساد في الأرض ويوغر قلوب المسلمين ويوقد نار الفتنة والبغضاء بين الناس، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾، فاللمزة والهمزة فُسّرتا بالنمّام والمغتاب وغيرهما، والنمّام يشمل كل من ينقل الكلام على وجه الإفساد، ومنهم وفي طليعتهم جواسيس الدول الذين يتجسسون على المسلمين وخاصة على العلماء والوعّاظ والدعاة إلى الله تعالى، فالأحاديث تشملهم جميعاً مع غيرهم.

وقد شرح لنا هذا الموضوع وبسطه وفصّله أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء، وعنه نقله النووي والحافظ، فقال في (ج٣/١٥٢) طبع مصطفى الحلبي: اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه... وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية... وحتى لو رأى شخصاً يخفي ماله فأفشى سره كان نميمة... وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا أو فعل كذا وكذا... فعليه أن لا يصدق من نمّ له ولا يظن بمن نمّ عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر، وأن ينهاه ويقبح له فعله وأن يبغضه إن لم ينزجر وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمّام عنه فينم هو على النمّام فيصير نمّاماً...

قال النووي: وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية وإلا فهي مستحبة أو واجبة كمن اطلع على شخص يريد إذاية شخص فحذّره منه، وكذا من أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبه مثلاً أو أخبره بأن فلاناً يريد الفتك بك أو بأهلك... فكل هذا وما أشبهه ليس بحرام...

والحاصل أن كل كلام نقل للإفساد فهو حرام وصاحبه نمّام فاسق ويكون في ذلك جامعاً بين النميمة والغيبة وذلك عظيم وعظيم، وكل ما نقل على وجه الإصلاح والمصلحة والنصيحة كان جائزاً وقد يجب أو يستحب.

* * *

❊ شر الناس ذو الوجهين

[٣١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**».

وفي رواية: «**إن من شر الناس عند الله يوم القيامة...**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٨٤/٨٥)، ومسلم في البر (١٦/١٥٦/١٥٧)، وأبو داود (٤٨٧٢)، والترمذي (١٨٦٨) بتهذيبي.

[٣١٦] وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٨)، والدارمي، وابن حبان بالموارد (١٩٧٩)، وسنده حسن صحيح.

ذو الوجهين هو كما قال النووي وغيره: الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرّمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود.

قال العلماء: فكل من يأتي لطائفة بكلام فيه صلاح للأخرى ويعتذر لكل واحدة من الأخرى وينقل إليها الجميل ويستر القبيح كان ممدوحاً ولم يدخل في ذم ذي الوجهين.

وعلى أيٍّ: فذو الوجهين هو من يأتي طائفتين متعاديتين بكلام يرضي

إحداهما ويقبح له الأخرى، فإن كان يجامل كل طائفة من غير أن يقبح إحدى الطائفتين ولا يتظاهر بأنه من إحداهما دون الأخرى لم يكن مذموماً.

والحديثان يدلان على أن هذا الفعل من الكبائر وأن صاحبه من شر الناس عند الله وأن له النار يوم القيامة إن لم يتب إلى الله ويرعو عما هو عليه من النفاق.

* * *

❊ التشديد في الكذب

[٣١٧] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً، وعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليَصْدُقُ ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً»**.

رواه البخاري في الأدب (١٢٢/١٢١/١٣)، ومسلم في البر (١٦٠/١٥٩/١٦)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي في البر (١٨١٦)، والبخاري في الأدب المفرد أيضاً.

«إياكم والكذب» أي: احذروه. «إلى الفجور» اسم جامع للشر. «يهدي»: بفتح الياء، أي: يدل على النار ويوصل إليها. و«يتحرى» أي: يقصد أولي الأمرين. «البر»: بكسر الباء، اسم جامع لكل خير.

[٣١٨] وعن بهز عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ويلٌ للذي يُحدِّثُ فيكذبُ ليُضْحِكَ به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له»**.

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والدارمي، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦) بسند حسن.

[٣١٩] وعن عبدالله بن عامر رضي الله تعالى عنه أنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها

رسول الله ﷺ: «**وما أردتِ أن تعطيه؟**» قالت: أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنك لو لم تُعطِه شيئاً كُتِب عليك كَذْبَةٌ**».

رواه أحمد (٤٤٧/٣)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩١) وفي سنده رجل مبهم. وأخرجه أحمد (٤٥٢/٢) عن أبي هريرة بلفظ: «**مَن قال لصبي تعال هاك، ثم لم يعطه شيئاً فهي كذبة**» وسنده صحيح.

«الكذب»: ضد الصدق وهو الإخبار بخلاف الواقع.

وفي هذه الأحاديث التنفير من الكذب والتحذير منه، وأن للكذاب الويل يوم القيامة ولو كان مازحاً، وأن الرجل لا يزال يكذب ويعتاده حتى يكتب عند الله كذاباً فيصبح مع الفجار عياذاً بالله، وقد اتفقوا على أنه من كبار الذنوب.

نعم، الصِّدْقُ خلق كريم يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يقصد الصدق في حديثه ويتحراه ويعتاده حتى يصير صدِّيقاً ويكتب مع الصدِّيقين، ويا لها من درجة ذكر الله أصحابها مع النبيئين والشهداء والصالحين. والمراد بكتابة الكذاب كذاباً والصادق صدِّيقاً، إما الحكم عليهما كذلك وإظهارهما للمخلوقات من الملائكة وغيرهم، وإلقاء ذلك في قلوب أهل الأرض كما جاء في المحبوب للّه تعالى، وإما أن يكتبهما في كتابين خاصَّين بهما يعرفان بهما يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

والحديث الثالث يدل على أن الكذب يأثم عليه صاحبه وإن كان مازحاً كمن يمزح مثلاً مع الأطفال أو مع البهائم، وغير ذلك.

* * *

❋ جواز الكذب لأجل المصلحة

[٣٢٠] عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**».

وفي رواية: قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: **«الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»**.

وفي رواية: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث، كان رسول الله ﷺ يقول: **«لا أعُدُّه كاذباً، الرجل يُصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها»**.

رواه البخاري في الصلح (٦/٢٢٧/٢٢٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٥٧)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٥) بتهذيبي باللفظ الأول، والثاني لمسلم، والرواية الثالثة لأبي داود ونحوها عند أحمد (٦/٤٠٤) بسند صحيح.

[٣٢١] وعن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَحِلُّ الكذب إلا في ثلاث: يُحدّث الرجل امرأته ليُرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليُصلِح بين الناس»**.

رواه أحمد (٦/٤٥٩/٤٦١)، والترمذي (١٧٨٤) وحسّنه، ولا يضر ما قيل في إرساله.

ووجود شهر بن حوشب فإن ما سبق يقوّيه.

قوله: «ينمي» بفتح الياء وكسر الميم، أي: يبلغ.

الكذب مذموم شرعاً وعادة... وهو محرّم في جميع الشرائع غير أنه رخص فيه لمصالح خاصة كالكذب على الزوجة ليرضيها، وفي الحرب، وفي الإصلاح بين الناس كما هو صريح الحديثين.

قال النووي: قال القاضي: لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو، فقالت طائفة: هو على إطلاقه، وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقالوا: الكذب المذموم ما فيه مضرّة، واحتجُّوا بقول إبراهيم صلى الله عليه وعلى

نبينا وآله وسلم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: «إنها أختي» وقول منادي يوسف صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قالوا: ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختفٍ وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو. وقال آخرون منهم الطبري: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا، المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب، إلى آخر ما قال.

وما قالته الطائفة المانعة يخالف ظواهر الأحاديث المبيحة والتأويل لا يصار إليه إلا بحجة.

وكذلك قال النووي رحمه الله تعالى: الظاهر إباحة حقيقة الكذب في الأمور الثلاثة لكن التعريض أولى...

قال الحافظ: واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها، وكذا في الحرب في غير التامين، واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختفٍ عنده فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم[1].

* * *

❊ تحريم قول الزور وعِظَمُه

[٣٢٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«مَن لم يدعْ قول الزور والعمل به والجهل فليس للّه حاجة أن يدع طعامه وشرابه»**.

رواه البخاري في الصيام (١٨/٥)، وفي الأدب (٨٤/١٣) وأهل السنن، وتقدم في الصيام.

(١) انظر النووي (١٥٨/١٦)، وفتح الباري (٢٢٨/٦).

[٣٢٣] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أُنَبِّئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور، أو قولُ الزور**» وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه أحمد (٣٨/٣٧/٣٦/٦)، والبخاري في الاستئذان (٣٠٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨٢/٨١/٢)، والترمذي في الشهادات (٢١٢٣) بتهذيبي.

«الزور»: هو الكذب، وقد جعله النبي ﷺ معادلاً للإشراك بالله وعقوق الوالدين وأنه يعتبر من أكبر الكبائر وليس بكبيرة فقط فهو جريمة عظمى، وقد اعتادها كثير ممن لا يخافون الله ولا يراقبونه، وعمّت بها البلوى فيمن نصبوا أنفسهم للشهادة على الناس في الأنكحة والمعاملات، وحسبهم أنهم فسّاق وأن صيامهم فاسد غير مقبول ولا يثابون عليه، وكما قرن النبي ﷺ هذا الزور بالإشراك بالله كذلك جاء في القرآن الأمر باجتنابه وقرنه بالرجس من الأوثان كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهكذا جعل من صفات عباد الرحمٰن أهل الغرف في الجنان أنهم برآء من شهادة الزور، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يشهدون الشهادة الباطلة الكاذبة التي تضيع بها حقوق العباد.

* * *

❊ إذاية المسلم ومضاررته

[٣٢٤] عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الأموات فتؤذوا الأحياء**».

رواه أحمد (٢٥٢/٤)، والترمذي في البر (١٨٢٦)، وابن حبان (١٩٨٧) بسند صحيح.

[٣٢٥] وعن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تؤذوا مسلماً بشتم كافر**».

رواه الحاكم (٣٨٥/١)، والبيهقي (٧٥/٤) كلاهما في الجنائز، وصححه الحاكم، وسكت عليه الذهبي.

إذاية المسلم محرّمة بأي طريق كانت، سواء كانت في نفسه أو ماله أو أهله. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

فجعل تعالى إذاية المسلم بهتاناً وإثماً مبيناً، وهذا غاية في الزجر والتنفير منها، وحتى سب الكافر أو الميت إن تأذى به المؤمن لا يجوز كما في الحديثين.

[٣٢٦] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحبّ أن يُزَحزَحَ عن النار ويدخل الجنة فلتأته مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**».

رواه مسلم في الإمارة ضمن حديث طويل رقم (١٨٤٤).

الحديث يدل على أن من سلم الناس من إذايته كان من الناجين من النار إذا صحب ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا عظيم جداً، فليوطن المؤمن نفسه على سلامة الناس من شره، ولا يأتيهم إلا بمثل الذي يجب أن يعاملوه به.

[٣٢٧] وعن أبي صِرْمة صاحب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَن ضارَّ أضرَّ الله به، ومَن شاقَّ شاقَّ اللّهُ عليه**».

رواه أحمد (٤٥٣/٣)، وأبو داود في القضاء (٣٦٣٥)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٦)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٢)، والبيهقي (٧٠/٦) وغيرهم، وحسّنه الترمذي ورجاله رجال الشيخين عنده غير لؤلؤة وهي مقبولة، وللحديث شاهد عن أبي سعيد الخدري.

رواه الدارقطني (٥٢٢) وغيره بسند ضعيف، وللجملة الأولى شواهد كثيرة تصحح بها، أما الجملة الثانية فلها شاهد عن عائشة في الإمارة من صحيح مسلم وفيه: «**مَن ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه**»

وتقدم في الإمارة رقم (١٣) فالحديث بجملته صحيح، ولذا صححه بالجملة الأولى جماعة من أهل الحديث، وانظر طرقه عند الزيلعي في نصب الراية (٣٨٥/٤) واستوعب طرقه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى في إرواء الغليل رقم (٨٩٦).

وإذا صحّ الحديث ثبت أن مضارة المسلم بأي كانت محرّمة سواء كانت في نفسه أو أهله أو ماله في دينه أو دنياه، وهي من نوع إذايته، وقد جعل الفقهاء رحمهم الله تعالى من أحاديث النهي عن المضاراة قاعدة فقهية عامة، يندرج تحتها كثير من الجزئيات التي فيها ضرر على المسلم.

❊ ❊ ❊

❊ تحريم الظن الكاذب والتباغض والتجسس والتحاسد والتدابر والتقاطع

[٣٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا** ـ ويشير إلى صدره ـ **بحسب امرىء من الشر أن يحقّر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وعِرضُه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أحسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

رواه مسلم بطوله في البر والصلة (١٢١/١١٨/١٦)، ورواه البخاري في الأدب (٩٥/٩٣/١٣)، وأبو داود (٤٩١٧)، والترمذي في البر (١٧٧٣) مختصراً، وفي رواية **«ولا تناجشوا»** وهي في الصحيح.

[٣٢٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه نحوه مختصراً وزاد: **«ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٩٤/٩٥)، ومسلم في البر (١٦/١١٥)، والترمذي في البر أيضاً (١٧٨١)، وأبو داود (٤٩١٠).

هذان حديثان عظيمان في هذا الباب وخاصة حديث أبي هريرة ففيهما جملة من الأخلاق السافلة التي يجب على المسلم التنزُّه عنها ويحرم عليه أشد التحريم التخلُّق بها وتعاطيها، وزبدة ما في الحديثين هي:

أولاً: سوء الظن بالمسلم بلا حجة ظاهرة وهو حرام بل عدّه النبي ﷺ أكذب الحديث، وجاء ذلك عنه بعد التحذير منه بقوله: «**إياكم والظن**»، وهذا الظن قد نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

قال النووي: قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس، فإن ذلك لا يملك، ونقل عن عياض أن الظن الذي يأثم به هو ما ظنه وتكلم به فإن لم يتكلم لم يأثم... فإن ظن لا يجوز له التحسُّس على أخيه ليكشف عن حاله وهي **ثانياً وثالثاً**: التحسس والتجسُّس، فالأول بالحاء والثاني بالجيم، قيل: هما بمعنى واحد وهو طلب معرفة أخبار الناس وأحوالهم الغائبة، وقيل: بالحاء الاستماع لحديث القوم، وبالجيم: البحث عن عوراتهم وكلاهما محرّم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

رابعاً: التنافس في الدنيا، وهو مذموم شرعاً، وسيأتي حديث في الموضوع في الزهد والرقائق الذي فيه: «**فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم**». والتنافس معناه الرغبة في الشيء وحب الانفراد به، وهو مذموم في الدنيا محبوب مرغَّب فيه في شؤون الآخرة.

* * *

❊ تحريم التحاسد

خامساً: التحاسد، وهو أن يتبادل المسلمان الحسد فيما بينهما فيحسد كل منهما الآخر. والحسد تمنِّي زوال النعمة عن الغير مع إضمار الحقد له وهو محرّم أشد التحريم.

[٣٣٠] وقد قدّمنا حديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار**».

رواه البخاري ومسلم والترمذي في البر والصلة (١٧٨٢) بتهذيبي.

فالحسد الجائز هنا، هو الغبطة والتنافس في الخير، أما سواه فلا يجوز، وقد أمرنا الله عزّ وجل أن نستعيذ ونتحصن به من شر الحاسد إذا حسد فقال تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ وفي ذلك إشارة إلى عظيم جرم الحسد وأنه مما ينبغي أن يستعاذ بالله من شرّ صاحبه لأنه قد يحمله على المكر بمحسوده وإيصال الشر إليه بجميع أنواعه.

وقد جاء في حديث: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**».

رواه أبو داود وفي سنده ضعف، وقد ذمّ الله تعالى اليهود في القرآن كثيراً على حسدهم النبي ﷺ وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالحسود لا يسود كما يقولون. والكلام فيه يطول.

سادساً: التباغض وهو تعاطي أسباب البغض فيصبح المسلم يضمر لأخيه البغضاء فهو أيضاً من مساوىء الأخلاق فلا ينبغي للمسلم أن يتصف به لأنه ينافي الأخوة الإسلامية، وفي هذه والتي قبلها جاء الحديث التالي:

* * *

❋ حالقة الدين

[٣٣١] عن الزُبير بن العوام رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا،**

ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بما يُثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

رواه الطيالسي (١٩٣)، وأحمد (١٦٧/١)، والترمذي آخر صفة القيامة (٢٣٢٨). قال المنذري: وسنده جيد وهو صحيح لشواهده.

قوله: «دب» أي: سرى ومشى إليكم خفية. قوله: «داء الأمم» أي: مرضهم، وهو يدل على أن الحسد والبغضاء من أمراض القدامى التي تسربت إلى هذه الأمة. وفي قوله: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا» نفي الإيمان عن المتباغضين. وفي قوله: «هي الحالقة» ظاهر في أن الحسد والبغضاء يحلقان الدين كما تحلق الموسى الشعر حتى لا يبقى له أثر عياذاً بالله تعالى.

ولذلك كان إصلاح ذات البَيْن أفضل من درجة التطوع بالصيام والصلاة والصدقة، وقد قال ﷺ: **«فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة»** وقد تقدم في الإصلاح بين الناس وفساد ذات البَيْن يكون منها الحسد والبغضاء وما يتبعهما من التدابر والتقاطع فهي سلسلة من المساوىء.

سابعاً: التدابر وهو المقاطعة بحيث يلتقي المسلم مع أخيه فيدبر واحد منهما عن الآخر، وذلك ينشأ عن المعاداة وكل منهما حرام إلا لموجب شرعي، ويأتي موضع خاص لذلك قريباً.

* * *

❁ تحريم ظلم المسلم

ثامناً: ظلمه والاعتداء عليه في ماله أو نفسه... والظلم من أكبر الكبائر، قال الله تعالى: ﴿وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

[٣٣٢] وقال النبي ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم».

رواه أحمد (٣/٣٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٤) من حديث جابر رضي الله تعالى عنه.

[٣٣٣] وعن ابن عمر مثله مختصراً بلفظ: «**إن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

رواه البخاري في المظالم (٦/٢٥)، ومسلم في البر (١٦/١٣٤) وغيرهما.

قوله: «الظلم» فسّر العلماء الظلم بمعنيين: بوضع الشيء في غير محله، وبالتصرف في مال الغير بغير إذنه، ويشمل عبادة غير الله بالدرجة الأولى، ولذا قال تعالى في غير ما آية: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: بنسبة الشريك له تعالى والصاحبة والولد... ويشمل الاعتداء على الناس بأخذ أموالهم وهضم حقوقهم والبغي عليهم والجور في محاكماتهم... ويأتي الكلام على باقيه في الرقائق إن شاء الله تعالى.

وقوله: «ظلمات يوم القيامة»، قال العلماء: هو على ظاهره بمعنى أن الظالم يأتي يوم القيامة وقد أحاطت به الظلمات فلا يهتدي سبيلاً، بينما المؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهذا بالإضافة إلى ما سيلقى من الشدائد والعقوبات والأنكال.

أما قوله في الحديث: «واتقوا الشح... إلخ»، الشح هو البخل بالواجب... والشُّح خلق سافل سيىء لا يحبه الله تعالى، ولذا أمرنا النبي ﷺ بالتحفُّظ منه لأنه أهلك من كان قبلنا فاستحلُّوا بسببه دماءهم ومحارمهم، وقد تقدم شيء من هذا في الزكاة.

* * *

❊ نصر المظلوم

[٣٣٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: «**تحجزه عن**

الظلم فإن ذلك نصره»، وفي رواية: هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: **«تأخذ فوق يديه»**، وفي رواية: **«يكفُّه عن الظلم فذاك نصره إياه»**.

رواه أحمد (٢٠١/٣)، والبخاري في المظالم (٢٣/٦)، والترمذي في الفتن.

الحديث يدل على وجوب نصر المظلوم بأي طريق أمكن، إما بأخذ حقه من الظالم، وإما بكف ظالمه عنه والأخذ على يديه إن استطاع وذلك من حقوق المسلم على أخيه.

* * *

❊ الإملاء للظالم حتى يأخذه

[٣٣٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل لَيُمْلِي للظالم فإذا أخذه لم يُفْلِته»**، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، وتقدم في التفسير.

«ليملي»: بضم الياء، أي: ليمهل ويؤخر ويطيل له المدة. وقوله: «يفلته» أي: لم يطلقه وينفلت منه.

وفي الآية والحديث تهديد شديد للظالمين المعتدين المتجبرين، وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب... وراجع ما سبق في التفسير.

وسيأتي في الرقائق حديث: **«إني حرّمت الظلم على نفسي...»** إلخ.

* * *

❊ خذلان المؤمن

تاسعاً: خِذْلانه، ومعنى خذلانه عدم نصره في موطن يحتاج فيه إلى

من ينصره ويعينه ويدافع عنه، فمن كان في استطاعته نصره ولم ينصره فقد خذله، وهذا داخل فيّ سابقه، ويستأنس له بالحديث التالي على ضعف في سنده.

[٣٣٦] فعن جابر بن عبدالله وابن طلحة بن سهل رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**ما من امرىء يخذل مسلماً في موطنٍ يُنتقص فيه من عِرضه، ويُنتهك فيه من حرمته إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرىءٍ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته**».

رواه أحمد (٤/٣٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٣) وسنده صحيح على مذهب ابن حبان.

فهذا الحديث جمع بين الترغيب والترهيب، فمن نصر أخاه المسلم ودافع عن عرضه وكرامته نصره الله في الدنيا والآخرة، ومَن خذله وتركه تنتهك حرمته ويطعن في عرضه، خذله الله في موطن يكون فيه أحوج إلى من يؤيده ويعينه وينصره ويدافع عنه، وكفى بهذا زجراً لمن يخذل أخاه المسلم.

* * *

❊ احتقار المؤمن

عاشراً: قوله: «**ولا يحقره**» أي: لا يستصغره ويستقله ويجعله في عينيه حقيراً لا قيمة له عنده، فاحتقار الآخرين يدل على التكبُّر والتعاظم وذلك عظيم عند الله كما يأتي.

ولذا جاء في تمام الحديث: «**بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه**».

ومعناه: احتقاره لأخيه كافيه عن جميع أنواع الشر، وفي هذا زجر بالغ وترهيب شديد أكيد، وفي احتقار الآخرين جاء الحديث التالي:

[٣٣٧] عن جُنْدُب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عزّ وجل: مَن ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك»**.

رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٦٢١).

قوله: «يتألى» بفتح الياء والتاء والألف مع تشديد اللام، أي: يحلف. وقوله: «وأحبطت عملك» أي: أبطلت ثوابه.

والحديث يدل على أنه لا يجوز احتقار الناس واستصغارهم، ولا سيما إذا صدرت منهم سقطات مما لا ينجو منه بشرٌ حتى يؤدي به الحال أن يعجب بنفسه ويُقنِط غيره من رحمة الله تعالى كما فعل ذلك الرجل، فإن ذلك دخول في شؤون الله عزّ وجل فإنه لا يُدرَى المغفور له من غيره، وقد قدّمنا حديث: **«إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكُهم»**، وسيأتي في الكبر، حديث ابن مسعود وفيه: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»**.

و«غمطهم»: احتقارهم.

وفي هذا المعنى جاءت الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، لأن السخرية والاستهزاء بالآخرين لا تكون إلا باحتقارهم واستصغارهم، ولذا قال الله عزّ وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، فالمحتقر قد يكون أحقر عند الله وأسقط، بينما يكون المحتقر بفتح القاف: أرفع درجة ومنزلة.

حادي عشر: قوله: «كُلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وعِرضه، وماله».

حرمة هذه الأشياء من المسلم من الضروريات فلا يحل سفك دمه وإراقته إلا بحق، ولا يحل عِرضه والكلام فيه وقذفه ونهشه إلا بحق، ولا يحل ماله إلا عن طيب نفسه وطريق شرعي، وقد تقدم كل ذلك في مواضعه.

* * *

❋ تحريم هجران المسلم بلا موجب شرعي

[٣٣٨] عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**».

رواه أحمد (٥/٤١٦/٤٢١/٤٢٢)، ومالك في الجامع (١٧٤٧)، والبخاري في الأدب (١٣/١٠٧)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١١٧)، وأبو داود (٤٩١١)، والترمذي في البر (١٧٧٨).

[٣٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمَن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٤) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

[٣٤٠] وعن أبي خِراشٍ حَدْرَدِ بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَن هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه**».

رواه أبو داود أيضاً (٤٩١٥).

وفي الباب عن عائشة عند أبي داود (٤٩١٣)، وعن المسور بن مخرمة عند البخاري (١٣/١٠٩)، وعن ابن عمر عند مسلم (١١/١١٨)، وعن أبي هريرة عنده أيضاً (١٦/١١٨)، وعن أنس وقد تقدم.

الهَجْر هنا: مفارقة المسلم أخاه لأسباب وحظوظ نفسانية، وهي محرّمة بالإجماع فوق ثلاثة أيام كما في هذه الأحاديث.

فمن لقي أخاه بعد الثلاث فأقل شيء أن يسلم عليه وبذلك يخرج من الهجران ويكون خير المتقاطعين، فإن لم يرد عليه وأصرّ على ذلك كان كقتله إن مرت عليه سنة وهو على ذلك، فإن مات دخل النار.

❋ ❋ ❋

❋ خيبة المتقاطعين

[٣٤١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر الله لكل عبد مؤمن لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا أو أَركوا هذين حتى يفيئا، أنظروا هذين حتى يصطلحا ـ ثلاثاً ـ».**

رواه مالك (١٧٥١)، وأحمد (٧٦٢٧)، ومسلم في البر والصلة (١٢٢/١٦)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٦)، والترمذي في البر (١٨٦٦) بتهذيبي.

قوله: «شحناء» أي: بغضاء وعداوة. وقوله: «أَركوا» بفتح الهمزة وسكون الراء، أي: أخّروا. وقوله: «أنظروا» بفتح الهمزة وكسر الظاء بمعنى سابقه.

وفي الحديث فضل يومَيْ الاثنين والخميس وأن لهما بركة خاصة حيث إن الله عزّ وجل يفتح فيهما أبواب الجنة ويتفضل بسبب ذلك على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إلا المتعادين المتقاطعين المتدابرين لحظوظ نفسانية فإن الله تعالى يقول لملائكته أخّروا هذين واتركوهما فلا تشملهما مغفرتي حتى يصطلحا ويتراجعا عن المدابرة. قال القرطبي: المقصود من الحديث التحذير من الإصرار على العداوة وإدامة الهجر. قال ابن رسلان: ويظهر أنه لو صالح أحدهما الآخر فلم يقبل غفر للمصالح... نقله الزرقاني في شرح الموطأ. قال ابن عبدالبر فيه ـ يعني الحديث ـ أن الشحناء من الذنوب العظام وإن لم تذكر في الكبائر... إلخ.

❋ ❋ ❋

❋ الهجر المشروع

[٣٤٢] قال البخاري في الأدب من صحيحه (١٠٩/١٣) باب ما يجوز من الهجران لمن عصى. وقال كعب حين تخلّف عن النبي ﷺ ونهى النبي ﷺ المسلمين عن كلامنا وذكر خمسين ليلة...

قال الحافظ على هذا الكلام: أراد بهذه الترجمة بيان الهجران الجائز لأن عموم النهي مخصوص لمن لم يكن لهجره سبب مشروع فبيّن هنا السبب المسوغ للهجر وهو لمن صدرت منه معصية فيسوغ لمن اطلع عليها منه هجره عليها ليكف عنها.

وحديث كعب المشار إليه تقدم في التفسير وفي المغازي من السيرة، وتقدم لنا حديث هجران النبي ﷺ زينب رضي الله تعالى عنها أكثر من شهر لكلامها في صفية رضي الله تعالى عنها، تقدم ذلك في الفضائل. وهجر ﷺ نساءه شعراً تأديباً لهن على ما صدر منهن في حقه كما قدّمنا مقاطعة عائشة رضي الله تعالى عنها ابن الزبير لتكلمه فيها بما لا يتناسب وحرمة النبوة، وقد ورد أن ابن عمر هجر ولداً له لرده سنّة النبي ﷺ.

فالهجر هجران: هجر ممنوع وهو الذي لا موجب له إلا الحظوظ النفسانية فهذا مجمع على تحريمه فوق ثلاثة أيام. نقل الإجماع على ذلك ابن عبدالبر وغيره. وهجر جائز وهذا نوعان:

نوع يجوز بترك بسط الوجه مثلاً وترك تسمية المهجور مع السلام والكلام كما كان يقع من نساء النبي ﷺ معه، فقد كانت الواحدة منهن تهجره اليوم الكامل واليومين، وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول له: لا أهجر إلا اسمك، فمثل هذا مما يقع بين الرجل وزوجته وبين الوالد وولده... لا حرج فيه إن شاء الله.

أما النوع الثاني: فهو هجران الكفار وبالأخص المحاربين واللادينيين وأهل الكبائر من عصاة المسلمين المصرين المجاهرين فلا يُسلَّم عليهم ولا يُوادُّون حتى يتوبوا، نعم لا يهجرون في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ومعاملاتهم مثلاً بدون موالاة ولا مواددة، وممن يجوز هجرهم أهل البدع كالخوارج، والرافضة ونحوهم من الفسقة أو الكفرة بعقائدهم. وهذا الهجر هو هجر في الله تعالى لا حظ فيه للنفوس، وقد قال ﷺ: «**مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، وأنكح لله، فقد استكمل الإيمان**» ومن مقتضى البغض الهجران.

نعم ويجوز الهجران لمصالح شخصية:

قال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز، ورُبّ هجر جميل خير من مخالطة مؤذية.

وهذا الهجر يسمى الهجر الوقائي، فكل من يتأذى به الإنسان فله مجانبته ومهاجرته.

وللعلامة المحدث سيدي عبدالله الصديق رحمه الله تعالى: «القول المسموع في الهجر المشروع» أفاد فيه وأجاد ينبغي الوقوف عليه.

❊ ❊ ❊

❊ الخيانة وخلف الوعد والغدر والفجور

[٣٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**.

رواه أحمد (٣٥٧/٢)، والبخاري في الإيمان (٩٧/١)، وفي الأدب (١٢٢/١٣)، ومسلم (٤٦/٢)، وأبو عوانة (٢١/٢٠/١)، والنسائي (١٠٢/٨) كلهم في الإيمان.

[٣٤٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**.

رواه أحمد (١٨٩/٢)، والبخاري في الإيمان (٩٨/٩٧/١)، ومسلم في الإيمان (٤٦/٢)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والترمذي (٢٤٤٩)، والنسائي (١٠٢/٨) كلاهما في الإيمان.

«آية»: الآية العلامة. «المنافق»: من يبطن الكفر ويتظاهر بالإيمان. قوله: «وإذا خاصم فجر» أي: رمى غيره بالقبائح والشرور.

في الحديثين بيان خصال من مساوىء الأخلاق وهي خمسة: الكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والغدر بعد العهد، والفجور عند الخصام، وكلها تقدمت مفرقة في غضون الكتاب بعضها في الإيمان، وبعضها في المعاملات، وبعضها في الجهاد، وكلها محرمة تنافي الإيمان، ولذلك جعلها النبي ﷺ علامة المنافق، وأن من اتصف بها كاملة كان منافقاً خالصاً، غير أنه قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يخلد في النار، فإن أخوة يوسف صلى الله تعالى عليه وعلى نبينا وآله وسلم جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله، قال: وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار: إن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلّق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا لأنه منافق نفاق الكفار المخلّدين في الدرك الأسفل من النار، وقوله ﷺ: «**كان منافقاً خالصاً**» معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى معناه عن العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل... وهذا كلام وجيه جداً يحل إشكال الحديث فيكون من اتصف بهذه الصفات منافقاً نفاقاً عملياً لا اعتقادياً كالأصناف الذين أطلق عليهم اسم الكفر وهم مؤمنون.

* * *

❊ تحريم الكبر وأنه يكون في كل شؤون العبد

[٣٤٥] عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف، لو أقسم**

على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر». وفي رواية: **«كل ضعيف متضعَّف... جوّاظ جعظري زنيم»**.

رواه أحمد (٣٠٦/٤)، والبخاري في التفسير والنذور، وفي الأدب (١٠١/١٣)، ومسلم في كتاب الجنة (١٨٧/١٧)، والترمذي في أبواب صفة جهنم (٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٤٩٧/٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٦).

قوله: «مُتَضَعَّفٌ» بفتح العين المشددة أي: الذي يتضعفه الناس ويحتقرونه. وقوله: «لأبره» أي: لو حلف على شيء لأجابه الله وصدّقه فيه ولا يحنثه إكراماً له. وقوله: «عتل» بضمتين، الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الفظ الغليظ. وقوله: «جواظ» بفتح الجيم والواو المشددة، هو الجموع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيه. والجعظري بمعناه. والزنيم الدعي: ولد الزنا.

فالحديث جاء لبيان أهل الجنة وأهل النار[1] فكان من جملة صفات أهل النار المتكبرون الذين يحتقرون الضعفاء ويستصغرونهم ويفتخرون على غيرهم ويعجبون بأنفسهم وأموالهم.

فالمتكبر هو الذي يرى نفسه أنه أكبر وأعظم من غيره. قال الغزالي رحمه الله تعالى: الكبر على قسمين، فإن ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإلا قيل: في نفسه كبرٌ، والأصل هو الذي في النفس وهو الاسترواح إلى رؤية النفس، والكبر يستدعي متكبراً عليه يرى نفسه فوقه، ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب فمن لم يخلق إلا وحده يتصور أن يكون معجباً لا متكبراً.

والمتكبر من شأنه أن يدفع الحق ولا يقبله إضافة إلى احتقاره الآخرين ولذا كان الكبر ملازماً للكفار والجبابرة والطغاة، وفي ذلك جاء الحديث التالي:

---

(١) والكلام على جملة الحديث يأتي في الرقائق.

[٣٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»**، وفي رواية: **«والعزة إزاري»**، وفي رواية: **«العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذّبته»**.

رواه أحمد (٢/٢٤٨/٣٧٦/٤١٤/٤٢٧/٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٣)، وأبو داود في الأدب (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) بألفاظ متقاربة.

قوله: «الكبرياء ردائي...» إلخ، هما صفتان للّه تعالى، فمذهب السلف إبقاؤهما على ظاهرهما وعدم الخوض في تفسيرهما وتفويض معناهما وكيفيتهما إلى الله عزّ وجل مع تنزيهه تعالى عن صفات المحدثات.

وقال آخرون من الخلف: ذلك مجاز واستعارة حسنة ضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق، وله ألزم، واقتضاهما جلاله.

وقوله: «من ينازعني» أي: من يتخلق بذلك قصمته وألقيته في النار.

وفي الحديث وعيد شديد لمن ينازع الله في كبريائه وعظمته وجلاله، فمن تكبر على عباد الله وتعاظم عليهم عذّبه الله تعالى، لأنه نازع الله في صفة من صفاته فتخلّق بالكبرياء الذي هو من صفات الربوبية، وفي هذا زجر بالغ للمتكبرين.

[٣٤٧] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبْر»** قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بطر الحق، وغمط الناس»**.

رواه مسلم في الإيمان (٢/٨٩/٩٠) مع النووي، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٨٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٣) وغيرهم.

في الحديث أن حب الإنسان لبس الثوب الحسن أو الحذاء الحسن

ونحو ذلك، ليس من الكبر إن لم يرد بذلك التفاخر والتعاظم على الغير، وإنما الكبر هو بطر الحق أي: دفعه وعدم قبوله، وغمط الناس وغمصهم أي: احتقارهم وازدراؤهم والتعاظم عليهم، كما فيه أن الله يحب الجمال في كل شيء لأنه تعالى جميل ولا أجمل منه إطلاقاً.

وفي الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد للمتكبرين، فمَن مات على كبريائه حرم دخول الجنة مع السابقين أو اللاحقين إن كان كافراً أو مؤمناً استحلّ ذلك ولو كان كبره ضئيلاً عياذاً بالله تعالى.

وقد ذمّ الله المتكبرين والمختالين في غير ما آية من القرآن الكريم.

[٣٤٨] وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: يقولون ـ لي في التيه ـ وقد ركبتُ الحمار، ولبستُ الشملة، وقد حلبتُ الشاة، وقد قال لي رسول الله ﷺ: **«مَن فعل هذا، فليس فيه من الكِبْرِ شيء»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٥) بسند صحيح رجاله رجال مسلم غير علي بن عيسى بن يزيد البغدادي، وهو ثقة.

قوله: «التيه» أي: يصفونه بالكبر.

وفي الحديث بيان أن من زاول هذه الأشياء من ركوب الحمار، ولبس الشملة، وحلب الشاة كان خالياً من الكبر، لأن ما ذكر يتحاشى عنه المتكبرون المتعاظمون.

[٣٤٩] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلوا واشربوا وتصدّقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة»**.

رواه ابن ماجه (٣٦٠٥) بسند حسن أو صحيح، وعلّقه البخاري في اللباس من صحيحه مجزوماً به، ونحوه عن ابن عباس رواه ابن أبي شيبة (١٧/٥) بسند صحيح وهو أيضاً عند البخاري معلقاً.

وهما يدلان على أن للإنسان أن يتمتع بكل ما شاء من مأكول ومشروب وملبوس إذا خلا ذلك عن الإسراف والتبذير ومجاوزة الحد، والكبرياء لأن المخيلة هي التكبُّر والخيلاء، وذلك قد يكون في الألبسة

والمركوبات والمآكل والمشارب كما يكون في غيرها، وقد تقدمت أحاديث في اللباس تتحدث عن الخيلاء ووعيد المتكبرين.

* * *

❊ عظم جرم تعذيب الناس والحيوان

[٣٥٠] عن خالد بن حَكِيم بن حزام قال: تناول أبو عُبيدة رجلاً بشيء فنهاه خالد بن الوليد فقال: أغضبتَ الأمير، فأتاه فقال: إني لم أرِد أن أُغضِبك ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة، أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا»**.

رواه أحمد (٤/٩٠)، والحميدي في مسنده (٥٦٢) بسند صحيح.

قوله: «أشد الناس» هو على حذف من، لأن أشد الناس عذاباً هو الكافر.

وعلى أيٍّ، فهو وعيد شديد وتهديد أكيد للذين يعذّبون عباد الله ولا سيما إذا كانوا مظلومين كما يقع ممن يتولون ذلك من شرط الظلمة والكفرة فإنهم يعذبون الناس بأنواع من العذاب لم يُسمع بمثلها ليرغموهم على الاعتراف بحق أو باطل فهؤلاء سيلقون جزاءهم من الله الجزاء الأوفى، يوم لا يُعذِّب عذابه أحد ولا يوثِق وثاقه أحد.

[٣٥١] وعن هشام بن حكيم بن حزام أنه مرّ على أناس من الأنباط بالشام قد أُقيموا في الشمس، وفي رواية: وصبّ على رؤوسهم الزيت فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، وفي رواية: يعذبون في الخراج، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»**، قال: وأمير الناس يومئذ عُمَيْر بن سعد على فلسطين، قال: فدخل عليه فحدثه فخلى سبيلهم.

رواه أحمد (٣/٤٠٣/٤٦٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٦٧/١٦٨)، وأبو داود في الجهاد (٣٠٤).

قوله: «الأنباط» هم فلاحو العجم، وفي رواية: من أهل الذمة. كان هؤلاء الكفار قد فرضت عليهم الجزية ولعلهم لم يجدوا ما يؤدون به فحُبِسوا وعُذِّبوا، فأنكر ذلك هشام بن حكيم وحدّث عن رسول الله ﷺ بهذا الحديث.

ففيه تحريم تعذيب عباد الله تعالى ولو كانوا كفاراً إذا كان ذلك ناشئاً عن ظلم وباطل. وإذا كان تعذيب الكفار لا يجوز فكيف بتعذيب المسلمين ولا سيما الأبرياء أو المتهمين، إن ذلك عند الله لعظيم.

وهذا لا ينافي تعذيبهم بحق كتعزير مثلاً وتأديب، فأحرى القصاص والحدود.

[٣٥٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٧٢) وهو في الصحيحين بنحوه عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما وقد تقدما في الأنبياء، (رقم ٥٩٨).

ففي الحديث تحريم تعذيب الحيوان ولا سيما المأذون فيه فلا يجوز تعذيبه ولا ترك تغذيته وإن حبس وجب الإحسان إليه. وقد تقدم تحريم قتل الحيوان فليرجع إليه.

* * *

❊ النهي عن الغضب وما قيل فيه

[٣٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوْصِني، قال: **«لا تغضب»** فردّد مراراً، قال: **«لا تغضب»**، وفي رواية: علّمني شيئاً ولا تكثر علي لعلي أعيه، قال: **«لا تغضب...»** إلخ.

رواه أحمد (٣٦٢/١٧٥/٢) وفي مواضع، والبخاري في الأدب (١٣٥/١٣٤/١٣)، والترمذي في البر والصلة (١٨٦٣).

في الحديث النهي عن تعاطي أسباب الغضب والتعرض لما يثيره، والمذموم منه هو العمل بمقتضاه من العداوة والمقاطعة والسب والشتم وما إلى ذلك مما ينشأ عنه، لأن الغضب طبيعي في الإنسان. قال الخطابي: معنى قوله: «لا تغضب» اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة. قال العلماء: لأنه من تكليف المحال، فالمراد بالحديث ما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة. واتفقوا على أن هذا في الغضب لغير الله، أما ما كان لانتهاك حرمة من حرمات الله فهو واجب من شعب الإيمان ومقتضياته، وهذا كان خلق النبي ﷺ كما قدّمنا في الشمائل وغيرها.

* * *

❊ مجاهدة النفس على العمل بمقتضى الغضب

[٣٥٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس الشديد بالصُرَعة، إنما الشديد الذي يملِك نفسه عند الغضب»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣٤/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦٢/١٦).

«الصرعة»: بضم الصاد وفتح الراء والعين هو الذي يكثر منه صرع الناس عند المصارعة.

[٣٥٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تعدُّون الرَّقوب فيكم؟»** قال: قلنا: الذي لا يولد له، قال: **«ليس ذلك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً»** قال: **«فما تعُدُّون الصُرعة فيكم؟»** قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٦١).

«الرقوب»: بفتح الراء المشددة وضم القاف، هو عند العرب من لا يولد له أصلاً أو لا يعيش له ولد، لكن النبي ﷺ بيّن لهم أن الرقوب الحقيقي هو الذي لم يقدم للآخرة من أولاده شيئاً.

وفي الحديثين بيان فضل من يجاهد نفسه عند الغضب فيكظم غيظه ولا يعمل بمقتضى غضبه فيخاصم وينازع ويشتم ويضرب.

فهذا هو الشديد الحقيقي والقوي شرعاً لأنه جاهد نفسه فانتصر عليها وهزمها ولم يطعها في العمل بمقتضى غضبها.

وقد قدّمنا سابقاً فضل كظم الغظيم فليرجع إليه فإن له تعلُّقاً بهذا.

* * *

❊ دواء الغضب

[٣٥٦] عن سليمان بن صُرَد رضي الله تعالى عنه قال: استبّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، وفي رواية: فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبي ﷺ فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» فقال له الرجل: أمجنوناً تراني، وفي رواية: إني لست بمجنون.

رواه أحمد (٦/٣٩٤)، والبخاري في الأدب (١٣/١٣٤)، ومسلم (١٦/١٦٣/١٦٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨١).

[٣٥٧] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**».

رواه أحمد (٥/١٥٢)، وأبو داود (٤٧٨٢) وسنده صحيح.

قوله: «استبّ رجلان» أي: تشاتما.

وقول ذلك الرجل: «أمجنوناً تراني؟» فيه سوء أدب مع الحضرة النبوية، ولعله كان من أجلاف العرب أو من المنافقين، لأن المؤمن الصادق لا يصدر منه مثل هذا الكلام الساقط.

وفي هذين الحديثين بيان لعلاج الغضب ودواء من صدر منه، وهو أمران اثنان:

أحدهما: أن يستعيذ بالله من الشيطان لأن الغضب في غير ما يتعلق بالله... هو من نزغات الشيطان وهو الحامل عليه فكان من الواجب الالتجاء إلى التحصن منه بالله عزّ وجل لئلا يسترسل به فيخرج بسببه عن اعتدال طبيعته فيتكلم بالباطل ويأتي بالقبائح المترتبة عليه.

وثانيهما: إذا أحسّ بالغضب وفورانه وكان قائماً فعليه أن يقعد، فإن سكن وذهب عنه وإلا فعليه أن يضطجع، فإنه لا شك سيذهب عنه لأن النبي ﷺ لا ينطق بخلاف الواقع ولا ندري الحكمة في القعود والاضطجاع هنا، فالله أعلم بمراد نبيه ﷺ بذلك.

* * *

❊ نَتْنُ دعوى الجاهلية

[٣٥٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهلية؟**» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**» فسمع ذلك عبدالله بن أبي بنُ سلول فقال: أوَقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»، وفي رواية: فقال له ابنه

عبدالله بن عبدالله: والله لا تنقلب حتى تُقر أنك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل.

رواه أحمد (٣/٣٩٢/٣٩٣/٣٣٨)، والبخاري في التفسير (١٠/٢٧٤/٢٧٥)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٧/١٣٨/١٣٩)، والترمذي (٣٠٩٧) بتهذيبي.

قوله: «كسع» بفتحتين: أي: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه أو سيف أو نحو ذلك. وقوله: «دعوها» يعني دعوى الجاهلية وهي الاستغاثة للانتصار، وهي قولهم هنا: يا للمهاجرين، يا للأنصار. وقوله: «فإنها منتنة» أي: هذه الكلمة قذرة خبيثة لأنها تؤدي إلى سفك الدماء وإفساد ذات البَيْن.

وفي الحديث ذم دعوى الجاهلية والاستنصار بالعشائر للتقاتل على طريقة ما كان عليه الكفار العرب قبل الإسلام حمية وعصبية، وذلك حرام أشد التحريم لا يجوز في الإسلام.

وفي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الإغضاء عما كان يصدر من المنافقين تنازلاً عن حقه ﷺ وسلوكاً منه طريق الحكمة والسياسة، ولذلك لم يأذن لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في قتل ابن أبي المنافق مع أنه سبّ النبي ﷺ وحطّ من قدره بحيث لو صدر ذلك اليوم من أحد لحكم بارتداده ووجب إعدامه.

[٣٥٩] وعن أُبَي بن كعب رضي الله تعالى عنه أنه سمع رجلاً قال: يا لَفُلان، فقال له: **اعْضُضْ بِهَن أبيك**، ولم يَكْن، فقال له: يا أبا المنذر ما كنت فحّاشاً، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن تعزّى بعزاء الجاهلية فأعِضُّوه بهن أبيه ولا تَكْنُوا»**.

رواه أحمد (٦/١٣٦)، وابنه في زيادته (٥/١٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٣٦) وسندهما صحيح.

قوله: «اعضض» أي: عض بأسنانك ذكر والدك، يصرح له بذَكَرِ أبيه

صراحة رداً لما أتى به من عزاء الجاهلية. و«الْهَن»: هو الفرج وما يُستقبح ذكره. وقوله: «تَعَزَّى» أي: انتمى وانتسب كقوله: يا لفلان يا لبني فلان، فهذا عزاء الجاهلية وذلك محرّم مذموم، ولذلك كان من اللائق أن يُفحش على من تعزّى بذلك دون عزاء الإسلام وهو قولهم: يا للمسلمين، أو التصبُّر عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

* * *

❊ ذم الافتخار بالآباء والأنساب

[٣٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليَدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجِعلان التي تدفع بأنفها النتن»**، وفي رواية: **«والناس بنو آدم وآدم من تراب»**.

رواه أحمد (٢/٣٦١/٣٦٦/٥٢٣)، وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٧١٦) وهو آخر حديث فيه، وحسّنه وصححه.

وللحديث شواهد بعضها حسنة وصحيحة أشرت إليها في تهذيب الترمذي.

«عبية»: بضم العين وكسرها ثم باء مكسورة مشددة وياء مفتوحة مشددة، هي نخوها وفخرها وكبرياؤها. قوله: «الجعلان» بكسر الجيم، وفي رواية «الجعل» بضم الجيم وفتح العين، هي دويبة سوداء تعتاد تكوير العذرة والنتن ودفعها بأنفها.

وفي الحديث ذم التفاخر بالأنساب ولا سيما إذا كان الآباء كفرة أو فجرة، فالإنسان بإيمانه وطاعته لربه وتقواه وليس بافتخاره وتطاوله على غيره بحسبه ونسبه وماله وجاهه، فالناس كلهم سواء أصالة أبوهم آدم وآدم خلق من تراب، ثم هم متفاوتون فإنهم إما مؤمن بَرٌّ تقي كريم على الله، وإما

فاجر شقي هيّن على الله، ففيمَ التفاخر إذاً وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

[٣٦١] وعن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحدٌ على أحد»**.

رواه مسلم في صفة القيامة (١٧/٢٠٠)، وابن ماجه (٤١٧٩) وله شاهد عن أنس رواه ابن ماجه (٤٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٣٦) وحسّنه البوصيري في الزوائد.

قوله: «لا يبغي» البغي: هو الظلم والتطاول على الغير والاعتداء عليه، والفخر: التباهي والتمدُّح بالمناقب والمكارم حقاً كانت أم باطلة.

ففي الحديث النهي عن التفاخر والبغي على الغير وكلاهما محرّم.

* * *

❊ الطعن في الأنساب

[٣٦٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اثنان في الناس هما بهم كفر: الطَّعن في النسب، والنياحة على الميت»**.

رواه أحمد (٢/٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (٢/٥٧) بالنووي.

الطعن في الأنساب عظيم يعتبر قذفاً يطالب الطاعن بشهادته العادلة على ما قال، وإلا جلد حد القذف. ولذلك جعله النبي ﷺ كفراً، وهو وإن لم يرد به الكفر المخرج من الملة إذا لم يعتقد حلية ذلك فذلك عظيم لأنه ليس من أخلاق أهل الإسلام.

وقد جاء في هذا المعنى غير ما حديث.

* * *

❊ النهي عن إدخال الحزن على المسلم

[٣٦٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يُحزنه»**.

رواه أحمد (١/٤٦٠/٤٦٢)، والبخاري في الأدب (١٣/٣٢٥/٣٢٦)، ومسلم في آخر السلام (١٤/١٦٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٥١)، والترمذي (٢٦٣٦)، وابن ماجه (٣٧٧٥).

«المناجاة»: المسارة.

قال النووي رحمه الله تعالى: وفي هذه الأحاديث النهي عن تناجي اثنين بحضرة ثالث وكذا ثلاثة وأكثر بحضرة واحد، وهو نهي تحريم فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يأذن، ثم ذكر أن النهي عام في كل الأزمان عند جماهير العلماء غير أن هذا ما لم يختلطوا بالناس ولم يبقَ الواحد منفرداً.

والحكمة في النهي عن ذلك وتحريمه أنه يحزن الثالث وذلك يؤذيه، وإذاية المسلم محرّمة. وانظر الفتح (١٣/٣٢٥) للمزيد.

❊ ❊ ❊

❊ المتشدق في الكلام مبغوض للّه تعالى

[٣٦٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»**.

رواه أحمد (٢/١٦٥/١٨٧)، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٦٢)، وحسّنه الترمذي، وهو كما قال.

«يتخلل» أي: يدير لسانه حول أسنانه ويتشدق في الكلام.

وفي الحديث ذم البليغ الذي يتظاهر بالفصاحة والبيان ويكثر الثرثرة في كلامه، فإن ذلك أكثره إن لم يكن كله نفاق ورياء وتصنُّع، وذلك إشراك ككثير من الخطباء والمحاضرين والمعجبين بأنفسهم وكلامهم.

وقد يكونون داخلين في الحديث التالي وهو:

[٣٦٥] عن عمر بن سعد - يعني ابن أبي وقاص - قال: كانت لي حاجة إلى أبي سعد فقدمت بين يدَي حاجتي كلاماً مما يحدث الناس يوصلون لم يكن يسمعه، فلما فرغ قال: يا بني قد فرغت من كلامك؟ قال: نعم، قال: ما كنت من حاجتك أبعد ولا كنت فيك أزهد مني منذ سمعت كلامك هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة من الأرض**».

رواه أحمد (١/١٧٥/١٧٦/١٨٤) من طرق هو بها حسن.

فهذا الحديث يشير إلى أنه سيكون أقوام يتمعشون بألسنتهم بما أوتوا من فصاحة وبيان، وقد يكون مشيراً إلى من يأكل بالتجسُّس على المسلمين.

[٣٦٦] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**الحياء والعِيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق**».

رواه أحمد (٥/٢٦٩) والترمذي في البر والصلة (١٨٧٠) وحسّنه، والحاكم (١/٥٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وسنده صحيح رجاله عند الترمذي رجال الصحيح.

قال الترمذي: والعِيُّ قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام ويتفصّحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله.

فالحديث يدل على أن العي بكسر العين وهو قلة الكلام وعدم المبالغة في البيان من خصال الإيمان، بينما البيان والتفصُّح خصلة من النفاق.

* * *

❋ ذم الوقاحة وذهاب الحياء

[٣٦٧] عن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»** وفي رواية: **«فاصنع ما شئت»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الأدب (١٣/١٣٩)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٨٣).

[٣٦٨] وعن حذيفة بلفظ: **«إن آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة: إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»**.

رواه أحمد (٥/٤٠٥) بسند صحيح.

في الحديثين أن الحياء محمود في جميع الشرائع وعند كل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وعلى نبينا وآله، وأنه كان من كلامهم: إذا لم تستحِ... إلخ.

وقد اختلف العلماء في توجيه قوله: **«إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»** فقيل: هو أمر تهديد ومعناه إذا نزع منك الحياء فافعلْ ما شئت فإن الله مجازيك عليه، وقيل: هو أمر بمعنى الخبر، أي: مَن لا يستحي يصنع ما أراد. وقال الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شر.

وقال النووي في الأربعين: الأمر فيه للإباحة، أي: إذا أردت فعل شيء فإن كان مما لا تستحي إذا فعلته من الله ولا من الناس فافعله وإلا فلا.

وعلى أيٍّ، فالحياء محمود وهو من الإيمان كما تقدم أول الكتاب من الجزء الأول، وفي حديث أبي أمامة السابق قريباً.

وفقدانه من النفاق، فمَن لا حياء له لا إيمان له، لأن الوقاحة وصفاقة الوجه تتطلب مزاولة كل شر وترك كل خير، والواقع أكبر شاهد على ذلك، والموضوع يحتاج إلى بسط أكثر.

* * *

❊ ذم المدح في الوجه

[٣٦٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يُثني على رجلٍ ويُطريه في المِدحة فقال: «**أهلكتُم ـ أو قطعتُم ـ ظهر الرجل**».

رواه البخاري في الأدب (٨٧/١٣)، ومسلم في الزهد (١٢٧/١٨) وغيرهما.

[٣٧٠] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ قال: فقال: «**ويحك قطعتَ عُنُقَ صاحبك مراراً، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسبُ فلاناً والله حَسِيبُهُ، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه إن كان يعلم ذلك كذا وكذا**»، وفي رواية: «**إنه كان يُرى أنه كذلك**».

رواه البخاري (٨٧/١٣)، ومسلم (١٢٧/١٢٦/١٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٥) وجاء في حديث عند ابن ماجه (٣٧٤٣) بلفظ: «**إياكم والتمادح فإنه الذبح**» وسنده حسن.

قوله: «يطريه» بضم الياء، أي: قد جاوز الحد في المدح. وقوله: «قطعتم ظهر الرجل» وهو معنى قطعت عنق صاحبك وذلك عبارة عن الهلاك. وقوله: «يُرى» بضم الياء، أي: يظن.

ظاهر الحديثين يدل على منع المدح في الوجه لأن ذلك قد يؤدي بالممدوح إلى الإعجاب والتكبر والفخر... وفي ذلك هلاك دينه ولذلك شبّه النبي ﷺ ذلك بقطع عنقه أو ظهره، وأرشدنا ﷺ إلى الطريق الأسلم

وهو أن لا نجزم بما نقول من المدح إذا كنا مادحين ولا بد فنقول: نحسب كذا وكذا ولا نزكي أحداً بعينه لأنه قد يكون له هنات غيبية لا نعرفها.

[٣٧١] وعن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء فجعل المقداد يَحْثِي عليه التراب وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المدّاحين التراب.

رواه مسلم في الزهد (١٢٨/١٢٧/١٨)، وأحمد (٥/٦).

[٣٧٢] وعن همام بن الحارث أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً فجعل يحثو في وجهه الحصباء فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**».

رواه أحمد (٥/٦)، ومسلم (١٢٨/١٨)، وأبو داود (٤٨٠٤)، وابن ماجه (٣٧٤٢).

وفي هذين الحديثين إرشاد من النبي ﷺ بأن نقابل مادحنا بحثي وجهه بالتراب، وقد حمله المقداد على ظاهره وهو راوي الحديثين، وقد فعل ذلك مرتين وعمله هذا يرد قول من أول الحديث بما لا يتفق وظاهره.

نعم جاءت أحاديث أخرى كثيرة في الصحيحين وغيرهما فيها المدح من النبي ﷺ ومن غيره. وهي تعارض أحاديث الباب.

قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف أو على من يُخاف عليه فتنةٌ من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يُخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به، كان مستحباً.

وقد أطال الحافظ القول في الموضوع فانظره (ج١٣/٨٨) من كتاب الأدب.

* * *

❋ ذم الجدال والمراء بالباطل

[٣٧٣] عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجَدَل**»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

رواه أحمد (٢٥٦/٢٥٢/٥)، والترمذي (٣٠٣٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٤٨)، والحاكم (٤٤٧/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم.

«الجدل»: بفتحتين، الخصومة بالباطل.

والحديث يدل على أن من أراد الله به الضلال صرفه إلى كثرة الجدال وكفى بذلك زجراً للمغرمين بالجدال، بل قد يكونون أبغض خلق الله كما في الحديث التالي:

[٣٧٤] وعن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أبغضُ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ**».

رواه أحمد (٢٠٥/٦٣/٥٥/٦)، والبخاري في التفسير (٢٥٤/٩) وغيره، ومسلم في العلم (٢١٩/١٦)، والترمذي في التفسير (٣٧٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٠١/٦).

«الألد الخصم»: بفتح الخاء وكسر الصاد، وهو الكثير الخصام الشديد في ذلك الذي يغلب غيره في الخصام. فليتباعد المسلم عن كثرة الجدال والخصام خشية أن يصيبه غضب الله تعالى.

هذا ما أردنا ذكره من الآداب والمكارم والمساوىء، بيد أن هناك بعض أحاديث فاتتنا أفردناها عقبه في باب ملحق.

ملحقات واستدراكات

رفع درجة الوالدين باستغفار ولدهما

[٣٧٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الرجلَ لترفعُ درجتُه في الجنة فيقول: أنَّى هذا، فيقال: باستغفار ولدك لك**».

رواه ابن ماجه (٣٦٦٠) بإسناد صحيح كما قال البوصيري في الزوائد في الحديث فضل من خلف بعده ولداً صالحاً يدعو معه ويستغفر له، وأن الله عزّ وجل يرفع له الدرجات بسبب ذلك، ويكون ذلك من جملة أعماله التي خلفها بعده كما تقدم في حديث مسلم: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» فذكر منهم ولداً صالحاً يدعو له.

* * *

التنابز بالألقاب

[٣٧٦] عن أبي جَبِيرَةَ بن الضحاك رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره، قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، وفي رواية: وليس أحد منا إلا له لقب أو لقبان، قال: فكان إذا دعي بلقبه قلنا: يا رسول الله إن هذا يكره هذا.

رواه أحمد (٦٩/٤) و(٣٨٠/٥)، وأبو داود (٤٩٦٢)، والنسائي في

الكبرى (٤٦٦/٦) وكذا البخاري في الأدب المفرد (٣٣٠)، وابن حبان بالموارد (١٧٦) ، والحاكم (٤٦٣/٢ و٢٨٢/٢٨١/٤) وحسّنه الترمذي وصححه، ورواه ابن ماجه في الأدب (٣٧٤١) بلفظ قال: فينا نزلت معشر الأنصار: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، قدم علينا رسول الله ﷺ والرجل منا له الاسمان والثلاثة، فكان النبي ﷺ ربما دعاهم ببعض تلك الأسماء فيقال: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

«التنابز بالألقاب»: التنادي بالأسماء المكروهة للإنسان وذلك محرّم وفسوق بنص الآية الكريمة والنبز هو اللقب بما فيه ذم.

فإذا كان للمسلم لقب يكرهه لا يجوز نداؤه به لأن ذلك يسوءه ويتأذى به.

* * *

❊ اللعب بالحمام

[٣٧٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: «**شيطان يتبع شيطانة**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٤٠)، وابن ماجه (٣٧٦٥) بسند حسن وهو صحيح لشاهدين له، عن عائشة عند ابن ماجه (٣٧٦٤) بسند صحيح، وعن عثمان عنده أيضاً (٣٧٦٦) ورجاله ثقات ولا يضر انقطاعه.

قوله: «شيطان» سمّى ﷺ كلاً منهما شيطاناً لأن الرجل اللاعب بها غافل بعيد عن الحق مشتغل بما لا يعنيه، أما الحمامة: فلأنها أغفلت الرجل عن الله وشغلته عما يهمه من صلاح دينه ودنياه.

ثم إن الاشتغال باللعب بالحمام ونحوها من اللهو ومن فعل أهل البطالة وكل ما كان من هذا القبيل فهو من وحي الشيطان، وإن كان مباحاً لكنه دناءة وقلة مروءة وقطع الوقت في الباطل.

* * *

❋ عِظَمُ جُرْم الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر

[٣٧٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»**.

رواه مسلم في الإيمان (١١٥/٢)، والنسائي في الكبرى (٢٦٩/٤).

العائل: الفقير.

تخصيص النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة بهذا الوعيد لبُعدهم عن هذه المعاصي وضعف دواعيها عندهم وإن كان ذلك محرّماً على كل الناس، فإن الزنا فاحشة عظيمة منكرة لكنها من الشيخ الذي ضعفت لديه دواعيه أعظم وأفحش، والكذب محرّم أشد التحريم على كل الناس لكنه من ذي السلطة أقبح لأن دواعيه فيه مفقودة، والتكبُّر جريمة نكراء لكنه من الفقير أنكر وأشنع لأنه ليس لديه ما يدعوه إلى التكبُّر.

فترتُّب ذلك الوعيد العظيم على هذه الجرائم لأن تعاطيها من هؤلاء فيه نوع من الاستخفاف بحق الله تعالى حفظنا الله عزّ وجل مما يوجب سخطه وغضبه.

* * *

❋ من الجوامع

[٣٧٩] عن جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يَصْدُرُ الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه. قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: **«لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحيةُ الميت، قل السلام عليك»** قال: قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال: **«أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه كشفه عنك، وإن أصابك عامُ سنةٍ فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو**

فلاةٍ فضلّتْ راحلتُك فدعوته ردّها عليك» قلت: اعهد إليّ، قال: **«لا تسُبَّنَّ أحداً»** قال: فما سَبَبْتُ بعده حراً، ولا عبداً، ولا بعيراً، ولا شاةً، قال: **«ولا تحقّرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه»**.

رواه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٦) وحسّنه وصححه، ورواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٨/٦) وغيرهما من طريق أبي تميمة الهجيمي.

في هذا الحديث عدة إرشادات ووصايا نبوية هامة.

ففيه أدب من آداب السلام وهو أن لا يبدأ الإنسان السلام على الغير بلفظ منكر: «سلام عليك» بل يأتي به معرّفاً: «السلام عليكم» وقد تقدم هذا في السلام.

وفيه تذكير بأن الله عزّ وجل هو ربنا ومالكنا والقائم بشؤوننا، فهو الذي يكشف ضرّنا، وهو الذي يرزقنا، وهو الذي يفرّج علينا كرباتنا.

وفيه أن المسلم لا ينبغي له أن يستصغر شيئاً من الخير، ومنه لقاء المسلم بانبساط وابتسامة فإن ذلك من جملة المعروف الذي يحتقره الناس.

وفيه أدب من آداب اللباس وهو أن لا يسبل ثيابه إلى ما تحت الكعبين، فإن ذلك من التكبُّر والمخيلة والله لا يحب المختالين، وقد تقدم هذا أيضاً في اللباس.

وفيه الصفح عن الجهلة والإعراض عن سفههم وعدم مقابلتهم بالمثل وأن يتركوا يبوؤون بوبال ما قالوا.

* * *

❊ كراهة نوم الرجل فوق سطح ليس بمحجور

[٣٨٠] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن ينام الرجل على سطح ليس بمحجور»، وفي رواية: «**مَن بات على ظهر بيت ليس له حِجَارٌ فقدَ بَرِئَتْ منه الذِّمَّةُ**».

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٦٦٥) بتهذيبي، وهو حديث صحيح لشاهد له عن رجل من الصحابة، رواه أحمد (٢٧١/٧٩/٤) بسند صحيح، وعن علي بن شيبان، رواه أبو داود في الأدب (٥٠٤١) بسند لا بأس به في الشواهد.

قوله: «بمحجور» أي: ليس عليه حِجَارٌ وهو ما يُحاطُ عليه من جدار يمنع وقوع الناس منه.

وفي الحديث كراهة نوم الإنسان على سطح ليس له جدار وستر يمنع من السقوط، وظاهر قوله نهى، وبرئت منه الذمة: تحريم ذلك ولم أرَ مَن صرّح بالتحريم.

❊ ❊ ❊

❊ لا تكونوا إمّعة

[٣٨١] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا إمّعةً، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تُحسِنوا، وإن أساؤوا فلا تَظْلِموا**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٥١)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وابن حبان (٧١٢).

والحديث حسن لطرقه ولشاهد له عن أنس رواه البزار وأبو يعلى. قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى في الترغيب بإسناد جيد.

«إمّعة»: بكسر الهمزة وتشديد الميم المفتوحة، هو الذي يتبع كل ناعق ويقلد كل أحد بدون روية ولا برهان. ففي الحديث ذم التقليد الأعمى في الخير والشر، وذلك من شأن ضعاف العقول، وما ضلّ من ضلّ إلا بالتقليد.

* * *

❊ ما جاء في لعن النبي ﷺ غيره وأن ذلك زكاة وأجر وقربة للملعون

[٣٨٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تُخْلِفَنِيهِ، فإنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة**»، وفي رواية: «**اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك...**» إلخ، وفي رواية: «**أن يكون ذلك له زكاةً وأجراً**».

رواه البخاري في الدعوات (ج١٣/٤٢٥/٤٢٦)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٥١/١٥٢/١٥٣).

[٣٨٣] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو؟ فأغضباه، فلعنهما وسبّهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان، قال: «**وما ذاك؟**» قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: «**أوَما علمتِ ما شارطت عليه ربي؟**» قلت: «**اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاةً وأجراً**».

رواه مسلم (١٦/١٥٠).

[٣٨٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت عند أم سُلَيم يتيمة وهي أم أنس، فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة فقال: «**آنتِ هِيهْ لقد كَبِرْتِ لا كبر سِنّكِ**» فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لكِ

يا بُنَيَّةُ؟ قالت الجارية: دعا عليّ رسول الله ﷺ أن لا يكبر سني فالآن لا يكبَرُ سني أبداً ـ أو قالت: قرني ـ فخرجت أم سليم مستعجلة تَلوثُ خِمارها حتى لقيت رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: «ما لكِ يا أم سليم؟» فقالت: يا نبي الله أدعوتَ على يتيمتي؟ قال: «وما ذاك يا أم سليم؟» قالت: زعمتْ أنك دعوتَ أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها، قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهوراً وزكاةً وقربة يقربه بها منه يوم القيامة».

رواه أيضاً مسلم (١٦/١٥٤/١٥٥) وعنده نحوه أيضاً عن جابر بن عبدالله.

في هذه الأحاديث فوائد نجملها في الآتي:

أولاً: أن النبي ﷺ كان بشراً من جملة البشر تطرأ عليه جميع الأعراض البشرية وصفاتها، فكان يفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويغضب ويرضى ويشتهي النساء ويعجبه حسنهن ويتزوج ويمرض وتصيبه آلام الحياة وأهوالها... حتى توفي وخرجت روحه الطاهرة من جسمه الشريف كما تخرج من سائر البشر.

ثانياً: كان إذا غضب سبّ أو لعن مَن أغضبه، يدل عليه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ولم يكن هذا منه عادة، بل وقع نادراً لأنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، واللعن والشتم فحش.

ثالثاً: فيها أن من لعنه وكان أهلاً لها كانت وبالاً عليه، فإذا لعن شخصاً حسب ما يوجب ذلك منه ظاهراً وكان في الواقع غير مستحق للعن ولا للسب، جعل الله ذلك له أجراً وبركة ورحمة وقربة يقربه الله بها إليه يوم القيامة، وقد جاء في مسند أحمد (٣/١٤١) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دفع إلى حفصة رجلاً لتحفظه ففرّ وهي غافلة فقال لها النبي ﷺ: «قطع الله يدك»، فرفعت يديها فدخل عليها فقال: «ما

شأنك؟» فقالت: قلت: قبل لي: كذا وكذا، فقال لها: **«ضعي يديك فإني سألت الله عزّ وجل أيما إنسان من أمتي دعوت الله عزّ وجل عليه أن يجعلها له مغفرة»**. وسنده صحيح على شرط مسلم، وما قيل في حسين بن واقد لا يضر هنا.

رابعاً: كان ﷺ قد اتخذ من الله عهداً بذلك والله لا يخلف الميعاد، وهذا من رحمته ﷺ بأمته وشفقته عليهم.

خامساً: هذا الشرط والعهد الذي أخذه على الله هو خاص بالمؤمنين، أما الكفار والمنافقون فخارجون عن ذلك، ولذلك صحّ عنه الدعاء عليهم ولعنه إياهم، وهكذا كل من يستحق اللعنة من الطغاة والظالمين المعتدين والفاسقين المنهمكين.

* * *

❊ الأرواح جنود مجنّدة

[٣٨٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٥/٥٢٧/٥٣٩)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤).

وعن عائشة مثله، رواه البخاري.

قوله: «جنود مجنّدة» أي: جموع مجتمعة. قوله: «فما تعارف» أي: عرف بعضهم بعضاً. وقوله: «وما تناكر» هو ضد سابقه. وقوله: «ائتلف» الائتلاف هو التوافق والاختلاف ضده.

ومعنى الحديث: أن أرواح بني آدم بعد خلقها كانت جموعاً مجتمعة في عالم الأرواح منها حزب الله ومنها حزب الشيطان فما تعرف بعضها من بعض قبل حلولها في أجسامها حصل بينهما الألفة والتوافق حال اجتماعهما

بالأجساد في الدنيا، وما وقع بينهما التناكر في عالم الأرواح اختلفا ولم يتوافقا في عالم الأجساد والأشباح.

فما يوجد في هذا العالم من التوافق والائتلاف والتناكر والاختلاف فتجد الطيب الكريم الصالح يميل إلى جنسه ويتفق معه بينما الخبيث السيئ الأخلاق المنحرف لا تراه يصاحب إلا مثيله وجنسه ولا يكاد يأتلف مع الصالح، كل ذلك تابع لما حصل في عالم الأرواح مما سبق به علمُ الله وقضاؤه وقدره لا إلٰه إلا هو يفعل ما يشاء لا يُسأل عما يفعل.

❊ ❊ ❊

❊ الولد قرّة العين

[٣٨٦] عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمرّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاسْتُغضِبَ، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً، ثم أقبل عليه فقال:

ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله عزّ وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم، فتصدقون بما جاء به نبيكم ﷺ؟ قد كُفيتُم البلاء بغيركم، والله لقد بُعِث النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي قط في فترة وجاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده كافراً، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان ويعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقرّ عينُه، وهو يعلم أن حبيبه في النار وأنها لَلتي قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٧)، وأحمد (٣/٢/٦)، وابن حبان (١٦٨٤) مع الموارد، وسنده صحيح.

في هذا الأثر عبرة وبشرى لمن ولد في الإسلام لا يعرف ولا يعبد رباً غير الله عزّ وجل، وليحمد الله عزّ وجل ليل نهار على أن خلقه مسلماً وجعل أبويه وأولاده مسلمين تقر بهم عيناه، ولم يجعلهم كفاراً من أهل النار، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى.

* * *

❊ من حقوق الجار

[٣٨٧] عن عبدالله بن المُسَاور قال: سمعت ابن عباس يخبر ابن الزبير يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ليس المؤمن الذي يَشْبَعُ وجاره جائع**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، والحاكم (١٦٧/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحافظان المنذري والهيثمي في المجمع (١٦٧/٨)، رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات، والحديث صحيح لشواهد له ذكر بعضها المنذري وغيره.

هذا من حقوق الجار وهو أن لا يشبع الإنسان وجاره إلى جانبه جائع لا يجد ما يسد به رمقه، فمن واجب المؤمن أن يتفقد جيرانه ويسأل عن أحوالهم ويواسيهم إذا كانوا محتاجين ضائعين، وفّقنا الله والمسلمين للعمل بذلك.

* * *

❊ وعيد مؤذي جاره

[٣٨٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها

بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خير فيها، هي من أهل النار**»، قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار، ولا تؤذي أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «**هي من أهل الجنة**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٩)، وأحمد (٢/٤٤٠)، وابن حبان (٢٠٥٤)، والحاكم (٤/١٦٦) وسنده صحيح.

في الحديث دليل على أن إذاية الجار وخاصة إذا كان باللسان توجب لصاحبها النار، وإن صلّى وصام وقام الليل وتصدّق مما يدل على أن ذلك عند الله عظيم وإن ظنّه الغافلون والجاهلون هيّناً يتساهلون فيه.

كما أن مَن اقتصر على أداء واجبه من الصلاة وغيرها وتصدّق ولو بشيء ضئيل وكان الناس في أمن من إذايته كان من أهل الجنة بفضل الله تعالى.

[٣٨٩] وعن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: شكا رجل إلى النبي ﷺ جاره فقال: «**احمل متاعك فضعه على الطريق فمَن مرّ به يلعنه**» فجعل كل من مرّ به يلعنه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما لقيتُ من الناس؟ فقال: «**إن لعنة الله فوق لعنتهم**» ثم قال للذي شكا: «**كُفيتَ**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٥) بسند حسن صحيح.

هذا وعيد آخر لمؤذي جاره وهو نزول لعنة الله تعالى عليه، فمَن أوذي من طرف جاره فليعالج ذلك بهذا الدواء النبوي الذي أرشد ذلك الصحابي إليه وهو إخراج متاعه إلى الشارع وإخباره المارّة بما فعله معه جاره.

* * *

❋ تحريم ضرب الوجه

[٣٩٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا تقل قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته**».

رواه أحمد (٢/٢٥١/٤٣٤)، والبخاري في كتاب العتق (٦/١٠٨) من صحيحه، وفي الأدب المفرد (١٧٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٦٥/١٦٦)، واللفظ لأحمد وباقيهم رووه مختصراً.

في الحديث تحريم ضرب الوجه لأنه مجمع المحاسن فأقل شيء يشينه، كما أن فيه تحريم السباب بهذه الألفاظ: قبّح الله وجهك... إلخ، فالله تعالى خلق الإنسان في أفضل صورة وأحسن تقويم فكيف تدعو على أخيك بتقبيح وجهه ووجه من أشبه وجهه، فإن هذا السب يشمل حتى وجه أبينا آدم لأنه مخلوق على هذه الصورة الموجودة في بنيه، ولذا ختم الحديث بقوله: «**فإن الله تعالى خلق آدم على صورته**» أي: صورة آدم، فالضمير يعود على آدم، وقد قدّمنا الكلام على هذا في الأبواب السابقة.

* * *

❊ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

[٣٩١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، وعبد الرجل ـ وفي رواية: والخادم ـ راع على مال سيده، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**».

رواه البخاري في كتاب الجمعة (٣/٣١/٣٢)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٣)، وأبو داود في الخراج (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٥٦٤) بتهذيبي.

قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته.

فالحديث يدل على أن هؤلاء كلهم رعاة، والراعي يجب عليه حفظ ما استرعاه سواء كان رئيس دولة، أو زوجاً ذا أسرة، أو امرأة ذات بعل، أو خادماً لبيت ونحوه، أو ولداً مكلّفاً بمال والده... فالكل راع وهو مسؤول يوم القيامة عن رعيته هل حفظها أم ضيّعها.

وهكذا الإنسان من حيث هو راع على جوارحه التي كلف بحفظها عما حرّم الله تعالى عليه، وسيسأل عنها جارحة جارحة، اللهم عفواً وغفراً.

* * *

❊ ما لا يجوز من المزاح

[٣٩٢] عن يزيد بن سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لاعباً ولا جادًا، فإذا أخذ أحدكم عصا صاحبه فليَرُدّها إليه»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٤١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٣)، والترمذي في الفتن (١٩٩١) بسند صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

[٣٩٣] وعن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يَحِلُّ لمسلم أن يُرَوِّعَ مسلماً»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٤)، وأحمد (٣٦٢/٥) بسند حسن صحيح.

«روّع» أي: أفزعه وأزعجه.

[٣٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة»**، وفي رواية: **«وإن كان أخاه لأبيه وأمه»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦٩/١٦)، والترمذي في الفتن (١٩٩٢).

وفي الحديث الآخر: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار**».

رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧) كلاهما عن أبي هريرة عنه ﷺ.

في هذه الأحاديث منع الممازحة التي تؤدي إلى إذاية المسلم وإزعاجه كعادة كثير من الناس في مزاحهم مع الآخرين حتى يُدخلوا عليهم الحزن ويتسببوا في إذايتهم، فقد يكونون ملعونين بلعنة الله من حيث لا يشعرون.

* * *

❊ طيب النفس

[٣٩٥] عن عُبَيْد الجهني رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وعليه أثر غُسْل وهو طيِّبُ النفس، فظننا أنه ألمّ بأهله، فقلنا: يا رسول الله نراك طيب النفس؟ قال: «**أجل والحمد لله**» ثم ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا بأس بالغِنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خيرٌ من الغنى، وطيب النفس من النَّعَم**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠١)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤١) بسند صحيح، كما قال البوصيري في الزوائد.

في الحديث أن الثراء وكثرة المال مع تقوى الله وأداء حقوقه ليس بممنوع ولا بمذموم، فقد قال ﷺ لعمرو بن العاص: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»، لكن هناك ما هو خير من الثراء وهو الصحة والعافية مع تقوى الله تعالى وهو يشير بذلك إلى أن الفقر مع العافية والاستقامة خير للإنسان وأسلم له.

وفيه أن طيب النفس وفرحها وطمأنينتها من نِعَم الله تعالى على

الإنسان، وهذا مما لا يرتاب فيه، بل ذلك من أعظم نِعَم الله علينا والحمد لله.

❊ ❊ ❊

❊ من صفات المؤمن والفاجر

[٣٩٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خَبٌّ لئيم»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٤١٨)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٠)، والترمذي في البر والصلة (١٨١٠)، وأبو يعلى (٦٠٠٧)، والحاكم (١/٤٣)، وكذا أحمد (٢/٣٩٤) وهو حديث حسن لطريقين له ولذا حسّنه جماعة.

قوله: «غر» بكسر الغين، و«خب» بفتح الخاء وكسرها، ومعناه أن المؤمن من شأنه وأخلاقه الكريمة الاغترار بظواهر الناس وتغاضيه عن الشرور لصفاء باطنه وطهارته، أما الفاجر فهو بخلافه خدّاع ماكر بحّاث عن الشرور مفسِد في الأرض، باطنه خبيث قذر موصوف باللؤم والنذالة.

❊ ❊ ❊

❊ من سعادة الإنسان

[٣٩٧] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء»**.

رواه ابن حبان (١٢٣٢) مع الموارد بسند صحيح، ورواه أحمد (١/١٦٨) بنحوه، والطبراني والبزار والحاكم كما قال المنذري.

ورواه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٧) عن نافع بن عبدالوارث مختصراً.

قوله: «من سعادة» و«من شقاوة» يعني: في الدنيا.

فسعادة الإنسان في هذه الحياة أن تكون له زوجة صالحة تعينه على دينه ودنياه... ومسكن واسع يسعه وأهله وخيمه... وجار صالح يساعده على الخير ويأمن من شره... ومركب هنيء يركبه ويحمل أثقاله إلى حيث شاء بدون عناء ولا إزعاج. أما شقاوة المرء في هذه الدنيا فبالعكس مما ذكرنا بما هو مذكور في الحديث.

❊ ❊ ❊

❊ من الكبر والتعاظم

[٣٩٨] عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبّة سيجَان مزرورةٌ بالديباج، فقال: «**ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس**» قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبّته وقال: «**ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟**» ثم قال: «**إن نبي الله نوحاً ـ صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم ـ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية: آمرُك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعت في كفّة، ووضعت لا إله إلا الله في كفّة لرجحت بهن، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كُنّ حلقةً مُبهمةً لقصمتهُنّ لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كل شيء، وبها يُرزق كل شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر**» فقلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ هو أن يكون لأحدنا حلّة يلبسها؟ قال: «**لا**»، قال: فهو أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**»، قال: فهو أن يكون

لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: فهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قال: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سَفَهُ الحق وغَمْصُ الناس**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، وأحمد (٢/١٦٩/١٧٠/٢٢٥) وسنده صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/٢٢٠) برواية أحمد والطبراني بنحوه، قال: وزاد في رواية: «**وأوصيك بالتسبيح فإنها عبادة الخلق وبالتكبير**»، ورواه البزار من حديث ابن عمر ورجال أحمد ثقات.

قوله: «مبهمة» أي: مغلقة. قوله: «قصمتهن» أي: كسرتهن. قوله: «سفه الحق» بفتح السين والفاء، أي: جهله وعدم قبوله. وقوله: «غمص الناس» بفتح العين وسكون الميم آخره صاد، وفي رواية مسلم غمط بالطاء، والمراد بذلك احتقار الناس والاستخفاف فيهم والتكبُّر عليهم.

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: مشروعية الوصية عند الوفاة وخاصة للأولاد وهي مؤكدة أو واجبة في شرعنا كما قدّمنا في الوصايا.

ومنها: فضل الذكر وبالأخص بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير، بل هذا أفضل الأذكار إطلاقاً بعد القرآن الكريم.

ومنها: وجود الميزان يوم القيامة وأنه حق ثابت له كفّتان وهو مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة ومَن لفّ لفهم من أهل البدع والعقلانيين.

ومنها: أن الأرضين سبعٌ كالسماوات في الخلق والعدد والطبقات وهذا ظاهر القرآن فلا ندعه لنظريات الغربيين وأذنابهم.

ومنها: وهي بيت القصيد أن الكبر هو دفع الحق وعدم قبوله مع احتقار الناس والتعاظم والتكبُّر عليهم. وليس من الكبر التجمُّل بالألبسة الجميلة المباحة أو ركوب السيارات ونحوها أو اتخاذ الأصحاب يجلسون إليه يأنس بهم... فكل هذه الأشياء ليست من الكبر إذا لم يكن فيها تفاخر أو إعجاب أو إسراف وإلا كانت محرّمة تحريماً عارضاً.

[٣٩٩] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَن تعظَّمَ في نفسه، أو اختال في مِشْيَتِه، لقي الله عزّ وجل وهو عليه غضبان»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٩)، وأحمد (١١٨/٢)، والحاكم (٦٠/١) وسنده صحيح على شرط البخاري، وأورده المنذري في الترغيب، وعزاه لكبير الطبراني وقال: رواته محتج بهم في الصحيح.

وقوله: «تعظم» بفتحات مع تشديد الظاء، أي: تكبّر ورأى نفسه عظيماً فوق الناس. وقوله: «اختال في مشيته» أي: مشى مشية المتكبرين، فالاختيال والخيلاء: الكبر والإعجاب بالنفس.

وفي الحديث زجر بالغ لأولئك المتعاظمين المتكبرين الذين يتعاظمون في أنفسهم ويحتقرون غيرهم وأنهم إن ماتوا بدون توبة من ذلك لقوا الله وهو غاضب عليهم وكفاهم بذلك خسارة.

* * *

❊ مَن برىء من الكِبْر

[٤٠٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما استكبر من أكل معه خادمه، وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاةَ فحلبها»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٠) بسند حسن صحيح.

هذه الخصال لا يتصف بها ويزاولها إلا الطبقة الفقيرة أو القريبة منها، فمَن اتصف بها كان بريئاً من الكبر وذلك أنه لا يتصور من المتكبر الأناني أن يجالس خادمه حتى يأكل معه، ومن المستحيل عادة أن يركب الحمار أو أي مركوب عصري سافل كالدراجة مثلاً أو سيارة قديمة أو رخيصة أو كانت من نوع لا يقتنيه إلا عامة الناس، وهكذا الحال في حلب الشاة، فالمتكبر يستنكف من تعاون أهل الدار ومن يتبعهم من الخدم والرعاء.

* * *

❋ ثلاث لا تُرَد

[٤٠١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ لا تُرد: الوسائد، والدُّهن، واللَّبَن»**.

رواه الترمذي في الاستئذان رقم (٢٦٠١)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٩٩/١)، والطبراني في الكبير، وسنده حسن.

فيه أن هذه الثلاث إذا عرضت على الإنسان لا يردها وهي: الوسائد، والدهن وهو الطيب واللبن وهو الحليب.

[٤٠٢] وقد جاء في صحيح البخاري وغيره عن أنس قال: إن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب.

[٤٠٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عُرِض عليه طيبٌ فلا يَرُدَّه فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة»**.

رواه مسلم في الأدب (٩/١٤)، وأحمد (٣٢٠/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٢٨/٥) إلا أن مسلماً قال: **«ريحان»** بدل **«طيب»**.

والريحان في اللغة كل نبت مشموم طيب الريح، والطيب كل ما له ريح طيبة من أنواع العطورات.

وفي هذا الحديث كسابقَيْه استحباب قبول الطيب وعدم رده لأنه لا كلفة فيه ولا منّة، وهو مع ذلك طيب الرائحة محبوبٌ للنفوس، ولذلك جاء الإسلام بسنيّة استعماله في المجامع العامة كالجُمَع والأعياد والحج... وكان النبي ﷺ يحبه ويُكثر من استعماله.

* * *

❋ من خصال الخير

[٤٠٤] عن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صِدْقُ الحديث، وحِفْظُ الأمانة، وحُسْنُ الخُلُقِ، وعِفَّةُ مَطْعَمٍ».

رواه أحمد (١٧٧/٢)، والحاكم (٤/٤/٤)، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢١/٤) وسنده صحيح، وابن لهيعة روى عنه هنا عبدالله بن وهب وحديثه عنه صحيح كباقي العبادلة.

وفي الحديث الترغيب في التخلُّق بهذه الأخلاق المذكورة إذ هي من المكارم وأخلاق الإسلام العامة.

وإلى هنا انتهى بنا الكلام على الآداب والأخلاق وقد تقدم الكثير منها في غضون الكتاب ضمن كتبٍ وأبواب سابقة، وستأتي أخلاق أخرى في الزهد والرقائق إن شاء الله تعالى.

والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذريته وزوجاته وأصحابه أبد الآبدين.

في هذه الكتب الثلاثة: الآداب، والأخلاق، والبر والصلة، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحوٌ من مائة وستين حديثاً.

ويليه كتاب الزهد والرقائق

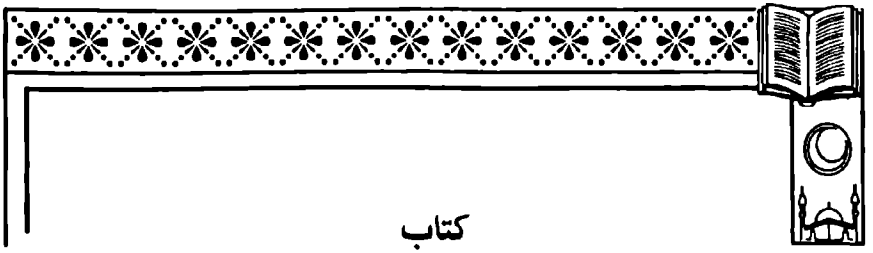

كتاب
الزهد والرقائق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ،

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه

الحمد للّه ذي العزة والجبروت، والملك والملكوت، خالق الخلائق ومقدّر آجالهم وأرزاقهم، المحيي المميت، الواحد في الذات والأفعال والصفات، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، أول بلا بداية، وآخِر بلا نهاية، هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، كل شيء هالك إلا وجهه.

وصلّ اللهم وسلّم وبارك على أفضل خلقك، وأكرم رسلك، سيدنا محمد القائل: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**» وعلى آله الطيبين الطاهرين، وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى صحابته وخاصة المهاجرين منهم والأنصار والأكرمين ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا هو قسم الزهد والرقائق جعلناه من خواتم الكتاب اقتداءً بأئمتنا الذين حفظوا لنا السنّة المطهرة وجمعوها لنا في دواوين مرتّبة على الكتب والأبواب، فإنهم غالباً ما يذكرون الزهد والرقائق أواخر كتبهم مقرونتين بالفتن وأشراط الساعة كما فعل مسلم في صحيحه، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي في سننهم، ليكون ذلك تفاؤلاً بحُسن خاتمة العمر والرجوع إلى الله تعالى والتأهُّب للقاء الله عزّ وجل، ختم الله لنا بالسعادة

والشهادة، آمين.

* * *

ما هو الزهد

اتفقت كلمة أهل اللغة العربية على أن الزهد هو الإعراض عن الشيء وتركه.

وهو في الإسلام ترك الدنيا والإعراض عن زينتها وزخارفها والاشتغال بالله تعالى وما يقرب إليه من خير وعمل.

وإذا رجعنا إلى سيرة نبينا ﷺ وشمائله وسيرة أصحابه وجدناهم على ما ذكرنا من الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما أقبل عليه مَن جاء بعدهم من لذة، ومال، وجاه... وكان هذا عاماً في الصحابة والسلف الصالح.

غير أن ذلك لا يعني ترك الدنيا مطلقاً، بل لا بد من تعاطي أسباب العيش وتعمير الأرض واستثمارها مع عدم الإخلاد إلى الدنيا والرضاء بها والاطمئنان إليها، بل الهدف والمقصود هو التعلُّق بالله عزّ وجل وعبادته وإخراج من القلب ما سواه من الكائنات.

ولذلك قال بعض الأكابر: اجعل الدنيا في يدك، ولا تجعلها في قلبك فإنها لا تضرك.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال لعمرو بن العاص: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

بمعنى أنه يأخذه من حقه وينفقه فيما جُعل له ولا يُعلّق قلبَه به ولا يُمسِكُه.

وهذه كانت طريقة السلف رضي الله تعالى عنهم. وسيمر بك ما يؤيد هذا من السنة المطهرة وعمل الصحابة...

أما علماؤنا الربانيون رضي الله تعالى عنهم، فقد تكلموا في الزهد ومعناه ومراتبه وذكروا فيه أقوالاً وأفاضوا في ذلك بما لا مزيد عليه، وأشهر من تكلم على ذلك وأفاض أبو حامد الغزالي، وابن الجوزي، وابن قدامة، والإمام القشيري، والسهروردي، وابن القيم رحمهم الله تعالى.

وجعلوا للزهد مراتب، فيه ما هو واجب كالزهد في المحرمات وبعض الشبهات، وما هو مستحب كالزهد فيما زاد على الضروريات من مشتهيات الحياة وفضولها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب... والله المستعان على ذلك فإننا ضعفاء.

* * *

❊ ما هي الرقائق

الرقائق ويقال: رقاق جمع رقيقة وهي كل ما يُحدث في القلب رقة من خشية ووجل وخوف من عذاب الله وسخطه وغضبه، ورجاء رحمته وفضله وإحسانه... وما يحمل على الرجوع إلى الله والتوبة إليه والزهد في الدنيا والعمل للآخرة وما يؤول إلى ذلك.

فمَن قرأ الرقائق ونظر فيها رقّ قلبه ودمعت عيناه، ومَن أعرض عنها وغفل عن النظر فيها أو سماعها قسا قلبه وغلظ واشتد وغطاه الران، فبعُد عن الله عزّ وجل ومات خاسراً عائذاً بالله تعالى.

* * *

❊ لا عيش في الحقيقة إلا عيش الآخرة

[٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال: «**اللهم إن العيش**

عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»، فقالوا مجيبين: نحن اللذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.

وفي رواية: **«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة»**، وفي رواية: **«فأصلِح الأنصار»**، وفي أخرى: **«فأكرِم»**... إلخ.

رواه أحمد (٢٧٦/٢٧٢/٣)، والبخاري في المناقب (١١٩/٨)، وفي المغازي (٣٩٨/٨)، وفي الرقاق (١٤/٥)، ومسلم في الجهاد (١٧٣/١٧٢/١٢) وغيرهم، وجاء أيضاً من حديث سهل بن سعد بنحو ذلك، فقوله ﷺ: **«لا عيش إلا عيش الآخرة»** تزهيد منه في هذه الحياة وترغيب لهم في العمل للآخرة، وأن الحياة الحقيقية التي لا حياة فوقها ولا نهاية لها هي حياة الدار الآخرة وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: لهي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص، أما الدنيا فقال فيها أول الآية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: ما هي إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون.

وقال تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وقال لنبيه ﷺ محذراً له من فتنة الحياة وزخارفها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لا تنظر يا نبيي إلى ما متّعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع وزينتها لنبتليهم في ذلك.

فمن القطعيات البديهية التي لا يجادل فيها من في قلبه نور الإيمان، أن الحياة إنما هي حياة الآخرة وأن الدنيا ما هي إلا كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿وَمَا لَهَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فالعاقل هو الذي يؤثر حياة الآخرة وطيبها على الحياة الدنيا ورغد

عيشها، لكن الإنسان يفتتن بزهرتها ونضارتها فيركن إليها ويذهل عن الآخرة لما طبع عليه من حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى ردع عباده عن الاسترسال في شهوات هذه الحياة وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم فأكثر من ذم الدنيا وعيبها وشرح حالها وسرعة زوالها والمقارنة بينها وبين الآخرة.

* * *

❊ المحافظة على الوقت واغتنام العمر

[٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**».

رواه أحمد (١/٣٤٤/٢٨٥)، والبخاري في الرقاق (١٤/٣/٤)، والترمذي (٢١٢٦)، وابن ماجه (٤١٧٠) كلاهما في الزهد.

«مغبون»: الغبن بفتح الغين وسكون الباء، المخادعة في البيع ونقص ثمن السلعة.

فالصحة والفراغ نعمتان عظيمتان من الله عزّ وجل سيُسأل عنهما العبد يوم القيامة مع سائر النِعَم الأخرى التي تتوارد عليه طول حياته، فإن قام بحق الله فيها وشكره عليها ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله والطاعة والاستقامة كان من الفائزين السعداء، وإن قصر في ذلك ولم يقم بحق الله فيها كان خاسراً مغبوناً ومخدوعاً في تجارته. وما أكثر هذا الصنف من البشر فإن أغلبهم لا ينتفعون بصحتهم وفراغهم فهم مغبونون خاسرون وسيأتون كذلك يوم التغابن.

[٣] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكِبَيَّ فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»،

وفي رواية: «**وعد نفسك من أهل القبور**» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

رواه أحمد (٢/٢٤/٤١)، والبخاري في الرقاق (١٤/٨/٩)، والترمذي (٢١٥٣) وابن ماجه (٤١٤٤) كلاهما في الزهد، والرواية الثانية وهي: «**وعد نفسك من أهل القبور**» لم يروها البخاري.

فهذه وصية من النبي ﷺ لابن عمر ثم لسائر مسلمي الأمة حيث أوصاه بالإعراض عن الحياة والإقبال على ما يهمه من أمور الآخرة، وأن لا يركن إلى زخارف الدنيا ونضارتها وبهجتها، وأن يكون في حالته كالغريب المستوحش من الناس الذي لا يكاد يستأنس بأحد، أو كعابر سبيل يريد بلداً شاسعاً فهو لا يقيم بمكان، ولا يحمل معه من الزاد سوى ما يحتاجه في عبوره.

وقد علّق النووي رحمه الله تعالى على هذا الحديث بكلام موجز جامع فقال: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها والتعلُّق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه.

وقال الحافظ رحمه الله تعالى نقلاً عن ابن بطال رحمه الله تعالى: وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل.

ومعنى كلام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: اقصر أملك عن طول الحياة، فإذا جاءك الليل فاجتهد فيه واعمل عمل من لا يرجو البقاء إلى الصباح، وإذا أقبل الصباح فكن في يومك كأنك ستموت قبل أن تمسي، وانتهز الفُرَص، واعمل لآخرتك في جميع أحوال حياتك. وكلامه هذا مقتضب من الحديث التالي وهو:

[٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنِم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل**

سُقْمِك، وفراغك قبل شُغْلك، وشبابك قبل هرمك، وغِناك قبل فقرك».

رواه الحاكم (٣٠٦/٤) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

ورواه أحمد وابن المبارك كلاهما في الزهد، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٧٠) عن عمرو بن ميمون مرسلاً وسنده حسن لوجود جعفر بن برقان، وهو صدوق يهم كما في التقريب للحافظ.

قوله: «وهو يعظه» أي: يذكره بما يرقق قلبه.

فهذه إرشادات نبوية ذكّرنا بها النبي ﷺ بواسطة ذلك الرجل فأمرنا أن نجتهد ونجعل اكتساب الأعمال الصالحة في هذه الحياة غنيمة ندخرها لآخرتنا، وذلك بمراعاة مجموعة من النِعَم الإمدادية التي تتوارد على الإنسان، وتتعاقب عليه ما دام في هذه الحياة، لا تنفك عنه بحال، وهي: الحياة، والصحة، والفراغ، والشباب، والغنى، ويقابلها أضدادها الخمس وهي من طوارىء الحياة وبلاياها اللازمة للإنسان، وهي: الموت، والسقم، والشغل، والهرم، فالعاقل الكيِّسُ هو الذي يغتنم التقرُّب إلى الله بأنواع الخير والبر في الخمس الأولى قبل فواتها وهجوم الخمس الثانية عليه، فإنها إذا نزلت به لا يستطيع معها أي عمل ينفعه في آخرته... لكن الإنسان لا يعرف مزايا هذه النِعَم الخمس وخيرها وفضلها حتى يفقدها وتحل محلها أضدادها.

وقد كان المسلمون الأولون على جانب عظيم من المحافظة على أوقاتهم والضن بها. ومن رجع إلى تراجم أعلام الأمة وعلمائها وعبادها رأى من ذلك العجب، وفي هذا ورد عنهم حِكَم وأقوال كقول الإمام علي عليه السلام: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

ذكره البخاري في الرقاق (١١/١٠/١٤) معلّقاً بصيغة الجزم وهو قطعة من حديث جاء عنه مرفوعاً وموقوفاً رواه ابن أبي الدنيا في الزهد، وأبو نعيم في الحلية.

وكتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما: يا أخي اغتنم صحتك وفراغك من قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع أحد من الناس رده عليك.

ذكره الخطيب بسنده في «اقتضاء العلم العمل».

وذلك لأن كل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر ليس في مقدور أحد استعادتها والعمل فيها بحال، فأحرى أن تصرف ما ينزل بك من البلاء...

وجاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه قال: **ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي مناد يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوّد مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.** وقال: **أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.**

وكان السلف يقولون: من علامة المقت إضاعة الوقت. ويقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقال بعضهم: مَن كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومَن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون.

وقال أحمد بن أيوب أحد شيوخ البخاري رحمهما الله تعالى:

اغتنِمْ في الفراغِ فضلَ ركوعٍ ... فعسى أنْ يكونَ موتُكَ بَغْتَهْ
كمْ صحيح رأيتَ من غيرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نفسُه الصحيحة فَلْتَهْ

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه:

إنّ لِلّهِ عباداً فُطَنا ... طَلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا
نظروا فيها فلمّا عَلِمُوا ... أنّها ليست لِحَيٍّ وطَنا
جعلوها لُجّةً واتخذوا ... صالحَ الأعمال فيها سُفُنا

وكلامهم في هذا كثير جداً، والمقصود أن الخاسر المغبون في آخرته هو الذي له فضل فراغ وصحة جسم وما يكفيه من قوت ولم يداهمه هرمٌ ولا خرفٌ، ثم لا يقدم لنفسه ما ينفعُه في آخرته بل يقتل وقته الغالي في

السفاسف والفضول، ويضيع حياته الذهبية في اللغو واللهو وقيل وقال، وقد أجاد العارف ابن عطاء الله رحمه الله تعالى ورضي عنه في حكمه حيث قال: «الخِذلانُ كُلُّ الخِذلانِ أن تتفرَّغَ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه» يعني الله تعالى، فحياتك أيها الإنسان نعمة من الله تعالى عليك وتسخير منه لك كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

❊ نعمة طول العمر

[٥] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «**مَن طال عمره وحسُن عمله**»، قال: أي الناس شر؟ قال: «**مَن طال عمره وساء عمله**».

رواه أحمد (٤٤/٤٣/٥)، والترمذي (٢١٥٠) بتهذيبي، والدارمي (٢٧٤٦/٢٧٤٥)، والحاكم (٣٣٩/١) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه وابن جدعان. روى عنه شعبة قبل الاختلاط ويؤيده حديث عبدالله بن بسر عند أحمد (١٩٠/١٨٨/٤)، والترمذي (٢١٤٩) بسند حسن بالشطر الأول.

فطول العمر من نِعَم الله العظيمة على العبد، إذ بطول العمر يزداد أجراً بازدياد الطاعات... فيكون خير الناس من طال عمره وحسن عمله فيصبح من الأكياس الأبرار، فإذا عكس فأفنى عمره في الآثام والشهوات... كان من المفلسين الأشرار، وعليه فلا معنى لاستعجال الموت وطلبه بسبب ما يطرأ على الإنسان من مصائب الحياة وبلايا الدنيا، ولذلك نهى النبي ﷺ عن تمنّي الموت.

[٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد، وإما مُسيئاً فلعله يَسْتَعْتِب**».

رواه أحمد (٢/٢٦٣/٣٠٩)، والبخاري في الطب والمرض (١٢/٢٣٤/٢٣٥)، وفي التمني (٣٤٩/٣٥٠).

«يستعتب» أي: يطلب من الله رفع العتاب وذلك يكون بالتوبة.

وفي رواية: **«لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»**.

رواه أحمد (٢/٣١٦/٣٥٠)، ومسلم.

[٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لِضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنّياً فليقل: اللهم أحْيِني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»**.

رواه أحمد (٣/٢٤٧)، والبخاري في الطب والمرض (١٢/٢٣٢)، وفي الدعوات (١٣/٤٠١)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧/٨)، وأبو داود (٣١٠٨/٣١٠٩) والترمذي (٨٦٥) والنسائي (٤/٣) في الجنائز.

فحياة المسلم لها خير كبير، فمَن وُفِّق لطاعة الله وصالح الأعمال كانت حياته زاخرة بالقربات وأجورها وخاصة الأعمال العظيمة في الإسلام التي لها أهمية عظمى كالصلاة مثلاً، والصيام، والصدقة، والحج والعمرة، والجهاد في سبيل الله، وبِر الوالدين، وتلاوة القرآن، وذكر الله عزّ وجل المتوالي ليل نهار، والصلاة على النبي ﷺ التي لا يخلو منها وقت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله بجميع وسائلها، وتعليم المسلمين ما يهمهم من العلوم الدينية النافعة ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، وتحفيظ القرآن الأطفال، والسعي في مصالح المسلمين وقضاء حوائجهم، والتفريج عن المكروبين، ونصر المظلومين، وإدخال السرور على المحزونين، إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي يتعاطاها المؤمن في حياته، بل مجرد الحياة مع الإيمان وحده لا يعد لها شيء إذ هو أفضل الأعمال فكيف إذا أضيف إليه غيره من أنواع القربات، فحياة المؤمن والحمد لله كلها خير. ولذا جاء في حديث: **«ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يُعَمِّر في الإسلام لتسبيحه وتهليله»**.

رواه أحمد (١٦٣/١) عن عبدالله بن شداد مرسلاً بسند صحيح.

فكيف مع هذا الخير العظيم يتمنى المسلم الموت ويستعجله، نعم، له أن يدعو به مع التفويض كما في حديث أنس: «**وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»، وكما جاء في حديث: «**وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**».

رواه أحمد والترمذي والحاكم بسند صحيح وتقدم في تفسير سورة ص مطولاً.

قال النووي على حديث أنس: فيه التصريح بكراهة تمنّي الموت لضر نزل به من مرض، أو فاقة، أو محنة من عدو، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم، قال: وفيه أنه إن خالف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللهم أحيني إن كانت الحياة خيراً لي... إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء.

شرح مسلم (٨/٧/١٧).

* * *

❊ الإنسان والأمل وحب الحياة

[٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطوطاً فقال: «**هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**»، وفي رواية: «**هذا ابن آدم وهذا أجله**» فوضع يده عند قفاه ثم بسطها، فقال: «**وثَمّ أجلُه وثَمّ أجلُه**».

رواه البخاري في الرقاق (١٣/١٤) باللفظ الأول، أما الرواية الثانية فأخرجها أحمد (٢٥٧/٣)، والترمذي (٢١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٣٢) كلاهما في الزهد، وابن حبان (٢٥٥٤) بالموارد وسنده صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطًا مُربّعاً، وخطّ خطًا في الوسط خارجاً، وخطّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط فقال: **«هذا الإنسانُ، وهذا أجلُه محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٢/١١/١٤)، والترمذي في القيامة (٢٢٧٥) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣١).

قوله: «الأعراض» يعني هنا كل ما يعرض للإنسان من حوادث وأمراض تنهشه. وقوله: «نَهَشه» أي: أصابه، وأصل النهش لدغ كل ذي سم، وعبّر بذلك مبالغة في الإهلاك.

ومعنى هذا الحديث وسابقه أن أجل الإنسان أقرب إليه من الآمال التي يتمناها ويدبّر أمرها ليل نهار رغم ما يطرأ عليه من الآفات وينهشه من الأعراض وبرسم هذا المثال المذكور يتضح معنى الحديث وما قبله جلياً وهو:

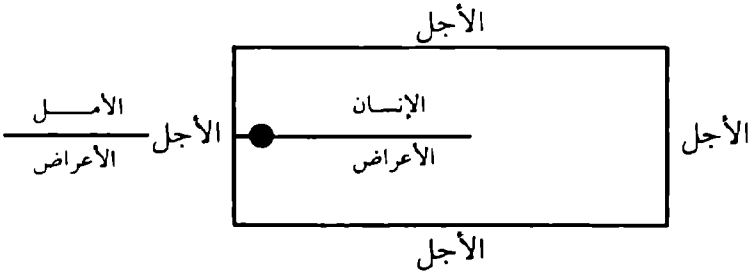

فقوله في الحديث: «هذا الإنسان» يشير إلى النقطة الداخلة عند الخط الداخلي. وبقوله: «وهذا أجلُه محيطٌ به» يشير إلى الخط المربّع المستوي الزوايا. وبقوله: «وهذا الذي هو خارج أملُه» يشير إلى الخط الخارجي عن المربع. وبقوله: «وهذه الخطوط الصغار» يشير بها إلى ما خطّ تحت الخط الطويل الداخلي والخارجي.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للإنسان وأجله وأمله والآفات والأعراض

الطارئة عليه في حياته، فإنه إن سلم من هذا لم يسلم من ذاك، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض، أو فقد مال أو أهل أو أي بلية... بغتَه أجله أو وقع في الهرم ثم وافاه الموت.

[١٠] كما قال ﷺ: **«مُثِّلَ ابنُ آدم وإلى جنبه تسعةٌ وتسعون مَنِيَّة، إن أخطأته المنايا وقع في الهَرَم حتى يموت»**.

رواه الترمذي في القدر (١٩٨٢)، وفي أبواب القيامة والزهد (٢٢٧٧) وحسّنه هنا وصحّحه.

قوله: «منية» بفتح الميم وكسر النون ثم ياء مشددة مفتوحة هي البلية المهلكة، وبذلك سمي الموت. وقوله «إن أخطأته المنايا» أي: جاوزته أسباب الموت من مرض، وجوع، وغرق، وحرق، وحرب... ولم يُصَب بإحدى ذلك وقع في الكِبَر والشيخوخة والهرم حتى يوافيه أجله المحتوم.

فالإنسان في هذه الحياة لا يخلو من البلايا والمهالك وأسباب الموت وهي المعبَّر عنها بالمنايا، فإن نجا منها في حياته الطويلة وذلك نادر وقع في الداء الذي لا دواء له وهو نهاية الكبر من الهرم والخَرف والضعف، ثم يأتي بعده الموت وهو الداء الذي أعيا الإنسان من يوم خلقه الله تعالى.

[١١] كما قال ﷺ: **«تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غيرَ داءٍ واحد، إلا الموت والهرم»**.

رواه أحمد (٣٧٨/٤)، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (١٨٨١)، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (٣٤٣٦) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو عند بعضهم بالاقتصار على الهرم وهو من حديث أسامة بن شريك.

والمقصود أن المثالين السابقين فيهما إرشاد إلى قصر الأمل، وهو أن يكون المسلم دائم النظر إلى قرب أجله، وأن لا يكون حريصاً على طول الحياة والبقاء فيها والشغف بالأماني الباطلة وكثرة التدبير فيما لا يكون غالباً، فإن ذلك من موجبات الغفلة وأسباب الحسرات، وليحذر أن يكون

ممن يشملهم قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

ومع كون طول الأمل مذموماً شرعاً فالإنسان من طبيعته كلما تقدم به السِّن ازداد أملاً وحباً للمال وحرصاً على الحياة إلا مَن شاء الله، وهذا ما جاء في الحديث التالي:

[١٢] فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَهرم ابنُ آدم ويشِبُّ معه اثنان: الحرص على العمر، والحرص على المال**»، وفي رواية: «**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر**».

رواه أحمد (٣/١٩٢/٢٥٦/٢٧٥)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٥/١٦)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٨)، والترمذي في الزهد (٢١٥٩)، وفي صفة جهنم (٢٢٧٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٤).

[١٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب الشيخ شابٌ على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال**».

وفي رواية: «**لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل**».

رواه البخاري في الرقاق باللفظ الثاني (١٤/١٥)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٨)، والترمذي (٢١٥٨) في الزهد بالرواية الأولى، ورواه ابن ماجه في الزهد أيضاً (٤٢٣٣)، والحاكم (٤/٣٢٨) وجعله البوصيري من الزوائد، والحاكم من المستدركات وليس كذلك.

قوله: «يَهرمُ» أي: يكبر ويضعف كما في الرواية الثانية. وقوله: «ويشب» بفتح الياء وكسر الشين، أي: يقوى ويعظم. وقوله: «شابٌ» على صيغة اسم الفاعل أي: قويٌّ نَشِط. و«الحرص» بكسر الحاء وسكون الراء: الرغبة في الشيء مع محبته.

فابن آدم مفطور ومجبول على حب طول العمر والبقاء مع حب المال والرغبة فيه حتى إنه لشدة حرصه على المال والحياة لا يزيده تقدم السن

وكثرة المال إلا طمعاً في زيادة أكثر، ويود لو يعمر ألوفاً من السنين، وأن تكون له أودية من الذهب...

وهذا الحرص على طول العمر... مذموم إذا كان بقصد قضاء الشهوات والاسترسال في اتباع الملذات المحرمات، أما إذا كان بقصد الزيادة في البر والخير والرجوع إلى الله تعالى فلا يذم، وكذا إذا كان من العالم المتعدي نفعه فقد قال ابن الجوزي: الأمل مذموم للناس إلا للعلماء، فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا.

[١٤] وعن ابن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: مرّ عليّ رسول الله ﷺ ونحن نعالج خُصّاً لنا، فقال: **«ما هذا؟»** فقلنا: وَهَى فنحن نصْلِحُه، فقال: **«ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»**.

وفي رواية: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أُطَيِّنُ حائطاً لي أنا وأمي فقال: **«ما هذا يا عبدالله؟»** فقلت: يا رسول الله شيء أُصْلِحُه، فقال: **«الأمر أسرع من ذلك»**.

رواه أحمد (١٦١/٢)، وأبو داود (٥٢٣٥/٥٢٣٦) في الأدب، والترمذي (٢١٥٥)، وابن ماجه (٤١٦٠) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٥٥٥/٢٥٥٦)، والروايتان لأبي داود، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «نعالج» أي: نزاول. وقوله «خصًا لنا» هو بضم الخاء: البيت من قصب. وقوله: «وهى» بفتح الهاء وكسرها، أي: بلي وضعف أو تخرّق. وقوله: «الأمر أسرع أو أعجل من ذلك» ومعناه: ما أظن نزول الموت بكم إلا أسرع من خراب هذا البيت فكيف تعمل في إصلاحه وقد يفاجئك الأجل قبل ذلك فلأن تسعى في إصلاح عملك أوْلى وأجدر من إصلاح بيتك. ففيه الحض على قصر الأمل، والتزهيد في طول البقاء، وهذا لا يعني ترك تعاطي أسباب الحياة من مسكن ومأكل ومشرب وملبس، بل ذلك منه ﷺ تذكير فقط، وإيقاظ الغافلين.

* * *

❋ لا عذر لأبناء الستين فما فوق

[١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«أعْذَرَ اللّهُ إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة»**، وفي رواية: **«لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥/٣٢٠/٤١٧)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٤).

«أعذر الله»: الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبقَ له اعتذار كأن يقول: لو مدّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال: أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكّنه منه، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية. أفاده الحافظ في الفتح. وقوله: «أخّر أجله» أي: أطاله.

فمَن بلغ إلى هذا السن من العمر وهي الستون سنة لم يترك الله تعالى للعبد سبباً في الاعتذار، لأن هذا السن هو معترك المنايا غالباً وسن الإنابة والرجوع إلى الله عزّ وجل وترقُّب الموت، فلا ينبغي له حينئذ إلا التوجه إلى الله بكليته والإقبال عليه والمبادرة إلى كل ما يقرب إليه والإكثار من تلاوة القرآن الكريم والاستغفار وذكر الله ودعائه والصلاة على حبيبه ﷺ.

فما بقي له بعد هذا السن إلا انتظار الموت ولقاء الله عزّ وجل كما دلّ عليه الحديث التالي:

❋ ❋ ❋

❋ اعمار هذه الأمة ما بين الستين والسبعين

[١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٥١)، وفي الدعوات (٣٣١٧)، وابن ماجه في الزهد أيضاً (٤٢٣٦) وسنده صحيح وله شاهد عن أنس.

رواه أبو يعلى بسند صحيح.

الحديث يفيد أن أعمار هذه الأمة تنقضي في هذا العقد وهو ما بين الستين والسبعين، وهذا من باب الغالب فإنه هناك من يعمر فيجاوز الثمانين والتسعين إلى المائة فما وراءها لكن ذلك قلة. متّعنا الله بحياتنا في طاعته، آمين.

فالمسلم الذي متّعه الله تعالى بمجاوزة الستين والسبعين ينبغي له أن يزداد تيقُّظاً واستعداداً للموت.

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه كان ببغداد عالِم يدرس اثنتي عشرة مادة من مختلف الفنون العلمية، فخرج يوماً لشأن له فسمع شاعراً ماجناً يقول:

إذَا العِشرونَ من شعبان ولّتْ ... فواصِلْ شُرْبَ ليلِكَ بالنهارِ
ولا تشرَبْ بأقداحٍ صغارٍ ... فقدْ ضاقَ الزّمانُ عن الصغارِ

فخرج هائماً على وجهه إلى مكة المكرمة، فلم يزل بها يتعبّد الله تعالى حتى وافاه أجله. لقد أيقظه ذلك الماجن الذي ضاق وقته عن الشرب من صغار الأواني بقدوم رمضان.

فهكذا من تقدم سنُّه وأشرف على الرحيل لم يبقَ له وقت يدرس فيه العلوم الإضافية أو يكتب فيها وما أكثرها، بل ينبغي له أن يشتغل بما هو أهم من ذلك ويجاهد نفسه في الإخلاص لله عزّ وجل فإن أكثر المشتغلين بالعلم لا إخلاص عندهم.

* * *

❋ الدنيا سجن المؤمن

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»**.

رواه أحمد (٢/٣٢٣/٣٨٩/٤٨٥)، ومسلم (١٨/٩٣)، والترمذي (٢١٤٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، كلهم في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٤٨٨).

قوله: «الدنيا» مأخوذ من الدنو وهو القرب لقربها من الآخرة، أو من الدناءة والخِسّة وسقوط القيمة لما يحدث فيها من الشرك والكفر بالله والفسوق والفجور، فكانت لذلك دنيئة.

وكانت الدنيا سجن المؤمن لأن المسجون يكون فاقد الحرية، والمؤمن في الدنيا مأمور بالتكاليف والأوامر والنواهي الشرعية، فهي تحد من حريته الطبيعية، فحيثما اتجه وجد القيود التي تمنعه من تعاطي ما تشتهيه نفسه من المحرمات أو ترك الواجبات، فحياته منظّمة محدودة مع رقابة عليه، فكان بهذا الاعتبار كالمسجون وسط هذه الدائرة، وهذا بخلاف الكافر، فحبله على غاربه يرتع في الملذات والشهوات دون قيد ولا حدود، يفعل ما يريد ويترك ما يشاء فيوشك أن يصير إلى سجن القبر، فسجن البرزخ فسجن الجحيم حيث تتضاءل دونه كل السجون.

أما المؤمن فسوف يطلق سراحه ويستريح من هَم الدنيا وبلاياها، ويُكافأ على ما كان فيه من سجن بفضاء فسيح ونعيم وسعادة.

* * *

❋ طرق الجنة والنار

[١٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النارُ بالشهوات»**، وفي رواية **«حُجِبَت»**.

رواه أحمد (٢/٣٨٠)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٠٢)، ومسلم في أول كتاب الجنة (١٧/١٦٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٦)، والدارمي في الرقاق (٢٨٤٦).

قوله: «حُفَّت» هو معنى حُجِبَتْ، أي: أُحيطت.

يعني أن كلاً من الجنة والنار محاط ومحفوف بما يناسبه، فالجنة محاطة بالتكاليف والمشاق التي تكرهها النفس فلا يوصل إليها إلا باقتحام المكاره بالمحافظة على العبادات والمواظبة عليها والوقوف مع ما شرعه الله تعالى مع الصبر على مشاق ذلك، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات التي حرّمها الله عزّ وجل وعلى المصائب والبلايا والتسليم لأوامر الله تعالى ونحو ذلك.

وهكذا النار محجوبة ومحفوفة بالشهوات التي حرّم الله مقارفتها وذلك كالقتل مثلاً والزنا، وشرب الخمر، والكذب، والخيانة، والدياثة، والظلم، والربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، والغيبة، والنميمة، والمكس، والنظر إلى المحرمات... ونحو ذلك من الشهوات المحظورة.

ولهذا الحديث سبب يتضح بالحديث التالي:

[١٩] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعِزّتك لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلها، فأمر بها فحُجِبَتْ بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فرجع إليها وإذا هي قد حُجبتْ بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحدٌ، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: فوَعزتك لقد خشيت أن لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، فأمر بها فحُفّت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها»**.

رواه أحمد (٢/٣٣٢/٣٣٣)، وأبو داود في كتاب السنة (٤٧٤٤)، والنسائي في الأيمان والنذور (٧/٣/٤)، والترمذي في أبواب صفة الجنة (٢٣٧٧)، والحاكم (١/٣٧)، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «يَركبُ بعضُها» أي: يعلو بعضها بعضاً لشدة اندلاعها واشتعالها.

فالنجاة النجاة عباد الله فعلينا بالوقوف عند الأمر والنهي، والصبر على المكاره، وعن الشهوات والتقلل من الدنيا والرغبة فيما عند الله عزّ وجل.

* * *

❊ هوان الدنيا على اللّه تعالى

[٣٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق فمرّ بجدي أسكَّ ميّتٍ فتناوله فأخذ بأذنيه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً، لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت، فقال: «**والله لَلدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم**».

رواه أحمد (٣/٣٦٥)، ومسلم في الزهد (١٨/٩٣).

قوله: «أسَكّ» أي: صغير الأذنين.

[٣١] وعن المستورد بن شداد رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السَّخْلةِ الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**تَرَوْنَ هذه هانت على أهلها حين ألْقَوها**» قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: «**الدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها**».

رواه أحمد (٤/٢٢٩)، والترمذي (٢١٤١)، وابن ماجه (٤١١١)، كلاهما في الزهد بسند حسن وهو صحيح لغيره، ورواه أحمد والدارمي في الرقاق (٣٧٤٠).

قوله: «السخلة» بفتح السين وسكون الخاء، ولد المعز أو الضأن.
قوله: «أهون» أي: أذل وأحقر.

أفاد الحديثان أن الدنيا بلغت من الحقارة عند الله والهوان عليه أعظم من هوان ودناءة ذلك الجدي الناقص الميت القذر عند أهله.

[٢٢] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدُنيا تَعدِلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**.

رواه الترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (٤/١٠) كلاهما في الزهد، وحسّنه الترمذي وصححه.

«البعوضة»: صغار البق كما في النهاية.

وهذا نهاية ما يكون من دناءة الدنيا وخستها، فالحياة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة كيف يكون لها قيمة، فلو كانت لها قيمة لما منّع بها الكفرة واللادينيين وعبدة غيره تعالى، ولما سقاهم منها ولو جرعة ماء، ومع ذلك ترى الناس مفتونين ومغرمين بها بل قد سمّى النبي ﷺ المشغوفين بها عبّدة لها كما يأتي لاحقاً.

* * *

❊ الدنيا ملعونة إلا ما كان منها للّه تعالى

[٢٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلماً»**.

رواه الترمذي (٢١٤٢)، وابن ماجه (٤١١٢) كلاهما في الزهد وسنده حسن.

واللعنة: الإبعاد فإذا وردت في الكافر فمعناها الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، وإذا وردت في المؤمن الفاسق فالمراد بها الإبعاد عن منازل الأبرار وهي هنا مطلق الإبعاد. فهي وما فيها من متاع بعيدة من الله

إلا ما كان منها له تعالى كالإيمان به وطاعته وعبادته وما يؤول إلى ذلك مما يستعان به عليه كالسعي في الحصول على المعيشة للاستعانة بها على العبادة، وكالعلماء بالله تعالى وبأحكامه والمتعلمين العلوم الإسلامية النافعة وذكر الله عزّ وجل وما والاه...

* * *

❊ مثل الدنيا كما صورها النبي ﷺ

[٢٤] عن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا مَثَلُ ما يجعلُ أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بماذا ترجع»**.

رواه أحمد (٤/٢٢٨/٢٢٩/٢٣٠)، ومسلم (١٨/١٩٢)، والترمذي (٢١٤٣)، وابن ماجه (٤١٠٨) كلهم في الزهد.

و«اليم»: البحر.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للدنيا، وبيّن أن كل متاعها وملذاتها... بالنسبة لمتاع الآخرة كالذي يعلق بالأصبع من الماء إذا أدخل البحر فذلك لا شيء بالنسبة لماء البحر.

[٢٥] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً، فانظر ما يخرج من ابن آدم وإن قزّحَه وملّحَه قد علم إلى ما يصير»**.

رواه عبدالله بن أحمد في زوائد مسند أبيه (٥/١٣٦)، وابن حبان بالموارد (٢٤٨٩) بسند صحيح.

قوله: «قزّحه» بتشديد الزاي أي: جعل فيه التوابل والأبازر. قوله: «وملحه» بفتحات مع تخفيف اللام: أي ألقى فيه الملح.

وهذا أيضاً مثل آخر رائع ضرب لخساسة الدنيا فمثلها في الدناءة ثم

اضمحلالها وذهابها كالطعام الذي يصنعه الإنسان ويهيئه ويتناوله سائغاً شهياً هنيئاً مريئاً ثم ينقلب ويخرج منه عذرة قذرة منتنة فهذا مثل الدنيا فهل من مذكر.

ويزيد هذا وضوحاً:

[٢٦] حديث سلمان رضي الله تعالى عنه قال: جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ألكم طعام؟**» قالوا: نعم، قال: «**فلكم شراب؟**» قالوا: نعم، قال: «**فتُصَفُّونَه**» قالوا: نعم، قال: «**وتبرِّدُونَه**»، قالوا: نعم، قال: «**فإن معادهما كمعاد الدنيا يقوم أحدكم إلى خلف بيته فيمسك على أنفه من نتنه**».

رواه الطبراني: قال نور الدين (٢٨٨/١٠): رجاله رجال الصحيح.

[٢٧] وعن الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ قال: «**يا ضحاك ما طعامك؟**» قال: يا رسول الله اللحم واللبن، قال: «**ثم يصير إلى ماذا؟**»، قال: إلى ما قد علمت، قال: «**فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا**».

رواه أحمد (٤٥٢/٣)، والطبراني في الكبير (٨١٣٨) وهو حسن صحيح.

فهذه هي الدنيا في واقعها كما صوّرها لنا نبينا ﷺ.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات ضرب الله فيها مثلاً لهذه الحياة الزائفة تحذيراً من الركون إليها وتزهيداً في الاطمئنان إليها فمن ذلك:

قوله تعالى في سورة يونس آية (٢٤): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ومعنى الآية: إنما صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها وذهاب نعيمها واغترار الناس وخداعهم بنضارتها وملذاتها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضه ببعض من جملة ما يأكله

الناس من الحبوب والثمار والبقول والفواكه وما يأكله الإبل والبقر والغنم من الكلأ والتبن والشعير، حتى إذا أخذت الأرض حُسنها وبهجتها وتزخرفت وتزيّنت بالأزهار والحبوب والثمار وظنّ أصحابها الفلاحون والمزارعون أنهم متمكنون من الانتفاع بها محصلون لثمارها وغلتها جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً فصيّرناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها كأنها لم تكن عامرة قائمة قبل ذلك. فمثل الدنيا مع أصحابها كمثل الزراع مع مزروعاتهم إذا أشرفوا على تحصيلها جاءتهم ريح عاصفة، أو سيول عارمة فحصدت مزارعهم حصداً.

ومنها قوله عزّ وجل في سورة الكهف آية (٤٥): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾.

ومعناه: بيّن يا نبيي للناس مثل هذه الحياة في فنائها واضمحلالها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافياً وغزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، فأصبح ذلك النبات وصار بعد بهرجه الخادع متفتتاً تسفه الرياح يميناً وشمالاً فالدنيا مثل ذلك تماماً.

ومن ذلك قوله عزّ وجل في سورة الحديد آية (٢٠): ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

ومعنى الآية: اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب يُتعبُ الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب وشغل للإنسان بشغله عن الآخرة وطاعة الله وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة الفارهة، والمنازل الرفيعة العالية المزخرفة، والمراكب البهية الغالية، ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أترى أهل القصور إذا أُميتُوا ... بنَوْا فوقَ المقابر بالصخورِ
أبَوْا إلا مباهاة وفخراً ... على الفقراء حتى في القُبُورِ

وذلك كمثل مطر غزير أصاب أرضاً فأعجب الزرّاع نباته لخضرته بكثرة الأمطار ثم ييبس بعد خضرته ونضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيماً متكسراً تذروه الرياح، فكذلك حال الدنيا. وستأتي آيات في التزهيد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها لاحقاً إن شاء الله تعالى، وقد أفاض أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى ورضي عنه في الإحياء في الكلام على الدنيا وصورها في أبشع صورة وضرب لها أمثالاً مؤثرة كما يعلم من مراجعة ربع المهلكات من الإحياء.

❊ ❊ ❊

❊ التزهيد في الدنيا

[٢٨] عن عبدالله بن الشخير رضي الله تعالى عنه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدّقْتَ فأمضَيتَ، أو أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ**».

رواه أحمد (٤/٦٤/٦٥)، ومسلم (١٨/٩٤)، والترمذي (٢١٦١) كلاهما في الزهد، ورواه النسائي في الكبرى (٦/٥٢١)، والترمذي في التفسير أيضاً (٣١٣٦).

إن أمر الإنسان لعجيب، فهو حريص على الدنيا والاستكثار منها والتفاخر بها، وليس له من ذلك إلا ما يتصدق به وينفقه منها في أبواب الخير فيدخره لآخرته أو ما ينفقه على نفسه في حياته مما يقيم به بنيته، أما ما عدا ذلك مما هو شحيح به وحريص على كنزه وإدخاره فلا حظ له فيه بل سيذهب ويتركه وراءه لورثته ثم يحاسَب عليه.

[٢٩] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يقولُ العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للناس».

رواه مسلم في الزهد (١٨/٩٤).

قوله: «فاقتنى» أي: ادخره لآخرته.

[٣٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يتبَعُ الميّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى واحدٌ، يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».**

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٥٣)، ومسلم (١٨/٩٥)، والترمذي (٢١٩٧) كلاهما في الزهد، فالعاقل هو الذي يعمل جاهداً لإنقاذ مُهْجَتِهِ، ويدأب على تقديم أنواع القرب ويتوسع في الإكثار من العمل الصالح فإن هذا هو الذي سيبقى معه ويصاحبه في قبره.

[٣١] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ذِئبانِ جائعانِ أُرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».**

رواه أحمد (٣/٤٦٠)، والترمذي في الزهد (٢١٩٤)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٣) وابن حبان بالموارد (٢٤٧٢)، وسنده صحيح.

ففي الحديث ذم الحرص على المال، والجاه، والرئاسة، والمراكز الشرفية، فإن ذلك أخطر شيء على دين المسلم وأشد إفساداً من إرسال ذئبين جائعين لقطيع من الغنم. وهذا الحديث أفرده بالشرح ابن رجب وهو مطبوع ضمن الرسائل المنيرية.

[٣٢] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسك شرٌ لك، ولا تُلامُ على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».**

رواه أحمد (٥/٢٦٢)، ومسلم في الزكاة (٧/١٢٦)، والترمذي في الزهد (٢١٦٣).

«أن تبذل»: ضبطه النووي بفتح الهمزة. و«الفضل»: هو الزائد على حاجتك وحاجة عيالك. و«الكفاف»: القوت الذي يكفي الإنسان عن الناس ويغنيه عنهم.

ومعنى الحديث أن إعطاء ما يفضل عن حاجة الإنسان وحاجة أهله وذويه مما تجب عليه نفقتهم خير له عند الله عزّ وجل لبقاء ثوابه، وإن أمسكه وكنزه كان شراً له لأنه إن أمسك ذلك عن واجب استحق العقاب عليه وإن أمسك عن المستحب فقد فوّت مصلحة نفسه في آخرته ونقص ثوابه وذلك كله شر، نعم لا يُلام الإنسان على تحصيل وكسب وإدخار ما يكفيه عن الناس من الضروريات.

وقوله: «وابدأ بمن تعول» معناه: ابدأ بالإنفاق على من تلزمك نفقته من نفسك وأهلك وعيالك.

[٣٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تتَّخِذُوا الضَّيعةَ فترغبوا في الدُّنيا»**.

رواه أحمد (١/٣٧٧/٤٢٦/٤٤٣)، والترمذي في الزهد (٢١٤٨)، وابن حبان (٢٤٧١)، والحاكم (٤/٣٣٢) وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«الضيعة»: بفتح الضاد وسكون الياء، المزرعة والبستان وما يكون منه معاش الإنسان ولو من تجارة وصناعة وأكثر ما تطلق على العقار والأرض المغلة، والمراد بالنهي عن اتخاذ الضيعة هو التوغل في الاشتغال بالدنيا والإخلاد إليها والانهماك في طلبها مع الذهول والغفلة عن الآخرة، أما ما كان في غير ذلك من طلب المعاش الضروري فمحبوب ومطلوب.

* * *

❋ فضل الكفاف والقناعة

[٣٤] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلحَ مَن أسلمَ، ورُزِقَ كفافاً وقنَّعَهُ الله بما آتاه»**.

رواه أحمد (١٧٣/١٧٢/١٦٨/٢)، ومسلم في الزكاة (١٤٥/٧)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤١٣٨) كلاهما في الزهد.

[٣٥] وعن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هُدِي للإسلام وكان عيشُه كفافاً وقَنِع**».

رواه أحمد (١٩/٦)، والترمذي في الزهد (٢١٧٠)، وابن حبان بالموارد (٢٥٤١)، والحاكم في الإيمان (٣٥/٣٤/١) وسنده صحيح، وصححه الترمذي والحاكم، ووافقه الذهبي.

الحديثان يدلان على أن سعادة الإنسان هو أن يوفقه الله عزّ وجل ويهديه للإيمان به وطاعته ويعطيه من العيش ما يكفيه فلا مال له زائد يطغيه ولا عنده فقر مدقع ينسيه ثم يُتم عليه النعمة فيجعله قانعاً راضياً بما أعطاه ربه تعالى.

[٣٦] وعن عبيدالله بن مِحْصَنٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ، معافى في جسمه، عنده قوتُ يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**».

رواه الترمذي (٢١٦٦)، وابن ماجه (٤١٤١) كلاهما في الزهد، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) وحسّنه الترمذي لشاهد له عن أبي الدرداء.

رواه ابن حبان (٢٥٠٣).

«سربه»: ضبط بكسر السين وسكون الراء، أي: آمناً في نفسه أو أهله وعياله، وبفتح السين أي: في مسلكه وطريقه وبفتحتين أي: في بيته.

وعلى أيٍّ، فمن أوتي هذه الثلاث: الأمن على النفس والأهل والمال، والمعافاة في الجسم، وقوت اليوم كان كمن أعطي الدنيا بأتمها فينبغي له أن لا يتطلع لشيء آخر.

[٣٧] وعن عثمان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس**

لابن آدم حقٌّ في سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكنه، وثوبٌ يواري عورته، وجلف الخبز والماء».

رواه أحمد (٦٢/١)، والترمذي في الزهد (٢١٦١)، والحاكم في الرقاق (٣١٢/٤)، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وكذا صححه العراقي في المغني.

«الجلف»: بكسر الجيم هو الخبز ليس معه إدام.

والحديث يفيد أنه لا حاجة للإنسان تدعوه إلى تحصيل غير هذه الأشياء الأربعة الضرورية لأن بها قوام بنيته فما زاد عليها فهو فضول.

واختلفوا في المراد بالحق في الحديث فقيل: هو ما وجب للإنسان من الله تعالى من غير تبعة في الآخرة ولا سؤال، فمَن اكتفى بذلك لم يسأل عنه لأنه من الحقوق التي لا بد للنفس منها أما ما عداها مما فيه حظوظ النفس فسيُسأل عنها.

وقيل: المراد بالحق هو ما يستحقه الإنسان من الله عزّ وجل لافتقاره إليه وتوقف معيشته عليه وهو قريب من الأول.

والمقصود: هو فضل القناعة وترك ما زاد على الضروريات من المسكن، والملبس، والمأكل، والمشرب، والمركب، وإن كان ذلك مباحاً لأن الإكثار منه قد يؤدي إلى فساد النفس وطغيانها ووقوعها في المحرمات.

[٣٨] وعن أبي وائل رحمه الله تعالى قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده فقال: يا خال، ما يبكيك؟ أوجعٌ يشتزك؟ أو حرص على الدنيا؟ قال: كلٌّ لا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً لم آخذ به، قال: **«إنما يكفيك من جمع المال خادمٌ ومركبٌ في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعتُ».**

رواه أحمد (٤٤٤/٤٤٣/٣) (ج٢٩٠/٥)، والترمذي (٢١٤٧)، وابن ماجه (٤١٠٣) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٤٧٨) وسنده

صحيح وله شواهد عن أنس وخباب، انظر تهذيبي لجامع الترمذي (٢١٤٧).

«يشنزك»: بضم الياء وكسر الهمزة أي: يقلقك وزناً ومعنى. وقوله: «عهد إليّ» أي: أوصاني.

عهد إليه النبي ﷺ أن يكتفي من جمع المال بخادم ومركب في سبيل الله، وهكذا نرى النبي ﷺ يرشد أصحابه وينصحهم ويزهدهم في الحياة وأن لا يأخذوا منها إلا مثل زاد الراكب.

[٣٩] وعن أبي عبدالرحمٰن الحُبُلي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص وسأله رجلٌ فقال: ألستَ من فقراء المهاجرين؟ قال: نعم، فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١٠٩/١١٠) هكذا موقوفاً.

فانظر أيها المسلم إلى همّة هذا الصحابي وإلى ما كان يعتقده في هذه الحياة وأن من كانت له زوجة ومسكن عنده من الأغنياء، فمن زاد على ذلك خادماً كان من الملوك. فهذا نهاية ما يكون من الزهد، وهذا ما تعلمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ.

* * *

❁ الغنى غنى النفس

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنَى غِنى النفس»**.

رواه أحمد (٢/٢٤٣) وفي مواضع، والبخاري في الرقاق (١٤/٤٩)، ومسلم في الزكاة (٧/١٤٠)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤١٣٧) كلاهما في الزهد.

«العرض»: بفتحتين، متاع الدنيا، ومعناه: أن الغنى ليس بالثراء واقتناء الأموال وكثرة متاع الدنيا وحطامها، وإنما الغنى في الحقيقة هو القناعة ورضا النفس بما تيسّر مع طمأنينة القلب، فمَن أوتي هذا فهو الغنى حقاً، وإن كان أفقر البشرية مالاً، وعكسه هو الفقير مهما كانت ثرواته وأمواله وأملاكه فهو دائماً يتطلع إلى المزيد من الثراء وذلك يجعله فقير القلب مدى حياته حتى يفاجئه الموت كما يدل لذلك الحديث التالي:

[٤١] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أن لابن آدم مثل وادٍ مالاً لأحبّ أنّ له إليه مثله، ولا يملأ عينَ ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»**.

قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا؟

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٣٠/٣١)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٩).

[٤٢] ونحوه عن أنس رضي الله تعالى عنه بلفظ: **«لو كان لابن آدم واديان من مال** ـ وفي رواية: **من ذهب** ـ **لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب...»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي في الزهد (٢١٥٧).

وفي الباب عن ابن الزبير في البخاري (١٤/٣٢)، وعن أبي هريرة عند ابن ماجه في الزهد (٤٢٣٥) بسند صحيح.

[٤٣] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأُنسِيتها غير أني قد حفظت منها: **«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**.

رواه مسلم في الزكاة (٧/١٤٠).

قوله: «لابتغى» أي: طلب.

ففي هذا الحديث بيان ما جبل عليه ابن آدم من الحرص على الازدياد من المال وأن الإكثار منه لا يزيده إلا حرصاً وشرهاً ورغبة في كنزه وجمعه، وأنه لا يملأ قلبه إلا الموت ومواراته في التراب.

وفي قول ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا، يعني: «**لو كان لابن آدم...**» إلخ.

وقد صرّح أبو موسى في حديثه بأنه حفظ ذلك من جملة القرآن ومما كان قد أنسيه كما جاء في صحيح البخاري عن أُبي بن كعب أيضاً قال: كنا نُرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾.

فذلك كله يدل على أن لفظ هذا الحديث كان قرآناً ثم نُسخ لفظه وبقي معناه... وقد علّق الحافظ على ما في الباب نقلاً عن ابن بطال بقوله: وفي أحاديث الباب ذم الحرص والشره، ومن ثم آثر أكثر السلف التقلل والقناعة باليسير، والرضا بالكفاف، ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال والتقريع بالموت الذي يقطع ذلك، ولا بد لكل أحد منه، فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ وقد شرحه بعضهم على أنه كان قرآناً ونسخت تلاوته لما نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فاستمرت تلاوتها فكانت ناسخة لتلاوة ذلك، وأما الحكم فيه والمعنى فلم ينسخ، إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كنسخ الحكم، والأول أولى وليس ذلك من النسخ في شيء. قال الحافظ: قلت: يؤيد ما ورد ما أخرجه الترمذي من طريق زر بن حُبَيْش عن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال له: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾** قال: وقرأ فيها: **إن الدين عند الله الحنيفية السمحة**» وفيه: وقرأ عليه: «**لو أن لابن آدم وادياً من مال...**» الحديث، وفيه: «**ويتوب الله على من تاب**» وسنده جيد... إلخ.

* * *

[٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعِسَ عبدُ الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**.

رواه البخاري في الجهاد، وفي الرقاق (٢٩/١٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦).

«تعس»: بكسر العين وتفتح، عثر وانكبّ على وجهه. «الخميصة»: ثوب من خز أو صوف معلّم أو من ثوب أسود. «انتكس» أي: انقلب على رأسه. «وإذا شيك» أي: أصيب بشوكة فلا تزال بالمنقاش.

وقوله: «تعس عبد الدينار...» إلخ، فيه ذم بالغ لمن همّه المال والتهافت على حطام الدنيا حتى كأنه عبد له لأن العبودية هي غاية تقديس الشيء ومحبته وإيثاره والتذلل له، فمَن أخلد إلى الدنيا وآثرها على الآخرة كان ولا شك عبداً لها، فإذا أُعطي رضي وإن لم يُعط سخط، ولهذا دعا النبي ﷺ على من هذا وصفه بالتعاسة والخيبة والهلاك والانكباب على الوجه وأنه إذا أصيب بشوكة لا أخرجها الله منه ولا عافاه منها ولا أوجد له من يخرجها منه بالمنقاش، لأن من كان كذلك أصيب بالبطر والطغيان ونسيان الآخرة فخسر دنياه وآخرته.

وفي قوله ﷺ: **«تعس وانتكس»** نقل الحافظ عن الطيبي أنه قال: فيه الترقي في الدعاء عليه لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه فإذا انتكس انقلب على رأسه.

[٤٥] وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال: ورأى سكة وشيئاً من آلة الحرث سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذلّ»**.

رواه البخاري أول المزارعة (٤٠٢/٥).

وقوله: «سكة» بكسر السين، هي الآلة التي يحرث بها.

وظاهر الحديث يدل على ذم الحراثة مطلقاً وأن من اشتغل بذلك أذلّه الله تعالى، والأمر على خلاف ذلك، بل المراد بذلك والله أعلم ما أشار إليه البخاري في الترجمة بقوله: «باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به» فيكون المذموم من ذلك ما يؤدي إلى ترك الحقوق الواجبة أو مجاوزة الحد في الاشتغال بالزراعة حتى تترك الواجبات الأولية، ومنها الجهاد في سبيل الله والاستعداد للعدو فإن أي أمة أو قوم أهملوا هذا الجانب واشتغلوا بالحياء أذلّهم الله بتسلُّط عدوهم عليهم.

ويزيد هذا وضوحاً الحديث التالي وهو:

[٤٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتُم أذنابَ البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتُم الجهادَ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**.

رواه أحمد (٤٢/٢٨/٢)، وأبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي (٣١٦/٤) من طرق هو بها صحيح.

«العِينة»: بكسر العين، نوع من البيوعات الفاسدة، وصورته: أن يبيع الرجل سلعته إلى أجل، ثم يبيعها المشتري لبائعها الأول بثمن أقل معجلاً. وهو من أقبح طرق أكل أموال الناس بالباطل.

فالحديث واضح في أن لزوم الكسب والحراثة والزراعة المؤدي إلى إهمال باب الجهاد والإعراض عن القيام بشؤون الدين ومهامه من أسباب الذل، وأن كل قوم كان هذا سبيلهم وشأنهم كانوا أغرق في الخزي والذل كما هو واقع المسلمين اليوم فلا يرفع عنهم هذا الذل المخيّم عليهم إلا بالرجوع إلى دينهم، وهيهات هيهات.

* * *

❊ ذم الإكثار من الدنيا ممن لا يجود بها

[٤٧] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو في ظل الكعبة وهو يقول: «**هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأخسرون ورب الكعبة**» قال: فقلت: مَن هم بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا**».

وفي رواية: «**إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه، وقليل ما هم**»، وفي رواية: «**الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وكسبه من طيب**».

رواه أحمد (١٥٨/١٥٢/٥)، والبخاري في الأيمان والنذور (٣٣٢/١٤) وفي الزكاة، ومسلم (٧٦/٧٥/٧)، والترمذي (٥٤٩)، والنسائي (٨/٥) كلهم في الزكاة.

والرواية الثانية: رواها البخاري في الرقاق (٤٢/٣٨/١٤).

والثالثة: رواها ابن ماجه في الزهد (٤١٣٠) بسند صحيح، ومثله عنده (٤١٣١) عن أبي هريرة بسند صحيح أيضاً كما قال البوصيري.

وقوله: «الأكثرون...» إلخ، ولو كان من الحلال. وقوله: «هم الأخسرون» و«الأسفلون» ذلك يدل على أن الأغنياء وذوي الثروات هالكون خاسرون سافلون في جهنم إلا من أدّى حق الله في أمواله وتوسّع في الإنفاق في أبواب الخير فهذا ماله نِعم المعين له على دينه كما في الحديث التالي:

[٤٨] فعن عمرو بن العاص قال: بعث إليّ النبيُّ ﷺ فأمرني أن آخذ على ثيابي وسلاحي ثم آتيه، ففعلت، فأتيته وهو يتوضأ فصعَّد إليّ البصر ثم طأطأ ثم قال: «**يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيُغنِمك الله وأرْغَبُ لك رغبة من المال صالحة**»، قلت: إني لم أُسْلِم رغبة في المال، إنما أسلمتُ رغبةً في الإسلام فأكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عَمْرو نِعم المال الصالح للمرء الصالح**».

رواه أحمد (٤/٢٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والحاكم بسند صحيح.

قوله: «وأزْعَبُ» بفتح العين، أي: أقطع لك قطعة من المال. قوله: «نِعم المال» أي: نعم المال الحلال الطيب مطية وعوناً للرجل الصالح صاحب الروح الطيبة، فالأكثرون أموالاً هم الأقلون ثواباً والأخسرون مالاً والأسفلون يوم القيامة فإن ثروات الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب فالمكثرون على خطر يوم القيامة على كل الأحوال والصالحون فيهم قليل.

* * *

❊ التحذير من فتنة المال والدنيا

[٤٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُستخلفُكُم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**».

رواه أحمد (٣/١٩/٢٢/٨٤/٤٦)، ومسلم في الرقاق (١٧/٥٥).

قوله: «فاتقوا» أي: تحفظوا من فتنتهن وغوائلهن وتجنّبوا ذلك ما استطعتم.

إن مظاهر الدنيا بهيجة حلوةٌ خَضِرةٌ تحبها النفوس وتميل إليها بالطبع كما تميل للفاكهة الخضراء الحلوة فيجب الحذر منها فإن ظاهرها حلو أخضر وباطنها خبيث قذر.

وقد جعلها الله عزّ وجل للإنسان مظاهر للابتلاء واستخلفه فيها لينظر تعالى ماذا يكون أمره فيها هل يطيعه فيتحفظ منها أم يعصيه فيتبع شهواتها وينخدع بنضارتها وملذاتها.

ولخطورتها أمرنا النبي ﷺ أن نتحفظ منها ونتجنب غوائلها ومصايدها

وقرنها بالنساء لأنهما شقيقتان في الفتنة والخطورة، بل فتنة النساء أشد وأخطر على الرجل كما قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضرُّ على الرجال من النساء**».

رواه الشيخان، ويأتي في الفتن.

وقدّمنا حديث مسلم: «**إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان، وإذا أدبرت أدبرت في صورة شيطان**»، فماذا يكون الأمر إذاً مع هذا الجنس الخطير الذي جعله النبي ﷺ يُقبل ويُدبر في صورة شيطان.

وإنما قرن النبي ﷺ النساء بالدنيا لأنهن من جملة الدنيا التي يتمتع بها كما قال ﷺ: «**الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها الزوجة الصالحة**».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وقد تقدم.

[٥٠] وعن خَوْلة بنت قيس وكانت تحت حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا المال خَضِرةٌ حلوةٌ مَن أصابه بحقه بورك له فيه، ورُبَّ مُتَخَوّض فيما شاءت به نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار**».

رواه عبدالرزاق (٦٩٦٢)، والحميدي (٣٥٣)، وأحمد (٦/٣٦٤/٣٧٨/٤١٠)، والترمذي في الزهد (٢١٩٢)، وابن حبان (٤٥١٢) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وأصله في الخمس من صحيح البخاري (ج٧/٢٧) بلفظ: «**إن رجالاً يتخوّضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة**».

قوله: «متخوض» أي: متصرف وهو معنى رواية البخاري «يتخوضون» أي: يتصرفون.

وفي الحديث التحذير من غوائل الدنيا والتصرف فيها بغير ما شرعه الله تعالى، وأن من أخذ المال من طريقه المشروع، وأنفقه في مصارفه المأمور بها بارك الله له في ماله، وإلا كان مآله النار لأنه خاض في مال الله ورسوله بالباطل وتصرف فيه بالتشهّي. ويزيد هذا وضوحاً وتفصيلاً الحديث التالي:

[٥٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرجُ الله لكم من بركات الأرض»** قيل: وما بركات الأرض؟ قال: **«زهرةُ الدنيا»** فقال رجل: هل يأتي الخيرُ بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننتُ أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: **«أين السائل؟»** قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: **«لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَضِرةٌ حُلْوةٌ، وإن كل ما أنبتَ الربيعُ يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِرة، أكلتْ حتى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشمسَ اجْتَرّتْ وثلطَتْ وبالت، ثم عادتْ فأكلت، وإن هذا المالَ حلوةٌ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه، فنِعْمَ المعونة هو، وإن أخذه بغير حق كان كالذي يأكل ولا يشبع»**.

رواه أحمد (٣/٩١)، والبخاري في الرقاق (١٤/٢٠/٢٢) وفي الزكاة وفي الجهاد، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٥).

قوله: «زهرة الدنيا» أي: زينتها وبهجتها ومتاعها من العين، والثياب، والزروع، والمراكب، وغير ذلك مما يفتخر الناس بحسنه. وقوله: «حَبَطاً» بفتحتين، والحبط بالحاء انتفاخ البطن من كثرة الأكل. وقوله: «أو يُلِمُّ» بضم الياء، أي: يقرب من الهلاك. وقوله: «إلا آكلة الخضرة» بفتح الخاء وكسر الضاد، وهو ضرب من الكلأ يعجب الماشية. وقوله: «خاصرتاها» تثنية خاصرة وهما جانبا البطن من الحيوان. وقوله: «اجترّت» أي: أخرجت ما أكلته من بطنها وأعادت مضغه. قوله: «وثلطت» بفتحات، أي: ألقت ما في بطنها رقيقاً.

ومعنى ذلك أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت أخرجته من بطنها واجترّت فازداد نعومة ثم تستقبل الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت، أما من لم تتمكن من ذلك، فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً.

ونستفيد من هذا الحديث الشريف أن النبي ﷺ علم بإعلام من الله عزّ وجل أن أخطر شيء يخافه على أمته هو بسط الدنيا عليهم واتساع

خيراتها وبركاتها وأن ذلك وإن كان خيراً، والخير لا يأتي إلا بالخير، لكن الخير قد يعرض له الشر فإخراج بركات الأرض وزهرتها وبهجتها ونضارتها هو خير بلا شك لمن أحسن التصرف فيه، لكنه قد ينقلب شراً على من يخوض فيه بغير حق فيجعله هالكاً خاسراً، ولذلك ضرب النبي ﷺ مثلين لذلك، أحدهما: للمسرف المُفرط في جمع الدنيا المانع من إنفاقها في وجهها والخائض فيها بلا حدود ولا قيود، ومثل لهذا الصنف بالدابة التي تأكل وتبالغ في ذلك ولا تحتاط لنفسها فيقتلها انتفاخ بطنها بما أفرطت فيه من المرعى. ثانيهما: المقتصد في الكسب والجمع وانتفاعه بذلك وصرفه في وجوهه ومهامه، ومثل لهذا بالدابة التي ترعى الخضرة فإذا امتلأت خاصرتاها احتاطت لنفسها فجلست في الشمس فاجترّت ومضغت ما رعته مرة ثانية فرقّ في بطنها فألقته فنجت وسلمت.

وبذلك تبين للسائل أن الخير قد ينقلب شراً، فزهرة الدنيا خير، أي: خير لمن اتقى الله، لكنه قد يصير لصاحبه شراً قاتلاً.

ولذلك ختم النبي ﷺ ضرب المثلين بقوله: «**وإن هذا المال حلوة خَضِرةٌ مَن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنِعْم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**» ومثل هذا ما جاء في حديث حكيم بن حزام التالي وهو:

[٥٢] عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**إن هذا المال خضرة حلوة، فمَن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع**».

رواه أحمد (٤٣٤/٣)، ومسلم في الزكاة (١٢٦/٧)، وكذا البخاري.

«بإشراف نفس» أي: مع تطلُّع وشره، فكل من كان فيه شره وحرص على المال وتطلع إليه بأي طريق ولم يقتصد في ذلك كان كالذي يكون به داء لا يشبع بسببه وإن ملأ بطنه.

قال النووي رحمه الله تعالى: وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده

الحث على التعفُّف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف وإن كان قليلاً، والإجمال في الكسب وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه فإنه لا يبارك له فيه...

ولينظر للتوسع في شرح حديث أبي سعيد «الفتح» ففيه فوائد هامة.

[٥٣] وعن عَمْرو بن عوف وكان شهد بدراً مع رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين فسمعت الأنصار بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: «**أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء؟**» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبْشِروا وأمّلوا ما يَسُرُّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتُهلككم كما أهلكتهم**» وفي رواية: «**فتلهيكم كما ألهتهم**».

رواه أحمد (٤/١٣٧/٣٢٧)، والبخاري في الجزية وفي المناقب وفي الرقاق (١٤/١٩/٢٠)، ومسلم في الزهد (١٨/٩٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧).

التنافس في الشيء: الرغبة فيه مع حب الانفراد به والصراع من أجله.

والحديث يدل على أن بسط الدنيا سبب في التنافس عليها وذلك من أسباب هلاك الدين وأن الأقدمين كان من أسباب هلاكهم التنافس في الدنيا وذلك الذي خشيه النبي ﷺ على الأمة وهذا بخلاف الفقر وقلة ذات اليد، فإن ذلك مأمون لأن مثله لا يقع عليه التنافس والتحاسد والتقاتل والتقاطع، ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله: «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» فبسط الحياة فتنة أي فتنة كما في الحديث التالي:

[٥٤] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن لكلِّ أمّةٍ فتنة، وفتنةُ أمّتي المال**».

رواه الترمذي في الزهد (٢١٥٦)، وحسّنه وصححه وابن حبان (٢٤٧٠)، والحاكم (٤/٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

وإنما كان المال فتنة لأن النفوس مفطورة على حبه وإيثاره والضن به، والتقاتل والمعاداة من أجله.

فالعاقل من جنّبه الله تعالى فتنة الدنيا ولم يغتر بمظاهرها وبهجتها اعتماداً على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تخدعنكم بحلوتها وخضرتها وزينتها وملذاتها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، فيا خسارة من نسي الآخرة ورضي بالحياة الدنيا واطمأن بها... وغفل عما يراد منه فكان ممن قال الله عزّ وجل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾.

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

* * *

❊ ذم كثرة الأكل والمبالغة في الترف والتنعُّم

[٥٥] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما ملأ آدميٌ وعاء شرًا من بطنه، بحَسْب ابن آدم أكلات يُقمن صُلبَه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفَسِه»**.

رواه أحمد (٤/١٣٢)، والترمذي في الزهد (٢١٩٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٤/٣٣١)، وحسنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«وعاء»: آنية. «بحسب» أي: كافيه. «أُكُلات»: بضم الهمزة والكاف، أي: لقيمات كما في رواية لابن ماجه وغيره. «صلبه» بضم الصاد أي: ظهره.

ومعناه: أن شر ما يملأه الإنسان من الأواني بطنه لأن ذلك سبيل إلى فساد الجسم والروح معاً، فالجسم يظهر فيه كثرة الأمراض الناشئة عن دوام البطنة والتخم والروح تضعف نورانيته، وبذلك يقسو القلب ويبدو على الجسم الكسل والفتور ولهذا أرشدنا نبينا ﷺ إلى ما فيه صلاحنا في ذلك فوجهنا إبقاء على قلوبنا... أنه إذا كان ولا بد من تجاوز المفروض في الأكل فلتكن القسمة ثلاثية ثلث الأحشاء للطعام، وثلث للشراب، والثلث الباقي للنَّفَس.

على أن كثرة الشبع والإفراط في التنعُّم والترفه من أسباب البُعد عن الله عزّ وجل، بل المتصف بذلك من شرار الخلق كما جاء في الحديث التالي:

[٥٦] فعن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام أن رسول الله ﷺ قال: **«إنّ من شرار أمّتي الذين غُذُّوا بالنعيم الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب، يتشدّقون بالكلام»**.

رواه الإمام أحمد في الزهد رقم (٤٠٠) هكذا مرسلاً بسند حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد أيضاً رقم (٢٦٢) عن عروة بن رويم مرسلاً بسند صحيح بلفظ: **«شرار أمتي الذين وُلدوا في النعيم وغُذُّوا بالنعيم، هِمَّتهُم ألوان الطعام»**.

فالحديث حسن بطريقيه.

[٥٧] وجاء عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في رسالة بعثها إلى عتبة بن فرقد أحد عماله قال له فيها: «وإياكم والتنعُّم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير»، وفي رواية: «وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعُّم وزي العجم».

رواه أحمد (١٦/١)، والبخاري (١٢/٤٠٠/٤٠١)، ومسلم (٤٦/١٤) والسياق له، والرواية الثانية أخرجها الإسماعيلي في صحيحه كما في الفتح.

فالمبالغة في التنعُّم والبذخ ومجاوزة الحد مذمومة شرعاً وعقلاً، ولخطورة ذلك كان النبي ﷺ يحذّر من ذلك كثيراً، وأخبر أصحابه بما سيرونه من ذلك في مستقبلهم بعد فقرهم وحاجتهم.

[٥٨] فعن طلحة النضري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث: «**ولكن عسى أن تُدركوا زماناً ـ أو من أدركه منكم ـ يُغْدى ويُراح عليكم بالجِفان، وتَلْبَسون مثل أستار الكعبة**».

رواه أحمد (٤٨٧/٣)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٩/٥٤٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

[٥٩] ويشهد له أيضاً حديث الإمام علي عليه السلام عنه ﷺ قال: «**كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة، وراح في حلة، ووُضعت بين يديه صَحْفَةٌ، ورُفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة**» قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونُكْفى المؤونةَ، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ**».

رواه الترمذي (٢٢٩٧) في صفة القيامة، وحسّنه، وهذا القدر صحيح بسابقه.

وقد صدق الواقعُ هذا الحديثَ وما قبله منذ القرون الأولى فأصبح الناس ولا يزالون في نعيم وترف وتوسُّع زائد في المآكل والمشارب والملابس... ولم يبقَ الأمر مقصوراً على ما أخبر به ﷺ بل تفاقم الشأن وجاوز الحد لا في الأكل ولا في الألبسة... فمن الناس من له أكثر من عشرة ملابس... وفي طبقات من الناس من توضعُ بين يديه في كل وَجْبَةٍ عدّةُ أواني، في كل آنية صنفٌ من الأطعمة، وهذا بالإضافة إلى أواني المشتهيات وأنواع الفواكه.

حقاً إننا أصبحنا فراعنة جبابرة يوشك أن يخسف الله بنا لأننا تجاوزنا الحدود. غفرانك يا ربنا.

[٦٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: تَجَشَّأ رجلٌ عند النبي ﷺ فقال: «**كُفَّ عنا جُشاءك، فإن أكثرهم شِبَعاً في الدنيا أطولُهم جوعاً يوم القيامة**».

رواه الترمذي (٢٠٩٩) في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٣٥٠)، وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شواهد يحسن بها. وانظر تهذيبي للجامع في الرقم السابق.

«الجشاء»: بضم الجيم، صوت مع ريح يخرج صاعداً من المعدة بعد امتلائها، وهو يدل على أن الشبع والإفراط في الأكل المذمومَيْن هو أن يصير الشبع والتنعُّم عادة للإنسان والإكثار من ذلك، أما الشبع المرة بعد المرة والإقلال من ذلك فلا يدخل في هذا الذم لقوله ﷺ: «**فإن أكثرهم شبعاً**... إلخ».

* * *

❊ ذم البناء فوق الحاجة

[٦١] عن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، قال: ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبني حائطاً له، فقال: إن المسلم لَيُؤْجَرُ في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب.

رواه البخاري في المرضى (٢٣٣/١٢)، وفي الأدب المفرد (٤٥٤)، ومسلم في الذكر والدعاء باب تمنِّي الموت (ج٨/١٧)، ورواه الترمذي (٢٣٠٣)، وابن ماجه (٤١٦٣) كلاهما في الزهد عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤجر الرجلُ في نفقته كلها إلا في التراب**»، وفي رواية: «**في البناء**» وحسّنه الترمذي وصححه.

وظاهر هذا الحديث يقتضي ذم البناء على الإطلاق، وأنه لا يثاب عليه صاحبه، لكن هذا محمول على ما لا تمس إليه الحاجة مما لا بد منه لاتقاء الحر والبرد والتحفُّظ من اللصوص أو كان طلباً للعيش أو بناء المساجد

والمدارس الإسلامية، والمستشفيات ونحو ذلك مما فيه مصلحة خاصة أو عامة فإن كل ذلك يؤجَر عليه المسلم.

[٦٢] وقد جاء عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: **«أمَا إنّ كل بناء وبالٌ على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٧) ورجاله ثقات غير رجل وله شاهد عن واثلة عند الطبراني، أي: إلا ما لا بد منه فإنه لا يكون وبالاً على صاحبه بل يكون مأجوراً عليه حسب نيته.

وقد كان السلف يتحاشون عن تتبُّع البناء ورفعه والإكثار منه تورعاً، وتركاً له رغبة فيما هو أفضل واتباعاً لرسول الله ﷺ في زهده، وورعه، ورغبته عن الدنيا.

[٦٣] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيتني مع النبي ﷺ بنيتُ بيدي بيتاً يُكنُّني عن المطر، ويُظِلُّني من الشمس، ما أعانني عليه أحدٌ من خلق الله.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٣٣٦/٣٣٧).

[٦٤] وعنه قال: والله ما وضعت لبنة على لبنة، ولا غرستُ نخلةً منذ قبض النبي ﷺ.

رواه البخاري أيضاً (١٣/٣٣٧).

وهذا كله محمول على الزهد وترك المباح وما زاد على الحاجة. نعم البناء الذي اعتاده الناس، وخاصة ما فشى في هذه العصور مما تفنن فيه الناس هو من المنكرات العظيمة ومن التبذير والإسراف المقيت الذي يُبغضه الله ولا يرضاه. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

* * *

[٦٥] عن محمود بن لبيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«اثنتان يكرههما ابن آدم، يكره الموت والموت خيرٌ للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال وقلةُ المال أقل للحساب»**.

رواه أحمد (٤٢٧/٥) من طريقين وسندهما صحيح.

في الحديث فضل قلة المال والقناعة باليسير رغم أن الإنسان ولو كان مؤمناً يكره الفقر والفاقة وذلك خير له من الثراء لأن القليل حسابه يسير.

[٦٦] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما طلعت شمسٌ قط إلا بجنبتيها ملكان يناديان إنهما لَيُسْمِعان مَن على وجه الأرض غير الثقلين، يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألْهى، ولا آبت شمس قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعْطِ مُنفِقاً خَلَفاً، وأعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»**.

رواه أحمد (١٩٧/٥) بسند صحيح وآخره في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

ففي هذا الحديث فضل قلة ذات اليد الكافي وأن ذلك خير من الكثرة التي تلهي المسلم عما يهمه من شؤون دينه.

[٦٧] وعن محمود بن لبيد أيضاً أن النبي ﷺ قال: **«إن الله لَيَحمي عبده الدنيا وهو يُحبُّه، كما تَحْمُون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليه»**.

رواه أحمد (٤٢٨/٤٢٧/٥) وسنده صحيح.

ورواه الترمذي في أول الطب (١٨٨٠)، وابن حبان (٢٤٧٤)، والحاكم (٣٠٩/٤) من حديث محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان، وسياقه عند الترمذي: **«إذا أحبَ اللّهُ عبداً حماه الدنيا، كما يَظَلُ أحدُكم يحمي سَقِيمه الماء»**.

وسنده صحيح رجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «لَيَحْمِي»، «حماه الدنيا» أي: منعه منها.

فالحديث بلفظَيْه يدل على فضل كبير للفقر بالنسبة للمؤمن وأن ذلك يدل على محبة الله تعالى إياه لأنه لكرامته عليه يمنعه من ثروات الدنيا وكثرة متاعها لئلا تضره في دينه وتُشغله عن عبادته تعالى والاشتغال به.

وقد يظن الجاهلون أن ابتلاء الله عبده بالفقر هو شر له وإهانة من الله له، كما أن إنعامه عليه بخيرات الدنيا واتساعها عليه خير له وإكرام من الله، وهذا ظن خاطىء، فإن وجود الدنيا وعدمها لا يدل على خير ولا شر، ولذلك ردّ الله تعالى على من ظنّ هذا الخطأ فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾.

فقدر على رزقه: أي ضيّقه عليه.

[٦٨] وجاء في حديث: «**إن الله يُعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يُحِب**».

رواه أحمد (٣٨٧/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٥) مطولاً بسند صحيح.

[٦٩] وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعدٌ أن له فضلاً على مَن دونه فقال النبي ﷺ: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضُعفائكم**».

رواه أحمد (١٧٣/١)، والبخاري في الجهاد (٤٢٩/٦).

[٧٠] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ابْغُوني في ضعفائكم فإنما تُرزقون أو تُنصرون بضعفائكم**»، وفي رواية: «**إنما ينصر اللّهُ هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**».

رواه أحمد (١٩٨/٥)، وأبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٥٦١)،

والنسائي (٣٨/٦) ثلاثتهم في الجهاد، وابن حبان (١٦٢٠)، والحاكم (١٤٥/١٠٦/٣) وحسّنه الترمذي وصححه.

«ابغوني» بهمزة وصل، أي: اطلبوا لي.

وفي الحديثين فضل الفقراء الصالحين وأن الله عزّ وجل ينصر الأمة ويرزقها بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم.

[٧١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أنه قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكحَ، وإن شفع أن يُشَفَّعَ، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطبَ أن لا يُنكحَ، وإن شفعَ أن لا يُشفَّعَ، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا**».

رواه البخاري في الرقاق (٥٥/٥٤/١٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠).

يستفاد من الحديث أن المؤمن الفقير الذي يحتقره الناس ولا يقضون له حاجة ولا يبالون به قد يكون أكرم عند الله عزّ وجل وخيراً من كثير من الأغنياء الذين يحترمهم الناس ويجلّونهم ويتوددون إليهم ويقدمونهم في المحافل... ويكونون عند الله لا يزنون جناح بعوضة.

ومن عجيب أمر الناس أنهم يُكرمون الغني ويحبونه ويعظّمونه وإن لم يروا منه نفعاً، بينما الفقير يحتقرونه ويبغضونه وإن لم يروا منه شراً.

بل العجيب هو أنك ترى الكلاب تحرك أذنابها وتبش للغني وتفرح به، فإذا رأت الفقير نبحت عليه وهاجمته وأرادت عقره.

[٧٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ أشعثَ مَدْفوع بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرّه**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٧٤/١٦) بالنووي.

«الأشعث»: هو الطويل العهد بترجيل شعر رأسه. وقوله: «مدفوع بالأبواب» معناه: لا قدر له ولا منزلة عند الناس فهم يحتقرونه ويطردونه عن المجامع.

والحديث يدل على أن في الضعفاء والفقراء ممن يحتقرهم الناس مَن لو سأل الله تعالى شيئاً وحلف عليه لأجابه وأبرّ قَسَمه ولا يحنثه وذلك لكرامته عليه وقربه منه وفضله عنده، جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

[٧٣] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«قمتُ على باب الجنة فإذا عامة مَن دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَدِّ محبوسون إلا أصحاب النار فقد أُمر بهم إلى النار، وقمتُ على باب النار فإذا عامّة مَن دخلها النساء»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٠٩) وفي النكاح، ومسلم في الرقاق أيضاً (١٧/٥٢/٥٣) في باب أكثر أهل الجنة الفقراء.

[٧٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال محمد ﷺ: **«اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**.

رواه مسلم (١٧/٥٣)، ومثله عن عمران بن الحصين رواه البخاري (١٤/٢٠٨/٢٠٩) وكذا رواه مسلم بنحوه، ويأتي في ذكر الجنة والنار إن شاء الله تعالى.

في هذه الأحاديث بيان أن أكثر سكان الجنة الفقراء، وذلك يدل على فضلهم، فلولا كرامتهم على الله لما حماهم الدنيا وصرف فتنتها عنهم، بينما الأكثرون سَيُحْبَسون للحساب والمناقشة، والقليل مَن ينجو منهم، عافانا الله مما ابتلى به غيرنا، فقد جاء في حديث لعبدالله بن عَمْرو: **«... واطَّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»**.

رواه أحمد (٢/١٧٣) قال المنذري: بإسناد جيد.

[٧٥] وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما قالت:

قلت له: ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن وراءكم عقبةً كؤوداً لا يجوزها المُثقلُون»**.

رواه الطبراني، قال المنذري: بإسناد صحيح.

وفي رواية: **«إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مُخِفٍّ»**.

رواه البزار، قال المنذري: بإسناد حسن.

قوله: «عقبة كؤوداً» الكؤود بفتح الكاف: هي العقبة الصعبة، والمراد بها الصراط.

والحديث بروايتيه يدل على فضل المقلّين من حطام الدنيا لأنهم الناجون من العقبة الكؤود لخفتهم، أما المكثرون المثقلون بتبعات الدنيا فلا ينجو منها إلا من ومن ممن ستشمله رحمة الله عزّ وجل.

[٧٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدخلُ فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يومٍ، وهو خمسُمائة عام»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٦/٣٤٣/٤٥١/٥١٣)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤١٢٢) كلاهما في الزهد، وأبو يعلى (٨/٦٠)، وابن حبان (٦٧٦) وحسّنه الترمذي وصححه.

هذه مزية عظيمة للفقراء حيث إنهم يسبقون الأغنياء للجنة وينعمون ويكرمون فيها قبلهم بخمسمائة عام، إنه لفضل كبير.

وظاهر هذا الحديث أن هذا الفضل لعموم فقراء المسلمين، غير أن الحديث التالي يخصصه بفقراء المهاجرين.

[٧٧] فعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن فقراء المهاجرين يَسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»**.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١١٠).

قوله: **«أربعين خريفاً»** أي: أربعين عاماً.

[٧٨] وكذا حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً**» فذكر الحديث وفيه: «**أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشُعْثُ رؤوساً، الدُنسُ ثياباً، الذين لا ينكحون المُنَعَّمات، ولا يفتح لهم السُدَد**» قال عمر ـ يعني ابن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه ـ: لكني نكحتُ المتنعمات، وفتحت لي السدد، نكحت فاطمة بنت عبدالملك، لا جرم أني لا أغسل رأسي حتى يشعثَ، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ.

رواه أحمد (٢٧٥/٥)، والترمذي (٢٢٦٥)، وابن ماجه (٤٣٠٣) كلاهما في الزهد، والحاكم (١٨٤/٤) وسنده صحيح، وصححه الحاكم، ويأتي في بيان الحوض.

«الشعث»: بضم الشين وسكون العين، جمع أشعث هو المتفرق الشعر الغير مسرح. «الدُنُس» بضمتين وتسكن النون جمع الدنس بفتح وكسر، هو الوسِخُ الطويل العهد بالاغتسال. و«السدد»: بضم السين وفتح الدال جمع سدة، الباب.

ففي الحديث الأول تخصيص الفقراء السابقين إلى الجنة بفقراء المهاجرين.

كما أن الثاني يدل على أن أول من يرد على الحوض فقراء المهاجرين ولذلك اختلف العلماء هل هذا التخصيص معتبر أم لا، والظاهر أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياء الصحابة، وهكذا غيرهم من سائر باقي الأمة، ففقراؤهم يسبقون أغنياءهم.

والحديثان ظاهران في فضل الفقراء والفقر، وإن لقلة ذات اليد لشأناً ليس لغيره.

وكفى الفقراء فضلاً وكرامة أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحبس نفسه معهم، ونهاه أن لا يطردهم عن مجلسه طاعة لمن اتبع هواه من الكفار وكان أمره فرطاً، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآية، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

[٧٩] وعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه في قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعُيَيْنة بن حِصن الفزاري، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وخباب، وناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقّروهم فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العربُ فضْلَنا، فإن وجوه العرب ترد عليك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعْبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت، قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً رضي الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: «**سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة**» فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا رُكَبَنا على ركبتيه، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال: «**تجالس الأشراف ولا تُطِع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا**» قال: عيينة، والأقرع، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال: «**هلاكاً**» ثم ضرب لهم مثلاً رجلين كمثل الحياة الدنيا، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه وإلا صبر أبداً حتى نقوم.

رواه ابن أبي شيبة في الفضائل من المصنف (٣٢٥١٨) بالآية الأولى، وأبو يعلى كاملاً، كما عند البوصيري في الإتحاف (٦٤٧٦) وسنده صحيح.

[٨٠] وعن عبدالرحمٰن بن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ خرج يلتمس فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وحافي الجِلْد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم فقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم**».

رواه ابن جرير (١٥/٢٣٥)، والطبراني قال في المجمع (٧/٢١) ورجاله رجال الصحيح، ونحوه عن أبي سعيد الخدري عند الطبراني في الأوسط (٨٨٦) وأبي يعلى وغيرهما.

[٨١] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: أُطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل ورجلان لستُ أسمّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ إلخ.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/١٨٧/١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٠)، وأبو يعلى (٨٢٢)، والحاكم (٣/٣١٩) وغيرهم.

ففي هذه الأحاديث فضل فقراء الصحابة ومن كان على نهجهم وسار على دربهم، وأنهم عند الله بالمكان الأعلى لا يبْلُغُ شأوَهم إلا من كان مثلهم بل جاء ما يدل على أن من أغضبهم غضب الله تعالى عليه.

[٨٢] فعن عائذ بن عَمرو المزني وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله تعالى عنه، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب، وبلال في نفر، فقالوا: ما أخذَتْ سيوفُ الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**يا**

أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربَّك» فأتاهم فقال: يا إخوتاه أغضبتُكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أُخَيَّ.

رواه مسلم في الفضائل (٦٦/١٦).

ففي هذا فضل ظاهر للضعفة من المؤمنين الصالحين وأن إذايتهم توجب غضب الله تعالى، فهذا أبو سفيان وإن أسلم تكلم فيه هؤلاء الصحابة الضعفة الصالحون بما يعد غيبة حتى أنكر عليهم الصدِّيق، لكن النبي ﷺ راعى قلوبهم ولم ينكر عليهم ذلك لاجتهادهم في شأن أبي سفيان، بل وجه شبه العتب إلى الصدِّيق فقال له: **«لعلك أغضبتهم فلئن كنت أغضبتهم لقد أغضبتَ ربك»** فهذه عظيمة بالنسبة للصدِّيق فلولا فضل أولئك ومنزلتهم عند الله تعالى لما قابل الصدِّيق وهو من هو بهذا الكلام.

* * *

❊ نبذة من عيش النبي ﷺ وعيش أصحابه

[٨٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مضطجع مرمّل بشريط، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر فانحرف رسول الله ﷺ انحرافةً فلم يرَ عمر بين جنبيه وبين الشريط ثوباً، وقد أثّر الشريط بجنب رسول الله ﷺ فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ: **«ما يبكيك يا عمر؟»** فقال: والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله عزّ وجل من كسرى وقيصر، وهما يعبثان في الدنيا فيما يعبثان فيه، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى، فقال النبي ﷺ: **«أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»** فقال عمر: بلى، قال: **«فإنه كذلك»**.

[٨٤] وفي رواية عن عمر: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وأن عند رجليه قرظاً مصبوراً، وعند رأسه أُهُبٌ مُعلّقةٌ فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال: **«ما يبكيك؟»** فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هو فيه وأنت رسول الله...

وفي رواية فقلت: يا رسول الله ادعُ الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وسّع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: **«أوَفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟»** وفي رواية: **«أوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم قد عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»**، فقلت: يا رسول الله استغفر لي.

رواه أحمد (١٤٠/١٣٩/٣)، والبخاري في التفسير (٢٨٤/١٠) وفي النكاح (١٩٩/١١)، ومسلم فيه أيضاً (٩٢/٨٣/٨٢/١٠) من طرق وألفاظ مطولاً، وقد تقدم في مواضع.

وقوله: «أدم» بفتحتين، أي: جلد. وقوله: «قرظاً» بفتحتين، هو حَب كالعدس. وقوله: «مصبوراً» أي: مجموعاً. وقوله: «أهُبّ» بضمتين جمع إهاب: الجلد.

وفي هذا الحديث عبرة لنا ولأولئك المغرورين بالحياة الذين لا يألون جهداً في السعي وراء سرابها، والسخرية ممن يدعو إلى الزهد فيها والتقلُّل منها، فها هو ذا نبي الله ﷺ ينكر على ابن الخطاب ما رغب فيه ويعرّفه بأن الدنيا جعلها الله للكفرة، أما المؤمنون فاختار لهم الآخرة.

ويقول له بكل صراحة: **«أفي شك أنت يا ابن الخطاب... أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»**.

فماذا عسى أن يقول أولئك الراغبون في الدنيا الهائمون فيها بعد هذا، فمَن كان يريد الآخرة فليأتسِ برسول الله ﷺ ويتخذه قدوة في كل ميادين حياته وليس بتطويل اللحية وتقصير الثياب فحسب.

[٨٥] فعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: **«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»**.

رواه أحمد (٤٤١/٣٩١/١)، والترمذي (٢١٩٥)، وابن ماجه (٤١٠٩)

كلاهما في الزهد، والحاكم (٤/٣١٠) وهو حديث صحيح لشواهده لذلك حسّنه وصححه الترمذي.

«وطاء» بكسر الواو أي: فراشاً ليناً.

وفي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الانزواء عن الدنيا والزهد الكامل فيها، وقد شبّه نفسه في هذه الحياة بالراكب الذي يقطع المفاوز ويستريح تحت ظل شجرة عند اشتداد الحر فإذا ذهب وهجه انصرف عنها وتركها، فالدنيا مفازة وأهلها ركاب مسافرون يوشكون أن يقطعوها ويتركوها.

[٨٦] وليقينه ﷺ بدناءة الدنيا وفنائها، كان يقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**».

رواه البخاري (١٤/٧٣)، ومسلم (١٨/١٠٥) كلاهما في الرقاق، والترمذي (٢١٨١)، وابن ماجه (٤١٣٩) كلاهما في الزهد.

قوله: «قوتاً» أي: بقدر الحاجة مما لا فضول فيه يبعث على الترفُّه والتبسُّط في الدنيا وهو الكفاف.

قال ابن بطال: فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا، والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة، وإيثاراً لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. نقله الحافظ.

وقال القرطبي: معنى الحديث أنه طلب الكفاف، فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً.

وقد قدّمنا في الشمائل وغيرها ما فيه كفاية من عيش النبي ﷺ.

[٨٧] وعن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قال: كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان مُمَشَّقان من كتان، فمخط في أحدهما ثم قال: بخ، بخ، يتمخط أبو هريرة في الكتان، لقد رأيتني وإني لأخرّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحُجرة عائشة من الجوع مغشياً علي، فيجيء الجائي فيضع

رِجله على عنقي يرى أن بي الجنون، وما بي جنون، وما هو إلا الجوع.

رواه البخاري في الاعتصام (٦٨/١٧)، والترمذي في الزهد (٢١٨٦)، وفي الشمائل (١٢٩).

«ممشقان»: بضم الميم الأولى وفتح الثانية ثم شين مشددة مفتوحة، المشق بالكسر المغرة وهو الطين الأحمر، وقوله: «بخ بخ» كلمة مدح ورضى بالشيء تكرر للمبالغة وفيها لغات.

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحاجة الشديدة حتى كان يصل بهم الحال أن يسقطوا من صفوف الصلاة لشدة الجوع وضعفهم.

[٨٨] وعن فَضالة بن عُبَيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى بالناس يَخِرُّ رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصُّفَّةِ حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلّى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال: **«لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقةً وحاجة»** قال فضالة: أنا يومئذ مع رسول الله ﷺ.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٨٧)، وابن حبان (٢٥٣٨) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه.

قوله: «يخر» أي: يسقط. «من الخصاصة» بفتح الخاء، أي: الجوع والضعف.

[٨٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقتهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، ثم مرّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمرّ ولم يفعل، وفي رواية ليستتبعني، ثم مرّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسّم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال: **«يا أبا هر»**، قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: **«الْحَق»** ومضى، فاتَّبَعْتُه، فدخل، فاستأذن فأذن لي

فدخل فوجد لبناً في قدح فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان، أو فلانة، قال: «**أبا هِرّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوّى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «**يا أبا هر**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**خذ فاعْطِهم**»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد رَوِي القومُ كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم فقال: «**يا أبا هر**»، قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**»، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**أُقعد فاشرب**» فقعدت فشربت، فقال: «**اشرب**» فشربت فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: «**فأرني**» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة.

رواه البخاري في الرقاق (٦١/١٤) باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم عن الدنيا.

في هذا الحديث فوائد:

منها: ما كان عليه الصحابة من الخصاصة والحاجة وقلة ذات اليد.

ومنها: صبرهم على الجوع وتحمُّلهم مشاقه رغبة في الآخرة ومحبة في صحبة رسول الله ﷺ وجواره والكون معه ونصره.

ومنها: جواز الانقطاع إلى عبادة الله ولزوم المسجد لمن لا أهل له أو لا رغبة له في التزوج، كأهل الصفة الذين كانوا ملازمين للمسجد النبوي

يتلون كتاب الله تعالى ويعبدونه قانعين بما يفتح الله تعالى عليهم، فإذا طرق باب الجهاد كانوا أول من يبادر إليه.

ومنها: أن النبي ﷺ كان يواسيهم بالصدقة ويدفع إليهم كل ما جاءه منها ولا يشاركهم فيها، فإذا جاءته هدية استدعاهم إليها وأكل معهم منها.

ومنها: تلك المعجزة العظمى التي حصلت للنبي ﷺ في البركة في اللبن حيث شرب الجم الغفير من القدح حتى شبعوا وروي جميعهم وبقي منها فضلة كان آخر من شربها النبي ﷺ، وكم لذلك من مثيل قد تقدم في السيرة.

[٩٠] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ورأيتنا نغزو وما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة، وهذا السَّمر، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة، ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسَد تُعَزِّرُني على الإسلام خِبتُ إذاً وضلّ سَعْيي.

رواه أحمد (١/١٧٤/١٨١/١٨٦)، والبخاري في الأطعمة وفي الرقاق (١٤/٦٨/٦٩)، ومسلم في الزهد والرقاق (١٨/١٠٠/١٠١) وغيرهم.

«الحبلة»: بضم الحاء وسكون الباء و«السمر» بفتح السين المشددة وضم الميم. قال أبو عبيد وغيره: هما نوعان من شجر البادية. وقيل: الحُبْلة ثمر العضاه وهو شجر الشوك كالطلح والعوسج. وقوله: «ما له خلط» بكسر الخاء، يعني يصير بعراً لا يختلط لشدة يبسه. وقوله: «تعزرني» أي: توقفني على الأحكام وتعلمني.

أفاد الحديث أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كان قد بلغ بهم الحال في الخصاصة أن أكلوا ورق الشجر ورعوا كما ترعى الدواب، والحال أنهم يجاهدون العدو حتى أنهم كانوا يضعون كما تضع الشياه من البعر.

وفيه فضل سعد بن أبي وقاص وأنه كان من أول من قاتل العدو ورمى في سبيل الله، وكان ذلك في أول سرية بعثها النبي ﷺ بإمارة عبيدة بن الحارث.

وقوله: «ثم أصبحت بنو أسد» كان هذا إنكاراً منه على بني أسد الذين شكوه إلى عمر حتى قالوا فيه: إنه لا يحسن أن يصلي، وقد تقدم ذلك في الفضائل.

[٩١] وقال عتبة بن غزوان رضي الله تعالى عنه: ولقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قَرِحَتْ أشداقنا فالتقطت بردة فاشتققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحدٌ حياً إلا أصبح أميراً على مِصرٍ من الأمصار.

رواه أحمد (١٧٤/٤) (ج٦١/٥) ومسلم في أول الزهد (١٠٢/١٨).

قوله: «قرحت» بفتح القاف وكسر الراء، يعني صار في أفواهنا قروح وجراح من خشونة ويبوسة الورق الذي نأكله.

وهذا كالذي قبله في خصاصتهم وأكلهم ورق الشجر وأخبارهم في هذا كثيرة، وقد تقدم بعضها في كتاب السيرة.

[٩٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصُفَّةِ ما منهم رجلٌ عليه رداءٌ، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته.

رواه البخاري في الصلاة في نوم الرجل في المسجد (٨٣/٨٢/٢).

يستفاد من هذا الحديث أن هؤلاء الصحابة لم يكن لأحد منهم رداء وإزار ولا له ثوبان، بل كانوا قد بلغوا في الحاجة إلى فقد ما يستر جميع جسد أحدهم وهذا نهاية ما يكون من الخصاصة، فقد كانوا جامعين بين الجوع والعري لكنهم توسّعوا بعد الفتوحات الإسلامية وأقبلت عليهم الدنيا، وأصبح الكثير من فقرائهم أمراء على الأمصار رضي الله تعالى عنهم.

[٩٣] وعن أبي هريرة أيضاً قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج

فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: **«ما جاء بك يا أبا بكر؟»** فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر فقال: **«ما جاء بك يا عمر؟»** قال: الجوع يا رسول الله، قال: **«وأنا قد وجدت بعض ذلك»**، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم، فلم يجدوه فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، ولم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقِرْبَةٍ يَزْعَبُها، فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويَفْدِيه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقِنْوٍ فوضعه، فقال النبي ﷺ: **«أفلا تنقيت لنا من رطبه؟»** فقال: يا رسول الله إني أردت أن تختاروا، وقال: **«تخيروا من رُطَبِهِ وبُسْره»** فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة ظِلٌّ باردٌ ورُطبٌ طَيِّبٌ وماءٌ باردٌ»**، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: **«لا تذْبَحَنَّ ذات دَرٍّ»** فذبح لهم عَناقاً أو جدياً، فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبي ﷺ: **«هل لك خادم؟»** قال: لا، قال: **«فإذا أتانا سَبْيٌ فأْتِنا»**، فأُتِي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالثٌ، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: **«اختر منهما»**، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال ﷺ: **«إن المُستشار مُؤتمَن، خذ هذا فإني رأيته يصلي واستَوْصِ به معروفاً»** فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تُعتِقه، قال: هو عَتِيقٌ، فقال النبي ﷺ: **«إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يُوق بطانة السوء فقد وُقِي»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الزهد (٢١٨٨)، وفي الشمائل (١٣٤) مطولاً بسند صحيح على شرط البخاري عند الترمذي في طريق، ورواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٨) مختصراً إلى قوله: **«هل لك خادم»** وأبعاضه واردة عند غير الترمذي مفرّقة بأسانيد صحيحة.

«يستعذب»: أي يأتينا بماء عذب. «يزعبها»: كيمنعها أي: يحملها

ممتلئة. «فجاء بقنو»: بكسر القاف، هو عذق النخلة الحامل للتمر. «ذات در»: أي صاحبة لبن. «عناقاً»: بفتح العين، هي الأنثى من المعز. «بطانة»: بكسر الباء، هو الصاحب الذي تثق به وتطلعه على سرك. «لا تألوه خَبَالاً»: أي لا تقصر في إفساد أمره، والخبال: الفساد.

وفي الحديث بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه من الحاجة والخصاصة وشظف العيش وقلة ذات اليد حتى من الضروريات التي يقيمون بها أصلابهم، وهم مع ذلك صابرون راضون بما قدّر الله تعالى عليهم، محتسبون قانعون بما يسد رمقهم.

هذا ونبينا ﷺ قد عرض عليه الرب تعالى أن يكون نبياً غنياً... فاختار الفقر مع العبودية للّه عزّ وجل. وقد قدّمنا في الشمائل النبوية ما فيه كفاية من ذكر ما جاء في عيش النبي ﷺ.

وفي الحديث مع ذلك فوائد لا تخفى على القارىء اللبيب.

* * *

❊ حال من كان همه الدنيا

[٩٤] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن كانت الدنيا همّه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»**.

رواه أحمد (١٨٣/٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وابن حبان بالموارد (٧٢)، وسنده صحيح.

وأخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٦) عن أنس بنحوه.

[٩٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الله يقول: يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي، أملأ صدرك غِنًى وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأتُ يديك شُغلاً ولم أسُدَّ فقرك»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٧)، وابن حبان (٢٤٧٧) بإسناد لا بأس به وهو صحيح لسابقه ولشاهد له عن معقل بن يسار.

رواه الحاكم في الرقاق (٤/٤٢٦) وصححه.

قوله: «وأسد فقرك» أي: أقضي لك مهماتك وأغنيك عن الخلق.

الحديثان يدلان على أن الله عزّ وجل يعامل عباده حسب نياتهم وهممهم، فمن كان همه الآخرة والعمل لها والانقطاع لعبادة الله جمع الله شمله وقضى له ما يهمه من أمر دنياه وجعل قلبه غنياً به تعالى.

أما من كانت نيته الدنيا وطلبها والجري وراءها والغرور بزينتها وبهجتها وشهواتها ناسياً آخرته، فهذا سيملأ الله يديه شغلاً ويعيش مفتوناً مشتت الشمل فقير الصدر وإن ملك الدنيا كلها.

وفي القرآن الكريم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قال المفسرون: عبّر تعالى بحرثي الآخرة والدنيا عن العمل، فحرث الآخرة الإيمان والعمل الصالح. وحرث الدنيا هو العمل لها والقناعة بها وبمشتهياتها، فمن كان قصده الآخرة ضاعف الله له الأجور، ومن كان همه الدنيا أعطاه الله ما قدر له منها وكان في الآخرة صفر اليدين لا نصيب له منها، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

ومعناه أن من كان يريد بعمله الدنيا فقط، فلها يعمل ويسعى ليس له هم إلا الدنيا وزينتها ومستلذاتها، عجّل الله تعالى له فيها ما يشاء تعجيله من نعيمها لا كل ما يريده، ثم جعل له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً طريداً من رحمة الله.

ومن أراد الدار الآخرة وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات والحالة أنه مؤمن صادق الإيمان، فهذا كان عمله مقبولاً عند الله.

فكل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة يعطيه تعالى من عطائه الواسع فضلاً منه تعالى فيعطي المؤمن والكافر والطائع والعاصي، وما كان عطاؤه تعالى ممنوعاً عن أحد... ثم ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ تزهيداً في الدنيا وترغيباً في الآخرة.

وقال عزّ وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وفي أمثال هؤلاء ممن لا تهمهم الآخرة ولا يرجون لقاء الله يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

فهذا الصنف من الناس يشمل الكفار وأشباههم ممن أعمتهم الدنيا عن الآخرة وأصبحوا كأنهم لا يتوقعون لقاء الله ولا يخطر ببالهم ما سيلقونه وراء هذه الحياة، فهؤلاء قد قنعوا بهذه الحياة الخسيسة عن الآخرة النفيسة، وآثروا ما يفنى على ما يبقى واطمأنوا بها وسكنوا إليها وغفلوا عن آيات الله التشريعية والكونية فلم ينظروا ولم يتفكروا، فهؤلاء مثواهم ومصيرهم النار بسبب إجرامهم ونسيانهم ما خلقوا لأجله.

والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم كلها تزهد في الدنيا وتقلل من شأنها وترغب في الآخرة وتعظم أمرها.

* * *

❊ لا تنظر إلى من هو فوقك في الدنيا

[٩٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**.

وفي رواية: **«إذا نظر أحدُكم إلى مَن فُضِّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى مَن هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه»**.

رواه أحمد (٢/٢٥٤/٤٨١)، والبخاري بالرواية الثانية في الرقاق (١٤/١٠٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (١٨/٩٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) وغيرهم بالرواية الأولى.

قوله: «أجدر» أي: أحق. «أن لا تزدروا»: أي تحتقروا نعمة الله عليكم.

يستفاد من الحديث أنه يجب على المسلم أن ينظر دائماً إلى من هم دونه في الخلقة والصورة والمال والأهل والأولاد ونِعَم الدنيا ليدوم شكره لله تعالى وإكباره لما أسدى إليه من النعم، ولا ينظر إلى من هو فوقه ممن فضل عليه في حُسن الصورة وتمام الجسم والبسط في الدنيا وكثرة المال والرياسة والجاه والصدارة والمناصب، فإن من نظر إلى أمثال هؤلاء احتقر ما أنعم الله تعالى به عليه من نعمه الكثيرة المتوالية، ثم هو مع ذلك لا يزال في تعب مع نفسه في منافستهم واللحاق بهم وتفوقه عليهم، وذلك عذاب عظيم وخسران مبين.

قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير... نقله النووي رحمه الله تعالى.

هذا ما يتعلق بشؤون الدنيا، أما أمور الآخرة فينبغي للإنسان أن ينظر دائماً إلى من هو فوقه في قوة الإيمان والاستقامة وكثرة الأعمال الصالحة ليحتقر نفسه وتقصيره، فيحمله ذلك على التنافس مع من تفوّق عليه في تقوى الله عزّ وجل وتزكية نفسه، وفي ذلك خيره وصلاحه إن شاء الله.

* * *

❊ فائدة

[٩٧] إذا علمت ما تقدم من التزهيد في الدنيا والأمر بالحذر منها وفضل الفقر والفقراء وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من التقلُّل من الدنيا والإعراض عنها والرغبة في الآخرة، تبين لك فضل الفقر وذم الغنى، وقد اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى في أيهما أفضل اختلافاً كثيراً فمنهم من رجح الفقر، ومنهم من رجح الغنى، ومنهم من فصل كأبي حامد الغزالي ومن تبعه.

والحق في ذلك أن يقال: إن الأمر يختلف باختلاف الأحوال، فالفقير الصابر القانع الراضي خير وأفضل من الغني الشاكر، فلا ينبغي أن يتشكك في ذلك لأن الفقر هو الذي اختاره الله تعالى لنبيه ﷺ فكان أزهد الناس في الحياة وعاش مقلاً من الدنيا قانعاً بالكفاف والقوت الذي كان يدعو به فيقول: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»**. وكان راضياً بما آتاه الله منها ولا يختار الله له إلا الأفضل.

وهذا ما اختاره أكثر مشايخ الصوفية وكثير من العلماء وقالوا: إن الغنى وإن كان فيه خير لكنه عائق عن الله عزّ وجل غالباً، والفقر وإن كان فيه خطر أيضاً غير أن الغنى أشد خطراً من فتنة الفقر، فالسلامة معه أكثر. وانظر للتوسع كتاب الفقر من «الإحياء» لأبي حامد الغزالي، وكتاب الرقاق من «الفتح» في باب فضل الفقر.

* * *

❋ ذكر الموت والقبور

[٩٨] قال أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: **«يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفةُ تتبعها الرادِفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه»**.

رواه أحمد (١٣٦/٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٨)، والحاكم (٤٢١/٢) وصححه، وهو كما قال الشاهد له.

«الراجفة»: النفخة الأولى. «الرادفة»: النفخة الثانية.

وفي الحديث تذكير من النبي ﷺ لأمته بأن يكثروا ذكر الله عزّ وجل قبل مجيء الموت والقيامة حيث لا ينفع الإنسان شيء إلا ما قدّمه في حياته.

[٩٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكْثِروا ذِكْرَ هَاذِمِ اللذّاتِ»**. يعني: الموت.

رواه أحمد (٢٩٣/٢)، والترمذي (٢١٢٩)، وابن ماجه (٤٢٥٨) كلاهما في الزهد، والنسائي (٥/٤)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٣٢١/٤) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«هاذم»: بالذال المعجمة، أي: قاطع، وبالدال المهملة، أي: دافعها ومخربها.

ذكر الموت يكون بالتفكر فيه وفي سكراته وشدائده وما سيؤول أمر الإنسان إليه من نعيم أو عذاب وبماذا سيختم له ومن سيتولى قبض روحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب، وماذا سيلقى في قبره؟ هذا هو ذكره وليس معناه ترداد لفظ الموت باللسان كما يفعله البعض.

ولا شك أن التفكر فيما ذكرناه ينغص عيش الإنسان ويقطع لذاته ويخربها، ويحمله على الاستعداد للقاء الله عزّ وجل. أما نسيانه والغفلة عنه فيعتبر كارثة وخسارة... ولذا قال القائل:

واذكُرِ الموتَ تجدْ راحةً ... في ادْكارِ الموتِ تقصيرُ الأمَلْ

والقائل الآخر:

صَاحِ شَمِّرْ ولاَ تَزَلْ ذَاكِرَ الموتِ فنِسيانه ضلالٌ مُبينْ

[١٠٠] وعن هانىء مولى عثمان قال: كان عثمان رضي الله تعالى عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إن القبر أولُ منزلٍ من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه»**، قال: وقال رسول الله ﷺ: **«ما رأيتُ منظراً قط إلا القبر أفظع منه»**.

رواه أحمد (٦٤/٦٣/١)، والترمذي (٢١٣٠)، وابن ماجه (٤٢٦٧) كلاهما في الزهد، والحاكم (٣٣١/٣٣٠/٤)، والبيهقي في السنن (٥٦/٤) وسنده حسن كما قال الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن هول القبر عظيم، وأن منظره أفظع شيء وأشنعه، فليس للإنسان أهول ما يلقاه بعد موته من القبر، ولذلك كان سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه يبكي إذا وقف على قبر ويتأثر بمنظره لأنه أول منزل ينزله الراحل عن هذه الدار فلا يدري ماذا سيلقى فيه، فالله المستعان على ما هنالك.

ولتأثير القبور على القلوب والاتعاظ بها سنّ لنا النبي ﷺ زيارتها وأخبرنا بأن ذلك يُذكّر الآخرة ويُرقّق القلوب ويُدمع العيون.

[١٠١] فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قد كنتُ نهيتكُم عن زيارة القبور، فقد أُذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكّر الآخرة»**، وفي رواية: **«فإنها تذكّر الموت»**، وفي أخرى: **«فإنها تُرقّق القلب، وتُدمع العين، وتُذكّر الآخرة، ولا تقولوا هُجراً»**.

رواه أحمد (٣٦١/٥)، ومسلم في الجنائز (٤٦/٧) وفي الأضاحي (١٣٤/١٣)، والترمذي (٩٣٩)، والنسائي (٧٣/٤)، وأبو داود (٣٢٣٥) كلهم في الجنائز واللفظ للترمذي، والرواية الثانية لمسلم والنسائي عن أبي هريرة، والثالثة رواها الحاكم (٣٧٦/١).

قوله: «هجراً» بضم الهاء وسكون الجيم، هو الكلام القبيح الفاحش.

الحديث جاء بالإذن في زيارة القبور بعد النهي عنها لما فيها من مصالح، أهمها: أنها تذكّر زوّارها بالموت والآخرة وترقّق قلوبهم وتحملهم على البكاء من خوف المآل وفي ذلك خير لهم. فإن المتردد على المقابر لا يزال صاحياً من غفلاته حزيناً على تقصيره في جانب ربه باكياً على تفريطه في حقوقه.

وقد كان من عادات السلف إكثارهم من الترداد على المقابر والاعتبار بها عملاً بالسنّة النبوية، ولهم في ذلك أخبار وحكايات مؤثرة.

قيل للإمام علي رضي الله تعالى عنه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ فقال: إني أجدهم خير جيران، إني أجدهم جيران صدق، يَكُفُّون الألسنة ويُذكّرون الآخرة..

وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يُذَكّروني معادي، وإذا قمت لم يغتابوني.

ونظر عمرو بن العاص إلى المقبرة فنزل فصلّى ركعتين فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه، فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببتُ أن أتقرّب إلى الله بهما.

وكان جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني، ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي، وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر.

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك.

وكان عطاء السلمي إذا جَنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم قال: يا أهل القبور متُّم فوامَوْتاه، وعاينتُم أعمالكم فواعملاه، ثم يقول: غداً عطاء في القبور، غداً عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبَه حتى يُصبحَ.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز رضي الله

تعالى عنه إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذّاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثلاتُ، واستحكم فيهم البِلَى، وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم، ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ منْ عذاب الله.

وقال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها إذا بصوت قائل: يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها.

وقال حاتم الأصم: مَن مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم.

وكان الربيع بن خُثَيم قد حفر في داره قبراً فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ثم يرددها ويرد على نفسه: يا ربيع قد رجّعتُك فاعمل.

قال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخافُ وراءَ القبر إن لم تُعافِني ... أشدَّ من القبر التِهاباً وأضْيَقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاقٌ يَسوقُ الفرزدقا
لقدْ خابَ من أولادِ آدم مَن مشى ... إلى النار مغلولَ القلادةِ أزرقا

ومرّ داود الطائي على امرأة تبكي على قبر ولدها وهي تقول:

عُدِمتُ الحياةَ ولا نِلتُهَا ... إذا كنت في القبرِ قد ألحدوكَ
فكيف أذوقُ لطعمِ الكرَى ... وأنتَ بيمناك قد وسّدوكَ

ثم قالت: يا ابناه بأي خدَّيك بدأ الدود؟ فصعِق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه.

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

وأين المُدِلُّ بسُلطانهِ ... وأين المُزَكي إذا افتخر

فناديت من بينها أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً:

تفانَوْا جَميعاً فما مُخْبر ... وماتوا جميعاً وماتَ الخبرْ
تروحُ وتَغْدو بَناتُ الثَّرى ... فتَمْحُو محاسن تلك الصُّور
فيا سائلي عن أناسٍ مَضوا ... أما لك فيما ترى مُعْتَبَر

ووجد على قبر مكتوباً:

يا أيُّها الناسُ كان لي أملٌ ... قَصُر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتقِ اللّهَ ربَّه رجلٌ ... أمكنَه في حياته العملُ
ما أنا وحدي نُقِلتُ حيث ترى ... كُلٌّ إلى مثله سَيَنْتَقِلُ

ووجد على قبر آخر:

إنّ الحبيب من الأحباب مُخْتَلسٌ ... لا يمنعُ الموتَ بوَّابٌ ولا حرَسُ
فكيف تفرحُ بالدنيا ولذَّتِها ... يا مَن يُعَدُّ عليه اللفظُ والنَّفَسُ
أصبحتَ يا غافلاً في النقص مُنْغمِسَا ... وأنت دهرك في اللذات منغمِسُ
لا يرحم الموتُ ذا جهل لِغِرّتِه ... ولا الذي كان منه العلم يُقْتَبَسُ
كم أقرتْ الموتُ في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خَرَسُ
قد كان قصرُك معموراً له شُرف ... فقبرك اليوم في الأجداث منذَرِسُ

وكلامهم وأخبارهم وأحوالهم في هذا الباب أكثر من أن يأتي عليها الحصر، وقد اعتنى العلماء بأقوال وأخبار الزهّاد والعباد في الموت وأحواله إذ الموت لا ينجو منه أحد مهما كان حاله ومستواه وقوته فهو من السنن

الإلهية في خلقه، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تلفت الأنظار إلى هذا الأمر الجلل، والحدَث الخطير لتعتبر بها ذوو البصائر ويستعدوا له بما يجب من الزاد والعمل الصالح والتوبة النصوح.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، وقال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وقال لنبيه وحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وكان من دعاء النبي ﷺ: **«أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»**.

فالموت لا يهاب أحداً، ولا يخاف ذا سلطان أو جاه أو مال أو منعة، ولا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً.

قال أبو العتاهية:

بَيْنَ عَيْنٍ كُلُّ حَيٍّ ... عَلَمُ المَوتِ يَلُوحُ
نُخْ عَلَى نَفْسِكَ يا ... مِسكينُ إن كُنتَ تَنُوحُ
لَتَمُوتَنَّ وإن عُمْـ ... ـرَ تَ ما عُمِّرَ نُوحُ

وقال مسلم بن الوليد:

كم رأينا من أناس هلكوا ... وبكى أحبابُهم ثم بكوا
تركوا الدنيا لمن بعدَهم ... وذُهم لو قدّموا ما تركوا

وقال أبو جعفر المنصور العباسي عند وفاته:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سِنُوك وأمرُ الله لا بُدَّ واقعُ
فهل كاهِنٌ أعددتَه أو مُنَجِّم ... أبا جعفر عنك المنية دافعُ

وقال عدي بن زيد:

أين أهلُ الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمودُ

بينما هم على الأسِرّة والأنـ ـمَاطِ أفضتْ إلى التراب الخدودُ
وأطباءُ بعدهم لحقوهم ضَلّ عنهم سُعوطُهم واللُدودُ
وصحيح أضحى يعودُ مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعودُ

وقال آخر:

ولدتْك إذ ولدتْك أمُك باكِيَا والقومُ حوْلك يضحكون سرورَا
فاعمل ليوم أن تكون إذا بكَوْا في يوم موتك ضاحكاً مسرورَا

* * *

❊ حفظ الجوارح

[١٠٢] عن أبي سعيد رفعه: **«إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كُلَّها تُكفِّر اللسان فتقول: اتّقِ الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمْتَ استقمْنا، وإن اعوججت اعوجَجْنا»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢٢٧)، وابن خزيمة والبيهقي في الشُعب (ج٤/٢٤٣/٢٤٤) وسنده حسن.

«تكفر اللسان»: أي تتذلل وتخضع له.

والحديث يدل على أن الجوارح كلها تابعة للسان فإن استقام وصلح كان ما عداه تابعاً له وإن اعوجّ وفسد اعوجّت الجوارح وفسدت، وفيه صحة كلام الأعضاء وأطراف الإنسان وأنها تتكلم كل صباح وتناشد اللسان بكلام لا نسمعه ولا نفهمه.

[١٠٣] وعن بلال بن الحارث رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغَ ما بلغتْ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤٦٩/٣)، والترمذي في الزهد (٢١٣٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٥/١) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الواجب على المسلم أن يكون على حذر مما يتكلم به فقد تخرج من لسانه هفوة لا يشعر بخطرها وفيها ما يوجب سخط الله عليه حتى يلقاه، وفي هذا مجال واسع هلك بسببه أقوام وأقوام، وقد قدّمنا بعض هذا في الأدب.

[١٠٤] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«ويلٌ للذي يُحدّث بالحديث ليُضحِك القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له»**.

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦)، والحاكم (٤٦/١) بسند حسن.

في الحديث وعيد شديد وذم لمن اعتادوا الإكثار من المزاح والتشدق بحكايات وأكاذيب ليُضحكوا بها الناس في المجالس والمجامع، وأن ذلك يُعد من كبار الذنوب.

نعم لا مانع من المزاح المرة بعد المرة إذا كان عارياً عن الكذب، وذكّر الناس بما يكرهون، فقد جاءت بذلك السنة العملية والقولية.

* * *

❋ زنا الجوارح

[١٠٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما رأيت أشبه باللَّمَم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إن اللّهَ كتب على ابن آدم حظّه من الزّنا، أدرك ذلك لا محالة، فزِنا العين النظر، وزِنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرجُ يُصَدِّق ذلك كلّه ويكذّبه»**.

وفي رواية عنه ﷺ قال: «**كُتِبَ على ابن آدم نصيبُه من الزنا، مدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأُذُنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدُ زناها البطش، والرِّجْلُ زِناها الخُطا، والقلبُ يهوَى ويتمنَّى ويُصدِّق ذلك الفرجُ ويُكذبُه**».

وفي رواية: «**لكلِّ بني آدمَ حَظٌّ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِجلان يزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبل، والقلب يهوى ويتمنى، والفرجُ يصدّق ذلك أو يُكذّبه**».

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٢٦٣)، ومسلم في القدر (١٦/٢٠٥/٢٠٦) بالرواية الأولى، ورواه مسلم بالرواية الثانية، أما الثالثة فرواها أحمد (٢/٣٤٣) وغيره بسند صحيح، وهو عند أحمد (٢/٣٧٢/٤١١/٥٢٨/٥٣٥) بنحو ما سبق.

[١٠٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (١/٤١٢) بسند صحيح بلفظ: «**العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، والفرج يزني**».

قوله: «إن الله كتب» أي: قدّر في اللوح المحفوظ، فإن المقادير كلها كتبت فيه قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف عام كما قدّمنا في القدر. وقوله: «حظه» أي: نصيبه، وقوله: «وزناه القبل» بضم القاف وفتح الباء، جمع قبلة.

الحديث بجميع رواياته يدل على أن لكل هذه الجوارح المذكورة حظاً من الزنا لا بد وأن يقع لأنه قد سبق به قضاء الله وقدره.

وذكر ﷺ من هذه الجوارح الزانية ثمانية وهي: العينان، والأذنان، واليدان، والرجلان، والفم، واللسان، والقلب، والفرج، فالسبعة الأولى زناها مجازي سمي بذلك لأنه وسيلة إلى الزنا الأكبر الحقيقي وهو الفاحشة، ولأن كل جارحة تأخذ حظها من الالتذاذ والشهوة. فالعينان تستلذان بالنظر إلى محاسن المرأة والمثير منها وهي كلها فتنة ومثيرة، والنظر هو رائد الزنا

وأول فتنة تصيب القلب، والأذنان تستلذان بالاستماع إلى كلام المرأة الرقيق وخاصة الأغاني فهي بريد الزنا، واليدان تتلذذان بالملامسة، والرجلان تتلذذان بالمشي إلى الموعد، واللسان يتلذذ بالكلام والمغازلة مع النساء، والفم يتلذذ باللثم والتقبيل، أما القلب فيتلذذ بالتفكُر والتمنّي.

وهذه كلها مقدمات ووسائل للفاحشة، فالفرج هو الذي يصدق ما سبق من الوسائل أو يكذبها، فإن وقع الإنسان في الفاحشة كتب عليه جميع ما سبق مضافاً إليها وكان قد أتى جريمة من أعظم الجرائم.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: معنى الحديث أن ابن آدم قدر عليه نصيب من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقياً بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازاً بالنظر الحرام أو الاستماع إلى الزنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده أو يقبّلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر أو اللمس أو الحديث الحرام مع أجنبية ونحو ذلك أو بالفكر بالقلب. فكل هذه أنواع من الزنا المجازي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه، معناه: أنه قد يحقق الزنا بالفرج وقد لا يحققه بأن لا يولج الفرج في الفرج وإن قارب ذلك، والله أعلم... قال: وأما قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، فمعناه تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ومعنى الآية والله أعلم: الذين يجتنبون المعاصي غير اللمم يغفر لهم اللمم كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، فمعنى الآيتين أن اجتناب الكبائر يسقط الصغائر وهي اللمم.

وفسره ابن عباس بما في هذا الحديث من النظر واللمس ونحوهما، وهو كما قال.

هذا هو الصحيح في تفسير اللمم... إلخ.

* * *

❊ شهوات البطون والفروج

[١٠٧] عن أبي بَرْزَة الأسلَمِي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «**إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلاّت الهوى**».

رواه أحمد (٤/٤٢٠/٤٢٣) بسند صحيح.

قوله: «شهوات الغي» بفتح الغين وتشديد الياء، أصله الضلال والانهماك في الباطل. قوله: «ومضلات الهوى» أي: ما تهواه النفس من المعاصي.

خشي النبي ﷺ على أمته ما سيتبعونه من الشهوات الباطلة والانهماك في الضلال والإغراق في موافقة النفس في مستلذاتها وإطلاق العنان لها في تناول أكل المحرمات وإتيان الفواحش من الزنا واللواط... واتباع كل ما تهواه من شهواتها المحظورة.

وقد وقعت الأمة فيما خاف عليها ﷺ فغوت وضلّت وانهمكت في الغي والضلال ولم تعد تفكر وتهتم إلا فيما يعود إلى البطون والفروج.

❊ ❊ ❊

❊ ترك ما لا يعني

[١٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».

رواه الترمذي في الزهد (٢١٣٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) متصلاً ومرسلاً، والحديث حسّنه النووي وغيره.

الحديث يدل على أن ترك ما لا حاجة فيه من دين أو دنيا من محاسن الإسلام وكمال الإيمان، ويدخل في هذا كل المكروهات وكثير من المباحات.

❊ ❊ ❊

❋ البِر والإثم

[١٠٩] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال النبي ﷺ: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثمُ ما حاكَ في نفْسِك وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناس**».

رواه أحمد (١٨٢/٤)، ومسلم في البر والصلة (١١١/١١٠/١٦)، والترمذي في الزهد (٢٢٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد.

«البر»: بكسر الباء، هو اسم جامع لكل خير وحسن الخلق بعض أفراده.

وقوله: «ما حاك في نفسك» أي: تحرك وتردد في الصدر.

في الحديث بيان ما يعرف به البر والإثم، وأن الأول معظم أنواعه معاملة الآخرين بالأخلاق الحسنة والمعاملة الجميلة، بينما النوع الثاني وهو الإثم الذي يلام عليه الإنسان هو كل شيء يتردد في النفس ولا يطمئن إليه القلب ولا ينشرح إليه ويدخل في هذا المحرمات والمشتبه فيها والمكروهات وبعض المباحات التي تخل بالمروءة، فإن كثيراً من ذلك يفعله الإنسان ولا يحب أن يطلع عليه غيره من الناس فيعرف أن ذلك قد يكون من المباحات المشتبه فيها فتلحق بما في تعاطيه إثم، أما المحرمات المقطوع بها فلا يتردد القلب في محظورها ومنعها.

❋ ❋ ❋

❋ الحذر من الذنوب وإن دقّت

[١١٠] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إيّاكم ومُحَقَّرات الذنوب، فإنما مَثَلُ مُحَقَّرات الذنوب كمثل قومٍ نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما**

أنضجوا به خُبزهم، وإنّ مُحقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهلكه».

رواه أحمد (٣٣١/٥) قال الحافظ في الفتح: بسند حسن بل هو صحيح في الجملة.

[١١١] فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة إياكِ ومُحَقَّرات الأعمال فإن لها من الله طالباً».**

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٣) قال في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات.

«محقرات»: بضم الميم وفتح الحاء والقاف المشددة، هي الذنوب التي يحتقرها الناس ولا يبالون بها.

والحديثان يدلان على وجوب الحذر من صغار الذنوب التي لا يتورع الناس عن ارتكابها كأكل لقمة من طعام الغير بغير إذنه أو نظرة إلى ما لا يحل النظر إليه أو لمس يد امرأة أجنبية مثلاً، فأمثال هذه الهفوات وإن كانت صغائر تغفر بالحسنات لكن الإصرار عليها قد يصيِّرها كبيرة تهلك الإنسان ويعاقبه الله عليها في الدنيا والآخرة، وقد ضرب النبي ﷺ للإصرار على صغار الذنوب مثلاً بقوم سفر نزلوا بواد وتفرقوا يجمعون الحطب ليوقدوا ناراً، فجاء كل واحد بعود فاجتمع عندهم ما أنضجوا به خبزهم. فهكذا صغار الذنوب إذا تراكمت أهلكت صاحبها.

قال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار. وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المُحَقَّرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مُشفقاً حتى يلقى الله آمناً. ذكره الحافظ.

[١١٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات. يعني بذلك المهلكات. وفي رواية: كنا نعدها ونحن مع رسول الله ﷺ من الكبائر.

رواه البخاري في الرقاق (١١٣/١٤) بالرواية الأولى والثانية، عزاها الحافظ في الفتح إلى الإسماعيلي، يعني في مستخرجه على صحيح البخاري.

قوله: «أدقُّ» أفعل تفضيل من الدقة، أي: هي أهون وأحقر عندكم من دقة الشعر.

وفي هذا الأثر إشارة إلى تغيُّر الحال التي كان عليها الناس أيام النبوة وأن ما كانوا يعدّونه من الذنوب مهلكاً أصبح عند من جاء بعدهم شيئاً حقيراً لا يتورعون عنه، وفيه التحذير من التهاون بارتكاب صغار الذنوب وتحقيرها، وذلك ليس من شأن المؤمن كما يدل عليه الآتي:

[١١٣] فعن الحارث بن سويد رحمه الله تعالى قال: حدثنا عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه حديثين: أحدهما: عن النبي ﷺ، والآخر: عن نفسه، قال: «**إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه**» فقال به هكذا... بيده فوق أنفه.

رواه البخاري في الدعوات (٣٥١/٣٥٠/١٣)، وأحمد رقم (٣٦٢٧) والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٧).

ففي هذا بيان موقف المؤمن والفاجر من الذنوب، فالمؤمن يستعظمه ويخاف العقوبة عليه بينما الفاجر يحتقره ولا يعيره أي اهتمام.

قال الحافظ: قال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه... قال الحافظ: وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا مثل المؤمن أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيىء، ثم نقل عن المحب الطبري، قال: إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله فلذلك قلّ خوفه واستهان بالمعصية.

[١١٤] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لأعلَمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله عزّ وجل هباءً منثوراً»** قال ثوبان: يا رسول الله صِفْهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: **«أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٥) قال في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات.

قوله: «من جلدتكم» أي: من جنسكم. «ويأخذون من الليل» أي: يأخذون من عبادة الليل وقيامه نصيباً مثلكم.

في هذا الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد لمن ينتهكون محارم الله عزّ وجل في خلواتهم، فرغم أنهم يُكثرون من القربات والأعمال الصالحة ويحيون الليالي بالقيام، فإن كل ذلك سيجعل لهم كالهباء الذي تنثره الرياح، لأنهم ماتوا مصرّين على ما كانوا يفعلون ولم يتوبوا ويرعووا عما كانوا يأتون.

[١١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلوَ قلبَه فهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي في التفسير (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، وابن حبان (١٧٧١)، والحاكم (٢/٥١٧) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«نُكِتَتْ»: بضم النون وكسر الكاف، أي: جعل فيه أثر كالنقطة شبه الوسخ في المرآة. «صقل»: بالصاد والسين بضم أوله، أي: جلي وذهب صداه. قوله: «الران» قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود

القلب. وذكر ابن كثير: أن الرين يعتري الكفار، والغيم الأبرار، والغين المقربين. وأصل الران، ويقال: الرين من ران وهو التغطية والصدأ على القلب وهو يعتري الكفار والمسرفين في الإجرام والفواحش. فالذنوب إذا تتابعت على القلب ولم يتب صاحبها أصبح أسود مظلماً فإن تاب ورجع إلى الله تعالى صقل وانجلى.

* * *

❊ أكثر ما يدخل الناس الجنة والنار

[١١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «**تقوى الله وحُسن الخُلُق**» وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار قال: «**الفَمُ والفَرج**».

رواه أحمد (٢/٢٩١/٣٩٢/٤٤٢) والترمذي في البر والصلة (١٨٤٨) وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٦) وابن حبان في الموارد (١٩٢٣)، وحسّنه الترمذي وصححه.

في الحديث بيان أكثر ما يوجب الجنة وما يوجب النار.

فأكثر أسباب دخول الجنة تقوى الله والاستقامة والخلق الحسن.

قال ابن المبارك: حسن الخلق هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. أما أكثر أسباب موجبات النار فالفم والفرج لما يرتكبانه من الفواحش وكبار الذنوب والموبقات، فالفم ينشأ عنه الكفر والكذب واللعن والشتم والقذف وغيرها من الكبائر. والفرج ينشأ عنه الزنا واللواط... وهما من الفواحش العظام، فالإصرار على ما يصدر منهما موجب للنار إلا أن يعفو ربنا الكريم. وإنما عبّر ﷺ بقوله: «**أكثر**» لأن أسباب الجنة والنار لا تنحصر فيما ذكر.

[١١٧] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: **«مَن يضمن لي ما بين لِحيَيْه وما بين رِجْليه أضمن له الجنة»**، وفي رواية: **«من يتوكل لي... أتوكل له بالجنة»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٩٠) وفي المحاربين، والترمذي في الزهد (٢٢٢٨) وابن ماجه.

قوله: «من يضمن لي» هو معنى: من يتوكل لي. قال الحافظ: بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه. فالمعنى: من أدّى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي يجب على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام. وقوله: «ما بين لحييه» المراد به اللسان. و«ما بين رجليه»: الفرج.

ففي الحديث التحريض على حفظ اللسان والفرج، وأن من حفظهما وقام بما يجب من حقوقهما كانت له الجنة مضمونة بضمان النبي ﷺ.

[١١٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن وقاهُ اللّهُ شرَّ ما بين لِحْيَيْه، وشرَّ ما بين رجليه دخل الجنة»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢٢٩)، وابن حبان بالموارد (٢٥٤٦)، وحسّنه الترمذي وصححه، وسنده صحيح عنده.

«من وقاه الله»: أي حفظه من شرهما.

ففي الحديث بشارة بالجنة كسابقه لمن حفظ هذين العضوين الخطيرين، ودخول الجنة لمن حفظهما يحتمل الدخول بدون سابقة عذاب إن مات صاحبهما طيباً تقياً. ويحتمل الدخول ولو بعد سابقة عذاب إن كان هناك ما يوجب العذاب من كبار الذنوب التي لم يتب منها صاحبها التي ارتكبها بغير لسانه وفرجه. والله غفور رحيم.

* * *

❋ استحيوا من اللّه حق الحياء

[١١٩] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اسْتَحْيوا من الله حقَّ الحياء»**، قلنا: يا نبيَّ الله إنا نَسْتَحْيِي والحمد للّه، قال: **«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء»**.

رواه أحمد (٣٦٧١) (ج١/٣٨٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٩)، والحاكم (٣٢٣/٤)، والبيهقي في الشعب (١٤٢/١٤١/٦) و(٣٥٤/٧) كلهم من طريق الصباح بن محمد وهو ضعيف. لكن للحديث طريق آخر، رواه الطبراني في الصغير (١٧٧/١) وجاء أيضاً عن الحسن مرسلاً كما أشار إليه البيهقي، فالحديث حسن والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «الرأس وما وعى» أي: ما حفظه، والمراد به حفظ ما وعاه من معرفة الله تعالى والعلم بالحلال والحرام وأن لا يضيع ذلك، ثم حفظ السمع والبصر واللسان من هفواتها.

وقوله: «والبطن وما حوى» أي: ما جمع فيه بأن يحفظه من أكل الحرام وما فيه شبهة وأن يحفظ كذلك فرجه من الفواحش. وقوله: «البِلَى» أراد به مآل الإنسان في القبر.

فيستفاد من الحديث أن الحياء من الله تعالى هو أن لا يرى الإنسان على معصيته ومخالفة أمره، فمن حفظ جوارحه وراقب الله عزّ وجل في ذلك فهو المستحيي منه، وهذا باب واسع فإنه يدخل فيه حتى إتيان بعض المباحات فضلاً عن خلاف الأولى والمكروهات. فقد وجد في السلف من كان يستحيي من الله أن يمد رجليه، أو يكشف عورته عند قضاء حاجته، نسأل الله تعالى العفو والمسامحة وأن يعاملنا بمحض فضله، آمين.

* * *

❋ اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنة

[١٢٠] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: أدُّوا إذا ائتُمِنتُم، وأوفوا إذا عاهدتم، واصدقوا إذا حدّثتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم**».

رواه أحمد (٣٢٣/٥)، وابن حبان (٥٠٦/١)، والحاكم (٣٥٩/٣٥٨/٤) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) وفي الشعب (٣٢١/٣٢٠/٤) بسند حسن، وهو وإن كان منقطعاً فإن له شاهداً عن أنس بن مالك، رواه الحاكم (٣٥٩/٤)، بسند حسن وشاهد ثان عن الزبير، رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٥/٣٦٤/٤) ولا يضر انقطاعه، فالحديث بذلك صحيح.

هذه ست خصال من ضمنها للنبي ﷺ وحافظ عليها كان ضامناً له الجنة بإذن الله تعالى وهي: أداء الأمانات، وحفظ العهود، والصدق في الحديث، وحفظ الفروج من الفواحش، وغض الأبصار عن المحارم، وكف الأيدي عن سفك الدماء، وأخذ أموال الناس بالباطل، وضرب من لا يستحق الضرب، وغير ذلك.

وما أشد هذه الست وأثقلها على النفوس إلا من وفقه الله تعالى.

❋ ❋ ❋

❋ مَن يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يُعَلِّم من يعمل بهن

[١٢١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يُعلّم من يعمل بهن؟**» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدّ خمساً وقال: «**اتّقِ المحارمَ تكن أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسِن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك تكُن مسلماً، ولا تُكثِر الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب**».

رواه أحمد (٢/٣١٠)، والترمذي في أول الزهد (٢١٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧/٧٨) وفي سنده جهالة، لكنه حسن كما قال الترمذي فإن له طريقاً آخر بنحوه، رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧) وحسّنه البوصيري في الزوائد.

وقسم الضحك رواه ابن ماجه (٤١٩٣) بسند صحيح.

«المحارم»: جمع محرَمة بفتح الراء وضمها وهي كل ما لا يحل انتهاكه من المحظورات. وقوله: «تكن أعبد الناس» أي: من أعبدهم، لأن ترك ذلك يوجب القيام بالفرائض. وقوله: «بما قسم الله لك» أي: ما أعطاك من الرزق «تكن أغنى الناس» أي: غنياً بقلبك لقناعتك. وقوله: «تميت القلب» أي: تصيّره كالميت لا يأتي منه شيء ينتفع به.

فهذه الخصال الخمس من جوامع الوصايا والإرشادات النبوية ولها أخوات ستذكر لاحقاً. فمن تخلّق بها كان قد حاز قصب السبق في الخير والبر:

أولاً: من توقّى المحرمات الظاهرة والباطنة كان من أعبد الناس لأن صحيفته تكون نقية من السيئات، ويلزم من ذلك الإتيان بالواجبات، فإن زاد على ذلك الإتيان بالنوافل ولو قليلة ازداد بذلك خيراً وبركة، وهذا هو العابد، والإقلال من نوافل الأعمال مع ترك المحرمات، وأداء الواجبات خير كثير للعبد من كثرة الأعمال الصالحة وكثرة السيئات، فإن السلامة لا يضاهيها أي شيء.

ثانياً: من رضي وقنع بالقسمة التي قدّرها الله تعالى له من الرزق ولم يتطلع لغير ذلك كان أغنى الناس لأن الغنى في الحقيقة هو غنى القلب وذلك يكون بالقناعة بالمقدور.

ثالثاً: إسداء الخير إلى الجار ورفع الأذى عنه من موجبات كمال الإيمان، وقد تقدم في البر والصلة ما جاء من الوصية بالجار.

رابعاً: لا يكمل إيمان المرء وإسلامه حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

خامساً: إن الضحك المشروع المحمود هو التبسُّم، والضحك بالقهقهة وإن كان مباحاً أحياناً كما جاء في السنّة، لكن الإكثار منه والمداومة عليه يصيِّر القلب مريضاً وقد يقسو ويصدأ بالران فيموت فلا يؤثر فيه شيء ولا يأتي منه خير البتة، عياذاً بالله.

* * *

❊ ثلاث منجيات وثلاث مهلكات

[١٢٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ كفّاراتٌ، وثلاثٌ درجاتٌ، وثلاثٌ مُنجياتٌ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ. فأما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السَّبَرَات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغِنى، وخشية الله في السر والعلانية. وأما المُهلِكات: فشُحٌّ مطاعٌ، وهوى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه».

رواه البزار (٨٠) مع كشف الأستار كاملاً، ورواه البيهقي في الشعب (٤٧١/١) مختصراً، وللحديث طرق وشواهد عن جماعة من الصحابة.

قال المنذري رحمه الله تعالى في الترغيب: وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وقال النور في المجمع (٩١/١) وفيه زائدة بن أبي الرقاد وزياد النميري وكلاهما مختلف في الاحتجاج به، وقد علمت أن له شواهد.

في الحديث اثنتا عشرة خصلة، تسع منهن يحملن بشارات ومسرّات، وثلاث منهن فيهن وعيد وتهديد وتحذير.

فالتسع الأُوَلُ منهن، ثلاث يكفرن الخطايا والذنوب وهن: إتمام الوضوء عند شدة البرد، وانتظار صلاة ثانية بعد أداء الأولى، ونقل الخطا إلى المساجد لِصلاة الجماعة. وثلاث يرفعن لصاحبها درجات يوم القيامة

وهي الإنفاق في أوجه الخير وإطعام المحتاجين وإفشاء السلام بين الناس ثم الصلاة ليلاً والناس في غمرة نائمون. وثلاث ينجين صاحبها من المهالك في الدنيا والآخرة وهي العدل وإعطاء كل ذي حق حقه في جميع الأحوال سواء كان المرء غضبان أم راضياً. والقصد والوسط في الإنفاق حالتَيْ الفقر والغنى كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وخوف الله في السر والعلن.

أما الثلاث البواقي فهن الموبقات المهلكات للإنسان وهن: الشح والبخل بما يملكه الإنسان من متاع وحطام، واتباع هوى النفس في كل ما تشتهيه من محظورات، وإعجاب المرء بنفسه إما لجماله أو ماله أو حسبه أو علمه أو عمله... فهذه مهلكات لمن أصرّ عليها ومات متلبساً بها.

* * *

❊ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً

[١٢٣] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماءُ وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرشِ، ولخرجتم إلى الصُعُداتِ تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرةً تُعضَد»**.

رواه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي (٢١٣٤)، وابن ماجه (٤١٩٠) كلاهما في الزهد، والحاكم (٥١٠/٢) (ج٥٧٩/٥٤٤/٤) بسند صحيح، وله شاهدان عن أبي الدرداء وأبي هريرة عند الحاكم وغيره.

[١٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**.

رواه البخاري في التفسير وفي الرقاق (١٠٢/١٤)، ومسلم في

الفضائل، والترمذي في الزهد (٢١٣٥)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٨).

ومثله عن أنس عند البخاري في الرقاق (١٠٢/١٤)، وابن ماجه (٤١٩١) في الزهد.

قوله: «أطّت السماء» أي: صوّتت. «الصُعُدات»: بضم الصاد والعين جمع صعد بضمتين، والمراد بها هنا البراري. «تجأرون»: أي تتضرعون من الجؤار وهو التضرع ورفع الصوت بالاستغاثة.

والحديث الأول: يدل على عظمة أمر الله في خلقه وما جعله في السماء وأودع فيها من كثرة الملائكة حتى ثقلت بحملهم، وذلك يدل على عظمة الله عزّ وجل وكبريائه كما يدل على ما كان عليه النبي ﷺ من العلم بأحوال البرزخ وما وراء الطبيعة من الأهوال التي كان يشاهدها وكثرة الملائكة وأنواع الجن من العفاريت والزوابع وغير ذلك مما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه..

فلو شاهد الواحد منا ذلك لما ضحك ولعاش حياته باكياً ولما تلذذ بامرأة قط ولخرجنا جميعاً فارّين بأنفسنا إلى البراري والمفاوز نستغيث بالله ونجأر إليه.

* * *

❊ الانقطاع إلى اللّه عزّ وجل

[١٢٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكى المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال: «**لعلك تُرزَق به**».

رواه الترمذي في الزهد (٢١٦٥)، والحاكم (٩٤/١)، وابن عبدالبر في كتاب العلم (٥٩/١) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

في قوله ﷺ: «**لعلك تُرزق به**» دليل على أن الانقطاع إلى الله

عزّ وجل لعبادته أو تعلُّم دينه يعد من أعظم أسباب الرزق، وأن أسباب طلب العيش ليست خاصة بالمهن والحرف وغيرها من الأسباب الحسية العادية بل من أهمها وأعظمها تقوى الله والانقطاع لعبادته عزّ وجل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾.

ولا أدل على ما ذكرنا من قوله ﷺ للأخ المحترف: «**لعلك ترزق به**» يعني بسبب عبادة أخيه وانقطاعه إلى مجالسة النبي ﷺ وتعلُّمه منه ما يأتي إليه من الوحي الإلٰهي يُهيىء الله له الرزق ويغدقه عليه.

* * *

❊ من نزلت به فاقة فانزلها بالله

[١٣٦] عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته، ومَن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل**».

رواه أحمد (٣٦٩٦)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٥)، والترمذي في الزهد (٢١٤٦) بسند صحيح على شرط مسلم.

«**فاقة**»: أي حاجة شديدة. «**لم تسد**» أي: لم تقض.

والحديث يدل على أنه ينبغي للمؤمن أن ينزل جميع شؤونه ومطالبه بالله، وأن يتعلق به تعلقاً كاملاً لأنه القادر على تغيير الحال وقضاء المآرب كلها، أما الغير فليس له من التصريف والتدبير في هذا الكون بذاته قلامة ظفر أو أقل، فكيف يعتمد عليه دون الله.

* * *

❊ ثلاث أقسم عليهن

[١٢٧] عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ثلاثٌ أُقسِمُ عليهن، وأُحدثكم حديثاً فاحفظوه»**، قال: **«ما نقص مالَ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ** ـ أو كلمة نحوها ـ، **وأحدثكم حديثاً فاحفظوه»**، فقال: **«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربه فيه ويصل به رحمه ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»**.

رواه أحمد (٤/٢٣١)، والترمذي في الزهد (٢١٤٥) بهذا السياق مطولاً، ورواه أحمد (٤/٢٣٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨) بالاقتصار على المثل، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «يخبط» بفتح الياء وكسر الباء، ومعناه: يتصرف فيه على غير بصيرة، وفي المثل: (فلان يخبط خبط عشواء).

في الحديث فوائد وإرشادات:

أولاً: فضل الصدقة وأن المال الذي أُخرجت منه ينمو ويزداد بركة.

ثانياً: فضل الصبر وحبس النفس عن التسخُّط والتضجُّر عندما يصاب الإنسان بظلم في ماله، أو عرضه، أو أهله، وأنه بذلك يزداد عزاً ورفعة.

ثالثاً: ذم التسوُّل وخاصة الإكثار منه لغير ضرورة، فإن ذلك يفتح عليه باب الفقر والحاجة.

رابعاً: ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا بأربعة نفر: ذي علم ومال، وذي علم لا مال له، وذي مال بلا علم، وذي فاقة وجهل.

فالأولان أجرهما سواء، الأول: بعلمه ونفقته، والثاني: بنيته، فهما بأعلى المنازل يوم القيامة، والأخريان: وِزرهما سواءٌ، الأول: بخبْطه في مال الله بغير حق وبصيرة، والثاني: بنيته السيئة فهما في النار سيّان بأقبح المنازل عياذاً بالله.

* * *

العزلة راحة للمؤمن من خُلاَّط السوء

[١٢٨] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: **«مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»**.

رواه البخاري في الجهاد وفي الرقاق (١١٥/١٤)، ومسلم في فضل الجهاد (٣٤/٣٣/١٣) وغيرهما.

«الشعب»: أصله الطريق بين الجبلين.

[١٢٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمْسك عِنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هَيْعة أو فزْعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانّه، أو رجل في غُنَيْمَةٍ في رأس شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»**.

«على متنه» أي: ظهره. وقوله: «هيعة» هي الصوت عند حضور العدو. وقوله: «يبتغي القتل مظانه» أي: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها لعظيم رغبته في الشهادة. وقوله: «شعفة» بفتحات هي أعلى الجبل.

[١٣٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: **«ألا أُخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعِنان فرسه في سبيل الله، ألا أخبركم بالذي يتلوه؟ رجل معتزل في غُنَيْمَةٍ يؤدي حق الله فيها، ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يسأل بالله ولا يعطى به»**، وفي رواية: **«رجل معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس»**.

رواه أحمد (١/٢٣٧/٣١٩/٣٢٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٤)، وابن حبان (١٥٩٣/١٥٩٤) ورجاله رجال الشيخين غير ابن لهيعة. ولا يضر هنا للحديث السابق ولشاهد آخر عن أبي هريرة.

رواه الحاكم (٢/٦٧) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قوله: «بعنان» بكسر العين، وهو سيرُ اللجام.

في هذه الأحاديث دليل على أن أفضل الناس الصنفان المذكوران:

أولهما: وهو أفضلهما رجل مؤمن يجاهد في سبيل الله لا يسمع صوتاً أو نداءً بذلك إلا خرج يطلب الشهادة والقتل في سبيل الله حريص على ذلك شديد الرغبة في قتال العدو.

ثانيهما: وهو يتلو سابقه في الفضل رجل مؤمن معتزل عن الناس في غنيمة له في رأس جبل أو في شعب من الشعاب أو نحو ذلك، قانع بما أعطاه الله من الرزق القليل، يعبد الله ويتّقيه ويؤدي حقوقه ليس من الناس إلا في خير لا يؤذي أحداً يدوم على ذلك حتى يأتيه أجله المحتوم.

وقد استدل بهذه الأحاديث من اختار العزلة على الخلطة وهم أكثر الزهّاد والنسّاك وكثير من أهل العلم لأن في ذلك السلامة من كثير من الغوائل والفتن والمعاصي.

والحق الأبلج الذي لا ينبغي أن يختلف فيه، هو أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، والزمان، والمكان، فقد تكون العزلة واجبة أو مستحبة على الأقل إذا ظهرت الفتن وكثر الشر وأهل الفساد، وعلى ذلك

يحمل كل ما جاء في هذا الصدد كما تقدم لنا في حديث أبي سعيد: «يوشك أن يكون خير مال المسلم... يفر بدينه من الفتن» وحديث عبدالله بن عمرو: «وإذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم» أي: اختلطت وفسدت ولم يبقَ لهم عهود ولا حرمة ولا ذمام. «وخفت أماناتُهم» أي: قلّت فيهم الأمانة وأصبحوا يموج بعضهم في بعض فلا يعرف الأمين من الخائن ولا البر من الفاجر... وشبك بين أصابعه ثم قال له: «الزم بيتك واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة».

فإذا رأى المسلم ما ذكر فعليه أن يعتزل شرور الناس ومجامعهم العامة ويحفظ عليه لسانه ويأخذ ما يعرفه من الشريعة فيتمسك به ويشارك الناس في الجماعات والجمعات وغير ذلك من المعروف، ويترك ما ينكره من أمر الناس، وعليه نفسه فليجاهدها في الله وليسعَ في تزكيتها وليدع شؤون العامة فلا يتدخل فيها، هذا ما يقتضيه المقام والسلامة لا يعد لها شيء.

* * *

❊ إذا أراد اللّه بعبد خيراً عسَّلَهُ

[١٣١] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعمله»** فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **«يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت»**.

رواه أحمد (٣/١٠٦/١٢٠)، والترمذي في القدر (١٩٧٤)، وابن حبان (١٨٢١)، والحاكم (١/٣٤٠) بسند صحيح على شرطهما، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم.

[١٣٢] وعن عمرو بن الحَمِق الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبد خيراً عسَّله قبل موته»** قيل: وما عسَّله قبل موته؟ قال: **«يفتح له عمل صالح بين يدَي موته حتى يرضى عنه مَن حوله»**.

وفي رواية: «**يفتح له عمل صالح بين يدي موته يؤخذ به عنه فيحببه إلى أهله وجيرانه**».

رواه أحمد (١٣٥/٤) (ج٢٢٤/٥)، وابن حبان (١٨٢٢/١٨٢٣)، والحاكم (٣٤٠/١) وسنده صحيح.

وقوله: «عسله» شبّه العمل الصالح بالعسل لأن العرب تسمي كل ما تستحليه عسلاً.

الحديثان يدلان على أن من وفّق للعمل الصالح آخر حياته والإقبال على الله عزّ وجل فمات على ذلك، كان ذلك علامة على حُسن حاله، وأن الله تعالى أراد به خيراً، وأنه سعيد بفضل الله ورحمته.

* * *

❊ الأعمال بالخواتيم

[١٣٣] عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين، وكان من أعظم المسلمين غَنَاءً عنهم فقال: «**مَن أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**»، فتبعه رجل فلم يزل على ذلك حتى جُرِحَ فاستعجل الموت فقال بِذُبابة سيفه فوضعه بين ثَدْيَيْه فتحامل عليه حتى خرج من بين كتفيه، فقال النبي ﷺ: «**إن العبدَ ليعملُ فيما يرى الناسُ عملَ أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمالُ بخواتيمها**».

رواه البخاري في الرقاق (١١٤/١١٣/١٤)، ومسلم في القدر (٢٠٠/١٩٩/١٦).

[١٣٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عملُه بعمل**

أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة».

رواه مسلم في القدر (١٦/١٩٩).

ما ذكر في هذين الحديثين من انقلاب آخر العمر هو نادر والله سبحانه وتعالى حكم عدل، فمَن انقلبت أعماله من أعمال أهل الجنة إلى أعمال أهل النار فمات عليها لا بد وأن يكون في قلبه دغل ودخَن ولم يكن في إسلامه وأعماله صادقاً.

وإنما ذكر الحديثان وأمثالهما ليكون المؤمن على حذر وأن لا يأمن من سوء الخاتمة.

ونقل الحافظ عن ابن بطال قال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة، وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجِب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحُجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء.

قال الحافظ: وقد روى الطبري عن حفص بن حُمَيد قال: قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال: أمنك على نفسك أشد من ذنبه. قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل يتوب فتُقبلُ توبتُه، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء.

* * *

❁ جهاد النفس

[١٣٥] عن فضالة بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **«ألا أُخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم، وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».**

رواه أحمد (٦/٢١/٢٢)، وابن حبان (٢٥) مطولاً، ورواه الترمذي في الجهاد (١٤٨٦) وحسّنه وصححه، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٤)، وابن حبان (٢٥١٩)، والحاكم (١/١٠/١١) مختصراً وسنده صحيح.

وللحديث شواهد لأبعاضه تقدم بعضها في الإيمان وفي الأدب وشاهدنا منه هنا جملتا جهاد النفس والهجرة.

أما جهاد العدو، فقد تقدم الكلام عليه في كتاب الجهاد بما أغنى عن إعادته، وأما جهاد النفس وهو الجهاد الأكبر كما جاء به حديث: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس**» فمعناه: قصرها وحملها على طاعة الله عزّ وجل أمراً ونهياً، وإتماماً للفائدة الأكيدة ننقل ما ذكره الحافظ في الفتح على قول البخاري في الرقاق: باب من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجل ما نصه:

وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها في الآخرة.

قال الحافظ: ولئلا يعتاد الإكثار فيألفه فيجره إلى الشبهات فلا يأمن أن يقع في الحرام، قال: ونقل القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شبهة. وعن أبي عمرو بن بجيد: من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه.

قال القشيري: أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها. وللنفس صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات. فالمجاهدة تقع بحسب ذلك. قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس، لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرب، والشيطان هو المعين على ذلك ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه،

وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهاد الظاهر.

قال الحافظ: وجهاد النفس أربع مراتب: حملها على تعلُّم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمه، وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهى عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمام ذلك من المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات وبالله التوفيق.

أما بالنسبة للجملة الثانية وهي الهجرة، فالهجرة العادية المعروفة تقدم الكلام عليها في الجهاد وفي السيرة.

أما الهجرة الحقيقية التي يحسب لها ألف حساب هي هجرة المعاصي والذنوب والفواحش والابتعاد عنها، ويلزم من ذلك هجران أهلها وقرناء السوء، ثم هجران مظان وقوعها ومواضعها. وبذلك تتم طاعة العبد لمولاه ويصلح حاله وتتزكى نفسه، وفقنا الله تعالى لما يوجب رضاه وأبعدنا مما يوجب سخطه ومقته.

* * *

❊ اتقِ اللّه حيثما كنت

[١٣٦] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقِ الله حيثُما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»**.

رواه أحمد (١٥٣/٥)، والترمذي في البر والصلة (١٨٣١)، والدارمي في الرقاق (٣٧٩٤)، والحاكم (٥٤/١) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا

صححه الحاكم على شرط البخاري ومسلم، وليس كما قال بل هو صحيح فقط، وما قيل من انقطاعه ينجبر بشواهده.

وهذا الحديث من جوامع إرشاداته ﷺ، فإن التقوى أساس الدين، وما ذكر بعدها هو من ذكر الخاص بعد العام، فإن فعل الحسنات بعد السيئات، ومعاشرة الناس بالأخلاق الحسنة من جملة التقوى.

والتقوى اسم مأخوذ من الوقاية وهو البُعد أو التباعد عما يضر، وجاء الأمر الإلهي بالتقوى في القرآن والسنة مسنداً تارة للّه تعالى كقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ ومرة مسنداً إلى عذاب الله وناره كقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ﴾، وثالثاً جاءت مسندة إلى يوم القيامة كقوله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والمراد بالجميع هو التحفُّظ مما يوجب عذاب الله وعقابه وسخطه وغضبه وذلك يكون بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص، والعمل الصالح، واجتناب ما ينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل.

ولذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المتقي: من يتقي الشرك والكبائر والفواحش.

والتقوى على مراتب خمسة: تقوى الكفر وتكون بالإيمان واعتناق دين الإسلام والنطق بالشهادتين. وتقوى المعاصي والفواحش وتكون بتركها مع العمل الصالح ولزوم التوبة كلما وقع ذنب. وتقوى الشبهات وتكون بلزوم الورع والابتعاد عما يحوم حول الحرام. وتقوى المباحات وتكون بالزهد في الحياة والمشتهيات المباحة. وتقوى ما سوى الله من الكائنات وتكون بوحدة الشهود والحضور مع الله في كل الحالات والإعراض عما سواه، وهذه أعلى مراتب التقوى ولا يتصف بها إلا أكابر المقربين.

ولعظم التقوى اهتمّ الله عزّ وجل بها في القرآن الكريم وذكرها في نحو من مائتين وأربعة عشر موضعاً إما أمراً بها أو مدحاً لها أو لأصحابها، أو بياناً لجزاء المتصفين بها وما أعدّه الله لهم في الآخرة، وقد ذكرتها مفصلة في كتابي «مع السابقين إلى الجنة بلا عتاب ولا عقاب».

وقد أكثر الله تعالى ورسوله ﷺ الأمر بها، وأشهر ما جاء في القرآن

في ذلك قوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

وقوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء في ذلك عشرات الأوامر بها.

وهكذا جاء الأمر بها عن النبي ﷺ بكثرة كقوله في موعظته المشهورة: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة**».

ولما خطب يوم النحر في حجة الوداع وصّى الناس بتقوى الله والسمع والطاعة لأئمتهم، وقال لأبي ذر في حديث له طويل: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**»، وقال أبو سعيد الخدري: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء**». وقال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**».

[١٣٧] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الله ربكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدّوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**».

رواه الترمذي قبل الزكاة (٥٤٨)، وابن حبان (٧٩٥)، والحاكم (٣٨٩/١) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وهذا الحديث قطعة من خطبته ﷺ في حجة الوداع...

وكان ﷺ إذا بعث سرية وصّى أميرها في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً كما قدّمنا ذلك في الجهاد.

وعلى أيٍّ، فتقوى الله هي وصية الله لجميع خلقه من الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولم يزل المسلمون منذ أيام السلف الصالح حتى وقتنا هذا وإلى ما شاء الله يتواصون بالتقوى والتحلّي بها في السر والعلن.

* * *

❁ قل ربي الله ثم استقم

[١٣٨] وعن سفيان الثقفي رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»، وفي رواية: «**قل ربي الله ثم استقم**»، قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه، وفي رواية: قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «**هذا**».

رواه مسلم في الإيمان (٩/٨/٢) مختصراً باللفظ الأول، ورواه أحمد (٤١٣/٣ و٣٨٥/٤)، والترمذي في الزهد (٢٢٣٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢) كاملاً.

والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

فمن آمن بالله عزّ وجل وآمن بباقي كليات الإيمان ثم لزم طاعة الله وداوم على ذلك حتى الموت فقد حاز كل خير ولا يحتاج إلى شيء آخر يسأل عنه.

والاستقامة هي الثبات على الإيمان وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ في الأقوال والأفعال والسلوك الحسن مع التخلي عن الفواحش والآثام، وهذا هو المطلوب من العبد ولأجله خُلق.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده، قال: وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدَي الله تعالى على حقيقة الصدق، ولذلك قال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**».

وقوله ﷺ: «**اتقِ الله حيثما كنت**» يعني: أينما كنت في حضرك أو سفرك وعلى أي حال كنت في سرك وعلانيتك.

❋ إن الحسنات يُذهبن السيئات

وقوله ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» موافق لقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويزيد ذلك وضوحاً الأحاديث التالية:

[١٣٩] فعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها، فأنا هذا فاقضِ فِيَّ بما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة، فقال: «**بل للناس كافة**».

وفي رواية: إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ...﴾ الآية، قال الرجل: إليّ هذا؟ قال: «**لمن عمل بها من أمتي**».

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير (٩/٤٢٦/٤٢٧)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٩/٨٠/٨١)، والترمذي (٣٩١١)، والنسائي (٦/٣٦٦) كلاهما في التفسير، وابن ماجه في الصلاة (١٣٩٨) وفي الزهد (٤٢٥٤) واللفظ الأول: لمسلم والترمذي، والثاني: للشيخين والنسائي...

قوله: «عالجت» أي: داعبتها ونلت منها ما يكون بين الرجل وزوجته من قبلة ومباشرة... «من غير أن أمسها» أي أجامعها.

[١٤٠] وعن أبي اليَسَر رضي الله تعالى عنه قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلتْ معي في البيت فأهويتُ إليها فقبّلتها فأتيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال: استُر على نفسك وتُب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال لي: «**أخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟**» حتى تمنى أنه لم

يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظنّ أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتى أوحي إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية، قال أبو اليسر: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقرأها عليّ فقال أصحابه: يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: «**بل للناس عامة**».

رواه الترمذي (٢٩١٣)، والنسائي (٣٦٦/٦)، وابن جرير (١٣٧/١١) ثلاثتهم في التفسير، وحسّنه الترمذي وصححه.

«تبتاع»: أي تشتري. «فأهويت» أي: ملت إليها.

[١٤١] ونحوه عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية، فأمره أن يتوضأ ويصلي، قال معاذ: فقلت: يا رسول الله أهي له خاصة أو للمؤمنين عامة؟ قال: «**بل للمؤمنين عامة**».

رواه الترمذي (٢٩/٢) وسنده صحيح ولا يضر انقطاعه لسابقيه. . .

الظاهر أن هذه القصة كانت واحدة وقعت لرجل واحد هو أبو اليسر بن عمرو الأنصاري تصرف الرواة والناقلون في ألفاظها.

وفي الآية الكريمة مع هذه الأحاديث فضل واسع ورحمة شاملة للمؤمنين الذين تصدر منهم الهفوات واللمم من الذنوب الساعة بعد الساعة وأن ذلك يكفره الله بالحسنات، وأعظم ذلك وأشرفه الصلوات والمحافظة عليها. وفي حديثي ابن مسعود وأبي اليسر أنه ينبغي لمن أتى ذنباً في خفاء أن يستر على نفسه ويتوب إلى الله منه ولا يذكره لأحد، فإن الله ذو الفضل الواسع يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وعلى كلٍّ فمَن صدرت منه سيئة فليتبعها حسنة أو حسنات ليكفر الله تعالى عنه بمنّه ورحمته.

أما قوله: «وخالق الناس بخلق حسن» فتقدم معناه مشروحاً بتوسُّع في الآداب والأخلاق.

* * *

[١٤٢] عن حنظلة الأُسَيْدي رضي الله تعالى عنه وكان من كتّاب رسول الله ﷺ أنه مرّ بأبي بكر وهو يبكي فقال: «ما لك يا حنظلةُ؟» قال: نافق حنظلة يا أبا بكر نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأيُ عينٍ، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضَّيعة ونسينا كثيراً، قال: فوالله إنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقنا، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **«ما لك يا حنظلة؟»** قال: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم، وعلى فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** ثلاث مرات.

رواه أحمد (٣٤٦/١٢٨/٤)، ومسلم في كتاب التوبة (٦٧/٦٦/١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٢/٢٢٧٣) ورواه الطيالسي (٨٣) مختصراً بسند صحيح.

[١٤٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: إنا إذا كنا عندك فحدثتنا رقّت قلوبنا فإذا خرجنا من عندك عافسنا النساء والصبيان وفعلنا وفعلنا، فقال النبي ﷺ: **«إن تلك الساعة لو تدومون عليها لصافحتكم الملائكة»**.

رواه أحمد (١٧٥/٣)، وأبو يعلى (١١٤/٣) بسند صحيح، وعزاه النور (٣٠٨/١٠) للبزار وأبي يعلى وقال: رجال البزار رجال الصحيح غير زهير بن الرازي وهو ثقة.

[١٤٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رَقَّتْ قلوبنا، وزهدنا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فأنِسْنا أهالينا وشممنا الأولاد أنكرنا أنفُسنا، فقال رسول الله ﷺ: **«لو أنكم تكونون إذا خرجتُم من عندي كنتم على حالتكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلْقٍ جديدٍ كي يذنبوا فيغفر لهم»**.

رواه الطيالسي (٧٥)، والحميدي (١١٥٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٣) وسنده صحيح عند بعضهم، وأورده النور في المجمع (٣٩٦/١٠) مختصراً برواية البزار، والطبراني في الأوسط وقال: رجاله رجال الصحيح.

قوله: «كأنا رأي عين» أي: كأننا نشاهد النار والجنة عياناً. قوله: «عافسنا» أي: عالجنا. و«الضيعة»: معاش الإنسان من تجارة وصناعة وحرفة.

دلّت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: أن التذكير بالجنة والنار ينفع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، وخاصة إذا كان ذلك صادراً عن قلب صادق منوّر.

ثانياً: قد يصل الإنسان بالتذكير إلى حالة يرق معها قلبه ويعزم على التخلي عن الدنيا ويعد نفسه من أهل الآخرة ويصير كأنه يشاهد الجنة والنار.

ثالثاً: إن هذه الحالة لا تدوم للإنسان وذلك لما يطرأ عليه من مزاولة شؤون الحياة ومخالطة الأهل والأولاد والتمادي فيما لا علاقة له بالآخرة، وهذه الحالة قد تأتي بالتذكير، وقد تأتي بالتفكر أو حالة الذكر، وقد تأتي فجأة ثم سرعان ما تنقلب الأحوال إلى الأمور الطبيعية.

رابعاً: فيها دليل على أن المؤمن إذا داوم على التفكر في شؤون الآخرة وما يهدف إليها وذكر الله عزّ وجل مع الحضور ومراقبة الله تعالى، وصل إلى مقام مع الله تعالى يشاهد فيه الملائكة وتزوره عياناً وتصافحه في جميع مجال حياته في طريقه ومجالسه وفرشه.

خامساً: في ذلك دليل على جواز رؤية الملائكة وما وراء الطبيعة مما لا يُرَى لعامة الناس، وفي هذا ألف الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: «تنوير الحَلَك في إمكان رؤية النبي والملك» وهذا لا يتردد فيه إلا معاند أو جاهل.

سادساً: في ذلك إثبات كرامات الأولياء التي هي الأمر الخارق للعادة مع التقوى والصلاح، والأدلة على ذلك كثيرة قرآناً وسنّة وإجماعاً، ويأتي الكلام عليها لاحقاً.

سابعاً: في قوله ﷺ: «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» دليل على أن المؤمن لا يلام على غفلته ومزاولته شهواته وأنه ليس بمطالَب بالحضور مع الله وبعبادته دائماً وعلى كل أحواله، بل ساعة يكون فيها مع الله بالعبادة من صلاة وتلاوة وذكر وتفكُّر، وساعة يكون فيها مع نفسه وشهواته، بل ومع المعصية، كما يدل عليه قوله ﷺ: «**لو لم تذنبوا**».

ثامناً: ليس في هذا إغراء على المعاصي كما قد يفهمه البعض، بل المراد بذلك بيان قضاء الله وحكمته في خلقه بأن قدّر عليهم الذنوب لحكم بالغة فيستغفرون منها فتتجلّى فيهم مغفرة الله ويظهر فيهم عفوه ورحمته إذا هم تابوا إليه، وسيأتي مزيد لهذا في التوبة إن شاء الله تعالى.

تاسعاً: وهو مسك الختام في هذه الأحاديث إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه ويقبل على الله عزّ وجل بكليته وأن يكون دائم الحضور مع الله ومراقبته في السر والعلن وأن لا ينسى الآخرة والمآل.

* * *

❁ تفكروا في آيات اللّه

[**١٤٥**] عن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله فقال رسول الله ﷺ: «**فيمَ تتفكرون؟**» قالوا: نتفكر في الله، قال: «**لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق ملَكاً قدماه في الأرض السافلة السفلى ورأسه قد جاوز السماء العليا، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، والخالق أعظم من المخلوق**».

رواه أبو نعيم في الحلية (٦٧/٦) بسند حسن وعبدالجليل بن عطية

حسن الحديث، قال فيه الحافظ في التقريب: صدوق يهم وشهر بن حوشب، قال فيه النووي في شرح مسلم: تكلم فيه بغير حجة.

والحديث قال فيه العراقي في «المغني» بعد أن عزاه لأبي نعيم، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه. ثم إن الحديث له شواهد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، رواه الطبراني في الأوسط (٦٣١٥) واللالكائي في السُنّة، والبيهقي في الشعب وسنده ضعيف جداً، وعن أبي هريرة وأبي ذر وابن عباس وغيرهم. وكلها ضعيفة والعمدة على الأول.

[١٤٦] وعن عُبَيْد بن عُمَيْر رحمه الله تعالى، قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: أخبريني بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ؟ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «**يا عائشة ذريني أتعبّد الليلة لربي**» قلت: والله إني لأحب قربك وأحب مباشرتك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لِمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت عليّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها**».

رواه ابن حبان في صحيحه بالإحسان (٦٢٠)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٨٦)، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٤٠٩/٢) وسنده صحيح على شرط مسلم عند ابن حبان.

«التفكُر»: هو التأمُل والتدبُر، ويقرب من هذه العبارات التذكُر والنظر والاعتبار، ولقد أكثر الله عزّ وجل في القرآن الكريم من الأمر بالتفكُر ومدح أصحابه ولفت أنظار عباده إلى النظر والاعتبار بآياته ومكوناته.

كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والآيات في ذلك كثيرة مفرّقة في سور القرآن الكريم.

والتفكر الذي دعا الله عباده إليه يكون في آلاء الله تعالى ونعمه وآياته الكونية الدالة عليه، وهي التي جاء بها الحديث: **«تفكروا في خلق الله»**، وهي التي أكثر الله من ذكرها في كتابه الكريم كدلائل عليه وكررها تكراراً كثيراً في أكثر السور كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار والريح والسحاب والمطر والنبات والزروع والثمار والحيوان والدواب

والأنعام والبحار والسفن، والجبال والأنهار... وذلك باعتبار أن أكثرها أصل مادة حياة الإنسان والحيوان وأنها أكثر الآيات وأكبرها وأظهرها دلالة على الربوبية ووحدة الألوهية.

فالتفكر في هذه الكائنات وما أودع الله عزّ وجل فيها من عجائب وحكم وأسرار يثمر معرفة الله عزّ وجل واليقين به، وذلك هو المقصود الأهم، وإذا عرف الإنسان الله عزّ وجل عبده حق عبادته وعلم بتفكره وتيقظه أن ما عند الله في الآخرة خير وأبقى فعمل لذلك وشمّر عن ساق الجِد حتى يوافيه أجله.

هذا ولا يوجد أجمع للفكرة وأنفع للقلب وأدعى لعمل الآخرة من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث اليقين في الله ومعرفته بصفاته وأسمائه وما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي للمؤمن أن يقرأه ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خير من ختمة بغير تدبُّر وفهم، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه بات ليلة يردد قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، وقد تقدم في بحث القرآن من الجزء الثاني.

وقوله ﷺ: «**فإن ربنا خلق ملكاً قدماه في الأرض...**» إلخ، هذا مما يدل على عظمة الله عزّ وجل، فإذا كان ملك واحد خلق على هذا الشكل فكيف بغيره ممن لم نسمع بهم، وهم لا يحصون كثرة. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ومن هذا القبيل ما يلي:

[١٤٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُذِنَ لي أن أحدّث عن ملكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ما بين شحمة أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**».

رواه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٢٧) بسند صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (١/٨٠) برواية أوسط الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

[١٤٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله أذن لي أن أحدّث عن ديكٍ قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مُنْثَنٍ تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، فيرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذباً»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٧٣٢٠)، والحاكم (٢٩٧/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه المنذري وغيره.

فهذا من العظمة بمكان! ملكٌ واحدٌ مسافة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة، هذا شيء مدهش فكيف يا ترى يكون طوله وعرضه، وهذا ملك واحد من حملة العرش وهم ذوو عدد، فهؤلاء حملة العرش وقد عرفت عظمتهم فكيف بالعرش المحمول الذي هو سقف العوالم كلها من جنة ونار وسماوات وأرضين، إنه أعظم خلق الله عزّ وجل فكيف يكون خالقه وخالق الأكوان، إن العقول تقصر عن معرفة عظمة ذاته التي ليس كمثلها شيء والتي لا تتصورها عقول الخلق ولا تدرك كنهها الأبصار.

وقوله في حديث أبي هريرة: **«أن أحدث عن ديك»** هو ملك على صفة ديك، ولا غضاضة في ذلك، وإنما الغضاضة فيما جاء في حديث الأوعال الذي تضاربت فيه الأنظار، وقد قدمنا الكلام عليه في التفسير.

وقوله ﷺ في حديث عائشة: **«أُنزلت عليّ الليلة آية ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر»** المراد بها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الآية.

* * *

❊ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف

[١٤٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزّ وجل قال: **«إن الله عزّ وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمَن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملة، فمن**

همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومَن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدةً».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٠٦/١١٢) واللفظ له.

ورواه مسلم في الإيمان (٢/١٤٧/١٤٨) بألفاظ منها:

«قال الله عزّ وجل: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها»، وفي رواية: **«فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف. وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها»**، وقال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكة: ربِّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرَّايَ»**.

قوله: «مَن همّ بحسنة» الهمُّ بالشيء يطلق على خاطر النفس الذي لا يثبت، وعليه حملوا قوله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: خطر بباله ولم يعزم على ذلك. ويطلق على العزم ومنه في شأن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: عزمت وصمّمت، وعلى هذا يحمل هنا الهم أي: عزم بفعل الحسنة. وعزَم بفعل السيئة. وقوله: «إذا تحدث عبدي بأن يعمل» المراد بالتحدث هنا تحدث النفس وهو الهم والعزم السابق. وقوله: «ارقُبُوه» أي: انتظروه، وقوله: «من جرَّايَ» بفتح الجيم وتشديد الراء ثم ألف مقصورة، أي: تركها من أجلي وخوفاً مني.

وفي هذا الحديث فوائد:

أولاً: إن الله عزّ وجل كتب على الإنسان كل ما يأتيه من حسنات وسيئات وجعله تعالى مظهراً لتنفيذ قضائه، ماضياً فيه حكمه العادل.

ثانياً: تفضله على عباده المؤمنين بمجازاتهم بالحسنات على ما يهمون

ويعزمون عليه من الخير ولم يعملوه، وأنه تعالى يكتب لهم بكل همّة حسنة كاملة، بينما هم إذا عزموا على الشيء المشروع وعملوه ضاعف لهم الأجور والحسنات من عشر حسنات للحسنة الواحدة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وذلك حسب إيمان العبد وإخلاصه وخشوعه وحضوره مع الله تعالى ومحبته له.

ثالثاً: وهي من عظيم لطف الله ورحمته بعباده المؤمنين أن من عزم وصمم على إتيان مخالفة وفعل سيئة ثم جاهد نفسه وتركها خوفاً من الله عزّ وجل كتبت له حسنة وغفر له ما كان قد عزم عليه، فإن باشر السيئة واقترفها كتبت له سيئة واحدة بلا تضعيف، وفي ذلك من واسع فضل الله ورحمته بعباده ما يحمل العبد على فرحه بربه ورضاه به، وهيامه في محبته والإقبال على عبادته...

رابعاً: في الحديث دليل على أن أعمال القلوب تكتب كأعمال الجوارح الظاهرة، وأن الله عزّ وجل يعطي للكتبة الكرام اطلاعاً على ذلك كي يكتبوه ويكون قوله تعالى في شأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ شاملاً لفعل القلوب.

خامساً: في الحديث التفرقة بين ما يخطر على القلوب من الخواطر والوساوس النفسانية والشيطانية التي لا تثبت، وبين الخواطر التي يقع عليها العزم والتصميم لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فما عزم عليه يؤاخذ عليه وما لا فلا.

وعلى الثاني حمل الحديث التالي:

[١٥٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به»**، وفي رواية: **«عما وسوست»**.

رواه البخاري في العتق (٨٧/٦)، وفي الأيمان والنذور (٣٥٧/١٤)، ومسلم في الإيمان (١٤٧/٢).

والمراد بالوسوسة هنا هو حديث النفس وتردد الشيء في باطن الإنسان من غير أن يطمئن إليه ويستقر عنده وهي الخواطر التي لا عزم معها ولا تصميم. فهذه من المعفوات المتجاوز عن الأخذ بها لأنها مما لا يستطاع دفعه. ولذلك كان مَن حدّثته نفسه بقتل شخص أو ارتكاب فاحشة، أو طلاق زوجة... كان معفوًا عنه ولا إثم عليه في ذلك ولا يلزمه طلاق.

هذا، وقد أطال الحافظ في الفتح الكلام على حديث: «مَن همّ...» إلخ، ونقل كثيراً من آراء العلماء، وكذا النووي في شرح مسلم، وما ذكرناه هي الخلاصة التي ينبغي الاعتماد عليها، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ قرب الجنة والنار من العباد

[١٥١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**الجنةُ أقربُ إلى أحدكم من شِراك نعله، والنارُ مثلُ ذلك**».

رواه أحمد (٤١٣/٣٨٧/١)، والبخاري في الرقاق (١٠٤/١٤).

«شراك نعله»: الشراك هو السير الذي يكون بوجه النعل ونحوه.

ومعنى الحديث كما قال العلماء: إن تحصيل الجنة سهل قريب بتصحيح القصد وفعل الطاعة والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية.

فالطاعة موصلة إلى الجنة، والمعصية موصلة إلى النار، وإن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها. والقرب هنا معنوي، فإن الجنة فوق السماوات السبع والنار أسفل سافلين.

* * *

❋ النوم عن الجنة والنار

[١٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما رأيتُ مثل النار نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبُها».**

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٢٠)، والبغوي في شرح السنة (٣٧٢/١٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٨/٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٧/٢)، وهو وإن كان في سنده يحيى بن عبيدالله بن موهب وهو ضعيف فإنه قد أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس والسهمي في تاريخ جرجان عن عمر رضي الله تعالى عنه، فالحديث لذلك حسن. أفاده الشيخ ناصر في الصحيحة (٩٥٣).

قوله: «مثلَ النار» أي: في الشدة والهول.

ومعنى الحديث: أن النار مع كونها لا مثيل لها في أنواع العذاب والأهوال والخزي والنكال، ومع ذلك ترى الفارّين منها غافلين عنها نائمين، وإن الجنة أيضاً لا يوازيها شيء في النعيم والخير والبهجة والسرور... ومع ذلك تجد محبّيها وطالبيها ساهين نائمين عنها وعن التزود لها.

❋ ❋ ❋

❋ من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل

[١٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن خافَ أدلجَ، ومَن أدلجَ بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».**

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٧١)، والحاكم (٣٠٨/٣٠٧/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وفيه ضعف، وله شاهد عن أُبي بن كعب رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٧/٨)، والحاكم (٣٠٨/٤). فالحديث حسن كما قال الترمذي أو صحيح.

قوله: «أدلج» الإدلاج السير أول الليل وهو مثل ضرب لسالك الآخرة وأن من سارع إلى فعل الخيرات وانتهز الفرص في الأوقات المناسبة وفراغ القلب ونشاط الجوارح لا بد أن يصل إلى منزله الخالد وهو الجنة كما يصل المسافر المدلج أول الليل إلى منزله.

وقوله: «ألا إن سلعة الله غالية» هو تنبيه منه ﷺ لنا بأن الله عزّ وجل جعل سلعته وبضاعته الجنة وعرض بيعها على عباده وجعل ثمنها غالياً مرتفعاً، فمَن أدّى ثمنها حازها وأحرز عليها، ومَن لم يؤدّ ثمنها رجع خاسئاً خائباً، وثمنها هو الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن.

وهذا كما قال تعالى في الجهاد في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآية، غير أن في الآية جعل السلعة الأنفس والأموال والثمن الجنة، وفي الحديث جعل السلعة الجنة وثمنها الإيمان والعمل الصالح.

* * *

❊ خير الناس التَّقِيُّ النَّقِيُّ

[١٥٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مَخْمُوم القَلْب، صدوقُ اللسان**» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل، ولا حسد**».

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٦) قال في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

«مخموم القلب»: هو النقي الطاهر القلب الذي لا غل فيه ولا حسد، مضافاً إليه صدق اللسان.

فمَن كان كذلك كان أفضل الناس لأنه إذا صلح القلب صلحت الجوارح، فلا يأتي منها إلا الطاعة.

* * *

نقض عرى الإسلام

[١٥٥] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإسلام عروةً عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة**».

رواه أحمد (٢٥١/٥)، والحاكم (٩٢/٤)، وابن حبان بالإحسان (٦٧١٥/١٥)، وسنده صحيح، وعزاه النور في المجمع (٢٨١/٧) لأحمد والطبراني وقال: رجالهما رجال الصحيح، وله شاهد عن فيروز الديلمي رواه أحمد (٢٣٢/٤) بلفظ: «**لينقضن الإسلام عروة عروة، كما ينقض الحبل قوة قوة**». وسنده صحيح.

«لتُنتقضن» بضم التاء الأولى وفتح التاء الثانية والقاف، أي: تحل وتفسخ. وقوله: «عرى» بضم العين وفتح الراء ثم ألف مقصورة جمع عروة وهي في الأصل ما يكون في طرف الكوز ونحوه مما يمسك به، واستعير هنا لما يتمسك به من أمور الديانة. وقوله: «تشبث» أي: تمسك. وقوله: «كما ينقض الحبل» أي: كما يفسخ.

وفي الحديثين تنبؤ من النبي ﷺ بما سيحصل للإسلام بعد كماله وقوته وانتشاره من نقض وفسخ لقواعد الدين وأصوله واضمحلال معالمه وضعفه، وأن أول ما يذهب ويغيب منه تعطيل الحكم بما شرعه الله تعالى، ويصبح الناس كلما ذهبت عروة من عرى الدين تركوها وتمسكوا بما يليها حتى تذهب وتضمحل جميع قواعد الدين ولا يبقى بينهم ظاهراً إلا الصلاة ثم تكون هي الأخيرة تركاً وغياباً.

* * *

❁ الجزاء على الحسنات في الدنيا والآخرة

[١٥٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها»**، وفي رواية: **«إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويُعْقِبُه رزقاً في الدنيا على طاعته»**.

رواه أحمد (٣/١٢٣/١٢٥/٢٨٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٤٩/١٥٠) واللفظان له.

قوله: «أفضى» أي: صار إلى الآخرة.

في الحديث وعد من الله عزّ وجل للمؤمن بأنه تعالى يجازيه على حسناته في الدنيا بالرزق الطيب والعافية والأمان والحفظ، ثم يجازيه جزاء ثانية في الآخرة وهو خير وأبقى، والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومن جزائه تعالى لعبده المؤمن في الدنيا أن يحييه حياة طيبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

والحياة الطيبة في الدنيا هي الرزق الحلال الكافي مع القناعة والراحة والانشراح والطمأنينة، وهي سعادة معجلة للمؤمن.

أما الكافر فما عمله في هذه الحياة من خير كصلة، وصدقة، وضيافة، وإحسان، وخلق حسن... فيجازى على ذلك في الدنيا بالبسط في الحياة ورغد العيش والعافية وطول العمر ونصر على الأعداء ونحو ذلك. أما في الآخرة فأجمع العلماء على أنه إذا مات على كفره ليس له ثواب في الآخرة وليس له إلا العذاب الخالد.

وقوله في أول الحديث: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة» معناه: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

والظلم يطلق على النقص وهضم الحقوق، كما يطلق على أخذ حق الغير وهو في كل الأحوال مستحيل على الله عزّ وجل.

* * *

❊ عجباً لأمر المؤمن

[١٥٧] عن صُهَيْب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

رواه أحمد (٣/٣٣٢/٣٣٣)، ومسلم في أحاديث متفرقة من الزهد (١٨/١٢٥).

«العجب»: بفتحتين، انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه الشيء أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه وهو في حق الله صفة له تخالف صفات المحدثات، وقد يفسره بعضهم برضاه بالشيء.

ولا شك أن أمر المؤمن وما قضى الله تعالى عليه من الخير والشر مما يتعجب منه لأن كل ذلك خير له، فإذا أصيب بما يسره من الخير والبسط فحمد الله عزّ وجل وشكره كان خيراً كثيراً له بما سيجازيه الله عليه من الثواب الجزيل، وإذا أصيب بما يكرهه من الضراء والبلايا فصبر على ذلك وحبس نفسه ولم يتضجر ولم يقنط كان خيراً له أيضاً أي خير، وسيقابل بالأجور العظيمة ومنتهى ذلك جنة الخلد، وهذا بخلاف غيره من الكفار والمنافقين وأشباههم فإنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً.

* * *

❋ ما يغفر وما لا يغفر من الظلم والذنوب

[١٥٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدواوين عند الله عزّ وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله عزّ وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة**».

رواه أحمد (٦/٢٤٠)، والبيهقي في الشعب (٦/٥٢) وفي رواية له ذكر آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وفي سنده صدقة بن موسى صدوق له أوهام، ويزيد بن بابنوس مقبول كذا في التقريب لكن الحديث حسن لشاهد له عن أنس رضي الله تعالى عنه بلفظ: «**الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله...**» فذكره بمعناه، رواه الطيالسي في مسنده رقم (٢١٨٤) (ج٢/٦٠/٦١) مع المنحة، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٠٩) وفيه يزيد الرقاشي زاهد ضعيف ومثله يستشهد به لأنه لم يُتهم بكذب.

والحديث يدل على عدل الله عزّ وجل، وبالتالي فضله وشمول رحمته ولطفه بعباده، فسيقضي بين عباده يوم القيامة ويعدل في قضائه ولا يظلم أحداً ممن كفر به وعبد غيره، فهذا سيحكم فيه بخلوده في النار ولا يغفر له ظلمه لأن الشرك ظلم عظيم، أما من ظلم غيره بأخذ حق له أو نقصه، فهذا لا يترك ولا يغفر إلا بأدائه والاقتصاص من الظالم.

أما ما بين العبد وربه من هنات شخصية فالله عزّ وجل سيتجاوز برحمته عن ذلك ولا يبالي، وهذا من كمال عدله وواسع فضله سبحانه وتعالى.

[١٥٩] وسيأتي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن

رسول الله ﷺ قال: **«إذا خلص المؤمنون من النار حُبِسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا...»**.

رواه البخاري في المظالم والرقاق.

قوله: «فيتقاصُّون» بتشديد الصاد، أي: يقتص بعضهم من بعض فيما كان بينهم من المظالم.

[١٦٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت له مظلِمةٌ لأخيه من عِرضه أو شيء، فليتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**.

رواه البخاري في المظالم (٢٧/٢٦/٦) وفي الرقاق (١٨٧/١٤)، وأحمد (٥٠٦/٤٣٥/٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٩) ويأتي في القيامة.

قوله: «مظلمة» بكسر اللام، أي: ما ظلمه إياه. قوله: «من عرضه» بكسر العين وسكون الراء، العرض محل المدح والذم من الإنسان. وقوله: «أو شيء»، في رواية: أو مال. وقوله: «فحمل عليه»، في رواية: فجعل عليه. وقوله: «فليتحلله» أي: ليطلب منه أن يجعله في حِل ويسامحه.

وفي الحديث وعيد شديد وتهديد بالغ لمن يظلم غيره سواء كان بالنيل من عرضه كتكفيره أو تبديعه أو لعنه أو سبه وشتمه أو قذفه أو الكلام فيه بأي سوء يكرهه أو كان بأخذ ماله غصباً أو سرقة أو غشاً أو نصباً أو كان سفكاً لدمه أو سعياً في سبيل ذلك.

فالواجب على المسلم الذي عليه مظالم من هذا القبيل، أن يتحلل ذلك ما دام على قيد الحياة، فإذا أفضى إلى الآخرة اقتصّ منه فيؤخذ من حسناته فتدفع إلى أرباب المظالم فإن فنيت أخذت سيئاتهم فجعلت عليه ثم ألقي في النار، نعوذ بالله من غضبه وعقابه، وهذا هو المفلس الآتي.

* * *

❋ المفلس يوم القيامة

[١٦١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون مَن المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: «**المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد فيقتصُّ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٣٥/١٣٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٨).

«المفلس»: بضم الميم من الإفلاس وهو عند الناس من أحاطت به الديون ولا يجد ما يقضي به غرماءه، وهو في الحقيقة والواقع من يفلس يوم القيامة بأن يأتي وقتها بجبال من الحسنات كسبها من أعماله الصالحة في الدنيا، لكنه أفضى إلى الآخرة وعليه مظالم للعباد من شتم وقذف وأخذ مال وسفك دم وضرب جسم فيقتص منه بأخذ حسناته على وجه القصاص، فإذا فنيت حسناته أخذت سيئات المظلومين فألقيت عليه ثم طرح في النار وأصبح من الهالكين، فهذا هو المفلس الحقيقي.

❋ ❋ ❋

❋ الإنسان والشيطان

[١٦٢] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس يضعُ عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه ويقول: نعم أنت**»، وفي رواية: «**فيلتزمه**»، وفي رواية: «**إن عرش**

إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة».

رواه أحمد (٣/٣١٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٥٦/١٥٧).

«العرش»: هو سرير الملك. وقوله: «فيدنيه» أي: يقربه منه. وقوله: «فيلتزمه» أي: يحتضنه فرحاً به ومحبة فيه.

والحديث يدل على أن الشيطان الأكبر إبليس اللعين له عرش وسرير على البحر وأن له جنوداً من أبنائه يبعثهم سرايا في الدنيا يفتنون الناس عن دينهم فأقربهم منه منزلة ومكانة أشدهم وأعظمهم فتنة للناس، وعداوة الشيطان للإنسان وتسلُّطه عليه وإغوائه إياه من الأمور المعلومة بالضرورة في الإسلام، فالشيطان العدو الأول للإنسان لا يفتر عن وسوسته وإغوائه.

[١٦٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم».**

رواه أحمد (٣/٣٥٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٥٦)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٣).

«التحريش»: الإغراء والتحريض على الخصومة. وقوله: «أيس» أي: قنط.

في الحديث أن الشيطان لما أيس من تكفير المصلِّين وخاصة في الجزيرة العربية مهد الإسلام ومنبعه قنع بما يوقعه فيما بينهم من التحريض على الخصومات والتهاجر والتقاتل وما إلى ذلك من الفواحش، فهو الحامل الناس على ذلك، بل كل ما يقع في هذا الكون من منكر وفساد، فالحامل عليه والمزين له هو إبليس بلية من الله تعالى لعباده، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

ولا سبيل للحيلولة بينه وبين العبد إلا الالتجاء إلى الله تعالى من شره، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ...﴾ الآية.

[١٦٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكّل به قرينُه من الجن**»، قالوا: وإياك يا رسول الله، وفي رواية: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**».

رواه أحمد (٤٠١/٣٩٧/٣٨٥/١)، ومسلم في القيامة (١٥٧/١٧)، والدارمي (٢٧٣٧).

[١٦٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغِرتُ عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال: «**ما لكِ يا عائشة أغِرتِ؟**» فقلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك؟**» قالت: يا رسول الله أوَمعي شيطان؟ قال: «نعم»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم»، قلت: ومعك؟ قال: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**».

رواه مسلم (١٥٨/١٧) وفي الباب عن ابن عباس وجابر عند أحمد في المسند.

قوله: «وُكّل به قرينُه» أي: شيطانه. وقوله: «فأسلم» ضبطت الميم بالضمة والفتحة فمن رفع قال: معناه أنا أسلم من شره وفتنته، ومن فتح قال: معناه أن القرين أشهر إسلامه وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، ورجح القاضي عياض الفتح واختاره النووي.

والحديثان يدلان على أنه ما من عبد أياً كان إلا معه قرين من الجن يأمره بالشر ويغويه وينهاه عن الخير، ولا ريب أن هذا من محن الله تعالى التي ابتلى بها عباده في هذه الدار حيث سلط عليهم الشيطان وأقدره على الوساوس والإغواء وجعله سبباً لكفر الناس وحملهم على الغواية والضلال ولا ينجو منه إلا الأكابر من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم بعصمتهم منه ومن نزغاته.

نعم، وكذا بعض أكابر الأولياء قد يضعف قرينهم فلا يتأثرون به لقوة روحانيتهم وكثرة مجاهدتهم.

وفي الحديثين دليل على أن قرين النبي ﷺ كان قد أسلم وآمن بالله ورسوله وبما جاء به، ولذلك كان ﷺ مأموناً من الأمر بالشر والنهي عن الخير وهذا من جملة خصائصه ﷺ التي خصّه الله بها.

[١٦٦] وعن صفية بنت حُيَيّ رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتَيْتُه أزورُه ليلاً فحدثْتُه ثم قمتُ لأنقلب فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ: **«على رِسْلِكُما إنها صفية بنت حُيَي»** فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: **«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً** ـ أو قال ـ **شيئاً»**.

رواه البخاري في الخمس (١٨/٧) وفي الاعتكاف، ومسلم في الأدب (١٥٦/١٤) وأبو داود في الصيام (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩).

قوله: «على رسلكما» بكسر الراء واللام، أي: كونا على هيئتكما في المشي.

في هذا الحديث فوائد:

منها جواز خروج المرأة ليلاً لزيارة بعض أقاربها والتحدث عندهم.

ومنها: مشروعية تشييع الزائر إلى داره.

ومنها ذهاب الرجل مع زوجته سوياً خارج البيت.

ومنها: أن من كانت معه امرأة من أقاربه ينبغي له أن يعرِّف بها الناس لئلا يظنوا به ظن السوء.

ومنها: الابتعاد عن مواقف التهم كالمشي مع امرأة أجنبية أو الوقوف معها في محل خال من الناس مثلاً، وغير ذلك مما يتهم فيه الإنسان بما يخدش في دينه.

ومنها: الاستعداد للتحفظ من الشيطان ومكائده فإنه يجري من الإنسان

مجرى الدم، يعني والله أعلم أن الله عزّ وجل أعطاه قدرة على الجري في مجاري دم الإنسان وباطنه وسلّطه عليه بإلقاء وساوسه ونزغاته.

ومنها: رحمة رسول الله ﷺ وشفقته على ذينك الرجلين وصيانته قلوبهما وجوارحهما حيث خاف أن يلقي الشيطان في قلوبهما من السوء به ﷺ وذلك كفر. فعرّفهما بأن المرأة زوجته فلانة.

* * *

❊ المؤمن البائس والكافر المُنَعَّم

[١٦٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغُ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيتَ بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

رواه أحمد (٢٠٣/٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٤٩/١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢١).

قوله: «فيصبغ» أي: يغمس غمسة كما في رواية: «اغمسوه». وقوله: «بؤساً» أي: شدة وفقراً.

في الحديث وعيد شديد وزجر بالغ لمن كفر بالله وقضى حياته في نعيم متوال متناه فسيغمس يوم القيامة في عذاب الله غمسة واحدة فينسى كل ما كان فيه من نعيم لشدة الهول ونهاية العذاب عياذاً بالله تعالى، كما فيه بشارة للمؤمن الذي كان في حياته أشد الناس حاجة وفقراً فصبر على ذلك حتى وافاه أجله فإنه سيغمس أيضاً غمسة في الجنة فينسى كل ما مرّ عليه من الشدائد والفقر والقلة والبؤس وذلك لما يلمسه ويشاهده... من النعيم

الذي ما سمع ولا رأى مثله، وفي ذلك حض على الصبر وتحمّل مشاق الحياة والتنافس في عمل الآخرة.

* * *

❊ يا عبادي، يا عبادي، يا عبادي

[١٦٨] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته، فاستهدوني أهْدِكُم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوتُه، فاستكسوني أكْسُكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيطُ إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

رواه أحمد (٥/١٦٠/١٧٧)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٠)، والترمذي في صفة القيامة (٥/٢٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧).

هذا حديث عظيم الشأن فيه بإجمال أن الأمور كلها بيد الله عزّ وجل، فالهداية بيده، والأرزاق بيده، وخزائنه واسعة ملأى لا تنفذ وأنه واسع المغفرة يغفر الذنوب والخطايا وكبار السيئات لمن استغفره طاعتنا لا تنفعه ولا تزيد في ملكه شيئاً، كما أن معاصينا لا تضره ولا تنقص من ملكه

شيئاً، جواد واجد ماجد عطاؤه كلام، وعذابه كلام إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فله الأمر كله، وله الحكم كله، وله الحمد كله في الأولى والآخرة.

* * *

❊ الإخلاص وفضله والنية الصالحة

[١٦٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبُق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبُوقَهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبُق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى يشرق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج.

وقال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليّ، فأردتُها على نفسها فامتنعتْ مني حتى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إني استأجرتُ أُجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل

واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله أدِّني أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق، فقال: يا عبدالله لا تستهزىء بي، فقلت: إني لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

رواه أحمد (١١٦/٢)، والبخاري في الإجارة (٣٥٦/٥) وفي آخر الأنبياء (٣١٧/٧، ٣٢٠)، ومسلم في الرقاق (٥٨/٥٥/١٧).

«ثلاثة نفر»: بفتح النون والفاء، في رواية رهط. «لا أغبق»: الغبوق بفتح الغين، هو الحليب الذي يشرب بالعشي. «والصبية يتضاغون» أي: يصيحون من الجوع. «ألمّت بها سنة» أي: نزلت بها سنة مقحطة لم تنبت الأرض فيها شيئاً. «تفض الخاتم»: كنت بذلك عن الوطء.

في هذا الحديث فوائد وأحكام وآداب تقدمت الإشارة إليها في الأنبياء (ج٨/٥٦٦).

والشاهد منه هنا هو إخلاص أولئك الثلاثة في أعمالهم وتفريج كربتهم بتوسلهم بها إلى الله عزّ وجل، ففيه فضل إخلاص العمل للّه الذي لا يقبل الله عزّ وجل أي عمل إلا إذا كان خالصاً له لا يشوبه أي علة من رياء أو سمعة أو تصنُّع.

[١٧٠] وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل للّه، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».**

رواه ابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٣٥) والحديث صحيح لشواهده، فقد جاء عن أنس رواه أحمد (٢٢٥/٣) وعن جبير بن مطعم رواه أحمد (٨٢/٨٠/٤) وغيره، وجاء مطولاً بأسانيد صحيحة وذكرت أصله في العلم من الجزء الأول ص(٢٨)، وفي تهذيب الترمذي (٢٤٧١) من أبواب العلم.

قوله: «لا يغل» من الإغلال وهو الخيانة أو من الغل وهو الحقد والشحناء، وعلى أيٍّ فمعناه أن قلب الرجل المسلم لا يصدر عنه الحقد والشحناء والخيانة والميول عن الحق. وقوله: «إخلاص العمل للّه» الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله ورضاه دون غرض آخر من سمعة ورياء. والإخلاص يضاده الشرك وهو أصغر وأكبر، فالأكبر يضاده الإخلاص في التوحيد، والأصغر وهو الرياء والسمعة يضاده الإخلاص في العمل لوجه الله عزّ وجل.

والإخلاص هو روح الأعمال وهو العروة الوثقى، والذروة العليا المأمور بها على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهو شرطٌ لصحة الإيمان والأعمال.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي أمروا أن يجعلوا دينهم خالصاً لوجه الله لا يشوبه شرك ولا نفاق ولا رياء ولا حظوظ شيطانية.

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الصافي من جميع الشركيات.

وقال تعالى عن التائبين من المنافقين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾.

قال العلماء: التوبة أول مقام من مقامات اليقين والإخلاص خاتمتها، والإخلاص وضده من الشرك يتواردان على القلب، فهو مصدر القصد والنية والبواعث وعلى ما عزم عليه ونواه الحكم، فمن نوى شيئاً من القربات لوجه الله عزّ وجل وعمله ولم يشبه بشيء آخر كان مخلصاً، فإذا طرأ عليه شيء من شوائب الرياء عند العمل لا يتركه وليرد ما طرأ عليه ويستغفر الله تعالى ولا يضره ذلك إن شاء الله عزّ وجل.

وعلى أيٍّ: فالله عزّ وجل لا يقبل من الأعمال والأقوال والعزائم إلا ما أريد به وجه الله تعالى وخلص له

[١٧١] ففي حديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى».

رواه الطبراني. قال المنذري رحمه الله: بإسناد لا بأس به.

* * *

❊ الرياء والسمعة

[١٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه»، وفي رواية: «فمَن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء وهو للذي أشرك».

رواه مسلم (١١٥/١٨) باللفظ الأول، وابن ماجه (٤٢٠٢) باللفظ الثاني، كلاهما في الزهد.

في الحديث تحريم خلط العمل لله تعالى بغيره فإن ذلك يعتبر شركاً، وهو إما شرك أكبر موجب للخلود في النار كمن عبد الله وعبد معه غيره، وإما شرك أصغر كمن أراد بعمله وجه الله تعالى، ولكنه راءىٰ به غير الله ليحمد ويثنى عليه، وليقال: إنه كذا وكذا مما يتعاطاه المراؤون، وكل ذلك باطل لا يقبله الله عزّ وجل وهو بريء منه.

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

فالآية الكريمة مصرحة بأن من كان يؤمن بالله عزّ وجل ويأمل لقاءه ويرجو ثوابه ويخاف عقابه فيجب عليه أن يعمل أعمالاً صالحة وليخلصها لله عزّ وجل ولا يرائي بها أحداً، ولا يبتغي بذلك غير وجه الله، فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً له.

والشرك في الآية: هو الشرك الأصغر الذي يدخل في الأعمال

والأقوال المتقرب بها إلى الله وهو التظاهر للناس ومراءاتهم بها ليعرفوا منزلته فيعظّموه ويحترموه ويثنوا عليه لأجل ذلك. فهذا شرك خفي.

[١٧٣] وعن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا جمع الله الناس ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: مَن كان أشرك في عمل عمله للّه أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»**.

رواه أحمد (٤٦٦/٣) (ج٣١٥/٤)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣)، وابن حبان (٢٤٩٩) وهو حسن لغيره.

فالحديث كسابقه جاء مؤكداً ومبيناً للآية الكريمة.

[١٧٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لا شيء له»**، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: **«لا شيء له»**، ثم قال: **«إن الله عزّ وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِي به وجْهُه»**.

رواه أبو داود والنسائي في الجهاد (٢٢/٦) بسند حسن صحيح.

ففي قوله: «يلتمس الأجر والذكر» هو الرياء والشرك الأصغر فإنه أراد بغزوه الأجر من الله ثم ذكره عند الناس بالجرأة والشجاعة، فهذا شرك في العمل، والله لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وحده.

[١٧٥] وهذا ما جاء عند الجماعة عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: الرجل يقاتل ليُذكرَ، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليُرى مكانه فمَن في سبيل الله؟ قال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»**.

فقوله: «ليذكر» أي: يذكره الناس بالإقدام والنجدة. وكذا قوله: «ليُرى مكانه» أي: ليرى الناس مكانه من القتال فيمدحونه فذلك حظه وليس له من الأجر شيء، وحسب المرائي من الشر أن يكون به شبه بالمنافقين،

وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية، في آيات وأحاديث جاءت في شأنهم، ومن أشد ما جاء في المرائين قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦...﴾ الآية، فكفى بذلك زجراً وخسارة.

ومن أنواع الرياء ما يبينه الحديث الآتي:

[١٧٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»** قلنا: بلى، فقال: **«الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٤) وحسّنه البوصيري.

فالصلاة خير عمل، ولكنها تنقلب شر عمل بمراءاتها عن صاحبها يزين قراءتها وطول ركوعها وسجودها... ليذكره الناس بذلك ويثنون عليه، فهذا من الشرك الخفي الذي لا يتفطن له الناس وهو من الشهوة الخفية.

[١٧٧] فعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أخوف ما أتخوّف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول: يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله، وشهوة خفية»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٥) قال البوصيري: في إسناده عامر بن عبدالله لم أرَ من تكلم فيه وباقي رجال الإسناد ثقات. ويتأيد بما في الباب.

فالرياء شهوة خفية لا يطلع عليها أكثر الناس.

* * *

❋ من وعيد المرائين

[١٧٨] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن سمَّع سمَّعَ الله به، ومن راءى راءى الله به»**.

رواه مسلم في الزهد (١١٦/١٨)، ومثله عن جندب رواه البخاري في الرقاق (١٢٠/١٤)، ومسلم في الزهد (١١٦/١٨) وفي الباب أحاديث في معناه.

جاء في «الفتح» في الرياء والسمعة قال: والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. والسمعة: بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر. وقال الغزالي: المعنى طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائي هو العامل. وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل لغير الله، والسمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس.

وقال الخطابي: معناه: من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه، وقيل: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة. ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه... وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله ولا يثاب عليه في الآخرة. انتهى من الفتح.

وقال النووي: قال العلماء: معناه: من راءى بعمله وسمَّعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمَّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه...

وعلى أيٍّ، ففي الحديث وعيد شديد وفضيحة للمرائي يوم القيامة، نسأل الله تعالى السلامة والعافية، آمين.

[١٧٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشْهِد فأُتي به، فعرَّفه نِعمَه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ ليقال جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به**

فعرّفه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبل يُحَبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقي في النار».

رواه أحمد (٣٢٢/٢)، ومسلم في الجهاد (٥١/٥٠/١٣)، والنسائي كذلك (٢١/٢٠/٦).

في هذا وعيد شديد لهؤلاء الأصناف الثلاثة الذين يراؤون بأعمالهم ولا يخلصونها لوجه الله تعالى، كما فيه زجر بالغ لهم.

قال النووي رحمه الله تعالى: قوله ﷺ في الغازي، والعالم، والجواد، وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله، وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً، وهذا الباب واسع متشعب وقد استقصاه أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء، وذكر له من الآفات والدقائق ما يجب الوقوف عليه فانظره في ربع المهلكات.

* * *

❋ ما يظن أنه رياء وليس منه

[١٨٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل فيسُرُّه فإذا اطلع عليه أعجبه، قال

رسول الله ﷺ: «**له أجران: أجر السر، وأجر العلانية**» وفي رواية: إني أعمل العمل فيُطّلع عليه فيعجبني؟ قال: «**لك أجران...**».

رواه الترمذي (٢٢٠٢) وابن ماجه (٤٢٢٦) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٣٥١٦)، وسنده صحيح ولا يضر إرسال من أرسله، وله شاهد عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ:

[١٨١] قال: قلت له: الرجل يعمل العمل للّه فيحبه الناس عليه؟ قال: «**ذلك عاجل بشرى المؤمن**».

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٥) بسند صحيح.

قال الترمذي رحمه الله تعالى: وقد فسر بعض أهل العلم هذا الحديث: «**إذا اطلع عليه فأعجبه**» إنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقول النبي ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**» فيعجبه ثناء الناس عليه لهذا، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويُكرمَ ويُعظَّم على ذلك فهذا رياء. وقال بعض أهل العلم: إذا اطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فتكون له مثل أجورهم، فهذا له مذهب آخر.

إنما الأعمال بالنيات فمَن عمل عملاً صالحاً أخلص فيه للّه تعالى ولم يُرد به غيره، ثم اطلع عليه وأثنى الناس عليه وعظّموه وأكرموه لا يضره ذلك إن شاء الله، فإنه لم يقصد بعمله شيئاً من ذلك فعمله صحيح مقبول عند الله وثناء الناس عليه وما يتبع ذلك هي بشرى من الله تعالى له معجلة. ومع ذلك فلا ينبغي له أن يغتر بذلك.

* * *

❁ ماذا يفعل من خاف الرياء

[١٨٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل**» فقال له: من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا

رسول الله؟ قال: **«قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»**.

رواه أحمد (٤٠٣/٤) والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير أبي علي الكاهلي فوثقه ابن حبان ولم يجرحه أحد. أفاده المنذري والهيثمي، وله شاهد عن حذيفة رواه أبو يعلى (٥٨) بنحوه، وفيه يقول كل يوم ثلاث مرات وهو صالح للاستشهاد به، فالحديث حسن بطريقيه.

ففي الحديث بيان دواء من يخاف الرياء في أعماله وأنه يقول هذا التعوذ ثلاث مرات كل يوم فيحفظه الله تعالى من هذا الداء القاتل إن شاء الله تعالى.

وكان الشيخ سيدي أحمد زروق رحمه الله تعالى موفَّقاً كثيراً حيث جعله في وظيفته العظيمة التي اعتاد قراءتها الشاذليون.

فليواظب المؤمن على قراءته صباحاً ومساءً.

ومع ذلك فيجب عليه أن يكون على حذر من دقائق الرياء كعلانيتها، حفظنا الله من الرياء والسمعة في السر والعلن وجعل جميع أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا خالصة لوجهه الكريم إنه قريب جواد سميع مجيب الدعاء.

❊ ❊ ❊

❊ التوبة

التوبة هي الرجوع من المعصية إلى طاعة الله تعالى مصحوباً مع الندم على المعصية والإقلاع عنها ونية عدم الرجوع إليها مع صلاة ركعتين والاستغفار ورد مظالم العباد والتحلُّل منها.

وهي واجبة من كل ذنب كبيراً كان أم صغيراً كان الذنب شخصياً مع الله أم متعلقاً بالآخرين، كان المذنب ذكراً أم أنثى تقياً أم مخلطاً أم فاجراً، ومَن تاب توبة متوفرة الشروط قبلت قطعاً من الكافر ومن المؤمن على القول الصحيح.

وهي عند أهل السلوك أول مقام يجب فيه على السالك التحقق به والمداومة عليه كُلما صدر منه ذنب، ولا يخلو إنسان من هفوة أو هفوات مهما كان قدره إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وقد أكثر الله عزّ وجل من ذكر التوبة والأمر بها ومدح التائبين والثناء عليهم والإشادة بهم كما جاء مثل ذلك عن نبينا ﷺ فقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ...﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته، وقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في آيات كثيرة كلها تأمر بالتوبة وتثني على أصحابها وتخبر بفضل الله ورحمته وقبولها وغفران الذنوب وتكفير السيئات بعد صدورها.

وقد قدّمنا في الجزء الثاني ص(٦٩٩/٧٠٤) بعض أشهر الأحاديث الواردة في التوبة كحديث:

[١٨٣] «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

[١٨٤] وحديث: «إن الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

رواه مسلم وغيره.

[١٨٥] وحديث: **«مَن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»**.

رواه مسلم في أحاديث أخرى فارجع إليها، وسأذكر هنا بعض ما لم يذكر هنالك.

[١٨٦] فعن الإمام علي عليه السلام قال: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله منه بما يشاء أن ينفعني، فإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدّقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور، ثم يصلي، ثم يستغفر الله تبارك وتعالى إلا غفر الله له»**، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا...﴾ إلخ.

رواه أحمد (١٠/٩/١)، والحميدي (٤٩)، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٣٦٣) وفي التفسير (٢٨١٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، وابن ماجه (١٣٩٥) بسند صحيح.

ففي الحديث فوائد:

أولاً: من آداب التوبة التطهر والصلاة ثم الاستغفار.

ثانياً: تأكد غفران الذنب بعد التوبة منه وهذا لا خلاف فيه.

ثالثاً: قد تصدر من المؤمن فاحشة من الفواحش كزنا وسرقة وشرب خمر مثلاً، فإذا تاب منها غفر الله له وأدخله جنته مخلّداً فيها، وهذا وعد من الله تعالى وهو لا يُخلف وعده.

[١٨٧] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٠/٤)،

والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٨) حسّنه الحافظ وغيره لشواهده.

الحديث نصّ في أن من تاب لا يبقى عليه ذنب، وهذا مما يجب أن لا يختلف فيه لتظافر الأدلة على ذلك.

[١٨٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل، قال الله تعالى: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

رواه الترمذي في الأدعية (٣٥٤٠) بتهذيبي وهو حسن صحيح لشواهده.

قوله: «ولا أبالي» أي: لا أعبأ بتلك الذنوب والخطايا. وقوله: «عنان السماء» بفتح العين هو السحاب. وقوله «بقراب الأرض» بضم القاف، أي: بما يقارب ملء الأرض ذنوباً.

وفي الحديث شمول مغفرة الله للمستغفرين ولو كانت ذنوبهم تقارب ملء الأرض فإنه تعالى لا يتعاظمه شيء فينبغي للعبد أن يكون دائم الاستغفار فإنه لا يدري متى تصادفه رحمة الله.

* * *

❊ خير الخطائين التوّابون

[١٨٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«كلُّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوّابون»**.

رواه أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٨) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٠)، والحاكم (٢٤٤/٤) وسنده حسن وصححه الحاكم وابن القطان.

في الحديث فائدتان:

الأولى: أن التوابين خير العصاة وأهل الخطايا، وذلك لرجوعهم إلى الله تعالى وتعلقهم به والتجائهم إليه في تكفير وغفران ما اقترفوا، وفي ذلك خير كبير لهم.

الفائدة الثانية: فيه أن كل بني آدم مذنبون بل كثيرو الخطايا لا يخلون من ذلك الآونة بعد الآونة لأن تلك طبيعتهم إلا المعصومين من الأنبياء فهم خارجون عن هذه الكلية، ولذلك قال إمامنا أبو حامد الغزالي قدّس الله سره في أول ربع المنجيات من الإحياء: بعد كلام... بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير ملك مقرّب عند الملك الديّان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان.

قال: فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان، وكل عبد يصحح نسبه إما إلى الملائكة، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً مُحْكماً لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم.

[١٩٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن تغفر اللهم تغفر جماً، وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا»**.

رواه الترمذي في تفسير سورة النجم (٣٠٦٨)، والحاكم (٤٦٩/٢) وحسّنه الترمذي وصححه وهو على شرط مسلم عنده وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: «تغفر جماً» أي: كثيراً. وقوله: «لا ألمّا» أي: لم يلم بالمعصية.

وفي الحديث بيان منه ﷺ لطبيعة الإنسان في هذه الحياة وأنه لا يخلو أحد من الذنوب والإلمام بها، وأن الله عزّ وجل يقابلهم بالعفو والمسامحة والغفران وإن كثرت منهم الذنوب، لأن رحمته تعالى سبقت غضبه.

[١٩١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عبداً أذنب ذنباً فقال: أذنبتُ ذنباً فاغفر لي، قال: فقال ربه عزّ وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، فمكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال: أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال: قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، فمكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال: أذنبت ذنباً فاغفر لي، قال: قال ربه عزّ وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»، وفي رواية: «اعمل ما شئت قد غفرت لك».

رواه أحمد (٢/٤٠٥/٤٩٢)، والبخاري في التوحيد (١٧/٢٤٨/٢٤٩)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٥/٧٦).

قوله: «اعمل ما شئت» ليس معناه الأمر بالإتيان بالذنوب وإباحتها، بل معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك فافعل ما شئت إذا كنت على تلك الحالة لأن ذلك هو مقتضى حكمة الله عزّ وجل في عباده، ولذا قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة به جميعها صحّت توبته... إلخ.

[١٩٢] ولهذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة».

رواه الطبراني في الدعاء (١٧٩٧) بسند حسن في الشواهد، وله شاهد عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٣٢٧) بتهذيبي، وأبو يعلى (١٣٧) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإنه ليس شديد الضعف فيحسن الحديث به.

غير أن هذا الاستغفار كما قال القرطبي في التفسير: هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً باللسان لينحل به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة.

[١٩٣] وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم**».

وفي رواية: «**لو أنكم لم تكن لكم ذنوبٌ يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم**».

رواه أحمد (٥/٤١٤)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٤/٦٥)، والترمذي في الدعوات (٣٣٠٦) بتهذيبي.

[١٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تُذنِبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**».

رواه أحمد (٢/٣٠٤/٣٠٥/٤٤٥)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٥) وتقدم هذا في الجزء الثاني.

* * *

❋ حكمة وقوع الذنوب من عباد اللّه المؤمنين

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في هذا الكون الخير والشر، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، قد سبق كل ذلك في علم الله عزّ وجل، وكتبه في اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب، فما قضاه وقدّره هو كائن لا يتخلّف أبداً أياً كان ذلك المقضي، ومن العقائد اليقينية الإسلامية الإيمان بالقدر، وأن كل ما وقع أو سيقع في هذا الكون وغيره قد سبق به علم الله وكتابته. ومنها المعاصي والذنوب بجميع أنواعها، فلا يخلو

إنسان من زلة يُصيبها، ومعصية يقع فيها، شاء أم أبى، قضاء أبرمه الله تعالى وقضاه.

وأفاد الحديثان عدة فوائد وحكم:

منها: أن الذنوب لا بد أن تصدر من العباد ولا يخلو منها مكان ولا زمان ولا إنسان إلا الأنبياء عليهم السلام، فمَن حاول العصمة منها حاول ما لا يمكن أبداً.

ولذا قال الشوكاني رحمه الله تعالى في شرح الحصن الحصين: وفي الحديث دليل على كثرة وقوع الذنوب من بني آدم وأن من حاول أن لا يقع منه ذنب البتة فقد حاول ما لا يكون، لأن هذا ـ أعني وقوع الذنب ـ من النوع الإنساني هو الذي جبلهم عليه وقد خلقهم الله تعالى وأمرهم بالخير والكف عن الشر، ولكن ما في جبلتهم يأبى أن لا يقع منهم ذنب، لأن العصمة لا تكون إلا لمن أعطى النبوة من بني آدم، فلو أرادوا أن لا يذنبوا أصلاً راموا ما ليس لهم...

ومنها: أن من حكم وقوعها من العباد وخاصة المؤمنين منهم رجوعهم إلى الله تعالى واستغفارهم من الوقوع فيها، واعترافهم للّه عزّ وجل بها وأنه وحده الذي يغفرها.

ومنها: أنه لو خلا الكون من سقطات العباد وزلاّتهم، وأصبحوا جميعهم معصومين من الخطايا لأماتهم الله وذهب بهم، وأتى بقوم آخرين يوافقون قضاءه وقدره فيذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم، لأن العباد مظهر من مظاهر تجليات أسماء الله تعالى وصفاته، فالمذنبون الرجّاعون إلى الله كلما أذنبوا تتجلى فيهم آثار أسماء الله وصفاته الجمالية، كالغفور والتوّاب، والرحيم ونحوها، فإذا لم يوجد مذنبون يستغفرون الله تعالى ويتوبون إليه ليغفر لهم ويتوب عليهم، توقفت تصرفاته تعالى بهذه الأسماء كما تتوقف أسماؤه الأخرى الجلالية كالقهّار والجبّار والمنتقم... إذا لم يعصه كافر أو فاجر... وكل ذلك ينافي حكمته في خلقه وكونه ولا يُسأل عما يفعل.

ومنها: أن المعصية قد تكون دواء للمؤمن، كمرض العجب، فدواؤه السقطات والهفوات.

[١٩٥] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو لم تكونوا تذنبون لخِفْتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجْبُ العُجْبُ»**.

رواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٨٨٢)، والبيهقي في الشعب.

وهو حديث حسن جيد كما قال المنذري والمناوي وأستاذنا أبو الفيض في «فتح الوهّاب» وذلك لشواهده، فالمؤمن إذا صفا له الوقت مع الله تعالى ومنّ عليه بالاستقامة ربما دخله العجب بطاعته وأعماله الصالحة، ويرى فضله على غيره فيبتليه الله تعالى بالذنب علاجاً له، لأن الإعجاب بحاله حال استقامته ربما كان أعظم خطراً على دينه من الذنب الذي يقع فيه الآونة بعد الآونة، ويتوب ويستغفر منه فقد يترتب على الوقوع في الذنب أحوال وخير كبير كالذلة والافتقار إلى الله تعالى والرجوع إليه وتجديد المحبة، وتقوية الإيمان، والجِد والاجتهاد، واحتقار النفس واستصغارها، والنظر إلى الآخرين بعين الإكبار. وقد ذكر الإمام ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في حكمه حكمتين عظيمتين لصدور الذنب من السالك، فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول. معصيةٌ أورثتكَ ذُلاً وافتقاراً خيرٌ من طاعة أورثتْ عِزًّا واستكباراً.

وعلّق الشيخ سيدي أحمد زروق رحمه الله تعالى على الحكمة الأولى: وقضى عليك بالذنب، فكان سبباً في الوصول بما يفتح به عليك من أبواب الهداية والخير التي أصولها ثلاث: الانكسار، والتوبة، والتشمير مع الحذر الموجبين للجد والإخلاص، المخلصين من العيوب والذنوب. ثم نقل عن العارف أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى، أن العبد قد يطيع الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها ويطلب من الله تعالى العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله تعالى ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يعمله، فهذه سيئة

أحاطت بها حسنات فأيتهما الطاعة وأيتهما المعصية؟

وعلّق على قوله: معصية أورثتك ذلاً... إلخ. الخير في الطاعة بالذات، والشر فيها بالعرض، والشر في المعصية بالذات، والخير فيها بالعرض، وخير الطاعة من حيث أنها عبودية له وخضوع بين يديه، ورجوع إليه وطلب لما عنده، وشر المعصية في ضد ذلك، فإذا أوجبت الطاعة ما هو بالمعصية بالذات كانت شراً، وإذا أوجبت المعصية ما هو في الطاعة بالذات كانت خيراً.

ثم نقل عن الشيخ سيدي أبي مدين رحمه الله تعالى أنه قال: «انكسار العاصي خيرٌ من صَوْلة المطيع».

❊ ❊ ❊

❊ من فوائد ابن القيم

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم «طريق الهجرتين»، حول هذا الموضوع كلاماً نفيساً جداً تحت عنوان: قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب، فذكر ستة مشاهد ثم قال: المشهد السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه، وتهيئته أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلّى بينه وبينه لحكمة عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله تعالى.

ثم ذكر ذلك من أحدٍ وثلاثين وجهاً، وهذه خلاصتها بإجمال:

أحدها: أن الله يحب التوّابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب.

الثاني: تعريف العبد عزة الله تعالى في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته.

الرابع: استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه والالتجاء إليه والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده الذل والانكسار وتصاغر نفسه عنده بعد نظره إلى صلاح نفسه واستقامتها.

السادس: تعريفه بخَنْقَتِهِ نفسه وأنها الخطّاءة الجاهلة وأن كل ما لديها من علم وعمل وخير فمنن من الله تعالى مَنَّ بها عليه لا من نفسه.

السابع: تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عبده فإنه لو شاء لهتكه وفضحه بين عباده.

الثامن: تعريفه أنه لا طريق إلى نجاته إلا بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمه في قبوله توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته.

العاشر: إقامة الحجة على عبده، فإن عذّبه فبِعَدْله وببعض حقه عليه بل باليسير منه.

الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاّتهم بما يجب أن يعامله الله تعالى به فيسامحهم ويعفو عنهم.

الثاني عشر: أن يقيم معاذير الخلائق ويتسع رحمته لهم.

الثالث عشر: أن يقطع صولة الطاعة من قلبه فتتبدل برقة ورحمة.

الرابع عشر: أن يُعْرِيَه من رداء العجب بعمله ويعالجه به.

الخامس عشر: أن يُلبسه لباس الذل الذي لا يليق إلا بالعبيد.

السادس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والبكاء والندم.

السابع عشر: أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وحفظه.

الثامن عشر: أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب فإن الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضى لا يحصل بدون التوبة.

التاسع عشر: أنه إذا شهد إساءته وظلمه، واستكثر القليل من نعمة الله

تعالى عليه لعلمه بأن الواصل إليه منها كثيرٌ على مسيء مثله، فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان.

العشرون: أنه يوجب التيقُّظ له والحذر من مصائد العدو ومكائده، ويعرِّفه من أين يدخل عليه وبماذا يحذر منه كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء.

الحادي والعشرون: أن مثل هذا ينتفع به المرضى لمعرفته بأمراضهم وأدوائها.

الثاني والعشرون: أنه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية، فإن دوام الفقر إلى الله تعالى مع التخليط خير من الصفا مع العجب.

الثالث والعشرون: أنه يكون في القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها فيطلب دواءها فيمن عليه اللطيف الخبير ويقضي عليه بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمي ويشرب الدواء النافع بالتوبة فتزول تلك الأمراض.

الرابع والعشرون: أن يذيقه ألم الحجاب والبُعد عنه تعالى بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته وسروره إذا أقبل بقلبه إليه وجمعه عليه وأقامه في طاعته، فيكون التذاذه في ذلك بعد أن صدر منه ما صدر بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال، والشديد الخوف بالأمن، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه، وإن لطف الرب وبره وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا. فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته.

الخامس والعشرون: امتحان العبد واختياره هل يصح لعبوديته تعالى وولايته أم لا، فإنه إذا وقع الذنب سُلِبَ حلاوة الطاعة ووقع في الوحشة، فإن كان ممن يصلح، اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنّت وتضرّعت واستعانت بربها ليردها إلى ما عوّدها من بره ولطفه، وإن ركنت عنها واستمر إعراضها ولم تحس بفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها عَلِمَ أنها لا تصلح للّه تعالى.

السادس والعشرون: أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي لم يكن إنساناً بل ملكاً، فالذنب من موجبات البشرية، كما أن النسيان من موجباتها، كما قال النبي ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوّابون**» ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك.

السابع والعشرون: أن ينسيه رؤية طاعته، ويشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه، فإن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة، فإن ما تقبل من الأعمال رُفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره. وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه إذا ذكرها ندم واستقال وتضرّع إلى الله تعالى وبادر إلى محوها، وانكسر وذلّ لربه وزال عنه عُجْبُه وكِبْرُه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبّر بها حتى يدخل النار.

الثامن والعشرون: أن شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقاً، فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطئها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم وإذا شهد ذلك لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إياها، ويذمهم على ترك القيام بمعافاتها عنده أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجلها، فيرى أن من سلّم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح في نفسه واستراح الناس من تعبه وشكايته، فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه، ولَين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط، فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين.

التاسع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر

فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه. وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول: علامة السعادة، والثاني: علامة الشقاوة.

الثلاثون: أنه يوجب له الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجيراه: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فإنه يشهد أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به، محتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يُحِبُّ أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم.

الحادي والثلاثون: أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه فإنه إذا شهد نفسه مع ربه سبحانه مسيئاً خاطئاً مذنباً مع فرط إحسانه إليه وبره وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، وهذا حاله مع ربه فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان، وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغض عن الاستقصاء في طلب حقه قبلهم. انتهى كلام ابن القيم وهو كلام نفيس للغاية.

* * *

❋ الذنوب وأقسامها

لأهمية هذا الباب وحاجة الناس إليه حاجتهم للطعام والشراب لا بد أن نشير إلى أن الذنوب فيها صغائر وكبائر وأكبر كما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه العلماء.

فالصغائر كالنظرة، واللمس، والقبلة للمرأة الأجنبية أو الذكر الأمرد المشتهى، والمشي إلى موعد المعصية، وأخذ مثل درهم الغير، وأكل نحو تمرة مثلاً، والخلوة بالأجنبية والكلام معها فيما هو خارج عن المعروف

والآداب الإسلامية، وسماع الملاهي والمزامير، وتعاطي الشبهات، ومخالطة الفسّاق أحياناً، ولبس الديباج، والتختُّم بالذهب، وسب الولد، أو ضربه زيادة على مقدار الأدب، وكذب لا ضرر فيه، واللعب بالقردة، ونطاح الأكباش، ومهارشة الديكة، والعبث في الصلاة، واقتناء الكلب لغير الحاجة، ونحو ذلك، وهي لا تنحصر، وقد ذكر جملة كبيرة منها الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء..

وجعل الغزالي وغيره من الصغائر الغيبة أو سماعها، والتجسُّس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجّار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وفي بعض ما ذكروه خلاف.

أما الكبائر فكثيرة أيضاً وقد ذكرها مفصّلة ابن حجر الهيتمي في الزواجر فأبلغها إلى أكثر من أربعمائة كبيرة، وفي بعضها نظر ونزاع.

وقد جاء التنصيص في الكتاب والسنة على بعضها كالقتل، والزنا، واللواط، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف المحصنات، وأكل الربا، والتعامل به، وأكل مال اليتيم، وأخذ أموال الناس بالباطل، وقطع الرحم، والسحر، والنميمة، وشهادة الزور، والقوادة، والديائة، وشتم الآخرين أو لعنهم، وكذا لعن الوالدين أو شتمهما ولو بسبب، وعموم عقوقهما من باب أوْلى، والفرار من الزحف، وأكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ به لغير الله، واليمين الغموس، ونكث الصفقة، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل من فضل الماء، وعدم التنزُّه من البول، والإضرار في الوصية، والغلول من الغنيمة، والإلحاد في بيت الله الحرام، والجمع بين الصلاتين بغير عذر، واتخاذه عادة، ومفارقة جماعة المسلمين وموالاة الظلمة والكفرة، وهي كثيرة لمن تتبعها، وفيها ما هي كبيرة وأكبر كما يتضح من الأحاديث الآتية:

[١٩٦] فعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»** ثلاثاً. وفي رواية: **«ألا أخبركم؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»**

قال: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه البخاري في الشهادات، وفي الاستئذان (٣٠٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨٢/٨١/٢)، والترمذي في الشهادات (٢١٢٣) وفي التفسير (٢٨٢٤)، وأحمد وغيرهم.

[١٩٧] وعن أنس بنحوه، وزاد فيه: «**وقتل النفس**».

رواه الشيخان والترمذي.

[١٩٨] وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ: «**الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين**»، أو قال: «**اليمين الغموس**».

رواه أحمد (٢٠١/٢)، والبخاري في الديات وفي الأيمان والنذور، والترمذي في التفسير (٢٨٢٦) وحسّنه وصححه.

[١٩٩] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من الكبائر أن يشتم الرجل والديه**» قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويشتم أمه فيشتم أمه**».

رواه البخاري في الأدب (٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨٣/٢)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٧٤٨).

[٢٠٠] وعن عُمَيْر وكانت له صحبة أن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال: «**هُنَّ تِسْعٌ**» فذكر معنى الحديث التالي وزاد: «**وعقوق الوالدين المُسْلِمَيْن، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً**».

رواه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٥)، والنسائي في المحاربة من الكبرى (٢٩٠/٢) وهو حديث حسن لغيره.

[٢٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق،**

وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

رواه البخاري في الوصايا وغيرها، ومسلم في الإيمان (٢/٨٢/٨٣)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٦)، والنسائي فيه أيضاً (٤/١١٤) من الكبرى.

ففي جملة هذه الأحاديث بيان كبار المعاصي وأكبرها وأنها ليست متساوية بل هي متفاوتة حسب مفاسدها ومضارها وقد ذكر غير واحد من العلماء أن أكبرها: الإشراك والكفر بالله، ثم ترك الصلاة، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنا، ثم اللواط، ثم العقوق، ثم أكل مال اليتيم، ثم أكل أموال الناس بالباطل، ثم المراباة، ثم قذف المحصنات، ثم السحر، ثم باقي المعاصي حسب مفاسدها اجتماعياً وأُسَرِيًا وفردياً.

* * *

❊ ما هو حد الكبيرة؟

وتعرف الكبيرة غير المنصوص عليها بما ذكر العلماء في حدها.

فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. وقال بعضهم: هي ما أوعد الله تعالى عليه بنار أو حد في الدنيا، وقيل غير ذلك من الأقوال.

وعلى أيٍّ، فكل ذنب أوعد الله على صاحبه بالعذاب، أو غضب عليه أو لعنه، أو ذكر أنه فاحشة، أو فسق، أو جاء أنه لا يكلمه ولا ينظر إليه يوم القيامة، أو ذكر أنه بهتان، أو أن صاحبه منافق، ونحو ذلك. فكل ما جاء كذلك فهو كبيرة، وما عدا ذلك فهو صغيرة. أما ما جاء عن بعض السلف وغيرهم أن كل شيء نهى الله تعالى عنه فإنه كبيرة فمقصودهم أن كل مخالفة هي بالنسبة إلى جلال الله وعظمته كبيرة، ولا يخالفون في أن المعاصي فيها كبائر وصغائر لتظافر الدلائل من الكتاب والسنّة على ذلك، واتفاق جمهور العلماء عليها.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الآية.

والسيئات التي تكفر هي الصغائر بلا شك.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، واللمم: هي الصغائر.

[٢٠٢] وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، يكفرن ما بينهن - إنْ اجتنبت الكبائر -**» وفي رواية: «**ما لم تغش الكبائر**».

رواه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث أبي هريرة.

فالحديث نصّ في أن الله يكفّر السيئات بالصلوات الخمس وما ذكر معها إذا لم تغشَ الكبائر واجتنبت فيكون المغفور هي الصغائر، وهذا مما يجب أن لا يتنازع فيه.

* * *

❊ بماذا تغفر الذنوب كبيرها وصغيرها

يبقى هنا أمر آخر وهو بالغ الأهمية: بماذا تكفر الذنوب وما يغفر منها وما لا يغفر؟ وإجابة عن هذا نقول بإذن الله وعونه: أما الصغائر فتغفر باجتناب الكبائر وبكل قربة وطاعة وعمل صالح بدون استثناء، فتغفر بالطهارة، وبالصلاة مطلقاً، وبالصدقة، وبتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ وبجميع أنواع البر والإحسان. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء فإذا لم يكن للإنسان صغائر يكفر له بعض الكبائر وإذا لم توجد له كبائر ترفع له بها الدرجات.

أما بالنسبة للكبائر فتغفر بأمور جاءت بها الشريعة:

منها: التوبة النصوح كما تقدم، ومنها: الحج المبرور، ومنها: بر

الوالدين المسلمين، ومنها الجهاد في سبيل الله، ومنها: صلاة التسبيح، وقد تكفر بأنواع الطاعات، كما جاء ببعض ذلك عموم الأحاديث وفضل الله واسع.

أما الذي لا يغفر مطلقاً فهو الشرك بالله والكفر به ما دام صاحبه لم يسلم، فإذا أشهر إسلامه بصدق وإخلاص غفر الله له كل ما سلف.

* * *

❊ الخوف والرجاء

[٢٠٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت، فقال له: «**كيف تجدك؟**» فقال: والله يا رسول الله أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف**».

رواه الترمذي في الجنائز (٨٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦١)، وجوّده النووي، وحسّنه المنذري وغيره.

يستفاد من الحديث الشريف أن المؤمن الحازم ينبغي أن يكون جامعاً بين حالتَي الخوف والرجاء في جميع مراحل حياته فيرجو رحمة الله ومغفرته ويخاف سطوته وعذابه. وهذه حالة الربانيين من عباد الله عزّ وجل كما قال تعالى في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وقال تعالى في صفة أهل التهجد وقيام الليل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

وقال في شأن الملائكة وما عبد من دون الله من الصالحين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

وهكذا جمع الله عزّ وجل في القرآن الكريم بين الخوف والرجاء فلا يذكر النار أو أهلها إلا ذكر بجنبها الجنة أو أهلها، ولا يذكر عقابه وغضبه إلا ذكر رحمته ومغفرته وعفوه، كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم ذكر ضد هؤلاء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وكقوله في الآية الأخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

ثم قال في الجانب الآخر: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم قال في المؤمنين الصالحين ترغيباً في السير على نهجهم: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ الآية.

وقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ثم قال في الربانيين السعداء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

وهكذا شأن القرآن في كل سورة يجمع بين الترغيب والترهيب ليكون المؤمن دائماً جامعاً بين الخوف والرجاء، وهكذا جاءت التربية النبوية كما يعرف من السنة المطهرة.

ولذلك قال علماؤنا الربانيون: الخوف والرجاء كجناحَيِ الطائر إذا

استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وهكذا الخوف والرجاء إذا استويا استوت حالة المؤمن واستقام، وإذا نقص أحدهما أو كلاهما نقص دينه أو ذهب بالكلية، فإن مَن غلّب جانب الرجاء على الخوف وقع في الأمن من مكر الله وعقابه، وأطلق لنفسه العنان وترك التكاليف الشرعية وارتكب المحرمات اعتماداً منه على فضل الله ورحمته في زعمه، وإذا غلّب جانب الخوف على الرجاء وقع في اليأس والقنوط من رحمة الله فلا يبقى له أمل ولا رجاء في عفو الله ورحمته، وكلا الحالتين ضلال وخروج عن الصراط السوي، أما فقدهما معاً فلا يخاف ولا يرجو. فهذا هالك لأنه لا يكون كذلك إلا كافر ملحد.

❊ ❊ ❊

❊ الرجاء وما جاء فيه

[٢٠٤] الرجاء هو ضد اليأس وهو أن يأمل من الله عزّ وجل أن يقبل أعماله الصالحة ويثيبه عليها ويغفر له ويتجاوز عن سيئاته، ولا يكون الرجاء إلا مع العمل وإلا كان أمنية وغروراً وحمقاً.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ الآية.

فرتّب تعالى رجاءهم على إتيانهم بالأعمال الصالحة من تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى.

فهؤلاء هم المستحقون للرجاء، أما المتمادي في الذنوب والمنهمك في الفواحش والمخالفات مع عدم التوبة والرجوع إلى الله تعالى ثم يقول: إني أرجو الله أن يغفر لي، فإنه غفور رحيم، فهذا مغرور ومخدوع ورجاؤه رجاء الكذّابين الحمقى.

وقد أخبر تعالى عن أمثال هؤلاء بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾.

وقال تعالى عن صاحب البستان الكافر المغرور: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾.

قال يحيى بن معاذ الرازي أحد الزهّاد النسّاك: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمنّي على الله عزّ وجل مع الإفراط، وأنشد:

ما بالُ دينك ترْضَ أن تُدَنِّسهُ ... وثوْبُك الدَّهْرَ مغسولٌ مِنَ الدَّنَسِ
تَرْجُو النجاةَ ولم تَسْلُك مسالِكَها ... إنَّ السفينة لا تجري على اليبسِ

وفي حكم ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: «الرجاءُ ما قارنَهُ عَمَلٌ، وإلاّ فهو أُمْنِيَّةٌ».

وقال الحافظ في الفتح: والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليُحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور.

وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل.

ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو.

وقال جمهور العلماء: الأولى أن يرجح الإنسان جانب الخوف في حياته، فإذا مرض رجح الرجاء، وأما عند الموت فاستحبُّوا الاقتصار على الرجاء دون الخوف وهذه:

* * *

[٢٠٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يموتَنّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ ظنّه بالله عزّ وجل**».

رواه أحمد (٣/٣١٥) وفي مواضع، ومسلم (١٧/٢٠٩)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

[٢٠٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عزّ وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**».

رواه البخاري في التوحيد (١٨/١٥٥/١٥٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢/٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢) وغيرهم في حديث طويل تقدم في أبواب سابقة.

ومعنى تحسين الظن بالله أن يغلب الإنسان ظنه بأن الله عزّ وجل سيقبل أعماله ويثيبه عليها ويتجاوز عن زلاّته وذنوبه ويشمله بعفوه وإحسانه ويعمه برحمته وكرمه ولا يقنط من رحمة الله وخاصة عند الوفاة.

[٢٠٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله خلق الرحمةَ يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار**» وفي رواية: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد**»، وفي رواية: «**أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها**»، وفي رواية: «**فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»، «**وأخّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**».

رواه أحمد (٢/٣٣٤/٣٩٧/٤٨٤)، والبخاري في الأدب وفي الرقاق

(٨٣/٨٢/١٤)، ومسلم في التوبة (٧٠/٦٩/٦٨/١٧)، والترمذي في الأدعية (٣٣٠٩/٣٣٠٨) بتهذيبي.

[٢٠٨] وعنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي»**، وفي رواية: **«غلبت غضبي»**، وفي أخرى: **«سبقت غضبي»**.

رواه أحمد (٤٦٦/٤٣٣/٢)، والبخاري في التوحيد (١٨٥/١٧)، ومسلم في التوبة (٦٨/٦٧/١٧)، والحميدي (١١٢٦)، والترمذي في الأدعية (٣٣١٠)، والنسائي في الكبرى (٤١٧/٤)، وابن ماجه (١٨٩) وغيرهم.

[٢٠٩] وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تَسْعَى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: **«أتَرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا والله، فقال: **«للَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها»**، وفي رواية: **«لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه»**.

رواه البخاري في الأدب (٣٧/١٣)، ومسلم في التوبة (٧٠/٦٩/١٧).

[٢١٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي على الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لِتُلْقِيَ ابنها في النار، فقال ﷺ: **«ولا الله بطارح حبيبه في النار»**، وفي رواية: **«ولا الله يلقي حبيبه في النار»**.

رواه أحمد (١٠٥/١٠٤/٣)، والحاكم (٥٨/١)، وأبو يعلى (٣٧٣٥) وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٣٨٣/١٠) لأحمد والبزار وأبي يعلى، وقال: رجالهم رجال الصحيح.

في جملة هذه الأحاديث تتجلّى رحمة الله تعالى بعباده وتحمل بشارات عظيمة لأهل الإيمان الطائعين منهم والعاصين. ويتضح ذلك في الآتي:

أولاً: كثرة عدد رحمة الله تعالى، وهذه الرحمات من صفات الأفعال،

أما رحمة الذات فلا تتعدد، وإذا كانت رحمة واحدة تسع أهل الدنيا بإنسها وجنّها، وحيواناتها وهوامها... فيتراحمون ويتعاطفون بها، حتى إن السباع والنمار والأفاعي تعطف على أولادها وترحمها.

فكيف بيوم القيامة الذي سيكون فيه مائة رحمة، فلا شك أن الله عزّ وجل سيشمل جميع عباده المؤمنين برحمته.

قال النووي: هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين. قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار. الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار القرار ودار الجزاء...

ثانياً: قوله تعالى: «إن رحمتي تسبق غضبي» معناه كما قال العلماء كثرة الرحمة وشمولها للعباد وأن الله عزّ وجل يرحم أكثر مما ينتقم.

ثالثاً: قوله: «غضبي» غضب الله تعالى صفة له ليست كصفة المخلوقات كرضاه أيضاً وسخطه. وقال البعض: غضب الله ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة، فإرادته الإثابة للمطيع، ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة، وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضباً، وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة يريد بها جميع المرادات. قاله النووي.

وهذا على مذهب الخلف المتأولين، والله تعالى أعلم.

رابعاً: في حديثَيْ أنس بشارة أي بشارة للمحبين للّه عزّ وجل حيث إنه أخبر على لسان رسوله ﷺ وخبره صدق أنه لا يعذب حبيبه، وهل يوجد في الدنيا مؤمن صادق لا يحب الله عزّ وجل، لا والله، فلتقر أعين المحبين بهذه البشارة، وليطربوا ويرقصوا فرحاً بالله عزّ وجل.

خامساً: في قوله ﷺ في حديث عمر: **«للّه أرحم بعباده من هذه بولدها»** بشارة أخرى لأنه إذا كانت المرأة أرحم الناس بولدها فهي تؤثره

على نفسها وتفديه بحياتها وروحها... فكيف بأرحم الراحمين أرحم بعباده من أنفسهم؟...

سادساً: في قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «**فلو يعلم الكا... ولو يعلم المؤمن...**» إلخ»، دليل على أنه ينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء فيرجو رحمة الله تعالى ومغفرته ولا يقنط ويأس لسعة رحمة الله وفضله وشمول مغفرته.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

ثم يخاف الله مع ذلك فلا يأمن مكر الله وعقابه وغضبه على شديد العقاب، وعذابه هو العذاب الأليم، ولا يعذب عذابه أحد.

والأحاديث في فضل الرجاء كثيرة، تقدم كثير منها في كتب سابقة.

* * *

حديث القاتل مائة نفس

[٢١٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه **أن** نبي الله ﷺ **قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالِم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال:**

ومَن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا هو بنصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي: حَكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية: **«فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها».**

وفي أخرى: **«فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».**

وفي رواية: **«فنأى بصدره نحوها».**

رواه مسلم في التوبة (١٧/٨٢/٨٤) بألفاظه. ورواه البخاري في أحاديث بني إسرائيل (٧/٣٢٤/٣٢٥) بنحوه، وأخرجه ابن ماجه أيضاً في الديات (٢٦٢٢) مطولاً بنحوه.

في هذا الحديث شمول رحمة الله تعالى ومغفرته حتى للقاتل العمد الذي تكرر منه القتل وتاب وندم على ما جنت يداه. وهذا مما لا ينبغي أن يجادل فيه لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، والقاتل داخل في عموم من يشاء.

وجاء في حديث عبادة المتقدم: **«فمَن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذّبه».**

والقصة وإن كانت في رجل من بني إسرائيل فإن شرع من قبلنا شرع لنا إن لم يأتِ ما يخالفه، وهنا ذكره النبي ﷺ في معرض شمول مغفرة الله للقاتل، ولم يعقبه بشيء فكان شرعاً لنا، وإذا كان مثل هذا غفر له، وهو من الأمة التي كانت كتب عليها الآصار والأغلال، فكيف بمن هو من الأمة المرحومة صاحبة الدين اليسر السمح أمّة الإسلام؟!

وفي الحديث وجوب مقاطعة أهل المعاصي وأماكنهم والالتجاء إلى صحبة الصالحين ولزوم ديارهم. وفيه فضل العالِم على العابد، فإن الرجل الجاني ما نجا وغفر له إلا بإرشاد العالِم وفتواه.

* * *

❊ من أرجى آيات القرآن والسنة للمؤمنين

من أكثر الآيات رجاء لعامة المؤمنين ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

فهذه الآيات الثلاث من أعظم ما في القرآن رجاء كما قال العلماء، أما من الأحاديث فكثيرة ومنها الآتي:

[٢١٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى»**.

رواه مسلم في التوبة (٨٦/١٧).

قال عمر بن عبدالعزيز والشافعي رحمهما الله تعالى: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين. قال النووي: وهو كما قالا لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم وتعميم الفداء، ولله الحمد...

[٢١٣] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: **«يُدْنى المؤمن يوم القيامة من ربه عزّ وجل حتى يضع عليه كَنَفَه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا؟**

يقول: أعرف مرتين، فيقول: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

رواه أحمد (١٠٥/٢)، والبخاري في المظالم وفي التفسير (٤٢٤/٩) وفي الأدب (١٠٠/٩٩/١٣) وفي التوحيد، ومسلم في التوبة (٨٧/١٠٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦)، وابن ماجه (١٨٣).

«النجوى»: ما يتكلم به المرء يسمع به نفسه، والمراد بها هنا المناجاة التي ستقع بين الرب سبحانه يوم القيامة مع المؤمنين. وقوله: «كنفه» بفتحات، أي: ستره وعفوه.

فهذا من أرجى الأحاديث للمؤمنين حيث سيستر عباده عما جنوه في الدنيا ثم يغفر لهم بعد اعترافهم بما فعلوه...

* * *

❊ حديث البطاقة

[٢١٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عزّ وجل سَيُخَلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشُر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كلُّ سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمَك كَتَبتي الحافظون؟ يقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيُخْرَجُ بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضُر وزْنَكَ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تُظلَم، قال: فتوضَعُ السجلاتُ في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقُلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء»**.

رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)،

وابن حبان بالموارد (٢٥٢٤)، والحاكم (٦/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وسنده صحيح عند الترمذي في طريق له.

قوله: «سيخلص» بفتح السين وضم الياء وفتح الخاء وكسر اللام المشددة، ومعناه يميز ويختار. وقوله: «سجلاً» بكسر السين والجيم هو الكتاب الكبير. وقوله: «فطاشت» أي: خفَّتْ.

وفي الحديث فضل كلمة التوحيد وأنها لا يثقل معها شيء وأن لها شأناً عند الله تعالى ولا شك في ذلك فإنها مفتاح الجنة وبدونها لا يصح أي عمل، ولها من الفضائل والمزايا والخصائص ما ليس لغيرها من فروع الدين فهي أفضل الأقوال إطلاقاً وأشرف وأعظم ما يُذَّخر للآخرة، فصاحبها الصادق جدير بأن ترجح كفة حسناته وتخف كفة سيئاته.

نسأل الله تعالى أن يعاملنا بمحض فضله وكرمه، وأن يشملنا برحمته الواسعة، وأن لا يعاملنا بما نستحقه من أعمالنا إنه جواد كريم.

❊ ❊ ❊

❊ الخوف وما يتعلق به

الخوف هو تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وهو سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على طاعته عزّ وجل أمراً ونهياً وهو يختلف باختلاف الخائفين، فمن الناس من يخاف الموت قبل التوبة، ومنهم من يخاف عذاب الله وغضبه، ومنهم من يخاف الوقوف بين يدَي الله، ومنهم من يخاف الاستدراج بكثرة النعم، ومنهم من يخاف حرمان الجنة، ومنهم من يخاف سوء الخاتمة والسابقة، فإن الله عزّ وجل قبض قبضة بيمينه فقال: **«هؤلاء للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة أخرى وقال: هؤلاء للنار ولا أبالي»**.

رواه أحمد (٦٨/٥) عن أبي نضرة بسند صحيح.

ولا يدري الإنسان في أي القبضتين وقع، فهو دائم الخوف من ذلك.

والناس متفاوتون في الخوف فكلما كان الإنسان أعرَف بالله وبنفسه كان أخوف منه وأخشى.

[٢١٥] ولذا قال النبي ﷺ: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**».

قال ذلك لما قال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله شبت.

وفي رواية: «**شيبتني هود وأخواتها**».

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٨٠)، وفي الشمائل (٤٠)، والحاكم (٤٢٦/٣٤٣/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقد تقدم في التفسير وفي الشمائل.

وللحديث شاهد عن عقبة بن عامر عزاه النور في المجمع (٣٧/٧) للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح، وآخر عن أبي جحيفة وهو في شمائل الترمذي (٤١).

وقوله «شيبتني هود...» إلخ، أي: ما ذكرته هذه السورة ومثيلاتها من أهوال القيامة، إن انفعالي بها ترك لديّ هذا الشيب! الذي هو أثر الخوف ودليل الفزع!

وتقدم حديث: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**».

وحديث عائشة: «**ذريني أتعبّد إلى ربي...**» مع بكائه الشديد.

وحديث: قيامه حتى تورّمت قدماه.

وتقدم حديث: «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**».

رواه البخاري وغيره، في أحاديث كثيرة تقدمت في خوفه ﷺ، وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث أخرى نبوية في الخوف والخائفين وما أعدّ الله لهم وأكرمهم به...

قال الله تعالى في الأمر بالخوف: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: خافوني، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

وقال في فضل الخوف والخائفين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾...﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

والآيات في هذا كثيرة في القرآن الكريم.

[٢١٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصدّيق ولكنهم الذين يصومون، ويصلُّون، ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا تُقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**».

رواه أحمد (٦/١٥٩/٢٠٥)، والترمذي (٢٩٦٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٤١٩٨)، وابن جرير (١٨/٣٤) والحاكم (٢/٣٩٣/٣٩٤) وصححه ووافقه الذهبي وتقدم غير ما مرة.

ومعنى الآية الكريمة مع الحديث: أن المؤمنين الذين هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذاب الله حذرون، والذين هم بآيات الله التشريعية والكونية يؤمنون، ولا يشركون مع الله أحداً بل يُخلصون العبادة له وحده، والذين يعطون العطاء من زكاة وصدقة ويتقربون إلى الله بأنواع القربات، وأفعال البر والخير، وهم مع ذلك يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم، فهم دائماً خائفون وجلون.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

قال بعض الأكابر: إن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى: دلّت على حصول الخوف الشديد، والثانية: دلّت على التصديق بوحدانية الله تعالى، والثالثة: دلّت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلّت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقام الصديقين رزقنا الله تعالى التحقق بذلك، آمين.

وتقدم لنا حديث الترمذي: **«مَن خاف أدلج ومَن أدلج بلغ المنزل»**.

[٢١٧] وعن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران الحج قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلّمني مما علّمه الله فكان فيما حفظت عنه أن قال: **«إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله تبارك وتعالى، إلا آتاك الله خيراً منه»**.

رواه أحمد (٧٩/٥) بسند صحيح.

قوله: «اتقاء الله» أي: خوفاً من الله.

ففي الحديث الترغيب في الخوف من الله وترك مخالفته خشية منه.

[٢١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد مقعد الرجل من امرأته أُرعِدَتْ وبكت، فقال: ما يُبكيكِ أكرهتكِ؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلتيه، اذهبي فهي لكِ، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوب على بابه: إن الله قد غفر للكفل»**.

رواه أحمد رقم (٤٧٤٧)، والترمذي (٢٣١٦) بتهذيبي، وابن حبان بالموارد (٢٤٥٣)، والحاكم (٢٥٤/٤) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«الكفل»: بكسر الكاف، اسم رجل وليس بالنبي المذكور في القرآن.
«أرعدت»: أي اضطربت من خوف الله.

وفي الحديث فضل الخوف من الله وأن مآل الخائف لا يكون إلا خيراً، فالمرأة التي خافت الله عزّ وجل وبكت من ارتكاب ما حرّمه الله تعالى عوّضها تعالى ستين ديناراً بدون أي مقابل، اللهم إلا خوف الله مضافاً إلى ذلك حفظ كرامتها، أما الكفل فغفر الله تعالى له كل ما سبق من ذنوب، ولا يعلم ما فعله إلا الله وأكرمه بالموت عقب توبته النصوح وكتب على بابه تنويهاً به ومدحاً له: إن الله قد غفر للكفل. ويا لها من بشارة.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرُّوني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليُعذّبني عذاباً ما عذّبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيكِ منه، ففعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك**» وفي رواية: «**مخافتك، فغفر له**».

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل (٣٣٣/٣٣٢/٧)، ومسلم (٧٢/٧١/٧٠/١٧) وغيرهما.

والحديث وارد عن أبي سعيد الخدري رواه الشيخان وعن حذيفة رواه البخاري.

ورواية أبي سعيد: «**ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته**».

وفي رواية حذيفة: «**لمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله له**».

كان هذا الرجل من بني إسرائيل وكان في أول أمره نبّاشاً للقبور ثم اتسع حاله فأثرى وكان كثير الذنوب لم يعمل خيراً قط، فلما حضرته الوفاة

ندم على ما قدّم في حياته من مجاوزة حدود الله تعالى وتيقّن أنه لا مفر له من عذاب الله، فأوصى بنيه إذا هو مات أن يحرقوه ويذروا رماد عظامه في يوم عاصف وظن أنه إذا فعل ذلك لا يجمعه الله، فلما توفي امتثل بنوه ما أوصاهم به، فيحدثنا نبينا ﷺ بما أوحَى الله إليه أنه إذا كان يوم القيامة جمع رماد عظامه فيكون إنساناً بإذن الله تعالى فيخاطبه الله عزّ وجل: ما حملك على ما صنعت؟ فيجب الله عزّ وجل: فعلت ذلك مخافة وخشية منك، فيرحمه الله عزّ وجل ويغفر له كل ما سلف من سيئات وهنات بدون سابقة عذاب ولا حساب عسير.

وفي هذا فضل كبير وبشارة عظيمة لمن خاف الله عزّ وجل ولو في آخر لحظة من حياته.

وفي الحديث فوائد كثيرة بسطتها في عجائب الأقدمين.

❊ ❊ ❊

❊ فضل البكاء من خشية اللّه

[٢٢٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشيةِ الله حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم»**.

رواه الحميدي (١٠٩١)، والطيالسي (٢٠٤٠)، وأحمد (٢/٢٥٦/٤٤١/٥٠٥)، والترمذي في الجهاد (١٤٩٥)، وفي الزهد (٢١٣٣)، والنسائي (٦/١١/١٣)، والحاكم (٢/٧٢ و٤/٢٦٠) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وذلك لطرقه.

[٢٢١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**.

رواه الترمذي في الجهاد (١٥٠٢) وحسّنه وذلك لشواهده.

قوله: «يلج» الولوج هو الدخول. وقوله: «تحرس» أي: تكلأ.

وفي الحديثين فضل البكاء من خوف الله وخشيته سواء كان الخوف من عذابه تعالى وعقابه، أو كان من عظمته وجلاله وكبريائه، فأحرى إذا كان محبة فيه وشوقاً إليه. ولا يخفى ما في قوله: «**لا يلج النار**»، وقوله: «**عينان لا تمسهما النار**» من عظيم الرجاء والبشارة الكبرى.

[٢٢٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجل، ورجل قلبه مُعلّقٌ بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينُه**».

رواه أحمد (٤٣٩/٢)، والبخاري ومسلم وغيرهم، وقد تقدم في الأدب.

وفي الحديث فضل هؤلاء السبعة وأنهم سيكونون من المظللين تحت عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم الباكي خالياً من خوف الله أو عظمته أو محبته، فإن الذاكر قد تحصل له أحوال، فتارة يبكي خوفاً على نفسه مما جنته يداه، ومرة يبكي محبة في الله وشوقاً إليه، وأخرى يبكي لجلال الله وكبريائه، وكل ذلك مما يوجب رضا الله عزّ وجل ويكون سبباً في تظليل العبد تحت ظل الله.

* * *

الصبر

[٢٢٣] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما

عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله، ومن يتصبّر يُصبِّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**».

رواه أحمد (٣/٩٣)، والبخاري في الرقاق (١٤/٨٤/٨٥) وفي الزكاة، ومسلم في الزكاة أيضاً (٧/١٤٤/١٤٥).

في الحديث الحث على التعفُّف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من المكاره، والصبر هو الحبس عن الشيء، والتصبُّر تكلُّف الصبر ومعالجة النفس على ترك ما تريده، والصبر يكون على المواظبة على فعل الواجبات، وعلى الكف عن المحرمات، وعلى تحمُّل أنواع البلايا.

وهو من المقامات العظيمة لا يتصف به كاملاً إلا أكابر عباد الله الصالحين، ولذلك أكثر الله عزّ وجل من الأمر به وبيان فضل أهله حتى أنه ذكر في القرآن نحو من مائة مرة، وذكره تعالى على أنواع مختلفة بيّنها مفصلة الشيخ مرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى في شرح الإحياء فلينظرها من أراد البسط.

وهذه بعض آيات الصبر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، وقال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، وقال: ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في آيات كثيرة.

فأكرم بمن يؤتى أجره بغير حساب، ويكون محفوفاً بمعية الله تعالى وصلاته عليه وهدايته ورحمته، فيا له من مقام، إنه مقام الصبر، ولذا قال نبينا ﷺ في هذا الحديث: «**وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**» ذلك لأنه الأصل في التكاليف الشرعية فبدونه لا يكون شيء أصلاً.

[٢٢٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتقي الله واصبري**»، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبرُ عند الصدْمَةِ الأولى**».

رواه البخاري ومسلم، وتقدم في الجنائز.

ففي الحديث الأمر بالصبر وأن ذلك يكون عند بداية المصيبة، فذلك هو الصبر المعتبر شرعاً والذي يثاب عليه صاحبه.

[٢٢٥] وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عزّ وجل قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضْتُه منهما الجنة** ـ يريد عينيه ـ».

رواه البخاري في الطب والمرضى (١٢/٢٢٠) والترمذي في الزهد (٢٢٢٠).

[٢٢٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**يقول الله عزّ وجل: مَن أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب، لم أرضَ له ثواباً دون الجنة**».

رواه أحمد (٢/٢٦٥)، والترمذي في الزهد (٢٢٢١)، والدارمي (٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٥) وغيرهم بسند صحيح على شرطهما.

ففي الحديثين فضل الصبر على المصيبة وبالأخص إذا كانت في فقدان عضو من أعضاء الإنسان كذهاب البصر مثلاً، فإن للصبر على ذلك احتساباً للأجر من الله تعالى فضلاً عظيماً، وأي فضل أعظم من دخول الجنة لا سيما إذا كان بدون سابقة عذاب.

[٢٢٧] وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال: قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى،

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت إني أُصْرَعُ، وإني أتكشَّفُ، فادعُ الله تعالى لي، قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيكِ**» فقالت: أصبر، وقالت: إني أتكشفُ فادعُ الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

رواه البخاري في المرضى (٢١٨/١٢)، ومسلم في البر والصلة (١٣١/١٦).

الصرع قد يكون من بخار رديء يرتفع إلى الدماغ من بعض الأعضاء، ويكون من مس الجن وهو الأغلب على الناس.

وفي الحديث فضل الصبر على من أصيب بذلك وأن صاحبه من أهل الجنة والله لا يُخلف وعده. والأحاديث في الصبر كثيرة وقد تقدم في الأدب حديث أبي مالك الأشعري الذي فيه: «**والصبر ضياء**» وهو عند مسلم وغيره، وسمي الصبر ضياء لأن الضياء فيه نور مع نوع حرارة وإحراق، ولما كان الصبر شاقاً على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه، سمي ضياء لمشقته على النفوس.

قال العلماء: والصبر المحمود ثلاثة أنواع: الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصي الله عزّ وجل، والصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة.

وقالوا: إن الصبر على الطاعات وعن المحرمات أفضل من الصبر على البلايا والأقدار، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ الشكر

[٢٢٨] عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمْرِ المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**».

رواه مسلم في الزهد (١٢٥/١٨).

فيه فضل المؤمن في كل أحواله سواء في سرائه أو ضرائه، فإذا ناله ما يَسُرُّه وشكر الله على ذلك أثابه الله عليه فكان خيراً له، وإن أصابه ما يؤلمه من الآفات فقابله بالصبر وعدم التسخُّط جازاه الله على ذلك أيضاً فكان خيراً له، ولا يعطى هذا الخير إلا للمؤمن فهو المستحق لذلك فضلاً من الله ورحمة به.

أما الصبر فقد تقدم ما فيه. وأما الشكر فهو في اللغة الثناء على من أسدى إلى الإنسان خيراً، وفي الإسلام يكون باللسان والجوارح، فباللسان يكون بالثناء على الله تعالى وحمده على ما أسدى إلينا من خير ومعروف.

[٢٢٩] ففي حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**التحدُّث بنِعَم الله شُكْرٌ، وتركها كُفْرٌ، ومَن لم يشكر القليل لا يشكر الكثير**»، وفي رواية: «**ومَن لم يشكر الناس لم يشكر الله**».

رواه بطوله البيهقي في شعب الإيمان (٤/١٠٢ و٦/٥١٦/٥١٧) ولأبعاضه شواهد يحسن بها، وانظر المسند (٤/٢٧٨/٣٧٥) ومسند الشهاب (١/٤٣).

[٢٣٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن أبلى بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٤) بسند صحيح على شرط مسلم.

«أبلى»: أي اجتهد في الأمر وبالغ فيه.

فالتحدث بنِعَم الله تعالى على العبد وإظهار الرضا بذلك يعتبر شكر اللسان، فمَن ترك ذلك وكتمه فقد كفر بنِعَم الله تعالى عليه.

أما الشكر بالجوارح فيكون بصرف جميعها في طاعة الله تعالى والتوقي من الاستعانة بنِعَم الله تعالى على معصيته فمَن تحقق بذلك كان شاكراً لله عزّ وجل.

[٢٣١] ولذا جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**الطاعمُ الشاكرُ بمنزلة الصائم الصابر**».

رواه أحمد (٢/٢٨٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٠٧)، وابن ماجه (١٧٦٤)، والحاكم (١/٤٢٢ و٤/١٣٦) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره البخاري معلقاً ونحوه عن سنان بن سنة رواه الدارمي وابن ماجه (١٧٦٥) بسند صحيح.

والمراد «بالطاعم الشاكر»، أي الطائع لله تعالى القائم بحقوقه وحقوق عباده، فهذا هو الذي يحرز على منزلة الصائم الصابر وناهيك بالصبر على الصيام وفضل ذلك فإنه جاء:

[٢٣٢] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«عليك بالصوم فإنه لا مِثْلَ له»**.

رواه أحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح وقد تقدم.

وقد أمر الله عزّ وجل في كتابه عباده أن يشكروه، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ فجعل ضد الشكر الكفران.

كما وعد عزّ وجل الشاكرين لنِعَمه بزيادتها عليهم وأوعد على كفرانها بعذابه الشديد فقال عزّ وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ وهكذا أمر عباده بحمده في كثير من آي القرآن كقوله تعالى: قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، و﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وحمد نفسه بنفسه في خمس سوَر، وفي ضمن ذلك الأمر بحمده، فقال في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . .﴾ الآية، وقال في سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ الآية، وقال في سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ . . .﴾ الآية، وقال في سورة سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية، وهكذا حمد نفسه في كثير من السُّور كقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾

وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فهو تعالى يحب الحمد والمدح والثناء عليه.

ولذا جاء في الصحيح: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله...**» إلخ، وقد تقدم.

ورغّب ﷺ أمته في حمد الله والثناء عليه، ووعد فاعل ذلك برضاه والجنة.

[٢٣٣] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكْلَة فيحمدُه عليها، ويشربُ الشَّربة فيحمده عليها**».

رواه مسلم آخر الذكر والدعاء (١٧/٥٠/٥١).

«الأكلة» و«الشربة»: بفتح الهمزة والشين، أي: المرة من الأكل والشرب.

[٢٣٤] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد**».

رواه الترمذي في الجنائز (٩٠٦)، والطيالسي (٢٠٩٩)، والبيهقي (٦٨/٤) بسند حسن.

قال «لملائكته»: المراد بهم ملك الموت ومساعدوه. قوله: «وثمرة فؤاده» سمى الولد ثمرة الفؤاد لأنه نتيجة الأب فهو كالثمرة بالنسبة للشجرة. وقوله: «واسترجع» أي قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وفي الحديث فضل فقدان الأولاد والصبر على ذلك مع حمد الله عليه والاسترجاع والرضا بما قدّر الله تعالى، وأن ذلك من أسباب دخول الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

ثم إننا ما أمرنا بالحمد والشكر لله تعالى إلا لما أسدى إلينا من خير ورحمة وأسبغ علينا من آلاء ونِعَم التي لا نستطيع إحصاءها ولا القيام بشكرها على الوجه الأتم اللائق بها.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ...﴾ الآية، إننا مغمورون في نعم الله عزّ وجل، وأصولها خمسة وهي:

نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، ثم نعمة بعثة الرسل، ثم نعمة الإيمان، ثم نعمة دخول الجنة. فهذه النِعَم الخمس هي أصول النِعَم ولا يد للإنسان فيها، فهي مجرد تفضل من الله تعالى على عباده، ولو أراد الإنسان تفصيل ما اشتملت عليه هذه الخمس من نِعَم لكتب فيها المجلدات فكيف بالنِعَم الأخرى المهيأة للإنسان والخادمة والمسخرة له: كخلق الله السماوات والأرض وما فيهما من عجائب وغرائب المخلوقات، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وإنبات الزروع والفواكه والثمار، وتسخير البحار والأنهار، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر وما إلى ذلك من النعم المهيأة للإنسان التي تحار في تفصيلها العقول، بل مجرد إيجاد الإنسان وحده وما ركب فيه من آيات وأحاطه الله تعالى به من نِعَم تتضاءل دونه كل النِعَم، ولذلك أوجب الله تعالى عليه الإيمان به وبما جاءت به الرسل... وأمره بطاعته والعبودية له قياماً بشكره على ذلك.

وشرع لنا نبينا ﷺ مضافاً إلى ذلك التصدُّق بثلاثمائة وستين صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، وجعل صلاة ركعتَي الضحى تقوم مقام تلك الصدقات، كما شرع لنا الحمد في جميع أحوال حياتنا الليلية والنهارية، كما تقدم تفصيل ذلك في أبواب سابقة، كل ذلك شرع لنؤدي شكر تركيب جسدنا وما فيه من عظام وعضلات وعروق ولحم وقطع وأعضاء، وما غيب داخله في ظلمة الأحشاء من قلب وكبد ورئة ومرارة ومعدة وكلية، وغير ذلك مما جعله الله في هذا الجسم الإنساني من عجائب وآيات، وكان أول من أمر بالشكر وحمد الله تعالى أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم لتقتدي بهم أممهم.

فقال تعالى في إمام الحنفاء خليل الرحمٰن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾.

وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

وقال في كليمه موسى عليه السلام: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقال في نبيه داود عليه السلام: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾.

وقال في نبيه سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

وقال: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ...﴾ الآية.

وقال لنبينا ﷺ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وتقدم حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه ﷺ قام حتى تورّمت قدماه فقالت له في ذلك فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

ولِمَا للشكر من الأهمية جاء ذكره في القرآن في نحو من خمسة وسبعين موضعاً، وجاء ذكر الحمد أيضاً في نحو من خمسة وأربعين موضعاً، كل ذلك تحريضاً على القيام بحمد الله تعالى وبشكره على نِعَمِه المتوالية على الإنسان باللسان والقلب والجوارح، جعلنا الله تعالى بفضله وإحسانه ممن يحمده ويشكره آناء الليل وآناء النهار، آمين.

* * *

❊ التوكل على اللّه تعالى

[٢٣٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكّلون**».

رواه البخاري ومسلم وتقدم، ويأتي مطولاً في ذكر الجنة والنار.

التوكل على الله هو الاعتماد عليه دون غيره، وتفويض الأمور إليه في جميع شؤون العبد، فالاعتماد على الله يكون في الرزق، والاعتماد عليه في النصر على الأعداء، والاعتماد عليه في الشفاء من الأمراض، والاعتماد عليه في الحفظ من الآفات والطوارىء، والاعتماد عليه في غفران الذنوب والعفو عن السيئات، والاعتماد عليه في دخول الجنة دون الاعتماد على العمل. وكل ذلك لا بد وأن يكون مع الأسباب فالأسباب لا تنافي التوكل.

وقد وردت في التوكل آيات كريمات:

كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: من اعتمد على الله فهو كافيه، فلو لم يأتِ في ذلك إلا هذه الآية لكفت المتوكلين على الله فكيف بغيرها من الآي وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ والآيات في ذلك كثيرة، وقد ذكر التوكل في القرآن في نحو من ستين مرة.

[٢٣٦] وعن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله، لرُزِقتم كما تُرزَق الطيرُ تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»**.

رواه أحمد (٣٠/١)، والترمذي في الزهد (٢١٦٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤)، وابن حبان بالموارد (٥٤٨)، والحاكم (٣١٨/٤) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «حق توكله» أي: بأن تعلموا يقيناً أن لا رازق إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا فاعل إلا الله، ولا مانع ولا ضار إلا الله. وقوله:

«خماصاً» بكسر الخاء، جمع خميص، أي: جياعاً. وقوله: «بطاناً» بكسر الباء، جمع بطين، أي: عظيم البطن.

والمعنى تغدو جائعة خميصة البطن ثم تأتي لأوكارها في المساء شباعاً مليئة البطن.

وفي الحديث الحض على التوكل والاعتماد على الله مع تعاطي الأسباب، فإن الطير تتحرك وتنتشر هنا وهناك تطلب رزقها مع الاعتماد على الله تعالى، فليكن المسلم مثلها.

[٢٣٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أعْقِلُها وأتوكّلُ أو أطْلِقُها وأتوكل؟ قال: «**اعقِلْها وتوكّل**».

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٥) والحديث حسن صحيح لشاهد له عن عمرو بن أمية الضَّمْري رواه ابن حبان (٢٥٤٩) بسند صحيح.

في الحديث مشروعية ربط الأسباب بمسبباتها مع الاعتماد على الله بعد ذلك، فالدابة يجب ربطها بالعقال ثم التوكل على الله في حفظها وهكذا في كل شيء، من جلب نفع، أو دفع ضر لا بد من اتخاذ الأسباب، إلا في أحوال خاصة لا يقاس عليها، كما يذكر عن الخليل عليه السلام قوله: «علمه بحالي يكفيه عن سؤالي»، وما يذكر عن بعض الزهّاد فإن للناس مقامات، ولكل مقام أهل وأحوال.

وقد أفاض الإمام الغزالي رحمه الله تعالى القول في التوكل والمتوكلين وأقسام الناس في ذلك وأحوالهم بما لا يوجد عند غيره كعادته رضي الله تعالى عنه وإيانا.

* * *

❁ محبة اللّه عزّ وجل

[٢٣٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما**

سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»، وفي رواية: **«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه»**.

رواه البخاري (٦٨/٦٦/١)، ومسلم (١٣/٢) كلاهما في الإيمان وتقدم في الإيمان.

أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب. ومحبة الله تعالى من أصول الإيمان، ولا يخلو مؤمن من محبة الله تعالى، غير أن الناس فيها متفاوتون، فكلما كان الإنسان أتقى للّه وأطوعَ كانت محبته أقوى وكانت منزلته في المحبة الغاية القصوى من مقامات اليقين فليس بعدها مقام كالأنس والرضا إلا ثمرة من ثمارها، ولا قبلها مقام كالتوبة والزهد والصبر والتوكل... إلا مقدمات لها.

وأجمع العلماء على أن أصل الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض واجب لا يتم الإيمان إلا به ثم ينمو ويقوى بفعل القربات، وترك السيئات، وقسم بعضهم محبة الله تعالى إلى قسمين: فرض وندب، فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره عليه. والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات.

ثم إن موجب محبة الله تعالى بالأصالة هو إنعامه علينا وإحسانه إلينا ورحمته ولطفه بنا وإسداؤه إلينا كل خير وتفضله علينا بجميع ما نحتاجه في حياتنا من جلب نفع، ودفع ضر، وهذا بالإضافة إلى ما هو متصف به من الكماليات وصفات الجمال والجلال ظاهراً وباطناً مع تنزهه عن كل نقص وسمات المحدثات.

وكل ذلك يستلذه العقل السليم ويميل إلى صاحبه بالمحبة بالطبع كما نحب الأنبياء والصحابة والصالحين والعلماء الربانيين.

ولما كان الإحسان وإسداء المعروف مما يوجب المحبة كانت محبة رسول الله ﷺ تابعة لمحبة الله ولذلك:

[٢٣٩] قال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»، وفي رواية زيادة: **«وأهله»**.

رواه البخاري (٦٤/١)، ومسلم (١٥/٢) كلاهما في الإيمان، وهو من حديث أنس، فمحبة رسول الله ﷺ من محبة الله تعالى، ولذلك جعل هنا في الحديث محبته مقدمة على محبة الأهل والوالدين والأولاد وسائر الناس، كما جعل ذلك في الله عزّ وجل كما في الحديث السابق: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**».

وكانت محبة النبي ﷺ من محبة الله تعالى لأن كل خير وصل إلينا من الله بهدايته إيانا إلى الصراط المستقيم ودوام النعم والإبعاد من الجحيم، ودفعه عنا المضار والمكاره، فهو ﷺ الواسطة فيها مضافاً إلى ما كان عليه من حسن الصورة وجمال الظاهر وما كان متصفاً به من خلال الجلال وأنواع الفضائل مما لم يجمع لأحد قبله.

[٢٤٠] ولذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحِبُّوا الله لِما يَغْذوكم من نِعَمِه، وأحبوني بحب الله، وأحِبُّوا أهل بيتي بِحُبّي**».

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٦٢) وحسّنه، والحاكم (١٥٠/١٤٩/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: «**لما يغذوكم**» أي: يرزقكم. وقوله: «**بحب الله**» و«**بحبي**» أي: بسبب ذلك.

ففي الحديث بيان بعض الأسباب التي تحمل على محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ...

فموجب محبة الله إسباغه علينا النِعَم، وموجب محبة رسول الله ﷺ حبه لله وحب الله إياه...

وهكذا محبة أهل البيت موجبها هو حبه ﷺ إياهم، وكل ذلك يرجع إلى محبة الله عزّ وجل كمحبة الصالحين وأهل الفضل أيضاً، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله حبه وحب كل من يحبه...

[٢٤١] كما جاء في حديث معاذ وغيره أن رسول الله ﷺ كان يدعو:

«وأسألك حُبَّك، وحُبَّ من يُحِبُّك، وحُبَّ عملٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّك».

رواه أحمد (٢٤٣/٥) والترمذي في تفسير (سورة ص) وغيرها، في حديث طويل بسند صحيح، فكل من أحبّ من يحب الله، أو أَحبَّ أي عمل يقرب إلى حب الله فهو من محبة الله عزّ وجل.

ولأهمية محبة الله ومحبة رسوله ﷺ كان صاحبها مع من يحب كما في الحديث المتواتر: «أنت مع من أحببت»، «المرء مع من أحب» وقد تقدما في الأدب برقم (٦٢/٦١).

ولم يصب من استشكل محبة العبد لله أو العكس فإن ذلك يرده صريح القرآن ونصوص السنة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فأثبت تعالى محبته للمؤمنين ومحبتهم له سبحانه. ومحبته تعالى لعباده هي صفة له تليق بجلاله وعظمته، وليست كمحبة المخلوقين..

هذا ولمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ علامات ودلائل:

فمنها: طاعتهما فيما يأمران به وينهيان عنه. وأن لا يتلقى شيء من المأمورات والمنهيات والحلال والحرام إلا من القرآن والسنة، وأن يرضى المحب بما شرعه الله ورسوله ﷺ حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما جاء عن الشارع.

ومنها: حب القرآن وتعلُّمه وتعليمه. كحب السنّة المحمدية وتعلُّمها والدعوة إلى العمل بها.

ومن أعظم علامات حب الله: اتباع نبيه المصطفى ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ومنها: تقديم محبة الله ورسوله ﷺ على كل محبوب كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ...﴾ الآية.

فأوعد تعالى بانتظار عذاب الله تعالى من يقدّم محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال والتجارة والمساكين على محبة الله ورسوله ﷺ، وجعل من فعل ذلك من الظالمين الذين حرموا هداية الله تعالى وهو زجر بالغ.

ومن آياتها أيضاً الشوق إلى لقاء الله تعالى لقوله ﷺ: «**مَن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه**» رواه الشيخان. فالمحب الفاني في الله يحب لقاءه دائماً، وهذا بخلاف غيره ممن لا يحب لقاءه إلا عند بشارته برضوان الله ورحمته وجنته عند الغرغرة، ولهذا قالوا: أرجى آية للمحبين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾.

* * *

❊ من ثمرات محبة اللّه عزّ وجل

[٢٤٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحِبّه، قال: فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض...**» الحديث.

رواه البخاري في الأدب (٧١/١٣) وغيره، ومسلم في البر والصلة (١٨٤/١٨٣/١٦) وقد تقدم في الأدب برقم (٦٠) مع الكلام عليه.

والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾، فالمؤمن الصالح يحبه الله وتحبه الملائكة ويحبه المؤمنون.

[٢٤٣] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: مَن عادى لي ولياً فقد آذَنْتُهُ بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترَضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحِبَّه،**

فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعْطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأُعيذَنَّهُ، وما ترددْتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مُساءتَه».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٢٥/١٣١).

هذا حديث عظيم يعرف بحديث الأولياء، وفيه فوائد جليلة وعزيزة.

منها: تحريم معاداة أولياء الله تعالى والمراد بهم العلماء بالله المواظبون على طاعته أمراً ونهياً المخلصون في عبادته، وأن من عاداهم كان كمن حارب الله ومن حارب الله قصمه وأهلكه. وفي قوله: «فقد آذنته بالحرب» تهديد شديد ووعيد بالغ لأعداء أولياء الله تعالى.

ومنها: أن موالاة الولي موالاة للّه تعالى ومعاداته معاداة للّه، فعدوُّ ولي الله عدو لله.

ومنها: أن أشرف القربات وأحبها إلى الله عزّ وجل أداء فرائض الإسلام من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وجهاد، وبرور، وأداء الأمانات، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وما إلى ذلك من التكاليف الشرعية المأمور بها، ويدخل في ذلك ترك الفواحش وكبار الذنوب.

ومنها: أن المثابرة على نوافل الخير بعد أداء الفرائض من موجبات محبة الله عزّ وجل، ذلك أن الآتي بالنوافل لا يأتيها إلا باختيار منه طمعاً في الزيادة والتقرُّب إلى الله ومحبة فيما عنده وهذا بخلاف الفرائض فإن الآتي بها يؤديها خوفاً من عقاب الله في الغالب.

ومنها: أن المؤمن المتقي المثابر على أداء الواجبات والمتوسع في نوافل الخيرات قد يصل بذلك فضلاً من الله إلى مقام المحبوبية فيحبه الله تعالى ويُكرمه بثمرات التقوى في الدنيا قبل الآخرة بشارة له، وذلك بأن يكون سبحانه وتعالى سمع عبده المحبوب وبصره، ويده ورِجله، وهذه هي غاية ثمرة التقوى في الدنيا.

وقد اختلف علماؤنا رحمهم الله في معنى كون الله تعالى سمعَ عبده وبصره ويده ورِجله على أقوال ثمانية ذكرها الحافظ في الفتح، والذي يظهر كما قال كثير من الربانيين: أن الله عزّ وجل يُكرم عبده المحبوب بأن يجعل في سمعه قوة الإسماع فيسمع بها المسموعات البعيدة، ويجعل في بصره قوة الإبصار فيبصر ما لا يراه الناس من المبصرات الحسية والمعنوية، وهكذا يعطيه قوة في يده فيبطش ويأخذ ويعطي بما لا يستطيعه غيره، ويعطيه قوة في رِجله فيطوي له الأرض ويمشي على الماء مثلاً فيكون كل ذلك كرامة له. وقد وجد في الصالحين وكثير من الأولياء من أكرموا بما ذكرنا وليس في ذلك حرج ولا أدنى شبهة، فإن الكل بيد الله لا يملك أحد معه قلامة ظفر من جلب نفع أو دفع ضر.

وفي هذا الحديث حجة لظهور الكرامات على أيدي أولياء الله تعالى ولذلك أدلة كثيرة مشهورة، وقد ذكرت جملة منها في أوائل «المطرب بمشاهير أولياء المغرب».

وهي من جملة عقائد أهل السنّة.

قال السفاريني في «عقيدة أهل الفرقة المرضية»:

وكلُّ خارق أتَى عن صالح ... من تابع لشرْعِنا وناصِخ
فإنها من الكراماتِ التي ... بها نقولُ فاقْفُ للأدِلّة
ومَن نفاها من ذوي الضلال ... فقد أتى في ذلك بالمحال
لأنها شهيرةٌ ولم تزلْ ... في كُلِّ عَصْرٍ يا شقا أهلِ الزَّلَلْ

وقال اللقاني في «الجوهرة»:

وأثْبِتْ للأولياء الكرامة ... ومَن نفاها فانبُذَنْ كلامَهْ

وقد ألّف العلماء فيها مؤلّفات عديدة طبع منها الكثير.

ومن فوائد هذا الحديث أن الله عزّ وجل يكره مساءة عبده المحب، فهو يكره الموت وشدائده وأهواله، والله تعالى يكره إصابته بالسوء وهو

الموت الذي لا بد له منه وهو باب لقاء الله عزّ وجل. ولذا روي أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت لما أتاه ليقبض روحه: هل رأيت خليلاً يُميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: قل له: «**هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟**» فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض.

ذكره الغزالي في «الإحياء»، والحافظ في «الفتح» وغيرهما.

ومن فوائد الحديث أيضاً أن من أتى بما وجب عليه وتقرّب بالنوافل لم يرد دعاؤه، وذلك من جملة كراماته. وفي الحديث غير ذلك، والله أعلم.

* * *

❊ الرضا بالأقدار والشوق إلى لقاء اللّه

[٢٤٤] عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أنه صلّى بالقوم صلاة فأوجز فيها فقيل له: لقد خففت أو أوجزت الصلاة، فقال: أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ.

«**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيِني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يبيد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء** ـ وفي رواية: **الرضا بالقضاء** ـ **وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرّاءِ مُضِرّة، ولا فتنةٍ مُضِلّة، اللهم زيّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**».

رواه أحمد (٢٦٤/٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨/٣٨٧/١) وفي المجتبى، والحاكم (٥٢٤/١) من طريقين، وسنده صحيح في طريق، وحماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل اختلاطه.

هذا حديث عظيم من جوامع الدعوات النبوية. وقد جاء فيه الدعاء بالرضا بالقضاء، والشوق إلى لقاء الله.

وقد تكلم الناس كثيراً في المراد بالرضى بالقضاء، والشوق إلى لقاء الله.

قال علماؤنا الربّانيون رحمهم الله تعالى: إن الرضا بالأقدار والشوق إلى لقاء الله تعالى ينشآن عن محبة العبد للّه تعالى فهما من ثمراتها. وقالوا: إن الرضا من أعلى مقامات المقربين وإن كان الناس يتفاوتون فيه كتفاوتهم في المحبة.

ومعنى الرضا بالأقدار أن لا يعترض على ما قدّره الله تعالى وحكم به، وأن تسلم كل الأمور للّه تعالى، وأنه الذي قدّرها سواء كانت خيراً أم شراً طاعة أم معصية، نعم إذا كان المَقْضِيُّ معصية لا يجوز الرضى به لأن الله لا يرضى المعصية كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وإن كان طاعة وجب الرضا به لقوله عزّ وجل: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فالله تعالى قدّر الطاعة والمعصية وأرادهما لكنه يرضى بالطاعة ويبغض المعصية فلا بد من الجمع بين ما أراده الله تعالى من رضى وبغض فهذا حكمه، ولا يُسأل عما يفعل فالكل بقضائه وإرادته. قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أما مَن سوّى في الرضا بين الكفر والإيمان والطاعة والفجور، وقال: إن كل ذلك فعل الله يجب الرضا به فهذا ضلال وخلاف لشريعة الإسلام وحكمة الله في خلقه لأنه يلزم منه عدم الإنكار لما نهى الله تعالى عنه وترك أمور الديانة كلها تسليماً للأقدار، وكل ذلك مروق من الدين.

ولذا قال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته» المشهورة: واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين...

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ولا يحبه، ولا يأمر به، ولا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه، ويثيب فاعله ويمدحه، بل يفعل فعل

الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه، وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها وعن قضائه وفعله، وقالوا: إن الله مقدّر الأشياء ومريدها، والعباد مكتسبون لأفعالهم الاختيارية وعلى كسبهم يترتب الثواب والعقاب... وهذا معنى يجب فيه التسليم ولا يجوز فيه التدقيق لحديث: **«إذا ذُكِرَ القدَرُ فأمسِكوا»** لأن ذلك فوق مستوى عقولنا.

[٢٤٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا، ومَن سخِطَ فله السُخط»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢١٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) بسند حسن.

في الحديث أن من ابتلي في نفسه أو أهله أو ماله فقابل ذلك بالرضا والتسليم للأقدار قابله الله بالرضا وعظم الجزاء، ومَن تسخّط ولم يرضَ بذلك كان من الخائبين الخاسرين له السخط من الله تعالى، ويا ويل من سخط الله تعالى عليه.

وفي الحديث الشريف فضل الرضا عن الله تعالى بما قدّره عليه من البلايا والمحن.

[٢٤٦] وقد جاء عن العباس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»**.

رواه الطيالسي وأحمد (٢٠٨/١) ومسلم (٢/٢) والترمذي (٢٤٤٠) كلاهما في الإيمان.

[٢٤٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، وجبت له الجنة»**.

رواه أبو داود (٥٢٩)، والحاكم (٥١٨/١) بسند صحيح، وأصله في الجهاد من صحيح مسلم (٢٨/١٣)، والنسائي (١٨/١٧/٦) مطولاً، وقد تقدم كسابقه في الإيمان في الحديثين فضل الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبنبينا رسولاً.

فيلزم من الرضا بالله رباً أن يقبل كل ما تأتي به الأقدار من البلايا والمحن، وأن لا يعترض على الله في شيء مما قضاه عليه، إلا أن المقضيات المنهي عنها لا يرضاها كما قدّمنا، مع الإيمان بأنها من جملة ما قضاه الله عزَّ وجلَّ.

ويلزم من الرضا بالإسلام ديناً أن لا يتعبّد الله عزّ وجل إلا بما جاء به دين الإسلام مما فصّله القرآن والسنّة المحمدية.

ويلزم من الرضا بنبينا محمد ﷺ رسولاً أن يتبعه في كل ما شرعه وجاء به من عند الله تعالى، وأن لا يقدم عليه وعلى شريعته أي خلق سواه، سواء كان نبياً أم إماماً أو عالماً من أمته.

فمَن تحقق بما ذكرنا وجد في قلبه حلاوة الإيمان ووجبت له الجنة بفضل الله ورحمته.

هذا ومن ثمرات الرضا عن الله تعالى وبما قدرَ وقضى رضاه تعالى على العبد كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ وقال عز وجل عن صحابة رسوله ﷺ الذين بايعوه على القتال والموت في سبيل الله بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ...﴾ الآية.

فرضا العبد لا يكون إلا بعد رضا الله تعالى عنه كالمحبة، فمحبة الله تعالى لعبده سابقة على محبة العبد للّه، فلولا أنه تعالى أحبك ورضي عنك لما وُفّقتَ للإيمان به وطاعته والتديّن له تعالى.

ومن ثمرات محبة الله تعالى والرضا عنه الاشتياق إليه وإلى لقائه، فإن مَن أحبّ شيئاً اشتاق إلى لقائه ورؤيته، ولا يتم لقاء الله عزّ وجل ورؤيته إلا بقطع عقبة الموت، فلذلك كان المشتاقون إلى الله تعالى يحنون إلى الموت وينتظرونه بانشراح وفرح، ولذا قال بعض أهل البصائر من الربانيين في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ إنها أعظم آية في القرآن

بشارة للمحبين المشتاقين إلى الله عزّ وجل، فإنها تبشرهم بأن أجل لقائه تعالى آت، ولا بد، فلينتظروه. ولهذا جاء في الحديث السالف الذكر في دعائه ﷺ: **«وأسألك الشوق إلى لقائك»** فلنقتدِ به ﷺ.

فنقول: اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وبصفاتك العلا أن تجعلنا من المحبوبين المرضيين لديك، كما نسألك الشوق إليك يا سميع يا قريب يا مجيب، برحمتك وفضلك، آمين.

وبهذا انتهى كتاب الزهد والرقائق، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.

في كتاب الزهد والرقائق من الأحاديث الصحيحة الزائدة على «الصحيحين» نحوٌ من مائة وعشرين حديثاً.

ويليه كتاب الفتن وأشراط الساعة

فهرس الجزء الحادي عشر

الموضوع	الصفحة
كتاب الأدب والأخلاق	٥
ما معنى الأدب	٥
البر والصلة، من فضل البرور بالوالدين	٧
الوالدان أحق الناس بحسن الصحبة وأن الأم مقدمة على الوالد	٨
إكرام صديق الوالد	١٠
فضل بر الخالة	١٠
هل يجزي ولد والديه	١١
البرور بالوالدين ولو كانا مشركين غير أنهما لا يطاعان في معصية الله	١٢
تحريم عقوق الوالدين وعظم ذلك وأنه من أكبر كبائر الذنوب	١٣
استجابة دعاء البار بوالديه	١٤
استجابة دعوة الوالدين	١٦
رحمة الأولاد والإحسان إلى البنات	١٦
صلة الرحم فضل ذلك	١٨
وجوب صلة الرحم وتحريم قطعها	١٩
الواصل الحقيقي هو الذي يصل مَن آذاه أو قطعه	٢٢
صلة ذي الرحم المشرك	٢٤
الوصية بالجار والإحسان إليه	٢٤
الإحسان إلى اليتامى والأرملة والمسكين	٢٦
الأخلاق والآداب العامة، حقوق المسلم على أخيه وما جاء في ذلك	٢٧

الموضوع	الصفحة

التعاون الاجتماعي بين المسلمين ٢٨
رحمة الناس والبهائم ٢٩
ذم المنزوع منهم الرحمة ٣٠
احترام الكبير وتوقيره ورحمة الصغير ٣٢
أحاديث جامعة للخير والمعروف ٣٢
التحابب في الله وما يتبع ذلك ٣٦
إذا أحبّ الله عبداً حَبّبه إلى الناس ٣٨
المرء مع من أحب ٣٩
مَن أحبّ شخصاً في الله فليعلمه ٤١
الجليس الصالح والأمر بصحبة الصالحين ٤١
البر وحُسْن الخُلُق ٤٣
مشروعية معاملة الناس بالرفق واللين وطلاقة الوجه ٤٦
مداراة من يُتّقى فُحْشُه وجواز اغتيابه ٥٠
الحذر من الناس وقلة الصديق الخالص ٥١
إنزال الناس منازلهم ٥٢
التيسير على الناس ٥٣
الانبساط إلى الناس ٥٥
التّأني والعجلة ٥٥
الاقتصاد في الحب والبغض ٥٦
إماطة الأذى عن الطريق ٥٧
فضل المنيحة ٥٨
الإحسان إلى الخادم ٥٨
شكر النعمة والمكافأة على الخير ٥٩
النصيحة ٦١
وجوب تناصر المسلمين فيما بينهم ٦٣
الذب عن المسلم والدفاع عنه ٦٤
الإصلاح بين الناس ٦٥

الموضوع	الصفحة

فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس ٦٦
الصبر على أذى الناس والإغضاء عن إساءتهم ٦٨
حق على الله أن لا يرفع شيئاً إلا وضعه ٦٩
من فضل البلايا والمصائب ٧٠
الشفاعة بين الناس ٧٢
ستر الله على عبده ٧٢
ستر المؤمن على نفسه ٧٣
العبرة بالقلوب والأعمال ٧٤
أمانة الحديث ٧٤
حفظ اللسان وذم كثرة الكلام وخطره على الإنسان ٧٥
مَن لم يواجه الناس بما يكرهون ٧٧
المستشار مؤتمن ٧٧
المتشبّع بما لم يُعْطَ ٧٨
الضيافة وحق الضيف ٧٩
تأخُر المضيف عن ضيفه ٨١
المواساة بفضول الأموال ٨٢
الاستئذان ثلاثاً ٨٣
ومن آداب الاستئذان ٨٤
كيف الاستئذان ٨٦
الاستئذان في العورات الثلاث ٨٧
أبواب السلام ٨٨
إفشاء السلام ٨٩
فضل الزيادة في ألفاظ التحية وكلماتها ٩١
فضل البادىء بالسلام ٩١
السلام قبل الكلام ٩٢
من حق الجلوس في الطريق رد السلام ٩٢
مَن أولى بالبداءة بالسلام ٩٤

الموضوع	الصفحة

مشروعية السلام لمن قام من المجلس ٩٥
مشروعية السلام عند افتراق الرجلين ٩٥
السلام على أهل حلقة الذكر والعلم ٩٦
رد الواحد عن الجماعة ٩٦
لا يقال في التحية بداية: عليك السلام ٩٧
السلام على من في المنزل من نائم ويقظان ٩٨
السلام على المصلي وكيف يرُدّ ٩٨
السلام على النساء والأطفال ٩٩
السلام على مجلس يضم المسلمين وغيرهم ١٠٠
أشخاص لا يسلم عليهم: لا يسلم على قاضي الحاجة ١٠١
عدم مشروعيته على الكفار ١٠١
ترك السلام على الفاسق والعاصي ١٠٣
السلام في الكتابة إلى أهل الكتاب ١٠٥
أدب التثاؤب ١٠٥
العطاس وآدابه ١٠٦
ما يقال في تشميت أهل الكتاب ١٠٨
القيام للرجل الصالح إجلالاً له ١٠٩
القيام المنهي عنه ١١٠
المصافحة والمعانقة والقبلة ١١١
من أدب المجالس: التفسُّح في المجالس ١١٧
الرجل أحق بمجلسه إذا قام ورجع إليه ١١٧
لا يحل للرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما ١١٨
ملعون من جلس وسط الحلقة ١١٨
الجلوس بين الظل والشمس ١١٩
الجلسة المكروهة ١٢٠
الاستلقاء على القفا في المسجد ١٢١
ذم المجالس الخالية من ذكر الله تعالى ١٢٢

الموضوع	الصفحة

أبواب الأسماء والكنى وما يتبع ذلك، تحسين الاسم ١٢٢
التسمّي بأسماء الأنبياء ١٢٣
التسمّي باسم النبي ﷺ وعدم التكني بكنيته ١٢٤
الرخصة في ذلك بعده ﷺ ١٢٥
جواز التكني لمن لا ولد له ١٢٦
أحَب الأسماء إلى الله ١٢٦
أسماء يُكره التسمّي بها ١٢٦
مشروعية تغيير الأسماء، تغيير حَزْن إلى سَهل ١٢٧
تغيير عاصية إلى جميلة ١٢٨
تغيير برة إلى جويرية ١٢٨
تحويل برة إلى زينب ١٢٩
تحويل أصرم إلى زرعة ١٢٩
تبديل أبي الحكم بأبي شريح ١٣٠
إبدال شهاب بهشام ١٣٠
تحويل عزيز إلى عبدالرحمٰن ١٣١
إبدال شيطان بعبدالله ١٣١
تحويل اسم حرام إلى حلال ١٣٢
إبدال جَثّامة بحَسّانة ١٣٢
أبغض الأسماء إلى الله تعالى ١٣٣
ما يباح ويُكره من الألفاظ والكلمات، ما جاء في يا بُنَيّ ١٣٤
قول الرجل: مرحباً ١٣٥
قولهم: فداك أبي وأمي ١٣٥
قول الرجل لآخر: ويلك أو ويحك ١٣٦
سب الدهر ١٣٧
ما قيل في تسمية العنب كَرْماً ١٣٨
ما جاء في العبد والأمة والمولى والسيد وإطلاقها على الموالي ١٣٩
كراهة قول الإنسان: تعِس الشيطان ١٤٠

الموضوع	الصفحة
كراهة قول الإنسان: خَبُثَتْ نفسي	١٤٠
كراهة الجمع بين اسم الله وغيره بلا فصل	١٤١
كراهة قولهم: ما شاء الله وشئت	١٤١
قولهم: زعموا	١٤٢
لا يقال للمنافق: سيد	١٤٣
كراهة قول الإنسان: هلك الناس	١٤٤
ما جاء في الشِّعْر: ما يجوز منه	١٤٥
الشعر المذموم	١٤٨
الحُدَاء والغِنَاء	١٤٩
بسط القول في الغناء وإحقاق الحق فيه	١٥٢
ذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء	١٥٣
الأحاديث الدالة على الغناء المحرّم	١٥٨
السماع والغناء الصوفي	١٦٣
مساوىء الأخلاق	١٦٨
تكفير المسلم بلا تأويل	١٦٨
لعن المسلم أو دابّة أو غيرها	١٦٩
تحريم السباب والشتائم بغير حق	١٧٣
الغِيبة وخطرها	١٧٥
الغيبة قد تباح لأسباب	١٧٨
تحريم النميمة وأنها من الكبائر	١٧٩
شر الناس ذو الوجهين	١٨٢
التشديد في الكذب	١٨٣
جواز الكذب لأجل المصلحة	١٨٤
تحريم قول الزور وعِظَمُه	١٨٦
إذاية المسلم ومضارته	١٨٧
تحريم الظن الكاذب والتباغض والتجسس والتحاسد والتدابر والتقاطع ...	١٨٩
تحريم التحاسد	١٩٠

الموضوع	الصفحة

حالقة الدين ١٩١
تحريم ظلم المسلم ١٩٢
نصر المظلوم ١٩٣
الإملاء للظالم حتى يأخذه ١٩٤
خذلان المؤمن ١٩٤
احتقار المؤمن ١٩٥
تحريم هجران المسلم بلا موجب شرعي ١٩٧
خيبة المتقاطعين ١٩٨
الهجر المشروع ١٩٨
الخيانة وخلف الوعد والغدر والفجور ٢٠٠
تحريم الكبر وأنه يكون في كل شؤون العبد ٢٠١
عظم جرم تعذيب الناس والحيوان ٢٠٥
النهي عن الغضب وما قيل فيه ٢٠٦
مجاهدة النفس على العمل بمقتضى الغضب ٢٠٧
دواء الغضب ٢٠٨
نَتْنُ دعوى الجاهلية ٢٠٩
ذم الافتخار بالآباء والأنساب ٢١١
الطعن في الأنساب ٢١٢
النهي عن إدخال الحزن على المسلم ٢١٣
المتشدق في الكلام مبغوض لله تعالى ٢١٣
ذم الوقاحة وذهاب الحياء ٢١٥
ذم المدح في الوجه ٢١٦
ذم الجدال والمراء بالباطل ٢١٨
الملحقات ٢١٩
رفع درجة الوالدين باستغفار ولدهما ٢١٩
التنابز بالألقاب ٢١٩
اللعب بالحمام ٢٢٠

الموضوع	الصفحة
عِظَمُ جُرْم الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر	٢٢١
من الجوامع	٢٢١
كراهة نوم الرجل فوق سطح ليس بمحجور	٢٢٣
لا تكونوا إمّعة	٢٢٣
ما جاء في لعن النبي ﷺ غيره وأن ذلك زكاة وأجر وقربة للملعون ..	٢٢٤
الأرواح جنود مجنّدة	٢٢٦
الولد قرّة العين	٢٢٧
من حقوق الجار	٢٢٨
وعيد مؤذي جاره	٢٢٨
تحريم ضرب الوجه	٢٢٩
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	٢٣٠
ما لا يجوز من المزاح	٢٣١
طيب النفس	٢٣٢
من صفات المؤمن والفاجر	٢٣٣
من سعادة الإنسان	٢٣٣
من الكبر والتعاظم	٢٣٤
مَن بريء من الكِبْر	٢٣٦
ثلاث لا تُرَد	٢٣٧
من خصال الخير	٢٣٧
كتاب الزهد والرقائق	٢٣٩
ما هو الزهد	٢٤٠
ما هي الرقائق	٢٤١
لا عيش في الحقيقة إلا عيش الآخرة	٢٤١
المحافظة على الوقت واغتنام العمر	٢٤٣
نعمة طول العمر	٢٤٧
الإنسان والأمل وحب الحياة	٢٤٩
لا عذر لأبناء الستين فما فوق	٢٥٤

الموضوع	الصفحة

أعمار هذه الأمة ما بين الستين والسبعين ٢٥٤
الدنيا سجن المؤمن ٢٥٥
طرق الجنة والنار ٢٥٦
هوان الدنيا على الله تعالى ٢٥٨
الدنيا ملعونة إلا ما كان منها لله تعالى ٢٥٩
مثل الدنيا كما صورها النبي ﷺ ٢٦٠
التزهيد في الدنيا ٢٦٣
فضل الكفاف والقناعة ٢٦٥
الغنى غنى النفس ٢٦٨
هلاك المنهمكين في الدنيا وذلتهم ٢٧١
ذم الإكثار من الدنيا ممن لا يجود بها ٢٧٣
التحذير من فتنة المال والدنيا ٢٧٤
ذم كثرة الأكل والمبالغة في الترف والتنعُّم ٢٧٩
ذم البناء فوق الحاجة ٢٨٢
من فضائل الفقر والفقراء ٢٨٤
نبذة من عيش النبي ﷺ وعيش أصحابه ٢٩٢
حال من كان همه الدنيا ٣٠٠
لا تنظر إلى من هو فوقك في الدنيا ٣٠٣
فائدة ٣٠٤
ذكر الموت والقبور ٣٠٥
حفظ الجوارح ٣١١
زنا الجوارح ٣١٢
شهوات البطون والفروج ٣١٥
ترك ما لا يعني ٣١٥
البِر والإثم ٣١٦
الحذر من الذنوب وإن دقّت ٣١٦
أكثر ما يدخل الناس الجنة والنار ٣٢٠

الموضوع	الصفحة
استحيوا من الله حق الحياء	٣٢٢
اضمنوا لي ستًا أضمن لكم الجنة	٣٢٣
مَن يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يُعَلِّم من يعمل بهن	٣٢٣
ثلاث منجيات وثلاث مهلكات	٣٢٥
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً	٣٢٦
الانقطاع إلى الله عزّ وجل	٣٢٧
من نزلت به فاقة فأنزلها بالله	٣٢٨
ثلاث أقسم عليهن	٣٢٩
العزلة راحة للمؤمن من خُلاّط السوء	٣٣٠
إذا أراد الله بعبد خيراً عسَّلَهُ	٣٣٢
الأعمال بالخواتيم	٣٣٣
جهاد النفس	٣٣٤
اتقِ الله حيثما كنت	٣٣٦
قل ربي الله ثم استقم	٣٣٩
إن الحسنات يُذهبن السيئات	٣٤٠
مراقبة الله والحضور معه وذكره	٣٤٢
تفكروا في آيات الله	٣٤٤
الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف	٣٤٨
قرب الجنة والنار من العباد	٣٥١
النوم عن الجنة والنار	٣٥٢
من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل	٣٥٢
خير الناس النَّقِيُّ النَّقِيُّ	٣٥٣
نقض عرى الإسلام	٣٥٤
الجزاء على الحسنات في الدنيا والآخرة	٣٥٥
عجباً لأمر المؤمن	٣٥٦
ما يغفر وما لا يغفر من الظلم والذنوب	٣٥٧
المفلس يوم القيامة	٣٥٩

الموضوع	الصفحة

الإنسان والشيطان ٣٥٩
المؤمن البائس والكافر المُنَعَّم ٣٦٣
يا عبادي، يا عبادي، يا عبادي ٣٦٤
الإخلاص وفضله والنية الصالحة ٣٦٥
الرياء والسمعة ٣٦٨
من وعيد المرائين ٣٧٠
ما يظن أنه رياء وليس منه ٣٧٢
ماذا يفعل من خاف الرياء ٣٧٣
التوبة ٣٧٤
خير الخطائين التوّابون ٣٧٧
حكمة وقوع الذنوب من عباد الله المؤمنين ٣٨٠
من فوائد ابن القيم ٣٨٣
الذنوب وأقسامها ٣٨٧
ما هو حد الكبيرة؟ ٣٩٠
بماذا تغفر الذنوب كبيرها وصغيرها ٣٩١
الخوف والرجاء ٣٩٢
الرجاء وما جاء فيه ٣٩٤
بعض أحاديث الرجاء ٣٩٦
حديث القاتل مائة نفس ٣٩٩
من أرجى آيات القرآن والسنة للمؤمنين ٤٠١
حديث البطاقة ٤٠٢
الخوف وما يتعلق به ٤٠٣
فضل البكاء من خشية الله ٤٠٨
الصبر ٤٠٩
الشكر ٤١٢
التوكل على الله تعالى ٤١٧
محبة الله عزّ وجل ٤١٩

الموضوع	الصفحة

من ثمرات محبة الله عزّ وجل ٤٢٣
الرضا بالأقدار والشوق إلى لقاء الله ٤٢٦

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

www.Muhammad.com

كتاب الفتن وأشراط الساعة

أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت في كل ما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو كان آيلاً إليه كالكفر والإثم والعذاب والقتال والإفساد والمال والأولاد والاختلاف... وكلها إطلاقات جاء بها القرآن والسنة، غير أن أكثر ما جاءت به الأحاديث في التحذير من الفتنة، فتنة الحروب والمقاتلة على المُلك والسلطة كما يبدو من الأحاديث الآتية. نسأل الله عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ولنشرع في ذكر ما جاء في شأن الفتن عن النبي ﷺ مستعينين بالله عزّ وجل فنقول:

* * *

* تنبؤه ﷺ بكثرة الفتن وأنها تعم جميع البيوت

[١] عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ أشرف على أُطُم من آطام المدينة ثم قال: «**هل تَرَوْنَ ما أرى؟**» قالوا: لا، قال: «**إني لأرَى مواقِعَ الفِتَنِ تقع خلال بيوتكم كمواقع القَطْر**».

رواه البخاري في علامات النبوة (٤٢٥/٧) وفي الفتن (١١٩/١١٨/١٦)، ومسلم في الفتن (٧/١٨) أيضاً.

«أطم»: بضم الهمزة والطاء هو الحصن أو القصر. قوله: «مواقع» جمع موقع، أي: مواضع وقوعها ونزولها. «خلال»: بكسر الخاء، أي: وسطها.

وفي الحديث إشارة إلى ما نزل بالصحابة وغيرهم بالمدينة من الفتن كمقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وما نشأ عن ذلك من وقائع الجمل، وصفّين، والنهروان، وغير ذلك، فإن الجميع كان سببه قتل عثمان بالمدينة ثم انتشرت الفتن في البلاد.

[٢] وعن كرز بن علقمة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تقعُ الفتنُ كأنها الظُّلَلُ، تعودون فيه أساوِدَ صُبًا يَضربُ بعضُكُم رِقابَ بَعْضٍ»**.

رواه الطيالسي (٥٢)، وأحمد (٤٧٧/٣)، وابن حبان بالموارد (١٨٧٠)، والحاكم (٤٥٥/٤) بسند صحيح.

«الظُّلَل»: بضم الظاء وفتح اللام، هي كل ما أظلّ الإنسان، ويريد بذلك كأنها السحاب أو الجبال. «أساود»: جمع أسود وهو أخبث الحيّات والثعابين وأعظمها. «صُبًا»: بضم الصاد جمع صبوب.

ومعنى الحديث أنكم ستصيرون كالأفاعي إذا أرادت النهش واللدغ ارتفعت ثم انصبّت على اللديغ، وكذلك ستفعلون مع بعضكم بعضاً، وقد حصل ما تنبأ به ﷺ بين الصحابة كما هو معلوم.

* * *

❋ الفتنة التي تموج كموج البحر

[٣] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً عند عمر رضي الله تعالى عنه فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، قال: هات، قلت: ذكر فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، **«تكفرها الصلاةَ، والصدقة»**، وفي رواية: **«والصيام»** وفي أخرى:

«**والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» قال: ليس عن هذا أسألك، أسألك عن التي تموج كموج البحر، قلت: ليس عليك منها بأسٌ يا أمير المؤمنين، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أرأيتَ البابَ يُفتحُ أو يُكسر؟ قلت: لا، بل يُكسرُ، قال: إذاً لا يُغلقُ أبداً. فسئل حذيفة مَن البابُ؟ قال: عمر.

رواه أحمد (٥/٣٨٦/٤٠١/٤٠٥)، والبخاري في المواقيت، وفي الزكاة، وفي الصيام، وفي التفسير، وفي الفتن (١٦/١٥٩)، ومسلم (١٨/١٦/١٧)، وابن ماجه، كلاهما في الفتن.

قوله: «تموج» أي: ترتفع وتضطرب. وقوله: «بينك وبينها باباً مغلقاً» يعني: بينك وبين زمانها باب مغلق وهو وجودك.

وفي الحديث فوائد:

أولاها: اختصاص حذيفة رضي الله تعالى عنه بالاطلاع على الفتن المرتقبة، وأنه كان له علم بها بتفصيل وتدقيق لأنه كان حريصاً على تعلُّم الشر من النبي ﷺ كما يأتي.

ثانيها: أن الفتن التي تحصل للإنسان مع أهله وجاره وفي ماله تُكَفَّر وتُمْحَى بأنواع القربات كالصلاة مثلاً، والصيام، والصدقة، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، وهذه حسنات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ثالثها: يؤخذ من هذا التكفير أنها تغفر حتى الكبائر لأن الفتن التي تنشأ عما ذكر لا تخلو من كبائر كشتائم ولعائن بل وضرب ويمين كاذبة إلى غير ذلك، والله ذو فضل واسع فلا يتعاظمه شيء ولا تحجر رحمته.

رابعها: أن الفتن العظمى التي تموج كموج البحر كانت مسدوداً عليها بوجود عمر رضي الله تعالى عنه، فلما قتل انفتحت أبوابها فلم تُغلق إلى يوم القيامة.

* * *

❁ ما موقف المسلم من الفتن إذا كثرت وانتشرت

[٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستكونُ فِتَنٌ: القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي، مَن تشرَّفَ لها تَستَشرِفْهُ، فمَن وجدَ ملجأً أو معاذاً فلْيَعُذ به**».

رواه أحمد (٢/٢٨٢)، والبخاري (١٦/١٣٨/١٣٩)، ومسلم (١٨/٨) كلاهما في الفتن، ورواه البخاري أيضاً في الأنبياء.

[٥] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستكونُ فِتَنٌ، ألاَ ثمَّ تكون فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمَن كان له إبلٌ فليلحق بإبله، ومَن كانت له غَنمٌ فليلحق بغنمه، ومَن كانت له أرضٌ فليلحق بأرضه**»، قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبلٌ ولا غنمٌ ولا أرض؟ قال: «**يعمِد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لِيَنْجُ إن استطاع النجاء، اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت**»، قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أُكرِهتُ حتى ينطلق بي إلى أحد الصفَّين، أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «**يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٩/١٠).

قوله: «من تشرف لها» أي: من طلع لها بشخصه طالعته، والاستشراف للشيء رفع الرأس والنظر إليه.

وفي الحديثين إشارة إلى أن المراد بهذه الفتن الملاحم والحروب، وفيهما دليل على عدم المشاركة فيها، وهذا محمول على المقاتلة على الملك والباطل، ففي هذه الحال يجب الاعتزال والاشتغال بما يهم، ويحرم الدخول معهم فإن أكره فلا يقاتل.

أما إذا كان الحق واضحاً فيجب القتال عليه ونصر المحق بأي طريق أمكن ولو بالدعاء.

[٦] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع ارْتَدَدْتَ على عقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ؟ قال: لا، ولكنّ رسول الله ﷺ أذِن لي في البَدْوِ.

وعن يزيد بن أبي عُبَيْد قال: لما قتل عثمان رضي الله تعالى عنه خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة وتزوج هناك امرأة وولدتْ له أولاداً فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليال فنزل المدينة.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٥٠/١٥١).

سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه لما رأى تداعي الفتنة بقتل الإمام عثمان ظلماً اعتزل وخرج للبادية فراراً بدينه، خوفاً من أن تصيبه فتنة فاعترض عليه جماعة ومنهم الحجاج الظالم لأن الرجوع بعد الهجرة إلى موضع الهجرة كان يعد ردة، كما جاء في حديث عند النسائي: «**لعن الله آكل الربا وموكله...**» الحديث، وفيه: «**والمرتد بعد هجرته أعرابياً**»، وجاء في حديث الكبائر من جملته: «**مَن رجع بعد هجرته أعرابياً**» وكان ذلك معروفاً أيام النبوة وما بعدها، لكن سلمة هذا بيَّن لهم أن النبي ﷺ أذِن له في ذلك كما أذِن لغيره أيام الفتن.

[٧] وعن سعيد بن إياس بن سلمة أن أباه حدّثه قال: قدم سلمة المدينة فلقيه بُرَيدةُ بن الخُصَيْب فقال: ارتددتَ عن هجرتك؟ فقال: معاذَ الله إني في إذنٍ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**أبدوا يا أسلم**» قالوا: إنا نخاف أن يقدح ذلك في هجرتنا، قال: «**أنتم مهاجرون حيث كنتم**» وله شاهد من رواية عمرو بن عبدالرحمٰن بن جرهد قال: سمعت رجلاً يقول لجابر: مَن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: أنس بن مالك، وسلمة بن الأكوع. فقال رجل: أما سلمة فقد ارتدّ عن هجرته، فقال: لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لأسلم: «**أبدوا**» قالوا: إنا

نخاف أن نرتد بعد هجرتنا، قال: **«أنتم مهاجرون حيث كنتم»** قال الحافظ في «الفتح»: وسند كل منهما حسن.

والربذة: بفتحات مع تشديد الراء موضع خارج المدينة لجهة الشرق بينهما كما قالوا خمس مراحل، كان يسكنها أبو ذر وسلمة بن الأكوع.

ويستفاد من حديث سلمة مشروعية الاعتزال عن جمهور الناس والخروج إلى البادية فراراً من الفتن، كما في الحديث التالي لأبي سعيد.

[٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن يكون خيرُ مال المسلم غنماً يتَّبعُ بها شعف الجبال ومواقع القَطر يفرُّ بدينه من الفتن»**.

رواه مالك في الاستئذان، وأحمد (٣/٦/٣٠/٤٣/٥٧)، والبخاري في الإيمان، وفي بدء الخلق، وفي الفتن (١٦/١٥٢) وفي الرقاق، وأبو داود (٤٢٢٧) والنسائي، وابن ماجه (٣٩٨).

«شعف»: بفتحتين جمع شعفة أي أعالي الجبال. والمراد بذلك أن ينفرد عن الناس ويعتزلهم ويتحرى مواقع العشب والنبات ويكتفي بما تدره له غنيمته من اللبن.

والحديث نصّ في أن الفرار من الفتن من دين الإسلام وأن المسلم الشحيح بدينه ينبغي له أن يفر من الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وأن لا يشارك الجمهور في ذلك فإنه قلما يسلم له دينه.

[٩] فعن أم مالك البَهْزية قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنةً فقرّبها، قالت: قلت: يا رسول الله مَن خير الناس فيها؟ قال: **«رجل في ماشيته يؤدي حقَّها ويعبد ربه، ورجل أخذ برأس فرسه يُخيف العدو ويُخيفونه»**.

الحديث رواه الترمذي في الفتن (٢٠٠٧)، وعبدالرزاق (١١/٣٦٨)، والحاكم (٤/٤٤٦) وسنده صحيح عند الآخرين.

ومعناه وارد في الصحيحين وغيرهما، البخاري في الجهاد (٦/٣٤٦)، ومسلم في الجهاد (١٣/٣٣/٣٤)، والترمذي في الجهاد أيضاً (١٥٢٣)،

وعبدالرزاق في الفتن (٣٦٨/١١) وهو عندهم عن أبي سعيد الخدري، ويأتي في الرقاق مع حديث لابن عباس.

رواه أحمد (٣٢٢/٣١٩/٢٣٧/١) والترمذي (١٥١٥) وغيرهما.

وقولها: «فقرّبها» أي: ذكرها قريبة.

وفي الحديث بيان ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في الفتنة، وأنه يجب عليه أن يكون بين أمرين: إما أن يجاهد في سبيل الله ويقاتل العدو الكافر، وإلا فليعتزل وليشتغل بربه ويكتفي في العيش بما تعطيه إياه غنيمته مع أداء ما يلزمه من حقها كالزكاة ونحوها.

[١٠] وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه في إبلٍ له وغنم، فأتاه عمر ابنه فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكونَ أعرابياً في إبلك وغنمك، والناس بالمدينة يتنازعون في الملك، قال: فضرب صدره بيده، وقال: أُسْكُتْ يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخَفِيَّ»**.

رواه مسلم في أول كتاب الزهد (١٠٠/١٨).

المراد بالغنيّ غَنِيُّ النفس للحديث الآتي في الرقاق: **«ولكن الغِنَى غِنَى النفس»** وقوله: «الخفي» بالخاء المعجمة، أي: الخامل المنقطع عن الناس وشرورهم إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه.

والحديث استدل به من قال بأفضلية العزلة لا سيما أيام الفتن كما فعل سعد بن أبي وقاص، فإنه كان قد بنى قصراً خارج المدينة واعتزل فيه وترك الناس يخوضون في الفتن والمقاتلة على الملك حتى وافاه أجله.

[١١] وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **«نعم»**، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**» قال: قلت: وما دَخَنُه؟ قال: «**قوم يَهْدون بغير هَدْيي تعرفُ منهم وتُنكر**»، وفي رواية: «**قوم يستنُّون بغير سنَّتي، ويهتدون بغير هديي**» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاة على أبواب جهنم مَن أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا، قال: «**هم من جِلْدَتِنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرَق كُلَّها، ولو أن تعضَّ بأصلِ شجرةٍ حتى يدركك الموتُ وأنت على ذلك**».

رواه البخاري في المناقب (٧/٤٢٧) وفي الفتن (١٦/١٤٤/١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٢/١٣٦/١٣٨).

قوله: «وفيه دَخَن» بفتحتين، أي: كدرة وسواد، وأصل الدخن أن يكون في لون الدابة كدرة إلى سواد.

هذا حديث عظيم الشأن فيه فوائد هامة:

منها: الاهتمام بمعرفة المناكير والشرور والفتن وأسبابها مخافة الوقوع فيها، وكان لحذيفة رضي الله تعالى عنه الحظ الأوفر في ذلك لاختصاصه بسؤال النبي ﷺ عما سيقع في المستقبل من الفتن والشر.

ومنها: نعمة الله تعالى على عباده بدين الإسلام وهدايتهم إليه بعدما كانوا في جاهلية جهلاء وكفر وقتل بعضهم بعضاً وإتيانهم الفواحش.

ومنها: إخباره ﷺ بأنه سيكون شر بعد ما جاء به من الخير والدين، وكان ذلك ما حصل من الحروب والفتن والاختلافات التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه بين الصحابة وفي أيام المروانيين. ثم إخباره عليه السلام أنه سيكون بعد ذلك الشر خير مع ما فيه من الكدورة وما لا يحمد، وكان هذا الخير ما وقع في خلافة عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه ودَخَنُه ما حصل بعده من الأمراء الذين جاؤوا بما يعرف وما ينكر فكان فيهم من يتمسك بالسنّة والعدل، وفيهم من يجور ويدعو إلى البدعة والضلال.

ومن فوائد الحديث:

إخباره ﷺ بدعاة جهنم ويتمثلون في هؤلاء الدعاة إلى الأفكار الهدّامة الذين ظهروا في عصرنا هنا وهناك من أهل جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا العربية ممن درسوا في بلاد الغرب على المستشرقين فأتوا بلاد الإسلام يدعون فيها إلى ما تلقونه من الكفار من الأفكار الكافرة فمَن أجابهم إلى ما يدعون إليه قذفوه في جهنم.

ومنها: أن من أدرك ذلك الوقت فعليه بلزوم جماعة أهل الحق وإمامهم إن كان، فإن لم يوجد لهم إمام معتبر شرعاً ولا لهم جماعة وإنما هي فِرَق وأحزاب كل بما لديهم فرحون، فعليه بالاعتزال والتمسك بما يعرفه من الحق، وليدم على ذلك حتى يوافيه أجله. وهذا وأيم الله هو وقتنا هذا فمَن فتح الله بصيرته فعليه نفسه وليدع الناس يخوضون في لا شيء. ويؤيد ما ذكرنا الحديث التالي:

[١٢] وعن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكرَ الفتنة، أو ذُكرت عنده، قال: **«إذا رأيتَ الناس قد مَرجَتْ عهودهم، وخفَّت أماناتهم، وكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: **«الزم بيتك وأملِك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تُنكر، وعليك بأمر خاصّة نفسك، ودع عنك أمرَ العامّة»**.

رواه أحمد (٢/٢١٢)، وأبو داود (٤٣٤٣)، والحاكم (٤/٥٢٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسّنه الحافظان المنذري والعراقي، والحديث صحيح لطرقه:

فقد رواه أحمد (٢/٢٢١) وأبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجه، والحاكم (٤/٤٣٥) من طريق آخر بسند صحيح بلفظ: **«كيف بكم وبزمان** ـ أو ـ **يوشك أن يأتي زمانٌ، يُغربلُ الناس فيه غربلة تبقى حُثالةٌ من الناس قد مرجت عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: **«تأخذون ما تَعرفون، وتذَرُون ما تُنكِرون، وتُقبلون على أمر خاصّتكم، وتذَرُون أمر عامّتِكم»**.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[١٣] وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه ابن حبان بالموارد (١٨٤٩)، بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتَ يا عبدالله بن عَمرو إذا بقيتَ في حُثالةٍ من الناس؟**» قال: وذاك ما هم يا رسول الله؟ قال: «**ذاك إذا مرجت عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا**» وشبك بين أصابعه، قال: فكيف ترى يا رسول الله؟ قال: «**تعملُ بما تعرفُ، وتدعُ ما تُنكرُ، وتعملُ بخاصة نفسك، وتدع عوامَّ الناس**» وسنده صحيح.

وذكره البخاري معلقاً في أبواب المساجد من صحيحه (٢/١١١/١١٢) مجزوماً به مختصراً بلفظ: «**يا عبدالله بنَ عمرو كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس؟**».

قوله: «مرجت» بفتح الميم وكسر الراء، أي: فسدت واضطربت واختلفت. وقوله: «عهودهم» جمع عهد وهو اليمين، والأمان، والذمة. وقوله: «وخفت» أي: قلت «أماناتهم» وهي ضد الخيانة. وقوله: «يغربل الناس» معناه يذهب الصالحون ويبقى الأراذل. وقوله: «تبقى حثالة» هي بضم الحاء وهي الرذيل من كل شيء، والمراد هنا تبقى الأشرار من الناس وأراذلهم.

والحديث بجميع ألفاظه يدل على أنه إذا ظهرت الفتن وفسد الناس واضطربت عهودهم من الأيمان والذمم وقلّت أماناتهم وكانوا في اختلاف وهرج ومرج وذهب صالحوهم ولم يبقَ إلا أشرارهم والأرذلون منهم، فعلى الإنسان أن يلزم نفسه وخاصته ويدع الناس من شره ويترك شؤون العامة ويتمسك بما يعرفه من دين الله تعالى ويترك ما ينكره على الناس مما يخالف الشرع.

وهذا كما ترى، من الأحاديث الدالة على اعتزال الفتن ومجانبة أهلها وعدم مشاركتهم فيما هم فيه من الاختلاف والتناطح على المراكز والرئاسة.

* * *

❋ عرض الفتن على القلوب وذهاب الأمانة و(مدح الخوَنة)

[١٤] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشرِبَها نكتت فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتت فيه نكتةٌ بيضاء حتى يصيرَ على قلبين أبيض مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخر أسود مرْبادًا كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه**».

رواه مسلم في الإيمان (٣/١٧١/١٧٢).

قوله: «تعرض» أي: تلصق بجانب القلوب كما يلصق الحصير بجنب النائم شيئاً بعد شيء. وقيل معناه: تظهر الفتن على القلوب فتنة بعد أخرى كالحصير الذي ينسج عوداً عوداً على عادة العرب، فشبّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد.

وقوله: «فأي قلب أُشربها» أي: حلّت منه محل الشراب فأحبها. وقوله: «أنكرها» أي: ردها ولم يقبلها. وقوله: «مرباداً» أي: أسود يخالطه شيء يسير من البياض، واربد لونه إذا تغير ودخله سواد. وقوله: «كالكوز مجخياً» هو بضم الميم وفتح الجيم وكسر الخاء المشددة، أي: مائلاً.

والحديث يدل على أن الفتن ستكثر وتنتشر وتظهر على القلوب وتلصق بجانبها ويكون الناس في شأنها فريقين: فريق تؤثر فيه ويشرب حبها فيسود قلبه بظلمتها فيميل عن الحق ويتبع هواه فيصبح لا يعرف حقاً من باطل، ولا منكراً من معروف. أما الفريق الثاني، فينكرها ويردها ولا يقبلها بحال فتنكت في قلبه نكتة بيضاء بنور الحق والإيمان فيصير قلبه أبيض ناصعاً فلا تضره أي فتنة طوال حياته.

والذي يظهر أن هذا الحديث يشير إلى فتنة العقيدة وآراء أهل الأهواء

كالرفض، والنصب، والقدر، والاعتزال، وما إلى ذلك من الأهواء، والله أعلم.

والحديث أعم من ذلك، وقد جاء ما يدل على أن هنالك من لا تضره الفتنة.

[١٥] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه، إلا محمد بن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تضرك الفتنة»**.

رواه أبو داود في السنة (٤٦٦٣) بسند صحيح لغيره.

فهذه خصيصة لهذا الصحابي خصّه بها النبي ﷺ وأنه في أمن وأمان من الفتن.

[١٦] وعن حذيفة أيضاً قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: **«أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»**، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: **«ينام الرجلُ النومةَ فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرُها مثل الوَكْتِ، ثم ينامُ النومةَ فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيظلُّ أثرها مثل المَجْلِ كجمرٍ دحرجته على رجلك فنَفط فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيء، ثم أخذ حصًى فدحرجه على رِجله فيُصبح الناسُ يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل: ما أجْلَده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقالُ حبة من خردلٍ من إيمان، ولقد أتى عليّ زمانٌ وما أُبالي أيكم بايعتُ لئن كان مسلماً ليَرُدَّنَّه عليَّ دينُه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليرُدَّنَّه عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت لأبايعَ منكم إلا فلاناً وفلاناً»**.

رواه أحمد (٣٨٣/٥)، والبخاري في الفتن (١٤٩/١٤٨/١٦)، ومسلم في الإيمان (١٧٠/١٦٩/١٦٨/٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٩) بتهذيبي.

«الأمانة»: كل ما ائتمن عليه الإنسان. وأشملها ما ذكر في قوله

عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فالآية شاملة لجميع أنواع الأمانات، وقوله: «جذر» بفتح الجيم وكسرها مع سكون الذال أي: أصل قلوبهم. وقوله: «الوكت» بفتح الواو وسكون الكاف، هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه. و«المجل» بفتح الميم وسكون الجيم هو أثر العمل في الكف. و«منتبراً» أي منتفخاً.

والحديث يدل على أن الأمانة سترفع من قلوب الناس حتى لا يكاد أحد يحافظ عليها ولا يبقى منها إلا آثارها، وأنه سوف يصبح الأمين في الناس غريباً وتنقلب الأوضاع حيث يمدح الخائن والمنافق ومن لا دين له فيقال فيه: ما أجلده، وما أظرفه، وما أعقله، وليس في قلبه وزن حبة خردل من إيمان، وما أكثر هذا الصنف في وقتنا، وإن ذلك لفتنة فيا رب لا تجعلنا فتنة للخونة والمنافقين.

* * *

❋ مبادرة الفتن المظلمة المضلة بالأعمال الصالحة

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال فتناً كقِطع الليل المُظلم يصبح الرجلُ مؤمناً، ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا»**.

رواه أحمد (٣/٣٠٤/٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (٢/١٣٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٦).

«بادروا»: أي سابقوا وسارعوا بالأعمال الصالحة. «بعرض»: بفتح العين والراء.

في الحديث الأمر بالمبادرة إلى الإكثار من الإتيان بأنواع القربات قبل تعذرها والانشغال عنها بما يداهم الإنسان من الفتن المتكاثرة المتراكمة

كتراكم الليل المظلم، حتى إن الإنسان لشدة الفتن ينقلب في اليوم الواحد مرتين أو مرات فيصبح مؤمناً ويمسي كافراً وعكسه.

والحديث يشير إلى أن ذلك يكون بسبب عرض الدنيا فيبيع لذلك دينه فيكفر بدون أن يشعر، والأمثلة على هذا كثيرة عياذاً بالله.

* * *

❊ أشقى الناس بالفتن العرب

[١٩٨] عن زينب بنت أم سلمة، عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنهن أن النبي ﷺ استيقظ من نومه. وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً مُحمراً وجهه وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه**» وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثُر الخَبَثُ**».

رواه أحمد (٦/٤٢٨/٤٢٩)، والبخاري (١٦/١١٧/١١٨)، ومسلم (١٨/٣/٤) كلاهما في الفتن، وأخرجه أيضاً عبدالرزاق (١١/٣٦٣) والترمذي.

«الويل»: الهلاك. و«الردم»: هو السد الذي بناه ذو القرنين، ويأتي الكلام عليه مع يأجوج ومأجوج. وقوله: «الخبث» بفتحتين، فسره الجمهور بالفسوق والفجور. وقيل: المراد به الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا.

قال النووي رحمه الله تعالى: والظاهر أنه المعاصي مطلقاً.

وقوله: «أنهلك» بكسر اللام.

والحديث يدل على أن العرب هم مصدر الفتن، وأنهم أول من يقعون فيها من هذه الأمة، والحديث قد يكون مشيراً إلى ما حصل بين الصحابة وغيرهم ممن جاء بعدهم إلى وقتنا هذا كما يشهد له التاريخ، وها نحن

نشاهد الفتن متوالية على العرب، والغرب كله بجميع دول أوروبا وأمريكا... مع الشرقيين يكيدون لهم ويحاربونهم ويمتصون ثرواتهم عن طيب نفس أو كره، وكوَّنوا في وسطهم دويلة الصهاينة الملاعن، وأشعلوا نيران الحروب بينها وبينهم ليل نهار ولا ندري ماذا يكون في غدنا.

والحديث يدل أيضاً على أنه إذا كثر الشر وانتشر الفجور وظهرت المعاصي أهلك الله جميع الناس، ولا ينفعهم وجود الصالحين ولا أهل الفضل والدين بينهم كما هو حالنا اليوم.

* * *

❊ فزع النبي ﷺ من نزول الفتن

[١٩] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزِعاً يقول: «**سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ مَن يوقظ صواحب الحجرات؟** - يريد أزواجه - **لكي يُصلِّينَ، رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عارية في الآخرة**».

رواه البخاري في الفتن (١٢٩/١٦)، وعبدالرزاق (٣٦٣/١١)، وأحمد والترمذي.

في الحديث بيان ما أطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ من فتوح خزائن الأموال وظهور الفتن التي تنشأ عن ذلك من التنافس والمقاتلة عليها، وقد حصل كل ذلك. وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من الاهتمام بأهله وتحريضهن على الاستيقاظ للصلاة والتهجُّد ليلاً لينقذن أنفسهن من المهالك ويتضرّعن إلى الله من الحفظ والحماية من الفتن.

وقوله: «رُبّ كاسية...» إلخ، يعني والله أعلم: قد تكون المرأة في الدنيا كاسية لكنها عارية أو شبه عارية فتعاقب على ذلك في الآخرة بالعُري جزاء على ذلك وفضيحة لها بين الخلائق، أو يكون معناه: كاسية من نعم الله عارية من شكر الله الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب، أو معناه:

كاسية في الدنيا بأنواع الحلل والألبسة الفاخرة المتنوعة لكنها في الآخرة عارية من الثواب لعدم عملها الصالح في الدنيا.

والحديث وإن جاء في نساء النبي ﷺ فهو شامل لجميع نساء الأمة، ففيه تحذيرهن من الاتصاف بما ذكر، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه

[٢٠] عن الزُّبَيْر بن عدِيٍّ رحمه الله تعالى قال: أتينا أنسَ بن مالك رضي الله تعالى عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحَجَّاج فقال: اصبِروا فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌ منه حتى تلْقَوا ربكم، سمعتُه من نبيكم ﷺ.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٢٦/١٢٧).

في هذا علَم من أعلام النبوة، فإن ما أخبر به من توالي الشر وتجدُّده بكثرة عاماً بعد عام وشهراً بعد شهر، بل ويوماً بعد يوم هو الواقع منذ غياب النبي ﷺ.

فالحديث يدل على أن الأزمنة المتأخرة شر من المتقدمة، وهو على إطلاقه فيه إشكال من حيث إن بعض الأزمنة تكون أخف شراً مما قبلها كما وقع أيام عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه، فإن الشر فيه كان قليلاً بالنسبة لما كان قبله، ويجاب عن ذلك بأن ذلك أغلبي، ولا بد للناس من تنفيس كما وقع في بعض العصور وكما سيقع أيام المهدي وعيسى عليهما السلام.

وقوله: «شكونا إلى أنس ما نلقى من الحجاج» يعني ابن يوسف الثقفي وهو الأمير الجبار الظالم المشهور، فإن ظلمه فاق ظلم كل ظالم قبله، وقد أحصوا عنه ما قتله من العلماء والنسّاك... فذكروا عنه أنه قتل مائة وعشرين ألف نفسٍ ظلماً، كما أخرجه الترمذي بسند صحيح.

وقد ذكر الحافظ في «الفتح» عن الزبير يعني ابن بكار في «الموفقيات» من طريق مجالد عن الشعبي قال: كان عمر فمَن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية، فلما كان بشر بن مروان سمَّر كفَّ الجاني بمسمار، فلما قدم الحجاج قال: هذا كله لَعِبٌ، فقتل بالسيف.

ملحوظة: وقوله: «لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه» المراد بالشر ذهاب العلماء وأهل الدين وظهور المعاصي وكثرة أهلها وانتشار الظلم والجور، وليس المراد بالشر القحط والجدب وارتفاع الأسعار وظهور الفقر والمجاعات، بل الأمر بالعكس، فقد فُتحت أبواب الدنيا وبُسطت، وأغدق الله تعالى على العباد النِعَم وتوسّعوا في الحياة...

* * *

❁ تقاتل المسلمين وما سيكون بينهم من البأس وأنهم سيسلطون على بعضهم بعضاً

[٢١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن حملَ علينا السلاحَ فليس منا»**.

رواه مالك وأحمد (١٤٢/٥٣/١٦/٣/٢)، والبخاري في الفتن (١٣١/١٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٧/٢)، وأبو داود والنسائي، ومثله عن أبي موسى رواه البخاري (١٣١/١٦)، وعن أبي هريرة عند مسلم وابن ماجه بزيادة: **«ومَن غشّنا فليس منا»**.

والحديث يدل على أن من حمل السلاح يريد قتال المسلمين فليس منهم، أي: ليس على طريقتهم ولا هديهم، فهم برآء منه. وهذا غاية في التنفير من قتال المسلمين والزجر عنه، وهذا محمول على القتال الغير المشروع كما يأتي:

[٢٢] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا**

المسلمانِ حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما في جُرُفِ جهنم، فإذا قتل أحدهما صاحبَه دخلاها جميعاً».

رواه أحمد (٤١/٥)، ومسلم في الفتن (١٢/١٨).

في الحديث وعيد شديد لحمل السلاح على المسلمين أو مقاتلتهم بلا حق.

[٣٣] وفي رواية عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ - يعني علياً عليه السلام - قال: فقال: يا أحنف ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا تواجه المسلمان بسيفَيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار»** قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«إنه قد أراد قتل صاحبه»**، وفي رواية عن الحسن - يعني البصري - قال: خرجت بسلاحي ليالي الفتنة فاستقبلني أبو بكرة... إلخ.

رواه البخاري (١٤١/١٤٠/٦)، ومسلم (١١/١٠/١٨)، وأبو داود (٤٢٦٨) كلهم في الفتن.

وقوله: «ليالي الفتنة» المراد بالفتنة الحرب التي وقعت بين الإمام علي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم، وكان أبو بكرة ممن تخلّف عن القتال مع أحد الفريقين فثبط الأحنف عن القتال مع الإمام علي، واستدل له بالحديث المذكور وكان غير مصيب في ذلك، فإن الحديث وارد فيمن تقاتل لأجل الملك والعصبية والحمية، فالقاتل في ذلك والمقتول كلاهما في النار، فالقاتل يدخلها لقتله أخاه المسلم بغير حق، والمقتول يدخلها لأنه كان حريصاً على قتل أخيه فاستحقها بنيّته، والحديث نصّ في كونهما لم يخرجا بتقاتلهما عن الإسلام، وهذا طبعاً إذا لم يستحلا القتل بدون تأويل وإلا كانا مرتدين مخلّدين في النار.

[٣٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«لا ترجعوا بعدي كُفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض».**

رواه أحمد (٨٧/٢)، والبخاري في الفتن (١٣٤/١٦) وغيرهما.

وجاء عن جرير في الصحيحين وعن أبي بكرة وابن عباس في البخاري (١٣٧/٦)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٤).

وقوله: «لا ترجعوا كفاراً...» إلخ، ظاهره أن قتل المسلم يوجب الكفر وذلك ليس بمراد فإنه مؤول ولا بد، بمعنى لا تفعلوا بالمؤمنين ما تفعلون بالكفار ولا تفعلوا بهم ما لا يحل وأنتم ترونه حراماً أو لا ترجعوا كفاراً باستحلالكم قتال إخوانكم، ولذا جاء في رواية ابن عباس عند البخاري في الفتن (١٣٧/١٦): «**لا ترتدُّوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» ففيه النهي عن الارتداد والكفر واستحلال قتال المسلمين.

[٣٥] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلّينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: «**سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألتُ ربي أن لا يُهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**».

رواه أحمد (١٨٢/١)، ومسلم في الفتن (١٥/١٤/١٨).

[٣٦] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلكُها ما زوى لي منها، وأُعطِيتُ الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلِكها بسَنَةٍ عامة، وأن لا يُسلّط عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم فيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُردُّ، وإني أعطيتُك لأمتك أن لا أُهلِكهم بسنة عامة، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيحُ بيضتَهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال ـ من بين أقطارها، حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلّين، وإذا وُضع في أمتي السيفُ لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة**».

رواه أحمد (٢٧٨/٥)، ومسلم في الفتن (١٤/١٣/١٨)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

«زوى»: بفتحتين وتخفيف الواو أي: جمع. «الكنزين»: الذهب والفضة، والمراد بهما كنزَيْ كسرى ملك العجم وقيصر ملك الروم. «فيستبيح بيضتهم» أي: يستأصل مجتمعهم.

[٣٧] وعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها فقالوا: يا رسول الله صلّيتَ صلاةً لم تكن تُصلِّيها؟ قال: «**أجل، إنها صلاة رغبة ورهبة، إني سألتُ الله فيها ثلاثاً...**» فذكر الحديث بنحو ما سبق وفيه: «**وسألته أن لا يُذيقَ بعضُهم بأسَ بعض فمنعنيها**».

رواه أحمد والترمذي في الفتن (٢٠٠٥) وحسّنه وصححه وهو عنده على شرط مسلم.

وقوله: «صلاة رغبة ورهبة» معناه: أنها مشتملة على الرجاء والخوف معاً.

وفي هذه الأحاديث معجزات للنبي ﷺ، فقد تنبّأ بأشياء فوقعت كما أخبر، كجمع الأرض له، ورؤيته المشارق والمغارب، وإخباره بأن الإسلام سيمتد فيما ظهر له من الأقطار الشرقية والغربية، فحصل ذلك في مدة يسيرة فانتشر الإسلام شرقاً وغرباً إلى أن بلغ المحيط الهادي شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، بل تعداه إلى أمريكا وأوروبا شمالاً وأندونيسيا... وقارة أستراليا جنوباً، غير أنه انتشر بكثرة في وسط الكرة الأرضية من شرق آسيا إلى أمريكا.

كما أخبر بأن المسلمين سيفتحون بلادَي كسرى والروم وهما العملاقان اللذان كانا يُمثلان القوة المسيطرة على أكثر الأقطار فمزّقهما الله تمزيقاً على أيدي أبطال الإسلام من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم، ففتحتا أيام الصدّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما وأنفقت أموالهما في سبيل الله.

وفي هذه الأحاديث اهتمام النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها ورحمته بها

حيث سأل ربه لها دفع ما يسوءهم ويغيظهم، فسأله ثلاثاً أجابه إلى ثنتين ومنعه الثالثة، وذلك لسابق علمه وقضائه الذي لا يتبدل ولا يتغير.

فأجابه إلى أنه لا يعم جميع أمته بالقحط والجوع، بل إذا وقعت المجاعات في جهة أو جهات حصل الخصب والخير في جهات أخرى، وأنه لا يسلط عليهم جميعاً عدواً من غيرهم فيستأصل كل الأمة ويقضي عليها باستعمارها واستذلالها واستغلال أراضيها والسيطرة عليها، بل لا بد وأن تبقى جهات من الأقطار التي يحكمها المسلمون محفوظة من الكفار وأعداء الإسلام، وهكذا حصل كما أخبر ﷺ بما وعده الله عزّ وجل به.

فقد هاجم الكفار بلاد الإسلام وغزوا المسلمين مرات واستعمروا كثيراً من الأقطار عبر العصور حتى جاءت الحرب العالمية الأولى فاجتمعت دول أوروبا على حرب كل بلاد الإسلام واستعمروا ما قدّر لهم، ورغم أنهم حكموا كل الأقطار بعجميها وعربيها لكنهم لم يستطيعوا بإذن الله تعالى استعمار كل بلاد الأمة بل بقيت بلاد الحرمين الشريفين وبعض القطر اليمني فحفظهما الله تعالى من استيلاء الكفار عليهما مصداقاً لما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ.

نعم، إنما الذي يقضي على الأمة ويمزق جميعها ويحاربها هم أبناؤها، فهم الذين يقتل بعضهم بعضاً، ويسبون نساءهم وذراريهم، ويستحلون أموالهم، ويذيق بعضُهم بأس بعض كما هو الواقع بداية من أيام الصحابة حتى وقتنا هذا.

ملحوظة: جاء في حديث سعد المخرّج في الصحيحين بدل: تسلط العدو من غيرهم: **«وسألته أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها»**.

وهذا أيضاً يصدقه الواقع والتاريخ، فلم يسمع أن الله عزّ وجل أغرق جميع الأمة بالفيضانات والسيول...

وعلى أيٍّ، فما ذكر في هذه الأحاديث من جملة الفتن التي تتعرض لها الأمة.

* * *

❋ كثرة الهرج والعبادة فيه

[٢٨] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من ورائكم أياماً، يُرفع فيها العلمُ، ويكثرُ فيها الهَرْجُ**»، قالوا: يا رسول الله ما الهرج؟ قال: «**القتلُ**».

رواه البخاري (١٦/١٢٤/١٢٥) في الفتن، ومسلم في العلم (١٦/٢٢٢)، والترمذي (٢٠٣٠)، وابن ماجه (٤٠٥١) كلاهما في الفتن.

[٢٩] وعن مَعقِل بن يسار رضي الله تعالى عنه رده إلى النبي ﷺ قال: «**العبادةُ في الهَرْج كهِجْرةٍ إليّ**».

رواه أحمد (٥/٣٥)، ومسلم (١٨/٨٨)، والترمذي (٢٠٣١)، وابن ماجه (٣٩٨٥) كلهم في الفتن.

قوله: «إن من ورائكم» أي: في آخر الزمان بدليل رواية البخاري الآتية لاحقاً: «**إن بين يديّ الساعة**».

وفي الحديث الأول: علَمٌ من أعلام النبوة حيث أخبر ﷺ بوقت يرفع فيه العلم ـ يعني علمَ الدين ـ ويكون ذلك بذهاب العلماء كما يأتي.

وأنه سيكثر فيه القتل وسفك الدماء بدون حق وهو المعبّر عنه بالهرج، وهذا هو الواقع، فإن ذلك متوالٍ بدون انقطاع في كثير من الأقطار وخاصة بلاد الإسلام التي جاء التحدُّث عن أهلها.

أما الحديث الثاني: فيدل على خير عظيم وهو أن الاشتغال بالعبادة والتوجه إلى الله عزّ وجل أيام الفتن والحروب فيه أجر عظيم وذلك لغفلة الناس وانشغالهم بالحروب، فالمشتغل بذلك يحرز بفضل الله على درجة المهاجر إلى رسول الله ﷺ، وقد تحدّث القرآن الكريم كثيراً عن أجر المهاجرين وجزائهم، فالواجب على المسلم أيام الفتن هو الاشتغال بربه.

❋ ❋ ❋

❁ نزول عقاب اللّه عند ظهور الشر وعدم تغييره

[٣٠] عن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب منه**».

رواه أحمد وأبو داود في الملاحم، والترمذي وابن ماجه في الفتن بسند صحيح على شرط مسلم، وتقدم في التفسير.

قوله: «فلم يأخذوا...» إلخ، أي: لم يكُفُّوه عن ظلمه بالأمر والنهي. قوله: «أوشك» أي: قارب عندئذ أن يشملهم الله تعالى جميعاً بالعذاب عقاباً لهم.

فالحديث يدل على أن ترك الإنكار على أهل الظلم والإفساد يوجب عقاب الله.

[٣١] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه فتدعونه فلا يُستجاب لكم**».

رواه الترمذي في الفتن (١٩٩٩) بتهذيبي، وحسّنه، وذلك لطريق له عند أحمد (٥/٥٨٨/٥٨٩) وشاهد عن عائشة عند ابن ماجه (٤٠٠٤).

هو كسابقه في نزول العذاب عند ظهور الشرور وترك الإنكار، ويزاد على العذاب عدم استجابة دعاء الصالحين للعموم.

[٣٢] وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ القائم على حدود الله والمُدْهِن فيها كمَثَلِ قوم استهَموا على سفينةٍ في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في البحر أسفلها يصعدون فيستَقون الماء فيصُبُّون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعُكم تصعدون فتؤذوننا، فقال**

الذين في أسفلها: فإنا نثقبها في أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً».

رواه أحمد (٤/٢٦٨/٢٧٠)، والبخاري في الشركة (٦/٥٨)، والشهادات (٦/٢٢٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٣) بتهذيبي.

قوله: «القائم» أي: الذي يأمر وينهى. وقوله: «والمدهن» بضم الميم وسكون الدال وكسر الهاء هو المداهن الذي يشاهد المنكر ويجامل صاحبه مع قدرته على التغيير أو مفارقة صاحب المنكر. وقوله: «فإن أخذوا» أي: مسكوا أيديهم.

فهذا الحديث يبين المجتمع الذي يظهر فيه المنكر، فإن أخذ الناس على أيدي أهله وأنكروا عليهم وحالوا بينهم وبينه نجى جميعهم، وإن تركوهم وما هم عليه شملهم عقاب الله وعذابه ولم ينجُ منهم طالح ولا صالح.

* * *

❁ الخسف بالبغاة وأهل الفساد

[٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم» فقلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُبعثون على نياتهم».

رواه البخاري في الحج وفي البيوع.

[٣٤] وعن حفصة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «ليَؤمَّنَّ هذا البيت جيشٌ يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسفُ بأوسطهم ويُنادي أولُهم آخرهم، ثم يُخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبر عنهم» فقال رجل: أشهد عليك أنك لم تكذب على حفصة، وأشهد على حفصة أنها لم تكذب على النبي ﷺ.

وفي رواية: **«لا ينتهي الناس عن غزو هذا البيت حتى يغزوَ جيشٌ، حتى إذا كانوا بالبيداء - أو - ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم ولم ينجُ أوسطهم»** قلت: يا رسول الله فمَن كره منهم؟ قال: **«يبعثهم الله على ما في نفوسهم»**.

رواه مسلم (٦/٥/١٨)، والترمذي (٢٠١٤)، وابن ماجه (٤٠٦٤) ثلاثتهم في الفتن.

[٣٥] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن الجيش الذي يُخسفُ به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: **«يعوذ عائذ بالبيت فيُبعث إليه بعثٌ»**، وفي رواية: **«سيعوذ بهذا البيت** - يعني الكعبة - **قوم ليست لهم مَنَعَةٌ، ولا عددٌ، ولا عُدَّةٌ، يُبعث إليهم جيشٌ حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم»**، قال يوسف: وأهل الشام يومئذ يسيرون إلى مكة، فقال عبدالله بن صفوان: أما والله ما هو بهذا الجيش، فقالت أم سلمة: لعل فيهم المكره، قال: **«إنهم يُبعثون على نياتهم»**.

رواه مسلم (٦/٥/١٨)، والترمذي (٢٠٠١)، وابن ماجه (٤٠٦٥) كلهم في الفتن.

«البيداء»: هي كل أرض لا نبات بها. وقوله: «يُخسف بهم» أي: تبتلعهم الأرض عقاباً لهم على انتهاك حرمة بيت الله. قوله: «سيعوذ بالبيت» أي: سيلجأ إليه ويتحصن به. قوله: «منعة» بفتحات، أي: ليس لهم عزة ولا حامي يحميهم. وقوله: «عددٌ» أي: ليس لهم جيش كثير. «ولا عدة»: بضم العين، أي: ولا لهم قوة من الأسلحة.

[٣٦] وعن أبي مالك الأشعري أو أبي عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَيَكُونَنَّ من أُمَّتي قومٌ يستحلُّون الحِر والحريرَ، والخمرَ والمعازفَ، ولينزلن أقوام إلى جنبِ عَلَم تروحُ عليهم سارِحةٌ لهم فيأتيهم رجلٌ لحاجةٍ فيقولون: إرجع إلينا غداً، فيبيتهم الله، ويضع العلَم، ويَمسخُ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»**.

رواه البخاري في الأشربة بصيغة التعليق وهو متصل صحيح خلافاً

لمن ضعّفه كابنِ حزم ومَن قلده، وأخرجه أيضاً متصلاً جماعة كما قدّمنا في الأغاني من الأدب.

وقوله: «من أمتي» أي: أمة الدعوة وليسوا من أمة الإجابة لأنهم كفار باستحلالهم هذه الأشياء المذكورة المحرّمة، وهي أربعة أشياء: الحر بكسر الحاء ثم راء، وهو الفرج، والمراد استحلالهم الزنا. ثم الحرير، ثم الخمر، وهذه الثلاثة محرّمة بالإجماع إلا الحرير بالنسبة للنساء، والرابع: المعازف وهي آلات الطرب واللهو وهي محرّمة إذا احتفت بها الخمر والزنا والأغاني الماجنة الفاحشة وبالأخص إذا كانت من النساء على الحالة المشاهدة اليوم فإن هذه المشاهد من موجبات العذاب والمسخ قطعاً.

فهذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيُنزل عذابه ونقمته بكل من انتهك حرمة الله وقصد غزو بيته الحرام أو أسرف في الفجور وأفرط في مجاهرة الله بالمعاصي حتى بلغ به الحال إلى استحلال المحرمات والفواحش وما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث من معجزاته العظيمة، فإن المستحلين للزنا وما معه وجدوا في عصرنا وما أكثرهم ومن يلقي نظرة خاطفة على المحطات الفضائية التلفزيونية يرى من مشاهد هذه المخازي ما يستحيي منه الشيطان، أما غزو البيت والخسف بقاصديه فسيكون في مستقبل الزمان مصداقاً لوعد الله تعالى ورسوله ﷺ.

وفي الأحاديث الثلاثة الأولى دليل على أن العذاب والخسف قد يصيب حتى الصالحين ممن يوجدون مع المعتدين لأنهم كانوا مكثرين لسوادهم، فيكون ذلك تصعيراً لهم ورفعاً لدرجاتهم، ويبعثون يوم القيامة على نياتهم فيجازون بحسب ذلك.

وقد أخرج البخاري في الفتن (١٦/١٧١) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال:

[٣٧] قال رسول الله ﷺ: **«إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم، إن كان صالحاً فعقباه صالحة، وإلا فسيئة»**. وفيها البعد عن أهل الفساد والتحذير من مجالستهم ومصاحبة

المبطلين لئلا ينال الإنسان ما يعاقبون به والعياذ بالله، وهذه من السنن الإلهية في عباده التي لا تتخلف، فأيما قوم ظهرت فيهم المعاصي وأعلنوا بها أنزل الله تعالى بهم بأسه.

❋ ❋ ❋

❋ ذهاب الصالحين وتسلط الأشرار على الأخيار

[٣٨] عن المرداس الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يذهبُ الصالحون الأولَ فالأولَ، ويبقى حثالةٌ كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله تعالى بالة»**.

رواه أحمد (١٩٣/٤)، والبخاري في الرقاق (٢٨/٢٧/١٤)، والدارمي (٢٧/٢٢).

«حثالة»: بضم الحاء ثم ثاء، وفي رواية: «حفالة» بالفاء، وهو الرديء من التمر أو الشعير. «لا يباليهم الله» أي: لا يعبأ بهم.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل يقبض إليه الأتقياء والصالحين حتى لا يبقى إلا الأشرار، وهذا يقع في كل العصور وليس خاصاً بوقت دون وقت.

وقد يكون الحديث مشيراً إلى آخر الزمان عند تغرب الدين وأهله وغلبة الشر ومتعاطيه.

[٣٩] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مشت أُمتي المُطَيطاء وخدمها أبناء الملوك، أبناء فارس والروم، سُلّط شِرارُها على خيارها»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٩٠) من طريقين، أحدهما: سنده صحيح وله شاهد عن أبي هريرة رواه الطبراني بسند حسن.

«المطيطاء»: بفتح الطاءين بينهما ياء ساكنة، هي مشية فيها تبختُر، وهي مشية المتكبرين.

وفي الحديث إخباره ﷺ بتسلُّط الأشرار على الأخيار، والمراد بالأشرار الكفار والظلَمَة وأهل الجور، وذلك يكون عند ظهور الترف والتنعُّم والإخلاد إلى الحياة، والتظاهر بالتعاظم والاتصاف بالتكبُّر... وقد وقع ذلك في تاريخ الإسلام، فعندما فتحت الأقطار والأمصار وجلب الأسارى واتخذ الناس الخدَمة والخادمات من العجم أصبح كثير من الناس كالملوك في حياتهم، ثم عاقبهم الله عزّ وجل بتسلُّط شرار الخلق عليهم.

* * *

❋ التمسُّك بالدين والصابر عليه عند الفتن وتغرُّب الإسلام

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنكم في زمان مَن ترك منكم عُشْرَ ما أُمِرَ به هلك، ثم يأتي زمانٌ مَن عمل منهم بعُشْرِ ما أُمِرَ به نجا»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٩٥)، والطبراني في الصغير (١٣٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٦/٧) بسند رجاله ثقات غير نعيم بن حماد الحافظ فتكلموا فيه لكن وثقه أحمد وابن معين والعجلي، وروى له البخاري تعليقاً، وكفى.

المراد بالعشر في الحديث كما قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا التكاليف الشرعية فإنه لا يجوز تركها بحال، وإنما كان الأولون هالكين لأن الدين في وقتهم كان قائماً منصوراً وأهله متوافرون، أما الآخرون فوقتهم وقت كفر وظلم وضعف وتغرُّب وعموم المعاصي وانتشار الفساد وأهله وقلة أنصار الدين، فلذلك كانوا ناجين لأنهم قاموا بما في وسعهم.

[٤١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٨٨) بتهذيبي، وهو وإن كان في سنده عمر بن شاكر وفيه ضعف فإن معناه صحيح فله شاهد عن أبي هريرة رواه

أحمد (٥/٣٩٠/٣٩١) بسند حسن في الشواهد، وشاهد ثان عن أبي ثعلبة الخشني رواه الترمذي في التفسير (٢٨٦٠) بتهذيبي.

الحديث مطابق لحالتنا التي نعيشها اليوم، فإن التمسك بالدين فيه صعب جداً على الأكثرية من الناس الذين يدعون الإسلام، فمَن تمسك بدينه اليوم فأحلّ حلاله وحرّم حرامه وقام بالتكاليف الشرعية حسب طاقته كان كأنه قابض على جمرة من النار لشدة الأمر وصعوبته، وفي هذا يأتي أجر الواحد منهم كأجر خمسين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، كما جاء في حديث آخر.

* * *

❊ تمنِّي الموت عند الفتن

[٤٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تذهبُ الدنيا حتى يمُرَّ الرجلُ على القبر فيتمرَّغُ عليه ويقول: يا ليتني كنتُ مكان صاحب هذا القبر وليس به الدينُ، إلا البلاء»**.

رواه البخاري (١٦/١٨٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٤)، وابن ماجه (٤٠٣٧).

قد وقع هذا بكثرة عبر العصور لكثرة البلاء والفتن النازلة بالناس، فيمر الرجل بقبر أخيه فيغبطه لموته ويتمنى أن لو مات فيكون مكان صاحب القبر. وهذا من الناحية الشرعية لا يجوز، فإن الواجب على المسلم الصبر لتصاريف الأقدار وتفويض الأمور للّه عزّ وجل يفعل فيها ما يشاء، وقد قدّمنا في الجنائز ما فيه كفاية للموضوع.

* * *

❊ هلاكُ الأمّة على يد أُغَيْلِمَة

[٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هلاكُ أمّتي على يد أُغَيلِمَة من قريش»**.

وفي رواية: «**هلكة أمتي على يدَيْ غِلْمة من قريش**» فقال مروان: لعنةُ الله عليهم غِلْمةً، فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول: بني فلان وبني فلان لفعلتُ، قال عَمرو بن يحيى: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا الشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت أعلم.

رواه البخاري (١١٦/١١٥/١٦)، ومسلم (٤١/١٨) كلاهما في الفتن واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم: «**يُهلِكُ أمتي هذا الحيُ من قريش**»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**لو أن الناس اعتزلوهم**».

قوله: «أُغَيْلِمَةٌ» هو تصغير غلمة بمعنى غلمان.

ومعناه: أن هلاك الأمة سيكون بواسطة أمراء من قريش أحداث الأسنان ليست لهم عقول ناضجة. وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يرى أنهم بنو أمية لأنهم كانوا كذلك، والحديث عام فإن المتأخرين ليسوا بأقل إفساداً أو إهلاكاً من السابقين، فإن في الأمراء اللاحقين من كفّروا شعوبهم وورّطوهم في أمور عويصة، وقوله ﷺ: «**لو أن الناس اعتزلوهم**» معناه: أن لا يشاركوهم في أمورهم التي يمارسونها ويفرُّوا عنهم بدينهم.

وأخذ العلماء من هذا الحديث مشروعية هجران البلدة التي يقع فيها التظاهر بالمعاصي والمنكر جهاراً لأن ذلك سبب وقوع الفتن التي ينشأ عنها الهلاك. وقد قدّمنا بعض هذا في الجهاد.

* * *

❋ الأمراء المُضِلُّون والإنكار عليهم

[٤٤] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخافُ على أمّتي الأئمة المُضِلّين**».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٥٩) بسند صحيح، ولذا حسّنه وصححه.

«الأئمة المضلُّون»: هم الأمراء والولاة الظلَمة الطغاة الذين يغيرون أوضاع الأمة، ويُحَكِّمون فيهم غير شريعة الإسلام، ويشيعون في الناس الفواحش والمناكير، ويطغون في البلاد ويكثرون فيها الفساد، فمن أمثال هؤلاء كان ﷺ يخاف على أمته وقد وقعت فيما خاف عليها.

[٤٥] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**إنه سيكون عليكم أئمةٌ تعرفون وتُنكرون، فمَن أنكر فقد برىء، ومَن كره فقد سَلِم، ولكن مَن رَضي وتابع**».

رواه أحمد (٢٩٥/٦)، ومسلم في المغازي (٢٤٣/٨)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٠)، والترمذي في الفتن (٣٠٩٣).

قوله: «تعرفون وتنكرون» أي: ترون منهم ما هو معروف في الشرع وما هو منكر. وقوله: «فقد برئ» أي: قطع الصلة بينه وبين ما هم عليه حيث لم يداهنهم ولم يوافقهم على ما يرتكبونه. وقوله: «فقد سلم» أي: من إثم ما يأتونه لأنه أبغض ما هم متلبسون به وكرهه. وقوله: «ولكن من رضي وتابع» يعني من استحسن حالهم وتبعهم على ظلمهم وفجورهم فهو منهم.

وفي الحديث مشروعية الإنكار على ولاة الجور حسب الإمكان ولو بكراهة القلب إن لم يستطع بغيره، فمَن رأى المنكر ولم يستطع إنكاره باليد أو اللسان فكرهه كان في حلٍّ ولم يكن عليه إثم، وهذا من لطف الله بعباده المؤمنين.

* * *

❋ مصدر الفتن وجهتها

[٤٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «**ألا إنّ الفتنةَ ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان**»، وفي رواية: «**قرن الشمس**».

وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يشير بيده نحو المشرق ويقول: «**ها إن الفتنة ههنا - ثلاثاً - حيث يطلع قرن الشيطان**».

وفي رواية: قام عند باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: «**الفتنة ههنا...**».

وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: «**رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان**» يعني: المشرق.

وفي رواية عن سالم بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما يقول: يا أهل العراق ما أسألَكُم عن الصغيرة وأركبَكُم للكبيرة، سمعت أبي عبدالله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تجيء من ههنا**» وأومأ بيده نحو المشرق «**من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضُكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عزّ وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾**».

رواه البخاري (١٦/١٥٥)، ومسلم (١٨/٣١/٣٢)، والترمذي (٢٠٩٦) ثلاثتهم في الفتن، والألفاظ كلها لمسلم.

[٤٧] وعن ابن عمر أيضاً قال: ذكر النبي ﷺ فقال: «**اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا**»، قالوا: وفي نجدنا؟ قال: «**اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا**»، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: «**هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان**».

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٥٦) وفي مواضع.

قوله: «قرن الشيطان» حمله بعضهم على ظاهره وأن للشيطان قرناً أو قرنين يقرنهما بالشمس عند طلوعها ليسجد له عبدَة الشمس، وقيل: القرن هنا قوة الشيطان وما يستعين به، وقيل: فيه إشارة إلى جيل خاص يعيث في الأرض فساداً، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ، وقوله: «وفي نجدنا» النجد كل ما ارتفع من الأرض، وبلاد نجد معروفة، والحديث يحتمل نجداً الإقليم المعروف، ويحتمل كل ما ارتفع من تلك الجهات عن تهامة ومنها مكة

والمدينة، فيكون المراد بذلك نجداً والكويت والبصرة والكوفة وبغداد أو جميع القطر العراقي. وقوله: «هناك الزلازل والفتن» الزلازل جمع زلزال والمراد بها زلزلة القلوب وتحريكها عن مواضعها لكثرة الفتن.

وما في الحديثين صدقه الواقع، فإن أول فتنة فرّقت بين المسلمين وهي قتل عثمان وما تلاه كانت من تلك الجهة الشرقية كما يأتي إن شاء الله تعالى، فكانت مسرحاً للحروب أيام الصحابة فمن بعدهم عبر العصور، ثم إن الفرق الضالّة كالخوارج، والشيعة الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وغيرها من هناك ظهرت واستفحل أمرها.

فصلّى الله وسلم وبارك على هذا النبي العظيم الذي أطلعه الله عزّ وجل على ما كان وما يكون من الفتن وغيرها.

* * *

❊ بيان الفتن المنصوص عليها والمشار إليها: فتنة قتل عثمان رضي اللّه تعالى عنه

[٤٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمانُ إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً، فأراد المنافقون أن تخلعَ قميصك الذي قمّصك الله فلا تخلعه»** يقول ذلك ثلاث مرات.

رواه أحمد (٦/٧٥/١٤٩)، والترمذي (٣٤٧١)، والحاكم (٣/٩٩/١٠٠) كلاهما في المناقب، وابن ماجه في المقدمة (١١٢) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم وهو كما قال.

قوله: «قميصك» كنى بالقميص عن الخلافة وهو يفيد أن معارضيه كان فيهم منافقون وخاطئون.

[٤٩] وعن الأشعث الصنعاني أن خطباء قامت في الشام وفيهم رجال من أصحاب النبي ﷺ فقام آخرهم رجل يقال له: مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، وذكر الفتن فقربها، فمرّ

رجلٌ مُقَنَّعٌ بثوب فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت هذا؟ قال: نعم.

رواه أحمد (٤/٢٣٥)، والترمذي (٣٤٧٠)، والحاكم (٣/١٠٢) وصححه الترمذي والحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (٤/٢٣٦) وابن ماجه (١١١) عن كعب بن مرة، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١١/٣٦٧) وأحمد عن كعب بن عجرة بدل مرة بن كعب.

قوله: «مقنع» بضم الميم وفتحتين مع تشديد النون، أي: وضع ثوباً على رأسه تحت عمامته.

في هذين الحديثين إشارة إلى ما حصل للإمام سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه وأنه كان على الحق في الفتنة التي أصابته، ويؤيده الحديث المتقدم في فضائله وفيه: «**ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه**» وهو في الصحيح، بل كان في ذلك على عهد من رسول الله ﷺ.

[٥٠] فعن أبي سهلة قال: قال لي عثمان يوم الدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إليّ عهداً فأنا صابرٌ عليه.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٧٣) وحسّنه وصححه.

وكان السبب في الفتنة التي نزلت به ما ذكره الحافظ في «الفتح» ملخصاً من كتب التاريخ: أن أمراء الأمصار كانوا من أقاربه؛ كان بالشام كلها معاوية، وبالبصرة سعيد بن العاص، وبمصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وبخراسان عبدالله بن عامر. وكان من حج منهم يَشْكُون من أميره، وكان عثمان لين العريكة، كثير الإحسان والحلم، وكان يستبدل بعض أمرائه فيرضيهم، ثم يعيده بعدُ إلى أن رحل أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح فعزله، وكتب لهم كتاباً بتولية محمد بن أبي بكر الصدّيق، فرضوا بذلك، فلما كانوا في أثناء الطريق رأوا راكباً على راحلة فاستخبروه فأخبرهم أنه من عند عثمان باستقرار ابن أبي سرح ومعاقبة جماعة من أعيانهم، فأخذوا الكتاب ورجعوا وواجهوه به فحلف أنه ما كتب ولا أذن، فقالوا: سلّمنا كاتبك، فخشي عليه منهم القتل، وكان كاتبه مروان بن الحكم وهو ابن

عمه، فغضبوا وحصروه في داره، واجتمع جماعة يحمونه منهم فكان ينهاهم عن القتال إلى أن تسوّروا عليه من دار إلى دار فدخلوا عليه فقتلوه فعظم ذلك على أهل الخير من الصحابة وغيرهم... إلخ.

وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فخلافته صحيحة بالإجماع، وقتل مظلوماً، وقتلته فسقة لأن موجبات القتل مضبوطة، ولم يجرِ منه ما يقتضيه، ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة وإنما قتله همج رعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأرذال تحزّبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعه فحصروه حتى قتلوه رضي الله تعالى عنه.

وقد ذكرت قصة قتله مبسوطة في كتابي (فضائل الصحابة).

وكانت هذه الفتنة هي أول فتنة فرّقت بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم وفتحت باب القتال بينهم.

* * *

❊ فتنة وقعة الجمل

[٥١] عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: **«إنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ»** قال: أنا يا رسول الله؟ قال: **«نعم»** قال: أنا؟! قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله، قال: **«لا ولكن إذا كان ذلك فاردُدْها إلى مأمنها»**.

رواه أحمد (٣٩٣/٦)، والبزار. قال الهيثمي في المجمع (٢٣٤/٧) رجاله ثقات. وقال الحافظ في الفتن من الفتح (١٦٥/١٦) بسند حسن.

فهذا الحديث الشريف مع كونه يتضمن معجزة للنبي ﷺ بإخباره بمحاربة السيدة عائشة الإمام علياً يشير إلى أمرين اثنين هامَّين، أحدهما: صواب الإمام علي رضي الله تعالى عنه وأنه الأولى بالحق، وأنه لم يكن شقياً في وقعة الجمل. ثانياً: خطأ مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها في

اجتهادها ذلك، كما أنها لم تخرج بفعلها وخروجها مع طلحة والزبير عن زوجيتها لرسول الله ﷺ بل لا تزال موضع احترام وتعظيم، ولذلك أمر النبي ﷺ الإمام علياً أن يردها إلى بيتها ومحل أمنها رضي الله تعالى عنهما.

[٥٢] وقد جاء عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عنه ﷺ أنه قال لعلي رضي الله تعالى عنه: **«إن وليت من أمرها - يعني عائشة - شيئاً فارفق بها»**.

رواه الحاكم (١١٩/٣) وصححه على شرط الشيخين.

وقد امتثل الإمام على ما أمره به ﷺ فأحسن إليها وردها إلى المدينة مكرَّمة محترمة.

[٥٣] وعن قيس بن أبي حازم قال: لما أقبلت عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت بعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب، قالت: ما أظُنُّني إلا راجعة، فقال لها بعض من كان معها: بل تقدمين فيراكِ المسلمون فيُصلِحُ الله ذات بينهم، فقالت: إن النبي ﷺ قال ذات يوم: **«كيف بإحداكن تنبحُ عليها كلاب الحوأب؟»**.

رواه عبدالرزاق (٣٦٥/١١)، وأحمد (٩٧/٥٢/٦)، وابن أبي شيبة (٢٦٠/٢٥٩/١٥)، وابن حبان بالإحسان (٦٧٣٢)، والحاكم (١٢٠/٣) وسنده صحيح على شرط الشيخين عند بعضهم.

قوله: «فقال لها بعض...» إلخ، القائل هو الزبير كما عند أحمد. وقوله: «الحوأب» بفتح الحاء وسكون الواو بعده همزة مفتوحة. وقوله: «كيف بإحداكن» فيه تلميح بذم صاحبة ذلك وتعجيب من حالها مع مقامها العالي النزيه رضي الله تعالى عنها.

[٥٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال لنسائه: **«أيتكُنَّ صاحبة الجمل الأدْبَب؟ تخرجُ حتى تنبحها كلاب الحوأب يُقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرٌ وتنجو بعدما كادت»**.

رواه البزار، قال الهيثمي في المجمع (٢٣٤/٧) رجاله ثقات.

قوله: «الجمل الأدبب» بهمزة مفتوحة ودال ساكنة ثم موحدتين الأولى منهما مفتوحة وهو الجمل الكثير الشعر، وكان ذلك مركوب عائشة في الوقعة، فهذه الأحاديث كلها تنص على وقعة الجمل، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها ستكون في جملة الجيش وأنه سيقتل دونها قتلى كثير وأنها في سيرها وطريقها ستمر على ماء لبني عامر يقال له: الحوأب وتنبح عليها كلابه، وقد وقع كل ذلك مصداقاً لما أخبر به ﷺ.

وسبب هذه الفتنة العمياء والوقعة الشنعاء هو امتداد من فتنة عثمان رضي الله تعالى عنه، فإنه لما قتل وبويع الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكان من المبايعين له طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما كلماه في شأن قتلة عثمان ليقتصوا منهم، فتريث لذلك وقال لهما: حتى تتم البيعة ويأتي أهله للمطالبة بدمه فحينئذٍ نحكم فيهم، فخالف طلحة والزبير... فلم يلبثا أن خرجا قاصدين البصرة بصحبة عائشة للمطالبة بقتلة عثمان، فلما بلغ ذلك علياً خرج وراءهم بجيش ورأى أنهم نكثوا البيعة، فلما لحق بهم بالبصرة كلمهم في ذلك وأقنعهم رجعوا للحق، لكن قتلة عثمان وكان أغلبهم من الكوفة في جيش الإمام علي تآمروا ليلاً وقالوا: إن وقع الصلح فسوف يقتص منا، فنشبوا القتال فثار الجمعان فكان ما كان بدون علم من رؤساء الفريقين، فقتل من الجانبين عشرات الألوف.

وقد اتفق العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى على أن خروج طلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم لهذا الصلح والمطالبة بدم عثمان في ذلك الوقت بالذات كان خطأً عظيماً منهم رضي الله تعالى عنهم.

وقالوا: إن الحق كان في جانب الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكان الآخرون مجتهدين فأخطأوا وهم مغفور لهم، وكيف لا وفيهم طلحة والزبير وهما من العشرة المبشَّرين بالجنة ومن البدريين... وفيهم أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ وزوجته في الدنيا والآخرة مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، لكن الحق لا يستحيي من أحد، وهو أوْلى من كل قريب وحبيب وصديق.

[٥٥] ولذلك قال عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما في ذلك الموقف وهو من أكابر أنصار الإمام علي وشيعته المخلصين:

إن عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي؟

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٦٩) من طريق عبدالله بن زياد الأسدي قال: لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمار بن ياسر وحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عماراً يقول: إن عائشة... فذكره.

قال الحافظ في «الفتح»: ومراد عمار بذلك أن الصواب في تلك القصة كان مع علي، وأن عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن الإسلام، ولا أن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة، فكان ذلك يُعد من إنصاف عمار وشدة ورعه وتحرّيه قول الحق. اهـ.

ومن المنصفين في هذا الشأن أيضاً أبو بكرة.

[٥٦] فقد قال رضي الله تعالى عنه: لقد نفعني الله، وفي رواية: لقد عصمني الله بكلمة أيام الجمل: لما بلغ النبي ﷺ أن فارساً ملّكوا ابنة كسرى، وفي رواية: لما هلك كسرى قال النبي ﷺ: **«مَن استخلفوا؟»** قالوا: ابنته، فقال: **«لن يُفلِحَ قومٌ ولوا أمرهم امرأة»**.

رواه أحمد (٥/٤٧/٥١)، والبخاري في الفتن (١٦/١٦٤/١٦٦)، والترمذي والنسائي وغيرهم، وقد تقدم في الإمارة والخلافة.

وظاهر هذا الحديث يدل على عدم جواز ولاية المرأة الولاية العامة بما فيها الرئاسة والخلافة والوزارة والسفارة والقضاء والقيادة وغير ذلك من الولايات التي تحتاج المرأة فيها إلى الاختلاط بالرجال والبروز لهم والاجتماع بهم، وكل أمة أو قوم خالفوا ذلك فولوا المرأة على شأن من شؤونهم العامة فلن يفلحوا أبداً وسيكون مآلهم الانهيار والهلاك طال الزمان

أو قصر. وهذا مذهب كل الأئمة والعلماء إلا بعض الحنفية، فأجازوا للمرأة تولي القضاء للنساء...

وانظر أقوال الأئمة في منعها ذلك عند ابن حزم في «المحلى» (٤٥/١)، و«المغني» لابن قدامة (٣٦/١٠)، وشرح المهذب (١٦٣/١٨) وانظر ما سبق في الخلافة وكتابي (المرأة المتبرجة).

أما رئاسة السيدة عائشة لذلك الجيش فقد أجمع العلماء على خطئها وهي نفسها ندمت على ما صنعت وكانت تبكي على ذلك.

ولا يوجد في تاريخ الإسلام بداية من زمان رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين وزمان السلف أن امرأة وليت شيئاً للخلفاء وما يذكر عن عمر رضي الله تعالى عنه من توليته امرأة وظيفة في السوق هو باطل لا يصح عنه.

* * *

❋ فتنة وقعة صفين

[٥٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مَقتلةٌ عظيمة دعواهما واحدةٌ»**.

رواه البخاري (١٩٦/١٦)، ومسلم (١٣/١٢/١٨) كلاهما في الفتن، ورواه البخاري أيضاً في دلائل النبوة (٤٢٨/٦).

قوله: «فئتان» أي: جماعتان. قوله: «دعوتهما واحدة» أي: كل من الفئتين يطلب الحق، وهذا قد حصل بين الإمام علي وبين معاوية فإنهما اقتتلا ليالي بصفّين وكان كل منهما يدعو إلى ما يراه حقاً وكان الحق مع الإمام علي باتفاق أهل السنة، وكان معاوية باغياً عليه، ويدل لهذا حديث:

[٥٨] أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه في قصة بناء المسجد

النبوي... وفيه قوله ﷺ: «ويحَ عمارٌ تقتُله الفئةُ الباغيةُ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» فجعل عمار يقول: أعوذ بالله من الفتن.

رواه أحمد (٣/٥/٩١)، والبخاري في المساجد (٢/٨٧/٨٨) وفي الجهاد (٦/٣٧٠) وغيرهما. ورواه مسلم في الفتن (١٨/٣٩/٤٠) بلفظ: «بؤس ابن سمية تقتلك فئة باغية» ورواه أيضاً عن أم سلمة وأبي قتادة. ورواه الترمذي في المناقب عن أبي هريرة (٣٥٧٢) بلفظ: «أبشِر يا عمار تقتلك الفئة الباغية» وحسّنه وصححه، وهذا الحديث متواتر. قال الحافظ في الإصابة: إنها أحاديث متواترة. وأورده في الفتح عن جماعة ثم قال: غالب طرقه صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عددهم. وهكذا ذكره الحافظ السيوطي والإمام ابن جعفر الكتاني في الأحاديث المتواترة.

فهذا الحديث ظاهر في وقعة صفّين لأن عماراً قتل فيها من طرف جيش معاوية وهو نصّ في أنه كان باغياً على الإمام علي يدعو إلى النار، وأن الإمام علياً كان محقاً يدعو إلى الجنة.

قال النووي في شرح مسلم (١٨/٤٠) قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً رضي الله تعالى عنه كان محقاً والطائفة الأخرى بغاة...

وكان السبب في هذه الفتنة قتل عثمان أيضاً، فإنه لما قتل وبويع الإمام علي رضي الله تعالى عنه من طرف المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد بعث إلى معاوية بالشام أن يبايعه، فامتنع واعتذر بأنه لا يبايع حتى يأخذ له الثأر لابن عمه عثمان، فأجابه الإمام علي بأن يدخل فيما دخل فيه الناس ثم يتحاكمون إليه فيقتص لهم من الجناة، فأصرّ معاوية على رفض البيعة، فخرج علي للعراق، وبعد وقعة الجمل استنفر معاوية الشوام لمحاربته فالتقى الجيشان بصفّين بكسر الصاد والفاء وتشديدها، موضع بالعراق على شاطىء الفرات بين الرقة وبالسر، فكانت تلك الوقعة المشؤومة التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم؛ خمسة وعشرون ألفاً من أصحاب الإمام علي وخمسة وأربعون ألفاً من أصحاب معاوية، وكان جيش علي مائة

وعشرين ألفاً، وجيش معاوية تسعين ألفاً، ودامت هذه الحرب مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة.

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم انقسموا في هذه الفتنة ثلاث فرق: فرقة كانت مع الإمام علي وهم الأكثر، إذ كان معه سبعون بدرياً، وسبعمائة من أهل بيعة الرضوان، وأربعمائة من بقايا سائر المهاجرين والأنصار، وباقيهم من سائر الآفاق، وفرقة كانت مع معاوية وهم قلائل، وممن عرف منهم: عمرو بن العاص وابنه عبدالله، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير، ومعاوية بن خديج، ومسلمة بن مخلد في آخرين قلائل.

وقسم اعتزلوا الفريقين، ولم يهتدوا لفريق الصواب، وكان منهم: ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وأبو بكرة وغيرهم، ولما قتل عمار وكان في جيش الإمام علي اتضح الحق ولحق جماعة ممن اعتزلوا بجيش الإمام علي، كما ندم آخرون على عدم نصرته والقتال معه.

والحمد لله الذي عافانا من تلك الفتن، ولو كنا من أهلها لنصرنا الإمام علياً وقاتلنا معه حتى الموت.

* * *

❊ فتنة قتال الخوارج

[٥٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخُوَيْصِرَة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: **«ويلك، ومَن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل»** فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضربَ عُنُقَه، فقال: **«دعه فإن له أصحاباً يَحقِرُ أحدُكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرُقون من الدين كما يمرُق السهم من الرمِيَّة»**، قال: **«آيتهم رجلٌ أسودُ إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعَة تَدَرْدَرُ، يخرجون على حين فرقة من الناس»**.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعتُ هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتُمِسَ فأُتِي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ.

رواه أحمد (٣/٥٦/٥٧)، والبخاري في دلائل النبوة (٧/٤٣٠) وفي أحاديث الأنبياء (٧/١٨٧) وفي المغازي (٩/١٣٠/١٣١) وفي استتابة المرتدين (١٥/٣٢٠/٣٢٤)، ومسلم في الزكاة (٧/١٦١/١٦٢/١٦٧)، وأبو داود (٤٧٦٣) وغيرهم.

وفي رواية للبخاري: **«يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»**، وفي رواية لمسلم: **«يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق»**، قال: **«هم شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق»**.

وفي رواية لأبي داود عن أُبي وعن أنس: **«هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه سيماهم التحليق»**.

وفي رواية لمسلم (٧/١٦٨)، والنسائي في الكبرى (٥/١٥٨/١٥٩): **«تمرُق مارقة عن فرقة من المسلمين...»** إلخ.

قوله: «ويلك» أي: لك الهلاك. وقوله: «تراقيهم» جمع ترقوة وهي الحناجر. «يمرقون» أي: يخرجون. «تدردر»: بفتح الدالين بينهما راء ساكنة أي: تتحرك. «التحليق» أي: حلق رؤوسهم. «أدنى» أي: أقرب الطائفتين. قوله: «المخدج» أي: الناقص الخلقة.

[٦٠] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله»**.

وفي رواية: **«يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، يحسبون**

أنه لهم وهو عليهم، ولو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى الله لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا عن العمل... وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض».

قال علي: فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله... وفيه قول علي: التمسوا فيهم المُخَدَّجَ، فالتمسوه فلم يجدوه، فقام بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض، قال: أخرجوهم فوجدوه مما يلي الأرض فكبّر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله، فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: **«إي، والله الذي لا إله إلا هو»** حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف.

روى جميعها مسلم في كتاب الزكاة (١٧٣/١٦٩/٧)، ورواه البخاري في استتابة المرتدين (٣١٦/٣١٤/١٥) باللفظ الأول. ورواه أحمد (٩٢/٩١/١) وأبو داود (٤٧٦٨) بالرواية الثانية.

[٦١] وعن سهل بن حُنَيف رضي الله تعالى عنه أنه سئل هل سمعت النبي ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: سمعته يقول: **«يَنتيهُ قومٌ قِبَلَ المشرق محلقة رؤوسهم».**

رواه مسلم (١٧٥/٧).

[٦٢] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: **«شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتيل من قتلوه، كلاب النار، قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفاراً»**، فقيل له: يا أبا أمامة هذا شيء تقوله؟ قال: بل سمعته من رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٢٥٦/٢٥٣/٥)، والترمذي في تفسير سورة آل عمران (٢٨٠٨) وابن ماجه (١٧٦) بسند حسن.

قوله: «أحداث الأسنان» أي: شباب. «سفهاء الأحلام» أي: لا عقول لهم ناضجة، «يقولون من خير قول البرية» فقد كانوا يقولون: لا حكم إلا لله.

فهذه الأحاديث صريحة في الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله تعالى عنه، وكان السبب في ذلك أنه لما أشرف جيش معاوية على الهزيمة بَيَّت أصحاب معاوية مكيدة ضد الإمام علي برئاسة عمرو بن العاص فدعوا إلى التحكيم ورفعوا المصاحف فقبل الإمام علي رضي الله تعالى عنه فخلعوه وأقرُّوا معاوية، فخرجت جموع غفيرة من جيش الإمام علي وكفَّروه وكفَّروا كل من وافق على التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا لله، واستباحوا دماء مخالفيهم وأموالهم، وكان فيهم كثير من القراء والزهّاد وبعض الصحابة، ومنهم ذو الخويصرة التميمي الذي قال للنبي ﷺ: اعدل فإن هذه قسمة لم يرد بها وجه الله. وفيهم المخدج الذي لا ذراع له وإنما إحدى عضدَيْه على رأسها مثل ثدي المرأة تتحرك.

فبعث الإمام علي إليهم عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يذكرهم ويدعوهم إلى الرجوع إلى الحق فتاب ورجع منهم عدد كبير وأصرّ الباقون على خروجهم فأخافوا الطريق، وأراقوا الدماء، فخرج إليهم الإمام فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم وبحث عن المخدج فوجده، وكان ذلك علامة على صواب الإمام رضي الله تعالى عنه دونهم، وظهرت معجزة النبي ﷺ في إخباره بهم وبصفاتهم وأنهم شر الخليقة يقتلون المسلمين ويتركون الوثنيين، يحسنون القول ويسيئون الفعل مع كثرة صلاتهم وقراءتهم القرآن، وأنهم كلاب النار شر القتلى، طوبى لمن قتلهم وقتلوه.

ووقعتهم مع الإمام هي المعروفة بوقعة النهروان.

وهؤلاء هم أصل الخوارج الذين صارت بعد ذلك لهم مبادىء وعقائد وفروع متطرفة مخالفة لأهل السنة والجماعة.

وقد قدّمت بعض الكلام عليهم في الخلافة وتوابعها فارجع إليها، كما ذكرت ذلك مفصّلاً في كتابيّ: «فضائل الصحابة»، وفي «الأنوار الباهرة».

* * *

❁ فتنة قتل الإمام علي رضي اللّه تعالى عنه

[٦٣] عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال له ولعلي: «**ألا أُحدِّثكما بأشقى الناس؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيمِرُ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه** - يعني قرنه - **حتى تبْتَلَّ هذه من الدم** - يعني لحيته -».

رواه أحمد (٤/٢٦٣)، والحاكم (٣/١٤١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وكذا صححه السيوطي في تاريخ الخلفاء.

وللحديث شواهد عن جابر بن سمرة وصهيب وغيرهما.

قوله: «أحيمر» هو تصغير أحمر. و«عاقر الناقة»: يعني ناقة صالح عليه السلام، وكان اسمه قُدَار على وزن غراب. وقوله: «قرنه» يعني رأسه.

[٦٤] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: إن مما عهد إليّ النبي ﷺ أن الأمةَ تستغْدِرُ بي بعده.

رواه الحاكم (٣/١٤٠/١٤٢/١٤٣) وصححه ووافقه الذهبي.

كان السبب في قتل الإمام علي واستشهاده رضي الله تعالى عنه أنه لما وقع التحكيم بينه وبين معاوية وخرج عليه الخوارج وكفّروه كما كفّروا طلحة والزبير وعثمان ومعاوية وكل من كان معهم، وقاتلهم الإمام علي رضي الله تعالى عنه وهزمهم وانتصر عليهم، انتدب ثلاثة من الخوارج وتآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص باعتبار أن هؤلاء الثلاثة هم قادة الفتنة، وتعاهدوا على أن يكون ذلك في ليلة واحدة ليلة حادي عشر أو سابع عشر من رمضان وذلك سنة أربعين من الهجرة. ثم توجه كل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه فقدم اللعين الأشقى عبدالرحمٰن بن مُلْجم المرادي الكوفي فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريدون، فلما كانت الليلة المعهودة وكانت صبيحة يوم الجمعة وقد خرج الإمام علي من الباب ينادي: أيها

الناس الصلاة الصلاة، اعترضه المقيت ابن ملجم فضربه بالسيف المسموم على رأسه فأصاب دماغه وأقام الجمعة والسبت وتوفي يوم الأحد رضي الله تعالى عنه. ذكره ابن سعد وغيره، وكان ذلك عام أربعين وعمره ثلاث وستون سنة.

ولما توفي رضي الله تعالى عنه أُخذ ابن ملجم فعذّبوه وقطعوا بعض أطرافه ثم قتلوه وأحرقوه، علماً بأن الإمام علياً كان قد أوصاهم به خيراً وأمرهم أن يُحسنوا قتله. وقد أساء وما أحسن عمران بن حطان الخارجي حيث قال يمدح ابن ملجم:

يَا ضَرْبَةً مِن تَقِيٍّ ما أرادَ بِهَا ... إلا لِيَبْلُغَ مِن ذي العرش رضوانَا
إني لأذكُرُهُ يوماً فأحْسِبُهُ ... أوْفَى البَرِيَّةِ عِندَ اللّهِ ميزانَا
أكرم بقوم بطونُ الأرض أقبُرهُم ... لم يُخَلِّطُوا دينَهم بغياً وعُدْوَانَا

وقد أحسن وأجاد الإمام أبو الطيب الطبري رحمه الله تعالى حيث قال:

إني لأبْرأُ مِمّا أنتَ قائِلُهُ ... في ابن مُلْجِمِ الملعون بُهْتَانَا
إني لأذكره يوماً فألعنُه ... ديناً وألعن عِمرانَ بن حِطّانا
عليكَ ثُم عليه الدَّهْرَ مُتَّصِلاً ... لعانُ الله إسراراً وإعلانا
فأنتم من كلاب النار جاء بذا ... نصُّ الشريعة برهاناً وتِبْيَانَا

فهنيئاً للإمام علي عليه السلام بالشهادة على يد هذا اللعين، إذ الشهادة منزلة عالية لا ينالها ويحرز عليها إلا المصطفون من خلق الله تعالى وقليل ما هم، إذ ليس كل من يُقتل يكون شهيداً، فهيهات هيهات. فنسأل الله عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ثم بنبيه وابنته الزهراء والحسنين والمهاجرين والأنصار وباقي الصحابة الكرام أن يمنَّ علينا ويختم لنا بالشهادة، آمين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

[٦٥] عن عبدالله بن نُجَي عن أبيه أنه سار مع علي وكان صاحبَ مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صِفّين فنادى علي: اصبر أبا عبدالله، اصبر أبا عبدالله بشَطِّ الفرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلتُ على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله أغضبكَ أحدٌ؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: «**بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدّثني أن الحُسين يُقتل بشط الفرات**»، قال: فقال: «**هل لك إلى أن أُشِمَّك من تربته؟**» قال: «قلت: نعم، فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عينَي أن فاضتا».

رواه أحمد (٨٥/١) بسند صحيح، وأورده الهيثمي (١٨٧/٩) برواية أحمد والبزار والطبراني، وقال: رجاله ثقات.

«نينوى»: بكسر النون الأولى وفتح الثانية آخره ألف مقصورة: بلدة بالعراق كان منها نبي الله يونس على نبينا وعليه الصلاة والسلام. «شط» بفتح الشين: جانب الوادي. «الفرات» بضم الفاء: نهر عظيم بالعراق ينحدر من جبال تركيا كدجلة ويشق العراق ثم يصب في الخليج العربي. «تفيضان» بفتح التاء، أي: بالدمع.

في هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ كسابقيه، وعلم من أعلام النبوة، حيث أخبر بفتنة قتل الحسين قبل وقوعها بعدة عقود مع تعيين القطر والموضع فصدق الله ذلك، ووقع كما قال.

وسبب هذه الفتنة أن معاوية كان قد عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة في حياته، فلما مات بايعه أهل الشام، ثم بعث إلى أهل المدينة من يأخذ له البيعة فامتنع الحسين وابن الزبير في آخرين من بيعته نظراً لكونه غير أهل ولا مستحق للخلافة، ثم خرج الحسين وابن الزبير لمكة المكرمة فجعل أهل العراق يكاتبون الحسين بالقدوم إليهم ليبايعوه، وجاءته من طرفهم عدة

رسائل وكتب، فبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ له البيعة منهم، فذهب ونزل الكوفة، فاجتمع إليه نحو من ثمانية عشر ألفاً فبايعوه على إمرة الحسين وحلفوا له لَيَنْصُرُنَّه بأنفسهم وأموالهم. فبلغ ذلك عبيدالله بن زياد وكان أمير البصرة من قبل يزيد، فخرج إلى الكوفة بعد أن ضمها إليه يزيد فجمع أشراف الناس وأمراء القبائل فخطبهم ورغّبهم، ورهّبهم، وخذل الناس وأفسد كل من كاتب الحسين وبايعه بواسطة مسلم بن عقيل، فتفرّق الجميع وبقي مسلم بن عقيل وحده وهام على وجهه واختفى عند امرأة ثم دُلَّ عليه فألقي عليه القبض وأُتي به ابن زياد فقتله. وخرج الحسين عليه السلام متوجهاً للعراق في أهل بيته وأقاربه وذويه بعد أن حذّره جماعة من أهله وذوي الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عبدالله بن عمر وقالوا له: لك العبرة بما فعله أهل العراق بأبيك وأخيك.

[٦٦] وقال له ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فخيّره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنك بضعةٌ من رسول الله ﷺ كذلك يريد منكم، فأبى، فاعتنقه ابن عمر وقال: أستودعك الله والسلام.

رواه البزار والطبراني وابن حبان (٦٩٦٨) بسند حسن، وقال الهيثمي (١٩٢/٩): رجال البزار ثقات.

ولما وصل الحسين العراق وجد الأمر على خلاف ما كان يظن، فبعث إليه عبيدالله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف مقاتل أكثرهم ممن كان يكاتبه، وبايعه بواسطة ابن عمه مسلم بن عقيل وطلبوا منه النزول على حكم عبيدالله بن زياد وبيعته ليزيد فأبى الاستسلام لذلك فقاتلوه ومنعوه الماء ثلاثة أيام فقاتلهم هو وأصحابه وأهل بيته قتال الأبطال حتى قتل بين يديه جميع من كان معه، وكانوا لا يزيدون على اثنين وسبعين رجلاً... وبقي وحده، ثم هاجموه وأحدقوا به وهو يقاتل يميناً وشمالاً حتى أثخنوه ثم قتلوه وحزوا رأسه ووطأوا جسده الشريف بالخيل وداسوه بحوافيرها حتى ألصقوه بالأرض.

هكذا فعل الأمويون وأذنابهم ببضعة رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا، جازاهم الله بما يستحقون.

[٦٧] وكان قد قُتِلَ معه في هذه المعركة الأليمة من أهله وأقاربه: أولاده الأربعة: علي الأكبر، وعبدالله، وأبو بكر، والقاسم. أبناء الحسين عليهم السلام وإخوته الخمسة: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، وأبو بكر، أولاد الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام وولدا عمه جعفر بن عقيل، وقبله مسلم بن عقيل وابن عمه محمد بن جعفر، وابن ابن عمه عون بن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم.

رواه الطبراني. قال الهيثمي (١٩٨/٩): بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: قتل مع الحسين بن علي عليهما السلام ستة عشر رجلاً من أهل بيته والله ما على ظهر الأرض يومئذ أهل بيت يشبهونهم.

وعلى أيٍّ، فلم يتقدم في تاريخ الإسلام فجيعة ولا رزية أفظع وأقبح من قتل الحسين وأهل بيته.. على كثرة ما وقع في الإسلام من نكبات.

ولذلك مقت كل مسلم يحب الله ورسوله وأهل بيته يزيد بن معاوية وعبيدالله بن زياد منذ ذلك الحين حتى وقتنا هذا وإلى ما شاء الله وبقي مسلم على وجه الأرض.

مـاذَا تـقـولُـون إن قـال الـنـبـيُّ لـكُـم ... مـاذا فـعـلـتُـم وأنـتُـم آخِـرُ الأمـمْ
بـعِـتْـرَتِـي وبـأنـصـاري وذُرِّيَّـتِـي ... منـهـم أُسارى وقَتْلَى ضُـرِجُوا بدَمْ
ما كانَ هذا جَزَائِي إذا نَصَحْتُ لكُمْ ... أن تـخـلـفـونـي فـي ذَوِي رَحِـمْ
أتَـرْجُـو أمـةٌ قـتـلـتْ حُـسَـيْـنـاً ... شـفـاعـةَ جـدِّه يـومَ الـحِـسَـابْ

* * *

[٦٨] عن ثروان بن ملحان قال: كنا جلوساً في المسجد فمرّ علينا عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما فقلنا له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في الفتنة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون بعدي قوم يأخذون المُلْكَ يَقتلُ عليه بعضُهم بعضاً»، قال: قلنا له: لو حدّثنا غيرُك ما صدّقناه، قال: «فإنه سيكون».

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، وابن أبي شيبة، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٩٢/٧) برواية أبي يعلى (١٦٥٠) والطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح غير ثروان وهو ثقة وله شاهد عن جابر رواه الطبراني في الأوسط (٦٤٦٥) ورجاله ثقات غير عبد الأول المعلم، فقال في المجمع (٢٩٢/٧): لم أعرفه.

هذا من أعلام النبوة، وقد صدقه الواقع والتاريخ، فكم أُريقت من دماء وانتُهكت من حرمات ونُهبت من أموال وقُتل من شيوخ ونساء وأطفال وأبرياء عبر التاريخ في سبيل الاستيلاء على البلاد وطلب المُلك والرئاسة حتى وجد بكثرة من قام ضد والده أو أخيه أو عمه... وحتى في المائة الأولى وقع ما وقع من سفك الدماء في طلب المُلك لإقامة الخلافة كما في الأثر التالي:

[٦٩] عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه حتى دخلنا عليه في داره وهو جالس في ظل عُلَيّة له من قصَب، فجلسنا إليه فأنشأ أبي يستطعمه الحديث فقال: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعتُه تكلم به: إني احتسبتُ عند الله أني أصبحتُ ساخطاً على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم، إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، إن هؤلاء الذين بين أظهركم

والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٨٣/١٨٥).

«عُلّية»: بضم العين وكسرها وكسر اللام وتشديدها وفتح الياء المشددة هي الغرفة. قوله: «الذي بالشام» هو مروان بن الحكم. وقوله: «الذين بين أظهركم» هم الخوارج المعنيون بالقراء. وقوله: «الذي بمكة» هو عبدالله بن الزبير.

كان أبو برزة رضي الله تعالى عنه يرى أن هؤلاء المتنازعين المذكورين كلهم كانوا يتقاتلون على الدنيا وطلب المُلك وليس على الدين وإقامة الخلافة الراشدة، غير أن الجمهور كانوا يرون الخلافة لابن الزبير دون معارضيه، وحروب هؤلاء مع بعضهم البعض، قد أسهبت في تفاصيلها كتب تاريخ الإسلام ومنها «تاريخ الطبري» ثم «تاريخ ابن الأثير»، و«البداية والنهاية» لابن كثير فليرجع إليها من أراد الاطلاع على تفصيل ذلك.

* * *

❋ فتنة الأحلاس وغيرها

[٧٠] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ فذكر الفِتَن فأكثر في ذكرها، حتى ذكر فتنةَ الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: **«هي هَرَبٌ وحَرَبٌ، ثم فتنة السراء، دَخَنُها من تحت قدَمَيْ رجُلٍ من أهل بيتي، يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجلٍ كوركٍ على ضلَعٍ، ثم فتنة الدُّهَيْماء لا تدَعُ أحداً من هذه الأمة إلا لطَمَتْه لطْمةً، فإذا قيل انفضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، حتى يصيرَ الناسُ إلى فُسْطاطَين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»**.

رواه أبو داود في الفتن (٤٢٤٢) بسند صحيح.

«حرب»: بفتحتين: هو ذهاب المال والأهل. «دخنها»: بفتح الدال والخاء أي: إثارتها وهيجانها وظهورها. «كورك على ضلع» أي: لا يناسبه الملك ولا يلائمه كالورك على ضلع فإنه لا يلائمه. «فتنة الدهيماء» أي: السوداء المظلمة وقيل: الداهية. «فسطاط»: الفسطاط الخيمة الكبيرة والمراد بها هنا الفرقة المنحازة عن الفرقة الأخرى.

في هذا الحديث أيضاً معجزة للنبي ﷺ وعلَم من أعلام نبوته حيث أخبر بفتن ودواهي ستصيب المسلمين في مستقبل الزمان وأنه تنزل بهم فتنة تسمى فتنة الأحلاس للزومها ودوامها وطول لبثها كلزوم الأحلاس والبسط للبيوت، وهي فتنة عظيمة يكثر فيها الفرار والمحاربة ونهب الأموال وسبي الأهل أو موتهم، ثم تصيبهم فتنة أخرى وهي فتنة النِعَم التي تسر من صحة ورخاء وعافية ويكون أصلها وظهورها من رجل يزعم أنه من أهل البيت والنبي ﷺ بريء منه لأنه ظالم فتّان لا يستحق الخلافة، وأولياء النبي ﷺ هم المتقون لا غيرهم، ثم بعد فِتَن وحروب يقع الصلح بين الناس فيبايعون رجلاً لا يستقيم له الأمر لأنه ليس أهلاً له ثم تأتي فتنة أخرى سوداء مظلمة لا تترك أحداً إلا أصابته وضربته، وتتمادى هذه الفتنة حتى إذا قيل خمدت وانتهى أمرها استمرت وبلغت غايتها، وبعد هذه العمياء السوداء يصير الناس فرقتين فرقة مؤمنة صالحة ليس في أهلها شائبة نفاق، وفرقة منافقة ليس في إحداها مؤمن فإذا مرت هذه الفتن وافترق الناس على هذا النحو حان وقت خروج الدجال.

فهذه عدة فتن تنبأ بها النبي ﷺ عن ربه عزّ وجل ولا شك أن أكثرها قد وقع ولا ندريها بالضبط وبقي منها ما يعقبه خروج الدجال، وسيأتي بيان وقت خروجه والحالة التي يخرج عندها.

* * *

❁ ثلاث فتن لا يتركن شيئاً

[٧١] عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى كان يقول: قال حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي

كائنة فيما بيني وبين الساعة وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسَرَّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن فقال رسول الله ﷺ وهو يعد الفتن: «**منهن ثلاثٌ لا يكَدْنَ يذَرْنَ شيئاً، ومنهن فتنٌ كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار**» قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري.

رواه مسلم في الفتن (١٥/١٨).

في هذا الحديث إشارة إلى عدة فتن ستكون عظيمة هائلة دواهي تحصد الناس حصداً. وقد تكون هذه الفتن هي ما حصل في وقائع الجمل، وصفّين، والنهروان، فإنها لم تذر شيئاً، وقد قتل فيها كثير من بقايا أفاضل الصحابة، وقد تكون مشيرة أيضاً إلى وقعة الحرة التي كانت بين أهل المدينة المنورة وجيش يزيد الذي بعثه من الشام لقتالهم عام (٦٣) من الهجرة فإنه قُتل فيها كثيرٌ من بقايا المهاجرين والأنصار دفاعاً عن مدينة الرسول ﷺ فاستشهدوا وقتل أكابر أولاد الصحابة واستحلّ جيش يزيد المدينة ثلاثة أيام وجالت الخيل في المسجد النبوي الشريف وانتهبت البيوت وافتُضّت الأبكار واستُحلّت الفروج، ثم أنزل الله تعالى بأسه بيزيد وقائد جيشه في القريب العاجل. وقد جاء عند عبدالرزاق (٣٥٨/١١) والبخاري عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: ثارت الفتنة الأولى فلم يبقَ ممن شهد بدراً أحد، ثم كانت الفتنة الثانية فلم يبقَ ممن شهد الحديبية أحد، قال: وأظن لو كانت الثالثة لم ترفع وفي الناس صباح... فالفتنة الأولى فتنة قتل عثمان، والثانية فتنة وقعة الحرة.

* * *

❋ فتنة قتال الروم للمسلمين واستعمارهم بلادهم

[٧٢] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكَلةُ إلى قَصْعَتِها**»، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغثاءِ**

السيل، ولينْزِعَنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، ولَيقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْنُ؟ قال: «حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت».

رواه أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١) وسنده صحيح عند أحمد، وله شاهد عن أبي هريرة رواه أحمد (٣٥٩/٢) وسنده ضعيف.

«يوشك»: أي يقرب. «تداعى» بفتحات، أي: تجتمع عليكم ويدعو بعضهم بعضاً إلى محاربتكم. «الأكلة» بفتحات: جمع آكل. «غثاء» بضم الغين، هو ما يجمعه السيل من القمامة والزبل. «الوهن» بفتح الواو وسكون الهاء، هو الضعف.

وفي الحديث علَم من أعلام النبوة ومعجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث أخبر باجتماع الأمم الكافرة على محاربة المسلمين، وقد حصل هذا مراراً، لكن الحديث يتجلى في الحروب الصليبية في القرون الوسطى حيث اجتمعت دول أوروبا وهاجمت بلاد المسلمين حتى أخذوا منهم بيت المقدس وكثيراً من بلادهم، ثم تجلّى مرة ثانية في الحرب العالمية الأولى حيث اتفقوا أيضاً على غزو جميع بلاد المسلمين فهاجموهم واقتسموها بينهم واستعمروها عقوداً، ولا زال استعمارهم ظاهراً في بلاد الإسلام.

وذكر النبي ﷺ أن سبب ذلك هو ضعف المسلمين مادياً ومعنوياً وحبهم الدنيا وكراهيتهم القتال والموت في سبيل الله.

أما قوله: «ولكنكم غثاء...» إلخ، فهذا ينطبق على مسلمي زماننا فهم مع كثرتهم لا تقوم منهم قائمة لإعراضهم عن دينهم واقتفائهم حضارة الغرب وتوغلهم في اتباع الشهوات ومحاربة الله تعالى ومجاهرته بأنواع المعاصي وكبار الذنوب بأمرائهم وشعوبهم... مع تفوُّق العدو عليهم بالأسلحة المتطورة والصناعات الحديثة والأمر كله لله من قبل ومن بعد.

[٧٣] وعن ذي مخبر رضي الله تعالى عنه رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستصالحون الروم صلحاً**

آمناً فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليبُ، فيغضبُ رجل من المسلمين فيَدُقُّه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة» وفي رواية: «ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون فيُكرم اللّهُ تلك العصابة بالشهادة»، وفي رواية: «فيجتمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف».

رواه أحمد (٤/٩١، ٥/٤٠٩)، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٢)، وابن ماجه (٤٠٨٩) في الفتن، وسنده صحيح.

قوله: «آمناً» أي: ذا أمن. «بمرج»: هو الموضع الذي ترعى فيه المواشي والدواب. «تُلول»: جمع تَلّ وهو ما اجتمع من الأرض من تراب ورمل وارتفع شيئاً ما. وقوله: «غاية» أي: راية.

في هذا الحديث تنبؤ من حضرة النبي ﷺ بما سيقع بين المسلمين والروم وأنه سيقع بينهم صلح ويتشاركون في قتال عدو للجانبين ثم تغدر الروم فيتقاتلون مع المسلمين فينتصر الروم عليهم لكثرتهم ويكرم الله المسلمين بالشهادة، ومثل هذا الذي أشار إليه الحديث قد وقع في الشرق والأندلس، والله تعالى أعلم.

[٧٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يُحاصَروا إلى المدينة حتى يكون أبعدُ مسالِحِهم سَلاح».

رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٠)، وفي الملاحم (٤٢٩٩)، والحاكم في الفتن (٨٦٠٦/٨٠٧) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قوله: «مسالحهم» هو جمع مسلحة، وهم القوم الذين يحفظون الثغور من العدو لأنهم يكونون ذوي سلاح، وقيل: المراد بالمسلحة هنا موضع الثغر، و«سَلاح» موضع قريب من خيبر.

وما في هذا الحديث الشريف لم يأتِ بعد ولا يعرف في التاريخ أن

الكفار حاصروا المسلمين إلى المدينة وأن ثغرهم كان بسلاح قرب خيبر وسيكون ما أخبر به النبي ﷺ في وقت لاحق ولا بد مصداقاً لما تنبأ به.

[٧٥] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ فُسطاطَ المسلمين يوم المَلْحمة بالغُوطة إلى جانب مدينة يقال لها: دمشق من خير مدائن الشام».

رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٨) وسنده صحيح ولا يضر هنا هشام بن عمار.

قوله: «فسطاط» هو بضم الفاء: أي: حصنهم من الفتن وأصل الفسطاط الخيمة. «الملحمة» أي: الوقعة العظيمة في الفتنة. «بالغوطة» بضم الغين، موضع بالشام كثير المياه والشجر، وهي مشهورة بدمشق بكسر الدال وفتح الميم.

والحديث يفيد أنه ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين والكفار بالشام، وأن حصن المسلمين سيكون بغوطة دمشق، وقد تكون هذه الوقعة قد مضت في غابر التاريخ، وقد تكون لا زالت مرتقبة، فالله تعالى أعلم.

وفي الحديث فضل دمشق وفضيلة أهلها، وقد وردت أحاديث في فضائل الشام أفردها العلماء بالتأليف.

وتقدم لنا حديث: «اللهم بارك لنا في شامنا» وهو في الصحيح.

[٧٦] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أين تأمُرُني؟ قال: «ههنا» ونحا بيده نحو الشام.

رواه أحمد (٣/٥)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٣) وحسّنه وصححه.

وهذا الفضل يكون للشام وأهلها ما لم ينحرفوا عن الدين وينسلخوا من تعاليمه، فإذا فعلوا لم يبقَ خير في عموم الأمة للحديث التالي:

[٧٧] فعن قرة بن إياس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فسدَ الشامُ فلا خيرَ فيكم».

رواه أحمد (٤٣٦/٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٢) بتهذيبي، وابن حبان (١٨٥١) وحسّنه وصححه الترمذي، وسنده عنده على شرط مسلم.

والآن أصبحت الشام كسائر البلاد الإسلامية يحكمها العلمانيون الإباحيون والشعب متفسخ متميع والمؤمنون الملتزمون غرباء قلائل كسائر بلاد الإسلام باستثناء الحرمين الشريفين ونحوهما، فالدين بهما قائم ظاهر والحمد لله مصداقاً لقوله ﷺ:

[٧٨] إن «الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحية في حجرها».

رواه أحمد (٣٨٩/٢)، ومسلم في الإيمان (٩٠/١) من حديث أبي هريرة.

«تأرز» أي: تجتمع، ومعناه أن الإيمان سيجتمع أيام غربته إلى مكة والمدينة لأنهما دار الإسلام ومقره وأصله، فالحمد لله على ذلك.

فالأمة والحمد لله لا يزال فيها خير فلا تجتمع على ضلالة كالتالي:

[٧٩] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: - أمة محمد على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومَن شذّ شذّ إلى النار».**

رواه الترمذي في الفتن بهذا السياق (١٩٩٦) وفي سنده سليمان بن سفيان وهو ضعيف لكن للحديث طرق وشواهد يصحح معها، فإنه وارد عن ابن عباس وأنس وأبي ذر وأبي هريرة وحذيفة وبعضها شاهد لبعض فقراته.

ورواه الحاكم من طرق (١١٦/١) وأشار إلى أنه صحيح بل تساهل ابن الهمام وغيره فحكموا بتواتره.

فالحديث نصّ في أن الأمة لا يكون جميعها مجمعين على الضلال وأنه لا بد أن يكون فيها مَن هو قائم بأمر الله من العلماء الربانيين ومَن

يقتفي أثرهم من العامة لقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**» وقد تقدم تخريجه في أول الكتاب.

❊ ❊ ❊

❊ فتنة صحبة ذوي السلطة والدخول عليهم

[٨٠] عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة، خمسة، وأربعة، أحد العددين من العرب والآخر من العجم، فقال: «**اسمعوا وأطيعوا، هل سمعتم أنه سيكونُ بعدي أمراءُ، فمَن دخل عليهم فصدّقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولستُ منه وليس بوارد علي الحوض، ومَن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه وهو وارد علي الحوض**».

وفي رواية: قال لي رسول الله ﷺ: «**أُعيذك بالله يا كعبُ بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي، فمَن غشي أبوابهم...**» فذكره بمعناه.

رواه أحمد (٤/٢٤٣)، والنسائي في البيعة (٧/١٤٣)، والترمذي في الصلاة (٥٤٧) وفي الفتن (٢٠٨٧)، وابن حبان (١٥٧١/١٥٧٢/١٥٧٣) بأسانيد صحيحة، وحسّنه الترمذي وصححه في الفتن وللحديث شواهد منها عن جابر. رواه ابن حبان (١٥٦٩) والحاكم (٣/٤٧٩/٤٨٠) بسند صحيح. وعن خباب بن الأرت رواه ابن حبان (١٥٧٤) وعن ابن عمر رواه أحمد (٥٧٠٢) وغيرهم.

قوله: «أعيذك» أي: أجيرك. وقوله: «من أمراء» أي: من الدخول عليهم وصحبتهم. وقوله: «يكونون من بعدي» يعني سفهاء ظلمَة مارقين مفسدين كذبَة. قوله: «فمَن غشي» أي: دخل عليهم. «فليس مني» أي: لا صلة بيني وبينه، فأنا بريء منه.

وفي الحديث ذم الأمراء الظلمَة وخاصة المفسدين منهم. وفيه التنفير من الدخول عليهم وتصديقهم في باطلهم وكذبهم ولو بالسكوت، ومداهنتهم، فمَن فعل ذلك فليس له بالنبي ﷺ صلة وسيحرم من ورود حوضه ﷺ.

فيا ويل ويا خسارة العلماء المنافقين الذين يغشون مجالس الأمراء الظلمَة بله العلمانيين والإباحيين، فتلك فتنة لا توازيها فتنة، ولذا جاء في الحديث التالي:

[٨١] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَن سكن البادية جفا، ومَن اتبع الصيد غفل، ومَن أتى أبواب السلطان افْتُتِن**»، وفي رواية: «**مَن بدا جفا**».

رواه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود في الصيد (٢٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٥٤/٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٤) ورجاله رجال الصحيح غير أبي موسى فمجهول، غير أنه رواه البزار بسند حسن كما قال الهيثمي والمناوي، وللحديث شاهد عن أبي هريرة رواه أبو داود (٢٨٦٠) وفي سنده شيخ مجهول.

وعلى أيٍّ، فالحديث ثابت، وقد أحسن وأصاب الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في حواشي «المسند» حيث جزم بصحته.

قوله: «جفا» أي: قسى قلبه وغلظ لابتعاده عن أهل العلم وصحبتهم، وانشغاله بالفلاحة ورعاية المواشي. وقوله: «غفل» أي: عن العبادة وإتيان القربات. وقوله: «ومَن أتى أبواب السلطان» أي: غشي أبواب ذوي السلطة طمعاً فيما عندهم من الدنيا، فمَن فعل ذلك وتردد عليهم افتتن في دينه، لأن المتردد عليهم لا يخلو حاله معهم من أحد أمرين: إما أن يوافقهم على ظلمهم وانحرافهم ولو بسكوته، وفي ذلك هلاك دينه وخسارة آخرته، وإما أن يخالفهم وينكر عليهم، وفي ذلك خطره، فهو في كلا الحالتين مفتون في دينه ودنياه.

حفظنا الله من غشيان أبوابهم والاجتماع بهم وعصمنا من الركون إليهم، آمين.

* * *

❊ فتنة الدنيا

[٨٢] عن عَمْرو بن عوف رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان النبي ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرّضوا له فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين**»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**أبشروا وأملوا ما يسُرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبسطَ الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافَسُوها كما تنافسوها فتُهلِككم كما أهلكتْهُم**»، وفي رواية: «**وتُلْهِيكم كما ألهتهُم**».

رواه أحمد (٤/١٣٧/٣٢٧)، والبخاري في الجزية (٧/٧٠/٧٢) وفي المغازي وفي الرقاق، ومسلم (١٨/٩٥)، والترمذي (٢٤٦٢) كلاهما في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧).

ويأتي أيضاً في الرقاق قوله: «أبشروا...» إلخ، أي: سيحصل لكم المقصود، وسيفتح الله عليكم ما تأملوه من الدنيا.

[٨٣] وعن عبدالله بن عَمرو رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم أيُّ قوم أنتم؟**» قال عبدالرحمٰن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «**أوَغير ذلك، تتنافسون**

ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون ـ أو نحو ذلك ـ **ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»**.

رواه مسلم (٩٦/١٨) في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٦).

[٨٤] وعن طلحة النضري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغْدَى على أحدِكم بِجفْنة ويُراح عليه بأخرى، وتلبسون أمثال أستار الكعبة»**، قالوا: يا رسول الله أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: **«بل أنتم اليوم متحابُّون، وأنتم يومئذ متباغضون يضربُ بعضكم رقاب بعض»**.

رواه أحمد (٣٨٧/٣) بسند صحيح. ورواه أيضاً الحاكم (١٥/٣) وصححه.

«يُغدى» بضم الياء: أي يؤتى عليه في وقت الغداء بجفنة من طعام **ويؤتى عليه في المساء** بمثلها. وقوله: **«وتلبسون أمثال أستار الكعبة»** أي: ترتدون الملابس الرفيعة الرائعة وتجاوزون الحد في ذلك، أو تتخذون أستاراً لبيوتكم وجدرانها كما يتخذ ذلك للكعبة.

وفي هذه الأحاديث معجزات للنبي ﷺ، كإخباره بفتح بلادَي فارس والروم وبسط الحياة على الناس وتوسعهم فيها حتى يأكلوا في اليوم عدة أكلات، ويظهر فيهم الترف الفاحش ويتفننون في أنواع الأقمشة والملابس ويصبحون لأجل ذلك متنافسين في الدنيا يتحاسدون عليها ثم يحملهم ذلك على التقاطع والتباغض والتقاتل فيهلكون كما هلك من كان قبلهم، وأنهم سينقلبون من خير وطمأنينة وأُخُوّة وتحابُب إلى شر وفتنة وتدابر... وقد حصل كل ما أخبر به ﷺ والصحابة لا يزالون متواجدين على قيد الحياة، فالدنيا هي فتنة هذه الأمة التي أهلكتهم كما في الحديث التالي:

[٨٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا مَن كان قبلكم وهما مُهلِكاكُم»**.

رواه أبو محمد بن شيبان العدل، والمخلص، كلاهما في «فوائديهما»

بسند صحيح على شرط مسلم. أفاده الشيخ ناصر في الصحيحة (١٧٠٣)، وأورده الحافظان المنذري والهيثمي برواية البزار وقالا: بإسناد جيد لكن من حديث ابن مسعود فالحديث صحيح.

وتخصيصه ﷺ الدينار والدرهم، لأنهما الأصل في المال ومتاع الدنيا.

* * *

❊ فتنة الأولاد

[٨٦] عن بريدة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يخطب فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «**صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرتُ إلى هذين الصَّبِيَّين يمشيان ويعثُران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**».

رواه أحمد (٣٥٤/٣)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي في المناقب (٣٥٤٦)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٠)، وابن حبان (٢٢٣٠) بأسانيد حسنة صحيحة.

فتنة الأولاد مع الأموال نصّ القرآن الكريم عليها، وما أعظمهما من فتنة، فالمال أمره واضح معلوم لكل الناس، أما الأولاد فلا يحس بفتنتهما ويذوقها إلا من ولد له ففتنتهم حاصلة في جميع مراحل حياتهم... بداية من الولادة فالرضاعة فالطفولة فالصبا فالشباب، وتعظم الفتنة وتشتد في بداية الشباب حتى الشيخوخة، ومن لم يقاسِ فتنة الأولاد ويعانها لم يولد بعد، ولم يُفتن قط، وعلى أيّ فالمال والبنون نعمتان من الله على العباد وهبتان وهبهما الله له، وهما زينة الحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهما جمال هذه الحياة، فالحياة بدونهما حياة ناقصة، لكنهما فتنة وبلاء وامتحان قد يحولان بين العبد وبين سعادته الأبدية إذا انشغل بهما ولم

يقم بحق الله فيما وهبا له فعصى الله في سبيلهما ووقع في العظائم من أجلهما.

لكن الله عزّ وجل لطيف بعباده رحيم بهم فقد يغفر ما يحصل من فتنتهما بنحو صلاة وصدقة وصيام ونحو ذلك كما قدّمنا في حديث حذيفة: **«فتنةُ الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفِّرها الصلاة والصدقة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**.

* * *

❁ فتنة النساء

[٨٧] عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»**.

رواه أحمد (٥/٢٠٠/٢٠١)، والبخاري في النكاح، ومسلم في الرقاق (١٧/٥٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٩٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، والبيهقي في النكاح (٧/٩١).

[٨٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُستَخْلِفُكُم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**.

وفي رواية: **«لينظر كيف تعملون»**.

رواه أحمد (٣/١٩/٢٢)، ومسلم في الرقاق (١٧/٥٥)، والترمذي في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

«حلوة» أي: تستحليها النفوس. «خضرة»: بكسر الضاد أي: تعجب الناظرين ويحبونها كما يحبون الخضرة. «مستخلفكم» أي: جاعلكم تعمرونها وتخلفون فيها من سبقكم.

إن المرأة كلها فتنة صوتها وجمالها وجميع أطرافها وخاصة المثيرات منها كوجهها، ونهديها، وشعرها.. بل ومظهرها، ولذلك كانت أعظم فتنة للرجل وأضر عليه وأخطر من كل شيء، فحياتنا كلها فتن: فتنة المال، والغنى، وفتنة الفقر، وفتنة الأولاد، وفتنة الكفر، وفتنة المعاصي، وفتنة التفرُّق والاختلاف، وفتنة الحروب، وفتنة الظلم والظلمة، وفتنة الدجال وهي شر ما ينتظر... ورغم كل ذلك ففتنة المرأة أخطر شيء على الرجل بعد الكفر.

فهي أصل كل فتنة لا سيما بعدما طغت وأبانت عن وقاحتها، وخرجت عن طبيعتها وأنوثتها، وأصبحت تشارك الرجل في جميع ميادين الحياة: في الشارع، في المدرسة، في الجامعات، في المحاكم، في الدوائر، في الأندية، في المسرح، في الوزارة، في البرلمان... عارية متبرجة، متفرنجة، راقصة، مغنية... وجلبت على الرجل وخاصة المسلم الملتزم كل ويل وبلاء، وكلّفته ما لا طاقة له به، حتى قال ناصح معاصر غيور وهو يوسف النبهاني رحمه الله تعالى:

نساءٌ رجالٌ كالعُراة تَعَانَقُوا ... بأحسنِ أشكالٍ تُثير الهوى قصرا
فلو نظر العِنِّينُ فيهنّ نظرةً ... لما احتاج في تقويم قُوتِه أُخرى
وأتقى عباد الله ليس بمُمكنٍ ... هنالك تَقْواه إذا لم يكن صَخْرا
فإن لم يكن هذا زنا فإنه ... أخوه سوى أنّ الزنا فعلُه سِرّا
ومن قبل هذا ما سمِعنا بأُمّة ... قد استحسنَتْه هكذا عَلَناً جَهْرا
فنحمدُ رب العالمين لِشَرعِه ... حجاباً عن الإسلام قد حَجَبَ العُهْرَا

ولذا نبّه النبي ﷺ إلى فتنة المرأة وجعل إقبالها وإدبارها كالشيطان، وأرشد أمته إن رأى أحد امرأة فأعجبته فليأتِ أهله ليخفف من الفتنة التي نزلت به.

[٨٩] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأتَه زينب وهي تَمْعَسُ مَنِيئة لها فقضى حاجتَه ثم خرج إلى أصحابه

فقال: «**إن المرأة تُقبِلُ في صورة شيطان، وتُدبرُ في صور شيطان، فإذا أبصر أحدُكم امرأةً فليأتِ أهلَه فإن ذلك يرد ما في نفسه**».

وفي رواية: «**إذا أحدكم أعجبته المرأةُ فوقعت في قلبه فلْيَعْمِدْ إلى امرأته فليواقِعْها فإن ذلك يردُّ ما في نفسه**».

وفي رواية: «**فإذا رأى أحدُكم امرأة فأعجبته فليأتِ أهله، فإنَّ معها مثل الذي معها**».

وفي رواية: كان النبي ﷺ جالساً فمرّت به امرأة فأعجبته... إلخ.

رواه أحمد (٣/٣٣٠/٣٤١/٣٤٨/٣٩٥) ومسلم (٩/١٧٧) وأبو داود (٢١٥١) والترمذي (١٠٤١) والنسائي في الكبرى (٥/٣٥) والبيهقي (٧/٩٠) كلهم في النكاح بألفاظ.

[٩٠] وعن أبي كبشة الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في أصحابه فدخل ثم خرج وقد اغتسل فقلنا: يا رسول الله قد كان شيء؟ قال: «**أجل، مرّت بي فلانةٌ فوقع في قلبي شهوة النساء فأتيت بعض أزواجي، فأصبتُها، فكذلك فافعلوا، فإنه من أماثل أعمالِكم إتيانُ الحلال**».

رواه أحمد (٤/٢٣١)، والطبراني في الأوسط (٣٢٧٥) وسنده حسن صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/٢٩٢) وقال: رجال أحمد ثقات.

قوله: «تمعس» بفتح التاء والسين بينهما ميم ساكنة، أي: تدلك. «منيئة»: بفتح الميم وكسر النون ثم همزة آخرها تاء، هو الجلد الذي يوضع في الدبغ. وقوله: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان...» إلخ، شبّهها بصورة الشيطان لأن مظهرها وبروزها يدعوان إلى الشر ويثيران الشهوة والفتنة والهوى وذلك لما جبل عليه الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بالنظر إليهن وما يتعلق بهن، فهي من هذه الناحية شبيهة بالشيطان في دعوته إلى الشر وتزيينه له فكانت لذلك كأنها شيطان.

ويؤخذ من الحديثين أمور ستة:

أولاً: الناس كلهم في الطبائع البشرية سواء، حتى أكابر الصالحين منهم، فهذا نبي الله ﷺ كان يتأثر بجمال النساء ويعجبه حسنهن، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

ثانياً: قد يترتب عن النظر إلى النساء فتنة لا يطفئها إلا قضاء الشهوة ولو كانت نظرة المفاجأة كما صدر من النبي ﷺ.

ثالثاً: فيهما إرشاد من النبي ﷺ لأمته إلى علاج الشهوة الجنسية إذا ثارت بالنظر إلى محاسن النساء، وذلك بقضائها من الزوجة في القريب العاجل لئلا يترتب على ثورانها ضرر في الجسم والقلب... فإن لم توجد زوجة فعلى الإنسان أن يتصبّر ويُكثر من الصيام أو يبحث عن الأدوية المادية التي تخفف من شهوته، وأن يبتعد كل البُعد عما يثير شهوته، والله المستعان.

رابعاً: فيهما أن الزوجة يجب عليها طاعة زوجها في قضاء شهوته ولو كانت في شغلها الشاغل.

خامساً: أخذ العلماء من الحديثين تقليل خروج المرأة ومرورها بين الرجال إلا لضرورة ملحّة خشية أن تفتن الرجال. وهذا قد أصبح في خبر كان اليوم لطغيان النساء وخروجهن عن تعاليم الإسلام وتجاوزهن الحدود التي أمرن بها أو نُهين عنها.

سادساً: ما جعله الله عزّ وجل من ميول الجنسين بعضهما لبعض وتبادل الالتذاذ بينهما هو من الابتلاء الإلٰهي الذي جعله تعالى في هذه الدار وما أعظمه وأشقه على نفوس المؤمنين، فإنه لا يصبر على ذلك ويجاهد نفسه عليه إلا أكابر الصالحين الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه. فالله المستعان على هذه البلية.

* * *

❁ فتنة تفرُّق الأمة

[٩١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**.

رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان كما تقدم، وحسّنه وصححه.

وفي رواية لمعاوية: **«ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»**.

وفي رواية له: **«وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرقٌ ولا مفصل إلا دخله»**.

رواه أحمد وأبو داود (٤٥٩٧) بسند صحيح، وانظر ما سبق من الجزء الأول.

قوله: «تتجارى» التجاري الوقوع في الأهواء الضالة والتداعي فيها تشبيهاً بجري الفرس. و«الكلب»: بفتحتين داء يعرض للكلاب إذا عضّت حيواناً عرض له مرض خطير قد يقتله.

في الحديثين معجزة للنبي ﷺ في إخباره بالفتنة التي تصيب أمته من تفرُّقها واختلافها وتعاديها وأنها ستصل إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها ضالة منحرفة عن هدي القرآن والسنّة وطريق السلف، وأنها من أهل النار إلا واحدة فهي الناجية والسعيدة وهي المعبّر عنها في الحديث بالجماعة، وهم أهل الحق.

ويؤخذ من الحديثين أمور أربعة:

أولاً: تفرُّق الأمة في العقائد وأصول الدين وذلك مذموم، أما في الفروع فإن هذا التفرق والاختلاف فيه المحمود والمذموم وقد اختلف الصحابة والسلف في جزئيات كثيرة.

أما في العقائد فلم يختلفوا وما ظهرت العقائد الفاسدة كبدعة الرفض وغلو التشيُّع، والقَدَر، والاعتزال، والخروج على أئمة الحق، والنَّصْب وعداوة أهل البيت، والتعطيل، والتشبيه، والتجسيم إلا من غيرهم.

ثانياً: كل هذه الفرق مآلها النار لخروجها عن الحق وضلالها ولا ينجو منها إلا من كان على هدي الرسول ﷺ وأصحابه.

ثالثاً: قوله: «**كلها في النار**» لا يعني أنها كلها كافرة مخلّدة في النار بل فيها ما هو كافر بعقيدته وما هو مسلم فاسق فهو كباقي الفسّاق الذين ماتوا مصرّين على معاصيهم فهم في مشيئة الله تعالى سيحاسبهم وتوزن حسناتهم مع سيئاتهم، ومنها بدعهم وانحرافهم فما رجح كان العمل عليه ثم مشيئة الله تعالى، وهذا التقسيم مأخوذ من قوله ﷺ: «**وستفترق أمتي**» فنسبها إليه، فهم مسلمون إلا من خرج عنهم ببدعته. وفي هذا جواب عن الإشكال الذي استشكله بعضهم في الحديث.

رابعاً: قد ترتب على هذا التفرق فتن عظيمة حتى سفكت في سبيله الدماء و... مما هو معلوم في تاريخنا الطويل، ولا زلنا نعاني من ذلك من بعض الفرق كالرافضة مثلاً الذين انتشرت بدعتهم وعمت كثيراً من البلدان الإسلامية، وانطلت عقائدهم الفاسدة الخرافية على كثير من الناس.

* * *

❁ فتنة اتباع الكفار والتشبُّه بهم

[**٩٢**] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَن كان قَبْلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لتبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَن؟**».

رواه البخاري في الاعتصام (١٧/٦٣/٦٤) وفي الأنبياء (١٧)، ومسلم في العلم (١٦/٢١٩) وغيرهما.

«سنن»: بفتحتين، أي: طريق. «جحر ضب» أي: ثقبه الذي يأوي إليه. والضب بفتح الضاد مع تشديدها، حيوان معروف.

[٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمّتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع**»، قيل له: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: «**من الناس إلا أولئك**».

رواه البخاري في الاعتصام (٦٣/١٧) ومثله عن أبي سعيد الخدري عند مسلم في العلم (٢١٩/١٦) وهو في الاعتصام من البخاري (٦٣/١٧).

في هذه الأحاديث معجزة للنبي ﷺ حيث أخبر بأن الأمة ستقتفي أثر من قبلها من الكتابيين والمجوس وتقلدهم في شؤونهم كلها حسنها وقبيحها، وقد صدق ذلك الواقع فقد تبعوهم في جميع شؤونهم، في عقائدهم الكافرة، وأخلاقهم الفاسدة، وأحوال مجتمعاتهم الباطلة، وكل أهوائهم وأمورهم، وتبعوهم في أحوالهم الاجتماعية، واقتصادهم، وسياستهم، وأنظمتهم العسكرية، وقوانينهم في الحكم، وفصل الدين عن السياسة، وأنظمتهم في التعليم والمواد الدراسية، وفي الفنون الجميلة من أغاني ماجنة ورقص ورياضة عارية... وتشبههم بهم في ملابسهم وأزيائهم بذكورهم وإناثهم وجميع مظاهرهم حتى أصبحوا نسخاً من الكفار وذابت شخصيتهم وعروبتهم فيهم، ولم يعد يميز بين الكافر والمسلم وخاصة في الطبقة المثقفة والحاكمة، فهم أغرق الناس في اتباع حضارتهم القذرة وثقافتهم الفاسدة النتنة. وقد اتفق العلماء الأقدمون الربانيون على تحريم اتباع الكفار والتشبُّه بهم فيما يختصون به، وجاءت بذلك آيات من القرآن وأحاديث نبوية تحذر من ذلك وتنهى عنه، جمعها كثير من علمائنا رحمهم الله تعالى.

فهذه فتنة عارمة عمّت العالم الإسلامي إلا من شاء الله تعالى من المؤمنين الملتزمين.

[٩٤] وعن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حُنين، مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله هذا كما قال قوم**

موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ والذي نفسي بيده لتَركبُنَّ سَنَن من كان قبلكم».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠١٠)، وأحمد (٢١٨/٥)، والحميدي (٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥٩٩/٦) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه.

«لَتركبُن»: أي لتتبعُنَّ.

* * *

❋ عذاب هذه الأمة الفتن والزلال والقتل

[٩٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمّتي هذه أمّةٌ مرحومةٌ، ليس عليها عذابٌ في الآخرة، عذابُها في الدنيا الفتنُ، والزلازلُ، والقتلُ**».

رواه أحمد (٤١٨/٤١٠/٤٠٨/٤)، وأبو داود في الفتن (٤٢٢٨)، والحاكم (٤٤٤/٤) من طريق هو بها صحيح.

في الحديث بشارة لهذه الأمة وأن الله عزّ وجل جعل حظها من عذاب الآخرة ما يصيبها في هذه الحياة من الفتن والزلازل والقتل فتذهب إلى الآخرة وقد غفر الله لها، نسأل الله عزّ وجل أن يسامحنا ويغفر لنا زلاّتنا وخطايانا وأن يعافينا من جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن بفضله وكرمه وإحسانه.

* * *

كتاب أشراط الساعة

أشراط الساعة هي علامات قرب قيامها، والساعة إذا أُطلقت في القرآن والسنة فالمراد بها انقراض هذا العالم واضمحلاله وفناؤه، وما يحدث عند ذلك ويصاحبه من انقلاب كوني هائل، وأحداث جسام تشمل الشمس والقمر والكواكب، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما تشمل البشر، وتهز الكون هزًا عنيفاً ينتثر فيه كل ما في الوجود ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن الساعة كثيراً وذكر أهوالها ومشاهدها وبيّن للناس اقترابها وهم في غفلة عنها مُعرضون، وسيأتي الكلام عليها وعلى ما بعدها مفصّلاً.

ولخطر الساعة وما يصاحبها من أهوال كان أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم يسألونه ﷺ عن وقت قيامها، فكان الله تعالى يتولى جوابهم فجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى استقرارها وحصولها.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فكانت الأجوبة عنها كلها مصرحة بأن علم وقت قيامها بالضبط هو عند الله عزّ وجل، قد أخفى وقت حصولها عن خلقه إلا من شاء الله.

وهكذا جاء عن النبي ﷺ في عدة أحاديث كما يأتي مفصّلاً، لكنه تعالى ذكر لعباده علامات لها تنذر بوقت قيامها وقرب ذلك ليتأهبوا لها ويستعدوا لحلولها بكثرة البر والعمل الصالح.

* * *

❋ للساعة أشراط صغرى وكبرى

ثم إن أشراط الساعة قسّمها علماؤنا رحمهم الله تعالى إلى قسمين: صغرى وكبرى، فالصغرى هي التي تقدمت في تاريخ الإسلام حتى وقتنا هذا، وسميت صغرى لبُعدها عن القيامة، وقد تقدم أكثرها وظهر الكثير منها في عصرنا الذي نعيشه، ولا زال بعضها لم يأتِ بعدُ، أما الكبرى فهي العلامات التي إذا ظهرت كانت القيامة على الأبواب.

وأكثر العلماء جعلوها صغرى وكبرى كما ذكرنا، وقد جعلها بعضهم صغرى ووسطى وكبرى، منهم: البرزنجي وصاحب «موسوعة الآخرة» وإليه يشير كلام الحافظ، وتمثيله لذلك في «الفتح» (ج١٦/١٩٦/١٩٧) حيث قال بعد كلام: لكنه على أقسام:

أحدها: ما وقع على وفق ما قال، **والثاني**: ما وقعت مبادئه ولم يستحكم، **والثالث**: ما لم يقع منه شيء ولكنه سيقع.

فالنمط الأول: تقدم معظمه في علامات النبوة، وقد استوفى البيهقي في الدلائل ما ورد من ذلك بالأسانيد المقبولة، والمذكور منه هنا اقتتال الفئتين العظيمتين، وظهور الفتن، وكثرة الهرج، وتطاول الناس في البنيان، وتمني بعض الناس الموت، وقتال الترك... قال:

ومن النمط الثاني: تقارب الزمان، وكثرة الزلازل، وخروج الدجالين الكذابين.

ثم ذكر أمثلة لهذا النمط، منه ما وقع ومنه ما لم يأتِ بعد.

قال: ومن **النمط الثالث**: طلوع الشمس من مغربها.

ثم ذكر أمثلة أخرى لذلك، غير أن بعض ما ذكر هنا قد تقدم، ومنه

وجد في زماننا، وليس من الأشراط الكبرى كتخوين الأمين وائتمان الخائن... وتكلُّم الرويبضة، وظهور أمور عظام يتفاقم فيها شأننا، وزوال الجبال عن أماكنها، فإن هذه كلها ظهرت في عصرنا كما هو معلوم.

ثم إنهم ذكروا من العلامات الصغرى كل الأحداث التي وقعت في الأمة بداية من قتل الفاروق، فعثمان، فعلي، فالحسين... رضي الله تعالى عنهم، حتى العصور الأخيرة اعتماداً على ما ورد من أحاديث الفتن العامة.

* * *

❋ العلامات الصغرى: بعثة النبي ﷺ

[٩٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين»** وضمّ السبابة والوسطى. وفي رواية: **«كفضل إحداهما على الأخرى»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٣٣/١٣٤)، ومسلم (١٨/٨٩/٩٠)، والترمذي (٢٠٤٤) كلاهما في الفتن، ومثله عن أبي هريرة عند البخاري (١٤/١٣٤) وعن المستورد عند الترمذي (٢٠٤٣) بسند حسن صحيح.

ومعنى الحديث: أنه ﷺ بُعث آخر الزمان ولم يبقَ لقيام الساعة من بعثته إلا مقدار ما بين طرفَيْ إصبعيه الوسطى والسبابة، فبعثته قريبة من القيامة، فهو من علاماتها، ولذلك يقال له: نبي آخر الزمان.

* * *

❋ من أشراط الساعة

[٩٧] عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قُبّة أدَم فقال: **«اُعْدُدْ ستاً بين يدَيْ الساعة: موتي، ثم فتحُ بيتِ المَقْدس، ثم مُوتَان يأخذ فيكم كقُعَاصِ الغنم، ثم استفاضة**

المال حتى يُعطى الرجلُ مائة دينار فيظلُ ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلَتْه، ثم هُدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»، وفي رواية: فاستبكيتُ حتى جعل رسول الله ﷺ يُسَكِّتُني.

رواه أحمد (٦/٢٥)، والبخاري في الجهاد باب الجزية (٧/٨٧/٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤٢).

قوله: «كقُعَاص» بضم القاف ثم عين مفتوحة هو داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت.. «استفاضة المال» أي: انتشاره وفيضانه. «غاية» أي: راية.

* * *

موته ﷺ

في هذا الحديث الشريف عدة علامات للساعة، **أولاهن**: موت النبي ﷺ وهي من المصائب العظيمة بل لا مصيبة للأمة فوقها، ولذلك قال ﷺ: **«مَن أُصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب»**.

رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/٢٧٥)، وابن السني في «اليوم والليلة» (٢١٩) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً بسند صحيح، وله شواهد عن بريدة رواه ابن السني (٢١٨) وعن عائشة عند الطبراني كما في «المجمع» (٣/١٢) وعن سابط الجُمَحِي رواه ابن سعد (٢/٢٧٥)، والطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٣/٢) فالحديث لذلك حسن أو أعلى.

فغيابه ﷺ مصيبة لا يُعادلها شيء من المصائب مهما عظمت، ووفاته بالتالي من أشراط الساعة.

* * *

❋ فتح بيت المقدس

ثانيتها: فتح بيت المقدس، وقد حصل ذلك في خلافة سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وكان فتحه سنة ست عشرة من الهجرة على أيدي أبطال الإسلام، وطهّره الله عزّ وجل من اليهود والنصارى ثم مع ممر العصور أخذه الصليبيون وبقي تحت احتلالهم عقوداً من الزمان، ثم فتح مرة ثانية على يد بطل الإسلام الشهم صلاح الدين الأيوبي، وها هو الآن تحت الاحتلال الصهيوني، وسيفتح مرة ثالثة بإذن الله تعالى على أيدي المؤمنين الذين ينطق لهم الحجر والشجر، وهذا لا يكون إلا وقت المهدي أو عيسى عليهما السلام، أما مسلمو عصرنا فأسقط وأهون من أن يكلمهم الحجر والشجر وينتصروا على اليهود وقد فقدوا القوتين المادية والروحية.

❋ ❋ ❋

❋ مَوْتَان كقُعَاص الغنم

ثالثتها: داء يصيب المسلمين يموت به خلق كثير، وهذا الداء قد ظهر بالشام أيام سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أطلق عليه طاعون عمواس ـ وهو الكوليرا، بلغة العصر ـ وعمواس مدينة بفلسطين وقع بها الطاعون في خلافة الفاروق، يقال: إنه مات فيه نحو من خمسة وعشرين ألف مسلم، وكان من بينهم البطل أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، وقد قدّمنا في الطب والمرض قصة سيدنا عمر في رجوعه وعدم دخوله لموضع الطاعون.

❋ ❋ ❋

❋ استفاضة المال

رابعتها: انتشار المال حتى يحرز الإنسان على مال كثير نحو مائة دينار في يومه فيظل متسخطاً يرى أنه قليل. وهذا وقع كثيراً، وكانت بدايته أيام

الفتوحات الإسلامية الأولى وامتد ذلك إلى عصرنا، فنحن الآن نشاهد كثيراً من التجار والرأسماليين يربحون في اليوم الواحد الربح الباهظ، فإذا نقص لهم شيء من ذلك وهم غير خاسرين تسخّطوا وجعلوا يشتكون من القلة والأزمة، فالحديث يتجلى في هؤلاء الشياطين بأجلى مظهر.

* * *

❊ فتنة شاملة لا ينجو منها بيت

خامستها: فتنة عامة في المسلمين العرب لا تبقي أحداً، قال العلماء: إن هذه الفتنة كان افتتاحها بقتل أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه ثم استمرت الفتن متوالية.

* * *

❊ هدنة بين المسلمين وبين الروم ثم حرب بين الجانبين

سادسة الأشراط المذكورة في الحديث: صلحٌ يقع بين المسلمين وبين الروم، ثم يغدر الكفار فيأتون بجيش عظيم كثيف عرمرم يقدر عدده بنحو مليون مقاتل، وهذه العلامة بهذا العدد من جيش بني الأصفر ما سمعنا بمثلها بين المسلمين والروم، فإن لم تكن مضت فلا بد أن تقع لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وقد نقل الحافظ في «الفتح» عن ابن المُنَيِّر أن قصة الروم لم تجتمع إلى الآن ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم تقع بعد...

ثم ذكر عن «الفتن» لنعيم بن حماد: أن هذه القصة تكون في زمن المهدي على يد ملك من آل هرقل. والله تعالى أعلم.

* * *

❊ فتح كنوز كسرى مع غنى الناس وعدم وجود من يقبل الصدقة

[٩٨] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياةٌ لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله**»، فقلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طيىء الذين سعَّروا البلاد؟ «**ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنَّ كنوزُ كسرى**»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لترينَّ الرجلَ يُخْرِجُ مِلءَ كفِّيه من ذهب أو فضة يطلب مَن يقبله منه فلا يجده**».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة.

رواه البخاري في علامات النبوة (٧/٤٢٣/٤٢٤).

«الفاقة»: الحاجة والفقر. «قطع السبيل»: يعني بذلك اللصوص وقطاع الطريق. «الظعينة»: هي في الأصل اسم للهودج فسميت به المرأة. «الحيرة» بكسر الحاء بعدها ياء ساكنة فراء مفتوحة: بلدة بالعراق قرب الكوفة كانت مسكن ملوك العرب من قِبَلِ الفُرس. «دُعَّارُ» بضم الدال وتشديد العين: جمع داعر وهو الشاطر الخبيث المفسد. «طيىء»: هي قبيلة عدي بن حاتم وهي فيما بين الحجاز والعراق وكانوا يقطعون الطريق على كل من مرّ بهم. «سَعَّروا» بتشديد العين أي: أوقدوا نار الفتن، وملأوا الأرض شراً وفساداً. «كسرى» بكسر الكاف: هو عَلَمٌ على كل من ملك الفرس في القديم. «يخرج ملء كفَّيه»: وهذا قطعاً يكون عند فتح كنوز الأرض وسيكون ذلك أيام المهدي وعيسى.

في الحديث معجزات للنبي ﷺ، وعلامات للساعة.

منها: انتشار العدل والقضاء على الفساد والمفسدين وحصول الأمان حتى تسافر المرأة بمفردها عدة مراحل لا تخاف في طريقها غير الله عزّ وجل، وهذا قد وقع أيام الخلفاء الراشدين وخاصة في خلافة عمر.

ومنها: القضاء على ملك فارس وفتح بلادهم وأخذ كنوزهم وإنفاقها في سبيل الله، وقد جاء في ذلك أحاديث منها:

[٩٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا هلَكَ كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتُنفَقنّ كنوزهما في سبيل الله»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٣/٢٤٠)، والبخاري في علامات النبوة (٧/٤٣٨)، ومسلم في الفتن (١٨/٤١/٤٢).

[١٠٠] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لتَفْتَحَنَّ عصابةٌ من المسلمين كنوزَ كسرى التي في القصر الأبيض»** فكنت أنا وأبي فيهم فأصبنا من ذلك ألف درهم.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٤٣).

«عصابة» أي: جماعة.

ففي الحديثين تنبؤ من النبي ﷺ بفتح بلاد كسرى والروم ومحو مُلْكَيْهما البتةَ، وأن المسلمين سينفقون كنوزهما في سبيل الله تعالى. وقد وقع كل ذلك أيام خلافة الصدّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما، وفي حديث جابر شهادة من النبي ﷺ لفاتحي بلاد كسرى بالإسلام، وأنهم لا يخرجون عنه بما ارتكبه بعضهم من سفك دماء المسلمين.

ومما في حديث عدي من الأشراط وأعلام النبوة أن الدنيا ستفتح خيراتها ويستغني كل الناس ولا يكاد يوجد فقير محتاج يقبل الصدقة، وجاء في هذا أيضاً أحاديث كالتالي:

[١٠١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يكثُر فيهم المالُ فيفيض حتى يهم رب المال من**

يتقبلُ منه صدقتَه»، وفي رواية: **«وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرَبَ لي فيه»**، وفي رواية: **«حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه»**.

رواه البخاري في الفتن، ومسلم في الزكاة (٧/٩٧) بألفاظ.

[١٠٢] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«تَقيءُ الأرض أفلاذَ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»**.

رواه مسلم في الزكاة (٧/٩٧/٩٨)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٩) بتهذيبي، وابن حبان (١٥/٩٠).

وقوله: «لا أربَ لي فيه» أي: لا حاجة لي فيه الآن. «تقيء»: من القيء، أي: تلقي ما في تخومها من كنوز الذهب والفضة. و«الأفلاذ»: القطع منهما. قوله: «فيجيء القاتل...» إلخ، فكل هؤلاء سيعترفون بأن سبب ما فعلوه من تلك المعاصي هو المال ثم يتركونه فلا يأخذونه لاستغنائهم عنه. وهذا لا زال لم يأتِ بعد، وسيكون أيام المهدي أو عيسى إن شاء الله تعالى حيث سيستغني الناس كلهم ولا يبقى لهم حاجة في المال.

واستفاضة المال وكثرته وقع في عصور مختلفة بداية من الفتوحات الإسلامية الأولى وامتداداً إلى بعض العصور، إلى وقتنا هذا الذي فاض فيه المال وكثر، وسيأتي وقت لا يقبل فيه أحد شيئاً من الآخرين.

* * *

❁ آية انشقاق القمر

[١٠٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ فانشقّ القمر فلقتين، فلقة من وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«اشهدوا»** يعني: اقتربت الساعة وانشق القمر.

رواه أحمد (٣٥٨٣)، والبخاري في التفسير وفي أوائل السيرة والترمذي وغيرهم، وفي الباب عن أنس وابن عمر وجبير بن مطعم وجماعة، وقد تقدم ذلك في التفسير.

آية انشقاق القمر آية عظيمة ومعجزة للنبي ﷺ باهرة، وهي من أشراط الساعة وعلامات قربها، ولذلك قال تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

* * *

❁ الفتوحات الإسلامية

[١٠٤] عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه عن نافع بن عتبة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبيَّ ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثيابُ الصوف فوافقوه عند أكمَةٍ، فإنهم لقيامٌ ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يَغْتَالُونَه، قال: ثم قلت: لعلَّهُ نَجِيٌّ معهم، فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلماتٍ أعدُّهُنَّ في يدي، قال: «**تَغزُون جزيرةَ العرب فيفتحُها الله، ثم فارسَ، فيفتحُها الله، ثم تغزون الروم فيفتحُها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله**» قال: فقال نافع: يا جابر لا تُرَى الدجال يخرج حتى تفتح الروم.

رواه مسلم (١٨/٢٦) وابن ماجه (٤٠٩١) كلاهما في الفتن.

«يغتالونه» أي: يأخذونه بغتة من حيث لا يشعر. قوله: «نَجِيٌّ» أي: يُسَارِرُهم في شيء بينه وبينهم.

وفي الحديث معجزة للنبي ﷺ وعلَم من أعلام نبوته حيث أخبر بفتح هذه الأقطار بعد غزوها وأن آخر ما يغزو المسلمون الدجال لعنه الله فينتصرون عليه. وقد حقق الله عزّ وجل فتح بلاد فارس، والروم والجزيرة في أوائل أيام الخلفاء رضي الله تعالى عنهم، وسيغزون الروم مرة أخرى قبل خروج الدجال، كما يأتي إن شاء الله في ذكر خروجه ووقته.

وكل هذا يُعد من أشراط الساعة.

❋ آيتان عجيبتان

[١٠٥] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنس، وحتى يكلمَ الرجل عذبةُ سوطه وشراكُ نعله، وتخبره فخذُه بما أحدث أهله بعده»**.

رواه أحمد (٨٤/٣)، والترمذي في الفتن (٣٠١١)، وابن حبان بالموارد (٥٨٠)، والحاكم (٤٦٧/٤) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث قصة عند أحمد عن أبي سعد قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: **«صدق والذي نفسي بيده...»** الحديث.

في هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ من جهتين: **أولاً: من جهة إخبار الذئب بصدق رسول الله ﷺ ونبوته، وثانياً:**

* * *

❋ تكلُّم السباع والفخذ والسوط مع الإنسان

أما السباع فهذا ذئب قد كلم ذلك الراعي بكلام دار بينهما، وقد يقع ذلك في وقت ما أيضاً. أما تكلم الفخذ والسوط فلا ندري كيف يكون ذلك ولا بد أن يقع، وقد يكون ذلك إشارة إلى آلة التسجيل التي قد توضع عند الإنسان في جيب سرواله أو نحوه، كما أن تكلم السباع قد يكون فيه إشارة

أيضاً إلى ما يقع من الحركات الغريبة والألعاب من الحيوانات المعلَّمة التي يستخدمها مدربو الحيوانات اليوم، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ. والمقصود أن ما ذكر من أشراط الساعة الصغرى.

* * *

❁ عدة أشراط

[١٠٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال: أحدثكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يُحدثكم أحدٌ بعدي أنه سمعه من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهلُ، ويفشو الزنا، ويُشرب الخمرُ، ويكثرُ النساء، ويقلُّ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأةً قَيِّمٌ واحدٌ**».

رواه أحمد (١٥١/٣)، والبخاري في العلم (١٨٩/١٨٨/١)، ومسلم في العلم أيضاً (٢٢١/١٦)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٥)، وابن ماجه فيه (٤٠٤٥)، وكذا النسائي في الكبرى (٤٥٥/٣).

«رفع العلم»: وذلك يكون بموت أهله. و«يظهر الجهل» أي: يثبت ويشيع. و«يفشو الزنا» أي: يكثر وينتشر ويظهر. و«يشرب الخمر» أي: يكثر شربه. «قيم واحد» أي: من يقوم بأمورهن.

في هذا الحديث عدة أشراط:

❑ أولاً: رفع العلم وظهور الجهل:

فرفع العلم والمراد به علم الدين الإسلامي يكون بموت أهله، فأيما عالم توفي ذهب معه علمه، ولا يكون له خلَف فيما كان يحمله من علوم، وبذلك ينتشر الجهل بين الناس ويترأس العامة رؤوس جهّال فيضِلُّون ويُضِلُّون.

❑ ثانياً: فشو الزنا:

وفشوه انتشاره وكثرته كما هو حال واقعنا اليوم، فقد عمّت به البلوى وظهر في الحواضر والبوادي ظهوراً لم يتقدم له مثيل في تاريخ الإسلام، فقد هيئت له الفنادق، والدور المفروشة في سائر العالم الإسلامي، أما الغرب فلا تسأل عما عندهم، وقد تكلمت عليه في كتاب «المرأة المتبرجة».

❑ ثالثاً: شرب الخمر:

والمراد بذلك، الإكثار منه حتى يصبح كشرب الماء واللبن... كأنه مباح، وهو الواقع في هذا العصر فلا تتجه إلى جهة إلا وجدت حانات يباع ويشرب فيها الخمر، بل كثير من المتاجر الغذائية فيها الخمر يباع جهاراً وتعطى لبيعه الرخص من طرف المسؤولين، أما الفنادق وبعض المقاهي العامة فلا يتورعون عن تقديم الخمور إلى زبائنهم.

❑ رابعاً: كثرة النساء وقلة الرجال:

وذلك يكون بكثرة ولادة الإناث وقلة الذكور، ثم موت الذكور بكثرة وقلة موت النساء، وهذا مشاهد في وقتنا، فإن الإحصاءات تفيد بأكثرية النساء وأنهن يمثلن أكثر من ضعفَيْ الرجال.

ومن الملموس المحسوس أنه يموت عشرة رجال ثم تموت امرأة واحدة، ولذلك يوجد الأرامل بكثرة، وقد تأتي الحروب فيقتل فيها الألوف من الرجال ولا تقتل امرأة واحدة، بل ذكروا عن الحرب العالمية الثانية أنه قتل فيها عشرات من ملايين الرجال وتركوا وراءهم ملايين من النساء وكان ذلك سبباً لخروج المرأة الأوروبية لعملها في المعامل وغيرها، ثم إن كثرة النساء وقلة الرجال ابتلاء من الله تعالى للرجال. وتخصيص هذه الأشراط بالذكر لاختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح الدين والدنيا وهي: الدين، والعقل، والنسب، والنفس، والمال. فاختلال ما ذكر مؤذن بخراب العالم. وانظر «الفتح» من كتاب العلم.

ومن عرض هذه الأشراط يتبين أنها كلها وجدت وتتجدد في كل عصر، نعم، قوله: «حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» هذا لم يأتِ بعد وإذا وجد فبقلة.

[١٠٧] وعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى رضي الله تعالى عنهما قالا: قال النبي ﷺ: **«إن بين يدَي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج: القتل»**.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٢٤/١٢٥)، ومسلم في العلم (٢٦٧٢) وغيرهما.

* * *

❁ أشراط أخرى متنوعة جامعة

[١٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مَقْتَلةٌ عظيمةٌ دعواهما واحدةٌ، وحتى يبعث دجّالون كذّابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتَكْثُر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيضُ حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي عرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِه فلا يَطعَمُه، ولتقومن الساعة وهو يَليطُ حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكْلَتَه إلى فيه فلا يَطعمُها»**.

رواه البخاري (١٦/١٩٦/٢٠٢) في الفتن، وغيرها مطولاً، ورواه مسلم في الإيمان وفي الزكاة وفي الفتن مقطعاً.

وفي هذا الحديث نحو من إحدى عشرة علامة من علامات الساعة كلها من الأشراط الصغرى، إلا طلوع الشمس من مغربها فمن الكبرى.

❑ الأولى: تقاتل فئتين عظيمتين دعواهما واحدة:

وقد قدّمنا سابقاً في الفتن أن المراد بهاتين الفئتين هما فئة الإمام علي وفئة معاوية، فإن كلاً منهما كان يدعو إلى ما يراه حقاً.

وقد تكون الفئتان فئة علي وفئة طلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهما، وذلك ظاهر أيضاً، وقد قدّمنا ذلك في وقعتَيْ الجمل وصفّين.

❑ الثانية: خروج الدجاجلة والكذّابين:

والمراد بهؤلاء المتنبئون المدّعون النبوة، وقد أخبر ﷺ بأن عددهم يقارب الثلاثين، بل جاء التصريح بعددهم وأنهم سبعة وعشرون.

[١٠٩] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن نبي الله ﷺ قال: «**في أمتي كذّابون، ودجّالون، سبعة وعشرون، منهم أربعة نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي**».

رواه أحمد (٥/٣٩٦)، والطحاوي في «مشكله» (٤/١٠٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٥٨٢) وسنده صحيح على شرط مسلم.

فهذا نص في عدد المتنبئين الذين يدّعون النبوة وأن منهم أربع نسوة، وقد تقدم في التاريخ الكثيرون منهم، وكان في عصر الصحابة مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، ومالك بن نويرة، وسجاح الكاهنة التي تزوجها مسيلمة، وكان بعد هؤلاء المختار الثقفي الذي أخبر به النبي ﷺ على الخصوص وسمّاه الكذاب كما سمّى الحجاج المبير.

وهكذا؛ تتابع الدجاجلة الكذّابون، وتتالى ادعاؤهم النبوة حتى جاء

الكذاب عباس ميرزا غلام أحمد القادياني، فخرج في إيران عام ١٢٣٣ الهجري وادّعى النبوة، وقد ضلّ به أقوام لا زال أمرهم ممتداً إلى الآن وهم المعبَّر عنهم بالقاديانية ويسمون أنفسهم الأحمدية، لعنهم الله وقطع دابرهم، وقد جاءت الأحاديث بهؤلاء الكذَبة عن جماعة من الصحابة. وقد ادّعى النبوة والمهدوية في عصرنا جماعة في الشرق والغرب، وقد يكون تقدم العدد المذكور في الحديث، وقد يكون بقي منه البعض حتى يأتي الدجال فيتمم عددهم.

❑ الثالثة: قبض العلم:

وقد قدّمنا أنه يقبض بموت العلماء حتى لا يبقى إلا الجهلة.

❑ الرابعة: كثرة الزلازل:

والزلازل من الأشراط الموجودة في كل العصور، وقد كثرت في زماننا هذا في كل الأقطار وخاصة بآسيا وأمريكا.

وقد جاءت فيها أحاديث وأنها من الأشراط وعلامات قرب الساعة.

[١١٠] فمنها: عن سلمة بن نفيل السكوني قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ قال له قائل: يا رسول الله هل أُتيتَ بطعام من السماء؟ قال: «نعم»، قال: وبماذا؟ قال: «بِمُسْخَنة»، قالوا: فهل كان فيها فضل عنك؟ قال: «نعم»، قال: فما فعل به؟ قال: «**رفع وهو يوحى إلي أني مكفوت غير لابث فيكم، ولستم لابثين بعدي إلا قليلاً، بل تلبثون حتى تقولوا متى، وستأتون أفناداً يفني بعضكم بعضاً، وبين يدَي الساعة مَوتَانٌ شديدٌ، وبعده سنوات الزلازل**».

رواه أحمد (٤/٤٠٤)، والدارمي (٥٦)، والحاكم (٤/٤٤٧/٤٤٨) وسنده صحيح.

وصححه الحاكم، وقال الذهبي: من غرائب الصحيح.

«مسخنة»: بكسر الميم القِدْر. «مكفوت» أي: ميت ومضموم إلى

القبر. «أفناداً» أي: تأتون جماعة إثر جماعة. «يفني» أي: يقتل بعضكم بعضاً. «الزلازل»: جمع زلزلة وهي التحرك والاضطراب.

فالحديث يدل على أنه سيقع موتان كثير بين يدَي الساعة ثم يعقب ذلك سنوات كلها زلازل وتحركات للأرض.

[١١١] ومنها: عن عبدالله بن حوالة أنه نزل على ابن زغب الأيادي فقال له: بعثنا رسول الله ﷺ لِنغْنَمَ على أقدامنا فرجعنا لم نغنم شيئاً وعرف الجُهد في وجوهنا فقام فينا فقال: **«اللهم لا تكِلْهم إليّ فأضعُفَ عنهم، ولا تكِلْهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكِلْهم إلى الناس فيستأثروا عليهم»**، ثم قال: **«ليُفْتَحَنَّ لكم الشامُ، والرومُ، وفارسُ ـ أو الروم وفارس ـ حتى يكونَ لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم حتى يُعطى أحدُهم مائة دينار فيَسْخَطُها»**، ثم وضع يده على رأسي أو هامتي، فقال: **«يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك»**.

رواه أحمد (٢٨٨/٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٥). قال الحافظ: لا بأس بإسناده. فهذا الحديث مع كونه فيه معجزات للنبي ﷺ بما سيقع من الفتوحات وانتشار الخيرات وفيضان المال؛ فيه إخبار بما سيصيب الأمة من الزلازل وكثرة البلايا والأمور العظيمة التي تداهمهم بين يدَي الساعة. وقد تقدم آخر الفتن بأن هذه الأمة لا عذاب عليها في الآخرة، وإنما قدّم لها ذلك في الدنيا فأصابها بالقتل والبلاء والزلازل فذلك حسبها. نسأل الله تعالى العافية.

❑ الخامسة: تقارب الزمان:

وقد جاء في هذا حديث مفصّل مفسّر وهو:

[١١٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يتقارب الزمان، فتكون السنةُ كالشهر، ويكون الشهرُ**

كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السَّعَفَة أو الخوصة».

رواه أحمد (٢/٥٣٧/٥٣٨)، وابن حبان (١٨٨٧) بسند صحيح، وله شاهد عن أنس رواه الترمذي في الزهد (٢١٤٩) بمثله غير أن فيه: **«كالضرمة من النار»**. والضرمة: بفتح وسكون، الشعلة الواحدة، وبالتحريك الشعفة في طرفها نار، وقد تكلم علماؤنا القدامى رحمهم الله تعالى في معنى هذا التقارب وتوجيهه فكلٌ قال بما ظهر له، والحقيقة أن تقارب الزمان هو الذي نعيشه نحن اليوم بعد ظهور هذه المركوبات المخترعات من السيارات، والقطارات، والطائرات، فحصل بها طي الزمان والمكان معاً فأصبحت المسافة التي كانت تقطع في السنة، تطوىٰ في شهر أو أقل وكذا مسافة الشهر تقطع مثلاً في أسبوع في سيارة ونحوها، وقد تقطع في ثلاث ساعات وهكذا، فهذا هو التقارب الظاهر والله أعلم بمراد نبيه ﷺ، وليس المراد بالتقارب نقصان السنين والأيام والشهور أو ذهاب البركة كما قيل.

❑ الخامسة والسادسة والسابعة: ظهور الفتن وكثرة الهرج والقتل واستفاضة المال:

وقد تقدم كل ذلك سابقاً في الفتن.

❑ الثامنة: التطاول في البنيان:

يعني التنافس في طول البناء والمباهاة في ذلك وهذا قد وقع امتداداً من العصور الأولى حتى وقتنا هذا، وقد فشى ذلك في هذا العصر بكثرة وتجلّى بأجلى مظهر في أصحاب ذلك.

[١١٣] وقد سئل رسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها: إذا رأيت الأمة تلد ربتها فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها، وإذا رأيت البَهم يتطاولون في البنيان فذاك من أشراطها».**

رواه البخاري في تفسير لقمان (١٠/١٣١)، ومسلم في الإيمان عن أبي هريرة.

وتقدم نحوه عن عمر مطولاً في حديث جبريل عليه السلام في الإيمان، فهذه العلامة ظاهرة في الكثيرين من الحفاة العراة رعاء الشاء ففيهم الملوك والزعماء، وفيهم المتنافسون والمتباهون في طول القصور والعمارات، وقد كانوا بالأمس القريب رعاة جهلة صمًّا بُكماً... فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبي العظيم وعلى آله وصحبه أجمعين.

❑ التاسعة: غبطة أهل القبور وتمني الموت:

هذا أيضاً وقع بكثرة في عصور مختلفة مرت فيها فتن وابتلي الناس ببلايا تمنوا فيها الموت، وقد قدّمنا هذا في الفتن.

* * *

❁ المباهاة والتفاخر في بناء المساجد

[١١٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجد»**.

رواه أحمد (٣/١٣٤/١٤٥/١٥٢/٢٣٠/٢٨٣) من طرق، وابن حبان (٣٠٧/٣٠٨)، ورواه أبو داود والنسائي في الكبرى (١/٢٥٥)، والدارمي بلفظ: **«من أشراط الساعة...»** إلخ، وهو صحيح.

«التباهي»: التفاخر، وهو واقع منذ القرن الأول أيام بني أمية، وامتد ذلك عصراً فعصراً حتى وقتنا هذا، وما أكثر ذلك في زماننا، ويزيدون في الطين بلّة فيكتبون أسماء بانيها، وذلك يدل على عدم الإخلاص في تأسيسها، والتفاخر في ذلك دائرٌ بين الملوك وذوي الترف والمبذرين إخوان الشياطين من الأغنياء.

* * *

❋ صيرورة بلاد العرب مروجاً

[١١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»**.

رواه مسلم في الزكاة (٩٧/٧)، وأحمد (٤١٧/٣٧١/٣٧٠/٢).

«مروجاً»: جمع مَرْج بسكون الراء هو مرعى الدواب.

[١١٦] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك...، فذكر الحديث. وقد تقدم في السيرة وفيه: **«يوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد مُلِيء جِنَاناً»**.

رواه أحمد (٢٣٨/٢٣٧/٥)، ومسلم في الفضائل (٤١/٤٠/١٥).

وقوله: **«جناناً»** أي: بساتين وعمراناً.

ما في الحديثين معجزة للنبي ﷺ إضافة إلى ما فيهما من أشراط الساعة وهو أن تصير بلاد العرب عيوناً ومروجاً وأنهاراً وبساتين وأشجاراً بعد أن كانت رمالاً وأراضي قاحلة صحراء لا ماء فيها.

وقد أصبحت كذلك وصدق الواقع ما أخبر به ﷺ من علامات الساعة، فبلاد العرب اليوم ظهرت فيها آبار وعيون ومياه جارية، ونشأ عن ذلك بساتين هنا وهناك ومزارع وجنان. وأصبحت تبوك مدينة ذات بساتين ومياه متدفقة كما تنبأ به نبينا ﷺ، بل أصبحت بلاد الخليج التي كانت بالأمس قواحل ومتخلفة ذات حضارة وبنايات وطرق قد تفوق كثيراً من البلاد المتحضرة المتقدمة.

❋ ❋ ❋

❋ أسعد الناس بالدنيا السقطاء

[١١٧] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لكعُ بن لُكَع»**.

رواه أحمد (٥/٢٨٩)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٤٠٤٣) بسند صحيح.

وله شاهد عن أنس رواه ابن حبان (١٨٨٥).

«اللكع»: يطلق على معان، والمراد به هنا الساقط اللئيم الذي لا قيمة له ولا اعتبار به.

والحديث من أبهر معجزات النبي ﷺ وعلامات قرب الساعة وحلولها، فالذين يمثلون شؤون الحياة العامة ويسعون في مصالح الأمة هم أرباب الثراء وذوو الغنى والأموال الباهظة، وأكثرهم سقطاء لئام أنذال لا دين لهم ولا قيمة لهم عند الله عزّ وجل.

ولا شك أن الدنيا تشمل المال والرئاسات ومقاعد السلطة والزعامة... وهذه الطبقة هي التي تمثل الدنيا وهي أسعد بها من غيرها. وإذا كانت هي الآخذة بأزمة الحياة انخرم نظام الدين والدنيا وكانت الساعة على الأبواب.

❋ ❋ ❋

❋ ظهور أقوام يأكلون بالسنتهم

[١١٨] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يخرجَ قومٌ يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها»**.

رواه أحمد (١/١٧٥/١٧٦/١٨٤) من طرق هو بها صحيح.

هؤلاء الأقوام يحتمل أن يكونوا يأكلون بألسنتهم على ظاهر الحديث حقيقة، وهذا الصنف موجود بكثرة في المطاعم الصغيرة التي تقدم للمارّة أكلات خفيفة يتولون أكلها بألسنتهم يلحسونها.

ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً كمن يأكل بالتجسس على المرشدين والخطباء والمحاضرين من طرف الدول، ويحتمل أن يكونوا علماء السوء الموظفين مع الظلمَة أو الكفرَة، ويحتمل أن يكونوا الزعماء الخوَنة أو البرلمانيين وأرباب المجالس البلدية الكذّابين النصّابين، ويحتمل أن يكونوا الأدباء الثرثارين والشعراء الفشّارين... فكل ذلك يحتمله الحديث.

وعلى أيٍّ، فكل من يأكل بلسانه سواء كان حقيقة أو مجازاً فوجوده من أشراط الساعة، وكل ما ذكرناه واقع.

* * *

❋ تضييع الأمانة

[١١٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدّث القوم، جاءه أعرابي قال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: «**أين السائل عن الساعة؟**» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**إذا ضُيّعت الأمانةُ فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسّد الأمرُ إلى غير أهله**».

رواه أحمد (٣٦١/٢)، والبخاري في العلم (١٥١/١)، وفي الرقاق (١١٦/١٤).

«الأمانة»: كل ما ائتُمن عليه الإنسان، وهي ضد الخيانة. وأعظم الأمانات التكاليف الشرعية بداية من أصول الدين ثم جميع فروعه، وهذه هي الأمانة التي عرضها الله عزّ وجل على السماوات والأرض والجبال فأبَيْن

أن يحملنها. وأشفقن منها، أي: خفنَ من عدم القيام بها، فحملها الإنسان لجهله بعاقبتها وظلمه نفسه بعدم الوفاء بالقيام بها.

قال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور، بل كل ما أوجده الله لنا وفينا فهو أمانة، فشؤون الدين أمانة وشؤون الدنيا من مال وزوجة وأولاد... أمانة، فإذا أضعنا ذلك واستهترنا بها جاءت الساعة.

وقوله: «إذا وسد الأمر...» إلخ، إذا أسند الأمر كما في رواية، والمراد بالأمر هنا كما قال الحافظ جنس الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة، والإمارة، والقضاء، والإفتاء، وغير ذلك.

وقال ابن بطال: معنى أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيّعوا الأمانة التي قلّدهم الله تعالى إياها.

وهذه العلامة وهي تضييع الأمانة وإسناد الأمور إلى غير أهلها قد ظهرت منذ العصور الأولى ولكن تمّ تضييعها في وقتنا بالكلية، فقد انقلبت الأحوال وانخرم نظام الحياة وعاد على غير شريعة الله، ولم يبقَ أمر من الأمور إلا وأسند إلى غير من هو أهل له، فالله المستعان على هذه المصيبة وأمثالها...

* * *

❁ المسخ والخسف والقذف

[١٢٠] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**في هذه الأمة خسفٌ، ومسخٌ، وقَذْفٌ**» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «**إذا ظهرت القِيَانُ، والمعازفُ، وشُرِبَتْ الخمور**».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٤٢) بسند حسن، وقد تقدم.

وقوله: «القيان» جمع قينة وهي المغنية.

[١٢٩] وعن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر، والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلَنَّ أقوامٌ إلى جنب عَلَم يروح عليهم بسارحة ثم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً فيُبَيِّتُهم الله ويضع العَلَم، ويمسخُ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة»**.

وفي رواية: **«يُعزفُ على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض»**.

ذكره البخاري معلّقاً في صحيحه، ورواه أبو داود في اللباس وابن ماجه في الفتن، وغيرهم.

والحديث صحيح خلافاً لمن طعن فيه، وقد تقدم في الأدب في بحث الغناء.

[١٣٠] وعن نافع رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما جاءه رجل فقال: إن فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال: إنه بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«في هذه الأمة أو في أمتي خسف، أو مسخ، أو قذف في أهل القَدَر»**.

وفي رواية: **«يكون في أمتي خسفٌ، ومسخٌ، وذلك في المكذبين بالقدَر»**.

رواه أحمد (٦٢٠٨/٥٦٣٩/٥٨٦٧/٦٢٠٨)، وأبو داود (٤٦١٣)، وابن ماجه (٤٠٦١)، والحاكم (٨٤/١) من طرق وألفاظ بأسانيد صحيحة.

قوله: «أحْدَث» أي: ابتدع بدعة. وقوله: «مسخ» هو تغير من صورة إلى أخرى. وقوله: «خسف» يحتمل خسف الأرض، ويحتمل خسف الوجوه أي: ذهاب نورها. و«قذف»: هو ظاهر في القذف الحالي من

الطائرات والبوارج والمدافع بالصواريخ، وما في هذه الأحاديث جميعها من أشراط الساعة كظهور المغنيات، وضرب المعازف على رؤوس شرَبَة الخمر والراقصات، واستباحة واستحلال الزنا وما ذكر معه، والتكذيب بالقدر، وغير ذلك.

وأن هؤلاء سيمسخهم الله قردة وخنازير ويخسف الله بهم الأرض ويزلزلهم ويُرْمَوْن بقذائف من النار تحرقهم وتدمرهم عياذاً بالله، وكل ذلك قد حصل في عصرنا وبعضه ممتد من عصور سابقة.

❊ ❊ ❊

❊ الكاسيات العاريات

[١٢٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكونُ في آخر هذه الأمة رجالٌ يركبون على المياثِر حتى يأتوا أبوابَ المساجد، نساؤهم كاسياتٌ عارياتٌ على رؤوسهن كأسنمة البُخت العجاف، الْعَنوهُنَّ فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمةٌ من الأمم لخدمْنَ نساؤكم نساءهم، كما يَخدمَنُكم نساءُ الأمم قبلكم»**.

رواه أحمد (٢/٢٢٣)، والحاكم (٤/٤٣٦)، وابن حبان (٥٧٥٣)، والطبراني في الصغير (١١٢٥) وصححه الحاكم على شرطهما، لكن عبدالله بن عياش روى له مسلم في الشواهد فقط، ولا ينزل حديثه عن رتبة الحسن، ويؤيد الحديث ما يأتي عقبه.

«المياثر»: جمع ميثرة، هي سروج عظام تكون فروشها من الحرير.

هذا الحديث الشريف منطبق تمام الانطباق على أهل عصرنا الذين يركبون السيارات الفخمة ويأتون للصلاة في المساجد ويصحبون معهم نساءهم المتفرنجات اللابسات الألبسة الفرنجية التي تحدد عوراتهن، ويكشفن أذرعهن وصدورهن، وقد يكشفن أكثر أفخاذهن مع كشف شعور رؤوسهن وقد يصففنها عند الكوافير حتى تصير كأسنمة البخت من الإبل، فيدخل

الرجال المساجد للصلاة زعموا، فتبقى نساؤهم العاريات في تلك السيارات ينتظرنهم.

فهذا الصنف من الرجال مع نسائهم على هذه الحالة، نعيش معه اليوم وهو من أعظم معجزات نبينا ﷺ وعلامات الساعة، وهو يحدثنا بأننا في آخر الأمة، وفي الحديث أن هؤلاء النسوة ملعونات وأننا مأمورون بلعنهن، ولا شك أن رجالهن ملعونون كذلك وهم كنسائهم من أهل النار كالحديث التالي:

[١٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات، مائلات، مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**.

رواه أحمد ومسلم، وقد تقدم في المعجزات فهناك شرحه.

والحديث كسابقه، وفيه زيادة ذكر أعوان الظلمة المرتزقة الذين يعتدون على الناس بعصيهم، وقد أخبر ﷺ عنهم بأنهم صنفان من أهل النار لم يكونا ظهرا بعدُ فظهرا في عصرنا معاً، ثم خصص ﷺ أولئك النسوة بالذكر وأنهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها مع أن ريحها ليوجد من مسافة خمسمائة عام. وهذا يدل على أنهن كافرات مرتدّات وإن كنّ يزعُمنَ أنهن مسلمات، لأن أكثر هؤلاء من المثقفات الثقافة الفرنجية اللاتي لا يقبلن أحكام الله وما شرعه لعباده فيعترضن على الله ويحكّمن عقولهن.

* * *

❋ حسر الفرات عن كنز أو جبل من ذهب

[١٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يَحسِرَ الفراتُ عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه،**

فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا أنجو».

وفي رواية: **«يوشك الفرات أن يَحْسِرَ عن كنز من ذهب، فمَن حضره فلا يأخذ منه شيئاً».**

رواه البخاري (١٦/)، ومسلم (١٩/١٨)، وأبو داود (٤٣١٣)، والترمذي آخر صفة الجنة طبع شاكر رقم (٢٥٦٩).

[١٣٦] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يوشك الفراتُ أن يحسِرَ عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول مَن عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليُذْهَبَنّ به كله»**، قال: **«فيقتتلون عليه فيقتلُ من كل مائة تسعة وتسعون».**

رواه مسلم في الفتن (١٩/١٨).

«يحسر»: بفتح الياء وكسر السين، أي ينكشف ويذهب ماؤه. و«الفرات» بضم الفاء: نهر عظيم في العراق يأتي من تركيا ويمر بالعراق كدجلة، ويصب في الخليج العربي.

وكشفه عن كنز أو جبل من ذهب إشارة والله أعلم إلى ما ظهر في هذا العصر من آبار ومعادن البترول بالعراق حذاء الفرات وغيره، ويسمُّونه الذهب الأسود، وسمّاه النبي ﷺ كنزاً أو جبلاً من ذهب.

فالظاهر أنه المراد لا سيما وأنه ظهر آخر الزمان علامة للساعة، وأخبر ﷺ بأنه سيقع التقاتل لأجله وأنه سيقتل في سبيله تسعة وتسعون في المائة والكل منهم يتمنى النجاة، وهذا واضح بعد أن هاجمت أمريكا وإنجلترا العراق وقتل من العدو والعراقيين الشيء الكثير.

وقد نهى ﷺ من حضره أن لا يأخذ منه شيئاً.

وجاء في رواية: **«يحضره شرار الخلق».**

والحاضرون له الذين يتولون استخراجه والمقاتلون عليهم هم الأمريكان والإنجليز وهم شر الخلق.

وهذا من أعظم معجزاته ﷺ وباهر علامات الساعة التي أخبر بها.

* * *

❁ سنون خدّاعة

[١٢٧] عن عمرو بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن بين يدَي الساعة سنين خدّاعة، يُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمين، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ»**، قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: **«الأمرُ التافه يتكلم في أمر العامة»**.

رواه البزار (٣٣٧٣) وسنده حسن، فإن ابن إسحاق صرّح بالتحديث.

وهو صحيح لشواهد له عن أنس.

رواه أحمد (٣/٢٢٠)، وأبو يعلى (٣٧١٥) بسند حسن أيضاً.

وعن أم سلمة رواه الطبراني في الأوسط والكبير (٢٣/٣١٤).

وفي سنده عبدالله بن صالح كاتب الليث مختلف فيه.

وعن أبي هريرة رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٣٦) وسنده ضعيف.

وعلى أيٍّ، فالحديث صحيح لغيره.

«سنين خدّاعة» أي: ينخدع الناس فيها بما يظهر فيها من المغريات وقلب الحقائق.

وما في الحديث بجميع رواياته وطرقه كله موجود، نعيشه كما عاشه من قبلنا حيث انقلبت الموازين والحقائق فأصبح الصادق في الواقع هو الكذاب، والكذاب هو الصادق، والأمين عند الله هو الخائن عند الناس،

والخائن لله ولرسوله ﷺ ولدينه هو الأمين عند أهل عصره، وهكذا كما قدمنا حتى يقال للرجل: «ما أظرفه وما أعقله... وليس في قلبه ذرة من إيمان».

ومن عجيب صدق ما في هذا الحديث على أهل عصرنا هو أنه ظهر مصداق ما فيه، ومن جملة ذلك أن الذين يتولون الكلام على مصالح العامة السقطاء والأنذال الذين لا قيمة لهم عند الله عزّ وجل وهم المعبَّر عنهم بالرويبضة، وهو التافه الساقط.

* * *

❊ البيوت الموشاة وشي المراحيل

[١٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يبني الناسُ بيوتاً يُوَشُّونها وَشْيَ المراحِيل»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٧٧) بسند صحيح.

«المراحيل»: فسرها بعضهم بأنها الثياب المخططة، وفسرها آخرون بالثياب التي نقش فيها تصاوير الرحال. و«الوشي»: نقش الثوب.

والحديث يشير والله أعلم إلى بنايات خاصة تظهر في الناس تكون من أشراط الساعة وأنها تكون بيوتاً في أشكال غريبة غير معهودة، ومن رأى تفنُّن الناس اليوم في الزخرفة وأنواع الزينة في بناياتهم أدرك سر هذا الحديث وظهر له مطابقته للواقع.

وفي هذا الحديث ذم المبالغة في الزخرفة والإسراف في ذلك لأنه من التبذير الذي نهينا عنه، وليس ذلك من شأن المؤمنين المتقين الذين يريدون الآخرة.

* * *

❁ قتال الترك والأعاجم

[١٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالُهم الشعر، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المِجَانُّ المُطْرَقَة»**.

وفي رواية: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خُوزاً وكِرمان قوماً من الأعاجم، حُمْر الوجوه، فُطْس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المِجَان المطرقة»**.

وفي رواية: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوماً وجوههم كالمجان المطرقة، يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر»**.

رواه البخاري في الجهاد في باب قتال الترك (٦/٤٤٥) وفي الأنبياء، ومسلم (١٨/٣٧) وأبو داود (٤٣٠٣/٤٣٠٤)، والترمذي (٢٠٤٥)، وابن ماجه (٤٠٩٦) كلهم في الفتن بألفاظ، ورواه أيضاً النسائي في الكبرى (ج٣/٢٩/٣٠) في الجهاد في غزوة الترك والحبشة.

[١٣٠] وعن عَمرو بن تغلب رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نِعالَ الشَّعَرِ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عِرَاضَ الوجوه»**.

رواه البخاري (٦/٤٤٤).

«المجان»: جمع مجن بكسر الجيم، من الآلات الحربية القديمة وهو الترس والدرقة. «المطرقة»: بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء، هي التي ركب بعضها فوق بعض لتتقوى، والمراد أن وجوههم بارزة كالمجان المذكورة. وقوله: «خوز» بضم الخاء. و«كرمان»: بكسر الكاف. «فُطْس الأنوف»: جمع أفطس وهو المفترش الأنف. وقوله: «عراض الوجوه» أي: واسعة.

وفي هذين الحديثين علَم من أعلام النبوة وعلامة من علامات قيام الساعة وهو أنه لا تقوم الساعة حتى يتقاتل المسلمون وهؤلاء القوم من

الأتراك والأعاجم، وقد قاتلهم المسلمون أيام الصحابة وفتحوا بلادهم وأصبح أكثرهم مسلمين وخرج منهم أئمة وعلماء في التفسير والحديث والتصوف... واللغة والأدب، ثم ارتدّ مَن ارتدّ منهم ثم جاء الأعداء والكفار منهم فهاجموا بلاد الإسلام وقاتلوهم وخربوا ديارهم وفعلوا الأفاعيل التي لم يسمع بمثلها كما تأتي الإشارة إليهم في الحديث الآتي وكما سبق ذكره.

كما غزى الأتراك العثمانيون بلاد العرب وحكموها دهراً من الزمان حتى جاءت الثورة العربية فقام العرب ضد الدولة التركية وكانت قد ضعفت فجاءت الحرب العالمية الأولى فهاجمت جيوش أوروبا العالم الإسلامي واستعمروه وقسموه دويلات وأخذوه من يد الأتراك ثم قام المسمى مصطفى كمال أتاتورك لعنه الله فأعلن الحرب على الإسلام والمسلمين وجعل تركيا دولة علمانية فهي لحد الآن على ذلك، رغم أن فيها مسلمين مضطهدين. وكانت قد فتحت في القرن التاسع الهجري، وستفتح للمرة الثانية قبيل أيام الدجال، كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكره.

وهؤلاء الأتراك هم المشار إليهم في الحديث التالي:

[١٣١] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يَنزلُ ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له: دجْلة يكون عليه جسر يكثر أهلها، وتكون من أمصار المهاجرين - وفي رواية: المسلمين - فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قَنْطُورَاء عِرَاضُ الوجوه صِغار الأعين حتى ينزلوا على شط النهر، فيتفرق أهلُها ثلاث فرق: فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء»**.

رواه أبو داود في الملاحم باب في ذكر البصرة (٤٣٠٦) وسنده حسن أو أعلى، لوجود سعيد بن جمهان، وقد وثقه ابن معين وأبو داود والنسائي وابن حبان، وكفى، فلا اعتبار بعد هذا بقول أبي حاتم فيه: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به.

«بنو قنطوراء»: هم الأتراك وقنطوراء جدتهم، والأتراك أمة واسعة الأطراف من تركيا المعروفة إلى غربي الصين وكان منهم التتار الذين غزوا بلاد المسلمين وخربوها في المائة السادسة وأوائل السابعة.

وهذا الحديث الشريف يشير إلى غزو هذا الجيل المسلمين وتسلُّطهم عليهم وأنهم سيصلون إلى العراق فيغزون المسلمين فيتفرق المسلمون ثلاث فرق: فرقة تفر منهم وتهيم في البادية، وفرقة تهادنهم وتلحق بهم، وفرقة تقاتلهم فيكرمهم الله بالشهادة.

ولخبث هؤلاء القوم وقساوتهم وتوحشهم أمر النبي ﷺ بتركهم وعدم إثارتهم كالحبشة، فقال ﷺ: «**دَعُوا الحبشةَ ما وَدَعُوكُم، واتركوا التُركَ ما تَرَكُوكُم**».

رواه أبو داود (٤٣٠٢) في الفتن، والنسائي في الكبرى (٤٣٨٥/٢٩/٣) وفي «المجتبى» أيضاً عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وسنده حسن. فلو كان المسلمون تركوا هؤلاء وأولئك لهان الأمر ولأمنوا من خبثهم وشرهم لكنهم غزوهم وفتحوا بلادهم فكان ما كان، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فالترك الشرقيون هاجموا البلاد الإسلامية وقتلوا من المسلمين عدداً لا يحصيهم إلا الله، فالتتار لما دخلوا بغداد عاثوا فيها فساداً وقتلوا العلماء والنساء والأطفال فضلاً عن الجيش العباسي الذي كان خليفته آنذاك المستعصم الماجن الفاسق الظالم الضعيف مادياً ومعنوياً، وأحصوا في هذه الحادثة الأليمة من القتلى خاصة ببغداد مليون قتيل.

لكن الله عزّ وجل نصر عباده بالجيوش الإسلامية التي اجتمعت بالشام فكسرت قوة التتار وهزمتهم شر هزيمة وانتصر المسلمون عليهم في وقعة ومعركة عين جالوت المشهورة، ثم كان من رحمة الله تعالى أن أسلم كثير من أولئك الأتراك المتوحشين كما هو معروف في التاريخ، والمقصود أن حديث أبي بكرة يشير إلى هؤلاء القوم وغزوهم بلاد المسلمين ومنها العراق.

* * *

❋ ستة أشراط في نسق واحد

[١٣٢] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أشراط الساعة أن يُسَلَّم الرجلُ لا يُسلِّم إلا للمعرفة، وأن تفشو التجارةُ حتى تُعين المرأةُ زوجَها، وقطعَ الأرحام، وشهادةَ الزور، وكتمانَ شهادة الحق، وأن يجتازَ الرجلُ بالمسجد لا يُصلِّي فيه»**.

رواه أحمد (١/٤٠٧/٤٠٨)، والبزار (٣٤٠٧)، والطبراني في الكبير (٩٤٩٠)، والحاكم (٤/٤٤٥/٤٤٦) وصححه، وسنده صحيح عند أحمد، وقال في المجمع (٧/٣٢٨/٣٢٩) رجال أحمد والبزار رجال الصحيح. وروى أحمد (١/٣٨٧/٤٠٦) بعضه من طريقين آخرين صحيحين.

هذه أشراط ستة وكلها واقعة، ظهر بعضها منذ أزمنة ووقع بعضها وفشت في زماننا، فمنها: أن لا يسلّم الرجل إلا على من يعرفه وهو خلاف أدب الإسلام الذي يأمر بإفشاء السلام مطلقاً إلا على كافر أو نحوه. ومنها: انتشار التجارة بكثرة حتى تصبح المرأة تاجرة في المتاجر العامة مساعدة لزوجها... وهذه العلامة لم تفشُ إلا في عصرنا، فالمرأة أصبحت اليوم مشاركة للرجل في المتاجر بل الكثيرون يوظفونها جالبة للزبائن بمظهرها المثير... ومنها: قطيعة الأرحام وهذه لم يخلُ منها زمان ولا مكان كالتي بعدها وهي شهادة الزور، وكذا كتمان الشهادة لمستحقها، أما اتخاذ المساجد طرقاً للمارة من غير أن يصلوا فيها فموجود بكثرة في عصرنا. والله المستعان.

* * *

❋ من أشراط الساعة ظهور النار من الحجاز، وقعر عدن، وحضرموت

[١٣٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقومُ الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز، تُضِيءُ أعناقَ الإبلِ بِبُصْرَى»**.

رواه البخاري (١٦/١٩١/١٩٢)، ومسلم (١٨/٣٠) كلاهما في الفتن.

«الحجاز»: معروفة وهي غير تهامة ونجد. و«بصرى»: بضم الباء هي حوران قرب دمشق من بلاد الشام.

ظهور النار علامة للساعة يحدث مرتين: مرة قبيل الساعة بقريب وهي التي تخرج من حضرموت أو قعر عدن تحشر الناس إلى الشام وهي من الأشراط العشر الكبرى وستأتي إن شاء الله تعالى في حديث مسلم وغيره، أما المرة الأخرى وهي من الأشراط الصغرى وهي المذكورة في هذا الحديث التي تخرج من الحجاز، فقد تقدمت وظهرت في المائة السابعة للهجرة كما ذكر العلماء والمؤرخون وإليكم ما ذكره الحافظ في «الفتح» (١٦/١٩١/١٩٢) عن القرطبي، والنووي وغيرهما.

قال: قال القرطبي في «التذكرة»: قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة، فسكنت وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم، عليها سور محيط عليه شراريف، وأبراج، ومآذن، وترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكّته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دَوِيٌّ كدَوِيّ الرعد، يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة. ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر.

وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة المكرمة ومن جبال بُصْرى.

وقال النووي: في «شرح مسلم» (١٨/٢٨): وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.

وقال أبو شامة في «ذيل الروضتين»: وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين فذكر هذا الحديث، قال: فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب... ومن ذلك أن في بعض الكتب ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها وادٍ من نار حتى حاذى جبل أُحد. وفي كتاب آخر: انبجست الأرض من الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة، وهي برأي العين من المدينة، وسال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال، يجري على وجه الأرض، ويخرج منه مهاد وجبال صغار، وفي كتاب آخر ظهر ضوءها إلى أن رأوها من مكة، قال: ولا أقدر أن أصف عظمها، ولها دوي... ودام أمرها أشهراً ثم خمدت...

فهذه النار التي ظهرت في القرن السابع هي التي جاءت في حديث الباب.

وقوله: «تُضِيءُ أعناقَ الإبل ببصرى» قال ابن التين: يعني من آخرها يبلغ ضوءها إلى الإبل التي تكون ببصرى من أرض الشام... وقد رأيت ما ذكره من شاهدها وأن ضوءها كان يُرى من أماكن شاسعة.

* * *

❁ تَخَبُّطُ الناسِ في اكتساب المال

[١٣٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لا يُبَالي المرءُ بمَ أخذَ المالَ بِحلالٍ أم حَرَامٍ»**.

رواه البخاري في البيوع (٥/٢٠٠).

من أشراط الساعة التي تقدمت ولا زلنا نعايشها عدم تحري الناس في الكسب وأنهم يكتسبون المال ويحصلون عليه بأي طريق سواء أكان مشروعاً أم ممنوعاً محرّماً، فالحلال عندهم ما حلّ بأيديهم سواء كان مكتسباً من ربا أو من غصب، أو من غش وخديعة واحتيال، أو من تجارة في محرم، أو من راتب يُتَقاضى في مقابل إذاية المسلمين وظلمهم والحكم عليهم بالقوانين الوضعية، أو معاونة الظلمَة أو الكفرة.

وهذا ما يعيشه الناس اليوم فلا تكاد تجد أحداً يتحرى الاكتساب من الحلال إلا الواحد في المائة، ولذلك عمّ الحرام كلَّ الناس وفسدت المعاملات ولم يبقَ أحد إلا أكل الحرام أو ما فيه شبهة، والحلال الصرف قلّ جداً جداً.

* * *

❋ التحذير من الدجاجلة الكذّابين

[١٣٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يُضِلُّونكم ولا يَفْتِنونَكم»**، وفي رواية: **«يحدثونكم ببدع من الحديث»**.

رواه أحمد (٣٤٩/٢)، ومسلم في مقدمة صحيحه.

ظهور هؤلاء الدجاجلة الكذبَة الذين يأتون ببدع من الحديث هم تلامذة المستشرقين من أبناء المسلمين الذين درسوا بأوروبا وأمريكا وروسيا وخرجوا علينا بأفكار ونظريات متطرفة هدّامة مخالفة للإسلام، وهم غير المدَّعين للنبوة والرسالة، فأولئك صنف آخر تقدم الكلام عليهم، وهؤلاء كأولئك كلهم من أشراط الساعة، وقد حذّرنا النبي ﷺ من فتنتهم وضلالهم.

* * *

❊ شُرَطَ آخرِ الزَّمَانِ

[١٣٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك إن طالت بك المدةُ أن ترى قوماً في أيديهم مِثلُ أذناب البقر، يغدون في غضب الله ويروحون في سخطه**».

رواه أحمد (٣٠٨/٢)، ومسلم في صفة جهنم (١٩٠/١٧).

من أشراط الساعة ظهور شرط من أعوان الظلمة والعلمانيين يجلدون الناس ويضربونهم بعصيهم ظلماً وعدواناً يصبحون مغمورين في سخط من الله، ويمسون في غضب منه. وهؤلاء قد وجدوا منذ أيام دولة الأمويين وامتدوا إلى وقتنا هذا، فلم يخلُ من وجودهم عصر من العصور، ولكنهم في عصرنا كثروا واشتدت على الناس قساوتهم، وخاصة على المؤمنين والمتدينين.

❊ ❊ ❊

❊ موت الفجاة

[١٣٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة موت الفجأة**».

رواه أبو عمرو الداني في «الفتن» رقم (٣٩٥) عن الشعبي مرسلاً بسند حسن.

ورواه عبدالرزاق في الجنائز من «المصنف» (٥٩٧/٣)، والطبراني في الصغير عن أنس من طريقين، فإذا ضما إلى مرسل الشعبي كان حسناً.

«الفجأة» بفتح الفاء وسكون الجيم وتفتح: هي البغتة، والمراد بها هنا ما يسمونها اليوم بالسكتة القلبية وهي من علامات الساعة، وقد كانت في كل عصر لكنها اليوم تكاثر الموت بها، وهي راحة على المؤمن.

❊ ❊ ❊

❋ انتشار دين الإسلام وظهوره على سائر الأديان

[١٣٨] عن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عِزًّا يُعِز الله به الإسلام، وذُلاً يُذِلُّ به الكفر»**.

رواه أحمد (٤/٦)، وابن حبان في صحيحه (٩٣/٩٢/١٥)، والحاكم (٤٣٠/٤)، والبيهقي في السنن (١٨١/٩) وغيرهم بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

«هذا الأمر»: يعني دين الإسلام. «بيت مدر» أي: الدور المبنية. و«وبر»: هي خيام شعر الإبل.

من أشراط الساعة المستمرة ظهور دين الإسلام وانتشاره في العالم ودخوله الحواضر والبوادي وقد وقع ذلك والحمد لله أيام الصحابة فمن بعدهم بقريب، بحيث لم تمض المائة الأولى للهجرة حتى انتشر في المشارق والمغارب وبقي في انتشار حتى يومنا هذا، فقد دخل اليوم الإسلام أوروبا وأمريكا في غرب الأرض كما دخل آسيا شرقيها وجنوبها وشمالها، ولا يمر يوم أو شهر أو عام إلا ويدخل الإسلام في هذه البلدان المئات والألوف من الناس، وأصبح للإسلام منظمات للداخلين في الإسلام يدعون إليه ويدعمونهُ، فالإسلام ظاهر والحمد لله وإن ضعف أهله مادياً ومعنوياً.

❋ ❋ ❋

❋ من أشراط الساعة فتح القسطنطينية وروما

[١٣٩] عن أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو روما؟ فدعا عبدالله بصندوق له حِلَقٌ، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتبُ إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تُفتحُ

أولاً أقُسطُنطينيّة أو روما؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مدينة هِرَقْل أولاً، يعني: قسطنطينية»**.

رواه أحمد (١٧٦/٢)، والحاكم (٤٢٢/٣) (ج٥٠٨/٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن»، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«القسطنطينية»: هي إستنبول. و«روما»: عاصمة إيطاليا.

وفتحهما من أشراط الساعة الصغرى والكبرى معاً، أما بالنسبة للصغرى فالقسطنطينية غزاها المسلمون مرات فلم يستطيعوا فتحها إلا في السنة التاسعة للهجرة، فتحها البطل محمد الفاتح العثماني، وظلت دار إسلام قروناً، ثم حكمت بلاد العرب وكانت تمثل الخلافة الإسلامية حتى جاء أتاتورك لعنه الله فجعلها علمانية ملحدة حتى وقتنا هذا، وستفتح مرة أخرى أيام المهدي وسيكون ذلك من الأشراط الكبرى. أما روما ففتحها العثمانيون وبقي نفوذهم على الإيطاليين مدة حتى ضعفوا فطردوا عنها، وسوف تفتح مرة ثانية إن شاء الله تعالى وذلك من الأشراط الكبرى أيضاً.

* * *

❊ صدق رؤيا المؤمن

[١٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا اقترب الزمانُ لم تكذ رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً»**.

رواه البخاري ومسلم وأهل البيت وتقدم في الرؤيا رقم (٧٣١).

إذا تباعد الناس عن زمان النبوة وقربت الساعة عوّض الله عزّ وجل المؤمنين عن الوحي الإلٰهي بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له بشرى له ولا تكاد تخالف الواقع ويكون ذلك علامة قرب الساعة.

* * *

❋ تتابع أشراط الساعة

[١٤١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الآياتُ خَرَزاتٌ منظومَاتٌ في سِلْك، فإن يُقْطَع السلك يتبع بعضها بعضاً**».

رواه أحمد (٢/٢١٩)، والحاكم (٤/٤٧٣/٤٧٤) من طريقين هو بهما صحيح.

[١٤٢] وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يخرج الآيات بعضها على أثر بعض تتابعْن كما تتابعُ الخَرَز في النظام**».

رواه الطبراني في الأوسط (٤٢٨٣) قال في المجمع (٧/٣٢١) ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل وداود الزهراني وكلاهما ثقة.

السلك هنا: الخيط الذي ينظم فيه خرزات الجواهر ونحوها.

والحديثان يدلان على أن أشراط الساعة يتابع بعضها بعضاً في الخروج كلما جاءت آية تتبعها أخرى وهكذا حتى تقوم الساعة، فما من عصر ووقت إلا ويظهر فيهما علامات لم تكن مضت ولا ظهرت.

* * *

❋ كفر أهل العراق، والشام، ومصر، ومنعهم حقوق اللّه

[١٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**منعت العراقُ دِرهمَها وقفِيزَها، ومنعت الشام مُدَّيها ودينارَها، ومنعت مصرُ إرْدَبَها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم**»، شهد على ذلك لحمُ أبي هريرة ودمه.

رواه أحمد (٢/٢٦٢)، ومسلم في الفتن (١٨/٢٠)، وأبو داود في الإمارة (٣٠٣٥).

«قفيزها»: بفتح القاف. «مديها»: بضم الميم وسكون الدال. «إردبها»: بكسر الهمزة وسكون الراء. وهذه كلها مكايل لهذه الأقطار كانوا يكيلون ويكتالون بها الثمار والحبوب.

والحديث فيه معجزة للنبي ﷺ بأن هذه الأقطار ستفتح ويصبح أهلها يؤدون حقوق الله الواجبة عليهم، ثم بعد ممر الزمان سيمتنعون من ذلك، وقد اختلف العلماء في توجيه هذا المنع فذكروا لمعناه ثلاثة أقوال:

الأول: إنهم عندما يسلمون ستسقط عنهم الجزية.

الثاني: معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين.

الثالث وهو الظاهر: أنهم يرتدون آخر الزمان فيمنعون ما لزمهم من حقوق الله تعالى.

وهذا ما يشير إليه الحديث فإن دول هذه الأقطار أصبحت اليوم بعد إسلامها دهراً من الزمان مرتدة علمانية ملحدة لا تعترف بكثير من شرائع الله عزّ وجل... ثم إنها تحارب من يدعوها إلى تحكيم شرع الله وتضطهد المسلمين الملتزمين وهذا شأن أكثر الدول المتمسلمة اليوم، ويؤيد ما ذكرناه قوله ﷺ آخر الحديث: «**وعدتم من حيث بدأتم**»، ومعناه: عدتم إلى كفركم الأول.

* * *

❁ القتال مع اليهود

[١٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يُقاتلَ المسلمون اليهودَ فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**».

وفي رواية: «**تقتتلون أنتم ويهود**».

وفي أخرى: «تقاتلكم اليهود فتُسَلَّطون عليهم».

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (١٨/٤٤/٤٥) بالرواية الأولى والثانية، والثالثة للبخاري في المناقب (٣٥٩٣)، وفي الجهاد (٢٩٢٥)، ومسلم في الفتن (١٨/٤٤).

«الغرقد»: بفتح الغين والقاف بينهما راء ساكنة، نوع من شجر فيه شوك.

والحديث علَم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ ومعجزة عظيمة له صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وزوجه وذريته وصحبه ومحبِّيه.

فإنه لم يكن يتصور منذ عهد قريب أن تكون لليهود قوة، وجمع لشملهم حتى يقاتلوا المسلمين حيث إنهم كانوا قطعاً في الأرض مفرّقين شذر مذر أذلاء لا قيمة لهم بين سائر الدول ولكنهم بعد عشية وضحاها أصبحت لهم دولة وقوة هائلة استطاعوا بها أن يتحدوا كل قوة المتمسلمين.

فقبل خروج الإنجليز من فلسطين سُلِّمَتْ لليهود فاستعمروها باتفاق من فرنسا وإنجلترا وأمريكا... وكوّنوا بها دويلتهم بدعم من أولئك الكفرة الملاعن وقاتلوا المسلمين وأذاقوهم سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم، ولم يزالوا كذلك لحد الساعة عام (١٤٢٧) وذلك أزيد من نصف قرن. فكان ذلك تصديقاً لقول المعصوم الصادق المصدوق ﷺ: «تقاتلكم اليهود» «تقتتلون أنتم ويهود» وأن وقوع ذلك من أشراط الساعة، وسيأتي وقت ينتصر فيه المسلمون عليهم بإذن الله ويُسَلَّطون عليهم حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيُنادى المسلم من قبل الحجر أو الشجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي مختبئاً فتعال فاقتله، وهذا لا بد أن يقع لكنه لم يَجِنْ وقته بعدُ، لأن المسلمين الذين ينتصرون على اليهود ويكرمهم الله بكلام الحجر والشجر ليسوا بالموجودين حالياً لأن الله عزّ وجل علّق نصرهم على عدوهم بنصرهم الله تعالى كما قال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وهؤلاء المسلمون الحاليون لم ينصروا الله فينصرهم، فإذا جاء من ينصره فعند ذلك سيهزمون اليهود ويقتلونهم قتلاً ذريعاً ويقطعون دابرهم،

وهذا والله أعلم لا يكون إلا زمان عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أيام قتل الدجال الذي سيفتن العالم مع اليهود كما سيأتي في الأشراط الكبرى.

أما انتصار المسلمين اليوم على اليهود فمستحيل عادة... لأن اليهود متفوقون عليهم في الأسلحة المتطورة المدمرة وفي التدريب العسكري وفي كل الماديات مع دعمهم من طرف القوة العالمية التي تمثلها أمريكا وحلفاؤها، والمسلمون الذين يحاربونهم ليس لهم شيء من ذلك، أضف إلى ذلك بُعدهم عن دينهم وضعف قوتهم المعنوية التي بها يكون النصر من عند الله ولو مع ضعف القوة المادية.

وعلى أيٍّ، فظهور دولة اليهود واجتماعهم في الشرق الأوسط وقتالهم المسلمين من علامات قرب الساعة الصغرى والكبرى، وأن ذلك ينذر بخروج الدجال وانتهاء دولتهم ومحوهم من الأرض، وكل ما هو آت قريب ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

* * *

❁ كثرة الروم من أشراط الساعة

[١٤٥] عن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**».

رواه مسلم في الفتن (٨/٢٢/٢٣).

هذه أيضاً آية أخرى ومعجزة للحبيب المصطفى ﷺ وهي تكاثر الروم قبل قيام الساعة، والمراد بالروم هم دول أوروبا الآن مع أمريكا وهم متكاثرون حالياً. وهم في ازدياد، وسيأتي وقت يكونون فيه أكثر من غيرهم، وذلك من الأشراط الصغرى والكبرى.

* * *

التسافد في الطريق

[١٤٦] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تتسافدوا في الطريق تسافد الحمير»**، قلت: إن ذاك لكائن؟ قال: **«نعم ليكونَنَّ»**.

رواه ابن أبي شيبة وابن حبان بالإحسان (١٥/١٧٠) وبالموارد (١٨٨٩)، والبزار (٣٤٠٨) وغيرهم بسند صحيح. وأخرجه الحاكم (٤/٤٥٥/٥٥٦/٤٥٧) من طريقين آخرين عنه موقوفاً وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وسيأتي في الأشراط الكبرى في ذهاب المؤمنين.

[١٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمةُ حتى يقومَ الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق، فيكونُ خيارُهم يومئذ من يقول: لو وارَيتَها وراء هذا الحائط»**.

رواه أبو يعلى (٦١٨٣) بسند صحيح، قال في «المجمع» (٧/٣٣١) ورجاله رجال الصحيح.

قوله: «تتسافدوا» التسافد هو التهارج والوقوع على النساء جهاراً كالحمير.

قال النووي في شرح حديث النواس الآتي: أن يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير.

وما ذكره النبي ﷺ في هذين الحديثين قد ظهرت بوادره في عصرنا هذا وخاصة في بلاد الغرب من دول أوروبا كفرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وأمريكا وغيرها، فإنهم باعتبارهم لا يمنعون الزنا ولا يعترفون بتحريمه، لهم دور وأحياء خاصة بالزنا والزناة، ولمن يتعاطى الزنا من النساء حقوق وقوانين اجتماعية معترَف بها من طرف دولهم، ولذلك فإن تعاطي الزنا وممارسته لا يتحاشون عنه ولا يستحيون منه أمام الناس، وقد ذكر من عاش عندهم من المسلمين أن لهم دوراً وأندية تجمع العراة والعرايا، ويتلبسون بالزنا مجتمعين هذا هنا وآخر هناك... من غير أن يتستروا عن بعضهم

بعضاً، وقد يوجد في الشوارع وفي الحدائق العامة والمنتزهات رجال ملتصقون بالعواهر أو الخليلات يزنون بهن من قيام، وما لنا نذهب بعيداً فهذه المحطات الفضائية التلفزيونية تعرض على شاشاتها من ذلك ما يشاهده كل من استعرضها مما يستحيي منه إبليس، وفي البلاد الإسلامية قريب مما عند الغربيين وهم في طريق ذلك، بل قد شوهد تعاطي الزنا عندنا بالمغرب تحت أشجار البساتين وعند جدرانها أيام الاحتلال الإسباني لطنجة في الأربعينيات.

وكان المستعمرون قد أعلنوا الزنا رسمياً في جميع البلاد الإسلامية التي استعمروها، وكانوا عيّنوا لذلك أحياء خاصة في كل مدينة لا يمنع من ذلك مريدوه، وطبقوا ذلك على المسلمين كما هو موجود في بلادهم، وهذا كله من علامات الساعة، وسيأتي وقت لاحقاً يتسافد فيه النساء والرجال في الطرقات جهاراً أفشى وأكثر مما يوجد عند أوروبا وأمريكا الآن، وسيكون ذلك من الأشراط الكبرى، وسوف نعود لذكر ذلك في حديث النواس وغيره.

* * *

❋ ذهاب العقول

[١٤٨] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن بين يدَي الساعة الهَرْج القتل؛ ما هو قتل الكفار، ولكن قتل الأمّة بعضها بعضاً، حتى إنّ الرجل يلقاه أخوه فيقتله، يَنْتزعُ عقولُ أهل ذلك الزمان، ويَخلُف لها هباء من الناس يَحسِبُ أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء»**.

رواه أحمد (٤/٣٩١/٣٩٢/٤٠٦/٤١٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٩) من طرق بعضها صحيحة، ولفظ ابن ماجه ورواية لأحمد: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله إنا نقتل الآن في العام الواحد من المشركين كذا وكذا، وفي رواية: سبعين ألفاً، فقال رسول الله ﷺ: **«ليس بقتل**

المشركين ولكن يقتل بعضكم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره، وابن عمه، وذا قرابته»، فقال بعض القوم: يا رسول الله ومعنا عقولنا ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ: **«لا، تُنزعُ عقول أكثر ذلك الزمان، ويَخلُف له هباء من الناس لا عقول لهم»**.

قوله: «هباء» بفتحتين هو الذر الذي يبدو صغيراً في كوة شعاع الشمس، ومراده في الحديث يظهر أقوام سقطاء لا عقول لهم.

في الحديث معجزة للنبي ﷺ في إخباره بنزع العقول من الناس بين يدَي الساعة، وأنهم سيصبحون لذلك لا يتحاشون عن سفك دماء بعضهم بعضاً فيقتل الرجل أخاه وابن عمه وقريبه وجاره، لأنه فاقد العقل وبالتالي فاقد الدين، ومَن كان كذلك فلا زاجر يزجره، ولا مانع يمنعه من سفك دماء الأبرياء..

وهذا قد تقدم منذ أزمنة وممتد في جميع العصور حتى عصرنا هذا الذي كثر فيه القتل وذهبت عقول الناس وأصبحوا كالبهائم والمجانين.

هذا ما أردنا ذكره مما صحّ أو حسن من أشراط الساعة الصغرى وما يقاربها إلى عصرنا هذا، وقد ذكرت منها نحواً من ستين علامة أو أكثر، وقد أعرضت عن كثير مما ذكره مَن ألّف في الأشراط حيث إنهم أدرجوا في ذلك أحاديث موضوعة وواهية وذكروا في ذلك أخباراً وآثاراً ساقطة لا ينبغي للمسلم الاشتغال بها، ومَن رجع إلى «تذكرة» القرطبي، و«الإشاعة» للبرزنجي، وكذا «الإذاعة» للقنوجي، بل و«الموسوعة» لماهر الصوفي، رأى الكثير من هذه الأباطيل والموضوعات.

* * *

❁ الأشراط الكبرى

الأشراط الكبرى هي التي إذا جاءت وظهرت قامت القيامة على أثرها وهي ظهور المهدي، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وظهور الدخان، وطلوع الشمس من مغربها،

وخروج الدابة، وذهاب الإيمان، ورفع القرآن، وكفر الناس وعبادتهم الأوثان، وهدم الكعبة، وقطع الحج، ووقوع الخسوفات الثلاثة، وقبض أرواح المؤمنين، وخروج النار من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر...

وسنتكلم عليها جميعها على شرطنا بإذن الله وعونه تعالى مرتّبة حسب ما جاءت به الأحاديث النبوية وما سنختاره.

* * *

❋ مبادرة الأشراط الستة بأعمال البِر

[١٤٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم**».

رواه أحمد (٢/٣٣٧/٣٧٢/٤٠٧/٥١١)، ومسلم (١٨/٨٧). وابن ماجه (٤٠٥٦) كلاهما في الفتن.

«خويصة أحدكم»: هو الموت.

في الحديث الشريف الإرشاد من حضرة النبي ﷺ إلى المسابقة إلى الإتيان بالأعمال الصالحة والمسارعة إلى الإكثار منها قبل حلول هذه الأشراط الستة وذلك لما لنزولها من الأهوال التي تداهم الناس وتحول بينهم وبين الإتيان بأعمال الخير، وهذه الأشراط ستأتي واحدة واحدة.

* * *

❋ خروج الإمام المهدي عليه السلام

[١٥٠] عن أبي سعيد وجابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يكونُ في آخر الزمان خليفةٌ يقسمُ المال ولا يَعُدُّه**».

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خلفائكم خليفةٌ يحثو المال حَثْياً لا يعده عدداً»**.

رواه أحمد (٣/٣١٧/٣١٨/٣٣٣)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٩).

«الحثو والحثي»: هو الحفن باليدين.

وهذا الخليفة المبهم هنا الذي يحثي المال حثياً ولا يعده عدًّا هو الخليفة المهدي الذي جاء مبيّناً في أحاديث أخرى التي جاءت عن النبي ﷺ من طرق متواترة كما نصّ على ذلك جمع من أهل العلم والحديث، منهم الحافظ في «الفتح»، والسخاوي في «شرح ألفية الحديث»، والسيوطي في «الأزهار المتناثرة»، وابن حجر الهيتمي في «الصواعق المحرقة»، والزرقاني في «شرح المواهب»، والشوكاني والقنوجي في كتابين لهما في ذلك.

وأحاديث خروجه الصريحة جاءت عن نحو من ثلاثين صحابياً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر كما قال العلماء، وأخرجها الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وأبو يعلى والحاكم وغيرهم من طرق وأسانيد مختلفة المراتب، من أصحها بعد الحديث المتقدم؛ الآتي:

[١٥١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعثَ فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي يواطىء اسمُه اسمي»**.

رواه أحمد (١/٣٧٧/٤٤٨)، وأبو داود في المهدي (٤٢٨٢)، والترمذي في الفتن (٢٦٠) من طرق صحيحة، وحسّنه الترمذي وصححه، وأحد الطريقين عند الترمذي على شرط مسلم.

[١٥٢] وعن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لو لم يبقَ من الدهر إلا يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً»**.

رواه أبو داود (٤٢٨٣) بسند حسن.

[١٥٣] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المهدي، من عِتْرتي، من ولد فاطمة**».

رواه أبو داود (٤٢٨٤)، وابن ماجه (٤٠٨٦) كلاهما في الفتن بسند حسن صحيح.

[١٥٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني أجْلَى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين**».

رواه أبو داود (٤٢٨٥) وسنده حسن.

وفي رواية له عند الترمذي (٢٠٦١) وابن ماجه (٤٠٨٣) عن أبي سعيد قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث، فسألنا نبي الله ﷺ فقال: «**إن في أمتي المهدي يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً**». زيد الشاك قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «**سنين**»، قال: «**فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني أعطني**»، قال: «**فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله**».

وحسّنه الترمذي وذلك لشواهده.

قوله: «يواطىء اسمه» أي: يوافقه. وقوله: «أجلى الجبهة» أي: عاريها من الشعر. وقوله: «أقنى الأنف» أي: مرتفع وسط قصبة أنفه مع ضيق المنخر.

وفي هذه الأحاديث أمور:

أولاً: اتفق علماء أهل السنة على أنه لا تقوم الساعة حتى يبعث الله خليفة يقال له: المهدي من أهل البيت يحيي الله به ما اندثر من آثار السنّة النبوية، ويميت به ما شاع من ضلالات أهل الباطل وذاع وانتشر، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يحثو المال حثياً ولا يعده عداً.

واتفقوا على أن الإيمان بخروجه واجب، واعتقاد ظهوره محتم لازم،

حتى ذكروه في جملة العقائد الإسلامية. قال السفاريني في «الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية».

وما أتى في النصّ من أشراط ... فكلُّه حقٌّ بلا شطاط
منها الإمامُ الخاتمُ الفصيحُ ... مُحمدٌ المهْدِي والمَسيحُ

قال في «شرحه لوائح الأنوار»: قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل: «لا مهدي إلا عيسى»، والصواب الذي عليه أهل الحق أن المهدي غير عيسى وأنه يخرج قبل نزول عيسى عليه السلام، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عُدَّ من معتقداتهم... إلخ.

وقال ابن خلدون في «مقدمته»: اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، يكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.

ثانياً: دلت هذه الأحاديث على أن اسمه محمد بن عبدالله وأنه من ولد فاطمة بنت سيد العالمين ﷺ، واتفق العلماء على أنه من ذرية الحسن وأنه سيولد آخر الزمان ويُصلحه الله في ليلة، أما ما يذكره الشيعة الإمامية من المهدي المسمى عندهم محمد بن الحسن العسكري الذي غاب في سرداب سامراء وهم ينتظرون خروجه منذ القرن الثالث فهي خرافة من خرافاتهم الكثيرة.

ثالثاً: من صفاته أنه أجلى الجبهة أقنى الأنف، وأنه يعطي الناس المال بالحفنات بدون عد ولا حساب، وذلك لما سيفتح الله عزّ وجل في عصره من خيرات الأرض وبركاتها كأيام عيسى عليهما السلام.

رابعاً: سيكون وقت خروجه عندما تملأ الأرض بالظلم والجور بل

والكفر والإلحاد والعلمانية وهو عصرنا، إذ لا مزيد على ما نعايشه فيملأها قسطاً وعدلاً.

خامساً: في قوله ﷺ: «**يملأ الأرض قسطاً وعدلاً**»، ظاهره يدل على أنه سيملك كل المعمور، وقد قيل ذلك، لكن هذا غير مقطوع به، لما جاء بأنه سيملك بلاد المسلمين فقط، فالله تعالى أعلم.

سادساً: في حديث أبي سعيد أنه سيمكث خليفة راشداً سبع سنين، وفي آخر أيامه يأتي الدجال كما يأتي قريباً.

* * *

❊ أحاديث أخرى تزيد بياناً للإمام المهدي

[١٥٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج في آخر أمتي المهدي يُسْقيه الله الغيث، وتُخرجُ الأرض نباتها، ويُعطى المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً** ـ يعني حججاً ـ».

رواه الحاكم (٤/٥٥٨) وصححه.

[١٥٦] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي منا أهل البيت يُصلحه الله في ليلةٍ**».

رواه أحمد (١/٨٤)، وابن ماجه (٤٠٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٧٧) وفي تاريخ أصبهان (١/١٧٠) من طريقين هو بهما صحيح.

[١٥٧] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السُّودُ من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يُقتلْه قومٌ**» ثم ذكر شيئاً لا أحفظه، فقال: «**فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي**».

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٨٤)، والحاكم (٤/٤٦٣)، وكذا أحمد (٥/٢٧٧)، وصححه الحاكم والبوصيري في الزوائد.

وقال ابن كثير في «النهاية»: وهذا إسناد قوي صحيح.

ففي هذه الأحاديث صفات لهذا الإمام ولوقته، ولجهة خروجه. ففيها أن الله عزّ وجل يخرج للناس في أيامه خيرات الأرض وبركاتها، وأنه سيصلحهُ الله في ليلة، وليس كما يقول الرافضة المخذولون. وأن الخلفاء سيقتتلون على كنز ثم يستأثر به واحد منهم، فإذا كان آخر الزمان جاء أقوام من جهة المشرق فتكون بينهم وبين الناس معارك طاحنة ويكون فيها المهدي، فإذا رؤي وجب على الناس مبايعته ولو حبواً ليبايعوه لأنه الإمام المنتظر.

وهذا الكنز الذي سيقع عليه القتال قد يكون كنز الكعبة كما قال جماعة، وقد يكون كنزاً آخر من كنوز الأرض، ومنها البترول الذي يقتتل عليه الناس اليوم فالله أعلم بمراد نبيه ﷺ.

وقال ابن كثير في «النهاية» أيضاً: والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء حتى يكون آخر الزمان فيخرج المهدي ويكون ظهوره من بلاد المشرق لا من سرداب سامراء كما يزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك ولا برهان لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان. ثم ذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تخرج من خراسان رايات سود فلا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء»** رواه الترمذي واستغربه.

قال ابن كثير: وهذه الرايات ليست هي التي أقبل بها أبو مسلم الخراساني فاستلب بها دولة بني أمية في سنة ثنتين وثلاثين ومائة، بل رايات سود أُخر تأتي صحبة المهدي وهو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله تعالى عنه يُصلحه الله في ليلة واحدة، أي: يتوب عليه

ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك، ويؤيده بناس من أهل المشرق ينصرونه ويقيمون سلطانه ويشيدون أركانه وتكون راياتهم سوداً أيضاً وهو زي عليه الوقار...

وظاهر حديث ثوبان أن هذا الإمام سيأتي من جهة المشرق وأنه سيولد هناك، وجاء في بعض الأحاديث الضعيفة أنه سيولد بالمدينة ويبايع بمكة بين الركن والمقام، ولا يصح شيء في ذلك، بل حديث الرايات نفسه مطعون فيه، وردت بعضُ طرقه وألفاظه في الموضوعات.

والذي يعنينا هو إثبات خروج المهدي ليُصلح عالمنا الموبوء الفاسد، أما ما عدا ذلك مما ذكره مَن ألّف فيه من الصفات وعلامات خروجه وموضع بيعته وولادته... فكل ذلك لا يصح منه شيء، وسيأتي في ذكر عيسى عليه السلام أن المهدي سيؤم به تكرمة لهذه الأمة.

* * *

❋ آراء متطرفة في المهدي

رغم ما جاء من الأحاديث المتواترة في هذا الإمام وخروجه ورغم أن خروجه ذكروه من المعتقدات، نجد بعض من ينتسب إلى العلم ينكر خروجه حتى إن رشيد رضا وفريد وجدي وغيرهما من السابقين واللاحقين أنكروه وحكموا على أحاديثه بالبطلان، وهذه وصمة في جبينيهما، والذي حملهما على ذلك هو الرد على الرافضة وسد باب دعاة المهدوية وهم كثيرون في الأمة، وهذه الشبهة لا تبرر لهم ردهم للأحاديث الصحيحة.

وفي مقابل هؤلاء من أثبته وتغالى في أخباره وصفاته، وبالرجوع إلى تذكرة القرطبي وغيرها، ترى ما تتعجب منه من الأخبار الباطلة التي لا دليل لها، والله تعالى الموفق والهادي للصواب.

* * *

❊ المَلحمة الكبرى وفتح القُسْطُنطينية وخروجُ الدجّال

[١٥٨] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عُمران بيت المقدس خرابُ يَثرب، وخرابُ يَثرب خروج الملحمة، وخروجُ الملحمة فتح القُسْطُنطينية، وفتحُ القُسْطُنطينية خروج الدجال**».

رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٤) بسند حسن.

[١٥٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: فتح القسطنطينية مع قيام الساعة.

رواه الترمذي في الفتن وسنده صحيح وهو مرفوع حكماً.

قال الترمذي: والقسطنطينية هي مدينة الروم تُفتح عند خروج الدجال.

[١٦٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**هل سمعتم بمدينة جانب منها في البر، وجانب منها في البحر؟**»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحدُ جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيُفَرَّجُ لهم فيدخلونها فيَغْنَمون، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٤٣/٤٤).

وقوله من بني إسحاق: هذه الكلمة شاذة وهم فيها بعض الرواة بل الصواب من بني إسماعيل.

[١٦١] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعةُ حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافُّوا قالت الروم: خلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منّا**

نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نُخَلِّي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثُلُثُهم أفضل الشهداء عند الله تعالى، ويفتتح الثلث لا يُفتَنُون أبداً فيفتتحون القُسْطُنطينية، فبينما هم يَقْتَسِمون الغنائم قد علّقوا سيوفَهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعِدُّون للقتال يُسَوُّون الصفوفَ إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأمّهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملحُ في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٢٠/٢١/٢٢).

«الأعماق، أو دابق»: موضعان بالشام قرب حلب.

[١٦٢] وعن يُسَيْر بن جابر قال: هاجت ريحٌ حمراءُ بالكوفة فجاء رجل ليس له هِجِّيرى، إلاّ يا عبدَالله بن مسعود جاءت الساعةُ، قال: فقعد وكان متكئاً، فقال: إن الساعة لا تقومَ حتى يُقسمَ ميراثٌ، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ونحّاها نحو الشام فقال: عَدُوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهلُ الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم وتكون عند ذاكم القتال ردّةٌ شديدة، فيشترط المسلمون شرْطةً للموت لا ترجع إلا غالبةً فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشُّرْطةُ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يُمْسوا فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدَّيْرَةَ عليهم فيقتلون مقتلةً، إما قال: لا يُرى مِثلُها، وإما قال: لم يُرَ مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يُخَلِّفَهم حتى يخر ميتاً، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد فبأي غنيمة يُفرح، أو أي ميراث يُقسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا يأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرةَ فوارس

طليعةً. قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»**.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٢٣/٢٤/٢٥).

قوله: «شرطة للموت» هو بضم الشين وسكون الراء، الشرطة: طائفة من الجيش تقدم للقتال. «فيفيء» أي: يرجع. «الديرة» بفتحات، أي: الدائرة والهزيمة. وقوله: «نهد» بفتح النون والهاء، أي: نهض وتقدم.

في هذه الأحاديث تنبؤات ومعجزات للنبي ﷺ وبيان أشراط الساعة الكبرىٰ وما يقاربها ويتضح بيانها في الآتي:

أولاً: عمران بيت المقدس وقد ظهرت بوادر ذلك باحتلال اليهود إياه ومحاولاتهم جعله عاصمة لهم، وهذا سيعقبه خراب المدينة المنورة التي كانت تسمى في الجاهلية يثرب، فالله تعالى أعلم كيف يكون خرابها، على أنها قد خربت آخر أيام العثمانيين ولم يبقَ فيها ساكن إلا الجيش التركي.

ثانياً: إذا خربت المدينة جاءت الحرب العظمى، والملحمة الكبرى، وهي المذكورة في حديثَي أبي هريرة، وستكون موطئة لفتح القسطنطينية التي هي إستانبول، هذه الحرب الضروس ستكون بين المسلمين والروم الذين هم أوروبا وأمريكا، وتركيا من جملتهم فهم معهم في سوقهم وسياستهم...

ثالثاً: فتح إستانبول سيكون بعد معارك طاحنة وقتال شديد سيستشهد فيه عدد كبير من المسلمين وستدوم المعارك أياماً ينهزم فيها المسلمون غير ما مرة، ثم يكون النصر لهم والدائرة على الكفار.

رابعاً: في هذه الملحمة العظمى ستجتمع لها جيوش عرمرمة من الجانبين ويكون الكفار من الأتراك وحلفائهم هم البادئون والمهاجمون لديار الإسلام فيأتيهم المسلمون من كل جهة حتى من المدينة النبوية، فيجتمعون بالشام، وبه ستكون بداية المعارك ثم تنتهي بنصر الجيوش الإسلامية ويدخلون تركيا ويفتحون إستانبول. وانظر ما سبق تحت عنوان الفتوحات الإسلامية.

خامساً: وقع إشكال للأقدمين في فتح إستانبول قبل قيام الساعة مع فتحها في القرن التاسع وانتشار الإسلام فيها ولم يكونوا يعلمون أن دولة تركيا ستصبح مرتدة علمانية تحارب الإسلام والمسلمين كبقية أكثر الدول التي تحكم ديار المسلمين وشعوبها اليوم.

سادساً: في حديث أبي هريرة الأول أن المسلمين سيفتحون إستانبول بالتكبير وليس بالقتال، بينما ظاهر حديثه الثاني مع حديث ابن مسعود أن فتحها سيكون بعد قتال ومعارك، فالله تعالى أعلم بمراد نبيه ﷺ بذلك، وما قدّره الله مما سيقع.

سابعاً: هذه الأحاديث صريحة في أن خروج الدجال لعنه الله سيكون عقب فتح إستانبول مباشرة، وذلك ظاهر في أنه سيقع آخر أيام المهدي، وأن هذه الحرب العظمى والفتح سيكونان على يد أصحابه، والله تعالى أعلم.

هذا ما ظهر لنا من الأحاديث، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

* * *

❁ اخبار خروج الدجال وما جاء فيه الإنذار بخروجه

[١٦٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأنذركُمُوه وما من نبي إلا أنذر قومه، لقد أنذر نوحٌ قومه، ولكني سأقول لكم قولاً لم يقُلْه نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**».

رواه أحمد (١٤٩/٢)، والبخاري في الأنبياء وفي الفتن وفي التوحيد (٢٠٦/١٦)، ومسلم (٥٥/١٨) في الفتن، وأبو داود (٤٧٥٧) في السنة، والترمذي في الفتن (٢٠٦٤) بتهذيبي.

«الدجال»: مأخوذ من الدجل وهو التغطية، وسمي الكذاب دجالاً لأنه

يغطي الحق بباطله وكذبه ويموه على الناس. وقد اختلف في سبب تسميته دجالاً على عشرة أقوال كما قال القرطبي في «التذكرة» فانظر ذلك.

وخروج الدجال من الأشراط الكبرى بالاتفاق، وفتنته عظيمة كما يأتي. ولخطره على المؤمنين حذّر منه كل الأنبياء أممهم وخوّفوهم من عظيم فتنته، وقد ثبت عن النبي ﷺ: **«إنكم ستفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال»**، وهذا شيء عظيم، فإن فتنة القبر أفظع ما ينتظر ومع ذلك ففتنة الدجال أعظم منها.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في **«الإكمال»**: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يُعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره ويقتله عيسى ـ صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وصحبه وسلّم، ويثبّت الله الذين آمنوا.

قال: هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظّار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة...

قال: وإنما يدّعي الإلهية وهو في نفس دعواه مُكَذِّبٌ لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفاً من أذاه، لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول، وتحيّر الألباب، مع سرعة مروره في الأمر، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة، ولهذا حذّرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته، ونبّهوا على

نقصه ودلائل إبطاله. وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذّبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلا بصيرة...

ثم إن الكلام على الدجال يرتكز على الآتي:

متى يخرج؟ ومن أين يخرج؟ وهل هو موجود أم سيولد؟ وما صفته؟ وما الذي يدّعيه؟ وكيف تكون فتنته؟ ومن سيؤيده وينصره أول؟ وما هي عاقبته؟

❑ أولاً: وقت خروج الدجال:

أما وقت خروجه فقدّمنا آنفاً، أنه سيخرج بعد المقتلة العظمى وفتح القسطنطينية.

❑ ثانياً: من أين يخرج الدجال:

أما موضع خروجه فيوضحه لنا الحديث التالي:

[١٦٤] عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها: خراسان...**».

رواه أحمد (٧/٤/١)، والترمذي (٢٠٦٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٤٥٢٢) كلاهما في الفتن، والحاكم (٥٢٨/٥٢٧/٤) وسنده صحيح.

فالحديث الشريف نصّ في أن الدجال سيخرج من المشرق، أي: مشرق المدينة، ويأتي حديث أبي هريرة: «**يأتي المسيح من قبل المشرق**» وذكر هنا أنه سيخرج من خراسان. وخراسان مناطق واسعة في إيران، وتجاور الشام والعراق، وسيأتي في حديث النواس الطويل: أنه يخرج ما بين الشام والعراق، وبالضبط سيخرج من جزيرة مهجورة هنالك يوجد الدجال بها لم يصل إليها أحد لحد الساعة، كما رأيناها في الخريطة، ويأتي في ذلك حديث تميم الداري إن شاء الله تعالى وهو الآتي عقبه:

ثالثاً: هل الدجال موجود:

أما هل هو موجود أم سيولد بعد؟ فحديث تميم الداري يوضح لنا ذلك وأنه كان أيام النبوة موجوداً مسلسلاً في جزيرة.

[١٦٥] فعن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها أنها كانت تحدّث أنها لما انقضت عدتها من موت زوجها وهي في بيت ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه سمعت نداء المنادي، منادي رسول الله ﷺ ينادي: «**الصلاة جامعة**»، فخرجتُ إلى المسجد فصلّيتُ مع رسول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاتَهُ جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «**لِيَلْزَمْ كل إنسان مُصَلاَّه**»، ثم قال: «**أتدرون لِمَ جمعتُكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إني والله ما جمعتكم لرغبة، ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْم، وجُذام... فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقْرُب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابةٌ أهلب، كثير الشعر، لا يدرون ما قُبُله من دبُره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسةُ، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّيْر فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدَّيْر فإذا فيه أعظمُ إنسان رأيناه قط خَلْقاً، وأشدُّه وِثاقاً، مجموعةٌ يداه إلى عُنُقه ما بين ركبتَيْه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتُم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغْتلم فلعب بنا الموجُ شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلبُ كثير الشعر لا يُدرى ما قُبُله من دُبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلكِ ما أنتِ؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدَّير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال:**

أخبروني عن نخل بَيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: عن نخلها هل يُثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بُحَيرة الطَّبَرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زُغَر؟ قالوا: هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتَلَه العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنعَ بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك، قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خيرٌ لهم أن يطيعوه وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذنَ لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخلَ واحدةً أو واحداً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلتاً يصدني عنها، وإن على كل نَقْبٍ منها ملائكة يحرسونها، قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمِخْصَرتِه في المنبر: هذه طَيْبةُ، هذه طَيْبةُ، هذه طَيْبةُ» يعني: المدينة، «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم «فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو...» وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٨٠/٨٣)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٥/٤٣٢٦/٤٣٢٧)، والترمذي في الفتن (٢٠٨١) بتهذيبي، وهو عند أحمد أيضاً (٦/٣٧٣/٣٧٤/٤١٢/٤١٣/٤١٧/٤١٨) من طرق.

قوله: «أرفأوا» أي: التجأوا. «أقْرُب السفينة»: بضم الراء جمع قارب وهي مركب صغير يكون بجنب السفينة. قوله: «دابة أهلب» أي: شعره غليظ. وقوله: «إلى خبركم بالأشواق» أي: شديد الأشواق إلى خبركم. قوله: «فرقنا منها» أي: خفنا. قوله: «حين اغتلم» أي: هاج وجاوز حد المعتاد. قوله: «عين زغر» بضم الزاي وفتح الغين، بلدة شرقي الشام.

«طيبة»: هي المدينة النبوية. «بيده السيف صلتاً»: بفتح الصاد وضمها، أي: مسلولاً. وقوله: «ما هو من قبل المشرق» ما صلة زائدة وليست بنافية، والمراد إثبات أنه في جهات المشرق.

فالحديث نص في أن الدجال كان أيام النبوة موجوداً مغلولةً يداه إلى عنقه مقيّدة رِجلاه بالسلاسل، وأنه لا زال هنالك في جزيرة من جزر خراسان حتى يخرج في وقته الذي حدّد له ويطوف الدنيا غير مكة والمدينة.

غير أننا لا ندري متى وأين ولد ومَن أوثقه هنالك، وهو يدل على أنه من المُعَمّرين، وهو أيضاً نص في أنه موجود في المشرق، والظاهر أنه في جزيرة تحد بالبحر العربي الخليجي، وقد قدّمنا ذلك سابقاً.

وفي الحديث رواية الأكابر عن الأصاغر حيث سمع النبي ﷺ حديث الجساسة هذا من تميم الداري، ورواه عنه وأخبر به الصحابة وصدقه بما أوحى الله تعالى إليه قبل ذلك.

أما باقي أبحاث الحديث فتأتي لاحقاً إن شاء الله تعالى.

❑ رابعاً: صفة الدجال:

أما صفة الدجال فهو بالاتفاق رجل من بني آدم عظيم الخلقة شاب شعره جعد قطط، عينه اليمنى عوراء طافية كالعنبة وعلى عينه اليسرى ظَفَرَةٌ غليظة، مكتوب بين عينيه كافر (ك ف ر) يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، ويدل لما ذكرناه الآتي:

[١٦٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيتني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لِمَّةٌ كأحسن ما أنت راء من اللِّمَم قد رجّلها فهي تقطر ماء، متكئاً على رِجلين أو على عواتق رِجلين، يطوف بالبيت فسألتُ مَن هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم، قال: ثم إذا أنا برجل جعد قَطَط، أعور العين اليمنى، كأن عينَه عنبةٌ طافيةٌ فسألتُ مَن هذا؟ قالوا: هذا المسيح الدجال».**

رواه البخاري في الفتن (٢١١/١٦) وفي التعبير وغيرهما، ومسلم في الإيمان (٢٣٣/٢).

وقوله: «عنبة طافية» وردت طافية بالياء، أي: بارزة ناتئة كبروز العنبة، وهذه الرواية هي التي صححها الجمهور، ووردت بالهمزة، ومعناها ذهب ضوءها وطمست. وقوله: «جعد قطط» بفتح الطاء وكسرها، ومعناه: أن شعره كشعر السودان شديد الجعودة.

[١٦٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: **«إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور»** وأشار بيده إلى عينه **«وإن المسيح الدجال أعورُ عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»**.

رواه البخاري في الأنبياء، ومسلم في الفتن (٥٩/١٨) والترمذي (٢٠٦٩).

[١٦٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه ك ف ر»**.

رواه البخاري (٢١٤/١٦)، ومسلم (٥٩/١٨) كلاهما في الفتن والترمذي كذلك (٢٠٧٣).

[١٦٩] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدجال ممسوح العين عليها ظَفَرةٌ غليظةٌ، مكتوب بين عينيه كافرٌ يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»**.

رواه مسلم في الفتن (٩١/١٨) ويأتي مطولاً. وفي رواية له: **«أعور العين اليسرى»**.

قوله: «عليها ظفرة» بفتحات: هي جُلَيْدَة تغشى العين.

ففي هذه الأحاديث بيان لصفات المسيح الدجال.

ففيها أنه رجل وأنه شاب كما يأتي في حديث النواس، وأنه أعور

العين اليمنى بارزة كالعنبة واليسرى عليها جليدة قد غشتها، وأن له شعراً جَعْداً قَطَطاً كشعر السودان وأنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرؤها كل مؤمن سواء كان كاتباً أم أمّيًا.

وقد تقدم في حديث الجساسة: أنه عظيم الخلقة شديدها، وفي قوله ﷺ: «**إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور**»، إشارة إلى أن الله تعالى كامل له بصرٌ لا كأبصارنا، والدجال ناقص معيب فليس برب فهو كذاب في دعواه.

❑ خامساً: من ينصر الدجال ويؤيده أول أمره:

إن الذين ينصرون الدجال أول أمره، هم اليهود والعجم من الأتراك.

[١٧٠] فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَتْبَعُ الدجالَ من يهودِ أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة**».

رواه أحمد ومسلم في الفتن (١٨/٨٥/٨٦).

«أصبهان»: بالباء والفاء، هي الآن من إيران.

[١٧١] وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها: خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجانُّ المُطرَقَةُ**».

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح، وتقدم رقم (١٥٩) مختصراً.

«المجان»: جمع مجنة وهو الترس والدرقة. و«المطرقة»: بضم الميم وسكون الطاء ثم راء مفتوحة، هي التي جعل عليها طبقة فوق طبقة لتقوى على رد الرماح والسيوف.

فالحديثان يدلان بظاهرهما على أن أول من يتبع الدجال يهود إيران الذين يسكنون بأصبهان الإيرانية، والعجم من الأتراك المجاورين لإيران الذين ذكرت صفتهم في الحديث.

فهؤلاء هم أول من يؤيده لأنه سيخرج من جهتهم ثم بعد تنتشر دعوته حتى تعم المعمورة.

وحديث أنس يدل على أن أصبهان الإيرانية سيسكنها اليهود في القريب العاجل إن لم يكونوا بها الآن.

❊ ❊ ❊

❊ تطواف الدجال بالأرض وفتنته وكيف يكون أمره ثم عاقبته

إن الدجال الأعور الكذاب إذا خرج كوّن جيوشاً عرمرمة من أتباعه ثم يدّعي الربوبية فيسخّر الله تعالى له ما يريد من الكائنات فيطوف الأرض يفتن الناس معه جنة ونار فيمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وباقي الأيام كأيامنا، وأخيراً يأتي المدينة النبوية فيمنع من دخولها ثم يقصد الشام فيستقر مع اليهود بفلسطين فينزل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيذهب إليه فيقتله بباب مدينة لُدٍّ الفلسطينية.

ويدل لهذه الفذلكة الآتي من الأحاديث مع تحليلها.

[١٧٢] عن حذيفة وعقبة بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال في الدجال: «**يخرجُ وإن معه ماءً ونارًا، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تُحرِق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماءٌ باردٌ عَذْب، فمَن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه النار، فإنه ماء عذب طيّب**»، وفي رواية قال: «**لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجّجُ فإما أدرَكَنَّ أحدٌ فليأتِ النهر الذي يراه ناراً، وليغمض ثم ليُطأطىء رأسه فليشرب منه فإنه ماء بارد**».

رواه البخاري (١٦/٢١٣/٢١٤)، ومسلم (١٨/٦١/٦٢)، وأبو داود (٤٣١) كلهم في الفتن.

[١٧٣] وعن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن

الدجال أكثرَ مما سألتُه وإنه قال لي: «ما يضرك منه» قلت: إنهم يقولون: إن معه جبالَ خبزٍ ولحمٍ ونهرَ ماءٍ، قال: «هو أهون على الله من ذلك».

رواه البخاري (١٦/٢٠٥)، ومسلم (١٨) كلاهما في الفتن أيضاً.

[١٧٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرجُ الدجالُ فيتوجه قِبَلَه رجل من المؤمنين فيلقاه المَسَالِحُ مسالح الدجال فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمِد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أوَما تؤمن؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فقال: فيأمر الدجال به فيشبج، فيقول: خذوه فشبّجُوه، فيُوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أوَما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمر به فيُوشرُ بالميشار من مفرِقه حتى يُفَرَّقَ بين رِجلَيه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرةً، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يَفعلُ بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذْبَحَهُ فيجعل ما بين رقبته إلى تَرْقُوَتِه نُحَاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة»**، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا أعظمُ الناس شهادة عند رب العالمين»**.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٧٢/٧٣).

قوله: «المسالح» يعني حاملي السلاح. وقوله: «فيشبج» أي: يُمَدُّ. وقوله «فشبجوه» أي: مدُّوه للجلد، وفي رواية: «فشجوه» من الشج وهو الجرح في الرأس، والصحيح الأول. وقوله: «فيوشر بالميشار» أي: ينشر بالمنشار نصفين. وقوله: «مفرقه» بكسر الراء أي: وسطه. وقوله: «ترقوته» بفتح التاء وضم القاف هي العظم الذي بين ثغر النحر والعاتق.

وعنه في رواية: **«يأتي الدجال وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة**

فينزلُ بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرةً مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه».

قال أبو إسحاق راوي صحيح مسلم: يقال: إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام.

رواه البخاري (٢١٨/٢١٧/١٦) ومسلم (٧٢/٧١/١٨) كلاهما في الفتن.

[١٧٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نَقْبٌ إلا عليه الملائكة صافِّين يحرسونها، ثم ترجُف المدينة ثلاثَ رجَفَاتٍ فيُخرِجُ الله كلَّ كافر ومنافق...»** وفي رواية: **«فيأتي سِبْخَةَ الجُرُف فيَضرِبُ رِواقَه فيخرج إليه كل منافق ومنافقة».**

رواه البخاري آخر الحج (٤٦٧/٤)، ومسلم في الفتن (٨٥/١٨)، والترمذي (٢٠٧٠) مختصراً، وفيه: **«فلا يدخلها الطاعون ولا الدجال».**

[١٧٦] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخلُ المدينة رُعْبُ المسيح الدجال، لها يومئذ سبعةُ أبواب على كل باب ملكان».**

رواه البخاري آخر الحج (٤٦٧/٤) وفي الفتن (٢٠٧/١٦).

[١٧٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«على أنقاب المدينة ملائكةٌ لا يدخلها الطاعون ولا الدجال».**

رواه البخاري أيضاً (٤٦٧/٤).

قوله: «نقب» بفتح النون، أي: مدخل وطريق، وأصل النقب الطريق بين الجبلين، وقوله: «تَرجُفُ» أي: تتحرك تحركاً شديداً.

[١٧٨] وعن مِحْجَن بن الأدرع أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «**يوم الخلاص وما يوم الخلاص**» ثلاثاً، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: «**يجيء الدجال فيصعدُ أُحُداً فيتطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض، هذا مسجد أحمد، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نَقْبٍ من نِقابها ملكاً مُصْلِتاً سيفَه فيأتي بسبخة الجرف فيضرب رِواقه، ثم ترجُفُ المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة، إلا خرج إليه فتخلُص المدينة فذلك يوم الخلاص**».

رواه أحمد (٣٣٨/٤)، والحاكم (٥٤٣/٤) وصححه على شرط مسلم، وسنده صحيح عندهما رجاله رجال الصحيح كما قال في المجمع (٣٠٨/٣).

[١٧٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يأتي المسيح إذا جاء دُبُرَ أُحُد صرفت الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك**».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٧١) بسند صحيح على شرط مسلم.

[١٨٠] وعن مجمع بن حارثة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَقتلُ ابنُ مريم الدجالَ بباب لُدٍّ**».

رواه أحمد (٤٢٠/٣)، والترمذي (٢٠٧٢) وصححه، يعني لشواهده.

[١٨١] وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكرَ رسول الله ﷺ الدجّالَ ذات غداةٍ فخفض فيه ورفع حتى ظنَنّاهُ في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «**ما شأنُكم؟**» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداةً فخفضت فيها ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «**غيرُ الدجال أخوفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامْرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أُشَبِّهُه بعبد العزّى بن قَطَن، فمَن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا**»، قلنا: يا رسول الله

وما لَبثُه في الأرض؟ قال: **«أربعون يوماً، يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كجُمُعةٍ، وسائر أيامه كأيامكم»**، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **«لا، اقدروا له قَدْره»**، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: **«كالغيثِ استدبَرتْه الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمرُ السماءَ فتُمطِرُ والأرضَ فتنبتُ، فتروح عليهم سارحتُهم أطول ما كانت ذُرًا، وأسبغَه ضُرُوعاً، وأمدَّه خواصرَ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبة فيقول لها: أخرِجي كنوزكِ فتَتبعُه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلَتَين رَمْية الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلَّلُ وجهُه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرُودَتَينِ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسَه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجدُ ريحَ نفَسِه إلا مات ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبُه حتى يُدركه بباب لُدٍّ فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...»**.

رواه أحمد (١٨٢/١٨١/٤)، ومسلم (٧٠/٦٣/١٨)، وابن ماجه (٤٠٧٥) ثلاثتهم في الفتن.

قوله: «خلة» بفتح الخاء، أي: طريقاً بينهما. وقوله: «فعاث» أي: أكثر الفساد. وقوله: «سارحتهم» أي: ماشيتهم. وقوله: «وأسبغَه» أي: أطوله لكثرة اللبن. و«أمده خواصر»: يعني امتلاء بطنها من الشبع. وقوله: «كيعاسب النحل»: أي ذكور النحل أو جماعته: وقوله: «جزلتين» بفتح الجيم وكسرها، أي: قطعتين. وقوله: «رمية الغرض» يعني يجعل بين القطعتين من الفعل مقدار رمية الغرض يتحقق الناظرون أنه قطع نصفين. وقوله: «مهرودتين» بالدال عند الأكثر، أي: لابس ثوبين مصبوغين. وقوله: «جمان اللؤلؤ» الجمان بضم الجيم وتخفيف الميم، هي حبات من الفضة تُصنع على هيئة اللؤلؤ، ومعناه أنه ينحدر منه الماء على هذه الهيئة من

الصفاء. وقوله: «لُدّ» هو بضم اللام وتشديد الدال، مدينة بفلسطين تحت احتلال اليهود عليهم لعائن الله المتوالية.

في جملة هذه الأحاديث التسعة شرح لفتنة الدجال وطوافه الأرض وما سيفعله وما سيؤول إليه أمره، ويتضح ذلك في الآتي:

❑ أولاً: موضع خروج الدجال:

سيخرج من بلدة بين الشام والعراق، وهي خراسان كما تقدم.

❑ ثانياً: فتنة الدجال قلّ مثيلها:

[١٨٢] جاء في صحيح مسلم عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»** وفي سنن ابن ماجه (٤٠٧٧) في حديث طويل لأبي أمامة رضي الله تعالى عنه في شأن الدجال قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدَّثَنَاه عن الدجال وحذَّرَنَاه فكان من قوله أن قال: **«إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال...»**، مع ضعف فيه.

وقد قدّمنا الحديث الصحيح: **«إنكم ستفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال»**، ولا شك أن فتنة القبر أعظم وأفظع ما ينتظر الناس ويتخوّفون... ولعظيم هذه الفتنة كان النبي ﷺ يستعيذ منها في صلاته ويأمر بذلك حتى قال: **«إذا فرغ أحدكم من التشهُّد الأخير فليتعوّذ بالله من أربع: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»** رواه مسلم وغيره.

وجاء في الصحيحين من جملة دعواته: **«اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم...»** وفيه: **«ومن شر فتنة المسيح الدجال»**.

❑ ثالثاً: انواع فتنته:

فمن فتنته أنه يتظاهر بأن معه جنة وناراً ونهرين، نارٌ محرقةٌ وماءٌ باردٌ

عذب طيب وجبال خبز ولحم، فيدعو الناس إلى الإيمان به على أنه رب، فمَن آمن به أدخله جنته ومن كفر به أدخله ناره، وقد أرشدنا نبينا ﷺ بأن مَن أدركه فليكفر به وليطأطىء رأسه ويدخل ناره، وليشرب من نهره الذي يراه ناراً فسيجده ماءً بارداً طيباً وسيكون عليه برداً وسلاماً ويكون جنته، أما مَن آمن به وأدخله جنته فإنه سيجدها ناراً تتأجج وتشتعل.

ومن فتنته، أنه يأتي القوم فيدعوهم إليه فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم مواشيهم أسبغ ضروعاً وأكثر لبناً وأعظم خواصر شبعاً، ثم يأتي آخرين فيدعوهم فلا يستجيبون له ويردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ليس بأيديهم شيء يموتون جوعاً وعطشاً.

ومن فتنته، أنه يمر بالخَرِبَة فيأمرها قائلاً: أخْرِجي كنوزكِ فيتبعه كنوزُها كجماعة النحل.

ومن فتنته أنه يؤتى برجل ممتلىء شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه قطعتين ثم يدعوه فيَحْيَا ويقوم متهللاً وجهه يضحك.

ومن فتنته أن جيوشه سيلقون رجلاً مؤمناً لا يقول بدعوة الدجال فيأتونه به فيأمر به ويُمَدُّ ثم يُجْلَدُ فيقول له: أوَمَا تؤمن بي؟ فيجيبه: أنت المسيح الكذاب، فيأمر به فيُنشَرُ بالمِنْشار حتى يصير قطعتين فيمشي الدجال بينهما ثم يقول له: قم فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيجيبه بقوله: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، ثم يأخذه ليذبحه فيجعل الله تعالى ما بين رقبته وعنقه نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذفه في ناره فيظن الناس أنه ألقاه في النار، وإنما ألقي في الجنة.

قال النبي ﷺ: **«هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين»**.

ومن فتنته، أنه يأتي الأعرابي فيقول له: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك.

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٧).

❑ رابعاً: أيامُ الدجال ولَبْثُه في الأرض:

إذا خرج الدجال طاف جميع الأرض إلا مكة والمدينة، ويمكث يدعو إلى نفسه ويفتن الناس واليهود ومن آمن به يدعمونه ويساعدونه ويبقى مدة أربعين يوماً، لكن هذه الأيام يختلف بعضها عن أيامنا. فيوم منها كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وباقي أيامه كأيامنا، فإذا جمعناها وجدناها سنة وشهرين وأربعة عشر يوماً.

وفي قوله ﷺ لما سئل: فذلك اليوم الذي كسنة، هل تكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **«لا، اقْدُرُوا له قَدْرَه»** فيه دليل على أن تلك الأيام الأولى هي مغايرة للأيام العادية، ولذلك فإن أوقات الصلاة تقدر لها حسب اجتهاد أهل العلم.

قال العلماء: ومعنى **«اقدروا له قدره»** أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلُّوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلُّوا العصر، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلُّوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم الذي فيه سنة وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في أوقاتها وهكذا في الشهر والأسبوع...

وبهذا احتج بعض العلماء على أهل المناطق الجنوبية والشمالية الذين تدوم عليهم الشمس أو الليل شهوراً ونحوها، فيقدرون لصلواتهم بالأوقات العادية، والله تعالى أعلم.

❑ خامساً: كيف يكون إسراعه في الأرض:

لا شك أن الدجال لعنه الله إذا خرج سيستخدم هذه المخترعات الموجودة من سيارات وقطارات وبواخر وطائرات وجميع ما هو موجود من الآلات الحربية المدمرة... فبواسطة هذه المركوبات وعلى الأخص الطائرات، سيطوف كل المعمور في المدة المذكورة، وقد أشار نبينا

الحبيب ﷺ إلى صفة سرعته في سيره بقوله بعد أن قيل له: وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح**»، فهذا وصف دقيق لسرعته فإن هذا وصف الطائرة في الجو وعند نزولها، فإنها تكون مثل الغيث أو السحاب استدبرته الريح وذلك لشدة سرعتها، فهذا كالنص في أنه سيستخدم الطائرات في طوافه الأرض.

❑ سادساً: مكة والمدينة محفوظتان من الدجال:

من عناية الله عزّ وجل ولطفه أن جعل الحرمين الشريفين محفوظين من الدجال، فلا يصيبهما رعبه ولا له قدرة على دخولهما ولا فتنة المؤمنين من سكانهما، بل عليهما ملائكة مكلفون من قبل الله يحرسونهما مهما توجه إليهما طردوه وصرفوه عنهما، وأنه سيأتي من قبل الشام حتى ينزل بضواحي المدينة فيصعد إلى موضع مرتفع ينظر منه إلى المدينة فيقول: هذه مدينة ذلك الرجل وينظر إلى بياض بناء مسجد نبينا الشريف ﷺ فيقول: هذا قصر أحمد الأبيض فتتحرك المدينة وترجف ثلاث رجفات، فيخرج إليه منها كل من كان بها من الكفار والكافرات، والمنافقين والمنافقات فيؤمنون به ويلتحقون بأصحابه، ويخرج من المدينة عندئذ رجل هو خير أهل الأرض فيواجهه ويكذبه فيأخذه ويقتله ثم يحييه ثم يريد قتله فلا يسلط عليه فيخزيه الله تعالى، ثم ينهزم راجعاً إلى الشام فيلتحق بفلسطين فينزل بمدينة لد فيبعث الله عزّ وجل المسيح عيسى ابن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فينزل على المنارة البيضاء بدمشق ويذهب إليه فيقتله ويقتل اليهود، وبذلك ستنتهي فتنة الدجال ودولة اليهود، وسنعود إن شاء الله لاحقاً قريباً إلى نزول عيسى وقتال اليهود...

❑ سابعاً: في قوله ﷺ: «لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»:

في هذا إشارة إلى أن المدينة عند خروج الدجال سيكون لها سبعة مداخل، يعني: الطرقات التي تدخل إليها، ومن رأى المدينة اليوم وما

حصل فيها من التغيرات وتعبيد الطرقات وكثرة مداخلها تحقق ما أخبر به ﷺ.

وفي قوله: «**على كل باب ملكان**»، وفي رواية: «**على كل نَقب من أنقابها ملكٌ مصلتاً سيفه**»، هذه مزية عظيمة وفضيلة رائقة للمدينة وأهلها فكفاها وأهلها فخراً أن يكونوا تحت حراسة الملائكة من الطاعون وفتنة الدجال.

❑ ثامناً: ما يحفظ من فتنة الدجال:

بما أن فتنة الدجال عظيمة جداً تدهش العقول، وتحير الألباب بما سيعطيه الله عزّ وجل من تسخير الكون والخوارق التي تسحر الضعفاء والرعاع، فلا ينجو منها إلا من عصمه الله تعالى منه أو كان مؤمناً ساكناً في أحد الحرمين كما تقدم، أو كان يقرأ في حياته أوائل سورة الكهف كما قدّمنا في التفسير، أو قرأها عند رؤيته كما في حديث النواس الأخير.

* * *

❋ خلاصة فتنة الدجال

[١٨٣] شاء الله عزّ وجل أن يوجد شخص يكون خروجه علامة من أشراط الساعة الكبرى يسمى المسيح الدجال، وهو رجل شاب عظيم الخلقة أعور العين اليمنى بارزة كأنها عنبة طافية، وعلى عينه اليسرى جُلَيْدةٌ تُغَشِّيهَا، وله شعر جعد قطط كشعر السودان مكتوب بين عينيه (ك ف ر) كافر، يقرؤها كاتب وغير كاتب، وسيكون من المعمرين، وكان موجوداً أيام النبوة فما قبلها فلا يدرى متى ولد، ولذا جاء التحذير منه عن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الآن مغلول مسلسل في جزيرة من جزر خراسان، فإذا حان وقته خرج من جهة ما بين العراق والشام، فأول من يستجيب له ويتبعه سبعون ألف يهودي من يهود أصبهان الإيرانية وأقوام من أعاجم الأتراك، ثم ينتشر في الأرض فيطوفها في أربعين يوماً يدعو الناس إلى نفسه على أنه رب فيفتن الناس بما سيُظهره الله على يديه بحيث يأمر السماء

فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت، ويعطى جنة وناراً ونهرين، نهراً من ماء بارد طيب، ونهراً من نار متأججة، ويقتل ويحيي، ومَن شاء وسع عليه رزقه، ومَن شاق ضيّق عليه.

فمَن آمن به واتبعه أدخله جنته، ومَن كفر به أدخله ناره. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ بأن جنته نار، وناره جنة، ولذلك كان على المؤمن أن يقع في ناره فسيجدها باردة طيبة.

وهكذا سيفتن العالم بسحره وتمويهاته التي سخرها الله له تعالى بإذنه امتحاناً للناس، وسيطأ كل البقاع في تلك المدة التي قدّرها الله تعالى له إلا مكة والمدينة فإنهما محروستان بالملائكة فلا يدخلهما ولا يصيب أهلهما المؤمنين فتنته، ويأتي المدينة فتطرده الملائكة فيتوجه إلى الشام حيث يقتله المسيح عيسى عليه السلام بباب لُدٍّ من فلسطين، وبذلك ينتهي أمره لعنه الله وحفظنا والمؤمنين من فتنته، آمين.

* * *

❋ من أخبار ابن صياد

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر انطلق مع النبي ﷺ في رهط قبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطُم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد الحُلُم، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده، ثم قال لابن صياد: **«تشهد أني رسول الله»**، فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهدُ أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فرفصه وقال: آمنت بالله وبرسله، فقال له: **«ما ترى؟»** قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي ﷺ: **«خُلّط عليك الأمرُ»**، ثم قال له النبي ﷺ: **«إني خبأتُ لك خبيئاً»**، فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال: **«اخسأ فلن تَعْدُوَ قدْرَك»** فقال عمر رضي الله تعالى عنه: دعني يا رسول الله أضربْ عُنُقَه، فقال النبي ﷺ: **«إن يَكُنْهُ فلن تُسلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنْه فلا خير لك في قتله»**.

رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٤) وفي الجهاد (٣٠٥٥) وفي الأدب (٦١٧٣) وفي القدر (٦٦١٨)، ومسلم (٥٧/٥٦/٥٣/١٨)، والترمذي (٢٠٧٥) كلاهما في الفتن.

قوله: «فرفصه» ورد بالصاد، ومعناه: ضربه برجله، وورد بالضاد وهو وهم كما قال عياض. وقوله: «اخسأ» أي: أمكث حقيراً.

[١٨٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: لقي رسول الله ﷺ ابن صياد في بعض طرق المدينة فاحتبسه وهو غلام يهودي وله ذؤابة ومعه أبو بكر وعمر فذكر نحو ما تقدم وفيه قوله ﷺ: **«ما ترى؟»** قال: أرى عرشاً فوق الماء، قال النبي ﷺ: **«يرى عرش إبليس فوق البحر»**، قال: **«ما ترى؟»** قال: أرى صادقاً وكاذبَيْن، أو صادقين وكاذباً قال النبي ﷺ: **«لبس عليه...»**.

رواه مسلم (٥٠/٤٩/١٨)، والترمذي (٢٠٧٦) كلاهما في الفتن.

[١٨٥] وعنه قال: صحبني ابن صياد إما حجاجاً وإما معتمرين، فانطلق الناس وتركت أنا وهو، فلما خلصت به اقشعررت منه واستوحشت منه مما يقول الناس فيه، فلما نزلت قلت له: ضع متاعك حيث تلك الشجرة، قال: ففعل، قال: فرُفِعتْ لنا غنمٌ، فانطلق فجاء بِعُسٍّ، فقال: اشرب أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد واللبن حار، ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده، أو قال: آخذ عن يده، فقال: أبا سعيد، لقد هممتُ أن آخذ حبلاً فأُعَلِّقَه بشجرة ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألستَ من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: **«هو كافر»** وأنا مسلم أوَليس قد قال رسول الله ﷺ: **«هو عقيم لا يولد له»** وقد تركت ولدي بالمدينة، أوَليس قد قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل المدينة ولا مكة»** وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟، قال أبو سعيد الخدري: حتى كِدْتُ أن أعذرَه، ثم قال: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن؟ قال: قلت له: تبًّا لك سائر اليوم.

رواه مسلم (١٨/٥١/٥٢)، والترمذي (٢٠٧٤) كلاهما في الفتن.

قوله: «خلَصْتُ» أي: انفردتُ. وقوله: «اقْشَعْرَرْتُ» أي: أخذتني رعدة. وقوله: «تبًا لك» أي: هلاكاً لك يومك أجمع.

ابن صياد هذا الذي تحدثت عنه هذه الأحاديث كان يهودياً له رِئيٌ من الجن يأتيه بالأخبار، وكان به شَبَهٌ بالدجال، فأتاه النبي ﷺ في جمع من أصحابه يستثبت أمره وكان لا يزال غلاماً فسأله: «**هل تؤمن بي بأني رسول الله؟**» فأجابه إنك رسول الأميين، ثم قال هو الآخر للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ ثم سأله النبي ﷺ عن شأنه وما يأتيه وما يراه، فصرّح له بأنه مرة يأتيه صادق ومرة كاذبان أو العكس، وأنه يرى عرشاً فوق الماء، فتيقن رسول الله ﷺ بأنه كذاب من جملة السحرة والدجاجلة، وأنه خلط عليه الأمر وأنه يشاهد عرش إبليس على البحر، ولشبهه بالدجال كان كثير من الصحابة يظنون أنه الدجال الموعود حتى استأذن عمرَ رسول الله ﷺ في قتله فأخبره بأنه إن يكن الدجال حقيقة فلن يسلط على قتله لأن الذي يقتله هو المسيح ابن مريم عليه السلام، وإن لم يكنه فلا خير له في قتله لأنه كان من جملة اليهود الذين عاهدهم النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك أنه كان لا يزال غلاماً دون احتلام، ومن كان كذلك فلا يجوز قتله، وبعد ذلك تحقق الصحابة أنه غير الدجال الموعود به لِمَا ذكر لأبي سعيد، حيث إنه تزوج ووُلِدَ له وكان من أهل المدينة، ثم إنه آمن وزار مكة ودخلها معتمراً أو حاجًا، وكل ذلك ينافي صفة الدجال، والله أعلم بخاتمة أمره فإنه كما يبدو من حديث أبي سعيد معه رغم أنه آمن وحجّ فقد كان لا يزال يحدّث عما تلقيه إليه الشياطين، حيث إنه أخبر أبا سعيد في طريق مكة أنه على علم بالدجال وأبويه وولادته وموضعه. وهذا لا يكون إلا عن طريق الوحي أو من الشياطين، والله تعالى أعلم.

وإنما ذكرنا ابن صياد هنا تبعاً لمن أورده من المحدثين وغيرهم مع الدجال.

* * *

❋ نزول عيسى وقتله الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وما يتبع ذلك

سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان خاتم أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إليهم فانقسموا فيه ما بين مؤمن به وكافر طاعن فيه، نظراً لكونه ولد بدون تلقيح الرجال وأنه لا أب له، ثم حاربوه وأرادوا قتله فرفعه الله تعالى إليه فهو في السماء الثانية حياً وسينزل قبيل الساعة ليقتل الدجال ويحارب اليهود ويبيدهم من الأرض ويقضي على جميع الملل الكفرية ولا يبقى إلا دين الإسلام وبه سيحكم.

وكل هذا، لا خلاف فيه بين المسلمين، ومن قال غيره فهو كافر لا حظ له في الإسلام، وقد فصّل القرآن أخباره من أوله إلى نهايته، وبيّن من تغالى فيه من النصارى ومن عاداه من اليهود وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه.

وكلامنا هنا عنه يشتمل على النقاط الآتية: نزوله، وصلاته خلف المهدي، وقتله الدجال، وقتاله اليهود مع المؤمنين، ووضعه الجزية، وقتله الخنزير، وكسره الصليب، وخروج يأجوج ومأجوج في أيامه، ونزول البركة والخير في حياته، وحكمه بشريعة الإسلام، وقضاؤه على جميع الملل، والأديان الكفرية، وأنه ستجمع له الصلاة، ومدة بقائه وحكمه.

* * *

❋ نزول المسيح ابن مريم عند المنارة البيضاء بدمشق

[١٨٦] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة... فذكر الحديث بطوله، فقال: **«فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفّيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان اللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريحَ نَفَسه**

إلا مات، ونفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفُه فيطلبه حتى يُدركَه بباب لُدٍّ فيقتله».

رواه مسلم، وتقدم قبل، مطولاً.

[١٨٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً** ـ وفي رواية: **حكماً مقسطاً وإماماً عدلاً** ـ **فيكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»**، ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾، وفي رواية: **«ولتتركن القلاص فلا يُسْعَى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»**، وفي رواية: **«وتجمع له الصلاة... وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر»**.

رواه أحمد (٥٣٨/٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٠٣/٣٠٢/٧)، ومسلم في الإيمان (١٩٣/١٩٠/١٨٩/٢)، والترمذي (٢٠٦٢)، وابن ماجه (٤٠٧٨) كلاهما في الفتن، والرواية الثانية عند مسلم، والثالثة لأحمد بسند صحيح.

قوله: «حَكَماً» بفتحتين، أي: حاكماً. وقوله: «فيكسر الصليب» معناه: يقضي على النصرانية ويبيد أهلها من الأرض لأن الصليب شعار لهم. «ويقتل الخنزير»: لأن اقتناءه لا يجوز نظراً لتحريم أكله. «ويضع الجزية»: يعني يرفعها ولا يقبل إلا الإسلام. وقوله: «وتجمع له الصلاة» معناه: لا تصلي صلاة إلا صلاة أهل الإسلام.

[١٨٨] وعنه رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٣٠٤/٧)، ومسلم في الإيمان (١٩٣/٢).

[١٨٩] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت

النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمةَ الله هذه الأمة».

رواه مسلم في الإيمان (٢/١٩٣/١٩٤).

[١٩٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلاّتٍ، أمهاتُهم شتّى، ودينهم واحدٌ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين مُمَصَّرَتَين، كأنّ رأسه يَقْطُر، وإن لم يُصبه بلَلٌ، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدُقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويُهْلِكُ الله في زمانه الملَلَ كلَّها إلا الإسلام، ويُهلك الله المسيحَ الدجال، وتقع الأمَنَةُ في الأرض حتى ترتع الأسودُ مع الإبل، والنّمارُ مع البقر، والذئابُ مع الغنم، ويلعبُ الصبيانُ بالحيّات لا تضُرُّهم، فيمكث في الأرض أربعين سنةً، ثم يُتوفّى فيُصلي عليه المسلمون».

رواه أحمد (٢/٤٠٦/٤٣٧)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٤)، وابن حبان (٦٨١٤/٦٨٢١) مع الإحسان، والحاكم (٢/٥٩٥) وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: «إخوة لعلات» بفتح العين وتشديد اللام، هم الذين أمهاتهم متعددات وأبوهم واحد، كما يقال للإخوة الأشقاء: أولاد الأعيان، وأراد بإخوة لعلات... إلخ، أن دين الأنبياء وإيمانهم واحد لكن شرائعهم مختلفة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

[١٩١] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي به، فردُّوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله.

وفيما عهد إليّ ربي عزّ وجل أن الدجال خارج ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: **فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الشجر والحجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله**، قال: **فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أكلوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه**، قال: **ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، ويُنزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليّ ربي عزّ وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِم التي لا يدري أهلُها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً»**.

رواه أحمد (١/٣٧٥)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨١)، والحاكم (٤/٤٨٨/٤٨٩/٥٤٥/٥٤٦) وسنده صحيح، وصححه الحاكم والذهبي والبوصيري في «الزوائد».

وقوله: «تجوى الأرض» أي: تُنتِنُ.

[١٩٢] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«تقاتلكم اليهود فتظهرون عليهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله»**، وفي رواية: **«فتُسَلَّطون عليهم»**.

رواه أحمد (٢/١٢٢) والبخاري في صفة النبي ﷺ من المناقب رقم (٣٥٩٣) وفي الجهاد (٢٩٢٥)، ومسلم (١٨/٤٤)، والترمذي في الفتن (٢٠٦٥).

[١٩٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود»**.

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (١٨/٤٤/٤٥) واللفظ له.

«الغرقد»: بفتح الغين والقاف بينهما راء ساكنة، نوع من شجر فيه شوك معروف ببلاد بيت المقدس.

[١٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ يأجوج ومأجوج يحفرون كلَّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، واستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذي اجْفَظَّ فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله تعالى نغفاً في أقفائهم فيقتلهم بها».**

قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لَتَسْمَنُ وتَشْكر شَكراً من لحومهم».**

رواه أحمد (٢/٥١٠/٥١١)، والترمذي في التفسير، والحاكم (٤/٤٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٠) وصححه البوصيري والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «الدم الذي اجفظ» أي: ترجع السهام ممتلئة دماً. وقوله: «نغفاً» بفتحتين، أي: دوداً. وقوله: «فتشكر» بفتح الكاف، أي: تسمن وتمتلىء شحماً، يقال: شكرت الناقة، بكسر الكاف وتشكر شكراً بفتحهما إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبناً.

[١٩٥] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء، ويظهرون على**

الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، ولَنُنَازِلَنَّ أهلَ السماء، حتى إن أحدَهم ليهُزَّ حَربتَه إلى السماء فترجع مُخَضَّبَةً بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى دواباً كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم، فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً فيقولون: مَن رجلٌ يشري نفسه وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وطّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى فيناديهم: ألا أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رعيٌ إلا لحومُهم فتشكَرُ عليها كأحسن ما شَكِرت من نبات أصابته قط».

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٩)، وابن حبان (٢٤٥/١٥)، وأبو يعلى (١٣٥١) وكذا أحمد (٧٧/٣)، والحاكم (٤٨٩/٤) وصححه على شرط مسلم، وكذا صححه البوصيري وجوّده ابن كثير.

قوله: «حدب» بفتحتين، هو ما ارتفع وغلظ من الأرض. «يَنسِلون» بكسر السين: أي يسرعون.

[١٩٦] وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: استيقظ النبي ﷺ وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج» وحلق بيده عشرة، قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

رواه البخاري ومسلم عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش، وقد تقدم في الفتن رقم (١٥).

[١٩٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا» وعقد تسعين.

رواه البخاري (٢٢٦/١٦) ومسلم (٤/١٨) كلاهما في الفتن.

[١٩٨] وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في ذكره الدجال ونزول عيسى قال: «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى

إلى عيسى إني قد أخرجتُ عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحَرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم ببُحَيْرةَ طبرِية فيشربون ما فيها، ويمر آخر فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءٌ، ويُحصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فَرْسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهُم ونَتْنُهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَرٍ ولا وبَر فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزَّلَفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتَك ورُدّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرُّمّانة، ويستظلون بقِحفِها ويُبارَكُ في الرِّسْل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبائل من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذَ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة».

رواه مسلم وغيره كما تقدم.

قوله: «الزلفة» بفتحات وغيرها، أي: المرآة في صفائها. و«العصابة»: الجماعة. و«اللقحة»: بكسر اللام وفتحها: هي القريبة العهد بالولادة. و«الفئام» هي الجماعة الكثيرة. وقوله: «قِحفها» بكسر القاف، هو مقعر قشرها. وقوله: «يتهارجون» أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس جماعاً جماعياً فيكونون كالحمير لا يستحيون ولا يبالون لذلك.

اشتملت هذه الأحاديث الشريفة على أمور: نزول عيسى عليه السلام، وصلاته خلف الخليفة الإسلامي، وقتاله الدجال واليهود، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول البركة في الأرض والخير والأمن بعد ذلك، ثم موت عيسى عليه السلام بعد أن يمكث أربعين سنة ويحج ويعتمر.

❑ أولاً: نزول عيسى من السماء وقتاله الدجال واليهود:

أجمع الأئمة والعلماء من لدن الصحابة حتى وقتنا الحاضر على أن المسيح ابن مريم عليه السلام رُفع إلى السماء ثم سينزل إلى الأرض آخر الزمان للقضاء على الكفر والفساد وتحكيم شرع الله الذي جاء به نبينا ﷺ، لا خلاف في هذا بين المسلمين وذلك لثلاثة أدلة:

الدليل الأول: القرآن الكريم.

الثاني: السنة المطهرة.

الثالث: إجماع مَن يعتد به من أهل العلم.

أما القرآن ففي أربع آيات:

الأولى: قوله تعالى في البشارة به عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

الثانية: قوله عزّ وجل في تذكيره عيسى بنعمته عليه وعلى والدته: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

قال المفسرون: تَكَلُّمه في حالة الكهولة سيكون بعد نزوله لأنه رُفع وهو شاب ابن ثلاثين سنة، فغاب مئات السنين ثم ينزل ويعيش، إلى أن يصل إلى الكهولة ويكلم الناس بما فيهم الأمة المحمدية وأهل الكتاب.

الثالثة: قوله عزّ وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

معناه: ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان قبل أن يموت، حاكماً بهذه الشريعة المحمدية داعياً إليها، ولا يبقى يهودي ولا نصراني إذ ذاك إلا آمن به أنه عبد الله ورسوله، فالضميران في (به وفي موته) عائدان على عيسى عليه السلام.

وبهذا فسره أبو هريرة وابن عباس وقتادة وابن زيد والحسن وغيرهم،

وهذا التفسير هو المتعين الذي لا يصح غيره لأنه الوارد في الصحيحين من تفسير أبي هريرة، وهو الموافق للأحاديث المتواترة، أما ادعاء عَوْد الضميرين على الكتابي فضعيف.

الآية الرابعة: قول الله عزّ وجل في الكلام على عيسى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾.

ومعناه: أن عيسى لعلم للساعة بنزوله فلا تشكن بها، وهذا على قراءة كسر العين، وبذلك قال المفسرون من الصحابة فمَن بعدهم. انظر ابن جرير والرازي وأبا حيان وابن كثير وغيرهم.

[١٩٩] وجاء فيه حديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: «**نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة**».

رواه ابن حبان في صحيحه (٦١٨٧) (ج١٥/٢٢٨) بسند حسن صحيح، وهو أيضاً في المسند (١/٣١٧/٣١٨) من طريق عاصم بن بهدلة.

وأما على قراءة: ﴿**لَعَلَمٌ للساعة**﴾ بفتح العين، فمعناه أن خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة آية وعلامة للساعة، وهكذا ورد عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى، ومعناهما واحد.

أما الدليل الثاني وهو السنّة المطهرة فأحاديث نزوله عليه السلام متواترة مقطوع بها جاءت عن جماعة من الصحابة يفوقون الخمسة والعشرين وأحاديثهم في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها من كتب السنّة المشرفة، وقد نصّ على تواترها جمع كبير من أهل الحديث وذكروها في كتب الأحاديث المتواترة.

وقد ذكرنا بعض عيونها هنا.

الدليل الثالث: الإجماع، فقد أجمع أهل السنّة والجماعة على أن نزول عيسى آخر الزمان حق يجب الإيمان به، وذكروا ذلك في كتب العقائد.

وفيما ذكرنا من الأحاديث أن نزوله ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام سيكون بالمنارة البيضاء شرقي دمشق، وهذه المنارة موجودة لحد الآن وقد زرناها وصعدنا إليها، وقد تحدث عنها النووي وابن كثير وغيرهما، وكانت موجودة في وقتيهما، وإذا نزل عرفه المؤمنون بصفته التي وصفه بها رسولنا ﷺ وأنه مربوع يميل إلى الحمرة والبياض يقطر وجهه ويسيل منه كاللؤلؤ وأنه ينزل عند صلاة الصبح فيصلي خلف إمام لنا يقال: إنه المهدي، ثم يستعد ومعه المؤمنون فيقصد الدجال، وسيكون مع اليهود في مدينة لُدٍّ من فلسطين فيقتله على باب المدينة، وجاء في الحديث أنه إذا رأى عيسى عليه السلام ذاب كذوبان الرصاص، وهنالك سيقاتل المسلمون مع المسيح عليه السلام اليهود الذين سيكونون مع الدجال مقتلة عظيمة يكون فيها النصر المبين للمسلمين وينهزم اليهود شر هزيمة ولا يبقى حجر ولا شجر إلا نطق وقال: يا مسلم تعال هذا يهودي ورائي فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه شجر لا ينطق.

[٣٠٠] بل جاء في حديث أبي أمامة الطويل عند ابن ماجه (٤٠٧٧) ما نصه: فيدركه عند باب اللُّدّ الشرقي فيقتله فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقد فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله.

وهذا هو وقت انتصار المسلمين على اليهود وإبادتهم وذلك أيام عيسى عليه السلام، حيث سيكرمهم الله عزّ وجل بكلام الحجر والشجر، لأنهم عندئذ سيكونون النخبة الصالحة التي تمثل الأمة المحمدية يجتمعون عند عيسى من جميع أقطار الأرض.

أما مسلمو عصرنا فهم أقل بل أسقط من أن ينتصروا على اليهود وتكلمهم الجمادات، لأنهم ليسوا بأهل لذلك، فهم لا يملكون ما عند اليهود من الأسلحة المتطورة والمدمرة، كما أنهم ليس لهم من الدين والقوة المعنوية الروحية ما يمكنهم من هزم اليهود وظهور الكرامات لهم مثل نطق الجمادات.

❑ ثانياً: خروج ياجوج وماجوج:

ياجوج ومأجوج جنس من بني آدم يقال: إنهم من سلالة يافث ولد نوح عليه السلام، وكانوا من المفسدين في الأرض، فبنى ذو القرنين السد بينهم وبين سائر الناس.

وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم في موضعين:

أولاً: في قصة ذي القرنين عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ...﴾.

ثانياً: في الكلام على خروجهم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...﴾ إلخ.

فذكر عزّ وجل أن ذا القرنين لما بلغ مشرق الشمس اتبع طريقاً بين المشرق والمغرب لجهة الشمال حتى بلغ بين الجبلين العظيمين وجد من وراتهما قوماً لا يفهمون أي لغة فقالوا له بواسطة ترجمان: إن ههنا قوماً يفسدون في الأرض يقتلوننا ويأكلون أموالنا... فهل لك أن تجعل بيننا وبينهم فاصلاً وسداً، ونعطيك في مقابل ذلك خراجاً، فقال لهم: لا حاجة لي في خراجكم فما أعطاني الله تعالى من الملك والمال والتمكين خير مما تبذلونه إلي من الخراج، لكن ساعدوني بقوة من صنّاع وعمال وآلات فأجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً، فآتوني قطع الحديد، ففعلوا، فبنى لهم سدًّا عظيماً بالحديد حتى سدّ ما بين الجبلين، وهما المراد بالصدفين، وجعل البناء مساوياً لهما في السمك، فحينئذ أوقد النار في الحديد المبني

حتى أصبح كالنار في الحرارة قال: آتوني نحاساً مذاباً أُفرغه عليه ليلتصق ويتماسك مع الحديد فصار قطعة واحدة صلداً، فلما جاء يأجوج ومأجوج أرادوا أن يعلُوه وينقبُوه فلم يستطيعوا لذلك سبيلاً لعلوه وصلابته وملاسته.

ثم لما فرغ من ذلك قال لهم: هذا الذي بيّنته لكم رحمة عظيمة من ربي. فإذا جاء وعد الله وهو وقت خروجهم أو يوم القيامة جعله تعالى مدكوكاً مُسَوًّى بالأرض فيخرجون على العباد ينسلون ويهرعون من كل حدب وموضع مرتفع... فيعيثون في الأرض فساداً.

فهذا القرآن الكريم نصّ في وجود يأجوج ومأجوج وأنهم وراء السد وأنهم سيدكونه آخر الزمان ويخرجون.

وبذلك جاءت الأحاديث التي ذكرناها في شأنهم وهي تدل على أمور:

أولاً: أنهم منذ بنى ذو القرنين السد دونهم وهم يلمسونه ويحفرونه، وكان أيام النبوة قد حفروا منه قطعة مثل الحلقة.

ثانياً: عندما يأتي وعد الله بخروجهم، وذلك عند قرب قيام الساعة يقولون: غداً إن شاء الله نحفره، فإذا أصبحوا من الغد خرقوه وجعلوه دكًّا مسوًّى بالأرض.

ثالثاً: وقت خروجهم سيكون أوائل أيام عيسى عليه السلام بعد فراغه من قتل الدجال واليهود، وذلك أن الله تعالى سيوحي إليه بأني أخرجت عباداً لي لا قدرة لأحد على قتالهم فيأمره تعالى بأن يلجأوا إلى الطور ويعتصموا فيه منهم.

رابعاً: أنهم إذا خرجوا عاثوا في الأرض فساداً قتلاً للأنفس وأخذاً للأموال وشرباً للمياه ويكونون كالوحوش المتوحشة، ثم يصلون إلى الشام ويُضَيِّقُ على المسلمين ومعهم المسيح ابن مريم حتى لا يجدوا ما يسدون به رمقهم، فآنذاك يرغبون إلى الله عزّ وجل، فيدعون عليهم فيبعث الله تعالى إليهم ما يهلكهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة وتنتن بهم الأرض

فيدعو الله عزّ وجل عيسى وأصحابه فيرسل الله على تلك الجثث القذرة من ينقلها إلى ما شاء الله، ثم يرسل الله عزّ وجل مطراً غزيراً فيطهّر منهم الأرض حتى تصير في الصفاء كالمرآة، وبذلك ينتهي أمر يأجوج ومأجوج بإذن الله وقدرته.

❑ ثالثاً: مَن هم ياجوج وماجوج وأين هم الآن:

اختلف العلماء من المفسرين والمؤرخين من أي جنس يأجوج ومأجوج بعد اتفاقهم بأنهم من بني آدم، فقال بعضهم: هم الصينيون والمغول، وقال آخرون: إنهم الروس، وقال فريق ثالث: إنهم جنس كثير لا نعلمهم، فهم كالجن يعيشون معنا ولا نراهم، وهذا القول من أبطل الباطل.

وظاهر القرآن يدل على أنهم قوم متوحشون يعيشون في وسط شمال آسيا وغربها، ولذلك قال جمهور المفسرين المتقدمين إن لم يكونوا كلهم: إن السد الذي بناه ذو القرنين وجعله بين الصدفين والجبلين العظيمين يوجد بنواحي أرمينية وأذربيجان وذلك شمال غرب آسيا بجوار تركيا، وقالوا: إن الترك جنس منهم بقوا خارج السد، وذكر بعض المفسرين المعاصرين أنه شد رحله في طائرة إلى تلك النواحي فشاهد سداً هنالك شامخاً بين جبلين عظيمين طولاً وعرضاً.

بينما رجح جوهري طنطاوي في «تفسير الجواهر» وتبعه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وغيرهما من المعاصرين أن هذا السد جاء بين الصين وبلاد المغول. قال ابن عاشور: وقد وجد السد هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهده الجغرافيون والسائحون... لكن هؤلاء أبعدوا النجعة فقالوا: إن يأجوج ومأجوج حفروا السد وخرجوا برئاسة جنكيز خان في المائة السابعة للهجرة وهم التتار الذين شتتوا شمل المسلمين وأفسدوا في الأرض وقتلوا ملايين المسلمين وقضوا على الخلافة العباسية فجعلوا يأجوج ومأجوج قد انتهى أمرهم، وقال بعضهم: إنهم سيخرجون مرتين، مرة تقدمت أيام العباسيين في القرن السابع، والمرة الثانية ستكون أيام عيسى، وكل ذلك

باطل بل لهم خرجة واحدة أيام عيسى وهو ظاهر القرآن ومقتضى الأحاديث النبوية المتقدمة، إنما الذي يحيّر ويُشكل كثيراً على أهل العلم: هو أن ما جاء في صفات يأجوج ومأجوج لا ينطبق على تلك الدول التي قيل: إنها بها يأجوج ومأجوج وأن بيننا وبينهم سداً، لأنهم يعيشون معنا ونتبادل فيما بيننا المصالح التجارية والسياسية وغيرهما وعندنا سفراؤهم كما عندهم سفراء العالم؟! فالله تعالى أعلم بمراده تعالى ومراد نبيه ﷺ.

* * *

❋ ماذا ينجز عيسى في أيامه وماذا يكون بعد قتل الدجال واليهود ويأجوج ومأجوج

علمنا من الأحاديث التي أوردناها في نزول عيسى وما يتبع ذلك أنه ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ سيقتل الدجال ويقضي على اليهود ويبيد النصرانية من الأرض ويكسر صليبهم الذي كان شعاراً لدينهم ويدعو الناس كلهم إلى عبادة الله تعالى ويقضي على جميع الملل ولا يبقى إلا دين الإسلام ويقتل الخنزير، لأنه محرّم اقتناؤه وأكله، ويضع الجزية فلا يقبلها من أحد بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل، ثم بعد تطهير الأرض من المفسدين: الدجال واليهود والنصارى وجميع أهل الملل وختاماً بيأجوج ومأجوج، يأمر الله عزّ وجل الأرض فتُنبت ثمرتها وخيرها، وتؤتي بركتها حتى تأكل الجماعة الكبيرة من رمانة واحدة ويستظلون بقشرتها من الشمس وذلك لكبرها فتكفيهم، وحتى إن الناقة أو البقرة أو الشاة تكفي كل واحدة الجماعة غذاء فلا يحتاجون إلى غيرها.

ويقع الأمن والأمان، حتى إن السباع والنمار والذئاب تخالط الإبل والبقر والغنم فلا تؤذيها ولا تقربها، وحتى إن الطفل يلعب بالأفاعي والحيّات فلا تضره.

* * *

❋ نهاية سيدنا عيسى عليه السلام

مما سبق، عرفنا أن سيدنا عيسى سيمكث حكَماً عدلاً أربعين سنة[1]، ويتزوج ويولد له ويحج ويعتمر وأخيراً يموت ويصلي عليه المسلمون، ولم يأتِ في السنّة ما يبين محل موته ودفنه. وما ورد من أنه سيموت بمدينة الرسول ﷺ ويدفن معه لا يصح شيء من ذلك، وإن ذكره جمع من الأعلام فإن ذلك لا مستند له يصح عن النبي ﷺ.

❋ ❋ ❋

❋ ما بعد سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام

عندما ينقضي عصر عيسى عليه السلام الذي لم يتقدم له مثيلٌ في تاريخ الإسلام منذ عصر النبوة من انتشار العدالة والأمن والأمان والعيش الرغيد وصلاح المجتمع الإسلامي، سرعان ما تنقلب الأوضاع، وتتبدل الأحوال، ويظهر الفتور في الناس، ويطل المفسدون بقرونهم، فعند ذلك تباغتهم آيتان عظيمتان وعلامتان فظيعتان من أشراط الساعة الكبرى تزلزلان القلوب وتخلعان الألباب، تلكما هما طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس فأيتهما خرجت كانت الأخرى في أثرها.

❋ ❋ ❋

❋ طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة

[٢٠١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن**

(١) وما جاء في صحيح مسلم: أنه سيبقى سبع سنين فإنه مؤول لمعارضته حديث مكثه أربعين سنة وهو صحيح على شرط مسلم.

أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى فأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً».

رواه مسلم في الفتن (٧٨/٧٧/١٨).

فهذا الحديث الشريف نصّ في أن خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها متقارب، غير أن قوله: **«إن أول الآيات خروجاً...»** إلخ، مؤول كما قال العلماء بالآيات التي ليست مألوفة، ذلك أن طلوع الشمس من مغربها يكون على خلاف عادتها المألوفة فتكون أول الآيات السماوية، كما أن خروج دابة على شكل غير مألوف تخاطب الناس وتَسِمُهم بالإيمان والكفر أمر خارج عن مجاري العادات فهي أول آية كونية أرضية، ووجهوا الحديث بهذا لأن الإجماع على أن خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج قبل الطلوع والدابة.

* * *

❋ طلوع الشمس من مغربها وانغلاق باب التوبة

[٢٠٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».**

رواه البخاري في التفسير ومسلم في الإيمان (٢٩٤/٢)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٣٤٤/٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨).

[٢٠٣] وعنه عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها».**

رواه أحمد (٤٤٥/٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٥/٢)، والترمذي في التفسير (٢٨٧٤).

[٢٠٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: «**أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**تذهب تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلع من مغربها فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾**».

رواه البخاري في التفسير وفي مواضع، ومسلم في الإيمان وأبو داود في الحروب، والترمذي في الفتن (٢٠١٦) وفي التفسير، والنسائي في الكبرى، وتقدم مع غيره في التفسير.

طلوع الشمس من مغربها ثابت بالقرآن والسنة والإجماع.

فالقرآن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، فالآية هنا هي طلوع الشمس من مغربها باتفاق المفسرين.

وأما السنّة ففيما ذكرناه وغيره مما لم نذكره وهو كثير، وأما الإجماع فلا يوجد مَن يخالف ذلك من علماء الإسلام.

وهذه الأحاديث المذكورة تدل على أمور:

أولاً: أن الشمس المسخرة بأمر الله تعالى من يوم خلق السماوات والأرض تطلع كل يوم وتغرب كل مساء على سائر الكرة الأرضية لم ينخرم نظامها يوماً ما، فهي دائمة السير إذا غربت على قوم طلعت على آخرين، وكما أن سيرها في فلكها مستمر كذلك سجودها للّه تعالى دائم تحت العرش، وكلما سجدت استأذنت الله عزّ وجل في الطلوع. وهذا السجود لا نعلمه، فحسبنا الإيمان بما قاله رسولنا ﷺ، وإن كان لذلك وجه ذكرته فيما سلف في التفسير.

ثانياً: إنه سيأتي وقت ما تستأذن الشمس ربها في الطلوع فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي واطلعي من حيث غربت، فترجع وتطلع من جهة غروبها، ثم ترجع إلى سيرها المعتاد ويكون ذلك علامة على غلق باب التوبة، وأن الله عزّ وجل لا يقبل بعد ذلك توبة كافر ولا فاسق.

ثالثاً: يدل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ على أن الشمس جارية وسابحة في فلكها وهذا هو معتقد المسلمين، فمن قال بالفكرة التي تقول بأنها واقفة والأرض تدور حولها كان زائغاً خارجاً عن طريق أهل السنة والحق.

* * *

❁ خروج الدابة

[٢٠٥] عن حذيفة بن أَسِيد الغفاري رضي الله تعالى عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا**».

رواه مسلم (٢٩٠١)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢٠١٣)، والنسائي في الكبرى (٤٢٤/٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١)، وتقدم لنا حديث مسلم: «**بادروا بالأعمال ستاً**» فذكر منها الدابة. انظر ما سبق رقم (١٤٤).

في هذا الحديث الشريف ذكر عشر آيات من الأشراط الكبرى تقدم أربعة منها وبقي ستة:

منها: خروج الدابة وقد ذكر الله عزّ وجل خروجها في القرآن الكريم، وأن الناس إذا انحرفوا عن الطريق وخرجوا عن الجادة وكفروا وفجروا وعمّ الفساد أكثرهم غضب الله تعالى عليهم وأوجب لهم العذاب، وأخرج لهم دابة تخاطبهم وتناديهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب العذاب أو غضب الله عليهم. وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ هو دال على أن الناس وقتها يكونون قد كفروا بآيات الله، وهذه الدابة لا ندري حجمها ولا صفتها رغم ما جاء من صفات لها عن جماعة من السلف لكنه لم يصح شيء من ذلك يعتد به.

مع العلم بأن هذه الدابة لا بد أن تكون مخالفة لدوابنا المألوفة.

* * *

❁ مهمة الدابة عند خروجها

ذكروا في صفة هذه الدابة أنه لا يفوتها هارب ولا يلحقها طالب وأنها تَسِمُ المؤمن والكافر، تَخْطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، وتجلو وجه المؤمن بالخاتم.

[٢٠٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تخرجُ دابةُ الأرض ومعها عصا موسى، وخاتمُ سليمان، فتخطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، وتجلو وجهَ المؤمن بالخاتم، حتى إن أهل الخِوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٥)، والطيالسي بالمنحة (٢٧٨٩)، والترمذي في التفسير، وابن ماجه (٤٠٦٦)، والحاكم (٤/٤٨٥) وحسنه الترمذي، وفي سنده ابن جدعان حسن له جماعة والشيخ أحمد شاكر يصحح له كما في هذا الحديث.

فالحديث يدل على أن الدابة ستجعل لكل من المؤمن والكافر علامة يعرف بها حتى إن الجماعة يجتمعون على الطعام فيعرف المؤمن منهم من الكافر بالعلامة التي وسم بها. هذا نهاية ما ينبغي أن نذكره في هذه الآية، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ الدخان

اختلف علماء السلف وتبعهم الخلف رحمهم الله تعالى في المراد بقوله تعالى الموعود بارتقابه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ . . .﴾ إلخ.

فذهب فريق منهم إلى أن هذا الدخان الموعود به قد مضى أيام النبوة عندما استعصى كفار قريش على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذا رواه البخاري في مواضع من التفسير عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وهو في حكم المرفوع. وانظر ما سبق في تفسير الروم.

فهذا يدل على أن الدخان المذكور قد مضى وانتهى أمره، ومَن قرأ الآية الكريمة وقرأ ما قبلها وما بعدها علم أنها نزلت في كفار قريش كما بيّن ذلك ابن جرير.

وذهب فريق آخر إلى أن خروج الدخان من أشراط الساعة الكبرى بدليل حديث حذيفة بن أسيد المتقدم: **«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات»** فذكر منها الدخان وهو في الصحيح، وأيّدوا هذا بحديثين آخرين مرفوعين وردا بذلك، وهما:

[٢٠٧] فعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى الحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان»**، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية: **«﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخرَيْه وأذنيه ودبره»**.

أخرجه ابن جرير في التفسير (١١٤/٢٥) ورجاله رجال الصحيحين غير عصام بن رواد العسقلاني، ففيه لين، ووالده كان قد اختلط لكنهما لم يأتيا بما ينكر ولم يتهما بكذب.

ومعنى الحديث في الجملة صحيح.

[٣٠٨] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربّكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مَسْمَع منه، والثانية: الدابة، والثالثة: الدجال**».

رواه ابن جرير (١١٤/٢٥) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» الطبراني وقال: بسند جيد، ويؤيده أيضاً آثار عن السلف.

[٣٠٩] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه.

رواه عبد بن حميد وابن جرير (١١٣/٢٥) هكذا موقوفاً، ورواه ابن أبي حاتم (٣٢٨٧/١٠) مرفوعاً، وسنده ضعيف أيضاً.

[٣١٠] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: إن الدخان لم يمضِ بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وينفخ الكافر حتى ينفذ.

رواه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم (٣٢٨٨/١٠) كما في الدر.

[٣١١] وعن ابن أبي مليكة قال: دخلت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: لم أنَمْ هذه الليلة فقلت: لمَ؟ قال: طلع الكوكب ذو الذنَب فخشيت أن يطرق الدخان.

رواه عبد بن حميد وابن جرير (١١٣/٢)، وابن المنذر، والحاكم، قال السيوطي: بسند صحيح. وفي الباب غير ذلك.

وبناءً على هذا التعارض اختلفوا في هذا الدخان هل تقدم أم لا؟

أما شيخ المفسرين ابن جرير فرجح ما جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود وأن ذلك كان أيام النبوة، وأيّد ذلك بسياق الآية، ومع ذلك فلم ينكر أن يكون وقع ذلك لكفار قريش ثم يقع مرة أخرى بقوم آخرين، قال: لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن...

وإلى هذا مال كثير من العلماء جمعاً بين الأحاديث منهم النووي رحمه الله تعالى، فقد قال في «شرح مسلم» (٢٧/١٨) على حديث: «**لن تقوم الساعة حتى ترون قبلها عشر آيات**» فذكر الدخان... إلخ:

هذا الحديث يؤيد قول من قال: إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، وأنه لم يأتِ بعد، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه وأنه قال: إنما هو عبارة عما نال قريشاً من القحط، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً. قال: ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار. والله تعالى أعلم.

* * *

❁ الخسوفات الثلاثة

الخسف عبارة عن غيبوبة سطح الأرض داخلها بجبالها وصخورها وبناياتها وأنهارها، وهو من أنواع العذاب الذي بعثه الله ويبعثه على عباده عندما يسرفون في الكفر به ومجاهرته بالمحادَّة له.

وقد وقعت خسوفات وزلازل كثيرة عبر التاريخ، بل لا تكاد تمر سنة لم يقع فيها زلزال وخسف في ناحية من نواحي المعمورة، وقد شاهدنا في عصرنا خسوفات هائلة عندنا بالمغرب، وبإيران، وبأفغانستان وغيرها.

أما الخسوفات الثلاثة الكبرى الواردة في الحديث السابق عن حذيفة بن أسيد فلم تأتِ بعدُ لأنها خسوفات تخالف كل خسف سبق، فستكون هائلة عظيمة لم يسمع بمثلها لأنها من الأشراط الكبرى التي تخالف المألوفات وما يعهده الناس. ومواقع هذه الخسوفات ثلاثة مواضع، أحدها: بالمشرق، وثانيها: بالمغرب، والمراد مشرق المدينة ومغربها، وثالثها: بجزيرة العرب.

أما جزيرة العرب فمعروفة، فهي ما بين البحر العربي شرقاً، والبحر الأحمر غرباً، وما بين البحر المحيط الهندي جنوباً، ودجلة والفرات بالعراق شمالاً، فبهذه المناطق سيقع أحد الخسوفات الهائلة التي تزلزل القلوب وتقلعها من أماكنها.

أما ما يقع بالمشرق والمغرب فلا ندري أي قطر يقع فيه ذلك، فقد يحصل في إيران، أو باكستان، أو أفغانستان، أو في الهند، أو في الصين، أو في غيرها من الدول الآسيوية الشرقية سواء فيها جنوبها وشمالها.

وقد يقع في الجهات الغربية بداية من الشام فمصر فالمغرب العربي فأمريكا..

ولا شك أن هذه الخسوفات ستكون عقاباً لأهل ذلك الزمان وانتقاماً منهم لما سيكونون متصفين به من الانحلال والميوعة واتباع الأهواء والشهوات المحرّمة، ولا ندري فلعل ذلك يكون لأهل زماننا، فإنهم قد بلغوا النهاية في التواطؤ على محاربة الله تعالى وارتكاب الفواحش والاستهتار بأوامر الله وتكاليفه، واتفاقهم على عدم تحكيم شرع الله عزّ وجل، فهل ينتظرون من الله عزّ وجل إلا عذابه وعقابه. نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

❋ هدم الكعبة على يد الحبشة

[٣١٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخَرِّبُ الكعبةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحبشةِ».

رواه البخاري في الحج (٤/٢٠٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٢٥).

«السويقتين»: تثنية سويقة، مصغر الساق، وقيل له ذلك: لأن في سيقان الحبشة دقة، فلذا صغّرها.

[٢١٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ: **«كأني أنظر إليه أسود أفحج ينقضها حجراً حجراً»** يعني الكعبة.

رواه أحمد (١/٢٢٨)، والبخاري في الحج (٤/٢٠٦).

«أفحج»: يعني أن به عوجاً في المفاصل أو نحو ذلك.

[٢١٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أُصَيلِع، أُفيدع، يضرب عليها بمِسْحَاتِه ومِعْوَلِه»**.

رواه أحمد (٢/٢٢٠) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي.

«أُصَيلِع»: تصغير أصلع وهو الذي انحسر الشعر عن مقدم رأسه. وقوله: «أفيدع» بضم الهمزة مصغراً أيضاً وهو الذي زالت مفاصله عن أماكنها.

إن حرم الله تعالى المكي من يوم أن خلقه الله عزّ وجل جعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا يصطاد صيده، ولا يقطع شجره، ولا يختلى خلاه، فهو ذو أمن وأمان، وزاده الله حرمة بعد أن بنى به بيته الذي جعله الله قبلة للناس وقياماً لدينهم يحجُّونه ويطوفون به ويزورونه على امتداد من زمن الخليل إلى أن جاء خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولم يزل محترماً مقدّساً محمياً من الله لا يؤمه جبار ظالم إلا أهلكه الله وقصمه، وحسبنا ما قصّه الله تعالى علينا من خبر أصحاب الفيل وكيف أهلكهم الله وأباد خضراءهم عندما أرادوا تخريبه.

وقد قدّمنا حديث: **«يغزو جيش هذا البيت فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...»** إلخ.

لكن الله عزّ وجل سيمكن في آخر الزمان قوماً من الحبشة فيخربونه وذلك لما حصل وسيحصل من أهله من استحلال حرمته عبر تاريخ الأمة، وقد غزاه المسلمون وانتهكوا حرمته مراراً، من أشهر ذلك غزو أهل الشام له أيام يزيد بن معاوية وقتالهم ابن الزبير داخل الحرم، ثم غزي بعد ذلك في وقائع كثيرة، من أعظمها وقعة الشيعة القرامطة بعد القرن الثالث فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة، ثم غزي بعد ذلك مراراً، حتى في عصرنا هذا، وأصبح الحرم منتهكة حرمته على يد أهله، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يهدم لهم البيت ويخربه فلا يعمر بعده. وقد جاء في الحديث ما يشير إلى هذا السبب.

[٢١٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يُبايَعُ لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهلُه، فإذا استحلُّوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»**.

رواه أحمد (٢/٢٩١/٣١٢/٣٢٨/٣٥١) من طرق بسند صحيح.

فهذا الحديث يبين أن أهل الحرم وهم سكانه وحجاجه وزواره من المسلمين إذا انتهكوا حرمته واستحلُّوا ما حرّم الله تعالى فيه أهلكهم الله تعالى كما هو واقعنا، ثم بعد ذلك تأتي الحبشة فيغزونه ويخربونه ثم لا يبنى بعد ذلك ولا يعمر حتى تقوم الساعة. ولا شك أن هذا سيكون في الفترة ما بين الأشراط المتقدمة وبين قيام الساعة عندما يذهب الدين وأهله ولا يبقى إلا البقية القليلة من المؤمنين.

والأحاديث المذكورة ظاهرة في أن الحبشة سيغزون مكة المكرمة ومعهم رئيسهم وقائدهم الدقيق الساقين أعوجهما، ولا ندري كيف يغزو الحبشة الحرمين والحبشة الآن مفرّقة إلى دويلتين صغيرتين ضعيفتين متحاربتين، فالله تعالى أعلم بغيبه، فلعل الحرم الشريف سيلي أمره قوم طغاة لا قوة عندهم تكفي لحمايتهم، فتهاجمهم الحبشة بعد أن تتقوى وتتحد فيسلطهم الله على من ظلم وطغى في حرم الله وينتصرون ويخربون البيت ويأخذون ما عنده من كنوز.

وظاهر الحديث الأخير أن البيت لا يقام بناؤه بعد ذلك، وذلك لا يمنع من الحج إليه والطواف بمكانه، فإن المؤمنين لا ينقطعون حتى تأتي الريح الطيبة التي تقبض أرواحهم ويرفع القرآن وتأتي النار من قعر عدن.

* * *

القحطاني وجهجاه

[٢١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**».

رواه البخاري (١٦/١٩٠)، ومسلم (١٨/٣٦) كلاهما في الفتن.

[٢١٧] وعنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له: الجهجاه**»، وفي رواية: «**حتى يملك رجل من الموالي يقال له: الجهجاه**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٣٦).

اختلفوا في القحطاني والجهجاه، فذكر بعضهم أنهما واحد، وقالوا: إنه ذو السويقتين المتقدم. وذكر هذا ابن كثير وغيره.

وقال آخرون: إنهما شخصان، فالقحطاني يماني، سيلي الأمر بعد تخريب الحبشة الكعبة فيهلكهم. أفاد هذا الحافظ في الفتح.

وأما الجهجاه فتضاربوا في أمره أيضاً. وعلى أيٍّ فخروج هذين الشخصين من أشراط الساعة الكبرى فيما بين عيسى والساعة، فالله تعالى أعلم.

* * *

ذهاب الإيمان وبقاء الأشرار ورفع القرآن ثم عبادة الأصنام

[٢١٨] تواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**

على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»، وفي رواية: **«حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**.

رواه الشيخان وغيرهم عن جماعة من الصحابة بألفاظ.

فالحديث نصّ في أنه لا بد أن تبقى طائفة من المؤمنين قائمين بأمر الله ودينه حتى يأتي أمر الله. وفسروا أمر الله بالريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين وهي المراد بالساعة، لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق وهم الكفار.

وقد تقدم في حديث النواس الذي أخرجه مسلم أن النبي ﷺ قال: **«فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»** فهذه الريح ستكون حتماً آخر الأشراط حيث لا يبقى في الأرض إلا أشرار الناس.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضَتْه»**.

رواه مسلم في الإيمان (١٣٢/٢) باب في الريح التي تكون قرب القيامة تقبض من في قلبه شيء من الإيمان.

[٢٢٠] وجاء في حديث عبدالله بن عمرو الطويل في شأن الدجال ونزول عيسى وغير ذلك ما نصه: إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يُحرَّقُ البيتُ، ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيُهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه»**.

قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسن عيشهم...**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٧٥/٧٦).

وقوله: «كَبِدِ جبل» أي: وسطه. وقوله: «في خفة الطير وأحلام السباع» معناه: يكون الناس وقته في سرعتهم إلى الشر والفساد كطيران الطير، وفي عدوانهم وظلم بعضهم بعضاً في صفة السباع العادية الضارية.

[٢٢١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَاتُ نساء دوس على ذي الخلصة، وذو الخَلَصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية**»، وفي رواية: «**حول ذي الخلصة**».

رواه أحمد (٢/١٧١) والبخاري (١٦/١٨٨) ومسلم (١٨/٣٢) كلاهما في الفتن.

«الخلصة»: بفتحات.

[٢٢٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليلُ والنهارُ حتى تُعبدَ اللاتُ والعُزَّى**»، فقلت: يا رسول الله إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إن ذلك تاماً، قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتوَفَّى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٣٣).

[٢٢٣] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، حتى لا يُدرَى ما صيام، ولا**

صلاة، ولا نُسُك، ولا صدقةٌ، ولَيُسْرى على كتاب الله عزّ وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها» فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟ وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة ثم ردّها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً.

رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) والحاكم (٤/٤٧٣/٥٤٥) كلاهما في الفتن.

وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وكذا صححه البوصيري في الزوائد.

قوله: «يدرس» بفتح الياء وضم الراء، يقال: درس الرسم دروساً إذا عفا وهلك. ودرس الثوب درساً إذا صار عتيقاً. وقوله: «وشي الثوب» أي: نقشه.

ومعناه: سيذهب الإسلام حتى لا يبقى له أثر.

إذا ظهرت الأشراط الكبرى الهائلة كالدجال، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، ومات عيسى عليه السلام تتابعت الأحداث الخطيرة التي تنذر بحلول الساعة، ويبدو ذلك جلياً في هذه الأحاديث التي أوردناها، فإنها دالّة على أن الحالة ستتغير بسرعة وتنقلب الأوضاع ويتغرب الإيمان فيبعث الله عزّ وجل ريحاً طيبة باردة تأتي من جهة اليمن أو الشام فتقبض روح كل مؤمن ولو كان ضعيف الإيمان ويسرى على القرآن فيرفع، ولا يبقى له في الأرض أثر لأنه لم يبقَ له أهل يؤمنون به ويعملون بما فيه، فعند ذلك يستجيبون لمطالب الشيطان فيرجعون لعبادة الأصنام ودين آبائهم الجاهليين الأقدمين حتى لا يكادون يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يدرون صلاة ولا صدقة ولا صياماً ولا حجًا إلا ما ورثوه وسمعوه من آبائهم أنهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله.

ويصيرون همجاً يتسافدون، ويجامع رجالهم نساءهم جماعاً جماعياً في

الطرقات كالحمير لا يستحيون ولا يبالون بأحد، وعلى هؤلاء وأمثالهم تقوم الساعة كما في الحديثين التاليين:

[٢٢٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»، وفي رواية: «**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله**».

رواه أحمد (١٠٧/٣)، ومسلم في الإيمان (١٧٨/١٧٧/٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٧) وابن حبان (١٩١١) والحاكم (١٩٤/٤).

[٢٢٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس**».

رواه أحمد (٤٣٥/١)، ومسلم آخر الفتن (٨٨/١٨).

ففي الحديثين، أن الساعة لا تقوم حتى لا يبقى في الأرض أحد يعتقد الله أو يلهج بذكره، وإنما تقوم على أشرار الناس وهم الكفار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ غير أن أهل الكتاب سينقرضون أيضاً لأن فيهم من يقول الله...

* * *

❁ خروج النار من قعر عدن أو حضرموت تحشر الناس إلى المحشر

[٢٢٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستخرُجُ نارٌ من حضرمَوْت، أو من بحرِ حضرمَوْت قبل يوم القيامة تحشُرُ الناس**»، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ فقال: «**عليكم بالشام**» وفي رواية: «**ستخرج عليكم نارٌ في آخر الزمان**».

رواه أحمد (١١٩/٩٩/٦٩/٥٣/٨/٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٤٧)،

وأبو يعلى (٨١/٥)، وابن حبان بالإحسان (٢٩٤/١٦) بسند صحيح على شرط الصحيحين عند الترمذي، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٢٢٧] وتقدم حديث حذيفة بن أَسِيد وفيه: «**ونارٌ تخرجُ من قعرِ عَدَنٍ تسوقُ ـ أو ـ تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا**»، وفي رواية: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردُ الناس إلى محشرهم**».

رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم، وتقدم رقم (٢٠١) هنا.

[٢٢٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن عبدالله بن سلام بلغه مقدمُ النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء... فقال له: ما أول أشراط الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب**».

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء وفي الهجرة النبوية (٢٧٤/٨) مطولاً، وقد تقدم في الهجرة النبوية من قسم السيرة رقم (١٤٦).

[٢٢٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يُحشرُ الناسُ على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُرُ بقيتَهم النارُ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتسير معهم حيث أمسوا**».

رواه البخاري آخر الرقائق (١٦٧/١٦٦/١٤)، ومسلم في كتاب الجنة (١٩٤/١٧).

«طرائق» أي: فِرَقاً. قوله: «راغبين وراهبين» أي: منهم طامعون في رحمة الله راجون الله عزّ وجل، ومنهم خائفون عقاب الله.

وهذه النار المذكورة في هذه الأحاديث التي ستخرج من اليمن وبالضبط من بحر حضرموت أو من قعر عدن أي: من عمقه، هي غير النار المتقدمة التي تخرج من الحجاز، فإن هذه تقدمت في القرن السابع كما أسلفنا سابقاً، أما هذه المذكورة هنا فهي نار أخرى ستكون آخر الزمان وآخر

الأشراط قبل القيامة، وأنها ستخرج من اليمن من قعر عدن، وقد اكتشف الباحثون أن في بحر عدن براكين نارية، فمن الجائز أن تتفجر تلك البراكين وتخرج منها تلك النار التي تحدّث عنها النبي ﷺ فتعم الجهة الشرقية ثم ترحل الناس وتطردهم إلى المحشر وهو بلاد الشام تقيل وتصبح وتمسي معهم والناس في ذلك سائرون معها يبيتون ويظلون معها ويكون معهم أبعرة يتعاقبونها، فمنها ما يتعاقبها اثنان، ومنها ثلاثة إلى العشرة، بمعنى أنهم يتناوبون ركوبها وقد تكون تلك الأبعرة إشارة إلى السيارات.

وما ذكرنا من أن هذا الحشر سيكون في الدنيا قبل القيامة هو الذي ذكره المحققون، فنقل الحافظ عن الخطابي أنه قال: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة تحشر الناس أحياءً إلى الشام، وأما الحشر من القبور إلى الموقف فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها، وإنما هو على ما ورد في حديث ابن عباس في الباب: «**حفاة عراة مشاة**...» وصوّب القاضي عياض ما ذهب إليه الخطابي، وكذا رجحه الطيبي، كما ذكر ذلك الحافظ وأقرّه.

وخروج هذه النار هي آخر الأشراط وبعدها ينفخ في الصور وتقوم الساعة، أعاذنا الله من أهوالها ووقانا جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن.

هذا ما أمكن ذكره من الفتن والأشراط، وفي ذلك كفاية، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّ اللّهمّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون. في كتابي الفتن وأشراط الساعة، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحو من ثمانين حديثاً.

ويليه كتاب قيام الساعة
والبعث والنشور ويوم الجزاء

كتاب قيام الساعة والبعث والنشور ويوم الجزاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى وعلى آل نبينا وصحابته أهل الصدق والوفا.

وبعد، فهذا هو القسم الأخير لبداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول، نختمه بأهوال الساعة والقيامة وما يتعلق بذلك.

* * *

❁ قيام الساعة

قد قدّمنا في أول الأشراط أن الساعة إذا أُطلقت في الإسلام، فالمراد بها فناء هذا العالم واضمحلاله بسمائه وأرضه وما فيهما من عوالم وكائنات.

* * *

❁ لا تقوم الساعة وعلى الأرض مؤمن

[٢٣٠] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة... فذكر الحديث وفيه: «فبينما هم

كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم - يعني المؤمنين - تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».

رواه مسلم في الفتن في ذكر الدجال (١٨/٦٣) وتقدم مطولاً في الأشراط.

قوله: «يتهارجون فيها تهارج الحمر» قال النووي رحمه الله تعالى: أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، أقول: وهذا موجود اليوم في أوروبا وأمريكا وغيرهما كما هو معروف.

[٢٣١] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث طويل في شأن الدجال وغيره: «ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو كان أحدهم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه»، قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، ولا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ أرزاقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٧٥/٧٦)، وانظر ما سبق في الأشراط (٢١٥/٢١٦/٢١٨/٢٢٠/٢٢١).

هذه الريح المذكورة التي تقبض أرواح المؤمنين ستكون بعد ذهاب عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وهدم الكعبة، ورفع القرآن، ورجوع الناس إلى عبادة الأصنام، ودين أجدادهم القدامى، ولا يبقى بعد ذلك مؤمن على وجه الأرض يقول الله...

وهذا من لطف الله بالمؤمنين حيث يقبض أرواحهم حتى لا يشاهدوا أهوال قيام الساعة وشدائدها فلا تقوم إلا على الأشرار الذين لا خير فيهم.

* * *

❁ النفخ في الصور

[٢٣٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وكيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْنِ قد التقمَ القَرْنَ واستمعَ الإذنَ متى يؤمَرُ بالنفخ فينفُخ**»، فكأن ذلك ثَقُل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**».

رواه أحمد (٧/٣)، والحاكم (٥٩٩)، والترمذي في أبواب القيامة (٢٢٥٢) وفي التفسير (٣٠٢٨) بتهذيبي، وحسّنه، وابن حبان بالموارد (٢٥٦٩)، وهو صحيح لشواهده، منها عن أبي هريرة رواه الحاكم (٥٥٩/٤) بسند صحيح على شرط مسلم، ومنها عن زيد بن أرقم رواه الطبراني.

قوله: «كيف أنعم» بفتح الهمزة والعين، أي: كيف يطيب لي عيش وصاحب القرن قد استعد للنفخ.

[٢٣٣] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «**قَرْنٌ يُنفَخُ فيه**».

رواه أحمد (١٩٢/٢٦٢/٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في القيامة (٢٢٥١) وفي التفسير (٣٢٩)، والدارمي (٢٨٠١)، وابن حبان (٢٥٧٠)، والحاكم (٤٣٦/٢) (ج٥٦٠/٤) وحسّنه وصححه الترمذي وكذا الحاكم، وهو كما قالا.

«الصور»: هو قَرْنٌ كما فسره النبي ﷺ ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهو الناقور المذكور في آية: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ قال مجاهد: الصور كهيئة البوق ذكره البخاري، ولا ندري كيف صفته ولا مما هو؟ فحسبنا الإيمان به. والنفخ فيه يكون إيذاناً بقيام الساعة.

والنفخ في الصور يكون غير ما مرة، فهناك نفخة الفزع، ونفخة الصعق ـ أي: موت كل الخلائق إلا ما استثني ـ ونفخة القيام لرب العالمين. وقيل: هما نفختان: نفخة الفزع وهي نفخة الصعق والموت، ونفخة القيامة، وبهذا قال الجمهور مستدلين بالآتي:

[٢٣٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«يوم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله»**، قال: **«فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله»**، أو قال: **«مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون...»**.

رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٠) (ج١٨/٨٦).

«ليتاً» بكسر اللام، جانب العنق: و«أصغى» أي: أمال. وقوله: «يلوط حوض» أي: يُصلحه ويطينه. وقوله: «الطل» أي: كمني الرجال.

[٢٣٥] وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من أفضل أيامكم الجمعة فيه الصعقة وفيه النفخة...»**.

رواه أحمد (٨/٤)، وأبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والنسائي (٧٥/٣) وغيرهم بسند صحيح.

[٢٣٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون»**، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيتُ، **«ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَبِ ومنه يركب الخلق يوم القيامة»**.

رواه البخاري في تفسير سورتَيْ الزمر (١٧٢/١٠) والنبأ (٣١٧)، ومسلم في الفتن (٩١/١٨).

قوله: «أبيت» أي: امتنعت من بيان ذلك، ولم يأتِ من وجه يصح بيان عدد ما بين النفختين إلا هذا مجملاً. وقوله: «عجب الذنب» بسكون الجيم وفتح الذال والنون، هو عظيم لطيف في أصل الصلب.

فهذه الأحاديث هي مستند الجمهور في أن النفخ يكون مرتين: نفخة الصعق ـ أي: الموت ـ وعندها يكون الفزع، ثم نفخة القيامة والبعث.

وذهب جماعة منهم ابن العربي وابن تيمية ورجحه ابن كثير واختاره إلى أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيامة والنشور.

وعلى أيّ، فأول شيء يطرق أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة وآخرها نار براكين عدن التي تحشر الناس إلى الشام أرض المحشر: نفخة الفزع ينفخها إسرافيل عليه السلام الذي استعدّ لها منذ أزمنة فلا يبقى أحد من أهل الأرض والسماء إلا فزع وأمال الناس أعناقهم ورفعوها يستمعون إلى ذلك الأمر الهائل الذي أزعجهم وشغلهم عما كانوا فيه من رغد العيش وحياتهم الصاخبة. ثم تأتي نفخة الصعق وموت كل الخلائق ثم يعقب ذلك نفخة البعث والقيام لرب العالمين.

وقد ذكر الله عزّ وجل النفخ في الصور بجميع مشاهده في القرآن الكريم، فقد ذُكِرَ في الأنعام، والمؤمنين، والنمل، والزمر، وق، ويس، والمدثر، وص، والنازعات، وغيرها.

قال تعالى في النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقال في الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال في يس: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال في ص: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

وقال في المدثر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

وقال في الأنعام: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ...﴾ الآية.

وقال في النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

وقال فيها أيضاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾.

قال ابن عباس: الراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية.

ذكره البخاري ووصله ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال في ق: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في المؤمنين: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وقال في الكهف: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا...﴾ الآية.

وقال في طه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ الآية.

وقال في النبأ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ الآية.

وقال في الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ الآية.

فهذه الآيات قد استوعبت جميع النفخات أو النفختين، فآيات النمل والزمر اشتملت على النفخات الثلاث، أو النفختين، وليس ذلك نصاً فيهما. أما آيات يس ففيها نفخة الصعق ونفخة القيام لله رب العالمين. وهكذا آية النازعات الثانية وآية الحاقة جاءت في الفناء وقيام الساعة.

وباقي الآيات هي ظاهرة في النفخة الأخيرة، نفخة البعث والنشور.

هذا ما يتعلق بالنفخ في الصور في جميع مراحله. يبقى السؤال المطروح في حديث أبي هريرة: «ما بين النفختين أربعون» بعدما عرفنا أن الأربعين مجملة، فما هما النفختان؟ الظاهر أنهما نفخة الصعق ونفخة البعث، وبينهما تُبَدَّل الأرض والسماوات على ما قيل، ويأخذ الله عزّ وجل

السماوات والأرضين ويقول: **أنا الملك، أين الجبارون؟** أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟ لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول: لله الواحد القهّار.

والظاهر أن هذا سيكون بعد البعث.

* * *

❋ فناء الدنيا وقيام الساعة

[٢٣٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولتقومن الساعة وقد نشرَ الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلبن لِقْحَتِهِ فلا يَطعمُه، ولتقومَنّ الساعةُ وهو يلوطُ حوضَه فلا يَسقي منه، ولتقومنّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَته إلى فيه فلا يَطعَمُها»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٤٣/١٤٤) وأصله في الصحيحين وغيرهما.

«لقحته»: بكسر اللام وسكون القاف ثم حاء مهملة، هي ذات اللبن من النوق. «يلوط حوضه» أي: يُصلحه بجمع حجارة ومدر فيصيّرها كالحوض.

وتقدم حديث ابن عمرو وفيه: **«فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس...»** أي: يموتون.

رواه مسلم.

[٢٣٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تَتْرُكُون المدينةَ على خيرِ ما كانت لا يغشاها إلا العوافي** ـ يريد عوافي السباع والطير ـ **وآخرُ مَن يُحشرُ راعيان من مُزَيْنةَ يريدان المدينة ينعِقان بغنمهما فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا على وجوههما»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٤)، والبخاري (٥/٤٦١/٤٦٢)، ومسلم (٥/١٥٩/١٦٠) كلاهما في الحج في فضل المدينة.

«لا يغشاها»: أي لا يأتيها. وقوله: «خرّا على وجوههما» أي: سقطا ميتين.

الحديث الأول: يدل على أن الساعة تأتي الناس بغتة وهم غافلون في أسواقهم ومشاغلهم وأكلهم وشربهم، فتباغتهم من غير شعور، وهكذا جاء في القرآن الكريم كقوله تعالى في الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا...﴾ الآية، وقوله في الأعراف: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، وقوله في الأنبياء: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وقال في يوسف: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، وقوله في الحج: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾، وقوله في الزخرف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾، وقوله في سورة محمد: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

فهكذا تقوم الساعة والناس غافلون فتفاجئهم وتحيّرهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ليتوبوا ويعتذروا، وعند ذلك ينادون صارخين: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ولا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون.

أما الحديث الثاني: فيدل على أن المدينة المنورة ستكون من آخر ما يصعق أهلها فيأتيها بعض الرعاة فيجدونها خالية لا يأتيها إلا الوحوش والطير ثم يصعقون فيكونون آخر من يحشر ويموت بالصعقة، وقد جاء في حديث: **«آخرُ قريةٍ من قرى الإسلام خراباً المدينة»**.

رواه الترمذي آخر الجامع وابن حبان بالموارد (١٠٤١)، وهو صحيح على شرط ابن خزيمة وابن حبان، وضعفه الجمهور لما قيل في جنادة.

وعلى أيٍّ: فالحديث مؤيد ضمنياً لحديث أبي هريرة، والله تعالى أعلم.

وما قررناه هو معنى ما قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم حيث قال: وأما معنى الحديث فالظاهر المختار أن هذا الترك للمدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، وتوضحه قصة الراعيين من مزينة فإنهما يخرّان على وجوههما حين تدركهما الساعة، وهما آخر من يُحشر.

* * *

❋ مشاهد قيام الساعة

[٢٣٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سرّه أن ينظرَ إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عينٍ فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾**».

رواه أحمد والترمذي والحاكم، وسنده صحيح، وتقدم في التفسير.

إن القيامة متصلة بالساعة، ولذلك جاءت هذه السور بصفات قيام الساعة ويوم القيامة معاً، وعلى ذلك تدل الآيات الآتية وغيرها.

والساعة ليست مرتبطة بالإنسان فقط بل تعم جميع الكائنات كالسماوات وما فيها من مجرّات، ومذنّبات، ونيازك، وشموس، وأقمار، وكواكب، كما تشمل الأرض والجبال والأنهار والبحار والوحوش والحيوان والهوام والإنس والجن وكل ما عليها وفيها. فالسماء تنفطر وتنشق وتصير قطعاً، والكواكب تنتثر ويذهب ضياؤها وتتصادم مع بعضها بعضاً، وهكذا كل ما كان في السماء من مجرّات ومذنّبات... الجميع يتلاشى وينقلب إلى أمر هائل لا يُتصور.

أما الأرض فتتزلزل تزلزلاً عنيفاً وتضطرب اضطراباً شديداً بحيث ينهدم كل ما كان عليها من بناء شامخ، وطود راسخ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون، وتتفتت جبالها الشوامخ وتنسف نسفاً وتصير كالهباء المنبث

وتطير في الهواء كالعهن المنفوش وتنقلب كثيباً مهيلاً فتحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب. أما البحار فتشتعل ناراً وتتصل بما في بطون الأرض من معادن وبراكين فيصير الجميع ناراً متأججة وجحيماً وسعيراً.

وفي هذا المشهد الهائل العنيف المخيف جاءت الآيات الكثيرات في القرآن الكريم تصف الساعة وصفاً دقيقاً، وإلى القارىء بعض ذلك:

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

«كُوِّرت» أي: لُفَّت ومُحِي ضوءها. «انكدرت» أي: تناثرت وتساقطت. «سُيِّرت» أي: حُركت من أماكنها ونُسفت نسفاً وصارت في الهواء كالهباء. «وإذا العشار عُطِّلت» أي: النوق والإبل تُركت بلا راع ولا طالب. «وإذا الوحوش حُشرت» أي: جُمعت من آجامها وأوكارها ذاهلة من شدة الفزع والهول. «وإذا البحار سُجِّرت» أي: تأججت ناراً وصارت نيراناً تضطرم وتلتهب بما كان فيها من براكين وأخاديد ووديان.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ...﴾ إلخ.

«انفطرت» أي: انشقت. «انتثرت» أي: تساقطت وزالت عن بروجها وأماكنها. «وإذا البحار فُجِّرت» أي: فُتح بعضها إلى بعض فاختلط عذبها بمالحها وأصبحت بحراً واحداً يشتعل ناراً.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

«انشقت» أي: انصدعت لهول الساعة مؤذِنة بخراب الكون. «وأذنت لربها وحُقَّت» أي: استمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه، وحقّ لها أن تسمع وتطيع. «وإذا الأرض مُدَّت» أي: زادت اتساعاً بزوال جبالها وآكامها وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال. «وألقت ما فيها وتخلّت»

أي: رمت ما في جوفها من الكنوز والمعادن والموتى وتخلّت عنهم. «وأذنت لربها» أي: استمعت لأمر ربها وأطاعت.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

«طُمِست»: أي مُحيت وذهب نورها وضياؤها. «فُرجت» أي: شُقَّت وتصدّعت وانفطرت. «نُسِفت» أي: أُزيلت عن أماكنها وتطايرت وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾...﴾ إلخ.

أي: تتحرك وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

«إن زلزلة الساعة»: الزلزلة شدة الحركة والإزعاج الهائل، والجمهور على أن هذه الزلزلة عند قيام الساعة. وقوله: «تذهل كل مرضعة» أي: تغفل عن رضيعها وتشتغل عنه بما نزل من الهول.

فلشدة الهول العظيم والإزعاج المتناهي طاشت عقول الناس فتترك المرضعة رضيعها وتغفل عنه، وتلقي الحامل جنينها بغير تمام لما دهاها من الرعب والخوف، وترى الناس يترنحون ترنُّح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع وليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

قال بعض فضلاء المفسرين عند سورة الحج: ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ترتجف له القلوب وتطير لهوله العقول، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدَي الساعة ويزيد في الهول على خيال الإنسان لأنه لا يدكُّ الدورَ والقصورَ فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المُسقطات حملهن، والناس الذين

يترنحون كأنهم سكارى من الخمر وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب الذي تتزلزل له القلوب.

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ الآية.

وهذه السورة أيضاً تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون عند الساعة حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة التي لا عهد للناس بها ما يندهش لها كل إنسان فتضطرب الأرض اضطراباً شديداً، وتهتز بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب، ويفزع الألباب، وتخرج ما فيها من الأموات، وتلقي ما في بطنها من الكنوز الثمينة، فلا أحد يعرج عليها ولا يلتفت إليها بل يقول الإنسان: ما شأن الأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ولفظت ما في بطنها؟ يقول ذلك دهشة وتعجباً من ذلك المشهد الفظيع، فيومئذ ـ أي: في ذلك اليوم العصيب ـ تتحدث الأرض وتخبر بما عمل عليها وتشهد على كل إنسان بما صنع من خير أو شر.

وقد جاء في السنّة ما يوضح هذا المشهد الهائل:

[٢٤٠] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعتْ يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»**.

رواه مسلم في الزكاة (٩٨/٧).

«أفلاذ» جمع فلذ: هي القطعة من اللحم. و«الأسطوان» بضم الهمزة، جمع أسطوانة وهي السارية.

فالحديث الشريف جاء تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ فإذا قاءت الأرض ما فيها ولفظت كنوزها وخاصة الذهب

والفضة، وتذكّر المجرمون ما فعلوه بسببهما واعترفوا بما حملهم على ما صنعوا وهو الذهب والفضة، تركوهما وانصرفوا لأنه لم تَبْقَ لهم حاجة بهما.

[٢٤١] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فقال: «**أتدرون ما أخبارها؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا، فهذه أخبارها**».

رواه أحمد (٢/٢٧٤)، والترمذي في التفسير (٣١٣٥)، وفي القيامة (٢٢٤٩)، وابن حبان (٢٥٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠)، والحاكم (٢/٢٥١/٥٣٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم، وله شاهد عن ربيعة الجرشي ذكره في مجمع الزوائد (١/٢٢٤١) برواية الطبراني.

أما الجبال الشوامخ والراسيات الشم فجاء في شأنها واضمحلالها ما تقشعر له الجلود وتتقطع لسماعه الأكباد.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾.

«ينسفها» أي: يفتتها الله تعالى ويزيلها عن أماكنها ويصيّرها كالرمل فيطيّرها في الهواء. «قاعاً صفصفاً» أي: أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء، وليس فيها انخفاض ولا أمْتٌ، أي: ارتفاع.

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

قوله «تحسبها جامدة» أي: تظنها ثابتة في أماكنها واقفة وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب.

قال العلماء: إن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظنّ الناظر إليها أنها واقفة.

وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ الآية.

«رُجَّت» أي: زلزلت الأرض زلزالاً عنيفاً واضطربت اضطراباً شديداً حتى ينهدم كل ما عليها من بناء وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون. «وبُسّت الجبال» أي: فُتّتَتْ تفتيتاً فصارت هباءً أي غباراً متفرقاً متطايراً في الهواء.

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ونُسفت الجبال حتى أصبح يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كما يُخَيَّل للعطشان في السراب يظنه ماءً وليس بماء.

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

«العهن»: الصوف، أي: تصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير المندوف قد تفرقت أجزاؤه وتتطايرت في الجو.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

أي: نسيِّرها كما نسيِّر السحاب فنجعلها هباءً منثوراً. «وترى الأرض بارزة» أي: ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا بنيان ولا شجر، قد هُدم بنيانها وقُلعت جبالها.

وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: تُنسف وتُقلع فتكون هباءً متطايراً.

فهذه بعض مشاهد قيام الساعة وهو قل من كثر.

* * *

❋ خلاصة ما جاء في قيام الساعة

إن قيام الساعة شغلَ أُمماً وأجيالاً عبر العصور فخافوها وأكثروا السؤال عنها، وفي القرآن الكريم عدة أسئلة وأجوبة عنها كما قدّمنا في الأشراط، وقد أخفى الله عزّ وجل وقت قيامها بالضبط عن الناس رحمة ولطفاً بهم،

ولم يطلع عليها أحداً من خلقه إلا من شاء. غير أنه سبحانه ذكر لنا على لسان نبيه ﷺ آيات لها وأشراطاً لنكون مستعدين لها، وكانت تلك الأشراط علامة على قيامها كما قدّمنا ذلك مفصّلاً مرتّباً، ثم إذا جاء أوانها داهمت الناس فجأة وهم في أسواقهم، ومزارعهم، ومجامعهم، وعلى موائد طعامهم غافلون، ولا تقوم إلا على شرار خلق الله تعالى، فينقلب هذا الكون انقلاباً هائلاً بسمائه وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرّات، فتتفطر وتشقق، وتتناثر كواكبها وتزول عن بروجها ومنازلها ويذهب ضياؤها، وتبدّل الأرض غير الأرض والسماوات، ويهتز الكون هزًّا عنيفاً، وتنسف الجبال نسفاً، وتصير هباءً منبثاً، تتطاير في الهواء، وتتفجر البحار وتتصل بالأنهار وينابيع الأرض، ويضطرم الجميع ناراً متأججة بما فيها من براكين وأخاديد ومعادن نارية، ويحدث في هذا الكون من الأهوال والأحداث الجسام ما لم يتقدم للناس به عهد، وتنقلب زينة الدنيا وبهجتها ونضارتها وزهرتها وما كان عليها من نضرة ونعيم وقصور ونواطح السماء إلى فناء وتفتُّت، وتصير السماء وما كان فيها من زينة وجمال وضياء بكواكبها ومجرّاتها... إلى انشقاق وانفطار وتناثر... فالساعة شيء هائل، ولذا قال تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وهكذا جاء في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً...»، وفيه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

رواه الترمذي والحاكم في الفتن، وصححه الحاكم والذهبي.

ويصحب هذا الهول الفظيع نفخة الصعق فيموت كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كالملائكة والشهداء، ونحوهم.

* * *

❋ نفخة الصعق والقيامة والبعث

[٢٤٢] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثم يُنفَخُ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، فأول من يسمعُه رجلٌ يلوط حوضَ إبله**، قال: **فيصعق ويصعق**

الناسُ، ثم يُرسل الله، أو قال: يُنزل الله مطراً كأنه الطَّلُّ، أو الظلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ الناسِ، ثم يُنفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».

رواه مسلم وغيره.

[٢٤٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق أم لا».**

وفي رواية: **«فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله عزّ وجل».**

وفي أخرى: **«فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله،** قال: **ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بُعث، أو في أول من بُعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي».**

رواه البخاري في الرقائق (١٤/١٥٧/١٥٨) وفي الأنبياء، ومسلم في الفضائل (١٥/١٣٠).

[٢٤٤] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب».**

رواه مسلم وتقدم مطولاً وفيه: **«ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس شيء من الإنسان إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»** وهو في الصحيحين كما تقدم.

دلّت هذه الأحاديث على أمور عظام تتعلق بالساعة والقيامة.

فمنها: إثبات صعق الناس وموتهم بالنفخة الأولى أو الثانية على ما سلف، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، فالكل سيموت إلا ما استثني وهم الشهداء والأنبياء والملائكة...

ومنها: أن الله تعالى بعد الصعق سيرسل مطراً من السماء على الأرض مثل مني الرجال فينبت الناس كما ينبت البقل فيقومون لرب العالمين. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ومنها: أن كل شيء يفنى من الإنسان إلا قطعة منه لطيفة مثل العدسة يقال لها: عجب الذنب، منه يركب الإنسان بإذن الله تعالى وقدرته.

ومنها: أن هناك فترة بين نفخة الصعق ونفخة القيامة، ولا ندري مدى زمانها هل أربعون ساعة أم يوماً أم سنة، وفي هذه المدة سيأخذ الله الأرض والسماوات فتكون الأرض قبضته والسماوات مطويات بيمينه كما يأتي إن شاء الله تعالى عقبه.

ومنها: إثبات البعث والقيام من القبور، وأن أول من يبعث نبينا ﷺ لحديث أبي هريرة المذكور ولحديث مسلم: **«أنا أول مَن تنشق عنه الأرض»**.

[٢٤٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يطوي الله عزّ وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟»**.

رواه البخاري في التوحيد (١٦٧/١٧)، ومسلم في صفة القيامة (١٣١/١٧) وغيرهما.

[٢٤٦] ونحوه عن ابن مسعود وفيه: ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

رواه البخاري ومسلم.

[٢٤٧] وعن أبي هريرة رواه مسلم وفيه: **«ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»**.

[٢٤٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سألت رسول الله ﷺ

عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على جسر جهنم**».

رواه الترمذي والنسائي في الكبرى والحاكم وصححه الترمذي والحاكم وتقدم في التفسير.

[٢٤٩] وعنها قالت: أنا أولُ الناس، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»، وفي رواية: «**على متن جهنم**».

رواه أحمد (١٣٤/٦)، ومسلم في البعث والنشور (١٣٤/١٧)، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٩).

[٢٥٠] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فذكر الحديث وفيه: جئتُ أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «**سل**» فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**في الظُّلْمَةِ دون الجسر**».

رواه مسلم في الطهارة مطولاً (٢٢٨/٢٢٦/٣).

قال النووي: المراد به ـ يعني في الظلمة دون الجسر ـ الصراطُ.

الأحاديث الأولى، تدل على أن الله عزّ وجل سيطوي السماوات والأرضين بيديه وينادي قائلاً: «**أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون أين ملوك الأرض؟ فلا يجيبه أحد**»، وفي ذلك بيان لعظمته وتفرُّده بالملك الكامل الذاتي، وأن كل ملك جبار ومتكبر كانت ملكيته مجازية ومستعارة وإن زعم وظهر له أنه يملك ويصول ويجول، ففي ذلك اليوم العظيم تضمحل كل الادعاءات ويبقى المُلك للّه الواحد القهار سبحانه وتعالى عما يشركون.

أما الأحاديث الأخيرة، فتدل على أن الله عزّ وجل سيبدل الأرض غير

الأرض والسماوات، كما نطق بذلك القرآن الكريم ولا أصدق منه قيلاً، كما تدل على أن الناس سيكونون وقتئذ على الصراط... وهذا وإن كان ظاهره مشكلاً فالواجب الإيمان بذلك وتفويض أمره إلى الله تعالى لأنه عالِم الغيب، والقيامة لها مشاهد لا يمكن لنا ضبط ترتيب أحداثها.

[٢٥١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُحشَرُ الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النَّقِيِّ ليس فيها علم لأحد**».

رواه البخاري في الرقاق (١٦٣/١٤)، ومسلم في البعث والنشور (١٣٤/١٧).

قوله: «عفراء» بيضاء تميل إلى حمرة. قوله: «النقي» بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء، هو الدقيق الحُوَّاري الجيد. وقوله: «ليس فيها علم لأحد» أي: ليس به علامة سكنى أو بناء أو زراعة أو غرس.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل حينما يبدل الأرض يجعلها أرضاً نقية جيدة بيضاء ليس فيها أثر، قد فني كل ما كان عليها وانقلبت أرضاً أخرى منها يقوم الناس وعليها يُجْمَعون ويقفون ويُحاسَبون.

[٢٥٢] وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قال: تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة لم يُسفك فيها دمٌ حرامٌ، ولم يعمل عليها خطيئةٌ.

عزاه الحافظ في «الفتح» لعبدالرزاق وابن جرير وعبد بن حميد وقال: رجاله رجال الصحيح.

وذكر مثله عن أبي أيوب وأنس وغيرهما مرفوعاً وموقوفاً.

وعلى أيٍّ، فعلى هذه الأرض المذكورة سيُحشر الناس عند قيامهم من قبورهم.

* * *

❋ البعث والحشر في القرآن الكريم

لقد أفاض الله تعالى الكلام في القرآن على القيامة والبعث والحشر، وذكر في ذلك من الآيات في العديد من السوَر ما فيه العبرة لمن يعتبر والذكرى لمن يتذكر.

أما القيامة وأهوالها ومشاهدها فذكر لها من الأسماء المخيفة الهائلة ما ينيف على الثمانين اسماً، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها، وكقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، وسميت قارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ ...﴾ إلخ، وسميت بذلك لأنها تعم الناس وتغشاهم بأفزاعها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ إلخ، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان وتصمها بأهوالها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ إلخ، والطامة هي الداهية، وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ إلخ، وجاء من أسمائها: يوم لا مرد له من الله، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ويوم لا ينفع مال ولا بنون، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التناد، ويوم الوعيد، ويوم الحسرة، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم الفصل، ويوم المآب، ويوم تبلى فيه السرائر، ويوم الخروج، ويوم عسير على الكافرين، ويوم عبوس قمطرير، ويوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، ويوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، إلى غير ذلك من الأسماء التي جاءت في ذلك اليوم العظيم، بداية من نفخة القيامة إلى دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وأما بخصوص البعث والحشر والكلام على مطلق الآخرة، فالقرآن مليء بالكلام على ذلك، لأن كل ما ذكر من مقتضيات الإيمان وأحد أركان العقيدة وكلياتها الست التي اتفقت الرسل

صلوات الله وسلامه عليهم على الدعوة إليها وإلى الإيمان بها، وأنه لا حظ للإنسان في الإيمان إذا كفر بذلك وإن صلّى وصام وحج...

ورغم أن ما ذكر مما اتفقت عليه كل الشرائع ونزلت به الكتب الإلهية فإن أكثر الأمم كفرت بذلك وجادلت الرسل فيه وأنكرت الإيمان به بل وسفهت عقول القائلين به والداعين إليه.

وقد ذكر القرآن الكريم آيات عدة عن المشركين في إنكارهم البعث والحياة بعد الموت واستبعادهم ذلك ومجادلتهم النبي ﷺ في شأنه فلننظر الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

فلم يكتفوا بمجرد الكفران بالبعث حتى أكدوا ذلك بقسمهم عليه.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ إلخ [التغابن: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

«الرميم»: ما بلي من العظام.

فاستغرب هذا الشقي إحياء العظام بعد أن بليَت وأصبحت فراتاً، وهو يعلم أنه خلق من نطفة بعد أن لم يكن فكيف يستغرب خلقه مرة أخرى، فلو فكر لعلم علم يقين أن الذي خلقه من العدم ولم يكن شيئاً هو قادر على إنشائه مرة أخرى بالأولى.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

فاستنكر هذا اللعين الخروج من قبره حياً ولم يقبله عقله السخيف فردّ الله تعالى عليه استبعاده واستنكاره فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

«الرُّفات»: الفُتات.

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨١، ٨٢].

وقال في الصافات: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٥، ١٦].

وقال في الواقعة: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٦، ٤٧].

فهؤلاء اتفقت كلمتهم على استنكار الحياة بعد الموت وكفرانهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩].

فهؤلاء من الدهريين الذين قال الله تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فأخبروا عن أنفسهم بأنهم ليست لهم حياة أخرى غير هذه الحياة وأنه ما يهلكهم إلا مرور الحياة وطول الزمان وليس بعد الموت حياة أخرى.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

والآيات في الموضوع لا تنحصر.

أما الآيات الدالة على البعث والنشور والخروج من الأجداث والقبور فإليكموها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومعناه أنه إذا نفخ في الصور النفخة الأخيرة بعد نفخة الصعق إذا الناس يقومون من مراقدهم ينظرون ماذا يؤمَرون.

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ

﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ١٨ ـ ٢٢].

«داخرون» أي: صاغرون. «زجرة» أي: صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل لقيام الناس، وقوله «احشروا...» إلخ. أي: اجمعوا الظالمين وأشباههم وأمثالهم، وفي هذا المشهد يقول منكرو البعث: يا ويلنا ويا هلاكنا هذا يوم الجزاء والدِّين الذي كنا نكذب به.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ ـ ٨].

يقول عز وجل: **«اذكر يا رسولي يوم ينادي إسرافيل الخلق إلى القيامة وأهوالها، وهو شيء منكر فظيع لم يُرَ مثله، فيستنكره الناس ويستعظمونه، فيقومون من قبورهم وأجداثهم خاشعة أبصارهم أذلاء خاضعين كأنهم في كثرتهم، ويموج بعضهم في بعض حيارى فزعين جراد منتشر».**

«مهطعين» أي: مسرعين مادِّي رؤوسهم مقبلين إلى صوت إسرافيل الداعي، ففي ذلك المشهد يقول الكافرون: هذا يوم شديد صعب.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول عزّ وجل: **«استمع يا نبيي النداء والصوت حين ينادي إسرافيل عليه السلام بالحشر والنشور من موضع قريب يصل صوته إلى كل الخلائق».**

قال المفسرون: يقول: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، يوم تسمعون تلك الصيحة، صيحة البعث والحشر، التي تأتي بالحق ذلك هو يوم خروج الناس من القبور، إننا نحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا وإلينا المصير والمرجع للجزاء في الآخرة، وذلك يوم تنشق عنهم الأرض

فيخرجون من قبورهم مسرعين إلى موقف الحساب ذلك بعث وجمع سهل هين علينا لا يحتاج إلى عناء.

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: سهل ليس فيه مشقة ولا صعوبة ولا شيء مما يتصف به الخلق.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ الآية.

هذا اللعين الذي ضرب للّه مثلاً هو العاص بن وائل لعنه الله، كما في الحديث التالي:

[٢٥٣] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله تعالى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم**»، قال: ونزلت الآيات من آخر يَس.

رواه ابن جرير (٢٣/٣٠/٣١)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٢٠٢)، والحاكم (٢/٤٢٩) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي غير أن ابن جرير لم يذكر ابن عباس.

[٢٥٤] وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «**قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتُك وعدّلتُك مشيتَ بين بُرْدَيْكَ وللأرض منك وئيدٌ فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغتْ التراقي قلتَ: أتصدّقُ وأنّى أوانُ الصدقة**».

رواه أحمد (٤/٢١٠)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧٠٧) بسند حسن على مذهب ابن رجب وابن كثير والعراقي.

فذلك الكافر استبعد إعادة الله تعالى للأجساد والعظام الرميمة ونسي خلقه، وأن الله خلقه من العدم من سلالة من طين ثم من ماء مهين ضعيف أفلا استدل على البعث والإعادة بذلك حتى يعلم ما هو أعظم مما أنكره وجحده، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ فهو تعالى يعلم العظام في سائر الأقطار وأرجاء الأرض أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت كما في الحديث التالي:

[٢٥٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال رجلٌ لم يعمل حسنةً قطُّ لأهله إذا متُّ فحَرْقوه ثم أذْروا نصفه في البَر ونصفه في البحر... فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه»**، وفي رواية ثم قال له: **«كن فإذا هو رجل قائم فقال له: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: مخافتك، فغفر الله له»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الرقاق، ومسلم في التوبة، وقد ذكرت طرقه وألفاظه في العبر.

فالحديث دال على أن الله عزّ وجل سيجمع المخلوقات حيثما كانوا ولو تفرقت أجزاؤهم شذر مذر، سواء كانوا في البر أم في البحر أم في الجو أم في عالم آخر، فهو قادر على جمعهم وإعادتهم كما كانوا.

[٢٥٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان»**، وفي رواية قوله: **«لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ خلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الله الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد»**.

رواه البخاري في التفسير (٩/٢٣٤)، والنسائي في الجنائز من الصغرى، وفي النعوت من الكبرى (٤/٣٩٥).

قوله: **«شتمني»** سمى نسبة الولد إليه تعالى شتماً لأن فيه تنقيصاً للّه

عزّ وجل، فإن الولد يستلزم والدة، وهي تستلزم ناكحاً، وكل ذلك محال في جنب الله، فمن نسب ذلك إليه فقد شتمه.

وفي الحديث رد على كل كافر بالبعث والنشر وأن من أنكر ذلك فقد كذّب الله الذي يخلق الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

«الأجداث»: القبور. «ينسلون» أي: يسرعون. «مرقدنا» أي: قبورنا، فأخبر تعالى بأنه إذا نفخ إسرافيل عليه السلام نفخة البعث خرج الناس من قبورهم سراعاً ونادوا يا هلاكنا مَن الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ فتقول لهم الملائكة: هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله. وما هي إلا صيحة واحدة يصيح بها إسرافيل عليه السلام فإذا جميع المخلوقات عند الله تعالى في موقف الحساب.

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اترك هؤلاء الكفار الخاسرين يخوضوا في أباطلهم ويلعبوا كالصبيان في دنياهم حتى يأتيهم ذلك اليوم الرهيب العصيب يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها في الدنيا. «خاشعة» أي: منكسرة أبصارهم إلى الأرض خجلاً من الله تغشاهم ذلة وهوان ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا فأنكروه وكانوا يهزؤون.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قل يا نبيي لهؤلاء المنكرين البعث إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله تعالى ووقّته

بحيث لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

جاء هذا رداً على الكفار في قولهم: إنهم ما لبثوا غير ساعة، فردّ عليهم أهل العلم والإيمان بقولهم: لقد لبثتم في كتاب الله... إلخ.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فهو تعالى الخالق الرازق المميت المحيي بعد الموت، ولا يستطيع أحد فعل ذلك أبداً ولو أوتي من القوة والعلم والفهم ما أوتي فكيف بالجمادات والأصنام التي يعبدها الحمقى والجهلة الضالون.

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

معناه: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة لقدرة الله تعالى إلا كنسبة خلق نفس واحدة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾.

جاءت الآية رداً على الكفار حيث قال تعالى عنهم: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾، فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنهم سيُبعثون، ويؤكد لهم ذلك بالقسَم.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

معناه أن السماوات والأرضين قائمان بأمره تعالى وتسخيره، فإذا

جاءت القيامة بُدّلت الأرض غيرَ الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمرها ودعائه إياهم.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالى أطوار خلق الإنسان عقبها بأن نهايته الموت ثم البعث.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أخبر تعالى أنه بعد أن خلقنا من الأرض كالنبات، سيعيدنا فيها ثم يخرجنا ويبعثنا للحشر والجزاء.

ومثلها قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾ الآية.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى آيته في الرياح والسحاب ونزول المطر وحياة الأرض به بعد موتها، أمر عزّ وجل بالنظر في آثار هذه الرحمة وهي حياة الأرض وإنباتها من كل زوج بهيج ولفت الأنظار إلى الاستدلال بذلك على حياة الموتى وبعثهم.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

«في ريب» أي: في شك. «هامدة» أي: ميتة.

في هذه الآيات دليلان ظاهران على وقوع البعث لمن يعتبر.

الدليل الأول: خلق الإنسان على عدة أطوار: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، وقد يتكون الجنين كاملاً أو غير كامل، فتارة يسقط وقد تمّ تخطيطه وتصويره، وتارة يسقط ناقصاً ومرة يقره في الرحم حتى يتم أجله فيخرج طفلاً ضعيفاً في جميع أعضائه ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً حتى يتكامل ويصل إلى عنفوان الشباب، ثم من الناس من يأتيه أجله في شبابه وقواه، ومنهم من يعيش حتى يصير إلى العمر الأرذل وهو الخرف وضعف الجسم حتى لا يكاد يعلم شيئاً.

فمن خلق الإنسان على هذه الأطوار وجعله في هذه الحياة موقع تجلياته وتصرفاته وأفراد جنسه بلايينُ البلايين... أفلا يقدر على إنشائه مرة ثانية بعد تفرُّق أجزائه؟ بلى وربي.

الدليل الثاني: موت الأرض وانقلابها قاحلة ليس فيها نبات، ثم عندما ينزل عليها المطر تهتز وتربو وتنبت الأعشاب والزروع من كل زوج جميل، ففاعل ذلك هو الله الحق الذي يحيي الموتى ويبعث مَن في القبور.

وعن أبي رزين العقيلي أنه قال: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **«أما مررت بوادي أهلك محلاً؟»**، قال: بلى، قال: **«ثم مررت به يهتز خَضِراً؟»**، قال: بلى، قال: **«فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه»**.

رواه أحمد (١١/٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٣١)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٠) بسند حسن.

وفي رواية لأحمد (١١/٤) قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: **«أمررتَ بأرض من أرضك مجدبة ثم مررت بها مخصبة؟»**، قال: نعم، قال: **«كذلك النشور»**.

قوله: «محلاً» أي: قاحلاً يابساً لا نبات به، وهو معنى مجدبة.

في الحديث بيان ومثل للحياة بعد الموت والخروج من القبور.

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

«طلع نضيد» أي: طلع منضود منظّم بعضه فوق بعض، والطلع هو الموز، والنخل الباسقات هي الطوال.

فكما أحيى البلدة الميتة بالماء المبارك وأخرج منها الجنان والزروع والثمار والفواكه كذلك يكون خروج الناس من قبورهم بعد موتهم لأن الكل تحت قهر الله وسيطرته وملكه، فهذا مثال للبعث بعد الموت كسابقه.

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وهذا مثال آخر للبعث بعد الفناء، فكما أن الله عزّ وجل يُخرج النبات من الحَب، والحَب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، كذلك يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم.

ومثل هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

«فأنشرنا» أي: أحيينا.

أما آيات الحشر والجمع فنقتصر منها على الآتي:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ الآية.

«بارزة» أي: ظاهرة، ليس فيها جبل ولا بناء ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم محشورون مجموعون في موقف واحد ضاحون لله عزّ وجل لا تخفى عليه خافية منهم.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ إلخ.

يعني أنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث يجمع الله المجرمين والكافرين زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال يتسارون فيما بينهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا أياماً قلائل.

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

أقسم الباري تعالى بنفسه المقدسة على أنه لا بد أن يحشر الكفار وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يحضرهم حول جهنم جثياً، أي: باركين على رُكَبهم لشدة الهول.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: واذكر فيما نقصُّه عليك وتذكرهم به يوم نجمعهم جميعاً الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يعني أنه تعالى يجمعهم جميعاً بإنسهم وجنّهم، وكافرهم ومؤمنهم، ثم يخاطب المشركين: الزموا أنتم ومعبوداتكم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، ثم يزيل ويفرق بين الكفار ومعبوداتهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل وتبرأت الأصنام من عابديها.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: واذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب كأنهم لم يمكثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من نهار، قالوا ذلك لما شاهدوه من أهوال يوم القيامة وطوله، ولما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها.

وقوله: «يتعارفون بينهم» يعني بعد خروجهم وحشرهم يعرف بعضهم بعضاً ثم تنقطع بينهم العلاقات والأسباب.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ . . .﴾ إلخ.

يقول عزّ وجل عندما يجمع المشركين وما عبدوه من دون الله للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء لعبادتكم وأضللتموهم أم هم ضلوا من عند أنفسهم، فيجيبونه قائلين: ما كان ينبغي لنا أن نجعل من غيرك ولياً فنحن ما دعوناهم ولا أمرناهم بعبادتنا. والظاهر أن هؤلاء المعبودين الذين تبرؤوا من المشركين هم الملائكة أو عيسى وعزير... ممن عُبدوا من دون الله، ومثل هذه الآية آية سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ إلخ، وهذه الآية بينت أن المعبودين الذين تبرؤوا من المشركين هم الملائكة، وهكذا جاء في آيات أُخر تبرؤ عيسى من عابديه.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإليه الرجوع والحشر للحساب.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ الآية.

«المعيشة الضنكة»: هي التي لا طمأنينة معها ولا انشراح صدر بل يكون صاحبها صدره حرجاً ضيقاً لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه لا ينشرح ولا يزال في قلق وحيرة، وهذا مشاهد حتى فيمن يدعي الإيمان وهو مصر على الفواحش غارق في الدنيا.

والآية الكريمة، تدل على أن من أعرض عن القرآن ونسي الإيمان

والعمل به عاقبه الله تعالى في الدنيا بالمعيشة الضنكة وبعثه يوم القيامة وجمعه للحشر أعمى البصر، وأن الله عزّ وجل سيجعله في النار كالمنسي جزاء على نِسْيانه آيات الله تعالى في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ . . .﴾ الآية.

الآية الكريمة، دلّت على أن أهل الضلال من الكفرة والمشركين سيحشرهم الله تعالى على وجوههم عمياً لا يبصرون، بكماً لا ينطقون، صمًّا لا يسمعون، جزاء على ما كانوا عليه في الدنيا عمياً بكماً صمًّا عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك جزاءً وفاقاً.

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تكشف عن صفات الناس عند الخروج والحشر.

[٢٥٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «**يا أيُّها الناسُ إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةً عُراةً غُزلاً**، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، **ألا وإنّ أول الخلائق يُكْسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام**».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٧٢/١٧٣) وفي مواضع من التفسير، ومسلم في الجنة (١٧/١٩٣/١٩٤)، والترمذي في التفسير (٣١١٥) وفي القيامة، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٧).

«محشورون» أي: مجموعون من قبوركم إلى الموقف. وقوله: «غرلاً» جمع أغرل، والغرلة الجلدة التي تكون على حشفة الذكر فتقطع في الختان.

[٢٥٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس حفاةً عُراةً غُزلاً**»، قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذلك**» وفي رواية: «**الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**».

رواه البخاري في الرقاق (١٧٦/١٤) وفي التفسير، ومسلم في الجنة في بيان الحشر (١٩٣/١٩٢/١٧).

الحديثان يدلان على أن الناس سيخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف كما خلقوا لا شيء معهم ولا يُفقَدُ من أجسامهم شيءٌ حتى الغُرْلة ترجع إليهم فهم كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وكما قال في آية ثانية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ومن هول الموقف أن الناس كلهم عراة بنسائهم ورجالهم ولا يعرج أحد على أحد، فما نزل بهم أعظم وأدهى من أن يلتفت بعضهم إلى عورة بعض، فلكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.

وقوله: «وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم» في هذا خصيصة لخليل الرحمٰن حيث إنه سيكسى قبل الناس وهو يدل على أن الناس سيكسون بعد ذلك.

[٢٥٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ أن يمشيهم على وجوههم**».

رواه البخاري في الرقاق (١٧١/١٤) وفي التفسير، ومسلم في صفة جهنم رقم (٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٤٢٠/٦).

في هذا الحديث بيان حشر الكافرين وأنهم لا يساقون إلى الموقف كالعادة ماشين على أقدامهم بل يمشون ويسحبون على وجوههم إهانة لهم وزيادة في التنكيل بهم وتعذيبهم، والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الآية، وقوله عز وجل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ الآية.

وهذا وإن استبعدته عقولنا الضيقة وخالف عاداتنا المتعارفة، فإن الله قادر على كل شيء وإن أمور الآخرة على خلاف حياتنا هذه، فالواجب الإيمان بما جاء به الوحي والتسليم.

والمقصود أن البعث والنشور والحشر من مقتضيات الإيمان وأسسه وكلياته الست الواردة في الأحاديث التالية:

[٣٦٠] ففي حديث جبريل عليه السلام الذي يرويه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ في السؤال عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

رواه أحمد والطيالسي ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود، وتقدم في الإيمان من الجزء الأول كالآتي:

[٣٦١] وعن أبي هريرة نحوه وفيه: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتابه ولقائه ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر**».

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الإيمان.

[٣٦٢] وعن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**».

رواه أحمد والطيالسي والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وتقدم أيضاً.

فقوله: «وأن تؤمن بالبعث بعد الموت». وقوله: «ولقائه» وتؤمن بالبعث الآخر، واليوم الآخر.

فجعل الإيمان بلقاء الله وبالبعث وباليوم الآخر من شروط الإيمان، وأنه لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بذلك.

وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل الأديان الإلٰهية.

وقد جعل الله عزّ وجل الإيمان بالآخرة من الصفات الخاصة بالمؤمنين والمحسنين والمتقين، فقال تعالى في سورة النمل: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

وقال في سورة لقمان: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

وقال في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

فالآيات الثلاث كلها ختمت بالإيمان بالآخرة، (وبالآخرة هم يوقنون)، وجعل تعالى كل من اتصف بتلك الصفات من أهل الهداية والفلاح.

والآخرة تشمل كل ما يقع بعد نفخة الصعق من البعث والقيامة والحساب والمرور على الصراط والجنة والنار...

* * *

❊ مشاهد موقف يوم القيامة

[٣٦٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

عن النبي ﷺ قال: **«يقوم أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذُنَيه»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٨٤/١٤) وفي التفسير، ومسلم في الجنة (١٩٦/١٩٥/١٧) والترمذي (٢٢٤٢) كلاهما في صفة القيامة، والنسائي في الكبرى (٥٠٩/٦) وابن ماجه (٤٤٧٨).

«الرشح»: هو العرق.

[٣٦٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعاً، وإنه يُلجِمُهُمْ حتى يبلغ آذانهم»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٨٥)، ومسلم في صفة القيامة من الجنة (١٧/١٩٦).

[٣٦٥] وعن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كَقِيد ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبَيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيه، ومنهم من يُلْجِمُه العَرَقُ إلجاماً**»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، وفي رواية: «**فتصهرهم الشمس فيكونونَ في العَرَق كقدْر أعمالهم**».

رواه مسلم (١٧/١٩٦)، والترمذي (٢٢٤١) كلاهما في صفة القيامة.

قوله: «حقويه» بفتح الحاء: هو موضع شد الإزار من وسط الإنسان. قوله: «يلجمه» أي: يبلغ إلى آذانهم وأفواههم. وقوله: «فتصهرهم الشمس» أي: تُذيبهم فيعرقون. وقوله: «تُدْنى الشمس» أي: تقرب. وقوله: «قِيد ميل» بكسر القاف، أي: قدر ميل، والميل إما مسافة الأرض أو الميل الذي يكتحل به العين، فالله تعالى أعلم.

هذا المشهد المذكور في هذه الأحاديث عقب خروج الناس من القبور، وقبل الشفاعة العظمى التي سيحظى بها نبينا ﷺ فيكون الناس في ذلك الموقف تحت حرارة الشمس التي ستقرب منهم مقدار ميل فيكونون في ذلك حسب أعمالهم وإيمانهم فيذابون ويعرقون بما لم يروه في حياتهم الطويلة في الدنيا، ولذلك فمن الناس من يصل عرقه إلى عقبه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى نصفه، ومنهم من يلجمه إلى فمه وأذنيه، وهذا سيكون لعامة الناس وأشدهم في ذلك الكفار ثم أصحاب الكبائر من المؤمنين، أما الأفراد من الأنبياء والشهداء والصالحين ومن ورد فيهم التظليل يوم لا ظل إلا ظله فلا يصيبهم هذا الهول وهذا العذاب الفظيع الذي يتمنى الناس معه الذهاب ولو إلى النار.

[٣٦٦] وقد روى البيهقي في البعث بسند حسن عن ابن عمرو بن

العاص قال: يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على الكراسي من ذهب، ويظلل عليهم الغمام.

ذكره الحافظ في «الفتح» وله حكم الرفع.

[٣٦٧] كما أخرج عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: «**الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة وأعمالهم تظلهم**» وقوّى سنده الحافظ أيضاً، وهذا أيضاً له حكم الرفع لأن ذلك لا دخل للرأي فيه.

* * *

❋ تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة ومجيء الرب والملائكة صفاً صفاً

[٣٦٨] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد، الجن والإنس، والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق، فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلُها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وبجميع الخلق، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف، حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلُها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السماوات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السماوات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم، وينزل ربنا عزّ وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والإنس وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل والتقديس للّه عزّ وجل ما بين أخْمَص

قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حجزته مسيرة خمسمائة عام، وما بين حجزته إلى ترقُوَته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام، وجهنم مجنبته».

رواه ابن جرير (٧/٦/١٩)، وابن أبي حاتم (٢٦٨٢/٨) وابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأهوال كما عزاه الجلال السيوطي في الدر المنثور والأثر له حكم الرفع، وهو وإن كان فيه ضعف فهو منجبر في الجملة بالقرآن الكريم.

فقد ذكر الله تعالى تشقُّق السماء بالغمام وتنزُّل الملائكة ومجيء الرب سبحانه وتعالى والملائكة صفاً صفاً.

فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال المفسرون: واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقق السماء وتتفطر عن الغمام الذي يُسَوِّد الجوَّ ويُظِلُّهُ، ويُغِمُّ القلوبَ مَرْآهُ لكثرته وشدة ظلمته، ونُزِّلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر الملك في ذلك اليوم للّه الواحد القهّار الذي تخضع له الملوك، وتذل له الجبابرة والطغاة.

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

قال ابن كثير: يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ...﴾ إلخ، يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله.

وقال الشيخ الصابوني: أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق حيث تنشق السماء وينزل الجبار عزّ وجل في ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله...

[٣٦٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً، شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي»**.

أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٤٠) برواية الطبراني من طرق أحدها رجالها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة، وحسّنه الذهبي في «العلو».

وجاء هذا القدر في حديث الصور المشهور من حديث أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قال ابن كثير: وذلك كائن يوم القيامة.

وقال ابن جرير: المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

وقال تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ أي: ارتدعوا أيها الغافلون فإن أمامكم أهوالاً عظيمة في ذلك اليوم العصيب حيث تزلزل الأرض وينهدم كل ما عليها وتقوم القيامة ويجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

قال ابن كثير: وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم ﷺ فيجيء الرب تبارك وتعالى والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ...﴾ إلخ.

أي: في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن الله له بالكلام...

فعلمنا من هذه الآيات ومن حديثَي ابن عباس وابن مسعود رضي الله

تعالى عنهم، أن الخلائق إذا حشروا ووقفوا على أرض المحشر، وهي أرض غير هذه الأرض كما قدّمنا، عندئذ تشقق السماء بالغمام وتتنزل ملائكة السماوات السبع وهم عدد خيالي لا يحصيهم إلا الله عزّ وجل، فيحيطون بالإنس والجن وكل الخلق صفاً صفاً وهم أيضاً الملايين بل والبلايين قائمين خاشعين خائفين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، ثم يأتيهم الرب تعالى ويجيء للفصل بينهم مجيئاً لا نعلم حقيقته ولا كيفيته، والآخرة على خلاف الدنيا والله عزّ وجل ليس كمثله شيء.

* * *

❋ شدة يوم القيامة وطوله على الكافرين وخفته على المؤمنين

[٢٧٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته، وجنبه، وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»**.

رواه أحمد (٢/٢٦٢)، ومسلم في الزكاة (٧/٦٧/٦٨)، وأبو داود (١٦٥٨) وغيرهم، وقد تقدم في الزكاة مطولاً.

[٢٧١] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إنه يخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»**.

رواه أحمد (٣/٧٥)، وابن حبان «بالإحسان» (٧٣٣٤)، وابن جرير (٢٩/٧٢)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وأورده النور في «المجمع» (١٠/٣٣٧) برواية أحمد وأبي يعلى، وقال: إسناده حسن على ضعف راويه.

في سنده ابن لهيعة ودراج عن أبي الهيثم وحالهما معروف فهو حسن على رأي جماعة من أهل الحديث، ويؤيده ما في الباب.

[٢٧٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، يُهوِّنُ الله ذلك على المؤمنين كتدلّي الشمس للغروب إلى أن تغرب»**.

رواه ابن حبان (٧٣٣٣)، وأبو يعلى (٦٠٢٥)، وعزاه إليه النور في المجمع (٣٣٧/١٠) وقال رجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبدالله بن خالد وهو ثقة.

فهذه الأحاديث تدل على أمور ثلاثة:

أولاً: تدل على أن يوم القيامة سيكون طوله خمسين ألف سنة كما في الآية الكريمة، وكما جاء في هذه الأحاديث، وكما رواه ابن أبي حاتم (١٨٩٨٩) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾، قال: يوم القيامة، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وابن زيد.

ثانياً: سيختص طوله بالكافرين والمنافقين والعتاة على الله عزّ وجل والمصرين على تعاطي الفواحش ومزاولة كبار الذنوب، فسيقاسون من العذاب والأهوال والشدة وأنواع الذل والهوان والخزي والنكال مسبقاً في الموقف ما يتمنون معه الذهاب إلى النار. وتلكم هي أدهى وأمر.

ثالثاً: تهوين ذلك اليوم الطويل على المؤمنين الصالحين الذين لقوا الله طيبين مطهرين حتى يكون عليهم مقدار زمن أداء صلاة مكتوبة، أو نحو ذلك من قصر الوقت، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين.

غير أننا لا ندري كيف يكون هذا التهوين، فيحتمل أن يلقى عليهم سنة أو نحوها حتى لا يحسوا بمرور السنين كما وقع في الدنيا لأصحاب الكهف والذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقد مرت على

هؤلاء سنون طوال ولم يشعروا بها ويحتمل غير ذلك مما لا نعلمه وشؤون الله تعالى لا يقاس عليها.

فالمهم هو أن يوم القيامة عسير على الكافرين طويل شديد، يسير على المؤمنين هين قصير...

❊ ❊ ❊

❊ الشفاعة العظمى والمقام المحمود

[٢٧٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُتيَ رسول الله ﷺ بلحم فرُفِعَ إليه الذراعُ وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مَمّ ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعُهم الداعي، وينفُذُهم البصرُ، وتدنو الشمس فيبلُغُ الناسَ من الغم والكرْبِ ما لا يُطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عزّ وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب**

قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنتُ كذبتُ ثلاث كَذَبَاتٍ، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أُومَرْ بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزّ وجل، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطَه، واشفع تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخِل من أمتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وَهَجَر، أو: كما بين مكة وبُصْرى».

رواه أحمد (٤٣٥/٢)، والبخاري في التفسير (١١/١٠/١٠)، ومسلم في الإيمان (٧٠/٦٥/٣)، والترمذي في الزهد (٢٢٥٥)، والنسائي في الكبرى (٣٧٨/٦) وغيرهم.

قوله: «نهس» أي: أخذ بأطراف أسنانه، «صعيد واحد»: هو الأرض الواسعة التي سيُحشر الناس عليها. «يُسْمعهم الداعي»: معناه أن الجميع يسمعون من دعاهم أو ناداهم لأنه ليس هنالك جبل ولا بناء يحول بينه وبينهم. وقوله: «ينفذهم» أي: يبلغهم بصر الناظر ويجاوزهم. وقوله:

«المصراعين» تثنية مصراع وهو جانب الباب. و«هجر»: كانت مدينة في البحرين قاعدة بلادهم.

[٢٧٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يطول على الناس يوم القيامة فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فيشفع لنا إلى ربنا عزّ وجل فليقض بيننا»**، فذكر مثل ما سبق **«وفي كلٍّ يقولون: اشفع لنا إلى ربك فليقضِ بيننا»**، وفي رواية: **«فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا»**.

رواه البخاري في التوحيد (١٧/٢٥٢/٢٥٧)، ومسلم في الإيمان (٣/٥٣/٦١/٦٤)، وأحمد (٣/٢٤٧).

وقوله: **«فليقضِ بيننا»** معناه: اشفع لنا إلى ربك ليريحنا من عذاب الموقف، وليفصل بيننا إما إلى الجنة وإما إلى النار.

[٢٧٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًى كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.

رواه البخاري (١٠/١٤)، والنسائي (٦/٣٨٨) كلاهما في التفسير وحكمه الرفع.

وقوله: **«جُثًى»** أي: جاثمين على رُكَبهم، جمع جاث.

[٢٧٦] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُبْعَثُ الناسُ يوم القيامة فأكونُ أنا وأمّتي على تَلٍّ ويكسوني ربي حُلةً خضراء، ثم يؤذنُ لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقامُ المحمودُ»**.

رواه أحمد (٣/٣٥٦)، وابن حبان بالإحسان (٦٤٤٥)، وابن أبي حاتم (٧/٢٣٤٢)، والحاكم (٢/٣٦٣) بسند صحيح.

وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

«التل»: بفتح التاء، قطعة من الأرض مرتفعة.

[٢٧٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك، استغاثوا بآدم ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ، فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم»**.

رواه البخاري في الزكاة باب من سأل الناس تكثُّراً (٤/٨١/٨٢).

والأحاديث بهذه الشفاعة وأنها المقام المحمود متواترة وردت عن جم غفير من الصحابة ومخرجة في الصحاح، والمسانيد، والسنن، وغيرها.

قوله: «أهل الجمع» هم أهل المحشر، لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم.

وجملة هذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيجمع الأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾، ويكون ذلك في صعيد واحد على أرض أخرى بيضاء نقية، واسعة المدى لا تتصور العقول عرضها وطولها واتساعها يسمع الناس عليها داعيهم وينفذهم بصر ناظريهم ليس بينها وبينهم جبل ولا بناء... وتدنو منهم الشمس مقدار ميل فيذوبون عرقاً حتى يلجمهم إلجاماً فيقفون جاثين على ركبهم، ويطول عليهم ذلك اليوم مقدار خمسين ألف سنة، ويبلغ الناس من الغم، والكرب، والأهوال ما لا يطيقون ولا يحتملون، وينزل بهم من الشدة والعذاب ما لم يتقدم له مثيل في حياتهم الأولى فيتمنون الخروج مما نزل بهم ولو إلى النار، فعند ذلك يفزعون إلى من يشفع لهم من ذلك الهول فيلتجئون إلى سادات البشرية وهم رسل الله وخاصته صلوات الله وسلامه عليهم فيستغيثون بهم ويسألونهم الشفاعة إلى الله عزّ وجل في إنقاذهم مما نزل بهم، وإراحتهم من هول ذلك الموقف، ويقضي بينهم ويذهب بهم إلى ما يشاء ولو إلى النار. فيبدأون بالاستغاثة

بأبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذرون إليهم ويقولون: نفسي، نفسي، نفسي، ويذكرون ما صدر منهم في حياتهم الأولى مما عدُّوه مخالفة للّه عزّ وجل، ويذكرون لهم بأن الله عزّ وجل قد غضب غضباً ما غضب مثله قبله ولن يغضب بعده مثله قط، ثم يحيل بعضهم على بعض من أكابر أولي العزم حتى يصلوا إلى عيسى فيقول: اذهبوا إلى شاب غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اذهبوا إلى محمد، فيأتونه فيقول: أنا لها أنا لها، فيسجد للّه عزّ وجل ويحمده بمحامد ويثني عليه بما سيفتح به عليه فينادي: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطَه، اشفع تُشَفَّع، فيشفِّعُهُ الله عزّ وجل في خلقه، فيذهب بهم من هول الموقف إلى الحساب والقصاص.

وهذا هو المقام المحمود الذي نطق به القرآن في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، والذي يحمده فيه الأولون والآخرون بل حتى الأنبياء يشاركون الناس في سؤاله ﷺ الشفاعة.

[٣٧٨] ففي حديث لأنس رضي الله تعالى عنه في الشفاعة عنه ﷺ: **«إني لقائم أنتظر أمتي تَعْبُر على الصراط، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال: هذه الأنبياءُ قد جاءتْك يا محمد يشتكون** أو قال: **يجتمعون إليك، ويدعون الله عزّ وجل أن يُفَرِّقَ جميعُ الأمم إلى حيث يشاء الله لِغَمِّ ما هم فيه، والخلق مُلْجَمُون في العرق»**.

رواه أحمد (١٧٨/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

وفي قولهم: «ليقضى بين الناس»، وقولهم: «ويريحنا من مكاننا هذا»، وقولهم: «فيشفع ليقضى بين الخلق»، وقوله: «فليقضِ بيننا»، وقولهم: «أن يفرق بين جميع الأمم» كل ذلك يدل على أن هذه الشفاعة هي خاصة بإراحة الناس من هول الموقف والذهاب بهم للفصل بينهم، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، ولذلك اتفق جميع الفرق على هذه الشفاعة العظمى حتى الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا الشفاعات الأخرى اعترفوا بهذه، والله تعالى أعلم.

وقوله ﷺ: «**يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلّ**».

و«التل»: القطعة من الأرض تكون مرتفعة على من حولها.

فيه دليل على أن الأمة المحمدية وخاصة أهل الصلاح منهم سيكونون مع النبي ﷺ على قطعة خاصة من أرض المحشر مرتفعة لا يصيبها ما يصيب الناس من الأهوال.

وقد جاء في السنة التنصيص على حفظ أنواع من الناس من حر شمس الموقف وأنهم سيكونون تحت ظل الله عزّ وجل، كالسبعة المذكورين في حديث أبي هريرة عند الشيخين وهم: شاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحاباً بالله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، وإمام عادل.

ومنهم المتحابون في الله، ومَن أنظر معسراً أو وضع عنه، وأهل الصدقة، وغير هؤلاء ممن سبقت لهم من الله السعادة.

* * *

❁ حوض نبينا ﷺ

[٢٧٩] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللَّبَن، وريحُه أطيبُ من المسك، وكيزانُه كنجوم السماء، مَن شرب منه لم يظمأ أبداً**».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٦٦/٢٦٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/٥٥)، وابن حبان بالإحسان (٦٤٥٣).

قوله: «وزواياه سواء» معناه: طوله وعرضه سواء. وقوله: «وكيزانه» في رواية: «**أباريق**» وفي أخرى: «**آنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها**». وقوله: «لم يظمأ» أي: لم يصبه عطش.

[٢٨٠] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إني فَرَطُكُم على الحوض مَن مرّ عليّ شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبداً، ليَرِدَنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم»**.

وفي رواية عن أبي سعيد: **«فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غيَّر بعدي»**.

رواهما البخاري في الرقاق (١٤/٢٧١)، ومسلم في الفضائل (١٥/٥٣/٥٤).

«سُحْقاً» أي: بُعداً لكم.

[٢٨١] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **«والذي نفسُ محمدٍ بيده لآنيتُه أكثر من عددِ نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المُظلمة المُضحِية، آنية الجنة، مَن شربَ منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشْخُبُ فيه ميزابان من الجنة، مَن شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عُمَان إلى أيلَة، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»**.

رواه مسلم (١٥/٦١/٦٢)، والترمذي في القيامة (٢٢٦٦).

قوله: «يشخب» بفتح الياء وضم الخاء وفتحها، أي: يصب. و«عمان» بضم العين وتخفيف الميم، إمارة معروفة بسلطنة عمان: و«أيلة»: مدينة بفلسطين على البحر.

وأحاديث الحوض جاءت من طرق متواترة وهو غير الكوثر المنصوص عليه في القرآن، فإن هذا في الجنة، أما الحوض فهو قبل الصراط في الموقف على الصحيح، فإن الناس سيصيبهم عطش شديد في ذلك اليوم وهم في المحشر فيرد المؤمنون أحواض أنبيائهم ليطفئوا ما أصابهم من الظمأ فإنه قد جاء: **«إن لكل نبي حوضاً»**.

[٢٨٢] فعن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ لكُلّ نبيٍّ حوضاً، وإنهم يتباهون أيُهم أكثرُ وارِدةً، وإني أرجو أن أكونَ أكثرَهم وارِدةً»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٦٤).

وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شاهداً عن أبي سعيد رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٣٦٩/٣٦٣/١) وآخر عن ابن عباس رواه ابن أبي الدنيا، وذكر الحافظ أنه جاء مرسلاً بسند صحيح، فالحديث حسن.

قوله: «يتباهون» أي: يتفاخرون أيهم يشرب من أمته أكثر، وأن نبينا ﷺ سيكون أكثرهم واردة لأن أمته أكثرُ الأمم.

والمقصود أن لنبينا ﷺ حوضاً ترده أمته عِطاشاً فمَن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً وسيُطردُ عنه أقوام بدّلوا وغيّروا وارتدُّوا، وفيهم من كان يعرفهم ﷺ فتطردهم الملائكة فيقول: إنهم من أصحابي، فيقال له: إنك لا تعلم ما فعلوا بعدك، لم يزالوا مرتدين على أعقابهم وهؤلاء المطرودون عن الحوض المرتدون هم المنافقون وضعفاء الإيمان من أهل القبائل العربية الذين أرتدوا بعد النبي ﷺ وتبع أكثرُهم مُسيلمةَ الكذاب، أما الصحابة المخلصون من المهاجرين والأنصار فلم يرتد منهم أحد بحمد الله باتفاق العلماء من أهل السنة والجماعة، وسيأتي بقية كلام عند ذكر الكوثر.

* * *

❊ العرضُ على اللّه تعالى
العَرْضُ العام

[٢٨٣] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُعرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضاتٍ، فأما عَرْضَتَان فجدالٌ ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تطيرُ الصُّحُف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه، وآخِذٌ بشماله»**.

رواه أحمد (٤١٤/٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٧) ورجاله ثقات مع انقطاعه، ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٥) بسند حسن مع اختلاف في سماع الحسن من أبي هريرة، وقد صحّ سماعه منه في عدة

أحاديث وله شاهد عن ابن مسعود موقوفاً رواه البيهقي. قال الحافظ: بسند حسن.

والمراد بالعرض على الله تعالى وقوف جميع الخلائق بين يديه بإنسهم وجنّهم كافرهم ومؤمنهم ذكرهم وأنثاهم كبيرهم وصغيرهم ووحشهم وهوامهم وأنعامهم وطيورهم، وذلك لفصل القضاء وحسابهم أمماً أمماً، وجماعاتٍ جماعات، وأفراداً أفراداً كلهم خاشعون خاضعون لا يملكون لأنفسهم حيلة، ولا يستطيعون نفاقاً ولا كذباً ولا غشاً ولا غدراً ولا خيانةً ولا هرباً ولا مواراة ولا استخفاء، ولا يقدرون على نوم ولا راحة، ولا يفتُر عن الكافرين والخاسرين الذلُّ والهوانُ والعذابُ والنكال، تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يعملون ويتمنون أن يكونوا أنعاماً ووحوشاً حتى يصيروا تراباً كما تصير الوحوش والطير تراباً بأمر الله تعالى.

تأتي الأمم بين يدَي العزيز القهّار وما كانت تعبد حفاة عراة، كل أمة تجثو بين يدَي الله تعالى تنتظر فصل القضاء ومحاسبة الله عزّ وجل إياها.

قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٦ ـ ٢٩].

فكل أمة تأتي عند العرض جاثية على رُكَبِها، حتى أمة خير الرسل أمة حبيبنا محمد ﷺ، ثم يؤمُنُها الله عزّ وجل من الفزع، والكل يُدعَى إلى كتاب حسناته وسيئاته، ويقال لهم: هذا كتابنا الذي كتبه عليكم الحفظة ينطق بالحق فإننا كنا نكتب ما كنتم تعملون فاليوم تجزون ما قدّمت أيديكم.

وفي هذا المشهد كل إنسان ينشغل بنفسه عن غيره، الجميعُ خائفٌ لا يعلم مصيرَه ولا إلى أين يذهب به ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وفي الحديث الذي افتتحنا به العرض على الله تعالى بيان أن العرض عليه عزّ وجل سيكون ثلاث مرات؛ في العرضة الأولى يجادل الإنسان ويدافع عن نفسه فيها بحق وباطل، وصدق وكذب، كما فصّله الله عزّ وجل في غير ما آية، وكما يأتي بعض ذلك لاحقاً.

أما في العرضة الثانية، فيعترف كل إنسان بما قدّمت يداه ويعتذر ويستعتب، وهيهات هيهات فأنّى له قبول اعتذاره.

أما في العرضة الثالثة، فعندها يكون الفصل وظهور النتيجة فيأخذ كل واحد كتابه، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله.

ويكون الناس يومئذ ثلاث فرق: سابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، كما ذكرهم الله عزّ وجل في سورة الواقعة مع مآلهم...

فقال عزّ من قائل: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ...﴾ إلخ.

وذكرهم في غير ما آية صنفين: أهل اليمين وأهل الشمال.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١...﴾ الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ الآية.

وقوله: «وراء ظهره» قال المفسرون: أي: بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويُعطى كتابه بها كذلك. وقوله: «يدعو ثبوراً» أي: خساراً وهلاكاً.

ويأتي مزيد لهذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

* * *

❊ عرض الأمم على النار حيث سيؤتى بها إلى الموقف

[٢٨٤] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بجهَنَّم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧/١٧٩)، والترمذي في صفة جهنم (٢٣٩٠) بتهذيبي.

ففي الحديث أنه يؤتى بجهنم إلى الموقف يقودها هذا العدد الهائل من ملائكة الله تعالى العظام لتُرهِب الكفار والطغاة والعُتاة على الله وتُزعِبهم وتزعجهم ويعذَّبُون برؤيتها عذاباً نفسياً مُسَبَّقاً.

فتتغيظ وتزفر على الكافرين وتشهق وهي تفور بأصوات مرعبة.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: سمعوا لها صوتاً كصوت المتغيظ كما يسمعون لها صوتاً شديداً كصوت الزافر وذلك حَنَقاً عليهم.

وقال تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تشهق لهم شهوق البغلة إلى الشعير وتكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله.

وعندئذ تصبح القلوب لدى الحناجر، ولولا أن الله عزّ وجل قضى في سابق علمه أن لا موت إلا الموتة الأولى لخرجت روح كل من رأى ذلك المشهد، وفي عرض الأمم على النار في ذلك الموقف الرهيب حينما يؤتى بها مع ملائكة الرحمٰن وتسعر وتقترب.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ الآية.

ويقول في عرض الكفار على النار وهي تتغيظ وتزفر: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: عندما يعرض الكفار على النار وهم في الموقف، يقال لهم: لقد أمضيتم ما تمتعتم به في الدنيا فلبستم فاخر الثياب، وارتديتم أجمل الملابس، وأكلتم أنواع المآكل، وشربتم لذائذ الأشربة، ونكحتم الفتيات الحسان، وتمتعتم بجمالهن ورقصهن وأغانيهن، وركبتم فاره المراكب، وتوسعتم في أنواع السيارات، وملكتم الطائرات والقطارات وبواخر السياحة الهائلات، وصنعتم الآلات الحربية المدمرات، وتطاولتم على أولياء الله من المؤمنين واستضعفتموهم وقاتلتموهم ودمّرتم بلادهم واستعمرتموهم.

فاليوم وقد وقفتم بين يدَي الله الحكم العدل وعرضتم على النار، تجزون عذاب الهون بسبب استكباركم على الله وعلى رسله وبسبب فسقكم وكفركم.

ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾.

قوله: «خاشعين من الذل» أي: الذي أصابهم بما أسلفوا من

عصيان الله. وقوله: «من طرف خفي» يعني أنهم ينظرون إلى النار مسارقة خوفاً منها.

وفي هذا المشهد وقد أحضرت النار للموقف يخرج منها عنق يتكلم كما في الحديث التالي:

[٢٨٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرُجُ عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عَينانِ تُبْصِران، وأُذُنانِ تسمعان، ولسانٌ ينطقُ، ويقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بمن دعا مع الله إلهاً آخر، وبكلِّ جبّار عنيد، وبالمُصَوِّرين»**.

رواه أحمد (٢/٣٣٦)، والترمذي في أول صفة جهنم (٢٣٩١) وحسّنه وصححه وسنده صحيح.

«عنق»: بضمتين مثل صورة العنق حقيقة بدليل ذكر الأذنين واللسان. وقوله: «وكلت» أي: وكلني الله تعالى وأسند إليّ أن أدخل هؤلاء النار. وقوله: «جبار عنيد» أي: المتمرد العاتي الجائر الباغي. وقوله: «وبالمصورين» قال بعض العلماء: يعني الذين ينحتون التماثيل، وقيل: كل التصوير حتى الأرقام.

وفي هذا الحديث مشهد آخر من مشاهد الموقف وهو خروج صورة من النار مثل العنق لها عينان وأذنان ولسان ينادي على أهل المحشر بأن الله تعالى أسند إليّ أن آخذ ثلاثة أصناف من الناس فأُدخلهم النار، وهم كل من اتخذ مع الله إلهاً آخر وأُشرك معه، وبكل جبار ظالم متمرد على الله باغ، وبكل من كان يتعاطى التصوير لأنّ في ذلك مضاهاة الله عزّ وجل في خلقه.

وفي هذا المشهد فضيحة أي فضيحة، حيث سيؤخذ هؤلاء الأصناف على مرأى من أهل الموقف، والكل يشاهد ويسمع وقد دهمهم الرعب وارتعدت فرائصهم، نسأل الله العفو واللطف، آمين.

* * *

❋ بداية العرض على الله تعالى
عرض آدم عليه السلام

[٢٨٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار**، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: **من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشقّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم**»، قال النبي ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحدٌ ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فكبّرنا، ثم قال: «**ثلث أهل الجنة**»، فكبّرنا، ثم قال: «**شطر أهل الجنة**» فكبّرنا.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٥٧) وفي الرقاق (١٤/١٧٩)، ومسلم آخر الإيمان (٣/٩٧/٩٨) وغيرهما.

[٢٨٧] وعن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ لما أُنزلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ وهو في سفر، قال: «**أتدرون أي يوم ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: ابعث بعث النار**» فذكر مثل ما سبق، ثم قال: فأنشأ المسلمون يبكون، فقال ﷺ: «**قاربوا وسدّدوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية**»، قال: «**فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين**» فذكر الحديث كسابقه. وفي رواية: «**فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومَن هلك من بني آدم وبني إبليس**» قال: فأسرى عنهم.

رواه أحمد (٤/٤٣٥)، والترمذي (٢٩٦٤)، والنسائي في الكبرى

(٤١٠/٦)، والحاكم (٣٨/١) و(٣٨٥/٢٢٣/٢) و(٥٦٧/٤) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفي الباب بنحو ما سبق عن ابن مسعود عند أحمد (٣٨٨/١) وعن ابن عباس رواه الحاكم (٥٦٨/٤) وصححه، والبزار بسند صحيح. وعن أنس رواه ابن حبان (١٧٥٢) والحاكم (٢٩/١) و(٥٦٦/٤) وصححه.

فهذا المشهد الفظيع سيكون في عرصات يوم القيامة بعد القيام من القبور كما اختاره ابن جرير وغيره.

وهو هول عظيم، وفزع وبلبال شديد حيث إن الله عزّ وجل سينادي نبيه آدم أبا البشرية عليه السلام ويأمره أن يبعث ويخرج من ذريته بعث النار، وقد اجتمع أولهم وآخرهم وسابقهم ولاحقهم ولم يغادر الله منهم أحداً وعرضوا عليه صفاً، ويقال لهم: لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، فيخرج منهم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين للنار وواحداً للجنة، وعندما سمع أصحاب رسول الله ﷺ هذا النبأ العظيم والخبر الهائل تمعّرت وجوههم وشقّ ذلك عليهم وجعلوا يبكون، طمأنهم فبشّرهم بأن الواحد سيكون من المؤمنين والعدد الباقي سيكون من يأجوج ومأجوج وأهل الجاهلية والمنافقين وبني إبليس، فعند ذلك استبشروا وسُرّي عنهم وازدادوا فرحاً وبشارة حيثما أخبرهم بأنهم سيحتلون من الجنة نصف أهلها فحمدوا الله تعالى وكبّروه.

وما ذكر هنا هو أحد مشاهد يوم القيامة الكثيرة ولا ندري هل سيكون ذلك فور البعث والوقوف في أرض المحشر أم سيكون بعد تنزُّل الملائكة والروح ومجيء الرب عزّ وجل؟

* * *

❋ عرض الرسل على اللّه وسؤالهم عن التبليغ وشهادتهم على أممهم ثم شهادة الرسول وأمته على الجميع

[٢٨٨] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبيك وسَعْديك يا ربّ،

فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

وفي رواية: قال ﷺ: «يجيء النبيُ يوم القيامة ومعه الرجلُ، والنبيُ ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيُدعى قومُه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلّغت قومَك؟ فيقول: نعم، فيقال له: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيُدعى محمدٌ وأمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدّقناه، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ـ أي: خياراً عدولاً ـ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

رواه أحمد (٣/٣٢/٥٨)، والبخاري في التفسير (٩/٢٣٨/٢٣٩) وفي بدء الخلق، وفي الاعتصام، والترمذي (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢) كلاهما في التفسير.

بعد عرض أبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام على الله عزّ وجل وأمره إياه ببعث أهل النار من بنيه الذين تناسلوا منه حتى امتلأت الدنيا بالملايين والبلايين منهم، وها هم الآن جميعهم فوق أرض المحشر ينتظرون فصل القضاء، بعد ذلك تعرض عليه عزّ وجل باقي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع أممهم فيسألهم سؤالاً جماعياً على مرأى ومسمع من أقوامهم وجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وليس السؤال خاصاً بنوح.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

وقال عزّ وجل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

فالله عزّ وجل سيسأل كل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل جميع الأمم عما أجابوا به رسله، فإذا أنكرت الأمم تبليغهم رسلهم أحضر الله الأمة

المحمدية ونبيها ليشهدوا لهم، لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادة هذه الأمة وفضلها على كل أمة سواها كما أن كل الخلائق بأنبيائهم وأممهم معترفون بسيادة نبيها صاحب المقام المحمود ﷺ في ذلك اليوم فيشهدون للأنبياء بالتبليغ إقامة للحجة على أقوامهم، ثم يشهد على هذه الأمة نبيها سيدنا محمد ﷺ وأنه بلغهم فأجابوه، ولذا كان يقول في حجة الوداع: **«أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟»**، قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك بلّغت الرسالة وأدّيتَ ونصحتَ، فقال ﷺ: **«اللهم هل بلّغت اللهم فاشهد»**.

وقد ذكر الله عزّ وجل هذه الشهادة في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقال في آية ثانية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وقال في آية ثالثة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقال عزّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فكل أمة سيكون لها شهيد يشهد عليها وهو رسولها الذي أرسل إليها.

* * *

❋ الاختصام بين الأمم والجماعات يوم القيامة

[٢٨٩] عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال الزبير رضي الله تعالى عنه: أي رسول الله أيُكَرِّرُ علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواطر الذنوب؟ فقال ﷺ: **«نعم ليُكَرِّرَنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه»**، قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

رواه أحمد (١٦٧/١)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٤) بتهذيبي،

والحاكم (٤٣٥/٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم أيضاً ووافقه الذهبي.

هذا مشهد آخر من مشاهد موقف يوم القيامة ذلكم هو اختصام الأمم والجماعات والقبائل والأحزاب والدول والشعوب.

فكم من دولة هاجمت دولة أخرى ضعيفة فكانت فريستها، وكم من أمة خاضت حروباً طاحنة ظالمة راح ضحيتها آلاف وملايين القتلى والجرحى، وكم من جماعة قاتلت جماعة أخرى لأجل مصالح الحزب فسفكت دماء لا تحصى أكثرها من النساء والأطفال والضعاف الأبرياء، وكم من فرقة كفرت وبدعت وضلّلت فرقاً أخرى غيرها.

وهذه الملل الموجودة في كل العصور والأجيال تضلل بعضها بعضاً وكل حزب بما لديهم فرحون.

فكل هؤلاء سيحاسبون جماعات وأمماً على ما تخاصموا عليه، وسيختصمون بين يدَي الله في موقف الحساب وتقضي بينهم المحكمة الإلٰهية العادلة، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

وفي أخرى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ومن مشاهد الموقف بين يدَي الله يوم القيامة اختصام الضالين مع بعضهم بعضاً، فالأتباع والضعفاء من المشركين والمنحرفين يتهمون أسيادهم ورؤساءهم بإضلالهم وإكفارهم فيتبرأ بعضهم من بعض وتنقطع بينهم أسباب الكفر والضلال والتحابب، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ۖ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ

صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ . . .﴾ الآية.

فهذا مشهدٌ من تخاصُم القادة والأتباع الكل يرجع القول بعضهم إلى بعض ويتبرأ مما ينسب إليه بل يتبرأ السادة المتبوعون من أتباعهم عندما يشاهدون العذاب، ويود الأتباع أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا فيتبرؤون هم الآخرون من ساداتهم أيضاً، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

وتبرؤ القادة والسادة هنا من الأتباع يشمل حتى المؤمنين أتباع علمائهم وأئمتهم في اجتهاداتهم المخالفة للحق إذا أصرُّوا على تقليدهم مع تبيُّن خطإهم.

* * *

❊ بداية الحساب
أهم ما يُسأل عنه العبد

[٢٩٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

رواه أحمد (٢/٥/٥٤/٥٥)، والبخاري في العتق (٧/١٠٧) وفي النكاح وفي مواضع، ومسلم (٢/٢١٣)، والترمذي (١٥٦٤) كلاهما في الجهاد.

قوله: «راع» الراعي هو الحافظ المؤتمن. و«الرعية»: كل من يشمله حفظ الراعي.

والحديث يدل على أن كل من استرعاه الله شيئاً في الدنيا وأُسند إليه حفظ شيء ما، كان مسؤولاً عنه أمام الله تعالى يوم القيامة.

فهؤلاء الأربعة المنصوص عليهم كلهم رعاة لرعاياهم، فالإمام الذي أُسندت إليه الإمارة العامة هو حافظ لها وساهرٌ على جلب مصالحها ودفع مفاسدها فهو مسؤول عن ذلك أحفظ أمانته لهم أم ضيّعها، والرجل راع في زوجته وبنيه هل عدل فيهم وهل أحسن في تربية أولاده وحملهم مع أمهم على طاعة الله تعالى واتباع شريعته، أم أهملهم وضيّعهم وتركهم.

والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن تصرفاتها فيه وفي عرضها وفي شؤون بيتها.

والخادم راع كذلك في مال سيده ومخدومه هل حفظه وأصلحه أم ضيّعه وخان فيه، فلكل هؤلاء مسؤولية سيُسألون عنها في موقف القيامة، وهؤلاء الأربعة لا مفهوم لعددهم.

[٢٩١] فقد قال ﷺ: «إن اللّهَ سائلٌ كلَّ راع عما استرعاه، حَفِظَ أم ضيّع حتى يُسألَ الرجلُ عن أهل بيته».

رواه النسائي في عِشرة النساء من الكبرى (٣٧٤/٥)، والترمذي في الجهاد بعد رقم (١٥٦٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٤/١٠) بسند صحيح على شرطهما عنده وهو من حديث أنس، فالمسؤولية ستكون في كل شيء وخاصة عن الشؤون العامة كالتعليم، وزعامة الأمة، وقيادتها، ودعوتها، والإشراف على وسائل الإعلام من الصحفيين، والمذيعين وغيرهم.

[٢٩٢] وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى: ألم أجعل لك سَمْعاً، وبصراً، ومالاً، وولداً، وسخّرتُ لك الأنعام، والحرث، وتركتُك**

ترأسُ وتَرْبَعُ، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال: فيقول العبد: لا، فيقول الله تعالى له: اليوم أنساك كما نسيتَني».

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٨) وحسّنه وصححه.

[٢٩٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في حديث يأتي في شهادة الجوارح وفيه: «**فيلقى العبدُ ربَّه فيقول: أي فُل ألم أكرِمك، وأُسَوِّدك، وأزَوِّجك، وأسَخِّر لك الخيل، والإبل، وأذَرْكَ ترأس، وتربَع...**» الحديث.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١٠٣/١٠٤) مطولاً، ويأتي.

هذه نعم وآلاء أنعم الله بها على الإنسان تفضلاً منه، وأمره أن يشكره عليها بعبادته والقيام بتكاليفه وسوف يسأله عنها، وقد ذكر لنا نبينا ﷺ هنا منها نحو عشر نِعَم، كل واحدة منها لا يستطيع الإنسان شكر واحدة منها ولو عُمِّر عُمُر نوح صائماً قائماً... وهي:

السمع والبصر والقلب، وما أعظمها من نعم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

فسَيُسْأل العبد عن هذه الجوارح الثلاثة يوم القيامة لأنها أولاً: نِعَمٌ عظيمةٌ من الله عزّ وجل على العبد، ولأنها ثانياً: طريق الإيمان والعمل الصالح، والكفر والانزلاق، فالأُذن تسمع القرآن والعلم والأذان والذكر وكل ما يؤدي إلى الجنة، وتسمع الفواحش والخنا والكفر والكلام الساقط والأغاني الماجنة وجميع ما يوصل إلى النار.

والبصر ينظر إلى آيات الله في أرضه وسمائه وكواكبه وجباله وبحاره وأشجاره وأنهاره وقد يطلقه صاحبه في المحرمات ويكرر النظر به حتى يدخله مداخل الفتن.

أما القلب، فبه يعرف الله وهو مصدر الإيمان والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي يفكر في الخير والشر ويهم بفعل الخيرات

والسيئات، وهو الذي إن صلح صلح سائر الجسد وإن فسد فسد سائر الجسد.

فيأتي السؤال يوم القيامة كالآتي: لماذا أصغيت إلى ما لا يحل لك سماعه فسمعت الكذب، والغيبة، والنميمة، وتجسست على الناس، ولماذا كنت تستمع إلى الأغاني الماجنة وتتلذذ بسماع كلام الفتيات...

ولماذا كنت تطلق بصرك فيما لا يحل لك من محاسن النساء الجميلات والنظر إلى العورات؟

ولماذا كنت تعزم على فعل السيئات وتعلق قلبك بحب ما لا يحل لك شرعاً من النساء الحسان، ولماذا كنت تكره ما يحبه الله، وتحب ما يبغضه الله؟

ثم يأتي السؤال عن المال من أين اكتسبته وأين أنفقته كما يأتي، وعن نعمة التزوج وما جعل تعالى في ذلك من الآيات والمنافع والمصالح، ثم نعمة السيادة بين الناس والرئاسة والزعامة، ثم تسخير المركوبات المتنوعة الفارهة وما أعطاه تعالى من الحراثة والزراعة التي بها قوام بنيته والمدد الذي به حياته، ثم ما كان يختص به الرئيس من ربع الغنيمة أو كما جاء في الإسلام من الصفى الذي يأخذه الإمام نيابة عن الرسول ﷺ.

فهذه النِعَم العظيمة كلها سيُسأل عنها الإنسان مؤمناً كان أم كافراً، هل قام بحقوقها وشكرها أم تمتع بها ثم كفر بشكر الله تعالى عليها؟

[٢٩٤] وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزُول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عُمُره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٢/١٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وله شاهد عن ابن مسعود رواه الترمذي وآخر عن معاذ رواه البزار والطبراني بسند صحيح.

هذه أمور خمسة مضت على الإنسان في حياته الأولى، وهذه هي التكاليف، إذ أن أكثر السؤال سيكون يوم القيامة من الله عزّ وجل عن العمر والشباب والعلم والمال والجسد. فلا يتقدم المرء يوم المحشر إلى مكان آخر أو مرحلة أخرى من مشاهد يوم القيامة حتى يسأل عن هذه الأشياء التي مرت به قبل.

فسيُسأل عن العمر أين قضاه وخاصة أيام الشباب فإنها مرحلة القوة، فأفضل الأعمال وأعلاها ما كانت في هذه الفترة التي هي مظنة الزلقات، والهفوات، ووقت الطيش واتباع الهوى والشهوات، وكان من قطعها في عبادة الله من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وهذا بخلاف ما إذا ضعف الإنسان وجاءت مرحلة الشيخوخة والهرم، فإن الطاعة في هذا الوقت وإن كانت عظيمة لكنها لا تصل لاستقامة أيام القوة وعنفوان الشباب.

وقد قدّمنا في الزهد حديث: «**اغتنم خمساً قبل خمس**»، فذكر منها: «**شبابك قبل هرمك**».

أما العلم، فمسؤوليته عظيمة لأن صاحبه وارث النبي ﷺ، ودرجته عند الله فوق درجات سائر المؤمنين إذا عمل بمقتضى علمه، فإذا أمر ونهى غيره ونسي نفسه كان عند الله ممقوتاً وكان من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وكان سؤاله شديداً عليه عند الله تعالى.

أما المال فإنه خطير وخطير، إذ أكثر الناس هَلْكى بسببه لأنهم لا يتورعون عن اكتسابه من المكاسب المحرّمة فهذا غاصب، وذاك مرابي، وثالث غاش مخادع، ورابع راشٍ ومرتشي، وخامس لص سارق، وسادس يجمعه من رواتب الدولة المجموع من المظالم المتنوعة، وهكذا، ثم لا يكتفون بجمعه من هذه المكاسب السافلة بل يزيدون في الطين بلة فيصرفونه في أنواع المحرمات والمشتهيات المحظورة والنزوات... والمصارف المحرمة، وكل ذلك سيُسأل عنه الإنسان بين يدَي الله تعالى في موقف القيامة.

فيا سعادة وبشرى مَن أطاع الله في ذلك، ويا خسارة ويا هلاك من اتبع هواه.

[٢٩٥] وعن الزبير رضي الله تعالى عنه لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

قال الزبير: يا رسول الله وأيُّ نعيم نُسألُ عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء، قال: **«أما إنه سيكون»**.

رواه أحمد رقم (١٤٠٥)، والترمذي في التفسير (٣١٣٨)، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٨) وهو حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بنحوه وفيه: **«وإنما هما الأسودان والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفنا على عواتقنا»**، قال: **«إن ذلك سيكون»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٣٩) بسند حسن.

[٢٩٦] وعنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ: **«هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طيِّبٌ، وماءٌ باردٌ»**.

رواه مسلم في الأشربة (١٣/٢١٠/٢١٤) مطولاً، وأبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الزهد (٢١٨٨) وفي الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢١)، وابن ماجه (٣٧٤٥) وهو مختصر من قصة ابن الهيثم مع رسول الله ﷺ وهو في الشمائل للترمذي مطولاً في باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ.

[٢٩٧] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أول ما يُسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبدَ ـ من النعيم أن يُقالَ: ألم نُصِحَّ لك جِسْمَكَ، ونُرْوِكَ من الماء البارد»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٤٠)، وابن حبان بالموارد (٢٥٨٥)، والحاكم (٤/١٣٨) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

هذه الأحاديث المذكورة كلها تدل على أن الإنسان سيُسْأَلُ عن كل ما تمتع به من نعيم في هذه الحياة بداية من الظل الوارف والماء البارد والتمر الحلو الطيب وصحة الجسم، فضلاً عما هنالك من جلائل النعم وسوابغها ظاهرها وباطنها التي يتنعم ويتمتع بها ويستغلها طوال حياته ليل نهار، وقد سخرها الله لنا وأمَدّنا بها وأسبغها علينا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقال عزّ وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلى غير ذلك مما جمعته وشرحته في دلائل التوحيد.

فقد أنعم علينا بنِعَم لا نستطيع حصرها ولا إحصاءها فضلاً عن القيام بشكرها كنِعَم السماوات والأرضين والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار والرياح والسُحُب والأمطار، ونعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة البعثات الإلٰهية ونعمة الإيمان والإسلام ونعمة الهداية إلى الاستقامة ونعمة الزوجات ونعمة الأولاد ونعمة الآباء والأمهات ونعمة الإخوان والأخوات ونعمة الأصدقاء والأحبة، إلى غير ذلك مما يحيط بنا ويتعاقب علينا، فهذه النعم وأضعاف أضعافها سنُسأل عنها، إما سؤال امتنان وإكرام وإظهار لإسباغ نعمه تعالى على عباده المؤمنين الصالحين، وإما سؤال توبيخ وتقريع بالنسبة للكافرين وعصاة الموحدين. نعم هنالك أشياء وحالات لا يُسأل عنها الإنسان كحالته قبل التكليف أو أيام الهرم والخلل في العقل وحالة النوم والنسيان والخطأ والسهو وحديث النفس والعزم على المعصية، ولا هو مسؤول عما يقع بين الناس من الخصام والحروب والفتن ولا ما يصدر في الكون من زلازل وسيول ولا عن إساءة الآخرين سواء كانوا أقارب أم أباعد، فأمثال هذه الأشياء لا يُسأل عنها الإنسان.

* * *

❋ القصاص وأداء الحقوق وهو أول الحساب

[٢٩٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لتُؤدُنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

رواه أحمد (٢/٤١١/٢٣٥)، ومسلم في البر (١٦/١٣٦)، والترمذي (٢٢٤٠).

قوله: «يُقاد» أي: يُعْطى لها القوَد والقصاص. قوله: «الجلحاء» بفتح الجيم وسكون اللام هي الجماء التي لا قرن لها.

والحديث يدل على أن البهائم هي الأخرى ستحشر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ والقصاص من القرناء للجماء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف على الحيوان بل هو قصاص مقابلة وإظهار للعدل الإلهي وإعطاء كل ذي حق حقه.

[٢٩٩] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً: «أتدرون ما المُفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: **«إن المفلس مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه ثم يُطرح في النار»**.

رواه مسلم (١٦/١٣٥/١٣٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٨).

«المفلس»: بضم الميم وسكون الفاء. «فيقتص» أي: يأخذ منه حقه على وجه القصاص.

المفلس في الدنيا هو الذي أحاطت به الديون وجاءه الغرماء وليس له مال يقضي به ما عليه.

أما المفلس في الآخرة وهو المفلس حقيقة، هو من أحاطت به خطاياه

وحقوق العباد فيأتي يوم القيامة بجبال من الحسنات من جميع أنواع كبار القربات كالصلاة والصيام والزكاة... ولكنه يأتي معها بأضعافها سيئات وكبائر وفواحش من حقوق الناس كسفك دم، وأخذ مال بغير حق، وقذف الآخرين، وشتم غيره أو ضربه أو تضليله وتبديعه والنَيْل من عرضه فيحكم الله عزّ وجل حكمه العدل فيعطى كل ذي حق حقه من حسناته فإن نفدت حسناته طرحت عليه سيئات أهل الحقوق ثم ألقي في النار عياذاً بالله.

فهذا هو المفلس يوم القيامة الذي يجب عليه في الدنيا أن لا يتسبب في إفلاسه.

[٣٠٠] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من عِرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ، أُخذ منه بقدْر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه**».

وفي رواية: «**رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة**».

رواه البخاري في الرقاق (١٨١/١٤) وفي المظالم (٢٦/٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٩).

«مظلمة»: بكسر اللام وفتحها، ما أخذه الظالم أو تعرض له. «من عرضه»: بكسر العين محل المدح والذم من الإنسان. وقوله: «فاستحله» أي: طلب منه أن يجعله في حِلٍّ من ذلك.

وفي الحديث عظم جرم المظالم من دماء وأموال وأعراض... وأنه يجب على المؤمن أن يستحل أصحاب الحقوق في الدنيا إذا أمكن له فإن تعذر عليه الأمر فليُكثر من الدعاء معهم والاستغفار لهم والتصدُّق عليهم قبل أن يأتي يوم ليس فيه دينار ولا درهم، وإنما هي الحسنات فيضطر أن يؤدي ما عليه من حسنات أعماله الصالحة إن كانت له، ثم يصبح صفر اليدين فيُطرح في النار.

[٣٠١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رجل فقعد بين

يدَي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكَين يَكْذِبونني ويخونونني ويعصونَني، وأشتُمُهم، وأضربهم، فكيف أنا معهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يومُ القيامة يُحْسَبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصّ لهم منك الفضل**»، فتنحّى الرجل فجعل يهتف ويبكي فقال له رسول الله ﷺ: «**أما تقرأ قول الله تعالى**: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾»، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم أُشْهِدُك أنهم كلهم أحرار.

رواه أحمد (٦/٢٨٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٠) بتهذيبي، وسنده صحيح.

في الحديث خطورة المظالم وأنه لا بد وأن يقتص من كل من سبقت منه مظلمة شخص ما حتى ولو كان ذلك مما يملكه المرء كالعبيد والبهائم والحيوانات، فأحرى الأزواج والأولاد والإخوة والأخوات والآباء والأمهات... فالله عزّ وجل سيقيم الموازين العادلة التي توزن فيها الأعمال يوم القيامة فلا يُنْقَصُ مُحسنٌ من إحسانه ولا يُزاد على المسيء ما ارتكب من سيئاته، بل لو كان عملُ الإنسان مقدار زنة حبة خردل أو أقل من خير أو شر أُتي به وأُحضر للميزان كما في الآية الكريمة، ثم يقضى بين عباده ويقتص من بعضهم بعضاً ويبقى بعد ذلك عفو الله ورحمته.

* * *

❁ تكليم اللّه تعالى عباده كفاحاً بلا ترجمان

[٣٠٢] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلِّمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، ثم ينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً، إلا شيئاً قدّمه، ثم ينظر أشأم منه فلا يرى**

شيئاً إلا شيئاً قدّمه، ثم ينظر تلقاء وجهه»، وفي رواية: «**ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار**»، قال رسول الله ﷺ: «**مَن استطاع منكم أن يقي وجهه النار ولو بشِقّ تمرةٍ فليفعل**».

رواه الطيالسي (٢٨١٥)، والبخاري في الزكاة وفي الرقاق (١٤/١٩٦)، ومسلم في الزكاة (٧/١٠١)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٥).

قوله: «ترجمان» بفتح التاء وضمها هو الناقل معنى الكلام من لغة إلى لغة. وقوله: «يقي وجهه» أي: يحفظ نفسه من النار. «ولو بشق» أي: نصف تمرة.

في الحديث بيان أن الله عزّ وجل سيكلم عباده فرداً فرداً بلا واسطة يترجم عنه، وأنه لا بد من الوقوف بين يديه تعالى من كل أحد، وليتصوّر الإنسان هذا المشهد الهائل وكيف يتحمل المثول بين يدَي الكبير المتعال، ولذلك يصير يلتفت يميناً وشمالاً وأمامه لفظاعة الموقف ورهبته، وفيه أنه لا ينفع الإنسان وقتئذ إلا ما قدّم من عمل صالح، كما أن فيه بيان أن الصدقة ولو بأقل شيء تحفظ صاحبها من النار.

* * *

❊ ما يكتب على العبد من حسنات وسيئات

[٣٠٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عزّ وجل قال: «**إن الله عزّ وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمَن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومَن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٠٦/١١٢).

[٣٠٤] ورواه مسلم في الإيمان (٢/١٤٧/١٤٨)، والترمذي رقم

(٢٨٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٤/٣٤٥) كلاهما في التفسير من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها بمثلها فإن تركها، وربما قال: فإن لم يعمل فاكتبوها له حسنة**، ثم قرأ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . .﴾» الآية.

[٣٠٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سيُخَلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتُنكر من هذا شيئاً، أظَلَمَكَ كتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب ، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب**».

رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٥٢٤)، والحاكم (١/٦) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي. ويأتي مطولاً.

«سيخلص»: بضم الياء وكسر اللام المشددة، أي: يميز ويختار، «سجلاً»: هو بكسر السين والجيم هو الكتاب الكبير.

في هذه الأحاديث بيان أن الله عزّ وجل يحصي على عباده كل ما يعملونه من خير وشر في صحف خاصة حتى يجتمع لبعض عباده من الذنوب عشرات السجلات.

وهذا الموضوع تتعلق به أمور:

أولاً: إن هناك ملائكة خاصين يسمون الحفظة، لكل إنسان ملكان منهم، أحدهما: عن اليمين يكتب الحسنات، والثاني: عن الشمال يكتب السيئات لا يفارقانه أبداً إلا في حالات خاصة. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

«حبل الوريد»: عرق في العنق. وقوله: «رقيب» أي: من يراقبه. وقوله: «عتيد» أي: مُعَدٌّ حاضر مُهيَّأ للعرض. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

فما في هذه الآيات نص في أن معنا حافظين كاتبين مراقبين لأعمالنا فيكتبان علينا الشاذة والفاذة، ثم يرفعان ما كتبا في الصحيفة كل يوم لله عزّ وجل وهو أعلم بذلك.

[٣٠٦] كما قال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: «**ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفَي الصحيفة**».

رواه البزار رقم (٣٢٥٢) وسنده حسن إن شاء الله تعالى، فإن رجاله رجال الصحيح غير تمام بن نجيح فمختلف فيه. وانظر مجمع الزوائد (٢٠٨/١٠).

فهؤلاء الكتَبَة الكرام لا يفارقون أصحابهم إلا في حالات ثلاث كما في الحديث التالي:

[٣٠٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى ينهاكم عن التعرّي، فاستَحْيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدُكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط، أو بغيره**».

رواه البزار أيضاً ورجاله رجال الصحيح.

وأعمال العباد رغم أن الملائكة الكرام مكلّفون بكتابتها في صحف يومياً فهي تعرض على الله كل يوم الاثنين والخميس زيادة على عرضها عليه كل يوم.

ثانياً: إذا كان يوم العرض في موقف القيامة جاء كل إنسان وفي عنقه كتاب أعماله التي أُحصيت عليه كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

فيجمع للإنسان عمله كله من خير أو شر في كتاب، فإذا كان يوم الحشر أخرج له منشوراً، أي: مفتوحاً، فيأخذه إما بيمينه أو بشماله كما يأتي، ويقال له: اقرأ كتابك، فيقرأ كل امرىء ما في كتابه مما عمله من أول عمره التكليفي إلى منتهى حياته.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا ابن آدم بُسِطتْ لك صحيفتُك، ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما: عن يمينك، والآخر: عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلِل أو أكثِر، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة تلقاه منشوراً.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا من حسن كلام الحسن رحمه الله تعالى.

وعند ذلك يقال لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾، أي: كانت ملائكتنا تكتب بأمرنا ما كنتم تعملون، وفي هذا المشهد يقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾، أي: عندما يوضع كتاب أعمالهم بجليلها وحقيرها بفتيلها وقطميرها ترى المجرمين الكافرين والمنافقين والمتهتكين خائفين مما قرؤوه من أعمالهم السيئة، وينادون يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرّطنا في أعمارنا، ما شأن هذا الكتاب لا يدع شاذة ولا فاذة إلا أحصاها وضبطها وحفظها، ووجدوا ما عملوا من كفر وفواحش وجرائم حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً فيزيد عليه أو ينقص من عمله، وكل ما تقدم

من التقريع والتوبيخ والتشديد في شأن كتاب الأعمال إنما هو في الكفار والمجرمين المسرفين المتمردين على الله، أما المؤمنون فسيجدون كتبهم ملأى بالحسنات فارغة من السيئات قد غفرت لهم بما قدّموا من أعمال صالحة كثيرة وعظيمة، ويكون علامةُ ذلك لهم أخْذَهم صحائفهم بأيمانهم كما يأتي.

ثالثاً: في وجود الملائكة معنا حاضرين ليل نهار يكتبون ما نعمل ولا نراهم ولا نشعر بوجودهم، هو من آيات الله العظمى ودليل قاطع على أن في هذا الوجود خلائق وعوالم يعيشون معنا لا نراهم ولا نعرف أشخاصهم وحقائقهم، ومنهم عالم الملائكة والجن، ولذا كان من كليات الإيمان الإيمان بالغيب الذي من جملته الملائكة والجن... فمن أنكر وجود الملائكة والجن كان كافراً لتكذيبه القرآن وما جاء به رسول الله ﷺ.

* * *

❁ أول من يحاسب من الأمم، أمة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وشرف وعظم

[٣٠٨] عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأوّلون يوم القيامة المَقْضِي لهم قبل الخلائق»**.

رواه مسلم في كتاب الجمعة (٦/١٤٤).

[٣٠٩] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«نحن آخرُ الأمم، وأولُ من يُحاسَب، يقال: أين الأمة الأمّيّة ونبيُّها؟ فنحن الآخرون الأولون»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٩٠) بسند صحيح.

قوله: «آخر الأمم» يعني في الدنيا، فقد مرّت قبلنا تسع وستون أمة، فنحن خاتمة السبعين، كما جاء في حديث الترمذي وغيره، ونحن أفضل

الأمم وأكرمها على الله. راجع التفسير عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ من سورة آل عمران.

فالحديثان يدلان على فضل هذه الأمة وشرفها حيث إن الله عزّ وجل سينادي في المحشر على رؤوس الخلائق: «**أين الأمة الأمّية** - يعني المحمدية - **ونبيها ورسولها** ﷺ» فتتقدم وتحاسب قبل كل الأمم إكراماً لها ولطفاً ورحمة بها لمقام وفضل نبيها ﷺ.

فالأمة المحمدية لها أولويات فهي أول من تحشر، وأول من تحاسب، وأول من تمر على الصراط، وأول من تدخل الجنة كما يأتي.

* * *

❁ أول الناس قضاء وحساباً المراؤون المنافقون

[٣١٠] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استُشهِدَ، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهِدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار.**

ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن فأُتي به فعرّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلّمتَ العلم ليقال: عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر فسُحِب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار».

رواه أحمد ومسلم والنسائي، وقد تقدم لنا في الزهد والرقائق رقم (١٧٧).

فهذه الأصناف الثلاثة أول من يُوقَف بين يدَي الله ويُقضى عليهم، وهم أصناف من المرائين المنافقين الذين يظهرون للناس الأعمال الصالحة العظيمة ويبطنون النفاق والشرك والعمل لغير الله عزّ وجل، ويا خسارة من فضحه الله تعالى على مرأى ومسمع من الخلائق أجمعين.

* * *

❁ أول ما يقضى بين العباد في حقوقهم في الدماء

[٣١١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما يُقْضَى بين العباد في الدماء»**.

رواه الطيالسي (١٤٦٢)، والبخاري (١٥/٢٠٦)، ومسلم (١١/١٦٦/١٦٧)، والترمذي (١٢٦٦)، والنسائي في «المجتبى» (٧/٧٧).

قوله: «في الدماء» أي: إراقتها وسفكها.

إن سفك دماء الأبرياء والقتل العمد من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب عند الله تعالى وهو ثالث الجرائم والفواحش الكبرى، فأولها وأكبرها الشرك والكفر بالله تعالى، ثم ترك الصلاة، ثم يليها قتل النفس العمد.

ولعظمه كان أول ما يقضى فيه من حقوق العباد.

ولهذا جاء من التشديدات في ذلك ما تقشعر منه الجلود، فمن ذلك الحديث التالي:

[٣١٢] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيءُ المقتولُ بالقاتل يوم القيامة ناصيتُه ورأسُه بيده، وأوداجُه تَشْخبُ دماً، فيقول: يا رب سَلْ هذا فيما قتلني؟ حتى يُدنيه من العرش»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨٣٣)، والنسائي في تحريم الدم، وابن ماجه في الديات (٢٦٢١) بسند صحيح وأصله في الصحيحين.

قوله: «تشخب» بفتح التاء وضم الخاء، أي: تسيل.

* * *

❊ أول ما يحاسب به العباد من حقوق اللّه الصلاة

[٣١٣] وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صلحَتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدَتْ فقد خاب وخسِر، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوُّع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»**.

رواه الترمذي (٣٧٠)، وأبو داود (٨٦٤/٨٦٥)، والنسائي (١٨٧/١)، وابن ماجه (١٤٢٥)، والحاكم (٢٦٣/١) كلهم في الصلاة، وهو صحيح لشواهده منها عن رجل.

رواه أحمد (٣٧٧/٧٢/٦٥/٤)، والحاكم (٦٣/١) بنحوه بسند صحيح.

[٣١٤] وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ بنحوه وفيه: **«ثم الزكاة مثل ذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك»**.

رواه أحمد (١٠٣/٤)، وأبو داود (٨٦٦) بسند حسن، والحاكم، وصححه على شرط مسلم.

فهذه الأحاديث تدل على أن أولَ ما يسأل عنه العباد ويحاسبون عليه من حقوق الله الفرعية العملية الصلاة المكتوبة، فإن كانت تامة صالحة كان صاحبها ناجحاً مفلحاً، وإن كانت ناقصة أُتِمَّت له مما كان له من التطوع، ثم تأتي باقي الأعمال على هذا النمط من صيام، وزكاة، وحج... وبهذا

يعرف عظم الصلاة، والدماء، فتقديمهما في الحساب دون باقي الحقوق والتكاليف الشرعية يدل على أن لهما شأناً عظيماً عند الله تعالى.

* * *

أحوال عصاة المؤمنين عند الحساب

[٣١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**.

رواه البخاري في الحدود وفي الوصايا وفي الطب، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الوصايا، والنسائي في الوصايا أيضاً وتقدم.

[٣١٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلة المتشبِّهة بالرجال، والدَّيُّوث»**.

رواه أحمد (٢/١٣٤/١٢٨/٦٩)، والنسائي في الكبرى (٢٣٤٣) وفي المجتبى، وابن حبان (٥٦) وهو حسن صحيح.

[٣١٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذّاب، وعائل مستكبر»**.

رواه مسلم (٢/١١٥) في الإيمان وتقدم في الأدب.

عرض الناس على الله عزّ وجل يوم القيامة وحسابهم ليس حالة واحدة وليسوا متساوين، فإن فيهم التقي الصالح، وفيهم المقتصد، وفيهم المؤمن الظالم لنفسه، وفيهم الكافر المتمرد على الله المُعْرِض عن آياته، ولكل صنف موقفه وحسابه.

أما الكافر فلا كلام عليه فأمره أعظم وأدهى مما يتكلم فيه.

وأما عصاة المؤمنين الذين ماتوا وعرضوا على الله وهم مصرُّون على كبائر الذنوب وترك فرائض الله عزّ وجل، فهؤلاء سيشدد عليهم ويحاسَبون حساباً عسيراً.

وأصناف هؤلاء كُثُرٌ جداً وما أوردنا من أحاديث نموذج منهم، فهنالك التاركون للتكاليف الشرعية من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وهنالك عصاة متمردون متهتكون كمتعاطي الربا وآكليه ومدمني الخمر والتجارة فيه، والعاقّين لوالديهم، والديّاثين الذين يقرُّون السوء على أهليهم، والنساء المتشبهات بالرجال والعكس، والمتبرجات من النساء، والمتكبرين، والغادرين، والنمّامين، والغاصبين، والشيوخ الزناة، والسحرَة والعرّافين، وآكلي مال اليتيم، ورامي المحصنات بالزنا، إلى غير ذلك من أهل الكبائر الذين جاءتهم مناياهم وهم غافلون مصرُّون على مجاهرة الله عزّ وجل بما فيه غضبه وسخطه، فهؤلاء سيحاسبون الحساب الشديد ويناقشون النقاش الدقيق ثم يكون مآلهم النار، إلا من رحم الله تعالى.

* * *

❁ حال الأتقياء عند العرض على اللّه تعالى وحسابهم

[٣١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: «**تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٨)، وابن حبان (١٩٢٣) وحسّنه الترمذي وصححه.

تقوى الله: هي ملاك الأمور ورأس مال المسلم وأهل التقوى هم السعداء الفائزون. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

والمتقون على درجات شتى وليسوا على درجة واحدة... وهم ممن يحاسبون حساباً يسيراً أو فيهم من لا يحاسب.

وهم في أمن وأمان يوم القيامة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

[٣١٩] وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: وعزّتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين، ولا خوفين، إن هو أمِنَني في الدنيا أخَفتُه يوم أجمعُ فيه عبادي، وإن خافني في الدنيا أمّنته يومَ أجمعُ فيه عبادي»**.

رواه أبو نعيم في الحلية (٩٨/٦) بسند ضعيف جداً، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٧) عن الحسن البصري مرسلاً بسند صحيح، ووصله البزار وغيره عن أبي هريرة بسند حسن.

فمن خاف الله تعالى في الدنيا كان من الآمنين في الآخرة.

فأسعد الناس يوم القيامة في الحساب والعرض على الله تعالى المتقون حسب درجاتهم، ومنهم السبعة المظلّلون، والمتحابُّون في الله عزّ وجل، وعمّار المساجد، والمشاؤون إليها وخاصة في الظُّلَم، والمتوكلون على الله تعالى، وأهل الصبر على البلاء، وأهل القرآن العاملون به، وأهل الصدقات، والمجاهدون في سبيل الله، والشهداء بجميع أنواعهم، ومكثرو الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ، والتائبون والمستغفرون وخاصة بالأسحار، والعلماء العاملون الربانيون، ومُنْظِرُو المعسرين والمتجاوزون عنهم، والساعون في قضاء حوائج المسلمين والمصالح العامة، والمثابرون على قيام الليل، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، والدعاة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من أصناف الأتقياء.

وبالجملة فكل من لقي الله تعالى تائباً نقياً من الذنوب فهو ممن لا يحاسَب أو يحاسَب حساباً يسيراً.

* * *

[٣٢٠] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «عُرضتْ عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرَّهطُ، والنبي ومعه الرجلُ والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ، إذ رُفع لي سوادٌ عظيم فقلت: هذه أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأُفُقِ، فإذا سوادٌ عظيم، ثم قيل لي: انظر إلى هذا الجانب الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمّتُك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض النبيُّ ﷺ فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا: مَن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ، وقال بعضهم: لعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئاً قط، وذكروا أشياء، فخرج النبي ﷺ فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟» فأخبروه بمقالتهم، فقال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عُكّاشةُ بن مِحصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «أنت منهم»، وفي رواية فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة».

رواه أحمد (٢٧١/١)، والبخاري في الرقائق (٢٠٤/١٩٨/١٤)، ومسلم في الإيمان (٩٤/٩٣/٣).

[٣٢١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنةَ من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبعُمائة ـ متماسكون آخذٌ بعضُهم بعضاً لا يدخل أولُهم حتى يدخلَ آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر».

[٣٢٢] وعن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب»، ثم ذكرهم.

[٣٢٣] وعن أبي هريرة نحوه.

رواهما مسلم في الإيمان (٩٢/٩٠/٨٨/٣).

[٣٢٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يُدخِل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعين ألفاً، وثلاث حَثَيَاتٍ من حَثَيات ربي**».

رواه أحمد (٥/٣٥٠)، والترمذي (٢٢٥٨)، وابن ماجه (٤٢٨٦) كلاهما في الزهد وسنده صحيح.

في هذه الأحاديث أن الله تعالى اختصّ الأمة المحمدية بأن يدخل منها الجنة سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف وأنهم سيدخلونها قبل كل أحد بلا حساب، ولا عتاب ولا عذاب، وهذه خصيصة لهذه الأمة ليست لأحد غيرها، وهؤلاء العشرات أو المئات الألوف امتازوا بالتنزُّه عن الرقية والاكتواء والتطيُّر مع التوكل على الله تعالى، وسيدخل الجنة مع هذا العدد الهائل بلا حساب أقوام لا يحصون كثرة، فيهم الصحابة من المهاجرين والأنصار، وفيهم أمم جاؤوا بعدهم من العلماء الربانيين، والقراء والمفسرين والمحدثين والأئمة والفقهاء والشهداء والمجاهدين وكثير من كبار العباد والزهّاد عبر العصور، الكل سيدخل الجنة مع الأولين بلا حساب إن شاء الله تعالى، يَقْدُمُهم نبيهم وحبيبهم وقائدهم رسول الإسلام سيدنا محمد بن عبدالله الهاشمي ﷺ، فيُساقونَ معه ﷺ إلى الجنة زُمَراً زُمَراً وجوههم في الإشراق والنضارة كالقمر ليلة البدر. اللهم اجعلنا منهم ومعهم.

* * *

❁ مشهد الحساب اليسير والعسير

[٣٢٥] عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يُحاسَبُ يوم القيامة إلا هَلَك**»، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العَرْضُ، وليس أحدٌ يُناقَشُ الحسابَ يوم القيامة إلا عُذِّب**»، وفي رواية: «**إلا هلك**»، وفي رواية: «**مَن نوقش الحسابَ عُذِّب**».

رواه البخاري في العلم وفي التفسير وفي الرقاق (١٤/١٩١/١٩٣)، ومسلم في الجنة باب إثبات الحساب (١٧/٢٠٨)، وأبو داود في الجنائز (٣٠٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٦) وغيرهم.

«نوقش الحساب»: المناقشة في الحساب هو الاستقصاء والتدقيق في المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير، وترك المسامحة.

وقوله: «ذلك العرض» أي: تعرض أعمال المؤمنين على الله تعالى حتى يعرف العبدُ مِنَّةَ الله عليه في سِتْرِها عليه في الدنيا وفي عَفْوه عنها في الآخرة كما يأتي. وقوله: «مَن نوقش هلك أو عُذِّب» قال عياض: له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ، والثاني: أنه مفضٍ إلى العذاب بالنار، ويؤيد قوله: «هلك» مكان «عُذِّب».

قال النووي رحمه الله تعالى: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب على العباد، فمَن استقصى عليه ولم يُسامَح هلك ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما عدا الشرك لمن يشاء.

والحديث يدل على وقوع الحساب يوم القيامة، وهو أمر لا مرد له من الله، فيحاسب جميع عباده الذين سيفوقون المليارات بل البلايين في أسرع وقت مما لا تتخيله عقولنا.

وفي القرآن الكريم عدة آيات تخبر بالحساب وسرعة الله تعالى فيه.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

إلى غير ذلك من الآيات على وقوع الحساب من الله لعباده وإنه سيقع سريعاً.

وفي مشهد الحساب سيكون الناس أصنافاً أربعة:

أحدهم: مَن كانت له حسنات وسيئات ورجحت حسناته على سيئاته، فهذا قد يلام ويعاتب ولكنه لا يعذب.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾، فالآيتان تشملان أيضاً من كانت له حسنات وسيئات.

ثانيهم: مَن استوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء سيُحاسبون ويُعاتبون على ما قدّموا ثم يُعاقبون بحبسهم على سور الأعراف مدة بلا عذاب ثم يدخلون الجنة إن شاء الله، وفيهم جاء قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ . . .﴾ الآيات.

ثالثهم: الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم أوَلم تكن لهم حسنات غير الإيمان، فهؤلاء ممن سيُحاسبون الحساب العسير كلٌ بحسب أعماله السيئة وستخف موازينهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم . . .﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

رابعهم: من لا سيآت لهم فهؤلاء هم المقربون من أنبياء الله ورسله ومن كانوا على قدرهم وساروا على آثارهم ممن يدخلون الجنة بلا عتاب ولا حساب إن شاء الله تعالى.

وسيأتي عند الميزان مَن يؤتى كتابه بيمينه أو بشماله.

* * *

❋ عرض ذنوب العبد عليه ثم العفو عنه

[٣٣٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في حديث النجوى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُدْنَى المؤمنُ من ربه حتى يضعَ عليه كنفه فيُقَرِّرُه بذنوبه: تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أعرف ربي، ـ مرتين ـ،**

فيقول: **سترتُها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم تُطوى صحيفةُ حسناته، وأما الآخرون أو الكفار أو المنافقون فيُنادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».**

رواه البخاري في تفسير سورة هود (٤٢٤/٩) وفي المظالم وفي مواضع، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦)، وابن ماجه (١٨٣).

«النجوى»: كلام السر بحيث يُسمِعُ الإنسانُ نفسَه، والمراد بها هنا مناجاة الله تعالى عبادَه المؤمنين يوم القيامة. وقوله: «كنَفَه» بفتحات، أي: ستره وعفوه.

والحديث تتجلى فيه رحمة الله تعالى بعبده المؤمن يوم القيامة حيث سيضع عليه ستره ويناجيه ويقرّبه إليه ثم يقرره بما سلف له من ذنوبه ويعرضها عليه حتى إذا عرفها واعترف بها وظنّ أنه هالك عفا عنه تعالى وغفرها له فضلاً منه ورحمة به، بينما الكافر والمنافق وأشباههما من الطغاة والظلَمة والمتمردين على الله سيُعرضون عليه تعالى ويقول الأشهاد من الملائكة والأنبياء: هؤلاء المفترون الذين كذبوا على الله في زعمهم أن له شريكاً معه، فيقال لهم: ألا لعنة الله ـ وخزيه ـ على الظالمين الأفّاكين.

[٣٢٧] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعلمُ آخرَ أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخرَ أهل النار خروجاً منها: رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيُقال: اعرضوا عليه صِغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيُعرضُ عليه صغارُها، فيقال له: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن يُنكر وهو مُشفق من كبار ذنوبه أن تُعرَض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: ربِّ قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا»** قال: فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

رواه مسلم آخر الإيمان (٤٧/٣) والترمذي في صفة جهنم (٢٤/٥) وحسّنه وصححه.

هذا مشهد آخر من مشاهد عفو الله بعد عرض الذنوب الصغار على عبده ثم تبديلها حسنات مع إخفاء كبيرها عنه.

وفي الحديث بيان ما جبل عليه الإنسان من التحايل ولو مع رب العالمين.

* * *

❁ معاتبة اللّه تعالى عبده على تقصيره في الدنيا

[٣٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُده؟ أما علمت أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْني، قال: يا رب وكيف أُطْعِمُك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تسْقِني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي»**.

رواه مسلم في البر والصلة باب عيادة المريض (١٦/١٢٥/١٢٦).

قوله: «لوجدتني عنده» قال العلماء: أي: لوجدت ثوابه كما في الجملتين الأخيرتين: **«لو أطعمته لوجدت ذلك عندي» «لو سقيته وجدت ذلك عندي»**، فإن معنى ذلك لوجدت ثواب ذلك عندي يوم الحساب.

وفي الحديث معاتبة الله تعالى عبده يوم القيامة على تقصيره في الدنيا وتكاسله وإعراضه عن التقرُّب إلى الله تعالى بأنواع القربات النافلة منها والواجبات، وخاصة ما هو مذكور في هذا الحديث مما عوتب العبد عليه من عيادة المريض، وإطعام ذي الحاجة، وسقي العطشان، فإن هذه الأشياء لها شأن في الإسلام وأجر عظيم لمن فعلها.

* * *

❋ شهادة الجوارح على الإنسان يوم القيامة

[٣٢٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون ممّ أضحك؟**»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربّه، يقول: يا رب ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختَمُ على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتَنْطِق بأعماله، قال: ثم يُخَلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً فعنكُن كنتُ أناضل**».

رواه مسلم في الزهد (١٧/١٠٤/١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٨).

قوله: «الأركانه» أي: جوارحه. وقوله: «أناضل» أي: أدافع وأجادل. وقوله: «سُحقاً» هو معنى بُعداً.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل سيُنطق جوارح الإنسان الكافر فتشهد على ما عمل في الدنيا، وبهذا نطق القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ...﴾ إلخ، وقوله عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾...﴾ إلخ.

فهذه الآيات مع الحديث صريحة في تكلُّم الجوارح يوم القيامة وشهادتها على الإنسان بكل ما عمل.

ونطقها ليس بغريب ولا بعجيب من قدرة الله تعالى، فإن الله الذي خلقها وأنطق الإنسان وعلّمه البيان هو الذي أنطق تلك الأعضاء والجلود إقامة للحجة على أصحابها.

فالعجب من ملاحدة العصر وغيرهم الذين ينكرون مثل هذا ويهزؤون

أي: لا يضر بعضكم بعضاً ولا تتضايقون وتتنازعون في رؤيتهما كذلك ترون الله تعالى. وقوله: «الظهيرة» هي شدة الحر وقت الظهر. وقوله: «أي فل» هو منقوص من فلان وليس مرخماً. وقوله: «أُسَوِّدُك» أي: جعلتك سيداً في قومك. وقوله: «تربع» أي: تأخذ ربع الغنيمة كما كانت عادة الجاهلية. وقوله: «ههنا إذاً» أي: قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك حيث كذبت وادعيت ما لم تكن تُخْلِصُ فيه للّه تعالى.

وفي الحديث فوائد وأهمها أربعة:

أولاً: فيه إثبات النظر إلى الله عزّ وجل في عرصات القيامة، ولا خلاف في ذلك بين أهل السنّة، ولذلك أدلة كثيرة يأتي بعضها في موضعها.

ثانياً: فيه مكالمة الله تعالى الكافرين والمنافقين وتذكيره تعالى إياهم بما أنعم عليهم في الدنيا من التكريم، والتسوية، والتزويج، والترئيس، وما منحهم من أنواع المركوبات وما متعهم به مما لا يستطيعون إنكاره.

ورغم ما أغدق عليهم من آلاء جلائل، وأسبغ عليهم من نِعَم ظاهرة وباطنة كفروا به وبرسله وبلقائه، ولذلك فإنه سيصليهم دار عذابه ويدعهم فيها كالمنسيين ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

ثالثاً: فيه كسابقه شهادة الجلود والعظام على الكافر والمنافق قطعاً لأعذارهما وإقامة للحجة عليهما عياذاً بالله من ذلك.

رابعاً: الحديث يدل على ثبوت حساب الكفار والمشركين والمنافقين كالمؤمنين.

* * *

❁ حساب الكفار والمشركين

[٣٣١] وقد اختلف العلماء من المفسرين وغيرهم في حساب الكفار، فذهب بعضهم إلى أنهم لا يُحاسبون لأنهم ليست لديهم حسنات يعتدون بها فليس لهم إلا الكفر وكبار الذنوب، واستدل هؤلاء بالآتي:

ويسخرون ممن يؤمن بذلك ويعتقده. وها هم أولاء يشاهدون في الدنيا تكلُّم الجمادات بداية من الراديو، فالتلفاز، فالمسجلة، وغير ذلك مما أصبح عادياً في حياة الناس.

ومثل حديث الباب ما في الحديث التالي:

* * *

❊ مكالمة اللّه الكفار يوم الحشر وتذكيره إياهم وتقريرهم بما أنعم عليهم في الدنيا من آلاء

[٣٣٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: **«هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس في سحابة؟»** قالوا: لا، فقال: **«هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟»** قالوا: لا، قال: **«فوالذي نفسي بيده لا تُضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما فيلقى العبدُ ربَّه فيقول: أي فُلْ، ألم أُكرمك، وأُسَوِّدك، وأزوِّجك، وأسخِّر لك الخيل، والإبل، وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أظننتَ أنك مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُل ألم أكرمك، فذكر مثله، ثم يلقى الثالث، فذكر مثله، فيقول: أي رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسولك، وصلّيت، وصمت، وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن، ثم يقول: الآن نبعث شاهداً عليك فيتفكر في نفسه مَن ذا الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق، ذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»**.

رواه مسلم في الزهد (١٠٤/١٠٣/١٨)، ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٨) مختصراً عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما وحسّنه وصححه.

قوله: «تضارون» بضم التاء وتخفيف الراء من الضير. وتشديدها،

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يعتدون بما عملوا من خير في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

فالآيتان وأمثالهما، تشير إلى أنه تعالى لا يحاسبهم على أعمالهم التي قدّموها، فهي بمثابة من يرى السراب في الأرض المستوية يظنه العطشان ماء فإذا جاءه لم يجد شيئاً مما كان يظنه، فالكفار لا يحتاج إلى حسابهم بل بعد عرضهم على الله تعالى يؤمر بهم إلى النار.

وذهب الجمهور وهو الصحيح أنهم سيُحاسبون على ما قدّموا من الكفر والذنوب وعلى ترك الإيمان وشرائع الدين كما جاءت بذلك نصوص الشرع كحديث الباب والحديث السابق قبله في شهادة الجوارح فإن سياقيهما جاءا في الكفار والمنافقين وكذلك الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

وقوله تعالى في اليهود والنصارى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى في النصارى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

فالآيات تدل على أن هناك نداءً من الله وسؤالاً وجواباً وتقريراً على جميع أعمالهم مع الحكم عليهم وهذا هو الحساب، والآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

أما استشكال قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وادعاء معارضتهما لآيات السؤال، فأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة أربعة:

أولاً: أنهم لا يسألون سؤال شفاء وراحة وإنما يسألون سؤال توبيخ وتقريع لمَ عملتم كذا وكذا.

ثانياً: أنهم لا يسألون سؤال استفهام بل يسألون سؤال تقرير لأن الله تعالى حفظها عليهم وكتبتْها ملائكتُه الكرام.

ثالثاً: أنهم يسألون في موطن ولا يسألون في موطن آخر لأن للقيامة مواطن ومشاهد مختلفة، ففي موطن لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون فيقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل. فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا.

قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

رابعاً: معنى عدم السؤال سؤال التعرف ليتميز المؤمنون من الكافرين لأن ذلك لا داعي له لأن المؤمنين سيكونون معروفين بنضارة الوجوه، والكفار معروفين بسود الوجوه وزرق العيون. والله تعالى أعلم.

* * *

❋ الميزان ووزن الأعمال

[٣٣٢] عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوضعُ الميزانُ يوم القيامة فلو وُزِنَ فيه السماواتُ والأرضُ لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزِنُ هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد**

الموسى فتقول الملائكة: مَن تُجيزُ على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

رواه الحاكم في كتاب الأهوال (٥٨٦/٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

والمسيب بن زهير وإن كان مجهول الحال فإن له طريقاً آخر رواه الآجري في الشريعة رقم (٣٨٢) بسند صحيح وهو وإن رواه موقوفاً فإنه مرفوع حكماً.

[٣٣٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان دقيق الساقين فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: **«مِمَّ تضحكون؟»** قالوا: يا نبي الله من دقة ساقَيْه، قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لهُما أثقل في الميزان من أُحُدٍ».**

رواه أحمد في المسند (٢١/٢٠/١) وسنده جيد قوي كما قال ابن كثير، بل سنده صحيح.

[٣٣٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله سَيُخَلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر الله تعالى عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍّ مدَّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبَتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله تعالى».**

رواه أحمد (٢١٣/٢)، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وغيرهم بسند صحيح، وانظر ما سبق رقم (٣٠٥).

[٣٣٥] وعنه في رواية: قال رسول الله ﷺ: «**توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة فيوضع ما أحصى عليه فيتمايل به الميزان**، قال: **فيبعث إلى النار**، قال: **فإذا أدبر صاح صائح من عند الرحمٰن تبارك وتعالى يقول: لا تعجلوا لا تعجلوا فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان**».

رواه أحمد (٢/٢٢١).

دلت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: ثبوت الميزان يوم القيامة وأنه ميزان حقيقي توزن فيه الحسنات والسيئات، وبهذا قال أهل السنة. ويدل لوجوده آيات من القرآن كهذه:

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ الآية.

قال العلماء: الذي عليه أئمة السلف والخلف أنه ميزان واحد وإنما جمع في هذه الآيات باعتبار تعدد الأعمال الموزونة به.

ثانياً: فيها دليل على أن للميزان كفَّتين: كفة للحسنات، وكفة للسيئات، لقوله في حديث سلمان: «**فتوضع الموازين فلو وزن فيه السماوات...**» إلخ، وقوله في حديث ابن مسعود: «**لهما أثقل في الميزان من جبل أُحد**» وقوله في حديث ابن عمرو في حديث البطاقة: «**فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة**»، وقوله في حديثه الثاني: «**حتى يميل الميزان... فيوضع في كفة**».

فهذه كلها تدل على أن للميزان كفَّتين: كفة توضع فيها الحسنات والأخرى السيئات، وتأتي أحاديث أخرى قريباً تدل على ذلك أيضاً.

ثالثاً: اختلف العلماء ما الذي يوزن، هل الأعمال والأقوال أم الصحف أم أصحابها؟ وظواهر النصوص الشرعية أن الوزن سيكون للجميع كما يتضح من الآتي:

[٣٣٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**.

رواه البخاري آخر الصحيح (١٧/٣٢٦/٣٢٧) وفي الدعوات وغيرهما، ومسلم في الذكر (١٧/١٩)، والترمذي في الأدعية، والنسائي، وابن ماجه.

فهذا يدل على أن الأقوال والأعمال هي التي توزن لقوله: **«ثقيلتان في الميزان»**.

وتقدم في حديث ابن مسعود قوله ﷺ في ساقَيْ ابن مسعود: **«والذي نفسي بيدي لهما أثقل في الميزان من أُحد»**، فهو دال على أن الأجسام توزن.

قال البخاري في صحيحه: **«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة»**: إن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن.

وتقدم في الدعوات حديث أبي مالك الأشعري: **«والحمد للّه تملأ الميزان»**.

رواه مسلم مطولاً، فهذا يدل أيضاً على أن الأعمال والأقوال هي التي توزن.

[٣٣٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»** وقال: **«اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»**.

رواه البخاري في التفسير.

فهذا يدل على أن أصحاب الأعمال هم الذين يوزنون، كما تقدم في

حديث ابن مسعود وحديث عبدالله بن عمرو المتقدم في البطاقة، يدل على أن الصحف هي التي توزن، كما أن حديثه الآخر يدل على أن صاحب الأعمال هو الذي يوزن مع أعماله لقوله: «**فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان**».

والذي صححه العلماء ورجحوه هو أن الصحف هي التي توزن بما فيها من حسنات وسيئات.

رابعاً: هنالك أعمال وأقوال يثقل بها الميزان نقتصر منها على الآتي:

[٣٣٨] فعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسنٍ، فإن الله ليُبْغِضُ الفاحشَ البذيء**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٦)، وأبو داود (٤٧٩٩)، وابن حبان (١٩٢١/١٩٢٠)، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٣٣٩] وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الخُلُق، وإن صاحبَ حُسْنِ الخُلُق لَيبلُغُ به درجة صاحب الصوم والصلاة**».

رواه الترمذي (١٨٤٧) بسند حسن، والبزار بسند جيد.

[٣٤٠] وعن مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بَخ بَخ لِخَمْسٍ ما أثقلهُنَّ في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحانَ الله، والحمدُ لله، والولد الصالح يتوفى فيحتَسِبُه والدُه**»، وقال: «**بَخٍ بَخٍ لخمس، مَن لقي الله مستيقناً بهن دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة، والنار، وبالبعث بعد الموت والحساب**».

رواه أحمد (٤٤٣/٣) بسند صحيح رجاله رجال الصحيح كما في المجمع (٨٨/١٠).

فهذان الحديثان يدلان على أنه يوجد في أنواع القربات ما هو ثقيل في

الميزان يوم القيامة، ومن ذلك الخلق الحسن ومعاملة الناس بالجميل ولين الجانب والرفق والحلم والعفو وتحمُّل الأذى.

كما أن ذكر الله عزّ وجل من التهليل، والتحميد، والتسبيح، والتكبير من أثقل شيء في الميزان لأن اسم الله لا يُثقله شيء.

وإذا كان مطلق ذكر الله أثقل شيء في الميزان، فلا شك أن قراءة القرآن وخاصة مع التدبُّر سيكون أثقل شيء في ميزان صاحبه.

خامساً: إن الأعمال والأقوال التي صدرت من الإنسان في الدنيا وهي أعراض ومعاني ستأتي يوم القيامة مجسَّمة كما يشاء الله تعالى القادر على ما يريد.

[٣٤١] فقد قدّمنا في الدعوات حديث: «**اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو غيايتان ـ أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما...**» الحديث وهو في صحيح مسلم.

[٣٤٢] وفي الحديث الآخر عنه ﷺ: «**يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدُمهم سورة البقرة وآل عمران...**» الحديث.

رواه مسلم في فضائل القرآن من كتاب الصلاة.

وهكذا جاء في أعمال أخرى جاءت بها عدة أحاديث نبوية.

وتُجَسَّمُ الأعراض والمعاني يوم القيامة لا ينكره إلا ملحد أو ضعيف الإيمان أو فيلسوف مادي أو جاهل بالإسلام.

سادساً: طبقات الناس في وزن الأعمال ثلاثة: متقون، ومخلطون، وكافرون:

الطبقة الأولى: المتقون والذين جاءتهم مناياهم ولا كبائر لهم،

فهؤلاء توضع حسناتهم في الكفة النيِّرة ويثقل ميزانهم وترتفع كفة السيئات.

الطبقة الثانية: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فماتوا ولهم حسنات وسيئات كبائر وصغائر تُوُفُّوا عنها ولم يتوبوا ولم تغفر لهم، فهؤلاء توزن سيئاتهم وحسناتهم، فإن رجحت حسناتهم ولو بحسنة واحدة دخلوا الجنة، وإن رجحت سيئاتهم على حسناتهم ولو بسيئة دخلوا النار إلا أن يعفو الله عزّ وجل.

وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف فيوقف على سور بين الجنة والنار مدة ثم يعفو الله تعالى عنه فيُدخله الجنة كما جاء مفصَّلاً في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الآيات. وقد ذكرتهم مع من سبق في رسالتي: (مع السابقين إلى الجنة بلا عتاب ولا عقاب) فانظره تستفد.

الطبقة الثالثة: الكفار على اختلاف كفرهم فهؤلاء ليس لهم إلا الكفر والذنوب فيوضع ذلك في كفة السيئات المظلمة فتثقل ولا تقبل منهم أي حسنة، بل تبقى كفة الحسنات فارغة ثم يُسحبون على وجوههم في النار فيُعذَّبون على كفرهم وعلى ذنوبهم كلٌّ بحسبه.

سابعاً: اختلف العلماء رحمهم الله في وقت استلام الصحف أو تطايرها حتى يستلم كل امرىء صحيفته إما بيمينه أو شماله أو وراء ظهره، وهل هما كتابان لكل إنسان أم هو كتاب واحد؟ والظاهر أنه كتاب واحد وهو الذي يكون عند بداية العرض على الله تعالى فيكون لكل إنسان كتاب في عنقه قد أحصي فيه كل ما عمله في الدنيا من خير أو شر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

ففي هذا الكتاب سيجد المرء كل ما قدّمت يداه ويقرأ فيه كل ما عمل من حسنة وسيئة كبيرها وصغيرها، وفي هذا المشهد يُحاسِبُ كل إنسان نفسه ويتعجب المجرمون مما في كتبهم حيث لم يدع لهم كبيرة ولا صغيرة إلا أُحصيت عليهم ووجدوا ما عملوا حاضراً بين أيديهم، ولا يظلم ربك أحداً.

فإذا عُرضوا على الله تعالى العرضة الأخيرة ووُزنت أعمالهم تطير الصحف في الأيدي، فمنهم من يأخذها بيمينه ومنهم من يأخذها بشماله، ويكون ذلك علامة على السعادة والشقاوة، وبعد هذا يقع الحساب.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

فأخبر تعالى بأن الحساب سيكون بعد أخذ كل إنسان كتابه الذي وزنت فيه أعماله، فمَن أخذه بيمينه طار فرحاً لأنه يعلم أن الله سيحاسبه حساباً يسيراً، أي: سهلاً ليناً، وهو العرض كما قدّمنا، فيقول كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١...﴾ الآية، وأما من أخذه بشماله فسيُحاسَب حساباً عسيراً شديداً فيُناقَشُ في الفذة والشاذة، ثم ينادي بالثبور ويقول كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧...﴾ الآية.

هذا ما اخترناه بأن أخذ الصحف الدالة على السعادة أو الشقاوة سيكون بعد الميزان وقبل الحساب لظاهر الآية الأولى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨...﴾ إلخ.

والله أعلم بالحقيقة فإن مشاهد يوم القيامة من عالم الغيب ومن الأمور التي هي فوق مستوى عقولنا فلا نقطع بما ذكرنا ولا بما قال غيرنا.

* * *

❁ خطر مشاهد الميزان والحساب والصراط وتطاير الصحف

[٣٤٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ذكرت النار فبكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيكِ؟**» قلت: ذكرت النار فبكيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانُه أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهرَيْ جهنم حتى يجوز**».

رواه أبو داود في السنة رقم (٤٧٥٥)، ورواه أحمد (١١٠/٦) بسياق آخر، ويأتي لنا في الصراط.

والحديث وإن كان في سنده ابن لهيعة وأمره معروف فإنه يحسن للحديث التالي في الجملة.

[٣٤٤] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «**أنا فاعل إن شاء الله تعالى**»، قلت: فأين أطلبك؟ قال: «**أول ما تطلبني على الصراط**»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطىء هذه الثلاث المواطن**».

رواه أحمد (١٧٨/٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٥٤) بسند صحيح، ويأتي الكلام على فقه هذا الحديث في الشفاعة.

إن خطر الميزان والحساب عظيم وعظيم، إذ عندهما تظهر نتيجة حال الإنسان فتوزن جميع أعماله وأقواله وزناً دقيقاً عادلاً ولا يُترك له قول ولا عمل إلا وزن له، ويشاهد كل ذلك بنفسه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

فإن ثقلت موازينه فاز وسعد وتلقى كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً،

وإن خفّت موازينه أوتي كتابه بشماله أو وراء ظهره، وكان من الخائبين الخاسرين وسيُحاسب الحساب الشديد.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾...﴾.

* * *

❋ الصراط والمرور عليه

[٣٤٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجر وغير أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة، ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار.**

ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم ألا تردون؟ فيُحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله تعالى من بَرٍّ وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا

أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى مَن كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله تعالى ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيه أول مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا.

ثم يُضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلّم سلّم، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دَحْضٌ، مَزِلَّةٌ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد، فيها شُوَيكةٌ يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبَرْق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناجٍ مُسلَّم، ومَخْدوشٌ مُرسَلٌ، ومكدوسٌ في نار جهنم».

رواه أحمد (٣/١٦/١٧)، والبخاري في التفسير (٩/٣١٨/١٠/٢٩٠) وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (٣/٢٥) زاد مسلم في آخره: قال أبو سعيد: بلغني «أن الجسر أدق من الشعرة وأحَد من السيف».

[٣٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه نحوه وفيه: «يُحشرُ الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تعالى فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم، ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم يخردل ثم ينجو...» الحديث.

والطواغيت فيتساقط جميعهم في النار العباد والمعبودات ولا يبقى إلا المؤمنون وبقايا اليهود والنصارى والمنافقون من هذه الأمة، فيسألهم الله تعالى عما كانوا يعبدُون فيجيب اليهود بأنهم كانوا يعبدون عزير ابن الله، ويجيب النصارى أنهم كانوا يعبدون المسيح ابن الله، فيكذبهم الله تعالى وينزّه نفسه عن الصاحبة والولد، ثم يتساقط جميعهم في النار.

فلا يبقى إلا المؤمنون الصادقون والمنافقون فيأذن الله لهم بالسجود له تعالى فيسجد المؤمنون، وتجعل ظهور المنافقين طبقة واحدة كلما أرادوا السجود سقطوا على أقفيتهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

[٣٤٩] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجُدَ فيعود ظهره طيفاً واحداً»**.

رواه البخاري، ومسلم مطولاً وتقدم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وقوله ﷺ هنا: **«يكشف ربنا عن ساقه»**، هو من آيات وأحاديث الصفات يجب أن نؤمن بذلك ولا نعطل مع تنزيه الله عن الجارحة ونفوض معنى ذلك وحقيقته إلى الله.

ومن العلماء مَن أوّل ذلك بالأمر العظيم الشديد الهول، وذكروا لذلك أدلة من كلام العرب.

ثم بعد الأمر بالسجود يعطى كل إنسان مؤمنهم ومنافقهم نوراً، فيمرون على الصراط فينطفىء نور المنافقين ويتساقطون في النار وينجو المؤمنون حسب أعمالهم ودرجاتهم.

خامساً: يقول الله تعالى عن النور الذي يعطاه المؤمن، في وصف رائع لحال المؤمنين الممنوحين والمنافقين المحرومين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَ�ٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

قال المفسرون: تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة فيعطي الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم ويمشون به على الصراط، ويعطي المنافقون أيضاً نوراً، فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة، فأطفأت نور المنافقين فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة وقالوا للمؤمنين: انظرونا نقتبس من نوركم، قيل: ارجعوا وراءكم، أي يقول لهم المؤمنون أو الملائكة: ارجعوا وراءكم من حيث جئتم فاطلبوا النور وليس لكم الاقتباس من نورنا فيرجعون فلا يجدون شيئاً، فيرجعون إليهم فيضرب بينهم وبين المؤمنين بسور وهو حائط بين الجنة والنار له باب باطنه لجهة الجنة فيه الرحمة، وباب ظاهره لجهة النار فيه العذاب، فإذا حيل بينهم وبين المؤمنين نادوهم: ألسنا كنا في الدنيا معكم نصلي ونصوم ونحج ونزكي مثلكم؟ فيجيبهم المؤمنون: بلى قد كنتم كذلك ولكنكم كنتم تخدعوننا وتخدعون الله تعالى ولم تكونوا مؤمنين حقاً فخدعتكم الأباطل وغرّكم الشيطان حتى جاءكم أجلكم المحتوم، فاليوم لا تؤخذ منكم فدية ولا تنفعكم شفاعة الشافعين فمصيركم ومثواكم النار وبئس القرار.

وهكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، إن ذلك سيكون عند الصراط عند انطفاء نور المنافقين فيتمم تعالى للمؤمنين النور فيمرون به على الصراط، ويؤيد هذا ما يلي:

[٣٥٠] فعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَشِّر المشَّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»**.

رواه ابن ماجه (٧٨١/٧٨٠)، والحاكم (٢١٢/١) وصححه على شرط

الشيخين، والحديث صحيح بلْ قال السيوطي متواتر، ومن شواهده الثابتة ما رواه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٠١) بتهذيبي عن بريدة بسند حسن، وما رواه الطيالسي (٦٠٦) عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح.

فالمكثرون الترداد إلى المساجد لأداء صلواتهم ولا سيما في الليالي المظلمة سيحظون بالنور الكامل يوم القيامة وبالأخص عندما ينطفىء نور المنافقين.

[٣٥٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «**يجمع الله الناس يوم القيامة**، قال: **فينادي منادٍ: أيها الناس...**» فذكر الحديث بنحو ما تقدم سابقاً وفيه: «**ثم يؤمرون فيرفعون رؤوسهم فيعطون نورهم على قدر أعمالهم**، قال: **فمنهم مَن يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم مَن يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم مَن يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم مَن يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر ذلك مَن يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويَطْفئ مرة، فإذا أضاء قدَّمَ قدمَه وإذا طفئ قام فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دَحْض مزلة، فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرجل، ويَزْمُل رملاً، فيمُرُّون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه**، قال: **يجرُّ يداً، ويُعلَّق يداً، ويجرُّ رِجلاً، ويُعلَّق رِجلاً، وتضرب جوانبَه النار**، قال: **فيخْلُصوا فإذا خَلَصُوا قالوا: الحمد لله الذي نجّانا منك بعد الذي أرانا، لقد أعطانا الله ما لم يعطِ أحداً**».

رواه الحاكم في التفسير (٣٧٦/٢) مختصراً، وفي الأصول (٥٩٢/٥٨٩/٤) مطولاً، وصححه، وأبو خالد الدالاني، وإن تكلموا فيه فقد تابعه زيد بن أبي أنيسة كما عند الطبراني في الكبير، وزيد ثقة، فالحديث صحيح وله شواهد في الصحيح.

سادساً: في الأحاديث السابقة أن الله عزّ وجل سيأتي الناس مؤمنهم وكافرهم فيكلمهم وينظرون إليه تعالى ويقع بينه وبينهم ما سبق.

وكل ذلك سيقع على الحقيقة على ما أراد سبحانه وتعالى من غير شبهه للحوادث، فنحن نؤمن بكل ما نطق به كتاب الله تعالى وجاء به رسول الله ﷺ، ولا نقول في جانب الله تعالى كيف ولا نشبهه بخلقه، أو نرد ما جاء عنه أو نؤوله بما لا دليل عليه مقبولاً.

سابعاً: اختلف العلماء في الورود الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

والصحيح أنه المرور على الصراط فلا يبقى أحد من خلق الله تعالى سواء فيهم الأنبياء والرسل وأممهم من مؤمن وكافر إلا سيمر على الصراط وهو مضروب على متن جهنم، ثم ينجي الله تعالى المتقين من الأنبياء والمؤمنين مع أممهم، ويذر الكافرين وأصحاب الكبائر في جهنم جثياً، أي: جاثين على ركبهم فيها.

وقد جاءت السنة مبيِّنة لذلك.

[٣٥٢] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسَّه النار**»، وفي رواية: «**فيلج النار إلا تَحِلَّة القسم**».

رواه البخاري، ومسلم وغيرهما في الجنائز وقد تقدم.

قوله: «تحلة القسم» أي: ما ينحل به القسم واليمين وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، ومعنى الحديث أن من مات له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث لا يدخل النار ولا تصيبه لكنه سيدخلها مجتازاً فوق الصراط بقدر ما يحل قسم الله تعالى الذي أقسم في الآية به، لأنها مصرحة بورود كل أحد عليها ثم ينجي المتقين منها ويترك الظالمين فيها من الكفار والمنافقين والعصاة أصحاب الكبائر.

[٣٥٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَردُ الناسُ النارَ ثم يَصْدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلَمْحِ البَرْق، ثم**

كالريح، ثم كحُضْر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم شدّ الرجُل، ثم كمَشْيه».

رواه أحمد (٤١٤١/٤١٢٨)، والترمذي (٢٩٥٦)، والحاكم (٢/٢٧٥) مرفوعاً وموقوفاً، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

فقوله: «يرد الناس» أي: بمرورهم على الصراط. وقوله: «ثم يصدرون» أي: ينصرفون عنها.

فظاهر الحديث دال على أن الناس يردون النار فوق الصراط، وهو المراد بالورود في الآية لقوله: «**فأولهم كلمح البرق...**» إلخ.

[٣٥٤] وعن أم مُبَشِّر رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله تعالى عنها: «**لا يدخلُ النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ من الذين بايعوا تحتها**»، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، قالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال النبي ﷺ: «**فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾**».

رواه مسلم وغيره، وتقدم في التفسير.

فالحديث نصّ في أن أهل بيعة الرضوان لا يدخلون النار، وإنما سيمرون على الصراط فوقها وينجيهم الله منها كباقي المتقين ويترك فيها الظالمين.

* * *

❁ خاتمة لما سبق

لقد رأينا ومرت علينا زلزلة الساعة واضمحلال هذه الكائنات وذهابها شَذَرَ مَذَرَ، وقيام الناس لرب العالمين، وأهوال الموقف وحشر الخلائق، والمثول بين يدَي الملك الجبار، وعرض العباد عليه وحسابهم ووزن أعمالهم، وظهور النتائج الأولية عند تطاير الصحف، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله، ثم انتهى بنا المطاف إلى الورود على النار بالمرور على الصراط،

وهذه خاتمة النتائج، فإما إلى الجنة، وإما إلى النار، فماذا يكون بعد ذلك؟ بعد هذا سيؤذَن للشفعاء أن يشفعوا فيمن سقط في النار من عصاة المؤمنين وإخراجهم منها.

* * *

❁ شفاعة الشافعين وأولهم سيد الكائنات سيدنا محمد ﷺ

[٣٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوتَه، وإني اختبأتُ دعْوَتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله تعالى مَن مات من أُمّتي لا يُشرك بالله شيئاً»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥/٣٥٦/٣٨١/٤٢٦/٤٣٠/٤٨٦)، والبخاري في التوحيد وفي الدعوات (١٣/٣٤٠/٣٤٢)، ومسلم في الإيمان (٣/٧٤) وغيرهم، وهذا الحديث وارد عن جماعة قد يبلغون التواتر وقد أوردتهم مخرّجة أحاديثهم في كتاب الشفاعة يسّر الله تهيئته ونشره.

وقوله: «اختبأتُ» أي: ادّخَرْتُ.

[٣٥٦] وعن أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إن ربي خيّرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة، أو شفاعة، فاخترتُ لهم الشفاعة، وعلمتُ أنها أوسع لهم، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً»**.

رواه أحمد (٤/٤٠٤/٤١٥) وابن ماجه (٤٣١١) بسند صحيح وله شاهد عن عوف بن مالك، رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٦٢)، وابن ماجة ٤٣١٧) بسند صحيح أيضاً.

[٣٥٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**.

رواه أحمد (٢١٣/٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٦)، وابن حبان (٢٥٩٦)، والحاكم (٦٩/١) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو عنده على شرط مسلم وله شواهد أخرى.

[٣٥٨] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلون الجنة يُسَمَّوْن الجهنميين**».

رواه البخاري في الرقائق (٢٣٦/١٤).

[٣٥٩] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار بالشفاعة كأنهم الثَّعارير**».

رواه البخاري في الرقاق (٢٢١/١٤)، ومسلم في الإيمان (٥١/٥٠/٣).

«الثَّعَارِيرُ»: قِثَّاءٌ صغار.

[٣٦٠] وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أُريتُ ما تَلْقَى أُمّتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض، وكان ذلك سابقاً من الله تعالى كما سبق في الأمم قبلهم، فسألته أن يُوَليني شفاعةً فيهم يوم القيامة ففعل**».

رواه أحمد (٤٢٨/٤٢٧/٦) بسند صحيح.

[٣٦١] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم، أو قال: بخطاياهم، فأماتهم إماتةً، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حَميل السيل**».

رواه مسلم في الإيمان (٣٧/٣) مطولاً.

«ضبائر» أي: جماعات متفرقة.

[٣٦٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجمعُ الله الناس يوم القيامة» فذكر حديث الشفاعة الطويل كما تقدم عن أبي هريرة وأبي سعيد وفيه: «فيقال: يا محمد ارفع رأسك قل تُسمع، سَلْ تُعْطَه، اشفَعْ تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي فأحمده بتحميده يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحدد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد قل تسمع، سل تعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميدٍ يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، قال فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود»، قال ﷺ: «فيخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بَرّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرّة».

رواه البخاري في الرقاق، ومسلم في الإيمان (٣/٢٣/٦٤).

[٣٦٣] وفي رواية له عن النبي ﷺ: «فشُفِّعْتُ في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أتردد إلى ربي فلا أقوم منه مقاماً إلا شُفِّعتُ حتى أعطاني الله من ذلك أن قال: يا محمد أدخِل من أمتك من خلق الله تعالى من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك».

رواه أحمد (٣/١٧٨) بسند صحيح على شرط مسلم.

وتقدم حديث أبي سعيد الطويل في إتيان الله تعالى عباده وأمره إياهم بأن تتبع كل أمة ما كانت تعبد وفي أخرى: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة».

قال: «حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدَّ مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويُصلُّون

ويحُجُون، فيقال لهم: أخرِجوا مَن عرفتم، فتُحَرَّمُ صُوَرُهم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتَنا به، فيقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرِجوه، فيُخرِجون خَلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرِجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً» وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾، «فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكةُ، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبضُ قبضةً من النار فيُخرِج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حُمَماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حميل السيل، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من العالمين، فيقول لكم: عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

رواه مسلم في الإيمان (٣/٣٠/٣٣)، والبخاري في الرقاق، وتقدم طرف منه فانظر رقم (١١٤).

وقوله: «حتى إذا خَلَص المؤمنون» أي: نجوا من الوقوع عن الصراط في النار. وقوله «مناشدة الله في استقصاء» معناه أن المؤمنين الناجين يشفعون في إخوانهم الذين وقعوا في النار ويبالغون في طلب ذلك من الله عزّ وجل.

وهكذا جاء أيضاً في حديث جابر في ذلك وفيه: «وعلى جسر جهنم

كلاليبُ وحسَكٌ تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون، قال: ثم تحل الشفاعة ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة...» رواه مسلم.

وقوله: «ثم تحل الشفاعة» أي: تقع الشفاعة ويؤذن فيها.

في جملة هذه الأحاديث فوائد وفضائل وخصائص هامة نجملها في الآتي:

أولاً: دلت على ثبوت شفاعة نبينا ﷺ لأمته في إخراجهم من النار، ويجب أن يعرف بأن الأحاديث بذلك متواترة كأحاديث شفاعته في الموقف لإراحة الناس منه وأن ذلك هو المقام المحمود.

وهذه الشفاعة ـ أعني العظمى ـ لا خلاف فيها بين طوائف المسلمين، وإنما أنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة لإخراج العصاة وهم مخطئون في ذلك ضالُّون مخالفون لقواطع الشرع وإجماع أهل السنة.

قال النووي في «شرح مسلم» على قوله: باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار: قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وأمثالهما، وبخبر الصادق ﷺ، وقد جاءت الأخبار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها... إلخ.

وقال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى في «المحلى»: مسألة: وأن شفاعة رسول الله ﷺ في أهل الكبائر من أمته حق، فيخرجون من النار ويدخلون الجنة، ثم ذكر أدلة ذلك. وقد ذكرت نصوصاً أخرى للعلماء في كتابي (الشفاعة).

ثانياً: دلت على أن هذه الشفاعة لأصحاب الكبائر الذين ماتوا على

لا إله إلا الله ولم يشركوا بالله تعالى شيئاً الشرك الأكبر وهم مصرُّون على ذنوبهم لم يتوبوا منها.

ثالثاً: فيها أنه ﷺ سيُخرج من النار كل من قال: لا إله إلا الله صادقاً وكان في قلبه وزن شعيرة أو بَرّة أو ذَرّة من خير، وأن الله عزّ وجل سيحد له حدًّا فيُخرجهم من النار، ثم يحد له حدًّا فيخرجهم من النار ثلاث مرات أو أربعاً، فيُخرج أقواماً ما عملوا خيراً إلا لا إله إلا الله حتى يقول ﷺ: «**ما بقي أحدٌ في الناس من أمتي إلا من وجب عليه الخلود وهم الكفار والمنافقون**».

رابعاً: وفي حديث أم حبيبة رضي الله تعالى عنها دليل على أن شفاعته ﷺ ستشمل حتى أصحاب أكبر الكبائر من سفّاكي الدماء وأصحاب حقوق العباد فأحرى الكبائر الأخرى الخاصة بحقوق الله عزّ وجل.

خامساً: حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه دال على أن الله عزّ وجل سيتفضل على مذنبي هذه الأمة الذين أوبقتهم خطاياهم فدخلوا النار بأنه تعالى سيميتهم فيها حتى لا يحسوا بها إلا عند الدخول أو الخروج فيخرجون منها بشفاعته ﷺ بعد أن صاروا فحماً.

سادساً: تتجلى رحمة نبينا ﷺ بأمته وشفقته عليها في حديث أبي هريرة، وحديثَي أبي موسى ومعاذ حيث آثر ﷺ أمته عليه وقدّمها على نفسه كما في الحديث الأول حيث أخّر لهم دعوته استجابة وادخرها لهم شفاعة عندما يكونون أحوج إلى شيء ما ينجون به من عذاب الله.

وخُيِّر ﷺ بين أن يُدخل الله تعالى نصف أمته الجنة بدون سابقة عذاب وبين الشفاعة، فاختار ﷺ الشفاعة لأنها أعم وأشمل، لأن المذنبين أكثر من نصف الأمة بكثير وهذا من عظيم رحمته ورأفته بأمته ﷺ، ولهذا عندما جاءته الخلائق يستغيثون به في إراحتهم من الموقف وسجد لله تعالى وناداه ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع أول ما قال: يا رب أمتي... إلخ.

سابعاً: في حديث جابر السابق، بيان أن الشفاعة سيأذن الله بها عندما

يطفأ نور المنافقين عند الصراط ويقعون في جهنم كما يسقط فيها أهل الكبائر من المؤمنين وينجو المؤمنون الذين لا عذاب عليهم، فعند ذلك تبدأ الشفاعات ويكون النبي ﷺ هو أول من يشفع كما في الحديث التالي:

[٣٦٤] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»**.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/٣٧).

فهذه من أولياته ﷺ كما أنه أول من تحاسب أمته، وأول من يمر بأمته على الصراط، وأول من يدخل الجنة بأمته أيضاً.

ثامناً: حديث أبي سعيد الطويل المتقدم، يدل على أن للملائكة والرسل والمؤمنين شفاعات لإخراج المذنبين من النار.

فعندما ينجو المؤمنون من الوقوع في النار من الصراط ويرون إخوانهم سقطوا في جهنم وقد كانوا في الدنيا يشاركونهم في أداء العبادات، حينئذ يبالغون في مناشدة الله تعالى أن يشفعهم فيهم فيتفضل الله تعالى عليهم برحمته فيأمرهم أن يخرجوا من النار من عرفوا حتى يخرجوا كل من عرفوا فيه خيراً، حتى يخرجوا كل من كان في قلبه وزن ذرة من خير.

تاسعاً: بعد شفاعة الشافعين يقول الله عزّ وجل: **«شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً** ـ أي: فحماً ـ **فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة»** إلى آخر ما تقدم، وتأتي بقية ذلك في النار والجنة إن شاء الله تعالى.

ثم إن للنبي ﷺ شفاعات كثيرة عامة وخاصة، كشفاعته في إدخال أقوام الجنة بغير حساب، وشفاعته في رفع درجات أقوام في الجنة، وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار، وشفاعته لمن مات بالمدينة، وشفاعته لمن حكى ألفاظ الأذان وصلّى عليه ﷺ وسأل له الوسيلة وقال:

رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وشفاعته لآل بيته وأقاربه، وشفاعته لمكثري الصلاة عليه ﷺ، وشفاعته لسكان المدينة الصابرين على شدتها ولأوائها، وشفاعته لمن زار قبره، وشفاعته لأنس بن مالك، وشفاعته لحمزة الأسلمي، وشفاعته لغلام من أسلم، وشفاعته لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وشفاعته لأمته ﷺ في البرزخ بعد عرض أعمال أمته عليه.

وقد بيّنت هذه الشفاعات مع أدلتها في رسالة خاصة هيأ الله تعالى نشرها. كما ذكرت هناك شفاعات أخرى كشفاعة القرآن والصيام والصلاة والصدقة والشهداء وحمَلة القرآن، إلى غير ذلك.

* * *

كتاب الجنة والنار
وجوب الإيمان بهما وأنهما مخلوقتان

[٣٦٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله تعالى الجنة والنار، أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزّتك لا يسمعُ بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحُجِبَتْ بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها وإذا هي قد حجبت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وما أعددت لأهلها فيها، فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»**.

رواه أحمد وأبو داود، والترمذي وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدم في الزهد.

«حجبت»: هو معنى. «حفت» أي: أحيطت. وقوله: «يركب بعضها» أي: يعلو بعضها بعضاً لشدة اندلاعها.

[٣٦٦] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربّها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنَفَسَين، نفَسٍ في الشتاء، ونفَسٍ في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٢/٧) وفي أوقات الصلاة (١٥٨/٢)، ومسلم في الإبراد بصلاة الظهر (١١٩/٥) وغيرهما.

قوله: «اشتكت» هو على ظاهره والله تعالى جعل في النار إدراكاً وتمييزاً فتكلمت مع الله عزّ وجل واشتكت إليه. و«الزمهرير»: هو البرد القارس الشديد.

[٣٦٧] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان اليوم الحار فأبرِدوا بالصلاة فإن شدة الحِر من فَيح جهنم»**.

رواه البخاري في استقبال القبلة وأوقات الصلاة (١٥٨/٢)، ومسلم في المساجد (١١٨/١١٧/٥) وله شواهد كثيرة، بل هو متواتر. و«فيح جهنم»: غليانها وسطوع حرها.

ففي هذه الأحاديث دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان، موجودتان، مهيئتان لأصحابهما، والأدلة على ذلك كثيرة كتاباً وسنّة وإجماعاً.

قال الله تعالى في النار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾، وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ الآية، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، في آيٍ أُخر.

وقال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الآية.

وقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ في آيات كثيرة سيأتي

بعضها في صفة الجنة، وسيأتي حديث: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت...**» إلخ. فقوله تعالى في هذه الآيات: أُعدّت للمتقين، أُعدّت للكافرين، هو نص في أن كلا من الجنة والنار موجودتان مهيأتان لأصحابهما، وكذا ما ذكر في الأحاديث من خلقهما ونظر جبريل إليهما وإلى ما أعدّ فيهما، وشكاية النار إلى ربها بأنها خالية لا تجد ما تتقد به قد أكل بعضها بعضاً، وأن الحر والزمهرير اللذين نجدهما في هذه الحياة إنهما من نفس جهنم وسطوع غليانها وكل ذلك يدل على الخلق...

وبخلق الجنة والنار قال كل السلف من الصحابة فمن بعدهم من الخلف، وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة وضلّلُوا من أنكر ذلك من المعتزلة وذكروا ذلك في جملة العقائد الإسلامية.

قال الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى في عقيدته المشهورة في «الرسالة»: وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدّها دار خلود لأوليائه، وخلق النار فأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله... إلخ.

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته التي اتفق على صحتها جمهور أهل المذهب الأربعة: والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً، ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً.

ونصوص العلماء في هذا كثيرة في كتب العقائد، وكتب التفسير، وشرّاح الحديث...

* * *

❁ سعة جهنم وعظمها

[٣٦٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بالنار يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**».

رواه مسلم والترمذي، وانظر ما سبق في عرض النار على أهل الموقف.

الحديث يدل على عظمة جهنم وسعتها وكبرها وهولها، وأن طولها وعرضها لا يتصوران، ولا يعلم عظمها إلا الله خالقها عزّ وجل.

فوجود هذا العدد الهائل من الملائكة المكلفين بجرها إلى الموقف ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمان سبعون ألف ملك، هو كاف في الدلالة على هولها وعظمها واتساعها وترامي أطرافها.

وقد عرفنا أن في الملائكة من بين أخمص قدميه إلى أعلى رأسه مسيرة ألفَيْ عام كما تقدم في حديث نزول الملائكة للموقف، وفيهم من بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة كما في حديث جابر عن النبي ﷺ قال: **«أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالى حملَة العرش ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة»**.

رواه أبو داود في السنة.

وقد رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام وله سبعمائة جناح، وكل جناح لا يعلم قدره إلا الله تعالى.

فإذا كان هذا العدد من الملائكة الذين يجرون جهنم وهم بهذه العظمة، فكيف يا ترى نتصور قدر هذا الخلق المخيف المزعج الذي أعدّه الله عزّ وجل للكافرين والمنافقين والطغاة والمجرمين، إن هذا لشيء هائل، وستأتي أحاديث تدل لذلك أيضاً لاحقاً، ومما يدل على عظمها التالي:

* * *

❋ قعر جهنم

[٣٦٩] عن عُتْبةَ بن غزوانَ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الصخرةَ العظيمةَ لَتُلْقى من شفير جهنم، فتهوي فيها سبعين عاماً ما تُفضي إلى قرارها»**، قال: وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: أكثِروا ذكرَ النار فإن حرّها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٣٣٩٢) بهذا السياق وهو في صحيح مسلم بنحوه في كتاب الزهد.

وعنده في الإيمان رقم (١٩٥) بلفظ: «**إن قعر جهنم لسبعون خريفاً**»، لكنه من كلام أبي هريرة.

«شفير»: الشفير ناحية الشيء، والمراد هنا طرف أعلى جهنم. و«القَعْرُ»: الأسفل.

[٣٧٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أن حجراً مثلَ سبعِ خَلِفات أُلْقِيَ من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفاً، لا يبلغ قعرها**».

رواه الحاكم في الأهوال (٦٠٦/٤) بنحوه، وصححه، وقال الذهبي: سنده صالح.

«خلفات»: جمع خَليفة وهي الناقة الحامل.

[٣٧١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجْبَةً فقال: «**أتدرون ما هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حين انتهى**».

رواه مسلم في شدة حر نار جهنم (١٧٩/١٧).

قوله: «وجبة» بفتح الواو وسكون الجيم: صوت السقطة ووقْعُ الشيء. و«الخريف»: هو السنة.

دلّت هذه الأحاديث كسابقتها على سعة جهنم وطولها وعرضها وأن كبرها لا يتصور.

فالصخرة العظيمة أو صخرة مثل سبع خلفات أو أي حجر يلقى من شفير جهنم لا يصل إلى قعرها وأسفلها إلا بعد مضي سبعين سنة وقد لا يصل. إن هذا لشيء هائل جداً جداً بل سيأتي ما هو أعجب في اتساع جهنم من هذا، حيث إن ناب الكافر أو ضرسه مثل أُحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث، ومجلسه في النار ما بين مكة والمدينة، هذا كافر واحد يحتاج

إلى ما يسع جسمه هذا، فكيف وجهنم ستسع من أهلها المليارات بل بلايين البلايين، فكيف مع هذا نتصور سعة هذه الدار المخيفة؟!

* * *

❁ حر نار جهنم يعادل من نارنا تسعة وستين جزءاً

[٣٧٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ناركم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»**، وفي رواية: **«ناركم التي يوقد ابن آدم»**، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافيةً، قال: **«فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حَرّها»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٣/٧)، ومسلم في كتاب الجنة (١٧٩/١٧)، والترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٨).

وقوله: «إن كانت لكافية» معناه أن نار الدنيا كانت كافية في تعذيب الكفار والعصاة.

وهذا هول فظيع ونبأ خطير إن نارنا التي نعايشها ونستخدمها في مرافقنا لا يستطيع أحدنا مسها بل ولا الاقتراب منها إذا اندلعت وهي تحرق وتنضج كل ما يلقى إليها بل تأكل الأخضر واليابس، وإذا اندلعت في محلة أو غابة حضر لإطفائها مئات أو الألوف من رجال الإطفاء مجهزين بالآلات الحديثة فيجدُّون في إخمادها فلا يتمكَّنون من إطفائها إلا بعد أيام أو شهور، وقد يقاسون أنواع الشدائد وقد يموت بها عدد غير يسير ويحترق آخرون ويعانون آلاماً من أثر حريقها، وهذا وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم فلتتصور حر نار جهنم وحريقها والتعذيب بها وتذكر الحديث السابق: **«فإن شدة الحر من فَيح جهنم»**، فما يصيبنا مما نُسَمِّيه شدة الحر أيام الصيف هو مجرد أثر غليان جهنم وسطوعها يأتينا بواسطة الشمس التي تبعد عنا بملايين الأميال ولِهَوْل حرّ نار جهنم ذكّرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم.

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ بل لا مناسبة بين حر الدنيا وحر جهنم.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

«لظى»: اسم من أسماء جهنم أو طبقة منها. وقوله: «نزّاعة للشوى» أي: قلاعة للأطراف أو جلد الرأس وذلك لشدة حرها.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ الآية.

«الحطمة»: هي نار الله المسعرة لا تخمد أبداً، فليست كنار الدنيا وهي التي يصل ألم حريقها إلى الأفئدة، والألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فهم كحال من يموت ولكنهم أنّى لهم به.

وقال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾، ومعناه: سأُدخِل الكافر جهنم لا تبقي شيئاً ألقي إليها ولا تدعه حتى تحرقه، لوّاحة ومغيرة للبشرات مسوّدة للجلود.

* * *

❋ في جهنم سلاسل وأغلال وأصفاد

[٣٧٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أن رصاصةً مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة - أُرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرةُ خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»**.

رواه أحمد (١٩٧/٢) والترمذي في صفة جهنم، وحسّنه وصححه.

«رصاصة»: بفتح الراء، قطعة من الرصاص. «الجمجمة»: بضم الجيمين وسكون الميم الأولى مع ضمّات باقي الحروف، هي عظام الرأس، وتُطلق على القدح من خشب.

هذه مسافة السلسلة التي يربط بها الكافر والمجرم وكل من يأخذ كتابه بشماله فيقال في شأنه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ . . .﴾ الآية، ويأتي شرحها في الحديث عن عذاب أهل النار فيكون طول السلسلة على ما يؤخذ من الحديث مسافة عشرات الألوف سنة أُعِدّت لتعذيب من استحقوا دخول جهنم، ويضاف إلى السلاسل الأغلال التي تغل بها الأيدي مع الأعناق وهكذا الأصفاد وهي القيود التي تربط بها الأرجل كما يأتي.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ الآية.

وقال جلّ ثناءه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ الآية.

* * *

❋ صفة المقمعة التي يضرب بها أهل النار

[٣٧٤] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لو أن مَقْمعاً من حديد جهنم وُضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان، ما أقلُّوه من الأرض**».

وفي رواية: «**لو ضُرِبَ الجبل بمَقمع من حديد جهنم لتفتَّت، كما يُضرب به أهلُ النار فصار رماداً، ولو أن دَلْواً من غسَّاقٍ يُهراق في الدنيا لأنتَنَ أهل الدنيا**».

رواه أحمد (٨٣/٢٩/٣)، وأبو يعلى (٥٧٨/١)، والحاكم في الأهوال (٦٠١/٤) وصححه ووافقه الذهبي مع أن فيه ابن لهيعة وأبا الهيثم وفيهما ضعف.

«مقمع»: بفتح الميمين، المطرقة أو السياط المُعَد لضرب الكفار.
«الثقلان»: هما للإنس والجن. «ما أقلوه» أي: ما رفعوه من الأرض وذلك لعظمه وثقله.

والحديث يخبر بأمر هائل مخيف، إن المطرقة التي لا يستطيع كل أهل الأرض من الإنس والجن رفعها من الأرض كيف تتصور وكيف لو ضُرب بها الكافر وهي تفتت الجبال الشم الشوامخ... وهذا يزيدنا معرفة بعظم جهنم، ويأتي مزيد عندما نذكر آيات العذاب كقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

* * *

❋ ظلمة النار وشدة سوادها

[٣٧٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أَتَرَوْنَهَا حَمراءَ كناركم هذه؟ لهي أسودُ من القَارِ.

والقار: الزفت.

رواه مالك في صفة جهنم من الموطأ (١٩٣٧) وسنده صحيح، وله حكم الرفع.

[٣٧٦] ويؤيده حديثه الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة»**.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٤٣٢٠)، ولا يضر وجود شريك القاضي في سنده فإن القرآن دال على سواد جهنم وظلمتها.

كما قال تعالى في أهلها: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا...﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم...﴾ إلخ.

وما جاءهم الاسوداد كقطع الليل المظلم إلا من أثر عذاب النار التي هي أشد سواداً من القار، بحيث مجرد رؤيتها تُرعب وتُزلزل القلوب.

* * *

❊ وقود النار الناس والحجارة

[٣٧٧] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، قال: «هي حجارة» من كبريت، خلقها الله عنده كيف شاء أو كما شاء.

رواه الحاكم (٤٩٤/٢) موقوفاً وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

«وقود»: بفتح الواو، ما تتقد به النار وتشتعل به.

فوقود النار وحطبها الذي تتأجج وتشتعل به هما جُثَثُ بني آدم وحجارة الكبريت كما قال هنا ابن مسعود، وكما ورد عن أبي جعفر الباقر ومجاهد وغيرهما من رجال السلف الذين فسّروا الآية بذلك، وقالوا: إن ريح تلك الحجارة أنتنُ وأخبثُ من الجيفة.

وإنما كانت حجارة الكبريت هي بالذات حطب جهنم ووقودها لأنها كما قال العلماء امتازت بخمسة أنواع من العذاب: سرعةُ الإيقاد، ونتنُ الرائحة، وكثرةُ الدخان، وشدةُ الالتصاق بالأبدان، وقوة حرّها إذا أُحْمِيَتْ.

ثم هذا لا ينفي أن توقد النار أيضاً بالأصنام كما قال تعالى للكفار: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الآية.

«حَصَبُ جهنم»: أي حطبها، ويأتي مزيد لهذا في عذاب أهل النار.

* * *

❁ حيّات جهنم وعقاربها

[٣٧٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له مالُه شجاعاً أقرع له زبيبتان يُطَوَّقُه يوم القيامة، يأخذ بلِهزِمَتَيهِ - يعني شدقيه - يقول: أنا مالكُ أنا كنزك**، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾» الآية.

رواه أحمد والبخاري في التفسير وغيرهما كما تقدم في التفسير.

وعن ابن مسعود نحوه، رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح.

وقوله: «شجاعاً أقرع» هو الذكر من الأفاعي الخبيث الكثير السم. وقوله: «بلِهزمتيه» بكسر الزاي واللام، أي: شدقيه ولحييه. وقوله: «يطوقه» معناه يلتوي ذلك الثعبان على عنقه فيكون كالطوق عليه.

وفي الحديث دليل على وجود الثعابين والأفاعي في جهنم، إما عوارض يخلقها الله عزّ وجل من أعمال سيئة، كما في هذا الحديث حيث إن مال الإنسان الذي منع منه حق الله يتمثل ثعباناً، وإما مخلوقة فيها أصالة كالآتي:

[٣٧٩] وعن عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في النار حيّاتٍ كأمثال أعناق البُخت تَلسعُ إحداهن اللسعة فيجد حرّها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حُمُوّتها أربعين سنة**».

رواه أحمد (١٩١/٤)، وابن حبان (٥١٢/١٦)، والحاكم (٥٩٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

«البخت»: بضم الباء، نوع من الإبل عظام. «تلسع» أي: تلدغ وتعض. «البغال الموكفة»: أي التي أُلقيت عليها البرذعة.

[٣٨٠] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال.

رواه الحاكم (٥٩٣/٤) موقوفاً، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وانظر المجمع (٤٨/٧) ففيما ذكر بيان أن من جملة ما أعدّ الله تعالى في جهنم لأهلها حيّات وعقارب عظاماً ضخاماً مملوءات سمًّا فتسلط على أهل جهنم فتلدغهم فيجدون أثر ألم ذلك السم وحره سبعين عاماً...

* * *

❊ أودية جهنم وجبالها

[٣٨١] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعوّذوا بالله من جُبِّ الحزن أو وادي الحزن»**، قيل: يا رسول الله وما جُبُّ الحزن أو وادي الحزن؟ قال: **«وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم كلَّ يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المرائين»**.

رواه البيهقي، قال المنذري رحمه الله تعالى: بإسناد حسن.

وللحديث شواهد عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما.

[٣٨٢] وعن ابن سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها»**.

رواه أحمد (٧٥/٣)، والترمذي في تفسير الأنبياء (٢٩٦١)، وابن حبان (٥٠٨/١٦)، والحاكم (٥٩٦/٥٠٧/٤)، وكذا أبو يعلى (١٣٨٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والحديث وإن كان فيه درام عن أبي الهيثم وروايته عنه متكلم فيها فإن لمعناه شواهد.

[٣٨٣] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة»**، فذكر منهم مدمن الخمر، قال: **«ومن مات يُدمن**

الخمر سقاه الله جلّ وعلا من نهر الغوطة»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: **«نهر يجري من فُروج المومسات يؤذي أهل النار ريحُ فروجهن»**.

رواه أحمد (٣٩٩/٤)، وابن حبان (١٦٦/١٢)، والحاكم (١٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده حسن.

«المومسات»: جمع مومسة وهي الزانية.

[٣٨٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إن على الله عزّ وجل عهداً لمن يشربُ المُسكر أن يسقِيَه من طينة الخَبَال»**، قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: **«عَرَقُ أهل النار أو عصارةُ أهل النار»**.

رواه مسلم في الأشربة (١٧١/١٣)، ورواه الترمذي في الأشربة (١٧٠٩)، والدارمي (٢٠٩٧)، وابن ماجه (٣٣٧٧) والحاكم (١٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي وهو عندهم عن ابن عمر مطولاً وفيه: فإن عاد في الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب لم يتب الله عليه وسقاه من نهر الخبال، قيل: يا أبا عبدالرحمٰن: وما نهر الخبال؟ قال: نَهرٌ من صديد أهل النار.

فهذه جملة أودية أُعِدَّت في جهنم للكفار، وعصاة الموحدين، من ذلك جب الحزن أو وادي الحزن الذي بلغ من فظاعته أن جهنم مع عظمها تتعوذ بالله منه كل يوم سبعين مرة.

ومنها: الويل الذي يهوي فيه الكافر أربعين سنة لا يصل إلى أسفله.

ومنها: نهر الغوطة المُعَد لمدمني الخمر وهو نهر يجري بما يخرج من فروج الزواني من عصارة النار، وما ذلك إلا القَيْح والصديد والدم والنتن وكل ما يؤذي أهل النار من ريح فروج أولئك العواهر والزواني اللائي كنّ في الدنيا يهتكن ستر الله ويتاجرن بأبضاعهن...

ومنها: نهر الخَبال وعصارة أهل النار وعرقهم الذي يعذب فيه المدمن ومن شاء الله تعالى.

[٣٨٥] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«والصَّعود جَبَلٌ في النار يتصعَّد فيه سبعين خريفاً يهوي منه كذلك أبداً»**.

رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى والحاكم وصححه.

هذا الصعود هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، فهو جبل في جهنم يكلف الكافر أن يصعده، فإذا وضع يده عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رِجله عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، يصعد سبعين خريفاً ثم يهوي مثلها كذلك.

ويأتي مزيد لهذا عند تحدثنا على عذاب عصاة الموحدين.

* * *

❁ شرر نار جهنم ودخانها

[٣٨٦] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، قال: أما إني لست أقول كالشجرة، ولكن كالحصون والمدائن.

رواه البيهقي في البعث بإسناد لا بأس به. قاله المنذري.

[٣٨٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو أن غرباً من جهنم جعل في وسط الأرض لآذى نتن ريحه وشدة حره ما بين المشرق والمغرب، ولو أن شرارة من شرر جهنم بالمشرق لوجد حرها من في المغرب»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٣٦٩٣).

«الشرر»: جمع شرارة، وهي ما يتطاير من النار.

قال الله تعالى في صفة جهنم ونارها، وقد أمر سكانها أن ينطلقوا إلى عذابها: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قال المفسرون: اذهبوا فاستظلوا بدخان كثيف من دخان جهنم يتفرع منه ثلاث شعب وذلك أن لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان صار له ثلاث شعب من شدته وقوته بحيث يكون أحمر وأصفر وأخضر وليس فيه ظل ولا يغني من لهب النار شيئاً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾، ليس فيه برد ظلال الدنيا ولا يفيد في رد حر نار جهنم كما قال أيضاً في آية أخرى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وستأتي لاحقاً مع أخواتها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾... إلخ.

أي: أن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق كل شرارة من شراراتها التي ترمى وتقذف بها كأنها القصر العظيم والحصن الهائل، كأن ذلك الشرر المتطاير منها الإبلُ الصُّفْر في لونها وكثرتها وسرعة حركتها.

وإذا كانت الشرارة كالقصر أو الحصن العظيم والجمال الصفر الضخمة فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة، أجارنا الله تعالى منها بفضله ورحمته.

* * *

❊ سور النار وحائطها

[٣٨٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «سُرَادِقِ النار أربعةُ جُدُرٍ، كِثَفُ كل جدار مسيرة أربعين سنة».

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٢)، والحاكم (٦٠١/٤) وصححه.

«سرادق النار»: هو حائطها العظيم المضروب عليها من جميع جهاتها، وهو عظيم وعظيم بحيث له أربعة جُدُر غلظ كل جدار منها مسيرة أربعين سنة، فأنّى للكافر أن يخرج منها وفيها رقباء وخزَنة من الملائكة غلاظ شداد كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

وفي هذا السرادق يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾... إلخ، وستأتي.

فالسرادق محيط بجهنم إحاطة السوار بالمعصم.

* * *

أبواب جهنم

[٣٨٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جاء رمضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنة، وغُلِّقَت أبوابُ النار»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٧/٧) وفي الصيام، ومسلم فيه (١٨٧/٧)، ورواه الترمذي (٦٠٣)، والنسائي (١٠٥/١٠٤/٤)، وابن ماجه (١٦٤٢) وغيرهم بلفظ: **«إذا كانت أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدتْ الشياطينُ ومردةُ الجن، وغُلِّقتْ أبوابُ النيران فلم يُفتَح منها بابٌ، وفُتحتْ أبوابُ الجنة فلم يُغْلَقْ منها باب...»** إلخ.

فهذا الحديث يدل على أن لكلٍّ من النار والجنة أبواباً تفتح وتغلق، وقد جاء ذلك في أحاديث تقدمت في غضون الكتاب.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾...﴾، فالآية صريحة كالحديث بأن لجهنم أبواباً لكل باب أقوام يدخلون النار منه حسب أعمالهم.

ومع هذا فقد اختلف المفسرون في المراد بهذه الأبواب، فورد عن الإمام علي عليه السلام أنها أطباق بعضها فوق بعض. وذكر ابن كثير عن عكرمة أنها أطباق. وعن ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقال قتادة: لها سبعة أبواب هي والله منازلهم... وهذه كلها آثار ليس فيها شيء وارد عن النبي ﷺ فلنقف مع ظاهر القرآن والأحاديث النبوية.

فإن قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ...﴾ الآية، كلاهما صريح في الأبواب حقيقة وأن الكفار سيدخلون النار منها كلٌّ بحسبه.

[٣٩٠] ومما يستأنس به هنا ما رواه ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لجهنم سبعةُ أبواب: بابٌ منها لمن سلّ السيف على أمتي - أو قال - على أمة محمد ﷺ**».

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٢١)، وأحمد (٢/٩٤) وسنده صحيح.

فإن الحديث دال على أن لجهنم سبعة أبواب حقيقة كما نطق به القرآن، وأن باباً منها خاص بمقاتلي المسلمين بلا حق فهو طريقهم إلى النار.

* * *

❋ أهل النار وأنواع عذابهم

[٣٩١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تحاجّتْ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: أوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس، وسقَطُهم، وغِرثهم؟**»، وفي رواية: - **وعجزهم** - **فقال الله عزّ وجل للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنتِ عذابي أُعذّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدةٍ منهما ملؤها**».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢١٩)، ومسلم في صفة الجنة (١٧/١٨٢)، والترمذي في احتجاج الجنة والنار (٢٣٧٨).

«تحاجت» أي: تخاصمت. وقوله: «وسقطهم» بفتح السين والقاف، أي: الضعفاء والمحتقرون منهم. وقوله: «وغَرثهم» بفتح الغين وثاء مثلثة، أي: أهل الفاقة والحاجة، وفي رواية «وغرتهم»: بكسر الغين مع التاء

المثناة، ومعناه: البله الغافلون الذين ليس لهم حذق في أمور الدنيا.

الحديث دلّ على أن أهل النار هم المتكبرون المتجبرون وهؤلاء بطبيعة الحال لا يكونون إلا كفاراً أو طغاة ظلمَة معتدين، ومَن نحا نحوهم من المسرفين.

[٣٩٢] وعن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ جوّاظ زَنِيم مُستكبر**».

رواه مسلم في صفة جهنم (١٨٧/١٧)، والبخاري في التفسير (٢٨٩/١٠).

«العتل»: بضم العين والتاء، هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل الفَظُّ الغليظ. و«الجواظ»: هو الجموحُ المنوع أو الكثير اللحم القصير البطين المختال في مشيه. و«الزنيم»: هو الدَّعِيُّ في النَّسَبِ المُلْصَق بالقوم. و«المستكبر»: هو صاحب الكبر الذي يبطر الحق ولا يقبله ويحتقر الناس.

وهذه الصفات لا تنطبق إلا على الكافرين والمنافقين والعتاة من الظالمين والمتجبرين والمعتدين والفاسقين المسرفين.

وهؤلاء هم سكان النار وأصحاب الجحيم على اختلاف أصنافهم وأجناسهم وصفاتهم، وستأتي آيات القرآن التي ذكرتهم وذكرت صفاتهم وعذابهم.

* * *

❋ عظم جثث أهل النار وأطرافهم

[٣٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بين مَنكِبَيِ الكافر مسيرةُ ثلاثةِ أيام للراكب المُسرع**».

رواه البخاري في الرقاق (٢١٤/٢١٣/١٤)، ومسلم في صفة جهنم (١٨٦/١٧).

[٣٩٤] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضِرْسُ الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغِلظُ جلده مسيرة ثلاث**»، وفي رواية: «**إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثلُ أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة**»، وفي رواية: «**ومقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الرَّبَذة**».

رواه مسلم بالرواية الأولى (١٨٦/١٧)، والترمذي بالثانية والثالثة (٢٣٩٧/٢٣٩٤) كلاهما في صفة جهنم، ورواه ابن حبان (١٦١٦)، والحاكم (٥٩٥/٤) برواية الترمذي، وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم والذهبي.

[٣٩٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذُن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد**».

رواه أحمد (٢٦/٢) بسند حسن أو صحيح.

فهذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيضخم أجساد الكفار ويجعلها عظيمة في النار ليكون ذلك أبلغ في إيلامهم وتعذيبهم، وكلما احترقت جلودهم بدلها الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فيضخمون ويعظمون لتمتلىء منهم النار مع اتساعها وليذوقوا العذاب.

وما جاء في هذه الاختلافات من اختلاف في العظم والعدد هو بحسب اختلاف عذابهم، فالصفات كلها حق، فإن عذاب الكفار بل وسائر أهل النار ليسوا فيه سواء بل هم متفاوتون في ذلك، فليس عذاب المنافقين كالكافرين، وليس عذاب فرعون والنمروذ وقارون وهامان وأبي جهل وأبي لهب وغيرهم من الفراعنة والجبابرة كعذاب المقوقس، وهرقل، وغيرهم ممن يسالم المسلمين أو يعينهم ويمدهم بالأسلحة مثلاً ولا يحاربهم.

فمن أهل النار مَن لا يعذّب إلا على كفره وتركه فروع الشريعة،

ومنهم من يعذَّب على كثرة إجرامه وعداوته المسلمين وقتالهم مضافاً إلى كفره، ومنهم ومنهم، فيكون تضخيم أجسادهم وتعذيبهم حسب ما كانوا عليه في الدنيا.

ومما يدل على تفاوتهم في العذاب الآتي:

* * *

❊ تفاوت أهل جهنم في العذاب

[٣٩٦] عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: **«منهم من تأخذه النار إلى كعبَيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتَيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَته»**.

رواه مسلم في جهنم (١٨٠/١٧).

«حجزته»: بضم الحاء وسكون الجيم، معقد السروال. وقوله: «ترقوته» بفتح التاء وضم القاف، هو العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

فهذا الحديث نصّ في أن أهل النار متفاوتون في العذاب، فالله تعالى حكم عدل، ففي المعذبين من يكونون أشد أهل النار عذاباً وأفظهم عقاباً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وقال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قال المفسرون: ليس في القرآن الكريم آية أشد على أهل النار من هذه الآية.

وفيهم من يهون ويخفف عليهم العذاب كما يدل عليه الآتي:

* * *

❁ أهون أهل النار عذاباً

[٣٩٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ توضعُ في أخمص قدمَيه جمرةٌ يغلي منها دماغه»**.

وفي رواية: **«إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشِراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٢٣)، ومسلم في الإيمان (٣/٨٥/٨٦) بالرواية الأولى والثانية لمسلم ونحوه عنده من رواية أبي سعيد الخدري.

«المرجل»: بكسر الميم وفتح الجيم هي القدر.

[٣٩٨] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمّه أبو طالب فقال: **«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبَيه يغلي منه دماغه»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٢٤)، ومسلم في الإيمان (٣/٨٥).

[٣٩٩] وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: **«نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجتُه إلى ضَحْضَاح، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**.

رواه مسلم (٣/٨٤).

قوله: «في غمرات» بفتحات، جمع غمرة أي: معظم النار. وقوله: «ضحضاح» بضادَيْن بينهما حاء، هو من قَلٍّ ورَقّ من الماء على وجه الأرض بحيث يصل إلى الكعبَيْن. و«الدَّرَكُ»: بفتحتين، أقصى أسفلها. وقوله: «يحوطك» أي: يحفظك ويصونك.

فهذه الأحاديث كلها تدل على أن أهل النار متفاوتون في العذاب،

ففيهم أعلا وأشد وأشق، وفيهم أدنى وأهون... وأدناهم بالنسبة لمن مات كافراً أبو طالب شفع له النبي ﷺ خصيصة له فخفف الله عنه العذاب لما أسداه إليه ﷺ من خير ونصر ودفاع، وكم كنا نود أن ينطق بالشهادتين لكن الله عزّ وجل أرحم وأعلم به منا، أما عذاب عصاة المؤمنين فيختلف أيضاً، وستأتي الإشارة إلى ذلك لاحقاً.

* * *

❋ طعام أهل النار وشرابهم

[٤٠٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، فقال: «**لو أنّ قطرةً من الزَّقُّوم قطرَتْ في الدنيا لأفسدتْ على أهل الدنيا معايشَهم، فكيف بمن يكونُ طعامهم**».

رواه أحمد (٣٣٨/١)، والترمذي في صفة شراب أهل النار (٢٤٠٤) وحسّنه وصححه، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٦)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وابن حبان بالموارد (٢٦١١)، والحاكم (٤٥١/٢٩٤/٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

«الزقوم»: كالتَّنُّور، شجرةٌ خبيثة كريهة الطعم والرائحة.

[٤٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الحميمَ لَيُصَبُّ على رؤوسهم فينفُذُ حتى يخْلُص إلى جوفه فيسلُتَ ما في جوفه حتى يمرُق من قدمَيه، وهو الصَّهَرُ ثم يعاد كما كان**».

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٣٩٩) وسنده صحيح، ولذا صححه الترمذي لأن رواية أبي السمح هنا ليست عن أبي الهيثم.

«الحميم»: هو الماء البالغ نهاية الغليان والحرارة. قوله: «فينفذ» أي: يدخل. «حتى يَخلُص» بضم اللام، أي: يصل. «فيسلت» أي: يمسح ويقطع. «يمرق» أي: يخرج. «الصهر»: بفتحتين، إشارة إلى قوله تعالى:

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي: يُذاب بالحميم ما في أجوافهم كما فصّله الحديث.

فهذا طعام أهل النار وهذا شرابهم، فطعامهم الزقوم، وهو شجر خبيث منتن، والضريع وهو شجر الشِّبْرق له شوك من شر الطعام وأبشعه، والغسلين وهو شر الطعام، وقيل: هو صديد أهل النار، والغساق وهو ما اجتمع من صديد أهل النار وجروحهم ودموعهم وعرقهم، لا يستطاع أكله لشدة برودته، ولا يقدر على مواجهته لعظم نتنه.

فإذا عطشوا واستغاثوا سُقوا من الماء الحميم الذي انتهى حره وغليانه، فيصب على رؤوسهم فيدخل في أجوافهم فيقطع أمعاءهم ويسلت ويذيب ما في بطونهم حتى يخرج من أقدامهم. وأحياناً يُسقَوْن من ماء صديد يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه.

[٤٠٢] فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ الآية، قال: «**يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**»، قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

رواه الترمذي (٢٤٠٠)، وأحمد (٢٦٥/٥)، والحاكم (٣٥١/٢/٣٦٨/٣٦٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وقوله: «يتجرعه» أي: يتكلف بلعه لحرارته ومرارته. «ولا يكاد يسيغه» أي: يبتلعه لكراهته ونتنه. و«المُهْل»: هو ماء حار كدَرْدِي الزيت أو كالمُذاب من المعادن، ويؤيده الحديث التالي:

[٤٠٣] فعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**كالمهل**»، قال: «**كعكر الزيت إذا قرب إليه سقطت فروة وجهه**».

رواه الترمذي (٢٤٠١) فهو شاهد لما ذكرنا.

ودرد الزيت أو عكره: هو دَنَسُه ووسَخُه. وفروة وجهه أو رأسه: هي جلدته.

[٤٠٤] وقد جاء في حديث شارب الخمر عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن شرب الخمر لم يرضَ الله تعالى عنه أربعين ليلة، فإن مات مات كافراً، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال**» قيل: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: «**صديد أهل النار**».

رواه أحمد (٤٦٠/٦) بإسناد حسن، وتقدم حديث جابر وابن عمر بنحو ذلك، كما تقدم حديث أبي موسى في شرب المدمن من نهر الغوطة، وهو نهر يجري بما يخرج من فروج الزواني من قيح وصديد ونتن.

[٤٠٥] وعن أبي الدراداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُلْقَى على أهل النار الجوعُ فيَعْدِلُ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيُغاثون بطعام من ضريع، لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع، فيستغيثون فيُغاثون بطعام ذي غُصَّة فيذكرون أنهم يُجيزون الغُصَصَ في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيُدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوَت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنَة جهنم، فيقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، قال: فيقولون: أُدعوا مالكاً، فيقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، قال: فيجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾**».

قال الأعمش: نُبِّئْتُ أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألفا عام. قال: فيقولون: ادعوا ربكم، فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال: فيجيبهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون في الزفير، والحسرة، والويل.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٥) بتهذيبي بسند حسن لاختلاف في شهر، وصححوا أنه موقوف. ولا يخفى أن حكمه الرفع لأنه لا يقال من قبل الرأي.

وله شاهد عن عبدالله بن عمرو بنحوه رواه البغوي في شرح السنة (٤٤٢٠) وفي آخره: «**وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم**»، فشبّه أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق... ورجال سنده ثقات.

في هذا الحديث أهوالٌ وأنواعٌ من عذاب الكفار، فهم مع ما سيكونون فيه من الحريق والعذاب الأليم سيعذبهم الله تعالى بالجوع فيطلبون الطعام، فيُغطَوْن الضريعَ الخبيثَ المُنتنَ ثم يستغيثون ثانياً فيُردَفون بطعام آخر أخبث من الأول وأشد عذاباً وألماً، فيقف في حلاقمهم فيستغيثون بالشراب ليُجيزوا غُصَصهم فيغاثون بالماء الحار المتناهي الغليان يدفع إليهم بكلاليب الحديد النارية، فإذا دنت من وجوههم أحرقتها، فإذا شربوها قطعت ما في بطونهم، وأذابتها فينادون خزنة جهنم فلا يجدون عنهم خيراً، ثم ينادون خازن النار أن ادعوا الله أن يميتنا ويريحنا فيجيبهم أنكم ماكثون دائمون في النار فلا خلاص لكم منها، ثم يتوجهون إلى الله يدعونه ويستعتبونه ويعترفون له بما كانوا عليه في الدنيا من الضلال، ويسألونه الخروج من النار والرجعة إلى الدنيا وأنهم إن عادوا لما كانوا عليه هم ظالمون فيجيبهم الله عزّ وجل مؤيساً لهم: امكثوا فيها خاسئين أذلاء ملعونين مطرودين... ولا تعودوا تكلموني في شأنكم.

* * *

❋ لباس أهل النار

[٤٠٦] عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعٌ في أمّتي من أمرِ الجاهلية لا يتركونَهُن الفَخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على**

الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قطران، ودِرْعٌ من جَرَب».

رواه أحمد (٥/٣٤٢/٣٤٣) ومسلم في الجنائز (٦/٢٣٥).

«سربال»: بكسر السين هو مطلق اللباس. و«الدرع»: هو القميص. و«القطران»: معروف، وكانت العرب تطلي به الإبل.

ففي الحديث دليل على أن أهل النار ستكون لهم ثياب يرتدونها زيادة في عذابهم وتختار لهم من قطران لأنه ألصق شيء بالنار.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ...﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار يلبسونها وباقي معاني الحديث تقدمت في الأخلاق.

* * *

❋ تتويج أهل جهنم بتيجان من نار

[٤٠٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ...﴾ فذكر الحديث.

وفيه: **«وأما الكافر فيسْوَدُّ وجهه، ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً في صورة آدم، ويلبسُ تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهمّ لا تأتنا بهذا، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخْزِه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثلَ هذا».**

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٣٤) وحسّنه وصححه ابن حبان.

فهذا لون آخر من عذاب أهل جهنم وهو تتويجهم بتيجان النار تضعيفاً لعذابهم وزيادة في آلامهم وإحراقهم كما يتوج أهل الجنة بتيجان الذهب واللؤلؤ...

* * *

❋ «تَلْفَحُ وجوههم النار وهم فيها كالحون»

[٤٠٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال: «**تشويه النار فتَقَلَّصُ شَفَتُه العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفَتُه السفلى حتى تضرب سُرَّتَه**».

رواه أحمد (٣/٨٨)، والترمذي (٢٩٧٠)، والحاكم (٢/٣٩٥) وصححاه.

«كالحون»: جمع كالح وهو العبوس الذي انكشفت شفته عن أسنانه. وقوله: «فتَقَلَّصُ شفته» أي: تنزوي وترتفع إلى الأعلى.

هكذا سيكون حال أهل النار في جهنم فهم لشدة عذابهم وتوالي حزنهم وعبوسهم ستنزوي شفاههم العليا وتجتمع عن الأسنان حتى تصل إلى أوسط رؤوسهم بينما شفاههم السفلى ستنحدر وتسترخي وتنكشف عما أسفل من الأسنان حتى تصل هي الأخرى أسفل بطونهم وتبقى أسنانه مكشوفة تسعر فيها النار عياذاً بالله من حالهم.

❋ ❋ ❋

❋ بكاء أهل النار وما ينشأ عن ذلك

[٤٠٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل النار لَيَبْكون حتى لو أُجْرِيَتْ السُّفُنُ في دموعهم لجرت، وإنهم ليكون الدم**». يعني: مكان الدمع.

رواه الحاكم في الأهوال (٤/٦٠٥) وصححه ووافقه الذهبي وله شاهد عن أنس رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٤) بنحوه، وفيه يزيد الرقاشي والعمدة على حديث أبي موسى.

هذا بكاء أهل النار فهم سيبكون في جميع مراحل أنواع عذابهم ومشاهدهم حتى تنقطع دموعهم ثم يعقب ذلك بكاؤهم الدم، ولكثرة ما

يسيل من دموعهم تتكون أودية أو بحار بحيث لو أجريت فيها السفن والمراكب البحرية لجرت فيها، وما ذلك إلا لما يلاقونه ويقاسونه من أنواع العذاب الذي لا نتصور شدته وفظاعته.

❋ ❋ ❋

❋ صناديق أهل النار المقفلة عليهم والمعذّبون فيها

[٤١٠] عن سوَيْد بن غفلة رضي الله تعالى عنه قال: **إذا أراد الله أن ينسى أهلَ النار جُعل للرجل منهم صندوق على قدره من نار، لا ينبض منه عِرقٌ إلا فيه مسمارٌ من نار، ثم تُضرمُ فيه النار، ثم يُقفل بقُفْلٍ من نار، ثم يُجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يُضرم بينهما نار، ثم يُقفل بقُفل من نار، ثم يُجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يُضرم بينهما نارٌ ثم يقفل، ثم يُلقى أو يُطرح في النار فذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾، وذلك قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، قال: فما يرى أن في النار أحداً غيره.**

رواه البيهقي بإسناد حسن موقوفاً، قاله المنذري... لكن له حكم الرفع لأن أحوال الآخرة لا تُدرَك بالنظر.

هذا مشهد آخر من مشاهد عذاب أهل النار، ذلك أن الله عزّ وجل يأمر بمن شاء منهم أن يُسجن في صندوق من نار على قدر جثته لا يتحرك منه عرق في ذلك الصندوق إلا فيه مسمار من نار مضروب فيه يُعذّب به، ثم تُضرم النار في ذلك الصندوق وهو فيه، ثم يُقفل عليه بقفل من نار، ثم يُلقى في صندوق ثان، ثم ثالث مع إقفال الجميع وإضرام النيران فيها، ثم في النهاية يلقى ويُطرح في وسط جهنم وهو داخل تلك الصناديق المقفلة عليه والمضرمة بالنار، وهو لا يدري ما خارج تلك الصناديق فيظن أنه وحده يعذّب. قال تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

❋ ❋ ❋

❋ أودية القَيْح تجري بين أُذن الكافر وعاتقه

[٤١١] عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أتدري ما سَعَةُ جهنم؟ قلت: لا أدري، قال: أجل والله لا تدري، إن بين شحمة أذُن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً، يجري فيها أودية القَيْح والدم، قلت: أنهار، قال: لا بل أودية.

رواه البغوي في «شرح السنة» (٢٥١/١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٣/٨) مطولاً بسند صحيح، وهذا مشهد آخر من عذاب أهل النار، ذلك أنه سيعذب أحدهم حتى تسيل منه أودية من القَيْح والدم تجري بين أُذنه وعاتقه.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنه لا يتصور ما يعذب به الكفار من أنواع العذاب، كما يدل على عظم جثث أهل النار وسعة جهنم في طولها وعرضها كما تقدم.

* * *

❋ طلب الكفار الفداء

[٤١٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أهونَ من هذا وأنت في صُلْب آدم أن لا تُشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تُشركَ بي**».

رواه البخاري في الأنبياء وفي الرقاق باب صفة الجنة (٢١٦/١٤) وفي باب من نوقش الحساب عُذِّب (١٩٥/١٤)، ومسلم في صفة المنافقين (١٤٧/١٧)، وفي رواية: «**أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟**» دلّ الحديث على أن الكفار عندما يلقون في النار ويذوقون عذابها ولو كانوا من أهونهم عذاباً أنهم يتمنون افتداء أنفسهم مما هم فيه من العذاب بملء الأرض ذهباً ولكن هيهات، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ومعناه: أنه لو كان لهم جميع ذلك وأمكنهم الافتداء لافتدوا، ولكنه فات الأوان فلا افتداء ولا تخفيف عنهم ولا خروج. وتأتي بقية ومزيد في آيات النار وأهلها.

* * *

❊ نسيان الكافر كل نعيم مرّ عليه في الدنيا بغمسة واحدة في نار جهنم

[٤١٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بأنعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبغُ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابنَ آدم هل رأيت خيراً قط، هل مرّ بك نعيمٌ قط، فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغُ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدةً قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**.

رواه مسلم في طلب الكافر الفداء (١٤٩/١٧).

قوله: «فيصبغ صبغة» أي: يغمس غمسة. قوله: «هل رأيت بؤساً» البؤس هو الشدة كالفقر ونحوه.

انظر أيها المسكين إلى مآل الكافر وإلى ما يحصل له بمجرد غمسة واحدة يغمسها في النار ثم يخرج امتحاناً له فينسى بذلك كل ما سبق له من نعيم ورغد العيش وترفيه في الدنيا، وهذا يكون في أنعم أهل الدنيا كأكابر الملوك الأغنياء والطغاة المتجبرين من الكفار وغيرهم، إنه عذاب وهول فوق مستوى عقولنا وفوق تصوراتنا.

وبالعكس ساكنو الجنة يؤتى بأضيقهم حياة في الدنيا وأشدهم بؤساً وفاقة فيغمس غمسة واحدة في نعيمها فينسى بذلك كل ما مرّ عليه من ضيق وشدة... فالحمد لله على أن جعلنا مسلمين ومن أمة سيد العالمين ﷺ.

* * *

❋ ملءُ جهنم وطلبها المزيد

[٤١٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزة قدمَه فيها فتقول: قط قط، وعزّتك، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشىء الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة»**.

رواه البخاري في الأيمان والنذور وفي مواضع، ومسلم في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون (١٧/١٨٣/١٨٤).

قوله: «قط قط» أي: حسبي. وقوله: «حتى يضع رب العزة قدمه فيها».

«القدم» بفتح القاف والدال المعروف عندنا بالجارحة محال في حق الله سبحانه فهو من المتشابه وأحاديث الصفات، ولذا كان مذهب السلف فيه وفي أمثاله مما يوهم التشبيه بالخلق إمراره كما جاء من غير تفسير ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ونؤمن بذلك على ما أراد الله تعالى، ونعتقد أن لها معنى يليق بها نفوض حقيقتها إلى الله تعالى. قوله: «وينزوي بعضها إلى بعض» أي: يجتمع.

والحديث يدل على أن جهنم ستتكلم يوم القيامة وتطلب المزيد من وقودها وأنها رغم ما دخلها من ملايين وبلايين البلايين من الكفار وسكانها سيبقى فيها المتسع للتعذيب فتنادي حقيقة هل من مزيد بعد أن يقال لها: هل امتلأت، فلا تزال تنادي كذلك والله عزّ وجل يمدها بأقوام وأقوام فلا تمتلىء حتى يضع رب العزة قدمه فيها على ما أراد فتقول: حسبي قد اكتفيت.

وهذا الحديث الشريف يوافق قوله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ الآية. أي: هل بقي شيء تزيدني.

وهذا الحديث يدل على أن جهنم ستمتلىء بأصحابها الذين استحقوها بأعمالهم وما جنوا على أنفسهم في الدنيا، وستوقد وتمتلىء بجميع أجناس بني آدم وأهل الملل الكفرية وإبليس وبنيه وجنوده، وسيحضر فيها ويعذب

بجميع أنواع عذابها جبابرة الأمم وطغاتهم وظلمَتهم ومنافقوهم وأساطين الكفر ورؤساء أهل الضلال الذين طالما أشركوا مع الله غيره وعبدوا الأوثان والأصنام والحجارة والنار والأشجار والشمس والقمر وردوا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وكذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به وحاربوا المؤمنين وعادوهم واحتقروهم وتغلّبوا على ضعفائهم بقوتهم الساحقة واستعمروا بلادهم وسفكوا دماء الأبرياء منهم شيوخاً ونساءً وأطفالاً.

فها هم أولاء الآن داخل جهنم هي مأواهم ومقرهم ومهدهم لا يفتر عنهم فيها عذابها وما هم منها بمخرجين خالدين فيه مخلّدين أبد الآبدين.

وستأتي بقية بتفصيل في آيات القرآن الواردة في جهنم وأصحابها قريباً.

* * *

❁ النساء من أكثر سكان النار

[٤١٥] عن أسامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«قمتُ على باب الجنة فكان عامةُ من دخلها المساكين، وأصحاب الجَدّ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أُمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»**.

رواه البخاري (١٤/٢٠٩) ومسلم (١٧/٥٣) كلاهما في الرقاق.

«عامة» أي: أكثر، وقوله: «وأصحاب الجد» بفتح الجيم، أي: الغنى.

[٤١٦] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٠٨/٢٠٩) ومسلم في الرقاق أيضاً (١٧/٥٣) بلفظ **«إن أقل ساكني الجنة النساء»**.

[٤١٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مثل لفظ عمران رواه مسلم (٥٣/١٧) ورواه البخاري أيضاً في العلم بلفظ: «**أُريتُ النارَ فرأيت أكثرَ أهلها النساء**».

[٤١٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المُصلَّى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «**أيها الناس تصدّقوا**»، فمرّ على النساء فقال: «**يا معشر النساء تصدّقن، فإني رأيتُكُنَّ أكثرَ أهل النار**»، فقلنَ: وبمَ يا رسول الله؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللعنَ وتكفرن العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُب الرجل الحازم من إحداكن**».

الحديث تقدم، رواه البخاري في الزكاة (٦٨/٥) وفي الحيض (٤٢١/١) مطولاً.

في هذه الأحاديث دليل على أن النساء أكثر أهل النار بكفارهم ومؤمنهم، غير أن نساء الكفار أكثر بكثير من نساء أهل التوحيد ونستفيد من هذه الأحاديث أن النساء أكثر من الرجال، وعلى هذا تدل الإحصائيات العالمية حالياً، فإن نساء العالم أكثر من ضعفَيْ الرجال، وسيأتي وقت يكثر فيه بأضعاف أضعاف ما هو موجود اليوم فقد تنبأ النبي ﷺ بأن من أشراط الساعة أن يقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد من الرجال، وتلك فتنة عازمة سيبتلي بها الرجال، فإنه ليس هنالك فتنة أضر على الرجال من النساء كما في الحديث الصحيح. وهذه إحدى موجبات دخولهن النار، فإن النبي ﷺ ذكر من أسباب ذلك كثرة لعنهن - يعني عند خصامهن وغضبهن ومع أطفالهن - وكفرهن الأزواج وإنكارهن إحسانهم إليهن ومقابلة النكران بالكفران ثم تعرضهن لفتنة الرجال ولو كانوا حازمين، فهذه هي موجبات كونهن أكثر أهل النار مضافة إلى ما جُبلن عليه ورُكّب فيهن من اتباع الهوى والإغراق في ذلك وحبهن الدنيا وشهواتها المحرّمة وبُعدهن عن العمل للآخرة. وها نحن أولاء نشاهد ما صارت إليه المرأة حالياً من التفسُّخ والتميُّع والانحلال والتحرُّر من جميع التكاليف

الشرعية... هذا وهنّ يدّعين الإسلام فكيف بالنساء الكافرات اللائي كنّ السبب في فتنة نساء المسلمين.

فلقد صدق رسول الله ﷺ فيما حدّث به عنهن فإنه ما أخبر إلا بما أوحاه الله إليه الذي لا تخفى عليه خافية والذي يعلم ما سيؤول إليه كل الخلائق في الآخرة.

نعم، سيكون أكثر أهل النار النساء وأقلهن من سكان الجنة، لكنه يأتي هنا سؤال وهو هل سيخلّدن في النار إذا كنّ أكثر أهلها؟

والجواب: يدخلنها ويضاعفن سكانها من الرجال أضعافاً مضاعفة في البداية، ثم بعد تنفيذ وعيد الله تعالى فيهن يخرج منها المؤمنات بشفاعة الشافعين ويدخلن الجنة فيكُنّ الأقليات من نساء الدنيا ويبقى نساء الكفار والمشركين في النار وهنّ كثُر وأضعاف أضعاف رجالهن.

* * *

❋ تعذيب أهل الكبائر من الموحدين

إن النار في الأصل خُلقت للكافرين والكافرات، والمشركين والمشركات، والمنافقين والمنافقات. قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ الآية.

فهؤلاء هم أهلها وأصحابها وسكانها والخالدون فيها والمعذّبون بجميع أنواع العذاب في دركاتها لا تلحقهم شفاعة الشافعين، ولا تصيبهم رحمة أرحم الراحمين.

غير أنه هنالك من ينتسب إلى الإسلام وفتن في دينه ففسق عن أمر ربه إما عقدياً كأهل البدع الضالة الوارد فيهم أنهم في النار، وإما عملياً

كاتباع الأهواء والشهوات المحرمة الذين ماتوا مصرّين على كبائر الفواحش والآثام، فهؤلاء جاءت نصوص الشريعة القطعية في الجملة بدخولهم النار وتعذيبهم فيها مع الكفار سكانها ثم بعد تنفيذ وعيد الله تعالى فيهم يخرجون منها بشفاعة الشافعين وبرحمة الله عزّ وجل، ثم يلحقون بإخوانهم في الجنة وسيُعذَّبون كلٌّ بحسب ما اقترف من الجرائم والفواحش، وقد جاءت أصناف من الناس نصّ الشارع على تعذيبهم ودخولهم النار وهم كالآتي:

❊ ❊ ❊

❊ أصناف من أهل الكبائر الموحدين الذين سيُنفَّذ فيهم وعيد اللّه تعالى

فمنهم قاتل النفس العمد بلا حق سواء كان المقتول كبيراً أم صغيراً ذكراً أم أنثى، ومنهم المنتحر قاتل نفسه، ومنهم المرابي الذي يعامل بالربا والفائدة، وهؤلاء الثلاثة سيكون عذابهم عظيماً، بل لم تأتِ في أصحاب الكبائر من أهل القبلة من قيل فيه مخلَّداً في النار إلا هؤلاء، ومنهم الزناة والزواني، ومنهم التارك للصلاة النائم عنها، ومنهم شارب الخمر المدمن، ومنهم المتكبرون، ومنهم المصورون وخاصة النحّاتين وتصوير من فيه روح، ومنهم ذوو العقوق المسيئون لوالديهم، ومنهم الظلَمَة وأعوانهم، ومنهم الذين يعذبون الناس في الدنيا، ومنهم الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون، ومنهم المراؤون، ومنهم الأكّالون أموال الناس بالباطل، ومنهم النساء الكاسيات العاريات الملعونات، ومنهم المكاسون الذين يتولون أخذ العشور من أموال المسلمين، ومنهم القضاة الجائرون، ومنهم مانعو الزكاة، ومنهم كتمَة العلم الشرعي المحتاج إليه، ومنهم الذين يتكلمون في أعراض الناس ويغتابونهم، ومنهم النمّامون الذين ينقلون الكلام ويفسدون بين المسلمين، ومنهم الكذّابون على رسول الله ﷺ، ومنهم الآكلون والشاربون في أواني الذهب والفضة، ومنهم الذين لا يتنزهون عن البول، ومنهم مسبلو ملابسهم اختيالاً، ومنهم المتسولون بلا ضرورة ولا حاجة، ومنهم آكلو مال اليتيم، ومنهم النائحون

على الأموات، ومنهم غصبَة أرض المسلمين، ومنهم المفلس، ومنهم المُضِرُّ في الوصية، ومنهم قاذفو المحصنين والمحصنات بالزنا ونحوه، ومنهم الطاعنون في المسلمين بما يشينهم، ومنهم الدَّيُّاثون الذين يقرون السوء والفواحش في أهليهم، ومنهم الغالُّون من الغنيمة، ومنهم الحالفون اليمين الغموس للتوصل بها إلى أكل أموال الناس، ومنهم أهل الحرابة وقطع الطريق وإرهاب المؤمنين، ومنهم في العقائد والنِحَل كالروافض الذين يكفرون الصحابة ويسبونهم وخاصة الخلفاء الثلاثة رضي الله تعالى عنهم، والخوارج الذين يكفرون أصحاب الكبائر، والذين يقولون بخلود العصاة في جهنم، والقدرية الذين ينكرون أن يكون الله قدّر الخير والشر، والنواصب الذين يعادون آل البيت النبوي ويضمرون لهم البغضاء، ومنهم المشبهة والمجسمة الذين يشبهون الله بخلقه، إلى آخر الجريدة وهي طويلة.

فكل ما ذكرناه من أهل هذه الذنوب والكبائر سيدخلون جهنم عند مرورهم على الصراط ويُعذَّبون بأنواع عذاب الله عزّ وجل حتى يصيروا حُمَماً وفحماً، وفي هؤلاء من يعذَّبون العذاب الأليم، ففيهم من يعذَّب بالثعابين في أعناقهم وفي بطونهم، وفيهم من يتردّى من جبال جهنم، وفيهم من يتحسّى السم، وفيهم من تكون له أظافير من نحاس نارية يخمش بها وجهه، وفيهم من يكون يأكل الجيفة، وفيهم من يُجْمَعُون نساءً ورجالاً عرايا وعراة داخل تنور من نار كالزناة والزواني، وفيهم من يطوق ما غصبه من الأرض إلى سبع أرضين، وفيهم من يشربون نار جهنم، وفيهم من يدور في النار كما يدور الحمار بالرحا فتحرق مصارينه فتجمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألستَ الذي كنتَ تأمرنا وتنهانا؟ فيقول: بلى كنت آمركم ولا آتيه، وأنهاكم وآتيه، هذا عذاب العالِم الفاجر، وفيهم من يضخم جسمه ويعظم حتى يكون أحد زوايا جهنم كما جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند صحيح (٣٤٩٠).

غير أن هؤلاء وإن عُذِّبوا حسب درجاتهم وذنوبهم وأنهم سيمكثون في جهنم المئين وألوف السنين وما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل، فإنهم لا يخلدون فيها ولا يدومون في عذابها بل سيخرجون منها بشفاعة الشفعاء وبفضل لا إله إلا الله ورحمة أكرم الأكرمين.

[٤١٩] فعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يخرج قومٌ من النار بعدما مسَّهم منها سَفْعٌ، فيدخلون الجنة، فيُسَمِّيهم أهل الجنة الجهنميين**».

رواه البخاري في الرقائق (١٤/٢٢٢).

«سفع»: بفتح ثم سكون، أي: سواد فيه صفرة.

[٤٢٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ ضمن حديث طويل تقدم بعضه: «**حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول: لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتُحِشُوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون منه كما تنبت الحِبَّةُ في حميل السيل**».

رواه مسلم في الإيمان (٣/٢٢/٢٣).

قوله: «امتحشوا» أي: احترقوا، وقد تقدم في الشفاعة ضمن أحاديث أن الله عزّ وجل سيُخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف دينار أو مثقال ذرة من إيمان، وسيُخرج أقواماً لم يعملوا خيراً قط ـ يعني مع الإيمان ـ.

فكل من مات مصرًا على كبيرة من كبائر ما ذكرنا سيصيبه عقابها وجزاؤها في جهنم إلا أن يعفو الله عنه، وكل من أصابه عذاب الله فسوف يخرج منه ويكون مآله الجنة حتى لا يبقى في النار إلا الكفار والشياطين. وآخر من يخرج منها وآخر من يدخل الجنة الرجل الآتي ذكره:

* * *

❁ آخر من يخرج من النار وآخر من يدخل الجنة

[٤٢١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر**

أهل النار دخولاً الجنة مقبلاً بوجهه قِبَل النار، فيقول: يا رب اصرِفْ وجهي عن النار قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدّمني عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟ فيقول: يا رب لا أكونن أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أُعطيتَ ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسأل غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله تعالى: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله عزّ وجل منه، ثم يأذن له في دخول الجنة فيقول: تمنَّ، فيتمنى، حتى إذا انقضت أمنيته قال الله عزّ وجل: من كذا وكذا اقبل، يُذكّره ربُّه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه».

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: «ذلك لك وعشرة أمثاله».

رواه البخاري في مواضع، ومسلم في الإيمان (٢٥/٢٣/٣) وللحديث ألفاظ.

قوله: «قد قشبني ريحها» أي: سمّني وأهلكني. وقوله: «وأحرقني ذكاؤها» أي: لهبها وشدة وهجها.

[٤٢٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار كَبْواً، فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى،

فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تَسْخَرُ بي أو تضحك مني وأنت الملك»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة. وفي رواية: «**فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقول له: تمنَّ، فيتمنى، فيقال له: لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا...**» إلخ.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٣٩/٢٤٠) ومسلم في الإيمان (٣/٣٩/٤١).

وقوله: «كبوة» أي: ينكب على وجهه.

[٤٢٣] وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذَاتِهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله... فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسُك، ولذّت عينك**». الحديث يأتي تمامه في الجنة.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٤٥/٤٦).

فهذه الأحاديث تدل كسابقتها في الشفاعة على أن النار لا يبقى فيها أحد من الموحدين، وإن لقوا الله بكل الكبائر والفواحش والآثام، وأن جميعهم سيخرجون منها جماعة جماعة، وآخر من يبقى في جهنم مع الكفار ذوي الخلود والعذاب الشديد الرجل المذكور في هذه الأحاديث وأنه آخر من يدخل الجنة أيضاً بعد أن يذوق آلام العذاب والعقاب الشديد أحقاباً من السنين لا يدري عددها إلا الله عزّ وجل.

فيتفضل الله عزّ وجل عليه ويرحمه ويرضى عنه ويعطيه من المُلك في الجنة مثل عشرة أمثال الدنيا مضافاً إلى ما سيتمناه ويذكره به ربه حتى تنقطع

به الأماني ثم لا يبقى بعد هذا إلا إعدام الموت ونداء أهل الجنة وأهل النار بالخلود كما في الحديث التالي:

* * *

❊ خلود أهل الجنة والنار وذبح الموت

[٤٢٤] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيُذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود، فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»**، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده إلى الدنيا.

وفي رواية: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يُجاء بالموت...»** إلخ، وفي رواية: **«فيُضجَع فيُذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء لماتوا ترحاً»**.

رواه البخاري في تفسير سورة مريم (٤٣/١٠)، ومسلم في الجنة (١٨٥/١٨٤/١٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٩٣/٦) وغيرهم.

وقوله: «كبش أملح» الأملح: هو ما كان فيه بياض وسواد. وقوله: «فيشرئبون» بسكون الشين المعجمة وفتح الراء ثم همزة مكسورة ثم باء ثقيلة مضمومة، ومعناه يمدُّون أعناقهم ينظرون. وقوله: «لماتوا ترحاً» بفتحات، أي: حزناً.

[٤٢٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد...**» فذكر الحديث، وفيه: «**فإذا أدخل اللّهُ أهلَ الجنة الجنةَ، وأهل النار النار، أُتي بالموت مُلبَّباً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة ولأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هؤلاء وهؤلاء قد عرفناه هو الموت الذي وُكِّل بنا، فيُضجَعُ فيُذبح ذبحاً على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت**».

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٧٤) وحسّنه وصححه، وابن ماجه (٤٣٢٧)، وابن حبان (٢٦١٤) مختصراً.

وروى البخاري منه: «**يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار: يا أهل النار خلود لا موت**».

الرقائق (٢٠٧/١٤).

[٤٣٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح، ثم يُنادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم**».

رواه البخاري في الرقاق (٢٠٩/١٤)، ومسلم في الجنة (١٨٦/١٧).

دلّت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: خروج جميع عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

ثانياً: لا يبقى في جهنم إلا أهلها الذين حقَّ عليهم العذاب من جميع الإنس والجن الذين كفروا بالله وبما جاءت به رُسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ثالثاً: فيها أن الموت سيمثل كبشاً فينادي منادٍ من قِبَل الله تعالى أهل

الجنة وأهل النار فيمدُّون أعناقهم يستمعون وينظرون فينادون: هل تعرفون هذا الكبش؟ فيقولون: نعم هو الموت، فيُضجع ويُذبح...».

وفي ذلك دليل على أن الأعراض والمعاني قد يقلبها الله أجساماً وجواهر، ذلك أن قدرة الله تعالى صالحة لكل شيء وإن خالف ذلك عقولنا الضيقة خلافاً لمن أنكر هذه الأحاديث أو ردها بتأويل تعسفية، فإن شؤون الآخرة خلاف أمور الدنيا وفوق مستوى عقولنا البشرية الحديثة.

رابعاً: بذبح الموت يزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم كما يزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم، حيث يتيقن كل من أهل الدارين أن لا موت عندهم، فلولا أن الموت ذبح وقضى عليه لمات أهل الجنة فرحاً، ولمات أهل النار حزناً وترحاً.

خامساً: في قوله: «**خلود لا موت**» دليل على أن كلاً من الجنة والنار وسكانهما خالدون لا يفنون ولا يبيدون. وبهذا جاءت نصوص القرآن والسنة النبوية، وأجمع عليه علماء الإسلام وأهل السنة.

فالقرآن ملآن بمثل قوله تعالى في سكان النار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي سكان الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وسيأتي ذلك مفصّلاً قريباً إن شاء الله تعالى.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وفي هذه الأحاديث التصريح بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت ولا حياة نافعة، ولا راحة، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، قال: فمَن زعم أنهم يخرجون منها وأنها تبقى خالية أو أنها تفنى وتزول فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول ﷺ وأجمع عليه أهل السنة.

وقد نقل الحافظ في «الفتح» عن بعضهم مذاهب ساقطة زائفة في شأن النار ومآلها هي أقل وأسقط من أن يلتفت إليها ويشتغل بها.

* * *

❋ النار وسكانها في القرآن الكريم

لخطورة عذاب جهنم وعظيم أهوالها وأليم نيرانها حذّر الله عزّ وجل عباده منها، وأكثر تعالى في القرآن الكريم من ذكرها وذكر صفاتها وصفات أصحابها وما أعدّ لهم فيها من أنواع العذاب والسلاسل والأغلال والأصفاد والسجون وأودية النيران وما يأكلون ويتغذّون به من الزقوم والضريع، وما يشربونه من الحميم والغسلين والغساق، وما يسيل منهم من القيح والصديد، إلى غير ذلك مما تتقطع أكباد الخائفين من عباد الله لسماعه.

فما من سورة من سور القرآن الكريم إلا وفيها ذكر للنار وأهلها، كل ذلك جعله الله عزّ وجل ترهيباً وتخويفاً لعباده الذين أغوتهم الشياطين وأبعدتهم عن فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها لعلهم يتذكرون ويتعظون، فيحملهم ذلك على الإيمان بالله وبما جاءت به رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وإتماماً للفائدة والذكرى نورد ما جاء في القرآن من آيات في النار وأهلها، ولكثرتها سنأتي بها مرتّبة على السوَر القرآنية مع شرح ما يستحق الشرح منها بما قاله المفسرون رحمهم الله تعالى.

فليصبر معنا القارىء فلعله يتذكر أو يخشى، والذكرى تنفع المؤمنين، فنقول: وبالله نستعين.

❋ ❋ ❋

❋ من سورة البقرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

هاتان الآيتان جاءتا في أقوام خاصّين من الكفار، فإنذارهم وتركه

سواء، فقد سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ، فقد طبع الله تعالى على قلوبهم فلا ينفذ إليها نور، وجعل على أسماعهم وأبصارهم أغطية فلا يسمعون الحق فيتبعونه ولا يرونه فيهتدون به، ولذا كان مآلهم ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة في جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل لا ينقطع بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

جاءت هذه الآية وما قبلها وما بعدها في المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان، وهم أخطر أهل الملل الكفرية على المسلمين.

فهم مرضى القلوب بالشك والنفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم وضلالاً على ضلالهم ولهم يوم القيامة من جهنم عذاب أليم... إلخ، أي: مؤلم أشد الألم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان وتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بالله وبرسوله وبدين الله عزّ وجل.

وقال عزّ وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فهذه الآية وأمثالها من الآتي تدل على أن حطب جهنم ووقودها الذي تتقد به هم الناس من أهل الملل الكفرية، وإبليس وجنوده وحجارة الكبريت والأصنام المنحوتة من الحجارة أيضاً، فبهذا تضرم نار جهنم وتوقد عياذاً بالله منها ومن أهلها.

وقوله تعالى هنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

نص في أن النار موجودة مهيئة لأهلها تنتظرهم بأهوالها وسلاسلها وأغلالها وسجونها وأوديتها وجبالها وحيّاتها وعقاربها وأنواع عذابها، فهي شر ما ينتظره من كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: الذين جحدوا آيات الله وكذّبوا رسل الله وما جاؤوا به من الدين والهدى هم أهل النار وسكانها الخالدون الماكثون فيها أبداً بلا انقطاع ولا نهاية.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق، ولا تقبل فيه شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً، ولا يقبل منها فداءً عن نفسها، ولا لهم ناصر يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

وقال جلّ علاه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

جاءت هاته الآية رداً على اليهود في زعمهم أنهم لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة، فقال الله تعالى: بلى ستمسكم النار وتخلّدون فيها كما يخلّد كل كافر أحاطت به ذنوبه وغمرته من جميع جوانبه وسدت عليه مسالك النجاة، كما صدر منكم معشر اليهود فأنتم وأولئك هم سكان النار وأصحابها الدائمون فيها.

وقال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

جاءت الآية الكريمة تنكر على اليهود وتوبخهم على إيمانهم وعملهم ببعض التوراة وتركهم البعض الآخر وجعل ذلك منهم كفراً.

وأخبر تعالى بأن جزاء من يفرق بين الكتاب فيتلاعب بأحكامه فيعمل بما يوافق هواه ومصلحته ويترك ما لا يوافقه هو الذل والهوان والمقت من الله عزّ وجل، في الدنيا، وأما الآخرة فهو صائرٌ إلى عذاب أشد عذاب خالد لا ينقضي ولا يفتر عنه لمحة واحدة.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

معناه: لو رأى الظالمون من الكفرة والفجرة والطغاة والمعتدين عندما يشاهدون العذاب الذي أعدّ لهم بأن القدرة كلها لله وحده وأن عذابه تعالى شديد أليم لا يطاق، فعندما يرون ذلك سيعاينون شيئاً لا يوصف من الهول والفظاعة وذلك عندما يتبرأ المتبوعون المُضِلّون من أتباعهم الضالّين المقلّدين ويشاهدون العذاب وتتقطع بينهم الأسباب والروابط والمودات، ويتمنى الأتباع المقلدة أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرؤوا من أولئك الرؤساء المضلّين، وهكذا.

كما أراهم الله أشد عذابه في ذلك اليوم العصيب كذلك يريهم أعمالهم السيئة ندامات وحسرات تتردد في صدورهم. وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

جاءت الآية الكريمة عقب حكم القصاص في القتلى حيث أخبر تعالى بأن من قتل نفساً بغير حق فعفا أهل القتيل عن الجاني فعلى أولياء المقتول أن يأخذوا الدية من القاتل ويطالبونه بها بالمعروف من غير عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداؤها بلا مطل ولا نقص. فمَن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية كما يفعل أهل العصبيات ممن لا يخاف الله فله في الآخرة عذاب وعقاب أليم في جهنم.

والآية جاءت في عصاة الموحدين وأنهم بسبب ذنوبهم سيشاركون الكفار في العذاب الأليم أعاذنا الله تعالى والمؤمنين من ذلك.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

جاءت الآية الكريمة إثرَ حُكم هَدْي التمتع في الحج والصيام لمن لم يجد الهدى، فقال عقب ذلك: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ إلخ، أي: خافوا الله تعالى بامتثال ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه وخاصة في شؤون مناسك الحج. وتيقّنوا أن عقاب الله تعالى شديد لمن خالف حدوده.

وقال جلّ جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

جاء هنا دور المرابين الذين يتعاطون الربا ويتعاملون به أخذاً وعطاءً ويمتصون أموال الناس ويأكلونها بالباطل.

ولذلك جاء النص القرآني الإلهي يتحدث عنهم وعن مصيرهم، فأخبر تعالى بأنهم سيقومون يوم القيامة من قبورهم مثل المصروع من الجنون يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي مستوياً فيكونون كالمصروعين، تلك علامتهم يعرفون بها في الموقف فضيحة لهم وهتكاً لأستارهم وذلك التخبُّط والتعثُّر بسبب استحلالهم ما حرّم الله تعالى حيث سووا بين الربا والبيع، فردّ الله تعالى عليهم بأنه عزّ وجل أحلّ البيع لما فيه من التبادل والمنافع من الجانبين وحرّم الربا لما فيه من الضرر العائد على الفرد والمجتمع، وأخبر عزّ وجل أن من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم وأمره موكول إلى الله، لكن من عاد إلى تعاطيه واستحله بعد أن حرّمه الله عزّ وجل كان من المخلّدين في نار جهنم، بل جاء بعد هذه الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، وقد قدّمنا الكلام في الربا وما فيه في البيوع فارجع إليه.

* * *

ومن سورة آل عمران

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

فمَن جحد وحدانية الله وكذّب بآياته الكونية والتنزيلية وكذب رسل الله كان له في الآخرة عذاب عظيم ألمه لا تتصور شدته، والله عزّ وجل عزيز لا يغلب ولا يقهر منتقم ممن عصاه.

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

ومعناه: أن الكفار بالله وبآياته وبرسله لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله وأليم عقابه شيئاً، وهم حطب جهنم الذي تُسْجَرُ وتوقد به النار. فحال هؤلاء الكفار وعادتهم كعادة آل فرعون ومن قبلهم من الأمم الكافرة حيث كذبوا بآيات الله تعالى الدالة على رسالات رسله فأهلك الله جميعهم بسبب كفرهم ومعاصيهم والله شديد العقاب، أي: أليم العذاب شديد البطش.

وقال جلّ شأنه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قل يا رسولي لهؤلاء اليهود ولجميع الكفار ستهزمون في الدنيا على أيدي أهل الإيمان وتجمعون يوم القيامة وتساقون إلى جهنم وبئس المهاد والفراش الذي تمهدونه نار جهنم.

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة في شأن اليهود الذين كذبوا ما جاء به

رسول الله ﷺ وما أنزل عليه وعلى من قبله كعيسى مثلاً، وكانوا يقتلون الأنبياء والعلماء الآمرين بالمعروف فأولئك لهم البشارة بالعذاب الموجع المهين لأنهم جمعوا بين جرائم ثلاث: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله تعالى، وكل جريمة منها كافية في استوجابهم العذاب الأليم.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

جاءت الآية في شأن عيسى عليه السلام وأن الكافرين به وبملّته وبما جاء به فسيعذبه الله تعالى العذاب الشديد في الدنيا بالقتل والأسر والسبي، وفي الآخرة بنار جهنم ولا يجدون لهم ناصراً يمنعهم منها.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

جاءت هاته الآيات في اليهود والنصارى حيث كانوا قد رأوا في كتبهم صفة نبينا ﷺ وشهدوا أنه حق، فلما بعث من العرب حسدوه فكفروا بعد إيمانهم وعلمهم ومعرفتهم، فكان جزاؤهم على ذلك اللعنة والطرد من الله تعالى وملائكته والخلق أجمعين ماكثين في النار أبد الآبدين لا يخفف أو يُفتّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

معناه: أن كل من مات على كفره فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، بل ليس لهم إلا العذاب المؤلم الموجع وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ويجيرهم من أليم عقابه.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

جاء هذا الخطاب الإلهي موجهاً إلى هذه الأمة المشرفة يحذرهم من التفرُّق والاختلاف وينهاهم عن التشبُّه في ذلك باليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في الدين بعدما جاءتهم الآيات الواضحات، وبسبب ذلك سيكون لهم عذاب شديد يوم القيامة، وذلك عندما تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي الكثيرة المتوالية، وسيقال لهم في ذلك الوقت الرهيب توبيخاً لهم: أكفرتم بعدما وضّحت لكم الآيات وظهرت لكم دلائل الحق فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم وإصراركم عليه حتى الموت.

وقال عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن تعاطي الربا كما كان عليه الجاهلية وكما هو جار عند الناس اليوم وأمرهم بالتحفُّظ بامتثال أمره ونهيه من النار التي خلقت مهيأة ومعدة للكافرين، ثم ختم الآيات بالأمر بطاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ ليكونوا من الأبرار الذين تشملهم رحمة الله.

وقال عزّ من قائل: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

ومعناه: لا يستوي من آمن بالله واتبع رضوانه ومن كفر بالله وعصاه وباء بسخطه وخسر دنياه وأخراه وكان مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقراً له. هم درجات متفاوتون في المنازل عند الله تعالى، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والدرجات العلى، ولمن باء بسخط من الله المهانة والذل والخزي والعذاب الأليم في دركات النار.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا

ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ...﴾ إلخ. تسلية للنبي ﷺ، أي: لا تحزن ولا تتألم للمنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بما يبدو من أقوالهم وأفعالهم ولا تبالِ بما يظهر منهم من آثار الكيْد والمكر للإسلام والمسلمين، فإنهم بكفرهم لن يضروا الله وإنما يرجع ذلك إليهم، فالله تعالى يشاء بحكمته ومشيئته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ولهم عذاب عظيم فوق الحرمان من ثواب الله. ومَن استبدل الكفر بالإيمان لن يضروا الله بكفرهم بل وبال ذلك راجع عليهم بالعذاب المؤلم. ولا يظنن أولئك الكافرون أن إمهالنا لهم وإطالنا لأعمارهم خير لهم، بل نفعل ذلك بهم ليزدادوا ويكتسبوا ذنوباً وجرائم فتتضاعف آثامهم ولهم في الآخرة عذاب يهينهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾.

جاءت الآية الكريمة تهدد البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم ويظنون أن ما أعطاهم الله من ثراء هو خير لهم وإن منعوا حق الله منه، بل ذلك شر وأي شر لهم، فسيجعل يوم القيامة طوقاً في أعناقهم يعذَّبون به حيث سيمثل له ماله ثعباناً عظيماً فيأخذ بشدقَيْه ويلتوي على عنقه يعذبه ويقول له: أنا مالك أنا كنزك.

وقال جلّ جلاله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

جاءت الآيتان في اليهود الملاعن حيث زعموا أن الله فقير وهم أغنياء فستكتب عليهم هذه المقالة الشنيعة وما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء

ويكون مآلهم العذاب الحريق الذي لا يوصف ألمه، ويقال لهم: ذوقوا ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر وأنواع الآثام والجرائم، ولست بظالم لكم فإني قد حرّمت الظلم على نفسي.

* * *

ومن سورة النساء

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة خاتمة الكلام على اليتامى وأموالهم فأخبر تعالى بأن آكلي أموال اليتامى إنما هم في الحقيقة يأكلون النار التي تتأجج في بطونهم يوم القيامة، ولا بد وأن يدخلوا ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير.

والآية الكريمة كغيرها كثير تدل على أن عصاة الموحدين سيشاركون الكفار في أنواع عذابهم عياذاً بالله من ذلك.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة عقب الكلام على أحكام المواريث والوصية، فأخبر تعالى أن من عصى أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وتجاوز ما حدّه تعالى من الأحكام والحلال والحرام سيُدخله ناراً مخلّداً فيها لا يخرج منها أبداً، وهذا بديهي فيمن كفر بذلك ومات عليه، أما من مات موحّداً فلا يخلّد في النار.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

جاءت الآية تنفي عدم قبول توبة العاصي المصر على سيئاته حتى إذا فاجأه الموت وعاين مقامه، قال: إني تائب، وهكذا الحال في الذي يموت كافراً فأولئك أعدّ الله لهم عذاباً موجعاً ذاك لإصراره وعدم توبته من ذنوبه، وهذا لكفره وموته عليه بدون إسلام.

أما الذي تقبل توبته فهو الذي يأتي الذنب سفهاً وجهالة مقدّراً قبح المعصية ثم ندم وأناب وتاب سريعاً قبل موته.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾.

في الآية الكريمة النهي عن الانتحار وقتل الإنسان نفسه، وأن من يفعل ذلك معتدياً ظالماً نفسه لا سهواً ولا خطأً ولا مكرَهاً فسوف يُدخله الله عزّ وجل ناراً عظيمة يحترق فيها.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة في اليهود حيث كانوا متصفين بالبخل، ثم يضيفون إلى ذلك نهيهم الصحابة عن الإنفاق ويزيدون فيخفون ما عندهم من المال ويكتمون نعت النبي ﷺ الموجود عندهم في التوراة، فهؤلاء قد أعدّ الله لهم عذاباً ذا إهانة وخزي وإذلال وهو عذاب جهنم وبئس القرار.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾.

هذا ما أعدّه الله عزّ وجل للكفرة والمجرمين الذين كفروا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به رسل الله وقاوموا دعوتهم فسيُدخلهم سبحانه وتعالى ناراً عظيمة هائلة كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بحيث تصير فحماً بدّلهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا كما كانوا. وقد تقدم في

عظم جثث أهل النار، أن أحدهم يعظم حتى إن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل جبل أُحد، ومجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة.

فتضخيم أجسامهم على هذا النحو ليذوقوا شدة الحريق وعظيم آلام العذاب، ويقال: إن هذه الآية من أشد آيات القرآن على الكفار.

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

هذا وعيد شديد لمن سفك دم امرىء مؤمن متعمداً لقتله فجزاؤه عظيم وخاصة من استحلّ قتله فإنه سيخلّد في النار ويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

في الآية وعيد عظيم لمن أقام في دار الكفر بحيث لا يتمكن من إقامة شعائر دينه، ولم يهاجر إلى بلد إسلامي حيث يستطيع مزاولة أعمال دينه بكل حرية.

فمَن أقام بين الكفار كذلك ستقبض الملائكة روحه وهو ظالم وسيوبَّخ على ما فعل ويُحاسب ثم يكون مصيره جهنم وعذابها وبئست المرجع والمقر.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

معناه: أن من خالف أمر رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله بعدما ظهر له الحق بالآيات والمعجزات، ثم سلك طريقاً غير طريق أهل الإيمان ونهج غير منهاجهم سيتركه الله تعالى مع اختياره الفاسد ويُدخله جهنم عقوبة له وساءت جهنم مرجعاً ومأوى له.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة خاتمة الكلام على المنافقين وصفاتهم فبيّنت مآلهم ومصيرهم وهو أنهم سيكونون في الطبقة التي في قعر جهنم والدرك الأسفل من النار، وهي أعظم طبقات النار عذاباً.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أسماء طبقات النار فقالوا: هي: جهنم، ثم لظى، ثم الحُطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وهي كما ترى كلها واردة في القرآن الكريم.

ومنهم من جعل هذه الأسماء أبواباً لجهنم.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

الآيتان جاءتا في اليهود والنصارى الملاعين، فهم كفار بنص القرآن وإن ادّعوا أنهم ليسوا كذلك وجاء كفرهم بإيمانهم ببعض الرسل وكفرهم بآخرين، فاليهود آمنوا بأنبيائهم وبالتوراة وكفروا بعيسى وبالإنجيل وبنبينا وما جاء به، والنصارى آمنوا بالإنجيل وعيسى وكفروا بنبينا محمد ﷺ، فجعل تعالى إيمانهم بالبعض والكفر بالبعض كفراً بالجميع والكفر بالرسل كفر بالله عزّ وجل، وكلهم قد هيّأ الله تعالى لهم عذاباً شديداً مصحوباً بالإهانة والخلود في نار جهنم.

وقال جلّ علاه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

لا زال الكلام على اليهود الخبثاء، فأخبر تعالى عنهم هنا أنه حرّم عليهم أنواع الطيبات وقد كانت مباحة لهم وذلك بسبب ما ارتكبوه من الجرائم وكبار الذنوب كالظلم والاعتداء، ومنعهم كثيراً من الناس عن

الدخول في دين الله الحق، وتعاطيهم الربا، وأكلهم أموال الناس بغير حق كالرشوة والغش والخداع وغير ذلك.

وقد أعدّ الله تعالى لمن كفر منهم ومات عليه العذاب الأليم الموجع...

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وأيضاً فاليهود الذين جمعوا بين الكفر السافر وظلم أنفسهم بكثرة المعاصي والذنوب العظام لن يعفو الله عنهم ولن يدلهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم وهم في جهنم خالدون فيها أبد الآبدين.

* * *

❊ ومن سورة المائدة

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

في الآية الكريمة أمر من الله تعالى لعباده بمكارم الأخلاق والتعاون عليها، والنهي عن مساوىء الأخلاق والمشاركة فيها. وهذا شيء متفق عليه بين جميع الملل وذوي العقول السليمة.

وفي الآية الكريمة قاعدتان عظيمتان من قواعد الدين يدخل تحتها كثير من جزئيات الدين فمَن أهملهما ولم يعمل بمقتضاهما عاقبه الله تعالى بعذابه في نار جهنم، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

فمَن كفر بالله وكذّب بآياته التشريعية والكونية وتمرّد على الله وعلى رسله وعلى دينه كان صاحب الجحيم وعذابه، الخالد فيه.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾.

هذه الآية تُعرف بآية الحرابة، نزلت في قوم قتلوا وأفسدوا وكفروا فحكم الله فيهم بحكمه العدل بما ذكر وكان ذلك لهم في الدنيا ذل وفضيحة، ولهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يطاق، فكل من فعل فعلهم وسلك سبيلهم كان حكمه ما ذكر في الآية، وتفصيل ذلك في كتب الأحكام.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۚ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾.

ومعناه: لو فرض أن لكل كافر يوم القيامة جميع ما في الأرض من أموال وخيرات وأضعاف أضعافه معه، وأراد أن يفتدي به نفسه من عذاب الله ما قبله الله تعالى منه بل له عذاب مؤلم موجع، فالكفار قد يحاولون الخروج من النار ولكنهم ليسوا بخارجين منها بل لهم عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر عنهم فيه أبداً.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

جاءت الآية الكريمة مشيرة إلى ما سلف من الكلام على اليهود وصفاتهم القذرة، فأخبر تعالى عنهم بأنه تعالى لا يريد تطهير قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة، وذلك لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم، ولكنه عزّ وجل جعل لهم في الدنيا خزياً وذلاً وفضيحة، ولهم في الآخرة الخلود في نار عظيمة شديدة وهي نار جهنم.

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

جاءت الآية الكريمة تتحدث عن المسيحيين الذين غلوا في عيسى عليه السلام، فمنهم من قال فيه: ابن الله، ومنهم من قال: الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، وكل ذلك ضلال وشرك في الألوهية، ولذلك جاءت الآية تسجل على كل مشرك أن الجنة حرام عليه وأن مصيره ومقره نار جهنم التي لا يجد فيها ناصراً ولا مجيراً.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

فالذين جحدوا وحدانية الله وأشركوا معه غيره وضمُّوا إلى ذلك إنكار آيات الله التي جاء بها رسول الإسلام ﷺ، فهم أهل الجحيم وسكان نار جهنم وأصحابها الذين لا ينفكون عنها أبداً.

* * *

ومن سورة الأنعام

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت الآيات الكريمات تتحدث عن المشركين فأخبر عنهم سبحانه بمآلهم ومصيرهم في الآخرة وما يصدر منهم، فعندما يوقفون على النار ويعرضون عليها يتمنون الرجعة للدنيا ليؤمنوا بالله وبآياته لكن الله عزّ وجل العليم بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر أخبر عنهم بأنهم كاذبون فيما ادّعوا بل لو ردهم وهو محال لعادوا لما كانوا عليه، فلذلك ليس لهم عند عرضهم على الله واعترافهم بالحق إلا عذاب جهنم وحريقها بسبب كفرهم وإنكارهم البعث.

وقال جلّ علاه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بترك أولئك الكفرة المتمردين الذين أنكروا ما جاء به وجعلوا الدين الحق الذي كان ينبغي لهم أن يحترموه ويعظّموه لعباً ولهواً باستهزائهم به وخدعتهم هذه الحياة الزائفة، وذكر بالقرآن عموم الناس مخافة أن تُسْلَمَ نفس للهلاك بسبب سوء عملها ولا يكون لها يوم القيامة ناصر ولا شفيع وأن تعط تلك النفس كل فدية تفتدي بها نفسها لا يقبل منها أولئك الكفرة الفجرة هم الذين أُبْسِلُوا وأُسْلِمُوا لعذاب الله بسبب ما كسبوا من أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة فلهؤلاء الضالين شراب من ماء بلغ النهاية في الغليان يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ولهم مع ذلك عذاب بنار موجعة تشتعل في أبدانهم أبد الآبدين.

وقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

جاءت الآية تبين مصير أولئك الكفرة العتاة المستكبرين الماكرين المتقدمين من كفار قريش وأنهم سينالهم يوم القيامة هوانٌ وذلٌ جراء طلبهم العز والرياسة والكرامة في الدنيا، مضافاً إلى العذاب الشديد في نار جهنم الذي سيصحبهم بلا انقطاع ولا فتور.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

يخبر تعالى بأنه سيجمع ليوم القيامة الثقلين من الإنس والجن فينادي الجن موبخاً لهم: إنكم استكثرتم من إضلال الناس وإغوائهم فيقول أصحابهم من الإنس: إننا وإياهم قد استمتعنا ببعضنا وبلغنا إلى الموت والقبور ووافينا الحساب، فيقال لهم: النار موضع إقامتكم ومقام سكنكم

دائمين فيها إلا إذا شاء الله أن يبدلكم إلى عذاب آخر كالزمهرير والبرد.

وقال عزّ شأنه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۚ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ممن كذب بآيات الله وجحدها وأعرض عنها وصرف الناس عن الإيمان بها فسنجازي هؤلاء الظلمة الكفرة الفجرة الذين جمعوا بين التكذيب والصد بالعقاب والعذاب الأليم بسبب إعراضهم وصرفهم الناس عن آيات الله تعالى ودينه.

* * *

❊ ومن سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

الكلام هنا مع إبليس اللعين الذي أقسم لله عزّ وجل بأنه سيغوي بني آدم وأنه سيأتيهم من جهاتهم الأربع، فقال الله عزّ وجل له: «**أخرج من الجنة معيباً مطروداً من رحمتي، ولأملأن جهنم منك وممن تبع طريقك من بنيك وبني آدم، فأنت ومن تبعك هم أهلها وسكانها وأصحابها فطيبوا نفساً بذلك**».

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فمَن كذّب بآيات الله واستكبر عن الإيمان به وبما جاءت به الرسل فأولئك هم أهل النار الدائمون فيها.

وقال جلّ جلاله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

هذا خطاب من الله عزّ وجل للمكذبين بآياته يقول لهم يوم القيامة:

ادخلوا نار جهنم أنتم ومن تقدم من أمم أمثالكم من الإنس والجن، فيدخلون جهنم، وكلما دخلت أمة لعنت أختها، ثم تدعو الأخيرة على الأولى بتضعيف العذاب عليها فيجابون لكل منكم ضعف، فيقول القادة للأتباع على وجه التشفي: فذوقوا العذاب الأليم بسبب إجرامكم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

معناه: أن المكذبين بآيات الله وكتبه ورسله المستكبرين لا تفتح لهم أبواب السماء كما تفتح للمؤمنين ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل مع ضخامته في ثقب الإبرة وذلك مستحيل، فهكذا يجزي الله أهل الإجرام من الكفرة والطغاة لهم يوم القيامة في جهنم فراش من نار، ومن فوقهم أغطية من نار كذلك، فكذلك يجزي الله كل ظالم تعدّى حدود الله تعالى.

وقال عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ...﴾ الآية.

معناه: أنه تعالى خلق لجهنم وسكناها كثيراً من بني الجن وبني الإنس، فهم سكانها وأهلها قد سبق بذلك علم الله وقدره. وقال تعالى وقد أخذ قبضتين من خلقه: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي**».

* * *

❋ ومن سورة الأنفال

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

سياق الكلام جاء في أهل بدر وما نزل بالكفار من التقتيل والانهزام والأسر.

فالإشارة بقوله: ذلك ـ أي العذاب الذي نزل بهم ببدر ـ كان بسبب مخالفتهم وعصيانهم لله ولرسوله ﷺ، فليذوقوا ذلك ووراءهم في الآخرة عذابٌ أدهى وأمَر وهو عذاب النار.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة بعد نهي المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وأخبر تعالى بأن من تولى وانهزم بلا ضرورة ولا حاجة، فقد رجع بغضب من الله، وأنه سيكون مقره ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم، وبئس المرجع والمآل.

وهذا وعيد شديد للمنهزمين أمام مقاتلي الكفار. وقد عدّ ذلك من الموبقات.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

معناه: أن الذين كفروا وماتوا عليه سيُحشرون ويُجمعون إلى جهنم، وأن الله عزّ وجل سيميز بين الطيبين وهم المؤمنون، وبين الخبثاء وهم الكفار، وسيجعل هؤلاء كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ويقذف بهم في نار جهنم؛ أولئك الذين خسروا أنفسهم وأموالهم فأصبحوا لا دنيا ولا آخرة.

* * *

❋ ومن سورة التوبة

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

الإشارة في الآية إلى المشركين وأن أعمالهم باطلة لا تُقبل منهم ومآلهم نار الخلد لا يخرجون منها ولا هم يموتون.

وقال عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا مآل مانعي الزكاة وهو أن ينقلب مال صاحبه صفائح من نار فيعذَّب بها بحيث يكوى بها جنبه وظهره وجبينه ويقال له ولكل مانع زكاته: هذا ما كنتم تكنزون من الأموال فذوقوا عذابه.

وإذا كان هذا مآل مانعي الزكاة وهم موحدون فما بالك بمن هو جاحد كافر؟

وقال عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

جاءت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ كقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصدق بكل خبرٍ سمعه، وإذاية رسول الله ﷺ بأي نوع كانت؛ كفر بلا نزاع، وصاحب ذلك ملعون بلعنة الله كما يأتي، ومآله العذاب الأليم في نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

لا زال الكلام عن المنافقين، يقول تعالى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الخبثاء، أنه من يعادي الله، ويخالف الله ورسوله، فقد حق عليه دخول جهنم وخلوده في عذابها.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

ومعناه أنه تعالى وعد المنافقين والكفار بذكورهم وإناثهم دخول نار جهنم ماكثين فيها، وهي كافيتهم في العذاب، إذ ليس هناك عذاب يعادلها، وعذابهم فيها مقيم دائم لا ينقطع.

وقال جلّ علاه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

هذا أمر من الله عزّ وجل لنبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف للأولين وباللسان للآخرين، كما أمره تعالى أن يشدد عليهم بالقتال والإرعاب مع ما ينتظرهم من عذاب جهنم وبئس المصير.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا نوع آخر من المنافقين كانوا يعيبون المتطوعين في الصدقات من المؤمنين ويهزؤون منهم فسيجازيهم الله تعالى على سخريتهم، وقد أعدّ لهم عذاباً موجعاً وهو عذاب الآخرة المقيم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

تخلّف أقوام من المنافقين عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك مع ادعائهم الإيمان لكن بعضهم جاء يعتذر والبعض الآخر لم يخرجوا ولم يعتذروا وسيصيب جميعهم عذاب موجع وهو عذاب نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

عندما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك جاءه المنافقون المتخلفون يعتذرون إليه بالأعذار الكاذبة ويحلفون له على ذلك ليصفح عنهم، فأمره تعالى أن يُعرض عنهم ويكل أمرهم إليه تعالى، فإنهم قوم أقذار خبثاء البواطن فمأواهم ومصيرهم نار جهنم فهي مسكنهم ومثواهم.

وقال جلّ جلاله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ ولمن كان معه من أصحابه: ممن حولكم بالمدينة منافقون من سكان البادية، ومن سكان المدينة منافقون آخرون،

لجُّوا في النفاق واستمروا عليه لا تعلمهم يا نبيي لمهارتهم في تصرفاتهم في النفاق، ولكننا نحن نعلمهم وسنخبرك عن أحوالهم وصفاتهم وسنعذبهم مرتين في الدنيا وفي القبر، ثم في الآخرة يردُّون إلى عذاب عظيم وهو عذاب النار الذي أعدّه الله للكفرة والفجار.

* * *

❊ ومن سورة يونس

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

فالكفار لا شراب لهم يوم القيامة إلا الماء الحميم الذي بلغ النهاية في الغليان، مضافاً إلى ما يصحبهم ويعايشهم في جهنم من العذاب الذي لا نهاية لألمه ووجعه.

وقال جلّ شأنه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

معناه: أن الكفار الذين ينكرون الحياة بعد الموت ولا يتوقعون لقاء الله تعالى ثم هم قانعون بهذه الحياة فآثروا خسيسها على نفيس الآخرة وسكنوا إليها وفرحوا بها وهم في غفلة تامة عن آيات الله المنبثّة في هذا الكون الدالّة على الله تعالى، أولئك الموصوفون بما ذكر مأواهم ومقرهم ومثواهم نار جهنم بسبب ما أتوه من الكفر والإجرام.

وقال عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

إن الكفار الذين كسبوا كفرهم سيجازيهم الله تعالى يوم القيامة على ذلك جزاءً وفاقاً وستغشاهم ذلة وهوان وليس لهم أحدٌ يومئذ يمنعهم من عقاب الله، وسيكونون كأنما أُلبست وجوههم من فرط سواد حريق النار قطعاً من ظلام الليل، فأولئك هم أهل نار جهنم وسكانها الدائمون فيها.

وقال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

عندما يعاين الكفار عذاب الله تعالى يؤمنون فيقال لهم: الآن تؤمنون وقد كنتم قبل ذلك تهزؤون وتسخرون، فالآن ذوقوا العذاب الخالد فما تجزون إلا بما كنتم تأتونه من إصراركم على الكفر والجحود وأنواع الإجرام.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

معناه: لو فرض أن لكل نفس ظالمة بكفرها وإجرامها ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة لدفعته فدية لها من عذاب الله يوم القيامة عندما يشاهدون العذاب وآلامه ويتحسّرون ويندمون ويُخفون ذلك.

وقال سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

إن الكذّابين على الله بنسبة الشريك لله والكفر به تعالى لا يفوزون أبداً فلهم متاع ضئيل في الدنيا يتمتعون به أياماً معدودات، ثم يكون معادهم ورجوعهم إلى الله فيذيقهم العذاب الشديد الموجع في نار جهنم بسبب كفرهم.

* * *

❋ ومن سورة هود

قال عزّ من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾.

معنى الآيتين الكريمتين: من كان همه الدنيا ونضارتها والتمتع بها فقط لأنه لا يؤمن بالآخرة ولا يعمل لها، يوفِ الله إليه أجر عمله الصالح في

الدنيا، فيُصِحُّ جسمه ويعطيه الأمن ويُغدق عليه النِعَمَ وينصره على عدوه ولا ينقص شيئاً من أجر عمله، لكن هؤلاء الذين ليس لهم هدف إلا الدنيا ليس لهم في الدار الآخرة إلا عذاب النار الخالد، وبطل ما كانوا يعملونه من صدقة وصلة وإحسان.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله ونسب إليه ما لم يأتِ به كتاب، فأولئك سيُعرضون على الله تعالى يوم القيامة وتشهد عليهم الخلائق ويُشَهِّرون بهم فضيحة لهم، فهم مطرودون من رحمة الله لأنهم جمعوا بين الكذب على الله والكفر بالآخرة وصد الناس عن سبيل الله، فهؤلاء سيضاعف لهم العذاب لجمعهم بين أنواع من الإجرام فلا ناصر لهم يومئذ ولا مانع يمنعهم من عذاب الله الخالد.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

معناه: ليس أمر فرعون وما كان يدعو إليه بسديد، فليس فيه رشد ولا هدى وإنما هو جهل وسفاهة وضلال، وبما أنه كان إمام الفراعنة والطغاة العتاة وغرّته نفسه حتى ادّعى الربوبية والألوهية، فإنه سيكون يوم القيامة أمام قومه يقدُمهم إلى النار فأدخلهم إياها فبئس المدخل المدخول جهنم. وألحقهم الله فوق العذاب الطرد في الدنيا والآخرة فبئس العون المعان والعطاء المعطى لهم وهي اللعنة في الدارين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

معناه: إن الذين سبقت لهم من الله الشقاوة فهم مستقرون في نار

جهنم وعذابها، لهم فيها زفير - وهو إخراج النَّفَس بشدة - وشهيق - وهو رد النَّفَس أيضاً بشدة -.

قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق.

وهم في جهنم دائمون ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله من إخراج عصاة الموحدين فإنهم لا يخلَّدون في النار.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: لا تميلوا إلى ولاة الظلمة من الكفرة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتصاحبونهم أو تزورونهم وتترددون إليهم مع عدم الإنكار عليهم فتصيبكم النار في الدنيا بالقطيعة عن الله وفي الآخرة بعذاب جهنم، وإذا كان الركون إلى الظلَمة يوجب النار فكيف بمَن هو ظالم؟ نعوذ بالله من حال أهل النار.

وقال جلّ علاه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: تمّ أمر الله ومضى قضاؤه أنه تعالى سيملأ جهنم من أتباع إبليس وجنده من الإنس والجن فهم سكانها وأصحابها الذين خلقوا لها وخلقت لهم.

* * *

❁ ومن سورة الرعد

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

معناه: وإن تعجب أيها الإنسان فليس شيء هناك أعجب من إنكار

الكفار البعث بعد الموت، فأولئك هم الجاحدون المعجزون قدرة الله تعالى، وأولئك سيُغَلُّون يوم القيامة بالسلاسل في أعناقهم مربوطة مع أيديهم، وأولئك هم أهل النار الماكثون فيها لا يموتون ولا يخرجون منها.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

معناه: إن الذين لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وأصرُّوا على كفرهم حتى الموت لو كان لهم يوم القيامة جميع ما في الدنيا من الأموال... ومثله معه لبذلوا كل ذلك فداء لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله، أولئك لهم الحساب السيىء العسير ويكون مآلهم ومصيرهم جهنم وعذابها وبئست الفراش هي لهم.

وقال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾.

إن الشيطان اللعين زين للذين كفروا ضلالهم واتخاذهم مع الله الشركاء وصدهم عن طريق الله فلهم عذاب مؤلم في الدنيا بمحن الحياة، ولعذاب الدار الآخرة في نار جهنم أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا وليس لهم من عذاب الله من مانع يحميهم منه.

* * *

❋ ومن سورة إبراهيم

وقال عزّ وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾.

أي: خسر وهلك كل متجبر معاند للحق، وأمامه جهنم يُعذَّب فيها

حتى إذا عطش واستغاث سُقي من صديد وقَيح ودم ما يسيل من أهل النار يبتلعه مرة بعد أخرى لمرارته ولا يكاد يستسيغه لقبحه ونتنه وحرارته، وتأتيه أسباب الموت، وأنى له الموت ومن بين يديه عذاب أغلظ من سابقه كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب أيها السامع إلى أولئك الفجرة الذين غيّروا نعمة الله تعالى، فبدل أن يشكروا الله بالإيمان به وطاعة رسوله ﷺ كفروا وتمرّدوا فأنزلوا قومهم دار الهلاك والخسارة بكفرهم وطغيانهم وهي جهنم يدخلونها ويذوقون سعيرها وبئست المستقر هي لهم.

ذكر المفسرون أن المراد بهؤلاء هم كفار قريش من سكان الحرم أسكنهم الله حرمه الآمن وجعل عيشهم رغداً وبعث فيهم خير البشر ﷺ فأصرُّوا على كفرهم وجعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادة الله فقيل لهم: استمتعوا بنعيم الدنيا الزائل فإن مصيركم ومرجعكم إلى عذاب جهنم وحريقها.

وقال جلّ علاه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

إذا قامت القيامة وخرج الخلائق جميعهم وعرضوا على الله فعندئذ تشاهد الكفرة الفجرة وأهل الإجرام مشدودين مع شياطينهم بالأصفاد في أرجلهم والأغلال في أعناقهم مع أيديهم وتكون ملابسهم التي يرتدونها من جنس القطران الذي يسرع إليه اشتعال النار وتعلو النار وجوههم وتحرقها ذلك ليجزي الله تعالى كل نفس ما كسبت في الدنيا.

* * *

ومن سورة الحِجْر

قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

عندما يعاين الكفار النار وعذابها وسعادة المؤمنين وفرحتهم يتمنون أن لو كانوا في الدنيا مسلمين ليفوزوا بما أعدّ الله تعالى للمؤمنين، ولكن هيهات هيهات.

فليُتْرَكوا الآن يأكلون ويتمتعون بنعيم الدنيا وليلتهون بالآمال الباطلة فسوف يعلمون ماذا يحل بهم وإلى ماذا يكون مصيرهم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة تتحدث عن قصة إبليس وقسَمه لله تعالى على أنه سيغوي جميع الناس ويضلهم عن الطريق، فأخبر تعالى بأن جهنم هي موعد إبليس وأتباعه من بنيه وبني آدم وأنه جعل لها سبعة أبواب، لكل جماعة من أتباع إبليس باب معيّن معلوم يدخلونها منه.

* * *

ومن سورة النحل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الآيات تتحدث عن المشركين المستكبرين الذين ردُّوا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأنكروا ما جاؤوا به واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وكان منهم كفار قريش، فإذا كان يوم القيامة وشاهدوا الأهوال استسلموا وكذبوا على الله بأنهم لم يكونوا مشركين.

وقال أهل العلم الربانيون: إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وبرسله ويقال لهم ادخلوا مذمومين مطرودين نار جهنم دائمين فيها فبئست جهنم مقراً ومسكناً للمتكبرين عن طاعة الله وطاعة رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يقول تعالى عندما يشاهد الكفرة الفجرة: العذابَ المُعدَّ لهم ويذوقونه لا يفتر عنهم لمحة ولا هم يؤخرون ويمهلون إلى وقت ما بل عذابهم مستمر دائم.

وقال جلّ علاه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

معناه: أن الذين كفروا وجحدوا الحق وعاندوا وضموا إلى ذلك منع الناس عن اتباع الحق سيضاعف لهم العذاب لجمعهم بين الكفر وإضلال الناس وإفسادهم في الأرض بنشر الكفر والإجرام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

جاءت الآيات الكريمات بوعيد مآل المرتد الذي آمن وعرف الحق ثم كفر بعد ذلك منشرحاً صدره للكفر، وآثر الدنيا على الآخرة فهذا وأمثاله عليهم غضب من الله وعذاب عظيم وهو عذاب حريق النار وأهوالها.

نعم من كفر مُكْرهاً غير منشرح له وقلبه مملوءاً إيماناً فهذا لا حرج عليه بل هو مثاب ومآله الجنان وحسن المآب، كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما حيث نطق بكلمة الكفر تحت التعذيب، ففيه نزلت الآية.

وقال تعالى جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

الآية تتحدث عن الذين يكذبون على الله بنسبة التحليل والتحريم إليه، فهؤلاء لا يظفرون بمطالبهم فهم يتمتعون في الدنيا أياماً فانية، ثم يكون مآلهم الخسران والعذاب الموجع وهو نار جهنم وأهوالها.

* * *

❁ ومن سورة الإسراء

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

الآية جاءت عقب الكلام على إفساد اليهود المرة بعد المرة، ثم ختم ذلك بهذه الآية الكريمة التي توعدهم بأن الله جعل لهم جهنم محبساً وسجناً لا يستطيعون الانفلات منها أبد الآبدين جزاء إفسادهم وكثرة إجرامهم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

معناه: إن الذين ينكرون الحياة بعد الموت ولا يعتقدون البعث والحساب والجنة والنار قد أعدّ الله تعالى لهم عذاباً مؤلماً وهو نار جهنم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: من كان هدفه في هذه الحياة هو التمتع بنعيم الدنيا وزينتها وليس له هَم في الآخرة، سأعجل له فيها ما أريد ثم أجعل له جهنم يدخلها يوم القيامة مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله تعالى.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

لا تشرك بالله أيها الإنسان مع الله إلهاً غيره من وثن أو بشر أو شجر... تعبده مع الله وتعطيه وتنسب إليه ما ينسب لله فيكون مآلك الإلقاء في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق وتكون مطروداً من رحمة الله تعالى.

وقال عزّ من قائل: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

لما أقسم الشيطان لعنه الله لربه: لئن أنظرتني إلى يوم القيامة لأَحْتَنِكَنَّ وأستأصلن ذرية آدم بالإغواء والإضلال... إلا قليلاً. قال الله تعالى له: اذهب فقد أنظرتك وابذل جهدك فيهم، فمَن أطاعك منهم واتبع طريقك من بني آدم فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم جزاءً كاملاً.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

يقول تعالى: سنحشر يوم القيامة الكفار فتسحبهم الزبانية من أرجلهم ويُجرُّون على وجوههم حتى يلقوا في جهنم فهي مأواهم ومصيرهم، كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً.

وهذه الآية أيضاً من أشدها على الكفار.

* * *

ومن سورة الكهف

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

يقول عزّ وجل: إنا هيّأنا للظالمين من الكفار والطغاة والمتجبرين ناراً شديدة الحريق واللهب قد أحاط بها وبأهلها سورها العظيم كإحاطة السوار بمعصم اليد، لا يقدرون الانفلات منها فيعذَّبون فيها العذاب الأليم، فإذا عطشوا استغاثوا فيُغاثون بالماء الحار مثل دردي الزيت وعكره قد بلغ النهاية في الغليان فيشوي به وجوههم فإذا قرب منها سقطت جلدتها فبئس شرابهم ذلك وبئست جهنم منزلاً ومقيلاً يسكنونه.

وقال عزّ وجل: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

معناه: أن الكفار وأهل الإجرام عندما يعاينون النار وهي تتغيظ عليهم حنقاً يتيقنون أنهم داخلوها ولم يجدوا عنها معدلاً لأنها محيطة بهم من كل جانب فلا يستطيعون الهرب منها.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

معناه: عندما ينفخ في الصور نفخة القيامة وحشر الناس جميعهم أبرز الله تعالى النار وعرضها على الكافرين وأظهرها لهم بأهوالها إرهاباً لهم وتعذيباً نفسياً وتأتي آية: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

فجزاء جميعهم؛ نار جهنم بسبب كفرهم وسخريتهم بآيات الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

* * *

❋ ومن سورة مريم

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

معناه: أنذر الخلائق وخوّفهم يوم يتحسر المسيئون إذ لم يحسنوا، والمقصرون إذ لم يجتهدوا عندما يقضي الله أمر الثقلين فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقال جلّ ذكره: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

معناه: جاء من بعد أولئك الأصفياء من الأنبياء والصالحين أقوام سوء تركوا الصلوات وأضاعوها، وسلكوا طريق الشهوات فسيلقون يوم القيامة جزاءهم غياً، وهو واد من أودية جهنم، نعوذ بالله من النار وأهلها.

وقال عز ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

يقسم تعالى لنبيه ﷺ بأنه عزّ وجل سيجمع الكفرة الفجرة مع الشياطين الذين أغْوَوْهُم فيُحْشَرُ كل كافر مسلسلاً مع شيطانه، ثم يُحضر تعالى أولئك المجرمين المفترين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع، ثم يأخذ تعالى من كل فرقة وجماعة ارتبطت بملة من منهم كان أعصى لله وأشد تمرداً فيُقذفون في جهنم، فيُقذف ويلقى فيها الأعتى فالأعتى، وهو تعالى أعلم بمن هو أحق بدخول النار والاصطلاء بحرّها وحريقها ومَن يستحق تضعيف العذاب فيبدأ بهم، وما من أحد من الإنس والجن إلا وسيرد النار فيمر عليها المؤمنون بواسطة الصراط ويدخلون الجنة، ويلقى الكفار فيها يؤخذون بالنواصي والأقدام ثم يُقذفون فيها، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾.

جاءت الآية رداً للّعين العاص بن وائل ورداً على مقالته السابقة وهي قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فأخبر تعالى بأنه سيكتب عليه ما يقول ويُدخله نار جهنم ويزيده عذاباً فوق عذاب ويطيله عليه ويضاعفه أضعافاً كثيرة ويمُدُّه عليه.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

معناه: سيُساق المجرمون من الكفرة والمتمردين إلى جهنم كما تساق البهائم مُشاةً عِطاشاً، شبّههم بالإبل العطاش التي تساق إلى موردها.

* * *

ومن سورة طه

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

معناه: إن كل من يلقى ربه كافراً فاجراً كثير الإجرام فله جهنم مأوى له لا يموت فيها فيستريح وينقضي عذابه ولا يحيى حياة طيبة هنيئة.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

الإشارة إلى ما مضى من ذكر المعرض عن ذكر الله وحشره أعمى وأن الله تعالى سينساه في جهنم، فقال خاتماً لما سبق، ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف في الكفر والطغيان ولم يؤمن بآيات الله وما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولعذاب الآخرة في نار جهنم أعظم وأفظع وأدوم.

* * *

ومن سورة الأنبياء

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

معنى الآيات: إنكم يا معشر المشركين وما عبدتم من دون الله من إنس وجن وحجر وشجر ووثن جميعكم حطب جهنم ووقودها التي تشتعل به، كلكم داخلوها مع الأصنام ولو كانت تلك الأصنام آلهة حقيقة ما دخلوا جهنم، فالكل فيها دائمون العابدون والمعبودون لهؤلاء الكفرة داخل النار زفير - وهو صوت النفَس الخارج من قلب المغموم - كأنين المحزون والمكلوم، وهم في جهنم لا يسمعون شيئاً لأنهم يُحشرون إليها صمًا بكماً عمياً.

* * *

❋ ومن سورة الحج

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين كفروا بالله وبما جاءت به رسل الله عليهم السلام ستُخاط وتسوَّى لهم ملابس من نار ويُصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ويُذاب به ما في أحشائهم مع الجلود، وسيأتي: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ولهم مع ذلك مطارق من الحديد يضربون بها وكلما حاولوا الخروج من النار ردُّوا إلى أماكنهم بواسطة المقامع التي بأيدي الزبانية ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم تكذبون به.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

معناه: الذين كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين أولئك هم سكان النار أهل السعير وأصحابها الذين لا يفارقونها بحال.

وقال جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: الذين جحدوا بآياتنا وكذبوا رسلنا لهم يوم القيامة، العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: من زادت سيئاته على حسناته، فأولئك هم الأشقياء الذين خسروا

سعادتهم بتدنيسها بالكفر والجرائم، فهم في جهنم وعذابها كالحون، عابسون، مشوهو الوجوه.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قد بدت أسنانهم، وتقلصت شفاههم كالرأس المُشَيَّط.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

معناه: إن الكفار داخل جهنم حينما يحيط بهم عذابها، ويذوقون حريقها، ينادون الله تعالى: يا ربنا، إن الشقاوة غلبت علينا، وأننا كنا ضالين عن الطريق، فأخرجنا منها، وردنا إلى الدنيا، فإن رجعنا إلى ما كنا فيه من الكفر والمعاصي، فإننا ظالمون، فأجابهم الله عز وجل مؤيساً إياهم: انزجروا وذلوا في النار ولا تعودوا تكلموني في رفع العذاب والخروج من جهنم.

* * *

❋ ومن سورة النور

قال عز علاه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

جاء هذا الوعيد في المنافق اللعين ابن سلول الذي كان أشاع أمر الإفك والبهتان الذي رموا به السيدة الطاهرة سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، حبيبة رسول الله ﷺ، فهو الذي قد تولى معظمه وأذاعه في الناس، فله يوم القيامة عذاب شديد يناسبه في نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

معناه: إن الفجرة والفسقة والمنافقين الذين يريدون أن ينتشر الفعل القبيح كإشاعة الزنا وغيره، بالقذف في المؤمنين الأطهار لهم عقاب في

الدنيا بالحد إن أقيمت عليهم الحجة، وفي الآخرة بعذاب جهنم وهي أدهى وأدوم.

وقال جل علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ إلخ.

الآية جاءت في قصة الإفك ورمي السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها بالفاحشة، وهي عامة في قذف كل مؤمنة تقية القلب عفيفة عن الزنا طاهرة الذيل، فالقذف من كبائر الذنوب في مطلق المؤمنين والمؤمنات، أما بالنسبة لقذف زوجات النبي ﷺ فأمره أعظم وأفظع، ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة تسجل على أولئك القاذفين اللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله في الدنيا والآخرة مع ما ادخر لهم من العذاب الهائل الذي لا يكاد يوصف وذلك سيكون في ذلك اليوم الرهيب يوم تشهد عليهم جوارحهم وجلودهم بما كانوا يكسبون، نعوذ بالله من النار وأهلها.

* * *

❋ ومن سورة الفرقان

وقال جلّ علاه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين المنكرين للحياة بعد الموت والكافرين بقيام الساعة وما يتبعها من حشر وحساب وجنات ونار وأنه تعالى قد أعدّ وهيأ لمن كذب بذلك ناراً شديدة تُسَعَّر عليهم وتتّقد إذا رأتهم جهنم من مسافة بعيدة سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار ـ وهو الزفير ـ.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الرجل ليُجَرُّ إلى النار فتشهق إليه شهوق البغلة إلى الشعير وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وإذا أُلقوا في مكان ضيق من جهنم مُصَفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل هنالك يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك فيقال لهم: لا تدعوا بذلك على أنفسكم مرة واحدة ولكن ادعوا مرات ومرات، فلا خلاص لكم من عذاب الله وما أنتم فيه.

وقال جلّ من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الكفار الذين كانوا ولا يزالون يسخرون بآيات الله ويهزؤون بالدعاة إليه عزّ وجل سيُحشرون ويُساقون إلى نار جهنم مسحوبين على وجوههم وأولئك هم شر منزلاً ومصيراً وأضل طريقاً ودِيناً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

معناه: إن من ادعى مع الله إلهاً آخر وعبده من دون الله وأسرف في الإجرام فسفك الدماء وأتى الفواحش سيجد في الآخرة النكال والعقوبة بحيث يتضاعف عقابه ويغلظ عليه بسبب شركه وكثرة إجرامه ويخلَّد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الآبدين، إلا مَن أناب وآمن فأولئك سوف يغفر الله لهم.

* * *

ومن سورة الشعراء

وقال جلّ ذكره: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعناه: إن الله تعالى سيُظهر النار للمجرمين الضالّين إرهاباً لهم

فيشاهدونها عياناً ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً لهم: أين شركاؤكم فهل يستطيعون إنقاذكم أو يدفعون العذاب عن أنفسهم؟ فرُموا وطُرح بعضهم على بعض منكبّين على وجوههم الأصنام وعائدوها وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن.

* * *

❊ ومن سورة النمل

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

معناه: إن المنكرين للبعث وما في الآخرة حسّنّا لهم أعمالهم السيئة وخلقنا في قلوبهم العلم بما فيها من المنافع واللذات، فهم في ضلال أعمالهم حيارى يترددون فلا يميزون بين الحسَن والقبيح، فأولئك لهم العذاب السيىء وهم في الدار الآخرة خاسرون لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾.

أي: من جاء يوم القيامة مشركاً كافراً أو موحّداً ليس له إلا السيئات كُبَّ على وجهه في جهنم منكوساً، ويقال له توبيخاً: لا تُجزى إلا بما كنتَ تعمل في الدنيا من السيئات.

* * *

❊ ومن سورة القصص

قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾.

جاءت الآية الكريمة تخبر عن فرعون وقومه الطغاة وما حصل لهم من

الانتقام في الدنيا، وأنه تعالى جعلهم في هذه الحياة قادة وزعماء في الكفر يدعون إلى الطريق الموصِل إلى النار ويقتدي بهم أهل الضلال، وجعل تعالى اللعنة تلحقهم في الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين، أما في الآخرة فجعلهم من المُبْعَدين المطرودين من رحمة الله عزّ وجل.

* * *

ومن سورة العنكبوت

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: الذين كفروا بالقرآن والبعث وما بعده من الحساب والجزاء فسييأسون من رحمة الله عند مشاهدتهم العذاب يوم القيامة وأولئك لهم عذاب موجع مؤلم وهو عذاب نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

جاءت الآية في قصة خليل الرحمٰن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حيث أخبر قومه بأنهم يوم القيامة سيلعن بعضهم بعضاً وتنقلب صداقتهم عداوة ويتبرأ القادة من الاتباع ويكون مآلهم ومقرهم نار جهنم وليس لهم مانع يمنعهم منها ولا ناصر ينصرهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

معناه: كيف يستعجل هؤلاء المشركون نزول العذاب، والحال أن جهنم محيطة يوم القيامة بكل كافر لا مفر لهم منها، وذلك يوم يجللهم الله تعالى بالعذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ومن جميع جهاتهم ويقول الله عزّ وجل لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تأتونه في الدنيا من الإجرام وسيىء الأعمال.

* * *

❊ ومن سورة الروم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

معناه: الذين كفروا بالله وأشركوا معه غيره وكذّبوا بكتب الله وشرائعه وأنكروا البعث بعد الموت ولقاء الله لمحاسبتهم وجزائهم، فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة لقمان

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

معناه: من الناس من يشتري ما يُلهي عن طاعة الله ويصد عن سبيله مما لا خير فيه ولا فائدة، وهو مع ذلك يتخذ آيات الله سخرية واستهزاء فهؤلاء لهم عذاب شديد وهوان وذلة، وإذا قرئت عليه آيات القرآن الكريم أعرض وولّى متكبراً كأن في أذنيه ثقلاً فأنذره يا نبيي بعذاب مؤلم مفرط في الشدة والإيلام.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إنها نزلت في الغناء.

جاء ذلك عنه بسند صحيح.

وقال جلّ علاه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

معناه: إننا سنبقي هؤلاء المشركين في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ثم نُلجئهم في الأخرى إلى عذاب شديد فظيع شاق على النفوس وهو نار جهنم وأهوالها.

❊ ❊ ❊

ومن سورة السجدة

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى: وجب وثبت قولي بعذاب المجرمين وأنني سأملأ جهنم بالكفار والعصاة والمتمردين من الجن والإنس، وسيقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: فذوقوا بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات. هذا العذاب المخزي الموجع إنا نترككم اليوم في العذاب بسبب كفركم وتكذيبكم فذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: وأما أولئك الذين خرجوا عن طاعة الله بكفرهم وتمرُّدهم فملجؤهم ومصيرهم نار جهنم كلما حاولوا الانفلات منها عندما تحرقهم وتصيِّرهم فحماً، أعادهم فيها الزبانية وضربوهم بمقامع الحديد، وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً لهم: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزؤون منه.

* * *

ومن سورة الأحزاب

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

معناه: إن الكفار والمشركين الذين يؤذون الله بنسبة الشريك إليه والولد والزوجة، ويؤذون رسوله بتكذيبه في رسالته والطعن في دعوته والاستهزاء بما يدعو إليه وبما جاء به، هؤلاء طردهم الله في الدنيا والآخرة

من رحمته وأحلّ عليهم سخطه وغضبه وهيّأ لهم في جهنم عذاباً شديداً بالغ الغاية في الإهانة والتحقير.

وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الله طرد الكافرين من رحمته فلا مطمع لهم فيها وهيّأ لهم في جهنم ناراً مسعرة شديدة الاندلاع مقيمين فيها لا يجدون لهم من ينقذهم منها، وذلك يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة في النار كاللحم الذي يشوى بالنار، وعند ذلك يندمون ويقولون تحسُّراً: يا ليتنا كنا أطعنا الله فآمنا به وحده وأطعنا الرسول فصدقناه واتبعناه فيما جاء به.

* * *

❊ ومن سورة سبأ

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

معناه: الذين بذلوا جهدهم وجدُّوا لإبطال القرآن الكريم مغالبين رسولنا يظنون أنهم يُعجزونه بشبهاتهم حول رسالته والقرآن الكريم، فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ أنواعه شديد الإيلام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

معناه: عندما يرى الكفار العذاب يوم القيامة ويتحسّرون ندامة سيجعل الله تعالى السلاسل والأغلال في رقابهم زيادة على تعذيبهم ولا يجزون إلا بما عملوه من كفر وإجرام.

وقال جلّ علاه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

فيوم القيامة يقال للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله والإشراك به: ذوقوا عذاب النار الكبرى وحريقها التي طالما كذّبتم بها وأنكرتموها.

* * *

❋ ومن سورة فاطر

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يحذّرنا الله عزّ وجل من الشيطان ومخادعته، وأخبر بأنه عدوٌّ لدود لنا وأنه يجب علينا الحذر منه، فغرضه من بني آدم أن يقذفهم في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود لا غرض له إلا هذا، فدأبه الدعاء إلى طرق جهنم بوساوسه ليل نهار لا يفتر عن ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي: إن الذين يمكرون المكرات السيئات وهو الشرك بالله، وصد الناس عن سبيل الله، وإرادة قريش الشر برسول الله ﷺ، لهؤلاء في جهنم عذابٌ شديد لا يتصور شدة وجعه وألمه ومكر أولئك المجرمين واحتيالهم هالك باطل.

* * *

❋ ومن سورة يّس

قال جلّ من قائل: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾.

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين عبدوا الشيطان فأطاعوه فيما دعاهم إليه وزيّنه لهم من عبادة غير الله، فيقول تعالى لهم وهم على شفير جهنم: هذه جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها ادخلوها اليوم وذوقوا حرارتها وحريقها وأنواع عذابها فاليوم ستفتضحون حيث سيُخْتَم على أفواهكم وتشهد عليكم جوارحكم وجلودكم بما اكتسبتم من كفر وإجرام.

* * *

ومن سورة الصافات

وقال جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

عندما يقوم الناس لرب العالمين نادى المجرمون: يا ويلنا وهلاكنا هذا يوم الجزاء والحساب، فتقول لهم الملائكة: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه، فيقول الله لملائكته: اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين واجمعوا معهم أصنامهم ومعبوداتهم، فعرّفوهم طريق الجحيم ووجّهوهم إليها ثم احبسوهم عند الصراط ليسألوا هنالك عن جميع ما قدّموه من كفر وفجور... ثم يقال لهم على سبيل التقريع مع التهكّم: ما شأنكم لا ينصر بعضكم بعضاً

ثم تابع الله تعالى الكلام على هؤلاء إلى أن قال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ

ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول جلّ علاه: مَن الأفضل هل ما أعددتُ لعبادي المؤمنين من النعيم والإكرام والقصور والفواكه وفرش الحرير والتمتُّع بالحور العين وما إلى ذلك من أنواع الكرامة أم من يكون في نار جهنم يطعم شجرة الزقوم التي جعلناها فتنة وابتلاء لأهل الضلال، إن هذه الشجرة تنبت في قعر جهنم ثمرها في القبح والمنظر كأنه رؤوس الشياطين فهؤلاء الكفار لشدة جوعهم سيضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلىء منها بطونهم، ثم إنهم بعدما يغلبهم العطش سيمزجونها لهم بماء الحميم الذي بلغ النهاية في الغليان، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم التي هي مصيرهم.

قال بعض المفسرين: الزقوم والحميم نُزُلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبل دخول النار.

* * *

❊ ومن سورة ص

وقال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفرة الطغاة بأن لهم يوم القيامة شر مرجع وأقبح منقلب، وهو جهنم يدخلونها ويذوقون سعيرها وبئست الفراش جهنم لهم، هذا هو العذاب الموجع فليذوقوه وهو حميم وماء حار وغساق وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الدم والصديد، ولهم عذاب آخر من مثل ما ذكر كالزقوم والزمهرير والسموم، ثم تقول الملائكة للطغاة إذا دخلوا النار هذا فوج وجمع كثيف قد اقتحم معكم النار لا أهلاً ولا مرحباً بهم إنهم داخلو النار وذائقو ما فيها من عذاب وسعير.

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

بعدما أقسم إبليس اللعين بأنه سيغوي بني آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين. أجابه الله تعالى بقوله: أقسم بالحق، ولا أقول إلا الحق، لأملأن جهنم منك وممن أجابك وسلك طريقك وتبع نهجك من بني آدم أجمعين.

* * *

❋ ومن سورة الزمر

وقال جلّ علاه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾.

يخبر تعالى بأن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران، لهم في جهنم ظلل من النار من فوقهم وظلل من تحتهم، بمعنى أن النار ستغشاهم من جميع جوانبهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾، بمعنى: أنه يقص تعالى ذلك لينزجر عباده عن المحارم والمآثم.

وقال جلّ علاه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إذا دخل الكفار جهنم صُفِّدت أيديهم وغُلَّت مع أعناقهم، فإذا واجهتهم النار اتقوها بوجوههم، وقيل لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تكتسبون من الكفر والإجرام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يخبر عزّ وجل عن الكفار عندما يعاينون العذاب بأنه لو فرض أن لهم من المُلك ما في هذه الدنيا وأضعاف أضعافه لقدّموه فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد، ولكنه لا يقبل منهم شيء مما يتمنونه فقد فات الأوان.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه الشريك والولد والزوجة، ستكون وجوههم مظلمة سوداء، ثم قال: أليس في جهنم مقام ومأوى للكفار المستكبرين عن الإيمان وعن طاعة الله ورسوله ﷺ؟ بلى إن لهم مأوى في دار الجحيم.

وقال جلّ جلاله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار وأهل الشقاوة بأنهم سيُساقون إلى جهنم جماعة جماعة، حتى إذا قاربوها فتحت أبوابها في وجوههم إرعاباً لهم وقال لهم خزنة جهنم: ما لكم أتيتم جهنم ألم يأتكم رسل الله يقرؤون عليكم آيات الله ويخوّفونكم هذا اليوم؟ قالوا: بلى ولكننا خالفناهم وكذبناهم لما سبق لنا من الشقاوة، فقيل لهم ادخلوا جهنم ماكثين فيها بلا انقطاع ولا زوال فبئس المثوى مأوى أهل الاستكبار جهنم.

* * *

❋ ومن سورة غافر

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

يعني أن الكفار ستناديهم الملائكة يوم القيامة نداء توبيخ وتقريع: إن بغض الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم حين كنتم تُدْعَون من طَرَف الرسل والدعاة إلى الإيمان وطاعة الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فتكفرون كبراً وعتواً، فقال الكفار حينما عاينوا العذاب والأهوال: يا ربنا أمتَّنا مرتين وأحييتنا مرتين فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب فهل هناك طريق إلى الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟... إلى آخر ما سيقال لهم.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول جلّ شأنه: ونزل بفرعون وجنوده أسوأ العذاب وهو الغرق في البحر في الدنيا والحريق في الآخرة، فهم الآن يُعذَّبون في القبور والبرزخ ويُعرضون على النار صباحاً ومساءً، ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

عندما ييأس الكفار من نصر بعضهم بعضاً وأنهم لا يستطيعون جلب نفع ولا دفع عذاب عنهم يلجأون إلى خزنة جهنم وزبانيتها قائلين: ادعوا الله أن يخفف عنا من العذاب ولو مقدار يوم واحد، فتجيبهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً لهم: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات؟ قالوا: بلى قد جاؤونا ولكننا كذبناهم وكفرنا بهم، فتقول لهم زبانية جهنم: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترىء على ذلك، ومع ذلك فلا أثر لدعائكم وما هو إلا في خسار وتبار.

وقال عزّ وجل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

يعني: فسوف يعلم أولئك المجادلون في آيات الله الذين كذبوا بالكتب

وبما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام حين يدخلون النار وتُربَطُ أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل يُسحبون بذلك في الماء الحار، ثم يوقدون ويحرقون في النار، ثم يقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم دون الله تعالى فنادوهم لينقذوكم مما أنتم فيه، فيجيبون: إنهم غابوا عنا... ثم يقال لهم: ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها فبئست جهنم مقراً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله تعالى.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة فصلت

قال عز وجل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: إن المشركين الذين جمعوا بين الكفر بالآخرة وما فيها ومنعوا زكاة أموالهم، لهم الهلاك والدمار يوم القيامة فسيُعذَّبون على كفرهم وعدم إيمانهم ويزادون فيعذبون على فروع الشريعة كمنعهم الزكاة وتركهم الصلاة والصيام والحج، وغير ذلك من التكاليف الشرعية.

وقال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

معناه: وجبت على المشركين كلمة العذاب وهو القضاء المحتم بشقائهم في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم من الجن والإنس إنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾.

يقول تعالى: فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع وسنجازيهم بشر أعمالهم أسوأ وأقبح الجزاء،

ذلك العذاب الشديد الأقبح هو نار جهنم جزاء المجرمين، لهم فيها دار الإقامة والأبد؛ جزاء لهم على كفرهم بالقرآن واستهزائهم بآيات الله.

وقال جلّ علاه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانِا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يقسم تعالى على أنه ليُعلمن الكافرين بحقيقة أعمالهم وليبصرنهم بإجرامهم وليعذبنهم أشد العذاب وأغلظه وهو الخلود في نار جهنم.

* * *

❁ ومن سورة الشورى

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن أولئك الجاحدين الذين يخاصمون في دين الله ليصدوا الناس عن الإيمان بعدما استجاب الناس له، حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله وعليهم غضب عظيم من الله في الدنيا وعذاب شديد لا يطاق في جهنم.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

يقول تعالى: إن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، لهم عذاب موجع.

ترى أيها الإنسان الكافرين يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء سيئات ما ارتكبوا في الدنيا، والجزاء عليها نازل بهم سواء أخافوا أم لم يخافوا.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

معناه: إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ويتكبرون في الأرض تجبُّراً وفساداً بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال، أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

يقول تعالى: وترى أيها الإنسان الكافرين حينما شاهدوا عذاب جهنم يطلبون الرجعة إلى الدنيا لما يشاهدون من الأهوال فيقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ وتراهم يُعرضون على النار صاغرين أذلاء يسارقون النظر إليها خوفاً وفزعاً منها، ويقول المؤمنون في الجنة عندما عاينوا ما حلّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة هو ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع.

* * *

❋ ومن سورة الزخرف

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

معناه: إن الكفار الراسخين في الإجرام هم في العذاب الشديد في نار جهنم دائمون لا يخفّف عنهم العذاب لحظة وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى: عندما ييأسون من عدم رفع العذاب عنهم أو تخفيفه يلجأون إلى مالك خازن النار: ليمتنا الله تعالى حتى نستريح من العذاب.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فيجيبهم بعد ألف سنة: إنكم ماكثون، أي: مقيمون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره.

* * *

ومن سورة الدخان

قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى بأن طعام الكافر الكثير الإثم هو شجرة الزقوم الخبيثة التي تنبت في أصل الجحيم لا طعام له غيرها، وهي في فظاعتها إذا أكلها تغلي في بطنه كالنحاس المذاب الذي بلغ النهاية في الحرارة مثل غليان الحميم وهو الماء الحار، ويقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجرُّوه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم والنار المتأججة، ثم زيدوه فصبُّوا فوق رأسه من عذاب ذلك الحميم الذي تناهى في الحرارة ويقال له على سبيل التهكُّم والإهانة والاستهزاء: ذُق هذا العذاب فإنك أنت المُعَزَّز المُكَرَّم، إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون به في الدنيا.

* * *

ومن سورة الجاثية

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

يقول عزّ وجل: هلاك ودمار لكل كذّاب مبالغ في اقتراف الآثام يسمع

آيات القرآن الكريم تُقرأ عليه ثم يدوم على كفره وضلاله مستكبراً عن الإيمان كأنه لم يسمعها فبشّره وأنذره بعذاب مؤلم موجع، وإذا بلغه شيء من آياتنا سخر واستهزأ بها فأولئك الكذّابون المستهزؤون لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة، وأمامهم جهنم تنتظرهم ولا ينفعهم ما ملكوا من ثروة وولد ولا ما جعلوا من دون الله من أصنام وأوثان ولهم عذاب فظيع شديد دائم لا يُتصور.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى للمشركين الذين كانوا لا يؤمنون بالساعة ولا يعتقدون الآخرة: اليوم وقد جئتمونا ننساكم في عذاب جهنم مثل ما نسيتم لقاء هذا اليوم فمقركم نار جهنم وليس لكم اليوم ناصر، وذلك بسبب أنكم جعلتم آياتي هزءاً أو سخرية وخدعتكم الدنيا بنضارتها وبهجتها، فاليوم وقد دخلتم سقر لا تخرجون منها أبداً ولا يطلب منكم أن ترضوا الله بالتوبة وطاعته فقد فات الوقت.

* * *

ومن سورة الأحقاف

وقال عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول: وذكّر الناس يا نبيي بما يقع عندما يُكشف الغطاء عن نار جهنم ويُعرض الكفار عليها فيشاهدون أهوالها فيقال لهم: لقد أذهبتم لذائذ الدنيا وتمتعتم بها ولا حظ لكم من ذلك هنا، فاليوم تنالون عذاب الذل والهوان بسبب استكباركم عن الإيمان وفسقكم وارتكابكم الفجور والآثام.

وقال جلّ علاه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى: واذكر يا رسولي لهؤلاء الطغاة الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة وذكّرهم بما يحصل لهم عندما يُعرضون على النار، ويقال لهم: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقاً؟ فيقولون: بلى وعزة ربنا، فيقال لهم: فذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم.

* * *

ومن سورة محمد

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

معناه: إن الكفار مثلهم كمثل الأنعام يأكلون ويشربون ويتمتعون بهذه الحياة ثم تكون نار جهنم مأوى ومقراً لهم.

وقال جلّ شأنه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

التشبيه راجع للآية السابقة في مشارب أهل الجنة، وجاء الاستفهام للإنكار.

ومعناه: لا يستوي من هو في ذلك النعيم ولذيذ الشراب مع من هو مخلّد في جحيم جهنم وسقوا مكان تلك الأشربة اللذيذة ماءً حاراً شديد الغليان فقطّع أحشاءهم.

* * *

من سورة الفتح

قال جلّ علاه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه سيُعذّب أهل النفاق والشرك بذكورهم وإناثهم وأنه غضب عليهم ولعنهم جميعاً وهيأ لهم نار جهنم وبئست مصيرهم ومقرهم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

معناه: إن من كفر بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام فقد أعدّ لهم تعالى ناراً شديدة مستعرة.

* * *

ومن سورة ق

قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى عما يقول للملكين السائق والشهيد يوم القيامة: اقذفا في جهنم كل كافر معاند مبالغ في منع كل حق واجب عليه في ماله ظالم غاشم شاك في الدين الذي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته فاقذفاه في وسط نار الجحيم.

وقال جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله عزّ وجل: هل امتلأت؟ وتقول: هل هناك من زيادة؟ وقد تقدم حديث: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة قدمه فيها فتقول: قط قط**» وهو في الصحيح.

* * *

ومن سورة الطور

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أخبر تعالى بأن عذابه للكافرين واقع وحاصل لا محالة. وذلك بعد فناء الدنيا وقيام الناس لرب العالمين، فهلاك ودمار للمكذبين الخائضين اللاعبين يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً بعنف وشدة.

* * *

❁ ومن سورة القمر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: إن الكفار وأهل الإجرام في تخبُّط في الدنيا وفي نيران مسعرة في الآخرة عندما تجرهم الزبانية على وجوههم إذلالاً لهم ويلقون في جهنم ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم أيها المجرمون.

* * *

❁ ومن سورة الرحمٰن

قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

معناه: إن الكفار وأهل الإجرام يُعرفون يوم القيامة بعلاماتهم، وهي زرقة العيون وسواد الوجوه والكآبة والعبوس، فتأخذ الملائكة بشعور مقدم رؤوسهم وأرجلهم ويقذفونهم في النار، ويقال لهم: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً وهم يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار يطوفون مرة بين النار ومرة بين الحميم وهو الماء الغليان.

* * *

ومن سورة الواقعة

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر عزّ وجل هنا حالة الأشقياء أصحاب الشمال وأنهم سيكونون في وسط جهنم يعذبون بأنواع من العذاب كالسموم وهي ريح النار الحارة التي تهب عليهم، والحميم وهو الماء المغلي والظل من دخان جهنم أسود لا برد فيه ولا حسن المنظر يسر به، واستوجبوا ذلك لإقبالهم في الدنيا على الشهوات والمستلذات وإصرارهم على الذنب العظيم وهو الشرك بالله والكفر به وإنكارهم البعث والحياة بعد الموت.

وسيطعمهم الله عزّ وجل من شجرة الزقوم فيملأون منها بطونهم ويشربون عليها من الحميم شرب الإبل العطاش... فهذا نزلهم وضيافتهم يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

معناه: إن من كان من المكذبين بالله وبما جاءت به رسل الله وكان ضالاً عن الطريق فضيافته يوم القيامة هو ماء الحميم ودخول جهنم وذوقان حرها وحريقها.

* * *

ومن سورة الحديد

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

جاءت الآية خاتمة الحديث عن المنافقين ومشاهدهم يوم القيامة، فأخبر تعالى عنهم بأنهم لا يقبل منهم ولا من الكفار بدل ولا عوض بل مقرهم ومنزلهم نار جهنم فهي مولاهم وسندهم وبئس المرجع نار جهنم.

* * *

❋ ومن سورة المجادلة

قال جل علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يتحدث تعالى هنا عن المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود المغضوب عليهم، فهؤلاء المنافقون ليسوا من المسلمين ولا من اليهود وقد هيأ الله لهم عذاباً شديداً لا يطاق، إنهم جعلوا أيمانهم لكم وقاية لأنفسهم من القتل فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، فلهم بذلك عذاب مهين ذو إهانة ولا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة شيئاً، بل هم أصحاب النار خالدين وماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً.

* * *

❋ ومن سورة الحشر

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

جاء الكلام هنا على يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من ديارهم بضواحي المدينة، فأخبر تعالى عنهم بأن لهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبَّد، ذلك بأنهم خالفوا الله ورسوله، ومن يفعل ذلك فعذاب الله شديد وعقابه أليم.

❋ ومن سورة التغابن

قال جل علاه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

أي: الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا ما جاءت به الرسل من الكتب والشرائع، أولئك هم أهل النار وسكان جهنم ماكثين فيها أبداً وبئست المقر هي.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة التحريم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

يأمر الله عزّ وجل المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وذويهم بالإيمان بالله وطاعة الله ورسوله من نار جهنم التي حطبها حجارة الكبريت والأصنام والناس والجن، وقد كلف بها ملائكة لله تعالى عظام الأجسام غلاظ ليست فيهم رحمة لا يخالفون أمر الله ولا يعصونه أبداً.

وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

يأمر تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار وذلك بقتالهم وجهاد المنافقين بالحجة والبرهان، وأن يشدد عليهم في الخطاب، وأخبر تعالى بأن مستقرهم في الآخرة هي نار جهنم وبئست مستقراً ومصيراً لهم.

❋ ❋ ❋

ومن سورة تبارك

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾.

يخبر تعالى عن مصير من كفر به وأن مآلهم عذاب جهنم المسعرة وبئست المرجع كلما قذفوا في وسطها كما يطرح الحطب في النار سمعوا لجهنم صوتاً منكراً فظيعاً كصوت الحمار تشهق لهم كما يشهق الحمار وهي تغلي بهم من شدة الغضب تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على أعداء الله ورسوله ﷺ، كلما طرح فيها جماعة من الكفرة سألتهم الزبانية: ما حالكم ألم يجئكم رسل ينذرونكم؟ قالوا: بلى ولكننا كذبناهم ورددنا دعوتهم ولو كنا نسمع سماع قبول أو نعقل ونفكر ما كنا ههنا في سعير جهنم... فبُعداً وهلاكاً لهم.

* * *

ومن سورة الحاقة

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧﴾.

يتحدث الله عزّ وجل هنا عن الشقي الذي تناول كتابه بشماله حيث سيقول: يا ليت الموتة الأولى كانت القاطعة لحياتي فلم ينفعني مالي ولا سلطاني وجاهي وعند ذلك يقول الله عزّ وجل لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم فشدُّوه بالأغلال ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة ثم أدخلوه في

سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً فتدخل من دبره وتخرج من حلقه، لأن هذا المجرم لم يكن يعتقد وحدانية الله وعظمته ولا يحث نفسه ولا غيره على إطعام المسكين، فليس له في الآخرة صديق ولا قريب يدفع عنه العذاب، كما أنه ليس له طعام إلا صديد أهل النار الذي يسيل من جراحاتهم لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المصرون على الكفر والفواحش حتى جاءهم الموت.

* * *

❋ ومن سورة المعارج

قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١٢ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٣ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٤ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٦ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٧ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٨ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٩﴾.

يخبر تعالى بأن الكافر والشقي يوم القيامة يتمنى أن لو يفدي نفسه من عذاب الله بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن وزوجة وأخ وعشيرته التي كانت تضمه إليها وبجميع من في الأرض من البشر... ثم ينجو من عذاب الله، ولكن كلا، لينزجر هذا المجرم! بل أمامه جهنم تتلظى نيرانها وتلتهب نزّاعة لجلدة الرأس بشدة حرها تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالله وأعرض عن الإيمان، وتدعو من جمع الأموال واكتنزه في الخزائن والبنوك.

* * *

❋ ومن سورة المزمل

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾.

يقول عزّ وجل: إن عندنا للمكذبين الكافرين في الآخرة قيوداً عظيمة ناراً مستعرة وطعاماً كريهاً غير سائغ يعترض في الحلقوم وهو الزقوم

والضريع وعذاباً مؤلماً وجيعاً زيادة على النكال والأغلال، ويكون ذلك بعد قيام الساعة والعرض على الله.

* * *

ومن سورة المدثر

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت الآيات كسابقتها تتحدث عن اللعين الأثيم الشقي الوليد بن المغيرة الذي أطلق على النبي ﷺ لقب الساحر، وقال: إن ما يقوله سحر يؤثر وليس بكلام الله، فأخبر تعالى بمآله وأنه سيُرهقه صعوداً، أي: سيلجئه إلى عذاب صعب شاق أو يكلف أن يصعدَ صخرة ملساء في جهنم وأنه سيصليه ويدخله جهنم يتلظى حرها لا تبقي على شيء مرت عليه إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الفجار الكفرة إلا أحرقتهم وإنها تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسيرة بعيدة لتُرعبهم وتعذبهم نفسياً، وعليها من ملائكة الله الزبانية تسعة عشر ملكاً يقومون بتعذيب أصحابها غلاظ شداد لا رحمة فيهم كل واحد منهم لا يعلم عظمة جسده من الطول والعرض وما له من القوة والبطش إلا الله تعالى خالقهم.

* * *

ومن سورة الإنسان

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

أي: إننا بقدرتنا هيّأنا للمجرمين وأهل الملل الكفرية قيوداً من سلاسل تُشَد بها أرجلهم وأغلالاً من حديد نارية تُغل بها أيديهم مع أعناقهم، وسعيراً أي: ناراً موقدة مُستعرة يُحرقون بها.

* * *

ومن سورة المرسلات

قال جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: هلاك عظيم وخسارة كبيرة في ذلك اليوم الرهيب لأولئك المكذبين الكافرين الضالين، وقد كرر تعالى هذه الآية عشر مرات ترغيباً وترهيباً، وفي كل مرة منها جاءت معها أخبار عن أحوال الآخرة وغيرها، فتبارك الله الملك الحق، فما أعظم هذا القرآن وما أفصحه وأبلغه.

وقال تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى يوم القيامة للكفار المجرمين: انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به في الدنيا تكذبون انطلقوا فاستظلوا بدخان كثيف من دخان جهنم يتفرع منه ثلاث شعب لا يظل من استظل به ولا يقيه حر النار ولا يدفع عنه ألسنتها المندلعة من كل جانب، إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كل شرارة كالقصر العظيم كأنها في لونها وسرعة حركتها جمالاتٌ صفر.

* * *

ومن سورة النبا

وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول جلّ ذكره عن يوم القيامة: عندما ينفخ في الصور ويأتي الخلائق للحشر أفواجاً وتفتح السماء وتسير الجبال عن أماكنها وتصبح كالسراب فتكون عندئذ جهنم تنتظر أهلها وتترقبهم، كما يترصد الرجل عدوه ويترقبه

فهي للطغاة المجرمين مرجع ومأوى ماكثين فيها دهوراً متتابعة لا نهاية لها كلما مضى حقب جاء عقبه حقب آخر، لا يذوقون فيها برودة ولا شراباً يسكن عطشهم إلا ماءً حاراً بالغ الغاية في الغليان وصديداً يسيل من جلود أهل النار عاقبهم الله تعالى جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة، إنهم لم يكونوا في الدنيا يتوقعون الحساب والجزاء وكانوا يكذبون بآيات الله تعالى وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب، ثم يقال لهم: فذوقوا عذاب الحريق فلا تزدادون إلا عذاباً فوق العذاب.

وهذه الآية أيضاً من الآيات التي هي أشد آية في القرآن على الكفار.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى لكفار قريش: إنّا خوّفناكم وحذّرناكم عذاباً قريباً وقوعه وهو عذاب الآخرة عندما يرى الإنسان ما قدّم من خير وشر ويتمنى الكافر أن لو كان تراباً لم يخلق ولم يكلف حتى لا يُحاسَب ولا يُعذَّب.

* * *

❋ ومن سورة النازعات

وقال جلّ علاه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول عزّ علاه: فإذا أتت الداهية العظمى وهي قيام الساعة، عندما يتذكر المرء ما عمله من خير أو شر وأظهرت جهنم للكافرين فيعاينونها، فمن كان ممن طغى وجاوز الحد في الإجرام والعصيان وفضّل حياة الدنيا الفانية على الآخرة وانهمك في الشهوات والمستلذات المحرّمة فإن جهنم المتأججة هي منزله ومسكنه ومقره.

* * *

ومن سورة الانفطار

وقال جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن الكفرة الفجرة الذين عصوا ربهم وكذبوا رسله لفي نار محرقة وعذاب دائم في دار الجحيم يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء، وما أولئك الفجرة بغائبين عن جهنم بل هم دائمون فيها وذلك سيكون عندما يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشيء والأمر يومئذ كله لله لا ينازعه فيه أحد.

* * *

ومن سورة المطففين

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

يتحدث تعالى عن المطففين في الكيل والميزان وعن الفجار والمكذبين بيوم الدين المستهزئين بآيات الله، وأن الله عزّ وجل سيجمع لهم بين عقابين وعذابين، دخول جهنم وذواق حرها وعذابها والحرمان من رؤية الله تعالى، كما يراه المؤمنون في جنات عدن.

* * *

ومن سورة البروج

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

يقول جلّ علاه: إن الذين عذّبوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار ليفتنوهم عن دينهم، ثم لم يرجعوا عن كفرهم حتى ماتوا على ذلك فلهم

عذاب جهنم يحرقون به كما حرقوا المؤمنين، فيا ويل ويا خزي من يعذّب المسلمين بالنار أو غيرها، فيا خسارته في الآخرة.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة الأعلى

قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

يقول جلّ علاه: سيتعظ بالموعظة من يخشى الله عزّ وجل ويُعرض عنها ويرفضها ولا يقبلها الكافر المبالغ في الشقاوة الذي يدخل النار العظيمة الفظيعة التي لا أكبر ولا أعظم ولا أوجع منها، وهي نار جهنم.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة الغاشية

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

معناه: هل جاءك يا رسولي خبر الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمهم بشدائدها وهي القيامة، يوم يكون فيها وجوه الكفار ذليلة خاضعة دائبة العمل فيما يشقيها في النار من مقاساة أنواع العذاب، تدخل ناراً مسعرة شديدة تسقى من عين متناهية الحرارة لا طعام لها إلا الضريع الذي هو شر الطعام وأخبثه لا يفيد قوة ولا سمناً في البدن ولا يدفع الجوع عن آكله.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة الفجر

قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ

ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى عندما تُدَكُّ الأرض دكًا لقيام الساعة، وجاء الله لفصل القضاء ونزل ملائكة السماوات وجيء بجهنم للموقف لتُعرض على الكفار عندئذ يتذكر الإنسان عمله ويندم ويتحسر على ما فرّط، ومن أين تنفعه الذكرى وقد فات الأوان فيقول نادماً متحسراً: يا ليتني قدّمت من الإيمان والأعمال الصالحة لحياتي هذه، ففي ذلك اليوم ليس شيء أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ولا يقيد أحد بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر المجرم الفاجر.

* * *

❋ ومن سورة البلد

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين كفروا بالقرآن وبما جاء به رسول الله ﷺ مع أهل الشمال والشقاء الأبدي، عليهم نار جهنم مطبقة ومغلقة لا يدخل فيه روح ولا ريحان.

* * *

❋ ومن سورة الليل

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

معناه: فحذرتكم أيها المشركون المجرمون ناراً تتوقد وتتوهج من شدة حرارتها لا يدخلها للخلود فيها ويذوق سعيرها إلا الكافر الشقي الذي كذّب الرسل وأعرض عن الإيمان.

* * *

❋ ومن سورة البينة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

هذه الآية الكريمة من أصرح الآيات في كفر اليهود والنصارى كالوثنيين، لأنهم وإن آمنوا بمن قبلنا من الأنبياء، فإنهم كفروا برسالة نبينا وما جاء به ﷺ، وقد أخبر تعالى عنهم بأنهم مع المشركين في عذاب نار جهنم ماكثين دائمين فيها، وزاد: أنهم شر خلق الله تعالى.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة القارعة

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن من نقصت حسناته عن سيئاته أو لم يكن له حسنات يعتد بها كان مسكنه يوم القيامة ومصيره الهاوية يهوي في قعرها، فهي أمه ومفزعه، وهي نار حامية شديدة الحرارة لا تتصور حرارتها.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة الهمزة

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: عذاب شديد وهلاك ودمار لكل من يعيب الناس

ويغتابهم ويطعن في أعراضهم أو يلمزهم بعينه أو حاجبه، الذي جمع مالاً كثيراً وحافظ على عدده، يظن أن ماله سيتركه في الدنيا مخلّداً، كلا ليرتدع عن هذا الظن الخاطىء، فوالله ليطرحن في نار جهنم تلك النار التي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب، فهي نار الله المسعرة المشتعلة التي يبلغ ألمها إلى القلوب فتطلع على الأفئدة فتحرقها، إنها على الكفار مطبقة مغلقة وهم موثوقون في سلاسل وأغلالٍ تشد بها أيديهم وأرجلهم على أعمدة ممدودة من نار.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، وبمحبتك لرسولك ومحبته لك ﷺ، وبإيماننا بك ومحبتنا لك ولرسولك ولأنبيائك ورسلك وجميع أوليائك وأصفيائك من السابقين واللاحقين، أن تجيرنا ووالدينا وأبناءنا وأجدادنا ومشايخنا وأحبتنا... من النار وأهوالها وعذابها ورؤيتها ورؤية أهلها آمين، إنك سميع قريب مجيب الدعاء. وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وزوجه أبد الآبدين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

دار الأفراح والنعيم

الحمد لله على نعمه وإحسانه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

وبعد، فقد تحدثنا سابقاً عن أهوال القيامة ومشاهد المحشر والحساب والميزان ومرور العباد على الصراط وسقوط الكفار ومن شاء الله تعالى من عصاة الموحدين في جهنم، وتقصينا أخبار النار وسلاسلها وأغلالها وأوديتها وثعابينها وعقاربها وأهوالها وسعيرها وعذابها الذي لا يطاق وصفات أهلها وما سيلقون من أنواع العذاب إلى آخر ما سبق مفصّلاً.

والآن جاء دور دار الأفراح دار المأوى والنعيم والخلد والفردوس، تلكم الدار التي طالما اشتاقت إليها أفئدة المحبين والتي كان يتنافس في الحصول عليها والتأهُّب لها المؤمنون المخلصون، والتي أعدّها الله تعالى وهيّأها لعباده الصالحين، فلنتابع المسيرة في بيانها وبيان سكانها وما هيىء لهم فيها من متّع ونعيم.

* * *

❋ صفات الجنة فوق مستوى العقول

[٤٢٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخراً من بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾».

رواه أحمد (٤٦٦/٢)، والبخاري في بدء الخلق (١٣١/٧)، وفي التفسير (١٣٥/١٣٤/١٠) وفي التوحيد، ومسلم في الجنة (١٦٧/١٦٦/١٧)، والترمذي في تفسيرَيْ السجدة (٢٩٩٠) والواقعة (٣٠٧٥) بتهذيبي.

قوله: «ذخراً» ورد بالمعجمة والمهملة، أي: مخبوءاً ومدخراً لكم. وقوله: «بَلْه» بفتح الباء وسكون اللام، اسم فعل بمعنى: دع واترك، أي: دع عنك ما أطلعكم الله تعالى عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم، وعلى رواية: «مِن بله» تكون بمعنى الاستفهام، أي: كيف ومن أين اطلاعكم على هذا القدر الذي تقصر عقول البشر عن الإحاطة به.

ولهذا الحديث سبب وهو ما يأتي في سؤال موسى عليه السلام ربه عن أدنى وأعلى أهل الجنة منزلة وفيه: «**فأعلاهم منزلة قال: أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أُذن، ولم يخطر على قلب بشر**»، قال: ومصداقه من كتاب الله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

رواه مسلم في الإيمان (٤٦/٤٤/٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٩١) ويأتي.

والحديثان يدلان على ثلاثة أمور:

أولاً: ثبوت الجنة وإعدادها بقصورها، وأنهارها، وأشجارها، ونسائها، وحللها، وطعامها، وشرابها، وفواكهها، فهي مهيَّأة معدّة للمتقين تنتظر سكانها ليحظوا بما فيها من نعيم ومتَع.

ثانياً: إن الله تعالى جعلها خالصة لعباده الصالحين وهم كل من آمن به وبما جاءت به رسل الله على اختلاف منازلهم ودرجاتهم إيماناً وعملاً وحالاً.

ثالثاً: إنه عزّ وجل أعدّ لهم في هذه الدار من أنواع المتَع والنعيم أكلاً وشرباً ولباساً ومنكحاً ومنظراً ومسمعاً ومركباً وفرحاً وكل ما يُشتهى ويُلَذ ما هو خارج عن مستوى العقول البشرية وآذانهم وأبصارهم، فلا يمكن أن ترى عين، أو تسمع أُذن قط، أو يخطر على قلب بشر أصلاً ما أعدّه الله تعالى لهم من أنواع النعيم الذي سيحظون به، فكل ما يذكر في الكتاب والسنّة من صفات الجنة وأهلها إنما هي أشياء تقريبية كأمثلة، أما الحقائق فلا يعلمها إلا الله عزّ وجل المتفضل بذلك على عباده الصالحين، وستمر بك أشياء من ذلك قد تحيلها العقول الضيقة.

* * *

❋ صفة خلق الجنة وبنائها

[٤٢٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله حدّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لَبِنةٌ من ذهب، ولَبِنَةٌ من فضة، ومِلاطُها المسكُ الأذْفَرُ، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَن يدخلها ينعَم فلا يبأس، ويَخْلُدُ لا يموت، لا تَبلى ثيابه، ولا يَفنى شبابه**».

رواه أحمد (٣٦٢/٢)، والبزار (٣٥٠٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٥٣) مختصراً وسنده صحيح.

وقوله: «من يدخلها ينعم...» إلخ، رواه مسلم وغيره ويأتي.

ورواه أحمد (٣٠٥/٢)، والترمذي في الجنة (٢٣٤٣)، وابن حبان (٧٣٨٧) مطولاً، وقد توسع محقق ابن حبان في تخريجه فلينظر.

[٤٢٩] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**جنّتانِ من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**».

رواه البخاري في تفسير الرحمٰن (٢٤٨/١٠) وفي بدء الخلق، ومسلم

في الإيمان رقم (١٨٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٥)، ويأتي في بحث النظر إلى وجه الله الكريم في الخاتمة.

[٤٣٠] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن تُربة الجنة فقال: «**دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالصٌ**».

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: «**ما تُربةُ الجنة؟**» قال: دَرْمكةٌ بيضاءُ مِسْكٌ يا أبا القاسم، قال: «صدَقْتَ».

رواه مسلم في أخبار ابن صياد من الفتن (٥٢/١٨).

[٤٣١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في اليهود: «**إني سائلهم عن تربة الجنة وهي درمكة بيضاء**»، فسألهم فقالوا: هي خبزة يا أبا القاسم، فقال رسول الله ﷺ: «**الخبز من الدرمكة**».

رواه الترمذي في تفسير المدثر (٣١١٠) بسند حسن على رأي الذهبي.

[٤٣٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء قال ﷺ: «**ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أُدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك**».

رواه البخاري في أول الصلاة (٩/٨/٢) وفي أحاديث الأنبياء، ومسلم في الإيمان، وأحمد (١٤٤/٥).

بيان ألفاظ هذه الأحاديث:

قوله في حديث أبي هريرة: «ملاطها» بكسر الميم، أي: ترابها. و«الأذفر»: الشديد الرائحة، وقوله: «ولا يَبْأس» أي: لا يصيبه بؤس وفقر وحاجة.

وقوله في حديثَيْ أبي سعيد وجابر: «دَرْمكةٌ» هو الدقيق الخالص أو التراب الناعم.

وقوله في حديث أنس: «جنابذ» هي القباب والخيام.

لنتصور القصور والبنايات الشاهقة التي لا حدود لها، والغرف الفارهة التي تُعد بالبلايين، المكونة من الذهب والفضة مع أوانيها وأجهزتها، وأثاثها، الكل ذهب وفضة، وسندس وإستبرق، وترابها الزعفران والمسك الأذفر الذي لا أطيب منه في بياض وصفاء كالدقيق الخالص، وحصاها اللؤلؤ والياقوت، وخيامها وقبابها من اللؤلؤ. فلنتصور هذه الدار، ولنتخيلها في أدمغتنا كيف تكون، لا والله لا تتصورها عقولنا ولا نستطيع تخيلها، وإنما نكتفي بما تسعه عقولنا، وكفى، فليطب المؤمنون نفساً بسكناهم هذه الدار ولتقر أعينهم بذلك وليواصلوا مسيرتهم في العمل والتأهُّب لها.

وقوله ﷺ في حديث أبي موسى: «**جنتان وما فيهما من ذهب...**» إلخ، جاء في رواية له مرفوعاً: «**جنتان من ذهب للمقرَّبين، ومن دونهما جنتان من وَرِقٍ لأصحاب اليمين**».

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ورجاله ثقات، وتأتي بقية لهذا في موضع له.

* * *

❁ خيام الجنة، وقصورها، وغرفها

[٤٣٣] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً**».

وفي رواية: «**عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهلٌ ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن**».

رواه أحمد (٤/٤١١/٤١٩)، والبخاري في بدء الخلق (٧/١٣١)، وفي التفسير (١٠/٢٤٨)، ومسلم (١٧/١٧٥/١٧٦)، والترمذي (٢٣٤٦) كلاهما في الجنة، والدارمي (٢٨٣٦)، وابن حبان في صحيحه (١٦/٤٠٧).

قوله: «لَخَيمة» أي: لقَصْر، وعبّر بالخيمة على عادة العرب في التعبير

بذلك عن القصر. وقوله: «في كل زاوية» أي: في كل جهة منها أهلٌ، يعني الحور العين.

فهذا مثال واحد وصفة لقصر من قصور أولياء الله تعالى المعدّة لهم، فالقصر مكوّن من لؤلؤة واحدة، وتصوّر قدر هذه اللؤلؤة ثم طول هذا القصر أو عرضه ستون ميلاً، أعني مقدار مسافة ما يمشيه الراكب على دابة أكثر من يوم من أيام الدنيا، وقد هُيِّئَت في كل جهة من جهاتها فُرُش مزخرفة عليها نساء غاية في الحُسن والجمال... يتمتع بهن ولي الله كيف شاء، وكم له من هذه القصور وزينتها ونسائها.

[٤٣٤] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن في الجنة غُرَفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناسُ نَيام»**.

رواه أحمد (٣٤٣/٥)، وابن حبان (٣٦٢/٢)، والبيهقي في السنن (٣٠٠/٤) وغيرهم بسند حسن صحيح، وللحديث شواهد منها عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (١٥٦/١)، والترمذي في البر والصلة وفي صفة الجنة (٢٣٤٤).

هذه صفات بعض قصور الجنة وهي غرف طباق فوق طباق وأنها شفافة مثل القوارير ولها شبه بما يتمتع به أهل الدنيا اليوم، ولكن شتان ما بين الجنة والدنيا وهي بهذه الصفة المذكورة سيحظى بها أصناف خاصون من المؤمنين وهم الذين يواسون الضعفاء ويساعدون المحتاجين ويقدمون الوجبات لضيوفهم وزوارهم، والذين يُشيعون تحية الإسلام بين المسلمين ويظهرونها على المعارف وغيرهم، والذين يقومون في الليالي المظلمة يتهجدون خاشعين راغبين راهبين باكين مستغفرين والناس غافلون نائمون، وحق لهم أن تخص لهم هذه الغرف العاليات المزخرفات، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه الغرف حيث قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

* * *

❋ كسب القصور والغرف في الجنة

[٤٣٥] عن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَن صلّى في اليوم والليلة اثنتَيْ عشرة ركعةً تطوُّعاً، بنى الله له بيتاً في الجنة»**.

رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وقد تقدم في الصلاة.

[٤٣٦] وعن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»**.

رواه الشيخان، وتقدم أيضاً في المساجد.

[٤٣٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاةٍ لبيضها، بنى الله له بيتاً في الجنة»**.

رواه أحمد (٢٤١/١) بسند صحيح.

«مِفْحص قطاة» أي: مقدار عُشِّها.

فهذه بعض الأعمال الصالحة التي تبنى بها البيوت والغرف في الجنة، وكم يبنى للمؤمن من غرف إذا كان ملتزماً بهذه الأعمال وغيرها طوال حياته، إنه شيء لا حدود له فضلاً من الله عزّ وجل.

❋ ❋ ❋

❋ بحار وأنهار الجنة

[٤٣٨] عن معاوية القُشَيري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«في الجنة بحرٌ للماء، وبحر لِلَبن، وبحرٌ للعسل، وبحرٌ للخمر، ثم تشَّقَّقُ الأنهارُ منها بعدُ»**.

رواه أحمد (٥/٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٨)، والدارمي

(٢٨٣٩)، وابن حبان (٤٢٤/١٦) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو كما قال.

[٤٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تخرج من تحت تلال أو من تحت جبال مِسْك».

رواه ابن حبان (٤٢٣/١٦)، بسند حسن وله شاهد عن ابن مسعود رواه ابن أبي شيبة وغيره.

قوله: «تلال» بكسر التاء، جمع تل بفتحها وضمها وهي القطعة المرتفعة من الأرض عمن حولها.

الحديث الأول: يدل على أن في الجنة بحاراً للماء واللبن والعسل والخمر، ثم تتفجر منها الأنهار من تحت جبال المسك كما في الحديث الثاني، وكل من تلك البحار والأنهار تتفجر من جنة الفردوس كما يأتي في درجات الجنة إن شاء الله تعالى.

ولكل واحد من أهل الجنة له أربعة أنهار مما ذكر تمر عليه في ملكه، يشرب منها أيّما وقتٍ شاء. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذكر هذه الأنهار فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر هذه الأنهار بكثرة وأنها تجري تحت قصور الجنة كمثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وقوله جلّ علاه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في عشرات من الآيات يأتي بعضها.

وهذا غاية ما يكون من المناظر الجميلة والمتعة الطيبة والفرح والسرور والطمأنينة وانشراح الصدور، إذ القلوب مجبولة على حب المياه الجارية والتنزُّه في الحدائق والنظر إلى الخضرة، وهذه من المتَع والنعيم الذي أعدّه الله تعالى لأوليائه في دار الأفراح.

* * *

❁ أنهار في الدنيا من الجنة

[٤٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَيْحَانُ، وجَيْحَانُ، والفُراتُ، والنِّيلُ، كُلٌّ من أنهار الجنة»**.

رواه أحمد (٢/٢٨٩/٤٤٠)، ومسلم في كتاب الجنة (١٧/١٧٩).

ورواه أحمد (٢/٢٦١)، والحميدي (١١٦٣)، وأبو يعلى (٥/٣٥٦) بلفظ: **«أربعةُ أنهار فُجِّرت من الجنة: الفراتُ، والنيلُ ـ نيل مصر ـ، والسَّيحان، والجيحان»**.

[٤٤١] وعن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء: **«ثم رُفِعتْ إليّ سدرةُ المنتهى في السماء السابعة فإذا نَبِقها مثلُ قلال هَجَر، وورقها مثل آذان الفِيَلَة، يخرج من ساقها نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»**.

رواه أحمد (٣/٦٤)، والبخاري في المناقب (٨/٢٠٠/٢١٦) وفي بدء الخلق، ومسلم في الإيمان.

قوله: «سَيْحان وجَيْحان» بفتح أولهما وسكون ثانيهما، هما نهران عظيمان ببلاد الأرمن عند المصِّيصة، وطَرَسوس. وأما سيحون وجيحون بكسر أولهما وضم الحاء، فهما نهران آخران وراء خراسان.

أما الفرات، فهو نهر عظيم أيضاً ينحدر من جبال تركيا ويمر شمال سوريا ويشق العراق ثم يصب في الخليج العربي. أما النيل فهو أيضاً من الأنهار العظيمة الواسعة يتكون من جبال الحبشة ويمر على الخرطوم ثم مصر، ويشق القاهرة ثم يصب في البحر الأبيض، ويقال: إن طوله ألف كيلو.

وظاهر ما في الباب يدل على أن هذه الأنهار أصلها من الجنة حقيقة، وهذا الذي صححه النووي رحمه الله تعالى فقال في «شرح مسلم»...:

والثاني وهو الأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة، والجنة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة...

* * *

❁ من أنهار الجنة الكوثر الذي أُعطيَه نبينا ﷺ

[٤٤٢] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «**أتيتُ على نهر حافتاه قِبابُ اللؤلؤ مُجوَّف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر**»، وفي رواية: «**بينا أنا أسير في الجنة إذ عُرض لي نهرٌ حافتاه قِبابُ اللؤلؤ المُجَوَّف فقال الملكُ الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، وضرب بيده إلى أرضه فأخرج من طينه المسك**».

رواه أحمد (٣/١٦٤/١٩١/٢٨٩) وفي مواضع، والبخاري (١٠/٣٦٢) والترمذي (٣١٤١) كلاهما في التفسير، ورواه أيضاً البخاري في الرقاق (١٤/٢٧٠)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٣).

[٤٤٣] وعنه قال: بَيْنَا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مُتبسِّماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**لقد أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ**»، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾».

قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه نهر وعدَنيه ربي عزّ وجل عليه خير كثير، هو حوض ترِد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد نجوم السماء، فيُختَلَجُ العبدُ منهم فأقول: ربِّ إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثَ بعدك**».

رواه أحمد (٣/١٠٢/٢٣٦)، ومسلم (٤/١١٢)، وأبو داود (٧٨٤) كلاهما في الصلاة.

[٤٤٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثر نهرٌ في الجنة حافَّتاه من ذهب، ومَجراه على الدُّرّ والياقوت، تُربته أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج**».

رواه أحمد (٥٩١٣/٥٣٥٥)، والترمذي في التفسير (٣١٤٢) وحسّنه وصححه.

قوله: «حافَّتاه» أي: شاطآه وجانباه. وقوله: «أغفى» أي: نام نومة خفيفة. وقوله: «فيختلج» أي: يُنتزع ويُقتطع، وانظر ما سبق في الحوض وغيره.

فالكوثر نهر من أنهار الجنة العظيمة خصّ الله تعالى به نبيه ﷺ وهو أصل الحوض الذي هيىء له ولأمته قبل الصراط، وجاءت الأحاديث بهما معاً متواترة ينيف رواتهما على الخمسين وهي في الصحيحين والسنن والمسانيد وغيرها من كتب السنّة المشرفة. والإيمان بهما معاً من العقائد الإسلامية، لا حرمنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأحبّتنا وجميع المؤمنين من الشرب منهما، آمين.

* * *

❁ أشجار الجنة وأفنانُها وثمارُها

[٤٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾**».

رواه أحمد (٤٨٢/٤٥٢/٤١٨/٢)، والبخاري في التفسير (٢٥١/١٠)، ومسلم في الجنة (١٦٧/١٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٧٥) وفي صفة الجنة (٢٣٤١)، والنسائي في الكبرى (٤٧٩/٦).

ومثله عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الجنة.

[٤٤٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع مائة عام وما يقطعها»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢١٥)، ومسلم في الجنة (١٧/١٦٨)، والترمذي في الجنة (٢٣٤٠).

قوله: «في ظلها» أي: ما يستر أغصانها. و«الجواد»: الفرس. و«المضمر» بضم الميم الأولى وفتح الضاد والميم المشددة، هو الذي ضمر بأن عولج بإقلال العلف والمرعى تدريجياً ليُسْرِعَ في جَرْيِه.

هذه صفة شجرة واحدة من بلايين أشجار الجنة، ولعظمة هذه الشجرة وطولها وكبرها لا يقطع ما تحت أغصانها الراكب المسرع في مدة مائة عام، وهذا شيء مدهش محيّر لا نتصوره، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾، وهذا الظل لا نعرفه، فإن الظل المتعارف عندنا إنما ينشأ عن سير الشمس، ولا نور في الجنة لشمس ولا لقمر، وإنما هو ظل ينشئه الله تعالى من أنوار لا ندركها ولا عهد لنا بها لأنها من عالم الغيب.

وهذه الشجرة المتحدث عنها قد تكون شجرة سدرة المنتهى، ويؤيد هذا الحديث التالي وما بعده.

[٤٤٧] فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى، قال: **«يسير الراكب في ظل الفَنَنِ منها مائة سنة، أو يستظلُّ بظِلها مائة راكب، فيها فَراشُ الذهب كأن ثمرها القِلال»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة، وحسّنه وصححه (٢٣٥٨).

«الفنن» بفتحتين: الغصن، «فراش»: جمع فراشة، هي التي تتهافت على النار. و«القلال» بكسر القاف: جمع قلة بضمها.

ففي الحديث بيان لتلك الشجرة التي لا يقطعها الراكب المسرع في مائة عام وهي سدرة المنتهى وقد تكون غيرها، فالله أعلم.

وقوله هنا: «كأن ثمرها القلال» هذا هو الوارد في حديث الصحيحين في شأن الإسراء، حيث قال ﷺ: «ثم رُفِعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نَبقُها مثلُ قِلال هَجَر» أي: ثمرها مقدار قِلال هجر في الكبر.

وقد يكون شجر السدر عاماً في الجنة ينتج الثمار فاكهة لأهلها ويدل له:

[٤٤٨] حديث سليم بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ليَنْفَعُنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله عزّ وجل في الجنة شجرةً مؤذيةً وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السِّدْرُ، فإن له شوكاً مؤذياً، قال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾، خضدَ الله شوكَه فجعل مكان كل شوكة ثمرةً فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر».

عزاه المنذري في «الترغيب» لابن أبي الدنيا، وحسّنه. وانظر «تفسير» ابن كثير (٧/٥٣٠).

وقوله: «مخضود» أي: مقطوع الشوك.

* * *

❁ شجر الطلح

[٤٤٩] فعن عقبة بن عامر السلمي رضي الله تعالى عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم أكثر شوكاً منها ـ يعني الطلح ـ فقال رسول الله ﷺ: «يُجعلُ مكان كلِّ شوكةٍ منها خُصْوَةُ التَّيْس الملبود ـ يعني الخصي ـ منها سبعون لوناً من الطعام، لا يشبه لونٌ آخرَ».

رواه الطبراني في «الكبير» (١٧/١٣٠)، ونعيم بن حماد في «زوائد

زهد ابن المبارك» (٢٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٣/٦) وسنده صحيح.

«الطلح»: شجر ذو شوك كثيف يكون ببادية الحجاز وقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾. وقوله: «منضود» أي: متراكم. وقوله: «التيس الملبود» أي: الكثير اللحم حتى تلبد.

فكل من شجرتَيْ السدر والطلح موجودتان في الجنة قد جعل مكان كل شوكة منهما ثمرة كل ثمرة تفتق عن اثنين وسبعين أو نحوها لوناً من الطعام لا يشبه بعضه بعضاً في المذاق.

* * *

❁ شجرة طوبى

[٤٥٠] عن عتبة بن عبدٍ السلمي رضي الله تعالى عنه قال: قام أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: **«ما فاكهة الجنة؟»**، قال: **«فيها شجرة تُدعى طوبى»**، فقال: أي شجرنا تُشْبِه؟ قال: **«ليس تشبه شجراً من شجر أرضك، ولكن أتيت الشام؟»** قال: لا يا رسول الله، قال: **«وإنها شجرةٌ بالشام تُدعى الجُمَيْزَة تشتدُّ على ساقٍ ثم يُنشرُ أعلاها»**، قال: ما عِظَم أصْلِها؟ قال: **«لو ارتحلتَ جذعةً من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تكسِر تَرْقُوتَاها هرماً»** ويأتي بقيته.

رواه أحمد (١٨٤/١٨٣/٤)، وابن حبان (٤٣٠/١٦) حديث صحيح لشواهده.

قوله: «ترقوتاها» تثنية ترقوة بفتح التاء وضم القاف، ولكل إنسان وبهيمة ترقوتان وهما العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق.

فهذا الحديث يدل على أن في الجنة شجرة عظيمة تسمى شجرة طوبى، لا يحاط بأصلها لعظمها.

وجاء فيها حديث آخر لا بأس به في الشواهد.

[٤٥١] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال ﷺ: «**طوبى لِمَن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**»، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «**شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**».

رواه أحمد (٣/٧١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/٦٣) وفيه أبو السمح عن أبي الهيثم وابن لهيعة، وأمرهما معروف، وأصل الحديث صحيح.

* * *

❋ شجرة الخلد

[٤٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة، هي شجرة الخُلْد**».

رواه أحمد (٢/٤٥٥)، والطيالسي (٣٣٢) وسنده حسن على رأي جماعة، وأصله في الصحيحين.

فالحديث فيه ذكر شجرة الخلد التي مَن أكل منها خلد ودام مكثه، ويقال: إنها الشجرة التي أغوى إبليس آدم عليه السلام وزوجه حتى أكلا منها كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾.

والمقصود أن في الجنة أنواعاً من الأشجار الوارفة التي هي متع رائعة لأولياء الله.

* * *

❊ أصول أشجار الجنة من الذهب

[٤٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما في الجنة شجرة، إلا وساقاها من ذَهَبٍ»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٢)، وابن حبان (٤٢٥/١٦) وهو حسن لشواهده، من أقواها عن سلمان رضي الله تعالى عنه رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في الحلية وغيرهما، وفيه: **«أصولها اللؤلؤ والذهب، وأعلاها الثمار»**.

❊ ❊ ❊

❊ أعمال وأقوال يغرس بها الأشجار في الجنة

[٤٥٤] عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِستْ له نخلةٌ في الجنة»**.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٢٣٨)، والنسائي في الكبرى (٢٠٧/٦)، والحاكم (٥٠٢/١) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الترمذي.

[٤٥٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو يغرِسُ غَرْساً فقال: **«يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟»** قلت: غِراساً لي، قال: **«ألا أدُلُّك على غراسٍ خير لك من هذا؟»** قال: بلى يا رسول الله، قال: **«قل سبحان الله، والحمدُ للّه، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، يُغرسُ لك بكل واحدة شجرةٌ في الجنة»**.

رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٧) وحسّنه البوصيري في «الزوائد».

[٤٥٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسري بي فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذْبةُ الماء، وأنها قيعان، وأن غِراسها سبحان الله، والحمد للّه، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر»**.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٢٣٦) وحسّنه، وله شواهد تقوّيه.

قوله: «قيعان» بكسر القاف، جمع قاع وهي الأرض المستوية.

فهذه الأحاديث تدل على أن هنالك في الجنة أشجاراً من نخيل وغيره، تغرس وتنشأ من جديد بذكر الله تعالى من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير، وذلك يدل على أن لهذه الأذكار مزيد فضل، وحق لها ذلك، لأن فيها ذكر تنزيه الله وحمده وتوحيده وتكبيره، وكل واحدة منها لها مكانتها العظيمة عند الله عزّ وجل.

* * *

❋ خيل الجنة

[٤٥٧] عن عبدالرحمٰن بن ساعدة رضي الله تعالى عنه قال: كنت أحب الخيل فقلت: يا رسول الله هل في الجنة خيل؟ قال: **«إن أدخلك الله الجنة يا عبدَالرحمٰن، كان لك فيها فَرَسٌ من ياقوت له جناحان يطير بك حيث شئت»**.

عزاه كل من المنذري والهيثمي إلى الطبراني وقالا رجاله ثقات.

[٤٥٨] وعن بريدة رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل في الجنة من خيل؟ قال: **«إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء، تطير في الجنة حيث شئت إلا فعلت»**، قال: وسأله رجل آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل؟ قال: فلم يقل له ما قال لصاحبه، فقال: **«إن يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك، ولذّت عينُك»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٦٠) من طريقين مرسلاً وموصولاً، وسند المرسل صحيح.

في الحديثين بيان أن الجنة فيها كل ما يشتهيه المؤمن ويتمناه ويطلبه،

وكل ما أنعم الله تعالى به علينا في هذه الدار ومتّعنا به وسخّره لنا، ففي الجنة ما يشبهه مما لا نتصوره، ومن ذلك المركوبات فسيعطي الله لعباده الصالحين مركوبات تسير على أرض الجنة حيث أرادوا وأخرى تطير بهم في أجوائها يتنزهون عليها حيث شاؤوا، وقد تكون هذه المراكب خيلاً أو غيرها مما هيّأه الله تعالى لهم.

* * *

نوق الجنة

[٤٥٩] عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومةٍ فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة**».

رواه أحمد (١٢١/٤) و(٢٧٤/٥)، ومسلم في الإمارة (٣٨/١٣).

قوله: «مخطومة» أي: لها خطام وزمام.

والحديث ظاهر في أن الجنة سيكون فيها نوق وإبل، وأن من أنفق منها في سبيل الله في الدنيا سيعطيه الله تعالى مثل ما أنفق مضاعفاً إلى سبعمائة أو إلى حيث شاء الله تعالى، وتكون تلك النوق متعة له.

* * *

مزارع الجنة

[٤٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً يحدّث وعنده رجل من أهل البادية: «**أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزَّرع فقال له: «أوَلستَ فيما شئتَ؟» قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، فأسرعَ وبذرَ فبادر الطرف نباته، واستواؤه، واستحصاده، وتكويره، أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: «دونك يا ابن آدم فإنه لا يُشْبِعُك شيءٌ**».

رواه البخاري في المزارعة (٢٣٤٨) وفي التوحيد (٧٥١٩).

هذا من كمال متَع أهل الجنة ومستلذاتهم، فكل نفس وهواها، فمن هوي شيئاً في الجنة واشتهاه أحضره الله تعالى له، لأنه وعد بذلك ووعده حق فقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، فهذا الرجل وإن متّعه الله تعالى بما لا حدود له من النعيم اشتهى الزراعة التي كانت الغالب عليه في الدنيا وألذ شيء لديه فأنجزها الله له في لمحة.

* * *

❋ طير الجنة

[٤٦٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ طيرَ الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه لطيرٌ ناعمة، فقال ﷺ: «**أكَلَتُها أنعَمُ منها**» قالها ثلاثاً، «**وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها**».

رواه أحمد (٣/٢٢١) قال في «المجمع» (١٨٧٣٣): رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة.

ورواه الترمذي في الجنة (٢٣٥٩) في صفة الكوثر:

قال ﷺ: «**فيه طير أعناقُها كأعناق الجُزُر**»، قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: «**أكَلَتُها أنعم منها**» وسنده صحيح على شرط مسلم.

وقوله: «البخت» بضم الباء وسكون الخاء، نوع من الإبل ضخام، والجزر بضم الجيم والزاي، جمع جزور بفتح الجيم وهو الجمل.

ففي الحديث بروايتيه بيان صفة طير الجنة الذي يأكل منه أولياء الله تعالى والتي قال فيها الله عزّ وجل: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

* * *

❁ عدد الجنان وأسماؤها

[٤٦٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أُصيب حارثةُ - يعني ابن سراقة - يوم بدر، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصْبِرُ وأحتَسِبُ، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنعُ؟ فقال: **«ويحكِ أوَهَبِلْتِ أوَجنَّةٌ واحدة هي؟ إنها جِنانٌ كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»**.

رواه البخاري في المغازي (٣٠٦/٨) وفي الرقاق (٢٣٧/٢٣٦/٢١٣/١٤).

قوله: «أوَهَبِلْتِ» معناه: أثكِلْتِ.

[٤٦٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِرْدوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**.

رواه البخاري في أوائل فضائل الجهاد (٣٥٣/٣٥٢/٦).

الحديثان يدلان على أن الجنان متعددة وليست جنة واحدة، ولذلك رغب ﷺ في سؤال الفردوس وأخبر بأنه أوسط الجنة وأعلاها وأفضلها، فعلم أن هنالك جناناً أخرى، وقد ورد في القرآن ذكر جملة منها وهي:

أولاً: جنة الفردوس كما في الحديثين وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثانياً: جنة عَدْنٍ. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾... إلخ.

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ثالثاً: جنة الخُلْد. قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ...﴾ الآية.

رابعاً: جنة المأوى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

وجاء في حديث سمرة الطويل في رؤياه ﷺ وفيه: «**وأدخلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، لم أرَ قط أحسن منها**»، قال: «**أما هذه الدار، فدار الشهداء**».

رواه البخاري في مواضع، وقد تقدم في التعبير مبسوطاً ومخرَّجاً ومشروحاً.

فعلمنا من هذا الحديث أن هذه جنة أخرى أُعِدَّت للشهداء هي أفضل من جميع الجنان لقوله عليه السلام: «**هي أحسن وأفضل، لم أرَ قط أحسن منها**».

* * *

❊ أبواب الجنان وأسماؤها

[٤٦٤] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيُسبغُ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، إلا فُتِّحَتْ له أبوابُ الجنة الثمانيةُ يدخلُ من أيِّها شاء**».

رواه مسلم وغيره، وتقدم في الطهارة.

ففي الحديث بيان أن للجنة ثمانية أبواب يدخل منها من أراد الله عزّ وجل دخوله منها من المؤمنين، وقد يدخل البعض من جميعها كما في الآتي:

[٤٦٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خيرٌ، فمَن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومَن كان من أهل الجهاد**

دعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصيام دعي من باب الرَّيَّان، ومَن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة». فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**».

رواه البخاري في الصيام (١٨٩٧) وفي الجهاد (٢٨٤١) وفي بدء الخلق (٣٢١٦) وفي الفضائل (٣٦٦٦)، ومسلم في الزكاة (١١٧/١١٦/١١٥/٧).

[٤٦٦] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة باباً يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون فيدخلون منه فإذا دخل آخرهم أُغلق فلم يدخل منه أحد**».

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الصيام، وتقدم فيه.

«الريان»: بتشديد الراء والياء المفتوحتين، مأخوذ من الري.

فالحديثان يدلان على أن في الجنة أبواباً لها أسامي خاصة بمن يدخلها، وأن كل من كان عملٌ ما أغلب عليه في الدنيا دخل الجنة من باب عمله، فمن كان الصلاةُ أغلبُ عليه دخل من باب الصلاة، وهكذا باقي الأبواب.

وفي حديث أبي هريرة فضل عظيم للصدّيق رضي الله تعالى عنه حيث إنه سيدعى من جميع تلك الأبواب.

وهذه الأبواب جميعها ستُفتح لأهلها قبل أن يأتوها، فإذا جاؤوها تلقتهم الملائكة وسلّمت عليهم وأمرتهم بالدخول.

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

* * *

❋ مسافة ما بين مصراعي باب من أبواب الجنة

[٤٦٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُتيَ رسول الله ﷺ يوماً بلحم فذكر حديث الشفاعة الطويل المتقدم وفيه: «**فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصْرَى**».

رواه كما تقدم.

«المِصْراع» بكسر الميم: أحد جانبي الباب. «هجر»: من مدن البحرين بينها وبين مكة المكرمة ستون ومائة وألف كيلومترات (١١٦٠). و«بُصرى» بضم الباء: مدينة مشهورة في التاريخ قريبة من دمشق بينها وبين مكة مائتان وألف كيلو (١٢٠٠).

هذا شيء مدهش باب واحد من أبواب الجنة مسافة ما بين جانبَيْه ألف ومائة وستون كيلو، إنه لأمر عظيم يدل على عظمة الجنة وكثرة داخليها، ومع اتساع هذه الأبواب يأتي عليها وقت تكون مكتظة من كثرة الازدحام.

فيا ربنا ويا إلهنا ويا حبيبنا، لا تحرمنا من دخولها مع السابقين بفضلك ورحمتك.

❋ ❋ ❋

❋ من أوائل من يدخل الجنة رسول اللّه وأمته

[٤٦٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: مَن أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك**».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

«فأستفتح» أي: أطلب الفتح.

فالحديث يدل على أن الجنة ستكون أبوابها مغلقة حتى يأتي النبي ﷺ قبل كل أحد فيطلب فتحها، فيقال له: إنا قد أُمرنا أن لا نفتحها لأحد قبلك.

[٤٦٩] وفي حديث أنس آخر قال: قال ﷺ: **«أنا أكثر الأنبياء تَبَعاً يوم القيامة، وأنا أول مَن يقرع باب الجنة»**.

رواه مسلم في الإيمان (٧٣/٣).

[٤٧٠] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأُقَعْقِعُهَا»**.

رواه الدارمي (٥١).

ورواه أحمد (٢٩٦/٢٩٥/٢٨٣/٢٨١/١) عن ابن عباس بلفظ: **«ثم آتي باب الجنة فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأقرع الباب»**.

قوله: «فأقعقعها» أي: أحركها وأقرعها.

ففي هذه الأحاديث خصيصة له ﷺ بكونه أول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها.

* * *

❁ صفات أول من يدخل الجنة

[٤٧١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أولَ زُمرةٍ يدخلون الجنةَ على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء إضاءةً، لا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، ولا يَتْفلون، أمشاطُهم الذهب، ورشْحُهم المِسك، ومجامرهم الأُلُوّة، وأزواجُهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْقِ رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء»**، وفي رواية: **«ولكل واحدٍ منهم زوجتان يُرَى مُخُّ ساقها من وراء اللحم من الحُسن لا اختلاف بينهم،**

ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبِّحون الله تعالى بكرةً وعشياً».

رواه البخاري في بدء الخلق (٧/١٣٢/١٣٤)، ومسلم في الجنة (١٧/١٧٣)، والترمذي فيها أيضاً (٢٣٥٤).

ومثله باختصار عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

رواه الترمذي (٢٣٥٢).

«زمرة»: بضم الزاي، أي: جماعة. «كوكب دُرِّي» أي: مضيء. و«رشحهم» أي: عرقهم. و«مجامرهم» أي: بخورهم. «الألُوَّة»: وهو العود. «الحور العين» الحور: جمع حوراء وهي الشابة الحسناء البيضاء، والعين: العيون السود مع كبرهن وسعتهن، وذلك أجمل ما يكون في المرأة.

الحديث دلّ على بيان صفات الجماعة التي تدخل الجنة أولاً فأولاً، فذكر أن الجماعة الأولى صورهم في الإضاءة كالقمر عند اكتمال قرصته، والذين يأتون عقبهم وجوههم كأشد نجم في السماء إضاءة.

ثم ذكر ﷺ جملة من المُتَع والنعيم الذي خصّهم الله تعالى به مع سائر من دخل الجنة وهو أربعة عشر نوعاً كلها غاية في المتعة والتنعُّم، فهم منزَّهون عن القذارة فلا بول ولا غائط ولا مخاط ولا بزاق، قد هيئت لهم أمشاط من الذهب يرجلون بها شعور رؤوسهم، وجعل ما يترشح من عرق أجسامهم مسكاً وبخورهم العود الطيب الذي لم يشم أطيب منه، أما نساؤهم فالفتيات الجميلات الحسان كأنهن في البياض والصفاء الياقوت والمرجان، بلغن في الصفاء، يُرى مخ أسوقهن من وراء اللحم من الحُسن، لكل رجل منهم زوجتان وما شاء، قلوبهم كقلب رجل واحد فلا حقد ولا بغض ولا نزاع، صورة جميعهم على صورة أبيهم آدم عليه السلام في الطول ستون ذراعاً، وسنهم بذكَرِهم وأنثاهم ثلاث وثلاثون سنة، يُجري الله تعالى على ألسنتهم مع أنفاسهم تسبيحه تعالى بكرةً وعشياً.

فهذه الصفات يستوي فيها كل أهل الجنة كما يأتي لاحقاً.

❋ من السابقين إلى الجنة: السبعون ألفاً الذين لا حساب عليهم

[٤٧٢] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لَيَدْخُلَنَّ من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**» وفي رواية: «**متماسكون آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة**».

رواه البخاري في بدء الخلق (٧/١٣٤/١٣٥) وفي الرقاق (١٤/٢٠٦/٢١٥)، ومسلم في الإيمان.

[٤٧٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدخل الجنة من أمتي زُمرةٌ هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر...**» الحديث.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٠٥/٢٠٦).

[٤٧٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وعدني ربي أن يُدخل الجنةَ من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألفٍ سبعون ألفاً، وثلاثُ حثَياتٍ من حثَيات ربِّي**».

رواه أحمد (٥/٣٥٠)، والترمذي في الزهد (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٢٨٦) بسند صحيح.

«حَثَيَات»: بفتحات، جمع حثية، بفتح الحاء، الغَرفة باليد وهي هنا بالنسبة لله عزّ وجل يجب الإيمان بها وعدم الخوض فيها مع اعتقادنا الجازم أن الله منزّه عن الجارحة.

[٤٧٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**عُرِضتْ عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط...**» فذكر الحديث. وفيه: «**هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، ثم قال: «**هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون**» الحديث تقدم مراراً وهو في الصحيحين.

وتبين من إيراد هذه الأحاديث أن هؤلاء السبعين ألفاً ومن معهم هم المذكورون في حديث أبي هريرة الذي صدّرنا به أول من يدخل الجنة لأن النبي ﷺ ذكر صفة وجوه هؤلاء في الإضاءة بما وصف أولئك.

وهذا الصنف من الناس هم المذكورون في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ الآية، وتأتي.

وهذا لا يعني أنه لا يوجد من هم أفضل منهم، فإن لله عزّ وجل رجالاً كثيراً ونساءً اصطفاهم لنفسه ليسوا بأنبياء ولا من هؤلاء السبعين ألفاً.

* * *

❊ درجات الجنة ومنازلها وتفاضل الناس فيها

[٤٧٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَن آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله تعالى أن يُدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نُبشّر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة**».

رواه أحمد (٢/٣٣٥/٣٣٩)، والبخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وفي التوحيد (٧٤٢٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٤٧)، وابن حبان (١٠/٤٧١/٤٧٢).

ونحوه عن معاذ بن جبل، رواه أحمد (٥/٢٤٠/٢٤١/٣٣٢)، والترمذي (٢٣٤٨).

وعن عبادة بن الصامت، رواه أحمد (٥/٣١٦/٣٢١)، والترمذي (٢٣٤٩)، والحاكم (١/٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

«مائة درجة» قال العلماء: إن هذا العدد المراد به الكثرة لا الحصر لأن درجات الجنة أكثر من ذلك، والدرجة هي: المرتبة العالية. و«الفردوس»: هو البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين من مياه وأشجار ومناظر جميلة ومشموم طيب وأزهار وفواكه من كل ما يشتهى، فجنة الفردوس جمع فيها كل ما في سائر الجنان وهي أوسطهن وأعلاهن.

وفي قوله ﷺ: «**ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**» يدل على أمر عظيم وخير كبير أعدّه الله تعالى لأصحاب هذه الدرجات، إذ ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، وقد جاء في حديث رواه الترمذي بسند فيه ضعف: «**لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسِعَتْهُم**».

[٤٧٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغُرَف من فوقهم كما تتراؤون الكوكب الدُّرّي الغابر في الأُفُق من المشرق والمغرب لتفاضُل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٣٧/٧) وفي الرقاق، ومسلم في صفة الجنة (١٦٩/١٧) ومثله عن سهل بن سعد رواه البخاري في الرقائق (٦٥٥٥)، ومسلم في الجنة (١٦٨/١٧).

قوله: «الكوكب الدُّرّي» بضم الدال وكسر الراء المشددتين، هو النجم الشديد الإضاءة. و«الغابر» معناه: الذاهب.

[٤٧٨] وعن أبي سعيد أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا**».

رواه أحمد (٩٨/٩٣/٥٠/٢٧/٣) والترمذي في الفضائل (٣٤٣١) وأبو داود (٣٩٨٧) وابن ماجه في المقدمة (٩٦).

والحديث حسن صحيح لشواهده.

وقوله: «أنعما» بسكون النون وفتح العين، أي: صارا إلى النعيم.

والحديثان يدلان على أن أهل الجنة متفاضلون في المنازل والدرجات العلى، وأن منهم من يرفع فوق غيره في منازل وغرف عالية تُرى لبُعْدِها مثلَ ما يُرى الكوكب العالي البعيد الذاهب في الأفق من المشرق إلى المغرب، وأن أهل تلك الدرجات والمنازل العالية فيهم رجال مؤمنون آمنوا بالله وصدقوا رسله وليسوا بأنبياء، ولا شك أن هؤلاء أقوام بلغوا الذروة العليا في الإيمان والصلاح كأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وأمثالهما من الصحابة المهاجرين والأنصار ومَن كان على شاكلتهم في الإيمان والتقوى والورع والزهد وخشية الله تعالى ومحبته ومحبة رسوله ﷺ.

* * *

❋ أعلى منازل الجنة منزلة نبينا ﷺ

[٤٧٩] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا، فمَن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة».**

رواه مسلم في الأذان (٤/٨٥).

«الوسيلة»: درجة ومنزلة في الجنة. «حلّت له الشفاعة» أي: وجبت فضلاً من الله، فأعلى منزلة في الجنة هي الوسيلة وهو مقام رسول الله ﷺ الذي هيأه الله تعالى له لا يبلغه أحد من خلقه ولا يكون فيه معه أحد إلا زوجاته الطاهرات ومن شاء الله تعالى ممن لا نعلمه.

* * *

❋ من أعلى منازل الجنة: الشهداء

[٤٨٠] عن نعيم بن همار رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضلُ الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يُقْتَلوا، أولئك يتلبَّطون في الغُرَف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربُّك، فإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ في موطن فلا حساب عليه**».

رواه أحمد (٥/٢٨٧) بسند صحيح.

قوله: «يتلبَّطون» بفتحات مع تشديد الباء، أي يمشون في غرف الجنان فالشهداء ممن سيحظون بالمنازل العالية، وقد تقدم حديث أبي هريرة بأن الله تعالى أعدّ لهم مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

❋ ❋ ❋

❋ حملة القرآن ممن لهم المنازل العالية

[٤٨١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتِّل كما كنتَ ترتِّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**».

رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسند صحيح، وقد تقدم في فضائل القرآن.

فالحديث نصّ في أن حملة القرآن ستكون منازلهم على عدد آي القرآن، وعددها على المشهور ٢٣٣٦٧١، فانظر إلى هذا الفضل العظيم الذي سيحظى به حملَة القرآن الربانيون الملتزمون بتعاليمه لا الفسقة الفاجرون فإنهم سيُحاسَبون الحساب العسير.

ولا شك أن هنالك أقواماً وأصنافاً من عباد الله الصالحين سيكونون في الدرجات العلى لا ندريهم بالذات، فيهم الصحابة والتابعون وأئمة الدين وأهل التفسير والمحدثون والعباد والزهّاد علماء وعوام نساء ورجال، وستأتي صفات سكان أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

❋ أدنى أهل الجنة وأعلاهم منزلة

[٤٨٢] عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربَّه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسُك ولذَّت عينُك، فيقول: رضيت رب».

«قال: ربِّ فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردت، غرستُ كرامتَهم بيدي وختمتُ عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أُذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٤٤/٤٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩١).

فالحديث بيَّن ما لأقل أهل الجنة وما لأعلاهم منزلة، فأدناهم ولا دنيء في الجنة من سيُعْطى مثل ما كان يملك أحد ملوك الدنيا وأضعافه إلى أربعة أضعاف وعشرة أمثال كل ذلك، فإذا كان هذا أدناهم فكيف بأعلاهم، فإن منزلتهم لا تتصورها العقول أصلاً إذ عندهم ما لا عين رأته، ولا أُذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعدّ الله تعالى لهم وأخفى عن أبصارهم ما ستقر به أعينهم عندما يعاينون ذلك.

❋ ❋ ❋

❋ من صفات أهل الجنة

[٤٨٣] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ أهلُ الجنة جُرْداً مُرْداً كأنهم مُكَحَّلون، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثين».

رواه أحمد (٥/٢٤٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٦٢) والحديث حسن صحيح.

[٤٨٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أهلُ الجنة جُرْدٌ مُرْدٌ كَحْلَى، لا يفنى شبابُهم، ولا تَبْلى ثيابُهم»**.

رواه الترمذي في الجنة (٣٣٥٩)، والدارمي (٢٨٢٩) بسند حسن.

«جُرْدٌ»: بضم الجيم وسكون الراء، جمع أجرد، الذي لا شعر له على جسده. «مُرْدٌ» جمع أمرد: الغلام الذي لا لحية له. «كحلى» بفتح الكاف: جمع أكحل، أي: في أجفان عيونهم سواد خلقة كأنهم مكحلون.

في الحديثين بعض صفات من يدخل الجنة وهي هنا خمس صفات:

أولاً: تكون أجسادهم مجرّدة من الشعر، فلا شعر في وجوههم، ولا في عاناتهم، ولا في آباطهم.

ثانياً: كالغلمان مرد بدون لحى أو شوارب.

ثالثاً: أجفانهم مكحلة خلقة مضافاً ذلك إلى عيونهم الواسعة السود الجميلة.

رابعاً: شبابهم دائم، وهم كما تقدم أبناء ثلاث وثلاثين سنة فلا يكبرون ولا يطرأ عليهم هرم.

خامساً: ثيابهم جدد دائماً فلا تخلق ولا تتسخ ولا تتمزق.

[٤٨٥] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لو أن ما يُقِلُّ ظُفُرٌ مما في الجنة بدا لتزخرفَتْ له ما بين خوافقِ السماوات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس، كما تطمسُ الشمس ضوء النجوم»**.

رواه أحمد (١٤٤٩)، والترمذي في الجنة (٢٣٥٥) بسند صحيح.

«يُقِلُّ»: بضم الياء، أي يحمل. و«ظفر» بضمتين ويسكن الثاني، أي: بقدر ما يستقل بحمله الظفر. وقوله: «خوافق» جمع خافقة، وهي الجوانب التي تهب منها الرياح.

هذه بعض صفات الجنة وسكانها، فلو فرض أن ظهر للدنيا مقدار ما يحمله ظفر من أرض الجنة لتزين وبهج له ما بين جوانب السماوات والأرض، ولو اطلع رجل واحد من سكان الجنة وظهرت أساوره للدنيا لأضاءت جميع أطرافها وأرجائها وغاب ضوء الشمس ولم يبقَ له أثر كما تغيب ضوء النجوم بظهور ضوء الشمس.

إنها لصفات ممتعة تنبىء بنعيم عظيم لا يُتصور.

* * *

❊ أول ما يُقَدَّمُ قِرَى لأهل الجنة عند دخولهم

[٤٨٦] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه أن يهودياً سأل رسول الله ﷺ قال: فما تُحفتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادةُ كبدِ الحوت**»، قال: فما غِذاؤهم على إثرها؟ قال: «**يُنحر لهم ثورُ الجنة الذي يأكل من أطرافها**»، قال: فما شرابُهم عليه؟ قال: «**من عين تُسمّى سلسبيلاً**» قال: صدَقْتَ.

رواه مسلم.

[٤٨٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**تكون الأرض يوم القيامة خُبزةً واحدةً يكْفؤها الجبار بيده، كما يكفؤ أحدكم خُبزتَه في السفر نُزُلاً لأهل الجنة**»، قال: فأتى رجلٌ من اليهود فقال: بارك الرحمٰن عليك أبا القاسم ألا أُخبرك بنزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «**بلى**» قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله ﷺ، قال: فنظر إلينا رسول الله ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه، قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: «**بلى**» قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثورٌ ونونٌ يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً.

رواه البخاري في الرقاق (١٦٢/١٤)، ومسلم في أوائل صفة القيامة (١٣٥/١٧) وجاء نحو ذلك في حديث عبدالله بن سلام في سؤاله النبي ﷺ عند مقدمه المدينة كما في الصحيح وقد تقدم.

قوله: «تحفتهم» معناه: نُزُلهم الذي يقدم إليهم أول ما يدخلون. وقوله: «بالامّ» هو الثور. و«النون»: هو الحوت. وقوله: «يكفؤها» وفي رواية يتكفؤها، أي: يميلها من يد إلى يد لتجتمع.

في الحديثين بيان ما يقدم الله عزّ وجل لأهل الجنة إثر دخولهم نزلاً وقرى لهم، وهو أنه سيطعمهم أولاً زائدة كبد الحوت وهو النون، ثم يُنحر لهم ثورٌ من ثيران الجنة فيكون لهم غذاء.

وقوله: «تكون الأرض خبزة... نزلاً لأهل الجنة» هذا مما يجب الإيمان به وكفى، لأنه لا يعقل عندنا أن تكون الأرض طعاماً لأهل الجنة لكن الله على كل شيء قدير وفعال لما يشاء.

وفي الحديثين بيان ما عند الله تعالى من مخلوقات عظام مدهشة هائلة، فزائدة كبدَي الحوت والثور اللتين يأكل منهما أهل الجنة وهم يعدون ببلايين البلايين كم قدرهما ووزنهما حتى يكفيا أهل الجنة. وهذا في زيادة الكبدين، فكيف يكون الكبدان؟ ثم كيف تكون عظمة الثور والحوت وكبدهما وأين كانا؟ وكم لله تعالى منهما، هذا أمر عظيم لا يتصور.

* * *

❁ نساء أهل الجنة من الحور وغيرهن

[٤٨٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياضُ ساقيها من وراء سبعين حُلَّة حتى يُرى مُخُّها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، فأما الياقوت فإنه حجرٌ لو أدخلتَ فيه سِلْكاً ثم استصفَيْتَه لأوريتَه من ورائه**».

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٥١)، وابن حبان (٢٦٣٢) ورجاله رجال الصحيح، وفيه عطاء بن السائب لكنه حسن صحيح للآتي ولأحاديث أخرى.

[٤٨٩] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ

قال: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والثانية على لون أحسن كوكب دُرِّي في السماء، لكلِّ رجلٍ منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حُلَّة يبدو مُخُّ ساقِها من ورائها**».

رواه أحمد (١٦/٣)، والترمذي (٢٣٥٢) وحسّنه وصححه، وتقدم مطولاً عن أبي هريرة.

[٤٩٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ولو أن امرأةً من نساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولَنصيفها** ـ يعني الخمار ـ **خيرٌ من الدنيا وما فيها**».

رواه البخاري في الرقاق (٣٧/١٤).

نساء أهل الجنة اللاتي هيئن للمؤمنين لا يمكن تصور حسنهن وجمالهن وبياض أجسامهن وصفائهن وسواد أعينهن وكثرة حللهن الفارهة وطيب ريحهن إلى غير ما هنالك، وقد ذكرهن القرآن الكريم وفصّل أمرهن تفصيلاً كما يأتي ذلك إن شاء الله تعالى، ويكفي فيهن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ يعني: في الصفاء، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ في البياض. وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، وكما قال في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ ويكفينا هنا في وصفهن قوله ﷺ في الواحدة منهن: «**إن عليها لسبعين حلة**»، يعني: من ملابس الحرير سندسه وإستبرقه، وأن بياض سوقها ومخه ليُرى من وراء ذلك، وذلك لصفائها وشفوف تلك الحلل التي لا ندرك كنهها، وأن الواحدة منهن لو اطلعت إلى هذه الدنيا لأشرقت المشارق والمغارب ولعبق ريحها الطيب ما بين السماء والأرض، وأن خمارها الذي تضعه على رأسها أفضل وأشرف من كل ما في الدنيا من متاع...

فأي خير أفضل من هذا وأي جمال أحسن من هذا، إن القلم واللسان ليعجزان عن التعبير عن صفات الجنة وأهلها ونسائها، وقد جمع الله تعالى كل ما نعجز عن التعبير عنه مما أعدّ للمؤمنين في قوله عزّ وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وقوله في الحديث

القدسي السابق: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

* * *

❋ ما يعطاه المؤمن من قوة الجماع في الجنة

[٤٩١] عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يُعطى المؤمنُ في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**»، قيل: يا رسول الله أوَيطيق ذلك؟ قال: «**يُعطى قوةَ مائة**».

رواه الترمذي في الجنة (٢٣٥٣) وصححه، وله شاهد بنحوه عن زيد بن أرقم رواه أحمد والدارمي (٢٨٢٨) بسند صحيح، ورواه من طريق الترمذي والدارمي (٢٨٢٨) ابن حبان (٣٦٣٥) بالموارد.

[٤٩٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: أنطأ في الجنة؟ قال: «**نعم والذي نفسي بيده دَحْماً، دَحْماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً**».

رواه ابن حبان (٤١٥/١٦) بسند حسن، وفي الباب أحاديث.

قوله: «دحماً دحماً» معناه: الجماع بدفع وإزعاج وقوة.

هذا من تمام تمتع المؤمن في الجنة بتلذذه بنسائه فجماعه متتابع لا إعياء فيه ولا كسل ولا ضعف، فهو يطوف على نسائه العديدات أي وقت شاء ليس منهن امرأة إلا وهي بكر عذراء كلما واقعها عادت بكراً ولها قُبُلٌ شهي، وله ذكَر لا ينثني كما جاء في حديث، وهن مطهرات فلا وسخ ولا قذر ولا رطوبة كرطوبة نساء الدنيا ولا أثر للبول ولا مني ولا مذي فليس إلا اللذة اللذيذة الفائقة.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ ويأتي شرحها في قسم القرآن.

* * *

❋ عدد ما يُعطاه المؤمن من الحور

جاء في أحاديث، أن المؤمن سيعطى ثنتين وسبعين زوجة مما ينشىء الله واثنتين من نساء الدنيا كما جاء في حديث الصور وغيره، وجاء في الشهيد أنه يعطى سبعين حوراء، إلى غير ذلك، وتقدم أن المؤمن يعطى خيمة من لؤلؤ طولها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً.

وكل ذلك يدل على أن المؤمن سيكون له العشرات من الحور والنساء، وذلك يدل على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال بكثير ويكون قوله ﷺ: **«إن النساء أقل ساكني الجنة»** قبل أن يخرج النساء الموحدات من النار التي هي الأخرى أكثرها النساء بما فيهن الكافرات والموحدات، فإذا خرجن المؤمنات العاصيات بشفاعة الشافعين بقي في النار الكافرات ويكنّ أيضاً أكثر من رجال جهنم.

فلا تعارض بين هذا وبين حديثَيْ: **«اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**، و**«إن أقل ساكني الجنة النساء»** لما عرفت.

❋ ❋ ❋

❋ غناء الحور العين

[٤٩٣] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين، يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائقُ مثلَها يَقُلْنَ نحن الخالداتُ فلا نَبيدُ، ونحن الناعماتُ فلا نبأس، ونحن الراضياتُ فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكُنَّ له»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٨٣) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإنه يتأيد بالآتي:

[٤٩٤] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أزواج أهل الجنة ليُغَنِّين أزواجَهُنَّ بأحسن أصوات سمعها أحدٌ قط، إن مما يُغَنِّين به: نحن الخيِّرات الحِسان، أزواجُ قوم كرام، ينظرون بقُرَّة أعيان، وإن مما يُغَنِّين به: نحن الخالدات فلا تَمُتْنَهُ، نحن الآمِناتُ فلا تَخَفْنَه، نحن المُقيماتُ فلا نَظعَنُه».

رواه الطبراني في الأوسط (٤٩١٤) والصغير (١/٢٥٩/٢٦٠) بسند صحيح.

قوله: «الخالدات» أي: الدائمات. «فلا نبيد»: فلا نفنى ولا ننقطع. «فلا نبأس» أي: لا تصيبنا حاجة ولا فقر.

الحديثان يدلان على أن الحور العين سيغنين لأزواجهن وذلك من أعظم المتع التي ينتظرها المؤمن، فإنه كان قد نزّه سمعه عن أغاني المومسات والعواهر في الدنيا رغم ما كنّ عليه من أصوات حسان تسحر العقول وتأخذ الألباب، فإذا أدخله الله الجنة فسوف يعوضه بالطرب والأغاني بواسطة الحور العين مما لم يسمع بمثله.

* * *

❋ سوق الجنة

[٤٩٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنةِ لسوقاً يأتونها كلَّ جمعة فتهُبُّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسْناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجمالاً فتقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً».

رواه مسلم في صفة الجنة (١٧/١٧٠).

هذا من تمام متَع أهل الجنة ونعيمهم حيث سيجعل الله عزّ وجل لهم مجتمعاً في مقدار كل جمعة، كالسوق يجتمع فيه الأحبة والأقارب والأصحاب ويتذاكرون أيام الدنيا وتهب عليهم ريح من جهة الشمال فتحثو

في وجوههم وثيابهم روائح وعطورات طيبة ونعيم فيرجعون إلى زوجاتهم وقد ترقوا في الحسن والجمال وازدادوا على ما كانوا عليه، وهكذا يجدون نساءهم قد ازددن أيضاً حُسناً وجمالاً، فيا سبحان الله ما أكرم ربنا وما ألطفه بعباده.

* * *

❊ من مشتهيات أهل الجنة الولد

[٤٩٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حَمْلُه، ووضعه، وشبابه، كما يشتهي في ساعة»**.

رواه أحمد (٣/٩/٨٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٨٢)، وابن ماجه (٤٣٣٨)، والدارمي (٢٨٣٧)، وابن حبان (١٦/٤١٧) وسنده صحيح على شرط مسلم.

الجنة لا بول فيها ولا مذي، ولا ودي، ولا مني، ولا قذر الفروج والأرحام ولا ولادة كالعادة لأن النساء مطهَّرات، لكن الله يتفضل على عبده المؤمن في الجنة بما يشتهي فإذا هوى الولد واشتهاه أعطاه الله إياه وأوجده له حالاً بدون عناء حمل أو طلق... بل يكون حمله ووضعه وقوته كما يشتهي ويريد في ساعة واحدة على ما يريد الله تعالى مما لا نعرفه ونتصوره.

* * *

❊ المقارنة بين نعيم الدنيا وبين نعيم الآخرة

[٤٩٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَقَابُ قَوْسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»**.

رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٣) وفي بدء الخلق (٣٢٥٣)، ومسلم وغيرهما.

[٤٩٨] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**».

رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٢) مطولاً، وفي بدء الخلق (٣٢٥٠) مختصراً، ومسلم في الجهاد (١٣/٣٦/٣٧).

وقوله: «قاب قوس» أي: مقدار قوس.

[٤٩٩] وعن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مِثلُ ما يَجعلُ أحدُكم إصبعه هذه** ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ **في اليم، فلينظر بمَ يرجع**».

رواه مسلم في جهنم (١٧/١٩٢).

«اليم»: هو البحر.

لا مناسبة بين الدنيا ومتاعها وبين الجنة ونعيمها إلا كما بين اللؤلؤ والبعر، فالدنيا متاعها قليل وهي آيلة إلى الفناء ثم أيامها كلها فتن ومحن وبلايا ونكبات، بينما الجنة متاعها عظيم ونعيمها وفير وحياتها دائمة، ويكفي في قلة الدنيا بالنسبة للجنة أن مقدار القوس أو موضع السوط في الجنة خير وأفضل من الدنيا كلها وما فيها، وما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يعلق بالإصبع إذا وضع في البحر، فالبحر هو الآخرة وما، يعلق في الإصبع من بلل ماء البحر هو الدنيا.

واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

* * *

❁ من صفات أهل الجنة

[٥٠٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأكلُ أهلُ الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاءٌ كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والحمد كما تُلهَمون النَّفَس»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧/١٧٤).

فمن صفات أهل الجنة أن الله جعلهم مطهَّرين من جميع أقذار الدنيا وأوساخها فلا بول ولا غائط ولا مخاط، فهم في أكل وشرب ولذة ونعيم وما يأكلونه ويشربونه يتفصد منهم رشحاً كالمسك في طيب الرائحة، وهم مع ذلك يسبِّحون الله تعالى ويحمدونه مع كل نفَس من أنفاسهم إلهاماً من الله عزّ وجل وليس تكليفاً.

[٥٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خلق الله عزّ وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧/١٧٨).

قوله: «على صورته» أي: صورة آدم، وليس الضمير عائداً على الله كما قيل، فكل من دخل الجنة يدخلها على صورة آدم وطوله عليه السلام.

[٥٠٢] وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: **«يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثلُ أفئدةِ الطير»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧/١٧٦/١٧٧).

معنى هذا الحديث أن هنالك من المؤمنين من يدخل الجنة وقلوبهم رقيقة ضعيفة شديدة الخوف من الله والهيبة والفزع، فهم من القوم الذين كان

قد غلب عليهم الخوف على الرجاء، وشبّههم ﷺ بالطير وأفئدتها لأن الطير أكثر الحيوان رقة، ولذلك تجدها خائفة فزعة من أدنى شيء.

* * *

❁ الأمة المحمدية أكثر الأمم دخولاً الجنة

[٥٠٣] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وإني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة»** فكبّرنا، ثم قال: **«ثُلُثَ أهلِ الجنة»** فكبّرنا، ثم قال: **«شطر أهل الجنة»** فكبّرنا.

رواه البخاري ومسلم، وتقدم مطولاً في بداية العرض على الله تعالى.

[٥٠٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في قُبّةٍ نحواً من أربعين، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«أترْضون أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة؟»** قالوا: نعم، قال: **«أترْضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة؟»** قالوا: نعم، قال: **«أترْضون أن تكونوا شطرَ أهل الجنة؟»** قال: **«إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا تدخلها إلا نَفْسٌ مُسلمةٌ ما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»**.

رواه أحمد (٤٣٧/٣٨٦/١)، والبخاري في الرقاق (١٧٨/١٧٧/١٤)، ومسلم آخر الإيمان (٩٥/٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٦٤).

في الحديثين بيان أن الأمة المحمدية ستحتل من الجنة نصف سكانها وباقيهم من سائر الأمم الأخرى، وفي ذلك بشارة عظيمة ومزية رائعة لهذه الأمة، ولذلك فرح الصحابة بذلك ورفعوا أصواتهم بالتكبير، بل قد جاء أنهم ثلثا أهل الجنة، وحضرني في هذا حديثان وهما:

[٥٠٥] عن بُرَيدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أهلُ الجنة عشرون ومائةُ صَفٍّ، ثمانونَ منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»**.

رواه الترمذي في الجنة (٢٣٦٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٣٨)، وابن حبان بالموارد (٢٦٣٩)، والحاكم (٨٢/١) وصححه، والذهبي وله شواهد ثلاث أشرتُ إليها في تهذيب الجامع.

[٥٠٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شقّ ذلك على الصحابة فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فقال النبي ﷺ: **«إني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة، بل ثُلُثَ أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة وتُقاسمونهم في النصف الثاني»**.

رواه أحمد (٣٩١/٢) وضَعّفه، ينجبر بما قبله وما بعده فيحسن.

وفي رواية: **«أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة»**.

رواه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند.

فهذا يدل على أن الله عزّ وجل زاده ﷺ فوق النصف، وهو الثلثان، لأن ثمانين صفاً من مائة وعشرين صفاً هو الثلثان. وهذا من عظيم عناية الله عزّ وجل برسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ وذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

* * *

❋ أغلب سكان الجنة الضعفاء

[٥٠٧] عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أُخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيفٍ متضعَّف، لو أقسمَ على الله لأبرّه»**.

رواه مسلم في جهنم (١٨٧/١٨٦/١٧).

قوله: «متضعف» بفتح العين وكسرها والمشهور الفتح، ومعناه: الذي

يستضعفه الناس ويحتقرونه، وعلى الكسر معناه: ضعيف في نفسه متواضع متذلل خامل.

قال النووي: والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء.

[٥٠٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبّ أشعثَ مدفوعٌ بالأبوابِ، لو أقسمَ على الله لأبرّه**».

رواه مسلم (١٨٧/١٧).

«الأشعث»: هو البعيد العهد بالغسل والتسريح. وقوله: «مدفوع بالأبواب» معناه: أنه لا يؤذن له في الدخول بل يُمنع ويُطرد لحقارته عند الناس وهو عند الله بمكان بحيث لو حلف على الله عزّ وجل في إيجاد شيء أو دفعه لأجابه ولأبرّه ولما حنثه لما له عنده تعالى من المنزلة، وكثير من هذا الصنف سيكونون من سكان الجنة، وقد قدّمنا في حديث تخاصم الجنة والنار، أن الجنة قالت: «**ما لي لا يدخلني إلا ضعفَة الناس وسقطهم...**» إلخ.

* * *

❋ إرث المؤمن منزل الكافر في الجنة

[٥٠٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا له منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهلُ الجنة منزلَه**»، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

رواه ابن ماجه (٤٣٤١) وهو آخر حديث فيه، قال في الزوائد: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين وهو كما قال.

في الحديث تفضُّل الله تعالى على عباده المؤمنين، حيث سيورثهم منازل الكفار في الجنة التي حرموا أنفسهم منها، وذلك من تمام إكرام الله تعالى للمؤمنين.

* * *

❁ مَن هم أهل الجنة

سكان الجنة أصناف: مقرّبون، وأبرار، ومن كانت له حسنات وسيئات وكانت حسناته أكثر أو استوت حسناته وسيئاته.

فهؤلاء كلهم من أهل الجنة بشرط الإيمان.

أما المقرّبون والأبرار، فإنهم سادات أهل الجنة وأصحاب الدرجات العلى الذين لقوا الله مطهرين طيبين مغفوراً لهم لا ذنب لهم، فيهم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأصحابهم الصادقون وخاصة صحابة رسول الله ﷺ من آل بيته وزوجاته الأطهار والطاهرات والمهاجرين والأنصار، وفيهم سادات التابعين وأئمة الدين المشهورون والقراء والعلماء الربانيون والمفسرون والمحدثون والعباد والزهّاد، وفيهم أولياء الله بجميع طبقاتهم، وفيهم النساء والرجال...

وقد ذكر الله تعالى هؤلاء في كثير من سوَر القرآن ستأتي مفصَّلة، ومنها الآتي:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ الآية.

وأما الباقون ممن لهم حسنات وسيئات فمَن كانت حسناتهم أكثر كانوا ناجين بلا سابقة عذاب، وقد يُحاسبون حساباً يسيراً وقد يُلامون ويُعاتبون فترجح حسناتهم ويأخذون كتبهم بأيمانهم.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

وأما من كانت سيئاته أكثر، كان هالكاً وسيُحاسب الحساب العسير ويُعذَّب إذا شاء الله، ثم يكون مآله الجنة كما قدّمنا سابقاً.

يبقى من استوت حسناته وسيئاته فهذا من أهل الأعراف، وهم كما قدّمنا سيُحبسون بين الجنة والنار على سور مدة، ثم يدخلون الجنة فهؤلاء هم أصناف سكان الجنة أولهم وآخرهم الناجون منهم والمعذَّبون، وكلهم سيرضى الله عنهم ويتجلى لهم فينظرون إليه ويخلدون في نعيم الجنان بلا نهاية.

* * *

❋ دخول الجنة بمحض رحمة اللّه عزّ وجل

[٥١٠] عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ قال: **«سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عملُه»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمّدني اللّهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»**، وفي رواية: **«واعلموا أن لا يُدْخِلَ أحدكم عمله الجنة»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٧٩/٨٠)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٦١).

[٥١١] ومثله عن أبي هريرة عندهما بلفظ في رواية: **«واعلموا أنه لن ينجوَ أحدٌ منكم بعمله»**، وفي رواية: **«ليسَ أحدٌ يُنجّيه عملُه»**.

[٥١٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا يُدْخِلُ أحداً منكم عملُه الجنةَ، ولا يُجيرُهُ من النار ولا أنا، إلاّ برحمةٍ من الله»**.

رواه مسلم (١٧/١٦١).

قوله: «سَدِّدُوا» من السَّداد: بفتح السين، أي: الزموا الصواب والوسط. وقوله: «وقاربوا» أي: إن لم تطيقوا الأخذ بالأكمل فاطلبوا المقاربة إلى ذلك بلا غلو ولا تقصير.

ودلّت هذه الأحاديث على أن الأعمال الصالحة التي يكسبها المؤمن لا

تُدخله الجنة ولا تُنجّيه وتُجيرُه من النار بنفسها حتى ولو كان رسول الله ﷺ.

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارضُ هذه الأحاديث، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخله بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي: بسببها وهي من الرحمة. وأقول: يصح أن يقال باختصار: «**لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله**» إذا اعتمد عليه ورأى أنه يستحق دخولها بدون ملاحظة رحمة الله تعالى وفضله.

وقوله: «يتغمّدني برحمته» أي: يُلْبِسُنِيها. فليس هنالك إلا فضل الله ورحمته، فإكرامه إيانا وإنعامه علينا وإدخاله إيانا الجنة، كل ذلك فضل منه تعالى لا يجب عليه شيء من ذلك ولو عذبنا مع طاعتنا له لما كان ذلك ظلماً منه، بل هو عدلٌ منه سبحانه كما أنه لو نعَّم الكافر وأدخله الجنة كان له ذلك فلا يُسأل عما يفعل، لكنه تعالى وعد المؤمنين الجنة وأوعد الكافرين النار وهو لا يُخلف وعده، فالمؤمنون سيدخلهم دار نعيمه برحمته، والكافرون والمنافقون سيعذبهم مخلَّدين في النار عدلاً منه.

هذا هو مذهب أهل الحق والسنة والجماعة.

* * *

❋ خلود أهل الجنة في نعيم عند مليك مقتدر

[٥١٣] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصِحُّوا فلا تَسقَموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرَموا أبداً، وإن لكم أن**

تَنْعَمُوا فلا تَبْتَئِسُوا أبداً» فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رواه أحمد (٣١٩/٢) (ح٣٨/٣)، ومسلم (١٧٥/١٧)، والترمذي (٣٠٣١) بسند صحيح على شرط مسلم، ولا عبرة بما ذكره رحمه الله تعالى من إيقاف بعضهم إياه ولم يرفعوه.

ينادي منادٍ ـ يعني من قِبَل الله تعالى ـ. «لا تسقموا»: أي لا يعتريكم سقم. «تشبوا»: أي تدوموا على قواكم فلا يصيبكم كبَر. «ولا تبتئسوا»: أي لا ينالكم بؤس وشدة وفقر.

الحديث يدل على بشارة عظيمة لأهل الجنة، حيث إنهم سيخلَّدون فيها منعمين مكرمين فلا مرض فيها ولا موت ولا هرم ولا فقر ولا شدة ولا شيء ينغص عليهم نعيمهم وحياتهم الأبدية، فهم في نعيم خالد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ...﴾ الآية، وستأتي.

* * *

❋ رؤية المؤمنين ربهم في الجنة وإحلاله عليهم رضوانه

[٥١٤] عن صُهَيْب رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً يريد أن ينجزكموه**»، قالوا: ألم يبيض وجوهنا، ويُثقِّل موازيننا، ويُدخلنا الجنة، ويُجرنا من النار؟ قال: «**فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم**».

رواه أحمد (٣٣٢/٤) و(١٥/٦)، ومسلم في الإيمان (١٧/٣)، وأبو عوانة في صحيحه (٤١١)، والترمذي في الجنة (٢٣٢٩) وفي التفسير (٢٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣٦٢/٣٦١/٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

قوله: «فيُكشَفُ الحجابُ» أي: عن أهل الجنة.

والحديث صريح في تفسير الزيادة في الآية بأنها النظر إلى الله عزّ وجل.

[٥١٥] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياءِ على وجهه في جنةِ عدْن»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي، وتقدم كاملاً.

[٥١٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله عزّ وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبّيك ربنا وسعدَيْك، والخير في يدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِه أحداً من خلقك، فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟ قال: فيقولون: ربنا فأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»**.

رواه أحمد (٨٨/٣)، والبخاري في الرقاق (٢١٢/١٤) وفي التوحيد، ومسلم في الجنة (ج١٦٨/١٧)، والترمذي في الجنة (٢٣٧٢).

أُحِلُّ: بضم الهمزة.

جاءت الأحاديث بالنظر إلى الله الكريم متواترة، فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمس وعشرين صحابياً وهي في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها، واتفق على مدلولها السلف الصالح والأئمة والعلماء من أهل السنّة والجماعة، وأنكر ذلك المعتزلة والشيعة الروافض وأهل الضلالة.

والقرآن الكريم صريح في ذلك كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم كما فسّرها بذلك النبي ﷺ.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾، إن المزيد هو النظر إلى وجه الله المقدس.

وقال العلماء في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فإذا حجب الكفار عنه تعالى، فالمؤمنون لا يحجبون، وهو الذي صرحت به الأحاديث.

فالله عزّ وجل عندما يُتِم نعمته على عباده المؤمنين بإدخالهم الجنة سيناديهم بأنه سيُحِلُّ عليهم رضوانه ويُنزله بهم فلا يكون منه بعده سَخَطٌ أبداً، وذلك يكون بكشف الحجاب والنظر إليه عزّ وجل، فلا يكون شيء أحب إليهم وأقر لأعينهم وألذ عندهم من النظر إليه سبحانه وتعالى، كيف لا وهو المحبوب الحبيب الذي طالما اشتاق إليه المؤمنون والمحبُّون.

ولا شك أن الناس سيتفاوتون في النظر إليه فقد يوجد من ينظر إليه متى شاء. وقد جاء في حديث لابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخدمه، وسرره، مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله تعالى من ينظر إلى وجهه غدوة وعَشية**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾».

رواه أحمد (٥٣١٧)، والترمذي في الجنة، والحاكم (٢/٥٠٩/٥١٠) وهو وإن كان في سنده ضعف فإنه يستأنس به هنا. وقد ذكروا في ترجمة الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه رؤي في المنام فقيل له: ما صنع الله بك؟ فقال: غفر لي، وقال لي: ضُرِبْتَ في، فهذا وجهي فانظر إليه فقد أبحتك النظر إليه.

وفي ترجمة عبدالوهاب الورّاق أحد الزهّاد رحمه الله تعالى، أنه رؤي في المنام فسئل عن حاله فقال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه سبحانه...

وذكروا في ترجمة معروف الكرخي الزاهد المشهور رحمه الله تعالى أنه رؤي جالساً في سرادق العرش قد شخص بصره ينظر إلى الله عزّ وجل لا يطرق، فقيل لرضوان: مَن هذا؟ فقال: هذا معروف الكرخي عبد الله عزّ وجل حباً له فأباحه النظر إليه عزّ وجل.

ذكرت هذه الرؤى وختمت بها هذه الأحاديث الواردة في الجنة تيمُّناً ورجاء أن يختم الله تعالى علينا بالسعادة الكاملة، وأن يمنَّ علينا بالنظر إلى وجهه الكريم المقدّس في جملة عباده المقرّبين والصالحين من أنبيائه ورسله والصفوة من خلقه إنه جواد كريم.

* * *

❋ القرآن الكريم والجنة وأهلها وما سيحظون فيها من نعيم

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وزوجه ومن والاه واهتدى بهداه.

وبعد، فقد تحدّث القرآن الكريم بإسهاب عن الجنة وأهلها وما أعدّ لهم فيها من نعيم وما سيلقونه من حفاوة وتكريم ورضوان، وذكر تعالى أشياء عدة من متعهم ونعيمهم، مما لم يأتِ ذكره في السنّة النبوية أو جاء فيها بلا تفصيل.

فقد جاء فيه من صفات أهل الجنة ما يزيد على السبعين صفة، وجاء في دخولهم الجنة بدون سابقة عذاب أكثر من خمسين آية تفيد الإيمان بالعمل الصالح، وجاء فيه من صفات الجنة وأهلها ونعيمهم الشيء الكثير الذي لم يأتِ أكثره في السنة، كذكر جريان الأنهار من تحت أشجار الجنة وقصورها، فقد ذكر في القرآن في أكثر من ثلاثين مرة، وكخلود الجنة وأهلها ونعيمهم فقد جاء أيضاً ما يقارب الأربعين مرة، وذكر تعالى ألبسة أهل الجنة الحريرية الخضراء ولباسهم الأساورة من ذهب وفضة ولؤلؤ واتكاءهم على الأرائك والسرر متقابلين، وتنوُّع مآكلهم من لحوم وفواكه وثمار مما يتخيرون ويشتهون، وطواف الغلمان والولدان عليهم بالصحاف والأكواب بالمآكل والمشارب فهم مكرمون في شغل فاكهون هم وأزواجهم من الحور العين اللاتي وصفن باللؤلؤ المكنون والياقوت والمرجان واللاتي

لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان قاصرات الطرف في قصورهن وهن مع أزواجهن يجلسن أحياناً متنزهين في ظل ظليل. لهم عيون هيئت لهم، منها التسنيم، والسلسبيل، يشربون منها الرحيق المختوم لا يصيبهم منه لغو ولا إثم وجوههم ناضرة ضاحكة مستبشرة ناظرة إلى ربها، إلى غير ذلك مما فصّلته آيات القرآن كما ستراه.

وبما أن أكثر سوَر القرآن تحدثت عن ذلك بأساليب مختلفة وصفات متنوعة، ارتأيت أن أُفرد ذكر ذلك على حدة كما فعلت ذلك في النار وأهلها ليكون أشوق وألذ...

ويلاحظ أن ما جاء في جهنم وأهلها في القرآن الكريم من الترهيب أكثر بكثير مما جاء في الجنة وأهلها من الترغيب، ولا شك أن لذلك سراً يعلمه الله تعالى ويدركه أهل البصائر والراسخون في العلم بما أعطاهم الله من نور.

وبالله أستعين وعليه أتوكل فهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه أبد الآبدين.

* * *

❋ من سورة البقرة

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

هذه خصال أهل التقوى الذين جعلهم الله عزّ وجل مهتدين سعداء فائزين من أهل الجنة.

فذكر لهم خمس صفات وهي أهم أصول الدين وشرائعه، وهي: الإيمان بالغيب، ويشمل: الإيمان بالله، وملائكته، وما وراء هذا العالم

المادي المشاهد من المغيبات، ثم الإيمان بالكتب الإلهية ويتضمن الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبسائر الأنبياء، ثم الإيمان باليوم الآخر، ويشمل الإيمان بالحشر والحساب والمرور على الصراط... والجنة والنار، ثم إقامة الصلاة، والإنفاق من مال الله عزّ وجل وهي الزكاة.

فهذه الخصال من أهم خصال المتقين أهل الجنة، ولذلك مدحهم في الختام بأنهم على هدى ونور من ربهم، وأنهم المفلحون الفائزون السعداء.

وقال عزّ وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يأمر الله عزّ وجل نبيه ﷺ أن يبشر المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين ذات أشجار وقصور تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنان وذلك أجمل ما يراه الناظر، وأنهم كلما أُعطوا عطاءً ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة وفواكهها، قالوا: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا من قبل هذه المرة وأتوا به متشابهاً في الشكل والمنظر، فاللون واحد والطعم مختلف، ولهم في الجنة التي أُدخلوها زوجات من الحور العين اللاتي تحار العيون في جمالهن وصفائهن وبياضهن وهن مطهرات من أقذار الدنيا كالبول والغائط والحيض والنفاس والبصاق والمخاط وكل الرطوبات والأدناس، كما ستأتي آيات أخرى في وصفهن، وهم مع هذا النعيم دائمون لا يموتون ولا يفنون أبداً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالإتيان بالأعمال الصالحة وهي الفرائض التي كلّفهم الله بها هم أهل الجنة الذين جعلهم الله من سكانها دائمين فيها. فمَن آمن وضمّ إلى ذلك التحلي بكل فرض ونافلة والتخلي عن كل فاحشة وذنب ومات على ذلك، كان من السابقين إلى الجنة فضلاً من الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى بأن من أنفق في مرضاة الله تعالى وأوجه الخير في كل الأوقات من ليل أو نهار في السر والعلن كان لهم أجر وثواب عند الله تعالى وهو الجنة ونعيمها ولا خوف عليهم يوم يخاف الناس في موقف القيامة... ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا بل يصبحون في أمن وأمان وفرح وسرور.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

أي: الذين صدقوا بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ وحققوا إيمانهم بالإتيان بالأعمال الصالحة وحافظوا على صلواتهم وأدّوا زكاة أموالهم كان لهم الأجر العظيم عند ربهم وليس ذلك إلا الجنة وسيكونون في أمان من عذاب الله وأهوال يوم القيامة فلا يخافون ولا يحزنون.

* * *

ومن سورة آل عمران

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا نبيي لمن انخدع بالدنيا وغفل عن الآخرة: أأخبركم بخير ممّا زُيّن للناس من زهرة الدنيا ونعيمها ومشتهياتها الزائلة... للمتقين يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وبين قصورها وأشجارها وأرجائها الأنهار من عسل ولبن وخمر وماء، ماكثين فيها أبد الآبدين، ولهم فيها نساء وفتيات يأخذن بالألباب ويبهرنها لحسنهن وصفائهن

وبيضهن مطهرات من كل خبث وقذر ودنس ووسخ، ولهم مع ذلك رضوان من الله عزّ وجل الذي لا سخط بعده أبداً، ثم ذكر تعالى بعض صفات هؤلاء المتقين.

فأخبر عنهم بأنهم يقولون: يا ربنا إننا آمنا بك وبكتبك وبرسلك فاغفر لنا بفضلك ما فرط لنا من ذنوبنا ونجّنا من عذاب نارك، ثم بيّن تعالى أنهم صابرون على البأساء والضراء، وجميع البلايا والآفات وعلى الطاعات، وعن إتيان المناهي والمنكرات وأنهم صادقون في إيمانهم مطيعون لله في الشدة والرخاء وأنهم يبذلون أموالهم في أوجه الخير وأنهم يتحرّون وقت السحر فيقومون وقته ويستغفرون الله عزّ وجل.

وقال جلّ علاه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾.

يأمر تعالى عباده بالمبادرة إلى ما يوجب لهم المغفرة منه بالإكثار من الطاعة وامتثال أوامره تعالى وإلى ما يوجب دخول جنة واسعة مترامية الأطراف عرضها كعرض السماوات السبع والأرضين لو مُدّت وأُلصق بعضها ببعض، هذا عرضها فكيف يكون يا ترى طولها وقد هيئت لأهل التقوى الذين اتصفوا بالإنفاق في اليسر والعسر والشدة والرخاء والذين يمسكون غيظهم عند غضبهم فلا ينتقمون، والذين يعفون عمن أساء إليهم والله يحب المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة النبيلة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

جاءت الآيتان هنا تتحدثان عن المذنبين التائبين وجزائهم عند الله تعالى يوم القيامة، فأخبر تعالى بأن من صدرت منه معصية عظيمة الجرم كالزنا مثلاً، أو دون ذلك كالنظرة واللمسة، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما، ثم تذكر عظمة الله ووعيده فأقلع وتاب وتيقن أنه لا يغفر الذنوب إلا الله ولم يُقِم على الذنب وهو عالمٌ بقبحه، فمَن اتصف بذلك كان جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من ذنوبهم كبيرة كانت أم صغيرة، ولهم مع ذلك جنات تجري خلال أشجارها وقصورها الأنهار المتنوعة عسلاً ولبناً وخمراً وماءً ماكثين فيها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله تعالى.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

يخبر تعالى عباده بأن من أُبعد عن النار وكان من أهل اليمين وحظي بدخول الجنة، كان من الفائزين السعداء الذين جنّبوا جميع أهوال يوم القيامة ونالوا كل خير ونعيم، فما أجمل هذه الآية الكريمة وما أعظم ما تحمل من بشارة جعلنا الله تعالى من أهلها بمنّه ورحمته وفضله.

وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ...﴾ الآية. الآيات جاءت في فضل الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى وأن الله عزّ وجل تفضّل عليهم بحياتهم بعد قتلهم وحفظ أجسامهم من البلى وأنهم يرزقون وينعمون ويأكلون من ثمار الجنة كما أخبر النبي ﷺ بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش، وأنهم فرحون بما هم فيه من النعمة ويستبشرون بإخوانهم المجاهدين بما سيكونون عليه بعد موتهم إن استشهدوا، فهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا والأهل والأولاد وفضل الجهاد والمجاهدين تقدم في الجهاد.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

جاءت الآية عقب تحذير الله تعالى عباده من الاغترار بتنقل الكفار وتغلبهم في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب والاستعلاء على

الغير، فإنهم يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول ذلك النعيم ويكون مصيرهم إلى النار، أما المتقون من المؤمنين فلهم النعيم المقيم في جنات النعيم دائمين فيها أبداً ضيافة وكرامة من عند الله وما عنده تعالى من الجزاء والكرامة للأخيار الأبرار خير ممن يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل.

وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

الآيات جاءت من تتمة الكلام على أولي الألباب الذين ينظرون إلى هذا الكون بطريق التفكر والاستدلال فيكون لهم ما فيه آيات ودلائل على الله عزّ وجل، ثم ذكر لهم تعالى بعض صفاتهم كذكرهم له في كل أحوالهم وتفكرهم في خلق العالمين العلوي والسفلي واعترافهم بأنه تعالى ما أوجد ذلك عبثاً ثم نزهوه عن ذلك وسألوه أن يحفظهم من عذاب النار لأن من أدخله إياها كان ذليلاً مهاناً، ثم بعد ذلك نادوا ربهم بأنهم سمعوا داعياً يدعو إلى الإيمان وهو رسولنا الكريم ﷺ فآمنوا به واتبعوه، ثم والوا دعواتهم فسألوا الله عزّ وجل أن يغفر لهم ذنوبهم كبيرها وصغيرها وأن يُلحقهم بالصالحين وأن يؤتيهم ما وعدهم به على ألسنة رسل الله عليهم السلام وهي الجنة، وأن لا يفضحهم يوم القيامة كما سيفضح الكفار. فاستجاب الله دعواتهم وقال لهم: إني لا أُبطل عمل عامل خيراً ذكراً كان العامل أم أنثى فإنكم بعضكم من بعض، فالأنثى من الذكر والذكر من الأنثى، فكما أنتم مشتركون في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الشرائع والأجر والإكرام في الجنان.

ثم بيّن تعالى فضل المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وتحمّلوا الأذى من أجل دين الله تعالى وجاهدوا في سبيل الله واستشهدوا فسيَمْحُوَنَّ

ذنوبهم ويدخلهم جنات النعيم جزاء من عنده تعالى، والله عزّ وجل عنده حسن الجزاء، وهي الجنة.

* * *

❊ ومن سورة النساء

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

جاءت الآية خاتمة لأحكام المواريث فأخبر تعالى أن ما تقدم من أحكام الفرائض هي شرائع الله عزّ وجل التي حدّها لعباده ليعملوا بمقتضاها ولا يعتدوها أو ينكروها أو يعترضوا على مُشَرِّعها كما هو حال كثير من الناس اليوم، وأخبر تعالى أن من أطاع أمر الله فيما حكم وأمر رسول الله ﷺ فيما بيّن واستسلم وانقاد لأحكام الشارع الحكيم يُدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وذلك هو الفلاح والسعادة العظمى.

وقال جلّ علاه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن تتركوا أيها المؤمنون كبائر الذنوب والفواحش التي نهيتكم عنها، نغفر لكم صغائر ما أتيتم منها ونتفضل عليكم بأن ندخلكم الجنة التي هي دار الكرامة والنعيم وهو المدخل الكريم ونعم المدخل هي.

والآية الكريمة نص في أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، وهذا الذي نطقت به السنّة النبوية في عدة أحاديث، وهو فضل عظيم تفضّل الله تعالى به على عباده المؤمنين فإن الإنسان وإن حاول التنصُّل من السقطات لا يقدر على ذلك، فتكرّم سبحانه على عباده بغفرانها طالما تركت الكبائر خوفاً من الله وتعظيماً لحدوده.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

بعد أن أخبر تعالى بمآل الأشقياء أعقبه بمآل وعاقبة السعداء وأنه سيُدخلهم فضلاً منه جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها بلا أخاديد، تجري لهم حيثما شاؤوا وأينما أرادوا مقيمين فيها بلا موت ولا نهاية ولهم فيها زوجهات مطهّرات من كل قذر فلا بول ولا مذي ولا مني ولا حيض ولا نفاس ولا رطوبة ولا رائحة الآباط الكريهة ولا بصاق ولا مخاط، بل هن حسان جميلات فاتنات طيبات مثل اللؤلؤ والمرجان في البياض والصفاء، واسعات العيون مع شدة سوادها، وسيُدخلهم ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس لا حر فيه ولا برد.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى بأن من يمتثل ما أمر الله به ورسوله، ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإنه سبحانه وتعالى سيُسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين والأبرار أصحاب المنازل والدرجات العالية، وهم الأنبياء الأطهار والصدّيقون الأبرار، وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء وباقي عباد الله الصالحين، ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ذلك الفضل من الله، أي: ما أعطيه أولئك المطيعون من الأجر العظيم، ورفقة أولئك المقربين الأخيار إنما هو بمحض فضل الله تعالى، وكفى به تعالى عليماً بمن يستحق الفضل والإحسان.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

جاءت الآيتان الكريمتان في المفاضلة بين المجاهدين والقاعدين وبيّنت أنهما لا يستويان في الفضل والأجر، وأن المجاهدين بالمال والنفس فضّلهم الله على القاعدين بلا عذر أجراً عظيماً وثواباً وافراً وهو قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة، وقد قدّمنا حديث: «**إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يحتمل أن يراد به كلاً من المجاهدين والقاعدين من أهل الأعذار، ويحتمل أن يراد به كل القاعدين ممن لا يجب عليه الجهاد، وأن الجميع لهم الجنة الخارجون بجهادهم والقاعدون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ونيتهم الصادقة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

إن المؤمنين الصالحين سيبوئهم الله دار النعيم التي تجري من تحت أشجارها وبيوتها الأنهار مخلّدين فيها بلا نهاية وذلك وعد منه تعالى لا شك فيه لأنه لا أحد أصدق قولاً منه تعالى فإنه إذا وعد وفى.

وقال عزّ وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

يعني: مَن كان مؤمناً وعمل الأعمال الصالحة المأمور بها والمرغّب فيها سواء كان ذكراً أم أنثى لاستواء الجميع في الديانة والشرائع، فأولئك يُدخلهم الله تعالى الجنة فضلاً منه ولا يُنقصهم شيئاً من أعمالهم ولو كان شيئاً حقيراً مثل النقرة التي تكون في نواة التمرة.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

جاء هذا الاستثناء من المنافقين الذين سيكون مآلهم الدرك الأسفل من

النار، فمَن تاب وآمن منهم وأصلحوا أعمالهم وتمسكوا بكتاب الله ودينه وأخلصوا عقائدهم وأعمالهم لله تعالى ولم يبتغوا بها غيره عزّ وجل، فأولئك سيكونون في زمرة المؤمنين يوم القيامة وسوف يعطي الله المؤمنين الأجر الكبير وهو الجنة ونعيمها.

ويلاحظ أنه تعالى لم يقيد هنا المؤمنين بالصلاح، بل أطلق ليفيد أن كل المؤمنين سيدخلون الجنة، إما مع السابقين كأهل الإيمان والصلاح، وإما مع اللاحقين الذين سينفذ فيهم وعيد الله، ثم يلحقون بإخوانهم بشفاعة الشافعين ورحمة الله تعالى.

* * *

ومن سورة المائدة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

جاءت الآية في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل حيث كان بعث بأمر من الله اثني عشر نقيباً للتجسس على الكنعانيين، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما ذكره الله هنا، فقال لهم: اذهبوا فإني معكم أنصركم وأعينكم لئن أديتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصدقتم برسلي وعظمتموهم ونصرتموهم وأنفقتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي لأمحون عنكم ذنوبكم وأدخلنكم جناتي التي تجري الأنهار من تحت غرفها وأشجارها، فهذا وعد من الله تعالى لبني إسرائيل، لكنهم لم يقوموا بذلك ولم يمتثلوا ما أمر الله عزّ وجل به فباؤوا بخزي منه وغضب.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

جاءت الآية تتحدث عن جماعة من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ

قيل: من الحبشة، وقيل: من غيرهم، فلما سمعوا القرآن خشعوا وبكوا واعترفوا بحقيّته فآمنوا من حينهم، فأخبر تعالى بأنه سيجازيهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، وذلك الأجر والثواب هو جزاء مَن أحسن عمله وأصلح نيته.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

جاءت الآية تتحدث عما سيقع يوم القيامة لسيدنا عيسى عليه السلام مع الله عزّ وجل حيث سيناديه على رؤوس الخلائق توبيخاً للنصارى وتبكيتاً لهم فيقول له: يا عيسى أأنت دعوت الناس لعبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ فيجيبه ـ أي: عيسى عليه السلام ـ منزهاً له: ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله، فلو كنتُ قلتُه فقد علمتَه لأنك تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه فما قلت لهم إلا ما أمرتني به من عبادتك وحدك، ثم ختم قوله للّه تعالى: إن تعذبهم فأنت مالكهم وهم عبيدك، وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره. بعد ذلك يقول الله عزّ وجل: هذا يوم القيامة اليوم الذي ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء، فلأولئك الصادقين اليوم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ونالوا مع ذلك رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أعطاهم، وذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم.

* * *

❋ ومن سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في الآية الكريمة أن المؤمنين الصالحين هم أهل الجنة الماكثون فيها بدون نهاية، وأن الله عزّ وجل سينزع ما كان في قلوبهم من بغض وحقد ويطهر صدورهم من كل ذلك ويبدلها بالمحبة والتعاطف، وأنهم عند دخولهم الجنة ورؤيتهم ما فيها مما يبهر عقولهم من متع ونعيم يحمدون الله تعالى على ما وفقهم لما وصلوا به إلى تلك السعادة ويحلفون بأن رسل الله قد جاؤوا بالحق عن الله تعالى، ثم تناديهم الملائكة أن هذه الدار هي الجنة التي ورّثكم الله إياها بسبب إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الدنيا.

* * *

❋ ومن سورة الأنفال

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون، وقد ذكر تعالى لهم هنا خمس صفات، ثلاث من صفات القلوب وهي: الوجل والخوف عند ذكر الله عزّ وجل، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات وسماعها، والاعتماد على الله في كل شيء.

وصفتان من أعمال الجوارح، وهما: إقامة الصلاة بأن تؤدّى في أوقاتها مع توفُّر شروطها وفرائضها وسنّتها، وأداء الزكاة من المال الحلال لأربابها ومستحقيها، فهؤلاء هم المؤمنون حقيقة لأنهم ما تحققوا بهذه الصفات حتى كانوا متحققين بغيرها من شعب الدين تحلياً وتخلياً، وقد هيّأ الله تعالى لهم منازل رفيعة في الجنة مع تقدم محو ما فرط منهم من ذنوبهم ثم رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾.

جاءت الآية الكريمة تشيد بفضل المهاجرين والأنصار، فالذين هاجروا ديارهم وأوطانهم وجاهدوا في سبيل الله هم المهاجرون وأصحاب السبق إلى الإسلام، والذين آووا من هاجر إليهم وآثروهم على أنفسهم ونصروا النبي ﷺ هم الأنصار سكان المدينة من الأوس والخزرج، وكلا الصنفين مؤمنون كاملون، لهم من الله مغفرة لذنوبهم ورزق كريم وهو الجنة ونعيمها، وهؤلاء يعتبرون الرعيل الأول في الفضل والتقوى والصلاح والدرجات العلى في الآخرة لا يلحقهم لاحق ولا يسبقهم سابق، جعلنا الله تعالى ممن يكون معهم بمحبتنا لهم.

* * *

ومن سورة التوبة

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

الآية الكريمة تتحدث عن الصحابة الأبرار الذين طهّروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان وطهّروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان وبذلوا أموالهم وأنفسهم للجهاد في سبيل الله، فهؤلاء أعظم أجراً وأرفع ذكراً من سُقاة الحج وعُمّار المسجد الحرام مع بقائهم على شركهم، وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم يبشرهم المولى جلّ علاه برحمة عظيمة ورضوان كبير من رب عظيم وجنات عالية لهم فيها نعيم دائم لا زوال له فهم ماكثون فيها إلى ما لا نهاية، والله عنده لهم ثواب عظيم تعجز العقول عن وصفه.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان، ووعدُه حقٌّ، بإدخالهم الجنان التي تجري الأنهار من تحت أشجارها لابثين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ولهم فيها منازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والإقامة ثم رضوان الله تعالى وهو أكبر من كل ذلك، فذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

جاءت الآيتان بعد التحدث عن المنافقين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف عن الجهاد، وهم النساء والمرضى العجزة الذين تخلّفوا في البيوت.

فأخبر تعالى بأن المؤمنين بالضد من ذلك حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والقرب إليه، فإن تخلف أولئك ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم، وهم الرسول الكريم عليه السلام ومن آمن معه من صحابته الأوفياء فلهم من الله منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة، وأولئك هم الفائزون بالمطلوب أعدّ الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين وحدائق تجري من تحت قصورها الأنهار لابثين فيها أبداً، ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

في الصحابة سابقون ولاحقون، فالسابقون هم الذين أسلموا ونصروا وجهدوا في أول الإسلام قبل فتح مكة المكرمة وكان منهم المهاجرون والأنصار.

واللاحقون من أسلم يوم الفتح فما بعده، وكل هؤلاء ومن جاء بعدهم ممن اتبع طريقهم وسار على نهجهم مرضي عنهم من قِبَل الله لإيمانهم وطاعتهم لله تعالى راضون عن الله لما أجزل لهم من الثواب وأعدّ

لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار مقيمين فيها من غير انتهاء، وذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل رائع، فقد مثّل تعالى جزاء المؤمنين بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله، صورة عقد فيه بيع وشراء، ولذلك قال تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ. . .﴾ إلخ، أي: يجاهدون لإعلاء كلمة الله فيقتلون أعداء الله ويُقتلون شهداء وعدهم الله تعالى بذلك وعداً قاطعاً ووعداً مثبتاً في الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن ولا أحد أوفى من الله، فهو لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أي: أبشروا بذلك البيع الرابح، وذلك هو الفوز والظفر العظيم والسعادة الكبرى.

وقال جلّ ذكره: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

فهذه تسع صفات استحق بها أهلها الجنة بفضل الله تعالى، فهم رجّاعون إلى الله تعالى من معصيته إلى طاعته مثابرون على عبادته تعالى والقيام بأداء حقوقه يحمدونه في السراء والضراء، مداومون على الصيام أو السياحة للجهاد في سبيل الله راكعون للّه ساجدون وما أعظمها من قربة، آمرون بالمعروف ناصحون لخلق الله ناهون عما حرّم الله ساعون في إصلاح المجتمع وهم مع ذلك حافظون لما حدّه الله عزّ وجل فلا يتعدون حدوده بانتهاك ما حرّم وترك ما أوجب.

فهؤلاء كلهم من أهل الجنة ولذا ختم الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أخبرهم بما يسرُّهم مما سيؤلون إليه من نعيم الجنان.

* * *

ومن سورة يونس

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

معناه: أخبر المؤمنين بما يسرُّهم ويظهر أثره على بشرتهم من أن لهم عند الله سابقة ومنزلة رفيعة بما قدّموا من صالح الأعمال.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

معناه: إن المؤمنين الصالحين يدلهم الله عزّ وجل على طريق الجنة بسبب إيمانهم أو يزيدهم قوة في إيمانهم، وسيحظون بالجنان التي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ويكون دعاؤهم فيها التسبيح والتحميد وتحية بعضهم بعضاً سلام عليكم، وآخر ما يدعون به أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: للمؤمنين الذين أحسنوا بالأعمال الصالحة مضافة إلى إيمانهم الحسنى وهي الجنة ويزيدهم الله عزّ وجل عليها النظر إلى وجهه الكريم كما جاء مبيناً في حديث مسلم وقد تقدم، ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري الكفار، كما أنه لا تصيبهم ذلة ولا هوان، فأولئك هم سكان الجنة هم فيها دائمون فلا انقراض لنعيمها ولا زوال ولا نهاية.

وقال عزّ من قائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: انتبهوا أيها الناس فاعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، وهؤلاء

الأولياء هم الذين صدقوا الله ورسوله وكانوا متحققين بتقوى ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فلهم البشرى، وما يسرهم في الدنيا بالرؤى الصالحة يرونها أو تُرى لهم كما جاء في صحيح مسلم، وكذا عند احتضارهم يبشرون برضوان الله ورحمته وفي الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم ولا إخلاف لوعد الله تعالى، ذلك هو الظفر بالمقصود والفوز الذي لا فوز بعده.

* * *

❋ ومن سورة هود

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح والإخبات وهو الخشوع والانقطاع لعبادة الله والاطمئنان إلى وعده تعالى، فأولئك هم أهل الجنة المنعَّمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: إن أهل السعادة الذين سبقت لهم من الله العناية هم في الجنة دائمين فيها دوام سماوات وأرض الآخرة، فهي دائمة مخلوقة للأبد عطاء غير مقطوع عنهم بل هو ممتد إلى ما لا نهاية.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد شاء لهم الخلود والدوام.

* * *

❋ ومن سورة الرعد

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

فهذه أوصاف تسع، وصف بها ذوي العقول من ساكني الجنة فهم أتقياء صالحون أوفياء للعهود لا ينقضون ويفسخون المواثيق، ويصلون ما أمر الله تعالى بوصله من الأرحام وغيرهم، ويخشون الله عزّ وجل، ويخافون سوء حسابهم، ويصبرون على عبادة الله تعالى، وعلى ما ينزل بهم من الآفات والبلايا، وعن المعاصي طلب رضاء الله عزّ وجل، يضاف إلى ذلك محافظتهم على الصلاة وإيتاء الزكاة، ويدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون من أساء إليهم بالسيئة فهؤلاء لهم سعادة الآخرة، وأن الله تعالى سيتفضل عليهم ويُدخلهم دار نعيمه ويزيدهم تفضلاً منه إلحاق مَن كان مؤمناً من آبائهم وأبنائهم وأزواجهم بهم إكراماً لهم وزيادة في سرورهم وقرّة أعينهم. فيا لها من كرامة، ويا له من فرح وسرور أكرمنا الله تعالى بذلك بفضله، آمين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿طُوبَىٰ﴾ قيل: هي الجنة، وقيل: شجرة فيها، وقيل: فرح وقرة عين.

وقوله: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: له مرجع حسن وهو الجنة.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ﴾.

أي: صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار، ثمرها دائم لا ينقطع، وظلها كذلك لا تنسخه الشمس، لأنه لا شمس هنالك ولا قمر، فتلك الجنة هي عاقبةُ المتقين ومآلهم.

* * *

ومن سورة إبراهيم

قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وأدخل الله المؤمنين الصالحين جناته التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها دائمين فيها بإذن الله تعالى تُحييهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام.

* * *

ومن سورة الحِجْر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الغنّاء والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر واللبن والعسل، ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، وأزال الله تعالى ما كان في قلوبهم من حقد وبغضاء وشحناء أخوة متحابين على سرر متقابلين وجهاً لوجه لا يصيبهم فيها إعياء ولا تعب ولا يُخرَجون منها ولا يُطرَدون، نعيمهم خالد وبقاؤهم دائم.

* * *

ومن سورة النحل

قال جلّ جلاله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أخبر تعالى بأنه كان إذا سُئل المؤمنون ماذا أنزل الله؟ قالوا: أنزل خيراً؛ أنزل القرآن والهدى، ثم أخبر تعالى بأنه سيتفضل على المحسنين الأتقياء بجزائهم في الدنيا ثم في الدار الأخرى التي هي خير ولنعم الدار داراً للأتقياء لهم فيها بساتين يتمتعون فيها بما يشاؤون، ومثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم طيبون قد تطهّروا من دنس الشرك والفواحش فتسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة، ويقولون لهم: ادخلوا الجنة فهنيئاً لكم بما قدّمتم في الدنيا من صالح الأعمال.

* * *

❋ ومن سورة سبحان

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى في بيان مزايا القرآن الكريم وأنه يهدي لأقوم طريق وأوضح السبل ولما هو أعدل وأصوب ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم وهو جنات النعيم ولا أعظم منها جزاءً.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾، ثم قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

معناه: أن من أراد الآخرة وما فيها من النعيم المقيم وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان، فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص والعمل الصالح والإيمان كان عملهم مقبولاً

عند الله مثاباً عليه، وللآخرة أعظم درجات من دار الدنيا لأن في الجنة ما لا يوصف من النعيم مما هو خارج عن مستوى عقولنا.

* * *

ومن سورة الكهف

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن مقاصد هذا الكتاب العظيم وهو أنه أنزله الله على نبيه ﷺ ليخوف به الكافرين من عذاب شديد من عنده تعالى ويبشر المؤمنين الصالحين أن لهم الجنة وما فيها من النعيم الخالد دائمين فيه أبد الآبدين.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

هذا أول موضع ذكر الله تعالى فيه ما سيعطيه لأهل الجنة من أساور الذهب واللباس الأخضر من نوعَيْ الحرير السندس وهو الرقيق منه والإستبرق وهو غليظه، وأنهم سيكونون متكئين على الأرائك وهي الأسرّة المُكَلَّلة بالدر والياقوت المزيّنة بالثياب والستور وعليها الحجال.

ونعم هذا الجزاء، جزاء المتقين وحَسُنَتْ الجنة منزلاً ومقيلاً لهم.

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

معناه: إن الذين آمنوا وعملوا بما يرضيه من القربات، لهم أعلى

الدرجات في الجنة، وهي جنة الفردوس، فهي منزل ومستقر لهم ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحوُّلاً.

وهذا الموضع أيضاً، هو أول ما ذكر فيه الفردوس، وقد تقدم بيانه في قسم السنة.

* * *

❊ ومن سورة مريم

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

جاء الاستثناء من الخَلْفِ السيىء الذي جاء بعد المُنعَم عليهم، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا.

فمَن رجع إلى الله تعالى منهم وعمل عملاً صالحاً فأولئك سيحظون بدخول الجنة ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، وهي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها غيبياً، إن وعده تعالى بذلك آت وحاصل لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام لكنهم يسمعون تسليم الملائكة عليهم، ولهم في الجنة ما يشتهون من أنواع المطاعم والمشارب بكرة وعشياً بدون كدٍّ ولا تنغُّص ولا انقطاع، هذه الجنة التي وُصفت هي التي نورثها لعبادنا المتقين.

وقال جلّ علاه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

معناه متعلق بما سبق، وهو: فلا تعجل في طلب هلاك الكفار فإنه لم يبقَ لهم في الدنيا إلا أيام وأنفاس نعدها لهم عداً، ثم يصيرون إلى عذاب شديد، وذلك سيكون يوم نحشر المتقين إلى ربهم مُعزَّزين مكرَّمين راكبين على النوق، كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

* * *

ومن سورة طه

قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى: ومَن يلقى الله مؤمناً موحداً وقد أتى بالمأمورات وترك المنهيات فأولئك المؤمنون العاملون الصالحون لهم المنازل الرفيعة عند الله وهي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات والمساكن الطيبات تجري من تحت غرفها وسررها أنهار الجنة ماكثين فيها دوماً لا يخرجون منها وذلك ثواب مَن تطهر من دنس الكفر والمعاصي.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

أي: من قدّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان فلا يخاف يوم القيامة ظلماً بزيادة على سيئاته ولا بخساً ونقصاً لحسناته، بل سيجازيه الله الجزاء الأوفى والرضا الكامل.

* * *

ومن سورة الأنبياء

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين سبقت لهم السعادة منا هم عن النار مبعَدون لا يصلون حرها ولا يذوقون عذابها وهم في الجنة دائمون لهم، فيها ما تشتهيه أنفسهم لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمن من ذلك وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة تهنئهم قائلين: هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور.

ومن سورة الحج

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: إن الله يُدخل المؤمنين الصالحين دار نعيمه التي تجري الأنهار تحت أشجارها وغرفها.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

إن الله عزّ وجل سيتكرم على المؤمنين الصالحين بإدخالهم جنته التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها ويزينهم بأساور من الذهب واللؤلؤ ويُلبسهم فيها ملابس من حرير، وأرشدوا في الجنة إلى الكلام الطيب إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، وهدوا إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين.

* * *

ومن سورة المؤمنون

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ذكر تعالى هنا سبع صفات للمؤمنين ورثة الفردوس الخالدين فيها، وهي: خشوعهم في صلاتهم، وإعراضهم عن لغو الكلام إذا سمعوه أو

مرُوا عليه، وأداؤهم زكاة أموالهم، وحفظهم لفروجهم من الزنا واللواط والتكشف، ومراعاتهم للأمانات والعقود، ومحافظتهم على صلواتهم في أوقاتها بشروطها وأركانها.

فمَن اتصف بهذه الصفات كان من ورّاث الفردوس وعداً من الله، والله لا يُخلف الميعاد.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

إن الأتقياء السعداء أهل الجنة مع اتصافهم بالأخلاق الكريمة ومثابرتهم على الأعمال الصالحة لا يعجبون بأعمالهم ولا يرقى ذلك في نفوسهم ويأمنون من عذاب الله وغضبه، بل هم مع ذلك يخشون الله عزّ وجل ويشفقون من عذابه وتوجل قلوبهم أن لا يتقبل منهم ما عملوه، فهم مع طاعتهم وصلاحهم يسيئون الظن بأعمالهم خوفاً من عدم قبولها فهم يسابقون في الطاعات لينالوا أعلى الدرجات وهم الجديرون بها.

[٥١٧] وقد تقدم لنا حديث سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون، وفي رواية: أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «**لا يا بنتَ الصِّدِّيق، ولكنهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدّقون وهم يخافون أن لا تُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**».

رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً. وفي قوله ﷺ: «**يصومون، ويصلُّون، ويتصدّقون**» إشارة إلى أن هذه الطاعات من أفضل القربات وأجلّها وأعلاها.

* * *

ومن سورة النُّور

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

وهؤلاء أقوام آخرون من أهل الجنة والسعادة وهم عمّار بيوت الله والمساجد التي هي أشرف البقاع، فهم يسبّحون الله تعالى له فيها صباحاً ومساءً ولا يشغلهم عن ذكر الله تعالى وأداء الصلاة في أوقاتها بالمساجد وأداء الزكاة شيء من مشاغل الحياة لا تجارة ولا صناعة ولا غيرهما، لأنهم يخافون يوم الحساب ذلك اليوم الذي تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم، وسيجزيهم الله عزّ وجل بأحسن الجزاء وهو الجنة ويتفضل عليهم بالزيادة مما لا تسعه العقول ويعطي من يشاء من خلقه عطاء واسعاً لا حدود له.

* * *

ومن سورة الفرقان

قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

جاءت الآيتان بعد ذكر حال الأشقياء الكفرة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول الله تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوس وتغيُّظ وزفير ويلقون في أماكنها الضيقة مقرَّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده.

كانت لهم ثواباً ومرجعاً، لهم فيها ما يريدون ويشتهون من النعيم ماكثين فيها أبداً سرمداً، وهذا الجزاء كان وعداً على الله، وهو حقيق بأن يُسأل ويُطلب.

وقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

لما بيّن تعالى حال الكفار وأنهم في خسران وخيبة، ذكر أهل الجنة بأنهم في غاية السرور والحبور، فهم خير من الكفار مستقراً ومأوى وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة والاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار الفجّار في دركات الجحيم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

جاءت هذه الآيات بأجمع ما جاء في حلية الصالحين المتقين السعداء سكان الجنان، فإنه عزّ وجل ذكر لهم ههنا أربع عشرة خصلة ما بين صفات ثبوتية وبين صفات سلبية وهي:

مشيهم مشية المتواضعين أهل السمت والمروءة، وعدم مقابلتهم الجاهل السفيه بسفاهته، وقيامهم بالليل للتهجد لله وتعالى، وسؤالهم الله

عزّ وجل صرف النار عنهم، ووسطيتهم في الإنفاق من غير تبذير ولا تقتير، وإفرادهم الله عزّ وجل بالعبودية وبعدهم عن الكفر والشرك به تعالى، وتنزههم عن إراقة دماء الأبرياء، وبُعدهم عن ارتكاب فاحشة الزنا، وتوبتهم ورجوعهم إلى الله تعالى عند تلوتهم بالذنوب والآثام، وحمايتهم أنفسهم عن شهادة الزور أياً كان هذا الزور، وإذا مروا باللغو والباطل مروا عليه مر الكرام لا يتدنسون بسماعه ولا برؤيته، وإذا ذكروا بآيات الله تعالى تذكروا ووجلوا وليسوا كعبدة الهوى يخرُّون عليها صماً وعمياناً، وسؤالهم الله عزّ وجل الأزواج الصالحات والأولاد المهتدين لتقر بذلك أعينهم، وسؤالهم الله تعالى أن يكونوا أئمة للمتقين. فهذه صفات تتعلق بجميع تصرفاتهم وسلوكاتهم سواء مع الله تعالى أم مع أنفسهم أم مع عباد الله تعالى فهم في ذلك المثل الأعلى.

فهؤلاء سيجزون وينالون الدرجات العالية ويتلقون بالتحية والسلام من الملائكة الكرام، مقيمين في ذلك النعيم فلا موت ولا خروج فما أحسنها مقراً وما أطيبها منزلاً.

* * *

ومن سورة القصص

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

يقول عزّ وجل: إن الدار الآخرة وهي الجنان ونعيمها نجعلها للمتقين المتواضعين الذين لا يريدون في هذه الحياة التكبُّر على عباد الله والطغيان في الأرض والفساد، فالعاقبة المحمودة إنما هي للذين يتقون الله ويخشونه ويتواضعون له تعالى ولعباده المؤمنين.

* * *

ومن سورة العنكبوت

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾.

معناه: من كان يعترف بالآخرة وعمل لها ورجا ثواب الله، فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله عزّ وجل حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب، وكل ما هو آت قريب.

قال العلماء: إن هذه الآية هي أرجى آية للمحبين وتسلية لهم، وفيها وعدٌ لهم بالخير في دار النعيم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

أي: والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لنمحُوَنَّ عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم ولنجزينهم بأحسن أعمالهم الصالحة.

وفي الآية الكريمة ككثير من أخواتها دليل على أن المؤمن الصالح لا يخلو من سيئات سيكفرها الله تعالى عنه بفضله وبكرمه، والظاهر أن هذه السيئات هي من قبيل الصغائر وقد تكون كبائر.

وقال عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل لننزلنهم أعالي الجنة ومنازل وغرفاً رفيعة تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها ماكثين فيها أبداً ونعمت تلك المساكن العالية أجراً لهم، ثم ذكر لهم صفتين هامتين، وهما: أنهم الذين صبروا وتحمّلوا مشاق الحياة وطاعة الله ورسوله والأذى في سبيل الله وأنهم يعتمدون على الله في جميع شؤونهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

معناه: أن هذه الحياة ما هي إلا غرور وخداع ولعب ينقضي سريعاً

كما يلعب الصبيان وأشباههم ثم يتفرقون، وأن الآخرة وجنانها لهي الدار والحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص لو كان عند الناس علم بذلك لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء.

* * *

ومن سورة الروم

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

معناه: أن المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم في رياض الجنة يُسرُّون ويُنَعَّمون فضلاً من الله تعالى عليهم.

* * *

ومن سورة لقمان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم على إيمانهم واستقامتهم جنات الخلد ينعَّمون فيها بأنواع الملاذ من المآكل والمشارب والملابس والنساء والحور العين وبسائر ما أكرمهم الله به مما هو خارج عن مستوى عقولنا، ومع ذا يبقون فيها لا يخرجون منها أبداً وهو وعد من الله حق لا محالة والله لا يُخلف وعده.

* * *

ومن سورة السجدة

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هذه من صفات أهل الجنة وهي أنهم يتنحون عن الفرش ويتباعدون عن مواضع النوم يدعون الله عزّ وجل في تهجدهم وصلاتهم بالليل والناس نيام خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه، ومما منحهم الله تعالى من الأرزاق ينفقون في وجوه الخير والإحسان فهؤلاء لا يعلم أحد من الخلق مقدار ما سيعطيهم الله في الآخرة من النعيم مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر، فذلك النعيم لا يتصوره أحد.

* * *

❋ ومن سورة الأحزاب

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

فهذه عشر صفات ذكرها الله عزّ وجل لحلية أهل الجنة وسكانها بذكورهم وإناثهم، فهم مع تصديقهم بالله وبرسوله وبما جاء به منقادون لأحكام الله طائعون له فيما أمر ونهى، مخلصون في إيمانهم وأعمالهم صابرون يحبسون أنفسهم على طاعة الله تعالى وعن ارتكاب الذنوب والآثام وعلى البلايا والمِحَن، فلا يتسخطون ولا يتضجرون مما نزل بهم، خاضعين للّه تعالى متذللين لجلاله وعظمته، منفقين أموالهم في أبواب الخير، مكثرين من الصيام حافظين لفروجهم من الفواحش، ذاكرين الله كثيراً في كل أحوالهم وشؤونهم.

فهؤلاء الجامعون لهذه الصفات سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً قد هيأ الله لهم الأجر العظيم وهو الجنة ومُتَعها ونعيمها مع محو ذنوبهم التي كانت سبقت لهم في الدنيا وماتوا عليها.

وقال جلّ علاه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

إن الله عزّ وجل واسع الرحمة بالمؤمنين حيث يقبل القليل من أعمالهم ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، وذلك لإخلاصهم في إيمانهم، فتحية هؤلاء عندما يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة، وقد هيأ لهم أجراً كريماً، والمراد بالأجر الكريم هو الجنة وما فيها من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر وملاذ بالحور العين وغير ذلك مما لا يخطر على بال.

* * *

❊ ومن سورة فاطر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

ومن أهل الجنة والسعادة: التالون كتاب الله الذين يقيمون الصلاة ويؤدون زكاة أموالهم في السر والعلن، فهؤلاء يأمُلون من الله تجارة رابحة في الآخرة لن تكسد ولن تهلك وسيجازيهم على ما قدّموا بأجور وافية ويزيدهم على ذلك النظر إلى وجه الكريم فضلاً منه ورحمة، إنه تعالى مبالغ في الغفران لأهل القرآن شاكراً لطاعتهم. وهذه الآية الكريمة أطلق عليها بعض السلف آية القراء. وحق لهم ذلك جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر تعالى هنا بعض فضائل الأمة الخيرية التي اصطفاها على الأمم وأنه أورثهم هذا الكتاب العظيم إمام الكتب الإلهية وخاتمها وهو القرآن الكريم، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: قسم يتلو القرآن ولا يعمل به فهو مقصر ظالم لنفسه، وقسم مقتصد متوسط في فعل الخيرات ويعمل بالقرآن في أغلب أحواله وقد يقصر في بعض الفترات، وقسم سبّاق في العمل قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات وترك المنهيات.

قال المفسرون: إن هذه الأصناف في الأمة المحمدية، فالظالم لنفسه العاصي، والسابق التقي، والمقتصد بينهما، وجميعهم يدخلون الجنة، فذلك الإرث والاصطفاء لهم هو الفضل العظيم من الله تعالى.

ثم أخبر تعالى ما أعدّ الله لهم جميعاً فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾ إلخ، أي: جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم يزينون فيها بأساور من ذهب مرصّعة باللؤلؤ وجميع ما يلبسونه من الحرير وسيقولون عندما يدخلون الجنة: إن ربنا واسع المغفرة للمذنبين شكور لطاعة المطيعين، الذي أنزلنا الجنة وجعلها مقراً وسكناً لنا لا نتحول عنها أبداً لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة كما لا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور.

* * *

❋ ومن سورة يس

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

تحدّث الله تعالى هنا على حبيب النجار الذي آمن بالرسل وأشهر إيمانه ونصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة لشهادته، فتمنى أن يعرف قومه بماذا غفر الله له وجعله من المكرمين المنعمين الآن في الجنة.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ

وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

إن أهل الجنة في يوم الجزاء سيكونون مشغولين بما هم فيه من اللذات والنعيم يتفكهون ويتلذذون بالحور العين وبالأكل والشرب وسماع الأغاني والأوتار.

قال ابن عباس: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ شغلوا بافتضاض الأبكار وسماع الأوتار، هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة حيث لا شمس ولا زمهرير، متكئون على الأسرّة المزيّنة بالثياب والستور، لهم فيها ما يشتهون من الفواكه، ولهم فيها ما يطلبون، ولهم سلام كريم من ربهم الرحيم.

* * *

❋ ومن سورة الصافات

قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

الاستثناء جاء من كلام سابق في عذاب الكفار وهو استثناء منقطع، ومعناه: لكن عباد الله الموحدين الذين أخلصهم الله لنفسه لا يعذبون ولا يناقشون الحساب، بل لهم رزق معلوم في الجنة صباحاً ومساءً، وهو فواكه متنوعة من جميع ما يشتهون مع التعزيز والتكريم يكونون على أسِرَّة ينظر بعضهم إلى بعض يطوف عليهم خدم أهل الجنة وغلمان كأنهم لؤلؤ مكنون بكأس من خمر من نهر جار من عيون الجنة وتلك الخمر بيضاء ناصعة يلتذ بها من شربها ليس فيها ما يغتال العقول ولا هم يسكرون بها فهي منزّهة عن صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، بل طعمها طيب كلونها.

وعندهم مع ذلك ألذُّ اللذائذ الجسدية، وهو التمتُّع بالحور العين

اللاتي قد قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، واسعات العيون مع الحُسن والجمال كأنهن في البياض والصفاء اللؤلؤ المكنون في أصدافه أو البيض الذي لا تبتذله الأيدي ولا العيون.

قال المفسرون: ذكر الله تعالى في هذه الآيات أموراً من نعيم أهل الجنة، أولاً: الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً: الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، وثالثاً: المحل وهو الجنة، رابعاً: لذة التآنس والاجتماع، خامساً: الشراب الذي يُدار عليهم بالكؤوس، سادساً: ألذ اللذائذ الجسدية وأبلغها وهي التمتُّع والتآنس بالحور العين.

* * *

ومن سورة ص

قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

معناه: إن لكل متّقٍ لَحُسْن مرجع وهو جنات إقامة في دار النعيم قد فتحت لهم أبوابها قبل مجيئهم إكراماً لهم متكئين فيها على السُرر الوثيرة يطلبون ألوان الفواكه وألوان الشراب وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب على سِنٍّ واحدة ويقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وُعِدتم به في الدنيا، إن هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع فهو دائم أبد الآبدين.

* * *

ومن سورة الزمر

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

معناه: إن الذين رجعوا إلى طاعة الله وعبادته وتباعدوا عن عبادة

الأوثان والطاغوت الذي هو الشيطان الحامل على عبادة غير الله، فلهؤلاء البشرى السارّة من الله عزّ وجل بالفوز العظيم وهو دخول الجنان والتمتع فيها بما تشتهيه نفوسهم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لكن المؤمنون الأتقياء لهم في الجنة درجات عالية وقصور شاهقة بعضها فوق بعض تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة، هذا وعد من الله تعالى وعده عباده وهو لا يتخلف لأن الله لا يُخلف وعده.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: إن الذين جاؤوا بالصدق وهم الأنبياء والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، أولئك هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام، لهم كل ما يشتهون في الجنة من القصور والحور، ذلك الذي يناله هو ثواب كل محسن وهؤلاء الذين صدقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما قدّموا من سيئات فلا يعاقبهم عليها ويثيبهم على إيمانهم وطاعتهم بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً من الله عزّ وجل وكرماً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: سوف ينجي الله من النار وأهوال يوم القيامة المتقين بسبب فوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار لا ينالهم هلع ولا جزع ولا يصيبهم خوف ولا حزن.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى مبيّناً حالة المتقين يوم القيامة: إنهم يساقون إلى الجنة جماعات جماعات حتى إذا وصلوها وقد فتحت أبوابها لهم قبل مجيئهم تكريماً لهم، وقال لهم حراسها: سلام عليكم أيها الأبرار قد طهرتم من دنس الشرك وقاذورات الفواحش فادخلوا الجنة ماكثين فيها، وقالوا عند دخولهم واستقرارهم فيها الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به وملكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في مُلكه وننزل فيها حيث نشاء، فنعم أجر العاملين الجنة.

* * *

❋ ومن سورة غافر

قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

يقول عزّ وجل: مَن عمل في الدنيا عملاً صالحاً وهو مؤمن سواء كان ذكراً أم أنثى لأنهما متساويان في الديانة والشرائع، فأولئك يدخلون الجنة ويعطون فيها بغير تقدير.

* * *

❋ ومن سورة فصلت

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة لهم الثواب والجزاء غير مقطوع وهو الجنة فهم فيها خالدون دائمون.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

بيّن تعالى في هاتين الآيتين حالة السعداء الأتقياء الأبرار عند موتهم فما بعده، فأخبر عزّ وجل أن من آمن به تعالى واعتقد ربوبيته واستقام على طاعته وثبت على ذلك حتى الموت، فإن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا مما تقدمون عليه من الأهوال ولا تحزنوا على ما خلفتم في الدنيا من أهل ومال، وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله تعالى بها على ألسنة رسله، فنحن أعوانكم وأنصاركم في الدنيا والآخرة ولكم في الجنة ما تشتهيه أنفسكم وتقر بها أعينكم من أنواع اللذائذ والشهوات ولكم فيها ما تطلبون ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة عظيم الرحمة لعباده المتقين.

* * *

❋ ومن سورة الشورى

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الصالحين كائنون يوم القيامة في روضات الجنات يتمتعون في أطيب بقاعها وفي أعلى منازلها لهم ما يريدون ويشتهون من لذائذ الأطعمة والأشربة والحور العين... فذلك الجزاء هو الفوز الأكبر ذلك الإكرام هو الذي يبشر الله به عباده المتقين ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه.

* * *

ومن سورة الزخرف

قال جلّ علاه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الأصدقاء والأحباب ينقلبون أعداء بعضهم لبعض إلا الأتقياء الذين تصاحبوا في الدنيا للّه عزّ وجل فيقول الله تعالى لهم: يا عبادي لا تخافون اليوم ولا تحزنون، ذلك لأنهم آمنوا بالله وبما جاءت به رسل الله واستسلموا لحكم الله وطاعته، ويقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تُنَعَّمون فيها وتُسَرُّون، يطاف عليهم بأوان من الذهب عليها طعامهم، وأقداح من ذهب كذلك فيها شرابهم، وفي الجنة لهم ما تشتهيه نفوسهم وتسر به الأعين وهم فيها دائمون ويقال لهم تكريماً لهم: وتلك الجنة هي التي أُعطيتموها إرثاً بسبب أعمالكم الصالحة لكم فيها من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير منها تأكلون تفكهاً وتلذذاً.

* * *

ومن سورة الدخان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين اتقوا الله في الدنيا، هم في الآخرة في موضع إقامة آمنين فيه من كل هول ومنغص، في حدائق مزهرة وعيون

جارية يلبسون من الحرير رقيقه وغليظه، كذلك أكرمهم الله وزوّجهم بحور عين نساء في غاية الحسن والجمال والطهارة، والحوراء: هي البيضاء، والعيناء: العظيمة العين، يطلبون فيها من الخدم والغلمان إحضار جميع أنواع الفواكه وهم فيها آمنون من التخم والأمراض والتعب والنصب.

* * *

❋ ومن سورة الجاثية

قال جلّ ثناؤه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: فأما المؤمنون الصالحون فيُدخلهم الله في رحمته وهي الجنة، وسميت رحمة، لأنها مكان تنزل رحمة الله تعالى ذلك الإكرام بإدخالهم دار رحمته هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز وراءه.

* * *

❋ ومن سورة الأحقاف

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول جلّ ثناؤه: إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله لا يلحقهم مكروه ولا هول يخافونه ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا، أولئك هم أهل الجنة المنعمون فيها خالدين ماكثين في رحابها أبد الآبدين، أُكرِموا بذلك جزاء ما عملوه في الدنيا وما قدّموه من إيمان واستقامة.

وقال جلّ علاه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى

ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يتحدث هنا تعالى عن الولد البار، وأنه إذا بلغ نهاية قوة الشباب وهي أربعون سنة تاب إلى الله، وقال: ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمتَ بها علي وعلى والدَيَّ حيث ربياني صغيراً، ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني، واجعل ذريتي صالحة، إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وأنا متمسك بالإسلام.

أولئك الموصوفون بما ذكر سيتقبل الله منهم ما عملوا من طاعة ويجازيهم عليها أحسن الجزاء ويتجاوز ويعفو عما قدّموا من سيئات، فلا يؤاخذهم بها فضلاً منه وتكرماً ذلك وعد صدق وعده إياهم وهو تعالى لا يُخلف الميعاد.

* * *

❁ ومن سورة محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، تقدم مثلها مرات.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

هذه صفة الجنة التي وعدها الله تعالى المتقين فيها أنهار جاريات من ماء عذب غير متغير، وأنهار من لبن حليب لم يتغير مذاقه، وأنهار من عسل لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل، وأنهار جاريات من خمر لذيذة وليست كخمر الدنيا، ولهم في الجنة أنواع متعددة من جميع أصناف الثمار والفواكه، ولهم فوق ذلك النعيم نعيم آخر روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان.

ومن سورة الفتح

قال جلّ علاه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

إن المؤمنين بذكورهم وإناثهم سيتفضل الله تعالى عليهم فيُدخلهم جناته التي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار دائمين فيها، ويتفضل عليهم فيمحو لهم سيئاتهم ولا يؤاخذهم بها، وذلك هو الفوز والسعادة إذ ليس بعد تكفير الذنوب ونعيم الجنة مزيد.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يقول عزّ وجل: إنه وعد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ الذين سلف وصفهم، بالمغفرة التامة والأجر العظيم والزرق الكريم في جنات النعيم، وحق لهم ذلك فإنهم أفضل الناس وأشرف الخلق وأكرمهم على الله بعد الأنبياء، صلوات الله وسلامهم عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وأتباعهم وعلينا معهم، آمين.

* * *

ومن سورة ق

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه سيُدني الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم، وهذا مما لا ندرك حقيقته فحسبنا الإيمان به ونكل أمره إلى الله عزّ وجل ويقال لهم: هذا الذي تشاهدونه من النعيم هو ما وعد الله به كل عبد رجّاع إلى الله تعالى خاف

الرحمٰن فأطاعه دون أن يراه وجاء بقلب تائب خاشع؛ ادخلوا الجنة بسلام لا عذاب تخافون ولا أهوال أو أكدار تخشون، ذلك هو يوم البقاء الذي لا فناء يعقبه، لهم في الجنة ما يريدون ويشتهون، وعند الله عزّ وجل مزيد على ذلك الإنعام والإكرام وهو النظر إلى وجهه المقدّس.

* * *

ومن سورة الذاريات

قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين اتقوا الشرك والفواحش وقاموا بواجبات الله تعالى هم في بساتين وعيون جارية راضين بما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعيم، إنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم، كانوا لا ينامون إلا قليلاً ويصلّون أكثر لياليهم، وكانوا في أواخر الليل يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وتقصيرهم، وكانت لهم في أموالهم صدقات يخرجونها للسائل المحتاج وللمتعفف الذي لا يسأل.

* * *

ومن سورة الطور

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر هنا للمتقين عدة عطايا منحهم إياها جزاء صلاحهم وطاعتهم له ولرسوله ﷺ، فهو تعالى بعد أن يُدخلهم جنته يجعلهم ينعمون ويتلذذون بفواكهها، وقد نجّاهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها، ويقول لهم: تمتعوا أكلاً وشرباً هنيئاً لا تنغيص ولا كدر بسبب ما قدّمتم من صالح الأعمال، ويكونون جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مصطفّة بعضها إلى بعض، ويجعل لهم صواحب وقرينات وزوجات حساناً من الحور العين وهنّ نساء بيض واسعات العيون مع شدة سوادها، وذلك نهاية جمال المرأة، ومن فضل الله تعالى عليهم أنه يلحق بهم ذرياتهم في درجاتهم وإن لم يبلغوا عملهم وذلك لتقر أعينهم ولا ينقص للآباء من ثواب أعمالهم شيئاً فيجمع الله عزّ وجل لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم بهم.

ويزيدهم الله عزّ وجل فوق ما لهم من النعيم فواكه ولحوماً من أنواع شتى، ويتعاطون في الجنة كؤوس الخمر يتجاذبونها فيما بينهم تجاذب ملاعبة وتلذذ لا يقع بينهم بشربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام ولا يلحقهم إثم في شربها، وسيكون لهم غلمان وخدم كأنهم في الجمال والبياض لؤلؤ مصون يطوفون عليهم بالخدمة، ثم سيقبل أهل الجنة بعضهم على بعض يتذاكرون أمور الدنيا وما كانوا عليه من الإشفاق والخوف فمنّ الله تعالى عليهم وحفظهم من عذاب جهنم وأنهم كانوا يدعونه ويتضرّعون إليه فاستجاب الله تعالى لهم وأعطاهم ما سألوا لأنه المُحسن المتفضل الرحيم بعباده.

* * *

❋ ومن سورة النجم

قال جلّ علاه: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

معناه: إنه تعالى سيجازي المحسنين بالجنة جزاء إحسانهم وهؤلاء هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش العظام، كالقتل مثلاً والزنا واللواط والشرب والسرقة والمراباة، إلا ما قلّ وصغر من الذنوب التي لا يسلم منها أحد غالباً كالنظرة والغمزة والقبلة واللمس والخطرة وسماع الأغاني... فمَن اجتنب الكبائر تفضّل الله عليه فغفر له الصغائر وقد تُغفر بالأعمال الصالحة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

* * *

ومن سورة القمر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن أهل التقوى سيحظون بالجنان وما فيها من الأنهار في مكان مرضي، ومقام حسن عند رب عظيم جليل قادر في مُلكه وسلطانه يفعل ما يشاء.

* * *

ومن سورة الرحمٰن

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

هذه الآيات أطول ما جاء في صفات الجنان ونسائها ونعيمها وتخللت بآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ التي خاطب الله بها الإنس والجن في هذه السورة أكثر من ثلاثين مرة يقول فيها تعالى لهم: فبأي نِعَم الله وآلائه تكذبان أيها الإنس والجن، أوَليست نِعَم الله تعالى عليكم كثيرة؟

ولنتتبع ما ذكره الله عزّ وجل من المتَع والنعيم الذي ادخره الله للمؤمن الذي يخاف قيامه بين يدَي مولاه للحساب، وأن له جنتين آنيتهما وما فيهما من ذهب كما تقدم في الحديث. وقال: «جنتان» جنة لسكنه وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا يكون له قصر ولأزواجه قصر، ومن صفات هاتين الجنتين أنهما ذواتا أغصان متفرعة بثمار متنوعة وأن في كل جنة عينين تجريان، وفيهما من كل أنواع الفواكه والثمار صنفان، وهم متكئون على فُرش وثيرة بطائنها من ديباج وهو الحرير السميك، وثمرها قريب يناله القاعد والقائم والمضطجع، وفي تلك الجنتين نساء حسان جميلات غاية في ذلك قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم كما هو حال المخدرات العفائف لم يمسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن بل هن أبكار عذارى كأنهن في صفائهن وحمرتهن الياقوت والمرجان، وما جزاء إحسان الأعمال إلا أن يحسن إلى صاحبها في الآخرة.

وهنا انتهى الكلام على الجنتين الأوليَيْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: من دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان.

قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين، ثم وصفهما بأنهما مدهامتان أي: سوداوان من شدة خضرة أشجارهما، وفيهما عينان فوارتان بالماء لا تنقطعان فيهما من كل أنواع الفواكه وأنواع النخل والرمان، وفيهن نساء كريمات الأخلاق حسان الوجوه والذوات وهن الحور العين المخدرات المستورات في خدورهن وقصورهن قد قصرن أعينهن على أزواجهن لم يقربهن قبل أحد لا بالمباشرة ولا بالجماع، وهم متكئون على وسائد خضر من وسائد الجنة، والرفرف: فرش مرتفعة أو ما يُطرح على ظهر الفراش للنوم عليه، وعبقري حسان أي: طنافس ثخينة محلاّة بأنواع الصور والزينة. تبارك وتعالى وتقدّس ربنا الكريم صاحب العظمة والكبرياء.

* * *

❋ ومن سورة الواقعة

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

فهذه بضع وثلاثون آية جاءت في صفة المقربين وأصحاب اليمين وهي أيضاً من أجمع الآيات في صفات الجنة وأهلها ونعيمها.

افتتح الله عزّ وجل الآيات بتقسيم الناس يوم القيامة إلى أقسام ثلاثة: قسم من أهل النار، وقسمان من أهل الجنة، وهم المقرّبون وأهل اليمين، فالمقربون هم أهل السبق كالأنبياء ومن على أقدامهم من أكابر صالحي الأمم، وأهل اليمين هم سائر أهل الجنة على اختلاف درجاتهم، وقد فصّل تعالى هنا ما لكل قسم من الجزاء، فأخبر أن السابقين وهم جماعة من الأولين من الأمم القديمة أو من أول هذه الأمة، وقليل من الآخرين يعني من هذه الأمة أو من آخرها والكثير من أولها على خلاف في ذلك فهم في حدائق النعيم جالسين على أسِرَّة منسوجة بقضبان الذهب مرصّعة بالدر والياقوت، وجوه بعضهم إلى بعض يدور عليهم للخدمة غلمان مخلّدون في الجنة بأيديهم أقداح وأباريق وكأس من خمر لذة جارية من العيون لا تتصدع رؤوسهم من شربها ولا يسكرون فتذهب بعقولهم، ولهم فيها فواكه كثيرة يختارون منها ما تشتهيه نفوسهم ولحم طير مما يحبون ويشتهون، ولهم مع ذلك نساء من الحور العين في غاية الجمال والبهاء بيض واسعات العيون شديد سوادها وهي في البياض مثل اللؤلؤ المصون لا يسمعون في الجنة كلاماً فاحشاً ساقطاً ولا يلحقهم إثم وإنما يسمعون سلاماً سلاماً من بعضهم بعضاً أو من الملائكة فهذا جزاء المقربين السابقين.

أما أصحاب اليمين وهم باقي أهل الجنة فهم في تناول ثمار «سدر مخضود»، أي: مقطوع الشوك، قد جعل بدل شوكها ثمار كالقلال. و«طلح» أي: شجر الموز. «منضود» أي: متراكم نضد من أسفله إلى أعلاه، وهم في ظل دائم لا تنسخه شمس وماء جار دائماً لا ينقطع يجري في غير أخاديد، ولهم فواكه كثيرة متنوعة لا تنقطع في فصل دون غيره ولا تمنع من أحد حتى يؤدي ثمنها كما هي في حال الدنيا، ولهم فُرُش عالية وطيئة ناعمة، ولهم مع ذلك التمتع والتلذذ بالنساء الجميلات اللاتي ينشئهن الله إنشاءً وخلقاً جديداً عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً عرباً متحببات لأزواجهن أتراباً على سنٍّ واحدة في سن الثلاث والثلاثين وهو وسط الشباب، أولئك الحور جعلهن الله عزّ وجل لأهل اليمين من المؤمنين وهم جماعة من الأمم الماضية وجماعة من الأمة الأخيرة، وهي

الأمة المحمدية، وقد قدّمنا على أنها أكثر الأمم في الجنة تعادل ثلثَي أهل الجنة.

وقال تعالى في آخر السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

يعني: إذا كان الميت من المقربين السابقين فله عند الله استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعّم فيها.

* * *

❋ ومن سورة الحديد

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

يخبر تعالى عن صحابة رسول الله ﷺ السابقين واللاحقين، فأخبر أنهم ليسوا في الفضل سواء فمَن آمن أولاً وقاتل وأنفق في سبيل الله هم أعظم درجة ومكانة عند الله ممن جاء بعد فتح مكة وأنفق كذلك وقاتل بإخلاص وصدق ولكن جميعهم وعدهم الله تعالى الجنة، وهذا نص في أن الصحابة الصادقين ممن آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله كلهم في الجنة سواء كانوا سابقين أم لاحقين، جعلنا الله تعالى معهم وأماتنا على محبتهم.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

يقول جلّ علاه: مَن ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله فيكون له كالقرض والسلف للّه عزّ وجل يعطيه الله أجره وجزاءه أضعافاً مضاعفة، وله مع المضاعفة أجر كريم وهو الجنة ونعيمها، ثم ذكر تعالى مشهد المؤمنين عند العبور على الصراط وأنهم ستكون الأنوار بين أيديهم وبأيمانهم، ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها فهذا هو الفوز والسعادة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

يخبر تعالى أيضاً عن فضل الصدقة في سبيل الله، وأن الله عزّ وجل سيجازي فاعل ذلك بأضعافه، ولهم ثواب جزيل حسن، وهو الجنة ولا أجلّ وأفضل منها.

ثم أخبر عزّ وجل بأن من آمن بالله عزّ وجل وبرسله إيماناً صادقاً راسخاً كاملاً هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله، ولهم ثوابهم الجزيل والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وفي هذه الآية بشرى عظيمة للمؤمنين ويا لها من بشارة.

* * *

❋ ومن سورة المجادلة

قال جلّ علاه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر سبحانه في هذه الآية الكريمة موضوع البراءة من الكفرة والمنافقين والفجرة، وأنه لا يمكن أن يوجد مؤمن صادق يؤمن بالله وباليوم الآخر ثم يحب ويوالي من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما لأن من أحبّ الله عزّ وجل لا بد وأن يعادي أعداءه، وذلك من أصول الإيمان سواء كانوا أقارب أم عشائر أم أصحاباً، فمَن عاداهم وأبغضهم وتبرأ منهم كان قد مكن الله الإيمان في قلبه وأثبته فيه، وكان مؤيداً منه تعالى وسيدخل كل من

فعل ذلك وتحقق به الحدائق والجنان تجري من تحت قصورها الأنهار ماكثين فيها أبداً، قد رضي الله تعالى عنهم وشكر أعمالهم ورضوا عنه بما منحهم من نعيم، أولئك هم أهل الله وأولياؤه المخلصون الصادقون المفلحون.

* * *

ومن سورة الحشر

قال جلّ ثناؤه: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

معناه: لا يتساوى الأشقياء والسعداء، أصحاب الجنة هم الظافرون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.

* * *

ومن سورة الصف

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

يبين عزّ وجل لعباده المؤمنين التجارة الرابحة التي تحفظهم من عذاب النار المؤلم، وهي أن يؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً ويقاتلون أعداء الإسلام ويقدمون في سبيل ذلك الأموال والأنفس، فذلك خير، وأي خير لو كانوا يعلمون ما سيحظون به جزاء ذلك، وأنه تعالى سيكفر لهم سيئاتهم ويمتعهم بدخول الجنة الذي هو السعادة والفوز الذي ما بعده فوز.

* * *

ومن سورة التغابن

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

يقول عزّ وجل: إن من صدق به وعمل بمقتضى شرعه حطّ عنه ما سلف من سيئاته وأدخله جنته خالداً فيها، وذلك هو الفوز والسعادة التي لا أعظم منها.

* * *

ومن سورة الطلاق

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

أي: من يؤمن بالله إيماناً صادقاً وضمّ إلى ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة المطلوبة منه أدخله الله جنته مع الأولين بلا عذاب ماكثاً فيها أبداً وقد طيّب الله له رزقه فيها ووسعه له.

* * *

ومن سورة التحريم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

في الآية الكريمة أمر من الله عزّ وجل لعباده بالرجوع إليه والتوبة النصوح الصادقة الخالصة، لعله تعالى يرحمهم، فيمحو عنهم خطاياهم ويُدخلهم جناته النضرة، وذلك يوم لا يفضح الله فيه النبي وأتباعه من

المؤمنين عندما تكون الأنوار تسطع بين أيديهم وبأيمانهم ويدعون فيقولون: يا ربنا أكمِل علينا هذا النور، وامحُ عنا ما فرط من ذنوبنا، فإنك أنت القادر على كل شيء.

قال العلماء: التوبة النصوح هي الجامعة لشروط ثلاثة وهي: أن يُقلع عن الذنب، وأن يندم على ما فعل، وأن ينوي عدم العودة إلى الذنب، فإن كان حق لآدمي زيد شرط رابع، وهو رد المظالم لأصحابها والاستحلال منهم، فإن لم يمكن أكثر من الصدقة والإهداء لهم.

* * *

ومن سورة الحاقة

قال جلّ من قائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر تعالى هنا السعداء الأبرار وأنهم سيأخذون كتبهم بأيمانهم، وأن الواحد منهم إذا أخذ كتابه اغتبط وفرح ونادى في الناس: تعالوا فاقرؤوا كتابي فقد تناولته بيميني، وقد كنت في الدنيا متيقناً من لقائي الحساب، ولذلك أعددت العدة لهذا اليوم، فهو في عيشة هنيئة مرضية صحة بلا مرض، ونعيماً بلا بؤس، وحياة بلا موت، وشباباً بلا هرم، ثمارها قريبة، ويقال له ولأمثاله: كلوا واشربوا ما شئتم واشتهيتم بسبب ما قدّمتم في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح.

* * *

ومن سورة المعارج

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم

مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر تعالى هنا تسع صفات لأهل الجنة المكرمين فيها بأنواع المتع والنعيم وهي: مداومتهم على صلواتهم، وأداء ما عليهم من حق للسائل والمحروم، والإيمان بيوم الجزاء، وإشفاقهم من عذاب ربهم غير معتقدين أمنهم من ذلك، وحفظهم لفروجهم من الزنا واللواط والسحاق والتكشُّف، وأنهم حافظون لأماناتهم وعهودهم قائمون بأداء شهاداتهم محافظون على صلواتهم في أوقاتها بشروطها وأركانها، فهؤلاء هم المكرمون في الجنان من قِبَل مولاهم، ويا لها من سعادة.

* * *

❊ ومن سورة المدثر

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى بأن كل نفس ستكون يوم القيامة محبوسة بعملها مرهونة عند الله بما اكتسبت، ولا تفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات، إلا فريق السعداء المؤمنين فإنهم فكوا رقابهم وخلّصوها من السجن والعذاب بالإيمان وطاعة الله ورسله وسيحظون بالجنان والاستقرار فيها، فينادون أهل النار تبكيتاً لهم وزيادة في إيلامهم وإدخال الحزن عليهم: ما الذي أداكم إلى سكنى سقر وعذابها؟ فيجيبونهم: لم نكن نصلي ولا نزكي وكنا نتحدث بالباطل، وكنا نكذب بيوم الجزاء حتى جاءنا الموت.

* * *

ومن سورة القيامة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ستكون وجوه أهل الجنة عليها الإشراق والبهجة وجمال البشرة ناظرة إلى الله عزّ وجل، والآية الكريمة نص في رؤية الله في الجنة، وهي أظهر ما استدل به أهل السنة على الرؤية، علماً بأن لذلك أدلة كثيرة استوعبها الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في «حادي الأرواح إلى دار الأفراح».

* * *

ومن سورة الإنسان

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات بيان لبعض صفات أهل الجنة، ككونهم يوفون بما ألزموا به أنفسهم، وأنهم كانوا يطعمون المساكين واليتامى والأسارى لوجه الله لا يريدون من ذلك مجازاة ولا شكراً من أحد، وأنهم يخافون من الله عزّ وجل ذلك اليوم الرهيب العصيب، ولذلك حفظهم الله من أهواله

وشروره وأعطاهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب، وجازاهم بسبب صبرهم على طاعة ربهم حدائق وملابس من حرير مضطجعين على سرر الحرير المزينة باللؤلؤ والمرجان لا يشاهدون في جنتهم حر شمس ولا برداً، ظلالها قريبة منهم وثمارها مذلّلة لهم يأخذونها كيف شاؤوا قائمين وقاعدين ومضطجعين، ويطاف عليهم بأواني وصحاف تارة من فضة ومرة من ذهب كما تقدم في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، وأكواب وأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفته وهي من فضة قدرها السقاة تقديراً حسب حاجتهم، ويسقى هؤلاء الأبرار كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل يشربون ذلك من عين في الجنة تسمى السلسبيل، وأحياناً تعطى لهم ممزوجة بالكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة يجرُّونها حيث شاؤوا من الدور والقصور ويدور عليهم غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين دائمون على ما هم عليه من الشباب والنضارة والحسن، إذا نظرت إليهم منتشرين في الجنة ظننتهم لؤلؤاً منثوراً لبياضهم وصفائهم، وإذا رأيت هنالك في الجنة من مظاهر الأنس والسرور رأيت نعيماً لا يكاد يوصف ومُلكاً واسعاً لا غاية له، تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء المزيّنة بأنواع الزينة من الحرير الرقيق وهو السندس، والغليظ وهو الإستبرق، وأُلبسوا في الجنة أساور فضية وذهبية ولؤلؤية كما في آيات أُخر، وسقاهم الله تعالى فوق ذلك النعيم شراباً طهوراً ويقال لهم بعد ذلك: هذا أعطي لكم مقابل أعمالكم الصالحة وكان عملكم مقبولاً مرضياً.

* * *

❋ ومن سورة المرسلات

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

إن الذين آمنوا وأطاعوا الله ورسوله حتى الموت، لهم يوم القيامة في الجنان ظلال الأشجار الوارفة والعيون الجارية فواكه كثيرة متنوعة مما

يستلذون ويستطيبون، ويقال لهم على سبيل التكريم: كلوا أكلاً لذيذاً واشربوا شرباً هنيئاً بسبب ما قدّمتم من إيمان وعمل صالح، إنا نجزي بهذا من أحسن عمله وأخلص نيته واتقى ربه.

* * *

❋ ومن سورة النبا

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن لأهل التقوى موضع ظفر وفوز وهو الجنة، وذلكم هو حدائق وبساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار وكروم الأعناب الحلوة الطيبة ونساء وفتيات عذارى على سنٍّ واحدة شواب قد برزت أثداؤهن.

فالكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي خرج ثديها، ولهم فيها كأس من الخمر ممتلئة صافية لا يسمعون في الجنة كلاماً فارغاً لا فائدة فيه ولا كذباً من القول، جازاهم الله تعالى بذلك تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم.

* * *

❋ ومن سورة النازعات

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

يقول عزّ وجل: وأما من خشي عظمة ربه وجلاله وخاف مقامه بين يدَي ربه يوم الحساب وزجر نفسه عن المعاصي وكبار الفواحش وكفّها عن الشهوات المحرّمة، فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم ليس له منزل سواها.

ومن سورة عبس

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

بعد أن بيّن سبحانه وتعالى حال القيامة وأهوالها، بيّن بعدها حال الناس وأنهم منقسمون إلى سعداء وأشقياء، فقال في السعداء: إن وجوههم في ذلك ستكون مضيئة مشرقة من البهجة والسرور فرحة ضاحكة مستبشرة بما رأته من النعيم الخالد.

* * *

ومن سورة الانفطار

قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

يقول: إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وبما جاءت به رسل الله وأطاعوه وكانوا أبراراً، لفي بهجة وسرور لا يوصف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا يتصور ولا يتخيل.

* * *

ومن سورة المطففين

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر هنا تعالى الأبرار وما سيحظون به بأسلوب آخر وبأشياء لم تتقدم قبل في سورة، وهو أن الله عزّ وجل جعل لهم كتاباً مسطّراً مكتوبة فيه

أعمالهم في مكان مرتفع في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة وهم في الجنان الوارفة والظلال الممتدة يتنعمون متكئين على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامة، إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما علا وجوههم من البياض والنضارة والبهجة والرونقة والسرور، ويسقون من خمر في الجنة بيضاء طيبة صافية قد ختم على أوانيها فلا يفكها إلا الأبرار، وآخر الشراب تفوح منه رائحة المسك، وفي هذا النعيم العظيم فليحرص عليه الناس وليستبقوا في طلبه ويكون ذلك الشراب الخالص ممزوجاً ومخلوطاً من عين عالية رفيعة هي أشرف شراب أهل الجنة تسمى التسنيم، يشرب منها المقربون، فهي عين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة، فيا له من نعيم.

* * *

❋ ومن سورة الانشقاق

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

يقول تعالى: إن من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهي علامة السعادة فسوف يكون حسابه يسيراً سهلاً يجازى على حسناته ويتجاوز عن سيئاته أو لا يُحاسب بالمرة كما هي صفات السابقين، ويرجع إلى أهله وزوجاته مبتهجاً فرحاً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾.

بعد أن ذكر فريق أهل الشقاء وصفاتهم وأنهم مبشَّرون بالعذاب الأليم، استثنى تعالى المؤمنين الصالحين وأخبر أن لهم أجراً غير مقطوع وهو الجنة ونعيمها.

* * *

ومن سورة البروج

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالى أعداء الله الذين عذّبوا المؤمنين وحرقوهم وفتنوهم وأخبر بمآلهم، وأن لهم عذاب جهنم وحريقها، أخبر بأن المؤمنين الصالحين لهم الحدائق والجنان الوارفة تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، وذلك هو الظفر الكبير الذي لا فوز بعده.

* * *

ومن سورة الغاشية

قال جلّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: وجوه المؤمنين يوم القيامة ستكون في الجنة ذات بهجة وحُسن وإشراق ونضارة لعملها الذي عملته، راضية مطمئنة في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدراً لا تسمع في الجنة شتماً أو فحشاً ولا باطلاً، فيها عيون تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً، وفيها لهم سرر وأرائك مرتفعة مكللة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين الحسان الجميلات الفاتنات، وفيها عندهم أقداح على حافات العيون معدّة لشرابهم، ووسائد قد صُفَّ بعضها إلى بعض ليستندوا عليها، وفيها طنافس وفرش فاخرة مبسوطة في أنحاء الجنة.

* * *

ومن سورة الفجر

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قال المفسرون: إن المؤمن الصالح إذا حضره الموت أتته ملائكة الرحمة فتقول لنفسه: يا أيتها النفس الطاهرة الزكية المطمئنة بوعد الله تعالى ارجعي إلى ربك ورضوانه وجنته راضية بما أعطاك الله من النِعَم مرضية عنده بما قدمت من الأعمال الصالحة والإيمان الصادق، فادخلي الآن في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي جنتي دار الأبرار والمقرّبين الأخيار.

* * *

❋ ومن سورة البلد

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن ذكّر تعالى الكافر الجحود، ببعض نِعَمِه العظيمة على الإنسان وهي جعله له العينين ليبصر بهما، واللسان والشفتين ليتسنى له الكلام، والأكل والنفخ وما في ذلك من الجمال وحُسن الصورة، ثم بيّن له طريق الخير والشر والهدى والضلال ليسلك طريق السعادة ويتجنب طريق الشقاوة، بعد هذه التذكرة الرابعة ندبه إلى اقتحام العقبة وهي فك الرقاب المملوكة وإطعام اليتامى الأقارب والمساكين في أيام المجاعة، ثم كان من المؤمنين الذين يتواصون بالصبر والرحمة، فهؤلاء هم أصحاب اليمين الذين سيأخذون كتبهم بإيمانهم ويحظون بدخول دار النعيم.

* * *

❋ ومن سورة التين

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

يقول عزّ وجل: لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل وأجمل صورة مع تناسب الأعضاء وانتصاب القامة مزيناً بالعلم والعقل والفهم والتمييز والنطق والأدب واستخدام الكون، ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، أي: دركات النار، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه لأجله، إلا المؤمنين المتقين الذين ضموا الأعمال الصالحة إلى إيمانهم، فهؤلاء لهم ثواب وجزاء دائم غير مقطوع وهو الجنة دار الأبرار الأخيار.

* * *

ومن سورة البينة

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

بعد ذكر الكفار من اليهود والنصارى والوثنيين وأخبر عنهم بأنهم شر المخلوقات وأن مآلهم هو جهنم دائمين فيها أبداً. أعقب ذلك بذكر المؤمنين الصالحين الذين آمنوا بالله وآمنوا بجميع رسل الله وما جاؤوا به ولم يفرقوا بين أحد منهم واتبعوا هداهم وساروا على نهجهم، فذكر عنهم أنهم خير البرية وأشرف ما خلق الله وأكرمهم عليه عزّ وجل، وأن جزاءهم عنده تعالى هو جنات إقامة وحدائق دائمة تجري الأنهار سارحة تحت قصورها وأشجارها قد رضي الله تعالى عنهم بما قدّموا في الدنيا من الإيمان وطاعته تعالى ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه.

* * *

ومن سورة القارعة

قال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

إذا قامت القيامة جاء الهَوْل، وكان الناس من شدة الخوف والفزع

كأنهم فراش متفرق يموج بعضهم في بعض، ففي ذلك اليوم الرهيب سيكون من رجحت حسناته على سيئاته ولو بحسنة واحدة، أو ثقلت موازينه، بحيث لم تكن له سيئات. أقول: مَن كان كذلك فهو في عيش هنيء سعيد في جنان الخلد والفردوس ورضوان من الله.

وبهذا تمّ الكلام على ما في القرآن الكريم من الكلام على الجنة وأهلها.

في هذه الكتب: قيام الساعة، والبعث، والجنة والنار، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحو من مائة وبضعة وستين حديثاً.

وبه تمّ الكتاب والحمد للّه أولاً وآخراً. الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا ومولانا وشفيعنا محمد، وعلى آله وزوجه وصحبه وأتباعه. كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. وسبحان الله وبحمده. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم اغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا، واغفر لوالدينا ولمشايخنا ولأحبتنا ولكل من له حق علينا، واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

واغفر اللهم لمن نظر في هذا الكتاب تصحيحاً وتصويباً، وأصلح زوجه وذريته، واجعل عقباهم رضوانك والجنة. آمين.

وكان الفراغ منه ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم الحرام عام ١٤٢٨هـ، وكانت البداية فيه عام ١٤١٤هـ، بمنزلي بحي مرشان، طريق القرية، طنجة ـ المغرب.

فالحمد للّه على توفيقه وإنعامه وإحسانه.

فهرس الجزء الثاني عشر

الموضوع	الصفحة
كتاب الفتن وأشراط الساعة	٤٣١
تنبؤه ﷺ بكثرة الفتن وأنها تعم جميع البيوت	٤٣١
الفتنة التي تموج كموج البحر	٤٣٢
ما موقف المسلم من الفتن إذا كثرت وانتشرت	٤٣٤
عرض الفتن على القلوب وذهاب الأمانة ومدح الخوَنة	٤٤١
مبادرة الفتن المظلمة المضلة بالأعمال الصالحة	٤٤٣
أشقى الناس بالفتن العرب	٤٤٤
فزع النبي ﷺ من نزول الفتن	٤٤٥
لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه	٤٤٦
تقاتل المسلمين وما سيكون بينهم من البأس وأنهم سيسلطون على بعضهم بعضاً	٤٤٧
كثرة الهرج والعبادة فيه	٤٥٢
نزول عقاب الله عند ظهور الشر وعدم تغييره	٤٥٣
الخسف بالبغاة وأهل الفساد	٤٥٤
ذهاب الصالحين وتسليط الأشرار على الأخيار	٤٥٧
التمسُّك بالدين والصابر عليه عند الفتن وتغرُّب الإسلام	٤٥٨
تمنِّي الموت عند الفتن	٤٥٩
هلاكُ الأمّة على يد أُغَيْلِمَة	٤٥٩
الأمراء المُضِلُّون والإنكار عليهم	٤٦٠

الموضوع	الصفحة

مصدر الفتن وجهتها ٤٦١
بيان الفتن المنصوص عليها والمشار إليها: فتنة قتل عثمان رضي الله تعالى عنه ٤٦٣
فتنة وقعة الجمل ٤٦٥
فتنة وقعة صفين ٤٦٩
فتنة قتال الخوارج ٤٧١
فتنة قتل الإمام علي رضي الله تعالى عنه ٤٧٥
فتنة قتل الحسين عليه السلام ٤٧٧
فتنة القتال على الدنيا والملك ٤٨٠
فتنة الأحلاس وغيرها ٤٨١
ثلاث فتن لا يتركن شيئاً ٤٨٢
فتنة قتال الروم للمسلمين واستعمارهم بلادهم ٤٨٣
فتنة صحبة ذوي السلطة والدخول عليهم ٤٨٨
فتنة الدنيا ٤٩٠
فتنة الأولاد ٤٩٢
فتنة النساء ٤٩٣
فتنة تفرُّق الأمة ٤٩٧
فتنة اتباع الكفار والتشبُّه بهم ٤٩٨
عذاب هذه الأمة الفتن والزلال والقتل ٥٠٠
كتاب أشراط الساعة ٥٠١
للساعة أشراط صغرى وكبرى ٥٠٢
العلامات الصغرى: بعثة النبي ﷺ ٥٠٣
موته ﷺ من أشراط الساعة في أشراط أخرى ٥٠٣
موته ﷺ ٥٠٤
فتح بيت المقدس ٥٠٥
مَوْتَان كقُعَاص الغنم ٥٠٥
استفاضة المال ٥٠٥

الموضوع	الصفحة
فتنة شاملة لا ينجو منها بيت	٥٠٦
هدنة بين المسلمين وبين الروم ثم حرب بين الجانبين	٥٠٦
فتح كنوز كسرى مع غنى الناس وعدم وجود من يقبل الصدقة	٥٠٧
آية انشقاق القمر	٥٠٩
الفتوحات الإسلامية	٥١٠
آيتان عجيبتان	٥١١
تكلُّم السباع والفخذ والسوط مع الإنسان	٥١١
عدة أشراط	٥١٢
أشراط أخرى متنوعة جامعة	٥١٤
المباهاة والمفاخرة في بناء المساجد	٥١٩
صيرورة بلاد العرب مروجاً	٥٢٠
أسعد الناس بالدنيا السقطاء	٥٢١
ظهور أقوام يأكلون بألسنتهم	٥٢١
تضييع الأمانة	٥٢٢
المسخ والخسف والقذف	٥٢٣
الكاسيات العاريات	٥٢٥
حسر الفرات عن كنز أو جبل من ذهب	٥٢٦
سنون خدّاعة	٥٢٨
البيوت الموشاة وشي المراحيل	٥٢٩
قتال الترك والأعاجم	٥٣٠
ستة أشراط في نسق واحد	٥٣٣
من أشراط الساعة ظهور النار من الحجاز، وقعر عدن، وحضرموت ...	٥٣٣
تَخَبُّطُ الناسِ في اكتساب المال	٥٣٥
التحذير من الدجاجلة الكذّابين	٥٣٦
شُرَطُ آخرِ الزَّمَانِ	٥٣٧
موت الفجأة	٥٣٧
انتشار دين الإسلام وظهوره على سائر الأديان	٥٣٨

الموضوع	الصفحة
من أشراط الساعة فتح القسطنطينية وروما	٥٣٨
صدق رؤيا المؤمن	٥٣٩
تتابع أشراط الساعة	٥٤٠
كفر العراق، والشام، ومصر، ومنعهم حقوق الله	٥٤٠
التقاتل مع اليهود	٥٤١
كثرة الروم من أشراط الساعة	٥٤٣
التسافد في الطريق	٥٤٤
ذهاب العقول	٥٤٥
الأشراط الكبرى	٥٤٦
مبادرة الأشراط الستة بأعمال البر	٥٤٧
خروج الإمام المهدي عليه السلام	٥٤٧
أحاديث أخرى تزيد بياناً للإمام المهدي	٥٥١
آراء متطرفة في المهدي	٥٥٣
المَلحمة الكبرى وفتح القُسْطُنطينية وخروجُ الدجّال	٥٥٤
أخبار خروج الدجال وما جاء فيه: الإنذار بخروجه	٥٥٧
تطواف الدجال بالأرض وفتنته وكيف يكون أمره ثم عاقبته	٥٦٥
خلاصة فتنة الدجال	٥٧٤
من أخبار ابن صياد	٥٧٥
نزول عيسى وقتله الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وما يتبع ذلك	٥٧٨
نزول المسيح ابن مريم عند المنارة البيضاء بدمشق	٥٧٨
ماذا ينجز عيسى في أيامه وماذا يكون بعد قتل الدجال واليهود ويأجوج ومأجوج	٥٩١
نهاية سيدنا عيسى عليه السلام	٥٩٢
ما بعد سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام	٥٩٢
طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة	٥٩٢
طلوع الشمس من مغربها وانغلاق باب التوبة	٥٩٣
خروج الدابة	٥٩٥

الموضوع	الصفحة

مهمة الدابة عند خروجها ٥٩٦
الدخان ٥٩٧
الخسوفات الثلاثة ٥٩٩
هدم الكعبة على يد الحبشة ٦٠٠
القحطاني وجهجاه ٦٠٣
ذهاب الإيمان وبقاء الأشرار ورفع القرآن ثم عبادة الأصنام ٦٠٣
خروج النار من قعر عدن أو حضرموت تحشر الناس إلى المحشر ٦٠٧
كتاب قيام الساعة والبعث والنشور ويوم الجزاء ٦١٠
قيام الساعة ٦١٠
لا تقوم الساعة وعلى الأرض مؤمن ٦١٠
النفخ في الصور ٦١٢
فناء الدنيا وقيام الساعة ٦١٦
مشاهد قيام الساعة ٦١٨
خلاصة ما جاء في قيام الساعة ٦٢٣
نفخة الصعق والقيامة والبعث ٦٢٤
البعث والحشر في القرآن الكريم ٦٢٩
مشاهد موقف يوم القيامة ٦٤٥
تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة ومجيء الرب والملائكة صفاً صفاً . ٦٤٧
شدة يوم القيامة وطوله على الكافرين وخفته على المؤمنين ٦٥٠
الشفاعة العظمى والمقام المحمود ٦٥٢
حوض نبينا ﷺ ٦٥٧
العرضُ على الله تعالى العَرْضُ العام ٦٥٩
عرض النار على الأمم في موقف الحشر ٦٦٢
بداية العرض على الله تعالى: عرض آدم عليه السلام ٦٦٥
عرض الرسل على الله وسؤالهم عن التبليغ وشهادتهم على أممهم ثم
شهادة الرسول وأمته على الجميع ٦٦٦
الاختصام بين الأمم والجماعات يوم القيامة ٦٦٨

الموضوع	الصفحة
بداية الحساب أهم ما يُسأل عنه العبد	٦٧٠
القصاص وأداء الحقوق وهو أول الحساب	٦٧٧
تكليم الله تعالى عباده كفاحاً بلا ترجمان	٦٧٩
قراءة العبد ما كتب عليه من حسنات وسيئات	٦٨٠
أول من يحاسب من الأمم، أمة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وشرف وعظم	٦٨٤
أول الناس قضاء وحساباً المراؤون المنافقون	٦٨٥
أول ما يقضى بين العباد في حقوقهم في الدماء	٦٨٦
أول ما يحاسب عليه العباد من حقوق الله الصلاة	٦٨٧
أحوال عصاة المؤمنين عند الحساب	٦٨٨
حال الأتقياء عند العرض على الله تعالى وحسابهم	٦٨٩
أصناف يدخلون الجنة بغير حساب	٦٩١
مشهد الحساب اليسير والعسير	٦٩٢
عرض ذنوب العبد عليه ثم العفو عنه	٦٩٤
معاتبة الله تعالى عبده على تقصيره في الدنيا	٦٩٦
شهادة الجوارح على الإنسان يوم القيامة	٦٩٧
مكالمة الله الكفار يوم الحشر وتذكيره إياهم وتقريرهم بما أنعم عليهم في الدنيا من آلاء	٦٩٨
حساب الكفار والمشركين	٦٩٩
الميزان ووزن الأعمال	٧٠١
خطر مشاهد الميزان والحساب والصراط وتطاير الصحف	٧٠٩
الصراط والمرور عليه	٧١٠
خاتمة لما سبق	٧١٨
شفاعة الشافعين وأولهم سيد الكائنات سيدنا محمد ﷺ	٧١٩
كتاب الجنة والنار: وجوب الإيمان بهما وأنهما مخلوقتان	٧٢٦
سعة جهنم وعظمها	٧٢٨
قعر جهنم	٧٢٩

الموضوع	الصفحة

حر نار جهنم يعادل من نارنا تسعة وستين جزءاً ٧٣١
في جهنم سلاسل وأغلال وأصفاد ٧٣٢
صفة المقمعة التي يضرب بها أهل النار ٧٣٣
ظلمة النار وشدة سوادها ٧٣٤
وقود النار الناس والحجارة ٧٣٥
حيّات جهنم وعقاربها ٧٣٦
أودية جهنم وجبالها ٧٣٧
شرر نار جهنم ودخانها ٧٣٩
سور النار وحائطها ٧٤٠
أبواب جهنم ٧٤١
أهل النار وأنواع عذابهم ٧٤٢
عظم جثث أهل النار وأطرافهم ٧٤٣
تفاوت أهل جهنم في العذاب ٧٤٥
أهون أهل النار عذاباً ٧٤٦
طعام أهل النار وشرابهم ٧٤٧
لباس أهل النار ٧٥٠
تتويج أهل جهنم بتيجان من نار ٧٥١
«تَلْفَحُ وجوههم النار وهم فيها كالحون» ٧٥٢
بكاء أهل النار وما ينشأ عن ذلك ٧٥٢
صناديق أهل النار المقفلة عليهم والمعذّبون فيها ٧٥٣
أودية القَيْح تجري بين أُذن الكافر وعاتقه ٧٥٤
طلب الكفار الفداء ٧٥٤
نسيان الكافر كل نعيم مرّ عليه في الدنيا بغمسة واحدة في نار جهنم ... ٧٥٥
ملء جهنم وطلبها المزيد ٧٥٦
النساء من أكثر سكان النار ٧٥٧
تعذيب أهل الكبائر من الموحدين ٧٥٩
أصناف من أهل الكبائر الموحدين الذين سيُنفَّذ فيهم وعيد الله تعالى ... ٧٦٠

الموضوع	الصفحة

آخر من يخرج من النار وآخر من يدخل الجنة ٧٦٢
خلود أهل الجنة والنار وذبح الموت ٧٦٥
النار وسكانها في القرآن الكريم ٧٦٨
من سورة البقرة ٧٦٨
ومن سورة آل عمران ٧٧٣
ومن سورة النساء ٧٧٧
ومن سورة المائدة ٧٨١
ومن سورة الأنعام ٧٨٣
ومن سورة الأعراف ٧٨٥
ومن سورة الأنفال ٧٨٦
ومن سورة التوبة ٧٨٧
ومن سورة يونس ٧٩٠
ومن سورة هود ٧٩١
ومن سورة الرعد ٧٩٣
ومن سورة إبراهيم ٧٩٤
ومن سورة الحِجْر ٧٩٦
ومن سورة النحل ٧٩٦
ومن سورة الإسراء ٧٩٨
ومن سورة الكهف ٧٩٩
ومن سورة مريم ٨٠٠
ومن سورة طه ٨٠٢
ومن سورة الأنبياء ٨٠٢
ومن سورة الحج ٨٠٣
ومن سورة المؤمنين ٨٠٣
ومن سورة النور ٨٠٤
ومن سورة الفرقان ٨٠٥
ومن سورة الشعراء ٨٠٦

الموضوع	الصفحة
ومن سورة النمل	٨٠٧
ومن سورة القصص	٨٠٧
ومن سورة العنكبوت	٨٠٨
ومن سورة الروم	٨٠٩
ومن سورة لقمان	٨٠٩
ومن سورة السجدة	٨١٠
ومن سورة الأحزاب	٨١٠
ومن سورة سبأ	٨١١
ومن سورة فاطر	٨١٢
ومن سورة يّس	٨١٢
ومن سورة الصافات	٨١٣
ومن سورة ص	٨١٤
ومن سورة الزمر	٨١٥
ومن سورة غافر	٨١٦
ومن سورة فصلت	٨١٨
ومن سورة الشورى	٨١٩
ومن سورة الزخرف	٨٢٠
ومن سورة الدخان	٨٢١
ومن سورة الجاثية	٨٢١
ومن سورة الأحقاف	٨٢٢
ومن سورة محمد	٨٢٣
من سورة الفتح	٨٢٣
ومن سورة ق	٨٢٤
ومن سورة الطور	٨٢٤
ومن سورة القمر	٨٢٥
ومن سورة الرحمٰن	٨٢٥
ومن سورة الواقعة	٨٢٦

الموضوع	الصفحة

ومن سورة الحديد ٨٢٦
ومن سورة المجادلة ٨٢٧
ومن سورة الحشر ٨٢٧
ومن سورة التغابن ٨٢٨
ومن سورة التحريم ٨٢٨
ومن سورة تبارك ٨٢٩
ومن سورة الحاقة ٨٢٩
ومن سورة المعارج ٨٣٠
ومن سورة المزمل ٨٣٠
ومن سورة المدثر ٨٣١
ومن سورة الإنسان ٨٣١
ومن سورة المرسلات ٨٣٢
ومن سورة النبأ ٨٣٢
ومن سورة النازعات ٨٣٣
ومن سورة الانفطار ٨٣٤
ومن سورة المطففين ٨٣٤
ومن سورة البروج ٨٣٤
ومن سورة الأعلى ٨٣٥
ومن سورة الغاشية ٨٣٥
ومن سورة الفجر ٨٣٥
ومن سورة البلد ٨٣٦
ومن سورة الليل ٨٣٦
ومن سورة البينة ٨٣٧
ومن سورة القارعة ٨٣٧
ومن سورة الهمزة ٨٣٧
دار الأفراح والنعيم ٨٣٩
صفات الجنة فوق مستوى العقول ٨٣٩

الموضوع	الصفحة

صفة خلق الجنة وبنائها ٨٤١
خيام الجنة، وقصورها، وغرفها ٨٤٣
كسب القصور والغرف في الجنة ٨٤٥
بحار وأنهار الجنة ٨٤٥
أنهار في الدنيا من الجنة ٨٤٧
من أنهار الجنة الكوثر الذي أُعطيه نبينا ﷺ ٨٤٨
أشجار الجنة وأفنائها وثمارُها ٨٤٩
شجر الطلح ٨٥١
شجرة طوبى ٨٥٢
شجرة الخلد ٨٥٣
أصول أشجار الجنة من الذهب ٨٥٤
أعمال وأقوال يغرس بها الأشجار في الجنة ٨٥٤
خيل الجنة ٨٥٥
نوق الجنة ٨٥٦
مزارع الجنة ٨٥٦
طير الجنة ٨٥٧
عدد الجنان وأسماؤها ٨٥٨
أبواب الجنان وأسماؤها ٨٥٩
مسافة ما بين مصراعي باب من أبواب الجنة ٨٦١
من أوائل من يدخل الجنة: رسول الله وأمته ٨٦١
صفات أول من يدخل الجنة ٨٦٢
من السابقين إلى الجنة السبعون ألفاً الذين لا حساب عليهم ٨٦٤
درجات الجنة ومنازلها وتفاضل الناس فيها ٨٦٥
أعلى منازل الجنة منزلة نبينا ﷺ ٨٦٧
من أعلى منازل الجنة الشهداء ٨٦٨
حملة القرآن ممن لهم المنازل العالية ٨٦٨
أدنى أهل الجنة وأعلاهم منزلة ٨٦٩

الموضوع	الصفحة

من صفات أهل الجنة ٨٦٩
أول ما يُقَدَّمُ قِرَى لأهل الجنة عند دخولهم ٨٧١
نساء أهل الجنة من الحور وغيرهن ٨٧٢
ما يعطاه المؤمن من قوة الجماع في الجنة ٨٧٤
عدد ما يُعطاه المؤمن من الحور ٨٧٥
غناء الحور العين ٨٧٥
سوق الجنة ٨٧٦
من مشتهيات أهل الجنة: الولد ٨٧٧
المقارنة بين نعيم الدنيا وبين نعيم الآخرة ٨٧٧
من صفات أهل الجنة ٨٧٩
الأمة المحمدية أكثر الأمم دخولاً الجنة ٨٨٠
أغلب سكان الجنة الضعفاء ٨٨١
إرث المؤمن منزل الكافر في الجنة ٨٨٢
مَن هم أهل الجنة ٨٨٣
دخول الجنة بمحض رحمة الله عزّ وجل ٨٨٤
خلود أهل الجنة في نعيم عند مليك مقتدر ٨٨٥
رؤية المؤمنين ربهم في الجنة وإحلاله عليهم رضوانه ٨٨٦
القرآن الكريم والجنة وأهلها وما سيحظون فيها من نعيم ٨٨٩
من سورة البقرة ٨٩٠
ومن سورة آل عمران ٨٩٢
ومن سورة النساء ٨٩٦
ومن سورة المائدة ٨٩٩
ومن سورة الأعراف ٩٠٠
ومن سورة الأنفال ٩٠١
ومن سورة التوبة ٩٠٢
ومن سورة يونس ٩٠٥
ومن سورة هود ٩٠٦

الموضوع	الصفحة

ومن سورة الرعد ٩٠٦
ومن سورة إبراهيم ٩٠٨
ومن سورة الحِجْر ٩٠٨
ومن سورة النحل ٩٠٨
ومن سورة سبحان ٩٠٩
ومن سورة الكهف ٩١٠
ومن سورة مريم ٩١١
ومن سورة طه ٩١٢
ومن سورة الأنبياء ٩١٢
ومن سورة الحج ٩١٣
ومن سورة المؤمنون ٩١٣
ومن سورة النُّور ٩١٥
ومن سورة الفرقان ٩١٥
ومن سورة القصص ٩١٧
ومن سورة العنكبوت ٩١٨
ومن سورة الروم ٩١٩
ومن سورة لقمان ٩١٩
ومن سورة السجدة ٩١٩
ومن سورة الأحزاب ٩٢٠
ومن سورة فاطر ٩٢١
ومن سورة يّس ٩٢٢
ومن سورة الصافات ٩٢٣
ومن سورة ص ٩٢٤
ومن سورة الزمر ٩٢٤
ومن سورة غافر ٩٢٦
ومن سورة فصلت ٩٢٦
ومن سورة الشورى ٩٢٧

الموضوع	الصفحة

ومن سورة الزخرف ٩٢٨
ومن سورة الدخان ٩٢٨
ومن سورة الجاثية ٩٢٩
ومن سورة الأحقاف ٩٢٩
ومن سورة محمد ﷺ ٩٣٠
ومن سورة الفتح ٩٣١
ومن سورة ق ٩٣١
ومن سورة الذاريات ٩٣٢
ومن سورة الطور ٩٣٢
ومن سورة النجم ٩٣٣
ومن سورة القمر ٩٣٤
ومن سورة الرحمٰن ٩٣٤
ومن سورة الواقعة ٩٣٦
ومن سورة الحديد ٩٣٨
ومن سورة المجادلة ٩٣٩
ومن سورة الحشر ٩٤٠
ومن سورة الصف ٩٤٠
ومن سورة التغابن ٩٤١
ومن سورة الطلاق ٩٤١
ومن سورة التحريم ٩٤١
ومن سورة الحاقة ٩٤٢
ومن سورة المعارج ٩٤٢
ومن سورة المدثر ٩٤٣
ومن سورة القيامة ٩٤٤
ومن سورة الإنسان ٩٤٤
ومن سورة المرسلات ٩٤٥
ومن سورة النبأ ٩٤٦

الموضوع	الصفحة

ومن سورة النازعات ٩٤٦
ومن سورة عبس ٩٤٧
ومن سورة الانفطار ٩٤٧
ومن سورة المطففين ٩٤٧
ومن سورة الانشقاق ٩٤٨
ومن سورة البروج ٩٤٩
ومن سورة الغاشية ٩٤٩
ومن سورة الفجر ٩٤٩
ومن سورة البلد ٩٥٠
ومن سورة التين ٩٥٠
ومن سورة البينة ٩٥١
ومن سورة القارعة ٩٥١
الفهرس ٩٥٣

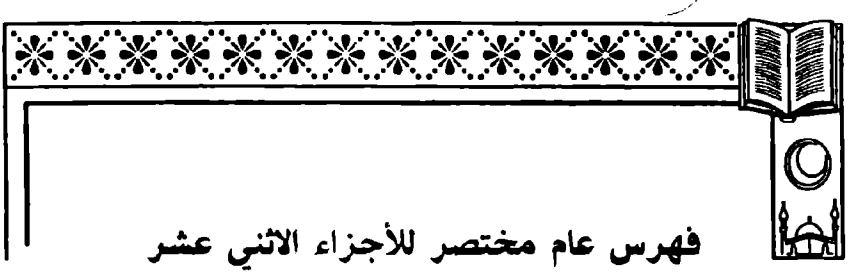

فهرس عام مختصر للأجزاء الاثني عشر

الجزء الأول

ج/ص

٢١/١ كتاب العلم.

٦١/١ كتاب الاعتصام.

٩٧/١ كتاب الإيمان والإسلام.

١٤١/١ كتاب القدر.

١٦٢/١ كتاب الطهارة.

٢٥٠/١ كتاب الحيض والاستحاضة.

٢٥٨/١ كتاب التيمم.

٢٦٤/١ كتاب الصلاة.

الجزء الثاني

ج/ص

٤٤٣/٢ كتاب الجمعة.

٤٦٥/٢ كتاب الكسوف والخسوف.

٤٦٨/٢ كتاب الاستسقاء.

٤٧٣/٢ كتاب صلاة السفر.

٤٨٢/٢ كتاب الجنائز.

٥٢٨/٢ كتاب الزكاة.

٥٦٢/٢ كتاب الصيام.

٥٨٧/٢ كتاب الاعتكاف.

٥٩٢/٢ كتاب الحج.

٦٦٠/٢ كتاب فضائل القرآن وما يتعلق به.

٦٨٧/٢ الأذكار والدعوات.

الجزء الثالث والرابع

ج/ص

٧/٣ تفسير القرآن الكريم.

٣٤٧/٤ تفسير القرآن الكريم.

الجزء الخامس

ج/ص

٧/٥ كتاب البيوع.

١٠٧/٥ كتاب الإجارة.

١١٧/٥ كتاب الصلح.

١٢١/٥ كتاب الهبة والهدية.

١٢٩/٥ كتاب الوقف والحبس.

١٣٢/٥ كتاب الوصايا.

١٤٦/٥ كتاب الفرائض والمواريث.

١٦٥/٥ كتاب أحكام الرقيق.

١٧٦/٥ كتاب الأطعمة.
٢٢٣/٥ كتاب الصيد والذبائح.
٢٣٨/٥ كتاب الأضاحي.
٢٤٩/٥ كتاب العقيقة.
٢٧٩/٥ كتاب المرض والطب.

الجزء السادس

ج/ص
٣٤٩/٦ كتاب اللباس والزينة.
٤٣٢/٦ كتاب الرؤيا وتعبيرها.
٤٧٣/٦ كتاب النكاح وتوابعه.
٥٩٤/٦ كتاب الرضاع.
٦٠١/٦ كتاب الطلاق.
٦٤٩/٦ كتاب الأيمان والنذور.

الجزء السابع

ج/ص
٧/٧ كتاب الإمارة والخلافة وما يتبع ذلك.
٦٠/٧ كتاب السلطة القضائية.
٩١/٧ كتاب الدماء والجنايات.
١٩٢/٧ كتاب الجهاد وتوابعه.

الجزء الثامن

ج/ص
٣٠٥/٨ كتاب التاريخ وبدء الخلق.
٣٢٣/٨ كتاب الأنبياء وقصصهم مرتبة بداية من سيدنا آدم إلى سيدنا عيسى عليهم السلام.

الجزء التاسع والعاشر

ج/ج
١٠/٩ كتاب السيرة النبوية والمعجزات والفضائل.

الجزء الحادي عشر

ج/ص
٥/١١ كتاب الأدب والأخلاق والبر والصلة والاستئذان.
٢٣٩/١١ كتاب الزهد والرقائق.

الجزء الثاني عشر

ج/ص
٤٣١/١٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة.
٦١٠/١٢ كتاب قيام الساعة والبعث والنشور ويوم الجزاء والجنة والنار.